

<http://www.shamela.ws>

تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

الكتاب: الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي  
نقلا عن: موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي  
عدد الأجزاء: 16 (9 عصور، و 7 ملاحق)  
نقلها وأعدّها للشاملة/ أبو سعيد المصري  
[الكتاب مرقم آليا]

[الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي].  
• نقلا عن: موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي  
• نقلها وأعدّها للشاملة: أبو سعيد المصري  
عدد الأجزاء: 16 (9 عصور، و 7 ملاحق)  
[الكتاب مرقم آليا]

<http://mofohouse.blogspot.com>

(/)

الجزء الأول

عصر النبوة والخلافة الراشدة

تأليف:

أ. د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة الأزهر

## الفصل الأول

\*العالم قبل الإسلام

جغرافية بلاد العرب:

بلاد العرب شبه جزيرة، تقع جنوبي غربي قارة آسيا، يحدها «البحر الأحمر» من الغرب، و «الخليج العربي» من الشرق، و «بحر العرب» و «المحيط الهندي» من الجنوب، وبادية «الشام» من الشمال، وتبلغ مساحتها أكثر من مليوني كيلو متر مربع، ويقسمها الجغرافيون إلى خمسة أقاليم رئيسية هي:

- إقليم تهامة: وهو شريط ساحلي يطل على البحر الأحمر، وسمي بتهامة لارتفاع درجة حرارته، وركود هوائه.

- إقليم الحجاز: ويقع شرقي «تهامة»، ويمتد من «الشام» شمالاً إلى «اليمن» جنوباً، وتقع عليه سلسلة جبال «السراة»، وسمي بالحجاز؛ لأنه يحجز بين «تهامة» في الغرب و «نجد» في الشرق. وتقع في هذا الإقليم «مكة» المكرمة، و «المدينة» المنورة.

- إقليم نجد: ويقع شرقي «الحجاز» ويمتد من صحراء بادية «السموة» شمالاً حتى قرب حدود «اليمن» جنوباً، وسمي «نجداً»؛ لارتفاع أرضه.

- إقليم العروص: وهو الجزء الشرقي من شبه الجزيرة العربية، ويطل على «الخليج العربي».

- إقليم اليمن: وهو الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية. وهذه المساحة الكبيرة ذات طبيعة صحراوية، لا يجرى فيها نهر واحد، ولا تسقط الأمطار إلا نادراً، باستثناء إقليم «اليمن» الذي تسقط فيه بعض الأمطار الموسمية، وبخاصة في فصل الصيف، مما يسر لأهلها حياة مستقرة نتيجة اشتغالهم بالزراعة، وساعدهم على إقامة حكومات منظمة، وإقامة حضارة راقية، وقد اشتهر هذا الإقليم باليمن السعيد.

أما بقية أجزاء شبه الجزيرة العربية فقد قَلَّت فيها الزراعة أو كادت  
تتعدم؛ لندرة المياه عدا بعض الواحات التي بما عيون للمياه، ساعدت  
على نمو الحشائش التي ترعاها الماشية، وزراعة بعض المحاصيل  
كالشعير والقمح.  
مكة المكرمة:

تقع «مكة» المكرمة في إقليم «الحجاز»، شرقي مدينة «جدة» بنحو  
سبعين كيلو متراً، وترتبط نشأتها بقصة «إبراهيم الخليل» وابنه

(1/1)

«إسماعيل» عليهما السلام، حيث أمر الله تعالى نبيّه «إبراهيم» أن  
يذهب بابنه «إسماعيل» إلى الوادى الذى نشأت فيه «مكة»؛ وأن  
يسكنه فيه، فامتثل «إبراهيم» لأمر الله، وارتحل إلى ذلك الوادى  
وكان فقراً (ليس به زرع أو ماء)، خالياً من السكان، وترك زوجته  
«هاجر» وابنها الطفل «إسماعيل»، وفي هذا يقول الله تعالى على  
لسان «إبراهيم» عليه السلام:

{ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذى زرعٍ عند بيتك المحرم}.  
[إبراهيم: 37].

وإكراماً لإسماعيل فجّر الله - تعالى - بئر «زمزم»، بعد أن يئست أمه  
«هاجر» من وجود الماء، وهى تسعى باحثة عنه بين صخرتى  
«الصفاء» و «المروة»، وقد أصبح السعى بينهما ركناً من أركان الحج.  
كان وجود الماء فى هذا المكان عجباً، فجذب القبائل التى كانت  
تسكن بالقرب منه، وهى قبائل «جرهم» فجاءوا إلى «هاجر»،  
وطلبوا منها السماح لهم بأن ينتفعوا بماء زمزم، فأذنت لهم ورَحَّبَت  
بهم؛ ليؤنسوا وحدتها هى وابنها، وبدءوا يقيمون بيوتهم حول بئر  
«زمزم»، ومن هنا كانت نشأة «مكة» المكرمة، وفيها عاشت  
«هاجر» وابنها «إسماعيل» بين قبائل «جرهم»، ولما كبر تزوج

منهم، وأنجب أولاده الذين هم أجداد العرب المستعربة.  
واتسعت «مكة» شيئاً فشيئاً، وزحف إليها العمران، وذاعت شهرتها  
بين المدن، بعد أن أمر الله - تعالى - «إبراهيم» - عليه السلام - في  
إحدى زيارته لابنه «إسماعيل» ببناء «الكعبة المشرفة»، فأصبحت  
«مكة» مكاناً مقدساً، وزادها الله تشريقاً بهذا البناء.  
و «الكعبة» التي بناها نبي الله «إبراهيم» - عليه السلام - بناء مربع  
الشكل تقريباً، يبلغ ارتفاعه نحو خمسة عشر متراً، وعرض جداريه  
الشمالي والجنوبي نحو عشرة أمتار، والشرقي والغربي اثنا عشر  
متراً.

ويقع باب «الكعبة» في الجدار الشرقي، وفي الطرف الجنوبي منه  
يقع «الحجر الأسود»، وهي منذ بنائها مثابة للناس وأمن، كما أخبر  
بذلك الله - تعالى - في القرآن الكريم، وظلت قبائل «جُرهم» تقوم

(2/1)

---

على خدمة «الكعبة»، ورعاية حجاجها، إلى أن ضعفت، فحلَّ مكانها  
في تلك المهمة قبائل «خزاعة»، التي ضعفت هي الأخرى بعد فترة،  
فخلفتها قبيلة «قريش» بزعامه «قصي بن كلاب» الجد الرابع للنبي  
- صلى الله عليه وسلم -، فأسس دار الندوة في «مكة»، وهي أشبه ما  
يكون برلمان صغير، يتشاور فيه زعماء «قريش» حول شئونها،  
ونظَّم «قصي بن كلاب» السقاية، وهي جلب الماء للحجاج من آبار  
بعيدة، بعد أن ردمت قبائل «جُرهم» بئر «زمزم» عندما غلبتها  
«خزاعة» على أمرها وتركت «مكة»، واهتم بالسدانة، وبالرفادة  
وهي إطعام الحجاج، وبالحجاجة وهي خدمة «الكعبة» وتولى  
مفاتيحها، وباللواء وهو راية الحرب، وكان ذلك كله في يد «قصي»،  
ولكن بعد وفاته قُسمت هذه المناصب بين أحفاده.  
أحوال العرب قبل الإسلام:

يُقسم علماء الأنساب العرب إلى:

- عرب بائدة؛ وهم الذين هلكوا ولم يبق من نسلهم أحد، مثل: «عاد»،  
و «ثمود» و «طُسم»، وغيرهم.

- وعرب باقية، وهم قسمان:

أ - عرب عاربة، وهم أهل «اليمن» الذين ينسبون إلى «يعرب ابن قحطان».

ب - وعرب مستعربة، وهم الذين ينسبون إلى «عدنان» الذي يتصل  
نسبه بإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وثُمَّوا مستعربة؛ لأن  
أباهم غير عربي وهو «إسماعيل» - عليه السلام - وأمهم عربية من  
«جُرهم».

أحوال العرب السياسية:

عرفت بلاد العرب الحياة السياسية المنظمة قبل الإسلام، وبخاصة في  
«اليمن»، حيث الزراعة والاستقرار، فقامت فيها دول كثيرة متعاقبة،  
مثل: دولة «معين»، ودولة «قُتبان»، ودولة «سبأ» التي سُميت بها  
سورة من سور القرآن الكريم، ودولة «حمير» التي ظلت قائمة حتى  
احتلتها «الحبشة» في بداية القرن السادس الميلادي، ثم استولى  
عليها «الفرس»، وظلت كذلك إلى أن حررها الإسلام من الاحتلال  
الفارسي، وأسلم أهلها.

وقامت في «اليمن» حضارة عظيمة، فاشتهرت ببناء السدود كسد  
مأرب، لحزن مياه الأمطار لاستخدامها في الزراعة، وازدهرت فيها

(3/1)

---

التجارة؛ بسبب موقعها الجغرافي المتميز على المدخل الجنوبي  
للبحر الأحمر؛ مما جعلها مركزاً تجارياً كبيراً بين الشرق الأقصى  
وشرقى «إفريقيا» بل و «أوروبا».

وبعد انهيار «سد مأرب» وتدهور الحياة الاقتصادية هاجر العرب من

«اليمن» إلى أطراف شبه الجزيرة العربية في الشمال، وأقاموا إمارات عربية، ظلت قائمة إلى ما بعد ظهور الإسلام، فنشأت إمارة «المناذرة» في «العراق»، وكانت عاصمتها مدينة «الحيرة»، وإمارة «الغساسنة» في جنوب «الشام».

وكانت هناك إمارات عربية أخرى في شرقي شبه الجزيرة العربية، في «البحرين» و «اليمن»، وفي جنوبيها الشرقي في «عمان»، وكلها أسلمت في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وأصبحت جزءاً من الدولة الإسلامية.

وأما بقية شبه الجزيرة فكان يعيش أهلها حياة قبلية، حيث يحكم كل قبيلة شيخ، هو صاحب الكلمة النافذة، والأمر والنهي فيها. الحياة الاجتماعية:

اختلفت الحياة الاجتماعية في بلاد العرب من مكان إلى آخر باختلاف حياة الحضر والبدو، فالأجزاء الحضرية التي تتمتع بحياة مستقرة وبنظم سياسية يُقسم المجتمع فيها إلى طبقات: طبقة الملوك والحكام والأمراء، وهم يمثلون قمة الهرم الاجتماعي، وينعمون بحياة الترف والنعيم، تليهم طبقة التجار والأثرياء، ثم تأتي طبقة الفقراء في أدنى الهرم الاجتماعي.

أما البدو فيتألفون من طبقتين:

- طبقة السادة، وهم في الواقع كل العرب البدو، سواء أكانوا أغنياء أم فقراء، فالفقر لم يكن يحد من حرية الإنسان العربي وسيادته، فمهما يكن فقيراً فهو مالك لزمان نفسه، معتز بحريته. - وطبقة العبيد والخدم، وكان يمتلكهم الأغنياء، وعلى عاتق هذه الطبقة قامت الحياة الاقتصادية.

واتسمت حياة البداوة بعادات بعضها جميل محمود، أبقى عليه الإسلام وشجَّعه، كالكرم والنجدة وإغاثة الملهوف، وبعضها الآخر قبيح مردول حاربه الإسلام حتى قضى عليه، كأد البنات خوفاً من

العار، وهذه العادة كانت - في واقع الأمر - في قبائل معينة ولا تمثل نظرة العرب كلهم إلى المرأة، لأنها كانت عندهم محل اعتزاز وتقدير بصفة عامة.

الحياة الدينية:

عرفت بلاد العرب التوحيد قبل الإسلام بزمن طويل، فقد نزلت فيها رسالات سماوية، كرسالة «هود» - عليه السلام - في جنوبي شرقي الجزيرة العربية، ورسالة «صالح» - عليه السلام - في شمالها الغربي، كما عرفوا التوحيد من رسالة «إسماعيل» - عليه السلام -، ولكن بمرور الزمن نسوا هذه الرسالات، وتحولوا إلى الوثنية وعبادة الأصنام، وأصبح لهم آلهة كثيرة مثل: «هبل» و «اللات» و «العزى». وعلى الرغم من انتشار عبادة الأصنام انتشارًا واسعًا في بلاد العرب، فإن هناك ما يدل على أنهم لم يكونوا يعتقدون اعتقادًا حقيقيًا فيها، فيحكي القرآن الكريم على لسانهم قولهم: {ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى}. [الزمر: 3].

وكان منهم من رفض عبادة الأصنام رفضًا قاطعًا، وهم الذين سُموا بالحنفاء، كورقة بن نوفل، و «زيد بن عمرو بن نفيل»، و «عثمان بن الحويرث»، و «عبيد الله بن جحش»، و «قس بن ساعدة الإيادي»، وهؤلاء لم تقبل أذهانهم عبادة الأصنام، فاعتنق بعضهم المسيحية، وترقب بعضهم الآخر ظهور الدين الحق.

وإذا كانت الوثنية قد سادت بلاد العرب، فإن اليهودية والمسيحية عرفت طريقها إليها فتركزت المسيحية في «نجران» التي كانت وقتئذٍ من أرض «اليمن»، في حين استقرت اليهودية شمال «الحجاز»، في «يثرب» و «خبير»، و «وادي القرى» و «تيماء».

ومن العجيب أن اليهودية والنصرانية لم تنتشرا على نطاق واسع في بلاد العرب، ولعل ذلك راجع إلى أن اليهودية تُعدُّ ديانة مغلقة، فأهلها كانوا يعتبرونها ديانة خاصة بهم، فلم يدعوا أحدًا إليها، ولم

يرحبوا باعتناق غيرهم لها، أما المسيحية، فعلى الرغم من أنها  
ديانة تبشيرية، وأهلها يرغبون في نشرها في العالم فإنه يبدو

(5/1)

أثما حين وصلت إلى بلاد العرب كانت قد بلغت درجة من التعقيدات  
والخلافات لم تستسغها عقول العرب.

الحياة الثقافية:

كان العرب قبل الإسلام أمة أمية، لا تعرف القراءة والكتابة إلا في  
نطاق ضيق، ولم يكن الذين يعرفونها في «مكة» مثلاً يزيدون على  
عشرين شخصاً، ومع ذلك فإنهم امتلكوا قدرًا لا بأس به من المعرفة،  
واتصلوا بالعالم الخارجى من خلال رحلاتهم التجارية، فعرفوا الثقافة  
الفارسية عن طريق إمارة «الحيرة» العربية، والثقافة اليونانية عن  
طريق الإمارات العربية في «الشام».

واكتسب العرب أيضًا قدرًا كبيرًا من المعارف العلمية بالخبرة والتجربة  
ويدافع الحاجة كالمعلومات الفلكية والجغرافية، دفعهم إلى معرفتها  
تنقلاتهم الكثيرة، وارتحالهم من مكان إلى آخر، وحاجتهم إلى معرفة  
مواسم نزول الأمطار وهبوب الرياح.

وتفوق العرب على غيرهم من الأمم في مجال «علم الأنساب»، وذلك  
لاعتزازهم بانتسابهم إلى قبائلهم، وبلغ من شدة اهتمامهم بعلم  
الأنساب أن اعتنوا بأنساب الخيل، غير مكثفين بأنساب البشر.  
أما الميدان الثقافى الذى برع فيه العرب فهو البلاغة والفصاحة،  
فالعربى كان فصيحًا بطبعه، بليغًا بفطرته، ودليل ذلك فهمهم للقرآن  
الكريم، الذى نزل بلغتهم وهو ذروة البلاغة والفصاحة.

وبرع العرب فى ميدان الشعر براعة واضحة، فهو ديوان حياتهم،  
وشعراؤهم يُعدُّون بالملئات، والشعر العربى إلى جانب كونه لوتًا  
راقبًا من ألوان الأدب يُعدُّ بعد القرآن الكريم مصدرًا من مصادر معرفة

الحياة العربية بكل خصائصها ومظاهرها.

وكما تفوق العرب في الشعر تفوقوا في الخطابة، وكانوا يقيمون الأسواق الأدبية التي تشبه مهرجانات المسابقات الأدبية في الوقت الحاضر، ومن أشهر تلك الأسواق سوق «عكاظ»، وكانت تعقد فيها لجان للتحكيم بين الشعراء والخطباء، والقصيدة أو الخطبة التي يفوز صاحبها يتناقلها الناس ويحفظونها، ويشيدون بقائلها، ومن القصائد

(6/1)

---

الرائعة ما كان يعلق في «الكعبة»، وهي التي عرفت باسم «المعلقات»، مثل معلقة «امرئ القيس» و «زهير بن أبي سلمى».

(7/1)

---

## الفصل الثاني

### \*نشأة الرسول

نسب الرسول - صلى الله عليه وسلم -:

الرسول هو «محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبدمناف»،

يتصل نسبه بإسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام -. وكان جده

«عبد المطلب» قد نذر وهو يعيد حفر بئر «زمزم» - بناءً على رؤية

رآها - أنه إن رزقه الله بعشرة من الأولاد ليدجن أحدهم قريباً

للآلهة، فلما تحقق له ذلك أراد أن يفى بنذره، فضرب الأقداح عند

«الكعبة» كما كانت عادتهم على أولاده جميعاً، ومن يخرج عليه

السهم يكن هو الذي ارتضته الآلهة قريباً لها، فخرج السهم على

«عبد الله» فعزم «عبد المطلب» على ذبح ابنه.

ولما ذاع خبر «عبد المطلب» مع ابنه في «مكة» فرع أهلها من هذا

الحدث، وذهبوا إليه يثنونه عن أمره، فلمَّا لم يجدوا منه استجابة لرجائهم، اقترحوا عليه الذهاب إلى عرّافة مشهورة؛ لعلهم يجدون عندها لهذه المشكلة حلاً، فوافقهم على ذلك.

فلما ذهبوا إلى العرّافة وقصّوا عليها ما حدث، اقترحت عليهم أن يضربوا القداح عند آلهتهم، على «عبد الله» وعلى عشرة من الإبل، فإن خرجت على «عبد الله» زادوا عشرة من الإبل، حتى ترضى الآلهة وتخرج القداح على الإبل، ففعل ذلك «عبد المطلب»، حتى وصل العدد إلى مائة، وعندئذٍ خرج السهم مشيراً إلى الإبل، ففرح «عبد المطلب»، وفرحت معه «مكة»، ونخر الإبل، وأطعم الناس ابتهاجاً بنجاة ابنه الحبيب من الذبح.

زواج عبد الله من آمنة بنت وهب:

بعد نجات «عبد الله بن عبد المطلب» من الذبح زوّجه من «آمنة ابنة وهب بن عبد مناف بن زهرة».

وبعد أيام من العرس خرج عبد الله في رحلة تجارية إلى «الشام»، فخرج مع قافلة قرشية وباع واشترى، وفي عودته مر بيثرب؛ ليزور أخوال أبيه من «بني النجار»، لكنه مرض في أثناء زيارته، فلما بلغ «عبد المطلب» خبر مرض ابنه، أرسل على الفور أكبر أبنائه «الحارث بن عبد المطلب» إلى «يثرب» ليعود بأخيه، لكن «عبد الله» تُوفّي قبل

(8/1)

---

أن يصل أخوه إلى «يثرب»، فحزن «عبد المطلب» حزناً شديداً على موت ابنه «عبدالله» الذي لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره، ولم يمضِ على زواجه سوى شهور قليلة.

ولما خفّت موجة الحزن على آمنة، بدأت تحسّ بجنين يتحرك في أحشائها، فتعلّق به أملها، عسى أن يعوضها فقد زوجها الحبيب، وأخبرت «عبد المطلب» بحملها، ففرح لذلك فرحاً شديداً، وامتلاً قلبه

أَمْلاً وَرَجَاءً فِي أَنْ يَأْتِيَ هَذَا الْحَمْلَ بَوْلِدٍ يَعُوضُهُ عَنْ ابْنِهِ الْفَقِيدِ.  
حَادِثَةُ الْفَيْلِ:

بَعْدَ أَنْ حَكَمَ «أَبْرَهَةَ» «الْيَمَنُ» تَمَلِكْتَهُ الْعَيْرَةَ مِنَ الْكَعْبَةِ الْمَشْرِفَةِ،  
وَأَرَادَ أَنْ يَصْرِفَ الْعَرَبَ عَنْ زِيَارَتِهَا، فَبَنَى كَنِيسَةً ضَخْمَةً بِالْعُغَّةِ  
الرُّوعَةِ، تُسَمَّى «الْقُلَيْسُ»، وَسَاقَ أَهْلَ «الْيَمَنُ» إِلَى التَّوَجُّهِ إِلَيْهَا  
وَالتَّعْبُدَ فِيهَا، لَكِنَّهُ لَمْ يَفْلِحْ فِي ذَلِكَ، وَزَادَ مِنْ غَضَبِهِ أَنْ أَحَدَ الْأَعْرَابِ  
عَبَثَ بِالْكَنِيسَةِ وَقَدَّرَهَا، فَأَقْسَمَ «أَبْرَهَةَ» لِيَهْدِمَنَّ الْكَعْبَةَ، وَيَطَّأَنَّ  
«مَكَّةَ»، وَجَهَّزَ لِذَلِكَ جَيْشًا جَرَارًا، تَصَاحَبَهُ الْفَيْلَةُ، وَفِي مَقْدَمَتِهَا فَيْلٌ  
عَظِيمٌ، ذُو شَهْرَةٍ خَاصَّةٍ عِنْدَهُمْ.

وَحِينَمَا عَلِمَتِ الْعَرَبُ بِنِيَّةِ «أَبْرَهَةَ» تَصَدَّوْا لَهُ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَفْلِحُوا فِي  
وَقْفِ زَحْفِهِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ جَيْشُ «أَبْرَهَةَ» «الْمَغْمَسَ» - وَهُوَ مَكَانٌ بَيْنَ  
«الطَّائِفِ» وَ«مَكَّةَ» - سَاقَ إِلَيْهِ أَمْوَالُ «تَهَامَةَ» مِنْ «قَرِيشٍ» وَغَيْرِهَا،  
وَكَانَ فِيهَا مَائَتَا بَعِيرٍ لِعَبْدِ الْمَطْلَبِ بْنِ هَاشِمٍ، فَهَمَّتْ «قَرِيشٌ» وَقِبَائِلُ  
الْعَرَبِ بِقِتَالِ «أَبْرَهَةَ»، وَلَكِنَّهُمْ وَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِمُجْرَبِهِ،  
فَتَفَرَّقُوا عَنْهُ دُونَ قِتَالِ.

أَرْسَلَ «أَبْرَهَةَ» إِلَى «عَبْدِ الْمَطْلَبِ» يُبَلِّغُهُ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ لِحَرْبِهِمْ، وَإِنَّمَا  
جَاءَ لِهَدْمِ الْبَيْتِ، فَإِنْ تَرَكَوهُ وَمَا أَرَادَ فَلَا حَاجَةَ لَهُ فِي دِمَائِهِمْ، فَذَهَبَ  
«عَبْدُ الْمَطْلَبِ» إِلَيْهِ، فَلَمَّا دَخَلَ نَزَلَ «أَبْرَهَةَ» مِنْ سَرِيرِهِ، وَجَلَسَ عَلَى  
الْبِسَاطِ، وَأَجْلَسَ «عَبْدُ الْمَطْلَبِ» إِلَى جَانِبِهِ، وَأَكْرَمَهُ وَأَجَلَّهُ، فَطَلَبَ  
«عَبْدُ الْمَطْلَبِ» مِنْهُ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ إِبْلَهُ الَّتِي أَخَذَهَا، فَقَالَ «أَبْرَهَةَ»:  
أَعْجَبْتَنِي حِينَ رَأَيْتُكَ، وَزَهَدْتُ فِيكَ حِينَ كَلِمْتَنِي، تَتْرِكُ بَيْتًا هُوَ دِينُكَ  
وَدِينُ آبَائِكَ، جِئْتُ لِأَهْدِمَهُ، وَتَكَلِمْتَنِي فِي مَائَتِي بَعِيرٍ أَصْبَتَهَا لَكَ؟

(9/1)

---

فَقَالَ: «عَبْدُ الْمَطْلَبِ»: إِنْ رَبَّ الْإِبِلِ (أَيَّ صَاحِبِهَا) وَإِنْ لِلْبَيْتِ رَبًّا  
سَيَحْمِيهِ. قَالَ «أَبْرَهَةَ»: مَا كَانَ لِيَمْتَنِعَ مِنِّي، فَردَّ عَلَيْهِ «عَبْدُ الْمَطْلَبِ»:

أنت وذاك، ثم رد «أبرهة» الإبل لعبد المطلب.  
أمر «عبد المطلب» قريشًا بالخروج من «مكة»، والاحتفاء في شعاب  
الجبال، وتوجه هو إلى باب «الكعبة»، وتعلّق به مع نفر من قريش  
يدعون الله ويستنصرونه، وانطلق جيش «أبرهة» نحو «مكة»، وحينما  
اقترب منها برك الفيل الأكبر الذى يتقدم الجيش رافضاً الدخول،  
وتعبوا فى إجباره على اقتحام «مكة»، وكانوا عندما يوجهونه إلى  
جهة غير «مكة» ينهض ويهرول.

ثم شاء الله أن يهلك «أبرهة» وجيشه، فأرسل عليهم جماعات من  
الطير، أخذت ترميهم بحجارة، فقضت عليهم جميعاً، وتساقطوا  
كأوراق الشجر الجافة الممزّقة، كما حكى ذلك القرآن الكريم: [لم تر  
كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم فى تضليل وأرسل  
عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف  
مأكول]. [سورة الفيل].

مولد النبى - صلى الله عليه وسلم -:

وفى يوم الاثنين الموافق (12 من شهر ربيع الأول سنة 570م) (عام  
الفيل) ولدت «آمنة» وليدها، يتلألاً النور من وجهه الكريم، أكحل  
أدعج محتوناً، يرنو ببصره إلى الأفق، ويشير بسبابته إلى السماء،  
فهولت قابله، وهى «أم عبد الرحمن بن عوف» إلى جده «عبد  
المطلب» تزف إليه البشرى، وتنقل إليه ذلك الخبر السعيد، فكاد  
الرجل الوقور يطير من الفرحة، وفرح الهاشميون جميعاً، حتى إن عمه  
«أباهب» أعتق الجارية «ثوية» التى أبلغته الخبر، وكانت أول من  
أرضعت خير البشر.

سمى «عبد المطلب» حفيده «محمدًا»، وهو اسم لم يكن مألوفاً أو  
منتشراً فى بلاد العرب، ولما سُئل عن ذلك، قال: رجوت أن يكون  
محموداً فى الأرض وفى السماء.

طفولته وصباه:

فى اليوم السابع لميلاد النبى - صلى الله عليه وسلم - أمر جده بجزور  
فحرت، وأقام حفلاً دعا إليه كبار رجالات «قريش» احتفاءً بهذا

الوليد الكريم، وانتظرت «آمنة» المرضعات اللاتي كن يأتين من البادية إلى «مكة»، ليأخذن الأطفال إلى ديارهن لإرضاعهم بأجر، وكانت عادة أشرف «مكة» ألا ترضع الأم أطفالها، مفضلين أن تكون المرضعة من البادية؛ لتأخذ الطفل معها، حيث يعيش في جو ملائم لنموه، من سماء صافية، وشمس مشرقة، وهواء نقي، وكانت هناك قبائل مشهورة بهذا العمل مثل «بني سعد».

وكان محمد من نصيب واحدة منهن تُدعى «حليمة السعدية» لم تكن تدرى حين أخذته أنها أسعد المرضعات جميعاً، فقد حلت عليها الخيرات، وتوالت عليها البركات، بفضل هذا الطفل الرضيع، فسمنت أغنامها العجاف، وزادت ألبانها وبارك الله لها في كل ما عندها. مكث «محمد» عند «حليمة» عامين، وهو موضع عطفها ورعايتها، ثم عادت به إلى أمه، وألحت عليها أن تدعه يعود معها، ليبقى مدة أخرى، فوافقت «آمنة» وعادت به «حليمة» إلى خيام أهلها. حادث شق الصدر:

بقي «محمد» عند «حليمة السعدية» بعد عودتها ثلاثة أعوام أخرى، حدثت له في آخرها حادثة شق الصدر، وملخصها كما ترويهما أوثق مصادر السيرة: أن «محمدًا» كان يلعب أو يرعى الغنم مع أترابه من الأطفال، خلف مساكن «بني سعد» فجاءه رجلان عليهما ثياب بيض، فأخذه فأضجعه على الأرض، وشقا صدره وغسلاه، وأخرجاه منه شيئاً، ثم أعاده كما كان.

ولما رأى الأطفال ما حدث، ذهب واحد منهم إلى «حليمة» فأخبرها بما رأى، فخرجت فرعة هي وزوجها «أبو كبشة» فوجدا «محمدًا» منتعماً لونه، فسألته «حليمة» عما حدث فأخبرها، فخشيت أن يكون ما حدث له مسّ من الجن، وتخوفت عاقبة ذلك على الطفل، فأعادته إلى أمه، وقصت عليها ما حدث لطفلها.

موت آمنة بنت وهب:

لما بلغ «محمد» السادسة من عمره أخذته أمه في رحلة إلى «يثرب»؛  
ليزور معها قبر أبيه، ويرى أحوال جده «عبد المطلب» من «بني  
النجار». وفي طريق العودة مرضت «آمنة» واشتدَّ عليها المرض، وتوفيت في

(11/1)

مكان يُسمى «الأبواء» بين «مكة» و «المدينة». وهكذا شاءت إرادة  
الله أن يفقد «محمد» أمه، وهو في هذه السن الصغيرة، وهو أشد ما  
يكون احتياجًا إليها، فتضاعف عليه اليتيم، ولكن لله في خلقه حكم لا  
يعلمها إلا هو تعالى، فإن كان «محمد» قد حُرِمَ من أبويه. فإن الله  
هو الذي سيتولى رعايته وتعليمه.

ضم «عبد المطلب» حفيده «محمدًا» إلى كفالته؛ لأن ابنه «عبد الله» لم  
يترك ثروة كبيرة، وكل ما تركه كان خمسة من الإبل، وبعضًا من  
الأغنام، و «أم أيمن» (بركة) التي أصبحت حاضنة «محمد» وراعيته  
بعد فقد أمه، وقد عوضته كثيرًا عن حنان الأم.

لكن كفالة «عبد المطلب» لمحمد لم تدم طويلًا، إذ استمرت عامين بعد  
وفاة «آمنة»، كان خالهما نعم الأب الحنون، فحزن «محمد» على  
فقدته حزنًا شديدًا، وبكاه بكاءً مرا وهو يودعه إلى مثواه الأخير.

وبعد وفاة «عبد المطلب» انتقل «محمد» إلى كفالة عمه «أبي  
طالب»، ومع أنه لم يكن أكثر أعمامه مالا وأوسعهم ثراءً، بل كان  
أكثرهم أولادًا وأثقلهم مؤونة؛ فإنه كان شديد العطف عليه،  
والرعاية له، فضمه إلى عياله، وكان يفضلهم عليهم في كل شيء.

اشتغاله برعى الغنم:

لم يرض «محمد» أن يكون عالة على عمه، وبخاصة أنه يرى ضيق  
ذات يده، فأراد أن يعمل ليعول نفسه، ويكسب قوته، ويساعد عمه

إن أمكن ذلك، فاشتغل برعى الأغنام، وهو عمل يناسب سنه، وهذه كانت حرفة الأنبياء من قبله، لقول النبي - صلى الله عليه وسلم - : «ما من نبي إلا ورعى الغنم»، قيل: وأنت يا رسول الله؟ قال: «وأنا». رحلته الأولى إلى الشام:

وجد «محمد» في عمه «أبي طالب» عطفاً وحناناً عوّضه عن فقد جدّه، فكان يؤثره على أولاده، ولا يكاد يردُّ له طلباً، فلما رغب «محمد» في أن يصحب عمه في رحلة إلى «الشام»، أجابه إلى ذلك، رغم أنه كان يخشى عليه من طول الطريق، ومشقة السفر، وهو لم يزل غلاماً صغيراً لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره.

(12/1)

انطلق «محمد» مع عمه في تلك الرحلة إلى «الشام»، وهناك حدثت له قصة عجيبة لفتت أنظار القافلة كلها، لكنهم لم يستطيعوا لها تفسيراً، وذلك أن راهباً نصرانياً، يدعى «بحيرا» كان يتعبّد في صومعته في بادية «الشام»، على طريق القوافل، ولم يكن يحفل بأحدٍ يمْرُ عليه، لكنه في هذه المرة نزل من صومعته لما رأى القافلة القرشية وذهب إليهم، ودعاهم إلى طعام، وطلب منهم أن يحضروا جميعاً ولا يتركوا أحداً يتخلف.

ولما حضر «محمد» مع القوم سأل الراهب «أبا طالب»: من يكون منك هذا الغلام؟ فقال: ابني، فقال له: ما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً، فقال: ابن أخي، قال: صدقت. ثم رأى خاتم النبوة على كتف النبي - صلى الله عليه وسلم -، وقال لأبي طالب: ارجع بابن أخيك هذا فسوف يكون له شأن عظيم، واحذر عليه اليهود، فلو عرفوا منه الذي أعرف ليمسنه منهم شر.

وقعت كلمات الراهب من «أبي طالب» موقعاً جميلاً، فشكر الراهب على هذه النصيحة الغالية التي لا تصدر إلا عن رجلٍ صالح، وعاد بابن

أخيه إلى «مكة».

رحلته الثانية إلى الشام في تجارة خديجة:

ذهب «محمد» هذه المرة إلى «الشام» في مهمة تجارية، لا للتنزه أو الزيارة كما كان في الأولى، ذلك أن «أبا طالب» رأى ابن أخيه قد بلغ مرحلة الشباب، ولا بد له من أن يتزوَّج ويعول أسرة، ولكن من أين لمحمد بالمال؟ فقال لابن أخيه بعد أن أحسن له التدبير: «يا ابن أخي أنا رجل لا مال لي، وقد اشتدَّ الزمانُ علينا، وقد بلغني أن خديجة بنت خويلد استأجرت فلانًا ببيكرين (أى جملين صغيرين) ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته فهل لك أن أكلمها؟» قال «محمد»: «ما أحببتَ يا عمي».

ويكشف هذا الحوار القصير الظروف المالية الصعبة التي كان يمر بها «أبو طالب»، لكن ذلك لم يجعله يضيق بابن أخيه، وإنما خاطبه في رفق وشاوره قبل أن يفتحه في أمر عمله مع «خديجة»، وفي الوقت نفسه نلمس أن «محمدًا» - صلى الله عليه وسلم - كان يشعر بما

(13/1)

يعانيه عمه، فلم يملك إلا أن يقول له: «ما أحببتَ يا عمي». توجه «أبو طالب» إلى «خديجة» وقال لها: «هل لك يا «خديجة» أن تستأجري «محمدًا»؟ فقد بلغنا أنك استأجرت فلانًا ببيكرين، ولسنا نرضى لمحمد دون أربعة». فأجابت «خديجة» بلهجة تحمل الوداد والاحترام للشيخ الوقور: «لو سألت ذلك لبعيد بغيض فعلنا، فكيف وقد سألته لقريب حبيب» (1).

خرج «محمد» في تجارة «خديجة» يصحبه غلامها «ميسرة» وكان صاحب خبرة في التجارة ومعرفة بأصولها، أثيرًا لديها، تأتمنه على مالها وتجارها، وكانت هذه الرحلة ناجحة وموفقة كل التوفيق، ورجحت أكثر من أية مرة سابقة.

وفي طريق العودة اقترح «ميسرة» على «محمد» أن يسبقه إلى «مكة»؛ ليكون أول من يبشر «خديجة» بعودتهما سالمين وبنجاح تجارتها، وعندما بلغ «خديجة» الأمر سُرَّت أيما سرور، وأعجبت بما قصَّه «ميسرة» على سمعها من شأن «محمد»، من أمانة، ورقة شمائل، وسمو خلق، وازدادت إعجابًا لما سمعت «محمدًا»، وما لبث هذا الإعجاب أن تحول إلى تقدير ورغبة في الزواج.

مشاركة محمد في الحياة العامة:

شارك «محمد» - صلى الله عليه وسلم - قومه في حياتهم العامة قبل البعثة، فاشترك في «حرب الفجار»، وهو في نحو الخامسة عشرة من عمره، وهي حرب وقعت أحداثها في الأشهر الحرم، ولذا سميت بحرب الفجار، وسببها أن «النعمان بن المنذر» أمير «الحيرة» اعتاد أن يرسل كل موسم قافلة تجارية إلى سوق «عكاظ» بالقرب من «مكة» المكرمة، وكان يستأجر لها حراسًا من القبائل القريبة من «مكة»، فعرض رجلان أنفسهما لهذه المهمة، أحدهما من «هوازن» يسمى «عروة»، والآخر من «كنانة» يسمى «البراض»، فاختر «النعمان» «عروة»، فقتله «البراض»، فوقع القتال بين قبيلتيهما لهذا السبب، واستمر أربع سنوات وانتهى بالصلح بين المتحاربين، وقد وصف النبي - صلى الله عليه وسلم - مشاركته في هذه الحرب بقوله: «كنت أنبل على أعمامى» أى يرد إليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها.

(14/1)

حلف الفضول:

وكما شارك «محمد» قومه في الحرب فقد شاركهم في السلم؛ حيث شهد «حلف الفضول»، الذى تكوّن عقب حرب الفجار، وكان أول من دعا إليه عمه «الزبير بن عبد المطلب»؛ لنصرة المظلوم أيا كان، من

أهل «مكة» أو من غيرهم، واجتمعت بعض بطون «قريش»: «بنو هاشم» و «بنو زهرة»، و «بنو أسد»، و «بنو تيم» في دار «عبد الله بن جدعان»، وتعاهدوا ليكونن مع المظلوم حتى يُردَّ إليه حقه. ويصف النبي مشاركته في هذا الحلف بقوله: «لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار «عبد الله بن جدعان» ما أحب أن لى به حمر النعم، ولو أَدعى به في الإسلام لأُجبت».

بناء الكعبة:

نزل سيل على «الكعبة» قبل بعثة النبي بحوالى خمسة أعوام، هدم جدرانها، فعزمت «قريش» على إعادة بنائها، وقسمت العمل بين بطونها، وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يعمل بنفسه معهم، ويحمل الحجارة، حتى إذا ارتفع البناء نحو قامة الرجل اختلفوا فيمن يضع «الحجر الأسود» فمكانه؛ كل قبيلة تريد أن تحوز هذا الشرف دون غيرها، واشتد الخلاف بينهم حتى تداعوا إلى الحرب، ففزع «أبو أمية بن المغيرة» وخشى عاقبة ذلك، فأشار عليهم بأن يحتكموا إلى أول رجل يدخل عليهم، فوافقوا على ذلك.

كان النبي - صلى الله عليه وسلم - أول داخل عليهم، فاستبشروا خيراً، وقالوا: هذا الأمين رضينا به حكماً، فطلب منهم أن يبسطوا ثوباً، ثم وضع الحجر فيه، وطلب من زعماء القبائل أن يمسك كل منهم بطرف، ليتمكّنوا من رفع الحجر إلى موضعه، ثم أخذه النبي - صلى الله عليه وسلم - بيده الشريفة، ووضعها في مكانه.

زواج محمد من خديجة:

كانت «خديجة بنت خويلد الأسدية» امرأة شريفة، ذات حسب وجمال ومال تزوجت مرتين من قبل، وعزمت بعد موت زوجها الثاني ألا تتزوج مرة أخرى، وأن تتفرغ لإدارة ثروتها، وتنمية تجارتها. ولكنها حين اتصلت بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وعمل في تجارتها، ورأت فيه من خصال الخير أعجبت به ورغبت في الزواج منه، وأسرت بذلك إلى إحدى

صديقاتها المقرّبات، فذهبت إلى «محمد» وسألته ما يمنعك أن تتزوج؟ قال ما بيدى ما أتزوج به. قالت فإن كُفيت ذلك ودُعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة، ألا تجيب؟ قال فمن هي؟ قالت خديجة، فقال كيف لي بذلك؟ قالت على ذلك، فوافق عدنانفور، وعادت «نفسية» إلى «خديجة»، تزفُّ إليها تلك البشرية فسُرَّت سرورًا عظيمًا. وذهب «محمد» مع أعمامه إلى بيت «خديجة» لإعلان الخطبة، وألقى «أبو طالب» خطبة قصيرة أثنى فيها على ابن أخيه، وأنه لا يعدله شاب في «قريش»، في خلقه وصدقه وأمانته، وإن كان قليل المال، فالمال عرض زائل، ثم وجَّه كلامه إلى أهل «خديجة» فقال: «إن محمداً له في «خديجة» رغبة، ولها فيه مثل ذلك»، فوافقوا على الخطبة، وأقاموا وليمة بهذه المناسبة السعيدة، وقدم «محمد» لخديجة صداقاً قدره عشرون بكرة، ثم تم الزواج، وانتقل «محمد» إلى بيت «خديجة» حيث عاش معها. وهكذا شاءت الأقدار لهذه السيدة الكريمة أن تقترن بسيد الخلق أجمعين، وأن تصبح أول أم للمؤمنين، وأن تكون خير عون له، فكانت أول من آمن به وكانت تواسيه بما لها، كما كانت حياته معها التي دامت نحو خمسة وعشرين عاماً تملؤها السعادة، ورزقه الله منها بستة أولاد؛ اثنين من الذكور هما: «القاسم» و «عبد الله»، وقد ماتا قبل البعثة، وأربع بنات، هن: «زينب» وقد تزوجها ابن خالتها «أبو العاص بن الربيع»، و «رقية» و «أم كلثوم» وقد تزوجهما «عثمان بن عفان»، واحدة بعد الأخرى، و «فاطمة» وتزوجت بعلي بن أبي طالب.

من الزواج إلى البعثة:

كان عمر النبي - صلى الله عليه وسلم - حين تزوج السيدة «خديجة» خمسًا وعشرين سنة، وكان عمره حين بعته الله بالرسالة على رأس الأربعين، فماذا كان يعمل في المدة التي بين الزواج والبعثة؟

إن مصادر السيرة النبوية لم تمدنا بمعلومات كثيرة عن هذه الفترة من حياته، سوى أنه كان دائم التأمل في الكون الفسيح، والتفكير في

(16/1)

---

القوة التي أبدعته وأحكمت صنعه، وأنه رفض ما عليه قومه من عبادة الأصنام، وما غرقوا فيه من الفساد والجون، فلم يسجد لصنم، ولم يحضر مجلس هو وعبث، بل كان يعتكف شهرًا من كل سنة في غار «حراء»، يتعبد فيه، ويجد فيه فرصة مناسبة للتفكير والتأمل، بعيدًا عن صخب «مكة» وضجيجها. وكان شهره المفضل الذي يقضيه في الغار هو شهر رمضان المبارك.

ويبدو أنه في تأمله هذا كان ينشد مخرجًا للعالم مما هو فيه من شرك ووثنية؛ لأن ما بقي من الشرائع القديمة لم يكن كافيًا ليريح نفسه المتشوقة إلى الحق المجرد والحقيقة المطلقة، وظل كذلك حتى أتاه «جبريل» - عليه السلام - بالوحي.

(17/1)

---

### الفصل الثالث

\*بعثة الرسول - صلى الله عليه وسلم -

بدء الوحي:

ظل «محمد» - صلى الله عليه وسلم - يتردد على غار «حراء» حتى شارف الأربعين من عمره، وكان أول ما بدئ به من الوحي الرؤيا الصادقة، كما جاء في حديث «عائشة»، فكان لا يرى رؤيا في نومه إلا جاءت كفلق الصبح، وزادته رؤاه الصادقة أملا في قرب الوصول إلى الحقيقة.

وبينما هو في غار «حراء» غارق في تأمله وتدبره؛ إذ جاءه  
 «جبريل» - عليه السلام - في ليلة من ليالي رمضان، فقال: «اقرأ»،  
 قال: «ما أنا بقارئ»، قال: «فأخذني فغطني، حتى بلغ مني  
 الجهد، ثم أرسلني، فقال: «اقرأ»، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني  
 فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ،  
 فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال  
 (اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم)  
 (سورة العلق: 1 - 3) فرجع بها رسول الله يرجف فؤاده، فدخل على  
 «خديجة بنت خويلد» -رضى الله عنها - فقال: «زملوني زملوني»  
 فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «لقد  
 خشيت على نفسي»، فقالت «خديجة»: كلا والله ما يخزيك الله أبداً،  
 إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف،  
 وتعين على نوائب الحق». [صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي].  
 طمأننت «خديجة» «محمدًا» بتلك الكلمات الصادقة والعبارة الموسمية،  
 وذهبت به إلى ابن عمها «ورقة بن نوفل» أحد الحنفاء العرب، وكان  
 قد اعتنق النصرانية، فقالت له: «يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك،  
 فقال له «ورقة»: يا ابن أخي ماذا رأيت، فأخبره رسول الله - صلى  
 الله عليه وسلم - خبر ما رأى، فقال له «ورقة»: هذا الناموس (جبريل  
 أمين الوحي) الذي نزله الله على «موسى»، ياليتني فيها جَدَعًا،  
 ليتني أكون حيا، إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله - صلى الله عليه  
 وسلم - : «أو مخرجي هم؟» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به  
 إلا عُودى، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم يلبث

(18/1)

«ورقة» أن تُوفِّيَ وفتى الوحي».

توقف الوحي بعد ذلك فترة من الزمن حتى شق على «محمد» فأحزنه

ذلك، فجاءه «جبريل» بسورة «الضحى»، يقسم له ربه - وهو الذى أكرمه بما أكرمه به - ما ودعه وما قلاه.

المسلمون الأوائل:

أخذ النبي - صلى الله عليه وسلم - يدعو إلى الإسلام سرا، فكانت «خديجة بنت خويلد» - رضى الله عنها - أول الناس إسلامًا وإيمانًا بالله ورسوله، ثم تلاها «على بن أبي طالب» - رضى الله عنه - وكان في نحو العاشرة من عمره، ثم «زيد بن حارثة» مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ثم أسلم «أبو بكر بن أبي قحافة»، وكان رجلاً مألّفًا لقومه، محببًا سهلاً، فأسلم على يديه طائفة من كبار الصحابة، أمثال: «عثمان بن عفان»، و «الزبير بن العوام»، و «عبد الرحمن بن عوف»، و «سعد بن أبي وقاص»، و «طلحة بن عبيد الله».

ثم أسلمت بعد هؤلاء طائفة أخرى، عد منهم «ابن إسحاق» نحو خمسة عشر فردًا ما بين رجل وامرأة، هم: «أبو عبيدة بن الجراح»، و «أبو سلمة ابن عبد الأسد» و «عثمان بن مظعون»، وأخواه «قدامة» و «عبد الله»، و «عبيدة بن الحارث ابن المطلب» و «سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل»، وامراته «فاطمة بنت الخطاب»، و «أسماء» و «عائشة» بنتا «أبي بكر»، و «خباب بن الأرت»، و «عمير بن أبي وقاص»، و «عبد الله بن مسعود»، و «مسعود ابن القارى» - رضى الله عنهم - وكان ذلك في مرحلة الدعوة السرية.

الدعوة السرية:

كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يعلم تمام العلم عناد «قريش» وكبرياءها وإصرارها على التمسك بالقديم، واعتزازها بآبائها وأجدادها وعبادتها للأصنام؛ لذا فلن تُسلم بسهولة، أو تدعن لدعوته، بل ستقاومه حتى آخر سهم فى جمعيتها، لأنها اعتقدت أن الإسلام يهدد مصالحها ويقضى على سيطرتها على «مكة» وما حولها، ولو علمت أن الإسلام سيجعلها سيدة العالم ما قاومته لحظة

واحدة ولرَّحبت بدعوته.

أدرك النبي - صلى الله عليه وسلم - ذلك، فقرَّر أن تكون دعوته لدينه

(19/1)

سرا في بادئ الأمر، وبدأ في دعوة أصدقائه وأقرب الناس إليه، ومن يأنس فيهم خيراً واستعداداً لقبول الحق والهدى، فأمن به - إلى جانب من ذكرنا - عدد من رجالات «قريش» ونسائها، وطائفة من العبيد والفقراء والضعفاء الذين رأوا في الدين الجديد الخلاص مما هم فيه من شقاء ويؤس، مثل: «بلال بن رباح»، و «صهيب الرومي»، و «آل ياسر»، وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يجتمع بمن أسلم سرا في دار «الأرقم بن أبي الأرقم» يتلو عليهم آيات القرآن الكريم، ويعلمهم شرائع الإسلام، واستمرت هذه الدعوة السرية نحو ثلاث سنوات، ازداد فيها عدد المسلمين زيادة يسيرة.

ويبدو أن خبر الدعوة لم يعد سرا بصورة مطلقة بالنسبة إلى «قريش»، فقد تسرَّب إليها، لكنها لم تعبأ بهذا في البداية، ولعلها كانت واثقة بقوتها وقدرتها على مقاومة هذه الدعوة من ناحية، وواثقة بأن حملها على ترك دين آبائها وأجدادها أمر صعب من ناحية أخرى.

الجهر بالدعوة وموقف قريش:

أمر الله تعالى نبيه «محمدًا» - صلى الله عليه وسلم - أن يجهر بالدعوة بعد مضي ثلاث سنوات من الدعوة سرا، فقال {فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين} [الحجر: 94].

وقال تعالى: {وأندر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون}.

[الشعراء: 214 - 216].

وامتنالا لهذا الأمر الإلهي بدأ النبي بدعوة الأقربين من أهله وعشيرته

إلى الإسلام، وصنع لهم طعامًا في بيته، وبعد أن تناولوه، حدّثهم قائلاً: «ما أعلم إنسانًا في العرب جاء قومه بأفضل مما جنتكم به، فقد جنتكم بخيري الدنيا والآخرة، وقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه، فأياكم يؤازرنى على هذا الأمر؟» فأعرضوا عنه جميعًا، وهُمُّوا بتركه عدا «على بن أبى طالب»، وانصرفوا دون أن يستجيبوا لدعوة النبى، غير أنهم لم يبادئوه بأذى فى أول الأمر، غير أن عداوتهم له بدأت حين شرع فى تسفيه أهتهم.  
الجهاد فى العهد المكى:

(20/1)

قد يفهم بعض الناس أن المقصود بالجهاد الحرب فقط، لكنه يعنى كثيرًا من أنواع الجهاد، فالصبر على الأذى والمكارة لا يقل أهمية عن الجهاد بالسلاح، وقد تحمّل النبى - صلى الله عليه وسلم - هو وأصحابه صنوفًا من الأذى صبّها عليهم المشركون فى الفترة المكية، فكانوا يسبونونه ويتعرضون له، ويرجمونه بالحجارة، ويلقون عليه القاذورات، وأشهر من صنع ذلك معه: «عقبة بن أبى معيط»، و «أبو جهل» الذى حاول قتل النبى - صلى الله عليه وسلم - عند «الكعبة». وكان موقفهم هذا من النبى - صلى الله عليه وسلم - عنادًا له وحسدًا من عند أنفسهم، لأنهم كانوا يعرفون أن دينه حق، وأن الذى يأتيه وحى من السماء، ولكن حال الحسد بينهم وبين اتباعه وتصديقه. وصبّ المشركون جام غضبهم على المستضعفين من المسلمين، وأذاقوهم ألوانًا من العذاب، مثل: «بلال بن رباح» الذى لم ينقذه من العذاب إلا «أبو بكر الصديق» الذى اشتراه من سيده «أمية بن خلف» وأعتقه، و «آل ياسر» وكانوا يُعدَّبون إذا حميت الظهرية برمضاء «مكة»، وكان الرسول يمر بهم ولا يملك أن يمنع عنهم العذاب، فيقول لهم: «صبرًا آل ياسر فموعدكم الجنة»، فصبروا واحتملوا ولم

يتخلوا عن دينهم، حتى إن «أم عمار» طعنها «أبو جهل» بحربة فقتلها وهي على إسلامها.

الهجرة إلى الحبشة:

اشتد الأذى والتعذيب بأصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - دون أن يقدر على الدفاع عنهم، وكان هو في منعة من أهله إلى حد ما، يقف بجانبه «أبو طالب» يدفع عنه الأذى، ففكر لهم في مخرج مما يلاقونه من التعذيب، فقال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه» فخرج بعض المسلمين إلى أرض «الحبشة» مخافة الفتنة، وفرّوا إلى الله بدينهم، وكانت هجرتهم أول هجرة في الإسلام، وبلغ عددهم عشرة رجال وأربع نسوة، منهم: «عثمان بن عفان» وزوجته «رُقِيَّة» بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

(21/1)

ثم خرجت مجموعة أخرى من المسلمين إلى «الحبشة»، كان عددها أكبر من الأولى؛ إذ بلغوا نحواً من ثمانين رجلاً وامرأة، وظلوا مدة طويلة في «الحبشة»، بعد أن وجدوا الأمن والحماية من ملكها، وعادت آخر مجموعة من هناك مع «جعفر» في أول السنة السابعة من الهجرة.

إسلام عمر بن الخطاب:

بعد هجرة المسلمين الأولى إلى «الحبشة» أسلم «عمر بن الخطاب»، وكان إسلامه حدثاً كبيراً في «مكة»، ونصراً عظيماً للإسلام؛ إذ كان من الشخصيات القوية في «مكة»، ومن أشد أعداء المسلمين، حتى إنه أسلم في الوقت الذي عزم فيه على الذهاب لقتل الرسول - صلى الله عليه وسلم -، فأراد الله به الخير، واستجاب الله لدعوة النبي الذي كان دائماً يردد: «اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين»، «عمر بن

الخطاب»، و «عمرو بن هشام» (أبي جهل)!  
وبإسلام «عمر» قَوَى موقف المسلمين كما اشتد من قبل بإسلام  
«حمزة بن عبد المطلب» عمّ النبي - صلى الله عليه وسلم -، وأهاب  
بالمسلمين أن يصلوا عند «الكعبة» تحت حمايته، فغلبت «قريش»  
على أمرها، لمعرفتها بقوة شكيمة «عمر» ومضاء عزيمته، فلم  
تتعرّض لهم، وبدأت تلجأ إلى أسلوب آخر في مواجهة الدعوة، وهو  
أسلوب المقاطعة.  
أسلوب المقاطعة:

استعملت «قريش» مع النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه أساليب  
العنف والتعذيب والاضطهاد، فلم تنجح في ردهم عن دعوتهم، فلجأت  
إلى أسلوب الترغيب والمساومة، فعرضت على النبي - صلى الله عليه  
وسلم - الملك والسيادة والمال، فرفض عرضهم، لأنه لم يكن طالب ملك  
أو جاه، بل رسولا جاء من الله برسالة سماوية، تحمل الخير والعدل،  
ولا بد من تبليغها، ثم وسّطوا «أباطال» ليكف «محمداً» عن تسفيه  
آلهتهم في مقابل ما يريد من ملك أو جاه، فكلمه قاتلاً: «إن القوم  
يطلبون منك أن تكف عن سب آلهتهم، فأبق علىّ وعلى نفسك»  
فأجابته النبي بكلمات قليلة، لكنها قاطعة وحاسمة: «والله يا عم لو  
وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر

(22/1)

---

ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه» سمع «أبو طالب» هذا الرد  
الحاسم، وأدرك إصرار النبي - صلى الله عليه وسلم - على السير في  
طريق الدعوة مهما تكن الصعاب والمشاق، فقال له في رقة بالغة:  
«يا ابن أخي امض فيما أنت فيه، فوالله لن أسلمك لشيء تكرهه  
أبداً».

ولما لم تنجح كل هذه الوسائل في ثني النبي - صلى الله عليه وسلم -

عن تبليغ دعوته، ورد أصحابه عن دينهم الجديد، لجأت قريش إلى أسلوب المقاطعة، ولم يكن هذا مألوفاً في بلاد العرب، ولعله لم يكن مألوفاً كذلك في أى مكان في العالم آنذاك، ففرضت حصاراً على «بني هاشم» و «بني المطلب» جميعاً، ممن يقفون مع النبي - صلى الله عليه وسلم - ويذودون عنه، سواء من أسلم منهم أو لم يسلم، وقررت ألا تبيع لهم أو تشتري منهم، وألا تزوجهم أو تتزوج منهم، وألا تتزاور معهم، عقاباً لهم على مساندتهم للنبي - صلى الله عليه وسلم -، وكتبوا بتلك المقاطعة وثيقة في صحيفة، علقوها في «الكعبة»، ليكون لها احترام والتزام.

واستمر هذا الحصار القاسى الجرد من الإنسانية نحو ثلاث سنوات، عانى منه «بنو هاشم» و «بنو المطلب» أشد المعاناة، وهم صابرون صامدون، لم يتخلَّ أحدٌ منهم عن النبي - صلى الله عليه وسلم -، حتى تحركت النخوة والشهامة في نفوس بعض رجالات «قريش»، كزهير بن أبي أمية المخزومي، و «المطعم بن عدى»، و «أبي البختری بن هشام»، لما رأوا ما يعانیه «بنو هاشم» و «بنو المطلب» من هذه المقاطعة الظالمة، فسعوا في نقضها وإثائها، وأقسموا على تمزيق الصحيفة، وكان لهم ما أرادوا، فخرج النبي وأصحابه من شعبهم الذى كانوا محاصرين فيه؛ ليستأنف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دعوته إلى دين الله.

عام الحزن:

استأنف النبي - صلى الله عليه وسلم - دعوته بعد انتهاء المقاطعة، واستبشر المسلمون خيراً بعهد جديد يمارسون فيه حياتهم الطبيعية، لكن وقع للنبي حدثان جليان في عام واحد وهو العام العاشر من

البعثة، فقد مات كل من عمه «أبي طالب»، وزوجته «خديجة»، وكاننا نعم العون له والمساندة في تبليغ رسالته، وعلى الرغم من ذلك فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يضعف ولم تكن له عزيمة؛ ومضى واثقاً بنصر الله يبلغ رسالة الله إلى العالمين.  
رحلته إلى الطائف:

أراد النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يخرج بالدعوة من نطاق «مكة»، لعله يجد نصيراً أو معيناً بعد المضايقات الشديدة التي لقيها من «قريش» وبخاصة بعد موت «خديجة» و «أبي طالب»، فقرر الذهاب إلى «الطائف»؛ لعرض دعوته على «ثقيف» رجاء إيمانها به وبرسالته، لكنهم رفضوا ما عرضه عليهم، ولم يكتفوا بذلك بل سبوه وأهانوه، وسلطوا عليه سفهاءهم وصبيانهم؛ ليضربوه بالحجارة، فتأثر بذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وبلغ إحساسه بالألم مداه، فجأر بالشكوى إلى الله قائلاً: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يَا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

وبعد أن قال الرسول هذا الكلام المؤثر جاءه «جبريل» ومعه ملك الجبال عليهما السلام، فقال له ملك الجبال: «إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين» (2)، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً، ودعا لهم قائلاً: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون».

الإسراء والمعراج:

في هذا الجو الذي بدا قائماً وحزيناً بعد موت «أبي طالب» و «خديجة بنت خويلد»، وما لقيه النبي من أهل «الطائف» والقبائل من عنت وإيذاء، أراد الله تعالى أن يسري عنه - صلى الله عليه وسلم - وأن

يعلمه ويطمئنه، فأسرى به إلى المسجد الأقصى وعرج به إلى السماء. وموجز هذه الحادثة كما ترويه كتب الحديث والسير: أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان في بيت «أم هانئ بنت أبي طالب» فجاءه «جبريل» ومعه «البراق» (وهي دابة أصغر من البغل وأكبر من الحمار) وأخذه إلى «بيت المقدس» في «فلسطين»، حيث وجد في استقباله جمعًا من الأنبياء، فيهم «إبراهيم» و «موسى» و «عيسى» - عليهم السلام - جميعًا، فصلى بهم إمامًا ركعتين، ثم عرج إلى السماوات العلى، حيث التقى بعدد من الأنبياء، وتحدث إليهم وحيوه وهنئوه، ثم ارتقى فوق السماوات العلى لمناجاة ربه، وتلك مكانة لم يبلغها نبي ولا رسول ولا ملك من الملائكة المقربين، وفي هذا اللقاء فرضت الصلوات الخمس، وقد أراه الله من آياته الكبرى، فرأى الجنة وما أعده الله من نعيم للمتقين، ورأى النار وما أعده الله من عذاب للكافرين. ثم عاد إلى «مكة» في الليلة نفسها، مزودًا بهذه الطاقة الروحية الهائلة.

أبو هب يحذر القبائل من دعوة النبي:

على الرغم مما تعرض له النبي - صلى الله عليه وسلم - من إساءات أهل «الطائف»، فإنه لم ييأس من دعوة الناس إلى الإسلام، فكان يتصدى لوفود القبائل التي تأتي إلى «مكة» في موسم الحج، يعرض عليهم رسالة الإسلام، ومن الوفود التي التقى بها: وفد «كندة»، و «بني حنيفة» و «بني عامر بن صعصعة»، غير أنه لم يجد منهم مجيبًا، خاصة أن عمه «أبا هب» كان يتبع خطى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فإذا رآه جلس إلى وفد قبيلة من قبائل العرب؛ جاءهم قائلاً لهم: لا تصدقوه إنه كذاب ولا تطيعوه ولا تسمعوا له. واستمر هذا الوضع حتى أذن الله بالفرج من ناحية «يثرب». الهجرة إلى المدينة:

لقد سبقت الهجرة إلى «المدينة» عدة أحداث كانت بمثابة مقدمة لها،  
ومن بينها:

بيعة العقبة الأولى:

بدأت بشائر النصر تأتي ريجها من «يثرب»، فقد التقى النبي - صلى

(25/1)

الله عليه وسلم - أثناء عرض دعوته على القبائل بوفد من أهل  
«يثرب» في موسم الحج، وعرض عليهم الإسلام، فلم يرفضوا ولم  
يسلموا، عدا واحداً منهم هو «إياس بن معاذ» فقد أسلم، لكنهم حين  
عادوا إلى قومهم تحدثوا بما سمعوا من النبي، فنبهوهم إلى أنه من  
المعقول أن يكون «محمد» هو النبي الذي كانت اليهود تحدثهم عنه  
دائماً، وكان في «يثرب» كثير من قبائل اليهود (بنو قينقاع وبنو  
النضير وبنو قريظة)، الذين علموا من كتبهم المقدسة أن هناك نبياً قد  
قرب زمانه وهو آخر الأنبياء.

وهذه المعلومات التي عرفها أهل «يثرب» من «الأوس» و «الخزرج»  
كانت مفيدة لهم وللإسلام، فقد ذهب وفد منهم في الموسم التالي -  
العام الثاني عشر من البعثة - والتقوا برسول الله - صلى الله عليه  
وسلم - وهم على استعداد للاستجابة له والتجاوب معه، فحدثهم عن  
الإسلام فآمنوا وبايعوه عند العقبة في «منى» «البيعة الأولى»،  
على أن يؤمنوا بالله وحده، ولا يشركوا به شيئاً، وألا يسرقوا، وألا  
يزنوا، وألا يعصوا الله في معروف. وأرسل النبي معهم عند عودتهم  
إلى «يثرب» «مصعب بن عمير»، يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين.  
وكان هذا اللقاء بداية النصر وفتحة الخير، فإذا كانت «مكة» قد  
تجرت عقولها وصمت آذانها عن سماع صوت الحق، فإن «يثرب»  
تفتحت له قلوبها وعقولها وآذانها.

بيعة العقبة الثانية:

نجح «مصعب بن عمير» فيما كُلف به نجاحًا عظيمًا، فازداد عدد المسلمين في «يثرب» على يديه زيادة كبيرة، ولم يبق بيت فيها إلا ولذكر الإسلام والنبي فيه نصيب، وعاد «مصعب» في الموسم التالي (العام الثالث عشر من البعثة)، ليزف إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - بشري نجاحه، وإقبال أهل «يثرب» على الإسلام، وأن وفدًا كبيرًا منهم سوف يأتي إلى «مكة» لمقابلته، فقدم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان لهذا الغرض، وتم اللقاء سرا عند العقبة في «منى»، وسط أيام التشريق (الثلاثة الأيام الأولى من عيد الأضحى)، وحضر اللقاء

(26/1)

«العباس بن عبد المطلب»، وكان لا يزال مشرکًا، لكنه رغب في حضور هذا الاجتماع؛ ليطمئن على ابن أخيه. وفي هذا اللقاء بايع الحاضرون النبي - صلى الله عليه وسلم - «بيعة العقبة الثانية» أو «بيعة القتال»، لأن أهم ما تضمنته التزام أهل «يثرب» بالدفاع عن النبي عندما يهاجر إليهم، ومنعه مما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وأبناءهم. وبعد أن تمت البيعة اتفقَ على ترتيبات هجرة أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى «يثرب»، وما يلتزمه أهل «يثرب» تجاههم من توفير المأوى والمعاش. وقد أثبت أهل «يثرب» أنهم أهل كرم وشهامة وتضحية، فقدموا لإخوانهم المهاجرين كل ما يحتاجون إليه، بل وآثروهم على أنفسهم. المؤامرة الكبرى:

بدأ أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - من أهل «مكة» يهاجرون إلى موطنهم الجديد، أفرادًا وجماعات متخفين عن أعين «قريش»، وبقي الرسول في «مكة»، ووقعت «قريش» في حيرة شديدة؛ لأنها لم تكن تعرف ما هو صانع؛ هل سيبقى في «مكة»، أم سيلحق بأصحابه إلى «يثرب»؟ وفي هذا خطر شديد عليهم، لأنه سيجد في

«يثرب» المنعة والحماية والاستعداد للدفاع عنه، مما قد يجرُّهم إلى الدخول في عداء سافر مع «يثرب».

وأمام هذه التطورات المتلاحقة قررت «قريش» أن تحزم أمرها سريعاً قبل أن يهاجر النبي ويفلت من بين يديها، فعقدوا اجتماعاً في دار الندوة لم يحضره أحد من «بني هاشم» سوى «أبي لهب» عم النبي، وبحوثوا فيه الأمر، وعرضت ثلاثة اقتراحات لمواجهة الموقف، الأول: أن يضعوا «محمدًا» في السجن، والثاني: أن ينفوه من «مكة»، والثالث: أن يقتلوه، وحاز الاقتراح الثالث الموافقة على تنفيذه، وهذه هي المؤامرة التي عبّر عنها القرآن الكريم، في قوله تعالى: {وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين}. [الأنفال: 30].

وبعد أن اتفقوا على قتله، ناقشوا كيفية تنفيذ ذلك، فرأوا أن

(27/1)

تشارك جميع القبائل في قتله، بأن تختار كل منها فتى شاباً قويا من بين أبنائها، وتعطيه سيفاً بناراً، وأن يربط هؤلاء جميعاً أمام بيت النبي - صلى الله عليه وسلم - ليلاً، حتى إذا خرج عليهم في الصباح ضربوه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل، ولا يقوى «بنو هاشم» على محاربة أهل مكة جميعاً.

علني في فراش النبي - صلى الله عليه وسلم -:

علم رسول الله بما بيئته له «قريش»، فأعد العدة للهجرة، وأسر بذلك إلى صاحبه «أبي بكر الصديق» الذي كان ينتظر هذا بلهفة وشوق، فأعد لذلك الأمر عدته من قبل، للقيام بأعظم رحلة في تاريخ البشرية.

دعا النبي - صلى الله عليه وسلم - «علي بن أبي طالب»، لينام في فراشه في تلك الليلة، ليضلل «قريشاً» من جهة، ومن جهة أخرى لكي يتخلف في «مكة»، ليؤدي للناس ودائعهم التي كانت عند

الرسول، وخرج النبي - صلى الله عليه وسلم - في عماية الصبح، والمتأمرون واقفون على بابه، ينتظرون لحظة خروجه، للانقضاض عليه، لكن الله أعمى أبصارهم، وأخذ النبي - صلى الله عليه وسلم - حفنة من الحصى وقذفها في وجوههم، وقال: «شاهت الوجوه»، ثم تلا قوله تعالى: {وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون}. [يس: 9].

قصد النبي - صلى الله عليه وسلم - بيت «أبي بكر» الذي كان في انتظاره ومعه الرواحل، والزاد، وكل ما يلزم الرحلة المباركة، وكان دليلهم في رحلتهم «عبد الله بن أريقط».

النبي في غار ثور:

انطلقت الرحلة المباركة قاصدة غار «ثور» في جنوب «مكة»، مع أن وجهتهم كانت «يثرب» في الشمال؛ لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - يعرف أن «قريشاً» عندما تكتشف أنه نجا من كيدهم ستتجه في بحثها عنه إلى الشمال، عندئذ يكون هو قد وصل إلى الغار واختبأ فيه.

والحق أن خطة الهجرة كانت دقيقة وسرية إلى أقصى حد، ووضع لها كل مافي وسع البشر أن يفعلوه لضمان نجاحها، فإذا لم يفلح هذا كله، فستأتي عناية الله في اللحظة المناسبة لإنقاذ الموقف،

(28/1)

---

فالذين علموا بأمر الهجرة كان عددهم محدوداً وكانوا موضع ثقة، منهم: «عامر بن فهيرة» مولى «أبي بكر» وراعى غنمه، و «عبد الله بن أبي بكر»، وأخته «أسماء»، وكل واحد من هؤلاء له عمل محدد وفي غاية الأهمية والخطورة، فعبد الله بن أبي بكر كانت مهمته أن يتسمع أخبار «قريش» بالنهار في أنديتها، ثم يبلغها الرسول - صلى الله عليه وسلم - إذا جاء الليل، وكانت مهمة «أسماء» إعداد الطعام،

ولما لم تجد مرة حبلا تربط به حقيبة الزاد، شقت نطاقها الذى كانت تشد به وسطها، وربطت بأحد الشقين الحقيبية فلقت بذات النطاقين. أما «عامر بن فهيرة» فكانت مهمته أن يرعى الأغنام بالقرب من الغار، فإذا ما حلَّ الظلام ذهب إلى الغار؛ ليزود النبي - صلى الله عليه وسلم - و «أبابكر» باللبن، ويسير بأغنامه على آثار أقدام «عبد الله بن أبي بكر» حتى يمحوها، فلا يفتن أحد إلى مكائهم. جن جنون «قريش» حين علمت أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أفلت من قبضتها، وأن النائم في الفراش لم يكن سوى «على بن أبي طالب»، فأخذت تبحث عن «محمد» في كل مكان، وبعد أن أعياهم البحث في طريق «يثرب»؛ عادوا إلى الجنوب، ووصلت طلائع بحثهم إلى باب الغار، ففزع «أبوبكر»، حتى إنه بكى من شدة خوفه على حياة النبي - صلى الله عليه وسلم -، فسأله: «ما يبكيك يا أبا بكر؟» فقال: يارسول الله، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، فقال له الرسول - صلى الله عليه وسلم - مطمئناً: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما!».».

وقد سجل القرآن الكريم هذا المشهد، فقال تعالى: {إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم}. [التوبة: 40].  
استئناف الرحلة:

ظل النبي - صلى الله عليه وسلم -، وصاحبه في الغار ثلاثة أيام، حتى

(29/1)

---

هدأت «قريش»، وتعبت من البحث دون جدوى، بعد أن كانت قد رصدت جائزة كبرى قدرها مائة من الإبل لمن يأتيها بمحمد حيا أو

مبتأً، لكن الله - سبحانه - عصمه من ذلك أيضاً،  
ثم استأنف الرسول رحلته المباركة في غرة ربيع الأول، وأخذ  
دليلهما طريقاً غير طريق القوافل المعروف، لئلا يستدل عليهما أحد.  
وكانت الرحلة شاقة واكتنفها كثير من المخاطر، من ذلك أن «سُرَاقَة  
بن مالك الجشمي» علم أن النبي - صلى الله عليه وسلم - و «أبا بكر»  
سلكا ذلك الطريق، فأراد اللحاق بهما، والقبض عليهما ليفوز  
بالجائزة، فلما اقترب منهما غاصت أقدام حصانه في الرمال، وعجز  
عن النهوض، فدهش «سُرَاقَة»، فلم يعهد من حصانه هذا من قبل،  
وحاول أكثر من مرة اللحاق بهما، ولكن تكرر فشله، والنبي - صلى  
الله عليه وسلم - ينظر إليه في إشفاق، و «سُرَاقَة» يظن أن النبي  
منتقم منه لا محالة، فتوسل إليه أن يعفو عنه، وعاهده على ألا يدل  
عليه أحداً، فعفا عنه النبي - صلى الله عليه وسلم - .  
وكان أهل «يثرب» منذ أن علموا بقرب مقدم النبي - صلى الله عليه  
وسلم - إليهم ينتظرونه بحب وشوق ولهفة إلى رؤيته، وكانوا كل يوم  
يخرجون إلى مشارف المدينة، يلتمسون وصوله، فما إن وقعت عليه  
عيونهم حتى كادوا يطيرون من الفرح، وهتفوا مرحبين منشدين:  
طلع البدر علينا من ثنيات الوداع وجب الشكر علينا مادعا لله داع أيها  
المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع جئت شرفت المدينة مرحباً يا خير داع.  
وكان وصوله - صلى الله عليه وسلم - إلى «يثرب»، التي أصبحت  
عندئذ تسمى «مدينة الرسول»، أو «المدينة المنورة» يوم الجمعة  
الموافق الثاني عشر من شهر ربيع الأول؛ لأنه قضى أربعة أيام في  
«قُبَاء» (3) قبل دخوله «يثرب»، فقد وصلها يوم الاثنين الثامن من  
شهر ربيع الأول، وبقي فيها إلى يوم الجمعة، حيث صَلَّى الجمعة في  
«المدينة»، وصلى خلفه المهاجرون والأنصار في مشهد عظيم.  
وحادث الهجرة هو أعظم حدث في التاريخ الإسلامي، لذلك اتخذ

الخليفة «عمر بن الخطاب» -رضى الله عنه - مبدأ للتاريخ الإسلامى؛ لأن الهجرة هي التي فتحت أمام الإسلام ذلك العالم الرحيب، ومكنت النبي - صلى الله عليه وسلم - من بناء دولته وتكوين جيشه الذي سيدافع عن دعوته، وأتاحت له أن يعلم أصحابه أصول دينهم وعلوم السياسة والحرب والسلام، والإدارة والقيادة، وهبأهم ليقودوا الدنيا كلها إلى الخير والعدل والحق، وينشروا فيها الحرية والعزة والكرامة لكل الناس.

(31/1)

## الفصل الرابع

\*المسلمون في المدينة

بناء الدولة الإسلامية:

أصبحت «المدينة» منذ أن وصل النبي - صلى الله عليه وسلم - إليها منزل الوحي، ومعقل الإسلام، ومركز إشعاعه الذي أضاء العالم، وشرع النبي فور وصوله في بناء مسجده الذي شارك في بنائه بنفسه مع أصحابه، وكان بناؤه متواضعاً؛ حيث بُني من الطين أو الطوب اللبن، وكان سقفه من جريد النخل، وأعمدته من جذوعه، وفرشه الحصى، كما كان مربع الشكل، طول ضلعه نحو مائة ذراع. وهذا المسجد المتواضع البناء كان ذا شأن عظيم في تاريخ الإسلام، فلم تقتصر وظيفته على أداء الصلوات فيه، بل كان مدرسة تخرّج فيها الرعييل الأول من المسلمين، حملة لواء الإسلام ودعائه، مكاناً تُعقد فيه الجلسات لمناقشة الأمور العامة التي تتصل بحياة المسلمين ودينهم ودولتهم. وفيه استقبل الرسول - صلى الله عليه وسلم - وفود القبائل وسفراء الملوك والأمراء. الإخاء بين المهاجرين والأنصار:

وهو الأساس الثاني الذي أقام الرسول - صلى الله عليه وسلم - عليه دولته، ذلك أن «المدينة» فتحت صدرها الرحيب للمهاجرين، واستقبلهم الأنصار بحفاوة لا نظير لها في التاريخ، فما نزل مهاجر على أنصاري إلا بقرعة، لتنافس الأنصار وتزاحمهم على استضافة المهاجرين، فأخى الرسول - صلى الله عليه وسلم - بين الفريقين إخاءً ربط بين قلوبهم جميعاً، فأصبحت عروة الإيمان فوق كل أسباب الصلات البشرية، وأصبح النسب الإسلامي مقدماً على سائر الأنساب. معاهدة المدينة:

كانت الوثيقة الخالدة التي كتبها الرسول - صلى الله عليه وسلم - مع اليهود الأساس الثالث لدولة الرسول في «المدينة»، فبعد أن اطمأن على قوة جبهة المسلمين وسلامتهم، التفت إلى «المدينة»، فوضع لها نظاماً عاماً ثابتاً يحدد العلاقات والحقوق والواجبات بين سكانها جميعاً؛ مسلمين وغير مسلمين، فاليهود يقيمون في «المدينة» منذ زمن طويل، وكانوا من قبل يقتسمون الزعامة مع الأوس والخزرج،

(32/1)

وهؤلاء آمنوا بالله ورسوله، على حين بقى اليهود على دينهم ولم يؤمنوا، ولم يجبرهم الرسول على اعتناق الإسلام؛ إذ لا إكراه في الدين، ومن ثم كان لابد من تحديد وضعهم في الدولة الجديدة بنصوص صريحة، يُرجع إليها عند الضرورة. ونص المعاهدة، كما رواها «ابن إسحاق»:

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من محمد النبي - صلى الله عليه وسلم - بين المؤمنين والمسلمين، من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس» وهذا إعلان صريح للأساس العقدي للدولة الجديدة، وباب الانتساب إليها هو الإيمان بالله ورسوله، وعلى هذا الأساس تمارس الدولة سياستها

وسلطتها العليا في الداخل والخارج. وجاء في المعاهدة؛ وهو في غاية الأهمية:

«وأنه من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة غير مظلومين، ولا متناصر عليهم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين، ماداموا محاربين، وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، .. وأن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف، ..». وأخذت الوثيقة تعدد سائر المجموعات اليهودية في «المدينة»، ثم أضافت شيئاً مهماً آخر، حيث نصت: «وأنه لا يخرج أحد منهم - من «المدينة» - إلا بإذن محمد».

وهذا ليس تقييداً لحريتهم، وإنما هو إجراء وقائي اقتضته ظروف الدولة الناشئة؛ خوفاً من عمليات التجسس، ونقل أخبار الدولة إلى أعدائها، وبخاصة أنها تعتبر في حالة حرب مع «قريش»، التي أجبرت المسلمين على ترك أوطانهم وديارهم وأموالهم. وهذه المعاهدة كانت مهمة وأساسية في إعلان ميلاد دولة المسلمين بقيادة النبي - صلى الله عليه وسلم -، باعتراف جميع أطرافها بهذه القيادة، كما يفهم من عبارة النص الآتي: «وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى «محمد» رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره».

(33/1)

---

وعلى هذه الأسس الثلاثة السابقة قامت الدول الإسلامية في «المدينة»، وكان في قيامها فتح جديد في الحياة السياسية؛ إذ قررت حرية الاعتقاد والرأي، وحرمة «المدينة»، وحرمة الحياة، وحرمة المال، وحددت أعداء الدولة في صراحة ووضوح، فمنعت إجارة «قريش» ومن نصرها.

حكومة الرسول:

كان النبي - صلى الله عليه وسلم - أول رئيس للدولة الإسلامية، كما نصت على ذلك المعاهدة، وقد قام النبي - صلى الله عليه وسلم - بهذه المهمة طوال حياته، فهو الذى يقضى فى الحقوق المدنية والجنائية كافة، وينفذ القضاء، ويقيم الحدود، ويجبى الأموال من مواضعها الشرعية، ويوزعها فى مصارفها الشرعية، ويعلن الحرب، ويعقد معاهدات الصلح، ويخاطب رؤساء الدول، ويستقبل سفراءهم، ويولى الولاية على الأماكن البعيدة عن «المدينة».

وهو فى ذلك كله مؤيد من الله - تعالى - فإذا نزلت الحادثة بالأمة، ولم يكن نزل فى شأنها وحى من الله، اجتهد النبي رأيه وشاور أصحابه من أهل العلم والرأى، وكانوا تارة يجمعون على رأى فيعمل به، وتارة يختلفون فيعمل برأى بعضهم، ويترك رأى البعض الآخر، مجتهداً فى ترجيح رأى على رأى.

ولما كانت أعباء الدولة كثيرة، وفى الوقت نفسه يقوم بمهمة تبليغ الرسالة، وهى مهمة ثقيلة، فقد احتاج إلى معاونة أصحابه فى إدارة الدولة، ومنهم تشكَّلت حكومته واختص بعضهم بملازمته، مثل «أبى بكر الصديق»، و «عمر بن الخطاب»، فأطلق عليهم «وزراء الرسول»، وكان له «صاحب سر»، أشبه ما يكون بالسكرتير الخاص، إن صح هذا التعبير، هو «حذيفة بن اليمان»، و «صاحب شرطة» هو «قيس بن سعد بن عبادة».

وكان له عدد من الحراس، منهم: «سعد بن زيد الأنصارى»، و «الزبير بن العوام».

وكان له عدد من الحجاب الذين يستأذنون للناس فى الدخول عليه، منهم: «أنس بن مالك».

وكان له خاتم ختم الرسائل والمعاهدات، يحمله اثنان هما: «حنظلة بن الربيع بن صيفى»، و «الحارث بن عوف المرمى».

---

واختص بعض الصحابة باستقبال الوفود التي تأتي لمقابلة الرسول - صلى الله عليه وسلم -، فيعلمونهم كيف يجيونه، وينزلونهم في بيت الضيافة الذي كان من السعة بحيث اتسع لبني قريظة، وكانوا زهاء ستمائة رجل أثناء انتظارهم للمحاكمة بعد خيانتهم في غزوة «الأحزاب».

وكان للرسول عدد من الكتاب تجاوز الأربعين كاتبًا، منهم «أبو بكر الصديق»، و «عمر بن الخطاب»، و «عثمان بن عفان»، و «علي بن أبي طالب»، و «الزبير بن العوام» و «خالد» و «أبان» ابنا «سعيد بن العاص»، وغيرهم، واختص هؤلاء بكتابة الوحي، وبعضهم الآخر بالكتابة في الشؤون العامة للدولة.

وكان له عدد كبير من السفراء، يرسلهم في مهام إلى الملوك والرؤساء وزعماء القبائل، وحرص الرسول على تعليم بعضهم اللغات الأجنبية، إذ كانت تأتيه مراسلات بتلك اللغات، ومن هؤلاء «زيد بن ثابت الأنصاري»، وكان يجيد الفارسية والعبرية، وبعضهم كان يعرف إلى جانب لغته العربية خمس لغات هي الفارسية والعبرية واليونانية والسريانية والحبشية.

وامتلك النبي - صلى الله عليه وسلم - جهازًا إعلاميًا قوامه الشعراء، مثل: «حسان بن ثابت»، و «عبدالله بن رواحة»، و «كعب بن مالك»، وكانوا يردون على شعراء المشركين حين كانوا يهاجمون النبي - صلى الله عليه وسلم - ويهجونه.

وللنبي - صلى الله عليه وسلم - جهاز دقيق لجمع المعلومات عن الأعداء، وهو ما يقابل الآن جهاز المخابرات في الدول الحديثة، وكان جهازًا فعالًا، ومن رجاله: «بَسْبَسَة بن عمرو الجهنّي»، و «طلحة بن عُبيد الله»، و «سعيد بن زيد»، و «عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي». مشروعية القتال في الإسلام:

تقطع آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي - صلى الله عليه وسلم -،

وتصرفاته العملية بأن السلام هو الأصل والقاعدة الأساسية في علاقات المسلمين بغيرهم من الأمم، وأن الحرب هي الاستثناء، فالحرب في الإسلام ليست غاية، وإنما هي وسيلة لتحقيق السلام،

(35/1)

فإذا مال أعداء المسلمين إلى السلم وعزفوا عن الحرب، فعلى المسلمين أن يستجيبوا لهم فوراً؛ لقوله تعالى: {فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً}. [النساء: من 90].

وقال تعالى: {وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله}. [الأنفال: من 61].

وتنحصر مسوغات الحرب في الإسلام أو أسبابها المشروعة في ثلاث حالات هي:

– الدفاع عن النفس:

وهو عمل مشروع، أقرته الشرائع السماوية كافة، وكفلته القوانين الوضعية، وحددته الآية السابق ذكرها: {وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين}. [البقرة: 190].

– والدفاع عن حرية نشر العقيدة:

لأن العقيدة ذاتها لا تحتاج إلى قوة لنشرها إذا خلت الطريق أمامها من العوائق، ولم يحاربها الطغاة، وتركوها تشق طريقها إلى قلوب الناس في حرية وأمان وفي هذا يقول الله تعالى:

{وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله}. [الأنفال: من 39].

– الدفاع عن المظلومين:

وهذا واجب إنساني على المسلمين، فمن أهداف الإسلام نصره المظلومين ودفع الظلم عنهم، يقول الله تعالى: {وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين

يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها}. [النساء: من 75].  
ولم يأذن الله - تعالى - للمسلمين في القتال، إلا بعد أن تعرضوا  
للظلم، وتحملوا شتى ألوان الاضطهاد والتعذيب، وطُردوا من بلدتهم،  
وأخرجوا من ديارهم، وصودرت أموالهم وعندئذ كان لابد من الدفاع،  
وجاء الإذن به من السماء في قوله تعالى: {أذن للذين يقاتلون بأنهم  
ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق  
إلا أن يقولوا ربنا الله ..}. [الحج: 39 - 40].

آداب الحرب في الإسلام:

هي مجموعة القواعد والمبادئ والتقاليد العسكرية، التي أرساها  
الإسلام، وطبقها النبي - صلى الله عليه وسلم - بنفسه، وكانت تعليماته

(36/1)

ووصاياه لقواده العسكريين، تدور في نطاقها.

فيحتم الإسلام على المسلمين الاعتناء بجرحى أعدائهم ومداواتهم  
وإطعامهم (4)، ويحرم الإجهاز عليهم أو إيذاؤهم بأى شكل من  
أشكال الإيذاء.

كما يفرض على المسلمين تجنب المدينيين شرور الحرب وأخطارها،  
فالأطفال وكبار السن، والنساء والمرضى، بل الفلاحون في حرثهم  
والرهبان في معابدهم، كل أولئك معصومون بحصانة الشريعة من  
أخطار الحرب.

والإسلام لا يحرص على سلامة أرواح غير المقاتلين من الأعداء  
فحسب، بل يوصى المسلمين المقاتلين بعدم التعرض للأهداف المدنية،  
وينهاهم عن التدمير؛ لأن الإسلام إنما جاء ليبني الحياة ويعمرها، لا  
ليدمرها ويهدمها.

وكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - نفسه المثل الأعلى في الالتزام  
ب هذه المبادئ والآداب في ميادين القتال، فروى «أبو ثعلبة

الخشنى» رضى الله عنه:

«إن ناسًا من اليهود يوم خبير جاءوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد تمام العهد، فقالوا: إن حظائر لنا وقع فيها أصحابك، فأخذوا منها بقلًا وثومًا، فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «عبد الرحمن بن عوف» - رضى الله عنه - فنادى فى الناس: إن رسول الله يقول لكم: لا أحل لكم شيئًا من أموال المعاهدين إلا بحق». غزوات الرسول - صلى الله عليه وسلم -:

لم يكن أمام النبى - صلى الله عليه وسلم - بد من اللجوء إلى القوة العسكرية إزاء الغطوسة القرشية واضطهاد المسلمين، وإخراجهم من ديارهم قسرًا، وملاحقتهم بالأذى وهم فى مهاجرهم فى «المدينة»، بالإضافة إلى مؤامرات اليهود وغدرهم وخياناتهم.

من أجل ذلك كله أعد الرسول - صلى الله عليه وسلم - جيشًا قويا من المجاهدين فى سبيل الله، وقاد بنفسه سبعا وعشرين غزوة، قاتل فى تسع منها، هى: «بدر»، و «أحد»، و «الأحزاب»، و «بنو قريظة»، و «بنو المصطلق»، و «خير»، و «فتح مكة»، و «حنين»، و «الطائف»، وأناب بعض أصحابه فى قيادة سبع وأربعين حملة عسكرية.

(37/1)

---

وعلى الرغم من هذا العدد الكبير من الغزوات والحمالات فإن عدد الضحايا فيها كلها من الفريقين كان قليلا جدا، لا يتجاوز أربعمائة قتيل، وكان شهداء المسلمين فى تلك المعارك نحو مائتى شهيد، منهم سبعون قتلوا غدرًا فى «بئر معونة»، فى حين لم يتجاوز قتلى المشركين المائتين أيضًا، وهذا يدل على حرص النبى - صلى الله عليه وسلم - على حقن الدماء، وصيانة الأرواح، وحصر الحرب فى أضيق نطاق ممكن.

وستتناول بالدراسة أهم الغزوات ذات الأثر الكبير والحاسم فى تاريخ

الإسلام، وهى:

## 1 - غزوة بدر الكبرى:

وقعت هذه الغزوة الخالدة فى السابع عشر من شهر رمضان المبارك من السنة الثانية من الهجرة عند بئر بين «مكة» و «المدينة»، وقد سمى الله - تعالى - يومها «يوم الفرقان»؛ لأنه فرّق بين الحق والباطل، وأعلى كلمة الإسلام.

وسببها أن قافلة تجارية لقريش، كانت قادمة من «الشام» إلى «مكة»، فأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - أصحابه بالتعرض لها والاستيلاء عليها؛ تعويضاً لهم عن أموالهم التى استولت «قريش» عليها فى «مكة»، وهذا حق وعدل، ولم يكن فى وسع الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يترك «قريشاً» حرة طليقة، تجوب الطرق، وتتجر وتربح، وتعيش آمنة مطمئنة، وهى التى آذته وعذبت أصحابه، وتآمرت على حياته، وأرادت قتله، فلا بد من التضيق عليها، وتهديدها فى تجارتها التى هى رزقها ومصدر قوتها؛ لتراجع نفسها، وتقتنع بأن مواصلة العداة معه ليس فى مصلحتها، ولم يقصد الرسول - صلى الله عليه وسلم - بهذا التصرف إهلاك «قريش» وتدميرها، لأنه جاء لإحيائهم وإسعادهم.

وعندما وصل النبي - صلى الله عليه وسلم - بجيشه إلى المكان الذى دارت فيه المعركة علم أن القافلة أفلتت ونجت، بعد أن نجح قائدها «أبو سفيان بن حرب» فى اتخاذ طريق الساحل بعيداً عن طريق القوافل المعتاد، حين علم بخروج المسلمين للاستيلاء عليها، وكان قبل أن يفلت بقافلته قد أرسل سريعاً إلى «قريش» يستنفرها

(38/1)

---

للخروج لاستنقاذ أموالها التى توشك أن تقع فى أيدي المسلمين فخرجت فى نحو ألف رجل للقتال، وأصرروا على ذلك حتى بعد أن

علموا بنجاة قافلة «أبي سفيان»، وقد حاول بعض زعماء «مكة» مثل «عتبة بن ربيعة» أن يقنعوهم بالرجوع وعدم المضى قدماً في الحرب، وبخاصة أن المسلمين الذين سيقاتلونهم هم أهلهم ففيهم الآباء والأبناء والأعمام والأخوال والإخوة، لكن تلك الدعوة فشلت أمام إصرار أئمة الكفر - وعلى رأسهم «أبو جهل» - على إشعال نار الحرب، حيث أراد هو وأمثاله أن يجعل من خروجهم مظاهرة عسكرية؛ فأقسم على الذهاب إلى «بدر»، ونحر الجزور، وشرب الخمر، والاستمتاع بالرقص والغناء؛ لتسمع بهم العرب، فيهابوهم أبد الدهر.

المواجهة العسكرية:

عندما علم المسلمون بإفلات القافلة، رأى بعضهم العودة إلى «المدينة»، لأن كثيراً ممن خرجوا لم يكن في حسابهم أنهم خرجوا لقتال وأن حرباً ستقع، وإنما خرجوا للاستيلاء على القافلة، فكروا القتال.

لكن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يعلم أن الرجوع إلى «المدينة» ستفسره «قريش» على أنه جبن وضعف عن لقائها ومواجهتها، وسوف تذيب ذلك في أوسع نطاق ممكن من شبه الجزيرة العربية، وفي هذا ضرر بالغ بالدولة الإسلامية ودعوتها، فنصرف الرسول - صلى الله عليه وسلم - بحكمة بالغة وبعد نظر، واستشار كبار أصحابه فيما يصنعون، فتحدث «أبو بكر الصديق» و «عمر بن الخطاب» وغيرهما فأحسنوا الكلام، وأبدوا استعداداً للتضحية والجهاد في سبيل الله.

سمع الرسول - صلى الله عليه وسلم - كلامهم فسعد به وسرَّ، لكنه لا يزال في حاجة إلى معرفة رأى الأنصار في وضوح وجلاء، لأن بيعتهم معه كانت تنص على الدفاع عنه داخل «المدينة» لا خارجها، فلما كرَّر قوله: «أشيروا عليَّ أيها الناس»، قال له: «سعد بن معاذ» وغيره من زعماء الأنصار: «لعلك تقصدنا يا رسول الله»، قال: «نعم». قالوا: «يا رسول الله، آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو

الحق، وأعطيناك على ذلك عهدنا وموثيقنا على السمع والطاعة، فامض بنا يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذى بعثك بالحق، لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر على بركة الله». اطمأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لموقف أصحابه وسلامة جبهتهم، وقوة ترابطهم، وبدأ يُعدُّ للمعركة الأولى في تاريخ الإسلام، وأعدَّ له المسلمون عريشاً (مقر قيادة) يدير منه المعركة. وعرف الرسول - صلى الله عليه وسلم - عدد أعدائه وقوتهم من عيونه ومخبراته العسكرية فكانوا نحو ألف رجل مدججين بالسلاح، فيهم عدد كبير من الفرسان، في حين كان عدد المسلمين نحو ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فيهم فارسان فقط.

وبدأت المعركة صبيحة اليوم السابع عشر من شهر رمضان سنة (2هـ) بالمبارزة، حيث خرج ثلاثة من صفوف المشركين، هم «عتبة بن ربيعة»، و «شيبه بن ربيعة»، و «الوليد بن عتبة»، يطلبون المبارزة، فأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - عمه «حمزة»، وابني عمه «على بن أبي طالب»، و «عبدة بن الحارث» بالخروج إليهم، وهذا تصرف له مغزاه من القائد الأعلى «محمد» رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، حيث بدأ المعركة بأقرب الناس إليه، فضرب المثل في التضحية والفداء لدين الله، واستطاع الثلاثة المسلمون القضاء على الثلاثة المشركين من أعدائهم، وتركوهم صرعى في ميدان المعركة، ثم احتدمت الحرب، وتلاحم الناس، وحمل الوطيس، والرسول في عريشه يدعو الله سبحانه وتعالى ويستنزل نصره الذى وعده به، فيقول: «اللهم نصرك الذى وعدتني، اللهم إن تملك هذه العصاة من المسلمين فلن تُعبد على وجه الأرض، يامولاي»، واستجاب الله لدعاء نبيه،

وانجلت المعركة عن نصر ساحق للمسلمين، وهزيمة ماحقة للمشركين الذين قُتِلَ منهم سبعون، وأُسِرَ مثلهم، وفر الباقون، وامتألت أيدي

(40/1)

المسلمين من غنائمهم التي تركوها، واستشهد من المسلمين أربعة عشر شهيداً، وتحقق وعد الله، فنصر القلة القليلة المؤمنة، على الكثرة المشركة المتعطسة.  
الغنائم والأسرى:

بينما كان حزن «قريش» طاغياً على هزيمتها ورجالها الذين فقدتهم في المعركة بين قتيل وأسير، كانت فرحة المسلمين عظيمة لهذا النصر المؤزر، وعادوا إلى مدينتهم يتقدمهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، يحملون الغنائم، ويسوقون الأسرى المقيدون بالأغلال، ومع ذلك فقد أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المسلمين أن يحسنوا معاملة الأسرى وإطعامهم.

أما الغنائم فقد أنزل الله على رسوله حكم التصرف فيها في سورة «الأنفال»، التي نزلت بشأن هذه المعركة، ففرض عز وجل بأن تقسم الغنائم خمسة أقسام، خمس للرسول، يتصرف فيه كيف يشاء في الأمور التي حددتها الآية الكريمة، في حين توزع الأربعة الأخماس على المجاهدين، للراجل سهم، وللفارس سهمان.

أما الأسرى، فقد استشار النبي - صلى الله عليه وسلم - فيهم أصحابه، فمنهم من أشار بقتلهم؛ لأنهم عذبوا المسلمين وطردهم من ديارهم وعلى رأس هذا الفريق «عمر بن الخطاب»، ومنهم من قال: يارسول الله هم أهلك وعشيرتك، فاستبقهم وخذ منهم فداء، تتقوى به على قتال أعدائنا. وكان على رأس هذا الفريق «أبو بكر الصديق»، فمال النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى الرأي الأخير، وقبل منهم الفداء، وكان كريماً معهم، فقد أطلق سراح الفقراء منهم بدون

مال، وطلب ممن يعرف القراءة والكتابة منهم أن يعلم عشرة من أطفال المسلمين، ويكون هذا فداءً له، وهذا تصرف رائع من الرسول - صلى الله عليه وسلم - له دلالة عظيمة على عناية الإسلام بالتعليم، فهذه أول حادثة من نوعها في تاريخ البشرية، فلم يُعرف أن فاتحًا منتصرًا قبله صنع مثل هذا الصنيع.

عوامل النصر في بدر:

أما عن أهم العوامل التي أدت إلى هذا النصر في أول معركة كبرى بين المسلمين والمشركين، فهي:

- القيادة:

(41/1)

كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - نعم القائد، فقد استعد جيدًا للمعركة، وأدارها بكفاءة عالية في ظل الإمكانيات المتاحة، وجعل أصحابه يبذلون طاقتهم كلها في الدفاع عن دين الله، فكان يستشيرهم في كل أمر ويتقبل آراءهم واقتراحاتهم، ولا يتميز عنهم في أى شيء، حتى إنه تناوب الركوب على بعير واحد مع «علي بن أبي طالب»، و «مرثد بن أبي مرثد الغنوى».

وكان هذه الأسوة الحسنة من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أثمرها الكبير في نفوس أصحابه، حبًا لله ولرسوله لا ينازعه شيء، واطاعة للأمر مهما يعظم، وسرعة في تنفيذه، ودفاعًا عن دين الله ودعوة رسوله بكل ما يملكون.

- العقيدة الراسخة:

كان للإيمان والثقة بنصر الله أثر بالغ في النصر، فلم يتهيبوا الحرب أبدًا، مع أنهم كانوا يعلمون أن قوة عدد المشركين ثلاثة أمثال قوتهم.

- المعنويات العالية:

تمتع المجاهدون المسلمون في «بدر» بمعنويات استمدوها من الإيمان بالله، والثقة بنصره، ومن عظمة القائد وحكمته في إدارة المعركة، ولا شك أن المعنويات العالية تُعدُّ من أهم عوامل النصر في كل الحروب، فقد دلت التجارب أن قوة التسليح، وكثرة العدد لا تجديان ما لم يتحل المقاتلون بمعنويات عالية.

2 - غزوة أحد:

وقعت هذه الغزوة في شهر شوال من العام الثالث للهجرة عند جبل «أحد»؛ شمالي «المدينة المنورة»، فقد جندت «قريش» ثلاثة آلاف من رجالها وحلفائها للانتقام من المسلمين، والثأر لهزيمتها الساحقة في «بدر» التي جلبت في كل بيت من بيوت «مكة» مآثمًا.

وعندما وصلت أخبار ذلك إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؛ جمع أصحابه على الفور، واستشارهم في أفضل طريقة لمواجهة هذا الموقف، فأشار عليه شيوخ «المدينة» أن يتحصنوا داخلها، ويتركوا الأعداء خارجها لأن شوارع «المدينة» ضيقة، ويمكن إغلاقها عليهم، وقناهم فيها بكل طريقة ممكنة حتى بالحجارة، ويمكن أن يشترك النساء والأطفال في مقاومتهم، وكان هذا رأى الكبار ورأى النبي

(42/1)

---

- صلى الله عليه وسلم - . أما الشباب فقد أخذهم الحماس، وخشوا أن يتهمهم الأعداء بالجن؛ ففضلوا الخروج لمواجهةهم في مكان مكشوف.

ولما رأى الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن الرأى الأخير هو رأى الأغلبية قام إلى بيته ولبس درعه وحمل سلاحه وخرج إليهم، فأدركوا أنهم أخرجوه مكرهًا، فقالوا له: يارسول الله، لقد استكرهناك وما كان لنا ذلك، فافعل ما شئت، فقال - صلى الله عليه وسلم - : «ما كان لنبي لبس لأمته - عدة حربه - أن ينزعها حتى يحكم الله بينه وبين

أعدائه».

وخرج النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى ساحة «أحد»، وجعل ظهر جيشه إلى الجبل، والأعداء أمامه، ونظر إلى ميدان المعركة نظرة فاحصة، وعرف أن الخطر يكمن خلف ظهر الجيش، فأعد خمسين رجلاً ممن يُحْسِنون الرمي بالنبل، وأمر عليهم «عبدالله بن جبير الأنصاري»، وكلفهم بالصعود إلى قمة عالية خلف ظهورهم، سُميت بعد ذلك بجبل الرماة، وقال لهم في حسم: «احموا ظهورنا، لأنوثى من قبلكم»، وأمرهم برمي المشركين بالنبال، وألا يتركوا مواقعهم أبداً سواء انتصر المسلمون أو انهزموا، لخطورة الموقع وأهميته، وكرر عليهم أوامره مراراً.

ودارت المعركة، وكانت الغلبة للمسلمين في البداية، لكنهم تعجلوا النصر ولم يصبروا، وظنوا أن المعركة انتهت، فالذين في الميدان تركوا القتال وبدءوا في جمع الغنائم، والذين فوق الجبل خالفوا أوامر النبي - صلى الله عليه وسلم - وأوامر قائدهم «عبدالله بن جبير»، وتركوا مواقعهم، ليشتروا في جمع الغنائم. انتهز «خالد بن الوليد» هذه الفرصة، وانقض بفرسانه من الخلف، مستغلاً الثغرة التي حدثت بترك الرماة مواقعهم، فحول بحركته العسكرية سير المعركة من نصر للمسلمين في أولها إلى هزيمة، وارتبك المسلمون من هول المفاجأة، حتى إن بعضهم أخذ يقتل بعضاً، وزاد ارتباكهم عندما أشاع المشركون أنهم قتلوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذي كان قد سقط في حفرة، وجرح وكسرت

(43/1)

---

رباعيته، وانجلت المعركة عن هزيمة للمسلمين، وسقوط واحد وسبعين شهيداً، وكان ذلك درساً قاسياً، أنزل الله بشأنه أكثر من ستين آية في سورة «آل عمران»، وضح لهم أسباب ما حدث، وأن

الهزيمة إنما كانت لمخالفة أوامر الرسول، والحرص على جمع الغنائم، قال تعالى: {ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين}. [آل عمران: 152]. ثم واساهم وعفا عنهم، وذكرهم بأنهم إن كانوا قد أصابهم قرح وخسروا معركة، فقد أصاب أعداءهم قرح مثله {وتلك الأيام نداؤها بين الناس}، ثم طلب من نبيه أن يعفو عنهم ويستغفر لهم، وألا يدع مشورتهم، حتى لو أدت إلى الهزيمة في معركة، فخسارة المعركة أسهل من خسارة مبدأ الشورى الذى يربى الرجال ويديرهم على إبداء رأى والمشاركة فى صنع القرار.

### 3 - غزوة الأحزاب:

أظهر يهود «بنى قينقاع» بعد غزوة «بدر» تصرفات بالغة السوء، وأظهروا حزناً شديداً على هزيمة «قريش»، وساءهم انتصار المسلمين، وكان ذلك خيانة ونقضاً للمعاهدة التى وقعها الرسول معهم، كما أنهم أرسلوا وفدًا إلى «مكة» لمواساتها، وهذا يخالف ما اتفق عليه فى معاهدة «المدينة» التى نصت فى أحد بنودها على عدم إقامة أية علاقات مع «مكة»، ثم أساءوا إلى المسلمين وانتهكوا حرمتهم، كما أغلظوا القول لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين نصحهم بالاستقامة والالتزام بنصوص المعاهدة، وقالوا: «يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب - يقصدون «قريشًا» - فلو حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس»، ولم يجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - بدا إزاء تصرفاتهم هذه إلا أن يجلوهم عن «المدينة» ويتخلص من غدرهم وأذاهم، ثم أجلى الرسول بعد غزوة أحد يهود «بنى النضير» بعد أن دبروا مؤامرة لقتله، فحقد اليهود

عليه، وألبوا «قريشاً» وحلفاءها لشن حرب شاملة ضد المسلمين،  
وذهب وفد منهم لهذه المهمة بزعامة «حبي بن أخطب» إلى  
«مكة»، ووعدوهم بمساعدتهم، وقالوا لهم إنهم اتفقوا مع يهود «بني  
قريظة» - الذين كانوا لا يزالون يسكنون «المدينة» - على الانضمام  
إليهم عندما يهاجمون المسلمين فاقتتعت «قريش» بذلك، ثم ذهبوا  
إلى قبائل «غطفان» و «بني أسد»، وصنعوا معهم مثلما صنعوا مع  
«قريش»، ونجحت خطتهم الخبيثة بأن تجمع جيش من عشرة آلاف  
مقاتل، من «قريش» وحلفائها، و «غطفان» و «بني أسد» لمهاجمة  
«المدينة»، وكان ذلك في شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة.  
حفر الخندق:

علم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بهذه الأخبار المفزعة، فجمع كبار  
الصحابة واستشارهم كيف يواجهون هذا الموقف، فأشاروا عليه  
بالتحصن داخل «المدينة»؛ لأنهم استفادوا من درس «أحد»، وأخذوا  
يعدون العدة لتحمل حصار طويل من الأعداء. وهنا جاءت فكرة رائعة  
من «سلمان الفارسي» - رضى الله عنه - وهي حفر خندق في الجهة  
الشمالية الغربية من «المدينة»؛ لمنع اقتحام جيوش الأحزاب لها، لأن  
بقية جهاتها الأخرى كانت محصنة بغابات من النخيل، يصعب على  
الخيول اقتحامها.

وتم حفر الخندق في نحو أسبوع، وعمل النبي - صلى الله عليه وسلم -  
بنفسه مع المسلمين في حفره، وبشرهم وهم في هذا الموقف  
العصيب بفتح «الشام» و «العراق» و «اليمن».

جاءت قوات الأحزاب وهي واثقة لا بالنصر على المسلمين فحسب، بل  
باستتصاهم، لكن المفاجأة أذهلتهم عندما رأوا الخندق يحول بينهم  
وبين اقتحام المدينة، وظلوا أمامه عاجزين، تأكل قلوبهم الحسرة،  
لأنهم لم يتعودوا مثل هذا الأسلوب في القتال، ولما حاول واحد منهم  
اقتحام الخندق لقي حتفه في الحال.

وعلى الرغم من أن الخندق قد حمى المسلمين من هجوم المشركين،

فإن الكرب قد اشتد عليهم، وضاقوا بطول الحصار، وكانوا في موقف عصيب بالغ الصعوبة، وصفه الله - تعالى - أدق وصف بقوله: {إذ

(45/1)

جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً}. [الأحزاب: 10 - 11].

اجتهد النبي - صلى الله عليه وسلم - في تفريج الكرب عن المسلمين، فاتصل بقبائل «غطفان» وعرض عليها ثلث ثمار «المدينة» على أن يعودوا إلى ديارهم ويتخلوا عن «قريش» فوافقوا، وعرض الرسول - صلى الله عليه وسلم - هذا الأمر على الأنصار، فسألوه إن كان هذا أمراً من الله فليس لهم أن يخالفوه، أما إذا كان اجتهاداً من أجلهم فلن يوافقوا عليه، فأعلمهم أنه اجتهاد منه لمصلحتهم ولتفريق الأحزاب عنهم، فأبوا وعزموا على مواصلة الجهاد والدفاع عن بلدهم، فأوقف النبي - صلى الله عليه وسلم - المفاوضات مع «غطفان» نزولاً على رأى أصحابه.

ثم لاحت فرصة عظيمة عندما عرض «نعيم بن مسعود» - وكان قد أسلم وقدم مع الأحزاب دون أن يعلموا - أن يقوم بدور في التخفيف عن المسلمين؛ فأمره الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يفرق بينهم وبين «بنى قريظة»، الذين نقضوا عهدهم مع النبي - صلى الله عليه وسلم - واتفقوا مع الأحزاب على الانضمام إليهم حين تبدأ الحرب. وقد نجح «نعيم» في مسعاه نجاحاً عظيماً، وزرع الشكوك في قلوب الأحزاب و «بنى قريظة» تجاه بعضهم بعضاً، ثم أرسل الله ريحاً شديدة قلعت خيام المشركين، وكفأت قدورهم، وانقلب الموقف كله بفضل الله - تعالى - عليهم، وأدرك «أبو سفيان بن حرب» قائد الأحزاب ألا فائدة من البقاء، فأمرهم بالرحيل فرحلوا، وقد علق

الرسول - صلى الله عليه وسلم - على هذا الموقف بقوله: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا». أى أن قريشًا لن تستطيع مهاجمة «المدينة» مرة أخرى؛ لأن ميزان القوى أصبح يميل مع المسلمين.  
عقاب بنى قريظة:

لما انسحبت الأحزاب، ونزع المسلمون لباس الحرب جاء «جبريل» - عليه السلام - إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وقال: «يا محمد

(46/1)

إن كنتم قد وضعت سلاحكم، فما وضعت الملائكة سلاحها، إن الله يأمرك أن تخرج إلى «بنى قريظة»، فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منادياً ينادى في الناس:

«لا يصلين أحدكم العصر إلا في بنى قريظة»، وحاصرهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بضعة وعشرين يوماً، حتى نزلوا على حكمه، وطلبوا أن يحكم فيهم «سعد بن معاذ» حليفهم، فحكم بقتل الرجال منهم؛ جزاء غدرهم وخيانتهم، وانضمامهم إلى الأعداء وقت الحرب، فلو نجحت خطة الأحزاب لُقِضَى على الإسلام والمسلمين قضاءً مبرماً. وحين قضى «سعد» بهذا الحكم، قال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «لقد حكمت فيهم بحكم الله».

4 - عمرة الحديبية:

قرر النبي - صلى الله عليه وسلم -، بعد هذه الحروب التي وقعت بينه وبين «قريش» أن يذهب هو وأصحابه إلى «مكة» لأداء العمرة في شهر ذي القعدة من العام السادس للهجرة، لكن «قريشاً» رفضت رفضاً حاسماً فيه غرور وغطرسة، مع علمها بأن الرسول إنما جاء «مكة» معتمراً مسالماً غير محارب، وليس من حقها أن تمنعه من زيارة البيت الحرام، الذى جعله الله للناس جميعاً مثابة وأمناً، فعسكر الرسول - صلى الله عليه وسلم - في «الحديبية» على مسافة قريبة من

«مكة»، وجرت بينه وبينهم مفاوضات حرصًا منه على السلام وحقن الدماء، انتهت إلى عقد هدنة عُرفت بصلح الحديبية، وأهم شروطها ما يلي:

1 - وقف الحرب بين الفريقين لمدة عشر سنين، يأمن فيها الناس ويسافرون وينتقلون في أمان.

2 - وأن يعود الرسول وأصحابه هذا العام بدون أداء العمرة، وكانوا نحوًا من ألف وأربعمائة فرد، على أن يأتوا في العام التالي، وتخلي لهم «قريش» «مكة» ثلاثة أيام يؤدون مناسكهم خلالها ثم يعودون إلى «المدينة».

3 - وأن من يأتي «مكة» مسلمًا بدون إذن وليه إلى «المدينة» يرده الرسول - صلى الله عليه وسلم - إليهم، أما من يأتي من المسلمين إلى «مكة» مرتدًا، فإنها ليست مطالبة برده إلى «المدينة».

(47/1)

4 - وأن من أراد من القبائل العربية أن ينضم إلى أحد طرفي المعاهدة، فله ذلك (فانضمت قبيلة «خزاعة» إلى النبي - صلى الله عليه وسلم -، في حين انضمت قبيلة «بنى بكر» إلى «قريش»).

وهذا الصلح كان في ظاهره إجحافاً سياسياً للمسلمين، حتى إنه أثار اعتراضات بعض الصحابة، الذين رأوا فيه مهانة لهم، مثل «عمر بن الخطاب» -رضى الله عنه - غير أنه كان في الحقيقة فتحًا مبيّنًا كما سماه الله -تعالى- في سورة «الفتح» التي نزلت على الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو عائد من «الحديبية»؛ إذ كانت نتائجه في مصلحة المسلمين، وكان تمهيدًا لفتح «مكة» بعد عامين اثنين.

5 - فتح خيبر:

وهي قرية كبيرة تقع شمالي شرقي «المدينة المنورة» بنحو مائة وثمانين كيلو مترًا، يسكنها بعض اليهود الذين لم تبد منهم أية إساءة

إلى المسلمين من البداية، ولم يُسمع أن لهم ضلعًا في أية مؤامرة أو موقف من مواقف اليهود المخزية ضد الرسول - صلى الله عليه وسلم - فاحترم الرسول موقفهم وحيادهم، غير أنهم تبدلوا وتغيرت مواقفهم. منذ أن نزل عندهم يهود «بنى قينقاع» و «بنى النضير»، فأفسدوهم وجعلوا بلدهم وكرًا للتأمر على المسلمين والكيدهم لهم. ولما كانت «خيبر» تقع على الطريق المؤدى إلى «الشام»، فكان لابد من تطهير ذلك الطريق من أية عوائق، وبخاصة أنه الطريق الرئيسى للدعوة الإسلامية وللجيوش الإسلامية التى ستخرج بعد وقت قصير لمواجهة دولة الروم، التى تكرر اعتداؤها على المسلمين؛ لذلك قرر الرسول - صلى الله عليه وسلم - تصفية آخر وكر يهودى فى شبه جزيرة العرب؛ لتسلم قاعدة الإسلام الأساسية ومنطلقه إلى العالم من عدو ماكر، فبعد عودته من «الحديبية» بأقل من شهر - أى فى الحرم من العام السابع للهجرة - غزا «خيبر»، ودك حصونها، فاستسلمت، وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - كريمًا ورحيمًا مع أهلها، فلم يجبرهم على الدخول فى الإسلام، ولم يطردهم من بلدهم،

(48/1)

---

بل أبقاهم يزرعون أرضهم، ولهم نصف محاصيلها، وللمسلمين النصف الآخر.

ولما سمعت القرى اليهودية الأخرى المنتشرة فى وادى القرى، مثل: «فدك»، و «تيماء» بما حدث لخيبر، أرسلت وفودها إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يطلبون منه أن يعاملهم معاملته مع أهل «خيبر» فاستجاب لهم.

6 - فتح مكة المكرمة:

التزمت «قريش» بمعاهدة «الحديبية» لمدة عام وبعض العام، فقد ذهب الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه لأداء عمرة القضاء فى العام

السابع من الهجرة. لكنها ما لبثت أن نقضت المعاهدة عندما أعانت قبيلة «بنى بكر» حليفها على قبيلة «خزاعة» حليفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فطلبت «خزاعة» من الرسول نصرتها طبقاً للمعاهدة التي بينها وبينه، فوعدهم بالنصر، وبدأ في الاستعداد لغزو «مكة».

شعر «أبو سفيان» زعيم «مكة» بالخطأ الفاحش الذي وقعوا فيه، فسافر إلى «المدينة» لمقابلة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولتجديد المعاهدة، فلم يقبل الرسول اعتذاره.

وفي بداية الأسبوع الثاني من شهر رمضان من العام الثامن للهجرة توجه الرسول - صلى الله عليه وسلم - على رأس جيش قوامه عشرة آلاف مجاهد لفتح «مكة»، وكان «أبوسفيان» يتوقع - منذ أن عاد من «المدينة» دون أن يحقق هدفه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سيغزو «مكة»، ولكن لا يعرف متى يقع ذلك، فكان قلقاً ودائماً يتحسس الأخبار.

وفي ليلة من الليالي رأى أبو سفيان نيران جيش النبي التي أوقدها المجاهدون فاستبد به الخوف والهلع، فسمع صوته «العباس بن عبد المطلب»، وكان قد خرج من «مكة» من قبل، والتقى بالنبي - صلى الله عليه وسلم - وأعلن إسلامه، فلما التقى بأبي سفيان أخبره بالجيش القادم لفتح «مكة»، ولا قبل لهم به، وأخذه إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - فأعلن إسلامه، وأعطاه النبي ميزة كبيرة، بناء على اقتراح من «العباس بن عبد المطلب»، ضمن الإعلان الذي

(49/1)

---

أمره أن يبلغه لأهل «مكة»: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن».

حرص النبي - صلى الله عليه وسلم - على دخول «مكة» بدون قتال،

فهى بلد الله الحرام، وأحبُّ بلاد الله إليه، وفيها أهله وذووه، فكانت أوامره صريحة لجيشه، ألا يقاتلوا إلا إذا قوتلوا، وبالفعل دخل الجيش «مكة» فى العشرين من شهر رمضان دون قتال، إلا مناوشات بسيطة حدثت فى الجهة التى دخلت منها الفرقة التى كان يقودها «خالد بن الوليد» عند جبل «خدمة» فقضى عليها «خالد»، وكان قد أسلم هو و «عمرو بن العاص» بعد عمرة القضاء سنة (7هـ).

دخل النبى - صلى الله عليه وسلم - «مكة» فاتحاً منتصراً، وهى التى طردته قبل ثمانى سنوات وتآمرت على حياته، فماذا هو فاعل هؤلاء الذين عادوه وآذوه أذى شديداً هو وأصحابه؟ وهل فكر فى الانتقام منهم؟ لم يحدث ذلك منه، بل جمعهم بعد أن دخل «الكعبة» وطاف بها، وكسر أصنامها بيده وهو يتلو: {وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً}.

وقال لهم: «ما تظنون أنى فاعل بكم؟» قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وبهذا ضرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أروع الأمثلة فى العفو والتسامح عند المقدرة، فلم تحمله نشوة النصر وزهو القدرة على الانتقام ممن أساء إليه، بل نسى كل ما فعلوه معه ومع أصحابه من ألوان العذاب.

(50/1)

## الفصل الخامس

\* ما بعد فتح مكة

### 1 - غزوة حنين والطائف:

بعد فتح «مكة» بدأ الرسول - صلى الله عليه وسلم - يرتب أمورها، فعين لها والياً من قبله، هو «عتاب بن أسيد»، ومعلمًا يعلم أهلها

شرائع الإسلام هو «معاذ بن جبل»، ولكن بعد أقل من أسبوعين من ذلك الفتح العظيم وصلت إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - أخبار بأن قبائل «هوازن» و «ثقيف» قد جمعت جموعها في وادي «حنين» بين «مكة» و «الطائف» لخاربه؛ لظنهم أن ذلك الفتح وعلو شأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - خطر عليهم، ولا شك أنهم كانوا في ذلك محطئين، فالإسلام ليس خطرًا عليهم ولا على غيرهم، بل هو رحمة وعدل وعزة وكرامة لهم وللعرب وللعالم أجمع.

أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - الجيش بالتأهب لمواجهةهم في أوائل شهر شوال سنة 8هـ، وكان يضم اثني عشر ألفًا بعد أن انضم إلى جيش الفتح ألفان من أهل «مكة»، واتجه به إلى وادي «حنين»، ففاجأهم جموع «هوازن» و «ثقيف» من مكائنها في الأودية والجبال، وكادت تهمهم، وفر معظم المسلمين من هول المفاجأة، ولم يثبت مع النبي - صلى الله عليه وسلم - إلا قلة قليلة من أهله وأصحابه، تقدر بنحو عشرة رجال، وصاح النبي - صلى الله عليه وسلم - بالمسلمين «إلى أين أيها الناس؟ إلى أيها الناس، أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»، وأمام ثبات النبي - صلى الله عليه وسلم - وشجاعته عاد المسلمون وراءه، وتماسكوا من جديد، وحملوا على عدوهم حملة صادقة، فهزموهم هزيمة شديدة، وقتلوا منهم عددًا كبيرًا، وأسروا كذلك نحوًا من ستة آلاف، وغنموا غنائم كثيرة.

وينبغي أن نشير إلى أن سبب الهزيمة التي كادت تحيق بالمسلمين في أول المعركة هو الاغترار بالكثرة، وكانوا اثني عشر ألفًا، وقالوا: لن نهم اليوم من قلة، فأراد الله أن يعلمهم أن الكثرة لا تكفي وحدها في حسم المعارك؛ إذ لا بد من عون الله تعالى، وقد أشار القرآن الكريم إلى سبب ما حدث لهم في أول المعركة، فقال

تعالى: {ولقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم  
كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضائق عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم  
مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل  
جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين}. [التوبة: 25 -  
26].

## 2 - حصار الطائف:

بعد هزيمة «هوازن» و «ثقيف» في وادي «حُنين». فرت فلولهم  
وتحصنت بالطائف فحاصرهم النبي - صلى الله عليه وسلم - نحوًا من  
ثلاثة أسابيع، وكانت حصونهم قوية، وأخذوا في قذف المسلمين  
بالنبال فأذوهم، فاضطر النبي أن يتراجع بقواته بعيدًا عن مرمى  
النبال، ثم استشار أصحابه ماذا يفعل معهم، فقالوا له: «يارسول الله  
هم كضب في جحر إن أقيمت عليه أخذته وإن تركته فلن يضرك»، أي  
أنهم بعد فتح «مكة» وبعد هزيمتهم في وادي «حُنين» لن يستطيعوا  
الصمود في وجهك، وهم مستسلمون لا محالة إن أطلت الحصار، وإن  
رفعتهم عنهم فسيقدمون عليك من تلقاء أنفسهم، فافتنع الرسول  
- صلى الله عليه وسلم - بهذا الرأي، ورفع عنهم الحصار، ورفض أن  
يدعو عليهم عندما طلب منه ذلك بعض الصحابة، بل قال: «اللهم اهد  
ثقيفًا وأت بهم».

وبعد أقل من عام جاءت وفودهم إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم -  
في «المدينة»، وأعلنوا إسلامهم، في رمضان سنة 9هـ، وعين  
الرسول - صلى الله عليه وسلم - «عثمان بن العاص الثقفي» واليًا  
عليهم.

## 3 - غزوة تبوك:

قام النبي - صلى الله عليه وسلم - بقيادة هذه الغزوة في شهر رجب  
سنة 9هـ، وهي آخر غزوة غزاها، وكان سببها أن أخبارًا وصلت إليه  
من عيونته التي بثها لمراقبة تحركات الروم في الشمال، أنهم يعدون  
العدة للهجوم عليه.

والحقيقة أن عدوان الروم كان قد تكرر كثيرًا على المسلمين من قبل،

فاعتدى الروم على المسلمين وحاربوهم في غزوة «مؤتة» في جمادى الآخرة سنة 8هـ، وكادوا يستأصلونهم، لولا مهارة «خالد بن الوليد» - رضى الله عنه - الذى انسحب من أمامهم وأنقذ جيش المسلمين من براثنهم.

(52/1)

وكان عدوانهم ذلك بدون سبب يدعو إليه لأن المسلمين لم يذهبوا لمحاربتهم، وإنما جاءوا لتأديب القبائل القاطنة بين «الحجاز» و «الشام»، التى دأبت على قطع الطريق على المسلمين، ثم ارتكبت جرماً كبيراً حين قتلت «الحارث بن عُمير» أحد سفراء النبي - صلى الله عليه وسلم - الذين حملوا رسائله إلى الملوك والأمراء، فأراد النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يؤدبهم بهذه الغزوة، ليكفوا أذاهم عن المسلمين، ولكن الروم تدخلوا بجيش كبير - أكثر من مائة ألف - بدون سبب.

أخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يرصد تحركات الروم، فلما وصلت إليه الأخبار بعزمهم على الهجوم عليه؛ أعد جيشاً لصدّه، وكان عدده ثلاثين ألفاً، وهو أكبر جيش قاده النبي - صلى الله عليه وسلم - وسُمي «جيش العسرة»، لأن المسافة كانت بعيدة والجو صيف شديد الحرارة، والناس يحبون المقام في مزارعهم وبساتينهم لجنى الثمار، والاستمتاع بالظل الوارف، ولكن مادامت الدولة الإسلامية ودعوها في خطر، فلا بد من التضحية والاستهانة بكل راحة ومنتعة، وقد ضحى أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - تضحيات كبيرة، وأسهموا في تجهيز الجيش وإعداده بأموالهم، وبخاصة «عثمان بن عفان» الذى جهز نحو ثلث الجيش من ماله الخاص.

سار النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى وصل إلى «تبوك»، فإذا به يعلم أن جيش الروم الذى كان يُعد يومئذٍ أقوى جيش في الدنيا قد فرَّ

مذعورًا إلى داخل «الشام»، فعسكر النبي - صلى الله عليه وسلم - في «تبوك» ثلاثة أسابيع، رتب خلالها أوضاع المنطقة، وأظهر هيبته الإسلام وضرب هيبته الروم ضربة قاصمة، جعلت سكان الإمارات الصغيرة في المنطقة الخاضعة لسيطرة الروم - كأيلة و «أدرح» و «الجرساء» - يهرعون إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مذعنين، وقالوا له: ماذا تريد منا؟ فعرض عليهم الإسلام فرفضوا، وقالوا: غير هذا، قال: «تدفعون الجزية وتؤمنكم على عقائدكم وأرواحكم وأموالكم»؛ فقبلوا، فأعطاهم بذلك معاهدات، وكان

(53/1)

تصرف النبي - صلى الله عليه وسلم - مثلاً عاليًا ودليلاً على تسامح الإسلام، وأنه لا يُفرض على الناس بالقوة.

ويعد أن أنجز النبي - صلى الله عليه وسلم - هذا الإنجاز الهائل، وتجشم في ذلك المتاعب والمشقات عاد إلى المدينة المنورة؛

لاستقبال وفود القبائل العربية التي أتت من كل أنحاء شبه الجزيرة العربية تعلن إسلامها وخضوعها لله ولرسوله، فجاءت عشرات بل مئات الوفود لهذا الغرض، وشي العام التاسع للهجرة عام الوفود، وصدق الله العظيم القائل:

{إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجًا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا}. [سورة النصر].

عالمية الرسالة الإسلامية:

الإسلام هو الرسالة الخاتمة لرسالات الله - تعالى - إلى البشرية كلها، فليس بعد القرآن الكريم كتاب سماوي، وليس بعد محمد - صلى الله عليه وسلم - رسول؛ لقوله تعالى {ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين}. [الأحزاب: من 40].

ولقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي

كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، .. فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين».

والإسلام هو دين الحق؛ لقوله تعالى: {إن الدين عند الله الإسلام}. [آل عمران: من 19].

وهو الدين الذي دعا إليه الأنبياء جميعًا؛ فقال - تعالى - على لسان «نوح» - عليه السلام-: {وأمرت أن أكون من المسلمين}. [يونس: من 72].

وقال على لسان إبراهيم - عليه السلام: {أسلمت لرب العالمين}. [البقرة: من 131].

وأوصى نبي الله «يعقوب» بنبيه بقوله: {يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون}. [البقرة: من 132].

وقال «موسى» لقومه: {يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين}. [يونس: من 84].

وكل واحد من هؤلاء الرسل الكرام كان مُرسلاً إلى قومه فقط،

(54/1)

---

فرسالاتهم كانت محدودة الزمان والمكان والبيئة البشرية بنص القرآن الكريم (5).

أما رسالة «محمد» - صلى الله عليه وسلم - فعامة لكل الجنس البشري، قال تعالى: {وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً}. [سبأ: 28].

وقال تعالى: {قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً}. [الأعراف: من 158].

وليس معنى عالمية الإسلام وصلاحيته لكل زمان ومكان أن يفرض على الناس بالقوة، إذ لا إكراه في الدين، ولأن الأسلوب الذي أمر الله - تعالى - به في الدعوة إلى دينه هو: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة

والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن}. [النحل: من 125].  
والمعنى الحقيقي لعالمية الإسلام أنه رسالة مفتوحة للبشر كلهم،  
دون تمايز أو تفرقة، ودون قيود أو عوائق، فهو ليس ديانة مقصورة  
على فئة بعينها، كما يدعى اليهود - مثلاً - أن ديانتهم خاصة بهم  
وحدهم، اختصهم الله بما دون غيرهم من البشر، بل الناس جميعاً في  
الإسلام سواء، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، فهم من أب  
واحد وأم واحدة، وأكرمهم عند الله أتقاهم.

وكان من بين الصحابة مسلمون من غير العرب، مثل «سلمان  
الفراسي»، و «صهيب الرومي»، و «بلال الحبشي»، وكانت منزلتهم  
عند رسول الله تفوق منزلة كثير من الصحابة، كما كان الصحابة  
أنفسهم يعاملونهم أكرم معاملة، حتى إن «عمر بن الخطاب» يقول  
عن «بلال بن رباح الحبشي»: «أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا»، يقصد  
بلالا.

رسائل الرسول إلى ملوك العالم ورؤسائه:

كان النبي - صلى الله عليه وسلم - ينتظر الفرصة المواتية، والوقت  
المناسب؛ ليخرج بالدعوة الإسلامية من شبه الجزيرة العربية إلى  
النطاق العالمي، وجاءت هذه الفرصة بعد «صلح الحديبية»، الذي أمنَ  
به إلى جانب «قريش» أعدى أعدائه في الداخل يومئذٍ، وقضى على  
خطر اليهود بفتح «خير».

ومع بداية العام السابع من الهجرة ساد شبه الجزيرة العربية جو من  
الهدوء النسبي، فبدأ النبي - صلى الله عليه وسلم - في تبليغ دعوته

(55/1)

---

وتوجيهها إلى أكبر عدد ممكن من ملوك العالم ورؤسائه وأمرائه،  
فأعد عدداً من أصحابه الكرام، ليكونوا سفراء بينه وبين الملوك  
والرؤساء وحملهم رسائله إليهم، فأرسل «عبدالله بن خُذافة

السهمي» برسالة إلى «كيسرى أبرويز الثاني» ملك الفرس، و«دحية بن خليفة الكلبي» برسالة إلى «هرقل الروم»، و«خاطب بن أبي بلتعة» برسالة إلى «المقوقس» حاكم «مصر»، و«عمرو بن أمية الضمري» برسالة إلى «النجاشي» ملك «الحبشة»، و«العلاء بن الحضرمي» برسالة إلى أمير «البحرين»، و«عمرو بن العاص» برسالة إلى ملكي «عمان»، كما أرسل إلى سائر أمراء العرب في «الشام» و«اليمن».

وتعد هذه الرسائل نقطة تحول في تاريخ الإسلام من ناحية، ونقطة البداية في علاقات الإسلام بالعالم الخارجي من ناحية أخرى، فعلى أساسها وعلى ضوء ردود الأفعال عند من أرسلت إليهم من الملوك تشكلت علاقات المسلمين مع الأمم الأخرى في حالتها الحربية والسلام. وسنكتفي بإيراد نص رسالة النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى «هرقل»، لأن الرسائل كلها تقريباً متشابهة في نصوصها ومضمونها، فهي دعوة سلمية إلى الإسلام، لم تتضمن أي تهديد أو تلويح باستخدام القوة ضد من يرفض الإسلام، ونص الرسالة: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى .. أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرتك مرتين، فإن توليت فعليك إثم الأريسيين - رعايا هرقل - ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون».

فماذا كان رد هرقل على هذه الرسالة السلمية؟ وماذا كانت نتائجها ؟

ذكرت بعض المصادر التاريخية أن «هرقل» رد على رسالة النبي - صلى الله عليه وسلم - ردًا مهذبًا بل إنه مال إلى الإسلام، ولكن الروم

لم يطاوعوه، فاعتذر للنبي عن عدم قبول الإسلام بسبب رفضهم، في حين لا تشير مطلقاً إلى ذلك غالبية المصادر الإسلامية، كما أن تطور العلاقات بين المسلمين والروم في أواخر حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - وفي عهد خلفائه الراشدين يجعلنا نميل إلى أنه لم يرد؛ لأن «هرقل» عندما وصلتته رسالة النبي - صلى الله عليه وسلم - كان عائداً لتوه من حربه مع الفرس، وقد انتصر عليهم انتصاراً ساحقاً، ويبدو أنه كان معتداً بنفسه اعتداداً كبيراً، مزهواً بما حققه من فوز رد به اعتبار دولته أمام الفرس، فخوراً بإعادة الصليب الأكبر الذي أخذه الفرس إلى بلادهم أثناء غزوهم لفلسطين قبل سنوات، فلما جاءت رسالة النبي - صلى الله عليه وسلم - إليه وهو في هذه الحالة النفسية المزهوة لم يحفل بها ولم يقدر أمرها التقدير الصحيح. ويؤكد ذلك الرأى أن تطور العلاقات بين المسلمين والروم تصاعد إلى الصدام المسلح، فاعتدى الروم على المسلمين في غزوة مؤتة سنة (8هـ)، ثم حاولوا الاعتداء مرة أخرى سنة (9هـ) مما جعل النبي - صلى الله عليه وسلم - يخرج إليهم في غزوة «تبوك»، ثم دارت رحى الحرب بين المسلمين والروم؛ لأنهم تدخلوا في حركة الردة، وحرصوا القبائل عليها وساعدوها، ونجح المسلمون في فتح «الشام» و «مصر» وطرودوا الروم منها إلى الأبد، ومن ثم لا يستطيع أحد أن يلوم المسلمين؛ لأنهم حملوا السلاح دفاعاً عن أنفسهم ضد عدوان الروم المتكرر.

أما علاقة المسلمين بالإمبراطورية الفارسية، وهي يومئذ الدولة الكبرى الثانية في العالم، فلم تكن بأحسن حال من علاقة المسلمين بالروم، بل كان «كسرى أبرويز الثاني» ملك «فارس» أكثر غروراً وغطرسة من «هرقل»، فلم تكذب تصل إليه رسالة النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى استشاط غضباً وقام بتمزيقها، مع أنها رسالة سلمية للإسلام لا تخرج في مضمونها عن رسالة النبي إلى «هرقل»، فدعا عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - قائلاً: «مزق الله ملكه»، ولم

يكتف الإمبراطور المغرور بذلك، بل أمر نائبه على حكم «اليمن» «بازان» أن يأتي له بالنبي مقيداً في الأغلال، ليحاكمه على جراته وكتابته إليه يدعوهُ إلى الإسلام، فامتثل «بازان» وأرسل قوة من «اليمن» إلى «المدينة» لتنفيذ هذا الأمر، وفي هذه الأثناء كان «كسرى أبرويز الثاني» قد قتل في ثورة قادها ضده ابنه «شَيْرَوِيَه»، استجابة لدعوة النبي - صلى الله عليه وسلم - عليه. فلما جاء رسل «بازان» أخبرهم النبي - صلى الله عليه وسلم -، بما حدث لكسرى، واحترمهم وأكرم وفادتهم، وحملهم رسالة إلى «بازان» حاكم «اليمن»، يدعوهُ فيها إلى الإسلام، فإن أسلم أقره الرسول - صلى الله عليه وسلم - حاكماً على «اليمن» من قبله، فشرح الله صدره للإسلام، فأسلم وأقره النبي على حكمها مع أنه فارسي، وهذا دليل على سمو مبادئ الإسلام العادلة وأنه دين المساواة. وقد تطورت العلاقات مع الفرس على طريق المواجهة، كما حدث مع الروم، لأن الفرس اعتدوا على المسلمين في حروب الردة، وأرسلوا جيشاً مع «سجاح بنت الحارث اليربوعية»، التي ادعت النبوة؛ لمحاربة المسلمين، فاضطر «أبو بكر الصديق» و «عمر بن الخطاب» من بعده أن يضعوا حداً لاعتداءات الفرس، وأن يزيلوا دولتهم ويخلصوا البلاد والعباد من ظلمهم وتجبرهم. أما بقية الملوك والأمراء الذين وصلتهم رسائل النبي - صلى الله عليه وسلم - فمعظم العرب في «اليمن» وشرقي شبه الجزيرة و «الخليج» كانت ردودهم إيجابية وأعلنوا إسلامهم، فأبقاهم على إماراتهم، وأرسل إلى كل إمارة معلمين من أصحابه يفقهونهم في الدين. أما «المقوقس» حاكم «مصر» فلم يسلم ولكنه رد رداً مهذباً، مصحوباً بكثير من الهدايا، مع جاريتين، هما «مارية القبطية» التي أعتقها النبي - صلى الله عليه وسلم - وتزوجها، وأنجبت له ابنه «إبراهيم»،

وأختها «سيرين» التي أهداها لشاعره «حسان بن ثابت». وأما «النجاشي» ملك «الحبشة»، فقد استقبل مبعوث النبي استقبالا

(58/1)

حسنًا، ورد عليها برسالة مهذبة، أعلن فيها إسلامه صريحًا واضحًا. وتوفي «النجاشي» في السنة التاسعة من الهجرة، ولما علم النبي - صلى الله عليه وسلم - بذلك صلى عليه صلاة الغائب، وقد حفظ المسلمون للحبشة موقفها من المهاجرين إليها، فظلت علاقاتهم بها حسنة على الدوام.

حجة الوداع:

كانت «حجة الوداع» في العام العاشر من الهجرة، وسميت بذلك لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - انتقل إلى الرفيق الأعلى بعدها بوقت قصير، ولأن العبارات التي افتتح بها النبي - صلى الله عليه وسلم - خطبته كانت تفيد بأنه لن يلقى أمته بعدها في الحج أبدًا، كما سميت هذه الحجة بحجة البلاغ؛ لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - ذكر في نهاية الخطبة عبارات التبليغ لرسالته للناس.

والحج ركن من أركان الإسلام الخمسة فُرض على المسلمين في العام التاسع للهجرة، فبعد عودته - صلى الله عليه وسلم - من غزوة «تبوك» أرسل «أبا بكر الصديق» - رضی الله عنه - أميرًا على الحج، وقضى هو أكثر من عام مشغولًا باستقبال وفود العرب التي توالى عليه من كل أنحاء شبه الجزيرة العربية، تعلن بيعتها وإسلامها، وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يبعث مع كل وفد من يعلمهم أمور دينهم من الصحابة.

ولما اطمأن أن الإسلام قد انتشر في بلاد العرب، وتجاوزها إلى ما حولها رغب أن يقوم بأداء فريضة الحج، ويعلم المسلمين المناسك بطريقة عملية، ويوصيهم خيرًا، ويلخص لهم في خطبة شرائع الإسلام

وأهدافه.

فخرج من «المدينة» في 25 من ذى القعدة من السنة العاشرة للهجرة، وأحرم بالحج والعمرة من ذى الحليفة (6)، وخلفه أكثر من مائة ألف من المسلمين، وكان المشهد رائعاً ومهيباً، ينحني له التاريخ إجلالاً وتقديراً، فهذا هو ذا الرجل الذي بدأ دعوته وحده، والعرب جميعهم يقفون ضده، ويحاربونه بكل ما يملكون يلتفون حوله، ويسيروا خلفه، ويقودهم في تواضع وبر ورحمة ومودة.

(59/1)

وقد خطب النبي - صلى الله عليه وسلم - في هذه الجموع الكبيرة بعد الإحرام، فوعظهم، وعلمهم مناسك الحج، وقال لهم: «خذوا عني مناسككم».

وسار ركب الحج النبوي إلى «مكة المكرمة» في يوم التروية - الثامن من ذى الحجة - وتوجه إلى «منى»، فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وصبح يوم عرفة، وبعد الصلاة توجه إلى عرفات في التاسع من ذى الحجة، وهناك خطبهم «خطبة الوداع»، وهي خطبة طويلة، بدأها النبي - صلى الله عليه وسلم - بقوله: «أيها الناس، اسمعوا قولي، فإنني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً، أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رءوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون، قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا العباس بن عبدالمطلب موضوع كله، وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب - ابن عم النبي - صلى الله عليه وسلم - - وكان مسترضعاً في بني ليث فقتلته

هذيل، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية». ثم واصل خطبته مقررًا فيها قواعد الإسلام وشرائعه، هادماً قواعد الشرك والجاهلية، موضحاً المحرمات التي اتفقت جميع الشرائع السماوية على تحريمها، وهي الدماء والأموال والأعراض، ووضع أمور الجاهلية كلها تحت قدميه، وأوصاهم بالنساء خيراً، وحذرهم من الفتن، وختمها بتلك الكلمات المباركات، فقال: فاعقلوا أيها الناس قولي، فإنني قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلوا أبداً، أمراً بيناً، كتاب الله وسنة نبيه. وبعد أداء بقية مناسك الحج، عاد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سعيداً مغتبطاً إلى مدينته، ليستعد للقاء ربه راضياً مرضياً عنه من ربه الذي أرسله رحمة للعالمين، ومن أمته التي بلغها رسالة ربه،

(60/1)

وأخرجها من الظلمات إلى النور.

شخصية الرسول:

كانت أخلاق الرسول - صلى الله عليه وسلم - وصفاته الشخصية من أهم العوامل التي ساعدت على تكوين المجتمع الإسلامي الأول تكويناً سليماً، فقد كانت أخلاقه رخاءً وسماحةً وصفاءً، وحسبه أن الله وصفه بقوله: {وإنك لعلی خلق عظیم}. [القلم: 4]. كما كانت أخلاقه من الأسباب التي جمعت الناس حوله، لقوله تعالى: {ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك}.

[آل عمران: 159].

وعرف الرسول بأخلاقه السمحة قبل البعثة، فلم يسجد لصنم قط، واشتهر بين أهله وقومه بالصادق الأمين، ولم يشترك فيما تعود شباب «قريش» أن يقوموا به من عبث ومجون، ثم ازدادت أخلاقه سمواً بهدى الوحي، وأصبح أعظم العظماء في كل شيء، في

الصدق والأمانة، والوفاء والحياء، والشجاعة والكرم، والزهد، والصبر على الشدائد، ومواجهة أعباء الرسالة، ومشكلات الحياة، رحيماً في معاملة أصحابه، عارفاً بأقدارهم، عطوفاً على أهله وزوجاته. وإذا كان الناس يقولون أن الرجل العظيم في الحياة العامة قلما يكون عظيماً في بيته، فإن «محمدًا» - صلى الله عليه وسلم - كان أعظم العظماء في التاريخ البشري كله، في الحياة العامة، وأعظمهم في بيته الذي ضم تسع زوجات، في وقت واحد، من أعمار مختلفة ومن قبائل مختلفة، بل ومن أجناس مختلفة، فمنهن العربية واليهودية والمصرية، فكان المثل الأعلى معهن في كل شيء، وكلهن يقدرن شخصه وخلقه، وقد عاش بعضهن بعد موته أكثر من نصف قرن، وألسنتهن تلهج بذكره والثناء عليه، فلم تشغله أعباء الرسالة وتكاليفها، وتبعات الدولة ومسئولياتها عن القيام بواجباته نحوهن على أكمل وجه، وكان يجد من الوقت ما يسمح له بملاطفتهن، وإدخال السرور على قلوبهن.

وقد انبهر بأخلاق النبي - صلى الله عليه وسلم - عدد من كتاب الغرب، فلم يسعهم إلا أن يقولوا كلمة الحق عنه، من ذلك ما قاله «وليم موير»: «إن من صفات محمد الجديرة بالتنويه والرأفة والاحترام اللذين

(61/1)

كان يعامل بهما أصحابه، فإن التواضع وإنكار الذات والرأفة والأناة والسماحة تغلغت في نفسه، فأحبه كل من حوله، ولم يكن الإصلاح أعسر ولا أبعد منالا منه عند ظهور محمد، ولا نعلم نجاحاً تم كالذي تركه عند وفاته».

ويقول الشاعر «لامارتين»: «إن محمدًا هو أعظم رجل بجميع المقاييس التي وضعت لوزن العظمة الإنسانية، فإن كان مقياس العظمة الإنسانية هو إصلاح شعب متدهور، فمن ذا الذي يطاول محمدًا في

هذا المضمار. وإذا كان مقياس العظمة هو توحيد الإنسانية المفككة الأوصال، فإن محمدًا أجدر الناس بهذه العظمة، لأنه جمع شمل العرب بعد تفكك شامل. وإذا كان مقياس العظمة هو إقامة حكم السماء في الأرض، فمن ذا الذى ينافس محمدًا الذى محا مظاهر الوثنية، وثبت عبادة الله وقوانينه في عالم الوثنية والقوة».

أما الدكتور «مايكل هارت» في كتابه «المائة الأوائل» فقد وضع النبي - صلى الله عليه وسلم - على رأس القائمة، مبررًا ذلك أمام القراء الغربيين الذين يكتب لهم في الأساس بأنه «الإنسان الوحيد في التاريخ الذى نجح نجاحًا مطلقًا على المستوى الدينى والديوى، ونشر الإسلام وهو من أعظم الديانات، وأصبح قائدًا سياسيا وعسكريا ودينيا، وبعد مرور القرون العديدة فإن أثره لا يزال متجددًا وقويا».

والحق أن جوانب العظمة والكمال الإنساني في شخصية الرسول لا يستطيع أحد أن يحصرها أو يحيط بها، وستظل سيرته وأعماله وأخلاقه مجالًا رحبًا للبحث والدراسة، والتأمل والافتداء.

مرض الرسول - صلى الله عليه وسلم - ووفاته بدأ النبي - صلى الله عليه وسلم - يشعر بالمرض بعد عودته من حجة الوداع بنحو شهرين، أى في أواخر شهر صفر من العام الحادى عشر للهجرة، وكان يشكو من الصداع، ويقول: «وأرأساه».

وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - في بداية مرضه يتحامل على نفسه، ويخرج إلى الناس يصلى بهم إمامًا، فلما اشتد عليه المرض ولم

(62/1)

---

يعد قادرًا على الخروج، أمر «أبا بكر الصديق» أن يصلى بهم إمامًا، وأصرَّ على ذلك، ورفض أن يصلى بهم «عمر بن الخطاب»، وفي ذلك إيماء إلى أفضلية «أبي بكر» - رضى الله عنه - على سائر الصحابة

كلهم.

وفي صبيحة يوم الاثنين الموافق (12 من شهر ربيع الأول سنة 11هـ) فاضت روح النبي - صلى الله عليه وسلم - الطاهرة إلى بارئها، فكان ذلك صدمة قاسية للمسلمين، الذين روعتهم وفاة نبيهم إلى الحد الذي جعل بعضهم لا يصدق أن النبي تُوفِّي - من هول الصدمة - منهم «عمر بن الخطاب» الذي كان أكثرهم فرعًا وحزنًا، أما «أبو بكر الصديق» فلم يكن موجودًا لحظة وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - بل كان في منزله بالسُّنح من ضواحي «المدينة» فلما بلغه الخبر المفجع جاء على الفور، فوجد الناس واجمين، قد استبد بهم الحزن، وعمتهم الحيرة، وغشيتهم الكرب، ووجد «عمر بن الخطاب» يخطب في الناس ويتهدد ويتوعد من يقول إن النبي قد مات، فلم يكلمه، وقصد بيت ابنته «عائشة» حيث جسد النبي - صلى الله عليه وسلم - مسحى هناك، فكشف الغطاء عن وجهه الشريف وتأكد من وفاته، فقبله في جبينه، وقال: «أبي أنت وأمي، طبت حيا وميتًا يارسول الله»، ثم خرج إلى الناس، الذين كانوا ينتظرونه، وقد تعلقت به آمالهم، لعله يعلن أن النبي لم يمِت، ولكنه كان رجل الموقف العصيب، فأعلن الحقيقة التي لا مفر من إعلانها للناس، ليواجهوا الموقف بكل أحزانه وتبعاته، فقال للناس بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه: «أما بعد، فمن كان يعبدُ محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبدُ الله فإن الله حي لا يموت»، ثم تلا قوله تعالى: {وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئًا وسيجزي الله الشاكرين}. [آل عمران: 144]. فقال «عمر بن الخطاب» حين سمع «أبا بكر» يتلو هذه الآية: «كأني لم أسمعها من قبل».

هذه هي الحقيقة التي أعلنها «الصديق» على الناس، فالنبي بشر يخضع لقوانين الله في البشر من حيث الحياة والموت، وقد قال الله له: {إنك ميت وإنهم ميتون}. [الزمر: 30].

بدأ التفكير في تجهيز النبي - صلى الله عليه وسلم - من غسل وتكفين ودفن، فاختلفوا، أين يدفن، فقال لهم «أبو بكر الصديق»: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «مامات نبي إلا دفن حيث مات». وشرعوا في غسله، وكان الذين تولوا غسله هم أهل بيته: «علي بن أبي طالب»، وعمه «العباس بن عبدالمطلب»، وابنه «الفضل»، واشترك معهم «أسامة بن زيد»، و «شقران» مولى «أسامة»، ولم يجردوه من قميصه أثناء غسله، ثم كفنوه في ثلاثة أثواب، وصلوا عليه فرادى، الرجال أولاً، ثم تلاهم النساء، ثم الأطفال، وفي يوم الثلاثاء التالى لوفاته وورى الجسد الطاهر في التراب.

(64/1)

## الفصل السادس

\*خلافة أبي بكر الصديق

قيام الخلافة:

أدرك الصحابة - رضوان الله عليهم - أهمية اختيار خليفة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد وفاته، وضرورة أن يختاروا لدولتهم رئيساً يخلف النبي في إدارة أمورهم، فاجتمع الأنصار في «سقيفة بني ساعدة»، التي كانت لهم مثل دار الندوة لقريش في «مكة»؛ لاختيار خليفة منهم، طائين أنهم أحق الناس بذلك الأمر من غيرهم، فالمدينة بلدهم، والدولة قامت على أرضهم، فرشحوا «سعد بن عباد الخزرجي» لهذا المنصب الجليل، وفي أثناء ذلك جاء «عويم بن

ساعدة»، و «معن بن عدى»، وهما من الأنصار إلى «أبي بكر الصديق» و «عمر بن الخطاب»، وأخبراهما بما يجرى في السقيفة، فاتجها معهما على الفور إليها، وفي الطريق لقيها «أبا عبيدة بن الجراح» فذهب معهم، ولما وصلوا إلى السقيفة حيث الأنصار مجتمعون، و «سعد بن عباد» يتكلم على الرغم من مرضه، مبيِّناً أحقية الأنصار بالخلافة؛ أراد «عمر بن الخطاب» أن يتكلم، لكن «أبا بكر» طلب منه أن ينتظر، فامتلأ لأمر «أبي بكر» الذى تكلم، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وعلى نبيه: «إن الله بعث محمداً رسولاً إلى خلقه؛ ليعبدوا الله ويوحده، وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ... فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به والمواساة له .. فهم أول من عبد الله في الأرض، وآمن بالله وبالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده، لا ينازعهم إلا ظالم. وأنتم يا معشر الأنصار من لا يُنكر فضلهم في الدين ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام، رضيتكم الله أنصاراً لدينه ورسوله، وجعل إليكم هجرته، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا أحد بمنزلتكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لاتفتاتون في مشورة، ولا تنقضى دونكم الأمور»، ثم قال: «ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش،

(65/1)

---

هم أوسط العرب نسباً وداراً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم» يقصد «عمر» و «أبا عبيدة»، ولكنهما رفضا أن يتقدما على «أبي بكر»، وقالوا: «لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك، فإنك أفضل المهاجرين، وثانى اثنين إذ هما فى الغار، وخليفة رسول الله على الصلاة، والصلاة أفضل دين المسلمين، فمن ذا ينبغى له أن يتقدمك، أو يتولى هذا الأمر عليك».

فقام الحاضرون في السقيفة بمبايعة «أبي بكر» بيعة عُرفت بالبيعة الخاصة، لأن كثيراً من المسلمين لم يحضروها، وبخاصة آل بيت النبي - صلى الله عليه وسلم - الذين كانوا مشغولين في مراسم دفنه، وتمت البيعة في جو من السكينة والإخاء والود، بعد مشاورة ونقاش هادئ ورزين، مما دل على إحساس عميق بالمسئولية من كبار الصحابة، وضرورة استمرارية الدولة، وكرهيتهم أن يبيتوا ليلة واحدة بعد وفاة نبيهم بدون إمام يدير أمورهم، ويواجه الموقف، ويتخذ ما يلزم من قرارات، وقدموا ذلك على تجهيز النبي ودفنه - صلى الله عليه وسلم -.

البيعة العامة:

وفي اليوم التالي بعد الانتهاء من دفن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اجتمع المسلمون في مسجده وبايعوا «أبا بكر» بيعة عامة، حضرها جمهور الصحابة، وكان البيعة الأولى كانت بمثابة ترشيح، احتاجت إلى تصديق من عامة المسلمين وتوثيقهم. والذى عليه جمهور علماء أهل السنة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يعين خليفة له، ولم يوص بتعيين أحد، فلو أنه حدد لهم شخصاً بعينه وجعله خليفة عليهم؛ لظن بعض الناس أنه تعيين من الله ورسوله، وسيضفى على هذا الشخص نوعاً من القداسة تجعله فوق النقد والمحاسبة، وهذا أمر خطير لا محالة، فولى الأمر عند المسلمين بشر، يخطئ ويصيب، فإذا أصاب أعانوه، وإذا أخطأ قوموه. وكما لم يعين النبي - صلى الله عليه وسلم - شخصاً بعينه لتولى الأمر من بعده، فإنه لم يحدد للمسلمين أيضاً الطريقة التي يختارون بها من

(66/1)

---

يتولى أمورهم؛ لأنها تخضع لتطور الظروف والأحوال، ومن هنا كان في ترك النبي لهذا الأمر مصلحة للمسلمين، حتى لا يقيدهم بشخص،

أو بطريقة معينة، وقد فهم الصحابة مراد نبيهم وقصده من عدم التعيين، وتصرفوا على أساسه.

وكل ما يمكن قوله في هذه المسألة الخطيرة أن النبي أوماً إجماعاً خفيفة ذات مغزى بتقديمه «أبا بكر» ليوم المسلمين في الصلاة أثناء مرضه، وكأنه - عليه الصلاة والسلام - قد رشح «أبا بكر» للخلافة مجرد ترشيح وليس إلزاماً، وكأنه أراد أن يقول: إذا رأيتموه جديراً بالخلافة وأهلاً لها وقادراً على تحقيق مصلحتكم في دينكم ودنياكم، فأنتم وذاك، وإلا فلتروا رأيكم.

والخلاصة أن بيعة «أبي بكر» العامة في مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في اليوم التالي لوفاته قامت دولة الخلفاء الراشدين، التي استمرت نحو ثلاثين عاماً (11 - 40هـ).  
الخليفة الأول (11 - 13):

هو «عبد الله بن عثمان بن عامر»، من قبيلة «تيم بن مرة بن كعب»، وفي «مرة بن كعب» يلتقى نسبه مع نسب النبي - صلى الله عليه وسلم -، وأمه «أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر»، تيمية كأبيه وكنيته: «أبو بكر»، ولقبه: «عتيق».

وُلد «أبو بكر» سنة (573م) بعد مولد الرسول - صلى الله عليه وسلم - بثلاثة أعوام، ونشأ في «مكة»، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر؛ لعلمه وتجارته وحسن مجالسته.

وعُرف «أبو بكر» بترفعه عن عادات الجاهلية، وما كانوا يقترفونه من مجون وشرب خمر، وارتبط قبل البعثة بصداقة قوية مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وكان الاتفاق في الطباع وصفاء النفس من أقوى الروابط بين النبي و «أبي بكر».

إسلامه:

تُجمع مصادر السيرة والتاريخ على أن «أبا بكر» كان أول من أسلم وآمن بالنبي - صلى الله عليه وسلم - من الرجال الأحرار، وكان لسلامة فطرته التي كانت تعاف ما عليه قومه من عبادة الأوثان أثر في تبكيه بالدخول في الإسلام، وما إن دعاه النبي - صلى الله عليه

وسلم - إلى الإسلام حتى أسلم على الفور؛ لثقتته بصدق النبي - صلى الله عليه وسلم - وأمانته، يقول النبي - صلى الله عليه وسلم - : «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة - تأخر في الإجابة- إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة، ما عكم عنه - تأخر عنه - حين ذكرته له، وما تردد فيه».

ومنذ أن أسلم وهو يهب نفسه وماله لله ورسوله، فكان يشتري من أسلم من العبيد الذين كانت «قريش» تعذبهم، ويعتقهم كبلال بن رباح، وكان يزود عن النبي - صلى الله عليه وسلم - بكل ما أوتي من قوة، فيروى «البخارى» عن «عبد الله بن عمرو ابن العاص» قوله: «رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو يصلى، فوضع رداءه في عنقه، وخنقه به خنقاً شديداً، فجاء أبو بكر - رضى الله عنه - حتى دفعه عنه، فقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم». [صحيح البخارى].

ومن أجل مواقف «أبي بكر» تصديقه للنبي - صلى الله عليه وسلم - في حادث الإسراء، فحين أخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - بذلك أسرعوا إلى «أبي بكر» يخبرونه، ظنا منهم أنه لن يصدق، فقال لهم: «والله لئن كان قاله لقد صدق، فإني أصدقه في أبعد من هذا، أصدقه في خبر السماء يأتيه في ساعة من ليل أو نهار»، فلقب بالصديق من يومئذٍ. واختاره النبي - صلى الله عليه وسلم - - لثقتته - به ليرافقه في رحلة الهجرة دون غيره من الصحابة، ثم لازم النبي بعد الهجرة في ليله ونهاره، فلم يتخلف عن غزوة من غزواته أو مشهد من مشاهدته، وكان مجاهداً بنفسه وماله حتى وصفه النبي بقوله: «ما لأحد عندنا يدٌ إلا وقد كافأناه بها، إلا أبا بكر، فإن له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر».

ومما لا شك فيه أن «أبا بكر الصديق» عند علماء الأمة أفضل المسلمين مطلقاً بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ودليل ذلك أنه

(68/1)

جعلته أميراً على الحج في العام التاسع من الهجرة، وأنابه في الصلاة عند مرضه - دون غيره -، وكان هذا أقوى مرشح له لتولي الخلافة بعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم -.

أبو بكر الصديق ومسئوليات الخلافة:

بعد أن بويع «أبو بكر الصديق» البيعة العامة قام فخطب الناس خطبة قصيرة، وضح لهم فيها منهجه في الحكم، فقال بعد أن حمد الله وصلى على نبيه: «أما بعد أيها الناس فإني وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندي حتى أزيح عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذلّ، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله».

كلمات قليلة وبسيطة، لكنها في غاية الأهمية، تحمل اعتراف الخليفة الأول بحق الأمة في مراقبة تصرفات حاكمها ونقده وتقويمه إن جانب الصواب.

كان أول القرارات التي اتخذها «أبو بكر» وأصعبها قراره بإنفاذ جيش «أسامة» إلى «جنوب الشام»، كما أمر به رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وذلك لأن «الصديق» أقدم عليه في ظروف دقيقة وحرجة، فالعرب قد ارتدت عن الإسلام، حتى «مكة» نفسها همت بالردة، لولا أن «سهيل بن عمرو» رؤّعهم، قائلاً: «لماذا ترتدون

والنبوة كانت فيكم، والخلافة أصبحت فيكم؟»، وحاولت «الطائف» أن ترتد، فمنع من حدوث ذلك عقلاؤها؛ إذ قالوا لقومهم: لقد كنتم آخر من أسلم، فلا تكونوا أول من يرتد.

كما استفحل أمر مدعى النبوة «مسيلم الكذاب» في «اليمامة» شرقي شبه الجزيرة العربية، و «طليحة بن خويلد الأسدي» في «بني أسد»، في منطقة «بذاخة» -مأء لبني أسد يقع إلى الشرق من «المدينة المنورة» - و «لقبط بن مالك» في «عمان» جنوبي شرقي بلاد العرب، و «الأسود العنسي» في «اليمن».

(69/1)

وكل أولئك ظهوروا في أواخر حياة النبي - صلى الله عليه وسلم -، لكنه لم يحفل بهم كثيراً؛ لثقتة بالقدرة على القضاء على تلك الحركات، وفي الوقت نفسه أمر بإنفاذ جيش «أسامة بن زيد» إلى جنوب «الشام»؛ لتأديب القبائل القاطنة هناك، التي تعادى المسلمين، ولتثبيت هيبة الإسلام في أعين الروم، التي فرضها عليهم في غزوة «تبوك»، وللفت أنظار أصحابه إلى خطورة دولة الروم على الإسلام، لكن هذا الجيش لم يذهب لأداء مهمته؛ لمرض النبي - صلى الله عليه وسلم - ووفاته، فكان أول قرار للصديق، هو تنفيذ ما عزم عليه الرسول - صلى الله عليه وسلم -.

لكن الصحابة جميعاً عارضوا «أبا بكر» في قراره بإرسال جيش «أسامة»، وتعللوا بأن الردة قد عمت شبه جزيرة العرب، وأن الخطر داهم ومحدد بهم، حتى لم تسلم منه «المدينة» نفسها، واشترأبت أعناق أعداء الإسلام من يهود ونصارى وغيرهما، وتحفزوا للقضاء على الإسلام، ولذا فإن بقاء الجيش في «المدينة» ضرورة ملحة؛ لحمايتها من الأخطار المحدقة بها.

لكن ذلك كله لم يثن عزيمة الصديق عن إرسال جيش «أسامة»، ووقف

كالأسد المصور يذود عن الإسلام باتخاذ ذلك القرار الصعب قائلاً:  
«والذى نفس أبى بكر بيده، لو ظننت أن السباع تحطفتنى لأنفذت  
بعث أسامة، كما أمر به رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ولو لم يبق  
فى القرى غيرى لأنفذته».

وقد ظهرت نتائج سياسة «الصدىق» الموفقة، عندما ذهب جيش  
«أسامة» وحقق ما قصده الرسول - صلى الله عليه وسلم - من أهداف،  
وعاد محملاً بالغنائم، وألقى الرعب والفرع فى قلوب القبائل العربية  
التي مرَّ عليها فى شمالي شبه الجزيرة العربية وهو فى طريقه إلى  
الشام؛ لأنهم قالوا: «لو لم يكن بالمسلمين قوة لما أرسلوا هذا الجيش  
الكبير إلى هذا المكان البعيد فى مثل هذا الوقت»؛ ولذا كانت حركة  
الردة فى المناطق التي مرَّ بها «أسامة» بجيشه أضعف منها فى أى  
مكان آخر من شبه الجزيرة العربية.

حركة الردة:

(70/1)

---

يعد موقف «الصدىق» من حركة الردة ومواجهته لها من أروع المواقف  
فى التاريخ، لأنه آمن إيماناً عميقاً بانتصار الحق مهما تكن قوة  
أعدائه، وأظهر تصميمًا على الدفاع عن الإسلام مهما يبذل من جهد.  
وقد بدأت حركة الردة بالقبائل التي منعت الزكاة كعبس و «ذبيان»  
و «غطفان» وغيرها، حيث أرسلت وفدًا إلى «المدينة»، يعرض على  
«الصدىق» مطالبهم، وأنهم لم يرفضوا الإسلام، ولكنهم يرفضون دفع  
الزكاة لحكومة «المدينة»؛ لأنها فى ظنهم معرّة، ويعدونها إتاوة  
تدفع لأبى بكر، ولم تدرك تلك القبائل أثر الزكاة فى التكافل  
الاجتماعى بين المسلمين.

كان رأى فريق من الصحابة وعلى رأسهم «عمر بن الخطاب» أن  
يستجيب «أبو بكر» لتلك القبائل، ولا يجبرها على دفع الزكاة،

وخاصة أن «المدينة» مكشوفة، وليس بها قوة تحميها وتدافع عنها؛ لأن جيش «أسامة» لما يعد بعد من شمالي بلاد العرب، لكن «الصدّيق» لم يقتنع بهذا الرأي، ورد على «عمر بن الخطاب» رداً جازماً قائلاً له: «والله لو منعوني عقالا - الحبل الذي يجزُّ به الحمل - لجاهدتهم عليه». وكان هذا الموقف الثابت من «الصدّيق» رائعا كل الروعة، فماذا لو وافق «أبو بكر» «عمر» ومن معه على رأيهم؟ ربما شجع هذا التنازل قبائل أخرى، فتمتنع عن دفع الزكاة أسوة بمؤلاء، ولربما تطور الموقف إلى أبعد من هذا، فتمتنع قبائل عن إقامة الصلاة أو غيرها من أركان الإسلام، ويكون هذا هدماً للدين من أساسه. وكان «الصدّيق» حين فعل هذا تمثل واقتدى بموقف لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - عندما جاءه وفد «ثقيف» يعلنون إسلامهم، ويطلبون منه إعفاءهم من أداء الصلاة، فرفض النبي - صلى الله عليه وسلم - ذلك، وقال لهم: «لا خير في دين لا صلاة فيه»، ولعل «الصدّيق» قصد ذلك حين قال: «والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة». ولم يكن «الصدّيق» صاحب قرارات صائبة فحسب، بل كان يقرنها بالعمل على تنفيذها، فلما رأى الغدر في عيون مانعي الزكاة أدرك

(71/1)

---

أهم سيهاجمون «المدينة» على الفور؛ لأنهم عرفوا غياب معظم الرجال مع جيش «أسامة»، وأعلن حالة الاستعداد للدفاع عن «المدينة» عقب عودة المانعين إلى ديارهم، واتخذ مسجد رسول الله، مقراً لغرفة عمليات عسكرية، وبات ليلته يُعد للمعركة ويستعد لها، وأمر عددًا من كبار الصحابة بحراسة مداخل «المدينة»، على رأسهم «علي بن أبي طالب»، و «طلحة بن عبيد الله»، و «الزبير بن العوام»، و «عبد الله بن مسعود» رضی الله عنهم.

وحدث ما توقعه «الصدّيق» فبعد ثلاثة أيام فقط هاجم مانعو الزكاة

«المدينة»، فوجدوا المسلمين في انتظارهم، فهزمهم المسلمون وردوهم على أعقابهم إلى «ذى القصة» - شرقى «المدينة». ثم تعقبهم «الصدى» وألحق بهم هزيمة منكرة، وفرت فلولهم، وغنم المسلمون منهم غنائم كثيرة، واتخذ «الصدى» من «ذى القصة» مكاناً لإدارة المعركة ضد حركة الردة كلها، وفي هذه الأثناء جاءت الأخبار بوصول جيش «أسامة» سالمًا غانمًا، فأسرع «الصدى» بنفسه لاستقبال قائد الجيش الشاب، الذى قام بهذه المهمة الخطيرة خير قيام، وبعد أن احتفى به وهنأه على عمله، أنابه عنه فى حكم «المدينة»، وعاد هو إلى «ذى القصة» ليدير المعركة مع المرتدين بعزيمة لا تلين.

أسباب حركة الردة:

قبل الخوض فى الحديث عن مواجهة «أبى بكر» لحركة الردة، ينبغى معرفة أسبابها، التى جعلت تلك القبائل تتردد بعد أن أعلنت إسلامها أمام الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى السنة الأخيرة من حياته. - السبب الأول: أن إسلام أغلب هذه القبائل كان ضعيفًا، فقد أذعنوا لقوة المسلمين، التى لم يكن لهم قبل بمواجهتها؛ فاستسلموا ولم يسلموا إسلامًا حقيقيًا، فظنوا أن وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ستفتت فى عضد المسلمين، ولن يستطيعوا مواجهتهم. - والسبب الثانى: أن العصبية القبلية كانت عندهم قوية، فمعظم المرتدين الذين التفوا حول مدعى النبوة كانوا يعلمون صدق النبى

(72/1)

---

- صلى الله عليه وسلم -، ولكن كل قبيلة كانت تريد أن يكون لها نبى من أبنائها ولو كان كذابًا، كما لقريش نبى من أبنائها، وعبروا عن ذلك بوضوح وصراحة، فيقول أحد «بنى حنيفة» لمسيلمة: «أشهد أنك كذاب، ولكن كذاب ربيعة - التى منها مسيلمة - خير من صادق

مضر - التي منها محمد»، وقال «عينة بن حصن الفزاري» عن  
«طليحة بن خويلد الأسدي»: «نبي من الحليين خير من نبي من  
قريش، ومحمد مات، وطليحة حي».

- والسبب الثالث: أن زعماء القبائل وشيوخها كانوا مستفيدين من  
الوضع القبلي القديم؛ إذ كانت حياة معظم القبائل تقوم على الإغارة  
والسلب والنهب، ويأخذ شيوخها ربع ما تحصل عليه من تلك الغارات،  
ولذا تزعموا حركة الردة، وحرصوا أبناء القبائل عليها، ليستمروا في  
السيطرة على قبائلهم.

- والسبب الرابع: أن الفرس والروم حاولوا القضاء على الإسلام  
باستخدام العرب وتحريضهم ومساعدتهم، فلما فشلوا في ذلك تدخلوا  
تدخلًا مباشرًا، فحرّض الفرس عرب الخليج على الردة، ثم أمدوا  
«سجاح بنت الحارث اليربوعية» - مدعية النبوة - بجيش كبير، قوامه  
أربعون ألف رجل، جاءت بهم من «العراق» التي كانت تحت الحكم  
الفارسي لمحاربة المسلمين، فلما فشلت تدخلوا مباشرة ضد «المثنى  
بن حارثة»، الذي كان يحارب المرتدين على حدود «العراق».  
وفعل الروم البيزنطيون ما فعله الفرس، فاعتدوا في حروب الردة  
على جيش «خالد بن سعيد بن العاص» في منطقة «تيماء» شمالي  
«الحجاز»، وألحقوا به هزيمة كبيرة وقتلوا معظم جنوده.  
المواجهة السلمية:

أراد «أبو بكر الصديق» أن يبصّر المرتدين بخطورة ما أقدموا عليه،  
فواجههم مواجهة سلمية بأن دعاهم إلى العودة بدون قتال إلى  
الإسلام، الذي أكرمهم الله به، وأرسل إليهم كتابًا يقرأ على القبائل  
كلها؛ لعلهم يعقلون، جاء في آخره:

«وإني بعثت إليكم فلانًا في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين  
ياحسان، وأمرته ألا يقاتل أحدًا ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية

الله، فمن استجاب له وأقرّ وكف وعمل صالحًا، قبل منه وأعانه عليه، ومن أبي أمرت أن يقاتله على ذلك، ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه، .. ولا يقبل من أحدٍ إلا الإسلام فمن اتبعه فهو خير له، ومن تركه فلن يعجز الله، وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم، والداعية الأذان، فإذا أذن المسلمون فأذّنوا كفوا عنهم، وإن لم يؤذّنوا عاجلوهم ... ».

الاستعداد العسكري:

وفي الوقت الذي كان يأمل فيه أن يستجيب المرتدون، ويعودوا إلى دين الله دون قتال؛ كان يعد أحد عشر جيشًا في وقت واحد، تغطي المناطق التي ارتد أهلها في شبه جزيرة العرب، جاهزة للانطلاق إلى كل منطقة؛ ليشغل كل قبيلة بالدفاع عن نفسها في ديارها، ولا تأخذ فرصة للتجمع والتكتل ضده، وكان هذا تصرفًا بارعًا وحكيماً من «الصديق».

واختار «الصديق» لهذه الجيوش أمهر القادة وأكثرهم خبرة بالقتال، وهم: «خالد بن الوليد»، سيف الله وعبقري الحرب، وأمره بقتال المرتدين من «بني أسد» و «غطفان» وحلفائهم بقيادة «طليحة بن خويلد» في «بذاخة»، فإذا انتهى من مهمته توجه لقتال المرتدين من «بني تميم» في «البطاح»، إلى الشرق من ديار «بني أسد».

- و «عكرمة بن أبي جهل» وأردفه بشرحبيّل بن حسنة، وأمرهما بالتوجه إلى «مسيلمة الكذاب» ومن معه في «اليمامة»، وأمرهما ألا يقاتلاه حتى يأمرهما بذلك، لمعرفة «أبي بكر» بقوة جيش «مسيلمة»، وأنهما لن يقدرآ على هزيمته بسهولة، بل يشغلاه حتى يحين الوقت المناسب لإرسال قوات أكبر؛ لمواجهة «بني حنيفة» في جموعهم الكبيرة.

- و «العلاء بن الحضرمي»، وأمره بقتال المرتدين في «البحرين» وما والاها.

- و «حذيفة بن محصن»، وأمره بقتال المرتدين في «دبا» في جنوبي شرقي شبه الجزيرة.

و «عرفجة بن هرثمة»، وأمره بقتال المرتدين في «مهرة» في جنوبي شبه الجزيرة.

و «المهاجر بن أبي أمية المخزومي»، وأمره بقتال المرتدين في جنوبي «اليمن».

(74/1)

و «سويد بن مقرن»، وأمره بقتال المرتدين في «تامة اليمن» على ساحل «البحر الأحمر».

- و «عمرو بن العاص»، وأمره بقتال قبائل «قضاة» في الشمال.  
- و «معن بن حاجر» وأمره بقتال المرتدين في «هوازن» و «بني سليم».

و «خالد بن سعيد بن العاص»، وأمره أن يعسكر في «تيماء»، ولا يقاتل أحداً إلا إذا قوتل.

أهم معارك حروب الردة:

لم يستجب المرتدون لدعوة «أبي بكر» السلمية، فبدأ قاداته ينفذون ما عهد إليهم من مهام، وخاض «خالد بن الوليد» أول معارك الردة في «بداخة» ضد المرتدين من «غطفان» و «بني أسد» وحلفائهم ممن التفوا حول «طليحة بن خويلد الأسدي» مدعى النبوة، وكان النصر حليف «خالد»، بعد أن ألحق بهم هزيمة منكرة وغنم كثيراً، وأرسل عدداً من زعمائهم أسرى إلى الخليفة، وفر «طليحة»، وظهر كذبه، ويجدر بالذكر أن «طليحة» قد أسلم بعد ذلك، وحسن إسلامه في عهد «أبي بكر الصديق»، واشترك في الفتوحات الإسلامية في «فارس»، في عهد «عمر بن الخطاب»، وكان له دور بارز فيها. وبعد ذلك توجه «خالد بن الوليد» إلى «البطاح» في «نجد» لقتال المرتدين من «بني تميم» بزعامة «مالك بن نويرة»، ونجح في إلحاق الهزيمة بهم، والقضاء على الردة في بلادهم.

## معركة اليمامة:

«اليمامة» مصطلح جغرافي قديم، يشمل المناطق الشرقية من شبه الجزيرة العربية التي تقع فيها الآن مدينة «الرياض» عاصمة «المملكة العربية السعودية». ووقعت معركة «اليمامة» نفسها في مكان قريب من هذه المدينة.

وسبق أن ذكرنا أن «أبا بكر» أرسل «عكرمة بن أبي جهل» و «شرحبيل بن حسنة» للوقوف في وجه «مسيلمة»، ولم يأمرهما بقتال؛ لكنهما تعجلا مخالفين أوامر الخليفة، واشتبكا مع «مسيلمة» في حرب لم يصمدا فيها، وعادا منهزمين، ولعلهما أرادا أن يتشبهها بخالد بن الوليد حتى يحوزا أكاليل النصر، كما حازها هو. وما إن وصلت أنباء هزيمتهما إلى «أبي بكر» حتى غضب غضباً

(75/1)

شديداً، وطلب منهما ألا يعودا إلى «المدينة»، وقرر في الوقت نفسه أن يرسل «خالد بن الوليد» إلى «اليمامة» للقضاء على فتنة «مسيلمة»، فهو أصلح الناس لهذه المهمة. وكان «خالد» قد فرغ من القضاء على فتنة المرتدين من «بني أسد» و «غطفان» و «قيم»، فجاءته أوامر من «أبي بكر» بالتوجه إلى «اليمامة» للقضاء على فتنة «مسيلمة الكذاب».

امتثل «خالد بن الوليد» لأوامر الخليفة، وسار في صحراء وعرة نحو ألف كيلو متر، حتى التقى بجيوش «مسيلمة» - وكانت نحو أربعين ألفاً - في مكان يسمى «عقرباء» في حين كانت قوات «خالد» تبلغ نحو ثلاثة عشر ألفاً، فيهم عدد كبير من المهاجرين والأنصار، ودارت الحرب بين الفريقين، وكانت حرباً شرسة، اشتدت وطأتها على المسلمين في البداية، وكادوا ينهزمون، لولا أن زار «خالد» كالأسد الهصور، ونادى بأعلى صوته «وامحمداه»، وكان شعار المسلمين

في المعركة، فاشتعلت جذوة الإيمان في القلوب، وهانت الحياة على النفوس، وأقبل المسلمون على القتال دون خوف أو وجل، طمَعًا في النصر أو الشهادة، وصبروا لأعداء الله حتى هزموهم هزيمة منكرة، وقتلوا «مسيلمة» الكذاب مع نحو عشرين ألفًا من رجاله، واستسلم من بقى من قواته أسرى للمسلمين، واستشهد من المسلمين أكثر من ألف ومائتي رجل، منهم عدد كبير من القراء وحفظة القرآن الكريم.

وحين ترامت إلى المرتدين أخبار انتصارات «خالد» وما فعله في «بني حنيفة»، وقر في أذهانهم أن المسلمين لا يهزمون؛ ولذا كانت مهمة بقية القادة في المناطق التي توجهوا إليها أقل صعوبة مما واجهه «خالد بن الوليد» في «اليمامة».

وقبل أن يمضى عام على بدء حركة الردة كان «أبو بكر الصديق» قد نجح في القضاء عليها في كل مكان، وعادت شبه الجزيرة العربية موحدة دينيًا وسياسيًا تحت لواء المسلمين وحكومتهم في «المدينة» على ما كانت عليه في آخر حياة الرسول.

الفتوحات الإسلامية في عهده:

أسبابها:

(76/1)

---

من يتتبع حركة الفتوحات الإسلامية خارج شبه الجزيرة العربية يجد أنها جاءت استطرادًا، وجاءت تحت ضغط الظروف، وأن المسلمين اضطروا إليها اضطرارًا؛ إذ لم يكن لهم برنامج أو خطة معدة من قبل للفتح أو التصادم مع الآخرين؛ لأن نشر الإسلام، وهو الغاية الأولى للمسلمين، لا يتطلب أعمالًا حربية أو الدخول في معارك عسكرية، وكل ما كان يطلبه المسلمون هو أن يفسح لهم الآخرون الطريق ليدعوا إلى دينهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ولكن الفرس والروم لم

يعطوا المسلمين هذه الفرصة، فكادوا لهم واعتدوا عليهم، مما اضطر المسلمين إلى خوض الحروب معهم، ورد عدوانهم، وتحقيق الحرية لنشر العقيدة الإسلامية دون عوائق، وليس لنشر العقيدة، والفرق كبير بين المعنيين.

فتح العراق:

في أثناء حروب الردة طارد «المثنى بن حارثة» - أحد قادة المسلمين - المرتدين إلى الشمال، على الساحل الغربي للخليج العربي، فلما وصل إلى حدود «العراق» تكاثرت عليه قوات الفرس، بعد أن رأوا فشل عملائهم من المرتدين في القضاء على الإسلام فألقوا بثقلهم في المعارك ضد المسلمين.

ولما رأى «المثنى» أنه غير قادر بمن معه على مواجهة القوات الفارسية، أرسل إلى الخليفة يشرح له الموقف، ويطلب منه المدد، فأدرك الخليفة خطورة الموقف، ورأى أن يردع الفرس ويرد عدوانهم، فرماهم بخالد بن الوليد أعظم قواده، وأردفه بعباس بن غنم. وفي الحرم من العام الثاني عشر من الهجرة تحرك «خالد بن الوليد» من «اليمامة»، وكان لا يزال بها، بعد أن قضى على فتنة «مسيلمة الكذاب»، وتوجه إلى «العراق». حيث خاض سلسلة من المعارك ضد الفرس في خلال عدة شهور، في «ذات السلاسل» و «المدار»، و «الولجة»، و «أليس»، وهذه أسماء الأماكن التي دارت فيها الحروب، وكان النصر حليفه فيها، ثم توج انتصاراته بفتح «الحيرة» عاصمة «العراق» في ذلك الوقت، واستقر بها في شهر ربيع الأول من العام نفسه، ثم فتح «الأنبار» و «عين التمر» إلى الشمال من

(77/1)

---

«الحيرة»، ثم جاءته أوامر من «أبي بكر» أن يعود إلى «الحيرة» ويستقر بها إلى أن تأتيه أوامر أخرى.

وخلاصة القول أنه في خلال بضعة أشهر نجح «خالد» في فتح أكثر من نصف «العراق»، وصالح أهله على دفع الجزية، ولم يجبر أحدًا على الدخول في الإسلام».

فتح الشام:

كان «خالد بن سعيد بن العاص»، أحد قادة حروب الردة، معسكرًا بقواته في «تيماء» شمالي «الحجاز» بأمر من الخليفة الذي ألزمه بالأبى يقاتل أحدًا إلا إذا قوتل، وقصد الخليفة بذلك أن يكون هذا الجيش احتياطيًا، يمد -عند الضرورة - القوات المحاربة في جهات أخرى، وأن يراقب تحركات الروم؛ لأنه كان على يقين أنهم سوف يستغلون فرصة انشغاله بحروب الردة، ويكرروا عدوانهم.

وحدث ما توقعه «أبو بكر الصديق»، فقد هجم الروم على جيش «خالد»، ومعهم القبائل العربية القاطنة في الشام، وألحقوا به هزيمة

قاسية، وقتلوا معظم جنوده، واستشهد ابنه في المعركة، فلما

وصلت أخبار الهزيمة إلى الخليفة «أبي بكر» جمع كبار الصحابة

لدراسة الموقف، فاستقر رأيهم على ضرورة صد العدوان، وشرع

«أبو بكر» في حشد أربعة جيوش لتحقيق ذلك:

- جيش بقيادة «أبي عبيدة بن الجراح» وجهه إلى «حمص» شمالي الشام.

- وجيش بقيادة «يزيد بن أبي سفيان»، ووجهه إلى «دمشق» في وسط الشام.

- وجيش بقيادة «شرحبيل بن حسنة»، ووجهه إلى «الأردن».

- وجيش بقيادة «عمرو بن العاص»، ووجهه إلى «فلسطين».

وقال «أبو بكر» لقادة جيوشه: إذا عملتم منفردين، فكل واحد منكم

أمير على من معه من قوات - وكان مع كل واحد منهم نحو ثمانية

آلاف جندي - ثم أمير على المنطقة التي يفتحها، أما إذا ألجأتكم

الظروف إلى الاجتماع في مكان واحد، فالقائد العام «أبو عبيدة بن

الجراح».

موقعة اليرموك:

تحرك القادة الأربعة بجيوشهم، فلما دخلوا جنوبي الشام، وجدوا جيشاً رومياً، قوامه نحو (250) ألف جندي، بقيادة «تذراق» أخي

(78/1)

«هرقل»، يساندهم نحو ستين ألفاً من العرب - تقريباً - بقيادة «جبله بن الأيهم الغساني»، فلم يستطيعوا الالتحام مع هذه الجموع الحاشدة، فدارت بينهم مراسلات تجمعوا بعدها في وادي «اليرموك»، تحت قيادة «أبي عبيدة بن الجراح». لكن تجمعهم لم يؤد إلى تحريك للموقف ضد الروم، فأخبروا الخليفة «أبا بكر» بما هم فيه، وطلبوا المدد منه، فرأى أنه لن ينقذ الموقف في الشام سوى «خالد بن الوليد»، وقال عبارته المشهورة: «والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد»، ثم كتب رسالة إليه: «أما بعد فإذا جاءك كتابي هذا، فدع العراق، وأخلف فيه أهله الذين قدمت عليهم وهم فيه وامض متخففاً في أهل القوة من أصحابك الذين قدموا العراق معك من اليمامة، وصحبوك من الطريق، وقدموا عليك من الحجاز، حتى تأتي الشام، فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين، فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة والسلام عليك». امثل «خالد» لأوامر الخليفة، وسار من «العراق» في سبعة آلاف جندي في واحدة من أجراً المسيرات العسكرية في التاريخ وأكثرها خطراً، حيث قطعوا أكثر من ألف كيلو متر في ثمانية عشر يوماً، في صحراء قاحلة مهلكة، حتى وصلوا إلى «وادي اليرموك» فتسلم «خالد بن الوليد» القيادة من «أبي عبيدة» وخاض معركة مع الروم تُعد من أعظم المعارك وأبعدها أثراً في حركة الفتح الإسلامي، وسحق جيش الروم الذي كان يعد يومئذ أقوى جيوش العالم، إذ قتل منه نحو مائة وعشرين ألفاً، وقد أدرك «هرقل» إمبراطور الروم حجم الكارثة التي حلت بجيشه، فغادر المنطقة نائياً، وقلبه يقطر دمًا،

ويتحسر على جهوده التي بذلها في استرداد الشام من الفرس، ثم ها هي ذى يفتحها المسلمون، وقال: «السلام عليك يا سوريا، سلامًا لا لقاء بعده، ونعم البلد أنت للعدو وليس للصديق، ولا يدخلك رومي بعد الآن إلا خائفًا». وقد استشهد من المسلمين نحو ثلاثة آلاف، وقد فتح هذا النصر

(79/1)

العظيم الطريق لفتح بقية الشام، الذي تم في عهد «عمر بن الخطاب». الجمع الأول للقرآن في عهد أبي بكر الصديق: فرع «عمر بن الخطاب» لاستشهاد عدد كبير من حفظة القرآن في حروب الردة، وبخاصة معركة «اليمامة»، فأشار على «أبي بكر» بضرورة جمع القرآن في مصحف واحد؛ خشية أن يُستشهد عدد آخر من الحفاظ، فيضيع القرآن، أو يدخله تحريف إذا تباعد الزمن بين نزوله وجمعه، كما حدث للكتب السابقة. تردد «أبو بكر» في بادئ الأمر من اقتراح «عمر»، وقال: «كيف أفعل شيئًا لم يفعله رسول الله - صلى الله عليه وسلم -»، فقال له «عمر»: «أرى والله أنه خير»، فلم يزل «عمر» بأبي بكر حتى قبل، ثم استدعى «أبو بكر» «زيد بن ثابت الأنصاري»، وكلفه بمهمة جمع القرآن، قائلاً له: «إنك رجل شاب عاقل، لا تنتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فتتبع القرآن فاجمه»، فقبل «زيد» هذه المهمة الثقيلة، وبدأ في تتبع القرآن، وجمعه من الرقاع والعظام، والعسب (سعف النخل) التي كان مكتوبًا عليها ومن صدور الرجال، وجعل ذلك في مصحف واحد. وقد ظل هذا المصحف عند «أبي بكر»، ثم انتقل بعد وفاته إلى «عمر بن الخطاب»، ثم انتقل بعد وفاته إلى ابنته أم المؤمنين «حفصة»، وفي عهد «عثمان» دعت الضرورة إلى جمع الناس على قراءة

واحدة، فأخذه «عثمان» منها، ونسخ منه عدة نسخ ووزعها على الأمصار.

وهكذا تَوَجَّح «أبو بكر الصديق» أعماله الجليلة بجمع القرآن.

وفاة أبي بكر الصديق:

قضى «أبو بكر» في الخلافة سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام قام فيها بجلائل الأعمال، ونهض بمسئولية قيادة الدولة على خير وجه، وعاش حياته للإسلام وللمسلمين، ووهب حياته لخدمة رعيته، والدفاع عن عقيدتها، دون أن يأخذ أجرًا على تحمله تبعات هذا المنصب الجليل، منصب الخليفة، وعاش مثل بقية رعيته دون أن يمتاز عنهم في مسكن أو ملبس، بل إنه رد ما خصصه له كبار الصحابة من راتب ضئيل، كي يترك التجارة ويتفرغ لمنصبه.

(80/1)

---

وفي أواخر شهر جمادى الآخرة من العام الثالث عشر للهجرة، فاضت روح «أبي بكر» إلى بارئها بعد مرض استمر أسبوعين، كان سببه الحمى، وتولى بعده الفاروق «عمر بن الخطاب».

(81/1)

---

## الفصل السابع

\*خلافة عمر بن الخطاب (13 - 23 هـ)

نسبه وصفته وإسلامه:

هو «عمر بن الخطاب بن نُفَيْل بن عبد العُزَّى بن رباح» وأمه «حنتمة بنت هشام بن المغيرة».

أسلم في العام الخامس من البعثة، وعمره سبع وعشرون سنة، بعد

أربعين رجلاً، وإحدى عشرة امرأة، أسلموا قبله، وكان قبل إسلامه معادياً للإسلام شديداً في عداوته، لكن الله شرح صدره للإسلام استجابة لدعاء النبي - صلى الله عليه وسلم - له: «اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب».

وعُرف «عمر بن الخطاب» بشخصية قوية، وإرادة لا تلين، وحزم وعزم في الأمور، وهيبة في القلوب، وكان سفير «قريش» في الجاهلية، وهى مهمة تحتاج إلى علم وعقل، وكياسة وحسن تصرف. عمل «عمر» في بداية نشأته بالرعى، ثم عمل في التجارة إلى الشام وإلى «اليمن»، وكان يحرص على مقابلة ذوى الشأن في تلك البلاد؛ ليزداد علماً وخبرة بالحياة، وكان واحداً من سبعة عشر رجلاً من «قريش» يعرفون القراءة والكتابة في «مكة».

واشتهر «عمر بن الخطاب» أنه كان قوى البنية، طويل القامة، إذا مشى بين الناس أشرف عليهم، كأنه راكب على دابته، أبيض اللون تعلوه حمرة، جهورى الصوت، قليل الضحك، لا يمازح أحداً، مقبلاً على شأنه.

أما صفاته الأخلاقية فهي «الإحساس الكامل بالمسئولية، والشدة والفراسة، والعدل والهيبة، وواضح أن هذه الصفات هى نتاج عوامل كثيرة متنوعة، مثل نشأة «عمر» الأولى وثقافته، والقيم التى غرسها الإسلام فى نفسه. أما إحساس «عمر» الكامل بمسئوليته قبل الرعية، فذلك ما لاحتاجة بنا إلى التدليل عليه، ويمكن إرجاعه إلى النزعة الدينية التى ملكت عليه شغاف نفسه، والتى شهد له بها الجميع، وعلى رأسهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فالعقيدة وحدها هى التى تبلغ بالمرء هذا المستوى القدسى، وهى التى تجعل الإنسان رقيباً على نفسه فى جميع حركاته وسكناته، ولن تغنى عنها أية رقابة أخرى».

عمر والرسول - صلى الله عليه وسلم -:

احتل «عمر بن الخطاب» منذ أن أسلم المكانة التالية لمكانة «أبي بكر الصديق» عند النبي - صلى الله عليه وسلم -، لصفاته العالية التي سبق أن ذكرنا بعضها، ولدعوة النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يُعز الله الإسلام بعمر بن الخطاب، وكانت دعوة ناشئة عن معرفة دقيقة بخصائص الرجل الذي سيكون ثالث ثلاثة في الإسلام قدرًا ومنزلة. وعلى أية حال فإن أخلاق «عمر» وصفاته مهما تكن لم تكن لتبلغ به ما بلغ من المكانة العالية والقدر الرفيع إلا بإسلامه وبصلته برسول الله - صلى الله عليه وسلم -، الذي تعهده بالتربية والرعاية، وأفسح لمواهبه أن تنطلق إلى أفاق عالية، لتؤدي دورها الخلاق لا في تاريخ الإسلام فحسب، بل في تاريخ البشرية، وليكون صاحبها واحدًا من عظماء الدنيا، وقد وضعه الكاتب الأمريكي «مايكل هارت» بين الخالدين المائة في التاريخ الإنساني كله.

ومنذ أن أسلم «عمر بن الخطاب»، وهو من أكثر الصحابة ملازمة للنبي - صلى الله عليه وسلم -، حتى إن الصحابة أطلقوا عليه وعلى أبي بكر الصديق: وزيرى محمد.

واشتهر «عمر» دون غيره من الصحابة بمواقف كثيرة، كان يناقش النبي - صلى الله عليه وسلم - فيها ويعترض عليه في صراحة، مثل: موقفه من أسرى «بدر»، و «صلح الحديبية» والصلاة على «عبد الله بن أبي بن سلول» رأس النفاق، ولم يكن النبي - صلى الله عليه وسلم - يضيّق بذلك، بل يسمع برحابة صدر وسعة أفق، ويشجع «عمر» وغيره على إبداء آرائهم دون خوف أو وجل، يعلمهم بذلك حرية الرأى، والمشاركة في صنع القرار.

وكثير من تلك الآراء التي عارض فيها النبي - صلى الله عليه وسلم - نزل القرآن مؤيدًا لها لفرط إخلاصه لدينه، وشفافية روحه، وقد عدّ العلماء نحو عشرين موقفًا من هذا القبيل منها: تحريم الخمر، وضرب الحجاب على زوجات النبي - صلى الله عليه وسلم -.

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل «عمر»، منها قوله - صلى الله عليه وسلم - : «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه». توليه الخلافة:

(83/1)

أراد «الصديق أبو بكر» أن يختار المسلمون خليفتهم بأنفسهم دون قيد، وإرادتهم الحرة بلا تدخل، فقال لهم وهو على فراش المرض: «إني قد نزل بي ما ترون، ولا أظنني إلا ميتاً لما بي من المرض، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي، وحلّ عنكم عقدتي، ورد عليكم أمركم، فأمرُوا عليكم من أحببتهم، فإنكم إن أمرتم في حياة مني كان أجدر ألا تختلفوا بعدي».

لكنهم طلبوا منه أن يرشح لهم من يراه أهلاً لتولي الخلافة بعده، وأقدر على تحمل تبعاتها الجسام، فقبل ذلك، وطلب منهم مهلة حتى ينظر لله ولدينه ولعباده، وبعد تفكير عميق، واستشارة لكبار الصحابة مثل: «عثمان بن عفان» و «علي بن أبي طالب» و «عبدالرحمن بن عوف» استقر رأيه على «عمر بن الخطاب». ولم يكن ترشيح كبار الصحابة «عمر بن الخطاب» للخلافة وتركيتهم له، بعد «أبي بكر» غريباً أو مفاجأة، فهم يعرفون قدره ومنزلته، وقد سبق أن ذكرنا تقديم النبي - صلى الله عليه وسلم - «أبا بكر» ليؤم الناس في الصلاة، ورفضه أن يقوم بهذا «عمر بن الخطاب»، فلما تأخر «أبو بكر» يوماً عن الصلاة، قدّم «بلال» «عمر بن الخطاب» اجتهاداً منه ليؤم الناس، فلما سمع الرسول «عمر» يقيم الصلاة رفض ذلك، وقال «أين أبو بكر؛ يأبي الله ذلك والمسلمون». وعلى الرغم من ذلك فإن هذا التصرف التلقائي من «بلال» يدل على أن الصحابة كانوا يعلمون أن أفضل الناس بعد «أبي بكر الصديق» هو «عمر بن الخطاب».

ولم يعترض على ترشيح «عمر» للخلافة إلا عدد قليل من كبار الصحابة، وعللوا ذلك بغلظته وشدته، لكن «أبا بكر» طمأنهم وبين لهم أن ما يجدونه من شدته، إنما هو لله وفي الله، وإنه يشتد لأنه يراني أحياناً ليئناً، حتى يحدث نوعاً من التعادل، وأنه لو أفضى الأمر - أي الخلافة - إليه لترك كثيراً مما هو فيه. ولا يقلل هذا الاعتراض من سداد رأى «أبي بكر» في «عمر»، ولا من شأن «عمر» نفسه، بل يدل ذلك على حرية الرأى تجاه الشخصية

(84/1)

التي ستلى أمر الخلافة، فلن يضير «عمر» أن نفرًا من ذوى الرأى لم يؤيدوا ترشيحه، بل يكفيه أن أغلب الصحابة أجمعوا على تركيته، ورضوا به لهذا المنصب الجليل، وهذا ما تسير عليه الآن الأمم الحرة في اختيار حكامها، فالإجماع ليس شرطاً ضرورياً في اختيار الحاكم. اطمأنت نفس «أبي بكر الصديق» بعد أن استشار كبار الصحابة إلى اختيار «عمر بن الخطاب» خليفة من بعده، فأشرف على الناس وهو مريض، وقال: «أترضون بمن أستخلف عليكم؟»، فإني والله ما آلوت من جهد الرأى، ولا وليت ذا قرية، وإني قد وليت عليكم عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا» فقالوا: سمعنا وأطعنا. بايع المسلمون «عمر بن الخطاب»، وبذا أصبحت خلافته شرعية. وبعد الفراغ من دفن «أبي بكر الصديق» صعد «عمر بن الخطاب» منبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ووقف على درجة أدنى من الدرجة التي كان يقف عليها «أبو بكر الصديق»، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي - صلى الله عليه وسلم -، وذكر «أبا بكر» - رضى الله عنه - بكل خير، وقال: «أيها الناس ما أنا إلا رجل منكم، ولولا أنى كرهت أن أرد أمر خليفة رسول الله ما تقلدت أمركم»، فأثنى المسلمون عليه خيراً، وزاد ثناؤهم حين رأوه يرفع بصره إلى السماء

ويقول: «اللهم إني غليظ فليتي، اللهم إني ضعيف فقوني، اللهم إني بخيل فسحني».

وفي اليوم التالي لتوليه الخلافة خطب خطبة أخرى، أراد أن يوضح فيها طريقته في الحكم، ويزيل ما قد علق في نفوسهم من خوفٍ من شدته التي صرحوا بها لأبي بكر حين رشحه للخلافة، فقال: «بلغني أن الناس هابوا شدتي وخافوا غلظتي، وقالوا: كان عمر يشتد علينا ورسول الله بين أظهرنا، ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه، فكيف وقد صارت الأمور إليه؟ ومن قال ذلك فقد صدق .. إني كنت مع رسول الله فكنت عبده وخادمه، وكان من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة، وكان كما قال الله تعالى بالمؤمنين رءوفًا رحيمًا، فكنت

(85/1)

---

بين يديه سيئًا مسلولا، حتى يغمدني أو يدعني فأمضي، فلم أزل مع رسول الله حتى توفاه الله، وهو عني راضٍ، والحمد لله كثيرًا، وأنا به أسعد، ثم ولى أمر المسلمين أبو بكر، فكان من لا تنكرون دعتهم وكرمهم ولينهم، فكنت خادمه وعونه، أخلط شدتي بلينهم، فأكون سيئًا مسلولا، حتى يغمدني أو يدعني فأمضي، فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عزَّ وجل، وهو عني راضٍ، فالحمد لله على ذلك كثيرًا، وأنا به أسعد، ثم إني وليت أموركم أيها الناس، فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت - أي زادت - فارتعد بعضهم من الخوف لكنه طمأنهم فقال: ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدى على المسلمين، فأما أهل السلامة والقصد - أي الاعتدال - فأنا ألين لهم من بعضهم على بعض، ولست أدع أحدًا يظلم أحدًا أو يتعدى عليه حتى أضع خده على الأرض، وأضع قدمي على الخد الآخر، حتى يدعن بالحق، وإني بعد شدتي تلك أضع خدي على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف، ولكم على أيها الناس خصال أذكرها لكم،

فخذوني بها، لكم على ألا أجي شيئاً من خراجكم، ولا ما أفاء الله عليكم إلا من وجهه، ولكم على إذا وقع في يدي ألا يخرج مني إلا في حقه، ولكم على أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله - تعالى - وأسد ثغوركم، ولكم على ألا ألقىكم في المهالك، وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال - أي يرعاهم - فاتقوا الله عباد الله وأعينوني على أنفسكم بكفها عني، وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحضاري النصيحة فيما ولاني الله من أمركم، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم». الفتحوات في عهد عمر بن الخطاب:

مواصلة فتح العراق:

بعد أن رحل «خالد بن الوليد» من «العراق» إلى الشام؛ ليتولى قيادة الجيوش في «اليرموك»؛ تنمّر الفرس بالمتنى بن حارثة خليفة «خالد» على قيادة الجيش في «العراق» وبدءوا في الضغط عليه، فطلب مدداً من «أبي بكر»، الذي كان مشغولاً بحرب الروم.

(86/1)

فلما تأخر رد «الصدّيق أبي بكر» على «المتنى» جاء بنفسه ليعرف سبب ذلك، فوجد الخليفة علي فراش المرض، فلم يستطع أن يكلمه، ولما علم بذلك الخليفة أدرك أن «المتنى» لم يأت إلا لضرورة، فكان آخر كلامه لعمر بن الخطاب أن أوصاه بتجهيز جيش، يرسله مع «المتنى» إلى «العراق»، لصد عدوان الفرس، فعمل «عمر» بوصية «أبي بكر»، وأرسل جيشاً على الفور إلى «العراق» بقيادة «أبي عبيد بن مسعود الثقفي».

موقعة الجسر:

وفي شهر شعبان من سنة 13هـ خاض «أبو عبيد بن مسعود» معركة ضد الفرس سميت بموقعة الجسر، لأن المسلمين أقاموا جسراً على

«نهر الفرات» لعبور قواتهم البالغة تسعة آلاف جندي، وكان عبورهم النهر خطأ عسكرياً جسيماً وقع فيه «أبو عبيد»، ولم يستمع إلى نصيحة قادة جيشه ومنهم «المثنى بن حارثة»، الذين نبهوه إلى خطورة ذلك، وأن موقف المسلمين غربى النهر أفضل وضع لهم، وليتركوا قوات الفرس تعبر إليهم، فإذا انتصروا كان عبور النهر إلى الشرق أمراً سهلاً، وإذا انهزموا كانت الصحراء وراءهم يتراجعون فيها، ليعيدوا ترتيب أوضاعهم، لكن «أبا عبيد» لم يستجب لهم، فحلت الهزيمة بالمسلمين على يد القائد الفارسي «بهمن جاذويه»، وقتل «أبو عبيد» نفسه، واستشهد أربعة آلاف مسلم.

موقعة البويب:

بذل «المثنى بن حارثة» جهداً كبيراً في تأمين عبور من بقى من قوات المسلمين إلى الناحية الأخرى، وأدرك أنه لا بد من خوض معركة أخرى مع الفرس، حتى لا تؤثر الهزيمة في معنويات المسلمين، وبخاصة أنها كانت أول مرة يهزمون فيها في هذه الجبهة منذ أن بدأت الفتوحات.

استدرج «المثنى بن حارثة» قوات الفرس للعبور إلى غرب النهر، فعبروا إليه مدفوعين بنشوة النصر السابق، وظنوا أن تحقيق نصر آخر سيكون أمراً سهلاً، لكن «المثنى» فاجأهم بعد أن استثار حمية العرب القاطنين في المنطقة، وأوقع بالفرس هزيمة كبيرة، على حافة نهر يُسمى «البويب» الذى سميت المعركة باسمه.

(87/1)

---

وعلى الرغم من هذا النصر الذى أعاد به «المثنى» الثقة إلى قواته، فإنه أدرك بعد طول تجربة أنه لن يستطيع بمن معه من قوات أن يواجه الفرس الذين ألقوا بتقلهم كله في الميدان، فتراجع إلى الخلف، ليكون بمأمن من هجمات الفرس، وأرسل «إلى» «عمر» يخبره بحقيقة

الموقف.

معركة القادسية:

لما وصلت إلى «عمر بن الخطاب» تقارير «المتنبي» عن الوضع في جبهة «العراق» عزم على الخروج بنفسه على رأس جيش كبير، لينسى الفرس وساوس الشيطان كما أنسى «خالد بن الوليد» الروم تلك الوسوس، لكن الصحابة لم يوافقوه على رأيه، ورأوا أن الأفضل أن يبقى هو في «المدينة» يدير أمور الدولة، ويشرف على تجهيز الجيوش، ويختار واحدًا لقيادة الحرب ضد الفرس، فقبل نصيحتهم، وقال لهم: أشيروا على، فأشاروا عليه بسعد بن أبي وقاص، وقالوا عنه: هو الأسد في عربنه، فاستدعى «سعدًا» وأمره على الجيش، فاتجه به «سعد» إلى «العراق» حيث عسكر في القادسية. وقبل نشوب المعركة أرسل «سعد» وفدًا إلى بلاط فارس، ليعرض الإسلام على «يزدجرد الثالث» آخر ملوكهم، فإذا قبله فسيتكونه ملكًا على بلاده، كما ترك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «باذان» ملكًا على «اليمن»، وإذا رفض الدخول في الإسلام، فلن يكرهه عليه أحد، ولكن لا بد من دفع الجزية دليلاً على عدم المقاومة، فإذا امتنع عن دفعها، حاربوه، لأن رفضه دفع الجزية يعنى عزمه على حرب المسلمين، ومنعهم بالقوة من تبليغ دعوة الإسلام إلى الناس. سمع «يزدجرد» هذا الكلام، فأخذه العجب، وعلته الدهشة؛ لأنه لم يتعود سماع مثل هذا الكلام من هؤلاء الناس، فخاطب رئيس الوفد قائلاً: «إني لا أعلم أمة كانت أشقى، ولا أقل عددًا، ولا أسوأ ذات بين منكم، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي -الحدود- فيكفونناكم، لا تغزون فارس، ولا تطمعون أن تقوموا لهم .. وإن كان الجهد - الجوع - دعاكم فرضنا لكم قوتًا إلى خصبكم، وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم،

وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم».

فقام زعيم الوفد ورد على الملك الذى كان لا يزال يتحدث بروح  
السيادة، ومنطق الاستعلاء، قاتلاً: «إن ماقلته عنا صحيح قبل بعث  
النبي - صلى الله عليه وسلم -، الذى قذف الله فى قلوبنا التصديق له  
واتباعه، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين، فما قال لنا فهو قول  
الله، وما أمرنا فهو أمر الله .. وقال: من تابعكم على هذا فله مالكم  
وعليه ما عليكم، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية، ثم امنعوه مما  
تمنعون منه أنفسكم، ومن أبى فقاتلوه».

رفض الملك هذا العرض فى كبرياء وصلف، ثقة منه بقدره جيوشه  
بقيادة «رستم» على سحق هؤلاء العرب، وعاد الوفد إلى «سعد بن  
أبى وقاص» وقصوا عليه ما حدث، فاستعد هو للمعركة الحاسمة.  
وفى «القادسية» دارت رحى الحرب بين الفريقين، واستمرت ثلاثة  
أيام ونصف اليوم الرابع، وأسفرت عن نصر حاسم للمسلمين، وهزيمة  
منكرة للفرس، وقتل قائدهم «رستم»، وتشيتت من نجا منهم من  
القتل.

وتعد معركة «القادسية» من المعارك الفاصلة فى التاريخ؛ لأنها  
حسمت أمر «العراق» العربى نهائياً، وأخرجته من السيطرة الفارسية  
التي دامت قرونًا، وأعادته إلى أهله العرب المسلمين.

فتح المدائن:

انفتح الطريق أمام المسلمين بعد انتصارهم فى «القادسية» إلى  
«المدائن» عاصمة الفرس، فعبر «سعد» نهر «دجلة» من أضيق مكان  
فيه بنصيحة «سلمان الفارسى»، ودخل «المدائن»؛ ليجد الملك  
الفارسى قد فرَّ منها، وكان قبل أيام قليلة يهدد المسلمين ويتوعددهم  
من قصره الأبيض، مقر ملك الأكاسرة، الذى كان آية من آيات الفخامة  
والبهاء.

وفى ذلك القصر صلى «سعد ابن أبى وقاص» صلاة الشكر لله على  
هذا الفتح العظيم وتلا فى خشوع قول الله تعالى: {كم تركوا من  
جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك

وأورثناها قومًا آخرين فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا  
منظرين}. [الدخان: 25 - 29].

أرسل «سعد» إلى «عمر بن الخطاب» رسولاً يبشّره بالنصر وبما

(89/1)

حازوه من غنائم، ويطلب منه السماح لهم بمواصلة الفتح في بلاد  
فارس، لكن «عمر» رفض ذلك، وقال له: «وددت لو أن بيننا وبينهم  
سدًا من نار، لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم، حسبنا من الأرض السواد -  
أى أرض العراق - إن آثرت سلامة المسلمين على الأنفال». معركة نهاوند:

اعتقد «عمر بن الخطاب» أن الفرس سيجنحون إلى السلام بعد  
هزيمتهم في «القادسية»، واسترداد المسلمين «العراق» وهي أرض  
عربية، لكن الحوادث كثيرًا ما تكون أقوى من الرجال، وتدفعهم دفعًا  
إلى تعديل سياساتهم، فقد وردت الأنباء إلى «عمر» أن الفرس انفخوا  
حول ملكهم الذي هرب من «المدائن»، واحتشدوا في جموع هائلة في  
«نهاوند» تصل إلى نحو مائتي ألف جندي بقيادة «الفيروزان». وكانت  
سياسة «عمر بن الخطاب» أن يقف بالفتوحات الإسلامية عند  
حدود «العراق» و «الشام»، ولا يتعداها، حيث قبائل العرب التي نزحت  
من شبه الجزيرة العربية وأقامت هناك، أما ما وراء ذلك من أرض  
الفرس والروم فلم يكن للمسلمين مطمع في غزوه وفتحه، ولكن ليس  
كل ما يتمناه المرء يدركه، فقد حملت حوادث الفتوحات وتطوراتها  
«عمر بن الخطاب» على تعديل سياسته تجاه الفرس والروم.  
ولما وصلت أخبار استعداد الفرس جمع «عمر» كبار الصحابة  
واستشارهم في كيفية مواجهة هذا الموقف، فأشاروا عليه بتجهيز  
جيش لردع الفرس قبل أن ينقضوا على المسلمين في بلادهم، فعمل  
بمشورتهم، وجهاز جيشًا قوامه نحو أربعين ألف مجاهد تحت قيادة

«النعمان بن مقرن».

ودارت معركة «نْهاوند»، وانتهت بنصر عظيم للمسلمين، وهزيمة ساحقة للفرس، وقد سمي المؤرخون المسلمون هذ النصر «فتح الفتح»، لأن الفرس قد تفرقت كلمتهم، وانفرط عقد دولتهم بهذا النصر.

الانسياح في بلاد فارس:

كانت معركة «نْهاوند» من المعارك الفاصلة في التاريخ، فقد أزالَتْ نهائيًا الإمبراطورية الفارسية بعد معركتي «القادسية» و «نْهاوند»، ولم تقم لها قائمة بعد ذلك.

(90/1)

وبعد «نْهاوند» عقد «عمر بن الخطاب» العزم على القضاء تمامًا على التهديد الفارسي للدولة الإسلامية ودعوها، فأعد تسعة جيوش في وقت واحد، لفتح جميع المقاطعات الفارسية، من «خراسان» في أقصى الشمال الشرقي إلى إقليم «فارس» في الجنوب الغربي، ومن «أذربيجان» في الشمال الغربي إلى «مكران» في الجنوب الشرقي، وفي خلال سنة (22هـ) كانت تلك المقاطعات كلها تحت السيادة الإسلامية، ولم يجبر المسلمون أحدًا من سكانها على الدخول في الإسلام، وإنما قبلوا منهم الجزية، وأعطوهم معاهدات، ضمنوا لهم بمقتضاها حرية العبادة، وحفظوا لهم أنفسهم وأموالهم. وبدأ تاريخ جديد لبلاد فارس، ذاقت فيه طعم الحرية والعدل؛ وعرفت معنى المساواة، وتحررت من استبداد الأكاسرة وظلمهم. استكمال فتح الشام:

بعد تولى «عمر بن الخطاب» الخلافة عزل «خالد بن الوليد» من قيادة جيوش الشام، وأعاد «أبا عبيدة بن الجراح» إليها، وجعل «خالدًا» تحت قيادته، وقد قبل القائد البطل هذا التعديل دون تدمير، لأنه كان

جندياً يعمل للإسلام لا لمجده الشخصي، وإذا كان قد احتل المكان الأعلى بين قادة الفتوحات ببطولاته وانتصاراته، فإنه اعتلى ذروة أعلى بقبوله العزل، وضرب أروع الأمثلة في الانضباط والطاعة، وتلك أهم صفات القادة العظام.

وكانت تعليمات «عمر» لأبي عبيدة بعد «اليرموك»، أن تعود الأمور إلى ما كانت عليه من قبل في مطلع فتح الشام، حين رتب ذلك «أبو بكر الصديق»، فيسير «أبو عبيدة» ومعه «خالد بن الوليد» إلى «حمص»، و «يزيد بن أبي سفيان» إلى «دمشق»، و «شرحبيل بن حسنة» إلى «الأردن»، و «عمرو بن العاص» إلى «فلسطين»، وكل قائد يكون أميراً على منطقته التي يفتحها، على أن يكون ذلك بعد أن يشتركوا جميعاً في فتح «دمشق».

وبعد أن نجح القادة جميعهم في فتح «دمشق» وأعطوا أهلها معاهدة صلح بقى «يزيد بن أبي سفيان» أميراً عليها، في حين اتجه

(91/1)

---

القادة الباقون إلى مناطقهم، وفي خلال عامين فقط تم فتح الشام كله.

وفي سنة (15 هـ) جاء «عمر ابن الخطاب» إلى «فلسطين»؛ ليتسلم مفاتيح «بيت المقدس» من البطريك «صفرونيوس»، وأعطى معاهدة لأهلها هي آية في التسامح والعدل، أمنهم على عقائدهم وأموالهم وأنفسهم، وأخذت منهم نظير ذلك الجزية لرفضهم الدخول في الإسلام.

وقد رفض «عمر بن الخطاب» أن يصلى في «كنيسة القيامة»، معللاً ذلك بخوفه أن يأتي من المسلمين من يقول: لقد صلى «عمر» في الكنيسة فهي من حقنا، وهذا ظلم للمعاهدين لا يقره عمر.

فتح مصر:

بعد فتح «بيت المقدس» اتجه «عمر» إلى الشمال، وعقد في «الجابية» جنوبي «دمشق» مؤتمرًا حضره جميع القادة المسلمين، ناقش فيه ماتم إنجازهِ والترتيبات اللازمة لإدارة البلاد المفتوحة إدارة حسنة، والعمل على إشاعة العدل والحرية بين الناس بعد الظلم والاستبداد والاستعباد الذي ذاقوه من الروم.

وفي هذا المؤتمر عرض «عمرو بن العاص» والى «فلسطين» على «عمر بن الخطاب» ضرورة فتح «مصر»، لأن فلول قوات الروم في «الشام» لجأت إلى «مصر» التي كانت في ذلك الوقت تحت حكم الروم، كما لجأ «الأطربون» قائد قواتهم في فلسطين إلى «مصر»؛ ليستعد من جديد للانقضاض على المسلمين في الشام، ولذا فإن بقاء «مصر» في أيدي الروم سيكون خطرًا على فتوحات المسلمين في الشام، بل قد يصل الخطر إلى شبه الجزيرة العربية نفسها.

ولما اقتنع «عمر بن الخطاب» بما أبداه «عمرو بن العاص» أذن له بالسير إلى «مصر» لفتحها، فخرج في أربعة آلاف جندي، ودخل «العريش» دون قتال، ثم توجه إلى «الفرما» (مدينة قديمة شرقي «بور سعيد») ففتحها بعد معارك يسيرة مع حاميتها الرومية، ثم توجه إلى «بليس» في محافظة «الشرقية» الحالية، فهزم جيشًا روميا كان يقوده «الأطربون»، ثم هزم الروم مرة أخرى في «عين شمس».

ولما تجمعت قوات الروم كلها في «حصن بابلين» بالقرب من «مصر

(92/1)

---

القديمة» الحالية؛ طلب «عمرو» مددًا من الخليفة «عمر»، فأمدّه بثمانية آلاف جندي، مكنته من فتح الحصن والاستيلاء عليه، ثم اتجه إلى «الإسكندرية» ففتحها، وأرسل فرقة من قواته لفتح «الفيوم».

وفي نحو «عامين» (19 - 21هـ) فتحت «مصر» بأكملها، وكان فتحًا

سهلا ويسيراً، لأن القبط لم يشتركوا في معارك ضد المسلمين، بل ساعدوهم وقدموا لهم يد العون، فدلّوهم على أيسر الطرق، وأمدوهم بالطعام، تخلّصاً من حكم الروم الذين اضطهدوهم دينياً، مع أنهم مسيحيون مثلهم، وأرهقوهم بالضرائب، واستغلوهم أبشع استغلال. ولما تعامل أهل «مصر» مع الفاتحين المسلمين أدركوا أن ما سمعوه كان حقيقة، فقد منحوهم الحرية الدينية الكاملة، وأعادوا بطيركهم «بنيامين» إلى كنيسته بالإسكندرية، وكان الروم قد نفوه إلى «وادي النطرون»، وقد حفظ الرجل هذا العمل الجليل لعمرو بن العاص، فعاونه كثيراً في إدارة «مصر» إدارة حسنة.

وقد أتاح الفتح الإسلامي لمصر جواً من الحرية والتسامح لم تشهده البلاد منذ زمن بعيد، بنص المعاهدة التي أعطاها «عمرو بن العاص» لأهل «مصر»: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص، ولا يساكنهم النوب - أهل النوبة - وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية .. ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب، فله مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم، ومن أبي واختار الذهب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، على ما في هذا الكتاب عهد الله، وذمة رسوله، وذمة الخليفة أمير المؤمنين، وذمة المؤمنين».

وقد عمل المسلمون بوصية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - التي أوصاهم فيها بأهل «مصر» خيراً عندما يفتحونها؛ لأن لهم ذمة ورحماً، كما نصحهم أن يتخذوا منها جنداً كثيراً، فأجنادها من خير أجناد الأرض، لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة.

عوامل نجاح الفتوحات الإسلامية في عهد عمر:  
في خلال السنوات العشر التي تولى «عمر» فيها الخلافة (13 - 23هـ)  
امتدت حدود الدولة الإسلامية من ولاية «برقة» - في «ليبيا» حاليًا -  
غربًا إلى نهر «جیحون» شرقًا، ومن بحر «قزوين» في الشمال إلى  
«المحيط الهندي» في الجنوب.

وقد حار المؤرخون في تفسير نجاح هذه الفتوحات، وتعليل  
أسبابها، فقد أذهلهم أن العرب الذين كانوا قبل دخولهم الإسلام  
قليلى الشأن، لا حول لهم ولا قوة، ولا يابه بهم أحد ولا يحسب لهم  
حساب، هم في سنوات قليلة ينجحون في إزالة الإمبراطورية  
الفارسية كلها، وهى التى وقفت نداءً للإغريق والرومان نحو ألف  
سنة، وفي فتح الشام، و «مصر» وهما أعظم ولايات الدولة البيزنطية  
وأكثرها غنى في الشرق بعد إنزال هزائم قاسية بجيوشها في  
«اليرموك» وغيرها.

وسبب حيرة هؤلاء المؤرخين أنهم يربطون عادة بين الانتصارات  
والهزائم في الحروب، وبين أعداد الجيوش المتحاربة وما معها من  
عدة وأسلحة، ولما كان المسلمون أقل عددًا وعتادًا على نحو لا  
يقارن بما كان عند الفرس والروم، راحوا يبحثون عن أسباب أخرى  
غير قضية العدد والأسلحة، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى.  
ذهب بعضهم إلى القول بأن المسلمين واجهوا دولتى الفرس والروم،  
وهما في حالة ضعف وانحيار بعد الحروب الطويلة التى دامت بينهما،  
وانتصروا عليهما بسهولة وفي وقت قصير. غير أن هذا التفسير بعيد  
عن الواقع ومخالف للحقيقة، فالمعارك التى دارت فى «القادسية»  
و «تھاوند» و «اليرموك» لا تؤيد هذا التعليل؛ لأنها كانت معارك  
كبيرة، ولم تكن جيوش الفرس والروم فيها ضعيفة، وهى لم تهزم أمام  
المسلمين لضعف قوتها المادية من الرجال والأسلحة، ولكن لأن  
معنويات أفرادها كانت منحطة إلى أبعد الحدود، فى حين كانت  
معنويات المسلمين عالية، ويعرفون الهدف الذى يحاربون من أجله،

وكان الموت أحب إليهم من الحياة.  
وهذا هو السبب الرئيسي في انتصاراتهم الذي نسيه الكتاب الغربيون

(94/1)

أو تناسوه، فمنبع هذه القوة وسبب هذا الانقلاب العظيم الذي لا يوجد له مثيل في التاريخ أن العرب أصبحوا بفضل رسالة الإسلام أصحاب دين ورسالة، فبعثوا بعثًا جديدًا، وخلقوا من جديد، وعلموا أن الله قد ابتعثهم ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، .. وعرفوا أن الله قد ضمن لهم النصر ووعدهم الفتح، فوثقوا بنصر الله وواعد رسوله، واستهانوا بالقلة والكثرة، واستخفوا بالمخاوف والأخطار.

وفي ذلك قال المؤرخون: «لما أقبل خالد بن الوليد من العراق، ليتولى قيادة الجيوش في الشام لحرب الروم، قال رجل من نصارى العرب أمامه: ما أكثر الروم وأقل المسلمين، فهره خالد، وقال له: ويحك بل قل: ما أكثر المسلمين وأقل الروم إن الجيوش تكثر بالنصر وتقل بالهزيمة لا بعدد الرجال».

وهذه الحقيقة عرفها أعداؤهم حتى إن هرقل لما انتهى إليه خبر زحف المسلمين وانتصاراتهم، قال وكان عندئذ موجودًا في حمص: «ويحكم إن هؤلاء أهل دين جديد، وإنهم لا قبل لأحد بهم، فأطيعوني وصالحوهم على نصف خراج الشام، ويبقى لكم جبال الروم، وإن أنتم أبيتم ذلك أخذوا منكم الشام، وضيقوا عليكم جبال الروم».

نتائج الفتوحات الإسلامية وآثارها على العالم:  
لقد ترتب على الفتوحات الإسلامية نتائج وآثار بعيدة المدى في تاريخ العالم، وإذا ما قورنت بغيرها - مثل فتوحات «الإسكندر» قبلها، وفتوحات المغول بعدها - فإن تلك المقارنة تظهر عظمة

المسلمين، وأن فتوحاتهم كانت أكثر الفتوحات في العالم خيراً وبركة، ففتوحات «الإسكندر» و«امبراطوريتته التي شادها في الشرق انهارت وتمزقت أوصالها بعد وفاته مباشرة، وأصبحت ذكرى من ذكريات التاريخ، أما غزوات المغول التي لم يعرف لها تاريخ العالم مثيلاً من قبل في همجيتها ووحشيتها، فقد دمرت معظم العالم الإسلامي في الشرق بما كان فيه من حضارة مزدهرة، ولم يوقف

(95/1)

زحفها المدمر سوى الجيش المصري في معركة «عين جالوت» سنة (658هـ).

وهذه الغزوات المغولية البربرية كان يمكن أن ينسأها التاريخ أو يذكرها باعتبارها عملاً بربرياً ألي بالإنسانية في مسيرتها الطويلة، لولا أن الله - تعالى - أدرك برحمته الواسعة هذه الجموع الوحشية وهدأها إلى دينه، فأسلم أغلب المغول، وأظلمهم الإسلام بحضارته، وحوطهم من قوة مدمرة إلى طاقة خيرة، ومن أعداء مهاجمين إلى أتباع مدافعين، بل مشاركين في صنع الحضارة الإسلامية. والخالصة أن كل أرض وصلت إليها الفتوحات الإسلامية انتشر فيها الإسلام بحرية تامة، ودون إكراه، وانتشرت اللغة العربية والثقافة الإسلامية، ولم يتراجع الإسلام عن أية منطقة من العالم وصل إليها سوى «الأندلس» وكان تراجعاً لأسباب تعود إلى المسلمين لا إلى الإسلام وعندما تراجع في «الأندلس» امتد في مناطق أخرى في «جنوب شرق آسيا» وفي «أوروبا» و «إفريقيا» بدون حرب أو معارك، بل عن طريق الدعاة والتجار المسلمين، مما يدحض كلام من يقول إن الإسلام انتشر بحد السيف. كما يردد أعداء الإسلام في كتاباتهم.

عمر وإدارة الدولة:

تجلت عبقرية «عمر بن الخطاب» أعظم ما تجلت في ميادين الإدارة، فقد ضبط نظم الدولة الإسلامية، وكانت مترامية الأطراف، وأحكم إدارتها بمقدرة فائقة تثير الدهشة والإعجاب، في وقت كانت فيه وسائل الاتصال بطيئة تمامًا.

ويصعب على أى باحث أن يحيط بالجوانب الإدارية عند «عمر بن الخطاب»، ولذا سنتعرض لبعض منها:  
أولاً: عمر واختيار الولاية:

استعان «عمر بن الخطاب» برجال يديرون شئون الولايات البعيدة عنه، أما القرية منه فكان يديرها بنفسه، وكان يقول: «ما يحضرنى من أموركم لا ينظر فيه أحد غيرى، أما ما بعد عنى فسوف أجتهد فى توليته أهل الدين والصلاح والتقوى، ثم لا أكتفى بذلك، بل لابد من متابعتهم؛ لأعرف هل يقومون بالعدل بين الناس أم لا؟». وكان لعمر بن الخطاب طريقة فى اختيار ولاته، فلم يكن يستعمل

(96/1)

---

أحدًا من أهل بيته، وقلما استعمل كبار الصحابة على الأمصار، بل استبقاهم معه فى «المدينة» ليعينوه فى شئون الدولة، ويقدموا له المشورة، ومن أهم شروط «عمر» فى الولى:  
- القوة والأمانة: والمقصود بالقوة قوة الدين، وقوة الإرادة والحزم فى الأمور، ومن أقواله المأثورة: «إنى لأتخرج أن أستعمل الرجل وأنا أجد أقوى منه»، ولذا فقد عزل «شرحبيل بن حسنة» عن «الأردن»، و «عمير بن سعد» عن «حمص»، وضم ولايتهما إلى «معاوية بن أبى سفيان»، وكان المعزولان أسبق إسلامًا من «معاوية» وأفضل، فلما كلمه الناس فى ذلك قال إنه لم يعزلهما عن سخط أو خيانة، ولكنه كان يريد رجلا أقوى من الرجل.  
- الهيبة مع التواضع: أدرك «عمر بن الخطاب» حاجة ولى الأمر إلى

الهيبة واحترام الناس، حتى يستطيع أن يقودهم، ولكن لا ينبغي لها أن تتجاوز الحد لتصبح تسلطاً وتعالياً، وكان يقول: «أريد رجلاً - أى والياً - إذا كان في القوم وليس أميرهم، كان كأنه أميرهم، وإذا كان أميرهم كان كأنه واحد منهم».

- الرحمة بالناس: كان «عمر» يختار للولاية من اشتهر بالرحمة ولين الجانب وحب الخير للناس، وحين كان يولى أحداً يكتب له كتاب تولية، ويشهد عليه بعض الصحابة، ويشترط عليه ألا يظلم أحداً في جسده ولا في ماله، ومن وصاياه لعماله: «ألا وإني لم أبعثكم أمراء ولا جبارين، ولكن بعثتكم أئمة الهدى، يهتدى بكم فادعوا على المسلمين حقوقهم، ولا تضربوهم فتذلوهم، ولا تغلقوا الأبواب دونهم، فياً كل قوبهم ضعيفهم، ولا تستأثروا عليهم فتظلموهم، ولا تجهلوا عليهم».

ثانياً: قواعد العمل بالنسبة إلى العمال والولاة:

لم يكن «عمر» يقنع بحسن اختيار الولاة وفق شروطه، وإنما كان يحدد لهم أسلوب العمل، والقواعد التي يسيرون عليها، إما في صورة خاصة محددة كما كان يحدث في عهد الولاية، وإما في توجيهات عامة كما في المؤتمرات التي كان يعقدها للعمال والولاة، وبخاصة في موسم الحج.

ثالثاً: المتابعة:

(97/1)

فطن «عمر بن الخطاب» إلى فاعلية المتابعة، وأثرها في حسن سير الإدارة، ولذا لم يكتفِ بالتدقيق في اختيار الولاة، وإنما وضع عليهم العيون والأرصاء، يحصون عليهم حركاتهم وسكناتهم، ويسجلون أعمالهم وينقلونها إلى الخليفة فور وقوعها، لأنه أدرك أن الخطأ قد يقع بدون قصد، وأن الانحراف لا يبدأ كبيراً، وأن كل شيء يمكن

وقفه في أوله قبل استفحاله، عملاً بالحكمة الخالدة: «الوقاية خير من العلاج».

رابعاً: سياسة الباب المفتوح:

أدرك «عمر بن الخطاب» أن آفة الإدارة في كل عصر هي احتجاج كبار المسؤولين عن أصحاب الحاجات فتضييع مصالح الناس أو تتعطل، ولذا لم يكن يتهاون مع أى أمير أو والٍ يسمع أنه يحتجب عن الناس مهما يكن شأنه، وحين بلغه أن «سعد بن أبي وقاص» قد بنى بيتاً في «الكوفة» من طابقين، وسماه الناس قصر «سعد»، لأن بقية البيوت كانت من طابق واحد، وأنه اتخذ مكانه الذى يباشر منه أعمال الولاية باباً، أرسل إليه «محمد بن مسلمة الأنصارى»، وكان مبعوث «عمر» فى المهمات الكبيرة، وأمره أن يحرق ذلك الباب الذى يحول بين الأمير وبين الناس، وأن يقدم بسعد معه، فلما قدم عليه وبخه ولم يقبل اعتذاره بأن داره قريبة من السوق وأنه كان يتضايق من ارتفاع أصوات الناس وجلبتهم، ثم رده إلى عمله بعد أن أكد عليه ألا يعود إلى مثل هذا أبداً.

خامساً: المؤتمرات العامة:

ابتكر «عمر» عقد المؤتمرات العامة لمناقشة أمور الدولة، حتى يتيح لأكبر عدد من المسلمين المشاركة فى صنع السياسة والقرار بالحوار والمشاورة، فاهتدى إلى استثمار مناسبة الحج، وتجمع الناس فى البلد الحرام، وقرر أن يحج كل عام، عدا السنة الأولى من خلافته، وأن يحج معه كل ولاية الأمصار، وهناك يدور النقاش والحساب مع الولاة عما صنعوا فى عامهم الذى مضى، وما ينوون عمله فى العام القادم، وفوق ذلك تكون تقارير عيونه بين يديه قبل مجيء الولاة، بحيث تكون أمورهم كلها واضحة، ولا يستطيع أحد منهم أن ينكر

شيئاً، ولما كانوا يعرفون ذلك فإنهم حرصوا على أن تكون سجلات أعمالهم نظيفة، فالخليفة لا يتهاون في حساب المقصر أو من تثبت عليه مخالفة لشرع الله.

سادساً: محاسبة الولاة والأمراء:

دأب «عمر بن الخطاب» على محاسبة كل والٍ مقصر، أو من يشبه أنه قصر في عمله، لا يمنعه من ذلك كون الولى كبير القدر أو صاحب سابقة في الإسلام، وقلما نجا والٍ من ولاته من المحاسبة، وإذا كان الجرم صغيراً يمكن إصلاحه؛ اكتفى بالتوبيخ، ورد الولى إلى عمله كما فعل مع «سعد بن أبي وقاص»، أما إذا كان الجرم كبيراً من وجهة نظره؛ فإنه يأمر بعزل الأمير على الفور، ومن أشهر إجراءاته في هذا المجال: عزله «خالد بن الوليد» حين علم بأنه أعطى «الأشعث بن قيس» عشرة آلاف درهم، فساورته شكوك في أن من يعطى عشرة آلاف مرة واحدة لرجل واحد، كم يكون لديه؟ فأمر «أبا عبيدة بن الجراح» أمير الأمراء في الشام بمحاكمة «خالد» ومقاسمته ماله، فامتل «خالد» لهذا العزل كما امتثل من قبل للعزل الأول عن القيادة العامة.

ولم يكن «عمر» يقصد بهذا التصرف الإساءة إلى «خالد» قط، وإنما كان يريد أن يعلم الجميع أن الإسلام فوقهم، وليس هناك استثناء لمخالف، ولو كان قائداً عظيماً في مكانة «خالد».

سابعاً: القدوة الحسنة:

أدرك «عمر» أثر القدوة في سياسة الناس، وأن عليه أن يعلم الناس بأعماله قبل أن يعلمهم بأقواله.

وكثيراً ما كان يردد للناس قوله: «سأسوكم بالأعمال وليس بالأقوال»، وأن الرعية مؤدية إلى الإمام ما أدى الإمام إلى الله، فإن رتع الإمام رتعوا.

وكان «عمر» قدوة في حياته الخاصة، يعيش كما يعيش عامة الناس دون تميز، وحين فرضوا له عطاءً (راتباً) من بيت مال المسلمين، ليعول منه أسرته قدروا له راتباً يمكنه من معيشة رجل من أوسط

الناس، لا أغناهم ولا أفقرهم.  
وفوق ذلك هو يشارك المسلمين ويواسيهم إذا أصابهم ضرر، كما حدث  
في عام «الرمادة» المشهور سنة (18هـ) الذي أصاب الناس فيه

(99/1)

مجاة شديدة في شبه الجزيرة العربية لقلّة الأمطار، فكان يجلب  
إليهم الأقوات من الأمصار، ويأكل مما يأكله الناس، حتى ساءت  
صحته، فنصحه بعض أصحابه بأن يحسن من طعامه، ليقوى على  
العمل وإنجاز مصالح المسلمين، لكنه أجاب بقوله: «كيف يعينني  
شأن الرعية إذا لم يصبني ما أصابهم؟».

ولا شك أن ما عبر عنه الخليفة «عمر» هو مفتاح الحكم الصالح في  
كل عصر وزمان فيوم يحس الحاكم بإحساس شعبه فسوف يستقيم  
الحكم، وينصلح حال الرعية، ويوم ينفصل الحاكم عن شعبه، وتكون  
له حياته الخاصة، فحينئذ يفتح باب الفساد.

وقد حرص «عمر» على أن يجعل من أبنائه وأهله قدوة كذلك،  
فأخذهم بما أخذ به نفسه، لأنه الناس ينظرون إليهم، وكان يقول لهم  
إذا عزم على أمر يهيم المسلمين: «لقد عزمتم على كذا وكذا، أو نهيتم  
الناس عن كذا وكذا، وأقسم بالله لو خالفني أحد منكم لأضاعفن له  
العقوبة».

بهذه الإجراءات حصن «عمر» نفسه وأولاده وكل من يلوذون به ضد  
أية انحرافات أو إغراءات، فأطاعه المسلمون وأحبوه سواء أكانوا  
أمراء أم من عامة الناس، ولم يعرف التاريخ رجلا بعد رسول الله  
- صلى الله عليه وسلم - و «أبي بكر الصديق» أطاعه كبار الأمراء  
وصغارهم كما أطاعوا «عمر بن الخطاب»، لا لهيبته في عيونهم  
فحسب، بل للقدوة الحسنة في حياته وانضباطه الشديد، ولهذا كله  
احتل مكانة عالية في التاريخ الإنساني.

عدل عمر بن الخطاب:

لم ترتبط صفة من صفات «عمر» الكثيرة باسمه كما ارتبطت به صفة العدل، فإذا ذُكر «عمر» ذكر الناس عدله، الذي كان لا يفرّق بين قريب وبعيد، أو كبير وصغير، أو صديق وعدو، والأخبار المتواترة في ذلك أكثر من أن تحصى، ولعل قصته مع «أبي مریم السلولى» قاتل أخيه «زيد» في معركة «اليمامة» أصدق مثال على تجرده في عدله، وعدم خلطه بين عواطفه ومسئوليّاته باعتباره حاكمًا يُجرى العدل بين الناس.

فحين قابل «عمر» - وهو خليفة - قاتل أخيه بعد أن أسلم، قال له:

(100/1)

أأنت قاتل «زيد بن الخطاب»؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: والله لا أحبك أبدًا، فقال «أبو مریم»: أو تمنعني بذلك حقًا لى، قال: لا. قال: إذا يا أمير المؤمنين إنما يأسى على الحب النساء. يريد أنه مادام لا يظلمه الخليفة فلا يعنيه أحبه أم كرهه، لأن النساء هن اللائى يأسفن على الحب.

ولا لوم على «عمر» في التعبير عن عواطفه التى لا يملكها تجاه قاتل أخيه، فقد ورد أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال لوحشى قاتل عمه «حمزة بن عبدالمطلب» حين رآه بعدما أسلم: «غيب وجهك عنى يا وحشى لا أراك». ولكن للقصة دلالة على ضبط النفس والتجرد المطلق لعمر ابن الخطاب، فلم يحمله غضبه من قاتل أخيه على ظلمه. وامتد عدل «عمر» ليشمل كل من يعيش على أرض الإسلام، سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين، فحين رأى يهوديا يتسول أحزنه ذلك. وأخذ الرجل من يده، وأعطاه معونة عاجلة من بيت الدقيق (8)، وأمر له براتب دائم من بيت مال المسلمين. إحساسه بالمسئولية:

بلغ من شدة إحساس «عمر» بالمسئولية أنه لم يكتفِ بأن يكون مسئولاً عن حياة البشر الذين يعيشون في دولته، بل مسئولاً عن البهائم والدواب أيضاً. وذلك في مقولته الشهيرة: «والله لو أن بغلة عثرت بشط الفرات لكنت مسئولاً عنها أمام الله، لماذا لم أعبد - أسوأ - لها الطريق».

وأعمال «عمر» العظيمة من الفتوحات واستكمال بناء الدولة ومؤسساتها لم تشغله عن متابعة أحوال الناس وتفقدتها؛ ليقف على أوجه النقص ليتلافها أولاً بأول، فكان كثير الطواف ليلاً بالمدينة، وسمع ذات ليلة طفلاً يبكي بكاء مستمراً، فسأل عن أمره، فعرف أن أمه منعت عنه الرضاع، لأنه لا يُفرض عطاء من بيت المال إلا للأطفال المفلطمين، فانزعج «عمر»، وأصدر أوامره أن يفرض عطاء لكل مولود في الإسلام، ونادى مناديه: لا تعجلوا فطام أولادكم. وحوادث «عمر» التي من هذا القبيل كثيرة، وقد يظنها بعض الناس

(101/1)

أثماً من المبالغات، ولكنها متواترة في المصادر التي أرخت لعمر وعصره، فمن يصدق أن خليفة المسلمين يأخذ امرأته «أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب» ومعها كل ما تحتاج إليه عملية ولادة، لمساعدة امرأة غريبة جاءها المخاض، فيشترك هو معها في الإشراف على ولادتها؛ وصنع الطعام لها، ولما أنجز مهمته، قال لزوج المرأة: «إذا كان الغد فأتنا نأمر لك بما يصلحك»، ففعل الرجل فأجازه وأعطاه. عمر والقضاء:

عندما بويج «أبو بكر» بالخلافة شكى لعمر من كثرة أعبائها وخوفه من عدم النهوض بكل مسئولياتها، فقال له «عمر»: «أنا أكفيك القضاء وأبو عبيدة يكفيك الأموال»، ومعنى ذلك أن «عمر» كان قاضيًا لأبي بكر.

وفي عهد «عمر» اتسعت الدولة، واحتاج كل إقليم إلى قاضٍ، فعين «عمر» القضاة وكان يدقق في اختيارهم، فعين: «شريح بن الحارث الكندي» على قضاء «الكوفة»، و «أبا الدرداء» على قضاء الشام، و «عثمان بن قيس» على قضاء «مصر».

ولم يكن «عمر» في حاجة إلى سن قوانين للقضاة، لأنهم يحكمون طبقاً لكتاب الله وسنة رسوله، ولكنه كان في حاجة إلى تعليمهم كيف يتصرفون حين يلتبس الأمر عليهم، وقد كتب لأحدهم يقول له: «فإن جاءك أمر ليس في كتاب الله ولم تكن فيه سنة من رسول الله، ولم يتكلم فيه أحد قبلك، فاختر أي الأمرين شئت، إن شئت أن تجتهد رأيك وتقدم فتقدم، وإن شئت أن تأخر فتأخر».

ومن أعظم وصاياه للقضاة وصيته لأبي موسى الأشعري، ومما جاء فيها: «آس - أي سوّ بين الناس في مجلسك ووجهك - حتى لا يطمع شريف في حيفك - ظلمك - ولا ييأس ضعيف من عدلك، والبينة على من ادعى واليمين على من أنكرك، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرم حلالاً أو حلالاً حراماً ..».

إصلاحات عمر بن الخطاب وإنشاءاته:

لعمر بن الخطاب كثير من الإصلاحات والإنشاءات التي لم يسبق إليها، وسماها مؤرخو سيرته «أوليات عمر»، فهو أول من سُمي أمير

(102/1)

---

المؤمنين، وأول من اتخذ حادث الهجرة مبدأ التاريخ للدولة الإسلامية، بعد أن استشار في ذلك كبار الصحابة، وهو أول من اتخذ بيت المال، وهو يشبه خزانة الدولة، وأول من مصّر الأمصار، أي بني مدناً جديدة كالبصرة و «الكوفة» في «العراق»، و «الفسطاط» - حتى مصر القديمة حالياً - في «مصر»، وأول من وسّع مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وأدخل فيه دار «العباس بن عبد المطلب»، وفرشه

بالخصباء، أى الحجارة الصغيرة، وكانوا قبل ذلك يصلون على التراب.

وهو أول من دوّن الدواوين، وهى تشبه الوزارات فى الوقت الحاضر، وقد اقتبس هذا النظام من الفرس والروم، فأنشأ «ديوان العطاء»، وكان مختصاً بالعطاء الذى فرضه «عمر» للمسلمين، وأنشأ «ديوان الجند» - وزارة الدفاع حالياً - و «ديوان الخراج» - وزارة المالية - و «نظام البريد» الذى كان يُستخدم فى أمور الدولة. ومن أعظم اجتهاداته إبقاؤه الأرض المفتوحة فى أيدي أهلها يزرعونها، ويدفعون خراجاً -إيجاراً - للدولة، تنفق منه على الجيش والمرافق العامة، كما أمر بإعادة مسح الأرض - أى قياسها واختبارها - ووضع الخراج المناسب عليها. حسب جودة الأرض. وهو أول من قنن الجزية على أهل الذمة، فوضع على الأغنياء ثمانية وأربعين درهماً للفرد الواحد فى السنة، وعلى متوسطى الحال أربعة وعشرين درهماً، وعلى الفقراء القادرين على الكسب اثني عشر درهماً، وأعفى منها الشيوخ والنساء والأطفال ورجال الدين والعاجزين عن الكسب، وقد سبق القول إنه فرض للعاجزين عن الكسب من أهل الذمة عطاءً من بيت المال. وكما ترك «عمر بن الخطاب» الأرض لأهلها يزرعونها؛ ترك معظم الدواوين - وبخاصة «ديوان الخراج» - فى أيدي أبناء البلاد المفتوحة يزاولونها بلغاتها؛ لأنها كما يقول العقاد: «ليست من أسرار الدولة، وليس من الميسور أن ينصرف إليها فتیان العرب عما هو أولى بهم، وهو فرائض الدفاع والجهاد».

(103/1)

---

ولاشك أن ترك تلك الأعمال فى أيدي أبناء البلاد المفتوحة كان مبعث ارتياح لهم، فاطمأنوا للحكم الإسلامى، بل أخذوا يعتنقون

الإسلام، ويتعلمون اللغة العربية.

استشهاده:

في يوم الأربعاء الموافق 26 من شهر ذى الحجة سنة 23هـ وبينما «عمر بن الخطاب» يسوّى صفوف المسلمين في صلاة الفجر كعادته كل يوم، وبدأ ينوى مكبراً للصلاة، إذا بأبي لؤلؤة المجوسى يسدد للخليفة عدة طعنات بخنجر مسموم، فقطع أمعاه، وسقط مغشياً عليه، واضطرب المسلمون في الصلاة اضطراباً شديداً من هول المفاجأة، وأقبلوا على القاتل محاولين القبض عليه، لكنه أخذ يضرب شمالاً ويميناً بدون هدى، فأصاب اثني عشر من الصحابة، مات ستة منهم، ثم أتاه رجل من خلفه وألقى عليه رداءه وطرحه أرضاً فلما أيقن «أبو لؤلؤة» أنه مقبوض عليه لا محالة، طعن نفسه بالخنجر الذى طعن به أمير المؤمنين، ومات على الفور قبل موت الخليفة نفسه ومات معه السر الخفى الذى دفعه إلى هذه الجريمة البشعة.

حمل المسلمون الخليفة إلى بيته، وظل فاقد الوعى فترة طويلة، فلما أفاق كان أول سؤال سألته للمسلمين: هل صليتم الصبح؟ قالوا: نعم، قال: الحمد لله، لا إسلام لمن ترك الصلاة، ثم سأل: من الذى قتلنى؟ قالوا: «أبو لؤلؤة» غلام «المغيرة بن شعبة». قال: الحمد لله الذى جعل مني على يد رجل كافر، لم يسجد لله سجدة واحدة يحاجنى بما عند الله يوم القيامة.

المؤامرة:

كان «أبو لؤلؤة» غلاماً مجوسياً، أُسِرَ في معركة «نخاوند»، ووقع من نصيب المغيرة بن شعبة، وكان يجيد حرفاً كثيرة كالحداثة والنجارة، وكان سيده يتركه يعمل ويأخذ منه درهمين في اليوم. فاشتكى إلى أمير المؤمنين «عمر» مستكثراً الدرهمين، فسأله «عمر» عن صناعته، فأخبره، فقال: لا أرى ذلك كثيراً، وكانت تلك المهن رائجة في ذلك الوقت وتدرُّ عليه مالا وفيراً، فحقدتها العبد المجوسى وعزم على قتله.

هذا هو السبب الظاهر الذى روته كتب التاريخ والسير، لكنه لا يقنع

وحده بارتكاب جريمة خطيرة كهذه، فالأمر أكبر من ذلك وأبعد مدى، ووراءه تدبير واسع ومؤامرة محكمة نُسجت خيوطها في بلاد فارس وكان فيها «أبو لؤلؤة» أداة تنفيذ فحسب، وكان هو مستعداً بتكوينه للقيام بها، فقد رُوى عنه أنه كان كلما رأى أسرى بلاده في «المدينة»، يقول: «أكل عمر كبدي»، لأن «عمر» هو الذى أزال دولة الفرس وأنزل الأكاسرة من على عروشهم. ولم تكن الجريمة فارسية فقط باشتراك «أبي لؤلؤة»، و «الهرمزان» الذى كان أميراً فارسياً وأُسِرَ في إحدى الحروب وجاء إلى «المدينة» وأظهر الإسلام، بل كانت يهودية باشتراك «كعب الأحبار»، ونصرانية باشتراك «جفينة».

وكان «كعب الأحبار» يهودياً ادعى الإسلام، جاء إلى «عمر» قبل طعنه بثلاثة أيام، وقال له: يا أمير المؤمنين اعهد - أى اختر لك خلفاً يعقبك في الحكم - فإنك ميت بعد ثلاثة أيام، فتعجب «عمر» وسأله كيف عرفت ذلك؟ قال: أجده في التوراة، فقال «عمر»: يا سبحان الله! هل تجد «عمر بن الخطاب» مذكوراً في التوراة، قال: أجدك بصفتك. لكن «عمر» لم يعط لهذا الحديث اهتماماً، فهل كان «كعب الأحبار» على علم بما دبره «أبو لؤلؤة المجوسى» وبقية شركائه؟ يقول الدكتور «هيكل»: «لابد إذاً أن يكون كعب الأحبار عرف بسر ما كان يجري، فوجه النذير إلى «عمر»، وأغفل «عمر» أمر هذا النذير .. فحدث ما حدث، ونذير «كعب» وطعنات «أبي لؤلؤة» تدل على أن في الأمر سرا لم يظهر ساعة ارتكاب الجريمة؛ لكنه ظهر من بعد».

أما «الهرمزان» و «جفينة» فأمرهما أوضح من أمر «كعب الأحبار»، واشتراكهما في الجريمة لا لبس فيه، فقد شهد «عبدالرحمن بن عوف» أنه رأى الخنجر الذى طُعِن به «عمر» مع «الهرمزان» و «جفينة» في

اليوم السابق ليوم الجريمة، وسألها ماذا يصنعان به؟ فقالا: نقطع به اللحم، وشهد «عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق» أنه مرّ في الليلة التي طعن «أبو لؤلؤة» «عمر» في صبيحتها في أحد طرق

(105/1)

«المدينة»، فوجد «أبا لؤلؤة» و «الهرمزان» و «جفينة» يتناجون - يتحدثون سرا - فلما طلع عليهم فجأة، قام «أبو لؤلؤة» مرتبكا، فسقط منه الخنجر نفسه الذي طعن به «عمر». ومما يؤكد أن قتل «عمر بن الخطاب» كان مؤامرة انتحار «أبي لؤلؤة» نفسه، فليس هناك رجل يقدم على عمل كهذا من أجل بضعة دراهم، حتى لو رأى أن «عمر» لم ينصفه، فقد كان بإمكانه أن يعاود الشكوى ويأخذ حقه، ولكن العبد الجوسى ملئ حقدًا، وأوعز عليه فأقدم على جريمته إقدام من يؤمن بأنه يقوم بعمل بطولى يستحق أن يدفع من أجله حياته. وهناك أمر آخر يؤكد المؤامرة، وأنها نسجت خيوطها في بلاد فارس نفسها، وهو ثورة معظم بلاد فارس على المسلمين، ونقض معاهدات الصلح، التي وقعها معهم الفاتحون المسلمون، فور سماعهم خبر مقتل «عمر»، وكأنهم كانوا ينتظرون ذلك بصبر نافذ؛ لأنهم ظنوا أن وفاة «عمر» هي فرصتهم لإعادة الأمور إلى ماكانت عليه قبل الفتوحات.

تفكير عمر في أمر الخلافة ووفاته:

أيقن «عمر بن الخطاب» بعد طعنه أنه لم يبق من عمره سوى ساعات، وكذلك أيقن المسلمون، ولذا أحوا عليه أن يختار لهم من يخلفه فيهم، فرشّح لهم ستة من الصحابة، هم بقية العشرة المبشرين بالجنة، يختارون من بينهم واحدًا للخلافة، ومع أن ابن عمه «سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل» واحد من العشرة المبشرين بالجنة، فقد

استبعده من الترشيح، خوفاً أن يقع عليه الاختيار لقربته منه، كما استبعد ابنه «عبد الله» من الترشيح تماماً، بل رد على من اقترح عليه ترشيحه رداً قاسياً، إبعاداً لشبهة الوراثية عن نظام الحكم الإسلامى، وجعل الأمر فى يد الأمة تختار الأصلح ليتولى أمرها.

قال «عمر» لهم: «عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إنهم من أهل الجنة، سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل منهم، ولست مدخله فيهم، ولكن الستة، هم: على بن أبى طالب، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وسعد بن أبى وقاص،

(106/1)

وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله».

واهتم «عمر» وهو فى تلك الحال بأمر دفنه، وطلب أن يُدفن إلى جوار الرسول - صلى الله عليه وسلم - و «أبى بكر الصديق» - رضى الله عنه - فى بيت «عائشة»، لينعم بصحبته فى الآخرة كما نعم بها فى الدنيا، فأرسل ابنه «عبد الله» إلى «عائشة» - رضى الله عنهما - وقال له: قل لها: «عمر» يقرأ عليك السلام ويستأذنك فى أن يُدفن مع صاحبيه، فأتاها «عبد الله» فوجدتها تبكى، فسلم عليها، ثم قال لها ما أمره به أبوه، فقالت: «كنت والله أريده لنفسى - أى المكان - ولأوثرنه به اليوم على نفسى»، فلما رجع «عبد الله»، وأخبر أباه أن «عائشة» أذنت له، تهلل وجهه، وقال: الحمد لله ما كان شىء أهم إلى من ذلك المضجع.

وفى اليوم التالى لطعنه أى يوم الخميس الموافق 27 من ذى الحجة سنة 23هـ فاضت روح «عمر» بعد أن قضى فى الخلافة عشر سنوات وبضعة شهور، وكُفن فى ثلاثة أثواب أسوة بكفن رسول الله، وصلى عليه «صهيب الرومى» - رضى الله عنه - وكان «عمر» قد أمره

أن يصلى بالناس بعد طعنه، وُذفن مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - و «أبي بكر الصديق».

(107/1)

## الفصل الثامن

\*خلافة عثمان بن عفان (24 - 35)

نسبه:

هو «عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف»، ولد بعد «عام الفيل» بست سنوات (576م)، وأمه «أروى بنت كرز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس»، فعثمان يلتقى في نسبه من جهة أمه وأبيه مع النبي - صلى الله عليه وسلم - في «عبدمناف».

صفاته:

كان ربعة من الرجال، ليس بالقصير ولا بالطويل، حسن الوجه أبيض مشرباً بحمرة، غزير الشعر يكسو ذراعيه شعر طويل، طويل اللحية، ومن أحسن الناس ثغراً.

أخلاقه:

أجمعت المصادر التي أرخت له على وصفه بسماحة النفس، ورقة المشاعر، وكان رضى الخلق، كريماً، شديد الحياء، صوّاماً قوّاماً، محبوباً من الناس في جاهليته وإسلامه.

وتحدث هو عن نفسه فقال: لقد اختبأت لى عند ربي عشرًا، إني لرابع أربعة في الإسلام، ولقد ائتمنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على ابنته - رقية - ثم توفيت، فزوجني الأخرى - أم كلثوم - ووالله ما سرقت ولا زنيت في جاهلية ولا إسلام قط ولا تغنيت، ولا تمنيت ولا مسحت فرجى بيمينى منذ بايعت رسول الله، ولقد جمعت القرآن على عهد رسول الله، ولا مرت بي جمعة منذ أسلمت إلا وأنا

أعتق فيها رقبة، فإن لم أجد فيها رقبة أعتقت في التي تليها  
رقبتين.

إسلامه:

أسلم «عثمان» مبكرًا، وكان الذي دعاه إلى الإسلام هو «أبو بكر  
الصديق»، وجاء به إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأسلم على  
يديه بعد إسلام «أبي بكر» مباشرة، ولذا كان يقول: «إني لرابع  
أربعة في الإسلام بعد «أبي بكر» و «خديجة» و «زيد بن حارثة»،  
وحرص عثمان على إسلامه أشد الحرص، على الرغم من الضغوط التي  
تعرض لها، فعندما علم عمه «الحكم بن أبي العاص» بإسلامه أوثقه  
بالحبال، وقال له: «ترغب عن دين آباتك إلى دين محدث؟ والله لا  
أدعك حتى تدع ما أنت فيه» فأجابه «عثمان»: «والله لا أدعه أبدًا  
ولا أفارقه».

مصاهرته للرسول - صلى الله عليه وسلم -:

(108/1)

تزوج «عثمان بن عفان» من ابنتي رسول الله - صلى الله عليه وسلم -،  
فتزوج «رقية»، وظلت معه حتى توفيت يوم انتصار المسلمين في  
غزوة «بدر»، ولهذا لم يحضر «عثمان» «بدرًا»، لأن الرسول - صلى الله  
عليه وسلم - أمره بالبقاء معها لتمريضها، وقد عدّه النبي - صلى الله  
عليه وسلم - من البدرين رغم غيابه عن المعركة، وفرض له في  
غنائهما، ثم زوجه النبي - صلى الله عليه وسلم - ابنته «أم كلثوم»،  
ولهذا لُقّب بذي النورين، فلما توفيت في العام التاسع من الهجرة؛  
حزن «عثمان» حزنًا شديدًا؛ لانقطاع مصاهرته للنبي - صلى الله عليه  
وسلم -، فواساه مواساة رقيقة قائلاً: «لو كانت لنا أخرى لزوجناكها  
يا عثمان».

عثمان مع النبي - صلى الله عليه وسلم -:

جاهد «عثمان بن عفان» منذ أن أسلم مع النبي - صلى الله عليه وسلم - بماله ونفسه، فهاجر المهجرتين: إلى «الحبشة» وإلى «المدينة»، وصاحبتة زوجته رقية بنت النبي - صلى الله عليه وسلم -، وتحمل كثيراً من الأذى.

بذل «عثمان» ماله في سبيل الله ونصرة دعوته، وكان من أكثر «قريش» مالا، فاشتري «بئر رومة» باثني عشر ألف درهم، وجعلها للمسلمين في «المدينة»، وكانوا يعانون من قلة المياه، وغلاء أسعارها.

كما أنفق ماله في تجهيز الجيوش وبخاصة جيش العسرة في غزوة «تبوك» في العام التاسع من الهجرة، فقد جهز وحده ثلث الجيش، وكان عدده نحو ثلاثين ألفاً، فدعا له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بخير، وقال: «ماضر عثمان ما فعل بعد اليوم»، قالها مرتين. وشهد «عثمان» المشاهد كلها مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، عدا غزوة «بدر»، فقد تخلف عنها بأمر من النبي - صلى الله عليه وسلم -، وأرسله النبي إلى «مكة» عام «الحديبية» لمفاوضة «قريش»، بعد اعتذار «عمر بن الخطاب» لرسول الله بقوله: «إني أخشى على نفسي من «قريش» لشدتي عليها وعداوتي إياها، ولكني أدلك على رجل أمنع وأقوى بها مني، عثمان بن عفان».

(109/1)

ولما أشيع أن «قريشاً» قد قتلت «عثمان»، قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: «لو كانوا فعلوها فلن نبرح حتى نناجزهم»، وبايعه أصحابه «بيعة الرضوان» تحت الشجرة، وبايع النبي نفسه نيابة عن «عثمان»، وقال: «إن عثمان بن عفان في حاجة الله وحاجة رسوله»، وضرب بإحدى يديه على الأخرى مشيراً إلى أن هذه بيعة «عثمان»، فكانت يد النبي - صلى الله عليه وسلم - لعثمان خيراً من أيديهم

لأنفسهم.

وكان من كُتاب الوحي كما هو معلوم.

ثناء النبي - صلى الله عليه وسلم - على عثمان:

الأحاديث الواردة في فضل «عثمان بن عفان» وثناء النبي عليه

كثيرة، من ذلك قوله - صلى الله عليه وسلم -:

«ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة؟».

وكان عثمان بن عفان قريباً من الخليفين، «أبي بكر الصديق»

و «عمر بن الخطاب»، وموضع ثقتهما وأحد أركان حكومتهم، ومن

كبار مستشاريهما، وكان يكتب لهما، وهو الذى كتب كتاب ولاية

العهد من «أبي بكر» إلى «عمر بن الخطاب» - رضى الله عنهما -

وترتيب «عثمان» فى الفضل بين الصحابة كترتيبه فى تولّى الخلافة

عند جمهور علماء الأمة.

أهل الشورى وبيعة عثمان:

لم يشأ «عمر بن الخطاب» أن يعهد بالخلافة إلى شخص بعينه، وقال:

«إن أعهد - يعنى لشخص محدد - فقد عهد من هو خير منى - يقصد

أبا بكر عندما عهد إليه هو نفسه - وإن لم أعهد فلم يعهد من هو خير

منى - يقصد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين تركها شورى بين

المسلمين».

ولعل اجتهاده أداه إلى أن تصرف الرسول و «أبي بكر» يعطى له

الفرصة أيضاً أن يختار طريقة أخرى لاختيار من يخلفه، ليشترى بذلك

طرق الاختيار، وليرسخ فى أذهان الناس أن أمر اختيار الحاكم منوط

دائماً بالأمة وإرادتها ورضاها، وهى التى تملك محاسبته وعزله إن

ارتكب ما يوجب العزل.

رشح «عمر بن الخطاب» ستة من الصحابة، ليتولى واحد منهم منصب

الخلافة، ولم يأمر أحداً منهم أن يصلى بالناس إماماً، حتى لا يظن

الناس أنه يميل إليه، بل أمر صهيبيًا أن يصلى بالناس، لتكون فرصتهم في الاختيار متساوية، وشدد على ألا تمضى ثلاثة أيام بعد وفاته إلا ويكون عليهم أمير من هؤلاء الستة يتولى مسئولية الخلافة ويتحمل تبعاتها.

وبعد أن فرغ المسلمون من دفن «عمر»، شرع المرشحون الستة في المفاوضات، وبعد نقاش طويل اقترح عليهم «عبد الرحمن بن عوف» أن يتنازل عن حقه في الخلافة. ويتركوا له اختيار الخليفة، فوافقوا على ذلك، فشرع في معرفة آرائهم واحدًا بعد واحد على انفراد، فرأى أن الأغلبية تميل إلى «عثمان»، ثم أخذ يسأل غيرهم من الصحابة، «فلا يخلو به رجل ذو رأى فيعدل بعثمان».

اطمأن «عبد الرحمن» إلى أن الأغلبية تزكى «عثمان بن عفان» فأعلن ذلك على ملاء من الصحابة في مسجد النبي - صلى الله عليه وسلم -، ولما كان يعلم أن الذى يلي «عثمان» فى المنزلة عند الصحابة، هو «على بن أبى طالب»، الذى مال إليه عدد منهم، فإنه رأى أن يوضح له أن الأغلبية مع «عثمان»، فقال له: «أما بعد يا على، فإني نظرت فى الناس، فلم أرهم يعدلون بعثمان، فلا تجعل على نفسك سبيلًا» - كأنه يحذره من المخالفة- ثم أخذ بيد «عثمان»، فقال: «نبايعك على سنة الله ورسوله، وسنة الخليفين بعده»، فبايعه «عبد الرحمن»، وبايعه المهاجرون والأنصار؛ ولم يتخلف أحد عن بيعته من الصحابة، وكان ذلك بعد وفاة «عمر» بثلاثة أيام. خطبة البيعة:

استقبل «عثمان» بخلافته أول الحرم سنة 24هـ، وصعد المنبر بعد تمام البيعة، وخطبهم قائلاً - بعد حمد الله والصلاة على رسوله-: «إنكم فى دار قلعة - أى دار الدنيا - وفى بقية أعمار، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه .. ألا وإن الدنيا طويت على الغرور، فلا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنكم بالله الغرور، اعتبروا بما مضى، ثم جدوا ولا تغفلوا، فإنه لا يغفل عنكم، أين أبناء الدنيا وإخوانها: الذين أثاروها وعمروها، وامتعوا بما طويلا، ألم تلفظهم؟ ارموا الدنيا حيث

رمى الله بها، واطلبوا الآخرة ..» .

وأول ما يلاحظ على الخطبة الأولى، التي افتتح بها «عثمان» خلافته، خلوها من الإشارة إلى المنهج الذي سيسير عليه، ولعله اكتفى بما قاله لعبدالرحمن بن عوف لحظة البيعة، من أنه سيعمل بكتاب الله، وسنة نبيه، وسيرة الخليفين بعده.

كتبه إلى العمال والولاة:

كتب «عثمان» - رضى الله عنه - في الأيام الأولى من خلافته عددًا من الكتب إلى الولاة وأمراء الجند، بل وإلى عامة الناس، تتضمن نصائحه وإرشاداته، يقول «الطبرى»: أول كتاب كتبه «عثمان» إلى عماله: «أما بعد فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة - يرعون مصالح الأمة - ولم يتقدم إليهم - أى لم يطلب منهم - أن يكون جباة، وإن صدر هذه الأمة خلقوا دعاة، ولم يخلقوا جباة، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا دعاة، فإن عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء، ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فيما عليهم، فتعطوهم ما لهم، وتأخذوهم بما عليهم، ثم تثنوا بالذمة، فتعطوهم الذى لهم، وتأخذوهم بالذى عليهم، ثم العدو الذى تنتابون، فاستفتحوا عليهم بالوفاء».

وكتب إلى أمراء الأجناد وقادة الجيوش: «أما بعد، فإنكم حماة المسلمين وذادتهم، وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا، بل كان عن ملائنا، فلا يبلغنى عن أحد منكم تغيير ولا تبديل، فيغير الله ما بكم، ويستبدل بكم غيركم، فانظروا كيف تكونون، فإنى أنظر فيما ألزمنى الله النظر فيه، والقيام عليه».

وكتب إلى عمال الخراج المسئولين عن الشؤون المالية: «أما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق، ولا يقبل إلا الحق، خذوا الحق، وأعطوا الحق، والأمانة الأمانة، قوموا عليها، ولا تكونوا أول من يسلبها .. والوفاء

الوفاء، ولا تظلموا اليتيم ولا المعاهد، فإن الله خصم لمن ظلمهم». وكتب إلى عامة الرعية: «أما بعد فإنكم إنما بلغت ما بلغت بالافتداء والاتباع، فلا تفتنكم الدنيا عن أمركم، فإن أمر هذه الأمة صائر إلى

(112/1)

الابتداع بعد اجتماع».

وهذه الكتب توضح سياسة «عثمان بن عفان» العامة، التي كان يتوخى أن يتبعها عماله وولاته في إدارة شئون الأمة، وهي سياسة طابعها الرفق بالرعية، والسهر على مصالحها، والإنصاف في جمع الخراج، وإيصال الحقوق إلى أصحابها، والإحسان إلى أهل الذمة، ورعاية جميع طوائف الأمة.

الفتوحات في عهد عثمان بن عفان:

المسلمون والفرس:

كان «عمر بن الخطاب» قد أمر المسلمين بالانسياب في بلاد فارس بعد موقعة «نُهاوند» سنة (21هـ) وكلمة الانسياب من تعبيرات المؤرخين القدماء، وهي تدل على سهولة الفتح بعد «نُهاوند»؛ إذ لم يلق المسلمون هناك مقاومة تذكر.

وقد نجح قادة الجيوش التي أرسلها «عمر» في فتح المقاطعات الفارسية كهمدان، و «خراسان» و «أذربيجان»، و «اصطخر»، و «أصبهان»، وكان أمراؤها الفرس قد رأوا عدم جدوى المقاومة، فسلموا بلادهم على شروط المسلمين، وقبلوا دفع الجزية، ووقعت معهم معاهدات، هي آية في الرحمة والعدل والتسامح، من ذلك معاهدة «عتبة بن فرقد» لأهل «أذربيجان»:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل أذربيجان: سهلها وجبلها وحواشيتها وشفارها، وأهل مللها كلهم، الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم

وشرائعهم، على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم، ليس على صبي  
ولا امرأة ولا زمن - مريض - ليس في يديه شيء من الدنيا، ولا متعب  
متخل ليس في يديه شيء من الدنيا لهم ذلك ولمن سكن معهم،  
وعليهم قَرَى المسلم من جنود المسلمين يوماً وليلة ودلالته - على  
الطريق - ومن حشر منهم - أى من يُستعان به في خدمات الجيش - في  
سنة، وضع عنه جزاء تلك السنة - أى لا يدفع جزية - ومن أقام فله  
مثل ما لمن أقام من ذلك، ومن خرج فله الأمان حتى يلجأ إلى حرزه». وبعد  
مقتل «عمر» نقضت معظم المقاطعات الفارسية معاهداتها مع  
المسلمين، ظنا من أمرائها أن في مقتل «عمر» فرصة لطرد المسلمين

(113/1)

من البلاد التي فتحوها، فوقف «عثمان بن عفان» لهذه الثورة  
وقضى عليها، كما فعل «أبو بكر» حيث قمع الردة في شبه الجزيرة  
العربية، وأعاد إليها وحدتها الدينية والسياسية، وأخذ «عثمان»  
بجهاز الجيوش، ويصدر أوامره إلى أمراء الأمصار: «الوليد بن عقبة»  
في «الكوفة»، و «عبدالله بن عامر» في «البصرة»، للتصدى بحزم  
لحركة الردة الفارسية، وإعادة الفرس إلى الطاعة والنظام.  
وكانت إعادة فتح تلك المقاطعات أصعب من فتحها الأول في عهد  
«عمر بن الخطاب»؛ لأنها حينذاك سلمت بدون قتال تقريباً بعد  
هزيمتهم في «هاوند» في حين بذل المسلمون في عهد «عثمان»  
جهداً كبيراً، وخاضوا معارك شرسة في بضع سنوات (24 - 31هـ)  
لإعادة فتح بلاد فارس مرة أخرى، وقد شهدت تلك المعارك الفصل  
الأخير من حياة آخر ملوك «آل ساسان» «يزدجرد الثالث»، حيث لقي  
مصيره على يد رجل فارسي في «مرو» سنة (31هـ)، وبموته طويت  
صفحة دولة فارس من التاريخ.  
ومما يجدر ذكره ويثير الإعجاب أن المسلمين لم يقسوا على الفرس

ولم ينكلوا بهم بعد ثورتهم وخروجهم، بل قبلوا اعتذارهم، ولم يفرضوا عليهم التزامات جديدة، واستمروا في معاملتهم طبقاً للمعاهدات الأولى.

وبدأت بلاد فارس تشهد تاريخاً جديداً تحت راية الإسلام، يملؤه العدل والتسامح والرحمة، وأسلمت الأمة الفارسية، وأصبحت جزءاً مهماً من العالم الإسلامي وأسهمت إسهاماً كبيراً في بناء الحضارة الإسلامية. المسلمون والروم في عهد عثمان:

بعد وفاة «عمر بن الخطاب»، قام الروم بمحاولة لطرد المسلمين، فهاجموا الشام - في السنة الأولى من خلافة «عثمان» بقوات كبيرة من آسيا الصغيرة، جعلت والى الشام القدير «معاوية بن أبي سفيان» يطلب المدد من «عثمان بن عفان»، الذى أمر بتحريك قوات من «العراق» لنجدة الشام.

وكتب «عثمان بن عفان» إلى والى «الكوفة» «الوليد بن عقبة» كتاباً يقول فيه: «أما بعد فإن معاوية بن أبي سفيان كتب إلى

(114/1)

---

يخبرنى أن الروم قد أجلبت على المسلمين بجموع عظيمة - أى هاجمت - وقد رأيت أن يمدهم إخوانهم من أهل الكوفة، فإن أتاك كتابى هذا، فابعث رجلاً ممن ترضى نجده وبأسه وشجاعته وإسلامه، فى ثمانية آلاف، أو تسعة آلاف، أو عشرة آلاف، إليهم من المكان الذى يأتىك فيه رسولى، والسلام».

ولما بلغ الكتاب والى «الكوفة»، جمع الناس وخطب فيهم وأبلغهم أمر الخليفة، وقال: «قد كتب إلى أمير المؤمنين يأمرنى أن أندب منكم ما بين العشرة الآلاف إلى الثمانية الآلاف، تمدون إخوانكم من أهل الشام، فإنهم قد جاشت عليهم الروم، وفى ذلك الأجر العظيم والفضل المبين، فانتدبوا رحمكم الله مع سلمان بن ربيعة الباهلى،

فانتدب الناس، فلم يمض ثلاثة - أى ثلاثة أيام - حتى خرج ثمانية آلاف رجل من أهل الكوفة، فمضوا حتى دخلوا مع أهل الشام إلى أرض الروم، وعلى جند أهل الشام حبيب بن مسلمة بن خالد الفهرى، وعلى جند أهل الكوفة سلمان بن ربيعة، فشنوا الغارات على أرض الروم، فأصاب الناس ماشاءوا من سبي، وملئوا أيديهم من المغنم، وافتتحوا بها حصوناً كثيرة».

محاولات الروم العودة إلى مصر:

لم يكف الروم عن محاولاتهم الهجوم على المسلمين، على الرغم من هزيمتهم في الشام، وما إن اعتلى الإمبراطور «قنسطانز الثاني» (22 - 48 هـ = 642 - 668م) حتى سيطرت عليه فكرة استرداد الشام و «مصر» من أيدي المسلمين، كما استردها جده «هرقل» من الفرس قبل سنوات قليلة من الفتح الإسلامي، فأرسل في سنة (25 هـ = 645 م) حملة بحرية كبيرة إلى «مصر»، بقيادة «مانويل»، تمكنت من الاستيلاء على «الإسكندرية»، بمساندة من بقى فيها من الروم والإغريق، وبدأت تتوغل جنوباً فاصدة «حصن بابليون»، فكلف الخليفة «عثمان» قائده «عمرو بن العاص» بمهمة الدفاع عن «مصر» وطرد الروم، وكان «عمرو» قد أعفى من ولايتها بناء على طلبه في مطلع خلافة «عثمان»، فلم يتردد الفاتح الكبير في العودة إلى

(115/1)

---

«مصر» للقيام بهذه المهمة، ونجح في طرد الروم نهائياً، بعد أن ألحق بهم هزيمة منكرة، وقتل «مانويل» قائد حملتهم.

استمرار فتح شمال إفريقيا في عهد عثمان:

لما ولى «عبدالله بن سعد بن أبي السرح» ولاية «مصر» من قبل «عثمان بن عفان»؛ كتب إليه أن الروم الذين لا يزالون يسيطرون على «شمال إفريقيا» يغيرون على حدود «مصر» الغربية، ولابد من

مواجهتهم قبل أن يتجرءوا ويهاجموا «مصر» نفسها، فاقتنع «عثمان» بعد أن استشار كبار الصحابة، وأذن له بتجريد حملات عسكرية لردعهم وكف عدوانهم، كما أرسل إليه جيشاً من «المدينة» مدداً، يضم عدداً من الصحابة كابن عباس، و «عبد الله بن الزبير» رضى الله عنهما.

وفي سنة (27هـ = 647م) انطلق جيش المسلمين بقيادة «عبدالله بن سعد»، وتوغل غرباً حتى وصل إلى «قرطاجنة» عاصمة إقليم «تونس» في ذلك الوقت، ودارت عدة معارك بين المسلمين وبين ملكها «جريجوار» أو «جرجير» كما تسميه المصادر العربية، انتهت بانتصار المسلمين وقتل الملك «جريجوار» على يد «عبدالله بن الزبير».

ولم تكن تلك الحملة تهدف إلى الاستقرار، بل إلى ردع العدوان، ولذا اكتفى «عبدالله بن سعد» بعقد معاهدات صلح مع زعماء تلك البلاد تعهدوا فيها بدفع مبلغ كبير.

وبعد عودة «عبدالله بن سعد» إلى «مصر»، قام بفتح بلاد النوبة جنوباً سنة (31هـ = 651م)، وعلى الرغم من أنها لم تخضع لبلاد «النوبة» للمسلمين، فإنها انتهت بعقد صلح بين الطرفين، اتفقا فيه على تبادل التجارة والمنافع.

نشأة الأسطول الإسلامي:

يُعد إنشاء الأسطول الحربي الإسلامي من أعظم الإنجازات التي تمت في عهد أمير المؤمنين «عثمان بن عفان» فبعد الفتوحات الإسلامية في «مصر» و «الشام» وجد المسلمون أنفسهم قد سيطروا على الشواطئ الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط، الذي كان يُعرف وقتئذٍ ببحر الروم، لأن سيطرتهم عليه كانت كاملة، ولم تنازعهم في ذلك

دولة أخرى؛ ولذا كان المسلمون في حاجة إلى قوة بحرية تمكنهم من الحفاظ على شواطئهم ضد هجمات الأسطول البيزنطي. وكان أول من تنبه إلى ذلك «معاوية بن أبي سفيان» والى الشام؛ لأنه اضطلع بفتح سواحل الشام، مثل: «صور»، و «عكا»، و «صيدا»، و «بيروت» منذ عهد الخليفين «أبي بكر الصديق» و «عمر بن الخطاب»، وواجه صعوبات كثيرة في فتح تلك المدن، لقوة تحصينها من ناحية، وتوالى الإمدادات التي تأتيها من البحر من ناحية أخرى، كما أنها كانت محطات للأساطيل البيزنطية.

ولما أدرك «معاوية» أنه بدون قوة بحرية إسلامية فلن يتمكن من الدفاع عن كل الساحل الشامي، فعرض الأمر على الخليفة «عمر بن الخطاب»، مصورًا له حجم الخطر بقوله: «يا أمير المؤمنين، هناك قرية من قرى الروم - يقصد جزيرة قبرص - في عرض البحر، تتخذها أساطيلهم قاعدة للعدوان علينا، وهذه القرية قريبة من حدودنا إلى درجة أن أهل «حمص» - من مدن الشام - يسمعون نباح كلابها وصياح دجاجها، فأذن لنا ببناء أسطول حربي بحري»، لكن «عمر» رفض ذلك رفضًا قاطعًا؛ لخوفه على المسلمين من أهوال البحار، وأن الوقت لا يزال مبكرًا للدخول في هذا المجال، وقال لمعاوية: «لمسلم واحد أحب إلى مما حوت الروم»، يقصد أن سلامة المسلمين عنده مقدمة على أي شيء آخر، وطلب من «معاوية» أن يستعيب عن ذلك بتقوية حصون السواحل، فامتثل «معاوية»، لكنه لم يفقد الأمل في تحقيق ما يصبو إليه.

بناء الأسطول:

بإدارة «معاوية بن أبي سفيان» بعد تولى «عثمان بن عفان» الخلافة سنة (24 هـ) إلى عرض مشروعه القديم عليه، الذي يقضى بإنشاء أسطول بحري، لكن «عثمان» رفض في البداية، وذكره بمآدار بينه وبين «عمر بن الخطاب» في ذلك الشأن، وأنه حريص على سلامة المسلمين كحرص «عمر» من قبل لكن «معاوية» ألح عليه إلحاحًا

شديداً، وكان أجراً عليه من «عمر»، ولم يكف عن المحاولة حتى ظفر منه بالإذن، وكان إذناً مشروطاً، بالألا يُكره أحدًا من الجنود على

(117/1)

العمل في الأسطول.

بدأ «معاوية بن أبي سفيان» يعمل على الفور في بناء الأسطول، متعاوناً مع «عبدالله بن سعد بن أبي السرح»، والى «مصر»، ومستثمراً كل الإمكانيات المتاحة والصالحة لصناعة السفن في «مصر» والشام، حيث كانت في «مصر» دور قديمة لصناعة السفن، وعدد كبير من العمال المهرة المدربين، وأشجار «السنط» التي تصلح لعمل الصواري وضلوع السفن، وكانت الشام تتمتع بكثير من المواد اللازمة مثل أخشاب «السنوبر» و «البلوط» و «العرعر»، وأدى هذا التعاون بين «مصر» والشام إلى بروز الأسطول الإسلامي وظهوره. فتح جزيرة قبرص سنة (28هـ):

كان أول عمل بحرى ناجح قام به الأسطول الإسلامى، هو فتح «جزيرة قبرص» التي كانت تهدد شواطئ المسلمين باستمرار لقربها منها من ناحية، وباعتبارها محطة مهمة من محطات الأساطيل البيزنطية من ناحية أخرى.

وقد غزاها «معاوية» سنة (28هـ)، أى بعد أربع سنوات فقط من بناء الأسطول الإسلامى، وهى مدة ليست بالطويلة لإنشاء أسطول بحرى، ولكنها عزيمة الرجال وإصرارهم على إنجاز العمل. وكانت الغزوة مشتركة أسهمت فيها قوات الشام، وقوات «مصر» بقيادة «عبدالله بن سعد»، ونزلوا «قبرص» واستولوا عليها، فعرض أهلها الصلح، فقبل «معاوية»، واشترط لعقده عدة شروط:

- أن يدفع أهل «قبرص» جزية سنوية، مقدارها سبعة آلاف دينار.
- وأن يُعلموا المسلمين بأية تحركات عدائية من جانب الروم ضد

سواحلهم.

- وأن يقف أهل «قبرص» على الحياد، إذا نشبت حرب بين المسلمين والروم، ولكن لا يمنعون المسلمين من المرور بجزيرتهم إذا احتاجوا إلى ذلك.

ولم يلتزم أهل «قبرص» بما تعاهدوا عليه في الصلح، مما جعل «معاوية» يعاود غزو الجزيرة مرة أخرى سنة (33هـ) ويضمها إلى دولة الخلافة، وينقل إليها اثني عشر ألفاً من المسلمين من أهل الشام، وأسكنهم فيها، وبنى لهم الدور والمساجد. موقعة ذات الصواري سنة (34هـ):

أثار بروز الأسطول الإسلامي في البحر المتوسط حفيظة «قنسطانز

(118/1)

---

الثاني» الإمبراطور البيزنطي، وجعله يفكر في القضاء على الأسطول الإسلامي وتحطيمه، قبل أن تكتمل قوته، ويزداد خطره، وحتى تظل السيطرة على «البحر المتوسط» للأسطول البيزنطي وحده دون غيره، فعبا الإمبراطور قواته البحرية كلها، واتجه بها قاصداً سواحل الشام، وهو لا يراوده شك في قدرته على تدمير السفن الإسلامية؛ لحدائثة نشأتها، وقلة خبرة رجالها، لكن المسلمين استعدوا لهذا اللقاء جيداً وتعاون الأسطولان في «مصر» والشام، لرد هذا العدوان، وأسندت قيادتهما إلى «عبدالله بن سعد» والى «مصر».

والتقى الأسطولان الإسلامي والبيزنطي - الذي كان بقيادة الإمبراطور نفسه - في شرقي «البحر المتوسط»، جنوبي شاطئ «آسيا الصغرى» (تركيا الحالية)، ودارت بينهما معركة بحرية كبيرة، سُميت بمعركة «ذات الصواري»، لكثرة السفن التي اشتركت من الجانبين (خمسمائة سفينة من جانب الروم، مقابل مائتي سفينة من جانب المسلمين) وانتهت المعركة بنصر عظيم للمسلمين، وهزيمة ساحقة

للأسطول البيزنطي، ونجاة الإمبراطور من القتل بأعجوبة.  
ونتيجة لهذه الهزيمة لم يرجع الإمبراطور إلى عاصمة «القسطنطينية»  
بعد المعركة، وإنما ذهب إلى «جزيرة صقلية»، قبالة شاطئ  
«تونس»، في محاولة منه لحماية ما تبقى من دولة الروم في «شمال  
إفريقيا»، لكنه قتل في «صقلية» سنة (688هـ = 688م).  
مصحف عثمان:

إذا كان لعهد «عثمان بن عفان» - رضى الله عنه - أن يفخر بما أنجز  
فيه من الأعمال العظيمة؛ فإن له أن يفخر بما هو أعظم منها جميعاً،  
وهو جمع القرآن الكريم على لغة واحدة.  
للقرآن صورتان: صورة صوتية مقروءة، وأخرى مكتوبة مدونة، وقد  
حرص الرسول - صلى الله عليه وسلم - على تدوين الآيات فور نزولها،  
وقبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى راجع مع «جبريل» - عليه السلام -  
ترتيب الآيات والسور مرتين.  
وقد حفظ الصحابة القرآن بالللهجات التي درجوا عليها، وأجاز لهم

(119/1)

---

النبي - صلى الله عليه وسلم - ذلك، ولذا ظهر الاختلاف في وجوه  
القراءة بين الصحابة من بدء نزول القرآن، نتيجة للهجة التي اعتادها  
اللسان.  
ولما جُمع القرآن الكريم الجمع الأول في الصحف في عهد «أبي بكر»  
بهيئته المكتوبة، بقيت الصورة الصوتية كما هي، ولما فُتحت البلاد  
وتفرقت الصحابة فيها، أخذ أهل كل إقليم يقرءون القرآن بقراءة  
الصحابي أو الصحابة الذين عاشوا بينهم، فتمسك أهل «الكوفة»  
بقراءة «عبدالله بن مسعود»، وأهل الشام بقراءة «أبي بن كعب»،  
وأهل «البصرة» بقراءة «أبي موسى الأشعري»، ومع اتساع  
الفتوحات، زاد الخلاف بين المسلمين حول قراءة القرآن، وتحول الأمر

إلى تعصب، بل كاد أن يؤدي إلى فتنة بينهم، مما أفرع «حذيفة بن اليمان» الصحابي الجليل، وكان يقرأ في «أذريجان»، فرجع إلى «المدينة»، وأخبر «عثمان بن عفان» بما رأى.

جمع «عثمان» الصحابة، وأخبرهم الخبر، فأعظموه، ورأوا جميعاً مارأى «حذيفة» من ضرورة جمع الناس على مصحف واحد، وأرسل «عثمان» إلى أم المؤمنين «حفصة بنت عمر» أن تبعث إليه بالمصحف الذى جُمع فى عهد «أبي بكر» - وكان «عمر بن الخطاب» قد أخذه بعد وفاة «أبي بكر»، ثم حُفظ بعد موته عند ابنته «حفصة» - ثم أمر «زيد بن ثابت» - الذى جمع القرآن الجمع الأول فى عهد «أبي بكر الصديق» - و «عبدالله بن الزبير»، و «سعيد بن العاص»، و «عبدالرحمن بن الحارث بن هشام»، أن ينسخوه، وقال لهم: إذا اختلفتم - يعنى فى كلمة أو كلمات - فاكتبوها بلسان «قريش»، فإنما نزل بلسانهم، فلما نسخوه، أرسل إلى كل إقليم مصحفاً وأمر بإحراق ما سوى ذلك، وقد سمي هذا المصحف بالمصحف الإمام أو «مصحف عثمان». الفتنة وأسبابها:

سارت الأمور فى الدولة الإسلامية على خير ما يرام فى الشطر الأول من خلافة «عثمان» - رضى الله عنه - (24 - 30هـ)، ولكن مع بداية سنة (31هـ) هبت على الأمة الإسلامية رياح فتنة عاتية، زلزلت أركانها،

(120/1)

---

وكلفتها تضحيات جسيمة، واستمرت هذه الفتنة نحو عشر سنين، شملت ما تبقى من خلافة «عثمان بن عفان»، وكل زمن خلافة «على بن أبي طالب» - رضى الله عنهما - (31 - 40هـ).  
ومما لاشك فيه أن تلك الفتنة كانت نتيجة لمؤامرة واسعة النطاق كانت أحكم فى تدبيرها، وأوسع فى أهدافها، وأخطر فى نتائجها من مؤامرة اغتيال «عمر بن الخطاب» - رضى الله عنه -، لأن اغتيال

«عمر» لم يخلف آثارًا خطيرة بين المسلمين، ولم يقسمهم شيعةً وأحزابًا كما حدث في آخر عهد «عثمان»، ولأن الذين خططوا لقتل «عمر» والذين قاموا بتنفيذ ذلك كانوا غير مسلمين وغير عرب، في حين أن الذين قتلوا «عثمان» و «عليا» من بعده كانوا عربًا مسلمين، وهذا هو وجه الخطورة، حتى وإن كان التخطيط من غيرهم. والذي لاشك فيه أن الذى تولى التخطيط للفتنة، وقتل «عثمان»، وإغراق الأمة في بحر من الدماء، هو «عبد الله بن سبأ» اليهودى، الذى ادعى الإسلام؛ ليتمكن من الكيد له من داخله، والذى لُقِّب بابن السوداء.

وقبل الحديث عنه يحسن تناول الظروف والأجواء التى كانت سائدة فى عهد «عثمان» - رضى الله عنه - واستغلها «ابن سبأ» لتحقيق أهدافه المدمرة:

أولاً: تغيرت الظروف فى آخر حياة «عثمان» بل وفى بداية خلافته عما كانت عليه فى خلافة «عمر بن الخطاب»، وربما كان هذا تطوراً طبيعياً فى حياة الأمة، فقد كثرت الغنائم فى أيدي الناس، وبدءوا يتوسعون فى المأكل والملبس والمشرب، وبخاصة الجيل الجديد من العرب الذى دخل فى الإسلام بعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم -، ولم يتأدب بآدابه، ولم يتعود حياة القناعة والقصد فى المعيشة التى كان يجيها الصحابة فى حياته - صلى الله عليه وسلم -.

ولم يُرِضْ ذلك التوسع فى المعيشة صحابياً جليلاً اشتهر بالزهد، هو «أبو ذر الغفارى»، فسخط على «عثمان» وولاته وعماله، وحملهم مسئولية ذلك التطور الاجتماعى الطبيعى الذى لم يكن من صنعهم،

(121/1)

---

وراح ينادى بتحريم امتلاك المسلم لشيء من المال فوق حاجة يومه وليلته، واستشهد على ذلك بقوله تعالى: {والذين يكتزون الذهب

والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم}. [التوبة: 34].

ولم يوافق أحد من الصحابة «أبا ذر» فيما نادى به، وكانوا يرون أن المال إذا جُمع من حلال، وأدى عنه صاحبه حق الله وهو الزكاة: لا يعتبر كنزاً، ولا تنطبق عليه الآية موضع الاستشهاد، والنبي - صلى الله عليه وسلم - كان يخزن مؤنة بيوته لمدة سنة إذا كانت الظروف تسمح بذلك، وتشريع الله للمواريث في نظام دقيق يقتضى ترك الميت ثروة تقسم بين ورثته، وكثير من الصحابة كانوا أغنياء على عهد النبي - صلى الله عليه وسلم -، ولم يعب النبي - صلى الله عليه وسلم - ثراءهم، بل يُروى أنه قال: «نعم المال الصالح للمرء الصالح». [مسند أحمد].

وقد نصح النبي - صلى الله عليه وسلم - «سعد بن أبي وقاص» حين أراد أن يتصدق بماله كله بقوله: «إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفون الناس». [صحيح البخارى، كتاب الجنائز]. ولو أن «أبا ذر الغفارى» - رضى الله عنه - احتفظ برأيه لنفسه، لكان الأمر هيناً، ولكنه أذاعه في الناس؛ ووجد صداه عند الكسالى والذين يريدون أن يعيشوا عالة على غيرهم، فألبوا الناس على «عثمان» وولاته، وكانت تلك الدعوة سبباً من أسباب الفتنة. وعلى الرغم من اعتزال «أبي ذر» الناس في الريذة «شرقى المدينة» امتثالاً للخليفة؛ فإن دعوته كانت قد استشرت، وتلقفها «ابن سبأ» اليهودى وأشعلها بين الناس.

ثانياً: شارك عدد كبير من أهل «اليمن» ومنطقة «الخليج» في الفتوحات الإسلامية، وكان دورهم في تحقيق النصر لا ينكر، ولكنهم وجدوا بعد الفتح أن الإمارات والوظائف الرئيسية قد أُسندت إلى غيرهم وبخاصة أبناء «قريش»، وكبار المهاجرين والأنصار وأبنائهم، فلم يعجبهم ذلك، ورأوا أنفسهم أحق بالإمارات التي فتحوها

بسيوفهم، مع أنه كان من الضروري أن يتولى المهاجرون والأنصار هذه الولايات؛ لأنهم يعرفون الإسلام وشرائعه أكثر، فقدمهم علمهم وفقههم في الدين وسابقتهم في الإسلام، وجهادهم مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا أنسابهم وأحسابهم. ونتيجة لذلك تكونت جبهة عريضة من أبناء تلك المنطقة معارضة لسيطرة أبناء المهاجرين والأنصار على الدولة الإسلامية، ولم تكن شكواهم من الولاة واتهامهم بالظلم حقيقية، بل كانت ذريعة للنيل منهم، ومن الخليفة «عثمان»، وهدفًا لقلب الدولة وتغيير نظام الحكم المتهم بالظلم، وهؤلاء كانوا صيدًا سمينًا لابن سبأ فاستغل السخط الذى مأل قلوبهم لتحقيق هدفه الشرير.

ثالثًا: عندما بدأت هذه الفتنة كان معظم ولاة الأقاليم من «قريش»، بل من «بنى أمية» أهل «عثمان»، وأقربائه، مما سهل على «ابن سبأ» مهمته فى إشعال نار الفتنة، والحق أن هؤلاء الولاة، وهم «معاوية بن أبى سفيان» والى الشام، و «عبدالله بن سعد بن أبى السرح» والى «مصر»، و «عبدالله بن عامر» والى «البصرة»، و «الوليد بن عقبة» والى «الكوفة»، كانوا من خيرة الولاة، ومن أسهموا فى تثبيت الفتوحات الإسلامية بعد استشهاد «عمر»، ومن مارسوا الحكم قبل خلافة «عثمان»، بل إن «معاوية بن أبى سفيان» كان واليًا على الشام من عهد «أبى بكر الصديق». ومن ثم لم يولهم «عثمان» هوى فى نفسه، أو لأنهم من أقربائه، بل ولاهم لكفائيتهم ومقدرتهم الإدارية.

ومما يؤسف له أن بعض الكتاب الكبار صوّروا الأمر على غير ما تقتضيه الحقيقة التاريخية، وكان «عثمان بن عفان» أتى بهؤلاء الولاة من قارة الطريق، وعينهم على الولايات الكبيرة، وحملهم على رقاب الناس؛ لأنهم أقرباؤه فحسب. ويذهب بعضهم إلى تصوير أمر استعفاء «عمرو بن العاص» من إمارة «مصر» بناء على طلبه

على أنه عزل من «عثمان» ليعين مكانه أخاه من الرضاة «عبدالله بن سعد»، ولا يذكر شيئاً مما يعرضه مؤرخو «مصر» الإسلامية كابن

(123/1)

عبد الحكم و «الكندى»، من أن «عبد الله بن سعد» كان والياً على صعيد «مصر» من قبل «عمر بن الخطاب»، فلما تولى «عثمان بن عفان» الخلافة طلب منه «عمرو بن العاص» أن يخصه وحده بإمارة «مصر» كلها، فرفض «عثمان»، فاعتزل «عمرو» الولاية بناء على طلبه، ولم يعزله «عثمان بن عفان».

رابعاً: أن من أبناء البلاد المفتوحة وبخاصة بلاد فارس، من لم يسترح إلى سيادة العرب عليهم، وسيطرتهم على بلادهم، وهم الذين كانوا بالأمس يحتقروهم وينظرون إليهم في استعلاء، فعز على أنفسهم ذلك، فلم يتزكوا فرصة لزعة الدولة الإسلامية إلا وانتهزوها، خاصة من لم يتمكن الإسلام في قلوبهم منهم، وهؤلاء كان لهم دور في إثارة الفتنة على «عثمان»، واستمر حتى آخر العصر الأموي. خامساً: أن كل ما تقدم كان يمكن تداركه وعلاجه، بل إن «عثمان» - رضى الله عنه - حاول إجابة كل مطالب الثائرين عليه والمؤلمين للناس ضده، لكنهم لم يقتنعوا؛ لأن الخليفة لان معهم وحلم عليهم أكثر مما كان ينبغي، ولو أخذهم بالشدة والحزم كما كان يفعل «عمر بن الخطاب» مع أمثالهم لارتدعوا، وحُسمت الفتنة. عبد الله بن سبأ:

هو رجل يهودى من «صنعاء» ادعى الإسلام في عهد «عثمان»، وأخذ يبيث في المسلمين أفكاراً غريبة وبعيدة عن الإسلام، مثل قوله بالوصية أى أن «على بن أبي طالب»، هو وصى النبي - صلى الله عليه وسلم - وخليفته من بعده، ومعنى ذلك أن الخلفاء الثلاثة، «أبا بكر» و «عمر» و «عثمان» اغتصبوا حق «على» في الخلافة.

ويدأ «ابن سبأ» من هذه النقطة، مستغلا كل الأطراف التي سبق الحديث عنها، ووضع للتائرين والناقمين على اختلاف مشاربهم وأهدافهم خطة للتحرك ضد الخليفة وولاته، وأشار عليهم بالنيل من الولاية أولا؛ لما كان يعرف أن «عثمان» نفسه فوق الشبهات، حتى إذا نجحوا في تشويه سمعة الولاية، انتقلوا إلى «عثمان» باعتباره المسئول الأول عنهم، ومما قاله لأتباعه: «إن عثمان أخذها بغير حق،

(124/1)

وهذا وصى رسول الله - يقصد عليًا - فأنهضوا في هذا الأمر فحركوه، وابدءوا بالطعن في أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تستميلوا الناس».

أخذ «ابن سبأ» ينتقل بهذا التدبير الشيطاني بين الأقاليم من «البصرة» إلى «الكوفة» إلى الشام إلى «مصر»، يبيث أفكاره وسمومه، وكانت خطته بالغة الإحكام، جعلت أتباعه ينجحون في زرع الشكوك في نفوس الصحابة في «المدينة»، مثل «علي بن أبي طالب»، و «الزبير بن العوام»، و «طلحة بن عبيد الله»، والسيدة «عائشة» - رضى الله عنها - وهؤلاء كلهم كانت تصلهم معلومات كاذبة عن ظلم ولاية الأقاليم، لكنهم صدقوها للأسف، ولم يتبينوا كذبها إلا بعد فوات الأوان، وبعد أن وقعت الواقعة، وقتل الخليفة الثالث مظلومًا.

موقف عثمان من الفتنة:

لما سمع «عثمان بن عفان» ما يقال عن ولاية أقاليمه جمع أهل «المدينة»، وقال لهم: أشيروا علي، فأشاروا عليه أن يرسل رجلا إلى الأقاليم للتحقيق فيما وصله من كلام عنهم، كما كان يفعل «عمر بن الخطاب»، فاستجاب على الفور، وحدد أربعة من الصحابة من غير «بنى أمية» - حتى لا يتهمهم أحد بالتحيز للولاية - للقيام بما كلفهم

به، فأرسل «محمد بن مسلمة» إلى «الكوفة»، و «أسامة بن زيد» إلى «البصرة»، و «عبدالله بن عمر» إلى الشام، و «عمار بن ياسر» إلى «مصر»، و عاد الثلاثة الأول إلى «المدينة»، و قدموا تقارير للخليفة بأن الأمور تجرى على خير وجه، وأن الشكاوى التي تصل إلى «المدينة» كلها باطلة، ولا أساس لها من الصحة؛ وأن الولاة يقومون بعملهم خير قيام، أما «عمار بن ياسر» فلم يعد من «مصر»، لأنه لما وصل إليها، تصادف وجود «ابن سبأ» فيها، فاستقطبه للأسف وضمه إلى صفه، مما جعل الأمر يستفحل ويزداد خطرًا. وبعد أن تبين بطلان مزاعم أتباع «ابن سبأ»، الذين ألبوا الناس على «عثمان» - وكلهم عرب مسلمون- لان لهم الخليفة، وعطف عليهم وحاول استرضاءهم بدلا من عقابهم وأخذهم بالشدّة.

(125/1)

ولما تهيأ الجو، ورأى زعماء الفتنة أن الفرصة سانحة للتخلص من الخليفة، خرجوا إلى «المدينة» على رأس وفود أهل «مصر» و «البصرة» و «الكوفة»، وكانوا نحو عشرة آلاف متظاهرين بالحج، مخفيين نياتهم الخبيثة عن عامة الناس، الذين شكوا إلى الخليفة من تصرفات لولااتهم لا يرضونها، فوعدهم خيراً، وأمرهم بالعودة إلى أمصارهم، فرضوا لما رأوه من سماحته وعطفه، وعادوا. أما زعماء الفتنة من أمثال: «الأشتر النخعي»، و «عمرو بن الأصم»، و «حرقوص بن زهير السعدي»، و «الغافقي بن حرب»، فقد ساءهم عودة عامة الناس الذين لا علم لهم بالمؤامرة، وسقط في أيديهم، وعزموا على قتل الخليفة أو عزله، فتخلفوا في «المدينة»، وزوروا كتاباً، ادعوا كذباً أنهم وجدوه مع غلام من غلمان «عثمان»، موجه إلى «عبدالله بن سعد» وإلى «مصر» يأمره فيه بقتل بعض الثائرين وتعذيب بعضهم الآخر.

عاد الثائرون من الطريق بهذا الكتاب، فعرضوه على «علي بن أبي طالب»، فأدرك أنه مزور، لأن الذين ادعوا أنهم وجدوه هم أهل «مصر»، ولكنهم عندما عادوا عادوا جميعاً، أهل «مصر» و «الكوفة» و «البصرة»، مع أن طرفهم مختلفة، فعودتهم في وقت واحد، تدل على أن الأمر مدبر، فقال لهم علي: «كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وطريقكم مختلف وقد سرتم علي مراحل؟! هذا والله أمر أبرم بالمدينة».

ولما علموا أن أمرهم قد ظهر، وخطتهم انكشفت، قالوا لعلي: «ضعوه حيث شئتم - أي الكتاب مصممين على كذبهم - لاجابة بنا إلى هذا الرجل، ليعترلنا»، ولا شك أن هذا تسليم منهم بأن قصة الكتاب مختلقة، وأن غرضهم الأول والأخير هو خلع أمير المؤمنين أو سفك دمه، الذي عصمه الله بشريعة الإسلام. محاصرة بيت الخليفة وقتله:

تشبث الأشرار بهذا الكتاب المزور، ولم يستجيبوا لنصح الصحابة بالرجوع إلى بلادهم؛ لأن الخليفة لم يرتكب خطأ يستحق عليه العقاب، فحاصروه في بيته، ولم تكن هناك قوة تدافع عنه، فقد رفض عرضاً

(126/1)

---

من «معاوية بن أبي سفيان» بالذهاب معه إلى الشام، وكره أن يغادر جوار رسول الله كما رفض أن يرسل «معاوية» إليه جنداً من الشام لحمايته، لأنه كره أن يضيق على أهل مدينة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بجيش يضايقهم في معاشهم. ولما رأى «علي بن أبي طالب» و «الزبير بن العوام» و «طلحة بن عبيد الله» وغيرهم الحصار المضروب على بيت الخليفة؛ أرسلوا أبناءهم لحراسته، لكنه رفض ذلك أيضاً، وأقسم عليهم بما له من حق الطاعة عليهم أن يذهبوا إلى بيوتهم ويغمدوا سيوفهم، لأنه أدرك أن أبناء

الصحابة وهم عدد قليل، إن تصدوا لهؤلاء الأشرار - وكانوا زهاء عشرة آلاف - فقد يقتلونهم جميعًا، فآثر سلامتهم وحقن دماءهم، ولعله كان يفكر أن الثوار إذا قتلوه هو فستنتهى المشكلة، فرأى أن يضحى بنفسه، حقنًا للدماء، ولم يدر أن دمه الطاهر الذى سيُسفك، كان مقدمة لبحور من دماء المسلمين، سالت بعد ذلك نتيجة مقتله.

امتثل أبناء الصحابة لأمره، وعادوا إلى بيوتهم، لكنه طلب منهم ماء للشرب، بعد أن منعه الثوار عنه، وهو الذى اشترى للمسلمين «بئر رومة» ووهبها لهم، بناء على طلب من الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذى بشره بنهر عظيم فى الجنة.

وكانت أم المؤمنين «أم حبيبة بنت أبى سفيان» أول المغيثن لعثمان، لكنها لم تستطع أن توصل الماء إليه لأن الثوار منعوها، وأساءوا معها الأدب وسبوا، ولم يراعوا لها حرمة.

فلما فعلوا بأمر حبيبة ذلك، ذهب إليهم «على بن أبى طالب» - رضى الله عنهم - وقال لهم: «إن الذى تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين، لاتقطعوا عن الرجل المادة (الطعام والشراب) فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقى، وما تعرض لكم هذا الرجل، فبم تستحلون حصره وقتله؟! قالوا: لا والله ولا نعمة عين - يعنى ولا قطرة ماء تصله - لا نتركه يأكل ويشرب».

وبعد ذلك اقتحموا على الخليفة داره اقتحامًا، متسلقين من دور

(127/1)

---

مجاورة، وقتلوه وهو صائم يقرأ القرآن، وروعوا الأمة الإسلامية فى إمامها، الذى كانت تستحى منه الملائكة، والذى بشره النبى - صلى الله عليه وسلم - بالجنة، وتنبأ له بالشهادة، وكان استشهاده فى أواخر شهر ذى الحجة سنة (35هـ).

قُتِلَ «عثمان بن عفان» مظلومًا لم يرتكب ذنبًا أو يقترب جرمًا يستحق به أن يرفع هؤلاء الأشرار أصواتهم عليه ولو كان كل ما رموه به من تهم صحيحًا - مع أنه باطل وملفق - ما أباح لهم قتله، ولكنه الحق الأوسد والأفكار الهدامة، التي زرعتها «ابن سبأ» في نفوسهم وعقولهم، جعلهم يرون فضائله وإنجازاته تهمًا وجرائم، فاتهموه -مثلا - بأنه تخلف عن «بيعة الرضوان» في «الحديبية»، مع أنهم يعلمون أنه عندئذٍ كان في «مكة» سفيرًا للرسول - صلى الله عليه وسلم - يقوم بمهمة اعتذر عنها «عمر بن الخطاب» لخطورتها، وناب النبي - صلى الله عليه وسلم - نفسه عن «عثمان» في البيعة، فكانت بيعة عن «عثمان» أفضل من بيعة الصحابة لأنفسهم، كما اعتبروا جمعه للقرآن في مصحف واحد جريمة، مع أنه أعظم أعماله باعتراف الصحابة أنفسهم.

وقد وصف «أبو بكر بن العربي» قتلة «عثمان» وصفًا صادقًا، فقال: «وأمثل ما روى في قصته - أى عثمان - أنه بالقضاء السابق، تألب عليه قوم لأحقاد اعتقدوها، ممن طلب أمرًا فلم يصل إليه، أو حسد حسادة أظهر داءها، وحمله على ذلك قلة دين، وضعف يقين، وإيثار العاجلة على الآجلة، وإذا نظرت إليهم ذلك صريح ذكرهم على دناءة قلوبهم، وبطلان أمرهم».

وقد لا يصدق بعض الناس أن رجلا واحداً هو «عبد الله بن سبأ» يستطيع أن يفسد أمر أمة بكاملها، مهما تبلغ قدراته، بل وصل الأمر ببعضهم إلى إنكار وجوده أصلاً، ولكن الواقع أن «ابن سبأ» كان موجوداً ووجوده حقيقة، وهو كأي متآمر خبيث يتمتع بقدر كبير من الدهاء والمكر، مكنه من أن يستميل إلى صفه صحابين جليلين هما «أبو ذر الغفاري» و «عمار بن ياسر»، وأن يستغل كل الساخطين من

أبناء العرب الطامعين في الوظائف، بالإضافة إلى الحاقدين من  
أبناء البلاد المفتوحة، الذين سقطت دولهم، وبادت عروشهم، وخلق  
من ذلك كله تياراً عاماً، أدى إلى فتنة عارمة، ذهب ضحيتها «عثمان  
بن عفان»، ولم تنته بعد موته.

(129/1)

## الفصل التاسع

\*خلافة علي بن أبي طالب (35 - 40) هـ

نسبه ونشأته:

هو «علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف»،  
وأمه «فاطمة بنت أسد بن هاشم»، وهي أول هاشمية ولدت  
هاشمياً، وقد أسلمت وهاجرت إلى «المدينة»، وهو ابن عم النبي  
- صلى الله عليه وسلم -، وتربى في بيته، لأن أباه كان كثير العيال  
قليل المال، فأراد النبي أن يخفف عن عمه أعباء المعيشة، فأخذ  
«عليّاً» ليعيش معه في بيته، وكان عمره يومئذٍ ست سنوات، فشاءت  
إرادة الله أن ينشأ «علي» في بيت النبوة، فوقاه الله أرجاس  
الجاهلية، فلم يسجد لصنم قط، وكان أول من أسلم من الصبيان.  
صفته:

كان «علي بن أبي طالب» ربعة من الرجال، يميل إلى القصر، أسمر  
اللون، حسن الوجه واسع العينين، أصلع الرأس، عريض المنكبين،  
غزير اللحية، قوى الجسم.  
عُرف «علي بن أبي طالب» بالشجاعة والعلم الغزير، والزهد في  
الدنيا مع القدرة عليها، وكان واحداً ممن حفظوا القرآن كله من  
الصحابة، وعرضوه على النبي - صلى الله عليه وسلم -، ومن أكثرهم  
معرفة بالقرآن وبتفسيره وأسباب نزوله، وأحكامه، وكان من كتاب

الوحي، ولذا اختص في سيرته بلقب «الإمام» لأفضليته العلمية والفقهية، وكان أفضى الصحابة رضى الله عنهم جميعاً، واشتهر بالفصاحة والخطابة وقوة الحجّة، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وقد تأخى الرسول - صلى الله عليه وسلم - مع على بعد الهجرة، ثم زوجه ابنته «فاطمة»، وأنجب منها «الحسن» و «الحسين»، وهما اللذان حفظا نسل الرسول - صلى الله عليه وسلم - .  
شهد «على» المشاهد كلها - عدا تبوك - مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فكان في طليعة من صرعوا المشركين في «بدر»، وواحداً من الذين ثبتوا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في غزوة «أحد»، وحمل اللواء عندما سقط من يد «مصعب بن عمير» بعد استشهاد، حملة بيده اليسرى، وظل يقاتل بيده اليمنى، وصرع في غزوة الخندق «عمرو بن عبد ود» فارس «قريش» والعرب كلها عندما

(130/1)

لم يقدم أحد على مبارزته وأعطاه الرسول - صلى الله عليه وسلم - الراية يوم «خيبر»، وقال: «لأعطين اللواء غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»، وأخبر أن الفتح سيكون على يديه، وتحقق ذلك، وثبت مع من ثبتوا مع النبي - صلى الله عليه وسلم - في «حنين». وفي غزوة «تبوك» خلفه النبي - صلى الله عليه وسلم - في أهله يرمى مصالحهم وشئونهم، ولما تأذى من ذلك، وقال: يارسول الله، تخلفني في النساء والصبيان؟!، فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم -: «أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي؟»، إشارة من النبي إلى أن «موسى» عندما ذهب لمناجاة ربه، ترك أخاه «هارون»، خلفاً له في قومه، كما جاء في قوله تعالى: {وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين}. [الأعراف:142].

وكان رضى الله عنه موضع ثقة واحترام من الصحابة جميعاً، فكان من أكبر أعوان «أبي بكر الصديق» فى قمع حروب الردة، ولازم «عمر بن الخطاب»، فكان لا يقطع أمراً دون مشاورته، والاستئثار برأيه، وكان «عمر» يقول: «قضية ولا أبا حسن لها». وعاون «عثمان» بالرأى والمشورة مثلما كان يفعل مع «أبي بكر» و «عمر»، فلم يجلب عنه نصحه ومؤازرته فى الفتنة التى أطبقت على الأمة، وأرسل أولاده مع بقية أولاد الصحابة لحراسته والدفاع عنه، ثم ذهب بنفسه لمواجهة الأشرار. بيعته بالخلافة:

رُوِّعَت «مدينة» رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمقتل أمير المؤمنين «عثمان بن عفان» - رضى الله عنه - وعم الناس الهلع والرعب، لهذه الجريمة التى أقدم عليها هؤلاء الأشرار.

سيطر الثائرون على «المدينة»، وظل «العافقى بن حرب» زعيم ثوار «مصر»، وأحد كبار زعماء الفتنة يصلى بالناس إماماً فى مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خمسة أيام، والدولة كلها بدون خليفة، ولم يكن فى وسع أحد من الثوار أن يرشح نفسه لها، لأنهم يعلمون أن هذا الأمر يخص المهاجرين وحدهم.

(131/1)

وبدأ الثائرون يعرضون منصب الخلافة على كبار الصحابة: «على بن أبى طالب»، و «طلحة بن عبید الله»، و «سعد بن أبى وقاص»، و «الزبير بن العوام»، و «عبدالله بن عمر بن الخطاب»، فرفضوا جميعاً، وسماهم «على بن أبى طالب» الثائرين ولعنهم على فعلتهم الشنعاء، فهدهم الثائرون بقتلهم جميعاً كما قتلوا «عثمان» إن لم يقبل أحدهم منصب الخلافة.

وفى مثل هذه الظروف العصبية كان لابد من رجل شجاع غير هيباب،

يتقدم الصفوف لحمل الأمانة وسط الأخطار المحدقة بها، واتجهت الأنظار إلى «علي بن أبي طالب»، وتعلقت به الآمال، ترجوه تحمل المسئولية، وقيادة الركب إلى بر الأمان، وألح عليه كبار الصحابة إلحاحًا شديدًا لتولى المنصب الشاغر، منصب الخلافة الجليل، فقبل تجشم تبعاتها في هذه الظروف الدقيقة، وكان قبوله لها ضربًا من ضروب الفروسية والشجاعة، والاحتساب عند الله، والنزول على رغبة كبار الصحابة.

كان «علي بن أبي طالب» هو أول خليفة يخطب قبل البيعة، وكانت خطبة قصيرة، أشهد الله عليهم، وأشهدهم على أنفسهم أنهم هم الذين ألحوا عليه تقبل أمرٍ كان له كارهاً، لتبعاته ومسئوليته، فلما وافقوا بايعوه، ولهذا كان عليه أن يخطب مرة أخرى خطبة يوضح فيها أسلوبه في الحكم، فقال: «إن الله أنزل كتابًا هاديًا، بين فيه الخير والشر، فخذوا بالخير ودعوا الشر، الفرائض الفرائض أدوها إلى الله تعالى يؤدكم إلى الجنة، إن الله حرم حرمات غير مجهولة، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها، وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين، فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق، لا يجل دم امرئ مسلم إلا بما يجب، بادروا أمر العامة، وخاصة أحدكم الموت، فإن الناس أمامكم، وإن من خلفكم الساعة تحذوكم تحففوا تلحقوا، فإنما ينتظر الناس أخراهم، اتقوا الله عباد الله في بلاده وعباده، إنكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم، أطيعوا الله فلا

(132/1)

---

تعصوه {واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض}». [الأنفال: 26].

خطبة قصيرة مناسبة للمقام وللظرف الذي قيلت فيه، فقد بدأها بالتذكير بالله، وحث المسلمين على عمل الخير وتجنب الشر، وحذرهم

حرمات الله والوقوع فيها، وأهمها حرمة دم المسلم، ولعله بذلك يعرض بقتلة «عثمان» ويحدد موقفه من هذه الفعلة الشنعاء، وأنه لن يتساهل في القصاص منهم، وإقامة الحد عليهم.

على والقرارات الصعبة:

تمت بيعة «علي بن أبي طالب» في اليوم الخامس والعشرين من شهر ذي الحجة سنة (35 هـ)، فاستقبل بخلافته عام (36 هـ)، وكان عليه أن يواجه الموقف العصيب، الذي نتج عن استشهاد أمير المؤمنين «عثمان بن عفان»، باتخاذ قرارات صعبة تجاه عدد من الأعضاء، التي كان أولها:

- القصاص من قتلة «عثمان» - رضى الله عنه - وكان ذلك مطلب الصحابة، ففي أول يوم من خلافته ذهب إليه «طلحة» و «الزبير»، وطالباه بإقامة الحد على القتلة، وكان هو مقتنعًا بذلك، ولذلك قال لهما: «يا إخواناه إني لست أجهل ما تعلمون ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم؟ هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم، وثابت إليهم أعرابكم، وهم خلالكم - أي يعيشون بينكم - يسومونكم ماشاءوا - أي يسيطرون عليكم - فهل ترون موضعًا لقدرة على شيء مما تريدون؟ قالوا: لا، قال: فلا والله لا أرى إلا رأيًا ترونه أبدًا». ويتضح من هذا أن «علي بن أبي طالب» لم يكن أقل من غيره حرصًا على إقامة الحد على قتلة «عثمان»، ولكن الظرف الذي هم فيه لا يمكنه من ذلك، فإذا كان الذين نفذوا القتل في «عثمان» عددًا محدودًا، وهم «العافقي بن حرب»، ومعه «سودان بن حمران» و «كنانة بن بشر التجيبي»، فإن وراءهم نحو عشرة آلاف من الثوار الذين ضللوهم، وهم مستعدون للدفاع عنهم، ولذلك عندما كانوا يسمعون قائلًا يقول: من قتل «عثمان»؟ كان هؤلاء جميعًا يصيحون: نحن جميعًا قتلناه، ولذا كان رأى الإمام التريث حتى تهدأ الأمور،

ويعود الناس إلى بلادهم، حتى يتمكن من التحقيق في الأمر وإقامة الحد، وقد اقتنع الصحابة بهذا الحل، لكن الأمور تطورت تطوراً آخر على غير ما يهوى الجميع.

- وتغيير كل ولاية «عثمان» على الولايات الكبرى: «مصر» و «الشام»، و «الكوفة»، و «البصرة» حتى تهدأ الفتنة. وقد اتخذ «علي» بالفعل قراراً بذلك، فعزل «معاوية بن أبي سفيان» عن الشام، وعين بدلاً منه «سهل بن حنيف»، وعزل «عبدالله بن سعد بن أبي السرح» عن «مصر» وعين بدلاً منه «قيس بن سعد بن عبادة»، وعزل «عبدالله بن عامر» عن «البصرة» وعين بدلاً منه «عثمان بن حنيف»، وعزل «أبا موسى الأشعري» عن «الكوفة»، وعين بدلاً منه «عمارة بن شهاب». وهذا القرار الخطير راجعه فيه أقرب الناس وأخلصهم له، ابن عمه «عبدالله بن عباس»، ونصحه بالانتظار فترة ولو لمدة سنة، لتكون الأمور قد هدأت واستقرت، ويتم التغيير في ظرف مناسب، لكن الإمام أصر على تنفيذ قراره محتجاً بأن هؤلاء الثوار ثاروا غضباً من ولاية «عثمان»، سواء أكانوا مخطئين أم مصيبين، ولن تهدأ ثورتهم إلا إذا عُزلوا.

وإزاء إصرار علي - رضى الله عنه - على تنفيذ قراره، اقترح «ابن عباس» أمراً آخر، بأن يعزل من يشاء من الولاة، ويُبقي «معاوية» على ولاية الشام، وكان اقتراحاً ذكياً وجيهاً، فمعاوية لم يكن موضع شكوى أحد من رعيته، ولم يشترك أهل الشام في الثورة على «عثمان» وقتله، وعلى هذا فلو أقره علي في ولاية الشام، فلن يلومه أحد، وكان «ابن عباس» يعرف من ناحية أخرى أن «معاوية» لن يدعن لقرار العزل، وسيبقى في لايته، مسبباً متاعب كثيرة، ومع هذا صمم الإمام «علي بن أبي طالب» على عزل ولاية «عثمان» جميعاً بما فيهم «معاوية».

بدأ الولاة الجدد يتجهون إلى ولاياتهم لمباشرة أعمالهم، فذهب «قيس بن سعد» إلى «مصر»، ودخلها بدون متاعب؛ لأن واليها القديم «عبدالله بن سعد» تركها منذ علمه بمقتل «عثمان»، وذهب إلى

«فلسطين»، واعتزل الفتنة، وبقي هناك حتى مات في مدينة  
«عسقلان» سنة (37هـ).

وكذلك دخل «عثمان بن حنيف» «البصرة»، وتولى شئونها بدون  
مشاكل؛ لأن واليها «عبدالله بن عامر» كان قد تركها وذهب إلى  
«مكة».

أما «عمارة بن شهاب» فلم يمكنه أهل «الكوفة» من دخولها،  
وتمسكوا بواليهم «أبي موسى الأشعري»، فوافق الإمام «علي»  
على ذلك، وأقر عليهم «أبا موسى الأشعري».

وكذلك لم يستطع «سهل بن حنيف» دخول الشام، فقد منعه «معاوية  
بن أبي سفيان»، رافضاً قرار العزل. وهنا لم يعامل الإمام «علي»  
الشام معاملة «الكوفة»، فإنه رفض إقرار «معاوية» في ولاية  
الشام، مع أن تمسك أهلها به كان أشد من تمسك أهل «الكوفة»  
بأبي موسى الأشعري.

بين علي ومعاوية:

دارت مراسلات عديدة بين «علي» و «معاوية» - رضى الله عنهما -  
يطلب الأول من الآخر مبايعته بالخلافة، والإذعان لأوامره، باعتباره  
الخليفة الشرعي الذي يايه معظم الصحابة في «المدينة»، علي حين  
يطلب الثاني من الأول القصاص من قتلة «عثمان»، باعتباره ولي  
دمه، لأنه ابن عمه، وبعدها ينظر في بيعته.

ولم تكن وجهة نظر الإمام في قضية القصاص رافضة، لكنه كان يرغب  
في تأجيلها حتى تنهياً الظروف المناسبة، ولكن «معاوية» تمسك  
بالقصاص أولاً، وجعله شرطاً لازماً يسبق البيعة.

ولما لم تؤد الاتصالات بينهما إلى نتيجة، وصلت رسالة من «معاوية»  
إلى «علي» تتضمن جملة واحدة، هي: «من معاوية إلى علي»،  
بعثها «معاوية» بيضاء مع رجل يدعى «قبيصة» من «بني عبس»،

وأمره أن يدخل بها «المدينة»، رافعاً يده حتى يراها الناس، ويعلموا أن «معاوية» لم يبايع «علياً»، إذ يخاطبه باسمه فقط دون أن يصفه بأمر المؤمنين.

وأدرك عليّ رضي الله عنه - أن حمل معاوية على البيعة سلمًا غير ممكن، فأخذ يعد العدة لحملة على البيعة بالقوة، باعتباره خارجًا على طاعة الخليفة، على الرغم من أن كثيرين نصحوه بعدم اللجوء

(135/1)

إلى الحرب لعواقبها الوخيمة، ومن بينهم ابنه «الحسن» لكن الإمام «علي» أصر على موقفه، وبينما هو يستعد لذلك، جاءته أخبار أخرى مفزعة من «مكة»، تخبره بمسير «عائشة» وجماعتها إلى «البصرة».

موقعة الجمل (36هـ):

كانت أم المؤمنين «عائشة» - رضي الله عنها - عائدة من أداء فريضة الحج، وسمعت بمقتل «عثمان»، فعادت من الطريق إلى «مكة»، وأعلنت سخطها على قتله، وأخذت تردد «قُتل والله عثمان مظلومًا لأطلبن بدمه»، ثم وافاها في «مكة» «طلحة» و «الزبير» - رضي الله عنهما - و «بنو أمية»، وكل من أغضبه مقتل «عثمان»، وراحوا يتباحثون في الأمر، وهداهم تفكيرهم إلى تجهيز جيش للأخذ بالنار من قتلة «عثمان» والسير به إلى «البصرة»، باعتبارها أقرب بلد إليهم من البلاد التي اشترك أهلها في الثورة على «عثمان» وقتله، وكان هذا اجتهادًا منهم مجانًا للصواب، لأنهم بهذا العمل كأنهم أقاموا حكومة أخرى غير حكومة الإمام، المبايع شرعًا من الأمة، والمنوط به وحده إقامة الحدود والقصاص من القتلة، وربما كان الأفضل من هذا أن يتوجهوا إلى «المدينة»، ليشدوا من أزر الخليفة في هذا الوقت العصيب الذي تمر الأمة به، ويتشاوروا معه في إيجاد

طريقة لحل المشكلات التي تواجهها الأمة.

وصلت أخبار سير «عائشة» ومن معها إلى «على» وهو يتأهب للخروج إلى الشام لقتال «معاوية»، فاضطر إلى تغيير خطته، فلم يعد ممكناً أن يذهب إلى الشام، ويترك هؤلاء يذهبون إلى «البصرة»، فاستعد للذهاب إلى هناك.

خرجت السيدة «عائشة» - رضى الله عنها - ومعها في البداية نحو ألف رجل لكن هذا العدد تضاعف عدة مرات، بانضمام كثيرين إلى الجيش، نظراً إلى مكانة «عائشة»، فلما اقتربوا من «البصرة»، أرسل إليها «عثمان بن حنيف» إلى أم المؤمنين «عائشة» رسولين من عنده، هما «عمران بن حصين» و «أبو الأسود الدؤلى» يسألانها عن سبب مجيئها. فقالت لهما: «إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع

(136/1)

---

القبائل غزوا حرم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وأحدثوا فيه الأحداث وآووا فيه المحدثين، واستوجبوا لعنة الله ورسوله، مع مانالوا من قتل إمام المسلمين، بلا ترة ولا عذر، فخرجت في المسلمين، أعلمهم ما أتى هؤلاء».

وكذلك سأل الرسول «طلحة» و «الزبير» - رضى الله عنهما - عن سبب مجيئهما، فقالا: «الطلب بدم عثمان»، فرجع الرجلان وأخبرا «عثمان بن حنيف»، فقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون! دارت رحى الإسلام ورب الكعبة»، وأصرَّ على منعهم من دخول «البصرة»، فدارت بينه وبينهم معركة عند مكان يُسمى «الزابوقة» قُتل فيها نحو ستمائة من الفريقين، فلما رأوا كثرة القتلى تنادوا إلى الصلح والكف عن القتال، وانتظار قدوم الإمام «على» إلى «البصرة»، وتم الصلح على أن يتركوا للوالى دار الإمارة والمسجد وبيت المال، وينزلوا هم في أى مكان بالبصرة.

وصول «علي» إلى البصرة:

وصل «علي» إلى «البصرة» وعلم بما حدث من سفك الدماء وهاله ذلك، فأرسل على الفور «القعقاع بن عمرو التميمي» إلى معسكر «عائشة» و «طلحة» و «الزبير»، ليعرف ماذا يريدون، فقالت «عائشة» - رضی الله عنها - : «خرجنا لنصلح بين الناس»، وكذلك قال «طلحة» و «الزبير»، فسألهم «ما وجه الإصلاح الذي تريدون»، قالوا: «قتلة عثمان»، قال: «لقد قتلتم ستمائة من قتلة عثمان، فغضب لهم ستة آلاف من قبائلهم، وكنتم قبل ذلك أقرب إلى السلامة منكم الآن»، قالوا: «فماذا ترى أنت؟»، قال: «أرى أن هذا الأمر دواؤه التسكين»، واقترح عليهم تجديد البيعة لعلي، ومقابلته، والتفكير بعد ذلك فيما يصلح المسلمين، فقبلوا.

ومعنى ذلك أن الجميع كانوا راغبين، في الإصلاح، كل على حسب اجتهاده، لكن عناصر الشر التي كانت لاتزال في معسكر «علي» هي التي أفسدت السعي الذي قام به «القعقاع».

اتباع ابن سبأ يفسدون الصلح ويبدءون المعركة:

كانت نقطة الضعف التي في معسكر الإمام «علي» هي وجود كثيرين

(137/1)

---

من اشتركوا في قتل «عثمان» والتخطيط له، وعلى رأسهم «عبدالله بن سبأ»، و «الأشتر النخعي»، ولم يكن لعلي حيلة في وجودهم معه، ولا قدرة على إبعادهم، لكونهم قوة كبيرة تساندتهم عصبات قبلية، وقد أدرك زعمائهم الذين تولوا كبر الثورة على «عثمان» أن الصلح بين الفريقين سيجعل «عليًا» يتقوى بانضمام الفريق الآخر إليه، ويقيم الحد عليهم باعتبارهم قتلة «عثمان»، فعزموا على إفساد الأمر كله.

وترتب على هذا العزم أن عقد «ابن سبأ» لهم مؤتمرًا تدارسوا فيه

الأمر، فافتح «الأشتر» أن يقتلوا «عليًا» كما قتلوا «عثمان» من قبل، فتهيج الدنيا من جديد، ولا يقدر عليهم أحد، لكن هذا الاقتراح لم يعجب «ابن سبأ»، فهو يريد أن يدخل الأمة كلها في حرب طاحنة، لا أن يقتل فرد واحد وإن كان خليفة المسلمين، فأمرهم بشن هجوم في ظلام الليل على جيش «عائشة» و «طلحة» و «الزبير»، بدون علم الإمام «علي»، فاستجابوا لرأيه، وبينما الناس نائمون مطمئنون بعد أن رأوا بوادر الصلح تلوح في الأفق، إذا بهم يفاجئون بقعة السلاح، وكانت هذه هي بداية حرب «الجمل» المشنومة التي راح ضحيتها خيرة الصحابة «طلحة» و «الزبير» المبشران بالجنة، ونحو عشرين ألقا من المسلمين.

أسباب خروج عائشة ومن معها:

لم تكن أم المؤمنين «عائشة»، ولا «طلحة» ولا «الزبير» ولا أمير المؤمنين «علي» يريدون سفك الدماء، ولا يتصورون حدوث ذلك، وكل ما دفع السيدة «عائشة» ومن معها إلى الخروج إنما هو اقتناعهم بأن «عثمان» قُتل مظلومًا، وعليهم تقع مسئولية إقامة الحد على قتلته، ولم يكونوا أبدًا معادين لعلي، أو معترضين على خلافته، وقد رأينا ميلهم جميعًا إلى الصلح، لولا أن أتباع «ابن سبأ» (السبئية) أفسدوا كل شيء وأشعلوا الحرب، ولقد ندمت السيدة «عائشة» ندمًا شديدًا على ما حدث، وقالت: «والله لوددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة».

وخلاصة القول أن تبعة هذه المأساة تقع على عاتق «السبئية»، فهم

(138/1)

---

الذين أشعلوا الفتنة من البداية، وقتلوا خليفة المسلمين ظلمًا، وأشعلوا حرب «الجمل»، أما الصحابة، فقد وصف «ابن خلدون» موقفهم وصفًا دقيقًا، فقال: «وإذا نظرت بعين الإنصاف عذرت القوم

أجمعين، وعلمت أنها كانت فتنة ابتلى الله بها الأمة»

معركة صفين:

بعد معركة «الجمل» توجه «علي ابن أبي طالب» بجيش يبلغ عدده نحو مائة ألف إلى «صفين»، واستعد «معاوية» لمقابلته بجيش يقاربه في العدد، ودارت بينهما معركة شرسة في شهر صفر سنة (37هـ) قُتِل فيها من الجانبين نحو سبعين ألفاً، خمسة وعشرين ألفاً من جيش «علي»، وخمسة وأربعين ألفاً من جيش «معاوية»، ولما رأى الناس كثرة القتلى من الجانبين نادوا يطلبون وقف القتال، فجعل أهل «العراق» (جيش «علي») يصيحون في أهل الشام (جيش «معاوية») قائلين: من لثغور «العراق» إن فنى أهل «العراق». ويرد الآخرون: من لثغور الشام إن فنى أهل الشام. ومن هنا جاءت فكرة التحكيم.

التحكيم:

رفع جيش «معاوية» المصاحف للاحتكام إليها، ووقف القتال فوراً، بدلا من سفك الدماء، وكانت فكرة التحكيم من عند «عمرو بن العاص»، وقد قبلها الطرفان، وأوقفت الحرب، بعد أن فرغ الناس لكثرة عدد القتلى.

أوقفت الحرب، وطلب من «علي» و «معاوية» أن ينيب كل منهما شخصاً يتفاوض باسمه، للفصل في القضايا محل الخلاف، فأناب «معاوية» «عمرو بن العاص»، وأناب «علي» «أبا موسى الأشعري» على كره منه وذلك في شهر صفر (37هـ) وكان «علي» قد حاول أن ينيب عنه «عبدالله بن عباس»، لكن أنصاره، وبخاصة من أبناء «اليمن» بزعامة «الأشعث بن قيس»، رفضوا ذلك بحجة عصبية، وأعلنوها صراحة، كيف يكون الخلاف بين رجلين من «قريش»، ثم يكون الحكمان رجلين من «قريش» أيضاً، لقد حسدوا قريشاً على زعامتها للدولة الإسلامية التي استحققتها بسابقتها في الإسلام، لا بنسبها فقط.

واتفق على أن يأخذ الطرفان مهلة مدتها ستة أشهر، تهدأ فيها

النفوس، ويجتمع الحكماء للتباحث والوصول إلى حل، وبعد مفاوضات طويلة وصل الحكماء إلى نتيجة رأياها أفضل الحلول، وهي عزل «علي» -رضى الله عنه- عن الخلافة، ورد الأمر إلى الأمة تختار من تشاء، أما التصرف العملي في إدارة البلاد التي كانت تحت يد كل من الرجلين المتحاربين، فيبقى كما كان: «علي» يتصرف في البلاد التي تحت حكمه (وهي كل الدولة الإسلامية عدا الشام) و «معاوية» يتصرف في البلاد التي تحت حكمه (الشام).

موقف علي وأنصاره من التحكيم:

اجتهد الحكماء فيما توصلوا إليه، وأعلنوا على الناس، غير أن «عليًا» -رضى الله عنه- لم يقبل تلك النتيجة، واعتبر الحكمين قد تجاوزا حدودهما؛ لأن الخلاف لم يكن على منصب الخلافة، وإنما على إقامة الحد على قتلة «عثمان»، وبيعة «معاوية» له، أيهما يسبق الآخر، ولذلك عدّ نفسه في حل من هذه النتيجة، فعادت الأمور إلى ما كانت عليه قبل التحكيم، أي إلى حالة الحرب.

ظهور الخوارج:

حاول «علي» أن يدعو أنصاره إلى حرب «معاوية» من جديد لكنهم كانوا قد ملوا القتال، وتقاعدوا عنه، بل إنهم انقسموا إلى «شيعه» وافقوه على ما صنع «وخوارج» اعتبروا التحكيم كان خاطئًا من أساسه، مع أنهم هم الذين فرضوه عليه، ثم تجاوزوا ذلك إلى ما هو أكثر تطرفًا، فاتهموا «عليًا» بالكفر، لأنه حكّم الرجال في القرآن، وصاغوا شعارًا أخذوا يرددونه «الحكم لله لا لك يا علي»، وكان هو يقول لهم: «كلمة حق أريد بها باطل»، وطالبوه بأن يعلن كفره، ويتوب ويسلم من جديد، حتى يعودوا إليه ويقاتلوا معه، فإذا لم يفعل فسوف يقاتلونه.

ولا يمكن لمسلم أن يتصور كيف يُكفّر رجل من صحابة رسول الله

المبشرين بالجنة، وممن رضى الله عنهم تحت الشجرة في «بيعة الرضوان»، وإزاء هذا التطرف من «الخوارج» اضطر الإمام أن يحاربهم في معركة شهيرة تُسمى معركة «النهروان» بالقرب من «الكوفة»، وبعدها لم يستطع أن يجمع شمل أنصاره لقتال «معاوية» من جديد

(140/1)

كما كان يريد، بل أجبرته الظروف على التفاهم والاتفاق معه. الاتفاق بين علي ومعاوية:

بعد انقسام جبهة «علي» إلى «شعبة» و «خوارج» ازداد موقفه ضعفاً؛ لأن صراعه مع «الخوارج» كبده متاعب جسيمة، وفي الوقت نفسه كان موقف «معاوية» يزداد قوة، وبخاصة بعد أن استطاع الاستيلاء على «مصر» سنة (38هـ)، بجيش قاده فاتحها الأول «عمرو بن العاص»، ونشر قوات له في أطراف «العراق»، وضم «اليمن» إليه، وأصبحت دولته تتسع بمرور الزمن، في الوقت الذي تضيق فيه دولة «علي».

وانتهى الأمر بأن جرت بينهما مفاوضات طويلة، اتفقا على وضع الحرب بينهما وتكون لعلی «العراق» وبلاد فارس ولمعاوية الشام فلا يدخل أحدهما على صاحبه في عمله بجيش ولا غارة .. وتراضيا على ذلك .. وهكذا أجبرت الظروف التي تكون أحياناً أقوى من الرجال «علي بن أبي طالب» أن يصالح «معاوية»، ويسلم له بنصف الدولة الإسلامية تقريباً، يحكمها حكماً مستقلاً، وهو الذي رفض في بادئ الأمر إبقاءه والياً على الشام وحدها يأتمر بأمره، وينتهي بنهيه. إدارة الدولة وتثبيت الفتوحات في عهده:

على الرغم من الظروف الصعبة التي واجهت الإمام «علياً» -رضى الله عنه- فإنه أدار الدولة باقتدار وعدالة ونزاهة وتجرد، ولم يقصر في شأن من شئونها، واتخذ من «الكوفة» عاصمة لدولته منذ أن خرج من

«المدينة» إلى «البصرة» وبعد معركة «الجمل»، وظل يحكم منها إلى أن لقي الله، وعهد بإدارة بقية أجزاء دولته إلى أقرب الناس إليه، وأخلصهم له، فجعل «عبدالله بن عباس» والياً على «البصرة» وأخاه «عبيد الله بن عباس» والياً على «اليمن»، وأخاهما الثالث «قثم بن عباس» على «مكة» و «الطائف»، وعزل «قيس بن سعد» عن «مصر»، وولى مكانه «محمد بن أبي بكر الصديق».

ولا لوم على «عثمان» و «علي» إذا وليا أهل قرابتهما؛ لأن كل واحد منهما اجتهد لمصلحة الأمة، وكان أميناً عليها، فعهد بإدارة الدولة

(141/1)

إلى من رأى أنهم ينفذون سياسته، ولم يولّ أى منهما أحداً محاباة أو لقرابة.

ولم تشغل الإمام «علياً» مشكلات الدولة الداخلية عن التصدى لمحاولات الانتفاض التي حدثت في بلاد فارس، فقد حاول الفرس تكرار ما فعلوه بعد استشهاد «عمر بن الخطاب»، فأرسل إليهم «زياد بن أبيه» في جمع كثير، «فوطى بهم أهل فارس، وكانت قد اضطرت، فلم يزل يبعث إلى رءوسهم، يعد من ينصره ويعينه، ويخوف من امتنع عليه، وضرب بعضهم ببعض، فدل بعضهم على عورة بعض، وهربت طائفة، وأقامت طائفة، فقتل بعضهم بعضاً، وصفت له فارس، فلم يلق منهم جمعاً ولا حرباً».

أما الروم فلم يتحركوا؛ لأن الإمبراطور «قنسطانز» لما عرض عليه بعض قواده أن ينتهزوا فرصة الحروب التي جرت بين «علي» وأصحاب «الجمل»، وبينه وبين «معاوية»، ويغيروا من جديد على «مصر» و «الشام»، رفض الإمبراطور معللاً ذلك بأن غزوه لمصر والشام سيجعل المسلمين يتصالحون ويتحدون ويقاثلوننا جميعاً، ولن نقوى عليهم، فخير لنا أن نتركهم يقتل بعضهم بعضاً حتى يضعف

شأنهم.

استشهاد على رضى الله عنه:

جاءت نهاية الإمام «على بن أبي طالب» على يد «الخوارج»، أنصاره السابقين، الذين بلغ بهم الغلو والتطرف حدًا اعتبروا فيه «عليًا» و «معاوية» و «عمرو بن العاص» أئمة ضلالة، وحملوهم مسئولية ما حدث، وقرروا قتل الثلاثة جميعًا، واتفقوا أن يتم التنفيذ في وقت واحد، هو فجر اليوم السابع عشر من شهر رمضان سنة (40هـ)؛ تيمناً بذكرى معركة «بدر» حسب تصور نفوسهم المريضة وعقوهم الفاسدة، وانتدبوا ثلاثة للقيام بهذه المهمة، هم «عبدالرحمن بن ملجم»، و «البرك بن عبدالله»، و «عمرو بن بكر»، على أن يذهب الأول إلى «الكوفة» لقتل «على»، والثاني إلى «دمشق» لقتل «معاوية»، والثالث إلى «مصر» لقتل «عمرو بن العاص».

و شاءت إرادة الله - تعالى - أن ينجو «معاوية» و «عمرو» من القتل، وأن تكون الشهادة من نصيب «على»، حيث ضربه «عبدالرحمن بن

(142/1)

ملجم» بسيف مسموم في جبهته، فشققها فمات من أثر الضربة بعد وقت يسير، بعد أن قضى أربع سنوات وبضعة شهور، لم يذق فيها طعم الراحة، وحاصرته المشكلات والمتاعب، وأهمكته الحروب من كل جانب.

خلافة الحسن بن على: (40 - 41هـ)

وبعد وفاة الإمام «على» بايع أنصاره ابنه «الحسن»، وكان «جندب بن عبد الله» قد دخل على الخليفة بعد طعنه وتيقن ألا أمل في حياته، وسأله: «يا أمير المؤمنين إن فقدناك - ولا ن فقدك - أنبايع للحسن؟ فقال: ما أمركم ولا أنماكم، أنتم أبصر»، ولم يوص لأحد من بعده، بل قال لهم: «ولكن أدعو الله - تعالى - أن يجمعكم بعدى على خيركم

كما جمعنا بعد نبينا على خيرنا» - يقصد أبا بكر-، مرسخًا بذلك قاعدة الشورى التي أتت في بيعته هو وبيعة الثلاثة الراشدين من قبله.

أراد أنصار «الحسن» أن يتأهبوا لقتال «معاوية» من جديد، لكنه رفض، ورأى عدم جدوى ذلك، بل إنه وقف ضد فكرة اقتتال المسلمين من البداية.

راسل «الحسن» «معاوية» بشأن الصلح، فسر به سرورًا عظيمًا، وجاء إلى «الكوفة» في شهر ربيع الأول سنة (41هـ)، بعد ستة أشهر من خلافة «الحسن»، وبايعه «الحسن» و «الحسين»، وتبعهما الناس، وبهذا قامت الدولة الأموية رسميًا، وأصبح «معاوية» خليفة للأمة الإسلامية كلها، ولقب لأول مرة بأمير المؤمنين، وكان يلقب قبل ذلك بالأمير فقط.

استبشر المسلمون خيرًا بتلك المصالحة، وحمدوا الله على انتهاء الفتنة وسفك الدماء، وسمُّوا ذلك العام «عام الجماعة»، وترك صنيع «الحسن» صدى طيبًا عند جمهور المسلمين، وأثنى عليه كثير من علماء أهل السنة، ورأوا فيما فعل تحقيقًا لنبوءة جده محمد - صلى الله عليه وسلم -، الذي قال «ابني هذا سيد، ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين».

(143/1)

- المراجع:

\* بن الأثير (عز الدين): الكامل في التاريخ - دار الكتب العلمية بيروت - الطبعة الأولى 1987م

\* جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام . جامعة بغداد . الطبعة الثانية . 1993م

\* بن حجر العسقلاني (أحمد بن علي): الإصابة في تمييز الصحابة . دار الجبل . بيروت . الطبعة الأولى . 1992م

\* بن حجر العسقلاني (أحمد بن علي): فتح الباري بشرح صحيح البخاري - المكتبة السلفية .

القاهرة . الطبعة الثالثة . 1407م

\* سليمان الطماوي: عمر بن الخطاب وأصول السياسة والإدارة الحديثة . دار الفكر العربي . القاهرة .  
بدون تاريخ

\* السيد سابق: فقه السنة . دار الريان للتراث . القاهرة . الطبعة الأولى . 1988م

\* السيوطي (جلال الدين): تاريخ الخلفاء . دار الفكر العربي . القاهرة . بدون تاريخ

\* الصالحي (محمد بن يوسف): سبيل المهدي والرشاد في سيرة خير العباد . الناشر: المجلس الأعلى

للشؤون الإسلامية . القاهرة . 1413هـ = 1993م

\* الطبري (محمد بن جرير): تاريخ الطبري . دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الثانية . 1418 هـ .

1998 م

\* عباس محمود العقاد: عبقرية عمر . دار نهضة مصر . القاهرة . بدون تاريخ

\* بن عبد البر (يوسف بن عبد الله): الدرر في اختصار المغازي والسير . دار المعارف . الطبعة الثانية .

1983م

\* بن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن): فتوح مصر وأخبارها . نشره وصححه: هنري ماسية .

القاهرة . 1914م

\* عبد الحي الكتاني: التراتيب الإدارية أو نظام الحكومة النبوية . دار الكتاب العربي . بدون تاريخ

\* بن كثير (إسماعيل بن عمر): البداية والنهاية . دار الكتب العلمية . بيروت - الطبعة الرابعة .

1408هـ = 1988م

\* محمد بن الحسن الشيباني: كتاب السير الكبير . مطبعة شركة الإعلانات الشرقية . القاهرة .

1971م

\* محمد حسين هيكل: الفاروق عمر . دار المعارف القاهرة . بدون تاريخ

(144/1)

\* محمد أبو زهرة: خاتم النبيين . دار الفكر العربي . القاهرة . الطبعة الأولى . 1973م

\* محمد أبو شهبه: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة . دار القلم . دمشق . الطبعة الأولى .

1988م

\* محمد صادق عرجون: محمد رسول الله صلي الله عليه وسلم منهج ورسالة . دار القلم . دمشق .

الطبعة الأولى 1405 هـ = 1985م

\* محمد بن عبد الله الأردني: فتوح الشام . تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر . مؤسسة سجل العرب .  
1970م

(145/1)

الجزء الثاني

العصر الأموي

تأليف:

أ. د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة الأزهر

الفصل الأول

\*قيام الخلافة الأموية وتطورها

قامت الخلافة الأموية رسمياً في شهر ربيع الأول من سنة (41هـ)، بعد أن تنازل (الحسن بن علي بن أبي طالب) - رضی الله عنه - عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان -رضی الله عنه - وبايعه هو وأخوه (الحسين)، وتبعهما الناس في (الكوفة)، وأصبح بذلك (معاوية) خليفة للمسلمين وحده، ولقّب بأمر المؤمنين، وكان قبل ذلك يلقّب بالأمير فقط.

واستبشر المسلمون خيراً بهذا التطور، وحمدوا الله - تعالى - على انتهاء الفتن والحروب، وسُموا ذلك العام عام الجماعة؛ حيث عادت إلى الأمة الإسلامية وحدتها، واجتمع شملها على خليفة واحد، بعد الفرقة والنزاع، ولقى ما فعله (الحسن بن علي) كل تقدير وإجلال من جمهور المسلمين، وأثنى عليه كثير من العلماء، ورأوا فيما أقدم

عليه تحقيقاً لنبوءة جده (محمد) حين قال: (إن ابني هذا سيد، ولعل  
الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين - صحيح البخارى  
تطور نظام الخلافة في العصر الأموى:  
عرفنا فيما سبق كيف قامت الخلافة الإسلامية عقب وفاة الرسول  
- صلى الله عليه وسلم - وكيف كان يتم اختيار الخليفة في دولة  
الراشدين بالبيعة المباشرة من المسلمين لخليفتهم، بعد أن يرشحه  
عدد من الصحابة، كما حدث في خلافة الصديق، حيث بايعه عدد من  
الصحابة في (سقيفة بنى ساعدة) بيعة خاصة، كانت بمثابة ترشيح  
له لمنصب الخلافة، ثم جاءت البيعة العامة له في مسجد الرسول - صلى  
الله عليه وسلم - بعد مواراة جسده الطاهر تحت الثرى - لتزكى ذلك  
الترشيح وتوافق عليه، ومن ثم أصبح (أبو بكر الصديق) أول خليفة  
لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - في حكم الدولة الإسلامية، باختيار  
حر من المسلمين.  
وعندما مرض (أبو بكر) -رضى الله عنه - مرض الموت قال للمسلمين:  
(إنه قد نزل بي ما ترون - يعنى المرض الشديد - ولا أظننى إلا ميّتاً  
لما بي من المرض، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتى، وحلّ عنكم

(1/2)

---

عقدتى، ورد عليكم أمركم، فأمرّوا عليكم من أحببتهم، فإنكم إن  
أمرتم في حياة مّيّ كان أجدر ألا تختلفوا بعدى).  
وتصرّف (أبي بكر الصديق) دليل ساطع وبرهان قوى على أن اختيار  
الحاكم من حق الأمة وحدها، لكن الصحابة فوّضوه في اختيار خلف  
له، وأخّوا عليه في ذلك، فقبل تكليفهم، ووقع اختياره على (عمر  
بن الخطاب) -رضى الله عنه - لكفاءته وقدرته وسابقتها في الإسلام،  
ولم يكنف (الصديق) باختياره هو لعمر بن الخطاب، بل استطلع آراء  
كبار الصحابة حول مرشحه، مع أنه مفوض من الصحابة في اختيار

خليفة لهم، ويعلم بأن (عمر) هو أفضل الصحابة بعده، وأصلحهم لتوليّ الخلافة، لكنه آثر ألا ينفرد وحده باختيار خليفة له. ولما اطمأنت نفسه إلى أن الغالبية ممن شاورهم تؤيد اختيار (عمر)، جمع الناس حوله، وحدّثهم قائلاً: (أترضون بمن أستخلف عليكم، فإنني والله ما آلت من جهد الرأي، ولا وليت ذا قرابة، وإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا، فقالوا: سمعنا وأطعنا).

ولم تنعقد بيعة (عمر) ليصبح خليفة إلا بعد وفاة (أبي بكر)، وبمبايعة الناس له ببيعة عامة، ولو لم يرضَ الناس بترشيح (أبي بكر)، ورفضوا مبايعة (عمر)، ما كان لعهد (أبي بكر الصديق) عليهم حجة أو سلطان. وجاء اختيار (عثمان بن عفان) - رضى الله عنه - ببيعة عامة حرّة من بين الستة الذين رشحهم (عمر بن الخطاب) - رضى الله عنه - ليختاروا واحداً منهم، وقد حصرها فيهم؛ لأنهم بقية العشرة المبشرين بالجنة، والذين تُوفّي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو عنهم راضٍ. ولما قُتل (عثمان بن عفان) شهيداً، ألحَّ الصحابة على (عليّ بن أبي طالب) أن يقبل الخلافة، بعد أن سادت الفوضى مدينة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وامتنع كبار الصحابة عن قبول الخلافة، فقبل عليّ الخلافة؛ لينقذ الأمة من الفتن، وبايعه معظمهم، ولا جدال في أن قيام عليّ بالأمر في ذلك الوقت العصيب كان تضحية تنطوي على

(2/2)

---

شجاعة حيث تحمل المسؤولية في أصعب الظروف وأدقها. وكان متوقعاً أن تنهى بيعته بالخلافة حالة الفوضى التي سادت البلاد بعد مقتل (عثمان)، لكن الأحداث تطورت سريعاً من سيئ إلى أسوأ، وانتهى به الحال أن قُتل شهيداً، وقبل وفاته استشاره أصحابه في بيعته ابنه (الحسن) بعده، فقال لهم: (لا آمركم ولا

أهناكم، أنتم أبصر)، لكنهم بايعوا (الحسن)، الذى تنازل عن الخلافة لمعاوية كما ذكرنا.

وخلاصة ما سبق أن طريقة اختيار الخليفة فى عهد الراشدين كانت تتم ببيعة حرة وعامة بعد ترشيح شخص أو أكثر، وأن ترشيح الخليفة السابق لم يكن ملزماً للأمة، بل لها أن توافق أو تعترض، وهذا هو نظام الشورى فى الإسلام الذى يشبه فى مصطلحات العصر الحديث النظام الديمقراطى.

ولم يفكر أى واحد من الخلفاء الراشدين فى أن يعهد بالأمر إلى أحد من أبنائه أو أقربائه، حرصاً منهم على إبعاد فكرة الوراثة عن نظام الحكم الإسلامى إبعاداً تاماً، وقد وضَّح (أبو بكر الصديق) هذا المعنى عندما رشَّح (عمر) فى قوله: (أترضون بمن أستخلف عليكم؟ فأبى والله ما آلوت من جهد الرأى، ولا وليت ذا قرابة)، كما استبعد (عمر) بن الخطاب) ابنه (عبدالله) تماماً من الترشيح، بل استبعد ابن عمه (سعيد بن زيد) أيضاً من الترشيح مع أهل الشورى؛ دفعاً لشبهة القرابة مع أن الشروط تنطبق عليه.

ولم يؤثّر عن (عثمان) شىء من ذلك، وترك (على بن أبى طالب) الأمر للأمة لاختيار من ترضاه، ورفض ترشيح ابنه (الحسن) للخلافة أو الوصاية له بالبيعة.

أسلوب اختيار الخليفة الأموى:

لم يكن أحد يظن أن بيعة المسلمين لمعاوية بن أبى سفيان ستكون إيداناً بتأسيس دولة أموية وراثية وكان المسلمون قد استبشروا خيراً بهذه البيعة بعد فترة من الفتن والحروب، حتى إن بعض الصحابة الذين كانوا قد توقفوا فى بيعة (على) - رضى الله عنه - بايعوا (معاوية)، دعماً لوحدة الأمة ولمّ شملها، مثل: (سعد بن أبى وقاص) و (عبدالله بن عمر).

وربما توقَّع الناس أن (معاوية) سيحذو حذو من سبقه من الخلفاء الراشدين ويترك الأمر شورى للمسلمين، يختارون للخلافة من بعده من يروونه أهلاً لتولى تبعات هذا المنصب الجليل، أو سيجتهد في اختيار شخص يراه أصلح الناس لتولّي منصب الخلافة، ويكون بعيداً عن قرابته كما فعل الخلفاء قبله، لكن (معاوية) فاجأ الأمة الإسلامية بترشيح ابنه (يزيد) للخلافة من بعده، وبدأ في أخذ البيعة له في حياته، بدعم من أهل الشام، ولما نجح في ذلك لم يكن صعباً عليه أن ينتزع البيعة لابنه من بقية الأقطار الإسلامية، بالترغيب تارة وبالترهيب تارة أخرى.

ولم يعارض (معاوية) في خطواته هذه سوى أهل (الحجاز)، الذين رأوا في عمله خروجاً على ما ألفه المسلمون في اختيار خليفتهم ببيعة حرة قائمة على الشورى، وتركزت المعارضة في ثلاثة من أبناء كبار الصحابة، هم (الحسين بن علي بن أبي طالب)، و (عبدالله بن الزبير)، و (عبدالله بن عمر).

وقد تطورت معارضة الأولين إلى خروج (الحسين) على (يزيد) بعد موت (معاوية)، واستشهاده في موقعة (كربلاء) المشهورة سنة (61هـ)، وإلى دعوة (عبدالله بن الزبير) بالخلافة لنفسه بعد موت (يزيد بن معاوية) سنة (64هـ)، ثم دخوله في صراع مع الأمويين، انتهى بمقتله سنة (73هـ)، بعد أن دامت خلافته تسع سنوات، أمّا (عبدالله بن عمر)، فقد بايع (يزيد) حفاظاً على وحدة المسلمين، بعد أن رأى أن استمراره في معارضته لن يكون في مصلحة الأمة الإسلامية.

وقد دافع عن عمل (معاوية) كثير من المؤرخين، ورأوا في صنيعه عملاً ضرورياً للحفاظ على وحدة الأمة، واجتناب العودة إلى الحروب الأهلية، ويقف على رأس هذا الفريق المؤرخ الكبير (عبدالرحمن بن خلدون) مؤيداً إقدام (معاوية) على هذه الخطوة بقوله: (والذى دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون سواه إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس، واتفاق أهوائهم، باتفاق أهل الحل والعقد حينئذٍ

من بنى أمية؛ إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم، وهم عصابة قريش - أى أكثرهم قوة - وأهل الحل أجمع، وأهل الغلب منهم، فآثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها، وعدل عن الفاضل إلى المفضول؛ حرصاً على الاتفاق واجتماع الأهواء، الذى شأنه أهم عند الشارع، لا يظن بمعاوية غير هذا، فعدالته وصحبته مانعة من سوى ذلك، وحضور أكابر الصحابة لذلك وسكوتهم عليه، دليل على انتفاء الريب فيه، فليسوا ممن يأخذهم فى الحق هوادة، وليس معاوية ممن تأخذه العزة فى قبول الحق، فإنهم كلهم أجل من ذلك وعدالتهم مانعة).

ويدعم (ابن خلدون) رأيه هذا بأن ولاية العهد من الخليفة القائم إلى شخص يتولى الخلافة بعده أمر جائز لا حرج فيه، فيقول: (قد عرف ذلك من الشرع بإجماع الأمة على جوازه وانعقاده، إذ وقع من أبى بكر - رضى الله عنه - لعمر بن الخطاب بمحضر من الصحابة، وأجازوه وأوجبوا على أنفسهم به طاعة عمر رضى الله عنه وعنهم). وما قاله (ابن خلدون) يمكن الرد عليه بأن (أبا بكر) عهد إلى (عمر)؛ لأنه رآه أصلح الصحابة لتولى الخلافة بعده وتحمل تبعاتها، وقد كان كذلك بالفعل، ولم تكن تربطه به صلة قرابة قريبة، وقد أوضح ذلك بقوله: (أترضون بمن أستخلف عليكم؟ فإنى والله ما آلوت من جهد الرأى، ولا وليت ذا قرابة)، كما أن (عمر) لم يصبح خليفة بترشيح (أبى بكر الصديق) واختياره له فحسب، بل برضى المسلمين وبيعتهم له.

ولو أن (معاوية) عهد إلى أحد غير ابنه، واجتهد فى اختيار من هم أصلح للخلافة بعده، ما اعترض عليه أحد، ولحق الغرض الذى قصده (ابن خلدون) من ولاية العهد، وهو سد أبواب الخلاف بين المسلمين، ومن ثم فإن الاعتراضات على تصرف (معاوية) جاءت من اختياره ابنه

لولاية العهد دون سواه، لا من فكرة ولاية العهد نفسها.  
وأياً ما كان الأمر فإن الخلافة حُصرت في الأسرة الأموية، يتوارثها  
الأبناء والإخوة، ولم يكتفِ الخليفة منهم بتولية العهد لواحد فقط، بل

(5/2)

درجوا على تولية أكثر من ولى للعهد، وكان (مروان بن الحكم)  
مؤسس الفرع المرواني أول من بدأ هذا التقليد، فقد عهد إلى ابنه  
(عبدالمالك) ثم (عبدالعزیز) بولاية العهد، وقد تابعه في هذا كل من  
جاء بعده حتى آخر دولتهم، وقد جرَّ هذا الأمر عليهم المتاعب، وأوقد  
نار الفتنة والصراع بين أبناء الأسرة الأموية، مما كان له أكبر الأثر  
في تدهور الدولة والإسراع بسقوطها في نهاية الأمر.  
وعلى الرغم من استقرار الخلافة بنظام التوريث فإن الأمويين حافظوا  
على نظام البيعة من حيث الشكل فكان الخليفة القائم يعهد من بعده  
بولاية الأمر إلى ابنه أو أخيه، ثم تؤخذ البيعة من الناس لمن صدر له  
كتاب العهد في حياة الخليفة القائم، ثم تجدد له بعد وفاته، ومغزى  
هذا أنهم كانوا على يقين أن مجرد العهد ليس ملزماً شرعاً للناس، بل  
لابد من البيعة العامة.

الفتوحات الإسلامية في العصر الأموي:

شهد العصر الأموي أوسع حركات الفتح الإسلامي وأكثرها نشاطاً  
في التاريخ الإسلامي كله بعد فتوحات الخلفاء الراشدين، التي شملت  
(العراق) و (بلاد فارس) كلها، و (مصر) والشام، ثم توقفت الفتوحات  
الإسلامية، أو كادت تتوقف بسبب الفتن والحروب الأهلية التي حدثت  
بين المسلمين.

وقد استأنف المسلمون فتوحاتهم بعد اجتماع شملهم على (معاوية بن  
أبي سفيان) وتوحدتهم تحت رايته في عام الجماعة سنة (41هـ)،  
وحقق الأمويون أعظم إنجازاتهم على الإطلاق في ذلك الميدان

العظيم، وامتدت فتوحاتهم إلى مناطق عديدة في قارات العالم القديم (آسيا - إفريقيا - أوروبا) ففتحوا في عهد (الوليد بن عبد الملك) بلاد (ما وراء النهر) (آسيا الوسطى) وإقليم (السند) في (شبه القارة الهندية)، واستكملوا فتح الشمال الإفريقي كله من حدود (مصر) الغربية إلى (المحيط الأطلسي)، ثم عبروا (مضيق جبل طارق) إلى القارة الأوروبية، ليفتحوا (الأندلس)، و (جنوبي فرنسا)، كما استولوا على معظم الجزر

(6/2)

في (شرقي البحر المتوسط) وشرقيه وجنوبيه، ثم واصلوا ضغطهم على مدينة (القسطنطينية)، عاصمة الدولة البيزنطية، وحاصروها أكثر من مرّة.

التيارات والأحزاب السياسية والدينية:

شغلت الدولة الأموية في التاريخ الإسلامي إحدى وتسعين سنة (41 - 132هـ)، وامتدت حدودها من حدود (الصين) شرقاً إلى (الأندلس) غرباً، ومن بحر (قزوين) شمالاً إلى (المحيط الهندي) جنوباً، وعمل خلفاؤها في جد ومثابرة وحسن سياسة على نشر الإسلام في تلك الرقعة الكبيرة، ونمت الحضارة الإسلامية ونهضت في عهدهم. وهذه الأعمال تشهد للأمويين بدورهم البارز في التاريخ الإسلامي، وتخفف كثيراً من النقد الذي وجه إليهم، ومما يزيد المرء إعجاباً وتقديراً لإنجازهم أنهم قاموا بتلك الأعمال الجليلة، وهم يصارعون أعداء أشداء من تيارات وأحزاب سياسية ودينية، لم يتركوا فرصة للثورة عليهم إلا انتهزوها.

من تلك الأحزاب من تدرّع بالدين يحارب به، ويتّهم (بني أمية) بالخروج على الدين وقواعده، وأنهم مغتصبون للسلطة، كالخوارج والشيعة. وهناك شخصيات أعلنت التمرد والثورة على (بني أمية) لأهداف شخصية، ولتحقيق طموحات ذاتية، والوصول إلى الحكم بأي ثمن،

مثل (المختار بن أبي عبيد الثقفي)، و (عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث)، و (يزيد بن المهلب).

الحوارج:

كان الحوارج من أنصار (على بن أبي طالب)، وشهدوا معه معركة (الجمل) و (صفين)، ثم انشقوا عليه لما قبل التحكيم بينه وبين (معاوية)، فسموا الحوارج، لخروجهم على إمامهم، ولما بالغوا وتطرفوا في عدائهم له، وعاثوا في الأرض فسادًا، اضطر إلى مقاتلتهم في معركة (النهروان)، ثم عادوا (بني أمية) ودخلوا في صراع طويل معهم.

وكانوا في مبدأ أمرهم فرقة واحدة، يدور خلافهم مع بقية الأمة حول الخلافة ومن أحق بها، ومجمل أمرهم أن الخلافة حق لمن يصلح لها من المسلمين، وتتوافر فيه شروطها من العلم والأمانة والشجاعة،

(7/2)

وليس من الضروري أن يكون عربيًا فضلًا عن أن يكون قرشيًا. ولو أنهم حصروا خلافهم مع غيرهم في جدل وحوار نظري يقوم على مقارعة الحجّة بالحجة والدليل بالدليل لما كان في الأمر شيء، ولكن الخطر كل الخطر جاء من لجوئهم إلى العنف واستخدام السيف في فرض آرائهم، وقد بدأ مع (على بن أبي طالب) مما جعل خصومهم يواجهون القوة بالقوة، وتكبّدت الأمة الإسلامية عشرات الآلاف من الضحايا من أبنائها نتيجة هذه الخصومة العنيفة.

وظل الحوارج فرقة واحدة، تتبني أفكارًا ومبادئ واحدة حتى وفاة (يزيد بن معاوية) سنة (64هـ)، ثم بدأ الشقاق والخلاف يدب بينهم هم أنفسهم، فانقسموا فرقًا وأحزابًا، حتى وصل عددهم إلى ثلاثين فرقة، ثم تطور تفكيرهم بمرور الزمن، وبدءوا يخوضون في قضايا تدخل في صلب الدين، مثل مباحثهم في مرتكب الكبيرة هل مؤمن أو

كافر، وغير ذلك من القضايا، وأشهر فرق الخوارج التي ناصبت الدولة الأموية العداء وشننت عليها الحرب، هي: الأزارقة:

هم أتباع (نافع بن الأزرق)، أحد زعماء الخوارج الكبار، وهي تعد أشد فرق الخوارج تطرفاً في أفكارها السياسية والدينية، فهي ترى الخروج على الخليفة الذي يخالفها في آرائها وقتاله، وأتباعها يتبرءون ممن لا يوافقهم على ذلك، ويعدُّونهم من القاعدين، ويكفرون مرتكب الذنوب الكبيرة ويحكمون بخلوده في النار، مخالفين في ذلك صريح القرآن الكريم، حيث يقول الله تعالى: { إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء }. [النساء: من 48]. ويبيحون دماء مخالفينهم في الرأي.

النجيدات:

وينسبون إلى (نجدة بن عامر)، وهم أقل تطرفاً من (الأزارقة)؛ لأنهم لا يقولون بكفر مرتكب الكبائر.

البيهسية:

وينسبون إلى زعيمهم (بيهس)، وهم أقل تطرفاً من (الأزارقة)، ويرون أن مخالفينهم في الرأي منافقون، تجرى عليهم أحكام المنافقين، لكنهم يجيزون حوارهم، والتزاج معهم، وميراثهم. الصفريّة:

(8/2)

---

أتباع (زياد بن الأصفر)، وهم كذلك أقل تطرفاً من (الأزارقة)، ومعتدلون في أفكارهم.

الشيعة:

تعنى كلمة (الشيعة): الأهل والأتباع والأنصار، كما في قوله - تعالى، في معرض حديثه عن (موسى)، عليه السلام - : (فاستغاثه الذي من

شيعة على الذى من عدوه). [القصص: من 15].

وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة، بعضهم لبعض، غير أن هذه الكلمة أصبحت علمًا على أنصار (على بن أبي طالب) -رضى الله عنه - وذريته من بعده، فإذا قيل: إن فلانًا من الشيعة، عُرف أنه منهم، أو قيل: في مذهب الشيعة كذا، أى: عندهم.

وقد نشأ التشيع بسيطًا في أول الأمر ثم تطور بمضى الزمن، وأصبح مذهبًا دينيا وسياسيا، كما كان أتباعه فرقة واحدة، شأنهم في ذلك شأن الخوارج، ثم لم يلبثوا أن تفرعوا إلى فرق، مثل: (الإمامية الاثنا عشرية)، و (الزيدية) و (الإسماعيلية).

ويخالف رأى الشيعة في الخلافة جمهور الأمة الإسلامية التى ترى أن الخلافة أمر من الأمور العامة، يفوض للأمة أمر البت في شأنها، وتختار من تراه الأصلح لدينها وديناها لتولى منصب الخلافة.

أمّا هم فيرون أن الإمامة ليست من المصالح العامة التى تفوّض إلى الأمة، بل هى ركن من أركان الإسلام، لا يجوز للنبي - صلى الله عليه وسلم - إغفاله، ولا تفويض الأمة فيه، بل يجب عليه تعيين الإمام للأمة بعده، وأن الإمام لا بد أن يكون معصومًا من الكبائر والصغائر، ويزعمون أن النبي - صلى الله عليه وسلم - فعل ذلك، وعيّن (على بن أبي طالب)، وقد تعددت ثوراتهم المسلحة ضد الدولة الأموية طلبًا للخلافة.

انتشار الإسلام في العصر الأموي:

امتدت الفتوحات الإسلامية من حدود (الصين) إلى (الأندلس)، ومن (بحر قزوين) إلى (الخليط الهندي)، وأدخلت في الدولة الإسلامية شعوبًا كثيرة، مختلفة في الديانات والمذاهب واللغات والأجناس والثقافات والعادات والتقاليد، ولم تكن تلك الفتوحات غزوةً عسكريًا مستغلا

للسعوب ناهبًا لثرواتها، وإنما كان فتحًا دينيًا وثقافيا ولغويًا،  
فانتشر الإسلام في البلاد المفتوحة بخطى حثيثة، وتغيرت أوضاعها  
السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

ويمكن القول: إن هذا العالم الفسيح أصبح عالمًا إسلاميًا واحدًا،  
فسيادة المسلمين عليه لاتنازع، والإسلام هو الدين الغالب في سماحة  
ورحمة، والحاكم في عدل، ولم تأخذ المسلمين نشوة النصر والغلبة،  
التي قد تحملهم على الكبر والتعالى وإذلال الشعوب المغلوبة، بل  
عاملوهم معاملة كريمة، وصانوا أرواحهم وأمواهم وعقائدهم،  
وحفظوا عهودهم ومواثيقهم معهم، ووفوا بما في صدق وإخلاص،  
وأشركوا أبناءهم في حكم بلادهم وإدارتها.

عوامل انتشار الإسلام:

أولا عالمية الإسلام:

لا جدال في أن الإسلام دين عالمي، ورسالته للجنس البشري كله؛  
لقوله تعالى مخاطبًا نبيّه - صلى الله عليه وسلم - : {وما أرسلناك إلا  
كافة للناس بشيرًا ونذيرًا}. [النبأ: 28].

وقال تعالى: {قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا}.

[الأعراف: 158].

وقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : (إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي  
كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية،  
فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وُضعت هذه  
اللبنة؛ فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين). [صحيح البخارى].

وليس معنى عالمية الإسلام أن يُنشر بالقوة وبحد السيف، كما يزعم  
أعداء الإسلام، ولكن بالحكمة والموعظة الحسنة كما أمر النبي - صلى  
الله عليه وسلم - .

- ثانيًا: التسامح:

تعامل المسلمون الفاتحون مع أبناء الشعوب المفتوحة بتسامح  
ورحمة، وقد شهد بذلك غير المسلمين، فيقول (جوستاف لوبون): (لم  
يعرف التاريخ فاتحًا أرضيًا أَرْضَى من العرب).

وليس أدل على وجود هذه السياسة المتساهلة من رد (أبي عبيدة بن الجراح) الجزية التي أخذها من أهل (حمص) إليهم، حين اضطر إلى الانسحاب من (حمص) للدفاع عن (دمشق)، ولما سألوه في دهشة عن

(10/2)

سبب ذلك، قال لهم: (إنما رددنا عليكم أموالكم، لأنه بلغنا ما جُمع لنا من الجموع - يقصد الروم الذين تجمَّعوا للهجوم على دمشق - وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنا لا نقدر على ذلك، فرددنا عليكم ما أخذنا منكم).

فقال أهل (حمص): (لولايتكم وعدلكم أحب إلينا لحاكمنا فيه من الظلم والعشم - يقصدون الحكم البيزنطي - وردكم الله إلينا سالمين، والله لو كانوا هم ما ردُّوا علينا شيئاً).

- ثالثاً: إشراك أبناء البلاد المفتوحة في إدارة بلادهم:

أدرك المسلمون أن سير الأمور في البلاد المفتوحة سيراً حسناً، وتحقيق مصالح أهلها يكمن في الأسلوب الإداري الذي سيتبعونه في إدارة البلاد، ومن ثم لم يترددوا في الاحتفاظ بالنظم الإدارية التي وجدوها في البلاد سواء التي كانت تابعة للدولة البيزنطية مثل (مصر) و (الشام) و (شمال إفريقيا)، أو التي كانت تابعة للفرس، مثل (العراق) وبلاد فارس نفسها، ولم يكتفوا بذلك، بل طوروا من النظم ما يروونه ضرورياً، ليتفق مع دينهم ونظامهم السياسي والاجتماعي القائم على أسس من الشريعة الإسلامية، وما يحقق الصالح العام للدولة وللأمة.

وكان (عمر بن الخطاب) هو أول من سنَّ هذه السنة، فاقتبس نظام الدواوين، الذي يشبه نظام الوزارات في الدولة الحديثة من النظم الفارسية والبيزنطية، ولم يجد غصاصة في ذلك.

ولم يقف المسلمون عند حد الاستفادة من النظم الإدارية التي وجدوها

في البلاد المفتوحة، بل أبقوا أيضاً على الجهاز الإدارى الذى يسيّر العمل، واحتفظوا لأنفسهم بالمناصب العليا كالإمارة، وقيادة الجيش والقضاء والشرطة.

وإزاء هذه السياسة كان المجال رحباً أمام أبناء البلاد المفتوحة الذين لم يعتنقوا الإسلام للوصول إلى المناصب العليا فى الجهاز الإدارى، التى كانوا محرومين من توليها فى ظل الحكومات السابقة على الفتح الإسلامى، على حين كان الطريق مفتوحاً لمن يسلم منهم

(11/2)

للولصول إلى مناصب الإمارة أو قيادة الجيوش، مثل (طارق بن زياد) الذى كان من أصل بربرى، لكنه صار من كبار الفاتحين، وفى ذلك يقول أحد الباحثين: (إن روح الإسلام الحقة هى التى حفزت العرب إلى اتباع سياسة التسامح الدينى نحو المصريين .. أى أن الأقباط أصبحوا يتمتعون بحرية تامة فى الدين، كما أصبح لهم نصيب كبير فى إدارة بلادهم .. ولم يقتصر القبط على الأعمال الإدارية الصغيرة، بل شقوا طريقهم إلى أعمال لها خطورتها، ففى ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر (65 - 85هـ) كان هناك كاتبان قبطيان لإدارة مصر، واحد لمصر العليا - الصعيد - والآخر لمصر السفلى - الدلتا - بل أكثر من ذلك فقد تولى ولاية الصعيد والقبلى اسمه بطرس .. كما كان حاكم مريوط قبطيا اسمه تاوناس).

ولم يحدث هذا فى (مصر) وحدها بل كان ذلك فى البلاد المفتوحة كلها، ففى الشام - مقر الدولة الأموية - بقى أهم الدواوين وأخطرها، وهو ديوان الخراج - الذى يمثل وزارة المالية فى الوقت الحاضر - فى أيدي المسيحيين من أسرة (سرجيوس الرومى).

ونتيجة لهذه السياسات لولاية عبد العزيز بن مروان على مصر (65 - 85هـ) كان هناك كاتبان قبطيان لإدارة مصر، واحد لمصر العليا - الصعيد -

والآخر لمصر السفلى - الدلتا - بل أكثر من ذلك فقد تولى ولاية الصعيد وإل قبلى اسمه بطرس .. كما كان حاكم مريوط قبليا اسمه تاواناس).

ولم يحدث هذا فى (مصر) وحدها بل كان ذلك فى البلاد المفتوحة كلها، ففى الشام - مقر الدولة الأموية - بقى أهم الدواوين وأخطرها، وهو ديوان الخراج - الذى يمثل وزارة المالية فى الوقت الحاضر - فى أيدي المسيحيين من أسرة (سرجيوس الرومى). ونتيجة لهذه السياسة شعر أهل الذمة - اليهود والنصارى - بالأمان والاطمئنان، فأقبلوا على اعتناق الإسلام فى حرية تامة ودون إكراه. - رابعا: الأوضاع الدينية فى البلاد المفتوحة: أقبل كثير من أبناء البلاد المفتوحة على اعتناق الإسلام لبساطته

(12/2)

---

وملاءمته للفطرة الإنسانية، ولعدم اقتناعهم بالأديان التى كانت سائدة فى بلادهم، ومعظمها كانت ديانات وضعية وثنية كالزرادشتية، و (البوذية)، و (المانوية) و (المزدكية)، حتى (اليهودية) و (النصرانية) دخلها الزيف والتحريف والتعقيد، وأصبحت كل منهما تستعصى على الفهم. يقول أحد الباحثين المسيحيين: (ومن المرجح أن تأثير المسيحية فى السواد الأعظم من شعب مصر كان قليلا فى القرن السابع - عند الفتح الإسلامى لها- وأن التعليقات النظرية التى استغلها زعماءهم فى إثارة شعور الكراهية والمقاومة فى وجه الحكومة البيزنطية، كان يمكن أن يدركها عدد قليل جدا من الناس، كما أن سرعة انتشار الإسلام قد تكون راجعة إلى عجز ديانة كالديانة المسيحية، وعدم صلاحيتها للبقاء، أكثر من أن تكون راجعة إلى الجهود الظاهرة التى قام بها الفاتحون لجذب الأهلى إلى الإسلام).

- خامسًا: أثر سياسة الدولة الأموية في انتشار الإسلام:  
حافظ الأمويون على روح التسامح الإسلامى فى سياستهم للبلاد  
المفتوحة إلى حد كبير، فالتزموا بنصوص المعاهدات وروحها التى  
أعطيت لأهالى تلك البلاد، فلم يكتثوا عهدًا أو ينقضوا معاهدة، وإذا  
حدث شىء من هذا فإن الدولة تسارع بتصحيح الخطأ، ولم تذكر  
المصادر التاريخية سوى حدث واحد من هذا القبيل وقع فى العصر  
الأموى، حين نقض (قتيبة بن مسلم) عهده مع أهل (سمرقند)، وكان  
قد دخل مدينتهم بناءً على اتفاق معهم على أن يخرج منها بعد أن  
يبنى فيها مسجدًا، لكنه لم يخرج منها ناقضًا اتفاقه معهم، فشكوا  
إلى (عمر بن عبدالعزيز)، فأمر الوالى بأن يحقق فى المسألة  
بإنصاف، فحكم القاضى المسلم بإخراج المسلمين من (سمرقند)، وأن  
ينابزوا أهلها على سواء، فكرهوا القتال، وأقروا المسلمين على  
البقاء فيها، وأسعدهم هذا المسلك من الحكومة الإسلامية التى لم  
تفرق بين المسلم وغير المسلم فى العدل، فأقبلوا على اعتناق  
الإسلام.  
انتشار الإسلام فى الشام:

(13/2)

---

كان معظم سكان الشام عند الفتح الإسلامى من العرب الذين هاجروا  
من شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام بعدة قرون، وأقاموا هناك  
ممالك وإمارات، وإلى جانب هؤلاء كانت هناك أقليات من اليهود  
والأرمن المسيحيين، والروم، والأكراد.  
وقد وقف عرب الشام فى بداية الفتوحات الإسلامية فى عهد  
الراشدين مع الروم ضد أبناء عمومته العرب الفاتحين، ظنا منهم  
أنهم جاءوا إلى الشام لمزاحمتهم فيه، وأخذ أرضهم وأموالهم، لكنهم  
حين فطنوا إلى أهداف المسلمين الرفيعة ورسالتهم السامية، القائمة

على العدل والحرية والمساواة، اطمأنت نفوسهم إلى الإسلام،  
وأنسوا إلى جانب المسلمين، وبخاصة بعد انتهاء المعارك ووضوح  
نتائجها، وزوال سلطان الروم عنهم.  
وقد أدى ذلك إلى مشاركة عرب الشام عرب الجزيرة في عقيدتهم  
ومثلهم وتطلعهم للحياة، وبخاصة أنهم وجدوا أبواب العمل في الدولة  
الإسلامية مفتوحة أمامهم، فمن أسلم أصبح منهم، وربما تدفعه  
مواهبه إلى الصفوف الأولى مع كبار القادة العظام، مثل (حسان بن  
النعمان) الذي كان ينتمي إلى الأسرة الحاكمة في الشام عند الفتح  
الإسلامي، ومن بقي على مسيحيته شارك في ميادين العمل الإداري  
والمالي.

وكان نشر الإسلام في الشام موضع عناية المسلمين وهدفهم، منذ  
الخطوات الأولى للفتح، فقد أرسل (يزيد بن أبي سفيان) إلى (عمر بن  
الخطاب) يطلب معلمين من الصحابة، يعلمون الناس شرائع الإسلام  
ويقرءونهم القرآن، فبعث إليه عددًا من كبار الصحابة، منهم: (عبادة  
بن الصامت)، و (أبو الدرداء)، و (معاذ بن جبل)، رضي الله عنهم،  
وبدأت القبائل العربية التي كانت تقطن الشام قبل الفتح الإسلامي  
تقبل على الإسلام عن اختيار وفي حرية تامة، فأسلمت أغلبية قبيلة  
(الغساسنة) كبرى القبائل العربية في الشام، وكانت لها دولة تبسط  
سلطانها على (جنوبي سوريا)، و (شرقي الأردن)، وكذا قبائل (الحم)  
و (جدام) و (كلب).

(14/2)

---

ولم يقتصر الدخول في الإسلام على القبائل العربية بل اعتنق الإسلام  
كثيرًا من المسيحيين غير العرب؛ كالأرمن والروم، لما فيه من بساطة  
وسمحة، بالقياس إلى المسيحية التي تحولت إلى طلاسمة وألغاز  
وجدل عقيم.

ويذكر (توماس آرنولد) أن انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية كان نتيجة شعور بالاستياء من السفسطة المذهبية التي جلبتها الروح الهلينية إلى اللاهوت المسيحي، لأنها أحالت تعاليم المسيح - عليه السلام - البسيطة السامية إلى عقيدة مخوفة بمذاهب عويصة، مليئة بالشكوك والشبهات، فأدى ذلك إلى خلق شعور من اليأس، بل زرع أصول العقيدة الدينية ذاتها، فلما أهلت آخر الأمر أبناء الوحي الجديد فجأة من الصحراء، لم تعد تلك المسيحية الشرقية التي اختلطت بالغش والزيف، وتمزقت بفعل الانقسامات الداخلية، قادرة على مقاومة إغراء الدين الجديد - الإسلام - الذي بدد بضربة واحدة من ضرباته كل الشكوك التافهة، وقدم مزايا مادية جديدة إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التي لا تقبل الجدل، وحينئذ ترك الشرق المسيحي، وارتمى في أحضان نبي بلاد العرب).

وكان من الطبيعي أن يكون حجم انتشار الإسلام في الشام كبيراً، لقربه من (الحجاز) منزل الوحي، ووفود كثير من الصحابة إليه في الفتوحات وبعدها، وإقامتهم فيه، وإقامة كثير من أفراد جيوش الفتح الوافدة من الجزيرة العربية في الشام.

ولما قامت الدولة الأموية سنة (41هـ) واتخذت من (دمشق) عاصمة لها، اتسع نطاق انتشار الإسلام بين القبائل العربية، وأصبح الشام قطراً عربياً إسلامياً خالصاً، يعيش فيه بعض الأقليات المسيحية واليهودية في حرية وأمان.

انتشار الإسلام في مصر:

فُتحت (مصر) في عهد (عمر بن الخطاب)، ومنذ الأيام الأولى للفتح أقبل بعض المسيحيين على الدخول في الإسلام بحرية تامة وحتى قبل تمام الفتح، فقد كتب (يوحنا النقيوسي) - وهو رجل دين مسيحي

كان قريباً من حوادث الفتح - أن بعض المصريين تركوا الدين المسيحي وأسلموا، وصحبوا جيوش العرب أثناء الفتح، كان منهم (يوحنا) أحد رهبان (دير سيناء).

واستمرت حركة الدخول في الإسلام في زيادة مطردة، فدخل على عهد الخليفة (هشام بن عبد الملك) أربعة وعشرون ألفاً منهم الإسلام دفعة واحدة سنة (108هـ).

ولم يكن دخول الإسلام مقصوراً على طبقة بعينها، بل دخل فيه ناس من كل الطبقات، كما اعتنقه كثير من الروم الذين بقوا في (مصر) بعد الفتح الإسلامي.

وباستمرار دخول المسيحيين في (مصر) في الإسلام أصبح أغلبية السكان مسلمين، وتعلموا اللغة العربية، وأصبحت (مصر) بلداً عربياً إسلامياً، وبقي بعض الأقباط على دينهم حتى الآن، وهذا دليل سماحة الإسلام، وآية على أن من اعتنق الإسلام منهم اعتنقه عن رضى واقتناع ودون إكراه، فلو أكره الفاتحون المسلمون الأقباط على ترك دينهم والدخول في الإسلام؛ لما بقي مسيحي واحد في (مصر).

وكان دور المسلمين في جذب المسيحيين وغيرهم دور الداعى إلى دينه بالحكمة والموعظة الحسنة، والقُدوة الطيبة، بالإضافة إلى جو الحرية وسريان روح الرحمة والتسامح الذى أشاعه الخلفاء والحكام والأمراء، ولم يعد المسلمون أنفسهم طبقة متميزة على أهل البلاد، وإنما اختلطوا بهم وتعايشوا معهم وصاهروهم، وعاملوهم بتقدير واحترام، خاصة أن النبي أوصى المسلمين خيراً بأهل (مصر) حين يفتحونها، فإن لهم ذمة ورحماً، فهاجر أم (إسماعيل) عليه السلام منهم، وكذلك (مارية القبطية) التى تزوجها النبي - صلى الله عليه وسلم - وأنجب منها (إبراهيم).

انتشار الإسلام في شمالي إفريقيا:

تشمل منطقة (شمالي إفريقيا) المنطقة التى تمتد من حدود (مصر) العربية حتى شاطئ (البحر الأبيض المتوسط)، وهى من أكثر المناطق التى

أرهقت المسلمين في فتحها، الذي استغرق نحو سبعين سنة، وذلك بسبب المقاومة العنيدة التي لقيها المسلمون من سكان البلاد،

(16/2)

ومعظمهم من (البربر) الذين يعتزون بحريتهم وكرامتهم. وكانت مقاومتهم الشديدة للفتح ترجع إلى جهلهم بطبيعة الإسلام وأهدافه ومبادئه، وظنهم أن الفاتحين كغيرهم من الغزاة، جاءوا لاستغلال بلادهم والاستيلاء على خيراتها، فلما فهموا الإسلام وما يحمله من عزة وكرامة، واحتكوا بالفاتحين المسلمين وسمحتهم ورحمتهم أقبلوا على الإسلام بحماس لا نظير له، وحملوا رأيتهم، وجاهدوا في سبيله، وشاركوا في فتوحاته، فكان لهم في فتح (الأندلس) بلاءً حسن.

وعلى الرغم من طول أمد فتح (شمالى إفريقيا)؛ بسبب المقاومة العنيدة التي أبدتها السكان فإن استجابتهم للإسلام واعتناقهم له كان أسرع وأوسع انتشاراً مما حدث في بلاد المشرق الأسبق فتحاً مثل (العراق) و (الشام) و (مصر). وقد بدأ السكان يقبلون على الإسلام منذ فتح (عمرو بن العاص) برقة في عهد (عمر بن الخطاب)، وظل هؤلاء متمسكين بإسلامهم على الرغم من توقف الفتوحات فترة طويلة؛ بسبب الفتن الداخلية في الدولة، بدليل وجود كثير من أهل البلاد في جيش (عقبة بن نافع)، عندما أسند إليه (معاوية) قيادة جيش الفتح في (شمالى إفريقيا)، كما أسلم على يدى (عقبة) في تلك الفترة أعداد كبيرة.

ثم خطا الإسلام في المغرب خطوات واسعة، وسعى سعياً حثيثاً في عهد (أبي المهاجر دينار)؛ لحسن سياسته التي جذبت ملك البربر (كسيلة) إلى الإسلام، وأسلم بإسلامه أعداد هائلة، وكان (أبو المهاجر) يبني مسجدًا في كل مدينة يفتحها، ويعمل على امتزاج

العرب الفاتحين بأهالي البلاد؛ ليكون لذلك أثره في تعليمهم الدين واللغة العربية.

ثم كان ظهور (حسان بن النعمان) ومن بعده (موسى بن نصير) في (شمال إفريقيا) من عوامل التمكين للإسلام في البلاد؛ فاستطاع (حسان) أن يقضى على الوجود البيزنطي قضاءً تاماً، ثم على مقاومة (الكاهنة) التي تزعمت البلاد بعد مقتل (كسيلة). والعجيب أن هذه المرأة العنيدة وهي تخوض معركتها الأخيرة مع

(17/2)

(حسان)، أوصت أبناءها بالانضمام إليه واعتناق الإسلام إن هي هزمت في الحرب، فلما حدث ذلك أسلم أبناءها، وعينهم (حسان) أمراء على قبائلهم، وأسلم بإسلامهم اثنا عشر ألف رجل دفعة واحدة.

وأما (موسى بن نصير) فقد ركز اهتمامه على نشر الإسلام بين السكان، وكان يأمر جنده العرب بتعليم (البربر) المسلمين في جيشه القرآن الكريم، وتفقيهم في الدين، كما ترك بين قبائل (المصامدة) سبعة عشر رجلاً من العرب ليقوموا بالغرض نفسه. وكان لعمر بن عبدالعزيز أثر كبير في نشر الإسلام بالمغرب، فقد أرسل عشرة رجال من صلحاء التابعين إلى هناك، ليعلموا الناس الدين، فتوافد عليهم الناس من أنحاء البلاد كلها، ليتلقوا عنهم أمور دينهم.

ومن المعروف أن المسيحية قد دخلت (شمال إفريقيا) منذ القرون الأولى لميلاد السيد المسيح، عليه السلام، وبخاصة في منطقة الساحل المطل على (البحر المتوسط) في حين بقيت المناطق الداخلية البعيدة عن الساحل على وثنيته. انتشار الإسلام في الأندلس:

لمَّا فتح المسلمون (الأندلس) في أواخر القرن الهجرى الأول (92 - 95هـ) كانت ديانة معظم السكان هي المسيحية الكاثوليكية، بالإضافة إلى جالية يهودية كبيرة وبعض الوثنيين، ثم بدأت أعداد كبيرة منهم تعتنق الإسلام، يأتى فى مقدمتهم طبقة الرقيق التى وجدت فى الإسلام نجاتها وخلصها من الظلم والاضطهاد الذى كانت تعانيه تحت حكم (القوط). ولم تكن طبقة الرقيق وحدها هى التى أسرعت إلى اعتناق الإسلام، بل اعتنقه كثير من الوثنيين وأشراف المسيحيين، بالإضافة إلى أعداد كبيرة من الطبقات الوسطى والدنيا، بل إن بعض القساوسة اعتنق الإسلام، مثل (تيود سكلوس) الذى كان رئيس أساقفة (إشبيلية).

وقد حدث ذلك كله فى السنوات الأولى، التى أعقبت الفتح الإسلامى مباشرة، دون إكراه من المسلمين لإجبار أهل (الأندلس) وحملهم على الإسلام حملاً، بل أقبلوا عليه عن رضى واقتناع تام، ساعد على ذلك

(18/2)

---

بساطة الإسلام وبعده عن التعقيدات الكهنوتية التى حفلت بها ديانتهم، واختلاط المسلمين الفاتحين بأهل البلاد ومصاهرتهم، وقد فعل ذلك أعداد كبيرة من المسلمين، حتى الأمراء منهم، فقد تزوج (عبدالعزیز بن موسى بن نصير) بابنة الملك القوطى (ذرقيق)، وحذا حذوه كثير من القادة والجنود، ونتج عن هذه المصاهرات جيل جديد فى (الأندلس) عُرف بالمولدين، وهم الذين ولدوا من آباء عرب وأمهات أندلسيات، وهؤلاء نشئوا مسلمين بطبيعة الحال، وسرعان ما تزايد عددهم، وأصبحوا يشكلون غالبية السكان، واحتلوا مكانة كبيرة فى المجتمع وكان لهم دورهم فى تسيير أمور الدولة الإسلامية. وقد أصبح هذا الجزء الذى يقع فى جنوبى غربى (أوروبا) بلدًا عربيًا

مسلمًا في حرية تامة ودون تعصب أو إكراه، ولم يستغل الفاتحون المسلمون انتصارهم على (القوط) في استئصال المسيحية من البلاد كما فعل (فرديناند) و (إيزابيلا) في استئصال المسلمين بعد ذلك بثمانية قرون.

انتشار الإسلام في العراق:

كان معظم سكان (العراق) عند الفتح الإسلامي عربيًا من قبائل (ربيعة)، مثل: (بكر بن وائل) و (تغلب)، ثم جاء المناذرة اللخميون ومن هم من قبائل (اليمن)، فأقاموا في (العراق) إمارة عربية عُرفت بإمارة (المناذرة)، كانت خاضعة للفرس، تأتمر بأمرهم، وتصد غارات القبائل العربية عليهم، وهجمات البيزنطيين وحلفائهم غساسنة الشام، وقبيل ظهور الإسلام أنهى الفرس سنة (602م) حكم المناذرة، وحاكموا (العراق) حكمًا مباشرًا.

ولم يكن موقف عرب (العراق) من الفاتحين المسلمين عدائيًا صريحًا، وإنما تراوح بين العداء والوقوف مع الفرس وتأييدهم وبين التعاون مع العرب الفاتحين، ثم الترحيب بهم بعد توالى انتصاراتهم على الفرس في (القادسية) و (مهاوند).

وقد وجد سكان (العراق) أنفسهم بعد الفتح تحت حكم المسلمين يعاملون معاملة حسنة، تُحفظ لهم كرامتهم وحریتهم، وتُصان عقائدهم، ولم تنتزع أرضهم، ولم يجبرهم أحد على الدخول في

(19/2)

---

الإسلام، وكانوا قبل ذلك أقرب ما يكونون إلى حال الرق، ذلاً واستعبادًا للفرس، فأقبلوا على اعتناق الإسلام في حرية تامة. ولم يسلم عرب (العراق) فقط، بل أسلم كثير من الفرس أنفسهم، الذي يعيشون في (العراق)، وقدموا للمسلمين مساعدات كثيرة، ووقفوا إلى جانبهم في المعارك، فاستشار (سعد بن أبي وقاص) من أسلم

من الفرس في كيفية التغلب على القبيلة الفارسية المدربة على الحرب والقتال، ولم تكن للفاتحين المسلمين خبرة بمواجهتها في ساحات المعارك، فدلوه على مقاتلتها، بأن تُضرب في عيونها ومشافرها، فلا تستطيع القتال بعد ذلك.

ثم ازداد إقبال الفرس على الدخول في الإسلام بعد انتصار المسلمين في (القادسية)، فأسلم أربعة آلاف من (الديلم) دفعة واحدة، وجاهدوا مع الفاتحين في (مهاوند)، ويدل تزايد الإقبال على الدخول في الإسلام، سواء من العرب أو من غيرهم على أن اشتراك الطبقات المقهورة مع الفرس ضد المسلمين في البداية، إنما كان خوفًا من بطشهم، فلما تحطمت قوتهم في (القادسية) زال الخوف، وأقبل الناس على الإسلام.

وإلى جانب هؤلاء أسلمت أعداد كبيرة من الأساورة والأشراف وعلية القوم، فرحّب بهم القادة العرب، وأشركوهم معهم في الحكم، فيروى (الطبري) أن (سعد بن أبي وقاص) كتب إلى (عبدالله بن المعتم) أن أخلف على (الموصل) (مسلم بن عبدالله) الذي كان قد أُسِرَ في (القادسية)، وأن (القعقاع بن عمرو التميمي) استخلف على (حلوان) - مدينة فارسية شمالي شرقي (المدائن) - بعد فتحها، رجلا فارسيا اسمه (قباد).

وقد أخذ الإسلام ينتشر في (العراق) باطّراد إلى أن أصبح بلدًا عربيًا إسلاميًا خالصًا في العصر الأموي، ومركزًا ودعامة لتثبيت الحكم الإسلامي في بلاد فارس، ومنطلقًا للفتوحات الإسلامية في بلاد (ما وراء النهر) و (السند).

انتشار الإسلام في بلاد فارس:

كانت الديانة الرئيسية في بلاد فارس قبل الفتح الإسلامي هي الديانة

(الزرادشتية)، وهى ديانة وثنية، تؤمن بأن للعالم إلهين، أحدهما إله الخير، والآخر إله الشر، وإلى جانب تلك الديانة التى كان يدين بها ملوك (آل ساسان) توجد (البوذية) و (المانوية) و (المزدكية) بالإضافة إلى اليهودية والمسيحية على نطاق ضيق.

ولم يأخذ المسلمون من هذه الأديان موقفاً عدائياً، ولم يتخذوا إجراءً ضدها، بل صانوا للناس حرية الاعتقاد، إلى الحد الذى اعتدوا فيه بالمجوسية الفارسية وهى عبادة النار، وعاملوا أتباعها معاملة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فقبلوا منهم الجزية نظير بقائهم على دينهم.

ولما اطمأنت نفوس أهل فارس أو معظمهم إلى حكم الفاتحين نظروا إلى دينهم، مقارنين بينه وبين ما لديهم من أديان فلم يجدوا وجهاً للمقارنة، فكلها أديان وثنية مليئة بالخرافات والأوهام، فتركوها غير آسفين، وأقبلوا على الإسلام فى حرية تامة، ودون ضغط أو إكراه، ولم يفعل ذلك أتباع الديانات الوثنية فقط، وإنما فعله كثير من المسيحيين. يقول (آرنولد): (وقد أدى تغير الحكومة - الساسانية - إلى تخليص الكنيسة المسيحية المضطربة فى فارس من استبداد ملوك الساسانيين الذين أثاروا الخلافات .. وزادوا فى فوضى الطوائف - المسيحية - المتنافرة، ولعل هذه الأحوال المضطربة قد هيأت عقول الناس لذلك التحول الفجائى فى شعورهم، الذى سهل تغير العقيدة، وإلى جانب الاضطراب السياسى فى الدولة ظهرت تلك الفوضى الأخلاقية التى ملأت عقول المسيحيين .. فمالوا إلى هذا النظام العجيب من التنسيق العقلى، الذى ينمو فيه الدين الجديد فى سهولة ويسر، ويكتسح أمامه أكثر الأديان الأخرى، ويحاول أن يقيم الحالة الدينية والاجتماعية على أسس جديدة، وبعبارة أخرى كان أهل فارس قد بلغت عقليتهم درجة ساعدتهم على التحول إلى ذلك الدين الجديد، والترحيب باعتناقه فى حماسة ملحوظة؛ لما يمتاز به من البساطة، وهكذا قدر للإسلام أن يبدد بضربة واحدة كل هذه الغيوم، وأن يفتح

أمام الناس سبباً واضحاً من الآمال الكبيرة، وأن يخلصهم في أقرب وقت من عبوديتهم وحالتهم السيئة).

وقد تتابع دخول الفرس بأعداد كبيرة في الإسلام دون إكراه، مدفوعين بالدعوة الصادقة التي يقوم بها المسلمون لدينهم، والتعريف به وشرح مبادئه، والالتزام بها في حياتهم، كل ذلك كان له عظيم الأثر في التمكين للإسلام في البلاد.

ثم خطا الأمويون خطوات واسعة أدت إلى انتشار الإسلام واللغة العربية في بلاد فارس، تمثلت في تهجير عشرات من القبائل العربية إلى الأقاليم الفارسية وتسكينهم فيها، فنقل (زياد بن أبي سفيان) وإلى (العراق) في خلافة (معاوية) سنة (51هـ) خمسين ألف أسرة عربية من أهل (البصرة) و (الكوفة) إلى (خراسان) دفعة واحدة، وتتابع بعد ذلك الهجرات العربية إلى الأقاليم الفارسية بأعداد كبيرة؛ مما كان له أثر كبير في نشر الإسلام عن طريق المعاشة، والقُدوة العملية، وإقامة شعائر الدين.

وفي الوقت نفسه هاجرت أعداد كبيرة من الفرس إلى المدن العربية الجديدة كالبصرة و (الكوفة)، بقصد العمل في التجارة والأعمال الحرفية، كأعمال البناء التي لا يجيدها العرب، كما عمل كثيرون منهم في دواوين الدولة، وقد بلغ عدد العمال من الفرس - أى الموظفين - المقيدون في ديوان (عبيدالله بن زياد) وإلى (البصرة) (55 - 64هـ) مائة وأربعين ألفاً، وهو رقم غير مبالغ فيه، لأن ديوان (البصرة) كان يشمل الموظفين المدنيين في جنوبي (العراق)، وكل المقاطعات الجنوبية الشرقية من بلاد فارس حتى (خراسان) شمالاً.

وقد علل (ابن زياد) استخدام هذا العدد الكبير من الفرس في الديوان بكفاءتهم ومهارتهم وأمانتهم في العمل، وهذا يعنى ثقة الدولة بالموظفين من الفرس، وهذه الثقة شجعتهم على الدخول في الإسلام.

وأدّى وجود أعداد كبيرة من الفرس في البيوت العربية، ومصاهرتهم للعرب، إلى انتشار الإسلام بينهم، واتخاذ أسماء وألقاب عربية.

(22/2)

ويمكن إجمال القول بأن غالبية الشعب الفارسي تحولت إلى الإسلام في العصر الأموي، وأصبحت عنصراً مؤثراً في المجتمع والدولة الإسلامية ذاتها، وكانت في طليعة المجاهدين في فتح بلاد (ما وراء النهر).

موقف الموالي الفرس من الدولة الأموية:

كان لبعض الموالي الفرس مواقف عدائية ضد الدولة الأموية، على الرغم من تسامح الحكومة مع الفرس وإشراكهم في الإدارة، بل تفضيلهم أحياناً على العرب أنفسهم؛ فلم يتركوا فرصة للخروج عليها إلا انتهزوها، ولا دعوة لثائر إلا انضموا تحت لوائه، أيا كان اتجاهه السياسي، فانضموا إلى (ابن الزبير)، و (المختار الثقفي)، و (عبدالرحمن بن الأشعث)، و (يزيد بن المهلب)، وغيرهم، وناصروا الخوارج، وتحالفوا مع الشيعة دائماً.

وهذه المواقف العدائية من الدولة الأموية جعلت بعض الباحثين يظنون أنهم فعلوا ذلك لظلم وقع عليهم من الدولة، وراحوا يكيلون التهم جزافاً للأمويين بأنهم متعصبون للعرب ضد الفرس، وهذا اتهام لا دليل عليه وبعيد عن واقع الأمر، فالدولة الأموية عُرِفَتْ بتسامحها مع غير المسلمين من أهل الذمة، فكيف يضيق صدرها بالمسلمين من الموالي ولعل السبب الرئيسي في عداة الموالي للدولة الأموية يكمن في أن كثيرين من أبناء فارس لم يستطيعوا التخلص تماماً من ماضيهم، حيث كانوا أصحاب السيادة على العرب، ولهم نفوذ في العالم، فلما فتح المسلمون بلادهم عزَّ عليهم أن يحكمهم العرب، فعملوا كل ما في وسعهم لتقويض الدولة الأموية.

ولم يكن الموالي كلهم يعادون العرب، ولذا نستطيع أن نقسم الموالي إلى أربع طوائف رئيسية، هي:

– الطائفة الأولى: أسلمت إسلامًا حقيقيًا، ارتفع بها فوق العصبية القومية، مثل: (سلمان الفارسي)، رضى الله عنه، و (الحسن البصرى) التابعى المعروف، وهذه الطائفة لم تر بأسًا فى أن يحكمها العرب، ونظرت إليهم نظرة تقدير واحترام؛ لأنهم سبب هدايتها، وبإدال العرب

(23/2)

هذه الطائفة ودا بود وتقديرًا بتقدير، وكان كبار التابعين من الموالي، مثل (الحسن البصرى)، و (محمد بن سيرين)، و (عطاء بن يسار)، و (عطاء بن أبى رباح)، موضع احترام المجتمع والدولة، وكان تأثيرهم فى الحركة العلمية عظيمًا.

– الطائفة الثانية: وهى التى أسلمت إسلامًا رقيقًا، ولم تتخلص من الماضى تمامًا، وظلت تفخر بالأجداد الفارسية القديمة، وهذه الطائفة لم ترفض الإسلام دينًا ولكنها رفضت السيادة والحكم العربيين، وظلت تسعى للقضاء عليهما بدأب شديد، وكانت نواة الحركة الشعبوية التى نادى بتفضيل الفرس على العرب.

– الطائفة الثالثة: وهى التى أسلمت نفاقًا، لأنها رأت أن السبيل إلى المال والجاه والسلطان لا يكون إلا بالدخول فى الإسلام، فأعلنت اعتناقه ولم يدخل الإيمان قلوبها، ولم تدع فرصة للكيد للعرب إلا انتهزتها، كما دعت إلى الشعبوية والمذاهب الدينية القديمة، وهذه الطائفة كانت أساسًا لحركة الزندقة.

– الطائفة الرابعة: وهى التى لم تسلم، وبقيت على مجوسيتها بفضل الحرية التى منحها العرب لأهل بلاد فارس. والذى نريد أن نخلص إليه أن القول باضطهاد الدولة الأموية للموالى، وعداء الموالى للدولة كان رد فعل لذلك، هو قول بعيد عن الحقيقة،

فلم تكن هناك سياسة مرسومة للأمويين تعادى الموالى الفرس، وفي الوقت نفسه لا ننكر أن يكون بعض العرب قد نظر إلى الموالى الفرس نظرة تعالٍ وتكبر، لكن ذلك لم يكن سياسة دولة، وإنما كان نظرة البدو الجفاة الذين لم يفهموا الإسلام على وجهه الصحيح. انتشار الإسلام في بلاد ماوراء النهر:

فتح (قتيبة بن مسلم الباهلي) بلاد (ماوراء النهر) - آسيا الوسطى - في خلال عشر سنوات (86 - 96هـ)، وأقبل كثير من أهالى تلك البلاد على الدخول في الإسلام، لما فيه من عدل وسماحة ورحمة، وشجعهم على ذلك أن معظمهم وثنيون يعبدون الأصنام، وبعضهم يدين بالأديان التي كانت منتشرة في بلاد فارس المجاورة لهم، مثل (الزرادشتية)

(24/2)

و (المانوية) و (المزدكية)، وكلها أديان فاسدة، ولم يكن تمسك الناس بها قويًا، ولذا سرعان ما أقبلوا عنها بعد أن قارنوا بينها وبين الإسلام، فأقبلوا عليه في حماس شديد.

وعندما دخل (قتيبة بن مسلم) مدينة (سمرقند) سنة (93هـ)، وجد فيها عددًا كبيرًا من الأصنام، فقرر تحطيمها، فخوَّفه سكأنها من ذلك، وقالوا له: إن من يقترب منها تملكه، فلم يبالي بذلك، وأقسم ليحطمها بيده، فحطمها وحرَّقها بالنار، فلما رأى الناس ذلك ولم يحدث لقتيبة شيء أدركوا أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر، وأسرعوا إلى اعتناق الإسلام.

وقد تردَّد صدى هذه الحادثة في المدن الأخرى، فأسلم من أهلها أعدادٌ هائلة، حتى إنه لما سار قتيبة لفتح إقليم (الشاش) فيما وراء نهر (سيحون) سنة (94هـ)، أى بعد سنة واحدة من تحطيمه لأصنام (سمرقند)، كان جيشه يضم عشرين ألف مسلم من أهل (بخارى). وحرص الفاتحون المسلمون على دعوة الناس إلى الإسلام بالحكمة

والموعظة الحسنة، والتأثير فيهم بالقُدوة الطيبة، وكان (قتيبة بن مسلم) يُعنى ببناء المساجد في المدن والقرى؛ حتى تؤدي فيها الصلاة، ويقوم الدعاة فيها بتعليم الناس شعائر الإسلام وشرائعه. غير أن تزايد إقبال الناس على الإسلام جعل الولاة المسلمين أمام مشكلة مالية، جعلتهم يأخذون الجزية من المسلمين الجدد من أهل البلاد، مخالفين بذلك قواعد الإسلام التي تقرر أن لا جزية على من أسلم، ولم يطل هذا الأمر كثيرًا، إذ صحح (عمر بن عبد العزيز) هذا الإجراء الخاطئ وكتب إلى الولاة موبخًا إياهم على فعلتهم، قائلا قولته المشهورة: (قَبَّحَ اللهُ رأيكم، إن الله بعث محمدًا - صلى الله عليه وسلم - هاديًا ولم يبعثه جانيًا).

وكان الخليفة (عمر بن عبد العزيز) معنيا بنشر الإسلام في تلك المنطقة، وكتب إلى ملوك بلاد (ما وراء النهر) وأمرائهم ودعاهم إلى الإسلام، فأسلموا وتسمَّوا بأسماء عربية. وتتابع جهود الأمويين لنشر الإسلام في هذه البلاد بعد (عمر بن

(25/2)

---

عبد العزيز)، وبخاصة في عهد (هشام بن عبد الملك) (105 - 125هـ)، الذي أسند ولاية (خراسان) و (ما وراء النهر) إلى (أشرس بن عبد الله السلمي)، المسمى بالكامل لصلاحه وتقواه، فما إن استقر في (خراسان) حتى شرع في توجيه الدعاة والفقهاء إلى بلاد (ما وراء النهر)؛ لدعوة الناس إلى الإسلام. وقد مضت حركة نشر الإسلام في بلاد (ما وراء النهر) مطَّردة مزدهرة، بفضل جهود (صالح بن طريف) وأمثاله من أهل الصلاح والتقوى، وإن اعترض ذلك بعض المعوقات التي كانت تأتي في الغالب من بعض الولاة الذين كانوا يفضلون الجباية على الهداية، مخالفين بذلك قواعد الإسلام، غير أن هذه السياسة الخاطئة كانت تجد دائمًا من يصححها

ويقومها من الخلفاء والولاة.

وقد استاء المسلمون الجدد من أهل بلاد (ما وراء النهر) من دفع الجزية، لا لكونها عبئًا ماليًا كبيرًا فحسب، بل لإحساسهم بالمهانة من دفعها وهم مسلمون؛ إذ لاجزية على المسلم، ومن ثم تمسكوا بحقهم الشرعى الذى كفله لهم الإسلام، فقاوموا الولاة، ومن أجل ذلك وجدوا استجابة من قمة الدولة لإنصافهم، وتضامنًا من إخوانهم العرب المسلمين لمساعدتهم على الحصول على حقهم.

وخلاصة القول أن غالبية الناس فى بلاد (ماوراء النهر) تحولت إلى الإسلام، وأصبحت بلادهم جزءًا عزيزًا من العالم الإسلامى، وأهدت إلى العالم الإسلامى عددًا لا حصر له من العلماء فى شتى العلوم الإسلامىة، وغدت بعض مدنه مثل (بخارى) و (سمرقند) و (جرجان) من أكبر المراكز الحضارية فى العالم الإسلامى وأشهرها.

وقد رسخ الإسلام فى تلك المنطقة رسوخًا عميقًا، ظهر أثره فى ثبات أهلها أمام موجات الغزو العاتية التى تعرضت لها، مثل غزوات المغول المدمرة فى القرن (7 هـ = 13 م)، كما تعرضت لمحنة الحكم الشيعى الملحد فى القرن (14 هـ = 20 م)، الذى حاول بشقى الطرق وبأقسى الأساليب الوحشية محو الإسلام، لكنه فشل فشلا ذريعًا

(26/2)

---

أمام ثبات المسلمين وإصرارهم على التمسك بعقيدتهم، وبعد اختيار (الاتحاد السوفيتى) سنة (1411هـ = 1991م) وزوال الحكم الملحد، تنفّس الناس الصعداء وعادت بلادهم إلى حظيرة العالم الإسلامى. ولم يكتفِ أهالى تلك المنطقة باعتماد الإسلام، وإنما جنّدوا أنفسهم للدفاع عنه على حدوده الشرقية عند (الصين) والأترك الشرقيين، وأصبحت بلادهم معبرًا رئيسيا للإسلام إلى (الصين) وغيرها من بلاد شرقى آسيا وجنوبى شرقىها إلى حوض (نهر الفولجا) شمالًا؛ حيث

كانت قوافل الدعاة والتجار تجوب الطرق التجارية بين العالم الإسلامي وتلك البلاد، يدعون إلى الإسلام، وقد وجدوا استجابة طيبة وسريعة.

انتشار الإسلام في السند:

كان إقليم (السند) مملكة مستقلة عندما فتحه المسلمون في أواخر القرن الأول الهجري بقيادة (محمد بن القاسم الثقفي)، وسادت فيه عدة ديانات كانت هي نفسها السائدة في سائر ممالك شبه القارة الهندية وولاياتها، مثل: (البرهمية)، و (البوذية).

ويؤكد لنا التاريخ أن الاتصال بين أهل (السند) والمسلمين سبق بزمن طويل فتح بلادهم، وأنهم عرفوا كثيراً عن الإسلام ومبادئه، بل إن بعضهم أسلم مبكراً، يروى (البلاذري) أن كثيرين من أهل (السند) - المنبوذين - قد أسلموا مبكراً، بعد أن انحازوا إلى المسلمين؛ فراراً من اضطهاد البراهمة، فعندما كان (أبو موسى الأشعري) يفتح إقليم (الأهواز) غربي بلاد فارس، في عهد (عمر ابن الخطاب) أرسل له زعيم سندي اسمه (سياه) قائلاً: (إننا قد أحببنا الدخول معكم في دينكم على أن نقاتل معكم عدوكم من العجم) واشترط أن يفرض له ولقومه من العطاء، وأن ينزلوا حيث شاءوا من البلاد، فوافق (عمر بن الخطاب) على ذلك لما كتب له (أبو موسى) يستأذنه.

وبعد انتهاء الفتح، نزل هؤلاء (البصرة)، وفرض لهم العطاء، ثم سألوا أي القبائل أقرب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فقبل لهم: (بنو تميم)، فحالفوهم وخططت لهم الأحياء السكنية.

(27/2)

---

وقد عمل كثير منهم في بيت المال؛ فخيرتهم في الشؤون المالية، فقد كان في بيت مال البصرة منهم في عهد (علي بن أبي طالب) أربعون رجلاً، كما عمل بعضهم في الأعمال الحرة، وبخاصة في الصرافة،

فيروى الجاحظ: (إنك لا ترى في البصرة صيرفيًا إلا وصاحب كيسه -  
أى خزائنه - سندی).

وكل هذه الشواهد تؤكد اتصال أهل (السند) بالمسلمين قبل فتح بلادهم، ومن الطبيعي أن يتردد بعضهم على وطنه، وينقل للناس هناك أخبار الإسلام والمسلمين، ومعاملتهم الرحيمة مما هيا قلوبهم للإسلام، والإقبال عليه بعد الفتح الإسلامي لبلادهم. فمنذ الخطوات الأولى للفتح بدأت شخصيات كبيرة تعتنق الإسلام، وعندما تقدّم (محمد بن القاسم) بعد فتح (الديبل)، وجه الدعوة إلى الأمراء والحكام والوزراء والأعيان وعامة الشعب؛ للدخول في الإسلام فاستجاب له كثيرون.

وكانت هناك أقاليم تدخل في الإسلام جملة واحدة، مثل إقليم (سوسيان)، فقد روى في سبب إسلامهم أنهم كانوا قد أرسلوا جاسوسًا من عندهم إلى معسكر المسلمين لمعرفة أخبارهم، وأثناء اختفائه حان وقت الصلاة، فقام أحد الجنود وأذّن بالصلاة بصوت خاشع جميل مؤثر، ثم اصطف الجنود خلف قائدهم (محمد بن القاسم) في صفوف منتظمة، فلما رأى الجاسوس السندی هذا المشهد الرائع تأثر به تأثرًا كبيرًا، وعاد إلى قومه، وأخبرهم بما رأى، فقالوا: إذا كان العرب متحدين متمسكين بدينهم على هذا النحو وهم في وقت الحرب، فإننا لا يمكننا التغلب عليهم، وقرروا إرسال وفد منهم إلى (محمد بن القاسم)، وانتهى الأمر بإسلامهم جميعًا، وانضمامهم إلى المسلمين، وأقاموا حفل تكريم للقائد المسلم (محمد بن القاسم) الذي هداهم للإسلام.

وكان إقبال أهل (السند) على الإسلام عظيمًا على اختلاف طبقاتهم، فأسلم إلى جانب عامة الشعب الحكام والقواد والوزراء وأمراء المناطق المختلفة، مثل الأمير (كاكة بن جندر) ابن عم الملك (داهر) ملك (السند).

---

وأدَّى سلوك المسلمين السوء إلى جذب الناس إلى الإسلام، وبخاصة سلوك (محمد بن القاسم) الذي اهتم بإقامة المساجد وأداء الشعائر الدينية، فلم يكن يدخل مدينة إلا ويبني فيها مسجدًا، وقد تابع خلفاء (محمد بن القاسم) في (السند) سياسته في بناء المساجد. وقد بلغ قمة النجاح في انتشار الإسلام في (السند) في خلافة (عمر بن عبدالعزيز) (99 - 101هـ)، الذي كان لسمعته الطيبة أثر عظيم في دخول أعداد كبيرة من أهل (السند) في الإسلام لما دعاهم إلى ذلك، فأسلموا وتسمَّوا بأسماء عربية.

وأصبح هذا الإقليم منذ دخول الإسلام فيه جزءًا عزيزًا من العالم الإسلامي، ولا يزال يمثل قوة رئيسية من قواه؛ فقد شارك في صنع التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، فلولا الإسلام لبقى ذلك الإقليم منزويًا في عزلته، دون أن يكون له مثل ذلك الدور الذي قام به في ظل الإسلام، ونختم الحديث عن انتشار الإسلام في (السند) بشهادة واحد من أبنائه هو العلامة (أبو الحسن الندوي) الذي يقول:

(إن دخول الإسلام إلى بلاد السند وبلاد الهند، كان فاتحة عصر جديد، عصر علم ونور وحضارة وثقافة .. لم يكن العرب المسلمون من طراز أولئك الغزاة الذين إذا دخلوا قرية أفسدوها، واعتبروها بقرة حلوبًا، أو ناقة ركوبًا، يخلبون ضرعها، ويركبون ظهرها، ويجزون صوفها، ثم يتركونها هزيلة عجفاء، ولا يعتبرون أنفسهم كالإسفنج، يتشرب الثروة من مكان، ويصبها في مكان آخر، كما كان شأن الإنجليز في الهند، وفرنسا في الجزائر والمغرب الأقصى، وإيطاليا في طرابلس وبرقة، وهولندا في إندونيسيا، لم يكن العرب المسلمون مثل هؤلاء الغزاة المستغلين، بل وهب العرب البلاد التي فتحوها أفضل ما عندهم من عقيدة ورسالة، وأخلاق وسجيا، ومقدرة وكفاية، وتنظيم وإدارة، وأقبلوا عليها بالعقل النابغ، والشعور الرقيق، والذوق الرفيع، والقلب الولوع، واليد الحاذقة الصانع،

فنقلوها من طور البداوة إلى طور الحضارة، ومن عهد الطفولة إلى عهد الشباب الغض، فأمنت بعد خوف، واستقرت بعد اضطراب، وأخذت الأرض زخرفها، وبلغت المدنية أوجها، وتحولت الصحارى الموحشة والأراضى القاحلة إلى مدن زاخرة وأرض خصبة، وتحولت الغابات إلى حدائق ذات بهجة، والأشجار البرية إلى أشجار مثمرة مدنية، ونشأت علوم لا علم للأولين بها، وفنون وأساليب في الحضارة لا عهد لهم بها في الماضي، وانتشرت التجارة، فكأنما ولدت هذه البلاد في العهد الإسلامي ميلادًا جديدًا، ولبست ثوبًا قشيبًا).

الجانب الحضارى:

الحضارة الإسلامية في العصر الأموى:

تعنى الحضارة عند بعض الباحثين كل نشاط إنسانى فى الحياة، سواء أكان فكريا يتمثل فى العلوم والفنون والآداب، وما ينتج عن ذلك من نظم سياسية واقتصادية واجتماعية وإدارية، ومن عادات وتقاليد وأخلاق، أم كان ماديا ملموسًا، يتمثل فى البناء والتشييد والعمران، كبناء المدن والقرى وتخطيطهما، والتأنق فى بناء المساكن والمساجد، ودور التعليم والقلاع والحصون، كما تتمثل فى العناية بالأوضاع الاقتصادية للبلاد، كبناء السدود والخزانات لتخزين المياه واستخدامها فى الزراعة والصناعة، أو فى تعبيد الطرق وإقامة المصانع.

وقد عرفت الحضارة الإسلامية فى العصر الأموى كل هذه الأنشطة، وهى وإن اشتركت مع غيرها من الحضارة الإنسانية فى بعض السمات، فإنها تتميز عنها بسمات خاصة بها؛ لأن الإسلام هو الذى أنشأها ورعاها وتمثلت فيها قيمه ومبادئه وسماعته ورحمته وآدابه. وهى كغيرها من الحضارات البشرية أخذت وأعطت وتعلمت من

غيرها، وعلمت غيرها، وانفتحت على الحضارات كلها بما فيها من ثقافات وأفكار، شعارها: الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها. ولقد قامت الحضارة الإسلامية على دعامين أساسيتين: الدعامة الأولى: القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وكان تأثيرهما في نشوء

(30/2)

الحضارة الإسلامية وارتقاؤها وتألقها من وجهين:

– الأول: حثهما على العلم والتعلم والتفكير في الكون وأسراره، وتسخيروه لمنفعة الإنسان، وعدهما طلب العلم فريضة على كل مسلم، ودعوتهما إلى رفع شأن العلم والعلماء، والشواهد على ذلك من كتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – كثيرة، من ذلك: قول الله تعالى: {قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب} [الزمر: من 9]. وقوله تعالى: {يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات}. [المجادلة من 11].

وقوله تعالى في أول ما نزل من القرآن: {اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علّم بالقلم}. [العلق: 1 – 4].

وقوله – صلى الله عليه وسلم –: (طلب العلم فريضة على كل مسلم). [ابن ماجة].

وقوله – صلى الله عليه وسلم – أيضاً: (من سلك طريقاً يطلب به علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة). [رواه الحاكم].

– الوجه الآخر: يتمثل في العلوم الكثيرة التي انبثقت من القرآن والسنة كالتفسير وعلوم القرآن، والفقه والأصول، والحديث وعلومه،

والمغازى والسير والتاريخ، واللغة العربية وآدابها وغير ذلك.  
الدعامة الأخرى:

وهي دعامة لا يُنكر دورها في ازدهار الحضارة الإسلامية، وتتمثل في التراث الحضارى الهائل، الذى ورثه المسلمون عن الأمم السابقة في البلاد التى فتحوها، كتراث الحضارة الإغريقية والفارسية والهندية والمصرية القديمة.  
وكان من حسن الطالع أن ذلك التراث الحضارى كان موجوداً في المناطق التى شملتها الدولة الأموية، فحافظت عليه وصانته من الضياع، وهو ما يحسب للأمويين، فلولا يقظتهم وسعة أفقهم لصاع من الإنسانية كثير من هذه الكنوز الحضارية، التى أنتجها العقل البشرى في القرون السابقة لظهور الإسلام، غير أن الاستفادة الكاملة جاءت في العصر العباسى، حيث بدأت ترجمة العلوم والفنون إلى اللغة العربية، وصُحِّحت أخطاؤها، ثم أضاف إليها المسلمون من

(31/2)

---

عبقريتهم الخلاقة ما شهد به علماء الغرب في العصر الحديث.  
الإدارة والنظم في العصر الأموى:

أولاً: الإدارة:

اتسعت الدولة الإسلامية في العصر الأموى وامتدت حدودها شرقاً من (الصين)، إلى (الأندلس) غرباً، ومن بحر (قزوين) شمالاً إلى (البحر الهندي) جنوباً، وأصبحت تتكون من الأقسام الإدارية الآتية:  
1 - الحجاز: ويشمل (مكة المكرمة) و (المدينة المنورة) و (الطائف)، وكان الولى يقيم في (المدينة).  
2 - اليمن: وكانت في معظم الأحيان ولاية مستقلة، يحكمها والٍ يعين من قبل الخليفة، وأحياناً أخرى كانت تضاف إلى والى (الحجاز)، فيعين عليها والياً من قبله.

- 3 - العراق: وتشمل حدودها الإدارية كل ولايات الدولة الفارسية القديمة، وأقاليم (ما وراء النهر) و (السند)، وكان الأمويون في أغلب الأحيان يجعلون (العراق) والشرق الإسلامي كله تحت إدارة وِالٍ واحد، يُعيّن من قبله ولاية على بقية الأقاليم، وقد حدث ذلك في عهد (معاوية بن أبي سفيان)؛ حيث عهد إلى (زياد بن أبي سفيان) بولاية (العراق) والمشرق، وفي عهد (عبد الملك بن مروان) حيث ولى (الحجاج بن يوسف الثقفي) أمر المشرق كله.
- 4 - الجزيرة: وتشمل ولايات (الموصل) و (أرمينيا)، و (أذربيجان).
- 5 - الشام: ولم يكن يعين لها وِالٍ؛ حيث كانت هي مقر الخلافة الأموية، وكان الخليفة يقوم بهذا الدور.
- 6 - مصر: وكان يتبعها (شمالُ إفريقيا)، ثم أصبحت ولاية مستقلة تقريباً، منذ تولاها (موسى بن نصير) (85هـ)، وعاصمتها (القيروان).
- 7 - الأندلس: وكانت في بداية الفتح الإسلامي لها تتبع ولاية (شمال إفريقيا)، ثم أصبحت ولاية مستقلة منذ خلافة (عمر بن عبدالعزيز). وكان الخلفاء الأمويون يعينون لكل ولاية من هذه الولايات وِالياً من قبلهم، وهو بدوره يختار مساعديه وأعوانه، وكانوا يحرصون فيمن يقع عليه اختيارهم للإمارة أن يكون من المعروفين بالحزم وحسن السياسة والقدرة الإدارية، وأن يكون من الأسرة الأموية نفسها، أو

(32/2)

---

من أكثر الرجال ولاءً وإخلاصاً لها. وتمتّع هؤلاء الولاة بسلطات واسعة، مكنتهم من التصرف بما يرونه محققاً لمصالح الدولة والمجتمع، وكانت هذه السياسة التي اتبعها الأمويون مع ولائهم مختلفة عن سياسة الخلفاء الراشدين؛ حيث كانت سلطات ولائهم مقيّدة، وحرصوا على الفصل بين السلطات السياسية والإدارية والعسكرية، وبين السلطات المالية والقضائية، بمعنى أنهم

كانوا يعينون إلى جانب الوالى - الذى يُسَمَّى والى الحرب والصلاة-  
والياً لبيت المال يُسَمَّى صاحب الخراج، وكان مسئولاً أمام الخليفة  
مباشرة، حتى لا تمتد أيدى الولاة إلى أموال الدولة، كما كانوا  
يعينون القضاة للأقاليم بأنفسهم.

أما فى العصر الأموى، فكان الولاة يشرفون غالباً على الشئون  
المالية، ولاشك أن أسلوب الخلفاء الراشدين كان أسلم وأقوى حرصاً  
على المال العام. وإذا شئنا أن نستخدم التعبيرات العصرية فى مجال  
الإدارة قلنا إن إدارة الخلفاء الراشدين كانت مركزية، وكان ذلك  
مطلوباً فى ذلك الوقت؛ حيث كانت الدولة فى مرحلة البناء، وكان  
الخلفاء الراشدون راغبين فى الاطلاع على كل شىء بأنفسهم، على  
حين كان طابع الإدارة الأموية لامركزياً، نظراً لاتساع الدولة، ويُعد ما  
بين الولايات وعاصمة الخلافة فى (دمشق)، ولايعنى هذا أن الولاة  
كانوا فى العصر الأموى يفعلون ما يشاءون دون رقابة أو محاسبة  
من الخلفاء الذين لم يكونوا يترددون فى عزل أى والٍ مهما تكن  
درجة قرابته منهم إذا ثبت أنه أخل بواجبات وظيفته، أو لم يقم بما  
هو مكلف به على النحو الأكمل.

وكانت دقة الأمويين فى اختيار ولائهم هى التى مكنتهم من حكم  
هذه الدولة العملاقة وإدارتها وبسط الأمن والنظام فى ربوعها  
الممتدة الأطراف، التى ضمت شعوباً مختلفة الأجناس واللغات  
والثقافات والعادات والتقاليد، ومن ثم فإن صهر هذه الشعوب فى  
بوتقة واحدة، وإخضاعها لنظام واحد، لم يكن أمراً سهلاً، فى وقت  
كانت فيه الخيل هى أسرع وسيلة للمواصلات.

(33/2)

---

وكان نجاح الأمويين فى إدارة الدولة الإسلامية بوساطة رجالهم -  
ومعظمهم كانوا من أفذاذ الرجال - دليلاً على عبقرية إدارية، وقدرة

فائقة في فن الحكم وإدارة البلاد، ومهارة في سياسة الناس، ولا يقلل من ذلك أخطاؤهم واتهامات ناقدتهم.

أبرز الولاة في العصر الأموي:

حفل العصر الأموي بالكثير من الأسماء اللامعة التي تألفت في فن الحكم والإدارة، ومن أشهر تلك الأسماء: (عمرو بن العاص)، و (المغيرة بن شعبة)، و (عتبة بن أبي سفيان)، و (مروان بن الحكم)، و (مسلمة بن مخلد الأنصاري)، و (عقبة بن نافع)، و (عبدالعزیز بن مروان)، و (المهلب بن أبي صفرة) وأولاده، و (زهير بن قيس البلوي)، و (حسان بن النعمان الغساني)، و (مسلمة بن عبدالمملك)، و (قتيبة بن مسلم الباهلي)، و (محمد بن القاسم الثقفي)، و (موسى بن نصير)، وابنه (عبدالعزیز)، و (طارق بن زياد)، و (قرة بن شريك)، و (عبد الحميد بن عبدالرحمن)، و (الجراح بن عبدالله الحكمي)، و (عدى بن أرطاة)، و (السمح بن مالك الخولاني).

كما برز (عمر بن هبيرة)، و (بشر بن صفوان)، و (العباس بن الوليد)، و (خالد بن عبدالله القسري)، وأخوه (أسد بن عبدالله)، و (يوسف بن عمر الثقفي)، و (الجنيد بن عبدالرحمن)، و (أشرس بن عبدالله السلمي)، و (مروان بن محمد بن مروان)، و (يزيد بن عمر بن هبيرة)، و (نصر بن سيار).

ثانيًا: النظم في العصر الأموي:

كان من الطبيعي عندما قامت الدولة الأموية أن يتوسّع الأمويون في إنشاء الأجهزة الإدارية والدواوين؛ لملاءمة تطور الحياة، واتساع مساحة الدولة الإسلامية المتزايد، وهذه الدواوين تقوم بالأعمال والاختصاصات التي تقوم بها الوزارات في الدول المعاصرة، فديوان الجند الذي أنشأه (عمر بن الخطاب) كان يقوم بالعمل الذي تقوم به وزارة الدفاع حاليًا، ففيه تُدوّن أسماء الجند وأعطيتهم - رواتبهم - ورتبهم العسكرية، وكانت الأسماء تُدوّن حسب القبائل، حتى تتميز

---

كل قبيلة من غيرها، كما يقول (الماوردي)، (فكأن كل قبيلة كانت تمثل فرقة من فرق الجيش).

وإلى جانب (ديوان الجند) نشأ (ديوان العطاء)، وهو المختص بالمخصصات المالية التي كانت تدفعها الدولة للناس، و (ديوان الخراج) وهو يشبه وزارة المالية في الوقت الحاضر، فكل موارد الدولة المالية كانت تدخل إلى هذا الديوان، مثل غنائم الفتوحات، وخراج الأرض، والزكاة، والعشور، وهي ضرائب كانت تُؤخذ من التجار الذين يدخلون بتجارهم إلى البلاد الإسلامية، وهي شبيهة برسوم الجمارك في الوقت الحاضر، وكانت هذه الضريبة على ثلاثة أنواع تبعاً لنوعية التجار، فالتجار المسلمون يؤخذ منهم ربع عشر تجارتهم، والتجار من أهل الذمة من مواطني الدولة الإسلامية يؤخذ منهم نصف العشر، أما التجار من الكفار الذين يدخلون البلاد الإسلامية بتجارهم، فيؤخذ منهم العشر.

وكانت حصيلة تلك الأموال تدخل (ديوان الخراج)، ويُتَقَّق منها على الجند، والموظفين، والمرافق العامة للدولة، وهذا الديوان كان موجوداً من عصر الراشدين، لكنه تطوّر واتسع نطاق عمله باتساع الدولة في العصر الأموي.

وهناك دواوين أخرى أنشأها الأمويون أنفسهم، منها:

ديوان البريد:

وأصل هذا الديوان في الواقع كان موجوداً منذ عهد النبي - صلى الله عليه وسلم -، فقد بعث كثيراً من الرسائل إلى الملوك والأمراء المعاصرين له، يدعوهم إلى الإسلام، وحمل هذه الرسائل سفراء ومبعوثون من قبيله، لكن (معاوية بن أبي سفيان) أنشأ لهذا النوع من العمل ديواناً خاصاً، وهو الجديد في ذلك الأمر، وجعل له موظفين معينين، يقومون على العمل به، وقام (ديوان البريد) بمهمتين: - الأولى: نقل الرسائل من دار الخلافة وإليها، وكان بعضها رسائل

داخلية، وهي المتبادلة بين الخليفة وولاية الأقاليم وكبار الموظفين، وبعضها الآخر رسائل خارجية وهي التي يتبادلها الخليفة مع ملوك الدول الأجنبية وزعمائها.

(35/2)

– والأخرى: مراقبة أعمال الولاية وكبار الموظفين، ومتابعة سلوكهم وأسلوبهم في إدارة ولاياتهم، وموافاة الخلافة بتقارير منتظمة؛ حتى يكون الخليفة على علم تام بكل ما يجري في كل الولايات. وكانت تلك المهمة جليلة الشأن، تُطلع الخليفة على أى خلل أو قصور في الإدارة، فيسارع إلى تدارك ذلك، ولذا اهتم الأمويون بديوان البريد اهتمامًا عظيمًا لأثره البالغ في حسن سير الإدارة ومراقبة الموظفين.

ديوان الخاتم:

وهو يختص بحفظ نسخة من المراسلات التي كانت تدور بين الخليفة وولايته وكبار موظفيه في الداخل، أو بينه وبين غيره من الحكام الأجانب، بعد ختمها بخاتم خاص، وهو بذلك أشبه ما يكون بإدارة الأرشيف في النظم الإدارية الحديثة، وكانت النسخة المرسلة تُطوى وتغلق بالشمع، حتى لا يمكن فتحها والاطلاع على محتوياتها إلا عند الضرورة، وقد أنشأ هذا الديوان (معاوية بن أبي سفيان)؛ لمنع التزوير والتلاعب في مراسلات الدولة.

وكان ختم الرسائل بخاتم خاص معروفًا في الدولة الإسلامية منذ عهد النبي – صلى الله عليه وسلم –، فعندما عزم النبي – صلى الله عليه وسلم – على إرسال رسائله إلى الملوك والأمراء المعاصرين له، لدعوتهم إلى الإسلام، قال له بعض أصحابه: إن الأعاجم – يقصدون (كسرى) و (قيصر) – لا يقبلون رسالة إلا إذا كانت مختومة؛ فاتخذ خاتمًا من فضة لختم رسائله، نقش عليه: محمد رسول الله، واتخذ له

حاملاً خاصاً، سُمي (حامل خاتم النبي)، وكان اسمه (معيقب بن أبي فاطمة الدوسي)، وظل الخلفاء الراشدون يستخدمونه في ختم رسائلهم حتى سقط من يد (عثمان بن عفان) - رضی الله عنه - في بئر (أريس)، فاتخذ خاتماً آخر صنع على مثاله، لكن (معاوية بن أبي سفيان) طوّر تلك البدايات طبقاً لمقتضيات العصر، واتساع رقعة الدولة، وكثرة المراسلات المتبادلة.

ديوان الرسائل:

ووظيفته صياغة الكتب والرسائل والعهود التي كانت تصدر عن دار

(36/2)

---

الخلافة، سواء إلى الولاة والعمال في الداخل، أو إلى الدول الأجنبية، كما يتلقى الرسائل الآتية من تلك الجهات أيضاً، وعرضها على الخليفة.

وكان كتاب ذلك الديوان يختارون بعناية، من بين المشهورين بالبلاغة والفصاحة، والمعروفين بالتبحر في اللغة العربية وآدابها وعلوم الشريعة الإسلامية، والمتصفين بالمروءة والأخلاق الحميدة، كما يراعى أن يكونوا من أرفع الناس حسباً ونسباً.

وقد حفل العصر الأموي بأفذاذ الكتاب، كان أشهرهم على الإطلاق (عبد الحميد بن يحيى)، كاتب الخليفة (مروان بن محمد)، آخر خلفاء (بنى أمية)، وصاحب الرسالة المشهورة التي وجهها إلى الكتاب ناصحاً ومعلمًا، وهي آية من آيات الفصاحة والبلاغة، وضمنتها الشروط التي يجب أن توجد في من يقوم بتلك المهمة الجليلة بين يدي الخلفاء والأمراء.

واختص (ديوان الرسائل) - إلى ما سبق - بقيامه بالعلاقات الخارجية مع الدول الأجنبية، وإشرافه على الوفود التي كانت تأتي من الخارج، لعقد معاهدة أو تبادل منافع، وتعهدهم في بيوت الضيافة

المعدة لذلك، وتعيين المرافقين لهم - حسب أهميتهم - طوال مدة إقامتهم، وإطلاعهم على المعالم والأماكن التي تستحق الزيارة، كما كان يشرف على الوفود التي كانت ترسلها الدولة الأموية إلى الخارج، وإعدادها الإعداد الكافي، وهذا يعني أن (ديوان الرسائل) كان يقوم بما يشبه وظيفة وزارة الخارجية في الحكومات المعاصرة.  
ديوان العمال:

ويختص بتسجيل أسماء الموظفين المدنيين في الدولة، وترتيب أعمالهم ووظائفهم، وتحديد رواتبهم، وقد سبقت الإشارة إلى أن سجلات ذلك الديوان في (البصرة) وحدها في ولاية (عبيدالله بن زياد) (55 - 64هـ)، كانت تحوى مائة وأربعين ألف موظف مدني.

تعريب دواوين الخراج:

كانت كل الدواوين التي سبق الحديث عنها يجرى العمل فيها منذ نشأتها باللغة العربية، ما عدا (ديوان الخراج) الذي كان يستخدم

(37/2)

لغات أجنبية، كالفارسية في بلاد فارس و (العراق)، واليونانية في (مصر) و (الشام).

وظل هذا الوضع مستمرا حتى خلافة (عبدالمملك بن مروان) (65 - 86هـ)،

الذي أخذ على عاتقه تعريب دواوين الخراج؛ لأن الضرورة التي دعت إلى استخدام اللغات غير العربية فيها قد زالت، بوجود عدد كافٍ من

الموظفين العرب الذين يجيدون العمل في تلك الدواوين، واستعد

(عبدالمملك) لهذا العمل استعدادًا جيّدًا، بإعداد فريق كبير من العاملين

العرب، المدربين للعمل في دواوين الخراج، المجيدين للفارسية

واليونانية؛ ليتسنى لهم ترجمة أعمال تلك الدواوين إلى العربية، ولم

يكن ذلك العمل سهلا يسيرا، وإنما تطلّب جهدًا وعملا دائبًا.

وأول ديوان عُرب هو (ديوان الخراج) المركزي في (دمشق) عاصمة

الخلافة الأموية وحاضرتها، وأشرف على ذلك العمل (سليمان بن سعد الحشني) الذي كان يعد من أبرز الكتاب في عهد (عبد الملك)، وشاركه عدد كبير من الموظفين، وقد نجح (سليمان) في إنجاز ذلك العمل في سنة كاملة، وكافأه الخليفة على ذلك بخراج إقليم الأردن كله لمدة عام، مما يدل على أهمية ذلك العمل واهتمام الخلافة بإنجازه في أقصر وقت.

ثم تكفل (الحجاج بن يوسف الثقفي) والى (العراق) بنقل (ديوان الخراج) فيها، وفي بقية الأجزاء الشرقية من الدول الإسلامية إلى اللغة العربية، وعهد بتلك المهمة إلى كاتبه (صالح بن عبد الرحمن)، وأشرف (عبد الله بن عبد الملك بن مروان) والى (مصر) (85 - 90هـ) على نقل ديوان خراجها من اليونانية إلى العربية.

واستمرت عملية تعريب دواوين الخراج نحو نصف قرن من الزمان، وكان آخر ديوان خراج تم تعريبه هو ديوان (خراسان)، على يد (نصر بن سيار) سنة (124هـ)، في خلافة (هشام بن عبد الملك)، وبذلك أصبحت اللغة العربية هي اللغة الوحيدة السائدة في كل المعاملات المالية في الدولة الإسلامية.

ولم يقتصر أثر تعريب الدواوين على النواحي المالية والإدارية، وإنما

(38/2)

---

كان له أثر عظيم في انتشار الإسلام واللغة العربية في البلاد المفتوحة، لأن أبناء تلك البلاد أقبلوا على تعلم العربية؛ لبيئتها في وظائفهم في الديوان، ثم قادتهم العربية إلى معرفة الإسلام فأقبلوا على اعتناقه.

وكما قام (عبد الملك بن مروان) بتعريب دواوين الخراج، أقدم على خطوة أخرى لا تقل أهمية عن تعريب الدواوين، وهي تعريب النقد المتداول في الدولة، وكانت الدولة الإسلامية إلى عهده تستخدم

الدنانير البيزنطية، ففضى على هذا وأمر بإنشاء دور لسك النقود في (دمشق) وغيرها من المدن الإسلامية، لسك العملات التي تحمل شعارات إسلامية، وألغى تداول العملات غير الإسلامية، وبهذا صبغ الدولة كلها، بأجهزتها ودواوينها بالصبغة العربية الإسلامية.

الحاجب:

- (وظيفة الحاجب) من الوظائف المهمة في الدولة الإسلامية، وهي وثيقة الصلة بدار الخلافة، واختص صاحبها بترتيب مواعيد الخليفة، وعرض الأعمال عليه، وتنظيم دخول القادمين لمقابلته من كبار رجال الدولة والأمراء والوزراء والقادة، فهي أشبه بوظيفة (رئيس ديوان رئاسة الجمهورية) في النظم الجمهورية المعاصرة، أو وظيفة (رئيس الديوان الملكي) في النظم الملكية.

وقد حرص خلفاء (بنى أمية) أن يكون حُجَّابهم من أهل بيتهم، أو من أقرب الناس إليهم من أهل الشرف والحسب والنسب، ومن ذوى الفقه والرأى، والثقافة العالية، والعلم الغزير؛ لأنهم عدُّو (الحاجب) وجههم الذى يطالعون به الناس، ولسانهم الذى يتحدثون به إليهم، كما حرصوا أن يكون حُجَّاب ولائهم في الأقاليم على المستوى نفسه.

القضاء في العصر الأموى:

كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتولَّى القضاء بنفسه في (المدينة)، ثم أذن لبعض أصحابه بالقضاء بين الناس، لما انتشر أمر الدعوة الإسلامية في شبه الجزيرة العربية، وكثرت القضايا والخصومات، وكانوا يقضون على أساس القرآن الكريم والسنة النبوية، والاجتهاد فيما لم يرد فيه نص من كتاب الله أو سنة رسوله،

(39/2)

---

ومن الصحابة الذين كانوا يتولون القضاء في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - (عمر بن الخطاب) و (على بن أبي طالب)، و (معاذ بن جبل)،

و (عبد الله بن مسعود)، وغيرهم.

ولما بويغ (أبو بكر الصديق) بالخلافة، وانشغل بمحاربة المرتدين وتسيير الجيوش لفتح (العراق) و (الشام)، وكثرت عليه أعباء الدولة؛ خصَّ (عمر بن الخطاب) بالقضاء في (المدينة).

وفي عهد (عمر بن الخطاب) اتسعت الدولة اتساعاً كبيراً، فعين قضاء من قبله على الولايات، فعين (كعب بن سور) على قضاء (البصرة)، و (شريحاً) على قضاء (الكوفة)، ومن أشهر من تولوا القضاء في عهد (عمر) (أبو موسى الأشعري)، الذي كتب له (عمر) رسالة مشهورة، بين له فيها أهم الأسس والمبادئ التي ينبغي للقاضي أن يسير عليها، واستمر (عثمان) و (علي بن أبي طالب) في تعيين القضاة من قبلهم على الولايات.

وسار الأمويون على سنة الراشدين في تعيين القضاة على الأقاليم، وحرصوا على أن يكون قضاةم من أهل الاجتهاد والورع والتقوى، ولم يتدخلوا في عملهم، وخضعوا لأحكامهم مثل غيرهم من عامة الناس.

وقد اتسعت دائرة عمل القضاء في العصر الأموي، نظراً إلى اتساع مساحة الدولة، وكثرة المشاكل والمنازعات بين الناس، مما أدى إلى اتساع دائرة الفقه الإسلامي، لأن كثيراً من أحكام القضاء في تلك الفترة أصبحت قواعد فقهية عند تدوين الفقه بعد ذلك، وكان بعض القضاة يسجل أحكامه في القضايا التي يفصل فيها، وأول من فعل ذلك قاضي (مصر) (سليم التجيبي) في عهد (معاوية بن أبي سفيان). ومن أشهر القضاة في العصر الأموي (أبو إدريس الخولاني)،

و (عبد الرحمن بن حجيرة)، و (أبو بردة بن أبي موسى الأشعري)، و (عبد الرحمن بن أذينة)، و (هشام بن هبيرة)، و (عامر بن شراحيل الشعبي)، و (عبد الله بن عامر بن يزيد اليحصبي)، وكثيرون غيرهم. قضاء المظالم:

استحدث هذا النظام القضائي في العصر الأموي، وهو نوع من أنواع

القضاء المستعجل، الذى يتطلب البتّ السريع فى القضايا التى لا  
تحتمل الانتظار، ويبدو أن الذى أدّى إلى استحداث هذا النوع من  
القضاء هو حدوث خصومات بين أطراف غير متكافئة، كأن يكون أحد  
طرفى الخصومة أميراً أو والياً أو من عليّة القوم، الأمر الذى يتطلب  
حزماً وشدّة، لردع الخصم المتعالى.

ولم يُعمل بهذا النوع من القضاء فى عهد النبي - صلى الله عليه وسلم -  
ولا فى عصر الخلفاء الراشدين، لأنّ الناس كانوا فى الغالب لا يتعالى  
أحدهم على خصمه، على حين تغيّر الحال بعض التغيّر فى العصر  
الأموى، ولم يعد الوازع الدينى كما كان فى العهد النبوى وعصر  
الراشدين، ولم يعد القضاء العادى كافياً للفصل فى جميع  
المنازعات، لمجاهرة بعض الناس بالظلم والتعالى على الخصوم،  
فدعت الضرورة إلى إنشاء هذا النوع المسمى بقضاء المظالم، وكان  
له ديوان يعرف بديوان المظالم، وكانت سلطته أعلى من سلطة  
القاضى.

ونظراً إلى أهمية هذا القضاء وما يتطلبه من الحزم والهيبة، فقد كان  
بعض خلفاء (بنى أمية) يتولونه بأنفسهم، وأول من جلس منهم لقضاء  
المظالم هو (عبد الملك بن مروان).

وكما كان قاضى المظالم يقضى بين الأفراد عامة، فإنه كان يقضى  
بين الأفراد وكبار المسئولين، الذين يجيدون عن طريق العدل  
والإنصاف من الولاة وعمال الخراج.  
الحسبة:

(الحسبة) نظام إسلامى يقوم بالإشراف على المرافق العامة، ومنع  
أى انحراف، وعقاب المذنبين، وهى وظيفة دينية شبه قضائية،  
عرفها التاريخ الإسلامى من بدايته.

تقوم على فكرة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، امتثالاً لقوله

تعالى: {ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف  
وينهون عن المنكر} [آل عمران: من 104].  
والأصل في هذا النظام الإسلامى هو قيام الناس جميعاً بهذا الواجب  
الذى هو من فروض الكفاية، لكن الدولة الإسلامية لم تدع ذلك الأمر  
للأفراد؛ خوفاً من حدوث فتن ومشاحنات، وإنما نظَّمته، وجعلته

(41/2)

---

وظيفة خاصة لها مسئول، يعاونه عدد كبير من الناس.  
ولا يعنى تنظيم الدولة لوظيفة (الحسبة) منع الأفراد من الأمر بالمعروف  
والنهي عن المنكر، بل من واجبهام القيام بهذا، بشرط أن يكون القائم  
به عالماً فقيهاً، وألا يؤدي أمره بالمعروف إلى منكر، ونهيه عن  
المنكر إلى منكر أشد، وأن يكون عمله عن طريق النصيحة.  
ولما لم يكن من طبيعة الناس كلهم الاستجابة إلى النصح بالتي هي  
أحسن، فقد نشأت وظيفة (المختسب)، واشترط في شاغلها أن يكون  
من أهل الهيبة، ليضرب بقوة على أيدي العابثين بأمن المجتمع في  
غذائه وصناعته وتجارته، وعلى من لا يراعى أصول الشريعة  
ومبادئها في سلوكه، ويضايق الناس بأقواله وأفعاله.  
ولم يقتصر عمل (المختسب) على ضبط سلوك العامة، ومراقبة  
أعمالهم، وإنما شمل كبار موظفي الدولة، لحملة على أداء عملهم  
على أفضل ما يكون، ومنعهم من الفساد والتعدى على الناس وقبول  
الرشوة، وغير ذلك.  
وبدأ نظام (الحسبة) مع بداية الدولة الإسلامية، مثل غيره من النظم  
التي سبق الحديث عن بعضها، فقد ثبت في الصحيح أن الرسول  
- صلى الله عليه وسلم - كان أول من باشر عمل (المختسب) بنفسه، مما  
يدل على أهميته، فروى (أبو هريرة) - رضى الله عنه - أن رسول الله  
- صلى الله عليه وسلم - مرَّ على رجل يبيع القمح في سوق (المدينة)

وأمامه صبرة - كومة كبيرة - فأدخل فيها يده الشريفة، فأصابت بللا، فقال: (ما هذا يا صاحب الطعام؟). فقال: أصابته السماء يا رسول الله. فقال - صلى الله عليه وسلم - : (أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟ من غشَّ فليس منّا). [صحيح مسلم].

وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يعين من الصحابة من يقوم بهذا العمل ويراقب الأسواق لمنع الغش في كل شيء، فكلف (عمر بن الخطاب) بمراقبة سوق (المدينة المنورة)، وعين (سعيد بن العاص) لمراقبة سوق (مكة) بعد فتحها.

واستمر الخلفاء الراشدون يباشرون عمل (المحتسب) بأنفسهم أحيانا،

(42/2)

وينبئون غيرهم للقيام به في أحيان أخرى.

ولما اتسعت الدولة الإسلامية في عصر (بني أمية)، عجز الخلفاء عن القيام بعمل (المحتسب) بأنفسهم؛ لانشغالهم بمهام كثيرة سياسية وإدارية وعسكرية، وخصصوا لهذا العمل من يقوم به، وأصبح نظام (الحسبة) ووظيفة (المحتسب) من أهم النظم الإسلامية التي تعمل على سلامة المجتمع، وتنقيته من كل المفسد.

وقد امتد عمل (المحتسب) إلى كل مجالات الحياة تقريبًا، وقد حُص (ابن خلدون) في مقدمته اختصاصات (المحتسب) فقال: (ويبحث - المحتسب - عن المنكرات، ويعزّر ويؤدب على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة، مثل المنع من المضايقة في الطرقات، ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل - لئلا تغرق السفينة بمن فيها - والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها، وإزالة ما يتوقّع من ضررها على السابلة - أي: المارة في الطريق - والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الإبلاغ - أي المبالغة - في ضربهم للصبيان المتعلمين، ولا

يتوقف حكمه على تنازع أو استعداد، بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك، ويرفع إليه، وليس له الحكم في الدعاوى مطلقاً، بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعاش وغيرها، وفي المكاييل والموازين، وله أيضاً حمل المماطلين على الإنصاف، وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بيّنة، ولا إنفاذ حكم، وكأنها أحكام ينزّه القاضى عنها لعمومها، وسهولة أغراضها، فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها، فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء). وإذا نظرنا إلى عمل (المحتسب) الذى هدفه هو راحة الناس في ضوء النظم الحكومية المعاصرة نجده موزعاً بين العديد من الوزارات والهيئات، مثل وزارة التموين، والصحة، والصناعة، والتعليم، والزراعة، والداخلية، والنيابة العامة، ومصالحة الدمغة، والموازين، والمرافق بمختلف أنواعها.

الشرطة:

(43/2)

يُعدُّ جهاز (الشرطة) من أقدم الأجهزة في الدولة الإسلامية، فقد عُرف منذ عهد النبي - صلى الله عليه وسلم -، وكان له (صاحب شرطة) - أى رئيس لها - فعن (أنس بن مالك) أنه قال: (كان قيس بن سعد بن عبادة من النبي - صلى الله عليه وسلم - بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير). [صحيح البخارى].

ومن الذين عُرفوا بالقيام بوظيفة الشرطى في (المدينة) في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم -: (سعد بن أبى وقاص) و (بديل بن ورقاء)، و (أوس بن ثابت بن عرابة)، و (رافع بن خديج). واستمر الخلفاء الراشدون في الاستعانة ببعض الصحابة للقيام بعمل الشرطى؛ استنباباً للأمن، وحفظاً للنظام، وتعقباً للجناة والمفسدين في الأرض، وتنفيذاً للأحكام والحدود التى يحكم بها القضاة.

وقد ازدادت أهمية جهاز (الشرطة) في الدولة الأموية، نظرًا إلى الظروف التي كانت تحيط بها، وكثرة الخارجين عليها والناثرين ضدها، فتوسعت في استخدام (الشرطة)، حتى أصبح جهازًا من أكبر أجهزة الدولة، قادرًا على حفظ الأمن وتطهير البلاد من عناصر الفساد والعبث بالنظام العام للمجتمع.

وحرص الأمويون على اختيار رجال شرطتهم من أهل الشرف والباس الشديد، والعفة والمروءة والحزم، وأعطوا (صاحب الشرطة) الحرية التامة في اختيار معاونيه، ليؤدوا مهمتهم على الوجه الأكمل، فيروى عن (الحجاج بن يوسف الثقفي) والى (العراق) والمشرق الإسلامي أنه قال: (دلوني على رجل للشرطة)، فقليل له: (أى الرجال تريد؟) قال: (أريده دائم العبوس - أى جاداً في ملامحه - طويل الجلوس، سميق الأمانة، أعجف الخيانة - أى لا يخون-) فقليل له: (عليك بعبد الرحمن بن عبيد التميمي)، فأرسل إليه يستعمله على (الشرطة)، فقال: (لست أقبلها إلا أن تكفيني عيالك وولدك وحاشيتك)، فقال (الحجاج): (يا غلام ناد في الناس: من طلب إليه منهم حاجة فقد برئت منه الذمة). ويعلق (الشعبي) راوى هذا الخبر بقوله: (فو الله ما رأيت صاحب

(44/2)

---

شرطة قط مثله، كان لا يجبس إلا في دين - أى: من أجل مخالفة لتعاليم الدين - وكان إذا أتى برجل قد نَقَّب على قوم وضع منقبته في بطنه حتى تخرج من ظهره، وإذا أتى بنَبَّاش حفر له قبرًا فدفنه فيه، وإذا أتى برجل قاتل بجديدة أو شهر سلاحًا قطع يده، وإذا أتى برجل قد أحرق على قوم منزلهم أحرقه .. فكان ربما أقام أربعين ليلة لا يؤتى بأحد - لخوف الناس منه لشدته وهيبته - فضم إليه الحجاج شرطة البصرة مع شرطة الكوفة).

وبعد هذا الحديث الموجز عن النظم والإدارة في العصر الأموي يمكن

القول: إن إدارة الأمويين للدولة الإسلامية كانت إدارة حسنة بصفة عامة، تقوم على أسس ثابتة، تبغى الصالح العام، وإشاعة الأمن والاستقرار في الدولة المترامية الأطراف، وإن شاب ذلك بعض القصور والأخطاء، وحسب الأمويين أنهم لم يكفؤوا عن تطوير أجهزة الدولة ودواوينها التي كانت موجودة قبلهم، واستحدثوا غيرها حين دعت الضرورة إلى ذلك، وأنهم بذلوا جهداً في التدقيق في اختيار الولاة والعمال والموظفين، وأحسنوا مراقبتهم ومتابعتهم، ونجحوا في ذلك إلى حد كبير.

طبقات المجتمع:

من يتأمل حياة المجتمع الإسلامي في العصر الأموي يرى أنه يمكن تقسيمه إلى خمس طبقات:

– الطبقة الأولى: الخلفاء وأبناؤهم وأفراد أسرهم، وهؤلاء بحكم وضعهم أصبحوا في منزلة لا يدانيهم فيها أحد.

– الطبقة الثانية: كبار الولاة والقادة وغيرهم من كتاب الدواوين.

– الطبقة الثالثة: العلماء وإن اختلفت أجناسهم، وهذه الطبقة وإن كان ترتيبها المرتبة الثالثة من الناحية الاجتماعية، فإن كثيرين منها كانوا يحظون بحب الناس وتقديرهم ربما بأكثر مما يحظى به الخلفاء والأمراء.

– الطبقة الرابعة: كبار الأثرياء والتجار ورؤساء العشائر.

– الطبقة الخامسة: عامة الناس من الزراعة والحرفيين.

تطور معيشة الخلفاء الأمويين ومظهرهم:

لم يستطع خلفاء (بنى أمية) المحافظة على نمط حياة الخلفاء

(45/2)

---

الراشدين، من بساطة وزهد في المأكل والملبس والمسكن، ولم تطقه نفوسهم، حتى إن (معاوية بن أبي سفيان) صرَّح بعدم قدرته على

مجاراة سلوكهم، وهو مؤسس الدولة، وكاتب الوحي لرسول الله  
- صلى الله عليه وسلم -، وقال: (لقد رمت نفسي على عمل ابن أبي  
قحافة - أبي بكر الصديق - فلم أجدها تقوم بذلك ولا تقدر عليه،  
وأردتها على عمل ابن الخطاب، فكانت أشد نفوراً وأعظم هرباً من  
ذلك، وحاولتها على مثل عثمان فأبت عليّ، وأين مثل هؤلاء؟ ومن  
يقدر على أعمالهم؟ هيهات أن يدرك فضلهم أحد ممن بعدهم؟ رحمة  
الله ورضوانه عليهم، غير أني سلكت بها طريقاً لي فيه منفعة ولكم  
فيه مثل ذلك، ولكل فيه مؤاكلة حسنة، ومشاركة جميلة ما استقامت  
السيرة وحسنت الطاعة، فإن لم تجدوني خيركم، فأنا خير لكم).  
وعلى هذا عاش (معاوية) في (دمشق) التي اتخذها عاصمة لدولته  
عيشة فيها توسع في المأكل والمشرب والملبس والمسكن، والحق  
أن (معاوية) كان يعيش وهو أمير على الشام حياة نعمة وسعة إذا ما  
قورنت بحياة الخلفاء الراشدين، بل إن (عمر بن الخطاب) لم ينكر عليه  
مثل هذه الحياة، ولم ينهه عنها، ففي إحدى زيارات (عمر) إلى الشام  
لقيه أميرها (معاوية) وهو في أبهة الملك وزيّته، فاستنكر (عمر) ذلك  
في البداية، وقال: (أكسرويه يا معاوية؟)، يعني أتتشبه بكسرى؟،  
فقال (معاوية): (يا أمير المؤمنين إنا في ثغر تجاه العدو - يقصد الدولة  
البيزنطية - وينا إلى مباحاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة)، فسكت  
(عمر) ولم يخطئه لما وجد حجته قوية.  
وإذا كان (معاوية) توسّع في معيشتته وهو أمير، فليس بغريب بعد أن  
أصبح خليفة أن تحف به مظاهر الملك، من اتخاذ الحراس والشرطة،  
والحجاب، وإرخاء الستور، وسكنى القصور ذات الحدائق الغناء في  
عاصمته (دمشق) التي تعد من أقدم مدن العالم، وكانت عامرة  
بالمباني الفاخرة والحدائق والبساتين، بل إنه اتخذ مقصورة ليصلى

فيها منعزلاً عن الناس بعد تعرضه لمحاولة اغتيال سنة (40هـ).  
ونظراً لهذه الحياة المترفة الباذخة قبيل عن (معاوية): إنه كان ملكاً لا  
خليفة، بل روى عنه نفسه أنه قال: (أنا أول الملوك)، ووصفه (ابن  
عباس) بأنه كان ملكاً، وقال عنه (ابن تيمية): (فلم يكن من ملوك  
المسلمين ملك خيراً من معاوية، ولا كان الناس في زمان ملك من  
الملوك خيراً منهم في زمان معاوية، إذا نسبت أيامه إلى أيام من  
بعده، أمّا إذا نسبت إلى أيام أبي بكر وعمر ظهر التفاضل)، كما  
يروى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما يؤيد أن حكم (معاوية)  
كان بداية الملك في الإسلام، فقال: (إن هذا الأمر بدأ رحمة ونبوة، ثم  
يكون رحمة وخلافة، ثم كائن ملكاً عضوياً). [ابن كثير].

وقال: (الخلافة بعدى ثلاثون سنة، ثم تكون ملكاً). [ابن كثير].  
ولا يظن أحد أن وصف (معاوية بن أبي سفيان) - رضى الله عنه -  
بالمملك فيه انتقاص من قدره؛ لأن الملك لا يُدَم لذاته، وإنما لما يحفّ به  
من المظالم والطغيان، أمّا إذا قام على الحق وبالحق فلا يُدَم، ولو  
كان الملك مذموماً في ذاته ما تمناه (سليمان بن داود) - عليهما السلام  
- حيث قال: {رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدى}.

[ص: من 35].

والإسلام لا يهيمه ما يُلقَّب به الحاكم المسلم، خليفة كان أو ملكاً، وإنما  
يعنيه أن يحكم بشريعة الله وسنة رسوله.

إن حياة الترف التي عاش فيها خلفاء الدولة الأموية، كانت من  
مقتضيات التطور الاجتماعى الطبيعى في حياة الأمة، بعد أن كثرت  
الأموال في أيديهم كثرة هائلة من الغنائم، وكان من الطبيعى أن  
يؤدى ذلك إلى الميل إلى حياة الترف، ولم يكن في وسع أحد أن  
يوقف ذلك الميل، بل إن (ابن خلدون) رأى أن الترف في أول نشوء  
الدولة كان مطلوباً؛ لأنه يزيد قوة على قوتها، وعقد لذلك فصلاً  
في مقدمته - المعروفة - بعنوان: (فصل في أن الترف يزيد الدولة في  
أولها قوة إلى قوتها).

والمتمأمل لتاريخ الدولة الأموية يتفق مع (ابن خلدون) في هذا التعليل، لأن (معاوية بن أبي سفيان) ومن تلاه من أوائل خلفاء الدولة استخدموا الأموال في تأليف الناس حولهم واستكثروا من الذرية والموالي والصنائع - الأنصار والأتباع - لترسيخ قواعد الدولة حتى بلغت أوج قوتها، وفي ذلك يقول (ابن طباطبا) بعد أن وصف (معاوية) بالحلم وحسن السياسة والتدبير للملك: (وكان كريماً باذلاً للمال، محباً للرياسة، شغوفاً بما، كان يفضل على أشرف رعيته كثيراً، فلا يزال أشرف قريش، مثل: عبدالله بن العباس، وعبدالله بن الزبير، وعبدالله بن جعفر الطيار، وعبدالله بن عمر، وعبدالرحمن بن أبي بكر، وأبان ابن عثمان وناس من آل أبي طالب - رضى الله عنهم - يقدون عليه بدمشق، فيكرم مثواهم، ويحسن قراهم، ويقضى حوائجهم، بمثل هذه السياسة صار خليفة العالم الإسلامي وخضع له أبناء المهاجرين والأنصار، وكل من يعتقد أنه أولى منه بالخلافة). وسار (يزيد بن معاوية) على خطى أبيه في الإحسان إلى الناس واستمالتهم بالأموال، وكذلك فعل (مروان بن الحكم) وابنه (عبدالمملك) وأولاده.

تحرى بنى أمية للحق والعدل:

حرص خلفاء الدولة الأموية الأوائل وأمرؤها على الالتزام بمقررات الإسلام في جمع الأموال، والإذعان لكلمة الحق مهما يكن قائلها، فحين أراد (معاوية بن أبي سفيان) أن يزيد على أهل (مصر) في مقدار الجزية التي فرضت عليهم عند أول الفتح الإسلامي لبلادهم، إذا بعامله على بيت المال - (وردان) - يقول له: (كيف تزيد عليهم يا أمير المؤمنين وفي عهدهم ألا يزداد عليهم) فيذعن الخليفة لقول عامله ويكف عن الزيادة، وعندما أراد (عبدالعزیز بن مروان) والى (مصر) (65 - 85هـ) أن يأخذ الجزية من المسلمين الجدد عارضه القاضي (ابن

حجيرة) قائلاً له: (أعيزك بالله أيها الأمير أن تكون أول من سنَّ ذلك بمصر) فتركهم.

وظلت معارضة العلماء قوية لكل من تسول له نفسه الخروج على

(48/2)

مبادئ الإسلام حتى جاء (عمر بن عبدالعزيز) (99 - 101هـ) فقضى تماماً على كل سلوك شاذ، وصاح صيحتته الخالدة في وجوه العمال الذين كان همهم جمع المال بأى طريقة، قائلاً لهم: (قبح الله رأيكم، فإن الله - تعالى - بعث محمدًا - صلى الله عليه وسلم - هاديًا ولم يبعثه جانيًا).

وإذا كان دخول الأموال إلى بيت المال خضع للعدل والتحرى، فإن خروجه منه لم يخضع لمثل ذلك، والمصادر التاريخية التي أعطت نماذج وأمثلة كثيرة على تحرى خلفاء (بنى أمية) العدل في جمع الأموال وجبايتها، هي نفسها التي تقدم أمثلة من التجاوزات التي كانت تحدث في إنفاق الأموال، سواء من الخلفاء وأبنائهم، أو من عمالهم وولائهم، وهذا دليل على نزاهة المصادر التاريخية وأمانتها بصفة عامة، وأن مؤلفيها لم يجاملوا الحكام، وكانت لديهم الجرأة والشجاعة لتسجيل كل مخالفة شرعية.

والحق أن بعض الخلفاء الأمويين قد تجاوزوا سنة الخلفاء الراشدين في نظرهم إلى المال العام، وكان الراشدون ينزهون أنفسهم وأولادهم تماماً عن أموال المسلمين، ويحيطون بيت المال بالضمانات التي تحفظ الأموال وتصونها؛ حتى لا تمتد إليها يد من لا يستحق، لكن هذا الوضع تغير كثيراً في العصر الأموي، ولم يعد هناك حد فاصل بين بيت المال المركزي في (دمشق) وبين مال الخلفاء، فأغدقوا بالمنح والعطايا والهبات على أبنائهم وأقربائهم وأنصارهم وشعرائهم الذين يمدحونهم ويروجون لأفكارهم وسياساتهم، وكذلك

لم يعد هناك حد فاصل بين بيوت المال في الأقاليم والولايات وبين مال الولاية، الذين كانت بيوت المال تحت إشرافهم المباشر يأخذون منها ما يريدون، ويعطون من يشاءون. وقد أدى ذلك إلى تضخم ثروات الخلفاء وأبنائهم وبعض ولائهم، حتى تولى الخلافة (عمر بن عبدالعزيز)، الذي بدأ عهده بالعكوف على سجلات الدولة، وتحري الإقطاعات والهبات التي مُنحت لأمرء (بنى أمية) وأتباعهم، وأخذ في رد الأموال التي ثبت أنها أعطيت

(49/2)

بغير حق إلى بيت مال المسلمين، وبدأ بنفسه، وعزل الولاية الذين أفسدوا الحياة الإدارية والمالية، وعيّن في مكائهم ولاية من أهل الخبرة والتقوى والصلاح. وقد أدت سياسته الإصلاحية إلى نتائج باهرة في غضون فترات زمنية قصيرة (99 - 101هـ)، واستقامت الأمور وتحقق العدل، وتوافر الحد الأدنى من المعيشة الكريمة لكل إنسان في الدولة الإسلامية، التي امتدت حدودها شرقاً وغرباً، ولم يعد فيها من يستحق الصدقة، حتى ليروى الإمام (الذهبي) عن (عبدالرحمن بن يزيد بن عمر بن أسيد) أنه قال: (والله ما مات عمر بن عبدالعزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم - الكثير - فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون، فما يبرح حتى يرجع بماله كله، قد أغنى عمر الناس). انحراف أواخر خلفاء بنى أمية عن الجادة: لم يكن خلفاء الدولة الأموية المتأخرون على درجة عالية من الكفاءة السياسية والإدارية، والسهر على رعاية مصالح المسلمين، وتحري العدل بصفة عامة كما كان خلفاء (بنى أمية) الأوائل، وإنما كانت تنقصهم الكفاية والمقدرة السياسية، إلى جانب إفراطهم في حياة الترف، وعكوفهم على الملذات والشهوات، وتبديد الأموال وإنفاقها

في وجوه غير مشروعة، وتركهم رعاية مصالح الأمة، وإهمالهم مقاصد الشريعة، فزالت دولتهم نتيجة لهذا السلوك المعوج، وقد فطن إلى ذلك خصمهم الخليفة العباسي (أبو جعفر المنصور) (136 - 158هـ) فقال عنهم: (ولم يزل بنو أمية ضابطين لما مهد لهم من السلطان، يجوظونه ويصونون ما وهب الله لهم منه، مع تسنمهم معالي الأمور، ورفضهم دنياها، حتى أفضى الأمر إلى أبنائهم المترفين، فكانت همتهم قصد الشهوات، وركوب الملذات من معاصي الله، جهلاً باستدراجه وأمناً لمكره، مع إطراحهم صيانة الخلافة، واستخفافهم بحق الرئاسة، وضعفهم عن السياسة، فسلبهم الله العز، وألبسهم الذل، ونفى عنهم النعمة).  
مظاهر الحياة الاجتماعية:

(50/2)

كان المجتمع الإسلامي في العصر الأموي مجتمعاً شاباً متوقفاً حياة وفتوة في كل شيء؛ ثراء عريض، وقوة عسكرية واقتصادية هائلة، ونهضة علمية في بواكيرها تنبئ بازدهار حضارة عظيمة، وتخلل تلك الحياة الجادة بعض مظاهر اللهو والتسلية البرينة للترويح عن النفوس.

مجالس الخلفاء وآدابها:

كان للخلفاء مجالس يعقدونها للمسامرة مع أقربائهم وأصدقائهم، وكان لتلك المجالس آداب وطقوس خاصة، في كيفية تعامل الناس مع الخليفة في حضرته، فيجب أن يكون كلامهم على قدر الحاجة، وأن تكون ألفاظهم منتقاة، وكان الخلفاء يصونون مجالسهم عن الكذب والنفاق، وقلما كان يستمع الخلفاء الأمويون الأوائل إلى الغناء، وإنما كانوا يجوبون سماع الشعر في مجالسهم، على حين ترخص المتأخرون منهم في سماع الأغاني كثيراً، وكانوا يظهرون للندماء

والمغنين، ومن أشهر من فعل ذلك، وتبدل حتى أزرى بمنصب  
الخليفة في نظر الناس (يزيد بن عبدالمملك) وابنه (الوليد).

الطعام والشراب:

كانت حياة العرب بسيطة، وبخاصة فيما يتعلق بالطعام، ولم يتجاوز  
أغلب طعامهم صنفاً أو صنفين، وكان أفضل طعامهم اللحم مع الشريد،  
ولكن تغير الحال بعد الفتوحات الإسلامية، واتساع الدولة وكثرة  
الأموال، ومخالطتهم الشعوب في البلاد المفتوحة، وكانت أكثر منهم  
مدنية، فعرفوا ألواناً من الطعام والشراب، واستخدموا أدوات للمائدة  
لم يكونوا يعرفونها من قبل، فاستخدموا (الفوط) و (الملاعق) الخشبية  
والفخارية، التي كانت تأتيهم من (الصين)، وعرفوا (الموائد) الخشبية،  
وجلسوا على كراسى خشبية حولها، وكانوا من قبل يجلسون على  
الأرض ويأكلون بأيديهم.

وكان من عادة الخلفاء والأمراء والأغنياء إقامة الولائم لإطعام الناس،  
وكان للأكل مع الخلفاء آداب خاصة، فوق الآداب العامة المعروفة  
للطعام، فكما يقول (الجاحظ): (إن الأكل لم يكن للشيعة وإنما للشرف،  
فعلى من يؤاكلهم أن يراعى ذلك وألا يكون شرهاً في تناول  
الطعام).

الملابس:

(51/2)

---

توسع المجتمع في العصر الأموي وتأنق في الملابس والأزياء، فلبس  
الناس الحرير والديباج والإستبرق، وبخاصة الشباب الذين كانوا  
يلبسون ملابس موشاة، وكانت الملابس تختلف من فئة إلى أخرى  
على قدر ثرائها ومراكزها الاجتماعية، فكانت ملابس الفقهاء تختلف  
عن ملابس الكتاب، وهؤلاء تختلف ملابسهم عن ملابس الجند، وكان  
شيوخ القبائل ومن في منزلتهم من عليبة القوم يرتدون الأقبية التي

تصل إلى الركبتين، يعلوها جلباب فضفاض يتدلَّى إلى العقبين.  
وكانت عناية النساء بالملابس والأزياء أكثر من عناية الرجال،  
وتكونت ثيابهن من سروال فضفاض وقميص مشقوق عند الرقبة،  
وعند خروج المرأة إلى الشارع فإنها ترتدى عباءة تغطي جسمها  
وتلف رأسها بمنديل يربط حول الرقبة، مثل (الإيشارب) الذي تستعمله  
النساء في الوقت الحاضر.

وتوسَّع النساء في استخدام الحلوى والجواهر من اللآلئ والياقوت  
والذهب وسائر أدوات التجميل.

وإلى جانب التألق في الملابس أحب الناس أنواع الطيب وأكثروا  
منها، واستخدموا الحناء، وخصَّبوها بما لحاهم وأيديهم، وفعل الخلفاء  
ذلك.

مكانة المرأة في المجتمع:

كانت للمرأة مكانة كبيرة وأثر واضح في الحياة العامة، ومن أشهر  
النساء: (سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب)، وكانت من أعلم  
النساء وأظرفهن، وأحسنهن أخلاقاً، وتذكر المصادر التاريخية أن  
الشعراء كانوا يجتمعون عندها وكان لها ذوق رفيع في نقد الشعر،  
ومما يذكر لها في هذا المجال أنه اجتمع عندها يوماً  
(جرير)، و (الفرزدق)، و (كثير عزة)، و (جميل بثينة)، وأنشدوا بين يديها  
أشعارهم، فنقدت شعر كل منهم، ثم أجازت كل واحد بألف دينار.  
وتقرن بسكينة في هذا المجال (عائشة بنت طلحة)، وكانت نابغة في  
الأدب والسخاء كأبيها (طلحة) الجواد، وقد تزوج (مصعب بن الزبير)  
حاكم (العراق) في خلافة أخيه (عبدالله بن الزبير) (67 - 72هـ) كلا من  
(سكينة) و (عائشة بنت طلحة)، بعد أن أمهر كل واحدة منهما مليون  
درهم.

ومن ألمع النساء في ذلك العصر: (أم البنين) زوج الخليفة (الوليد بن عبد الملك)، وقد اشتهرت بالفصاحة والبلاغة وقوة الحججة وبعد النظر، وكانت لها مكانة كبيرة عند زوجها (الوليد) وكان يستشيرها في كثير من أمور الدولة.

وقد كثرت الجوارى من سبايا الحروب في البيوت، مما كان له أثره البالغ في الحياة الاجتماعية، فقد نقلوا إلى البيت العربي عادات شعوبهم وتقاليدها في الطعام والشراب والملبس.

الاحتفال بالأعياد والمناسبات:

عيد الفطر وعيد الأضحى من أعظم المناسبات الدينية في الإسلام، يُظهِر فيهما المسلمون السرور، ويدخلون البهجة على أنفسهم وأسرهم وجيرانهم.

كان الخلفاء يخرجون في يوم العيد للصلاة في موكب مهيب، يتقدمهم الجند، ويحيط بهم الأمراء وكبار رجال الدولة، وتتجاوب أصوات المسلمين بالتهليل والتكبير، وتقام الزينات، وتسطع المشاعل والقناديل في ليالى العيد، وكان لولاية الأقاليم مواكب تشبه مواكب الخلفاء.

حفلات الزواج:

تطورت حفلات الزواج في العصر الأموي لتجاري ما أصبح عليه المجتمع من ترف وثراء، بعد أن كانت في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - والخلفاء الراشدين غاية في البساطة والبعد عن التكلف، وبالغ الناس في المهور، وقد سبق أن ذكر أن (مصعب بن الزبير) أمهر كلا من زوجته (سكينة بنت الحسين) و (عائشة بنت طلحة) مليون درهم.

وكما بالغوا في المهور بالغوا في إقامة الولائم الحافلة بأطيب أنواع الطعام، وفي يوم الزفاف يلعب الفتیان بالرماح، ويتسابقون بالخيول، وتجلس النساء على النمارق ويتزين بالخلى والجواهر الثمينة، وتكون العروس في أبهى صورة وأجمل زينة، يحيط بها أترابها، يغنين لها حتى تذهب إلى بيت زوجها.

وكانت تقام - أيضاً - حفلات لختان الأطفال، يحييها المغنون وأصحاب  
الفكاهة، وهذا كان يحدث في بيوت الصحابة والتابعين، فيذكر (ابن  
قتيبة) في (عيون الأخبار) أن (عبد الله بن عباس) - رضى الله عنهما -

(53/2)

دعا بعض اللعَّابين في حفل ختان بعض أولاده، فلعبوا بألعابهم،  
فأعطاهم أربعمائة درهم، كما أن تلميذه (عطاء بن أبي رباح)  
استدعى اثنين من كبار المغنين وهما (الغريض) و (ابن سريج) في  
حفل ختان ولده، وكان الناس يقيمون الموائد الفاخرة المليئة بألوان  
الطعام في هذه المناسبات.  
وسائل الترفيه والتسلية:

عرفت المجتمعات الإسلامية في ذلك العصر ضروباً مختلفة من اللهو  
واللعب والتسلية، وعلى رأسها الغناء الذى شغف به الناس كثيراً،  
فازدهر وأصبحت له دور خاصة يقصدها الناس للسمع والمتعة.  
وشاع في المجتمع أن اتخذ بعض الأثرياء المترفين أناساً يضحكونهم  
ويدخلون السرور على أنفسهم، ويزيلون منها الملل، وهذا النوع من  
اللهو لا يوجد عادة إلا بعد أن تتحصّر الأمة، وتسير أشواطاً كثيرة  
في حياة الترف، ومن ثم ظهرت طائفة من المضحكين، كان على  
رأسهم (أشعب بن جبير) مضحك (المدينة)، وكان أشرافها يعجبون به  
وبجالسونه، ويقوم عندهم أياماً في دورهم، وقد تناقل أهل (المدينة)  
فكاهات (أشعب) ونوادره كما يتناقل الناس اليوم النكات، وأصبح  
لكل مدينة أشعبها الذى يضحكها، وربما أكثر من أشعب.  
وعرف المجتمع الإسلامى من وسائل اللهو والتسلية ألعاب النرد  
والشطرنج، وقد تسامح بعض العلماء في ذلك، حتى يُروى أن  
(سعيد بن المسيب) وهو من أئمة التابعين سئل عن اللعب بالنرد،  
فقال: (إذا لم يكن قماراً فلا بأس به)، والنرد هى لعبة (الطاولة)

المعروفة الآن، أخذها العرب هي والشرنج من الفرس.  
وإلى جانب ذلك شغل بعض الناس أنفسهم بأنواع من الرياضة،  
كالصيد وسباق الخيل، وكان بعض خلفاء (بنى أمية) يحبون الصيد  
لفوائده الكثيرة. ورأى كثير من الناس فى سباق الخيل تسلية  
وترويضاً لأنفسهم على ركوب الخيل، التى كانت وسيلة القتال  
الرئيسية، وأقام الأمويون حلبات لسباق الخيل، ويروى أن أول من  
أقام تلك المسابقات من خلفاء بنى أمية هو الخليفة (هشام بن

(54/2)

---

عبدالمالك) (105 – 125هـ)، وكانت تشترك فيها أعداد كبيرة من  
الخيول، بلغت فى إحدى المسابقات أربعة آلاف فرس.  
ويجدر بالذكر أن كل ما سبق من عادات وتقاليد وضروب الحياة  
الاجتماعية كان سائداً فى كل العالم الإسلامى، على الرغم من تنوع  
الأجناس التى ضمنتها الدولة الأموية.  
الأحوال الاقتصادية:

كثرت المصادر التى تحدثت عن الشؤون الاقتصادية والمالية، مثل  
كتاب (الخراج) لأبى يوسف المتوفى سنة (182هـ)، وكتاب (الأموال)  
لأبى عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة (224هـ)، غير أن هذه  
المصادر لا تقدم لنا إحصاءات عن دخل الدولة الإسلامية فى العصر  
الأموى، ولا شيئاً من ميزانياتها، وإنما هى أبحاث فقهية على وجه  
العموم، تبحث فى مسائل الغنائم والجزية والخراج وغير ذلك.  
ويمكن أن نكوّن فكرة عن الأحوال الاقتصادية فى ذلك العصر، من  
خلال دراسة مستوى المعيشة التى كان يحياها الناس على اختلاف  
مستوياتهم، واحتفالاتهم فى مناسباتهم الاجتماعية، كالأعياد  
وحفلات الزواج والختان، ومن خلال الحركة العمرانية الكبيرة التى  
شهدها ذلك العصر، من بناء المدن والمساجد وتعبيد الطرق وغيرها

من المنشآت، بالإضافة إلى الخدمات المجانية التي تقدمها الدولة للناس، كالعلاج وإعالة المحتاجين. وكل هذه المشروعات لم تكن لتقام إلا إذا كانت موارد الدولة المالية تسمح بذلك، كما أن السياسة المالية التي اتبعها (عمر بن عبدالعزيز) قضت على الفقر في ربوع الدولة، إلى الحد الذي كان لا يجد فيه عمال الصدقات فقراء يعطونهم منها، لأن الناس في كفاية من الرزق، فأمر الخليفة أن يساعد من تلك الأموال من يريد الزواج من الشباب، ويعين من يبغى أداء فريضة الحج، وأن يشتري الأرقاء لتحريرهم.

موارد الدولة:

وتتمثل في:

- خراج الأرض المفتوحة:

ويأتي على رأس موارد الدولة في العصر الأموي، وكانت تلك الأراضي مملوكة للدولة الإسلامية منذ الفتوحات الأولى في عهد (عمر

(55/2)

بن الخطاب) - رضی الله عنه - الذي اجتهد وقرر بعد استشارة كبار الصحابة عدم تقسيم الأرض المفتوحة على المجاهدين، وجعلها ملكًا للدولة، وأبقاها في أيدي أهلها يزرعونها، مقابل إيجار يدفعونه للدولة، وهذا الإيجار أو الخراج تنفق منه الدولة على الجيش والموظفين، وتقيم المرافق التي يحتاج إليها.

وكان هذا اجتهادًا عظيمًا من (عمر)، لأنه أبقى الأرض في أيدي أصحابها، وهم من أهل الخبرة في فلاحتها، وضمن في الوقت نفسه موردًا ماليًا ضخمًا وثابتًا، ثم أقدم (عمر) على خطوة عظيمة الأهمية وذات دلالة كبيرة على فطنته الاقتصادية، فقد أمر بإعادة مساحة الأرض المفتوحة، وقسمها على حسب إنتاجيتها إلى ثلاثة أنواع، وفرض على كل نوع الخراج الذي يناسبه؛ لئلا يُظلم الفلاحون،

وليبذلوا طاقتهم في تحسين الإنتاج.

غنائم الحرب:

وهي الأموال المنقولة من نقود وغيرها، وكانت بكميات كبيرة في ذلك الوقت، وكان خمسها يدخل بيت مال الدولة، على حين تُوزَّع الأربعة الأقسام على المجاهدين.

– الجزية المفروضة على أهل الكتاب: وهم اليهود والنصارى، ومن في حكمهم كالمجوس؛ حيث عاملهم المسلمون فيما يتعلق بالجزية معاملة أهل الكتاب، وقد قنن الفقهاء قيمة الجزية، بعد استقراء تطبيقات الخلفاء، فقُدروها بثمانية وأربعين درهماً للأغنياء، وأربعة وعشرين للمتوسطين، واثنى عشر للفقراء القادرين على الكسب، وأعفوا منها النساء والأطفال وكبار السن، ورجال الدين، والعاجزين عن الكسب، بل إن الفقراء العاجزين عن الكسب من أهل الكتاب فُرض لهم عطاء من بيت مال المسلمين.

– الزكاة: وتؤخذ من المسلمين، ومقاديرها معروفة في كتب الفقه، وتؤدى للدولة التي عدتها مورداً من مواردها المالية، تنفق منه في الأوجه التي حددها الآية الكريمة: {إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم}. [التوبة: 60].

(56/2)

– ضرائب التجارة الداخلة إلى البلاد الإسلامية أو الخارجة منها أو العابرة:

وكانت تمثل مورداً كبيراً من موارد الدولة؛ إذ كانت أهم الطرق التجارية وأعظمها تمر في ذلك الوقت ببلاد إسلامية، من حدود الصين في الشرق إلى (الأندلس) في الغرب. وقد نظم المسلمون منذ وقت مبكر تحصيل هذه الضرائب، وهي

المعروفة الآن برسوم الجمارك، ففرضوا على التجار المسلمين ربع عشر قيمة تجارتهم، وعلى التجار من أهل الذمة الذين هم من رعايا الدولة الإسلامية نصف العشر، وعلى التجار الكفار الذين هم من أهل الحرب العشر.

ولا يظن أحد أن في هذا تفريقاً بين التجار المسلمين ونظرائهم من أهل الذمة من رعايا الدولة؛ لأن التجار المسلمين يدفعون زكاة أموال تجارتهم كلها بعد دفع ضريبة ربع العشر، في حين لا يدفع التجار من أهل الذمة شيئاً سوى نصف العشر المفروض على التجارة، فهم لا يدفعون زكاة لأنها لا تُفرض إلا على المسلمين.

الركاز: وهو ما يستخرج من باطن الأرض كالذهب والفضة والنحاس، فإذا كان المستخرج من أرض مملوكة ملكية خاصة، فإن أصحابها يدفعون للدولة الخمس، لأن الفقهاء جعلوا ذلك النوع من الأموال مثل الغنائم، التي يخصص خمسها للدولة، أمّا إذا استخرجت هذه المعادن من أراضي الدولة، فإن ربعها يدخل بطبيعة الحال إلى بيت المال. النشاط الاقتصادي:

الزراعة:

عنى العرب الفاتحون بالزراعة عناية عظيمة، واستفادوا في ذلك من خبرات أبناء البلاد المفتوحة، فعندما تم فتح (مصر) أمر (عمر بن الخطاب) واليه (عمرو بن العاص) أن يسأل أهلها عن أفضل الطرق للنهوض بها وباقتصادها، فأخبر أن أفضل طريقة للنهوض بها هي الزراعة؛ لأنها المورد الرئيسي لاقتصاد البلاد، وهذا يتطلب العناية بالنيل والترع المتفرعة عنه، وكذلك فعل (عمر بن الخطاب) في (العراق) و (الشام).

وقد سار الأمويون على هذه السياسة، فاهتموا بنظام الري وإقامة الجسور وشق الترع وتطهيرها موسمياً، وبخاصة أن الدولة كان

يجرى على أراضيها أعظم الأثار وأكثرها طولاً، من (نهر النيل) في (مصر) إلى (دجلة) و (الفرات) وفروعهما في (العراق)، إلى أثار الشام الرئيسية: (بردى) و (العاصى) و (اليرموك)، إلى نهرى (جیحون) و (سیحون) في بلاد (ما وراء النهر)، إلى الأثار العديدة في (الأندلس)، بالإضافة إلى رقعة واسعة من أخصب الأراضي. وقد عمل (الحجاج بن يوسف الثقفى) على إصلاح شئون الزراعة أثناء ولايته على (العراق) و(المشرق)، فأصلح كثيراً من الأراضي التي لم تكن مزروعة، وأمر بعودة الفلاحين إلى قراهم، بعد أن رأى ما أصاب الزراعة من ضرر ونقص في المحاصيل؛ نتيجة هجرتهم إلى المدن للعمل في الأعمال الحرفية المتعلقة بالصناعة والتجارة. وهذه الخطوة التي أقدم عليها (الحجاج) لإصلاح الزراعة أساء الناس فهمها، وعدوها من أخطائه؛ لأنه تدخل في حرية الناس، لكنها عند النظر الصحيح خطوة إيجابية من حاكم يفهم واجبات وظيفته، فأقدم على حل مشكلة خطيرة لا تزال كثير من الحكومات المعاصرة عاجزة عن حلها.

وقد اقتدى (خالد بن عبد الله القسرى) والى (العراق) في عهد (هشام بن عبد الملك) (105 - 125هـ) بما فعله (الحجاج) في النهوض بالزراعة؛ فأصلح مساحات شاسعة في منطقة المستنقعات، وزرعها وأضافها إلى الرقعة الزراعية.

ويجدر بالذكر أن الإسلام حث على تعمير الأرض واستصلاح البور منها للزراعة؛ لقول الرسول - صلى الله عليه وسلم -: (من أحيا أرضاً ميتة فهي له). [صحيح البخارى].

والمقصود بالأرض الميتة: الأرض البور أو الصحراوية التي لم تكن مزروعة، فمن يصلحها تكن له، وقد حذا الصحابة حذو الرسول - صلى الله عليه وسلم -، والأمويون من بعدهم في تشجيع الناس على الزراعة وعاونوهم على ذلك.

الصناعة:

ازدهرت في العصر الأموى الصناعات الحربية التي تحتاج إليها

الجيوش من سيوف ودروع ورماح وحراب، وأنشئت الترسانات البحرية اللازمة لصناعة السفن في مدن الساحل، كالإسكندرية و (دمياط)

(58/2)

و (رشيد) في (مصر)، و (عكا) و (صور) و (صيدا) و (بيروت) في (الشام)، وازدهرت كذلك الصناعات الخشبية اللازمة لأعمال بناء البيوت والمساجد والمستشفيات، وأثاث المنازل، وصناعات الخزف والأدوات المنزلية.

وعرف العصر الأموي صناعات النسيج، وكانت أكثر الصناعات ازدهاراً في (مصر) و (الشام) و (العراق) و (فارس) وبلاد (ما وراء النهر)، وكانت تصنع من الصوف والقطن والكتان والحزير، بالإضافة إلى صناعات المواد الغذائية القائمة على الإنتاج الزراعي والحيواني، وصناعات الجلود.

وأقام الأمويون دوراً لسك النقود؛ الدنانير الذهبية والدرهم الفضية في عهد (عبد الملك بن مروان) وما تلاه، وهذه الصناعة صعبة لأنها تحتاج إلى استخراج الذهب والفضة من باطن الأرض، بعد استخراجهما مما هو ممزوج بهما من رمال ومعادن أخرى، ثم صهره وتشكيله حسب الحاجة.

وإذا كانت الصناعات في عصر الأمويين بسيطة، ولا تقارن بما وصلت إليه في الوقت الحاضر، فإنها كانت كافية ووافية بمتطلبات الحياة والأحياء في زمانها.

التجارة:

كان العرب قبل ظهور الإسلام وسيطاً تجارياً مهماً بين الشرق والغرب؛ حيث كانت التجارة القادمة من الشرق وبخاصة من (الهند) و (الصين) تمر ببلاد العرب عبر طريقين رئيسيين: الطريق الأول: يمر بعدن في جنوب غرب (اليمن) على مدخل (البحر

الأحمر) الجنوبي؛ حيث تأتي السفن، بعضها يواصل سيره في البحر الأحمر إلى (ميناء القلزم) - السويس - في (مصر)، ثم تفرغ حمولتها، وتنقل البضائع بالقوافل إلى الموانئ المصرية على (البحر المتوسط)، وبخاصة (ميناء الإسكندرية)، ثم تشحن في السفن بحرًا مرة أخرى إلى (أوروبا)، وبعضها الآخر يفرغ حمولته في (عدن)، ثم تحملها القوافل برا عبر الساحل الغربي لشبه الجزيرة العربية، المطل على (البحر الأحمر)، وتمر بمكة المكرمة، التي كانت مركزًا تجاريًا مهمًا، وبعضها يواصل سيره إلى (ميناء غزة) في (فلسطين).

(59/2)

- والطريق الآخر: يمر عبر (الخليج العربي)، حيث تواصل السفن سيرها وتفرغ حمولتها في أقصى شماله، حيث (ميناء الأيلة) غربي (البصرة) الحالية في (العراق)، ثم تنقل البضائع على القوافل برا عابرة (العراق) إلى (الشام)؛ حيث تفرغ حمولتها في موانئه مثل (عكا) و (صور) و (صيدا) و (بيروت) و (اللاذقية) و (أنطاكية)، ثم تشحن بحرًا إلى (أوروبا).

وقامت التجارة في أغلبها على جلب الحرير من (الصين)، والتوابل والبخور من (الهند)، وكانت هذه المواد مطلوبة على نطاق واسع في (أوروبا)، وكان العرب يقومون بدور فعال ونشط في عملية التجارة هذه، واستفادوا منها فائدة كبيرة، بل إن بعضهم مثل عرب (الحجاز) وبصفة خاصة (قريش) كانت حياتهم الاقتصادية تقوم على التجارة، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في سورة قريش، فقال: {إيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف}.

وفي العصر الأموي لم يعد العرب وسيطًا تجاريًا لنقل البضائع بين الشرق والغرب، وإنما أصبحوا سادة الموقف كله، بعد امتلاكهم

الطرق التجارية البحرية والبرية، من (الصين) إلى (الأندلس)، فبالإضافة إلى ما سبق الحديث عنه بسط المسلمون سيادتهم على الطريق الذي يبدأ من شمالي الصين، ثم يجتاز هضاب وسط آسيا وسهولها - بلاد (ما وراء النهر) - ثم يتفرع إلى عدة طرق، تنتهي كلها إلى موانئ (البحر الأسود) و (البحر المتوسط)، ويمر معظمها في الأراضي الإسلامية، ثم تنقل التجارة إلى (أوروبا الشرقية) والجنوبية، أمّا (أوروبا الغربية) و (شمالي إفريقيا) و (الأندلس)، فكانت معظم تجارتها تأتي من الطريق الأول عبر الموانئ المصرية. وقد سيطر المسلمون على النشاط التجاري كله في تلك الرقعة الواسعة من الأرض وأصبحت بلادهم تصدّر البضائع والمنتجات إلى بلاد الشرق والغرب. فتصدر إلى (الصين) المنسوجات الصوفية والقطنية والكتانية، والبُسط، والمصنوعات المعدنية، وخام الحديد،

(60/2)

---

وسبائك الذهب والفضة، كما كانت تستورد منها الحرير. ولم تقتصر الأرباح المالية التي كانت تجنيها الدولة الأموية على مجرد التبادل التجاري، بل كانت تحصل على أموال طائلة من التجارة العابرة على هيئة رسوم جمركية، كما خلقت هذه العملية التجارية الواسعة فرص عمل لعشرات الآلاف من الناس، وبخاصة في مدن الموانئ على سواحل جزيرة العرب الجنوبية والشرقية، مثل (عدن) و (حضر موت)، و (صحار) و (هرمز)، و (البحرين)، و (القطيف)، و (سيراف)، و (البصرة)؛ فازدهرت هذه المدن ازدهاراً كبيراً، كما ازدهرت الموانئ الأخرى المطلة على (البحر الأحمر)، كميناء (جدة) و (السويس)، أو المطلة على (البحر المتوسط) من (أنطاكية) شمالاً حتى (غزة) جنوباً، وكذلك موانئه الجنوبية في (مصر) و (شمالي إفريقيا)، مثل (دمياط) و (الإسكندرية) و (طرابلس الغرب) و (تونس).

وقد ساعد على ازدهار تلك الحركة التجارية العالمية اهتمام الدولة الأموية بإنشاء الطرق، وتعبيدها وتأمينها، فكانت القوافل تسير في طرق آمنة، تنتشر على جوانبها الفنادق والاستراحات والأسواق. الحركة العمرانية في العصر الأموي:

شهد العصر الأموي نهضة عمرانية كبرى، استفاد فيها المسلمون من التراث، ومن الطرز المعمارية التي وجدوها في البلاد المفتوحة سواء أكانت فارسية أم بيزنطية أم مصرية، وطبعوها بطابع عربي إسلامي، ووضعوا بدور فن معماري متميز عن غيره من الفنون المعمارية الأخرى، وساعدهم على ذلك الثراء الواسع الذي كانت تتمتع به الدولة.

إنشاء المدن الجديدة:

أنشأ الأمويون عددًا من المدن في المشرق والمغرب، ولا يزال معظمها قائمًا معروفًا حتى الآن، فأنشأ (عقبة بن نافع) في عهد (معاوية بن أبي سفيان) (41 - 60هـ) مدينة (القيروان) في (تونس)، وقد أصبحت عاصمة الشمال الإفريقي كله في العصر الأموي، ومركزًا من أعظم المراكز الحضارية الإسلامية. وفي عهد (عبدالمالك بن مروان) (65 - 86هـ) أنشأ أخوه (عبدالعزیز بن

(61/2)

---

مروان) والى (مصر) مدينة (حلوان) جنوبي (الفسطاط)، وأنشأ (حسان بن النعمان الغساني) مدينة (تونس)، وأنشأ (الحجاج بن يوسف الثقفي) مدينة (واسط) في (العراق) بين (البصرة) و (الكوفة)، ومدينة (قم) في منطقة الجبال في بلاد فارس، بين (ساوة) و (أصفهان). وأنشأ (سليمان بن عبدالمالك) في عهد أخيه (الوليد) (86 - 96هـ) مدينة (الرملة)، كما أنشأ الخليفة (هشام بن عبدالمالك) (105 - 125هـ) مدينة (الرصافة) بالقرب من (الرقعة) في (العراق)، وأنشأ (الحكم بن

عوانة الكلبى) مدينة (المحفوطة) فى (السند)، و (عمر بن محمد بن القاسم الثقفى) مدينة (المنصورة) فى (السند) أيضاً.  
القصور الأموية:

كشفت الحفريات الأثرية منذ نهاية القرن الماضى ومطلع القرن الحالى عن العديد من القصور التى بناها الخلفاء الأمويون؛ وبخاصة فى صحراء الشام؛ لأنهم كانوا يحبون البادية ويحنون إليها، استمتعاً بالهواء الطلق، وطلباً للراحة والهدوء من عناء العمل السياسى والإدارى.

ومن القصور التى اكتشفت أخيراً (قصر عمرة) الذى اكتشفه (موزيل) سنة (1898م) ويقع على نحو خمسين ميلاً شرقى (عمّان) عاصمة (الأردن) حالياً، ويرجح الباحثون أن هذا القصر بنى للخليفة (الوليد بن عبدالملك)، وهو يتكون من قسمين رئيسيين، هما: قاعة الاستقبال، والحمام الساخن.

أما قاعة الاستقبال فهى بناء مستطيل تغطيه ثلاثة أقبية نصف أسطوانية، يفصلها عن بعضها عقدان عرضيان، وهذا الطراز المعمارى طراز فارسى أخذه المسلمون من (إيران)، وتوجد فى نهاية القبو الأوسط لقاعة الاستقبال حنية العرش، وهى مغطاة بقبو نصف أسطوانى، أقل ارتفاعاً من سقف أقبية قاعة الاستقبال، وتحلّى حنية العرش بصورة الخليفة وهو جالس على عرشه، ويكتنف الحنية من جهتيها غرفتان لتغيير الملابس.

ويقع القسم الثانى وهو الحمام الساخن إلى يسار قاعة الاستقبال، ويتكون من ثلاث غرف رئيسية؛ الغرفة الباردة ويدخل إليها من قاعة

(62/2)

---

الاستقبال، ويغطيها قبو نصف أسطوانى محوره عمودى على محور قاعة الاستقبال، ويليهما الغرفة الدافئة، وهى مغطاة بقبو متقاطع،

يليهما الغرفة الساخنة، وهي مغطاة بقبة نصف كروية محمولة على أربعة مثلثات كروية.

وهذا القصر مبنى من الحجر الجيري الأحمر، وتغطي الأقبية طبقة سمیكة من الملاط، كما تغطي الأرضية ببلاطات من الرخام، تجرى بأسفلها مواسير البخار الساخن، وهي تشبه حمامات (روما). ومن اللافت للنظر الصور التي وُجِدَت على جدران ذلك القصر، ومن أهمها: صورة الخليفة وهو جالس على عرشه، ويحف به شخصان، وفوقه مظلة محمولة على عمودين حلزونيين، وتوجد على عقد المظلة كتابة كوفية تطرق إليها التلف، وصورة أخرى لستة أشخاص، اشتهرت بأنها تمثل صور أعداء الإسلام.

والصور الست في صفين، كل ثلاث في صف، ويلبسون ملابس فاخرة، وفوق رؤوس أربعة منهم وجدت كتابة بالعربية واليونانية، لا تزال باقية، وهم من اليسار إلى اليمين (قيصر الروم) في الصف الأول، ويليهِ (روذريق) ملك القوط) الأندلسي في الصف الخلفي، والثالث في الصف الأول هو (كسرى فارس)، والرابع في الصف الخلفي فوقه كلمة (النجاشي).

وقد استنتج الباحثون من هذه الصورة، ومن ترتيب وضع الملوك فيها أن الذين في الصف الأول هما (كسرى) و (قيصر) من ملوك الإمبراطوريات الكبيرة، أمَّا اللذان في الصف الخلفي فهما من ملوك الدول الصغيرة، كما استنتجوا أن الصورة الخامسة لملك (الصين)، والسادسة لأحد ملوك الترك، وهؤلاء هم الذين فتح المسلمون بلادهم في العصر الأموي، أو فرضوا عليها سيادتهم.

ومن القصور التي اكتشفت أيضاً القصر المسمى بقصر خربة، الذي يُنسب إلى الخليفة (هشام بن عبد الملك)، ويقع على بعد ثلاثة أميال شمالي مدينة (أريحا) في (فلسطين) وكان قصرًا شتويًا، زُيّنت جدرانه بصور ورسوم آدمية وحيوانية، كما وُجد اسم الخليفة (هشام بن عبد الملك) مسجلاً على أحد الجدران، وصورة فتاة تحمل باقة من

الورد، ولوحة تمثل فتيات يرقصن وقد صبغن شفاههن وأظافر أيديهن وأرجلهن بصبغة ذات لون قرمزي، بالإضافة إلى رسوم نباتية تحمل شجرة يحيط بها من اليمين صورة أسد ينقض على غزال، ومن اليسار غزالان بين أزهار، وكلها ملونة بألوان زاهية.

ومن القصور التي اكتشفت سنة (1840م) (قصر المشتى)، ويُنسب إلى الخليفة (الوليد بن يزيد بن عبدالملك) (125 - 126هـ)، وهو قصر صحراوي غير تام البناء، وقد تهدم معظمه، ونقلت أهم زخارفه التي كانت محفورة في الحجر الجيري في الواجهة الجنوبية، إلى (برلين)، مهداة من السلطان العثماني (عبد الحميد) إلى الإمبراطور الألماني (غليوم الثاني)، وقد وُضعت في (متحف برلين) منذ سنة (1903م).

والقصر عبارة عن بناء مستطيل مساحته نحو (144) متراً مربعاً، وحائطه الخارجي تكتنفه أبراج نصف دائرية، ويقع المدخل في وسط واجهته الجنوبية، والقصر مقسم من الداخل إلى ثلاثة أقسام رئيسية، تتجه من الشمال إلى الجنوب، والمباني الداخلية مبنية من الطوب، والمدخل يكتنفه برجان على شكل نصف منحنيين، ويتكون شكل الواجهة الجنوبية من عدة مثلثات معتدلة ومقلوبة؛ بحيث تظهر في مجموعها على شكل خط منكسر، وفي وسط كل مثلث وردة، وبأسفلها في المثلثات المعتدلة موضوعات زخرفية متنوعة، بعضها يمثل حيوانين متقابلين يفصلهما إناء، وبالأرضية زخارف نباتية جميلة محفورة على الحجر، ويلى المدخل ردهة توصل إلى فناء مربع التخطيط، مساحته (14) متراً مربعاً، ويكتنف ردهة المدخل من جهتيها حجرات مكونة من طابقين، كما توجد غرفة مستطيلة إلى يمين المدخل، في حائطها الجنوبي محراب، استنتج الباحثون أنها كانت مسجد القصر أو مصلاه.

ويلى الفناء الأول فناء كبير مساحته (57) متراً مربعاً، يليه الجناح

الملكي، ويتكون من قاعة تؤدي بدورها إلى قاعة العرش، وهي مكونة من ثلاث حنيات نصف دائرية، ويكتنفها من جهتيها بيوت

(64/2)

مكونة من زوجين من الغرف، وتوجد حول قاعة العرش أربع مجموعات من هذه البيوت.

وهذه القصور المكتشفة تدل على تقدم فن العمارة في عهد الدولة الأموية، وتأثره بالطرز المعمارية الفارسية والبيزنطية، وعلى التراث الذي كانت عليه الدولة، مما مكّن خلفاءها من بناء تلك القصور الباذخة، ومعظمها لم يكن للسكنى الدائمة، وإنما كانت مشاتي ومصايف للإقامة الموسمية المؤقتة.

المساجد:

ازدهرت حركة بناء المساجد في عهد الأمويين ازدهاراً كبيراً، فوسعوا المساجد التي كانت موجودة من قبل، كالمسجد الحرام في مكة المكرمة)، و (المسجد النبوي) في (المدينة المنورة)، و (جامع عمرو بن العاص) في (الفسطاط)، و (المسجد الكبير) في (صنعاء) باليمن، كما أقاموا العديد من المساجد الجديدة، ومن أشهرها: (مسجد قبة الصخرة) الذي أنشأه (عبد الملك بن مروان) في (القدس)، و (المسجد الأقصى) الذي أنشأه ابنه (الوليد)، و (المسجد الأموي) الكبير في (دمشق) الذي أنشأه (الوليد) أيضاً.

– المسجد الحرام:

كانت (الكعبة المشرفة) في عهد النبي – صلى الله عليه وسلم – وخلفائه الراشدين على البناء نفسه الذي أقامته (قريش) بعد السيل؛ الذي دمر (الكعبة) قبل بعثة النبي – صلى الله عليه وسلم –، واستمرت على ذلك إلى أن هُدمت أثناء خلافة (عبد الله بن الزبير) (64 – 73هـ)، فقام ببناؤها من جديد على قواعد (إبراهيم)، عليه السلام، وأدخل فيها

حجر (إسماعيل)، واستشهد على ذلك بحديث النبي - صلى الله عليه وسلم - الذى خاطب فيه (عائشة) بقوله: (لولا أن قومك حديثو عهد بشرك أو بجاهلية لهدمت الكعبة فألذقتها بالأرض، وجعلت لها بابين بابًا شرقيا وبابًا غربيا وزدت فيها من الحجر ستة أذرع ..). [مسند الإمام أحمد].

وبعد مقتل (ابن الزبير) وانتهاء دولته سنة (73هـ) هدم الأمويون (الكعبة) وأعادوا بناءها إلى ما كانت عليه قبل زيادة (ابن الزبير). وكانت مساحة (المسجد الحرام) نفسه فضاء ولم يكن له جدران فى

(65/2)

عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - و (أبي بكر الصديق)، فلما كثر الناس فى عهد (عمر بن الخطاب) اشترى الدور المجاورة للبيت الحرام، وهدمها وأضافها إلى مساحته، وأقام له جدرانًا دون قامة الرجل، وكذلك فعل (عثمان بن عفان) و (عبد الله بن الزبير). واستمر هذا الوضع حتى كان عهد (الوليد بن عبد الملك) (86 - 96هـ)، فزاد فى مساحته، وبنى سوره على عمد من الرخام، ووضع صفائح من الذهب على باب (الكعبة).

- المسجد النبوى فى المدينة المنورة:

ظل مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على حالته التى بُنى عليها حتى عهد (عمر بن الخطاب)، الذى زاد فى مساحته، وأطال جدرانه، ثم أضاف (عثمان بن عفان) إليه مساحات جديدة لكثرة المصلين، وضيقة بهم، وبناه من الحجارة، وجعل له عمدًا من الحجارة، وسقفًا من الساج. وظل المسجد كذلك إلى عهد (الوليد بن عبد الملك)، فأمر ابن عمه (عمر بن عبد العزيز) واليه على (المدينة) (87 - 93هـ) بهدمه وإعادة بنائه وتوسعته، فأدخل فيه حجرات النبي - صلى الله عليه وسلم -.

وعنى (الوليد) بإعادة بناء المسجد عناية عظيمة، فأرسل إلى (عمر بن عبد العزيز) أموالاً كثيرة لهذا الغرض، وثمانين عاملاً من عمال البناء من الشام وقبط (مصر)، وكميات كبيرة من الرخام والفسيفساء، وقد عهد (عمر) بالإشراف على البناء إلى واحد من كبار التابعين هو (صالح بن كيسان).

وقد بنى أساس المسجد من الحجارة، وجعلت عمدته من الحجارة المحشوة بالحديد والرصاص، وأقيمت له المآذن، وفتحت له عدة أبواب، منها (باب جبريل)، عليه السلام، و (باب النساء). واستمر العمل في البناء نحو ثلاث سنوات، وفي سنة (90هـ) زار الخليفة (الوليد) (المدينة) ليطمئن على سير العمل في المسجد بنفسه، وقد أعجب بالبناء، وبما عليه من روعة تليق بمسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وقسم أموالاً كثيرة على أهل المدينة احتفاءً بهذه المناسبة، وخطب فيهم الجمعة من فوق منبر النبي - صلى الله عليه وسلم -.

(66/2)

- مسجد قبة الصخرة:

أمر (عبد الملك بن مروان) سنة (72هـ) ببناء مسجد فوق الصخرة التي عرج الرسول - صلى الله عليه وسلم - من فوقها ليلة الإسراء والمعراج.

- المسجد الأقصى:

وقد بناه (الوليد بن عبد الملك) بالقرب من ساحة (مسجد قبة الصخرة)، وزينه بالفسيفساء والرخام، واحتفل ببنائه كاحتفاله بالمسجد الحرام بمكة المكرمة ومسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - في (المدينة المنورة).

- المسجد الأموي في دمشق:

يعد (المسجد الأموي) من أعظم المساجد التي أنشئت في العصر

الأموى، بناه (الوليد بن عبد الملك)، وبذل فيه جهداً كبيراً، ولم يبخل عليه بالأموال، فجاء شامخاً عظيماً.

وأصل مكان المسجد كان معبداً وثنياً في عهد الرومان، ثم تحول إلى كنيسة في العهد المسيحي، ثم فُتحت (دمشق) في عهد (عمر بن الخطاب) صلحاً، واقتسم المسلمون بناءً على ذلك الصلح كل شيء في المدينة مع أهلها، فقسمت الكنيسة، وجعل المسلمون نصفها مسجداً، وبقي النصف الآخر كنيسة تقام فيها شعائر أهلها، وكان هذا آية من آيات السماحة؛ حيث لم يجد المسلمون غضاضة أن يتجاوز المسجد والكنيسة، فضلاً عن كونهما في بناء واحد.

وظل الأمر كذلك حتى عهد (الوليد)، الذي تفاوض مع المسيحيين، وعوّضهم عن نصيبهم مساحة كبيرة من الأرض يقيمون عليها كنيسة كبيرة مستقلة، وهدم البناء القديم كله وأقام عليه المسجد، الذي جاء مستطيل الشكل، له ثلاثة مداخل، وأربع مآذن، وجعل في وسطه صحنًا مكشوفًا، تحيط به أربعة أروقة، أكبرها رواق القبلة، وغطيت أرضيته بالرخام، وكذلك جدرانه إلى ارتفاع قامة الإنسان، وفوق الرخام زخارف من الفسيفساء المذهبة، وجعل سقفه من الرصاص، وبه ستمائة سلسلة من الذهب تتدلى منها قناديل للإضاءة.

وقد عنى الخليفة ببناء المسجد عناية واضحة، فأشرف على بنائه بنفسه، وأنفق عليه أموالاً طائلة، بلغت خمسة ملايين دينار، تعرّض بسببها للانتقاد، فأجاب بأنه يريد أن يكون المسجد الذى هو أعظم

(67/2)

---

رمز للإسلام لائقاً بدولته الكبيرة، واستمر العمل في المسجد تسع سنوات (87 - 96هـ)، عمل فيه نحو عشرة آلاف عامل، حتى جاء المسجد آية من آيات فن العمارة الإسلامى، حتى ليذكر (ياقوت الحموى) أن الناس كانوا يعدونه من عجائب الدنيا.

وعندما آلت الخلافة إلى (عمر بن عبدالعزيز) رأى أن الخليفة (الوليد) بالغ في الإنفاق على بناء المسجد، وهمّ بنزع سلاسل الذهب وبيعها، ووضع ثمنها في بيت المال، ولما علم أهل (دمشق) بعزمه اشتد عليهم الأمر وكرهوه، وهم الذين كانوا قد انتقدوا (الوليد) من قبل، ولكن قبل أن ينفذ (عمر) ما عزم عليه جاء إلى (دمشق) وفد رسمي من قبل إمبراطور الروم، لبحث العلاقة بين الدولتين، فزار ذلك الوفد (المسجد الأموي)، وكان معهم قسيس، فلما دخلوا المسجد أغمى عليه، فحملوه إلى دار الضيافة، فسأله رفاقه بعد أن أفاق عما حدث له، فقال: كنا نتحدث أن بقاء العرب ودولتهم لن يطول، فلما رأيت ذلك البناء الشامخ حصل لي هم وغم، وأدركت أن بقاءهم سيطول، فحدث لي ما رأيتم، وكان يسمع ذلك الحوار أحد المسلمين العارفين باليونانية التي كانوا يتحاورون بها، فنقل ذلك إلى (عمر بن عبدالعزيز)، فقال: إذا كان المسجد قد أعاظهم إلى هذا الحد، فلن أنزع منه شيئاً، بل زاده جمالا وروعة وبهاءً، فأمر بتزصيع محرابه بالجواهر الثمينة، وعلق له قناديل من ذهب وفضة.

– العناية بالطرق:

اهتمت الدولة الأموية اهتماماً كبيراً بإنشاء الطرق، لربط أجزائها التي امتدت من (الصين) إلى (الأندلس)، وهي مسافة تبلغ (12) ألف كيلو متر من الشرق إلى الغرب، ولتيسير الاتصال ببعضها، ولتحقيق كثير من الأغراض، منها ما هو عسكري لتيسير حركة الجيوش، ومنها ما هو اقتصادي لتيسير حركة التجارة، ومنها ما هو إداري لتسهيل وصول الأخبار عن طريق رجال البريد، ومنها ما هو ديني لتسهيل وصول حجّاج بيت الله الحرام من كل أنحاء الدولة إلى (مكة المكرمة)،

لأداء فريضة الحج، وإلى (المدينة المنورة)؛ لزيارة مسجد النبي - صلى الله عليه وسلم -.

وقد قسم الأمويون الطرق التي تربط العاصمة (دمشق) بعواصم الولايات - كالفسطاط و (القيروان) و (قرطبة) و (الكوفة) و (البصرة) و (خراسان)، و (ما وراء النهر) - إلى مسافات صغيرة محددة، وجعلوا لها علامات تحمل أرقامًا؛ ليعرف المسافرون المسافات بين المدن والأقاليم، وهي مثل العلامات الإرشادية المستخدمة الآن في الطرق الإقليمية والدولية.

وعمرت الطرق بالخانات والاستراحات، ليستريح الناس من وعناء السفر، فوق ما كانت تتمتع به من أمن وأمان.

وكان الناس يسافرون عبر هذه الطرق، ويتنقلون بين مدن الشرق والغرب دون تصريح مرور أو جواز سفر، فالدولة كلها على امتداد حدودها وطنهم، في أي مكان منه يستطيع الإنسان أن يسكن ويتزوج ويتاجر، دون مضايقة أو طلب إقامة.

الحركة العلمية:

كانت الحركة العلمية بمختلف اتجاهاتها في العصر الأموي امتدادًا للحركة العلمية التي بدأت منذ عهد النبي - صلى الله عليه وسلم -، وفتت في عهد الخلفاء الراشدين، وأخذت العلوم تتمايز عن بعضها، ويصبح لكل منها مدارس ورجالها، بعد أن كانت العلوم ممتزجة بعضها في بعض، فالرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يعلم المسلمين أمور دينهم ودنياهم، ويفسر لهم ما أجهم عليهم من القرآن الكريم، وبعد وفاته أصبح أصحابه المعلمين للتابعين.

ولم يكن الصحابة - رضوان الله عليهم - على درجة واحدة من العلم والفقه، بل كانوا متفاوتين في ذلك، ولعل أفضل ما صور تباين

الصحابة في درجات العلم قول (مسروق) - وهو أحد التابعين -:

(جالست أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم -، فوجدتهم كالإخاذ -

غدير الماء - فالإخاذ يروى الرجل، والإخاذ يروى الرجلين، والإخاذ

يروى العشرة، والإخاذ يروى المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض

صدرهم) أى: رواهم جميعاً.

وقد اشتهر عدد من كبار الصحابة بالعلم دون غيرهم كالخلفاء

(69/2)

الراشدين، وأم المؤمنين (عائشة)، و (ابن عباس)، و (ابن مسعود)،  
و (زيد بن ثابت الأنصاري)، و (أبي الدرداء)، و (أبي هريرة)، و (معاذ بن  
جبل) رضوان الله عليهم جميعاً، غير أن هؤلاء الصحابة بقى بعضهم  
في (المدينة المنورة) و (مكة المكرمة)، وتفرق بعضهم الآخر في  
الأمصار المفتوحة، ولم يكن الواحد منهم يعلم علماً واحداً، وإنما يتكلم  
في علوم كثيرة، وربما تحدث في جلسة واحدة في الفقه والحديث  
والتفسير والمغازي، والأدب شعره ونثره.

وكانت المراكز الرئيسية للحركة العلمية عندئذ هي المساجد، ثم  
نشأت المكاتب لتحفيظ الصبيان القرآن الكريم، وتعليمهم مبادئ  
العلوم الإسلامية، ثم بدأت العلوم يمتاز بعضها عن بعض، وعرف رجال  
بالتفسير وآخرون بالحديث، واختص غيرهم بالفقه، ولا يعنى هذا أن  
المفسر أو الفقيه لا يعرف غير ما تخصص فيه من العلم واشتهر به،  
وإنما يوضع الرجل بين رجال العلم الذي برز فيه وأصبح حجة وإماماً،  
فالإمام (مالك بن أنس) اشتهر بالفقه وصار صاحب مذهب فقهي  
معروف، لكنه من رجال الحديث الكبار، ويعرف التفسير؛ فلو لم يكن  
كذلك ما استطاع أن يضع القواعد الفقهية ويستنبط الأحكام من  
أدلتها التفصيلية، لأن الفقه يقوم على الاستنباط من القرآن والسنة.  
ثم خطت الحركة العلمية خطوة كبيرة في ذلك الوقت، ببدء حركة  
تدوين العلوم، ولم يكن المسلمون يفعلون ذلك من قبل، وإنما اعتمد  
الصحابة على الذاكرة في الحفظ. والذين أثار عنهم أنهم دونوا بعض  
أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - من الصحابة، عدد قليل،  
كأبي هريرة و (عبدالله بن عمرو بن العاص)، الذي سمح له النبي

- صلى الله عليه وسلم - بتدوين أحاديثه؛ فدوّنها في صحيفة كان يقول عنها: الصادقة، ويفخر أن ليس بين الرسول وبينه فيها أحد. ومنذ منتصف القرن الأول للهجرة تقريباً بدأت حركة التدوين بداية متواضعة، فيروى أن (معاوية بن أبي سفيان) أمر بتدوين ما يرويه

(70/2)

له في مجلسه (عبيد بن شريفة) من تواريخ ملوك (اليمن) القدامى وغيرهم، وكان (معاوية) مولعاً بمعرفة تواريخ الأمم السابقة، وأن (عبد العزيز بن مروان) والى (مصر) (65 - 85هـ) أرسل إلى (كثير بن مرة الحضرمي) أن يكتب له ما سمع من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا أحاديث (أبي هريرة) فإنها موجودة عنده. ثم جاءت الخطوة الحاسمة في التدوين، حين أمر (عمر بن عبد العزيز) أثناء خلافته (99 - 101هـ) (أبا بكر بن حزم) والى (المدينة) أن يدوّن أحاديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خوفاً من ضياع العلم وذهاب العلماء، ثم تتابعت حركة التدوين، فدوّن (ابن شهاب الزهري) و (يزيد بن أبي حبيب المصري) وغيرهما، وانتقل التدوين إلى العلوم الأخرى، فدوّن الفقه والتفسير وغيرهما. وشجع الخلفاء الأمويون الحركة العلمية بصفة عامة، وحركة التدوين بصفة خاصة، وبدأ في عصرهم ظهور طبقة المعلمين، لأن الخلفاء أنفسهم كانوا مهتمين بتعليم أولادهم، وبخاصة العلوم الإسلامية، فاختاروا لهذه المهمة أصلح المعلمين الذين كانوا يسمون أيضاً بالمؤدبين، ولم تكن مهمتهم تعليمية فحسب، بل كانت تربوية أيضاً. ومن أشهر هؤلاء المعلمين: (دغفل بن حنظلة الشيباني)، واختاره (معاوية بن أبي سفيان) لتعليم ابنه (يزيد) وتلميذه، و (الضحاك بن مزاحم) و (عامر بن شراحيل الشعبي) و (ابن أبي المهاجر)، وهؤلاء الثلاثة من كبار التابعين، واختارهم (عبد الملك بن مروان) لتعليم

أولاده وتأديبهم.

وقد حذا أشراف الناس والأغنياء حذو الخلفاء في تعليم أولادهم على أيدي مربين ومؤدبين، مما أعطى دفعة للحركة العلمية في ذلك العصر.

وعلى الرغم من ضياع المدونات والمؤلفات التي كتبت في العصر الأموي، فإن معظم محتوياتها وصلت إلينا في المؤلفات الكثيرة التي ألقت في العصر العباسي، فمرويات (الطبري) عن غزوات الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وسيرته أخذها ممن رواها عن كتاب المغازي

(71/2)

والسيرة الأوائل الذين ضاعت مؤلفاتهم، كأبان بن عثمان بن عفان، و (عروة بن الزبير) وغيرهما.

علم التفسير:

هو العلم الذي يبحث في بيان معاني آيات القرآن وأسلوبه وبيانه، إلى غير ذلك مما حفلت به كتب التفسير من مصطلحات هذا العلم؛ كالجمل والمفصل، والمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول.

ومع كون الصحابة - رضوان الله عليهم - أقدر الناس على فهم القرآن الكريم، فإنهم اختلفوا في فهمه على حسب اختلاف قدراتهم العقلية، واشتهر منهم بالتفسير وفهم القرآن الكريم: الخلفاء الراشدون، و (ابن مسعود)، و (ابن عباس)، و (أبي بن كعب)، و (زيد بن ثابت). وعن هؤلاء وغيرهم تلقى التابعون، وعلى رأسهم: (مجاهد بن جبر)، و (عطاء بن أبي رباح)، و (عكرمة مولى ابن عباس)، و (سعيد بن جبير)، و (سعيد بن المسيب)، و (الحسن البصري)، و (محمد بن سيرين)، وبعض هؤلاء ألفوا كتباً في التفسير، لكنها ضاعت ولم تصل إلينا، كما ضاعت كتب التفسير التي ألقت بعد عصر التابعين، ومنها ما

نُسب إلى (سفيان بن عيينة) و (وكيع بن الجراح)، و (عبد الرزاق) وكثير غيرهم.

والخلاصة أنه لم يصل إلينا كتاب في التفسير يرجع إلى العصر الأموي، وأول كتاب في التفسير وصل إلى أيدي الناس هو كتاب (معاني القرآن) للقرّاء المتوفى سنة (207هـ)، ثم توالى بعده مطولات كتب التفسير، ولعل من أشهرها تفسير الإمام (الطبري) المتوفى سنة (310هـ)، المعروف باسم (جامع البيان عن تأويل آي القرآن).

علم الحديث:

الحديث في اللغة: مطلق الكلام، وفي الاصطلاح: هو كلام النبي - صلى الله عليه وسلم -، الذي هو المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن الكريم. وقد حرص الصحابة على حفظ كل ما يسمعون من النبي - صلى الله عليه وسلم -، وكانوا يسألونه ليبين لهم ما غمض عليهم فهمه من القرآن، وهذا من وظائفه لقوله تعالى {وأُنزِلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون}. [النحل: من 44].

(72/2)

وقد أمرهم الله تعالى باتباع النبي في كل ما يقول أو يفعل، لقوله تعالى: {وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا}. [الحشر: من 7].

وحدّثهم من مخالفته - صلى الله عليه وسلم -، فقال تعالى: {فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم}. [النور: من 63].

وسار المسلمون على نهج الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وتلقفوا كل ما يتلفظ به، يحفظونه عن ظهر قلب ويعملون به، وكان الحديث هو أول العلوم التي اشتغلوا بها، لكنهم لم يدونوه في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم -، ويروى أنه هو نفسه نهاهم عن ذلك، لئلا

يختلط بالقرآن، فقال: (لا تكتبوا عني، فمن كتب عني غير القرآن فليمحه) [صحيح مسلم]، بالإضافة إلى أن الصحابة أنفسهم كانوا يتخرجون من الإكثار من رواية الحديث، تقيبًا وخوفًا من الخطأ والنسيان.

- تدوين الحديث:

ظلت أحاديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتناقلها العلماء مشافهة جيلًا بعد جيل، حتى نهاية القرن الأول الهجري، وإن دُونَ بعض الناس أحاديث رسول الله كعبدالله بن عمرو الذي أذن له النبي بكتابة الحديث في حياته، وما رواه البخاري من أن (أبا شاه اليميني)، التمس من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يكتب شيئًا من خطبته عام الفتح، فقال: (اكتبوا لأبي شاه)، ثم أمر الخليفة (عمر بن عبدالعزيز) بتدوين الحديث خوفًا من ضياعه بموت العلماء الذين يحفظونه، فكتب إلى (أبي بكر بن حزم) وإلى (المدينة) وغيره من ولاية الأقاليم، وطلب منهم جمع أحاديث النبي - صلى الله عليه وسلم - وتدوينها، ومن ثم بدأ المسلمون يقبلون على ذلك، وبمضى الزمن تضاعفت جهود العلماء في هذا الميدان، ومن أشهر الرجال الذين اشتغلوا بجمع الحديث وروايته وتدوينه في العصر الأموي: (محمد بن مسلم بن شهاب الزهري) المتوفى سنة (124هـ)، و (ابن جريج المكي) المتوفى سنة (150هـ)، و (ابن إسحاق) المتوفى سنة (151هـ)،

(73/2)

---

و (معمر بن راشد اليميني) المتوفى سنة (153هـ)، و (سفيان الثوري) المتوفى سنة (161هـ)، و (مالك بن أنس) المتوفى سنة (179هـ)، غير أن هؤلاء كلهم عدا (ابن شهاب الزهري) عاشوا صدر حياتهم في العصر الأموي وآخرها في العصر العباسي. لكن الخطوات الحاسمة في تدوين الحديث، ووضع المنهج العلمي

الدقيق لتوثيقه، وقبول روايته، وتصنيفه إلى صحيح وحسن وضعيف، ووضع علومه، وقواعد الجرح والتعديل - أى نقد رجال السند - كل ذلك جاء في القرن (3 هـ = 9 م)، بظهور أئمة الحديث كالبخارى و (مسلم)، و (الترمذى)، و (النسائى)، و (أبى داود) وغيرهم، وذلك في العصر العباسى.

علم الفقه:

وهو من أجل العلوم الإسلامية، فهو يعرف المسلم كيف يعبد ربه، بما افترضه عليه من صيام وصلاة وزكاة وحج، وينظم معاملات المسلمين ويقننها في البيع والشراء والتجارة والزراعة وسائر شئون حياتهم. ويعد الفقهاء من أكثر علماء الإسلام أثرًا في حياة المسلمين، لقوله - صلى الله عليه وسلم -: (من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين). [مسند الإمام أحمد].

وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يعلم الصحابة ويفقههم في أمور دينهم، ثم تولى بعده الصحابة تلك المهمة، وبخاصة بعد أن اتسعت الدولة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين والدولة الأموية، ثم اتسع نطاق علم الفقه نتيجة لزيادة المشكلات والقضايا التي تحتاج إلى فتاوى وحلول، وأصبح له علماء متخصصون، لهم قدرة على استنباط الأحكام الفقهية من الكتاب والسنة، وعلى الاجتهاد لإيجاد أحكام للقضايا التي لم يرد لها نص في كتاب الله أو سنة رسوله - صلى الله عليه وسلم -، لأن النصوص متناهية، في حين أن المشكلات والقضايا غير متناهية ومتجددة، ولا بد لها من حلول، فالشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، ومعنى الصلاحية أن يكون لها حل للمشكلات وإجابة عن كل الأسئلة، ومن ثم اجتهد الفقهاء في هذا الميدان، واختلفت اجتهاداتهم طبقًا لفهمهم الكتاب والسنة؛ ونتيجة

لذلك ظهرت المذاهب الفقهية المعروفة، وتراكم تراث فقهي هائل،  
أخذ يتزايد بمرور الزمان.

وفي العصر الأموي ظهر إمامان جليلان من أئمة الفقه الكبار، هما  
(أبو حنيفة النعمان) و (مالك بن أنس).

أما أولهما فقد وُلد في (الكوفة) سنة (80هـ) في خلافة (عبد الملك بن  
مروان)، وتوفي سنة (150هـ) في خلافة (أبي جعفر المنصور  
العباسي)، أى أنه عاش أغلب حياته في العصر الأموي.

وهو من أصل فارسي، تلقى الفقه على كثير من كبار العلماء، منهم  
(أبو جعفر الصادق)، و (إبراهيم النخعي)، و (عامر بن شراحبيل  
الشعبي)، و (الأعمش)، و (قتادة)، وغيرهم، واشتهر باجتهاده، وقوة  
حجته، وحسن منطقته، ودقته في استنباط الأحكام، وهو صاحب  
المذهب الحنفي المعروف، الذي أُلّف فيه ونشره بين الناس تلاميذه  
العظام، ومن أبرزهم (أبو يوسف) المتوفى سنة (182هـ) قاضي  
القضاة في عهد الخليفة (هارون الرشيد)، و (محمد بن الحسن  
الشيباني) المتوفى سنة (189هـ). و (زفر بن هذيل) المتوفى سنة  
(158هـ)، وقد انتشر المذهب الحنفي في (مصر) و (العراق) وأواسط  
آسيا وغيرها.

وأما الآخر فقد وُلد في (المدينة المنورة) سنة (93هـ) في عهد (الوليد  
بن عبد الملك)، وتوفي سنة (179هـ) في عهد (هارون الرشيد)، أى  
أنه عاش نحو نصف عمره في العصر الأموي، وأكثر من نصفه الآخر  
في العصر العباسي.

نشأ (مالك بن أنس) وتفقه وروى الحديث في (المدينة) وترك كتابًا  
عظيمًا هو (الموطأ)، الذي يجمع بين الفقه والحديث، والإمام (مالك)  
صاحب المذهب المالكي المعروف الذي انتشر في (مصر) و (المغرب  
العربي).

وقد عاصر هذين الإمامين الجليلين عدد آخر لا يقل عنهما علمًا وفقهًا،  
مثل: (الأوزاعي) إمام أهل الشام المتوفى سنة (157هـ)، و (الليث بن  
سعد) إمام أهل (مصر)، المتوفى سنة (175هـ)، غير أن مذهب هذين

الإمامين الجليلين اندثر بعدهما؛ لأنهما لم يجدا تلاميذ يواصلون نشر مذهبيهما.

علوم اللغة العربية:

(75/2)

ظهرت بعض علوم اللغة كالنحو والصرف والعروض في العصر الأموي، وكان الناس قبل ظهور الإسلام وبعده بفترة حتى عهد (علي بن أبي طالب) يتحدثون بلغة عربية، سليمة الأداء، فصيحة النطق، بالفطرة والسليقة اللغوية، دون أن يعرفوا نحوًا أو صرفًا، غير أن الأمر اختلف بعد دخول كثير من أبناء البلاد المفتوحة في الإسلام؛ حيث بدأ ظهور الخطأ واللحن في اللغة، ومن ثم ظهرت الحاجة إلى علم لضبط النطق السليم للكلمات العربية.

نشأة علم النحو:

يُعد أمير المؤمنين (علي بن أبي طالب) أول من أشار بوضع قواعد علم النحو، حيث كلف أحد ولاته وكتّابه وهو (أبو الأسود الدؤلي) المتوفى سنة (69هـ) بوضع قواعد علم النحو، ويروي (أبو الأسود) نفسه أنه دخل على أمير المؤمنين (علي بن أبي طالب) فوجد في يده رقعة، فسأله عنها، فقال: إني تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد، فأردت أن أضع شيئًا يرجعون إليه، وألقى الرقعة إلى (أبي الأسود)، فوجد مكتوبًا فيها: الكلام كله اسم، وفعل، وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبئ به - حيث يدل على الحدث وزمانه - والحرف ما أفاد معنى، ثم قال (علي) لأبي الأسود: انح هذا النحو وأضف إليه ما وقع لك، فقال (أبو الأسود): فوضعت باب العطف والنعت، ثم بابي التعجب والاستفهام، إلى أن وصلت إلى باب: إن وأخواتها ما خلا لكن، فلما عرضتها على (علي) أمرني بضم لكن إليها، وكنت كلما وضعت بابًا من أبواب النحو عرضته عليه، إلى أن

حصلت ما فيه الكفاية، فقال (على): ما أحسن هذا النحو الذى نحوت،  
ومن هنا ظهر علم النحو.  
ولما كان (أبو الأسود) من أهل البصرة، فقد ورثوا عنه حبه للنحو،  
والاهتمام به، وكانوا أول من اشتغل به، فطوروه، وجددوه وأضافوا  
إليه ما زاده بياناً ووضوحاً، ودوّنوا فيه المؤلفات المبكرة، ومن  
هؤلاء: (يجى بن يعمر)، و (عنبسة بن معدان)، و (عيسى بن عمر  
الثقفى) المتوفى سنة (149هـ)، أحد علماء مدرسة (البصرة) فى  
النحو.

(76/2)

وعلى يد (عيسى بن عمر) تتلمذ أشهر علماء النحو واللغة فى ذلك  
العصر وهو (الخليل بن أحمد) المولود سنة (96هـ)، والمتوفى سنة  
(170هـ)، وهو صاحب معجم (العين) الذى هو أول معجم فى العربية،  
وواضع علم العروض، الخاص بأوزان الشعر العربى ومعرفة بحوره.  
ثم تتلمذ على يد (الخليل بن أحمد الفراهيدى) عدد من النحاة، يأتى  
فى مقدمتهم (سيبويه) (عمرو بن عثمان) إمام النحاة، وصاحب  
(الكتاب) أشهر مؤلف فى النحو العربى. وتوفى (سيبويه) وهو فى  
الثانية والثلاثين من عمره سنة (180هـ).

علم السير والمغازى والتاريخ:

وهو يعد من أوائل العلوم التى اهتم بها المسلمون الأوائل، وبخاصة  
أبناء الصحابة؛ حيث حرص آباؤهم على تعليمهم مغازى الرسول  
- صلى الله عليه وسلم - كما كانوا يعلمونهم القرآن الكريم، بالإضافة  
إلى شغفهم بمعرفة ما قام به الرسول - صلى الله عليه وسلم - والذين  
معه من أجل الدعوة، ومن ثم اتجهوا إلى دراسة السير والمغازى،  
وأخذها من مصادرها الوثيقة، من آبائهم وأهلبيهم الذين شهدوا  
الأحداث، وشاركوا فى الغزوات، وكانوا يسألونهم مثلاً: كيف كانت

غزوة (بدر)؟ ومن هم الذين شهدوها؟ ومتى كانت الهجرة إلى  
(الحبشة)؟ وكان الصحابة يجيبون عن أسئلتهم إجابة شاهد العيان،  
الذى رأى وسمع.

وكان من الطبيعي أن ينشأ هذا العلم في مدينة رسول الله - صلى الله  
عليه وسلم -، فهي البيئة التي شهدت معظم تلك الأحداث، ومنها بدأت  
أولى خطوات التدوين والتأليف في السيرة والمغازي، ومن أوائل  
علماء السيرة والمغازي:

أبان بن عثمان:

أبوه الخليفة (عثمان بن عفان)، وُلد سنة (20 هـ) بالمدينة، وكان من  
فقهاء (المدينة) المعدودين، ومن كبار رواة الحديث، تتلمذ لأبيه وغيره  
من كبار الصحابة، وتعلم على يديه كثير من علماء الحديث والسيرة،  
في مقدمتهم: (محمد بن مسلم بن شهاب الزهري).  
وعلى الرغم من اشتغاله بالحديث والفقهاء، فإن شهرته في العلم

(77/2)

بالمغازي والسير جعلته من علمائها البارزين، وتوفي في نهاية  
القرن الأول الهجري.

عروة بن الزبير بن العوام:

وُلد في (المدينة) سنة (26هـ)، وتلمذ على يد خالته أم المؤمنين  
السيدة (عائشة)، وروى عنها حديث النبي - صلى الله عليه وسلم -  
ومغازيه، واشتهر (عروة) بأنه من فقهاء (المدينة)، مثل (أبان بن  
عثمان)، غير أن شهرته بالمغازي والسير كانت أكبر، وكانت له  
مؤلفات كثيرة، ذكر (ابن سعد) في كتابه (الطبقات) أنه أحرقها في  
يوم (الحرة)، وهي الواقعة الحربية المشهورة سنة (63هـ) في  
(المدينة)، وقد حزن كثيراً على فقدها، وتوفي (عروة) سنة (94هـ).  
شرحيبيل بن سعد:

وهو ثالث ثلاثة من كتاب الطبقة الأولى من أهل (المدينة) في علم السيرة، نشأ في (المدينة)، وأخذ العلم عن الصحابة، حتى صار علماً من أعلام السير والمغازي، ويروى أنه كان أعلم الناس بالمغازي وبخاصة أهل (بدر)، وقد تُوفِّي سنة (123هـ).  
وهب بن منبه:

وُلد في قرية (زمار) بجوار (صنعاء) باليمن، وهو واحد من رجال الطبقة الأولى من علماء السيرة والمغازي، ومن العلماء الموسوعيين الذين كتبوا في علوم شتى، فكان مصدرًا من مصادر علوم أهل الكتاب، ومن الثقا في تاريخ الأنبياء.  
وقد أُلّف (وهب) مؤلفات كثيرة، لم يصل إلينا منها شيء، وإن وجدت مؤخرًا في مدينة (هيدلبرج) بألمانيا أوراق بردي، يقال إنها قطعة من كتاب المغازي لوهب بن منبه، تحوى معلومات عن (بيعة العقبة)، وحديث (قريش) في دار الندوة، وتديرها لقتل الرسول - صلى الله عليه وسلم -، والاستعداد للهجرة إلى (المدينة).  
ثم تلا هذه الطبقة طبقة أخرى، واصلت عملها في مجال التأليف والكتابة في السيرة والمغازي، من أبرزهم (محمد بن مسلم بن شهاب الزهري)، الذي امتاز على معاصريه بكثرة الكتابة والتدوين، غير أن مؤلفاته ضاعت ولم يصل إلينا منها شيء، وعلى الرغم من ذلك فإن علمه حفظه لنا تلاميذه الكثيرون، وكان من أعظمهم في مجال السيرة والمغازي:

(78/2)

محمد بن إسحاق:

وُلد في (المدينة) سنة (85هـ) في خلافة (عبدالمالك بن مروان)، وتتلّمذ لأبيه الذي كان محدثًا فقيهاً، ولغيره من كبار التابعين في (المدينة)، مثل: (القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق)، و (سالم بن عبدالله بن

عمر)، و (أبان بن عثمان بن عفان)، و (نافع مولى عبدالله بن عمر)،  
و (أبي سلمة بن عبدالرحمن بن عوف)، و (محمد بن مسلم بن شهاب  
الزهرى)، ثم رحل (ابن إسحاق) إلى (مصر) سنة (115هـ)، والتقى  
بعلمائها الكبار، وفي مقدمتهم: (يزيد بن أبي حبيب)، وزار  
الإسكندرية، ثم عاد إلى (المدينة) ليواصل دراسته، ثم رحل إلى  
(العراق) بعد قيام الدولة العباسية، وقضى فيها بقية حياته، حتى  
توفي سنة (151هـ).

وهناك إجماع بين العلماء على إمامة (ابن إسحاق) لعلم السيرة  
والمغازى، فقد حفظ في كتابه معظم روايات السابقين وآثارهم  
العلمية، وكل من أتى بعده عالية عليه في هذا العلم كما قال الإمام  
(الشافعى).

ولابن إسحاق كتابان:

أحدهما عنوانه (كتاب الخلفاء)، وهو مفقود حتى الآن.  
والآخر: كتاب (السيرة والمبتدأ والمغازى) وهو أقدم كتاب وصل إلينا  
عن سيرة الرسول ومغازيه، وأوفاهها علمًا، وإذا كان لم يظهر إلى  
الوجود كاملاً حتى الآن، فإنه جاء إلينا في صورة تكاد تكون كاملة  
عن طريق (عبدالملك بن هشام)، المتوفى سنة (218هـ)، الذى أخذ  
سيرة (ابن إسحاق) ورواها عن شيخه (زياد بن عبدالله البكائى)،  
الذى رواها مباشرة عن شيخه (ابن إسحاق).  
وقد قام (ابن هشام) بتهديب سيرة (ابن إسحاق)، وحذف كثيراً من  
الشعر والروايات التى لم يَرِ ضرورةً لذكرها، وقد عرف عمله هذا  
بسيرة (ابن هشام)، ولاشك أنه أسدى إلى العلم بصفة عامة وإلى  
علم السيرة والمغازى بصفة خاصة خدمة جليلة، بحفظه هذا السفر  
الضخم الذى كان مصدرًا لكل كتاب السيرة والمغازى بعد ذلك، مثل  
(الواقدي) المتوفى سنة (207هـ)، وتلميذه (محمد بن سعد) المتوفى

سنة (230هـ)، و (البلاذري) المتوفى سنة (279هـ)، و (ابن قتيبة) المتوفى سنة (276هـ)، و (الطبري) عمدة المؤرخين المسلمين على الإطلاق، المتوفى سنة (310 هـ = 922 م).

حركة الترجمة من اللغات الأجنبية:

حافظ الأمويون على التراث الثقافي للبلاد التي كانت تحت حكمهم، في (الإسكندرية) بمصر، و (بيروت)، و (دمشق) و (أنطاكية) في (الشام)، و (نصيبين) و (حوران) في (العراق)، و (جنديسابور) في فارس، وكانت تلك المدن هي أعظم مراكز العلم القديمة. وقد تأخر المسلمون في البداية في نظرهم إلى العلوم الأجنبية، نظرًا لانشغالهم بالجهاد وتوطيد الدولة الإسلامية، وتأسيس العلوم العربية والإسلامية التي سبق الحديث عنها، ولعدم معرفتهم على نطاق واسع باللغات الأجنبية.

ولا يعني ما سبق أن الأمويين أهملوا العناية بتلك العلوم الأجنبية،

وترجمة بعضها إلى اللغة العربية، فقد شغف (خالد بن يزيد بن معاوية)، وهو من أمراء (بنى أمية) بالكيمياء، التي كانت تسمى في ذلك الوقت (علم الصنعة)، وأحضر بعض العلماء من (مصر) إلى (دمشق)، ليترجموا له بعض الكتب من اليونانية إلى العربية، ويذكر (ابن النديم) في كتابه (الفهرست) أنه رأى بنفسه مؤلفات لخالد بن يزيد، منها: كتاب في الحرايات، وكتاب وصيته إلى ابنه في الصنعة.

ويذكر (القفطي) من مترجمي العصر الأموي الطبيب (ماسرجويه) الذي ترجم كتابًا في الطب للخليفة (عمر بن عبدالعزيز)، كما يذكر (ابن النديم) - أيضًا - أن (سالمًا) كاتب الخليفة (هشام بن عبدالمملك) ترجم رسائل (أرسطو) إلى تلميذه (الإسكندر الأكبر)، وهي رسائل في السياسة.

وعلى أية حال فإن ذلك كان بداية متواضعة لحركة الترجمة، فرضتها ظروف الدولة وصراعاتها في الداخل والخارج، وحسب الأمويين أنهم

حافظوا على تلك الثروة الهائلة، وصانوها من الضياع، ولولا ذلك ما وجد العلماء في العصر العباسي شيئاً يترجمونه.

(80/2)

## الفصل الثاني

خلفاء بني أمية

1 - معاوية بن أبي سفيان:

هو «معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبدمناف»، وأمه «هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف»، وولدت له من جهة أبيه وأمه مع نسب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في «عبد مناف»، ولُقِّبَ بِخَالِ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّ أخته «أم حبيبة» أم المؤمنين كانت زوجًا للنبي - صلى الله عليه وسلم - .  
وُلِدَ قَبْلَ الْهَجْرَةِ بِنَحْوِ خَمْسَةِ عَشْرَ عَامًا، وَأَسْلَمَ عَامَ الْفَتْحِ، سَنَةَ (8هـ)، مَعَ أَبِيهِ وَأَخِيهِ «يَزِيدَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ» وَسَائِرِ «قُرَيْشٍ»، وَأَصْبَحَ مِنْذُ أَنْ أَسْلَمَ كَاتِبًا مِنْ كِتَابِ الْوَحْيِ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَشَارَكَ فِي عَهْدِ «أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ» فِي حُرُوبِ الرِّدَّةِ، وَفِي فَتْحِ الشَّامِ تَحْتَ قِيَادَةِ أَخِيهِ الْأَكْبَرِ «يَزِيدِ»، وَأَبْلَى فِي ذَلِكَ بِلَاءً حَسَنًا.

وعينّه «عمر بن الخطاب» واليًا على الشام كله، بعد وفاة أخيه «ييزيد» سنة (18هـ)؛ لكفاءته الحربية ومهارته في السياسة والإدارة، وظل في ولايته مدة خلافة «عمر»، ثم أقره «عثمان بن عفان» (24 - 36هـ) على ولايته، فاستمر في سياسته الحكيمة، ضابطاً لعمله، حارساً لحدود إمارته، متصدياً بكل حزم لأعداء الإسلام، محبوباً من رعيته.

خلافته:

استقبل المسلمون خلافة «معاوية» استقبالا حسناً، واجتمعت عليه كلمتهم، وكان هو عند حسن الظن، جديراً بالمنصب الجليل، خبيراً بشئون الحكم وأمور السياسة، تدعمه في ذلك خبرة واسعة، وتجربة طويلة في الإدارة وسياسة الناس، امتدت إلى أكثر من عشرين عاماً، هي فترة ولايته على الشام، بالإضافة إلى تمتعه بكثير من الصفات الرفيعة، التي تؤهله ليكون رجل دولة من الطراز الأول.

وقد أجمع المؤرخون على أنه كان لمعاوية نصيب كبير من الذكاء والدهاء والسماحة والحلم والكرم، وسعة الأفق، وقدرة فائقة على التعامل مع الناس على قدر أحوالهم، أعداءً كانوا أم أصدقاء.

وقد أفرغ «معاوية» جهده كله، ومواهبه وطاقاته في رعاية مصالح المسلمين وتوطيد دعائم الدولة، ونشر الأمن والاستقرار في ربوعها،

(81/2)

---

واتبع في تحقيق ذلك سياسة حكيمة تقوم على دعائم ثابتة، تتلخص فيما يلي:

- العمل على تضميد جراح الأمة، وتسكين نفوسها، وتأليف قلوبها بعد فترة مضطربة من حياتها، والإحسان والتودد إلى كبار الشخصيات من شيوخ الصحابة وأبنائهم، وبخاصة آل بيت النبي
- صلى الله عليه وسلم -، وقد أدت هذه السياسة إلى تجميع القلوب حوله، وتحويل الخصوم إلى أعوان وأصدقاء.
- وحسن اختياره للولاة والحكام، لأنه أدرك أنه مهما أوتى من ذكاء وفطنة، ومقدرة وحكمة، فلن يستطيع أن يحكم الدولة وحده، ومن ثم لا بد له من أعوان، يساعدونه في إدارة البلاد على خير وجه، فاخترهم بعناية فائقة من بين أقوى الناس عقلاً، وأحسنهم سياسة، وأحزمهم إدارة، أمثال «عمرو بن العاص»، و «المغيرة بن شعبة»، و «زياد» و «عتبة» أخويه، وغيرهم.

- ومباشرة أعماله بنفسه، وتكريسه وقته وجهده للدولة وسياستها، وعدم ركونه إلى حياة الراحة والدعة، على الرغم من استعانته في إدارة الدولة بأعظم الرجال في عصره.

بهذه السياسة استقرت الدولة وسادها النظام، وعمَّها الأمن والسكينة، ولم يشذ عن ذلك سوى الخوارج، فأخذهم «معاوية» بالشدّة؛ حفاظاً على سلامة الأمة، واتسمت سياسته الخارجية وبخاصة تجاه الدولة البيزنطية بمواصلة الضغط عليها، ومحاصرة «القسطنطينية» - عاصمتها - أكثر من مرة، وجعلها تقف موقف الدفاع عن نفسها.

الفتوحات في عهد معاوية:

فتح شمالي إفريقيا:

وصل المسلمون في أواخر خلافة «عثمان» إلى «تونس» الحالية، لكنهم لم يواصلوا فتوحاتهم بسبب الفتن التي استمرت حتى نهاية خلافة «علي بن أبي طالب» (36 - 40هـ)، فلما استتب الأمر لمعاوية سنة (41هـ)، كانت جبهة «شمالي إفريقيا» أولى الجبهات التي اهتم بها، لأنها كانت تخضع لنفوذ الدولة البيزنطية التي عزم على تضييق الخناق عليها، فأرسل سنة (41هـ) حملة إلى «شمالي إفريقيا» بقيادة «معاوية بن حديج»، ثم أرسله على رأس حملة أخرى سنة

(82/2)

(45هـ)، فاستطاع أن يفتح العديد من البلاد، مثل «جلولاء»

و «سوسة».

- فتوحات عقبة بن نافع:

أسند «معاوية بن أبي سفيان» قيادة الجيش الفاتح إلى «عقبة بن نافع»، وهو واحد من كبار القادة الذين لمعت أسماءهم في الفتوحات الإسلامية في العصر الأموي، ولم يكن «عقبة» جديدًا على

الميدان، فقد شارك في فتح تلك البلاد منذ أيام «عمرو»، واكتسب خبرة كبيرة، فواصل فتوحاته في هذه الجبهة. ولما رأى «عقبة» اتساع الميدان، وبعد خطوط مواصلاته عن قواعده في «مصر»، شرع في بناء مدينة تكون قاعدة للجيش، ومركزاً لانطلاقاته وإمداداته، فبنى مدينة «القيروان» (50 - 55هـ) بإذن من «معاوية»، وكان لهذه المدينة شأن عظيم في الفتوحات وفي الحركة العلمية، وأثناء تأسيسها كان «عقبة» يرسل السرايا للفتح، ويدعو الناس إلى الإسلام، فدخل كثير من «البربر» - سكان البلاد - في الإسلام.

- فتوحات أبي المهاجر:

ظل «عقبة بن نافع» يواصل فتوحاته ونشر الإسلام حتى عزله «معاوية» وولّى مكانه قائداً آخر، لا يقل عنه شجاعة وإقداماً، وحباً للجهاد في سبيل الله، هو «أبو المهاجر دينار»، وكان يتمتع إلى جانب مهارته العسكرية بقدر من الكياسة وحسن التصرف والفتنة، فقد أدرك أن «البربر» سكان الشمال الإفريقي قوم أشداء، يعتدّون بكرامتهم ويجرّسون على حريتهم كالعرب تماماً، وأن سياسة اللين والتسامح قد تجدى معهم أكثر من سياسة الشدة. وقد نجحت سياسة «أبي المهاجر» في اجتذاب البربر إلى الإسلام، وبخاصة عندما أظهر تسامحاً كبيراً مع زعيمهم «كسيلة بن لمزم»، وعامله في إجلال وإكرام، فأسلم الرجل متأثراً بتلك المعاملة، وأسلم بإسلامه طائفة كبيرة من قومه.

وفي مقابل تلك السياسة المتسامحة مع «البربر» كان «عقبة» حازماً في تعامله مع الدولة البيزنطية التي حاولت أن تحتفظ بالشمال الإفريقي بعد أن فقدت «مصر» والشام، لكنها لم تنجح، فقد حقق

«أبو المهاجر» نصرًا عسكريا عليها، مكَّنه من السير إلى الغرب، فاتحًا معظم «المغرب الأوسط» - الجزائر الحالية - ووصل إلى «تلمسان».

معاوية ونشأة الأسطول الإسلامي:

وجد المسلمون أنفسهم بعد عشر سنوات من بداية الفتوحات الإسلامية قد سيطروا على الشواطئ الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط؛ بالإضافة إلى سيطرتهم شبه الكاملة على «البحر الأحمر»، دون أن تكون لديهم قوة بحرية، فهم ليسوا أهل بحر، بل هم أهل صحراء، وإذا كانت لدى بعضهم خبرة بحرية كأهل «اليمن» و «الخليج»، فهي خبرة تجارية وليست قتالية، ولذا كان من الضروري أن يمتلكوا قوة بحرية تمكنهم من الدفاع عن الشواطئ التي امتلكوها.

وكان «معاوية بن أبي سفيان» والى الشام أول من فطن إلى ذلك، ورفع الأمر إلى الخليفة «عمر بن الخطاب»، شارحًا له أهمية ذلك، لأنه عانى في فتح مدن الشام الساحلية عناءً شديدًا بسبب وجود الأسطول البيزنطي، غير أن «عمر بن الخطاب» رفض الفكرة تمامًا، خوفًا على المسلمين من أهوال البحار؛ إذ لم تكن للمسلمين خبرة بالحروب البحرية، كما كان يرى أن الوقت لا يزال مبكرًا للدخول في ذلك الميدان الخطر، ولكن أمر «معاوية» أن يحصن الشواطئ بالحصون، وبملأها بالمقاتلين، فامتثل «معاوية».

وفي خلافة «عثمان بن عفان» (24 - 35هـ) رفع إليه «معاوية» طلبه القديم بإنشاء أسطول بحري، فرفض «عثمان» في بادئ الأمر، لكنه عاد فوافق بعد ما اقتنع بأهمية المشروع، لكنه اشترط أن يكون الجهاد البحري تطوعًا، ولا يكره عليه أحد.

بدأ «معاوية» على الفور في تحقيق مشروعه، فشرع في بناء الأسطول مستغلًا كل الإمكانيات الموجودة في «مصر» والشام لصناعة السفن، ولم تمضِ أربع سنوات حتى ظهر إلى الوجود أسطول إسلامي كبير، نجح في فتح «جزيرة قبرص» سنة (28هـ)، وهزم الأسطول البيزنطي في موقعة «ذات الصواري».

معاوية وحصار القسطنطينية:

وضع «معاوية بن أبي سفيان» منذ أن ولى الخلافة أهدافاً سياسية،

(84/2)

كان في مقدمتها فتح مدينة «القسطنطينية»، عاصمة الدولة البيزنطية، العدو اللدود للدولة الإسلامية، ولعله كان يستهدف بسقوطها سقوط الدولة نفسها، كما هو الحال بالنسبة إلى دولة الفرس التي لم تستطع الصمود بعد سقوط «المدائن» عاصمتها. وكانت «القسطنطينية» تُعدُّ من أمنع المدن في العالم، لموقعها الفريد على القرن الذهبي الممتد في مياه «خليج البسفور»؛ حيث تحيط بها المياه من الشرق والشمال والجنوب، أما في الناحية الغربية المتصلة بالبر، فقد أقام الأباطرة البيزنطيون سلسلة من الأسوار والأبراج حمايتها من أية هجمات. ولم يثن ذلك كله عزيمة «معاوية» عن فتح عاصمة البيزنطيين، فاستولى على الجزر البيزنطية الواقعة شرقي «البحر المتوسط». مثل: «رودس»، و «كريت»، و «أرواد»؛ ليتخذها محطات للأسطول الإسلامي، تمهيداً لغزو «القسطنطينية». ولما أكمل استعداداته جهز أول حملة بحرية إليها، بقيادة «سفيان بن عوف» وجعل ابنه «يزيد» أميراً شرفياً عليها، سنة (49هـ)، وشارك في هذه الحملة عدد من الصحابة، مثل «عبدالله بن عمر»، و «عبدالله بن عباس»، و «أبي أيوب الأنصاري». ولم تنجح هذه الحملة في تحقيق أهدافها؛ بسبب مناعة المدينة، وبرودة الجو الشديدة على العرب، فعادوا بعد أن استشهد عدد من الأبطال، منهم «أبو أيوب الأنصاري» الصحابي الجليل. وقد تنبأ الرسول - صلى الله عليه وسلم - بهذه الغزوة، ووعدها أهلها المغفرة، فقال: «أول جيش يغزون مدينة قيصر مغفور لهم» [صحيح

البخارى].

الحصار الثانى:

على الرغم من عدم التوفيق الذى لحق الحملة الأولى، فإن «معاوية» لم ييأس، وأعد حملة أخرى، وفرض الحصار على المدينة سبع سنوات (54 - 60هـ)، واقتصرت العمليات الحربية على فصلى الربيع والصيف؛ لصعوبة القتال فى الشتاء.

وقد أبلى المسلمون فى ذلك الحصار بلاءً حسنًا، وتحملوا الصعاب والمشقات، لكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها، فقد فاجأ

(85/2)

البيزنطيون المسلمين بسلاح لم يكن لهم به عهد، عُرف باسم «النار الإغريقية» وهو مركب كيميائى يتكوّن من النفط والكبريت والقار، كانوا يشعلونه بالنار، ويقذفون به السفن الإسلامية، فتشتعل بما النيران، ولم يجد «معاوية» بدًّا من رفع الحصار وعودة الجيش إلى «دمشق».

- ثورات الخوارج فى عهد معاوية:

لجأ الخوارج إلى القوة واستخدام السيف فى فرض أفكارهم وآرائهم على الناس، وأبدوا فى صراعهم الدموى مع الدولة الأموية كثيرًا من ضروب الشجاعة والتضحية والإقدام وكانت الأعداد القليلة منهم تهزم جيوشًا جرارة للدولة، ولو أن شجاعتهم وبطولاتهم اتجهت اتجاهاً صحيحًا، ووجدوا جهودهم مع الدولة الأموية فى مجال الفتوحات الإسلامية ومحاربة أعداء الإسلام، لكان ذلك أجدى وأنفع، والعجيب أن أغلبهم لم يكونوا من طلاب الدنيا، والتطلع إلى المال والمناصب، وإنما كانوا طلاب آخرة، ولكنهم أخطئوا الطريق إليها، كما قال لهم «عمر بن عبدالعزيز».

أعلن الخوارج وبخاصة «الأزارقة» حربًا شعواء على الدولة الأموية

منذ قيامها، ولم تفلح معهم سياسة «معاوية بن أبي سفيان» - رضى الله عنه - القائمة على التسامح وسعة الأفق، فثاروا في وجهه سنة (41هـ) - أى عام الجماعة - قبل أن يغادر «الكوفة»، وكان أول من ثار عليه «عبدالله بن أبي الحوساء» فى مكان قريب من «الكوفة»، ثم ثار عليه «المستورد بن عُلمنة الطائى». وكان عجبياً أن تشب هذه الثورات فى «الكوفة» أيام واليها «المغيرة بن شعبة» الذى انتهج سياسة متسامحة مع الناس كلهم، ولم يشأ أن يزيد فى آلام الناس فى «العراق»، أو ينكأ جروحهم بعد الحروب الكثيرة التى عانوها فى «الجملى» و «صفين». وكان حرياً بالخوارج أن يركنوا إلى الهدوء ويتعدوا عن سياسة العنف إزاء سياسة التسامح التى انتهجها «المغيرة»، لكنهم تمردوا وثاروا، فاضطر «المغيرة» إلى التصدى لهم والقضاء على ثوراتهم.

(86/2)

---

ثم ازداد ضغط الدولة عليهم منذ أن ولى «زيد بن أبى سفيان» ولاية «البصرة» سنة (45هـ) فأخذ يتعقبهم فى «البصرة»، فى الوقت الذى يتعقبهم فيه «المغيرة بن شعبة» فى «الكوفة»، حتى ضيقا عليهم الخناق، وضربا عليهم بيد من حديد، حتى ضعفت شوكتهم. وتوفي «معاوية» فى شهر رجب سنة (60هـ).

(87/2)

---

2 - يزيد بن معاوية (60 - 64 هـ):

هو «يزيد بن معاوية بن أبى سفيان» وأمه «ميسون بنت مخلول الكلبيّة». ولد فى «دمشق» سنة (26هـ) فى خلافة «عثمان بن عفان»، حين كان أبوه والياً على الشام، فنشأ فى بيت إمارة

وجاه، وقد عُنى أبوه بتربيته تربية عربية إسلامية، فأرسله وهو طفل إلى البادية عند أخواله من «بني كلب»، فشب شجاعاً كريماً، أبي النفس، عالمي الهمة، شاعراً فصيحاً، وأديباً لبيباً، حاضر البديهة، حسن التصرف في المواقف.

ويعدّه العلماء من الطبقة الأولى من التابعين، ولبعضهم رأى حسن فيه مع أخذهم عليه ميله إلى حياة اللهو في صدر شبابه، فلقبه «الليث بن سعد» فقبه «مصر» الكبير بلقب «أمير المؤمنين»، وقال عنه «ابن كثير»: «وقد كان في يزيد خصال محمودة من الكرم والفصاحة والشعر والشجاعة، وحسن الرأي في الملك، وكان ذا جمال، حسن المعاشرة».

ومنذ أن عزم أبوه على توليته الخلافة بعده أخذ يحمله على الجد والحزم، وترك حياة اللهو والترف، استعداداً لتولى هذا المنصب الجليل، وعهد إليه بالقيام بالمهام الصعبة، فأرسله على رأس الحملة العسكرية التي وجهها في سنتي (49 - 50 هـ) لحصار القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، وكان تحت قيادته بعض كبار الصحابة. توليته الخلافة:

كان «يزيد» غائباً عن «دمشق» عند وفاة أبيه في رجب سنة (60هـ)، فأخذ البيعة له «الضحاك بن قيس»، ولما حضر جاءته الوفود وأمراء الأجناد، لتعزيتته في أبيه وتهنئته بالخلافة وتجديد البيعة له. وقد ترسّم «يزيد» خطى أبيه، واستوعب وصيته له التي توضّح له معالم طريقه السياسي، وتبيّن له كيفية التعامل مع المشكلات وأحوال الرعية، وهذه الوصية تُعدُّ من أهم الوثائق السياسية في فن الحكم وإدارة الدول.

حافظ «يزيد» على سلامة الدولة وهيبتها، وحمى حدودها، واستمرت حركة الفتوحات في عهده، فوصل «عقبة بن نافع» إلى شواطئ «الخيوط الأطلسي»، مخترباً الشمال الإفريقي كله، وعبرت طلائع

الفتح نهر «جیحون» لفتح بلاد «ما وراء النهر» (آسيا الوسطى).

الفتوحات الإسلامية في عهد يزيد:

– ولاية عقبة بن نافع الثانية:

أعاد الخليفة «يزيد بن معاوية» «عقبة بن نافع» مرة أخرى إلى «شمال إفريقيا»، فواصل جهود «أبي المهاجر»، وقام بحملته التي اخترق بها الساحل كله في شجاعة وجرأة حتى بلغ شاطئ «المحيط الأطلسي»، وأوطأ أقدام فرسه في مياهه، وقال قولته المشهورة: «اللهم اشهد أني قد بلغت الجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد، أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحدًا دونك».

وفي أثناء عودة «عقبة» من غزوته المظفرة تعرض لكمين نصبه له البيزنطيون بمساعدة «كسيلة» زعيم «البربر»، الذي كان «عقبة» قد أهانه، فبينما هو يسير في عدد قليل من جنوده يبلغ زهاء ثلاثمائة جندي انقضت القوات البيزنطية عليه وعلى من معه عند بلدة تمودة فاستشهدوا جميعًا سنة (63هـ).

ومما أسهم في وقوع الكارثة أن «عقبة» قد وقع في خطأ عسكري كبير، إذ سرح معظم جيشه، وأمرهم بالسير أمامه، فابتعدوا عنه لمسافة طويلة، مما جعل الجيش البيزنطي ينفرد به ويهزمه هزيمة ثقيلة أضاعت كل الجهود التي بذها المسلمون في فتح تلك البلاد، واضطر المسلمون إلى الارتداد إلى الخلف، ولم يستطيعوا الاحتفاظ بالقيروان، وعادوا إلى «برقة».

ثم تسلّم «زهير بن قيس البلوي» قيادة الجيش خلفًا لعقبة بن نافع سنة (63هـ)، وعزم على الثأر من البيزنطيين و «البربر»، لكنه لم يستطع أن يحقق هدفه إلا في سنة (69هـ)، نظرًا لانشغال الدولة الأموية بالأحداث والفتن الخطيرة التي حدثت في الداخل بعد وفاة «يزيد بن معاوية» سنة (64هـ).

الثورات في عهد يزيد بن معاوية:

- ثورة الحسين بن علي:

لم يقيم الشيعة بأى ثورة ضد «معاوية بن أبي سفيان»، طوال مدة خلافته (41 - 60هـ)، وإنما اندلعت أولى ثوراتهم بقيادة «الحسين بن علي» في خلافة «يزيد بن معاوية»، بعد أن رفض «الحسين» بيعته

(89/2)

«يزيد»، وكان قد رفض من قبل تعيينه وليا للعهد في زمن أبيه. اعتصم «الحسين» بمكة المكرمة، وهناك توالى عليه رسائل أهل «الكوفة» يطلبون منه الحضور إليهم؛ ليبايعوه بالخلافة، فاستجاب لهم على الرغم من تحذير «ابن عباس» - وهو من أقرب الناس إليه - من الذهاب إلى «العراق»، لأنها دعوة من لا أمان أو عهد لهم، وقد خذل أهل العراق أباه من قبل، لكنه أصر على الذهاب، وأرسل - قبل أن يتحرك- ابن عمه «مسلم بن عقيل بن أبي طالب» إلى «الكوفة»، ليستطلع الأمر، ويكتب له بحقيقة الموقف هناك. وصل «مسلم بن عقيل» إلى «الكوفة»، فاستقبله الناس بحماس شديد وبحفاوة بالغة، وبايعه منهم نحو ثمانية عشر ألفاً، فاندفع بهم بعد أن تغافل «النعمان بن بشير» والى «الكوفة» عنه، فكتب إلى «الحسين» يطمئنه، ويطلب منه الحضور إلى «الكوفة».

ولما علم «يزيد» بما فعله «مسلم» في «الكوفة»، اضطر إلى عزل «النعمان بن بشير» عن ولايتها لتغاضيه عما يقوم به «مسلم»، وولى مكانه «عبيدالله بن زياد»، فحضر على الفور، وقبض على «مسلم» وقتله بعد أن انفضت عنه الآلاف التي تجمعت حوله من أهل «الكوفة»، وتركوه يلقي مصرعه وحده.

وفي أثناء هذه الأحداث المتلاحقة كان «الحسين» في طريقه إلى «الكوفة»، فلما وصلته أخبار «مسلم»، وتخاذل الكوفيين عنه، قرر العودة إلى «مكة»، لكن إخوة «مسلم» أصرروا على مواصلة السير،

طلبًا لئلا أخيبهم، فلم يجد «الحسين» بُدًا من مطاوعتهم، وكان هذا من الأخطاء الكبيرة، فالذى قتل «مسلم» دولة لا فرد، وليس في استطاعتهم - وهم قلة في عددهم - التصدي للدولة، فقد كانوا نحو سبعين رجلاً.

واصل «الحسين» سيره حتى بلغ «كربلاء» بالقرب من «الكوفة»، فوجد جيشاً كبيراً في انتظاره بقيادة «عمر بن سعد بن أبي وقاص» يزيد عدده عمًا معه من أفراد بنحو خمسين مرة، وعسكرت القوتان دون تكافؤ بينهما في القوة، فعرض «الحسين» على «عمر بن سعد»

(90/2)

ثلاثة حلول للخروج من هذا المأزق، إمّا أن يتركه يعود إلى «مكة»، وإما أن يتركه يذهب إلى ثغر من ثغور الإسلام فيجاهد في سبيل الله، وإما أن يدعه يذهب إلى «دمشق» لمقابلة الخليفة «يزيد بن معاوية» ويضع يده في يده.

وكانت هذه الخطوة من «الحسين» - رضى الله عنه - طيبة؛ لأن ذلك معناه أنه ألقى ثورته وجنح إلى السلام، كما سرّ بهذه الخطوة «عمر بن سعد»، لأنه لم يكن راعبًا في مواجهة «الحسين»، ولكن عليه أن يستشير «عبيد الله بن زياد»، فهو الوالى وصاحب القرار، فرحب بالفكرة لأول وهلة، لأن فيها حقن الدماء، وبخاصة دم «الحسين» حفيد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، غير أن شيطانًا من شياطين الإنس يُدعى «شمر بن ذى الجوش» أشار على «ابن زياد» ألا يقبل من «الحسين» إلا أن يسلم نفسه باعتباره أسير حرب، وأن يرسله بهذه الصفة إلى الخليفة «يزيد بن معاوية» في «دمشق». وكان من الطبيعى أن يرفض «الحسين بن على» هذا الطلب، فالموت عنده أهون عليه من هذا كما قال هو نفسه، ولو أن مشركًا أو ذميا كان في مكان «الحسين»، وعرض عليهم هذه الحلول السلمية لكان

عليهم قبولها، لكن «ابن زياد» خضع لهذه الفكرة الشيطانية، ورفض «الحسين» تسليم نفسه أسير حرب، فدارت معركة غير متكافئة بين الفريقين في «كربلاء» في العاشر من الحرم سنة (61هـ)، استشهد فيها «الحسين»، رضى الله عنه، وقتل من كان معه من أهل بيته، ولم ينج من القتل إلا ابنه «علي» الملقب بزین العابدین. وكانت نتيجة المعركة مأساة مروعة، أدمت قلوب المسلمين جميعًا حزنًا على «الحسين»، ریحانة الرسول - صلى الله عليه وسلم -، كما كانت سببًا من أسباب زوال الدولة الأموية، وامتد أثرها في تفريق كلمة المسلمين إلى يومنا هذا. ولاشك أن مسئولية دم «الحسين» تقع في المقام الأول على أهل «الكوفة» الذين أخرجوه ثم خذلوه، ولذلك يروى أن آخر جملة قالها

(91/2)

قبل وفاته: «اللهم احكم بيننا وبين قوم دعونا لينصرونا فقتلونا»، ثم على «عبيدالله بن زياد» الأمر المباشر بقتاله، أما «يزيد بن أبي سفيان» فإنه - وإن لم يأمر بقتل «الحسين»، ولم يسعد بذلك - كان يجب أن تكون أوامره صريحة بعدم قتال «الحسين»، لاسيما أن أباه «معاوية» قد أوصاه بذلك.

ثورة الخوارج:

استأنف الخوارج نشاطهم على نحو أعنف بعد وفاة «معاوية» سنة (60هـ)، فأرسل إليهم «يزيد بن معاوية» حملة بقيادة «عبيدالله بن زياد»، فتصدى لهم بقوة، ثم ازدادت ثوراتهم بعد وفاة «يزيد» سنة (64هـ)، مستغلين في ذلك حالة الفوضى التي سادت «العراق». وكان يمكن لعهد «يزيد» أن يكون امتدادًا لعهد أبيه، استقرارًا واستتبابًا، لولا عدة حوادث خطيرة، عكّرت صفو الأمة الإسلامية، وألقت بظلال سوداء على عهد «يزيد»، وطمست إنجازاته، منها:

حادثة استشهاد «الحسين بن علي» - رضی الله عنهما - في «كربلاء» سنة (61هـ) وغزو «المدينة المنورة» سنة (63هـ) لقمع الثورة التي قام بها أهلها ضده دون سبب قوى، ثم غزو «مكة المكرمة» للقضاء على دولة «عبدالله بن الزبير» سنة (64هـ). ولم تطل أيام «يزيد»، فقد توفي في شهر ربيع الأول سنة (64هـ)، وهو في الثامنة والثلاثين من عمره وتولى بعده الخلافة ابنه معاوية بن يزيد وهو «معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان»، وأمه «أم هانم بنت أبي هانم بن عتبة بن ربيعة»، ومع أنه لم ينهض بعمله باعتباره خليفة، فإنه أخذ مكانه في سلسلة خلفاء الدولة الأموية، ويسميه بعض المؤرخين «معاوية الثاني»؛ لأن أباه قد عهد إليه بالخلافة بعده، طبقاً لنظام الوراثة الذي أسسه جده «معاوية»، وقد بايعه الناس بعد وفاة أبيه، لكنه أعلن في صراحة أنه عاجز عن النهوض بمسئولية الخلافة، وعليهم أن يبحثوا عن شخص كفء من أهل الصلاح والتقوى لتحمل عبء مسئولية منصب الخلافة. ولم تطل حياة ذلك الشاب الورع، حيث تُوفِّي بعد أبيه «يزيد» بنحو

(92/2)

---

أربعة أشهر، أو بعد أربعين يوماً في قول آخر.

(93/2)

---

3 - مروان بن الحكم (64 - 65هـ):

هو «مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس»، ولد في السنة الأولى من الهجرة، ولذلك يعده بعض العلماء من الصحابة، وهو ابن عم الخليفة «عثمان بن عفان» رضی الله عنه، وكان كاتبه وأمين سره، وولاه «معاوية بن أبي سفيان» في خلافته «المدينة المنورة»

أكثر من مرة؛ ثقة منه بقدرته وخبرته السياسية التي اكتسبها طوال عمله مع «عثمان».

وكان «مروان» أثناء ولايته على «المدينة» يتحرّى العدل، ولا يصدر أمرًا إلا بعد استشارة صلحاء الناس، ومن مآثره التي جلبت ثناء الناس عليه أنه جمع صيغان «المدينة» التي يكيلون بها، وأخذ بأعدائها وأضبطها كيلا، فنسبه الناس إليه، وقالوا: «صاع مروان»، وقال عنه الإمام «أحمد بن حنبل»: «كان عند مروان قضاء - يقصد كان عادلا في قضاائه - وكان يتبع قضايا عمر بن الخطاب»، ويصفه المؤرخون بالشجاعة والشهامة، والدهاء وحسن السياسة.

توليته الخلافة:

اضطرب أمر «بنى أمية» بعد رفض «معاوية بن يزيد» أن يتولى الخلافة، أو يعهد بالأمر إلى أحد من أهل بيته، وفي هذه الأثناء أعلن «عبدالله بن الزبير» نفسه خليفة للمسلمين سنة (64هـ) في «مكة»، فبايعه «العراق» و «مصر»، حتى الشام نفسها معقل الأمويين بايعه معظم أقاليمها، وبدا الأمر كما لو أن دولة الزبيريين قامت، ودولة الأمويين بادت.

كان «مروان بن الحكم» وبنوه يعيشون في «المدينة المنورة»، فأخرجهم منها «عبدالله بن الزبير» فرحلوا إلى الشام، حيث تجمع هناك كل أنصار «بنى أمية» وولائهم، من أمثال: «عبيد الله بن زياد»، و «الحصين بن نمير»، فأخذوا يشجعون «مروان» على تحمل قيادة البيت الأموي، ومنع دولتهم من السقوط.

وبعد مداولات طويلة بين زعماء القبائل استغرقت عدة شهور عقد مؤتمر في «الجابية» بالقرب من «دمشق»، في شهر ذى القعدة سنة (64هـ)، بويع فيه «مروان بن الحكم» بالخلافة، باعتباره أكبر أبناء البيت الأموي سنا، وأكثرهم تجربة.

كان على «مروان» بعد بيعته أن يثبت جدارته بهذا المنصب وأهليته له، بأن يسترد نفوذ «بنى أمية» وسلطانهم في الشام، معقلهم الرئيسي، الذي خضع معظمه لعبدالله بن الزبير، ومن ثم خاض «مروان» مع أنصار «ابن الزبير» معركة كبيرة في «مرج راهط»، شرقي «دمشق» في نهاية سنة (64هـ)، وكان النصر فيها حليف «مروان»، وبداية الطريق لاستعادة الأمويين لدولتهم التي كانت قاب قوسين أو أدنى من الزوال.

ولم يضع «مروان» وقتًا بعد هذا الانتصار، فعاد إلى «دمشق»، حيث تلقى وفود المهنتين والمبايعين. وبعد فترة قصيرة اطمأن فيها على استقرار الأوضاع في الشام، ترك ابنه «عبدالمملك» في «دمشق» نائبًا عنه في حكمها، وتوجه إلى «مصر» التي كانت تحت حكم «عبدالله بن الزبير»، فاستردها بسهولة، وأقام بها نحو شهرين، رتب فيها أوضاعها، وعين ابنه «عبدالعزیز» واليًا عليها، وعاد هو إلى «دمشق»، ليستأنف صراعه مع «ابن الزبير»، لكن الموت عاجله سنة (65هـ) بعد حكم دام عشرة شهور.

ثورة التوابين في عهد مروان بن الحكم:

«التوابون» مجموعة من الشيعة الذين أحسوا بخطنهم الفادح حين دعوا «الحسين» إلى «الكوفة» ليبياعوه خليفة وإمامًا، ثم خذلوه لما حضر إليهم، لذلك قرروا الثأر له، وسموا أنفسهم التوابين، أى الذين تابوا عن تقصيرهم في نصرته، وتزعمهم «سليمان بن سرد الخزاعي».

وقد اجتمع لهم عدة آلاف من الناس، قيل إنهم بلغوا ستة عشر ألفًا، وبياعوا «ابن سرد» على الموت طلبًا لثأر «الحسين»، لكنهم انفضوا عنه حين جدَّ الجدد، كما انفضوا عن «الحسين» من قبل، ولم يبق معه سوى نحو ثلاثة آلاف، توجه بهم لقتال الأمويين، فتصدى لهم «عبيدالله بن زياد» في جيش ضخم، بلغ عدده نحو ستين ألفًا، فهزمهم وقتل معظم التوابين وعلى رأسهم زعيمهم «سليمان بن سرد»، في مكان يُسمى «عين الورد» في شمالي «العراق» سنة

(65هـ).

وهكذا أضيفت إلى مآسى المسلمين مأساة أخرى، أذى إليها

(95/2)

الاندفاع الأهوج، والحماس الطائش من جانب التّوابين، وهم يعلمون أنهم يواجهون بأعدادهم القليلة جيوش الدولة التي لن تتهاون مع من يخرج عليها ويهدد أمنها.

(96/2)

4 - **عبدالمملك بن مروان (65 - 86هـ):**

هو «عبدالمملك بن مروان بن الحكم»، ولد في «المدينة» سنة (26هـ) في خلافة «عثمان بن عفان»، ونشأ بها نشأة علمية، وتتلّمذ لكبار الصحابة، من أمثال «عبدالله بن عمر»، و «أبي سعيد الخدرى»، و «أبي هريرة» رضى الله عنهم، وبرع في الفقه حتى عُدَّ من فقهاء «المدينة»، وقد تواترت الأخبار عن فقهه وغزارة علمه ورجاحة عقله، قال عنه «الذهبي»: «ذكرته لغزارة علمه»، وقال «الشعبي»: «ما جالستُ أحدًا إلا رأيت لى الفضل عليه إلا عبدالمملك بن مروان»، واحتج الإمام «مالك بن أنس» بقضائه.

ومكث «عبدالمملك» معظم حياته قبل أن يلي الخلافة في «المدينة المنورة»، لم يغادرها إلا لحج أو جهاد، فقد اشترك في فتح «شمال إفريقيا» في عهد «معاوية بن أبي سفيان».

عبدالمملك ووحدة الدولة الإسلامية:

تولى «عبدالمملك» الخلافة بعد وفاة أبيه في رمضان سنة (65هـ)، ووجد الدولة الإسلامية قد تنازعتها خمس دول: دولته هو، وتتكون من «مصر» والشام وعاصمتها «دمشق»، ودولة «عبدالله بن الزبير»

وتتكون من «الحجاز» وبعض «العراق» و «بلاد فارس»، وعاصمتها «مكة المكرمة»، ودولة للشيعة أقامها «المختار بن أبي عبيد الثقفي» في جزء من «العراق»، وعاصمتها «الكوفة»، ودولة للخوارج الأزارقة في إقليم «الأهواز»، جنوبي شرقي «العراق»، ودولة للخوارج النجدات في إقليم «اليمامة» في شرقي الجزيرة العربية وجنوبي شرقيها.

رأى «عبدالمملك» أن هذه الدول التي برزت خلال الفوضى التي عمّت بعد وفاة «يزيد بن معاوية» لا رابط يجمع بينها سوى العداء لبني أمية، فتركهم في البداية يأكل بعضهم بعضاً، فاشتبك «ابن الزبير» مع «المختار الثقفي»، وقضى عليه تماماً حين أرسل له جيشاً بقيادة أخيه «مصعب بن الزبير»، فتمكن من هزيمته سنة (67هـ)، وبذلك تخلص «عبدالمملك» من واحد من أقوى خصومه دون أن يبذل أى جهد. وكان المختار بن عبيدالله من الشخصيات التي كانت تسعى إلى

(97/2)

---

السلطة بأى ثمن، تقلّب من العداء لآل البيت، إلى الاتصال بعبدالله بن الزبير حين أعلن نفسه خليفة سنة (64هـ)، فلما لم يجد تجاوباً به، انطلق إلى «الكوفة» التي كانت تموج بالفوضى بعد هزيمة التوابين فادّعى أنه جاء مندوباً من عند «محمد بن علي بن أبي طالب»، المشهور بابن الحنفية للمطالبة بدم الحسين والأخذ بثأره.

ولم يكن «المختار» صادقاً في دعواه، وإنما هداه تفكيره الانتهازي إلى استخدام مأساة «الحسين» ذريعة للوصول إلى مطالبه، وكان الشيعة في تلك الفترة يفتقرون إلى الزعامة بعد مقتل «سليمان بن سرد الخزاعي»، فلما وجدوا «المختار» - وكان بارعاً في الحيل وخداع الناس - التفوا حوله وأسلموا له القيادة.

ازداد نفوذ «المختار» بعد أن حاله التوفيق فانتصر على جيش

أموى، وقتل قائده «عبيدالله بن زياد» في معركة عند نهر «الخازر» بالقرب من «الموصل» سنة (67هـ)، ولما كان «ابن زياد» يعد المسئول الأول عن قتل «الحسين» في «كربلاء»، فقد دعم مقتله «المختار»، وزاد من ثقة الشيعة به ووقوفهم خلفه، فاستفحل أمره، وعظم شأنه، واتسع نفوذه، وقامت له دولة في «الكوفة»، اتسعت رقعتها لتشمل معظم «العراق».

لم ينعم «المختار» بدولته طويلاً، فقد أزعج صعود أمره «آل الزبير» في «مكة»، و «عبدالمملك بن مروان» في «دمشق»، فأرسل «عبدالله بن الزبير» أخاه «مصعباً» بجيش ضخم، قضى به على «المختار» في سنة (67هـ).

وانتهت بذلك حركة واحد من كبار المغامرين المتطلعين إلى السلطة في العصر الأموى، ولم تنفعه مزاعمه وادعاءاته حب آل البيت والثأر لقتلهم، فقد انكشفت حيله، وتخلّى عنه الشيعة وأسلموه إلى مصيره المحتوم.

عبد الله بن الزبير والدولة الأموية:

هو «عبدالله بن الزبير بن العوام»، وأمه «أسماء بنت أبي بكر الصديق»، ولد في العام الأول من الهجرة، وهو أول مولود للمسلمين في «المدينة»، وكانت سعادتهم به عظيمة، لأن اليهود أشاعوا أنهم

(98/2)

سحروا المسلمين، فلن يُولد لهم ولد.

نشأ «عبدالله» نشأة إسلامية خالصة في بيئة طيبة طاهرة، معطرة بعبق النبوة، فأبوه «الزبير» ابن عمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «صفية بنت عبد المطلب»، و «أبو بكر الصديق» جد «عبدالله» لأمه، و «عائشة» أم المؤمنين خالته، وكانت تكنى به، ويقال لها: «يا أم عبد الله»، لأنها لم تنجب ولداً من رسول الله - صلى الله عليه وسلم -،

ويُعد من الصحابة، لأنه عاش نحو عشر سنوات في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم -.

كان «عبد الله» شجاعاً، ذكي الفؤاد، معتدا بنفسه، ذا طموح كبير، شارك في الفتوحات وهو حدث صغير، فحضر معركة «اليرموك» سنة (13هـ)، واشترك في «فتح شمالي إفريقيا» في خلافة «عثمان بن عفان»، رضى الله عنه، ولما حضر «عثمان» في داره كان «عبد الله» من المدافعين عنه، وحضر معركة «الجمل» مع أبيه.

ولما ولي «معاوية بن أبي سفيان» الخلافة سنة (41هـ) استمال إليه «عبد الله بن الزبير» وأحسن إليه كما أحسن إلى غيره من الصحابة وأبنائهم، فقابل ذلك بحسن الطاعة، بل شارك في الغزو تحت قيادة ابنه «يزيد» في فتح «القسطنطينية»، وظلت علاقته بمعاوية على ما يرام إلى أن أخذ البيعة لابنه «يزيد»، فأظهر «عبد الله» معارضته الشديدة لذلك.

وبعد وفاة «معاوية بن أبي سفيان» رفض أن يبايع «يزيد»، وركن إلى «مكة المكرمة»، وسمى نفسه «العائد بالبيت»، لكنه لم يعلن رغبته في الخلافة لوجود «الحسين بن علي»، فلما استشهد في «كربلاء» وتوفي «يزيد بن معاوية» بعد ذلك سنة (64هـ) أعلن نفسه خليفة في «مكة».

ولما سادت الفوضى الدولة الأموية بعد موت «يزيد» ورفض ابنه «معاوية» قبول الخلافة، تلفت الناس حولهم، فلم يجدوا أفضل من «عبد الله بن الزبير»، فبايعوه، واتسعت دولته حتى شملت معظم أنحاء الدولة الإسلامية، عدا «الأردن» في الشام، غير أن «بني أمية» استطاعوا أن يوحدوا كلمتهم، وبياعوا «مروان بن الحكم»

بالخلافة سنة (64هـ)، فبدأ عهده بالقضاء على أنصار «ابن الزبير» في الشام في موقعة «مرج راهط» الشهيرة في العام نفسه، ثم زحف إلى «مصر»، فاستردها بسهولة من والي «ابن الزبير» عليها، وعاد إلى «دمشق». وتوفي سنة (65هـ)، فخلفه ابنه «عبدالمالك بن مروان»، الذي أخذ على عاتقه القضاء على «ابن الزبير» وغيره من خصوم الدولة الأموية، فهزم جيوش «ابن الزبير» بقيادة أخيه «مصعب» في «العراق» سنة (72هـ)، ثم أرسل «الحجاج ابن يوسف الثقفي» على رأس جيش للقضاء على «ابن الزبير» في «مكة»، فنجح في ذلك، وقتل «ابن الزبير» في جمادى الأولى سنة (73هـ). وبمقتله انهارت دولته التي استمرت نحو تسع سنوات (64 - 73هـ)، وكانت في مبدأ أمرها تسيطر على معظم الدولة الإسلامية. كما نجح عبدالمالك في القضاء على دولتي الخوارج، وبذلك تخلّص من خصومه، وقضى على الانقسامات التي أضعفت الدولة الإسلامية، وأعاد إليها وحدتها، ولذا عدّه المؤرخون المؤسس الثاني للدولة الأموية، وعدّوا سنة (73هـ) عام الجماعة الثاني.

أسباب سقوط دولة عبدالله بن الزبير:

عندما بايع الناس «عبدالله بن الزبير» بالخلافة سنة (64هـ) كانت كل عوامل النجاح متوافرة له، فقد بويع له بالخلافة في وقت لم يكن فيه للمسلمين خلافة، وهو بذلك خليفة شرعي وليس خارجاً على خليفة، وكانت تلك دعامة قوية له، ثم إن معظم أقطار العالم الإسلامي قد بايعته راضية ومقتنعة به، لماضيه وماضى أسرته، وعلاقته الوثيقة ببيت النبوة.

وعلى الرغم من ذلك كله فإن «عبدالله بن الزبير» أخفق في الحفاظ على دولته لأسباب كثيرة، منها:

– أنه قبع في «مكة»، وهي على قداستها لم تكن تصلح عاصمة سياسية لدولة امتدت حدودها، فكان عليه أن ينتقل إلى قطر غني، يتوسط الدولة كالعراق أو الشام، ولو فعل ذلك لكان أفضل له ولشد من عزيمة أنصاره؛ لأن كفته كانت ترجح كفة «مروان بن الحكم»

وابنه «عبدالمملك» عند كثير من الناس، حتى في الشام نفسها، فقد بايعه معظم أهلها.

- امتناع «بنى هاشم» عن بيعته، فقد رفض أن يبايعه زعمائهم، مثل: «عبدالله بن عباس» و «محمد بن علي بن أبي طالب»، وكان قاسياً معهم، فلم يعاملهم بما يليق بهم من التقدير والاحترام، مثلما كان يفعل معهم «بنو أمية»، بل تهددهم وسجنهم فلم يرضخوا له، وبايعوا «عبدالمملك بن مروان»، كما امتنع عن بيعته «ابن عمر»، فأضعف ذلك كله موقفه.

- معارضة الخوارج له، بعد أن رفض اعتناق أفكارهم وآرائهم، فانقلبوا ضده.

- خيانة أهل «العراق»، وعدم إخلاصهم له، فقد تخلى معظمهم عن أخيه «مصعب» عندما التقت جيوشه بجيوش «عبدالمملك بن مروان»، وانضموا إليها.

- إسراف أخيه «مصعب» في سفك الدماء، حتى ليرى أنه قتل ستة آلاف من أهل «الكوفة» دفعة واحدة، بعد مقتل «المختار بن عبيد الله الثقفي» سنة (67هـ)؛ مما أوغر صدور قبائلهم على «آل الزبير»، فليس بعيد أن يكون موقفهم في معركته الفاصلة مع «عبدالمملك» انتقاماً منه لما صنع بأهلهم.

- شحه بالمال وعدم سخائه مع أنصاره، في الوقت الذي كان فيه يسخو خصمه «عبدالمملك بن مروان» على أنصاره، بل استطاع بالمال استمالة أنصار «ابن الزبير» نفسه إلى صفه.

ثورة عبدالرحمن بن الأشعث (81 - 83هـ):

هي واحدة من أعنف الثورات التي هبت في وجه الدولة الأموية، ولم يكن الدافع إليها خلاف مذهبي مع الدولة، كما هو الحال مع الخوارج والشيعة، وإنما كان دافعها الأساسي الطموح الشخصي الذي لعب

برءوس بعض أبناء القبائل الكبرى، وكان «عبدالرحمن بن الأشعث» زعيم هذه الثورة نموذجًا لها؛ إذ استغل العداء التقليدي والحقده الدفين الذى يكنه العراقيون لبني أمية أسوأ استغلال، وأعلن الثورة عليهم.

وخلاصة القصة أن «الحجاج بن يوسف» والى «العراق» (75 - 95هـ) أمر «عبدالرحمن بن الأشعث» على جيش كبير سنة (80هـ) أطلق عليه

(101/2)

المؤرخون «جيش الطواويس»؛ لضخامته وحسن إعداده، وأمره بالتوجه إلى «سجستان» شرقى بلاد فارس؛ لمعاينة ملكها «رتبيل» الذى نقض المعاهدة التى بينه وبين المسلمين، وفتح حدود بلاده للخارجين على الدولة الأموية، موفراً لهم الأمن والحماية، فصبر عليه «الحجاج» على مضض، إلى أن فرغ من أمر الخوارج وقضى على «ابن الزبير»، فأرسل إليه هذا الجيش الهادر لتأديبه والقصاص منه. وبدلاً من أن يمضى «عبدالرحمن بن الأشعث» لأداء المهمة المكلف بها، وقتال ملك كافر متمرد على الدولة، ارتد ثائراً عليها، وشجعه على ذلك استجابة أهل «العراق» للثورة ورغبتهم فى التمرد على الدولة، وكانوا أغلبية فى الجيش الذى بلغ عدده مائة ألف مقاتل. وزاد الأمر سوءاً انخداع بعض العلماء من كبار التابعين بدعوة «ابن الأشعث»، فصدّقوا دعواه بأنه إذا بويع بالخلافة فسيحكم بالعدل، ويعيد حكم الراشدين ويمحو مظالم «بني أمية»، فاستجابوا له، وكان على رأسهم: «عامر الشعبي»، و «سعيد بن جبيرة» الذى جعله «الحجاج» أميناً على الأموال التى ينفق منها على الجيش، وكان لموقفهم هذا أثر كبير فى تمادى «ابن الأشعث» فى الثورة واستجابة الجنود له، وترتب على ذلك أعنف ثورة واجهت «عبدالملك بن مروان»، دامت نحو سنتين (81 - 83هـ)، ودارت بينهما نحو ثمانين

موقعة، قتل فيها عشرات الألوف من الرجال، وكان أشهرها معركة «دير الجماجم» التي استمرت مائة يوم، وانتهت بهزيمة «ابن الأشعث» في شهر جمادى الآخرة سنة (83هـ).

لجأ «ابن الأشعث» بعد هزائمه إلى «رتبيل» ملك «سجستان»، وكان قد عقد معه اتفاقاً على أن يوفر له الحماية إذا هُزم، لكن «الحجاج» طلب من «رتبيل» أن يسلمه «ابن الأشعث»، فعزم على تسليمه؛ لأنه كان حريصاً على عدم إثارة «الحجاج» أكثر من ذلك، فلما أحس «ابن الأشعث» بنية «رتبيل» على تسليمه، ألقى بنفسه من فوق القصر الذي كان يقيم به، فمات منتحراً سنة (85هـ).

(102/2)

الفتوحات في عهد عبد الملك بن مروان:

فتوحات زهير بن قيس البلوي:

تحرك «زهير» بجيش كبير وزحف على «القيروان» سنة (69هـ)،

والتقى على مقربة منها بجيش «كسيلة»، فهزم «البربر» هزيمة

ساحقة بعد معركة شديدة وفي أثناء عودته إلى «برقة» للدفاع

عنها - بعد ما نعى إلى علمه أن البيزنطيين زحفوا عليها في جموع

عظيمة - تعرض لهجوم بيزنطي مفاجئ، فلقى حتفه هو ومن معه.

- حسان بن النعمان ودوره في فتح شمالي إفريقيا:

وصلت أخبار استشهاد «زهير» ومن معه إلى الخليفة «عبد الملك بن

مروان» وهو مشغول بصراعه مع الخوارج والشيعية وآل الزبير، فلم

يتمكن من القيام بعمل حاسم إلا بعد أن استقرت له الأوضاع، فأسند

قيادة جبهة الشمال الإفريقي إلى «حسان بن النعمان» وأمده بجيش

كبير من «مصر» والشام، بلغ عدده نحو أربعين ألف جندي.

واستطاع «حسان» بعد جهد جهيد القضاء على الوجود البيزنطي في

الشمال الإفريقي، وأن يحطم مدينة «قرطاجنة» أكبر مركز بيزنطي،

وأن يبنى محلها مدينة «تونس» الحالية، كما قضى على كل مقاومة للبربر، بعد أن حقق نصرًا هائلًا على زعيمتهم الكاهنة التي آلت إليها الزعامة بعد مقتل «كسيلة»، ونعم المسلمون بأولى فترات الاستقرار في «المغرب».

ولم يكن «حسان بن النعمان» قائدًا عسكريًا عظيمًا فحسب، بل كان رجل دولة وتنظيم وإدارة أيضًا، فأنشأ الدواوين، ورتب أمور الخراج والجزية، ووطد سلطان الحكم الجديد في الثغور والنواحي، وجدد مدينة «القيروان»، وأنشأ بها المسجد الجامع، ووضع سياسات مستقبلية انتهت بأهل الشمال الإفريقي كله إلى اعتناق الإسلام. عبدالمملك وإدارة الدولة:

أظهر «عبدالمملك» براعة فائقة في إدارة الدولة وتنظيم أجهزتها، مثلما أظهر براعة في إعادة الوحدة إلى الدولة الإسلامية، فاعتمد على أكثر الرجال - في عصره - مهارة ومقدرة، وأعظمهم كفاءة وخبرة، وسياسة وإدارة، ومن أبرزهم «الحجاج بن يوسف الثقفي»

(103/2)

الذي عهد إليه «عبدالمملك» بإدارة القسم الشرقي للدولة، الذي يتكون من «العراق»، وكل أقاليم الدولة الفارسية القديمة، وكان «الحجاج» عند حسن الظن به، فبذل أقصى طاقته في تثبيت أركان الدولة، والقضاء على كل مناوئها، وكذلك إخوة «عبدالمملك» الذين كانوا من أبرز ركائز دولته، ومنهم: «بشر بن مروان»، «ومحمد بن مروان» و «عبدالعزیز بن مروان» الذي ولى «مصر» نحو عشرين سنة (65 - 85هـ).

وتفقد «عبدالمملك» أحوال دولته بنفسه وتابع أحوال عمّاله وولاته، وراقب سلوكهم، ولم يسمح لأحد منهم بأن يداهنه أو يناقحه. وأنجز أعمالًا إدارية ضخمة، دفعت بالدولة الإسلامية أشواطًا على

طريق التقدم والحضارة، تمثلت في تعريب دواوين الخراج في الدولة الإسلامية كلها، وتعريب النقود، وتنظيم ديوان البريد، وجعله جهازاً رقابياً، يراقب العمال والولاية ويرفع إليه تقارير عن سير العمل في الولايات.

وتوفي «عبد الملك بن مروان» في شوال سنة (86هـ) بعد أن كرّس كل وقته وجهده لتوطيد أركان الدولة، والسهر على رعاية مصالح المسلمين.

(104/2)

#### 5 - الوليد بن عبد الملك (86 - 96هـ):

هو «الوليد بن عبد الملك بن مروان»، وُلد سنة (50هـ)، وهو أكبر أبناء «عبد الملك»، الذي حرص على تربيتهم تربية إسلامية، فعهد بهم إلى كبار العلماء والصلحاء لتعليمهم وتربيتهم، وخص ابنه «الوليد» بعناية خاصة، لأنه ولي عهده، وخليفته في حكم الدولة الإسلامية، فشب «الوليد» على الصلاح والتقوى، حافظاً للقرآن، دائم التلاوة له.

تولّى «الوليد» الخلافة بعد وفاة أبيه، الذي ترك له دولة واسعة الثراء، غنية بالموارد، قوية الساعد، مرهوبة الجانب، موخّدة الأجزاء، متماسكة البناء، موطّدة الأركان، فاستثمر ذلك على أحسن وجه في الفتوحات الإسلامية، فاستكمل المسلمون في عهده فتح الشمال الإفريقي كله، وفتحوا بلاد «الأندلس»، وأتمّوا في المشرق فتح بلاد «ما وراء النهر» - آسيا الوسطى - وفتح إقليم «السند» في «شبه القارة الهندية».

وبرز في عهده عدد من القادة الكبار، منهم من أشرف على فتح تلك البلاد، مثل: «الحجاج بن يوسف الثقفي»، ومنهم من قاد تلك الفتوحات بنفسه، مثل: «قتيبة بن مسلم الباهلي» فاتح بلاد «ما وراء

النهر»، و «محمد بن القاسم الثقفي» فاتح «السند»، و «موسى بن نصير» و «طارق بن زياد» فاتحي «الأندلس». كما نهض «مسلمة بن عبد الملك» أخو «الوليد» بمنازلة الدولة البيزنطية، ومواصلة الضغط عليها، والاستعداد لمحصرة عاصمتها «القسطنطينية».

الفتوحات في عهد الوليد بن عبد الملك:

- موسى بن نصير واستكمال فتح الشمال الإفريقي:  
حلّ «موسى بن نصير» سنة (85هـ) محل «حسان بن النعمان» في ولاية شمالى إفريقيا وقيادة جيوش الفتح بها، فأكمل ما بدأه سابقوه من القادة العظام، وقدر له أن يجني ثمار غرسهم، ففي ولايته تم فتح «المغرب» كله، وأقبل أبناؤه على اعتناق الإسلام في حرية تامة، بعدما أدركوا وفهموا ما يحمله من عزة وكرامة وحرية وعدل ومساواة.

فتح الأندلس:

(105/2)

---

«الأندلس» أو «شبه جزيرة أيبيريا» هي الجزء الجنوبي الغربي من قارة «أوروبا»، وتشمل في الوقت الحاضر دولتي «إسبانيا» و «البرتغال».

عندما استقر الأمر للمسلمين في «المغرب» في ولاية «موسى بن نصير»، وأقاموا فيها نظاماً عادلاً ورحيماً، كانت «الأندلس» تمرُّ بأسوأ أحوالها السياسية والاجتماعية والاقتصادية تحت حكم «القوط» الذين استبدوا بالبلاد ونعموا بخيراتهما، تاركين سواد الشعب يعاني الفاقة والحرمان، فتطلع أهلها إلى المسلمين ليخلصوهم مما هم فيه من ظلم واستعباد.

وكان الذى دعا المسلمين إلى فتح تلك البلاد هو «يوليان» حاكم ولاية «سبتة» المغربية الواقعة على ساحل البحر، والخاضعة لحكم

«القوط» آنذاك، ولم يكن المسلمون قد فتحوها، فاتصل حاكمها بطارق بن زياد حاكم «طنجة»، وعرض عليه الفكرة، فنقلها إلى «موسى بن نصير» الذى اتصل بالخليفة «الوليد بن عبد الملك»، فأذن له الخليفة، على أن يتأكد من صدق نيات «يوليان»، وأن يرتاد البلاد بحملة استطلاعية، ليعرف أخبارها قبل أن يدخلها فاتحاً.

– حملة طريف بن مالك الاستطلاعية:

كلف «موسى بن نصير» أحد رجاله وهو «طريف بن مالك» على رأس خمسمائة جندي، بدخول «الأندلس» وجمع ما يمكن جمعه من أخبار، كما طلب من «يوليان» أن يوافيه بتقرير عن أوضاع البلاد، فاتفقت معلومات «طريف» التى جمعها مع تقرير «يوليان»، وكلها تفيد أن البلاد فى حالة فوضى، وتعانى من الضعف العسكرى، وأن الناس ينتظرون المسلمين ليرفعوا عنهم الظلم، وعاد جيش «طريف» سنة (91هـ) محملاً بالغنائم.

– طارق بن زياد فاتح الأندلس:

اختار «موسى بن نصير» للقيام بمهمة فتح «الأندلس» طارق بن زياد وهو من أصل بربرى لما يتمتع به من شجاعة ومهارة فى القيادة، فخرج فى سبعة آلاف جندي، معظمهم من «البربر»، وعبر المضيق الذى يفصل بين الساحل المغربى والساحل الأندلسى، والذى لا يزال يحمل اسمه، ونزل على الجبل – الذى حمل اسمه أيضاً – فى شهر

(106/2)

---

رجب سنة (92هـ)، واستولى عليه بعد عدة معارك مع القوات القوطية التى كانت تقوم بحراسته، وتوغّل فى جنوبي البلاد.

وما إن علم الملك «روذريق» بنزول المسلمين فى بلاده – وكان فى شمالى غربى البلاد مشغولاً بقمع ثورة اندلعت ضده – حتى عاد مسرعاً للقاء المسلمين على رأس جيش قوامه نحو مائة ألف جندي،

ولما علم «طارق» بعودة الملك طلب مددًا من «موسى بن نصير»، فأمدّه بخمسة آلاف، وأصبح عدد جيشه اثني عشر ألفًا، والتقى الفريقان في أواخر شهر رمضان سنة (92هـ)، وحقق المسلمون نصرًا حاسمًا، ويؤكد المؤرخون أن هذه المعركة المعروفة باسم معركة «شدونة» قد قررت مصير «الأندلس» لصالح المسلمين، لأن الجيش القوطي دُحر تمامًا، وهبطت روحه المعنوية إلى الحضيض، ولم يعد قادرًا على المقاومة، فانفتح الطريق أمام البطل الفاتح «طارق بن زياد»، ليستولى على مدن مهمة، مثل: «قرطبة»، و «غرناطة»، ووصل إلى «طليطلة» في وسط البلاد، وكانت عاصمة البلاد في ذلك الوقت.

أرسل «طارق» إلى «موسى بن نصير» يبشره بهذه الانتصارات، ويطلب منه مددًا جديدًا، فعبر إليه بنفسه على رأس قوة كبيرة قوامها ثمانية عشر ألفًا، ونجح في فتح عدد من المدن في غربي البلاد مثل «إشبيلية» وهو في طريقه إلى لقاء «طارق» في «طليطلة». اتفق القائدان العظيمان على استكمال فتح «الأندلس»، فاتجه كل منهما إلى ناحية فأخذ «طارق بن زياد» طريقه إلى الشمال الشرقي، في حين اتجه «موسى» إلى الشمال الغربي، ونجح الاثنان في غضون عامين (93 - 95هـ) في فتح معظم «شبه الجزيرة الأيبيرية»، عدا منطقة جبلية في أقصى الشمال الغربي، استعصت عليهم، أو لم يحفلوا بها، ولم يدروا أنها ستكون فيما بعد البؤرة التي ستنمو فيها المقاومة النصرانية.

وقد استمر الإسلام في «الأندلس» زهاء ثمانية قرون، شاد المسلمون خلالها حضارة عظيمة، جعلت منها البقعة الوحيدة المضيئة في القارة

الأوربية كلها، التي كانت تعيش عصوراً مظلمة وتحيا حياة متخلّفة.  
فتح بلاد ما وراء النهر:

أطلق المسلمون اسم بلاد «ما وراء النهر» على البلاد المعروفة الآن  
باسم «آسيا الوسطى» الإسلامية، وتضم خمس جمهوريات إسلامية،  
كانت خاضعة للاتحاد السوفييتي، ثم من الله عليهم، فاستقلّوا بعد  
انهياره.

وتقع بلاد «ما وراء النهر» بين نهر «جیحون» (أموداريا) في الجنوب،  
ونهر «سيحون» (سرداريا) في الشمال، وأهلها من أصول تركية،  
حلّوا بها منذ القرن السادس الميلادي.

وكانت هذه البلاد تتكون - عند الفتح الإسلامي - من عدة ممالك  
مستقلة، وهي:

- 1 - مملكة «طخارستان»، وتقع على ضفتي نهر «جیحون»،  
وعاصمتها «بلخ».
- 2 - مملكة «اكتل»، وهي أول مملكة شمالي نهر «جیحون»،  
وعاصمتها مدينة «هلبك».
- 3 - مملكة «صغانيان»، وعاصمتها تسمى «صغانيان» أيضاً.
- 4 - مملكة «الصغد»، وعاصمتها مدينة «سمرقند»، ومن أهم مدنها  
«بخارى».

5 - مملكة «خوارزم» وعاصمتها مدينة «الجرجانية».  
وكانت تُسمّى هذه بالممالك الجيخونية، بالإضافة إلى عدة ممالك  
أخرى تقع على ضفتي نهر «سيحون»، سُميت بالممالك السيجونية،  
وهي «الشاش»، و «أشروسنة»، و «فرغانة».  
وهذه الممالك كلها تم فتحها خلال عشر سنوات (86 - 96هـ) في  
خلافة «الوليد بن عبد الملك»، على يد «قتيبة بن مسلم الباهلي»،  
ويقوة دفع هائلة من «الحجاج بن يوسف الثقفي» إلى «العراق»  
والمشرق.

قتيبة بن مسلم فاتح بلاد ما وراء النهر:  
طرق المسلمون هذه البلاد عدة مرات منذ خلافة «عثمان بن عفان»

رضى الله عنه، وغزاها عدد كبير من القادة المسلمين كان آخرهم «المهلب بن أبي صفرة»، ولم تكن حملاتهم عليها للاستقرار الدائم والفتح المنظم، وإنما كانت لتعرفها ومعرفة أحوالها. وبدأت المرحلة الحاسمة في الفتح والاستقرار مع تسلم «قتيبة بن مسلم» قيادة جيوش الفتح وولاية إقليم «خراسان» سنة (85هـ)،

(108/2)

وكانت الظروف مواتية له تمامًا، فالدولة الأموية كانت عندئذٍ في أحسن حالاتها استقرارًا وهدوءًا وثراءً، فاجتمع لقتيبة مهارة القائد، وعزم الوالي - «الحجاج» - وتشجيعه، وقوة الدولة وهيبتها، فكانت فتوحاته العظيمة في بلاد «ماوراء النهر». ولم يكن «قتيبة» قائدًا عسكريًا فذا فحسب، بل كان إلى جانب ذلك رجل دولة، وصانع سياسة، وواضع نظم وإدارة، فعمل بعد تسلمه أمور الولاية على القضاء على الخلافات العصبية التي كانت تعصف بالقبائل العربية في «خراسان»، من جراء التنافس في الولايات، وجمع زعمائهم. ولم يكتفِ «قتيبة» بتوحيد صفوف القبائل العربية تحت راية الجهاد، بل عمل على كسب ثقة أهل «خراسان» الأصليين، فأحسن إليهم، وقربهم وتودّد معهم، وعهد إليهم بالوظائف، فاطمأن الجميع إليه، ووثقوا به وبقيادته.

مراحل الفتح:

مرت خطوات «قتيبة» في فتح تلك البلاد التي استمرت نحو عشر سنوات (86 - 96هـ) عبر مراحل أربع هي:  
- المرحلة الأولى (86 - 87هـ):

وفيها أخضع «قتيبة بن مسلم» إقليم «طخارستان»، الواقع على ضفتي نهر «جیحون»، ويبدو أن أوضاعه لم تكن قد استقرت

للمسلمين تمامًا، منذ أن فتحه «الأحنف بن قيس» في خلافة «عثمان بن عفان»، وكانت تلك بداية ناجحة، فبدون توطيد أقدامه في «طخارستان» لم يكن ممكنًا أن يمضى لفتح «ما وراء النهر»، وأصبح يتمتع بهيبة كبيرة في تلك البلاد؛ فما إن يسمع الملوك بمسيره إليهم، حتى يسرعوا إلى لقائه وطلب الصلح.

– المرحلة الثانية (87 – 90هـ):

وفيها فتح «قتيبة» إقليم «بخارى»، بعد حروب طاحنة، وانتظام حملاته عليها، وكان الغزو يحدث في الصيف، لأن شتاء تلك البلاد كان قاسيًا شديد البرودة على العرب، لكنهم صبروا وجاهدوا حتى تمّ لهم الفتح.

والحقيقة أن جهل أهل البلاد بالإسلام، وتصورهم أن المسلمين جاءوا للاستيلاء على خيرات بلادهم، هو الذى جعلهم يقاومونهم، لكنهم لما

(109/2)

---

عرفوا أن المسلمين ليسوا غزاة، وإنما هداة يحملون إليهم الإسلام، أقبلوا على اعتناقه والإيمان بمبادئه.

يقول المستشرق الجرى «أرمينوس فامبرى»: «إن بخارى التى قاومت العرب فى البداية مقاومة عنيفة، قد فتحت لهم أبوابها، لتستقبلهم ومعهم تعاليم نبيهم – صلى الله عليه وسلم –، تلك التعاليم التى قوبلت أول الأمر بمعارضة شديدة، ثم أقبل القوم عليها بعد ذلك فى غير شديدة، حتى لنرى الإسلام الذى أخذ شأنه يضعف اليوم فى جهات آسيا الأخرى، وقد غدا فى بخارى اليوم – (1873م) – على الصورة التى كان عليها أيام الخلفاء الراشدين».

– المرحلة الثالثة (90 – 93هـ):

وفيها أكمل فتح حوض نهر «جیحون» كله، وتوجّ عمله بالاستيلاء على «سمرقند»، أعظم مدائن «ما وراء النهر» كلها.

- المرحلة الرابعة (93 - 96هـ):

وفيهما عبر «قتيبة» نهر «سيحون»، وفتح الممالك السيحونية الثلاث:  
«الشاش»، و «أشروسنة»، و «فرغانة»، ووصل إلى إقليم «كاشغر»  
الذي يلامس حدود «الصين»، التي تمياً لفتحها، لولا أن وفاة  
«الحجاج» سنة (95هـ)، وبعده الخليفة «الوليد بن عبد الملك» سنة  
(96هـ)، جعلته يتوقف عند هذا الحد، لكنه أجبر ملك «الصين» على  
دفع الجزية له مع رسوله إليه «هبيرة بن المشمرج الكلابي».  
وقد أصبحت تلك البلاد جزءاً مهماً وعزيراً من العالم الإسلامي، نشأت  
فيه مراكز علمية وحضارية، مثل «سمرقند»، و «بخارى»،  
و «جرجان»، وغيرها، وخرجت عدداً هائلاً من علماء المسلمين الذين  
ملأت أسماؤهم سمع الدنيا وبصرها.

فتح السند:

بدأ «الحجاج بن يوسف الثقفي» يعدّ العدة لفتح إقليم «السند» في  
«شبه القارة الهندية»، بعد أن استقام الأمر له في جنوبي بلاد فارس  
وتوطدت أقدام المسلمين هناك، وقضى على تمرد «رتبيل» ملك  
«سجستان»، وأخضع بلاده.

ويُعد فتح بلاد «السند» شبيهاً بفتح بلاد «ما وراء النهر» من عدة  
وجوه، منها:

- وحدة الزمان، فقد فتح المسلمون «السند» سنة (89هـ).

(110/2)

- ووحدة القيادة العامة التي توجه الفتوحات، والتي تمثلت في شخص  
«الحجاج الثقفي» الذي وقف وراء ابن عمه «محمد بن القاسم  
الثقفي» كما وقف وراء «قتيبة بن مسلم»، يعضد الفتح ويؤازره،  
ويمده بالرجال والعتاد.

وقد سبق الفتح المنظم لبلاد «السند» سلسلة من الحملات والغزوات

التي قام بها المسلمون لمعرفة طبيعة البلاد وجمع المعلومات عنها، كما حدث لبلاد «ما وراء النهر»، فقد بدأ المسلمون يطرقون أبواب هذا الإقليم منذ عهد «عمر بن الخطاب»، ويمدنا «البلاذري» بمعلومات ضافية عن حملات المسلمين الأولى قبل حملة «محمد بن القاسم الثقفي» فاتح «السند» (89 - 96هـ).

عزم «الحجاج» على فتح إقليم «السند»، بعد أن استقرت أحوال الدولة الأموية، فأسند هذه المهمة إلى «محمد بن القاسم» وكان دون العشرين من عمره، وجّهه بما يكفل له النجاح من عدة وعناد، وأمده بستة آلاف جندي من أهل الشام، بالإضافة إلى ما كان معه من الجنود، فأصبح تحت قيادته نحو عشرين ألفاً في تقدير بعض المؤرخين.

اتخذ «محمد بن القاسم» من مقاطعة «مهران» في جنوبي «فارس» قاعدة للفتح ونقطة انطلاق، فقسّم جيشه نصفين، أحدهما برى والآخر بحري، ثم تحرك قاصداً مدينة «الديبل» - وهي تقع قريباً من «كراتشي» الحالية في «باكستان» - وفتح في طريقه إليها «فنزبول»، و «أرمائيل»، ثم وافته السفن التي كانت تحمل الرجال والعناد، فحاصر «الديبل» واستولى عليها بعد قتال دام ثلاثة أيام، وترك فيها حامية من أربعة آلاف رجل، وبنى لهم مسجداً. وكان لفتح المسلمين مدينة «الديبل» أثر كبير في أهل «السند»، فسارعوا يطلبون الصلح فصالحهم «محمد بن القاسم» ورفق بهم، ثم سار إلى «البيرون» - «حيدر آباد السند» حالياً - فتلقاه أهلها وصالحوه كذلك، وكان لا يمر بمدينة إلا فتحها صلحاً أو عنوة، وتوّج ذلك كله بالانتصار على «داهر» ملك «السند»، ومضى يستكمل

فتحه، فاستولى على حصن «راوَد»، ثم «برهماناباذ»، و «الروور»  
و «بهورور»، ثم اجتاز نهر «بياس» وعبر إلى إقليم «الملتان»،  
فاستولى عليه بعد قتال شديد، وغنم كميات كبيرة من الذهب.  
وبينما يواصل «محمد بن القاسم» فتوحاته؛ إذ جاءتته الأخبار بوفاة  
«الحجاج» سنده وعونه في الفتح، فاغتم لذلك غما شديداً؛ لكنه  
واصل فتوحاته حتى أتم فتح بلاد «السند»، وجاءته قبائل «الميد»  
و «الجات» و «الزط» تفرع الأجراس فرحة هاتفة، مرحبة به، لأنهم عدُّوه  
محررهم من ظلم الهندوس واستعبادهم.

وفي هذه الأثناء مات الخليفة «الوليد بن عبد الملك» سنة (96هـ)،  
وتولَّى أخوه «سليمان بن عبد الملك» منصب الخلافة، فعين على  
«العراق» «صالح بن عبد الرحمن»، وكان واحداً من ألد خصوم  
«الحجاج»، فقرر الانتقام منه على الرغم من وفاته سنة (95هـ)، في  
شخص ابن عمه «محمد بن القاسم»، فعزله عن قيادة الجيش، ولم  
يكتفِ بذلك، بل أمر بالقبض عليه ووضعه في السجن، وظل يعذبه  
حتى مات.

ومن العجيب أن هذا البطل الذي قتله أهله وعشيرته حزن عليه أهل  
«السند» الذين فتح بلادهم، لما رأوا في عهده من عدل وسماحة  
وحرية، وصنعوا له التماثيل كما يروى «البلاذري».

النهضة العمرانية في عهد الوليد:

شهد عصر الوليد بن عبد الملك نهضة عمرانية كبرى، فأعاد بناء  
«المسجد النبوي» وأدخل عليه توسعات كبيرة، وعهد إلى ابن عمه  
والى «المدينة» «عمر بن عبدالعزيز» بمتابعة ذلك، كما بنى «المسجد  
الأقصى» في مدينة «القدس»، وبنى «مسجد دمشق»، وأنفق عليه  
كثيراً ليكون آية من آيات العمارة، وعُنى عناية فائقة بتعبيد الطرق  
التي تربط بين أجزاء الدولة، التي امتدت أطرافها من «الصين» شرقاً  
إلى «الأندلس» غرباً، ومن «بحر قزوين» شمالاً إلى «الخليط الهندي»  
جنوباً، وبخاصة الطرق التي تؤدي إلى «مكة المكرمة»، لتسهيل سفر

حجاج بيت الله الحرام.  
وفي عهده سبقت الدولة الإسلامية كل دول العالم في تقديم الخدمات

(112/2)

---

للناس مجاناً، وبخاصة الخدمات الطبية لأصحاب الأمراض المزمنة، يقول  
«الطبرى»: «كان الوليد عند أهل الشام أفضل خلائفهم، بنى المساجد، مسجد  
دمشق، ومسجد المدينة، ووضع المنابر، وأعطى الناس، وأعطى  
المجذومين، وقال لا تسألوا الناس، وأعطى كل مُقْعَدَ خادماً، وكل  
ضربير قائداً، وفتّح في عهده فتوح عظام». وتوفي الوليد بن عبد الملك في جمادى الآخرة سنة (96هـ).

(113/2)

---

6 - سليمان بن عبد الملك (96 - 98هـ):  
هو «سليمان بن عبد الملك بن مروان»، وُلد في «المدينة»، ونشأ في  
الشام، وتُويج له بالخلافة في اليوم الذي تُوفي فيه أخوه «الوليد بن  
عبد الملك». كان «سليمان» من أفضل أولاد «عبد الملك»، ومن أكبر أعوان أخيه  
«الوليد» أثناء خلافته، وولى له «فلسطين»، وصفه «الذهبي» بقوله:  
«من أمثال الخلفاء - يعنى من أفضلهم - نشر علم الجهاد، وكان ديننا  
فصيحاً مفوّهاً، عادلاً محباً للغزو، استعان في إدارة دولته وتصريف  
شئونها بعظماء الرجال وصالحينهم، من أمثال: ابن عمه «عمر بن  
عبد العزيز»، و «رجاء بن حيوة». حافظ «سليمان» على هيبة الدولة ومكانتها، فواصل الجهاد  
والفتوحات، وأرسل جيشاً بقيادة أخيه «مسلمة بن عبد الملك» لحصار

«القسطنطينية»، وأشرف بنفسه على هذه الحملة، حيث اتخذ من مدينة «مرج دابق» شمالي الشام مركز قيادة له؛ ليكون على مقربة من ميدان المعارك الحربية.

اهتم الخليفة «سليمان بن عبد الملك» بفتح «القسطنطينية» اهتمامًا كبيرًا، وجَهَّز لذلك جيشًا ضخمًا، بلغ زهاء مائة ألف جندي، ومزودًا بنحو ألف وثمانمائة سفينة حربية، وأسند قيادته إلى أخيه «مسلمة بن عبد الملك»، واتخذ هو من مدينة «مرج دابق» شمالي الشام مركز قيادة، يتابع منه أخبار الجيش وسير عملياته.

وقد حاصر الجيش المدينة مدة عام كامل (98 - 99هـ) دون جدوى، فقد استعصت المدينة على السقوط، على الرغم من الاستعدادات الكبيرة للجيش الإسلامي وتضحياته الجسيمة.

ولم تكن هذه الحملة والحملتان اللتان تمنا في عهد معاوية برغم عجزهم عن فتح «القسطنطينية» بغير فائدة، فقد شغلت الدولة البيزنطية بالدفاع عن نفسها وعن عاصمتها، وجعلت الاستيلاء عليها أملاً إسلامياً لم يخبُ نوره أو تنطفئ جذوته عبر القرون، حتى حَقَّقَهُ السلطان العثماني «محمد الفاتح» سنة (857هـ = 1453م)، وشيد مسجداً بالقرب من قبر «أبي أيوب الأنصاري» أول شهيد إسلامي هناك.

(114/2)

---

وَتُوِّفِي سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي مَرْجِ دَابِقٍ فِي شَهْرِ صَفَرِ سَنَةِ (99هـ)، وَلِذَا قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّهُ مَاتَ شَهِيدًا، بَعْدَ أَنْ تَوَجَّ أَعْمَالَهُ بِعَمَلٍ يَدُلُّ عَلَى صِلَاحِهِ وَحِرْصِهِ عَلَى مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ، وَهُوَ تَوْلِيَةُ ابْنِ عَمِّهِ «عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ» الْخُلَافَةَ مِنْ بَعْدِهِ.

(115/2)

## 7 - عمر بن عبدالعزيز (99 - 101هـ):

هو «عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم»، وأمه «أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب». وُلد في «المدينة المنورة» سنة (26هـ) على الأرجح، ونشأ بها بناءً على رغبة أبيه، الذي تولى إمارة «مصر» بعد ولادة «عمر» بثلاث سنوات سنة (65هـ)، فنشأ بين أحواله من أسرة «عمر بن الخطاب»، ونهل من علم علمائها من بقية الصحابة، وكبار التابعين، حتى صار من كبار الفقهاء علمًا وعملاً. ظل «عمر» في «المدينة» حتى سنة (85هـ)، وهي السنة التي تُوفي فيها أبوه، فاستدعاه عمه «عبدالمملك بن مروان» إلى «دمشق»، وخلطه بأبنائه، وزوجه ابنته «فاطمة»، ثم عيّنه واليًا على منطقة «خناصر» شمالي شرقي الشام، ثم عيّنه ابن عمه «الوليد بن عبدالمملك» واليًا على «المدينة المنورة»، فكان ذلك مصدر سعادة لعمر ولأهل «المدينة» جميعًا، ونعم الناس في فترة ولايته عليها (87 - 93 هـ) بالعدل والأمن، وأشرك معه أهل العلم والفضل منهم في إدارة أمور الولاية.

عمر في خلافته:

أخذ «عمر بن عبدالعزيز» منذ أن ولى الخلافة في بذل كل ما يملك من طاقة، وما يتمتع به من خبرة في إصلاح أمور الدولة، واستقرار الأمن، ونشر الرخاء والعدل، وتحقيق الكفاية والوفرة في كل أمثاتها، والحرص على مال المسلمين، وإنفاقه في وجوهه المشروعة، وحسن التصرف في الأمور، والدقة في اختيار الولاة والقضاة وسائر كبار رجال الدولة، وتحقيق التوازن بين طبقات المجتمع، ومجادلة الخارجين على الدولة بالحسنى؛ لإقناعهم بالعودة إلى حظيرة الجماعة كما فعل مع الخوارج حين عاودوا نشاطهم في عهده فاستعمل معهم أسلوب الحوار، فاستجابوا له لما أقنعهم بخطأ أفكارهم المتطرفة، ووعدوه بالهدوء، لكنهم هبوا من جديد بعد

وفاته سنة (101هـ)، ولم تهدأ ثورتهم التي استمرت حتى آخر أيام الدولة الأموية.

وقد سرت تلك الروح في كل ناحية من نواحي الحياة في الأمة

(116/2)

الإسلامية، فعمها الرخاء، وسادت فيها الكفاية والعدالة الاجتماعية، حتى إن عمال الصدقات كانوا يبحثون عن فقراء لإعطائهم فلا يجدون.

سياسته الخارجية:

رأى «عمر بن عبدالعزيز» أن الدولة اتسعت كثيراً، وأن كثيراً من المشاكل والأخطاء نشأت من ذلك الاتساع، فرأى وقف الفتوحات والاهتمام بنشر الإسلام في البلاد التي تم فتحها، وإرسال الدعاة والعلماء لدعوة الناس بدلا من إرسال الجيوش والحملات، وقد أثمرت تلك الجهود نتائج محمودة، فأقبل أبناء الشعوب المفتوحة على اعتناق الإسلام، يجذبهم إليه سمعة الخليفة الحسنة، وسمو أخلاقه، ونبله وعدله، الذي تجاوز حدود دولته إلى غيرها من الدول، فكان موضع إعجاب وتقدير، وحمد وثناء من أهلها، وبخاصة الدولة البيزنطية.

وقد استمرت خلافة «عمر» سنتين وبضعة أشهر، شهدت فيها الدولة إصلاحات عظيمة في الداخل والخارج، وامتألت الأرض نورا وعدلا وسماحة ورحمة، وتجدد الأمل في النفوس بإمكان عودة حكم الراشدين، واقعا ملموسا وحقيقة لا خيالا، وأن يقام المعوج، وينصلح الفاسد، ويُرد المنحرف إلى جادة الصواب، إذا استشعر الحاكم مسئوليته عن الأمة أمام الله، واستعان بأهل الصلاح من ذوى الكفاءة والقدرة، ومن ثم فليس بغريب أن يطلق على «عمر» «خامس الخلفاء الراشدين»، وأن يكون موضع تقدير أشد الفرق عداءً لبني

أمية كالشيعة والخوارج.

وثُوِّقَ «عمر بن عبدالعزيز» في أواخر شهر رجب سنة (101هـ).

(117/2)

## 8 - يزيد بن عبد الملك (101 - 105هـ):

هو «يزيد بن عبد الملك بن مروان»، وأمه «عاتكة بنت يزيد بن معاوية ابن أبي سفيان»، وُلِدَ في «دمشق» سنة (71هـ) على وجه التقريب، ويبيع له بالخلافة في اليوم الذي تُوفِّي فيه ابن عمه «عمر بن عبدالعزيز» في نهاية شهر رجب (101هـ).  
وتدل أخباره قبل تولّيه الخلافة على أنه كان يجب العلم ومجالسة العلماء، ولديه ميل إلى الاستقامة، وقد حاول بعد تولّيه الخلافة أن يقتدى بسلفه العظيم «عمر بن عبدالعزيز»، لكن قرناء السوء حالوا بينه وبين ذلك، وزيّنوا له حياة اللهو واللعب، ويعبّر عن ذلك «ابن كثير» بقوله: «فلما ولى - «يزيد بن عبد الملك» الخلافة - عزم على أن يتأسّى بسيرة عمر بن عبدالعزيز، فما تركه قرناء السوء، وحسّنوا له الظلم».

ولم تكن مناعة «يزيد» ضد الانغماس في حياة اللهو قوية، فاستجاب لقرناء السوء ورفاق اللهو، ولولا أن الدولة الأموية كانت زاخرة بالرجال الأفذاذ، وعامرة بالأبطال من أبناء الأسرة الحاكمة، لانهارت في عصره، فقد عوّض هؤلاء عدم كفاءة الخليفة لقيادة الدولة، ويأتي في مقدمتهم أخوه: «مسلمة بن عبد الملك» فارس «بني مروان»، وابن أخيه «العباس بن الوليد بن عبد الملك»، وابن عمه «مروان بن محمد بن مروان»، وقد نجح الأولان في القضاء على الثورة العارمة، التي أشعلها «يزيد بن المهلب» سنة (102هـ)، أحد أبناء البيوتات العربية الطامحة إلى الخلافة بعد ما نجح في السيطرة على معظم «العراق»، وعرض الدولة للسقوط، كما تصدّوا لحركات

الخوارج وكل مناوئى الدولة، وحافظوا على سلامتها.  
ولم تطل خلافة «يزيد»، فقد تُوفى فى أواخر شهر شعبان سنة  
(105هـ).

(118/2)

## 9 - هشام بن عبد الملك (105 - 125هـ):

هو «هشام بن عبد الملك بن مروان»، رابع أبناء «عبد الملك» الذين  
ولوا الخلافة، أمه «أم هاشم بنت إسماعيل المخزومي»، وُلد فى  
«دمشق» سنة (72هـ)، وبويع له بالخلافة سنة (105هـ).  
ومع أن المصادر التاريخية لم تحدثنا كثيراً عن حياته قبل الخلافة،  
وعمّا إذا كانت له مشاركة فى تسيير أمور الدولة أم لا، فإنها تجمع  
على أنه كان ذا رأى وبصيرة، وحكمة وفطنة، حازماً ذكياً، له بصر  
بالأمور، جليلها وحقيرها، محشوا عقلا على حسب تعبير «الطبرى».  
وكان من حسن الطالع للدولة الأموية وللمسلمين أن يخلف «هشام بن  
عبد الملك» أخاه «يزيد»، فقد ظل فى الخلافة نحو عشرين عاماً،  
أدار فيها الدولة بكفاءة عالية، وأظهر حكمة سياسية فى تعامله مع  
الكتلتين العربيتين الرئيسيتين فى الدولة، وهما عرب الجنوب (اليمن)،  
وعرب الشمال (قيس)، فلم يتحيز إلى كتلة ضد الأخرى، واحتفظ  
بعلاقة طيبة معهما ومع الجميع بصفة عامة، ولعل هذه السياسة هى  
التي كفلت للدولة الاستقرار النسبى طوال حكمه.  
وقد تمتع «هشام» بعدد من الصفات اللازمة لرجل الدولة، من حلم  
وتسامح وسعة صدر، وعدل وحزم، أما أبرز صفاته الإدارية على  
الإطلاق فهى قدرته الفائقة على تدبير الأموال وحسن التصرف فيها،  
مع تحرى العدل فى جمعها وإنفاقها على حد سواء، فنعمت الدولة  
فى عهده باستقرار مالى كبير.  
وأظهر «هشام» كفاءة عالية ومقدرة فائقة فى إدارة الشؤون

الخارجية للدولة، فحافظ على هيبتها في عيون أعدائها، وبخاصة الدولة البيزنطية.

ثورة زيد بن علي بن الحسين:

لم يعكر صفو الدولة في عهد «هشام» سوى ثورة «زيد بن علي بن الحسين بن علي» سنة (121هـ)، حين حرّضه العراقيون على الثورة ضد «هشام»، والخروج عليه، ثم تخلّوا عنه كما فعل أسلافهم مع جده «الحسين بن علي» وكانت قد مضت فترة امتدت إلى أكثر من نصف قرن، منذ مصرع «المختار الثقفي» سنة (67هـ)، دون أن يقوم

(119/2)

الشيعة بأية ثورة ضد الدولة الأموية، بسبب الضربات المتلاحقة التي حاقت بهم، وافتقارهم إلى الزعامة القوية التي تقودهم، لأن «علي بن الحسين» - وهو الوحيد الذي نجا من مذبحه «كربلاء» - كان عازفاً عن الاشتغال بالسياسة، محبا للعلم متفرغاً للعبادة، غير أن ابنه «زيد بن علي» - وكان عالماً فاضلاً - حدّثته نفسه بالخلافة، ورأى أنه أهل لها، وعرف أهل «الكوفة» منه ذلك، فزَيّنوا له الثورة على «بني أمية»، وقالوا له: «إنا نلرجو أن تكون المنصور، وأن يكون هذا الزمان الذي يهلك فيه بنو أمية».

تشكك «زيد بن علي» في صدق نيتهم، وقوة عزيمتهم، وقال لهم: «إني أخاف أن تخذلوني وتسلموني كفعلتكم بأبي وجدى»، لكنه استجاب لهم على الرغم من تحذير أهله وأولاد عمومته من غدر أهل «الكوفة».

انخدع «زيد بن علي» بأهل «الكوفة» وأعلن الثورة على «هشام ابن عبد الملك» سنة (121هـ)، فتكررت أحداث قصة جده «الحسين»، وأعاد التاريخ نفسه، فلم يتساهل الخليفة «هشام» مع ثورة تريد نقض ملكه والإطاحة بدولته، على الرغم من كراهيته لسفك الدماء،

فأمر واليه على «الكوفة» «يوسف بن عمر الثقفي» فتصدى لزيد بن على الذى انفض عنه شيعته، وأسلموه إلى عدوه، كما أسلم أسلافهم جدّه «الحسين»، ولم يبقَ معه فى اللحظات الحرجة من بين خمسة عشر ألفاً بايعوه وعاهدوه على النصر، إلا نحو مائتى رجل، فاستطاع «يوسف بن عمر» أن يقضى فى سهولة ويسر على تلك الثورة، وقتل «زيد بن على» فى صفر سنة (122هـ). فحزن «هشام» على قتله، لأنه كان يكره سفك الدماء. وتوفى «هشام بن عبدالمملك» فى مطلع شهر ربيع الآخر سنة (125هـ).

(120/2)

#### 10 - الوليد بن يزيد بن عبدالمملك (125 - 126هـ):

هو أول حفيد من أحفاد «عبدالمملك بن مروان» يتولى الخلافة، طبقاً لنظام الوراثة الذى سار عليه الأمويون، إذ عهد «يزيد بن عبدالمملك» إلى ابنه بالخلافة بعد أخيه «هشام بن عبدالمملك». وتعد خلافة «الوليد بن يزيد» بداية النهاية للدولة الأموية، وطلبة سقطها؛ لأنه كان على شاكلة أبيه لهواً ولعباً، وإذا كان أبوه قد رزق من يعوض نقص كفاءته فى الحفاظ على سلامة الدولة، من إخوته وأبناء عمومته، فإن «الوليد» لم يجد مثل هذا النوع من أفذاذ الرجال، بل ثار عليه أبناء عمومته من أبناء «الوليد بن عبدالمملك» وأخيه «هشام»، وشهد عصره أول انقسام داخلى بين الأسرة الأموية وأشدّه خطراً.

وقد حاول «الوليد» استرضاء الجند بزيادة رواتبهم، واستمالة الناس بزيادة أعطياتهم من الأموال الكثيرة التى تركها له عمه «هشام بن عبدالمملك» فى خزانة الدولة، لكن ذلك لم يمنع الثائرين عليه من أبناء عمومته بزعامة «يزيد بن الوليد» من تلطيخ سمعته واتهامه بالفسق

والفجور، والمبالغة في تلك التهم والتشهير به؛ لأن «ابن الأثير» يقول: «إن الوليد لم يكن على هذه الدرجة من السوء، غير أن خصومه نجحوا في خطتهم، وقتلوه في جمادى الآخرة سنة (126هـ)، فاتحين بذلك أبواب الشر على الدولة من كل جانب، مفعّرين الثورات والفتن في كل مكان».

(121/2)

#### 11 - يزيد بن الوليد بن عبد الملك (126 - 127هـ):

هو أول أموى من أم غير عربية يتولّى الخلافة، فأمه فارسية تدعى «شاه أفريد بنت فيروز بن يزدجرد الثالث» آخر ملوك الفرس. تولّى الخلافة بعد مقتل ابن عمه «الوليد بن يزيد» سنة (126هـ)، وحاول أن يظهر الصلاح والتقوى، ويتشبه بعمر بن عبدالعزيز في عدله وزهده، ليمحو من أذهان الناس فعلته الشنعاء بابن عمه، لكنه لم ينجح في ذلك، إذ اضطرت عليه الأمور، ونقم عليه الجند بعد أن أنقص أعطياتهم التي كان قد زادها الخليفة السابق، ولقّبوه «يزيد الناقص».

وقد اضطرت الدولة في عهده اضطرابًا شديدًا، وجرّ عليها بفعلته كوارث لا قبل لها بها، وشغل أبناء الأسرة الأموية في صراعات داخلية دموية، في الوقت الذي كانوا فيه أحوج الناس إلى الوحدة والتضامن إزاء الدعوة العباسية التي نشطت استعدادًا للانقضاض على الدولة.

وزاد الأمر سوءًا أن «يزيد» عجز عن المحافظة على سياسة التوازن بين القبائل العربية التي انتهجها عمه «هشام بن عبد الملك»؛ فانحاز إلى أهل «اليمن» الذين ساعدوه في الثورة على «الوليد»؛ مما أغضب عرب «قيس»، فثاروا عليه في الشام معقل «بنى أمية»، ثم أخذ الخلل والاضطراب يسريان في جميع أقاليم الدولة.

وفي ظل هذه الأحداث الهائلة، والأجواء العاصفة توفي «يزيد» فجأة في نهاية سنة (126هـ)، بعد حكم لم يتجاوز ستة أشهر، تاركًا الدولة غارقة في حالة من الفوضى والغليان.

(122/2)

---

## 12 - إبراهيم بن الوليد بن عبدالمملك (127هـ):

على الرغم من مبايعة بعض الناس لإبراهيم بالخلافة بعد وفاة أخيه «يزيد» الذي كان قد عهد إليه بالخلافة، فإن الأمر لم يتم له، ولم يستطع أن يمسك بزمام الأمور في الدولة التي انفرط عقدها، لذا يقول «الطبري»: «كان الناس في جمعة يسلمون على إبراهيم بن الوليد بالخلافة، وفي الأخرى بالإمارة، وفي الثالثة لا يسلمون عليه لا بالخلافة ولا بالإمارة»، كما رفضت معظم أقاليم الشام بيعته، وحملته هو وأخاه «يزيد» مسئولية قتل «الوليد بن يزيد» وما ترتب على ذلك من فتن وشرور.

وفي هذه الأثناء تحرك «مروان بن محمد بن مروان»، والى «أرمينيا» و «أذربيجان»، لإنقاذ الدولة من السقوط والضياع، بعد أن هاله وأفرعه ما أقدم عليه أبناء عمومته، وقدم إلى «دمشق» على رأس ثمانين ألف جندي، للقضاء على «إبراهيم بن الوليد» الذي هرب، فدخلها في ربيع الآخر سنة (127هـ)، وبايعه الناس بالخلافة، مؤملين إنقاذ الدولة من الضياع، ولكن كان للأقدار رأى آخر، فقد شاءت أن تكتب في عهده شهادة وفاة تلك الدولة.

(123/2)

---

## 13 - مروان بن محمد بن مروان بن الحكم (127 - 132هـ):

هو آخر خلفاء «بني أمية»، ولى حكم «أرمينيا» و «أذربيجان» منذ

خلافة ابن عمه «هشام بن عبد الملك»، وكان من أكفأ الولاة، وأكثرهم خبرة وبصرًا بالأمر؛ فارسًا شجاعًا، بطلا مقدامًا، غيورًا على ملك «بني أمية».

أدرك «مروان» عواقب مقتل «الوليد بن يزيد» على البيت الأموي، فخرج من «أرمينيا» قاصدًا «دمشق»؛ لينأر لمقتل «الوليد»، لكن الخليفة الجديد «يزيد بن الوليد» ترصّاه، ورجاه أن يرجع، ووعدته بإصلاح الأحوال، فرجع مؤتملاً أن يفى الخليفة بوعدته، غير أن الخليفة توفّي فجاءة، تاركًا الدولة وأحوالها مضطربة، لأخيه «إبراهيم»، الذي عجز عن النهوض بأعباء الخلافة؛ مما دفع «مروان» إلى التحرك من جديد، قاصدًا «دمشق»، ليجد «إبراهيم» قد غادرها هربًا، فدخلها، وبياع له بالخلافة، ليقوم بآخر محاولة لإنقاذ الدولة الأموية، التي شاءت الأقدار أن تكون نهايتها على يديه.

ولا يستطيع أحد أن يلوم «مروان» أو يحمله مسؤولية زوال الدولة، ف عوامل سقوطها كانت تتفاعل وتعمل من زمن بعيد، وكُتب له أن يجني وحده الثمار المرة لأخطاء من سبقه، على الرغم مما بذله من جهد ومثابرة، وعزم لا يلين، فحارب في أكثر من ميدان، وصارع أحداثًا عدّة، كانت كلها ضدّه، وأول خطر واجهه هو انقسام البيت الأموي شيعًا وأحزابًا، وإشعال أبناء عمومته الثورات العارمة ضدّه في الشام و «العراق»، ثم انقسام القبائل العربية؛ حيث وقفت القبائل اليمينية في وجهه، وهم الأنصار التقليديون لبني أمية، وانفجار المشكلات في أنحاء الدولة كلها من «الأندلس» حتى بلاد «خراسان» و «ما وراء النهر».

وقد بلغت حركة الخوارج أقصى درجات العنف في عهد «مروان بن محمد» (127 - 132هـ)، وقد شهد آخر ثورات الخوارج وأشدّها خطرًا، بقيادة «الضحاك بن قيس الشيباني» في «العراق»، و «أبي حمزة الخارجي» في جنوبي الجزيرة العربية.

وفي الوقت الذي يواجه فيه «مروان» كل هذه الظروف الصعبة، منتقلا من ميدان إلى ميدان، ومن جبهة إلى أخرى دون كلل أو ملل، محاولا إنقاذ الدولة، وبث روح الحياة فيها، وتجديد الدماء في أوصالها - تفاجئه رايات العباسيين منحدره من «خراسان» كالسيل المنهمر، مكتسحة كل قواته في طريقها، ولم تتوقف إلا بهزيمته وهو على رأس جيوشه في معركة على «نهر الزاب» بالعراق، في شهر جمادى الآخرة سنة (132هـ).

ولم يجد «مروان» طريقاً سوى الهرب إلى «مصر»، غير أن العباسيين لاحقوه إلى هناك، واستطاع «صالح بن علي بن عبد الله بن عباس»، عم أول خليفة عباسي أن يقتله في قرية تُسمى «زاوية المصلوب» التابعة لبوصير الواقعة جنوبي «الجيزة»، في ذى الحجة سنة (132هـ).

سقوط الدولة الأموية:

إن من يقرأ تاريخ الدولة الأموية منذ قيامها، ويدرس فتوحاتها ونظمها الإدارية، ومساهماتها الحضارية، وكفاءة خلفائها وولاها، ربما لا يتوقع النهاية السريعة والسقوط المدوى لها، وبالفعل يعد سقوطها وانحيار بنائها الشامخ من الأمور العجيبة في التاريخ البشري، غير أن ذلك العجب والدهشة يزولان، بعد دراسة العوامل والأسباب التي تفاعلت وعملت على تحقيق ذلك السقوط، وهي تتلخص في الآتي:

- أولاً: ثورات الشيعة المتتالية ضد الدولة، بدءاً من ثورة «الحسين بن علي بن أبي طالب» ضد «يزيد بن معاوية» واستشهاده في «كربلاء» في المحرم سنة (61هـ)، ونهاية بثورة «زيد بن علي بن الحسين» سنة (121هـ) ضد «هشام بن عبد الملك».

وربما لا تكون ثورات الشيعة ذات أثر عسكري في الدولة الأموية، باستثناء حركة «المختار الثقفي»، لكن أثرها كان بعيد المدى في

نفوس الناس، وشحنها بالعداء لبني أمية، وهذا ما استفادته دعاة العباسيين في مرحلة التحضير لثورتهم.  
- ثانيًا: ثورات الخوارج وهذه كانت من العنف والقوة بحيث أسهمت إسهامًا واضحًا في إضعاف الدولة الأموية، فلم تتركها تستريح،

(125/2)

وظلت تنفجر في أماكن كثيرة، وبخاصة في «العراق» والجزيرة العربية حتى آخر لحظة في حياة الدولة، فقد سبق القول: إن الخوارج شغلوا آخر خليفة أموي، وهو «مروان بن محمد» بثورتهم العنيفة عن التنبّه للخطر الداهم الذي زحف عليه من «خراسان»، بقيادة «أبي مسلم الخراساني».

- ثالثًا: العصبية العربية التي احتدمت بين القبائل، وبخاصة بين عرب الجنوب (اليمن) وعرب الشمال (قيس)، وكانت تلك العصبية قد خبت وكمنت بفضل تعاليم الإسلام التي أعلنت من رابطة العقيدة، وجعلت التقوى والعمل الصالح ميزان التفاضل بين الناس لا أنسابهم أو أجناسهم.

ثم بدأت تطل برأسها في عهد «عثمان بن عفان»، وكانت من أسباب الفتنة التي راح ضحيتها الخليفة نفسه، واستمرت في خلافة «علي بن أبي طالب»، وكان لها أسوأ الأثر في إفساد الأمر عليه، فزعما القبائل اليمنية الذين معه مثل «الأشتر النخعي» و «الأشعث بن قيس» كانوا يتصرفون من منطلق قبلي، وأعلوا عصبيتهم فوق مصلحة الإمام «علي»، بل فوق مصلحة الإسلام نفسه.

فلما قامت الدولة الأموية استطاع «معاوية» بمهارته السياسية الفائقة أن يتعامل مع هذه العصبية القبلية بتوازن شديد؛ فاحتفظ بصدقة الجميع وطاعتهم، وكذلك فعل «عبد الملك بن مروان» وأولاده حتى «هشام بن عبد الملك» (105 - 125هـ)، ثم انفجرت العصبية القبلية،

وفتحت فاهها كألسنة النيران، دون أن يستطيع أحد أن يوقفها أو يسد فاهها، لأن خلفاء الأمويين الأواخر لم يكونوا أهلاً للقيادة فعجزوا عن التصدي لها، وزاد الأمر خطراً أن تلك العصبية انفجرت في الشام، الحصن الحصين للدولة الأموية، فانقلبت عليهم القبائل اليمنية، الحليف التقليدي لهم، بسبب تقلب سياسة الخلفاء وتذبذبها من الاعتماد على اليمنيين تارة وعلى القيسيين تارة أخرى. والأخطر من ذلك أن العرب حملوا خلافتهم وعصبيتهم في كل أرض يملكون بها، وبخاصة «خراسان» التي أصبحت التربة الخصبة للدعوة

(126/2)

العباسية، بل إن بعض الولاة أسهموا في تفاقم نار العصبية والعمل على إشعالها؛ بسوء سياستهم وضيق أفقهم، فكان إذا جاء والٍ من «اليمن»، تعصّب لقومه وخصّهم بالمزايا والوظائف واضطهد القيسيين، وإذا جاء والٍ من «قيس» فعل عكس ذلك. وهكذا كانت الأحوال في «خراسان» تنتقل من سيئ إلى أسوأ؛ مما ساعد الدعاة العباسيين على إلحاق كل ذلك بخلفاء الأمويين، وقد استغل ذلك «أبو مسلم الخراساني» واستثمره لمصلحة العباسيين. - رابعاً: الموالى وبخاصة الفرس، فقد بغض هؤلاء الدولة الأموية، ومضوا في طريق العداة لها، فلم يتركوا ثورة أو فتنة ضدها إلا انضموا إليها واشتركوا فيها، مهما تكن هوية القائمين عليها، من شيعة إلى خوارج، إلى ثورة «ابن الأشعث» إلى ثورة «ابن المهلب»، حتى جاءتهم الدعوة العباسية، فانخرطوا فيها، وكانت على أيديهم نهاية الدولة الأموية.

- خامساً: الخلفاء الأمويون المتأخرون: أسهم هؤلاء بدءاً من خلافة «الوليد بن يزيد» (125 - 126هـ) في سقوط الدولة وسهّلوا لكل خصومهم مهمتهم للانقضاض على الدولة، وذلك لعدم كفاءتهم لقيادة

دولة عملاقة كالدولة الأموية من ناحية، ولتناحرهم فيما بينهم على الحكم والسلطان من ناحية أخرى.

وكل هذه العوامل السابقة لو وجدت رجالاً من طراز «معاوية بن أبي سفيان» أو «عبد الملك بن مروان» لكان من الممكن التغلب والسيطرة عليها، لكن هؤلاء تركوا الدولة تتعرض لأشد المخاطر، وتفرغوا لمحاربة بعضهم بعضاً، حتى جاء من قضى عليهم جميعاً.

– سادساً: الدعوة العباسية: بدأت الدعوة العباسية عملها منذ نهاية القرن الأول الهجري، في خلافة «سليمان بن عبد الملك» عندما انتقلت الدعوة الشيعية من «عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب» المكنى بأبي هاشم إلى «علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب»، الذي كان يعيش في قرية «الحميمة» جنوبي الشام، حين أسرَّ إليه «أبو هاشم» بأسرار الدعوة وأسماء رجالها.

(127/2)

وقد أظهر العباسيون منذ أن تولى «علي بن عبد الله بن العباس» أمر الدعوة، ومن جاء بعده من أبنائه حصافة سياسية ودهاء منقطع النظر، فقد أدركوا أن أهم أسباب فشل العلويين في الوصول إلى الخلافة هو التسرع والاعتماد على حب الناس لهم، وعواطفهم نحوهم، دون عمل منظم، فحاولوا تفادي تلك الأخطاء، وصاغوا شعاراً خادعاً لدعوتهم، هو الدعوة للرضا من «آل محمد»، فاقتنع كثير من الشيعة أن المقصود هو الدعوة لواحد من أولاد «علي» أحفاد النبي – صلى الله عليه وسلم –، مع أن الشعار يتسع ليشمل العباسيين أيضاً، فهم من «آل محمد».

ثم ظهرت عبقرية أئمة الدعوة من العباسيين وهم «علي بن عبد الله»، وابنه «محمد» وأولاده في اختيار الدعاة بدقة بليغة، من ذوى الفصاحة والبلاغة والقدرة الفائقة على مخاطبة الناس بما يناسبهم،

ومن المخلصين للدعوة ورجالها، المتفانين في سبيلها، حتى إن الواحد منهم إذا ألقى القبض عليه، وحقق معه الولاة الأمويون يفضل الموت، ولا يبوح بكلمة واحدة عن الدعوة ورجالها. وكما تجلت عبقرية الأئمة في اختيار دعائم تجلت أيضاً في اختيار المكان الذي ستنتقل منه الثورة المسلحة؛ لتكتسح الدولة الأموية، وهو «خراسان»؛ حيث العداء الدفين للأمويين، والعصبية العربية المحتدمة، وانطلقوا يزرعون العداء، ويثون الدعايات المفرضة ضد «بنى أمية»، فيضخمون الأخطاء اليسيرة، وأحياناً يختلقون الأخطاء وينسبونها إلى الخلفاء الأمويين، كاختلافهم أن «الوليد بن يزيد» حاول شرب الخمر فوق «الكعبة»، وكانوا يقومون بذلك وهم على هيئة تجار عاديين، وفي أسلوب هادئ، حتى تحولت مشاعر الناس ضد الدولة الأموية ورجالها. واستمر هذا العمل الدءوب نحو ثلث قرن (99 - 129هـ)، وكان يجري عبر محور «الحميمة» الرئيسى حيث مقر أئمة الدعوة، وتخرج منها التعليمات إلى «الكوفة»، ومنها إلى «خراسان». ولما حانت ساعة العمل العسكرى، عهد الأئمة بهذه المهمة إلى «أبي

(128/2)

---

مسلم الخراساني»، وكان مسموع الكلمة عند الخراسانيين، فأعلن الثورة المسلحة على الأمويين في «خراسان» سنة (129هـ)، وزحف بقواته إلى الغرب مكتسحاً قوات الأمويين حتى إذا وصل إلى «العراق»، أوقفه العباسيون، وأسندوا القيادة إلى «قحطبة الطائي»، وهو قائد عرقي، ولم يشاءوا أن يقتحم «أبو مسلم» بقواته «العراق»، حتى لا يثيروا مشاعر العرب ضدهم، وهذا من براعة الأئمة العباسيين في القيادة وفهمهم لنفوس الشعوب. واصل «قحطبة» عمله ضد قوات الأمويين في «العراق» حتى قُتل،

فخلفه ابنه «الحسن بن قحطبة»، واستطاع أن يستولى على معظم «العراق».

حدث ذلك كله والخليفة الأموي «مروان بن محمد» مشغول من رأسه إلى قدميه في مشكلات «العراق» و «الشام»، وفي إخماد الثورات التي أشعلها ضده أبناء عمومته، فضلاً عن ثورات الخوارج وقبل أن ينتهي من ذلك كله داهمته قوات العباسيين، وألحقت به هزيمة ساحقة على يد «عبدالله بن علي بن عباس» في موقعة «الزاب» شمالي «العراق» في شهر جمادى الأولى سنة (132هـ)؛ ففر من المعركة، وأخذ يتنقل من مكان إلى آخر حتى وصل إلى «مصر»، وهناك لاحقته الجيوش العباسية حتى قُتل على يد «صالح بن علي بن عبدالله بن عباس» في ذى الحجة سنة (132هـ).

ومقتله انتهت الدولة الأموية في المشرق، وقامت الدولة العباسية، حيث بويع «عبدالله بن محمد» الملقب بأبي العباس السفاح بالخلافة في «الكوفة» في ربيع الأول سنة (132هـ)، قبل مقتل «مروان بن محمد» بشهور.

وسبحان الله القائل:

{قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير}.  
[آل عمران: 26].

(129/2)

- المراجع:

\* د0 إبراهيم نجيب: القضاء في الإسلام

\* بن الأثير (عز الدين): الكامل في التاريخ

\* أحمد أمين: ضحي الإسلام - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة العاشرة - بدون تاريخ

\* الأشعري (أبو الحسن علي بن إسماعيل): مقالات الإسلاميين - المكتبة العصرية - بيروت -

1990م

\* البلاذري (أحمد بن يحيى): فتوح البلدان - دار الكتب العلمية - بيروت - 1983م

\* توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام

\* بن تيمية (أحمد بن عبد الحلیم): مناهج السنة النبوية - مكتبة ابن تيمية - القاهرة - الطبعة

الثانية - 1989م

\* ثابت إسماعيل الراوي: العراق في العصر الأموي

\* جاك ديسلر: الحضارة العربية

\* ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي): سيرة عمر بن الخطاب

\* ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي): فتح الباري بشرح صحيح البخاري

\* د0 حسن إبراهيم حسن: النظم الإسلامية

\* ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد): العبر - مؤسسة جمال للطباعة - بيروت - 1979م

\* ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد): مقدمة ابن خلدون - تحقيق د0 علي عبد الواحد

\* الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد): سير أعلام النبلاء - مؤسسة الرسالة بيروت - الطبعة

السابعة - 1991م

\* ابن سعد (محمد بن سعد): الطبقات

\* د0 سيدة الكاشف: مصر في فجر الإسلام - دار الرائد العربي - بيروت - الطبعة الثالثة -

1986م

\* د0 شاكر مصطفى: موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها

\* د0 شكري فيصل: حركة الفتح الإسلامي، المجتمعات الإسلامية

\* د0 شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي - دار المعارف القاهرة - الطبعة الحادية عشرة - بدون

تاريخ

\* ضياء الدين الرئيس: عبد الملك بن مروان - وزارة الثقافة والإرشاد القومي - القاهرة - الطبعة

الأولى - 1964م

\* الطبري (محمد بن جرير): تاريخ الطبري

\* ابن عبد الحكم (عبد الله بن عبد الحكم): فتوح مصر

\* عبد الله الطراز: موسوعة التاريخ الإسلامي

---

\* ابن عذارى (محمد أو أحمد بن محمد المراكشي): البيان المغرب - دار الثقافة - بيروت - الطبعة

الثانية - 1980م

\* الفخري: الآداب السلطانية والولايات الدينية

\* ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم): عيون الأخبار

\* ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم): المعارف

\* ابن كثير (إسماعيل بن عمر): البداية والنهاية

\* الإمام مالك (مالك ابن أنس): الموطأ

\* المالكي (الحسن بن محمد): رياض النفوس

\* الماوردي (علي بن محمد): الأحكام السلطانية

\* المسعودي (علي بن الحسين): مروج الذهب

\* اليعقوبي (أحمد بن إسحاق): تاريخ اليعقوبي - دار صادر - بيروت - بدون تاريخ

(131/2)

---

الجزء الثالث

**العصر العباسي في العراق والمشرق**

تأليف:

أ. د. حسن علي حسن

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة القاهرة

د. عبد الرحمن سالم

مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة القاهرة

الفصل الأول

\* الخلافة العباسية

ينتسب خلفاء «بني العباس» إلى جدهم «العباس بن عبد المطلب» عم النبي - صلى الله عليه وسلم -، الذي عاش في «مكة» وأسلم بها، وكانت له مكانته عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .  
وقد أنجب «العباس» عددًا من الأبناء، أشهرهم: «عبد الله بن عباس» الذي أُطلق عليه «ترجمان القرآن» و «خَيْرُ الأُمَّة» لسعة علمه وحدة ذكائه.

ترك «عبد الله» كثيرًا من الأبناء منهم «علي بن عبد الله»، الذي يُقال له «السجّاد»؛ لكثرة عبادته، وأنجب «السجاد» أولادًا كثيرين، أشهرهم «محمد بن علي»، الذي نظم الدعوة العباسية وخرج بها إلى حيز الوجود، وأحاط تحركاته بجو من السرية والكتمان، حتى أطلق على المرحلة التي مرت بها الدعوة العباسية في عهده «المرحلة السرية»، وتمتد من سنة (100هـ = 718م) إلى سنة (129هـ = 746م)، وتحركت الدعوة فيها من ثلاثة أماكن هي:

- 1 - الحميمة: وهي قرية صغيرة منعزلة في جنوب «الشام»، اتخذتها الأسرة العباسية مقراً لها.
  - 2 - الكوفة: وتعد المركز الرئيسي لنشاط الدعاة العباسيين، وتتوسط بلاد «الشام» و «العراق» و «خراسان».
  - 3 - خراسان: حيث نجح الدعاة العباسيون في اجتذاب الآلاف إليهم. وبدأت الدعوة بجماعة تُسمّى «النقباء»، قاموا بتكوين «مجلس شورى» برئاسة «سليمان بن كثير الخزاعي»، وكان مركز الدعوة في «الكوفة» يتلقى التعليمات من مقر البيت العباسي في «الحميمة» ويرسلها إلى أنصار الدعوة في كل مكان، وخاصة «خراسان».
- وعقب وفاة الإمام «محمد بن علي» سنة (125هـ = 742م) تولى ابنه «إبراهيم» - المعروف بالإمام - شئون الدعوة، وقد نشطت في عهده، واتخذت اللون الأسود شعاراً لها.

وقد تهيأ للدعوة العباسية أسباب النجاح منذ أن أسندت مهمة الإشراف على الدعوة في «خراسان» إلى «أبي مسلم الخراساني»،

الذى جمع حوله الأنصار والأعوان، وخاض بهم ساحات القتال محققاً العديد من الانتصارات، وقام بدور مهم في قيام «الدولة العباسية».

(1/3)

وقد واجه العباسيون بزعامة «أبي مسلم» قوى مختلفة في «خراسان»، فور إعلان ثورتهم ليلة الخميس (25 من رمضان سنة 129هـ = 9 من يونيو سنة 747م)، وتمثلت هذه القوى في «نصر بن سياد» الوالى الأموى، وقبائل «اليمن» و «ربيعة»، و «الخوارج»، لكن «أبا مسلم» استطاع بذكائه ودهائه أن يوقع بينها مستغلا العنصر القبلى وإثارة العصبية بين أفرادها.

وبعد معارك كثيرة استطاعت قوات «أبي مسلم الخراساني» أن تدخل مدينة «مرو» عاصمة إقليم «خراسان»، ثم استولت على «همدان» و «نهابوند» و «حلوان» و «خانقين» وغيرها، حتى دخلت «العراق»، وكان وراء ذلك النجاح الكبير الذى أحرزه العباسيون في نشاطهم الدعائى والعسكرى أسباب كثيرة، منها:

1 - الدعوة الدائبة والمنظمة التى استمرت ما يقرب من ثلاثين سنة على أيدي دعاة مدربين.

2 - كثرة الجيوش العباسية واندفاعها لاكتساح القوات الأموية.

3 - القيادة الحكيمة التى استطاعت تنظيم أنصار الدعوة العباسية وتسليحهم وتوجيههم إلى ميادين القتال المختلفة.

4 - تمزق صفوف الجيوش الأموية بسبب العصبية القبلية.

5 - نجاح العباسيين فى جذب مجموعة من القادة الأكفاء الذين أداروا

المعركة باقتدار ضد الأمويين، ومنهم «أبو مسلم الخراساني»، و «أبو سلمة الخلال» كبير الدعاة العباسيين بالكوفة، و «ابن شبيب الطائي» الذى قاد الجيوش العباسية المتجهة إلى «العراق».

انتقلت الأسرة العباسية من «الحميمة» سرا إلى «الكوفة»، بعد إلقاء

القبض على «إبراهيم الإمام» وقتله في أحد سجون «دمشق»، وكان قد أوصى بتولية أخيه «عبدالله» شئون الدعوة. وفي «الكوفة» أقامت الأسرة العباسية عند «أبي سلمة الخلال» كبير الدعاة أربعين يومًا حتى تهيأت الظروف لمبايعة أول خليفة عباسي وهو «عبد الله بن محمد».

(2/3)

## الفصل الثاني

### \*العصر العباسي الأول

(132 - 232 هـ = 749 - 847 م):

يمتد العصر العباسي الأول قرنًا من الزمان، من سنة (132 هـ = 749 م) إلى سنة (232 هـ = 847 م)، ويعد العصر الذهبي للخلافة العباسية؛ حيث تمتع الخلفاء بسلطتهم الدينية والدنيوية.

وخلفاء هذا العصر تسعة، هم:

- 1 - أبو العباس عبدالله (132 - 136 هـ = 749 - 753 م).
- 2 - المنصور (136 - 158 هـ = 753 - 775 م).
- 3 - المهدي (158 - 169 هـ = 775 - 785 م).
- 4 - الهادي (169 - 170 هـ = 785 - 786 م).
- 5 - الرشيد (170 - 193 هـ = 786 - 809 م).
- 6 - الأمين (193 - 198 هـ = 809 - 813 م).
- 7 - المأمون (198 - 218 هـ = 813 - 833 م).
- 8 - المعتصم (218 - 227 هـ = 833 - 842 م).
- 9 - الواثق: (227 - 232 هـ = 842 - 847 م).

الخليفة الأول: أبو العباس (132 - 136 هـ = 749 - 753 م):

هو «عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب بن

هاشم»، ولد سنة (100هـ = 718م) تقريبًا.  
بويح «أبو العباس» في «الكوفة» في شهر ربيع الأول سنة (132هـ =  
749م).

واستمر في الحكم أربع سنوات، استطاع خلالها توطيد أركان  
الخلافة العباسية، والقضاء على كل مقاومة ظهرت في عهده.  
موقف العباسيين من الأمويين:  
مما لاشك فيه أن هناك بعض التجاوزات التي حدثت في إقليم  
«الشام» على يد الوالي العباسي «عبدالله بن علي»، عم الخليفة  
«أبي العباس»؛ حيث تعقب الأمويين في كل مكان وقتل كثيرًا منهم،  
مما دفع بعضهم إلى الفرار إلى مناطق بعيدة، كما فعل «عبدالرحمن  
بن معاوية» - صقر قريش - الذي فر إلى «المغرب» ومنها إلى  
«الأندلس»؛ حيث أسس دولة أموية هناك سنة (138هـ = 755م)، كما  
حاول بعضهم الآخر التخلي وطلب العفو.  
ومن ناحية أخرى لم يقف أنصار الأمويين وأعوانهم مكتوفي الأيدي  
أمام انتصارات العباسيين، وما ارتكبه بعض ولائهم من مذابح تجاه  
البيت الأموي، فقاموا بعدة ثورات في أماكن متفرقة، إحداها  
بالبلقاء و «حوران» سنة (132هـ = 749م)، وأخرى في «قنسرين»،

(3/3)

---

وثالثة في «دمشق»، لكن قوات العباسيين استطاعت الانتصار عليها  
والسيطرة على الموقف.

موقف الخلافة من بعض زعماء الدعوة العباسية:  
واجهت «الدولة العباسية» قبيل إعلانها وفي بداية قيامها انحراف  
بعض المسئولين فيها، ولم تكن الظروف السياسية التي صاحبت قيام  
«الدولة العباسية» تسمح بالتخلص من هؤلاء، فلما بويح «أبو  
العباس» بالخلافة وبدأت الدولة تأخذ طريقها إلى الاستقرار، قامت

بمعاينة هؤلاء، وكان أول من عوقب «أبا سلمة الخلال» بسبب عدم تحمسه كثيرًا لانتقال أفراد البيت العباسي من «الحميمة» إلى «الكوفة»، ولم يأذن لهم بدخول «الكوفة» إلا بعد فترة، وحاول نقل الخلافة من البيت العباسي إلى البيت العلوي إلا أنه فشل في ذلك، كما حاول قتل «أبي العباس» وفشل في ذلك أيضًا، فلما استقرت أمور الدولة استقر رأي أفراد البيت العباسي على أخذ رأي «أبي مسلم الخراساني»، الذي وافق على التخلص منه، فتم اغتياله وأعلنت القيادة العباسية أن جماعة من أعداء الدولة هم الذين نفذوا هذه المؤامرة.

كما قام «أبو مسلم الخراساني» والى إقليم «خراسان» بالتخلص من أحد كبار الدعاة وهو «سليمان بن كثير»، الذي كان يُعرف بنقيب النقباء، عقب اتهامه بالاتصال بأحد أبناء البيت العلوي وتحريضه على الثورة ضد البيت العباسي.

وتوفي الخليفة العباسي الأول «أبو العباس» بالأندلس في (13 من ذي الحجة سنة 136هـ = 9 من يونيو سنة 754م)، وعمره نحو ست وثلاثين سنة.

الخليفة الثاني: أبو جعفر المنصور (136 - 158هـ = 753 - 775م): هو «عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب الهاشمي»، وكنيته «أبو جعفر». ولد سنة (95هـ = 714م) في قرية «الحميمة» بالشام، وتربى وسط كبار الرجال من «بني هاشم»، فنشأ فصيحًا عالمًا بسير الملوك والأمراء، ودرس النحو والتاريخ والأدب شعرًا ونثرًا وغير ذلك، كما كان كثير الأسفار والتنقل.

ولما تولى أخوه «أبو العباس» الخلافة استعان به في محاربة أعدائه وتصريف أمور الدولة، وكان ينوب عنه في الحج، كما أوصى «أبو العباس» قبيل وفاته مباشرة بولاية عهده لأخيه «أبي جعفر»، الذى كان غائباً في موسم الحج، فلما تُوفّي «أبو العباس» قام ابن أخيه «عيسى بن موسى» بأخذ البيعة لأبي جعفر من «بنى هاشم» وغيرهم، وأرسل إلى عمه «أبي جعفر» بوفاة أخيه ومبايعته بالخلافة.

ولما وصل «أبو جعفر» إلى «الأنبار» استكمل أخذ البيعة من القادة والرؤساء، ثم خطب فيهم مبيّناً سياسته في إدارة الدولة في النقاط الآتية:

1 - زهده في منصب الخلافة، وأنه لم يكن يتطلع إلى ذلك أو يرغب فيه.

2 - تعهده بتنفيذ ما ورد في كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم -.

3 - تعهده بإقرار العدل ورفع الظلم عن الناس، وإرجاع الحقوق إلى أصحابها.

يُعدُّ «أبو جعفر المنصور» المؤسس الحقيقى للدولة العباسية، وقد واجه بحزم واقترار العديد من المشاكل والثورات حتى نجح في السيطرة عليها والقضاء على القائمين بها، ومنها: ثورة عمه «عبد الله بن على»، وتمرد «أبي مسلم الخراساني»، وثورة «محمد النفس الزكية»، وثورات الفرس، وحركات الخوارج. أولاً: ثورة عبد الله بن على:

يُعدُّ «عبد الله بن على» - عم الخليفة «أبي جعفر المنصور» - من الشخصيات العسكرية البارزة في «الدولة العباسية»، وقد شارك مثل غيره من أفراد البيت العباسى، في النشاط العسكرى والسياسى حتى قامت «الدولة العباسية»، وتولى إمارة «الشام»، فلما تُوفّي الخليفة الأول «أبو العباس»، رفض «عبد الله بن على» مبايعة الخليفة الجديد «أبي جعفر المنصور»، وأعلن أنه أحق منه بمنصب الخلافة،

وأن الخليفة «أبا العباس» كان قد وعده بذلك، ولم يكن هذا صحيحًا؛ لأن الخليفة «أبا العباس» كتب وصيته قبل وفاته بتولية أخيه «أبي جعفر» الخلافة، كما أنه لم يرد عن أحد من أفراد البيت العباسي ما يؤيد دعوى «عبد الله بن علي».

(5/3)

وقد أحدث هذا خللاً شديداً في كيان البيت العباسي، فحاول «أبو جعفر» رآب هذا الصدع، وأرسل إلى عمه عدة رسائل يدعوه إلى الدخول في طاعته، ولزوم الجماعة، إلا أن عمه رفض ذلك، فأرسل إليه «أبو جعفر» قائده «أبا مسلم الخراساني» على رأس جيش كبير، ودارت معركة فاصلة بين الجيشين في (جمادى الآخرة سنة 137هـ = نوفمبر سنة 754م)، انتهت بانتصار جيش «أبي مسلم» وفرار «عبد الله بن علي» إلى «البصرة»، ثم استطاع الخليفة «أبو جعفر» إحضاره منها إلى «الكوفة» وسجنه حتى مات سنة (147هـ = 764م).  
ثانياً: تمرد أبي مسلم الخراساني:

اختلفت المصادر التاريخية في بيان أصل «أبي مسلم الخراساني»، والراجح أنه من أصل فارسي، وقد التحق في بداية أمره بخدمة «إبراهيم الإمام» الذي أعجب به ووثق فيه، واستعان به في أموره المهمة، وكان له دور بارز في نجاح الدعوة العباسية، وقيام دولتها. ورغم الجهود والأعمال التي قام بها «أبو مسلم» فإنه ارتكب بعض الأخطاء الجسيمة في حق الخلافة العباسية منها:

انفراده بالحكم في «خراسان»، وتجاهله شيوخ الدعوة العباسية ونقباؤها هناك، وعدم تنفيذ أوامر الخليفة «أبي العباس» ثم تجاهله لأبي جعفر في مناسبات كثيرة، وتحريضه ابن أخيه «عيسى بن موسى» على الثورة والاستئثار بمنصب الخلافة، وغير ذلك.  
وقد حاول الخليفة «أبو جعفر» - في البداية - معالجة الأمور بهدوء،

فاستدعى «أبا مسلم» من «خراسان» إلا أنه رفض الحضور فواصل الخليفة مراسلاته، واستعان ببعض الزعماء للضغط على «أبي مسلم» للحضور إلى مقر الخلافة في «العراق»، إلا أن «أبا مسلم» رفض ذلك، فأرسل الخليفة إليه يهدده ويتوعده إن لم يرضخ ويستجيب لأمره، وبعد مشاورات بين «أبي مسلم» وأنصاره استجاب وحضر إلى قصر الخلافة، فعدد عليه الخليفة «أبو جعفر» ما ارتكبه من أخطاء في حق الدولة، ثم أمر بقتله.

ثالثًا: ثورة محمد النفس الزكية:  
هو «محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب»،

(6/3)

المعروف بالنفس الزكية، زعيم البيت العلوي والشيعة، ومنذ مقتل الإمام «علي» - كرم الله وجهه - والشيعة يحاولون الوصول إلى مقعد الحكم عن طريق الثورات والخروج على السلطة، باعتبارهم أصحاب الحق الشرعي.

وبقيام «الدولة العباسية» وتولى العباسيين الخلافة انتقل صراع العلويين على الخلافة من محاربة الأمويين إلى محاربة أبناء عمومتهم العباسيين.

وعلى الرغم من أن أسرة «محمد النفس الزكية» لم تتخذ موقفًا عدائيًا واضحًا في بدء الخلافة العباسية فإن الأمر تغير حين تولى «أبو جعفر المنصور» الخلافة وبدأ يتعقب «محمدًا النفس الزكية» وأخاه «إبراهيم» اللذين اختفيا وأخذوا يعملان سرا في الدعوة لنفسيهما والخروج على «الدولة العباسية».

ولما فشل «أبو جعفر المنصور» في القبض على «محمد النفس الزكية» أمر بالقبض على عدد كبير من أفراد أسرته، وحملهم إلى سجون «العراق» وعذبهم لإرغام «محمد النفس الزكية» على الظهور،

وقد نجح «أبو جعفر» في ذلك؛ فظهر «محمد النفس الزكية» في «المدينة المنورة» في (رجب سنة 145هـ = سبتمبر سنة 762م) وقتله العباسيون هناك، كما قتلوا أخاه «إبراهيم» بالعراق، وكثيراً من أهلها.

رابعاً: ثورات الفرس:

واجهت الخلافة العباسية في عهد «أبي جعفر» عدة ثورات فارسية، كانت تعبيراً عن معارضة بعض العناصر الفارسية للخلافة الإسلامية، ومن هذه الثورات:

حركة سنباذ سنة (137هـ = 754م):

حيث قاد «سنباذ» - وهو أحد أتباع «أبي مسلم» - حركة ثورية للتأثر لمقتل «أبي مسلم الخراساني»، ومحاربة الإسلام، وأحس الخليفة «المنصور» بخطر هذه الحركة فأرسل جيشاً كبيراً استطاع القضاء على قوات «سنباذ» وقتله وهو في طريقه لاجئاً إلى حاكم «طبرستان».

حركة الرواندية (141هـ = 758م):

وهم قوم من أهل «خراسان»، شُمو بذلك نسبة إلى قرية «رواند» القريبة من «أصفهان»، وكانوا من أتباع «أبي مسلم الخراساني»، إلا أنهم زعموا أن ربهم الذي يرزقهم ويطعمهم ويستقيهم هو

(7/3)

---

«المنصور»، وأعلنوا إيمانهم بفكرة «تناسخ الأرواح» واستطاعوا دخول مدينة «الهاشمية»، عاصمة الخلافة العباسية آنذاك، وهاجموا قصر الخلافة فتصدى لهم بعض الجنود البواسل، وعلى رأسهم «معن بن زائدة الشيباني»، واستطاعوا القضاء على هذه الحركة.

حركة أستاذ سيس سنة (150هـ = 767م):

«أستاذ سيس» رجل فارسي ادعى النبوة، وقاد حركة تهدف إلى

تخليص بلاد فارس من قبضة العباسيين، واستطاع بجيوشه الضخمة بسط نفوذه على مناطق «سجستان» و «هراة» و «كور خراسان» وغيرها، فحشدت له الخلافة العباسية قوات ضخمة بقيادة «خازم بن خزيمه التميمي»، استطاعت القضاء على هذه الحركة، وانتهى الأمر بالقبض على «أستاذ سيس» وإعدامه.

خامساً: حركات الخوارج:

نظر الخوارج إلى العباسيين على أنهم مغتصبون للخلافة التي ينبغي أن يتقلدها أجدد المسلمين بها بالانتخاب، بغض النظر عن نسبه، ومن ثم شهد العصر العباسي الأول عدداً من حركات الخوارج، بغرض القضاء على الخلافة العباسية، ومنها:

1 - ثورة ملبد بن حرملة الشيباني سنة (137هـ = 754م) بأرض الجزيرة (ديار بكر):

وشكلت خطراً كبيراً على العباسيين، إلا أن قائدهم «خازم بن خزيمه» استطاع القضاء عليها.

2 - ثورة حسان بن محالد الهمداني بالموصل سنة (148هـ = 765م): انتهت بالفشل لتفرق أنصاره عنه. وفاة المنصور:

توفي «المنصور» في (6 من ذي الحجة سنة 158هـ = 7 من أكتوبر سنة 775م)، وهو في طريقه إلى الحج.

وقد أشار «ابن الأثير» في كتابه «الكامل في التاريخ» إلى أن «المنصور» كان يجعل نهاره لتصريف أمور الدولة، فإذا صَلَّى العصر جلس مع أهل بيته، فإذا صَلَّى العشاء الآخرة جلس ينظر فيما ورد إليه من رسائل البلاد، حتى يمضي ثلث الليل الأول فينام، ثم يقوم في الثلث الأخير فيتوضأ ويصلي حتى يطلع الفجر، فيصلي بالناس، ثم يجلس في ديوانه لتصريف أمور البلاد، وهكذا يقضي وقته.

الخليفة الثالث: محمد المهدي (158 - 169هـ = 775 - 785م):

هو «محمد بن عبدالله بن محمد» وُلد بالحميمة سنة (126هـ=743م)، وقد هياه والده «المنصور» وأعدده ليكون جديراً بمنصب الخلافة من بعده، فنشأ على ثقافة عربية واسعة، ودراية بفنون الحرب وأساليب الإدارة.

وقد أوصى «المنصور» ابنه وولى عهده «محمدًا» وصية جامعة، قبيل وفاته تضمنت:

1 - التمسك بأن تظل «بغداد» عاصمة للخلافة.  
2 - الاهتمام بأهل بيته وحاشيته وأهل «خراسان» لدورهم في قيام الدولة.

3 - تقوى الله وإبعاد النساء عن السياسة.

4 - تجنب إهدار دماء المسلمين، ومعاقة المفسدين والملحدين وتبعهم.

5 - الاستعداد المستمر بالقوة والسلاح، وأن يباشر الأمور بنفسه. وعقب وفاة «المنصور» ببيع «المهدى» بيعة خاصة من قبل الزعماء بمكة، ثم بايعه جمهور المسلمين في «بغداد» في (ذى الحجة سنة 158هـ= أكتوبر سنة 775م).

سياسة المهدي العامة:

اختلفت سياسة «المهدى» عن سبقيه، فاتسم عهده بالاستقرار والهدوء والتسامح والصفح، فأطلق سراح المسجونين السياسيين، واهتم بإقرار العدل بين الناس، وجلس للنظر في مظالم الناس مستعينًا بالقضاة، وأمر بالإنفاق على مرضى الجذام؛ حتى لا يختلطوا بالناس فتصيبهم العدوى، كما اهتم اهتمامًا خاصًا بالحرمين الشريفين وبكسوة «الكعبة».

وقد عفا «المهدى» عن بعض آل البيت ومنحهم الأموال والإقطاعات، وحينما أدى فريضة الحج سنة (160هـ= 777م) وزع أموالاً كثيرة على أهل «مكة» و «المدينة»، وأصدر عفواً عاما عن عاقبهم «المنصور»

من أهل «الحجاز»؛ لمشاركتهم في الثورة العلوية، واختار خمسمائة من رجال الأنصار وكَوَّن منهم حرسه الخاص، كما قام ببث العيون والجواسيس بالبلاد لرصد أى تحرك معادٍ للدولة، ورغم ذلك فقد حاول بعض العلويين مثل «عيسى بن زيد بن علي» و «علي بن العباس بن الحسن» القيام بثورة ضد الخلافة العباسية، لكنها لم تنجح؛ حيث عاجلها الموت.

سياسة المهدي تجاه الخوارج:

واجه «المهدي» عدة ثورات من الخوارج وقضى عليها بحزمه وسرعة

(9/3)

مواجهته، منها:

1 - ثورة «يوسف بن إبراهيم البرم» في «خراسان» سنة (160هـ = 777م).

2 - حركة «عبدالسلام بن هاشم اليشكري» في «قنسرين» سنة (160هـ = 777م).

3 - حركة الخوارج بالموصل بزعامة «ياسين الموصلى التميمي» سنة (168هـ = 784م).

الحياة الاجتماعية في عهد المهدي:

ترك «المنصور» بعد وفاته في بيت المال أربعة عشر مليون دينار وستمائة مليون درهم، قام «المهدي» بتوزيعها على الناس؛ فشاع بينهم الترف والنعيم واللهو واللعب، كما اتبعه الناس في حبه للآداب والفنون؛ فارتقت الآداب والفنون، وسادت بين طبقات الشعب، وكان «المهدي» أول خليفة يُحمل إليه الثلج إلى «مكة» في الحج، كما كان مترفاً في ملبسه ومأكله.

وفاة المهدي:

تُوِّفِي «المهدي» سنة (169هـ = 785م) وعمره ثلاث وأربعون سنة،

وقد قضى في الحكم إحدى عشرة سنة.

الخليفة الرابع: موسى الهادي (169 - 170هـ = 785 - 786م):

هو «موسى» ابن الخليفة «المهدي»، تولى الخلافة في (22 من

الحرم سنة 169هـ = 5 من أغسطس سنة 785م).

سياسته:

اتصف الخليفة «الهادي» بالغيرة والشهامة والجرأة، ورفض تدخل

أمه «الخيرزان» في سياسة الدولة كما كانت تفعل في عهد والده

«المهدي».

وقد واجه «الهادي» مشاكل خطيرة على رأسها ثورة البيت العلوي

بقيادة «الحسين بن علي بن الحسن» في «المدينة» سنة (169هـ =

785م)، إلا أن «الهادي» أرسل جيشاً على وجه السرعة نجح في

القضاء عليها في (8 من ذي الحجة سنة 169هـ = 11 من يونيو سنة

786م) وحاول «الهادي» نقل ولاية العهد من أخيه «الرشيد» إلى ابنه

«جعفر»، الذي لم يكن قد بلغ الثامنة من عمره مخالفاً وصية والده

في ترتيب ولاية العهد، إلا أن الموت عاجله فلم يتحقق له ما أراد.

وفاته:

توفي «الهادي» ليلة الجمعة، (نصف ربيع الأول سنة 170هـ = نصف

أغسطس 786م) وبذلك تكون مدة خلافته سنة وشهراً واثنين وعشرين

يوماً.

الخليفة الخامس: هارون الرشيد (170 - 193هـ = 786 - 809م):

(10/3)

هو «هارون بن محمد المهدي»، وُلد بالرى في آخر (ذى الحجة سنة

145هـ = فبراير سنة 763م)، وتولى الخلافة في الليلة التي مات فيها

أخوه «الهادي» وعمره اثنان وعشرون عاماً.

ويُعدُّ «الرشيد» أشهر خلفاء العباسيين وأبعدهم صيتاً، فقد ملأت

أخباره كتب التاريخ شرقاً وغرباً.

سياسته العامة:

لما استقر «الرشيد» في «بغداد» عاصمة الخلافة العباسية قلد  
«يحيى البرمكي» منصب الوزارة وفوضه في إدارة شئون البلاد،  
ومنحه لقب «أمير»؛ فكان أول من لُقّب بذلك من الوزراء الفرس في  
«الدولة العباسية».

اهتم «الرشيد» بإقامة العدل في الناس، فأمر بإعادة الأراضي التي  
اغتصبها أهل بيته في عهد الخلفاء السابقين إلى أصحابها، ورفع  
الظلم عن المسجونين ظلماً، وقسم أموال ذوى القربى بين «بنى  
هاشم» كلهم بالعدل، وأصدر عفواً عن المعتقلين السياسيين، فأخرج  
من كان في السجن من العلويين، وسمح لهم بالعودة إلى «المدينة»،  
ومنحهم الرواتب، كما أجرى «الرشيد» تعديلات واسعة في مناصب  
الدولة في كل من «مكة» و «المدينة» و «الطائف» و «الكوفة»  
و «خراسان» و «أرمينية» و «الموصل».

موقفه من الشيعة:

حاول «الرشيد» في الأعوام الأولى من خلافته مسالمة العلويين  
والعفو عنهم، إلا أنه كان يخشى خطورة اثنين منهم فرأى عقب موقعة  
«الفخ»، أما أولهما فهو «إدريس بن عبدالله» الذى نجح فى الوصول  
إلى «المغرب الأقصى» وكون «دولة الأدارسة»، وأما الآخر فهو  
«يحيى بن عبدالله» الذى فرّ إلى «بلاد الديلم» وتجمع حوله  
المتشيعون لآل البيت، فأرسل إليه «الرشيد» جيشاً بقيادة «الفضل  
بن يحيى»؛ لإرجاعه إلى حظيرة الخلافة، فعاد به إلى «بغداد»  
حيث لقيه «الرشيد» بكل ما أحب، إلا أن الحاسدين سرعان ما وشوا  
به عند الخليفة بسبب قيام الكثير من العلويين بزيارته والتودد إليه،  
فأمر «الرشيد» بسجنه حتى مات. وقد استطاع بعض رجال الحاشية  
الذين يكونون العداء للبيت العلوى تعميق خوف «الرشيد» من زعماء

البيت العلوى واستغلال ذلك للقضاء عليهم، كما حدث مع «موسى الكاظم»؛ حيث أمر «الرشيد» بحبسِه حتى أدركه الموت.

موقفه من الخوارج:

واصل الخوارج نشاطهم العسكرى ضد الخلافة العباسية فى عهد «الرشيد»، فقام «الوليد بن طريف الخارجى» بحركة تمرد وعصيان فى «العراق» واستولى على أماكن عديدة، إلا أن «الرشيد» أرسل إليه جيشًا بقيادة «يزيد الشيبانى» استطاع القضاء على هذه الحركة وقتل قائدها فى (رمضان سنة 179هـ = نوفمبر سنة 795م).

موقفه من البرامكة:

تمتع البرامكة فى بداية عهد «الرشيد» بالسلطة والجاه والنفوذ، وتقلدوا مناصب الدولة المهمة، حتى إذا جاء شهر (صفر سنة 187هـ = يناير سنة 803م) أمر «الرشيد» بسجنهم، ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم، فيما عرف فى التاريخ بنكبة البرامكة. وقد تضافرت عدة عوامل كانت سببًا فيما فعله «الرشيد» بالبرامكة، منها:

- 1 - اتهامهم بالزندقة والخروج عن الإسلام باعتبارهم من أصل مجوسى.
  - 2 - محاولتهم إبعاد العرب عن المناصب المهمة وتقديمهم الفرس لشغلها.
  - 3 - استبدادهم بالأمر وإظهارهم ما لا تحتمله نفوس الملوك.
  - 4 - قيام الحاسدين والحاقدين بتضخيم أخطاء «البرامكة».
  - 5 - أن «الرشيد» كلف «جعفر بن يحيى البرمكى» بقتل رجل من آل «أبى طالب» فلم يفعل.
- الاجتمع فى عهد الرشيد:
- ازدهر المجتمع فى عهد «الرشيد» اقتصاديا وثقافيا وعلميا وعمرانيا.

فقد تدفقت الأموال من كل مكان، واتسعت رقعة الدولة واستقر الأمن بها وازدهرت التجارة، وأصبحت «بغداد» قبلة للطامحين في الشراء والترف، كما قصدها النوابغ والعباقرة والصناع المهرة من سائر الشعوب، وشيدت فيها القصور الرائعة والمساجد الكبيرة، وانتشرت الحدائق العامة، والأسواق المتخصصة كسوق الذهب والنحاس، والنسيج وغير ذلك.

وكان «الرشيد» على قدر عالٍ من الثقافة والمعرفة، واجتمع عنده أقطاب العلم والعمل والسياسة والحرب مثل: «أبي يوسف» تلميذ

(12/3)

---

الإمام «أبي حنيفة»، و «الأصمعي» الراوية المشهور، و «أبي العتاهية» و «أبي نواس» من الشعراء، وداهية السياسة «يحيى البرمكي» وابنيه «الفضل» و «جعفر»، ومن المغنين «إبراهيم الموصلي» وابنه «إسحاق»، ومن الموسيقيين «زلزل» و «برصوم»، وغيرهم من أمراء العباسيين القادة والخطباء والشعراء والساسة.

وفاة الرشيد:

أثناء سفر «الرشيد» من «بغداد» إلى «خراسان» اشتد المرض عليه، وتوفي صباح يوم الجمعة (2 من جمادى الآخرة سنة 193هـ = 23 من مارس سنة 809م)، وعمره خمس وأربعون سنة.

وقد حكم «الرشيد» البلاد ثلاثة وعشرين عامًا، بلغت فيها «الدولة العباسية» ذروة مجدها، وقد تحدث عنه كثير من المؤرخين، فقال عنه «الطبري»: «غزا سبع مرات، وجهز عشرين حملة للجهاد في البر والبحر». وقال عنه «ابن خلكان»: «حج في خلافته تسع حجج، وكان يصلي في اليوم مائة ركعة».

الخليفة السادس: محمد الأمين (193 - 198هـ = 809 - 813م):

هو «محمد بن هارون الرشيد»، وُلد بالرصافة وأمه «زبيدة» ابنة

«جعفر الأكبر بن المنصور»، تولى الخلافة عقب وفاة أبيه «هارون الرشيد» باعتباره ولي عهده، وكان عمره حينئذٍ ثمانية وعشرين عامًا.

الصراع بين الأمين والمأمون:

تشير مصادر التاريخ إلى أن بداية الخلاف كانت من جانب «الأمين»، حين خالف أمر والده «الرشيد» في مرضه، بأن يكون ما في معسكره من أموال ومتاع وجند لأخيه «المأمون»، في «مرو»؛ مما أحدث أثرًا سيئًا في نفس «المأمون».

وكانت الخطوة التالية قيام «الأمين» بتعيين ابنه «موسى» وليا للعهد بدلاً من أخويه «المأمون» و «المؤتمن»، فقام «المأمون» بإسقاط اسم «الأمين» من الطرز والسكة، ومنع البريد من الوصول إليه بأخبار «خراسان»، ثم طلب من أخيه «الأمين» أن يرد إليه مائة ألف دينار كان والده «الرشيد» قد أوصى بها إليه فرفض «الأمين»، ثم تطور الصراع بينهما إلى المواجهة العسكرية، فجهز «الأمين» جيشًا بقيادة

(13/3)

---

«علي بن عيسى بن ماهان»، وجهَّز «المأمون» جيشًا ضخمًا بقيادة «طاهر بن الحسين»، ودارت عدة معارك بين الجيشين انتهت بمحاصرة «بغداد» ومقتل «الأمين» سنة (198هـ = 813م)، وقد دامت خلافة «الأمين» أربع سنوات وثمانية أشهر وخمسة أيام. الخليفة السابع: عبد الله المأمون (198 – 218هـ = 813 – 833م): هو «عبد الله بن هارون الرشيد»، وُلد في منتصف (ربيع الأول سنة 170هـ = أغسطس سنة 786م) وأمه «أم ولد» فارسية تُسمَّى «مراجل»، وكان يكنى «أبا العباس»، ويُلقب بالمأمون. نشأ «المأمون» نشأة إسلامية، وتلقى العلوم العربية، وتدرَّب على فنون القتال والنزال وقيادة الجند، كما أسند والده «الرشيد» إلى

وزيره «جعفر البرمكي» مهمة الإشراف على تنشئته، وقد أظهر المأمون نبوغاً خلال دراسته.

ولما تولى «المأمون» الخلافة عزم أن يقدم القدوة الصالحة والسيرة الحسنة في الناس حتى يقتدى به رجال دولته، وكان يقول: «أول العدل أن يعدل الملك في بطانته، ثم الذين يلونهم، حتى يبلغ إلى الطبقة السفلى».

كما اتصف «المأمون» بالعمو والحلم حتى اشتهر بذلك وهو القائل: «لو عرف الناس حبي للعمو لتقربوا إليّ بالجرائم، وأخاف ألا أوجر عليه»، يعني لكونه طبعاً له يستلذ به. سياسة المأمون:

انتهج «المأمون» سياسة واعية تقوم على أسس واضحة منها:

1 - تأليف القلوب بالعمو والعطاء، وقد عد «اليعقوبي» سبع عشرة حادثة يستحق صاحب كل واحدة منها القتل عند أمثال «المنصور»، لكنها قوبلت عند «المأمون» بالعمو.

2 - العناية بالعلم والعلماء: كان للمأمون ولع بالأمور العلمية والفلسفية، فكان يعقد مجالس المناظرة ويبعث في طلب العلماء والأعلام من «بيزنطة» لحضورها، وكان يتصيد الكتب النادرة ويدفع فيها المبالغ الطائلة، ويجعل حصوله عليها شرطاً من شروط الهدنة ووقف القتال مع الروم، كما أقام «بيت الحكمة» وجعل فيها مكتبة ضخمة، وجهازاً كبيراً للترجمة من مختلف اللغات إلى اللغة العربية،

(14/3)

---

حشد له نحو سبعين مترجماً.

المأمون والشيعة:

جمعت سياسة «المأمون» تجاه الشيعة بين أمرين هما السخط والرضا.

أما العنف فقد تمثل في سياسة «المأمون» تجاه الثورات الشيعية المسلحة التي اندلعت في عدة أماكن، مثل حركة «ابن طباطبا العلوى» سنة (199هـ = 814م)، وحركة «الحسين بن الحسن» في «الحجاز»، وحركة «عبدالرحمن بن أحمد» في «اليمن» سنة (207هـ = 822م)، وقد انتهت هذه الحركات بالفشل في تحقيق أغراضها. وأما الرضا فقد تمثل في قيام «المأمون» باختيار أحد أبناء البيت العلوى وهو «على بن موسى الرضا» ليكون ولى العهد من بعده، وهو ما لم يفعله أحد من خلفاء «بنى العباس» قبله، وقد اختلف المؤرخون في تعليل قيام «المأمون» بهذا الأمر، فمنهم من فسر ذلك بميول «المأمون» الشيعية وحرصه على تولية أفضل العناصر ولاية العهد، وآخرون أرجعوا ذلك إلى تأثير «الفضل بن سهل» وميوله الشيعية.

وقد أحدثتبيعة «المأمون» لعلى بن موسى الرضا بولاية العهد ردود فعل عنيفة في أنحاء «الدولة العباسية» فرفض أفراد البيت العباسى ومؤيدوهم هذه البيعة، وبايعوا «إبراهيم بن المهدي» عم «المأمون» بالخلافة سنة (202هـ = 817م) ولما علم «المأمون» بذلك وهو في «مرو» بخراسان تحرك قاصداً «بغداد» لمعالجة الموقف، وأثناء ذلك مات «على الرضا» ولى العهد، فهدأ الموقف، وهرب «إبراهيم بن المهدي» من «بغداد»، ودخلها «المأمون»، ثم عفا عنه. المأمون والفرس:

يمكن تقسيم نشاط الفرس في عهد المأمون إلى قسمين:

1 - نشاط سياسي.

2 - نشاط عسكري.

ويتمثل النشاط السياسى فى الدور الذى لعبه «بنو سهل» مع «الخليفة المأمون»، وهو يشبه تماماً دور البرامكة مع «هارون الرشيد»، حيث سلم «المأمون» «الفضل بن سهل» مقاليد الأمور، فصارت مهام الدولة فى يده، وبدأ فى إبعاد العناصر العربية من بلاط «المأمون»، وتعصب للعنصر الفارسى، وارتكب مجموعة أخرى من

الأخطاء؛ مما جعل «المأمون» يفكر في التخلص منه، فقتل أثناء سفر «المأمون» إلى «بغداد».

أما النشاط العسكرى فيتمثل في حركة «بابك الخرمى»، التى تُعدُّ أخطر الحركات الفارسية المعادية للخلافة العباسية، فقد استمرت ما يزيد على عشرين عامًا واتسمت بدقة التنظيم وبراعة القيادة، والاتصال السياسى بالأكراد والأرمن وغيرهم، وكانت تؤمن بمبادئ هدامة منها:

1 - الإيمان بالحلول والتناسخ حتى إن زعيمها «بابك» ادَّعى الألوهية.

2 - المشاعية المزدكية فى الأموال والأعراض.

3 - ضرورة التخلص من السلطان العربى والدين الإسلامى.

وقد ألحقت هذه الحركة العديد من الهزائم بالجيش العباسى ولم يتم القضاء عليها إلا فى عهد «المعتصم بالله».

وفاة المأمون:

ظل «المأمون» خليفة للمسلمين عشرين سنة وخمسة أشهر وعشرين يومًا، وقد تُوفِّي فى (18 من رجب سنة 218هـ = 833م).

الخليفة الثامن: المعتصم بالله (218 - 227هـ = 833 - 842م):

هو «محمد بن هارون الرشيد»، وُلد فى (شعبان سنة 180هـ = أكتوبر سنة 796م)، وأمه جارية تركية اسمها «مارده»، وقد تولى الخلافة

عقب وفاة أخيه «المأمون».

كان «المعتصم» يتميز بقوته الجسمية وشدته فى الحرب، حتى قيل عنه: إنه كان يصارع الأسود ويحمل ألف رطل ويمشى به خطوات ويشد على الدينار بأصبعه السبابة والوسطى فيمحو كتابته، وقال عنه المؤرخون: إنه لم يكن فى «بنى العباس» قبله أشجع منه ولا أتم تيقظًا ولا أشد قوة.

ومع ذلك فقد كان «المعتصم» على خلاف أخويه «الأمين» و «المأمون» في العلوم والآداب، فقد كان قليل البضاعة منهما، حتى ذكر بعض المؤرخين أنه نشأ أمياً لا يكتب، أو أنه كان ضعيف الكتابة على حد قول «ابن خلكان» و «ابن كثير».

سياسة المعتصم:

اختلفت الأوضاع السياسية في عهد «المعتصم» عنها في عهد من سبقه، بسبب ظهور عوامل جديدة على مسرح الأحداث، كان في مقدمتها ظهور العنصر التركي قوة مؤثرة في حركة الأحداث؛ فتمتع

(16/3)

---

الأتراك بصفات عسكرية كالشدة والقوة والتحمل جعل «المعتصم» يستكثر منهم، يضاف إلى ذلك أن أمه تركية.

إلا أن كثرة الأتراك سببت أضراراً كبيرة لسكان «بغداد»، مما دفع «المعتصم» إلى البحث عن مكان جديد يكون عاصمة له فوق الاختيار على المكان الذي بنيت عليه مدينة «سُرّ من رأى» (سامراء حالياً) التي بُدئ البناء فيها سنة (221هـ = 836م)، ويتميز موقعها بميزات سياسية واقتصادية وعسكرية، فمن الناحية السياسية فإنها في موقع متوسط يسهل الاتصال بأجزاء الدولة، ومن الناحية الاقتصادية فإن موقعها يسهل عمليات التبادل التجاري بين النواحي الشمالية والجنوبية، وعسكرياً فإن إحاطة المياه بها يجعلها في مأمن من أى عدوان خارجي.

ومن الأعمال العظيمة التي تنسب إلى «المعتصم بالله» نجاحه في القضاء على ثورة «بابك الخرمي»، فحينما تولى أمر البلاد جهز جيشاً بقيادة «الأفشين» وزوّده بكل أدوات القتال وبالمال اللازم؛ حيث دارت عدة معارك، انتهت بالقبض على «بابك الخرمي» وإعدامه.

المعتصم والشيعة:

لم تظهر في عهد «المعتصم» حركات علوية مؤثرة كالحركات التي حدثت في عهد الخلفاء السابقين، وإنما حدثت بعض الحركات الضعيفة، ومنها:

حركة «محمد بن القاسم» المعروف بالصوفي، سنة (219هـ = 834م): والذي تحرك في عدة أماكن كالحجاز و «الكوفة» ثم استقر في «خراسان»، وشكلت حركته خطرًا على «الدولة العباسية»، فكلف «المعتصم» واليه على «خراسان» «عبدالله بن طاهر» بالتصدي لهذه الحركة؛ حيث نجح في القضاء عليها.

وفاة المعتصم بالله سنة (227هـ = 841م):

تُوفى «المعتصم بالله» في شهر (ربيع الأول سنة 227هـ = ديسمبر سنة 841م)، وقد أطلق عليه بعض المؤرخين «المُتمن»، لأن خلافته دامت ثمان سنين وثمانية أشهر ويومين، ومولده في الشهر الثامن من العام الهجري، ومات عن ثمانية بنين وثمان بنات.

الخليفة التاسع: الواثق بالله: (227 - 232هـ = 841 - 847م)

(17/3)

هو «هارون بن المعتصم بالله»، يكنى «أبا جعفر» وأمه أم ولد رومية تُسمى «قراطيس»، وكان فطنًا لبيبًا فصيحًا ينظم الشعر ويحب الموسيقى.

وقد تولى «الواثق بالله» الحكم يوم وفاة والده «المعتصم».

سياسة الواثق بالله:

تظهر ملامح تلك السياسة فيما يلي:

أولاً: تمسكه بمذهب المعتزلة، حتى جعله المذهب الرسمي للدولة، مما أثار أهل السنة ضده، إلا أنه تصدى لهم وقبض على زعمائهم. ثانياً: تقريبه للأتراك جرياً على سياسة والده «المعتصم»، حتى إنه قسم البلاد بين رجلين من الأتراك، الأول «أشناس» وأعطاه الشطر

الغربي من الدولة إلى آخر بلاد «المغرب»، والثاني قائده «إيتاخ» وأعطاه الشطر الشرقي: «دجلة» و «فارس» و «السند»، وكان كل منهما يعين الولاة الذين يريدهم، هذا بالإضافة إلى عدد من القادة الأتراك الذين شغلوا مناصب خطيرة، مثل: «وصيف التركي» الذي أوكل إليه «الوائق» القضاء على ثورة المتمردين الأكراد، و «بغا الكبير» الذي أخذ ثورة الأعراب بنواحي «المدينة».

وكان الواثق يصدق عليهم الأموال والهدايا.

ثالثًا: مصادرة أموال كبار الموظفين، مثل «أحمد بن إسرائيل»، الذي أخذ منه ثمانين ألف دينار، و «سليمان بن وهب» كاتب «إيتاخ»، الذي أخذ منه أربعمئة ألف دينار، وغيرهما، مما ترك آثارًا سيئة في الجهاز الإداري والاستقرار المالي للدولة، وأصابهما بالفساد والخلل. رابعًا: إحسانه إلى بعض طوائف الأمة، وفي مقدمتهم العلويون حيث أصدق عليهم الأموال.

وفاة الواثق بالله:

استمر «الوائق» في مقعد الخلافة خمس سنين وتسعة أشهر، ثم أصيب بمرض الاستسقاء، ومات في (ذى الحجة سنة 232هـ = يوليو سنة 847م)، وعمره اثنان وثلاثون عامًا، وقيل: ستة وثلاثون. السمات العامة للعصر العباسي الأول (132 - 232هـ = 749 - 847م): امتد العصر العباسي الأول مائة سنة، تولى الخلافة خلالها تسعة خلفاء، بدءًا من «أبي العباس» وانتهاءً بالواثق بالله، ويمكن تقسيم

(18/3)

هذا العصر إلى ثلاثة عهود رئيسية:

1 - عهد التأسيس من سنة: (132هـ=749م) إلى سنة (158هـ=775م)،

ويشمل خلافة «أبي العباس» و «المنصور».

2 - عهد الاستقرار: من سنة (158هـ=775م) إلى سنة (218هـ=833م)،

ويشمل خلافة «المهدى» و «الهادى» و «الرشيد»  
و «الأمين» و «المأمون».

3 - عهد القلق: من سنة (218هـ=833م) إلى سنة (232هـ=847م)،  
ويشمل «المعتصم بالله» و «الواثق بالله».

ويتميز العصر العباسى الأول بالسلمات الآتية:  
أولاً: كثرة الصراعات: ومن ذلك:

1 - الصراع بين العرب - ومنهم أسرة الخلافة - والفرس - ومنهم الوزراء  
والإداريون وغيرهم - مثلما حدث بين «الرشيد» و «البرامكة»،  
و «المأمون» و «بني سهل».

2 - الصراع بين فروع البيت الهاشمى: العباسيين، والعلويين، مثلما  
حدث بين الخليفة «المنصور» و «محمد النفس الزكية».

3 - الصراع بين الخلافة العباسية والحركات المعادية لها من العرب  
وغيرهم، وقد تمثل ذلك فى حركات الخوارج.

4 - الصراع بين الإسلام - الدين الرسمى للدولة - وبين العقائد الأخرى  
التي ظهرت فى بلاد فارس كالحزمية وغيرها من العقائد الفاسدة.  
ثانياً: اتساع العلاقات الخارجية:

فقد بسطت الخلافة العباسية سلطتها على بلاد كثيرة شرقاً وغرباً،  
وتعددت علاقاتها مع الدول الأخرى وفى مقدمتها:

أ - الدولة البيزنطية:

وكانت العدو التقليدى للدولة الإسلامية منذ عهد الرسول - صلى الله  
عليه وسلم -، وقد اشتد هذا العداء بعد استيلاء المسلمين على بعض  
المناطق التي كانت خاضعة للدولة البيزنطية، كالشام و «مصر»  
و «المغرب».

وخلال العصر العباسى الأول حدث الاحتكاك المباشر بين القوات  
الإسلامية والبيزنطية على الحدود الشمالية فى منطقة «الشام»، فقد

استغلت «الدولة البيزنطية» انشغال الخليفة العباسى الأول «أبي  
العباس عبد الله بن محمد»، بتثبيت أركان الدولة سنة (132هـ=749م)،  
وقامت بمهاجمة الحصون والتغور الإسلامية؛ فأمر الخليفة «أبو

العباس» واليه على «الشام» بالإعداد لمواجهة البيزنطيين، ولكن الموت عاجله، وجاء «المنصور» فأمر بتحصين الثغور وإعادة بناء ما هدمه البيزنطيون، وجعل لها حكماً إدارياً مستقلاً، وحشد فيها آلاف المقاتلين والمرابطين في سبيل الله.

وكانت هذه الثغور تنقسم إلى قسمين:

1 - الثغور الجزرية: للدفاع عن الجزيرة الفراتية وشمال «العراق»

وأهم حصونها «ملطية» و «المصيصة»، و «مرعش».

2 - الثغور الشامية: وتقع غرب الثغور الجزرية، وهي للدفاع عن

«الشام»، وأهم حصونها «طرسوس»، و «أدنة».

وفي سنة (162هـ=779م) أرسل «المهدى» جيشاً ضخماً بقيادة

«الحسن بن قحطبة»، فتوغل في بلاد الروم ونشر الرعب بين

صفوفهم.

وفي سنة (163هـ=780م) خرج «المهدى» بنفسه على رأس الجيش

متجهماً إلى الحدود البيزنطية، ووصل إلى «الموصل» ثم «حلب»؛ حيث

ترك ابنه «هارون الرشيد» ليتابع جهاده ضد البيزنطيين، وفي عهد

«الرشيد» (170 - 193هـ=786 - 809م) أمر بجعل منطقة الثغور منطقة

مستقلة باسم «الثغور والعواصم» وأقام خطين للدفاع عن حدود

الدولة مع البيزنطيين، الخط الأول هو الثغور، والخط الثاني إلى

الجنوب من الخط الأول، ويُسمى: العواصم.

كما قام «الرشيد» ببناء حصون جديدة، مثل «عين زرية»، و «زبطرة»

وغيرهما. وقد حاول «نقفور» إمبراطور «الدولة البيزنطية» الامتناع

عن دفع الجزية للخلافة العباسية، فأرسل إليه «الرشيد» يقول: «بسم

الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم،

قد قرأت كتابك يا بن الكافرة والجواب ما تراه دون أن تسمعه

والسلام». وخرج «الرشيد» بنفسه على رأس جيش ضخم أحق الهزيمة

بالقوات البيزنطية وأرغم الإمبراطور «نقفور» على الخضوع ودفع الجزية مرة أخرى.

ونظرًا لكثرة المعارك بين العباسيين والبيزنطيين، فقد وقع كثير من جنود الطرفين أسرى، وقد حرصت الخلافة العباسية على فداء أسرى المسلمين، في عهد «الرشيد» سنة (181هـ = 797م).

(20/3)

وقد سار «المأمون» (198 - 218هـ = 813 - 833م) على سياسة والده نفسها، في استمرار النشاط العسكري ضد البيزنطيين، وكان النصر حليف المسلمين.

وتعدُّ معركة «عمورية» سنة (223هـ = 838م)، أبرز المعارك بين المسلمين والبيزنطيين في عهد «المعتصم بالله»، وكان سببها اعتداء الإمبراطور البيزنطي «تيوفيل بن ميخائيل» على بعض الثغور والحصون على حدود «الدولة الإسلامية»، وحين بلغ «المعتصم» ما وقع للمسلمين في هذه المدن، وصيحة امرأة مسلمة وقعت في أسر الروم: وامعتصماه، فأجابها وهو جالس على سريره: لبيك لبيك، وجهز جيشًا ضخماً أرسله على وجه السرعة لإنقاذ المسلمين، ثم خرج بنفسه على رأس جيش كبير وفتح مدينة «عمورية»، وهي من أعظم المدن البيزنطية، واستولى على ما بها من مغامم وأموال كثيرة جدا.

ب - الدولة الأموية بالأندلس:

وكانت علاقة العباسيين بها علاقة عداوة وتريص، فقد استطاع «عبدالرحمن بن معاوية» - بعد فراره من العباسيين إلى «الأندلس» - أن يؤسس «الدولة الأموية» بالأندلس وعاصمتها «قرطبة» سنة (138هـ = 755م).

وقد حاولت الخلافة العباسية بسط نفوذها على بلاد «الأندلس» والقضاء على «الدولة الأموية» بها، فدبّر «أبو جعفر المنصور» ثورة

«العلاء بن مغيث الجذامي» في مدينة «باجة» الأندلسية سنة (146هـ = 763م)، وقام «المهدى» بمساندة الثورات الداخلية التي كانت تقوم لحساب «الدولة العباسية»، ولكن كل هذه المحاولات والثورات باءت بالفشل بسبب يقظة الأمير الأموي «عبد الرحمن الداخل» وحزمه، وقد لقبه «أبو جعفر المنصور» بصقر قريش، بل إن «عبد الرحمن الداخل» أشاع عزمه على غزو «الشام» وانتزاعه من «الدولة العباسية»، وكتب إلى أنصاره في «الشام» بذلك وعهد إلى ابنه «سليمان» بولاية «الأندلس»، وذلك بغرض إزعاج «الدولة العباسية» وإرغامها على وقف محاولاتها المستمرة لاسترداد بلاد «الأندلس».

ج - الدولة الكارولنجية:

(21/3)

---

وكانت إحدى القوى الناشئة في غربي «البحر المتوسط» (جنوبي فرنسا حالياً)، وقام بينها وبين الدولة العباسية علاقات سياسية، وجرى تبادل السفراء بين الدولتين في عهد «هارون الرشيد»، وقد سعى زعيم «الدولة الكارولنجية» «شارلمان» إلى كسب وده لتعزيز موقفه الداخلي والخارجي، وتبادل معه الهدايا الثمينة.

(22/3)

---

### الفصل الثالث

\*الأوضاع الحضارية في العصر العباسي الأول:

أولاً: النظام السياسي والإداري، ويشمل:

أ - الخلافة:

وقد أقام العباسيون دولتهم سنة (132هـ = 749م) وتولى أول خلفائهم

«أبو العباس عبدالله بن محمد» السلطة بناءً على وصية أخيه  
«إبراهيم الإمام» بعد وقوعه في قبضة الأمويين، وقد حكم «أبو  
العباس» أربع سنوات، وقبيل وفاته عهد إلى أخيه «أبي جعفر  
المنصور» بولاية العهد من بعده، ومن بعد «أبي جعفر»، «عيسى بن  
موسى»، وكتب العهد بهذا وصره في ثوب وختم عليه بخاتمه وخواتم  
أهل بيته وسلمه إلى «عيسى بن موسى».

ومن هنا نلاحظ أن الحكم قد بدأ وراثياً في عهد «الدولة العباسية»  
منذ اللحظة الأولى، واقتصر على أهل البيت العباسي، كما أن أكثر  
الخلفاء كان يوصى بولاية العهد إلى أكثر من شخص؛ مما أدى إلى  
صراعات ساعدت على تصدع «الدولة العباسية».

وحين تولى «أبو جعفر المنصور» الخلافة واجه اعتراضاً من عمه  
«عبدالله بن علي» الذي رفض مبايعته، ودعا لنفسه بالخلافة مدعيًا  
أنه ولي عهد «أبي العباس»، مما دعا «المنصور» إلى توجيه جيش له  
بقيادة «أبي مسلم الخراساني» تمكن من القبض عليه والقضاء على  
دعوته.

وقد نقل «المنصور» ولاية العهد من ابن أخيه «عيسى بن موسى»  
إلى ابنه «محمد»، الذي تولى الخلافة بعد أبيه «المنصور» سنة  
(158هـ = 775م) ولقب بالمهدي، واستمر في منصبه حتى تُوفي سنة  
(169هـ = 785م)؛ حيث تولى ابنه «موسى» الملقب بالهادي، ولم يمكث  
سوى سنة واحدة في الحكم؛ حيث تولى من بعده أخوه «هارون  
الرشيد»، ومنذ عهد «الرشيد» أصبح الصراع السياسي على السلطة  
إحدى السمات المميزة للعصر العباسي الأول، وكان الصراع بين  
«الأمين» و «المأمون» من الأمثلة المعبرة عن هذه السمة، وقد انتهى  
بقتل «الأمين» وتولية «المأمون» الخلافة.

ب - الوزارة:

تعدُّ الوزارة المنصب الثاني بعد الخلافة في «الدولة العباسية» وقد  
قسّم فقهاء المسلمين الوزارة إلى نوعين:

- وزارة التفويض:

حيث يفوض الخليفة الوزير في تدبير أمور الدولة برأيه واجتهاده، فتكون له السلطة المطلقة في الحكم والتصرف في شئون الدولة.  
- وزارة التنفيذ:

حيث يكون الوزير وسيطاً بين الخليفة والرعية والولاة، ومجرد منفذ لأوامر الخليفة.

وقد أحدث العباسيون نظام الوزارة في بداية دولتهم متأثرين في ذلك بالنظم الفارسية، ولم تكن مسئوليات الوزير في بداية الأمر تبعد كثيراً عن مسئوليات الكاتب، وقد حصر «أبو جعفر المنصور» مهمة الوزير في التنفيذ وإبداء الرأي والنصح، ولم يكن له وزير دائم، ومن وزرائه: «الربيع بن يونس» الذي اشتهر باللباقة والذكاء وحسن التدبير والسياسة.

وقد ظهرت شخصية الوزراء إلى حد كبير في عهد الخليفة «المهدى»، لما ساد الدولة من هدوء نسبي، ومن هؤلاء الوزراء الأقوياء «يعقوب بن داود»، ثم صار للوزارة شأن كبير في عهد «الرشيد»، و «المأمون» لاعتماد الأول على البرامكة، والثاني على «بني سهل»، فمُنح «يحيى البرمكي» وزير «الرشيد»، و «الفضل بن سهل» وزير «المأمون» صلاحيات وسلطات واسعة، جعلت نفوذهما يمتد إلى جميع مرافق الدولة، ولكن سرعان ما تم التخلص منهما.  
ج- الكتابة:

كانت طبقة الكُتّاب ذات أهمية كبيرة في «الدولة العباسية»، وكان الكاتب ذا علم واسع وثقافة عريضة؛ لأنه يقوم بتحرير الرسائل الرسمية والسياسية داخل الدولة وخارجها، كما يتولى نشر القرارات والبلاغات والمراسيم بين الناس، ويجلس على منصة القضاء بجوار الخليفة لينظر في الدعاوى والشكاوى ثم يختمها بخاتم الخليفة. ومن أشهر الكُتّاب في العصر العباسي الأول «يحيى بن خالد بن

برمك» فى عهد «الرشيد»، و «الفضل» و «الحسن» ابنا «سهل»،  
و «أحمد بن يوسف» فى عهد «المأمون»، و «محمد بن عبد الملك  
الزيات» و «الحسن بن وهب»، و «أحمد بن المدبر» فى عهد  
«المعتصم» و «الواثق».

د - الحجابة:

وهى وظيفة تقوم بمساعدة الحكام فى تنظيم الصلة بينهم وبين

(24/3)

الرعية، فالحاجب واسطة بين الناس والخليفة، يدرس حوائجهم، ويأذن  
لهم بالدخول بين يدى الخليفة أو يرفض ذلك إذا كانت الأسباب غير  
مقنعة؛ وذلك حفاظاً على هيبة الخلافة وتنظيماً لعرض المسائل حسب  
أهميتها على الحاكم الأعلى للبلاد.

وقد اقتدى العباسيون بالأمويين فى اتخاذ الحجاب، وأسرفوا فى  
منع الناس من المقابلات الرسمية، ولعل هذا هو السبب المباشر فى  
نشأة ما أسماه «ابن خلدون» «الحجاب الثانى»، فكان بين الناس  
والخليفة حاجزان عبارة عن دارين، أحدهما يُسمى «دار الخاصة»  
والآخر «دار العامة»، وكان الخليفة يقابل كل طائفة حسب حالتها  
وظروفها فى إحدى هاتين الدارين تبعاً لإرادة الحجاب على أوبجها.  
ه - ولاية الأقاليم:

المقصود بالأقاليم: المناطق التى تتكون منها الدولة. وقد كان النظام  
الإدارى فى «الدولة العباسية» نظاماً مركزياً؛ حيث صار الولاية على  
الأقاليم مجرد عمال للخليفة على عكس ما كانوا عليه فى «الدولة  
الأموية».

وقد قسم العباسيون الولاية على الأقاليم إلى قسمين، وخصوصاً فى  
عهد «الرشيد»، الأول: الولاية الكبرى وهى التى تكون لأحد أبناء  
الخليفة أو شخص مقرب من الخليفة؛ حيث يتولى هذا الوالى عدة

أقاليم في الدولة ويقوم بتصريف أمورها من العاصمة، أو من أحد تلك الأقاليم بعد الرجوع إلى الخليفة، ويرسل إليها ما يشاء من الولاة. الثاني: الولاية الكاملة: حيث يتمتع الوالى ببعض السلطات التي توسع دائرة نفوذه، مثل النظر في الأحكام وجباية الضرائب والخراج وحماية الأمن وإمامة الصلاة وتسيير الجيوش للغزو. و الدواوين:

ظهرت الدواوين في «الدولة الإسلامية»، كبقية المؤسسات الإدارية، نتيجة لاحتياج المسلمين إليها، وقد جعل «ابن خلدون» وجود الديوان من الأمور اللازمة للملك. وللديوان أهمية كبرى فيما يتعلق بأموال الدولة وحقوقها وحصص جنودها ومرتباتهم، ويرجع الفضل في تنظيم الدواوين في العصر العباسي إلى «خالد بن برمك».

(25/3)

---

وقد اهتم الخلفاء العباسيون بالدواوين؛ فكثر اختصاصاتها وتنوعت بسبب التعاون الوثيق بين العباسيين والفرس، فقد أخذ العباسيون الخبرة الفارسية في مجال الإدارة، كما احتفظوا ببعض تنظيمات «الدولة الأموية»، خصوصاً في الدواوين والدوائر الرسمية، كما استحدثوا بعض الدواوين كديوان المصادرات، وديوان الأزمّة (المحاسبة) وديوان المظالم، وغيرها. ز - القضاء:

وهو من الوظائف المهمة في «الدولة الإسلامية»، ويقوم على المحافظة على حقوق الرعية وإقرار العدل والإنصاف بين جميع الطبقات، وحماية الأخلاق العامة، مستمداً أحكامه من الكتاب والسنة، ونظراً لأهمية هذا المنصب فقد وضع العلماء المواصفات التي يجب توافرها في القاضى، ومنها: أن يكون رجلاً قوياً عاقلاً حراً مسلماً

عادلاً، ويتمتع بالسلامة في السمع والبصر، وأن يكون عالماً بأحكام الشريعة.

وقد حظى القضاة في العصر العباسي الأول بالتبجيل والاحترام، وكان تعيينهم وعزلهم يتم بأمر الخليفة، وأول من فعل ذلك الخليفة «المنصور»، فقد عين قضاة البلاد بأمره سنة (136هـ = 753م). وقد استقرت المذاهب الفقهية في عهد «الدولة العباسية»، وتحددت مهام القضاة وكيفية الإجراء القضائي، وتوحد القانون وأصبحت جلسات القاضى علنية في المسجد وخصوصاً في عهد «المأمون». كما اهتم خلفاء العباسيين بالثبوت من الأحكام، فعينوا جماعة من المُرَكِّين، وظيفتهم تتبع أحوال الشهود، فإذا طعن الخصم في شهادة أحد الشهود سُئل عنه المرَكِّي، كما اهتموا بأحوال القضاة المادية حتى يعيشوا في يسر ورخاء.

وقد تطور القضاء بصورة ملحوظة في العصر العباسي الأول، وظهر منصب «قاضى القضاة»، وكان يقيم في عاصمة الدولة، ويقوم بتعيين القضاة في الأقاليم والبلاد المختلفة، وأول من لقب «قاضى القضاة» «أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم»، صاحب كتاب «الخراج»، في عهد «الرشيد».

ثانياً: الأوضاع الاقتصادية والعمرائية:

(26/3)

---

أدرك الخلفاء العباسيون أهمية الاقتصاد وتنمية الموارد المالية لمواجهة النفقات المتعددة للدولة، واتخذ «المنصور» عدة خطوات لزيادة موارد الدولة، فاستحدث نظام المصادرات للاستيلاء على الأموال لمواجهة أعباء الثورات والحركات التي واجهها، وأعاد النظر في مقادير الضرائب المفروضة على الكور. وفي عهد «الرشيد» ازدهرت أحوال الدولة الاقتصادية، وارتفع

مستوى المعيشة، بسبب تدفق الأموال على خزانة الدولة في بغداد، وتعدد موارد الدولة المالية، فكان منها الزكاة، والخراج، والجزية، وأخماس المعدن، والرسوم على التجارة الخارجية، وغيرها. وقد أسهمت تلك الموارد في سدّ النفقات في مجال النشاط العسكري والأمني، ومجال البناء والتعمير وإنشاء المدن، مثل مدينة «بغداد» و «سامراء».

مدينة بغداد:

يرجع الفضل في بنائها إلى الخليفة «أبي جعفر المنصور» ودفعه إلى ذلك عدة أسباب، منها:

1 - «ثورة الرواندية» سنة (141هـ = 758م) وما شكّلته من خطر كبير على «المنصور» نفسه؛ الأمر الذي جعله يفكر جدياً في الانتقال من «الهاشمية» لأنها لم تكن بالعاصمة الحصينة التي يأمن فيها على نفسه.

2 - أن «الهاشمية» وهي العاصمة المؤقتة للدولة العباسية كانت قريبة من «الكوفة» مركز التشيع؛ مما يشكل خطراً على العباسيين.  
3 - رغبة «المنصور» في إنشاء عاصمة جديدة تليق بالدولة وتخلد ذكره من بعده.

وقد جرت عدة محاولات لاختيار المكان المناسب لبناء عاصمة الدولة الجديدة، حتى وقع الاختيار على المكان الذي بنيت فيه مدينة «بغداد»؛ وروى فيها أن تتمتع بمزايا عديدة أهمها:

- أنها قريبة من «خراسان» مهد الدعوة العباسية، فضلاً عن قربها من المراكز العربية الأخرى، وبعدها عن مراكز الاحتكاك البيزنطي.  
- وأنها تقع بين نهرين كبيرين هما «دجلة» و «الفرات»، وهما يشكّلان خطين للدفاع عن المدينة.

- وأنها تقع وسط «العراق» وعلى مسافة متساوية بين «البصرة»

و «الموصل»؛ مما يجعلها سوقاً للبضائع والمنتجات، وملتقى للقوافل التجارية البرية والنهرية؛ إذ إنها تقع أيضاً على طريق «الشام» - الخليج العربي.

هذا بالإضافة إلى طبيعة المكان السهلة والمفتوحة؛ مما يشبع رغبة العرب والمسلمين الذين اعتادوا السكنى في مثل هذه الأماكن. وقد حشد «المنصور» لبنائها العمال المهرة في الصناعة والبناء، وابتدأ في بنائها سنة (145هـ = 762م)، وفقاً لأرجح الأقوال. وقد تم تصميم المدينة على شكل دائري، يحيط بها سور، ولها أربعة أبواب، وبلغت نفقات بنائها حينئذ ثمانية عشر مليون درهم، وأطلق عليها اسم «دار السلام»، إلا أن الشائع هو اسمها القديم «بغداد». مدينة سامراء:

أسسها الخليفة العباسي «المعتصم بالله» (218 - 227هـ = 833 - 842م) وجعلها عاصمة للخلافة، وقد دفعه إلى إنشائها احتكاك الجنود الأتراك الذين جلبهم الخليفة للإقامة معه في «بغداد»، بسكان المدينة وجنودها السابقين، مما أدى إلى حدوث إصابات كثيرة بين سكان «بغداد» ومقتل كثير من النساء والأطفال والسيوخ، فاضطر الخليفة «المعتصم بالله» إلى البحث عن مكان جديد، ينتقل إليه مع جنوده وحاشيته؛ فوقع الاختيار على أرض «سامراء»، على بعد ستين ميلاً شمالاً «بغداد».

وقد حشد لها «المعتصم» العمال والبنائين وأهل الصناعات المهرة، وشرع في بنائها سنة (221هـ = 836م).

ثالثاً: الحياة الفكرية:

شهد العصر العباسي الأول نهضة فكرية عظيمة، وطفرة ثقافية كبيرة في شتى مجالات العلم والمعرفة نتيجة امتداد رقعة «الدولة العباسية» ووفرة ثروتها ورواج تجارتها واهتمام الخلفاء بالحياة الفكرية.

وقد ميز علماء المسلمين بين نوعين من العلوم:

1 - علوم تتصل بالقرآن الكريم، وهي «العلوم النقلية أو الشرعية»،

وتشمل علم التفسير، وعلم القراءات، وعلم الحديث، والفقه، وعلم الكلام، والنحو، واللغة والبيان والأدب.  
2 - علوم أخذها العرب عن غيرهم من الأمم، وهي «العلوم العقلية»

(28/3)

وتشمل: الفلسفة والهندسة وعلم النجوم والموسيقى والطب والكيمياء والتاريخ والجغرافيا.

وقامت المساجد بدور فعّال في نشر الثقافة الإسلامية؛ حيث كانت تحتفظ بحلقات العلم والدرس، وبخاصة العلوم الشرعية التي ازدهرت في العصر العباسي، ونشأت في كنف علمي التفسير والحديث، ولم يكن الحديث مقصوراً على أحاديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وإنما ضم أيضاً ما كان مأثوراً عن الصحابة، ومن أشهر رجال الحديث في ذلك العصر: «حماد بن سلمة» المتوفى سنة (165هـ)، و«سفيان بن عيينة» بمكة المتوفى سنة (198هـ)، و«وكيع بن الجراح» بالكوفة المتوفى سنة (196هـ)، و«عبدالله ابن المبارك» المتوفى سنة (181هـ)، و«سفيان الثوري» بالكوفة المتوفى سنة (161هـ)، و«عبدالرحمن الأوزاعي» بالشام المتوفى سنة (157هـ)، و«عبدالملك بن جريح» المتوفى سنة (150هـ)، و«معمر بن راشد» باليمن (153هـ)، و«سعيد بن أبي عروبة» بالبصرة المتوفى سنة (156هـ)، و«مالك بن أنس» بالمدينة.

ومن أبرز المؤلفات في هذا المجال: كتاب «الموطأ» الذي ألفه الإمام «مالك بن أنس» إمام دار الهجرة (المدينة المنورة) بناءً على طلب «المنصور»، فيروى أن الخليفة «أبا جعفر المنصور» قابل الإمام «مالكاً» في موسم الحج، وكلمه في مسائل كثيرة من العلم، ثم قال له: يا «أبا عبدالله» لم يبق في الناس أفقه مني ومنك، وإني قد شغلتنى الخلافة فاجمع هذا العلم ودونه ووطنه للناس توطنه، وتجنب

فيه شذائد «عبد الله بن عمر»، ورُحِّص «عبد الله بن عباس»، وشواذ «عبد الله بن مسعود»، واقصد إلى أواسط الأمور وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة رضى الله عنهم. فاعتذر الإمام «مالك»، فلم يقبل «المنصور» منه، فوضع «مالك» كتاب «الموطأ». ولم تظهر الطريقة المنظمة في التفسير إلا في العصر العباسي الأول؛ حيث كان قبل ذلك غير منظم ويقتصر على تفسير آيات صغيرة غير مرتبة حسب ترتيب السور والآيات باستثناء تفسير ابن عباس.

(29/3)

وأهم المفسرين في العصر العباسي الأول «مقاتل بن سليمان الأزدي» المتوفى سنة (150هـ)، و «محمد بن إسحاق» المتوفى سنة (151هـ)، ولم يصل من تفاسير هؤلاء شيء إلينا. وازدهرت دراسة الفقه ازدهارًا عظيمًا وكانت له مدرستان، الأولى مدرسة أهل الرأي والقياس في العراق ومؤسسها «أبو حنيفة النعمان» المتوفى سنة (150هـ)، وخلفه «أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم» المتوفى سنة (182هـ)، و «محمد بن الحسن الشيباني» المتوفى سنة (189هـ)، والثانية مدرسة أهل الحجاز ومؤسسها «مالك بن أنس» وتسمى مدرسة أهل الحديث، ثم جاء الإمام الفقيه «محمد بن إدريس الشافعي» المتوفى سنة (204هـ)، وجمع بين هاتين المدرستين، أى جمع بين طريقة الحجازيين في الاعتماد على الكتاب والسنة وطريقة العراقيين في الاعتماد على الرأي، ومن العلوم التي ظهرت وتطورت في ذلك العصر: علم الكلام، ويقصد به الجدل الديني في الأمور العقيدية ويسمى المشتغلون به المتكلمين، ومن أشهر فرقهم المعتزلة الذين دخلوا في محاورات ومجادلات مع غيرهم من المرجئة والرافضة والشيعة، والنصارى، واليهود، والمناويين. وأهم رجال المعتزلة «واصل بن عطاء» المتوفى سنة (131هـ)،

و «عمرو بن عبيد» المتوفى سنة (145هـ)، و «بشر بن المعتز»  
المتوفى سنة (210هـ)، و «ثمامة بن أشدس» المتوفى سنة (213هـ)،  
و «أبو الهذيل العلاف» المتوفى سنة (227هـ).  
وشهد ذلك العصر نخبة كبيرة من علماء اللغة، منهم: «أبو عمرو بن  
العلاء» المتوفى سنة (54هـ)، و «خلف الأحمر» المتوفى سنة  
(180هـ)، و «الأصمعي» صاحب الأصمعيات المتوفى سنة (213هـ)،  
و «أبو زيد الأنصاري» صاحب كتاب النوادر المتوفى سنة (214هـ)،  
و «أبو عبيدة» صاحب «نقائض جرير والفرزدق» المتوفى  
سنة (210هـ)، و «محمد بن سلام الجمحي»، و «حماد الراوية» المتوفى  
سنة (155هـ)، و «المفضل الضبي»، و «أبو عمرو الشيباني» المتوفى  
سنة (206هـ)، و «أبو عبيد القاسم بن سلام» المتوفى سنة (224هـ).

(30/3)

وفي النحو: «عيسى بن عمر الثقفي» المتوفى  
سنة (149هـ)، و «الخليل» الواضع الحقيقي لعلم النحو المتوفى  
سنة (170هـ)، و «سيبويه» المتوفى سنة (180هـ)، و «معاذ بن مسلم  
الطبري» المتوفى سنة (187هـ)، و «الكسائي» المتوفى سنة (189هـ)،  
و «الفراء» المتوفى سنة (207هـ)، وعنى كثير من اللغويين والنحاة  
بكتابة سيرة النبي - صلى الله عليه وسلم - وأشهرهم «محمد بن  
إسحاق» المتوفى سنة (151هـ)، و «ابن هشام» المتوفى  
سنة (213هـ)، و «محمد بن عمر الواقدي» المتوفى سنة (207هـ)،  
و «محمد بن سعد» صاحب الطبقات المتوفى سنة (230هـ).  
كما نشطت كتابة التاريخ في العصر العباسي الأول، وأشهر من  
اشتغل بذلك العلم: «محمد بن الحسين بن زباله»، و «أبو مخنف لوط بن  
يحيى الأزدي» المتوفى سنة (157هـ)، و «سيف بن عمر التميمي»  
المتوفى سنة (180هـ)، و «هشام بن محمد الكلبي» المتوفى

سنة (204هـ)، و «المدائني» المتوفى سنة (225هـ).  
كما شهد ذلك العصر نخبة كبيرة من فحول الشعراء على رأسهم  
«بشار بن برد» المتوفى سنة (168هـ)، و «أبو نواس الحسن ابن  
هانيء» المتوفى سنة (195هـ)، و «أبو العتاهية» المتوفى  
سنة (211هـ)، و «مسلم بن الوليد» المتوفى سنة (208هـ)، و «أبو تمام  
حبيب بن أوس» المتوفى سنة (231هـ)، وتطور النثر في العصر  
العباسي الأول بعد دخول كثير من الثقافات اليونانية والفارسية  
والهندية التي امتزجت به، وأهم فنون النثر في ذلك الوقت الخطابة  
والوعظ، والمناظرات، والرسائل الديوانية- العهود والوصايا  
والتوقيعات - والرسائل الإخوانية والأدبية، ومن أعلام الكتاب في  
ذلك العصر:

«ابن المقفع» المتوفى سنة (143هـ)، و «سهل بن هارون» المتوفى  
سنة (215هـ)، و «أحمد بن يوسف» المتوفى سنة (213هـ)، و «عمرو بن  
مسعدة» (217هـ).

وقد شجع الرشيد العلم والعلماء، وأنشأ «بيت الحكمة»، وجمع فيه  
كثيراً من المؤلفين، والمترجمين والنساخ.  
ومن أشهرهم: «سهل بن هارون»، و «الحسين بن سهل»، و «الفضل

(31/3)

---

بن نوبخت»، وكانوا يترجمون من الفارسية إلى العربية. و «حنين بن  
إسحاق»، و «يوحنا البطريق»، و «يوحنا بن ماسويه»، وكانوا  
يترجمون من اليونانية والسريانية إلى العربية، وفي عهد «المأمون»  
نشطت حركة الترجمة والنقل من اللغات الأجنبية إلى العربية، فأرسل  
البعوث إلى «القسطنطينية» لإحضار المصنفات الفريدة في الفلسفة  
والهندسة والموسيقى والطب.  
وبجانب اهتمام الخلفاء بحركة الترجمة والنقل، اهتم ذوو اليسار

(الأغنياء) بتشجيع العلم والإنفاق على الترجمة إلى اللغة العربية، ومنهم «محمد» و «أحمد» و «الحسن» أبناء «موسى بن شاعر» الذين أنفقوا أموالاً ضخمة في ترجمة كتب الرياضيات، وكانت لهم آثار قيمة في الهندسة والموسيقى والنجوم، وقد أرسلوا «حنين بن إسحاق» إلى بلاد الروم فجاءهم بطرائف الكتب وفرائد المصنفات. وقد اشتغل كثير من المسلمين بدراسة الكتب التي تُرجمت إلى العربية، وتفسيرها والتعليق عليها، وتصحيح أخطائها، ومن هؤلاء: «يعقوب بن إسحاق الكندي»، الذي ترجم كثيراً من كتب الفلسفة وشرح غوامضها، ونبغ في علوم الطب والفلسفة والحساب والمنطق والهندسة وعلم النجوم. ومن العوامل التي ساهمت في ازدهار الحركة العلمية في العصر العباسي الأول ظهور الورق واستخدامه في الكتابة، وقد أنشأ «الفضل بن يحيى البرمكي» مصنعاً للورق في عهد «الرشيد» ببغداد، فانتشرت الكتابة فيه لخصته بعد أن كانوا يكتبون على الجلود والقراطيس المصنوعة بمصر من ورق البردى.

(32/3)

## الفصل الرابع

\*العصر العباسي الثاني

[232 - 656 هـ = 847 - 1258 م]

يمتد العصر العباسي الثاني أكثر من أربعة قرون، وقد قسم

المؤرخون هذه الفترة إلى أربعة عصور رئيسية هي:

1 - عصر نفوذ الأتراك. 2 - عصر البويهيين.

3 - عصر السلاجقة. 4 - عصر ما بعد السلاجقة.

أولاً: عصر نفوذ الأتراك [232 - 334 هـ = 847 - 945 م]:

كان «المأمون» أول من استخدم الأتراك وقربهم، ولكنهم كانوا محدودى العدد والنفوذ في عهده، فلما تولى الخليفة «المعتصم» الحكم جعلهم عنصرًا أساسيًا في جيشه، وبلغ عددهم بضعة عشر ألفًا، وكانوا تحت سيطرة الخليفة.

وبدأ نفوذ الأتراك يتزايد في عهد «الواثق»، ثم ازداد حدة واتساعًا في عهد الخليفة «المتوكل».

وتمتد عصر نفوذ الأتراك إلى ما يزيد قليلاً على قرن من الزمان، تعاقب خلاله على كرسى الخلافة ثلاثة عشر خليفة هم:

- 1 - المتوكل على الله «جعفر بن المعتصم» (232 - 247هـ = 847 - 861م).
- 2 - المنتصر بالله «محمد بن المتوكل» (247 - 248هـ = 861 - 862م).
- 3 - المستعين بالله «أحمد بن المعتصم» (248 - 252هـ = 862 - 866م).
- 4 - المعتز بالله «محمد أبو عبد الله بن المتوكل» (252 - 255هـ = 866 - 869م).
- 5 - المهتدى بالله «محمد بن الواثق بن المعتصم» (255 - 256هـ = 869 - 870م).
- 6 - المعتمد على الله «أحمد بن المتوكل بن المعتصم» (256 - 279هـ = 870 - 892م).
- 7 - المعتضد بالله «أحمد بن الموفق طلحة بن المتوكل» (279 - 289هـ = 892 - 902م).
- 8 - المكتفى بالله «أبو محمد على بن المعتضد» (289 - 295هـ = 902 - 908م).
- 9 - المقتدر بالله «أبو الفضل جعفر بن محمد» (295 - 320هـ = 908 - 932م).
- 10 - القاهر بالله «أبو منصور محمد بن المعتضد» (320 - 322هـ = 932 - 934م).
- 11 - الراضى بالله «أبو العباس محمد بن المقتدر بن المعتضد» (322 - 329هـ = 934 - 941م).

12 - المتقى لله «أبو إسحاق إبراهيم بن المقتدر» (329 - 333هـ = 941 - 945م).

(33/3)

13 - المستكفي بالله «أبو القاسم عبد الله بن المكتفى» (333 - 334هـ = 945 - 946م).

(1) المتوكل على الله: وقد تولى الخلافة في ذى الحجة سنة (232هـ = 847م)، وكان عهده بداية حقبة الضعف والتدهور، وتفكك بنيان الخلافة العباسية.

ورغم أن «المتوكل»: كان قوى الشخصية، وافر الهيبة فإنه لم يستطع أن يضع حدا لاستفحال النفوذ التركي في عهده، الذى كان له دور في توليته الخلافة بعد أن كادت البيعة تتم لمحمد بن الواثق، وكان غلامًا.

وقد نجح «المتوكل» في البداية في التخلص من أخطر العناصر التركية في عهده، وهو «إيتاخ» الذى استفحل خطره حتى إنه همَّ يومًا بقتل الخليفة «المتوكل» حين تبسَّط معه في المزاح، لكن الخليفة نجح في التخلص منه سنة (235هـ = 849م)، كما عزم على التخلص من قادة الأتراك ووجوههم، مثل «وصيف» و «بُغا»، إلا أنهم استغلوا ما بينه وبين ابنه وولى عهده «محمد المنتصر» من خلاف وجفوة ودبروا مؤامرة انتهت بقتل «المتوكل» ووزيره «الفتح بن خاقان» في الخامس من شوال سنة (247هـ = 861م)، وبايعوا ابنه «المنتصر» خليفة.

وقد استطاع «المتوكل» في عهده أن يظفر بمكانة عظيمة في قلوب جماهير المسلمين، حين منع النقاش في القضايا الجدلية التى أثارها المعتزلة، مثل قضية خلق القرآن، كما رد للإمام «أحمد بن حنبل» اعتباره وجعله من المقربين إليه، بعد أن اضطهد في عهد «المأمون» و «المعتصم» و «الواثق»؛ لعدم إقراره القول بخلق القرآن، كما أمر

«المتوكل» الفقهاء والحدّثين أن يجلسوا للناس ويحدثوهم بالأحاديث التي فيها رد على المعتزلة فأثى الناس عليه، حتى قالوا: الخلفاء ثلاثة: «أبو بكر الصديق» قاتل أهل الردة حتى استجابوا له، و «عمر بن عبدالعزيز» رد مظالم «بنى أمية»، و «المتوكل» محاً البدع وأظهر السنة.

(2) المنتصر بالله:

تولى الخلافة في اليوم الذي قُتل فيه أبوه، وذلك في شوال سنة (247هـ = ديسمبر سنة 861م)، وعمره ستة وعشرون عامًا. وحاول

(34/3)

التصدى للنفوذ التركي بكل حزم، وصار يسب الأتراك ويقول: هؤلاء قتلة الخلفاء.

ورغم أن «المنتصر بالله» كان وافر العقل قوى الشخصية فإن الأتراك احتالوا على قتله، فأعطوا طبيبه «ابن طيفور» ثلاثين ألف دينار، ففصده بمبضع مسموم فمات، في (ربيع الآخر سنة 248هـ = يونيو سنة 862م) بعد حكم دام ستة أشهر فقط، ويروى أنه حينما احتضر، قال لأمه: «يا أماه! ذهب منى الدنيا والآخرة، عاجلت أبي فعوجلت».

ومن مآثر «المنتصر بالله»، خلال فترة حكمه القصيرة، إحسانه إلى العلويين، وإزالته عنهم ما كانوا فيه من خوف وضيق في عهد أبيه «المتوكل».

(3) المستعين بالله:

هو «أحمد بن المعتصم»، تولى الخلافة في السادس من (ربيع الآخر سنة 248هـ = يونيو سنة 862م)، وعمره ثمان وعشرون سنة، فعقب وفاة «المنتصر» اجتمع الأتراك بزعامة «بُغا الصغير» و «بُغا الكبير»، وقرروا عدم تولية أحد من أولاد «المتوكل» الخلافة، خوفًا من انتقامه

منهم، وبايعوا «أحمد بن المعتصم»، الملقب بالمستعين بالله.  
وكان من الطبيعي ألا يكون للمستعين بالله مع الأتراك أمر ولا نهي،  
ولم يمض وقت طويل حتى غضب عليه الأتراك وقرروا خلعهم ومبايعة  
«المعتز بالله محمد بن المتوكل»؛ فاشتعلت الحرب بين أنصار  
«المستعين» وأنصار «المعتز»، وانتهت بالقبض على «المستعين»  
وقتلته في سجنه في (شوال سنة 252هـ = ديسمبر سنة 866م).  
وقد شهدت خلافة «المستعين بالله» قيام «الدولة العلوية» بطبرستان  
سنة (250هـ = 864م)، على يد «الحسن بن زيد العلوي» الملقب  
بالداعي الكبير، واستمرت هذه الدولة حتى سنة (316هـ = 928م).  
(4) المعتز بالله محمد بن المتوكل:

بويغ له بالخلافة في شوال سنة (252هـ = ديسمبر سنة 866م)، وعمره  
تسعة عشر عاماً، وقد استضعفه الأتراك وطلبوا منه مالاً فاعتذر لهم  
بفراغ بيت المال، فثاروا عليه وضربوه ومزقوا ملابسه، وأقاموه في  
الشمس، فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى من شدة الحر، ثم سجنوه

(35/3)

وعذبوه حتى مات (في شعبان سنة 255هـ = يوليو سنة 869م).  
وكان من أهم الأحداث التي شهدتها خلافة «المعتز» قيام «الدولة  
الصفارية» في «فارس» بزعامة «يعقوب بن الليث الصفار» وذهاب  
«أحمد بن طولون» إلى «مصر» سنة (254هـ = 868م) نائباً عن واليها،  
لكنه استطاع في فترة لاحقة أن يستقل بما عن العباسيين، وأن  
يضم إليها «الشام» مكوناً بذلك «الدولة الطولونية» في «مصر»  
و «الشام».

(5) المهتدي بالله محمد بن الواثق:

بايع الأتراك «المهتدي بالله» خليفة للمسلمين في (رجب سنة 255هـ =  
يونيو سنة 869م)، عقب الإطاحة بالمعتز، وقد كان «المهتدي» تقياً

شجاعًا حازمًا، وكان يتخذ «عمر بن عبدالعزيز» مثله الأعلى، ويقول:  
إني أستحي أن يكون في «بني أمية» مثله، ولا يكون مثله في  
«بني العباس»، ولذلك نبذ الملاهي وحرّم الغناء والخمر وحارب  
الظلم.  
حاول «المهتدي بالله» أن يوقف طغيان الأتراك واستبدادهم فقتل  
بعضهم، فثاروا عليه وأسروه وعذبوه ليخلع نفسه فرفض، فقاموا  
بخلعه وسجنه وتعذيبه حتى مات في (رجب سنة 256هـ = يونيو 870م).  
وقد كان من أهم الأحداث التي شهدتها عصر «المهتدي بالله»:  
ثورة الرّنج: وتُسميت بذلك لأن أعدادًا كبيرة من الذين شاركوا فيها  
كانوا عبيدًا سودًا، واندلعت هذه الثورة في «البصرة» بزعامة «علي  
بن محمد»، الذي قيل إنه ينتسب إلى آل البيت، وحققت مكاسب  
سياسية ومادية؛ فاستولت في مدة قصيرة على بعض المدن المهمة  
في «العراق»، مثل «البصرة» و «واسط» و «الأهواز»، ووصلت إلى  
«البحرين» و «هجر»، وارتكبت مذابح بشعة ضد السكان الآمنين، وقد  
استطاع القائد العباسي «الموفق طلحة بن المتوكل» القضاء على  
هذه الثورة - فيما بعد - سنة (270هـ = 883م) في خلافة أخيه «المعتمد  
على الله».

(6) المعتمد على الله، وصحوة الخلافة:

تولى «المعتمد على الله أحمد بن المتوكل» الخلافة بعد خلع  
«المهتدي» سنة (256هـ = 870م)، وقد أتاحت الظروف التي تولى فيها

(36/3)

---

«المعتمد» مقاليد الحكم ظهور ما عُرف باسم «صحوة الخلافة» في  
«العصر العباسي الثاني».

فقد تصاعد النزاع الداخلي بين القادة الأتراك، وساءت معاملتهم  
لجنودهم، كما ازدادت شكوى الجمهور من مضايقاتهم، مما أدى إلى

ظهور اتجاه قوى داخل الجيش بحتمية جعل القيادة العسكرية العليا في يد أحد أمراء البيت العباسي؛ يقوم الخليفة باختياره، ويدين له الجميع بالطاعة، وقد اختار «المعتمد» أخاه «الموفق» قائداً للجيش، فكانت «صحوة الخلافة»؛ حيث استردت قوتها وهيبتها واستطاع «الموفق» بحكمته وحزمه وصلابة إرادته أن يكبح جماح الأتراك، وأن يعيد تنظيم الجيش، ويقر الأمن والنظام.

ورغم أن «المعتمد بالله» كان الخليفة الرسمي فإن أخاه «الموفق» كان صاحب السلطة الفعلية، فكان له الأمر والنهي، وقيادة الجيش ومحاربة الأعداء، ومرابطة الثغور، وتعيين الوزراء والأمراء، وكان قضاء «الموفق» على «ثورة الزنج» سنة (270هـ = 883م) أعظم إنجاز له.

وقد توفى «الموفق» في (صفر سنة 278هـ = مايو سنة 891م)، وفي العام التالي توفى الخليفة «المعتمد» في (رجب سنة 279هـ = سبتمبر سنة 892م)، بعد أن حكم البلاد ثلاثة وعشرين عاماً. وقد حفل عهده بالعلماء الأعلام في مجالات المعرفة المختلفة. المعتضد بالله أبو العباس أحمد بن الموفق:

تولى الخلافة بعد وفاة عمه «المعتمد»، وكان قوى الشخصية؛ فحفظ هيبته الخلافة، كما كانت في عهد أبيه «الموفق» وعمه «المعتمد»، يقول «السيوطي»: كان «المعتضد» شهماً جليداً، موصوفاً بالرجولة (أى الشجاعة)، وقد خاض الحروب وغرف فضله، فقام بالأمر أحسن قيام، وهابه الناس ورهبوه أحسن رهبة، وسكنت الفتن في أيامه لفرط هيئته، وكانت أيامه طيبة كثيرة الأمن والرخاء.

وقد تمكن «المعتضد» خلال حكمه الذى دام عشر سنوات من تهيئة المزيد من القوة والاستقرار للدولة العباسية، فقضى على مصادر الفتن والثورات، وأخذ ثورة «بنى شيبان» بأرض الجزيرة سنة

(280هـ = 893م)، وثورة «حمدان بن حمدون» - رأس الأسرة الحمدانية -

بالموصل، واستولى على قلعة «ماردين» التي كان يتحصن بها سنة

(281هـ = 894م)، كما قضى على ثورة الخوارج في «الموصل» بزعامة

«هارون بن عبدالله الشاري» الذي وقع في الأسر، وأمر «المعتضد»

بضرب عنقه سنة (283هـ = 896م)، ومن أخطر الحركات التي شهدتها

عصر «المعتضد»:

- حركة القرامطة:

وترجع بداية هذه الحركة إلى عام (278هـ = 891م) قبل تولّي

«المعتضد» الخلافة بعام، حين قدم إلى «الكوفة» رجل اسمه

«حمدان» ولقبه «قَرْمَط»، تظاهر بالعبادة والتقشف والدعوة إلى إمام

من آل البيت، فلقيت دعوته صدى كبيراً عند أنصار آل البيت، وحين

خدمت سيطرته الروحية عليهم أخذ يث فيهم أفكاراً غريبة عن

الإسلام، منها: الشهادة بأن «أحمد بن محمد بن الحنفية» رسول الله،

وأن القبلة إلى بيت المقدس، وأن النبيذ حرام والخمر حلال، وغير ذلك

من الأفكار الشاذة.

وقد اشتد خطر هذه الحركة بعد ظهور زعيمها «أبي سعيد الجنّابي»

في «البحرين» سنة (286هـ = 899م)؛ حيث استطاع بسط سلطانه على

«البحرين» و «هجر»، وكسب أنصاراً كثيرين له في المناطق التي

ينتشر فيها التشيع.

وقد تحولت «البحرين» إلى مركز رئيسي للقرامطة، خرجت منه

حملاهم الحربية في اتجاه «العراق» و «الحجاز» و «الشام»؛ لنشر

أفكارهم الهدامة التي تهدف إلى هدم كيان المجتمع الإسلامي،

ويسط نفوذهم بواسطة خداع العامة بمبادئ وشعارات براقية،

كالعدالة والمساواة والبساطة، ومساعدة الآخرين، ولم تدرك الخلافة

العباسية مدى الخطورة التي تنطوي عليها هذه الحركة، ووجهت

جهودها الحربية إلى حركات أخرى تبدو أكثر منها خطورة، مثل

الحركة الصفارية والطولونية وغيرهما، ومن هنا لم تظفر هذه الحركة

من الخليفة «المعتضد» - الذي عاصر بدايتها الأولى - بما تستحقه من

اهتمام.

انتقال عاصمة الخلافة إلى بغداد:

ظلت مدينة «سامراء» أو «سر من رأى» عاصمة الخلافة العباسية منذ

(38/3)

حوالى سنة (221هـ = 836م) - فى خلافة «المعتصم بالله» - إلى أوائل  
خلافة «المعتضد» الذى بنى «القصر الحسنى» ببغداد، وقرر انتقال  
عاصمة الخلافة إليها سنة (280هـ = 893م) ..  
وفاة المعتضد:

تُوِّفِيَ «المعتضد» فى ربيع الآخر سنة (289هـ = 902م)، وكان  
عصره يموج بالحركة العلمية والدينية والأدبية، فقد عاش فى عصره  
عدد من العلماء والأدباء البارزين.  
(8) المكتفى بالله على بن المعتضد:

تولى الخلافة فى (ربيع الآخر سنة 289هـ = مارس سنة 902م) عقب  
وفاة أبيه، وعمره خمس وعشرون سنة، ورغم أنه كان حسن السيرة  
محبوباً لدى الرعية فإنه لم يكن يتمتع بما كان يتمتع به أبوه  
«المعتضد»، من قوة الشخصية والحزم، فكانت خلافته تمهيداً لعودة  
الأمر إلى أوضاعها السابقة، وفترة انتقالية بين «صحوة الخلافة»  
وانتكاستها.

وقد شهد عهد «المكتفى» أحداثاً كثيرة، منها: ازدياد خطر القرامطة  
وتهديدهم للشام و «الحجاز» و «اليمن»، وقد جرت على يد زعيمهم  
«زكرويه بن مهرويه» مذابح بشعة ضد حجاج بيت الله الحرام وعامة  
الناس، ونشروا الفرع فى أنحاء العالم الإسلامى، واستطاع  
«زكرويه» أن يهزم جيشاً للخليفة «المكتفى»، وأن يقتل منه عدداً  
كبيراً، فأعد له «المكتفى» جيشاً حشد فيه أكفأ القواد، نجح فى  
قتل «زكرويه» وكثيراً من أتباعه عام (294هـ = 907م)، وتبعهم فى

«العراق»، ولكنه لم يستطع القضاء عليهم تمامًا، فظلوا من بعده مصدر خطر مؤكد على كيان الخلافة.

ومما شهدته عصر «المكتفي» أيضًا من أحداث: تولية «المكتفي» «أبي الهيجاء عبدالله بن حمدان التغلبي» ولاية «الموصل» والبلاد التابعة لها سنة (293هـ=906م)، وكان ذلك مقدمة لاستقلال الحمدانيين بالموصل - فيما بعد - وضمهم «حلب» إليها، ونشأة «الأسرة الحمدانية».

وفاة المكتفي:

تُوِّفِيَ «المكتفي» وفاة طبيعية في (ذى القعدة سنة 295هـ= أغسطس سنة 908م)، وترك خزانة الدولة ممتلئة بالأموال، وقد أرجع المؤرخون

(39/3)

---

ذلك إلى الجهد الذى بذله أبوه «المعتضد» فى جلب أسباب الاستقرار الاقتصادى إلى الدولة، وحسن سيرة «المكتفي بالله».

(9) المقتدر بالله جعفر بن المعتضد:

تولى الخلافة بعد أخيه «المكتفي» بعهد منه فى (ذى القعدة سنة 295هـ= أغسطس سنة 908م)، وكان صبيا فى الثالثة عشرة من عمره، ولم يلب الخلافة قبله أصغر منه.

أثار تولى «المقتدر» الخلافة اعتراض كثير من رجال الدولة بسبب صغر سنه، وعدم قدرته على الاضطلاع بشئون الخلافة مع وجود الأقدار منه على تحمل المسؤولية، خاصة «عبد الله بن المعتز» الشاعر المعروف بتمام العقل وجودة الرأى، فاتفق رأى عدد منهم على خلع «المقتدر» وتولية «عبد الله بن المعتز»، وكان عمره نحو تسعة وأربعين عامًا، وعندما عرضوا الأمر على «ابن المعتز» وافق بشرط ألا يسفك دم أو تنشب حرب، فأخبروه أن الأمر يُسلم إليه عفواً، وأن جميع من وراءهم من الجند والقواد والكتّاب قد رضوا به فبايعهم على

ذلك، وتمت البيعة لابن المعتز في (19 من ربيع الأول سنة 296هـ = نوفمبر سنة 908م)، ولقب بالراضى بالله، ولكن أنصار «المقتدر» - وعلى رأسهم «مؤنس الخادم» - لم يرضوا بهذه البيعة، وتوجهوا نحو «ابن المعتز» وأنصاره وقبضوا عليهم وفتكوا بهم وأعادوا تنصيب «المقتدر» في اليوم التالي لبيعة «ابن المعتز»، الذى لم يمكث في الخلافة إلا يومًا أو بعض يوم، ولهذا يتجاهله المؤرخون عند ذكرهم قائمة خلفاء «بنى العباس».

وقد تدهورت الأوضاع في عهد «المقتدر»، وانتشرت الفتن وازداد تمزق الدولة، وأصبحت الخلافة هُبةً للطامعين بسبب صغر سنه، وأفلت زمام الأمور من يده، وتحكم النساء والخدم في شئون البلاد، فكانت «أم المقتدر» وتسمى «شعب» تولى من تشاء وتعزل من تشاء، كما كان «مؤنس الخادم» صاحب مكانة متميزة وخطيرة في عهد «المقتدر».

وقد ازداد خطر القرامطة اتساعًا وعنفاً في عهد «المقتدر»، ووصل مداه سنة (317هـ = 929م)، حينما دخلوا «مكة» بقيادة «أبي طاهر

(40/3)

---

القرمطي» وقتلوا الحجاج في المسجد الحرام، واستولوا على الحجر الأسود وأخذوه إلى مركزهم الرئيسى «هَجْر» حتى تم رده إلى مكانه في عهد «المطيع» سنة (339هـ = 950م).  
بداية ظهور الفاطميين:

ومن أهم الأحداث في عهد «المقتدر» بداية ظهور العبيديين أو الفاطميين في «شمال إفريقيا» ..

ويرجع الفضل في قيام «الدولة الفاطمية» إلى «أبي عبدالله الحسين بن أحمد»، المعروف بأبي عبدالله الشيعى، أحد دعاة الفاطميين البارزين في المغرب وكان يعرف أحياناً باسم «المختسب»؛ لأنه كان

مراقبًا لأسواق «البصرة» بالعراق قبل انتقاله إلى «المغرب». وقد تمكن «أبو عبدالله الشيعي» من القضاء على «دولة الأغلبية» في «المغرب»، والاستيلاء على عاصمتهم «رقادة» سنة (296هـ=909م)، وتم تنصيب أول إمام من أئمة الفاطميين وهو «عبيد الله المهدي» - وكنيته «أبو محمد» - الذي قيل إنه من سلالة الإمام «الحسين بن علي بن أبي طالب».

وقد تلقب «عبيدالله المهدي» بأمير المؤمنين، وبني مدينة «المهدية» عاصمةً له، وانتقل إليها من «رقادة» سنة (308هـ=920م)، وقد نجح الفاطميون في الاستيلاء على «مصر» سنة (358هـ=969م)، في عهد الخليفة الفاطمي «المعز لدين الله».

قيام دولة بني حمدان:

ومن الأحداث المهمة التي شهدتها عهد «المقتدر» - أيضًا - قيام دولة «بني حمدان» في «الموصل»، فقد استمر «أبو الهيجاء عبدالله بن حمدان» يحكم «الموصل» والبلاد التابعة لها من قبل الخليفة «المكتفي» حتى وفاته سنة (317هـ=929م)، فورثه ابنه «حسن» الملقب «ناصر الدولة» على ولاية «الموصل»، واستطاع أن يمد سلطانه إلى «ديار ربيعة» و «مصر» بأرض الجزيرة، وقد اتسع نفوذ الحمدانيين وملكهم بعد وفاة الخليفة «المقتدر»، ونجحوا في بسط سلطانتهم على «حلب» و «شمال الشام» سنة (333هـ=945م) بقيادة زعيمهم المعروف «سيف الدولة الحمداني»، الذي قال فيه «المتنبي» أروع قصائد المديح.

(41/3)

---

وقد أسهم أمراء «بني حمدان» وفي مقدمتهم «سيف الدولة الحمداني» في صد غارات الروم (البيزنطيين) عن مناطق الثغور الإسلامية، وفي رعاية الحركة العلمية والأدبية التي بلغت في عهدهم

مركزًا مرموقًا.

وفاة المقتدر بالله:

ساءت العلاقة بين «المقتدر بالله» وخادمه «مؤنس الخادم»؛ مما أدى إلى مقتله على يد أنصار «مؤنس» في أواخر شوال سنة (320هـ = 932م)، بعد أن ظل في الحكم خمسًا وعشرين سنة، هي أطول مدة يقضيها خليفة عباسي في الحكم حتى عصره.

ورغم تدهور أحوال البلاد السياسية في عهد «المقتدر» فإن الحياة العلمية قد شهدت ازدهارًا ملحوظًا في هذا العصر. ومقتل «المقتدر» دخل عصر نفوذ الأتراك مراحلها الأخيرة.

(10) القاهر بالله أبو منصور محمد بن المعتضد:

تولى الخلافة في شوال سنة (320هـ = 932م)، عقب مقتل «المقتدر»، وعمره ثلاث وثلاثون سنة.

وقد اتصف «القاهر» بالغلظة وقلة الثبوت، ورغم أنه نجح في التخلص من «مؤنس الخادم»، صاحب النفوذ الأكبر في عهد «المقتدر»، ومن غيره من أعيان الدولة فإن سوء سياسته كان سببًا في تدبير الانقلاب عليه والإطاحة به.

وقد لعب الوزير المشهور «أبو علي بن مقله» الدور الأساسي في خلع «القاهر» والتنكيل به، لخوفه منه واعتقاده أنه كان يدبر للقضاء عليه، فهاجم أعوانه الخليفة «القاهر» في دار الخلافة وقبضوا عليه وسملوا عينيه وعذبوه وأعلنوا خلعه في الثالث من جمادى الأولى سنة (322هـ = 934م).

ولعل من أبرز التطورات السياسية التي شهدتها عهد «القاهر» - رغم قصره - ظهور النفوذ البويهى في بلاد فارس سنة (321هـ = 933م)، وكان ذلك مقدمة لامتداد نفوذهم إلى «العراق» وسيطرتهم على مقاليد الأمور هناك في سنة (334هـ = 945م)، لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ الخلافة العباسية في عصرها الثانى، كما سنبين بعد قليل.

(11) الراضى بالله أبو العباس محمد بن المقتدر:

بايع الجند «الراضى بالله» في السادس من جمادى الأولى سنة

(322هـ) وعمره خمسة وعشرون عامًا، وقد كان من خيار الخلفاء،  
فاضلاً سمحاً جواداً، شاعراً محباً للعلماء.

ورغم ما كان يتحلى به «الراضى» من صفات حميدة فإن أمر الخلافة  
قد اختل في عهده اختلالاً خطيراً، وازداد تمزق الدولة واستفحل نفوذ  
المتطلعين للسيطرة على زمام الأمور؛ فقد ازداد نفوذ البويهيين في  
فارس وتطلعوا للاستيلاء على «العراق»، وتمتع «بنو حمدان» بنفوذ  
مطلق في «الموصل» و «ديار بكر» و «ربيعة» و «مضر»، واستقلت  
«الدولة الإخشيدية» في «مصر» و «الشام» عن الخلافة العباسية،  
وكذلك «الدولة السامانية» في «خراسان» و «ما وراء النهر» بزعامه  
«نصر بن أحمد الساماني»، وأصبح للأمويين خلافة مستقلة في

«الأندلس» تحت حكم «عبدالرحمن الثالث» الأموي الملقب بالناصر (300  
- 350هـ = 913 - 961م)، وسيطر القرامطة بزعامه «أبي طاهر  
القرمطي» على «البحرين» و «اليمامة».

- ظهور منصب أمير الأمراء:

وتدهورت الأوضاع في أوائل عهد «الراضى» تدهوراً كبيراً، بسبب  
عجز الوزراء وازدياد نفوذ كبار القواد وتدخلهم في شئون الدولة،  
وكان «محمد بن رائق» والي «واسط» و «البصرة» واحداً من أبرز  
هؤلاء القواد وأكثرهم نفوذاً وتأثيراً، فاختره الخليفة «الراضى»  
ليقوم بمهمة إنقاذ الخلافة من التدهور الإداري الحاد الذي تعاني منه،  
وأُسند إليه منصب «أمير الأمراء» في عام (324هـ = 936م).

وقد أصبح «محمد بن رائق» بمقتضى هذا المنصب الخطير الذي لم  
يظهر قبل ذلك على مسرح الأحداث السياسية في الدولة الإسلامية،  
القائد الأعلى للجيش، والمسئول عن إدارة شئون الدولة والخراج،  
وأصدر الخليفة «الراضى» أمراً بأن يُخطَب لابن رائق على جميع  
المنابر في جميع النواحي الخاضعة للخلافة، وبذلك تحولت الخلافة

إلى منصب شرفي، وأصبح شاغل منصب «أمير الأمراء» هو الحاكم  
الفعلي للبلاد؛ مما جعل كبار رجال الدولة أمثال «أبي عبدالله  
البريدى» صاحب «الأهواز»، و «بجكم التركي»، و «ناصر الدولة بن

(43/3)

حمدان» صاحب «الموصل»، و «توزون التركي» رئيس الشرطة  
وغيرهم، يتصارعون للوصول إليه، حتى جاء البويهيون فسيطروا  
على زمام الأمور ووضعوا حدا لهذا الصراع.  
وقد تُوِّفِي الخليفة «الراضى بالله» وفاة طبيعية في (منتصف ربيع  
الأول سنة 329هـ = ديسمبر سنة 940م)، بعد أن فقد السيطرة على  
مقاليد الأمور بصورة تكاد تكون كاملة.

(12) المتقى لله أبو إسحاق إبراهيم بن المقتدر:

تولى الخلافة في (ربيع الأول سنة 329هـ = ديسمبر سنة 940م) بتدبير  
أمير الأمراء «بجكم التركي» وكاتبه «أبي عبدالله الكوفي»، وكان  
عمره حينئذٍ أربعًا وثلاثين سنة.

وقد كانت خلافة «المتقى» القصيرة (329 - 333هـ = 940 - 944م)  
سلسلة من الصراع بين كبار رجال الدولة على منصب أمير الأمراء، مما  
أضاف مزيدًا من الاضطراب والفوضى إلى الأوضاع الداخلية، وفقد  
«المتقى» سيطرته على زمام الأمور، فقام أمير الأمراء «توزون  
التركي» بسمل عينيه وخلعه، وبذلك انتهت خلافته في (صفر سنة  
333هـ = سبتمبر سنة 944م).

(13) المستكفي بالله وانتهاء عصر نفوذ الأتراك:

تمت بيعته بالخلافة في (صفر سنة 333هـ = سبتمبر سنة 944)  
بمضور أمير الأمراء «توزون التركي» وإشرافه، وعمره واحد  
وأربعون عامًا ولم يكن له أدنى سلطة في إدارة شئون البلاد، بل  
استمر زمام الأمور في يد أمير الأمراء «أبي الوفاء توزون التركي»،

وكتابه «أبي جعفر بن شيرزاد»، وكان من أبرز الأحداث التي شهدت خلافة «المستكفي بالله» امتداد سلطان الحمدانيين بقيادة «سيف الدولة الحمداني» على «حلب» و «حمص» اللتين كانتا تحت سيطرة الإخشيديين.

وتدهورت الأحوال الداخلية في عهد «المستكفي» بشكل غير مسبق؛ مما أدى إلى تطوع البويهيين - أصحاب النفوذ في بلاد فارس - منذ سنة (321هـ = 933م) إلى بسط سلطانهم على «العراق»، وقد نجحوا في ذلك سنة (334هـ = 945م)، لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ العصر الثاني للخلافة العباسية، عُرفت فيما بعد باسم «عصر نفوذ البويهيين».

(44/3)

---

الدول التي استقلت عن الخلافة العباسية في عصر نفوذ الأتراك: لم ينحصر ظهور الحركات الاستقلالية في عصر نفوذ الأتراك، بل ظهرت هذه الحركات منذ فجر الخلافة العباسية، فاستقل «عبدالرحمن الداخل» بالأندلس سنة (138هـ = 755م) في عهد «أبي جعفر المنصور»، وقامت «دولة الأدراسة» في «المغرب الأقصى» على يد «إدريس بن عبدالله»، و «دولة الأغالبة» على يد «إبراهيم بن الأغلب» في «تونس»، في عهد «هارون الرشيد».

وفي خلافة «المأمون» تأسست «الدولة الطاهرية» في «خراسان» على يد «طاهر بن الحسين» قائد «المأمون» المشهور، وكانت دولتا الأغالبة، والطاهرية تدينان بالولاء الأسمى للخليفة العباسي، وقد مرت إشارات سريعة إلى الدول التي استقلت عن الخلافة في عصر نفوذ الأتراك وهي: «الدولة الصفارية»، و «السامانية» و «الطولونية» و «الإخشيدية» و «الحمدانية» و «دولة القرامطة»، و «الدولة الفاطمية»، و «البويهية».

وفيما يلي نبذة مختصرة عن أهم هذه الدول:

1 - الدولة الصفارية (254 - 289هـ = 868 - 902م):

أسسها «يعقوب بن الليث الصفار» في بلاد «فارس» و «خراسان» على أنقاض «الدولة الطاهرية»، في عهد «المعتمد بالله» (252 - 255هـ) بعد أن أظهر كفاءة ملحوظة في محاربة الخارجين على الخلافة والتخلص من الطاهريين بإذن من الخليفة العباسي «المعتمد بالله».

واستطاع «يعقوب بن الليث» أن يضم إلى «الدولة الصفارية» كثيراً من الأماكن التي استطاع السيطرة عليها في بلاد «فارس» و «خراسان» وأعلن ولاء دولته - في البداية - للخلافة العباسية. وعندما تولى «المعتمد على الله» الخلافة، أصر أخوه «الموفق» على أن يكون ولاء «الدولة الصفارية» للخلافة ولاءً تاماً لا صورياً، إلا أن «يعقوب بن الليث» رفض ذلك، وتدهورت العلاقة بين الطرفين، وهدد «يعقوب» بدخول عاصمة الخلافة ووسط سلطانه عليها، مما أدى إلى حدوث صدام مسلح بين «الدولة الصفارية»، والخلافة في

(45/3)

---

منطقة «واسط» بالعراق، وكان لظهور الخليفة العباسي «المعتمد» على رأس جيش الخلافة أثر كبير في هزيمة «يعقوب بن الليث»، ورغم هزيمته فقد استمر في تحدى الخلافة ورفض التفاهم معها حتى توفى في «جنديسابور» سنة (265هـ = 879م) ثم تولى رئاسة «الدولة الصفارية» بعد وفاة «يعقوب بن الليث» أخوه «عمرو بن الليث»، الذى كان حريصاً على كسب ود الخلافة حتى يؤكد سلطانه الروحي في بلاده، فاعترف به الخليفة «المعتمد» والياً على «خراسان» و «السند» و «سجستان» و «كرمان» و «فارس» و «أصبهان»، وعندما تولى «المعتمد» الخلافة بعد وفاة عمه «المعتمد» أقر «عمراً» على

ما في يده.

وقد نشط «عمرو» في توسيع حدود دولته وتطلع إلى غزو بلاد «ما وراء النهر»، حيث «الدولة السامانية»، وعبر نهر «جیحون» ولكن السامانيين تصدوا له بقيادة زعيمهم «إسماعيل بن أحمد الساماني» وهزموه، وأخذوه أسيراً إلى الخليفة «المعتضد» الذي سجنه حتى مات في سجنه سنة (287هـ = 900م)، وقد تولى زعامة الصفاريين بعد هزيمة «عمرو» وأسرته حفيده «طاهر بن محمد بن عمرو»، ولكن أحوال الصفاريين تدهورت بشدة خلال هذه الفترة نتيجة الهجمات المتلاحقة التي شنّها عليهم السامانيون، وسقطت دولتهم سنة (289هـ = 902م).

وقد لاحظ المؤرخون أن قادة هذه الدولة اتبعوا في حياتهم مبدأ العدالة والمساواة والأخوة، والبعد عن مظاهر الترف، فكانت حياة رئيس الدولة لا تكاد تختلف في مظهرها عن حياة أحد جنوده، وكان العطاء يوزع بالإنصاف والعدل، وقد ازدهر اقتصاد الدولة نتيجة البعد عن إنفاق الأموال في غير وجوهها، فيروى أن «يعقوب ابن الليث» ترك في خزانة الدولة عند وفاته ثمانين مليون دينار وخمسين مليون درهم، ولكن يؤخذ عليه اعتداده بقوته وطاعة جنده فتمرد على الخلافة وحاول الاستقلال عنها؛ مما زرع ثقتها به وكان له آثاره السلبية في تماسك الدولة واستمرارها.

2 - الدولة السامانية [261 - 389هـ = 875 - 999م]:

(46/3)

---

ظهر السامانيون على المسرح السياسي لدولة الخلافة العباسية في عصر الخليفة «المأمون» (198 - 218هـ = 813 - 833م)، وسعوا بذلك نسبة إلى قرية «سامان» القريبة من «سمرقند»؛ حيث كانوا يتوارثون إمارتها، ويسمى أميرهم «سامان خداه»، أى كبير قرية

«سامان» وصاحبها.

وقد اعتنق أحد السامانيين الإسلام أثناء خلافة الأمويين، وسمى ابنه «أسدًا»، كاسم حاكم «خراسان» في عهد «هشام بن عبد الملك»، واسمه «أسد بن عبد الله القسرى».

وظال العمر بأسد الساماني حتى أدرك «المأمون»، فذهب إليه في «مرو»، قبل انتقاله إلى «بغداد» (في الفترة من سنة 193هـ = 809م إلى سنة 202هـ = 817م)، ومعه أبنائه الأربعة: «نوح» و «أحمد»، و «إلياس»، و «يحيى»، فاحتفى بهم «المأمون» وألحقهم بخدمته. وبعد انتقال «المأمون» إلى «بغداد» أمر بإسناد عمل إلى كل واحد من أبناء «أسد الساماني»، فتم إسناد حكم «سمرقند» إلى «نوح»، وحكم «فرغانة» إلى «أحمد»، وحكم «الشاش» إلى «يحيى»، وحكم «هراة» إلى «إلياس»، فكان هذا مقدمة لتمكن نفوذ السامانيين في هذه المناطق المعروفة باسم «بلاد ما وراء النهر» (نهر جيحون) ..

وقد برز «أحمد بن أسد» حاكم «فرغانة» على إخوته، وكان له سبعة أبناء هم «نصر» و «يحيى» و «يعقوب» و «إسماعيل»

و «إسحاق» و «أسد» و «حميد»، وعند وفاته سنة (250هـ = 864م) حل محله ابنه الأكبر «نصر»، ودان له باقى إخوته بالطاعة والولاء.

وفي سنة (261هـ = 875م) حدث التحول الحاسم فى تاريخ السامانيين، حينما أسند الخليفة «المعتد على الله» ولاية جميع بلاد «ما وراء النهر» إلى «نصر بن أحمد بن أسد الساماني»، فأقام «نصر» فى «سمرقند»، وعين أخاه «إسماعيل» نائباً عنه ببخارى وعهد إلى كل أخ من إخوته الباقين بحكم إحدى الولايات، مما يمكن معه اعتبار عام (261هـ = 875م) بداية تكوّن «الدولة السامانية». وعقب وفاة «نصر بن أحمد» فى «سمرقند» عام (279هـ = 892م) ضم

أخوه «إسماعيل» «سمرقند» إلى ملكه، وأصبح هو الحاكم الأعلى لكل بلاد «ما وراء النهر»؛ لذلك يرى بعض المؤرخين أن «إسماعيل بن أحمد بن أسد الساماني» هو المؤسس الحقيقي للدولة السامانية؛ حيث خضع له سائر الأمراء السامانيين، ووسع حدود الدولة، فضم لها «خراسان» ومعظم البلاد التي كانت خاضعة لنفوذ «الدولة الصفارية»، وبلغت «الدولة السامانية» قمة مجدها في عهده (من 279 - 295هـ = 892 - 908م) ثم في عهد حفيده «نصر بن أحمد بن إسماعيل» (301 - 331هـ = 913 - 943م) وبدأت «الدولة السامانية» تتدهور منذ عهد «نوح بن نصر» (331 - 343هـ = 943 - 954م)، حتى سقطت في يد الغزنويين سنة (389هـ = 999م) ..

وقد كانت «الدولة السامانية» ملتزمة بمذهب أهل السنة، وكانت علاقتها بالخلافة العباسية علاقة احترام وإجلال؛ حيث كان أمراؤها يعدون أنفسهم نوابًا عن الخليفة. وقد ازدهرت الحياة العلمية في عصر السامانيين، وكانت «بخارى»، و «سمرقند» تنافسان «بغداد» في مكانتها العلمية والأدبية، بسبب تشجيع الأمراء السامانيين للعلم وحبهم للعلماء، فقد سمح الأمير الساماني «أبو القاسم نوح بن منصور» (نوح الثاني) لابن سينا باستخدام مكتبة قصره، كما قام الطبيب والفيلسوف المشهور «أبو بكر الرازي» (251 - 313هـ = 865 - 925م) بإهداء كتابه المعروف في الطب «المنصوري» إلى الأمير الساماني «أبي صالح منصور بن إسحاق» أمير «سجستان». وقد شهد الأدب الفارسي أيضًا عصره الذهبي خلال حكم السامانيين، وعاش الشاعر الفارسي المعروف «الفردوسي» شطرًا من حياته في عصر «الدولة السامانية».

3 - دولة بني حمدان في الموصل وحلب (293 - 392هـ = 906 - 1002م):

ينتمي الحمدانيون إلى «حمدان بن حمدون بن الحارث» من قبيلة «تغلب»، وقد ظهر نفوذ «حمدان» في شمال «العراق» سنة (254هـ) أثناء خلافة «المعتز بالله»، وتعاون مع خوارج الجزيرة في شمال «العراق»، واستطاع أن يسيطر على بعض المواقع الحصينة هناك،

وأهمها «قلعة ماردين»، ولكن الخليفة «المعتضد بالله» استطاع استردادها، وقبض على «حمدان» وسجنه.

تعهد «حسين بن حمدان» بالطاعة والولاء للخليفة «المعتضد» وساعده في حربه ضد الخوارج حتى هزمهم، فقربه الخليفة وعفا عن والده «حمدان بن حمدون».

وفي خلافة «المكتفي بالله» (289 - 295هـ = 902 - 908م) تعاظمت مكانة «حسين بن حمدان» وقام بدور بارز في الحرب ضد القرامطة وفي الحملة التي جهزها العباسيون لاسترداد «مصر» من يد الطولونيين في سنة (292هـ = 905م).

وقد شارك «حسين بن حمدان» في المؤامرة الفاشلة التي دبرها أنصار «ابن المعتز» لخلع «المقتدر»، وهرب حتى عفا عنه «المقتدر» وأسند إليه ولاية بعض البلاد وأهمها «ديار ربيعة» بالجزيرة سنة (298هـ = 911م)، إلا أنه حدث بينه وبين «علي بن عيسى» وزير «المقتدر» نزاع انتهى بالقبض عليه، وقتله في سجنه سنة (306هـ = 918م) ..

ورغم أن «حسين بن حمدان» كان من أعظم الأمراء بأساً وشجاعة، وكان أول من ظهر أمره من ملوك «بني حمدان» فإن أخاه «أبا الهيجاء عبدالله بن حمدان» كان أعمق تأثيراً وأوسع نفوذاً في تاريخ الأسرة الحمدانية، وقد ولاه الخليفة «المكتفي» إمارة «الموصل» وتوابعها سنة (293هـ = 906م)، ويعد «أبو الهيجاء عبدالله بن حمدان» المؤسس الحقيقي لمملكة الحمدانيين في «الموصل»، التي ظل حاكمًا لها إلى أن قتل سنة (317هـ = 929م) عقب اشتراكه في المؤامرة الفاشلة لخلع الخليفة «المقتدر»، وقد خلفه ابنه «حسن» الملقب بناصر الدولة، واستطاع أن يمد سلطانه على أقاليم الجزيرة الثلاثة: «ديار ربيعة»، و «ديار مضر» و «ديار بكر»، بإذن من الخليفة

«الراضى»، حتى أقعدته الشيخوخة، فخلفه على الحكم ابنه «فضل الله أبو تغلب الغضنفر» سنة (353هـ = 964م) ..  
وقد دخل «ناصر الدولة» وابنه «أبو تغلب الغضنفر» في صراع طويل مع البويهيين، أصحاب السلطة في «العراق» منذ سنة (334هـ =

(49/3)

945م)، وانتهى هذا الصراع بهزيمة «أبي تغلب الغضنفر» أمام «عصد الدولة البويهى» سنة (368هـ = 979م)، وانتهت بذلك مملكة الحمدانيين في «الموصل» و «الجزيرة».

أما «الدولة الحمدانية» في «حلب»، فقد أسسها «على بن أبي الهيجاء عبدالله بن حمدان»، الملقب بسيف الدولة؛ حيث استطاع بمعاونة أخيه الأكبر «ناصر الدولة» انتزاع «حلب» من الإخشيديين سنة (333هـ = 944م)، ثم استطاع بعد ذلك أن يبسط سلطانه على «حمص» و «قتسرين» و «العواصم» وبعض بلاد «الجزيرة» سنة (336هـ = 947م) ..

وقد قام «سيف الدولة الحمداني» بمهمة جلييلة أثناء حكمه الذى استمر حتى سنة (356هـ = 967م)، وهى حماية حدود دولة الخلافة من غارات الروم (البيزنطيين) المتواصلة، بعد أن ضعفت الخلافة المركزية عن القيام بهذه المهمة المقدسة.

وكان «سيف الدولة الحمداني» أديباً شاعراً، فجمع حوله العلماء والأدباء، مثل «أبي نصر الفارابي»، و «ابن خالويه»، و «أبي الطيب المتنبي»، و «أبي فراس الحمداني» و «ابن نباتة» و «السرى الرِّفَاء»، وغيرهم.

وتوفي «سيف الدولة» سنة (356هـ = 967م)، وخلفه فى الحكم ابنه «أبو المعالى شريف» المعروف بسعد الدولة، وضعفت فى عهده سلطة الحمدانيين فى «الشام»؛ لكثرة الضغوط التى تعرض لها من

البيزنطيين والبويهيين في «العراق»، والفاطميين في «مصر» بغرض الاستيلاء على «الشام».

وتوفي «سعد الدولة» سنة (381هـ = 991م)، وتولى بعده ابنه «أبو الفضائل سعيد الدولة»، الذي تعرض لضغوط الفاطميين المتزايدة لضم «الشام» إلى «مصر»، فتحالف مع البيزنطيين لصد هجمات الفاطميين عليه، ثم انتهت إمارته بمقتله سنة (392هـ = 1002م) على يد وزيره «لؤلؤ الحاجب»، وانتهت بذلك «الدولة الحمدانية» في «الشام» الذي أصبح خاضعاً لسلطان الفاطميين.

وقد كان الحمدانيون يميلون إلى التشيع، وكانت علاقتهم بالخلافة العباسية تتأرجح بين الرضا، والسخط، والتوجس.

4 - دولة بني بويه قبل انتقالها إلى بغداد:

(50/3)

ينتسب البويهيون إلى «أبي شجاع بويه» الذي نشأ في «بلاد الديلم» التي تقع جنوبي غربي «بحر قزوين» أو «بحر الخزر» بين منطقتي «طبرستان» و «الجبال». وكانت هذه البلاد معقلاً لنفوذ العلويين، فانتشر فيها التشيع.

ورغم أن «أبا شجاع بويه» كان فقيراً فإنه كان يتحلى بروح المغامرة والشجاعة، كما تشرب الروح الشيعية التي كانت سائدة في «بلاد الديلم».

وقد انضم «أبو شجاع» إلى العلويين في صراعهم مع السامانيين، ومع ذلك فلم يكن هو المؤسس الحقيقي لأسرة «بني بويه»، وإنما كان أبناؤه الثلاثة «علي»، و «حسن»، و «أحمد» هم الذين قاموا بذلك، فقد التحق أبناؤه بخدمة «ماكان بن كاكى» أحد القواد البارزين المناصرين للداعية الشيعي «الحسن بن علي»، الملقب بالأطروش، وأبرزوا تميّزاً في خدمته فارتقوا من مرتبة الجنود إلى

رتبة القادة، ثم حدث صراع بين «ماكان» و «مرداويج بن زيار» أحد القادة الفرس في منطقة «الديلم»، وأحس أبناء «بويه» أن كفة «مرداويج» هي الراجحة في هذا الصراع، فانضموا إليه، فيما بين عامي (316 و317هـ = 928 و 929م)، وكان ذلك بداية تمكن نفوذهم في فارس والمناطق المحيطة بها.

وقد ظهر «بنو بويه» - أو البويهيون - على مسرح الأحداث في أواخر عصر نفوذ الأتراك، فبدءوا منذ عام (321هـ = 933م) يؤسسون لأنفسهم مناطق نفوذ تخضع لسيطرتهم التامة، فاستولوا على «فارس»، و «شيراز» و «أصبهان»، و «الرى»، و «همدان» و «الكرج» و «كرمان»، وأغراهم ذلك على التطلع إلى مد نفوذهم إلى «العراق» موطن الخلافة العباسية.

وقد ساعدتهم على ذلك تضاؤل النفوذ التركي، واشتداد الصراع على منصب «أمير الأمراء» الذي ابتدعه الخليفة «الراضى بالله» سنة (324هـ = 936م)، مما أدى إلى تمزق الكلمة وضعف الجبهة التي يمكن أن تحمي دار الخلافة فلم يجد «أحمد بن بويه» أى صعوبة في دخول «بغداد» والسيطرة عليها بدون قتال في (الحادى عشر من جمادى الأولى سنة 334هـ = يناير سنة 946م) ..

(51/3)

## الفصل الخامس

\*عصر نفوذ البويهيين

[334 - 447 هـ = 945 - 1055م]

عندما دخل «أحمد بن بويه» «بغداد» في جمادى الأولى سنة (334هـ = ديسمبر سنة 945م) كان «المستكفى بالله» هو الخليفة العباسى، ولم يكن أمامه إلا أن يظهر الترحيب به، بل إنه زاد على ذلك فخلع عليه

الخَلْع ولقبه «معز الدولة»، كما لُقِّب أخاه «عليا» «عماد الدولة»،  
وأخاه «الحسن» «ركن الدولة»، وأمر بأن تُضْرَبَ ألقابهم وكُنَاهم  
على الدنانير والدراهم، وكان «علي بن بويه» حاكمًا لإقليم «فارس»،  
و «الحسن ابن بويه» حاكمًا لعدة أقاليم أهمها  
«الرى»، و «الجيل»، و «أصفهان»، في حين دخل أخوهم الأصغر  
«أحمد» «بغداد».

وقد تدهورت أحوال «الخلافة العباسية»، واندثرت معالمها من  
الناحية الواقعية حينما سيطر البويهيون على «بغداد»، فقد جردوا  
الخليفة من كل سلطاته، وعدُّوه مجرد موظف مهمته إضفاء صفة  
الشرعية على سلطاتهم لدى جماهير المسلمين، فحددوا له راتبه،  
وسلبوه حقه في تعيين الوزراء، وسمحوا له بأن يتخذ كاتبًا  
(سكرتيرًا) فقط يشرف على أمواله.

ورغم أن البويهيين كانوا شيعة، فإنهم لم يسقطوا الخلافة العباسية  
السُّنِّيَّة في «بغداد»، ليحلوا محلها خلافة علوية شيعية تتفق مع  
مذهبهم، وسبب ذلك علمهم أن وجود خليفة من العلويين يهدد ملكهم  
وسلطاتهم، وليس الأمر كذلك مع الخليفة السُّنِّي الذي يستطيعون هم  
أن يفعلوا به ما يشاءون.

وقد برهن سلوك البويهيين مع الخليفة «المستكفي» على صدق ذلك،  
فقبل مرور شهر على دخولهم «بغداد» دخل «معز الدولة أحمد بن  
بويه» على الخليفة «المستكفي»، فوقف الناس حسب مراتبهم، فتقدم  
اثنان من الديلم - وهم قوم «معز الدولة» - فمدَّ الخليفة يده إليهما ظنا  
منه أنهما يريدان تقبيلها، فجذباها وطرحاه أرضًا، وجراه بعمامته، ثم  
هجم «الديلم» على دار الخلافة ونهبوها، وسار «معز الدولة» إلى  
منزله، وساقوا الخليفة «المستكفي» ماشيًا إليه، ثم انتهت هذه  
المأساة بخلع «المستكفي» وسمل عينيه.

وإذا استبعدنا خلافة «المستكفي»، فإننا نجد أن الخلفاء الذين

شهدوا عصر نفوذ البويهيين كانوا أربعة هم:

1 - المطيع لله «أبو القاسم الفضل بن المقتدر بن المعتضد» [334 - 363هـ = 945 - 974م].

2 - الطائع لله «أبو بكر عبدالكريم بن المطيع» [363 - 381هـ = 974 - 991م].

3 - القادر بالله «أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر» [381 - 422هـ = 991 - 1031م].

4 - القائم بأمر الله «أبو جعفر عبدالله بن القادر» [422 - 467هـ = 1031 - 1075م].

أولاً: خلافة المطيع لله:

بعد أن أمر «معز الدولة أحمد ابن بويه» بخلع «المستكفي» في

(جمادى الآخرة سنة 334هـ = 945م)، أحضر «أبا القاسم الفضل ابن

المقتدر» وبايعه بالخلافة، ولقّبه بالمطيع لله، وعمره - حينئذٍ - أربع

وثلاثون سنة، وحدد له «معز الدولة» راتباً مائة دينار في اليوم.

وقد شهدت خلافة «المطيع» أحداثاً كثيرة، أولها: نشوب الصراع بين

البويهيين في «بغداد» بزعامة «معز الدولة» (أحمد بن بويه)، وبين

الحمدايين في «الموصل» بزعامة «ناصر الدولة» (الحسين بن

عبدالله)، وقد استمر هذا الصراع طويلاً في محاولة كل منهما

الإطاحة بالآخر، وفي (الحرم سنة 335هـ = أغسطس سنة 946م) تم

الصلح بين «معز الدولة البويهى» وبين «ناصر الدولة الحمداي» على

أن يدفع «ناصر الدولة» الخراج للبويهيين في «بغداد» كل عام.

وفي سنة (336هـ = 947م) استطاع «معز الدولة» أن يستولى على

«البصرة» بعد هروب صاحبها «أبي القاسم عبدالله بن أبي عبدالله

البريدى» إلى القرامطة في «هجر».

وجدير بالذكر أن «معز الدولة» كان نائباً في «بغداد» عن أخيه

الأكبر «عماد الدولة» (علي بن بويه) في «فارس»، ثم عن أخيه

الأوسط «ركن الدولة» (الحسن بن بويه)، عقب وفاة «عماد الدولة».

ورغم أن الخليفة العباسي كان تحت سيطرة البويهيين فإنهم كانوا يخضعون له من الناحية الشكلية فقط.  
وقد حاول البويهيون صبغ «العراق» بمذهبهم الشيعي، واتخذ «معز

(53/3)

الدولة» في سبيل ذلك خطوات بالغة الخطورة أسهمت في إثارة عوامل الفتنة والاضطراب داخل مجتمع «العراق»؛ ففي (ربيع الآخر سنة 351هـ = مايو سنة 962م) أصدر «معز الدولة» أمرًا بأن يُكتب على المساجد لَعْنُ «معاوية بن أبي سفيان» وغيره من الصحابة كأبي بكر و «عمر»؛ حيث يتهمهم الشيعة بإساءة معاملتهم وغصبهم حقوقهم، ولم يستطع الخليفة العباسي منع ذلك، وفي العاشر من (الحرم سنة 352هـ = يناير سنة 963م) أصدر «معز الدولة» أمرًا بتوقف الناس عن البيع والشراء في ذلك اليوم، وإظهار البكاء والعيول، وأمر النساء أن يخرجن حاسرات الرؤوس قد شققن ثيابهن وهن يلبطن الوجوه على «الحسين ابن علي بن أبي طالب» في ذكرى استشهاده بكربلاء، وكان هذا أول يوم يحدث فيه ذلك ببغداد، ولم يستطع الخليفة وأهل السنة أن يمنعوا ذلك لكثرة الشيعة ومناصرة السلطان «معز الدولة» لهم.

وقد أحدثت هذه المظاهر الشاذة آثارها السيئة بين الناس، ففي العاشر من (الحرم سنة 353هـ = يناير سنة 964م) - على سبيل المثال - تم إغلاق الأسواق في «بغداد»، وفعل الناس ما تقدم ذكره، فثارت فتنة عظيمة بين الشيعة والسنة، أُصيب فيها كثيرون ونُهبت الأموال، وجدير بالذكر أن هذه الممارسات التي شجعها البويهيون ماتزال آثارها موجودة حتى الآن.

ومن أهم ما سجله «معز الدولة» من انتصارات: تخليص «عُمان» في (ذى الحجة سنة 355هـ = نوفمبر سنة 966م) من يد القرامطة الذين

كانوا قد استولوا عليها وعاثوا بها فسادًا، فأصبحت بذلك ضمن مملكة البويهيين.

ظل «عز الدولة» اثنين وعشرين عامًا يدير الأمور في «بغداد»، حتى تُوفِّي في الثالث عشر من (ربيع الآخر سنة 356هـ = مارس سنة 967م)، فتولى ابنه «بختيار» إمارة «العراق» بعهد منه، ولُقب «عز الدولة». وقد قدم «عز الدولة» صورة صارخة لانصرافه عن المهام الكبرى واهتمامه بملذاته الشخصية، فقد أنفق وقته في اللهو والتسلية

(54/3)

وعشرة النساء والاستماع إلى الغناء، واستولى على أموال كبار رجال الدولة وعلى رأسهم الخليفة في سبيل ذلك. ففي سنة (361هـ = 972م) هاجم الروم ثغور «الجزيرة» ومن بينها «الرها» و «نصيبين»، فأحرقوا البلاد وخربوها وغنموا وسلبوا ما استطاعوا ولم يجدوا من يردعهم بعد وفاة «سيف الدولة الحمداني» سنة (356هـ = 967م)، فسار جماعة من أهل «الجزيرة» إلى «بغداد» لاستنصار المسلمين ضد الروم، فاستعظم الناس ذلك، وتوجهوا إلى «عز الدولة بختيار»، وأنكروا عليه انشغاله باللهو والصيد عن جهاد الروم الذين انتهكوا حرمة دار الإسلام، فوعدهم بالإعداد لغزوهم، واتصل بالخليفة «المطيع لله» يطلب منه المال ليجهز به المسلمين للغزو، ولكن «المطيع لله» أجابه بقوله: «إن العزاة والنفقة عليها، وغيرها من مصالح المسلمين تلزمني إذا كانت الدنيا في يدي، وتُجَبَّى إلى الأموال، وأما إذا كانت حالي هذه فلا يلزمني شيء من ذلك، وإنما يلزم من البلاد في يده، وليس لي إلا الخطبة، فإن شئتم أن أعتزل فعلت»، فهدد «بختيار» الخليفة «المطيع» واضطره إلى دفع أربعمئة ألف درهم، فلما قبضها «عز الدولة» صرفها في مصالحه وملذاته!.

ونتيجة لسوء طبع بختيار واضمحلال شخصيته، بدأت أسباب الشقاق والفتنة تظهر بين البويهيين، فقد حاول ابن عمه «ركن الدولة» والملقب فيما بعد «عضد الدولة» انتزاع «العراق» من «بختيار» ولكن والده «ركن الدولة» اعترض على ذلك، فاضطر «عضد الدولة» إلى تأجيل ذلك إلى ما بعد وفاة والده.

ولعل من أخطر الأحداث التي شهدتها خلافة «المطيع لله» سيطرة الفاطميين على «مصر» سنة (358هـ = 969م) وكانت «مصر» حينئذٍ تحت حكم الإخشيديين الذين كانوا يخضعون للخليفة العباسي من الناحية الشكلية، فلما دخلها القائد الفاطمي «جواهر الصقلي» في (شعبان سنة 358هـ = يونيو سنة 969م)، شرع في بناء مدينة «القاهرة»؛ لتصبح عاصمة للفاطميين، كما بنى الجامع الأزهر سنة

(55/3)

(361هـ = 972م)، وظل حاكمًا لمصر نيابة عن مولاه «المعز لدين الله» حتى سنة (362هـ = 973م)، حين قدم «المعز» إلى «مصر» في رمضان من هذه السنة، فقام بالأمر وأصبحت «مصر» منذ ذلك الوقت مقراً للخلافة الفاطمية الشيعية حتى سنة (567هـ = 1172م). ظل «المطيع لله» في الخلافة ما يقرب من «ثلاثين عامًا»، حتى أُصيب بالفالج - وهو الشلل النصفى - في أواخر حياته فتعذرت حركته وثقل لسانه، مما دعا «سُبُكْتِكِينَ»، حاجب «عز الدولة بختيار» إلى أن يطلب منه خلع نفسه وتسليم الخلافة إلى ابنه «عبدالكريم»، فتم ذلك في (13 من ذى القعدة سنة 363هـ = يوليو سنة 974م)، ولقب «عبدالكريم» بالطائع لله.

ثانيًا: خلافة الطائع لله (363 - 381هـ = 974 - 991م). تولى «الطائع لله» الخلافة في (ذى القعدة سنة 363هـ = يوليو سنة 974م) وعمره ثلاث وأربعون سنة، وقد تُوفِّي والده «المطيع لله» بعد

ذلك بفترة قصيرة، في (سنة المحرم سنة 364هـ = سبتمبر 974م).  
في بداية خلافة «الطائع لله» حدثت الفتنة بين «عضد الدولة بن ركن  
الدولة»، وابن عمه «بختيار بن معز الدولة»، فقد شجع «عضد الدولة»  
جند «بختيار» على الثورة عليه ووعدهم بالإحسان إليهم والنظر في  
أمورهم، فثار عليه الجند وتم القبض على «بختيار» وحبسه في  
(جمادى الآخرة سنة 364هـ = فبراير سنة 975م)، وأصبحت «بغداد»  
و «العراق» تحت سلطان «عضد الدولة» ..  
وقد عز على «ركن الدولة» أمير أمراء البيت البويهى ووالد «عضد  
الدولة» أن يتصرف ابنه «عضد الدولة» مع ابن أخيه «بختيار» بهذه  
الصورة، فكتب إلى أنصار «بختيار» يساندهم ويأمرهم بالثبات  
والصبر ويعرفهم أنه عازم على المسير إلى «العراق» لإخراج «عضد  
الدولة» وإعادة «بختيار»، فانصرف أنصار «عضد الدولة» عنه  
واضطر إلى الإذعان لإرادة أبيه، فأخرج «بختيار» من سجنه ورد إليه  
ما سلبه من سلطانه، وعاد إلى «فارس» في (شوال سنة 364هـ =  
يونيو سنة 975م)، وكان الخليفة «الطائع لله» مسلوب الإرادة خلال

(56/3)

هذه الفتنة، لاحول له ولا قوة.  
وقد قسم «ركن الدولة» ملكه بين أولاده في (جمادى الأولى سنة  
365هـ = يناير سنة 976م) فجعل لابنه «عضد الدولة» ملك البلاد من  
بعده، ولولده «فخر الدولة» (أبي الحسن على) «همدان» وأعمال  
«الجيل»، ولولده «مؤيد الدولة» (أبي منصور بويه) «أصبهان»  
وأعمالها، وجعلهما تحت رئاسة أخيهما «عضد الدولة»، وأوصاهم  
بالاتفاق وترك التنازع.  
وفي (المحرم سنة 366هـ = أغسطس سنة 976م) تُوفّي «ركن الدولة»  
فأصبح ابنه «عضد الدولة» زعيم البويهيين بلا منازع.

وفي العام نفسه حشد «عضد الدولة» جنوده لغزو «العراق»، وكان «بختيار» ووزيره «أبو طاهر محمد بن محمد بن بقية» يعلمان نيات «عضد الدولة» فحاولا استمالة كبار الأمراء من حكام الأقاليم المختلفة، مثل «فخر الدولة بن ركن الدولة»، و «أبي تغلب بن حمدان» وغيرهما، وحدثت بعض المعارك بين جيوش «عضد الدولة» وجيوش «بختيار» سنة (366هـ = 976م) انتهت بهزيمة «بختيار» وفراره من «بغداد» إلى «الموصل» حيث تحالف مع واليها «أبي تغلب بن حمدان» ضد «عضد الدولة»، فسار إليهما «عضد الدولة» وهزمهما بالقرب من «تكريت» في (شوال سنة 367هـ = مايو سنة 978م) وأسر «بختيار» وقتله، وضم مملكة الحمدانيين في «الموصل» و «الجزيرة» إلى أملاكه، واتخذ «العراق» مقرا لحكمه.

اهتم «عضد الدولة» بدعم سلطانه وتوسيع أملاكه؛ ففي سنة (368هـ = 978م) فتح «ميافارقين» و «آمد» و «ديار بكر»، و «ديار مضر» منهياً بذلك نفوذ «أبي تغلب ابن حمدان» في بلاد «الجزيرة».

وفي عام (369هـ = 979م) استولى على الأقاليم الخاضعة لأخيه «فخر الدولة» بسبب وقوفه إلى جانب «بختيار»، فاستولى على «همدان» و «الري» وما بينهما من البلاد، وعين عليها أخاه «مؤيد الدولة» نائباً عنه في حكمها، وفي سنة (371هـ = 981م) ضم إلى نفوذه بلاد «جرجان» و «طبرستان» بعد أن أجلى عنها صاحبها «قابوس ابن أبي طاهر» و «شمكير» (أحد أمراء آل زيار)، فتعاضم بذلك نفوذ الخلفاء.

(57/3)

---

«عضد الدولة» وذاع صيته وتمكنت هيئته، وكان أول من خوطب بشاهنشاه في الإسلام، وأول من خُطب له على منابر «بغداد» بعد الخلفاء.

وقد كان لعضد الدولة إنجازات حضارية بالإضافة إلى أمجاده

الحربية، فبعد دخوله «بغداد» بدأ في عمارتها، كما أمر بإخراج أموال الصدقات وتسليمها للقضاة وأعيان الناس، لإعانة من يستحق، ويدفع أموال للعاطلين الذين يتعذر عليهم الحصول على العمل، بما يكفي احتياجاتهم، ثم يردونها بعد ذلك إذا عملوا.

كما اهتم «عضد الدولة» بالعلم والعلماء، وأغدق عليهم العطاء وأحاطهم بمظاهر التكريم، وقد كان مجلسه منتدى للعلماء، تدور فيه المناقشات الدقيقة في فروع العلم المختلفة، وكان يشترك مع العلماء في هذه المناقشات ويعارضهم في المسائل، ومن أبرز هؤلاء العلماء «أبو علي الفارسي» الذي صنّف له كتاب «الإيضاح» و «التكملة» في النحو، وكان «عضد الدولة» يقول: «أنا غلام أبي علي في النحو»، ومنهم أيضاً «أبو إسحاق الصابي» الذي صنّف لعضد الدولة كتاب «التاجي في أخبار بني بويه».

وكان «عضد الدولة» يحب الشعر ويطلب له، ويقرضه أحياناً، ويغمر الشعراء بفيض كرمه وجزيل عطائه، فقصده عدد من فحول الشعراء في عصره، وكتبوا فيه أروع قصائد المديح، وفي مقدمتهم «أبو الطيب المتنبي» سنة (354هـ = 965م)، و «أبو الحسن محمد بن عبد الله السّلامي أبرز شعراء «العراق»، وكان «عضد الدولة» يقول: «إذا رأيت السّلامي في مجلسي ظننت أن عطارده قد نزل من الفلك إلى ووقف بين يدي».

وقد اقتدى «مؤيد الدولة» و «فخر الدولة» بأخييهما «عضد الدولة» في تشجيع العلم وإكرام أهله، فعين «مؤيد الدولة» «الصاحب بن عباد» وزيراً له سنة (366هـ = 976م)، وكان من أعظم رعاة العلم والأدب، وعقب وفاة «مؤيد الدولة» واستيلاء أخيه «فخر الدولة» على مملكته أقر «الصاحب بن عباد» على وزارته، وعين مفكر المعتزلة المشهور «عبد الجبار بن أحمد» قاضي قضاة للرى سنة (367هـ = 978م) لصلته

بالصاحب بن عباد، ثم عزله «فخر الدولة» سنة (385هـ = 995م) حينما تُوفِّي «الصاحب بن عباد».

وفاة عضد الدولة وبداية التفكك في البيت البويهى:

تُوفِّي «عضد الدولة» في (شوال سنة 372هـ = مارس سنة 983م)، وعمره ثمانٍ وأربعون سنة، وقد تركت وفاته فراغاً هائلاً تعذر على خلفائه أن يملئوه.

وكان أخطر ما ترتب على وفاة «عضد الدولة»، الصراع الذى نشب بين أولاده الخمسة على السلطة، وهم: «أبو كاليبجار المرزبان» (صمصام الدولة)، و «أبو الحسين أحمد»، و «أبو طاهر فيروز شاه»، و «أبو الفوارس شيرزيل» الملقب «شرف الدولة»، و «أبو نصر فيروز» الملقب «بهاء الدولة».

وقد استقر الأمراء والقادة على اختيار «أبي كاليبجار المرزبان» ليكون خلفاً لأبيه «عضد الدولة»، ولقبوه «صمصام الدولة» وأقر الخليفة «الطائع لله» هذا الاختيار وخلع على «صمصام الدولة» سبع خلع، ولقبه «شمس الملة»، فلم يكن للخليفة دور سوى إقرار ما يتفق عليه القادة والأمراء.

وقد واجه «صمصام الدولة» انشفاقاً من أخيه «شرف الدولة» الذى استطاع الاستقلال ببلاد «فارس» والاستيلاء على «البصرة»، وتعيين أخيه «أبي الحسين أحمد» نائباً عنه فى حكمها، كما تمكن من هزيمة الجيش الذى أرسله إليه «صمصام الدولة» ليسترد منه بلاد «فارس».

وقد استطاع «صمصام الدولة» استمالة عمه «فخرالدولة» إلى صفه فى هذا الصراع، ولكن جنده فى «بغداد» ثاروا عليه وأعلنوا بيعتهم لشرف الدولة، ورغم أن «صمصام الدولة» قضى على هذه الثورة فإنه لم يستطع وضع حد لزيادة قوة أخيه «شرف الدولة».

ففى سنة (375هـ = 985م) استولى «شرف الدولة» على «الأهواز» وقبض على أخيه «أبي طاهر فيروز شاه» المناصر لصمصام الدولة، وفى (رمضان سنة 376هـ = يناير سنة 987م) استولى على «العراق»

ودخل «بغداد» وقبض على أخيه «صمصام الدولة»، فذهب إليه الخليفة وهناك بالسلطنة.

لم يستمر «شرف الدولة» طويلاً في إمارته على «العراق»، فقد توفى

(59/3)

في غرة (جمادى الأولى سنة 379هـ = أغسطس سنة 989م)، ولم يجد حرجاً وهو في مرض موته أن يأمر بسَمَل عيني أخيه «صمصام الدولة» وهو في سجنه.

وخلف «شرف الدولة» أخوه «أبو نصر فيروز»، الذي لقبه الخليفة «بهاء الدولة وضياء الملة»، ولكن العلاقة بين «بهاء الدولة أبي نصر فيروز» وبين الخليفة «الطائع» وصلت بعد قليل إلى الحد الذي جعل «بهاء الدولة» يقوم بعزل الخليفة؛ فقد قلت الأموال عند «بهاء الدولة»، وثار جنده عليه، فاقترح عليه أحد خواصه وهو «أبو الحسن بن المعلم»، أن يقبض على الخليفة «الطائع» ويستولى على أمواله، فدخل «بهاء الدولة» على الخليفة ومعه جمع كثير، وتقدم أحد رجاله كأنه يريد أن يقبل يد الخليفة، فجذبه فأنزله عن سريره والخليفة يقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، ويستغيث دون أن يلتفت إليه أحد، وتم الاستيلاء على أمواله، وحُمل الخليفة إلى دار «بهاء الدولة»؛ حيث أرغم على خلع نفسه في (التاسع عشر من شعبان سنة 381هـ = أكتوبر سنة 991م) بعد أن استمر في الخلافة ما يقرب من ثمانية عشر عاماً، كان خلالها مسلوب الإرادة.

ثالثاً: خلافة القادر بالله (381 - 422هـ = 991 - 1031م).

هو «أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر»، اختاره «بهاء الدولة» بعد خلع «الطائع لله» لتولي الخلافة، وكان غائباً عن «بغداد»، فلما وصله الخبر حضر إليها وبايعه «بهاء الدولة» والناس في (رمضان سنة 381هـ = نوفمبر سنة 991م)، وعمره خمسة وأربعون عاماً.

وقد دامت خلافة «القادر بالله» إحدى وأربعين سنة وحفلت بالكثير من الأحداث والتطورات، وأهمها:  
أ - ازدياد التفكك في البيت البويهى:  
فقد نشب الصراع بين «بهاء الدولة»، وأخيه «صمصام الدولة» ولم يكن في «بنى بويه» أظلم من «بهاء الدولة» ولا أقبح سيرة منه، ففي سنة (383هـ = 993م) قام بمحاولة للاستيلاء على المنطقة الخاضعة لإمارة أخيه «صمصام الدولة» في بلاد «فارس» و «أرجان»،

(60/3)

فانتهت هذه المحاولة بعكس ما كان يهدف إليه؛ حيث تمكن «صمصام الدولة» من الاستيلاء على «خوزستان» الخاضعة لبهاء الدولة، وبدد شمل الجيش الذى أرسله «بهاء الدولة».  
وفي سنة (384هـ = 994م) استطاع «بهاء الدولة» أن يهزم «صمصام الدولة»، وأن يسترد منه بعض ما خسره قبل ذلك.  
وقد تجدد الصراع بينهما مرات عديدة، ووصل في إحدى مراحلها إلى استيلاء «صمصام الدولة» على «البصرة» في «العراق» سنة (386هـ = 996م)، ولم يتوقف هذا الصراع بين «بهاء الدولة» و «صمصام الدولة» إلا بمقتل «صمصام الدولة» على يد بعض أبناء «عز الدولة بختيار»؛ انتقاماً لمقتل أبيهم «بختيار» على يد «عضد الدولة»، والد «صمصام الدولة»، وذلك في (ذى الحجة سنة 388هـ = 998م).  
وعقب مقتل «صمصام الدولة» أراد بعض أبناء «بختيار» الاستيلاء على «فارس»، فنشب الصراع بينهم وبين «بهاء الدولة» وانتهى بهروبهم ومقتل أحدهم واسمه «أبو نصر» على يد أنصار «بهاء الدولة» سنة (390هـ = 1000م).  
وقد تُوِّفَى «بهاء الدولة» (أبو نصر فيروز بن عضد الدولة) في (جمادى الآخرة سنة 403هـ = ديسمبر سنة 1012م)، فخلفه على

إمارة «العراق» ابنه «أبو شجاع فخر الملك»، الذى لقبه الخليفة «القادر بالله» «سلطان الدولة»، فولى أخاه «جلال الدولة» «أبا طاهر» إمارة «البصرة» وأخاه «قوام الدولة أبا الفوارس» «كرمان». ونشب صراع مرير بين أبناء «بهاء الدولة»: «سلطان الدولة» و «جلال الدولة»، و «قوام الدولة»، و «مشرف الدولة» الذى استطاع الاستيلاء على «العراق» سنة (411هـ = 1020م) وبعد وفاة «سلطان الدولة» فى (شوال سنة 415هـ = ديسمبر سنة 1024م) خلفه ابنه «أبو كاليبجار» على إمارة «فارس» و «كرمان»، ودخل فى صراع مع عمه «أبي الفوارس بن بهاء الدولة» الذى استطاع الاستيلاء على «كرمان»، وأرغم «أبا كاليبجار» على دفع خراج له قيمته عشرون ألف دينار، إلا أن «أبا كاليبجار» استرد «كرمان» بدون قتال عقب

(61/3)

وفاة عمه «أبي الفوارس» سنة (419هـ = 1028م). وعقب وفاة «مشرف الدولة» تولى أخوه «أبو طاهر جلال الدولة» - أمير «البصرة» - إمارة «العراق»، لكنه لم يتمكن من دخول «بغداد»؛ حيث منعه أنصار ابن أخيه «أبي كاليبجار» من دخولها، تمهيداً لقدم «أبي كاليبجار» وسيطرته على «العراق»، ولكن ذلك لم يحدث لأنشغاله بصراعه مع عمه «أبي الفوارس»، وبقيت «بغداد» بدون أمير بويهى لمدة عامين وبضعة أشهر، مما دعا رؤساء الجند إلى أن يطلبوا من الخليفة «القادر بالله» أن يرسل إلى «جلال الدولة» ليحضر إلى «بغداد» ويتسلم الإمارة؛ جمعاً للكلمة وحسماً للخلاف، فاستجاب الخليفة لهم ودخل «جلال الدولة» «بغداد» فى (رمضان سنة 418هـ = سبتمبر سنة 1027م)، إلا أنه ما لبث أن دخل فى صراع مع ابن أخيه «أبي كاليبجار»، الذى أراد انتزاع «العراق» من عمه «جلال الدولة»، واستمر الصراع بينهما بين النصر والهزيمة لهذا الطرف أو ذاك حتى

وفاة «جلال الدولة» سنة (435هـ = 1044م).

وقد أدى الصراع المستمر بين أبناء البيت البويهى إلى تطلع قوى أخرى من خارج البيت البويهى للاستيلاء على مقاليد الحكم فى دولة الخلافة العباسية، كما شغل هذا الصراع البويهيين عن توجيه أذاهم إلى الخليفة العباسى «القادر بالله»، الذى ظل واحداً وأربعين عاماً على كرسى الخلافة حتى تُوفى سنة (422هـ = 1031م).

ب - اتساع قوة الدولة الغزنوية:

تُنسب «الدولة الغزنوية» إلى مدينة «غَزَنَة» بأفغانستان الحالية، ويقال: إن اسمها الصحيح «غَزْنين» ثم تحول عند العامة إلى «غَزَنَة»، واشتهرت به.

وتمتد جذور الأسرة الغزنوية إلى مرحلة سابقة على خلافة «القادر بالله»، فقد ارتبطت بداية ظهور الغزنويين بظهور «ألبتكين» (ويكتب أحياناً: ألب تكين أو ألفتكين)، وهو غلام تركى التحق بخدمة السامانيين، وتدرج فى المناصب حتى وصل إلى منصب «حاجب الحجاب»، وهو منصب كان يتيح سلطة خطيرة لصاحبه، ثم تقلد

(62/3)

«ألبتكين» ولاية «خراسان» نيابة عن الأمير السامانى «عبدالمملك بن نوح» سنة (349هـ = 960م) حتى عزله عنها الأمير «منصور بن نوح» الذى خلف أخاه «عبدالمملك» فلجأ «ألبتكين» إلى «بلخ»، واستطاع هزيمة جيش «منصور» الذى أرسله إليه سنة (351هـ = 962م)، ثم توجه إلى «غزنة» فى السنة نفسها، واستولى عليها واتخذها مقراً له فى خلافة «المطيع لله».

وبعد وفاة «ألبتكين» خلفه ابنه «أبو إسحاق إبراهيم»، الذى تعاون مع الأمير «منصور بن نوح» ضد أمير «غزنة» السابق «أبى على»، الذى أطاح به «ألبتكين» سنة (351هـ = 962م)، فسانده الأمير

«منصور» على شرط أن يعد نفسه تابعًا للدولة السامانية، فوافق  
«أبو إسحاق» على ذلك.

وبعد وفاة «أبي إسحاق إبراهيم» سنة (355هـ = 966م) دون أن  
يُعقب تولى إمارة «غزنة» «بلكاتكين»، ثم «بيرى تكين» على  
التوالى وهما من غلمان «ألبتكين»، ثم أصبح «سُبُكتكين» أميرًا  
على «غزنة» في (شعبان سنة 366هـ = مارس 977م) فكان ذلك نقطة  
تحول في تاريخ الغزنويين.

و «سبكتكين» غلام تركى من غلمان «ألبتكين»، كان قد قربه إليه  
وزوجه ابنته، وعينه قائدًا لحرسه، فلما تولى «غزنة» وسع حدودها  
في اتجاه بلاد «الهند»، وحقق انتصارات كبيرة في تلك البلاد،  
وأصبح بذلك المؤسس الحقيقي للدولة الغزنوية.

وقد استعان الأمير «نوح بن منصور الساماني» (366 - 387هـ = 977 -  
997م) بسبكتكين سنة (384هـ = 994م) للقضاء على حركة تمرد  
وعصيان ضده في «بخارى»، وخلع عليه لقب «ناصر الدولة»، وعين  
ابنه «محمودًا» قائدًا لجيش «خراسان» ومنحه لقب «سيف الدولة».  
واختار «سبكتكين» مدينة «بلخ» مقرا له في أواخر أيامه، وقد  
توفي في (شعبان سنة 387هـ = أغسطس سنة 997م)، وعقب وفاته  
تنازع ابناه «محمود» و «إسماعيل» حول أحقيتهما في وراثة  
الحكم، وانتهى هذا النزاع بانتصار «محمود» الذى أصبح رئيسًا  
للدولة الغزنوية سنة (387هـ = 997م)، وأحسن معاملة أخيه  
«إسماعيل» وأعلى منزلته.

(63/3)

---

وقد حققت إمارة «محمود بن سبكتكين» قفزة هائلة في مسار  
«الدولة الغزنوية»، فترامت أطرافها، واتسع نفوذها، وذاع صيتها،  
وأصبحت بلا منافس من حيث هيبتها العسكرية ومكانتها الحضارية،

وقد اشتهر «محمود بن سبكتكين» بلقب «السلطان»، كما خلع عليه الخليفة «القادر بالله» لقب «يمين الدولة وأمين الملة» سنة (389هـ = 999م).

نجح «محمود بن سبكتكين» في السنوات الأولى من إمارته في تعزيز وضعه الداخلى والقضاء على معارضييه، ثم صرف اهتمامه إلى الفتوح في بلاد «الهند»، وحقق انتصارات هائلة جعلته واحداً من أعظم الفاتحين في التاريخ الإسلامى؛ ففي سنة (389هـ = 999م) استولى على «خراسان» وقضى على سلطة السامانيين بها، وفي سنة (393هـ = 1003م) استولى على «سجستان» التي كان حاكمها «خلف بن أحمد» وهو من أكبر أعدائه.

وتعد فتوحات السلطان «محمود بن سبكتكين» في بلاد «الهند»، أعظم إنجاز له في هذا المجال، ففي سنة (395هـ = 1005م) استطاع فتح مدينة «بهاية» الهندية بجوار إقليم «الملتان»، وأقام بها حتى أصلح أمرها واستخلف بها مَنْ يُعَلِّم مَنْ أسلم من أهلها قواعد الإسلام وفرائضه، وفي سنة (396هـ = 1006م) استولى على «الملتان» التي كانت تخضع لحكومة إسماعيلية شيعية تعادى السلطان «محمود الغزنوى» وتتحالف ضده مع أعدائه الهنود غير المسلمين.

واستمرت غزوات السلطان «محمود» المظفرة في بلاد «الهند» بصورة شبه منتظمة حتى سنة (416هـ = 1025م) فنجح في الاستيلاء على قلعة «ناردين» الهندية المنيعة، بعد قتال عنيف سنة (404هـ = 1013م) ودان له كثير من حكام المناطق المجاورة، وأقبل الهنود في تلك المناطق على اعتناق الإسلام، وأرسل إليهم السلطان من يفقههم في الدين، وفتح سنة (409هـ = 1018م) مدينة «قنوج» الحصينة على نهر «الجانج»، الذى يقدسه الهنود، واعتنق أهلها الإسلام. وفي سنة (416هـ = 1025م)، قام السلطان «محمود» بآخر غزواته

في بلاد «الهند»، وهي غزوة «سومونات» وكان بقلعة «سومونات»  
الحصينة معبد يضم نفائس الذهب والفضة والجواهر، مما لا يوجد له  
نظير في أى مكان آخر في شبه القارة الهندية، بالإضافة إلى صنم  
البراهمة الأعظم الذى يحج إليه الهنود من كل مكان، فاقتحم السلطان  
«محمود» هذه القلعة، في (ذى القعدة سنة 416هـ = ديسمبر سنة  
1025م) بعد أن استبسل الهنود في الدفاع عنها، واستولى على كل  
ما فيها من نفائس قُدِّرت قيمتها بأكثر من عشرين مليون دينار، وحطم  
السلطان «محمود» بنفسه صنم البراهمة الأعظم بسومونات وأرسل منه  
قطعاً إلى «غزنة»، و «مكة» و «بغداد» إعلاناً بهذا الفتح العظيم،  
وكان السلطان «محمود» يتصل -عادة- بالخليفة «القادر بالله» في  
«بغداد» بعد كل فتح عظيم في البلاد الهندية؛ ليخبره بما فتح الله  
للمسلمين في هذه البلاد، مجددًا ولاءه له.

وأثناء قيامه بغزواته في شبه القارة الهندية استطاع السلطان  
«محمود» أن يضم إلى نفوذه إقليم «خوارزم» ويقضى على الأسرة  
المأمونية المعادية له بما سنة (407هـ = 1016م)، كما ضم إليه أيضاً  
«الرى» و «قزوين» و «أصفهان» سنة (420هـ = 1029م) بمعاونة ابنه  
«مسعود»، فاتسعت مملكته في «خراسان» و «ما وراء النهر» و «شبه  
القارة الهندية».

وبعد غزوة «سومونات» لم يتمكن السلطان «محمود» من مواصلة  
حملاته الموفقة في «شبه القارة الهندية»، بسبب اهتمامه بمواجهة  
ثورات «العراق» و «خراسان» وخطر الأتراك السلاجقة.  
وقد ثوَّق السلطان «محمود» بغزنة في شهر (ربيع الآخر سنة  
421هـ = أبريل سنة 1030م) وعمره واحد وستون عامًا، وكان قد  
أوصى بالسلطة لابنه «محمد»، ولكنه لم يكن يتمتع بحب الجند  
والرعية فتحلَّوا عنه وباعوا أخاه الأكبر «مسعودًا» واستتب له الأمر  
في أواخر سنة (421هـ = 1030م)، ووصل إلى «غزنة» من

«أصبهان» في (جمادى الآخرة سنة 422هـ = مايو سنة 1031م) وقد ورث مملكة أبيه الشاسعة.

(65/3)

وقد كان السلطان «محمود بن سبكتكين» يتحلى بمواهب إدارية متميزة، فقد استطاع بعد فتوحاته في «الهند» أن يتألف الهندوس، وأن يجعلهم جزءاً من نسيج دولته، وأن يستخدمهم في جهازه الإدارى وأن يجندهم في جيشه، كما كان السلطان «محمود» يتحلى بأخلاق رفيعة، ويكثر الإحسان إلى الرعية والرفق بهم، ويحب العلماء ويكرمهم ويعظمهم وكان على مذهب «أبي حنيفة» في الفقه، وهو المذهب الذى مازال واسع الانتشار في «شبه القارة الهندية» و «أفغانستان» و «أواسط آسيا»، وكان السلطان «محمود» شغوفاً بعلم الحديث النبوى، فكان الشيوخ يقرءونه بين يديه وهو يسمع.

وقد قصده العلماء والشعراء من كل مكان، وكان أبرزهم المؤرخ العربى «العتبى» (أبو النصر محمد بن عبدالجبار) صاحب كتاب «اليمينى» الذى جمع فيه سيرة «يمين الدولة السلطان محمود»، و «الريحان البيرونى» (محمد بن أحمد) صاحب المعرفة الموسوعية فى الرياضيات والفلك والطب والتاريخ والجغرافيا، ومن أشهر كتبه «الآثار الباقية عن القرون الخالية»، والشاعر الفارسى المعروف «الفردوسى» (أبو القاسم حسن) صاحب الشاهنامه أو «كتاب الملوك» وهو ملحمة شعرية تتألف من ستين ألف بيت، وقد أهداها «الفردوسى» إلى السلطان «محمود» الذى كافأه عليها بستين ألف درهم، لكن «الفردوسى» رأى أن هذه المكافأة أقل مما كان يتوقع، فترك بلاط السلطان معترضاً!

وكان «يمين الدولة السلطان محمود» حريصاً على تقديم كل فروض

الولاء لخليفة المسلمين، باعتبار منصب الخلافة رمزاً يجب صيانته  
والمحافظة على مكانته، فالخلافة قد ارتبطت منذ قيامها بعزة  
الإسلام ومجده، والتداول على هذا المنصب العظيم يُعد استخفافاً  
بكل ما يرمز إليه من قيم ومعانٍ.  
وفاة الخليفة القادر بالله، ونبذة عن شخصيته:  
تُوِّفِيَ «القادر بالله» في شهر (ذى الحجة سنة 422هـ = نوفمبر سنة  
1031م) وعمره سبع وثمانون سنة، ودامت خلافته واحداً وأربعين

(66/3)

عاماً، فكانت أطول مدة يقضيها خليفة عباسي في هذا المنصب حتى  
عصره.  
كان الخليفة «القادر بالله» يتحلى بصفات جعلته إحدى الشخصيات  
المتميّزة في تاريخ «الخلافة العباسية»، فقد كان راجح العقل وافر  
الحلم، مؤثراً للخير، ظاهر الكرم، جميل الأخلاق، أمراً بالمعروف  
وناهياً عن المنكر، كما كان شغوفاً بالعلم محبا لأهله، مستقيماً  
الطريقة في الدين بعيداً عن البدعة، متواضعاً، عزوفاً عن مظاهر  
الأبهة والتكلف، فكان يخرج من داره في زيّ العامة، ويزور قبور  
الصالحين، وكان عادلاً وصولاً ظاهر البر باليتامى والمساكين، قوى  
الشخصية، يحظى بالاحترام والتبجيل؛ فلم يتعرض لما تعرض له غيره  
من السابقين له من مهانة خلال فترة اضمحلال الخلافة، ورغم ما  
تعرضت له الخلافة من ظروف وأحداث وتغلغل نفوذ الترك والفرس فإن  
«القادر بالله» استغل كل ما أتيج له من إمكانيات، وقَدَّم أفضل  
نموذج يمكن أن نتوقعه لخليفة عباسي في ضوء تلك الظروف.  
شهد القرنان (4 و5هـ = 10 و11م) قمة الازدهار الحضاري بمظاهره  
المختلفة في أرجاء العالم الإسلامي بصفة عامة وفي «دولة الخلافة  
العباسية» بصفة خاصة؛ ويمثل عصر «القادر بالله» زبدة الحضارة

الإسلامية في هذين القرنين، وهكذا كانت الأوضاع الحضارية أحسن حالاً من الأوضاع السياسية خلال تلك الفترة.

رابعاً: خلافة القائم بأمر الله ونهاية عصر النفوذ البويهى (422 - 447هـ = 1031 - 1055م):

تولى «القائم بأمر الله» (أبو جعفر عبدالله بن القادر) الخلافة في اليوم الذى تُوفى فيه أبوه «القادر بالله» في ذى الحجة سنة (422هـ = 1031م)، وعمره ثلاثون عامًا، وقد لقبه أبوه - قبل وفاته - بالقائم بأمر الله.

وقد زادت الأوضاع الداخلية في «دولة البويهيين» في عهده تدهوراً وانحطاطاً، وأصبحت الدولة جسماً بلا روح، فقد استمرت أمور «العراق» في فوضى واضطراب؛ بسبب الصراع بين «جلال الدولة» و «أبي كالجار» على السيطرة عليه، وضعفت مكانة «جلال الدولة»،

(67/3)

ورغم الصلح الذى تم بين «جلال الدولة» و «أبي كالجار» سنة (428هـ = 1037م)، وتأكيدِه بزواج «أبي منصور بن أبي كالجار» من ابنة «جلال الدولة» فإن «أبا كالجار» انتهاز فرصة وفاة «جلال الدولة» سنة (435هـ = 1044م) واستولى على زمام السلطة في «العراق» في (صفر سنة 436هـ = أغسطس سنة 1044م)، بعد إحباطه محاولة الابن الأكبر لجلال الدولة للاستيلاء على الحكم في «بغداد». وأثناء إمارة «أبي كالجار» في «بغداد» استطاع الأتراك السلاجقة أن يسيطروا على أجزاء كبيرة من البلاد الخاضعة للبويهيين، واضطر «أبو كالجار» إلى طلب الصلح مع السلطان السلجوقى «طغرل بك» وزوجه ابنته، كما تزوج «أبو منصور بن أبي كالجار» من ابنة الملك «داود» أخى «طغرل بك»، وأصبحت «الدولة البويهية» معرضة للسقوط في أية لحظة.

وعقب وفاة «أبي كالجار» في (جمادى الأولى سنة 440هـ = أكتوبر سنة 1048م) خلفه على إمارة «العراق» ابنه «أبو نصر خسرو فيروز» الملقب بالملك الرحيم، وكانت فترة إمارته تمثل قمة التردى في أوضاع «الدولة البويهية»؛ حيث دخل في صراع مع إخوته حول السلطة، واستعان بعضهم بالسلاجقة ضد أخيهم «الملك الرحيم»، وأصبح البويهيون تحت سيطرة السلاجقة، وتحدد مصير دولتهم على أيدي هذه القوة الناشئة.

(68/3)

## الفصل السادس

\*عصر نفوذ السلاجقة

[447 - 590هـ = 1055 - 1194م]

السلاجقة أسرة تركية كبيرة، كانت تقيم في بلاد «ما وراء النهر»، وتنسب إلى زعيمها «سلجوق بن ثقاق»، الذى اشتهر بكفاءته الحربية، وكثرة أتباعه.

وقد أسلم «سلجوق» وأتباعه، وخلف من الأولاد «أرسلان» و «ميكائيل» و «موسى»، وكان أبرزهم «ميكائيل»، الذى أنجب «طغرل بك» (محمد) و «جغرى بك» (داود)، اللذين قام عليهما مجد «السلاجقة».

هاجر السلاجقة بزعامة «طغرل بك» وأخيه «جغرى» في الربع الأول من القرن الخامس الهجرى إلى «خراسان» الخاضعة لنفوذ الغزنويين، وبعد سلسلة من الصراخ بين الغزنويين و «السلاجقة»، استطاع «السلاجقة» السيطرة على «خراسان» بعد هزيمة الغزنويين بقيادة السلطان «مسعود بن محمود بن سبكتكين» سنة (431هـ = 1040م) أمام «طغرل بك» وأخيه «جغرى».

وقد ساعد «السلاجقة» على توطيد سلطتهم انتماؤهم إلى المذهب السني، وإعلانهم الولاء والتبعية للخليفة العباسي «القائم بأمر الله»، الذي عين «طغرل بك» نائبًا عنه في «خراسان» وبلاد «ما وراء النهر» وفي كل ما يتم فتحه من البلاد.

وقد استطاع «السلاجقة» توسيع حدود مملكتهم بسرعة هائلة، فاستولى زعيمهم «طغرل بك» على «جرجان» و «طبرستان» سنة (433هـ)، وعلى «خوارزم» و «الري» و «همدان» سنة (434هـ = 1043م) وعلى «أصبهان» سنة (443هـ = 1051م)، وعلى أذربيجان سنة (446هـ = 1054م)، وبدأ يتطلع للسيطرة على «بغداد»، وقد هيات له الأوضاع السائدة في «العراق» تحقيق هذا الهدف.

دخول طغرل بك بغداد سنة (447هـ = 1055م) وسقوط دولة البويهيين: كان القائد التركي المشهور «أبو الحارث أرسلان المظفر بن عبدالله» المعروف بالباسيري، من أكابر العسكريين الأتراك في «بغداد» في أواخر العهد البويهي، وكان يقوم بدور الحاكم العسكري لمدينة «بغداد»، ويعد صاحب النفوذ الأكبر في دار الخلافة، وقد كانت هناك خصومة شديدة بينه وبين «أبي القاسم بن المسلمة» (علي بن الحسن

(69/3)

---

بن أحمد) وزير الخليفة «القائم بأمر الله»، فاتهمه الوزير بالخيانة، واتصاله بالفاطميين في «مصر» لميوله الشيعية، ولما تبين ذلك للخليفة «القائم بأمر الله» خشي أثر موقف «الباسيري» على مستقبل «الخلافة العباسية»، فاتصل بالسلطان السلجوقي «طغرل بك»، وطلب منه القدوم إلى «بغداد» للاستيلاء على السلطة فيها ووضع حد لمحاولات «الباسيري» الخطيرة ولعجز البويهيين عن إدارة شؤون الدولة فاستجاب السلطان السلجوقي وتقدم بجنوده نحو «بغداد»، وأمر الخليفة بأن يُخطب له على منابرها، قبل دخولها في

25) من رمضان سنة 447هـ = نوفمبر سنة 1055م) بثلاثة أيام، وتم القبض على «الملك الرحيم» آخر ملوك البويهيين. أصبح «طغرل بك» (ركن الدين أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق) أول سلاطين «السلجقة» في «بغداد»، ابتداءً من (رمضان 447هـ = نوفمبر 1055م)، وقد استقبله الخليفة «القائم بأمر الله» بكل مظاهر الحفاوة والترحاب، ولقبه «ملك المشرق والمغرب». الخلافة في ظل السلجقة:

رأى «السلجقة» في الخلافة السنية رمزاً دينياً يعبر عن وحدة الأمة الإسلامية وعزتها، ونظروا إلى الخليفة على أنه تجسيد حي لهذا الرمز، فأحاطوه بمالة من التقدير والإكبار، ونعمت «الخلافة العباسية» في ظل نفوذ «السلجقة» بأمرين: الأول: سيادة المذهب السني في أرض الخلافة. والآخر: إحاطة الخلافة بما هي أهل له من إكرام وإجلال؛ فأصبح من حق الخليفة اتخاذ وزير له، ورغم أن وزير السلطان السلجوقي كان بصفة عامة أوسع نفوذاً وأقوى تأثيراً من وزير الخليفة، فإن ذلك لا يقلل من حقيقة التكريم الذي أسبغته «السلجقة» على منصب الخلافة؛ حيث كانت السلطة الفعلية في يد «السلجقة»، وكانت سلطة الخليفة روحية أكثر منها سياسية. فتنة البساسيري ومحاولة إخضاع العراق للنفوذ الفاطمي: عندما دخل «طغرل بك» «بغداد» اضطر «البساسيري» إلى تركها،

(70/3)

---

وبدأ يجمع حوله عددًا من الأنصار الساخطين على الأوضاع في دار الخلافة، واستطاع الاستيلاء على «الموصل» سنة (448هـ = 1056م)، وخطب فيها للخليفة «المستنصر الفاطمي»، ثم مد نفوذه إلى «الكوفة» و «واسط»، وأغرى «إبراهيم ينال» - وهو أخو «طغرل»

لأمه - بالانشقاق على أخيه ليضمن انشغاله عنه بفتنة أخيه.  
وقد أمد «المستنصر الفاطمي» «البساسيري» بما يدعم موقفه  
ويمكنه من مد نفوذه، فاستطاع في (الثامن من ذي القعدة سنة  
450هـ = السابع والعشرين من ديسمبر 1058م) أن يدخل «بغداد»  
بجيوشه، ويخطب فيها للخليفة الفاطمي، وخضعت «بغداد» للخلافة  
الفاطمية بمصر، واضطر الخليفة العباسي «القائم بأمر الله» ووزيره  
«ابن المسلمة» أن يضعوا نفسيهما تحت حماية أحد أعوان  
«البساسيري»، واسمه «قريش بن بدران»، فطلب «البساسيري» من  
«قريش» تسليمه «ابن المسلمة»، فقتله شر قتلة في (أواخر ذي الحجة  
سنة 450هـ = يناير 1059م)، وقام «قريش» بتسليم الخليفة العباسي  
إلى ابن عم له بنواحي «الأنبار» فأواه وقام بجميع ما يحتاج  
إليه مدة سنة كاملة.

وحاول «البساسيري» مد سلطانه على مدن «العراق» ما أمكنه ذلك،  
فاستولى على «البصرة»، وأوشك الأمر أن يستتب للفاطميين  
بالعراق لولا أن «المستنصر» شك في نيات «البساسيري» وحقيقة  
مخططاته، فمنع عنه عونه وتأييده؛ مما كان له أثره السيئ على  
موقفه في مواجهة «طغرل بك»، الذي نجح في القضاء على ثورة  
أخيه «إبراهيم بنّال»، وقبض عليه وقتله في (التاسع من جمادى  
الآخرة سنة 451هـ = يوليو سنة 1059م).

وعندما اقتربت جيوش السلطان السلجوقي «طغرل بك» من «بغداد»  
هرب «البساسيري» في اتجاه «الكوفة» في (6 من ذي القعدة سنة  
451هـ = 14 من ديسمبر 1059م)، وسيطر «طغرل بك» على «بغداد»  
بسهولة، بعد عام كامل من سيطرة «البساسيري» عليها، وأعاد  
الخليفة «القائم بأمر الله» مكرّمًا إلى دار الخلافة في (25 من ذي

القعدة سنة 451هـ = 14 من ديسمبر سنة 1059م) ونجح فرسان  
«طغرل بك» في قتل «الساسيري» في (8 من ذى الحجة سنة  
451هـ = 15 من يناير سنة 1060م)، وبذلك بدأ السلطان السلجوقي  
«طغرل بك» يعمل على توطيد ملك «السلجقة» بالعراق.  
بين طغرل بك والخليفة القائم بأمر الله:

كان «طغرل بك» حريصاً على إبداء كل مظاهر الإجلال والتوقير  
للخليفة، وقد اقتدى به خلفاؤه؛ فعاملوا الخلفاء العباسيين بكل ما  
يليق بمكانتهم من احترام وتعظيم.

يروى المؤرخون أن «طغرل بك» كان غائباً عن «بغداد»، فلما عاد  
إليها سنة (449هـ = 1057م) توجه إلى دار الخلافة، فلما دخل على  
الخليفة قبّل الأرض وجلس على سرير دون سرير الخليفة، فأمره  
الخليفة أن يتقى الله فيما ولاه وأن يجتهد في عمارة البلاد وإصلاح  
العباد ونشر العدل ومنع الظلم، فقام «طغرل بك» وقبّل الأرض وقال:  
«أنا خادم أمير المؤمنين وعبد، ومتصرف على أمره ونهيه،  
ومتشرف بما أهلى له واستخدمني فيه، ومن الله أستمد المعونة  
والتوفيق».

وعندما توجه «طغرل بك» لاستخلاص «العراق» من «الساسيري»  
كان شديد الحرص على سلامة الخليفة.

وقد أراد «طغرل بك» أن يمنح نفسه وأسرته شرفاً فريداً متميزاً،  
وأن يضفى على سلطانه السياسي صبغة روحية، فخطب ابنة الخليفة  
«القائم بأمر الله» سنة (453هـ = 1061م)، فانزعج الخليفة لذلك رغم  
زواجه من «أرسلان خاتون» (واسمها خديجة) ابنة الأمير «داود» أخى  
السلطان «طغرل بك» سنة (448هـ = 1056م)، فلم يحدث أن تزوج  
أحد من خارج البيت العباسي منه، وحاول الخليفة «القائم» رفض هذا  
الزواج، ودافع بكل ما يمكنه في سبيل ذلك، ولكنه اضطر إلى  
الخصوع لضغوط وزير «طغرل بك» «عميد الملك الكندري»؛ فتم العقد  
لطغرل على ابنة الخليفة سنة (454هـ = 1062م) ودخل بها سنة  
(455هـ = 1063م).

الوزير عميد الملك الكندري ومكانته في دولة طغرل بك:  
أثناء حكم «طغرل بك» في «نيسابور» طلب رجلاً متمكناً من اللغة

(72/3)

العربية يكتب له، فدلوه على «عميد الملك الكندري» (أبي نصر محمد بن منصور بن محمد) فلما دخل «طغرل» «بغداد» سنة (447هـ = 1055م) عينه وزيراً له، فكان ساعده الأيمن حتى وفاة «طغرل» سنة (455هـ = 1063م).

ويعتبر «عميد الملك» أحد العوامل المهمة في ازدهار دولة «طغرل بك» بفضل ما كان يتمتع به من حنكة وكفاءة، كما كان سبباً مكن «طغرل بك» من السيطرة على «العراق» ودار الخلافة، وإدخال الخليفة «القائم» ووزرائه وحاشيته في طاعة «السلاجقة» دون إراقة دماء، لما تمتع به «عميد الملك» من نفاذ بصيرته في الأمور، وبُعد نظره، وحسن سياسته، إلى جانب رسوخ قدمه في العلم والأدب. واقترن اسم الوزير عميد الملك باسم «طغرل بك» وأصبح لا يذكر أحدهما دون أن يذكر الآخر.

وفاة طغرل بك وتولى ألب أرسلان:

كان «طغرل بك» من كبار الشخصيات في التاريخ، اتصف بالشجاعة والإقدام، والعقل والحلم، وكان من أشد الناس احتمالاً وأكثرهم كتماناً لسره، كريماً، محافظاً على الصلوات الخمس، ويصوم يومي الإثنين والخميس.

ورغم أن بعض المؤرخين وصفه بالظلم والقسوة، فإن ذلك لا يتفق مع صفاته السابقة التي سجلها له معظم المؤرخين.

وقد أوصى «طغرل بك» بأن يخلفه بعد موته ابن أخيه «سليمان بن داود جغرى»؛ حيث إنه لم يخلف ولدًا، وفي (8 من رمضان سنة 455هـ = سبتمبر سنة 1063م) توفي «طغرل بك» بمدينة «الرى» ببلاد

«الجبل»، وعمره نحو سبعين عامًا، وقد نفذ «عميد الملك الكندري» وصية «طغرل بك»، ولكن الناس كانوا أميل إلى «ألب أرسلان»، فأمر «عميد الملك» بالخطبة له وتم الأمر له بمساعدة وزيره «نظام الملك»، وأصبح سلطان «السلاجقة».

قتل عميد الملك الكندري ووزارة نظام الملك:

عقب تولي «ألب أرسلان» سلطنة «السلاجقة»، أقر «عميد الملك الكندري» وزير عمه «طغرل» في منصبه، ولكنه سرعان ما تغير عليه فعزله في شهر (الحرم سنة 456هـ = ديسمبر سنة 1063م)، وسجنه،

(73/3)

---

ثم دبر قتله في شهر (ذى الحجة سنة 456هـ = نوفمبر سنة 1064م)، ويبدو أن «نظام الملك» لعب دورًا في ذلك.

ويعد عزل «عميد الملك»، عين «ألب أرسلان» «نظام الملك» وزيرًا له، وكان وزيره أثناء إمارته على «خراسان» قبل توليه السلطنة، ويُعدُّ «نظام الملك» أشهر وزراء «السلاجقة» كما يعد من أشهر الوزراء في التاريخ الإسلامي.

وكانت بداية معرفة «نظام الملك» بالسلاجقة حينما اتصل بدادود بن ميكائيل بن سلجوق، والد السلطان «ألب أرسلان»، وأعجب بكفاءته وإخلاصه فسلمه إلى ابنه «ألب أرسلان» وقال له: «اتخذه والدًا ولا تخالفه فيما يشير به».

وقد ظل «نظام الملك» وزيرًا للسلطان «ألب أرسلان» ثم لخليفته «ملكشاه» ما يقرب من ثلاثين عامًا.

ولم يكن «نظام الملك» مجرد وزير لامع، بل كان راعيًا للعلم والأدب محبا لهما، وقد سمع الحديث وقرأه، وكان مجلسه عامرًا بالعلماء والفقهاء والصوفية، مثل إمام الحرمين «أبي المعالي الجويني» و «أبي القاسم القشيري»، كما اهتم «نظام الملك» ببناء المدارس

ووضع أسس قيام نهضة تعليمية رائعة.

اتساع مملكة السلاجقة خلال حكم أربسلان (455 - 465هـ = 1063 - 1073م):

استطاع «ألب أربسلان» أن يوسع حدود مملكة «السلاجقة» التي ورثها عن عمه «طغرل»، وأن يسجل انتصارات رائعة ضد أعدائه في الداخل والخارج، فنجح في القضاء على حركات العصيان في «خراسان» و «ما وراء النهر» و «أذربيجان»، وتمكن من تعزيز الوجود الإسلامي في «أرمينيا»، واستولى على «حلب» وقضى على النفوذ الفاطمي بها. معركة ملاذكرد:

عزم الإمبراطور البيزنطي «رومانوس الرابع» على طرد «السلاجقة» من «أرمينيا» وضمها إلى النفوذ البيزنطي، فأعد جيشاً كبيراً سنة (463هـ = 1071م) يتكون من مائتي ألف مقاتل، وتولّى قيادته بنفسه، وزحف به إلى «أرمينيا»، وعندما علم السلطان «ألب أربسلان» بذلك وهو بأذربيجان لم يستطع أن يجمع من المقاتلين إلا

(74/3)

خمسة عشر ألف فارس، فتقدم بهم إلى لقاء الإمبراطور البيزنطي وجحافلها، والتقت مقدمة جيش السلطان بمقدمة جيش «رومانوس» في «أرمينيا» فهزمتها.

وقد أراد السلطان «ألب أربسلان» استغلال هذا النصر المبدئي فأرسل إلى الإمبراطور «رومانوس» يعرض عليه الصلح، إدراكاً منه لخرج موقفه بسبب قلة جنده، فرفض «رومانوس» الصلح وهدد السلطان بالهزيمة والاستيلاء على ملكه، وقد ألهب هذا التهديد حماس السلطان وجيشه وعزموا على إحراز النصر أو الشهادة، ووقف فقيه السلطان وإمامه «أبو نصر محمد بن عبدالملك البخاري» يقول

للسلطان: «إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله - تعالى - قد كتب باسمك هذا الفتح، فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال، في الساعة التي تكون الخطباء على المنابر، فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر، والدعاء مقرون بالإجابة». فلما جاءت هذه الساعة صلى بهم، وبكى السلطان فبكى الناس لبكائه ودعا ودعوا معه، ولبس البياض وتحنط وقال: إن قُتِلْتُ فهذا كفى!

والتقى جيش السلطان وجيش الإمبراطور في مدينة «ملاذكرد» بأرمينيا، وحمل المسلمون على الروم حملة رجل واحد، وأنزل الله نصره عليهم فانهمز الروم وامتألت الأرض بجتهم، وتمكن المسلمون من أسر إمبراطور الروم «رومانوس»، فأحسن السلطان «ألب أرسلان» معاملته، وأعفاه من القتل مقابل فدية مقدارها مليون ونصف مليون دينار، وعقد معه صلحاً مدته خمسون عاماً، وأطلق سراحه وأرسل معه جنداً أوصلوه إلى بلاده ومعهم راية مكتوب عليها «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

وقد أُنعت معركة «ملاذكرد» النفوذ البيزنطي في «أرمينيا» بصورة مطلقة، وفتحت المجال لامتداد النفوذ الإسلامي السلجوقي إلى «آسيا الصغرى»، وتهديده العاصمة البيزنطية وما وراءها في «أوروبا». وقد حدثت هذه المعركة المظفرة - معركة «ملاذكرد» - في شهر (ذى القعدة سنة 463هـ = أغسطس 1071م).

(75/3)

---

ولا يستطيع الباحثون عن جذور الحروب الصليبية التي حدثت فيما بعد أن يتجاهلوا دور هذه المعركة (ملاذكرد) في تهيئة الظروف التي أدت إلى هذه الحروب.

مقتل ألب أرسلان وانتقال السلطة إلى ابنه ملكشاه:

في أوائل عام (465هـ = 1073م) توجه «ألب أرسلان» إلى بلاد «ما وراء النهر» لتأديب أمير «بخارى» الثائر «شمس الملك نصر»، وبينما هو في طريقه جاءوا إليه بأمير إحدى القلاع، واسمه «يوسف الخوارزمي» مقيداً بسبب عصيانه، وأغلظ «يوسف» القول للسلطان، فطلب «ألب أرسلان» فك قيوده ليقتله بنفسه، ولكن «يوسف» كان أسرع من السلطان فطعنه بخنجر كان معه، فمات السلطان «ألب أرسلان» بعد أيام متأثراً بجراحه في (10 من ربيع الأول سنة 465هـ = أواخر نوفمبر سنة 1072م)، وعمره أربعون أو خمس وأربعون سنة.

وقد كان «ألب أرسلان» - بإجماع المؤرخين - من عظماء سلاطين «السلاجقة»، وكان قائداً عسكرياً من الطراز الأول، وسياسياً محنكاً وحكماً عادلاً، فلم يتجاوز في جمع الأموال من الرعية، وكان كثير الصدقات خاصة في رمضان، باراً بأهله وأصحابه ومماليكه، شهماً ذا مروءة، ولم يكن يسمح للدسائس أن تعرف طريقها إليه، فقد حاول أحد الوشاة مرة أن يفسد ما بينه وبين وزيره «نظام الملك»، فكتب له كتاباً يبين له فيه ما يرتكبه الوزير من مخالفات، وتركه له على مُصلاه فعندما أخذه «ألب أرسلان» وقرأ ما فيه، سلمه إلى «نظام الملك» وقال له: خذ هذا الكتاب، فإن صدقوا في الذي كتبوه، فهذب أخلاقك، وأصلح أحوالك، وإن كذبوا فاغفر لهم زلتهم واشغلهم بمهم يشتغلون به عن السعاية بالناس.

وعقب وفاة «ألب أرسلان» تولى السلطنة ابنه «ملكشاه» بعهد من أبيه، وتولى «نظام الملك» أخذ البيعة له، وأقره الخليفة «القائم بأمر الله» على السلطنة.

استمر نظام الملك في الوزارة واتساع نفوذه في عهد ملكشاه: لم يكتف «ملكشاه» بإقرار «نظام الملك» في الوزارة كما كان في

عهد أبيه، بل زاد على ذلك بأن فوض إليه تدبير المملكة، وقال له: «قد رددت الأمور كلها كبيرها وصغيرها إليك، فأنت الوالد»، ولقبه ألقابًا كثيرة، أشهرها لقب «أتابك»، ومعناه الأمير الوالد، وكان «نظام الملك» أول من أطلق عليه هذا اللقب.

وسبب هذه المكانة الرفيعة التي حظى بها «نظام الملك» عند السلطان «ملكشاه»، أنه هو الذي مهد له الأمور، وقمع المعارضين، فرآه السلطان أهلاً لهذه المكانة.

وفاة الخليفة القائم بأمر الله، وبيعة المقتدى بأمر الله:

تُوِّقِ الخليفة «القائم بأمر الله» في (13 من شعبان سنة 467هـ = 3 من أبريل سنة 1075م) في أوائل سلطنة «ملكشاه»، وعمره يزيد على ستة وسبعين عامًا، وقد استمر في الخلافة نحو خمسٍ وأربعين سنة.

وقد شهدت خلافة «القائم بأمر الله» تدهور «دولة البويهيين» واندثارها، وقيام «دولة السلاجقة» ثم ازدهارها.

وقد أجمع المؤرخون على أن «القائم بأمر الله» كان يتحلى بالأخلاق الحميدة، فقد كان ورعًا دينًا زاهدًا عالمًا، قوى اليقين بالله تعالى، كثير الصبر، مؤثرًا للعدل والإنصاف، قاضيًا لحوائج الناس. وقد كان للقائم بأمر الله ابن وحيد، تُوِّقِ في حياته، هو «أبو العباس محمد» الملقب بالذخيرة وقد ولد للذخيرة بعد وفاته بستة أشهر غلام، اشتد به فرح جده «القائم» وسماه «عبدالله». وعندما تُوِّقِ «القائم» كان «عبدالله» هذا في العشرين من عمره فتولى الخلافة بعد جده في (13 من شعبان سنة 467هـ = 3 من أبريل 1075م)، ولقب بالمقتدى بأمر الله.

الخلفاء العباسيون في العهد السلجوقي:

كان «المقتدى بأمر الله»، أول خليفة يتقلد منصبه في ظل «دولة السلاجقة»، وبذلك يكون الخلفاء الذين تولوا الخلافة في العهد السلجوقي - بعد «القائم بأمر الله» - ثمانية هم:

1 - المقتدى بأمر الله (عبدالله بن محمد بن القائم بأمر الله) [467 - 487 هـ = 1075 - 1094 م].

(77/3)

2 - المستظهر بالله (أبو العباس أحمد بن المقتدى بأمر الله) [487 - 512 هـ = 1094 - 1118 م].

3 - المسترشد بالله (أبو منصور الفضل بن المستظهر) [512 - 529 هـ = 1118 - 1135 م].

4 - الراشد بالله (أبو جعفر المنصور بن المسترشد) [529 - 530 هـ = 1135 - 1136 م].

5 - المقتفى لأمر الله (أبو عبدالله بن محمد بن المستظهر بالله) [532 - 555 هـ = 1138 - 1160 م].

6 - المستنجد بالله (أبوالمظفر يوسف بن المقتفى) [555 - 566 هـ = 1160 - 1170 م].

7 - المستضيء بأمر الله (أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله) [566 - 575 هـ = 1170 - 1179 م].

8 - الناصر لدين الله (أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله) [575 - 622 هـ = 1179 - 1225 م].

وقد شهدت خلافة «الناصر لدين الله» زوال ملك «السلجقة» في سنة (590 هـ = 1194 م) وبداية استقلال الخلفاء العباسيين بالسلطة في «بغداد» وما يحيط بها.

ذروة مجد السلجوقي:

بلغت «الدولة السلجوقية» ذروة مجدها وعظمتها على يد «ملكشاه» الذي استمر في السلطنة عشرين عامًا تقريباً؛ حيث استطاع أن يستثمر ما حققه «طغرل بك» و «ألب أرسلان» على أحسن وجه، فحقق إنجازات عظيمة بمعاونة وزيره «نظام الملك».

وقد تزامنت سلطنة «ملكشاه» - في معظمها - مع خلافة «المقتدى بأمر الله»، الذى تولى منصبه بعد ابتداء حكم «ملكشاه» بعامين، وتُوفِّي بعد وفاته بعامين.

وقد اتسعت حدود «الدولة السلجوقية» في عهد «ملكشاه» اتساعًا غير مسبوق، من حدود الصين إلى آخر «الشام»، ومن أقاصى بلاد الإسلام في الشمال إلى آخر بلاد «اليمن»، وحمل إليه ملوك الروم الجزية.

وترجع عظمة «الدولة السلجوقية» في عهد «ملكشاه» إلى اتساع حدودها وازدهار الحركة الثقافية فيها بصورة جديدة بالإعجاب. وكان لنظام الملك أثر متميز وجهد خلاق في ذلك، على المستوى الإدارى والعسكرى، والثقافى. فاهتم بإنشاء العديد من المدارس التى نسبت إليه في أنحاء الدولة،

(78/3)

---

فسميت بالمدارس النظامية، وكان أشهرها: «نظامية بغداد» التى تحيّر «نظام الملك» مشاهير الفكر والثقافة فى العالم الإسلامى للتدريس فيها مثل: «حجة الإسلام أبى حامد الغزالى» صاحب كتاب «إحياء علوم الدين»، الذى فوض إليه «نظام الملك» مهمة التدريس فى «المدرسة النظامية» ببغداد، ثم فى «المدرسة النظامية» بنيسابور، التى كان إمام الحرمين أبو المعالى الجوينى يقوم بالتدريس فيها. وقد أسهمت هذه المدارس النظامية فى تثبيت قواعد المذهب السنى والدفاع عنه ضد مختلف البدع والأهواء والمذاهب المنحرفة التى انتشرت فى ذلك الوقت.

وقد كان «نظام الملك» مؤلفًا مرموقًا أيضًا، فهو مؤلف كتاب «سياسة نامه» الذى تحدث فيه عن كيفية تدبير شئون الملك، وفضح معتقدات الحشاشين وغيرهم من الخارجين عن الدين.

مقتل نظام الملك ووفاة ملكشاه:

قتل «نظام الملك» في (10 من رمضان سنة 485هـ = 14 من أكتوبر سنة 1092م)، حين تقدم إليه أحد غلمان الباطنية (أو الحشاشين) وهو في ركب السلطان في صورة سائل أو مستغيث، فلما اقترب منه أخرج سكيناً كان يخفيها في طيات ملابسه فطعنه بها طعنات قاتلة. وقد اختلف المؤرخون في بيان السبب الذي أدى إلى مقتل «نظام الملك»، فقيل إن نفوذ «نظام الملك» وأولاده وشيعته تفاقم بصورة مثلت خطراً على السلطان «ملكشاه» فدبر قتله، وقيل إن السبب في ذلك حربه الدائمة ضد المذاهب الهدامة وعلى رأسها مذهب الباطنية أو الحشاشين.

وعقب مقتل «نظام الملك» عين «ملكشاه» «تاج الملك أبا الغنائم الشيرازي» وزيراً، وكان صاحب خزانة السلطان ومعروفاً بحقده على «نظام الملك».

وقد تُوِّفِّي «ملكشاه» بعد وفاة «نظام الملك» بخمسة وثلاثين يوماً في (15 من شوال سنة 485هـ = 18 من نوفمبر سنة 1092م)، فانطوت صفحة من أكثر صفحات التاريخ السلجوقي تألّفاً وعظمة. فقد كان السلطان «ملكشاه» أعظم سلاطين «السلاجقة» وأحسنهم

(79/3)

---

سيرة، وأعد لهم حكماً، منصوراً في حروبه، جواداً يحب الإنفاق في وجوه الخير، لا يبخل بمال على ما ينفع العلم والدين، ومما يروى في ذلك أن أحد كبار حاشيته - وهو «تاج الملك» - أراد أن يفسد العلاقة بينه وبين «نظام الملك»، فذكر له أن الوزير ينفق في كل سنة على أصحاب المدارس والفقهاء والعلماء ثلاثمائة ألف دينار، ولو جهز بهذا المبلغ جيشاً لبلغ باب «القسطنطينية»! فطلب السلطان «ملكشاه» حضور «نظام الملك» وسأله عن حقيقة الأمر فقال له: قد أعطاك الله -

تعالى - وأعطاني بك ما لم يعطه أحدًا من خلقه، أفلا نعوضه عن ذلك  
في حَمَلَةِ دينه وحَفْظَةِ كتابه ثلاثمائة ألف دينار؟! ثم إنك تنفق على  
الجيوش المحاربة في كل سنة أضعاف هذا المال مع أن أقواهم  
وأرماهم لا تبلغ رميته ميلاً، ولا يضرب بسيفه إلا ما قرب منه، وأنا  
أُجيش لك بهذا المال جيشاً تصل من الدعاء سهامه إلى العرش لا  
يجبها شيء عن الله تعالى!! فبكى السلطان وقال: «يا أبت  
استكثر من الجيش، والأموالُ مبدولة لك، والدنيا بين يديك».  
تدهور أوضاع السلاجقة بعد وفاة ملكشاه:  
بدأت مظاهر الضعف تنتشر في جسم «الدولة السلجوقية» عقب وفاة  
«ملكشاه»، فظهر الانقسام والتمزق والفتن، باستثناء فترة حكم  
السلطان «معز الدين سنجر أحمد»؛ حيث شهدت الدولة قوة وصحة  
مؤقتة.

ويوجد عدد من النقاط الأساسية التي لا يمكن إغفالها عند تناول  
تاريخ الفترة التي شهدت تدهور أوضاع «السلاجقة»، وهي:  
أولاً: فروع السلاجقة:  
يتفرع «السلاجقة» إلى خمسة فروع رئيسية هي:  
(أ) السلاجقة العظام:

وهم ستة: «طغرل بك»، و «ألب أرسلان»، و «ملكشاه»، و «ركن الدين  
أبو المظفر بَرْكِيَارُق» (485 - 498هـ = 1092 - 1105م) و «غياث الدين  
أبو شجاع محمد» (498 - 511هـ = 1105 - 1117م)، و «معز الدين  
سنجر أحمد» (511 - 552هـ = 1117 - 1157م).  
ورغم أن مصطلح «السلاجقة العظام» يطلق على هؤلاء الستة، إلا أن

(80/3)

---

الجديرين حقاً بهذا الوصف هم الثلاثة الأول، أما الآخرون فقد خاضوا  
كثيراً من الحروب ضد أبناء بيتهم وعانت الدولة في عهدهم من

عوامل الفرقة والتمزق.

(ب) سلاجقة العراق:

ويطلق هذا المصطلح على أمراء «السلاجقة» الذين سيطروا على «العراق» و «الرى» و «همدان» و «کردستان»، وكان امتداد نفوذهم في هذه المناطق على حساب «السلاجقة العظام»، واستمر نفوذهم من سنة (511هـ = 1117م) إلى سنة (590هـ = 1194م)، حين تمكن الخوارزميون من القضاء على «طغرل الثالث» آخر سلاطينهم.

(ج) سلاجقة كرمان:

وقد بدأ نفوذهم في الجنوب الشرقي لفارس وفي بعض مناطق الوسط سنة (433هـ = 1042م)، قبل دخول «طغرل بك» «بغداد»، واستمر حتى سنة (583هـ = 1187م)، حين قضى التركمان الغز (41) على سلطتهم هناك.

(د) سلاجقة الشام:

وكان نفوذهم في المناطق التي استولى عليها «السلاجقة» من الفاطميين أو الروم في «الجزيرة» و «الشام»، وقد بدأ نفوذهم في هذه المناطق سنة (487هـ = 1094م) وانتهى سنة (511هـ = 1117م) على يد أتابكة «الشام» و «الجزيرة».

(هـ) سلاجقة الروم:

وكان نفوذهم في الأراضى التي استطاع «السلاجقة» الاستيلاء عليها من الروم في «آسيا الصغرى»، وكانت إمارتهم أطول إمارات «السلاجقة» عمرًا؛ حيث بدأت سنة (470هـ = 1077م) واستمرت حتى سنة (700هـ = 1301م) حين استطاع الأتراك العثمانيون القضاء عليها.

ثانيًا: الحروب الصليبية والسلاجقة:

كان اتساع نفوذ «السلاجقة» وتهديده للإمبراطورية البيزنطية و «أوروبا»، خاصة بعد معركة «ملاذكرد»، سببًا في قيام الحروب الصليبية.

فقد عقد البابا «إربان الثاني» مجمع «كليرمونت» في (18 من نوفمبر سنة 1095م = 28 ذى القعدة سنة 488هـ)، وألقى فيه خطابًا

طالب فيه المسيحيين في «أوروبا» بالقيام بحرب دينية (صليبية) تهدف إلى مساعدة إخوانهم المسيحيين في الشرق، وتخليص الأماكن المسيحية من قبضة المسلمين، وطرد «السلاجقة» من «آسيا الصغرى».

(81/3)

وكان من الطبيعي أن يقوم «السلاجقة» بالتصدي لتلك الحروب وحماية العالم الإسلامي من أخطارها، ولكن ذلك لم يحدث بسبب تمزق دولتهم بعد وفاة «ملكشاه»، واشتعال الصراع فيما بينهم للسيطرة على «الشام»؛ مما أدى إلى اضطراب الأمور وإتاحة الفرصة لنجاح الحملة الصليبية الأولى (1096 - 1099 م = 489 - 491 هـ). فقد اكتسح الصليبيون قوات «سلاجقة» الروم في «آسيا الصغرى» بقيادة الحاكم السلجوقي «قلج أرسلان»، ثم تقدموا في اتجاه مدينة «الرهايين»: «الموصل» و «الشام»، فاستولوا عليها وتوجّهوا إلى «أنطاكية» فحاصروها حتى استسلمت وفر أميرها السلجوقي «باغى سيان»، وساروا بعد ذلك إلى «معرة النعمان» التي ينتسب إليها الشاعر المشهور «أبو العلاء المعرى»، فحاصروها حتى استسلم أهلها فقتلوا منهم ما يزيد على مائة ألف، ثم جاء فتح الصليبيين الأكبر بالاستيلاء على «بيت المقدس» في (رمضان سنة 492 هـ = يوليو سنة 1099 م) بعد محاصرته عدة أسابيع، وارتكب فيه الصليبيون مذبحاً تقشعر لها الأبدان؛ حيث قتلوا ما يزيد على سبعين ألفاً منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبّادهم وزهادهم، الذين كانوا يتعبدون بجوار «بيت المقدس».

وقد وقف «السلاجقة» عاجزين أمام طوفان الصليبيين، فقد كانت أوضاع دولتهم تنتقل من سيئ إلى أسوأ، وكانت الخلافة العباسية جسماً بلا روح، ولم يكن وضع الفاطميين في «مصر» يتيح لهم

مواجهة الصليبيين.

وظل الأمر كذلك حتى ولى السلطان «محمود بن محمد بن ملكشاه»  
«عماد الدين زنكى» إمارة «الموصل» والبلاد التابعة لها، فكان ذلك  
فاتحة خير للمسلمين؛ حيث استطاع «عماد الدين زنكى» مد نفوذه  
إلى «الجزيرة» و «الشام»، فاستولى على «حلب» سنة (522هـ =  
1128م)، وعلى «حماة» سنة (523هـ = 1129م)، ونذر نفسه للجهاد  
المقدس ضد الصليبيين، وكان أعظم إنجاز حققه «زنكى» في هذا  
المجال استرداده مدينة «الرها» من الصليبيين في (جمادى الآخرة

(82/3)

سنة 539هـ = ديسمبر سنة 1144م).

وقد أعد «عماد الدين زنكى» أبناءه الثلاثة «نور الدين محمود»،  
و «سيف الدين غازى»، و«قطب الدين مودود» لمواصلة الجهاد المقدس  
ضد الصليبيين.

فاستطاع «نور الدين محمود» الذى خلف أباه على حكم «سوريا»  
سنة (541هـ = 1146م) أن يؤمن فتوحات والده في «الرها»، وأن  
ينزل هزيمة ساحقة بحاكم «الرها» الصليبي «جوسلين»، وتمكن من  
أسره سنة (546هـ = 1151م) كما حقق فتوحات عظيمة في إمارة  
«أنطاكية» وقتل أميرها «ريموند» في (ربيع الأول سنة 544هـ =  
يوليو سنة 1149م).

ويرجع إلى «نور الدين محمود» الفضل في استمرار حركة الجهاد  
الإسلامى ضد الصليبيين ووصولها إلى ذروتها على يد السلطان  
«صلاح الدين الأيوبي» الذى تربي في خدمة «نور الدين محمود»،  
وتشرب على يديه حب الجهاد دفاعاً عن الإسلام، واستطاع أن يفتح  
«مصر» في حياة «نور الدين» لتنضم إلى «الشام» وتتم عملية تطويق  
الصليبيين.

وعقب وفاة «نور الدين محمود» في (شوال سنة 569هـ = إبريل سنة 1174م) أصبح «صلاح الدين الأيوبي» سلطان «مصر» و «الشام»، واستطاع أن يحقق أروع انتصار في تاريخ الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في معركة «حطين» سنة (583هـ = 1187م)؛ حيث استرد المسلمون «بيت المقدس».

ثالثاً: الباطنية والسلاجقة:

«الباطنية» فرقة تجعل الباطن أساساً لفهم أمور الدين ولا تعتمد على الظاهر، وتلجأ إلى تأويل النصوص وتضم هذه الفرقة «القرامطة»، و «الحرّمية»، و «الإسماعيلية»، و «الحشاشين».

وقد ظهرت «حركة الباطنية» في العصر السلجوقي بصورة أقلقت سلاطين «السلاجقة»، واستنفذت الكثير من جهودهم، فقد استطاع زعيمهم «الحسن بن الصباح» الاستيلاء على عدة قلاع حصينة في «فارس»، أشهرها قلعة «ألموت» بنواحي «قزوين»، التي ظلت معقل «الحركة الباطنية» لما يقرب من قرنين من الزمان. وقد حاول «نظام الملك» أن يضع حداً لنفوذ «الباطنية» وأمر

(83/3)

بمطاردتهم في كل مكان، وأرسل جيشاً للاستيلاء على «ألموت» ولكنه قتل في (رمضان سنة 485هـ = أكتوبر سنة 1092م)، ورجح المؤرخون قيام «الباطنية» بقتله.

وقد قام «السلاجقة» بمحاولات متتالية لتصفية قواعد «الباطنية» ومحاصرة نشاطهم، نجح بعضها، وواجه بعضها الفشل.

وكان السلطان «ملكشاه» أول سلاطين «السلاجقة» الذين حاولوا مواجهة خطر «الباطنية»، فأرسل إليهم جيشاً بقيادة «أرسلان طاسن»، ولكنه هزم هزيمة منكرة.

وتعتبر الجهود التي قام بها السلطان «غياث الدين محمد بن ملكشاه»

ضد «الباطنية» أخطر ما واجهته هذه الحركة في عهد «السلاجقة»،  
ففي سنة (500هـ = 1107م) توجه السلطان «محمود» بنفسه إلى  
«أصبهان» لحرب «الباطنية» الذين كانوا يعتصمون بقلعة «شاهدز»  
المنيعة بزعامة «أحمد بن عبد الملك بن عطاش»، وقد نجح السلطان  
«محمد» في الاستيلاء على هذه القلعة وقتل زعيمها «ابن عطاش»  
وكثيراً من «الباطنية» في (ذى القعدة سنة 500هـ = يونيو سنة 1107  
م).

وفي عهد السلطان «معز الدين سنجر» (511 - 552هـ = 1117 -  
1157م) قتل «الباطنية» وزيره «معين الملك أبا نصر أحمد بن الفضل»  
سنة (521هـ = 1127م)، وأدرك السلطان مدى خطورتهم، فاتبع معهم  
سياسة المهادنة.

ورغم وفاة زعيم «الباطنية» «الحسن بن الصباح» سنة (518هـ =  
1124م) فإن «السلاجقة» لم يستطيعوا استرداد قلعة «ألموت» منهم،  
فظلت تحت سيطرتهم حتى استولى عليها المغول سنة (654هـ =  
1256م)، ولم ينحصر نشاط «الإسماعيلية الباطنية» في عهد  
«السلاجقة» في بلاد «فارس»، بل امتد إلى «الشام»، وكانت له  
آثاره المدمرة، واتسع نشاطهم في «حلب» في عهد أميرها  
السلجوقي «رضوان بن تثنش بن ألب أرسلان» (488 - 507هـ = 1095 -  
1113م)، وحينما تصدى لهم أمير دمشق «تاج الملوك بوري بن  
طغتكين» سنة (523هـ = 1129م)، وقتل منهم آلافاً تربصوا به  
وهاجموه سنة (525هـ = 1131م) وجرحوه جراحات خطيرة، تُوفِّي  
متأثراً بها في العام التالي.

(84/3)

---

وكان من أخطر محاولات «الباطنية» لاغتيال خصومهم محاولتهم  
اغتيال السلطان «صلاح الدين الأيوبي» أكثر من مرة فاشلة.

وقد أثرت المتاعب التي أثارها «الباطنية» في وجه «السلاجقة» في قدرتهم على القيام بدور أكثر إيجابية في التعامل مع الصليبيين. وقد ارتبط اسم «الحشاشين» بالباطنية الإسماعيلية في الفترة التي أعقبت استيلاءهم على قلعة «ألموت» سنة (483هـ = 1090م) في أواخر عهد السلطان «ملكشاه»، وحتى سقوط معقلهم في «فارس» و «الشام» على يد المغول، وسبب ذلك أنهم كانوا يطلبون من الذين يتم تكليفهم بالقيام بعمليات الاغتيال تعاطى مادة الحشيش المخدرة حتى يصبحوا أدوات طيعة في أيدي من يستخدموهم لتنفيذ هذه العمليات.

رابعاً: سقوط الخلافة الفاطمية ودخول مصر تحت لواء الخلافة العباسية (567هـ = 1171م):

ظلت «مصر» خاضعة للفاطميين أكثر من قرنين تعاقب خلالها على كرسى الخلافة الفاطمية بمصر أحد عشر خليفة، ابتداءً بالمعز لدين الله وانتهاءً بالعاضد لدين الله، الذي عادت «مصر» في عهده إلى الخلافة العباسية في (المحرم سنة 567هـ = سبتمبر 1171م)، فبعد وفاة الخليفة الفاطمي «الفائز بنصر الله» في رجب سنة (555هـ) تولى «العاضد بالله»، آخر خلفاء الفاطميين، عرش «مصر»، وكان صبياً لم يبلغ الحلم، فأشرف وزيره «طلائع بن رزّيك» الأرمي على تدبير شؤون البلاد، حتى قتل في (رجب سنة 556هـ = يونيو سنة 1161م) بتدبير من حاشية «العاضد» - فتولى الوزارة بعده ابنه «رُزّيك بن طلائع»، الذي قتل أيضاً في سنة (558هـ = 1163م)، على يد أحد منافسيه وهو «شاور بن مجير السعدى» الذي تولى الوزارة بعده.

كان «شاور» انتهازياً سيئ الطبع، خبيثاً سفاكاً للدماء، أساء معاملة الرعية، فثار عليه أحد القادة المشهورين في «مصر» وهو «ضِرغام بن عامر»، واستطاع هزيمته هزيمة ساحقة وكان ذلك بداية الطريق لانتهاك النفوذ الفاطمي في «مصر».

لجأ «شاور» بعد هزيمته إلى السلطان «نور الدين محمود» بالشام، وأطمعه في ملك «مصر»، فأرسل معه حملة للاستيلاء على «مصر» بقيادة «أسد الدين شيركوه بن شاوى الكردي» عم «صلاح الدين الأيوبي»، فدخل «القاهرة» في أواخر (جمادى الآخرة سنة 559هـ = مايو سنة 1164م)، وقتل «ضرغام»، وأعاد «شاور» للوزارة في (رجب سنة 559هـ = مايو سنة 1164م)، إلا أن «شاور» غدر بعهده مع السلطان «نور الدين محمود» وقائده «أسد الدين»، فطلب من «أسد الدين» العودة إلى «الشام» فرفض واتجه إلى مدينة «بليس» واستولى عليها وتحصن بها.

استعان «شاور» بملك «بيت المقدس» الصليبي «أمريك» الذي تسميه المصادر العربية «مُرى»، وشرح له ما قد يتعرض له الفرنج من مخاطر إذا استولى السلطان «نور الدين محمود» على «مصر»، فاستجاب له «أمريك» وتقدم بجيشه نحو «مصر»؛ حيث اتجه مع «شاور» إلى «بليس» لمحاصرة «أسد الدين شيركوه»، إلا أن الأخبار جاءت إلى «أمريك» بأن «نور الدين محمود» انتهز فرصة غيابه عن «فلسطين» فهاجمها واستولى على بعض قلاعها، فاضطر «أمريك» إلى رفع الحصار عن «أسد الدين شيركوه» والتفاوض معه على العودة إلى «الشام»، فتوجه «أسد الدين» إلى «الشام» في ذى الحجة سنة 559هـ = أكتوبر 1164م).

وفي (ربيع الآخر سنة 562هـ = فبراير سنة 1167م) قاد «أسد الدين» حملته الثانية على «مصر»، بعد استئذان السلطان «نور الدين محمود»، فاستنجد «شاور» بالصليبيين وملك «بيت المقدس» «أمريك»، والتقى الطرفان في مكان يسمى «البابن» بنواحي المنيا بصعيد «مصر» في (25 جمادى الآخرة سنة 562هـ = إبريل سنة 1167م)، واستطاع «أسد الدين شيركوه» أن يهزم جيش «أمريك»

و «شاور» رغم قلة جنده، كما استولى على «الإسكندرية» وأتاب عليها ابن أخيه «صلاح الدين»، واستولى على الصعيد. وقد حاول الفرنج انتزاع «الإسكندرية» من «صلاح الدين» فحاصروها

(86/3)

عدة أشهر بلا فائدة، فتم الاتفاق بين الفرنج و «أسد الدين» على تسليم «الإسكندرية» لشاور مقابل حصول «أسد الدين» على خمسين ألف دينار وانسحاب الفرنج من «مصر». وتطورت الأحداث في «مصر» بصورة خطيرة، فقد حاول ملك «بيت المقدس» «أمريك» السيطرة على «مصر» بمعاونة «شاور»، فاستولى على «بلبيس» في (صفر 564هـ = نوفمبر سنة 1168م) وتوجه إلى «القاهرة» وحاصرها، مما دفع الخليفة الفاطمي «العاقد» إلى أن يستغيث بالسلطان «نور الدين محمود»، الذي أرسل إليه حملة بقيادة «أسد الدين شيركوه» ومعه ابن أخيه «صلاح الدين»، فرفع الفرنج الصليبيون حصارهم عن «القاهرة» وتركوا «مصر» قبل وصول جيش «أسد الدين شيركوه»، فأصبح الطريق مهبطاً أمام «أسد الدين»، ودخل «القاهرة» في (7 من ربيع الآخر سنة 564هـ = 8 من يناير 1169م)، وقتل «شاور» بإذن من الخليفة «العاقد» في (17 ربيع الآخر سنة 564هـ = 18 من يناير سنة 1169م) وأصبح «أسد الدين شيركوه» وزيراً للخليفة «العاقد»، وبعد وفاته في (22 من جمادى الآخرة سنة 564هـ) تولى ابن أخيه «صلاح الدين» الوزارة ولقبه «العاقد» بالملك الناصر، فانهى نفوذ الفاطميين الفعلي في «مصر» وأصبحت خلافتهم شكلية فقط. وعقب تولى «صلاح الدين» الوزارة، بدأ يمهّد الأمور للقضاء التام على النظام الفاطمي في «مصر»، فاستقل بالأمر، ومنع الخليفة «العاقد» من التصرف في شئون البلاد، ثم عزل قضاة «مصر»

الشيعة سنة (566هـ = 1171م)، وعين «عبدالمملك بن درباس» من كبار فقهاء الشافعية في منصب «قاضي القضاة»، وأوقف الأذان بحى على خير العمل في ديار «مصر» كلها، وهى العبارة التى تقحمها الشيعة فى صيغة الأذان المعروفة.

وفى (الجمعة الثانية من شهر المحرم سنة 567هـ = سبتمبر سنة 1171م) أمر «صلاح الدين» خطباء «مصر» بقطع الخطبة للعاضد وأن يخطبوا للخليفة العباسى المستضىء، وبذلك سقطت الخلافة الفاطمية

(87/3)

---

فى «مصر»، وخضعت «مصر» مرة ثانية للخلافة العباسية، مما كان له صدى هائل من الفرح والبهجة فى مجتمع أهل السنة فى جميع بقاع العالم الإسلامى.

وقد تُوفى الخليفة «العاضد» فى (العاشر من المحرم سنة 567هـ = 13 من سبتمبر سنة 1171م) بعد قطع الخطبة له وانتهاء خلافته بأيام قليلة.

جدير بالذكر أن «صلاح الدين» كان يحكم «مصر» فى ذلك الوقت نائباً عن السلطان «نور الدين محمود»، الذى كان خاضعاً للخليفة العباسى ببغداد من الناحية الشكلية، وقد تُوفى «نور الدين محمود» فى (11 من شوال سنة 569هـ = أبريل سنة 1174م)، مما مهد الطريق أمام «صلاح الدين» للاستقلال بحكم «مصر»، وضم ممتلكات «نور الدين» فى «الشام» إلى «مصر»؛ حيث قامت «الدولة الأيوبية» التى كانت تدين بالولاء الرسمى للخلافة العباسية.

خامساً: تطور علاقة السلاجقة بالخلفاء العباسيين:

رغم تعدد روابط المصاهرة بين «السلاجقة» والعباسيين واحترام السلطين «السلاجقة» لمنصب الخلافة وإذعانهم له فقد حدث نزاع بين الطرفين فى بعض الأوقات، وصل أحياناً إلى استخدام السيف، فبعد

أن بايع الخليفة «المقتدى» ولده «المستظهر بالله» بولاية العهد، اعترض السلطان «ملكشاه» على ذلك وألزم الخليفة بخلعه وتعيين ابنه الأصغر «جعفر» وليا للعهد؛ لأنه كان ابن بنت السلطان. كما أمر السلطان الخليفة بأن يسلم له «بغداد» وأن يخرج إلى «البصرة»، فشق ذلك على الخليفة ولم ينقذه من ذلك إلا وفاة السلطان. وفي عهد الخليفة «المسترشد بالله» (512 - 529 هـ = 1118 - 1135 م) وابنه «الراشد بالله» (529 - 530 هـ = 1135 - 1136 م) تعرضت العلاقة بين «السلاجقة» والخلفاء إلى أزمة خطيرة انتهت بقتل الأول وخلع الثاني.

سادسًا: ظهور الدولة الخوارزمية وقضاؤها على السلاجقة: نشأت «الدولة الخوارزمية» في ظلال «دولة السلاجقة»، فقد ظهر في عهد «ملكشاه الأول» مملوك تركي اسمه «أنوشتكين»، تمتع بتقدير

(88/3)

خاص في بلاط «السلاجقة»، وبسبب ما كان يتمتع به هذا المملوك من حسن الخلق والشجاعة، فقد ولاه السلطان «ملكشاه» ولاية «خوارزم».

وعندما توفى «أنوشتكين» سنة (490 هـ = 1097 م)، تولى ابنه «محمد» إمارة «خوارزم»، وكان يلقب «قطب الدين»، و «خوارزم شاه» أى أمير «خوارزم»، واستمر في الإمارة ثلاثين عامًا، أسس خلالها «الدولة الخوارزمية».

وعقب وفاة مؤسس «الدولة الخوارزمية» سنة (522 هـ = 1128 م) خلفه في منصبه ابنه «أتسز»، بموافقة السلطان «سنجر»، وتلقب بأبي المظفر علاء الدولة، ورغم أن علاقة «أتسز» بسنجر بدأت طيبة كما كانت في عهد أبيه «محمد»، فإنها لم تلبث أن تدهورت بعد أن أظهر «أتسز» رغبته في الاستقلال عن «السلاجقة»، مما دعا

السلطان «سنجر» إلى مهاجمته وإجباره على الاستسلام، وقد تُوفِّي «أتسز» عام (551هـ = 1156م) قبل وفاة «سنجر» بعام. وقد تميز عهد «أتسز» في «خوارزم» بازدهار الحركة العلمية والفكرية، وارتبط بهذا العهد اسم عالم من أشهر رجال الفكر الإسلامي هو «جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي» صاحب الإنتاج الوافر في علوم التفسير والكلام والنحو واللغة، ومن أشهر مؤلفاته: «الكشاف» في تفسير القرآن الكريم. وتولى سلطنة «خوارزم» بعد «أتسز» ابنه «إيل أرسلان» (تاج الدين أبو الفتح)، الذي استمر في الحكم من سنة (551هـ = 1156م) إلى سنة (567هـ = 1172م)، ثم تولى بعده ابنه الأصغر «سلطان شاه» الذي دخل في صراع مع أخيه الأكبر «علاء الدين تكش» حول السلطة، وانتهى باستيلاء «تكش» على «خوارزم» سنة (568هـ = 1173م).

وتعد فترة حكم «تكش» (568 - 596هـ = 1173 - 1300م) العصر الذهبي للدولة الخوارزمية، فقد استطاع أن يمد حدود إمارته الصغيرة إلى «الهند» و «الخليج الفارسي» جنوبًا، وإلى «الفرات» و «شمال الفولجا» غربًا. ومما أضفى مزيدًا من الأهمية على حكم «تكش» انتصاره على

(89/3)

---

السلطان السلجوقي «طغرل الثالث» (51) (571 - 590هـ = 1175 - 1194م)، في المعركة التي وقعت قرب «الري» والتي انتهت بقتل السلطان السلجوقي وانحيار «دولة السلاجقة» في شهر (ربيع الأول) سنة (590هـ = مارس 1194م). وقد ترتب على ذلك سيطرة «تكش» على معظم البلاد التي كانت خاضعة لنفوذ سلاجقة «العراق»، وأهمها «همدان» و «أصفهان»

و «الرى»، وصارت بلاد «الجيل» أو ما يسمى «العراق العجمى» من أملاك «الدولة الخوارزمية».

وقد حاول الخليفة العباسى «الناصر لدين الله» (أبو العباس أحمد بن المستضىء) أن يضع حداً لأطماع «تكش» ونفوذها، وكان ذلك بداية المرحلة الأخيرة فى العصر العباسى الثانى.

(90/3)

## الفصل السابع

\*عصر ما بعد السلاجقة

[590 - 656هـ = 1194 - 1258م]

تعاقب فى منصب الخلافة فى هذا العصر أربعة خلفاء هم:

- 1 - الناصر لدين الله (590 - 622هـ = 1194 - 1225م).
- 2 - الظاهر بأمر الله (أبو نصر محمد بن الناصر لدين الله) (622 - 623هـ = 1225 - 1226م).
- 3 - المستنصر بالله (أبو جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله) (623 - 640هـ = 1226 - 1242م).
- 4 - المستعصم بالله (أبو أحمد عبدالله بن المستنصر بالله) (640 - 656هـ = 1242 - 1258م).

أما أول هؤلاء الخلفاء - وهو «الناصر لدين الله» - فقد حاول أن يضع حداً لطموح «علاء الدين تكش»، الذى أراد أن يتنازل له الخليفة عن السلطة المدنية فى «بغداد»، وأن يكتفى بالسلطة الاسمية على العالم الإسلامى، فأشعل الخليفة فتيل الصراع بينه وبين سلطان الغور «غياث الدين محمد بن بهاء الدين»، ونشبت بينهما الحرب سنة (594هـ = 1198م) وانتهت بهزيمة «تكش».

ولم يكتفِ الخليفة «الناصر» بالاستعانة بالغوريين لإضعاف نفوذ

الخوازرزميين، بل إنه استعان بالإسماعيلية الباطنية، وطلب من التتار (المغول) مساعدته في القضاء على نفوذ أمراء «خوارزم»، فكان «الناصر» كالمستجير من الرمضاء بالنار؛ حيث قضى التتار على «الدولة الخوارزمية»، وقضوا على «الخلافة العباسية» أيضاً. ظهور المغول والقضاء على الدولة الخوارزمية: المغول اسم أطلقه «جنكيز» على أتباعه، وهم شعب وثيق الصلة بالترك في اللغة والشكل، يقيم في المنطقة الواقعة ما بين «الصين» و «سبيريا الجنوبية» والمنطقة المعروفة اليوم باسم «منغوليا». ويرى بعض الباحثين أن «المغول» كلمة أوسع دلالة من «التتار» الذين يمثلون جزءاً من المغول، ولكن الاستعمال الشائع الآن يسوى بين الكلمتين في الدلالة. وقد كان المغول قبائل صغيرة تعيش في فقر وانحطاط، واستطاع «جنكيز خان» في أواخر القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) أن يوحد هذه القبائل لتصبح «منغوليا» كلها تحت سلطانه

(91/3)

---

سنة (603هـ = 1206م)، وقد تلقب منذ ذلك الحين بلقب «إمبراطور»، وعرف باسم «جنكيز خان» بدلاً من اسمه الأصلي «تموین» أو «تيمورئى».

وقد استطاع «جنكيز خان» تكوين إمبراطورية شاسعة، ففي سنة (612هـ = 1215م) استولى على «بكين» وفي ذى الحجة سنة (616هـ = 1219م) استولى على مدينة «بخارى» عاصمة «ما وراء النهر» وأشعل فيها النار، فحوّلها إلى كومة رماد، وقتل من أهلها ثلاثين ألفاً.

وفي (10 من المحرم سنة 617هـ = 17 من مارس سنة 1220م) استولى على «سمرقند»؛ فسوّاها بالأرض بعد أن قتل أهلها بلا رحمة.

وفي (شوال سنة 617هـ = نوفمبر سنة 1220م) تُوفِّي السلطان «علاء الدين محمد بن تكش» بعد أن استبد به الغم بسبب سقوط «ما وراء النهر» في يد المغول واقتراهم من «خوارزم»، فتولى بعده ابنه «جلال الدين منكبردي»، الذي يعرف عادة باسم «جلال الدين منكبرتي»، وهو آخر سلاطين «خوارزم».

وفي أوائل عهد «جلال الدين» سنة (618هـ = 1221م) استولى المغول على «خوارزم» بعد حصار دام خمسة أشهر، وسقطت بذلك «الدولة الخوارزمية» ببلاد «ما وراء النهر»، وفر السلطان «جلال الدين» متنقلاً في عدة بلاد حتى قتله جماعة من الأكراد الناقمين بإحدى قرى «ميفارفين»، في منتصف (شوال سنة 628هـ = أغسطس سنة 1231م)، ففقد المسلمون بطلاً كانوا يطمعون في توحيد صفوفهم تحت لوائه لإيقاف طوفان المغول الجارف.

وقد تُوفِّي الخليفة «الناصر» في أواخر (رمضان سنة 622هـ = سبتمبر 1225م) وعمره نحو سبعين عامًا، بعد أن استمر في الحكم سبعة وأربعين عامًا. وقد شهدت خلافته سقوط «دولة السلاجقة»، وظهور قوة المغول، وإسقاطهم «الدولة الخوارزمية»، وتهديدهم للعالم الإسلامي كله، وكانت الخلافة العباسية قد فقدت معظم أرضها ولم تعد كلمة الخليفة مسموعة إلا في بعض «العراق»؛ فأصبحت الخلافة شكلاً بلا مضمون ووقفت عاجزة أمام هذه الأحداث التي زلزلت كيان الأمة الإسلامية كلها.

(92/3)

---

وقد تولى الخلافة بعد «الناصر» ابنه «أبو نصر محمد» الملقب بالظاهر بأمر الله، وكان حسن السيرة، عادلاً، لكن خلافته لم تطل، فقد تُوفِّي في (14 من رجب سنة 623هـ = 11 من يوليو سنة 1226م)، فلم يدم في الخلافة عامًا.

وتولى الخلافة بعد الظاهر بأمر الله ابنه «أبو جعفر المنصور» الملقب بالمستنصر بالله، فسار على طريقة أبيه في العدل والإحسان وتقريب أهل العلم والدين، وقمع المتمردين، ولكن الظروف القاسية التي أحاطت بالخلافة في ذلك الوقت قيدت الخلفاء وشلت قدرتهم على العطاء، فقد تصاعد خطر المغول في خلافة «المستنصر بالله» (623 - 640هـ = 1226 - 1242م)، وأصبح على أبواب «العراق»، حيث تعرضت «الجزيرة» في شمال «العراق» لهجمات المغول المدمرة. وقد اجتمع على المسلمين في هذه الفترة الخطر المغولي القادم من الشرق، والخطر الصليبي القادم من الشمال، وانشقاق البيت الأيوبي على نفسه عقب وفاة «صلاح الدين الأيوبي»، ولم يستطع الخليفة «المستنصر» أن يفعل شيئاً لعدم قدرته على ذلك. وبعد وفاة الخليفة «المستنصر» في (جمادى الآخرة سنة 640هـ = نوفمبر سنة 1242م) تمت البيعة لابنه «أبي أحمد عبدالله» الملقب بالمستعصم بالله، وهو آخر الخلفاء العباسيين في «العراق»، وكان عمره حينئذٍ ثلاثين عامًا. ورغم أن «المستعصم بالله» كان موصوفًا بالصلاح والتمسك بالسنة فإنه لم يكن كأبيه «المستنصر» أو جده «الناصر» في التيقظ والحزم وعلو الهمة. ومما زاد الموقف سوءًا استعانتته منذ سنة (642هـ = 1244م) بوزير غير ثقة هو مؤيد الدين «أبو طالب محمد بن أحمد العلقمي»، الذي وصفه المؤرخون بأنه كان رافضيا خبيثًا حريصًا على زوال «الدولة العباسية»، ونقل الخلافة إلى العلويين، ويقال إنه راسل المغول وأطمعهم في القدوم إلى «بغداد»، حتى ينجو من القتل عندما يدخلونها. وقد شهدت خلافة «المستعصم» حدثًا خطيرًا كانت له آثاره البعيدة

في التاريخ الإسلامي هو انتهاء حكم «الأسرة الأيوبية» في «مصر»  
وبداية حكم المماليك، سنة (648هـ = 1250م)، وكان الملك المعظم  
«توران شاه» آخر حكام الأيوبيين في «مصر»، ولم يستمر حكمه  
شهرًا، فقد تولى الحكم في أول شهر (المحرم سنة 648هـ = منتصف  
إبريل سنة 1250م)، وقتل في السابع والعشرين من الشهر نفسه  
بتدبير زوجة أبيه «الملك الصالح» المعروفة باسم «شجرة الدر» التي  
تولت الحكم بعده وتزوجت «عزالدين أيك التركماني»، أحد مماليك  
زوجها الراحل «نجم الدين أيوب»، ثم خلعت نفسها من الحكم بعد  
ثلاثة أشهر هي صفر وربيع الأول وربيع الثاني من عام (648هـ =  
1250م)، وتولى زوجها «المعز أيك» حكم «مصر»، وكان ذلك بداية  
العصر المملوكي في «مصر».

وقد استمر الملك «عزالدين أيك» في حكم «مصر» سبع سنوات، ثم  
قُتل في الثالث والعشرين من شهر (ربيع الأول سنة 655هـ = 10 من  
إبريل سنة 1257م) بتدبير زوجته «شجرة الدر»، حين أراد الزواج  
عليها، فتولى الحكم بعده ابنه «الملك المنصور نور الدين علي ابن  
أيك»، وكان صبيا في الخامسة عشرة من عمره، لا يحسن تدبير  
الأمر، فتم خلع بعد ولايته بنحو سنتين وثمانية أشهر في (17 من  
ذي القعدة سنة 657هـ = 5 من نوفمبر سنة 1259م)، وتولى زمام  
السلطة بعده «الملك المظفر سيف الدين قطز»، الذي كان له شأن  
كبير في الجهاد الإسلامي ضد المغول.

سقوط بغداد في يد المغول وانتهاء الخلافة العباسية في العراق

[656هـ = 1258م]:

تصاعد خطر المغول في خلافة «المستعصم بالله»، وخرج قائدهم  
«هولاكو» (61) - حفيد «جنكيزخان» - على رأس جيش يبلغ تعداداه  
مائتي ألف قاصدًا «العراق»، وأرسل إلى الخليفة «المستعصم»  
يطالبه بالاستسلام والدخول في طاعته، لكن الخليفة أرسل بعض  
الهدايا لهولاكو.

وقد وصل جيش «هولاكو» إلى «بغداد» في شهر (المحرم سنة 656هـ = يناير سنة 1258م) وأحاط بعاصمة الخلافة، وكان جيش «بغداد»

(94/3)

قليل العدد لا يبلغ عشرة آلاف فارس، بعد أن كان مائة ألف في عهد الخليفة «المستنصر»، ولم يصمد جيش «بغداد» طويلاً في مواجهة المغول، فافتحمت قوات «هولاكو» «بغداد» في (10 من المحرم سنة 656هـ = 17 من يناير سنة 1258م)، وقبض «هولاكو» على الخليفة «المستعصم» وأهل بيته، بتدبير من وزيره الخائن «ابن العلقمي»، كما تم القبض على عدد كبير من علماء «بغداد» وأعيانها وأمرائها، وتم قتلهم جميعاً، واستمر القتال في «بغداد» أربعين يوماً، وبلغ عدد القتلى أكثر من مليون شخص، وكانت بلية لم يُصب الإسلام بمثلهما.

وهكذا أسقط المغول «الخلافة العباسية» في «بغداد» سنة (656هـ = 1258م)، بعد أكثر من خمسة قرون من قيامها سنة (132هـ = 749م)، وقد ظن المغول أن سقوط الخلافة العباسية قد مهد الطريق أمامهم لاكتساح العالم الإسلامي ولكن آمالهم تحطمت على صخرة الجهاد الباسل في معركة «عين جالوت» بفلسطين في رمضان سنة (658هـ = 1260م)، بقيادة سلطان «مصر» المملوكي «قطز»، مما مهد الطريق لإحياء الخلافة العباسية في «مصر» على يد السلطان «الظاهر بيبرس» سنة (659هـ = 1261م).

(95/3)

\*الأوضاع الحضارية في العصر العباسي الثاني:

رغم المشاكل السياسية العديدة التي شهدتها دولة الخلافة العباسية في عصرها الثاني فإن اللافت للنظر أن هذه الحقبة تعدّ أخصب عصور التاريخ الإسلامي في عطائها الحضارى المتعدد الجوانب. وسنكتفى هنا بتقديم نبذة مختصرة عن أهم هذه الجوانب:

#### 1 - الجانب الثقافى:

نشطت حركة التأليف في فروع العلم المختلفة نشاطاً ملحوظاً طوال هذه الفترة وقدمت دولة الخلافة المتزامية الأطراف علماء أفذاذاً يعترف لهم العالم كله - حتى يومنا هذا - بالفضل والمكانة. ففي مجال علوم الحديث: يتألق اسم عمدة الخدّين الإمام البخارى المتوفى سنة (256هـ = 870م) هذا بالإضافة إلى مجموعة أخرى من أعلام الخدّين لعل أبرزهم الإمام مسلم المتوفى سنة (261هـ = 875م)، وأبو داود المتوفى سنة (275هـ = 888م)، وابن ماجه المتوفى سنة (273هـ = 886م)، والترمذى المتوفى سنة (279هـ = 892م)، والنسائى المتوفى سنة (303هـ = 915م)، وهؤلاء هم أصحاب الصحاح المعروفون.

وقد برز من غير أصحاب الصحاح أيضاً عدد من أئمة الخدّين، من أمثال داود الظاهرى المتوفى سنة (270هـ = 883م) وأبى الحسن الدارقطنى المتوفى سنة (385هـ = 995م)، الذى يصفه ابن كثير بأنه كان «فريد عصره ونسيج وحده وإمام دهره في أسماء الرجال وصناعة التعليل والجرح والتعديل وحسن التصنيف والتأليف واتساع الرواية والاطلاع التام في الدراية». ومن هؤلاء أيضاً الحاكم النيسابورى المتوفى سنة (405هـ = 1014م)، وقد عرف عنه أنه كان من أهل الدين والأمانة والصيانة والضبط والتجرد والورع، سمع الكثير وطاف الآفاق وصنف الكتب الكبار والصغار.

وفي مجال العلوم اللغوية وجدنا أعلاماً ناهجين يضيق عنهم الحصر، ومن هؤلاء محمد بن يزيد المبرّد صاحب الكامل المتوفى سنة (285هـ = 898م)، وقد كان إمام النحاة في عصره، ومن النحاة المشهورين

أيضاً الرَّجَّاح المتوفى سنة (311هـ = 923م)، وقد احتل عالم اللغة الشهير أبو علي الفارسي (المتوفى ببغداد سنة 377هـ = 987م) مكانة متميزة في بلاط الملك البويهى «عضد الدولة». وقد صنف الفارسي لعضد الدولة كتاب «الإيضاح» و «التكملة» في النحو، وكان عضد الدولة يغدق عليه العطاء ويحيطه بمظاهر التكريم، وكان يقول: «أنا غلام أبي علي في النحو» وممن عاصروا الفارسي من أعلام اللغة أبو سعيد السيرافي المتوفى ببغداد سنة (368هـ = 979م)، وقد ولى القضاء ببغداد. وكان السيرافي من أعلم الناس بنحو البصريين، ومن بين مؤلفاته كتاب «أخبار النحويين البصريين» وكتاب «الوقف والابتداء». يقول عنه ابن خلكان: «كان الناس يشتغلون عليه بعدة فنون: القرآن الكريم والقراءات وعلوم القرآن والنحو واللغة والفقه والفرائض والحساب والكلام والشعر والعروض والقوافي».

ويبرز أيضاً من بين علماء اللغة في القرن (4هـ = 10م) ابن فارس (أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا) المتوفى سنة (390هـ = 1000م) على أشهر الأقوال. ومن كتبه الذائعة الصيت كتاب «المجمل» في اللغة. وقد كان ابن فارس مقيماً بمزدان، وله رسائل أدبية أنيقة وأشعار رقيقة.

على أننا لا نستطيع في هذا السياق أن نغفل اسم عالم يُعدُّ من أعظم علماء اللغة، لا في العصر العباسي الثاني فحسب؛ بل على امتداد العصور الإسلامية كلها، وهو «أبو الفتح عثمان بن جني» الذي ولد بالموصل وتوفى ببغداد سنة (392هـ = 1002م). ومن بين كتبه الذائعة الشهرة الزاخرة بالقيمة في مجال اللغة كتاب «الخصائص».

وله أيضاً «سر صناعة الإعراب»، و «المذكر والمؤنث»، و «المقصود والممدود»، و «واللمع» وغير ذلك. وقد شرح ابن جني ديوان المتنبي

وكان من المعجبين بشعره. وكان ابن جني صاحب حس أدبي مرهف،  
وقد انعكس ذلك على كتاباته العلمية التي اتسم أسلوبها بالجمال  
الأخاذ فضلاً عن الدقة البالغة.

(97/3)

وفي مجال الأدب - إبداعاً وتأليفاً - شهد هذا العصر نهضة تأخذ  
بالألبياب، فقد لمع فيه كوكبة من أعظم شعراء العربية، نذكر منهم -  
على سبيل المثال لا الحصر - البحترى شاعر الخليفة المتوكل المتوفى  
سنة (284هـ = 897م)، وقد اشتهر بلغته الموسيقية العذبة ووصفه  
الرائع؛ وابن الرومي المتوفى سنة (283هـ = 896م)، وقد اشتهر  
بقدرته على توليد المعاني وابتكار الصور المعبرة؛ والمتنبى  
المتوفى سنة (354هـ = 965م) الذي مازال يحتل مكان السبق بين  
شعراء العربية قديماً وحديثاً، وقد خصَّ سيف الدولة الحمداني بعيون  
مدائح، كما مدح الملك البويهى عضد الدولة، وأمير مصر كافور  
الإخشيدى وغير هؤلاء من أعيان عصره، ومن أبرز شعراء هذا العصر  
أيضاً: الشريف الرضى الذى ينتهى نسبه إلى الحسين بن على بن  
أبى طالب، كان وثيق الصلة بالخليفة القادر بالله (381 - 422هـ =  
991 - 1031م)، وتوفى ببغداد سنة (406هـ = 1015م)، وعَدَّه بعض  
النقاد أشعر قريش. يقول عنه الثعالبي في يتيمة الدهر: «هو أشعر  
الطالبيين من مضى منهم ومن غير، على كثرة شعرائهم المفلقين، ولو  
قلت إنه أشعر قريش لم أبعده عن الصدق، وسيشهد بما أخبر به شاهد  
عدل، من شعره العالى القَدْح الممتنع عن القَدْح، الذى يجمع إلى  
السلاسة متانة وإلى السهولة رصانة، ويشتمل على معانٍ يقرب  
جناها ويبعد مداها».

ويحتل الشاعر الفيلسوف أبو العلاء المعرى مكانة مرموقة بين  
شعراء هذا العصر، وقد ولد في عام (363هـ = 974م) في معرة

النعمان، وهي بلدة صغيرة في شمالي الشام بين حلب وحمص وتوفي في سنة (449 هـ = 1057م)، أى أنه عاش في فترة النفوذ البويهى وعاصر من خلفاء العباسيين الطائع لله والقادر بالله والقائم بأمر الله، ولأبي العلاء ديوان «سقط الزند» و «لزوم ما لا يلزم» المشهور باسم «اللزوميات»، وسمى بذلك لأنه ألزم نفسه فيه بما لا تفرضه عليه أصول القافية مما يدل على سعة باعه في اللغة. ويُعدُّ

(98/3)

أبو العلاء إمام الشعراء الذين صبغوا شعرهم بصبغة تأملية فلسفية. ويجانب أصحاب الإبداع الشعري ظهر مبدعون كثيرون في ميدان النثر الفنى في العصر العباسى الثانى، ففى مطلع هذا العصر لمع اسم الجاحظ (أبى عثمان عمرو بن بحر) المتوفى بالبصرة سنة (255 هـ = 869م). والجاحظ إمام المنشئين فى تاريخ الأدب العربى بلا جدال.

كان على مذهب المعتزلة وكان موسوعى الثقافة متجدد الفكر، وقد ترك أسلوبه بصمات واضحة على أساليب كثير ممن جاءوا بعده، ومؤلفات الجاحظ عديدة وذائعة، تنم عن ذهن ناضج وفكر متدقق، ومن أشهر كتبه: كتاب «الحيوان» و «البيان والتبيين» و «البخلاء». وله رسائل مختلفة طبعت تحت اسم «رسائل الجاحظ»، وهى تتناول موضوعات شتى.

ومن أبرز الذين تأثروا بالجاحظ وحاولوا أن ينهجوا نهجه أبو الفضل محمد بن العميد المتوفى سنة (360 هـ = 971م)، ولتمكنه فى فن الإنشاء عرف باسم «الجاحظ الثانى»، وهو الذى قيلت فيه العبارة المشهورة: «بدئت الكتابة بعبداحميد وختمت بابن العميد»، وعبداحميد هنا هو: عبداحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، عاش ابن العميد فى ظل البويهيين وعمل وزيراً لركن الدولة

- الحسن بن بويه - وكان - كما يصفه ابن خلكان - «متوسعاً في علوم الفلسفة والنجوم، وأما الأدب والترسل فلم يقاربه فيه أحد في زمانه». ويصفه ابن الأثير بأنه كان من محاسن الدنيا، قد اجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره من حسن التدبير وسياسة الملك، والكتابة التي أتى فيها بكل بديع». وقد صحب ابن العميد وتأثر به في طرائقه «أبو القاسم إسماعيل بن عباد» المعروف بالصاحب بن عباد. ولقب بالصاحب لصحبته لابن العميد، وكان يقال له أحياناً صاحب ابن العميد. وقد تولى الصاحب بن عباد الوزارة لمؤيد الدولة بن ركن الدولة ثم لأخيه فخر الدولة، وفضلاً عن براعة الصاحب في فن الإنشاء - كأستاذه ابن العميد - فقد

(99/3)

كان محباً للعلم ذواقة للأدب، كما كان شاعراً جيد النظم. والجدير بالذكر هنا أن كلا من ابن العميد والصاحب بن عباد كان له مجلس يجفل بوجوه الشعراء والعلماء والمفكرين، وكان من بين المترددين على مجلس ابن العميد أبو الطيب المتنبى شاعر العربية الأكبر، وقد مدحه بقصيدة من عيون شعره، وتوفي الصاحب بن عباد بمدينة الري في سنة (385هـ = 995م). ومن الذين تميزوا في مجال النشر الفني بديع الزمان الهمداني (وهو أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى) الذي سكن هراة من بلاد خراسان وتوفي بها في سنة (398هـ = 1008م) وكان ذلك في خلافة القادر بالله. وقد كتب بديع الزمان مقاماته الذائعة الصيت وأبدع فيها، وهو أول من استوى على يده هذا الفن في اللغة العربية. وقد حذا حذوه ووصل بهذا الفن إلى مداه «أبو محمد القاسم بن علي الحريري البصري» الذي اعترف في صدر مقاماته بأنه جعل مقامات البديع مثلاً له. وقد توفي الحريري في حدود سنة (516هـ = 1122م)

بالبصرة إبان فترة نفوذ السلاجقة، وذلك في خلافة المسترشد بالله.  
والملاحظ أن شهرة مقامات الحريري بلغت من الانتشار حداً تتضاءل  
بجانبه شهرة مقامات الرائد الأول بديع الزمان. وتكشف مقامات  
الحريري عن البراعة الكبيرة لصاحبها في التصرف في اللغة  
وتطويعها لما يريده من معان وأفكار، وهي إحدى الوسائل المهمة  
لمن يبحثون عن إثراء ملكاتهم اللغوية.  
وبجانب الإبداع الأدبي شعراً ونثراً تميز العصر العباسي الثاني  
بظهور الكثير من الموسوعات الأدبية التي تُعدّ مراجع أساسية لطلاب  
المعرفة في هذا المجال، ونكتفي هنا بذكر أمثلة لأبرز هذه  
الموسوعات، وقد لمع في هذا الجانب ابن قتيبة الدينوري (أبو محمد  
عبدالله بن مسلم) الذي ولد بالكوفة وتثقف بها وسكن بغداد زمناً  
ولكنه نسب إلى الدينور لأنه تولى قضاءها، وقد توفي ابن قتيبة  
في سنة (276هـ = 889م) في خلافة المعتمد على الله، وقد خلف لنا

(100/3)

---

ابن قتيبة عدداً من الموسوعات الأدبية المهمة يأتي على رأسها كتاب  
«عيون الأخبار»، وكتاب «الشعر والشعراء»، ومن كتبه الأدبية المهمة  
أيضاً كتاب «أدب الكاتب» الذي يتحدث فيه عما يحتاج إليه الأديب من  
فنون المعرفة ليمارس صناعة الكتابة على الوجه الأمثل.  
ويُعدُّ أبو الفرج الأصفهاني أبرز أصحاب الموسوعات الأدبية في هذا  
العصر. وقد كان ملازماً للوزير المشهور أبي محمد حسن بن محمد  
المُهَلَّبِي وزير معز الدولة أحمد بن بويه، وكان المهلبى بصحبة معز  
الدولة عند انتقاله إلى بغداد، كما ذكرنا ذلك في موضعه، ومما  
يحفظه التاريخ للمهلبى أنه كان محباً للأدب مقرباً لأهله، وكان يعرف  
لدوى القرائح الجيدة أقدارهم ويغدق عليهم من كرمه ورعايته، ومن  
هنا قرب أبا الفرج الأصفهاني ورعى مكانته. ولاشك أن موسوعة

«الأغاني» للأصفهاني تعد من أهم الموسوعات الأدبية وأكثرها انتشاراً وشمولاً فيما يختص بتاريخ الأدب العربي والثقافة العربية حتى نحو منتصف القرن الرابع الهجري. وقد توفي أبو الفرج الأصفهاني في سنة (356هـ = 967م).  
ويتميز أيضاً بين أصحاب الموسوعات الأدبية «أبو منصور الثعالبي» (وهو عبد الملك بن محمد بن إسماعيل)، ولد بنيسابور في سنة (350هـ = 961م)، وتوفي في سنة (429هـ = 1038م)، أى أنه عاش حياته كلها في فترة نفوذ البويهيين، وشهدت فترة تفتحه الأدبي خلافة الطائع لله والقادر بالله، وتوفي في خلافة القائم بأمر الله، وكان الثعالبي غزير الإنتاج متنوع الاهتمامات العلمية، ولكن يقف على رأس مؤلفاته جميعاً كتابه الموسوعى الضخم «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر»، وهو أكبر كتبه وأحسنها وأجمعها كما يقول ابن خلكان، وهو من أربعة مجلدات صرف فيها جل اهتمامه لشعراء القرن (4هـ = 10م) ورتبهم على أوطانهم، فقد تناول في أبواب خاصة شعراء الشام ومصر والمغرب والموصل والبصرة وبغداد وأصفهان والجل وفارس والأهواز وجرجان، وتحدث عن الدولة

(101/3)

---

السامانية وشعرائها وعن خوارزم، وتحدث أيضاً عن بني بويه وشعرائهم وكتابهم، وأسهب في الحديث عن ابن العميد والصاحب بن عباد، كما تحدث عن بلاط سيف الدولة وشعرائه وكتابه، ولاشك أن يتيمة الدهر تعد إحدى الموسوعات الأدبية الأساسية في تاريخ الأدب العربي، ولا تزال حتى يومنا هذا مصدراً لا غنى عنه للباحثين في الحياة الأدبية في القرن (4هـ = 10م).  
ولم تكن أنشطة البحث التاريخي بأقل حظاً من الأنشطة الأدبية في دولة الخلافة العباسية في عصرها الثاني، وهذا مجال يطول فيه

الكلام ويتشعب، ولا سبيل إلى استقصاء الحديث فيه، ولكننا نكتفى بتقديم بعض النماذج لأبرز المؤرخين وأهم أعمالهم التاريخية، ويقف شامخاً بين أعلام المؤرخين في صدر العصر العباسي الثاني أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة (310هـ = 922م) في خلافة المقتدر بالله، وقد عاش الطبري في فترة التحول المهمة التي انتقلت فيها الخلافة العباسية من عصرها الأول-عصر القوة السياسية المركزية - إلى عصرها الثاني الذي بدأت فيه السلطة المركزية تضعف ضعفاً ملحوظاً، وهكذا شهد الطبري معظم عصر نفوذ الأتراك، وقد ولد في آمل بطبرستان في سنة (224هـ = 839م) وأخذته الرحلة في طلب العلم إلى كثير من بقاع العالم الإسلامي كالعراق والشام ومصر، ثم استقر به المقام أخيراً في بغداد وبها مات ودفن، وقد ترك لنا الطبري موسوعته التاريخية الذائعة الصيت وهي: «تاريخ الأمم والملوك» المشهورة باسم «تاريخ الطبري»، في عشرة مجلدات، وتناول الطبري في هذه الموسوعة الضخمة تاريخ ما قبل الإسلام منذ بدء الخليقة بقدر من الاختصار في المجلد الأول وبعض الثاني، ثم جاء علاجه المفصل للأحداث منذ بدأ يتناول سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وسيرة الخلفاء الراشدين، وما تلا ذلك من تاريخ الدولة الأموية والعباسية حتى عصره، وقد توقف الطبري بتاريخه عند أحداث سنة

(102/3)

---

(302هـ = 914م) في خلافة المقتدر، وتاريخ الطبري منجم غني بالمعلومات حافل بالروايات المختلفة التي تقدم المادة الأساسية للباحث، وهناك إجماع في الشرق والغرب على أن هذا التاريخ يعدُّ عمدة الباحثين في التاريخ الإسلامي في القرون الثلاثة الأولى للهجرة.

ومن أعلام المؤرخين الذين ظهوروا في القرن (3هـ = 9م) أيضاً - بجانب

الطبرى - ابن قتيبة (عبدالله بن مسلم) المتوفى سنة (276هـ = 889م).  
وقد أشرنا إليه قبل ذلك عند حديثنا عن الموسوعات الأدبية، ومن  
أبرز الأعمال التاريخية التي تركها لنا ابن قتيبة كتاب «المعارف»،  
وينسب إليه أيضاً كتاب «الإمامة والسياسة».  
كما ظهر اليعقوبى أيضاً، وهو أحمد بن أبي يعقوب ابن واضح  
المتوفى نحو سنة (278هـ = 891م)، وكتابه المعروف بـ «تاريخ  
اليعقوبى» من المصادر التاريخية الأساسية في تلك الفترة، وهو يقع  
في مجلدين، يتناول المجلد الأول التاريخ القديم حتى ظهور الإسلام،  
ويتناول الثاني تاريخ الإسلام حتى سنة (259هـ = 873م) فهو يغطي  
ثلاث سنين من خلافة المعتمد على الله، وبجانب التأليف التاريخي  
ألف اليعقوبى في الجغرافيا كتاباً ذائعاً هو «البلدان» الذى يعد من  
أقدم مصنفات التراث الجغرافى العربى.  
وقد برز أيضاً من مؤرخى تلك الفترة - وهى فترة نفوذ الأتراك في  
العصر العباسى الثانى - أحمد بن يحيى البلاذرى وأبو حنيفة  
الدينورى. أما البلاذرى فقد كان مقرباً للخليفين المتوكل  
والمستعين، وتوفى في حدود سنة (279هـ = 892م)، ويعد كتابه  
«فتوح البلدان» من أوثق الكتب التى تحدثت عن تاريخ الفتح  
الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى عصره، وهو يتميز بدقته في  
الأسلوب وموضوعيته في العرض والبعد عن الحشو، وهو من بين  
المصادر التى تحتل قيمة خاصة في هذا الجانب، وللبلاذرى كتاب آخر  
معروف هو «أنساب الأشراف»، وهو يقدم مادة تاريخية غزيرة في  
صدر الإسلام والعصر الأموى والعباسى الأول من خلال أنساب الرجال

(103/3)

الذين يتناولهم بالبحث.

أما أبو حنيفة الدينورى المتوفى سنة (282هـ = 895م) فقد كان

موسوعى المعرفة، برع فى علوم كثيرة كالتحو واللغة والهندسة والفلك وغير ذلك، ولكن الكتاب الذى اشتهر به الدينورى هو كتابه التاريخى المعروف باسم «الأخبار الطوال» الذى يتناول فيه التاريخ الإسلامى منذ ظهور الإسلام حتى وفاة الخليفة المعتصم سنة (227هـ = 842م)، مع مقدمة مختصرة عن التاريخ القديم.

وقد استمرت حركة التأليف التاريخى على نشاطها وازدهارها طوال مراحل العصر العباسى الثانى، ومن أبرز المؤرخين الذين شهدوا بداية مرحلة النفوذ البويهى على بن الحسين المسعودى المتوفى سنة (346هـ = 957م)، ومع أن المسعودى نشأ فى بغداد فقد كان دائم الترحل فى طلب العلم، وهو يقدم نموذجاً للعالم الذى جعل العلم ضالته، فهو ينشده لكل ما أوتى من حول وما وسعه من صبر؛ فقد ذهب إلى الهند والملتان وسرنديب (سيلان) والصين، فضلاً عن مراكز العلم الشهيرة فى أرجاء العالم الإسلامى، ومن أشهر مؤلفاته التاريخية كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، وقد تناول فيه تاريخ الأمم القديمة، ثم تناول تاريخ الإسلام منذ ظهوره حتى خلافة المطيع لله، وهو أول الخلفاء العباسيين فى العصر البويهى، ومن بين الكتب التاريخية الذائعة للمسعودى أيضاً كتاب «التنبيه والإشراف»، وهو محاولة منه لتقديم كتاب تاريخى مختصر يضم خلاصة ما كتب، وهو يحتوى على معلومات مهمة من كتب أخرى للمسعودى لم تصل إلينا.

ومن بين المؤرخين المتميزين فى فترة النفوذ البويهى أيضاً الخطيب البغدادى المتوفى سنة (463هـ = 1071م)، وهو «أبو بكر أحمد بن على بن ثابت»، وقد عاش فى بغداد التى يُنسب إليها ومات بها، ولكنه رحل طلباً للعلم إلى عدة مراكز علمية بارزة كالبصرة والكوفة ونيسابور وحلب وبيت المقدس وغيرها، وهو يتميز بغزارة إنتاجه وتنوع اهتماماته العلمية؛ حيث أُلّف فى فروع مختلفة من العلم

---

كالتاريخ والفقہ والحديث والنحو والأدب وغيرها، ومعظم مؤلفاته لم تصل إلينا، ولكن موسوعته الضخمة المعروفة باسم «تاريخ بغداد» وصلت إلينا وهي التي أكسبته شهرة واسعة، وهي تاريخ شامل لبغداد من حيث نشأتها وأحيائها وقصورها ومختلف معالمها، فضلاً عن تراجم أعلامها من رجال السياسة والعلم والأدب وغير ذلك، ومن هنا تعد هذه الموسوعة مصدرًا لا غنى عنه للباحثين في تاريخ الخلافة العباسية منذ نشأتها حتى بداية العصر السلجوقي.

وقد لمع عدد آخر من المؤرخين في المراحل المتأخرة من العصر العباسي الثاني، لعل أبرزهم عز الدين بن الأثير المتوفى سنة (630هـ = 1233م)، وهو صاحب الموسوعة التاريخية الضخمة المعروفة باسم «الكامل في التاريخ»، وتقع في اثني عشر مجلدًا، وقد حذا فيها حذو الطبري في تاريخه، وتوقف في روايته التاريخية عند أحداث سنة (628هـ = 1231م).

وقد شهد ابن الأثير نهاية فترة النفوذ السلجوقي وعاش شطرًا من حياته في فترة ما بعد السلاجقة، وعاصر مرحلة مهمة في تطور الحروب الصليبية إبان سلطنة صلاح الدين الأيوبي، فكتابه إذن من بين المصادر الأساسية في تاريخ الحروب الصليبية، ويمكننا أن نقول إن موسوعة الكامل في التاريخ لابن الأثير تحتل بين مصادر التاريخ الإسلامي مكانة لا يسبقها إلا موسوعة تاريخ الطبري، ولابن الأثير مؤلفات أخرى في غاية الأهمية لعل أبرزها «أسد الغابة في معرفة الصحابة»، وهو موسوعة من سبعة مجلدات يتناول فيها تراجم صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

ونستطيع أن نمضي طويلاً في تناولنا لمختلف جوانب النهضة الثقافية في دولة الخلافة العباسية في عصرها الثاني، وهي جوانب لا يتسع المجال للحديث التفصيلي عنها هنا، ولكننا نكتفي بالقول

بأن هذه النهضة الثقافية غطت كل مظاهر المعرفة والفن التي عُرفت في ذلك الزمان، فقد شهدت دولة الخلافة العباسية وثبة رائعة في

(105/3)

الثقافة الجغرافية، وعرف التراث الحضارى العباسى جغرافيين أفذاذاً كاليقوبى صاحب البلدان، وقد أشرنا إليه، والاصطخري من علماء القرن (4هـ = 10م)، وهو صاحب كتاب «مسالك الممالك»، وابن حوقل والمقدسى وهما من علماء القرن (4هـ = 10م) أيضاً، وللأول كتاب «المسالك والممالك»؛ وللثاني كتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»، وهو من الكتب المتميزة في هذا الفن. ولعل من أشهر الجغرافيين في دولة الخلافة العباسية ياقوت الحموى المتوفى سنة (626هـ = 1229م) وقد ولد في حماة كما يبدو من نسبه، ولكنه عاش في بغداد، ومعجمه الجغرافى المعروف باسم «معجم البلدان» يُعدُّ من أغزر المصادر مادة في التراث الجغرافى الإسلامى على الإطلاق، وهو يقع فى خمسة مجلدات ضخمة. كما شهد هذا العصر أيضاً نهضة لا تدانى فى الدراسات العقلية والفلسفية والكلامية، ونبغ فى هذا المجال أعلام يحتلون مكانة سامقة فى تاريخ الفكر الإنسانى كله، فمن بين هؤلاء الفيلسوف الكبير الفارابى المتوفى سنة (339هـ = 950م) فى مطلع العصر البويهى، وهو صاحب كتاب «إحصاء العلوم» وكتاب «السياسة المدنية» وغير ذلك. على أن أبرز هؤلاء هو الشيخ الرئيس ابن سينا المتوفى سنة (428هـ = 1037م)، وقد عاش شطراً من حياته فى بخارى فى ظل الدولة السامانية. ومن كتبه الفلسفية المعروفة كتاب «الإشارات» وكتاب «الشفاء»، وكتاب «النجاة» وغيرها، هذا بالإضافة إلى مؤلفاته الطبية الفائقة، وفى مجال الدفاع العقلى عن الإسلام والرد على مناوئيه برز اسم

حجة الإسلام «أبي حامد الغزالي» المتوفى سنة (505هـ = 1111م)، وهو الذى ناضل الفلاسفة وكتب عن تهافتهم كتابه المعروف «تهافت الفلاسفة»، وقد باشر «الغزالي» التدريس فى المدرسة النظامية ببغداد والمدرسة النظامية بنيسابور، وكتابه «إحياء علوم الدين» من أعظم الكتب التى عرضت الإسلام عرضاً بسيطاً مقنعاً مؤثراً، ونظراً

(106/3)

لقوة تأثير هذا الكتاب قال البعض: «من لم يقرأ الإحياء فليس من الأحياء».

وقد حظيت العلوم الطبية والرياضية والفلكية والطبيعية بنصيب وافر من العناية والدراسة فى هذا العصر الحافل بالعطاء الحضارى. بل إن فن الموسيقى أيضاً وجد له مجالاً من الاهتمام. والملاحظ أن الفلاسفة العظام، أمثال الفارابى وابن سينا، كانوا يحدقون الطب والرياضة والفلك بل والموسيقى أيضاً.

ويعتبر «أبو بكر محمد بن زكريا الرازى» أعظم الأطباء المسلمين فى هذا العصر على الإطلاق. وله كتاب «الحاوى» فى الطب، الذى يمكن اعتباره عمدة هذا العلم فى العصور الوسطى فى الشرق والغرب. وقد حظى الرازى برعاية ملوك الدولة السامانية، وتوفى فى حوالى سنة (320هـ = 932م)، أما «ابن سينا» فقد كتب «القانون» فى الطب، وهو الذى كان مع كتاب «الحاوى» للرازى من الأسس المهمة التى اعتمدت عليها أوروبا فى عصر النهضة.

وبعد هذه اللمحة الموجزة عن أهم جوانب النهضة الثقافية فى العصر العباسى الثانى نستطيع أن نقول: إن هذه النهضة كانت متكاملة الجوانب، وهذا هو شأن الحضارات العظيمة، فالحضارة روح تعود بالصحة والعافية على جسد الأمة كله فتتوازن فيه ملامح الاكتمال، وقد كان أبرز ما يميز تلك الفترة هو الرغبة العارمة فى العلم

والتعطش للمعرفة، ومن هنا وجدنا أصحاب الثقافات الموسوعية الذين  
أشرونا إلى بعضهم، والملاحظ أن حب العلم والتنافس في سبيله جعل  
الحكام والأمراء يحتضنونه وينصبون من أنفسهم حماةً له.  
وهكذا ظهرت مجالس العلم المعروفة على يد قادة أمراء وجدوا في  
هذا النشاط سُلماً للمجد والسؤدد، والأمثلة على ذلك كثيرة، فهذا  
سيف الدولة الحمداني يجعل من مجلسه محفلاً للعلماء والأدباء  
والشعراء، وهذا عضد الدولة البويهى يفعل الشيء نفسه، وفعل ذلك  
أيضاً السلطان محمود الغزنوى، ونظام الملك أعظم وزراء السلاجقة،  
وغيرهم، وكل هذا عاد بالخير العميم على الحركة الثقافية في هذا

(107/3)

العصر، فإذا هي تفيض قوة ونشاطاً وتجديداً.

2 - الجانب الاقتصادى والعمرانى:

من الطبيعى أن يرتبط الجانب العمرانى بالجانب الاقتصادى فى  
الدولة، فلا عمران إلا باقتصاد قوى. وقد ازدهرت الحياة الاقتصادية  
ازدهاراً ملحوظاً فى بعض ممالك الدولة العباسية فى العصر الثانى،  
ولكننا نلاحظ أن السلطة المركزية نفسها لم يعد لها من القوة  
الاقتصادية ما كان لخلفاء العصر العباسى الأول، وذلك بسبب تحكم  
الأمراء الذين استأثروا بالنفوذ الحقيقى، ومن هنا نلاحظ أن اقتصاد  
بعض الإمارات التى كانت تنتمى لدولة الخلافة العباسية من الناحية  
الشكلية كان أقوى من اقتصاد الخلافة نفسها، بل إن الخليفة فى  
بعض الأحيان كان مجرد موظف تابع لهؤلاء الأمراء الذين يحددون له  
راتبه ونشاطه.

وقد توافرت مصادر القوة الاقتصادية فى دولة الخلافة العباسية فى  
عصرها الثانى، وكان للتقدم العلمى الكبير الذى شهده هذا العصر  
أثره الملحوظ فى تحقيق الازدهار الاقتصادى القائم على أسس علمية

صحيحة، وقد لعبت النهضة الزراعية دورها في تحقيق هذا الازدهار الاقتصادي، فقد كانت دولة الخلافة تضم أراضي شاسعة تتسم بالخصوبة والصلاحية لإنتاج شتاء محاصيل. وقامت المدارس الزراعية التي انتشرت في أرجاء دولة الخلافة العباسية في ذلك الوقت بجهد علمي كبير في نشر الوعي الزراعي الصحيح، فتعددت المحاصيل وأدخلت أنواع جديدة منها، وزاد إنتاجها نتيجة استعمال الأسمدة المناسبة.

وارتبط بذلك إعادة تطوير نظام الري الذي حول منطقة ما بين النهرين إلى جنة وارفة الظلال، كما ازدهرت فلاحه البساتين القائمة على أسس علمية ازدهاراً كبيراً وانتشرت كل أنواع النباتات والزهور، «وكانت الزهور تزرع حتى في أصغر المنازل»، وارتبط بنمو الثروة الزراعية نمو الثروة الحيوانية، كما ظهرت الصناعات المعتمدة على الإنتاج الزراعي كمصانع النسيج ومعامل تكرير السكر. وقد اشتهرت صناعات أخرى في العصر العباسي الثاني كصناعة

(108/3)

الورق التي انتشرت في مصر والشام وسمرقند، ولكن شهرة سمرقند في هذا الجانب فاقت غيرها في ذلك العصر، وازدهرت صناعة الحديد أيضاً في بلاد فارس.

وقد ترتب على الازدهار الزراعي والصناعي الازدهار التجاري، فالمنتجات المختلفة تحتاج إلى تسويق، ومن هنا ظهر الاهتمام بتوفير الطرق التجارية المناسبة والعناية بالموانئ والأساطيل التجارية، وقد ازدهرت تجارة المسلمين الخارجية في ذلك العصر مع الهند والصين والبلاد الأوربية.

والجدير بالملاحظة هنا أن الإسلام انتشر في بقاع عديدة عن طريق التجار المسلمين، وكانت بغداد ودمشق والإسكندرية وعدن والبصرة

من بين المراكز التجارية المهمة في ذلك العصر .  
وقد اشتهر عدد من دول العصر العباسي الثاني بالقوة الاقتصادية،  
ومن بين هذه الدول - على سبيل المثال - الدولة الصفارية التي يقال:  
إن مؤسسها «يعقوب بن الليث» ترك في بيت المال عند وفاته ثمانين  
مليون دينار وخمسين مليون درهم، كما ازدهر أيضاً اقتصاد الدولة  
السامانية، وهي التي قامت في منطقة تتمتع بإمكانات اقتصادية  
هائلة، وهي بلاد ما وراء النهر، وكذلك ازدهر اقتصاد الدولة  
البويهية، أما اقتصاد الدولة الغزنوية فقد وصل مدى رائعاً من القوة  
نتيجة اتساع أطراف تلك الدولة، وما استطاعت أن تحققه من فتوحات  
رائعة في بلاد الهند والسند وأفغانستان وغيرها .  
وكان النشاط العمراني الواضح ثمرة مباشرة للاستقرار الاقتصادي،  
فأنشئت الطرق والمدارس والمساجد والقصور والرُّبُط في أماكن  
مختلفة من دولة الخلافة العباسية، ولا يتسع المقام هنا للدخول في  
تفاصيل هذا الجانب، ولكننا نكتفي ببعض أمثلة قليلة توضح ذلك،  
وتستحق الدولة البويهية وقفة خاصة هنا، فقد اهتمت هذه الدولة  
اهتماماً خاصاً بالجانب العمراني، ولاشك أن عضد الدولة كان أبرز  
ملوكها في هذا الجانب، فقد صرف كثيراً من جهده للعمارة والتشييد  
في الأماكن التي خضعت لسلطانه في فارس والرى وأصفهان

(109/3)

---

والجبال وغيرها، أما بغداد - بعد انتقاله إليها - فقد حظيت منه  
باهتمام بالغ، يذكر المؤرخ ابن الأثير في تناوله لأحداث سنة (369هـ  
= 979م) أن عضد الدولة شرع في عمارة بغداد في ذلك العام،  
وكانت قد خربت بتوالي الفتن عليها، فعمّر مساجدها وأسواقها ..  
وألزم أصحاب الأملاك الخراب بعمارتهما، وجدد ما دثر من الأنهار  
وأعاد حفرها وتسويتها، وأصلح الطريق من العراق إلى مكة .. واهتم

اهتماماً كبيراً بمشهد الإمام على والإمام الحسين رضى الله عنهما ..  
وأذن لوزيره «نصر بن هارون» - وكان نصرانياً - في عمارة البيع  
والأديرة.

ومن بين الإنجازات العمرانية المهمة التي قام بها عضد الدولة في  
بغداد بناؤه لمستشفاه الكبير الذي عرف باسم «البيمارستان  
العضدى»، وقد كان في هذا المستشفى عند إنشائه أربعة وعشرون  
طبيباً في التخصصات المختلفة، وكان أشبه ما يكون بالمستشفيات  
التعليمية الجامعية في عصرنا هذا؛ فقد كانت المحاضرات تلقى فيه،  
وتدرس فيه الكتب ذات المكانة العلمية، وكان لهذا المستشفى مورد  
ماء مستمد من دجلة، وله جميع الملحقات التي تزود بها القصور  
الملكية كما بنى عضد الدولة في شيراز مستشفى آخر عرف أيضاً  
باسم «البيمارستان العضدى»، وأقام صهاريج الماء في أماكن  
مختلفة من مملكته. وبنى سوراً حول مدينة الرسول - صلى الله عليه  
وسلم -.

وتتميز الدولة السلجوقية كذلك بنشاطها العمراني الكبير في مجالاته  
المختلفة، ويبرز في هذا الجانب بصفة أخص «ملكشاه» ووزيره  
العظيم «نظام الملك»، فقد أنشأ «نظام الملك» مدارس النظامية  
المعروفة، وزودها بكل احتياجات طلابها، ووجد في ذلك كل تشجيع  
من السلطان السلجوقى المتميز «ملكشاه».

والملاحظ أن النشاط العمراني في دولة الخلافة العباسية في العصر  
الثاني كان يقوم به في الأساس أمراء وسلاطين وملوك الدول التي  
كانت تخضع للخلافة العباسية خضوعاً روحياً أو شكلياً، أما الخلفاء -

(110/3)

---

بصفة عامة - فلم يكونوا بالمكان الذى يجعلهم قادرين فى الأمور  
بصورة مستقلة طوال معظم هذه الفترة.

### 3 - الجانب الإدارى:

كان لضعف الخلافة العباسية المركزية في العصر الثاني تأثير واضح في النظام الإدارى في دولة الخلافة، وأوضح مظاهر هذا التأثير يبدو في نظام «الوزارة»، فقد كانت الوزارة في العصر العباسى الأول - بصفة عامة - تابعة للخليفة خاضعة لنفوذه، وعندما كان الوزراء يحاولون التصرف بصورة مستقلة كانوا يجدون ما يردعهم من بطش الخليفة، أما في العصر العباسى الثاني فقد اختلف الأمر، وقد استمرت الوزارة في فترة نفوذ الأتراك، ولكن الوزراء كانوا أكثر استقلالاً ونفوذاً وسطوة وتنامت ثرواتهم لأنهم لم يكونوا يجدون الخليفة الحازم الذى يحاسبهم أشد الحاسب، وهذا إذا استثنينا فترة صحوة الخلافة.

فلما كانت السنوات الأخيرة في فترة نفوذ الأتراك بطل منصب الوزارة وحل محله منصب أمير الأمراء الذى جار تقريباً على كل سلطات الخليفة، فلما وقعت الخلافة تحت النفوذ البويهى زال أيضاً منصب أمير الأمراء، فلم يعد هناك للخليفة وزير ولا أمير للأمراء، وتصرف البويهيون في كل شئون الخلافة تصرفاً مطلقاً وحرموا الخليفة حتى من سلطاته الشكلية، مع أنهم اتخذوا لأنفسهم وزراء. وفي فترة النفوذ السلجوقى عاد منصب الوزارة، وأصبح للخليفة وزيره، وللسلطان السلجوقى وزيره، ولكن السلطة الحقيقية كانت في يد السلطان السلجوقى ووزيره، رغم أن السلاجقة عاملوا الخلفاء بما يستحقون من توقير.

وبعد زوال نفوذ السلاجقة أصبح للخلفاء وزراء وهم المستقلون عن نفوذ الخليفة، ولكن الخلافة في هذه الفترة كانت في طريقها إلى الزوال الكامل، ولم تكد دولة الخلافة تتجاوز بغداد وبعض الأقاليم الأخرى المحدودة.

وقد تطور منصب الكتابة في العصر العباسى الثاني تطوراً ملحوظاً، فاتسعت سلطة الكاتب وتنامى نفوذه، وكان الكاتب يرأس ديوان

الرسائل الذى كان يعد من أخطر دواوين الدولة العباسية، وكان صاحب هذا المنصب يقوم بكتابة الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة بعد عرضها على الخليفة، وكان ينوب عن الخليفة أحياناً في مكاتبة الملوك والأمراء، على أن من أهم التطورات التى شهدتها هذا المنصب فى العصر العباسى الثانى أنه لم يعد مقصوراً على الخلفاء بل بدأ الأمراء والسلاطين يتخذون لأنفسهم كتاباً أوسع نفوذاً من كاتب الخليفة.

وقد كان ذلك نتيجة طبيعية لضعف منصب الخلافة فى هذا العصر. ومع أن العصر العباسى الأول عرف نظام الحجابة فقد تطور هذا النظام كثيراً فى العصر العباسى الثانى، فقد كان الحاجب فى العصر العباسى الأول يقوم بمهمة أساسية هى حجب العامة عن السلطان، فلا يأذن بالدخول على السلطان إلا لمن يرى أنه يستحق هذا الإذن، أما الحاجب فى العصر الثانى فقد تجاوز هذه المهمة المحددة وادّعى لنفسه سلطات واسعة أصبح ينافس بها سلطات الوزير، وأصبح الحاجب يتدخلون فى أهم شئون الدولة، وقد فتح ذلك مجالاً للصراع بين الحاجب والخلفاء والوزراء.

أما منصب الإمارة على البلدان - وهو من المناصب المهمة فى النظام الإدارى - فقد طرأ عليه أيضاً كثير من التطور فى العصر العباسى الثانى، فقد كان هذا المنصب منذ ظهور الإسلام وحتى نهاية العصر العباسى الأول يخضع فى العادة لسلطة الخليفة؛ فهو الذى يملك حق الولاية والعزل، أما فى العصر العباسى الثانى فقد اختلفت الأمور تماماً، ذلك أن الخليفة أصبح يخضع لسلطة عليا من القوى الدخيلة، وهى التى تملك غالباً حق توليته وعزله، وهكذا تدخلت هذه السلطات أيضاً فى تعيين الأمراء (أو العمال) فى الأقاليم التى تخضع لنفوذهم وكان هذا التطور متمشياً تماماً مع ما آل إليه منصب الخلافة من

تدهور في ذلك العصر .

وقد اتسع نظام البريد في العصر العباسي الثاني اتساعاً كبيراً، فقد كانت مهمة البريد في بداية نشأته توصيل رسائل الخليفة إلى عماله

(112/3)

---

وولاته ونقل رسائلهم إليه وكذلك أخبارهم، ثم اتسعت مهمة البريد - وبالذات في العصر العباسي الثاني - لتشمل أيضاً مراقبة العمال والتجسس عليهم، وأن يقدم صاحب البريد إلى الخليفة تقارير دورية وافية بكل ما يحدث في مكان عمله، هذا إذا كان تابعاً للخليفة، ويفعل الشيء نفسه إذا كان خاضعاً لنفوذ الدول المختلفة التي ظهرت في هذا العصر، ولهذا أصبح نظام البريد في ذلك العصر أشبه ما يكون بقلم المخابرات في عصرنا.

(113/3)

---

- المراجع:

\* آدم منز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري - ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريذة - القاهرة

- 1948م

\* بن الأثير (علي بن أبي الكرم): الكامل في التاريخ - دار الكتاب العربي - بيروت 1967م

\* أحمد أمين: ضحي الإسلام - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة الطبعة الخامسة - 1956م

\* بن الجوزي (عبد الرحمن بن علي): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - حيدر آباد - الهند -

1357هـ

\* حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - مكتبة النهضة

المصرية - القاهرة - 1973م

\* حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي - دار الفكر العربي

- القاهرة - 1966م

- \* الخطيب البغدادي (أحمد بن علي): تاريخ بغداد - القاهرة - 1349هـ = 1931م
- \* خليل السامرائي وآخرون: تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي - الموصل - العراق - 1408هـ = 1988م
- \* سامي الكيالي: سيف الدولة وعصر الحمدانيين - دار المعارف - القاهرة - 1959م
- \* السيوطي (جلال الدين) تاريخ الخلفاء - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - القاهرة - 1389هـ = 1969م
- \* شاکر مصطفى: دولة بني العباس - الكويت - 1393هـ = 1973م
- \* الطبري (محمد بن جرير): تاريخ الرسل والملوك - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف القاهرة - 1966م
- \* عبد النعيم حسنين: دولة السلاجقة - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - 1975م
- \* فاروق عمر: الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة - دار الخليج - 1403هـ = 1983م
- \* كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية - ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي - دار العلم للملايين - بيروت - 1965م
- \* بن كثير (إسماعيل بن عمر): البداية والنهاية - دار الكتب العلمية بيروت - 1408هـ = 1988م
- \* محمد الخضري: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) - القاهرة - 1970م

(114/3)

- 
- \* محمد مسفر الزهراني: نظام الوزارة في الدولة العباسية - مؤسسة الرسالة - بيروت - 1406هـ = 1986م
- \* المسعودي (علي بن الحسين): مروج الذهب ومعادن الجوهر - دار الأندلس - بيروت - 1385هـ = 1965م
- \* مسكوية (أحمد بن محمد): تجارب الأمم وتعاقب الهمم - نشره آم دروز - مطبعة التمدن - القاهرة - 1914م
- \* ابن النديم (محمد بن إسحاق): الفهرست - المطبعة الرحمانية - القاهرة - 1384هـ
- \* ياقوت الحموي: معجم الأدباء - دار المأمون - القاهرة - 1355هـ = 1936م

## الجزء الرابع

### المشرق الإسلامي بعد العباسيين

تأليف:

أ. د. عصام الدين عبد الرؤوف

أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة القاهرة

أ. د. محسن جمال الدين

أستاذ اللغات الشرقية بجامعة عين شمس

## الفصل الأول

### \*العالم الإسلامي قبيل الغزو المغولي

كانت الدولة العباسية آنذاك تحت حكم الخليفة «الناصر لدين الله» الذى حكم فترة طويلة امتدت من سنة (575هـ) حتى سنة (622هـ)، وعلى الرغم من طول هذه المدة التى لم تتح لخليفة قبله، فإنه لم يستغلها استغلالاً حسناً فى صالح دولته وما ينفع الناس، حتى وصفه «ابن الأثير» بقوله: «كان قبيح السيرة فى رعيته، ظالماً، فخرّب العراق فى أيامه، وتفرق أهله فى البلاد وأخذ أملاكهم وأمواهم»، وإلى جانب ذلك لم يعمل على توحيد الصف بين الإمارات الإسلامية، فأشعل الفتنة بينها وألب بعضها على بعض.

ولم يكن نفوذ الخليفة العباسى قويا إلا على «بغداد» والمنطقة المجاورة؛ حيث كانت المنطقة الشمالية من العراق فى أيدى أتابكة «الموصل»، وباقى «العراق» الغربى خاضعاً للسلاجقة، على حين سيطر الأيوبيون ومن بعدهم «المماليك» على «مصر» وأجزاء كبيرة من «الشام» و «فلسطين».

وفي المشرق كانت السيادة هناك لدول «الأتابكة»، و «الغور»،  
والخوارزمية، والإسماعيلية، وأصبحت سلطة الخليفة رمزاً روحياً  
محدوداً، لا يتدخل في شيء إلا إذا طلب منه التدخل للتصديق على ما  
يطلب منه فحسب.

وتوفي الخليفة «الناصر لدين الله» في أواخر رمضان سنة (622هـ)  
بعد أن شهدت خلافته سقوط دولة السلاجقة، وظهور قوة المغول  
بزعامه «جنكيزخان» واكتساحهم بلاد «ما وراء النهر» و «خراسان»  
وإسقاطهم للدولة الخوارزمية وزحفهم نحو «الجزيرة» و «العراق»  
و «الشام» وتهديدهم للعالم الإسلامي.

وتولى الخلافة بعد «الناصر لدين الله» ابنه «الظاهر بأمر الله»، لكن  
خلافته لم تطل، إذ توفي في (14 من رجب سنة 623هـ)، وتولى بعده  
ابنه «المستنصر بالله»، وفي عهده تصاعد الخطر المغولي وأصبح  
على مشارف العراق، وبعد وفاته في جمادى الآخرة سنة (640هـ)  
ببيع لابنه «المستعصم بالله»، وهو آخر الخلفاء العباسيين في  
العراق.

الخوارزميون:

أولاً: محمد خوارزمشاه وأطماعه في الدول المجاورة:

(1/4)

---

تولى السلطان «محمد خوارزمشاه» حكم الدولة الخوارزمية سنة  
(596هـ)، وبدأ عهده بالدخول في منازعات متصلة مع الدول  
المجاورة له، فاشتبكت معه الدولة الغورية التي كانت تقع في منطقة  
«أفغانستان» الحالية، حين ظن الأخوان «غياث الدين» و «شهاب  
الدين» ضعف السلطان «محمد خوارزمشاه» بحكم صغر سنه، وجرّدا  
جيشاً كبيراً للاستيلاء على منطقة «خراسان»، مكّنهما من الاستيلاء  
على عدد من مدن «خراسان»، إلا أن «محمد خوارزمشاه» تمكن بعد

ذلك من إلحاق الهزيمة بهما، ثم مات «غياث الدين» فجأة، فتمكن السلطان «محمد» من طرد «الغوريين» من «خراسان» في سنة (600هـ).

ثم خرج «شهاب الدين الغورى» بقواته وكان مقيماً بالهند إلى لقاء «محمد خوارزمشاه» وألحق بجيشه عدة هزائم متتالية، ووصلت جيوشه إلى «جرجانية» عاصمة «الدولة الخوارزمية»، وحاصرها، ولكن أهلها قاوموه وصمدوا في وجهه، واتصل السلطان «محمد» بالقراخانيين وبعثمان خان سلطان «سمرقند»، طالباً العون والمساعدة، فلما وصل إليه المدد تمكن من إلحاق الهزيمة بشهاب الدين الغورى في منطقة «هزاراسب»، وتتبع «القراخانيون» «الغوريين» وطاردهم حتى أوشكوا على القضاء عليهم، إلا أن «عثمان خان» تدخل في اللحظة الأخيرة ومنع القراخانيين من تحطيم الجيش الغورى، وهرب «شهاب الدين» إلى «الهند»، ثم توفى في سنة (603هـ)، فتولى ابنه السلطان «محمود» حكم «الدولة الغورية» في «هراة» و «فيروزكوه»، وكان شاباً مستهتراً، مولعاً بالخمير، فانصرف عنه أتباعه، وقُتل في سنة (609هـ).

كان للسلطان «محمد خوارزمشاه» أخ يدعى «تاج الدين على شاه»، وقد هرب هذا الأخ من أخيه خوفاً من بطشه؛ بسبب خصومة حدثت بينهما، ثم توجه إلى بلاط السلطان «محمود الغورى» الذى رحّب به وأحسن وفادته، وقد نجح «على شاه» فى توطيد علاقته برجال البلاط والعلماء والفقهاء فى «الدولة الغورية»، فلما قتل السلطان

(2/4)

---

«محمود الغورى»، نصّبهُ هؤلاء ملكاً على «الدولة الغورية» فى عام (609هـ)، فأرسل إلى أخيه السلطان «محمد خوارزمشاه» يبشره بما وصل إليه، فبعث إليه مَنْ تمكن من قتله بالحيلة، واستولى «محمد

خوارزمشاه» على أملاك «الدولة الغورية» دون حرب أو قتال، ثم ضم «غزنة» إلى ممتلكاته في سنة (611هـ)، وتوجه منها إلى «سمرقند» حيث نجح في ضمها إلى دولته، ثم تمكن في العام نفسه (611هـ) من الاستيلاء على الجانب الغربي من «الدولة القراخانية» فدانت له بذلك منطقة بلاد «ما وراء النهر» كلها، وعهد إلى ابنه «جلال الدين منكبرتي» بحكم بلاد «فيروزكوه» و «هراة» و «غزنة»

ثانيًا: السلطان محمد والخلافة العباسية:

عمل السلطان «محمد خوارزمشاه» على إعداد جيش قوى؛ لكي يهاجم به الخلافة العباسية، للأسباب الآتية:

1 - رغبته في أن تكون له الكلمة العليا على الخليفة العباسي، شأن ما كان عليه سلاطين الدولتين «البويهية» و «السلجوقية»، وكان الخليفة العباسي يأبي ذلك الأمر.

2 - أنه حين استولى على أملاك «الدولة الغورية»، وجد في خزائن السلطان «شهاب الدين» مجموعة من الرسائل بعث بها إليه الخليفة «الناصر لدين الله» يحرضه فيها على مهاجمة الخوارزميين وسلطانهم، ويزين له ذلك.

3 - وأنه وصل إلى علمه أن الخليفة يؤلب عليه حكام الدول الإسلامية المجاورة مثل: «أتابكة أذربيجان»، و «أتابكة أصفهان»، بل إنه

حرض «الإسماعيلية» على قتل «أغلمش» نائبه على العراق العجمي.

4 - وأنه رأى أن الخلافة العباسية لم تعد تمثل الإسلام في شيء؛ حيث انشغل الخلفاء بمصالحهم الشخصية عن الجهاد في سبيل الله ونشر الدعوة الإسلامية في المناطق الوثنية المجاورة، ومن ثم لا تترتب للخليفة العباسي أية حقوق على حكام المسلمين.

وقد أعلن «السلطان محمد» أن الخليفة العباسي لا حق له في خلافة المسلمين، وأن هؤلاء العباسيين - في الأصل - ما هم إلا مغتصبون

لهذه الخلافة من أبناء «علي بن أبي طالب» رضى الله عنه، وأن الشيعة هم أولى الناس بتولى هذه الخلافة، ومن ثم اختار رجلا من أعقاب العلويين يدعى «علاء الملك الترمذى»، ونصبه خليفة على المسلمين في «خوارزم» بعد أن استصدر فتوى من فقهاء بلاده وعلمائها تنص على أن الخليفة العباسى لا يحق له أن يحكم المسلمين.

أعد «السلطان محمد» جيشه في عام (614هـ)، وتحرك به قاصداً «بغداد»، فلما وصل منطقة العراق العجمى خرجت إليه جيوش «الأتابك سعد بن زنكى» الذى حرضه الخليفة العباسى على اقتطاع هذه المنطقة والاستيلاء عليها من «الخوارزميين»، وتمكن «السلطان محمد» من هزيمة هذه الجيوش، والاتفاق مع «سعد بن زنكى» على حكم «بلاد فارس» مقابل دفع جزية سنوية إلى «الدولة الخوارزمية»، وواصل «محمد خوارزمشاه» طريقه إلى «بغداد»، فاعترضه جيش - بعث به الخليفة - بقيادة «أتابك أذربيجان»، فانتصر عليه «السلطان محمد» وأسر قائده، ثم أطلق سراحه في مقابل تعهده بدفع جزية سنوية، ثم مضى في طريقه واقترب من «بغداد» في خريف السنة نفسها، وتأهب السلطان «محمد» لغزو «بغداد»، ولكن أمطاراً غزيرة أغمرت وعواصف ثلجية شديدة هبت على منطقة «أسد آباد» التى كان يعسكر فيها بجنوده، فأهلكت معظم الدواب، وقتلت عدداً كبيراً من الجنود، واضطر السلطان الخوارزمى إلى العودة إلى «خوارزم» دون أن يفعل شيئاً في مواجهة الخليفة العباسى، وبدأ نجمه فى الأفول بعد ذلك؛ حيث واجهه الخطر المغولى واعترضته نكبات كثيرة. ثالثاً: نظرة عامة على الحالة السياسية والاجتماعية فى الدولة الخوارزمية:

اجتمعت أسباب الرفاهية ورغد العيش فى الدولة الإسلامية، وبالغ الناس فى جمع المال والثروات، وانتشرت الأمراض الاجتماعية والمؤامرات السياسية فى هذه الفترة، لذا فإن من كان ينظر إلى «الدولة الخوارزمية» يتصور أنها دولة قوية متماسكة، وأنها أقوى

الدول على الإطلاق في تلك المنطقة، غير أن الواقع كان على خلاف ذلك، فقد استنزفت الحروب الطويلة التي دخلها «الخوارزميون» مع الدول المجاورة الواحدة تلو الأخرى كل ثرواتهم، واستهلكت عناصر الفروسية في جيوشهم، وقضت على خيرة الجنود والمقاتلين. كان الجيش الخوارزمي يشتمل على أخلاط وأجناس مختلفة من قبائل «الأتراك القنفلى» و «الغور» و «البلوج»، وغيرها من العناصر التي كانت -غالبًا- تتنافر، وتدب بينها الخلافات - أحيانًا - لأتفه الأسباب؛ ومن ثم كان الجيش الخوارزمي غير متجانس، ومتفرق الأهواء والمقاصد.

أما من الناحية الداخلية: فقد كانت علاقة «السلطان محمد» بالعلماء والفقهاء علاقة سيئة للغاية، وأدى ذلك إلى سوء علاقته بالشعب، وكانت الفتوى التي انتزعها «السلطان محمد» من العلماء والفقهاء - بعدم أحقية الخلفاء العباسيين بالخلافة، وأن العلويين أحق بها منهم - من بين أسباب تفاقم الخلاف بين الجانبين، حيث جاءت هذه الفتوى رغم أنوف العلماء، وبتهديد السلاح.

لم تكن البلاد التي استولى عليها الخوارزميون راضية عن دخولها تحت حكم «محمد خوارزمشاه»، ولم تمل بأى حال إلى الخوارزميين؛ ولهذا جاءت مواقفها متراخية حين طلب منها «السلطان محمد» المدد بعد عبور المغول نهر سيحون، وتباطأت في تقديم المدد والعون للخوارزميين؛ مما اضطر السلطان الخوارزمي إلى الانسحاب.

ومهما يكن من أمر فإن المؤرخين العرب يقرون بتدين السلطان «محمد خوارزمشاه» وحسن عقيدته وشجاعته، على الرغم من أخطائه السياسية والأخلاقية الفاحشة التي أودت بدولته، وعرضت العالم الإسلامي كله للخراب والدمار، وقد تمثلت هذه الأخطاء فيما يلي:

- 1 - محاربة «محمد خوارزمشاه» للغوريين في الشرق والجنوب حتى اضطرتهم إلى الانحسار في جزء محدود، واختتم علاقاته بهم بقتل أخيه.
- 2 - تحطيم الدولة القراخانية التي كانت تمثل سدًا منيعًا؛ يمنع غارات القبائل المغولية البربرية على دولته.

(5/4)

- 3 - سوء علاقته بالخليفة العباسي.
- 4 - استنزاف خيرة القادة والفرسان والجنود في حروبه التي خاضها في «إيران» و «تركستان».
- وقد تناول الأستاذ «أبو الحسن الندوي» في كتابه «تاريخ دعوة وعزيمة» أبرز عيوب «الدولة الخوارزمية» وسلطانها «محمد خوارزمشاه» بقوله:
- لقد صدر عن الملوك الخوارزميين الخطأ الكبير نفسه الذي وقع فيه الحكام العرب في الأندلس .. ولم يعفُ عنهم قانون الجزاء الإلهي .. ذلك لأنهم بذلوا كل قواهم في توسيع رقعة الملك ودعمه، وقمع الخصوم، ولم يبذلوا أى اهتمام بتبليغ رسالة الإسلام إلى ذلك القسم البشري الذي كان يعيش بجوار حدودهم، وكان بنفسه عالمًا مستقلاً، فبصرف النظر عن الدافع الديني والواجب الإسلامي، كان مقتضى الحزم السياسى وبعد النظر أن يُعنوا بإيجاد التوافق العقائدى فى هذه الدنيا الواسعة، وبذلك يكونون قد أقاموا حولهم سياجًا يحفظهم عن ذلك الخطر الذى لم يواجههم وحدهم، بل اكتسح المسلمين كلهم.
- الأوضاع السياسية فى وسط آسيا قبل ظهور جنكيزخان:
- انقسمت منطقة «أواسط آسيا» فى أواخر القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) إلى دول وحكومات متعددة ومختلفة، على النحو الآتى:

أولاً: الصين:

وانقسمت إلى قسمين، أحدهما شمالي (الصين الشمالية) وعاصمته «بكين»، وكان تحت حكم أسرة «كين» التي سيطرت عليه، والقسم الآخر جنوبي، وكان يضم الأقاليم الجنوبية، التي سيطرت عليها أسرة «سونج»، وقد اتخذت من مدينة «هانج تشيو» عاصمة لها. ثانياً: الدولة الأويغورية:

وهي دولة مستقلة كونها جماعة من الأتراك الأويغور في «التركستان» شمالي غرب أواسط آسيا، وكانت هذه الدولة ذات حضارة متميزة؛ أسهمت بنصيب وافر في جذب القبائل البدوية في المناطق الجاورة إلى الأخذ بمظاهرها.

ثالثاً: الدولة القراخانية:

وتقع في الجنوب الغربي بين «مملكة الخوارزميين» من جهة الغرب، ومسكن المغول في الشرق، وكانت تمثل - بموقعها هذا - حائط الصد

(6/4)

---

الفاصل لهجمات القبائل المغولية على «الدولة الخوارزمية»، التي فصلها «نهر سيحون» عن ممتلكات القراخانيين.

رابعاً: الدولة الخوارزمية:

وحكمت فيما وراء «نهر سيحون»، وكانت الدولة الإسلامية الوحيدة بين دول هذه المنطقة، وقد بسطت هذه الدولة حكمها على «إيران» كلها تقريباً، وشاركتها في حكم البلاد الفارسية دولة قوية أنشأها «الإسماعيلية» في المنطقة الواقعة جنوب بحر «قزوين» في عام (483هـ)، ثم بسطت حكمها على أجزاء أخرى من إيران. وإلى جانب ذلك كان هناك مجموعة من قبائل البدو الرحّل في أقصى الشمال على حدود «سيبيريا المغولية»، وفي إقليم «السهوب» شمالي صحراء «جوبي»، وكانوا أشبه بخلية النحل من

- حيث كثرة تحركاتهم وتنقلاتهم من مكان إلى مكان، وتمتعهم بصفات بدنية تتناسب مع البيئة التي عاشوا فيها، حيث كانت تجتاحها الرياح الثلجية في الشتاء، والملتهبة الحرارة خلال الصيف القصير. وكانت هذه القبائل تنقسم إلى مجموعات لاحصر لها؛ تتفاوت فيما بينها من حيث عدد أفرادها، ومناطق نفوذها، وأشهر هذه القبائل:
- 1 - قبائل التتار: وهي من أشد قبائل الجنس الأصفر وحشية وجبروتاً، وتعيش في صراع دائم فيما بينها، كما كانت خاضعة في أغلب الأوقات لحكام «الصين الشمالية» من أفراد أسرة «كين»، وقد عاشت هذه القبائل حياة متدنية للغاية، ولبس أفرادها جلود الكلاب والفئران وغيرها من القوارض، كما أكلوا من لحومها. وكانوا من ألد أعداء المغول، ويناصرون الثائرين عليهم، فلما أصبح «جنكيزخان» قائداً للمغول تمكن من القضاء على قبائل التتار، ولم ينبج منهم إلا عدد قليل، وعلى إثر ذلك أطلق اسم «التتار» على «جنكيزخان» وأتباعه من المغول تيمناً بما فعلوا، ولم يمض وقت طويل حتى أطلق عليهم اسم «المغول» أيضاً، فعرفوا بالاسمين معاً.
  - 2 - قبائل كرايت: وكانت تسكن الواحات الشرقية الداخلية لصحراء «جوبي»، وامتدت مساكنهم حتى «سور الصين العظيم»، وظلت

(7/4)

---

أقوى القبائل في المنطقة المغولية في القرنين الخامس والسادس الهجريين، وبسطة نفوذها وسيطرتها على معظم القبائل المجاورة لها والمحيط بها، واعتنق ملك «الكرايت» المسيحية في سنة (398هـ)، فتبعه رعاياه، وعرفت هذه القبائل في «أوربا» منذ ذلك الحين.

- 3 - قبيلة نايمان: إحدى القبائل التركية التي غلب عليها الطابع المغولي، وقد اعتنقت هذه القبيلة المسيحية، شأنها شأن قبائل

«كرايت»، ومع ذلك فإن أفرادها ناصبوا قبائل «كرايت» العداء، وكثيراً ما نشبت الحروب بينهم.

4 - المغول: نشأ «المغول» الأصليون في المنطقة المعروفة باسم «هضبة منغوليا» شمالي صحراء «جوبي»، وتنقسم منغوليا إلى قسمين: قسم شمالي غربي، به جبال كثيرة؛ تتخللها وديان تغطيها الحصباء، وقسم جنوبي شرقي، منخفض؛ يشمل بقية صحراء «جوبي»، وهو سهل متسع، تغطيه طبقة من الحصباء شديدة الصلابة، وكانت القبائل المغولية في هذه المنطقة تعيش مستقلة عن بعضها، وتتقاتل فيما بينها، أو مع جيرانها، ولاسيما التتار. وقد ظهرت طائفة «قيات» التي نشأ فيها «جنكيزخان» من بين هذه القبائل.

امتاز مناخ هذه المنطقة بشتاء طويل تشتد فيه البرودة، وتختل فيه الأمطار، وتنخفض درجة الحرارة في بعض جهاتها إلى (58) درجة تحت الصفر، فتتجمد المياه، فإذا ما حل الصيف القصير - بضعة أسابيع - تشتد الحرارة وترتفع درجاتها - أحياناً - إلى (60) درجة مئوية.

وقد انقسمت القبائل المغولية من حيث المعيشة والعمل إلى نوعين: الأول: عمل بالرعي، ويعيش إلى جوار المراعي.

والنوع الآخر: عمل بصيد الأسماك من الأنهار، والحيوانات من الغابات، لذا فقد كانت هذه القبائل تبدو أكثر بدائية وتوحشاً، ولا علاقة لها بالعالم المتحضر - بسبب معيشتهم بالغابات - إلا عن طريق القبائل الرحالة، التي استفادت من جوارها للأويغوريين المتحضرين، ولامبراطورية «كين» في «الصين الشمالية»، ومع ذلك لم يكن لهم

نصيب من الحياة الحضرية، إذ لم تكن لهم مدن يعيشون فيها، وإنما كانوا دائمي الترحال من مكان إلى آخر، وقد أقاموا خيامهم على عربات ذات عجل؛ كي يسهل نقلها معهم في ترحالهم. والواقع أن بيئة هذه المناطق فرضت على المغول أن يعيشوا في نزاع وصراع من أجل البقاء، فضلاً عن أنهم كانوا لا يؤمنون بدين ولا شريعة، ولا يعرفون حلالاً أو حراماً، ولا منطق بينهم إلا للقوة، ولا حكم إلا للسيف، ولذلك كانوا يشكلون ضغطاً متواصلاً على الدول المتحضرة التي تعيش إلى جوارهم، وينتهزون الفرصة للإغارة عليها. فكان لا بد لهذه الحالة من الفوضى السياسية والاجتماعية - التي كانت تعيشها هذه القبائل المغولية - أن تتمخض - في النهاية - عن وجود شخصية قوية توحد شتاتها، وتكوّن منها دولة فنية موحّدة، فظهر شاب مغولي اسمه «تموجين» هو نفسه «جنكيزخان»، ونجح بعد كفاح طويل في تأسيس وبناء امبراطورية المغول الفسيحة، فامتدت حدودها بين «الصين» شرقاً، و «بحر الإديراتيك» غرباً.

(9/4)

## الفصل الثاني

\*نشأة الامبراطورية المغولية

أولاً: جنكيزخان وتوحيد القبائل:

وُلد «جنكيزخان» في سنة (549هـ = 1154م)، بإحدى المناطق

المغولية، وكان أبوه «يسوكاي بهادر» رئيساً لقبيلة «قيات»

المغولية، وكان يحارب - أحياناً - القبائل المجاورة له، كما كان

يصطدم ببعض قبائل التتار، وقد خرج مرة لمحاربة رئيس إحدى

القبائل التترية، وانتصر عليه، وتمكن من أسره وقتله، فلما عاد إلى

موطنه وجد امرأته قد ولدت مولوداً، فأسماه «تموجين» بنفس اسم

رئيس قبيلة التتار الذى تمكن من أسره وقتله، تيمناً بانتصاره عليه. عاش «تموجين» حياة عز ودلال فى مطلع حياته، إلا أنه لم ينعم بما طويلاً، حيث مات أبوه وهو فى الثالثة عشرة من عمره، فتغير الحال، وانفض عنه أكثر الناس، واضطر إلى الاعتماد على نفسه فى رعاية أسرته، فكانت هذه الفترة شخصيته، وطبعته بطابع الجد والصرامة، لدرجة أنه كان يستطيع أن يبقى ثلاثة أيام دون طعام أو شراب، فلما بلغ السابعة عشرة من عمره التف حوله جماعة من الناس، وتمكن من خلاصهم أن يكون قوة يخشى بأسها فى المنطقة، فبدأ يفرض نفوذه على القبائل المجاورة، واحدة تلو الأخرى.

كانت شخصية «تموجين» القوية من بين الأسباب التى دفعت الناس إلى الالتفاف حوله، فبدأ يفرض نفوذه، ثم السيطرة على القبائل الكبيرة، وتمكن فى سنة (599هـ) من إحراز نصر كبير على قبيلة «كرايت»، وأسرعت القبائل الأخرى إلى الدخول فى طاعته، وقضى على ملك «النايمان»، ودخلت قبائله تحت إمرته فى سنة (600هـ)؛ التى اجتمعت فيها القبائل وأجمعت على اختيار «تموجين» إمبراطوراً لها تحت اسم جنكيزخان.

وتعدُّ هذه السنة بداية للدولة المغولية، التى وضع لها «جنكيزخان» مجموعة من القوانين الصارمة عرفت باسم «دستور الياسا» فى عام (603هـ)، وكان على كل من يخضع لهذه القوانين أن يدين لها بالولاء، أما من يخرج عليها فليس له من جزاء إلا القتل فوراً، وهكذا

(10/4)

---

استطاع «جنكيزخان» أن يوحد شتات هذه القبائل فى دولة واحدة تخضع لدستور واحد، واستغل قُوى هذه الأقوام والقبائل فى تكوين جيش قوى استطاع به - بعد ذلك - أن يطيح بالدول المجاورة له، الواحدة تلو الأخرى.

ثانيًا: سيطرة «جنكيزخان» على الدول المجاورة:

1 - الدولة الأويغورية وانضمامها إلى امبراطورية جنكيزخان:  
دخل «الأويغور» في طاعة ملك «الخطا»، الذى أرسل إليهم قوات من عنده لكنها أساءت معاملة الأهالى الأويغورين، فهاجمتها الأهالى وقضت عليها، فأرسل إليهم «ملك الخطا» قوة كبيرة تمكنت من إخضاع «الأويغور» لسطوتها، ونكلت بهم أشد أنواع التنكيل، فبعث «الأويغور» إلى «جنكيزخان» يطلبون منه المساعدة، فى الوقت الذى ثاروا فيه على جنود «الخطا»، وتمكنوا منهم وقتلوا رئيسهم، ثم دخلوا بعد ذلك تحت حماية «جنكيزخان» فى سنة (606هـ)، ونتيجة لذلك فقد شاع «الخط الأويغورى» بين أتباع «جنكيزخان»، وأصبحوا يدونون به سجلاتهم وكتاباتهم.

2 - سيطرة جنكيز على أقاليم الصين الشمالية:

لاحظ «جنكيزخان» أن ملوك «الصين» الشمالية يحاولون الوقيعة بين القبائل المغولية الخاضعة لسيطرته، ويعملون على تأليب أفراد هذه القبائل عليه وعلى قبيلته، فخرج إليهم على رأس جيش كبير، وأخذ معه كل أبنائه فى قيادة هذا الجيش، ودخل فى حروب متواصلة، بدأت فى عام (608هـ)، وانتهت فى عام (612هـ)، حين سيطر «جنكيز» على العاصمة «بكين»، واستولى على كنوز «الصين» ونفائسها، فارتقت حياة المغول، وصاروا يصنعون خيامهم من الحرير، ويرصعون سيوفهم بالجواهر.

وقد انتفع المغول من خبرات «الصين» العسكرية؛ إذ تمكن الصينيون من اختراع البارود، وتطوير آلات الحرب القديمة وعدتها، مثل «المجانيق» و «العراوات» وغيرها، مما مكنهم من فتح أحصن القلاع وأمنعها، وأصعب المناطق العسكرية، كما استفادوا من استيلائهم على «بكين» الأثر النفسى الذى تكوّن لدى الناس من المفاجأة التى

سيطرت عليهم حين سمعوا بأن مجموعة من القبائل البربرية الهمجية قد أطاحت بدولة كبرى مثل «الصين الشمالية»، ولم يستطع بعض الملوك تصديق هذا الحدث، مثلما فعل «محمد خوارزمشاه» الذي لم يصدق هذا الأمر حتى سنة (615هـ)، وبعث ببعض خاصته تحت رئاسة أحد العلماء في بعثة استكشافية للتحقق من صحة هذا الخبر، فلما تيقن من ذلك أبدى دهشته، ووقر في نفسه أن هذه القوة الوليدة لا بد أنها تمتلك قوة خارقة، وعليه أن يحتاط لذلك، وسيطر عليه هاجس امبراطورية المغولية الوليدة، وهكذا نُصر المغول بالرعب، وخافهم الملوك، ورؤساء الدول المحيطة بهم.

ثم عاد «جنكيزخان» من «الصين» إلى بلاده في سنة (618هـ)، لكي يطارد رؤساء القبائل الفارّين منه، والذين تسببوا في إحداث بعض الاضطرابات والمشاكل في بلاده.

### 3 - قضاء جنكيزخان على الدولة القراخائية:

فر عدد من رؤساء القبائل وأبنائهم من وجه «جنكيزخان» إبان المذابح التي قام بها أثناء محاولته توحيد شتات القبائل التركية المغولية، وكان من بينهم «كوجلوك خان» ابن ملك قبائل «النايمان» الذي هام على وجهه متوجّها نحو الغرب وبصحبه مجموعة من جنوده، حتى عبر حدود «الدولة القراخائية»، فتم القبض عليه وعلى من معه، وأمر «كورخان» ملك هذه الدولة بإيداعهم السجن.

وأثناء ذلك نشب نزاع بين القراخائيين والخوازميين، حيث امتنع السلطان «علاء الدين محمد خوارزمشاه» عن دفع الجزية السنوية التي كانت تدفع للدولة القراخائية»، وكان مقدارها ثلاثين ألف دينار، وكان السلاطين الخوارزميون يوصون أبناءهم بدفع هذه الجزية لهم؛ لأنهم يمثلون السد الذي يمنع عن بلادهم غارات القبائل الهمجية من جهة الشرق، فلما امتنع «محمد خوارزمشاه» عن دفع هذه الجزية، كان لا بد من قيام الحرب بين الطرفين.

استطاع «كوجلوك خان» - من سجنه - أن يخدع «كورخان» ملك «الخطا» ويقنعه بأنه خير معين له في حربه ضد «خوارزمشاه»، وأنه

يستطيع بسهولة أن يجمع جيشًا كبيرًا من الجنود الذين فروا أمام «جنكيزخان»، وأن بوسعه أن يلحق الهزيمة بخوارزمشاه. وكان «كورخان» في حاجة إلى من يساعده، فوافق على عرض «كوجلنك»، وأطلق سراحه، وأمنه، وسمح له بالخروج لجمع الجنود وتكوين الجيش، فما كان من «كوجلنك» إلا أن اتصل بمحمد خوارزمشاه واتفق معه على أن يجمع جيوشه ويهاجم القراخانيين جهة الشرق، في الوقت الذي يهاجمهم فيه الخوارزميون من الجهة الغربية، مقابل اقتسامها، فوافق «محمد»، وتم تنفيذ هذا المخطط، وتمكن «كوجلنك» من قتل «كورخان»، ثم تزوج ابنته بعد أن ارتد عن دينه إلى البوذية من أجل هذا الزواج. اضطهد «كوجلنك» المسلمين في المناطق التي سيطر عليها، وأخذ يُضيق عليهم، ويستولى على أرزاقهم، ويمنعهم من أداء شعائهم، ويهدم مساجدهم، ويمنعهم من رفع الأذان، ويحاول إرغامهم على ترك الدين الإسلامي واعتناق البوذية، فضح المسلمون من ذلك وطلبوا العون من «جنكيزخان»، فأرسل إليهم جيشًا بقيادة أحد قادته الكبار للتخلص من «كوجلنك»، وتمكن هذا الجيش ببراعة عسكرية فائقة من القضاء على جيش «كوجلنك» في وقت قصير جدا، وفر «كوجلنك» من أمام القائد المغولي، ولكن المغول تتبعوا خطواته حتى أدركوه، وقضوا عليه في سنة (615هـ).

دهش «محمد خوارزمشاه» من الطريقة التي تمكن بها القائد المغولي من السيطرة على «الدولة القراخانية»، في حين أنه كان يخشى بأس «كوجلنك» ويهابه، لدرجة أنه أمر سكان القرى الحدودية بينه وبين دولة «كوجلنك» بهجرها حين دب خلاف بينهما، خشية أن يهاجمه «كوجلنك»، فشعر بالقلق وسيطر عليه الخوف، خاصة أن بلاده أصبحت مجاورة لأملاك «جنكيزخان» بعد أن ساعد هو نفسه

في زوال «الدولة القراخانية» التي كانت بمثابة حائط الصد المنيع لبلادهم ضد غارات المغول البربر.

الخوارزميون والمغول:

حدث صدام بين السلطان «محمد خوارزمشاه» وفيلق من المغول في

(13/4)

سنة (612هـ) بعد أن تغلب المغول بقيادة «جنكيزخان» على جميع البلاد المتحضرة المجاورة لهم فلم يقصدوا بلدًا إلا فتحوه، حتى بلاد «الصين» التي ظلت في نظر القبائل المغولية أرضًا لا يمكن أن تستباح حرمتها بأية قوة، تمكن «جنكيزخان» من دخولها، وفتح «بكين» عاصمة «الصين الشمالية» في سنة (612هـ)، التي وقع فيها الصدام بين الخوارزميين والمغول حين قاد أحد زعماء القبائل الفارين من وجه «جنكيزخان» مجموعة من أبناء قبيلته وانطلق شمالًا، واستقر في منطقة قريبة من نفوذ الخوارزميين، فأرسل «جنكيزخان» ابنه «جوجي» (توشى) على رأس فرقة صغيرة من جنوده لتعقب هؤلاء الفارين، ففضى «جوجي» عليهم، ثم عاد أدراجه قاصدًا «منغوليا»، فالتقى في طريق العودة بجيش كان يقوده السلطان «محمد خوارزمشاه» بنفسه، فبعث «جوجي» إليه برسالة مؤداها أن المغول ما قدموا إلا من أجل دفع الثوار الخارجين، ولم يأتوا لمحاربة المسلمين، وليست عندهم أوامر بذلك، فلما قرأ «السلطان محمد» الرسالة ركبته الغرور، وأعلن الحرب عليهم، وهاجمهم، واستمرت الحرب سجالات بين الطرفين طيلة النهار حتى أتى الليل، فأشعل المغول النار في معسكرهم، ثم انسحبوا في جنح الليل، واكتشف السلطان أمرهم عند طلوع النهار، فأثر ذلك في نفسه وترك بداخله جرحًا عميقًا وخوفًا شديدًا، فقد رأى بنفسه ما يتمتع به هؤلاء المغول من مقدرة على خوض غمار الحروب.

فلما هاجم المغول بلاده - بعد ذلك - أخذ يتقهقر أمامهم بغير انتظام،  
وفقد القدرة على مواجهتهم ومنازلتهم، وقد استولت عليه الدهشة  
عندما سمع نبأ فتح المغول للعاصمة الصينية «بكين»، ولم يصدق  
ذلك حيث كانت «الصين» تتمتع بنظام إدارى وعسكرى فريد، وبعث  
«بهاء الدين الرازى» أحد أركان دولته لاستطلاع هذا الخبر، فلما  
تأكد «الرازى» من صحة الخبر، عاد إلى السلطان «محمد  
خوارزمشاه» ووصف له ما رأى خلال رحلته بقوله: «عندما وصلنا إلى

(14/4)

حدود طمغاج واقترينا من عاصمة التون خاتون (أى عاصمة أباطرة  
الصين الشمالية وهى بكين) تراءى لنا من مسافة بعيدة أكمة بيضاء  
عالية .. تلك الأكمة العالية تبعد عن المكان الذى كنا فيه نحو مسيرة  
ثلاثة أيام أو أكثر، فخيّل إلينا نحن مبعوثى خوارزمشاه أن تلك  
الأكمة العالية ربما كانت جبلا تكسوه الثلوج، فسألنا المرشدين  
وأهل المنطقة، فقالوا لنا: إنما هى مجموعة عظام الذين قُتلوا.  
وعندما تقدمنا مرحلة أخرى فى الطريق، كانت الأرض قد صارت لزجة  
سوداء (بسبب ما اختلط بها من دماء الأدميين) .. وعندما وصلنا إلى  
أبواب طمغاج وجدنا فى موضع أسفل برج القلعة عظاماً آدمية كثيرة،  
فاستفسرنا عنها، قيل:

إنه فى يوم فتح المدينة ألقى أهلها بعشرين ألف فتاة عذراء من  
هذا البرج، فهلكن هناك حتى لا يقعن فى أيدي جيش المغول، فهذه  
العظام كلها ما هى إلا رفات تلك الفتيات. وعندما شاهدنا  
«جنكيزخان» أحضروا أمامنا ابن التون خان (إمبراطور الصين)  
ووزيره مقيدىن .. ولدى عودتنا أرسلوا معنا إلى خوارزمشاه الكثير  
من التحف والهدايا، وقال لنا: قولوا لمحمد خوارزمشاه: إننى ملك  
مشرق الشمس، وأنت ملك مغرب الشمس، وبيننا عهد ومودة ومحبة

وصلح مستحکم، فليستمر التجار، ولتستمر القوافل رائحة غادية بين الطرفين، ولينقلوا إليك الطرائف والسلع التي في ولايتي، وبلادك أيضاً يكون لها نفس الحكم.

كان السلطان «محمد» -آنذاك- يشعر أنه في أوج قوته، فقد استطاع بسط سيطرته ونفوذه على «إيران» بأكملها عدا ولايتي «فارس» و «خوزستان»، وضم «العراق» وبلاد «ما وراء النهر» و «تركستان الشرقية»، وفكر - في وقت ما - في غزو بلاد «الصين» وضمها إلى حوزته، كما فكر في أن تكون له الهيمنة على «بغداد» والخلافة العباسية، كما كانت لسلاطين السلاجقة، ولكن أمله خاب في هذا الشأن حين هاجمت جيوشه العواصف والأمطار الغزيرة والثلوج، ومات عدد كبير من جنوده وهلكت خيوله في طريقه إلى غزو «بغداد»،

(15/4)

---

فعاد إلى بلاده خائباً منكسراً في سنة (614هـ)، فكانت هذه أول صدمة صادفته منذ ولي أمور الحكم في سنة (596هـ)، ولذلك قال أحد المؤرخين: «إن هيبة السلطان قد قلت في قلوب الناس بعد عودته من العراق، وعد الناس قصده دار الخلافة شؤماً عليه».

لم يعد «السلطان محمد» إلى بلاده مباشرة حين رجوعه من «العراق»، وإنما توجه إلى بلاد «ما وراء النهر»، واستقبل هناك وفداً من تجار المغول المسلمين، برئاسة «محمود الخوارزمي» الذي تنتمي أسرته إلى إقليم «خوارزم»، حاملاً رسالة من «جنكيزخان» إلى «السلطان محمد» يقول له فيها: «إن الخان الكبير (يعني جنكيز) يسلم عليك، ويقول: ليس يخفى عليّ عظيم شأنك، وما بلغت من سلطانتك، ولقد علمت بسطة ملكك، وإنفاذ حكمك في أكثر أقاليم الأرض، وأنا أرى مسالمتك من جملة الواجبات، وأنت عندي مثل أعز أولادى، وغير خافٍ عليك - أيضاً- أنني ملكت الصين وما يليها من

بلاد الترك، وقد أذعنت لى قبائلهم، وأنت أخبر الناس بأن بلادى  
منازات العساكر، ومعادن الفضة، وإنما لغنية عن طلب غيرها، فإن  
رأيت أن تفتح للتجار فى الجهتين سبيل التردد، عمت المنافع وشملت  
الفوائد.

شعر «السلطان محمد» بغيظ شديد تجاه هذه الرسالة، إذ كانت تحمل  
فى طياتها طابع التهديد والوعيد، فضلا عن الإهانة التى شعر بها  
حين اعتبره «جنكيزخان» فى منزلة الابن، وهذا يعنى التبعية  
للمغول، ومهما يكن من أمر فقد وافق «السلطان محمد» على إبرام  
المعاهدة التجارية التى عرضها عليه «جنكيزخان» إلا أنه سرعان ما  
قضى عليها بنفسه وهى مازالت فى مهدها، لشعوره بأنه مازال  
قويا، ويجب عليه ألا يعبأ بهؤلاء الهمج من المغول، فضلا عما عرف  
عنه من تكبر، وبغض للتواضع والتملق والمداهنة.

بعث «جنكيزخان» - ثانية- برسالة إلى «السلطان محمد»، وكان  
يحملها مجموعة من التجار وبصحبتهم عدد من أتباع «جنكيزخان»،  
وكانت القافلة كلها من المسلمين، ووصلت إلى مدينة «أترار» التى

(16/4)

تقع على حدود ممالك «السلطان محمد»، فطمع «نيال خان» حاكم  
هذه المدينة فى الهدايا التى تحملها هذه القافلة، وبعث إلى  
«السلطان محمد» يخبره بأمرهم، وشكه فى أنهم ربما يكونون  
جواسيس، فأمره السلطان بقتلهم على الفور، فقتلهم جميعًا إلا رجلا  
واحداً تمكن من الفرار، وذهب إلى بلاط «جنكيز» وأخبره بما حدث،  
فاستشاط غضبًا، وهاله الأمر.

كان «جنكيزخان» يظن أن «الدولة الخوارزمية» دولة قوية متماسكة،  
وليس بوسعه غزوها، إلا أنه أدرك أن الحرب مع الخوارزميين لا مفر  
منها، وعليه أن يترىث قليلا حتى يعد لذلك العدة، فبعث برسالة

يحملها وفد رسمي من أتباعه المسلمين إلى «السلطان محمد»، يقول له فيها: «إنك قد أعطيت خطك ويدك بالأمان للتجار ألا تتعرض لأحد منهم، فغدرت ونكثت، والغدر قبيح، ومن سلطان الإسلام أقبح، فإن كنت تزعم أن الذي ارتكبه نبال خان كان من غير أمر صدر منك، فسلم نبال خان إليّ، لأجازيه على ما فعل، حقناً للدماء، وتسكيناً للدهماء، وإلا فأذن بحرب ترخص فيها غوالي الأرواح».

رفض «السلطان محمد» احتجاج «جنكيزخان» كما رفض تسليم «نبال خان»، وأمر بقتل الوفد المغولي الذي حمل إليه الرسالة، وكان ذلك في عام (615هـ)، الذي بدأ «جنكيزخان» فيه الاستعداد لحرب الخوارزميين، ووضع خطة لذلك، وبدأها بتأمين ظهره من المناوئين لسلطته، وقضى على دولة «النايمان» وحاكمها «كوجلان خان»، فبات الطريق أمامه مفتوحاً لغزو «الدولة الخوارزمية».

تسرب القلق والحيرة إلى نفس السلطان «محمد»، وغلب عليه التوتر والخوف، وجفاه النوم، كلما سمع باقتراب المغول من بلاده، وأشار عليه بعض مستشاريه بجمع جيش كبير يقف به على ساحل «نهر سيحون»؛ ليحول دون عبور المغول إلى بلاد «ما وراء النهر»، ولكن الأمراء الخوارزميين أشاروا عليه بأن يستدرج المغول ويدعهم يعبرون إلى بلاد «ما وراء النهر»، ثم يستدرجهم إلى الجبال والممرات

(17/4)

---

التي يصعب عبورها، ثم ينقض عليهم بجيوشه من كل جانب، فراقت هذه الفكرة «السلطان محمد»، وفرق جيشه وأمراءه على المدن الرئيسية ببلاد ما وراء النهر.

ولبت محمد خوارزمشاه ينتظر المغول، ثم ترك جيوشه وقواده ببلاد «ما وراء النهر» وعاد إلى «خراسان» بسبب بعض الأمور الداخلية التي أقلقت، والتي كان من أبرزها سيطرة أمه وزيادة نفوذها على

البلاد والجيش، لدرجة أنها تفوقت عليه في النفوذ.  
فلما وصل «جنكيزخان» إلى بلاد «ما وراء النهر»، قسم جيوشه  
عليها، وتمكن من السيطرة على هذه المنطقة في وقت قصير،  
واستولت جيوشه على «أترار» و «بخارى» و «سمرقند»، وأمهات  
مدن بلاد «ما وراء النهر»، ولم يجد المغول المقاومة الشرسة التي  
انتظروها، فأدرك «جنكيزخان» حالة السلطان النفسية، وعمد إلى  
المبالغة في القتل والسلب والنهب ليزداد خوف الخوارزميين وغيرهم،  
وقتل سكان مدينة «أترار» عن بكرة أبيهم، وأحرق «بخارى» عن  
آخرها، وقتل كثيراً من سكانها، وأخذ من بقي منهم على قيد الحياة  
رقيقاً؛ ليستخدمهم في حروبه التالية، فجمع الخوارزميون أمرهم  
على بناء سور عظيم حول مدينة «سمرقند» آخر أمل لهم في الصمود  
والبقاء، ولكن المغول كانوا أسرع منهم ووصلوا إلى «سمرقند» قبل  
أن يشرعوا في بناء سورها، وتمكنوا من اقتحام هذه المدينة،  
فأغار «السلطان محمد» وأخذ يولى الأدبار من مكان إلى مكان،  
وأرسل بعض أتباعه لكي ينقلوا زوجاته وبنيه من «خوارزم» إلى  
«مازندان»، فانتقلت عدوى الخوف والاضطراب من السلطان الهارب  
إلى ثقاته وأتباعه ومستشاريه، واختلفت بينهم الآراء فيما ينبغي أن  
يقوموا به في سبيل إنقاذ ما يمكن إنقاذه، واستقر الأمر بالسلطان  
إلى أن اختار التوجه إلى بلاد العراق العجمى غربى «إيران»؛ لبيتعد  
بنفسه وجيشه قدر الإمكان عن هؤلاء الغزاة، ثم يستجمع قواه  
وجنوده، ويستعد للقاء المغول، وعاد من جديد وولى وجهه شطر  
الشمال الغربى إلى «نيسابور»، وأثناء ارتحاله سمع بسقوط

(18/4)

---

«بخارى» و «سمرقند» في أيدي المغول فزادت حالته النفسية  
سوءاً.

ومما لاشك فيه أن السرعة التي تمتعت بها جيوش المغول في الاقتحام والتوغل، كانت من العوامل التي تركت آثارًا نفسية بعيدة الغور في نفوس المسلمين، مثلها في ذلك مثل المذابح الرهيبة التي نصبوها بعد فتح المدن المحاصرة؛ وهي المدن التي تركوها خرابًا يبابًا، ليس فيها نفس واحد يتردد، كمدينة «نيسابور» التي قتلوا كل من فيها من الأحياء حتى القطط والكلاب، وبقروا بطون الحوامل، وأخرجوا الأجنة منها وذبحوها. ولاشك أنه كانت هناك أسباب أخرى أدت إلى حدوث هذه الحالة من الشلل التي أصابت تفكير الناس وحركتهم تجاه المغول أثناء غزوهم لبلادهم، فإلى جانب السرعة التي تمتع بها المغول في التحرك والقسوة المتعمدة، ساعد مظهرهم البغيض، وما كانوا عليه من عادات قبيحة كرهية على زيادة الرعب والفرع والقلق والخوف في قلوب الناس.

وكان المغول إذا أرادوا الإغارة على مدينة، بعثوا برسالة إلى أهلها ويختمونها بقولهم: «ولسنا نعلم ماذا تفعل بكم الأقدار إذا لم تسرعوا إلى تقديم الخضوع والاستسلام لنا، والله وحده هو الذي يعلم ما هو نازل بكم».

وهكذا نظر المسلمون إلى المغول وتصرفاتهم بالكثير من الاشمئزاز والنفور والكرهية، باعتبارهم غير خاضعين للمقاييس والمعايير الإنسانية الأساسية، ولذلك امتلأت نفوس الناس بالرعب منهم. تعرض «السلطان محمد» لمحاولة قتله على أيدي بعض المتمردين من قاداته قبل أن يدخل «نيسابور»، إلا أنه تمكن من النجاة، وسارع بالتوجه إلى «نيسابور»، فلما دخلها جاءته الأخبار بأن «جنكيزخان» بعث جيشًا كبيرًا في أثره للقضاء عليه، فانطلق بقواته المتبقية إلى الشمال الغربي، فما لبثت هذه القوات التي كانت تصاحبه أن انفرط عقدها، وتفرقت من حوله، واستطاع «السلطان محمد» أن يهرب بنفسه ومعه بعض أولاده إلى جزيرة منعزلة في «بحر قزوين»، ثم

اعتلت صحته، واهتدى الجيش المغولي الذي كان يطارده ويتعقبه إلى القلعة التي كانت تختبئ فيها زوجاته في «مازندان»، فاقنحوها وأسروا زوجاته، وقتلوا مَنْ وجدوه بالقلعة من أبنائه ورجاله، فلما علم «السلطان محمد» بذلك فقد وعيه، واستولى عليه القلق والاضطراب، وأخذ يبكي بكاءً مرا حتى وافاه أجله في سنة (617هـ) بعد أن استولى المغول على معظم أقاليم «إيران» وأحسنها.

وهكذا كان للعامل النفسي دوره واعتباره في حروب «جنكيزخان» على «الدولة الخوارزمية»، وهو دور لا يقل أهمية عن الدور الذي لعبته العوامل السياسية والعسكرية التي تسببت في هزيمة الخوارزميين واندحارهم أمام الغزاة.

السلطان جلال الدين المنكبرتي وجهاده ضد المغول:

المرحلة الأولى من جهاد جلال الدين:

كان السلطان «محمد خوارزمشاه» - قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة - قد منح ولاية العهد لابنه الأكبر «جلال الدين»، المعروف باسم «منكبرتي» بدلا من ابنه «أوزلاغ» المعروف باسم «قطب الدين»، وتوجه «جلال الدين» - عقب وفاة أبيه - إلى «خوارزم»، فقبول بمعارضة شديدة من أترك «القنغلي» الذين يتكون منهم عصب الجيش، حيث كانوا يرغبون في أن يكون «غياث الدين» سلطانهم؛ لأن أمه من طائفتهم، ولم يكتفِ هؤلاء الجنود بالمعارضة، بل دبروا لقتل «جلال الدين»، إلا أنه تمكن من الفرار بأتباعه عبر الصحراء إلى «غزنة»، التي كان هو واليها في عهد أبيه، ويعرفه الناس هناك ويحترمونه ويقدرون كفاءته العسكرية وأعماله البطولية. واستطاع هناك تكوين جيش كبير بلغ ثلاثين ألف مقاتل، وانضمت إليه الفلول التي كانت هاربة من المغول، وبذلك ألحق هزيمة كبيرة

بمقدمة أرسلها المغول للبحث عنه في هذه المنطقة في سنة (618هـ).  
خشى «جنكيزخان» أن يتسع نفوذ «جلال الدين» فأرسل جيشًا  
كبيرًا بقيادة أحد كبار القادة المغول لمحاربته، فالتقى الجيشان  
بالسهول القريبة من «بروان»، واستطاع «جلال الدين» أن يلحق

(20/4)

هزيمة ساحقة بالجيش المغولي، وسمع الناس بذلك ففرحوا فرحًا  
شديدًا، وثار أهالي «هراة» في وجه رئيس الحامية المغولي وقتلوه  
هو وجنوده، فبعث «جنكيز» بابنه «تولوي» إلى هذه المدينة،  
فدمرها وقتل جميع سكانها، وخرج «جنكيز» بنفسه على رأس جيش  
كبير لملاقاة «جلال الدين»، في الوقت الذي حدث فيه خلاف بين  
اثنين من قادة «جلال الدين» على توزيع الغنائم، وانسحب أحدهما  
بجنوده تاركًا «جلال الدين» في هذه الظروف الحرجة، فاضطر إلى  
الانسحاب بجنوده صوب بلاد «الهند» - حين سمع بقدم المغول - ولكن  
«جنكيز» أدركه، ودارت بينهما معركة حامية؛ أبلى فيها «جلال  
الدين» بلاءً حسنًا، ولكن جيش «جنكيز» كان أقوى عدة وأكثر عددًا  
فأدرك «جلال الدين» أنه لا فائدة من القتال، وانطلق صوب «نهر  
السند» وعبره بجنوده، فلم يصل منهم إلى الجانب الآخر من النهر إلا  
أربعة آلاف فارس، وبقي «جلال الدين» في بلاد «الهند» بضع سنوات  
(618 - 622 هـ)، ثم عاد بعدها إلى إيران.  
وفاة جنكيزخان وتقسيم الإمبراطورية المغولية:

بعد أن سيطر «جنكيزخان» على كل المنطقة الشرقية من العالم  
الإسلامي، وعين عليها ولاية من قبله؛ عاد إلى بلاده، ثم تُوفي في  
سنة (624هـ)، فعقد المغول مجلسًا عامًا للمشاورة فيمن خلفه على  
العرش، واتفقوا على أن يتولى العرش «تولوي» أصغر أبنائه، ثم  
قسمت - بعد ذلك - الأراضي التي سيطر عليها المغول بين أبناء

«جنكيز» الأربعة:

جوجى: واختص بالجزء الواقع «جنوب روسيا» الحالية، ويبدأ من جنوب «بحر قزوين» في الغرب حتى سواحل «نهر آرتش» في الشرق، وكان اسم هذه البلاد «القبجاق»، وعرف أبناء «جوجى» باسم «القبيلة الذهبية» نسبة إلى المخيمات التي اتخذوها لأنفسهم بلون الذهب.

جغتاي: واختص بالقسم الذى يضم بلاد «الأويغور» ومنطقة بلاد ما وراء النهر.

أوكتاي: واختص بجزء صغير في غربي منغوليا.

تولوى: واختص بالمنطقة الأصلية التي عاش فيها المغول.

(21/4)

ثم ما لبث المغول أن اختاروا «أوكتاي» إمبراطورًا أعظم للمغول في سنة (626هـ).

المرحلة الثانية من كفاح جلال الدين:

انتهز «جلال الدين» فرصة انشغال المغول عن البلاد الفارسية بعد وفاة «جنكيز» وانطلق بجيشه نحو «إيران»، وعبر «نهر السند»، ودخل في حروب عديدة مع من رأهم سببًا فيما حلّ بالدولة الخوارزمية، فحارب «الأتابكة» في «فارس» و «كرمان» و «يزد»، ثم حارب الخليفة العباسى، وانتصر عليهم جميعًا، ولكن مجموعة من الولاة الذين يحكمون بلاد «ما وراء النهر» بقيادة «الملك الأشرف الأيوبي» في «الموصل»، تمكنوا من إلحاق الهزيمة بجلال الدين، فاستغل «الإسماعيلية» الفرصة وأرسلوا إلى «أوكتاي» إمبراطور المغول يخبرونه بأن الحلف العربى هزم «جلال الدين»، وقد أقدم «الإسماعيلية» على ذلك لأن «جلال الدين» حاربهم من قبل وانتصر عليهم، فجرد «أوكتاي» جيشًا كبيرًا قوامه (50) ألف جندى بقيادة

أشهر قواده «جرماغون»، الذى تمكن من مطاردة «جلال الدين» وتفريق جيشه، ففر «جلال الدين» فى سنة (628هـ) إلى «الجبال الكردية» الواقعة فى منطقة «جبال بكر»، فقتله هناك أحد الأكراد حين عرف أنه السلطان، ثاراً لمقتل أخيه على يد جيش «جلال الدين» فى إحدى الحروب.

غزو هولوكو لغرب إيران وقضاؤه على الخلافة العباسية:  
هولوكو والإسماعيلية:

بعد سلسلة من الصراعات على السلطة بين أمراء البيت الملكى، انتقل الحكم إلى بيت «تولوى بن جنكيزخان، وتولى «منكوقا آن بن تولوى» الحكم فى سنة (648هـ)، وعمل منذ تسلم أمور الحكم على تنفيذ التوجهات التوسعية التى كانت تضطرم بها نفوس المغول، فأرسل أخاه «قويلاى» على رأس جيش كبير للسيطرة على جنوب «الصين» ومنطقة «جنوبى شرق آسيا»، وأرسل أخاه الأصغر «هولوكو» إلى «إيران» وبقية العالم الإسلامى للسيطرة عليها، وحدد له هدفين هما:

1 - القضاء علىالإسماعيلية.

2 - القضاء على الخلافة العباسية.

(22/4)

---

تحرك «هولوكو» من «سمرقند» فى سنة (653هـ) وأرسل طليعة جيشه لاستكشاف قلاع «الإسماعيلية» ومهاجمة بعضها؛ حيث كان «الإسماعيلية» يقيمون قلاعهم على قمم الجبال، بحيث يصبح مهاجموهم تحت سيطرتهم مباشرة، فإذا ما هاجمهم جيش أرسلوا عليه وابلا من السهام والحجارة لإعاقة حركته، ومنعه من الصعود، فلا يصل إليهم، وكانت أهم هذه القلاع التى يحتفظون فيها بالمؤن الكثيرة، قلاع: «الموت»، و «ميمون در»، و «لنبه سر» وكردكوه.

أرسل «هولاكو» قائده «كيتبوقا نوين» لفتح قلعة «كردكوه»  
فاستعصت عليه، فسار «هولاكو» بنفسه لفتحها في أواخر سنة  
(653هـ)، إلا أنه لم يتمكن منها، وفتح بعض القلاع الصغيرة، فحل به  
وبجنوده اليأس، خاصة وقد حل شتاء سنة (654هـ)، وقلت الأغذية،  
وتعرضت جيوشه للهجمات الفدائية التي قتلت الكثيرين من الجنود،  
فعمد «هولاكو» إلى الحيلة وسياسة الترغيب والترهيب، فنجحت  
حيلته، وبعث إليه «ركن الدين خورشاه» ملك «الإسماعيلية» برسالة  
يعلن فيها استعدادده للتسليم، فوافق «هولاكو» وأمنه، وسلم  
«خورشاه» نفسه في سنة (654هـ) وقتله المغول بعد فترة قصيرة،  
ثم سيطروا على قلاع «الإسماعيلية» وأطرافها، واتخذ «هولاكو» من  
الفيلسوف والعالم الفلكي الرياضي «نصر الدين الطوسي» الذي كان  
يعيش مع «الإسماعيلية» في قلاعهم؛ مستشاراً له ووزيراً.  
هولاكو وسقوط الخلافة العباسية:

بعد أن قضى «هولاكو» على «الإسماعيلية»؛ توجه بجيش كبير نحو  
الغرب، وبعث برسالات التهديد إلى الخليفة العباسي؛ فرد عليه  
بالأسلوب نفسه اعتقاداً منه أن حكام الدول الإسلامية سيقفون إلى  
جواره في صد الخطر المغولي عن رمز العالم الإسلامي، فاستشار  
«هولاكو» «نصر الدين الطوسي» فزين له الهجوم على «بغداد»،  
فحاصرها في شهر المحرم سنة (656هـ)، فخرج «الدواتدار» قائد  
الجيش العباسي على رأس قوة كبيرة في محاولة لفك الحصار  
المغولي، فخدعه المغول وأوهموه أنه انتصر عليهم، وأخذوا

(23/4)

---

يتراجعون إلى الخلف، فتوغل جنوده بعيداً عن أسوار «بغداد»،  
فأطبق عليه المغول من كل جانب وحاصروه وفتكوا بجنوده، وتمكن  
من الفرار بأعجوبة مع عدد قليل من جنوده، وعاد بهم إلى بغداد.

عمد «هولاكو» إلى إغراء الخليفة العباسي «المستعصم بالله» بالوعود الكاذبة، فسلم الخليفة نفسه وأهله وأمواله إلى «هولاكو»، فأمر بقتله؛ ثم دخل المغول «بغداد»، واستباحوها، وهدموا أكثر مبانيها، وقتلوا نحو مليون شخص، وجمع المغول كل الكتب والمخطوطات التي كانت موجودة بمكتبة «بغداد»، وألقوها في «نهر دجلة» لتكون جسراً يتمكن الجنود بواسطته من عبور النهر إلى الجانب الآخر، وهكذا سقطت «بغداد» بعد أن ظلت أكثر من خمسة قرون (132 - 656هـ) حاضرة المسلمين، ومنارة العلم والحضارة للعالم الإسلامي، وترتب على ذلك انتقال مركز الخلافة من «بغداد» إلى «مصر» في سنة (659هـ)، وفقدت اللغة العربية سيادتها في «إيران» والمشرق الإسلامي، وعادت الفارسية ثانية واحتلت الرقعة العلمية والثقافية في هذه البلاد، كما كان لسقوط «بغداد» رنة فرح شديدة عند النصارى، الذين أشادوا بهولاكو وهللوا له؛ لأنه خلصهم من منافسهم الخطير المتمثل في الخلافة الإسلامية، غير أنهم ندموا على سقوط هذه الخلافة بعد ذلك، حين تبين لهم سماحة المسلمين في المعاملة ووفائهم بالعهد، وهذه الصفات لم يكن المغول يتمتعون بها، ولا يعرفون عنها شيئاً.

هزيمة المغول في عين جالوت:

توقف «هولاكو» ببغداد فترة، ثم أرسل جيشاً بقيادة قائده «كيتبوقا» (أو «كتبغا» كما يسميه المؤرخون العرب) للسيطرة على «فلسطين» و «مصر» في سنة (658هـ)، وكان يحكم «مصر» - آنذاك - «سيف الدين قطز»، وعلم بمقدم المغول، فتأهب بجيشه بقيادة «ركن الدين بيبرس» (الظاهر بيبرس البندقدارى) للدفاع عن «فلسطين»، والتقى بجيش المغول في منطقة «عين جالوت» في رمضان سنة (658هـ)، وأسفرت المعركة عن هزيمة منكرة لحقت بالمغول، لأول

مرة منذ عهد السلطان «جلال الدين الخوارزمي»، وتم أسر قائد الجيش المغولي «كتبغا» ثم قتله، فكان لهذه المعركة عدة نتائج من أهمها: أنها حالت دون تقدم المغول إلى «مصر»، وقضت على خرافة الجيش المغولي الذي لا يُقهر، وتبدو أهمية هذه المعركة إذا ما تصورنا أن الهزيمة هي التي حلت بالمسلمين، فلا شك أن المغول كانوا سيقضون على آخر معقل للإسلام في فلسطين ومصر. وأدى نجاح المصريين في هذه المعركة إلى إدراك الأهمية الكبرى للوحدة بين «مصر» وبلاد الشام، وإلى توطيد العلاقات بين المماليك في «مصر» والشام وحكام منطقة «القبجاق»، الذين كان يحكمهم -آنذاك- «بركة خان بن جوجي بن جنكيزخان»، الذي اعتنق هو ورعيته الإسلام، وطلب العون من المماليك في «مصر»، لكي يقفوا إلى جانب بلاده ضد «المغول الإيلخانيين» الذين كانوا يحكمون «فارس»، ولاشك أن هذه المعركة أكسبت «القاهرة» مكانة ممتازة في الجانب السياسي، إلى جانب ما كانت تتمتع به من مكانة حضارية وثقافية وعلمية.

ولقد ارتد المغول على أعقابهم بعد ذلك وانحصر مدهم، وتقلص نفوذهم حتى حدود منطقة «العراق»، وانشغل «هولاكو» بالحروب الكثيرة التي دخلها مع «بركة خان»، ولم يستطع أن يتفرغ للنثار من المصريين الذين هزموه في «عين جالوت»، حتى مات في سنة (663هـ)، بعد أن عين «شمس الدين محمد الجويني» وزيراً، وعهد إلى أخيه «علاء الدين الجويني» بحكم «بغداد». وظل المغول في حدود منطقة «العراق» حتى أقاموا دولتهم الجديدة التي عُرفت باسم «الدولة الإيلخانية» في «إيران» و «العراق» وآسيا الصغرى.

## الفصل الثالث

### \*الدولة الجغتائية

[624 - 760 هـ = 1227 - 1358 م].

### النشأة والتكوين:

تنسب «الدولة الجغتائية» إلى مؤسسها «جغتاي» الابن الثاني لجنكيزخان الذى أصبح ولى عهده بعد وفاة أخيه الأكبر «جوجى» فى حياة والدهما، فلما مات «جنكيزخان» فى سنة (624هـ = 1227م)، آلت إلى «جغتاي» أملاك «الدولة الجغتائية» (خانات جغتاي)، التى تُعرف باسم: «منطقة التركستان»، وهى تعتبر حداً فاصلاً بين دولة «القبجاق» ودولة الخاقانات. حكم «جغتاي» مؤسس هذه الدولة منذ وفاة والده فى عام (624هـ = 1227م) إلى عام (639هـ = 1242م)، وكان رجلاً حازماً وصارماً وعنيفاً، ذلك لأنه كان المسئول عن تنفيذ اليباسا، وقد اشتهر بسوء معاملة المسلمين، وتعطشه لسفك دمائهم.

### ثورة تارابى:

تنسب هذه الثورة إلى زعيمها «محمود الترابى»، الذى كان يعمل صانعاً للغرابيل، بقرية «تاراب»؛ أقدم قرى مدينة «بخارى»، وهدفت هذه الثورة - التى أطلق عليها بعض المؤرخين الفرس: حركة شعبية - إلى رفض الحكم المغولى، واعتمدت على الدين كأساس لها فى ذلك، فالثف الناس حولها، على الرغم من أن دعايتها اعتمدوا على الخرافات، وادعوا اتصالهم بالأرواح، إلا أن انضمام «شمس الدين الحبوبى» أحد علماء «بخارى» إليها أكسبها قوة؛ إذ كان على خلاف مع أئمة «بخارى»، فساند «محمود تارابى» زعيم الثورة، وذكر له أن أباه قرأ فى أحد الكتب نبوءة مفادها: أن رجلاً سيظهر ببخارى، سيكون فتح العالم على يديه، وأن مواصفات هذا الرجل تنطبق على «محمود تارابى»، وأكد المنجمون صدق ذلك، وأعلنوا أن نجم «محمود تارابى» قد بزغ، وأن الحظ سيحالفه، ولأن هذه

المعتقدات كانت سائدة آنذاك، فقد اهتم الناس بأقوال المنجمين،  
والنفوا حول زعيم هذه الثورة، وحققوا انتصارات كبيرة، ودخلوا  
«بخارى»، غير أن المغول تمكنوا من صد الثورة ومقاومتها، وسقط  
«التارابي» و «محبوبي» صريعين، فأعلن الثوار «محمدًا» و «عليًا»،

(26/4)

أخوى «تارابي»، زعيمين للثورة، فعزز المغول قواهم، وتمكنوا من  
القضاء على هذه الثورة، وقبضوا على الثائرين، وأرادوا معاقبتهم،  
ولكن «محمود يلواج» استطاع الحصول على العفو لهم من قادة  
المغول.

العلاقات الخارجية:

كانت دولة «خانات جغتاي» دولة تابعة للدولة الأم التي أسسها  
«جنكيزخان»، وكانت ذات علاقة حدودية بين هذه الدولة الأم (دولة  
الخاقانات) من جانب، ودولة «القبجاق والإيلخانية» من جانب آخر؛  
ولذلك فقد دخلت في صراعات طويلة مع هذه الدول بسبب موقعها  
المتوسط بينها، ولم تكن صراعاتها من أجل التوسعة أو الوصول إلى  
حكم دولة مغولية أخرى، وإنما كان صراعًا على عرش «دولة  
الخاقانات»؛ فعندما توفي «متكوقا آن» الحاكم الأعظم (الخاقان) (4)  
لدولة «خاقانات المغول»، كان ابنه «قويلاي» يقود الجيوش ببلاد  
«الصين» لتوسعة أملاك «دولة الخاقانات» بها، وكان «أريق بوقا»  
في «قراقورم» عاصمة الدولة، وتم إعلانهما خاقانين على البلاد  
خلفًا «لمتكوقا آن»، وحيث إن «قراقورم» كانت منطقة فقيرة، فقد  
أراد «أريق بوقا» أن يوفر لقواته ما يلزمهم، وأغار على «الدولة  
الجغتائية»، وأخضع حاكمها «آلغو بن بايدار بن جغتاي» تحت  
سلطانه ليأمن شره، ويضمن عدم تحالفه مع غيره، ولكن ذلك لم يتم؛  
فقد انقلب عليه حاكم «الدولة الجغتائية» وانضم إلى «قويلاي قا

آن» حين عاد من «الصين»، واعترف به خاقانًا للمغول، فاضطر  
«أريق بوقا» إلى الاستسلام لخصمه «قويلاي»، الذى انفرد بحكم  
دولة الخاقانات وأسس بها حكمًا جعله لأسرته، التى عُرفت فى  
التاريخ باسم (أسرة اليوان).  
وهكذا دخلت «الدولة الجغتائية» فى صراع لم تكن سببًا فى حدوثه،  
بل لم تسلم من الصراعات بعد ذلك، فقد دخلت فى صراع مع  
«قايدوخان» (وهو من نسل أوكتاى قا آن)، بتحريض من «بركة  
خان» حاكم «القبجاق»، ودارت الحروب سجالًا بين الطرفين إلى أن  
مات «ألغو بن بايدار» حاكم «الجغتائين»، فاعتلى «مباركشاه»

(27/4)

---

عرش الدولة فى عام (662هـ = 1264م)، ولكنه لم يلبث طويلًا فى  
الحكم، إذ استطاع «براق خان» الاستيلاء على العرش فى عام  
(664هـ = 1266م)، بمساعدة «قويلاي قا آن» خاقان المغول، وذلك  
يؤكد أن العلاقة الخارجية لهذه الدولة كانت ذات صلة وثيقة بالسياسة  
الخارجية لدولة خاقانات المغول.  
مظاهر الحضارة فى الدولة الجغتائية:  
تُعد «بخارى» أعظم مدن «الدولة الجغتائية»، وكانت حاضرتها التى  
يشار إليها بالبنان ضمن بلاد «ما وراء النهر»، إذ كانت تزخر بالأبنية  
الفخمة، والحدائق الغناء، والبساتين والمنتزهات والثمار الكثيرة،  
التي يعد البرقوق أشهرها حتى الآن، كما كانت سوقًا ومركزًا  
تجاريًا مهمًا، فيها مصانع للحزير والديباج، وأخرى للمنسوجات  
القطنية، وكذلك كانت ذات مكانة خاصة فى العالم الإسلامى، ولم  
يضارع «بخارى» فى كل ذلك سوى «سمرقند» بأصغر حجمها  
وفنواكها، ومصنوعاتها من الجلود، والمنسوجات القطنية.  
ولعل القارئ يتساءل كيف انتعشت الحضارة فى «بخارى»

و «سمرقند» مع ما لحق بهما من دمار عمّ بلاد «ما وراء النهر» أثناء الغزو المغولي؟ خاصة وأن أحد البخاريين الذين فروا من الدمار الذي لحق بمدينته أخبر عن حالها - بالفارسية- حين سئل عن ذلك بقوله: «آمدند وکندند وسوخستند وکشتند وبردند ورفتند». وترجمة ذلك:

جاءوا، ودمروا، وأحرقوا، وقتلوا، ونهبوا، ثم رحلوا. فكانت إجابته تصويرًا لما لحق بهذه المدينة التي خرّجت العلماء الأجلاء، ولم تكن «سمرقند» بأسعد حظا منها، ولكن لم تمضِ عدة سنوات حتى استعادت هذه المناطق رونقها وبهاءها، لوفرة المحاصيل الزراعية بها، ولرغبة المغول في كسب ود هذه البلاد؛ لأنها مركز الثورات، وحركات التمرد والعصيان ضدهم، لذا تمكنت هذه البلاد من استرداد قوتها وإعادة بنائها مرة ثانية. ولقد شهدت بلاد «ما وراء النهر» فترة ازدهار حضارى على يد حاكمها «مسعود يلواج» في ظل «الدولة الجغتائية»، وبنى ببخارى

(28/4)

---

مدرسة نسبها إليه هي «المدرسة المسعودية»، فدمرها الإيلخانيون في عام (1273م)، فأعاد البخاريون بناءها ثانية، ودفن بها «مسعود يلواج» في عام (1289م). ولم يقتصر مجهود «يلواج» على «بخارى» وحدها، بل تعداها ليشمل منطقة حكمه كلها، وشيد «بكاشغر» «مدرسة مسعودية» أخرى، وبذا تمكنت بلاد «ما وراء النهر» من الصمود أمام غزوات المغول عليها، وأن تعيد بناءها بفضل موقعها ومناخها، وبفضل حكامها الذين عملوا على تأسيس الحضارة فيها وبنائها.

(29/4)

## الفصل الرابع

\*الدولة الإيلخانية في إيران والعراق

[654 - 744 هـ = 1256 - 1344 م].

تعود تسمية الدولة الإيلخانية بهذا الاسم إلى هولوكو خان الذي لُقّب بإيلخان، وهي كلمة مكونة من مقطعين «إيل» بمعنى تابع، و «خان» بمعنى ملك أو حاكم، والمقصود أن حاكم الدولة الإيلخانية تابع للخان الحاكم في قراقورم.

1 - آباقا خان:

يعد «هولوكو» المؤسس الأول لسلسلة سلاطين المغول في «إيران» و «العراق» الذين ظلوا يحكمون هذه البلاد من سنة (654هـ) حتى سنة (756هـ)، وقد تُوفّي «هولوكو» سنة (663هـ)، وخلفه ابنه «آباقا خان» في حكم البلاد، التي امتدت من «نهر جيحون» حتى «العراق العربي» غربًا، ومن جنوبي روسيا شمالًا حتى «البحر العربي» جنوبًا.

وقد جنحت الدولة الإيلخانية منذ إنشائها إلى الاستقلال عن العاصمة المغولية، في أمور السياسة والحكم - منذ عهد «آباقا خان» - وكان حكامها مستقلون تمامًا عن العاصمة قراقورم.

وساعد البعد الجغرافي الذي يفصل بين «منغوليا» والإيلخانيين في «إيران» و «العراق»، على أن يتخذ الإيلخانيون أساليب وعادات ونظمًا وغير ذلك من التقاليد الحضارية التي كانت موجودة في «إيران»، والتي لم يعهدها المغول من قبل، فأصبح الإيلخانيون وكأنهم من ملوك الفرس.

اتخذ «آباقا» من «تبريز» عاصمة له، فاحتلت في عهده مكانة ممتازة، وجعل «آباقا» قائده الأمير «سونجاق» واليًا على «العراق» وإقليم «فارس»، ففوض هذا الأمير بدوره المؤرخ «علاء الدين عطا

ملك الجويني» في حكم «العراق»، وعهد «آباقا» بمنصب الوزارة إلى «شمس الدين محمد الجويني» أخي «علاء الدين»، فكانا سبباً من أسباب ازدهار دولة «آباقا»، وعلى الرغم من الجهود الذى بذلها الجوينيون في خدمة هذه الدولة وتوطيد أسسها، ودعم أركانها، فإنهم تعرضوا - في نهاية الأمر - لنكبة تشبه نكبة البرامكة عندما تكاثرت عليهم الأعداء والخصوم، وقتل الجوينيون جميعاً في عهد

(30/4)

«أرغون» سنة (683هـ) الذى قضى على جميع أفراد هذه الأسرة. تزوج «آباقا» ابنة امبراطور «القسطنطينية»، فتوطدت علاقته بالنصارى، وأكثر من القساوسة في بلاطه، على الرغم من أنه كان إلى ذلك الوقت وثنياً، وحرص المسيحيون على مداينة المغول واجتلابهم نحو المسيحية؛ أملاً في انضمام هؤلاء المخارين الأشداء إلى صفوف النصارى ومحاربة أشد أعدائهم، المسلمين. وفي الوقت نفسه كان «آباقا» يريد من وراء توطيد علاقته بالمسيحيين أن يحصل على معاونتهم في حربه ضد المسلمين، وخاصة المماليك، ليثأر لهزيمة المغول أمامهم في «عين جالوت»، غير أن محاولاته ذهبت جميعها عبثاً، ولحقت به الهزائم في كل مرة التقت فيها جيوشه بجيوش المماليك بقيادة «الظاهر بيبرس»، وكانت معركة «أبلستين» التى قامت بين الطرفين في عام (675هـ) من أهم المعارك التى دارت بين الجانبين، وانتصر فيها المماليك في «مصر» و «الشام» انتصاراً حاسماً، ثم توفى «آباقا» في سنة (680هـ).  
2 - أحمد تكودار [681 - 683هـ]:

كان «آباقا خان» يريد أن يخلفه عن العرش ابنه «أرغون» لكنه لم يستطع لأن هذا الإجراء كان يعد مخالفة كبيرة لأحكام الدستور المغولى الذى وضعه جنكيز الذى يسمى «الياسا»، فقد كان يتعين

إذا مات الخان أن يخلفه على العرش أكبر الأمراء الأحياء، ولقد كان أكبرهم هو «تكودار» وليس «أرغون»، ولذلك أجمع الأمراء المغول الذين اجتمعوا في المجلس العام الذي يسمى «قوريلتاي» وقرروا انتخاب «تكودار» إيلخاناً في سنة (681هـ).  
اعتنق تكودار المسيحية في صغره، لكنه مال إلى الإسلام شيئاً فشيئاً؛ لكثرة اتصاله بالمسلمين، وتوطيد علاقته بعظماء المسلمين وكبار أئمتهم، فأعلن إسلامه، وسمى بالسلطان «أحمد تكودار»، فكان أول من اعتنق الإسلام من الإيلخانيين.  
كان إسلام السلطان «أحمد» عاملاً قويا في تهذيب طباعه وتقوم خلقه، ولم يعد ذلك المغولى الذى كان كل همه سفك دماء المسلمين

(31/4)

وتخريب ديارهم، وإنما أصبح يرى المسلمين إخوته، ويجب أن يحل بينهم الوثام؛ لذا تبادل الرسائل الودية مع السلطان «قلاوون» سلطان الممالك في «مصر»، ففضى بذلك - مؤقتاً - على الأحقاد والضغائن، ولم تحدث حروب بين الجانبين، وكذلك كان لإسلام «أحمد تكودار» أثر كبير في «إيران»، فقويت شوكة المسلمين، وعادت المعابد البوذية وكنائس النصارى إلى مساجد كما كانت من قبل؛ ووصل المسلمون إلى المناصب الرئيسية في الدولة، وتطلع أبناء البلاد الأصليين من الفرس إلى شغل المناصب الإدارية بالدولة المغولية. ونتيجة لذلك كله خاف أمراء المغول على مصالحهم الشخصية - خاصة أن السلطان كان يحرص على خطب ودهم - وبخاصة الأمير «أرغون» الذى كان يطمع في العرش فنار على السلطان «تكودار» وتمكن من قتله في سنة (683هـ)، وضعفت بذلك شوكة المسلمين في «إيران» ثانية.

3 - أرغون خان [683 - 690هـ]:

بعد مقتل السلطان «أحمد» اجتمع الأمراء المغول ونصبوا الأمير «أرغون ابن آباقا» إيلخاناً عليهم في جمادى الآخرة سنة (683هـ)، فنصب ابنه «غازان» حاكماً على «خراسان» وعين الأمير «نوروز» نائباً له عليها، وأنعم على الأمير «بوقا» بلقب «أمير الأمراء»، وأطلق يده في تسيير شئون الدولة، وقتل الوزير «شمس الدين الجويني» وجميع أفراد أسرته تقريباً في شعبان سنة (683هـ)، وذلك لموقفهم مع السلطان «أحمد تكودار» ومساندتهم له في المعركة التي دارت بينه وبين أفراد المغول بقيادة الأمير «أرغون»؛ والتي انتهت بمقتل السلطان وتنصيب الأمير سلطاناً. وزارة سعد الدولة اليهودي:

بعد مقتل الوزير الجويني «شمس الدين» ازداد نفوذ الأمير «بوقا» إلى حد كبير، وأصدر «الإيلخان» قراراً يقضى بأنه ليس لأحد في الدولة الحق في محاسبة الأمير «بوقا» - حتى إذا ارتكب أكبر الجرائم - إلا السلطان نفسه، ولاشك أن هذه السلطة المطلقة التي حصل عليها «بوقا» جعلته يميل إلى الاستبداد والبطش والهيمنة على شئون

(32/4)

---

الدولة، ولم يبقَ للسلطان (الإيلخان) إلا الاسم فقط. لم يقتصر عداء «بوقا» على المسلمين وحدهم بل امتد بطشه إلى أمراء المغول أنفسهم، كما أنه لم يكن على دراية كافية بشئون البلاد الإدارية والمالية، فأدى ذلك إلى حالة من الفوضى والارتباك في البلاد، وقد أثار ذلك حنق الأمراء المغول وغضبهم وجعلهم يفكرون في التخلص منه، فحرضوا الإيلخان «أرغون» على التخلص من الأمير بوقا.

وكان من أشد أعداء هذا الأمير طبيب يهودي يدعى سعد الدولة وكان اجتماعياً؛ يكثر الاختلاط بالناس ويوسع دائرة معارفه بينهم،

كما كان ملما بأحوال الموظفين والصارفة في «بغداد»، ويجيد عدة لغات، ويعمل بالطب الذي كان وقفًا في بلاد الإيلخان على اليهود وحدهم، ولذا عملوا على التدخل في شئون الدولة من خلال عملهم، وحملوا الإيلخان «أرغون» على تعيين «سعد الدولة» طبيبًا لبلاطه، وتصادف أن اعتلت صحة الإيلخان، ومرض مرضًا شديدًا، وتمكن «سعد الدولة» من معرفة الدواء المناسب لمرضه، فشفى «الإيلخان»، وكافأ «سعد الدولة» وقربه منه، وزاد قدره عنده، فاستغل الطبيب ذلك، وأخذ يشى بالأمير «بوقا» ويزين للسلطان التخلص منه، حتى أوغر صدره ضده، فأمر السلطان بالقبض على «بوقا» وقتله بتهمة التآمر على السلطان، وتعيين الطبيب «سعد الدولة» وزيرًا له على البلاد. استطاع الوزير سعد الدولة أن يستميل إليه قلوب الناس برفع المظالم عنهم، وإجراء الصدقات على فقرائهم ومحتاجيهم، فمدحه الشعراء، وقصد بابَه الأدياء والعلماء، ولكنه لم يكد يطمئن إلى ثبات مركزه في الدولة، وارتفاع منزلته عند السلطان حتى أخذ يكيد للمسلمين ويعمل على التضييق عليهم، فضاقوا به وتحينوا الفرصة للخلاص منه، كما ضاق به الأمراء المغول لاستبداده بالحكم، وقضائه على ما كانوا يتمتعون به من نفوذ، وانتظروا كذلك الفرصة للقضاء عليه، فمرض «أرغون» فجأة، واشتد عليه المرض، وحاول الأطباء برئاسة «سعد

(33/4)

---

الدولة» معالجته وإنقاذه بكل السبل، ولكنهم عجزوا عن ذلك، فقبض الأمراء المغول على «سعد الدولة» وقتلوه في شهر صفر سنة (690هـ)، ولم يلبث الإيلخان بعده إلا فترة قصيرة ثم مات، فعمت مشاعر البهجة والسرور أنحاء البلاد الإسلامية؛ لمقتل «سعد الدولة»، وثار الناس على اليهود في كل مكان، وقتلوا منهم عددًا كبيرًا. سياسة أرغون الخارجية:

حاول «أرغون» أن يجد من نفوذ «مصر» في المشرق الإسلامي، فأقام علاقات سياسية وطيدة مع قادة الدول المسيحية مثل: «البابا» و «إدوارد الأول» ملك «إنجلترا»، و «فيليب لوبل» ملك «فرنسا»، تمهيداً لتكوين حلف للقضاء على النفوذ المصرى في «آسيا الصغرى»، و «العراق» و «الشام»، و «فلسطين». وشجعت هذه العلاقات (المغولية - الأوربية) عددًا من الرحالة الأوربيين على زيارة بلاد المغول، وسافر الرحالة الشهير «ماركو بولو» إلى العاصمة المغولية، وأقام في بلاط الامبراطور المغولى «قويلاى» نحو عشرين عامًا، عمل فيها مستشارًا له ووزيرًا، ولم تقع حروب تذكر بين الجانبين - المصرى والمغولى - في عهد «أرغون» لانشغال كل منهما بمشكلاته الداخلية.

#### 4 - كيخاتو خان [690 - 694هـ]:

بعث الأمراء المغول عقب وفاة «أرغون» إلى أخيه «كيخاتو خان» يخبرونه بوفاة، فقدم على الفور من بلاد الروم التي كان يحكمها، وتولى عرش الإيلخانية في رجب سنة (690هـ)، ثم عين «صدر الدين أحمد الزنجاني» وزيرًا له، ولقبه بلقب «صدر جهان» وأوكل إليه التصرف في شئون الدولة كافة دون تدخل من أحد، وعين أخاه «قطب الدين الزنجاني» قاضيًا للقضاة، وأطلق عليه لقب «قطب جهان»، ثم انصرف «كيخاتو» إلى ملذاته وشهوته وإنفاق الأموال في سبيلها دون حساب، فاضطرت مالية الدولة، وأصبحت خزانتها شبه خاوية ومهددة بالإفلاس، ووقف الوزير حائرًا لا يدري ماذا يفعل حيال ذلك، فظهر له رجل اسمه «عز الدين محمد بن المظفر» - وكان

(34/4)

---

على دراية بالأحوال المالية في «بلاد الصين» - واقترح عليه العدول عن استخدام الذهب والفضة في المعاملات المالية، واستخدام أوراق

مالية - تعرف عند الصينيين باسم «الجاو» - بدلا منها، لإنقاذ البلاد من الإفلاس، كما فعل الصينيون، فاستحسن الوزير هذا الاقتراح، واستصدر قانوناً من الإيلخان في سنة (693هـ) ينص على التعامل بهذه الأوراق، ويجرم التعامل بالذهب والفضة تحريماً تاماً. رفض الناس التعامل بالأوراق المالية في معاملاتهم، على الرغم من أنهم أُجبروا على ذلك بالقوة، فاضطربت أحوال البلاد والناس اضطراباً كبيراً، وكسدت التجارة، وتعذرت الأقوات، وانقطعت الموارد من كل نوع، وامتنع البائعون عن بيع سلعهم بهذه الأوراق، فكان الرجل يضع الدرهم تحت إحدى الأوراق المالية (الجاو) ويعطيها الخباز أو القصاب وغيرهما، ليحصل على ما يريد، خوفاً من أتباع السلطان الذين يراقبون الناس والبائعين في معاملاتهم، فضاقت الحياة أمام الناس واستحكمت الأزمة، وكاد الأمر ينذر بثورة عارمة، إلا أن الإيلخان تدارك الموقف وأصدر قانوناً لإبطال التعامل بهذه الأوراق، والعودة إلى النظام القديم.

ولما كان «كيخاتو» مغرماً بشرب الخمر، سيئ الخلق فاسقاً، كرهه الأمراء وثاروا عليه، وبخاصة بعد أن أغلظ القول - ذات ليلة - لابن عمه «بايدو» أحد كبار الأمراء، فحقد عليه، وتآمر مع الأمراء الآخرين على قتله، وعلم «كيخاتو» بالمؤامرة، فأثر الفرار، ولكن الأمراء تتبعوه، وتمكنوا من قتله في سنة (694هـ).

5 - بايدوخان [694هـ]:

بعد مقتل «كيخاتو» وقع اختيار الأمراء على «بايدوخان بن طرغاي بن تولوى بن جنكيزخان» ليكون إيلخانياً، فاعتلى العرش في جمادى الأولى سنة (694هـ)، ثم تخلص من أتباع «كيخاتو»، وقرر إعادة الحقوق والوظائف إلى أصحابها، وأعفى الأوقاف الإسلامية من الضرائب، وعهد بأمور الجيش ورتاسة الوزراء إلى الأمير «طغاجار»،

وسلك مسلك «آباخان» حيث جعل الإدارة لا مركزية، وجعل أميراً من الأمراء على كل ولاية من الولايات، ونصب «جمال الدين الاستكرداني» وزيراً له.

لم يكد «بايدو» يتولى أمور الحكم حتى بلغ «غازان خان» ما حدث لعمه «كيخاتو»، فأقبل بجنوده ومعه الأمير «نوروز»، وأرسل رسله إلى «بايدو» ينكر عليه قتل كيوخاتو، ويطلبه بإجراء تحقيق ليلقى القتلة جزاءهم، فلما لم يلق جواباً دارت رحى الحرب بين الفريقين، وفي هذه الأثناء عرض الأمير «نوروز» الإسلام على «غازان»، وحسّن له اعتناق هذا الدين بتشريعاته السميحة ونظمه الدقيقة، وما ينادى به من عدل ورحمة ومساواة، فاعتنق «غازان» الدين الإسلامي، ومال إليه أكثر الأمراء، وانتصر على «بايدو» في الحرب، فهرب «بايدو» ولحق به الأمير «نوروز»، وألقى القبض عليه، وأرسله إلى «غازان»، فأمر بقتله في شهر ذي الحجة عام (694هـ).

#### 6 - السلطان محمود غازان [694 - 703هـ]:

تولى «غازان» عرش المغول عقب مقتل «بايدو» في ذي الحجة سنة (694هـ)، وبعد أن اعتنق الإسلام تبعه جميع الأمراء والجنود المغول، وأسلم بإسلامه أكثر من مائة ألف شخص منهم في فترة وجيزة، ولقب «غازان» نفسه باسم السلطان «محمود غازان»، وأعلن الإسلام ديناً رسمياً للدولة، وأمر المغول بأن يغيروا ملابسهم التقليدية، ويلبسوا العمامة للتدليل على خضوعهم للإسلام، وأمر بدم الكنائس والمعابد اليهودية والمزدكية والهبياكل البوذية، وتحويلها إلى مساجد، وبارتداء اليهود والنصارى ثياباً تميزهم عن غيرهم من المسلمين، كرد فعل لما لقيه المسلمون من ضروب المهانة والذلة في عهد كل من: «هولاكو» و «آباخان» و «أرغون».

عرف «غازان» بشخصيته القوية، ونشاطه الموفور، وصره الذي لا ينفد، وبأنه رجل دولة من الطراز الأول يقف على كل صغيرة وكبيرة في شئون البلاد، فضلاً عن إحاطته الكاملة بتقاليد قومه وعاداتهم، وإلمامه التام بمختلف الحرف والصناعات السائدة في عصره، وإطلاعه

على العلوم المعروفة لدى المسلمين، وإجاداته عدة لغات إلى جانب لغته المغولية، لكنه كان قاسياً على أعدائه، ولا يأبه بحياة الناس حين تتعارض مع تحقيق أهدافه وطموحاته، وتجلي ذلك حين تخلص من الأمير «نوروز» الذي ساعده ووقف إلى جانبه في كثير من المواقف بسبب وشاية، وكذلك حين أمر بقتل وزيره «صدر الدين» في رجب سنة (697هـ)، وعين بدلا منه المؤرخ «رشيد الدين فضل الله» الذي توسم فيه النبوغ والعبقرية والإخلاص، وأشرك معه رجلا يدعى «سعد الدولة» لمساعدته في مهام الوزارة.

حملات غازان خان على بلاد الشام:

قام «غازان» بثلاث حملات على «بلاد الشام»، كانت الأولى في سنة (699هـ)، وانتصر فيها على قواد «الناصر محمد بن قلاوون» بالقرب من منطقة «مرج المروج» شرقي «حمص»، وقد انتشر المغول بعد انتصارهم في الأماكن المجاورة، وخرّبوا البلاد جرياً على عادتهم القديمة، وكأنهم لم يعتنقوا الدين الإسلامي، ثم عين «غازان» والياً من قبله على البلاد التي استولى عليها، وعاد بعد ذلك إلى «إيران». وفي سنة (700هـ) عاود المغول الكرّة على بلاد الشام، واستولوا على مناطق جديدة بها، إلا أنهم لم يتمكنوا من التقدم والاستمرار؛ إذ هطلت عليهم الأمطار بغزارة، واشتدت البرودة، وكثر الوحل، وهلك كثير منهم، ووجد «غازان» نفسه مضطراً إلى العودة إلى «إيران»، ولكنه عاد بعد ذلك بعامين في سنة (702هـ) بحملته الثالثة على «سوريا»، وتحرك إلى مدينة «عانة» على شاطئ «الفرات»، وبرفقته وزيره المؤرخ «رشيد الدين» ثم عاد أدراجه إلى عاصمته «تبريز» تاركاً جيشه بالشام ليواصل مهمته، ولكن النتيجة جاءت على غير ما كان يتوقع، إذ هُزم جيشه هزيمة منكرة على يد السلطان «الناصر محمد بن قلاوون» في موقعة «مرج الصفر» بالقرب من

«دمشق» في (2 من رمضان عام 702هـ)، فاعتلت صحته، وغلبه المرض، وتآمر عليه الأمراء، وكثرت من حوله الدسائس، ومات في

(37/4)

شوال سنة (703هـ)، وهو لا يزال في ريعان شبابه.

إصلاحات غازان:

قام «غازان» بإصلاحات كثيرة ومهمة في كثير من الميادين، وكانت أبرزها إصلاحاته العمرانية، حيث أقام شمالي غرب «تبريز» محلة عُرفت باسم «شام غازان»، وتفصلها عن مدينة «تبريز» حدائق ومنتزهات كثيرة، وأمر كبار مهندسيه بإقامة بناء عالٍ في ذلك المكان؛ تعلوه قبة كبيرة، ليكون مدفناً له، وقد استمرت عمارة القبة وتوابعها نحو خمس سنوات، واشتملت على مسجد وخانقاه ومدرستين (إحدهما للشافعية والأخرى للحنفية)، ومستشفى، ومكتبة، ومرصد، ومدرسة لتعليم العلوم الطبية، وبيت لحفظ كتب القوانين التي أصدرها الإيلخان عرف باسم «بيت القانون»، كما أنشأ مسكناً للأطفال وآخر للأشراف، وضمت هذه الأبنية بعض الحمامات العامة، وملجأً واسعاً لليتامى؛ به مكتب لتعليم القرآن الكريم وتحفيظه، وملجأً آخر يتسع لنحو خمسمائة أرملة من النساء اللاتي فقدن عائلتهن، فضلاً عن ذلك أنشأ «غازان» الأجران الواسعة المملوءة بالحبوب، والمزودة بأحواض المياه لكي تتزود منها الطيور المهاجرة من الشمال إلى الجنوب في الفصول الباردة من السنة خلال رحلتها عبر الهضبة الإيرانية التي تغطيها الثلوج في هذا الوقت من السنة، خاصة أن أعداداً كثيرة من هذه الطيور كانت تلقى حتفها، لتعذر حصولها على الغذاء، فأقام لها «غازان» هذه الأجران رحمة بها، وأصبحت هذه المؤسسات والمنشآت التي أقامها «غازان» مفخرة العالم الإسلامي والحضارة الإسلامية، حيث حول الإسلام

القبائل الهمجية البربرية إلى أناس مهذبى الطباع، منظمين محبين للحضارة والعمران، وامتألت قلوبهم رحمة وعطفًا حتى على الطيور والحيوانات.

7 - السلطان أوجايتو [703 - 716هـ]:

قدم السلطان «أوجايتو» من «خراسان» التي كان حاكمًا عليها، وتولى العرش خلفًا لأخيه «غازان» في سنة (703هـ)، وجعل الوزارة مشاركة بين «رشيد الدين فضل الله الهمداني» وسعد الدين الساوجي.

(38/4)

إنشاء مدينة السلطانية:

بدأ إنشاء هذه المدينة في عهد السلطان «غازان»، وهي تقع على بعد خمسة فراسخ من «زنجان»، فعمد «أوجايتو» إلى استكمال تشييدها وأمر بالتوسعة في منشآتها العمرانية، فساهم الأمراء والوزراء في بناء بعض أحيائها، وأنشأ الوزير «رشيد الدين فضل الله» محلة بما على نفقته الخاصة؛ اشتملت على ألف منزل، ومسجد كبير. وأمر السلطان ببناء قبة كبيرة فوق مقبرته، وما زالت هذه القبة قائمة حتى اليوم دليلًا على عظمة العمارة في هذا العصر. تمكن «أوجايتو» في سنة (706هـ) من بسط سيطرته على إقليم «جيان»، وهو الإقليم الذى لم يتمكن المغول من السيطرة عليه حتى هذه السنة لكثرة غاباته، ووعورة مسالكه، وأعاد بناء مرصد «مراغة» الذى بناه «هولاكو» من قبل، وحين بلغ «أوجايتو» الثالثة والثلاثين من عمره اشتد عليه المرض واعتلّت صحته، وتوفّي في رمضان سنة (716هـ).

سياسة أوجايتو الخارجية:

شق الأمير المملوكى «شمس الدين قرا سنقر» حاكم «دمشق» عصا

الطاعة على السلطان «الناصر محمد بن قلاوون» سلطان المماليك في «مصر» و «الشام» في سنة (712هـ)، وفر إلى «إيران» لاجئًا، فاستقبله «أولجايتو» أحسن استقبال، فشجعه «قرا سنقر» على القيام بحملة على «الشام»، فوافقه وخرج بحملته، وحاصر مدينة «الرحبة» بالعراق، ولكن أهل المدينة استعطفوه، وتدخل الوزير «رشيد الدين» فرفع «أولجايتو» الحصار في رمضان سنة (712هـ)، وعاد بجيشه إلى عاصمته دون الدخول في معارك مع المماليك، فكانت هذه الحملة آخر حملات الإيلخانيين على المماليك في «مصر» والشام.

8 - السلطان أبو سعيد بهادر [716 - 736 هـ]:

تولى «أبو سعيد» حكم البلاد بعد وفاة السلطان «أولجايتو»، وكان لايزال في الثالثة عشرة من عمره، فاضطربت أحوال البلاد وتعددت ثورات الأمراء المغول في مناطق متفرقة ضده، غير أن «أبا سعيد» استعان عليهم بقائد جيشه الأمير «جوبان»، ففضى عليهم، وأعاد

(39/4)

إلى البلاد استقرارها وهدوءها.

الوزارة:

شهد منصب الوزارة تغييرات كثيرة، حيث أبقى السلطان «أبو سعيد» على «رشيد الدين الهمداني» و «تاج الدين التبريزي» في منصب الوزارة، ولكن «تاج الدين» الذي كان يجيد المعاملات التجارية والمالية مع كونه أميا لا يعرف القراءة والكتابة، أراد أن ينفرد بهذا المنصب، وعمد إلى الدهاء والوقية لدى السلطان للتخلص من «رشيد الدين» ونجح في ذلك، وأمر السلطان بقتل «رشيد الدين» في سنة (718هـ)، فانفرد «تاج الدين عليشاه» بالوزارة حتى وفاته في أوائل سنة (724هـ)، فوليها من بعده «دمشق خواجه» ابن الأمير

«جويان»، وصارت أمور الجيش والشعب في أيدي الأمير وابنه وعلا شأنهما، وتجاهلا السلطان في معظم الأمور، فغضب السلطان من ذلك وأمر بقتلهما، ثم نصب «غياث الدين بن رشيد الدين فضل الله» في هذا المنصب، لشعوره بالندم على قتل أبيه فضلا عن أن «غياث الدين» كان أصلح الناس لهذا المنصب في ذلك الوقت؛ حيث إنه كان واسع الأفق، ومطلعاً على العلوم العقلية والنقلية، فأحسن إدارة شئون الدولة وتوخى العدل، وعمل على رعاية مصالح الناس، وظل في منصبه حتى وفاة «أبي سعيد» في (13 من ربيع الأول سنة 736هـ).

كان «أبو سعيد» آخر سلاطين الإيلخانيين الأقوياء، كما كان كريماً جواداً، شجاعاً، محبا للعلم، فراجت في عهده العلوم والآداب، وعاش في بلاطه كثير من الشعراء والمؤرخين؛ حين كان هو نفسه شاعراً وله أشعار جيدة باللغة الفارسية، واشتهر بجودة الخط والغناء. سياسة أبي سعيد الخارجية:

تعرضت العلاقة بين «مصر» والبلاد الفارسية في عهد الإيلخانيين لنوبات من الحرب والسلام، ولكن هذه العلاقة دخلت مرحلة جديدة من الصداقة والوثام في عهد السلطان «أبي سعيد»، وتم توقيع اتفاقية بين الطرفين في عام (721هـ) في عهد السلطان «أبي سعيد» الإيلخاني، والسلطان المملوكي «الناصر محمد ابن قلاوون». انهيار دولة الإيلخانيين المغول:

(40/4)

---

تعرضت «الدولة الإيلخانية» -عقب وفاة السلطان «أبي سعيد بهادر» - للضعف والزوال، حيث كان السلاطين الذين اعتلوا عرش هذه الدولة بعد «أبي سعيد» ضعاف الشخصية، كما كانوا ألعوبة في أيدي الأمراء المغول وكبار رجال الدولة، وظل هذا حال هذه الدولة حتى

وفاة «أنوشيروان» آخر السلاطين الإيلخانيين في سنة (756هـ)،  
فتقسام خمسة من كبار الأمراء المغول أملاك هذه الدولة، وكون كل  
منهم دولة صغيرة مستقلة، وهذه الدول هي:

- دولة آل جلائر (الجلاتريون).

- دولة الجوبانيين.

- دولة آل المظفر.

- دولة السريداريون.

- دولة آل كرت.

وأخذت هذه الدويلات الخمس تتنازع فيما بينها، ودخلت كل منها في  
حروب طاحنة مع غيرها، وظلت على ذلك حتى خرج عليها الأمير  
«تيمورلنك» وتمكن من القضاء عليها نهائيًا بحملاته المتعددة التي  
بدأها في سنة (788هـ) على إيران والعراق.

مظاهر الحضارة:

- الإدارة ونظم الحكم:

استعان المغول بالموظفين الفرس في إدارة شئون الدولة، إذ لم يكن  
بوسع هؤلاء المغول الأميين وحدهم إدارة شئون هذه البلاد المترامية  
الأطراف، وجمع الضرائب والأموال، وإقرار الأمن.

وكانت هناك أسر فارسية تتوارث منصب الوزارة، مثل: أسرة  
الجوينيين، وأسرة رشيد الدين فضل الله، ولقد كان لهذه الأسر فضل  
كبير في تحقيق الاستقرار الداخلي، لاطمئنان أفراد الشعب بأن  
حكامهم المباشرين ليسوا غرباء عنهم ولا خصوصًا لهم، كما كان لهذه  
الأسر فضل آخر في التأثير على ملوك المغول وأمرائهم وجذبهم  
بالتدريج إلى الاندماج في الحياة الاجتماعية على نمط فارسي  
إسلامي، فبدأ من يرقب أحوالهم ويتتبع تفصيلات حياتهم أنهم كانوا  
وكأنهم أسرة من الأسر الإيرانية الحاكمة.

وعلى الرغم من ذلك ظل المغول ينظرون إلى الفرس على أنهم خصوم  
وأعداء لهم حتى دخل المغول في الإسلام أفواجًا في عهد «السلطان

غازان»، فتغيرت عندئذٍ نظرتهم، ولم يعودوا يرون أهل البلاد  
الأصليين غرباء عنهم وخصوصًا لهم.

(41/4)

ولاشك أن القوانين والإصلاحات الجديدة التي وضعها غازان أدت إلى  
تحسن الأوضاع الإدارية والاقتصادية والاجتماعية في إيران والعراق،  
وصاغتها صياغة جديدة، نالت قبول الناس جميعًا، وظل هذا التحسن  
مستمرًا إلى نهاية عهد السلطان أبي سعيد بهادر، آخر سلاطين  
الإيلخانيين العظام (736هـ)، فعادت الشؤون الإدارية والاقتصادية  
والاجتماعية إلى الاضطراب من جديد.

وأيا ما كان الأمر، فقد نهجت الدولة الإيلخانية في إيران والعراق  
نهج الإمبراطورية المغولية الكبرى التي اتخذت من قراقورم عاصمة  
لها، فحذت في تشكيلاتها الإدارية والسياسية حذوها وسارت على  
نسقتها.

لقد كان الأمراء الملكييون (شاهزاده) والقادة العسكريون (نوين)  
والأمراء المغول تابعين تبعية مباشرة للإيلخان، أو السلطان فيما  
بعد، وكان الإيلخان يخصص لهم أراضى واسعة ومدنًا بأكملها  
كإقطاع لهم، ويتولون جمع خراج هذه الإقطاعات ويخصون به  
أنفسهم.

كان الجهاز الحاكم في الدولة الإيلخانية ينقسم إلى أربعة أقسام  
تتفاوت فيما بينها بتفاوت الجنسية، واللغة، والدين، والمستوى  
الاجتماعى، على النحو التالى:

1 - قادة المغول.

2 - الموظفون المدنيون، وكان معظمهم من الفرس.

3 - رجال الدين المسلمون، ولقد كان رجال الدين من المسلمين

والمسيحيين في بلاد القوقاز وآسيا الصغرى خاصة في مرتبة

واحدة.

4 - الأعيان المحليون في أقاليم فارس والعراق.

وكان اهتمام الدولة منصبا أساسًا على جمع أكبر قدر من الأموال والضرائب من أفراد الشعب.

ويرأس الإدارة المدنية في الدولة «صاحب الديوان» أو رئيس الوزراء. ويعهد إليه الإشراف على شئون الخزانة، والدخل والخرج، والشئون المكتبية والإدارية وتعيين الموظفين وعزلهم. وبالإضافة إلى الديوان العالى للإدارة المركزية، كانت هناك دواوين أخرى مثل «ديوان إينجو» الذى كان يتولى إدارة الأملاك المنقولة - وغير المنقولة - للإيلخان نفسه، ولأقاربه من الدرجة الأولى، وهذا الديوان يشبه إلى

(42/4)

حد بعيد «ديوان الخاص» الذى عرف في مصر في عهد المماليك. وأبقى الإيلخانيون على منصب قاضى القضاة، وكان شاغله يقوم بالفصل بين الخصوم، والحكم بين الناس، وتولية القضاة ومراقبتهم، وكذلك مراقبة أحوال الناس ومعيشتهم وصنائعهم، وله الحق في الأخذ على يد الخارج منهم.

وكانت هناك مناصب: الصدر، والناظر، والشحنة، وهى وظائف إدارية تشرف على الإدارة المحلية، وجمع الأموال وصرفها، والإشراف على نظام الأمن، ومراقبة ولاة الأقاليم التابعة للدولة الإيلخانية. الوضع الاقتصادى:

نهضت الزراعة في الدولة الإيلخانية لخصوبة الأرض، ووفرة مياه الأنهار والأمطار، وتميز الإيلخانيون بنظام الإقطاع وجعلوه نوعين: أولهما الإقطاع المملك، وهو أن يمنح الإيلخان الأمراء والأعيان وكبار رجال الدولة، مساحات من الأرض الزراعية، ويجعلها ملكًا خاصًا بهم، وثانيهما: الإقطاع المستغل والمقصود به استغلال الأرض في الزراعة

والاستفادة منها دون تملكها.

واعتمد اقتصاد الإيلخانيين على الثروة الزراعية الآتية من مناطق: ما بين النهرين، والبصرة، والفرات (بين الأنبار وعانة)، ودجيل، ومنطقة على نهر دجلة، وخراسان، كما اعتمد على نظام الإقطاع في الإنفاق على التجهيزات العسكرية والجيوش.

وتعددت الضرائب في نظام دولة الإيلخانات فكانت هناك: ضريبة الأرض، وضريبة الرؤوس، وضريبة البيوت والعقارات، وضريبة الأسواق، وضريبة التمغات، وضريبة المراعى، وضريبة المساعدات والقروض. وتعتمد الجباة إرهاب الناس في جمع الضرائب، وحصلوا منهم على أموال كثيرة لم تكن مفروضة عليهم، وتآمر الحكام والجباة على الشعب، وظهر الفساد بصورة جلية في هذا الشأن.

ولعل مشكلة العملة الورقية (الجاو) التي فرضها السلطان «كيخاتوخان» على الناس في سنة (693هـ = 1294م)، كانت من أبرز المشاكل الاقتصادية التي اعترضت سبيل الدولة الإيلخانية، إذ رفض الناس التعامل بهذه العملة الورقية التي أجبرهم السلطان على

(43/4)

تداولها، واضطربت أحوال الشعب، وأغلق التجار محالهم، وامتنعوا عن البيع والشراء، فانتهى الأمر بإلغاء هذه العملة. وعمد الإيلخانيون إلى إصلاح ما أفسدته وخربته الحروب، وأعادوا فتح الأسواق، وأكثروا منها، وازدهرت صناعة المنسوجات، وصناعة اللؤلؤ.

ونشطت التجارة وأصبحت العراق وإيران من أشهر مراكز التجارة في ذلك الوقت، وقامت علاقات تجارية واسعة بين الإيلخانيين والصينيين والتركستان، وصُدّرت المصنوعات الحريرية، واللؤلؤ إلى أوروبا عن طريق الهند. وكانت «تبريز» مركز رواج وازدهار التجارة لوجود عدة

طرق برية بها، تمر منها القوافل.

وعلى الرغم من الطبيعة البدوية التي غلبت على المغول الأول، وعدم  
اكتراثهم بالمنشآت العمرانية وتفضيلهم للعيش في الخيام، فإن  
هولاكو - على سبيل المثال - شرع بعد استقراره في إيران في إنشاء  
المباني الكبيرة والقصور الفخمة في أذربيجان و «تحت سليمان»،  
كما بنى مرصداً في مراغة سنة (658هـ)، وعهد إلى العالم الفيلسوف  
«نصير الدين الطوسي» بالإشراف على بنائه وإدارته، وقد تم تأسيس  
مكتبة كبرى إلى جوار هذا المرصد، ولم يكن يعمل فيه الفلكيون  
العرب والإيرانيون فحسب بل عمل فيه أيضاً المنجمون الصينيون  
والهنود.

الوضع الديني:

تدهور الوضع الديني منذ البداية في الدولة الإيلخانية، حيث نشبت  
الصراعات المذهبية والدينية بين أهل السنة بالعراق، وأصحاب  
المذهب الشيعي بالدولة الإسماعيلية بإيران، ومما لاشك فيه أن فتنة  
الكرخ التي حدثت بالعراق، وما ترتب عليها من فوضى أمنية كانت  
سبباً رئيساً في الاجتياح المغولي لهذه البلاد.

وقد ظل الصراع محتدماً بين السنة والشيعية في ظل حكم دولة  
الإيلخانيين، وتبوأ المسيحيون مكاناً بارزاً على الرغم من الاختلافات  
المذهبية التي كانت قائمة بين أتباعها، واستغل البوذيون كل هذه  
الخلافت والصراعات وتبوءوا مكانة عالية. ومع ذلك كان الإيلخانيون

(44/4)

---

ينظرون إلى الجميع نظرة واحدة مؤداها أنهم رعية، وعليهم السمع  
والطاعة.

ولقد ظل هذا الوضع قائماً حتى تولى السلطان «محمود غازان»  
الحكم، فأعلن الدين الإسلامي ديناً رسمياً للدولة الإيلخانية، ومن ثم

اقتصرت وظائف الدولة على المسلمين.

ويعد:

فقد تكونت «الدولة الإيلخانية» من قبائل وطوائف متعددة، لم يكن بينها رابط ثقافي أو وطني، ولم تكن تجمعها تحت راية واحدة إلا قوة الإيلخانيين الأقوياء، فلما مات السلطان «أبوسعيد» آخر السلاطين العظماء ولم يعقب ولدًا يخلفه على العرش؛ تبددت القوة المركزية للدولة، وانتقلت المبادرة إلى أيدي الأمراء المغول الذين غلب عليهم طابع البداوة، فاختلف التماسك، وتمزقت البلاد، وضاع الهدف الذي من أجله أقيمت هذه الدولة، وطغت المصلحة الشخصية على المصالح العامة، ثم ما لبثت الدويلات التي أقامها الأمراء على أنقاض الدولة الأم أن ضاعت هي الأخرى على يد «تيمورلنك»، فأسرع جانب من المغول الذين كانوا يقيمون في «إيران» إلى الاندماج في العناصر التركية التي تعيش في تلك البلاد، بينما اندمج جانب آخر منهم في الإيرانيين الفرس الذين يعيشون بينهم، وذابوا فيهم، وهكذا سقطت «الدولة الإيلخانية» على أيدي أمرائها.

(45/4)

## الفصل الخامس

\*الدولة الجلائرية في العراق وأذربيجان

[736 - 835 هـ = 1335 - 1431 م].

النشأة والتكوين:

ضمت «الدولة الإيلخانية» التي أسسها «هولاكو» في عام (654هـ= 1256م) شعوبًا متعددة، وأقاليم كثيرة، شملت «العراق» و «إيران»، واستمرت في حكمها حتى عام (716 - 736هـ = 1316 - 1335م)، ثم تصارع الأمراء على الانفرد والاستقلال بحكم ما تحت أيديهم من

أجزاء هذه الدولة، فتفككت وانقسمت إلى دويلات، وبات الحكم فيها لأسر بعينها، مثل: أسرة «آل جلائر» التي استقلت بحكم «العراق» بعد وفاة السلطان أبي سعيد بهادرخان.

كان «آل جلائر» من القبائل المغولية، ويعد «تاج الدين شيخ حسن بزرك بن حسين» أول حكام «آل جلائر» ومؤسس دولتهم «الجلاليرية»، وثالث من تولى الحكم في «الدولة الإيلخانية»، وقد امتد سلطانه إلى «العراق»، واتخذ «بغداد» عاصمة له، وأعلن نفسه ملكاً عليها، فظهرت بذلك الدولة «الجلاليرية» إلى حيز الوجود.  
الوضع الداخلي:

شهدت اللبنة الأولى لقيام «الدولة الجلاليرية» عدة حروب بين الأمراء المغول بهدف الوصول إلى الحكم، إلا أن «حسن الجلائري» تمكن من الاستقلال بالعراق واستطاع أن يوحد الصفوف لتأسيس دولته الوليدة، ومع ذلك لم تتوقف الصراعات والحروب مع بقايا الإيلخانيين، إلى أن تمكن «الشيخ حسن الجلائري» من طردهم إلى خارج حدود دولته - «العراق» - في عام (748هـ = 1347م).

كان «الشيخ حسن الجلائري» سياسياً حكيماً، وأراد أن يضمن لدولته قوتها ووحدتها، فلم يعلن نفسه خاناً أو سلطاناً؛ بل أعلن ولاءه للسلطان المملوكي في «مصر» ليكون سنده الذي يحمي به إذا ما فكر المغول في غزوه، خاصة وأن دولته قريبة ومتاخمة للإمارات والممالك المغولية فساعدته هذا التصرف على استقرار بلاده، وشجعه على الاستيلاء على «لورستان»، و «الموصل»، و «تستر»، وبسط نفوذه على غيرها، فاتسعت رقعة بلاده، وامتد نفوذ حكمه، ثم مات في عام (757هـ = 1356م)، وخلفه ابنه «الشيخ أويس بن حسن

الجلاليري، فبلغت الدولة في عهده أقصى اتساع لها، إذ ضم إليها «أذربيجان»، و «آران»، و «موقان»، واتخذ من «تبريز» عاصمة لبلادها، وانتقل نشاط الدولة السياسي ومركزها من «العراق» إلى «أذربيجان»، فأدى ذلك إلى قيام حركات التمرد في «بغداد» على الجلاليرين، وكانت حركة «مرجان» نائب «الشيخ أويس» على «بغداد» من أشهر هذه الحركات، وكان «مرجان» طواشيا للشيخ أويس.

لقد أخطأ «الشيخ أويس» في حساباته عندما ابتعد عن «العراق» واتخذ له عاصمة في «إيران»، فضلا عن تقريبه الفرس دون العرب، فكانت النتيجة انضمام العرب بمختلف طوائفهم إلى «مرجان» وحركته، وحذف اسم «الشيخ أويس» من الخطبة؛ رمز السيادة في الدولة، وخطب للسلطان المملوكي في «مصر».

خرج «الشيخ أويس» من «تبريز» إلى «بغداد» في سنة (765هـ = 1363م)، واستطاع وزيره أن يستميل أعوان «الخواجة مرجان» إلى صفه، فانفضوا من حول «مرجان» وفشلت حركته، ودخل «الشيخ أويس» «بغداد» ثم جعل «شاه خازن» نائبًا له عليها، ولكن «مرجان» لم ييأس من المحاولة، وعاد مرة ثانية إلى حكم «بغداد» عقب وفاة «شاه خازن»، مما يؤكد حب أهل «العراق» لمرجان ومكانته عندهم، فاضطر «الشيخ أويس» إلى الصفح عنه، ثم أرسل ابنه «الشيخ علي» ليحكم «العراق».

توفي «الشيخ أويس» عام (776هـ = 1373م)، وخلفه في الحكم ابنه «جلال الدين حسين بن أويس» (776 - 784هـ = 1373 - 1382م)، فضاعت هيبة الدولة في عهده، وبدأت في التدهور والانحيار؛ حيث اهتم بملذاته ومصالحه الشخصية على حساب أمور الدولة والرعية، وزادت الأمور اضطرابًا في عهد أخيه «أحمد بن أويس» الذي خلفه في الحكم (784 - 813هـ = 1382 - 1410م)، إذ تمكن «تيمورلنك» من إسقاطه عن عرشه عدة مرات، ثم دخل «بغداد» في عام (795هـ =

1393م)، ففر «أحمد بن أويس» إلى «مصر» مستنجدًا بالسلطان المملوكي «برقوق»، وتمكن «الشيخ أحمد» -أخيرًا- من العودة إلى

(47/4)

«بغداد» في عام (804 هـ = 1401م)، وتمكن من استعادتها في عام (807هـ = 1404م)، بعد أن خرجت عدة مرات من حكم «آل جلائر» إلى حكم التيموريين، ثم استعاد «تبريز» في عام (809هـ = 1406م)، ولم يلبث أن فقدتها ثانية في العام نفسه على يد حفيد «تيمورلنك». وفي عام (813هـ = 1410م)، اختلف «أحمد بن أويس» مع زعيم قبيلة «قراقيونلو»، وحدث صدام بينهما، فقتل «الشيخ أحمد»، وتمكن زعيم «قراقيونلو» من انتزاع «تبريز» وما والاها من الجلائريين، ثم أسس دولة له في «أذربيجان». تولى الحكم بعد «أحمد بن أويس» عدد من السلاطين، وصلت الدولة في عهدهم إلى أقصى مراحل الضعف حتى انتهت بموت «حسين بن علاء الدولة» آخر السلاطين الجلائريين سنة (835هـ)، وسلاطين هذه الفترة هم:

- شاه ولد (813 - 814هـ).
- محمود بن شاه ولد (814 - 818هـ).
- أويس بن شاه ولد (818 - 824هـ).
- محمد بن شاه ولد (824 - 827هـ).
- حسين بن علاء الدولة (827 - 835هـ).

العلاقات الخارجية:

اتسمت علاقة الجلائريين بالعالم الخارجي بالعداء والصراعات؛ لأن دولتهم قامت على أنقاض «الدولة الإيلخانية»، فنشب الصراع بينهم وبين «الدولة الجوبانية» نتيجة استجابة السلطان المملوكي للشيخ «حسن الجلائري» حين طلب منه الحماية، غير أن مقتل «حسن

الجوباني» على يد زوجته «عزت الملك» في عام (744هـ = 1344م)،  
قد أراح «حسن الجلائري» من نزاعات وصراعات كثيرة كانت  
ستحدث حول أملاك الجلائريين الشرقية، ثم جاءت نهاية  
«الجوبانيين» على يد «القبجاق»، فوضعت النهاية للصراع الجلائري  
الجوباني.

ولم تكن علاقة الجلائريين بالدولة المظفرية بأفضل حال من سواها،  
فقامت بينهما المنازعات، إذ قدم المظفريون المساعدات إلى  
المناهضين للحكم الجلائري، وإلى المتمردين عليه، ثم أطاح  
التيموريون في النهاية بالجلائريين والمظفريين معًا.  
دخلت علاقة «الدولة الجلائرية» مع «الدولة المملوكية» بمصر في دور

(48/4)

التبعية، بهدف الاستفادة من الممالك في حماية دولتهم ومساعدتها  
ضد أعدائها، خاصة الجوبانيين والتموريين، وقد ساعد السلطان  
المملوكي «برقوق» السلطان الجلائري «أحمد بن أويس» في  
استعادة «بغداد» من أيدي التيموريين.  
كانت علاقة الجلائريين الخارجية «بقراقيونلو» علاقة صداقة - في  
بداية الأمر - ثم ما لبثت أن تحولت إلى عداوة وشقاق، واستولت هذه  
القبيلة على أملاك «الدولة الجلائرية» في «أذربيجان» ثم أقامت بها  
دولتها المستقلة.  
مظاهر الحضارة في الدولة الجلائرية:

تمتعت «الدولة الجلائرية» باستقلالها في عهد «الشيخ حسن  
الجلائري» الذي أدت سياسة حكمه إلى انتعاش اقتصاد البلاد، وبناء  
حضارة زاهرة، وتشبيد المدارس والمكتبات وأماكن العلاج، فتزد  
طلاب العلم على «بغداد» من كل مكان؛ طلبًا للعلم والمعرفة، فأعاد  
لبغداد عهدها القديم المشرق، واعتمد على العرب والترك في الجيش،

فقل تأثير الفرس على المجتمع العراقي، وبات «آل فضل» العرب ذوى مكانة خاصة فى هذه الدولة، ولكن ذلك لم يدم طويلًا؛ إذ تولى «الشيخ أويس بن حسن» عرش «الدولة الجلائرية» واعتمد فيها على العنصر الفارسى، وأساء إلى العرب، فتقلص نفوذ العرب ونشاطهم فى الدولة، وازداد الأمر سوءًا حينما اتخذ «الشيخ أويس» «تبريز» عاصمة لبلاده بدلًا من «بغداد»، وجعل اللغة الفارسية لغة بلاده الرسمية؛ فازداد نفوذ الفرس، واشتعلت الثورات فى «العراق»، وطمع المظفريون فى فارس، فأحدقت الأخطار بالدولة الجلائرية من كل جانب فغزاها التيموريون، فأفقدوا ذلك القدرة على مواصلة الإصلاح الاقتصادى، وأهملت المنشآت الخاصة بالزراعة والرعى، وأصبح شغل الحكام الجلائريين الشاغل هو الحفاظ على وجودهم فى الحكم، ونشبت بينهم الصراعات الكثيرة التى أطاحت بهم جميعًا فى النهاية. كما ساعدت الفيضانات والأوبئة التى تعرضت لها هذه الدولة على انهيار اقتصادها، وتدهور الأحوال فيها، واضطر الحكام إلى فرض

(49/4)

---

الضرائب لملاحقة الجهود العسكرية، فضجر الناس من ذلك، وانتكست تجارتهم بسبب الضرائب، وأصبحت الصناعة بالخمول والكساد أيضًا، ولم تبقى إلا بعض الصناعات القليلة مثل: صناعة الحرير، وصناعة الأسلحة، وبات همُّ الحكام الحفاظ على العرش، وضحوا فى سبيل تحقيق ذلك بكل غالٍ ونفيس.

(50/4)

---

\*الدولة المظفرية في فارس وكرمان وكرديستان  
[713 - 795 هـ = 1313 - 1393م]

النشأة والتكوين:

ينسب «آل مظفر» إلى الأمير «مبارز الدين محمد» ابن الأمير «شرف الدين بن منصور بن غياث الدين حاجي الخراساني»، وقد تولى الأمير «شرف الدين» عدة مناصب في عهد الإيلخانيين، فولاه السلطان «أولجايتو» مدينة «مبيد» (6)، ثم توفي «شرف الدين» بعد أن قضى على المتمردين في منطقة «شبانكاره»، فاتخذ السلطان «أبو سعيد بهادرخان» ابنه «مبارز الدين محمد» ولم يكن قد تجاوز الثالثة عشرة من عمره مكان أبيه، وولاه مناصبه في عام (717هـ = 1317م)، ولذا يعد الأمير «مبارز الدين» أول حكام المظفرين.

الوضع الداخلي:

استقل الأمير «مبارز الدين محمد بن مظفر» بإقليم «فارس» عقب سقوط الحكم الإيلخاني، ثم استولى على «كرمان» في سنة (741هـ = 1340م)، وطمح في تكوين إمبراطورية واسعة الأرجاء، فضم كثيراً من المدن الإيرانية إلى دولته، وأعلن ولاءه للخليفة العباسي «المعتضد بالله» واتخذ لنفسه لقب «ناصر أمير المؤمنين»؛ ليضفي الشرعية على حكمه، وظل يسعى إلى تحقيق هدفه حتى بات الخليفة ألعوبة في يده.

اعترض «آل إينجو» بزعامة «الشيخ أبي إسحاق» طريق «آل مبارز» في تحقيق حلمهم، ونشبت الخلافات والصراعات بينهما، وظلت العلاقة بين الطرفين سيئة حتى قتل المظفريون «الشيخ أبا إسحاق» عقب إحدى المعارك التي دارت بينهما في عام (758هـ = 1356م)، واستولى «شاه شجاع» ابن الأمير «مبارز الدين» على «شيراز»، فانتقل إليها الأمير «مبارز» وأقام بها وأرسل ابنه «شاه شجاع» إلى حكم «كرمان».

وفي عام (758هـ) فتح الأمير «مبارز الدين» منطقة «تبريز»، ثم لما علم بقدوم الشيخ إدريس الجلائري إليها، غادرها إلى «شيراز»،

وهناك اصطدم بولديه «شاه شجاع»، و «شاه محمود»، اللذين تحالفا مع «شاه سلطان» أحد الناقمين على أبيهما، فقبضوا عليه، وأمر ابنه «شاه شجاع» بسمل عينيه، ثم حبسوه في إحدى القلاع،

(51/4)

والتمس الأب عطف ولديه، وطلب منهما الصلح، فعفوا عنه، وحكما البلاد نيابة عنه، وضربا السكة باسمه، وظل الوضع على ذلك فترة، ثم أرسله للإقامة بقلعة «بم» بكرمان، ولكن الأمير «مبارز الدين» كان قد اشتد به المرض ومات في الطريق قبل أن يصل إلى هذه القلعة قى عام (765هـ = 1364م).

وظل أبناء «مبارز الدين» يحكمون من بعده «كرمان» و «فارس» و «کردستان»، فحكم «جلال الدين شاه شجاع» في حياة أبيه في سنة (759هـ = 1357م)، وظل في الحكم حتى سنة (786هـ = 1384م)، وقضى فترة حكمه في مطاردة المارقين والعصاة والخارجين على الدولة، ثم تولى بعده ابنه «مجاهد الدين زين الدين» (786 - 789هـ = 1384 - 1387م)، إلى أن عزله الأمير «تيمور كوركان»، فخلفه «شاه يحيى» في «يزد»، و «سلطان أحمد» في «كرمان».

وكان «شاه منصور» آخر حكام دولة «آل المظفر» في «أصفهان»، وسقطت «الدولة المظفرية» في عام (795هـ = 1393م).

وقد اشتهر المظفريون بحبهم للعلم والثقافة طيلة اثنتين وسبعين سنة هي عمر دولتهم من النشأة حتى السقوط.

العلاقات الخارجية:

عانت «الدولة المظفرية» كثيراً من الصعاب من أجل الاحتفاظ بالحكم، فدار صراع بينها وبين «آل إينجو» بزعامة الشيخ «أبي إسحاق»، ودخلت حروب عدة مع «الدولة الجلائرية»، وكذلك مع «الدولة التيمورية» التي اجتاحت من اعترض سبيلها من الدول والحكام، ولم

تستطع دولة «آل المظفر» الصمود أمام تسلط «تيمور كوركان» الذى قسم أملاكها بحجة الوصاية التى منحه إياها الأمير «مجاهد الدين زين العابدين» لرعاية أولاده من بعده، فوضع «تيمور» النهاية لهذه الدولة فى عام (795هـ = 1393م) بعد أن فرق وحدتها، وشتت حكمها، وقسم أرضها، ثم عمد بعد ذلك إلى إسقاطها. مظاهر الحضارة فى الدولة المظفرية: تميز عهد الأمير «مبارز الدين محمد بن مظفر» بالنشاط الحضارى، والازدهار الفكرى والثقافى، بفضل تشجيعه للعلماء والفقهاء

(52/4)

---

والنابغين، فتعهد علماء «شيراز» بالرعاية، وبنى فى «كرمان» مسجداً كبيراً أوقف عليه الأملاك لرعايته، وضرب السكة فى عهده ونقش عليها اسم الخليفة العباسى رمز المسلمين، وتذكر المصادر الفارسية أن «مبارز الدين» كان ضيق الصدر، ويعاقب المخطئ بنفسه؛ حتى أطلق عليه: «الملك المحتسب»، وكان شاه شجاع محبا للشعر والشعراء، فازدهر الشعر فى عصره، ونبغ عدد كبير من الشعراء منهم: «الشاعر الحافظ الشيرازى»، و «العماد الفقيه الكرمانى».

وعلى الرغم من أن «آل المظفر» قد أحبوا العلم، وساعدوا العلماء، ونشروا الثقافة، فإنهم كانوا يتصفون بالقسوة، ويغلب عليهم العنف فى تعاملهم مع الرعية، وأيضاً فيما بينهم، وليس أدل على ذلك مما حدث من ابني الأمير «مبارز الدين» مع أبيهما، ليمنعوه من الحكم، ولعل هذه الصفات كانت السبب الرئيسى فى زوال ملكهم.

(53/4)

---

## الفصل السابع

\*ملوك كرت

643 - 791 هـ = 1245 - 1389 م.

النشأة والتكوين:

استقل ملوك «كرت» ببلادهم استقلالاً محدوداً تحت لواء الإيلخانات في «إيران»، وإن استمروا في الحكم فترة بعد سقوط «الدولة الإيلخانية»، وقد استقر ملوك «آل كرت» في «هراة»، و «بلخ»، و «غزنة»، و «سرخس»، و «نيسابور»، ولم يصلوا إلى ما وصلت إليه الأسر المغولية الأخرى من أهمية في تاريخ المشرق الإسلامي؛ إذ حكموا الجزء الشرقي لإيران من منتصف القرن السابع الهجري إلى نهاية القرن الثامن الهجري، وأزال ملكهم الأمير «تيمور كوركان» مثلما أزال ملك الأسر المغولية الأخرى.

الوضع الداخلي:

كان «شمس الدين الأول محمد»، أول ملوك «آل كرت»، وهو ابن ابنة «ركن الدين بن تاج» الذي تزوج ابنة السلطان «غياث الدين محمود الغوري»، الذي عينه حاكماً على قلعة «خنسيار» (تقع بين هراة والغور) والتي آل أمرها -فيما بعد - إلى الملك «شمس الدين». عندما زحف المغول على العالم الإسلامي رأى الجدل «ركن الدين بن تاج» الدخول تحت لوائهم، ليضمن سلامة ملكه، فتركه المغول، وبعث بحفيده «شمس الدين كرت» إليهم ليكون في خدمتهم، تعبيراً عن الطاعة والولاء.

حكم «شمس الدين كرت» مناطق كثيرة، منها: «هراة»، و «بلخ»، و «غزنة»، و «سرخس»، و «نيسابور»، ووصل بملكه إلى ضفاف «سيحون»، و «سيستان»، و «كابل» حتى «نهر السند»، وتمكن من الاستقلال بالحكم في سنة (648هـ)، ومن المؤكد أن «شمس الدين» لعب دوراً كبيراً في حملة «هولاكو خان» على بلاد طائفة «الإسماعيلية»، إذ كان أول المشاركين فيها إظهاراً لولائه وطاعته

للمغول، وكان له الفضل في تسليم «ناصر الدين محتشم» «قلعة قهستان» إلى المغول.  
لم تسر سياسة «شمس الدين» على نهج واحد في علاقته بالمغول، إذ انحاز إلى «براق خان» الجغتائي في هجومه على «آباقا خان بن هولاكو» للاستيلاء على «خراسان» التابعة للدولة الإيلخانية، وذلك

(54/4)

بعد وفاة «هولاكو»، وتولى ابنه «آباقا خان» الحكم خلفاً له، فغضب «آباقا خان» على «شمس الدين» لموقفه، وخشى «شمس الدين» على حياته من غضب «آباقا خان» وانتقامه.  
شعر «براق خان» بقرب نهاية دولته (الدولة الجغتائية)، فعرض على «شمس الدين كرت» أن يعرف له أسماء الأغنياء في «خراسان» -طمعاً في ما لهم- مقابل أن يحصل «شمس الدين» على تفويضه في أملاك «الدولة الإيلخانية»، فأحس «شمس الدين» بذكائه قرب زوال ملك الجغتائيين، خاصة أن جيشهم بدت عليه أمارات القسوة والتجبر، فعاد إلى «هراة»، واعتصم بقلعة «خنسيار»، وانتظر ما ستسفر عنه الأحداث، ولكنه لم يلبث طويلاً وتمكن من النجاة بشفاعة «شمس الدين الجويني» صاحب الديوان (7) له عند «آباقا خان» الذي عفا عنه، ومات «شمس الدين كرت» في «تبريز» مسموماً في عام (676هـ = 1277م)، فولى «آباقا خان» «ركن الدين بن شمس الدين» حكم «هراة» (677 - 682هـ = 1278 - 1283م).  
واتخذ هذا الابن لقب أبيه وعرف باسم «ركن الدين بن شمس الدين الأصغر».

فلما توفى الإيلخان «آباقا خان» خشى ركن الدين على حياته، واعتصم بقلعة «خنسيار» الحصينة حتى وفاته سنة (705هـ = 1305م)، ثم تولى ابنه «فخر الدين» مكانه من قبل «غازان خان» سنة

(695هـ = 1295م)، وشغل عهده بالخلاف مع «غازان»، حتى تُوفّي سنة (706هـ = 1306م)، فعين «أولجايتو» مكانه أخاه «غياث الدين»، وظل في الحكم حتى سنة (729هـ = 1328م)، فخلفه بالتتابع ولده «شمس الدين الثاني» الذي مات سنة (730هـ = 1329م)، و «الملك حافظ» الذي قتل سنة (732هـ = 1331م)، ثم جاء من بعدهما الأخ الثالث «معز الدين حسين»، وكان من أبرز حكام «بني كرت»، فقد قرئت الخطبة باسمه، وأهداه «سعد الدين التفتازاني» كتابه المشهور في البلاغة باسم «المطول» وقد توفّي «معز الدين حسين» سنة (771هـ = 1370م)، وحل مكانه ابنه «غياث الدين بير علي» الذي

(55/4)

دعاه «تيمورلنك» للاجتماع به، فلما لم يلبّ دعوته، قاد بنفسه جيشًا تمكن من الاستيلاء على هراة سنة (783هـ = 1381م)، وأسر «غياث الدين» وابنه «بير محمد» وأخاه الملك «محمد» والي «سرخس» وأركان حكومته، وساقهم إلى «سمرقند»، ثم أعدمهم في أواخر سنة (784هـ) وبذلك انقرضت أسرة ملوك كرت.  
العلاقات الخارجية:

أتاح اتصال ملوك «كرت» بالغوريين فرصة الوصول إلى الحكم، فلما غزا المغول البلاد الإسلامية انضوى «ركن الدين» تحت لوائهم، وعمل على مسالمتهم ليأمن شرهم على نفسه وعلى مُلك «آل كرت» في «هراة» وغيرها. ثم جاء «شمس الدين كرت» ومضى على الدرب نفسه في موالة المغول، وانضم إليهم في حملة «هولاكو خان» على بلاد «الإسماعيلية»، وكان له دوره البارز في استسلام «ناصر الدين محتشم»، وتسليمه لقلعة «قهبستان» للمغول، ومضى «آل كرت» في طاعتهم للإيلخانيين الذين أسسوا دولتهم في «إيران» و «العراق»، باستثناء بعض الأوقات التي خرج فيها بعض ملوك «آل كرت» على

سيطرة الإيلخانيين المغول، ثم سرعان ما يعودون ثانية إلى الانضواء تحت اللواء المغولي، كما فعل «شمس الدين كرت» نفسه حين انضم إلى «الجغتائين» في صراعهم مع الإيلخانيين، ثم عاد ثانية إلى طلب العفو والصفح عنه من الإيلخان «آباقا» المغولي. وبذا يمكن القول: إن أمر تولية «آل كرت» الحكم كان يرجع إلى رغبة «الإيلخان» المغولي، وأصبحت مناطق نفوذ «آل كرت» إمارات تابعة - إلى حد بعيد- للمغول الإيلخانيين، وظلوا على ذلك حتى انتهى أمرهم على يد التيموريين الغزاة في عام (791هـ = 1389م).  
مظاهر الحضارة في إمارة آل كرت:

كانت إمارة «آل كرت» إمارة ثرية؛ إذ ضمت إلى حكمها مناطق عدة اشتهرت بثرواتها وخيراتها ومزروعاتها، وسعة أرضها، وعدوية مائها، وخصوبة تربتها، فاشتهرت «هراة» ببساتينها الكثيرة، و «غزنة» بسعة أرضها وخصوبة تربتها ووفرة مائها العذب، وكانت

(56/4)

تقع في أطراف «خراسان» وتربطها بالهند، أما «سرخس» فتقع بين «مرو» و «نيسابور» وبها خيرات كثيرة، واشتهرت «نيسابور» (إحدى مدن خراسان) بالفواكه والثمار، والمعادن الكثيرة وبخاصة الفيروز، كما كانت تزخر بالعلماء الفضلاء، وتعد هذه المدينة عتبة الشرق. والواقع أن تلك البقاع التي شملتها أقاليم «آل كرت» كانت تفيض بالخير والثراء، فلم يجد الحكام صعوبة في توفير احتياجات البلاد، وكذلك لم يكن لهم طموح في توسيع حدودهم، أو إدخال دولة ما تحت تبعيتهم؛ إذ كانوا أنفسهم تابعين للحكم الإيلخاني المغولي، وحرص الإيلخانيون على ولائهم وكسب ودهم، وبقاء تبعية «آل كرت» لهم.

وقد أدى استقرار الأوضاع الاقتصادية في دولة «آل كرت» إلى

استقرار الأوضاع السياسية، فشجع «الحكام» العلماء والأدباء، وعمدوا إلى مساعدتهم، فبرز منهم عدد كبير، ومنهم «ابن يمين» (المتوفى عام 769هـ)، وقد مدح بأشعاره «آل كرت» والسريداريين، وتضمن شعره الحكم والمواعظ، ومما يجدر ذكره أن العالم الجليل والقطب الكبير «جلال الدين الرومي»، قد وُلد وعاش في «بلخ» في الفترة من (604هـ إلى 672هـ)، وهو من أكبر شعراء الصوفية الفرس، وصاحب كتاب «مثنوى».

(57/4)

## الفصل الثامن

\*أمراء قراقيونلو

[780 - 873 هـ = 1378 - 1468 م].

النشأة والتكوين:

ظهرت جماعة من التركمان أطلقوا على أنفسهم اسم «قراقيونلو» في أواخر عهد السلطان «أبي سعيد بهادرخان» آخر حكام «الدولة الإيلخانية» - في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري = النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي - في الشمال الغربي لآسيا جنوبي بحيرة «وان».

ومما لاشك فيه أن هذه الجماعة قد استفادت استفادة كبيرة من الضعف الذي منيت به «الدولة الإيلخانية» في عهد خلفاء السلطان «أبي سعيد بهادرخان»، ودخلوا في صراع مع التيموريين، واعتنقوا المذهب الشيعي، ويرجع نسب أمرائهم إلى الأمير «محمد تورمش ابن بيرام خواجة».

الوضع الداخلي:

استطاع الأمير «أبو نصر قرا يوسف نويان بن محمد» أول أمراء

«قراقيونلو» أن يقود كتائبهم المنتشرة بالأقاليم المجاورة لأرمينيا و «أذربيجان»، ويستولى على «تبريز» ويجعلها عاصمة لإمارته، ثم اصطدم بأحمد بن أويس الجلائرى فى عام (813هـ = 1410م)، وتمكن منه وقتله، ومد سلطانه وسيطرته على «أذربيجان» (أذربايجان). ولما غزا «تيمور» بلاد «قرا يوسف» فى عام (802هـ = 1400م)، سلبه ملكه، ولكنه استعاد ما سلب منه فى عام (808هـ = 1405م)، ونادى بابنه «بيربوداق» أميراً على «أذربيجان» سنة (810هـ = 1407م)، فاستطاع أن يتخلص من «قرا عثمان» رئيس «الآق قيونلو» فى «ديار بكر»، ويحقق لقبيلته كثيراً من الانتصارات والفتوح من ناحية الغرب، ثم توجه إلى الشرق لصد القوات التيمورية بقيادة «شاه رخ»، ولكنه توفى فجأة فى الطريق بأذربيجان، وكذلك توفى والده «قرا يوسف» فى الوقت نفسه، فتولى الأمير «إسكندر بن قرا يوسف» الحكم فى عام (823هـ = 1420م)، واستمر حتى عام (841هـ = 1437م).

وفى أثناء هذه الفترة وقعت أحداث كثيرة، فهاجم «شاه رخ» الذى كان يحكم القسم الشرقى لإيران الأمير إسكندر بن قرا يوسف، وألحق به الهزيمة فى «تبريز»، وطرده من «أرمينية» فى عام

(58/4)

---

(824هـ = 1421م)، ولكن الأوضاع الداخلية للدولة التيمورية أجبرت الأمير «شاه رخ» على العودة إلى «خراسان»، مما أتاح الفرصة للأمير «إسكندر» للعودة إلى إمارته واسترداد ملكه، وتحقيق انتصارات متتالية فى «أرمينية» و «أران»، و «بلاد الأكراد». واستمر الصراع بينهما حتى قتل الأمير إسكندر سنة (841هـ) فتولى أخوه الأمير «جهانشاه» زعامة أمراء «قراقيونلو»، واصطدم بالتيموريين وهزم «الميرزا علاء الدولة التيمورى» واستولى منه على

«خراسان»، وفي الوقت نفسه تمرد ابن «جهانشاه» عليه في «أذربيجان»، فاضطر إلى مصالحة التيموريين ثانية، وأعاد إليهم «خراسان»، ثم عاد إلى «تبريز» عاصمته ليتمكن من مواجهة ابنه والقضاء على تمرده، فخرج عليه «حسن بيك» أحد أفراد قبيلة «آق قيونلو»، وقتله في سنة (872هـ = 1467م).

كان الأمير «حسن علي» هو آخر أمراء هذه الدولة، وهو ابن الأمير «جهانشاه» الذي اعتقله في «باكو» نحو خمسة وعشرين عامًا؛ فلما ولي الأمير «حسن» الحكم، لقي هزيمة منكرة على أيدي قبيلة «آق قيونلو» بزعامة «أوزون حسن» في عام (873هـ = 1495م)، وسقطت أسرة «قراقيونلو»، فكانت النهاية.

#### العلاقات الخارجية:

كانت دولة أمراء «قراقيونلو» في «أذربيجان» ذات علاقات عديدة مع جيرانها، اتصفت - في المقام الأول - بأنها علاقات ذات صفة حربية، فقد بدأت هذه العلاقة بتبعية هذه القبيلة للدولة الإيلخانية، ثم أقاموا علاقات صداقة مع الجلائريين والعثمانيين بهدف مواجهة الغزو التيموري، ومما لاشك فيه أنهم استفادوا من هذه العلاقة، خاصة أن «بايزيد» قد وفر الحماية لأمراء «قراقيونلو»، الذين فروا إلى «الأناضول» هربًا من التيموريين، ولكن هذه العلاقة لم تسر على وفاق مع الجلائريين، وقتل «قرا يوسف» «أحمد بن أويس الجلائري» في عام (813هـ = 1410م).

أبعد التيموريون أمراء «قراقيونلو» عن مقار حكمهم أكثر من مرة،

(59/4)

---

وكانت العلاقة سيئة بينهما، وجاءت نهاية أمراء «قراقيونلو» على أيدي قبيلة «آق قيونلو» (9)، إحدى القبائل التركمانية التي تنتمي إلى عنصرهم ذاته.

مظاهر الحضارة في دولة أمراء قراقيونلو:  
لم تتح الحروب والمعارك العسكرية فرصة كافية أمام أمراء  
«قراقيونلو» للاهتمام بمظاهر الحضارة، فقد عاشت دولتهم في  
صراعات متواصلة من أجل الحفاظ على حدودها من الجلائريين  
والتيموريين، ولكن ذلك لم يمنع الأمير «جهانشاه» من الاهتمام بالأدب  
والشعر، إذ كان هو نفسه ينظم الشعر، وكان محبا له.  
وقد شيد «جهانشاه» مسجداً يعد تحفة فنية في عمارته، وهو  
«المسجد الأزرق» الذي يمثل العمارة الإسلامية في هذه المنطقة.  
لم يمنح التيموريون أياً من أمراء «قراقيونلو» فرصة الاتجاه نحو  
الاهتمام بمظاهر الحضارة، لأنهم كانوا يحطمون كل شيء ويقضون  
على الأخضر واليابس في غزوهم الشامل على مناطق نفوذ أمراء  
«قراقيونلو»، لذا لم يهتم هؤلاء الأمراء بمظاهر الحضارة، وصرفوا  
جهودهم إلى النشاط الحربي.

(60/4)

## الفصل التاسع

\*الدولة الصفوية

[907 - 1148 هـ = 1502 - 1736م].

النشأة والتكوين:

ينتسب الصفويون إلى «صفي الدين الأردبيلي» الذي عاش في الفترة  
من (650هـ = 1252م) إلى (735هـ = 1334م)، وهو أحد شيوخ  
الصفوية، وقد درس في مطلع حياته العلوم الدينية والعقلية في  
موطنه، ثم ارتحل إلى «شيراز»، واتصل بالشاعر المعروف «سعدى  
الشيرازى»، ثم رحل إلى «أردبيل» ومنها إلى «كيلان»، ودخل في  
زمرة الشيخ «زاهد الكيلاني» وتزوج ابنته، وخلفه في الطريقة،

وعهد إلى أبنائه وأتباعه بالعمل على جذب الأتباع والدرأويش، والاجتهاد في نشر طريقتهم والدعاية لها، وكان هؤلاء ينتسبون إلى المذهب الشيعي.

الوضع الداخلي:

شهدت «إيران» فترة عصيبة ضاعت فيها حقوق المواطنين، وساءت معاملتهم، في الفترة التي سبقت قيام «الدولة الصفوية»، فمهد ذلك الطريق أمام شيوخ الصفويين، وتحولوا من أصحاب دعوة وشيوخ طريقة إلى مؤسسي دولة لها أهدافها السياسية والمذهبية. وكانت «إيران» - آنذاك - مقسمة إلى عدة أجزاء، يحكمها عدة حكام، ويستقل كل منهم بما تحت يديه، فعاش الناس حياة قلقة يشوبها الصراع على الحكم، وبحثوا عن مخرج لذلك ناشدين الراحة والهدوء، فلم يجدوا أمامهم سوى أن يكونوا مریدين وأتباعاً لشيخ الصفويين وطريقتهم، وذلك في الوقت الذي آلت فيه رئاسة الأسرة الصفوية إلى «إسماعيل»، الابن الثالث لحيدر حفيد الشيخ «صفي»، فأسس «إسماعيل» «الدولة الصفوية» في عام (907هـ = 1502م)، ثم دخل «تبريز» وأعلن نفسه فيها ملكاً على «إيران»، وتلقب بأبي المظفر شاه إسماعيل الهادي الوالي، وأصدر السكة باسمه، وفرض المذهب الشيعي، وجعله المذهب الرسمي لإيران بعد أن كانت تتبع المذهب السني، وقال حين أعلن ذلك: «لا يهمني هذا الأمر، فالله، وحضرات الأئمة المعصومين معي، وأنا لا أخشى أحداً، وبإذن الله - تعالى - لو قال واحد من الرعية حرفاً، فسأسحب سيفي، ولن أترك أحداً يعيش».

(61/4)

---

وأمر المؤذنين أن يزيدوا في الأذان عبارتي:  
«أشهد أن علياً ولي الله»، و «حى على خير العمل».

مضى الشاه «إسماعيل» في إرساء قواعد دولته، وترسيخ دعائم مذهبه، وتنظيم إدارة بلاده، فاتخذ من «حسين بك لله» نائباً له، وجعل «الشيخ شمس الدين اللاهيجي» حاملاً للأختام، واستوزر «محمد زكريا»، ثم قضى على قبيلة «آق قيونلو»، ودخل «شيراز»، وأقر فيها مذهبه الشيعي، فأصبحت «إيران» دولة شيعية بين قوتين سنيتين هما: «الهند» والأتراك من جهة الشرق، والعثمانيون والشام في الغرب.

قاست «بلاد الكرج» و «أرمينية» مرارة الصراع بين الصفويين والعثمانيين؛ إذ إنهما تارة تصير تابعة للصفويين، وأخرى تابعة للعثمانيين.

ويعود لمрад الرابع الفضل في تحديد حدود «إيران» الغربية، حيث ضم «بغداد» و «الجزيرة» إلى الحكم العثماني سنة (1048م)، كما نجح «أحمد دراني» في إقامة دولة مستقلة في «أفغانستان» بعد أن كانت تابعة مرة للهند، وأخرى لإيران، فلما ضُمت «هراة» إلى «أفغانستان» رُسمت حدود «إيران» الشرقية، ثم حددت حدودها الشمالية باستيلاء الروس على المناطق الشمالية، وبقيت هذه الحدود قائمة حتى تمت «اتفاقية الجزائر» في عام (1975م).

الشاه إسماعيل الأول [900هـ = 1494م]:

تميز الشاه «إسماعيل» بالصبر والذكاء وقوة الإرادة، والشجاعة والإقدام وحسن الإدارة، فالتف الناس حوله بالترغيب تارة وبالترهيب تارة أخرى، وأقام دولته على أساس مذهبي ذي أصول سياسية واقتصادية وإدارية، ووضع الأساس الذي استمرت عليه هذه الدولة نحو قرنين من الزمان، وباتت ذات دور مؤثر وحيوي في المنطقة، وقد أُعجب معاصرو الشاه «إسماعيل» به وبسياسته، وقد وصفه «ميرخواند» في كتابه «روضة الصفا» بقوله: «كان ذلك الملك نادرة الزمان، وأعجوبة الليل والنهار».

ولعل من أبرز إنجازات «إسماعيل الصفوي» هي إقراره لوحدة «إيران» الوطنية والسياسية، وتحديد معالم شخصية دولته في الداخل

والخارج، غير أنه صعد - في الوقت نفسه - حدة الصراع بين الصفويين  
والعثمانيين، وعمّق الخلاف المذهبي بين السنين والشيعة.  
خلف الشاه «طهماسب الأول» أباه «إسماعيل الأول» على العرش في  
(يوم الاثنين 19 من رجب عام 930هـ = 1524م)، وحكم أكثر من نصف  
قرن دخل خلالها في حروب كثيرة مع العثمانيين والأوزبك  
و «كرجستان»، ثم خلفه ابنه الشاه «إسماعيل ميرزا» الذي تلقب  
بالشاه «إسماعيل الثاني» في عام (984هـ = 1576م)، واعتمد  
سياسة الاعتدال في نشر المذهب الشيعي، فأبعد عددًا من علماء  
الشيعة المتعصبين عن بلاطه، وأمر بمنع لعن الخلفاء الثلاثة والسيدة  
«عائشة» فوق المنابر وفي الطرقات، وحاول إعادة المذهب السني  
إلى البلاد بالتدريج، مما أثار عليه حفيظة الطبقة الحاكمة وأغلبية  
المجتمع، وقرروا عزله وتعيين ابن أخيه «حسن ميرزا» إذا لم يتراجع  
عن ذلك، فعمل على تهدئة الثورة التي قامت ضده، وأبعد علماء  
المذهب السني عن بلاطه، ونقش على السكة بيتًا مضمونه: أن عليا  
وآله أولى بالخلافة في العالم الإسلامي كله.  
لم يتمكن الشاه «إسماعيل الثاني» من البقاء في الحكم فترة طويلة،  
حيث قُتل، وقد اختلفت الروايات في كيفية قتله، وتم اختيار «محمد  
خدا بنده» ملكًا على «إيران» في عام (985هـ = 1578م)، فكثرت في  
عهده الاضطرابات التي لم يستطع السيطرة عليها، إذ لم يكن جديرًا  
بالحكم، فخلفه ابنه الشاه «عباس الأول» على العرش من عام (996هـ =  
1588م) إلى عام (1038هـ = 1629م)، ويعد عهده من أبرز عهود  
الحكم الصفوي في «إيران» وأهمها؛ إذ عمل على رفاهية شعبه  
وتعمير بلاده، ونقل عاصمة دولته من «قزوین» إلى «أصفهان»،  
وأعاد الحكم المركزي إلى «الدولة الصفوية»، على الرغم من  
الصعوبات والحروب الكثيرة التي اعترضت سبيله، ونجح في إقرار

أمن بلاده وتأمين رعيته؛ واتخذ مجلسًا لبلاطه ضم سبعة أشخاص  
بسبع وظائف هي: «اعتماد الدولة» - «ركن السلطنة» - «ركن

(63/4)

الدولة» - «كبير الياوران» - «قائد حملة البنادق» - «رئيس الديوان» -  
«كاتب مجلس الشاه»، وبالرغم من وجود هذا المجلس كان هو صاحب  
القرار الأول والأخير في الدولة.

ثم توالى على حكم «الدولة الصفوية» - عقب وفاة الشاه «عباس  
الصفوي» - شاهات ضعاف؛ أدى الصراع فيما بينهم على السلطة إلى  
ضعف الدولة، فضلًا عن أن ذلك أعطى الفرصة للأعداء الخارجيين  
الذين كانوا متربصين بالدولة، وبخاصة الأتراك العثمانيون، لغزوها  
ومحاولة السيطرة عليها.

وعلى الرغم من ذلك فإن كثيرًا من الرحالة الأوروبيين الذين وفدوا  
على بلاط الصفويين؛ وصفوا مدى الأبهة والعظمة التي وفرها  
الصفويون في بلاطهم، ولعل أبرز ما كان يميز هذا البلاط هو سيطرة  
رجال الدين واتساع نفوذهم، حتى بات أمر الدولة كله في أيديهم،  
نظرًا إلى أنها دولة مذهبية، اتخذت من الدين أساسًا لقيامها،  
والدعوة إلى مذهبها.

بدأ نجم «الدولة الصفوية» في الأفول عقب وفاة الشاه «عباس  
الصفوي»، وحكمها «صفى الأول» عام (1038هـ = 1629م)، ثم «عباس  
الثاني» عام (1052هـ = 1642م)، ثم «سليمان الأول» عام (1077هـ =  
1667م)، ثم «حسين الأول» عام (1105هـ = 1694م)، ثم «طهما سب  
الثاني» (1135هـ = 1722م) ثم «عباس الثالث» الذي حكم من عام  
(1144هـ = 1731م) إلى عام (1148هـ = 1736م).

وجميع هؤلاء الشاهات الصفويين لم تكن لديهم الصفات التي تمتع بها  
الشاه «عباس الأول»، وبدت الأمور أمامهم مجرد مظاهر ملكية يجب

الحفاظ عليها، ونسوا أمور بلادهم، فضعفت الدولة، وضاعت هيبتها، وسقطت أجزاءها واحدا تلو الآخر، فضاعت الدولة، وسقط العرش، وسقطت «الدولة الصفوية» في عام (1148هـ = 1736م) فانقسمت «إيران» إلى عدة مناطق منفصلة.

العلاقات الخارجية:

أقام الصفويون علاقات متميزة مع سائر الدول، وكان الاقتصاد -ممثلا في التجارة - هو المحرك الأساسي لعلاقاتهم الخارجية، ولعل حركة البضائع الشرقية كانت سبباً في نشاط الكشوف الجغرافية وظهور

(64/4)

قوتين عظيمين لعبتا دوراً مهماً في هذا الميدان، هما: «البرتغال» و «إسبانيا»، ومما لاشك فيه أن هذا النشاط الكشفي كان الهدف منه إيجاد طريق جديدة للتجارة الآسيوية، خاصة تجارة «الهند» التي كانت التوابل أهم عناصرها. وفي سبيل هذا عمد البرتغاليون إلى البحث عن طريق بعيدة عن «البحر المتوسط» الذي يهيمن عليه المماليك في «مصر» و «الشام» من ناحية، وتخبين عليه بعض المدن الإيطالية من الناحية الأخرى.

حاول «بارثليميو دياز» البرتغالي في عام (892هـ = 1487م) الدخول إلى «المحيط الهندي» عن طريق الالتفاف حول طريق «رأس الرجاء الصالح»، ولكنه فشل، وبعده باثني عشر عاماً استطاع البحار البرتغالي «فاسكو داجاما» الوصول إلى «الهند» بواسطة طريق «رأس الرجاء الصالح»، وأقام البرتغاليون مستعمرات لهم في «الهند» و «آسيا»، وأخضعوا أمير «هرمز» لهم، وأخذوا منه غرامة حربية، وفرضوا عليه مبلغاً من المال يدفعه سنوياً خراجاً لدولتهم، في الوقت نفسه طالب الشاه الصفوي «إسماعيل الأول» هذا الأمير بتسديد الخراج السنوي المفروض عليه من قبل «الدولة الصفوية»،

فاستعان «أمير هرمز» بالقائد البرتغالي «البوكيرك» لتخليصه من ذلك، فأرسل «البوكيرك» إلى الشاه «إسماعيل الأول» برسالة جاء فيها:

«إن استيلاء البرتغال على هرمز كان بالقوة، والقدرة لملك البرتغال، وليس لأحد من حق في الخراج إلا له»، ثم أرسل هذا القائد بعض طلقات البنادق والمدافع والبارود إلى أمير «هرمز» وأمره أن يرسلها إلى الشاه «إسماعيل الصفوي» بدلا من الخراج الذي طالب به، ويخبره أن إجابة ملك البرتغال على الأعداء تكون بهذه الأشياء. ولم تلبث الأوضاع طويلا بين الطرفين على هذه الحال، وتم توقيع معاهدة بين الدولتين الصفوية والبرتغالية في عهد الشاه «إسماعيل الأول»، إذ كان للبرتغاليين نفوذ قوى في الخليج، وكانوا يحتكرون التجارة في موانئ جنوب «إيران».

(65/4)

انفتح الإيرانيون على العالم الخارجي، وزادت علاقاتهم مع الدول الأوروبية في عهد الشاه «عباس الأول»، ووفد على «إيران» العديد من السفراء الأوروبيين، كما أوفد السفراء الإيرانيون إلى البلاد الأوروبية، لإبرام الاتفاقات، وعقد المعاهدات - سواء التجارية أو السياسية - بين «أوربا» و «إيران»، وتم الاتفاق على فتح طريق تجاري بين «أوربا» و «آسيا» عبر «بحر الشمال»، وفي سنة (960هـ = 1553م) ذهب الإنجليزي «ريتشارد شانسلر» إلى «موسكو»، وتمكن من إقامة علاقات اقتصادية لبلاده مع ولايات «إيران» الشمالية في عهد الشاه «طهماسب الأول»، والملكة «اليزابيث». وقد سجلت إحدى الوثائق السياسية الإنجليزية أحداث لقاء تم بين الإنجليزي «آرثر ادوارد»، والشاه «طهماسب الأول الصفوي»، وتمنح هذا اللقاء عن منح التجار الإنجليز حرية السفر إلى «جبلان»،

أو إلى أى مكان فى أملاك «الدولة الصفوية»، ووعد الشاه «طهما سب» الإنجليز بحماية سفنهم فى بحر «الخرز» من أى عدوان، ومنحهم عدة امتيازات أخرى غيرها.

وخلص القول: إن حكام «إيران» الصفويين لم تقتصر علاقاتهم الخارجية على دولة بعينها، بل تعدت إلى العالم الأوروبى عامة، وكذلك كانت لهم علاقات جيدة مع «هولندا» و «ألمانيا».

مظاهر الحضارة فى الدولة الصفوية:

تمكن الصفويون من إقامة دولة قومية لهم فى «إيران» على أسس مذهبية، وأحيوا بها الروح القومية، ووجدوا عناصر الشعب تحت لواء مذهبهم الذى قاموا بنشره بالترهيب والترغيب بين الطبقات كافة.

وانتفع الصفويون فى تكوين حضارتهم بالصراع العسكرى فى حروبهم ضد العثمانيين؛ إذ كلفوا «روبرت»، و «أنتونى شيرلى» الإنجليز بإنشاء مصنع للمدافع لهم، فكان سبباً من أسباب تقدم حضارتهم العسكرية، وانتقل «طهما سب» بعاصمة بلاده من «تبريز» إلى «قزوين» نتيجة توغل السلطان العثمانى «سليمان القانونى» فى «العراق»، ثم فى «تبريز» و «أصفهان»، وأخذ «طهما سب» فى

(66/4)

---

بلاطه الجديد بكل أسباب التحضر والتأنق والدقة، حيث كان خطأً ماهراً، وله دراية عالية بفنون النقش من خلال دراساته فى هذا المجال.

وفى سنة (1007هـ = 1598م)، نقل الشاه «عباس الصفوى» عاصمة بلاده إلى «أصفهان»؛ فدبت بها حياة جديدة، وراجت بها التجارة، وازدهرت الصنائع والفنون، وعمد «الشاه عباس» إلى تطوير الجيش وتحديثه، فاستبدل جيشه القديم -المكون من قوات قبلية- بجيش نظامى جديد، واستحدث فيه فرقة عسكرية جديدة أطلق عليها اسم

«أصدقاء الملك»، وكانت هذه الفرقة تضم عشرة آلاف فارس، وكان ضعف هذا العدد من المشاة، ثم مضى في طريق التحديث العمراني فشيّد الطرق، وشق القنوات، وأعد الأماكن اللازمة لنزول القوافل التجارية في طول البلاد وعرضها، وأقام مدينة ملكية جديدة في «أصفهان»، وجعلها مجاورة للمدينة القديمة، وأنشأ بها الإنشاءات اللازمة، ثم ضاعف هذه الإنشاءات في عام (1020هـ = 1611م)، وبنى لنفسه بها قصرًا عظيمًا، وأنشأ حول ميدانه مسجدًا كبيرًا أسماه «مسجد شاه»، وجعل بجواره مسجدًا آخر أصغر منه، وأحاط المدينة بسور من الآجر والطين، وأقام بها الأسواق المسقوفة، ومائة واثنين وستين مسجدًا، وثمانين وأربعين مدرسة دينية، وألفى رباط لإقامة القوافل، وثلاثمائة حمام عام، وجعل لكل منزل بها حديقة خاصة، كما جعل شوارع هذه المدينة متعرجة وضيقة، ربما لأسباب أمنية ودفاعية، فبلغ تعداد السكان بالمدينة الجديدة نحو ستمائة ألف نسمة في ذلك الوقت، ولقد بقيت آثار هذه المدينة شاهد صدق على عظمة الحضارة الصفوية إلى وقتنا الحاضر.

(67/4)

## الفصل العاشر

\*شاهات إيران

[1135 - 1344هـ = 1722 - 1925م].

أ - الأفاغنة:

تمرد الأفغاني «محمود بن ميرويس» ورفع راية العصيان على «الدولة الصفوية» في عهد الشاه الصفوي «حسين الأول»، فلما لم يجد هذا الرجل من يأخذ على يديه ويوقف عصيانه؛ تمكن من الاستيلاء على مدينتي «هراة» و «مشهد»، وهما من أهم مدن دولة الصفويين، ولم

يكتفٍ بذلك: بل استولى على العاصمة «أصفهان» في سنة (1135هـ = 1722م)، فدخلت دولة الصفويين في طور السقوط والانهيار النهائي، وتحولت من دولة كانت تتمتع بالنفوذ والسطوة والهيبة في عهد «عباس الأول» ومن سبقوه، إلى هيكل ضعيف لاحول له ولا قوة، وظهرت إلى جانبها قوى أخرى جديدة وفتية سلبتها حق التمتع بإمكاناتها وممتلكاتها، وسلبت حكامها حق الانفراد بحكم البلاد.

أقام الأفغانيون دولتهم على ما سلبوه من أراضي الدولة الصفوية، وكان أول حكامهم هو «محمود بن ميرويس» الذي حكم في (11من الحرم عام 1135هـ = 1722م)، وقتل في سنة (1137هـ = 1725م)، فخلفه «أشرف بن عبدالله» في الحكم، وظل به حتى عام (1142هـ = 1729م)، ثم ظهر الأمير الأفغاني «آزاد خان» مطالبًا بالحكم في «أصفهان» في سنة (1166هـ = 1753م)، وتم له ما أراد، وظل في الحكم حتى سنة (1169هـ = 1756م).

ب - الأفشارية:

لم يستمر حكم الأفاغنة طويلًا؛ إذ استعان الشاه «طهما سب الثاني» - على دفع تهديد الأفغان - بالقوى المحيطة، فأسّرت «روسيا» إلى مساعدته فيما طلب، نظير السماح لها بدخول «استراباد»، وهكذا تمكن الروس من وضع أقدامهم في هذه المناطق. ثم ظهرت قوة جديدة حكمت في الفترة من سنة (1148هـ = 1736م) إلى سنة (1210هـ - 1796م) عرفت باسم الأفشارية، واستطاع «نادر شاه الأفشاري» أن يقضى على حكم الأفغان، ويخلع الشاه «طهما سب الثاني» ويسجنه مع طفله الرضيع «الميرزا عباس الثالث»، ثم أعلن تنويجه ملكًا على «إيران» في سنة (1148هـ = 1736م).

وظلت أسرته تحكم أكثر من ستين عامًا، أى إلى سنة (1210هـ = 1796م)، وقد اتسم حكم «نادر شاه» بالسطوة والعنف ضد الرعية، مما أسرع بقتله على يد أحد ضباطه، فأدى ذلك بدوره إلى ظهور «الزنديين»، وأصبح زعيمهم «محمد كريم خان» شاه «إيران» في سنة (1163هـ = 1750م)، ولكن هذه الأسرة لم تستطع مد نفوذها إلى «خراسان» التي كانت في قبضة «شاه رخ» الأفشارى، وبقيت هذه الأسرة الزندية في الحكم مدة خمسين عامًا، حتى قُتل آخر حكامهم «لطف على» على يد «آقا محمد القاجارى» في الرابع عشر من الحرم عام (1211هـ = 1799م)، فظهرت الأسرة القاجارية.

ج - الأسرة القاجارية:

هى إحدى الأسر المغولية، وانتشر أفرادها في البلاد الإسلامية، وأقاموا بصفة خاصة بأرمينية، واقتصر دورهم في عهد الشاه «إسماعيل الأول الصفوى» على تقديم العون إلى الصفويين، حيث اتخذ منهم جنودًا لمواجهة شر القبائل المهاجمة لحدوده، فازدادوا بذلك قوة ونفوذًا، ثم استطاع «آقا محمد خان» توحيد فروع قبيلته بالقوة والعنف حتى تمكن من الاستيلاء على «طهران» في سنة (1193هـ = 1779م)، ثم أقام «الدولة القاجارية»، وأصبح أول ملوكها، وأطلق على نفسه لقب ملك «إيران» في عام (1211هـ = 1796م)، وقضى على «الزنديين»، وحقق السيطرة الكاملة على «إيران» و «جورجيا»، ثم خلفه «فتحعلى شاه» في الفترة من (1212هـ = 1797م) إلى (1250هـ = 1834م)، وامتاز عصره بالهدوء النسبى، وإن تخللته بعض الاضطرابات والمشاكل السياسية.

العلاقات الخارجية:

دفع الأفاغنة «الشاه طهما سب الثانى الصفوى» إلى الاستعانة بروسيا، وإلى عقد معاهدة مع قيصرها «بطرس»، وتخلت «إيران» بموجبها رسمياً عن «دريند»، و «باكو»، والسواحل الجنوبية لبحر «مازندران» حتى «استراباد»، فتحقق لروسيا حلم الوصول إلى هذه

المناطق، وأطمعها ذلك في شمال البلاد حين نشب الصراع على السلطنة بين الصفويين والأفاغنة، ولعل ذلك هو الذي دفع العثمانيين

(69/4)

إلى الهجوم على بلاد «الكرج». ثم أسس «نادر شاه الأفشاري» دولته بـإيران، وبذل جهودًا مضنية للقضاء على الانقسام القائم في الجزء الشرقي من العالم الإسلامي، وأعلن المذهب السني مذهبًا رسميًا للبلاد؛ عوضًا عن المذهب الشيعي، واضطهد زعماء الشيعة، ولكن محاولاته وجهوده هذه لم تسفر عن نتائج قاطعة، فقام بتوسعات وفتوحات كثيرة، ودخل «دهلي» ونهب قصورها، وضم «جزيرة البحرين» إلى «إيران» في عام (1151هـ = 1738م)، ثم مضى إلى فتح «العراق» في سنة (1156هـ = 1743م).

لم تسفر حروب «نادر شاه» الخارجية عن فائدة فعلية لشعبه، بل على العكس من ذلك، فقد قاد جيوشه من أقصى الشرق إلى الغرب، وحمل الشعب أعباء الإنفاق على هذه الجيوش، في حين كان من الممكن أن يصرف هذا الإنفاق على تنمية البلاد ورفاهية هذا الشعب.

استطاع «أقا محمد القاجاري» أن يسيطر على كل «إيران» و «جورجيا»، ثم خلفه ابن أخيه «فتحعلي شاه»، فأقامت «إيران» في عهده علاقات سياسية مع الدول الأوروبية، وعقد في سنة (1222هـ = 1807م) معاهدة تحالف مع «فرنسا»، ولذا كان من المتوقع أن تسمح «إيران» لنابليون بونابرت بالمرور عبر طريقها البري للوصول إلى «الهند» في مقابل أن تمد فرنسا «الدولة القاجارية» بالأسلحة، ومدربي الجيش، لكي تتمكن «إيران» من التصدي لروسيا القيصرية التي استولت على «جورجيا» في عام (1216هـ = 1801م)، ولكن الأمور لم تسر وفق ما كان متوقعًا، فقد اتفق «بونابرت» مع «روسيا»، ووقع الروس والإيرانيون معاهدة

«كلستان» في عام (1229هـ = 1813م)، واعترفت «إيران» بموجب هذه المعاهدة بحق ملكية «روسيا» لجورجيا، ومع ذلك لم تستقر الأوضاع، ودخلت «إيران» في سلسلة من الحروب مع «روسيا»؛ التي استولت على «تبريز»، وفرضت على «إيران» غرامة مالية، بموجب معاهدة «تركمان جاي» التي عُقدت في سنة (1244هـ = 1828م)، فضلاً عن تنازل «إيران» عن إقليم «إريوان» و «نخجوان» لروسيا،

(70/4)

ووضع «محر قزوين» تحت الرقابة الحربية الروسية، فباتت «إيران» بين شقي رحى في علاقاتها الخارجية مع «روسيا» التي تعمل على التوسع في «آسيا» على حساب ولايات «إيران» الشمالية للوصول إلى مياه الخليج الدافئة، و «بريطانيا» التي تعمل على تأمين الطريق إلى مستعمراتها في «الهند» من خلال السيطرة على «الخليج الفارسي»، والأراضي المجاورة للهند. وجدير بالذكر أن خمس عشرة دولة أجنبية حصلت على امتيازات لرعاياها في «إيران» في النصف الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي، ثم امتلأت «إيران» بالأجانب في عهد «ناصر الدين شاه القاجاري»، في الوقت الذي تزايد فيه نفوذ رجال الدين الشيعة، لسيطرة مذهبهم الشيعي على كل «إيران»، وكذلك على حكامها. وقد شهد الربع الأول من القرن العشرين تطوراً في سياسة «إيران» الخارجية، حيث عقدت مع «روسيا» في عام (1340هـ = 1921م) معاهدة صداقة، أُلغيت بمقتضاها جميع المعاهدات السابقة التي كانت تضر بالمصالح الإيرانية، وأسقطت «روسيا» بموجبها ديون «إيران» التي لم تُسدّد من قبل، وتنازلت عن امتيازاتها وممتلكاتها في «إيران» مثل: خط السكة الحديدية، وخطوط البرق، ولعل الذي دفع «روسيا» إلى التنازل عن كل ذلك هو خوفها من محاولات

«بريطانيا» للتدخل في شؤون «إيران» ووضعها تحت سيطرتها.

مظاهر الحضارة في إيران:

كان لموقع «إيران» الجغرافي أهميته البالغة - وما زالت - في تحقيق

أسباب حضارتها ومدنيتها؛ حيث إنها المعبر البرى بين الشرق

والغرب، وقد حقق لها ذلك مزية الرواج التجارى، ونقل الثقافات،

والاستفادة من خبرات الآخرين، وفي الوقت نفسه جرَّ عليها الأطماع.

وقد تحملت «إيران» العناء والخراب والدمار الذى لحق بها

ومواطنيها - منذ القدم - بسبب موقعها الجغرافى، ومع ذلك لا يمكن

لأى مؤرخ منصف أن ينكر دور «إيران» الحضارى فى الثقافة

والفنون والتقاء الحضارات المتعددة وتمازجها.

(71/4)

---

ومن الحقائق الثابتة أن الحكم الإيرانى قد تأسس على السلطة

المطلقة للملك، الذى كان يسانده مجموعة من الإقطاعيين أُطلق عليهم

لقب «الولاة»، نظراً لمساحة الأراضى الشاسعة، فكان كل واحد من

هؤلاء «الولاة» ينوب عن الملك فى حكم إحدى مقاطعات البلاد، وله

حق توريث الولاية من بعده، فنشأ نظام «الأسر الإقطاعية» التى زادت

سطوتها، واتسع نفوذها، وقاد أمراؤها حركات التمرد على الشاه

الموجود فى العاصمة، كما قاموا بالحركات الانفصالية، التى كان لها

من السند والقوة ما يحول دون إمكانية القضاء عليها، ولعل هذه

الأوضاع هى التى أوجدت الثراء الفنى والثقافى، فى طول البلاد

وعرضها، وعملت على تنوعه وتعدد اتجاهاته.

(72/4)

---

## الفصل الحادي عشر

\*التيموريون

[771 - 906 هـ = 1329 - 1500م]

النشأة والتكوين:

ينتسب التيموريون إلى قبيلة «برلاس» المغولية، ويرجعون في أصلهم إلى «تيمور بن ترغاي بن أبغاي»، الذي أحاط المؤرخون نسبه بمالة من الرفعة وعلو الشأن، ليبرروا استيلاءه على «بلاد ما وراء النهر»، فقد كان أبوه «أمير مائة» عند السلطان المغولي، وكان المغول يستخدمون الأتراك في دواوينهم، وأكثروا منهم، حتى صارت اللغة التركية هي لغة البلاط والمجتمع في «بلاد ما وراء النهر»، فلما دخلت «الدولة المغولية» مرحلة الاضمحلال والضعف؛ قامت «الدولة الجغتائية» بمساعدة قبيلة «برلاس»، فحفظ الجغتائيون هذا الجميل، وولوا «تيمور لنك»، ولاية «كش»، حين التجأ إليهم أثناء الاضطرابات التي عصفت ببلاد «ما وراء النهر» ثم لم يلبث أن أخرج الجغتائيين من بلاد «ما وراء النهر»، وطارد قبائل «الجتة» البدوية؛ التي اتسمت بالعنف والوحشية، وتمكن من طردهم من «بلاد ما وراء النهر»، ثم أعلن نفسه سلطاناً في بلخ» على هذه المنطقة، واتخذ «سمرقند» عاصمة مملكه، وأعلن ذلك رسمياً في عام (800هـ = 1397م)، ثم مضى في تنظيم حكومته الجديدة، واتبع قانون «جنكيزخان» (الياسا المغولية)، بما لا يتعارض مع القرآن الكريم والسنة النبوية.

كان «تيمور لنك» ميالاً إلى الفتح والتوسع، وغزا «خوارزم» في عام (773هـ)، ثم دخلها وسيطر عليها في عام (781هـ)، فأضحت «آسيا الوسطى» كلها تحت سلطانه.

الوضع الداخلي:

بدأ حكم «تيمور كورخان» (تيمورلنك) منذ دخل «سمرقند» في عام (771هـ = 1329م)، فكوّن مجلس شورى من كبار الأمراء والعلماء،

وعلى الرغم من أنه كان الحاكم الفعلي للبلاد، فإنه عمد إلى اختيار الأمير الجغتائي «سيورغتمش بن دانشمندجة»، وجعله رمزًا للحكم ولقبه بلقب السلطان في الفترة من سنة (771هـ = 1329م) إلى سنة (790هـ = 1387م)، ثم اتخذ من بعده «محمود بن سيورغتمش» من عام (790هـ = 1387م) إلى عام (800هـ = 1397م).

(73/4)

وقد اتسمت سياسة «تيمور لنك» بالتوسع، فزحف إلى «إيران» في سنة (782هـ = 1380م)، وتمكن من الاستيلاء على «خراسان» و «جرجان»، و «مازندران»، و «سيستان»، و «أفغانستان»، و «فارس»، و «أذربيجان»، و «کردستان»، ثم دخل «جورجيا» وغرب «إيران» في عام (786هـ = 1384م)، وتمكن من فتح «العراق» و «سورية» (حلب ودمشق)، وهزم المماليك في الشام، وحقق انتصارات عظيمة في «الهند» عقب وفاة «فيروزشاه» سلطان «دهلي» في عام (799هـ = 1397م)؛ حيث استولت جيوشه على حصن «أوكا»، وأسقطت «الملتان»، وفتحت «آباد»، ودخلت «هراة» بالأمان، ولاقى «تيمورلنك» مقاومة شديدة وصعوبة في دخول «دهلي» على يد سلطانها «محمود تغلق»، ولكن هذه المقاومة لم تستمر طويلاً، ودخل «تيمور» هذه المدينة، فقدم إليه أعيانها وعلمائها فروض الولاء والطاعة، وخطب له فيها، وعلى الجانب الآخر حقق «تيمورلنك» انتصارات كثيرة على الأتراك العثمانيين، وأسر حاكمهم «بايزيد خان».

وتوفي «تيمورلنك» في «أترار» عن عمر يناهز السبعين عامًا في سنة (807هـ = 1405م) بعد أن دانت له البلاد من «دهلي» إلى «دمشق»، ومن «بحيرة آرال» إلى «الخليج العربي»، فلما علمت بوفاته الأسر الحاكمة من «آل المظفر»، و «آل جلائر» و «ملوك كرت»،

وكذا الأسر التركية والتركمانية أخذت جميعها تطالب باستقلالها عن خلفاء «تيمور»، وعودتها إلى الحكم ثانية، فأثارت الفتن والقتال، وكثرت الاضطرابات والمشاكل في طول البلاد وعرضها، وتعرضت «الدولة التيمورية» إلى نكسة حقيقية عقب وفاة عاهلها ومؤسسها «تيمور»، وتمكنت بعض الأسر الحاكمة - من قبل - من العودة إلى الحكم، وإعادة ما سلب من أملاكها وممتلكاتها، فصارت هناك عدة أسر حاكمة تنافس خلفاء «آل تيمور» ثم خلف «تيمورلنك» ابنه «شاهرخ» على العرش سنة (807هـ = 1405م) واستمر في الحكم إلى سنة (850هـ = 1447م) فعاشت البلاد في عهده أفضل فترات الحكم؛

(74/4)

إذ كان محبا للعلم والعلماء، وحفيا بالثقافة، كما كان عادلا وتقيا وورعا، فاشتهر بسلوكه الحسن وسيرته الطيبة بين الرعية. ولى «شاهرخ» أملاك «الدولة التيمورية» فيما عدا «سوريا» و «العراق العربي»، فقام بإصلاحات كثيرة في البلاد، وشيد المباني، وبنى المدارس الكثيرة في «بخارى» و «سمرقند»، وأنشأ مرصده الشهير، ثم خلفه ابنه «أولوغ بك» على العرش، وقتله ابنه «عبد اللطيف بن أولوغ» في سنة (853هـ = 1449م)، ثم قُتل هو الآخر من بعده، ولم يستفد، من قتل أبيه، وتمكن «أبو سعيد ميرزا» من الاستيلاء على الحكم بسمرقند في سنة (854هـ = 1450م)، ثم تولى من بعده «أحمد» في سنة (872هـ = 1467م)، ثم من بعده «محمود» في سنة (899هـ = 1493م)، ولم يلبث بالحكم سوى عام واحد فقط، ثم حدثت الاضطرابات في سنة (906هـ = 1500م)، وقضى «الشيبانيون» على «الأسرة التيمورية» فيما عدا «ظهير الدين بابر» الذى فر إلى «الهند»، وتمكن بعد ذلك من تأسيس دولة عظيمة بها. العلاقات الخارجية:

اتسمت علاقة «الدولة التيمورية» بالعالم الخارجى بالعداء والتناحر، بسبب رغبتها فى التوسع على حساب جيرانها، وقد طرد «تيمورلنك» الجغتائيين من بلاد «ما وراء النهر»، ثم أسس دولته التيمورية بها، واستولى على «خوارزم» فى عام (781هـ)، ثم استولى على «إيران»، و «أفغانستان»، و «أذربيجان»، و «العراق»، و «سورية»، ودخل حروباً كثيرة من أجل تحقيق ذلك، وأحرز انتصارات متعددة فى بلاد «الهند»، ثم دخل «دهلى»، فأصبح ذا ملك عظيم، وسيادة على مساحة شاسعة من الأرض، ولكن خلفاءه لم يحافظوا على ما سعى من أجل تحقيقه طيلة حياته، وكان وفاته جاءت إيذاناً بالعودة إلى أعداء الدولة ومنافسيها، لاستعادة عروشهم، والاستقلال ببلادهم التى اغتصبها التيموريون جبراً، وقسراً، وعدواناً، وعلى الرغم من ذلك لا يجب إغفال دور «شاه رخ بن تيمورلنك» (807 - 850هـ = 1405 - 1447م)؛ إذ كان رجلاً عادلاً

(75/4)

تقياً، غير محب للحرب، وغير ميالٍ إلى سفك الدماء، إلا إذا اضطرتة الضرورة إلى ذلك، وكان اهتمامه موجهاً إلى إصلاح شأن البلاد والنهوض بها وبعمرائها، فعاشت البلاد فى عصره أزهى فترات تاريخها.

مظاهر الحضارة فى الدولة التيمورية:

كان «تيمورلنك» رجلاً واسع المعرفة، يتقن التحدث بلغات ثلاث هى: «التركية»، و «الفارسية»، و «المغولية»، محباً للأطباء والفلكيين، وكذا الفقهاء، وقد جمع الفنيين وأصحاب الحرف من كل أطراف الدنيا فى عاصمته «سمرقند»، وكانت حياة الحاربيين وأخبار الحروب وتواريخها من أحب المعارف التى يسعى إلى معرفتها، والقراءة فى الكتب التى تناولتها.

شيد «تيمورلنك» حضارة عظيمة في بلاده، وأقام بها المنشآت الشاهجة، ولعل المدرسة الدينية الكبيرة التي بناها لزوجته الصينية «بيبي خاتون» خير دليل على عظمة حضارة «الدولة التيمورية» في عهده، فهي تحفة فنية مكونة من أربعة إيوانات، وفي وسطها فناء واسع، تحيط به عقود ذات قباب، على رأس كل منها منارة، وتعد المقبرة التي بناها لنفسه آية من آيات البناء، ومثالا لسمات المعمار في العصر التيمورى.

ولم يشهد العهد التيمورى ازدهاراً في مناحى الحياة كافة مثلما حدث في عصر «شاهرخ»؛ الذى يعد من أكثر حكام «إيران» ثقافة وذكاءً ومعرفة، فقد جعل من «هراة» مركزاً ثقافياً لأواسط آسيا، وتبوأ المهندسون والمعماريون والرسامون والشعراء والعلماء مكانة بارزة في بلاده، وأغدق عليهم بالعطايا، وتولى رعايتهم بنفسه، فشهدت البلاد في عصره نهضة حضارية في كل الفنون ومختلف التخصصات، ويعد مسجد «جوهر شاد» (12) من أبرز إنجازات هذا العصر، وظل العمل في بنائه اثنى عشر عاماً في الفترة (808 - 820هـ = 1405 - 1417م)، وقد أقيم تكريماً لزوجته - التي حمل المسجد اسمها - بمدينة «مشهد».

وكذلك بنى المعمارى «قوام الدين الشيرازى» مدرسة كبيرة - بتكليف من شاهرخ - بمنطقة «خرکرد» التي تقع إلى الغرب من

(76/4)

---

«هراة»، وتقع حالياً في شرقى «إيران»، ثم خلف «ألوغ بيك» أباه على العرش، فكانت فترة حكمه قصيرة، ومع ذلك فقد حرص خلالها على رعاية الفنون والآداب الفارسية. يعد «شمس الدين محمد حافظ الشيرازى» ألمع شخصية أدبية عرفها العصر التيمورى، ويمثل شعره ازدهاراً للحركة الثقافية في هذا

العصر، وقد توفي في سنة (792هـ = 1389م)، وكذلك يُعد «الجامي» المتوفى في سنة (898هـ = 1492م)، من أبرز العلماء والشعراء في هذا العصر؛ إذ ألف ستة وأربعين كتابًا في مختلف فروع العلم، ثم يأتي «نظام الدين الشامي»، صاحب كتاب «ظفرنامه»، الذي يعد سجلًا لفتوحات «تيمورلنك».

(77/4)

## الفصل الثاني عشر

### \*الدولة الغزنوية

[351 - 582 هـ = 962 - 1186 م].

### النشأة والتكوين:

اعتمد السامانيون على الأتراك في صفوف الجيش، وفي تولي المناصب الكبيرة في «الدولة السامانية»، فعلا شأن الأتراك، وازداد نفوذهم، ويعد «البتكين» الذي ولى منصب صاحب الحجاب للأمير «عبدالله بن نوح» (343 - 350هـ = 954 - 961م) أبرز الشخصيات التركية في بلاط السامانيين، وبلغ من نفوذه أن خشي الأمير «عبدالله بن نوح» منه على ملكه فأبعده عن العاصمة، وأسند إليه ولاية «خراسان» في عام (349هـ = 961م). ولما تولى «منصور بن نوح» الإمارة خلفًا لأخيه «عبدالله» الذي توفي سنة (350هـ = 961م)؛ تمرد عليه «البتكين» في «خراسان»، وأرسل جيشًا لمحاربتة والقضاء على تمرد، وأسند «خراسان» إلى «أبي الحسين سيمجور»، فتوجه «البتكين» إلى «غزنة» واستولى عليها من حاكمها الساماني، وأسس بها إمارة مستقلة عن السامانيين، ثم جعلها مركز حكمه وعاصمة دولته المناهضة للدولة السامانية.

حاول الأمير «منصور» جاهداً أن يقضى على تمرد «البتكين» في غزنة، ويوقف تأسيس دولته المناهضة، لكن جهوده جميعها باءت بالفشل.

الوضع الداخلي:

لم يتمكن «البتكين» أول حكام «الدولة الغزنوية» ومؤسسها من ترسيخ دعائم دولته الجديدة، فقد وافاه أجله في سنة (352هـ)، بعد عام واحد تقريباً من توليه الحكم، ثم خلفه ابنه «إسحاق»، ثم غلامه «بلكانين» - من بعده - ولكنهما لم يتمكنوا من تحقيق ذلك، فلما ولى «سبكتكين» أمور الدولة سنة (366هـ)، تمكن بيمته العالية وحسن سياسته أن يبسط نفوذه ويوطد دعائم دولته، ويحقق لها ما لم يقدر عليه سابقوه، فعدّ المؤسس الفعلي لها.

ويُعد «محمود الغزنوي» -الذي ولى الحكم في الفترة من سنة (388هـ) إلى سنة (421هـ) - من أكبر الشخصيات في التاريخ الإسلامي وأشهرها، إذ قاد الجيوش والحملات والفتوحات من أجل نشر الدين الإسلامي بالهند، ونزل من أعالي «إيران الشرقية» إلى

(78/4)

«هندوستان»، ثم واصل جهاده حتى بلغ حدود «كشمير» و «البنجاب»، وغزا «سومناات» ومنها إلى «كجرات»، ثم استولى على بلاد «الغور» في عام (401هـ = 1010م)، وأخضع مناطق «ما وراء النهر»، ومديني «بخارى» و «سمرقند» لحكمه، فلقبه المؤرخون بلقب «مكسر الأصنام»، كما كان أول من تلقب بلقب السلطان من أمراء المسلمين.

وأضحت مدينة «غزنة» في عهده منارة للعلم، ومقصداً للعلماء، ووفد عليها أشهر أدباء هذا العصر أمثال الشاعر «الفردوسي»، وأصبحت عامرة بالمساجد والسدود والأبنية الخيرية، التي لا تقل بهاءً وجمالاً

عن المنشآت الهندية التي اشتهرت بدقة التصميم وجمال العمارة. وتوفي السلطان «محمود» في عام (421هـ = 1030م)، بمدينة غزنة. وفي سنة (556هـ = 1161م)، أسقط الغوريون «غزنة» وسيطروا عليها، ولم يستطع أحفاد السلطان «محمود الغزنوي» الصمود أمام هجمات الغوريين، ولم يتمكنوا من استعادة عاصمة بلادهم، فسقطت «الدولة الغزنوية» في سنة (582هـ = 1186م).

العلاقات الخارجية:

أقام الغزنويون علاقات عديدة مع كل الدول المحيطة والمجاورة، وبصفة خاصة مع «هندوستان»، وتجدر الإشارة إلى أن حكم المسلمين لبلاد «الهند» بدأ مع خروج الحملات الغزنوية لفتحها؛ إذ اتخذت هذه الحملات من «لاهور» مقراً لها، ومركزاً لنشر الدعوة الإسلامية، فلما ورث الغوريون دولة الغزنويين، تولوا سلطنة «دهلي»، وواصلوا الطريق، ونشروا الدين، وبسطوا نفوذ المسلمين على كل بلاد الهند الشمالية. ولعل فتوحات السلطان «محمود الغزنوي» بالهند قد بلغت مدى لم تبلغه أية قوة إسلامية بعده، فكان له فضل نشر الدعوة، ودخول أعداد كثيرة في دين الله، فأعز الله به الإسلام، وأعلى كلمة التوحيد في هذه البلاد.

المظاهر الحضارية في الدولة الغزنوية:

ضمّت أراضي «الدولة الغزنوية» عناصر وأجناساً سكانية متعددة، شملت الأتراك والفرس واليهود والنصارى وغيرهم، واعتمد الغزنويون

---

على الأتراك في بلاطهم، وأكثروا منهم في الجيش، فزاد نفوذهم، كما زاد نفوذ الفرس في جوانب الثقافة والأدب والعلوم والاقتصاد، ونهضت الدولة في هذه المجالات بفضل جهودهم، ولذا فقد اهتم الغزنويون بإحياء أعيادهم والاحتفال بها، إلى جانب الاحتفال

بأعياد المسلمين كعيدى الفطر والأضحى، على أن هذه الاحتفالات كانت تتوقف فى المناسبات الحزينة التى تمر بالدولة، مثلما حدث فى عيد الأضحى سنة (341 هـ = 1039م)، حين ألقى السلطان «مسعود الغزنوى» الاحتفال به، بسبب الهزيمة التى منيت بها الدولة أمام السلاجقة، وكانت المجاملة من الأمور التى حرص عليها الشعب الغزنوى فى المناسبات مثل: استقبال وفود الخليفة إلى السلطان وتوديعهم، أو تنصيب السلطان، أو تعيين وزير، أو صاحب منصب كبير، وكان الشعب يتسابق فى تقديم الهدايا فى هذه المناسبات، كما كان من عاداته ارتداء البياض رمزاً للحزن فى مناسبات الحداد. ومن المؤكد أن السلاطين الغزنويين قد عاشوا حياة مترفة، أنبأنا بها قصورهم الفخمة، ومواكبهم المهيبية، وكذلك مظاهر الزينة والأبهة التى تناقلتها ووصفتها مصادر المؤرخين ومراجعهم، ويتجلى هذا الترف فى المواكب السلطانية وحفلات الزواج، ومراسم تولية السلطان أو تنصيب الوزير.

ولم يغفل الغزنويون الترفه بأنواع التسلية، فكانت المصارعة وحمل الأحجار الثقيلة، والمبارزة، والصيد، من أنواع الرياضة التى اهتم بها أمراء البيت الحاكم، وكان السلطان «مسعود» - قبل أن يلى السلطة - يهتم بهذه الرياضة ويقول: «ينبغى التعود على مثل ذلك؛ حتى لا يعجز المرء إذا قابلته مهام صعاب، أو ساعات شداد»، ولذا كان يبارز الأسود وهو جالس على ظهر فيل، ولا يسمح لأحد بمساعدته فى ذلك، وكان الصيد يتم - أحياناً - بواسطة الفهود والكلاب، وكانت التسلية المفضلة عند الشعب الغزنوى هى ركوب السفن فى بعض الأنهار.

النهضة الثقافية فى الدولة الغزنوية:

ولعل أبرز ما يميز «الدولة الغزنوية» عن مثيلاتها من الدول المستقلة في شرق العالم الإسلامي هي نهضتها الثقافية، التي ازدهرت على أيدي أمرائها الذين قدّروا رجال الأدب، وعملوا على تشجيعهم والعناية بهم، فقد كان كل أمير يريد أن يحيط نفسه برجال العلوم والفنون؛ ليتفوق على أقرانه، وبرزت «غزنة» في أواخر القرن الرابع الهجري كمركز إشعاع كبير في جنوبي غرب «آسيا»، بفضل تشجيع السلاطين الغزنويين الذين لم يألوا جهداً في سبيل رفع شأن العلوم والفنون في دولتهم، واستطاع السلطان «محمود الغزنوي» أن يضم إليه رجال العلم والأدب الذين كانوا يحيطون بأمرء البلاد المجاورة، وزين «غزنة» بأجمل ما حصل عليه من مغام «الهند»، وأعاد تشييد مسجدها الجامع، وأضاف إليه مدرسة كبيرة، ووضع بها مؤلفات وتصانيف نقلها من خزائن الملوك السابقين في العلوم كافة، ليقوم علماء «غزنة» وفقهاؤها بدرسها وتدريسها. وجدير بالذكر أن السلطان «محمود بن سبكتكين» كان مولعاً بعلم الحديث، ويستمع إلى علمائه، ويستفسر عما يتلونه عليه من أحاديث، وكان يستدعي إلى «غزنة» كل من له سعة في العلم والأدب والشعر، مثل «بديع الزمان الهمذاني» صاحب فن المقامات، قال عنه «الثعالبي»: «إنه معجزة همذان، وغرة العصر، كان ينشد القصيدة إذا سمعها مرة واحدة، ويترجم ما يستمع إليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعاني الغريبة إلى الشعر العربي، فيجمع فيها من الإبداع والإسراع». ومنهم أبو ربحان محمد بن أحمد البيروني (362 - 440هـ) الذي يعد من أعظم رجال الحضارة الإسلامية وأبرزهم، وقد نال تقديراً علمياً كبيراً، وترجمت كتبه إلى اللغات الأوروبية، وسمت روسيا جامعة حديثة باسمه وأقيم له تمثال في جامعة موسكو، وأصدر البيونسكو وبعض جامعات أمريكا وألمانيا فهرس بأعماله. وكذلك ظهر عشرات العلماء والفقهاء والشعراء في «الدولة

(81/4)

---

الغزنوية»، وبلغ اهتمام الغزنويين بالنهضة الثقافية والعلمية مدى كبيراً تفوقت به على مثيلاتها؛ لدرجة أنها كادت تتفوق على «بغداد» مركز الإشعاع الثقافي في العالم الإسلامي.

(82/4)

---

### الفصل الثالث عشر

\*الدولة الغورية

[543 - 612 هـ = 1148 - 1215 م].

النشأة والتكوين:

كان الغوريون أسرة صغيرة تحكم «ولاية الغور» التي تقع بين «هراة» و «غزنة»، وكانت «قلعة فيروزكوه» مقر حكمهم، ودأبوا على شن الغارات على رعايا «الدولة الغزنوية»، واتخذوا من وعورة بلادهم وصعوبة مسالكها معصماً يقيهم من بطش السلطان «محمود الغزنوي»، حين أراد معاقبتهم بعد أن باتوا خطراً جسيماً يهدد دولته. ولكن السلطان «محمود الغزنوي» تمكن من استمالة «محمد بن سوري» - أحد رؤسائهم - في عام (401 هـ = 1010 م)، ثم عين أولاده في حكم «فيروزكوه» و «باميان»، ومن ثمّ تصاهر الغوريون مع الغزنويين، واتخذوا مع ملوك «غزنة»، فلما قتل «بهرامشاه الغزنوي» «قطب الدين محمود» والد زوجته الغورية، نهض أخوه «سيف الدين سوري» مطالباً بثأره، واحتل «غزنة» في عام (543 هـ = 1148 م).

ولمّا تمكن «بهرامشاه الغزنوي» من قتل «سيف الدين سوري» في

عام (543هـ = 1148م)، قام «علاء الدين حسين» (جهانسون) الأخ الثاني لقطب الدين بالمهجوم على «غزنة»، ثم دخلها ونهبها، ولكنه وقع أسيراً - بعد فترة قصيرة- في قبضة السلطان «سنجر السلجوقي»، وتوفي في عام (556هـ = 1161م)، فخلفه «غياث الدين محمد»، وأقيمت له الخطبة في «غزنة»، ولكن الغز طمعوا في «غزنة» بعد وفاة «علاء الدين» واستولوا عليها، وظلت في أيديهم مدة خمس عشرة سنة، ثم ألحق «غياث الدين محمد» أمير الغور الهزيمة بالغز وطردهم من «غزنة»، إلا أنه لم يكتفِ بذلك، وعمل على استئصال شأفة «آل سبكتكين»، وتمكن منهم، وضم أملاكهم إلى دولته، ثم اتجهت فتوحات «الغور» إلى «الهند» لعدم قدرتهم على الزحف إلى أواسط «آسيا» حيث توجد «الدولة الخوارزمية»، ودولة الخطا، اللتان وقفنا حصناً منيعاً أمام راغبي التوسع في هذه المناطق، ثم جاءت نهاية «الدولة الغورية» على أيدي الخوارزميين في عام (612هـ = 1215م).

العلاقات الخارجية:

(83/4)

---

أقام «الغوريون» دولتهم على أنقاض «الدولة الغزنوية» بعد قضائهم عليها، ثم دخلوا حروباً كثيرة مع بلاد «الهند» حين فشلوا في توسيع سلطاتهم على حساب جيرانهم «الخوارزميين» و «الخطا»، ولكن الخوارزميين لم يمهلوهم، وقضوا على دولتهم، وما من شك في أن الغوريين يرجع إليهم الفضل في توطيد دعائم الحكم الإسلامي في البلاد الشمالية للهند، فإذا كان «آل سبكتكين» هم الذين فتحوا «الهند»، فإن الغوريين هم الذين ثبتوا الحكم الإسلامي بها.

مظاهر الحضارة في الدولة الغورية:

كانت مدينة «فيروزكوه» أشهر مدن الغوريين، ومركز حضارتهم،

وقصبة ملكهم، وكان السلطان «غياث الدين محمد» الذي تُوفى في عام (599هـ = 1202م) من أعدل وأعظم حكام «الدولة الغورية»، وكان شافعي المذهب ومع ذلك لم يحمل الناس على اتباع مذهبه، وقرب إليه الشعراء والعلماء، ونبغ منهم الكثيرون في عهده.

(84/4)

## الفصل الرابع عشر

\*سلطنة دهلي الإسلامية

[602 – 689 هـ = 1206 – 1290 م].

النشأة والتكوين:

شهد العالم الإسلامي فترة من تاريخه، تبوأ فيها الأرقاء والعبيد عرش البلاد، وتقاليد الحكم، ومناصب الدولة المهمة، وكان هؤلاء العبید من الأتراك الذين جلبهم السلاطين للخدمة في صفوف الجيش، فتدرجوا في مناصبه حتى بلغوا المناصب القيادية المهمة، فزاد نفوذهم، وعلا شأنهم، وباتوا قوة ضاربة تتحكم في سير الأمور وتطورها؛ حتى إن أحدهم انتزع الملك لنفسه حين توفي أحد السلاطين، ولم يكن له وارث، وأقام المماليك دولتهم بالهند عقب زوال دولة الغور، وظلّت دولتهم قائمة مدة أربعة وثمانين عامًا في الفترة من سنة (602هـ = 1206م) إلى سنة (689هـ = 1290م).

الوضع الداخلي:

كان «قطب الدين أيبك» الذي حكم من سنة (602 هـ = 1206م) إلى سنة (607 هـ = 1210م)، أول سلاطين المماليك في «الهند»، واشتهر بحبه للعدل، وإقراره السلام والأمن في نواحي بلاده، وبني مسجدين كبيرين، أحدهما بدهلي والآخر بآجمير. وتوفي هذا السلطان في عام (607 هـ = 1210م)، ثم خلفه ابنه «آرام شاه»، وعجز عن تسيير

أمور البلاد وإدارتها، فاستدعى رجال الدولة والبلاط «ألتمش» وطلبوا منه أن يلى أمور السلطنة، فوافق على مطلبهم وطرد «آرام شاه» من السلطنة، وتربع على عرشها في عام (607هـ = 1211م). يُعدّ «شمس الدين ألتمش» المؤسس الحقيقي لدولة المماليك في «الهند»، وهو مملوكى اشتراه «قطب الدين أيبك» من «غزنة»، وحمله معه إلى «الهند»، ثم جعله رئيسًا لحرسه، ثم أسند إليه حكم ولايات «الهند»، فتعرض «شمس الدين» لمحاولات كثيرة للإطاحة به، وما كاد يتخلص منها حتى ظهر له خطر المغول، وألحقوا بدياره الخراب والدمار، ولكنهم لم يتحملوا حرارة جو بلاده، واتجهوا صوب الغرب ثانية، فنجت البلاد من شرورهم. لم ير «ألتمش» في أبنائه الذكور مَنْ يصلح للحكم من بعده، فأوصى

(85/4)

به لابنته «رضية»، ولكن رجال البلاط عهدوا بالملك عقب وفاته إلى الأمير «ركن الدين فيروز شاه»، إلا أنه لم يهنأ بالملك بسبب الفتن والاضطرابات التي عمت أنحاء البلاد، وكان نتيجة ذلك أن قُتل هو وأمه، فآلت أمور الحكم إلى السلطانة «رضية» في عام (643هـ = 1236م). يعد السلطان «بلبان» (بلبن) الذى حكم في الفترة من عام (664هـ = 1265م) إلى عام (686هـ = 1287م)، من أقوى سلاطين «الهند» وأعظمها في تاريخها الوسيط، إذ واجه المغول الذين عادوا إلى تهديد «الهند» ثانية، وأعاد الهدوء والاستقرار إلى بلاده، ثم قضى على «الهندوس» الذين قطعوا الطريق بين «دهلى» و «البنغال»، وأقر الأمن والنظام في ربوع دولته. عهد «بلبان» - حين شعر بدنو أجله - بالحكم إلى ابنه «بغراخان»، إلا أن ابنه رفض ذلك، فعهد به إلى حفيده «كيخسرو بن بغراخان»،

فتولى أمور البلاد، ولكنه كان ضعيفاً لا يقوى على تسيير أمور الحكم بمفرده، فأسندها إلى «نظام الدين» الذى اعتمد على خواصه والمقربين إليه فى إدارة شئون البلاد، فاستبدوا بها، وحاول «بغراخان» أن يتخلص من «نظام الدين» ولكن الترك لم يمكنوه من ذلك، وعزلوا ابنه «كيخسرو» وولوا «كيقباد» أحد أطفاله الصغار، فتصدى لهم «الخليجون» بقيادة زعيمهم «فيروز شاه»، وقضوا عليهم، فزال حكم المماليك بالهند على أيديهم.

العلاقات الخارجية:

اتسمت العلاقة الخارجية لسلطنة «دهلى» الإسلامية فى عهد الملوك المماليك (القرن السابع الهجرى - الثالث عشر الميلادى) بأنها كانت علاقة عسكرية فى المقام الأول؛ إذ عمد سلاطينها إلى توطيد ملكهم بعد زوال دولة الغور على أيديهم. يضاف إلى ذلك الخطر الذى واجهه هؤلاء السلاطين وبلادهم على أيدي المغول، الذين طمعوا فى ملك بلا حدود، والهندوس الذين سعوا إلى إسقاط حكمهم والتوسع على حسابهم، واستطاع «بلبان» - كما مر - أن يتصدى للغزاة والطامعين، وحفظ لبلاده استقرارها وهدوءها.

(86/4)

---

ثم تمكن الخليجون من إسقاط هذا الحكم، وإقامة آخر باسم جديد لدولة جديدة تحمل اسمهم.

مظاهر الحضارة:

نعمت «دهلى» بالاهتمام ببعض مظاهر الحضارة فى عهد الملوك المماليك، فبنى «قطب الدين أيبك» مدرسة كبيرة إلى جانب مسجده الشهير الذى بدأ بناءه فى عام (1191م)، ثم أكمله له «التمش» فى عام (1230م)، ولا تزال منارة هذا المسجد - التى كانت مكونة من سبعة طوابق - قائمة حتى الآن، ولم يتبق من طوابقها سوى خمسة

فقط.

كما قام «ألتمش» بتشجيع العلوم والآداب في السلطنة، وأنفق أموالاً كثيرة في نسخ أعداد كثيرة من القرآن الكريم لتكون في متناول أفراد شعبه، وأسس العديد من المدارس، وزين بلاطه بالعلماء والشعراء، وأولى الفن المعماري عناية فائقة، فأتم مسجد «أبيك» في «دهلي»، وشيد آخر في «آجمير»، وجعل عاصمته أحد مراكز العلوم والآداب المهمة.

(87/4)

## الفصل الخامس عشر

\*الخليجون (الأفغانيون)

[689 - 720 هـ = 1290 - 1320 م].

النشأة والتكوين:

يرجع الفضل في ظهور «الخليجين» في «بلاد الهند» إلى الأمير «قطب الدين أيبك»، الذي ولي «الهند» نيابة عن سلطان «الغور»، فحرص على توسيع رقعة ولايته بها، وأسند أمرها إلى قائده «محمد بن بختيار الخلجي»، الذي قام بدوره على خير وجه، واستولى على «بندنتيوري» عاصمة «إقليم بهار» من ملوك أسرة «بالا»، ثم استولى على الإقليم كله، وقضى على «البوذية» التي كانت منتشرة هناك، وحطم معابدها وأصنامها، ونشر الدين الإسلامي في ربوع هذه المملكة، ثم استولى على عاصمة إقليم «البنغال»، وأقام الخطبة فيها للسلطان الغوري.

حرص خلفاء هذا القائد على توطيد نفوذهم بالأقاليم الهندية التي استولوا عليها، فلما قامت «دولة المماليك» بالهند، وولى «شمس الدين ألتمش» أمور السلطنة بداهلي، قامت في وجهه المشاكل

والاضطرابات الداخلية التي هدفت إلى الإطاحة بحكمه، ثم أعقبها وفاة «قطب الدين أيلك»، فانتهاز «الخليجون» هذه الفرصة، وسيطروا على «بهار» والبنغال.

الوضع الداخلي:

عمد سلاطين «دولة المماليك» بالهند إلى القضاء على حركات الاستقلال التي تزعمها «الخليجون» للانفصال عنهم، والاستقلال بما تحت أيديهم، فتصدى «الخليجون» لهم، وعوّلوا على تغيير نظام الحكم في «دهلي»؛ حيث استبد الأتراك بالأمر فيها، ثم جمعوا قواتهم تحت قيادة زعيمهم «فيروز»، وأحدثوا انقلاباً في «دهلي»، وأطاحوا بالسلطان الطفل، وأعلنوا «فيروز» سلطاناً عليهم، ولقبوه بجلال الدين، وذلك في سنة (689هـ = 1290م)، فكان أول السلاطين الخليجين الذين استمر حكمهم ثلاثين عاماً تقريباً، حتى سنة (720هـ = 1320م).

يعد «علاء الدين الخلجي»، الذي حكم في الفترة من سنة (695هـ = 1295م) إلى سنة (715هـ = 1315م)، من أعظم سلاطين عصره، حيث كان محارباً شجاعاً، وحاكماً عادلاً، وكان أول من قاد الجيوش فاتحاً

(88/4)

---

شبه القارة الهندية، رافعاً راية الجهاد تحت لواء الإسلام.

العلاقات الخارجية:

اتسمت العلاقات الخارجية للخليجين بالعداء مع كل القوى والممالك المحيطة بهم تقريباً، فقد وقفوا في وجه المغول وصدوهم حين هاجموا بلادهم، وأرادوا اجتياحها، كما وقفوا بالمرصاد لمملكة الكجرات و «الممالك الراجبوتينية»، وممالك «شيتور» و «زانشمهور»؛ حيث كانت تقف من «دهلي»، موقفاً عدائياً، فضلاً عن موقف بلدان سلطنة «دهلي»، مثل «يوجين» وغيرها؛ حيث كانت تنتظر الفرصة

المناسبة للاستقلال عن مركز الحكم في دهلي.  
جاءت نهاية «الخليجين» على أيدي «الكجراتيين» البوذيين بقيادة  
زعيمهم «خسرو شاه» الذي سعى إلى إسقاط هذه الأسرة الخلجية  
انتقاماً منها، لأنها كانت السبب في تدمير معابد البوذيين، وتحطيم  
أصنامهم.  
مظاهر الحضارة:

تأثر الخليجون بالبيئة الأفغانية التي انتشر بها التصوف على يد رجل  
فارسي يُدعى «سيدى مولى»، الذي فر إلى «الهند» عقب الغزو  
المغولى لبلاد فارس، فالتف حوله الناس من مختلف الطبقات، ووفدوا  
عليه من كل مكان، فقويت شوكته، وتدخل في شئون الحكم، ودبر  
مؤامرة للإطاحة بجلال الدين الخلجي، ولكن «جلال الدين» أحبط هذه  
المؤامرة، ثم خلفه السلطان «مبارك شاه» في عام (716هـ = 1316م)،  
في الوقت الذي كانت البلاد تمر فيه بظروف صعبة، وتحتاج إلى  
حكومة قوية؛ تنقذها من هاوية الأزمات التي تردت فيها، فعمل على  
إعادة الهدوء والسكينة إلى البلاد، وأصلح شئونها، وأغدق على  
الاحتاجين من رعاياه، ومنح الجنود المكافآت، وخفف عن الناس  
عبء الضرائب، وشجع التجارة، وألغى القوانين التي تحدد أرباحها،  
فانتعشت وراجت، وكان لذلك أثره المباشر في تنمية موارد البلاد  
وازدهار حضارتها، رغم الفترة القصيرة التي قضاها «مبارك شاه»  
في الحكم، حيث قُتل في عام (720هـ = 1320م).

(89/4)

---

الفصل السادس عشر

\*التعليقون

[720 - 815 هـ = 1320 - 1412 م].

## النشأة والتكوين:

استمال «تغلق شاه» جنود شمالي غرب «الهند» إلى صفه، ثم قادهم إلى «دهلي»، وتمرد على السلطان «خسرو شاه ناصر الدين» آخر حكام «الدولة الخلجية»، وفقد عدد كبير من جيش «خسرو شاه»، ثم التقى الفريقان في «ديوبالپور»، وخسر الخلجيون المعركة، وفروا منها، تاركين خلفهم الأسلحة والخيول والفيلة والأموال والمعدات، فدخل «تغلق» العاصمة «دهلي» دون معارضة، ولجئ الناس نداءه للدخول في طاعته، بسبب كرههم لخسرو شاه الذي آذاهم وأهان معتقداتهم، ثم دارت معركة فاصلة بين الطرفين في عام (720هـ = 1320م)، وانتهت بهزيمة الخلجيين، ومقتل «خسرو شاه»، وسقوط «دولة الخلجيين» ببلاد الهند.

## الوضع الداخلي:

قامت «دولة التغلقين» على أنقاض «دولة الخلجيين» ببلاد «الهند»، وتولى «تغلق شاه الأول» الحكم في عام (720هـ = 1320م)، واستمر فيه حتى سنة (725هـ = 1324م)، وعرف باسم السلطان «غياث الدين تغلق»، ويرجع أصله إلى الجغتائين الأتراك، وقد قدم في مطلع شبابه إلى «بلاد السند»؛ لخدمة بعض التجار في عهد السلطان «علاء الدين»، ثم دخل في خدمة «أولوخان» أمير «السند» آنذاك، وتدرج في الفروسية حتى احتل وظيفة أمير الخيل، فلما ولي «قطب الدين» عهد بهذه الإمارة إلى ابنه «محمد تغلق»، فشغل هذا المنصب إلى عهد «خسرو شاه»، أعلن الثورة، ودخل «دهلي»، ودارت بينه وبين «خسرو شاه» عدة معارك، تمكن - في نهايتها - من قتله، والانتصار على جيشه، ثم دخل القصر الملكي وجلس على سرير الملك. لم تستقر أمور هذه السلطنة في عهد «بني تغلق»؛ حيث ظهرت بها المؤامرات، واشتعلت الفتنة لانتزاع كرسى الحكم، وثار «محمد بن تغلق» على أبيه في سنة (725هـ = 1325م)، حين أعلن هذا الأب استيائه من تصرفات ابنه، ومن استكثاره شراء المماليك، ومبالغته

في بذل العطايا، ومنح الهبات، فدبر الابن حيلة تمكن بواسطتها من قتل أبيه.

(90/4)

كان «محمد بن تغلق» غريب الأطوار؛ حيث كان محبا للإنفاق والإغداق وبذل الهبات والعطايا، وفي الوقت نفسه يعمل على إراقة الدماء، ويسعد برؤيتها، فساءت الأحوال في عهده، ونقل عاصمته إلى مدينة «ديوكر» التي أطلق عليها اسم: «دولت آباد» لكي يأمن خطر المغول، وأجبر سكان «دهلي» على الانتقال إلى العاصمة الجديدة، فاشتدت الأمور سوءاً، وقامت الثورات في وجهه، ونشطت الحركات الاستقلالية في عهده، فعدل عن الاستقرار في هذه العاصمة الجديدة، ولكن الخراب والدمار قد لحقا بدهلي نتيجة هجرها، ولم يتمكن الناس من العودة إليها، فبنى لهم مدينة جديدة بالقرب منها. لم يكن للسلطان «محمد بن تغلق» وريث للحكم حين وفاته، فورثه ابن عمه «فيروز تغلق» في عام (752هـ = 1351م)، وحكم في الناس بالعدل، وسار بينهم سيرة حسنة، ثم خلفه حفيده «غياث الدين تغلق شاه الثاني» في عام (790هـ = 1388م)، ونشطت في عهده الحركات الاستقلالية، وظلت البلاد في هذا الوضع المضطرب حتى وفاة آخر سلاطين «آل تغلق» في عام (815هـ = 1412م)، فاجتمع أعيان «دهلي»، ونصبوا «دولت خان» حاكمة على البلاد، ثم تعرضت «دهلي» للغزو التيموري الذي قضى على مظاهر الحضارة فيها، وأهلك الحرث والنسل، ولكن هذه الحضارة عادت مظاهرها ثانية إلى هذه السلطنة في عهد «ظهير الدين محمد بابر» فاتح «الهندوستان»، الذي ينتهي نسبه إلى «تيمورلنك» من ناحية أبيه، وإلى «جنكيزخان» من ناحية أمه.

العلاقات الخارجية:

لاشك أن السياسة التعسفية التي انتهجها «خسرو شاه» في عداثة السافر للمسلمين، وتحيزه لبني جنسه، هي التي دفعت المسلمين إلى الفرار من صفوفه والانضمام إلى صفوف «تغلق شاه» مؤسس «الدولة التغلقية». وتعرضت أسرة «آل تغلق» للاضطرابات والمشاكل، وقامت بدولتهم عدة حركات انفصالية، واقتحم زعيم القبائل الجغتائية المغولي حدود بلادهم في سنة (727هـ = 1327م)،

(91/4)

واستولى على «لمغان» و «الملتان»، وسلك طريقاً إلى «دهلي» العاصمة، فأسرع التغلقيون إلى كسب ود المغول ومهادنتهم، فانسحبوا من بلادهم بعد أن ألحقوا بها الضرر. حاول «محمد تغلق» غزو بلاد «الصين» من أجل الوصول إلى «ولايات الهملايا» العليا؛ لكي ينشر الدين الإسلامي في ربوع هذه المناطق، أو - كما يدعى بعض المؤرخين - للاستيلاء على الكنوز التي كانت تترخر بها «الصين» في هذا الوقت. ولاشك أن «آل تغلق» قد عانوا كثيراً في سبيل الحفاظ على ملكهم؛ حيث كانت الأخطار محدقة بهم في الداخل والخارج. مظاهر الحضارة:

شجع «تغلق شاه» رعيته على تعمير الأرض والاهتمام بالزراعة، فشق الترع والقنوات، وأصلح طرق الري، وخفض الضريبة على الأراضي الزراعية. وكان «محمد بن تغلق» من المشتغلين بالعلوم والفنون والآداب، وله منشورات ومنظومات رفيعة المستوى باللغتين العربية والفارسية، وكذلك كان يجيد الفلسفة والحكمة والمنطق، كما برع في الطب، وعالج الناس بنفسه، وأشرف على ملاجئ العجزة التي أقامها لهم، وأنشأ مدينة «دولت آباد» لكي تكون عاصمة لبلادهم، إلا أنه عدل عن هذه الفكرة، ووفد عليه الكثيرون من

المشتغلين بالعلوم والفنون والآداب، وعمل على رعايتهم، ونهج حكام أسرة «آل تغلق» سياسة في استقطاب الأدباء والعلماء. وجملة القول أن سلاطين دهلي عنوا بتشجيع الثقافة الإسلامية، وأنفق السلطان المملوكي «ألثمش» أموالاً طائلة في نسخ أعداد كثيرة من القرآن الكريم؛ للاستفادة منها، وأسس العديد من المدارس، وزين بلاطه بالشعراء والأدباء، وحرص السلطان «بلبن» على عقد المناظرات بين الشعراء والأدباء والعلماء في بلاطه، وضم بلاط السلطان «علاء الدين» الكثير من العلماء والأدباء، وشهد عهده الكثير من الفلاسفة والحكماء والشعراء والمؤرخين والمترجمين والأطباء والفلكيين، ولم يجتمع على باب أحد سلاطين «دهلي» من

(92/4)

---

رجال العلم والفقه والأدب ما اجتمع على باب «علاء الدين»، فازدهرت الحياة الثقافية في عهده، وتميزت بإنتاج أدبي غزير ومتنوع. وكان «أمير خسرو» - بلا جدال - أعظم شعراء عصره، وتعددت مواهبه، وبلغت شهرته الآفاق، فحظى بتقدير الناس ممن عاصروه. نبغ عدد من المؤرخين في العهد «الخلجي»، منهم «أمير أرسلان كولاهي»، و «كبير الدين بن تاج الدين العراقي»، كما كان «أمير خسرو»، و «ضياء الدين باراني» من مؤرخي ذلك العصر، وقد عاصرا «السلطان علاء الدين»، وهما مصنفات أدبية وتاريخية يشار إليها بالبنان، وقد وضع «باراني» عدة مؤلفات مهمة منها: «تاريخ فيروز شاهي»، وكتاب «السنة المحمدية»، وكتاب «نعم الله وآياته»، وكتاب «مآثر السادة»، و «تاريخ البرامكة»، وله كتاب عن «الأحكام السلطانية»؛ يشمل القيم والمبادئ والقوانين والسياسات والنظم التي يجب على الحكومة الإسلامية اتباعها، ويرجعها كلها إلى الشريعة الإسلامية.

ويلاحظ أن الأدب الديني قد ازدهر في هذا العصر، وكتب علماء الدين عن أساتذتهم، وترجموا لهم، وأبرزوا فضلهم، وتحدثوا عن تراثهم، فعمست هذه الترجمات مظاهر الحياة الاجتماعية، والاتجاهات الثقافية في هذا العصر، فضلا عن أنها مصدر غني للمعلومات عن هذه الفترة التاريخية.

وفي القرن الرابع عشر الميلادي اشتملت مؤلفات الكُتَّاب الهنود على أعمال نثرية وشعرية باللغة السنسكريتية؛ تضمنت الفولكلور وقصص الأبطال، والروايات الأسطورية للممالك والولايات الهندية، ومما لاشك فيه أن قيام الدولة الإسلامية في «الهند» و «البنغال» قد أثر تأثيراً ملحوظاً في تطور الأدب السنسكريتي والبنغالي، حيث فضل الحكام والسلاطين اللغتين العربية والفارسية، ثم فقدت اللغة السنسكريتية أهميتها، واستعاضت عنها «بلاد الهند» باللغات المحلية التي عبرت بها شعوبها عن آدابها وثقافتها.

ظلت الحياة الثقافية في «الهند» مزدهرة في عهد «بني تغلق»،

(93/4)

ووفد على السلطان «محمد بن تغلق» الكثير من العلماء والأدباء والفلاسفة، فقد كان هذا السلطان أديباً وشاعراً، كما كان فيلسوفاً وطبيباً بارعاً. ولم يكن «فيروز شاه» أقل منه اهتماماً بالعلم وأهله، إذ أسس ثلاثين مدرسة لعلوم الدين واللغة والتاريخ والحكمة والرياضيات والفلك والطب، وجلب العلماء المسلمين إلى السلطنة للتدريس بهذه المدارس، وعنى بدراسات «الهند» وعلومها القديمة للاستفادة منها.

وقد لاحظ «ابن بطوطة» في رحلاته ببلاد «الهند» كثرة المدارس، وذكر أنه كانت هناك مدارس للصبية وأخرى للفتيات، وأوضح أن النساء بالهند كن يقبلن على التعليم باهتمام بالغ وخصوصاً العلوم

الدينية، وقد وفد «ابن بطوطة» على بلاد «الهند» في عام (734هـ = 1333م)، واتصل بالسلطان «محمد بن تغلق»، وتولى منصب القضاء في دولته، وأقام بها مدة ثمان سنوات، ووصف بلاد «الهند» ونظمها وسياسة حكامها، وطرق إدارتها، وأحوال المعيشة، ومعايش الناس فيها.

وأنشأ «فيروز شاه» المدرسة «الفيروزشاهية»، وعنى بعمارته، وأحاطها بالحدائق الغناء، وجعلها مقصد العلماء وطلاب العلم من كل مكان، فكان من أساتذتها «جلال الدين الرومي» الذي قام بتدريس علوم التفسير والحديث والفقه بها، ومارس الوعظ والتدريس، وبرع في نظم الشعر، فأقبل عليه التلاميذ من كل مكان، وكانت آخر وصاياه لتلاميذه وصيته التي قال فيها: «أوصيكم بتقوى الله في السر والعلانية، وقلة النوم والطعام والكلام، وهجران المعاصي والآثام، ومواظبة الصيام، ودوام القيام، وترك الشهوات على الدوام، واحتمال الجفاء من جميع الأنام، وترك مجالسة السفهاء والعوام، ومصاحبة الصالحين والكرام. فإن خير الناس من ينفع الناس، وخير الكلام ما قل ودل».

شهدت «الهند» نهضة علمية كبيرة، فانتشرت بها المدارس، وتزايدت أعداد طلاب العلم والمشتغلين به، وأصبح للكتاب أهمية كبرى في تلبية حاجات الأساتذة والطلاب، وضمت المدارس والجامعات مكتبات

(94/4)

---

ضخمة، تضم أعدادًا كبيرة من الكتب، فلما فتح العرب ثم الغزنويون بلاد «الهند»، وانتشر الإسلام بها؛ ازدادت الرغبة في دراسة علوم المسلمين والعرب وحضارتهم، وأقبل الهنود المسلمون على قراءة الكتب الإسلامية، وأهملوا الكتب الهندوسية والبوذية، فحل الكتاب الإسلامي محل الكتاب الهندي في سلطنة دهلي.

كان الهنود يتناقلون آدابهم شفاهًا، وأدى ذلك إلى ضياع معظمها، كما أدت الحروب الكثيرة التي شهدتها بلاد «الهند» إلى ضياع الكثير من كتبها، فلما دخل المسلمون «الهند» طوروا الفكر والثقافة بها، وجلبوا إليها الورق من «الصين» عن طريق «آسيا الوسطى»، فلم تعد هناك صعوبة أمام المؤلفين والكتاب في تصنيف كتبهم، وساهم ذلك مساهمة فعالة في نمو العلوم والثقافة بالهند.

امتزج التراث الفارسي بالثقافة العربية بعد أن فتح العرب بلاد فارس، واتخذت الثقافة الفارسية ثوبًا إسلاميًا، فتأثرت بذلك بلاد «الهند»، وامتزجت الثقافة الفارسية بالثقافة الهندية، فنتج عن ذلك «اللغة الأوردية» التي ترمز إلى التوفيق بين أنواع الحضارات الإسلامية والفارسية والهندية، ولعل أبرز ما يميز الثقافة الهندية أنها درست وفهمت طبع الإنسان وعلاقاته مع غيره من موجودات الكون، ومع الكون نفسه حق الفهم، وقامت هذه الثقافة على حب العطاء، وقد قال حكماء «الهند» موعظة جاء فيها: «قم بواجبك ولا تنتظر ثوبًا أو صلة، لأن القيام بالواجب هو خير ما تتقرب به إلى الله؛ لأن الرجال الأخيار العظماء لا تهمهم حقوقهم، بل واجباتهم».

لقد تطلع العرب منذ اتصالهم بالهند عن طريق الفتح والتجارة إلى الاستفادة من علوم «الهند» وآدابها، ولكن ذلك لم يتم إلا في العصر العباسي، حين تطلع كبار رجال الدولة العباسية إلى تقوية الصلة بحضارات الأعاجم، وبدءوا بترجمة أهم الكتب الهندية إلى الفارسية ومنها إلى العربية، ثم أخذ العرب علم الحساب وعلوم الرياضيات عامة

(95/4)

---

من الهنود، وأخذوا عنهم الترتيب المعروف لدينا اليوم [1 - 2 - 3 ...].  
وازدهرت علوم الطب والرياضيات في بلاد «الهند»، فلما قويت الصلة بين العباسيين والهنود، جلب العباسيون الأطباء الهنود لعلاجهم،

فكان الطبيب الهندي يعالج الخلفاء وكبار رجال الدولة، وكان الناس يقبلون على هؤلاء الأطباء من كل مكان طلبًا للتداوى.

استفاد المسلمون من آداب «الهند»، وترجموا كتاب «ألف ليلة وليلة» وغيره من الكتب إلى الفارسية ومنها إلى العربية، فانتقلت بعض العلوم الهندية إلى الدولة الإسلامية، وأثرت في الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية، ومنح الخليفة «هارون الرشيد» الشاعر «أبان عبد الحميد اللاحقي» جائزة قدرها مائة ألف درهم على نظمه قصة «كليلة ودمنة». وقد نشأ «يحيى بن خالد البرمكي» وزير «الرشيد» في «كشمير»، وتعلم بها، ودرس علوم النجوم والطب والحكمة، وهو الذى جلب من «الهند» إلى «بغداد» كبار العلماء والأطباء أمثال: «بهلة»، و «سنكه»، و «باذيكرك»، و «قلىبرقل»، و «سندباد». واستعان «يحيى بن خالد البرمكى» و «جعفر بن يحيى البرمكى»، و «إسحاق بن سليمان» بالهنود فى مجال الطب، وفى حركة الترجمة، فترجم كتاب «سيرك» فى الطب إلى الفارسية، ثم نقله «عبدالله بن على» إلى العربية، وترجم «منكه» كتاب «سرد»، كما ترجم كتاب «أسماء عقاير الهند»، ونقل «ابن دهن» كتاب «مختصر الهند فى العقاقير» إلى العربية، كما نقل كتاب «استنكر الجامع».

الديانات والمعتقدات فى سلطنة دهلى:

تعددت ديانات «الهند»، فضمت «الهندوسية» و «البرهمية» و «البوذية» إلى جانب الإسلام. أما «الهندوسية» فقد وفدت على «الهند» عن طريق الآريين فى سنة (1500 ق. م)، ثم دخلتها وطوّرتها عقائد إيرانية، فباتت ديانة توحيد وتعدد فى الوقت نفسه، وتظهر فيها عبادة البقر والأجداد وقوى الطبيعة، وتقوم معتقداتها الأساسية على تناسخ الأرواح والنظام الطبقي، ووحدة الوجود،

وتقديم القرابين .. الخ، وهى ديانة السواد الأعظم من الهنود الذين بقوا على وثنيتهم.

وأما البراهمة فهم المنكرون للنبؤات أصلاً، وأكثرهم على مذهب الصابئة، ومنهم قائل بالروحانيات، وقائل بالهياكل، وقائل بالأصنام، إلا أنهم جميعاً مختلفون فى شكل الهياكل التى ابتدعوها، وكيفية أشكالها، وقد ظهرت البرهمية فى القرن الثانى قبل الميلاد على أيدى «البراهمة» الذين استمدوا شرائعها من «الهندوسية». وظهرت البوذية على يد «غوتاما بوذا» الذى وُلِدَ فى أواسط القرن السادس قبل الميلاد، وتوفى فى سنة (487 ق. م) عن عمر يناهز الثمانين عاماً، وقد نشأ فى بيت عز وثناء، فلما بلغ مبلغ الشباب تأمل فى عجائب الكون ومتغيرات الطبيعة، ونظر إلى أحوال الناس وطبائعهم، وأيقن أن الموت نهاية حتمية لكل الكائنات، فأعرض عن مباحج الدنيا، وتحول إلى الزهد والتصوف، واعتزل الناس سبعة أعوام كاملة فى غابة يعيش فيها مع تأملاته، ثم عاد إلى وديان «نهر الكنج» وظل ينتقل بين الناس خمساً وأربعين سنة، ينشر بينهم رسالته، وآمن بدعوته الملايين فى «الهند» وخارجها، وخلاصة هذه الدعوة التى عمل على نشرها، أن الشر والألم لا ينفصلان عن عالم الوجود، والنجاة أن يحرر الإنسان نفسه بمراقبتها من الوقوع فى الجهل الذى يولد الشهوات، وعليه الاعتصام من الذنوب، وبذل الصدقة، وفعل أعمال الخير، إلى جانب التفكير والتأمل. ثم جاء الإسلام فحرر «الهند» من هذه العقائد التى تكلف الإنسان ما لا يطيق من الزهد والتقشف، وتمنع الناس من العمل والإنتاج، فالإسلام يدعو إلى الوسطية، فهو دين عمل وعبادة، ولا تمنع العبادة المسلم من العمل، فالمسلم يعمل وفى الوقت نفسه يؤدى ما عليه من فرائض وتعاليم إسلامية.

## الفصل السابع عشر

\*إمبراطورية المغول في الهند

[932 - 1275 هـ = 1526 - 1858 م].

النشأة والتكوين:

ترجع نشأة المغول إلى «عمر شيخ» الذى تولى إمارة «فرغانة»، ثم دخل فى حروب طويلة مع جيرانه وأصهاره المغول، وإخوته الأتراك، لتوسيع أملاكه، ثم تُوفى فى عام (899هـ = 1493م)، نتيجة سقوطه من فوق حصن له، وخلفه ابنه «ظهير الدين محمد بابر»، وكان عمره اثنتى عشرة سنة آنذاك، وحكم سلاطين الإمبراطورية المغولية «الهند» نحو ثلاثة قرون.

الوضع الداخلى:

ولد «ظهير الدين بابر» فى عام (888هـ = 1482م) بإمارة «فرغانة» التى كان يحكمها والده، ثم أخرجته منها «الأزبك» و «الشيبانيون»، فاتجه إلى «أفغانستان»، واستولى على «كابل» فى عام (910هـ = 1504م)، ثم استولى على «قندهار» فى عام (913هـ = 1507م)، ومن ثم عقد العزم على غزو «هندوستان»، والاستيلاء عليها، وأعد العدة لذلك، ثم خرج بقواته وجيوشه، وبصحبته قادته الأتراك الذين أطلق عليهم اسم «المغول»، وقصد «هندوستان»، فغزا «البنجاب» واستولى على «لاهور» فى (السابع من شهر رجب سنة 932هـ = 20 من إبريل سنة 1526م)، وانتصر على «إبراهيم اللودى» وقضى على اللوديين فى معركة «باني بت»، وتمكن من السيطرة على «دهلى» و «آكره»، ثم واصل زحفه إلى «هندوستان»، وسيطر على شمالها من «نهر السند» إلى سواحل «بنكاله»، ولكن وافاه أجله فى عام (937هـ = 1530م)، قبل أن يدخل «بنكاله»، و «كجرات»، و «مالوه».

كان «ظهير الدين» قد بعث بابنه «همايون» على رأس الجيش للاستيلاء على «آكره»، فاستولى عليها، وعلى كنوزها الثمينة التى كانت تضم جوهرة «كوه نور» أثنى جوهرة فى العالم، فأثار

ذلك ملوك الهندوس، فتحالفوا ضده، إلا أنه تمكن من الانتصار عليهم، في معركة «رانا سنك»، وأسس «بابر» دولته، واهتم بالإصلاحات الداخلية فيها.

خلف «ناصر الدين هُمَايون» أباه «ظهير الدين بابر» في التاسع من جمادى الأولى عام (937هـ = 1530م)، وكان عمره آنذاك تسعة

(98/4)

عشرة عامًا، فواجه صعوبات شديدة، وتوفي في عام (963هـ = 1556م)، وخلفه ابنه «أكبر شاه» الذى انتقل بالبابريين من مجرد غزاة إلى أصحاب دولة قوية راسخة البنين؛ إذ استولى على أهم مناطق «الهند»، وانتصر في معركة «باني بت» في عام (964هـ = 1556م) - وهى المنطقة نفسها التى انتصر فيها «بابر» من قبل - ونجح «أكبر شاه» في تنظيم حكومة أجمع المؤرخون على دقتها وقوتها، وذلك فضلا عن النهضة الثقافية التى حدثت في عصره، التى بلغت مكانة سامية لم تصل إليها بلاد «أوربا»، ثم تُوفى «أكبر شاه» في سنة (1014هـ = 1605م)، وخلفه ابنه «سليم» الذى تلقب باسم «نور الدين بادشاه» «جهانكيز»، وكان عمره -آنذاك- ستا وثلاثين سنة، فنهج سياسة أبيه في التسامح، وأشاع العدل بين رعاياه، ثم خلفه ابنه «شاه جهان» في عام (1037هـ = 1628م). وإذا كانت «نورجهان» زوجة «جهانكيز» قد اشتهرت بمكائدها، فقد اشتهرت «ممتاز محل» زوجة «شاهجهان» بالطيبة والصفات الحميدة، والبر بالفقراء، ودفعت زوجها إلى العفو عن المذنبين، واستخدام «التأريخ الهجرى» بدلا من «التأريخ الألفى» الذى وضع في عهد «جلال الدين أكبر».

أحب «شاه جهان» زوجته حبا شديداً، وبلغ وفاؤه لها مبلغاً عظيماً، وبنى لها مقبرة «تاج محل»، التى تعد من روائع الفن المعماري،

وإحدى عجائب الدنيا، وما زالت قائمة حتى الآن.  
وفي عهد «شاه جهان» حدثت مجاعة شديدة بالهند، فاستغلها البرتغاليون في خطف الأهالي وأسرههم، ثم بيعهم في سوق الرقيق، وقد استطاع «قاسم خان» تخلص عشرة آلاف فرد منهم من أيديهم، وعهد «شاه جهان» بالحكم إلى ابنه «أورنك زيب»، بعد أن عهد إليه بالقضاء على ثورات «الدكن».  
تولى «أورنك زيب» العرش في سنة (1069هـ)، فألغى الاحتفال بأعياد «النيروز»، وتمسك بتعاليم السنة، وأمر بتعمير المساجد، وعين لها العلماء والوعاظ، وعمل على تفضة هذه البلاد، ثم أدت

(99/4)

الاضطرابات التي قامت وعمت مناطق واسعة من الإمبراطورية المغولية إلى سقوط هذه الإمبراطورية في قبضة الإنجليز في عام (1275هـ = 1858م).

العلاقات الخارجية:

أقام المغول علاقات وطيدة مع بعض بلدان العالم الخارجي، لدرجة أن الشاه الصفوي أمد «ظهير الدين بابر» بجنود من الفرس؛ لكي يستعيد المناطق التي سلبت من دولته ببلاد «ما وراء النهر»، وأرغم هؤلاء الجنود الناس على اعتناق المذهب الشيعي بالقوة، وقاموا بإقامة مذابح لسكان هذه المناطق، فاتحد هؤلاء السكان وطردهم جنود الفرس، بل اتحدوا مع «الأزبك» وطردهم «بابر» نفسه؛ حيث فشل في منع الفرس من قتل الناس وتعذيبهم، فتوجه «بابر» ناحية «الهندستان» واستولى عليها بعد أن انتصر على «الراجبوتيين» في «خانوه».

كما أقام المغول علاقات مع البرتغاليين، الذين أمدهم بالمدافع للوقوف أمام حاكم «الكجرات» في عهد «همايون»، واستعان

«همايون» بالشاه «طهما سب بن إسماعيل الصفوى» فى استعادة حكمه على «هندستان»، بعد قضائه على أسرة «شيرشاه»، خاصة أن شاه «إيران» هو الذى آواه فى محنته.

وقد وفد على «الهند» فى عهد «جهانكيز» مبعوثان إنجليزيان هما: «وليم هوكنز» و «توماس راو»، ليعملا سفيرين لبلادهما من قبل الملك «جيمس الأول»، وكان الهدف من هذه السفارة منافسة البرتغاليين فى هذه البقاع؛ حيث كانت لهم عدة مراكز على شواطئ «الهند»، وقد استعان «جهانكيز» بالإنجليز على طرد البرتغاليين من بلاطه، ومحاربتهم ببحار «الهند»، ومنح الإنجليز امتيازات تجارية كثيرة.

يرجع زوال إمبراطورية المغول بالهند - فى المقام الأول - إلى انصراف رجال الدولة إلى شئونهم ومصالحهم الخاصة، وتركهم مصالح البلاد والعباد، وإيثار أنفسهم بالكنوز التى استولوا عليها فى فتوحاتهم. ومن الحقائق المهمة أن عظماء الإمبراطورية المغولية حكموا قرنين من الزمان، وكان هدفهم الأول هو العمل من أجل

(100/4)

---

مصلحة الدولة واستقرار أوضاعها وأمنها، ثم تبدلت الأوضاع خلال القرن الثالث والأخير لهذه الإمبراطورية، حيث غزا «نادر شاه» بلاد «الهند»، وخرّب عمرانها، وقضى على مظاهر الحضارة فيها، ثم تركها لأعداء الإمبراطورية المغولية من «السيخ»، و «الهندوس» و «الإنجليز».

كان «بهادر شاه الثانى» آخر حكام المغول فى «الهند»، وعزل فى (13 من شعبان سنة 1274هـ = 1858م)، ثم استولت «إنجلترا» على الإمبراطورية المغولية، واستعمرت بلاد «الهند»، فعانت هذه البلاد من تعسف «الإنجليز» وظلمهم وطغيانهم، واستنزفت الشركة البريطانية ثروات هذه البلاد واستعبدت أهلها، وأسفر ذلك فى النهاية عن ثورة

وطنية ضد هذا الظلم وذلك الإجحاف.  
مظاهر الحضارة في الإمبراطورية المغولية بالهند:  
اتسم حكام الإمبراطورية المغولية بالهند بالتسامح والعدل بين  
الرعية، وأدى ذلك إلى اقتراب الناس منهم، ومصاهرتهم، وإلى  
انتشار الإسلام في ربوع دولتهم، وقد تجلى هذا التسامح في أسمى  
صوره في عهد السلطان «جلال الدين أكبر»، الذي نادى بأن تكون  
«الهند» لأهلها من المسلمين والهندوس.  
ظلت السلطة الفعلية في أيدي السلاطين، إذ كانوا يسيطرون على  
نظم الحكم كلها، ففويت البلاد في عهد الحكام الأقوياء، وسقطت  
بالسلاطين الضعفاء، ولم تكن للوزير أو الوالي سلطات قوية.  
انقسمت إدارة الأراضي الزراعية للدولة إلى نوعين، أولهما: إقطاع  
القادة والأمراء مساحات من الأرض، ليقوموا على زراعتها ورعايتها،  
ثم ينفقوا من غلتها على جنودهم وخدمهم وتابعيهم، والنوع الثاني:  
شبيه بما يحدث اليوم؛ إذ كان الرجل يأخذ قطعة أرض مقابل الالتزام  
بدفع بدل يؤديه إلى خزانة الدولة.  
ولعل العمارة كانت من أبرز مظاهر الحضارة في الإمبراطورية  
المغولية في «الهند»، إذ اهتم بها البابليون اهتمامًا بالغًا، وعمدوا  
إلى تعمير المدن، وأصبح لهم طرازهم المعماري المميز، الذي كان  
مزيجًا من فنون المسلمين والهندوس، وكانت أهم سماته القباب

(101/4)

---

البصلية الشكل؛ المرصعة بالأحجار الكريمة، و «الميناء» و «الخزف»؛  
فضلا عن الأقواس الحادة، والأبواب الفخمة التي في أعلاها نصف  
قبة، يُضاف إلى ذلك «تاج محل» إحدى عجائب الدنيا، ذلك البناء  
الذي شيده «شاهجهان» ليكون مثوى لزوجته «ممتاز محل» تخليدًا  
ووفاءً لذكراها.

عنى أباطرة «الدولة المغولية» عناية فائقة بالحركة الفكرية بالهند، حيث ساهموا في إخراج كتب قيمة للناس مثل كتاب: «بابرنامه» الذى وضعه «بابر» عن نفسه وحكمه، وأظهر هذا الكتاب إلمام «بابر» الواسع بالتاريخ وتقويم البلدان، والعلوم العقلية والنقلية، كما أظهر إلمامه بالآداب العربية والتركية والفارسية. وكذلك كتبت «كلبدن بيكيم» ابنة «بابر» كتاب «همايون نامه» الذى يعد مرجعاً وثيقاً فى تاريخ «همايون» ثانى سلاطين الإمبراطورية المغولية. أعفى «أكبر» الهنادكة من ضريبة الرءوس، واهتم بالعلوم والآداب والفنون، وأصدر القوانين والتشريعات الاجتماعية التى تكفل للناس حقوقهم، وتحافظ عليهم وعلى ممتلكاتهم، ونبغ فى عصره العديد من المؤرخين والعلماء والأدباء من المسلمين والهنادكة.

(102/4)

- المراجع:

- \* آدم منز: الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى - القاهرة - 1940م
- \* بن الأثير (عز الدين): الكامل فى التاريخ - تحقيق أبى الفداء عبد الله القاضى - دار الكتب العلمية - بيروت - 1407 هـ - 1987م
- \* أحمد أمين: ضحى الإسلام - دار الكتاب العربى - بيروت - الطبعة العاشرة - بدون تاريخ
- \* أحمد أمين: ظهر الإسلام - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - 1961م
- \* أحمد الساداتى: تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتهم - مكتبة الآداب ومطبعتها - القاهرة - 1957م
- \* بن بطوطة: رحلة ابن بطوطة - بيروت - دار الكتب العلمية 1413 هـ - 1992م
- \* البيرونى (أبو الريحان محمد بن أحمد): الآثار الباقية عن القرون الخالية - لينبرج - 1932م
- \* بن تغرى بردى: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة - دار الكتب المصرية - القاهرة
- \* حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - 1973م

\* بن خلدون (عبد الرحمن بن محمد): تاريخ ابن خلدون - مؤسسة جمال للطباعة - بيروت -  
1979م

\* بن خلكان (احمد بن محمد): وفيات الأعيان - تحقيق إحسان عباس - دار صادر - بيروت -  
1398هـ = 1987م

\* زامبادور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي - ترجمة زكي حسن وحسن  
أحمد محمود - مطبعة جامعة فؤاد - القاهرة 1951 و 1952م

\* السبوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر): تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الله - القاهرة -  
1351هـ

\* عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام في الهند - دار العهد الجديد للطباعة - القاهرة - 1959م  
\* العتيبي (أبو نصر محمد): تاريخ اليميني - القاهرة - 1486هـ

\* بن العماد الحنبلي (أبو الفلاح بن عبد الحي): شذرات الذهب في أخبار من ذهب - القاهرة -  
1350هـ

\* فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإخانيين - الدوحة - 1987م

(103/4)

---

\* القلقشندي (أحمد بن علي): صبح الأعشى في صناعة الإنشا - دار الكتب العلمية - بيروت -  
الطبعة الأولى - 1987م

\* كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية - بيروت - 1948م

\* ابن كثير (إسماعيل بن عمر): البداية والنهاية - دار الكتب العلمية - بيروت - 1408هـ =  
1988م

مراجع فارسية:

\* أحمد بادكر: تاريخ سلاطين أفغان - مجموعة اليوت (5)

\* عباس خان سرواني: تاريخ شير شاه - مجموعة اليوت (4)

\* عبد الحميد لاهوري: بادشاهنامه - مجموعة اليوت (7)

- \* عبد القادر بن ملوك شاه بدواني: منتخب التواريخ - كلكتا - 1868م  
 \* علاء الدين عطا ملك الجويني: تاريخ جهانكشاي - ليدن - 1937م  
 \* غلام حسين سليم: رياض السلاطين أو تاريخ بنغالة - كلكتا - 1890 , 1898م  
 \* غياث الدين بن همام الدين الحسيني: حبيب السير في أخبار أفراد البشر - طهران - 1373هـ  
 \* محمد قاسم هندوشاه - تاريخ فرشته - لكنو - 1323هـ

(104/4)

## الجزء الخامس

### مصر والشام والجزيرة العربية

تأليف:

أ. د. عبد المقصود عبد الحميد باشا

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة الأزهر

## الفصل الأول

\* مصر في عصر الولاة

[21 - 254 هـ = 642 - 868 م] ..

أصبحت «مصر» بعد الفتح الإسلامي سنة (21هـ = 642م) ولاية تابعة

للخلافة الإسلامية في «المدينة المنورة»، ثم في «دمشق»، ومن

بعدها «بغداد» فترة قرنين وربع القرن تقريباً، ثم حكمها

الطولونيون فأصبحت دولة مستقلة في الفترة من سنة (254هـ =

868م] إلى سنة [292هـ = 905م].

أشهر ولاة مصر في ذلك العصر:

1- عمرو بن العاص:

هو فاتح «مصر»، وأول والٍ عليها من قبل الخليفة «عمر بن

الخطاب»، وكان واليًا عادلاً، عمل على نشر الأمن والأمان في ربوع «مصر»، ومنح الأقباط الحرية الدينية التي افتقدوها قبل الفتح الإسلامي، وأعاد البطريق «بنيامين» من منفاه في «وادي النطرون» إلى «كنيسة الإسكندرية»، لذلك أحبه المصريون. قام «عمرو بن العاص» بالإصلاحات المالية والإدارية في «مصر»، واعتمد فيها على الأقباط من أهلها، فنعّم المصريون -جميعاً- في ولايته بالحرية الدينية والحياة الكريمة. تأسيس الفسطاط:

لم يقتصر دور «عمرو بن العاص» على الإصلاحات المالية والإدارية، بل أسس مدينة «الفسطاط» (مصر القديمة حالياً) لتكون عاصمة لمصر الإسلامية بأمر من الخليفة «عمر بن الخطاب»، ثم أسس مسجده - الذي لا يزال يحمل اسمه حتى الآن - في وسط تلك المدينة. وهو أول مسجد في قارة إفريقيا.

ومن أهم أعمال «عمرو بن العاص» حفر قناة تصل «النيل» بالبحر الأحمر، بأمر من الخليفة «عمر بن الخطاب»، لتسهيل السفر والتجارة بين «مصر» والجزيرة العربية، وكان اسم هذه القناة: «خليج أمير المؤمنين».

وقد تولى «عمرو بن العاص» ولاية «مصر» مرتين، كانت الثانية من سنة (38هـ = 658م) حتى سنة (43هـ = 663م).

2 - مسلمة بن مخلد الأنصاري [47 - 62هـ = 667 - 681م]: والى «مصر» من قبل الخليفة «معاوية بن أبي سفيان»، وكان من خيرة الولاة في حسن السياسة ونشر العدل، كما كان متسامحاً مع

(1/5)

---

الأقباط، وسمح لهم ببناء كنيسة في مدينة «الفسطاط»، وقام بتجديد مسجد «عمرو» وتوسعته، وشيد له المنارات لأول مرة.

3 - عبدالعزیز بن مروان [65 - 86ھ = 684 - 705م]:

والى «مصر» من قبل أبيه الخليفة «مروان بن الحكم»، واستمر فيها حتى زمن خلافة أخيه «عبدالمملك بن مروان»؛ لذا كانت فترة ولايته أطول فترة في عصر الولاة.

أوصاه أبوه حين ولاه «مصر» بوصية حكيمة، نصحه فيها بأن يحسن إلى الناس، ويعمهم برعايته حتى يحبوه، فعمل بوصية أبيه؛ فكانت فترة ولايته من أحسن الفترات في حكم «مصر»، قام خلالها بالكثير من الإصلاحات، أبرزها إنشاء مدينة «حلوان» سنة (73هـ).

4- صالح بن على بن عبدالله بن عباس [133هـ = 750م]:

من أشهر ولاة «مصر» في العصر العباسي. أسس لمصر عاصمة جديدة شمالي مدينة «الفسطاط» أسماها «مدينة العسكر» (منطقة «السيدة زينب» الحالية)، كما أنه زاد في «مسجد الفسطاط» زيادة كبيرة.

ولى «مصر» مرتين، استمرت الأولى سنة واحدة، ثم وليها ثانية من سنة (136هـ = 753م) حتى سنة (138هـ = 755م).

5- الفضل بن صالح بن على [169هـ = 785م]:

أحد الولاة العباسيين، أسس مسجدًا إلى جانب «دار الإدارة» بمدينة العسكر، أصبح من المساجد الجامعة، وسمح للناس بالبناء حول «مدينة العسكر»، فاتصل عمرانها بمدينة «الفسطاط».

6 - موسى بن عيسى [171هـ = 787م]:

ولاه العباسيون إمرة «مصر» ثلاث مرات، كانت الأولى من سنة (171هـ) حتى سنة (173هـ)، والثانية من سنة (175هـ) حتى سنة (176هـ)، والثالثة من سنة (179هـ) حتى سنة (180هـ)، وحظى خلالها «موسى بن عيسى» بمحبة الناس واحترامهم، لحبه للخير والعدل، وتسامحه مع الأقباط، فقد سمح لهم ببناء الكنائس.

7- عنيسة بن إسحاق [238 - 242هـ = 852 - 856م]:

من أشهر ولاة العصر العباسي، ومن أهم أعماله: إقامة التحصينات في «دمياط» و «تّيس»، بعد أن تعرضت لغارات الروم، وقد اشتهر

«عنبسة بن إسحاق» بالورع، وإقامة العدل بين الناس.

أهم الأحداث في عهد الولاية:

أ - انتشار الإسلام في مصر:

من الثابت أن كثيرًا من أقباط «مصر» دخلوا الإسلام قبل استكمال

الفتح الإسلامي لها، في الوقت الذي كان «عمرو بن العاص» في

طريقه إلى فتحها، وزاد إقبال المصريين على الدخول في الدين

الإسلامي نتيجة السياسة الحسنة التي انتهجها الولاة المسلمون

معهم، فشعروا بالحرية، ونعموا بالتسامح الذي أشاعه المسلمون،

وأخذ الإسلام ينتشر تدريجياً بينهم، ولم يأت القرن الثالث الهجري إلا

كان غالبيتهم يدينون بالدين الإسلامي بحرية تامة، ودون أى إكراه.

ب - انتشار اللغة العربية:

بدأ انتشار اللغة العربية في «مصر» مع بداية الفتح الإسلامي لها،

وساعد على ذلك اختلاط المسلمين العرب بأهل «مصر» والتزوج

منهم، كما كان على من اعتنق الإسلام من المصريين أن يتعلم اللغة

العربية لمعرفة تعاليم دينه الجديد، ثم كان لتعريب الدواوين في عهد

«عبد الملك بن مروان» الأثر الكبير والفعال في انتشار اللغة العربية

في «مصر»، فمن المعروف أن المسلمين قد عهدوا إلى المصريين

بالكثير من الأعمال الإدارية، كما أشركوهم في إدارة البلاد، الأمر

الذي افتقده المصريون لفترات طويلة، وظلوا محرومين منه في العهد

البيزنطي، فكان عليهم - حين عُزيت الإدارة- أن يجتهدوا في تعلم

اللغة العربية ليحافظوا على وظائفهم ويحتفظوا بها، فتهيأت كل

الظروف لتصبح اللغة العربية لغة المصريين عربياً وأقباطاً على

السواء.

النظام الإدارى في عهد الولاية:

وجد المسلمون بمصر - حين فتحوها - نظامًا إدارية رأوها صالحة؛ فلم

يغيروها، وتولّوا الوظائف الرئيسية، وتركوا الوظائف الأخرى للمصريين، فسعدوا بها، وأخلصوا للولاة المسلمين، فدل ذلك على الوعي السياسى والإدارى لهؤلاء الولاة. وكان الخليفة هو الذى يقوم بتعيين الخليفة أو الأمير، ويأمره بإمامة

(3/5)

المسلمين فى الصلاة إلى جانب مسئوليته السياسية والإدارية الكاملة عن كل شئون «مصر»، وكذلك كان على الخليفة أن يحدد الوظائف الكبرى واختصاصاتها، فجعل لقائد الجند مسئولية الجيش والدفاع عن البلاد، ولصاحب الشرطة حفظ الأمن الداخلى وتنفيذ الأحكام، وأوكل توصيل المكاتبات بين الولاية وعاصمة الخلافة لصاحب البريد، ووضع الخليفة نظام رقابة إدارية لمتابعة الوالى وكبار الموظفين فى أعمالهم، فإذا حدثت مخالفة ما من أحدهم وصل خبرها على الفور إلى الخليفة، فلا يتردد فى معاقبة المخالف أيا كان منصبه. أما صاحب الخراج فأوكلت إليه مسئولية الشئون المالية، ولصاحب الحسبة مسئولية إزالة المنكرات، ومنع أى خروج على الآداب العامة، وعليه مراقبة الأسواق، ومنع أى غش فى الكيل والميزان، أو فى المصنوعات والمأكولات، وغيرها. وكان على القاضى أن يحكم بين الناس بالعدل، وأن يقضى بين المتخاصمين طبقاً لشرع الله وشرعية الإسلام.

بعض مظاهر الحضارة فى مصر فى عصر الولاة:

#### 1 - العلوم الإسلامية:

كان جيش الفتح الإسلامى لمصر يضم عدداً من كبار الصحابة، وقد استقر بعضهم بما بعد الفتح، فكانوا النواة الرئيسية للحركة العلمية الإسلامية فيها، بما علموه للناس من تفسير وحديث وفقه ولغة .. إلخ. وكان «عبدالله بن عمرو بن العاص» من أشهر الصحابة الذين صحبوا

جيش الفتح، ثم تلا جيل الصحابة جيل التابعين، واشتهر منهم: «يزيد بن أبي حبيب»، الذى عهد إليه الخليفة «عمر بن عبدالعزيز» (99 - 101هـ) بالفتيا فى «مصر»، فأقام بها، وتوفى فيها سنة (128هـ). و «عبدالله بن لهيعة»، الذى ولى القضاء من سنة (155هـ) حتى وفاته سنة (162هـ)، ثم خرّجت «مدرسة الدراسات الشرعية» فى «مصر» إمامًا من كبار الأئمة فى الفقه هو «الليث بن سعد» المتوفى سنة (175هـ). ثم يأتى الإمام «الشافعى» - من بعدهم - لزيارة «مصر» فيقضى فيها الشطر الأخير من حياته حتى وفاته سنة (204هـ)، تاركًا

(4/5)

خلفه جمهرة من تلاميذه، الذين عملوا على نشر مذهبه، ومنهم: «أبو يعقوب يوسف البويطى»، و «الربيع بن سليمان الجيزى» ومن أبرز أعلام «مدرسة الدراسات الشرعية» فى «مصر»، «عثمان بن سعيد» (المعروف بورش)، وهو من أصل قبلى، برز ونبغ بصفة خاصة فى علم القراءات، وتوفى سنة (197هـ).

2 - علوم اللغة والتاريخ:

قامت إلى جانب «مدرسة الدراسات الشرعية» فى «مصر» مدارس للغة العربية وآدابها، وأخرى لعلم التاريخ، وكان خير من مثل هاتين المدرستين: «عبد الملك بن هشام»، صاحب كتاب «السيرة النبوية» الشهير والمتوفى سنة (218هـ)، كما أن «ابن عبد الحكم»، صاحب كتاب «فتوح مصر وأخبارها»، كان من أشهر مؤرخى «مصر» فى ذلك الوقت، وقد توفى سنة (257هـ).

3- العلوم الطبيعية:

قامت فى «مصر» أيضًا - إلى جانب ما سبق من مدارس - مدرسة للعلوم الطبيعية، كالطب والكيمياء وغيرهما، ومن أشهر من اشتغلوا بهذه العلوم:

« ابن أيجر الطيب»، والصوفي الشهير والفيلسوف والكيميائي «ذو النون المصري».

الإسلام في الشام:

تم فتح الشام سنة (15هـ = 636م) تقريبًا، فأصبحت - منذ ذلك الحين - جزءًا رئيسيًا من العالم الإسلامي، وكانت الصلة بينها وبين «مصر» قوية ووثيقة بحكم الموقع، وقد تبعت هذه الولاية - في البداية - مقر الخلافة مباشرة، فتولى أمرتها في عهد الخلفاء الراشدين: «يزيد بن أبي سفيان»، ومن بعده أخوه «معاوية»، الذي أصبح خليفة للمسلمين في سنة (41هـ)، فاتخذ من «دمشق» عاصمة للخلافة، فأصبحت الشام مركز العالم الإسلامي كله طوال العصر الأموي حتى عام (132هـ)، وكان الخليفة نفسه هو الذي يحكم هذا الإقليم مباشرة خلال تلك الفترة.

انتشار الإسلام واللغة العربية:

كان معظم سكان الشام - قبل الفتح الإسلامي - عربيًا، ومع ذلك قاوموا هذا الفتح في البداية؛ لظنهم أن العرب القادمين جاءوا ليستولوا على بلادهم وديارهم وأموالهم، كما فعل البيزنطيون من

(5/5)

---

قبل، ولكنهم مالبتوا أن فهموا طبيعة الإسلام، وأنه جاء ليحررهم من الحكم البيزنطي البغيض، وأن الفاتحين لم يأتوا لاستغلالهم؛ فهم أهلهم، وهدفهم لم يكن الاستيلاء، وإنما جاءوا لنشر الإسلام الذي حمل لهم الخير، فرأوا العدل والحرية والمساواة التي تحلى بها الولاة المسلمون في حكمهم، فهرعوا إلى اعتناق الدين الجديد بمحض إرادتهم، ومن أراد منهم البقاء على دينه - يهوديا كان أو نصرانيا - كانت له الحرية في ذلك دون إكراه، والدليل على ذلك بقاء عدد كبير من المسيحيين بالشام حتى الآن.

وكانت جيوش الفتح الإسلامي تضم عددًا كبيرًا من الصحابة؛ الذين قاموا بتعليم المسلمين الجدد تعاليم دينهم، كما أرسل الخليفة «عمر بن الخطاب» عددًا آخر من كبار الصحابة إلى الشام للإقامة فيها، لتفقيه الناس بأمور دينهم، ومن أبرز هؤلاء الصحابة الذين أسسوا مدرسة الدراسات الشرعية في الشام: «معاذ بن جبل»، و «أبو الدرداء»، وقد ازدهرت ازدهارًا كبيرًا في العصر الأموي، وكان من أنجب رجالها: الإمام «الأوزاعي» المتوفى سنة (157هـ).  
أما بالنسبة إلى اللغة العربية، فلم تكن هناك مشكلة؛ لأنها كانت لغة السكان - أو معظمهم - قبل الفتح، ومع ذلك كانت اللغة اليونانية هي اللغة الإدارية - في البداية - ثم ما لبث أن تحولت إلى اللغة العربية.

(6/5)

## الفصل الثاني

\*الدولة الطولونية في مصر والشام

[254 - 292 هـ = 868 - 905 م].

تنسب هذه الدولة إلى مؤسسها «طولون»، الذي ينحدر من أسرة كان موطنها «بخارى» ببلاد «التركستان»، وفي سنة (200هـ) وصل «طولون» إلى «بغداد» إبان خلافة «المأمون» (198 - 218هـ)، فأهدى بعض الرجال إلى الخليفة «المأمون»، الذي رأى فيه اتزانًا في الفكر وبسطة في الجسم، فجعله رئيسًا لحرسه الخاص، فعلا نجم طولون في الدولة، ومهد لنفسه ولأسرته طريق السيادة والسلطة فيها.

أمراء الدولة الطولونية:

أحمد بن طولون [254 - 272 هـ = 868 - 885 م].

وُلد «أحمد بن طولون» سنة (220 هـ = 835 م)، وعُنى أبوه بتربيته

عناية كبيرة، فعلمه الفنون العسكرية، وعلوم اللغة والدين، وتردد على العلماء، وأخذ من معارفهم، وروى عنهم الأحاديث، فأصبح موضع ثقة الخلفاء العباسيين لشجاعته وعلمه، وعمل تحت رعايتهم في خلافة «المتوكل» (242 - 247هـ)، و «المستعين» (248 - 252هـ)، و «المعتز» (252 - 255هـ)، و «المعتد» (256 - 279هـ). فلما مات «طولون» سنة (240هـ) عهد «المتوكل» إلى «أحمد بن طولون» بما كان يتولاه أبوه من الأعمال، فأظهر كفاءة عالية، وهمة نادرة، كما احتل مكانة بارزة في قلوب رجال البلاط العباسي حين حاولت جماعة من اللصوص الاستيلاء على قافلة كانت متجهة من «طرسوس» إلى «سامراء» تحت قيادته، فتصدى لهم «ابن طولون»، وأظهر كفاءة عسكرية فريدة، وتمكن من القضاء على هؤلاء اللصوص، ونجا بقافلته، وعندما علم الخليفة بذلك ازداد إعجاباً به وتقديرًا له.

أحمد بن طولون في مصر 254 272 هـ:

كان من عادة الخلفاء أن يعينوا ولاية للأقاليم الخاضعة لسلطانهم، وكان هؤلاء الولاة يعينون من ينوب عنهم في حكم هذه الولايات؛ رغبة منهم في البقاء بالعاصمة؛ أملا في الحصول على منصب أعلى وخوفًا من المؤامرات. وكانت «مصر» - آنذاك - تحت ولاية القائد التركي «باكباك» الذي

(7/5)

---

أناب «أحمد بن طولون» عنه في حكم «مصر»، لما رآه من شجاعته وإقدامه، وأمدته بجيش كبير دخل به «أحمد بن طولون» «مصر» في (23 من رمضان سنة 254هـ). فلما تُوفي «باكباك» تولى مكانه القائد التركي «بارجوخ»، فعهد إلى «أحمد بن طولون» بولاية «مصر» كلها، فلما آل الأمر إلى «ابن طولون» في حكم «مصر» واجهته

المصاعب والعقبات، وأشعل أصحاب المصالح في «مصر» الثورات حتى لا يتمكن «ابن طولون» من تنفيذ إصلاحاته التي عزم عليها، ولكن «ابن طولون» تمكن من القضاء على كل العقبات والصعوبات واحدا تلو الأخرى بكياسة وحزم، كما أخذ الثورات في كل مكان، ولم يكذب يفعل ذلك حتى أعلن «أحمد بن المدبر» عامل الخراج على «مصر» عن حقه على ابن طولون، وعمل على الوقيعة بينه وبين الخليفة، ولكن «أحمد بن طولون» تمكن من كشف ذلك التدبير، وكتب إلى الخليفة يطلب منه عزل عامل الخراج «ابن المدبر» وتعيين «محمد بن هلال» مكانه، فوافق الخليفة على ذلك لثقتة بابن طولون، وأمر بعزل «ابن المدبر»، الذي رفض تسليم ما تحت يديه لمحمد بن هلال عامل الخراج الجديد، فقبض عليه «أحمد بن طولون» وحبسه، وتخلص بذلك من منافس قوى هدد كيان البلاد.

أحمد بن طولون والى الشام والجزيرة:

كان بالشام - بعد تولية «أحمد ابن طولون» «مصر» - ولاية يتبعون الخلافة العباسية، ولكن اعتداءات البيزنطيين المتكررة على حدود المسلمين بالشام جعلت الخليفة «المعتمد» يقوم بتكليف «أحمد بن طولون» بالسير لمحاربة البيزنطيين سنة (264هـ) فنفذ «ابن طولون» الأمر، وانتصر على البيزنطيين، ومد سلطانه حتى «طرسوس» و«نهر الفرات» و«دمشق»، فأقره الخليفة العباسي على حكم «مصر» والشام والجزيرة العربية ومناطق الثغور، فظل مسيطراً عليها بشخصيته القوية ورجاحة عقله حتى وفاته سنة (272هـ).  
خمارويه بن أحمد بن طولون [272 - 282هـ = 885 - 895م].  
بعد وفاة «أحمد بن طولون» خلفه ابنه «خمارويه»، فعمل على تذليل

العقبان التي واجهته كي تتوطد أركان دولته، وزوج ابنته «أسماء»  
المعروفة بقطر الندى من الخليفة العباسي «المعتضد»، وقام  
«خمارويه» بتجهيز ابنته، وغالى في ذلك، مما أدى إلى إفلاس مالية  
البلاد. وظل والياً على «مصر» والشام والجزيرة حتى وفاته سنة  
(282هـ).

أولاد خمارويه وسقوط الدولة الطولونية:

بعد وفاة «خمارويه» سنة (282هـ)، بدأت الدولة الطولونية في  
الانحلال، فتولّى زمامها طائفة من أفراد البيت الطولوني، وكانت  
تنقصهم الحنكة السياسية، وهم:

«أبو العساكر جيش بن خمارويه» (282 - 284هـ)، الذي خلعه الجند،  
فتولّى من بعده أخوه «أبو موسى هارون بن خمارويه» (284 -  
292هـ)، وهو في الرابعة عشرة من عمره، فزادت البلاد ضعفاً  
حتى مات، فتولّى بعده عمه «شيبان»، إلا أن الجند رفضوا تعيينه،  
وكان ذلك إيذاناً بزوال الدولة الطولونية، وعودة «مصر» والشام  
والجزيرة إلى ولايات تابعة مباشرة للخلفاء العباسيين، بعد أن  
استقلت منذ عهد «أحمد بن طولون».

علاقة مصر والشام بالخلافة العباسية في عهد أحمد بن طولون:  
كان خليفة المسلمين - إبان حكم «أحمد بن طولون» - هو الخليفة  
«المعتد»، ثم جاء من بعده أخوه «الموفق» الذي استطاع أن  
يسيطر على الجيش، ويستبد بالسلطة في خلافة أخيه «المعتد».  
وكانت علاقة «أحمد بن طولون» بالخليفة «المعتد» طيبة وقوية  
لدرجة أن الخليفة فكر في نقل مقر الخلافة إلى «مصر» ليتمتع فيها  
بقوة «أحمد بن طولون» وحمائته له، إلا أن «الموفق» علم بنية أخيه  
فأعادته إلى «سامراء»، وكان لهذا الموقف أثره السيء على علاقة  
«الموفق» بأحمد بن طولون، وأضمر له العداوة، ثم ما لبث أن أعلن  
عنها حين أرسل إلى «ابن طولون» يطلب منه أموالاً كثيرة، فلم  
يرسل إليه سوى مبلغ صغير، فأثار ذلك حفيظته وخرج لمحاربة «ابن

طولون»، ولكن هذه الحروب لم تدم طويلا، ولم تسفر عن شيء، ولكن العلاقات بين «مصر» والشام والخلافة العباسية ظلت سيئة،

(9/5)

وظل الأمر على ذلك حتى تولى «خمارويه»، وعمل على إزالة أسباب الخلاف، وزوج ابنته من الخليفة «المعتد»، وعقد صلحا مع «الموفق»، فكان هذا الزواج سببا من أسباب زوال العداء بين الطولونيين والعباسيين، كذلك يدلنا هذا الزواج على حرص الخلافة العباسية على كسب ود مصر والشام، لما تمثلانه من قوة. مظاهر الحضارة في الدولة الطولونية:

كان «أحمد بن طولون» مثالا عاليا للحاكم العادل والوالى المصلح، وكان عهده عهد سلام شامل، ورخاء تام، وفنون وآداب عالية المستوى، وخلف «ابن طولون» آثارا رائعة بقي منها جامعته الذى مازال معروفا باسمه حتى الآن.

ومن مظاهر الحضارة في عهد الدولة الطولونية:

أ - إنشاء القطائع:

أقام «أحمد بن طولون» عاصمة خاصة به شمالي مدينة «الفسطاط»، وبنها على نظام مدينة «سامراء» عاصمة الخلافة العباسية، وبنى بها مستشفى عظيمًا، وقسم المدينة وجعل لكل من كبار رجاله وقواده وغلمانه قطيعة خاصة به، وكذلك فعل مع أرباب الحرف والصناعات والتجار، فسُميت المدينة «بالقطائع»؛ وهى ثالث عواصم «مصر» بعد «الفسطاط» و «العسكر».

ب - جامع ابن طولون:

هو أحد مآثر الدولة الطولونية، فلا يزال شاهد صدق على عظمة هذه الدولة، ويقع بجهة «الصليبة» و «قلعة الكيش»، ويُعد أقدم بناء إسلامي بقى على أصله حتى اليوم، والناظر إليه يرى مدى ما وصلت

إليه الفنون والعمارة الإسلامية من ازدهار، وتُعدُّ مئذنته من أقدم  
المآذن التي لاتزال قائمة حتى اليوم.

ج - الجانب الاقتصادى:

بلغت عناية الطولونيين بالناحية الاقتصادية مبلغًا عظيمًا، ليضمّنوا  
لبلائهم الرخاء والاستقلال، خاصة بعد اتساع رقعة دولتهم وانضمام  
الشام إلى «مصر» تحت إمرتهم، فشجعوا الصناعات وعملوا على  
ازدهارها، كصناعة النسيج التي كانت أهم الصناعات في هذا  
العهد، وأقاموا مصانع للأسلحة، وتقدمت صناعة ورق البردى  
وصناعة الصابون والسكر والخزف في عهدهم، وظلت التجارة رائجة،

(10/5)

ونشطت في «مصر» و «الشام» وذلك لموقعهما الفريد المتحكم في  
طرق التجارة، فأصبحتا حلقة اتصال بين تجارة الشرق والغرب، إلى  
جانب ما كانتا تحصيلانه من ضرائب جمركية على البضائع التي تمر  
بهما.

كما اهتم الطولونيون بالزراعة، واعتنوا بتطهير «نهر النيل»،  
وأقاموا الجسور، وشقوا الترع، وشجع «أحمد بن طولون» الفلاحين  
على امتلاك الأراضي، وخصص لذلك ديوانًا أسماه: «ديوان الأملاك»،  
كما قلل من الضرائب، وأصلح «مقياس الروضة»، وأنشأ القناطر،  
وحفر الآبار في الصحراء حين علم بما يعانيه الناس في هذه المناطق  
في الحصول على الماء، فتقدمت الزراعة في عهده ونشطت، كما  
تقدمت الصناعة والتجارة، وبلغت مالية «مصر» و «الشام» في عهده  
مبلغًا عظيمًا، فكثرت الإنشاءات العظيمة، مثل «الحصن المنيع» الذى  
بناه «أحمد بن طولون»، ليكون مأوى له إذا ما حاق به خطر، وقد  
تكلفت هذه المشروعات العظيمة أموالا طائلة، تدل على تحسن  
الأحوال المالية والاقتصادية في هذا العهد، وعاش الناس في رخاء

وسعة.

د - الناحية الاجتماعية:

يبدو أن الأتراك قد حظوا بمكانة عظيمة في عهد الطولونيين، وشاركهم في ذلك طبقة الأشراف؛ التي نالت احترام الشعب والأمراء، وإلى جانبهم كانت تعيش طبقة الأغنياء من كبار التجار وكبار الملاك. أما عامة الشعب فقد تحسنت أحوالهم نتيجة استقرار الأوضاع، واهتمام الحاكم بشؤونهم، وحرصه على إقامة العدل بينهم؛ لدرجة أن «أحمد ابن طولون» تولى القضاء بنفسه في فترة من الفترات، وعامل أهل الذمة معاملة كريمة طيبة، جعلتهم يقبلون على أعمالهم بشغف واطمئنان. واهتم الطولونيون بإحياء الأعياد الإسلامية كعيدى «الفطر» و «الأضحى»، كما اهتموا أيضًا بإحياء الأعياد المسيحية كعيد الميلاد، وكانت ألعاب الفروسية التي أولها الطولونيون عنايتهم من أهم مظاهر الترفيه في هذه الأعياد. حكمت الدولة الطولونية زهاء ثمانٍ وثلاثين سنة، انتعشت فيها البلاد،

(11/5)

واستردت قوتها وعظمتها، وراجت التجارة ونشطت الزراعة والصناعة، وقوى الجيش وأنشئ له أسطول بحرى، فأصبحت الدولة الطولونية إمبراطورية تمتد من «العراق» إلى بلاد «برقة» بما في ذلك «آسيا الصغرى» و «الشام» و «فلسطين»، وكان عهد هذه الدولة عهد نهوض بفتون العمارة والزخرفة والنقش، كما كان عهد سلام ورخاء وعناية بالمرضى والضعفاء، وفيه نال العلم والعلماء تشجيعًا جعل «المقريزى» يذكر في خططه عن القاضى «أبى عمرو النابلسى»، أنه رأى كتابًا لا يقل في حجمه عن اثنتى عشرة كراسة، يحوى فهرست شعراء «أحمد بن طولون»، فإذا كانت أسماء الشعراء في اثنتى عشرة كراسة، فكم يكون شعرهم؟. فلا عجب إذن إذا رثى

الشعراء - بعد ذلك - هذه الأسرة، وتذكروا أيامها بالحزن والألم والحسرة، فيكفيها فخراً أنها الواضعة لأساس مدينتي الأسر التي تلتها في حكم «مصر»، خاصة المماليك والفاطميين.

النظام الإداري في عهد الطولونيين:

قُسِّمَت «مصر» في عهد الدولة الطولونية إلى كور، كان على رأس كل منها حاكم يُسَمَّى: «صاحب الكورة» - هو بمثابة المدير حالياً - وتعهد إليه إمامة الناس في الصلاة بالمساجد الرئيسية التي توجد في عاصمة مديريته.

وكانت «مصر» تنقسم إلى ثلاثة أقسام هي: «مصر العليا»، و «مصر الوسطى»، و «مصر السفلى»، وكثيراً ما قام «ابن طولون» ومن بعده ابنه «خمارويه» بالتفتيش على تلك الأقسام الإدارية المختلفة بنفسيهما؛ لاستطلاع أحوال الأمن فيها، والاطمئنان على أمور الرعية، ولحث الحكام على العناية بأقاليمهم، وتنفيذ سياسة الدولة التي تهدف إلى رعاية المصالح العامة للرعية.

الشرطة:

وكان نظام الشرطة في الدولة الطولونية ينقسم إلى قسمين، أولهما: «الشرطة الفوقانية»، والثاني: «الشرطة السفلانية»، أو «الشرطة العليا»، و «الشرطة السفلى»، ولم تقتصر سلطة صاحب الشرطة على تنفيذ الأوامر، والمحافظة على النظام؛ بل كانت له اختصاصات

(12/5)

---

قضائية، وكان يُعَيَّن من قِبل الوالي، ويكون مقره عاصمة الولاية: وانحصرت اختصاصات «الشرطة العليا» في النظر في أحوال الطبقة العليا من القادة والعلماء والعظماء، أما «الشرطة السفلى» فكانت تختص بإقامة العدل، وتوطيد الأمن بين عامة الناس، ولذلك تحقق العدل في عهد الطولونيين.

البريد:

كان لابن طولون صاحب بريد يتخذ له مساعدين يمثلونه في مختلف كور «مصر»، وكانت مهمة صاحب البريد الرئيسية أن يدرس من كتب أحوال الأقاليم، ثم يقدم بها التقارير إلى الوالي؛ ليتعرف كل ما يحدث في البلاد.

واتخذ «ابن طولون» كاتبًا للإنشاء والمراسلات، فكانت مهمته تحرير الكتب التي يرسلها الوالي إلى غيره من الملوك والأمراء، وما يترتب على ذلك من رسائل يتبادلونها فيما بينهم. وإلى جانب وظيفة كاتب الإنشاء كانت توجد وظيفة كاتب السر - بمثابة السكرتير الخاص - ومهمته تدوين كل ما يجرى في حضرة الأمير في محضر الجلسة، سواء كان الحضور من الوفود أو من كبار العلماء، أو من أصحاب الظلمات الذين حظوا بعرضها على الأمير؛ فكانت هذه الوظيفة تتطلب السرعة مع الدقة التامة، والهمة والنشاط واليقظة.

الحاجب:

أنشئ نظام الحجابة على عهد البلاط الطولوني - وهي وظيفة مهمة تشبه وظيفة كبير الأمناء الآن - وكان الكثيرون يحملون هذا اللقب في بلاط «ابن طولون»، ولم يتولَّ أحدهم منصب كبير الحجاب إلا في عهد «هارون ابن خمارويه»؛ حيث تولى هذه المكانة «نسيم الخادم» في عهد «أحمد بن طولون»، وإن لم يُلقَّب به رسمياً، واعتمد عليه «ابن طولون» في مهامه مع البلاط العباسي، فكان «نسيم الخادم» يقوم بها على خير وجه.

مصر والشام بعد الدولة الطولونية:

عادت «مصر» والشام ولايتين تابعتين للخلافة العباسية بعد انتهاء الدولة الطولونية، وظلتا كذلك إحدى وثلاثين سنة، حتى قامت دولة الإخشيديين، فاستقلت بهما من جديد، وتولَّى «مصر» خلال هذه

الفترة «محمد بن سليمان»، وبقي عليها أربعة أشهر، ثم خلفه عليها «عيسى النوشري» ((292 - 297)، ومن بعده «أبو منصور تكين» (297 - 302هـ)، وظلت «مصر» دون تطور ملموس في الفترة ما بين حكم الطولونيين، وحكم الإخشيديين الذين ما إن تولوا حكم «مصر» والشام حتى دخلت البلاد في دور جديد من أدوار التقدم والعمران. وفي عهد «أبي منصور تكين» والى «مصر» حدث أول احتكاك حربي بين «مصر» و «المغرب»، وتوالت بعد ذلك حملات الفاطميين على «مصر».

(14/5)

### الفصل الثالث

\*الدولة الإخشيدية

[323 - 358 هـ = 935 - 969 م].

الولاية الإخشيدية:

- 1 - «أبو بكر محمد بن طغج الإخشيدى» [323 - 334 هـ = 935 - 946 م].
- 2 - «أبو القاسم أنوجور بن الإخشيد» [334 - 349 هـ = 946 - 960 م].
- 3 - «أبو الحسن على بن الإخشيد» [349 - 355 هـ = 960 - 966 م].
- 4 - «أبو المسك كافور الإخشيدى» [355 - 357 هـ = 966 - 968 م].
- 5 - «أبو الفوارس أحمد بن على» [357 - 358 هـ = 968 - 969 م].

وجميع هؤلاء الولاة من الأسرة الإخشيدية، ماعدا «كافوراً» الذى انتسب إليهم.

1 - «محمد بن طغج الإخشيد» [323 - 334هـ]:

هو «محمد بن أبي بكر بن طغج (معناها فى التركية: عبدالرحمن) بن جق»، أحد أبناء ملوك «فرغانة» ببلاد «ما وراء النهر»، وكان

الملوك في هذه البلاد يتخذون من لفظة «الإخشيدي» لقباً لهم، فأطلق هذا اللقب على «محمد بن طغج»، وتسمت به دولته، وعُرفت باسم «الدولة الإخشيدية».

اتصل «جق» جد «الإخشيدي» بالخلفاء العباسيين، أما «طغج» والده؛ فقد كان على درجة عظيمة من الثراء وسعة العيش، واتصل بخدمة الطولونيين في عهد «خمارويه»؛ الذي ولاه على «دمشق» و «طبرية»، فلما سقطت الدولة الطولونية، تولى «محمد ابن طغج» ولاية «دمشق»، ثم أُضيفت إليه ولاية «مصر»، ولكنه أناب عنه من يحكمها، ولم يغادر «دمشق»، ولكن محاولات الفاطميين للسيطرة على «مصر» جعلت الخليفة العباسي «الراضي» يطلب من «ابن طغج» أن يقوم بنفسه على حكم «مصر» والشام، حتى يُوقف الزحف الفاطمي، ويعيد الاستقرار والأمان إلى الولايتين.

الإخشيدي في مصر:

جاء «محمد بن طغج» سنة (323هـ)، وبدأ يؤسس دعائم دولته الكبرى بها، وضمّت إليه «الحجاز» - التي ظلت مرتبطة بمصر عدة قرون بعد ذلك - كما حصل من الخليفة سنة (323هـ) على حق توريث حكم البلاد التي تحت يده لأسرته من بعده، فأصبحت هذه الولايات في عداد الدول المستقلة.

بذل «محمد بن طغج» جهوداً كبيرة في إعادة الاستقرار والأمان إلى

(15/5)

---

بلادها، واستطاع بكفائه ودكائه أن يتغلب على العواقب التي صادفته كافة، وأخذت «مصر» والشام و «الحجاز» تستعيد مكانتها ثانية، بعد أن استطاع «ابن طغج» رد الفاطميين وإيقاف زحفهم على «مصر»، فحاول الفاطميون استمالته إلى جانبهم، ولكنه رفض، وظل وفيًا للخلافة العباسية، واستطاع في مدة قصيرة أن ييسط سلطانه

على «مصر» والشام، وأعاد إليهما النظام، وعرف كيف يسوس الناس فيهما، فعاش حياته عزيزاً كريماً. فلما شعر بدنو أجله عهد إلى ابنه «أبي القاسم أنوجور» بالحكم من بعده، وجعل «كافوراً» وصياً عليه لأن «أنوجور» كان في ذلك الوقت صغيراً، ومات الإخشيد بدمشق سنة (334هـ = 946م).

كافور وأولاد الإخشيد:

[334 – 357هـ = 946 – 968م]:.

كافور:

وُلد «كافور» بين سنتي (291 و308هـ) فلم تُحدّد سنة ولادته تحديداً دقيقاً - وكانت كنيته «أبا المسك»، وبدأ حياته مملوكاً بسيطاً، اشتراه «محمد بن طفح» من رجل يُدعى «محمود بن وهب»، وتوسّم فيه «الإخشيد» الذكاء، فاحتفظ به ورباه في بيته تربية عالية، فلما رآه يتقدم ازداد إعجابه به واختصه من بين عبيده وأولاه ثقته وأعتقه، وأخذ يرقيه في بلاطه حتى جعله من كبار قواده؛ لما يتمتع به من ذكاء وصفات طيبة، وبعثه قائداً أعلى على رأس جيوشه لمحاربة أعداء الدولة، وعهد إليه بتربية ولديه «أبي القاسم أنوجور» و «أبي الحسن على»، كما عهد إليه بأن يكون وصياً عليهما في الحكم من بعده.

وصاية كافور على أنوجور وأبي الحسن:

عندما تولى «أنوجور» حكم «مصر» سنة (334هـ) كان لا يزال طفلاً صغيراً لا يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، فقام «كافور» بتدبير أموره وأمور الدولة، وبقية علاقتهما - كما كانت - علاقة الأستاذ بتلميذه، وأصبح «كافور» صاحب السلطان المطلق في إدارة الدولة الإخشيدية، واستطاع التغلب على المشاكل التي قابلت الدولة في مستهل ولاية «أنوجور»، وتمكن من القبض على زمام الأمور بيده،

وخطبه الناس بالأستاذ، ودُكِرَ اسمه في الخطبة، ودُعي له على المنابر في «مصر» والبلاد التابعة لها، كما عامل رؤساء الجند وكبار الموظفين معاملة حسنة، فاكتسب محبتهم واحترامهم، فلما كبر «أنوجور» شعر بجرمانه من سلطته، فظهرت الوحشة بينه وبين أستاذه «كافور»، وحاول البعض أن يوقع بينهما، وطلبوا من «أنوجور» أن يقوم بمحاربة «كافور»، فلما علمت أم «أنوجور» بذلك خافت عليه، وعملت على الصلح بينه وبين «كافور»، وما لبث «أنوجور» أن مات سنة (349هـ).

ولاية كافور على مصر [355 – 357هـ].

كان ولي عهد «أنوجور» في الحكم ولدًا صغيرًا هو «أحمد بن أبي الحسن علي»، فحال «كافور» دون توليته بحجة صغر سنه، واستصدر كتابًا من الخليفة العباسي يقره فيه على توليته «مصر» سنة (355هـ) بدلا من هذا الطفل الصغير، فتولى «كافور» «مصر» وما يليها من البلاد ولم يغير لقبه «الأستاذ»، ودُعي له على المنابر بعد الخليفة.

ويصفه المؤرخ «أبو الحسن» بقوله: «كان كافور يُدنى الشعراء ويجيزهم، وكانت تُقرأ عنده في كل ليلة السير، وأخبار الدولة الأموية والعباسية، وله ندماء، وكان عظيم الحرمة، وله حُجَّاب، وله جوارٍ مغنيات، وله من الغلمان الروم ما يتجاوز الوصف، وقد زاد ملكه على ملك مولاه «الإخشيدي»، وكان كثير الخلع والهبات، خبيرًا بالسياسة، فطنًا ذكيا، جيد العقل».

مات كافور سنة (357هـ)، فاختر الجند - بعد وفاته - «أبا الفوارس أحمد بن علي بن الإخشيدي» واليًا على «مصر» وما حولها، وكان طفلا لم يبلغ الحادية عشرة من العمر، فلم تستقر البلاد في عهده حتى دخلها الفاطميون سنة (358هـ).

علاقة الدولة الإخشيديّة بالخلافة العباسية:

كانت علاقة «الإخشيدي» بمركز الخلافة العباسية علاقة طيبة في

بادئ الأمر، إلا أن «ابن رائق» أمير الأمراء كانت له الغلبة في مركز الخلافة، وحقن علي «الإخشيد»، وحاول أن يستولى منه على

(17/5)

«مصر» والشام، ولكن صلحًا تم بينهما أمام الخليفة الذي أقر «الإخشيد» علي ما تحت يديه من ولايات، وكان الخليفة «المتقي» علي صلة طيبة بالإخشيد، وعزم علي نقل مقر الخلافة إلى «مصر»، للتخلص من نفوذ الأتراك، ولكن ذلك لم يتحقق، فعمل الخليفة العباسي علي تقوية جانب «الإخشيد» ماديا وأديبا، ليلجأ إليه عند الحاجة، ومد سلطانه وولاه «مكة» و «المدينة» إلى جانب «مصر» والشام، كما جعل هذه الولاية له ولأولاده من بعده مدة ثلاثين عامًا. أما علاقة «كافور» بالخلافة العباسية فكانت علاقة وثام ووداد، واتضحت هذه العلاقة حين سار «كافور» بابني «الإخشيد»:  
«أنوجور» و «علي» إلى «بغداد»؛ لتجديد ولاء الإخشيديين للخلافة العباسية، غير أن «كافور» سمح - في عهده - لدعاة الفاطميين بدخول «مصر» والدعوة لمذهبهم فيها، فهياً بذلك الظروف لدخول الفاطميين «مصر» سنة (358هـ).

الجوانب الحضارية للعهد الإخشيدى:

كان الاتجاه الحضارى فى العهد الإخشيدى شديد الشبه بالاتجاه الحضارى فى العصر الطولونى؛ لقرب الصلة الزمنية بين العهدين، وتميزت حضارة الإخشيديين بزيادة العمران بالفسطاط ومدّ ضواحيها، وتشيد القصور وإقامة البساتين الجميلة، كما كان «ضرب السكّة» من مظاهر الاستقلال فى العهد الإخشيدى، فقد ضربوا السكّة وجعلوا عليها أسماء الإخشيديين إلى جانب الخليفة، وفى عهدهم ظهر منصب «الوزارة» رسمياً، لأول مرة فى «مصر» منذ الفتح الإسلامى لها، وكان «أبو الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات» أول من تولى هذا

المنصب حتى وفاته سنة (327هـ)، ثم من بعده ابنه «جعفر»، الذى ظل يشغل هذا المنصب حتى نهاية الدولة الإخشيدية، وكذلك كان منصب «الحاجب» من المناصب التى ظهرت أهميتها فى البلاط الإخشيدى، وقد أولى الإخشيدون القضاء عنايتهم، وكان من أشهر قضاةهم: «محمد ابن بدر الصيرفى» و «الحسين بن أبى زرعة الدمشقى»، وكان «عمر ابن الحسن الهاشمى» من أشهر القضاة فى

(18/5)

عهد «كافور»، وكذلك «أبو طاهر الزهلى» الذى ظل على قضاء «مصر» حتى دخلها الفاطميون.

لعل من أبرز مآثر «الإخشيد» أنه كان يجلس للنظر فى المظالم يوم الأربعاء من كل أسبوع، وحذا «كافور» حذوه فى ذلك، كما أن «الإخشيد» كان ذا عزيمة، فقد أعد جيشاً قويا بلغ أربعمئة جندي فيما عدا حرسه الخاص، فنعمت البلاد بالرخاء والثراء خلال هذا العهد الذى لم ييخل فيه «الإخشيد» بأى مال أو معونة، وأنعم على الفقراء وقدم لهم المساعدات، ومضى «كافور» على نفس الدرب، ويروى عنه أنه كان يعمل على إسعاد الفقراء وخاصة فى الأعياد، وكان يخرج من ماله يوم عيد الأضحى حمل بغل ذهباً، وكشوقاً بأسماء المحتاجين، وينيب عنه من يمر عليهم ويعطى كلا منهم نصيبه.

العلم:

كان للعلم والأدب دولة ذات شأن فى بلاط الإخشيديين، ونبع فى عهدهم عدد كبير من العلماء منهم: «أبو إسحاق المروزي» المتوفى سنة (340هـ) أحد الأئمة المعروفين بسعة معارفهم وكثرة مؤلفاتهم، و «على بن عبدالله المعافرى» قاضى «الإسكندرية» المتوفى سنة (339هـ)، ومن المحدثين: «الحسن بن رشيق المصرى» المتوفى سنة (370هـ) ومن النحاة: «أحمد بن محمد بن الوليد التميمى المصرى»،

ومن المؤرخين: «أبو عمرو الكندي»، ومن الشعراء: «المتنبى»، وغيره كثيرون، وكان هؤلاء العلماء أثر كبير في الحياة الحضارية والعلمية في «مصر»، فقد عملوا على شرح علومهم وتبسيطها للناس، فزاد عدد المتعلمين، وارتفع مستوى التفكير والفهم لدى الناس خلال هذه الفترة من حكم الإخشيديين.

الإصلاحات:

اهتم الإخشيديون بالبناء والإصلاح، ولكن معظم ما أقاموه قد زال، ولم يبق منه سوى الاسم فقط.

قام «الإخشيد» بالكثير من مشروعات الإصلاح، فتحسنت أحوال البلاد الاقتصادية، ونهضت نهضة قوية أدهشت المؤرخ الشهير «أبا الحسن على المسعودى»، الذى زار «مصر» فى عهد «الإخشيد»، وأعجب بما أقامه «الإخشيد»، ووصف نظام الرى، وجبر الخليج، وقطع

(19/5)

---

السدود، ولبلة الغطاس فى ذلك العصر، الذى نعمت فيه البلاد بالأمن والأمان فى ظل قيادة قوية، تخاف عليها وتحميها، يدعمها جيش قوى وأسطول حديث، فتقدمت البلاد خطوات واسعة فى مجالات الحضارة.

– الإدارة فى العهد الإخشيدى:

الوزير:

يُعدُّ الوزير هو الرئيس الأعلى للسلطة الإدارية فى نظام الخلافة، ولم يظهر هذا المنصب فى «مصر» زمن الخلفاء الراشدين والأمويين، حيث اكتفى هؤلاء بإرسال ولاة الأقاليم لإدارة شؤونها.

عُرفت الوزارة فى «مصر» – لأول مرة – فى عهد الإخشيديين، وأبرز من تقلد هذا المنصب – آنذاك – هو «أبو الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات»، ولم يكن تعيينه بهذا المنصب من قبل «الإخشيد»، وإنما جاء

من الخليفة العباسي «الراضي» الذي منحه سلطات واسعة، فكان لهذا الوزير أثر كبير في مجرى الحوادث في «مصر» في العصر الإخشيدى، وارتبط بالإخشيد وصاهره، وكانت العلاقة بينهما قائمة على أساس وطيء من المودة والمحبة، لدرجة أن «الإخشيد» كان يخرج في وداعه إذا ما غادر البلاد، واستقبله إذا ما عاد إليها، ومات الفضل في «الرملة» بالشام سنة (327هـ)، فحزن عليه «الإخشيد» حزناً بالغاً، وتأثر الخليفة «الراضي» تأثراً عميقاً بوفاته. ويُعدُّ ظهور منصب الوزير في عهد الإخشيديين تطوراً يُحسب لهم في نظام الإدارة، فكان الوزير يحضر مجلس «الإخشيد» الذي يعقده يوم الأربعاء من كل أسبوع للرد على المظالم والشكايات، وكذلك كان يحضره القضاة والفقهاء والشهود وأعيان البلاد، وظل هذا المجلس يُعقد في عهد «كافور» الذي كان يمضى على درب «محمد بن طغج الإخشيد».

(20/5)

## الفصل الرابع

\*الدولة الفاطمية

(358 هـ - 567 هـ).

الخلفاء الفاطميون:

1 - عبيد الله المهدي.

2 - القائم.

3 - المنصور.

4 - المعز.

5 - العزيز.

6 - الحاكم.

7 - الظاهر.

8 - المستنصر.

9 - المستعلي.

10 - الأمر.

11 - الحافظ.

12 - الظافر.

13 - الفائز.

14 - العاضد.

أصل الشيعة الفاطمية:

قامت الدولة الفاطمية على المذهب الإسماعيلي الشيعي القائل بالنص والتعيين، ويقصرون خلافة الرسول - صلى الله عليه وسلم - الروحية والزمنية على ذرية الإمام «علي» - رضى الله عنه - مستندين في ذلك إلى حديث «غديرخم» الشهير، وقد لجأت الإسماعيلية بعد وفاة إمامهم «إسماعيل بن جعفر» إلى الاختفاء والعمل السري، فقد افترق أشباع «جعفر الصادق» بعد وفاته إلى فرقتين، ولت الأولى ابنه «موسى الكاظم» إماماً، وولت الثانية ابنه «إسماعيل» إماماً، فعُرِفَت الفرقة الأولى بالإمامية أو الاثنا عشرية؛ لأنها سلسلت الإمامة حتى الإمام الثاني عشر «محمد» الملقب بالمهدي المنتظر ابن الحسن العسكري ابن علي الهادي ابن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم، وعُرِفَت الفرقة الثانية بالإمامية الإسماعيلية؛ لأنهم أبقوا الإمامة في ذرية «إسماعيل بن جعفر»، ثم من بعده ابنه «محمد»، فابنه «جعفر الصادق»، فابنه «محمد الحبيب»، فابنه «عبيدالله المهدي» مؤسس الدولة الفاطمية.

دخول الفاطميين مصر:

جانب التوفيق الحملات الثلاث التي أرسلت من قبل الفاطميين لفتح «مصر» في عهد أسلاف «المعز»، ولكن الوضع العام في المشرق كان ينبئ بنجاح الحملة الرابعة، للضعف الذي حلّ بدار الخلافة في «بغداد»، وكذلك ما وصلت إليه حال «مصر» من ضعف وبؤس وشقاء

في أواخر عهد «كافور»، كما كان لانخفاض النيل الذي استمر تسع سنوات أثر كبير في انتشار الوباء والقحط فيها، فلم تستطع «مصر» مواجهة الغزاة، كما عجزت -بعد «كافور»- عن صد هجوم ملك «النوبة» من الجنوب، وثار الجند لعدم دفع رواتبهم، ونشط جواسيس

(21/5)

«المعز»، وتوغلوا في البلاد لنشر المذهب الشيعي، فمال الكثيرون إلى مذهبهم، وبعث «المعز» رسله إلى «كافور» مرهبة مرة ومرغبة أخرى للتأثير عليه، وكان استقرار بلاد المغرب ورسوخ أقدام الفاطميين فيه، وتنظيمهم الدقيق للأمن والإدارة، وحسن إعدادهم للجيوش والقادة سبب نجاح حملتهم الرابعة على «مصر».

سار «جوهري الصقلي» قائد جيوش «المعز» إلى «مصر» في ربيع الأول سنة (358هـ)، بعد أن خرج «المعز» لوداعه، وأمر أهله بالترجل أمام قائده وهو راكب، كما أمر واليه على «طرابلس» أن يسير في ركاب «جوهري» ويقبل يده، فكبر ذلك على والي «طرابلس»، وأراد أن يعفى نفسه من ذلك مقابل مائة ألف دينار ذهباً يعطيها لجوهري، ولكن «جوهري» رفض هذه الأموال ومضى بجيشه الذي كان يضم مائة ألف جندي حاملاً معه أموالاً طائلة قبل إنما بلغت ألفاً ومائتي صندوق حملها على ظهور الجمال، وحين خرج «المعز» لوداع «جوهري» والجيش بمنطقة «رقادة» قال لمن كانوا معه: «والله لو خرج جوهري وحده لفتح مصر». فكان لهذه العبارة أثرها الكبير في نفس «جوهري»، وكانت له حافزاً على تحقيق ما خرج من أجله.

وصل «جوهري» إلى «مصر»، وحط رحاله بالإسكندرية التي فتحت أبوابها من غير مقاومة، فعامل «جوهري» أهلها بالحسنى ووسّع لهم في أرزاقهم، فكان لذلك أثره الطيب في نفوس الأهالي، كما كان للنظام الذي ظهر به الجيش، وطاعته لقائده أثره الكبير في نفوسهم،

فرحبوا بالقائد الجديد.

بلغ أهل «الفسطاط» نبأ استيلاء الفاطميين على «الإسكندرية»، فندبوا الوزير «جعفر بن الفرات» للذهاب إلى «الإسكندرية» ومقابلة «جوهر»، فأناب الوزير عنه «أبا جعفر مسلم بن عبد الله الحسيني» أحد الأشراف العلويين وبرفتهه وفد كبير من العلماء والقضاة والأعيان، وتقابل الوفد مع «جوهر» في «تروجة» - مكان بالقرب من «الإسكندرية» - وهناه الشريف العلوي بالفتح، فقال «جوهر»: «التهنئة للشريف بما هنا».

(22/5)

طلب الوفد من «جوهر» العهد بإطلاق الحرية المذهبية للمصريين على اختلاف مذاهبهم وأديانهم، وأن يتعهد بنشر العدل والطمأنينة في النفوس، وأن يقوم بإصلاح مرافق البلاد. حينما اقترب «جوهر» من «الفسطاط» أراد بعض الإخشيديين وأنصار الوالي - الذين خافوا على نفوذهم من دخول الفاطميين - منعه من دخول «الفسطاط»، ودارت بينهما مناوشات توسط بعدها الشريف العلوي «أبو جعفر مسلم» عند «جوهر»، فقبل شفاعته، وعبر الجنود «نهر النيل»، وطاف صاحب الشرطة في «الفسطاط» ليعطي الأمان للناس من جديد، وكان يحمل علمًا عليه اسم «المعز لدين الله». وفي (17 من شعبان سنة 358هـ) خرج الأعيان والأهالي لتهنئة «جوهر»، فوجدوه قد حفر أساس قصر «المعز»، ورسم الخطوط الرئيسية لمدينة «القاهرة»، فلما علم «المعز» بذلك سرَّ سرورًا عظيمًا، ولم يلبث الفاطميون في «مصر» طويلا حتى امتدت دولتهم من «مصر» شرقًا إلى المحيط الأطلنطي غربًا، وتحقق حلمهم في الاستيلاء على «مصر» واتخاذها حاضرة لخلافتهم الشيعية الفتية، فأخذوا بذلك الخطوة الأولى لمد نفوذهم إلى الشام و «الحجاز» تمهيدًا

للاستيلاء على «بغداد».

سياسة جوهر في مصر:

عمل «جوهري» على نشر العدل بين أهل «مصر»، وأمنهم على ممتلكاتهم، وجلس للبت في المظالم بنفسه رغم شواغله، فرد الحقوق إلى أصحابها، وضرب بيد من حديد على أيدي العابثين بالنظام حتى إذا كانوا من خاصته؛ لدرجة أنه عاقب بعض المغاربة بالقتل على إثر كبير اقتزافه، كما برهن «جوهري» على حسن سياسته حين لجأ إلى الوسائل السلمية لنشر المذهب الفاطمي، ولم يفرضه كرهاً، واتخذ من المساجد مدارس يتلقى فيها الناس أصول مذهبه الشيعي، وذكر اسم الخليفة الفاطمي في خطبة الجمعة وأسقط اسم الخليفة العباسي، فكان ذلك إيذاناً بزوال النفوذ العباسي، وزوال ملك الإخشيديين. حكم «جوهري» «مصر» أربع سنوات هي من أصعب الفترات وأخطرها،

(23/5)

حيث تم فيها إقامة معالم دولة وتشبيدها على أنقاض دولة أخرى؛ فألى «جوهري» يرجع الفضل في تأسيس وبناء «القاهرة» المعزّية، التي جعل لها أربعة أبواب منها: «باب النصر»، و «باب الفتوح»، و «بابا زويلة»، كما بنى بها «الجامع الأزهر» لينشر من داخله المذهب الشيعي. و «الأزهر» هو أول مسجد شُيّد في «القاهرة» المعزّية، وأقيمت فيه الصلاة لأول مرة في (17 من رمضان سنة 360هـ)، وقد اختلف المؤرخون في سبب تسميته بالأزهر، فقال فريق سُمّي بهذا الاسم نسبة وتكريماً للسيدة فاطمة الزهراء. وقال فريق آخر: تفاؤلاً بما سيكون عليه أمر هذا المسجد من شأن عظيم. وقال فريق ثالث: سُمّي بذلك لأنه كان محاطاً بالقصور الزاهرة التي بنيت عند إنشاء «القاهرة». وأيا كانت نسبة هذه التسمية إلى الجامع الأزهر؛ فهو يُعد -الآن- أعظم جامعة إسلامية تُدرّس فيها العلوم الدينية والعلوم

العقلية، ويقصده آلاف الطلاب من مختلف أرجاء العالم الإسلامي، وقد أدى خدمات عظيمة للعلم في مختلف العصور، ونشره في شتى بقاع العالم.

إبراز المظاهر الشيعية في مصر:

لما رأى «جوهري» أن دعائم ملك الفاطميين قد توطدت في «مصر»، عمل على تحقيق ما جاء من أجله، فراد في الأذان عبارة: «حى على خير العمل»، وجهر بالبسملة في قراءة القرآن في الصلاة، وزاد في خطبة الجمعة ما يلي: «اللهم صلِّ على محمد المصطفى، وعلى علي المرتضى، وفاطمة البتول، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول؛ الذين أذهبت عنهم الرجس، وطهرتهم تطهيراً. اللهم صلِّ على الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين الهادين المهتدين»، ونقش على جدران «مسجد الفسطاط» شعار العلويين باللون الأخضر، كما أضاف في أول خطبة بالجامع الأزهر عبارة: «السلام على الأئمة آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله»، وضرب العملة باسم الخليفة «المعز»، وألغى السواد شعار العباسيين، وعمم الملابس الخضراء شعار

(24/5)

---

العلويين، ثم أرسل إلى «المعز» يستدعيه إلى «مصر»، فوافقه «المعز»، وخرج من «المنصورية» بالمغرب في شوال سنة (361هـ)، ووصل إلى «القاهرة» في رمضان سنة (362هـ)، واستقبله أهل «مصر» بالفوانيس، فأصبحت عادة في استقبال شهر رمضان حتى الآن، وأعلن «المعز» «القاهرة» عاصمة للخلافة الفاطمية، فأصبحت «مصر» دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة.

النفوذ الفاطمي يمتد إلى بلاد الشام:

حينما استقرت الأمور لجوهر الصقلي في «مصر»، اتجه ببصره تجاه بلاد الشام، وبذل جهوداً مضنية من أجل مد نفوذ سيده إلى هذه

البلاد، وجهاز حملة كبيرة جعل قيادتها للقائد الكبير «جعفر ابن فلاح»، الذي عُرف بعقليته العسكرية الفريدة، فخرجت الحملة قاصدة «دمشق»، واستولت في طريقها على «الرملة» و «طبرية»، فلما علم أهل «دمشق» بذلك خرجوا عن بكرة أبيهم حاملين السلاح مشاة وفرساناً لمواجهة هذه الحملة، والتقى الطرفان، وبذل أهالي «دمشق» كل ما في وسعهم، إلا أنهم هُزموا في النهاية، ودخل «جعفر» وجنوده المدينة، فاعتبرها الجنود غنيمة ونهبوها، ولم يكبح «جعفر» - بطبيعته الحربية - جماحهم، فقامت الثورة في «دمشق»، وتمكن «جعفر» من السيطرة عليها، وقبض على زعمائها، فهذأت الأحوال، وأقيمت الخطبة للمعز الفاطمي في المحرم سنة (359هـ)، وزال سلطان العباسيين في الشام.

كان «جعفر» على النقيض من «جوهر» في الجانب السياسي، ففي الوقت الذي تمكن فيه «جوهر الصقلي» من كبح جماح جنده، وتأليف قلوب الناس في «مصر» حوله ومعاملتهم بالحسنى؛ كان «جعفر» يتعالى على أهالي «دمشق»، ويغلظ في معاملتهم، كما ترك جنوده فعاثوا في المدينة فساداً، وتمنى الدمشقيون زوال هؤلاء الفاطميين، واستنجدوا بالقرامطة والأتراك.

الخطر القرمطي التركي:

كان استنجد أهل «دمشق» بالقرامطة فرصة للحسن القرمطي زعيمهم، فاتصل بأمير الرحبة - على «نهر الفرات» - وبيع بعض القبائل

(25/5)

---

العربية، واتحد معهم على الفاطميين، لأن «جعفر بن فلاح» منع عنه ثلاثمائة ألف دينار كانت «دمشق» تدفعها له سنوياً، وخرج «الحسن القرمطي» بمن اتحد معه قاصداً «دمشق»، فلما وصل إليها دارت رحى المعركة، وهُزم جيش الفاطميين، وقُتل «جعفر»، واستولى

القرامطة على «دمشق»، وأمر «الحسن القرمطي» بلعن «المعز الفاطمي» من فوق المنابر، على الرغم من أن القرامطة شيعة كالفاطميين.

وقد انتهز الروم فرصة الخلاف بين الفاطميين والشاميين، فأسرعوا للاستيلاء على «دمشق»، وكانوا يقتلون ويسرقون ويحرقون كل ما يقابلهم في طريقهم إليها، ولكن «أفتكين» القائد التركي بالبلاط العباسي أدركهم، وتفاوض مع إمبراطورهم، وتمكن من شراء رحيله مع جنوده مقابل ثلاثين ألف دينار، ودخل «أفتكين» «دمشق» دون قتال، وأعاد الخطبة فيها للخليفة العباسي، ثم عاد القرامطة سنة (365هـ)، وهاجموا «يافا» و «عكا» و «صيدا»، فتصاعد الخطر، ووجد الفاطميون أنفسهم بالشام بين شقَى الرحا. العزيز بالله بن المعز:

تولّى «العزيز بالله» الدولة الفاطمية في قمة مجدها، ولكنه كان رجلا لا يعرف المستحيل، وحاول استمالة «أفتكين» القائد التركي إلى صفه؛ ليجد طريقه إلى الشام، ولكن «أفتكين» أعرض عن مكاتباته، ورد على محاولاته بصلف وعناد، فبعث إليه «العزيز بالله» القائد «جوهَر الصقلي» على رأس حملة كبيرة، فلما وصلت الحملة إلى «دمشق» بعث «جوهَر» بالأمان إلى «أفتكين» على أن يترك «دمشق»، ولكن القائد التركي رفض واستنجد بالحسن القرمطي الذي جاءه على عجل على رأس جيش كبير تصدى لحملة «جوهَر»، وأجبرها على التراجع عن «دمشق» إلى «الرملة» سنة (366هـ)، ثم إلى «عسقلان» بعد مناوشات بين الطرفين، فتحصن «جوهَر» بجنوده في «عسقلان»، وحاصره «الحسن القرمطي» و «أفتكين»، وطال الحصار حتى نفذ ما مع جيش «جوهَر» من زاد، فأكلوا دوابهم، ثم بحثوا عن الميتة فأكلوها من شدة الجوع، فاضطر «جوهَر» إلى

عرض الصلح على «الحسن القرمطى» و «أفتكين»، وتمت له الموافقة على هذا الصلح بشرط أن يخرج من باب عُلق عليه سيف «أفتكين»، ودرع «الحسن»، فوافق وخرج ناجياً برجال حملته بعد أن كانوا قاب قوسين أو أدنى من الهلاك، وعاد إلى «القاهرة».

لم ييأس الخليفة «العزیز» من تحقيق مراده، وخرج بنفسه على رأس الجيش إلى «الشام»، وأعطى الأمان للقائد التركي، فرفضه، ودارت رحى الحرب بين الفريقين في معركة شرسة، تطايرت فيها النبال كالأمطار، ولمعت السيوف كالبرق، واشتد الغبار، وانجلت المعركة عن عشرين ألف قتيل من جيشي القرامطة و «أفتكين»، وأُسر «أفتكين»؛ ففداه «العزیز» من أسره بمائة ألف دينار - بإيعاز من «جوهر» - وحمله إلى «القاهرة»، ثم عفا عنه وأنزله بدار فسيحة، وأجرى عليه الرزق حتى مات سنة (372 هـ)، على عكس ما كان متوقعاً، وما هو متبع في مثل هذه الظروف.

صفا «الشام» للفاطميين، وامتد ملكهم من بلاد «الشام» شرقاً إلى ساحل «البحر الأبيض المتوسط» غرباً، ومن «آسيا الصغرى» شمالاً إلى بلاد «النوبة» جنوباً، وخطب للعزیز بالموصل وأعمالها سنة (382 هـ)، وضرب اسمه على العملة، وكتب على الأعلام، وخطب له باليمن - كما فتحت له «حمص» و «حمّة» و «شيزر» و «حلب»، فانصرف إلى نشر عقائد المذهب الشيعي، وأصبحت دواليب الإدارة كلها في يد الشيعة. الحاكم بأمر الله:

بويق «أبو علي منصور الحاكم بأمر الله» بالخلافة وهو في الحادية عشرة من عمره، وعين أستاذه «برجوان» التركي وصياً عليه؛ لذا لم يكن للحاكم من أمره شيء حتى تم القضاء على الوصي، وحل محله «ابن عمار الكتامي» المغربي وصياً ووزيراً، فاستبد بالأمر، ولم يسلم من شره أحد، سواء كان من الشيعة أو من السنة أو من أهل الذمة، وكذلك ساءت سيرته بين الجند، فنشب القتال في شوارع «القاهرة» و «الفسطاط»، وطالب الجميع بحياة «ابن عمار»، ولكنه اختفى، وأصبح زمام الأمور في يد «الحاكم»، وهو بعد في الخامسة عشرة

من عمره، وأنشأ المرصد الحاكمي على سفح المقطم، وقد روى المؤرخون مواقف غريبة تدل على غرابة أطواره. حاولت «ست الملك» أخت «الحاكم بأمر الله» رده عما يفعل، لكنه أبا أن يرتدع، فدبرت مع «سيف الدولة بن دواس الكتامي» أمر قتله، فلما تم ذلك، حمل جثمانه إليها، فدفنته في مجلسها. بعد مقتل «الحاكم بأمر الله» خرج اثنان من أتباعه هما: «حمزة الدرزي»، و «حسن الأخرم»، وبالغا في وصفه، وأعلنا مذهب الدرزي. الظاهر:

ولى «أبو الحسن الظاهر» الخلافة في شوال سنة (411هـ)، بعد مقتل أبيه مباشرة، وكان لعمته «ست الملك» النفوذ والسيطرة في تسيير دفة الدولة، وقامت بذلك على أحسن وجه، وبذلت العطاء للجند، وتمكنت من تهدئة الأمر حتى وافاها الأجل في سنة (415هـ)، فانتهج «الظاهر» نهجها وعمل بسياستها، وألغى ما سنّه أبوه «الحاكم» من قوانين مجحفة، واهتم بتحسين شئون البلاد وأحوال الرعية، ومنح الناس الحرية الدينية، فنعموا بالكثير من إنجازاته، وعلى الرغم من أن مجاعة حدثت في عهده استمرت ثلاث سنوات، نتيجة انخفاض النيل، فإنه عمل على تخفيف المعاناة عن الشعب، وعقد اتفاقاً مع إمبراطور الروم ليمده بالقمح بمقتضاه، على أن يقوم «الظاهر» بإعادة بناء «كنيسة القيامة» بالقدس.

مرض «الظاهر» بالاستسقاء، ولم يلبث أن توفّي سنة (427هـ).

المستنصر:

ولى «المستنصر» عقب وفاة والده «الظاهر» في جمادى الآخرة سنة (427هـ)، ويُعدُّ أطول الخلفاء عهداً، إذ قضى بالخلافة نحو ستين سنة، لم تكن على وتيرة واحدة، حيث وصف «ناصر خسرو» «مصر» في أوائل عهد المستنصر بقوله: «كانت تتمتع بالرخاء، وأن الشعب

محب لخليفته». وفي الفترة الأولى من عهده بلغ النفوذ الفاطمي أقصى مداه، إذ دُعي للخليفة على منابر بلاد الشام و «فلسطين» و «الحجاز» و «اليمن»، بل دُعي له في «بغداد» حاضرة العباسيين نحوًا من سنة، ودُعي له - أيضًا - في «صقلية» و «شمال إفريقيا».

(28/5)

وكما شهد «المستنصر» مجد دولته، شهد أيضًا تقلُّص نفوذه، فقد زالت سلطة الفاطميين في بلاد «المغرب الأقصى» سنة (475هـ)، واستولى النورمانديون على «صقلية»، وخلع أميرًا «مكة» و «المدينة» طاعتهما - من قبل - في سنة (462هـ)، وانقطع ماء النيل، وحدث ما عُرف في عهده بالشدة العظمى أو المستنصرية، وغلت الأسعار، وانتشرت المجاعات والأوبئة حتى قيل إنه كان يموت بمصر كل يوم عشرة آلاف نفس، ووصل الحال بالناس إلى أكل القلط والكلاب، فلما لم يجدوها بعد ذلك كان بعضهم يحتال على خطف بعضهم الآخر ليذبحه ويأكله، وبلغت الشدة منتهاها، وباع المستنصر جميع ممتلكات قصوره، وقام صراع عنيف بين الأتراك والسودانيين، وظل الجنود فترة طويلة لا يتقاضون فيها رواتبهم، فنهبوا قصور الخلفاء، واستولوا على ما في المكتبات ودور العلم من مؤلفات باعوها بثمن بخس، واتخذوا من جلودها نعالًا وأحذية، واستولى «ناصر الدولة ابن حمدان» زعيم الجند الأتراك على مقاليد الأمور، وهدد بإزالة الخلافة الفاطمية، بل حذف اسم الخليفة من الخطبة في بعض المناطق، ووصلت الحال بالخليفة إلى درجة أنه لم يتمكن من حماية أمه من دخول السجن، ففرت مع بناتها إلى «بغداد» طلبًا للحماية، واستمرت هذه الشدة تسع سنوات، حتى جاء «اليازودي»، فعالج الأمور، وضبط الأسواق وضرب بشدة على أيدي العابثين، ولكن الوشاة دسوا له عند «المستنصر» بأنه على صلة بالسلاجقة

وأنه يرأسهم، فقتله «المستنصر»، وعادت البلاد ثانية إلى ما كانت عليه، وظلت تنتقل من سبي إلى أسوأ مدة تسع سنوات تولى الوزارة فيها أربعون وزيراً، فاستنجد «المستنصر» ببدر الدين الجمالى حاكم «عكا»، فأتى على الفور، وألقى القبض على العابثين والعناصر المتنافرة، وضرب بيد من حديد على أيدي الخارجين على النظام والقانون، وعمّر الريف، واهتم بالزراعة، وحسن مدينة «القاهرة» التي كانت قد خربت أسوارها من جراء

(29/5)

الفتن، وبنى جامعه المعروف بجامع الجيوش بالمقطم، فتحسنت الأحوال في عهده باستثناء إذكائه روح العداء بين الشيعة والسنة، لأنه كان شيعياً متعصباً، وظل وزيراً للمستنصر حتى وافاه أجله في عام (487هـ)، بعد أن عهد إلى ابنه بالوزارة من بعده، ليصبح هذا الأمر تقليداً جديداً، لم يُعمل به من قبل.  
المستعلى:

ولى الخلافة بعد أبيه المستنصر سنة (487هـ) على الرغم من حداثة سنه، وعدم شرعية خلافته لوجود أخيه «نزار» الأكبر منه في السن، ولكن الوزير «الأفضل بن بدر» أسهم إسهاماً كبيراً في هذا ليتمكن من السيطرة على الخليفة الصغير، وخرج «نزار» إلى الإسكندرية ليكون في حماية واليها «أفتكين» فخرج إليهما «الأفضل» بجيش كبير، ودارت الحرب بين الفريقين، فاضطر «نزار» و «أفتكين» إلى طلب الأمان، فأجابهما «الأفضل» إلى مطلبهما، ثم قتلها بعد أن هدأت الأمور، فانقسم الشيعة على أنفسهم، وأعلنت الباطنية (فرقة تفرعت عن الشيعة لها معتقداتها الخاصة) وعلى رأسهم «الحسن بن الصباح» أن نزاراً كان الأحق بالخلافة، لأن «الحسن» زار «مصر» وسأل «المستنصر» عن يكون خليفته، فقال له: إنه «نزار».

الآمر:

ظل «المستعلي» خليفة حتى وفاته سنة (495هـ)، وولى ابنه الملقب بالآمر الخلافة عقب وفاته، ولم يكن حاله مع وزيره «الأفضل ابن بدر» بأفضل من حال أبيه، وازداد تعصب «الأفضل» لمذهبه الشيعي على حساب أهل السنة، وأغلق دار العلم؛ لأن بعض أهل السنة دخلوها وأثروا على بعض مرتاديها من الشيعة، ويؤرخ «المقريزي» هذا بقوله: «إن الأفضل ألقى الاحتفالات الخاصة بمولد النبي - صلى الله عليه وسلم -، ومولد فاطمة ومولد «علي» رضى الله عنهما، ومولد الخليفة القائم بالآمر، وخاف الأمر على سلطانه، فأوعز إليه من قتله، ثم قتل من قتله، وذلك باتفاق مع المأمون البطائحي أحد خواص الأفضل بعد أن وعده الأمر بالوزارة، فعاد إلى الأمر كثير من نفوذه،

(30/5)

وانتقلت إليه ثروة الأفضل التي كانت تُقدَّر بستة ملايين دينار، ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلاً، فسرعان مازال نفوذ الخليفة بعد تولى «أبي علي ابن الأفضل» الوزارة. كان الأمر محبا للأدب ومشجعاً للشعراء، وأنشأ «الجامع الأقمري»، وبني «قصر الهودج» لزوجته البدوية حتى لا تشعر بغربة في بيئته تختلف عن تلك التي نشأت بها. تُوفِّي سنة (524هـ)، ولم يُعقَّب، فخلفه ابن عمه «الحافظ».

الحافظ:

تولَّى الخلافة عقب وفاة ابن عمه «الآمر»، ولم تكن حاله مع وزيره «علي بن الأفضل» بأحسن من حال ابن عمه، فقد كان يتحكم فيه، وجعله كالمجور عليه، ولا يسمح لأحد بزيارته إلا بإذن منه، وانعظفت سياسة الدولة - في عهده - انعطافاً خطيراً يهدد بزوالها، فقد عين اثنين من القضاة الشيعة، ومثلهما من السنة، وجعل لكل

الحق في إصدار حكمه وفق مذهبه، ولقب نفسه بالأكمل مالك فضيلتي السيف والقلم، مولى النعم، رافع الجور عن الأمم، وأسقط اسم الخليفة من الخطبة، فكانت نهايته القتل جزاءً لما صنع. لم يكد الخليفة يستريح من سيطرة «ابن الأفضل» حتى وقع تحت سيطرة ونفوذ «بهرام الأرمي» والى «الغربية»، الذي تقلد الوزارة، واستقدم الكثيرين من بني جلدته حتى تجاوزوا ثلاثين ألفاً، وكلهم من الشيعة المنتعصبين لمذهبهم، فأذاقوا أهل البلاد الهوان، وبنوا الكنائس والأديرة، فأثار ذلك حفيظة الناس، وثار «رضوان بن الوخشى» والى «الغربية»، وقاد جيشه، وهاجم به الوزير «بهرام» الذي انهمز، وفرّ هارباً إلى «أسوان»، فتولى «رضوان» الوزارة بدلا منه، ولكنه ارتكب أعمالاً أثارت عليه حفيظة الخليفة، فاستدعى الخليفة «بهرام» من أسوان ليتولى الوزارة من جديد، فهرب «رضوان» إلى الشام، ثم عاد إلى «مصر» ثانية على رأس جيش تصدى له جنود الخليفة، فهزموه وأسروا «رضوان»، ثم قُتل. تُوفّي «الحافظ» في سنة (544هـ)، وقد تميز عصره بالنزاع الدائم من

(31/5)

أجل الوصول إلى منصب الوزارة بالقوة والجيش المسلحة.

الظافر:

ولى «الظافر» عقب وفاة أبيه «الحافظ»، فسلكت الدولة في عهده مسلكاً خطيراً؛ لم يكن معهوداً من قبل؛ إذ استعان الوزراء بالقوى الخارجية للوصول إلى منصب الوزارة، وأبرز مثال على ذلك ما حدث بين «ابن السلار» و «ابن مصال»، فقد استعان الأول على منافسه الثاني بنور الدين محمود صاحب «حلب»، ودارت بين الطرفين حرب شعواء قُتل فيها «ابن مصال»، ثم تبعه «ابن السلار»، فسعد الخليفة سعادة بالغة لقتل «ابن السلار» لاستعانته «بنور الدين محمود»،

ودلل الخليفة على مدى سعادته بمكافأته لنصر بن العباس قاتل «ابن السلار» بمبلغ عشرين ألف دينار.

كان الصليبيون قد أسسوا عدة إمارات لهم - في ذلك الوقت - بالشام، وبدأت طموحاتهم تتجه إلى «مصر»، ويتحينون الفرصة لتحقيقها في الوقت الذي كان «نور الدين محمود» يترقب فيه الأوضاع للاستيلاء على «مصر»، وظل كلاهما على ذلك حتى قام «نصر بن عباس» - بالاتفاق مع والده - بقتل الخليفة «الظافر» وإخوته، فغلت «القاهرة» كالمرجل، وهرب «عباس» إلى الشام، فقتل في طريقه إليها، وقُبض على ابنه «نصر» ثم وُضِعَ في قفص من حديد بعد أن جُدع أنفه، وقطعت أذناه، وطيف به في أنحاء الخروسة، ثم صُلِبَ حيا على باب زويلة حتى مات، فأحرقت جثته. وتولى «الفائز» الخلافة.

الفائز:

ترك «الظافر» ابنه «الفائز» وعمره أربع سنوات فحسب، فولى الخلافة في هذه السن عام (549هـ)، وكانت البلاد في حالة من الفوضى والاضطراب الشديدين، حتى إن نساء القصر لم تأمن على حياتهن في ظل هذه الظروف، فاستنجدن بطلائع بن زريك وإلى الأشمونيين، الذي حضر على الفور، وقضى على الفتنة والشغب، وضرب على أيدي صانعي الفتنة، وظل الخليفة - بالطبع - مسلوب الإرادة حتى وفاته سنة (555هـ).

العاضد:

خلف «الفائز» في تولى الخلافة، فتخلص من الوزير «طلائع» بقتله،

(32/5)

---

وأُسند منصبه إلى ابنه «أبي شجاع العادل بن طلائع»، فرأى «شاور» وإلى الصعيد أنه أحق بالوزارة من «أبي شجاع»، وقدم على رأس قواته، وتمكن من خلع «أبي شجاع» من الوزارة، وتنصيب

نفسه مكانه سنة (558هـ)، ولكنه لم يهنأ بمنصبه الجديد إذ استطاع «ضرغام» أمير البرقية (فرقة من المغاربة) خلعه، فهرب «شاور» إلى الشام مستنجدًا بنور الدين محمود ليعيده إلى منصبه، فأحس «ضرغام» بالخطر وخشى من ضياع منصبه فاستنجد بعمورى الصليبي ملك «بيت المقدس»، ولجى كل طرف نداء من استنجد به، وقدمت القوات الإسلامية كما قدمت القوات الصليبية في ثلاث حملات، ولكن «أسد الدين شيركوه» قائد حملات «نور الدين محمود» كانت له عقلية سياسية حكيمة، كما كان يجيد التخطيط الجيد، فتولى الوزارة بنفسه بعد أن قضى على الخصمين المتنافرين، وظل على ذلك حتى مات، فخلفه في منصبه ابن أخيه «صلاح الدين الأيوبي» السنّي المذهب، فكان بمثابة المسمار الأخير في نعش الدولة الفاطمية الشيعية.

أهيار الدولة الفاطمية:

حين علا «صلاح الدين الأيوبي» كرسى الوزارة في الدولة الفاطمية، حدث الصدام المتوقع بين المذهبين الشيعي والسنّي، فسلب الوزير السنّي من الخليفة «العاقد» الشيعي كل سلطانه، وبات الخليفة كالحجور عليه، وصار حبيس قصره، فاستاء أتباع الخليفة وجنوده من هذا الوضع وقاموا بثورة عارمة، نجح الوزير «صلاح الدين» في تشتيتها، فاضطر مشعلوها إلى الهرب نحو صعيد «مصر»، فعمل «صلاح الدين» على تثبيت قدميه، وتوطيد علاقته بالناس، وحارب الصليبيين، وحقق انتصارات عظيمة عليهم، وعزل القضاة الشيعية، وجعل السنّيين بدلا منهم، ثم أرسل إلى «نور الدين» يطلب منه أن يلحق به أسرته فوافق، وألحقهم به، فقويت شوكته، وأحبه الناس لسلوكه وسيرته بينهم، فلما اطمأن «نور الدين» إلى استقرار الأوضاع أرسل إلى «صلاح الدين» يطلب منه إزالة الخلافة الفاطمية،

والدعاء للخليفة العباسي، فرفض «صلاح الدين» أول الأمر خوفاً من عواقب هذا الصنيع، ثم عمد إلى التجربة -بعد أن شاور خالصاءه- فقرر أن يصعد واحد من الناس المنبر قبل الخطيب، ويدعو للخليفة العباسي «المستضيء» ليرى ماذا سيفعل الناس، فلما تم له ما أراد، ولم يثر أحد أسقط الدعاء للعاقد وجعله للمستضيء، فكانت نهاية الدولة الفاطمية التي حكم ملوكها الأوائل رقعة شاسعة من العالم امتدت من «المحيط الأطلسي» غرباً إلى «الخليج العربي» شرقاً، ودُعي لأحد خلفائها على منابر «بغداد» -عاصمة الخلافة العباسية - عامًا بأكمله.

وكان «العاقد» مريضاً حين سقطت دولته فأثر أهله عدم إخباره حتى لا يفجع ويزداد مرضه، ولكنه لم يلبث طويلاً وتوفي سنة (567هـ).

علاقات الفاطميين الخارجية:

#### 1 - صقلية:

فتحها «أسد بن الفرات» قاضي الأغالبة، وأسلم أكثر سكانها، وظلت تابعة للأغالبة إلى زوال ملكهم سنة (296هـ)، ثم أصبحت تابعة للدولة الفاطمية الإسماعيلية، فحرص الفاطميون عليها لموقعها الجغرافي، ووفرة مواردها، وخصوبة أرضها، وظلت كذلك حتى عهد «المستنصر»، فلما حلت الشدة بمصر، وتعرضت للمجاعة، انشغل الخليفة عن متابعة أمر «صقلية»، فعمتها الثورات، وزادت فيها الاضطرابات، واستعان بعض أهلها بالفرنجية، فقدموا إليها، وفتحوها، وفشل «المعز بن باديس» - والي الفاطميين على «المغرب» - في استعادتها، وظلت في أيدي الفرنجية حتى استولى النورمانديون عليها، فخرجت نهائياً من حكم الفاطميين.

#### 2 - البيزنطيون:

تجاورت ممتلكات الدولتين بعد دخول الشام في حوزة الفاطميين، وتذبذبت العلاقة بينهما بين السلم والحرب، ففي عصر «المعز» تحالف البيزنطيون مع القرامطة، ثم مع «أفتكين»، وحاول «العزير» غزوهم

عن طريق البحر، وعقدت هدنة بينهما مدتها سبع سنوات، ولكن «باسيل الثاني» الإمبراطور البيزنطي تحالف مع الحمدانيين وحقق

(34/5)

بعض الانتصارات على سواحل الشام، وفشل «العزير» في صددهم بعد أن احترق أسطوله في ميناء «المقس»، فبنى أسطولا آخر، وخرج به تحت قيادته، ولكنه مرض وتوفي في «بليس»، فتسلم ابنه «الحاكم» زمام الأمور. وحقق انتصاراً كبيراً في «أفامية»، ثم عقدت الهدنة بين الطرفين لمدة عشر سنوات، ولكن العلاقات عادت إلى التوتر ثانية، ثم هدأت في عهد «الظاهر»، وفترة طويلة من عهد «المستنصر» الذى عقد اتفاقاً مع الإمبراطور البيزنطي «قسطنطين التاسع»، يمد «البيزنطيون» بمقتضاه «مصر» بالغالل، إلا أن هذا الاتفاق لم يتم لوفاة الإمبراطور، وتوفي «تيودور» العرش بدلا منه، فنقض العهد، واشترط شروطاً أخرى لم يوافق عليها «المستنصر» فظلت العلاقات متوترة وعدائية بين الطرفين حتى نهاية الدولة الفاطمية.

### 3 - الشام وفلسطين:

جعل الفاطميون «الشام» و «فلسطين» هدفهم عقب استيلائهم على «مصر»، باعتبارهم ورثة الإخشيديين، فأعدوا الجيوش، وجعلوا عليها القائد الشهير بالجرأة ذا الكفاءة العسكرية «جعفر بن فلاح الكتامي»، فخرج بها، واستولى على «الرملة» و «طبرية»، ثم اتجه إلى «دمشق» واستولى عليها بعد صمود شديد من أهلها، وجعل الخطبة فيها للفاطميين في شهر الحرم سنة (359هـ)، وعاث الكتاميون في البلاد فساداً، وعبثوا بكل ما فيها، فاستنجد أهل «دمشق» بالقرامطة لتخليصهم، فأتوا وانضم إليهم الدمشقيون وتصدوا لجيش الفاطميين، وتمكنوا من هزيمته وقتل قائده «جعفر»، ثم خرج عليهم «أفتكين» التركي سنة (364هـ)، وحاول «العزير بن

المعز» استمالته فلم ينجح، فأخرج إليه «جواهر الصقلي» على رأس الجيش، ثم خرج إليه بنفسه. وأعاد نفوذ الفاطميين ثانية إلى تلك البلاد.

وفي سنة (462هـ) حاول السلاجقة الاستيلاء على «الشام» فكان نجاحهم جزئياً، ثم استتب الأمر أثناء الشدة العظمى التي مرت بها «مصر»، وأصبح «الشام» و «فلسطين» يتقاسمهما السلاجقة من

(35/5)

ناحية، والصلبيون من ناحية أخرى، ولم يبق بحوزة الفاطميين في أوائل عهد الخليفة الظاهر إلا «مصر» وبعض البلاد الشامية.  
4 - العباسيون في بغداد:

لاشك أن الخلاف بين الفاطمية والعباسية كانتا على طرفي نقيض؛ لاعتقاد كل منهما أنها أحق بالخلافة، وأن الأخرى مغتصبة لها، فقد قامت الخلافة الفاطمية - أساساً - في «إفريقية»، وهي أرض تابعة للخلافة العباسية، وامتد نفوذهم على مساحة كبيرة من الأرض هي أيضاً تابعة لهم، مثل «برقة» و «مصر»، ولم يحاول العباسيون صد الحملة الأخيرة للفاطميين على «مصر»، فتأسست مدينة «القاهرة» لتنافس «بغداد»، وامتد سلطانها ليشمل «الشام» و «فلسطين» و «الحجاز»، بل إن البويهيين الشيعة فكروا في إلغاء الخلافة العباسية في «بغداد»، إلا أن خوفهم على نفوذهم هو الذي منعهم من إتمام هذا الأمر، ففضلوا خليفة سنياً ضعيفاً خاضعاً لهم على خليفة فاطمي قوى يخضعون له، ومع ذلك فقد جاهر «بهاء الدولة بن بويه» بمناصرته للفاطميين، فأصدر الخليفة العباسي «القادر» منشوراً في سنة (402هـ) يقدر فيه في نسب الفاطميين، وحذا ابنه وخليفته «القائم» حذوه، وطعن في نسبهم، وشفع ذلك بوثيقة عليه توقعات علماء «بغداد»، تماماً كما فعل أبوه من قبل، ولكن هذا لم يؤت

ثمّاره المرجوة، وامتد النفوذ الفاطمي حولاً كاملاً، مما جرّأ العامة على نهب دار الخلافة العباسية، وأُرْسِلَت عمامة الخليفة القائم وعرشه وخلعته إلى «القاهرة»، ثم بيعت أثناء الشدة المستنصرية، وظل أمر الشيعة غالباً بالعراق حتى استنجد الخليفة بالسلاجقة، فقدم «طغرل بك» وقتل «البساسيري» سنة (451هـ)، وحاول التوسع في الشام على حساب الفاطميين، وتمكن «ملكشاه» من فتح «الرملة» و «بيت المقدس» و «دمشق» وتقدمت جيوشه صوب «مصر»، فأوقفها «بدر الجمالي» وتمكن من تحقيق النصر عليها، وبذلك أصبحت مملكة الفاطميين نهباً مباحاً لكل طامع، وتقلص نفوذها حتى

(36/5)

---

تمكن «نور الدين محمود» من الاستيلاء عليها بواسطة قائده «صلاح الدين الأيوبي»، الذي أزالها وأقام على أنقاضها الدولة الأيوبية.

(37/5)

---

## الفصل الخامس

\* الحضارة والنظم في العصر الفاطمي

نظام الحكم:

قام نظام الحكم على نظرية الإمامة التي اعتبرها الشيعة حقاً لهم. إرثاً عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ويختلفون في ذلك عن أهل السنة القائلين بحق الأمة في اختيار إمامها، كما يختلفون مع الإمامية الإثنا عشرية الذين ساقوا الإمامة في اثني عشر رجلاً من آل البيت، كان آخرهم «محمد بن الحسن العسكري»، بينما وقف بما الإسماعيلية بعد «جعفر الصادق» عند ابنه «إسماعيل» الذي نُسِبَت

الدولة إليه، وركزت كلتا الطائفتين على حق آل البيت في الإمامة،  
وأن مهمة الإمامة هي الحفاظ على تراث النبوة.

الوزارة:

هي أرفع المناصب بعد الخلافة، وكانت تنقسم إلى:

1 - وزارة قلم.

2 - وزارة سيف.

وكان يُطلق عليها رتبة الوساطة أو السفارة في أول عهد الدولة،  
ولم تظهر كلمة وزير إلا في عهد «العزیز» ثاني الخلفاء الفاطميين  
في «مصر»، وكان يتم اختيار الوزير - غالبًا - من بين أرباب الأقاليم،  
وتحول هذا المنصب إلى سلطة استبدادية أثناء الشدة المستنصرية؛  
فكان «بدر الجمالی» وزير سيف، وبه بدأ عهد استبداد الوزراء،  
وتحولت الوزارة إلى وزارة تفويض، وأصبح الوزير متحكمًا في جميع  
أمور الدولة؛ بل أصبح الوزراء يتدخلون في تولية الإمام وولي  
عهده، فعظم أمرهم وقويت شوكتهم.

كان وزير التنفيذ يُلقَّب بالأجل، أما وزراء التفويض فكانت ألقابهم  
تدل على السلطة الواسعة التي تمتعوا بها، مثل: أمير الجيوش،  
وكافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين، وتلقَّب الوزير  
«طلّاح بن رزیک» بالملك المنصور، وتلقَّب ابنه «رزیک بن طلّاح»  
بالملك العادل، وكذلك تلقب «صلاح الدين الأيوبي» آخر وزراء  
الفاطميين وأول سلاطين الدولة الأيوبية بالملك الناصر، كما وُصِف  
بعض هؤلاء الوزراء بالسلطان.

كانت للوزير في العصر الفاطمي علامات تميزه عن غيره من موظفي  
الدولة، وانفرد بلبس زى خاص، وبلغ راتبه خمسة آلاف دينار شهريًا،

وكان له حق الجلوس بجوار الخليفة، وكان مجلسه بدار الوزارة الكبرى - التي بُني لها قصر كبير بجوار باب النصر - لا يقل في الأهمية والعظمة عن مجلس الخليفة نفسه.

واشترط فيمن يتولى منصب الوزارة أن يكون مخلصًا لعقيدة الدولة، وأن تكون لديه المهارة في تدبير الأموال، ولذلك تولى وزارات التنفيذ وزراء من أهل الذمة ظلوا على عقيدتهم.

نظام الإدارة:

ورث الفاطميون نظام العباسيين في الإدارة، فعملوا على تركيز السلطة في أيديهم، وأصبح نظامهم الإداري شديد المركزية تُدار شئونه من داخل القصر، باستثناء بعض الظروف النادرة التي تُقل فيها ديوان الوزارة إلى دور الوزراء، وسرعان ما يعود إلى القصر ثانية.

انقسمت الشؤون الإدارية في عهد الفاطميين إلى:

1 - ديوان الإنشاء الذي يقوم بتنفيذ أوامر السلطة العليا.

2 - ديوان المالية، ويقوم بجباية الأموال وإنفاقها.

3 - ديوان الإدارة المحلية التي تحكم الولايات.

وتفرع عن كل ديوان من هذه الدواوين أقسام عديدة، كان لكل منها عمل معين، وعلى الرغم من محاولة «جوهري الصقلي» إحلال المغاربة محل المصريين في الوظائف الإدارية، فإنه فشل في ذلك، لجهل البربر بدقائق الإدارة، فبقى المصريون من المسلمين وأهل الذمة في مناصبهم الإدارية، وتشير المصادر التاريخية إلى استخدام القبط واليهود - بكثرة - في مختلف دواوين الدولة.

النظام الديني:

أطلق لقب: «أصحاب الوظائف الدينية» على علماء الدين في العصر

الفاطمي، وكانت هذه الوظائف تضم:

1 - القضاء: ويعتمد على التشريع الإسماعيلي.

2 - الدعوة: وتعتمد على العقيدة الشيعية للدولة.

ويتفق التشريع الشيعي مع التشريع السني في أن كلا منهما يعتمد

على القرآن الكريم والسنة النبوية كأساس للتشريع، مع اختلاف  
جوهرى هو أن الفاطميين وضعوا تأويلا باطنيا لنصوص القرآن  
والسنة؛ فالصلاة - مثلا - هي الفرائض الخمس المعروفة، ولكن معناها

(39/5)

الباطنى هو الإخلاص للإمام الباطنى، ولذلك لا يقبلون من الأحاديث إلا  
ما رواه آل البيت وثقل عنهم، حتى وإن كانت هناك أحاديث مشتركة  
بين الطرفين اختلف رواتهما.

لم يمنع المذهب الشيعى الاجتهاد، ولكنه اشترط أن يكون هذا  
الاجتهاد قائمًا على الأصول التى وضعها الفاطميون، ولذا أصبح  
اجتهاد الشيعة مقيدًا.

تولى أصحاب الوظائف الدينية الإشراف على القضاء فى أرجاء  
الخلافة، فكان منهم: قاضى القضاة، وصاحب المظالم، والمحتسب،  
وصاحب الشرطة.

وقامت الدعوة على أسس العقيدة الشيعية؛ لأن الدولة الفاطمية دولة  
قامت على أسس مذهبية، وكانت دعوتها تُسمى رسمياً: الدعوة  
الهادية، أو الدعوة العلوية، وكان الهدف من هذه الدعوة تأييد حكم  
الفاطميين ليترسخ فى النفوس حق الفاطميين فى حكم العالم  
الإسلامى، فأيدت حق الإمام المطلق فى ولاية أمر المسلمين، ولجأت  
إلى تأويل القرآن بما يتفق مع تأييد وجهة نظرها، بزعم أن أبناء  
«فاطمة» بنت رسول الله وذريتها هم وحدهم القادرون على هذا  
التأويل، ولديهم معنى واضح وآخر باطن لكل كلمة قرآنية.

بمجيء الفاطميين إلى «مصر» أصبحت «القاهرة» مقر داعى الدعوة؛  
الذى له حق الإشراف على الدعوة فى «مصر» والعالم الإسلامى،  
وعليه إرسال الدعوة فى أنحاء العالم أجمع للتبشير بمذهب  
الفاطميين، ولهذا كان يجب عليه أن يكون عالمًا بالمذهب

الإسماعيلي، عارفاً بأسرار العقيدة، بليغاً، ذكياً، عالماً بقواعد الدين.

كانت مجالس الدعوة تُعقد بصفة منتظمة ودورية، فخصص يوم الأحد للرجال، ويوم الثلاثاء للأشراف والشخصيات المرموقة، ويوم الأربعاء للنساء، وكانت المحاضرات المقروءة في هذه المجالس تُسمَّى: مجالس الحكمة، أو مجالس الدعوة، فإذا فرغ الداعي من إلقاء محاضراته تراحم عليه الناس في طقوس غريبة، فيمسح على رؤوسهم برقعة وضع عليها الخليفة توقيعاً. كان الداعي يلي قاضي القضاة في الرتبة والمكانة، وكان راتبه

(40/5)

الشهري مائة دينار مثل راتب القاضي، وتلقَّب باللقاب فخمة مثل: «الشيخ الأجل»، وكانت له سلطة روحية غير محدودة على جميع الشؤون السياسية والدينية في الدولة. النظام الحربي:

كان الجيش الفاطمي من أقوى الجيوش في عصره، وكانت له دواوين خاصة قامت على تنظيمه وإعداده، كديوان الجيش الذي أشرف على إعداد الجنود وأعدادهم، وديوان الرواتب الذي اختص بتسجيل العطاءات، وديوان الإقطاع الذي اختص بالنظر في الإقطاعات التي تمنحها الدولة لبعض العسكريين مقابل قيامهم بواجبات معينة، وقد أتت مكانة قائد الجيش بعد صاحب الباب الذي كان يلي الوزير مباشرة، وتميز قادة الجيش عن بعضهم بعلامات يحملونها، وسكن الجنود في معسكرات خاصة بهم حتى لا يضايقوا الأهالي فضلاً عن تواجدهم في مراكز الحدود.

روى «المقرئزي»: «أن خزائن المال وأمتعة الجيش حملها عشرون ألف جمل، حين خرج جيش العزيز قاصداً الشام، وعمل الفاطميون

على تزويد الجيش بأحدث أنواع الأسلحة. ولذا يمكن القول بأن الجيش الفاطمي كان جيد الإعداد مثل غيره من جيوش الدول الكبرى آنذاك». قام الأسطول الفاطمي بعدة حملات بحرية في البحر المتوسط أثبت خلالها شدة بأسه، وكانت له غزوات مظفرة على «بيزنطة» و «إيطاليا» و «فرنسا» و «إسبانيا»، ويروى «القلقشندي» أن وحدات الأسطول الفاطمي كانت مرتبة ومتواجدة بجميع الشواطئ الساحلية، ماعدا سواحل الشام التي فقدوا سيطرتهم عليها في القرن الأخير من حكمهم، فقد غلبهم عليها الصليبيون. خصصت الدولة الفاطمية جزءاً كبيراً من ميزانيتها للإنفاق على إعداد الجيش وتجهيز رجاله بما يحتاجون إليه من أدوات الحرب وغيرها، وكان للجيش ديوان خاص يُدعى «ديوان الجهاد»، وأنشئت الموانئ لبناء السفن التي كان بعضها يتسع لحمل ألف وخمسمائة شخص، وأصبح الأسطول الفاطمي من أكبر الأساطيل، وبقي نموذجاً احتذى به الأيوبيون والمماليك. مُنشآت الفاطميين:

(41/5)

تميز العصر الفاطمي بمنشآته العديدة، وكان على رأسها تأسيس «القاهرة»، وإنشاء «الجامع الأزهر»، وتشيد «القصر الشرقي»، و «القصر الغربي»، و «قصر البحر»، و «قصور عين شمس»، و «جامع الحاكم»، و «جامع الأولياء». تأسست مدينة «القاهرة» سنة (358هـ) لسبعة عشر يوماً خلت من شهر شعبان، واختطت قبائل البربر مساكنها حول قصر «المعز» بها. وأصبحت منذ ذلك اليوم مقراً للحكم، ومركزاً لنشر الدعوة الشيعية، وحصناً يصد هجمات الأعداء، وأطلق عليها اسم «المنصورية» نسبة إلى «المنصور» والد «المعز»، وقد اختلف المؤرخون في سبب

تسميتها بالقاهرة؛ فذكر «ابن دقماق»: أن أساسها حُفِر أثناء طلوع كوكب يُقال له «القاهر» فسميت به. وقيل إن «المعز» قال لجوهر الصقلي: «لندخلن في خرابات ابن طولون، وتبنى مدينة تقهر الدنيا»، فلما حدث ذلك سماها «جوهر» «القاهرة»، وهناك من ذكر أنها سُمِّيَت بذلك لأنها تقهر من يشد عنها.

أحاط «جوهر» «القاهرة» بسور كبير من الطوب اللين، وإلى الجنوب الشرقي منها كانت مدينة «الفسطاط»، وإلى الغرب منها وقع ميناء «المقس»، ثم وضع «جوهر» أساس القصر الذي شيده من أجل مولاه «المعز»، ذلك القصر الذي قيل عنه إنه احتوى على أربعة آلاف حجرة، وتأثت بفاخر الرياش، وبأفخر ما يحتاج إليه خاصة الناس لاسيما الملوك والخلفاء.

كانت «القاهرة» مدينة الخاصة، فلم يكن أحد يسكنها إلا الخليفة ورجاله، وقد بنى «العزیز بن المعز» فيها قصرًا عُرف بالقصر الغربي، فعرفت المنطقة الواقعة بين قصرى «المعز» و «العزیز» - الشرقى والغربى - باسم: «بين القصرين»، وكان «الأزهر» أول مسجد شُيِد في «القاهرة» المعزية، وقد شرع «جوهر» في بنائه يوم السبت الموافق (4 من رمضان سنة 359هـ)، وأقيمت الصلاة به لأول مرة في (7 من رمضان سنة 360هـ)، وصار منذ ذلك الوقت إلى الآن أشهر جامع في العالم الإسلامى، وكان «على ابن النعمان» أول مَنْ مارس

(42/5)

---

التدريس فيه، حيث ألقى على الطلاب مختصر أبيه «القاضى النعمان» فى الفقه على المذهب الشيعى، كما كان «العزیز بالله» أول مَنْ حوّل «الأزهر» من مسجد تُقام فيه الصلاة إلى جامعة تُدرس فيها العلوم، وهو أول مَنْ أجرى الأرزاق على طلاب العلم فيه، وتبعه فى ذلك الخلفاء والأمراء والوزراء؛ فبنوا الأروقة لتكون منازل مُعدّة

لسكنى الطلاب، وجعلوا لكل بلد رواقاً خاصاً بطلابه، فكان هناك رواق الصعايدة، ورواق المغاربة، ورواق الأكراد .. الخ.  
وبنى «العزیز بالله» قصوراً عديدة في «عين شمس»، وأسس «قاعة الذهب»، وبدأ بناء مسجد أتمه ابنه «الحاكم» وفرشه بستة وثلاثين ألف متر من الحصر، وأضاهه بالقناديل، وعلّق على أبوابه الستور الحريرية، وحبس عليه أملاً كثيراً لرعايته والإنفاق عليه، وفي سنة (395هـ) أنشأ «الحاكم» «دار الحكمة» وألحق بها مكتبة كبرى أطلق عليها اسم «دار العلم»، وأنشأ «الظاهر» «قصر اللؤلؤ»؛ الذي يُعدُّ من أجمل قصور العصر الفاطمي، وظل مكاناً يلجأ إليه الخلفاء من بعده وقت فيضان النيل.

ولنا أن نشير إلى اهتمام خلفاء الدولة الفاطمية ووزرائها بإقامة المنشآت على النيل؛ لتوزيع المياه بطريقة تكفل زراعة أكبر مساحة من الأراضي.

الحالة الاقتصادية:

وجّه الفاطميون اهتمامهم إلى الزراعة والصناعة والتجارة، وفرضوا الضرائب على بعض المنتجات، فقد قاست «مصر» الأمرين في أواخر الدولة الإخشيدية؛ حيث انخفض ماء النيل، وعم القحط وانتشر الوباء لدرجة أن الناس عجزوا عن تكفين موتاهم، فلما فتح «جوهر» «مصر»، منع احتكار الحبوب، وعهد إلى المحتسب برقابتها في الأسواق، ثم عاد الخير إلى «مصر» ثانية بعودة مياه النيل إلى الزيادة، فبلغت الأرض المنزرعة في عهد «المعز» (285 ألف فدان)، وارتقت البلاد زراعياً بفضل إنشاء القناطر وإقامة السدود، وتنظيف الترع والمصارف، ثم حدثت المجاعة التي عُرفت بالشدة العظمى في عهد «المستنصر».

بزغ نجم «مصر» عاليًا في مجال الصناعة في عهد الفاطميين، وبرع المصريون في صناعة المنسوجات، وزادت ثروتهم من صادرات هذه الصناعة لاسيما منتجات «دمياط» و «تنيس» و «الأشمونيين»، التي نالت منسوجاتها شهرة عالمية. كذلك ارتقت صناعات الفرش والسجاد والسيرج والذهب والفضة، وُضِعَ عرش الخلافة الفاطمية بمائة وسبعة عشر ألف مثقال من الذهب، ووُضِعَ ستار قبالة هذا العرش رُصِّعَ بألف وخمسمائة وستين قطعة من الجواهر المختلفة الألوان، وحُلِيْ بنلاثمائة ألف مثقال من الذهب الخالص، وكان لدى المستنصر طاووس من الذهب مرصع بالأحجار الكريمة، وعيناه من الياقوت، وريشه من الزجاج المموه بالذهب، كما وجد بدار الوزير «الأفضل» ثمانية تماثيل لثمانى جوارٍ متقابلات، أربع منهن بيضاوات والأربع الأخر لوُئِن أسود، مرتديات أفخر الثياب، متزينات بأثمن الجواهر، إذا دخل «الأفضل» من باب المجلس نكس رءوسهن إجلالا له.

كذلك برع المصريون في صناعة الأطباق والصحاف والزجاج، لدرجة أنهم استطاعوا إنتاج نوع شفاف من الزجاج يشبه «الزمرد» لنقائه الشديد فكان يباع بالوزن.

وقد نشطت التجارة بين «مصر» والعالم نشاطًا ملحوظًا، وكانت حركة السفن التجارية لا تتوقف غدوا ورواحًا بميناءى «عيذاب»، و «القلزم» (السويس)، وكانت نسبة الضرائب تزيد وتنقص تبعًا لزيادة المحصول وقلته نتيجة الزيادة أو النقصان في ماء النيل، وبلغت ضريبة الفدان في عهد «المعز» سبعة دنانير، وبلغت ضريبة الرءوس دينارًا وربع الدينار عن كل فرد، ثم كانت الجزية التي تُحصَل من قادري اليهود والنصارى دون ظلم أو إجحاف مقابل رعايتهم وإعفائهم من الخدمة العسكرية، ولم تكن الجزية مبلغًا كبيرًا لقلة عدد اليهود والنصارى بعد تحول معظم المصريين إلى الإسلام.

وفرضت الضرائب على الصناع والحرفيين، وروعى فيها العدل -غالبًا- أثناء قوة الخلافة الفاطمية وخلفائها، فلما حلَّ الضعف بها وتسلمت

الوزراء على الخلفاء والبلاد؛ أهملت النواحي الاقتصادية، ولم يراع هؤلاء الوزراء حالة المواطنين، فكان ذلك سبباً في فتح أبواب البلاد أمام الطامعين.

طوائف الشعب:

كان سواد الشعب المصرى من أهل السنة حين دخلها الفاطميون، فحاولوا نشر مذهبهم الشيعى بالترغيب مرة وبالترهيب أخرى، ومنحوا العطايا والهبات، فكان لذلك أثره الكبير فى اعتناق الكثيرين للمذهب الشيعى، فضلاً عن رغبة البعض فى الإبقاء على وظائفهم؛ إذ تخم على من يرغب فى الإبقاء على وظيفته اعتناق المذهب الشيعى.

وكان المغاربة وعلى رأسهم الكتاميون الذين قدموا مع الجيش الفاطمى، وقامت دولة الفاطميين بسواعدهم - ضمن طوائف الشعب بعد أن استقر لهم الأمر، وطاب لهم العيش بمصر، وكذلك كان هناك أهل الذمة من اليهود والنصارى؛ الذين تقلدوا مناصب رفيعة. وشغلوا معظم الوظائف المالية، تُضاف إليهم طائفة الأتراك الذين كثر عددهم منذ عهد الطولونيين، وظلوا بمصر، فدار بينهم وبين المغاربة تطاحن وتنابد فى عهد الحاكم، أما السودانيون فقد كثر عددهم منذ «كافور الإخشيدى»، وقويت شوكتهم فى عهد «الحاكم»، فاستعان عليهم بالأتراك، ثم زاد خطرهم ثانية وقويت شوكتهم حين تزوج «الظاهر» واحدة منهم.

مكانة المرأة:

كان للنساء شأن كبير فى الدولة الفاطمية، لدرجة أنهن كن يتدخلن فى توجيه سياسة الدولة، وحققت الكثيرات منهن ثروات طائلة، مثل: «رشيدة ابنة المعز لدين الله»، التى بلغت ثروتها مليوناً وسبعمائة ألف دينار، وكان لأختها «عبدة» خزائن عديدة ملأى بالحلى،

وصناديق كثيرة يحوى كل منها خمسة أكياس من «الزمرد» وثلاثمائة قطعة فضية وثلاثين ألف ثوب صقلى وغير ذلك، وامتلكت الملكة «تغريد» زوج «المعز» أموالاً طائلة، وشيَّدت مسجداً بالقرافة. تزوج «العزیز» امرأة نصرانية من الروم، وعین أخیها بطریقین بالإسكندرية و «بيت المقدس»، وولدت «للعزيز» ابنه «الحاكم» وابنته

(45/5)

«ست الملك»، فكان لها نفوذ كبير، ثم كان لابنتها «ست الملك» من النفوذ والدهاء ما مكنها من تأجيل انهيار الدولة الفاطمية فترة طويلة بعد أن أزاحت «الحاكم» عن العرش، كما سبق ذكره، وتركت «ست الملك» ثروة ضخمة كان منها ثمانمائة جارية وعدد كبير من الأحجار الكريمة، وبلغت مخصصاتها السنوية خمسين ألف دينار، وكانت زوجة «الظاهر» وهى أم «المستنصر» من النساء اللاتى حظين بنفوذ كبير فى الدولة الفاطمية، فأكثرت من بنى جلدتها السودانين حتى وصل عددهم إلى خمسين ألفاً.

لم يكن لنساء العامة أى أثر فى الحياة السياسية، ولم تذكر المصادر أى نشاط لهن فى الدولة الفاطمية، فقد كان ذلك مقصوراً على نساء الطبقة الحاكمة.

المواسم والأعياد:

كان للمصريين أعيادهم المختلفة ومواسمهم المعينة قبل الفتح الإسلامى، علاوة على ما استجد من الأعياد الدينية بعد الفتح الإسلامى، وبما أن الدولة الفاطمية دولة دينية مذهبية، فقد كانت الحفلات بالنسبة إلى خلفائها مناسبة لتأكيد عقيدتهم، وعملوا على صبغها بالصبغة المذهبية، فمن الأعياد التى كانت موجودة قبل الفتح الإسلامى وظلت باقية بعده «عيد وفاء النيل» الذى ظل تقليداً بعد الفتح مع إدخال بعض التعديلات على الاحتفال به لتناسب مع الدين

الإسلامى، وكان هناك «عيد الغطاس» الذى يحتفل فيه النصرى  
بذكرى المسيح فى ليلة (11 من طوبة = 9 من يناير)، وذكر  
«المقرزى» أنها أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سروراً ولا تغلق  
فيها الدروب»، وعيد «النوروز» الذى يقول عنه «المقرزى»: «إنه  
أول السنة القبطية بمصر، وهو أول يوم من توت، و «عيد الميلاد» فى  
(29 من كيهك)، و «خميس العهد».

أما الأعياد والمواسم الدينية التى عرفها المصريون بعد الفتح  
الإسلامى؛ فلم تأخذ شكلها الفخم ومظهرها الرائع إلا بعد مجئ  
الفاطميين، ومن أشهر هذه الأعياد: «عيد رأس السنة الهجرية»، الذى  
كانوا يعدون العدة للاحتفال به ابتداء من العشر الأواخر من شهر ذى

(46/5)

الحجة، فكان الاحتفال به مثالا للروعة والبهاء، كما كان لهم كبير  
اعتناء بليلة أول المحرم من كل عام، وبأعياد ليالى الوقود الأربعة  
وهى: الأول من رجب ونصفه، والأول من شعبان ونصفه، وكذلك  
بعيدى «الفطر» و «الأضحى»، وفيهما تُقام الولائم وتُعدُّ الموائد  
للشعب، وفى الثانى عشر من شهر ربيع الأول من كل عام يقام  
الاحتفال بالمولد النبوى الشريف بمراسم خاصة فخمة تليق بالمكانة  
العظيمة للنبي - صلى الله عليه وسلم - فى نفوس المسلمين. ذلك  
بالإضافة إلى أعياد الشيعة المذهبية كعيد «غديرخم» نسبة إلى  
الغدير الموجود بهذا الاسم بين «مكة» و «المدينة»، ويذكر الشيعة أن  
النبي - صلى الله عليه وسلم - نزل بموضع «الغدير»، وآخى «علئ بن  
أبي طالب» فى عودته من «مكة» إلى «المدينة» بعد حجة الوداع  
سنة (10هـ)، ثم قال - صلى الله عليه وسلم -: «علئ منى كهارون من  
موسى، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره،  
واخذل من خذله»، فاعتبر الشيعة هذه المقولة بمثابة وصية من

الرسول لعلّي، وأنه أحق بالخلافة من غيره. ومن احتفالات الفاطميين احتفال بذكرى مقتل «الحسين بن عليّ» -رضى الله عنهما - وهو عندهم يوم حزن يُمدُّ فيه سباط يُسمّى «سباط الحزن»، ذلك إضافة إلى أعياد أخرى مثل الاحتفال بإرسال الكسوة بصحبة قافلة الحج، والاحتفال بشهر رمضان، والاحتفال بذكرى مولد الكثير من الأئمة، ومولد الخليفة القائم بالأمر.

ولا يعرف التاريخ دولة إسلامية استطاعت طبع «مصر» بطابع قوى وجديد مثلما فعلت الدولة الفاطمية، التي مرت عبر صفحات التاريخ شأنها شأن أمة دولة تباينت قوة وضعفًا، واعتورها الصواب والخطأ، بيد أنها سطرت صفحة ناصعة من ألمع الصفحات في التاريخ الإسلامي تمثلت في «الجامع الأزهر» ومدينة «القاهرة».

(47/5)

## الفصل السادس

\*الدولة الأيوبية

[567 - 648 هـ = 1171 - 1250 م].

أصل الأيوبيين:

يرجع أصل الأيوبيين إلى «نجم الدين أيوب» الكردي الأصل، وأبوه يُدعى «شادى» من قبيلة «الهدبانية» إحدى القبائل التي استقرت ببلدة «روبن» بأطراف «أرمينية». اتصل «شادى» والد «نجم الدين أيوب» برجل اسمه «بهرز» كان مربيًا لأبناء السلطان السلجوقي «مسعود»، ثم أصبح حاكمًا لبغداد تحت سلطة السلاجقة سنة (502هـ)، وكانت له مكانة سامية لدى السلطان السلجوقي، فأقطعه السلطان «قلعة تكريت»، فأسند «بهرز» حراستها إلى «نجم الدين أيوب بن شادى»؛ الذى ظل فى حكمها وحراستها عدة سنوات

اكتسب خلالها الخبرة بشئون الإدارة، وتمتع فيها بحب الأهالى.  
دب خلاف بين «بهرورز» و «نجم الدين أيوب»، فخرج «نجم الدين»  
وأخوه «شيركوه» وأهلهم من «تكريت» عقب هذا الخلاف سنة  
(532هـ)، فحزن الأهالى على ذلك حزناً شديداً؛ لما كان يحظى به  
«نجم الدين» من محبة فى قلوبهم.  
اتصال أيوب بعماد الدين زنكى:

خرج «أيوب» من القلعة، وعزم على المغامرة فى حوادث الشرق  
الأدنى، وربط مستقبله بشخصية «عماد الدين زنكى» الذى عظمت  
مكانته، واشتدت قوته، ورحب بمقدم أسرة «أيوب» إلى «الموصل»،  
واستقبلهم وأكرم وفادتهم، ثم أسند حكم «بعلبك» بعد فتحها إلى  
«أيوب» سنة (534هـ)، وقلد «شيركوه» قيادة الجيش؛ فكانا عند  
حسن ظنه، وأصبح «أيوب» محبوباً من رعيته لعدله، واتصف  
«شيركوه» بالشجاعة والإقدام والمغامرة وحب القتال.  
صلاح الدين الأيوبي:

شاءت الأقدار أن يولد لأيوب ولد أسماه «يوسف» ليلة رحيله عن  
«قلعة تكريت» سنة (526هـ)، فنشأ «يوسف» فى بلاط «زنكى»  
بالموصل وعُرف باسم «صلاح الدين»، وقضى طفولته فى ظل والده  
«أيوب» ببعلبك، وأخذ عنه براعته فى السياسة، وشجاعته فى  
الحروب، فشب خبيراً بالسياسة وفنون الحرب، وتعلم علوم عصره  
وتتقن بثقافة أهل زمانه، وحفظ القرآن، ودرس الفقه والحديث.

(48/5)

---

رحل «صلاح الدين يوسف» مع والده إلى «دمشق» بعد وفاة «عماد  
الدين زنكى»، ثم دخل فى خدمة «نور الدين بن عماد الدين زنكى»  
سلطان «حلب»، فاستعان «نور الدين» بشيركوه وابن أخيه «صلاح  
الدين» فى ضم «مصر» إليه.

قيام الدولة الأيوبية:

في أواخر العصر الفاطمي قام صراع محموم بين «شاور» و «ضرغام» على منصب الوزارة، فاستنجد «شاور» بنور الدين محمود، فلبى نداءه وأرسل حملة كبيرة تحت قيادة «شيركوه» ومعه ابن أخيه «صلاح الدين»، فكان النصر حليف الحملة على «ضرغام» والصليبيين الذين استنجد بهم، وقتل «شاور» في المعركة، فاعتلى «أسد الدين شيركوه» كرسى الوزارة، ولكنه توفى بعد قليل، فخلفه في المنصب ابن أخيه «صلاح الدين» سنة (565هـ) وهو في الثانية والثلاثين من عمره.

عمل «صلاح الدين» على توطيد مركزه في «مصر»؛ لتأسيس دولة قوية تحل محل الدولة الفاطمية التي ضعفت، وتحقق له ذلك بعد وفاة «العاضد» آخر خلفاء الدولة الفاطمية سنة (567هـ).

العقبات التي اعترضت صلاح الدين:

لم تكن الأوضاع مهيأة أمام «صلاح الدين» لإقامة دولة إسلامية يكون هو مؤسسها وسلطانها، خاصة أن العالم الإسلامي كان مفككاً وضعيفاً ويحيط به الأعداء من كل جانب، بالإضافة إلى كونه نائباً عن «نور الدين محمود» في «مصر» التي يطمع الصليبيون وبقايا الفاطميين في امتلاكها والسيطرة عليها، فعمل على مواجهة هذه العقبات والقضاء عليها واحدة بعد الأخرى كالاتي:

أ - إلغاء المذهب الشيعي في مصر:

كان «صلاح الدين» وزيراً سنياً في دولة شيعية، وتولى أكبر المناصب بعد الخليفة، وأصبحت له الكلمة العليا في إدارة شئون البلاد، فتحولت مهمته المؤقتة التي جاء من أجلها مع عمه «شيركوه»، إلى إقامة دائمة بمصر مع ولائه لسيدته «نور الدين محمود»، وحذف اسم الخليفة الفاطمي «العاضد» من الخطبة، وجعلها للخليفة العباسي ولسيدته «نورالدين» من بعده، فزاد حاسدو «صلاح

---

الدين»، وأدرك أن تعدد المذاهب هو السبب الرئيسي في ضعف المسلمين، فعمل على إلغاء المذهب الشيعي في «مصر»، وتم له ما أراد، وهوى نجم الدولة الفاطمية، وسقطت، وتولى «صلاح الدين» رئاسة الدولة بعد صراع مرير مع بقايا الفاطميين وأنصارهم، وأصبح المذهب السني هو مذهب البلاد.

ب - الفتن الداخلية:

لاشك أن الإصلاح الحقيقي لأي بلد يحتاج إلى فترة كي يفهمه الناس ويشعروا به، لذا فقد صعب على دعاة الفتن مسعى «صلاح الدين» لإصلاح أمر الأمة وتأسيس دولة قوية، خاصة أن الأعداء يحيطون بمصر من كل جانب، فقامت حركات مناهضة لما يقوم به «صلاح الدين»، وكان من أشدها وأخطرها: الحركة التي قادها الشاعر «عمارة اليمن»، الذي طالما مدح الفاطميين وأيامهم، واعتبر الأيوبيين مغتصبين للعرش الفاطمي، فعمل على إعادة الحكم للفاطميين، ودعا عددًا كبيرًا من الجند، وانضم إليه المناصرون وبقايا الفاطميين، وأصبحت حركته خطرًا يهدد دولة الأيوبيين الوليدة، إلا أن «صلاح الدين» تمكن من إفشالها، وقبض على قادتها، وما كادت الأوضاع تهدأ حتى قامت فتنة أخرى في «أسوان» تدعو إلى عودة البيت الفاطمي، فأرسل «صلاح الدين» أخاه «العاذل» الذي تمكن من دخول «أسوان» والقضاء على هذه الفتنة في سنة (570هـ).

ج - تطور العلاقة بين صلاح الدين ونور الدين محمود:

لم تكن الفتن الداخلية هي العقبة الوحيدة التي واجهت «صلاح الدين» في بداية حكمه لمصر فحسب، ولكنه كان أحد قواد «نور الدين محمود»، وحكم «مصر» نيابة عنه، وذكر اسمه في الخطبة بعد الخليفة العباسي، وضرب السكة باسمه.

وقد كانت تبعية «صلاح الدين» لنور الدين تبعية اسمية، ولم يتدخل «نور الدين» في شئونه، وكان هو الحاكم الفعلي لمصر، وله جيشه

وحاشيته، ويتمتع بحب رعيته، ولكن «نور الدين» كان يعتمد على مساعداته لصد أعدائه من السلاجقة والصليبيين، إلا أن الفتن الداخلية

(50/5)

التي قامت في وجه «صلاح الدين» لم تمكنه من مساعدة «نور الدين» في حربه، وظل على ذلك حتى وفاة «نورالدين» سنة (569هـ)، فتولى من بعده ابنه الملك «إسماعيل بن نور الدين» وكان لا يزال طفلاً صغيراً، فضعفت الدولة في عهده.

د - وحدة المسلمين:

كان لنجاح «صلاح الدين» في التغلب على الفتن الداخلية التي واجهته منذ أن أصبح وزيراً بمصر، وارتداد الحملة الصليبية إلى «دمياط» سنة (564هـ) أكبر الأثر في ذيوع اسمه في أرجاء العالم الإسلامي، ونظر إليه الناس نظرة إجلال، واعتبروه أحد القادة العظماء؛ لوقوفه في وجه الصليبيين، ونجاحه في فتح «اليمن»، ونجاحه في القضاء على حركة «عمارة اليمن». وقد أثرت وفاة «نور الدين محمود» على دولته في بلاد الشام، وقام تنازع شديد بين الأمراء على من يعتلى العرش، وانتهى الأمر بتولية «إسماعيل بن نور الدين» عرش أبيه وهو ما يزال في الحادية عشرة من عمره، فوقع فريسة للصراع بين الأمراء، وضاعت بذلك هيبة الدولة النورية وقوتها، وبدت عليها مظاهر التفكك والضعف لدرجة أن أحد الأمراء لم يقو على مواجهة الفرنجة وقتالهم، فعمل على مهادنتهم واسترضائهم بالمال؛ ليأمن شرهم ويتجنب مواجهتهم. كان «صلاح الدين» متابعاً للأحداث التي تجري في العالم الإسلامي من حوله، فقرر التدخل في شئون «الشام» وضمه إلى «مصر» كي يحول دون وقوعه غنيمة في أيدي الصليبيين، وليحمي «مصر» والإمارات الإسلامية من أي خطر يهددها، وجعل هدفه توحيد صفوف

المسلمين وقوتهم في جبهة واحدة؛ ليتمكنوا من صد الصليبيين وحصرهم بين شقّي الرحى في الجزيرة والشام من جهة، وفي «مصر» من جهة أخرى، وانتظر «صلاح الدين» الفرصة لتحقيق ذلك حتى وافته الفرصة حين استنجد به بعض أمراء «دمشق»، فسار إلى الشام وتمكن دون قتال من السيطرة والاستيلاء على «دمشق» سنة (570هـ)، ثم على «حمص» و «حمّاة»، وحال الملك «الصالح إسماعيل» دون دخوله إلى «حلب»، فقرر «صلاح الدين» حصارها،

(51/5)

فاستنجد أهالي «حلب» بأعداء الدولة، واضطر «صلاح الدين» إلى فك الحصار عن «حلب»، واستولى على «بعلبك» ليحمي جيشه من الخلف، ثم عاد ثانية لحصار «حلب»، وأعلن استقلاله، وحذف اسم «الصالح إسماعيل» من الخطبة، واتصل بالخليفة العباسي، فمنحه لقب سلطان.

هـ - السلطان صلاح الدين وتوحيد باقي الولايات الإسلامية: بعد حصول «صلاح الدين» على لقب السلطان استقل عن أسرة «نور الدين»، وأصبح حاكم «مصر» الرسمي، وقوى مركزه باستيلائه على «منبج» و «إعزاز»، وشدد حصاره على «حلب»، وعزلها عن جيرانها حتى طلب «الصالح إسماعيل» الصلح، فوافق «صلاح الدين»؛ لأن هدفه كان وحدة المسلمين وحماية بلادهم.

تُوفي صاحب «الموصل» سنة (578هـ)، ومن بعده تُوفي «الصالح إسماعيل»، فعاد الانقسام ثانية من أجل الوصول إلى كرسى الحكم، فرحف «صلاح الدين» إلى الشام في سنة (578هـ)، وانضمت إليه بعض المدن دون قتال، واستولى على «حلب»، وبذا أصبح شمال الشام كله تحت سيطرته، ولم يعد أمامه سوى مدينة «الموصل» التي سعى حاكمها إلى التصالح مع «صلاح الدين»، وتعهده بإرسال

المساعدات الحربية إذا طُلب منه ذلك، فخضعت بذلك جميع الإمارات الإسلامية الشامية تحت سلطان «صلاح الدين»، وتمكن من توحيد كلمة المسلمين تمهيداً للنضال ضد الصليبيين.

موقف صلاح الدين من الصليبيين:

ظل «صلاح الدين» يعمل على توحيد العالم الإسلامي مدة عشر سنوات في الفترة من سنة (572هـ) إلى سنة (582هـ)، حتى تحقق له ما أراد، واستعد لمواجهة الصليبيين المتربصين بالعالم الإسلامي، ثم تصدّى لهم، فسجل التاريخ أبرز صور البطولة، وأسمى درجات الفداء والجهاد ضد هؤلاء المعتصين، وكان من أبرز هذه المعارك ما يأتي: واقعة حطين [583هـ = يولية 1187م]:

تعد «حطين» من أشهر الحروب التي خاضها «صلاح الدين» ضد الصليبيين، بعد سلسلة من الحروب التي خاضها مثل: موقعة «مرج

(52/5)

العبون» سنة (574هـ) التي انتصر فيها عليهم، ثم موقعة «مخاضة الأحران» سنة (575هـ)، ثم حدثت الهدنة بين الطرفين، ولكن الصليبيين لم يكفوا عن محاولة السيطرة على «مصر» وبلاد الشام، وظل «صلاح الدين» وفيما بعهدده؛ لما عرف عنه من الشجاعة والمروءة والمحافظة على العهد، إلى أن نقض «أرناط» حاكم «حصن الكرك» الهدنة معه في سنة (583هـ)، وهاجم إحدى قوافل الحج، فكانت هذه الجريمة هي الشرارة التي أشعلت نار الحرب بين الفريقين، فقد غضب «صلاح الدين» من هذا العمل الوحشي، خاصة وأن القافلة كانت في طريقها إلى حج بيت الله الحرام، فهدد «صلاح الدين» «أرناط» وأنذره بالقتل إذا تمكن منه، وأعد عدته لقتال الصليبيين، ووافته الإمدادات من المدن الشامية والمصرية، وسار إلى «طبرية» وحاصرها، فلما علم الصليبيون باستعداداته الحربية اجتمعوا ببلدة تُدعى «صفورية»،

وتناقشوا في خطة الحرب الواجب اتباعها إزاء «صلاح الدين»،  
واستقر رأيهم على هجوم المسلمين، وتقدموا واحتلوا تلاً على مقرية  
من «حطين» في الوقت الذي تمكن فيه «صلاح الدين» من السيطرة  
على مدينة «طبرية» باستثناء قلعتها التي استعصت عليه، فتركها  
ومضى لملاقاة الصليبيين.

وفي سنة (583هـ = يولية 1187م) دارت الموقعة الحاسمة بين جيش  
المسلمين بقيادة البطل الشجاع «صلاح الدين» وبين الصليبيين، فشن  
جيش المسلمين حملة هزت جنبات «حطين»، وكان نداء «الله أكبر»  
و «لا إله إلا الله محمد رسول الله» حافزاً قويا ومؤثراً في دخول  
الجنود المعركة ولا هم لهم إلا النصر أو الشهادة، فنصرهم الله نصرًا  
مؤزرًا، ونال الصليبيون هزيمة ساحقة، وفر من بقي منهم هربًا،  
فسجد «صلاح الدين» شكرًا لله على ما منحه من نصر، وكان هذا  
الانتصار فاتحة خير على المسلمين، وبداية لسلسلة من الانتصارات  
على الصليبيين، واستسلمت «قلعة طبرية» وسلمت لصلاح الدين عقب  
هذا الانتصار، واتجه «صلاح الدين» صوب الساحل وحاصر «عكا»

(53/5)

---

حتى استسلمت بعهد وأمان، ثم تتابع -بعد ذلك- استسلام باقي  
المدن الساحلية التي تقع جنوب «عكا» وهي: «نابلس» و «الرملة»  
و «قيسارية» و «أرسوف» و «يافا» و «بيروت»، وكذا المدن الواقعة  
شمال «عكا» مثل: «الإسكندرونة»، وكلها حصلت على العهد بالأمان  
من «صلاح الدين» الذي لم يبق أمامه سوى أن يمضى في طريقه إلى  
«فلسطين»، فاستسلمت «عسقلان» له أثناء مروره بها، وحانت  
المواجهة الحاسمة لتحرير «بيت المقدس».

الفتح المبارك:

شاءت إرادة الله أن يكون تحرير «المسجد الأقصى» - أولى القبلتين

وثالث الحرمين الشريفين ومسرى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - -  
على يدى البطل الشجاع «صلاح الدين الأيوبي»، الذى حاصر مدينة  
«بيت المقدس» حتى اضطر من بداخلها إلى الاستسلام وطلب الصلح،  
فأجابهم «صلاح الدين» إلى طلبهم وأمهلهم مدة أربعين يوماً للجلاء  
عن المدينة ومعهم أمتعتهم، وترك بسماحته زوجة «أرناط» تخرج من  
المدينة بسلام مع من خرج، ولم يتعرض «صلاح الدين» لأحد بسوء،  
وسمح لبطريق المدينة بالخروج مثل باقى الأهالى الذين حملوا معهم  
ثرواتهم وكنوزهم وتحفهم، ودخل «بيت المقدس»، وبدأ على الفور  
فى إصلاحها، ورّم «المسجد الأقصى»، وأقام فيه فترة بعد أن  
حرره من المغتصبين المستعمرين، ليعلو صوت الحق والعدل من جديد،  
ويصبح «صلاح الدين» ثانى القادة الفاتحين - الذين دخلوا هذه  
المدينة - بعد «عمر بن الخطاب» - رضى الله عنه-الذى فتحها الفتح  
الأول.

صلح الرملة:

أوشكت الأمور على الاستقرار بعد الانتصارات العظيمة التى حققها  
«صلاح الدين الأيوبي»، ولكن أوربا أرادت أن تحول دون تحقيق  
ذلك، وأرسلت حملة من أقوى الحملات الصليبية وأكثرها عدداً وعدة  
وعتاداً؛ ضمت ملوك أوربا بعد أن دعا البابا إلى حرب المسلمين،  
وأعلن قدسية هذه الحرب، فتشكلت حملة من «ألمانيا» وأخرى من  
«فرنسا» وثالثة من «إنجلترا»، وخرجت جميعها فى طريقها إلى

(54/5)

---

العالم الإسلامى لتخريبه، فوقف «صلاح الدين» صامداً أمام هذه  
الحملات الكبيرة التى أتت من البر والبحر، واستطاعت السيطرة على  
المناطق الساحلية، ومع ذلك عمد «صلاح الدين» إلى تقوية جيشه  
وتنظيم جبهته الداخلية على الرغم من مرضه، فطلب الصليبيون الصلح

الذى عُرف بصلح الرملة، وبدأت المفاوضات بين «الملك العادل» نائبًا عن «صلاح الدين»، و «ريتشارد» قائد حملة الصليبيين، واتفق الطرفان على «صلح الرملة» الذى كان من أهم شروطه:

أ - تخريب «عسقلان»؛ لأنها مفتاح «بيت المقدس».

ب - يحكم الصليبيون الساحل من «صور» إلى «يافا»، ويكون جنوبي ذلك الساحل لصلاح الدين، على أن يقع «بيت المقدس» فى حدوده وتحت سيطرته.

ج - يُسمح للمسيحيين بالحج إلى «بيت المقدس» فى أمن وأمان. وهكذا اتفق الطرفان على بنود هذا الصلح التاريخي، ليكون بداية مرحلة جديدة لهذه البلاد، التى فقدت قائدها «صلاح الدين» عقب هذا الصلح، ليأخذ الصراع مع الصليبيين وضعًا آخر.

وفاة صلاح الدين الأيوبي:

خرج «صلاح الدين» من «القاهرة» لآخر مرة فى طريقه إلى الشام سنة (578هـ)، لتوحيد صفوف المسلمين وإعدادهم لقتال الصليبيين، وعلى الرغم من طول فترة حكمه التى بلغت أربعة وعشرين عامًا فإنه لم يمكث فى مصر سوى ثمانى سنوات فقط، فلما أراد مغادرة «القاهرة» فى المرة الأخيرة، خرج رجال القصر لتوديعه عند بركة الجيش وأنشده أحد الشعراء شعرًا استاء منه، وشعر أنه لن يرى «مصر» ثانية، وقد صح حدسه؛ إذ مرض أثناء مفاوضاته مع الصليبيين فى «صلح الرملة» ولزم فراشه؛ ثم لقي ربه فى سنة (589هـ = 1193م)، وله من العمر خمسة وخمسون عامًا، بعد أن أسر الناس بجليل أعماله، وقهر الصليبيين بشجاعته، وخلص العالم الإسلامى بقوة إيمانه من كوارث داخلية وخارجية كادت تودى به وتوقعه فى أيدي الأعداء.

يُعدُّ «صلاح الدين» من الشخصيات العظيمة النادرة فى التاريخ

الإسلامي، فقد كان سياسياً ماهراً، وقائداً محنكاً نبيلاً، مخلصاً في تصرفاته، ميالاً إلا التسامح والعفو، محباً للعلم والأدب، وفيما مع أصدقائه وأعدائه على السواء.

خلفاء صلاح الدين [589 - 648هـ = 1193 - 1250م]:

بعد وفاة «صلاح الدين» انقسمت السلطنة الأيوبية بين أبنائه الثلاثة وأخيه وبعض أقاربه، فاستقل ابنه «العزير» بمصر، واستقل ابنه «الأفضل» بدمشق و «وسط سوريا»، وابن «الظاهر» بحلب، أما أخوه «العادل» فحكم «العراق» و «ديار بكر» و «الرها»، وتولى أبناء عمومته «حمزة» و «حمص» و «بعلبك» و «اليمن»، وهكذا قضى أبناء «صلاح الدين» وأقاربه على وحدة الدولة، ولم يفهموا الهدف الذي سعى طيلة حياته من أجل تحقيقه.

العزير عماد الدين [589 - 595هـ = 1193 - 1199م]:

خلف «صلاح الدين» على عرش «مصر» أصغر أبنائه «الملك العزير»، وكان شاباً في الحادية والعشرين من عمره، يتصف بالشجاعة والرحمة والعفة والأخلاق الحميدة، وحكم «مصر» في حياة أبيه «صلاح الدين» نيابة عنه، ومكّنه ذلك من اعتلاء عرشها عقب وفاته، إلا أنه كان يفتقد إلى الدراية السياسية في تسيير أمور البلاد واستقرار أحوالها، فاستعان بعمه «العادل» واستوزره ليقوم بهذه المهمة، ومات «العزير» في سنة (595هـ).

المنصور ناصر الدين [595 - 596هـ = 1199 - 1200م]:

خلف «العزير» ابنه «الملك المنصور» وهو طفل في التاسعة من عمره، فحكم «مصر» مدة سنة وتسعة أشهر، فرأى «الملك العادل» أن الدولة أوشكت على الانهيار تحت حكم الملك الطفل، فجمع العلماء والفقهاء في مجلس للتشاور فيما يجب فعله، فقرر الجميع وجوب خضوع الصغير للكبير، وتولى «العادل» عرش «مصر»، فأصبحت تحت يده أهم أجزاء دولة «صلاح الدين»، واعترفت الولايات بسيادته، وساهمت في حروبه، وضربت «السكة» باسمه، وخطب له فوق كل

(56/5)

يعد «العدل» أعظم سلاطين الأيوبيين بعد «صلاح الدين»، فقد اكتسب خبرة واسعة من اشتراكه مع أخيه «صلاح الدين» في غزواته ومفاوضاته وإدارة الأقاليم، إذ وكل إليه «صلاح الدين» معاونة «العزيز» في حكم «مصر»، كما عهد إليه بحكم «حلب»، ثم «العراق»، وذاع صيت «العدل» بين ملوك «أوروبا»، واشتهر بالكفاءة والدهاء والدراية بشئون الحكم، ولم يتأخر في حمل المسئولية حين رأى تدهور الأوضاع بمصر وحاجتها إليه، فكان الرجل المناسب لتلك المرحلة.

بعض الصعوبات التي واجهت العدل:

تأثر «العدل» تأثرًا بالغًا بشخصية أخيه «صلاح الدين»، فسار على نهجه في إدارة البلاد، رغم الصعوبات التي واجهته، فقد ثارت ضده طائفة الشيعة الإسماعيلية مثلما ثارت من قبل في وجه أخيه «صلاح الدين»، وحاولت هذه الطائفة زعزعة ملك «العدل» وتفريق البلاد وتشيت الصفوف، فعمل «العدل» على الحيلولة دون حدوث ذلك، وتمكن من القبض على عناصرها وسجنهم سنة (605هـ)، فخرجت جماعة أخرى تنادى بتولية أحد أبناء «صلاح الدين» أمور الدولة، وكان هذا الابن لا يزال طفلاً صغيراً، فاستطاع «العدل» التغلب عليهم وإعادة الاستقرار إلى بلاده، إلا أن انخفاض مياه النيل كان إحدى العقبات الطبيعية التي واجهته، فقد حدث بسببه مجاعة وقحط شديدان؛ نتيجة قلة الزراعة، كما أن الحملات الصليبية لم تهدأ في عهده؛ إذ لم ترضَ «أوروبا» عن استقرار أحوال البلاد الإسلامية، فعملت على زعزعتها، وأرسلت حملة صليبية هاجمت «مصر» ووصلت

إلى «دمياط» وحاصرت حصونها، ثم تمكنت منها، واستولت على  
برجها الحصين «برج السلسلة»، يضاف إلى ذلك كله العقبات الداخلية  
التي واجهت «العاذل» أثناء حكمه لمصر.  
وفاة العادل:

على الرغم مما واجهه «العاذل» من صعاب داخلية وخارجية في  
الحكم، فقد اتسع ملكه إلى حد كبير، وقلده الخليفة العباسي  
بمرسوم رسمي حكم «مصر» والشام وأرض الجزيرة، وخلع عليه

(57/5)

الخلع الثمينة، فوزع «العاذل» حكم مملكته الواسعة بين أبنائه  
التسعة عشر نيابة عنه؛ ليضمن وحدتها وتماسكها، فأناج ابنه  
«الكامل» عنه في «مصر»، وجعل «المعظم عيسى» على الشام،  
و «نجم الدين أيوب» على «ميفارقين» ونواحيها، وأناج ابنه  
«الأشرف مظفر» على «الولايات الشرقية».

وقد ضمن «العاذل» وحدة دولته في حياته، إلا أنه تركها إرثاً موزعاً  
بين أبنائه بعد وفاته، فكان لذلك أثره الخطير في قوة الدولة  
وتماسكها.

وحين سمع «العاذل» بسقوط «برج السلسلة» بدمياط حزن حزناً  
شديداً، فمرض ومات سنة (615هـ)، وكنتم أصحابه خبر موته ونقلوه  
إلى «دمشق»، حيث تولى ابنه «الكامل» حكم «مصر».  
كان «العاذل» حاكماً عادلاً، ذكياً، حليماً، حسن التدبير، محباً للعلماء  
والأدباء ومشجعاً لهم، كما كان سياسياً محنكاً، قام برحلات عديدة  
جاب بها أطراف مملكته الشاسعة، كي يضمن استتباب الأمن والنظام،  
كما كان متفقداً لأحوال أبنائه في الأقاليم التي أنابهم عنه في  
حكمها.

الكامل ناصر الدين [615 - 635هـ = 1218 - 1237م]:

حكم «الكامل» «مصر» نيابة عن أبيه «العاقل» في حياته، فلما مات استقل الكامل بحكم «مصر» في ظروف حرجة، إذ كان الصليبيون منتصرين في «دمياط»، وكان عليه دحر هذا الانتصار الذي أدى إلى موت أبيه كمدًا، وخرج عليه عدد من الأمراء لعزله في الوقت الذي يتصدى فيه للصليبيين بدمياط، فتمكن من التغلب عليهم، ولكن الصليبيين استغلوا حالة التمرد والتفكك الداخلي واستولوا على «دمياط»، إلا أن «الكامل» استطاع توحيد بلاد المسلمين، وتمكن من دخول «نابلس»، وتحرير «بيت المقدس»، واتسع ملكه لدرجة جعلت أئمة المساجد يدعون له من فوق المنابر بقولهم: «سلطان مكة وعبرها، واليمن وزبيرها، ومصر وصعيدها، والشام وصناديدها، والجزيرة ووليدها، سلطان القبلتين، ورب العلامتين، وخادم الحرمين الشريفين».

ورث عن أبيه صفاته الطيبة، فكان قائدًا قديرًا، وسياسيًا بارعًا،

(58/5)

وإداريًا نشيطًا، حازمًا يدير أمور دولته بنفسه، لدرجة أنه لم يعين وزيرًا بعد وفاة وزير أبيه، وقام بالأمر بمفرده، وكان محبا للحدِيث، مشجعًا للعلماء والأدباء، فقد كان عالمًا، ينظم الشعر ويجيده. ظل في حكم البلاد التي تحت يديه حتى وفاته سنة (635هـ)، فأخذت الدولة في الضعف والانحلال من بعده.

العاقل الثاني [635 - 637هـ = 1237 - 1240م]:

يُطلق اسم «العاقل الصغير» أو «العاقل الثاني» على هذا السلطان، تمييزًا له عن الملك «العاقل» أخى «صلاح الدين»، وقد كان «العاقل الثاني» نائبًا عن أبيه «الكامل» في حكم «مصر»، فلما مات أبوه أصبح سلطانًا على «مصر»، ولكن اضطراب الأوضاع، وضعف الدولة جعله لا يستمر طويلًا في حكم البلاد، فتولى أخوه «الصالح نجم

الدين أيوب» الحكم من بعده.

الصالح نجم الدين أيوب (637 - 647هـ = 1240 - 1249):

ورث «الصالح نجم الدين أيوب» عرشاً مضطرباً، مززعج الأركان جلب عليه الكثير من المشاكل والمتاعب، فدبر أموره، وأعد عدته وتمكن من القضاء على أكثر هذه المصاعب التي واجهته رغم شدتها، فلما تم له ما أراد تحول بقوته إلى مواجهة الصليبيين، ولم يأل جهداً في جهاده ضدهم، واستطاع استعادة «بيت المقدس» ثانية من قبضتهم، فاستقرت له الأحوال، وحل السلام بينه وبين أمراء مملكته، وتفرغ لمواصلة جهاده ضد الصليبيين؛ أملاً منه في تحرير البلاد كافة من أطماعهم.

بداية المماليك:

أكثر «الصالح نجم الدين أيوب» من استجلاب المماليك لمساعدته في حروبه ضد الصليبيين، فنبغ منهم عدة أشخاص كان لهم أكبر الأثر في تغيير مجرى السياسة المصرية، ومنهم «شجرة الدر» الأرمينية الأصل، والتي كانت أم ولد للصالح نجم الدين أيوب، ولازمته في حياة أبيه «الكامل»، وظلت معه بذكائها حتى أنجبت من «الصالح أيوب» ابنه «خليل» فتوطدت مكانتها، فلما أصبح سلطاناً على «مصر» اتخذها إلى جواره ملكة غير متوجة، فقد كانت تعمل على راحته، ووجد فيها ما يحبه.

(59/5)

وفاة الصالح نجم الدين أيوب:

مات «الصالح أيوب» في ليلة النصف من شعبان سنة (647هـ)، وكانت الحرب لا تزال دائرة بين المسلمين والصليبيين أمام «المنصورة»، فأعملت «شجرة الدر» عقلها وتجلي ذكاؤها، وأخفت خبر وفاته عن الناس في تلك الفترة العصيبة من تاريخ «مصر» و «الشام»، وأمرت

أحد أطبائه بغسل جثمانه ووضعها في تابوت، ثم حمّله في الظلام إلى «قلعة الروضة»، ثم إلى «قبو» بجوار المدرسة الصالحية ودفنه هناك، وأخبرت الأمراء أن «السلطان مريض لا يصل إليه أحد»، ولم تعلن خبر وفاته إلا بعد انتصار المسلمين على الصليبيين، ورد حملتهم، فاستمر العزاء ثلاثة أيام بلياليها بمدرسته، وبعثت «شجرة الدر» بالسنجقة السلطانية، وأمرت بأن تُعلّق داخل القاعة على ضريح «الملك الصالح»، ليرى الزائر آلات الجهاد التي كان يحملها آخر سلاطين «بني أيوب» في جهاده ضد الصليبيين في معركة «المنصورة»، فقد كان «الصالح أيوب» من أعظم سلاطين «مصر» وأشجعهم.

المعظم توران شاه [647 - 648 هـ = 1249 - 1250م]:  
قبل أن تعلن «شجرة الدر» عن وفاة الملك «الصالح أيوب» أرسلت في استدعاء ابنه «توران شاه» الذي كان غائباً عن «مصر»، فقد كان في «حصن كيفا»، وقبل وصوله أصدرت أوامرها للأمراء وأكابر رجال الدولة بأن يخلّفوا يمين السلطنة لتوران شاه، وأمرت خطباء المساجد بالدعاء له، وأدارت «معركة المنصورة» حتى وصل «توران شاه»، فتسلم قيادة الحرب وزمام الملك، ولم يمكث على عرش السلطنة أكثر من شهرين، ثم خرج لملاقاة الصليبيين الذين دخلوا «المنصورة»، وأخذوا يتقدّمون نحو «القاهرة»، فتصدّى لهم، وقاد المعركة بمهارة فائقة حتى تم النصر للمسلمين، فأحبه الناس وقدروه، إلا أن سيرته لم تكن حسنة، فقتل سنة (648هـ).  
نهاية الدولة الأيوبية:

تولت «شجرة الدر» زمام سلطنة «الأيوبيين» في «مصر» لمدة ثمانين يوماً عقب مقتل «توران شاه»، ثم تزوجت «عز الدين أيبك»

التركمانى، وتنازلت له عن العرش بسبب المشاكل التى واجهتها،  
وعدم رضى الخليفة العباسى عن توليها السلطنة، ولكن «عز الدين»  
كان رجلا ضعيف الرأى، فأسدل الستار على الدولة الأيوبية، إحدى  
أعظم الدول الإسلامية فى العصور الوسطى، بعد أن نالت مكانة  
عظيمة فى تاريخ المسلمين، وبدا فى الأفق ظهور دولة جديدة فى  
تاريخ المسلمين هى دولة المماليك.  
النظم والحضارة فى العصر الأيوبي:  
النظام السياسى:

كان السلطان الأيوبي يطلب من الخليفة العباسى - بصفته الرئيس  
الأعلى لبلاد المسلمين - تفويضًا يجعل حكمه فى «مصر» شرعياً، رغم  
أن سلطان الأيوبيين على البلاد التى تحت أيديهم كان سلطاناً مطلقاً،  
ولم تكن للخلافة العباسية عليه أية نفوذ، ولكن سلاطين الدولة  
الأيوبية حرصوا على الحصول على هذا التفويض دوماً، وكان «الناصر  
صلاح الدين» أول من اتشح بخلافة الخليفة العباسى من سلاطين  
«مصر» الأيوبيين.

ألقاب السلطان وأعماله:

يُعدُّ «صلاح الدين» أول من اتخذ لقب السلطنة من حكام «مصر»، وقد  
حصل على لقب «سلطان»، ولقب: «محمى دولة أمير المؤمنين»  
لأعماله الجليلة التى قام بها فى نشر المذهب السنى والقضاء على  
المذهب الإسماعيلى الشيعى، ونجاحه فى مناهضة الصليبيين وصدّهم  
عن بلاد المسلمين، ومع ذلك فقد كان «صلاح الدين» رجلاً متواضعاً،  
واتخذ من لقب: «السلطان الملك الناصر» لقباً للتعامل، رغم حصوله  
على ألقاب عديدة تحمل فى طياتها معانى العظمة والأبهة والجاه  
مثل: «السيد العالم العادل المظفر المنصور، ناصر الدنيا والدين،  
سلطان الإسلام والمسلمين، وارث الملك، سلطان العرب والعجم  
والترك، إسكندر الزمان، صاحب القبلتين، خادم الحرمين الشريفين،  
سيد الملوك والسلاطين»، ومما لاشك فيه أن هذه الألقاب تبين عظمة

ما بلغه سلاطين الدولة الأيوبية، خاصة أن لكل لقب من هذه الألقاب موقفاً عظيماً وحادثاً جلالاً خاضه السلطان فمُنح اللقب على إثره.

(61/5)

دُوِّنت الألقاب في الرسائل التي تُبودلت بين السلاطين وملوك «أوربا» وفي الكتابات التاريخية، وعلى السكة والعمائر، والتحف الفنية، وفهارس دار الآثار العربية.

كان السلطان يقيم مع أسرته وحاشيته ورجال بلاطه في «قلعة الجبل»، وهو رئيس الدولة الأعلى الذي له الحق في الهيمنة على شئون الأمراء الخاصة والعامة، وفي تدرجهم الوظيفي، وفي توزيع الإقطاعات والجنود عليهم وتحديد أنصبتهم، وكان على السلطان تعيين موظفي الدولة وعزلهم، وتأديبهم والنظر في المظالم وقيادة الجيوش في الحروب.

وكان للدولة الأيوبية مجلس شورى تُقَرُّ من خلاله مشروعات الدولة الحيوية كإعلان حرب أو إبرام صلح أو إصلاح لهيكل من هياكل الدولة، وكان هذا المجلس يُسمَّى: «مجلس السلطنة»، وكان أعضاؤه من كبار موظفي الدولة للاستئناس بآرائهم ومشورتهم قبل الإقدام على تنفيذ المشروعات والخطط، ويتولى «أمير مجلس» -الذي يشبه منصبه منصب كبير الأمراء - الآن - الأمور الخاصة بمجلس السلطنة، وله حق التصرف في شئون البرتوكول، كما كان يتمتع بالجلوس في حضرة السلطان بحكم هذه الوظيفة.

نائب السلطان:

نيابة السلطنة وظيفية استحدثها السلاطين الأيوبيون، فأصبح النائب كأنه سلطان ثانٍ، ويشترك مع السلطان في منح لقب الإمارة، وتوزيع الإقطاعات، وتعيين الموظفين، وتوقيع المراسيم والمنشورات، وتنفيذ القوانين، والخروج على رأس فرق الجيش في

المواكب الرسمية، يحف به الأمراء عند دخوله أو خروجه من قصر السلطان، وكان يُلقَّب بكامل المملكة الشريفة الإسلامية، لأن من اختصاصاته تصريف أمور الدولة عامة سواء أكان السلطان بالقاهرة أم كان متغيياً عنها.

وهناك نوع آخر من النيابة يقول عنه «المقریزی»: «يقوم النائب فيها بمهام الدولة إذا خرج السلطان إلى الصيد، أو سار على رأس الجيش في حرب خارجية».

الوزير:

اتخذ سلاطين الدولة الأيوبية في «مصر» وزراء لم يحددوا سلطتهم،

(62/5)

ولم يجعلوها مقصورة على التنفيذ، بل جعلوها سلطة مطلقة، فأصبحت الوزارة أعلى الوظائف وأرفعها، وأصبح صاحبها باب الملك المقصود، ولسانه الناطق، ويده المعطاء. النظام القضائي في عهد الأيوبيين:

في سنة (564هـ) افتتح الناصر «صلاح الدين» مدرستين لتدريس الفقه، وجعل إحداها لتدريس الفقه الشافعي، وجعل الأخرى للفقه المالكي، وفصل جميع القضاة الشيعة، وعين بدلا منهم قضاة من الشافعية السنيين، فاقصر القضاء على مذهب الإمام «الشافعي»، كما أن قاضي الشافعية «صدر الدين درباس» لم يُنب عنه في أقاليم «مصر» إلا من كان شافعيًا، ومن ثم انتشر المذهب الشافعي في «مصر» وما يتبعها من أقاليم.

وكان الذي يتولى منصب القضاء في «القاهرة» وسائر أعمال الديار المصرية، في عهد الأيوبيين قاضي واحد هو بمثابة قاضي القضاة، وله حق إنابة نواب عنه في بعض الأقاليم.

أعوان القضاة:

كان للقاضي في عهد الأيوبيين أعوان يساعدونه على العدل في الحكم وإعادة الحقوق إلى أصحابها، فكان منهم «الجلواز» الذي يستعين به القاضي على تنظيم قاعة الجلسة، وحفظ النظام، وترتيب الخصوم وفق ترتيب حضورهم، ومنعهم من التقدم إلى القاضي في غير دورهم، ومراعاة الآداب في مجلس القضاء. ومنهم «الأعوان» ومهمتهم إحضار الخصوم إلى المحكمة، والقيام بين يدي القاضي عند نظره في الخصومات إجلالاً لمركزه .. ومنهم «الأمناء» ومهمتهم حفظ أموال اليتامى والغائبين. ومنهم «العدول» ومهمتهم مراعاة دقة عبارات السجلات والعقود ومطابقتها للشرع، وتركية الشهود. وقد استقرت النفوس وهدأت في ظل هذا النظام القضائي المنضبط، لأن القضاء العادل من شأنه أن يجعل الناس سواء، خاصة أن مصادر القضاء الإسلامي المتمثلة في القرآن والسنة وإجماع العلماء والاجتهاد كانت هي الأسس التي سار عليها قضاة ذلك العصر، فقلَّت المظالم، واستقرت أحوال البلاد.

التطور الاقتصادي في العهد الأيوبي:

(63/5)

تأخذ الأمم القوية بأسباب قوتها، وتعمل على استثمار الإمكانيات المتاحة لها لتنمية ثرواتها، لذا فإن تقدم الأمم وقوتها مرتبط بنجاح اقتصادها وقوته واستمرار روافده، وكانت الدولة الأيوبية إحدى الدول القوية ذات الاقتصاد القوي، فقد امتلكت ما تركه الفاطميون عقب سقوط دولتهم، ونظمت الخراج والجزية، بالإضافة إلى غنائم حروبها وفدية الأسرى، واستخدمت هذه الموارد لصالح البلاد الإسلامية كافة، وأنفقت على تسليح الجيش وإعداده جزءاً كبيراً منها، وبنيت القلاع والحصون، وقامت بالإصلاحات الداخلية في البلاد. غيّر «الناصر صلاح الدين» النظام الاقتصادي الذي كان سائداً قبله،

وقل من النظام الإقطاعي، فقضى بذلك على استقلال أمراء الإقطاعات، وقوى الحكومة المركزية، فكان لهذا أثره الكبير في ازدهار حالة البلاد الاقتصادية.

وقد أولى «الأيوبيون» الزراعة عنايتهم؛ فهي عماد حياة البلاد، فطهروا الترغ، وأقاموا الجسور، ونظموا وسائل الري، لدرجة أن السلطان «الكامل» كان يراقب المهندسين بنفسه أثناء إقامتهم السدود والخزانات، وغير ذلك من أعمال الري الخاصة، فنشطت الزراعة دون أن تؤثر الحروب عليها، فقد كانت حروب الأيوبيين تتوقف في «سوريا» شتاءً، وهو موسم الزراعة في «مصر». ونشطت التجارة كما ازدهرت الزراعة في العصر الأيوبي، وأصبحت «مصر» -آنذاك- همزة الوصل بين تجارة الشرق والغرب، وعقد السلطان «العاقل» معاهدة تجارية مع «البندقية» في سنة (605هـ = 1208م)، حصل البنادقة بمقتضاها على تسهيلات تجارية في الموانئ المصرية، خاصة «الإسكندرية»، في مقابل أن يمنعوا الصليبيين، من التقدم نحو «مصر»، فلما ولي السلطان «الكامل» حكم البلاد أقر ما اتفق عليه السلطان «العاقل» مع أهل «البندقية»، وسمح لهم بتأسيس سوق تجارية في الإسكندرية، سُميت «سوق الأيك»، ومنح الامتيازات نفسها لأهل «بيزة» الذين أرسلوا قنصلا لهم إلى

(64/5)

«الإسكندرية»، فأدت هذه الخطوات إلى ازدهار التجارة وانتعاش الاقتصاد، وزيادة دخل الدولة.

وجدير بالذكر أن «مصر» مرت بانتكاسة اقتصادية في عهد «العاقل» نتيجة انخفاض مياه النيل الذي ترتب عليه قلة الزراعة، فحدثت المجاعة واشتد القحط، وبذل «العاقل» جهودًا كبيرة لمواجهة هذه الأزمة، فكان يخرج بنفسه أثناء الليل ويوزع الأموال على الفقراء

والمساكين والغرباء، ولكن الموقف ازداد سوءًا وتفاقم خطره حين وقع زلزال مرّوع وقت المجاعة هدم كثيرًا من المباني، وأزهق أرواحًا لا تُحصى في «مصر» والشام، ولكن الأوضاع سرعان ما عادت إلى طبيعتها بعد زيادة مياه النيل سنة (601هـ = 1204م)، فزادت الغلال وخفت المجاعة، وانتهى أمر النكبة بعد أن تكاتف الجميع للقضاء عليها وإعادة الاقتصاد إلى سابق عهده؛ ليتتابع الكفاح ضد الصليبيين من جديد. وهكذا كان اقتصاد الدولة الأيوبية اقتصادًا منظمًا زادت فيه موارد الدولة وشعر الجميع بانتعاش اقتصادي عمّ أرجاء البلاد.

النظام الحربي في عهد الأيوبيين:

كانت حياة الأيوبيين سلسلة متتابعة من الجهاد والنضال والقتال، ولذا كان اهتمامهم بالجيش وعنايتهم بأمره، لدرجة أن سلاطين «بني أيوب» أنفقوا معظم إيرادات الدولة على إصلاح الجيش، وبناء ما يلزمه من الحصون والقلاع، فلعب الجيش دورًا خطيرًا خلال تلك الحقبة من التاريخ الإسلامي.

تألف معظم الجيش الأيوبي من الترك والأكراد، وكان له «مجلس حرب» اعتاد السلطان أن يستشيريه في الخطط التي يجب أن تُتبع، وكان يخضع لرأى المجلس مهما يكن.

قسم الأيوبيون الجيش إلى عدة فرق، تُنسب كل منها إلى أحد القواد العظماء، فكانت هناك فرقة «الأسدية» نسبة إلى «أسد الدين شيركوه»، و «الصلاحية» نسبة إلى «صلاح الدين» .. إلخ، وكان لأمرء هذه الفرق نفوذ كبير، وكان الجيش مكونًا من الفرسان والمشاة، وكانت أسلحته من السهام والرمح والنبال والنار اليونانية.

ألّف «الصالح أيوب» جيشه من الأتراك والمماليك الذين استكثر من شرائهم، وبنى لهم قلعة بجزيرة الروضة جهزها بالأسلحة والآلات الحربية والأقوات، وأسكنهم فيها، وعُرفوا منذ ذلك الحين باسم المماليك البحرية، وقد أسسوا دولة -فيما بعد- عُرفت باسمهم. البحرية في العهد الأيوبي:

لم يقتصر إعداد «صلاح الدين» على الجند في البر وتحصين البلاد، بل وجه اهتمامه إلى سلاح البحرية الذي بلغ درجة عظيمة من التقدم، واهتم بتأسيس الأسطول اهتمامًا كبيرًا خاصة أن الصليبيين كانوا يستخدمون البحر في هجومهم على البلاد الإسلامية، ومن ثمَّ أصبح لزامًا على المسلمين الاستعداد لحمات الصليبيين البحرية، فأعد «الناصر صلاح الدين» العدة لتأسيس وتكوين أسطول إسلامي يستطيع مجابهة حملات الصليبيين المعتدين، وكانت أولى خطواته في ذلك: تخصيص ديوان كبير، عُرف باسم «ديوان الأسطول». وأفرد له «صلاح الدين» ميزانية خاصة، وعهد به إلى أخيه «العادل». واستطاع «صلاح الدين» تكوين أسطول قوى تمكن بواسطته من مواجهة الصليبيين، وأصبح هذا الأسطول من أكبر الأساطيل في ذلك الوقت، ورابط في البحر الأحمر، وفي شرق البحر الأبيض، وتمكن من تحقيق انتصارات هائلة.

لم يألُ الأيوبيون جهدًا في سبيل تنظيم الجيش والأسطول، وليس أدل على اهتمام السلاطين بالأسطول البحري من أنهم كانوا يشركون معهم الأهالي عند عرض الجيوش والأساطيل، أو عند توديعهم للغزو، فقد كان قدر هذه الدولة أن تقوم بمحاربة الصليبيين وردهم عن البلاد الإسلامية، فأدت هذه الأسباب في النهاية إلى وجود دولة قوية ذات سيادة، فرضت احترامها على أصدقائها وأعدائها، وحررت بلاد المسلمين من الأعداء، لأنها عرفت الأسباب التي تؤدي إلى القوة والازدهار.

المنشآت الحضارية في العهد الأيوبي:

رغم كثرة حروب العهد الأيوبي إلا أنه كان حافلا بالإنشاءات العظيمة، فقد بُنيت فيه المدارس والمستشفيات، ونُسِّقت الحدائق،

(66/5)

وأقيمت المنشآت الحربية للدفاع عن الدولة أو للهجوم على العدو طبقاً لظروف الدولة الحربية، وكان من أهم هذه الإنشاءات الحربية وأولها:

– قلعة الجبل:

وتعدُّ من أبرز ما خلفه الأيوبيون من منشآت في «القاهرة»، فما زالت شاهد صدق على عظمة هذه الدولة إلى اليوم، وإن الناظر إليها ليدرك مدى عناية الأيوبيين بالمنشآت والقلاع الحربية التي كانت منتشرة في بلادهم، خاصة المدن الشامية التي هي خط الدفاع والمهجوم الأول للدولة، لم يكن بناء «قلعة الجبل» مجرد تقليد أو مظهر أراده «صلاح الدين» ليظهر به، وإنما بناها لتكون مقراً لحكومته، ومعقلاً لجيشه الكبير، وحصناً يميّنه من الإشراف على حاضرة دولته. ويحميه من القلاقل الداخلية، وكذلك لتكون نقطة دفاعية يصد منها غارات المغيرين على «مصر» سواء أكانوا من الصليبيين أم غيرهم. وقد استخدم «صلاح الدين» الأسرى في تشييد قلعته، ومع ذلك لم يتمكن من إتمام تشييدها في عهده، فلم يتم منها سوى الهيكل والبئر الحلزوني.

وكانت بالقلعة – على الرغم من ارتفاعها – بئر عمقها تسعون متراً، مملوءة بالماء العذب، مثقوبة في الحجر، بأسفلها سواقٍ تدور فيها الأبقار، فتنتقل الماء إلى وسطها الذي توجد فيه أبقار تنقل بدورها الماء إلى أعلاها، ويُعدُّ هذا البئر من أعجب الآبار، ويعرف باسم «بئر يوسف» نسبة إلى «صلاح الدين يوسف بن أيوب».

أتم السلطان «الكمال محمد» بناء «القلعة» في سنة (604هـ)، ثم

انتقل من دار الوزارة إليها. وكان للقلعة سور، وأبراج، وثلاثة أبواب، أحدها من جهة «القرافة» و «جبل المقطم»، والثاني من جهة جدارها البحري ويُعرف باسم «باب السر»، والثالث يقع مدخله في أول الجانب الشرقي من القلعة، ويصل الداخل منه إلى فناء مستطيل به دواوين الحكومة، وبهذا الفناء باب يُسمَّى: «باب القبلة»، وتمتد منه دهاليز فسيحة، وعلى يسار الداخل منها باب يوصل إلى جامع

(67/5)

الخطبة وهو من أعظم الجوامع لاتساع أرجائه، وكثرة زخرفته، وفي وسطه قبة تليها مقصورة ليصلى فيها السلطان صلاة الجمعة، ويصدر الدهاليز مدخل يوصل إلى الإيوان الكبير الذي نُصب به سرير الملك؛ وهو منبر من الرخام، وتمتد من هذا الإيوان مساحة كبيرة بما القصر الذي بناه «الظاهر بيبرس» فيما بعد.

صارت «قلعة الجبل» منذ تم بناؤها مقر الدواوين السلطانية ودور الحكومة، فقد كانت حصينة جدا، وتشتمل على كثير من القصور، والإيوانات، والطباق والأحواش، والميادين، والإصطبلات، والمساجد، والمدارس، والأسواق، والحمامات، وكانت بها دار الوزارة، وديوان الإنشاء، وديوان الجيش، ودار النيابة، وبيت المال، وخزانة السلطان الخاصة، والدور السلطانية، وكذلك الأبراج التي كان الخارجون على السلطان ونظام الدولة يُجسسون بها.

وكان نقش بابها: «بسم الله الرحمن الرحيم». أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة، المجاورة لخروسة القاهرة بالعرصة، التي جمعت نفعا وتحصينا وسعة على من التجأ إلى ظل ملكه مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب محمى الدولة أمير المؤمنين في نظر أخيه وولى عهده الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد خليل أمير المؤمنين، على يد أمير مملكته ومعين دولته

قراقوش عبدالله المكي الناصري في سنة تسع وسبعين وخمسمائة». إنشاء المدارس:

عُني «صلاح الدين» ببناء المدارس، فبنى مدرسة بالقرب من قبر الإمام «الشافعي» بالقرافة، وبنى مدارس الناصرية والقمحية، وكذلك نُحج نُحجه سلاطين «بني أيوب»، فأسس الملك «الكامل» مدرسة دار الحديث الكاملية؛ نسبة إليه، وكانت عبارة عن بناء متجه إلى القبلة، وفي وسطه صحن كبير مربع، وفي كل جانب من جوانبه الأربعة إيوان، وتعلوها قبة تحتها محراب، ومن مَمَّ لم تختلف المدارس عن المساجد من حيث الهيئة والشكل. وكان الطلبة يذهبون إلى تلك المدارس بانتظام لتلقى العلم مجاناً،

(68/5)

وكان سلاطين الدولة الأيوبية يهتمون بالمدارس وإنشاء المزيد منها، ويوقفون عليها الأوقاف الكثيرة، ويرتبون لها الفقهاء والعلماء لتدريس المذاهب الفقهية الأربعة، فكثرت بها المناقشات والمناقشات بتشجيع من السلاطين الذين شُغفوا بالبحث العلمي، كما كان منهم مَنْ ينظم الشعر ويحمده كالمملك الكامل.

تأسيس المنصورة:

يُعدُّ إنشاء مدينة «المنصورة» من الأعمال العظيمة التي خلدت ذكر دولة الأيوبيين، فقد أنشأها السلطان «الكامل» سنة (616 هـ = 1218م)؛ إذ قام بإنشاء مدينة على الشاطئ الشرقي لفرع «دمياط» عقب سقوط «دمياط» في أيدي «لويس التاسع»، واتخذ «الكامل» المدينة الجديدة مركز دفاع له يقاوم به الصليبيين.

وبعد أن تمكن «الكامل» من استرجاع مدينة «دمياط» من أيدي الصليبيين أطلق اسم «المنصورة» على مدينته الجديدة تيمناً بالنصر، ثم ما لبثت هذه المدينة الجديدة أن اتسعت، واشتهرت منذ إنشائها

بأنها مدينة حصينة، وكانت سجن «لويس التاسع» ومن كانوا معه حين تم أسرهم ووضعهم بدار الحكمة، التي ما زالت معروفة لدى العامة حتى اليوم باسم «دار ابن لقمان» نسبة إلى «القاضي فخر الدين بن لقمان» الذي كان ينزل بها كلما جاء إلى «المنصورة». قلعة الروضة:

بناها السلطان «الصالح نجم الدين أيوب» في جنوب «جزيرة الروضة» سنة (638هـ)، وهي تشغل مساحة كبيرة من الأرض، وقد عُمرت بالأبنية والقصور، وجُهزت بالأسلحة والمعدات والآلات الحربية. وأنشأ فيها «نجم الدين» جامعًا، وشيد برجًا، وبنى لمماليكه البحرية ثكنات لسكانهم، فلما تم بناؤها وتجهيزها انتقل إليها مع أفراد أسرته ومماليكه البحرية، واتخذها مقرا لحكمه. وظلت «قلعة الروضة» عامرة حتى زالت الدولة الأيوبية، وتولى «أيبك» السلطنة، فأمر بهدمها، ونقل جميع ما بها إلى «قلعة الجبل» التي أسسها «صلاح الدين». عاصمة مصر في العصر الأيوبي: ربما يتبادر إلى الذهن سؤال حول عاصمة الأيوبيين، ولماذا لم يعمد

(69/5)

---

«صلاح الدين» إلى إنشاء عاصمة جديدة لدولته جريا على سياسة من سبقوه من ولاة «مصر» وخلفائها؟ والإجابة: أن «صلاح الدين» استن في ذلك سنة جديدة، وضم «الفسطاط» و «العسكر» و «أطلال القطائع» و «القاهرة» بعضها إلى بعض الآخر بقصد توسيع مدينة «القاهرة» وجعلها في ثوبها الجديد عاصمة لدولته، بعد أن أحاطها بسور عظيم طوله خمسة عشر كيلو متر (15 كم)، ومتوسط عرضه ثلاثة أمتار، وبنى واجهة هذا السور من الحجر المنحوت وتخلله الأبراج، ولاتزال بقاياها قائمة حتى اليوم في جهات متفرقة، وأظهر هذه

البقايا موجود بالفسطاط، وقد اقتضى ضم تلك العواصم إلى بعضها وإحاطتها بالصور وبناء القلعة هدم المباني الموجودة في ضواحي «القاهرة» من «مصر القديمة» إلى «السيدة زينب»، وأقيمت حدائق للفاكهة مكان هذه المباني، كما أقيم سد من الحجارة على حافة الصحراء بالجيزة؛ لحماية «القاهرة» من ناحية الغرب، وأصبحت هذه العواصم مجتمعة - بعدما أُدخل عليها من تعديل - عاصمة الدولة الأيوبية في «مصر» آنذاك.

ويعد:

فقد كان العصر الأيوبي عصرًا حافلًا بالإصلاحات والإنشاءات التي خدمت فن العمارة خدمات بارزة في «مصر» و «سوريا»، وكما خدم الأيوبيون العلم بإنشاء المدارس وتشجيع العلماء ومساعدة الطلبة؛ كذلك خدموا العالم الإسلامي بالمحافظة على المذهب السني والقضاء على المذهب الإسماعيلي الشيعي، ذلك بالإضافة إلى إسهاماتهم الجليلة التي قدموها للمسلمين كافة في المجالات السياسية والاقتصادية والحضارية والحربية.

رحم الله سلاطين «بنى أيوب» الذين ضحوا بكل شيء في سبيل إعلاء كلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» إرضاءً لله وخدمة للمسلمين، وإعلاءً لمكانة الأمة الإسلامية.

(70/5)

---

## الفصل السابع

\*دولة المماليك البحرية

[648 - 784 هـ = 1250 - 1382 م].

أصل المماليك:

أكثر الأيوبيون من شراء المماليك الأتراك، وبنوا لهم الثكنات بجزيرة

الروضة، وأطلقوا عليهم اسم «المماليك البحرية»، فقويت شوكتهم، وزادت سطوتهم، وسنحت لهم الفرصة بعد ذلك، فتولوا حكم «مصر». كانت الغالبية العظمى من جماعات المماليك الذين جلبهم الأيوبيون وسلاطين المماليك من بعدهم تأتي من «شبه جزيرة القرم» و «بلاد القوقاز»، و «القفجاق»، و «آسيا الصغرى»، و «فارس»، و «تركستان»، و «بلاد ما وراء النهر»، فكانوا خليطاً من الأتراك، والشراكسة، والروم، والروس، والأكراد، فضلاً عن أقلية من مختلف البلاد الأوروبية. والمماليك طائفة من الأرقاء الذين اشتراهم سلاطين «مصر» وأكثروا منهم، لاسيما في العهد الفاطمي، ثم تقيأت لهم الظروف ليحكموا «مصر» و «الشام»، وبلاد أخرى، ومع ذلك احتفظوا أثناء حكمهم لمصر بشخصيتهم، ولم يختلطوا بأى عنصر من عناصر السكان في «مصر» وفي غيرها من البلاد التي حكموها. وكان المماليك ينقسمون فيما بينهم إلى أحزاب وطوائف متنافسة، ولكن هذا الانقسام لم يكن يؤثر على وحدتهم أمام العالم الخارجي حين يواجهونه، فقد كانوا يظهرون كعصبة واحدة متحدة، ويفسر ذلك سر قوتهم وأسباب تفوقهم وانتصاراتهم الحربية. وكان باب الترقى في حكومة المماليك مفتوحاً على مصراعيه أمام كل مملوك يثبت كفاءته في العمل، فيترقى من مملوك إلى أمير حتى يصل إلى عرش المملكة بكفاءته واجتهاده، فالسلطان لم يكن إلا واحداً من أمراء المماليك، قدموه على أنفسهم لقوة شخصيته، ووفرة أنصاره، وكثرة جنوده، وقدرته على المنافسين الطامعين في العرش، ولقد سطرت دولة المماليك الأولى «المماليك البحرية» صفحة مضيئة من تاريخ «مصر» خاصة، والتاريخ الإسلامى عامة، على أيدي سلاطينها الأقوياء الذين عملوا على توحيد البلاد، ورفع رايات الجهاد، وهم:

1- العز أيبك:

بعد أن زالت دولة الأيوبيين، وانتقل الحكم إلى المماليك باختيار «عز الدين أيبك التركمانى» لعرش السلطنة (648 - 655هـ) لم تستقر الأوضاع تمامًا، شأن كل فترات الانتقال من نظام إلى نظام، أو بناء دولة وليدة على أنقاض أخرى بائدة، ولم يخلُ عهد «أيبك» من المنازعات التي نشبت بينه وبين المماليك على السلطنة، خاصة أن «فارس الدين أقطاي» رئس «المماليك البحرية» لم يكن مقتنعًا بأيبك، فدارت بينهما مناوشات كثيرة، وتمكن «أيبك» من القضاء على «أقطاي»، ولكنه لم يلبث طويلًا بعد ذلك وقُتل؛ ليتولى العرش من بعده ابنه «على».

2 - على بن أيبك (المنصور نور الدين) [655 - 657هـ]:

تولى «المنصور» عرش السلطنة عقب مقتل أبيه، وتلقب بالمنصور نور الدين، إلا أنه لم يكن أهلاً لهذه المسئولية الجسيمة، خاصة أن البلاد الإسلامية - آنذاك - كان يتهددها خطر المغول، الذين سيطروا على مركز الخلافة الإسلامية، بالإضافة إلى أن «المنصور» كان لا يزال طفلاً في الحادية عشرة من عمره، ولذلك لم يجد الأتابك «سيف الدين قطز» صعوبة في عزله وتولى عرش السلطنة بدلا منه.

3 - سيف الدين قُطز:

كان «قطز» أتابكًا للمنصور نور الدين على بن أيبك، ورأى هولاء قائد المغول قد سيطر على «بغداد»، وقتل خليفة المسلمين، وزحف يهدد بغزو «مصر»، فأحس أن ظروف البلاد تتطلب منه أن يقوم بدور فعال في إنقاذها من خطر الغزو في هذه المرحلة الخطيرة، فعزل «على بن أيبك» الذي كان صغيرًا لا يدرك عاقبة الأمور، وتولى السلطنة، وقام بتنظيم الجيش وإعدادها، وخرج لملاقاة التتار في أواخر شهر شعبان عام (658هـ)، وتمكن في رمضان من العام نفسه من إلحاق هزيمة نكراء بهم في «عين جالوت» (تقع بين «بيسان» و «نابلس» بفلسطين)، وقتل من جيش التتار ما يقرب من نصفه، وأجبر

الباقى على الفرار، ثم دخل بعد ذلك «دمشق»، ثم عاد إلى «مصر». وفي «القصور» (بمحافظة الشرقية)، وفي طريق عودة «قطز» إلى

(72/5)

«مصر» أمر جنوده بالرحيل تجاه «الصالحية»، وبقي مع بعض خواصه وأمرائه للراحة، فاتفق عدد من المماليك بزعامة «بيبرس» على قتله، وتم لهم ما أرادوا في ذى القعدة سنة (658هـ)، بعد أن قام «قطز» بدحر التتار وهزيمتهم، وتشتيت جيشهم، وحفظ العالم الإسلامى من شرهم الذى لم يسلم منه أحد في طريقهم.

4 - الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى (658 - 679هـ):

انتقل عرش السلطنة بعد «قطز» إلى «ركن الدين بيبرس»، الذى يُعدُّ المؤسس الفعلى لدولة المماليك وأعظم سلاطينها؛ إذ اجتمعت فيه صفات العدل والفروسية والإقدام.

عقد «بيبرس» العزم على أن تكون «مصر» والشام من أعظم البلاد آنذاك، ووهب حياته للجهاد، وجعل هدفه رفع شأن الأمة الإسلامية، وإليه يرجع الفضل في انتقال الخلافة العباسية إلى «القاهرة» بعد سقوطها في «بغداد»، وأصبحت مصر دار الخلافة الإسلامية؛ إذ استقدم «بيبرس» «أحمد بن الخليفة الظاهر العباسى»، وبايعه بالخلافة في حضرة الأمراء والعلماء ورجال الدولة.

وفي (4 من شعبان سنة 659هـ)، عقد الخليفة اجتماعاً منح فيه «بيبرس» تفويضاً منه لتسيير أمور البلاد، فكان ذلك تقوية له ضد خصومه ومنافسيه، كما كان إقراراً بمشروعية النظام المملوكى، وبحقه في تولى شئون البلاد.

عادت إلى العالم الإسلامى هيئته بإحياء الخلافة الإسلامية، وأضحت «القاهرة» مقر الخلافة، ومركز السلطة الإسلامية المركزية، ومقصد المسلمين من كل حذب وصبوب، وظلت على ذلك حتى انتقلت منها

الخلافة إلى «استانبول» بعد قرابة ثلاثة قرون.

ملاحم من إصلاحات بيبرس:

سنَّ «بيبرس» نظام ولاية العهد لأول مرة في تاريخ دولة المماليك البحرية، وحصر وراثته العرش في أسرته بتعيين ابنه «محمد بركة خان» ولياً للعهد، ليحد من تدبير الدسائس والمؤامرات حول عرش السلطنة، وما يجره ذلك من اضطراب وضعف للدولة. قام «بيبرس» بإصلاحات جوهرية في البلاد، وأعاد إلى الأسطول

(73/5)

البحرى قوته، وعين قضاة من المذاهب الأربعة للفصل في الخصومات، بعد أن كان القضاء مقصوراً على المذهب الشافعي، فعادت إلى العالم الإسلامي قوته على أسس تنظيمية دقيقة، إذ كان «بيبرس» إدارياً حازماً، وقائداً شجاعاً، فدأب على رعاية شئون البلاد، وتنمية مواردها، وحفر الترع، وأصلح الحصون، وأسس المعاهد، وبنى المساجد التي من أشهرها مسجده المعروف باسمه في ميدان «الظاهر» بالقاهرة.

وكانت لبيبرس هيبة كبيرة في قلوب أمراء البلاد، فخشوا بأسه لدرجة أن أحدهم لم يجرؤ على الدخول عليه في مجلسه إلا بطلب وإذن منه.

وقام «بيبرس» بدوره على خير وجه في محاربة المغول والصليبيين تقليداً للقائد البطل «صلاح الدين»، وأصدر عدة قوانين لتطبيق الشريعة الإسلامية، وإصلاح الأوضاع الاجتماعية في «مصر»، وأمر في سنة (664هـ) بمنع بيع الخمر، وإغلاق الخانات، ونفى المفسدين.

وكان «بيبرس» قائداً شجاعاً، صُربَت ببطولته وشهامته الأمثال، فقد خاض معارك ومواقع عديدة، سجل فيها بطولات رائعة، وأبلى بلاءً

حسنًا في مطاردة الصليبيين وتشتيتهم وإجلالهم عن الشرق الأدنى، واستعاد في سنة (666هـ) «قيسارية»، و «أرسوف»، و «صفد»، و «شقيف»، و «يافا»، و «طرابلس»، و «أنطاكية»، فأضعف ذلك الصليبيين، وأهكهم، وزاد من قوة المسلمين، وحرص على أن يؤكد صورة الحاكم العادل الذي يجلس بنفسه للمظالم، ويعطف على الفقراء.

وفي (27 من المحرم سنة 676هـ = 1277م) تُوفِّي «الظاهر بيبرس» إثر عودته من واقعة «قيسارية» بالقرب من «دمشق»، وقد دُفن بها بعد حياة حافلة بالبطولة والشجاعة، سطر خلالها صفحات مجيدة مازال التاريخ يحفظها له وسيظل.

أولاد بيبرس في السلطنة (بركة خان، وسلامش):  
تولى «السعيد بركة خان» السلطنة عقب وفاة أبيه، وكان عمره تسع عشرة سنة، وكانت تنقصه الحنكة السياسية التي كانت متوافرة لأبيه، فنشبت الصراعات الحادة بين أمراء المماليك على

(74/5)

---

السلطنة، واضطربت الأوضاع وزادت القلاقل، ولم يتمكن «بركة خان» من السيطرة على الموقف، أو النهوض بدوره؛ لقلة خبرته بمثل هذه الأمور، ولذا لم يتمكن من الاستمرار طويلا على عرش السلطنة، وتولى من بعده شقيقه «بدر الدين سلامش» في سنة (678هـ)، ثم عين «سيف الدين قلاوون» «أتابكًا» له، وكان أحد أمراء «المماليك البحرية» الأقوياء، فتحكَّم في أمور السلطنة، وجعلها جميعها في يده، وذلك لضعف «بدرالدين سلامش» وقلة مهاراته السياسية والحربية، ولذا لم يستمر «سلامش» أكثر من ثلاثة أشهر في حكم السلطنة خُلع بعدها من منصبه، وتولى «سيف الدين قلاوون» بدلا منه، لتدخل البلاد في عهده مرحلة جديدة تنهض فيها سياسيا وحربيا

وحضاريا.

السلطان قلاوون [679 - 689 هـ = 1280 - 1290م]:

انتقل الملك بعد «سلامش» (ابن «الظاهر بيبرس») إلى أتابكه «المنصور سيف الدين قلاوون»، الذي استمرت السلطنة في بيته وأسرته حتى انتهاء دولة المماليك البحرية في سنة (784هـ)، ولعل التجارب السياسية التي مر بها وتعرض لها في خدمة «بيبرس» ومن قبله «قطز»، هي التي مهدت له السبيل لكي يكون أحد سلاطين المماليك الأقوياء والبارزين، وسار على نهج «بيبرس» السياسي في إدارة شئون البلاد والتقرب من الشعب، واستقدم كثيراً من المماليك وأطلق عليهم اسم «البرجية» نسبة إلى أبراج القلعة التي أقاموا فيها وجعلهم عوناً له، وأعدهم ليكونوا عوناً لأبنائه من بعده في تثبيت عروشهم.

ومضى على نهج «بيبرس» في إخراج الصليبيين من بلاد الشام، واستعاد «اللاذقية» و «طرابلس» من أيديهم في سنة (688هـ)، وتابع التتار وطارد فلوطم وهزمهم وأبعد أذاهم نهائياً عن «مصر» و «الشام».

ويُعدُّ «قلاوون» من أبرز سلاطين الدولة المملوكية العظماء، كما يُعد أحد مؤسسي هذه الدولة، إذ أنفق أموالاً طائلة على الإصلاحات والإنشاءات، وأشرف على سير العمل فيها بنفسه في حزم وعزم

(75/5)

---

شديدين، ولعل أبرز الإنشاءات التي ترجع إلى عصره تلك القبة التي بناها، ودُفن تحتها، كما بنى «مدرسة» و «مارستاناً» -حملاً اسمه - عام (688هـ)، ومازال هذا المارستان قائماً حتى الآن ويُعرف باسم: مستشفى قلاوون»، وظل «قلاوون» يقوم بدوره الحربي والسياسي والاجتماعي والحضاري في البلاد على أكمل وجه حتى وفاته سنة

(689هـ).

السلطان الأشرف خليل بن قلاوون [689 - 693 هـ = 1290 - 1294 م]:

خلف الأمير «خليل» أباه على عرش السلطنة، فعاد في عهده نفوذ الأمراء، وتجددت الصراعات الداخلية، إلا أنه استطاع التغلب على هذه المصاعب كلها على الرغم من قصر مدة حكمه للبلاد، وبرهن على أنه حاكم كفء مهيب، شديد البأس، عارف بأحوال المملكة، لدرجة أن «ابن إياس» قال عنه في تأريخه: «كان الأشرف بطلاً لا يكمل عن الحروب ليلاً ونهاراً، ولا يُعرف من أبناء الملوك مَنْ كان يناظره في العزم والشجاعة والإقدام».

ويكفي «الأشرف خليل» مجداً يخلد اسمه بين أعظم قادة التاريخ الإسلامي أنه استطاع استعادة «عكا» من أيدي الصليبيين سنة (692هـ)، بعد أن استعصت على مَنْ كان قبله من السلاطين لخصانتها، كما تابع جهاده في تتبع جيوش الصليبيين بالشام، واستعاد «صور» و «حيفا» و «بيروت»، وظل يضيف انتصارات عظيمة إلى سجل هذه الدولة كان من شأنها أن يظل العالم الإسلامي قويا مترابطاً، ويقوم بدوره في البناء الحضارى.

السلطان الناصر محمد بن قلاوون [693 - 741 هـ = 1294 - 1341 م]:

بعد وفاة «الأشرف خليل» انتقل حكم السلطنة إلى «الناصر محمد ابن قلاوون» الابن الثاني للسلطان «قلاوون»، وكان قد نشأ في بيت الملك محاطاً بالأمراء والنواب والحراس، غير أنه لم يتمتع طويلاً بعطف ورعاية أبيه «قلاوون»، الذى مات ولما يبلغ «الناصر محمد» الخامسة من عمره، غير أنه لحسن حظه لم يجرم من عطف أخيه «الأشرف خليل» ورعايته، فاهتم بتربيته وأحسن معاملته، فنشأ «محمد» ولديه

من صفات أبيه وأخيه الكثير، فأصبح كأسلافه مهتماً بالمشروعات الحيوية، ومحبا للغزو والجهاد.

اعتلى «الناصر محمد» عرش «مصر» ثلاث مرات، استمرت الأولى عامًا واحدًا في الفترة: (من سنة 693 إلى سنة 694هـ)، ثم اغتصبها منه «زين الدين كتبغا» الذي لقب نفسه بالعدل، و «حسام الدين لأين» الذي تلقب بالمنصور، واستمرت فترة الاغتصاب هذه أربع سنوات عاشت البلاد خلالها عهدًا من الفتن والاضطرابات، وانتابتها مظاهر الضعف والانحلال، مما هبأ السبيل إلى عودة «الناصر محمد» إلى السلطنة ثانية ليتدارك تفاقم هذه الأوضاع.

السلطنة الثانية للناصر محمد [698 - 708هـ]:

لعل أبرز ما يميز الفترة الثانية لتولى «الناصر محمد» عرش السلطنة، الفتن والاضطرابات التي أحدثها وأشعلها أمراء المماليك سعيًا وراء الوصول إلى العرش، الأمر الذي اضطر «الناصر محمد» إلى الرحيل في عام (708هـ) إلى «قلعة الكرك» للاحتماء بها بعيدًا عن مؤامرات الأمراء ودسائسهم، فمكن ذلك «بيبرس الجاشنكير» -أحد القادة العسكريين- من السيطرة على مقاليد الأمور، على الرغم من رسائل أمراء المماليك التي بعثوا بها إلى «الناصر محمد» يرجونه فيها العودة إلى «مصر»، إلا أنه تمهل حتى يقف على حقيقة الأمور، فلما رأى حاجة البلاد إليه قرر العودة إلى «مصر» ثانية، وتمكن من طرد «الجاشنكير»، وبدأ مرحلة ثالثة على عرش البلاد، كانت من أهم فترات تاريخ «مصر» والشام.

السلطنة الثالثة للناصر محمد [709 - 741هـ]:

استمرت فترة حكم «الناصر محمد» الثالثة على «مصر» و «الشام» وما يتبعهما اثنين وثلاثين عامًا متصلة، انفرد فيها بحكم البلاد، وتمكن من القضاء على الفتن والدسائس، ونعمت البلاد في عهده بأطول فترة استقرار شهدتها في العهد المملوكي، وتعلق الشعب به وأحبه لما قدمه من أعمال جلييلة وعظيمة رفعت من شأنه.

تعد فترة حكم «الناصر محمد» الثالثة من أزهى عهود دولة المماليك

البحرية على الإطلاق، ففيها توطدت دعائم البلاد، واستقرت أساليب الحكم والإدارة فيها، وازدهرت الفنون والعلوم، وباتت «القاهرة» حاضرة لإمبراطورية شاسعة تشمل «مصر» والشام والجزيرة العربية، وكذلك بلاد «اليمن» التي بسط «الناصر محمد» نفوذه عليها، فخطب وده ملوك «أوربا» و «آسيا»، وأبرموا معه المعاهدات وصاهروه، وأرسلوا إليه بالهدايا الثمينة والتحف النادرة؛ أملا في رضاه. لم يقتصر نشاط «الناصر محمد» على الحروب والغزوات على الرغم من أنه نجح في طرد فلول الصليبيين، وصد ثلاث غزوات مغولية، بل اتجه إلى الأخذ بكل مقومات الحضارة في عصره، وصبغها - لتدينه الشديد - بصبغة دينية ظهرت واضحة على العمائر التي شيدها، والتي مازال بعضها قائماً - حتى الآن - شاهد صدق على بره وتقواه، وذوقه الراقى في الفنون والعمارة، ولعل أشهرها: «المدرسة الناصرية» التي شيدها بشارع «المعز لدين الله الفاطمي»، وكذا المسجد الذي بناه بالقلعة سنة (718هـ)، ثم هدمه وأعاد بناءه سنة (735هـ) لتوسعته وزخرفة جوانبه، كما شرع في سنة (703هـ) أثناء سلطنته الثانية في تجديد «المارستان» الكبير الذي أسسه والده السلطان «قلاوون» سنة (688هـ)، وكذلك بنى سييلا، وقبة، ومكتبة عظيمة، وأنشأ «خانقاه» في «سرياقوس» لإقامة فقراء الصوفية خاصة القادمين منهم من البلاد الشرقية.

وقد أرخ «ابن إياس» لحكم «الناصر محمد»، وعبر عنه بقوله: «ولا يُعلم لأحد من الملوك آثار مثله ولا مثل ممالكه، حتى قيل لقد تزايدت في أيامه الديار المصرية والبلاد الشامية من العمائر مقدار النصف من جوامع وخوانق وقناطر، وغير ذلك من العمائر».

ولاشك أن هذه المنشآت كانت تعتمد على اقتصاد قوى، ورؤية حضارية من «الناصر محمد»، الذي وضع أسس السياسة العامة لدولة

المماليك، وعُدَّ المنفذ الأكبر لها، فكان شديد البأس، شديد الرأي، يتولى أمور دولته بنفسه، مطلقاً على أحوال مملكته، محبوباً من

(78/5)

رعيته، مهيباً في أمراء دولته، فكان المثل الأعلى لرجل السياسة في دولة المماليك، كما كان «بيبرس» المثل الأعلى للقائد الحربي، وانطلقت بوفاته في سنة (741هـ)، ألسنة الشعراء والأدباء لتأبينه والثناء عليه، والإشادة بذكوره، وقد أطراه المؤرخ «أبو المحاسن بن تغرى بردى» بقوله: «إنه أطول الملوك في الحكم زماناً، وأعظمهم مهابة، وأحسنهم سياسة، وأكثرهم دهاء، وأجودهم تدبيراً، وأقواهم بطشاً وشجاعة، مرت به التجارب، وقاسى الخطوب، وباشر الحروب، وتقلب مع الدهر ألواناً، ونشأ في الملك والرياسة، وله في ذلك الفخر والسعادة، خليقاً بالملك والسلطنة؛ فهو سلطان ابن سلطان، ووالد ثمانية سلاطين؛ فهو أجل ملوك المماليك وأعظمهم بلا مدافع».

وكانت وفاة «الناصر محمد» في (20 من ذى الحجة سنة 741هـ).  
أولاد الناصر محمد وأحفاده [741 - 784 هـ = 1341 - 1382 م]:  
جلس على عرش «مصر» بعد «الناصر محمد» أولاده وأحفاده في الفترة من سنة (741هـ) إلى سنة (784هـ)، يتعاقبون عليه واحداً بعد الآخر حتى سقوط دولة المماليك البحرية عام (784هـ)، وفي مدة بلغت ثلاثاً وأربعين سنة علا عرش «مصر» من البيت الناصري ثمانية أولاد وأربعة أحفاد، بلغ متوسط حكم الواحد منهم ثلاث سنوات ونصف السنة، وتميز هذا العهد بصغر سن السلطان، وقصر مدة حكمه، لسهولة خلعه على أيدي الأمراء، ولظهور نفوذ الأتابكة ظهوراً واضحاً، وكذلك اشتداد تنافس الأمراء في بسط نفوذهم للسيطرة على الدولة، ولذا أصبح السلطان ألعوبة في أيدي أمرائه، يعزلونه أو

يقفونه على العرش حسب هواهم، وما تقتضيه مصالحهم؛ فاضطربت  
أحوال البلاد، وكثرت فيها الفتن.

بعد وفاة «الناصر محمد» تولى العرش ابنه «سيف الدين أبو بكر»  
(741 - 742هـ)، وسرعان ما ساءت العلاقات بينه وبين أتابكه،  
لامتناعه عن الاستجابة لمطالب هذا الأتابك، فحرض الأتابك عليه  
الأمراء وعزلوه. وتولى من بعده أخوه «علاء الدين كجك» (742هـ=

(79/5)

---

1341م)، وعمره إذ ذاك يتراوح بين خمس وسبع سنوات، وتم عزله  
بعد فترة وجيزة. ثم تولى أخوه «أحمد» عرش السلطنة ولقب نفسه  
بالناصر في سنة (742 - 743هـ)، إلا أنه لم يستمر طويلاً في الحكم  
كسابقه، ووقع الاختيار على أخيه «إسماعيل» سنة (743هـ)،  
ولكنه مالبث أن مرض ومات سنة (746هـ)، فتولى ابنه «شعبان» من  
بعده سنة (746 - 747هـ)، ولم يكن عهده خيراً من سلفه، فخلفه أخوه  
«حاجي» سنة (747هـ)، ولم يستكمل عامًا واحدًا حتى اعتلى العرش  
«الناصر حسن» سنة (748هـ)، وهو لا يزال في الحادية عشرة من  
عمره، ولم يلبث أن عُزل، ثم عاد وتولى السلطنة ثانية في سنة  
(755هـ)، وظل على العرش ست سنوات ونصف السنة، فعاد في  
عهده الاهتمام بالعمائر الإسلامية، وبنى مسجده الشهير المعروف  
باسمه «مسجد السلطان حسن» بالقاهرة، ومع ذلك فقد ظلت حالة  
عدم الاستقرار في البلاد سائدة، فكانت فرصة سانحة لظهور دولة  
المماليك الثانية المعروفة «بدولة المماليك البرجية».

(80/5)

---

## الفصل الثامن

### \*دولة المماليك البرجية

[784 - 923 هـ = 1341 - 1517 م]

كان «حاجي بن شعبان» آخر سلاطين المماليك من بيت الناصر، وآخر سلاطين دولة المماليك البحرية في الوقت نفسه، وكان «حاجي» صغير السن حين اعتلى عرش السلطنة؛ إذ كانت سنُّه عشر سنوات، فعين «برقوق» أتابكًا له، واستغلَّ حداثة سنِّه وضعفه، واستدعى الخليفة، والقضاة الأربعة والأمراء، وخاطبهم «القاضي بدر الدين بن فضل» بقوله: «يا أمير المؤمنين، وياسادتي القضاة: إن أحوال المملكة قد فسدت، والوقت قد ضاق، ونحن محتاجون إلى إقامة سلطان كبير تجتمع فيه الكلمة، ويسكن الاضطراب»، فاستقر الرأي على خلع الملك الصالح «حاجي»، وأن يتولى «برقوق» مسئولية البلاد، فاعتلى عرش السلطنة رسمياً، وانتهت بذلك دولة المماليك البحرية بعد أن حكمت مائة وستا وثلاثين سنة.

عُرفت الدولة الجديدة باسم: «دولة المماليك البرجية»، لأن سلاطينها كانوا ينتمون إلى لواء من الجند كان مقيماً في أبراج القلعة وأطلق على جنوده اسم «المماليك البرجية» لتمييزهم عن «المماليك البحرية» الذين كانت إقامتهم بجزيرة الروضة، وقد عُرف «البرجية» كذلك باسم: «المماليك الجراكسة» أو الشراكسة، نسبة إلى موطنهم الأصلي الذي أتوا منه وهو: «ورنيا» و «بلاد الشركس» (القوقاز)، وفيما يلي سوف نعرض لأهم الملامح الشخصية لسلاطين هذه الدولة، وظروف عصرهم.

السلطان برقوق [784 - 801 هـ = 1382 - 1399 م]:

يُعدُّ «برقوق» المؤسس الأول لدولة «المماليك البرجية»، فعلى يديه تم عزل آخر سلاطين دولة المماليك البحرية السلطان «الصالح حاجي»، فسقطت دولة البحرية، وقامت دولة البرجية، فكثرت الصراعات الداخلية طمعاً في السلطنة، وسادت الفوضى، وعمَّت الفتن، وتميز

عهد «برقوق» بالمعارضة الشديدة له، فاهتم بالقضاء على هذه  
الفتن، وإعادة الهدوء والاستقرار إلى أرجاء ملكه، ثم عمل على  
إصلاح أحوال البلاد الداخلية، وظل على ذلك حتى استقرت له الأمور

(81/5)

في أواخر عهده، ومات في سنة (801هـ)، بعد أن عهد إلى ابنه  
«فرج» بالسلطنة من بعده.

السلطان فرج بن برقوق [801 - 815 هـ = 1399 - 1412 م]:

تولى «فرج» العرش بعد أبيه وله من العمر ثلاث عشرة سنة، فكثرت  
في عهده الاضطرابات والفتن، وخرج عليه الأمراء، خاصة أمراء  
«سوريا» الذين عارضوا حكمه، فحاول «فرج» أن يسيطر على  
الموقف وظل يكافح كفاحًا مضمينًا طويلًا من أجل تحقيق ذلك، وتمكن  
من القضاء على فتنة الأمراء في «سوريا»، ومع ذلك تهدد عرشه  
بالسقوط أكثر من مرة، إلا أنه ظل يقاوم حتى قُتل في سنة (815هـ).

السلطان «شيخ المؤيد» [815 - 824 هـ = 1412 - 1421 م]:

بعد القضاء على السلطان «فرج ابن برقوق» جلس الخليفة  
«المستعين» على عرش «مصر» بهدف إعادة الاستقرار إليها وإلى  
العالم الإسلامي، إلا أنه لم يلبث على ذلك طويلًا، وتولى السلطان  
«شيخ المؤيد» أمور السلطنة، واستطاع أن يقضى على الثورات،  
وأعاد إلى البلاد وحدتها واستقرارها، فأتاح له ذلك أن يحكم البلاد  
حكمًا هادئًا في جو مستقر، وقام ببعض الإصلاحات الداخلية، وبنى  
جامعه المعروف باسمه بجوار باب زويلة مكان سجن قديم.  
مات «شيخ المؤيد» بعد مرض لم يمهله طويلًا، فترك العرش لابنه  
«أحمد».

السلطان ططر [824هـ]:

كان «أحمد» الذي خلف والده «شيخ المؤيد» طفلًا رضيعًا عمره سنة

ونصف. فتولى الوصاية عليه الأمير «طونبغا»، فنافسه عليها الأمير «ططر»، وتمكن من عزله وعزل «أحمد»، وتولى هو عرش السلطنة، ولكنه لم يمكث طويلاً، فقد توفي بعد شهرين من سلطنته، فتولى من بعده ابنه «محمد بن ططر» الذى كان صغيراً، ولم يستمر فى الحكم أكثر من سنة واحدة، ثم تولى السلطان «برسباى» السلطنة.

السلطان برسباى [825 - 841 هـ]:

امتاز عهد «برسباى» بالهدوء والاستقرار، فقد نجح فى القضاء على قراصنة البحار الذين هددوا التجارة، واستولى من القراصنة على غنائم كثيرة، لدرجة أن ملك «قبرص» قبّل الأرض بين يديه

(82/5)

عرفاناً له بما صنع، وكذلك هدأت الأوضاع فى «سوريا»، وبسط «برسباى» سلطته على «مكة» و «جدة» واحتكر لبلاده طرق التجارة، وعزز اقتصادها، فانتعشت «مصر» اقتصادياً وحضارياً.

توفي «برسباى» سنة (841هـ) وترك العرش لابنه «يوسف» وكان لايزال طفلاً صغيراً، فلم يحكم سوى ثلاثة أشهر، وخلفه «جمقمق» على عرش السلطنة.

السلطان جمقمق [841 - 857 هـ]:

واجه «جمقمق» صعاباً عديدة فى بداية عهده؛ إذ واجهته الثورات، واشتعلت فى بلاده الفتن، وزادت القلاقل، وكان رجلاً يمتاز بالقوة والمثابرة، فتمكن من السيطرة على الموقف وقضى على الصعوبات التى واجهته، واتجه إلى الإصلاح الداخلى وإعادة الهدوء إلى البلاد، ثم عمل على توطيد علاقاته مع الإيرانيين وأمراء «آسيا الصغرى»، وتزوج من ابنة «دجاديير» حاكم مدينة «أبلستين»، فمضى فى حكمه بعد ذلك فى هدوء، ثم مات سنة (857 هـ)، وتولى من بعده ابنه السلطان «عثمان بن جمقمق» الذى أساء إلى الرعية، فتم عزله،

وتولى عرش «مصر» من بعده السلطان «إينال».

السلطان إينال [857 - 865 هـ = 1453 - 1461م]:

تولى قائد الأسطول الإسلامي «سيف الدين إينال» السلطنة، وسار في الناس سيرة حسنة أرضت عنه المماليك الذين أغدق عليهم بالهبات والأموال والعطايا، وتمكن من القضاء على الفتن التي واجهته، ولم تتعرض البلاد في عهده لأي غزو خارجي، نظرًا إلى العلاقات الحسنة التي أقامها مع زعماء الدول الخارجية، واستطاع أن يستولى على «كرمان»، فتميز عهده بالهدوء، وظل على ذلك حتى وفاته سنة (865هـ)، فخلفه ابنه «أحمد بن إينال» على العرش، إلا أنه سرعان ما تنازل عنه، وابتعد عن الدسائس والمؤامرات والفتن التي كان يدبرها أمراء المماليك، فأخذ السلطان «خشقدم» مكانه وتولى عرش السلطنة.

السلطان خشقدم [865 - 872هـ]:

كان عهد «خشقدم» أكثر العهود اضطرابًا، فوجد نفسه أمام عدة قوى مناهضة كان عليه أن يواجهها، فعمل على تفتيتها والقضاء

(83/5)

عليها بالسلم أو بالحرب أو بالحيلة، حتى استطاع القضاء على معظمها، ومات ولا يزال بعضها منقسمًا على نفسه نتيجة محاولات التشتيت التي قام بها حياهم.

السلطان قايتباي [872 - 901 هـ = 1467 - 1496م]:

لم يتولَّ «قايتباي» السلطة مباشرة بعد «خشقدم»، وإنما سبقه على العرش «بلباي» و «تيمورينا» اللذان حكما شهرًا واحدًا لكل منهما، فقد كان ذلك العهد مليئًا بالاضطرابات والفتن، وظل على ذلك حتى تولى «قايتباي» مقاليد الأمور، وكان رجلاً شجاعًا جريئًا ذا مروءة عالية، تجلت حين علم باضطهاد المسلمين في «إسبانيا»، فأرسل

إلى ملكها يتهدده ويتوعده إذا لم يقلع عن الإساءة إلى المسلمين في بلاده.

واجه «قايتباى» عدة صعاب استطاع التغلب على أكثرها، وتفرغ للإصلاحات الداخلية، والمنشآت الحضرية التي خلدت اسمه، ولعل أبرزها قلعته الحصينة الشهيرة بالإسكندرية. مصر بعد قايتباى [901 - 906هـ]:

شهدت هذه السنوات القليلة التي تلت حكم «قايتباى» عددًا من السلاطين تميز جميعهم بالضعف وسوء الإدارة، كما تميزت فترات حكمهم بالدسائس والمؤامرات والفتن والاضطرابات، فقد تولى «السلطان الناصر محمد بن قلاوون» الحكم عقب وفاة أبيه، وكان صغير السن، فتولى القائد «قانسوه الخمسمائة» الوصاية عليه في بداية عهده، ولكن «الناصر محمد» ترك العرش وتنازل عن السلطنة حين رأى الدسائس والفتن والاضطرابات من حوله، فتولى من بعده عدد من السلاطين، كانت مدة حكم كل منهم قصيرة، فساعد ذلك على زيادة الاضطرابات واشتعالها، وظل الوضع على ذلك حتى تمكن «قانسوه الغورى» من الوصول إلى العرش، وهؤلاء السلاطين هم: «قانسوه الأشرفى»، و «جنبلاط»، و «طومان باى الأول».

السلطان قانسوه الغورى [906 - 922هـ=1501 - 1516م]: بدأ السلطان «الغورى» عهده بتشتيت شمل مثبرى الفتن والقتال، وقاوم بصلافة وحزم الثورات التي قامت، وأعد أسطولاً لحماية التجارة من غارات البرتغاليين، فقد دأب البرتغاليون بقيادة

(84/5)

---

«فاسكودى جاما» على إثارة القلاقل في الدول الإسلامية المتاخمة لطريقهم إلى المشرق محاولين بذلك السيطرة على طرق التجارة بين الشرق والغرب، إلا أن سلاطين المماليك وقفوا لهم بالمرصاد،

واستطاعوا ردهم على أعقابهم أكثر من مرة، على الرغم مما كان يعاينه هؤلاء السلاطين من الفتن والاضطرابات داخل البلاد. حاول «الغورى» إعادة السيطرة البحرية إلى بلاده ودعم موقفه، وبعث إلى البابا يهدده إذا لم يكف البرتغاليون عن غاراتهم، إلا أن الضعف العام الذى حل بالدولة نتيجة الاضطرابات وزيادة نفقات المماليك أدى إلى سيطرة البرتغاليين على طرق التجارة، وعمل «الغورى» على رد غارات البرتغاليين، وأخذ يستعد لذلك، إلا أن الدولة العثمانية أرسلت قوة حربية للسيطرة على بلاد الشام، ثم أمدت هذه القوة بالجنود والمعدات وحولتها إلى جيش كبير حارب المماليك فى منطقة «مرج دابق» بالشام، فتمكن العثمانيون من هزيمة المماليك، وقتلوا السلطان «الغورى» الذى كان يقود الجيش بنفسه فى سنة (922هـ).

السلطان طومان باى الثانى [922 - 923 هـ = 1516 - 1517م]:

بعد مقتل «الغورى» بالشام استقر رأى على تعيين «طومان باى» ابن أخيه سلطاناً على «مصر»، وجلس «طومان باى» على العرش فى فترة كانت شديدة الحرج فى تاريخ «مصر»؛ إذ سيطر العثمانيون على الشام، وساءت الأحوال بمصر بعد هزيمة «مرج دابق»، ولم يكتفِ العثمانيون بما حققوا، بل يمموا شطر «مصر» فى محاولة منهم للسيطرة عليها.

حاول «طومان باى» السيطرة على الموقف، وقام بعدة أعمال فى سبيل تحقيق ذلك، وفض الخصومة التى كانت قائمة بين المماليك وصالح بينهم، وساعده فى ذلك حب الشعب له لإخلاصه ووفائه وتفانيه فى خدمة المسلمين.

باءت كل محاولات «طومان باى» بالفشل فى إعادة المماليك إلى قوتهم الأولى التى كانوا عليها فى عصور النهضة، فقد أنهكتهم الاضطرابات، وقضت على وحدتهم الفتن، فانتهى الأمر بهزيمتهم على

---

أيدى العثمانيين في موقعة «الريدانية» الشهيرة في ظاهر  
«القاهرة»، ودخل العثمانيون «مصر»، وحاول المصريون مساندة  
«طومان باى» في هذه الظروف لحبهم الشديد له، إلا أنهم لم  
يستطيعوا إيقاف زحف العثمانيين على «مصر»، فخرج «طومان باى»  
إلى «مديرية البحيرة» في محاولة منه لاستجماع قوته وجنوده،  
ولكن العثمانيين تمكنوا منه وقبضوا عليه، ثم شنقوه على «باب  
زويلة» سنة (923هـ)، بعدما بذل كل جهوده وأدى واجبه في سبيل  
الدفاع عن دولته، إلا أن ظروف عصره لم تمكنه من تحقيق ما أراد،  
فسقطت بذلك دولة المماليك ونظامهم، ودخلت «مصر» مرحلة جديدة  
باتت فيها تحت حكم العثمانيين.

#### المماليك حماة الإسلام:

إن المتتبع لأحداث العالم الإسلامى عبر صفحات التاريخ، سوف يجد  
أمرًا فريدًا تميزت به بلاد المسلمين عن غيرها من بلاد العالم، وكان  
الدين الإسلامى هو العامل الرئيسى والوحيد وراء هذا التميز والتفرد،  
ف نجد فى تاريخ المسلمين عبر فتراته المختلفة أن الدين الإسلامى هو  
سر القوة الكامن فيهم وفى وحدتهم، ويجد المتتبع أن دولة الإسلام  
إذا حل بها ضعف فى مكان ما منها؛ فسرعان ما تقوم قوة إسلامية  
فى مكان آخر لتعوض هذا الضعف، وترفع راية الجهاد، لكى تستكمل  
مسيرة البناء والحضارة، فنجد أن الخلافة حين ضعفت فى «بغداد»  
ظهرت قوة الأيوبيين والمماليك فى «مصر»، فلما حل الضعف  
بالمماليك، قامت قوة العثمانيين، وهكذا فى تتابع عجيب؛ ليؤدى  
كلُّ دوره الحضارى والتاريخى فى هذا البناء العظيم الذى أقامه  
المسلمون فى كل مكان حل به الإسلام.

ولأن المماليك إحدى هذه القوى التى قامت باستكمال ما عجزت عنه  
بعض القوى الأخرى نتيجة قصور فى شىء أو ضعف ما، فقد قاموا  
بخدمات جليلة لرفع شأن الإسلام، وتعظيم هيبة المسلمين، وجاهدوا

في سبيل تحقيق ذلك بأموالهم وأوقاتهم وأرواحهم، وخاضوا غمار المعارك للذود عن الإسلام والمسلمين، وفيما يلي سوف نعرض لأهم المعارك التي خاضوها.

(86/5)

عين جالوت [658هـ]:

لم تكد الأمور تهدأ في «مصر» في بداية عهد المماليك حتى سقطت الخلافة في «بغداد» على أيدي التتار الذين اجتاحتوا بلاد المسلمين وسيطروا عليها، ولم يعد أمامهم سوى «مصر»، فسعوا إلى الإيقاع بها ليكون العالم الإسلامي كافة في قبضتهم. فبعد سقوط «بغداد» زحف التتار بقيادة «هولاكو» تجاه «سوريا» واحتلوا «حلب»، وقتلوا خمسين ألفاً من سكانها، ثم احتلوا «حمّة» و «دمشق» وعقدوا معاهدة مع «أنطاكية» (على حدود الروم) للتحالف ضد المسلمين، ولم يكتفِ «هولاكو» بذلك، بل أرسل إلى ملك «مصر» يطلب منه التسليم، ويهدده بالقضاء على جيوش المسلمين كلها إن لم يُسرّع بذلك، فقد رأى «هولاكو» أثر تهديداته بهذه الصورة على مقر الخلافة في «بغداد»، وظن أن يجد الصدى نفسه لدى حكام «مصر»، ويدخل «مصر» بسهولة ودون مقاومة مثلما دخل «بغداد»، إلا أن «سيف الدين قطز» أجبره على أن يفيق من أحلامه بصاعقة لم تكن متوقعة، فقد مزق رسالته وقتل رسله وعلق رؤوسهم على مداخل «القاهرة»، وتوعده بالموت والهلاك إن لم يرحل عن هذه البلاد التي قتل من مسلميها ما لا يُحصى عدده، وجعل الدماء أنهاراً في «بغداد» والشام. خرج «المظفر قطز» في أواخر شهر شعبان سنة (658هـ) لملاقاة التتار الذين وصلت طلائعهم إلى غزة بقيادة «كتبغا»، ودارت رحى المعركة بين الطرفين في «عين جالوت» بفلسطين في رمضان من سنة (658هـ)، وأظهر فرسان المماليك، والجند المصريون شجاعة

بالغة بقيادة السلطان «المظفر قطز» وبجواره «بيبرس» أعظم فرسان المماليك البحرية. وتجدر الإشارة إلى الارتباك الشديد الذي حدث بين صفوف المسلمين في بداية المعركة، فلما رأى «قطز» ذلك عمل على رفع معنويات جنده وشد عزيمتهم، وألقى خوذته عن رأسه إلى الأرض، وصاح بأعلى صوته: وإسلاماه .. وإسلاماه؛ فاستجاب له الجند، ودوت الصيحة في ميدان المعركة، ورفع المسلمون أصواتهم

(87/5)

بالتكبير .. الله أكبر .. الله أكبر، وعمدوا إلى قتال عدوهم، وجاهدوا بإخلاص وثقة في سبيل الله للحفاظ على الدين والأرض والمال والولد، فكتب الله لهم النصر المؤزر على جحافل التتار، وقضوا عليهم قضاء مبرماً.

ويعد الانتصار العظيم الذي حققه المسلمون على التتار في «عين جالوت» من أعظم الانتصارات في التاريخ الإسلامي على الإطلاق، فلم يكن مجرد انتصار عسكري فحسب، بل كان انتصاراً للحضارة، وإنقاذاً للمدنية الإنسانية كلها من أمة همجية، لم تكتف بالقتل والذبح والتشريد؛ بل عملت على الهدم والتخريب والدمار، فقتلت المسلمين بوحشية، وهدمت مكتبات «بغداد»، وألقت بأعظم المؤلفات العلمية والحضارية في نهرى «دجلة» و «الفرات»، ولولا رحمة الله -تعالى- بهذه الأمة بأن قيض لها قادة عظماء، ورجالاً يخشون الله تعالى، وفرساناً يعملون على إعلاء كلمة «لا إله إلا الله»، والحفاظ على وحدة الأمة؛ لتغيرت أحداث التاريخ، واختلفت مجريات الأمور، وتباينت صور الحضارة في هذه البلاد. ولكن الله - تعالى - أراد السلامة لهذه الأمة من خطر التتار وهمجيتهم، فردهم على أعقابهم مدحورين خاسرين.

علاقة المماليك بالصليبيين:

تمتعت «مصر» في عهد المماليك بمركز ممتاز بين دول العالم شرقاً وغرباً؛ فهي التي هزمت الصليبيين في معركة «حطين»، وهزمت المغول في «عين جالوت» وأخضعت «أرمينية» لسلطانها، وبسطت نفوذها على بلاد «اليمن» و «الحجاز»، ووسعت أملاكها في «إفريقية»، وأصبحت - بحق - مقر الحكومة الإسلامية، خاصة بعد انتقال الخلافة الإسلامية من «بغداد» إليها.

لم تستقر الأوضاع تمامًا في عهد سلاطين المماليك، ومع ذلك لم يكونوا أقل حماسة في طرد الصليبيين من أسلافهم الأيوبيين، إذ لم تكن الحملة الصليبية السابعة - التي فشلت وأسر قائدها بالمنصورة في العهد الأيوبي - آخر جولات الصليبيين مع «مصر»، فقد رأى «الظاهر بيبرس» - حين استتب الأمر للمماليك وقويت شوكتهم - متابعة

(88/5)

سياسة «صلاح الدين الأيوبي» وخلفائه في مطاردة الصليبيين وإجلائهم عن الشرق الأدنى، ولم يكن ذلك بالأمر الهين؛ إذ كان يتعين عليه مواجهة الكيانات الصليبية في «أنطاكية» و «طرابلس»، وفي الجزء الباقي من مملكة «بيت المقدس» ليقضى على إماراتهم فيها، ولكي يصل إلى تحقيق ذلك رأى القضاء على كل إمارة منها على حدة، فسارعت بعض المدن بعقد الصلح معه، وبدأ جهاده بحصار «قيسارية»، ثم استولى عليها، فرفع هذا النصر من معنويات جنوده، فتابع انتصاراته واستولى على «صفد»، و «شقيف»، و «يافا»، ثم على «أنطاكية» التي تحالفت مع التتار ضد المسلمين، فكان لسقوطها دوى هائل في الإمارات الصليبية التي أسرع بعقد الصلح مع «الظاهر بيبرس»، ذلك الرجل الذي وهب حياته للجهاد في سبيل الله.

وبعد أن هدأ القتال مع الصليبيين اتجه «بيبرس» إلى مواجهة المغول

وانتصر عليهم في معركة «عين جالوت»، ثم تعقبهم حتى أجلاهم عن بلاد الشام.

لقد كانت حياة «الظاهر بيبرس» وجهاده محاولة منه لإعادة مسيرة الناصر «صلاح الدين» والمظفر «قطز» معًا، ولم ييخل في سبيل تحقيق استقرار أمن المسلمين ودولتهم بكل ما يملك من وقت وجهد ومال، فأصبح عصره من أزهى عصور المسلمين في التاريخ، وأعاد إلى البلاد هيبتها وأمنها واستقرارها بعد ما مر بها من فترات عصيبة سبقتها، وكذلك أعاد إلى الخلافة الإسلامية مكانتها ونقلها إلى «القاهرة»، وأسس جيشًا قويا، وأسطولا عظيمًا، ويكفيه فخراً أن «مصر» حققت انتصاراتها العظيمة على الصليبيين والمغول في عهده وتحت قيادته.

جهاد قلاوون وأسرته ضد الصليبيين:

استأنف السلطان «قلاوون» الجهاد ضد الصليبيين في سنة (685هـ)، وبدأ بمناوشتهم، وحاصر «اللاذقية» التي كانت تحت سيطرتهم، ثم استولى عليها وعلى «طرابلس الشام» من بعدها، ولم يبق في أيدي الصليبيين في الشرق الأدنى سوى «بيروت» و «صور»، و «عكا» التي كانت من أمنع الحصون الصليبية، فرغب في

(89/5)

السيطرة عليها تاراً لبعض التجار المسلمين الذين قتلهم الصليبيون، وزحف بجيشه وحاصرها إلا أنه مات قبل أن يتمكن من دخولها، وبقيت «عكا» في أيدي الصليبيين حتى تولى «الأشرف خليل بن قلاوون» مهام السلطنة، وتمكن من فتح «عكا» ودخولها في سنة (692هـ) بعد حصار ظل أربعة وأربعين يوماً، فعادت «عكا» إلى أيدي المسلمين بعد أن بقيت مائة عام كاملة تحت سيطرة الصليبيين، ثم توجه الأشرف بجيشه تجاه «صور»، و «حيفا» وتمكن منهما بعد

جهاد عنيف أشاد به الشعراء ونظموا له القصائد، وهكذا تمكن «الأشرف خليل» من تحقيق هدفه وأمل أبيه من قبله، وقضى على بقايا الجيوش الصليبية في الشام، وبذلك قضى على دولتهم فيها، فاتخذوا من جزيرة «أرواد» مستقرا لهم، وأخذوا يغيرون منه على سكان المدن الإسلامية في الشام، وقطعوا الطريق على المارة، فاستغاث نائب السلطان على الشام بالسلطان «الناصر محمد بن قلاوون» الذي آلت إليه السلطنة.

جهاد الناصر محمد:

حين بلغت «الناصر محمد» استغاثة نائبه على الشام، جهز أسطوله البحري وانضم به إلى جيش «طرابلس الشام» في عام (702هـ)، وحاصر «جزيرة أرواد» بالجيش والأسطول معاً، وانتهى الأمر بهزيمة ساحقة للصليبيين، وعودة هذه الجزيرة - ذات الموقع الاستراتيجي المهم، والتي افتتحها المسلمون الأوائل سنة (54هـ) - إلى ظل الحكم الإسلامي مرة ثانية، فانتهت دولة الصليبيين في الشرق الأدنى والأراضي المقدسة.

لم يتوقف «الناصر محمد» عند هذا الحد من الجهاد، بل تقابل في سنة (702هـ) مع المغول بقيادة زعيمهم «غازان» في «مرج الصقر» على مقربة من «حمص»، فقد حاول المغول الثأر لهزيمتهم في «عين جالوت»، فواجههم «الناصر محمد» بما تميز به من شدة وبأس وقوة عزيمة، وهزمهم هزيمة ساحقة مات على إثرها «غازان» زعيم المغول حزناً، وقوبل «الناصر محمد» بأعظم مظاهر الترحيب حين عودته من الشام إلى «مصر»، وأقيمت له أقواس النصر، وخرج الشعب كله

(90/5)

لاستقباله وتمنته والترحيب به.

لم يركن «الناصر محمد» إلى الراحة طيلة فترة حكمه للسلطنة، وعمد

إلى الحفاظ على وحدة بلاد المسلمين، ورفع شأنهم، وخرج إلى «أرمينية» على رأس جيوشه حين نقضت العهد الذي كان بينها وبين المسلمين، وصمم على غزوها والسيطرة عليها تأديباً لحكامها على نقضهم العهد، واجتاحت الجيوش الإسلامية بقيادته بلاد «أرمينية»، وتمكنت منها ودخلتها سنة (726هـ)، فعادت تبعيتها إلى الدولة الإسلامية، وقامت بدفع نفقات جيش المسلمين.

لقد كتبت دولة المماليك بجهادها صفحة مجيدة من صفحات الجهاد في التاريخ الإسلامي، وقامت بدورها كاملاً في حماية أراضي البلاد ومقدساتها من طمع أعدائها، سواء أكانوا من الصليبيين أم المغول، وحافظت على استقرار الأمن ورفع شأن المسلمين، ولم يكن الجهاد حكرًا في هذه الحقبة من التاريخ على دولة «المماليك البحرية» وحدها، بل كان لدولة «المماليك البرجية» دورهم البارز في هذا الشأن؛ إذ اشتبكت الجيوش الإسلامية في عهد السلطان «برسباي» مع الصليبيين في «قبرص»، وتمكن المسلمون من هزيمتهم في موقعة «شيروكيتوم»، وأسروا ملك «قبرص» وجاءوا به إلى «القاهرة»، وظلت «قبرص» تحت سيطرة المماليك حتى دخل العثمانيون «مصر» سنة (923هـ).

(91/5)

## الفصل التاسع

\*النظم والحضارة في عهد المماليك

النظام الحربي والبحري:

لاشك أن الانتصارات الرائعة التي أحرزها المماليك تعود إلى إعداد جيد للجيش وتنظيم دقيق له وللقائمين عليه، ولعل الفضل في ذلك يعود إلى «الظاهر بيبرس» الذي أولى الجيش عنايته منذ ولى عرش

«مصر»، فقد قام بنفسه بإعداده وتنظيمه وتسليحه، ليكون سنده في الحروب ووقت الشدة، فاستكثر من شراء المماليك وعنى بتربيتهم تربية دينية وعسكرية، وعين لكل فئة منهم فقيهاً يعلمهم القرآن، ومبادئ القراءة والكتابة، حتى إذا وصلوا إلى سن البلوغ أوكلهم إلى من يدرهم ويمرّهم على الأعمال الحربية، فإذا أمّوا ذلك وأجادوه ألحقوا بجيش السلطان لتبدأ حياتهم الجهادية في سبيل الله.

فلما ولي السلطان «قلاوون» مقاليد الأمور في سنة (679هـ)، زادت عنايته بشئون تدريب الجند المماليك، وأشرف على طعامهم بنفسه وكان يتذوقه قبل تقديمه إليهم، وكان لا يسمح لهم بمغادرة «قلعة الجبل» ليلاً أو نهاراً، وظلوا على ذلك حتى ولي السلطان «خليل بن قلاوون» في سنة (689هـ)، فسمح لهم بالخروج نهاراً فقط، ومنعهم من المبيت خارجها، ثم بنى لهم «الناصر محمد بن قلاوون» - فيما بعد - «الطباقي» بساحة الإيوان بالقلعة وجعلها مقراً لهم.

تكوين الجيش:

كان جيش المماليك يتكون -عادة- من المماليك السلطانية وجنود الحلقة، وكانت لكل فريق من هاتين الطائفتين مرتبة لا يتجاوزها إلى غيرها، فالمماليك السلطانية هم مماليك السلطان، وتنفق عليهم الخاصة السلطانية، لأنهم حرس السلطان الخاص، وكان لهم نظام دقيق في التدرج القيادي رتبة بعد رتبة، فمنهم من أطلق عليه أمير خمسة، وأمير عشرة، وأمير أربعين، وكذلك أمير مائتين، وكانت لكل صاحب لقب من هذه الألقاب واجبات والتزامات معينة، فأمر خمسة يكون في خدمته خمسة مماليك، وأمير عشرة تكون عدته عشرة مماليك، أما «أمير الأربعين» فكان يطلق عليه «أمير طبلخانة» لحقه

في دق الطبول على قصره كما يحدث للسلطان، ولم يكن لطبقة  
الأمرء هذه ضابط في عدد أتباعها من المماليك، فقد يتفاوت عدد مَنْ  
يكون في خدمة كل أمير منهم ما بين أربعين وثمانين مملوكًا، أما  
«أمير مائة» فكان في خدمته «مائة» مملوك، ومقدم في الوقت نفسه  
على ألف جندي في الحروب، فيقال: «أمير مائة مقدم ألف».  
أما جنود الحلقة فكان لكل أربعين جنديا منهم رئيس لا حكم له عليهم  
إلا إذا خرجوا إلى القتال، فيقوم بترتيبهم في أماكنهم، وليس له  
الحق في أن يُبعد أحدهم من الخدمة إلا بإذن من السلطان.  
كانت هناك طائفة أخرى من المماليك تضاف إلى الطائفتين  
السابقتين، وهي طائفة ممالك الأمرء التي كان ينفق عليها  
أمرؤها، فقد كان ممالك هذه الفئة يحرسون أمرءهم ويساعدونهم  
على أعدائهم.

ولم تكن مرتبات الجنود ثابتة، وقد استبدل نظام المرتبات بإقطاعات  
كان السلطان يمنحها لهم ليتمتعوا بغلاتها وإيراداتها، فبات أمرؤها  
- خاصة أمرء المماليك السلطانية - ذوي ثروة كبيرة ونفوذ عظيم،  
ذلك إذا وضعنا في الاعتبار أن السلطان كان يمنحهم جزءًا من  
الغنائم، ورواتب أخرى من اللحم والتوابل والعليق والزيت.  
أساليب المماليك في القتال:

كانت شجاعة المماليك وفروسيتهم التي عُرفوا بها، وولاؤهم للأمير  
الذي يجلبهم، من أهم الأسباب لاستقدامهم من بلادهم، وكانت لهم  
خطوات دقيقة قبل الدخول في أية معركة، وأهمها: عقد «مجلس  
الجيش» برياسة السلطان، وعضوية أتاك العساكر، والخليفة،  
وقضاة المذاهب الأربعة، وأمرء المائتين الذين بلغ عددهم أربعة  
وعشرين أميرًا؛ وكان الغرض من عقد هذا المجلس هو الاستئثار بآراء  
كبار رجال الدولة قبل الإقدام على الحرب، وجعل إعلان الحرب أمرًا  
مشروعًا، فإذا ما وافق المجلس على خوض الحرب؛ يأمر السلطان  
باستدعاء الجنود من مختلف جهات «مصر»، فيحلفون يمين الطاعة  
والولاء في حضرته، ويتسلمون ما يلزمهم من عتاد الحرب من خزانة

السلاح التي كان يُطلق عليها اسم «السلاح خانة»، ثم يستعرضهم السلطان بنفسه وهو بلباس الحرب، وهو ما يعرف باسم «النفير»، فإذا ما استعرض السلطان الجند وتفقد أحوالهم وسلاحهم، اختار من كبار قواده قائداً يسير على رأس الحملة الحربية، وقد جرت العادة أن يتخذ القائد مركزه في القلب؛ حتى يراه جميع جنوده، وينفذوا أوامره، أو يتخذ مركزه في المقدمة ليثير الحماسة في نفوسهم، ويلقى الرعب في قلوب أعدائه.

كان المماليك يأخذون في حروبهم بطريقة قتال الصفوف التي يقف فيها الجندي بجانب زميله حتى يكاد يلتصق به كما يحدث في صفوف الصلاة، ويسير الجنود على هذا النحو حتى يصلوا إلى حيث استقر العدو فينازلوه ويناجزوه، وكان الخليفة - أحياناً - يصحب الجيوش في حملاتهم ليحث الجنود على الجهاد، ويبث الروح الدينية في نفوسهم.

اعتمد المماليك على الخيل في حروبهم، لذا عنوا بها عناية فائقة، حتى صارت الفروسية في عهدهم فناً عظيم الشأن، أفردوا لدراسته الكتب والرسائل العديدة التي مازالت موزعة بين خزائن المخطوطات في العالم حتى الآن، وكذلك تعددت أسلحتهم الحربية، فكان منها: «السيف»، و «الخنجر»، و «الطبر»، و «البلطة»، و «الفأس»، و «القوس»، و «السهم»، و «المقلاع»، و «المنجنيق»، و «الدبابات ذات الخيول»، و «الصبور»، و «القلاع المتحركة»، و «النار اليونانية»، وجعلوا لهذه الأسلحة على اختلاف أنواعها داراً تحفظ وتخزن فيها أطلقوا عليها اسم: «الزرد خانة»، أو «السلاح خانة»، أي بيت السلاح، وجعلوا رئاسة هذه الدار لأحد أمراء المائتين، وأطلقوا عليه لقب: «أمير السلاح»، وجعلوا جماعة من الموظفين عُرفوا باسم «السلاح دارية» لمعاونة الأمير في مهام عمله، وكذلك كان يعمل

بالدار جماعة من الصناع عُرفوا باسم: «الزرد كاش»، ومعناها: صانع الزرد، لصناعة وصيانة الأسلحة، واختص كل منهم بنوع معين من أنواع السلاح. لقد ظل المماليك محافظين على صنعتهم الحربية حتى بعد أن ضعف

(94/5)

شأنهم باستيلاء العثمانيين على «مصر» سنة (1517م)، لأن هذه النظم هي التي جعلت لهم السبق في الاهتمام بالجانب الحربي، وأهلتهم لخوض المعارك الطاحنة، ومكنتهم من بسط نفوذهم ومد سلطتهم على «مصر» والشام و «الحجاز»، و «اليمن»، و «جزر المتوسط»، ومع ذلك كانوا دائماً يتطلعون إلى ترسيخ دعائم دولتهم، وتحديث نظمهم ومعداتهم الحربية لأنهم يعلمون جيداً أن عدوهم متربص بهم من البر والبحر، فعمدوا إلى الاهتمام بالسلاح البحري إلى جانب اهتمامهم بتدريب الجند وتوفير ما يلزمهم. البحرية في عهد المماليك:

عندما آلت السلطة إلى سلاطين المماليك عمل «الظاهر بيبرس» منذ سنة (658هـ) على إعداد قوة بحرية قوية يستعين بها على صد الأعداء المتربصين بالبلاد من جهة البحر، فاهتم بأمر الأسطول، ومنع الناس من التصرف في الأخشاب التي تصلح لصناعة السفن، وأمر بإنشاء الشوائى (وهي السفن الحربية ذات الأبراج والقلاع العالية للدفاع والهجوم) لكي تحمي «الإسكندرية» و «دمياط»، وكان السلطان يذهب بنفسه إلى دار صناعة السفن بالجزيرة ويشرف على تجهيز هذه الشوائى حتى تمكن في النهاية من إعداد أسطول مكون من أربعين قطعة حربية، سبَّرها إلى «قبرص» في سنة (669هـ)، إلا أن هذا الأسطول هلك، فقام «بيبرس» بإنشاء أسطول آخر مما يدل على المركز المالي القوي الذي تمتعت به دولة المماليك.

نسخ الأشرف «خليل بن قلاوون» على منوال «الظاهر بيبرس» في عنايته بالأسطول، فقد أنشأ أسطولاً مكوناً من ستين مركباً جُهِّزت بالآلات الحربية والرجال، وأقام احتفالاً كبيراً حضره الناس من كل مكان حين ذهب إلى استعراض هذا الأسطول في دار صناعة السفن بجزيرة الروضة.

عنى السلطان «الناصر محمد» بالأسطول مثلما فعل «بيبرس» و «خليل» من قبله، فأصبح لمصر أسطول من أقوى أساطيل هذا العهد، فقد كان يجمع بين «الشوائى»، و «الحراريق» (سفن حربية أقل من الشوائى)، و «الطرادات» (سفن حربية سريعة الحركة صغيرة

(95/5)

---

الحجم)، و «الأغربة» (سفن حربية تشبه رءوسها رءوس الفرسان والطيور)، و «البطش» (سفن تحمل المجانق)، و «القراقر» (سفن تستخدم في تموين السفن)، وليس أدل على مبلغ اهتمام المماليك بالقوة البحرية مما ذكره «المقريزى» حين وصف الاحتفال بإنزال الشوائى إلى البحر للسفر إلى «طرابلس» بقوله: «وفي المحرم من سنة 705هـ تبحت عمارة الشوائى، وجهزت بالمقاتلة والآلات مع الأمير «جمال الدين أقوش الفاوى العلاتى» والى «البهن»، واجتمع الناس لمشاهدة لعبهم في البحر، فركب «أقوش» في «الشيئى» الكبير، وانحدر تجاه المقياس، وكان قد نزل السلطان والأمراء لمشاهدة ذلك، واجتمع من العالم ما لم يحصهم إلا الله -تعالى- وبلغ كراء المركب الذى يحمل عشرة آلاف نفس مائة درهم، وامتأ البران من «بولاق» إلى دار الصناعة حتى لم يوجد موضع قدم خالٍ، ووقف العسكر على برستان الخشب، وركب الأمراء الحراريق إلى «الروضة»، وبرزت الشوائى للعب كأنها في الحرب؛ فلعب الأول والثانى والثالث، وأعجب الناس بذلك إعجاباً زائداً لكثرة ما كان فيها

من آلات الحرب، ثم تقدّم الرابع وفيه «أقوش» فما هو إلا أن خرج من  
منية الصناعة بمصر، وتوسط النيل. وإذا بالريح حركة، فانقلبت،  
وأنقذ الناس الشيعي، وأصلحوه، وسافروا بالشوائى لطرابلس، وليس  
أدل على اهتمام المماليك بأمر الأساطيل من اشتراك الأهالى مع  
الحكومة فى عرض الجيوش الحربية والأساطيل، والعمل على تقويتها  
وبناء سفن كثيرة، وقد أطلق الشعب على رجال الأسطول لقب:  
«المجاهدون فى سبيل الله والغزاة فى أعداء الله» وكان الناس  
يتبركون بدعائهم تعظيمًا لهم». .  
وهكذا كانت عناية المماليك بالجيش، وكذلك كان اهتمامهم  
بالأسطول، وبذلك وصلت الأمة الإسلامية إلى ماوصلت إليه من مكانة  
سامية وشأن عظيم على أيديهم.  
النظم الإدارية فى عهد المماليك:  
أهم الدواوين:  
تكون الجهاز الإدارى فى «مصر» والشام من عدة دواوين حكومية،

(96/5)

---

يشرف كل منها على ناحية معينة من نواحي الإدارة العامة، وكانت  
أهم هذه الدواوين فى هذا العهد ما يلى: «ديوان الأعباس»، و «ديوان  
النظر»، و «ديوان الخاص»، و «ديوان الإنشاء». .  
أما «ديوان الأعباس» فيشبهه وزارة الأوقاف فى وقتنا الحالى،  
ويتولى صاحب هذا الديوان الإشراف على المساجد والربط، والزوايا،  
والمدارس، والأراضى، والعقارات المحبوسة عليها، والإحسان إلى  
الفقراء والمعوزين.  
و «ديوان النظر» يشبهه وزارة المالية حاليًا، وترجع إليه سائر الدواوين  
فى كل ما يتعلق بالمسائل الخاصة بالمتحصل والمنصرف من أموال  
الدولة، وله فوق ذلك الإشراف على حساب الدولة، وأرزاق الموظفين

الدائمين والمؤقتين، وكان هذا الديوان يتخذ من القلعة مقراً له. وفي سنة (727هـ) أنشأ السلطان «الناصر محمد» «الديوان الخاص» لإدارة الشؤون المالية التي تتعلق بالسلطان، ويتولى الإشراف عليه «ناصر الخاص» الذي عُرف من قبل في عهد الفاطميين والأيوبيين، ولكنه لم يبلغ من الأهمية القدر الذي بلغه في عصر المماليك خاصة في عهد «الناصر محمد». أما ديوان الإنشاء فكانت أهم اختصاصاته تنظيم العلاقات الخارجية للدولة، وهو أول ديوان وُضع في الإسلام، وقد نُظِم في عهد المماليك بأسلوب يتناسب مع مقتضيات العصر ومتطلباته، وكان مقره «قاعة الصاحب» بقلعة الجبل، حيث ترد المكاتبات إليه من جميع أنحاء الولايات والممالك التي بينها وبين بلاد المسلمين علاقات سياسية، كما كانت تحرر فيه الكتب التي كان يرسلها السلطان إلى الملوك والأمراء، وقد لُقّب صاحب ديوان الإنشاء بألقاب عديدة في أوائل عهد المماليك، فلقبوه تارة باسم: «صاحب الدست الشريف»، وأخرى باسم: «كاتب الدرج» وثالثة باسم: «كاتب الدست» وبقيت هذه تسميته إلى أن تولى «القاضي فتح الدين بن عبدالظاهر» هذا الديوان في عهد السلطان «قلاوون» فتلقب بلقب «كاتب السر»؛ لأنه كان يكتب سر السلطان، وكانت وظيفته من أعظم

(97/5)

---

الوظائف الديوانية وأجلّها قدرًا، وكان له معاونون يساعدونه في أداء ما عليه من التزامات وواجبات. كان من أبرزهم: «نائب كاتب السر»، ثم يليه في المرتبة كُتّاب الدست المتصلون بديوان الإنشاء، وكانوا يجلسون مع كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل. كانت هناك دواوين أخرى - في العهد المملوك - أقل شأنًا من تلك الدواوين السابق ذكرها، مثل «ديوان الأهراء» (وهي شؤون الغلال

السلطانية)، و «ديوان الطواحين»، ويتولى صاحبه الإشراف على طحن الغلال، و «ديوان المرتجعات»، ويشرف صاحبه على الأمور الخاصة بتركات الأمراء، وكذلك كانت هناك دواوين أخرى ذكرها «القلقشندي» على أنها دواوين مستقلة، ولكنها لم تكن - في حقيقة الأمر - سوى إدارات تتصل اتصالاً مباشراً بالقصر السلطاني، أو بأحد الدواوين الرئيسية السابقة، وذكر «القلقشندي» منها - مثلاً - «ديوان الإصطبلات»، و «ديوان المواريث»، و «ديوان الخزانة» و «ديوان العمائر»، و «ديوان المستأجرات».

سارت دواوين الحكومة في عصر المماليك على نسق واحد من حيث التنظيم الإداري، فكان على رأس كل ديوان موظف كبير هو «ناظر الديوان»، وكانت مهام عمله تشبه إلى حد كبير ما يقوم به الوزير حالياً، ويليه في المرتبة «مستوفى الصحة»، و «مستوفى الدولة» ومهمتهما الإشراف على موظفي الدواوين المختلفة، ويلى هؤلاء طبقة الموظفين والكتاب وما يليهم.

البريد:

كان البريد أحد أهم إدارات «ديوان الإنشاء»، إذ كان واسطة الاتصال بين دولة المماليك في «مصر» ونياباتها في الشام وغيرها من الأقاليم، ولم يقتصر المماليك على البريد العادي في إرسال رسائلهم، بل عمدوا إلى استخدام الحمام الزاجل في نقلها، وجعلوا القلعة مركزاً لأبراجه، كما أقاموا مراكز معينة في جهات مختلفة لتكون مراكز للبريد البري، وخصصوا لكل محطة منها عددًا من الحمام الزاجل، وجعلوا على رعاية شئونه عددًا من الموظفين المتخصصين

(98/5)

---

في ذلك، وكان في كل محطة من هذه الخطات برج أو أكثر ليعيش فيه الحمام الذي سيقوم بنقل الرسائل إلى المحطة التالية، وقد عني

سلاطين المماليك عناية شديدة بما كانت تحمله هذه الحمائم من رسائل، لدرجة أن بعضهم أمر بإدخالها عليه حال وصولها، كما كان بعضهم يترك طعامه أو يستيقظ من نومه في الحال عند وصولها. وهكذا كان تنظيم الدواوين في عهد الدولة المملوكية غاية في الدقة، ومظهرًا من مظاهر الرقى الحضارى الذى وصلت إليه هذه الدولة بما صنعته وحققته، ومثلا من أمثلة المتابعة الدقيقة التى آل سلاطين هذه الدولة على أنفسهم أن يتخذوها في مراقبة شئون الدولة؛ لتحقيق الاستقرار الداخلى، الذى ينعكس - بطبيعة الحال - على كل مناحى الحياة في الدولة.

كبار الموظفين الإداريين:

- الأتابك:

«الأتابك» هو القائد العام للجيش، وكلمة «أتابك» لفظة تركية مركبة من «أطا»، (وتعنى: أب) و «بك» (وتعنى: السيد أو الأمير) فيكون «الأتابك» هو: السيد الأب، أو الأمير الأب، أى أنه أبو الأمراء أو كبيرهم، وقد أُطلق هذا اللقب في عهد المماليك على مقدم العساكر، أو القائد؛ لأنه يعتبر أبًا للعساكر والأمراء جميعًا، وكثيرًا ما خلع الأتابكة أبناء السلاطين من على العرش، واستولوا عليه وتولوه بدلا منهم.

- الوزير:

تطور نظام الوزارة في «مصر» في عهد المماليك، ولم يتمتع وزراء هذا العصر بنفوذ مطلق؛ لاستقرار منصب «نائب السلطان» الذى استحدثه الأيوبيون وعمل به المماليك، وقد حرص «الظاهر بيبرس» على اختيار وزرائه من أرباب الأقلام والسيوف، فإذا كان الوزير من أرباب القلم أُطلق عليه اسم: «الصاحب» مضافًا إليه صفة الوزير فيصبح لقبه: «الصاحب الوزير» أو «وزير الصحبة»؛ وهو وزير متنقل يرافق السلطان في أسفاره وحروبه، وتكون مهام وظيفته مقصورة على تسيير شئون الوزارة في هذه الأثناء. أما إذا كان هذا الوزير

من أرباب السيف اكتفى بتلقيه بالوزير دون صاحب، ويُعدُّ - بهذا -  
الوزير الأعلى الذى يحضر مجالس السلطان مع أمراء المائتين، وله  
حق التصرف فى جميع أمور المملكة.

كان الوزير يتقاضى راتبًا شهريًا قدره مائتان وخمسون دينارًا، عدا  
ما خصص له كل يوم من مقادير وفيرة من الغلال واللحوم والخبز  
وسائر ما يحتاج إليه، وقد ألغى السلطان «الناصر محمد» منصبى  
«الوزير» و «نائب السلطان» فى آنٍ واحد فى سنة (727هـ).

- والى القاهرة:

استلزمت شئون الإدارة تعيين موظف كبير يُعدُّ فى الواقع من أهم  
الموظفين الإداريين عرف باسم: «والى القاهرة»، فهو الذى ينفذ  
الأحكام ويقيم الحدود، ويتعقب المفسدين، ومثيرى الفتن، ومدمنى  
الخمر، ويعاقب كلا منهم على حسب جرمته، كما كانت عليه مراقبة  
أبواب «القاهرة»، والطواف بأحياء التجارة والمال فيها، لذا أُطلق  
عليه أحيانًا: «صاحب العسس» أو «والى الطواف»، واقتصر نفوذه  
على العاصمة وضواحيها.

- ولاية الأقاليم:

كانت فئة من الموظفين هى التى تشرف على كل عمل من أعمال  
الوجهين البحرى والقبلى بمصر، وكان على رأس هذه الفئة «والى  
الإقليم»، الذى يمثل الإدارة المحلية، وكانت مهمته تتركز فى العمل  
على استتباب الأمن والنظام، والحفاظة على أموال الناس وأرواحهم  
فى الإقليم الذى أوكلت إليه إدارته.

- أمير جاندار:

هى وظيفة إدارية تطلبتها ظروف هذا العصر، وكان على  
«أميرجاندار» أن يقوم بتنظيم إدخال الناس على السلطان وهو جالس  
بإيوانه بقلعة الجبل.

- الحاجب:

كان على «الحاجب» أن يقوم بما يقوم به «أميرجاندار» على أن يراعى مقامات الناس، وأهمية أعمالهم، وقد عظمت أهمية الحاجب في العصر المملوكي.

- الدوادار:

هو الرجل الذي يتولى أمر تبليغ الرسائل إلى السلطان، كما يقوم بتقديم المنشورات إليه للتوقيع عليها. لقد كان نظام الإدارة في عهد المماليك نظامًا دقيقًا قويًا، تطلب

(100/5)

اختيار موظفين من أصحاب المواهب الفريدة والخبرات المتميزة في تخصصاتهم، فنجحت سياسة الدولة المملوكية في تسيير شئون البلاد، وتيسير مصالح الناس وحاجاتهم إلى حد كبير. النظام القضائي:

تعهد «الظاهر بيبرس» النظام القضائي بالإصلاح والتعديل، ورأى في تقسيم مناصب القضاء بين قضاة المذاهب الأربعة ما يضمن العدالة بين الناس، والتيسير عليهم، فقد عين في سنة (663هـ) أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة، وكتب لكل منهم تقليدًا، وأجاز لهم أن يولوا نوابًا عنهم في أنحاء البلاد.

امتد اختصاص قاضي القضاة، وقضاة الأقاليم، وزاد نفوذهم، وامتد فتناول النظر في الدعاوى التي تتضمن إثبات الحقوق والحكم بإيصالها إلى أصحابها، كما نظر في الأموال التي ليس لها ولي معين، وكذلك تناول تعيين أوصياء لليتامى، وتفقد أحوال المحجور عليهم من الجانين والمفلسين وأهل السفه، ونظر -أيضًا- في وصايا المسلمين، وكان القضاة ينظرون في مصالح الأوقاف، ويعملون على حفظ أصولها وتثبيت فروعها، وقبض ريعها وإنفاقه في مصاريفه،

وكذلك كانوا يقبضون المال الموصى به لتنفيذ الوصية، وعهد إليهم بتسليم أموال المواريث المتنازع عليها، وأموال مَنْ يموتون غرباء وحفظها حتى يحضر وراثتهم.

وانحصرت سلطة القضاة الأربعة ونوابهم على المدنيين، بينما كان للجيش المملوكي ثلاثة قضاة عُرف كل منهم باسم: «قاضى العسكر»، واختصوا بشئون العسكر للفصل في القضايا الخاصة بهم، أو التي بينهم وبين المدنيين، وكانت جلسات القضاء في دولة المماليك تعقد علانية ويحضرها مَنْ شاء من الناس، وكانت المساجد مكان انعقاد هذه الجلسات، كما كانت دور القضاء الخاصة مكانًا لها أحيانًا؛ إذا لم يكن هناك دور معينة لانعقادها، فإذا جلس القاضى للفصل في الخصومات رتب القضايا بحسب حضور الخصوم؛ حتى لا يتقدم أحد على الآخر لمكانته أو ثرائه، وكان يستعين على تنظيم قاعة الجلسة

(101/5)

بعدد من الموظفين منهم: «الجلواز»، و «الأعوان»، و «الأمناء»، و «العدول»، فكان الرجال يجلسون في جانب والنساء في الجانب الآخر. وقد بلغ راتب القاضى خمسين دينارًا شهريًا، عدا ما كان يحصل عليه من الأوقاف التي كان يتولى إدارتها، بالإضافة إلى ما كان يجرى عليه من الغلال والشعير والخبز واللحم والكساء. كان تنظيم القضاء في دولة المماليك تنظيمًا دقيقًا، وبرز في هذه الدولة قضاة عرفوا بالنزاهة وطهارة الذمة وحسن السيرة، احترموا مركزهم القضائي، ولم يقبلوا تدخل أحد - مهما يعلُّ مركزه - في أعمالهم، وكثيرًا ما كانوا يطلبون إعفاءهم من مناصبهم - دون تردد - إذا ما حاول أحد تهديد كرامتهم، أو الاعتداء من قريب أو بعيد على استقلالهم، فقد كانوا لا يقبلون الرشوة ولا الهدية، لذا أصبحت لهم مكانتهم الكريمة ومقامهم المرموق في الدولة، وفي نظر السلاطين

والأمراء، وجميع طبقات الشعب، ولعل أبرز الأمثلة للتدليل عليهم: «القاضي عبدالعزيز»، المعروف بعز الدين بن عبدالسلام (سلطان العلماء)، و «القاضي تقي الدين عبدالرحمن الشافعي» ابن بنت «الأعز»، و «القاضي تقي الدين محمد بن دقيق العيد»، وغيرهم، فقد كانوا أمثلة عظيمة وواضحة لما يجب أن يكون عليه القاضي العادل والشريف.

الإفتاء:

يلى القضاة في الأهمية «مفتو دار العدل»، وقد كانوا أربعة يمثلون المذاهب الإسلامية الأربعة، ولم تكن في سلطتهم الفصل في الخصومات سواء أكانت بين المدنيين أم بين العسكريين أم بين العسكريين والمدنيين، بل كانت مهمتهم شرح وتبيين حكم الشرع فيما يُسألون عنه من المسائل الفقهية، كل حسب مذهبه.

الختسب:

كانت مهمة الختسب النظر فيما يتعلق بالجنايات والنظام العام، وكان عليه الفصل فيها على وجه السرعة، وقد عهد إليه بالإشراف على نظام الأسواق، وكان له نواب يطوفون فيها ويفتشون أماكنها، ويشرفون على السقائين للتأكد من نظافتهم، وتغطيتهم القرب،

(102/5)

---

ولبسهم السراويل، كما كان على الختسب ونوابه الحيلولة دون بروز الحوانيت (الدكاكين) حتى لا تعوق نظام المرور بالشوارع، وكذلك عليهم الإشراف على نظافة الشوارع والأزقة، والحكم بدم المبانى المتداعية للسقوط وإزالة أنقاضها، وكذلك الكشف على صحة الموازين والمكاييل، التي كانت لها دار خاصة تُعرف باسم: «دار العيار»، فكان الختسب يطلب جميع الباعة إلى هذه الدار في أوقات معينة ومعهم موازينهم ومكاييلهم ليتأكد بنفسه من ضبط عيارها،

فإن وجد بما خلا صادرها وألزم صاحبها بإصلاحها أو شراء غيرها. وقد ارتقى نظام الحسبة وشمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. صاحب المظالم:

كان «الظاهر بيبرس» أول من جلس للمظالم من سلاطين المماليك، وهو الذى أقام دار العدل فى سنة (661هـ)، وقد خصص يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع ليجلس فيهما للفصل فى القضايا المهمة، ويحيط به قضاة المذاهب الأربعة، وكبار الموظفين الإداريين والمالين، وكاتب السر.

وظلت دار العدل مقرا لمحكمة المظالم - التى كانت تعقد جلساتها برئاسة السلطان - حتى جاء السلطان «قلاوون» وبنى الإيوان الخاص، واتخذه مقرا لهذه المحكمة فى سنة (679هـ)، ولم تكن محكمة المظالم تنظر فى قضايا الأفراد فحسب، بل كانت تنظر فى شكاوى الناس كافة، ويذكر «المقريزى» أن السلطان «بيبرس» عرضت عليه فى سنة (662هـ) قضية رجل من علية القوم وذكر فيها أن «المعز أيبك» قد اغتصب منه بستانا، وقدم ما يثبت ملكيته لهذا البستان، فأمر «بيبرس» برد البستان إليه. وقد قام «بيبرس» بخفض ثمن الغلال فى سنة (663هـ) بعد أن ارتفع ثمنها، ولذا تميز النظام القضائى فى عهد المماليك بالحيادة والنزاهة وتحقيق العدل بين الرعية.

المنشآت الحضارية فى عهد المماليك:

حفلت كتب التاريخ التى تناولت عهد المماليك بذكر الآثار التى خلفها هذا العصر، والتى مازال معظمها شاهد صدق على مدى عظمة هذه

الإسلامي، فقد قام «الظاهر بيبرس» ببناء مسجده، المعروف باسمه بميدان الظاهر بالقاهرة في عام (665هـ)، وجلب لبنائه الرخام والأخشاب وأدوات البناء من سائر البلاد، وزينته بزخارف الجص، فأصبح مثالا للمساجد الكبيرة الضخمة التي شُيدت في عهد دولة المماليك البحرية. كما قام «بيبرس» ببناء برج لقلعة الجبل، وشيد «قناطر السباع» على «الخليج المصري»، وقد عُرفت هذه القناطر بهذا الاسم؛ لأن «بيبرس» نصب عليها سباعاً من الحجارة، كما أصلح منارتي «رشيد» و «الإسكندرية».

أما السلطان «قلاوون» فقد أنشأ القبة التي دُفِنَ تحتها، كما أنشأ مسجده ومدرسته، ومارستانه الذي عُرف بمسشفى «قلاوون»، ثم يأتي ابنه «السلطان الناصر محمد ابن قلاوون»، وكان شغوفاً بسياسة أبيه في الإنشاء والبناء، فشيّد «المدرسة الناصرية» (بحي النحاسين)، وعين بها مدرسين للمذاهب الأربعة، وألحق بها مكتبة حافلة بنوادير الكتب وأمهاتها، ولا تزال هذه المدرسة باقية بحالة جيدة حتى اليوم، وكذلك بنى «الناصر محمد» «القصر الأبلق» بقلعة الجبل، وسمّى بذلك لأنه بنى من الحجر الأبيض والحجر الأسود، وفي سنة (718هـ) شيّد «الناصر» مسجده بالقلعة، ثم هدمه في سنة (735هـ) ليعيد توسيعه وبناءه من جديد، وقام بتجديد بناء المارستان الكبير الذي أسسه والده «قلاوون»، وأنشأ «خانقاه» (بيت لفقراء الصوفية) في «سرياقوس» من ضواحي «القاهرة» في سنة (723هـ)، (أصبحت «سرياقوس» اليوم تابعة لمركز «الخانكة» بمحافظة «القليوبية»)، وقد شيّد «الناصر» سبيلاً أحقه بجوار مدرسته وجامع أبيه «قلاوون»؛ لأنهما متجاوران.

ولعل أعظم إنشاءات دولة المماليك البحرية ما قام به السلطان «حسن بن الناصر محمد بن قلاوون» حين أنشأ مسجده ومدرسته بالقرب من القلعة.

منشآت دولة المماليك البرجية:

ازدادت المنشآت في عصر دولة المماليك البرجية، ولعل أفضل مثال على منشآت ذلك العهد ما قام به «الأشرف برسباي» للعمارة الإسلامية، فقد قام بتأسيس عدة مبانٍ كان أهمها مدرسته الأشرفية التي عند «سوق الوراقين» بالقاهرة، إذ رسم حدودها في سنة (826هـ) وعين «الشيخ علاء الدين ابن الرومي الحنفي» أستاذًا لها، ثم أتم بناءها في سنة (829هـ)، وكذلك قام «برسباي» بإنشاء مدرسة بجوار «خانقاه سرياقوس» في سنة (841هـ)، وكانت هذه المدرسة مجمعًا دينيًا يشمل: مدرسة، وكتّابًا، وسبيلًا، وخانقاه للصوفية، وكان القاضي «محب الدين بن رسول الكرادى» الحنفي، المعروف بابن الأشقرت، أحد الذين تولوا أمر المدرسة والخانقاه في سنة (863هـ).

كذلك أقام «برسباي» مسجدًا وترية وزاوية بالصحراء، ولم يكن وحده هو الذى فعل ذلك، فقد كان أغلب سلاطين المماليك يحرصون على بناء مسجد ومدفن لكل منهم في الصحراء بشرق «القاهرة»، ذلك إضافة إلى ما يقومون به من منشآت في أرجاء البلاد، مثلما فعل «بيبرس» حين أقام «قنطرة المجذوب» بأسسوط، وجدد «الحرم الشريف» بمكة، و «الجامع الأزهر» بمصر. ويُعدُّ «قايتباي» أشهر سلاطين المماليك البرجية شغفًا بالبناء والعمارة، إذ أنفق مائة ألف دينار على إعادة تشييد «مسجد المدينة المنورة» بخلاف ما أنفقه على تشييد وبناء مسجده، وبناء «قلعة الإسكندرية» المعروفة باسمه، وكذلك أقام مباني جديدة بقلعة الجبل، وقام «السلطان الغورى» من بعده بتحسين «الإسكندرية» و «رشيد».

ويعد عصر المماليك - بحق - أحد العصور الذهبية في تاريخ العمارة الإسلامية، فقد كان الإقبال عظيمًا على تشييد المساجد والمدارس والأضرحة، والاهتمام بالمهارات الفنية والزخرفية، والعمل على إتقان

بناء المنارات والقباب وواجهات المنشآت والإيوانات والأعمدة  
وزخرفتها، وزخرفة المدارس والمساجد من الداخل والخارج، وقد  
كانت العناية بزخرفة وتجميل كل ذلك إحدى سمات هذا العصر.

(105/5)

النهضة في مجال العلوم والآداب:

لاشك أن المؤسسات العلمية التي أنشأها المماليك نهضت بمستوى  
العلم وتقدمه في عهدهم، وأبرزت نخبة من ألمع العلماء في مختلف  
مجالات الثقافة والعلوم، فكان منهم الفقهاء: شيخ الحنابلة «أحمد بن  
تيمية»، ومن المؤرخين: «أبو الفدا» صاحب «التاريخ والسير»،  
و «المقريزي المصري» صاحب «الخطط» و «السلوك»، و «ابن خلكان»  
صاحب «وفيات الأعيان»، كما كان من كُتّاب السير الطبيب الشهير  
«ابن أبي أصيبعة»، الذي درس بدمشق و «القاهرة»، ثم وضع تراجم  
للأطباء في مؤلفه: «عيون الأنباء»، وكذلك كان «ابن إياس» صاحب  
«بدائع الزهور»، و «القلقشندي» صاحب «صبح الأعشى»، ومن  
الشاميين نجد المؤرخ «شمس الدين الدمشقي» صاحب «نخبة الدهر  
في عجائب البر والبحر»، و «ابن فضل الله العمري»، الذي شغل  
منصب «صاحب الخاتم» في بلاط المماليك بالقاهرة، وهو صاحب  
كتاب: «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»، ولقد عاش «عبدالرحمن  
الجبرتي» أشهر علماء التاريخ في بلاط المماليك، ويعد «ابن خلدون»  
واضع علم الاجتماع ومؤسس فلسفة التاريخ، وهو صاحب كتاب:  
«العبر وديوان المنتدأ والخبر»، وقد وضع في مقدمته لهذا الكتاب  
أسس كتابة التاريخ التي اشتهرت شهرة واسعة النطاق في أنحاء  
العالم.

وهكذا برزت - خلال عهد المماليك - جماعة من أفضل علماء المسلمين  
في التاريخ الإسلامي، وشجعهم على ذلك اهتمام سلاطين المماليك

بالعلم والعلماء.

وإن نظرة واحدة في حُجة أحد سلاطين هذه الدولة لتظهر لنا مدى ما وصل إليه هؤلاء من حب وتقدير للعلم والعلماء والمتعلمين، وقد حرص «الأشرف برسباي» في حُجته على تعيين المشايخ لمدرسته، وقام بوقف الأراضى لكى يُنفق من إيرادها على التعليم، وكذلك على المتعلمين الذين أنفق عليهم بسخاء، فخرج منهم العلماء والفقهاء والأئمة في مختلف المجالات والتخصصات والمذاهب، وأصبح هذا العمل مفخرة لهذا العصر، وسبباً من أهم أسباب تقدم المسلمين

(106/5)

وتفوقهم في مجالات العلوم والحضارة.

وبعد:

فقد عاش المماليك في بلاد المسلمين واتخذوا منها مواطن لا يعرفون غيرها، فأنشئوا بها حضارتهم الخاصة التي تفوقت على حضارات الأمم الكبيرة آنذاك، والتي مازالت آثارها باقية حتى اليوم، شاهد صدق على حب هؤلاء المماليك لهذه البلاد، ودليلاً قاطعاً على عظمة سلاطينهم، فمازالت «القاهرة» مليئة بالآثار التي تركها المماليك، والتي تدل على مدى التقدم الرائع لهذا العصر في الفنون جميعها، وبخاصة الزخرفة التي لا يخلو منها مسجد أو قبة أو مدرسة من آثارهم، ولاشك أن ذلك يعود إلى اهتمام سلاطين هذه الدولة بهذه الفنون، وتوفير التمويل المالى اللازم لتنفيذها.

– الحالة الاقتصادية في عهد سلاطين المماليك:

مما لا شك فيه أن الحالة الاقتصادية لأية أمة من الأمم تمثل العمود الفقرى لها، فإذا كان الاقتصاد قويا وأحسن استغلاله في تيسير حاجات البلاد، وبناء نهضتها، وتشبيد حضارتها؛ كان ذلك مدعاة إلى التقدم والازدهار في جميع المجالات، ووقوف البلاد في صفوف

الأمم المتقدمة ذات السيادة العالمية. أما إذا كان اقتصاد أى بلد عكس ذلك، فإنه يكون مدعاة للظلم والقهر والسلب، وخذلان البلاد ووقوفها فى ذيل قائمة البلاد المتقدمة، منتظرة قراراتها فى تسيير أمورها وشؤونها الخاصة، ولا تتوافر لهذه الأمم الضعيفة القدرة على اتخاذ القرار فيما يخصها، وتصبح فريسة للتدخل الأجنبى، وطمع المستعمرين، ولقد كان الممالىك من القوة الاقتصادية لدرجة أن دولتهم بلغت حدا من الثراء لم تؤثر عليه الحروب العديدة التى خاضوها، بالإضافة إلى الإنشاءات والإصلاحات التى قامت بها فى طول البلاد وعرضها؛ إذ تعددت مصادر الثروة التى زخرت بها خزائن الممالىك، فبالإضافة إلى ضرائب الخراج، والتركات التى لا وارث لها كانت هناك مصادر أساسية وثابتة لزيادة موارد الدولة؛ إذ اهتم الممالىك بالزراعة والصناعة والتجارة، وأقاموا مقاييس للنيل،

(107/5)

وطهروا الترع، وأنشئوا الجسور ونظموا الرى وحسّنوا وسائله، كما اعتنوا بصناعة المنسوجات، ونشطوا فى اكتشاف واستخراج المعادن، التى كان من أهمها: «الزمرد» و «الشب» و «النطرون»، فكان «الشب» يُستخرج من الوجه القبلى والواحات، ويُحمل إلى «قوص» أو إلى «أسيوط» و «أخميم» و «البهنسا»، ثم ينقل منها عن طريق النيل إلى «الإسكندرية» وفيها يباع للأوربيين، وخصصت الحكومة ثلث ثمنه لدفع رواتب الأمراء، ولتوفير بعض احتياجات الجيش الكثيرة؛ لكثرة حروبهم فى ذلك الوقت.

وكانت التجارة - بحق - أعظم مصادر الثروة فى العهد المملوكى؛ إذ قاموا بتشجيعها، وعقدوا المحالفات والاتفاقات التجارية مع إمبراطور «القسطنطينية»، وملوك «إسبانيا»، وأمراء «نابلس»، و «جنوة»، و «البندقية» وسلاجقة «آسيا الصغرى»، وكاد الممالىك

أن يحتكروا تجارة «الهند» - خاصة التوابل - بالاتفاق مع أمراء  
الموانئ الإيطالية، فكان لذلك أكبر الأثر في نمو ثروات البلاد  
وزيادتها، خاصة بعد أن بسط المماليك سلطانهم على «مكة»  
و «جدة»، وأصبحت «مكة» من أشهر الأسواق التجارية في الشرق  
فانتعشت حالة البلاد الاقتصادية وازدهرت، وبدل على ذلك كثرة  
الإنشاءات المعمارية والتجهيزات الحربية في ذلك الحين، إلا أن حالة  
الركود - التي كانت تصيب الاقتصاد أحياناً نتيجة لظروف القلق وما  
يصاحبها من السلب والنهب - أثراً على خزينة الدولة، ومع ذلك لم يكن  
تأثيرها خطيراً؛ لأن الدولة سرعان ما كانت تتدارك الأخطاء وتعالج  
العيوب، وتعمل على سد النقص في اقتصادها، ولعل أخطر الأحداث  
الاقتصادية التي كان لها أكبر الأثر في سقوط دولة المماليك هو  
تحول طرق التجارة بين «أوروبا» و «الشرق» عن طريق «مصر» إلى  
طريق «رأس الرجاء الصالح» الذي اكتشفه «فاسكو دي جاما»  
البرتغالي سنة (1498م)، فأحدث هذا الاكتشاف انقلاباً خطيراً في  
عالم التجارة، وكارثة حقيقية على دولة المماليك التي كانت تعتمد

(108/5)

---

بصورة كبيرة على التجارة التي تحولت من حوض «البحر الأبيض  
المتوسط» إلى «المحيط الأطلسي» ونضبت خزائن «مصر» من الأموال  
التي كانت تأتيها من تجار «البندقية» و «جنوة»، الذين كانوا ينقلون  
تجارهم من «الشرق» إلى «أوروبا» عن طريق «مصر» ويدفعون لها  
الضرائب عن دخول تجارهم وخروجها منها، فكان لذلك أثره على  
كساد التجارة والزراعة، ولم تعد «مصر» تنتج للأسواق الخارجية  
كثيراً، فقلت موارد البلاد، وتهددتا المجاعات، وانحط شأن  
«الإسكندرية»، وقل عدد الأجانب بها، وتأخرت الصناعات الحيوية،  
وتدهورت الحالة الفنية؛ لقلة الأموال اللازمة، فهياً هذا الوضع الفرصة

للسلب والنهب الذى قام به بعض أفراد المماليك، فذب الضعف فى أوصال الدولة، وبدأت تأخذ طريقها إلى الضعف والتلاشى؛ لأن موارد البلاد لم تعد كافية لسد احتياجاتها الضرورية، وزاد الأمر سوءًا فى نهاية عصر المماليك إذ كثرت الدسائس والمؤامرات، وحوادث السلب والنهب، وتعرضت «مصر» للمجاعة والاضطراب فى عهد «السلطان برفوق» و «السلطان شيخ المؤيد» و «السلطان قايتباى»، وزادت الاضطرابات فى أنحاء البلاد، ولا تكاد تستقر حتى تعود إليها الفوضى ثانية؛ بسبب الفتن التى زادت حدتها فى عهد المماليك البرجية على وجه الخصوص، لدرجة أن «فايربك» أحد أمراء المماليك البرجية هو الذى ساعد العثمانيين - بخيانتة - على الدخول إلى «مصر» والشام، وهذا دليل قاطع على مدى التدهور والضعف اللذين وصلت إليهما الدولة فى آخر أيامها.

لقد انتهت دولة المماليك بعد أن ظلت مدافعة عن العالم الإسلامى حقبة دامت أكثر من قرنين ونصف القرن، شهد العالم الإسلامى خلالها حضارة زاهرة مازالت آثارها باقية حتى الآن، ونعم المسلمون فيها بالرخاء والعزة والعدل والطمأنينة، إذ عُرف المماليك بالعدل وحب العمران، كما عرفوا بمهاراتهم الفائقة فى الفروسية والقتال، فهم الذين ردوا المغول ودحروا الصليبيين، وتاريخهم المجيد يشهد لهم

(109/5)

---

بذلك، وعلى الرغم مما حدث من هنات فى بعض فترات حكمهم، فإن الحكم النهائى على أية دولة لا يكون إلا على ما خلّفته، ومما لاشك فيه أن المماليك قاموا بدور لا يمكن تجاهله أو نسيانه، وخدموا المسلمين فى كل مكان على الأرض، وأنشئوا حضارة راسخة، وشجعوا العلم والعلماء والمتعلمين، وكونوا جيشًا قويًا، وبنوا أسطولا عظيمًا، وساعدوا الفقراء والمحتاجين، وشيدوا المدارس

والجوامع والأسبلة والقلاع والمستشفيات والقصور، وعاشوا مع أهل البلاد في وئام وسلام، وذابوا في وحدة العالم الإسلامي، وبنوا له حضارته، ودافعوا عن أرضه، ورفعوا من شأنه، وأخذوا بيده إلى القمة في صدر صفوف دول العالم المتقدمة آنذاك.

(110/5)

## الفصل العاشر

### \*الحجاز

علاقة الحجاز بمصر في عهد الأيوبيين:

كان سقوط الدولة الفاطمية في سنة (567هـ = 1771م)، وقيام الدولة الأيوبية عاملاً من عوامل تقوية العلاقات بين «مصر» و «الحجاز»؛ إذ قامت خطة «صلاح الدين الأيوبي» على تحقيق الوحدة الداخلية بين الأقطار الإسلامية كمرحلة أولى، تتلوها المواجهة مع الصليبيين، وحرص على أن ينال رضا الخليفة على خطته، ليكون رضاه عاملاً من عوامل توحيد صفوف المسلمين وجمع شملهم.

لم يتدخل «صلاح الدين» في شئون «الحجاز» الداخلية؛ بل اكتفى بإجراءات تحقق الأمن والعدل لسكانه وللحجاج القادمين إليه، ولم يغير نظام الحكم الذي كانت تتولاه أسرة الهواشم في الحرمين الشريفين، وأسقط في سنة (572هـ) المكوس عن الحجاج إلى «مكة» في البحر عن طريق «عيزاب»، وعوض أمير «مكة» عن ذلك بثمانية آلاف إردب قمحاً، تُحمل إليه سنوياً إلى ساحل «جدة»، وأوقف لذلك أوقافاً بصعيد «مصر»، وأرسل الأتوات إلى المجاورين والفقراء بالحرمين الشريفين.

وحينما حج الملك المعظم «توران شاه بن نجم الدين أيوب» أخى «صلاح الدين»، قادماً من «اليمن» في سنة (570هـ)؛ منح أهل

الحرمين عطاءً كبيراً وأغدق عليهم، وعمهم بالخير، وقام بعدة إصلاحات في الحرمين الشريفين.

حاول الصليبيون غزو «المدينة المنورة» في سنة (578هـ) للتنكيل بالمسلمين، وعبر الصليبي «أرناط» أمير «الكرك» «بحر القلزم» (الأحمر) إلى «عينداب» على الساحل الشرقي للبحر الأحمر، وقتل وأسر الكثيرين من أهاليها، ومضى يريد «المدينة المنورة»، وبلغ ذلك «صلاح الدين»، فأمر بتجهيز جيش عظيم بقيادة الحاجب «حسام الدين لؤلؤ» لرد عدوان «أرناط»؛ فخرج الجيش ونجح في هزيمة «أرناط» وإحراق أسطوله وإفشال حملته، وأسر عدد كبير من جنوده، فأمر «صلاح الدين» بقتل الأسرى من جنود «أرناط»؛ ليكونوا عبرة لكل من تسول له نفسه الاعتداء على حرم الله -تعالى- وحرم رسوله - صلى الله عليه وسلم -.

(111/5)

كانت وفاة «صلاح الدين» سنة (589هـ)، وكان تقسيم المملكة بين أبنائه وأخيه «العالء» بداية لتطورات جديدة في العلاقات الأيوبية الحجازية، فقد ازداد تدخل الأيوبيين في شئون «الحجاز» الداخلية؛ بسبب النزاع الذى نشب بين «مكثر» حاكم «مكة»، وأخيه «داود»، ولم ينته الصراع بينهما حتى مات «مكثر»، فخلفه «أبو عزيز قتادة بن إدريس الحسنى» المعروف بالنابعة، والذى كان يستوطن مع أهله «نهر العلقبة» من «وادي ينبع» وأصبحت له الرئاسة على قومه، وباتت في يديه أزمّة أمورهم، وبلغه ما صارت إليه حال الهواشم من خلافات، فرحف على «مكة»، ثم تطلع إلى زعامة «المدينة» التى كانت تتوارث بين أفراد الفرع الحسينى من الأسرة العلوية، فرحف إلى «المدينة»، إلا أنه لم يستطع دخولها؛ فعاد إلى «مكة» ثانية. عظم في هذا الوقت أمر «بنى رسول» فى «اليمن» بعد وفاة

السلطان «مسعود الأيوبي» سنة (626هـ)، وحاولوا بسط نفوذهم على «مكة» و «المدينة»، وتمكنوا من السيطرة على «مكة» وظلت تحت أيديهم إلى سنة (630هـ)، حتى جاء «الشريف راجع» وتمكن من استرجاعها منهم بشرط أن يظل تحت نفوذهم (نفوذ «آل رسول»). شهد تاريخ «مكة» و «المدينة» بعد وفاة «الكامل» في سنة (635هـ)، نزاعاً متصلاً بين «آل رسول» والأيوبيين وظل الأمر على ذلك حتى وفاة «الشريف راجع»، فرأى «ابن رسول» أن يصرف نظره عن أبناء «راجع» الذين ولّوا «أبا نهي» بعد أبيه «الحسن بن قتادة» بالاشتراك مع عمه «إدريس»، فشغل «أبو نهي» وأولاده من بعده الشرافة في «مكة» و «المدينة» قرناً من الزمان تقريباً. وهكذا كانت «الحجاز» مرتبطة بمصر ارتباطاً وثيقاً في بداية عهد الدولة الأيوبية، وزاد من هذا الارتباط أن سلاطين الأيوبيين الأوائل لم يتدخلوا في شئون «الحجاز» الداخلية، واكتفوا بتأمين حججها، وتوفير العدل والأمان لأهلها، إلا أن وفاة «صلاح الدين»، والصراع

(112/5)

---

الذى دار بين حكام «الحجاز» أنفسهم كانا من أسباب تدخل الأيوبيين المباشر في شئون «الحجاز»، وظلوا على ذلك حتى دخلت المنطقة في مرحلة جديدة تحت حكم المماليك.  
المماليك والحجاز:

خلفت دولة المماليك الأولى دولة الأيوبيين في ملكها الواسع ونفوذها العريض، وحملت لواء الجهاد من بعدها في وجه الصليبيين والمغول، فلما تعاضمت قوة المماليك، وصارت «القاهرة» مقراً للخلافة العباسية تطلع المماليك إلى السيطرة على الحرمين الشريفين كمظهر مكمل لسيطرتهم على العالم الإسلامي، فأدرك «أبو نهي» حاكم «مكة» أن المماليك غدوا مركز الثقل في المنطقة، فأعلن الولاء لهم، وبدأ عهد

جديد في علاقة «مصر» بالحجاز سياسيا واقتصاديا، ودينيا،  
واجتماعيا، وعلميا، إذ حرص «الظاهر بيبرس» عندما ذهب للحج في  
سنة (667هـ) على تثبيت سلطان المماليك في «الحجاز»، وتقوية  
علاقتهم بها، فكان «أبو نهي» محور هذه العلاقات فترة طويلة، ثم  
من بعده أولاده وأحفاده الذين دخلوا في سلسلة طويلة من  
المنازعات والخصومات، فكان سلاطين المماليك -دائماً- يعملون على  
إيجاد الحلول لخصوماتهم، وتسليم السلطة في «الحجاز» لمن يثقون  
به منهم، ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلا في عهد المماليك  
الشراكسة، حيث ظهرت بالحجاز شخصيات قوية مثل «الحسن بن  
عجلان» الذي سيطر على الأمر في «الحجاز»، وحاول المماليك  
التدخل، ولكنهم لم يستطيعوا - في أواخر عهدهم - أن يغيروا من  
أوضاع «الحجاز» السياسية، وظل الأشراف مسيطرين على «الحجاز»  
طوال عهد المماليك، ومن بعدهم.

أمن المماليك طرق التجارة بين «مصر» و «الحجاز»؛ فقد كانت تدر  
عليهم أموالا طائلة، وأصدروا أوامرهم بإلغاء المكوس التجارية في  
الحرمين الشريفين، وأصدروا مراسيم تحدد مكوس التجارة الواردة  
إلى «جدة»، وكانوا يهّبون إلى نجدة أهل الحرمين في أزماقتهم  
الاقتصادية، ويرسلون إليهم المعونات من الحبوب والمؤون.

(113/5)

---

ولقد بذل المماليك جهوداً كبيرة في تأمين طرق الحج، والمحافظة  
على حجاج بيت الله الحرام من المعتدين وقطاع الطرق، وقام  
السلاطين بإصلاح طرق الحج، وحفر آبار جديدة لكي يأمن الحجاج  
من العطش أثناء رحلتهم لقضاء المناسك ذهاباً وإياباً، وكان يصحب  
قافلة الحجاج المصريين كثير من الأمراء والقادة وتابعيهم للدلالة على  
قوة السلطنة المملوكية، وكانت هذه القافلة تحمل معها كسوة

الكعبة التي صنعت في «مصر»، والتي حرص السلاطين على إرسالها كل عام في موكب مهيب، وأوقفوا عليها الأوقاف كي لا تنقطع، وكي تظل تأكيداً على نفوذ المماليك في «الحجاز»، وحينما حاول «شاه رخ» أن يكسو الكعبة في عهد السلطان «برسباي» وطلب السماح له بذلك، رفض «برسباي» بشدة ومن ورائه الشعب والقضاة والعلماء، لأن كسوة الكعبة شرف يمثل أقوى الروابط الإسلامية في نظرهم، ولا يمكنهم التخلي عنه. وقد حرص سلاطين المماليك على أداء فريضة الحج وزيارة الأراضي المقدسة بالحجاز؛ لكي يكونوا من بين حجاج بيت الله الحرام دون أية أبهة أو عظمة كسائر الناس. كانت الحياة الاجتماعية في الحرمين في عهد المماليك حياة هادئة باستثناء سنوات قليلة تعرضت فيها «الحجاز» للقحط، ولم يكن للمماليك يد في ذلك، فقد أجروا السبل، وحفروا الآبار والعيون حفاظاً على مدن «الحجاز» خاصة الحرمين الشريفين. لم يقتصر دور المماليك في «الحجاز» على الحرمين الشريفين؛ بل كانت لهم اليد الطولى في إثراء الناحية الثقافية بالحجاز، وأقاموا المدارس، وبذلوا الأموال للمدرسين والدارسين معاً، وكثيراً ما أرسلوا الكتب من «مصر» لكي تدرس في الحرمين، ويُستفاد منها في تلك المدارس التي ربطوا لها الأوقاف الكثيرة للإنفاق عليها؛ لذا كان عهدهم عهد ازدهار واستقرار للحرمين الشريفين وسكانهما، فقد كفاهم المماليك شرور الغزو، وتسلسل الأعداء. وإنصافاً لحق سلاطين الدولة المملوكية لا يجب أن نلقى عليهم

(114/5)

---

باللائمة فيما حدث بالحجاز من أحداث داخلية حرمته استقراره حيناً من الوقت، لأن أمراء «الحجاز» أنفسهم هم المسئولون عن ذلك بما قام بينهم من منازعات وصراعات كانت السبب الرئيسي في إشعال نار

الفتن؛ التي كثيراً ما كان يتدخل المماليك لإطفائها من أجل مصلحة سكان الحرمين الشريفين وما حولهما، إلا أن الضعف الذي دب في أوصال الدولة المملوكية في أواخر أيامها بعد اكتشاف طريق «رأس الرجاء الصالح» وتحول مسار التجارة العالمية عن «مصر»، كان سبباً جوهرياً لدخول العلاقات بين «مصر» و «الحجاز» في دور جديد في عهد السلطان «الغوري»، وحرمت «الحجاز» من مصدر مالي شديد الأهمية وتلا ذلك سقوط المماليك في الشام في معركة «مرج دابق» سنة (922هـ)، ثم معركة «الريدانية» بمصر سنة (923هـ)، فسقطت بذلك دولة المماليك وتوارت، وارتفع الستار عن الدولة العثمانية، القوة الجديدة في العالم الإسلامي؛ فكان على «الحجاز» أن ينضوى تحت لوائها ويبدأ مرحلة جديدة في تاريخ علاقاته.

(115/5)

## الفصل الحادي عشر

\*عُمان

تقع «عُمان» في أقصى الجنوب الشرقي لشبه الجزيرة العربية، ممتدة شمالي «بحر العرب»، وعلى طول «خليج عمان» حتى إمارة «الفجيرة» (إحدى إمارات دولة «الإمارات العربية» الآن)، وتقع «اليمن» غرب «عمان»، وهي تطل على البحر من جهة، وعلى الصحراء من جهة أخرى، وبذلك يمكن تقسيم سكانها إلى طائفتين متميزتين هما:

«الحضر»، و «البدو»، ويسكن «الحضر» على الساحل وبخاصة في مسقط، وهم أخلاط ممتزجة من السكان. أما «البدو» فيعيشون في المناطق الداخلية، وهم أكثر بساطة من «الحضر»، ويميلون إلى المحافظة على عاداتهم وتقاليدهم.

وتبلغ مساحة «عمان» حوالي مائة وعشرين ألف ميل مربع، وعدد سكانها - الآن - نحو مليوني نسمة.

عمان الإسلامية:

بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالرسائل إلى الملوك ورؤساء القبائل في الجزيرة العربية وخارجها، يدعوهم فيها إلى الإسلام، وكانت «عمان» آنذاك تحت حكم أسرة «الجئندي الأزدي». وكان ملكها «جيفر» رجلاً حكيماً تميز بعدله وسيرته الحسنة بين الرعية، فبعث إليه النبي - صلى الله عليه وسلم - بعمر بن العاص ومعه رسالة يدعوها فيها إلى الدخول في دين الله، فأسلم «جيفر» وقومه ووجوه العشائر وبقية الناس، ولم يكتف «جيفر» بذلك، بل عمل على نشر الدين الإسلامي قدر استطاعته، وأرسل من قبله رسلاً تحمل دعوة الإسلام إلى «مهرة» وغيرها من المناطق المجاورة لعمان، فكانت «عمان» بذلك من أولى البلاد التي دخلت في الإسلام طواعية، وكان ملكها أحد الذين عملوا على نشر الإسلام في أهله وجيرانه. عمان في العهد الأموي:

بعد موقعة «النهران» التي دارت رحاها بين أمير المؤمنين «علي بن أبي طالب» والخوارج، وبعد انقسام الخوارج على أنفسهم اتجهت الفئة المعتدلة منهم - التي كانت تعتنق «المذهب الإباضي» - إلى «عمان»، وقاموا بترويج مذهبهم ونشره بين أهل «عمان»؛ فلاقى هذا المذهب القبول بين أهل «عمان»، فلما آل أمر الخلافة إلى

(116/5)

---

الأمويين أصبحت «عمان» من مراكز المعارضة لهم، وأعلنت استقلالها عن الخلافة الأموية وساعد العمانيين في ذلك بعد بلادهم عن مركز الخلافة، وطبيعتهم الاجتماعية التي لا تقبل سيطرة خارجية، وطبيعة البلاد الجغرافية التي تجعل التوغل فيها أمراً عسيراً، وكذلك انشغال

الخلفاء الأمويين عنهم، فلما تولى «عبد الملك بن مروان» الخلافة جعل «العراق» تحت سلطة «الحجاج بن يوسف الثقفي» الذي تطلع إلى السيطرة على أرض «عمان» و «الخليج»، وتم له ما أراد بعد صراع طويل بين جيشه وأهل هذه البلاد، ففرت أسرة «الجلندي» إلى «زنجبار» التي كانت «عمان» على صلة وثيقة بها، امتدت لتشمل ساحل إفريقيا الشرقي كله. وكان «الخيار بن حبر الجاشعي» أحد ولاة «عمان» في عهد الخليفة الأموي «عبد الملك بن مروان».

المذهب الإباضي في عمان:

عاش «الإباضية» من أتباع «عبد الله بن إباح» في «عمان»، فكانوا يضمرون ثورتهم على نظام الخلافة حيناً، ويعلنونها أحياناً، حتى ولى العباسيون الخلافة فاستعاد العمانيون سلطتهم كاملاً. والمذهب الإباضي هو أقرب المذاهب إلى مذهب أهل السنة، وقد قام الإباضيون في «عمان» بدور واسع في الصراع العسكري ضد الأمويين، فامتزجت حركة العمانيين الاستقلالية بالفكر الإباضي، ونتج عن ذلك فكر جديد ساد «عمان» منذ ذلك الحين، يرفضون فيه وصفهم بالخوارج، ويفضلون الارتباط بعبد الله بن إباح، وقد تناول أحد مؤرخي «عمان» في كتابه «سلطنة عمان» الامتزاج الذي تم بين المذهب الإباضي والدم العماني فقال: «كان المذهب الإباضي هو اللواء الذي عاش في ظلّه العمانيون، ووحد بينهم في كفاحهم لنيل استقلالهم، وكانوا يستبسلون في الدفاع عن عقيدتهم وتقاليدهم».

عمان في العصر العباسي:

لم تطل مدة ارتباط «عمان» بالخلافة العباسية؛ إذ سرعان ما استقل أهل «عمان» بشئونهم عن الخلافة العباسية، وكان «أبو جعفر المنصور» أول ولاة العباسيين على شئون «العراق» الجنوبي،

فاستعمل علي «عمان» «جناح بن عباد بن قيس بن عمر الهنائي» صاحب المسجد المعروف باسمه بصحار، ثم عزله «المنصور» وولى ابنه «محمد بن جناح» الذي اتسم برزانة العقل وحكمة التفكير، فأدرك رغبة العمانيين في أن يكون واليهم منهم، وأن يكون لهم حق انتخابه بأنفسهم، فسمح لهم بذلك ووافقهم عليه، فعدوا الإمامة للجلندي بن مسعود بن جيفر بن جلندي، الذي بدأ به نظام الإمامة الإباضية في «عمان» سنة (135هـ)، إلا أن العباسيين لم يوافقوا على ذلك، وأرسلوا جيشاً حارب العمانيين، وقتل إمامهم، وظلت «عمان» بدون إمام حتى عادت إليها الإمامة ثانية في سنة (145هـ). الأئمة الإباضية في عمان:

كان «جلندي بن مسعود» الذي تولى إمامة «عمان» في سنة (135هـ) أول إمام علي «عمان» من «الإباضية»، ولم يكن نظام الإمامة متوارثاً، بل كان يتم انتخاب الأئمة بالاختيار المباشر، كما كان يتم عزل بعض الأئمة أحياناً.

وأول أئمة عمان من الإباضية هو: «جلندي بن مسعود بن جيفر بن جلندي الأزدي» (135هـ).

قتل بعد ذلك بعامين في حرب ضد العباسيين، وعادت الإمامة إلى «عمان» مرة ثانية في بداية سنة (145هـ)، فتولى الإمامة منذ ذلك الحين الأئمة:

- 1 - «محمد بن عفان الأزدي». (145هـ).
- 2 - «الوارث بن كعب اليعمدي». (185هـ).
- 3 - «غسان بن عبدالله». (192هـ).
- 4 - «عبدالمملك بن حميد الغساني». (208هـ).
- 5 - «مهنا بن جعفر اليعمدي». (226هـ).
- 6 - «الصلت بن مالك الأزدي». (237هـ).
- 7 - «راشد بن نصر (أو ابن النظر)». (273هـ).
- 8 - «عزان بن تميم». (277هـ).
- 9 - «محمد بن الحسن». (284هـ).

10 - «عزان بن خضر». (285هـ).

11 - «عبدالله بن محمد». (286هـ).

21 - «الصلت بن القاسم». (287هـ).

13 - محمد بن الحسن (للمرة الثانية). (287هـ).

14 - «الحسن بن سعد» (287هـ).

لم يكن بعض هؤلاء الأئمة محمود السيرة، مثلما وُصِفَ «محمد بن عفان»، الذي عزله المسلمون حين ساءت سيرته، كما ساءت سيرة

(118/5)

«عزان بن تميم» وكثر تنازع العمانيين فيما بينهم في عهده، فانفض الناس من حوله.

عُمان حتى نهاية القرن الرابع الهجري:

عاشت «عمان» ابتداءً من القرن الثالث الهجري فترة مضطربة؛ بسبب الخلافات والمنازعات التي خلّفت دماراً كبيراً أثر على الأوضاع الاقتصادية في «عمان»، التي شهدت خلال تلك الفترة صراعاً مريئاً بين «النزارية» و «اليمنية» وصل إلى قمته في سنة (278هـ) بهزيمة «النزارية»، ففتح هذا الصراع الباب على مصراعيه لصراع دام طويلاً في «عمان».

ولقد شهدت «عمان» ومنطقة الخليج خلال هذه الفترة صراعاً فكرياً عنيقاً أدى إلى التصادم الحربي في معارك حربية، استلزمت جهوداً كبيرة، كانت أهمها تلك المعركة التي وقعت حين هبت ثورة القرامطة التي استنفدت جهود العباسيين وأمواهم، وقامت الحرب بين العباسيين والقرامطة، وامتد خط الصراع بينهما من «البحرين» إلى «عمان»، فاضطربت الأوضاع في «عمان» نتيجة لسيطرة القرامطة عليها، وللحرب التي نشبت بين العباسيين والقرامطة. حاول الخليفة «المعتضد» (279 - 289هـ) بسط سلطانه على «عمان»،

فولى عليها «محمد بن القاسم السلمى» الذى تمكن من تكوين دولة له فى «عمان» توارثها أبناؤه من بعده، وفى الوقت نفسه كانت توجد بعمان أسرة «بنى وجيه» وحكمت بعض مناطقها، ثم قويت شوكتها لدرجة أن ملوكها تطلعوا إلى السيطرة على البصرة. فى وسط هذه الصراعات عرفت «عمان» سلطتين متعارضتين؛ إذ كان بها ملك «سلطان» فى منطقة، وإمام فى المنطقة الأخرى، فأدى ذلك إلى حدوث الصراعات والاضطرابات. ملوك آل نبهان:

ظهر ملوك «آل نبهان» ولاية للبويهيين على «عمان» فى القرن الرابع الهجرى الذى ساءت خلاله أحوال «عمان»؛ نتيجة الصراعات والاضطرابات الداخلية التى زادت بتولى «آل نبهان» حكم «عمان»؛ إذ استبدوا بأمورها، وأساءوا معاملة أهلها، ومع ذلك لم يكونوا وحدهم المسئولين عما ألمَّ بعمان من اضطرابات، فقد ساعدتهم فى

(119/5)

ذلك صراعات الأئمة التى شهدتها «عمان» خلال تلك الفترة، وظل «آل نبهان» يحكمون «عمان» حتى القرن التاسع الهجرى، ثم عادت إلى الأئمة قوتهم السياسية فى «عمان» من جديد. وكان أهم ملوك «آل نبهان» خلال هذه الفترة: «أبو عبدالله محمد بن عامر بن نبهان» وإخوته، ثم «الحسين أحمد» و «أبو محمد نبهان» وغيرهم. فلما زالت دولة «آل نبهان» بدأ الأئمة يستعيدون مجدهم وسلطتهم من جديد. الأئمة بعد آل نبهان:

بعد زوال دولة «آل نبهان» ظهر الأئمة من جديد فى سلسلة متصلة تولوا خلالها أمور «عمان»، وأئمة «عمان» بعد النبهانيين هم: 1 - «أبو الحسن عبدالله خامس ابن عامر الأزدي». (839هـ).

2 - «عمر بن الخطاب بن محمد بن أحمد بن شاذان بن الصلت  
اليحمدي». (855هـ).

3 - «عمر الشريف». (896هـ).

4 - «أحمد بن محمد». (897هـ).

5 - «أبو الحسن بن عبدالسلام». (905هـ).

6 - «محمد بن إسماعيل». (906هـ).

7 - «بركات بن محمد بن إسماعيل». (936هـ).

8 - «عبدالله بن الهنائي». (967هـ).

وكما أن الأئمة لم يسمحوا لآل نبهان بالتفرد بالسلطة في «عمان»،  
فإن النبهانيين سعوا إلى سلب السلطة من الأئمة بعد أن استقرت في  
أيديهم، وخرج «سليمان بن سليمان النبهاني» على الإمام «عمر ابن  
الخطاب اليحمدي» وحاربه في سنة (885هـ)، وتمكن الإمام «عمر» من  
السيطرة على الموقف وتم له النصر، فنشأ عن هذا الصراع المستمر  
على السلطة تمزق «عمان» وتقطيع أوصالها، وبات فيها - قبل قيام  
دولة اليعاربة - خمسة من صغار الملوك حكموا «الرستاق»،  
و «النخل»، و «سمائل»، و «سمد»، و «أبدا»، كما كانت بعض الحصون  
والمدن في قبضة بعض رؤساء القبائل.

(120/5)

## الفصل الثاني عشر

\*اليمن

الإسلام في اليمن:

حين ظهر الإسلام في شبه الجزيرة العربية كان الفرس مسيطرين على  
بعض البلاد العربية، ومنها «اليمن»، وكان عليها - آنذاك - «باذان»  
الذي ولاه «كسرى» إمبراطور الفرس، فلما وصل أمر الدعوة

الإسلامية إلى «باذان» آمن بها وأعلن إسلامه، فأقره الرسول - صلى الله عليه وسلم - على «اليمن»، فوجد الإسلام طريقه للانتشار بنواحي «اليمن»، ووفد على الرسول في العام التاسع للهجرة المعروف بعام الوفود؛ وفود متعددة قدمت من «اليمن» و «حضر موت» كانت منها وفود: «همدان»، و «خولان»، و «النخع»، و «الصراف»، و «عذرة»، و «جهينة»، و «مراد»، وغيرها، وكذلك وفد على الرسول من «اليمن»: «وائل بن حجر بن ربيعة» وكان من أبناء ملوك «اليمن»، فأدناه الرسول منه، وأجلسه على رداءه، وأقطعه أرضاً، وأرسل معه «معاوية بن أبي سفيان» ليسلمها له، وكان «أبو موسى الأشعري» وأخوه «أبو بردة»، و «ياسر بن عمار العنسي» من أشهر المسلمين الذين وفدوا على الرسول - صلى الله عليه وسلم - من «اليمن».

بنو نجاح في زبيد [403 - 555هـ]:

استتب الأمر للأمير «نجاح» في «زبيد» و «تامة»، فكتب إلى الخليفة العباسي في «بغداد» معلناً له ولاءه وطاعته للدولة العباسية، فأقره الخليفة عليها، ونعته بالمؤيد نصر الدين، وكان «نجاح» سمحاً يتبع المذهب الشافعي، فدانت له تامة طيلة حياته، فلما وافته المنية في سنة (452هـ) دار صراع طويل بين أولاده وأحفاده من جانب ودولة «صليح» التي نشأت في «صنعاء» سنة (429هـ) من جانب آخر، واستقر الأمر لبني نجاح - بعد معارك طويلة - في عام (472هـ) وبقي فيهم حتى سنة (554هـ)، وأمراء «بني نجاح» هم:

- 1 - الأمير «نجاح» (403 - 452هـ).
- 2 - «سعيد بن نجاح» (452 - 481هـ).
- 3 - «جياش بن نجاح» (483 - 498هـ).
- 4 - «فاتك بن جياش» (498 - 503هـ).
- 5 - «منصور بن فاتك» (503 - 521هـ).
- 6 - «فاتك بن منصور» (521 - 540هـ).
- 7 - «فاتك بن محمد بن فاتك» (540 - 554هـ).

سقوط آل نجاح:

جاء سقوط «بني نجاح» على أيدي «بني المهدي» الذين يعودون في نسبهم إلى أسرة حميرية هالها تحكم «بني نجاح» الأحباش في «اليمن»، فجمع زعيمها «علي بن مهدي» الجموع حوله وغزا مدينة «الكدراء» في سنة (538هـ)، وظل «بنو المهدي» من ذلك التاريخ يعملون للسيطرة على «زبيد»، وتحقق لهم ذلك في سنة (553هـ)، عندما عجز «آل نجاح» عن صدهم، ودخل المهديون «زبيد» واستقر لهم الأمر فيها.

بنو المهدي الحميريون في زبيد [553 – 569هـ]:

يرجع الفضل في تولية المهديين علي «زبيد» إلى «علي بن مهدي الحميري» الذي ينحدر من أسرة «الأغلب بن أبي الفوارس بن ميمون الحميري»، وقد عاش «آل المهدي» في قرية «العنبرة» من سواحل «زبيد».

نشأ «علي بن المهدي» نشأة دينية، وحج البيت الحرام، ولقى العلماء وأخذ عنهم العلم، ونهل من المعارف حتى أصبح واعظاً بارعاً، وعالمًا فصيحًا، فاستمال القلوب حوله، وظهر أمره بساحل «زبيد»، فقربته «أم فاتك بن منصور»؛ لصلاحه وتقاه، وأغدقت عليه هو وأهله، حتى أصبحوا من الأثرياء، وباتوا قوة كبيرة التف حولها الناس من كل مكان، في الوقت الذي ضعف فيه «آل نجاح»، ونظر إليهم اليمنيون على أنهم أحباش تحكموا في بلادهم، فسعى «علي بن المهدي» إلى طرد «آل نجاح» من السلطة، وعمل على تحقيق ذلك جاهدًا حتى تم له ما أراد في سنة (553هـ) بعد معارك طويلة، ثم أسس دولته التي سعد بها اليمنيون، لأن المهديين كانوا وطنيين امتاز مؤسس دولتهم بالعلم والخلق الطيب، فانضمت إليه جميع بلاد «اليمن» وذخائرها، إلا أن أمراء هذه الأسرة الذين جاءوا بعد «علي بن

المهدى» مؤسس دولتهم اتجهوا إلى معاملة الناس بالقسوة والشدة؛  
وانحرفوا عن الطريق التي رسمها الأمير «على»، فتهيأ الجو  
لاستقبال أى فاتح يخلص «اليمن» منهم، فلم تدم دولتهم طويلاً لدخول  
الأيوبيين «اليمن».

وولادة أسرة «المهدى» هم:

1 - «على بن المهدي» (553هـ).

2 - «مهدى بن على» (553 - 558هـ).

(122/5)

3 - «عبدالنبي بن على» (558 - 569هـ).

صنعاء

هى عاصمة «اليمن» الرئيسية، وأهم مدنها وأجملها، وكان اسمها  
«أوزال»، فلما وقعت «اليمن» تحت حكم الأحباش تغير اسمها إلى  
«صنعاء»، ومعناها: «حصينة».

ظلت «صنعاء» عاصمة «اليمن الأولى» في العصر الإسلامي، وإن  
قامت إلى جانبها عواصم أخرى للولايات المتعددة التي قامت باليمن،  
وقد عرفت «صنعاء» الحركات الانفصالية ببني يعفر، مثل غيرها من  
المدن والولايات اليمنية في ذلك العهد.

دولة بني يعفر بصنعاء [225 - 387هـ]:

بدأ نفوذ «بني يعفر» في «شيام» بحضرموت سنة (225هـ)، وامتد  
نفوذهم إلى «صنعاء» عن طريق «جعفر بن على الهاشمي» الذي  
وُلِّيَ «عبدالرحيم بن إبراهيم الحوالى الحميرى» اليمن نيابة عنه، فلما  
تُوِّفِّيَ «عبدالرحيم» قام ابنه «يعفر» مقامه، وصارع في ميادين  
عديدة، كان من أهمها: صراعه ضد «حمير بن الحارث» وإلى  
«اليمن»، وصراعه ضد «ابن زياد» حاكم «زبيد»، فلما تُوِّفِّيَ «ابن  
زياد» في سنة (245هـ) استقر سلطان «يعفر» في «صنعاء»، فبدأ

بتأسيس دولته فيها، وتم له ذلك في سنة (247هـ)، فاعتبر المؤرخون هذه الدولة هي صاحبة الفضل في تحقيق استقلال «اليمن»، إلا أنها اختلت اختلالاً واسعاً في عهد «محمد بن إبراهيم» نتيجة لافتحام الأئمة والقرامطة البلاد، فعمت فيها الفوضى، وانتهت في سنة (387هـ).

وأمرء «بني يعفر» بصنعاء هم:

- 1 - «يعفر بن عبدالرحيم» [247 - 259هـ].
  - 2 - «محمد بن يعفر» [259 - 279هـ].
  - 3 - «إبراهيم بن محمد بن يعفر» [279 - 285هـ].
  - 4 - «أسعد بن إبراهيم بن يعفر» [286 - 288هـ] وتولى مرة ثانية [303 - 332هـ].
  - 5 - «محمد بن إبراهيم» [332 - 352هـ].
- بنو صليح في صنعاء [429 - 532هـ]:

نجح «محمد بن علي الصليحي» في السيطرة على زمام الأمور في «صنعاء»، وزاد موقفه رسوخاً عندما استطاع السيطرة على «زبيد»، ويكفيه أنه حقق وحدة «اليمن» في عهده، ويقول عنه «تاج الدين

(123/5)

---

اليمني» أحد مؤرخي «اليمن»: «إن الصليحي طوى اليمن طياً، سهله وجبله، وفي سنة (455هـ) ملك الصليحي جميع اليمن إلى حضرموت، وولاه المستنصر الفاطمي أمر مكة، واتخذ صنعاء عاصمة له، وبني فيها عدة قصور، وأحسن سيرته في الرعية، وعلى الرغم من تشييعه فإنه سمح لأهل السنة بإظهار مذهبهم، وأسكن معهم ملوك اليمن الذين أزال ملكهم، وكان إذا حج اصطحبهم معه»، وأمرء الصليحيين هم:

- 1 - «علي بن محمد» [429 - 459هـ].

2 - «المكرم أحمد بن علي» [459 - 484هـ].

3 - «شمس المعالي سبأ الصليحي» [484 - 492هـ].

4 - السيدة «أروى بنت أحمد الصليحية» [492 - 532هـ].

نهایة دولة بنی صلیح:

بدأ انهيار دولة «بنی صلیح» عقب وفاة «علي بن محمد الصليحي» الأمير الأول، وقد بذل ابنه «المكرم» وزوجه «أروى» جهودًا كبيرة لاستعادة بناء الدولة إلا أن جهودهما لم تحقق الهدف المرجو منها، ولم تستطع «أروى» استعادة زمام الأمور بعد وفاة زوجها حتى ماتت سنة (532هـ)، فتفككت المملكة الصليحية بعد أن حققت فترة استقرار وأمن لليمن كان في حاجة إليها، وقد تميزت فترة الصليحيين بروح الود وبخاصة مع الدولة الفاطمية التي كان يجمعها مع الصليحيين المذهب الشيعي.

بنو همدان في صنعاء [492 - 596هـ]:

عقب وفاة «سبأ الصليحي» سنة (492هـ) مرت «صنعاء» بفترة اضطراب، وكان «حاتم الهمداني» أول من تولاها بعد «سبأ» وكان رجلاً ذكياً محباً للنهضة، كما كان ابنه «محمد» شجاعاً وجواداً، فبقيت «صنعاء» في أيدي «بنی حاتم» الهمدانيين حتى اضطربت أحوالها في نهاية عهدهم، وعمتها الفوضى، فمهد ذلك الطريق للأيوبيين، فضموها إلى سلطنتهم مع ما ضموه من «اليمن».

وسلاطين الهمدانيين باليمن هم:

1 - «حاتم بن الغشم الهمداني».

2 - «هشام بن القبيب الهمداني».

3 - «حاتم بن أحمد بن عمران».

4 - «عبدالله بن حاتم».

5 - «حماس بن القبيب».

6 - «علي بن حاتم».

7 - «معن بن حاتم».

بنو زريع في عدن [476 - 569هـ]:

عندما استولى «الصليحي» على «اليمن» مد سلطانه إلى «عدن»، فوجد بها «بني معن» الحميريين؛ فأبقاهم عليها بعد أن أظهروا ولاءهم له، فلما استقر الأمر - بعد ذلك - للمكرم الصليحي في «عدن» وما حولها جعل ولايتها «للعباس» و «مسعود» ابني «المكرم الجشمي بن يام بن أصبى الزريعي» وجعل «العباس» على حصن «التعكر» وما يليه من البر، وجعل «مسعود» على حصن «الخضراء» وما يليه من البحر وله كذلك «عدن»، فعظم سلطان «بني زريع» وأصبحوا شبه مستقلين في هذه المناطق، وبخاصة بعد نهاية دولة الصليحيين. وسلاطين آل زريع هم:

- في حصن التعكر

1 - «العباس بن المكرم» [470 - 477هـ].

2 - «زريع بن العباس» [477 - 480هـ].

3 - «أبو السعود بن زريع» [480 - 494هـ].

- في حصن الخضراء وعدن:

1 - «المسعود بن المكرم» [470 - 480هـ].

2 - «أبو الغازات بن مسعود» [480 - 485هـ].

3 - «محمد بن أبي الغازات» [485 - 488هـ].

4 - «علي بن محمد» [488 - 489هـ].

الداعي سبأ بن أبي السعود على المنطقتين [489 - 533هـ]:

كان «محمد بن سبأ بن أبي السعود بن زريع» رجلاً شجاعاً عظيم الشخصية، فتمكن من ضم حصن «التعكر» إلى حصن «الخضراء» و «عدن» في حياة أبيه، فلما ولى بعد أبيه دانت له المنطقة كلها، وقلده الخليفة الفاطمي بمصر أمر الدعوة الفاطمية في بلاده، وأطلق عليه لقب «الداعي سبأ»؛ لما كانت بينهما من علاقة طيبة، وظل في ملكه حتى مات سنة (533هـ). فجاء من بعده «عمران بن محمد بن

سبأ» [550 – 560هـ]، ثم «أبو الدرّ جوهر المعظمي» وصيا على أولاد «عمران» (560 – 569هـ)، ثم دخل الأيوبيون «اليمن» في سنة (569هـ).

مصر واليمن في العهد الفاطمي:

دأب الفاطميون قبل أن يفتحوا «مصر» وينتقلوا بخلافتهم إليها على نشر دعوتهم الشيعية في شمالي «إفريقيا»، وفي الأماكن القريبة من أضرحة أئمة آل البيت في «النجف» و «كربلاء»، وكانت «اليمن» المكان الملائم لدعوتهم، فبعثوا إليها بدعاتهم الذين تمكنوا من

(125/5)

السيطرة عليها ونشر دعوتهم بها، فلما دخل الفاطميون «مصر» واستقرت أمور دولتهم بها لم ينسوا «اليمن»، وأقاموا معه علاقات وثيقة الصلة، ووجدوا في «بني صليح» وسيلتهم للسيطرة على «اليمن»، فساعدوهم ماديا وأديبا حتى قامت دولتهم بصنعاء واتسعت في أماكن أخرى، وزاد الترابط والصلة بين «مصر» و «اليمن»، وظلت هذه العلاقة قائمة حتى سقطت دولة الفاطميين. الأيوبيون في اليمن [569 – 626هـ]:

اتجه الأيوبيون عقب سيطرتهم على مقاليد الأمور في «مصر» إلى توحيد صفوف العالم الإسلامي، فقد كان ذلك هدف «صلاح الدين الأيوبي» الذي سعى من أجل تحقيقه، فأرسل جيشاً بقيادة «توران شاه» إلى «اليمن» في شوال من سنة (569هـ)، فاتجه الجيش إلى «زبيد» وقضى على مقاومة «عبد النبي بن المهدي»، ثم اتجه إلى «عدن» وقضى على «آل زريع» فيها، ثم غادرها إلى «ذي جبلة» حيث يحكم الصليحيون دعاة الفاطميين، فتمكن منهم وقضى على دعوة الفاطميين فيها، وامتد حكم الأيوبيين إلى «صنعاء» ومناطق كثيرة من «حضر موت» بسبب ضعف الزيديين فيها، وأحكم الأيوبيون

سيطرتم على بلاد «اليمن» واتخذ «توران شاه» من «تعز» عاصمة جديدة له.

نهاية دولة بني رسول:

ظلت دولة «بني رسول» في بلاد «اليمن» أكثر من قرنين من الزمان، ثم تعرضت لعوامل الضعف التي ساعدت على انهيارها حين نشب الصراع بين الأمراء من «بني رسول»، وكانت نهاية الدولة حين ذهب السلطان «مسعود» آخر سلاطين «بني رسول» لزيارة «مصر»، فاستبد عبيده بالسلطة وأساءوا التصرف، وعاملوا الناس بغلظة، فلجأ الناس إلى «بني طاهر» أبرز عمال «بني رسول»؛ لينقذوهم من تسلط العبيد، فتقدم «بنو طاهر» وأزالوا سلطان العبيد وسيطروا لصالحهم على مقاليد السلطة، فسقطت بذلك دولة «بني رسول». بنو طاهر في اليمن [858 – 923هـ]:

تمكن «عامر بن طاهر» من السيطرة على مقاليد السلطة في «اليمن»، بعد أن أزال دولة «بني رسول»، إلا أن الأمور لم تكن سهلة

(126/5)

– آنذاك – فقد كان نفوذ الأئمة قويا، ورأوا أنهم أحق بالسيطرة على «اليمن» كله من الطاهريين، في حين طمع «بنو طاهر» في أن يكون لهم ملك «بني رسول» في شمالي «اليمن» وجنوبيه، ونشب صراع مذهبي عنيف بين الفريقين، واستمر لفترة طويلة حتى تمكن الظافر الثاني «عامر بن عبد الوهاب بن طاهر» من هزيمة الأئمة، فدانت له «اليمن» شمالا وجنوباً، واستكمل الطاهريون ما بدأه «آل رسول» في بناء حضارة «اليمن»، فانتشرت في عهدهم المدارس والمساجد، واختطوا مدينة «المقرانة» في «رواع»، وشيدوا بها القصور العظيمة، وأقاموا الحدائق البديعة، وشهدت «اليمن» في عهدهم نهضة علمية عظيمة، وبرز فيها العلماء والمؤرخون، وبلغت العلوم الرياضية

والفلكية والبحرية والجغرافية في عهدهم شأواً كبيراً، فكان «أحمد بن ماجد العدني»، و «سليمان المهري» من علماء هذا العصر، وتلمذ على أيديهما البحارة والجغرافيون من البرتغاليين والأتراك، ولأحمد بن ماجد مؤلفات بلغ الموجود منها أربعين مؤلفاً في الجغرافيا والملاحة وأحوال البحار وطرقها، وظل الطاهريون في دأبهم من أجل بناء حضارة «اليمن» حتى جاءت نهايتهم على أيدي المماليك في سنة (945هـ) بحجة حماية طرق التجارة. وسلاطين بني طاهر هم:

- 1 - الظافر (الأول) «عامر بن طاهر» [857 - 870هـ].
- 2 - «المجاهد علي بن عمر» [870 - 883هـ].
- 3 - «المنصور عبد الوهاب بن طاهر» [883 - 894هـ].
- 4 - الظافر (الثاني) «عامر بن عبد الوهاب» [894 - 923هـ].
- 5 - «عامر بن داود بن طاهر» [929 - 945هـ] (احتفظ «عامر» بعدن حتى سنة 945هـ).

المماليك في اليمن [923 - 945هـ]:

ترك المماليك «اليمن» تحت حكم أبنائه من «بني رسول» و «بني طاهر»، وظل اسم سلطان المماليك واسم الخليفة العباسي يذكران في الخطبة وينقشان على السكة باليمن حتى عهد المماليك الجراكسة، وذلك مظهر من مظاهر سيادة المماليك على بلاد «اليمن»، ثم استطاع البرتغاليون في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي أن

(127/5)

---

يجدوا طريقاً تجارياً إلى «الهند» و «الشرق الأقصى» بدون المرور على «البحر الأبيض» و «البحر الأحمر»، فكان هذا الاكتشاف الذي عرف بطريق رأس الرجاء الصالح ضربة قاصمة لسلطان المماليك في «مصر» والشام، وحاول البرتغاليون تأمين طريقهم الجديد، فعمدوا

إلى احتلال بعض المناطق المهمة، واحتلوا «جزيرة كمران» اليمنية وهاجموا «عدن» واحتلوها، ثم بسطوا نفوذهم على أجزاء كبيرة من «اليمن»، فاتجه المماليك بقيادة السلطان «الغوري» إلى محاولة استعادة نفوذهم، وقطع طريق البرتغاليين الجديد، وكان الصراع محتدمًا - وقتها - في «اليمن» بين الأئمة والطاهريين، فدخل المماليك «اليمن» وقضوا على الطاهريين بعد أن رفضوا مساندتهم في حربهم ضد البرتغاليين، فكان دخول المماليك «اليمن» لرد البرتغاليين عنه، ولحماية طرق تجارتهم، واستعاد المماليك «جزيرة كمران» التي احتلها البرتغاليون بيد أن الأمور لم تستقر لهم في هذه البلاد؛ إذ كثرت مناهضة الأئمة الزيديين لهم، ودخل العثمانيون الشام و «مصر» بعد هزيمة المماليك في موقعي «مرج دابق» و «الريدانية»، فسقطت دولة المماليك، وبسط العثمانيون نفوذهم على «مصر»، ومن ثمّ مدوه على «اليمن» فدانت لهم في سنة (945هـ)، ودخل «اليمن» مرحلة جديدة من الحكم في تاريخه تحت حكم العثمانيين.

(128/5)

## الفصل الثالث عشر

### \*البحرين

كانت المناطق التي تقع على امتداد الساحل الغربي للخليج العربي تُسمّى: «البحرين» أو «الإحساء» أو «هجر»، وذكر ذلك «ياقوت الحموي» بقوله: «البحرين اسم جامع للبلاد على ساحل الخليج بين البصرة وعمان، وتُسمّى هذه المنطقة أيضًا هجر وقيل: إن هجر قصبه البحرين، فيها عيون ومياه وبلاد واسعة».

الإسلام في البحرين:

بعث الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعلاء بن الحضرمي إلى

«البحرين» ليدعو أهلها إلى الإسلام، وأرسل - صلى الله عليه وسلم - كتابًا إلى «المنذر بن سلوى التميمي» حاكم «البحرين» يدعوه فيه إلى الإسلام، فأسلم من ساعته، فثبتته النبي في مكانه، فظل به حتى وفاته سنة (11هـ) فتولى «البحرين» من بعده «العلاء بن الحضرمي» الذي توفى سنة (20هـ)، فتولى من بعده عدد من كبار الصحابة والتابعين، ومنهم:

«قدامة بن مظعون»، و «أبو هريرة»، و «عثمان بن أبي العاص»، و «مروان بن الحكم»، و «عبيدالله بن العباس»، و «المهاجر ابن عبدالله الكلابي»، وجدير بالذكر أن «عثمان بن أبي العاص» أحد ولاة «البحرين» كان أحد القادة الكبار في عهد «عمر بن الخطاب»، وأسهم في فتح بلاد فارس، وقد ترك أخاه «المغيرة بن أبي العاص» خليفة له على «البحرين» حين جهاده في فتح فارس. البحرين في عهد الخلفاء الراشدين:

ظهرت الردة في بعض قبائل «البحرين»، ووجدوا صفوفهم لمحاربة المسلمين، فأرسل إليهم «أبو بكر الصديق» جيشًا بقيادة «العلاء بن الحضرمي» تمكن من إخماد ردتهم، وإعادةهم إلى الإسلام ثانية، وتمكن «العلاء» من توجيه عدة ضربات إلى الفرس الذين يثيرون القلاقل في المنطقة حتى استدعاه «عمر بن الخطاب» وولاه على «البصرة»، وظلت «البحرين» موضع عناية الخلفاء الراشدين. البحرين في العهد الأموي:

اهتم الأمويون بالبحرين؛ لصلتها ببلاد فارس التي كانت تثير القلاقل في البلاد الإسلامية كلما سنحت لها الفرصة، وظلت «البحرين» موضع

(129/5)

---

عناية الأمويين حتى قامت ثورة «ابن الزبير» فانشغل بها «مروان بن الحكم»، و «عبدالمملك بن مروان» من بعده عن منطقة الخليج؛ فضعفت

الرقابة عليها، فانتهاز الخوارج هذه الفرصة وأتخذوا من «البحرين» مستقرا لهم، فاجتمع حولهم عدد كبير، وحاربوا من وقف في طريقهم، وزاد نشاطهم بصورة كبيرة، وأصبحت لهم شوكة قوية في عهد «بني أمية» وساعدهم في ذلك الاضطرابات التي كانت في المنطقة إضافة إلى انشغال الخلافة عن هذه البقعة، وظلت سيطرتهم في «البحرين» قائمة قوية حتى تمكن الأمويون من كسر شوكتهم والقضاء عليهم في سنة (105هـ)، وتعتبر فرقة «النجادات» من أشهر فرق الخوارج التي دخلت «البحرين» في هذه الفترة، وينسبون إلى «نجدة بن عامر الحنفي» الذي جمعهم بالبحرين.

البحرين في العصر العباسي:

شهدت منطقة الخليج استقراراً ملحوظاً خلال العهد العباسي، باستثناء بعض الثورات المتفرقة، التي لم تؤثر على سياسة الدولة العباسية حتى نهاية العصر العباسي الأول في سنة (232هـ)، ثم انتقلت البلاد بعد ذلك إلى مرحلة تميزت بازدياد نفوذ الأتراك وتسلبهم، فجذبت منطقة «البحرين» كثيراً من الحركات القوية المدمرة التي اتسمت بانحرافها الفكري، مثل «حركة صاحب الزنج»، و «حركة القرامطة» التي استهدفت الإسلام، واستنزفت أموال المسلمين والخلافة العباسية وجهودهم، فخلف ذلك أضراراً هائلة في النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية للبلاد، حتى تمكن المسلمون من القضاء على «حركة الزنج» سنة (270هـ)، ثم على القرامطة من بعدهم.

العيونيون في البحرين:

«العيونيون» فرع من «بني عبد القيس»، وكانوا يسكنون على مشارف «العيون» بالإحساء، وكان منهم «عبدالله بن علي العيوني» الذي ثار على القرامطة وقضى عليهم، ثم سيطر «العيونيون» على «البحرين» وبدأ حكمهم فيها في عام (467هـ)، وشمل «الإحساء»، و «البحرين»، و «القطيف»، فنعمت البلاد في عهدهم بالاستقرار

والهدوء وانتعشت التجارة، واتسع ملكهم حتى شمل «نجد»، وتميز عهدهم بالحضارة العلمية الزاهرة، وظل الأمر مستقرا في «البحرين» حتى نشبت الصراعات والخلافات الداخلية من جديد، فهياً ذلك الفرصة أمام الفرس لدخولها.

وأهم أمراء «العيونيين» هم:

1 - «الفضل بن عبدالله بن علي».

2 - «محمد بن الفضل».

3 - «محمد بن أحمد بن عبدالله».

الفرس في البحرين:

انتهز ملك فارس الخلاف الذي وقع بين أمراء «العيونيين»، وضعف البلاد، فدخل «جزيرة قيس» وأخلاها من العرب، ثم اجتاز بجنوده البحر إلى «البحرين»، واستولى عليها وعلى «الإحساء» و «قطيف» وغيرها من بلدان الخليج؛ فاضطر العرب إلى عقد الصلح معه، فكان ملك الفرس يولى على «البحرين» ولاية من العرب يحكمون باسمه، فأضعف ذلك حالة «البحرين» وبلاد الخليج عامة.

المغول في البحرين:

بدأ الزحف المغولي على العالم الإسلامي في القرن السابع الهجري، فدمروا كل ما قابلهم من حضارة أقامها المسلمون بجهودهم وأموالهم في فترات طويلة، وعاث المغول في الأرض الفساد، وأراقوا دماء الآلاف من المسلمين، وخضعت «البحرين» لسيطرتهم، كما خضعت غيرها، وبقيت قوى الشر والفساد مهيمنة حتى كتب الله النصر للمسلمين عليهم في «عين جالوت»، فخرجوا من العالم الإسلامي.

المماليك في البحرين:

كان لانتصار المماليك على المغول أكبر الأثر في توحيد صفوف

المسلمين حولهم، فأقبلت الوفود على السلطان «بيبرس» من كل مكان لتعلن ولاءها لحكمه، وتعترف بدولته، وكان «آل عامر» بزعامه «محمد بن أحمد» في طليعة الوفود التي وفدت إلى «مصر»، فأكرمهم السلطان «بيبرس»، وأغدق عليهم المنح والعطايا، وأقرهم على «البحرين»، فظلت «البحرين» منذ ذلك التاريخ تابعة لحكم المماليك حتى حل العثمانيون، فدخل العالم الإسلامي كله طوراً جديداً في تاريخه في ظل الخلافة العثمانية.

(131/5)

- المراجع:

- \* إبراهيم علي طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة - القاهرة - 1960م
- \* بن الأثير (عز الدين): الكامل في التاريخ - دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولى - 1987م
- \* بن إياس (محمد بن أحمد): بدائع الزهور في وقائع الدهور - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - الطبعة الثانية - 1402هـ = 1982م
- \* بن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة - القاهرة - 1963م
- \* حكيم أمين عبد السيد: قيام دولة المماليك الثانية - الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة - 1966م
- \* بن خلدون (عبد الرحمن بن محمد): تاريخ ابن خلدون - مؤسسة جمال للطباعة والنشر - بيروت - 1979م
- \* بن خلكان (أحمد بن محمد): وفيات الأعيان - تحقيق إحسان عباس - دار صادر - بيروت - 1398هـ = 1978م
- \* سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام - دار النهضة العربية - القاهرة - الطبعة الأولى - 1965م
- \* السيد الباز العريبي: مصر في عصر الأيوبيين - القاهرة - 1960م

- \* أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن): كتاب الروضتين في أخبار الدولتين - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - القاهرة - 1962م
- \* الطبري (محمد بن جرير): تاريخ الطبري - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف - القاهرة - بدون تاريخ
- \* بن القلانسي (حمزة بن أسد): ذيل تاريخ دمشق - مكتبة المتنبي - القاهرة - بدون تاريخ
- \* القلقشندي (أحمد بن علي): صبح الأعشى في صناعة الإنشا - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى - 1987م
- \* بن كثير (إسماعيل بن عمر): البداية والنهاية - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الرابعة - 1987م
- \* الكندي (أبو عمر محمد بن يوسف): كتاب الولاة والقضاء - نشر رفن جست - مطبعة الآباء اليسوعيين - بيروت - 1908م

(132/5)

- 
- \* محمد جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق - دار الفكر العربي - القاهرة - 1957م
- \* محمد عبد الله عنان: الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - الطبعة الثانية - 1379هـ = 1959م
- \* محمد كرد علي: خطط الشام - دمشق - 1925م
- \* المقرئزي (أحمد بن علي): السلوك لمعرفة دول الملوك - تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عبد الفتاح عاشور - القاهرة - 1973: 1956م
- \* النويري (أحمد بن عبد الوهاب): نهاية الأرب في فنون الأدب - الهيئة المصرية العامة - القاهرة - تواريخ مختلفة
- \* بن واصل الحموي: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - تحقيق محمد جمال الدين الشيبان - القاهرة - 1953م
- \* ياقوت الحموي: معجم البلدان - دار إحياء التراث العربي - بيروت - 1979م

(133/5)

## المغرب الإسلامي

تأليف:

أ. د. حسن علي حسن

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة القاهرة

### الفصل الأول

#### \*المغرب الإسلامي

يمثل «المغرب الإسلامي» الجناح الغربي لأقاليم الدولة الإسلامية؛

وقد أسهم منذ اعتناق أبنائه الإسلام في بناء صرح الحضارة

الإسلامية، ويمتد من «برقة» شرقاً حتى «الحيط الأطلسي» غرباً،

ويطل على «البحر المتوسط» شمالاً.

وقد استخدم بعض المؤرخين لفظة «المغرب» بمعناها العام على

المنطقة الواقعة غرب «مصر» والممتدة من «برقة» حتى «الحيط

الأطلسي»، بينما أطلق آخرون لفظة «المغرب» على أقاليم بعينها،

ولذا قسموا المغرب إلى ثلاثة أقاليم متميزة هي:

1 - المغرب الأدنى: (أى إفريقية) وكانت قاعدته في صدر الإسلام

مدينة «القيروان»، وقد اشتمل هذا الإقليم على عدة مدن منها:

«باجة» و «بونة» و «بنزرت» و «قسطيلة» و «صفاقس» و «قفصة»

و «تونس» و «سوسة»، وغيرها من المدن.

2 - المغرب الأوسط: ويمتد من «بجاية» إلى «وادي ملوية»، وقاعدته

مدينة «تلمسان»، ويشتمل على عدة مدن منها: «تنس» و «جيجل»

و «القلعة» و «المسيلة» و «طبنة» و «مليلة»، وغيرها من المدن.

3 - المغرب الأقصى: ويمتد من «وادي ملوية» و «جبال تازا» حتى

«الحيط الأطلسي»، وقاعدته مدينة «فاس» ثم «مراكش»، ويشتمل

على عدة مدن منها: «فاس» و «مكناسة» و «سلا» و «درعة».  
السطح:

كان لمظاهر السطح في بلاد «المغرب» دوراً أثر في التاريخ السياسي للمنطقة، بما اشتمل عليه من سهول ساحلية، وأودية وجبال وصحراء ممتدة، وقد ظهر تأثير هذا في عملية الفتح الإسلامي للمغرب؛ إذ استغرق نحو سبعين سنة، وينقسم سطح المغرب إلى ثلاث مناطق متميزة هي:

1 - المنطقة الساحلية: وهي المنطقة المطلة على «البحر المتوسط» و «المحيط الأطلسي»، ويفصلها عن الداخل سلسلة «جبال أطلس»، التي تمتد من أقصى الغرب متجهة إلى الشرق. وتختلف المنطقة الساحلية ضيقاً واتساعاً؛ تبعاً لاقتراب الجبال من البحر أو بعدها عنه، فقامت تجمعات سكانية في المناطق الساحلية الواسعة، وساعدتها الظروف الطبيعة والأرض الخصبة والمناخ المعتدل على

(1/6)

---

إقامة زراعة ناجحة، نتج عنها نمو اقتصادي، فأصبحت هذه المناطق مطمناً للمستعمرين من «الرومان» و «الوندال» و «البيزنطيين»؛ حيث أقاموا في هذه المناطق وأسسوا بها المدن والقواعد العسكرية. إلى جانب السهل الساحلي توجد منطقة سهول داخلية، تكونت حول مجرى الأنهار التي أسهمت إسهاماً بارزاً في مدد السكان بما يلزمهم من المياه، وربطت إقليم الساحل بالمناطق الداخلية؛ ولعل أبرز هذه السهول: سهل «شادية» و «دكالة» بالمغرب الأقصى، وسهل «وادي شليف» بالمغرب الأوسط، وسهل «وادي مجردة» بالمغرب الأدنى.

2 - منطقة الجبال: مثلت منطقة الجبال حاجزاً طبيعياً بين منطقة السهول ومنطقة الصحراء، وقد وصفها «ابن خلدون» بقوله: «بقاصية المغرب من أعظم جبال المعمورة بما أعرق في الثرى أصلها. وذهبت

في السماء فروعها، ومدت في الجو هياكلها. ومثلت سياجًا على ريف المغرب سطورها. وتبتدى من ساحل البحر المحيط عند آسفى وما يليها، وتذهب في المشرق إلى غير نهاية». وتبرز أهمية هذه الجبال في الدور الذى لعبته في تاريخ هذه البلاد؛ حيث وقفت سدا منيعًا في وجه الطامعين من «الفينيقيين» و «الرومان» و «الوندال» وغيرهم. وقد حصرت جبال «أطلس التل» و «الأطلس الصحراوى» هضبة امتلأت بالمراعى، فاستغلها السكان في تنمية ثرواتهم الحيوانية بالمغرب الأوسط، ويُطلق عليها: «منطقة الشطوط».

3 - منطقة الصحراء: وتنقسم إلى عدة أجزاء، أولها: منطقة «الواحات»، وهى المنطقة التى تلى منطقة الجبال، وتمتد من «مصر» شرقًا حتى «وادي درعة» في جنوب «المغرب الأقصى».

وتعود أهمية هذه المنطقة إلى كونها حلقة الاتصال بين الأقاليم المختلفة بالمغرب، كما كانت طريق القوافل والحجاج، لتوفر آبار المياه بها، وتمتعها بالأمن الذى وفرته القبائل المقيمة بهذه المنطقة نظير بعض المال، وقصر المسافة التى تقطعها القوافل إذا قيست بطريق الساحل المحفوف بالمخاطر.

(2/6)

---

وتلى منطقة «القبلات» منطقة «الواحات» من الناحية الجنوبية، وهى آخر العمران في الصحراء، وتضم: «فزان» في «ليبيا»، و «بسكرة» في «الجزائر»، و «سجلماسة» في «المغرب الأقصى»، وتمتعت «القبلات» بمركز تجارى بارز؛ حيث كانت ملتقى قوافل التجارة الآتية من الشمال أو من جنوب الصحراء الكبرى.

ثم تلت منطقة رمال الصحراء المعروفة بالعرق منطقة «القبلات»، وهى بداية الصحراء الكبرى التى تنعدم فيها الحياة، وتتخللها الهضاب

المرتفعة المعروفة باسم: «الحمارات»، وقد أُطلق على هذه المنطقة اسم: «مناطق الموت»؛ نظرًا إلى انعدام مظاهر الحياة بها. سكان المغرب:

عاش بالمغرب قبل الفتح الإسلامي ثلاثة أمم من السكان، لكل منها سماته ومميزاته، هي:

1 - الروم: وهم الطبقة الحاكمة للشريط الساحلي للمغرب؛ إذ لم تمكنهم طبيعة البلاد وصعوبة الحياة بها من التوغل إلى داخلها، فضلًا عن بغض القبائل لسلطة المستعمرين، واستقر بعض هؤلاء الروم هناك واشتغلوا بالتجارة وزرعوا الأرض، إلى جانب عملهم بالإدارة الحكومية.

2 - الأفارقة: وهم خليط من بقايا الأمم التي احتلت بلاد المغرب من الرومان والوندال وغيرهم، وهم ليسوا من البربر، ولكنهم انصهروا في حياتهم الجديدة بمدن المغرب واستقروا بها، واختلطوا بالمتحضرين من البربر، ولم تكن تجمعهم بأهالي البلاد إلا الحياة المشتركة، المرتبطة بأسباب المعيشة.

3 - البربر: وهم الغالبية العظمى من سكان بلاد المغرب؛ وأصحاب البلاد الأصليين، وقد تصدوا للفتح الإسلامي - في أول الأمر - ثم لم يلبثوا أن ساندوه، بعد أن اختلطوا بالمسلمين وعرفوا الدعوة الإسلامية ومبادئها السامية، فأقبلوا على الإسلام وآمنوا به، وحملوا رايته إلى «الأندلس»؛ مبشرين به ومدافعين عنه. المغرب قبل الفتح الإسلامي:

تعرض إقليم المغرب قبل الفتح الإسلامي لموجات من الغزو الروماني والوندالي والبيزنطي، وعاشت المنطقة في ظل سلطة أجنبية حاولت

صبغها بحضارتها وأسلوبها في الحياة على النحو الآتي:

– الحكم الروماني للمغرب: بدأ أول اتصال بين المغرب والرومان حين استولى الرومان على «إفريقية» في سنة (146 ق. م)، ثم على «نوميديا» في سنة (46 ق. م)، واتجه الرومان منذ وطئت أقدامهم هذه البلاد إلى بناء المدن على السواحل وفي الداخل؛ لاتخاذها مراكز وقواعد لإقامة الحاميات الرومانية وحكام الولايات، وقد تضمنت هذه المدن بين جنباتها كثيراً من المنشآت والمعابد والساحات والملاعب وغيرها، ويتضح ذلك في مدينة ولبلي التي بناها الرومان على رأس جبل، وجعلوا لها أبواباً عالية واسعة، ويبلغ طول سورها نحو ستة أميال، وقد حوت هذه المدينة آثاراً وأنقاضاً كثيرة، ترسم صورة لمعالم الحضارة الرومانية التي كانت قائمة في تلك المنطقة، وقد حاول الرومان نشر حضارتهم ولغتهم وديانتهم بين أهل المدن من البربر، وبخاصة الذين كانوا يعملون بمزارعهم وضياعهم، لكنهم لم يجدوا استجابة لمحاولاتهم، ولم تتمكن الحضارة الرومانية من فرض نفسها بصورة واضحة على البربر، خاصة في الداخل، حيث تضعف السيطرة الرومانية.

– الحكم الوندالي للمغرب: خلف الوندال الرومان في احتلال بلاد المغرب سنة (429هـ)، ولم يكونوا أهل حضارة بل كانوا شعباً همجياً، عُرف بوحشيته وقسوته، فاهتم حكامه بفرض الضرائب التي أثقلت كاهل المغريين وجمعها، فضلاً عن ذلك فقد خرّب القائد الوندالي «جنديك» القلاع والحصون في المدن المغربية باستثناء «قرطاجنة» العاصمة، حتى لا يتحصن بها البربر ويشقوا عصا الطاعة على الوندال، ومن ثم لم يُخلف الوندال آثاراً حضارية بالمغرب، وكان حكمهم بمثابة سحابة سوداء جثمت قرناً من الزمان على أرض المغرب.

– الحكم البيزنطي للمغرب: قامت الإمبراطورية البيزنطية على أنقاض الإمبراطورية الرومانية، فاستعاد البيزنطيون الحكم في بلاد المغرب في سنة (533م)، واهتموا بالعمارة وأنشئوا القصور والكنائس

والحصون، ذات الطابع البيزنطي، التي تأثر بها المسلمون في إنشاء مساجدهم، واستخدموا ما تبقى من آثارهم في تشييد أبنيتهم، ومع ذلك لم تختلف سياسة البيزنطيين عن سابقهم، ففرضوا الضرائب، وتعسفوا في جمعها، وانصرفت جهود حكامهم إلى جمع الأموال بكل السبل، فأدى ذلك إلى تخلى المزارعين عن أراضيهم، واضطر التجار إلى إغلاق متاجرهم، واتجه كثير من الناس إلى السلب والنهب، مما أدى إلى قيام العديد من الثورات ضد هذا الظلم. ولقد تركت هذه الأمم بصماتها على حياة البربر، وخاصة في المدن والمناطق الساحلية، كما تأثر الشعب المغربي بحضارتهم على مراحل متعاقبة من الزمن. ومما سبق نلمس تمركز الإدارة الأجنبية بقواتها في منطقة الساحل، وحرص هذه الإدارة على الاستفادة بقدر ما تستطيع من خبرات البلاد، ولعل هذا يفسر مدى مقاومة المغاربة للعرب، الذين مكثوا سبعين سنة في محاولات دائبة ومستمرة لفتحها، إذ عدُّوهم أجنباً مثل غيرهم من الرومان والوندال فقاوموهم كل هذه الفترة مقاومة شديدة.

الفتح الإسلامي للمغرب:

بعد أن فتحت مصر على يد القائد «عمرو بن العاص» سنة (21هـ = 642م)، كان من الطبيعي أن يمتد هذا الفتح تجاه المغرب في «برقة» و «طرابلس» باعتبارهما الامتداد الجغرافي الطبيعي للمنطقة، وإلى رغبة المسلمين في تخلص هذه الشعوب من قبضة المستعمرين، وإتاحة الفرصة أمامها لتعرف الدين الإسلامي للدخول فيه والإيمان به. وقد مرَّ الفتح الإسلامي لهذه البلاد بعدة مراحل هي:

المرحلة الأولى وهي مرحلة الاستطلاع:

وتبدأ من سنة (21هـ=642م) إلى سنة (49هـ=669م) وتشمل هذه المرحلة جهود ثلاثة من قادة الفتح الإسلامي وهم:

- عمرو بن العاص:

هو القائد العسكري الخبير، والصحابي الجليل «عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم» الذي أعلن إسلامه في العام الثامن الهجري، وشارك بدور بارز في النشاط العسكري للمسلمين في عهد النبي - صلى الله

(5/6)

عليه وسلم-، وعهد «أبي بكر الصديق»، فلما تولى «عمر بن الخطاب» أمور الخلافة أسند إليه بعض المهام العسكرية، ومنها فتح «مصر»، فلما فرغ من ذلك توجه بقواته إلى مدينة «برقة» فاستسلمت للقائد المسلم دون قتال، ووافقت على شروطه، ودخل بعض أبنائها في الإسلام، وارتضى بعضها الآخر دفع الجزية مقابل الاحتفاظ بعقيدته.

وكان أغلب سكان هذه المدينة من قبيلة «لواته» البترية. فلما اطمأن «عمرو» إلى استقرار الأوضاع ببرقة قسم قواته إلى جزئين، وخرج على رأس أحدهما نحو «طرابلس»، وبعث بالجزء الثاني إلى «زويلة» و «الواحات الداخلية»، حتى لا يكون الفتح مقصوراً على الشريط الساحلي فحسب، ولكي يأمن الهجوم عليه من الخلف وقد دل عمرو بن العاص بذلك على براعة عسكرية وخبرة بفنون القيادة ومعرفة بأحوال المنطقة وطبيعتها.

كانت «طرابلس» مدينة حصينة ذات أسوار عالية فحاصرها فترة ثم تمكن من فتحها بعد صدام لم يطل مع القوة البيزنطية الموجودة بالمدينة، ولم يمكث «عمرو» طويلاً بعد أن تم له فتح «طرابلس»، وسارع بإرسال جزء من جيشه إلى مدينة «سبرت» لمفاجأتها قبل أن تستعد لملاقاته، وفوجئ أهلها بالمسلمين على أبواب مدينتهم، فسقطت دون عناء.

وكان يمكن لعمرو بن العاص أن يمضى في مسيرته ليفتح إفريقية،

لكنه لم يكن ليفعل ذلك دون استئذان الخليفة «عمر بن الخطاب» ومشاورته، فبعث إليه برسالة جاء فيها: «إن الله قد فتح علينا طرابلس، وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها، ويفتحها الله على يديه فعل». ولكن الخليفة رفض رغبة «عمرو بن العاص» في استمرار الفتح، لحرصه على حياة الجنود، وعدم الرجح بهم في ميادين بعيدة عن مقر الخلافة، خاصة وأن الخليفة «عمر بن الخطاب» كان على علم ودراية بأحوال إفريقية، ولديه انطباع بأنها تمثل خطورة شديدة على الجيش الفاتح لكثرة ثوراتها واشتعال الفتن والفتن والفتن بها من حين إلى آخر، ولذا

(6/6)

توقف الفتح ورجع «عمرو بن العاص» إلى «مصر» قبل منتصف سنة (23هـ = 644م)، بعد أن مهّد الطريق لمن سيأتي بعده.

عبدالله بن سعد بن أبي السرح:

أحد صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أسلم قبل الفتح الإسلامي بمكة، وتولى إمارة «مصر» في سنة (25هـ = 646م)، خلفاً لعمرو بن العاص، فأخذ يصرف أمورها ويدبر شئونها، ويبعث بالسرايا للإغارة على أطراف إفريقية، ولكنه شعر أن هذه السرايا لم تعد كافية لتأمين الحدود الغربية لمصر، فبعث إلى الخليفة «عثمان بن عفان» يستأذنه في الخروج على رأس حملة عسكرية تجاه إفريقية لتأمين «مصر» والمسلمين من الخطر البيزنطي المسيطر على إفريقية، فتشاور الخليفة مع من حوله، ووافق على مطلب «ابن أبي السرح»، وأمدّه بجيش كبير، ضم نخبة من الصحابة والتابعين بقيادة «الحارث بن الحكم»، فلما وصل «مصر» انضم إلى قوات عبدالله بن أبي السرح فصارت نحو عشرين ألفاً، وانطلق بها إلى إفريقية التي كانت تحت حكم القائد البيزنطي «جرجوريوس» المعروف باسم

«جرجير» في المصادر العربية.

استعد هذا القائد استعدادًا جيدًا لملاقاة المسلمين، وتحصن في مدينة «سيبلة»، وعسكر المسلمون في بلدة «قمونية» التي تبعد بضعة أميال عن مدينة «سيبلة»، ثم بدأت المفاوضات بين الطرفين، وعرض المسلمون شروطهم كما أمر الإسلام، وهي: الإسلام، أو الجزية، أو القتال، ولكن المفاوضات فشلت، وفشل معها الحل السلمي، وبدأت المناوشات العسكرية بين الطرفين، وشعر المسلمون بقوة البيزنطيين؛ لقوة تحصيناتهم وكثرة عدد جنودهم، وحين ظنوا أن النصر لن يحالفهم أقبل عليهم «عبدالله بن الزبير» بمدد من «المدينة» كان له أثر في تحقيق النصر للمسلمين، ففتحوا مدينة «سيبلة» وقتلوا القائد البيزنطي «جرجير»، وتمكنوا من الاستيلاء على المعاقل والحصون، وجمعوا مغام كثيرة، حتى إن سهم الفارس بلغ ثلاثة آلاف دينار (للفرس ألفا دينار، وللفارسه ألف) وللراجل ألف

(7/6)

وكان من المتوقع بعد هذا النصر العظيم أن يواصل المسلمون زحفهم صوب «المغرب الأوسط»، إلا أن «عبدالله بن أبي السرح» قرر فجأة العودة بجنده إلى «مصر»، ولعل الذي دعاه إلى ذلك ما علمه من تأهب البيزنطيين واستعدادهم لخوض معركة شرسة ضد المسلمين انتقامًا لمقتل «جرجير» وسقوط «سيبلة»، فأثر عدم المخاطرة بجنوده، واكتفى بما حقق، خاصة أن المسلمين لم تكن لهم قاعدة عسكرية قريبة يلجأون إليها عند الحاجة، ولذا عاد بجيشه إلى «مصر».

ثم توقف النشاط العسكري في إفريقية بعد ذلك لتوالى الأحداث وتلاحقها في المشرق، حيث ثار بعض الخارجين على الخليفة «عثمان بن عفان»، وانتهى الأمر باستشهاده، فخلفه الإمام «علي بن أبي

طالب»، ولم يلبث أن استشهد هو أيضاً، فتولى «معاوية بن أبي سفيان» خلافة المسلمين.

معاوية بن حديج:

أدرك «معاوية بن أبي سفيان» أهمية إفريقية من الناحية الاقتصادية، ودورها المؤثر في البحر المتوسط، فضلاً عن موقعها الجاور لمصر الإسلامية، فأرسل «معاوية بن حديج» على رأس جيش لمناصرة الجهاد في إفريقية، فخرج إليها سنة (45هـ=665م)، والتقى بالبيزنطيين عند «قمونية»، ودار قتال مرير بينهما أسفر عن انتصار كبير للمسلمين، وقتل كثير من البيزنطيين، ثم مضى المسلمون نحو «جلولاء» واستولوا عليها بعد قتال شديد.

وإلى هنا تنتهى المرحلة الأولى من مراحل الفتح التي أُطلق عليها: «مرحلة الاستطلاع»، وترجع أهميتها إلى أنها مكنت المسلمين من الاحتكاك بالبربر على أرض «المغرب»، ومعرفة أحوال هذه البلاد، مما كان له أثر في إقبال بعض سكان المنطقة من البربر -وبخاصة في «برقة» - على الإسلام.

المرحلة الثانية:

وهى مرحلة الارتكاز والانتشار، وتمتد من سنة (50هـ=670م) إلى سنة (64هـ=684م)، وتتضمن ولايتي: «عقبة بن نافع» الأولى والثانية، وولاية: «أبي المهاجر دينار».

عقبة بن نافع:

تولى «عقبة بن نافع» إمرة الجيش في سنة (50هـ=670م) وتوجه إلى

(8/6)

---

إفريقية، ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يتوجه فيها إلى إفريقية؛ إذ إنه اشترك من قبل فى حملة «عمرو بن العاص» على «برقة»، وتولى فتح المناطق الداخلية بها، وأقام فيها فترة، ونشر

الإسلام بين سكانها، فأكسبه ذلك خبرة ومعرفة بأوضاع البلاد وحالة سكانها.

انطلق «عقبة» على رأس قواته التي بلغت عشرة آلاف مقاتل إلى إفريقية، متخذًا الطريق الداخلي، ومبتعدًا عن الطريق الساحلي؛ لكثرة القلاع والحصون البيزنطية على الساحل، ولرغبته في استخدام عنصر المفاجأة مع سكان الواحات، لتحقيق نصر سريع فتحقق له ما أراد، واستولى على كثير من المدن والقلاع والحصون مثل: «ودن»، و «جرمة» و «قصور فزان»، و «خادار»، و «غدامس»، كما استولى على مدينتي «قنصة» و «قسطيلية».

رأى «عقبة» أن أفضل طريقة لتثبيت الفتح الإسلامي في هذه المنطقة هو بناء مدينة يسكنها الناس تصبح قاعدة عسكرية، وتكون مركزًا لأعمال الفتح القادمة، فوقع اختياره على مكان مدينة «القيروان»، وكان واديًا كثير الشجر، تأوى إليه السباع والوحوش والهوام، فأعده هو ومن معه من المسلمين وبنى به مسجدًا ودارًا للإمامة، ثم بنى الناس دورهم حول المسجد، وظلت عمليات البناء هذه حتى سنة (55هـ=675م).

وتجلت عبقرية «عقبة» في حسن اختياره لمكان المدينة؛ إذ توافر فيه البعد الكافي عن شواطئ البحر المتوسط، ليأمن المسلمون غارات الأسطول البيزنطي المتكررة، والقرب من قبائل البربر ووسط معاقليهم، وهي خطوة عملية في سبيل اجتذابهم إلى الدين الإسلامي، واندماجهم مع العرب الفاتحين، يضاف إلى ذلك أن موقع «القيروان» كان على الطرق الموصلة إلى «مصر»، وبذلك ضمن «عقبة» سلامة خطوط إمداده من «مصر»، ولكنه لم يستمر ليبنى ثمرة جهوده، إذ تم عزله، وتولى «أبو المهاجر دينار» إمارة الجيوش وولاية المغرب بدلا منه.

أبو المهاجر دينار:

أقبل «أبو المهاجر» على «القيروان»، وكره المقام فيها، فاختط

لجنوده معسكرًا يبعد عنها نحو ميلين، ثم أقام به، وأخذ يوجه نشاطه الديني والعسكري منه، ويروى أنه خرج على رأس حملة كبيرة وصلت إلى مدينة «تلمسان»، كما فتح «جزيرة شريك»، وعامل البربر بمودة وعرفهم بحقيقة الدين الإسلامي وعمل على نشره بينهم، ولم يستمر «أبو المهاجر» طويلاً؛ إذ تم عزله، وعودة «عقبة ابن نافع» مرة ثانية.

عقبة بن نافع:

عاد «عقبة» إلى المغرب ثانية في سنة (62هـ=682م)، بقرار من الخليفة «يزيد بن معاوية بن أبي سفيان»، وقد اختلفت ولايته الثانية عن سابقتها؛ إذ بينما تميزت ولايته الأولى ببعض الأعمال العسكرية الداخلية في «إقليم الواحات»، وقضاء الشطر الأكبر منها في تأسيس مدينة «القبروان» وتعميرها، نراه في ولايته الثانية يقوم بغزوة كبرى، يصل فيها إلى شواطئ «المحيط الأطلسي»، وقد انطلق عبر الطريق الداخلي بعيداً عن الساحل، ودخل في معارك عنيفة مع الروم حتى أجبرهم على الفرار، وتمكن من فتح أمنع حصونهم مثل: «لميس»، و «باغاية»، ثم فتح «أذنة» قاعدة «الزاب»، واستولى على مغام كثيرة منها، بعد معارك ضارية مع أهلها، ثم اتخذ طريق الساحل ليطلق أبواب «المغرب الأقصى»، وتم له ذلك، فكان أول فاتح عربي تطأ قدماه هذا الإقليم، فبادر «بطنجة» أهم مدن الإقليم، فأسرع حاكمها «يليان»، وقدم فروض الطاعة لعقبة مع كثير من الهدايا والتحف، فانطلق «عقبة» عقب ذلك إلى مدينة «وليلي» ومنها إلى بلاد «درعة» و «السوس» والتقى هناك مع جموع البربر في معركة حامية، وتمكن من هزيمتهم، وواصل مسيرته حتى بلغ المحيط. ولم ينس خلال كل هذه الأحداث الهدف الأسمى الذي خرج من أجل تحقيقه، فبنى مسجداً بالسوس وآخر بدرعة وجعل بهما بعض فقهاء

المسلمين ودعاتهم، لتعليم سكان هذه البلاد قواعد الدين الجديد، ثم أذن «عقبة» لجزء كبير من قواته بالعودة إلى «القيروان» لطمأنة أهاليهم، بعد غياب استمر ما يقرب من عام، وبقي «عقبة» مع الجزء

(10/6)

المتبقى من الجيش، وكان عدده نحو خمسة آلاف مقاتل. استعان «كسيلة» زعيم البربر بالروم على العرب الفاتحين، وأعد كل منهما عدته وجنوده لملاقاتهم، ثم قطعوا خط الرجعة على «عقبة» ومن معه عند «سهل تهودة»، فاقتتل الفريقان قتالا شديداً، واستشهد «عقبة» وعدد كبير ممن كانوا معه، ودخل «كسيلة» زعيم البربر مدينة «القيروان»، فانتهت بذلك المرحلة الثانية من مراحل الفتح.

المرحلة الثالثة:

وهي مرحلة إتمام الفتح، وتمتد من سنة (669هـ=688م) إلى سنة (90هـ=709م)، وتشمل جهود ثلاثة من القادة الفاتحين، وهم: «زهير بن قيس»، و «حسان بن النعمان»، و «موسى بن نصير».

- زهير بن قيس البلوى:

أحدث استشهاد القائد «عقبة بن نافع» ومن معه من أبطال المسلمين أثراً سيئاً في نفوس المسلمين المقيمين بالقيروان، وضاعت جهودهم في الإقامة بالمنطقة؛ حيث زحف «كسيلة» وجنوده على «القيروان»، وبذل «زهير بن قيس» - الذي خلف «عقبة» في إدارة شؤون البلاد - كل جهوده في بث الحماسة والحمية في نفوس المقيمين بها، وحثهم على الثبات بقوله: «يا معشر المسلمين، إن أصحابكم قد دخلوا الجنة، وقد من الله عليهم بالشهادة، فاسلكوا سبيلهم، ويفتح الله لكم دون ذلك». ولكن الخوف كان قد سيطر على نفوس الناس، فأثروا الرحيل على الإقامة، وذهبت كل جهود «زهير» سدىً، واضطر إلى التخلي

عن «القيروان»، وتوجه إلى «برقة» مع من استطاع الرحيل من المسلمين، وظل بعض المسلمين - ذوى الظروف الخاصة- بالقيروان، وطلبوا الأمان من «كسيلة» فمنحهم إياه، وأعلن نفسه أميراً على المدينة.

توقف النشاط العسكرى بالمغرب مدة خمس سنوات تقريباً، بسبب الأحداث التى واجهتها الخلافة الأموية فى دمشق، حيث توفى الخليفة «يزيد بن معاوية» فاضطرب البيت الأموى نتيجة لذلك، ثم تولى «مروان بن الحكم» الخلافة، وقامت ثورة «عبدالله بن الزبير» بمكة، فاستنزفت هذه الثورة وقت وجهد «مروان بن الحكم» وابنه «عبدالمملك» من بعده.

(11/6)

---

ثم تولى «عبدالمملك بن مروان» الخلافة بدمشق فى سنة (65هـ= 685م)، فواجهته المشاكل والثورات العديدة، ولكن ذلك لم يمنعه من التفكير فى أوضاع إفريقية، وضرورة استعادة نفوذ المسلمين بها، واستشار من حوله فى ذلك، واستقر رأى على ضرورة تجهيز حملة جديدة، يكون على رأسها «زهير بن قيس»؛ لمعرفته بطبيعة المنطقة وأحوال الناس هناك، فضلاً عن شجاعته وحبه للجهاد، فأرسل الخليفة بذلك إلى «زهير» ببرقة، وأمده بما تحتاج إليه هذه الحملة، وحشد إليه وجوه العرب، ووفر له المال اللازم، فرتب «زهير» أموره، وخرج للقاء «كسيلة» وجموع البربر والروم، فعلم «كسيلة» بتحركات «زهير» وفضّل الخروج لملاقاته خارج «القيروان». خشية أن ينضم المسلمون المقيمون بها إلى جيش «زهير»، واختار منطقة «ممس» التى تبعد مسافة يوم عن «القيروان»، لتكون معسكراً لجنوده، لوفرة المياه بها وقربها من الجبال، التى يمكن الاحتماء بها، أو الهروب إليها إذا ما حلت الهزيمة بجنوده.

وصل «زهير» على رأس قواته إلى «القيروان»، واستراح خارجها عدة أيام عبأ فيها قواته، وتجهز للمعركة، ثم انطلق للقاء «كسيلة» وجموعه من البربر والروم عند «ممس»، ودارت بين الفريقين معركة حامية؛ حمى فيها اللوطيس، وكثر عدد القتلى من الفريقين، ولكن المسلمين صمدوا، وتمكنوا من قتل «كسيلة»، فذبَّ الضعف والوهن في جموع البربر والروم، وتكاثر عليهم المسلمون من كل مكان، وقتلوا منهم عددًا كبيرًا، وتبعوهم حتى فروا من أرض المعركة؛ يجرون وراءهم أذيال الهزيمة المنكرة.

انتهز الروم فرصة رحيل الجيش الإسلامي من «برقة» إلى «القيروان»، وقرروا مباغته مدينة «برقة»، مستعينين ببعض قطع أسطولهم الراسية على شواطئ «صقلية»، وانطلقوا بها صوب «برقة»، فلم تستطع المدينة مقاومتهم وسقطت بين أيديهم، فألحقوا بها الدمار واستولوا على ما فيها من أموال، فضلًا عن السبايا والأسرى، ولما

(12/6)

بلغت هذه الأنباء المؤلمة مسامع «زهير» أسرع بمن معه من الجنود -وكانوا قلة- لنجدة المدينة، ولكن الروم كانوا أكثر، فخرجوا عليه وعلى جنوده من كل مكان، وأسفر ذلك عن هزيمة المسلمين واستشهاد «زهير».

- حسان بن النعمان:

لم يستطع الخليفة «عبدالمملك بن مروان» اتخاذ موقف حاسم إزاء الكارثة التي حلت بالمسلمين بإفريقية، نظرًا لانشغاله بثورة «عبدالله بن الزبير»، فلما قضى عليها، عاوده التفكير ثانية في إفريقية، وكيفية معالجة أوضاعها، وبدأ في البحث عن قائد جديد يتولى مهمة قيادة حملة جديدة على إفريقية، ووقع اختياره على القائد «حسان بن النعمان». الذي كانت له مكانة مرموقة لدى بني أمية،

وحرصت الخلافة على أن تهيء له عوامل النصر، فحشدت له أعدادًا  
غفيرة من الجنود، ووفرت له العدة والعتاد اللازمين فانطلق «حسان»  
إلى إفريقية على رأس جيش تعداده أربعون ألف مقاتل، وعزم على  
القضاء على قوة الروم، وخطورتهم على التواجد الإسلامي بهذه  
البلاد، وما إن وصل بجيشه إلى «القيروان» - على أرجح الآراء - في  
سنة (74هـ = 693م) حتى أخذ يستفسر ويسأل عن أماكن تجمعات  
الروم، وعدد جنودهم، وأنواع معداتهم، فعلم أن «قرطاجنة» هي  
مركز تجمعات الروم وعاصمتهم بإفريقية، فانطلق بقواته نحوها، ثم  
حاصرها. وقد كانت مدينة حصينة وتضم أعدادًا كبيرة من الروم،  
وكتب الله له شرف اقتحامها وفتحها بعد مشقة وجهد كبيرين، ثم  
مضى نحو «صطفورة» وقضى على من بها من جنود الروم والبربر،  
ثم توجه إلى «بنزرت» وفتحها؛ وقضى على معقل الروم بها، ثم  
عاد إلى «القيروان» لكي يرتاح الجند، ويستعدوا للمواجهة القادمة.  
وبعث «حسان» بالعيون لمعرفة إمكانات «البربر» وأماكن  
تجمعاتهم، وأخذ يسأل من حوله عنهم وعن زعمائهم، فعرف أن  
هناك كاهنة تدعى «داهيا» من قبيلة «جرادة» البربرية، تمكنت  
بادعاءاتها وكهانتها من السيطرة على معظم قبائل البربر، وبسطت

(13/6)

---

نفوذها عليهم منذ ما يقرب من خمسة وثلاثين عامًا، وهي تقيم فوق  
جبل «أوراس»، وقد اتخذته هي وأعوانها معقلًا وحصنًا.  
وانطلق «حسان» بجنوده صوب معقل الكاهنة وجموعها من البربر،  
والتقى الفريقان في وادي «مسكيانة»، ودارت بينهما معركة  
طاحنة، انتهت بهزيمة المسلمين، وانسحاب «حسان» بمن معه منها،  
وعادوا إلى «برقة»، ثم بعث «حسان» بما حدث إلى الخليفة  
«عبد الملك»، موضحًا له عوامل الهزيمة، ومدى قوة الكاهنة بمن معها

من حشود البربر، فبعث إليه الخليفة بأن يقيم بجنوده في مكانه حتى تعدّ الخلافة الإمدادات اللازمة لجولة أخرى، وامتلئ «حسان» لقرار الخليفة، وشيد هو ومن معه مساكن للإقامة بها.

وكانت الكاهنة قد أسرت جماعة من المسلمين، وأبقت على حياتهم لتعرف منهم أخبار المسلمين وإمكاناتهم، وقد استأثرت بخالد ابن يزيد - أحد الأسرى - ومنحته عطفها، وجعلته في منزلة ابنها، فاستغل هذه الفرصة وأمدّ قائده - سرًا - بالمعلومات عن أوضاع الكاهنة وأخبار معاويها، ومن معها من البربر، في الوقت نفسه ظنت الكاهنة أن المسلمين مثلهم مثل بقية الغزاة الذين جاءوا إلى هذه البلاد بغية الاستيلاء على أموالها وثوراتها وخيراتها، ولذا أمرت أعوانها بتخريب البلاد وهدم حصونها ونهب أموالها، راجية من وراء ذلك أن يرحل المسلمون عن هذه المنطقة لانعدام السبب الذي جاءوا من أجله. ولاشك أن هذا تصور خاطئ، وظن ليس في محله، لأن هدف المسلمين الأوحده هو إتاحة الفرصة للشعوب لتعرف الإسلام، ونشر العدل والمساواة بين الناس، وقد جاءت خطوة التخريب التي قام بها أعوان الكاهنة بعكس ما كان متوقعًا، فضلًا عن تدهور اقتصاد البلاد، وسارع سكان هذه المدن باللجوء إلى المسلمين والاحتماء بهم، مطالبين بإنقاذهم مما حل بهم على أيدي الكاهنة وأعوانها، فكان لذلك أثره في دعم قوة المسلمين. خاصة وأن أهل «قابس» و «قفصة» وغيرهم، أمدوهم بالمال وأعلنوا لهم الطاعة.

(14/6)

---

انطلق «حسان» بقواته لملاقاة الكاهنة، ودارت بينهما معركة عنيفة؛ أسفرت عن مقتل أعداد كثيرة من أتباع الكاهنة، ثم مقتل الكاهنة نفسها عند بئر، عرف فيما بعد باسم: «بئر الكاهنة».

وهكذا استطاع «حسان» أن يقضى على مقاومة البربر مثلما قضى

من قبل على جحافل الروم، وعمد إلى تثبيت أقدام المسلمين في «إفريقية» و «المغرب الأوسط»، وقام ببعض الأعمال المهمة، التي من شأنها تثبيت عملية الفتح في المنطقة، فعمر مدينة «ترشيش»، وهي تبعد نحو (12) ميلا عن شرقي «قرطاجنة»، لتكون ميناء عربيا إسلاميا، بدلا من «قرطاجنة» البيزنطية التي تم هدمها في المعارك، ثم أنشأ بها داراً لصناعة السفن، ليكفل حماية شواطئ المغرب الإسلامية من تطلعات البيزنطيين وغاراتهم، واتبع «حسان» سياسة جديدة في إدارة شئون هذه البلاد، ووضع الأسس التي تجعل من «المغرب» ولاية عربية؛ تعتمد على مواردها، دون الاعتماد على غيرها في شيء، ومن هذه الأسس:

أولاً: أنشأ إدارة حكومية، واعتبر أرض المغرب مفتوحة صلحاً لا عنوة مع الذين أسلموا من أهلها، ومعنى ذلك أن يؤدوا عنها ضريبة العشر، أما الأراضي التي كانت ملكاً للبيزنطيين ومن قاوم الفتح من الأفارقة وغيرهم، فقد اعتبرها «حسان» مفتوحة عنوة، ولذا اعتبرها من أملاك المسلمين، واعتبر من وجددهم عليها موالى لهم، فكان لهذه الناحية الاقتصادية المهمة أثر بالغ في نفوس البربر.

ثانياً: عمد إلى إشراك البربر بجيشه، ورغبهم بالغانم، وعاملهم معاملة الجند العرب في الحقوق والواجبات، وأدى ذلك إلى مزيد من الاحتكاك بين المسلمين والبربر، مما دفع الكثيرين منهم إلى الدخول في الإسلام.

ثالثاً: وزع مسئولية الحكم على القبائل المختلفة، واختص كل قبيلة بناحية معينة تمشيا مع طبيعة البلاد.

ولهذه السياسة التي رسمها «حسان بن النعمان» وأرسى قواعدها أعظم الأثر في نفسية البربر، وفي علاقتهم بالعرب الفاتحين،

وازدادت معرفتهم بالدين الجديد الوافد عليهم، ودخله الكثيرون منهم،  
ودخل «المغرب» في طور جديد من التنظيم السياسي، ثم عُزل  
«حسان»، وعُيِّن «موسى بن نصير» مكانه.

- موسى بن نصير:

وصل الوالي الجديد «موسى بن نصير» إلى «القيروان»، سنة (86هـ=705م)، فألقى على الناس فور وصوله خطبة، أعلن لهم فيها سياسته  
التي سينتهجها لفتح بقية أقاليم المغرب، ثم انطلق موسى على رأس  
قواته إلى قلعة «زغوان» التي على مسيرة يوم من «القيروان»،  
واستولى عليها، في الوقت الذي أرسل فيه أبناءه على رأس  
مجموعات من الجند لإخضاع المناطق المحيطة بالقيروان، وقد نجحوا  
في تحقيق ما خرجوا من أجله، وكان هدف «موسى» من ذلك تأمين  
خطوطه الخلفية إذا ما خرج للجهاد بالمغربين الأوسط والأقصى، فلما  
تحقق له ما أراد، انطلق إلى «المغرب الأوسط» وأخضع قبائله، وفتح  
قلاعه وحصونه، ثم انطلق إلى «المغرب الأقصى»، متبعا سياسته  
التي سار عليها في جميع حملاته العسكرية، وتتمثل في توزيع  
نشاطه العسكري في شتى الاتجاهات في آن واحد، لبث الرعب في  
قلوب الأعداء، فأجبر البربر على الفرار إلى المناطق البعيدة، ونجح  
في بسط نفوذ المسلمين على «المغرب الأقصى» حتى بلاد «درعة»،  
ثم استولى بعد ذلك على «طنجة»، وكان أول من نزلها، واختط فيها  
للمسلمين، وجعل عليها مولاه «طارق بن زياد».

وقد اتبع «موسى بن نصير» سياسة من سبقه من الولاة في نشر  
الدين الإسلامي بين صفوف «البربر»، وترك الدعاة يحفظون الناس  
القرآن الكريم، ويعلمونهم تعاليم الدين، وكذلك بنى المساجد،  
وأشرك البربر -مثلما فعل «حسان» من قبل- في حكم البلاد. ويتضح  
ذلك في توليته «طارق بن زياد» -الذي يرجع نسبه إلى البربر- شؤون  
«طنجة» عاصمة «المغرب الأقصى» وأهم مدنه - آنذاك- وقد قاد طارق  
-فيما بعد- جيشا كبيرا من البربر لفتح بلاد «الأندلس».

ثم صدرت الأوامر من قبل الخلافة باستدعاء «موسى»، فأسرع بتنفيذ

الأمر، وترك ابنه «عبدالله» بالقيروان، خلفاً له في إدارة «المغرب»، وانطلق صوب المشرق في سنة (96هـ = 715م)، فانتهت بعودته إلى المشرق أعمال الفتح المختلفة؛ وبدأ بالمغرب عصر جديد؛ هو عصر الولاية.

لقد استمرت أعمال فتح «بلاد المغرب» نحو سبعين سنة، وأخذ ذلك جهداً كبيراً؛ بذلت فيه الخلافة الإسلامية كثيراً من الرجال والأموال، وهذا يغير بصورة واضحة أعمال الفتح الأخرى التي قام بها المسلمون في الأقاليم الأخرى، مثل: «الشام» و «مصر»، وكان لذلك أسبابه، مما أحرَّ عملية الفتح.

أولاً - طبيعة المكان:

لعل من أبرز أسباب تأخر فتح «بلاد المغرب» هو بُعد هذه المنطقة عن مقر الخلافة الإسلامية، فضلاً عن طبيعة منطقة القتال، وهي ساحل ضيق، تركزت فيه مقاومة البيزنطيين، وتجاورها جبال شاهقة، لجأت إليها جموع البربر واعتصمت بها، يضاف إلى ذلك وجود صحراء واسعة يشق على الحارب اجتيازها.

ثانياً - البيزنطيون:

وهم الذين استعمروا هذه المنطقة منذ زمن بعيد، ولذلك عرفوا أهميتها، ومقدار خيراتها وثرواتها، فدافعوا عنها بكل ما يملكون رغبة منهم في إبقاء هذا المورد الثَّرى، الذي يدعمون بما يحصلون عليه منه اقتصاد بلادهم وبقاء حضارتهم، وقد عمد البيزنطيون إلى محاربة المسلمين، فضلاً عن تأليب جموع البربر عليهم، كما حدث في علاقة «كسيلة» معهم.

ثالثاً - سكان البلاد (البربر):

بات «البربر» لا يرحبون بأى قادم نحوهم، دفاعاً عن حريتهم وأرضهم، وذلك ناتج عن القهر والذل والهوان الذي سيطر عليهم

أعوامًا طويلة على يد الاستعمار الأجنبي لبلادهم، وكانت المقاومة أشد وأعنف من قبل هؤلاء الذين نالوا حظًا من الحضارة، حيث كانوا ملاصقين للبيزنطيين، ومتأثرين بدعايتهم.

رابعًا - المسلمون الفاتحون:

لعل الأحداث السياسية التي كان يمر بها المشرق الإسلامي، فضلا عن الفتن والثورات التي انشغلت بها الخلافة الإسلامية - آنذاك - من بين أسباب تأخر فتح «بلاد المغرب».

(17/6)

## الفصل الثاني

### \*عصر الولاة

- الولاة في العصر الأموي:

تعد فترة تبعية المغرب للخلافة (عصر الولاة) - والتي تمتد من سنة (96هـ = 715م) إلى سنة (184هـ = 800م) - من أهم الفترات وأخطرها

في تاريخ المغرب الإسلامي، وقد اختلفت هذه الفترة عن سابقتها، لأن فترة الفتح كان يغلب عليها النشاط العسكري، واتسمت بالامتداد والانحسار، والخوف والاضطراب، ولم يعرف المسلمون شيئًا من الاستقرار بالمغرب إلا بعد تأسيس مدينة «القيروان» على يد «عقبة بن نافع»، ثم تم لهم الاستقرار بفضل جهود: «زهير بن قيس»، و «حسان بن النعمان»، و «موسى بن نصير».

وقد اتسم عصر الولاة بسمات وصفات معينة؛ فهو عصر الاستقرار العربي على أرض «المغرب»، ووضح فيه موقف الخلافة من المنطقة، وما ترتب على ذلك من علاقة بين الخلافة والولاة، فضلا عن علاقة الولاة بسكان هذه البلاد، يضاف إلى ذلك الأوضاع السياسية المختلفة التي ترتبت على هذه العلاقات؛ حيث ثار «المغرب الأقصى» وانفصل

عن «الخلافة الأموية»، ثم انتقلت عدوى الثورة إلى المغربين الأوسط والأدنى، وبذلت «الخلافة العباسية» جهودًا كبيرة، وأموا طائلة، ورجالًا كثيرين، في سبيل الحفاظ على هذه الأقاليم، ولكن الأمور أسفرت عن مجرد سلطة اسمية للخلافة العباسية على «المغرب الأدنى» ممثلة في قيام «دولة الأغالبة»، وقامت دويلات مستقلة بالمغربين الأوسط والأقصى.

وسوف نعرض تاريخ هذا العصر، ونستعرض تاريخ ولايته، وهم: - محمد بن يزيد:

استشار الخليفة «سليمان بن عبد الملك» فيمن يصلح لولاية إقليم المغرب، فأشار عليه المحيطون به بمحمد بن يزيد مولى قريش، لما يتمتع به من صفات الفضل والحزم، فوقع عليه اختيار الخليفة «سليمان بن عبد الملك»، ومنحه ولاية «المغرب» وأوصاه بقوله: «يا محمد بن يزيد اتق الله وحده لا شريك له، وقم فيمن وليتك بالحق والعدل. اللهم اشهد عليه»، فعمل «محمد» بهذه الوصية منذ تولى

(18/6)

مقاليد البلاد، واستقر بالقيروان، فأقام سياسة العدل بين سكان هذه البلاد، وسار فيهم بأحسن سيرة، ثم عمد إلى تجديد النشاط العسكري، وأرسل السرايا والبعوث إلى أماكن متفرقة من أرض المغرب، فحققت نجاحًا ملحوظًا فيما ذهبت من أجله، وعادت بالمغانم الكثيرة والنصر المظفر. وظل «محمد بن يزيد» واليًا على «المغرب» حتى وفاة «سليمان بن عبد الملك»، فعزل من ولايته بعد أن قضى بها سنتين وعدة أشهر.

- إسماعيل بن عبد الله (100 - 101هـ = 718 - 719م):

اختاره الخليفة «عمر بن عبد العزيز» لصفاته الحسنة وسمعته الطيبة، لتولى هذا المنصب في سنة (100هـ=718م)، وبعث معه مجموعة من

التابعين، منهم: «سعد بن مسعود التجيبي»، لمعاونته في نشر الإسلام، وتعليم الناس قواعده، وقد أثمرت سياسة «إسماعيل» الطيبة بين الرعية، في إقبال البربر على اعتناق الدين الإسلامي، وأسلم جميع البربر في أيامه كما ذكر «ابن خلدون».

ولاشك أن سياسة الدولة الإسلامية عامة، التي انتهجها الخليفة العادل «عمر بن عبدالعزيز»، كان لها أثرها الواضح على كل أقاليم الدولة، خاصة وأن الخليفة قد حرص على اختيار ولاة أكفاء؛ يتخلقون بأخلاق الإسلام، لذا أشار كثير من المؤرخين إلى الدور الإيجابي الذي قام به «إسماعيل بن عبدالله» في تعليم «البربر» القرآن، وقواعد الحلال والحرام، وقد عُزل «إسماعيل» من منصبه عقب وفاة الخليفة «عمر بن عبدالعزيز» في سنة (101هـ = 720م)، فتولى «يزيد بن أبي مسلم» ولاية «المغرب» خلفاً له.

- يزيد بن أبي مسلم:

لم يُقر الخليفة «يزيد بن عبدالملك» -الذي تولى الخلافة خلفاً لعمر بن عبدالعزيز في سنة (101هـ = 720م) - سياسة اللين والتسامح التي انتهجها الخليفة السابق «عمر»، واستوجب ذلك تغييراً عاماً في سياسة الدولة، فعزل جميع الولاة، وعين آخرون مكافئهم. وكان «يزيد بن أبي مسلم» من بين الولاة الجدد.

أقبل «يزيد» إلى «القبروان» في سنة (101هـ = 720م)، وتولى مقاليد

(19/6)

---

الأمر فيها، واتبع سياسة الشدة والحزم تجاه أهل «المغرب» مثلما اتبعها مع أهل «العراق» من قبل، وفرض الجزية على من أسلم من أهل الذمة ليزداد الدخل المالى فى خزينة الدولة، كما أنه خصّ طائفة من قبيلة «البتة» البربرية بحراسته دون غيرها، وأساء إلى آل «موسى بن نصير» وبعض الشخصيات العربية المقيمة بالقبروان،

فأثار عليه ذلك حفيظة بعض حرسه من غير «البت» وقتلوه.

- بشر بن صفوان:

تحرك «بشر» تجاه «المغرب» في أواخر سنة (102هـ=721م)، وقد بدأ أعماله بالتحقيق في مقتل «ابن أبي مسلم»، واكتشف أن هناك بعض المحرضين للجند على فعل ذلك لإشعال الفتنة، فأمر بإعدامهم كما أمر بعزل «الحسن بن عبدالرحمن» والى «الأندلس» من منصبه، وولى مكانه «عبدالله بن سحيم الكلبي»، ثم قام في سنة (109هـ=727م) بحملة بحرية على «جزيرة صقلية»، وعاد منتصرًا ومحملاً بكثير من المغام والأسلاب، ثم مرض عقب عودته من هذه الغزوة، ومات في العام نفسه.

- عبيدة بن عبدالرحمن السلمى:

وصل القيروان في سنة (110هـ=728م)، فأرسل «المستنير بن الحبحاب الحرشي» أحد القادة العسكريين على رأس حملة بحرية إلى «صقلية»، ولكن هذه الحملة لم تحقق نجاحًا، وغرقت معظم سفنها. وقد عين «عبيدة» بعض الولاة من قبله على «الأندلس» في سنة (114هـ=732م)، ثم توجه إلى مقر الخلافة بدمشق، وطلب إعفائه من منصبه، فأجيب إلى مطلبه.

- عبيدالله بن الحبحاب:

وصل «عبيدالله» إلى «المغرب» في سنة (116هـ=734م)، وبدأ ولايته بتجهيز حملة بقيادة «حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع»، وبعث بها لفتح بعض المناطق؛ لتأمين الأقاليم الإسلامية بالمغرب، فتوغلت هذه الحملة حتى وصلت إلى «السوس الأقصى»، وأرض «السودان»، وحقق الأهداف التي خرجت من أجلها.

وقد انتهج «عبيدالله» سياسة مغايرة لسابقه، فأسرف في جمع

الأموال مستخدمًا القسوة والقوة وشرع في تخميس البربر، أى اعتبر

من أسلم منهم ومن لم يسلم فيئاً للمسلمين، بخلاف ما اعتاد عليه هؤلاء البربر حيث منح الولاة من أسلم منهم نفس الحقوق والواجبات الخاصة بالمسلمين كما أنه أركى نار العصبية القبلية، حيث حابي أبناء قبيلته من القيسية وأساء معاملة اليمانية وغيرهم، فكانت النتيجة أن قامت الثورات المدمرة في أقاليم «المغرب»، ودخل البربر في صراع مسلح مع ولائهم من العرب، وترتب على ذلك انفصال «المغرب الأقصى» عن سلطة الخلافة بدمشق.

كلثوم بن عياض القشيري:

وقع اختيار الخلافة عليه، لتولى مقاليد الأمور بالمغرب، ومواجهة الأحداث الخطيرة التي نشبت على أرضه، وتوجه على رأس جيش كبير تعداده سبعون ألف مقاتل إلى هذه البلاد، ودعمته الخلافة بكل ما يحتاج إليه، ووصل على رأس جيشه إلى «بقدورة» بالمغرب الأقصى، ودخل في معركة شرسة مع جحافل البربر، وقد انتهت هذه المعركة بهزيمة جيش العرب، فضلا عن مقتل «كلثوم» نفسه ومعه كثير من زعماء الجيش، وفرّ الباقي إلى «طنجة» ومنها إلى «الأندلس».

- حنظلة بن صفوان الكلبي:

كان «حنظلة» والياً على «مصر»، وكان ذا كفاءة عالية وخبرة كبيرة، فضلا عن إمامه بأخبار «المغرب» وأوضاعه بحكم الحوار بين «مصر» و «المغرب»، فوقع عليه اختيار الخليفة «هشام بن عبد الملك» لتولى شئون «المغرب»، وأمره بالتوجه إليها في سنة (124هـ=742م)، فخرج على رأس جيش بلغ تعداده ثلاثين ألف مقاتل، قاصداً «القيروان»؛ لمواجهة أحداث المغرب.

ووصلت الأخبار إلى «حنظلة» بمسير البربر إليه في جيشين كبيرين،

أحدهما بقيادة «عكاشة الصفري الخارجي»، والآخر بقيادة

«عبد الواحد بن يزيد الهواري»، وقد سار الجيشان في طريقين

مختلفين، فاضطر «حنظلة» إلى لقاء كل جيش على حدة، وبدأ

بمحاربة جيش «عكاشة» وأنزل به هزيمة كبيرة؛ أعادت الثقة إلى

نفوس جيشه، ثم كان اللقاء الثاني بجيش «عبدالواحد» عند «باجة»،  
ودارت بين الفريقين معركة عنيفة، انتهت بهزيمة جيش الخلافة،

(21/6)

وعودة ما تبقى منه إلى «القيروان» استعدادًا لمحاولة ثانية. ثم حشد  
«حنظلة» كل ما استطاع من قوة، وخرج للقاء البربر، ودارت بينهما  
معركة، أثبت جيش «حنظلة» فيها كفاءة عالية وصبراً على القتال،  
فانتصر جيش الخلافة وقتل «عبدالواحد» قائد البربر، فضلاً عن مقتل  
عدد كبير من جنوده، فمكّن هذا النصر للأمويين في البلاد، ودعم  
وجودهم فيها، وعمد «حنظلة» إلى إقرار الأمن والطمأنينة في  
النفوس، ثم بعث بأخبار هذا النصر إلى مركز الخلافة «بدمشق» في  
شعبان سنة (125هـ = يونيو 743م)، فتوافق هذا الوقت مع وفاة  
الخليفة «هشام بن عبدالمملك»، وتولى «الوليد الثاني بن يزيد» خلفاً  
له.

واجه «حنظلة» مشكلة كبيرة، تمثلت في نزول «عبدالرحمن بن  
حبيب» أحد زعماء العرب على شواطئ «تونس» قادماً من «الأندلس»،  
وقد استغل هذا الرجل اضطراب الأوضاع في «دمشق»، وضعف والي  
«القيروان» بسبب الحروب الكثيرة التي خاضها مع البربر، وسعى  
إلى جمع عناصر من العرب والأفارقة والبربر حوله، ثم نزل بهم منطقة  
«سمنجة» في سنة (127هـ = 745م)، استعداداً للاستيلاء على  
«القيروان» وعلى مركز السلطة فيها.

وحاول «حنظلة» معالجة الأمور بطريقة ودية، فاختار خمسين من  
فقهاء «القيروان» وزعمائها، وأرسلهم إلى «عبدالرحمن» للتفاوض  
معه، فألقى القبض عليهم وهدد بقتلهم إن لم يتخلى «حنظلة» عن  
الإمارة، ويترك «القيروان» خلال ثلاثة أيام، وألا يأخذ من بيت المال  
إلا ما يكفيه مئونة السفر، فوافق «حنظلة» على مطالب «عبدالرحمن»

حفاظاً على أرواح مَنْ بعث بهم إليه، وترك «القبروان» في جمادى الآخرة سنة (127هـ = مارس 745م) فدخلها «عبدالرحمن». ثم وافقت الخلافة على تعيينه والياً على بلاد «المغرب». الولاية في العصر العباسي:

استقر «عبدالرحمن بن حبيب» بالقيروان في سنة (127هـ)، وعمل على الاستقلال بالمغرب، فواجه العديد من ثورات البربر، ولكنه تمكن

(22/6)

من التغلب عليها، وهاجم معاقلهم، وقضى على تجمعاتهم، ثم أرسل حملتين عسكريتين في سنة (135هـ = 752م) إلى جزيرتي «صقلية» و «سردانية»، فحققت الحملتان أهدافهما، وعادتا منتصرتين. فلما قامت الدولة العباسية، أسرع «عبدالرحمن بن حبيب» بالخطبة للعباسيين على المنابر، وأرسل لهم مبايعته وطاعته، فرحب به الخليفة العباسي «أبو العباس السفاح» وأقرّه على ولايته، ولكن الأمور تغيرت في عهد «أبي جعفر المنصور»، الذي تولى الخلافة في ذى الحجة سنة (136هـ = مايو 754م)، حيث أقر «عبدالرحمن» على «المغرب» في البداية، ثم توترت بينهما العلاقات، فخلع «عبدالرحمن» طاعة العباسيين واستقل بحكم إقليم «المغرب الأدنى». ولقد حاول «عبدالرحمن بن حبيب» نقل ولاية العهد من أخيه «إلياس» إلى ابنه «حبيب»، فدبر له «إلياس» مؤامرة انتهت بقتله في سنة (137هـ = 754م) بعد أن قضى نحو عشر سنوات بالحكم، أمضاها في معارك متصلة ضد الثائرين والخارجين، ومن ثمّ ثارت جموع البربر، وعادت الاضطرابات إلى المنطقة ثانية، وتمكن «إلياس» من إحكام سيطرته على «القيروان»، إلا أن «حبيب بن عبدالرحمن» دخل في صراع طويل معه، وانتهى الأمر بمقتل إلياس في سنة (138هـ = 755م)، وتولى «حبيب» مقاليد الحكم بالقيروان، ولجأ عدد من أفراد أسرته

إلى قبيلة «درفجومة» البربرية، وكان زعيمها «عاصم بن جميل كاهناً» يدعى النبوة، فدخل «حبيب» في حروب مع هذه القبيلة، ولكنهم هزموه، فاضطر إلى الفرار، ودخل «عاصم» «القيروان» واستحل حرماؤها وخرَّب مساجدها وقضى على مظاهر حضارتها. وهكذا سقطت «القيروان» في قبضة هذه القبيلة التي أساءت معاملة الناس، فاضطر بعضهم إلى اللجوء والاستنجاد بالخلافة العباسية، ولجأ آخرون إلى «أبي الخطاب عبدالأعلى بن السمح المعافري» وكان أحد وجوه العرب، ويعتق المذهب الإباضي، فهبَّ لنجدتهم، وجمع من حوله من البربر المعتنقين لآراء الخوارج، وأثار فيهم

(23/6)

الحمية، ثم خرج بهم لملاقاة قبيلة «درفجومة»، فاستولى على «طرابلس»، ثم قصد «القيروان» في سنة (141هـ = 758م)، وتمكن من قتل «عاصم بن جميل» وعدد كبير من أتباعه، ودخل مدينة «القيروان».

وحين علم الخليفة العباسي «أبو جعفر المنصور» بما حدث ببلاد المغرب، عين «محمد بن الأشعث بن عقبة الخزاعي» على ولاية «مصر»، وأمره بمعالجة الأمور بالمغرب، فاضطر «ابن الأشعث» بعد فترة إلى الخروج بنفسه على رأس الجيش إلى «المغرب» للقضاء على نفوذ الإباضية فيها، وقد تمكن من ذلك بعد عدة حروب، وقتل «أبا الخطاب» وأتباعه، ثم دخل مدينة «القيروان» في سنة (144هـ = 761م)، وتولى مقاليد الأمور بها، وبني حولها سوراً كبيراً لحمايتها، ثم هاجم معاقل البربر، وقضى على تجمعاتهم، ولكنه أساء معاملة جنده، فثاروا عليه، وأجبروه على التخلي عن الولاية، والعودة إلى المشرق في ربيع الأول سنة (148هـ = إبريل 765م).

– الأغلِب بن سالم التميمي:

وقع اختيار الخلافة عليه لتولى إفريقية، لحزمه وشجاعته وسداد رأيه، فدخل «القيروان» في جمادى الآخرة سنة (148هـ = يوليو 765م)، وبلغه احتشاد البربر بقيادة «أبي قرّة بن دوناس» الخارجي في «تلمسان» للتوجه إلى «القيروان»، فخرج «الأغلب» بجنوده لملاقاتهم، ولكنهم انسحبوا إلى «المغرب الأقصى» دون قتال، فانتهاز «الحسن بن حرب الكندي» فرصة خروج الجيش من «القيروان» واحتلتها، فلما علم «الأغلب» بذلك دخل مدينة «قابس» استعدادًا لطرد هذا المحتل، ثم دخل معه في معركة حامية، واستشهد «الأغلب»، وصمد جيشه، وتمكن من قتل «الحسن بن حرب» وهزيمة جيشه.

- عمر بن حفص:

وقع عليه اختيار الخلافة لتولى مهام إقليم «المغرب» عقب استشهاد «الأغلب بن سالم التميمي»، وكان «عمر» رجلاً شجاعاً، ذا شخصية قوية، فدخل مدينة «القيروان» في سنة (151هـ = 768م)، وانتهج سياسة جديدة تجاه أهلها وعاملهم بالحسنى، وتوودد إلى زعمائها

(24/6)

وأنزلهم منازلهم، فاستقرت له الأوضاع، وهدأت الأمور، ثم خرج إلى مدينة «طبنة» لإصلاح أحوالها، وبناء سورها، ففاجأته جموع البربر، وحاصرت مدينة «القيروان»، كما حاصرت مع جنوده بمدينة «طبنة»، فلجأ إلى استعمال الحيلة، وأغدق بالأموال على الجيش المحاصر لطبنة، فانصرف عدد كبير من جنود البربر عن المدينة، وتمكن «عمر» من هزيمة الجزء المتبقى منهم، ثم دخل «القيروان» بالحيلة والتمويه، وتولى مهمة الدفاع عنها، ولكن «إباضية» «طرابلس» بزعامته «أبي حاتم» كانوا قد أحكموا حصارهم وسيطرتهم على «القيروان»، وظلوا كذلك ثمانية أشهر، فساءت الأوضاع داخل المدينة، واضطر الناس إلى أكل دوابهم وخبوهم، وفشلت كل محاولات «ابن حفص» لفك

الحصار عن المدينة، فخرج على رأس قواته، ودخل في معركة شديدة مع المحاصرين، فاستشهد هو وكثير من رجاله في سنة (154هـ = 771م) ودخل «الإباضية» بقيادة «أبي حاتم» المدينة.

- يزيد بن حاتم:

تولى «يزيد بن حاتم» إمرة «مصر» في عهد الخليفة «أبي جعفر المنصور» في سنة (144هـ=761م)، وأثبت فيها كفاءة عالية، فوقع عليه اختيار الخلافة ليكون واليًا على «المغرب»، وجهاز له الخليفة جيشًا كبيرًا، ضم تسعين ألف مقاتل، وتم تجهيزه بثلاثة ملايين درهم، وخرج «يزيد» على رأس الجيش قاصدًا إفريقية، ووصلها في سنة (154هـ=771م)، فانضمت إليه فلول الجند المنهزمة أمام «أبي حاتم»، وتم اللقاء بين الجيش العباسي وجيش الخوارج بقيادة «أبي حاتم» في شهر ربيع الأول سنة (155هـ= فبراير 772م)، فكانت المعركة حاسمة، وهُزم جيش الخوارج، وقتل قائده «أبو حاتم»، وبعث «يزيد» بجنوده لاستتصال شأفة الخوارج ثم دخل «القيروان» رافعًا أعلام العباسيين، وبث الطمأنينة في نفوس أهلها، ومات «يزيد بن حاتم» بالقيروان في سنة (170هـ= 786م)، فخلفه ابنه «داود» في الولاية.

- داود بن يزيد بن حاتم:

تولى «داود» مقاليد الأمور خلال فترة مرض والده كـمعاون له، فلما

(25/6)

مات والده، تولى إدارة البلاد ريثما تتخذ الخلافة قرارها، وواجه ثورة الإباضية بجزم، وحافظ على ما حققه والده من انتصارات ومكاسب، ولم يستمر في الحكم سوى تسعة أشهر، ثم سلم مقاليد الأمور إلى عمه «روح ابن حاتم»، وعاد إلى المشرق.

- روح بن حاتم:

اختاره الخليفة «هارون الرشيد» خلفًا لأخيه «يزيد» فقدم إلى إفريقية

في سنة (170هـ=787م)، وتولى مقاليد أمورها، وأحدث تغييرات في إدارتها، وقضى على ثورات ما تبقى من البربر بها، فهدأت أوضاعها، واستقر أمنها ثم مات «روح» في رمضان سنة (174هـ=يناير 791م).

- نصر بن حبيب:

اقتفى «نصر» سياسة الوالي السابق، وعدل بين الناس وحسنت سيرته بينهم، ولكنه لم يستمر طويلا في الولاية، حيث تم عزله بعد سنتين وثلاثة أشهر قضائها في الحكم.

- الفضل بن روح بن حاتم:

اختاره «الرشيد» بدلا من «نصر ابن حبيب»، فوصل إلى مدينة «القيروان» في سنة (177هـ=793م)، وجعل ابن أخيه «المغيرة ابن بشير بن روح» على مدينة «تونس»، وكان «المغيرة» غرا تنقصه التجارب والكياسة، فأساء معاملة الجند، وفرق بينهم في المعاملة، فثاروا عليه بقيادة «ابن الجارود» المعروف بابن عبدويه، وعزلوه عن «تونس»، وأجبروه على تركها، فأدرك «الفضل بن روح» خطورة الموقف، وأرسل «عبدالله بن يزيد» واليا جديدا على «تونس» لتهدئة الموقف، ولكن الثوار قتلوه على أبواب المدينة، وشرعوا في استمالة قادة الجيش بالقيروان وزعماء الجند إليهم للتخلص من «الفضل»، وقد نجحوا في ذلك، وحاصروا مدينة «القيروان»، ثم دخلوها، وأرغموا «الفضل» على تركها مع بعض أفراد أسرته، ولكن «ابن الجارود» أرسل خلفه من يأت به إلى «القيروان» ثانية، وأودعه السجن فترة، ثم قتله في شعبان سنة (178هـ=نوفمبر 794م)، فلما بلغ «الرشيد» ذلك بعث بيحيى بن موسى إلى «تونس» برسالة ليهدئ النفوس، ويدعو «ابن الجارود» إلى «بغداد»، فامتثل «ابن

الجارود» للأمر، وهدأت الثورة، وعين الخليفة «الرشيد» «هرثمة بن أعين» على إفريقية.

- هرثمة بن أعين:

تسلم «هرثمة» مهام منصبه بالقيروان في ربيع الآخر سنة (179هـ= يونيو 795م)، فنهج سياسة حسنة في رعاياه، وأعاد إليهم استقرارهم وأمنهم، ثم شرع في العمران والبناء، فأنشأ سوراً حول «طرابلس»، وبنى القصر الكبير بالمنستير، ولم تحدث في عهده ثورات ذات أهمية، سوى ثورة «عياض بن وهب الهواري»، إلا أن «هرثمة» استطاع القضاء عليها في مهدها.

ظل «هرثمة» بإفريقية نحو سنتين ونصف السنة، ثم ألح على الخلافة في أن تعفيه من منصبه، فأجابه الخليفة إلى طلبه، وعاد «هرثمة» إلى المشرق.

- محمد بن مقاتل العكي:

اختاره «الرشيد» لتولى إمرة بلاد «المغرب الأدنى»، فوصلها في رمضان سنة (181هـ= أكتوبر 797م)، ويبدو أنه لم يكن على دراية بأوضاعها، وظروف الجند بها، فوقع في عدة أخطاء، وقطع أرزاق الجند، وأساء معاملته وجوه القوم وزعمائهم، فثاروا عليه بقيادة «تمام بن تميم التميمي» ثم توجه بها إلى «القيروان» وحاصرها، ثم دخل مع «العكي» في معركة وهزمه فيها، ولكن «إبراهيم بن الأغلب» والى «الزاب» من قبل «العكي» كانت له طموحات في هذه المنطقة، فأسرع إلى تجديده بقواته، وقضى على جموع الثائرين. وعمد «إبراهيم بن الأغلب» إلى التقرب إلى أهالي «القيروان» لتحقيق أهدافه ومطامعه بالمنطقة، وظهر بمظهر المدافع عن سلطة الخلافة وممتلكاتها، وقد ساعدته كراهية الناس لابن مقاتل العكي في تحقيق مبتغاه، وطلب منه وجهاء القوم مراسلة «الرشيد» وإعلامه بمسلك «العكي» العدائي تجاه السكان، ومطالبة الرعية بعزله، فاستجاب لمطلبهم، وبعث إلى «الرشيد» برسالة وضح له فيها هذه الأمور، فعينه «الرشيد» على هذه الولاية، ودخل «المغرب الأدنى»

في مرحلة سياسية جديدة عقب تولية «إبراهيم بن الأغلب» عليه،  
الذي سعى إلى تحقيق أهدافه، والاستقلال بحكم المنطقة عن

(27/6)

---

الخلافة، وباتت السلطة الحقيقية في يده، وأورها من بعده أبناءه،  
ولم تعد المنطقة مرتبطة بالخلافة سوى بالدعاء للخليفة على المنابر.  
وهكذا انتهى عصر الولاة بالمغرب الأدنى وبدأ عصر الاستقلال  
الذاتي وظل الحكم إرثاً في «بني الأغلب» بالمنطقة طيلة قرن من  
الزمان حتى سقطت هذه الأسرة على أيدي الفاطميين في سنة  
(296هـ=909م).

(28/6)

---

### الفصل الثالث

#### \* دولة الأغالبة

[184 - 296هـ=800 - 909م]:

قامت أربع دول إقليمية ببلاد المغرب في الفترة من سنة (140هـ=  
757م) إلى سنة (296هـ=909م)، وسوف نعرض لهذه الدول وفقاً  
لأماكن تواجدها على خريطة «المغرب» دون التقيّد بالزمن الذي قامت  
خلاله هذه الدول، ونبدأ من ناحية الشرق بدولة الأغالبة، التي  
تأسست بالمغرب الأدنى (ليبيا وتونس) في سنة (184هـ=800م) ثم  
«الدولة الرستمية» بالمغرب الأوسط (الجزائر) في سنة (161هـ=778م)،  
ثم دولة «الأدارسة» بالمغرب الأقصى في سنة (172هـ=788م)، وأيضاً  
دولة «بني مدرار» في «سجلماسة» بجنوب «المغرب الأقصى» في  
سنة (140هـ=757م).

ينسب الأغالبة إلى «الأغلب بن سالم التميمي»، وهو عربي من قبيلة «تميم»، التي شاركت في القضاء على «الأمويين»، وإقامة «الدولة العباسية»، وقد تولى «الأغلب» إفريقية في سنة (148هـ=765م)، ثم استشهد بها في حربه ضد الطامعين بقيادة «الحسن بن حرب الكندي».

إبراهيم بن الأغلب [184هـ=800م]:

تلقى «إبراهيم بن الأغلب» - في نشأته الأولى - دروسه الدينية بمسجد الفسطاط على يد الإمام «الليث بن سعد»، فلما بلغ مبلغ الشباب التحق بالجنديّة، ثم جاء إلى «المغرب» وشارك في أحداثها، ثم ظهر على مسرح الأحداث في إفريقية - كما سبقت الإشارة إليه - في عهد «محمد بن مقاتل العكي».

استقل «إبراهيم» بحكم «المغرب الأدنى» عن الخلافة، وعمد إلى إقرار الأمن والاستقرار بهذا الإقليم، فضلاً عن تعريبه، واستكمال نظامه الإداري، وتنمية اقتصاده، فباتت «القيروان» مركزاً من مراكز العلم والحضارة بالدولة الإسلامية، وظهرت أهمية المدن التابعة لها. مثل: «تونس»، و «سوسة»، و «قابس»، و «قفصة»، و «توزر»، و «نقطة»، و «طنبة»، و «المسيلة»، و «بجاية»، وغيرها. ولكن ذلك لم يمنع من وقوع بعض الثورات بالمنطقة، مثل ثورة «عمران بن مجالد الربيعي» الذي جمع حوله أهل «القيروان» في محاولة للقضاء على

(29/6)

---

حكم «الأغالبة»، ولكن محاولتهم باءت بالفشل، حيث تصدى لهم «إبراهيم بن الأغلب» بحزم وشدة، واستمر في منصبه حتى وافته منيته في شوال سنة (196هـ= يونيو 812م)، فذكره المؤرخون بأنه كان أحسن الولاة سيرة، وأفضلهم سياسة، وأوفاهم بالعهد، وأرعاهم للحرمة، وأرفقهم بالرعية، وأخلصهم لأداء واجبه.

أبو العباس عبدالله بن إبراهيم بن الأغلِب [196هـ=812م]:  
تولى «أبو العباس» «المغرب» خلفاً لوالده، فاستقامت له الأمور  
واستقرت، ولكنه انتهج سياسة ضريبية سيئة، أسفرت عن سخط  
الناس عليه، وظل «أبو العباس» بالحكم مدة خمس سنوات ثم مات من  
جَراء قرحة أصابته تحت أذنه.

زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلِب [201هـ=816م]:  
تولى «زيادة» مقاليد الحكم بالمغرب خلفاً لأخيه «أبي العباس»  
واستمر في هذه الإمارة حتى سنة (223هـ=838م)، فتمتعت البلاد في  
عهده بالرخاء والازدهار، فضلا عن التشييد والعمران بالمدن  
المغربية، مثل: «القيروان»، و «العباسية»، و «تونس»، و «سوسة»  
وقد وجه «زيادة» قدراته العسكرية للقضاء على الثورات التي قامت  
بالمنطقة، ومنها: ثورة «زياد بن سهل» المعروف بابن الصقلبية في  
سنة (207هـ=822م)، وثورة «عمرو بن معاوية العيشي» في سنة  
(208هـ=823م)، وثورة «منصور الطنبذي» في سنة (209هـ=824م)،  
وكذلك وجه «زيادة» كفاءته الحربية في العناية بالأسطول  
الإسلامي، ثم توجيهه لغزو بعض الجزر القريبة من «تونس»، وإليه  
يرجع الفضل في إعداد حملة بحرية كبيرة بقيادة «أسد بن الفرات»  
لغزو الجزر القريبة من «تونس»، ثم تُوفى في سنة (223هـ=838م).  
أبو عقال الأغلِب بن إبراهيم بن الأغلِب [223هـ=838م]:  
تولى الإمارة خلفاً لأخيه «زيادة» في سنة (223هـ=838م)، ومكث بما  
ما يقرب من ثلاث سنوات؛ نعمت البلاد خلالها بالهدوء والاستقرار،  
وحرّم «أبو عقال» صنع الخمر بالقيروان، وعاقب على بيعها  
وشربها، فكان لذلك صداه الطيب في نفوس الناس عامة، فضلا عن

الفقهاء والعلماء، ومات «أبو عقال» بالقيروان في سنة (226هـ=841م).

أبو العباس محمد بن الأغلب [226هـ=841م]:

تولى الإمارة خلفاً لأبيه «الأغلب»، وظل بها أكثر من خمسة عشر عاماً، اتسمت بالخلافات بين أبناء «الأسرة الأغلبية»، فضلاً عن محاولة أخيه «أحمد» الفاشلة للإطاحة به والوصول إلى الحكم، يضاف إلى ذلك انتفاضات الجند التي لم يكتب لها النجاح بمنطقتي «الزاب»، و «تونس»، وقد تُوفى «أبو العباس» في سنة (242هـ) بالقيروان.

أبو إبراهيم أحمد بن محمد [242هـ=856م]:

تولى خلفاً لأبيه عقب وفاته في سنة (242هـ)، وتميزت فترة حكمه بالهدوء والاستقرار، وقد غلب الطابع الديني على سلوكه، فكان يخرج في شهرى شعبان ورمضان من مقر إقامته ليوزع الأموال على الفقراء والمساكين بالقيروان، واهتم «أبو إبراهيم» بالبناء والتعمير، وزاد في «مسجد القيروان»، وجدد «المسجد الجامع» بتونس، وحصّن مدينة «سوسة» وبنى سورها، كما اهتم بإمداد سكان المدن بمياه الشرب، وقد تُوفى في سنة (249هـ=863م).

أبو محمد زيادة الله الثاني [249هـ=863م]:

تولى «أبو محمد» خلفاً لأخيه «أبي إبراهيم أحمد»، ولم يستمر في منصبه سوى عام واحد، ثم تُوفى في سنة (250هـ=864م).

أبو عبد الله محمد بن أحمد [250هـ=864م]:

خلف عمه «أبا محمد زيادة» في الإمارة في سنة (250هـ=864م). وقد اشتهر «أبو عبد الله» بأبي الغرائق؛ لولعه بصيد «الغرائق»، وبنى لذلك قصرًا كبيرًا، أنفق عليه أموالاً كثيرةً، كما شاد الحصون والمخارس الكثيرة على سواحل البحر المتوسط وتوفى «أبو الغرائق» في سنة (261هـ).

إبراهيم بن أحمد [261هـ=875م]:

ولى أمور الحكم عقب وفاة أخيه «أبي الغرائق» في سنة (261هـ=875م)، وامتد عهده أكثر من ثمانية وعشرين عاماً؛ ظهر

خلالها «أبو عبدالله الشيعي»، الذي استقطب إلى دعوته الشيعية عددًا من القبائل، وقد اختلف المؤرخون في تقييم شخصية «إبراهيم

(31/6)

بن أحمد»، فذكر بعضهم أن عهده كان عهد استقرار وهدوء، وإقرار للعدل، وتأمين للسبل، فضلًا عن قيامه بإتمام بناء المسجد بتونس، وبناء الحصون والمخارس على سواحل البحر، يضاف إلى ذلك تأسيسه مدينة «رقادة»، وبنائه جامعًا بها، في حين يصفه «ابن خلدون» بقوله: «وذكر أنه كان جائرًا، ظلومًا ويؤخذ أنه أسرف في معاقبة المعارضين له بالقتل والتدمير، لكنه حاول في أخريات أيامه إصلاح ما أفسده، وبخاصة بعد ظهور داعية الشيعة «أبي عبدالله» وانضمام كثير من الناس إلى دعوته، فأسقط المغارم، ورفع المظالم عن طبقات الشعب الكادحة، كما تجاوز عن ضربية سنة بالنسبة إلى أهل الضياع، ووزع الأموال على الفقراء والمحتاجين، وختم حياته بالجهاد في «صقلية»، حيث مرض أثناء حصاره لإحدى المدن، ومات ليُحْمَل ويدفن في مدينة «بلرم» في سنة (289هـ=902م)، وذكر «ابن الأثير» أنه حُمل في تابوت ودفن بالقيروان.

أبو العباس عبدالله بن إبراهيم [289هـ=902م]:

تولى الإمارة في سنة (289هـ=902م)، ولم يستمر بها سوى عام ونصف العام، حيث قُتل على يد ابنه «زيادة الله»، وكانت فترة حكمه امتدادًا لسياسة والده «إبراهيم بن أحمد» في الحكم، فبدأت عوامل الضعف والوهن تدب في أوصال دولة الأغلبية.

زيادة الله بن أبي العباس عبدالله [290هـ=903م]:

تولى «زيادة» الحكم عقب مقتل أبيه، وانتهج سياسة أبيه وجده، وتتبع أفراد أسرته بالقتل، في الوقت الذي نشط فيه «أبو عبدالله الشيعي» وأحرز الانتصارات تلو الأخرى، واستولى على كثير من

المدن الأغلبية، ولم تفلح جيوش «زيادة» في صدّه أو إيقاف زحفه، فوجد «زيادة» نفسه عاجزاً عن الحفاظ على ملك آبائه وأجداده، فأثر الهرب إلى «مصر»، وحمل معه كل ما استطاع حمله من مال وعتاد، ورحل من «رقادة» في (26 من جمادى الآخرة عام 296هـ = مارس 909م)، فباتت المدينة سهلة المنال «لأبي عبدالله الشيعي»، فبعث «عروبة بن يوسف» أحد قادته للاستيلاء عليها، فدخلها دون

(32/6)

---

قتال، وطويت بذلك صفحة «الأغالبة».

(33/6)

---

## الفصل الرابع

\*الدولة الرستمية

[161 - 296هـ = 778 - 909م]:

عبدالرحمن بن رستم [162هـ=779م]:

بويح «عبدالرحمن» ليكون أول إمام للدولة الإباضية الناشئة في ربوع «المغرب الأوسط»، وقد كان أحد طلاب العلم، ودرس على يد «أبي عبيدة مسلم ابن أبي كريمة»، فلما أتم تعليمه عمل على نشر «المذهب الإباضي» ودعمه، ثم عينه «أبو الخطاب» نائباً له على «مدينة القيروان»، فاكتسب الخبرة الإدارية، وعرف طبائع الناس وظروفهم، ولم يدخر جهداً في محاربة الولاة العباسيين، وجمع شمل «الإباضية»، خاصة بعد مقتل «أبي الخطاب».

كان «عبدالرحمن» رجلاً زاهداً، وذا صبر على الشدائد، وملتزمًا بكتاب الله وسنة نبيه، واشترط على الناس حين وقع اختيارهم عليه للإمامة

أن يسمعوا له ويطيعوا ما لم يجد عن الحق، ثم اختط مدينة «تهيرت»،  
ودخل في طاعته العديد من القبائل مثل: «لماية»، و «سدرانة»،  
و «مزاتة»، و «لواتة»، و «مكناسة»، و «غمارة»، و «أزداجة»،  
و «هواره»، و «نفوسة»، وقد افترشت هذه القبائل مساحات واسعة،  
امتدت من «تلمسان» غرباً حتى «طرابلس» شرقاً.  
ومضى «عبدالرحمن» في حكم البلاد بالعدل، منتهجاً سياسة شرعية  
في إدارتها، مما أشاع الاستقرار والأمن بين الناس، فلما شعر بدنو  
أجله اختار مجلساً للشورى، ليختار من بين أفراد من يصلح للإمامة  
من بعده، واختار ابنه «عبدالوهاب» ضمن أفراد هذا المجلس، ثم مات  
في سنة (168هـ = 784م).

عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم [168هـ=784م]:  
اختاره مجلس الشورى ليكون خلفاً لأبيه في الإمامة، واتسم عهده  
ببعض الاضطرابات والقلقل، وواجه العديد من الثورات التي اتخذ  
بعضها طابعاً مذهبياً، وبعضها الآخر طابعاً قبلياً، فأثرت إلى حد  
بعيد على «الدولة الرستمية»، وعلى رمزها الديني المتمثل في  
الإمام. ومات «عبد الوهاب» في سنة (198هـ=814م).  
أفلح بن عبدالوهاب [198هـ=814م]:  
بويح الإمام «أفلح» خلفاً لأبيه، وكان ذا صفات طيبة، وجاءت مبايعته

(34/6)

---

على عكس ما نُهجه الخوارج في تعيين الإمام، إذ اختاره أبوه للإمامة  
قبل وفاته، وربما يرجع ذلك إلى طبيعة الظروف التي أملت بالبلاد،  
حيث أحاط الأعداء بمدينة «تهيرت»، وكان لابد من اختيار رجل شجاع  
يتمكن من مواجهة الأعداء.

وقد اتسم عهد «أفلح» بالهدوء والاستقرار، وبلغت الدولة في عهده  
أوج ازدهارها، ونشطت التجارة، وأقبل الناس من كل مكان قاصدين

العاصمة «تهيرت»، وتُوِّق الإمام «أفلق» في سنة (240هـ)، إثر  
حزنه الشديد على وقوع ابنه «أبي اليقظان» في أيدي العباسيين.

أبو بكر بن أفلق بن عبد الوهاب [240هـ=854م]:

كان «أبو اليقظان» مرشحًا لمنصب الإمامة، ولكن وقوعه في أيدي  
العباسيين حال دون ذلك، وتولاها أخوه «أبو بكر» الذي لم يكن في  
شدة آبائه وأجداده وحزمهم، فضلًا عن انغماسه في الترف والنعيم  
وميله إلى الراحة، وقد تفرغ لراحته وملذاته حين خرج أخوه «أبو  
اليقظان» من سجن العباسيين وشاركه الحكم، ولكن «أبا بكر» دبر  
مقتل «محمد بن عرفة» وهو من الشخصيات البارزة بالعاصمة،  
ليتخلص من نفوذه، فكان ذلك سببًا في نشوب الصراع بين طوائف  
الدولة الرستمية، وحاولت كل طائفة تحقيق أهدافها من خلال المعارك  
الطاحنة، التي أسفرت عن هزيمة حكام البيت الرستمي، واعتزال  
«أبي بكر» منصب الإمامة.

أبو اليقظان محمد بن أفلق بن عبد الوهاب [268هـ=881م]:

شهدت العاصمة «تهيرت» فترة من القلاقل والاضطرابات، ثم نجح  
«أبو اليقظان» في تهدئة الأوضاع ودخول العاصمة «تهيرت» في  
سنة (268هـ=881م)، فتولى منصب الإمامة، وتجنب سياسة التعصب  
وتفضيل قبيلة بعينها على غيرها، وجلس لبحث شكاوى رعاياه  
والت فيها بنفسه، واستعان بمجلس الشورى الذي ضم إليه شيوخ  
القبائل ووجهاءها، فاستقرت الأوضاع، وهدأت النفوس، وظل «أبو  
اليقظان» يدير دفة الأمور في دولته حتى وفاته في سنة  
(281هـ=894م).

أبو حاتم يوسف بن محمد [281هـ=894م]:

تولى «أبو حاتم» الإمامة عقب وفاة والده «أبي اليقظان»، لأن أخاه الأكبر «يقظان» كان غائبًا في موسم الحج، وقد لعب العامة -بزعامته- «محمد بن رباح» و «محمد بن حماد» المعروفين بالشجاعة والنجدة -دورًا بارزًا في المطالبة ببيعة «أبي حاتم» بالإمامة لسخائه وكرمه، ولكن هذا الدور الذى لعبه العامة أطمعهم في التدخل في شئون الحكم وتحقيق المكاسب، فرفض «أبو حاتم» ذلك وضرب على أيديهم وطردهم من المدينة، فعمدوا إلى تأليب القبائل ضده، ونجحوا في طرده من العاصمة «تهيرت»، وبايعوا عمه «يعقوب بن أفلح» بالإمامة، فصار هناك إمامان من بيت واحد، يقفان وجهًا لوجه في صراعٍ دامٍ على السلطة، ولكن أحدهما لم يحقق نجاحًا ملموسًا على الآخر، فاحتكما وعقدا هدنة، وعاد «أبو حاتم» إلى العاصمة إمامًا على البلاد، وانسحب عمه «يعقوب» بعد أن حكم العاصمة «أربع سنوات».

وقد حاول «أبو حاتم» إصلاح ما أفسدته الحروب داخل العاصمة «تهيرت»، وكوّن مجلسًا استشاريًا من زعماء القبائل ومشايخها للاستعانة بهم في إدارة البلاد، ولكن محاولاته الإصلاحية كانت بمثابة صحوّة الموت للبيت الرستمي، خاصة بعد أن ضعفت قوتهم العسكرية في محاولة لإنهاء الصراع الذى وقع حول مدينة «طرابلس». وقد تأمر أفراد البيت الرستمي أنفسهم على حياة إمامهم «أبي حاتم»، وقتلوه في سنة (294هـ=907م).

اليقظان بن أبي اليقظان [294هـ=907م]:

بويح بالإمامة عقب مقتل أخيه في سنة (294هـ=907م)، واتسم عهده بالفتن والقلاقل، وتطلع مختلف القبائل والطوائف إلى الاستئثار بالحكم، كما دبّرت المؤامرات من داخل البيت الرستمي على يد «دوسر» ابنة «أبي حاتم»، وتكاتف فرق الخوارج مثل: «المالكية» و «الواصلية» و «الشيعة» لإحباط الفتن والمؤامرات للإطاحة بالإمام، وقد نجح «اليقظان» إلى حد بعيد في كبح جماح هذه الطوائف والحد من نشاطها، فهربت «دوسر»، ولجأت إلى «أبي عبدالله الشيعي»

الذى نجح فى بسط نفوذه على مساحات كبيرة من أرض «المغرب»، واستنجدت به للتأثر لأبيها، فاستجاب لها، واتجه إلى «تهيرت»، فخرجت لمقابلته وجوه أهل «تهيرت» ورحبوا بمقدمه، واستسلم «اليقظان» لمصيره، وخرج مع بنيه إلى «أبي عبدالله»، فأمر بقتلهم ودخل العاصمة فى سنة (297هـ = 910م)، واستولى على ما بها من أموال ومغانم، فطويت صفحة «الدولة الرستمية».

#### الفصل الخامس

#### \* دولة الأدارسة

[172 - 300هـ = 788 - 913م]:

إدريس بن عبدالله (172هـ = 788م):

اضطهد العباسيون منذ اللحظة الأولى لقيام دولتهم أبناء عموماتهم من العلويين، وأسرف بعض الخلفاء العباسيين فى ذلك، فأسفر الأمر عن قيام عدة ثورات، كانت آخرها ثورة «الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب» على والى «المدينة» فى سنة (169هـ = 785م)، ولكن العباسيين استطاعوا قمعها، وقتلوا زعيمها ومجموعة من أهل بيته.

وكان «إدريس بن عبدالله» ومولاه «راشد» ممن فرّ من أرض المعركة، واتجها إلى «مصر»، ومنها إلى «المغرب الأقصى»، ونزلا مدينة «وليلي» عاصمة هذا الإقليم، ثم توجها إلى أميرها وزعيمها «إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي»، زعيم قبيلة «أوربة» التى

فرضت نفوذها وسيطرتها على مدينة «وليلي» وما حولها، وعرفه «إدريس» بنفسه، وأعلمه بسبب فراره من موطنه «الحجاز»، ولجؤته إلى بلاده، فرحب به «إسحاق» وآمن بدعوته، وبايعه بالإمامة، وكذلك بايعته قبيلته «أوربة»، ومعها بقية القبائل في رمضان سنة (172هـ=788م)، ومن ثم نجح «إدريس» في تأسيس دولة حملت اسمه بالمغرب الأقصى.

لكن ذلك أقلق الخلافة العباسية، خاصة بعد أن مدَّ «إدريس» نفوذه إلى مدينة «تلمسان» بالمغرب الأوسط.

عمد الخليفة العباسي «الرشيد» إلى الحيلة للقضاء على نفوذ «الأدارسة»، فقبل إنه بعث برجل يدعى «الشماخ» إلى «إدريس»، فتظاهر بحبه لآل البيت، وفراره من بطش العباسيين، ولازم «إدريس» فترة ثم اغتاله حين سنحت له الفرصة، وهكذا نجحت الخلافة العباسية في التخلص من «إدريس» أبرز المناوئين لها، وفقدت «دولة الأدارسة» مؤسسها في سنة (175هـ=791م) بعد ثلاث سنوات ونصف فقط من قيامها.

إدريس بن إدريس بن عبد الله: [175 - 213 هـ = 791 - 828 م]:  
بات مقعد الإمامة شاغراً عقب اغتيال «إدريس»، والتف البربر حول مولاه «راشد»، وانتظروا مولود «كنزة» جارية «إدريس بن عبد الله»،

(38/6)

---

فلما وضعت حملها أسموه «إدريس» تبرّكاً باسم والده، وتعهده «راشد» بالتربية والرعاية، ونشأ تنشأة دينية، حتى إذا بلغ الحادية عشرة من عمره أقبلت القبائل على مبايعته بالإمامة، فدعا ذلك الخلافة العباسية إلى التحرك ثانية للقضاء على هذه الدولة، وأوكلت هذه المهمة إلى والي «المغرب الأدنى» «إبراهيم بن الأغلب» الذي نجح في استمالة مجموعة من البربر بأمواله وهداياه، ثم أوكل إليهم

مهمة قتل «راشد»، فقاموا بتنفيذها في سنة (186هـ = 802م)، لكن «الدولة الإدريسية» واصلت مسيرتها، وانتقلت كفالة «إدريس» والوصاية عليه إلى «أبي خالد بن يزيد بن إلياس العبدى»، وجُدِّدت له البيعة في سنة (188هـ = 804م)، حين بلغ الثالثة عشرة من عمره، وأصبح في سن تؤهله لخلع الوصاية، وإدارة البلاد، وعزز مركزه إقبال الوفود العربية من «القيروان» و «الأندلس» للعيش في كنف دولته فرارًا من بطش الحكام، فدعم بهم نفوذه، واتخذ منهم الوزراء والكتاب والقضاة، وجعلهم بطانته وحاشيته، وقد شجعه هؤلاء على بناء عاصمة جديدة لدولته، فبنى مدينة «فاس»، ثم استقر بها. وفي سنة (197هـ = 813م) خرج «إدريس الثاني» على رأس قواته لإخضاع «قبائل المصامدة» التي هددت أمن بلاده، ونجح في ذلك نجاحًا كبيرًا، وامتد نشاطه حتى منطقة «السوس الأقصى»، ودخل مدينة «نفيس» ثم عاد إلى عاصمته «فاس»، وخرج في العام التالي صوب الشرق لتأمين حدود دولته، ودخل مدينة «تلمسان»، وأقام بها ثلاث سنوات، يرتب أمورها، ويرمم مسجدها، ثم عاد إلى «فاس» في سنة (201هـ)، وظل في الحكم حتى وافته المنية في سنة (213هـ = 828م).

محمد بن إدريس بن إدريس (213 - 234هـ = 828 - 848م):

تولى «محمد» أكبر أبناء «إدريس الثاني» الإمامة في سنة (213هـ = 828م)، فنفذ وصية جدته «كنزة» بتقسيم أقاليم الدولة بين إخوته، فكان لذلك أثره السيئ على وحدة دولة «الأدارسة»، ولما يمض على قيامها أربعون سنة بعد، وطمع كل أخ في الاستقلال

(39/6)

---

بإقليمه، وشقَّ عصا الطاعة على السلطة المركزية. ولكن «محمد بن إدريس» تصدى لإخوته وضم ممتلكات أخويه «عيسى» و «القاسم»

بعد هزيمتهما إلى أخيه «عمر».

ولم تشهد البلاد بعد هذا التقسيم استقرارًا إلا في بعض الفترات مثل:  
عهد «يحيى بن محمد» الذى تولى الإمامة فى سنة (234هـ=848م)،  
فازدهرت فى عهده مدينة «فاس» وشهدت تطورًا ملحوظًا فى  
أنشطتها، ثم عهد «يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس» عام (292هـ=  
905م)، الذى وصفه المؤرخون بأنه كان أعظم ملوك «الأدارسة» قوة  
وسلطانًا وصلحاءًا وورعًا وفقهًا ودينًا، وقد ظل بالحكم حتى سنة  
(305هـ = 917م) حتى طرق «مصالة بن حيوس» أبواب مدن «المغرب  
الأقصى»، فأطاعه «يحيى بن إدريس»، وبايع «أبا عبيد الله  
المهدى»، فدخلت دولة «الأدارسة» منذ ذلك الحين فى طور التبعية  
للفاطميين تارة، وللحكم الأموى بالأندلس تارة أخرى.

(40/6)

## الفصل السادس

\*دولة بنى مدرار فى سجلماسة

[122 - 354 هـ = 740 - 965م]:

ساهمت الظروف السياسية التى مر بها إقليم «المغرب» عقب نجاح  
الثورة التى قادها «ميسرة المصفرى الصفرى» ضد الدولة الأموية  
فى سنة (122هـ=740م) فى استقلال «المغرب الأقصى» وانفصاله عن  
الحكم الأموى، فأسهم ذلك - إلى جانب اضطراب الأوضاع فى إقليمى  
«المغرب الأوسط» و «الأدين» - فى قيام تجمع مذهبى فى جنوب  
«المغرب الأقصى»؛ هو تجمع «الصفرين» الذين وجدوا بمنطقة  
«سجلماسة» المجال المناسب لإقامتهم، ثم أسسوا مدينة تحمل اسم  
المنطقة، لتكون نواة لدولة صفرية، وبايعوا «عيسى بن يزيد بن  
الأسود» إمامًا لهم، وسانده «أبو القاسم سمكو» زعيم قبيلة

«مكناسة» بمبايعة قبيلته له، ولكن جماعة «الصفريّة» - بعد خمس عشرة سنة- أخذوا عليه بعض المآخذ، وأنكروا عليه بعض الأمور، وقتلوه في سنة (155هـ = 772م)، وقد تولى «أبو القاسم بن سمنون بن واسول المكناسي بن مدرار» الحكم خلفاً لعيسى، وجعل الحكم متوارثاً في أفراد «الأسرة المدرارية» حتى سقوط المدينة في أيدي الفاطميين، وقد تولى الأئمة بعد وفاة «مدرار»، حتى جاءت سنة (174هـ = 790م) فتولى «اليسع بن أبي القاسم» الملقب بأبي منصور شئون الحكم، وظل في مقعد الإمامة حتى سنة (208هـ = 823م)، وشهدت المدينة في عهده ازدهاراً اقتصادياً، ونفوذاً سياسياً كبيراً، لذا يعد «اليسع» المؤسس الحقيقي لدولة «بني واسول» المعروفة بدولة «بني مدرار»، وامتد نجاح «اليسع» إلى تعمير العاصمة «سجلماسة»، فشهدت في عهده تطوراً واتساعاً، ومات «اليسع» في سنة (208هـ = 823م).

وتولى «مدرار» خلفاً لوالده في سنة (208هـ = 823م)، ولقب نفسه بالمنتصر، وظل بالحكم حتى سنة (223هـ = 838م)، ونشب النزاع - خلال هذه الفترة - بين أبناء «مدرار»، مما أضعف نفوذهم، وفكك وحدة بيتهم.

وخلفه «محمد بن ميمون بن مدرار»، ووافاه أجله في سنة (270هـ = 883م)، فتولى من بعده عمه «اليسع بن مدرار»، ودخل «عبيدالله

(41/6)

---

المهدي» وابنه «القاسم» إلى «سجلماسة» في عهده، فلما اكتشف حقيقة أمرهما، قبض عليهما، وأودعهما السجن، فظلا به حتى أقبل «أبو عبدالله الشيعي» على رأس قواته وخلصهما، ثم استولى على المدينة في سنة (296هـ = 909م)، وحاول بعض أفراد البيت المدراري استرداد مدينتهم واستعادة حكمهم من قبضة الفاطميين، وقد حققوا

نجاحًا نسبيًا في ذلك، ولكن «جوه الصقلي» تمكن من القضاء على ملكهم في سنة (347هـ=958م)، وقبض على «الشاعر بالله» آخر أمرائهم، وأودعه سجن مدينة «رقادة»، فمات به في سنة (354هـ=965م). وطويت صفحة التاريخ السياسي لمدينة «سجلماسة» في القرن الثالث الهجري.

(42/6)

## الفصل السابع

### \*العلاقات الخارجية والأوضاع الحضارية للدول الأربعة

شهد المسرح الجغرافي لمنطقة «المغرب» في الفترة من سنة (140هـ=757م) إلى سنة (296هـ=909م) قيام أربع دول على أرضه هي: «دولة الأغالبة» بالمغرب الأدنى [184 - 296هـ=800 - 909م]، و «الدولة الرستمية» بالمغرب الأوسط (160 - 296هـ=777 - 909م)، و «دولة الأدارسة» بالمغرب الأقصى (172 - 300هـ=788 - 912م)، و «دولة بني مدرار» بجنوب «المغرب الأقصى» (140 - 296هـ=757 - 909م). وقد سبقت الإشارة إلى أن تولية «إبراهيم بن الأغلب» إدارة «المغرب الأدنى»، واستقلاله بها عن سلطة الخلافة، وتوريثه حكمها لأبنائه من بعده؛ قد غيرت في الوضع السياسي للمنطقة، إلا أن ذلك لم يمنع الأمراء الأغالبة من استمداد سلطاتهم مباشرة من الخليفة، والخطبة له على المنابر، وكان كل خليفة جديد يجدد البيعة للأمير الأغلبي، كما كان الأمير يجدد البيعة بدوره للخليفة، ويحلف له يمين الولاء والإخلاص، ومعنى ذلك أنهم كانوا يستمدون شرعية حكمهم من بيعتهم للخلافة، ومبايعتها لهم. ولم يمنع استقلال الأغالبة بالمغرب الأدنى من تدخل الخلافة أحيانًا في بعض شئونهم، مثلما فعل الخليفة المعتضد مع «إبراهيم الثاني

بن أحمد» حين استبد بالرعية، وأنزل عقوبات غاشمة بثوار «تونس» في سنة (283هـ = 896م)، حيث عنفه الخليفة، وهدده بالخلع. وهكذا حرص «الأغالبة» على إظهار ولائهم وارتباطهم بالخلافة العباسية في بغداد، وكانت انتصاراتهم تصل إلى بغداد أولاً بأول، وكان للخليفة نصيبه من المغنم والسبي في بعض الأحيان، فضلاً عن الهدايا التي حرص الأمراء الأغالبة على إرسالها إلى الخلافة ببغداد. أما «الدولة الرستمية» بالمغرب الأوسط، فكانت على خلاف مع الخلافة العباسية؛ حيث عد العباسيون «إقليم المغرب» تابعاً لدولتهم بعد سقوط «الدولة الأموية»، وعدوا الرستميين مقتطعين لجزء من

(43/6)

---

الدولة العباسية؛ فنظروا إليهم نظرة عداوة؛ كان لها أثر في العلاقة بينهما، فضلاً عما بينهم من اختلافات مذهبية؛ حيث كان مذهب العباسيين الرسمي هو مذهب أهل السنة، على حين اتخذ الرستميون المذهب الإباضي مذهباً رسمياً لدولتهم. وقد سبق قيام الدولة الرستمية عدة معارك بين جموع الإباضية وجنود الخلافة؛ أسفرت عن مقتل «أبي الخطاب» زعيم الإباضية، وانتقال «عبدالرحمن ابن رستم» نائب أبي الخطاب على القيروان إلى قبيلة «لماية» التي ناصرته وساندته حتى بويع بالإمامة. وتنوعت العلاقات بين الرستميين والعباسيين، فتارة تكون هادئة مستقرة، كما حدث في عهد «عبدالرحمن بن رستم» وابنه «عبدالوهاب»، وتارة يشوبها التوتر والعداء كما حدث في عهد «أفلق بن عبدالوهاب»؛ حيث احتوت الخلافة الخارجين عليه، ورحبت بهم في «بغداد»، ثم بلغت العلاقة بينهما قمة العداء حين قبض الخليفة «الواثق» على «أبي اليقظان محمد ابن أفلق»، وأودعه السجن، وهو في طريقه لأداء فريضة الحج، ولكن الأوضاع تحسنت

بينهما ثانية بعد أن أطلق الخليفة «المتوكل» سراح «أبي اليقظان» وأكرمه، وسمح له بالعودة إلى بلاده.

وأما «دولة الأدارسة» فقد اتسمت علاقتها بالدولة العباسية بالعداء؛ حيث شكل قيام الأدارسة بالمغرب الأقصى خطرًا على ممتلكات الدولة العباسية بالمغرب الأدنى (إفريقية)، وزادت خطورة «الأدارسة» بعد أن أخضع «إدريس ابن عبدالله» «تلمسان» إلى سلطانه، وبني بها مسجدًا، ومعنى ذلك أنه تطلع إلى فصل «المغرب» عن بقية العالم الإسلامي، وتوحيده تحت قيادته.

وقد استعانت الدولة العباسية بإبراهيم بن الأغلب والى إفريقية للقضاء على «دولة الأدارسة» بالمغرب الأقصى لكنها لم تنجح في ذلك.

وقد وقعت «دولة بني مدرار» موقفًا وسطًا بين القوى المتصارعة بالمغرب، ولم تتخذ موقفًا عدائيًا من الخلافة العباسية، بل اعترفت «المدراريون» بسultan الخلافة وعملوا على مداراة «الأغلبية»،

(44/6)

---

وتوثيق صلتهن بالرسامين، على الرغم من الاختلافات المذهبية بينهم. ولم تنجح «سجلماسة» رغم اعتصامها بصحراء المغرب الجنوبية، وموازنة سياستها مع «تھيرت» و «القيروان»، في النجاة مما آلت إليه على أيدي الفاطميين. الأوضاع الحضارية:

شهدت منطقة «المغرب» خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين قيام عدة عواصم رئيسية هي: «القيروان»، و «تھيرت»، و «فاس»، و «سجلماسة»، وقد لعبت هذه العواصم دورًا بارزًا ورئيسيًا في مضمار الحضارة بالمنطقة على النحو الآتي:

أ - القيروان:

بناها «عقبة بن نافع» وأطلق عليها «القيروان» ومعناها في العربية: موضع اجتماع الناس والجيش، وقد شهدت هذه المدينة تطوراً كبيراً في ظل «الأغالبة»، واستمرت عمليات البناء والتعمير على أيديهم بها، وباتت مقر الولاية ومركز الحكم، وظلت محتفظة بمنزلتها ومكانتها لدى «الأغالبة»، على الرغم من اتخاذهم عواصم جديدة كالعباسة و «رقادة».

وقد تميزت هذه المدينة بالهدوء والاستقرار في عهد «الأغالبة»، على الرغم من الثورات المتعددة التي اندلعت هنا وهناك بالمنطقة، وقد ساعد هذا الاستقرار على إيجاد نوع من التعاون بين فئات الشعب على اختلاف أصولهم؛ حيث كان هناك العرب الذين مثلوا الطبقة الحاكمة، وعاشوا بالقيروان منذ تأسيسها، فاكتمسبوا مكانة خاصة، واشتغلوا بالتجارة وغيرها، وعاش إلى جوارهم سكان البلاد الأصليون من «البربر»، واختلطوا بهم، وعملوا بالزراعة والتجارة، فضلاً عن الأفارقة؛ وهم بقايا المسيحيين البيزنطيين واليهود، وقد عاشوا يمارسون حياتهم في ظل الحكم الأغلبي.

وقد شهدت «القيروان» ازدهاراً اقتصادياً كبيراً، تمثل في علاقاتها المتعددة مع من حولها من المدن المغربية، وقصدتها القوافل التجارية من كل أنحاء «المغرب»، كما خرجت منها القوافل قاصدة المدن الأخرى، فانعكس هذا الراج على أمراء البلاد وعامة الشعب.

ب - تهيئت:

جاء تخطيط هذه المدينة وبنائها في سنة (161هـ = 778م)، تلبية

(45/6)

---

لاحتياجات جموع «الإباضية» التي استقرت بالمغرب الأوسط، وقد توافرت لهذه المدينة أسباب الأمن والحماية؛ فهي منطقة داخلية يتخللها نهران هما: «نهر مينة» الذي يجري في جنوبها مارا

بالبطحاء، ونهر آخر بشرقها يجرى من «عيون تاتش»، ومنه شرب أهلها، ورووا بساتينهم وزراعاتهم، فتمتعت بالمراعى الواسعة، والأراضي الزراعية المتنوعة، التي أسهمت في ازدهار اقتصادها، ورخاء أهلها الذين قامت على أكتافهم «الدولة الرستمية»؛ لأنهم من القبائل التي كانت تدين بالمذهب الإباضى في هذه المنطقة. ولاشك أن وقوع العاصمة الرستمية «تھيرت» وسط معازل «الإباضية» المؤيدين لها ولمذهبها، كان له أكبر الأثر في حمايتها واستقرارها، ومنحها الفرصة كاملة لأداء دورها السياسى والحضارى بالمنطقة، وانفرادها بحكم نفسها في ظل زعامة إباضية، بعد أن تخلصت من سيطرة الأمويين، ثم العباسيين من بعدهم.

وقد أحيطت المدينة بسور عظيم تتخلله مجموعة من الأبواب، لحمايتها من هجمات أعدائها، وأنشئت بالقرب منها عدة حصون دفاعية، فضلا عما أنشئ بداخلها من مساجد ودور وقصور، وأسواق عامرة، حفلت بها، حيث إنما كانت ملتقى القوافل التجارية القادمة من جنوب الصحراء، والمتجهة إليها، كما كانت ملتقى تجار الشرق والغرب، وقد وفرت لها مراعيها الشاسعة ثروة حيوانية كبيرة؛ فضلا عن الصناعة التي قامت بها على بعض المعادن التي استخرجت من باطنها، فأحدث ذلك كله رواجًا اقتصاديا، وانتعاشًا انعكست آثاره على رفاهية السكان.

ج - فاس:

هى عاصمة «دولة الأدارسة»، وقد بدأ «الإمام إدريس» بناءها على الجانب الشرقى لنهر «فاس» فى سنة (192هـ = 808م)، لازدهام العاصمة القديمة «وليلي» بالوفود العربية التى قدمت من «القيروان» و «الأندلس»، فضلا عن خوف «إدريس» من نوايا بعض جموع البربر المحيطين به، وكان اختيار هذا المكان عاصمة لدولتهم صائبًا؛ فهو فسيح تحيط به الأشجار والحشائش، وتنفجر المياه فيه من عيون

«نهر سبو» وروافده، وقد دعا الإمام «إدريس» - حين وضع أساس هذه المدينة - بقوله: اللهم اجعلها دار علم وفقه، يتلى فيها كتاب الله، وتقام بها حدوده، وأن يجعل أهلها متمسكين دائماً بكتاب الله. وقد قُسمت المدينة إلى قسمين هما: عدوة الأندلسيين، وعدوة القرويين، واتخذت قبائل البربر مواضعها كما أقام الوافدون، في أماكن حددت لهم، وهكذا استطاع الأدارسة تدعيم سلطتهم بالمغرب الأقصى، وباتت لمدينة «فاس» آثارها الدينية والاقتصادية بالمنطقة، بعد أن حُرمت منها منذ انقضاء عهد «الرومان»، وما زالت هذه المدينة تحتفظ بآثارها الحضارية - حتى الآن - على عكس «تهيرت» و «سجلماسة» اللتين فقدتا ازدهارهما منذ أمد بعيد.

د - سجلماسة:

رأى «الصفريون» أن تكون لهم مدينة، بعد أن ازداد عددهم بالمغرب الأقصى، تصبح نواة لدولة صفرية مستقلة بجنوب «المغرب الأقصى»، فوقع اختيار «أبي القاسم سمكو بن واسول المكناسي» على منطقة «سجلماسة»، التي كانت نقطة التقاء البربر المقيمين بها وحولها، لتبادل السلع والبضائع.

وقد نجح المؤسسون لهذه المدينة في اختيار البقعة المناسبة لها؛ إذ تقع في منطقة «تافللت» على طرف الصحراء، وبينها وبين جنوب مدينة «فاس» مسيرة عشرة أيام، ومعنى ذلك أنها تقع في منطقة نائية، فأعطاهما هذا البعد سياج أمن وأمان لها ولساكنيها.

وبدأ تخطيط «سجلماسة» في سنة (140هـ=757م)، بصورة بسيطة،

حيث أسس «الصفريون» بها حصناً في وسط الساحة، سموه

«العسكر»، ثم أسسوا المسجد الجامع، ودار الإمارة، وشرع الناس

بعد ذلك في إقامة دورهم، وقد ساهمت طوائف البربر من قبائل

«مكناسة» و «صنهاجة» و «زناتة» في تأسيس هذه المدينة

وتعميرها، ثم تطورت بعد ذلك واتسعت، وأحيطت في عهد «اليسع

بن مدرار» (208هـ = 823م) بسور كبير حمايتها. وقد وصفها «ابن حوقل» بقوله: «كانت القوافل تجتاز المغرب إلى سجلماسة، وسكنها

(47/6)

أهل العراق، وتجار البصرة والكوفة والبغداديون الذين كانوا يقطعون الطريق؛ فهم وأولادهم وتجارهم دائرة، ومفرداتهم دائمة، وقوافلهم غير منقطعة إلى أرباح عظيمة وفوائد جسيمة ونعم سابعة، قلّ ما يدانيها في بلاد الإسلام سعة حال». ولقد تضافرت جهود القادة والولاة والدعاة في القرن الأول الهجري على نشر الإسلام بين سكان «المغرب»، فأقبل البربر على اعتناقه، وتعلمه وتفهمه دون الانخراط في فرقة بعينها، أو الانضمام إلى مذهب محدد، وكان الكتاب والسنة هما مصدر التشريع الأوحد في هذه المنطقة، فلما أقبل القرن الثاني الهجري، تطورت مسيرة الإسلام، نظرًا للتغيرات السياسية والمذهبية التي عاشتها «بلاد المغرب»؛ حيث وضحت تيارات المذاهب، وتحددت ملامح الفرق، ومثل المذهب المالكي والمذهب الحنفي القاعدة الشعبية العريضة لسكان «المغرب»، وباتت «القيروان» مركز أهل السنة من المالكية، وظهرت بها مجموعة من العلماء أمثال: «البهلول بن راشد» و «رباح بن يزيد»، و «عبدالله بن فروخ»، و «ابن غانم الرعيثي»، و «أسد بن الفرات»، وغيرهم، ومن ثم انتشر هذا المذهب عن طريقهم إلى بقية المدن المغربية، بعد أن أرسوا قواعده بها. وشاركت مدينة «فاس» التي أسسها «الأدارسة» أختها «القيروان» في الأخذ بهذا المذهب عن طريق الهجرات العربية الوافدة إليها عبر المضيق من «الأندلس»، ثم انتشر هذا المذهب في كل من: «تلمسان» و «تونس» و «سوسة» و «صفاقس»، وغيرها من المدن المغربية. ولقد شهد «المغرب» التيار الخارجي بشقيه «الصفري» و «الإباضي»

في العقد الثالث من القرن الثاني الهجري، ونجح «الصفورية» في تأسيس «سجلماسة» في سنة (140هـ)، كما نجح «الإباضية» في تأسيس «تهيرت» في سنة (161هـ = 778م)، واعتنقت القبائل البربرية مذهبيهما، وقامت على أكتافهم دولتهما. ثم وجد الشيعة والمعتزلة والمرجئة طريقهم إلى هذه البلاد، إلا أن

(48/6)

صَوَّتَى «المعتزلة» و «المرجئة» كانا خافتين، ولم يجدا صدَى يُذكر لأفكارهما ودعوتيهما. وتجدد الإشارة إلى أن المذهب المالكي قد لعب دوراً كبيراً في حياة سكان «بلاد المغرب» السياسية والحضارية منذ القرن الثاني الهجري حتى وقتنا الحاضر، وصار الإمام مالك هو القدوة والمثل الأعلى لأفعال وتصرفات المالكيين بالمغرب، وقلدوه في معاشه وملبسه وكيفية جلوسه للتدريس، وطريقته في الحديث، كما تبوأ تلامذته مكانة مرموقة بالمغرب. ولم تقف الاختلافات المذهبية بالمغرب في سبيل علاقاتها واتصالاتها الفكرية بالعواصم والمدن الإسلامية بالمشرق، بل كانت اتصالاتها مستمرة، وعلاقاتها وثيقة، وظهرت آثار احتكاك طلابها بعلماء المشرق واضحة في الحياة الدينية التي عاشتها المنطقة خلال القرن الثالث الهجري، وتوجّه أبناء «تهيرت» و «فاس» و «سجلماسة» إلى مدينة «القيروان»؛ لتحصيل العلم على أيدي علمائها، كما أمَّ أبناء «القيروان» مدن «تونس» و «سوسة» وغيرهما، لطلب العلم هناك، ونهل جميعهم من معين الإسلام الذي لا ينضب، ودرسوا الفقه والأصول والحديث والتفسير، وغيرها من العلوم. وكان لكل من «القيروان» و «تهيرت» أثر سياسي وثقافي بارز في بلاد المغرب، وشهدتا ازدهاراً فكرياً، ونهضة حضارية، واقتصاداً

قويا، وزخراً بالفقهاء والعلماء، وأصبحنا مقصد طلاب العلم من كل مكان، حتى نافستنا العواصم الشرقية الكبيرة بالسماحة، وسعة الأفق، ومناظرات العلماء. وقد شاركت مدينة «فاس» في هذا الدور بنهضتها الفكرية وازدهارها الحضارى، وأسهمت كذلك في نشر الإسلام والثقافة العربية.

(49/6)

## الفصل الثامن

\*الدولة الفاطمية بالمغرب

[296 - 362 هـ = 908 - 973 م]

قامت «الدولة الفاطمية» ببلاد «المغرب» - وفق خطة مرسومة من قبل دعاة الشيعة - على أكتاف قبيلة «كتامة»، التي تنتمي إلى بربر «البرانس»، وتميزت عن غيرها من القبائل بكثرة عددها، ومنعة منطقة سكنائها بجبال «الأوراس» بين مدينتي «بجاية» و «قسنطينة»، فضلا عن عدم خضوعها لسلطة الولاة اعتزازاً بمنعتها وقوة بأسها.

وقد وقف زعماء الشيعة على ما اتصفت به هذه القبيلة، واختار «ابن حوشب» رئيس مركز الدعوة الشيعية باليمن «أبا عبدالله الحسين بن أحمد الشيعي» للاتصال بوفد «كتامة» بموسم الحج، لنشر الدعوة الشيعية بالمغرب، وإقامة الدولة المرتقبة هناك.

وقد تم لقاء «أبي عبدالله» بوفد «كتامة» بمكة، وجعله هذا الشيعي يبدو كأنه جاء مصادفة، وبدأ يتعرّف أحوالهم وميولهم المذهبية، ولم يفصح عما أضمره وما جاء من أجله، ونجح في استمالةهم والسيطرة على قلوبهم بمكره ودهائه وعلمه وجدله، ثم تظاهر بعد انقضاء موسم الحج برغبته في السفر معهم إلى «مصر»، للتدريس لأبنائها،

فاصطحبوه معهم، فلما وصلوها، ألقوا عليه بمصاحبتهم إلى بلادهم، فوافقهم، وذهب معهم إلى المغرب في سنة (289هـ = 902م)، واتخذ من «إيكجان» مستقرا له، لأنها نقطة التقاء حجاج «الأندلس» و «المغرب الأقصى»، والمتوجهين لأداء فريضة الحج. وبدأ «أبو عبدالله» في تنفيذ خطته، وتظاهر بتعليم الصبية، وإلقاء دروسه عليهم، فزاده ذلك مكانة ومنزلة بين أبناء «كتامة»، وذاع صيته بين القبائل، وقصده البربر من أماكن متفرقة، لينهلوا من علمه، ويستفيدوا من نصائحه، ثم عمد «أبو عبدالله» إلى مصارحة بعضهم - بعد أن اطمأن إليهم - بحقيقة أمره، ورغبته في إقامة دولة لآل البيت تقوم على أكتاف قبيلة «كتامة»، لأن الروايات - كما ادعى لهم - جاءت بذلك، وأخبرت عما ينتظرهم من عز الدنيا وثواب الآخرة. وأخذ «أبو عبدالله» على عاتقه تنظيم صفوف أبناء «كتامة» وبعض

(50/6)

---

أبناء القبائل الأخرى، وقسمهم إلى سبعة أقسام، وجعل على رأس كل قسم منها داعية يطمئن إليه، فاستطاع بهذا الأسلوب العملي إقامة مجتمع يدين بفكرة واحدة؛ هي إقامة الدولة المثالية التي يحكمها إمام من آل البيت. وقد اتخذ «أبو عبدالله الشيعي» من أبناء «كتامة» جنداً يدافعون عن الدعوة، ويهاجمون القوى السياسية الموجودة بالمنطقة، وهي: «الأغالبة» بالمغرب الأدنى، و «الرستميون» بالمغرب الأوسط، و «بنو مدرار» بسجلماسة بجنوب «المغرب الأقصى» وبقايا «الأدارسة» بمدن «المغرب الأقصى»، وترتب على ذلك دخول «أبي عبدالله الشيعي» في عدة معارك مع هذه القوى، كانت أشهرها معركة «كبيونة»، التي انتصر فيها على «الأغالبة» في سنة (293هـ = 906م)، ثم توالى انتصاراته بعد ذلك، ودخل مدينة «رقادة» وقضى على نفوذ

«الأغالبة»، ثم دعا «المهدي الفاطمي» إلى «المغرب» لتسلم مقاليد الأمور؛ فلبى الدعوة، وتخفى في زى التجار حتى لا يقع في قبضة العباسيين، ودخل مدينة «رقادة» في سنة (297هـ = 909م)، ثم بوع بالإمامة.

الخلفاء الفاطميون بالمغرب:

حكم أربعة خلفاء فاطميين بلاد «المغرب» في الفترة من سنة (297هـ = 909م) إلى سنة (365هـ = 975م)، وكان «المعز لدين الله الفاطمي» هو آخر هؤلاء الخلفاء، حيث انتقل بالخلافة إلى «القاهرة» التي اتخذها عاصمة جديدة للفاطميين، بعد أن تم له فتح «مصر» على يد قائده «جوهر الصقلي» في سنة (358هـ = 969م)، والخلفاء الأربعة هم:

- 1 - المهدي: عبيد الله أبو محمد [297 - 322هـ = 909 - 934م].
  - 2 - القائم: محمد أبو القاسم [322 - 334هـ = 934 - 945م].
  - 3 - المنصور: إسماعيل أبو طاهر [334 - 341هـ = 945 - 952م].
  - 4 - المعز: معذ أبو تميم [341 - 365هـ = 952 - 975م].
- وقد وُلد «المهدي» أول الخلفاء بالعراق في سنة (266هـ = 880م)، وتوفي بالمهدية في سنة (322هـ = 934م)، ثم تلاه ابنه «محمد» الذي ولد «بسنميه» في الحرم سنة (278هـ = أبريل 891م)، ورحل

(51/6)

---

مع أبيه إلى «المغرب»، وتولى الإمامة من بعده، ومات في سنة (334هـ = 945م)، فجاء من بعده ابنه «إسماعيل» الذي وُلد «بالمهدية» في الليلة الأولى من جمادى الآخرة في سنة (303هـ = ديسمبر 915م)، وبوع له في شوال سنة (334هـ = 945م) وتوفي يوم الأحد في الثالث والعشرين من شوال سنة (341هـ = فبراير 953م)، وكان فصيحًا بليغًا، خطيبًا حاد الذهن، حاضر الجواب، ثم جاء «المعز» آخر الخلفاء

الفاطميين، فتولى الأمر بعد أبيه في شوال من العام نفسه، وكان عمره أربعًا وعشرين عامًا، وقد وُلد بالمحمدية في يوم الاثنين 10 من رمضان سنة (319هـ)، وكان أول الخلفاء الفاطميين الذين دخلوا «مصر» وانتقلوا بالخلافة إليها، ومكث بها عامين وتسعة أشهر. بعض المشكلات الداخلية:

حين قدم «المهدى» إلى بلاد «المغرب»، وجد أن داعيته «أبا عبد الله الشيعي» قد استحوذ على قلوب الناس فيها، وأصبح ذا نفوذ وسلطة كبيرين بالمنطقة، فأراد «المهدى» أن يجد من سلطاته ونفوذه، فأنقلب عليه «أبو عبد الله» وتآمر ضده، وجمع زعماء «كتامة» وأخبرهم بتشككه في شخص «المهدى» وأنه ربما يكون شخصًا آخر غير الذي دعا إليه، فبلغ هذا الأمر «المهدى»، فتخلص منه بالقتل، فسخط الكتاميون وثاروا، وأتوا بطفل صغير وقالوا: إنه «المهدى»، فحاربهم «المهدى الفاطمي» وقتل هذا الطفل.

ثم تعرضت «المغرب» في عهد «القائم بالله» وابنه «أبي العباس» من بعده لثورة «أبي يزيد مخلد بن كيداد اليغربي»، الذي ينتمي إلى قبيلة «يغرن» الزناتية، وقد ولد بالسودان، ونشأ بتوروز وتعلم بها، ثم اتصل بالإباضية، ومن ثم هاجم ما استحدثه المذهب الشيعي على المجتمع المغربي، واجتمع الناس حوله، ورحل إلى «جبل أوراس» عقب وفاة المهدي فانضمت إليه جموع القبائل، فقام بثورته واستولى على العديد من المدن، واستغرقت ثورته نحو أربعة عشر عامًا، فشملت عهد «القائم بالله» كله، وعامين من عهد «أبي

(52/6)

---

العباس»، الذي تصدى لها وتمكن من القضاء عليها وعلى زعيمها «أبي يزيد»، وسجل انتصاره هذا بإنشاء مدينة «المنصورية» في سنة (337هـ).

## العلاقات الخارجية:

قام الفاطميون بحملات متكررة على «مصر» للاستيلاء عليها، ففشلت جميعها، إلا حملة «جوهرة الصقلي» الذي نجح في دخول «مصر» في سنة (358هـ=969م) ثم أسس بها مدينة «القاهرة»؛ لتصبح عاصمة الفاطميين، فانتقلت إليها الأسرة الفاطمية، وباتت «القاهرة» عاصمتهم حتى سقوط دولتهم.

وقد سعى الفاطميون إلى بسط نفوذهم على بلاد الأندلس، بالدعوة تارة، وبالغزوات أخرى، ولكن جهودهم ضاعت هباءً، ولم تجد دعوتهم صدى في نفوس الأندلسيين من أهل السنة، فضلاً عن أن حكام الأندلس وقفوا لهم بالمرصاد وحصنوا بلادهم، وعززوا أسطولهم، فتراجع الفاطميون عن ذلك، واتجهوا إلى «مصر». واستهدف الفاطميون من اتخذ «مصر» قاعدة لحكمهم تحقيق الأمن والاستقرار لوجودهم، خاصة بعد أن اشتعلت في وجوههم الثورات الخطيرة التي كادت تودي بكيانهم على أرض «المغرب»، فضلاً عن أملهم في تحقيق أهداف سياسية واقتصادية في «مصر»؛ إذ إنهم بموقعها وثرواتها وإمكاناتها تحقق لهم ما يريدون من مال وثروات وازدهار اقتصادي، كما أن الاستيلاء عليها يعد ضربة قاصمة للعباسيين الذين قتلوا كثيراً من أبناء البيت العلوي ولذا أرادوا الانتقام منهم والثأر لأنفسهم.

## النظم الفاطمية:

### – الخلافة:

قامت الخلافة الفاطمية على أساس فكرة عصمة الإمام، وأسس خلفاؤها لهذا الغرض مدارس خاصة لتعليم عقائد مذهبهم الذي يقوم على تقديس الأئمة، وحاولوا نشرها في «مصر» و «اليمن» و «بلاد فارس» و «الهند» وفي غيرها من أنحاء العالم الإسلامي.

وقد تلقب الخلفاء بألقاب كثيرة منها: «الخليفة الفاطمي»، و «الخليفة العلوي»، و «أمير المؤمنين»، و «الإمام»، و «صاحب الزمان»، و «الشريف القاضي»، وساروا على نهج الأمويين والعباسيين في

تولية أبنائهم ولاية العهد؛ فكان الخليفة إذا شعر بدنو أجله، يعهد بالخلافة إلى أحد أبنائه، ثم تتجدد هذه البيعة بعد وفاته، فلما تسرب الضعف إلى الخلافة الفاطمية في عهد «المستنصر»، أصبح اختيار الخليفة بيد القادة وكبار رجال الدولة.

– الوزارة:

كانت الوزارة في العصر الفاطمي الأول (308 – 465هـ = 920 – 1073م)

وزارة تنفيذ، لأن الخلفاء كانوا أقوياء، ويديرون أمور الدولة بأنفسهم، ثم تحولت بمصر في سنة (466هـ = 1074م) إلى وزارة تفويض، وبات الخلفاء منذ ذلك العهد – نظرًا لضعفهم – تحت نفوذ الوزراء وسيطرتهم.

– الكتابة:

كانت الكتابة تلي الوزارة في الرتبة في عهد الفاطميين، وكان الخلفاء يسندونها إلى من أنسوا فيهم الكفاءة والقدرة على معالجة الأمور، وعُنى الفاطميون عناية فائقة بالشعراء والكتاب وغيرهم من رجال الأدب، لنشر مذهبهم وإذاعة أمتهم، وكان اختيار الكاتب يتم – عادة – من بين من اشتهروا بسعة الاطلاع وجودة الأدب، وامتازوا بدقتهم ومقدرتهم في فن الإنشاء.

– الدواوين:

كانت هناك عدة دواوين، على رأس كل منها موظف كبير، ومنها: «ديوان الجيش»: وكانت تعرض على صاحبه شئون الأجناد وخبوطهم، وما إلى ذلك.

و «ديوان الكسوة والطراز»: ويتولاه أحد كبار الموظفين من أرباب الأقلام.

و «ديوان الأحباس»: وهو يشبه وزارة الأوقاف حاليا.

و «ديوان الرواتب»: ويشبه وزارة المالية الآن.

بناء المهديّة:

حين بويح «المهدى» بالخلافة بالمغرب اتخذ من مدينة «رقّادة» عاصمة له، إلا أن الظروف التي أحاطت به في بداية عهده، جعلته يفكر جدياً في اتخاذ عاصمة جديدة لدولته الوليدة، ليتحصن بها من مؤامرات أعدائه، فنجح في اختيار منطقة تبعد عن «القيروان» ستين ميلاً تقريباً، يحيط بها البحر من جهات ثلاث، وهى على شكل يد متصلة بزند، فأطلق عليها اسم: «المهديّة»، وشرع في تخطيطها وتشبيد مبانيها، وجعل لها بابين من الحديد، وأقام بها ثلاثة وستين

(54/6)

صهرينجاً، لتزويد المدينة بالمياه اللازمة، وبنى بها داراً لصناعة السفن، فصارت مرفأً مهماً وسوقاً رائجة للسلع التي كانت تحملها السفن إليها من «الإسكندرية»، وقد فرغ من بنائها في سنة (305هـ= 917م)، ثم انتقل «المهدى» للإقامة بها في سنة (308هـ= 920م)، فاتسعت جنباتها، وزادت أسواقها، وازدهرت التجارة بها، وظلت عامرة، وآهلة بالسكان، حتى استولى عليها خليفة الموحدين «عبدالمؤمن بن على» في سنة (555هـ= 1160م).

النشاط المذهبي للفاطميين ببلاد المغرب:

شهدت المنطقة طوال عهود الخلفاء الفاطميين في المغرب صراعاً مذهبياً بين المالكية - غالبية أهل السنة - وبين الشيعة، الذين استخدموا كل الوسائل الممكنة، لنشر مذهبهم وطمس معالم المذاهب الأخرى، وجعلوا الوظائف قاصرة على الشيعة، واستبدلوا قواعد مذهبهم بأحكام المذهب السني، وعقدوا المجالس والمناظرات لإقناع أهل البلاد بصحة مبادئهم، ثم لجئوا إلى العنف والرعب والاضطهاد حين فشلت وسائلهم في إدخال سكان البلاد في مذهبهم، ففشلت

هذه الوسائل أيضاً، حتى عاد المذهب السنّي مذهباً رسمياً للبلاد في عهد «المعز ابن باديس».

(55/6)

## الفصل التاسع

\*بنو زيرى بالمغرب

يرجع نسب «بنى زيرى» إلى قبيلة «صنهاجة» البربرية؛ التي تنتمى إلى فرع من «البرانس»، ولم تكن «صنهاجة» مجرد قبيلة؛ بل كانت شعباً عظيماً، لا يكاد يخلو قطر من أقطار «المغرب» من بطونه وأفراده، مما دفع «ابن خلدون» إلى القول بأنهم يمثلون ثلث البربر. وقد سكنت «صنهاجة» في مساحات شاسعة؛ امتدت من «نول لمطة» في جنوب «المغرب الأقصى» إلى «القيروان» بإفريقية، وهي منطقة صحراوية، آثروا السكنة فيها على غيرها من المدن الآهلة، لأنها - كما علل «ابن خلدون» - تتوافق مع طباعهم، ورغبتهم في الابتعاد عن الاختلاط بالناس، والفرار من الغلبة والقهر. وظهرت أسرة «بنى زيرى» - في أول أمرها - في طاعة الفاطميين، وتعاونت معهم في صد الأخطار التي تعرضت لها دولتهم بالمغرب، وكان أول اتصال بينهما في عهد «المنصور الفاطمى»، حين قدم «زيرى بن مناد» وأهل بيته وقبيلته لمحاربة «أبى يزيد الخارجى» في سنة (335هـ=946م)، فخلع عليه «المنصور»، ووصله، وعقد له على أهل بيته وأتباعه وقبيلته، فعظم شأنه، وصار «بنو زيرى» أعواناً وأتباعاً للفاطميين، ومن ثمّ نشب الصراع بين الصنهاجيين، وقبائل «زناتة»، لأن «زناتة» كانت دائمة الإغارة على ممتلكات «الدولة الفاطمية».

وحين عزم «المعز» على الرحيل إلى «مصر» في سنة (361هـ=972م)

للانتقال إليها بخلافته، وقع اختياره على «يوسف بُلْكَيْن ابن زيرى بن مناد الصنهاجى» ليتولى الإمارة بالمغرب خلفًا للفاطميين.  
1 - يوسف بُلْكَيْن بن زيرى بن مناد الصنهاجى [362 - 373هـ = 973 - 983م]:

عينه «المعز» على ولاية «المغرب»، واستثنى من ذلك «طرابلس المغرب»، و «أجدابية» و «سرت»، وعين معه «زيادة الله ابن القديم» على جباية الأموال، وجعل «عبدالجبار الخراسانى» و «حسين بن خلف» على الخراج، وأمرهما بالانقياد ليوسف بن زيرى. واجه «يوسف» عدة ثورات واضطرابات بالمغرب، كان منها عصيان

(56/6)

أهل «قهيرت»، ثم سيطرة قبيلة «زناتة» على مدينة «تلمسان»، وقد توجه إلى «قهيرت» بجنوده وأعادها إلى طاعته، كما توجه إلى «تلمسان» وأعادها إلى حكمه في سنة (365هـ = 976م). وفي سنة (373هـ = 984م) خرج الأمير «يوسف» على رأس جيوشه لاستعادة «سجلماسة» من أيدي بعض الثوار الذين استولوا عليها، ولكنه أصيب بمرض أودى بحياته في شهر ذى الحجة سنة (373هـ = مايو 984م).

2 - المنصور بن يوسف بُلْكَيْن بن زيرى [373 - 386هـ = 984 - 996م]:  
أوصى الأمير «يوسف بلكين» قبل وفاته بالإمارة من بعده لابنه «المنصور» الذى كان بمدينة «أشير» حين بلغه خبر وفاة والده، وأقبل عليه أهل «القيروان» وغيرها من المدن، لتعزيتته، وتهنئته بالولاية، فأحسن إليهم وقال لهم: «إن أبى يوسف وجدى زيرى، كانا يأخذان الناس بالسيف، وأنا لا آخذهم إلا بالإحسان، ولست ممن يؤلّى بكتاب، ويُعزل بكتاب»، وقصد «المنصور» من ذلك أن الخليفة الفاطمى بمصر لا يقدر على عزله بكتاب.

وقد واجهت «المنصور» عدة مشاكل، كانت منها غارات قبائل «زناتة» المستمرة على المدن المغربية في سنة (374هـ = 985م)، واستيلاء «زيرى بن عطية الزناتي» على مدينتي «فاس» و «سجلماسة»، مما دفع «المنصور» إلى إرسال أخيه «يطوفت» على رأس جيش كبير لمواجهة هذه القبائل، ودارت معركة كبيرة بين جموع الفريقين، أسفرت عن هزيمة الصنهاجيين، وعودتهم إلى «أشير». ثم تصدى الأمير «المنصور» في سنة (376هـ = 986م) لعمه «أبي البهار» الذي نهب مدينة «تھيرت»، ففر «أبو البهار» أمامه، ودخل «المنصور» المدينة، وأعاد إلى أهلها الأمن والهدوء. ثم تُوفي في يوم الخميس (3 من ربيع الأول سنة 386هـ = مارس 996م)، ودفن بقصره.

3 - باديس بن المنصور [386 - 406هـ = 996 - 1015م]:

وُلد «باديس» في سنة (374هـ = 985م)، وتكنى بأبي مناد، وخلف أباه على «المغرب» في سنة (386هـ = 996م)، وأتته الخلع والعهد بالولاية

(57/6)

---

من «الحاكم بأمر الله الفاطمي» من «مصر»، وبايع للحاكم، وأعلن تبعية بلاده لخلافته، ثم أقطع عمه «حماد بن يوسف» مدينة «أشير»، وولاه عليها، وأعطاه خيلاً وسلاحاً، وجنوداً كثيراً، فكانت هذه هي نقطة البداية لانقسام «بني زيرى» إلى أسرتين: تحكم إحداهما بالمغرب الأدنى في «ليبيا» و «تونس»، وتحكم الأخرى - أسرة «بني حماد» - في «الجزائر»، متخذة من قلعة «بني حماد» مقراً للحكم. وانفرد «بنو حماد» بإقليم «الجزائر»، نظراً لضعف قبضة الأمير «باديس» على البلاد. وقد واصل «باديس» مطاردة «زناتة»، وأخبر في سنة (387هـ = 997م) بأن «زيرى بن عطية الزناتي» قد اعتدى على مدينة «أشير»، فبعث

إليه بجيشه لمواجهة، ولكن الجيش هُزم على أيدي الزناتيين،  
فاضطر الأمير «باديس» إلى الخروج بنفسه لمواجهةهم في «أشير»،  
فلما علم الزناتيون بذلك انطلقوا إلى الصحراء، وتركوا المدينة،  
فدخلها «باديس»، وأقر الأمور بها، ثم مات في سنة (406هـ = 1015م).  
4 - المعز بن باديس [406 - 453هـ = 1015 - 1061م]:  
أخذت البيعة للمعز بمدينة «المحمدية»، وتولى الأمر يوم وفاة أبيه  
وفرح الناس بتوليته لما رأوا فيه من كرم ورجاحة عقل، فضلا عن  
تواضعه، ورقة قلبه، وكثير عطائه، على الرغم من حداثة سنه.  
وقد حدثت في عهده بعض التطورات، حيث ألغى المذهب الشيعي،  
وخلع طاعة الفاطميين، ودعا على منابره للعباسيين، وتصالح مع  
أبناء عمومته الحماديين سنة (408هـ = 1017م)، وواصل مطاردة  
«قبائل زناتة» جهة «طرابلس»، في أبناء «حماد».  
ثم أصيب «المعز بن باديس» بمرض في كبده أودى بحياته في سنة  
(453هـ = 1061م)، بعد حكم دام سبعا وأربعين سنة.  
5 - تميم بن المعز بن باديس [453 - 501هـ = 1061 - 1108م]:  
وُلد بالمنصورية في منتصف رجب سنة (422هـ = يونيو 1031م)، ثم  
تولى إمرة «المهدية» في عهد والده «المعز» في سنة  
(445هـ = 1053م)، ثم خلف والده في الإمارة في سنة (453هـ = 1061م).

(58/6)

---

فواجه عددًا من الاضطرابات والقلقل، حيث سيطر العرب الهلاليون  
على كثير من مناطق «إفريقية»، وثار عليه أهل «تونس» وخرجوا  
عن طاعته، فأرسل إلى «تونس» جيشًا، حاصرها سنة وشهرين،  
فلما اشتد الحصار على الناس، طلبوا الصلح، وعاد جيش «تميم» إلى  
«المهدية»، ثم ثارت عليه مدينة «سوسة» فحاصرها وفتحها عنوة،  
وأمن أهلها على حياتهم.

وقد تعرضت «المهدية» في عهده لهجمات الهلالية، لكنه تمكن من صدّهم، ثم حاصر «قابس» و «صفاقس»، واستولى عليهما من أيدي الهلالية الذين كانوا يحتلونهما. وعمد إلى مهادنة أبناء عمومته في «الجزائر»، وزوج ابنته للناصر بن علناس أمير «الجزائر»، وأرسلها إليه في موكب عظيم، محملة بالأموال والهدايا. ثم تُوفى في سنة (501هـ = 1107م).

6 - يحيى بن تميم بن المعز بن باديس [501 - 509هـ = 1107 - 1115م]:  
ولد بالمهدية في (26 من ذى الحجة سنة 457هـ)، وولى الإمارة وعمره ثلاث وأربعون سنة وستة أشهر وعشرون يوماً، فوَّزَّع أموالاً كثيرة، وأحسن السيرة في الرعية، ثم فتح قلعة «أقليبية» التي استعصى على أبيه من قبل فتحها، كما جهز أسطولاً كبيراً، كان دائم الإغارة على الجزر التابعة لدولة الروم في البحر المتوسط، ومات فجأة في يوم عيد الأضحى سنة (509هـ - 1115م).

7 - علي بن يحيى بن تميم [509 - 515هـ = 1115 - 1121م]:  
لم يكن الأمير «علي» حاضراً بالمهدية - التي وُلد بها - حين وفاة والده، فلما وصل إليه الخبر، حضر مسرعاً، ودفن والده، وتولى الإمارة خلفاً له، ثم جهز أسطولاً كبيراً لمهاجمة جزيرة «جربة»، لأن أهلها قطعوا الطريق على التجار، وتمكن الأسطول من إخضاع الجزيرة، وأمن الأمير أهلها وعفا عنهم، ثم قضى على عصيان «رافع» عامله علي «قابس»، الذي سعى إلى شق عصا الطاعة وحشد الجموع لمهاجمة «المهدية». وقد تُوفى الأمير «علي» في العشر الأواخر من شهر ربيع الآخر سنة (515هـ = يونيو 1121م).

(59/6)

8 - الحسن بن علي بن يحيى [515 - 543هـ = 1121 - 1148م]:  
ولى الإمارة عقب وفاة والده الأمير «علي»، وكان عمره آنذاك اثنتي

عشرة سنة، فقام «صندل الخصى» بإدارة شئون الحكم، إلا أنه  
توفي بعد فترة قصيرة، فتولى القائد «أبو عزيز موفق» الإشراف  
على أمور البلاد، وتمكن من صد الأسطول الرومى الذى هاجم بعض  
حصون الزيريين فى سنة (517هـ = 1123م)، وكذلك ألحق الأمير  
«الحسن» الهزيمة بجيش «يحيى بن عبدالعزيز بن حماد» أمير  
«بجاية» الذى جاء لمهاجمة «المهدية» والاستيلاء عليها فى سنة  
(529هـ = 1135م).

وفى سنة (537 - 543هـ = 1142 - 1148م) حل القحط بإفريقية واستغل  
ملك «صقلية» ذلك وجهاز أسطولاً كبيراً، وتوجه به قاصداً «المهدية»،  
ولم يستطع «الحسن» الدفاع عنها، وهرب بأهله ومتاعه إلى أبناء  
عمومته من «بنى حماد»، فوضعوه وأهله تحت الحراسة، ومنعوه من  
التصرف فى شىء من أمواله، ودخل الروم مدينة «المهدية» دون  
قتال أو ممانعة، فسقط حكم «بنى زيرى»، وسقطت إمارتهم، وكان  
«الحسن بن على» آخر أمراء «الدولة الزيرية».

العلاقات الزيرية الفاطمية:

شكلت العلاقات الزيرية الفاطمية حجر الزاوية فى وضع «بنى زيرى»  
بالمغرب؛ إذ أسفرت هذه العلاقات عن هجوم القبائل الهلالية على  
أقاليم «الدولة الزيرية»، بمساعدة الفاطميين فى «مصر» وتوجيههم،  
وكان ذلك سبباً رئيسياً فى سقوط «بنى زيرى» وانتهاء دولتهم،  
كما اتخذ «المعز بن باديس» خطوات جريئة فى سبيل الاستقلال  
بإمارته عن الخلافة الفاطمية، حين قاطع أهل «إفريقية» صلاة  
الجمعة بالمساجد لأنها تمثل المذهب الشيعى، فضلاً عن نبذ الرعية  
للمذهب الشيعى وتمسكهم بالمذهب المالكى، وبدأ «المعز» فى  
السعى إلى الاستقلال عن الفاطميين وراسل الخلافة العباسية فى  
سنة (435هـ = 1044م)، وبعث رسولاً من قبله إلى «بغداد» ليأتيه  
بالعهد واللواء، ورحب «العباسيون» بذلك، للانتقام من الفاطميين،

واسترجاع بعض مظاهر سيادتهم على هذه المناطق التي انفصلت عنهم منذ زمن بعيد، ويعثوا بالعهد واللواء مع «غالب الشيرازى» أحد رجالهم، ولكن «غالب» وقع فى قبضة الروم، وأرسلوه إلى أصدقائهم الفاطميين بمصر، فأحرق الفاطميون العهد واللواء، وطافوا بالرجل فى شوارع «القاهرة»، فقطع «بنو زيرى» علاقتهم بالفاطميين، وعادوهم ولعنوهم على المنابر، ودعوا للعباسيين، ثم دعموا استقلالهم وارتباطهم بالعباسيين، وهدموا دار «الإسماعيلية»؛ مركز نشر الدعوة الفاطمية بالبلاد، وغيروا العملة، واتخذوا اللون الأسود شعار العباسيين رمزاً لهم.

وقد حاولت الخلافة الفاطمية إرجاع العلاقات إلى ما كانت عليه بالترغيب والترهيب حتى وصل «اليازورى» إلى منصب الوزارة وقبض على مقاليد الأمور بالخلافة، فعمد إلى تشجيع القبائل الهلالية على التوجه إلى «القيروان» وأطلق لها العنان فى التدمير والتخريب، وامتلاك كل ما يقع تحت سيطرتها.

ويرجع تشجيع الوزير الفاطمى لهذه القبائل لعدة أمور، منها: رغبته فى الانتقام من «المعز بن باديس»، وتوفير الأموال الطائلة التى ستنفقها الجيوش إذا ما خرجت إلى المغرب لمحاربة «بنى زيرى»، فضلاً عن أمله فى التخلص من القبائل الهلالية ذاتها؛ لأنها تشكل مصدر إزعاج وقلق للسلطة الحاكمة بالقاهرة.

وقد فرض الوزير الفاطمى «اليازورى» ديناراً وبعيراً لكل رجل من «الهلالية»، فخرجت هذه القبائل قاصدة «القيروان» واستولت على مدينة «برقة» دون مقاومة، وتقاسمت فيما بينها المناطق الشرقية، واستأثرت بعض قبائل «بنى هلال» بالمناطق الغربية، واتجهت جموع «دياب» و «عُرف» و «زغب». وبقية البطون الهلالية إلى «إفريقية»، واستولوا على «سرت» و «أجدابية» ودمروها، كما دمروا بقية المدن والقرى فى طريقهم إلى «القيروان».

وخرج «المعز بن باديس» بجيشه وجموع «زناتة» و «صنهاجة» و «عبيدة» لملاقاة الهلاليين، ولكنهم تغلبوا عليه وهزموه على الرغم

(61/6)

من أن عددهم كان لا يتجاوز ثلاثة آلاف فارس، في حين بلغ تعداد جيش «المعز» ثلاثين ألف مقاتل، وأسرع المعز إلى «القيروان» وأقام حولها سورًا لحمايتها في سنة (446هـ = 1054م)، ثم أمر السكان من النساء والأطفال والشيخوخ بالانتقال إلى مدينة «المهدية» الحصينة للاحتماء بها، فلما يئس من حماية «القيروان»، انتقل برجال دولته وحاشيته إلى «المهدية»، فدخلها الهلاليون في سنة (449هـ = 1057م).

ولم يمكث «المعز» طويلا بعد سقوط «القيروان» والكثير من مدن دولته، وتوفي بالمهدية في سنة (453هـ = 1061م)، ومن ثمّ انهار الحكم الزيرى بالمنطقة، وتحكمت فيها القبائل الهلالية، وامتد تأثيرهم السياسى حتى وصل إلى «المغرب الأوسط»، وهادتهم «بنو حماد»، وأعطوهم نصف غلات بلادهم اتقاء لشركهم، ودفعًا لأذاهم وخطرهم.

بعض المظاهر الحضارية لدولة بنى زيرى بالمغرب:

كانت الزراعة هى دعامة الحياة الاقتصادية فى المنطقة، التى تمتعت بالهدوء والاستقرار فى ظل الحكم الزيرى فيما عدا الفترة التى شهدت هجوم العرب الهلالية على البلاد، وقد ساعد تطور نظام الري على تطور الزراعة، فعرفت المنطقة زراعة «القطن» و «قصب السكر» و «الشعير» وازدهرت زراعة «التمر» و «العنب» و «الموز»، ولعبت تربية الأغنام دورًا مهمًا فى حياة الفلاح المغربى.

وقامت الأسواق المنتشرة بالمدن المغربية بدور مهم فى تنشيط الحركة التجارية؛ حيث كانت هناك أسواق: البزازين، والجزارين،

والزجاجين، وسوق الدجاج، وسوق الغزل، وغيرها من الأسواق التي ساعدت على ازدهار التجارة، وبخاصة في مدينة «القيروان»، فأصبحت «المغرب» بلدًا غنيا، وباتت قبلة تجار الشرق والغرب. ونشطت حركة التصدير والاستيراد بها، واشتهرت مدينة «باجة» بتصدير كميات كبيرة من «القمح»، كما صُدِّرَ «زيت الزيتون» عن طريق ميناءى «سوسة» و «صفاقس» إلى بلدان المشرق، وبلاد «أوربا»، فأدى هذا الازدهار إلى تطور الصناعات، وعرفت المدن

(62/6)

المغربية صناعات «النسيج» و «الجلود»، و «الأواني الفخارية»، وغيرها من الصناعات المتنوعة. أما الناحية الفكرية: فقد شهدت ازدهارًا كبيرًا وتطورًا ملحوظًا، وبخاصة في مدينة «القيروان» التي أصبحت في طليعة العواصم الإسلامية ذات الأثر في تاريخ الفكر الإسلامى، وشهدت مساجد المغرب المناظرات الفقهية والكلامية بين الشيعة، والمالكيين من أهل السنة، وصمد علماء المذهب المالكي وفقهاؤه رغم ما لاقوه من سجن وتعذيب على أيدي الشيعة الفاطميين، وتعلق السكان بهذا المذهب، وأصبح مذهبهم الرسمى منذ ذلك الوقت حتى الآن. وتطورت الحركة الأدبية في عهد «المعز بن باديس» الذى اشتهر بتشجيع أهل الأدب والعلم، وأحسن معاملتهم، مثلما أخبر عنه «ياقوت» بقوله: وكانت «القيروان» في عهده وجهة العلماء والأدباء، يشدون إليها الرحال من كل فجّ، لما يرونه من إقبال «المعز» على أهل العلم والأدب وعنايته بهم. ثم كان لاختلاط الهلاليين بسكان «المغرب» أثره الكبير في تعريب جزء من هؤلاء السكان، حيث امتزج المغاربة بالعرب الهلاليين على مر الأيام، وتزاوجا، فاختلطت الدماء، وتعلم سكان البلاد الأصليون لغة

الوافدين العرب، فانتشرت اللغة العربية في مناطق كثيرة من المغرب، ومن ثم انتشرت الثقافة العربية بهذه البلاد.

(63/6)

## الفصل العاشر

### \*دولة المرابطين

تمهيد:

شهد «المغرب الأقصى» خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين فترة مزدهرة؛ عُدت من أخصب فترات حياته؛ حيث قامت على أرضه أكبر دولتين عرفتهما المنطقة في هذا الوقت، هما: «دولة المرابطين»، و «دولة الموحدين»، اللتان أبرزتا شخصية «المغرب الأقصى» باعتبارها دولةً مستقلة؛ قامت على أكتاف أبنائها، وبسطت نفوذها على مناطق شاسعة بالشمال الإفريقي، فضلا عن «الأندلس»، وشاركت مع غيرها في إرساء قواعد الحضارة الإسلامية في غربي العالم الإسلامي، بنظمها، وحضارتها واقتصادها المزدهر، ومبانيها، فضلا عن ثقافتها، وعلمائها ومفكراتها.

– الأوضاع السياسية في بلاد المغرب الأقصى قبل قيام دولة

المرابطين:

أصبحت «دولة الأدارسة» التي أسسها «إدريس بن عبد الله» بالمغرب الأقصى في سنة (172هـ = 788م) بالضعف والاضمحلال بعد دخول جيوش «أبي عبد الله الشيعي» بقيادة «مصالة بن حُبوس المكناسي» إلى هذه المنطقة في سنة (305هـ = 917م)، ومن ثمّ مرت المنطقة بفترة حالكة في تاريخها، وباتت تدعو على منابرها للفاطميين تارة، ولحكام «الأندلس» تارة أخرى، وخيّم عليها المنازعات القبليّة والحروب الطاحنة وتوزعت المنطقة بين القبائل المختلفة والأسر

المتناحرة، وانقسمت الخريطة السياسية للمغرب الأقصى إلى أربعة تجمعات، هي:

1 - منطقة «فاس» وما حولها، وهي خاضعة لأمراء «مغراة».

2 - منطقة «سلاوتادلا»، وكانت خاضعة لبني يفرن.

3 - منطقة «سجلماسة» و «درعة»، وكانت خاضعة لبني خزردن.

4 - إمارة «برغواطة» في سهول «تامسنا».

أما «فاس»؛ فكانت خاضعة لأمراء «مغراة»، وقد دخلها «زيري بن عطية» أول هؤلاء الأمراء في سنة (377هـ = 987م)، واستوطن بها، ثم جعلها قاعدة إمارته، ودخل في عدة حروب مع «بني يفرن»، ومع جيوش «الدولة الأموية» التي كان خاضعاً لها، وقد انتهت هذه الحروب بوفاة «زيري» متأثراً بجراحه في سنة (391هـ = 1001م)،

(64/6)

فلما ولي ابنه «المعز» الإمارة أصلح علاقته بالدولة الأموية في «الأندلس»، ثم تولى الأمراء على «فاس»، واتسمت فترة حكمهم بكثرة الحروب، وكان «تيم بن معتصر بن حماد» الذي تولى في سنة (460هـ = 1068م) هو آخر الأمراء، وقد دخل في صراع طويل مع «المرابطين»، ولكنهم نجحوا في دخول فاس في سنة (462هـ = 1070م)، وقتل «تيم»، وطويت صفحة أمراء «مغراة»، وتولى المرابطون السلطة.

أما منطقة «سلاوتادلا»، فكانت خاضعة لأمراء «بني يفرن»، الذين دخلوا في صراع مع أبناء عموماتهم من أمراء «مغراة»، وكان آخر أمرائهم هو «محمد بن تيم بن زيري» الذي تولى الإمارة في سنة (448هـ = 1056م)، وقتل على أيدي المرابطين في سنة (462هـ = 1070م).

أما «سجلماسة» و «درعة» فقد تولى حكمها «بنو خزردن» في سنة

(366هـ = 976م)، واستمروا في الحكم حتى أسقطهم المرابطون في سنة (477هـ = 1084م).

أما إمارة «برغواطة» - التي احتلت المناطق الساحلية جنوبي «طنجة» إلى «آصيلا» واشتملت على مناطق «تامسنا» - التي أقامت بها عدة قبائل من «زناتة»، فقد دخلت هذه الإمارة في صراع مع «بني يفرن»، و «الأدارسة»، ثم مع المرابطين الذين قضوا على الحكم فيها، وغيروا سياستها ونظمها.

قيام دولة المرابطين:

قامت «دولة المرابطين» على أساس دعوة دينية، نمت وازدهرت في «ديار الملثمين» بجنوب «المغرب الأقصى» بفضل جهود الفقيه المالكي «عبدالله ابن ياسين»، الذي تمتع إلى جانب علمه وفقهه ببعده النظر ونداؤ البصيرة، وتوجه إلى قبيلة «جدالة» بصحبة زعيمها «يحيى بن إبراهيم»، ففرحت بمقدمه، ثم ما لبث هذا الفرع طويلا حتى تحول إلى جفوة وإعراض حين بدأ «ابن ياسين» في تغيير ما ألفوه من عادات وملذات تخالف أحكام الدين، وحسبه الزعماء والنبلاء ينتقص من حقوقهم، ويُسوِّى بينهم وبين مواليهم، وساءت العلاقة بينهم وبين «ابن ياسين» ونهبوا داره وهدموها، واضطر هذا الفقيه إلى الرحيل بمن تبعه إلى جزيرة منعزلة بالسنگال.

(65/6)

وبدأ «ابن ياسين» في هذه الجزيرة بإعداد التلاميذ ونشر الدعوة، فذاع صيته، وكثر عدد أتباعه، فأطلق عليهم لقب: «المرابطين»، ومضوا في تنفيذ ما أمر به.

وقد بدأ المرابطون نشر دعوتهم بين قبيلة «جدالة» التي تمردت على «ابن ياسين» من قبل، فقصدوا قبيلتي «لمتونة» و «سوقة» ونجحوا في نشر دعوتهم بينهما، فكان ذلك مدعاة لانضواء بقية القبائل تحت

لوائهم.

انتقال السلطة إلى قبيلة لتونة:

توفي الأمير «يحيى بن إبراهيم الجدالي» في سنة (447هـ = 1055م)،  
فاختار «ابن ياسين» «يحيى بن محلاكاكين اللمتوني» قائداً لجند  
المرابطين، فنقل بذلك السلطة العسكرية من «جدالة» إلى «لتونة»  
التي كانت تتمتع بمكانة مرموقة بين بقية «قبائل الملثمين»، فضلاً  
عن سيطرتها على طرق التجارة الساحلية، وهكذا ظهرت قبيلة  
«لتونة» على مسرح الأحداث، وتتابع أبنائها في السلطة حتى  
نهاية حكم المرابطين.

وفي سنة (447هـ = 1055م) استعاث فقهاء «درعة» و «سجلماسة»  
بعبدالله بن ياسين لإنقاذ بلادهم من الفساد والظلم، فاستجاب لهذه  
الدعوة، وخرج بجيشه متوجهاً إلى «درعة» و «سجلماسة»، وتمكن  
من القضاء على أمراء «مغراة»، وولى المرابطون عمالاً تابعين لهم  
على هذه البلاد.

ولم يستمر الهدوء طويلاً بمدينة «سجلماسة» وقامت بها ثورة؛  
اضطرت المرابطين بقيادة «يحيى بن محلاكاكين» إلى العودة إليها،  
ونجحوا في إخماد ثورتها، إلا أن قائدهم «يحيى اللمتوني» استشهد  
في المعركة، فوقع اختيار «ابن ياسين» على الأمير «أبي بكر بن  
عمر» في سنة (448هـ = 1056م) لقيادة الجيوش، فانتقل «أبو بكر»  
بالدعوة من مرحلة تلبية نداء المعونة لسجلماسة و «درعة» إلى مرحلة  
الغزو المسلح للمغرب الأقصى، ودخل مع قبائل «برغواطة» التي  
اعتنقت المجوسية في عدة معارك، فأصيب الداعية «ابن ياسين» في  
إحداها بإصابات قاتلة أودت بحياته في سنة (451هـ = 1059م).  
وواصل «أبو بكر» جهاده، وفرّق جموع «برغواطة»، واستأصل

شأفتهم، ثم رجع إلى مدينة «أغمات» التي اتخذها عاصمة له. وقد شاركه في نشاطه المسلح ابن عمه «يوسف بن تاشفين الصنهاجي اللمتوني»، الذي أثبت كفاءة عالية، ومقدرة فائقة، وحقق نجاحًا بارزًا؛ غير أن أحداثًا ما وقعت بالصحراء، جعلت «أبا بكر» يتوجه إلى الجنوب تاركًا قيادة بقية المرابطين لابن عمه «يوسف».

يوسف بن تاشفين:

يعد «ابن تاشفين» المؤسس الحقيقي لدولة المرابطين بالمغرب الأقصى، وقد تجمعت فيه صفات الزعامة والشجاعة والقيادة والحزم، والتفت حوله قلوب المرابطين، وشرع في بناء مدينة «مراكش» عاصمته الجديدة في سنة (454هـ = 1062م) ونجح في بسط نفوذه على «المغرب الأقصى» في سنة (467هـ = 1074م).

وقد نجح ابن «تاشفين» إلى جانب توحيد «المغرب الأقصى» في وقف الزحف النصراني على «الأندلس»، وضمَّها إلى «دولة المرابطين» التي اتسعت أطرافها وزادت خيراتها، وتمتعت بالازدهار والرفق في مختلف المجالات، ثم مرض «يوسف» في سنة (498هـ = 1104م)، ثم أسلم روحه في سنة (500هـ = 1106م) ودفن بمدينة «مراكش».

علي بن يوسف بن تاشفين:

ولى الأمير «علي» الحكم واقتفى سياسة والده، وسار بين الناس بالحكمة والعدل، واستعان بالفقهاء والعلماء في حكم البلاد، فتبوأ مكانة طيبة في نفوس رعيته.

ومضى «علي بن يوسف» في استكمال الجهود الحربية التي بدأها والده بالأندلس، وعبر إليها بنفسه أربع مرات؛ لتثبيت سلطان المرابطين، ومواجهة الهجمات المتكررة للمسيحيين، فأحرز انتصارات كبيرة، ونال رضا الخلافة العباسية.

تاشفين بن علي:

تُوِّفِّي الأمير «علي» في سنة (537هـ = 1142م)، فتولى ابنه «تاشفين» الحكم من بعده، فدخل في صراع مع دولة «الموحدين»، ولم تفلح جهوده في صد موجاتهم المتتابعة، وانتهى به الأمر إلى

«وهران»؛ حيث قُتل في سنة (539هـ = 1144م)، فَفَتَّ ذلك في عضد الدولة، وسقطت أجزاء كثيرة منها في أيدي الموحدين.  
إسحاق بن علي:

(67/6)

حاول المرابطون الاحتفاظ بكيانهم المتداعي، وأَمَرُوا عليهم «إبراهيم بن تاشفين» إلا أنه لم ينعم بالسلطة طويلاً، حيث نازعه عليها عمه «إسحاق بن علي ابن تاشفين»، وتولى مكانه، ولكنه لم يستطع أن يدفع حصار الموحدين بقيادة «عبدالمؤمن» خليفة «ابن تومرت» حول العاصمة «مراكش» في سنة (541هـ = 1146م)، فسقطت «مراكش» في يد «عبدالمؤمن» الذي أعمل فيها السيف وقضى على كثير من أهلها، وترتب على ذلك سقوط «دولة المرابطين».  
عوامل سقوط دولة المرابطين:

ضعفت القيادة العليا للمرابطين منذ تولى «علي بن يوسف» حكم البلاد، واستبد كثير من الأمراء بالأمر، ثم جاء الخلاف الخطير بين «إبراهيم بن تاشفين» وعمه «إسحاق بن علي» على السلطة، في الوقت الذي كان يزحف فيه الموحدون نحو العاصمة «مراكش». يضاف إلى ذلك تخاذل الجند، فضلاً عن الحروب المستمرة التي خاضوها بالأندلس، فاستنزفت قواهم واقتصاد بلادهم، وظهور شخصية «ابن تومرت» الذي نجح في جذب أعداد كبيرة إليه. فكان ذلك كله من أسباب سقوط «دولة المرابطين» وقيام «دولة الموحدين».

العلاقات الخارجية لدولة المرابطين:

تركزت علاقات المرابطين في جبهتي «الأندلس» و «الدولة العباسية»؛ حيث هبوا لنجدة «الأندلس» من النصارى الإفرنج، ثم قرروا -بعد عدة معارك- ضمها إلى دولتهم، وظلت المعارك هي الطابع المميز لعلاقة

المرابطين بالممالك الإفرنجية في الشمال الأندلسي.  
أما علاقتهم بالعباسيين فقد بدأت بعد أن قاموا بنشر دعوتهم  
بأرجاء «المغرب الأقصى»، ومن ثم اتصلوا بالخلافة واعترفوا بسلطة  
الخليفة الروحية في العالم الإسلامي، وطلبًا لتأييد «الخلافة  
العباسية» لهم، وفي ذلك دعم لدعوتهم التي تأسست عليها دولتهم،  
وكان الترحيب والاستجابة سمة العلاقة بين الجانبين.  
الأوضاع الحضارية في دولة المرابطين:  
- الوزارة:

بعد أن وطّد «يوسف بن تاشفين» دعائم دولته، وأخضع «الأندلس»

(68/6)

---

لسلطته، اتخذ صهره «سير بن أبي بكر» وزيرًا له؛ حيث كان من أبرز  
زعماء «لمتونة» وقادتها، وقد أسند «ابن تاشفين» إليه مهمة  
الاستيلاء على مدن «الأندلس».  
وإلى جانب الوزارة العسكرية، كانت هناك وزارة مدنية؛ أختير معظم  
من تقلدوها من الفقهاء الذين نالوا حظًا كبيرًا من الثقافة العربية،  
أمثال «مالك بن وهب» وزير «علي بن يوسف».  
وقد انقسم الوزراء من حيث إقامتهم إلى وزراء مركزيين، يقيمون  
بمراكش بوصفها عاصمة البلاد، ووزراء إقليميين، تابعين للأمراء  
المحليين. وتنوعت اختصاصات الوزراء وسلطانهم بالإشراف على  
الشؤون المالية، أو الاختصاص بالكتابة، أو بشؤون العمال  
والمصرفين في أموال الدولة، ذلك فضلًا عن الوزير المختص بشؤون  
الحرب والفنون العسكرية.  
- أمراء الأقاليم:

شمل إقليم «المغرب الأقصى» ست ولايات عدا العاصمة «مراكش»  
وهذه الولايات هي: «فاس» و «سجلماسة» و «السوس» و «تلمسان»،

أما الصحراء و «سبتة» و «طنجة» فكانت إقليمًا واحدًا، ويتم اختيار الولاة من الأسرة الحاكمة بمراكش أو من ذوى قرباهم، أو من القبائل المؤسسة للدولة.

وقد تمتع ولاة «المغرب الأقصى» في ظل «دولة المرابطين» بسلطات واسعة، وكان من حقهم عزل وتعيين من دونهم من الولاة المحليين، والقيام بتحركات عسكرية داخل مناطق نفوذهم، ولذا أشرف أمراء المرابطين عليهم، ورسموا لهم السياسات وتابعوا تطبيقها، وحاسبوا وعاقبوا على التقصير فيها.

– الدواوين:

عمل «يوسف بن تاشفين» بنظام الدواوين في سنة (464هـ = 1072م)، فأنشأ «ديوان الرسائل» (الإنشاء) وجعل عليه موظفًا كبيرًا عُرف باسم: «الكاتب»، وأقام أربعة دواوين على مالية الدولة، وهى:

1 – «ديوان الغنائم ونفقات الجند».

2 – «ديوان الضرائب».

3 – «ديوان الجباية».

4 – «ديوان مراقبة الدخل والخرج».

– الشرطة:

اتخذ أمراء المرابطين الشرطة للمحافظة على أرواح الناس، وحماية ممتلكاتهم، وصيانة حقوقهم، وقد أُطلق على صاحب الشرطة بالمغرب

(69/6)

الأقصى لقب: «العريف» أو «صاحب الليل» لما يقوم به من الحراسة ليلاً.

وكان على صاحب الشرطة معاونة الحكام وأصحاب المظالم وإقامة الحدود والتعازير، وإشخاص الناس لذلك، فضلاً عن مراقبة أبواب المدينة وتحصيناتها.

## النظام القضائي:

أقام المرابطون نظامهم القضائي على الأسس القضائية التي أحكمها الأمويون بالأندلس؛ إذ فصلوا بين السلطتين الإدارية والقضائية، واستعان المرابطون بكثير من القضاة من مختلف المناطق مثل: «موسى بن حماد الصنهاجي» الذي تولى القضاء بمراكش في عهد «علي بن يوسف بن تاشفين»، وتوفي في سنة (535هـ=1140م)، والقاضي «ابن ملحوم»، من «فاس»، وتولى القضاء بفاس ومات في سنة (543هـ=1148م)، والقاضي «عياض بن موسى بن عياض اليحصبي» من «سبتة»، وقد تولى القضاء بسبتة، وتوفي بمراكش في سنة (544هـ=1149م).

واشترط في القاضي أن يكون رجلاً عاقلاً حراً مسلماً عادلاً، مع السلامة في السمع والبصر، وأن يكون عالماً بالأحكام الشرعية، وأن تكون مصادره في القضاء الكتاب والسنة وما وقع عليه إجماع الأمة والاجتهاد، والمتكلم به عند الفقهاء.

الحياة الاقتصادية في دولة المرابطين:

شهد «المغرب الأقصى» في عهد «دولة المرابطين» ازدهاراً اقتصادياً ورخاءً في مناحي الحياة كافة؛ حيث حرص المرابطون على النهوض بالزراعة والصناعة والتجارة، واهتموا بالنظام المالي وإدارته وكيفية جمعه وإنفاقه، واتخذ «يوسف بن تاشفين» حصناً صغيراً لحفظ الأموال والسلاح، ثم دَوَّن لذلك الدواوين حين اتسعت أعمال دولته واستقرت أوضاعها فجعل للمالية دواوين: «الغنائم»، و «نفقات الجند»، و «الضرائب»، و «الجباية»، و «مراقبة الدخل والخروج»، وكان الكتاب يقومون بتدوين النواحي المالية المختلفة، والعمال الذين يقومون بجبايتها، وكان جمع أموال الزكاة والجزية المفروضة على أهل الذمة يتم كل عام، أما غير ذلك من مصادر المال كالغنيمة والعشور، فإنها كانت مرتبطة بظروفها.

---

وكان المشتغلون بمالية الدولة -دائمًا- تحت المراقبة الشديدة، والحساب المستمر، والعقاب السريع في حالة التقصير. وتأتى الزكاة في مقدمة مصادر الدخل المالى لهذه الدولة، ثم تليها الجزية المفروضة على أهل الكتاب نظير ما يتمتعون به من أمن وحماية، وقد فرضت الجزية على الرجال الأحرار العقلاء، ولم تُؤخذ من النساء، ولا من الصبية والمجانين والعبيد، وكان مقدارها موكولاً إلى ولاية الأمر واجتهادهم. أما فيما يتعلق بالضرائب، فإن المرابطين في بداية عهدهم التزموا بأحكام الشرع، ولم يفرضوا إلا ما جاء بالكتاب والسنة، وألغوا ما عدا ذلك من الضرائب بالمغرب والأندلس، وشكلت الغنيمة مصدرًا مهمًا من مصادر الدخل للدولة، نظرًا للمعارك الكثيرة التى خاضها المرابطون ضد الإفرنج.

وقد ساهمت المصادر المالية المتنوعة في الإنفاق على تجهيز الحملات العسكرية المتكررة، وإقامة المنشآت، والإنفاق على أوجه الإصلاح والتعمير، فضلا عن المرتبات والأرزاق، وأصدر المرابطون العملات النقدية لتأكيد سلطتهم الاقتصادية.

واهتموا بالزراعة وما يتعلق بها، فشيّد «على بن يوسف» قنطرة على نهر «تانسيفت» لتوزيع المياه اللازمة للزراعة، فشهدت البلاد -لخصوبة أرضها- وفرة في المزروعات، وكذلك في الغابات التى نبتت في أجزاء متفرقة من البلاد. فأمدت البلاد بكميات وفيرة من الأخشاب التى استخدمت في كثير من الصناعات مثل صناعة السفن. وكان للصناعة دور بارز في ازدهار اقتصاد «دولة المرابطين»؛ حيث ازدهرت صناعات كثيرة ومتنوعة نتيجة استقرار الأوضاع، وتوافر المواد الخام، ووجود الخبرة الصناعية المتمثلة في الأيدى العاملة التى حركت عجلة التصنيع، ودفعتها إلى الأمام.

وقد ظهرت عدة صناعات منها: صناعة السفن والزجاج، وأدوات

النحاس والحديد، واستخراج الزيوت من الزيتون، والسكر من القصب، وكذلك صناعة الملابس من القطن والصوف، وصناعة دبغ الجلود.

(71/6)

وشاركت التجارة في دفع عجلة الاقتصاد بدولة المرابطين منذ تأسيسها؛ حيث وجه أمراء هذه الدولة اهتمامهم إلى التجارة، وعملوا على تنشيطها؛ بتشجيع التجار على ارتياد البلاد، ووفروا لهم سبل الإقامة، وأنشأوا لهم الفنادق، مثلما فعل «يوسف بن تاشفين» حين دخل مدينة «فاس» في سنة (462هـ = 1069م). وقد وُجدت المراكز التجارية في أنحاء دولة المرابطين، وبخاصة في العاصمة «مراكش» التي حظيت باهتمام التجار، وصارت مركزًا للتجارة الداخلية بين مدن الشمال والجنوب، كما كانت مدينة «فاس» مركزًا تجاريًا مهمًا، لموقعها الممتاز في قلب البلاد، وتوافر المحاصيل الزراعية والصناعات المختلفة بها. وارتبطت مراكز التجارة الخارجية بالمغرب الأقصى في عهد المرابطين، بعدة طرق برية يضاف إليها الطريق الملاحي الذي تنقل التجارة بواسطته من هذه البلاد وإليها، وكانت أهم الطرق البرية هي: الطريق الذي كان يربط البلاد بمنطقة «السنغال» و «النيجر»؛ إذ كان يمر بسجلماسة «ودرعة» ومدن «المغرب الأقصى»، متجهًا إلى «أودغشت»، ثم إلى منحنى «النيجر»، وهناك طريق الساحل الذي يربط «دولة المرابطين» بالشرق حتى «مصر»، إلى جانب طريق آخر من «أودغشت» و «سجلماسة»، تسير فيه القوافل بالصحراء حتى «الواحات الداخلة» بمصر. وكان للموانئ المنتشرة على ساحل «البحر المتوسط» و «المحيط الأطلسي» أثر كبير في تنشيط حركة التجارة، فتنوعت صادرات البلاد، وشملت: القطن، والقمح، والسكر، والزيتون، والزيت

المستخرج من الأسماك، والنحاس المسبوك، وغيرها من الصادرات.  
أما أهم وارداتها، فكانت: الذهب، والزئبق، وبعض أنواع النسيج  
البلنسى، والعطر الهندي، وبعض الواردات الأخرى.  
الحياة الاجتماعية في دولة المرابطين:  
شكل البربر الغالبية العظمى من سكان «بلاد المغرب» الذين تأسست  
على أيديهم دولة المرابطين، وقد شاركهم العرب في الإقامة بالمنطقة

(72/6)

منذ بدأت فتوح المسلمين لهذه البلاد، ثم جاءت القبائل العربية  
الهلالية بعد ذلك إليها، وشاركهم السودانيون الذين انضموا إلى  
جيوش المرابطين، فضلاً عن تواجد عنصر الروم والصقالبة الذين  
عاشوا في ظل المرابطين، واتخذ منهم بعض الأمراء حرسه الخاص،  
كما استخدمهم بعض الأمراء في جباية الأموال.  
وقد تبوأَت المرأة مكانة مرموقة في المجتمع المرابطي، وتمتعت  
بوضع كريم في القبيلة الصنهاجية؛ إذ كانت تشترك في مجلس  
القبيلة، وتشارك في الأمور المهمة. وبلغ احترام المرابطين للمرأة حداً  
جعل القادة والأمراء يُلقبون أنفسهم بأسماء أمهاتهم، تقديرًا لدور  
المرأة في المجتمع، فنجد «ابن عائشة»، و «عبدالله بن فاطمة»،  
وهما من أبرز قادة المرابطين.  
وعاش أهل الذمة في بلاد المرابطين إلى جانب غيرهم من طبقات  
المجتمع وفئاته في ظل حماية القيادة العليا للبلاد، وأصبحت طائفة  
اليهود على قدر كبير من الثراء، ولكن بعض أهل الذمة عمدوا إلى  
مساعدة أعداء البلاد، وتحريضهم على غزوها، فكان رد فعل أمراء  
المرابطين هو نفي عدد كبير من هؤلاء، ومنع اليهود من المبيت  
بالعاصمة «مراكش»، والسماح لهم بالعمل نهارًا، والانصراف منها  
ليلاً؛ وهو إجراء وقائي للحفاظ على العاصمة من المؤامرات

والدسائس والفتن، وبها ما بها من تجمعات الجند وقادة الجيوش، وإدارة البلاد، فضلا عن كونها مقر أمير البلاد وأسرته وأعوانه وحاشيته.

البناء والتعمير:

انتعشت حركة البناء والتعمير في «دولة المرابطين»، وقد بدأها الأمير «يوسف بن تاشفين» بتأسيس مدينة «مراكش» وبنائها، وغيرها من المنشآت، وتبعه في ذلك ابنه «علي» والأمراء من بعده، وامتازت مبانى المرابطين بالضخامة والقوة والاتساع، والاقتصاد في الزخرفة تمشيا مع بساطتهم.

وتعد «مراكش» من أبرز أعمال المرابطين، وكان سبب بنائها، ازدحام مدينة «أغمات» بقبائل المرابطين القادمين من الجنوب، يضاف إلى

(73/6)

ذلك موقعها الاستراتيجي في مفترق طرق الأطلس والصحراء، وقربها من مواطن المصامدة الذين يشكلون غالبية السكان، وكذلك قربها من صحراء المرابطين ومواطن «لمتونة»؛ حيث توجد الإمدادات العسكرية، وتأسست «مراكش» على أرجح الآراء في سنة (454هـ = 1062م)، وشارك الأمير «يوسف» في البناء لتشجيع من حوله في المساهمة، ثم بنى فيها ابنه الأمير «علي» قصره المعروف بدار الحجر، وأحاطه بالأسوار.

الحياة الفكرية:

عاشت «دولة المرابطين» نهضة فكرية مزدهرة، ازدهرت فيها علوم الأدب واللغة والعلوم والفلسفة والطب، ووفد طلاب العلم على المدن المغربية من كل مكان، وقد ساعد على ذلك تشجيع الأمراء المرابطين للعلماء وطالبي العلم، فقصده العلماء العاصمة «مراكش»، وانتظم الطلاب في دراساتهم، واجتهد كل ذي موهبة في إبراز ما لديه،

ورغب كثير من أبناء «المغرب» في طلب العلم، لأن مناصب الدولة ووظائفها كانت مقصورة على المتعلمين والمتقنين.

وأصبحت «مراكش» تضاهي «بغداد» في ازدهار العلوم وكثرة العلماء وشاركتها مدينة «فاس» التي أسسها «إدريس بن عبد الله» في المكانة، وظل مسجدها الكبير (جامع القرويين) مركز إشعاع علمي يقصده طلاب العلم من كل مكان.

العلوم الدينية:

أسهمت الروح الدينية التي سادت «بلاد المغرب» منذ قيام «دولة المرابطين» في ازدهار العلوم الشرعية؛ مثل: علوم التفسير والحديث والفقه والكلام، ووفود كثير من علماء الأندلس على مراكش وغيرها فأسهموا في دفع حركة التأليف، وشاركهم أبناء المغرب الذين أقبلوا على الدراسة والبحث في دفع هذه الحركة، فنبغ عدد كبير من العلماء.

وعنى المغاربة بكتاب «الوجيز» في التفسير لعبدالحق بن غالب بن عطية الحاربي، المتوفى في سنة (541هـ = 1146م)؛ حيث جمع فيه «ابن غالب» خلاصة التفاسير كلها، وتحرى منها ما هو أقرب إلى الصحة.

ونال علم الحديث عناية فائقة من ولاية الأمر، وكان «موطأ» الإمام

(74/6)

---

«مالك» مدار الدراسات في الدولة، وكذلك نشط علم الفقه، ولم ينل علم الكلام الرعاية والعناية خلال حكم المرابطين، لأنهم نهجوا طريق السلف، ولم يميلوا إلى الخوض في هذا العلم.

الحياة الأدبية والعلمية:

ازدهر الأدب بنوعيه الشعر والنثر في هذه الفترة باعتباره مظهرًا من مظاهر الحركة الفكرية بالبلاد، وحظى الأدباء برعاية الولاة، وكان

بالبلاد المرابطة بعض كبار الكتاب والأدباء الأندلسيين، أمثال: «أبي القاسم بن الجدد»، و «ابن القبطرنة»، و «أبي عبدالله بن أبي الخصال»، و «ابن خلدون» وغيرهم.

وقد أثر المذهب المالكي وعلمائه وفقهائه في توجيه الأدب المغربي وجهة تميزت بالبساطة والوضوح، وبعدت عن الزخرف والصنعة وبعده عن تناول بعض الأغراض التي تناولها أدباء المشرق مثل: «الخمریات»، التي تتنافى مع الجو الديني الذي ساد البلاد. المكتبات:

كثر عدد المكتبات التي ازدحمت بالمؤلفات في عهد المرابطين، نظرًا لكثرة العلماء والمؤلفين والكتاب، واهتمام ولاة الأمر بهم وتكريمهم لهم، وقد ساعد ذلك على ازدهار الحركة الفكرية للبلاد.

ولم تكن الرغبة في جمع الكتب مقصورة على ولاة الأمر، بل تعدتها إلى أبناء الشعب، ودفع الكثير منهم مبالغ كبيرة لشراء مرجع أو اقتناء كتاب. مثلما فعل القاضي: «عيسى بن أبي حجاج بن الملجوم» الذي اشترى من «أبي علي الغساني» نسخة من «سنن أبي داود» بخمسة آلاف دينار.

وكان منصب «أمين مكتبة الخزانة العلية» من المناصب الرفيعة في الدولة، ولا يتولاه إلا أحد أكابر العلماء المشهورين بالثقافة والكفاءة ودقة التصنيف.

وقد تحددت أماكن كثيرة لبيع الكتب بدولة المرابطين، ففي «مراكش» كانت متاجر بيع الكتب المخطوطة إلى جوار جامع الكتبيين، وكانت في «تلمسان» سوق لبيع الكتب. وهكذا ساهمت المكتبات في دفع تيار الثقافة بالبلاد، وتزويدها بما تحتاجه من مختلف فروع العلم والمعرفة.

## الفصل الحادي عشر

### \*دولة الموحدين

ظهور المهدي بن تومرت:

لم تنعم «دولة المرابطين» بالهدوء والاستقرار منذ ظهور الداعية «محمد ابن تومرت» على مسرح الأحداث، وقد نشأ «ابن تومرت» نشأة دينية بقبيلة «هرنمة» إحدى قبائل المصامدة، ولكن ما تلقاه من علوم في وطنه لم يَزُوَ ظمأه، فسافر إلى المراكز الثقافية المشهورة بالعالم الإسلامي، وبدأ رحلاته إلى «الأندلس» في مطلع القرن السادس الهجري، ثم إلى المشرق ماراً بالإسكندرية، ومنها إلى «مكة» ثم إلى «بغداد» حيث التقى هناك بأكابر العلماء أمثال «أبي بكر الطرطوشي»، واستغرقت رحلته في طلب العلم نحو خمسة عشر عامًا مكنته من التزود بقدر كبير من الثقافة والمعرفة، وتعرّف أحوال العالم الإسلامي، ومدى انقسام المسلمين وفرقتهم بالمشرق. وبعد أن عاد إلى «المغرب» بدأ دعوته بمدن المغرب محاولاً إصلاح الأوضاع الفاسدة وتغييرها. فوجدت دعوته قبولاً وترحيباً من الجماهير، ورفضاً شديداً من الحكام؛ إذ رأوها خطراً يهدد مصالحهم ومراكزهم.

والتقى «ابن تومرت» خلال هذه الرحلة بعبد المؤمن بن علي الذي أصبح من أخلص تلاميذه، وصاحبه في كل مكان يذهب إليه، ثم دخل «ابن تومرت» العاصمة «مراكش» في منتصف ربيع الأول سنة (515هـ= 1121م)، وقام بدوره في الوعظ والإرشاد، واعترض على سياسة الدولة في بعض الأمور، فوصل خبره إلى الأمير «علي بن يوسف» الذي استدعاه، وجمع كبار العلماء والفقهاء لمناظرته. وانتهى الأمر بطرده من العاصمة خشية التأثير على العامة وإضعاف مراكز الفقهاء. وكانت الحصافة السياسية تقتضي سجن هذا الداعية أو التحفظ عليه لخطورته على الدولة، وهو ما تحقق عقب مغادرة «ابن تومرت» «مراكش»، إذ أعلن عن نيته في مواجهة السلطة

الحاكمة، وخلعه الأمير «علي بن يوسف»، وبايعه من حوله إمامًا للدعوة الجديدة في سنة (515هـ = 1121م)، واتخذ من مدينة «تينملل» مقرًا له، ومركزًا لدعوته، وشرع في تحقيق أهدافه السياسية

(76/6)

والدينية لإقامة خلافة إسلامية بالمغرب، ولم يدخر في ذلك وسعًا ولا وسيلة إلا استغلها، وعمد إلى نشر دعوته بين السذج، وألّف لهم في التوحيد والعقيدة بلغتهم البربرية حتى يسهل عليهم التعلم، ويسهل عليه السيطرة عليهم، ومن ثم باتت له الكلمة العليا في كل شئوئهم. وفاة ابن تومرت [524هـ = 1130م]:

شارك «ابن تومرت» في الكفاح المسلح ضد «دولة المرابطين»، وتذكر المراجع أنه اشترك في تسع غزوات، وكانت معركة «البحيرة» التي أصيب فيها الموحدون بالهزيمة هي السبب الرئيسي في خيبة أمل «ابن تومرت» ومرضه؛ حيث قتل فيها عدد كبير من أتباعه، ولكن بقاء تلميذه ومساعدته «عبد المؤمن بن علي» على قيد الحياة كان سببًا في تخفيف هذه الصدمة، ومع ذلك لزم «ابن تومرت» داره، واشتد عليه مرضه، وفارق الحياة في سنة (524هـ = 1130م)، وخلف وراءه حربًا مشتعلة على أرض «المغرب الأقصى». عبدالمؤمن بن علي:

حمل «عبدالمؤمن» أعباء الدعوة عقب وفاة أستاذه، وشغل بتنظيم شئون الموحدين، مدة عام ونصف العام، ثم شرع في الكفاح ضد المرابطين في منطقة «الأطلس» جنوبي «مراكش» في «وادي درعة» و «بلاد السوس» و «بلاد جاحة» القريبة من «تينملل»، ثم استولى الموحدون على «مراكش» عاصمة المرابطين في سنة (541هـ = 1146م)، بعد كفاح دام أكثر من عشر سنوات كان النصر فيها حليفًا للموحدين.

وقد نجح «عبدالمؤمن» في إحكام قبضته وسيطرته على «المغرب الأقصى» بعد سقوط دولة المرابطين بسقوط عاصمتهم «مراكش»، ثم وجه اهتمامه إلى الشرق، وبعث بحملاته المتتابعة التي وصلت حتى «طرابلس» بإفريقية، فساعد هذا النصر على تحقيق الوحدة السياسية للمغرب الإسلامي، وتلقب «عبدالمؤمن» بلقب خليفة، واتخذ من «مراكش» عاصمة للخلافة، ثم شرع في تجهيز حملة كبيرة لدفع النصارى عن مدن «الأندلس» في سنة (556هـ = 1161م)، إلا أن مرضه حال دون إتمام هذه الحملة، ومات في سنة (558هـ = 1163م).  
يوسف بن عبدالمؤمن:

(77/6)

بويق «يوسف» في سنة (558هـ = 1163م)، ليكون خلفاً لوالده. وما إن استقر في العاصمة حتى واجهته ثورة «مرزدغ الصنهاجي» بجبال «غمارة»، فنجح في القضاء عليها وتفريق أعوانها، ثم أمر بقتل «مرزدغ»، وحمل رأسه إلى العاصمة «مراكش». ووجه «ابن عبدالمؤمن» جُلَّ جهوده إلى دعم سلطة الموحيدين بالأندلس، وبعث بالحملة المتتابعة إليها، وخرج على رأس إحداهما في سنة (566هـ = 1170م)، لتأمين ثغور «الأندلس» وضبطها وإصلاحها، ثم خرج في سنة (579هـ = 1183م) على رأس حملة كبيرة إلى «الأندلس» لغزوها، إلا أنه أصيب بسهم عند أسوار «شنترين»، فأسرع الجند بحمله والعودة به مصاباً إلى «مراكش»، فقضى نحبه في سنة (580هـ = 1184م).  
المنصور الموحيدي:

ولى «يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن» خلفاً لوالده في سنة (580هـ = 1184م)، ولقب نفسه بالمنصور، وتوزعت جهوده العسكرية في أكثر من ميدان؛ حيث قامت ثورة بزعامة «الجزيري» الذي أخذ يدعو لنفسه

بين القبائل في سنة (585هـ = 1189م)، ففضى عليها «المنصور» وقتل زعيمها، ثم قامت ثورة أخرى ببلاد «الزاب» بزعامة رجل يدعى «الأشَل» في سنة (589هـ = 1193م)، فكان مصيرها الفشل مثل سابقتها.

أما ثورة «بني غانية»، التي استهدفت إحياء «دولة المرابطين» والدعاء للخلافة العباسية على المنابر بإفريقية، فكانت الخطر الحقيقي الذي هدد «دولة الموحدين»، فوجّه «المنصور» إليها كل جهوده للقضاء عليها، وعلى الرغم من تكرار المحاولة فإنه لم ينجح في القضاء عليها نهائياً.

وقد أولى «المنصور» «الأندلس» اهتمامه وعنايته، ودخل في عدة معارك مع الإفرنج؛ كانت أبرزها معركة «الأرك» في سنة (591هـ = 1195م)، تلك التي أوقفت زحف النصارى، وزادت من هيبة الموحدين ومكانتهم بالشمال الإفريقي، ثم أصيب المنصور بوعكة صحية أدت إلى وفاته في سنة (595هـ = 1199م).

الناصر الموحدي:

تولى «الناصر أبو عبدالله محمد بن يعقوب» خلفاً لوالده «المنصور»،

(78/6)

فحدثت في عهده بعض التطورات السياسية والعسكرية التي انتقلت بدولة الموحدين من مرحلة القوة والسيادة إلى مرحلة الانهيار والسقوط؛ حيث تمكن في بداية حكمه من القضاء على ثورة «بني غانية» بإفريقية التي دخلها في سنة (598هـ = 1202م)، وعاد منها في سنة (604هـ = 1207م)، بعد أن ولي على «إفريقية» «أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص» أحد أشيخ الموحدين، فعكف «ابن أبي حفص» على معالجة شئون «إفريقية»، ودعم سلطان الموحدين بها، إلا أن ولاية «أبي حفص» كانت البداية لقيام «دولة الحفصيين»

بتونس؛ حيث استقل أبناؤه - بعد ذلك - بها وأسسوا ملكاً مستقلاً.  
وقد فُجع الموحدون بهزيمة قاسية بالأندلس في معركة «العقاب»  
التي راح ضحيتها عدد كبير من الجنود، مما أضعف «دولة الموحدين»  
وأفقدتهم هيبتهم، وأصيب «الناصر» بالمرض، وتوفي في سنة  
(610هـ = 1213م).

وقد عرف الانهيار والضعف طريقهما إلى «دولة الموحدين» عقب وفاة  
«الناصر»، ودخلت الدولة مرحلة من الفوضى، والصراع بين أفراد  
البيت الموحدى، فضلاً عن اندلاع الثورات والقلاقل في أماكن  
متعددة، وظل هذا حالها حتى سنة (668هـ = 1269م)، التي قتل فيها  
«أبو دبوس» آخر خلفاء الموحدين أمام أسوار العاصمة «مراكش»  
التي دخلها «المرينيون» وقضوا على «دولة الموحدين». وقد تولى  
عقب وفاة «الناصر» عدد من الخلفاء الضعاف، هم:

- 1 - أبو يعقوب يوسف الثاني المستنصر بالله [611 - 620هـ].
- 2 - أبو محمد عبدالواحد المخلوع [620 - 621هـ = 1223 - 1224م].
- 3 - أبو محمد عبدالله العادل [621 - 624هـ = 1224 - 1227م].
- 4 - المأمون أبو العلاء إدريس ابن يعقوب المنصور [624 - 630هـ = 1227 - 1233م].
- 5 - أبو محمد عبدالواحد الرشيد [630 - 640هـ = 1233 - 1242م].
- 6 - أبو الحسن على السعيد المقتدر بالله [640 - 646هـ = 1242 - 1248م].
- 7 - أبو حفص عمر المرتضى [646 - 665هـ = 1248 - 1267م].
- 8 - أبو العلاء إدريس الثاني (المعروف بأبي دبوس) [665 - 668هـ = 1267 - 1269م].

(79/6)

---

. [1269 - 1267م].

العلاقات الخارجية:

انحصرت علاقات الموحدين الخارجية في جبهتين هما: «الأندلس»، و «الخلافة العباسية».

أما «الأندلس»، فقد استولى عليها الموحدون مع غيرها من المدن من المرابطين، وساروا على نهج من سبقهم في التصدي لعدوان النصارى، وأعدوا الحملات، وخاضوا المعارك من أجل تحقيق هذا الهدف، ولكن هزيمتهم في معركة «العقاب» في عام (609هـ = 1212م)، كانت بداية انحسار نفوذهم على أرض «الأندلس»، ومن ثم بدأت القوى النصرانية تحقق انتصاراتها حتى زالت «دولة الموحدين».

وقد اختلف موقف الموحدين من الخلافة العباسية عن موقف المرابطين؛ حيث لم يعترف الموحدون بالعباسيين، واعتبروا أنفسهم خلفاء، وأن مركز الخلافة مدينة «مراكش»، وليس «بغداد»، ودعموا خلافتهم بالادعاء بأن «ابن تومرت» و «عبدالمؤمن» من نسل الرسول عن طريق «الأدارسة»، واتخذوا اللون الأخضر شعاراً لهم كي يظهروا ميلهم إلى الدعوة العلوية، وتشبهوا بالرسول في تصرفاته وأفعاله.

الأوضاع الحضارية في دولة الموحدين:

أولاً: السلطة العليا في البلاد:

عمد ابن تومرت تنظيم أصحابه في نظام إداري معين، وعلى قمة هذا التنظيم الإداري هيئة العشرة التي تختص بالعظيم من الأمور، ولم يتركهم «ابن تومرت» إلا وقد عهد إلى «عبدالمؤمن بن علي» أن يتولى خلفاً له قيادة الموحدين.

وقد بويع «عبدالمؤمن» بيعتين: بيعة خاصة، وبيعة عامة، أما الخاصة فكانت عقب وفاة «ابن تومرت» (524هـ = 1129م)، واقتصرت هذه البيعة على أهل الجماعة.

وأما العامة فكانت في سنة (527هـ = 1132م) على أرجح الأقوال.

وقد اتخذ خلفاء الموحدين الوزراء لمعاونتهم في إدارة شؤون البلاد، وأصبح للخليفة وزير أو أكثر، وكان اختيار الوزير يتم عادة من الأسرة الحاكمة أو من أسر وقبائل معينة، ثم أصبح الوصول إلى هذا

المنصب يتم وفقاً لصفات وشروط يجب أن تتوافر فيمن سيقع عليه الاختيار لهذه المكانة.

(80/6)

وقد تولى عدد من أفراد أسرة الخلافة منصب الوزارة، منهم: «عمرو» ابن الخليفة «عبدالمؤمن»، وهو أول وزير من أسرة الخلافة، و «أبو حفص بن عبدالمؤمن» أخو الخليفة «يوسف». واختير عدد من الوزراء من أسرة «بنى جامع»، وقبيلة «هنتاتة»، وقبيلة «كومية»، وأشهر وزرائهم على التوالي هم: «أبو العلاء إدريس بن إبراهيم بن جامع»، و «أبو عمر بن أبي زيد الهنتاني»، و «عبدالسلام بن محمد الكومي». وهناك وزراء أهلنتهم صفاتهم ومواهبهم لتولى هذا المنصب، مثل: «أبي جعفر أحمد بن عطية». ثانياً: النظام الإداري:

استعان الموحدون في بداية عهدهم بأشياخهم في تولى أقاليم الدولة، ثم أنشأ الخليفة «عبدالمؤمن» بمراكش مدرسة جمع فيها أولاده وثلاثة آلاف طالب من قبائل المصامدة، وزوّدهم بمختلف العلوم، وأشرف على تعليمهم إدارة شئون البلاد، وتدريبهم على شئون الحرب والقتال، فلما أتموا تعليمهم استبدلهم بأشياخ الموحدون في تولى السلطة بأقاليم الدولة، ثم عين أبناءه بعد ذلك على الأقاليم.

الدواوين:

اهتم الموحدون بإنشاء الدواوين المختلفة ويأتي في مقدمتها ديوان الإنشاء الذي يختص بالمراسيم السلطانية والرسائل الموجهة إلى الولاة والقضاة، ولذا حشد له الخلفاء نخبة ممتازة من أدباء المغرب والأندلس، ثم يأتي بعده «ديوان الجيش» الذي يتفرع إلى ديوانين

لكل منهما اختصاصه. كما كان هناك «ديوان الأعمال المخزنية» الذى يشرف على تحصيل الأموال العامة، وعلى إنفاقها، ويراقب العمال والمشرفين ويحاسبهم.

الشرطة:

كانت الشرطة من المناصب الإدارية المهمة التى اهتم بها الموحدون، وظهر ذلك فى عهد «يوسف بن عبدالمؤمن» الذى زود المدن المغربية بنخبة ممتازة من الرجال للسهر على أمنها وحمايتها، كما خُصص للأسواق رجال من الشرطة لحمايتها من اللصوص والمتسللين.

النظام القضائى:

اتخذ الموحدون نظاماً قضائياً مشابهاً لنظام المرابطين، وحرص خلفاء

(81/6)

الموحدين على تعيين كبار القضاة بأنفسهم، وأحاطوهم بالهيبة والجلال، وجعلوهم نوعين، هما: قضاة المدن المغربية، وقاضى الجماعة بالعاصمة، وكان قاضى الجماعة أعظم رتبة ومنزلة من بقية القضاة، وهو يوازى قاضى القضاة بالمشرق، وكان مقصوراً على قاضى «مراكش» وقاضى «قرطبة» ويتم تعيينه من الخليفة مباشرة. ومُنح القضاة الحق فى مراقبة جميع العمال والولاة، وجمع بعضهم بين وظائف القضاء والكتابة والمظالم، كما جمع بعضهم بين وظيفتى القضاء بالمغرب و «الأندلس».

الحياة الاقتصادية فى دولة الموحدين:

نعمت البلاد بالرخاء الاقتصادى فى عهد الموحدين؛ إذ وضعوا نظاماً مالياً دقيقاً، تمثل فى الإدارة المشرفة على الجوانب المالية فى الجباية والإنفاق، فضلاً عن وجود دواوين للمال بالعاصمة، وديوان للمال بكل إقليم يختص بماليته، وأفرد الموحدون داراً للإشراف على النواحي المالية، كما استحدثوا منصب الوزير المسئول عن الشؤون

المالية أطلقوا عليه اسم «صاحب الأشغال»، ومهمته استخراج الأموال وجمعها وضبطها، وتعقب نظر الولاة والعمال فيها، ثم تنفيذها على قدرها وفي مواعيتها، وكان يعاون صاحب الأشغال رؤساء الدواوين المالية بالدولة.

فوفرت هذه المصادر إلى جانب الزكاة وخمس الغنائم أموالاً كثيرة لخزينة الدولة، أنفق معظمها على إعداد الجيش في البر والبحر، ودفع مرتبات الوزراء ورجال البلاط والحشم والقضاة والفقهاء، وكذلك في الإنفاق على الطلبة المنتظمين بالمدرسة التي أنشأها الخليفة «عبدالمؤمن»، كما أنفق منها على إنشاء المدن والقصور والحصون وغيرها من المنشآت.

وأصدر الموحدون عملة نقدية من الدنانير والدراهم.

وقد اهتم الموحدون بالزراعة وشجعوا المزارعين على استغلال الأرض، ووفروا لهم المياه اللازمة للزراعة، فتوافرت محاصيل القمح والشعير، والقطن، وقصب السكر، وغير ذلك من المحاصيل، كما نعمت البلاد بأصناف الفواكه المتنوعة مثل: العنب والتفاح والكمثرى،

(82/6)

وغيرها، وانتشرت الغابات بالبلاد، وتوافر بها شجر الأرز والزنان والبلوط.

ونشطت الحركة الصناعية، وتوافرت المراكز الصناعية بالبلاد، مثل

مدينة «فاس» و «مراكش»، وغيرها من المدن التي تنوعت بها

الصناعات وضمت: صناعة الصابون، والتطريز، والدباغة، وسبك

الحديد والنحاس، وصناعة الزجاج، والفخار، وغير ذلك من الصناعات.

وازدهرت التجارة في الداخل والخارج، وكثرت المراكز التجارية التي

أولاهها الموحدون عنايتهم، وشيدوا بها عدة أسواق، كما شيّدوا بها

الفنادق، كما ساهمت «مكناسة» في دعم ازدهار التجارة حيث كانت

محطة للمسافرين يبيعون ويشترون بها، فضلاً عن وجود عدد من الأسواق العامرة والتجارات المختلفة بها. وتمتعت البلاد بنهضة تجارية خارجية، لوجود شبكة من الطرق التي ربطت المدن المغربية بغيرها من المراكز التجارية، فضلاً عن وجود عدد من الموانئ المطلة على «البحر المتوسط» و «المحيط الأطلسي»، وكانت محطات للسفن المحملة بالبضائع القادمة أو الخارجة منها، فتنوعت الصادرات مثل: القطن والقمح والسكر، وكذلك الواردات مثل: الذهب وبعض أنواع النسيج البننسى، والعطر الهندي. ولعب ميناء «سبتة» على «البحر المتوسط»، وميناء «سلا» على «المحيط الأطلسي»، دوراً بارزاً في تنشيط الحركة التجارية في ظل حماية الأسطول الموحدى. الحياة الاجتماعية في دولة الموحدين: شكلت قبائل المصامدة العنصر الرئيسى لسكان دولة الموحدين، وقد استقرت بالمنطقة منذ زمن، واتخذت المعامل والحصون والقلاع، وشيدت المباني والقصور، وامتهن أفرادها الزراعة وفلاحة الأرض، ولم يحاولوا الهجرة من أرضهم، بل تمسكوا بها، ودافعوا عنها ضد أى محاولة للاعتداء أو الاستيلاء عليها. أما العنصر الثانى من سكان «دولة الموحدين» فهم العرب المالكية الذين ظهروا على مسرح الأحداث، وعمد الموحدون إلى تهجيرهم من «إفريقية» إلى «المغرب الأقصى»، ليتخلصوا من ثوراتهم، كما

(83/6)

---

استخدموهم فى عمليات الجهاد بالأندلس، فأقبلت أعداد كبيرة منهم إلى «المغرب الأقصى»، وانتقلت أعداد أخرى إلى الإقامة بالأندلس من خلال الحملات التى قام بها الموحدون هناك، ثم حدد الموحدون إقامة بعض القبائل.

وقد تمتع العرب الهلالية بما يتمتع به جند الموحدين، وأقطعهم ولاية الأمر بعض الأراضى، وأنفقوا عليهم النفقات الكبيرة، وأغدقوا عليهم بالعطايا حتى يوفروا لهم الاستقرار ويبعدوهم عن الفتن وإثارة القلاقل والاضطرابات.

ونالت المرأة حظها من التكريم والإنصاف والاحترام في «دولة الموحدين»، وأتاحت لها الظروف أن تنال حظا من العلوم المختلفة، وقسطاً من ثقافة العصر وأدبه، وبرزت الكثيرات من النساء مثل: «زينب» بنت الخليفة «يوسف بن عبدالمؤمن»، والشاعرة العاملة «حفصة بنت الحاج الركونية»، و «فاطمة بنت عبدالرحمن». وعاش أهل الذمة في أنحاء متفرقة من البلاد، وكانت لهم أحياءهم بالعاصمة «مراكش» ومدينة «سجلماسة»، وكانوا يشتغلون بالبناء. البناء والتعمير:

اهتم الموحدون بالبناء والتعمير بالمغرب و «الأندلس»، وحظيت «مراكش» و «الرباط» وغيرهما من المدن المغربية بكثير من المنشآت الموحدية، وأنشأ الخليفة «عبدالمؤمن» «مدينة الفتح»، كما شيد المساجد والقصور في أنحاء متفرقة من البلاد، وكان «المنصور» مولعاً بالعمارة، فشهدت البلاد نهضة معمارية استمرت طيلة عهده. الحياة الفكرية:

شهدت «بلاد المغرب» حركة فكرية نشيطة في عهد المرابطين، واستمرت كذلك في عهد الموحدين، وساعدها على ذلك استقرار الأوضاع بالبلاد، والصلة الوثيقة بين «المغرب» و «الأندلس»، إلى جانب رغبة الكثيرين من أبناء «المغرب» في طلب العلم، فضلاً عن تكريم الموحدين للعلماء، والمتعلمين ووصلهم بالعطايا، والهبات، والإنفاق عليهم، كما كانت الأسس الدينية التي قامت عليها «دولة الموحدين» سبباً في انتعاش دراسة علوم الدين، وانتعاش الحركة الفكرية.

المذهب المالكي:

شن «ابن تومرت» حرباً شعواء على العلماء والفقهاء وأتهمهم بالجمود، ولكنه لم يستطع مهاجمة المذهب المالكي الذي رسخ في أذهان عامة الشعب وقلوبهم، وتحايل على ذلك بإعداد مؤلف جمع فيه الأحاديث النبوية التي وردت بموطأ الإمام «مالك»، وحذف منها معظم الإسناد للاختصار، في محاولة لصرف أذهان الناس عن المؤلفات المالكية، ثم جاء «عبدالمؤمن» من بعده وأمر بحرق كتب الفروع، والاختصار على الأحاديث النبوية. فلما تولى «المنصور الموحدى» عمداً إلى نحو المذهب المالكي من البلاد، وجمع كتب المذهب المالكي وحرقها، وأمر بجمع الأحاديث المتعلقة بالعبادات من كتب الأحاديث مثل: «البخارى» و «مسلم» وغيرهما، وألزم الناس بدراستها وحفظها، وعاقب علماء المذهب المالكي المتمسكين بتدريسه، وعلل ذلك بميله إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة والأخذ بظاهرها، وكرهيته للخلافات التي امتلأت بها كتب الفروع، ولكن علماء المالكية لم يؤثر فيهم التهديد والعقاب، وظلوا يكافحون في سبيل بقاء مذهبهم وتدريسه، فسُجن بعضهم مثل «ابن سعيد الأنصاري»، وتوفي بعضهم نتيجة التعذيب مثل: «أبي بكر الجبائي المالكي»، ومع ذلك نجح هؤلاء العلماء في إبقاء هذا المذهب وظل مذهب المالكية راسخاً ببلاد المغرب.

#### العلوم الدينية:

ازدهرت العلوم الدينية بدولة الموحدين، وزاد الإقبال على تفسير القرآن ودراسته باعتباره مصدر التشريع الأول للبلاد، وبرز عدد من المفسرين منهم: «عبدالجليل بن موسى الأنصاري الأوسى» المتوفى عام (608هـ = 1211م)، و «أبو بكر بن الجوزى السبتي»، كما لاقى علم القراءات رعاية ولاة الأمر، واشتهر فيه: «أبو بكر بن يحيى بن محمد بن خلف الإشبيلى» المتوفى عام (602هـ = 1205م)، و «علي بن

محمد بن يوسف اليابرى الضيرير» المتوفى عام (617هـ = 1220م).  
أما علم الحديث فقد صار له شأن كبير واهتم به الخلفاء، وأمر الخليفة  
«عبدالمؤمن» بحرق كتب الفروع، وردّ الناس إلى قراءة الحديث،

(85/6)

وأملى ابنه «يوسف» وحفيده «المنصور» الأحاديث بنفسيهما على  
الكتاب لتوزيعها على الناس، واشتهر «أبو الخطاب بن دحية السبتي»  
و «ابن حبيش» المتوفى عام (584هـ = 1188م)، و «القاضى عياض  
السبتي» بتمكّنهم من علم الحديث، ووضع بعضهم المصنفات فى هذا  
العلم، أما فى مجال الفقه فقد وضع «ابن تومرت» كتابه «الموطأ»  
على غرار «موطأ الإمام مالك» بعد حذف أسانيده.

ومن أعلام الفقه فى هذا العصر: «عبدالمملك المصمودى» قاضى  
الجماعة بمراكش، و «إبراهيم بن جعفر اللواتى» الفقيه المعروف  
بالفاسى. ويعد كتاب: «الإعلام بمحدود قواعد الإسلام» للقاضى عياض  
من أبرز مؤلفات هذا العصر الفقهية.

وقد نال علم الكلام عناية الموحدين منذ قيام دولتهم؛ حيث دعا «ابن  
تومرت» إلى دراسته، واتهم علماء المرابطين بالجمود لتحريمهم  
دراسة هذا العلم، وقد اشتهر فى هذا العلم: «أبو عمرو عثمان بن  
عبدالله السلاجى» المتوفى سنة (564هـ = 1168م)، و «محمد بن  
عبدالكريم الغندلاوى الفاسى» المعروف بابن الكتانى المتوفى عام  
(596هـ = 1200م).

الحياة الأدبية والعلمية:

تابعت اللغة العربية انتشارها بدولة الموحدين، لأنها لغة البلاد  
الرسمية فى مكاتباتها ومعاملاتها وشئونها، وقد ساعد مجيء  
العلماء إلى المدن المغربية على انتشار اللغة العربية وازدهارها، كما  
كان لقدوم القبائل الهلالية إلى «المغرب الأقصى» واستيطانهم بعض

مناطق البلاد أكبر الأثر في دعم اللغة العربية وانتشارها؛ لتمسك هذه القبائل البدوية باللسان العربي وما فيه من مفردات وتراكيب وبلاغة في الأساليب. وازدهر الأدب بفرعيه الشعر والنثر، وبلغ درجة عالية من الرقي، وكثرت محافله ببلاد المغرب، وأقبل ولادة الأمر على تشجيعه ودعمه، وسعى المغاربة إلى المساواة بالأندلسيين الذين يفتخرون بمنزلتهم الأدبية، فضلاً عن رغبة المغاربة في الوصول إلى المناصب العليا التي لا يرقى إليها إلا ذوو العلم والأدب.

(86/6)

وقد تدفق أدباء «الأندلس» وغيرهم على البلاط الموحدى؛ حيث العطايا والمنح، وبرزت مجموعة من الشعراء منهم: «أحمد بن عبدالسلام الجراوى»، و «أبو عبدالله محمد بن حبوس» من أهل «فاس»، و «أبو بكر بن مجبر» من «شقورة»، وغيرهم كثير. وكانت أبرز أغراض الشعر آنذاك هي الوصف والغزل والمدح. حرص خلفاء الموحدين على تزويد أنفسهم من مختلف الثقافات، لدعم موقف دولتهم، التي قامت على أساس ديني، ولذا تنوعت ثقافة الخليفة «عبدالمؤمن»، وأجاد في علوم الفقه والجدل والأصول، كما حفظ الأحاديث النبوية، وأحاط بالنحو واللغة، والأدب، والتاريخ، وعلم القراءات، والأنساب، وتنوعت ثقافة ابنه «يوسف»، حيث حظى بقسط وافر من العلوم المختلفة حين كان والياً من قبل أبيه على «الأندلس»، وكذلك كان «المنصور» عالماً بالحديث والفقه واللغة. أما طبقات الشعب فقد قامت المؤسسات التعليمية بتثقيفهم، سواء بالمكتب أو الرباط أو المسجد أو المدرسة، وقد قامت المدرسة التي أسسها الخليفة «عبدالمؤمن» بدور فعال في إثراء ثقافة طبقات الشعب؛ إذ جمعت هذه المدرسة بين الدراستين النظرية والعملية. وكان أبرز علومها النظرية هي: حفظ القرآن وتدريسه، ودراسة

«موطأ تومرت»، وحفظ «صحيح مسلم»، أما العلوم العملية، فكانت: ركوب الخيل والرمي بالسهم والقوس، وتعليم السباحة في بحيرة صنعت من أجل ذلك بالمدرسة.  
المكتبات:

سبقت الإشارة إلى ازدهار التأليف وكثرة عدد المكتبات العامة والخاصة التي ازدحمت بمئات الكتب في شتى فنون المعرفة بدولة المرابطين، فلما قامت «دولة الموحدين»، أولى خلفاؤها هذا المجال عنايتهم، وجمعوا الكتب من كل مكان، وحرصوا على اقتنائها. وكانت هناك المكتبات العامة والخاصة إلى جانب مكتبات المساجد والمدارس والزوايا، فضلا عن مكتبة الخزانة العلية التي أنشأها خلفاء الموحدين، وزودوها بالكتب والمراجع من مختلف العلوم والفنون

(87/6)

---

للاطلاع والدراسة كما كانت هناك «المكتبة الشارية» بسبتة، تلك المكتبة التي أسسها «أبو الحسن علي بن محمد الغافقي» المعروف بالشاري، وقد جعلها وقفاً على علماء المغرب. وكذلك كانت هناك أعداد كثيرة من المكتبات الخاصة، ومنها: مكتبة «ابن صقر» المتوفى (569هـ = 1173م) بمراكش، ومكتبة «عبدالرحمن بن الملجوم» بفاس، ومكتبة «عبدالرحمن بن موسى الأزدي الفاسي» المتوفى (605هـ = 1208م)، وقد باعها ابنته بأربعة آلاف دينار.

(88/6)

---

الفصل الثاني عشر

\*الدول المغربية بعد سقوط الموحدين

دولة بني مرين بالغرب الأقصى:

[668 - 869 هـ = 1269 - 1465 م]:

تمهيد:

كانت هزيمة الموحدين في معركة «العقاب» بالأندلس في سنة (609 هـ = 1212 م) إيذاناً باضمحلال دولتهم؛ حيث تسببت هذه المعركة في سريان الضعف في كيانات الدولة، بالإضافة إلى اعتلاء عرشها مجموعة من الخلفاء الضعاف، وقيام عدد من الثورات وحركات الانفصال التي حدثت بالدولة.

وقد استغلت القبائل المغربية ضعف الموحدين، وعدم قدرتهم على التصدي لمحاولات الانفصال، فتأسست مجموعة من الدول على أرض «المغرب»، وبسطت نفوذها وسلطانها على المنطقة، وهذه الدول هي:

- دولة «بني مرين» بالمغرب الأقصى [668 - 869 هـ = 1269 - 1465 م].

- ثم دولة «بني وطاس» التي قامت على أنقاض دولة «بني مرين» بالمغرب الأقصى [869 - 962 هـ = 1465 - 1555 م].

- دولة «بني زيان» بالمغرب الأوسط (الجزائر وتلمسان) [637 - 962 هـ = 1239 - 1555 م].

- «الدولة الحفصية» بإفريقية (تونس) [625 - 981 هـ = 1519 - 1573 م].  
وهكذا فقد المغرب وحدته، وصارت تحكمه تجمعات قبلية في أنحاء متفرقة.

ينتمي المرينيون إلى قبائل «زناتة»، وهم - على أرجح الآراء - من فرع بربر البتر، الذين كانوا ينتقلون من مكان إلى آخر سعياً وراء الماء والكلأ، وبدأ ظهورهم على مسرح الأحداث خلال عهد المرابطين حيث شاركوا في مجريات الأحداث بزعامة «المخضب بن عسكر» أحد أبناء «بني مرين»، وكان زعيماً قويا مرهوب الجانب، ونجح في السيطرة على جميع «بلاد زناتة» و «بلاد الزاب»، فحاول المرابطون مصانعته، وأرسلوا إليه الهدايا والأموال.

ثم انتقل ولاء المرينيين إلى الموحدين وساعدوهم في إقامة دولتهم،

وتثبيت أقدامهم، وشاركوهم في معاركهم بالميدان الأندلسي.  
ولقد كان ضعف الموحدين سبباً رئيسياً في انتقال «بني مرين» من  
المغربين الأدنى والأوسط إلى «المغرب الأقصى» حيث الحصب  
والرخاء.  
مراحل قيام دولة بني مرين:

(89/6)

أولاً: مرحلة تثبيت أقدامهم في مناطق التلول والأرياف: (592 - 614هـ  
= 1191 - 1217م).

اتصف الأمير عبدالحق زعيم قبائل بني مرين بالتقوى والصلاح  
والشجاعة والعدل والعطف على الفقراء مما كان له أثره على جموع  
المرينيين الذين التفوا حوله، وجذبوا إليهم عددًا من القبائل المغربية  
التي انضمت إليهم، وعمدوا إلى التوسع وفرض النفوذ على حساب  
الموحدين، ودخلوا في عدة معارك كانت أشهرها معركة «وادي  
نكور» التي خسرها الموحدون.

وقد حمل «عثمان بن عبدالحق» (614 - 637هـ = 1217 - 1239م) راية  
المرينيين عقب مقتل والده الأمير «عبدالحق»، فواصل حملاته  
العسكرية، وفرض نفوذه على مساحات واسعة من أرض «المغرب»،  
ثم دعا شيوخ القبائل واتفق معهم على خلع طاعة الموحدين، والقيام  
بأمر الدنيا والدين، والنظر في صلاح المسلمين، فعملوا على تحقيق  
ذلك حتى عام (625هـ = 1228م)، فقوى شأنهم، وخضعت لهم جميع  
قبائل «المغرب»، وسيطروا على جميع موانئ «المغرب» التي امتدت  
من «وادي ملوية» إلى «رباط الفتح».

ثانياً: مرحلة الاستيلاء على المدن الكبرى:

وحمل أعباء هذه المرحلة فارس «زناتة» الأمير «أبو يحيى أبو بكر  
ابن عبدالحق»، الذي كان بطلاً شجاعاً، قوى الإرادة، حازم الرأى،

فقام بتأمين الجبهة الداخلية للمرينيين، وأخضعها لإشراف مالى وإدارى دقيق، ثم واصل مهاجمة المدن المغربية الكبرى، واستولى على «مكناسة»، و «فاس»، و «سلا»، و «رباط الفتح»، و «سجلماسة»، و «درعة».

ثالثًا: المرحلة الأخيرة للاستيلاء على العاصمة مراكش:

هياً الله لبنى مرين فى هذه المرحلة أن يقوم بقيادتهم الأمير «أبو يوسف يعقوب بن عبدالحق» (656 - 685هـ = 1258 - 1286م)، الذى اعتبرته المصادر سيد «بنى مرين» على الإطلاق، وبدأ عهده بمواجهة بعض المشاكل التى واجهت المرينيين فى هذه الفترة، ودخل فى عدة معارك مع الموحدين تمهيداً لدخول العاصمة «مراكش». وقد أعد «أبو يوسف» حملة كبيرة، ثم خرج بها من «فاس» فى

(90/6)

شعبان سنة (666هـ=إبريل 1268م)، وعبر بها النهر المجاور لمدينة «فاس»، ثم هاجم كل القوى والقبائل المعاونة للموحدين. ونجح فى إخضاعها والسيطرة عليها، ثم كانت المعركة الأخيرة بين الموحدين والمرينيين فى شهر الحرم سنة (688هـ=يناير 1289م) عند «وادي غفو»، ودارت بين الفريقين معركة قوية، أسفرت عن هزيمة الموحدين، ومقتل «أبي دبوس» خليفتهم، ثم دخل الأمير «أبو يوسف يعقوب» العاصمة «مراكش» معلناً سقوط «دولة الموحدين»، وقيام «دولة بنى مرين».

استقرار دولة بنى مرين واتساعها:

ظلت «دولة بنى مرين» فى اتساعها ودعم استقرارها مدة خمس وسبعين سنة، فى الفترة من سنة (685هـ=1286م) إلى سنة (759هـ=1359م)، وحكمها خلال هذه الفترة مجموعة من السلاطين الأقوياء،

هم:

- 1 - أبو يعقوب يوسف بن يعقوب [685 - 706هـ = 1286 - 1306م].
  - 2 - أبو ثابت عامر بن أبي عامر [706 - 708هـ = 1306 - 1308م].
  - 3 - أبو الربيع سليمان بن أبي عامر [708 - 710هـ = 1308 - 1310م].
  - 4 - أبو سعيد عثمان (الثاني) بن يعقوب [710 - 732هـ = 1310 - 1332م].
  - 5 - أبو الحسن علي بن عثمان [732 - 749هـ = 1332 - 1348م].
  - 6 - أبو عنان فارس المتوكل بن علي [749 - 759هـ = 1348 - 1358م].
- وقد اتسمت هذه الفترة بتوسع نفوذ «بني مرين» بالمغرب و «الأندلس»، على الرغم من الثورات الكثيرة والقلاقل المتتالية التي واجهتهم.
- مرحلة ضعف بني مرين وسقوط دولتهم [759 - 869هـ = 1358 - 1465م]:
- كان مقتل السلطان «أبي عنان فارس المتوكل بن علي» في سنة (759هـ = 1358م) إيذاناً بدخول «دولة بني مرين» في مرحلة الضعف والانهيار؛ حيث انتقلت السلطة من أيدي «بني مرين» إلى أيدي الوزراء، فضلاً عن فقدان الدولة لنفوذها، وانكماشها داخل حدودها بالمغرب الأقصى، وتعرضها للأزمات الاقتصادية، والأوبئة والكوارث الطبيعية، التي حلت بالمغرب الأقصى، مما عجل بسقوط الدولة، في عهد السلطان «عبدالحق بن أبي سعيد»، الذي تمكن الثوار من القبض

(91/6)

---

عليه وقتله في صبيحة يوم الجمعة (27 من رمضان سنة 869هـ = 23 مايو 1465م).

العلاقات الخارجية:

تعددت العلاقات الخارجية لدولة «بني مرين»، وشملت «الأندلس»، و «دول المغرب» المختلفة، وتراوحت علاقاتهم ببني الأحمر بالأندلس بين الود والعداء، وشابها الحذر والترقب، على الرغم من أنهما

تحالفا ضد الفرنج وهزموهما في سنة (676هـ = 1277م) بالأندلس،  
وانحصرت العلاقات بينهما في أحيان كثيرة على التمثيل  
الدبلوماسي وتبادل الرسائل.

وكانت علاقة المرينيين بجيرانهم من «بنى عبد الواد» بالمغرب  
الأوسط علاقة عدائية لتضارب المصالح بينهما، وكانت فترات السلام  
بينهما قليلة وقصيرة، لأن «بنى عبد الواد» درجوا على نقض ما بينهما  
من معاهدات، على الرغم من أن المرينيين سعوا إلى كسب ودهم؛  
ليتفرغوا للجهاد بالأندلس، واضطر السلطان «أبو يوسف يعقوب بن  
عبدالحق» إلى مهاجمة «المغرب الأوسط» وإلحاق هزيمة نكراء  
بجيوش «بنى عبد الواد»، ثم عقد الصلح معهم.

وحاول «بنو عبد الواد» الإغارة على الحدود الشرقية لدولة «بنى  
مرين» في سنة (679هـ = 1280م)، فخرج إليهم المرينيون للدفاع عن  
بلادهم وألحقوا بهم الهزيمة بالقرب من «تلمسان».

وفي سنة (698هـ = 1299م) حاصر السلطان «أبو يعقوب يوسف»  
مدينة «تلمسان» ودام الحصار مدة سبع سنوات؛ ذاق فيها «بنو  
عبد الواد» مرارة الحصار، ولم ينقذهم من الهلاك سوى مقتل السلطان  
«أبي يعقوب» وعودة المرينيين بعدها إلى بلادهم.

ثم دخلت «دولة بنى عبد الواد» في تبعية «بنى مرين» بعد أن غزاهم  
السلطان «أبو الحسن علي»، واستولى على عاصمتهم «تلمسان»  
في سنة (732هـ = 1332م)، ثم استغلت بقايا «بنى عبد الواد»

الخلافت التي دبت بالبيت المريني وعادوا إلى عرش بلادهم في  
«تلمسان» سنة (749هـ = 1348م)، ولكنهم عادوا إلى تبعية «بنى  
مرين» ثانية في سنة (759هـ = 1358م)، وظلوا على عدائهم لبنى  
مرين، وحاولوا العودة إلى «المغرب الأوسط» مرتين خلال فترة نفوذ

الوزراء بدولة المرينيين، كانت الأولى في سنة (772هـ = 1370م)،  
والثانية في سنة (791هـ = 1389م).

بعض مظاهر الحضارة:

- نظام الحكم والإدارة:

اتخذ «بنو مرين» وزراء تنفيذ حتى سنة (759هـ = 1358م)، وكانت  
مهمة الوزير - آنذاك - تجهيز الجيوش والكتابة، أو الولاية على إقليم ما  
لأهميته أو لخطورة أوضاعه، أو القيام بالحجابة على باب السلطان.  
ثم تحول الوزراء من منفذين لأوامر السلاطين إلى مسيطرين على  
مقاليد الحكم والبلاد، وبدأ ذلك من سنة (759هـ = 1358م) واستمر حتى  
سقوط دولة «بنو مرين».

وكانت هناك طبقة الكتاب التي أفرد لها السلاطين ديواناً مستقلاً  
أطلق عليه «ديوان الإنشاء والعلامة»، وضم هذا الديوان عدداً كبيراً  
من أئمة الفصاحة والبيان، منهم: «عبدالرحمن بن خلدون»،  
و «عبدالمهيمن بن محمد الحضرمي»، و «أبو القاسم بن أبي مدين»،  
وقد أسند السلاطين إلى كتبهم بعض المهام الكبيرة - أحياناً -  
ليرفعوا من شأن هذه الوظيفة وشأن أصحابها.

وقد عرف البلاط المريني «الحاجب» باسم «المزوار»، وكان يترأس  
مجموعة الحرس السلطاني الذين عرفوا باسم «الجنادرة»، وكان  
يشرف على السجون، وينفذ أوامر السلطان وعقوباته، ويتولى تنظيم  
الناس لعرض مظالمهم على السلطان.

وقسم المرينيون دولتهم إلى تسعة أقاليم، تُدار بواسطة ولاية يعينهم  
السلطان بنفسه، ويساعدهم بعض الموظفين الرئيسيين، وهم:  
«صاحب القضية»، و «صاحب الشرطة» و «القاضي»، و «المحتسب».

وتضمن الجهاز الإداري لدولة المرينيين عدداً من الدواوين، منها:  
«ديوان الإنشاء والعلامة»، و «ديوان العسكر»، و «ديوان الخراج».

واحتفظ «بنو مرين» بأهمية القضاء وجلاله، واختص السلاطين بتعيين

«قاضي الجماعة» الذي كان له حق مراقبة صاحب الشرطة

والمحتسب، وشارك السلاطين معهم ولاية الأقاليم في تعيين القضاة

العاديين، وجعلوا قاضيًا للعسكر، للفصل في القضايا الخاصة بالجيش والجنود.

الحياة الاقتصادية:

(93/6)

شهدت «الدولة المرينية» رخاءً وازدهارًا في نواحي الحياة كافة. وجعل المرينيون كل إقليم من أقاليم دولتهم وحدة اقتصادية مستقلة، وجعلوها جميعًا تحت إشراف الوزير المختص أو صاحب الأشغال، وقد تعددت مصادر الدخل المالى وشملت الزكاة، والخراج، والجزية، والضرائب، والغنائم، والمصادرات، وكذلك تنوعت أوجه الإنفاق وشملت: الرواتب، والعطايا، ونفقات الجيش، والبناء والتعمير. وقد ازدهرت الزراعة ببلاط «المغرب الأقصى» نظرًا لتوافر أسبابها؛ حيث تمتعت البلاد بعدد من الأنهار، إلى جانب الأمطار التى تسقط على جهات متفرقة، مع تنوع المناخ، فضلًا عن خصوبة التربة، واهتمام السلاطين بالزراعة، فأسفر ذلك عن وفرة وتنوع فى المحاصيل مثل: القمح، والبقول، والشعير، والزيتون، وقصب السكر، والبقول، وكذلك توافرت الفواكه والخضراوات، ونمت الغابات فى مساحات واسعة، فأمدت البلاد بأنواع الأخشاب المختلفة لصناعة السفن والمنازل وغير ذلك من الأغراض. وشهدت الصناعة ازدهارًا ورواجًا كبيرًا، وتعددت أغراضها ونشطت مراكزها، خاصة وأن الموحدين تركوا وراءهم صناعة مزدهرة بهذه البلاد، وجاء المرينيون فازدهرت فى عهدهم صناعة عصر الزيتون وصناعة السكر، واهتموا بالصناعات الحربية نظرًا لكثرة حروبهم، ويروى أنهم كانوا رؤادًا فى استعمال البارود، بل لعلمهم - كما يقول «ابن خلدون» - أول من استعمله فى صناعة المدافع التى استخدمت فى قذف الأسوار وتحطيمها.

ولم يهمل «بنو مرين» التجارة، بل حرصوا على توفير الأمن للقوافل واهتموا بالتجارة، وأكثروا من الأسواق المتخصصة، وزادوا من عدد الحوانيت ووفروا الراحة للتجار، وأنشأوا لهم الفنادق مثل: «فندق الشماعين»، الذي كان من أهم مراكز التجميع لكبار التجار. وقد تعددت طرق التجارة، وأقام المرينيون علاقات تجارية مع كثير من الأقطار، فنشطت التجارة الخارجية، وكان التجار المغاربة يحملون

(94/6)

الذهب والصمغ من «السودان» إلى «الأندلس»، وقاموا بتصدير المنسوجات الصوفية والجلدية إلى «أوربا»، واستوردوا الآلات الحديدية والأحواض الرخامية، وكان لميناء «سبتة» وغيره من الموانئ دور بارز في تسهيل عمليتي استيراد هذه البضائع وتصديرها.

الحياة الاجتماعية:

تشكل المجتمع المريني من عدة عناصر جاء البربر في مقدمتها، وجاءت «قبيلة هنتانة» التي تنتمي إليها الأسرة الحاكمة في مقدمة القبائل البربرية. ولاشك أن هذه القبيلة التي أسست «الدولة المرينية» قد احتلت مركز الصدارة بالدولة، وتلتها في المرتبة القبائل الهلالية، ثم القبائل التركية، ثم بقايا الروم والفرنج الذين انضموا إلى الجيش المريني.

وقد اتسم بلاط المرينيين في بداية عهدهم بالبداوة، ثم أخذوا بمظاهر الرقي والترف بعد أن استقرت لهم أوضاع البلاد، وثبتت أركانها وتنوعت احتفالات المرينيين، وتعددت بها مظاهر الأبهة والعظمة وكان لاستقبال الوفود وتوديعها احتفال خاص يليق بالدولة، كما كان الاحتفال بعيدى الفطر والأضحى، والمولد النبوي، من أهم ما حرص عليه سلاطين هذه الدولة.

وحظى البناء والتعمير بمرتبة رفيعة لدى المرينيين، واهتموا به اهتمامًا بالغًا، وشيدوا عدة مدن تأتي في مقدمتها مدينة «فاس الجديدة» أو «الدار البيضاء» التي أنشأها السلطان «يعقوب بن عبدالحق»، في سنة (674هـ = 1275م)، لتكون عاصمة لبلاده بدلا من العاصمة القديمة «فاس» التي ازدحمت بالناس. كما بنى «يوسف بن يعقوب» مدينة «المنصورة» أثناء حصاره لمدينة «تلمسان» سنة (698هـ = 1299م) واختط بها قصره ومسجداً، ومساكن للجند والدور والفنادق والبساتين، ثم أحيطت المدينة بسور كبير. هكذا بنى المرينيون المساجد الكبيرة بشتى مدن «المغرب الأقصى»، وعنوا بفرشها وتزويدها بالماء اللازم للوضوء، وكان المسجد الجامع الذى بنى بفاس الجديدة سنة (677هـ = 1278م) من أهم هذه المساجد.

(95/6)

وكانت المدارس من أهم المنشآت التى حرص المرينيون على إقامتها، فأقاموا «مدرسة الصفارين» فى عهد السلطان «يعقوب» الذى عين لها المدرسين، وأجرى على طلبتها النفقات اللازمة، وزودها بخزانة للكتب، وبنى السلطان «أبو سعيد» عدة مدارس منها: مدرسة العطارين، ومدرسة المدينة البيضاء، ومدرسة الصهريج. ولم يغفل المرينيون إنشاء المستشفيات، فأقام السلطان «يعقوب بن عبد الحق» عدة مستشفيات للمرضى والجائنين، ووفر لها الأطباء، وأجرى عليهم المرتبات، كما خصص جزءاً كبيراً من أموال الجزية لرعاية الجذامى والعميان. الحياة الفكرية:

ورث «بنو مرين» عن المرابطين والموحدين ثروة ثقافية كبيرة، فأسهموا بدورهم فى زيادة هذه الثروة، وأنشئوا المؤسسات العلمية كالمساجد والمدارس، ورحبوا بالعلماء القادمين من «الأندلس»

وغيرها؛ وشجعوهم على بذل ما لديهم دفعًا للحركة العلمية بالبلاد.  
فاهتم العلماء بتفسير القرآن، وبرع عدد كبير منهم في هذا العلم  
أمثال: «محمد بن يوسف بن عمران المزداغى» المتوفى عام (655هـ =  
1257م)، و «محمد بن محمد بن على» المعروف بابن البقال المتوفى  
عام (725هـ = 1325م)، و «محمد بن على العابد الأنصارى» الذى اختصر  
تفسير الزمخشرى المتوفى عام (762هـ = 1361م).  
أما علم الحديث فقد ازدهر باعتباره المصدر الثانى للتشريع، ومن  
أبرز علمائه: «عبدالمهيمن الحضرمى»، و «محمد بن عبدالرازق  
الجزولى»، و «ابن رشيد» الذى تُوفى فى سنة (721هـ = 1321م).  
وقد تقدم علم الفقه تقدمًا كبيرًا بسبب تشجيع سلاطين «بنى مرين»  
للفقهاء؛ فكثرت المؤلفات، وظهر كثير من الفقهاء مثل: «محمد بن  
محمد بن أحمد المقرى» المعروف بالمقرى الكبير المتوفى عام  
(758هـ = 1357م)، و «أحمد بن قاسم بن عبدالرحمن الجذامى» الذى  
عُرِف بالقباب المتوفى عام (778هـ = 1376م).  
وإلى جانب هذه العلوم الدينية ازدهرت علوم اللغة، والنحو والتاريخ،  
والسير، والرحلات، والجغرافيا، والفلك، والرياضيات، والفلسفة

(96/6)

---

والمنطق والطب، كما ازدهرت الحركة الأدبية، واشتهر عدد كبير من  
الشعراء، مثل: «أبى القاسم رضوان البرجى» الذى تولى وظيفة  
الإنشاء فى عهد «أبى عنان المرينى»، و «لسان الدين بن الخطيب»  
أشهر الشعراء الأندلسيين الذين عاشوا مدة طويلة بالدولة المرينية،  
وكذا اشتهر عدد كبير فى فن النثر، منهم: «ابن خلدون» و «ابن  
مرزوق الخطيب».

وأسهمت المكتبات إسهامًا بارزًا فى تنشيط الحركة الفكرية، وكان  
السلطان «أبو عنان المرينى» قد أفرد دارًا للكتب وزوّدها بالكتب

في شتى مجالات العلوم والمعرفة، واستخدم بها الأمانة لحفظ الكتب وترتيبها وتصنيفها، وكذا لاستقبال الزائرين.

بنو وطاس بالمغرب الأقصى:

[869 – 962هـ = 1465 – 1555م]:

تمهيد:

«بنو وطاس» فخذ من قبيلة «بنى مرين»، ولكنهم ليسوا من فرع الأسرة المرينية الحاكمة، وقد قامت علاقة حذرة بين أسرتى «بنى وطاس» و «بنى مرين»، ثم تعدى «بنو وطاس» هذا الحذر، واتخذوا موقفًا عدائيا من دولة «بنى مرين» منذ قيامها، وساندوا الموحدين في صراعهم معهم، ومن ثم عمد المرينيون - بعد قيام دولتهم واستقرار الأوضاع لهم - إلى إحكام قبضتهم على حصن «تازوطا» الذى كان مقر «بنى وطاس» فى ذلك العهد، ولكن الوطاسيين قاموا بثورة فى سنة (691هـ = 1292م) للاحتفاظ بنفوذهم فى هذا الحصن، وامتدت ثورتهم فشملت منطقة الريف، ثم طردوا الوالى المرينى وحاشيته، وسيطروا على الحصن، مما دفع السلطان «يوسف بن يعقوب المرينى» إلى تجهيز جيش كبير، وجعل عليه «عمر بن المسعود بن خرباش» أحد قادته المخلصين، وأمره بالتوجه إلى حصن «تازوطا»، ثم خرج السلطان بنفسه على رأس جيش آخر، وحاصر الجيشان الحصن مدة عشرة أشهر، وتمكن «عمر» و «عامر» ابنا «يحيى بن الوزير الوطاسى» زعيما الوطاسيين من الفرار بأموالهما إلى «تلمسان»، ودخل السلطان الحصن، وأنزل العقاب بالوطاسيين ثم عاد إلى عاصمته «فاس» فى آخر جمادى الأولى سنة (692هـ = أبريل 1693م).

(97/6)

---

وقد تأمر «زيان بن عمر الوطاسى» مع الأمير «أبى عبدالرحمن المرينى» ضد والده السلطان «أبى الحسن»، فى محاولة للاستيلاء

على السلطة، ولكن محاولتهما باءت بالفشل، وسُجن الأمير، وفر «الوطاسي» إلى «تونس».

وعلى الرغم من كل ما سبق فإن الوطاسيين نالوا حظاً وافراً من المراكز العامة بالدولة المرينية، وتغلغل نفوذهم داخل مراكز الحكم المدني، وكذا العسكري، ووصل بعضهم إلى منصب الوزارة، مثل: «رحو بن يعقوب الوطاسي» الذي ولى الوزارة في عهد السلطان «عامر بن عبدالله المريني»، واستمر إلى عهد «سليمان بن عبدالله»، وتولى «عمر بن علي الوطاسي» الإمارة في مدينة «بجاية» في عهد «أبي عنان المريني» في سنة (759هـ = 1358م).

الأوضاع الداخلية بدولة بني وطاس ثم سقوطها:

دخل «محمد الشيخ الوطاسي» سلطان الوطاسيين في مواجهة مستمرة - منذ أسس دولته - مع الفتن والقلاقل والثورات التي قامت بالدولة على أيدي العرب الذين أغاروا على «فاس» و «مكناسة» ودمروهما، ثم واجه ثورة «علي بن راشد» في «شفادن» وهي مدينة قريبة من «البحر المتوسط» و «الحيط الأطلسي»، و «مضيق جبل طارق»، ثم حاول «محمد بن أحمد المريني» الاستقلال بمدينة «دبرو» التي تقع شمال شرق «المغرب»، ونجح في ذلك، وبسط نفوذه على المناطق الغربية منها، فأدرك «محمد الشيخ» خطورته، وخرج لمواجهة مرتين، كانت الأولى في سنة (895هـ = 1490م)، وهُزم فيها الوطاسيون، وكانت الثانية في سنة (904هـ = 1498م)، وانتصر فيها «بنو وطاس»، وعقد سلاطنتهم الصلح مع «محمد بن أحمد المريني»، وزوج السلطان ابنته لولدي الأمير «محمد»، فحل بينهما السلام. وقد واجهت هذه الدولة ثورة بالمنطقة الجنوبية، قادها «عمرو بن سليمان الشيطمي»، الشهير بالسياف، في سنة (870هـ = 1465م)، ولم تهدأ هذه الثورة إلا بعد أن أُغتيل «الشيطمي» على يد زوجته في سنة (890هـ = 1485م).

والواقع أن «بني وطاس» لم يتمكنوا من فرض سلاطنتهم ونفوذهم

على كل «المغرب الأقصى»، بل يمكن القول بأن نفوذهم لم يتجاوز العاصمة «فاس»، واقتسمت القبائل والأشراف والزعامات المحلية ومشايخ الصوفية باقى البلاد.

فأدى هذا إلى نشوب الاضطرابات والقتال بالبلاد، وتزايد الانقسامات بها، واستغلال البرتغال والإسبان لهذه الأوضاع للتوسع وفرض النفوذ ونشر المسيحية.

ثم بدأت مرحلة أخرى من الصراع بين الوطاسيين والسعديين الذين حشدوا الناس إلى جانبهم بحجة الدفاع عن البلاد من خطر الإسبان والبرتغال، وكانوا في حقيقة الأمر يسعون لإسقاط «دولة

الوطاسيين»، ونجحوا في السيطرة على بعض المدن المغربية، ثم دخلوا «مراكش»، وفشل «بنو وطاس» في صدّهم، وتدخل العلماء للصلح بينهما، ونجحت محاولتهم، واتفق الفريقان على اقتسام «بلاد المغرب الأقصى»، ولكنهما دخلا في صراع ثانية، وتوسع السعديون على حساب أملاك الوطاسيين، ثم دخلوا مدينة «فاس»، وقتلوا السلطان الوطاسي «أبا حسون علي بن محمد بن أبي ذكرى» في يوم السبت (24 من شوال سنة 961هـ=22 من سبتمبر 1554م)، وبدأ السعديون بقيادة «محمد الشيخ السعدي» في فرض نفوذهم على بقية المناطق التابعة للوطاسيين، وهكذا سقطت دولة «بنو وطاس».

العلاقات الخارجية:

تعددت العلاقات الخارجية بين «بنو وطاس» و «دول المغرب»، فضلا عن الإسبان والبرتغال، وحاولوا كسب ود الحفصيين بتونس، وببايعوهم، ولكن هذا الود لم يدم، لأن الحفصيين ساندوا ثورة «الشيظمي» التي استمرت نحو عشرين عامًا، وكذلك حاول «بنو وطاس» مسالمة الإسبان والبرتغال، وعقد «محمد الشيخ الوطاسي» مؤسس الدولة معاهدة سلام مع البرتغال في سنة (876هـ=1471م)،

ولكن البرتغاليين نقضوا هذه المعاهدة، ثم توالت الاتفاقات بين الطرفين.

وقد تطورت العلاقات بين «بني وطاس» و «الإسبان»، أثناء الصراع الذى دار بين «ابن حسون الوطاسى» والسعديين؛ حيث التمس «ابن حسون» العون من الإسبان، وأعلن ولاءه لامبراطورهم، واستعداده

(99/6)

لتسليمهم «بادس» فى مقابل مساعدته فى استرداد عرش «فاس»، وساعده الاسبان بالسفن والأموال، ولكنه فشل فى استعادة عرشه، ف لجأ إلى البرتغال، وساندوه بالجنود والأموال وعدة الحرب، ولكن هذه المساعدات لم تحقق أغراضها؛ إذ حاصرتها قوات الدولة العثمانية واستولت عليها، مما جعل «ابن حسون» يلجأ إليهم طلباً للعون فى مقابل الاعتراف بسلطة الخليفة العثماني، فمكَّنه العثمانيون من العودة إلى عاصمته «فاس» ثانية فى سنة (961هـ= 1554م)، ثم مالبت الأتراك أن يسيطروا على مقاليد الأمور بفاس، وضاق الناس بذلك، فاضطر «ابن حسون» إلى تعويض الأتراك بمبالغ مالية كبيرة للرحيل عن العاصمة، ففعلوا، وواصل «ابن حسون» نشاطه ضد السعديين، حتى سقط قتيلا، ومن ثم سقطت «دولة بني وطاس».

بعض المظاهر الحضارية:

– النظام السياسى والإدارى:

كان الحكم وراثيا فى «بني وطاس»، وكان السلطان يعين كبار مستشاريه من كبار الشخصيات، وكان للسلطان أمين سر مهمته الإشراف على أموال السلطان، كما كان السلطان يُعيِّن حكامًا على كل مدينة، وجعل لهم الحق فى التصرف فى مواردها، وتزويد جيش السلطان بالجنود من مدتهم، وتعيين وكلاء من طرفهم على القبائل

التي تسكن الجبال، وجباية الأموال، وأخضع السلطان كل ذلك لسلطته، وأحكم قبضته على مقاليد الأمور، كما أخضع كل موارد الدولة لخدمة الأغراض العسكرية.

واتخذوا الوزراء من أقاربهم، واستوزر «محمد الشيخ الوطاسي» أخويه «محمد الحلو» و «الناصر أبا زكريا»، وعين مسعود بن الناصر خلفاً لأبيه على الوزارة، وقد تنوعت اختصاصات الوزراء بين المهام السياسية والحربية إلى جانب أعمالهم الإدارية. وتنوعت الوظائف الإدارية وشملت: الباشا، والقائد، والقاضي، والمحتسب، ويساعدهم مجموعة من الموظفين، منهم: الأمين والناظر، وأمين المواريث. وقد نشطت حركات الاستقلال أثناء ضعف الحكومة المركزية بفاس، وغياب سلطتها عن مناطق الأطراف، والمناطق النائية.

(100/6)

النواحي الاقتصادية:

نجحت الزراعة نجاحاً عظيماً، كعادتها ببلاد «المغرب»، وكثرت المحاصيل وزادت أنواع الفواكه، وساعدت هجرة الأندلسيين إلى «بلاد المغرب» على إدخال النظم الزراعية الحديثة، واستحداث أنواع كثيرة من المحاصيل بالبلاد.

وقد ترتب على ازدهار الزراعة قيام صناعات كثيرة، إلى جانب الصناعات التي كانت موجودة من قبل، واشتهرت «فاس» بصناعات الأحذية والأواني النحاسية والخبوط والمنسوجات. وكذلك صناعة الحلوى.

ونشطت التجارة - خاصة في أوقات السلم- وتوافرت الطرق الداخلية التي تربط بين المدن، كما توافرت الطرق الرئيسية التي تسير فيها القوافل من المدن المغربية وإليها، مثل: «سوسة» و «درعة» اللتين

حظيتا بنشاط تجارى كبير.

وتنوعت صادرات «المغرب» من الأواني النحاسية، والمصنوعات الجلدية والزجاجية، والقطنية والحريية، وكذلك التمور بأنواعها والتين والحلى، أما وارداتهم فكانت الذهب وبعض التوابل. الحياة الاجتماعية:

لم تختلف طبقات المجتمع كثيراً في العهد الوطاسى عما سبقه من عهود، واحتل الجيش مكاناً بارزاً، نظراً لكثرة الحروب التي خاضها الوطاسيون، وقد انقسم هذا الجيش إلى قسمين هما: الجيش النظامى، وأفراده من البربر، ويضم: الفرسان والرماة وراشقى السهام، والمشاة، والقسم الثانى: من المتطوعة من العرب وغيرهم، وقد عرف جيش الوطاسيين نظام الحصون والحاميات.

وتوقف نشاط الوطاسيين العمرانى على مدينة «فاس»، ويرجع ذلك إلى الأوضاع السياسية المضطربة التي سادت تلك الفترة، وانصراف «بنى وطاس» إلى المعارك والحروب، وصرف إمكاناتهم المادية فى التسليح والإنفاق على الجيش. وقد أدى كل ذلك إلى توقف النشاط العمرانى، وتناقص عدد الفنادق والمستشفيات، وقلة الاهتمام بالمرضى.

الحياة الفكرية:

شهدت العلوم الدينية نشاطاً ملحوظاً، وبرز عدد كبير من العلماء فى المجالات كافة، منهم: «أبو عبدالله بن أبى جمعة الهبلى»، صاحب

(101/6)

---

كتاب: «الوقف فى القرآن الكريم»، والمتوفى عام (930هـ = 1524م)،  
والفقيه «محمد بن عبدالله بن عبدالواحد الفاسى» المتوفى عام  
(894هـ = 1489م)، وألف «الوتشريشى» عدة كتب منها: «المعيار  
المعزب، والجامع المعرب عن علماء إفريقية والأندلس والمغرب»، وهو

في اثني عشر جزءاً.

وفي علم التاريخ برز القاضي «أبو عبدالله محمد الكراسي الأندلسي»، الذي ألف منظومة عن «بني وطاس»، أسماها: «عروسة المسائل فيما لبني وطاس من فضائل». وتقع هذه المنظومة في نحو ثلاثمائة بيت، وهي المصدر الوحيد الذي يعتمد عليه المؤرخون في التأريخ لهذه الفترة، حيث لم يصل إليهم غيره. ويعد كتاب «وصف إفريقيا» للجغرافي «حسن الوزان» من أهم الكتب وأشهرها في هذا المجال، وقد تناول فيه جغرافية «إفريقية» عموماً، و «المغرب الأقصى»، و «مملكة فاس»، و «مملكة مراكش»، كما تناول العادات والتقاليد والحياة الاقتصادية والفكرية والدينية، والنظم الإدارية.

وتنافس الشعراء والوعاظ - في هذه الفترة- في تأليف الخطب والقصائد الحماسية؛ لحث الناس على جهاد الأسيان والبرتغال، ومن أبرز هؤلاء المؤلفين «أبو عبدالله محمد بن عبد الرحيم النازي» المتوفى عام (920هـ = 1514م)، وله مؤلف عنوانه: «تنبيه المهمم العالية، والانتصار للمملكة الداكية، وقمع الشرذمة الطاغية، عجل الله دمارها، ومحا بيواتر المسلمين آثارها». ووجدت علوم اللغة اهتماماً بالغاً، وألف «عبدالعزیز بن عبدالواحد اللمطي الميموني» ألفية في النحو تضاهي ألفية «ابن مالك»، و «ابن عبدالواحد»، وهو من أهل «فاس» وقد توفي عام (880هـ = 1475م)، وكذلك قام العالم «أبو العباس أحمد بن محمد» المتوفى عام (995هـ = 1587م) بتدريس الفلك والحساب بجامع القرويين بفاس. دولة بني زيان:

[633 - 962هـ = 1235 - 1555م]

تمهيد:

ترجع تسمية هذه الدولة بهذا الاسم إلى «زيان بن ثابت»، والد «يغمراس» مؤسسها، كما أنها تسمى بدولة بني عبدالواد (العبد

الوادية) نسبة إلى قبيلة «عبد الواد» التي ينتمي إليها «بنو زيان». وقد قامت هذه الدولة بالمغرب الأوسط (الجزائر حاليا) وكان يحدها غربًا «نهر ملوية»، ومدينة «قسنطينة» من الجانب الشرقي، وكانت هذه المنطقة تضم عدة مدن منها: «بجاية»، و «الجزائر»، و «وهران»، و «قسنطينة»، و «مليانة»، و «تلمسان».

قيام دولة بني زيان:

شجع ضعف «دولة الموحدين» عقب هزيمتهم في معركة «العقاب» في سنة (609هـ = 1212م)، بعض القوى على الاستقلال، فشجع ذلك بدوره «بني عبد الواد» على الاستقلال بالمغرب الأوسط، فاستولوا على «تلمسان» في سنة (627هـ = 1230م).

ويعد «يغمراس بن زيان» الذي تولى الإمارة بعد أخيه في سنة (633هـ = 1235م) هو المؤسس الحقيقي لهذه الدولة، حيث سالم جيرانه من الموحدين كي لا يعرض دولته الناشئة لمعارك جانبية، تصرفه عن تأسيس الدولة، وبني سياسته في هذه المرحلة على عاملين مهمين هما:

العامل العسكري:

جاور «الحفصيون» «بني زيان» من جهة الشرق، وجاورهم «بنو مرين» من الغرب، وهاجم «بنو حفص» مدينة «تلمسان» في سنة (640هـ = 1242م)، فهادتهم «بنو زيان» وبايعوهم، ودعوا على منابريهم للحفصيين، وفي الوقت نفسه بعثوا بجنودهم إلى الجبال واتخذوا من الإغارة على القوات الحفصية وسيلة لطردهم من «تلمسان» و «المغرب الأوسط»، فاضطر الحفصيون إلى عقد الصلح معهم وأعادوا «يغمراس» إلى مقر حكمه بتلمسان ثانية، وكذلك فعل «بنو زيان» مع الموحدين في سنة (646هـ = 1248م) ثم قاموا بغارات كثيرة على القبائل الموجودة داخل «المغرب الأوسط»، مثل قبائل

«تؤين» و «مغراة».

العامل السلمى:

لم يكتف «يغمراس» بالمعارك والغارات، وعمد إلى تحصين بلاده شرقاً وغرباً، وجاء بقبيلة «بنى عامر» وأقطعها نواحي «وهران» و «تلمسان» لتكون حائط الصد لأعدائه، ثم دعم كيان دولته بمصاهرة الحفصيين، حيث زوج إحدى بناته لعثمان ابن الأمير الحفصى «أبى

(103/6)

إسحاق»، فأمن بذلك شرهم، وهجماتهم على الحدود الشرقية لدولته. تطور دولة بنى زيان:

كانت القبيلة من أهم العوامل التي أثرت في سياسة دولة «بنى زيان» وكيانها؛ حيث دخلت هذه الدولة في صراع طويل مع قبائل: «بنى تؤين» و «مغراة» من البربر، و «بنى عامر سويد» من العرب، لرفض هذه القبائل الخضوع لغيرها، ولتعصبها لبنى جلدتها وقبيلتها، وشقت عصا الطاعة، ثم زادت حدة موقفها بعد وفاة «يغمراس» في سنة (681هـ = 1282م)، واضطر الأمير «عثمان» الذى خلف والده «يغمراس» إلى مواجهتهم، فاستولى على «مازونة» من «مغراة» في سنة (686هـ = 1287م)، ثم احتل مدينة «تنس»، ودخل «إنشريس» ولكن هذا الاتساع عاد إلى الانكماش ثانية نتيجة احتلال «بنى مرين» للمغرب الأوسط، وحصارهم «تلمسان» في سنة (698هـ = 1299م)، وعادت القبائل مرة أخرى إلى التمرد والعصيان عقب وفاة الأمير «عثمان»، فخرج إليهم الأمير «أبو زيان محمد الأول» (703 - 707هـ = 1303 - 1307م)، ثم خضعت هذه الدولة أكثر من مرة لدولة بنى مرين مثلما حدث في سنة (670 - 680هـ = 1271 - 1281م) وسنة (689هـ = 1290م) وسنة (737 - 749هـ = 1336 - 1348م) ولكن بنى زيان كانوا يرفضون هذا الخضوع، وينتهزون الفرصة للعودة إلى حكم

بلادهم.

وقد عاشت هذه الدولة في حروب واضطرابات دائمة، ونشبت الخلافات بين أفراد البيت الزياني، وأدى التهاافت على السلطة بينهم إلى أن يشهر الولد السيف في وجه أبيه، بل يتعدى ذلك، ويقتل أباه، مثلما حدث مع «أبي تاشفين (الثاني) عبد الرحمن» (791 - 795هـ=1389 - 1393م) ووالده السلطان «أبي حمو موسى (الثاني) بن يوسف»، حين خلع «تاشفين» أباه من السلطة، واستولى على الحكم، ثم اعتقل أباه وإخوته في سنة (788هـ=1386م) فقامت حروب بين أفراد هذه الأسرة، وعاد «أبو حمو» إلى عرشه، واستعان «ابنه تاشفين» ببني مرين عليه، وحاربه، ثم قتله وعاد «تاشفين» إلى الحكم في ظل التبعية لبني مرين. سقوط دولة بني زيان:

(104/6)

تفشيت ظاهرة قتل السلاطين بدولة بني زيان، وزاد التنافر بين أفراد البيت الزياني، وتكررت هجمات الاسبان على الشواطئ المغربية، واستولوا على «مرسى وهران» في سنة (911هـ=1505م)، ثم استولوا سنة (912هـ=1506م) على «وهران» و «بجاية» و «تدلس» وهي موانئ تابعة «لبني زيان»، وارتضى «أبو حمو الثالث» (909 - 923هـ=1503 - 1517م) دفع ضريبة سنوية للإسبان لكي يبقى في مقعد الحكم، فاستنجد الناس بالأتراك العثمانيين لتخليصهم من هذا الاحتلال، فأسرع لنجدتهم الأخوان «عروج» و «خير الدين» ابنا «يعقوب التركي»، اللذان كانا يحملان المتطوعين في السفن لإنقاذ مهاجري الأندلس، ونقلهم إلى أرض «المغرب»، ودارت معركة بين الطرفين، وأرسلت إسبانيا بالإمدادات لتعزيز قواتها وحليفها «أبي حمو» الذي فر إلى «وهران» للاحتباء بالقوة الإسبانية هناك،

وحاصر الإسبان مدينة «تلمسان» واستشهد «عروج» في سنة (924هـ = 1518م)، ومات «أبو حمو الثالث» في السنة نفسها. وتوالت الاضطرابات، وزاد التنافس على العرش، وأقبل السعديون من «المغرب الأقصى» واستولوا على «تلمسان» في سنة (957هـ = 1550م). وانقسم البيت الزياني إلى طوائف ثلاث: إحداها تضامنت مع الأتراك، والأخرى استعانت بالإسبان، والأخيرة تحالفت مع السعديين، وتحرك الأتراك، ودخلوا في معركة مع السعديين وهزموهم، فعادوا إلى «المغرب الأقصى»، ودخل الأتراك العاصمة «تلمسان». وكان آخر حكام «بنو زيان» هو «الحسن بن عبدالله» (957 - 962هـ = 1550 - 1555م) الذي ثار عليه الناس لميله إلى الإسبان فخلعه الأتراك، وضموا «تلمسان» إلى حكومة «الجزائر» التركية في سنة (962هـ = 1555م). العلاقات الخارجية:

كان موقع «الدولة الزيانية» بالمغرب الأوسط حافزاً للقوى الأخرى بالمغرب على التطلع إليها، بغرض السيطرة وفرض النفوذ، ولعل هذا هو ما فعله الموحدون، و «بنو مرين»، و «الحفصيون». وظلت العلاقات

(105/6)

---

بين هذه الدولة وهذه القوى بين شد وجذب، فتارة يخضع «بنو زيان» للنفوذ الموحدى والمريني والحفصى، وتارة يعمون باستقلالهم، وأخرى يمتد فيها نفوذهم إلى بعض مناطق المغرب الأدين والأقصى. ولقد وقف «بنو زيان» في بداية الأمر في وجه الزحف الموحدى، إلا أن الموحدين تمكنوا من إخضاعهم والسيطرة على «المغرب الأوسط»، ودخل «بنو زيان» في تبعية الموحدين، فلما قويت شوكة «بنو زيان» كانت «دولة الموحدين» في مرحلة الضعف والانهيار،

فبدأ الموحدون يتوددون إليهم ويهادنونهم، فخشى الحفصيون من هذا التحالف، وتوجهوا إلى «تلمسان» واستولوا عليها في سنة (640هـ = 1242م) بمساعدة بعض قبائل «المغرب الأوسط»، واشتروا لعودة «بني زيان» إلى الحكم أن يخلعوا طاعة الموحدين ويعلنوا تبعيتهم للحفصيين، فقبل «بنو زيان» ذلك، وعادوا إلى حكم «تلمسان». ولكن الموحدين لم يعجبهم هذا الوضع وحشدوا جيوشهم وحاصروا «تلمسان»، فأعلن «بنو زيان» طاعتهم لهم، وساعدوهم في صراعهم مع المرينيين على الرغم من العلاقات المتوترة بينهما، وظل هذا شأنهما حتى سقوط «دولة الموحدين» في سنة (668هـ = 1269م). أما علاقة «بني زيان» بالحفصيين، فكانت علاقة عداوة؛ نظرًا لتضارب مصالح الدولتين، حيث رغبت كل منهما في التوسع على حساب الأخرى. وقد بدأت هذه العلاقات باستيلاء الحفصيين على «تلمسان» في سنة (640هـ = 1242م)، ثم بدأت بينهما المفاوضات، وعاد «يغمراس» إلى عاصمته «تلمسان» وأعلن تبعيته للحفصيين، ولكن «بني زيان» لم يرضوا بهذه التبعية وأعلنوا استقلالهم عن هذه التبعية في عهد «المتوكل الزياني» في سنة (868هـ = 1464م)، ومن ثم حاصرتهم جيوش الحفصيين في «تلمسان» في سنة (871هـ = 1466م)، وهدموا أسوارها، وأجبروهم على إعلان الطاعة والتبعية للحفصيين ثانية.

وقد عمد الحفصيون إلى إحداث الفرقة، وإشعال الفتنة بين أفراد البيت الزياني، حتى يتسنى لهم إحكام قبضتهم عليهم، ويضمنوا

(106/6)

---

تبعيتهم، وتم لهم ذلك واستمر حتى دبَّ الضعف والتفكك بين سلاطين «بني حفص» وأفراد أسرهم، فوجه إليهم بنو زيان عدة ضربات متوالية، وتمكنوا من هزيمتهم والاستيلاء على «تونس» في سنة

(730هـ = 1330م).

وعلى الرغم مما سبق فقد شهدت العلاقات الزبانية الحفصية - أحياناً - بعض حالات الهدوء، وحسن الجوار، وتجلى ذلك حين صاهرهم «يغمراس» وزوج ابنه «عثمان» إحدى بنات «أبي إسحاق الحفصي» في سنة (681هـ = 1282م).

بعض المظاهر الحضارية:

- النظام السياسي والإداري:

كان الحكم في «دولة بني زيان» وراثياً، وكانت ألقاب حكامهم تتراوح بين «أمير المسلمين» ولقب «السلطان»، وقد نفشت ظاهرة قتل سلاطينهم على أيدي أفراد أسرهم الحاكمة للوصول إلى الحكم، كما فعل «تاشفين» مع والده «أبي حمو».

وتعددت المناصب الإدارية في هذه الدولة، وجاء منصب «الوزارة» في مقدمتها، كما كان قاضي القضاة يتقدم مجموعة القضاة بالدولة، وكذلك كان قائد الجيش من رجال هذه الدولة البارزين، ولذا كان السلطان يختاره من أفراد أسرته، أو يتولى هو مكانه، ويخرج بنفسه على رأس الجيوش. وكان ديوان الإنشاء والتوقيع من أبرز الدواوين، لأنه يختص بالمراسيم السلطانية، ومراسلات الدولة مع غيرها من الدول.

الحياة الاقتصادية:

تمتع «المغرب الأوسط» بسطح متنوع، جمع بين السهل الساحلي والوديان الداخلية، وسلسلة جبال الأطلس، فضلاً عن تمتعه بمناخ يختلف من منطقة إلى أخرى، وبترية خصبة صالحة للزراعة، وبأنهار منتشرة في كل مكان مثل نهرى «شلف» و «سيرات»، ويعيون مائية منبثة، وبأمطار تسقط على منطقة الساحل، فهيات كل هذه العناصر لقيام زراعة ناجحة، أولها ولاية الأمر عنايتهم ورعايتهم، فتنوعت المحاصيل الزراعية، كما ازدهرت صناعة الأقمشة الحريرية والصوفية، وصناعة السجاد والبسط، وكذلك صناعة السفن الحربية والتجارية،

والأسلحة، والمصنوعات الجلدية، والمشغولات الذهبية والفضية  
والنحاسية.

(107/6)

وكان لموقع «المغرب الأوسط» دور كبير في تنشيط التجارة،  
باعتباره همزة الوصل بين المغربين الأدنى والأقصى، حيث تمتد  
شواطئه، وتكثر موانئه المطللة على «البحر المتوسط»، فضلا عن طرق  
التجارة المتعددة بجنوبه، والتي كانت تمر منها القوافل التجارية  
القادمة من جنوب الصحراء قاصدة الموانئ المطللة على «البحر  
المتوسط»، لتكتمل رحلتها إلى «أوروبا» وغيرها من المناطق.  
وقد تعددت صادرات «المغرب الأوسط»، وكان الصوف والأسلحة  
والمنتجات الزراعية من أهم صادرات «بني زيان» وأسهمت موانئ:  
«وهران» و «تنس» و «الجزائر» و «بجاية» إسهامًا بارزًا في تنشيط  
التجارة، وازدهار الاقتصاد، وكان ذلك سببًا رئيسيًا في اهتمام  
سلاطين «بني زيان» بالبناء والتعمير، فتنوعت في عهدهم  
المؤسسات وعُنفوا بإنشاء المساجد والمدارس والقصور، والمنشآت  
العسكرية، وكانت أبرز مساجدهم هي: «مسجد أبي الحسن» الذي  
أمر «عثمان بن يغمراس» ببنائه سنة (696هـ = 1296م)، و «مسجد  
الولي إبراهيم» الذي تم بناؤه في عهد أبي حمو الثاني، كما شهد  
عهد «أبي تاشفين الأول» نهضة عمرانية كبيرة.  
وتعددت المدارس بتلمسان ووهران، وكانت أبرز هذه المدارس هي  
«المدرسة التاشفينية» (أو المدرسة القديمة) التي أنشأها «أبو  
تاشفين بن عبد الرحمن» (718 - 736هـ = 1318 - 1336م)، و «المدرسة  
اليعقوبية» التي بناها «أبو حمو موسى الثاني»، وكان افتتاحها  
في الخامس من صفر سنة (765هـ = نوفمبر 1363م).  
وبنى «بنو زيان» الحصون والأبراج والأسوار والقلاع العسكرية

لتحصين بلادهم، ومن أبرز قلاعهم: قلعة «تامز يزدكت» التي كانت مركز مقاومتهم على الحدود الشرقية مع «بني حفص». الحياة الفكرية:

اهتم «بنو زيان» بتنشيط الحركة الفكرية في بلادهم، ودعموها بإنشاء المدارس والمساجد والكتاتيب والزوايا لتعليم الطلاب، ولم يختلف أسلوب التعليم في دولتهم عن مثيله في «دولة بني مرين» و «دولة الحفصيين»، وامتألت المؤسسات التعليمية بالعلماء

(108/6)

المتخصصين في كل علم وفن، وقد لقي هؤلاء من الدولة معاملة حسنة وأغدقت عليهم المنح والعطايا، وولتهم المناصب الرفيعة حتى ينهضوا بالمستوى التعليمي والفكري في البلاد. واستعاد المذهب المالكي مكانته بدولة «بني زيان» كما استعاده في بقية الدول الأخرى عقب سقوط «دولة الموحدين»، وازدهرت علوم التفسير والفقه والحديث والمنطق والجدل والكلام، وغيرها من العلوم، وتبوأ مجموعة من العلماء مكانة ممتازة لدى «بني زيان»، منهم: «أبو إسحاق إبراهيم بن يخلف التنسي» المتوفى عام (680هـ= 1281م)، و «أبو عبدالله محمد بن محمد المقرئ» المتوفى عام (759هـ= 1358م) والذي تتلمذ على يديه مجموعة من العلماء النابغين، أمثال: ابن الخطيب، وابن خلدون، والشاطبي وغيرهم. وبرزت كذلك جماعة من العلماء في علوم اللغة والأدب منهم: «أبو عبدالله بن عمر بن خميس التلمساني» المتوفى عام (708هـ= 1308م)، وقد أشرف على «ديوان الإنشاء» بتلمسان في عهد «عثمان بن يغمراس»، و «أبو عبدالله محمد بن منصور القرشي التلمساني» الذي أنشأ «ديوان الرسائل» في عهد أبي حمو الأول. الدولة الحفصية:

[625 - 893 هـ = 1228 - 1488 م]:

ينتسب الحفصيون إلى «أبي حفص عمر بن يحيى» الذي ينتمي إلى «قبيلة هنتانة»، وهي من قبائل المصامدة التي عاشت بالمغرب الأقصى، واتخذت المعقل والحصون، وشيدت المباني والقصور، وامتحنوا الفلاحة وزراعة الأرض. وقد طمع الحفصيون في الاستقلال بإفريقية بعد هزيمة الموحدين في معركة «العقاب» بالأندلس في سنة (609هـ = 1212م)، وعملوا على تحقيق ذلك حتى سنة (625هـ = 1228م)، فوصل «أبو زكريا بن عبدالواحد الحفصي» إلى مقعد الإمارة بتونس، ومهد لقيام «دولة الحفصيين» حتى سنة (627هـ = 1230م) فبايعه الحفصيون واستقل عن طاعة الموحدين وضم إليه «الجزائر» و «تلمسان».

وقد واجهت الدولة الحفصية عدة ثورات، إلا أنها تمكنت من القضاء عليها في عهد قوتها، فلما حل الضعف بخلفاء الأمير «أبي زكريا

(109/6)

---

الحفصي»، زادت الخلافات بين أفراد الأسرة الحاكمة، وقامت الثورات في أماكن كثيرة، ولم يتمكن أمراء الحفصيين من مواجهة هذه الاضطرابات، فحل الضعف بدولتهم حتى سقطت على أيدي العثمانيين سنة (893هـ = 1488م).

العلاقات الخارجية:

تنوعت علاقات «الدولة الحفصية»، وشملت «الأندلس»، و «أوروبا»، ودول: «بنى مرين» والوطاسيين والزيايين.

واتسمت علاقاتهم بالأندلسيين بالهدوء تارة وبالتوتر والمنافسة تارة أخرى، وكذلك تمثلت علاقاتهم بالأوروبيين في عدة حملات عسكرية، عُرفت باسم الحروب الصليبية، وسعى الصليبيون إلى تحويل مسلمي «المغرب الأدنى» إلى المسيحية، غير أن وباءً تفشى بالمعسكر

الصلبي، وتوفي لويس متأثرًا بهذا الوباء، فلجأ الصليبيون إلى التفاوض والصلح مع الحفصيين، ثم الانسحاب في سنة (669هـ = 1270م) ولكن الصليبيين عاودوا الهجوم على مدينة «طرابلس» في سنة (755هـ = 1354م)، واستولوا عليها واستباحوها، ولم يخرجوا منها إلا بعد الحصول على قدر كبير من المال، ثم توالى حملاتهم الصليبية بعد ذلك على بلاد «المغرب الأوسط» ومدنه. وقد مرت العلاقات الحفصية المرينية بعدة مراحل ارتبطت بالأحوال والظروف السياسية التي كانت تمر بها كل من الدولتين، واتسمت هذه العلاقات بالصراع بين الطرفين، ودخول بني حفص في تبعية «بني مرين» في أحيان كثيرة، ولكن ذلك لم يمنع من قيام بعض العلاقات الطيبة في فترة حكم «عثمان ابن أحمد المريني» (801 - 823هـ = 1398 - 1420م)، و«عبدالحق بن سعيد المريني» (863 - 869هـ = 1459 - 1465م).

- بعض المظاهر الحضارية:

الجانب السياسى والإدارى:

عرفت «دولة بني حفص» نظام الخلافة، وكان الحكم بها وراثياً، ويعاون الخليفة هيئة استشارية، يُطلق عليها اسم أشياخ البساط، وجميعهم من قبيلة «هنتانة» التي تنتمى إليها الأسرة الحاكمة، وكذلك عرفت هذه الدولة نظام الحجابة، وتطور هذا النظام لدرجة أن

(110/6)

---

الحاجب كان يفصل في الأمور دون الرجوع إلى الخليفة، وجاء منصب الوزارة في مرتبة تلى منصب الحجابة، ويأتى إلى جانبها منصب القضاء الذى أولاه الحفصيون عنايتهم لأهميته. الحياة الاقتصادية:

تنوعت مصادر الدخل في «دولة بني حفص»، وشملت: الضرائب

والزراعة، والحزبية، والمصادرات، والحراج، وانتعشت الزراعة وكثرت المحاصيل، ونشطت الصناعات مثل: المنسوجات بأنواعها، والصناعات الجلدية والزجاجية، وصناعة الأسلحة والسفن، واستخدم «بنو حفص» عملة خاصة بهم ليؤكدوا استقلالهم.

الحياة الاجتماعية:

تشكل المجتمع الحفصي من عدة عناصر، وكانت قبيلة هنتاة البربرية في مقدمة هذه العناصر، كما كان العرب المقيمون، والعرب الهلالية ممن شكلوا هذا المجتمع، تضاف إليهم مجموعات الروم والأتراك.

وشهدت «الدولة الحفصية» حركة واسعة في البناء والتعمير، وأقام الحفصيون المؤسسات التعليمية مثل: الكتاتيب، والزوايا والمساجد، فقامت بدورها في دعم العلوم المختلفة وتدريبها، ثم أنشأ الحفصيون المدارس بالعاصمة «تونس»، وكانت أول مدرسة هي «المدرسة الشماعية» التي أنشأها «أبو زكريا يحيى الأول» في سنة (633هـ = 1235م)، وتلتها «التوفيقية» في سنة (650هـ = 1252م). وأخذت «الدولة الحفصية» بالمذهب المالكي، واهتمت بالعلوم الدينية مثل تفسير القرآن، وعلم الحديث، والفقه، وكذلك اهتم الحفصيون بالعلوم العقلية مثل: المنطق والكيمياء والفلك وغيرها. وساهمت المكتبات - التي زُوِّدت بالكتب في شتى فروع المعرفة- في تنشيط الحركة الثقافية بالبلاد، وكذا ساهمت المجالس العلمية، التي شجعها بعض الحكام الحفصيين في إثراء النشاط العلمي ودعمه.

وقد أثمرت هذه الحركة الثقافية المزدهرة مجموعة من العلماء البارزين في شتى فروع العلم والمعرفة، فكان من الفقهاء «أبو عبدالله محمد بن عرفة» المتوفى عام (802هـ = 1399م)، ومن المحدثين: «أبو بكر بن سيد الناس» المتوفى عام (659هـ = 1261م)،

ومن النحويين: «أبو الحسن علي بن موسى» المعروف «بابن  
عصفور» المتوفى عام (969هـ = 1561م)، ومن الشعراء: «حازم  
القرطاجني» المتوفى عام (684هـ = 1285م)، و «ابن الأبار» المتوفى  
عام (662هـ = 1264م).  
وقد أسهم هؤلاء وغيرهم في دعم المعرفة، وتنشيط الثقافة،  
ومؤازرة الحركة الفكرية في دولة «بني حفص».

(112/6)

- المراجع:

- \* إبراهيم العدوي: الأمويون والبيزنطيون - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - 1953م.  
\* بن الأثير (عز الدين): الكامل ففي التاريخ - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى -  
1987م.  
\* أحمد بن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان - الدار التونسية للنشر - تونس - 1989م.  
\* بن حجرالعسقلاني (أحمد بن علي): الدرر الكامنة - دار الجيل - بيروت - 1414هـ =  
1993م.  
\* الحسن الوزان: وصف إفريقية - ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر - دار الغرب  
الإسلامي - بيروت - الطبعة الثانية - 1983م.  
\* حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته - العصر الحديث للنشر والتوزيع - بيروت - الطبعة  
الأولى - 1413هـ = 1992م.  
\* بن الخطيب (لسان الدين محمد): الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية - رباط الفتح -  
1936م.  
\* بن خلدون (عبد الرحمن بن محمد): تاريخ ابن خلدون - مؤسسة جمال للطباعة والنشر - بيروت  
- 1979م.  
\* بن أبي دينار (محمد بن أبي القاسم): المؤنس في أخبار إفريقية وتونس - تونس - 1303هـ.  
\* روبر بارنشفيك: تاريخ أفريقية في العهد الحفصي - ترجمة: حمادي الساحلي - دار الغرب  
الإسلامي - بيروت - الطبعة الأولى - 1988م.

- \* بن أبي زرع (أبو الحسن علي بن عبد الله): الأنيس المطرب بروضة القوطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس - باريس - 1860م.
- \* السراج (محمد بن محمد): الحلل السندسية في الأخبار التونسية - تحقيق محمد الحبيب الهيلة - دار الغرب الإسلامي - الطبعة الأولى - 1985م.
- \* سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي - منشأة المعارف - الإسكندرية - 1979م.
- \* السلاوي (أحمد بن خالد): الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى - الدار البيضاء - 1954م.
- \* السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير - العصر الإسلامي - القاهرة - 1964م.

(113/6)

- 
- \* بن عبد البر (يوسف بن عمر): الاستيعاب في معرفة الأصحاب - تحقيق: علي محمد البجاوي - دار نهضة مصر - القاهرة - بدون تاريخ.
- \* عبد الله علي علام: الدولة الموحدية بالمغرب - دار المعارف - القاهرة - 1964م.
- \* علي الجزنائي: زهرة الآس في بناء مدينة فاس - الجزائر - 1923م.
- \* بن القاضي (أحمد بن محمد بن العافية): جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس - طبعة حجرية بمدينة فاس - 1309هـ.
- \* القلقشندي (أحمد بن علي): صبح الأعشى في صناعة الإنشا - دار الكتب المصرية - القاهرة - 1923م.
- \* المراكشي (عبد الواحد بن علي): المعجب في تلخيص أخبار المغرب - تحقيق: محمد العربي ومحمد سعيد العريان - القاهرة - 1962م.
- \* النويري (أحمد بن علي): نهاية الأرب في فنون الأدب - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - 1403هـ = 1983م.
- \* الهادي روجي: الدولة الصنهاجية - ترجمة: حمادي الساحلي - دار الغرب الإسلامي - بيروت - الطبعة الأولى - 1922م.

(114/6)

## الجزء السابع

### المسلمون في الأندلس

تأليف:

أ. د. عبد الله جمال الدين

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة القاهرة

### الفصل الأول

#### \*بلاد الأندلس

لمحة جغرافية:

تطلق كلمة الأندلس على الأجزاء التي سيطر عليها المسلمون من شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا والبرتغال)، وظلت تطلق على ما في أيديهم حتى عندما انحصر وجودهم في مدينة «غرناطة» وحدها. وتعود كلمة «الأندلس» في أصولها إلى كلمة «الوندال»، وهي تعني مجموعة القبائل الجرمانية التي غزت أيبيريا في القرن الخامس الميلادي، وأقامت في طرفها الجنوبي الذي كان آنذاك باسم «أندلوسيا»، فلما فتح المسلمون هذه المناطق قيل لهم: إن هذه أرض «وندلس» فحوّلها العرب إلى «أندلس»، وبقيت الكلمة مستخدمة حتى نهاية الحكم الإسلامي.

ولانزال كلمة «أندلوسيا» مستخدمة حتى اليوم في «الإسبانية»،

وتطلق على ثمان محافظات في جنوب إسبانيا، هي: المرية،

وغرناطة، وجيان، وقرطبة، ومالقة، وقادش، وولبة، وإشبيلية.

وشبه الجزيرة الأيبيرية خمسة الشكل، تصل مساحتها إلى (600)

ألف كيلو متر مربع، تحتل إسبانيا (5/6) من هذه المساحة، وهي

هضبة متوسطة الارتفاع، بما سلاسل جبلية كثيرة تشققها بالعرض،

ويفصل بين كل سلسلة جبلية وأخرى وادٍ يجري فيه نهر بالعرض

أيضاً، وتتبع معظم هذه الأنهار من وسط شبه الجزيرة، وتصب في

البحر الأطلنسى.

ويصل أوروبا عن شبه الجزيرة سلسلة جبال تغلق الطريق إلى  
جنوب فرنسا إلا من خلال ممرات، ومن هنا جاءت تسمية جبال  
البرت، أى جبال الأبواب.

الثغور الإسلامية:

وجدت فى الأندلس ثلاثة ثغور عبارة عن مناطق حدودية بينها وبين  
إسبانيا النصرانية، وهذه الثغور هى:

أ - الثغر الأعلى، وعاصمته سرقسطة ويواجه مملكة نبرة.

ب - الثغر الأوسط وعاصمته مدينة «سالم» ثم «طليطلة»، ويواجه  
مملكة قشتالة وليون.

ج - الثغر الأدنى، بين نهرى «دويرة» و «تاجة» وعاصمته طليطلة ثم  
قورية.

وقد تمكن النصارى فى نحو القرن الرابع الهجرى من إقامة ثلاث  
دويلات نصرانية، هى:

أ - ليون فى الشمال والشمال الغربى، وعاصمتها مدينة «ليون»،

(1/7)

وتضم مملكة «جليقية» و «أشتوريس».

ب - نبرة، فى الشمال والشمال الشرقى؛ حيث تعيش قبائل  
البشكنس، وعاصمتها «بنيلونة».

ج - قشتالة، وتقع بين مملكة ليون ونبرة، وعاصمتها «برغش».

ومن هذه الدويلات الثلاث ستبدأ حركة المقاومة ضد الوجود الإسلامى  
فى الأندلس.

عهد الحكم الإسلامى بالأندلس:

ظل المسلمون يحكمون الأندلس نحو ثمانية قرون منذ تم فتحها سنة  
(92هـ)، إلى أن سقطت «غرناطة» آخر معاقلها بيد النصارى سنة

(897هـ)، وقد مرت البلاد بعهود يمكن إجمالها على النحو الآتي:  
أولاً: عهد الفتح (92 - 95هـ = 711 - 714م).  
ثانياً: عهد الولاة (95 - 138هـ = 714 - 755م).  
ثالثاً: عهد الإمارة (138 - 316هـ = 755 - 928م).  
رابعاً: عهد الخلافة (316 - 400هـ = 928 - 1009م).  
خامساً: عهد ملوك الطوائف (400 - 484هـ = 1009 - 1091م).  
سادساً: عهد المرابطين والموحدين (484 - 620هـ = 1091 - 1223م).  
سابعاً: مملكة غرناطة (620 - 897هـ = 1223 - 1492م).  
أولاً: الفتح الإسلامي للأندلس:

كانت شبه الجزيرة الأيبيرية خاضعة لحكم القوط قبل الفتح الإسلامي،  
ويتولى أمرها ملك ظالم يدعى رودريك (لذريق) فأبغضه الناس  
وفكروا في الثورة عليه وإبعاده عن الحكم بالاستعانة بالمسلمين  
الذين دانت لهم بلاد الشمال لإفريقي، فقام بهذه الوساطة حاكم  
«سبتة» الكونت يوليان، واتصل بطارق بن زياد قائد القوات الإسلامية  
المعسكرة عند مدينة «طنجة» بالمغرب الأقصى والقريبة من مدينة  
«سبتة».

وأقبلت الوفود على «طارق» تدعوه لعبور المضيق والوصول إلى  
شبه الجزيرة، وتصور هؤلاء أن المسلمين سينزلون ضربة قاصمة  
بالقوط ثم يعودون إلى بلاد المغرب محملين بالغنائم، وغاب عنهم أن  
المسلمين حملة رسالة سامية، وأنهم مكلفون بتبليغها لكل الناس،  
وأن ما يشغلهم قبل كل شيء هو نشر مبادئ دينهم السمحة وتعريف  
الشعوب به.

وقد رحّب «طارق» بهذا الطلب ووجد فيه فرصة طيبة لمواصلة الفتح

والجهاد، وأرسل إلى «موسى بن نصير» وإلى الأمويين على المغرب يستأذنه في فتح الأندلس، فنصحته باختبار مدى مقاومة القوط بإرسال بعض السرايا إليهم، وبالتأكد من ولاء «يولييان» وصدق كلامه، ثم أرسل «موسى بن نصير» إلى الخليفة الأموي «الوليد بن عبد الملك» يستأذنه في فتح «الأندلس»، ويشرح له حقيقة الأوضاع هناك، فتردد الخليفة في أول الأمر، خوفاً على المسلمين من المخاطرة بهم في بلاد لا عهد لهم بها من قبل، لكن «موسى» نجح في إقناعه بأهمية الفتح، وتم الاتفاق على أن يسبق الفتح حملات استطلاعية.

وفي سنة (91هـ = 710م) أرسل «طارق بن زياد» بعثة استطلاعية بقيادة «طريف بن زرعة» فنزلت في الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة، ولم تلق مقاومة، وعادت بغنائم وفيرة، ومنذ ذلك الحين أُطلق اسم «طريف» على إحدى تلك المناطق.

وقد شجعت نتيجة حملة «طريف» «طارق بن زياد» فعبر المضيق في (شعبان 92هـ = أبريل - مايو 711م)، وتجمع المسلمون عند الجبل الذى يعرف من ذلك التاريخ بجبل طارق، وأقام «طارق» بتلك المنطقة عدة أيام، بنى خلالها سوراً أحاط بجيوشه سمّاه «سور العرب»، كما أقام قاعدة عسكرية بجوار الجبل على الساحل؛ لحماية ظهره في حالة اضطراره إلى الانسحاب، هي مدينة الجزيرة الخضراء، أو جزيرة «أم حكيم»، نسبة إلى جارية كان طارق قد حملها معه، ثم تركها في هذا المكان، وهذا الميناء يسهل اتصاله بميناء «سبتة» المغربى، على حين يصعب اتصاله بإسبانيا لوجود مرتفعات بينهما، ولم يكتفِ طارق بذلك، بل أقام قاعدة أمامية أخرى وبني حصناً، وطلب من «يولييان» ومن معه من الجند حراسة هذا الموضع وحمائته من كل هجوم منتظر.

ثم واصل «طارق» السير جنوباً حتى بلغ الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة، ومشى في محاذاته، وعبر نهرًا صغيرًا يسمى «وادى

لكه»، وأقام معسكره في منطقة واسعة يحدها من الشرق «وادي  
لكه»، ومن الغرب «وادي البرباط»، وهي منطقة سهلية واسعة تكثر

(3/7)

فيها المدن، مثل: «قادش» على البحر، وإلى جوارها من الداخل مدينة  
«شريش»، وفي الشمال على الطريق إلى «قرطبة» مدينة شذونة  
(سيدونيا)، وفي ذلك السهل الواسع أخذ «طارق» ينظم قواته ويرتب  
لمعركته انتظاراً للقاء القوط.

علم «لذريق» بمجيء القوات الإسلامية، وهو مشغول بمحاربة أعدائه  
في شمالي شبه الجزيرة، فأصيب بهلع ورعب عظيمين، وجمع  
جنوده وانحدر بهم لمواجهة المسلمين، ووصلت أنباء تلك الحشود  
الضخمة إلى «طارق بن زياد»، فكتب إلى «موسى بن نصير» يخبره  
بذلك، فأمدّه بخمسة آلاف جندي صار بهم مجموع جنود المسلمين  
بالأندلس (21) ألف جندي.

وصل «لذريق» إلى بلدة «شذونة» وأتم بها استعداداته، ثم اتجه  
للقاء المسلمين ودارت بين الفريقين معركة فاصلة في كورة  
«شذونة» جنوب غربي إسبانيا، استمرت ثمانية أيام من (الأحد 82 من  
رمضان إلى الأحد 5 من شوال سنة 29هـ = 91 - 62 يوليو 117م)،  
وكانت معركة هائلة، اقتتل فيها الطرفان اقتتالا شديداً حتى ظنوا  
أنه الفناء، وكان النصر في النهاية حليف المسلمين، وفر «لذريق»  
من أرض المعركة، وتبعه المسلمون حتى أدركوه وقتلوه بالقرب من  
بلدة «لورقة».

وبعد هذا النصر العظيم الذي حققه «طارق بن زياد»، وامتلاء أيدي  
أصحابه بالغنائم - اتجه إلى الشمال فاستولى على بعض القلاع، ثم  
عبر نهر الوادي الكبير قاصداً مدينة «طليطلة» عاصمة القوط، وكانت  
تبعد عن أرض المعركة بنحو ستمائة كيلومتر، وكلها جبال ووديان

ومضايق عسيرة، وقد تمكن المسلمون بعزيمتهم وإصرارهم وإيمانهم الجياش من دخول العاصمة بعد مقاومة عنيفة من القوط. وفي أثناء سير «طارق» إلى «طليطلة» أرسل جزءًا من قواته لفتح «البيرة» كما أرسل «مغيث الرومي» إلى «قرطبة» ففتحها بعد حصار دام ثلاثة أشهر، وكانت آنذ معسكرًا رومانيا قديمًا يقع على ضفة نهر الوادي الكبير وعندها بُنيت قنطرة حجرية على النهر. وأثبت «طارق» بهذا التصرف أنه على خبرة واسعة بشئون الحرب

(4/7)

وفنون القتال، لأن السيطرة على هذه القنطرة تيسر له طريق العود. استقر «طارق بن زياد» في «طليطلة»، فهرب منها كبار القوط وكبار رجال الدين الذين حملوا معهم ذخائر كنيستهم، فأدرك المسلمون هؤلاء الفارين عند بلدة صغيرة تسمى قلعة «عبدالسلام»، وغنموا ما كان معهم من ذخائر بالغة القيمة، وتجل عن الحصر، من بينها مذبح الكنيسة الذي سموه «مائدة سليمان» - ولاصلة لنبي الله سليمان بهذه المائدة - التي كانت من الزبرجد الخالص، ومزدانة بالجواهر، وتوضع في صدر الكنيسة وعليها الصلبان والكؤوس والكتب المقدسة، وبعد أن حل الشتاء آثر «طارق» العودة إلى «طليطلة»، وكتب إلى «موسى» يحيطه بأنباء الفتح وما أحرزه من نجاح، ويطلب منه المدد.

موسى بن نصير والمشاركة في فتح الأندلس:

قرر «موسى بن نصير» التوجه إلى الأندلس على رأس قوات مقدارها ثمانية عشر ألفا معظمهم من العرب - على حين كان معظم جند طارق من البربر - فغادر القيروان، ووصل إلى «طنجة» سنة (93هـ = 712م)، ثم عبر المضيق ونزل الجزيرة الخضراء.

سار «موسى بن نصير» بجنوده في غير الطريق الذي سلكه «طارق

بن زياد»، بناءً على نصيحة رجاله وحلفاء المسلمين؛ ليكون له شرف فتح بلاد أخرى غير التي فتحها طارق، فنزل «شدونة»، واستولى على حصنين كبيرين بجوارها، هما «قرمونة» وقلعة «وادي إبرة»، ثم تقدم نحو «إشبيلية» فحاصرها حتى استسلمت وانسحبت حاميتها إلى مدينة «لبلة» في الغرب، وهي الآن مدينة برتغالية. ثم اتجه «موسى» ناحية بلد كبير يحيط به سور حصين، تسمى «ماردة» كان يعتصم به قسم كبير من جيش «لذريق»، فحاصرها واشتد في حصارها على الرغم مما كابده المسلمون من خسائر، حتى استسلمت صلحاً في (أول شوال سنة 94هـ = 30 من يونيو 713م)، وغنم المسلمون ما كان بها من ذخائر نفيسة. وبعد شهر تقدم «موسى» نحو «طليطلة» حيث التقى بطارق عند نهر «التاجو»، ثم سارا معاً لمواصلة الفتح، وفي أثناء ذلك حدثت ثورة

(5/7)

معادية للمسلمين في «إشبيلية»، فأرسل «موسى» ابنه «عبدالعزیز» ففضى على تلك الثورة وفتح مدن: «لبلة» و «باجة» و «أكشونية» وهي تكوّن النصف الجنوبي من البرتغال الآن، ثم وصل المسلمون إلى ساحل المحيط الأطلسي من تلك الناحية. استقر «موسى بن نصير» في «طليطلة» في شتاء سنة (95هـ = 714م)، وبدأ في ممارسة عمله، باعتباره أول مسلم يحكم قطراً أوريباً، فأمر بضرب عملة إسلامية، مكتوب على أحد وجهيها باللاتينية «شهادة أن لا إله إلا الله»، وعلى الوجه الآخر «ضربت في إسبانيا سنة (714م)»، ثم أرسل رسولين هما «علي بن رباح اللخمي»، و «مغيث الرومي» إلى الخليفة «الوليد بن عبدالمملك» يحملان إليه نبأ الفتح العظيم، وطرفاً من الذخائر والتحف التي غنمها المسلمون.

وفي سنة (95هـ = 714م) اتجه «موسى» ناحية الشمال الشرقي قاصداً مدينة «سرقسطة» مفتاح منطقة «وادي أبرة» كلها ونجح في الاستيلاء عليها، ثم قام «حنش بن عبدالله الصنعاني» وهو من التابعين الذي قدموا في جيش «موسى ابن نصير» باختطاط جامع سرقسطة، الذي أصبح واحداً من أكبر مساجد الأندلس، ثم فتح «موسى» مدينة «وشقة»، وأتبعها فتح مدينة «لاردة» سالكاً بجيشه الطريق الروماني الكبير «المبلط» المسمى بالطريق القيصري، وبدأ في الاستعداد للسير في اتجاه «برشلونة».

وفي تلك الأثناء عاد «مغيث الرومي» من «دمشق» وطلب من «موسى» أن يذهب إلى عاصمة الخلافة ومعه «طارق بن زياد» ليقدما بياناً شافياً عن فتوحاتهما، فاستجاب «موسى» للطلب، ولكنه عزم على إرجائه حتى يتم فتح الشمال الغربي والشرقي لشبه الجزيرة الأيبيرية، وأمر طارقاً فواصل السير مع الطريق القيصري، على حين سار هو في اتجاه الشمال الغربي، حتى وصل إلى خليج بسكاي عند «خيخون».

وقد نجح «طارق» في إخضاع منطقة «أراجون»، ثم اتجه غرباً ليلحق بموسى، فاستولى على بعض الحصون، وعلى مدينتي «اشترقة»

(6/7)

---

و «ليون»، وبهذه الإنجازات التي حققها القائدان شعرا أنهما أتما فتح شبه الجزيرة، وأن بإمكانهما الآن تلبية دعوة الخليفة «الوليد» وبخاصة أنه قد بعث برسول يتعجل عودتهما. أخذ الفاتحان العظيمان طريق العودة إلى المشرق في (ذى القعدة 95هـ = يوليو 714م) بعدما نظما شئون البلاد، ورسمتا سياسة الحكومة، واتخذتا «إشبيلية» عاصمة؛ لموقعها وقربها من البحر، ثم أسرعا السير نحو العاصمة «دمشق» فوصلها بعد تولية «سليمان بن

عبد الملك» الخلافة، خلفًا لأخيه «الوليد»، وظلا هناك ولم يعودا لمواصلة الفتح.

وكان «موسى بن نصير» قد ترك ابنه «عبد العزيز» واليًا على الأندلس، فقضى أيام ولايته في استكمال فتح شبه الجزيرة الأيبيرية، في شرقها وغربها، ففتح كورة تدمير (مرسية) صلحًا بعد أن استسلم ملكها، وقضى على جيوب المقاومة ولذا عده بعض المؤرخين ثالث فاتح الأندلس، وكان معروفًا بالصلاح والتقوى والشجاعة والإقدام، بارعًا في تنظيم الحكومة وترتيب إدارتها، متبعًا سياسة الرفق والاعتدال والوفاء بالعهد.

وينجح الفتح الإسلامي تنفس أهالي «الأندلس» نسيم الحرية، فقد رفعت عنهم المغارم والأعباء، وعرف الناس سياسة التسامح والإنصاف، وأمنوا على حياتهم وأموالهم وحررياتهم، وعاشوا حياة العدل والمساواة، وترك لهم حق اتباع قوانينهم والخضوع لقضاتهم، ولم يظلم أحد بسبب دينه أو عقيدته، ولم يفرض الإسلام عليهم فرضًا، ومن أسلم عن طواعية ودون إكراه فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم، ومن بقى على دينه لم يكلف بأكثر من الجزية. مقابل حمايته والدفاع عنه وتأمين حقوقه.

حريق السفن وخطبة طارق:

يرتبط بفتح المسلمين للأندلس مسألة حرقهم لمراكبهم بعد عبورهم المضيق، والخطبة التي ألقاها «طارق» بعد هذا العبور. أما مسألة إحراق السفن فإن الدراسة التاريخية ترفض التصديق بقيام مثل هذا العمل من «طارق»، فلم يكن المسلمون في حاجة إليه

(7/7)

---

ليخلصوا في القتال ويتحمسوا له، لأن عملهم جهاد في سبيل الله ينتظر المسلم من ورائه النصر أو الشهادة، وقتال من أجل عقيدة

يفدونها بدمائهم وأرواحهم، كما أن إحراق السفن ليس عملاً عسكرياً مناسباً، لأنهم في حاجة إليها بصفة دائمة للاتصال ببلاد المغرب. وأما الخطبة المنسوبة إلى «طارق» والتي حث فيها المسلمين على الجهاد، وقال فيها: أين المفر .. البحر من ورائكم والعدو أمامكم .. ، فلا توجد كاملة في المصادر الأندلسية الأولى، مما يشير إلى عدم شيوعها ويقلل من الثقة بواقعيتها. وأنها مليئة بالسجع المتكلف الذى لم يكن شائعاً في ذلك العصر، كما أن طارِقاً وأكثر جنوده كانوا من البربر، ولا يتوقع أن تكون لغتهم العربية إلى هذا المستوى العالمى من البيان، وهذا لا يمنع أن يكون القائد قد ألقى كلمته في جند البربر بلغتهم التى يفهمونها، ثم جاء من كتاب العرب من نقل معانى تلك الخطبة إلى اللغة العربية، فأصابها شيء من التعديل والتغيير.

(8/7)

## الفصل الثاني

\*عهد الولاية بالأندلس

[97 - 138 هـ = 715 - 755 م].

يقصد بالولاية حكام الأندلس الذين عينتهم الحكومة الأموية في دمشق، أو والى الشمال الإفريقى الذى كانت الأندلس تابعة له أحياناً، وقد تولى على الأندلس خلال هذه الفترة (22) والياً، حكم اثنان منهم مرتين، وهذا يعنى أن متوسط فترة حكم الوالى تقل عن سنتين، وهذا يعنى أن عدم الاستقرار هو السمة الغالبة على هذه الفترة، ويعود ذلك إلى اضطراب السياسة العامة بعد وفاة «الوليد بن عبد الملك» وانتشار العصبية القبلية والشخصية، ونزاع العرب مع البربر.

أيوب بن حبيب البلخي:

قتل «عبدالعزیز بن موسى بن نصير» والى الأندلس عندما وثب عليه جماعة من الجند على رأسهم وزيره «زياد بن عذرة البلوى» أثناء صلاته بأحد مساجد «إشبيلية»، وذلك في (رجب 97هـ = فبراير 716م)، لتبدأ فترة عهد الولاة.

وقد آل أمر الأندلس إلى «أيوب بن حبيب البلخي» ابن أخت «موسى بن نصير»، وهو من العرب الذين اشتركوا في فتح هذه البلاد، ثم استقروا بها، ورأوا أنهم أولى من غيرهم بحكم الأندلس، ولم تزد ولاية «أيوب» على ستة أشهر لم يفعل فيها شيئاً يذكر سوى نقله العاصمة من «إشبيلية» إلى «قرطبة» لأن موقعها أوسط وأقرب إلى منازل جماعات العرب في الشرق، والجنوب، والجنوب الشرقي. الحر بن عبدالرحمن الثقفي:

لم تجر الأمور على النحو الذي أراده «أيوب»؛ إذ قام والى إفريقية الذي تتبعه الأندلس بتعيين «الحر بن عبدالرحمن» والياً عليها، ودام حكمه سنتين وثمانية أشهر، بدأت في (ذى الحجة 98هـ = يوليو 717م)، واستطاع خلالها أن يجمع المنازعات التي كانت بين العرب والبربر، ويصلح الجيش، وينظم الإدارة، ويوطد الأمن.

وينسب إلى «الحر» إقامته دار الإمارة في «قرطبة» في مواجهة «قنطرة الوادي»، وكانت من قبل مقراً للحاكم القوطي، فاعتنى بها «الحر» وسمى القصر والأرض الواسعة أمامه على ضفة النهر «بلاط الحر».

(9/7)

---

وبعد أن تولى «عمر بن عبدالعزیز» الخلافة عزل «الحر» عن ولاية الأندلس، لاضطراب النظام في آخر عهده. السمح بن مالك الخولاني:

كانت الأندلس تابعة لإفريقية من الناحية الإدارية، فلما ولي «عمر بن عبدالعزيز» جعلها تابعة للخلافة مباشرة لأهميتها واتساعها، وأقام عليها «السمح ابن مالك الخولاني» سنة (100هـ = 719م)، غير أن تبعية «الأندلس» لإفريقية عادت مرة أخرى في عهد «يزيد بن عبد الملك».

ويعد «السمح» من خيرة ولاة «الأندلس»، فضلا وصالحًا وكفاءة وقدرة؛ حيث نظم شئون البلاد، وأعاد بناء القنطرة التي كانت مقامة على الوادي الكبير، وكانت قد تهدمت ولم يعد الناس يستطيعون العبور إلا في السفن، وكان العرب في أمس الحاجة إلى قنطرة متينة يستطيعون العبور إليها من الجنوب إلى عاصمتهم الجديدة، كما أعاد الأمن والاستقرار إلى البلاد لحسن سياسته، وحمله الناس على طريق الحق، ورفقه بهم.

ولم يكن «السمح بن مالك» كفاء من الناحية الإدارية فحسب، بل كان أيضًا قائدًا عسكريًا ممتازًا قام بحملة شاملة، اخترقت «جبال البرت» من الشرق، وسيطر على عدد من القواعد هناك، واستولى على «سبتمانيا» وأقام حكومة إسلامية بها في هذا الوقت المبكر، واتخذ من «أربونة» قاعدة للجهاد وراء «البرت»، وقد استشهد في معركة مع النصاري عند «تولوز» في يوم عرفة من سنة (102هـ = 721م)، فتولى القيادة «عبدالرحمن بن عبدالله الغافقي»، وأقر واليًا للأندلس حتى يأتي الحاكم الجديد.

عنبسة بن سحيم الكلبي:

قدم إلى الأندلس في (صفر سنة 103هـ = 722م)، وكان كالسمح بن مالك صالحًا قويًا، فأنفق وقته في تنظيم الإدارة، وضبط النواحي، وإصلاح الجيش، وإعداده لغزوات جديدة، وقد عبر «عنبسة» بجيوشه «جبال البرت»، وتمكن من بسط سلطان المسلمين في شرقي جنوب فرنسا، وفي أثناء عودته داهمته جموع من الفرنجة، فأصيب في المعركة، ثم توفي سنة (107هـ = 725م).

وبعد «عنبسة» توالى على «الأندلس» سبعة من الولاة بين سنتي (107 - 112هـ = 725 - 730م) تفاقمت خلالها المشكلات، وازدادت الاضطرابات، وانتشر الخلل والخلاف بين الزعماء ورجال القبائل في الأندلس، وتجددت المنازعات بين العرب البلدانيين (وهم العرب الذين طال بهم المقام والعمل في إفريقية حتى سمو بالبلدانيين)، والشاميين، وهاجم الأعداء القواعد الإسلامية. عبدالرحمن الغافقي:

ظلت الأمور تجري على هذا النحو المضطرب حتى عيّن «الغافقي» ولياً على الأندلس من قبل والي «إفريقية»، في (صفر 112هـ = مارس / إبريل 730م) لتبدأ فترة ولايته الثانية، وقد أيد الخليفة هشام بن عبدالملك ذلك الاختيار.

وكان «الغافقي» من كبار رجالات الأندلس عدلاً وصلاحاً، وقدرة وكفاءة، نظّم شئون البلاد، وأصلح نظم الحكم والإدارة، وعين أصحاب الكفاءات في المناصب المختلفة، وقمع الظلم، ورد إلى النصارى كنائسهم وأملاكهم، وفرض ضرائب عادلة وعنى بتنظيم الجيش وإصلاحه، وأنشأ فرقاً من العرب والبربر، وحصن القواعد والثغور الإسلامية، وجمع أعظم جيش سيره المسلمون إلى فرنسا. موقعة بلاط الشهداء:

في أوائل سنة (114هـ = 732م) سار «الغافقي» بجيوشه نحو الشمال وعبر جبال «البرت» من طريق «بنبلونة» ودخل فرنسا؛ حيث قام بمعارك ناجحة ضد أعدائه، وفتح نصف فرنسا الجنوبي كله من الشرق إلى الغرب في بضعة أشهر، وواصل زحفه المظفر حتى أشرف بجيشه على نهر اللوار، وهناك احتشد له «شارل مارتل» بجيش ضخم من الفرنج والمرترقة نصف العراة، ويتشحون بجلود الذئاب، وتنسدل شعورهم الجعدة فوق أكتافهم العارية.

استولى المسلمون على مدينتي «بواتيه» و «تور»، ثم فاجأهم العدو دون أن تشعر به طلائع المسلمين أو تحسن تقدير عدده، وأراد عبدالرحمن أن يقتحم «الوار» ففاجأه «شارل مارتل» بجموعه الجرارة فارتد إلى السهل الواقع بين مدينتي «بواتيه» و «تور»،

(11/7)

وعبر جيش الفرنج «الوار» وعسكر غربى الجيش الإسلامى. عزم «الغافقى» على لقاء العدو على الرغم من أن بعض قبائل البربر فى جيشه كانت تتوق إلى الانسحاب بما تحمله من غنائم كثيرة، وأن عدد جنوده قد قل بسبب تخلف حاميات كثيرة فى المدن والقرى المفتوحة.

ودامت المعركة تسعة أيام دون أن يحقق الفريقان نصرًا حاسمًا، وفى اليوم العاشر أبدى كلا الطرفين غاية الجلد والشجاعة، وظهر الإعياء على الفرنج، وبدت علامات انتصار المسلمين، لكن حدث أن افتتح الفرنج ثغرة فى معسكر غنائم المسلمين وارتفعت فيه صيحة مجهول تقول إن معسكر الغنائم سيقع فى يد العدو، فارتدت قوات كبيرة إلى ماوراء الغنائم لحمايتها، واختلت صفوف المسلمين، وبينما يحاول «الغافقى» إعادة النظام إلى جيشه أصابه سهم أرداه من فوق جواده قتيلا، فعم الاضطراب بين المسلمين، وكثر القتل فيهم، واشتد الفرنج عليهم، لكنهم صبروا حتى جن الليل وافترق الجيشان دون فصل فى (أوائل رمضان 114هـ = 21 أكتوبر 732م)، ثم انسحب المسلمون نحو مراكزهم فى «سبتمانبا» تاركين غنائمهم.

وفى فجر اليوم التالى تقدم «شارل» بحذر فوجد المعسكرات الإسلامية خالية إلا من الجرحى ومن لم يتمكنوا من مرافقة الجيش المنسحب فذبجوهم، وخشى «شارل مارتل» الخديعة فاكتفى بانسحاب المسلمين ولم يتعقبهم، وآثر العودة بجيشه إلى الشمال.

وكان مقتل «الغافقي» خسارة فادحة للمسلمين، وضربة شديدة لمشاريع الخلافة في الغرب؛ إذ أخفقت آخر محاولة بذلتها لفتح العالم الغربي.

عبدالمملك بن قطن الفهري:

تولى «عبدالمملك بن قطن الفهري» بعد استشهاد «الغافقي»، فعبر إلى الأندلس في جيش من جند إفريقية في أواخر سنة (114هـ = 732م) وسار إلى «أراجون» وهزم الثائرين في عدة مواقع، ثم عبر جبال البرت إلى بلاد «البشكنس» سنة (115هـ = 733م)، وكانت أشد المقاطعات الجبلية مراساً وأكثرها انتفاصاً وثورة، فشتت جندها

(12/7)

وأجأهم إلى طلب الصلح، ثم اضطر بعد ذلك إلى أن يرتد إلى الجنوب دون أن يتوغل كثيراً في أرض العدو، لقلّة ما معه من الجند، ثم سخط عليه الزعماء، ودب خلاف بين القبائل، وأدى ذلك إلى عزله. عقبة بن الحجاج السلولي:

تولى سنة (116هـ = 734م) بعد «عبدالمملك بن قطن» وكان رجلاً عظيماً مثل «الغافقي»، فنشر العدل ورد المظالم، وأنشأ المساجد ودور العلم ونظم الجيش، وتوغل في أراضى «جليقية» شمالي الأندلس، واهتم بتحسين جميع المواقع الإسلامية، ومنح عناية خاصة لثغر «أربونة» واتخذة قاعدة للجهاد، وأمد رجاله بالجند والذخيرة. وكان يخرج للغزو كل عام على مدار خمس سنوات في الجنوب والشمال الشرقي من فرنسا، حتى أصبح نهر «الرون» رباط المسلمين ومعقل فتوحاتهم بعد أن كان الفرنج قد استردوا ما في أيدي المسلمين، وقد استشهد «عقبة» في معركة مع الأعداء سنة (121هـ = 739م)، فكان خاتمة الولاة المجاهدين وراء البرت. عبدالمملك بن قطن:

أقام عرب الأندلس «عبد الملك بن قطن» والياً عليهم للمرة الثانية، فكان عهده بداية عهد من الفتن والاضطرابات والحروب الأهلية؛ إذ اشتعلت ثورة البربر بسبب تعصب العرب لبني جنسهم وتعاليمهم على غيرهم، وكان معظم هؤلاء من «القيسية» الذين يرون أن الدولة الأموية دولتهم، على حين كان العرب البلدانيون ومعظمهم من «اليمنية» يعيدون عن هذه النزعة.

وقام البربر في الأندلس أثناء ثورتهم بإخراج العرب من المناطق التي شكلت أغلبية بربرية، وبخاصة «جليقية» ومناطق نهر تاجة وغيرها، وظن «عبد الملك بن قطن» وهو كبير البلدانيين أن الثورة موجهة ضد الشاميين، ثم مالبت أن تبين أنها موجهة إلى العرب جميعاً، وأن البربر يسيرون في جيوش ثلاثة: واحد منها متجه إلى «طليطلة»، والثاني نحو «قرطبة»، والثالث نحو «الجزيرة الخضراء». وفي تلك الأثناء كان «بلج بن بشر القشيري» أحد قادة والي المغرب محاصراً في «سبتة» مع عشرة آلاف من جنده من قبل البربر

(13/7)

---

الذى ثاروا في إفريقية ضد العرب، تلك الثورة التي انتقلت أصدائها إلى الأندلس، فثار البربر هناك ضد العرب. وقد استعاث هؤلاء المحاصرون بوالى الأندلس «عبد الملك بن قطن» وطلبوا منه أن يسمح لهم بالعبور إليه لمعاونته في القضاء على ثورة البربر، فاستجاب على مضض، وطلب من «بلج» أن يعود بمن معه إلى شمال إفريقيا متى صلحت الأحوال. وقد حقق هؤلاء مع «عبد الملك» انتصارات على البربر في شدونة، وقرطبة، ثم في معركة حاسمة قرب طليطلة عند وادي سليط قرب الجزيرة الخضراء في أوائل سنة (124هـ = 742م)، وأخذ العرب الشاميون يطاردون البربر، فتركوا أراضيهم في الوسط والشمال

الغربي، وعادوا إلى إفريقيا في هجرات جماعية تركت آثاراً سيئة على مستقبل المسلمين في الأندلس.

وكان من نتيجة تلك الهجرات أن تركت الأراضي شمالي نهر تاجة خالية من المسلمين تقريباً، فامتد إليها نفوذ نصارى الشمال، فساحوا فيها، ولم يمر وقت طويل حتى أصبحت تلك الأراضي نصرانية، وخسر المسلمون بذلك ربع شبه الجزيرة، نتيجة انقسامهم وتفرقهم.

رفض «بلج» العودة إلى المغرب حسب الاتفاق، وقام بعزل «عبدالمملك» وزعم أنه الوالي الرسمي بتأييد من اليمانية، وانقسمت الأندلس إلى معسكر للشاميين يضم مائتي ألف، وآخر للعرب البلدانيين ضم مائة ألف، ونشبت معارك قتل فيها «بلج» ومع ذلك انتصر الشاميون، وولوا على الأندلس «ثعلبة بن سلامة العاملي» في (شوال سنة 124هـ = أغسطس 742م)، فحاول أن يعيد الأمن والاستقرار، لكن الحكومة كانت قد ضعف سلطتها، وانقسمت البلاد إلى عدة مناطق نفوذ، واشتعلت الحرب من جديد، ولم ينقذ الموقف إلا قدوم الوالي الجديد.

أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي:

أرسله والي إفريقية فقدم إلى «الأندلس» في (رجب سنة 125هـ = مايو 743م)، وبدأ ولايته بتأمين العرب البلدانيين والبربر على ممتلكاتهم ومصالحهم، وحال بين الشاميين وبين إيدائهم، وعمل على

(14/7)

---

القضاء على المنازعات القبلية بين السكان، ورأى بعد نصيحة ذوى الرأي أن يفرق الشاميين في مناطق لا يوجد فيها بلدانيون أو يمنيون، ويستقر كل فريق منهم بناحية ويأخذ ثلث خراج الأرض مقابل أن يقدموا عددًا معينًا من الجنود، كلما طلبت السلطات منهم ذلك، كما

تتبع الزعماء الخارجين وسلك معهم سبيل الحزم، وكان عادلاً؛  
فرضى عنه الجميع.

غير أن «أبا الخطار» مال بث أن تخلى عن تلك السياسة الحكيمة،  
ومال إلى قومه من اليمينية وتنكر للمُضَرِّية، فعادت المعارك بينه وبين  
خصومه من جديد، وقتل بعضهم بعضاً، وانفضت عنه جنده، وعمت  
الفوضى البلاد إلى أن تولى الفهري.

يوسف بن عبدالرحمن الفهري:

تولى الأندلس سنة (129هـ = 747م) دون مصادقة من إفريقية أو من  
دمشق التي كانت قد بدأت فترة من الضعف فلم تتمكن الخلافة من  
الإشراف على الولايات، واستقلت الأندلس بشئونها.

استقل «يوسف» بولاية الأندلس نحو عشرة أعوام، واتفق مع  
«الصميل ابن حاتم» زعيم المضرية على أن يتداولوا السلطة فيما  
بينهما، لكن الأمور لم تستقر، وتجدد النزاع بين المضرية واليمينية، ولم  
تستقر الأوضاع ليوسف إلا بعد مقتل زعيم اليمينية سنة (130هـ =  
748م).

وقد حاول «يوسف» إصلاح الدولة، فنظم شئونها المالية، وقسم  
البلاد إلى خمس ولايات إدارية على نحو ماكانت عليه زمن القوط، كما  
عنى بتنظيم الجيش وإصلاحه، والقضاء على خصومه، وشغلت الخلافة  
بمشاكلها عن الأندلس.

ثم ظهر في شمال البلاد رجل يدعى «عامر بن عمرو بن وهب  
العبدري»، وبدأ يرأسل الخليفة العباسي «أبا جعفر المنصور»،  
وعين نفسه والياً على الأندلس، وأصبح الشمال في قبضته، وخرج  
عن سلطان «يوسف» الذي توجه إلى «سرقسطة»، وحاصرها بشدة  
سنة (137هـ = 754م) حتى استسلم «عامر»، ثم اتجه «يوسف» بعد  
ذلك إلى «طليطلة».

وفي طليطلة جاء رسول من قرطبة بخبز مؤداه أن فتى من بني أمية  
يدعى «عبدالرحمن بن معاوية» قد نزل في ثغر المنكب بالأندلس،

واجتمع حوله أشياع بنى أمية في كورة غرناطة، وأن دعوته انتشرت بسرعة في الجنوب، وقد ذاع هذا الخبر في جند يوسف فأحدث فرعاً واضطراباً، وتفرق عنه جنده، فاضطر هو و «الصميل» بالعودة بمن معهما متوجهين إلى قرطبة؛ لمواجهة هذا الخطر الداهم، وكان ذلك سنة (138هـ = 755م).

وأثناء هذه الفتن استولى الفرنج على جميع القواعد الإسلامية في الشمال ماعدا «أربونة» أمنع قلاع المسلمين فيما وراء جبال البرت، وقد قاوم المسلمون بها، وصبروا على مدار أربعة أعوام، ولم تستسلم إلا بعد خيانة القوط بها، وقد دخلها الفرنج، وخربوا مساجدها ومعاهدها ودورها سنة (142هـ = 759م)، وبذلك انتهى الوجود الإسلامي فيما وراء جبال البرت بعد أن استمر هناك ما يقرب من نصف قرن، وقد حدث هذا في الوقت الذي كانت فيه قوى الإسلام في شبه الجزيرة مشغولة بتمزيق بعضها بعضاً.

وقد استفادت المجموعة التي اعتصمت في جبال «استوريا» و «جليقية» في شمالي غرب إسبانيا، والتي عرفت بمجموعة «بلاى» من هذا التمزق، وأخذت تنمو مع الزمن، ويشهد ساعدها ابتداءً من القرن الثامن الميلادي حتى صارت شوكة في جنب المسلمين هناك. وأدت الحروب المتوالية بين العرب بعضهم بعضاً، وبينهم وبين البربر إلى مجاعة شديدة بلغت أقصاها سنة (136هـ = 753م)، وترتب عليها تزايد حركة الهجرة إلى إفريقية وقلّة عدد المسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية، ولايستثنى من ذلك سوى إقليم «سرقسطة» الذي كان معظم سكانه من اليمنيين، فاستقروا به واشتغلوا بالزراعة.

## الفصل الثالث

\*الدولة الأموية بالأندلس

عهد الإمارة الأموية الأندلسية

[138 - 316 هـ = 755 - 928 م].

عبدالرحمن الداخل يحكم الأندلس (138 - 172 هـ = 755 - 788 م):

سقطت الدولة الأموية بالمشرق سنة (132 هـ = 749 م)، واضطهد العباسيون الأمويين، وطاردوهم في كل مكان، لكن واحدًا منهم هو «عبدالرحمن ابن معاوية بن هشام بن عبدالملك» تمكن من الوصول إلى الأندلس، بعد أن عبر فلسطين ومصر، ثم لحق به مولاة «بدر» وهو رومي الأصل، ومولاة «سالم» ومعهما شيء من المال والجواهر، ثم وصل «عبدالرحمن» إلى «برقة» والتجأ إلى أخواله من «بني نفزة» - من برابرة طرابلس - وأقام عندهم مدة، ثم غادر إلى المغرب الأقصى، وتجول هناك، متغلبًا على ما قابله من صعاب، وأقام حينًا عند شيوخ البدو، وحينًا عند بعض رجال قبيلة زناتة، وكان أثناء ذلك يدرس أحوال الأندلس، ويرقب الفرصة المناسبة للعبور إليها.

وقد اتصل بمعونة مولاة «بدر»، الذي كان قد نزل بساحل «لبيرة» في كورة «غرناطة» موطن أهل «الشام» بموالى خلفاء البيت الأموي والقرشيين عامة، وبالكلبية اليمينية، خصوم الوالي يوسف الفهري، ثم عبر عبدالرحمن إلى الأندلس في ربيع سنة (137 هـ = 754 م)، ونزل بثغر «المنكب» لموقعه الممتاز، وقد التف الناس حوله بما في ذلك جماعات البربر، على أمل أن ينقذهم من الأوضاع المتردية. تقدم عبدالرحمن نحو العاصمة «قرطبة»، وجمع «يوسف الفهري» و «الصمبل» ما أمكنهما من قوات، والتقى الفريقان عند «المصاراة» أو «المسارة» بالطرف الغربي، وتمكن عبد الرحمن من تحقيق انتصار حاسم، دخل على إثره قرطبة وصلى بالناس الجمعة، وخطب الجند، وعُد ذلك اليوم ميلادًا للدولة الأموية في الأندلس، ولقب «عبدالرحمن بن

معاوية» بعبدالرحمن الداخل، لأنه أول من دخل الأندلس من بني أمية حاكمًا.

ولم يكن عمر «عبدالرحمن الداخل» حين حقق هذا الإنجاز يتجاوز السادسة والعشرين من عمره، لكنه كان رجل الموقف، شحذت همته

(17/7)

الخطوب والحن، وأعدته حياة النضال والمغامرة، فقضى بقية عمره اثنين وثلاثين عامًا في كفاح مستمر، لا ينتهي من معركة إلا ليخوض أخرى، ولا يقيم ثورة إلا تلتها ثورة، ولم تبق بالأندلس ناحية أو مدينة إلا ثارت عليه، ولا قبيلة إلا نازعته في الرياسة، فكانت الأندلس طوال عهده بركانًا يشتعل بنيران الحرب والثورة والمؤامرة، لكنه صمد لتلك الخطوب جميعًا، واستطاع بما أوتي من حزم وحسن سياسة وبعد الهمة والجلد والإقدام أن يغالب تلك الأخطار والقوى وأن يقبض على زمام الأمور بالأندلس بيده القوية.

وقد تصور اليمينيون أن من حقهم ماداموا قد ناصروا «عبدالرحمن» أن يفعلوا ما يشاءون، فبنشروا الفوضى واستولوا على أموال الناس، وغرقوا البلاد في مستنقع العصبية القبلية كما كان الحال من قبل، لكن عبدالرحمن أثبت أنه لا يفرق بين شامى أو بلدى، أو بين بربرى ويمنى، فجميعهم يضمهم وطن واحد، وعليهم أن يخضعوا لسلطان العاصمة المركزية.

غير أن تلك السياسة لم تعجب اليمينيين، وعدُّوها لوناً من الجحود والنكران فثاروا عليه، لكنه تمكن من القضاء عليهم في الجزيرة الخضراء، وإشبيلية، وطليطلة، وباجة، معتمداً على حشود البربر وأهل البلاد وأعوان بني أمية.

ولعل من أخطر الثورات التي واجهت عبدالرحمن ثورة «العلاء بن مغيث الحضرمي»، من وجوه باجة ومن ذوى الرئاسة بها، وكان قد

كاتب «أبا جعفر المنصور» الخليفة العباسي، واستصدر منه سجلاً بولاية الأندلس، وجمع حوله جنداً عظيماً، ورفع العلم الأسود شعار العباسيين سنة (146هـ = 763م)، فاشتعلت باجة بنيران الثورة، وتحالفت «شدونة» مع الثائر، فخرج عبدالرحمن من قرطبة ولجأ إلى الدفاع أولاً، فلما ضعف خصمه تحوّل إلى الهجوم، ونشبت معارك هزم فيها العلاء وتشتت جنده، وقتل الآلاف بما فيهم العلاء نفسه، وحمل عبدالرحمن رءوس الزعماء والقادة وبعث بها إلى القيروان، ووضع رأس العلاء في سفظ ومعه اللواء الأسود، وسجل المنصور

(18/7)

بتوليته، وحمله بعض ثقاة التجار إلى مكة، وكان المنصور يحج، وألقى هذا أمام سرادقه، فلما حمل إليه قال: «ما في هذا الشيطان مطمح، فالحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر». ولم يكن على عبدالرحمن أن يواجه مشاكل الجنوب فقط بل شمالي الأندلس أيضاً، فقد ثار عليه «سليمان بن يقظان» والى «برشلونة» و «الحسين بن يحيى» والى «سرقسطة»؛ مستغلين طبيعة بلادهم الجبلية وانشغال عبدالرحمن بحركات الثائرين في الجنوب، ثم استفحل خطرهم بعد انتصارهما على جيش أرسله عبدالرحمن. ولم يكتفِ الثائران بذلك بل قدما على رأس وفد إلى «شارلمان الأكبر» إمبراطور الدولة الفرنجية، وكان في ولاية «سكونيا» شمالي ألمانيا حالياً، واقترحا عليه غزو الولايات الأندلسية الشمالية، وتعهدا بمعاونته ضد عبدالرحمن، وأن يعمل جميعهم على خلعه، وتسليم البلاد إلى شارلمان والخضوع له.

وقد رحب شارلمان بهذا العرض واجتاز جبال البرت، والتقى بحلفائه على نهر الإيرو عند سرقسطة، لكن حاكم سرقسطة عدل عن موقفه في آخر لحظة، ورفض تسليم مدينته لشارلمان، وحصّنها فتمكنت من

رد هجماته عليها، وكذلك فعل والى برشلونة، واضطر «شارلمان» أن يرتد إلى بلاده بسبب ثورات قامت عليه سنة (161هـ = 778م)، وهكذا شاءت العناية الإلهية أن يبوء عاهل الفرنج بالفشل بعد أن اختلف معه هؤلاء الخارجون على عبدالرحمن، وانقلبوا إلى مقاومته. وفي الوقت الذى كانت تجرى فيه هذه الحوادث فى الشمال، كان عبدالرحمن فى الجنوب يحارب الثائرين عليه، ففضى على ثورة مؤيدة للعباسيين فى «مرسية»، وقمع ثورات أخرى فى غرناطة وطليلة والجزيرة الخضراء، ثم توجه إلى سرقسطة فى جيش ضخم وعقد صلحاً مع الثائرين بها، ثم عاد إليها مرة أخرى فحاصرها وضربها بالمنجنيق، ثم اتجه إلى الشمال الشرقى واخترق بلاد البشكنس، ففرض عليها الجزية، ثم عاد مظفراً إلى قرطبة سنة (167هـ = 783م) وبعدها عقد صداقة مع شارلمان استمرت بقية

(19/7)

حياته، ثم قاد حملة سنة (168هـ = 784م) إلى طليطلة؛ حيث هزم زعيم الفهرية هناك بعد معارك شديدة وقتال فى أكثر من موقع. ولما شعر عبدالرحمن ببدوء نسجى، استدعى بنى أمية من المشرق، فأقبل إليه كثيرون، استعان بهم فى تحمل بعض المسئوليات، لكنه فوجئ بأن من بينهم من ينقم عليه، ويقيم ضده المؤامرات، فاضطر إلى أن يعتمد على المخلصين من موالى بنى أمية ومن انضم إليه من أهل البلاد، بالإضافة إلى قوة من الصقالبة اشتراهم صغاراً من بلاد النصرى ورباهم تربية إسلامية، ونشأهم تنشأة عسكرية، وأصبح هؤلاء عنصرًا أساسيا من عناصر القوة السياسية فى الأندلس. وتوفي عبدالرحمن فى (10 من جمادى الآخرة 172هـ = 16 من أكتوبر 788م) بعد حياة طويلة قضاها فى كفاح متواصل، ومواجهة للصعاب والأهوال، وأقام ملكاً ودولة فوق بركان يضطرم بالثورات والمؤامرة،

وأثبت أنه بطل فريد من أبطال التاريخ، لا يجود الزمان بمثله كثيراً،  
فتى شريداً بلا أنصار وأعوان يفر من الموت الذى تعرضت له أسرته،  
لكنه يستغل ظروف الأندلس فيقودها بكثير من الدهاء والحزم  
والعزيمة والذكاء، ويقوم دولة على أسس إدارية وسياسية ومالية  
ثابتة.

ويزيد من قيمة ما قام به أن من حكمهم تعودوا على الفوضى  
والأنانية، وتقديم المصالح الشخصية على المصالح القومية، ولم يكن  
باستطاعة عبدالرحمن إلا أن يعامل هؤلاء بما يستحقون من شدة  
وقسوة، لكنه أصبح فى أخريات أيامه شديد الاستبداد، لا يقبل  
المناقشة من أحد حتى مولاه «بدر» غضب عليه، وأقصاه بعد طول  
خدمة.

وأفضل ما تميز به؛ عقله المرتب وأسلوبه المنظم، فقد كان يدرس  
مشاكله، ويتلقى أخبار الثورات بجنان ثابت، ثم يرسم خطته للقضاء  
عليها، ويصفه ابن حيان أمير مؤرخى الأندلس بقوله: «كان راجح  
العقل، واسع العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم .. متصل الحركة لا يخلد  
إلى راحة، ولا يسكن إلى دعة، ولا يكمل الأمور إلى غيره، ثم لا ينفرد  
فى إبرامها برأيه، شجاعاً، مقدماً ..».

(20/7)

نظام حكومة عبدالرحمن:

لم يكن هناك نظام لولاية العهد، وكان اختيار ولى العهد يترك للأمير،  
وأنشأ عبدالرحمن منصب الحجابة، وأحاط نفسه بمجموعة من الأعوان  
يساعدونه فى القيام بمهام الحكم بدلا من الوزراء، وقد اختارهم فى  
أول الأمر من بين أعوانه الذين استقبلوه وقتلوا معه، فكانت  
حكومته عربية شكلا وروحاً، ثم مال إلى البربر والموالى بعد أن  
استراب فى العرب وشك فى ولائهم له، لثوراتهم المتعددة عليه.

وقد منح الجيش عناية خاصة، فجند مائة ألف عدا حرسه البالغ أربعين ألفاً من العرب والموالي والرقائق، كما عني بالبحرية في أخريات حياته، وأنشأ عدة قواعد لبناء السفن. عناية الداخل بالإنشاء والتعمير:

عنى «عبدالرحمن الداخل» عناية فائقة بالإنشاء والتعمير في قرطبة على الرغم من كثرة مشاغله، فحصن العاصمة وزينها بالحدائق، وأنشأ منية الرصافة وقصرها العظيم في الشمال الغربي على بعد (4) كم من قرطبة، وقد أحاطها بالحدائق الزاهرة، وأطلق عليها الرصافة، تخليدًا لذكرى الرصافة التي أنشأها جده «هشام بن عبدالملك» بالشام، وكان هذا القصر يطل من ناحية الجنوب على الحقول التي تفصله عن قرطبة، ويطل من الشمال على أرض واسعة تسمى «فحص السرادق»، وقد اتخذ عبدالرحمن من ميدانها الفسيح منازل لجنده وقواده، ومكانًا يتدرب فيه الجنود بصورة مستمرة ومنتظمة.

كما بدأ عبدالرحمن سنة (150هـ = 767م) في إنشاء سور قرطبة الكبير الذى استمر العمل فيه أعوامًا، كما أنشأ مساجد محلية كثيرة في قرطبة وغيرها، وعلى رأسها المسجد الأموى الجامع الذى بدأ في إنشائه سنة (170هـ = 786م)، وجلب إليه الأعمدة الفخمة، والرخام المنقوش بالذهب واللازورد؛ وبلغ ما أنفقه عليه 100 ألف دينار، ثم زاد خلفاؤه من بعده في هذا العمل، حتى أصبح أعظم مساجد الأندلس.

ويقع هذا المسجد في الجهة المقابلة لقصر الإمارة، وبينهما مساحة واسعة استغلها عبدالرحمن في إنشاء قصر خاص لنفسه، وعدد من

القصور الصغيرة لآل بيته، أحاطها بالحدائق الغناء، ويسور يدور حولها، وقد امتدت هذه القصور حتى وصلت إلى ضفة نهر الوادي الكبير، فبنى عبدالرحمن قصور الإدارة ناحية النهر، وفتح بابًا في الشارع بين النهر والسور سمي «باب السدة»، ففتح للجمهور، ويفضى إلى المكاتب الحكومية، وإلى جانب باب السدة خُصِّصت مواقع الكُتَّاب الذين يعاونون الناس في كتابة شكاواهم وطلباتهم، والذين يشبهون من نسميهم اليوم بالكتاب العمومين. ومن منشآت عبدالرحمن التي بناها في قرطبة، «دار السكة» لضرب النقود على النحو الذي كانت تضرب عليه نقود بني أمية في المشرق من حيث الوزن والنقش.

هشام الأول بن عبدالرحمن المعروف بالرضي [172 - 180هـ = 788 - 796م]

خلف «هشام» أباه «عبدالرحمن» على حكم الأندلس، الذي اختاره لا لأنه أكبر أبنائه، بل لما توسَّمه فيه من المزايا الخاصة، وقد أبدى «هشام» لينا وورعًا، وحسن سياسة، وبصرًا بالأمر، فجذب الناس إليه بإقامته للحق وتحريه للعدل، ومعاقبته للولاة المقصرين. ولم يعكر صفو أيام «هشام» إلا اشتعال بعض الثورات، منها: الثورة التي قام بها أخواه «سليمان» و «عبدالملك»، وانتهت بالصلح سنة (174هـ = 790م) على أن يقيما بعدوة المغرب، كما قاد حملة على نصارى الشمال الذين أغاروا على البلاد، فنجح في القضاء عليهم سنة (175هـ = 791م) ثم تكررت حملاته عليهم، حتى قضى على محاولاتهم التي استهدفت التوسع جنوبًا.

وأهم ما يتميز به عهد «هشام» ذيوع مذهب الإمام «مالك بن أنس»، وحلوله محل مذهب الأوزاعي إمام أهل الشام الذي اتبعه الأندلسيون، وكان الإمام مالك معاصرًا لهشام بن عبدالرحمن، كثير الثناء عليه، وقد وفد بعض الأندلسيين إلى المشرق وتعلموا على الإمام مالك، أمثال: الغازي بن قيس، وزياد بن عبدالرحمن المعروف بشيطون،

وغيرهما، فلما عادوا إلى الأندلس رَحَّب بهم هشام، وسمح لهم بتدريس مذهب «مالك»، وأخذ القضاة يصدرُونَ أحكامهم بناءً عليه،

(22/7)

واتخذ منهم هشام كبار قضاة ومستشاريه، وشيئًا فشيئًا أصبح المذهب المالكي هو المذهب الرسمي للدولة. وحرصت الإمارة الأندلسية على جعل اللغة العربية لغة الدواوين الرسمية، ولغة الدرس والتعليم، ولم تكن تقبل إلا ما هو عربي، وكان ذلك اتجاهًا عامًا سار عليه الأمويون في حياتهم وتبعهم الناس في ذلك، وبلغ من اهتمام هشام بالعربية أن جعلها لغة نصارى الأندلس ويهودها، وترجم إليها الكتاب المقدس ونصوص الصلوات، وساعد ذلك كله على التحول إلى الإسلام، وانتشار اللغة العربية وأصبحت الأندلس مركزًا من أهم مراكز الحضارة العربية.

ويكاد يجمع المؤرخون على أن «هشامًا» كان رقيقًا تقيًا، صارمًا في الحق، محبا للجهاد، أنفق كثيرًا من الأموال في فداء الأسرى، كما كان شغوفًا بالإصلاح والتعمير، فأتم بناء مسجد قرطبة الجامع، وأنشأ مساجد أخرى، وزين «قرطبة» بكثير من الحدائق والمباني، وجدد قنطرة قرطبة التي بناها «السمح بن مالك»، ونظَّم وسائل الري، وجلب إلى الأندلس الأشجار والبذور.

وكان هشام يحب مجالس العلم والأدب، وبخاصة مجالس الفقه والحديث، فقرب إليه الفقهاء والعلماء، وبوَأهم أهم المناصب، خلافًا لما كان عليه زمن والده، وقد ترتب على ذلك نتائج سياسية واجتماعية ظهرت فيما بعد.

الحكم الأول بن هشام المعروف بالربضي [180 - 206هـ = 796 - 822م]

بدأ «الحكم» عهده بالجهاد ضد البشكنس (ثافارا)، لكنه اضطر إلى تركه لمواجهة الثورات التي اشتعلت ضده في الثغر الأعلى سنة

(181هـ = 797م)، وكان عمّاه «سليمان» و «عبدالله» قد أتيا إليها سرا واتصلا بملك الفرنج وطلبا مساعدتهما، ولما علم «الحكم» سار بجيوشه إلى الشمال، فاضطر الفرنج إلى الانسحاب، فأحكم سيطرته على هذه المناطق، وفي هذه الآونة حاول عمّاه الإغارة على قرطبة، فعاد الحكم وهزمهما، وقتل «سليمان»، على حين فرَّ «عبد الله» إلى «بلنسية» والتزم الهدوء طوال فترة الحكم.

(23/7)

وفي سنة (185هـ = 801م) سير «شارلمان»، جيشًا لغزو «برشلونة»، وكان الحكم مشغولًا بمطاردة الخارجين عليه، فلم يتمكن من نجدة المدينة، فسقطت بعد كفاح مشرف، وقد استقل حكام القوط بهذه المنطقة عن الفرنج بعد فترة وأنشئوا إمارة «قطلونوية» النصرانية، التي اتحدت مع مملكة أراجون، وتمكنوا من غزو الجانب الشرقي من مملكة الإسلام في الأندلس، وخسر المسلمون بذلك حصنًا منيعًا، وارتدت حدود الأندلس إلى الثغر الأعلى بعد أن كانت قد تجاوزت جبال البرت.

ولم تهدأ العواصف والثورات ضد الحكم، فاكتشف في سنة (189هـ = 805م) مؤامرة للإطاحة به، لكنه أحيط علمًا بما يدبره خصومه ففضى عليهم، وأعدم (72) منهم في صورة بالغة القسوة، مما أثار غضب أهل قرطبة وحنقهم عليه، كما قضى على الثورات المتكررة التي قام بها أهالي طليطلة، مستخدمًا أسلوب القتل والاعتقال، حتى إن واليه على طليطلة أعد وليمة دعا إليها كبار زعماء طليطلة، ثم أعدمهم، وألقى جثثهم في حفرة خلف القصر سنة (191هـ = 807م)، وفي تلك الأثناء غزا الفرنج الثغر الأعلى وحاصروا مدينة «طرطوشة» لكن المسلمين تمكنوا من هزيمتهم، وإنقاذ المدينة المحاصرة سنة (193هـ = 809م)، كما توالت حملات النصارى على أطراف الثغر الأدنى

والمنطقة التي بين نهرى دويرة والتاجة لبعدها عن قرطبة، وضعف وسائل الدفاع عنها، وعانى المسلمون كثيراً في تلك المناطق من جراء تلك الغزوات، ولما بلغت الأنباء مسمع «الحكم بن هشام» خرج بنفسه سنة (194هـ = 810م) على رأس جيشه، وهزم النصارى في عدة مواقع وأسر وغنم غنائم كثيرة، كما أرسل في العام التالي جيشاً إلى الثغر الأعلى، غزا قطالونية، وهاجم برشلونة، وانتهى الأمر بصلح دام حتى وفاة «شارلمان» سنة (198هـ = 814م)، ثم كانت آخر غزوات الحكم سنة (200هـ = 815م) إلى «جليقية» حيث توغل المسلمون فيها، ونشبت بينهم وبين النصارى مواقع حربية، انتهت بهزيمة النصارى وارتدادهم إلى الداخل.

(24/7)

وفي أواخر عهد الحكم اشتعلت في «قرطبة» ثورة عنيفة سميت ثورة الربض، بسبب كراهية «المولدين» للحاكم، وبغضهم له لصرامته وقسوته، واتهامهم له بممارسة اللهو والشراب، والمبالغة في فرض الضرائب، وقد تأجج لهيب الثورة في الربض الجنوبي المسمى «شقندة» بصفة خاصة يوم (13 من رمضان 202هـ = 25 من مارس 818م) وتوجه الثوار إلى القصر، وتأهب الحكم ورجاله لردّهم، وقد نجحوا في ذلك، ثم مالبت أن شقت قوات الحكم طريقها إلى النهر، وعبرته إلى الضاحية الأخرى موطن الثائرين وأضرمت النيران في جوانبها، فأسرع الثوار إلى دورهم، لإطفاء النيران وإنقاذ الأهل والعشيرة.

وفي هذه اللحظة أحاط الجنود بالثوار، وأوسعوهم قتلاً ومطاردة ونهبوا دورهم، واستمرت هذه المأساة ثلاثة أيام، فرّ خلالها إلى طليطلة من استطاع، ثم نودى بالأمان بعد أن هدأت الفتنة، ثم أصدر الحكم قراراً بدم دور الثوار ولاسيما في الضاحية التي شهدت ميلاد

الثورة، فتم محوها تمامًا، ثم أمر بإخراج الثائرين من قرطبة،  
فتفرقوا في التغور، وعبر بعضهم إلى العدو الأخرى بالمغرب،  
وهاجر بعضهم إلى طليطلة وشمالي غربي الأندلس.  
كما ركب نحو (15) ألفًا منهم سفنًا رست بهم في ميناء الإسكندرية،  
حيث أقاموا فيها، غير أن والي مصر «عبدالله بن طاهر» أجبرهم  
على الرحيل، فتوجهوا إلى جزيرة «كريت» وفتحوها سنة (212هـ =  
827م)، وأسسوا بها دولة زاهرة، بقيت هناك إلى أن استولى عليها  
البيزنطيون سنة (350هـ = 961م).  
وعلى الرغم من نجاح «الحكم» في القضاء على هذه الحركة الثائرة،  
فإن أهل «قرطبة» تضاعفت كراهيتهم له، وزاد من نفورهم منه ما  
فرض عليهم من ضرائب.  
مرض الحكم بعد ذلك، وأخذ البيعة لولي عهده في حياته، وأبدى  
أسفه لما وقع منه لأهل الربض، ثم مات في (26 من ذى الحجة 206هـ =  
22 من مايو 822م) بعد أن لُقِّب بالريضي، نسبة إلى ما قام به من  
أعمال شنيعة في منطقة الربض الجنوبي.

(25/7)

---

ولم يكن الحكم الريضي كأبيه محبا للعلماء والفقهاء، فتراجعت  
مكانتهم في زمنه وأثر عليهم حضور مجالس الإمام والشعراء،  
وانصرف إلى حياة اللهو والصيد.  
ويعدُّ الحكم أول من أظهر هيبة الملك بالأندلس وفخامته، ورَتَّب للبلاط  
نظمه ورسومه، واستكثر من الموالي، فظهر «الصقالية» بكثرة في  
بلاطه، وأسند إليهم معظم شئون الحكم والحرس الخاص، ووصل بهم  
إلى مراتب القيادة والرياسة، كما كانت له شرطة قوية وعيون على  
الناس.  
وضمَّت حكومته شخصيات بارزة في تاريخ الأندلس، منهم: «ابن

مغيث» الذى تولّى حجابته، واستحدث منصبًا يهتم بشئون أهل الذمة، سُمّي شاغله بالقومس أو «القمط».

وعلى الرغم من اشتعال الفتن والثورات فى عهد الحكم، فقد ازدهرت العلوم والآداب ونبغ عدد كبير من الكتاب والشعراء والعلماء، منهم «عباس بن ناصح الثقفى»، وابنه «عبدالوهاب»، و «أبو القاسم عباس بن فرناس»، و «يحيى الغزال».

عبدالرحمن الثانى (الأوسط) بن الحكم [206 - 238 هـ = 822 - 852 م]

تولى «عبدالرحمن» الحكم فى (27 من ذى الحجة 206 هـ = 822 م)

بعهد من أبيه؛ وكان «عبدالرحمن» منذ صغره شغوفًا بدراسة الأدب

والحديث والفقه، ذا عقل مستنير، خبيرًا بشئون الحرب والسياسة،

هادئ الطباع، حسن العشرة، متقربًا إلى الناس، حازمًا فى أمره،

ولهذا كان مؤهلًا لإزالة ما خلفته إمارة أبيه الحكم من آثار سيئة.

وقد واجه «عبدالرحمن» فى أول ولايته سنة (207 هـ = 823 م) ثورة

فى «بلنسية» دامت عدة سنوات، ولم تنته إلا فى سنة (213 هـ =

828 م) حيث نجح فى القضاء عليها وإخماد فتنتها، كما واجه ثورة

فى قرطبة نجح فى القضاء عليها أيضًا.

استأنف «عبدالرحمن الثانى» برنامجه فى الجهاد مبكرًا، فأرسل فى

سنة (208 هـ = 823 م) حملة عسكرية بقيادة «عبدالكريم بن عبدالواحد

بن مغيث» إلى «ألبة والقلاع» بعد أن أغار ملك جليقية (ليون) على

مدينة سالم فى الثغر الأعلى، وقد نجحت الحملة فى إلحاق الهزيمة

(26/7)

---

بالنصارى فى عدة مواقع، وخربت مدينة «ليون» وأحرقت حصونها، وأطلقت سراح المسلمين، وألزمت القوات المعتدية بدفع جزية كبيرة وعادت الحملة بقيادة «عبدالكريم» إلى قرطبة مثقلة بالغنائم، وكانت تلك آخر غزوات هذا القائد المظفر الذى استمر يدافع عن الأندلس فى

مبادين القتال أكثر من ثلاثين سنة؛ حيث توفي في سنة (209هـ = 824م)

ثم تعرّضت البلاد لعدد من الثورات والفتن والقلاقل في «طليطلة» و «ماردة» دامت سنوات طوال، واستنفدت كثيراً من الجهد والمال وإراقة الدماء حتى تمكن «عبدالرحمن» من القضاء عليها. عاود «عبدالرحمن» نشاط الجهاد، فبدأ يرسل الصوائف كل عام إلى الشمال تارة إلى أطراف الثغر الأعلى لتشتبك مع الفرنجة، وتارة إلى «ألبة والقلاع» حيث تغير على بلاد البشكنس وأطراف مملكة جليقية (ليون)، وكان أحياناً يقود تلك الصوائف، مثلما فعل سنة (228هـ = 843م) حيث سار بجيشه إلى الشمال، وزحف على بلاد البشكنس، وألحق بملكها الهزيمة، واضطر إلى طلب الأمان، وعاد عبدالرحمن إلى قرطبة بعد أن وطد نفوذه هناك، وفرض هيئته وقوته على البشكنس، حتى لا يتجرءوا على مهاجمة أراضي المسلمين مرة أخرى. غزوات النورمان:

المقصود بالنورمان: هم أهل الشمال سكان اسكنديناوه ودانيماركة، الذين اشتهروا بجوب البحار ومحاولة التغلب على قسوة الجليد وأهوال الطبيعة، وبدأت جموعهم تغزو فرنسا وشواطئ أوروبا الغربية في أوائل القرن التاسع الميلادي، تحملهم سفن صغيرة ذات أشرعة سوداء، تدخل مصبات الأنهار، وتنشئ لها مراكز داخل البلاد، وتغير على المدن وتنهب خيراتها، ثم توقد النيران للتعمية، ثم تهرب مسرعة.

وكان ظهور هؤلاء في مياه الأندلس لأول مرة سنة (230هـ = 845م)؛ حيث جاء أسطول لهم في ثمانين سفينة، ورسا في مياه «إشبونة» فكتب حاكمها إلى «عبدالرحمن» يخبره بذلك، وحدث احتكاك بين هؤلاء والمسلمين مدة ثلاثة عشر يوماً، ثم سار الأسطول النورماني

إلى «قادش»، ومنها إلى «شدونة» ونهب كل ما وجدته في طريقه، ثم اخترق نهر الوادى الكبير إلى «إشبيلية»، وظهر هناك بصورة مفاجئة، ولما لم تكن هناك بحرية تدافع عن تلك المنطقة أو استعداد لمواجهة هذا النوع من العمليات، فقد عاث النورمان فيها فسادًا لمدة سبعة أيام، وأحرقوا الدور والمسجد الجامع، ثم غادروا مدينة «إشبيلية»، وعسكروا في الناحية الغربية منها. وإزاء هذه التحركات هرع المسلمون لرد العدوان، ونشبت معارك تفوق فيها النورمان في أول الأمر، ثم هزمهم المسلمون بعد قتال عنيف عند «طليطلة» شمالي «إشبيلية» في (25 صفر سنة 230هـ = 845م) ولقى قائدهم مصرعه، وأحرقت ثلاثون سفينة من سفنهم، فأقلعت السفن الباقية نحو الجنوب حيث غادروا مياه الأندلس بعد أسابيع من الفزع والرعب. نشأة الأسطول:

كان لمفاجأة النورمان أثرها، فبدأت الحكومة الأندلسية تعطى الاهتمام الكافي للأسطول والتحصينات البحرية، فبنى «عبدالرحمن» سورًا ضخماً حول «إشبيلية»، واتخذ قواعد بحرية، ودورًا لصناعة السفن في «إشبونة» و «إشبيلية»، و «المرية» و «بلنسية» و «مالقة»، وعنى بصناعة السفن الكبيرة، وأعد لها المقاتلة، وأصبح للأندلس أسطولان، أحدهما في المحيط الأطلسي ومركزه إشبونة، والآخر في البحر المتوسط وقاعدته مالقة.

وبدأت تظهر أهمية البحرية الأندلسية منذ منتصف القرن التاسع الميلادى وأثمرت جهوده في فتح الجزائر الشرقية (جزر البليار)، وهى ميورقة ومنورقة ويابسة، وتم ضمهما إلى الإمارة الأندلسية سنة (234هـ = 848م).

وقد أدرك النورمان أن الأندلس لن تكون فريسة سهلة لغزواتهم، فسعوا إلى الصلح مع الأمير عبدالرحمن، وبعثوا رسلهم يطلبون السلام، فأرسل الأمير إليهم الشاعر «يحيى الغزال» ردًا على سفارتهم.

وبعد الانتهاء من مشكلة النورمان استأنف «عبدالرحمن» عمليات الجهاد في الشمال، فأرسل صائفة اخترقت قشتالة القديمة، وسارت

(28/7)

في اتجاه نابارًا (نافار)، وغزت بنبلونة سنة (230هـ = 845م)، ثم توجهت في العام التالي صائفة إلى «جليقية»، وحاصرت «ليون» عاصمتها، وحملت النصارى على اللجوء إلى الجبال، كما أرسل قوة بحرية إلى جزيرتي ميورقة ومنورقة سنة (234هـ = 848م) تمكنت من السيطرة عليهما.

وفي سنة (237هـ = 851م) قامت حرب بين المسلمين وبعض قوات البشكنس الذين هاجموا أراضي المسلمين في أطراف بلاد الثغر الأعلى، انتهت بانتصار المسلمين.

وقد حرص «عبدالرحمن» على موالة إرسال الصوائف في كل عام إلى الحدود الشمالية مما يلي «طليطلة» شمالًا، لأن الصراع هناك كان شديدًا، ولأن أهل طليطلة كانوا يستنجدون بالإمارات النصرانية في منازعاتهم مع الإمارة الأندلسية، ويستنجدون أيضًا بنصارى الشمال وبخاصة ملوك ليون.

المتعصبون النصارى يثيرون فتنة في الأندلس:

تعرضت البلاد في أواخر عهد «عبد الرحمن» الأوسط لفتنة شديدة، أملتها روح التعصب، فقد كره بعض القساوسة والرهبان سيطرة الثقافة واللغة العربية على المجتمع، وانتشار الإسلام، فلجئوا إلى الشكوى لموت الثقافة المسيحية وإلى مواجهة المسلمين وتحديهم فلم يفلحوا، فراحوا يجهرون بسب النبي - صلى الله عليه وسلم - والإساءة إليه، وإهانة المقدسات الإسلامية علنًا وعلى مرأى الناس وفي الطرقات العامة.

وقد حمل رجال الشرطة هؤلاء القساوسة والرهبان إلى القضاة،

فكرروا الشيء نفسه أمامهم وأصروا على رأيهم، وحاول القضاة استعمال الرفق معهم في ثنيهم عن أفعالهم فلم ينجحوا، وتكررت الجرائم، فاضطر القضاة إلى الحكم بإعدام هؤلاء المتعصبين، وقتل كثير منهم في صيف سنة (237هـ = 851م)، فعدهم أحبار النصارى شهداء، وكان هذا هو هدف هؤلاء المتعصبين، وتأزم الموقف، والتهبت نيران الفتنة.

واجه «عبدالرحمن» هذه المشكلة بما تستحقه من صبر، فطلب من قادة النصارى عقد مجمع ديني في قرطبة لمعالجتها بحكمة واتزان،

(29/7)

---

فأوضح المجمع عواقب هذا العمل الوخيمة، وأن المعتدلين من النصارى يبرءون منه ويستنكرونه، وكان من نتيجة ذلك استقرار الأوضاع وعودة الوثام بين المسلمين والنصارى بفضل معالجة عبدالرحمن وحسن تأنيه في الأمور.  
وفاة عبدالرحمن الأوسط:

توفي «عبدالرحمن» في (3 من ربيع الآخر 238هـ = 23 من سبتمبر 852م) عن عمر يناهز (62) سنة، بعد أن حكم البلاد أكثر من إحدى وثلاثين سنة، عدت من أزهى سنوات الحكم الإسلامي في الأندلس، فقد عاش الناس في رخاء وعم الهدوء والاستقرار البلاد، وقام الحكم على أسس من العدالة والنظام.

وقد اعتمد «عبدالرحمن الأوسط» على عدد من الزعماء والوزراء والقادة المخلصين، وكان الوزراء يعقدون اجتماعاتهم في قصر «السدة» في بيت يسمى بيت الوزارة، ويحمل «الحاجب» رئيس الوزراء نتيجة مناقشاتهم للأمير، لاتخاذ ما يراه مناسباً. وكان الوزير يتقاضى مرتباً شهرياً قدره (350) ديناراً وجرى عبدالرحمن على سنة أبيه في اصطفاء الموالي والصقالية، وكان له خمسة آلاف، منهم

ثلاثة آلاف يرابطون إزاء أبواب القصر على الرصيف، وألفان على أبواب القصر، وهم الذين كانوا يسمون الخرس بسبب عجمتهم. ولم يكن عبدالرحمن الأوسط أميرًا فحسب، وإنما كان أديبًا شاعرًا وعالمًا حكيمًا، أحاط نفسه بجماعة كبيرة من الشعراء والعلماء والأدباء، كما كان أول من عُني بجمع الكتب من أمراء الأندلس، وقد أوفد شاعره «عباس بن ناصح» إلى المشرق يبحث له عن كتب، فجمع منها طائفة كبيرة كانت نواة مكتبة قرطبة العظيمة، ومن الشخصيات التي أحاطت به:

- علي بن نافع:

الموسيقي المعروف بلقب زرياب (الطائر الأسود)، وكان قد غادر بغداد إلى قرطبة، فاستقبله «عبدالرحمن الأوسط» بكل حفاوة، وعاونه على إظهار فنه، فأنشأ معهدًا لتعليم الموسيقى وابتكر طريقة لكتابتها، وأنشأ فرقة موسيقية تجمع بين العازفين والمنشدين، واخترع وترًا خامسًا أدخل به تعديلا على العود، كما

(30/7)

أدخل كثيرًا من مظاهر الحياة المتحضرة في المجتمع الأندلسي، وتوفي في (ربيع الأول 238هـ = أغسطس 852م).

- عباس بن فرناس:

كان من رجال الحكم الرضى وابنه عبدالرحمن، وهو فيلسوف ورياضي وشاعر وموسيقي وكيميائي، من أصل بربري، توصل إلى صناعة الزجاج من طحن الأحجار، واخترع آلة تسمى «الميقانة» تعتمد على الظل في معرفة الوقت، واشتهر بأول محاولة يقوم بها الإنسان للطيران في الجو، كما اخترع شيئًا شبيهًا بقلم الخبر، وقد أدركته الوفاة في عهد الأمير محمد بعد ذلك.

- يحيى بن الحكم الجباني «الغزال»:

هو فيلسوف شاعر، من أصل عربي، ولد في جيان بالأندلس، ولقب بالغزال لأناقته وجمال هيئته، كان من الندماء المقربين من عبدالرحمن الأوسط، فأعجب به وكلفه بالسفارة عنه إلى إمبراطور الدول البيزنطية، فقام بمهمته خير قيام، فشجع ذلك النجاح الأمير عبدالرحمن فبعث به إلى ملك النورمان في الدنيمارك ليتباحث معه في أمر الصلح بين الدولتين. وتوفي يحيى الغزال سنة (250هـ= 864م).

المظاهر الحضارية في عهد عبدالرحمن الأوسط:  
ظهرت آثار الرخاء وترف الحضارة في عهد عبدالرحمن فيما بناه الناس من قصور جميلة، تم تزيينها بالأثاث الفاخر والفرش الوثيرة، والجواري الحسان اللاتي جلدن من المشرق، وانتشرت في قرطبة البيوت المحاطة بالحدائق المزدانة بالأشجار وأطلقوا عليها اسم «المنى»، وتوسّع بعض الأغنياء في الحدائق المحيطة بهذه المنازل حتى أصبحت رياضاً، أطلق عليها اسم «الجور»، وفي كل منها مكان معد لغناء المغنيات.

وامتاز عهد عبدالرحمن بالأمن والسكينة. وازدهار الصناعة والزراعة والتجارة، وازدياد موارد الدولة التي بلغت نحو مليون دينار سنوياً. مكنت الأمير من الإنفاق على الحملات العسكرية وإقامة المنشآت العامة، كما أشرفت الحكومة المركزية على أعمال الحكام من خلال ديوان المظالم المختص بالنظر في شكاوى الناس من تصرفات بعض رجال الحكومة.

(31/7)

---

ونالت إقامة المباني والمنشآت قسطاً عظيماً من عناية «عبدالرحمن الأوسط»، فبنى مسجد إشبيلية الجامع، وزاد في المسجد الجامع بقرطبة قدر بهوين كبيرين من ناحية القبلة، ونقل المحراب إلى الجزء

الجديد، وأقام أعمدة أخرى، وأقواسًا فوق الأعمدة الأصلية، فكانت الأقواس المزدوجة التي يعدها المعمارون من روائع العمارة الإسلامية، وكان صحن المسجد مكشوفًا يدور حوله سور، وتزرع فيه أشجار النارج، ولهذا سُمِّيَ بهو النارج، وهو الآن صحن الكنيسة. ولا يزال مسجد قرطبة الجامع باقياً حتى اليوم بكل عقودها الإسلامية وأروقته ومحاريبه، وقد تحوّل إلى كاتدرائية في القرن السادس عشر الميلادي، وأقام المسيحيون هياكلهم في عقودها الجانبية، وبنوا مصلى على شكل صليب في وسطه، وأزالوا كثيراً من قباب المسجد وزخارفه الإسلامية، وجعلوا مكانها زخارف نصرانية، وعلى الرغم من ذلك فإن آيات القرآن الكريم، والنقوش الإسلامية لاتزال تزين محاريبه الفخمة وأبوابه.

تجديد الشعر الأندلسي:

بدأت طلائع الشعر الشعبي الأندلسي في الظهور في عهد عبدالرحمن الأوسط، وهو شعر يصاغ بعامية الأندلس التي هي خليط من العربية والبربرية وغيرهما مع الالتزام بأوزان بحور الشعر العربي وبخاصة بحر الرمل والرجز، وهو ما عرف باسم «الزجل» وقد وصل هذا الفن إلى أوج رقيه بعد ذلك في زمن ملوك الطوائف على يد ابن قرمان وغيره.

وقد برز من الشعراء في هذا العصر «ابن عبدربه»، صاحب العقد الفريد، ومؤمن بن سعيد، والشاعر الضرير أبو بكر بن هذيل.

الأمير محمد بن عبدالرحمن الأوسط [238 - 273هـ = 852 - 886م] رشّحه أبوه لولاية العهد، لأنه رأى أنه أصلح من يتولى الملك، وإن لم يكن أكبر أبنائه، وقد وصفه المؤرخون بالاتزان والذكاء والعقل وهدوء الأعصاب.

تولى الأمير «محمد» الحكم في (4من ربيع الآخر 238هـ = 24 من سبتمبر 852م)، وقدر له أن يقضى فترة حكمه في إخماد الثورات

ومواجهة أعداء دولته من النصارى، فخرج في (الحرم سنة 240هـ = يونيو 854م) على رأس جيشه إلى «طليطلة» لمواجهة النافرين فيها من المولدين والنصارى الذين استعانوا بملكى «ليون» ونبرة «نافارة»، وقد سار الأمير ببعض قواته، وترك بقية جيشه متخفية وراء تلال «وادى سلبط»، فاغترت قوات طليطلة بقلعة قوات الأمير فخرجت لقتاله، وتظاهر الأمير بالهزيمة، وارتد إلى الخلف، وعندئذ برزت بقية قوات المسلمين، وأطبقت على الثوار وحلفائهم من النصارى ومزقتهم تمزيقاً، وقتل منهم ما بين أحد عشر إلى عشرين ألفاً، بينهم كثير من القساوسة.

وعلى الرغم من ذلك فقد استمرت الفتنة في طليطلة، وواصل النصارى تحريضهم زاعمين أنهم يتعرضون لاضطهاد دينى واجتماعى، فاضطر الأمير «محمد» إلى أن يخرج إلى «طليطلة» سنة (244هـ = 858م) بعد أن أرسل حملتين قبل ذلك لم تنجحا فى إخماد الفتنة، فحاصر المدينة، ولجأ إلى الحيلة فى تحقيق النصر، فهدم قواعد القنطرة الكبيرة مع تركها قائمة، فلما احتشد الثائرون لقتاله سقطت بهم القنطرة فى نهر تاجة وغرق منهم عدد كبير، ثم استخدم كل إمكاناته فى سحق المدينة حتى استسلم أهلها وطلبوا الأمان والصلح سنة (245هـ = 859م)، ثم حاكم الأمير كثيراً من القساوسة مشعلى الفتنة ونالوا جزاءهم، وخبث جذوة التعصب.

ويجدر بالذكر أن «طليطلة» تعد من أمنع مدن العصور الوسطى بسبب موقعها على المنحدر الصخرى من نهر تاجة، وإحاطة النهر بهذا المنحدر، ثم لما فيها من حصون قوية وأسوار عالية ضخمة.

ولم تكن «طليطلة» هى المدينة الثائرة وحدها، فقد قامت ثورات أخرى فى شمال غربى الأندلس فى المناطق الجبلية هناك، وكانت «ماردة» الواقعة فى النواحي الغربية المعروفة الآن باسم البرتغال الموطن الرئيسى للمتمردين المولدين بزعامة «عبدالرحمن بن مروان

الخليقي» فخرج إليها الأمير محمد سنة (254 هـ = 868م)، وداهم «ماردة» وهدم أسوارها وحصونها، فاضطر الثوار إلى طلب الأمان.

(33/7)

ثم تجددت الثورة بعد ذلك بأعوام في «ماردة» و «بطلبوس»، واستولى الثوار على بعض القلاع وتحصنوا بها وكثرت جموعهم، ولم تفلح حملات الأمير محمد في إخماد الفتنة والقضاء على الثورة، وانتهى الأمر بقبول شروط زعيم الثائرين عبدالرحمن الخليقي، بأن يستقل بحكم بطلبوس، ويعفى من الفروض والمغارم، وأن يكون من حلفاء الإمارة.

ولم تشغل تلك الثورات المتتابة الأمير محمد عن أمر الجهاد، فتتابع حملاته العسكرية إلى «ألبة» و «القلاع» وهزمت النصارى في عدة مواقع، كما اتجهت إلى «نبرة» سنة (246 هـ = 860م)، وقامت بتخريب بنبلونة وحصونها وقرأها لمدة أسابيع أسر خلالها ابن ملك «نبرة»، وكان ملك «نبرة» قد تحالف مع ملك «ليون» وقاما بمهاجمة الأراضي الإسلامية.

وكان يمكن للأمير «محمد» أن يحقق نتائج أفضل في جهاده مع النصارى لولا كثرة الثائرين عليه، واتساع أراضي البلاد ووعورتها، مع قلة العرب بالمقارنة إلى المستعربين والمولدين الذين كثرت ثورتهم وقوى ميلهم إلى الاستقلال.

وكان على الأمير «محمد» أن يواجه خطر النورمان الذين عادوا للهجوم على الأندلس من جديد، فجاءوا بسفنهم إلى «جليقية» في (62) سفينة عاثت فسادًا في الشاطئ الغربي، لكن السفن الأندلسية كانت متأهبة لها هذه المرة فطاردتها، فاتجهت نحو مدينة صغيرة تسمى «باجة» تقع في البرتغال اليوم، لكن المسلمين هزموهم هناك واستولوا على بعض سفنهم، فاتجهت باقى السفن نحو الشواطئ

الجنوبية عند مصب الوادى الكبير، ثم انحدرت جنوبًا نحو مياه الجزيرة الخضراء، وقد اتجهت وحدات الأسطول الإسلامى ناحية الغرب وتمت تعبئة القوات وتجهيز السفن بالنفط والرماة، وحدثت معارك برية وبحرية عند «شذونة» انتصر فيها المسلمون أولاً، لكن السفن النورمانية عادت وتغلبت ثم توجهت جهة الجزيرة الخضراء وأحرقوا مسجدها الجامع وأفسدوا ونهبوا، ثم قصدت بعض سفنهم نحو عدوة

(34/7)

المغرب ونزلوا شاطئ الأندلس الجنوبى، وجرت هناك معارك برية وبحرية استمرت أشهرًا، فقد النورمان فيها كثيرًا من سفنهم، فاتجهوا نحو شواطئ أسبانيا الشرقية، وعبرت وحدات منهم نهر «ابرو» إلى «نافار»، فى حين أغارت وحدات أخرى على الجزائر الشرقية وشواطئ «بروفانس» ومن هناك عبروا مصب نهر «الرون» عائدين إلى بلادهم. وهكذا لم يسلم من تخريب هؤلاء؛ لا الأندلس الإسلامية ولا إسبانيا النصرانية، ولكن غزوتهم هذه المرة لم تكن مفاجئة ولم يتمكنوا من القيام بعمل كبير، ولم يكن تأثير عملياتهم واسعًا كما حدث فى المرة الأولى، وعلى كل حال فتلك آخر محاولة قام بها النورمان ضد الأندلس، وانتهى خطرهم نهائيًا، فلم نعد نسمع بهم بعد سنة (245هـ = 859م).

ثورة عمر بن حفصون:

وهو من أصل إسباني قوطى، ظهر فى جبل «بيشتر» ضمن سلسلة الجبال بين «رندة» و «مالقة» التى تعد مأوى العصاة والخارجين على القانون.

وقد قامت ثورة ابن حفصون فى ولاية «رية» بمحافظة «مالقة» الآن، وقد النف حوله جماعة من المفسدين ونزلوا جميعًا بجبل «بيشتر»

شمال شرقي «رندة».

ويرجع السبب المباشر للثورة إلى إصرار الحكومة المركزية على بسط سلطتها الكامل على النواحي كافة. وعنف الوالي مع المواطنين وإرهاقهم وتشدده في جباية الأموال ومطالبتهم بالعشور المتأخرة، كل ذلك دون أن ينال سكان هذه المناطق الجبلية شيئاً من عناية الحكومة المركزية، مما شحنتهم بالغضب وجعلهم مهيبين للثورة. وقد بدأ هؤلاء تمردهم وعدم استجابتهم لواليتهم عام (265هـ = 878م)، واعتصموا في جبالهم، وحاول الأمير «محمد» إخماد حركتهم بالقوة فلم يصل إلى ما يريد، وفي العام التالي أرسلت صائفة إلى كورة «رية» اشتدت في التعامل مع الثائرين وبقيت مع ذلك حركة العصيان وعمت الإقليم كله وانتشرت الفوضى هنا وهناك. في وسط هذه الظروف ظهر «عمر بن حفصون»، وناب عن الناس في

(35/7)

تقديم مطالبهم للحكومة المركزية، لكنه لم يصل إلى شيء. وبدأ يُغير على أطراف الإقليم وينهب ويخرب؛ ثم يعود إلى الاعتصام بجبل «بيشتر»، وقد سارع عامل «رية» إلى التوجه إليه لكنه تعرض للهزيمة على يدي «ابن حفصون»، فساعد هذا على تقوية مركزه والتفاف العصاة والمفسدين والأشرار حوله، وتولى على الإقليم عامل جديد، اتجه إلى محاربة ابن حفصون الذي اعتصم بحصونه وانتهى الأمر بهدنة بين الفريقين.

وقد رأى الأمير محمد ضرورة حسم ثورة ابن حفصون هذه فأرسل إليه جيشاً كبيراً على رأسه الوزير «هاشم بن عبدالعزيز»، الذي شدد حصاره على «ابن حفصون»، حتى حمله ومن معه على التسليم وحملهم جميعاً إلى قرطبة؛ حيث عفا الأمير «محمد» عن ذلك الثائر وضمه إلى ضباطه لما لمس فيه من شجاعة وفروسية.

اشترك «ابن حفصون» في الحملات العسكرية التي قادها «المنذر بن محمد» إلى الشمال، لكن الرجل كان بطبعه ميالاً إلى التمرد والعمل لحسابه الخاص؛ لذلك فرَّ هارباً من جيش الإمارة، وعاد مرة أخرى إلى الاعتصام بجبال «رية» وضم إليه كثيراً من العصاة واستأنف ثورته مرة أخرى سنة (271هـ = 884م)، ونشر الرعب في المنطقة. وفي صيف (273هـ = 886م) قاد «المنذر بن محمد» جيشاً توجه إلى «ابن حفصون» لمقاتلته، وبدأ بالزحف على مدينة «الحامة» شمالي شرقي «مالقة» حيث يوجد واحد من حلفاء «ابن حفصون» وقد سار الأخير لنجدة حليفه، وحاصرهما «المنذر» مدة شهرين ثم خرجا لمقاتلة جند الإمارة عندما أوشكت أقواتهما على النفاد، وبعد معركة عنيفة هزم الثوار، وارتد «ابن حفصون» إلى «الحامة» واعتصم بها، وبينما «المنذر» يحاصره ويشدد عليه تلقى نبأ وفاة والده فترك «الحامة»، وعاد إلى قرطبة في (29 صفر 273هـ = 26 أغسطس 886م)، وبذلك تنفس «ابن حفصون» الصعداء، واستأنف غاراته وفساده ونشر سلطانه على «رية» و «رندة» و «أستجة» وغيرها.

سياسة الأمير محمد:

(36/7)

---

عنى الأمير محمد بالجيش بسبب الظروف التي عاشتها الإمارة في زمنه، وكان حريصاً على فرض أعداد من الفرسان على كل ناحية أندلسية تحشد دائماً للصوائف، وهؤلاء كانوا يسمون «الفرسان المستقرين» يضاف إليهم حشود المستنقرة والمتطوعة، مما يدل على ضخامة الجيش الذي كانت الإمارة تستطيع تعبئته.

كما عنى بالأسطول لحماية الشواطئ الغربية من ناحية، وغزو مملكة «جليقية» من ناحية أخرى، واهتم بتحصين أطراف الثغور، وأقام قلاعاً منيعة؛ لحماية مدينة «سالم» و «طليطلة»، وبنى حصوناً في

«طلمنكة» و «مجرىط» بمنطقة وادى الحجارة.  
أما من ناحية سياسته الخارجية فقد جمعته مع أمراء المغرب  
المعاصرين علاقة صداقة متينة خاصة «بني رستم» في «تبهرت»  
و «بني مدرار» في «سجلماسة»، وكان يشاورهم في أموره ويهتم  
بأخبارهم ويستنصحهم، وتتردد الكتب والرسل بينه وبين هذه الدول  
بهدف متابعة أخبار «بني العباس» وأعمالهم في إفريقية وبلاد  
الشام. كذلك قامت علاقة صداقة بين الأمير «محمد» وملك «فرنسا»  
وتبادلا الرسائل والهدايا.

أما من الناحية المالية فقد خفف الضرائب على المواطنين رغم حاجته  
إلى المال للإنفاق على الجهاد والقضاء على الثورات المستمرة،  
وكان يكتفى من أهل «قرطبة» بجهادهم ولا يكلفهم أعباء مالية،  
وكان الأمير «محمد» بارعاً في مراجعة الحسابات وموازنة الدخل  
والخرج، وقد ساعده هذا الضبط للأمور المالية على مواجهة بعض  
أخطار الطبيعة التي تعرضت لها الإمارة في زمنه.  
النظام الإدارى ومظاهر الحضارة:

فقد الصقالية والجوارى كثيراً من نفوذهم فى القصر أيام الأمير  
«محمد» واستمر النظام الإدارى سائداً كما كان أيام أبيه وتولى  
مناصب الوزارة الرجال أنفسهم، ونظمت أعمال الوزراء وتحددت  
اختصاصاتهم حتى أصبحت قريبة من اختصاص الوزراء فى أيامنا  
هذه؛ حيث اختص كل واحد منهم بفرع من فروع الإدارة، وقدم وزراء  
أهل الشام على غيرهم، وقد تولى الحجابة للأمير «محمد» «عيسى

(37/7)

---

بن شهيد» وهو الذى تولى الحجابة لوالده ورشحه عنده لولاية العهد،  
واجتمعت السلطات فى أيدي أسرتى بنى «شهيد» وبنى «أبى  
عبدة» - من أعظم الأسر القرطبية آنئذ - ثم آل منصب الحجابة إلى

«هاشم بن عبدالعزيز» من أسرة مولدة، وكان وزيراً أيام  
«عبدالرحمن الأوسط» وأصبح من أكثر الوزراء حظوة عند الأمير  
«محمد»، وهو من أشهر رجالات الحرب والسياسة. وكان مع ذلك من  
الأدباء والشعراء المطبوعين.

ومن وزراء الأمير «محمد» «تمام بن عامر الثقفي» الشاعر المؤرخ  
صاحب «أرجوزة» في فتح «الأندلس» وأشهر لاعب شطرنج في  
زمنه، و «سليمان بن وانسوس» من أصل بربري، وكان أديباً تولى  
خطة السوق والحسبة، ومنهم الكاتب البليغ «عبدالملك بن عبدالله ابن  
أميئة».

وقوى نفوذ الفقهاء في بلاط الأمير «محمد»، وكان لهم دور في  
توجيه سياسته مع النصارى، وكان متسامحاً معهم كما كان يفعل  
أبوه، وقد أبقى عدداً منهم في مناصبهم.  
وقد عُرف الأمير «محمد» بالحلم والأناة ومودة آل بيته، كما كان  
أديباً ذواقة، يجتمع حوله أكابر الناس والعلماء والشعراء من أمثال:  
«عباس بن فرناس» و «ابن عبدربه» و «ابن حبيب»، ومن أمثال: «بقي  
بن مخلد» أعظم فقهاء الأندلس في زمنه.

وعلى الرغم من أن أحداث فترة حكم الأمير «محمد» لم تتح له فرصة  
كبيرة للقيام بأعمال إنشائية، فإنه أولى للمسجد الجامع في قرطبة  
اهتماماً كبيراً، فأتم الزيادة التي بدأها أبوه في وسط الجامع وأقام  
فيه المقصورة، وكان أول من اتخذها، وأصلح القسم القديم الذي  
بناه جده «الداخل» وجدده، كما أصلح جوامع «استجة» و «شدونة»  
وغيرها .. وأضاف زيادات لقصر الإمارة، وجدد «منية الرصافة»  
واستجلب لها الأشجار النادرة واتخذها متنزهاً، وأنشأ منية خاصة  
جنوب غربي قرطبة أسماها «منية كنتش» جعلها متنزهاً له كذلك.  
الأمير المنذر بن محمد [273 - 275 هـ = 886 - 888 م].  
كان «المنذر» ولي عهد أبيه ومحل ثقته، وفارساً شجاعاً، وقائداً

متميزاً اعتمد عليه أبوه كثيراً في مواجهة المشاكل ومحاربة العصاة  
وقيادة الحملات.

وفي أول ولاية «المنذر» عادت «طليطلة» إلى الثورة كعادتها،  
وانضم إلى أهلها كثير من البربر، فأرسل الأمير حملة قضت على  
الثورة وقتلت الألو، وفي العام نفسه قام حاكم الثغر الأعلى بغزو  
«ألبه والقلاع» ودخل في حرب ضد النصارى وهزمهم، لكن أعظم  
ما كان يشغل «المنذر» هو القضاء على «ابن حفصون»، بعد أن  
استفحل خطره وانتشر سلطانه في نواح كثيرة وانضم إليه  
المغامرون والثائرون والعصاة في كل الأندلس.

وكان «ابن حفصون» صاحب دعوة سياسية تبغض العرب والبربر معاً،  
وعنده نزعة إلى الاستقلال والتحرر؛ لأن العرب حملوا الناس فوق  
طاقتهم وزادوهم رهقاً وهو إنما قام ليثأر لهم، وقد لقيت دعوته  
استجابة لدى سكان المناطق الجبلية خاصة، وكان الرجل متواضعاً  
يكرم الشجعان، فساعد ذلك على التفاهم حوله.

وقد أرسل «المنذر» بعض قواته، فاستردت قسماً من الحصون التي  
كان «ابن حفصون» قد سيطر عليها، وفي ربيع (274هـ = 887م)  
خرج «المنذر» بنفسه مصمماً على القضاء على «ابن حفصون»  
واجتثاث ثورته من جذورها، وقد نجح في فتح بعض الحصون، وأسر  
بعض أعوان ذلك الثائر، وبعث بهم إلى قرطبة حيث صلبوا، بينما بقي  
«ابن حفصون» ممتنعاً بجبال «ببشتر».

ولما شدد «المنذر» حصاره وقطع كل علاقات «ابن حفصون»  
بالخارج، لجأ «ابن حفصون» إلى الحيلة والخديعة وطلب الصلح على  
أن يسير ومعه أهله وولده إلى «قرطبة» فوافق الأمير وبعث إليه في  
قلاعه بكل ما طلبه من الأدوات ووسائل النقل، وتم رفع الحصار،  
وعاد الأمير بجيشه إلى قرطبة.

ولما لم يكن «ابن حفصون» وفياء؛ فقد هرب في جنح الظلام وامتنع

مرة أخرى بجبال «بيشتر» مستفيدًا بما حصل عليه من زادٍ وأقوات  
وإمدادات، فاشتد غضب الأمير ورجع لمحصرتة، وأصر على عدم  
العودة إلى «قرطبة» إلا بعد القبض على «ابن حفصون» حيا أو ميتًا،

(39/7)

ودام الحصار ثلاثة وأربعين يومًا بعدها مرض «المنذر»، وطلب من  
أخيه «عبدالله» أن يحضر؛ لينوب عنه في متابعة الحصار، ثم مات  
تحت أسوار «بيشتر» بعد حكم لم يستمر أكثر من عامين وكان موته  
في (صفر 275هـ = يونيو 888م)، وتم رفع الحصار، وعاد الجيش إلى  
«قرطبة»، ومرة أخرى يتنفس «ابن حفصون» الصعداء.  
الأمير عبدالله بن محمد [275 - 300هـ = 888 - 912م].  
ما كاد الأمير «عبدالله» يتولَّى الحكم حتى قامت الثورات ضده في  
المناطق الجبلية، بل تجاوزت ذلك إلى المدن والقواعد الكبرى، ولم  
تعد تقتصر على القادة من المولدين بل تجاوزتهم إلى العرب أنفسهم،  
وبرز العنصر البربري واعتصم كثير من زعمائه في الحصون النائية،  
وتنوعت المعارك وتعددت بين العرب والمولدين وبين العرب والبربر،  
وبين العرب أنفسهم بعضهم ضد بعض، وأعلن بعض زعماء العرب  
استقلالهم في «جيان» «البيرة» و «لورقة» و «مدينة سالم»، وغيرها.  
واستقل زعماء البربر في «النعرة الأعلى» و «بطليوس» و «مرسية»  
وبعض مناطق «جيان» وغيرها، وأضحت «إشبيلية» مسرحًا لقتال  
مرير بين العرب والبربر، ونشر «ابن حفصون» سلطانه في أغلب  
النواحي الجنوبية القريبة، ولم يبق لحكومة «قرطبة» إلا العاصمة  
وضواحيها تمارس فيها سلطاتها وتخضع لسيطرتها.  
وكان على الأمير «عبدالله» أن يواجه ذلك كله، ورأى أن أخطر ما  
يواجهه هو ثورة «ابن حفصون»، وفي الوقت نفسه رأى «ابن  
حفصون» أنه في حاجة إلى فترة هدنة وسلام يستغلها في

الاستعداد وتنظيم أموره، لذلك بعث يطلب الصلح مع الأمير، على أن يستقر في «بيشتر»، ويكون تابعاً للإمارة الأموية، فوافقه عبدالله وأكرم رسله، وبعث أميراً من عنده يشاركه في حكم الإقليم، ولكن لم تمض شهور حتى نكث بعهدده، وطرد الأمير المشارك، وعاد يفسد ويخرب ويغير على البلاد المجاورة.

سار الأمير بنفسه عام (276هـ = 889م) ووصل إلى منطقة «بيشتر»، واجتاحها إفساداً وتدميراً، لكنه لم يصل إلى نتيجة وبقي اضطرام

(40/7)

الثورة في الجنوب.

وواصل «ابن حفصون» غاراته في اتجاه الشمال حتى وصل إلى ضواحي «قرطبة» بل حاول إحراق مخيم الأمير نفسه في ضاحية «شقندة» القريبة من العاصمة، وأصر الأمير على الخروج إليه وحشد كل ما استطاع حشده من قوات، وذهب في اتجاه حصن في الجنوب الشرقي من قرطبة يُسمى «حصن بلاى» كان «ابن حفصون» قد حشد فيه قواته، والتقى الفريقان على فرع من فروع نهر الوادى الكبير قريب من الحصن الذى يعتصم به «ابن حفصون»، ونجح فرسان الأندلس في إلحاق هزيمة بالجنح الأيمن لابن حفصون ومزقوا قواته؛ فركب الرعب قلوب بقية الثائرين، وفروا هارين والحيل تتبعهم، وقتل كثير منهم وفرَّ «ابن حفصون» إلى الجبال الجنوبية بمن معه واستولى الأمير «عبدالله» على حصنه، ورغم أن ابن حفصون قد أُصيب في المعركة فإن الأمير آثر ألا يطارده، واتجه غرباً نحو «أستجة» التى كانت تناصره، وحاصرها حتى استسلمت ثم سار إلى «بيشتر» فلم يخرج زعيم الثوار لمواجهة وجن عن لقائه، وأثناء ارتداد جيش الأندلس راجعاً اشتبك ابن حفصون مع مؤخرته لكنه هزم في ربيع عام (278هـ = 891م).

وعلى الرغم من أن ثورة «ابن حفصون» لم تنته تمامًا فإنها قد وهنت وأصبح الطريق ممهدًا للقضاء عليها.

وقد شهدت المناطق الجنوبية شرقي الأندلس ثورة القبائل العربية، فقد رأت أن حكومة قرطبة تؤثر الموالي، وأن في ذلك مهانة لها؛ فاستغلت اشتعال فتنة المولدين في الجنوب والثغر الأعلى فقامت بثورتها في الجنوب متخذة من كورة البيرة «غرناطة» مركزًا لها، وتزعم الثورة «يحيى بن صقاله القيسي» عام (275هـ = 888م)، والتف العرب حوله وقام بمطاردة المولدين والنصارى، ولكنه قتل في موقعة معهم فخلفه «سوار بن حمدون القيسي»، وكان شجاعًا ناصره قومه، ولذلك نجح في انتزاع معظم حصون النصارى والمولدين، ووصل نفوذه إلى قلعة رباح، ومنها زحف إلى البيرة، حيث دارت معركة تسمى «معركة المدينة» بينه وبين جند الإمارة،

(41/7)

---

أهزم فيها وإلى البيرة ووقع في الأسر، وقتل كثير من رجاله، ثم أطلق سراحه؛ فانضم إلى «ابن حفصون» وتحالف معه.

أما «سوار» فقد قوى أمره وتضاعف مؤيدوه، وتوجه نحو غرناطة حيث دارت معارك بينه وبين المولدين، وتمكن من هزيمة «ابن حفصون»، ولكن خصوم «سوار» دبروا له من قتله في كمين فلم تدم رئاسته للعرب إلا نحو عام، وخلفه سعيد بن سليمان بن جودي السعدى زعيم هوازن، وكان معروفًا أيضًا بالفروسية والخطابة والشعر، ونجح بفضل التفاف القبائل حوله من إلحاق الهزيمة بابن حفصون مرارًا، ورأى الأمير «عبدالله» أن العرب يسيطرون على البيرة فعين سعيداً والياً عليها وبقي بها عدة أعوام ثم انتهى أمره مقتولاً.

وآلت رئاسة العرب لمحمد بن أضحى الهمداني صاحب حصن الحامة

(الحمة)، وأقر الأمير اختياره، وتجددت المعارك بينه وبين «ابن حفصون» ولم تسفر عن نتيجة حاسمة، واستمر «محمد» رئيسًا على المنطقة حتى تمكن «عبدالرحمن الناصر» فيما بعد من الاستيلاء على حصن الحامة وغيره من المناطق النائية.

وقد اتسع نطاق الثورة بين المولدين والعرب فنار في «بظليوس» وغربي الأندلس عدد من زعماء المولدين، وقامت ثورات أخرى في عدد من المواقع شرقي الأندلس، واستمر بعض الزعماء على تمردهم واستقلالهم حتى عهد الناصر.

أما إشبيلية فكانت مسرحًا لفتنة طال أمدها، ويرجع ذلك إلى طبيعة سكانها الذين كانوا مزيجًا من العرب والمولدين والنصارى، وكان سكانها العرب من أصحاب الثروات والنفوذ وقد جرى لها ما جرى لغيرها، فظهر فيها ثائرون متطلعون للزعامة من أمثال بنى عبدة، وبنى حجاج، وبنى خلدون، وإلى جانب هؤلاء وجد بعض المولدين الأغنياء وكان التنافس بينهم وبين العرب شديدًا أدى ذلك إلى فوضى واضطراب في المجتمع.

ولم تشغل الثورات في «إشبيلية» و «باجة» و «البيرة» و «تدمير» وغيرها حكومة قرطبة عن العمل للقضاء على المولدين وزعيمهم «عمر بن حفصون» في الجنوب، ولم يمض عامان على هزيمته في

(42/7)

---

«بلاى» حتى أعاد تنظيم قواته، فأخذت الإمارة توالى إرسال الحملات عليه فسار إليه «المطرف ابن الأمير عبدالله» في سنة (281هـ = 894م) وحاصره في «ببشتر» وخرج الثائر للقتال، فانهزمت قواته، وقتل أشجع قواده.

وما إن عاد جيش الأمير إلى قرطبة حتى جمع ابن حفصون مجموعة وتوجه نحو «أستجة» في الجنوب الغربي من العاصمة، واستولى

عليها ثانية عام (284هـ = 897م) فتوجه المطرف لقتاله في العام التالي واخترق الجزيرة الخضراء، وقام بالهجوم على بعض الحصون ووصل إلى «ببشتر»، وقامت بعض المعارك التي لم تسفر عن شيء.

وفي عام (286هـ = 899م) أعلن «ابن حفصون» اعتناقه النصرانية وتسمى باسم «صمويل»، وكان هذا بداية نهايته، فقد تخلى عنه بعض جنده وقواده وظلوا معتمدين في حصونهم، وأرسلوا يعلنون ولاءهم للأمير عبدالله واستعدادهم للجهاد معه ضد «ابن حفصون»، وحاول «ابن حفصون» من جانبه تقوية مركزه فعقد تحالفًا مع ملك ليون، وبعض أمراء غربي الأندلس.

وعادت الحرب من جديد بين «ابن حفصون» يعاونه أمير «إشبيلية» وبين جند الإمارة، وكان اللقاء الأول عند «استجة» وانتهى بهزيمة «ابن حفصون» هزيمة منكرة عام (289هـ = 902م)، وتخلي عنه حليفه «إبراهيم بن حجاج» وعاد إلى طاعة الأمير، وتوالت حملات الأمير بعد ذلك ووصل إلى حصون «ابن حفصون» ومعقله في «ببشتر» وطاردته، وقد حطمت قوى هذا الثائر وأنهكته وأضعفت قواه إلا أنها لم تصل إلى القضاء عليه تمامًا.

ويجدر بالذكر أن سلطة الأمير الأندلسي لم تنكمش كما انكمشت في عهد الأمير «عبدالله»، فلم تتجاوز سيطرته أحياناً قرطبة وضواحيها وقضى خمسة وعشرين عامًا هي مدة حكمه في كفاح وصراع دائمين بهدف حماية الدولة والحكم الأموي من الاضمحلال، وقد نجحت جهوده في تفرقة الثوار والسيطرة على بعض القواعد والحصون المهمة، وفي استمالة بعض الزعماء من ذوى النفوذ، وكان ذلك معاونًا للأمير عبدالرحمن الناصر فيما تحقق من نتائج فيما بعض.

ولا ينبغي هنا نسيان الجهد الذى قام به بعض القادة العسكريين  
الموهوبين فى تحقيق النجاح للأمير «عبدالله» ويأتى على رأس  
هؤلاء «بنو عبدة» موالى «بنى أمية» ومنهم: «أبو العباس أحمد بن  
أبى عبدة» الذى قضى من عمره ثلاثين سنة يجاهد فى سبيل وحدة  
الأندلس، وكذلك ابن أخيه «عبيدالله محمد بن أبى عبدة» الذى حقق  
انتصاراً رائعاً على «ابن حفصون» فى حصن «بلاى»، والقائد «جعد  
بن عبدالغافر» الذى أسهم كثيراً فى إضعاف قوى «ابن حفصون»،  
وكذلك الزعيم البربرى «سليمان بن دانوس».

ومن الطبيعى فى ظل هذه الفتن الدائمة ألا يتمكن الأمير «عبدالله»  
من القيام بغارات ضد النصارى بسبب انشغاله بمحاربة الثائرين  
والمتمردين، ولم يقم النصارى من جانبهم بأية محاولة ضد الأراضى  
الإسلامية غير أن ملك ليون (جليقية) حاول إشعال الفتنة بين المسلمين  
وتشجيع الثوار وعلى رأسهم «ابن حفصون» على العمل ضد حكومة  
قرطبة.

ومن الحوادث البارزة فى زمن الأمير «عبدالله» فتح جزر «البليار» أو  
الجزائر الشرقية، ومن المعروف أن «عبدالرحمن الأوسط» كان قد  
أرسل حملة إلى «ميورقة» فلما كانت سنة (290هـ = 903م) سارت  
إليها قوة بحرية من المجاهدين يقودها «عصام الخولانى»، وقامت  
بمحاصرتها حتى تم فتحها، وتولى القائد إمارتها، ومنذ ذلك الحين  
وهى جزء من الدولة الإسلامية.

وكان من الطبيعى أيضاً ألا يتسع عهد الأمير «عبدالله» للأمور  
الإنشائية ولا يذكر له فى هذا المجال إلا «السباط» الموصل بين القصر  
والمسجد الجامع وهو ممر مسقوف مبنى فوق عقد كبير يفضى من  
القصر إلى الجامع ويتصل به قريباً من المحراب.

كان الأمير «عبدالله» عالماً أديباً شاعراً فصيحاً يتصف بالتواضع  
والجود والبر بالفقراء، حريصاً على رفع الظلم والتخفيف من معاناة  
الشعب، وقد خصص يوماً من كل أسبوع للفقراء، كما أقام باباً  
حديدياً أسماه «باب العدل» تقدم عنده الشكاوى والتظلمات، وكان

صارمًا عنيفًا مع الطغاة، فشاع العدل في زمنه، وقد آثر الاحتشام والتكشف في حياته الخاصة.

وقد تولى الحجابة له «عبد الرحمن بن أمية بن شهيد»، ثم «سعيد بن محمد بن السليم» ثم عزله ولم يولّ أحدًا، واكتفى بالوزراء والكتاب، وبرز من بينهم بدر الخصي الصقلي. وقد اعتمد - بالإضافة إلى العرب والبربر - على الموالي والفتيان، وقدم الموالي الشاميين على البلدانيين كما فعل أبوه.

وقد جرى حادث مؤسف داخل الأسرة الأموية يتمثل في قتل الأمير «عبد الله» لولده «محمد» لاثامه بالتواطؤ مع الثوار لكنه ندم على ذلك، وتحول ندمه، إلى عطفٍ وبر بطفل للقتيل لم يكن قد تجاوز عمره أسابيع ثلاثة عند مقتل أبيه فعنى بتربيته وتعليمه وجعله موضع سره، وشاء الله أن يتولى هذا الطفل أمر الأندلس بعد جده ويصبح أعظم حكامها على الإطلاق.

وللأمير أشعار جيدة خاصة في الغزل والزهد، وكان يقرب الشعراء ويؤثر مجالسهم ومجالس العلماء، ويأتي على رأس شعرائه «ابن عبدربه» وغيره، و «بقي ابن مخلد» على رأس الفقهاء وأصحاب الرأي الذين كان الأمير عبد الله يستشيرهم ويستأنس برأيهم. وقد توفي الأمير «عبد الله» في (أول ربيع الأول سنة 300هـ = 912م).

عبد الرحمن الناصر (العصر الذهبي لبني أمية في الأندلس  
[300 - 350 هـ = 912 - 961 م].

بدأ «عبد الرحمن» حكمه في (ربيع الأول سنة 300هـ = أكتوبر 912م) بعد أن بايعه الجميع بنفس راضية في المجلس الكامل بقصر قرطبة مع وجود كثير من أعمامه، لكن «عبد الرحمن» اكتسب محبة الناس بحسن أخلاقه وتوسطه بين الأمراء وأهل الدولة وبين جده فنال محبتهم

وولاءهم، وكان عليه أن ينهض بمهمة ثقيلة، فقد تعرضت الإمارة للثورات من كل ناحية حتى أصبحت لا يحسد عليها صاحبها، ولعل هذا أحد الأسباب التي جعلت أعمام «عبد الرحمن» ينصرفون عن منافسته، لشعورهم بعظم المسؤولية التي تنتظر من يتولى الإمارة. وقد أثبت هذا الشاب أنه يمكن إعادة بناء دولة ضعف بنيانها بالخلق

(45/7)

المتين وحسن التدبير غير أنه لا ينبغي نسيان فضل الأمير «عبدالله»، فلولا إصراره على تحطيم قوى الثائرين - خاصة «ابن حفصون» - ولولا تدييره شؤون الدولة بالقليل من المال، ما استطاع «عبد الرحمن» أن يوحد البلاد وينهض بها، وكذلك لا ينبغي نسيان فضل البيوت العربية التي وقفت إلى جانب الإمارة تعاونها وتشترك معها في مواجهة المشاكل بأنواعها كافة.

عبد الرحمن والأوضاع الداخلية:

أدرك عبد الرحمن أنه لا بد من مواجهة الكفاح ضده وعدم تمكينه من تحقيق هدفه، فبدأ بإرسال جيش بعد أسابيع قليلة من ولايته إلى قلعة «رباح» شمالي قرطبة لمواجهة ثائر من زعماء البربر يدعى «الفتح بن موسى بن ذى النون» وتمكن من هزيمته، كما هزمت الحملة نفسها بعض المتحالفين معه، وكان لهذا الانتصار في مطلع ولاية «عبد الرحمن» أثره في إرهاب الثائرين.

ثم أرسل «عبد الرحمن» جيشاً في (جمادى الأولى سنة 300هـ = ديسمبر 912م) أعاد مدينة «أستجة» التي كان «ابن حفصون» قد ضمها إليه، وقام القائد بهدم أسوارها وهدم قنطرتهما، وانقطع رجاء أهلها في القيام بثورة، بعد ذلك جهز «عبد الرحمن» جيشاً ضخماً أنفق زماناً طويلاً في إعداده واختار فرسانه بنفسه وزوده بكل ما يحتاج إليه، وخرج على رأسه في (شعبان سنة 300هـ = مارس

913م)، واتجه أولاً إلى الجنوب الشرقي حيث انضم إليه أحد المخلصين للإمارة، ثم مضى في طريق «جيان»، وأرسل بعض قواته إلى مالقة، وأمنها، وهناك عسكر في قلب المنطقة التي ظن «ابن حفصون» أنها معقله، وهنا رغب عدد من الثائرين في الاستسلام فمنحهم «عبدالرحمن» الأمان، ثم استولى على وادي أسن، وحصن المنتلون، وأسر عددًا من حلفاء «ابن حفصون» في ولاية «غرناطة» واستولى على كل ما كان بيده في ولاية «جيان»، ثم واصل سيره حتى وصل إلى ساحل البحر، ومازال عبدالرحمن يجول في تلك الأنحاء ويستولى على حصونها المهمة واحدًا تلو الآخر حتى قضى

(46/7)

على عناصر الثورة بما وبلغ عدد هذه الحصون نحو سبعين حصنًا، ثم عاد إلى قرطبة أيام عيد الأضحى بعد غياب دام نحو ثلاثة أشهر. ثم أرسل الأمير حملة حاصرت «إشبيلية» وهدمت أسوارها سنة (301هـ = 913م) وانتهت بذلك ثورة العرب والمولدين في هذه القاعدة المهمة التي كان «ابن حفصون» يتعاون مع الثائرين بها، ورأى الأمير أنه إذا حرمه من هؤلاء الحلفاء، فإنه سيستسلم من تلقاء نفسه.

وفي (شوال من عام 301هـ = مايو 914م)، سار «عبدالرحمن» إلى جبال «رندة» التي بها المعقل الرئيسي لابن حفصون - وكان قد بسط نفوذه عليها ثانية - واستولى الأمير على عدد من الحصون في الطريق؛ حيث بدأ بمحاصرة قلعة «طرش» - شرقي مالقة - ثم سار إلى حصون «رية» يفتحها الواحد وراء الآخر، والتقت قواته مع «ابن حفصون» وتعرض الثائر وحلفاؤه لهزيمة مريعة اضطر إلى الارتداد ناحية الغرب، واستولى «عبدالرحمن» على سفن كانت تحمل له زادًا قادمًا من بلاد المغرب ثم توجه إلى الجزيرة الخضراء واقتحم

حصونها، ثم سار منها إلى «شدونة» ثم «قرمونة» ورجع بعد ذلك إلى «قرطبة» بعد أن ضيق الحناق على «ابن حفصون».

وقد ظن «ابن حفصون» أنه إذا ارتد إلى النصرانية، فإن ذلك يكسبه ولاء طائفة المستعربين في الأندلس، لكن هذا الارتداد أضره فانصرف عنه كثير من المسلمين والنصارى، بل إن أبناء أنفسهم - باستثناء ولد له و بنت - لم يوافقوا على التنصر، واضطر ابن حفصون إلى أن يبعث برسالة إلى «عبدالرحمن الناصر» يطلب الصلح والأمان وقد وافق الناصر على الفكرة مع الحذر من مكر الثائر وغدره، واتصل بأكابر أعوانه ومنحهم الأمان، وتمت كتابة شروط الصلح، وبمقتضاها دخل مائة واثنتان وستون حصناً في طاعة الناصر، وقد سُرَّ كلا الطرفين بهذا الصلح، وتلقى الناصر هدية قيمة من ابن حفصون بهذه المناسبة وكافأه عنها بأضعافها.

وفي شهر (ربيع الأول سنة 306هـ = أغسطس 918م) مات «عمر بن

(47/7)

---

حفصون» عن عمر يناهز اثنين وسبعين عامًا بعد أن قاد أكبر ثورة قام بها المولودون ضد الإدارة الأموية في غرب الأندلس كله، وتنفست الحكومة الأموية بوفاته الصعداء بعد أن كان شاغلها الشاغل طوال ثلاثين عامًا.

وقد سار «عبدالرحمن» بنفسه إلى مواطن ثورة «ابن حفصون» وقضى على جيوب المقاومة بما وطهرها من آثاره، وصلى في مسجدها الجامع واستولى على كل معاقلها وحصونها، وأعدم ابنة لابن حفصون لإصرارها على الارتداد إلى النصرانية، وانتهى بذلك أمر تلك الثورة العنيدة تمامًا.

وقد بالغت المصادر الأوربية في تصوير «عمر بن حفصون»، وقدمته على أنه بطل قومي رمى إلى غاية نبيلة، وهى تحرير وطنه من نير

المتغلبين عليه وردده إلى ديانته النصرانية.  
والحقيقة أن الرجل لم يكن أكثر من قاطع طريق وناشر عنيف ولم تكن  
تدفعه أغراض قومية أو نبيلة، ولم تحمسه الشهامة أو العزة القومية،  
بل إن كل ما قام به يتعارض مع الشرف والمروءة والشهامة.  
أنفق عبدالرحمن الناصر بعد ذلك أربع سنوات في القضاء على  
حركات الثوار في غربي الأندلس وجنوبها ولم يغفل لحظة عن مطاردة  
العصاة، فحاصر «طليطلة» التي كانت معقلاً للثوار لمدة عامين حين  
قام بالخروج فيها أحد زعماء المولدين حتى ينست واستسلمت وخرج  
بنفسه في أواخر (317هـ = 929م) متوجهاً ناحية الغرب وأندلس العصاة  
وحاصر «بليوس» وغيرها ومنع عنها كل مورد وضربها بشدة حتى  
اضطرت إلى التسليم، وفعل الشيء نفسه في «باجة» وفي  
«أكشونة» قرب ساحل المحيط التي أتى الثائر بها معتذراً فقبل  
«الناصر» عذره.

وكما طارد الناصر العصاة في الغرب طاردهم أيضاً في شرق البلاد،  
فبعث وزيره «ابن بسيل» لمقاتلة بنى ذى النون، فقصدهم معقلهم  
«سنت بريه» واقتحمه وقتل رجاله ولم يتركه إلا بعد أن خضع له،  
وفي سنة (317هـ = 929م) افتتحت مدينة «شاطبة» بعد أن ترددت  
عليها الحملات العسكرية لمدة خمسة أعوام، وبذلك أخدمت كل

(48/7)

---

الثورات في أنحاء الأندلس كافة بعد أن بقيت نحو نصف قرن تستنفد  
موارد البلاد وتمنعها من الجهاد ضد عدوها المتربص بها في إسبانيا  
النصرانية.

علاقة الناصر مع ملوك قشتالة ونبيلونة:  
تعرضت الحدود الشمالية لقرطبة لأخطار جسيمة قبل أن يتولى  
«عبدالرحمن الناصر»، وفي الأيام الأولى للناصر تمكن «ألفونسو»

الثالث» ملك «اشتورياس» من الاستيلاء على حصون «قلمرية» - في البرتغال حاليا - كما سيطر على حصون ليون واشترقة وأماية وسمورة منتهزا فرصة انشغال الأمير في المشاكل والثورات الداخلية، وقام بتسكين أعداد كبيرة من نصارى الأندلس المستعربين الذين هاجروا إلى الشمال واستقروا في الممالك النصرانية، وعقب موت «ألفونسو» الكبير هذا استولى خليفته على حصن «أرماج» -الذي سيكون له شأن في الصراع بين الإسلام والنصرانية زمن الناصر- ومعنى ذلك أن مملكة «اشتورياس» توسعت وتضاعفت مساحتها وأصبحت تسمى مملكة ليون في الأيام الأولى لحكم الناصر، بل تجرأ بعض قواد النصارى ووصلوا إلى ضفاف نهر «الدويرو».

وقد انتهز أمراء بنبلونة - عاصمة نبرة - وغيرها من الإمارات النصرانية الصغيرة الواقعة جنوبي جبال «البرت» الفرصة، وتمكنوا بمعاونة أصحاب الثغر الأعلى الأندلسى من تهديد المعاقل الإسلامية في «تطيلة» وغيرها، ونجح ملك قشتالة الجديد في مد حدود دولته لتشمل أراضي قشتالة الجديدة، التي كانت أراضي إسلامية بما عدد قليل من المسلمين في ذلك الوقت، كذلك أمكن لإمارة «قطالونية» التي تمكن ملوك الإفرنجية من إنشائها في عهد «عبدالرحمن الداخل»، أن تتوسع أيضاً على حساب أراضي المسلمين.

وهكذا كان على عبدالرحمن الناصر عند توليه أن يواجه موقفاً بالغ الخطورة على حدوده الشمالية من ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى ساحل المحيط الأطلسى.

راميرو الثانى ملك ليون:

تولى «راميرو الثانى» الحكم فى «ليون» فى السنة نفسها التى

تولى فيها «الناصر»، وكان «راميرو الثاني» ملكًا طموحًا دأب الحركة، ولهذا بدأ في العام الثاني لحكمه يهاجم أراضي المسلمين، ووصل إلى «يابرة» - في البرتغال الحالية - على رأس جيش بلغ تعداده ثلاثين ألفًا وتصدى له عامل البلدة المسلم، ولكنه هُزم وتمكن النصارى من دخول البلد وارتكبوا مذبحه ضد أهلها وأسروا أربعة آلاف، فيهم عدد من النساء والأطفال، وقد خشى عمال البلاد من مهاجمة هذا الملك لبلادهم، فحصنوها وأحاطوها بالأسوار الحجرية المتينة، ومع ذلك استطاع ملك ليون مهاجمة مدينة «ماردة» ونهب أراضيها ودخل بعض حصونها وقتل فيها ألوف المسلمين، وأنشأ هناك كنيسة تسمى كنيسة القديسة «ماريا الليونية».

وكان «عبدالرحمن» يؤثر في أول الأمر غض الطرف عن محاربة النصارى إلى أن يتمكن من تطهير الأندلس من الثائرين، لكن هذا التخريب والفساد والعبث من جانبهم جعل الناصر يتخلى عن خطته، فبعث بجيش قوى سنة (304هـ = 916م) التقى بجموع النصارى وهزمهم في عدة مواقع وعاد محملاً بالغنائم وفي العام التالي ضج المسلمون وطلبوا من الأمير إنقاذهم، فأرسل إليهم قوات يتزعمها «أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي عبدة» قائده الكبير، وقد استعد له ملك النصارى وجهاز أحسن مالمديه من عدة وسلاح.

والتقى الفريقان بالقرب من بلدة «أرماج» وانهمز المسلمون وقتل قائدهم وتتبع النصارى فلولهم لمسافات بعيدة، وكانت تلك نهاية «أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي عبدة» القائد المغوار صاحب الفضل في المحافظة على بقاء الإمارة الأموية طوال فترة حكم الأمير «عبدالله»، وقد قام ملك النصارى بتعليق رأس هذا القائد العظيم على سور البلدة المذكورة وبجواره خنزير برى نكاية به.

هنا أدرك «عبدالرحمن» أن الأمر جد خطير وبخاصة بعد تحالف ملك ليون مع ملك نبرة، وسارت قواتهما معًا تريد الاستيلاء على مدينة «طليطلة» غربي «طليطلة» وفي الوقت نفسه توجهت قوات تابعة

ملك «نبرة» لمهاجمة أراضي «بني قسي» أصحاب «طليطلة»، وأحرقت الزروع وعاثت فساداً، وأحرقت بعض المساجد، ولهذا أعد عبدالرحمن جيشاً ولى قيادته حاجبه «بدر بن أحمد» الذى احتشد له النصارى من كل ناحية، وتقدم المسلمون كالسيل إلى حدود ليون وهزموا النصارى هزيمة ساحقة فى موقعتين، ومع ذلك استمر النصارى يغيرون على الأراضى الإسلامية، وجرت حروب كانت سجالات. صمم عبدالرحمن على أن يخرج بنفسه لمقاتلة النصارى، فخرج من قرطبة فى (13 من المحرم سنة 308هـ = أوائل يونيو سنة 920م) فى جيش ضخم، وانضم إليه كثير من أهل الثغور، وقد اخترق أراضي الثغر الأوسط من طليطلة شمالاً واتجه إلى طريق ألبة والقلاع «قشتالة»، ووصل إلى «قلونية» ونسف وخرّب دون أن يعترضه النصارى لأن ملكى ليون ونبرة كانا ينتظران بجموعهما فى الشمال. وقد عرج «عبدالرحمن» على «تطيلة» واستولى على حصون مهمة بها، ثم عبر نهر «إبرة» حيث وجد الملكين فى كامل قواتهما، وقد أراد استدرج الناصر إلى شعب الجبال، لكنه نجح فى سحبهما إلى السهل المنبسط وعسكر غربى «بنبلونة» عند بلدة تسمى «خونكيرا»، وعندما انحدر النصارى من الجبل إلى السهل، أوسعهم المسلمون قتلاً وأسراً وفتكوا بالعديد من أساقفتهم وزعمائهم ومزقوهم، ثم هدم عبدالرحمن حصونهم، وأصلح حصون المسلمين بهذه النواحي، وجرت هذه الموقعة فى (6 من ربيع الأول سنة 308هـ = 26 من يوليو سنة 920م)، وقد استغرقت غزوة الناصر هذه ثلاثة أشهر، وكانت أول غزوة له ضد ملوك النصارى.

لم ترتدع قوى النصرانية رغم ما تعرضوا له من هزائم وأخذوا يهاجمون الأراضى الإسلامية، واستولوا على بعضها، لذلك خرج «عبدالرحمن» إليهم مرة أخرى فى (المحرم سنة 312هـ = 17 من

أبريل 924م) وسلك اتجاه الشرق مختزفاً كورة تدمير فيلنسية، ثم دخل إلى طرطوشة فسرقسطة ثم تطيلة، ثم دخل أراضى «نبرة» حيث استولى على كثير من الحصون وهدمها، ثم قصد بعد ذلك بنبلونة -

(51/7)

عاصمة مملكة نبرة - ودمرها وهزم ملكها، وأنهى مقاومته تماماً وفي طريق عودته إلى «قرطبة» عرج على «موسى بن ذى النون» وقبل طاعته وقد استغرقت هذه الغزوة أربعة أشهر وعرفت بغزوة «بنبلونة».

مات ملك ليون وحدثت مشاكل داخلية انتهت بتولية ملك جديد عمل على توسيع الفتنة بين المسلمين، وكانت «طليطلة» آتخذ تقوم بثورة معارضة، فقام الملك النصراني بتشجيع الثوار، وبدأ «عبدالرحمن» من ناحيه يرسل العلماء لحث الثوار على الطاعة، فلم يستجب أحد مطمئنين إلى مخالفة ملك النصارى لهم، لذلك اضطر الناصر إلى أن يخرج إلى الثائرين في قوات ضخمة في (ربيع الثاني سنة 318هـ = مايو 930م)، وبعد حصار شديد غادر عبدالرحمن المدينة وترك على حصارها بعض قواته، ثم عاد إليها بعد عامين فسار ملك ليون لإنقاذ «طليطلة» واستولى في طريقه على حصن مجريط (مدريد) لكن المسلمين استردوه، ففر ملك ليون واضطر أهل «طليطلة» إلى التسليم، وانتهت بذلك ثورة من أخطر الثورات التي واجهها الناصر. وواصل «عبدالرحمن» ضرباته في بلاد الشمال، ولم يجد ملوك النصارى مفراً من طلب الصلح، وأصبحوا من أتباع الناصر، يخطبون وده ويطلبون العلاج في عاصمته. ولكن ملك ليون آلمه أن يخضع ملوك النصارى لأمير قرطبة، فحرضهم على حربه وجمع جيشاً كبيراً يواجه به المسلمين فاستعد له عبدالرحمن استعداداً كبيراً؛ خاصة وقد تمكن الملك النصراني من

الاستيلاء على حصن مجريط وهدد طليطلة سنة (320هـ = 932م) وقصد الجيش النصارى عن طريق وادى الحجارة، ثم سار إلى سرقسطة وبعث بقوات إلى «تطيلة» و «طرطوشة»، وتحول إلى أراضى «نبرة» ليتلقى من ملكتها رسالة تعبر عن رغبتها في السلم والمصالحة، فوافق الأمير وأقر ابنها ملكاً على بلاد «البشكنس»، ثم سار إلى أراضى «ألبة والقلاع» وخرب ونسف وعاث في أراضى ليون، فاجتمع له النصارى ودارت معركة عنيفة انتصر فيها المسلمون

(52/7)

ووصل إلى مقربة من ليون، ثم ارتدت قواتهم شرقاً وأخذت تعيث في أراضى قشتالة وخربت عاصمتها «برغش» ثم عادت القوات الإسلامية إلى قرطبة بعد أربعة أشهر.

وفي سنة (323هـ = 935م) خرج أسطول الناصر في أربعين سفينة

من ثغر ألمرية إلى جزيرة ميورقة، ومنها إلى شواطئ الثغور

الفرنجية حيث حقق انتصارات كبيرة، وتوجه بعدها إلى برشلونة.

فاجتمع الفرنج لمقاتلته، ودارت بينه وبينهم مجتمعين معركة انتصر

فيها الأسطول الإسلامي، ثم رجع إلى طرطوشة حيث صدرت الأوامر

للقائد بالتوجه إلى سبتة وطنجة للتعامل مع الثائرين هناك، فظل

يتردد بين مراسى العدو المغربية حتى شتاء العام التالى، ثم رجع

إلى مرسية في (صفر سنة 324هـ = ديسمبر 935م).

كان «عبدالرحمن» قد عقد صلحاً مع ملك ليون بناءً على رغبته، لكن

النصارى من البشكنس تحركوا واحتلوا بعض الحصون، وفي الوقت

نفسه ظهرت بوادر فتنة خطيرة في سرقسطة، لأن أصحابها

التجبيين لم يكونوا على وفاق مع حكومة قرطبة، وما كانت تعجبهم

سياسة «عبدالرحمن» التى تعمل على إخضاع الزعماء المحليين

بالإضافة إلى أن وجودهم بين الممالك النصرانية أعطاهم فرصة

التآمر والخروج على سلطان الحكومة المركزية، وقد رفض زعيمهم بالفعل أن يشترك مع الناصر في حملته الأخيرة ضد النصارى، بل وتحالف مع ملك ليون ضد المسلمين، وانضم إليهما البشكنس، وبذلك وقف الشمال كله متحالفًا ضد عبدالرحمن.

بعث الناصر بعض القوات التي تعاملت مع هؤلاء في بعض المواقع، وتمكنت حامية مجريط - أهم قلاع الثغر الأدنى - من رد هجوم ملك «ليون» عليها، ثم خرج عبدالرحمن بنفسه على رأس جيش ضخم في (رجب سنة 325هـ = مايو 937م) فسار أولاً إلى «طليطلة» لتأمين أهلها وإرهاب النصارى، وسلمت له «وشقة» و «طليطلة» غربي «طليطلة».

بعد ذلك توجه الناصر إلى الثغر الأعلى عن طريق وادي الحجارة، وقصد قلعة أيوب التي يعتصم بها زعيم التجيبين، وعرض عبدالرحمن

(53/7)

---

عليه الطاعة فرفض، واضطر إلى أن يدخل معه معركة عنيفة انهزم فيها الثائر وطلب الأمان فوافق الناصر على تأمينه، وكان سقوط قلعة أيوب هذه أول صدع خطير في ثورة بني تجيب.

ثم اتجه الناصر إلى ألبة والقلاع ففتح من حصونها سبعة وثلاثين حصناً، ثم ذهب إلى بنبلونة - عاصمة نبرة - لتأديب الناكثين. وأخيراً قبل اعتذار ملكتها وتوجه إلى تطيلة ومنها إلى سرقسطة وقام ببعض العمليات الناجحة برا وبحراً ضد ملك ليون وحلفائه، واستمر يحاصر سرقسطة حتى طلب زعيم بني تجيب الصلح فوافق الناصر، وبذلك سقطت سرقسطة وحصونها المهمة في يد الناصر، وانهارت أخطر ثورة واجهها الناصر، وهي ثورة التجيبين الذين كانت بلادهم مركزاً يجمع القوى المعادية لخلافة قرطبة سواء أكانوا من الثوار أم من زعماء النصارى.

وبلاحظ أن الناصر كان حريصًا على أن يعفو عن الثوار وأن يحسن إليهم ويضمهم إلى جيشه، وبهذه السياسة الرشيدة استطاع أن يستفيد من كل القوى المناوئة له عندما أحسن إليهم، وقد دخل الأمير الأندلسي سرقسطة وأرسل منها ثلاثة جيوش توغلت في أراضي ألبه والقلاع وهزمت النصارى في عدة مواقع، ثم عادت جميعًا إلى قرطبة في (18 من ربيع الأول 326هـ = أواخر يناير 938م) بعد ثمانية أشهر قضوها في العمليات الناجحة، وأراد الناصر أن يكرم زعيم «بنى تجيب» فرده إلى «سرقسطة» وأعادته إلى مكانه وولاه كل مناصبه السابقة.

مزق «عبدالرحمن الناصر» التحالف النصراني الخطر وأخضع الشمال الشرقي كله لسيطرته ولم يبق إلا ملك ليون بؤرة الفساد الحقيقي في هذه المناطق، وقد تم تجهيز جيش ضخم بلغت قواته نحو مائة ألف جندي، وولى الناصر قيادته «نجدة بن حسين الصقلبي»، وكان الصقلابة قد سيطروا في هذه الآونة على كل مناصب القصر والقيادة، وقد أثر ذلك على نفوس العرب وكان سببًا في تدهور قوى الجيش المعنوية.

وفي صيف عام (327هـ = 939م) سار الناصر وعبر نهر التاجة عند

(54/7)

طليطلة ثم عبر نهر «دويرة» متجهًا نحو قلعة «شنت مانكش» حيث كان ملك ليون قد عسكر مستعدًا وحالفه «أمية بن إسحاق» وملكة نبرة التي نقضت عهدها، وبذلك اتحدت قوى النصرانية من جديد ووقفت صفا واحدًا في مواجهة المسلمين.

وجرت بين الطرفين موقعة تعد من كوارث التاريخ الأندلسي، عرفت بموقعة الخندق، وتفيض المصادر الإسبانية في وصف ما حدث، بينما تقدمها الرواية الإسلامية في صورة مقتضبة، وقد جرت وقائعها على

باب قلعة «شنت منكش» (سيمانقة) وكانت الحرب سجالا، ثم انكشف المسلمون انكشافاً لم يسمع بمثله وردهم العدو إلى خندق عميق نسبت الموقعة إليه، وقد تساقط فيه المسلمون حتى امتلأ بهم عن آخره وانكشف الناصر واستولى العدو على محلاته وما فيها من عدة ومتاع وفقد مصحفه الشريف ودرعه.

وكان للخونة وعلى رأسهم «فرتون بن محمد الطويل» أثره في الهزيمة، وقد أعدمه الناصر جزاءً وفاقاً لخيانته، كما كان لتولية قائد صقلبي أثره في امتعاض العرب وتأثيره على روحهم المعنوية أثناء القتال، وقد قتل ذلك القائد في المعركة، وأسر من كبار المسلمين «محمد بن هاشم التجيبي» وبقي في أسر ملك ليون مدة عامين حتى افتداه الناصر بمبلغ كبير.

وهذه خاتمة معارك الناصر الحربية، فلم يغز بعدها بنفسه واقتصر تقليد شؤون الثغر الأعلى على أكابر رجاله ممن ورثوا الصلابة والبأس عن الأجداد، من أمثال آل تقيب وآل ذى النون وآل زروال وآل الطويل وآل رزين وغيرهم، وكان الناصر يزورهم كل عام ويزودهم بالعدد والسلاح، وقد استأمن «أمية بن إسحاق» الذي تحالف مع النصارى فوافق الناصر على تأمينه عملاً بسياسته في اصطناع الخصوم الأقوياء.

أرسل ملك ليون يطلب الصلح مع الناصر فاستجاب له الأخير، لكنه كان صلحاً قصير الأمد كالعادة، كما عقد الناصر صلحاً مع ملك برشلونة وغيره، لكن ملك ليون لم يحترم الصلح وهاجم الأراضي الإسلامية، فاضطر المسلمون إلى غزو مملكة ليون سنة (329هـ =

(55/7)

---

941م)، وتوجيه بعض الحملات إليها وإلى جليقة.

وفي سنة (335هـ = 946م) جدد الناصر مدينة سالم، أقصى مدن

الأندلس الشمالية الغربية إلى حدود ليون، ونقل قاعدة الثغر الأعلى من طليطلة إليه، وولّى عليها قائده «غالب الناصري» الذي كان له شأن في تاريخ الأندلس زمن الناصر وابنه الحكم المستنصر بعده، وقامت قوات عبد الرحمن بمعارك وغزوات ناجحة حتى وصلت إلى شاطئ المحيط الأطلسي، الشيء الذي جعل ملك ليون يطلب الصلح مع الناصر إيماناً بأنه لا قبل له به.

عبد الرحمن الثالث والبلاد المغربية:

عندما تولى عبد الرحمن الناصر، كانت الدولة الفاطمية قد قامت في بلاد المغرب منذ أربع سنوات في (296هـ = 909م)، وامتد نفوذها بسرعة حتى وصل إلى سبتة، وأصبحت تهدد الشواطئ الأندلسية وتمثل خطراً دينياً وسياسياً عليها، ومن الطبيعي أن يزعج هذا الأمر الأمويين في الأندلس؛ لأن المغرب قاعدة من يريد الوصول إلى الأندلس. كما أنه يمد الثوار بما يحتاجهم ويشجعهم على التآمر ضد الإدارة الأموية.

كان على الناصر أن يواجه هذه المشكلة قبل أن يستفحل خطرها. ولهذا بعث سنة (319هـ = 931م) أسطولاً مكوناً من (120) سفينة وسبعة آلاف رجل إلى سبتة انضم إليه بعض المنتووعة في الطريق، وقد تمكن هذا الأسطول من السيطرة على سبتة وانتزعتها من البربر حلفاء الفاطميين، ثم حاصر الأسطول بعد ذلك طنجة وضيق عليها حتى استسلمت وخضعت للناصر وغادرتها بقية الأدارسة، وبادر زعماء البربر إلى إعلان الطاعة للناصر وامتدت دعوته حتى فاس، وأطاعه «موسى بن أبي العافية» زعيم مكناسة، وأمدّه الناصر بالجنود والسفن حتى هزم الفاطميين ووقف سداً منيعاً أمام محاولاتهم في المغرب واستمرت جيوش عبد الرحمن تعبر من الأندلس لمحاربة الفاطميين وحلفائهم من البربر والأدارسة حتى استقر له الأمر ودعى له على منابر المغرب سنة (332هـ = 944م).

وقد قويت الأساطيل الفاطمية في عهد الخليفة «المعز لدين الله»،

وبدأت تجوب شواطئ البحر الأبيض المتوسط، ووصلت إلى المرية وأحرقت سفنها وعائت فيها سنة (344هـ = 955م)، فرد الخليفة الناصر بإرسال قوة بحرية عاثت في تونس، وأمر بلعن الفاطميين والشيعية على منابر الأندلس، وفي سنة (347هـ = 958م) أرسل الناصر أسطوله ثانية إلى إفريقية ردا على الحملة الفاطمية التي قادها «جوهرة الصقلي» إلى عدوة المغرب، التي تمكنت من الوصول إلى فاس، وأرسل في الوقت نفسه حملة أندلسية عن طريق سبتة إلى المغرب بقيت هناك حتى رجع الفاطميون.

وكانت سياسة الناصر مع الفاطميين تتجنب الدخول في صراع صريح معهم؛ لأن هذا يضعف جبهته الشمالية أمام النصارى، ولهذا وجدناه يكتفى بإرسال السلاح والعتاد والمعونات المالية الكبيرة إلى «موسى بن أبي العافية» و «مصالة بن حبوس» وأمثالهما لإلحاق الهزيمة بأعداء الفاطميين، ثم اكتفى باحتلال سبتة وطنجة ومنهما زود أعوانه في المغرب بمحاجتهم ليثبتوا أمام الشيعة، وربما لجأ إلى معاونة الخارجين على الفاطميين من غير الأدارسة وهو على كل حال لم يلق بخيرة جنده وقواده في الصراع المغربي، وهذا هو الخطأ الذي وقع فيه ابنه الحكم المستنصر بعد ذلك فأثر على جبهته الشمالية وأضعفها ولم يتمكن من الخروج بنتيجة حاسمة. عهد الخلافة الأموية في الأندلس:

عندما تولى «عبد الرحمن الداخل» أمر بعدم الدعاء لبني العباس ولم يتخذ لقب الخلافة مكتفياً بالإمارة، وسار بنوه على نهجه، فلما تولى الناصر، وجد أن هناك دولة فاطمية قامت في بلاد الشمال الإفريقي، ووصل نفوذها إلى شواطئ المغرب الأقصى، وقد اتخذ حكامها لأنفسهم لقب الخلافة وسماتها، وإذا كان هو قد نهض بالدولة ووطد سلطان بني أمية في كل الأندلس فلماذا لا يكون من حقه لقب خليفة؟

لذلك أصدر أمرًا بذلك في يوم الجمعة مستهل (ذى الحجة سنة 316هـ = أوائل 929م) وأصبح عبدالرحمن الثالث يلقب بالخليفة أمير المؤمنين

(57/7)

الناصر لدين الله، وقد أرسلت نسخ من هذا الإعلان إلى إفريقية والمغرب، وبذلك أصبحت الخلافة الأموية مساوية للخلافة العباسية، ويناط بها رعاية شئون المسلمين، وتولية أمر الإسلام في الجناح الغربي من العالم الإسلامي.

وقد استتبع ذلك تغييرًا كبيرًا في شكل الإمارة القرطبية ونظامها؛ حيث وضعت لها هياكل إدارية تعكس هيبة الدولة وتمنح البلاط القرطبي وجاهة أكثر. وكثر القواد في جيش الخلافة وتنوعت مراتبهم وكثر الوزراء أيضًا وتضاعفت هيبتهم.

وكانت سياسة الناصر تقوم على النقل المستمر لوزرائه وولاته وقواده حتى لا يطول أمد الواحد منهم في وظيفته، وقد يدفعه ذلك إلى الاستبداد بالسلطة ..

لقد كان عبدالرحمن يؤمن بالسلطان المطلق للخليفة، ولا يسمح لكبار رجال الدولة بإملاء رأى عليه، كما لا يمنح ولاة الأقاليم شيئًا من الاستقلال، ويرى أن الرعية ينبغي أن تكون رعية مطيعة تأتمر بأمر الخليفة خاصة بعد الانتصارات التي حققها على المستويين الداخلي والخارجي، وكان يلقي وزراءه في مجلس فخم يعد كل شيء فيه بنظام مرتب.

ورغم ميل الناصر إلى الاستبداد فإنه لم يعرف عنه أنه كان ظالمًا، ولم تذكر المصادر أنه قتل وزيرًا أو صادر مالا أو اعتدى على حق لأحد أو بالغ في عقوبة، وربما كان الوحيد بين خلفاء المسلمين بالأندلس فيما يتعلق بتصرفاته في الخلافة وسلوكه بما يتفق مع مكارم الأخلاق ومبادئ الإسلام، وبهذه الأخلاق والوفاء استطاع

الناصر بعد عشر سنوات من حكمه أن يعيد النظام والهدوء والوحدة والأمان إلى دولته الواسعة، كما منح أمانات لبيوتات الثغر الأعلى من أمثال: بني هاشم وبني قسي وبني الطويل واستفاد بهم وبما تميزوا به من شجاعة في حروبه، ونجح في تحويل ملوك إسبانيا النصرانية إلى أتباع له أو حلفاء.  
إنشاء مدينة الزهراء وزيادة المسجد الجامع:  
كثر سكان قرطبة في عهد الناصر ووصلت مبانيها إلى تل الرصافة

(58/7)

الذى يقوم عليه قصر الرصافة، ولم تعد قصور العاصمة تليق بالمكانة العظيمة التي ارتفعت إليها الخلافة، كذلك ضاقت أسواق البلد وطرقها، وأصبح من العسير على جيوش الدولة وموآكب السفراء المستمرة أن تسير في شوارع المدينة دون أن تضايق الناس.  
وكان الناصر قد بنى إلى جانب «القصر الزاهر» قصرًا جديدًا سماه «دار الروضة» استدعى له المهندسين والبنائين من كل ناحية، وأنشأ في ظاهر قرطبة متنزهات عظيمة جلب لها الماء من أعلى الجبل فوق قناطر بديعة، ومع ذلك فقد كانت العاصمة تضيق بسكانها ولا تفي بحاجة ملك عظيم بلغه الناصر، ووطده عن طريق سحق أعدائه في الداخل والخارج؛ لهذا كله فكر في إقامة مدينة جديدة تضم قصوره وأماكن حاشيته، وأخذ المهندسون في دراساتهم ووصلوا إلى إقامة على سفح جبل العروس على بعد ستة كيلو مترات من العاصمة وتطل عليها من الناحية الجنوبية الغربية.  
سميت تلك المدينة بالزهراء، نسبة إلى إحدى نساء عبدالرحمن التي ماتت عن مال كثير وأوصت أن ينفق في افتتاح أسرى المسلمين، لكن الناصر لم يجد أسرى فقرر إنشاء المدينة بهذا المال وأطلق عليها اسم صاحبة ذلك المال.

بدأ العمل في المدينة الجديدة (أول المحرم 325هـ = نوفمبر 936م)،  
وتولى الإشراف على بنائها «الحكم» ولى العهد، وحشد لها أشهر  
المهندسين والصناع والفنانين من سائر الأقطار ولاسيما القسطنطينية  
وبغداد، وجلب لها الرخام بألوانه من «المرية» و «رية»، ومن قرطاجنة  
إفريقية وتونس والشام، وجلب لها (4324) سارية من الرخام واشتغل  
في بنائها يومياً عشرة آلاف رجل، و (1500) دابة، واستخدمت من  
الصخر المنحوت ستة آلاف صخرة في اليوم، وقدرت النفقة على  
بنائها ب 300 ألف دينار سنوياً بخلاف ما أنفق في عهد الحكم،  
وأقام الناصر لنفسه قصرًا جديدًا، بنى فيه مجلسًا ملوكياً أسماه  
قصر الخلافة، جدرانها من رخام مزخرف بالذهب، وفي كل جانب من

(59/7)

جوانبه ثمانية أبواب، وأقام الخليفة في الجناح الشرقي المسمى  
بالمؤنس، وزوده بأنفس التحف ووضع فيه الحوض المنقوش بماء  
الذهب المهدي إليه من قصر القسطنطينية.  
وجدير بالذكر أنه تم التخطيط لمدينة «الزهراء» بحيث تكون مستقلة  
بذاتها، وقد بنيت على مدرجات بحيث يرقى من يدخل المدينة من  
درجة إلى درجة، وفي كل درجة يجد قسمًا من أقسام المدينة،  
ويدخل الإنسان إليها من أسفل الجبل عن طريق باب كبير يسمى باب  
الأقباء - جمع قبة - لأن هذا المدخل كانت تحيط به وتقوم فوقه قباب،  
بعد ذلك يسير الإنسان مسافة طويلة في طريق مبلط تقوم على  
جوانبه الأعمدة وغرف الحرس حتى يصل إلى باب السدة (باب القصر)  
ويصعد درجات، وإلى جانب هذا المصعد ذى الدرجات يوجد مصعد آخر  
بلا درج مخصص للخيل، وعندما يصل الإنسان إلى المستوى الثاني  
يجد مساكن الجنود وأصحاب الحرف الذين تحتاج إليهم المدينة، كما  
وجدت هناك آثار المسجد الجامع لمدينة الزهراء، وكل هذه البيوتات

محاطة بالأشجار والخضرة، وعندما ينتهي الإنسان من هذا المستوى يصعد مرة أخرى حتى يصل إلى سهل منبسط بنيت عليه قصور كبار رجال القصر وموظفيه بما في ذلك أماكن إقامة الحرس الخاص بال خليفة، وما يلزم لهؤلاء من حمامات ومساجد، بعد ذلك يصعد الإنسان مرة ثالثة فيواجه لأول صعوده البهو الكبير الذى أنشأه الناصر لاستقبال السفراء والملوك الأجانب، وهو بهو فخم يتكون من ثلاثة أقواس تفضى إلى قاعة فسيحة بها ثلاثة أعمام ينتهى الأوسط بمجلس الناصر فى صدره، وهناك يجلس الخليفة فوق عرشه تحيط به مقاعد الأسرة المالكة كل حسب مرتبته، وعلى الجانبين مقاعد للوزراء وكبار رجال الدولة والضيوف موضوعة بصورة محكمة بحيث يختص كل مسئول بمقعده الذى لا يتغير، فإذا ما نظر الناصر ووجد مقعدًا خاليًا عرف من تغيب، أما البهوان الداخلىان فيستعملان لموظفى القصر وكتاب الخليفة، وهذا المجلس يبدو للرأى من بعيد

(60/7)

عندما يهل الإنسان على مدينة الزهراء، وقد أراد «عبدالرحمن» على هذه الصورة؛ ليتمكن من رؤية السفراء والملوك وهم مقبلون من بعد، ثم وهم صاعدون إلى القصر، وقد سميت الرحبة التى أقيم فيها البهو الرئيسى باسم «السطح الممرد»، وجعل أمام بهو الاستقبال حوض للسباحة، مصنوع من الرخام حفر له فى الأرض، وزين بالتماثيل وقد تم جلبه من القسطنطينية وقد ضاعت معالم هذا القصر أثناء محنة الفتنة والصراع على الخلافة ويحاول علماء الآثار منذ سنة (1328هـ = 1910م) العثور على شىء من معالم هذا القصر، وإعادة إقامة بعض منشآته وخاصة بهو الاستقبال.

وبناء هذه المدينة والقصر يعكس رخاء الأندلس ونهضة الفن المعمارى بها آنئذ، ووصل ازدهار قرطبة إلى أعلى درجاته فوصل عدد دورها

إلى 113 ألف دار بلغ مجموع قاطنيها مليوناً ومائة وثلاثين ألفاً،  
ومما يدل على كثرة سكان العاصمة أن عدد الحمامات بها بلغ  
ثلاثمائة حمام، وعدد مساجدها ثلاثة آلاف.  
وقد بلغت إيرادات الأندلس نحو 5.5 مليون دينار من الكور والقرى ومن  
الأسواق ونحوها 765 ألف دينار قسمت ثلاثاً: ثلث للجنود، وثلث للبناء،  
وثلث يدخر للطوارئ.  
الزيادة في المسجد الجامع:  
أمر الناصر بإضافة زيادة ثالثة إلى المسجد الجامع في قرطبة سنة  
(346 هـ = 957م)، وقد ضاعفت هذه الزيادة حجم المسجد في الاتجاه  
الجنوبي، وقد تم بناء الزيادة على طراز بقية المسجد نفسه من حيث  
الأقواس ومواد البناء.  
وعُد محراب هذه الزيادة في المسجد آية من آيات الفن الأندلسي ذلك  
أنه ليس محراباً بل غرفة من الرخام سقفها قطعة واحدة منه في هيئة  
محراب، ووسط هذا المحراب كرسى يوضع عليه المصحف الشريف  
يستخدمه القارئ في تلاوة القرآن الكريم قبل الصلوات.  
وكان «عبدالرحمن الناصر» قد هدم منارة المسجد القديمة سنة  
(340 هـ = 951م)، وجعل له منارة تميزت بفخامتها وارتفاعها  
الشاهق، وكانت مربعة الواجهات، ولها 14 شباكاً، وسلمان للصعود

(61/7)

---

والهبوط وفي قمته ثلاث تفاحات كبيرات اثنتان من الذهب وواحدة  
من الفضة، وقد أزال النصارى هذه المنارة وأقاموا مكانها برج  
الأجراس الحالى، ولا تزال اللوحة التي تشيد بجهود عبدالرحمن الناصر  
قائمة في مكانها عند الباب الرئيسي المسمى باب النخيل.  
كذلك أقام عبدالرحمن ما يعرف بالمظلة في صحن المسجد، وهي  
سقف متحرك يتكون من أعمدة من الخشب والحصر، يستظل بها الناس

أثناء الصلاة في زمن الصيف، ثم ترفع بعد الصلاة لأن صحن الجامع الفسيح كان مزداناً بأشجار النارج، وتلك ظاهرة تنفرد بها صحون مساجد الأندلس عن غيرها.

ولانتقف جهود الناصر عند هذا الحد، وإنما يرجع إليه الفضل في إنشاء عدد كبير من المساجد في شمالي الأندلس وجنوبيه، كما أن إليه يرجع فضل تجديد قنطرة الوادي وقنطرة سرقسطة وقنطرة ماردة.

وقد اهتم الناصر بالجيش وجمع له الجند من أنحاء المغرب والأندلس، واستكثر من الأسلحة، وأمدّه بمجموعة من أمهر القادة، وتولى القيادة بنفسه أحياناً.

كما عنى بالأسطول واهتم بإصلاح وحداته، وأنشأ به وحدات جديدة، وكانت «المرية» هي مركز الأسطول الرئيسي وبها دار الصناعة، وقد ضم أسطول الناصر (200) سفينة بخلاف أسطول المغرب، وكان لأسطول الناصر السيطرة على مياه إسبانيا الجنوبية الشرقية، كما كان ينازع الفاطميين السيادة على غربي البحر الأبيض المتوسط، وعلى الرغم من الحروب فإن عصرالناصر كان عصر رخاء زاد فيه الدخل وازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة وكثرت أخماس الغنائم، ويقال إن الناصر لما مات وجد في بيت ماله خمسة آلاف مليون درهم، وترك في قصره عشرين مليوناً من الذهب.

وفي سنة (316هـ = 928م) أمر الناصر باتخاذ دار للسكة في قرطبة لضرب الدينار والدراهم، وبذل جهده في الاحتراس من الغش والتدليس فأصبحت ديناره ودراهمه عياراً محضاً، وكان ضرب النقد معطلاً قبله. وبلغ الأمن ذروته في سائر البلاد أيام الناصر، وترك ذلك آثاراً طيبة

على مصادر الدخل وازدهرت العلوم والآداب ورخصت المعاش.  
ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الدولة الأموية في الأندلس كانت تعتمد

(63/7)

## الفصل الرابع

### \*الدولة العامرية

[368 - 399 هـ = 978 - 1009 م].

بعد أن أصبحت السيطرة كاملة لابن أبي عامر فكر في إنشاء مدينة جديدة يتوافر فيها الأمان ومظاهر السلطان فكانت مدينته الزاهرة أو العامرية شرقي قرطبة والتي استغرق بناؤها عامين، وضمت قصرًا ومسجدًا ودواوين للإدارة ومساكن للحرس، ونقل خزائن المال والسلاح إليها، وأقيم حولها سور ضخيم كما بنى خندقًا وتم إقطاع ضواحيها للوزراء والقادة، فابتنوا الدور وأنشئت الشوارع والأسواق حتى اتصلت مبانيها بضواحي قرطبة، وقد انتقل إليها ابن أبي عامر سنة (370 هـ = 980 م)، واتخذ له حرسًا خاصًا من الصقالبة والبربر أحاطوا بقصره، ومنعوا الدخول والخروج إليه، وبذلك أقفرت قرطبة وأقفر قصرها ونقلت كل مظاهر السلطان إلى المدينة الجديدة، ومنع الخليفة من أي حركة إلا بإذن ابن أبي عامر حماية له من المتآمرين وحتى يتفرغ للعبادة كما زعم.

حاولت «صبح» بعد هذا التطور أن تستبعد «ابن أبي عامر» مستعينة بمنافسيه، ولجأت إلى القائد «غالب» - صاحب الثغر - في سرية تامة، فرد ابن أبي عامر بتقريب «جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي» - وهو بربري من زناتة - عبر البحر وتقلد الوزارة، واستعان به ابن أبي عامر على كسب مودة البربر الذين توافدوا من عدوة المغرب إلى الأندلس، وغمرهم بأمواله.

أراد غالب مصانعة ابن أبي عامر فدعاه إلى غزوة مشتركة في أراضى قشتالة، وأقام له وليمة دخل معه خلالها في نقاش عنيف ورفع السيف فأصيب ابن أبي عامر، لكنه استطاع الفرار وذهب إلى دار غالب بمدينة سالم واستولى على كل ما كان فيها، ثم دخل الفريقان في قتال عند حصن «شنت بجنت» يعاون غالب ملك ليون، وانتهى الأمر بموت غالب وهزيمة أعوانه من المسلمين والنصارى في (4 المحرم سنة 371هـ = 10 يوليو 981م).

غزوات ابن أبي عامر:

بدأت سلسلة هذه الغزوات الشهيرة بعد أن استقرت الأمور لابن أبي عامر، ووصل عددها إلى نحو أربع وخمسين غزوة استقصى المؤرخ

(64/7)

---

القرطبي ابن حيان أخبرها في كتاب له مفقود عنوانه «الدولة العامرية» ويتحدث عنها ابن خلدون فيقول:

«غزا ابن أبي عامر اثنتين وخمسين غزوة في سائر أيام ملكه، لم ينكسر له فيها راية ولا فل له جيش ولا أصيب له بعث ولا هلكت له سرية».

وقد بدأ «ابن أبي عامر» غزواته بمملكة «ليون»؛ ليعاقب ملكها على معاونته لغالب، وقد تحالف ضده ملوك النصارى الثلاثة: ملك ليون، وملك قشتالة، وملك نبرة، وجرت بينه وبينهم موقعة عند «شنت منكش» انتصر فيها «ابن أبي عامر»، ووصل إلى عاصمة مملكة «ليون»، ثم عاد إلى «قرطبة» سنة (371هـ = 981م) بسبب حلول الشتاء، وبعد عدة أشهر من عودته اتخذ لنفسه لقب «الحاجب المنصور» ودعى له على المنابر وصدرت الكتب باسمه ونقش على السكّة، وقبّل المستولون وكبار الموظفين والوزراء يده وأصبح هو كل شيء.

وفي سنة (274هـ = 984م) خرج «المنصور» إلى شمال شرقي «الأندلس» على رأس جيش ضخم مر بغرناطة ثم «بسطة» فلورقة فمرسية، ثم اتجه شمالاً إلى «برشلونة»، حيث دخل منطقة «قطلونية»، ثم اقتحم مدينة «برشلونة» ودمرها وأحرقها في (صفر 375هـ = يوليو 985م)، ولم يحاول المنصور الاحتفاظ ببرشلونة، وإنما قصد إلى تدمير قوى النصارى في هذه المنطقة النائية. ثم قام المنصور عام (378هـ = 988م) بغزو مملكة ليون بعد أن انقض ملكهم على المسلمين، وطاردهم إلى آخر حدود بلاده، فسار المنصور شمالاً إلى ليون، ثم غرباً إلى مدينة قلمرية شمالي البرتغال بالقرب من المحيط واستولى عليها وبقيت خراباً مدة سبعة أعوام، ثم سار المنصور نحو مملكة «نبرة» وقصد عاصمتها «بنبلونة» رداً على إغارة ملكهم على أراضي المسلمين، وغزوة المنصور هذه تسمى غزوة البياض، وقد عاد بجيشه إلى «سرقسطة» والتقى هناك بآبنة عبدالمك بعد عودته ظافراً من حروبه في بلاد المغرب كما سنشير فيما بعد.

وفي ربيع سنة (378هـ = 988م) خرج المنصور في جيش ضخم،

(65/7)

---

واخترق مملكة ليون واستولى على عاصمتها بعد معارك عنيفة، ثم سار إلى «سمورة» وحاصرها حتى سلمت، واعترف النبلاء له بالطاعة، ولم يبق تحت سيطرة ملك ليون إلا المنطقة الجبلية الواقعة شمالي غربي إقليم جليقية.

وأثناء قيام المنصور بغزوته هذه رقم (45) انضم ابنه «عبدالله» إلى ملك قشتالة بتحريض من صاحب الثغر الأعلى «عبدالرحمن بن مطرف التجيبي» وكانت عاصمته «سرقسطة»، ولكن المنصور ضغط على الملك النصارى عن طريق العمليات العسكرية المتتالية فسلمه ابنه،

ولم يتردد المنصور في قتل ولده في الحال.  
ثم قام «المنصور» سنة (387هـ = 997 م) بأعظم غزوة قام بها متجهًا نحو منطقة جليقية، وهي منطقة وعرة من الصعب غزوها؛ لأنها ملاذ ملوك ليون يلجئون إليها كلما ضيق المسلمون الخناق عليهم، فخرج المنصور إليها من قرطبة في (شهر جمادى الآخرة سنة 387هـ = 997م)، وفي الوقت نفسه تحرك الأسطول الأندلسي في مياه البرتغال يحمل المشاة والأقوات والذخيرة، وعبر المنصور الجبال والأنهار حتى وصل إلى مدينة قورية، ثم زحف نحو الشمال الغربي واستولى على مدينتي: «بازو» و «قلمرية»؛ حيث وفد إليه العديد من أمراء النصارى وانضموا إلى جيشه وأطاعوه، بعد ذلك توجهت القوات الإسلامية شمالًا نحو نهر «دويرة»، حيث وافاه الأسطول، فجعله جسرًا عبر به صوب جليقية، وسار في شعب الجبال، ثم التزم المشى بجذاء الشاطئ يهدم ويحرب، ففرت أمامه جموع النصارى، وظل المنصور يواصل عملياته حتى انتهى إلى مدينة «شنت ياقب» المقدسة عند النصارى فدخلها ثم سار المنصور حتى وصل إلى شاطئ المحيط وتابع سيره إلى أن أصبح في شمال البرتغال الحديثة، وهناك وزع الهدايا على المواليين له من زعماء النصارى وطلب منهم أن يعودوا إلى بلادهم ورجع هو إلى مدينته الزاهرة.  
وقد هزت هذه الغزوة إسبانيا النصرانية، وبقي تأثيرها بضع سنين وكانت الثامنة والأربعين من بين مجموع غزواته. ثم قام المنصور بعد

(66/7)

---

ذلك بغزوات في سنوات (389، 390هـ = 999، 1000م) في أراضي نبرة وقشتالة؛ حيث واجه جموع النصارى متحدين مصممين على النيل منه، وتعرض المسلمون للهزيمة أول الأمر، لكن المنصور صعد على ربوة عالية، وأخذ يضاعف جهوده ويحرض الناس، حتى تمكن من

تحويل الهزيمة إلى نصر ومزق العدو شر ممزق، وتوالى زحفه حتى اقتحم مدينة «برغش»، ومنها توجه إلى «سرقسطة»، ثم إلى «بنبلونة» عاصمة «نبرة» دون أن يجرؤ أحد على اعتراضه وأخيراً رجع إلى العاصمة بعد تسعة ومائة يوم.

وفي ربيع (392هـ = 1002م) خرج المنصور لآخر مرة، وتوجّه إلى قشتالة ومنها اتجه غرباً نحو «برغش» وعاث في تلك المنطقة، وتقول المصادر النصرانية إنه تعرض لهزيمة على أيدي ملوك النصارى متحدين، وإنه اضطر إلى الفرار في جنح الظلام بعد موقعة معهم جرت أحداثها بمكان يسمى «قلعة النسور»، وقد جرح المنصور ثم مات بعد ذلك متأثراً بجراحه، لكن الباحثين المحدثين - ومنهم المستشرق الهولندي دوزي - يرفضون هذه الرواية لأنها تخالف الحقائق التاريخية الثابتة، فهي تتحدث عن تحالف بين ملوك من النصارى ماتوا قبل هذه الموقعة، أضف إلى ذلك أن المصادر الإسلامية لا تذكر شيئاً عن تلك الموقعة، مع أنها لاتخفى هزائم المسلمين، فالصمت قرينة على أنه لم تكن هناك هزيمة ولا حتى موقعة أصلاً.

ومهما يكن من أمر فقد سار المنصور في حملته هذه محمولا حتى وصل إلى «مدينة سالم»، وهناك وافاه الأجل في (27 رمضان 392هـ = 11 أغسطس 1002م) بعد حكم دام 27 عاماً.

المنصور وولاية العهد:

اتخذ المنصور في سنة (381هـ = 991م) خطة غير مسبوقه بهدف دعم سلطانه وفرش ابنه عبدالملك ليتولى الأمر من بعده، وتنازل له عن الحجابة والقيادة وجميع ما كان يتولى من خطط مكثفياً بلقب «المنصور» ثم تلقب بالملك الكريم في سنة (386هـ = 996م) وبولغ في تعظيمه وإجلاله، ولم يكن المنصور يقصد أن تجتمع السلطات في

يده، فكل السلطات السياسية والعسكرية في قبضة يديه بالفعل، لكنه أراد أن يصبغ حكمه بالصبغة الشرعية، وأن تكون له رسوم الملك والخلافة، ويقوم بتأسيس دولة تحل محل دولة بني أمية، لكن الظروف لم تكن مهيأة فالناس لا تميل كثيراً إلى المنصور؛ بسبب الوسائل الدموية التي لجأ إليها لتصفية خصومه.

الجيش في عهد المنصور:

أعطى المنصور اهتماماً كبيراً للجيش، فعنى بتنظيمه، واستقدم قوات تعدد بالألوف من المرتزقة من قبائل زناتة وصنهاجة وغيرهما من البربر ومن الجند النصارى، وكون من هؤلاء جميعاً جيشاً ضخماً ضمن ولاءه له بجموده ووفرة عطايه، كما غير من نظام الجيش، فقدم رجالات البربر وأخر زعماء العرب وفرق جند القبيلة الواحدة، وكان الخليفة الناصر من قبله قد مهد له الطريق عندما سحق القبائل العربية وأضعف هيبتها حسبما أشرنا من قبل، أى أن ابن أبي عامر وجد الطريق ممهداً، فلم تلق سياسته كبير معارضة.

وقد نفر الحاربون القدماء والأندلسيون بشدة من ذلك الجيش وسعد «ابن أبي عامر» بهذا النفور لأنه يقف حائلاً بين عناصر الجيش القديم وبين اتحادها ضده، كما أنه يشعر البربر بضرورة الاعتماد عليه. ومن أهم ما فعله فصل جيش الحضرة (قرطبة) عن الجيش العام، وتعيين نفسه قائداً له، فأصبح قوة عسكرية، وفتحت له والده الخليفة بيت المال ظناً منها أنه يعمل لحسابها وحساب ابنها، فأكثر من الجند، وأصبح مستبداً عسكرياً، وتحول من فقيه إلى رجل سياسة، وملك من القوة العسكرية ما لم يملكه من سبقوه، فالناصر رغم ميله إلى الاستبداد كان يقف عند حد معين، ويعلم أنه من المستحيل القضاء على النصارى فيكتفى بإضعافهم وحملهم على أداء الجزية، أما المنصور فتتوالى ضرباته دون أن يحاول ضم جزء إلى أراضى الخلافة، أو إسكان بعض المسلمين في الأراضى التي يفتحها وإنما يضرب ويجوز الغنائم ويعود النصارى إلى ما كانوا عليه، وكأنه لم يكن يهدف إلا إلى ذلك.

وجدير بالذكر أن المنصور في سنة (388هـ = 998م) أعفى الناس من إلزامهم بالغزو؛ بسبب ما وصلت إليه أعداد الجيش وما توافر له من قوة، واكتفى بالقوات المرابطة، وقد بلغ الجيش المرابط أى الثابت في زمن المنصور (12100) من الفرسان يصرف لهم جميعاً المرتبات والسلاح والنفقة بخلاف (600) فارس للحراسة الخاصة، أما الجيش المرابط من الرجال فقد بلغ ستة وعشرين ألفاً، وكان هذا العدد يتضاعف بمن ينضم إليه من المتطوعة أثناء الصوائف ولا يدخل في هذا الخيل ومطايا الركوب ودواب الحمل وغيرها من العدد، وكان المنصور يتولى قيادة قواته بنفسه غالباً.

وقد حققت غزواته أهدافها من ردع النصارى ومنعهم من الهجوم على أراضي المسلمين، وكان يعرف أبرز جنده جميعاً بأسمائهم ويدعوهم إلى المآدب التي يقيمها عقب كل انتصار، ومع ذلك فإن المحصلة النهائية لغزواته كانت ضعيفة فهو لم يقض على كل قوى النصرانية أو يسحقها، وغزواته وإن أضعفت النصارى، فإنها لم تغير أحوالهم، وبقيت حدود دولة الإسلام على ما هي عليه، فهي غزوات دويها عظيم تجذب الناس إليها، لكن نتائجها قليلة فقد أنهكت قوى الجيوش الإسلامية دون أن تحقق هدفاً ثابتاً أو تقضى على خصم، إنهما مثل الطبل الأجوف صوت كبير وعمل قليل.

إدارة المنصور:

أظهر المنصور مقدرة كافية ممتازة في جميع المناصب التي تولها وشهدت البلاد في زمنه أمناً واستقراراً وطمأنينة لم تعرفها قبله، وفي زمنه لم تعرف البلاد الثورات مقارناً بغيره، وازدهرت الصناعة والتجارة والزراعة، وارتقت العلوم والآداب، وامتألت خزائن قرطبة بالمال حتى وصلت الإيرادات إلى نحو أربعة ملايين دينار، بخلاف الموارد من المواريث ومال السبي والغنائم، وقد عاون المنصور

مجموعة من الكتاب والوزراء في هذا العصر من أبرزهم: «أبو مروان عبد الملك بن شهيد» و «محمد بن جهور» و «أحمد بن سعيد بن حزم» والد الفيلسوف المشهور، و «خلف بن حسين بن حيان» والد أمير

(69/7)

المؤرخين الأندلسيين «ابن حيان»، ومن الكتاب «سعيد بن القطاع» وغيره من أبناء الأسر العريقة التي تعاقب أبناؤها على الوزارة. العمارة في عهد المنصور:

لم يخل عهد المنصور من الإنشاءات العظيمة على الرغم من الغزوات المستمرة وقد أشرنا إلى بنائه مدينته الزاهرة بقصورها وحدائقها، وجعلها قصرًا للحكم والإدارة، وقد بنى المنصور بجانبها مدينة جميلة ازدانت بالحدائق والقصور أسماها «العامرية»، وكان يقصدها عندما يريد الاستجمام.

كذلك قام بزيادة المسجد الجامع في «قرطبة» بعد أن اتسعت المدينة، وضمت واحدًا وعشرين حيا، الواحد فيها أكبر من أية مدينة أندلسية، وقد حفر حولها خندقًا بلغ 16 ميلًا وزاد سكانها كثيرًا لا سيما البربر، وضاق المسجد الجامع بمؤلاء السكان فأدخل المنصور في سنة (387هـ = 997م) زيادة عليه من الناحية الشرقية، بلغت المساحة الأصلية نفسها تقريبًا، وحرص المنصور على الاشتراك في هذا المشروع بنفسه، واشتغل فيه أسرى النصارى، وتم تعويض أصحاب الدور والأماكن التي صودرت لهذا الغرض، ولا يزال هذا الجناح قائمًا حتى اليوم، ويعرف بمسجد المنصور، وإن تحولت عقود الجانيبه إلى هياكل وكنائس.

وبهذه الزيادة بلغت مساحة المسجد الجامع ما يزيد على ستة أفدنة، كما انفرد بطرازه الرائع، وليس في العالم مسجد ولا كنيسة في مثل حجمه اللهم إلا قصر «فرساي» بفرنسا.

كما جدد المنصور قنطرة قرطبة على نهر الوادى الكبير، وكان «السمح بن مالك» قد جددتها من قبل وأنفق المنصور على تجديدها فى سنة (378هـ = 988م) مائة وأربعين ألف دينار وبنى قنطرة «أستجة» على نهر «شنيل» أحد فروع نهر الوادى الكبير. المنصور فى نظر المؤرخين:

يشهد المؤرخون القدماء للمنصور بالكرم، وبأنه كان يبذل الأموال للمتصلين به والفقراء خاصة، ورغم سفكه للدماء فقد كان يتظاهر بالتقوى، حريصاً فى كل غزواته على حمل مصحف خطه بيده، ويقال

(70/7)

إنه كان منصفاً عادلاً يزجر الظالم حتى لو كان من كبار حاشيته، وكان صبوراً حليماً، ولكنهم ينعون عليه شغفه بمعاقره الخمر، ولم يتخل عن ذلك إلا قبل وفاته بعامين. وتميز المنصور بأنه كان شغوفاً بالعلم والأدب، محبا للعلماء والأدباء والشعراء ويناظرهم ويشترك معهم فى نظم الشعر ويغدق عليهم، ساعده على ذلك نشأته فى بيت علم وأدب، وبراعته فى علوم الشريعة وفنون الأدب خلال فترة صباه. وحرص المنصور على نشر العلم والمعرفة بين طبقات الشعب، فأنشأ كثيراً من دور العلم فى قرطبة وأنفق عليها، وكان يزور المساجد والمدارس، ويمنح المكافآت للمتفوقين من الطلاب، كما حرص على جمع الكتب ومكافأة أصحابها، وقد منح «صاعد البغدادى» (500) دينار مكافأة له على كتابه «الفصوص»، وكان يكره الفلسفة، ويرى أنها مخالفة للدين كما كان يبغض التنجيم ويطارد المنجمين، وقد استخرج من المكتبة الأموية جميع كتب الفلاسفة والدهريين وأحرقها بحضرة كبار العلماء، وما فعله «المنصور» أمر خطير، تسبب فى ضياع ثروة علمية عظيمة.

ونظرًا للشهرة الواسعة التي حققها المنصور، جاء إليه بعض ملوك  
النصارى واستعطفوه وتقربوا إليه وزوجوه من بناتهم.

ويرى بعض المؤرخين المعاصرين أن «ابن أبي عامر» من أعظم  
الرجال وأنه قام بما لم يقم به أحد في تاريخ الإسلام، فقد استطاع  
الاستيلاء على الحكم في دولة كبرى، وهي في أوج سلطانها ووجه  
أمورها بصورة مستبدة.

ومع ذلك فإن هنا أمورًا ثلاثة هي أكثر ما أضر به المنصور:

1 - إقامته ملكه على جند مرتزقة تعالوا على الناس، واصطناعه  
لبیوت جديدة من زعانف الأسر، وصغار الفقهاء والطامعين، وتوليبتهم  
وظائف القضاء والولايات، وقد أثقل هؤلاء على الناس، وأرهقوهم  
بالمطالب، واستولوا على أموالهم، ومن هؤلاء بنو عباد في إشبيلية،  
ومن البربر الذين استعان بهم في النواحي، بنو الأفضس في بطليوس،  
وبنو ذى النون جنوب غربي طليطلة - بالإضافة إلى الصقالبة الجدد

(71/7)

الذين اشتراهم المنصور لحسابه ومن هؤلاء جميعًا يتكون الحزب  
العامرى - وهم الذين قضوا على وحدة الأندلس فيما بعد، ويتكون  
منهم ما يعرف بملوك الطوائف.

2 - انعدام المفهوم الأخلاقي عنده، وهذا جعل الناس يخافونه ولا  
يحبونه، بل إن أنصاره ما كانوا يأمنونه؛ لأنه كان كثير التجسس  
فكان يطلب من العبيد والجواري أن يكونوا عيونًا في بيوتهم وأفسد  
أخلاق الناس بالرشوة ونحوها.

3 - حجر المنصور على الخليفة «هشام»، وتعيين ابنه «عبدالمملك بن  
المنصور» وليا لعهد، والتخلص من معارضيه بالتآمر والقتل.  
ولقى المنصور ربه في «مدينة سالم» في (27 من رمضان سنة 392هـ  
= أغسطس سنة 1002م) كما أسلفنا وتولى الأمر من بعده ابنه

عبدالمملك المظفر.

عبدالمملك المظفر بالله ابن المنصور:

[رمضان 392 - صفر 399هـ = أغسطس 1002 - أكتوبر 1008م].

صدر أمر الخليفة «هشام» بتولية «عبدالمملك» الحجابة بعد وفاة والده، وقضى عبدالمملك بسرعة على من أراد انتهاز الفرصة للعودة إلى حكم الخليفة، وقد بدأ عهده بإسقاط سدس الجباية (الضرائب) عن السكان بكل نواحي الأندلس فاستبشر الناس به خيراً.

سياسة عبدالمملك مع النصارى:

ظن ملوك النصارى أن خطر الغزوات الإسلامية عليهم سيقبل بعد وفاة المنصور، لكنهم كانوا واهمين لأن عبدالمملك بدأ بعد أشهر قليلة من ولايته يستعد لغزوته الأولى، ووفد إليه الزعماء والمتطوعة من المغرب وغيرها للاشتراك معه، فرحّب بهم وبذل لهم الأموال ووزع عليهم السلاح، وخرج بالجيش من مدينة الزاهرة في (شعبان 393هـ = يونيو 1003م)، وتوجه إلى مدينة «طليطلة»، ومنها إلى مدينة «سالم»، حيث انضم إليه «الفتى واضح» في قواته وقوات من النصارى حسب اتفاقهم مع المنصور، ثم اتجه الجنود نحو الثغر الأعلى، ثم من سرقسطة إلى «برشلونة»، حيث استولت القوات الإسلامية على بعض الحصون المنيعه، واستولت على سبي ومغانم، ثم عاد المسلمون إلى قرطبة عن طريق مدينة «لاردة» في شهر ذي

(72/7)

القعدة، وقد تلقى عبدالمملك رسالة من أمير برشلونة تطلب الصفح

والمهادنة فاستقبل الرسل استقبالا يليق بمقام الخلافة.

ولما اعتدى أمير قشتالة على أراضي المسلمين سنة (394هـ =

1004م) قصد إليه عبدالمملك وأدبه، واضطره إلى التسليم وطلب الصلح

ثانية، وتعهد على التعاون مع عبدالمملك في حملاته ضد مملكة ليون

و ضد خصومه جميعاً .

وفي العام التالي خرج «عبدالمملك» وسار نحو طليطلة ولحق به «الفتى واضح» وملك قشتالة، واتجهوا شمالاً نحو أراضي ليون ومدينة سمورة وعاث في هذه النواحي ووصل إلى جليقية واستولى على كثير من المغام والسبي، ولكنه لم يحقق نتائج حربية ذات قيمة.

خرج عبدالمملك في أواخر سنة (396هـ = 1006م) إلى «بنبلونة» عاصمة «نبرة» فقصده «سرقسطة» و «شقة» و «بريشتر» ومنها اخترق المسلمون أراضي العدو وأخذوا يقتلون وينهبون، ثم تعرض الجيش لبعض العواصف ورعد وبرق قاسٍ، واضطر إلى العودة إلى العاصمة. حين وصل إلى مسامع عبدالمملك أن أمير قشتالة يفكر في الاعتداء على أراضي المسلمين، خرج لغزوته الخامسة المسماة «غزوة قلونية» في (صيف 397هـ = 1007م)، واخترق أراضي قشتالة ليحارب ملكها الذي تحالف معه ملك ليون وملك نبرة، وعدد من زعماء النصارى الذين وحدوا صفوفهم، ومع ذلك فقد تمكن عبدالمملك من إلحاق هزيمة بهم جميعاً عند مدينة «قلونية»، وحملهم على طلب الصلح ثم عاد إلى قرطبة أواخر العام المذكور، فسر الناس بما حقق، واتخذ هو لقب «المظفر بالله» إشادة بما أحرز من نصر عظيم. لكن ملك قشتالة جدد عدوانه وغدر بالمسلمين فخرج إليه عبدالمملك في (صفر سنة 398هـ = أكتوبر 1007م)، واخترق أراضي قشتالة الوسطى، وقصد إلى بعض الحصون المنيعة، وجرت معركة، اضطر النصارى بعدها إلى دخول الحصن، وهجم عليهم المسلمون وضربوا الحصن بالمجانيق والنيران حتى حملوا العدو على طلب التسليم، وهنا أمر عبدالمملك بقتل المقاتلة وسبي النساء والذرية، ثم رجع إلى

العاصمة في شهر ربيع الثاني.

وفي شوال من العام نفسه خرج عبدالمملك بغزوته السابعة والأخيرة وتعرف «بغزوة العلة»؛ إذ إنه ما كاد يصل إلى مدينة سالم حتى اشتد به المرض وتفرق عنه المتطوعة، واضطر إلى الرجوع إلى قرطبة في (المحرم 399هـ = سبتمبر 1008م) لكنه شعر بتحسن في صحته فعمل على استئناف الغزو بعد فترة وجيزة لكن حالته ساءت، وتعرض لنكسة سببها التهاب رئوي، وعاد إلى العاصمة في محفة حيث مات في (16 من صفر سنة 399هـ = 21 من أكتوبر 1008م) بعد حكم دام نحو سبع سنوات.

أسلوب عبدالمملك في الإدارة والحكم:

التزم عبدالمملك الأسلوب الذي كان يحكم به والده الأندلس فجعل الخليفة محجوراً عليه لاحول له ولا قوة.

وجمع السلطات كلها في يديه، وحدد من نفوذ الوزراء والكتاب

وراقبهم وحاسبهم، وجلس للناس وهجر اللهو، وعمل على تنمية

الموارد وترتب على هذا تحسن في الأحوال المالية التي كانت قد

ساءت بسبب كثرة النفقات.

ولم يكن لعبدالمملك نصيب كبير في مجالات العلم والأدب وكان مجلسه

لايقوم إلا على الأعاجم من البربر وغيرهم، ومع ذلك فقد استمر يجرى

الروايات التي كان أبوه يجريها على العلماء والأدباء والندماء، كما

استمع إلى الشعر ووصل الشعراء.

عبدالرحمن بن شنجول:

قلد الخليفة هشام الحجابة لعبدالرحمن بن منصور، وأنعم عليه بالخلع

السلطانية، وكانت أمه ابنة ملك «نبرة» تزوجها «المنصور» وأنجب

منها، وقد أسلمت وتسمت باسم «عبدة» ولأنه أشبه جده لأمه

المسمى «شانجة» لقب بشنجول أو شانجة الصغير.

ولم يكن الشعب يميل إلى «عبدالرحمن» لما فيه من دماء نصرانية

ولانحراف سلوكه، ولأنه جرى على منهج أبيه وأخيه في الحجر على

الخليفة هشام مع الاستبداد بالرأى وإن مال هو إلى التودد إلى

الخليفة ومخالطته، وقد منحه الخليفة لقب المأمون ناصر الدولة بعد عشرة أيام من ولايته، ليس هذا فحسب، بل إن عبدالرحمن جرؤ على

(74/7)

ما لم يجرؤ عليه أحد لا المنصور ولا عبدالملك، حين نجح بعد محاولات في استصدار مرسوم من الخليفة بتعيينه وليا للعهد من بعده، لتنتقل رسوم الخلافة من أسرة بنى أمية إلى أسرة بنى عامر، وأقر فقهاء قرطبة وعلمائها هذا التحول وزكاه الوزراء والقضاة والقادة، وكان ذلك في ربيع الأول سنة (399هـ = 1008م)، ومضى «عبدالرحمن» أبعد من ذلك حين عين ابنه الطفل في خطة الحجابة ولقبه سيف الدولة، ثم اتخذ قرارًا جلب عليه كثيرًا من السخط حين طلب من أكابر الموظفين ورجال الدولة خلع القلانس الطويلة التي يتميزون بها لأنها لبس الأندلسيين، وتغطية الرأس بالعمائم التي هي لباس البربر فأذعن هؤلاء كارهين.

فكر عبدالرحمن أن يشغل الناس بالغزو، فقرر أن يتوجه إلى جليقية رغم تحذيره من سوء الأحوال الجوية، ومن انقلاب قد يقوم به المروانية ضده، لكنه صمم وسار بالجيش نحو طليطلة، ومنها إلى جليقية وسط أمطار وبرد شديدين وكان يمارس هوايته في اللهو والشراب، وقد اخترق مملكة ليون قبل أن يصل إلى جليقية، فتحصن الأعداء بروعس الجبال، ولم يجد عبدالرحمن سبيلا إلى مقاتلتهم بسبب كثرة الثلوج وفيضان الأنهار، فاضطر إلى أن يعود دون أن يفعل شيئًا.

وعند وصوله إلى طليطلة جاءت الأنباء تفيد أن انقلابًا قد حدث في قرطبة وأن الثوار استولوا على مدينة الزاهرة فاضطرت صفوفهم، واضطر عبدالرحمن إلى أن يعود عن طريق قلعة رباح، ولم يلتفت إلى نصح من طلب منه البقاء في طليطلة، لاعتقاده أن الناس سترحب به

إذا رأوه يقترب من قرطبة.

وكان السبب الرئيسي للثورة هو استبداد بنى عامر وقهرهم للناس استنادًا إلى قوة قوامها البربر والصقالبة، ثم كانت ولاية عبدالرحمن للعهد واستنثاره برسوم الخلافة والحكم هي الشرارة التي انتقلت منها نيران الثورة إلى كل العناصر الناقمة، وعلى رأسهم بنو أمية، وكان المخطط للثورة والمتابع لمراحل تنفيذها «الزلفاء» والدة

(75/7)

عبدالملك - التي اعتقدت أن «شنجول» سم ابنها - ثم فتى أموى اسمه «محمد بن هشام بن عبدالجبار بن عبدالرحمن الناصر» كان عبدالملك قد أعدم أباه.

لم يكن المروانية وحدهم يرغبون في القضاء على العامرين، وإنما كان معهم كل العناصر الناقمة من البيوت العربية مضرية أو يمنية، يؤازرهم كل طبقات الشعب، وأحكم هؤلاء جميعًا خطتهم وانتهزوا فرصة خروج عبدالرحمن للغزو ومعه معظم الجيش ليقوموا بالتنفيذ، وفي يوم (16 من جمادى الأولى 299هـ = 15 من يناير 1009م) جاءت الأنباء بأن عبدالرحمن عبر بجيشه إلى أرض النصارى، فقام محمد بن هشام بإنزال ضربته، وهجم على قصر قرطبة وقتل صاحب المدينة، والتف حوله الساخطون، ثم اقتحم سجن العامرية وأخرج من فيه، واجتمع حوله المروانية وانضم إليه الناس من كل حذب وصوب، وبعد أن سيطر ابن عبدالجبار على القصر واستولى على كل ما فيه من سلاح وغيره، طلب من الخليفة هشام أن يخلع نفسه فوافق، وانتهت بذلك خلافته الصورية التي دامت (33) سنة وتولى الأمر «محمد بن هشام بن عبدالجبار» وتلقب بالمهدى في (17 من جمادى الآخرة 399هـ = 16 من فبراير 1009م) وجاءه الناس مهنيين، وما شعروا أن تلك هي بداية الفتنة التي ستطيح ليس بالدولة العامرية وحدها بل

وبالخلافة بكل ما تمثله.

وفي اليوم التالي قام الثائرون بهدم مدينة الزاهرة وقصورها،  
وأحست الحامية المنوط بها الدفاع عنها أن المقاومة غير مجدية  
ففتحو أبواب المدينة شريطة أن يؤمنهم المهدي، وتم نهب القصور  
والاستيلاء على كل ما كان فيها من متاع وجواهر، ولم يكتف  
المهدي بذلك وإنما قام بهدم كل مباني مدينة الزاهرة وأسوارها بعد  
أن استولى على كل ما فيها من خزائن وأموال وتحف حرصاً منه  
على إزالة كل آثار بني عامر، وأصبحت المدينة أطلالا، وتحولت إلى  
أثر بعد عين.

وقد حاول «عبدالرحمن» وهو في «طليطلة» بعد أن بلغته أخبار  
الثورة أن يتنازل عن ولاية العهد مكتفياً بالحجابة، فلم يلتفت إليه

(76/7)

أحد ثم سار إلى قرطبة، ولما اقترب منها تركه جند البربر وفروا في  
جناح الظلام، ثم تمكن الخليفة الجديد من مطاردته وإلقاء القبض عليه  
وهو محتبى في أحد الأديرة، وقتله في (3 من رجب 399هـ = 3 من  
مارس 1009م).

وهكذا انتظر الشعب أول فرصة وأطاح بالطغيان المستبد الذي فرضه  
العامريون، ولم يشفع لذلك النظام ما تحقق على يدي المنصور من  
أمن واستقرار عم ربوع الأندلس وكانت تلك الثورة بداية مرحلة من  
الفتن والفوضى الشاملة التي أنهت وجود الحكومة المركزية، وقضت  
على الخلافة الإسلامية، ومزقت الأمة وجعلتها أشلاء متناثرة.

ولم يكن محمد بن هشام بن عبدالجبار شخصاً مناسباً لهذه الفترة، إذ  
كان قليل التفكير لا يعرف شيئاً عن الدولة وشنونها أحاط نفسه  
بطائفة على شاكلته لا تحسن غير النهب والسرقة ولم يكن يحركهم

إلا شيء واحد هو الانتقام من العامريين، وإهانة البربر، عقاباً لهم على تأييدهم بني عامر.

(77/7)

## الفصل الخامس

\*سقوط الخلافة الأندلسية وقيام دولة بني حمود  
[399 - 422 هـ = 1009 - 1031 م].

استولى المهدي على الخلافة وقد ترتب على ذلك انطلاق ذوى الأغراض، كل يحاول نيل نصيبه من البناء المتداعى. فهناك بنو أمية يرون أنفسهم أصحاب الحق الشرعى، وهناك الفتيان العامريون والصقالبة والجنود المرتزقة وهم قوة لا يستهان بها، وهناك البربر الذين تضاعفت أعدادهم منذ عهد المنصور بعد أن استقدمهم من عدوة المغرب، فكسبوا المال الكثير، واتخذوا الأندلس وطناً لهم، وأبلوا بلاء حسناً فى الجهاد وحماية هذا الوطن، وهناك أيضاً العامة من الناس الذين التفوا حول الخليفة الجديد، دون أن تكون لهم أغراض ثابتة، وإنما نزعاتهم متباينة وأهواؤهم متقلبة.

بدأ المهدي عهده بالشدة فى التعامل مع البربر واحتقارهم ونزع سلاحهم وسبهم، وانتقلت هذه الروح منه إلى العامة، فهاجموا البربر ونهبوا دورهم وآذوهم، فشحنت نفوس هؤلاء بالغضب، كما لجأ المهدي إلى نفى بعض الفتيان الصقالبة، فلجئوا إلى أطراف الأندلس وعادوه ولم يسأله منهم إلا «واضح» الذى تولى مدينة سالم والثغر الأوسط.

أما الخليفة هشام المؤيد، فقد حبسه المهدي فى القصر، ثم أخرجته وأخفاه فى بعض منازل قرطبة، وزاد فاستغل وفاة رجل ذمى يشبه هشام المؤيد إلى حد كبير، وأعلن أن الخليفة المؤيد قد مات، وأشهد

على ذلك الوزراء والفقهاء، وسخر الناس من هذه الخطوة لأنهم يعلمون أن هشام الذى دفنوه لم يمت.  
ولما شعر «المهدى» أن الأمور قد استقرت له بالغ فى استهتاره وارتكابه الموبقات، وبلغ الأمر مداه حين قتل من كان قد اختاره ولياً للعهد ضمن آخرين، وحين أخرج من الجيش سبعة آلاف جندى وقطع رواتبهم فأصبحوا من أهم عناصر الشغب، وحين بالغ فى اضطهاده للبربر حتى أصبح ذلك حديث الناس فى كل مكان، بل وصل به الأمر إلى أن منع زعيمهم «زاوى بن زيرى الصنهاجى» من دخول القصر وأذله فخافه البربر وكسب عداوتهم، فى (رجب 399هـ = أواخر مارس

(78/7)

1009م)، ثم أراد إخراج البربر الذين كانوا فى خدمة المنصور من قرطبة، فرفضوا، وجرى صراع بين البربر والأندلسيين وضاع جيش الدولة فى هذا الصراع، وحرمت الدولة من أن تكون لها قوة عسكرية تخصص للدفاع عنها.  
كان هشام بن سليمان بن الناصر على رأس الناقلين على المهدي، فقد كان يخشى مغبة قومه على كل بنى أمية وانضم إليه جماعة يتقدمهم الفتيان العامريون والبربر وحاصروا محمد بن هشام بن عبدالجبار فى قصره، وجرى قتال بينه وبينهم انتهى بهزيمة البربر، ودمرت بيوتهم ونهبت واضطروا للانسحاب إلى بعض ضواحي قرطبة، ثم خشى المهدي سوء العاقبة فعفا عنهم وأمنهم، لكنهم اتجهوا شمالاً نحو قلعة رباح وبدءوا ينظمون صفوفهم والتفوا حول أموى اسمه «سليمان بن الحكم بن عبدالرحمن الناصر» ورشحوه لتولى الخلافة بدلا من المهدي، ولقبوه بالمستعين بالله، واستعانوا على أمرهم بأمير قشتالة النصرانى، وهزموا قوات تابعة للمهدى بالتعاون مع هذا الأمير، وأصبح هناك خليفتان، واحد فى قرطبة والآخر على

رأس البربر.

عرف المهدي ما تعرض له جنده من هزيمة فأخذ في تحصين قرطبة  
ونظم قواته وانضمت إليه قوات «واضح الفتي» وتوجه إليه سليمان  
ابن الحكم على رأس قوات البربر وقوات أمير قشتالة والتقى  
الفريقان في (11 من ربيع الأول 400هـ = 5 من نوفمبر 1009م)، عند  
مكان يسمى «قنتيش» إلى الشمال من بلدة القليعة عند ملتقى نهر  
أرملاط بالوادى الكبير، وانتهت المعركة بهزيمة المهدي وقتل الآلاف  
من أعوانه وفرار نفر من الأندلسيين الصقالبة إلى شرقي الأندلس  
واستقراهم في «دانية»، وقتل البربر الكثير من أهل قرطبة، ومن  
بين هؤلاء العالم الجليل «أبو الوليد الفرضي» وأصبح «زاوى بن  
زيرى» سيد الموقف.

أما المهدي فقد حاول من جانبه تدارك الأمر، فلجأ إلى حيلة سخيفة  
حين أظهر الخليفة هشام المؤيد الذى كان قد زعم أنه مات وأجرى  
مراسم دفنه، ثم بعث إلى البربر يخبرهم أن هشام هو الخليفة

(79/7)

الشرعى وأنه هو - يعنى المهدي - نائبه، لكن البربر رفضوا ذلك  
وأعلنوا تمسكهم بسليمان وأدخلوه القصر وبايعوه بالخلافة ولقبوه  
بالمستعين بالله.

فر المهدي إلى طليطلة؛ ليدبر للعودة إلى الحكم من جديد وكان معه  
«واضح الفتي العامرى» الذى توجه إلى «طرطوشة» من مدن الثغر  
الأعلى، وطلب عون أمير برشلونة وغيره من زعماء النصارى، وحصل  
على موافقتهم بشروط باهظة منها أن يستولوا على ما يغمونه من  
سلاح وأن تسلم لهم مدينة سالم ..

سار النصارى ومعهم واضح إلى قرطبة وانضم إليهم المهدي والتقوا  
بقوات البربر والمستعين بالله، وحدثت موقعة هائلة في مكان يسمى

«عقبة البقر» على بعد (20كم) شمالي قرطبة في (شوال 400هـ = مايو 1010م)، وانتهى الأمر بهزيمة البربر وفرار سليمان المستعين، وعاد زاوي بن زبيري إلى قرطبة حيث أخذه أهله وانسحب إلى الجنوب وفعل البربر مثلما فعل.

رجع المهدي إلى قرطبة وبدأ يحصنها ويعدّها للدفاع، بينما استعد سليمان والبربر لاستئناف الصراع على قرطبة، في هذه الآونة ضاق الفتيان العامريون - وفيهم واضح - من تصرفات المهدي وسلوكه، فتآمروا عليه وأخرجوا هشام المؤيد من محبسه وولوه الخلافة للمرة الثالثة وأتوا بالمهدي وضربوا عنقه بين يدي هشام المؤيد في (ذي الحجة سنة 400هـ = 23 يوليو 1010م) وبذلك استرد هشام الخلافة ليكون العوبة في يد الفتيان العامريين، وتولى واضح حجابته وأرسل إلى سليمان المستعين وإلى البربر يدعوهم إلى طاعة الخليفة الجديد، فلم يقبل البربر دعوته وأعلنوا تمسكهم بسليمان.

حاول البربر وسليمان الاستعانة بنصارى قشتالة مرة أخرى وعرضوا على ملكها تسليمه الحصون الأمامية التي اقتحمها الخليفة الحكم والمنصور بن أبي عامر، إذا وقف معهم في خلعهم للخليفة هشام المؤيد لكن الملك النصراني رفض ذلك.

زحف البربر إلى قرطبة وأخذوا يقتلون الجند ويعيثون فيها فساداً، وامتد تخريبهم إلى الجنوب حتى وصلوا إلى ضواحي غرناطة ومالقة،

(80/7)

---

ولم يبق في طاعة هشام إلا قرطبة وما حولها وتمسك البربر بعودة سليمان.

في هذه الأثناء وصلت إلى العاصمة سفارة من ملك قشتالة تطلب تسليم الحصون التي فتحها المسلمون أيام الحكم المستنصر والمنصور بن أبي عامر وغيره، فعقد مجلس من الفقهاء والقضاة، وتمت كتابة

محضر بتسليم ما لا يقل عن مائتي حصن بينها قواعد أمامية إسلامية وخسر المسلمون بذلك خط الدفاع الأول، وأصبحت حدودهم الشمالية مفتوحة أمام النصارى، والذي دفع «هشام» وحاجبه «واضح» إلى اتخاذ هذا الموقف المتخاذل هو الخوف من ملك قشتالة واحتمال أن يهاجمهم وأن يتحالف مع البربر ضدهم إذا رفض طلبه.

واصل البربر عبثهم بقرطبة وتخريبهم لها، وفي كل يوم يزداد الحال سوءاً وتتضاعف ضدهم مشاعر الكراهية، وأدرك «واضح» أنه يواجه أمراً يستحيل إصلاحه فقرر الهرب، لكن بعض كبار الجند عرفوا نيته، فعاتبوه على تبديد الأموال وسوء التصرف ثم قتلوه واستولوا على أموال كان ينوي الهروب بها، وتولى قاتله الحجابة، وهكذا أصبح القتل وسيلة يلجأ إليها كل من يبغى التخلص من صاحبه.

بعد ذلك جرت محاولات فاشلة للصلح بين الأطراف، ثم حدث أمر جدد إشعال النار هو قيام أهل قرطبة بقتل بعض زعماء البربر، وترتب على ذلك قيام معركة هائلة في (26 من شوال 403 هـ = مايو 1013 م) دخل البربر على إثرها قرطبة وقتلوا الكثيرين ولم يرحموا حتى النساء والأطفال، بل ارتكبوا أشنع ضروب الإثم حين اغتصبوا النساء والبنات وأحرقوا الدور، وتعرضت قرطبة لمحنة لاتعادلها محنة، وفي اليوم التالي دخل سليمان المستعين قصر قرطبة، واستدعى «هشام المؤيد» وعنفه على موقفه، ثم أمر بحبسه.

استقر الأمر لسليمان، فأضاف إلى ألقابه «الظافر بالله» بعد «المستعين»، وأنزل كلا من «علي» و «القاسم» ابني حمود بشقنذة من ضواحي قرطبة وهما قائدا الجماعة العلوية وينتميان إلى الأدارسة وهما عربيان من حيث النسب، بربريان من حيث النشأة

والعصبية واللغة، وأخذ ينظم شئون الدولة واحتل البربر المناصب الرئيسية، ثم أراد سليمان إرضاءهم من ناحية وإبعادهم عن قرطبة من ناحية أخرى، فأقطعهم كور الأندلس -وكانت ست قبائل رئيسية- كما ولى «علي ابن حمود» ثغر سبتة، وأخاه القاسم على ثغور الجزيرة الخضراء وطنجة وأصيلا، ومعنى ذلك أن البربر أصبحت لهم السيطرة على ولايات الأندلس الجنوبية والوسطى. من ناحية أخرى رأى الفتيان العامريون سيطرة البربر ففر معظمهم إلى شرق الأندلس وأنشئوا هناك حكومات محلية، حيث حاول بعضهم بزعامة الفتى «خيران» الاستقرار في ألمرية ومرسية، وحاول بعضهم الآخر الاستقرار في دانية والجزائر الشرقية خاصة بنى برزال وبنى يغرن، أما «زاوى بن زبرى» و «حبوس بن ماكس» الصنهاجيان فقد استقروا في غرناطة، وهكذا تمزقت البلاد وانتشرت الفوضى، وعمت الفتق طوال فترة سليمان الأخيرة التي لم تزد على ثلاث سنوات. دولة بنى حمود:

كان تمزق الأندلس بهذه الصورة فرصة يقتنصها من يريد، ولهذا كتب «علي بن حمود» صاحب سبتة إلى «خيران» يزعم أنه تلقى رسالة من «هشام المؤيد» يوليه فيها عهده، ويطلب منه إنقاذه من البربر ومن سليمان المستعين والتف حول «ابن حمود» بعض الأعوان، وعبر بهم إلى الجزيرة الخضراء بناء على طلب خيران، واستوليا معاً على بعض البلاد، وقررا الزحف على قرطبة يعاونهما بربر غرناطة، واستعد سليمان لقتالهم، ونشبت بينهما معركة في مكان قريب من قرطبة وانتهى الأمر بهزيمة سليمان ووقوعه في الأسر. بعد ذلك دخل على بن حمود قرطبة وبويع بالخلافة في (محرم 407هـ= أول يوليو 1016م)، وأعلن وفاة هشام المؤيد، وقتل سليمان وأباه وأخاه، وتلقب بالناصر لدين الله، وموت سليمان انتهت الخلافة الأموية بالأندلس بعد حكم دام (268) سنة منذ وصل إليها عبدالرحمن الداخل، وبدأت خلافة الحموديين الأدارسة. قبض على بن حمود على الحكم واشتد في معاملة البربر وواجه أية

محاولة للثورة بمنتهى الشدة سواء قام بها العرب أو البربر، وفي الوقت نفسه أحسن معاملة القرطبيين، يعاونه في ذلك مجموعة من أعوان الخلافة السابقة من أمثال أبي الحزم بن جهور وابن برد. لكن الأمور ما لبثت أن اتخذت خطاً جديداً، ذلك أن خيران العامري دخل قرطبة فلم يجد هشام المؤيد حياً، وخشى سطوة علي بن حمود فغادر قرطبة، وأعلن العصيان واتجه ناحية شرق الأندلس، حيث يجتمع الزعماء العامريون، وأعاد دعوة بني أمية في شخص رجل منهم اسمه عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله من أحفاد عبدالرحمن الناصر، وبايعه خيران بالخلافة ولقب بالمرتضى، وانضمت إليه ولايات سرقسطة والثغر الأعلى وشاطبة وبلنسية وطرطوشة وغيرها، وسارت قوات هؤلاء نحو غرناطة لمواجهة قوات صنهاجة، وجرت معركة انتهت بهزيمة الأندلسيين ومقتل المرتضى، وكان «علي بن حمود» قد غير سلوكه، مع أهل قرطبة بسبب علمه بميلهم إلى المرتضى فنزع سلاحهم وصادر أموالهم واعتقل زعماءهم وعلي رأسهم «أبو الحزم بن جهور»، ثم تربص جماعة من الصقالبة بعلي هذا، وقتلوه في الحمام في (الثاني من ذي القعدة سنة 408هـ = 23 من مارس 1018م) بعد خلافة دامت عامًا وتسعة أشهر. بعث زعماء زناتة بجبر مقتل «علي» لأخيه القاسم الذي كان واليًا على إشبيلية، فخف مسرعًا، وبويع بالخلافة في الثامن من الشهر نفسه وتلقب بالمأمون، وقد مال في سياسته إلى اللين والإحسان إلى الناس وحاول التقرب إلى الفتيان العامريين، فوُلِّي زهير العامري علي جيان وقلعة رباح لكنه لم يستطع التخلص من سيطرة البربر عليه، فتآمر عليه أبناء أخيه، وزحف يحيى بن علي بن حمود علي قرطبة، وبويع بالخلافة في جمادى الأولى سنة (412هـ = 1021م) وتلقب بالمعتلى بالله، أما القاسم فقد استقر به المقام في

إشيلية وتلقب بالخلافة أيضاً.  
والعجيب أن كلا الرجلين اعترف لصاحبه بالخلافة، ولم يسمع قبل ذلك  
بخليفتين تصالحا واعترف كل منهما بصاحبه من قبل.

(83/7)

ثم لم يلبث أن دعا البربر القاسم إلى قرطبة، وولوه الخلافة في (18  
من ذى القعدة من العام نفسه)، ولقب بأمر المؤمنين، ولكن الرجل لم  
يكن موفقاً في سياسته، فقد أعان البربر على أهل قرطبة  
فعاملوهم معاملة قاسية وطاردهم وأهانوهم، وجرت معارك متفرقة  
بين الطائفتين، ثم جرت موقعة كبيرة فاصلة انتهت بانتصار القرطبيين  
وتمزيق البرابرة، واضطر القاسم إلى الرجوع إلى إشيلية، وجرت  
تطورات عاد البربر بعدها وبيعوا يحيى بن على بن حمود ولقبوه  
بالمعتلى بالله، أما القاسم فقد سجن وبقي في محبسه حتى قتل  
خناً بعد ذلك بفترة سنة (431هـ = 1040م).  
كان أهل قرطبة قد سئمو سلوك البربر وقتالهم، وقرروا رد الأمر  
لبنى أمية، وعقدت جلسة لهذا الغرض في المسجد الجامع تمت فيها  
مبايعة عبدالرحمن بن هشام في (16 من رمضان سنة 414هـ = ديسمبر  
سنة 1023م)، ولقب بالمستظهر بالله، وتولى وزارته بعض القدامى من  
وزراء بنى أمية، بيد أن الخليفة الجديد استفتح عهده بإلقاء القبض  
على عدد من الزعماء والأكابر، واستقبل فرسان البربر وأحسن  
وفادتهم، فهاجت العامة وامتثلوا غيظاً، وهجموا على القصر وقتلوا  
كل من صادفهم، أما عبدالرحمن فقد اختفى وظهر ابن عمه «محمد بن  
عبدالرحمن بن عبيدالله بن الناصر» وبويع بالخلافة وتلقب  
بالمستكفى بالله، وأتى بعبدالرحمن المستظهر وقتله في (3 من ذى  
القعدة سنة 414هـ = 17 من يناير سنة 1024م).  
كان المستكفى سبي التدبير ميالا إلى البطالة والجون، وفي عهده

تهدمت القصور الناصرية، وأتى على مدينة الزاهرة من أساسها، واضطهد معظم البارزين من الساسة والمفكرين، فنادى جميعهم بخلعه واضطر إلى مغادرة قرطبة في زى امرأة، وتمكن بعض مرافقيه من قتله في ضاحية قرطبية. وجدير بالذكر أن محمد المستكفي هذا هو والد «ولادة» الشاعرة المعروفة.

رجعت الفوضى التي لا ضابط لها إلى قرطبة وجاء إليها «يحيى ابن على ابن حمود»، و «خيران» و «زهير» العامريان، وتم الاتفاق بين

(84/7)

الجميع يقودهم أبو الحزم بن جهور على تولية أموى، ووقع اختيارهم على «هشام بن محمد» الذى بويع ولقب بالمتعد بالله، بيد أنه ألقى بمقاليده الأمور كلها إلى رجل من المستبدين تولى وزارته اسمه «سعيد القزاز» بالغ فى اضطهاد زعماء البيوت وإهانتهم وشغل الخليفة نفسه عن أمور الحكم بشرابه ومجونه، وضاعت هيبة الخلافة تمامًا.

ثم اضطر القرطبيون الناقمون إلى الفتك بالوزير «سعيد» فى (ذى القعدة 422هـ = نوفمبر 1031م)، ثم ساروا إلى القصر يتزعمهم «أمية بن عبدالرحمن العراقى» من أحفاد «الناصر» ونهبوا أجنحة القصر. وانتهى الأمر باتفاق رأى الناس جميعًا بزعامة أبى الحزم بن جهور على التخلص من بنى أمية، وإبطال رسوم الخلافة كلها، وإجلاء كل الأمويين عن مدينة قرطبة، فليس هناك من يستحق الخلافة، وينبغى أن يتحول الحكم إلى شورى بأيدي الوزراء وصفوة الزعماء أو من اسمهم «ابن حزم» «الجماعة».

تولى ابن جهور تنفيذ الأمر بمنتهى الحزم حتى أجلى الأمويين عن المدينة ومحا رسومهم تمامًا، وبهذا انتهت معالم الخلافة الأموية،

وانقطع ذكرها في كل من الأندلس والمغرب.

عناصر المجتمع الأندلسي:

تكون المجتمع الأندلسي من مجموعة من العناصر المتباينة انصهرت جميعها في بوتقة واحدة وكونت المجتمع الأندلسي وهذه العناصر هي:

(1) العرب، وهم مجموعتان:

المضرية، واليمينية، وقد استمر الصراع بينهما في الأندلس مثلما كان في المشرق، وتتفرع المجموعة المضرية إلى أربعة وعشرين فرعاً انتشرت في بلاد الأندلس المختلفة.

أما المجموعة اليمينية فقد وصل فروعها إلى واحد وعشرين فرعاً تركز وجودها في الجنوب الشرقي من الأندلس، وكان هؤلاء العرب أقلية بين عناصر السكان الأخرى لأسباب عديدة، ويرى بعض الباحثين أن عدد العرب الذين أتوا إلى الأندلس من شمال إفريقيا والشام وصل إلى ما يقرب من (30) ألفاً ارتفع هذا الرقم ليصبح نحو (300) ألف بعد سنوات.

(85/7)

(2) البربر: وهؤلاء كونوا السواد الأعظم من الجيش الفاتح وفاقت

أعدادهم أعداد العرب، وينتمي هؤلاء إلى زناتة ومكناسة وصنهاجة

ومصمودة وهوازة ومديونة وكتابة وسفيلة ونقرة وهؤلاء تركز

وجودهم في المناطق الجبلية خاصة في الشمال الغربي ووسط

الأندلس وأراضى السهلة ووادي الحجارة وإشبيلية وما حولها لتشابه

ظروفها مع ظروف الحياة والبيئة في مواطنهم الأصلية، واشتغلوا

بالزراعة وتربية الماشية ويسّرت لهم مواطنهم في مناطق الحدود

وغيرها من المناطق الجبلية القيام بالتورات بعد ذلك.

(3) المسالمة والمولدون: أما المسالمة أو الأسالمة أو أسالمة أهل

الذمة فهم الذين دخلوا في عقيدة الإسلام من النصارى، أما المولدون فهم في أرجح الأقوال أبناء المسالمة أو هم نتاج الزواج المشترك بين العرب والبربر من ناحية وبين الإسبان من ناحية أخرى، ومن الطبيعي أن يكون عدد هؤلاء قليلا في أول الأمر، ثم يتنامى نتيجة كثرة اعتناق أهل البلاد للإسلام وانتشار ظاهرة الزواج المشترك بين العرب أو البربر وبين من أسلموا حديثاً، وقد تركز وجود هذا العنصر في الحواضر والمدن الكبرى من شبه الجزيرة. وكانوا مع العرب هم العنصر الغالب فيها، وكان هذا سبباً في حدوث نزاع بين هاتين الطائفتين في المستقبل.

(4) الموالى: مجموعة من عناصر مختلفة تجمع بينها رابطة الولاء بين المولى وسيدته أو التابع ومتبوعه، ويرجع هؤلاء إلى أصول مختلفة بعضهم رافق الشاميين الذين دخلوا الأندلس وعرفوا لذلك باسم موالى الشاميين، وبعضهم كان من البربر الذى أسلموا ووافقوا سادتهم في دخول الأندلس فسموا باسم الموالى البلدانيين، وبعضهم يرجع لأصول محلية إسبانية، وموالى الاصطناع أو النعمة الذين أنعم عليهم الأمويون بالولاء اعتزازاً وتقديراً، بالإضافة إلى الرقيق المشتري ممن أنعم عليه أسياده بالعتق، وتركز وجود هؤلاء في قرطبة خاصة وفي كورة البيرة (غرناطة) وفي جهات متفرقة من أنحاء الأندلس،

(86/7)

---

وقد شدوا من أزر العرب أولاً ثم انقلبوا عليهم وظهر من بينهم قادة من أمثال بنى عبدة وبنى شهيد وبنى مغيث وبنى جهور.

(5) الصقالبة: كان يقصد بهذه الكلمة أولاً الشعوب السلافية، ثم أصبح العرب يطلقونها على الأرقاء الذين يجلبون من الأمم المسيحية ويستخدمون في القصر أو الجيش، عن طريق الشراء بواسطة تجار اليهود أو عن طريق الحملات العسكرية، وأول من استجلب الصقالبة

«عبدالرحمن بن معاوية» ثم استكثر الأمراء منهم بعد ذلك حتى كونوا جماعة كان لها دور عظيم في أحداث الأندلس، ووصلت أعدادهم إلى ثمانية عشر ألفاً في قرطبة وحدها، وبلغوا أقصى نفوذ لهم في عهد «عبدالرحمن الناصر».

هذه هي العناصر الإسلامية، وإلى جانبها وجد في المجتمع الأندلسي عنصران من غير المسلمين أو من أهل الذمة هما: (1) النصراني: وشكل هؤلاء عددًا كبيرًا، استوطن أعداد كبيرة منهم مدنًا وقرى كثيرة في الأندلس واستقر في «طليطلة» و «برشلونة» و «غرناطة» و «ماردة» وتمتعوا جميعًا بالرعاية ومنحتهم الدولة الحرية الكاملة دينية واجتماعية حتى أنشئ لهم منصب لإدارة شئونهم عرف صاحبه بالقومس.

ووصل بعضهم إلى المناصب العليا في الدولة، وتأثر هؤلاء بدورهم بثقافة العرب ولغتهم وأسلوب حياتهم وأصبحوا لهذا يسمون بالمستعربين.

(2) اليهود: وقد استوطن عدد كبير منهم في قرطبة ولهم فيها باب يعرف باسمهم، وسكن عدد كبير آخر في «إشبيلية» ولهم مشاركة ملحوظة في فتح الأندلس وفي أحداثها السياسية وفي إدارة المدن المفتوحة، كما استوطنت جماعة كبيرة منهم في «طليطلة» وفي «برشلونة» وفي «طركونة»، وقد مارس جميعهم شعائرهم الدينية في بيعهم بكل حرية، وكانت علاقاتهم بالمسلمين طيبة فاندمجوا في المجتمع الإسلامي وتعلموا العربية وتبنوا تقاليد المسلمين، وعمل بعضهم في بلاط الأمويين وتولوا مناصب مهمة في الدولة الإسلامية، واحتل بعضهم الطبقات العليا في المجتمع الأندلسي.

المظاهر الحضارية:

نظم الحكم خلال عصرى الإمارة والخلافة:

- رئاسة الإقليم:

كانت الأندلس تتبع إفريقية عقب الفتح مباشرة، وكان والى إفريقية يقوم باختيار حاكم الأندلس، ثم رأى الخليفة «عمر بن عبدالعزيز» أن تكون الأندلس ولاية مستقلة تتبع الخلافة مباشرة إدراكاً منه لأهمية الأندلس، وللدور الذى تقوم به فى الفتوحات ولصراعها مع ملوك الفرنجة. ولما توفى «عمر بن عبدالعزيز» عاد تعيين والى «الأندلس» إلى والى إفريقية لكن بمصادقة الخليفة، وبعد وقعة بلاط الشهداء عادت الخلافة إلى تعيين والى «الأندلس» من جديد، ولما اضطرت الأمور أصبح والى إفريقية هو الذى يعينه حيناً وأحياناً جماعة الزعماء والقادة فى شبه الجزيرة، فقد استقر رأيهم مثلاً على تعيين يوسف بن عبدالرحمن الفهري سنة (129هـ = 747م) خشية تفاقم الفتن دون مصادقة لا من والى إفريقية ولا من الخلافة.

ثم جاء بنو أمية لحكم الأندلس واكتفوا بلقب الإمارة، برغم أن بلاطهم كان ينافس بلاط العباسيين فى قوته وبمائه إلى أن جاء عهد «عبدالرحمن الناصر» ورأى أن الأوضاع قد تغيرت وأن الفاطميين قد أقاموا لهم خلافة فى المغرب فأصدر مرسوماً بتحويل الإمارة الأموية إلى خلافة، وتلقب هو نفسه بلقب أمير المؤمنين، وبلغت الخلافة الأندلسية أوج نفوذها السياسى والأدبى فى عهد الناصر وابنه الحكم المستنصر، ثم جاء «محمد بن أبى عامر» فجعل نفسه حاكماً مطلقاً على الأندلس واتخذ سمات الملك وتلقب بالحاجب المنصور، وأضحت الخلافة فى زمنه وزمن أبنائه اسماً بلا مسمى.

ثم تبوأ «محمد بن هشام» الملقب بالمهدى الخلافة لنتهى ثنائية السلطة بين الأمويين والعامريين، لكن ذلك كان بداية فترة مشحونة بالفتن والفوضى، وقامت خلافة فى أكثر من مدينة فى مالقة وقرطبة وإشبيلية وغيرها، وانتهى الأمر بتمزق الأندلس إلى ولايات ومدن مستقلة وظهور ما يعرف بدول الطوائف.

الوزارة فى الأندلس:

لم يلجأ الأمويون في الأندلس إلى نظام الوزارة باختصاصاته التي يعرفها المشاركة، واعتمدوا في تسيير أمور دولتهم على رجال من البيوت الشهيرة دون أن يمنحهم ألقاباً بعينها، حتى قادة الجيوش حملوا لقب القائد في زمن الحملة العسكرية فقط، ولكن ظهور شخصيات بارزة جعل من الضروري أن تختص تلك الشخصيات بمهام وألقاب محددة، لهذا أصبح «عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث» قائد الجيوش، وحمل مع ذلك لقب الحاجب، وتولى كل اختصاصات رئيس الوزراء في المشرق، وأضحت الحجابة هناك مثل رئاسة الوزارة وأصبح الحاجب الشخصية الثانية بعد الأمير، كذلك تم توزيع المهام الإدارية بين رجال البيوتات المشهورة، فهذا خازن (وزير المالية) وهذا للأمن (الشرطة الداخلية) وهذا للمنشآت (الأشغال العامة). وحمل هؤلاء لقب الوزير على أنه تشريف، ومنذ أيام «عبد الرحمن الأوسط» أصبح وزير الأندلس له نفس مهام واختصاصات الوزير في المشرق، كما كان هناك وزراء دولة يكلفهم الأمير بما يشاء في أى وقت.

أما أهل البيوتات الذين شغلوا هذه المناصب فهم موالى بنى أمية وفروعهم، ثم انضمت إلى هؤلاء أسر قريحا الأمراء، بعضها عربي وبعضها مولد أو مستعرب وكثير من هؤلاء من أصول بربرية من ذوى الكفاءات.

وللأمويين أسلوبهم في إقالة الوزراء، ذلك أن من ترفع وسادته من بيت الوزارة يعتبر مقالا، وأحياناً كان يمنح بعض الموظفين الكبار مثل حاجب المدينة أى المحافظ لقب الوزير، وعندئذ كان يدعى الوزير صاحب المدينة.

وكانت الوظيفة الكبيرة في الأندلس يطلق عليها لقب «خطة» فيقال «خطة الوزير» أو «خطة الكتابة» (الإنشاء) أو خطة المظالم

(الشكاوى) أو «خطة القيادة»، وكانت خطة القيادة من الخطط الكبرى، ويقصد بها قضاء قرطبة أو الجماعة، ولا يتولى صاحبها قضاء قرطبة وحدها بل له حق تعيين القضاة أو عزلهم في المدن والأقاليم الأخرى، وهؤلاء يعتبرون نوابًا عنه ويعتبر هو مرجعهم،

(89/7)

وقاضى الجماعة هو الشخصية الثالثة بعد الأمير والحاجب، ولذا تطلب الأمر التدقيق عند اختياره، ورغم مكانة القاضى، فإن الكثيرين لم يرغبوا في شغل هذا المنصب؛ لأنهم قد يجدون حرجًا في أداء مهام وظيفتهم ضد كبار الموظفين أو مع أمير لا ترضيه أعمالهم الحريصة على العدالة وحدها.

وفي أواخر عهد الدولة العامرية تولى الصقالبة الخطط الكبرى، ثم تولى الفتيان العامريون الحجابة لآخر الخلفاء الأمويين، واستبدوا بعد ذلك برئاسة المدن والولايات، وظهر في عهد الدولة العامرية بدعة جديدة هي إسناد الحجابة إلى الأطفال، فقد استصدر عبدالمملك - مثلا - أمرًا من الخليفة «هشام» المغلوب على أمره بتعيين ولده الطفل «محمد» في منصب الحجابة ولقبه بذى الوزارتين، كذلك استحدث بالوزارة عدة خطط جديدة مثل خطة خدمة الأسلحة وخدمة الوثائق وخطة خزانة الطب والحكمة .. الخ.

الجيش والأسطول:

عبر إلى شبه الجزيرة جيش الفتح مكونًا من العرب والبربر، وقام البربر بدور مهم في تكوين قوى الأندلس دفاعًا وهجومًا، ولما كون عبدالرحمن الغافقى جيشه بهدف غزو بلاد الفرنج، كان البربر من عناصره المهمة، وبقيت القيادة بيد الضباط العرب، ثم ظهر خلاف بين العرب والبربر، بسبب إحساس البربر باستيلاء العرب على القيادة لأنفسهم فقط، ثم كانت ثورة البربر في المغرب وانتقال بلج بن بشر

القشيري إلى الأندلس الشيء الذي رجح كفة العرب، غير أن الجيش الأندلسي ما لبث أن انقسم إلى العرب الشاميين وأنصار «بلج» والعرب والبربر المحليين، وقامت الحرب الأهلية، إلى أن جاء يوسف بن عبدالرحمن الفهري فأعاد تنظيم الجيش وأصلحه، وجعله جيشاً أندلسياً، يغزو ويرد هجمات نصارى الشمال. ثم جاء «عبدالرحمن الداخل» فاهتم بالجيش غاية الاهتمام، وبلغت جنوده المتطوعة والمرترقة (100) ألف مقاتل، بخلاف الحرس الخاص الذي تكون من (40) ألفاً من الموالي والرقيق والبربر.

(90/7)

---

وكذلك وضع «عبدالرحمن الداخل» نواة الأسطول الأندلسي؛ لأنه أقام قواعد لبناء السفن في بعض الثغور النهرية والبحرية، أما قيام الأسطول الأندلسي فيعود إلى ما بعد ذلك عندما قام النورمانيون بغزو ثغور الأندلس فعنيت الحكومة بأمر الأسطول وإنشاء السفن وبالتحصينات البحرية، كما أقامت أكبر دار لصناعة السفن في مياه الوادى الكبير تجاه إشبيلية. وقد اكتسب الجيش كثيراً من الدربة والمران في تعامله المستمر مع الثورات والغزوات، وقد بذل الناصر جهداً كبيراً لتقويته، ومنحه غاية الاهتمام، ووفر له الأسلحة والعتاد، وفي الوقت نفسه اهتم بالأسطول وأنشأ له وحدات جديدة، وجعل مدينة ألمرية مركزه الرئيسى، وبنى بها أكبر دار صناعة، ووصل عدد الوحدات في زمنه إلى (200) سفينة مختلفة الأحجام والأنواع، بخلاف أسطول آخر خصص لشئون المغرب البحرية، وكان أسطول الناصر من أقوى الأساطيل، سيطر به على مياه إسبانيا الشرقية والجنوبية. وفي عهد المنصور بن أبي عامر وصل الجيش الأندلسي إلى أقصى قوته وضحامته، وقد اعتمد على البربر الذين استقدمهم من بلاد

المغرب وغمرهم بعطايه، وكان في جيشه كثير من المرتزقة والنصارى من المستعربين، وقد بنى المنصور للأندلس قوة لم تعرفها لا من قبل ولا من بعد، وبلغ عدد الفرسان في زمنه (12100)، وعدد الرجالة (26000) وهذا هو الجيش المرابط الذى كان يتضاعف وقت الصوائف، وقد وصل في إحداها إلى (46000)، وزاد عدد المشاة حتى تجاوز المائة ألف.

وقد نجحت القوات الإسلامية في السيطرة على مناطق الحدود؛ بفضل ما تمتعت به من قوة واستعداد، وكانت الخلافة حريصة على أن توفر لها الأسلحة والمؤن وكل ما تحتاج إليه، وكان بعض الحصون في هذه الأماكن أشبه ما يكون بمدينة كاملة.

وإلى جانب جيش الحدود كان هناك جيش آخر يقيم في الزهراء يسمى جيش الحضرة يقوده الخليفة بنفسه أو من ينيبه، وإذا خرج الخليفة بنفسه جمع بين قيادة الجيشين.

(91/7)

وإذا جاء وقت النفير يأمر الخليفة بالاستعداد، فتبدأ عملية واسعة النطاق تسمى «البروز»، وتتوافد الجنود من كل ناحية وتنزل في سهل فسيح يسمى «فحص السرادق» إلى الشمال من قرطبة، ثم يأتى بسرادق الخليفة ويوضع وسط الفحص، وتنصب فرق الجنود خيامها ثم تقبل قوات المتطوعين حسب لوجه الله تعالى، ويستمر البروز شهراً، ثم يخرج الخليفة بجيشه، وينتقل من حصن إلى حصن حتى يصل إلى الحدود فينضم إليه جيش الثغور، وهنا تبدأ الصائفة- أى العملية العسكرية الصيفية التى تستمر شهرين أو نحوها- فى غزوها لأراضى العدو.

الموارد الاقتصادية:

لما فتح المسلمون شبه الجزيرة، فرضت الضرائب على أساس

المساواة بين الناس دون تمييز بين طبقة وأخرى، وكان خراج الأراضى الزراعية والجزية على أهل الذمة وأخماس الغنائم هي الموارد الرئيسية للدخل، وقد قام «يوسف الفهري» بتقسيم الأندلس إلى خمس ولايات وفرض على كل ولاية أن تقدم ثلث دخلها ورفع الجزية عن توفوا من النصارى، ومنحت الحكومة اهتماماً كبيراً للزراعة، وقد نجحت زراعة المسلمين بفضل التغييرات التي أدخلوها على نظام ملكية الأراضى، وتنظيم عملية الري في الأندلس، والعناية بالحدائق والمنتزهات وجلب المياه لها من الجبال.

وقد تنوعت الأراضى في الأندلس بين أراضى خراجية للدولة، وأراضى أحباس تتبع ولاية الأحباس (الأوقاف) ويشرف عليها قاضٍ، وأراضى إقطاع بمعنى أن جيوش الأندلس كانت تتكون من قبائل العرب والبربر التي كانت تقيم في المدن والقرى على أساس إقطاعها أراضيتها، واستمر هذا النظام معمولاً به حتى آخر عهد «المنصور بن أبى عامر» وإن ظل الإقطاع سائداً في مناطق النغر الأعلى خاصة. بالإضافة إلى هذا وجدت الملكيات الخاصة التي كانت تأتي عن طريق الوراثة أو الهبة أو الشراء.

أما المحاصيل الزراعية فأبرزها: التمور والحبوب بأنواعها والفواكه والزيتون وقصب السكر والموز والعنب والتفاح والرمان والبرتقال،

(92/7)

---

ومحاصيل أخرى مثل: القطن والكتان والتوت ونبات الحلفاء، وقد جلبت بعض هذه المحاصيل من المشرق وأدخلت تحسينات على ما كان قائماً منها زمن الرومان.

كذلك اهتمت الإدارة الأندلسية بالرعى وتربية الماشية، وعينت بتربية البغال باعتبارها الوسيلة المثلى للنقل، والخيول والإبل والغنم والثيران والأبقار، ومما يعكس الاهتمام بالخيول وتربيتها أنه كانت

هناك خطة تسمى خطة الخيل يشرف عليها صاحب الخيل، وعرفت الأندلس أيضاً مهنة صيد السمك في السواحل الغربية والشرقية والجنوبية وفي الأهمار الداخلية، ولهذا ازدهرت تجارة السمك في الأندلس.

وعرف المجتمع الأندلسي الصناعة، وراجت فيه صناعة الحدادة والصياغة وحياسة المنسوجات والصباغة، والصناعات الجلدية والخشبية، وصناعة الورق والسفن والأسلحة والسكة والأثاث والفخار والآلات الموسيقية وصناعة ألوان معينة من الطعام كالجن واستخراج الزيت من الزيتون، وصناعة السلال والشمع والزجاج، كما وجد أصحاب الحرف مثل: الفرانين والخياطين والنجارين والبنائين والعطارين والجزارين والحبالين .. الخ، وكان على رأس كل فرقة زعيم يسمى العريف أو الأمين يرتب أمورها وينظم العاملين فيها درجات حسب مستوى إجادتهم.

ومن الطبيعي أن يكون في الأندلس نشاط تجارى، وعناية بالأسواق التجارية، فقد كان في كل مدينة سوق رئيسى يتألف من عدد من الأسواق، وكل طائفة من التجار تتخذ لها مكاناً يجلسون فيه متجاورين، وكانت هناك أسواق للحيوانات وأخرى للنخاسة .. الخ، وقد اهتمت الدولة بإقامة شبكة من الطرق البرية والنهرية الداخلية تربط المدن بعضها ببعض لخدمة التجارة.

وتعامل التجار مع بعضهم عن طريق تبادل السلع، وأحياناً عن طريق استخدام العملة، كما كانت الصكوك والسفاتيح أو الحوالات من الوسائل الشائعة الاستخدام في الأندلس، وكانت السمسرة من أساليب التعامل الرائجة في الأسواق، وقام بها اليهود في الغالب،

كما كانت وحدات الكيل والميزان من أهم وسائل التعامل التجاري، وكان يشرف عليها صاحب السوق، يتفقد العمل في الأسواق يعاونه مجموعة من الموظفين يمتحنون الباعة بأساليب مختلفة لمعرفة مدى التزامهم بالطرق المشروعة بيعاً وشراءً.

وعرفت الأندلس التجارة الخارجية التي تقوم على الصادرات والواردات، فقامت بتصدير التين إلى بعض بلاد المشرق وإلى الهند والصين، والقطن إلى بلاد الشمال الإفريقي، وصدرت الزيت إليها وإلى الدويلات النصرانية في الشمال ومن الصادرات الأندلسية: الحرير ومواد الصباغة وأنواع معينة من المنسوجات والعنبر والطيب وبعض المعادن وبعض الحيوانات.

أما واردات الأندلس فقد تركزت على الأشياء الثمينة والتحف النادرة وبعض المنسوجات الشرقية والصمغ والمواد الغذائية وأهمها القمح. كما استوردت التمور والفسق والذهب، وكان التعامل مع المغرب خاصة يتم بحرية تامة بصرف النظر عن الاختلافات المذهبية أو السياسية أحياناً، كما كانت العلاقات وثيقة بين الأندلس وبين بلاد المشرق الإسلامي، وتمت إقامة طرق برية وأخرى بحرية لربط الأندلس بالعالم الخارجي والاتصال به اقتصادياً وفكرياً، وكانت الضرائب تجبي من التجارة الداخلية والخارجية.

الحركة الفكرية:

لا يوجد في عصر الولاة إلا بعض الآثار الشعرية القليلة التي وردت على ألسنة الزعماء أو الولاة.

وجاء «عبدالرحمن الداخل» وخلف آثراً من النثر والنظم تعكس تفوقه في هذا الميدان، وكان الداخل فوق براعته الأدبية عالماً بالشرعية، وجاء بعده ابنه «هشام» فكان مبرزاً في الحديث والفقه، وغلب الطابع الديني على النهضة العلمية في هذه المرحلة، ثم رحل تلاميذ الأندلس إلى المشرق وتعلموا على الإمام مالك ونقلوا عنه كتابه «الموطأ»، وعادوا إلى الأندلس فنشروا مذهب إمامهم بتلك البلاد،

وكان الأمير هشام يجلب الإمام مالك فساعد ذلك على التمكن لمذهبه في الأندلس.

(94/7)

وفي عهد الحكم بدأت تظهر بوادر النزعة الأدبية إلى جانب العلوم الدينية، وظهر الأدباء والشعراء إلى جانب المحدثين والفقهاء، كما وجد من نبغ في النحو والعروض والأخبار والأنساب وغيرها. وكان الأمير الحكم نفسه أديبًا شاعرًا، وعرف الأندلس في زمنه شعراء مبرزين من أمثال العالم عباس بن فرناس ويحيى الغزال الجبالي. أما في عهد «عبدالرحمن بن الحكم» فقد بلغت هذه الحركة الفكرية الأولى ذروتها وظهر كتاب مُبرزون ومفسرون ومحدثون وفقهاء وشعراء، وكان الأمير نفسه يتمتع بمواهب أدبية وشعرية، وانتشرت اللغة العربية بين طائفة النصارى المعاهدين، وبرز بعضهم في الكتابة.

وشهد عهد الأمير «محمد بن عبدالرحمن» نهضة أدبية وشعرية، ومن أشهر من ظهوروا خلال هذه الفترة الشاعر «عباس بن فرناس» والأديب الفقيه «أبو عمر أحمد بن عبد ربه» صاحب الكتاب المشهور «العقد الفريد»، الذي يعتبر من أمتع كتب الأدب العربي، وكان الأمير عبدالله أيضًا شاعرًا بارعًا في العربية حافظًا للغريب من الأخبار. أما عصر «عبدالرحمن الناصر» فقد زهت فيه العلوم والآداب، وراجت فيه سوق العلم، وظهر أكابر العلماء والشعراء من أمثال «ابن عبد ربه» المشار إليه آنفًا، و«محمد بن عمر بن لبانة» الذي انفرد بالفتيا وحفظ أخبار الأندلس وولى الصلاة في المسجد الجامع، وكان له حظ موفور في الفقه والنحو والشعر، ومن محاسن هذا العصر «أبو الحسن جعفر بن عثمان» المعروف بالمصحفي، البليغ المتميز في النظم والنثر، ومن أعلام هذه الفترة القاضي «منذر بن سعيد

البلوطي»، البارع في علوم القرآن والسنة، والمعروف بجودة خطابته وفصاحته وجزالة شعره، وغير هؤلاء كثيرون، وقد اتخذ الناصر عددًا كبيرًا من هؤلاء العلماء والأدباء حجابًا له ووزراء، مثل موسى بن محمد بن حدير وعبدالمملك بن جمهور. ومن أعظم شعراء عصر «الناصر» أبو القاسم محمد بن هانئ الأزدي

(95/7)

الإشبيلى الذى غادر الأندلس ولحق ببلاط الخليفة المعز الفاطمى فى المهديّة بسبب اتّهامه بالكفر والزندقة. وكان الخليفة نفسه أديبًا يهوى الشعر وينظمه ويدنى إليه العلماء والأدباء.

وظهر فى عهد الناصر أعلام المؤرخين الذين وضعوا أسس الرواية التاريخية الأندلسية، وفى مقدمتهم أحمد بن محمد بن موسى الرازى، ومعاصره أبو بكر محمد بن عمر المعروف بابن القوطية وأحمد بن موسى العروى ..

واستمرت النهضة الفكرية وازدادت قوة فى عهد الخليفة الحكم المستنصر، وكان نفسه أديبًا عالمًا، ولذلك أقام جامعة قرطبة، وحشد لها الأساتذة، وأنشأ المكتبة الأموية الكبرى، وبذل جهودًا خارقة وأمورًا عظيمة حتى يجمع لها آلاف الكتب فى مختلف العلوم والفنون، وظهرت أيضًا المكتبات العامة والخاصة، واحتشد حول بلاط الحكم مجموعة من أكابر العلماء منهم «أبو على القالى»، والأديب المؤرخ «محمد بن يوسف الحجارى»، والفيلسوف «ربيع بن زيد» .. الخ.

ومن شعراء بلاط الحكم المعدودين: طاهر بن محمد البغدادى، ويحيى بن هذيل، ويوسف بن هارون الرمادى القرطبى، الهجاء المعروف بأبى جنيش.

وممن نبغ في هذه الفترة: أعظم علماء اللغة في الأندلس «أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي» النحوي الإشبيلي.  
أما المستنصر نفسه فلم يكن متمكناً في علم الأنساب وفي العلوم الشرعية فحسب وإنما كان أديباً شاعراً ينظم الشعر الجيد.  
أما المنصور بن أبي عامر فقد كان بحكم نشأته عالماً متمكناً في علوم الشريعة والأدب، وكان محباً لمجالس العلماء والأدباء، وبلغ به الأمر أن يصطحب معه طائفة من الشعراء والأدباء في غزواته، وكان أبو العلاء صاعد بن حسن البغدادي شاعره الأثير، وكان ذلك الرجل فوق شاعريته متمكناً في اللغة والأدب والتاريخ، وهو الذي أجاز المنصور بخمسة آلاف دينار على كتاب ألفه في التاريخ والأدب وأمر بقراءة كتابه في مسجد الزاهرة.  
ومن أعظم شعراء الأندلس في عهد المنصور «أبو عمر أحمد بن محمد

(96/7)

---

بن دراج القسطلی» الذي قال عنه «ابن حزم»: «لم يكن في الأندلس أشعر من ابن دراج».  
ومن أكابر الفقهاء والحفاظ عبدالرحمن بن قطيس قاضي الجماعة في قرطبة، وكان إماماً في الحديث والسير والأخبار، شغوفاً بجمع الكتب، مشهوراً بالصلافة في الحق.  
ومن الطبيعي أن تنكمش الحركة الفكرية بعد سقوط الخلافة، لانشغال الأمة بما دهاها من الفتن، ومع ذلك فقد كان بين الخلفاء والولاء خلال هذه الفترة من يتذوق الشعر وينظمه من أمثال الخليفة المستعين، والخليفة المستظهر وغيرهما.

(97/7)

---

## الفصل السادس

### \*عصر ملوك الطوائف

(400 - 484 هـ = 1009 - 1091 م).

ترتب على سقوط الخلافة والدولة الأموية انقسام الأندلس إلى دويلات متنازعة، واستقلال كل أمير بناحيته، وإعلان نفسه ملكًا، ودخلت البلاد بذلك في عصر جديد عرف باسم عصر ملوك «الطوائف» أو عصر الفرق.

وقد انضوت هذه الدويلات تحت مظلة أحزاب ثلاثة كبيرة عمل كل منها على بسط سلطانه على كل الأندلس.

#### 1 - حزب أهل الأندلس:

ويقصد بهم من استقروا في البلاد من قديم الزمان وصاروا أندلسيين بمرور الزمن بصرف النظر عن أصلهم العربي أو المغربي أو الصقلي أو الإسباني، وقد أطلق على هؤلاء مصطلح أهل الجماعة، ومن هؤلاء:

بنو عباد اللخميون في إشبيلية، وبنو جهور في قرطبة، وبنو هود الجذاميون في سرقسطة، وبنو صمادح أو بنو تجيب في ألمرية، وبنو برزال في قرمونة، وعبد العزيز بن أبي عامر في بلنسية .. الخ.

2 - حزب البربر أو المغاربة: حديثوا العهد بالأندلس وهم الذين استقروا بها منذ زمن المنصور بن أبي عامر، ومن هؤلاء بنو زيرى الصنهاجيون في غرناطة، وبنو حمود الأدارسة العلويون في مالقة.

#### 3 - حزب كبار الصقالبة:

الذين استقلوا بشرقى الأندلس، ومنهم مجاهد العامرى الذى استقل بدائية والجزر الشرقية وغيرها، وخيران العامرى زعيم حزب الصقالبة في قرطبة أثناء الفتنة، وكل واحد من هذه الأحزاب حرص على أن يبحث لنفسه عن غطاء روحى فأقام خليفة بجواره يستمد منه سلطانه، فبنو عبّاد جاءوا بشخص اسمه خلف الحصرى، كان شديد الشبه بهشام المؤيد المشكوك في موته، فجعلوه خليفة صاحب

الجماعة، ثم أظهر المعتضد بن عباد موته عام (455هـ = 1053م)، وأعلن أنه منحه ولاية العهد وأنه الأمير بعده على كل الأندلس بمقتضى هذا العهد.

أما الحزب المغربي فقد تولى خلافته بنو حمود بالنظر إلى أصلهم العربي الشريف، ولكن هؤلاء انقسموا على أنفسهم وصار كل واحد منهم يزعم الخلافة لنفسه، ويتخذ ألقابها مثل المهدي والعالى

(98/7)

والمستعلى .. الخ، وانتهى الأمر باستيلاء بنى زيرى ملوك غرناطة على مالقة، وبني عباد على الجزيرة الخضراء وانتهى بذلك ملك الحموديين.

أما حزب الصقالبة فقد أقام مجاهد العامرى فى مملكته بداتية والجزر الشرقية خليفة أمويا هو الفقيه أبو عبدالله بن الوليد المعيطى الذى لقبه بالمنتصر بالله.

لكن مجاهد مالبت أن طرده ونفاه إلى بلاد المغرب عندما علم أنه تأمر عليه أثناء غزوه لجزيرة «سردينيا».

وقد اصطدمت مصالح هؤلاء جميعًا لقرب المسافات بينهم، وهذا وضع جعل المراكشى يسخر منه فيقول:

« وصار الأمر فى غاية الأخلوقة (الأضحوكة) والفضيحة، أربعة كلهم يتسمى بأمر المؤمنين فى رقعة من الأرض مقدارها ثلاثون فرسخًا فى مثلها ».

كما كان جديرًا بتندر ابن حزم الذى علق عليه بقوله:

« واجتمع عندنا بالأندلس فى صقع واحد خلفاء أربعة، كل واحد منهم يخطب له بالخلافة بموضعه، وتلك فضيحة لم ير مثلها، أربعة رجال فى مسافة ثلاثة أيام كلهم تسمى بالخلافة، وإمارة المؤمنين ».

تجرى الأمور على هذا النحو المرير بالأندلس فى الوقت الذى كانت

تعمل فيه دول إسبانيا المسيحية في شمال البلاد على توحيد صفوفها تساندها فرنسا والبابوية في روما. وما إن زالت الدولة الأموية من الأندلس حتى تغلغل النفوذ الفرنسي بكل صوره، سياسية وثقافية ودينية في الشمال الإسباني باعثة روحًا صليبية جديدة ضد المسلمين. وكان يحكم إسبانيا المسيحية في هذه الآونة رجل طموح هو الملك «ألفونسو السادس» ملك قشتالة، نجح في توحيد مملكتي قشتالة، وليون، وسيطر على الممالك المسيحية الشمالية، وتوج جهوده العسكرية باحتلال «طليطلة» عاصمة الثغر الأدنى للمسلمين سنة (478هـ = 1085م)، رغم تميزها بموقع منيع. وكان سقوط مدينة «طليطلة» في أيدي الإسبان كارثة كبرى للمسلمين؛ لأن العدو احتل الأراضي الواسعة التي تمتد جنوبًا حتى جبال قرطبة، وأطلق على هذه المنطقة الجديدة اسم «قشتالة

(99/7)

الجديدة» وبذلك تمزقت بلاد المسلمين وانشطرت إلى قسمين. ولم يكتف «ألفونسو السادس» بما حققه، وإنما اتجه بتحرير من الفرنسيين إلى مدينة «سرقسطة» عاصمة الثغر الأعلى وحاصرها بهدف الاستيلاء عليها، وأخذ يضرب ملوك الطوائف بعضهم ببعض، ويهاجم أراضيهم ويطالبهم بالأموال كي يضعفهم عسكريا واقتصاديا.

وعلى الرغم من هذه الصورة القاتمة سياسيا واجتماعيا فإنه مما يلفت النظر أن تزدهر العلوم وترتقى الآداب والفنون في عصر ملوك الطوائف؛ لأن معظم هؤلاء الملوك والرؤساء كانوا من العلماء والأدباء والشعراء، وكانت قصورهم مجامع للعلوم والآداب، وكلها تزدهو لا بفخامتها وروعيتها بل بأمرائها ووزرائها وكتابها، وقد بلغ الشعر

الأندلسى فى زمن ملوك الطوائف شأواً لم يصل إليه فى أى عصر آخر.

وقد تميزت قصور ثلاثة بصفة خاصة بمشاركتها فى النهضة الأدبية والشعرية، وهى قصور بنى عباد بإشبيلية، وبنى الأفطس فى بطليوس، وبنى صمادح فى ألمرية، وقد برز من بنى عباد: المعتضد بن عباد وولده المعتمد، وطلع فى بلاطهم كثير من الشعراء والوزراء والكتاب، وظهر فى بلاط بنى الأفطس «أبو محمد عبدالمجيد بن عبدون»، و «أبو بكر» و «أبو محمد» و «أبو الحسن» أبناء عبدالعزيز البطليوسى، كما اجتمع حول بنى صمادح عدد من أقطاب الأدب والشعر منهم ابن القزاز وابن الحداد والوازى آشى وغيرهم، أما بنو هود فى سرقسطة فقد نعم بحمايتهم واشتهر فى ظلهم الشاعر أحمد بن محمد ابن دراج القسطلئى.

وعرف هذا العصر مجموعة من العلماء الكبار الذين وصلوا إلى القمة من حيث النضج الفكرى والمستوى العلمى، من هؤلاء ابن حزم وأبو الوليد الباجئ، واللغوى ابن سيده، واللغوى الجغرافئى أبو عبيد البكرى، والعلامة ابن عبدالبر، ومجاهد العامرى صاحب داتية، ومحمد بن أحمد بن طاهر صاحب مرسية، ومن أكابر الفلكيين والرياضيين الذين أفادوا الغرب ببحوثهم أبو إسحاق إبراهيم يحنى الزرقائى،

(100/7)

وأبو القاسم إصبغ بن السمع الغرناطئى، وقد اشتهر الأول بجداوله الفلكية التى صَحَّحت كثيراً مما جاء فى الجداول القديمة، أما الآخر فكان بارعاً فى الهندسة والفلك، والرياضيات، ومن كبار العلماء الذين عنوا بالتاريخ وتدوين الحوادث والترجمة للأعلام ابن حزم، والمؤرخ الكبير أبو مروان حيان بن خلف بن حيان، وأبو عبدالله الحميدى، وأبو الحسن على بسام الشنترنئى صاحب كتاب «الذخيرة

في محاسن أهل الجزيرة»، والكاتب القدير والمؤرخ الأديب الفتح بن خاقان، وكما ارتقت العلوم والآداب ازدهرت الفنون والصناعات في عهد ملوك الطوائف، خاصة ما يتعلق بالموسيقى والغناء وآلات الطرب.

وإذا كان يعرف عن أهل الأندلس اهتمامهم بكل ما يتعلق بتربية الماشية، وفلاحة الأرض، وتنظيم الري وأحوال الجو، وخواص النباتات وإنشاء الحدائق فإنه ينبغي الإشارة إلى ظهور عدد من علماء النبات والزراعة في عهد ملوك الطوائف، لاسيما في طليطلة وإشبيلية منهم ابن وافد وابن بصال، وأحمد بن محمد حجاج، وابن لونكو في قرطبة وغير هؤلاء.

وكانت الصناعات رائجة خلال عصر الطوائف وأشهرها بصفة خاصة، وكان في المرية وحدها خمسة آلاف مصنع تنتج أجمل أنواع الأقمشة وأفخمها، وكانت السفن تأتي من بلاد المشرق ومن الثغور الإيطالية إلى الموانئ الأندلسية في إشبيلية والمرية وبلنسية وداتية وسرقسطة تحمل بضائع المشرق، وتعود محملة بما تستورده من السلع الأندلسية، وكانت التجارة الخارجية مصدراً مهماً من مصادر دخل دول الطوائف ذات الثغور.

(101/7)

## الفصل السابع

\*الأندلس في ظل المرابطين

[484 - 539 هـ = 1091 - 1144 م].

وصلت دولة المرابطين في المغرب إلى أقصى قوتها وبلغت أكبر اتساع لها على يد مؤسسها الحقيقي «يوسف بن تاشفين»، وكان أصحابها من البواسل الشجعان ذوى الطباع السليمة والعزائم القوية

التي لم يفسدها الضعف والهوان، فهم ممن يؤمل نجدتهم ويرجى غوثهم.

وكانت حال الأندلس في العدو الأخرى تعاني سيطرة ملوك النصارى وسطوتهم واستغاثة ملوك المسلمين بهم وإرهاق هؤلاء لهم بالجزية وبما يفرضون عليهم، وتعسفهم في مطالبة الولاة المسلمين بما لا طاقة لهم به، وتكليفهم فوق طاقتهم، وعاد هؤلاء الملوك على شعوبهم فأثقلوا كواهلهم وبالغوا في تحميلهم ما لا قدرة لهم عليه، واحتقر «ألفونسو» وغيره زعماء وقادة المسلمين حتى جثوا جميعاً أمامه يستعطفونه ويرجونه قبول أحوالهم وهداياهم وهو يشتط ويبالغ ويقول:

« أنا لا أرى فيكم إلا أنكم جماعة لصوص، فاللص الأول قد سرق وجاء الثاني فسرق من الأول ما سرق، وجاء الثالث فسلم من الثاني ما سرقه من الأول .»

وهم من ناحيتهم يبادرون بتنهنته وحمل الطرف والهدايا إليه ويصرحون له بأنهم داخل حدود سلطانه ليسوا إلا جباة أموال لتحصيل الضرائب ودفع الجزية.

وقد أخذ «ألفونسو السادس» يجتاح ويخرب مدتهم ومروجهم ويفتح معاقلمهم ويحطم حصونهم، ويضرب عليهم جميعاً ما يشاء من أموال ويضاعفها فيؤدونها - بلا استثناء - وهم صاغرون، ثم أخذت المدن تتساقط في أيدي النصارى مدينة إثر مدينة.

إزاء هذا الوضع المتردى فكر الأندلسيون في مخرج، ووجد رجال الدين أن خير وسيلة هي دعوة المرابطين للعبور إلى بلادهم وتخليصهم من الوضع المرير الذي بلغ القمة ولم يعد يحتمل المزيد، أما الملوك والأمراء فقد ترددوا أول الأمر ورأوا في ابن تاشفين مناوئاً خطيراً أكثر منه عوناً ونصيراً، وربما جاء إلى بلادهم فاستقر فيها وطردهم منها، لكن «ابن عباد» صاحب «إشبيلية» قطع الشك باليقين

---

قائلا إنه لا يريد أن تتهمه الأجيال المقبلة بأنه ترك الأندلس غنيمة في أيدي الكفار قائلا: «ولا أحب أن يعلن اسمي على منابر المسلمين وعندي أن رعى الجمال خير من رعى الخنازير».

وقد أقنع المعتمد بن عباد بوجهة نظره كلا من المتوكل بن الألفس صاحب بطليوس و «عبدالله بن بلقين» صاحب غرناطة، وأرسلوا جميعًا ومعهم العلماء والفقهاء وفدًا إلى «يوسف بن تاشفين» يستصرخونه ويطلبون إنقاذهم.

كان من عادة زعيم المرابطين ألا يبرم أمرًا إلا بعد مشاورة الفقهاء، وقد أشاروا عليه أن يبدأ بقتال القشتاليين، وأن تخلص له الجزيرة الخضراء، فأمر يوسف بن تاشفين بعض فرسانه فعبروا من مدينة سبتة على متن بعض السفن إلى الجزيرة الخضراء يقودهم «داود بن عائشة»، وكان معهم جيش كثيف من الجنود، وأرسل المعتمد إلى ابنه حاكم الجزيرة يطلب منه تركها وتيسير مهمة قوات المرابطين، ثم تلاحقت الجنود بالجزيرة، وعبر «يوسف» نفسه، وعنى بتحصين المدينة حتى اطمأن إلى أنها قد أصبحت في حالة حسنة وبها من المؤن والذخائر ما يكفيها، ثم سار في معظم جيشه إلى «إشبيلية»؛ حيث خرج المعتمد للقائه وأحسن استقباله وقدم له من الهدايا ما يليق بمقامه وما أكد ليوسف أن الأندلس تتمتع بغنى موفور وثراء متزايد، وقد طلب ابن تاشفين من أمراء الطوائف المشاركة في الجهاد، فلبى الدعوة صاحب غرناطة وأخوه صاحب مالقة، وقصد الجميع نحو بطليوس حيث لقيهم ملكها وأخذت وفود الرؤساء تتوافد من سائر أقطار الأندلس وانتظمت القوات الأندلسية وحدة قائمة بذاتها، القيادة فيها لابن عباد واحتلت المقدمة، بينما احتلت الجيوش المرابطية المؤخرة.

موقعة الزلاقة:

واصلت القوات الإسلامية سيرها حتى نزلت على سهل فسيح يقع إلى

الشمال من مدينة بطليوس قرب حدود البرتغال الحالية تسميه المصادر العربية بالزلاقة، فلما علم «ألفونسو السادس» بأخبار المرابطين ترك

(103/7)

حصار «سرقسطة» وأرسل إلى «سانشوا» ملك «أراجون» يطلب معونته، وكان بدوره يحاصر «طرشوشة» واستدعى قواته التي كانت في «بلنسية»، وحشد كل ما استطاع وجاءه المتطوعون من جنوبي فرنسا وإيطاليا وحرص على أن يكون لقاءه بالمسلمين في الأراضى الإسلامية، حتى لا تتعرض بلاده للتخريب ثم اتجه نحو الجنوب للقاء المرابطين، وهو يمتلى زهوًا وبتيه فخرًا بما معه ومن معه، ونزل في مكان يبعد نحو ثلاثة أميال عن معسكر المسلمين، وقدر جيشه بما بين أربعين إلى ثمانين ألفًا على حين قدر الجيش الإسلامي بما بين عشرين إلى نحو خمسين ألفًا، وكان يقود المقدمة المعتمد بن عباد، وعلى اليمين «المتوكل بن الأفضس» وتكونت الميسرة من أهل شرقي الأندلس، أما المؤخرة فكانت من البربر بقيادة «داود بن عائشة»، وكان أمجاد المرابطين من متونة وصنهاجة وغيرها بقيادة يوسف بن تاشفين.

لبث الجيشان ثلاثة أيام لا يفصلهما سوى نهر، والرسل تتردد بينهما، وقد أرسل «ابن تاشفين» إلى خصمه يدعوه إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب، فاستاء الملك النصراني ورد بقوله: «إني ما كنت أتوقع أن يصل الحد بالمسلمين الذين كانوا يعطونني الجزية منذ سنين أن يعرضوا على مثل هذه الاقتراحات الجارحة ومع هذا فإن لدى جيشًا في استطاعته أن ينزل العقوبة على هذه الوقاحة البالغة من الأعداء» ولم يكن جواب «يوسف» أكثر من هذه العبارة» الذي يكون ستره.»

جرت اتصالات تهدف إلى تحديد موعد المعركة، وحاول «ألفونسو»

خديعة المسلمين، لكن المعتمد بن عباد أدرك خديعته، وقد أخبرته  
طلائعه بما في معسكر العدو من حركة وجلبية سلاح، رغم أن الوقت  
المتفق عليه لبدء القتال لم يكن قد حان بعد.  
وفي أوائل (رمضان 480هـ = ديسمبر 1087م) بدأ القتال في الصباح  
الباكر واشتد لهيب المعركة وهاجم النصارى بعنف مقدمة «المعتمد بن  
عباد» ونجح في ردها عن مواقعها واختل نظامها وارتد معظمها إلى

(104/7)

بطليوس ولم يثبت إلا الإشبيليون وابن عباد الذي كان مثالا للشجاعة  
والإقدام حيث صمد للعدو، وقاوم هجماته العنيفة رغم جرحه الذي في  
وجهه ويده، وهاجم «ألفونسو» على مقدمة المرابطين التي يقودها  
«داود بن عائشة» وردها عن مواقعها، وفي اللحظة المناسبة دفع  
ابن تاشفين بقوات البربر إلى نجدة الأندلسيين والمرابطين، ونفذت  
قواته إلى قلب النصارى بكل قوة، وسرعان ما تغير وجه المعركة،  
لأن يوسف هاجم عدوه من الخلف مباغتة وهذا شجع الفارين فعادوا  
ونظموا صفوفهم، وشدوا من أزر المعتمد، ورغم أن «ألفونسو» كان  
قد وصل إلى خيام المرابطين، فإن ابن تاشفين تقدم على رأس من  
معه من قواته وتجاوز جموع النصارى وقصد إلى معسكرهم نفسه  
وهاجمه بشده وفتك بحراسته، ثم وثب إلى مؤخرة القشتاليين  
النصارى، وأثنخ فيهم قتلاً وطبولة تضرب فتشق أجواز الفضاء، ثم  
أضرم النار في معسكر الأعداء.  
اضطر «ألفونسو» أن يستدير لينقذ معسكره؛ لكنه اصطدم بالمرابطين  
ولم يصل إلى محلته إلا بعد خسائر فادحة، وكان «يوسف» أثناء  
القتال يجول على سهوة جواده بين المحاربين يهيب بهم «أن  
تشجعوا أيها المسلمون، أعداء الله أمامكم والجنة تنتظركم،  
وطوبى لمن أحرز الشهادة».

وكان سماع النصارى لدوى الطبول ووقوف المسلمين يقاتلون في صفوف متراصة ثابتة من العوامل المساعدة على انتصار المسلمين وإحراقهم الهزيمة بصفوف عدوهم، وقد دفع «ابن تاشفين» بحرسه الأسود البالغ عدده نحو أربعة آلاف إلى قلب المعركة في الوقت المناسب، وتمكن واحد منهم من الوصول إلى «ألفونسو» وطعنه في فخذه، الأمر الذى اضطره إلى الاعتصام بتل قريب حتى جن الليل ثم هرب في نحو خمسمائة فارس معظمهم من الجرحى ووصل إلى طليطلة منهم مائة فقط.

أمضى المسلمون الليل يرقبون حركات النصارى وفي اليوم التالى طارد الفرسان الفارين، وجمعت الأسلاب الهائلة. وقد استبشر المسلمون في شبه الجزيرة بهذا النصر العظيم غير أن

(105/7)

وصول نبأ وفاة الأمير أبى بكر بن يوسف بن تاشفين كدر صفو النصر، وجعل «ابن تاشفين» يقرر العودة إلى بلاد المغرب ومعه عامة الجند، وترك تحت إمرة المعتمد جيشًا من المرابطين مؤلفًا من ثلاثة آلاف جندى. بعد أن نجح «يوسف» بما حققه من نصر مؤزر في إعادة روح الثقة والأمل إلى نفوس المسلمين بالأندلس.

عودة ابن تاشفين إلى الأندلس:

عبر ابن تاشفين مرة أخرى إلى الأندلس في رجب (483هـ = سبتمبر 1090م)، واتجه نحو حصن يسمى حصن «لاييط» وهناك تبين له تخاذل أمراء الطوائف فعزلهم جميعًا ووجد الأندلس، ولم يستثن من ذلك إلا إمارة سرقسطة، فقد كان أصحابها محاطين بالنصارى من كل ناحية، وخشى ابن تاشفين أن يسلموها للنصارى إذا تعرض لهم فتركهم بدون تدخل، وبهذا العبور الثانى ليوسف بدأ عصر المرابطين فى الأندلس.

وعلى الرغم من قيام المرابطين بمسئولياتهم في المغربين الأوسط والأقصى فإنه كان من مهامهم الرئيسية الدفاع عن الإسلام في الأندلس، ففي هذا الميدان جاهدوا وأنفقوا، واستشهد فيه خيرة رجالاتهم، وعرفوا كيف يثبتون لعدوهم ويوقفون تقدم النصارى، رغم تكتل الأعداء واستعانتهم بملوك غربي أوروبا وبالبايونية، ومن مواقع المرابطين التي أبلوا فيها بلاء حسنًا موقعة «أقليسن» شرقي طليطلة، وكان من نتائجها استيلاؤهم على هذه المدينة، وعلى مدينة طليطلة للمرة الثانية سنة (503هـ = 1109م)، كما تمكنت البحرية المرابطية في سنة (509هـ = 1115م) من استعادة جزر البليار، ولو بقيت هذه الجزر بيد النصارى لأصبحت خطرًا يهدد شرق الأندلس كله. وهذا لا يعنى أن المرابطين خلت أيامهم من الهزائم، فقد تعرضوا لنكبة عند بلدة «كتندة» القريبة من سرقسطة في (ربيع الأول 514هـ = يونيو 1120م)، واستشهد منهم ألاف من بينهم بعض العلماء بسبب تسرعهم في الهجوم على العدو قبل أن تنتظم صفوفهم، فاختل نظامهم وكانت الهزيمة، لكنهم حققوا نصرًا في موقعة «أفراغة»

(106/7)

جنوبي غربي «لاردة» بالثغر الأعلى في سنة (528هـ = 1134م)، يقودهم واحد من كبار رجالاتهم هو أبو زكريا يحيى بن غانية والى بلنسية ومرسية.

وفي الوقت الذى يقوم فيه المرابطون بهذه الجهودات ويحققون أعظم الانتصارات إذ بهم يفاجئون بثورة يقوم بها المصامدة بقيادة «محمد بن تومرت» ضدهم في بلاد المغرب. فكان سببًا في توقف الجهاد في الأندلس وبدأت المدن تتساقط واحدة وراء الأخرى في أيدي النصارى، بسبب سحب القوات من الأندلس وهى في أوج انتصاراتها، وشغل المرابطون بالدفاع عن أنفسهم بالمغرب خاصة

بعد وفاة على بن يوسف بن تاشفين ثالث أمرائهم سنة (537هـ= 1142م)، وزاد الموقف سوءًا قيام بعض الأندلسيين بالثورات ضد المرابطين وزعمهم أنهم أكثر رقيًا وأعظم حضارة من هؤلاء الأفاارقة. النواحي الحضارية:

أما عن النواحي الفكرية والأدبية، فلم يكن المرابطون يرحبون بمظاهر الحضارة الأندلسية، فخبأ ضوء الفكر والأدب في أيامهم، وانتهت الحلقات الأدبية التي كانت تزدهر بما قصور ملوك الطوائف، وهذا لا يمنع من ظهور شخصيات عُدَّت امتدادًا لعصر الطوائف، يأتي على رأس هؤلاء «ابن باجة» الطبيب الفيلسوف، وأبو بكر الطرطوشي، والفتح بن خاقان، وابن بسام الشنتريني وأبو بكر بن قزمان أمير الزجل الأندلسي وغيرهم. وجدير بالذكر أن المرابطين حرصوا على تحرى الحق وتحقيق العدل وإقامة شعائر الدين، وأقاموا مجتمعًا مسلمًا عمل على الجهاد في سبيل الله ونصرة دينه.

وكان بالأندلس قائد أعلى هو الحاكم العام غالبًا، وللمدن قادة يخضعون لهذا القائد الأعلى ويتولون المهام العسكرية والإدارية وغيرها، وكان اختيار الوالى يتم على أساس تقواه وعدالته وإجادته لمهمته، وسرعان ما كان يعزل إذا فرط أو قصر، وقد قسمت الأندلس زمن المرابطين إلى ست ولايات هي: إشبيلية وغرناطة وقرطبة وبلنسية ومرسية وسرقسطة. أما القضاء فقد بقى مستقلا، وكان القضاء يستشارون، ولهم

(107/7)

مكانتهم عند الناس وعند الدولة.

وقد استمرت الصناعة أيام المرابطين على نحو ما كانت عليه من قبل، واهتموا بالجيش والأسطول، وتحصين الثغور والمدن.

## الفصل الثامن

\*الأندلس في ظل الموحدين

[539 - 620 هـ = 1144 - 1223 م].

تمكن الموحدون من قتل أبي إسحاق إبراهيم بن تاشفين بن علي بن يوسف، وتم لهم بذلك القضاء على المرابطين، وفي سنة (555هـ = 1160م) عبر «عبدالمؤمن بن علي» أول خلفاء الموحدين إلى الأندلس؛ لضم ما بقي بها إلى دولته، واستقر في إشبيلية، ونظم الدفاع عن البلاد، وأقام على قواعد الأندلس رجالاً من آل بيته، وتمكن من توحيد معظم ما بقي من الأندلس تحت رايته، ولم يخرج عن طاعته إلا بنو غانية أمراء دانية، ومحمد بن سعد بن مراديشن رئيس مرسية الذي انضمت بلاده إلى الموحدين بعد ذلك، وبدأ جهاد المسلمين ضد النصارى واتخذ ميداناً له غربي الأندلس بعد أن كان مجاله شرقي الأندلس زمن المرابطين.

كان الخليفة الموحدى أبو يوسف يعقوب الملقب بالمنصور هو أكبر شخصية في تاريخ الموحدين بعد محمد بن تومرت وعبدالمؤمن بن علي قد عقد صلحاً مع النصارى، وعندما انتهت مدة هذا الصلح سنة (590هـ = 1194م) بدأ هؤلاء في مهاجمة أراضي المسلمين، فعبر أبو يوسف يعقوب إلى الأندلس ومعه خيرة المقاتلين الموحدين وضم إليه أحسن مقاتلي الأندلس، وحشد حشدًا عظيمًا من جنده وحمسهم في هذه الحملة، بينما استعان عدوه «ألفونسو الثامن» ملك قشتالة وليون بملوك النصارى وبالبايوية، وكون جيشاً ضخماً، وعسكر عند حصن يسمى «الأرك» عند نهاية الطريق المؤدى من طليطلة إلى قرطبة على بعد (20كم) بالقرب من قلعة «رباح» وغرب المدينة الملكية الآن، وبدأت موقعة حاسمة في (شعبان 591هـ = يوليو

1195م) أسفرت عن نصر مؤزر للمسلمين، وانكسرت حدة الموجة النصرانية، وكان لهذا النصر أثره في تثبيت جبهة الإسلام في الأندلس لمدة طويلة من الزمان.  
وبعد هذه الهزيمة عقدت هدنة بين المسلمين والنصارى سنة (594هـ = 1198م)، ولكن ملك النصارى ما كان ليستريح بعد هزيمته القاسية في «الأرك»، ولذلك أخذ في الاستعداد لمعركة جديدة مع المسلمين

(109/7)

قبل انتهاء أمد الهدنة وأعد جيشًا ضخمًا واحتشد بكل ما يستطيع بمعاونة كاملة من ملوك النصارى في غرب أوروبا ومن البابوية ومن نصارى إسبانيا وشجعه موت أبي يوسف يعقوب خليفة الموحدين، وتولية خلفه أبي عبدالله محمد الناصر الذي كان أقل كفاءة من أبيه وقد عبر الخليفة الجديد إلى الأندلس في ذى الحجة (607هـ = 1211م) على رأس جيش ضخم ونزل إشبيلية ومن هناك صعد شمالاً الوادى الكبير وعسكر في سهل تكثر فيه التلال الصغيرة ويقع غربى الحصن المسمى بالعقاب (جمع عقبة)، وأقبل النصارى كذلك، وعسكروا فوق هضبة الملك المشرفة على معسكر المسلمين، وقبل اللقاء استولى النصارى على قلعة «رباح» من قائدها الأندلسي، وعندما وصل هذا القائد إلى معسكر الناصر قتله دون تحقيق، الأمر الذى أغضب الأندلسيين وأثر في معنوياتهم.  
بدأ اللقاء في (15 من صفر 609هـ = 16 من يوليو 1212م)، وانخزل الأندلسيون والخارجون على المسلمين من العرب بعد قليل، وتركوا الجناح الشرقى للمسلمين مكشوفًا فانقض عليهم النصارى وحصدوا الألوف من متطوعة المسلمين المجاهدين من الأندلس كما حصدوا زهرة مقاتلى الأندلس، وعددًا كبيرًا من خيرة العلماء والفقهاء والقضاة، وكان الخطب عظيمًا حتى قيل إن الإنسان كان يتجول في المغرب

بعد المعركة فلا يصادف شابًا قادرًا على القتال.  
وبعدها ضعفت جبهة الوادى الكبير، وسقطت مدن كبرى، وأشرف  
النصارى مباشرة على قرطبة وإشبيلية ومرسية وغيرها من عواصم  
هذا الخط، ثم توفي خليفة الموحدين الناصر فى شعبان (610هـ =  
1213م)، ودب الخلاف فى صفوف البيت الموحدى وانعكس ذلك على  
الأندلس فبدأت تصفية ما بقى للمسلمين من أرضها خلال عصر  
الموحدين ولم تبق إلا مملكة غرناطة.  
لحظة عن الجوانب الحضارية والإدارية:  
كانت الأندلس فى عهد الموحدين ولاية من ولايات الدولة، يأتى  
الخليفة إليها ويرعى شئونها العسكرية والعلمية والإدارية كلما دعت

(110/7)

---

الظروف إلى ذلك، وقد أكد الخلفاء والولاة وجوب إقامة العدل  
والتمسك بالشريعة فى كل الأمور، وقد بلغت الدولة الموحدية مكانة  
عالية فى النواحي الحربية والسياسية والحضارية حتى جاءت الوفود  
إلى البلاط الموحدى لعقد المعاهدات وإظهار الصداقة، وفى آخر  
العهد الموحدى أنشئ منصب وزارى لاستقبال الشعراء والعناية  
بأمورهم.  
وكانت هناك عناية بالإنشاءات العسكرية والتحسينات وكان  
الأسطول موضع اهتمام الخلفاء، كما كان للجيش أسلوبه فى التحرك  
والقتال وله تنظيماته، وكان هناك مجلس عسكرى أول يستشار فى  
الخطط والأمور العسكرية وكانت الخلافة وراثية. كما كان الاهتمام  
عاليًا بالجوانب الإدارية والمالية والموارد والمصارف، وكان القضاء  
مستقلًا يتولاه أهل الأندلس ويحكمون بين الناس بما أنزل الله، ونعمت  
البلاد بالأمن والرخاء فى ظل صناعة وزراعة وتجارة مزدهرة.  
أما عن الناحية العمرانية فقد أنشأ الخليفة أبو يعقوب يوسف بعض

المشروعات في «إشبيلية»، منها بناء القنطرة على نهر الوادي الكبير، كما حصن هذه المدينة وأقام بها منشآت لتوفير المياه الجارية لسقاية الناس، وأسس الخليفة أبو يعقوب سنة (567هـ = 1172م) جامع إشبيلية الأعظم وأتم ابنه المنصور صومعته أو مئذنته الكبيرة عام (584هـ = 1188م) وهذه المئذنة قائمة حتى اليوم، وتعرف بالمئذنة الدوارة (لاخيرالدا) ويبلغ ارتفاعها (96) متراً، كذلك أقام الموحدون بعض القصور الخاصة المحاطة ببساتين تزينها أشجار الفواكه والثمار وتسقى بواسطة النواعير (السواقي).  
وقد برز بالأندلس على عهد الموحدين عدد من البارعين في فروع العلم والمعرفة منهم أبو محمد بن خير، وأبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الرحالة المشهور، وأبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي، الحافظ المحدث الأديب، وأبو الحسن علي بن محمد الرعيبي الكاتب الأديب، وأبو مروان عبدالمملك بن محمد بن صاحب

(111/7)

---

الصلابة المؤرخ، وعبدالواحد المراكشي، وعلي بن موسى بن سعيد، وابن عذارى من المؤرخين، وأبو جعفر أحمد الغافقي وأسرة بني زهر علماء الطب والنبات، وأبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الحفيد، الذي اشتهر بالطب والفلسفة، وغير هؤلاء من العلماء المجاهدين كثير.

(112/7)

---

الفصل التاسع

\*دولة بنو نصر

[629 - 897 هـ = 1232 - 1492 م].

انفرط عقد الأندلس بعنف بعد هزيمة الموحدين في معركة «العقاب» أمام الجيوش الإسبانية والأوربية المتحالفة، وسارت الأمور من سيئ إلى أسوأ، والقواعد تخرج من قبضة الموحدين واحدة بعد الأخرى، ينتزع بعضها ابن هود الثائر وبعضها النصارى وأتاحت هذه الظروف فرصة الظهور والمغامرة للطامحين من القادة والزعماء.

في تلك الأثناء ظهر محمد بن يوسف بن نصر أو ابن الأحمر الملقب بالغالب بالله في وقت اشتدت فيه المحن، وانعقدت عليه الآمال؛ لتمييزه بالشجاعة ومجاهدة العدو، والتف حوله الناس وبايعوه في «أرجونة» وما حولها على بعد ثلاثين كيلو متراً من «جيان» في (رمضان 629هـ = يوليو 1232م) وتوافد عليه جنود الأندلس؛ فأعلن نفسه أميراً وانتقل إلى «جيان»، ودخلت في طاعته بلاد الجنوب كلها، لكنه أحس أنه في حاجة إلى معقل يعتصم به؛ لأن «جيان» مدينة مكشوفة، فوقع اختياره على غرناطة الواقعة عند سفح جبل الثلج، وكان يوجد في أعلى الجبل حصن منيع سبق تعميره أول عصر ملوك الطوائف، فتوجه إليه وسكنه واستقر به، وشيئاً فشيئاً أخذ يوسع نطاق سلطانه، حتى أصبحت دولته تضم بين جنباتها ثلاث ولايات كبيرة هي: غرناطة وألمرية، ومالقة، ووصلت حدودها إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط ومضيق جبل طارق، واتخذ مدينة غرناطة عاصمة لدولته، وساعد على دعم دولته استيلاؤه على ألمرية ومالقة لما لهما من أهمية عظيمة في المجالين التجارى والبحرى.

وقد واجهت «ابن نصر» بعض المشكلات الداخلية والخارجية، منها: علاقته بأصهاره «بنى أشقبولة» الذين عاونوه ثم انقلبوا عليه، ونقص المال الذى كان في أشد الحاجة إليه لتثبيت قواعد سلطانه، ومشكلته مع ملوك النصارى الذين أدركوا خطر دولته الناشئة وأرادوا القضاء عليها، فاضطر إلى أن يعقد معهم معاهدة صلح سنة (643هـ = 1245م) لمدة عشرين عاماً، وبمقتضاها حكم ابن الأحمر مملكته

باسم ملك قشتالة «فرناندو الثالث» ودفع له جزية، ووافق على حضور البلاط القشتالي باعتباره واحدًا من أمراء الملك، وعلى مده بالجنود كلما طلب منه ذلك، وبالفعل أمده ابن الأحمر بقوات ساعدت على سقوط «إشبيلية» في يد النصارى في (3 شعبان 646هـ = نوفمبر 1248م).

وفي (جمادى الثانية 671هـ = ديسمبر 1272م) توفي محمد بن يوسف بن نصر الملقب بالشيخ، وكان قد أخذ البيعة لولده محمد، فأقر بذلك مبدأ الملكية الوراثية، وقد اعتلى محمد الثاني العرش ولقب بالفقيه؛ لاشتغاله بالعلم أيام أبيه، وقال عنه ابن الخطيب: «وهو الذى رتب رسوم الملك للدولة ووضع ألقاب خدمتها، ونظم دواوينها وجبايتها، هذا إلى جانب اعتنائه بالجيش وخاصة فرق الفرسان .. وكان سياسيا بارزاً .. ، أديباً عالماً، يقرض الشعر ويجالس العلماء والأدباء والأطباء والمنجمين والحكماء، والكتاب والشعراء». وقد واجه الأمير الجديد ثلاث مشكلات هي، مشكلته مع الإسبان، وقد نجح في تحقيق انتصارات عليهم منتهزاً فرصة موت ملكهم، ومع المرينيين الذين استنصر بهم ليعاونوه في الجهاد ضد المسيحيين فإذا بهم يطمعون فى الاستيلاء على الأندلس، الشيء الذى دفعه إلى التحالف مع ملك أراجون تارة ومع ملك قشتالة تارة أخرى لدرء خطر المرينيين، وعلى الرغم من تحسن العلاقات بين غرناطة وفاس، فإن الفقيه لم يكن يطمئن إلى نياتهم، وقد دفعهم ذلك إلى التحالف مع النصارى مرات، وأخيراً كانت هناك مشكلة مع أصحاب أبيه «بنى أشقيلولة» التى اشتدت فى زمنه، وانتهت بصدور أمر يقضى بتهجيرهم إلى مدينة القصر الكبير بشمالى المغرب جنوب مدينة سبتة سنة (687هـ = 1288م).

وعلى كل حال فقد توفي محمد الفقيه فى (شعبان 701هـ = أبريل

1302م) بعد أن نجح في دعم دولته داخليا وخارجيا.  
تولى الأمر بعد محمد الفقيه ابنه أبو عبدالله محمد، وفي عهده تحالف  
ملكا قشتالة وأراجون على غزو مملكة غرناطة برا وبحراً، ولكن

(114/7)

«ألمرية» تمكنت من الصمود في مواجهة أقصى هجوم عرفته في  
تاريخها وتمكن جيشها بقيادة شيخ الغزاة «عثمان بن أبي العلاء»  
من هزيمة جيش أراجون، لكن العلاقة ساءت بين غرناطة وفاس، وقام  
صاحب مالقة بثورة عارمة ضد الحكومة المركزية، وكانت فتنة وقتال  
وحرب وهدنة استمرت أعواماً ولم تنته إلا بموت الأمير.  
ثم تولى أبو الوليد إسماعيل بن فرح (713هـ = 1313م) الذي اشتهر  
بإقامة الحدود وتطبيق الشرع، وفي عهده قام القشتاليون بهجوم  
ضخم على غرناطة، انتهى بمقتل أميرى الجيش النصراني في مروج  
غرناطة، وانتهز الأمير فرصة منازعات بين أمراء قشتالة واستولى  
على بعض المدن القشتالية ومنها مدينة «أشكر»، وقد استخدم  
الغرناطيون المدفع لأول مرة عند منازلتهم لها.  
ثم تولى أبو عبدالله محمد الرابع بن إسماعيل (725هـ = 1325م) الذي  
اشتهر بالشجاعة كما كان مغرمًا بالصيد محبا للأدب والشعر، وفي  
عهده قامت بعض الفتن الداخلية التي انتهزها النصارى واستولوا  
على عدد من الحصون، كما أحرز أسطولهم نصراً على الأسطول  
الإسلامي في ألمرية ومالقة.  
وقد دفع هذا السلطان أن يعبر بنفسه إلى المغرب ليستنجد ببني  
مرين الذين أجابوه إلى ما طلب، ونزلت قوات المرينيين على جبل  
الفتح وأمكنها الاستيلاء عليه عام (733هـ = 1333م)، ولكن السلطان  
قتل في طريق عودته إلى غرناطة وتولى من بعده أخوه أبو الحجاج  
يوسف الأول.

وشهدت مملكة غرناطة في عهده عصرها الذهبي، فأُنشئت المدرسة  
اليوسفية والنصرية، وجرى الاهتمام بتحسين البلاد، وإنشاء  
المصانع، وإقامة الحصون، وبناء السور العظيم حول ريبض البيازين  
في غرناطة، وأضيفت منشآت كثيرة إلى قصر الحمراء منها باب  
الشريعة وغيره، وكان السلطان حريصاً على تفقد أحوال شعبه  
بنفسه.

ومن الأحداث العظام في عهده: الوباء الأسود الذي تفشى في حوض  
البحر الأبيض المتوسط عامي (749 - 750 هـ = 1348 - 1349 م)، وشمل

(115/7)

المشرق والمغرب، وراح ضحيته عدد عظيم من علماء الأندلس ورجال  
الدين والأدب والسياسة فيها.

وعلى الرغم من قيام أبي الحجاج بعقد سلام مع ملك قشتالة عام  
(734 هـ = 1334 م) فإنه سرعان ما تحطم وبدأ صراع بين غرناطة  
والمغرب من ناحية، وقشتالة تساندها أراجون والبرتغال من ناحية  
أخرى حول السيطرة على جبل طارق، وبعد معارك انتهى الأمر بين  
كل الأطراف بعقد معاهدة مدتها عشر سنوات، وتوفي يوسف الأول  
قتيلاً في (أول شوال 755 هـ = سبتمبر 1357 م)، وتولى ابنه محمد  
الخامس الغنى بالله، وحدث صراع وتحالف بين هذا الطرف أو ذاك  
وبين ملوك النصارى، وانتهت هذه المرحلة بعقد صلح دائم بين قشتالة  
وأراجون وغرناطة والمغرب عام (772 هـ = 1370 م)، ثم توفي  
السلطان محمد الخامس الذي كان ملك البرتغال وسلطان بني مرين قد  
ساعده على استرداد ملكه، وبعده تعاقب على عرش غرناطة عدد  
من السلاطين الضعاف وتعرضت المملكة لكثير من الفتن والدسائس  
والمؤامرات وجرت اتصالات وتحالفات مع ملوك النصارى، وبلغ  
الاضطراب حداً تعاقب فيه على مملكة غرناطة اثنا عشر سلطاناً خلال

القرن (9هـ = 15م)، تولى بعضهم أكثر من مرة، فشهدت غرناطة  
اعتلاء عشرين سلطاناً على عرشها.  
حدث هذا في الوقت الذي شهدت إسبانيا المسيحية نهضة حربية  
وسياسية توجت بزواج «فرناندو الثالث» ملك أراجون من «إيزابيلا»  
ملكة قشتالة، واتحدت الدولتان في مملكة واحدة عام (874هـ =  
1469م) بعد طول نزاع وحروب، وكان ذلك بداية النهاية لمملكة  
غرناطة الإسلامية التي استمر بقاؤها معتمداً - على حد كبير - على  
استغلال النزاع بين هاتين المملكتين، وبدأ الملكان الكاثوليكيان  
يعملان على إنهاء الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة، وعرف ذلك  
سلطان غرناطة فامتنع عن دفع الجزية لقشتالة وبدأ النزاع بين  
الجانبيين، وتمكن النصارى من الاستيلاء على حصن «الحمة» عام  
(887هـ = 1482م).  
وزاد من سوء الموقف اشتعال الحروب الأهلية بين أفراد البيت

(116/7)

الحاكم؛ فقد هجر السلطان أبا الحسن علي ولداه «أبو عبدالله محمد»  
و «يوسف» وأعلن الثورة على والدهما بسبب خضوعه لسيطرة زوجته  
الرومية الأصل وإهماله أمهما، وقد قامت حروب بين الفريقين،  
أسفرت عن طرد السلطان أبي الحسن الذي لجأ إلى مدينة بسطة،  
كما قتل ابنه يوسف وتولى ابنه أبو عبدالله علي مملكة غرناطة، وقد  
تعرض السلطان الجديد لهزيمة على يد النصارى وأسروه ثم أطلقوا  
سراحه بعد أن أملوا عليه شروطهم، وواصل السلطان الجديد الحرب  
ضد والده الذي سرعان ما توفي وخلفه أخوه أبو عبدالله محمد  
الملقب بالزغل.

انتهز النصارى فرصة هذه الفتن واستولوا على بعض المدن، وبعثوا  
إلى الزغل يعرضون تسليم ما معه من أراضٍ مقابل مال كثير فوافق

ورحل إلى فاس، وهناك وضعه سلطان المغرب في السجن وصادر أمواله وسمل عينيه.

وقد لجأت مملكة غرناطة في السنوات الأخيرة من عمرها إلى السلطات الحاكمة في مصر تطلب نجاتها، ولكن مصر المملوكية آتت لم يكن في مقدورها أن تفعل شيئاً بسبب ظروفها الداخلية، وكل ما استطاعته هو التهديد. بمعاملة المسيحيين في المشرق معاملة سيئة إذا ما تعرض المسلمون في الأندلس للإهانة، وقد أرسل الملكان المسيحيان سفارة إلى السلطان «قانسوه الغورى» عام (907هـ = 1501م) طمأنته على وضع المسلمين وأزالت التوتر بين الجانبين. وقد التقت قوات غرناطة والمرينيين من قبل وحاربوا قوات قشتالة وليون عند «أسنجة» جنوبي قرطبة سنة (647هـ = 1249م)، وتحمس المسلمون حماساً عظيماً ومزقوا قوات قشتالة شر ممزق، واضطر «ألفونسو العاشر» إلى طلب الصلح، وحدث لقاء مماثل قرب غرناطة عام (718هـ = 1318م) اتحد فيه المسلمون فحققوا نصراً مؤزرًا، وهذا يعنى أن قوة المسلمين في الأندلس كانت لاتزال تستطيع الدفاع عن نفسها ودحر عدوها إذا وحدت صفوفها وأدركت أهمية معاركها، ووعت جيداً دورها في مواجهة الأعداء وتثبيت أقدام المسلمين في

(117/7)

---

أرض الأندلس، لكن النفور بين المرينيين وبين بنى نصر كان أكثر أذىً وأشد وطأة من خلافهم مع النصارى. وبقى عبدالله في الميدان وحده وقد رفض تسليم غرناطة وصمم على القتال، وفي عام (896هـ = 1491م) قام الملك «فرناندو» بحصار غرناطة وأفسد زراعتها وأقام حولها القواعد، ثم توصل الطرفان إلى معاهدة التسليم، ودخل الملك الكاثوليكيان مدينة غرناطة في (الثاني من ربيع الأول 897هـ = الثاني من يناير 1492م).

بعض مظاهر الحضارة بقرنائة فى عفر بنى نصر:  
ازداد عدد السكان فى مملكة قرناطة بسبب تدفق المهاجرين إليها من  
المدن الأخرى وبسبب هجرة المدجنين الذين أفتاهم فقهاؤهم بضرورة  
مغادرة البلاد التى سقطت فى يد النصارى، فلجأ إليها العلماء  
والأدباء وعامة الناس، كذلك عاش البربر الذين جاءوا لمعاونة قرناطة  
فى حروبها ضد المسيحيين، كما تحدثت بعض المصادر عن عناصر  
سودانية خارج مالقة، وعن صوفية وفدوا من الهند وخراسان وبلاد  
فارس للمرباطة فى سبيل الله، هذا بالإضافة إلى الأفارقة السود  
الذين عبروا إلى الأندلس منذ حركة الفتوح الأولى، وقد تغلغل حب  
الانتماء إلى القبائل العربية بين الأندلسيين، ويذكر فى هذا أن بنى  
نصر ملوك قرناطة ينسبون أنفسهم إلى الصحابى الجليل «سعد بن  
عبادة» سيد الخرج وأحد زعماء الأنصار.  
العمارة فى مملكة قرناطة:

كان لقرناطة مسجد جامع من أبداع الجوامع وأحسنها منظرًا. لا  
يلاصقه بناء، قد قام سقفه على أعمدة حسان، والماء يجرى داخله.  
وإلى جانب المسجد الجامع وجدت مساجد أخرى مهمة مثل: مسجد  
الحمراء وعدد من المساجد فى الأحياء المختلفة.  
واشتهرت مساجد قرناطة باستخدام الرخام، كما عرفت المساجد  
الأندلسية بتجميل صحنونها بحدائق الفاكهة وأقيمت المآذن منفصلة  
عن المساجد يفصل بينها صحن المسجد، وكانت المئذنة عبارة عن  
أربعة أبراج مربعة وتتكون من طابقين، ويحيط بها سور يزين أعلاه

(118/7)

---

بكرات معدنية مختلفة، وحتى الآن توجد مئذنتان ترجعان إلى عصر  
دولة بنى نصر، الأولى مئذنة مسجد تحول إلى كنيسة هى كنيسة  
«سان خوان دى لوس ريس»، والثانى ببلدة «رندة» التى تحول

مسجدها إلى كنيسة باسم «سان سباستيان».

قصر الحمراء:

يعد قصر الحمراء من أعظم الآثار الأندلسية بما حواه من بدائع الصنع والفن، وقد كانت الحمراء قلعة متواضعة في القرن الرابع الهجري، وعندما تولى «باديس بن حبوس» زعيم البربر غرناطة اتخذها قاعدة لملكه، وأنشأ سوراً ضخماً حول التل الذي تقع عليه، وبني في داخله قصبة جعلها مركزاً لحكمه، وقد تطورت مع الزمن وأصبحت حصن غرناطة المنيع.

ولما دخل «محمد بن الأحمر» غرناطة عام (635هـ = 1238م)، أخذ يبحث عن مكان مناسب تتوافر له القوة والمناعة، فاستقر به المطاف عند موقع الحمراء في الشمال الشرقي من غرناطة، وفي هذا المكان المرتفع وضع أساس حصنه الجديد «قصبة الحمراء»، ولكي يوفر له الماء أمر بعمل سد على نهر «حدرة» شمالي التل، شيدت عليه القلعة، ومنه تؤخذ المياه وترفع إلى الحصن بواسطة السواقي، وقد باشر السلطان العمل بنفسه واشترك فيه وكافاً المجتهدين، واتخذ ابن الأحمر من هذا القصر مركزاً لملكه وأنشأ فيه عددًا من الأبراج المنيعة، وأقام سوراً ضخماً يمتد حتى مستوى الهضبة، وفي عهد «محمد الفقيه» استكمل الحصن والقصر الملكي، ولما تولى «محمد الثالث» قام ببناء المسجد الجامع بالقصر.

وكان عهد السلطان «يوسف الأول» وولده «محمد الخامس» هو العصر الذهبي لعمليات الإنشاء والتشييد في قصر الحمراء ففي عهد الأول أقيم السور الذي يحيط بالحمراء بأبراجه وبوابته العظيمة المعروفة بباب الشريعة أو العدل وغير ذلك من الأبراج والقصور والحمامات، وقام الثاني بإصلاح ما بدأه أبوه وإتمامه، ثم قام بتشيد مجموعة قصر السباع، وقاعة الملوك أو العدل وغيرها.

وقد يسأل سائل، من أين جاء اسم الحمراء؟ قيل إن هذا اسم قلعة

---

الحمراء القديمة التي فوقها بنى ابن الأحمر قصره، وقيل: إن هذا الاسم مرجعه احمرار أبراج قصر غرناطة الشاهقة، أو إن ذلك يرجع إلى لون الآجر الذى بنيت به الأسوار الخارجية، أو إلى لون التربة التي بنيت عليها والتي اكتسبت لونها الأحمر من كثرة أكسيد الحديد بها ولهذا سميت بتل السبيكة.

وأيا ما كان الأمر فليست هناك صلة بين اسم الحمراء وبنى الأحمر الذين لقبوا بهذا بسبب احمرار شعر جدهم، ولم يلبث أن ارتبط كلاهما بالآخر.

قصر جنة العريف:

شيد في أواخر القرن الثالث عشر الميلادى، ثم جدده السلطان أبو الوليد، ويقع بالقرب من قصر الحمراء ويطل عليه، وهو في شمال شرقى الهضبة وتظهر من ورائه جبال الثلج، ويدخل الإنسان إلى هذا القصر من مدخل متواضع يؤدي إلى ساحة فسيحة على جانبها رواقان طويلان ضيقان، وفي وسط الساحة بركة ماء غرست حولها الرياحين والزهور الفائقة الجمال حتى أصبح هذا القصر المثل المضروب في الظل الممدود والماء المسكوب والنسيم العليل وقد اتخذه ملوك غرناطة متنزهًا للراحة والاستجمام.

قصر شنيل أو قصر السيد:

يرجع تاريخه إلى زمن الأمير الموحدى أبي إسحاق ابن الخليفة أبي يعقوب يوسف، وقد اتخذ قصرًا للضيافة في عهد بنى نصر، ويقع على الضفة اليسرى لنهر «شنيل» وقد أقام سلاطين بنى نصر قصورًا أخرى في العاصمة وغيرها من المدن لا يزال بعضها باقيا إلى اليوم منها: القصر الذى بناه محمد الفقيه فى ربض البيازين، وكان يضم نافورة رخامية وصالة مربعة جميلة مملوءة بالمناظر البديعة، وبالقرب من هذا القصر منزل يعود إلى القرن الثالث عشر الميلادى، وفي حي القصبة القديمة بالبيازين قصر «دار الحرة» وهو عبارة عن صحن

محاط بالأروقة تفتح عليها صالات ولا يزال يحتفظ بزخارفه الحائطية لليوم، كما توجد أطلال بعض المنازل التي ترجع إلى زمن بني نصر في غرناطة وما حولها.  
الناحية العلمية:  
أما في الناحية العلمية، فقد حافظت تلك الفترة على ما خطه

(120/7)

السابقون وأضافت إليه، ونجد ثبتاً طويلاً بأسماء اللامعين في كتاب الإحاطة لابن الخطيب، وفي نفح الطيب للمقرئ، كما أنشئت المدارس وتوافرت الاختراعات مثل: المدافع والبنادق التي استعملها المسلمون في دفاعهم عن غرناطة، ويحتفظ متحف مدريد الحربي بنماذج منها حتى الآن.  
كذلك ازدهرت صناعات عديدة منها: صناعة السفن، والمنسوجات، وقد أنتجت المصانع القماش الموشى بالذهب في ألمرية ومالقة وأقمشة أخرى في غرناطة وبسطة، وتم اتخاذ الفراء من بعض الحيوانات البحرية.  
كما عرفت المملكة صناعة الأصباغ والجلود والحلى وغيرها؛ كذلك اهتم بنو نصر بالزراعة وما يتصل بها من وسائل الري وأنواع المزروعات، وكانت مدينة غرناطة أجمل مدن العالم بشوارعها وميادينها وحدائقها ومرافقها وكانت تصدر صناعاتها إلى عدد من البلدان بعضها أوربي، وهناك أسماء كثيرة من أعلام الفكر ظهرت في هذه الفترة منها: ابن البيطار وابن خاتمة وابن الخطيب، وهناك عدد من سلاطين بني نصر ألفوا كتباً في الأدب، ورعوا العلم ورجاله ومعاهده.

5 - المورسكيون:

جمع مفرد: «المورسكى» وهى تصغير لكلمة «الموروه» والمقصود

بما أفراد الشعب المسلم الذى ظل موجودًا بإسبانيا يخضع لحكم الملكين الكاثوليكين بعد سقوط غرناطة في أيديهما. وقد نظمت معاهدة التسليم حقوق وواجبات هؤلاء، لكن بنود هذه المعاهدة سقطت واحدًا وراء الآخر، وأريد لهم أن يكونوا نصارى شاءوا أم أبوا، وتم في سبيل ذلك اللجوء إلى كل ألوان الأساليب وأشدّها قسوة وعنفاً مع استخدام الأمانى أحياناً. وقد أبت غالبية المسلمين أن تفرض عليهم عقيدة لم يؤمنوا بها فاصطدموا بالسلطات المسئولة دينية ومدنية، واستخدمت محاكم التفتيش معهم كل حيلها من اعتقال وتشريد ومصادرة وتحريق، كما جوبهت ثورتهم على الظلم بكل قسوة وعنّف، ولم يفت المسئولون استخدام وسائل التبشير والإغراء، وظل المسلمون على موقفهم

(121/7)

---

وواصلوا ممارسة شعائرهم الإسلامية في العلن حيناً وفي السر أحياناً، وبلغ الضيق برجال الكنيسة ورجال الحكم مداها، وبعد مناقشات مستفيضة تقرر طرد المورسكيين من كل إسبانيا، وتم ذلك بالفعل في الفترة من (1609 - 1614م)، حدث ذلك دون مراعاة لمشاعر هذه الشريحة من المجتمع الإسباني، على الرغم مما كان لها من دور متميز في خدمة الزراعة والاقتصاد بمختلف بلدان شبه الجزيرة. وتم بهذا الطرد إنهاء فصل من فصول العلاقات بالغة الأهمية بين الإسلام والنصرانية في بلاد الأندلس. ولله الأمر من قبل ومن بعد وإليه المرجع والمآب.

(122/7)

---

- المراجع:

- \* آنخل جنثالث بالنشيا: تاريخ الفكر الأندلسي - ترجمة: حسين مؤنس - القاهرة - 1955م.
- \* بن البار (أبو عبد الله محمد): الحلة السرياء - تحقيق حسين مؤنس - الشركة العربية للطباعة والنشر - القاهرة - 1963م
- \* بن الأثير (عزالدين): الكامل في التاريخ - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثانية - 1408هـ = 1988م.
- \* أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس - بيروت - 1972م.
- \* بن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة - تحقيق احسان عباس - بيروت - 1978م.
- \* بن بطوطة: رحلة ابن بطوطة - بيروت - دار الكتب العلمية - بدون تاريخ.
- \* بن حيان (أبومروان): المقتبس في أخبار بلد الأندلس - تحقيق عبدالرحمن علي الحجري - دار الكتاب العربي - بيروت - 1393هـ = 1973م.
- \* حسين مؤنس: فجر الأندلس - الدار السعودية للنشر والتوزيع - جدة - الطبعة الثانية - 1405هـ = 1985م.
- \* الحميدي: جذوة المقتبس - مجموعة تراثنا - القاهرة - 1966م.
- \* بن الخطيب (لسان الدين محمد): الإحاطة في أخبار غرناطة - تحقيق: محمد عبد الله عنان - مكتبة الخانجي - القاهرة - الطبعة الثانية - 1393هـ = 1973م.
- \* بن الخطيب (لسان الدين محمد): أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام - تحقيق: ليفي بروفنسال - معهد العلوم العليا المغربية - الدار البيضاء - 1934م.
- \* بن خلدون (عبدالرحمن بن محمد): تاريخ ابن خلدون - مؤسسة جمال للطباعة والنشر - بيروت - 1399هـ = 1979م.
- \* دوزي: تاريخ مسلمي أسبانيا - ترجمة: حسن حبشي - دار المعارف - القاهرة - 1963م.
- \* السلاوي (أحمد بن خالد): الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى - دار الكتاب - الدار البيضاء - 1954م.
- \* السيد عبدالعزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس - بيروت - 1971م.
- \* الصفدي (صلاح الدين خليل): الوافي بالوفيات - دار فرانز شتاينر - شتوتجارت - 1992م.

- \* عبدالرحمن علي حجي: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتي سقوط غرناطة - دار الإعتصام - القاهرة - 1403هـ = 1983م.
- \* عبدالعزيز الأهواني: سفارة سياسية من غرناطة الي القاهرة في القرن التاسع الهجري - بحث في مجلة آداب القاهرة.
- \* بن عذاري المراكشي (أبو عبدالله محمد): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - تحقيق كولانو بروفنسال - دارالثقافة - بيروت - الطبعة الثانية - 1400هـ = 1980م.
- \* القلقشندي (أحمد بن علي): صبح الأعشي في صناعة الأنشا - دارالكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى - 1987م.
- \* ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس - ترجمة السيد عبد العزيز ومحمد صلاح الدين - القاهرة - 1956م.
- \* محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس - مكتبة الخانجي - القاهرة - الطبعة الثالثة - 1408هـ = 1988م.
- \* المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب - مصر - 1324هـ.
- \* المقري: نفع الطيب - تحقيق الدكتور احسان عباس - بيروت - 1388هـ = 1968م.

(124/7)

الجزء الثامن

الدولة العثمانية

تأليف:

أ. د. محمد حرب

رئيس المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي

الفصل الأول

\*إمارة آل عثمان

استولى «جنكيزخان» في الربع الأول من القرن الثالث عشر الميلادي على شمالي «الصين»، وبدأ زحفه نحو «تركستان» التي نجحت قواته المغولية في اجتيازها، واقتربت من «إيران»، وكانت تلك القوات تثير الفرع والرعب في نفوس الناس، لقيامها بالأعمال الوحشية التي لم تعهدها البشرية من قبل.

وفي أثناء هذه الفترة المضطربة، المشوبة بالخوف والهلوع، كان في جنوب «صحراء قراقورم» بشمالي «الصين» ما يقرب من (70) ألف خيمة بدوية، يسكنها نحو نصف مليون إنسان من الأتراك المسلمين، من بينهم عشيرة صغيرة، تُسمى «قايي»، وقد اضطر هذا الجمع الكبير إلى هجرة أوطانهم عندما أحسُّوا بقرب خطر المغول، فعبروا «إيران» واقتربوا من «الأناضول» غير أنهم لم يستقرُّوا جميعًا فيها، بل استقر بعضهم في «العراق الشمالي»، وبعضهم في غربي «إيران»، وبعضهم الآخر في «القوقاز»، في حين واصلت عشيرة «قايي» الصغيرة هجرتها نحو «الأناضول» وكان عددها نحو (4000) فرد.

كان يرأس هذه العشيرة رجل تركي يدعى «كوندوز ألب»، ثم خلفه في رئاستها بعد وفاته ابنه «أرطغرل» والد الأمير «عثمان» مؤسس الدولة العثمانية التي عرفت باسمه.

وفي أثناء ذلك دارت في منطقة «أرزنجان» (الواقعة الآن في الشمال الشرقي لتركيا) معركة سميت باسم «ياسى جمن» بين سلطان «قونية» السلجوقي، و «جلال الدين خوارزم شاه» خاقان «تركستان» وكاد سلطان قونية أن ينهزم، لولا تدخل عشيرة «قايي» بقيادة «كوندوز ألب» فأقاله من عثرته، وكان سببًا في نصره، ولم تكن هذه العشيرة تعلم من أمر القتال شيئًا، لكنها تدخلت نجدة للملهوف ونصرة للضعيف.

عرف سلطان «قونية» أن هذه العشيرة تبحث عن وطن، فأقطعها ثغرًا على الحدود بين سلطنته (الدولة السلجوقية) في «الأناضول» وبين الإمبراطورية البيزنطية، تقديرًا لقوتهم وشجاعتهم وبراعتهم

الحربية.

وفي سنة (651هـ = 1253م) تُوفِّي «كوندوز ألب» وخلفه ابنه

(1/8)

«أرطغرل» وبعد فترة تُوفِّي هو الآخر، فأصدر سلطان قونية مرسومًا بتعيين الأمير القبلي «عثمان» محل أبيه، فتولى الأمر وهو في الثالثة والعشرين من عمره. ثم زالت دولة سلاجقة الروم في «الأناضول» وحل محلها عدة إمارات صغيرة نجح العثمانيون في ضمها إلى دولتهم التي بدأت تنمو وتتوسع حتى توحد «الأناضول» تحت قيادتهم. الأمير عثمان:

تولى بعد أبيه مسئولية الإمارة، وبدأ في توطيد سلطانه على أساس من العدل والنظام، وأخذ في توسيع رقعة دولته حتى وصلت إلى مدينة «بيني شهر» التي اتخذها عاصمة لبلاده، وبذلك أصبح على مرمى البصر من «بروصة» و «نيقية» وكانتا من أهم المدن في غربي «الأناضول».

ولما وجد «عثمان» أن إمارة «آل قرمان» هي أقوى الإمارات التي قامت على أنقاض دولة سلاجقة الروم، أرسى سياسته على عدم الاصطدام بها والتوسع غربًا تجاه البيزنطيين، وبدأ في إرسال حملاته من موقعه الحصين في «بيني شهر» إلى المدن اليونانية المجاورة، ونجح في الاستيلاء على كثير من الحصون، قبل أن تتحرك جيوش الدولة البيزنطية لمواجهته.

عرف الأمير «عثمان» بشخصيته القوية، وتحليه بالصبر والمثابرة وضبط النفس، وحماسه للإسلام، لكن في غير تعصب، بل في سماحة ورفق، فلم يضطهد أهل الذمة، وإنما اجتذبهم إلى خدمته، فأسلم منهم جماعات كثيرة صارت ركيزة من ركائز دولته الناشئة.

وتُوفى «عثمان» في الوقت الذي كان ابنه «أورخان» يحاصر مدينة «بورصة» بعد أن ترك له وصية وهو على فراش الموت، سجّلها المؤرخ العثماني «عاشقُ لبي»، جاء فيها:

«يا بني أخط من أطاعك بالإعزاز، وأنعم على الجنود، ولا يغرنك الشيطان بجهدك وبمالك، وإياك أن تباعد عن أهل الشريعة، يا بني! لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد، فحن بالإسلام نحيًا، وللإسلام نموت، وهذا يا ولدي ما أنت أهل له. يا بني إنك تعلم أن غايتنا هي إرضاء رب العالمين، وأن بالجهاد يعم

(2/8)

---

نور ديننا كل الآفاق، فتحدث مرضاة الله جل جلاله». وبعُدُ «عثمان» أول من استقل بالإمارة، وراوده حلم إرساء قواعد دولة مترامية الأطراف، وكان أهل إمارته يطلقون عليه لقب «قرة عثمان» رمزًا لقوة الشخصية والحيوية الجسمانية.

الأمير أورخان:

تولى «أورخان» الحكم بعد وفاة أبيه سنة (726هـ = 1326م)، ولم يكد يمضى على توليته وقت طويل حتى تقدم نحو بحر «مرمرة» وهزم حملة بيزنطية، كان يقودها الإمبراطور «أندرنيكوس الثالث» وبعدها تخلت بيزنطة عن بذل الجهود الخاصة بتنظيم المقاومة العسكرية في «الأناضول» أو تعزيز حاميات ما تبقى لها من المدن هناك، وقد أدى ذلك إلى نجاح «أورخان» في الاستيلاء على معظم شبه جزيرة «نيقيا»، وسواحل خليج «نيقوميدا» وسقوط «نيقيا» دون مقاومة، ثم استيلائه على ما تبقى من الأراضي البيزنطية في غربي «الأناضول» دون صعوبة، مما جعل دولته أقوى إمارات التركمان في المنطقة، لاسيما وقد تعزز مركزها باعتبارها زعيمة الجهاد ضد البيزنطيين، كما عزز «أورخان» مركزه بالتوسّع على

حساب إمارات الطوائف التي تطل على شواطئ «بحر مرمرة» وسيطر على ساحله الجنوبي مما سهل له مهمة العبور إلى أوروبا حين سنحت له الفرصة.

وقد أمضى «أورخان» بعد استيلائه على إمارة «قرة سي» عشرين سنة دون أن يخوض معارك، وإنما شغل نفسه في وضع النظم المدنية والعسكرية التي تقوى من شأن الدولة، وفي تعزيز الأمن الداخلي، وبناء المساجد والمدارس ورصد الأوقاف عليها، وإقامة المنشآت العامة.

وتميزت الإدارة العثمانية في عهد «أورخان» بالكفاءة، وإتاحة الفرص أمام رعايا الدولة، ومعاملة أهل الذمة بتسامح كامل، والاهتمام بالتعليم وأهله.  
الأمير مراد بن أورخان:

تولى حكم الدولة بعد وفاة أبيه سنة (761 هـ = 1360 م)، وواصل جهود أبيه في الفتح، ونجح في العام التالي من توليه الحكم في فتح مدينة «أدرنة» ونقل إليها العاصمة بعد أن كانت في «بورصة»،

(3/8)

---

ثم فتح أراضي الدولة البيزنطية في «البلقان»، حتى أصبحت «القسطنطينية» عاصمة البيزنطيين محاصرة تمامًا بالأراضي العثمانية، ونتيجة لتلك الفتوحات صارت الدولة العثمانية متاخمة لكل من «الصرب» و «البلغار» و «ألبانيا».

وأدى هذا النشاط العثماني إلى انزعاج أوروبا وازدياد قلقها، فكتب أمراء تلك المناطق إلى ملوك أوروبا الغربية وإلى البابا يستنجدون بهم ضد المسلمين، فقام البابا بالدعوة إلى قيام حرب صليبية جديدة، غير أن ملك الصرب هاجم «أدرنة» عاصمة العثمانيين وكان «مراد» غائبًا عنها، فلما علم بأخبار هذا الهجوم عاد بجيشه ليحارب الصرب،

ونجح في إلحاق الهزيمة بهم.

ثم قام ملك الصرب - الجديد وقتها - بعقد حلف عسكري مع أمير «بلغاريا» لمحاربة العثمانيين، فلما قامت الحرب بينهما هرب أمير البلغار من المعركة، ثم اصطلح الطرفان الصربي والبلغاري مع الدولة العثمانية، نظير جزية سنوية يقدمانها لها، لكن الصرب نقضوا عهدهم فأقام ملكهم تحالفًا صليبيًا مع «ألبانيا» ضد العثمانيين، والتقى الفريقان في مكان يُسمى «قوصوة» سنة (197هـ = 983م) حيث دارت معركة من أعظم معارك الإسلام، انتصر فيها العثمانيون، وهُزم الصرب هزيمة منكرة، وقتل ملكهم.

وعقب انتهاء المعركة قام الأمير «مراد» بتفقد ساحة المعركة، وكان الليل حالك السواد، والهلال والنجوم في السماء، وساحة المعركة مدرجة بالدماء، فأوحى ذلك بفكرة العلم العثماني كما يقال، فجاء علمًا أحمر الأرضية يذكّر بالدماء التي ملأت أرض «قوصوة» ويزين العلم الهلال والنجوم، ولا يزال علم تركيا على هذه الصورة حتى الآن. وأثناء تفقد الأمير المنتصر «مراد» ساحة القتال؛ إذا بصربي جريح يقوم من بين القتلى ليطنه بخنجر فيقتله على الفور، ويستشهد في ساحة الجهاد، وهو يبلغ من العمر (65) عامًا. عُرف الأمير «مراد الأول» بالعدل، وبمعاملة رعيته من أهل الذمة

(4/8)

---

معاملة حسنة، وبكثرة المعارك التي حالفه فيها النصر، حتى إنه دخل (73) معركة في «الأناضول» وفي «البلقان» خرج منها جميعًا مظفرًا، كما أنه تسلم الدولة من أبيه ومساحتها نحو (59000 كم<sup>2</sup>)، وتركها عند استشهاده وهي تبلغ (500000 كم<sup>2</sup>)، أي أنها زادت في مدى (29) سنة أكثر من خمسة أمثالها حين تسلمها من أبيه. نظام الحكم العثماني:

بدأت التنظيمات الإدارية في عهد الأمير «أورخان» مستوعبة النظم المتبعة في الدول الإسلامية، فالأمير هو قمة الجهاز الحكومي، وسلطته مقيدة بالكتاب والسنة، وكان يتمتع بالسلطتين؛ التشريعية التي كان يعهد بها إلى علماء الشرع، والتنفيذية التي كان يعهد بها إلى وزيره.

وكانت المراتب الأساسية للقانون في الإمارة العثمانية هي على التوالي: القرآن، والسنة، والمذاهب الأربعة، والمراسيم (الخطوط الشريفة).

وظهرت فرقة «الإنكشارية» في عهد «عثمان» وكانت أهم فرق جيش الإمارة، ولم يسمح للإنكشاريين بالزواج، وكان عليهم أن يقيموا في ثكناتهم العسكرية ليواصلوا التدريب، وضم الجيش أيضاً فرق الفرسان ولم تكن لهم ثكنات خاصة بهم، وإنما عاش معظمهم في القرى القريبة من العاصمة.

الملاحم العامة للحضارة العثمانية:

عنى العثمانيون في هذه المرحلة بالأدب الذى تأثر بالأدب الفارسى، وكان الإلمام بالأدب في هذه الفترة من الأدوات اللازمة للمثقف والباحث والمتأدّب، كما اهتم العلماء والأدباء باللغة العربية اهتماماً واضحاً.

ونشطت الحركة المعمارية، وتأثرت تأثراً واضحاً بالطرز السلجوقية، ويبدو ذلك واضحاً في المساجد الأولى التي شيدت في مدينة «بورصة» مثل: «أولو جامع»، الذى بدأ تشييده في عهد «مراد الأول»، كما شيّد حكام الإمارة في ذلك الوقت قصوراً في «بورصة» و «أدرنة» لم يبق لها أثر الآن.

واشتهرت «الأناضول» في تلك الفترة بصناعة السجاد الذى كان من ابتكار القبائل الرحل التركمانية.

## الفصل الثاني

\*تحول الإمارة إلى سلطنة

بايزيد الأول:

لم ينتقل «آل عثمان» من طور الإمارة إلى طور السلطنة إلا في عهد

«بايزيد الأول» المشهور بالصاعقة، لسرعة تنقله بجيوشه بين

«أوربا» و «الأناضول» ..

وقد بذل «بايزيد» جهودًا عظيمة في توحيد منطقة «الأناضول» تحت

قيادته، وفي استمرار الفتوحات في منطقة «البلقان» فدخل

«رومانيا» وضم جنوبها - «الأفلاق» - إلى الدولة العثمانية، وفتح

«سلانيك»، واستولى على «بني شهر» وألحق «تساليا»

بدوولته، وفتح «اسكوب» ودخلت جيوشه «طورنوف» وواصل فتوحاته

في «مقدونيا الشمالية» و «ألبانيا»، ونجح في ضم «بلاد البلغار»،

وجعلها ولاية عثمانية، ووصلت جيوشه إلى «اليونان» ودخل

«أثينا»، وانتقل إلى «شبه جزيرة المورة» ودفع له الصرب جزية

سنوية، كما حاصر «القسطنطينية» أربع مرات.

ونتيجة لهذا توحدت «أوربا» كلها ضده لطرده من «البلقان» فتكونت

حملة صليبية ضده في (جمادى الأولى 798هـ = فبراير 1396م) بقيادة

«سيجموند» ملك «المجر» الذي استنجد بالبابا وبملوك «أوربا» لإنقاذ

«المجر» و «بيزنطة» من الخطر العثماني، فحملت الحملة شعار: «سحق

الأتراك أولاً ثم احتلال القدس».

وتكونت هذه الحملة من جيوش مجرية وفرنسية وألمانية وهولندية

وإنجليزية وإيطالية وإسبانية بلغت نحو (130) ألف محارب، واجتازت

نهر «الدانوب» وبلغت مدينة «نيكوبولى» وعندها دارت معركة طاحنة

بينهم وبين الجيش العثماني الذى بلغ عدده نحو (90) ألف جندى

بقيادة «بايزيد الصاعقة».

وانتهت معركة «نيكوبولى» بانتصار العثمانيين، وبوقوع كثير من

أشراف «فرنسا» في الأسر، منهم: «الكونت دى نيفر» قائد قوات

«بورغونينا» وولى عهدهما، وقد أقسم هذا الكونت على عدم العودة إلى محاربة العثمانيين، ولكن بعد قرار «بايزيد» بإطلاق سراح الأمراء الأسرى، أراد أن يحل «الكونت دى نيفر» من قسمه، فقال له: «أيها الكونت! لك أن تعود مرة أخرى لمحاربتى، لكى تمسح العار

(6/8)

الذى لحق بك، واعلم أنى لا أخاف من عودتك وإلا ما كنت أطلقت سراحك، تعال وقتما تشاء فستجدنى وجنودى أمامك». ثم أرسل الأمير «بايزيد الأول» أنباء هذا الانتصار إلى الخليفة «المتوكل العباسى» بالقاهرة، فأجابه الخليفة بأن أرسل إليه تشریفًا وخلعًا وسيفًا، وكان هذا يعنى الاعتراف ببايزيد الأول سلطانًا على إقليم «الروم» (الأناضول والبلقان)، وبذا أصبح الأمير «بايزيد» أول من حمل لقب «سلطان» فى «آل عثمان». محاصرة القسطنطينية:

حاصر العثمانيون العاصمة البيزنطية فى عهد «بايزيد الأول» أربع مرات:

– الأولى فى سنة (793هـ = 1391م) حيث اصطف ستة آلاف جندى عثمانى على امتداد سور «القسطنطينية» وحاصروا المدينة حصارًا شديدًا، ولم يستطع أحد الدخول إلى المدينة أو الخروج منها دون موافقة العثمانيين، ودام هذا الحصار سبعة أشهر دون أن يخضع إمبراطور «بيزنطة» لبايزيد دون قتال.

– والثانية فى سنة (797هـ = 1395م)، واستمر هذا الحصار طوال صيف ذلك العام.

– والثالثة فى سنة (800هـ = 1397م).

– والرابعة كانت بين سنتى (802 – 804 هـ = 1399 – 1401م)، على إثر ذهاب الإمبراطور البيزنطى «مانويل الثانى» إلى «إنجلترا» وزيارته

لأوروبا لمدة (13) شهرًا، طلبًا للمساعدة ضد العثمانيين، ولم يفك هذا الحصار إلا بعد قدوم «تيمورلنك» بجيوشه الجرارة التي عصفت بالسلطنة العثمانية وتسببت في انهيارها فترة من الزمن. ويجدر بالذكر أن «بايزيد» لم يفك حصاره الرابع عن «القسطنطينية» إلا بشروط، منها: أن يبني المسلمون الذين يعيشون داخل المدينة جامعًا لإقامة شعائر الدين، وأن تقام لهم محكمة شرعية للنظر في قضاياهم. ويذكر لبازيد تشييده القلعة المسماة «جوزلج حصار» (أناضولى حصار) على الضفة الآسيوية من بوغاز «القسطنطينية». الأزمة بين تيمورلنك وبايزيد: أسس «تيمورلنك» خاقان أتراك الشرق (التركستان) إمبراطورية

(7/8)

عظمى، امتلكت جيشًا قويًا ومنظمًا اجتاح به الشرق، ثم حدث نزاع بين «تيمورلنك» و «بايزيد» بسبب لجوء «أحمد بن أويس» الذى فر من «بغداد» أمام «تيمورلنك» إلى «بايزيد»، واحتمائه به. اتخذ «تيمورلنك» من هذا الحادث ذريعة للتحرك ضد العثمانيين، وبخاصة بعد رفض «بايزيد» طلب «تيمورلنك» تسليمه «أحمد بن أويس» فقام بحملته الأولى على «الأناضول» سنة (803هـ=1400م)، ووصل إلى «سيواس» فدخلها وخربها وسفك دماء أهلها بعد أن صمد العثمانيون على قلتهم أمام جيوش «تيمورلنك» الجرارة، وأبلوا بلاءً حسنًا، ثم انسحب «تيمورلنك» من «الأناضول» إلى «القوقاز» بعد أن استولى على «ملاطية» من العثمانيين. كان «تيمورلنك» يأمل أن يعترف «بايزيد» بتبعيته له مثل سلاطين المماليك و «الهند» غير أن هذا الأمل لم يتحقق؛ إذ رد عليه «بايزيد» رداً فيه تحقير، وحاول «تيمورلنك» إقناع أمراءه بشن حرب حاسمة

ضد العثمانيين، وكان رأى أمراء «تيمور» وأولاده أنه لا يليق بهم محاربة الدولة العثمانية، وهي دولة سنية حنفية المذهب مثلهم، وتجمعهم اللغة التركية، كما أنها تعد حاملة لراية الجهاد الإسلامى، لكن «تيمورلنك» نجح فى إقناع المخالفين له فى الرأى باحتمال أن يقوم «بايزيد» بضرب الجيش التيمورى من الخلف أثناء حملته على «الصين».

دخل «تيمورلنك» إلى «الأناضول» مرة أخرى سنة (805هـ = 1402م) على رأس جيش ضخّم بلغ عدده نحو (300) ألف جندى، وفى مقدمته (32) فيلا مدرعًا، وسار به حتى وصل إلى «أنقرة» وهناك التقى بالجيش العثمانى فى (27 من ذى الحجة 804هـ = 28 من يوليو 1402م) واستمر اللقاء حتى غروب الشمس، وكان النصر فيه حليف «تيمورلنك» وأسر فى المعركة السلطان «بايزيد» بعد أن أبلى جنوده بلاءً حسنًا، وكبّدوا «تيمورلنك» خسائر فادحة لم يسبق له أن تكبّدها، حيث قتل له فى المعركة نحو (40000) جندى. لقد كانت معركة «أنقرة» من أكبر المعارك الميدانية التى حدثت خلال

(8/8)

---

العصور الوسطى، وتعد من أكبر الكوارث فى التاريخ التركى، حيث أخرجت نمو العثمانيين وفتوحاتهم نصف قرن، وأطالت عمر الدولة البيزنطية المدة نفسها، وعطلت وحدة «الأناضول» سبعين سنة. عاش السلطان «بايزيد» فى أسر «تيمورلنك» سبعة أشهر واثني عشر يومًا، ومات فى «آق شهر» قرب «قونية» سنة (806هـ = 1403م) وأرسل جثمانه إلى «بورصة» ثم أطلق «تيمور» عقب وفاة «بايزيد» سراح ابنه اللذين أسرا معه. العثمانيون يعيدون تكوين دولتهم: عاش العثمانيون عقب معركة «أنقرة» فترة أطلق عليها المؤرخون

عهد الفتنة أو دور الفوضى، وكانت مدتها عشر سنوات، وأحد عشر شهراً وثمانية أيام، وهي فترة الصراع بين أبناء «بايزيد» على العرش العثماني، حتى نجح أحدهم وهو «محمد بن بايزيد» الملقب بمحمد لبي في تولي السلطنة والقضاء على الفوضى والفتن، والبدء في إعادة البناء وتعمير الدولة وتنظيم أمورها، حتى عده المؤرخون المؤسس الثاني للدولة العثمانية.

وتوفي «محمد الأول» سنة (824هـ=1412م) عن (39) عاماً في مدينة «أدرنة».

السلطان مراد الثاني:

تولى «مراد بن محمد» عرش السلطنة وعمره (17) سنة، وبدأ عهده بعقد هدنة مع ملك «المجر» لمدة خمس سنوات حتى يتفرغ للأناضول، ويعقد صلح مع أمير «قرمان»، ثم اتجه «مراد» إلى محاصرة مدينة «القسطنطينية» سنة (825هـ = 1422م)، ودام الحصار (64) يوماً، وكان بحريا وبريا، بجيش قوامه ثلاثون ألف جندي، وكان احتمال سقوط العاصمة البيزنطية كبيراً، بعد أن أحدثت القوات العثمانية أضراراً بالغة بسور المدينة، غير أن السلطان «مراد» اضطر إلى رفع الحصار بعد أن جاءت أنباء حدوث فتنة في «الأناضول» وعقد الصلح مع «بيزنطة» مقابل أن تدفع جزية كبيرة سنوية.

ثم اتجه «مراد الثاني» إلى تأديب إمارات «الأناضول» التي تمردت عليه أثناء انشغاله بمحاربة «بيزنطة» ففضى بصورة نهائية على إمارات «منتشة» و «أيدين»، و «تسكا» وقلص حدود إمارة «جاندار».

(9/8)

---

وفي سنة (829 هـ = 1426م) اجتاز السلطان «مراد الثاني» على رأس جيشه «نهر الدانوب» والتقى مع الجيش المجري، وانتصر عليه، وعقد مع ملك «المجر» معاهدة تنازل بمقتضاها عن أملاكه في الضفة

اليمنى لنهر الدانوب، الذى أصبح فاصلا بين أملاك الدولة العثمانية و «المجر»، ثم فتح «مراد» «سلانيك»، و «يانيا» ونجح فى إلغاء إمارة «الصرب» تماما وأطلق عليها لواء «سمندرة» كما خضعت «ألبانيا» للدولة العثمانية بعد حروب يسيرة، وعقدت «البندقية» صلحا معها.

وفى عهد «مراد الثانى» توترت العلاقات بين المماليك والعثمانيين بسبب إمارتى «قرامان» و «دلقادر» غير أنه لم يهتم بهذا الأمر بسبب إعلان البابا «أوجينيوس الرابع» سنة (843هـ=1439م) عن حملة صليبية ضد الدولة العثمانية بقيادة القائد المجرى «هونيادى» الذى اتخذ من إخراج العثمانيين من «البلقان» هدفاً لحياته.

وقد تمكن هذا القائد المجرى من هزيمة عدة جيوش عثمانية، مما اضطر السلطان إلى محاربتة بنفسه، ثم عقد صلحا مع «المجر» سنة (848هـ = 1444م)، أعيد بمقتضاه تأسيس إمارة «الصرب» على أن تكون تابعة للدولة العثمانية، ومنطقة عازلة بينها وبين «المجر».

ولما شعر السلطان «مراد الثانى» بالتعب تخلى عن عرشه لابنه «محمد الثانى» الذى عرف فيما بعد بمحمد الفاتح، وكان عمره آنذاك (21) عامًا، فشكل الأوربيون على الفور حملة عسكرية على الدولة العثمانية، وشاركت فيها قوات من «المجر» و «قولونية» و «ألمانيا»، و «فرنسا» و «البندقية» و «بيزنطة» و «بيرجوزريا» وكانت تلك الحملة بقيادة «هونيادى»، واختير الملك المجرى «لاديسلاس» قائداً شرفيا للحملة، وقد نضبت هذه الحملة وهى فى طريقها كل شىء، حتى الكنائس الأرثوذكسية لم تسلم من أيديهم.

وإزاء هذه التطورات اجتمع مجلس شورى السلطنة العثمانية، وطلب عودة «مراد الثانى» إلى الحكم مرة أخرى، فعاد وبدأ فى إعداد جيشه للقاء تلك الحملة الصليبية، فتحرك على رأس جيشه الضخم الذى

بلغ أربعين ألف جندي، والتقى مع تلك الحملة في «فارنا» وهي مدينة بلغارية تقع على شاطئ «البحر الأسود»، ودارت بينهما معركة هائلة عرفت باسم «معركة فارنا» في (28 من رجب 848 هـ = 10 من نوفمبر 1444م)، وفيها حقق العثمانيون نصرًا غاليًا، وقتل الملك «لاديسلاس»، وهرب «هونبادي» من المعركة، وبهذا النصر أيقن الأوروبيون صعوبة طرد العثمانيين من منطقة «البلقان».

وقد فرح العالم الإسلامي بهذا النصر فرحًا شديدًا حتى إن السلطان «جقمق» المملوكي أمر أن يذكر اسم السلطان «مراد الثاني» مجاملة بعد اسم الخليفة العباسي في «القاهرة».

لم تستسلم «أوربا» لهذه الهزيمة فجهزت حملة صليبية أخرى ضمت نحو مائة ألف جندي بقيادة «هونبادي» والتقت بالعثمانيين بقيادة السلطان «مراد الثاني» في صحراء «قوصوه» في (18 من شعبان 852هـ = 17 من أكتوبر 1448م)، وانتصر العثمانيون في هذا اليوم انتصارًا عظيمًا.

السلطان محمد الفاتح:

ولد السلطان «محمد» في (27 من رجب 835 هـ = 30 من مارس 1432م) وتولى عرش السلطنة بعد وفاة أبيه في (5 من المحرم 855 هـ = 7 من فبراير 1451م) بعد أن بايعه أهل الحل والعقد في الدولة العثمانية. إعداد محمد الفاتح:

خضع السلطان «محمد» - شأنه في ذلك شأن كل أمير عثماني - لنظام تربوي صارم تحت إشراف مجموعة من علماء عصره المعروفين. وهو ما يزال غضا، فتعلم القرآن الكريم والحديث والفقه والعلوم العصرية - آنذاك - من رياضيات وفلك وتاريخ ودراسات عسكرية نظرية وتطبيقية، كما كان السلطان «محمد» يشترك في الحروب التي كان يشنها والده السلطان «مراد الثاني» ضد «أوربا» أو التي كان يصد فيها اعتداءاتهم.

وكعادة «آل عثمان» في إسناد إدارة ولاية لكل أمير وهو صغير حتى يؤهل لقيادة الدولة بعد ذلك، قضى «محمد» فترة إمارته في

«مغنيسيا» تحت إشراف مجموعة من أساطين علماء العصر، وفي مقدمتهم: الشيخ «آق شمس الدين» والملا «الكوراني».

(11/8)

وقد أثرت هذه المجموعة من العلماء في تكوين الأمير الصغير وتشكيل اتجاهاته الثقافية والسياسية والعسكرية، وكان الشيخ «آق شمس الدين» صارمًا مع الأمير حتى إن السلطان «محمد» وهو سلطان قال لأحد وزرائه عن شيخه هذا: «إن احترامي لهذا الشيخ احترام يأخذ بمجامع نفسى وأنا مائل في حضرته مضطربًا ويدأى ترتعشان».

ثقافة محمد الفاتح:

درس السلطان «محمد» إلى جانب دراسته الأكاديمية المنظمة اللغات الإسلامية الثلاثة التي لم يكن يستغنى عنها مثقف عصرى آنذاك وهى: العربية والفارسية والتركية، وعنى بالأدب والشعر خاصة، فكان شاعرًا له ديوان بالتركية، وله بيت مشهور يقول فيه: نيتى هى الامتثال للأمر الإلهى «جاهدوا فى سبيل الله».

وحماسى إنما هو حماس فى سبيل دين الله.

وتعلم السلطان «محمد» أيضًا اللغات: اللاتينية واليونانية والصربية، ولا تحفى أهمية هذه اللغات لأمير فى طريقه إلى تولى الدولة العثمانية.

وقد أثرت فترة إمارة «محمد» فى شخصيته فجعلته - بفضل توعية أساتذته - أكثر الأمراء العثمانيين وعيًا فى دراسة علوم التاريخ والجغرافيا والعلوم العسكرية، وبخاصة أن أساتذته وجهوا اهتمامه إلى دراسة الشخصيات الكبيرة، التى أثرت فى مجرى التاريخ، وأبانوا له عن جوانب العظمة فى تلك الشخصيات، كما وضحو له نقاط الضعف فيها، أملا أن يكون أميرهم ذات يوم من أكثر الحكام خبرة وحكمة وعبقرية.

ولا شك أن الشيخ «آق شمس الدين» استطاع أن يلعب دوراً كبيراً في تكوين شخصية «محمد» وأن يبث فيه منذ صغره أمرين، جعلاً منه فاتحاً، وهما:

- مضاعفة حركة الجهاد العثمانية.

- الإيحاء دومًا لمحمد منذ صغره بأنه هو الأمير المقصود بالحديث النبوي، «لنفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش».

وقد استغرق تحقيق النقطة الأولى فترة تاريخية من حياة السلطان «محمد» - بعد أن أصبح سلطاناً للدولة - لئلا يرى فيه حملاته العسكرية،

(12/8)

ونكتفي هنا بذكر حروبه البرية على الجبهة الأوربية. ففي عام (857هـ=1453م) فتح «القسطنطينية»، وفي عام (863هـ=1459م) فتح «بلاد الصرب»، وفي عام (568هـ = 0641م) فتح «بلاد المورة»، وفي عام (866هـ = 1462م) ضم «بلاد الأفلاق»، وبين عامي (867 - 884هـ = 1462 - 1479م) فتح بلاد «ألبانيا»، وبين عامي (867 - 870هـ = 1462 - 1465م) فتح بلاد «البوسنة والهرسك»، وفي عام (881هـ = 1476م) وقعت حرب «المجر».

ومنذ حرب بلاد «المجر» وحتى وفاة الفاتح عام (886هـ = 1481م)

دخلت الدولة العثمانية في حروب بحرية كثيرة منها: ضم الجزر اليونانية عام (884هـ = 1479م) وضم «أوترانتو» عام (885هـ=1480م) ومعلوم أنه كان قد أعد بالفعل جيوشه وتحرك على رأسها لمحاربة المماليك إلا أن الموت عاجله.

فتح القسطنطينية:

رأى السلطان «محمد الفاتح» أن فتح «القسطنطينية» كما أنه يحقق أملاً عقائدياً عنده فإنه أيضاً يسهل للدولة العثمانية فتوحاتها في

منطقة «البلقان» ويجعل بلاده متصلة لايتخللها عدو، وكانت «القسطنطينية» تمثل الأرض التي تعترض طريق الفتوحات في «أوربا»، فبدأ في عاصمته «أدرنة» الاستعداد لعملية فتح «القسطنطينية»، ومن ذلك: صب المدافع خاصة الضخم منها، والاستعداد لنقل هذه المدافع إلى أسوار مدينة «القسطنطينية». ثم رأى السلطان «محمد» أن جده «بايزيد الصاعقة» كان قد بنى - أثناء محاولته فتح «القسطنطينية» - قلعة على الضفة الآسيوية من «البوسفور» سماها «أناضولو حصارى» أى «قلعة الأناضول». كانت تقوم على أضيق نقطة من «مضيق البوسفور»، فقرر «محمد» أن يبني في مواجهة هذه القلعة على الجانب الأوربي من «البوسفور» قلعة سماها «روملى حصارى» أى «قلعة منطقة الروم» (يطلق الأتراك على الجانب الأوربي من تركيا والمنطقة الملاصقة له والمعروفة الآن باسم «البلقان» اسم «روم إيلى» أى منطقة الروم)، وكان القصد من هذا هو التحكم في «البوسفور» تمامًا، وكان

(13/8)

---

السلطان «محمد» هو الذى وضع بنفسه تخطيط هذه القلعة، ونفذها المعمارى «مصلح الدين آغا» ومعه (7000) عامل أنخوا مهمتهم في أربعة أشهر كاملة. وبعد أن تم البناء خرج بعض الجنود العثمانيين لرؤية «القسطنطينية» فما لبث أن وقع بينهم وبين البيزنطيين المجاورين لأسوار المدينة بعض حوادث شغب، كان لها رد فعل عند السلطان «محمد» فأصدر أوامره بإبعاد البيزنطيين المجاورين للأسوار والقرويين المجاورين للمدينة، فقام إمبراطور «بيزنطة» «قسطنطين دركازيز» بإخلاء القرى المجاورة، وسحب سكانها إلى داخل المدينة، ثم أمر الإمبراطور بإغلاق أبواب «القسطنطينية» وإحكام رتاجها.

وبينما الاستعدادات العثمانية تجرى على قدم وساق في «أدرنة» لفتح «القسطنطينية» كان الوضع في المدينة غاية في الاضطراب، فقد طلب الإمبراطور «قسطنطين» معونة عاجلة من البابا «نيقولا الخامس» فاستجاب البابا وأرسل الكاردينال «ايزودور» إلى «القسطنطينية» فتوجه هذا الكاردينال وهو كاثوليكي - إلى «كنيسة آياصوفيا» وأقام فيها المراسم الكنسية على الأصول الكاثوليكية مخالفاً بذلك بل ومتحدياً مشاعر شعب «القسطنطينية» الأرثوذكسي.

وقف الشعب ينظر إلى الكاردينال المنقذ باشمزاز بالغ، وكان إمبراطور «القسطنطينية» يميل إلى فكرة اتحاد الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية، أما رئيس الحكومة «لوكاس نوتاراس» و «جنادبوس» (الذي صار بطريقاً بعد الفتح) فقد عارضاً بشدة هذا الاتحاد خوفاً على الأرثوذكسية من الفناء، وقال «نوتاراس» قولته الشهيرة: «إني أفضل رؤية العمامة التركية في القسطنطينية على رؤية القبعة اللاتينية» ولم يكن البيزنطيون قد نسوا الأعمال الوحشية التي قام بها «اللاتين» عندما احتلوا «القسطنطينية» عام (601هـ = 1204م) ومع ذلك فإن الكنيسة اللاتينية لم تتوان عن إرسال موجات المتطوعين إلى «القسطنطينية» بناء على طلب إمبراطورها، لكن

(14/8)

---

مجيء «ايزودور» لم يحقق أدنى نتيجة في مسألة اتحاد الكنيستين.

الحصار والفتح:

حاصر العثمانيون «القسطنطينية» برا وبحراً في سنة (857هـ = 1453م) واشترك في الحصار من الجنود البحرية (20000) جندي على (400) سفينة، أما القوات البرية فكانت (80000) جندي، والمدفعية (200) مدفع.

وقفت القوات البحرية العثمانية بقيادة «بلطة أوغلو سليمان بك» على مدخل «الخليج الذهبي» وكان عليه تدمير الأسطول البيزنطي المكلف بحماية مدخل الخليج وكان البيزنطيون قد أغلقوا - قبل الحصار - الخليج بسلسلة حديدية طويلة يصعب من جرائها دخول أى سفينة إلى الخليج، مما شكل أكبر معضلة أمام العثمانيين، لأن سفنهم كان عليها أن تحمل الجنود وتدخل الخليج لإنزالهم لكي يضربوا «القسطنطينية».

ثم جاءت ثلاث سفن جنوية، وسفينة بيزنطية بقيادة القائد الشهير «جوستينيان» أرسلها البابا للدفاع عن «القسطنطينية» ولنقل الإمدادات إليها، جاءت هذه السفن ولم تستطع البحرية العثمانية منعها، فبعد معركة عنيفة مع البحرية العثمانية تغلب «جوستينيان» ومضى بسفنه إلى الخليج، ففتح لها أهل «القسطنطينية» السلسلة الحديدية وأدخلوها، وكانت هذه الحادثة دافعاً لكي يفكر السلطان «محمد» في خطة عسكرية شهد لها القواد العسكريون بالبراعة. كانت هذه الخطة تقضى بنقل (67) سفينة من السفن الخفيفة عبر البر من منطقة «غلطة» إلى داخل الخليج لتفادى السلسلة، وتمت هذه العملية بوضع أخشاب مطلية بالزيت على طول المنطقة المذكورة، ثم دفعت السفن لتتزلق على هذه الأخشاب في جنح الظلام، بعد أن استطاعت المدفعية العثمانية بإطلاقها مدافع الهاون أن تشد انتباه البيزنطيين إليها، ومن ثم لم يلتفت أحد لعملية نقل السفن إلى الخليج. نقلت السفن وأنزلت إلى الخليج ووضعت الواحدة تلو الأخرى على شكل جسر على عرض الخليج، حتى استطاع الجنود الانتقال عليها وصولاً إلى بر «القسطنطينية» وما إن جاء الصباح إلا وتملكت الدهشة

أهل «القسطنطينية»، ويصف المؤرخ «دوكاس» وهو بيزنطى عاصر الحادثة دهشته من هذه العملية قائلاً: «إنها لمعجزة لم يسمع أحد بمثلها من قبل ولم ير أحد مثلها من قبل».

وبعد أن فشلت البحرية العثمانية في إحباط محاولة «جوستينيان» دخول الخليج، لم يملك السلطان «محمد» إلا الأمر بالهجوم العام الذى اشتركت فيه كل القوات العثمانية مرة واحدة، وقبل هذا مباشرة أرسل السلطان «محمد» إلى الإمبراطور للمرة الثانية - يطلب منه تسليم المدينة سلمًا حقنًا للدماء، وللإمبراطور أن ينسحب إلى أى مكان يريد به بكل أمواله وخزائنه، وتعهده السلطان «محمد» بتأمين أهل «القسطنطينية» - فى هذه الحالة - على أموالهم وأرواحهم وممتلكاتهم، لكن الإمبراطور - بتحريض من الجنويين - رفض هذا العرض.

وفى (16 من ربيع الأول 857 هـ = 26 من مايو 1453م) أراد ملك «المجر» أن يضغط على السلطان «محمد» فى هذا الوقت الحرج، فأرسل يقول له: «إنه فى حالة عدم توصل العثمانيين إلى اتفاق مع إمبراطور «القسطنطينية» فإنه (أى ملك المجر) سيقود حملة أوربية لسحق العثمانيين، ولم تغير هذه الرسالة شيئًا.

مضى نهار يوم (28 من مايو) هادئًا، وعند الفجر وبعد الصلاة مباشرة، اتجه السلطان «محمد» إلى مكان الهجوم ومع دوى المدافع الضخمة الذى بدأ، صدر الأمر السلطاني بإخراج العلم العثماني من محفظته، وهذا يعنى عند الأتراك الأمر ببداية الهجوم العام.

واستطاعت المدافع أثناء ذلك إحداث فتحة فى الأسوار، ثم اجتاز الجنود العثمانيون الخنادق المحفورة حول «القسطنطينية» واعتلوا سلام الأسوار، وبدأ الجنود يتدفقون على ثلاث موجات، اشتركت «الإنكشارية» فى الثالثة منها، فاضطر «قسطنطين» أن يدفع بقواته الاحتياطية التى كانت مرابطة بجوار كنيسة الحواريين «سانت أبوترس» (مكان جامع الفاتح بعد ذلك) لتدخل المعركة، وما لبث أن أطلق جندى عثمانى سهمه فأصاب القائد «جوستينيان» إصابة

بالغة فانسحب «جوستنياني» من ميدان المعركة رغم توسلات الإمبراطور له، لأن «جوستنياني» كان له دور كبير في الدفاع عن المدينة.

وكان أول شهداء العثمانيين هو الأمير «ولى الدين سليمان» الذى أقام العلم العثماني على أسوار المدينة البيزنطية العريقة، وعند استشهاده أسرع (18) جنديا عثمانيا إليه لحماية العلم من السقوط واستطاعوا حمايته حتى واصل بقية الجنود تدافعهم على الأسوار، وثبت العلم تمامًا على الأسوار بعد أن استشهد أيضًا هؤلاء الثمانية عشر جنديا، أثناء ذلك كان العثمانيون يواصلون تدفقهم إلى المدينة، عن طريق الفتحات التى أحدثتها المدفعية فى الأسوار، ثم عن طريق تسلق السلاسل التى أقاموها على أسوار المدينة، وتمكن جنود من فرق الهجوم العثمانية من فتح بعض أبواب «القسطنطينية» ونجح آخرون فى رفع السلاسل الحديدية التى وضعت فى مدخل الخليج لمنع السفن العثمانية من الوصول إليها، فتدفق الأسطول العثماني إلى الخليج وبعد ذلك إلى المدينة نفسها، وساد الذعر البيزنطيين وكان قد قتل منهم من قتل، وهرب من استطاع إلى ذلك سبيلا.

الفتاح يعطى الأمان:

عندما دخل «محمد الفاتح» المدينة أمر بإحراق جثث القتلى تفادياً للأمراض، وسار على ظهر جواده إلى كنيسة «آيا صوفيا» حيث تجمع الشعب البيزنطى ورهبانه، وما إن علموا بوصول السلطان الفاتح حتى خروا سجداً راکعين بين أنين وبكاء وعويل، ولما وصل الفاتح، نزل من على ظهر حصانه وصلى ركعتين شكراً لله على توفيقه له بالفتح، ثم سار يقصد شعب بيزنطة ورهبانه، ولما وجدهم على هذه الحالة من السجود انزعج وتوجه إلى رهبانهم قائلاً: «قفوا استقيموا

فأنا السلطان محمد، أقول لكم ولجميع إخوانكم ولكل الموجودين هنا، إنكم منذ اليوم في أمان في حياتكم وحریاتكم»، وهذا ما سجله مؤرخ بولوني كان معاصرًا.  
وكان لهذا التصرف من الفاتح أثر كبير في عودة المهاجرين النصارى

(17/8)

الذين كانوا قد فروا من المدينة، وأمر الفاتح قواده وجنوده بعدم التعرض للشعب البيزنطى بأذى، ثم طلب من الناس العودة إلى ديارهم بسلام، وحول «آيا صوفيا» إلى جامع، على أن تصلى فيه أول جمعة بعد الفتح (كان الفتح يوم الثلاثاء) وكانت «آيا صوفيا» أكبر كنيسة في العالم وأقدم مبنى في أوروبا كلها، وسميت المدينة «إسلامبول» أى مدينة الإسلام.  
كان سلوك الفاتح عندما دخل «القسطنطينية» ظافرًا؛ سلوكًا مختلفًا تمامًا عما تقول به شريعة الحرب في العصور الوسطى، وهو نفى شعب المدينة المفتوحة إلى مكان آخر أو بيعه في أسواق النخاسة، لكن الفاتح قام بما عجز عن فهمه الفكر الغربى المعاصر له من تسامح ورحمة، فقد قام بالآتى:  
- أطلق سراح الأسرى فورًا نظير مقابل مادى قليل يسدّد على أقساط طويلة المدى.  
- وأسكن الأسرى الذين كانوا من نصيبه في المغامم في المنازل الواقعة على ساحل الخليج.  
- وعندما أبيضت «القسطنطينية» للجنود ثلاثة أيام عقب الفتح، كان هذا الإذن مقتصرًا على الأشياء غير المعنوية، فلم تُغتصب امرأة ولم يُمسَّ شيخ ولا عجوز ولا طفل ولا راهب بأذى، ولم تهدم كنيسة ولا صومعة ولا دير ولا بيعة، مع أن المدينة أخذت بالحرب ورفضت التسليم.

- وكان من حق الفاتح قانوناً - ما دامت المدينة قد أخذت عنوة - أن يكون هو نيابة عن الجيش الفاتح مالاً لكل ما في المدينة، وأن يحول نصف الكنائس والبيع على مدى زمني طويل إلى جوامع ومساجد، وأن يترك النصف الآخر لشعب المدينة على ما هو عليه، وفي وقييات السلطان «محمد الفاتح» بنود كثيرة على بقاء أديرة «جوكاليجا» و «آيا» و «لييس» و «كيرا ماتو» و «الكس» في يد البيزنطيين.

- واعترف لليهود بملكيتهم لبيعهم كاملة، وأنعم بالعطايا على الحاخام «موسى كابسالى».

- وعين في سنة (865هـ = 1461م) للجماعات الأرمنية بطريقاً يدعى «يواكيم» ليشرف على مصالح الأرمن ويوحد صفوفهم.

(18/8)

---

- وبدأ في أعمال تعمير المدينة ابتداء من (23 من ربيع الأول 857هـ = 12 من يونية 1453م) (كان الفتح يوم 29 من مايو من العام نفسه) وأمر بنقل جماعات كثيرة من مختلف أنحاء الدولة إلى «القسطنطينية» للإسهام في إعادة إنعاشها.

- وأعاد للأرثوذكس كرامتهم التي أهدرها اللاتين الكاثوليك بأن أعطاهم حق انتخاب رئيس لهم، يمثلهم ويشرف على شئونهم، وأصبح «سكولا ريوس» (جناديوس) أول بطريق لهم بعد الفتح العثماني للقسطنطينية، وبذلك أنقذ الفاتح إيمان الأمة التي فتح ديارها، وأحيا الأرثوذكية بعد أن أخذت تخفت.

- وجعل الفاتح مسائل الأحوال الشخصية مثل: الزواج والطلاق والميراث وأمور الوفاة الخاصة بأهل المدينة المفتوحة من حق الجماعات الدينية المختصة، وكان هذا امتيازاً منعدم النظير في «أوروبا» في ذلك الوقت.

الفتاح وحكام عصره:

كان تصرف «الفتاح» تصرفاً حضارياً في الوقت الذي كان الحكام من الشرق والغرب يتلذذون بسفك الدماء ويقتل الناس بالآلاف، ويتلذذون وهم على موائد الطعام بمنظر الأسرى وقد اخترقت بطونهم أسنة رماح الجنود، ويرفع الأسرى على الخوازيق ويخلط دمائهم بأنواع الشراب، كما فعل «جنكيزخان» و «تيمورلنك» في الشرق، و «فلال» و «هونبادى» في الغرب.

إن دولة «بيزنطة» هدمت حتى المسلمين في «القسطنطينية» وأبادت سكانه بعد أن علم الإمبراطور بانتصار «تيمورلنك» على السلطان العثماني «بايزيد الصاعقة» في واقعة أنقرة عام (805هـ = 1402م). وأزهقت الجيوش الصليبية في عملية احتلال القدس أرواح (70000) برىء، يقول «ه. ج. ويلز» في ذلك: «كانت المذبحة التي دارت في بيت المقدس رهيبة وكان الراكب على جواده يصيبه رشاش الدم الذي سال في الشوارع ..» ويقول المؤرخ نفسه عن «هولاكو»: «كان هولاكو يفتح فارس وسوريا وأظهر المغول في ذلك الزمان عداوة مريرة للإسلام، ولم يكتفوا بتذبيح سكان بغداد .. بل وقد صارت أرض

(19/8)

---

الجزيرة منذ تلك اللحظة التنعسة يباباً من الخرائب والأطلال لا تتسع إلا للعدد القليل من السكان».

وتقول «سامحة آى ويردى»: «إن الجيوش الصليبية التي تدفقت على القسطنطينية عام (603هـ = 1206م) قامت بتحويل المدينة إلى خرابة بائسة فقيرة معدمة بعد أن كانت غنية معمورة يسودها الرخاء». وعندما دخل «شارل الخامس» «تونس» عام (947هـ = 1540م) لم يترك حياً أمامه إلا قتله ولم تسلم من وحشيته حتى الجمال والقطط، وهذا ما ذكره «شهاب الدين تكين داغ» في مذكراته عن الدولة العثمانية.

إن هذه الأمثلة إذا ما قارناها بموقف «الفتاح» الحضاري من «القسطنطينية» وأهلها، نرى «الفتاح» قائداً منعدم النظر بين أقرانه من أباطرة الشرق وحكام الغرب، ولو كان «الفتاح» قد اتبع ما كان يجرى على الجانب الغربي من البحر المتوسط من فظائع الإسبان في «الأندلس» وما فعلوه بالمسلمين وبالعرب ما أصبح هناك مسيحي واحد في «القسطنطينية».

دور المدفعية العثمانية:

كان المدفع اختراعاً حديثاً مروغاً غير مجرى التاريخ، وكان «مدفع الهاون» اختراعاً عثمانياً عرفه العالم لأول مرة أثناء حصار العثمانيين للقسطنطينية كما كان المدفع الضخم خاصة مدفع الهاون أكبر عامل في فتح المدينة.

كان المدفع الضخم من اختراع اثنين هما: «مصلح الدين» و «أوربان» - و «أوربان» هذا مختلف في أصله هل هو مجرى أو روماني - وكان المدفع ضخماً جداً، وكانت تُسمع طلقاته من مسافة (25 ميلاً) وقذيفته من الحجر والبارود تبلغ زنة القذيفة الواحدة (1500) كيلو جرام، يصل مداها إلى مسافة ميل. يقول «أداري مونتالدو»: «إن عدد المدافع التي صبها كل من مصلح الدين وأوربان قد بلغ 200 مدفع».

وعندما كان المدفع ينقل من «أدرنة» العاصمة إلى «القسطنطينية» ليستقر أمام أسوارها كان لزاماً على العثمانيين توسعة طريق «أدرنة - القسطنطينية» وقام بهذه العملية (50) مهندساً ومائتا عامل،

(20/8)

---

وكان يجز المدفع (60) جاموسة، ويسند المدفع من على جانبيه (400) رجل قوى، (200) على كل جانب، وذلك حتى لا ينزلق المدفع يمينا أو يسرة أثناء مروره.

ولقد لعبت مدافع الهاون دوراً ملحوظاً في الحصار سواء في الضرب

أو في عمليات التمويه، وبسبب هذه المدافع حدث التحول الكبير في «أوروبا».

السلطان بايزيد الثاني:

انفرد «بايزيد الثاني بن محمد الفاتح» بالسلطة بعد نزاع بينه وبين أخيه «جم»، وكان الأخوان قد اختلفا بعد وفاة والدهما في (4 من ربيع الأول سنة 886هـ = 3 من مايو سنة 1481م)، وانتهى الصراع بينهما لصالح «بايزيد»، وفر «جم» إلى «القاهرة»، ثم إلى «فرنسا»، ثم إلى «إيطاليا»، وقد تكفل أخوه «بايزيد» بالإنفاق عليه في كل مكان ذهب إليه، وقد حاول بابا روما استخدام الأمير «جم» أداة ضغط على الدولة العثمانية، لكنه لم يعيش طويلاً. عُرف «بايزيد» بلقب الولي أو الصوفي، لأن حروبه ضد «أوروبا» لم تكن في مستوى من سبقوه في حكم الدولة العثمانية، لكن كانت له حملات على «المجر» و «البغدان» و «بلجراد»، كما كانت له معارك في «الأناضول»، وصدام مع المماليك، لكن «يجي الثالث» سلطان «تونس» قام بالوساطة بين الدولتين.

وقامت في عهده أول حملة عثمانية في غربي «البحر المتوسط»، بهدف مساعدة المسلمين في «الأندلس»، ودخلت هذه الحملة المياه الإسبانية، واستولت على ميناء «مالقة» الذي كان الإسبان قد استولوا عليه من مسلمي «الأندلس» قبل أشهر.

وبعد سقوط «غرناطة» في أيدي الإسبان سنة (897هـ = 1492م) انتشر نحو (300) ألف مسلم على سواحل «إسبانيا»، وقد قامت السفن العثمانية بنقل هؤلاء إلى «فاس» و «الجزائر»، وأنقذتهم من المصير المؤلم الذي تعرّض له المسلمون بالداخل، وظلّت هذه الحملات تتتابع، وقاد أغلبها «كمال رئيس» نحو (23) سنة حتى استشهد أثناء عودته من حملة على «إسبانيا» سنة (917هـ = 1511م). عقد «بايزيد الثاني» صلحًا مع «أوروبا» لمدة عشرين سنة تقريبًا،

وكان السبب في ذلك انشغال الدولة العثمانية بتحركات الشاه «إسماعيل الصفوى»، الذى جعل «إيران» دولة شيعية، وكوّن جيشًا قويا، ووسع حدوده، وتفوق على المماليك عسكريا واقتصاديا، وعمل على التوسع على حساب الدولة العثمانية، والتحالف مع «أوربا» ضد العثمانيين، وحاول التحالف مع «مصر» ضد الدولة العثمانية، لكن المماليك في «مصر» رفضوا ذلك.

حدثت مناوشات بين الشاه «إسماعيل الصفوى» وبين «سليم ابن السلطان بايزيد» والى «طرابزون»، كان النصر فيها حليف «سليم بن بايزيد»، فأثار ذلك حفيظة الشاه، فاشتكى إلى السلطان «بايزيد» من ابنه، فأمر بإعادة الأراضى التى استولى عليها إلى الصفويين. وقد أذى هذا التصرف إلى استياء «سليم بن بايزيد» من والده، وشكّه في مقدرة والده على التصدى للدولة الصفوية، فقام بانقلاب على والده، بمساعدة الجنود الإنكشارية، التى سارت بالأمير «سليم» إلى «إستانبول»، وطلبوا من السلطان «بايزيد» التنازل عن عرش السلطنة لابنه «سليم»، فقبل واستقال في يوم (8 من صفر سنة 918 هـ = 25 من أبريل سنة 1512م).

نظام الحكم:

كانت سلطة اتخاذ القرار في الفترة الأولى من تاريخ الدولة العثمانية تتمثل في الديوان الهمايوني في العاصمة، وفي الديوان في الولايات.

والديوان الهمايوني ( **Divan imeperiel** ) اسم أطلق على الديوان الذى يجتمع برئاسة السلطان، لينظر في أمور الدولة ذات الأهمية الأولى، وهو امتداد حضارى لهذه المؤسسة منذ عهد السلاجقة ثم الإيلخانيين والدول التركية الأخرى، ومثله في ذلك مثل الديوان العالى عند السلاجقة والديوان الكبير عند الإيلخانيين والديوان السلطاني عند المماليك.

كانت مهمة الديوان الهمايوني دراسة أمور الدولة السياسية والإدارية

والعسكرية والعرفية والشرعية والعدلية والمالية، كما كانت مهمته النظر في الشكاوى والقضايا، واتخاذ القرار بشأنها، وكان الديوان

(22/8)

مفتوحًا لكل من يتمتع بحماية الدولة العثمانية مهما يكن دينه أو ملته، ومهما يكن عرقه أو مكان موطنه في الدولة، ومهما تكن مهنته أو الطبقة الاجتماعية التي ينتمى إليها، كما كان الديوان مفتوحًا لكل رجل أو امرأة يتعرض للظلم، أو لمن صدر حكم من القضاة المحليين ضده ويرى خطأ هذا الحكم، أو لمن يشكو الولاة أو الجنود أو الضباط، أو لمن وقع عليه ظلم القائمين على الأوقاف.

وكانت الشئون الإدارية والعرفية في الديوان من اختصاص «الوزير الأعظم»، أما الشئون الخاصة بالأراضي فكانت من اختصاص «النشائجي» (التوقيعي)، أما الشئون الشرعية والقانونية فكانت من اختصاص «قاضي عسكر»، أما الشئون المالية فكانت من نصيب «الدفتردار»، وكانت القرارات التي يتخذها والأمور التي ينظرها تسجل بدفاتر تسمى «مهمة دفتری» و «رءوس دفتری» و «نامه» و «عهد نامه» ثم تُمهر بخاتم السلطان الذي يكون عادة في عهدة الوزير الأعظم، ثم تودع في «الدفترخانة».

ويتشكل الديوان الهمايوني من أعضاء دائمين (الأعضاء الطبيعيين)، وأعضاء مؤقتين.

الأعضاء الدائمون:

هم السلطان والصدر الأعظم أو الوزير الأعظم وقاضيا العسكر والنشائجي (وهو التوقيعي أو الطغراني) والدفتردار.

الأعضاء المؤقتون:

هم أمير أمراء الروملي (إذا كان موجودًا في العاصمة)، وأغا الإنكشارية، وقائد الأسطول (إذا كان حائزًا على رتبة الوزير فيكون

عضوًا دائمًا)، وشيخ الإسلام (إذا دعى للحضور).  
هذا بالإضافة إلى المساعد (الكادر) وأهمهم رئيس الكتاب والتدكريجى  
وجاوش باشى والكتاب.  
ويستطيع السلطان استخدام سلطاته أو إحالتها إلى الوزير الأعظم.  
سلطات الديوان الهمايوني:

#### 1 - السياسية:

يتمتع «الديوان الهمايوني» بأعلى سلطة في الدولة بعد السلطان،  
ومهمته المحافظة على نظام الحكم وضمان ملائمة جميع أجهزة الدولة  
لهذه السلطة، ومنع القيام ضدها، وهو صاحب المسؤولية في اتخاذ ما

(23/8)

---

يراه كفيلا للقيام بمهمته، خاصة أن هذا الديوان يمثل قوى رأس  
الدولة كلها.

وتنقسم سلطة الديوان الهمايوني السياسية إلى قسمين: داخلية  
وخارجية:

#### أ - السياسة الداخلية:

السلطة السياسية الداخلية التي يمارسها الديوان الهمايوني هي  
حماية الشريعة الإسلامية، وإعلاء الإسلام، وسحق كل حركة تقوم  
ضده، واستقبال من أسلم حديثًا، وإقرار رواتب لهم من الدولة، كل  
حسب وضعه الاجتماعي، وتقديم هدايا مناسبة لهم وحمائهم من  
تدخل سفراء الدول التابعين لها، وعدم تسليمهم لهم عند مطالبة  
هؤلاء السفراء بتسليم المهتدين حديثًا إلى الإسلام لهم، في حالة ما  
إذا كان هذا المسلم حديثًا من مواطني دولة أخرى، أما إذا كان من  
مواطني الدولة العثمانية فالديوان يستقبلهم ويوزع عليهم هدايا  
ويربطهم برواتب منتظمة من الدولة، كما كان يتخذ تدابير شديدة ضد  
من يرتد عن دينه من المسلمين.

ب - السياسة الخارجية:

كانت السياسة الخارجية العثمانية التي ينفذها الديوان الهمايوني تتلخص في الآتي: نشر الإسلام بكل ما تستطيعه الدولة من إمكانات وبتعبير آخر: «تحويل دار الحرب إلى دار إسلام»، وكان هذا أحد أهم الأهداف السياسية الخارجية العثمانية التي يتولى تنفيذها الديوان الهمايوني. وقد نجحت هذه السياسة الخارجية نتيجة توسيع حدود الدولة العثمانية، وهذا يعنى نشرها للإسلام، ولم تتوقف حروب الفتح إلا منذ أواخر القرن السادس عشر الميلادي، ومنذ ذلك الحين جعل الديوان الهمايوني هدفه في السياسة الخارجية حماية الأراضي المفتوحة والدفاع عنها.

ومع تداخلات الدول الأوروبية في السياسة الخارجية العثمانية وإرسال هذه الدول سفراء مؤقتين ثم سفراء دائمين لها في إستانبول أصبح السفراء يقدمون رسائلهم إلى الديوان الهمايوني، ويحصلون على أجوبتها في مراسم رسمية يوضحها «قوجى بك» في رسالته المشهورة، وكان للسفراء الأجانب أن يقدموا شكاوى للديوان

(24/8)

---

الهمايوني إذا حدث إخلال بالاتفاقات المعقودة بين بلادهم وبين الدولة العثمانية التي تسمى في «عهد نامه»، وكان الديوان يحقق فيها ويعدل. وكان لهذا الديوان حق تعيين العثمانيين في المناصب الدبلوماسية، وكانوا غالبًا من البيروقراطيين العاملين فيه. أما أهم سلطات الديوان الهمايوني فكان إعلان الحرب، وكان المعتاد أن يحيل السلطان قرار الحرب إلى الديوان الهمايوني لدراسته واتخاذ اللازم لتنفيذه، وكان هذا القرار أحيانًا يُتخذ في الديوان الهمايوني.

2 - الإدارية:

كان التفتيش على جميع الأعمال الإدارية في البلاد من سلطات الديوان

الهمايوني وهو في ذلك - بعد السلطان - السلطة الأولى في البلاد  
وعليه محاكمة الموظفين إذا لزم الأمر.

وإن كان توجيه المناصب إلى حدّ معين من اختصاص الجهات الإدارية  
الأخرى، مثل: تعيين القضاة الذي هو من اختصاص قاضي العسكر؛  
فإن التعيين في بعض المناصب مثل منصب «صوبا شى» المدن  
الكبرى من اختصاص الديوان الهمايوني. وإذا صدر قرار بتعيين  
شخص في منصب وتظلم من هذا التعيين أو النقل فمن حقه مراجعة  
الديوان الهمايوني، وللديوان في هذه الحالة الأمر بإجراء التحقيقات  
وعمل اللازم.

ومن السلطات الإدارية لهذا الديوان أيضًا حماية أهل الذمة في البلاد  
من تعديات الإداريين وإعادة الحق إليهم ومعاقبة المسؤولين عن ذلك.  
وكانت خيوط المركزية الإدارية في الدولة تتجمع في هذا الديوان،  
مثال ذلك: أن الديوان طلب من أجهزة الدولة المسئولة عمل قوائم بكل  
الموجودين داخل حدود الدولة العثمانية وتسليمها إلى الديوان  
الهمايوني وتجديدها كل ثلاثين عامًا، وأن على المسؤولين عن هذا  
تسجيل الوفيات والمواليد خلال هذه الأعوام الثلاثين، وهو ما يعرف  
اليوم بالإحصاء العام.

### 3 - المالية والاقتصادية:

والديوان الهمايوني هو سلطة الفصل العليا في الأمور الاقتصادية  
والمالية على أعلى مستوياتها في الدولة، فالوزير الأعظم

(25/8)

---

والدفتدار عضوا الديوان الطبيعيان، وهما صاحبا السلطة الأولى في  
الدولة - بعد السلطان - في التصرف في الأمور المالية، ومن مهام  
الديوان الطبيعية الضرائب والاقتصاد والمال.

أما عن الضرائب: فمهمة الديوان تحرير موارد البلاد المفتوحة بدقة

وعناية فائقتين، والإشراف المباشر سنويا على الضرائب التي من حق الخزينة العامة، وتسلم دفاتر الضرائب التي تُحصَل سنويا من جميع أرجاء البلاد، ويكتب منها نسختان: نسخة في مركز الولاية، ونسخة أخرى ترسل إلى «إستانبول» لتسلّم إلى الديوان الهمايوني. والقوانين التي تسن لجمع الضرائب تعد في الديوان الهمايوني ويقوم بإعدادها التوقيعي (النشأجي) ومجموعة مساعديه، وينظر الديوان في مدى مطابقتها هذه الضرائب للعدالة الضريبية بناءً على مدى مطابقتها للشرع الإسلامي.

ويتساوى في هذا جميع أنواع الضرائب، ومن أهمها ضرائب الجمارك التي يتابعها الديوان بدفته المعهودة، حتى إنه يتدخل فوراً إذا قدمت له شكوى تخص تحصيل هذه الضرائب بغير وجه حق إلى أبسط أنواع الضرائب وأخفها.

وعلى الديوان الهمايوني ضمان عدم تحصيل الضرائب من الذين لا تحصل منهم مثل: رجال الدين الذميين، ومجازاة المرتشين - إذا وجدوا - في عمليات جمع الضرائب، والعمل على عدم إهدار المال العام واتخاذ التدابير الصارمة في هذا السبيل، واتخاذ الإجراءات الضرورية لحماية البائع والمستهلك على حد سواء، ومراقبة أعمال قطع الأشجار وأعمال المحافظة على الخضرة.

ومن مهام الديوان الهمايوني أيضاً اتخاذ التدابير الضرورية لتطور اقتصاد البلاد، والعمل على عدم سيطرة تجار معينين على تجارة البلاد واحتكارهم لها، وعدم تخزين البضائع والمواد الضرورية في الوقت المناسب ثم بيعها بعد ذلك بأسعار باهظة، والقضاء على التهريب وحصر ثروة السلطان إذا توفى وغير ذلك.

أعضاء الديوان الهمايوني الطبيعيون (غير السلطان) هم:

- الوزير الأعظم:

وتتلخص سلطاته في أنه وكيل السلطان وحامل خاتمه، وكان يعين في أوائل الحكم العثماني من طبقة العلماء، ومنذ عهد «مراد الأول» (791 - 794 هـ = 1389 - 1392 م) كثر عدد الوزراء، ولذلك سمي أولهم الوزير الأعظم، وكانت له رئاسة الديوان الهمايوني نيابة عن السلطان في حالة عدم وجوده، وسلطة تعيين العلماء ومن على شاكلتهم وعزلهم وترقيتهم، وله في أوقات الحرب سلطة السلطان في كثير من الأمور.

ولابد أن يشترك مع السلطان في الحرب، فإذا ترك السلطان الحرب لسبب أو لآخر يتولى الوزير الأعظم قيادة الجيش نيابة عن السلطان، وفي أثناء ذلك يحمل لقب «السرदार الأكرم»، ويترك في حالة الحرب في مكانه موظفًا في البلاد يسمى «قائمقام الصدارة» أو «قائمقام الركاب الهمايوني» يرأس الديوان الهمايوني في العاصمة بدلًا من الوزير الأعظم بمقتضى بنود القانون.

- قاضيا العسكر:

وموقعهما في البروتوكول خلف الوزير الأعظم مباشرة، وهما اثنان: قاضى عسكر الأناضول وقاضى عسكر الروملى (البلقان)، وكانا يستمعان إلى الشكاوى، ويجلسان على يسار الوزير الأعظم في الوقت الذى يكون فيه بقية الوزراء على يمينه، وكان عليهما حل المسائل الشرعية، ويمثلان العلماء؛ إذ إن شيخ الإسلام لم يكن عضوًا بالديوان الهمايوني. وأهم عمل لهما في الديوان الاستماع إلى القضايا المعروضة.

- النشائج:

ويسمى بالتوقيعى وأحيانًا بالطغرائى والمعنى الحرفى لعمله: «هو الشخص الذى يختم الفرمانات السلطانية بالطغراء»، لكن سلطاته كانت أوسع من ذلك، فهو الذى يعد الفرمانات من حيث صياغتها، ويكتب بنفسه أهم الفرمانات، وعليه تثبيت قواعد الحقوق العرفية الواجب وضعها أو تغييرها، والمراجعة الأخيرة لما يعده الدفتردار من وثائق.

ونظرًا لأهميته في الديوان فقد كان اختياره من العلماء ثم من بعد ذلك من الكتّاب البارزين، ولم يكن لشيخ الإسلام ولا لقاضى العسكر دخل في اختيار النشأجي أو تعيينه.  
- الدفتردار:

(27/8)

وله سلطة خاصة وهو وكيل السلطان في مال الدولة، وميدان عمله الأمور المالية في الدولة، ومن واجباته فتح الدفترخانة والخزانة، ويعرض على السلطان مسائله عقب اجتماع الديوان في أيام الثلاثاء. القوة العسكرية ومدى تفوقها:  
منذ بداية نشأة الدولة العثمانية بدأ الاهتمام بالجيش، وقد كون السلطان «أورخان» ثاني السلاطين العثمانيين «العسكر الجديد»، أو ما عرف فيما بعد بالإنكشارية، وتعد أشجع فرق الجيش العثماني، إذ كان جنودها يربون تربية خاصة منذ صباهم، وقد اهتم السلاطين العثمانيون بتطوير الجيش وأخذه بأحدث أساليب القتال، وكونت فرق الطوبجية (المدفعية) و فرق الفرسان المهاجمة، وغيرها.  
ولتفوق العثمانيين في المدفعية كان لهم النصر في كثير من المعارك التي خاضوها ضد أعدائهم. وكان أكثر السلاطين العثمانيين اهتمامًا بالجيش وأكثرهم تطويرًا له السلطان «محمد الفاتح» - طيب الله ثراه - فقد أنشأ مصانع الذخيرة، وأدخل إصلاحات جديدة في الجيش، ويمتاز السلطان «محمد الفاتح» عمن سبقه من السلاطين أنه إلى جانب اهتمامه وعنايته بتنظيم وتنمية قوات الجيش البرى أولى اهتمامًا كبيرًا وعناية عظيمة للقوة البحرية، وقد حثه على تنمية الأسطول العثماني ما رأى عليه دولة «البندقية» (فينيسيا)، من قوة و ثراء، بفضل أسطولها البحرى، ولذلك لم يدخر السلطان «محمد الفاتح» وسعًا في سبيل تنمية القوة البحرية وإدخال أسباب

التحسين عليها؛ فأمر باتخاذ سفن «البندقية» و «جنوة» - أكبر الدول البحرية في ذلك العهد - نماذج تبني على مثلها السفن العثمانية، وقد رأينا - فيما سبق - أن هذا الأسطول ساعد «محمدًا الفاتح» في فتح «القسطنطينية» وفي فتوحاته البحرية في بحر «إيجة»، وكذلك في إنزاله جيشه في جنوب «إيطاليا».

وقد بلغ الجيش العثماني بقسميه البري والبحري أقصى قوة له في القرن العاشر الهجري، وذلك في عهد الخليفة السلطان «سليمان

(28/8)

---

القانوني» حتى غدا الجيش البري أقوى جيش على الساحة الأوروبية، كما أن الأسطول العثماني كان يتكون في عهده مما يزيد على ألفي مركب حربي وكان الأسطول العثماني مهيمًا على معظم «البحر المتوسط»؛ إذ كان يستطيع النزول في أي شاطئ من شواطئه، ولذلك فتح العثمانيون «نيس» على شاطئ «فرنسا» ونزلوا عدة مرات في شواطئ «إيطاليا»، وأغاروا على شواطئ «الأندلس» (إسبانية) منقذين كثيرًا من مسلميها الفارين بدينهم من محاكم التفتيش النصرانية، وقد حاول الأوروبيون تدمير هذا الأسطول، فاجتمعت سفن البابا و «البندقية» و «إسبانيا» عليه لكنهم فشلوا، أما الجيش البري فقد بلغ سور «فيينا» واستولى على كثير من مدن وقلاع «البلقان» كتيمسوالا (غرب رومانيا حاليا) و «بودا» عاصمة «المجر»، و «أنجرا» في شمال «المجر» وغيرها.

(29/8)

---

الفصل الثالث

## \*تحول السلطنة إلى خلافة

أسباب تحول العثمانيين من التوسع في أوروبا إلى الأراضى الإسلامية:

يتساءل المؤرخون العرب عن السبب الذى جعل العثمانيين يتركون جهادهم في الميدان الأوربي، ويتجهون إلى ميدان الشرق الإسلامى ليحاربوا فيه ويفرضوا عليه سلطتهم، وكان الأولى بهم الحرب في «أوروبا» حيث التكتل الصليبي ضد العثمانيين المسلمين، ويمكن إجمال السبب في ذلك في شقين:

أ - ازدياد النمو الشيعى في «إيران» و «العراق»، وتهديد الدولة الصفوية للعثمانيين، وضربها لدولتهم من الخلف أثناء انطلاقتها في «أوروبا».

ب - تنامي الخطر البرتغالى في الخليج العربى وتهديدهم للأراضى المقدسة في الجزيرة العربية، وعجز المماليك عن مواجهتهم. علاقة السلطان سليم بالدولة الصفوية:

أرسل الشاه «إسماعيل الصفوى» دعاته لنشر المذهب الشيعى في «الأناضول»، وما لبثوا أن وجدوا بعض المؤيدين، ثم قامت جماعة «القيزىل باش» أى العلويين في منطقة «إنطاكية» العثمانية بالتمرد على سلطة الدولة العثمانية، استجابة لأوامر من الشاه «إسماعيل» نفسه، وقاد هذا التمرد شخص عرف باسم «شاه قولو» أى «عبد الشاه»، وكان هذا التمرد رهيباً، استخدم العثمانيون فيه كل قوتهم حتى نجحوا في إخماده بقيادة «سليم بن السلطان بايزيد» والى إمارة «طرابزون» القريبة من «إيران».

وحدث الصدام الأول بين «سليم بن بايزيد» والصفويين، عندما احتل «سليم» أربع مدن من مخلفات إمبراطورية «الآق قوينلو»، وأرسل الشاه «إسماعيل» الذى يدعى أنه وريث تلك الإمبراطورية المنهارة أخاه «إبراهيم ميرزا» على رأس جيش لاستعادة تلك المدن، لكنه هزم أمام «سليم» الذى دمّر جيشه وأوقعه في الأسر.

وأدّت انتصارات «سليم» إلى إكسابه مكانة كبيرة وتقديراً وإعجاباً

في نفوس الناس، حتى نظمت فيه قصائد شعبية، غير أن السلطان «بايزيد» أمر ابنه «سليماً» أن يطلق سراح أخى الشاه، ويترك المدن

(30/8)

الكبرى التى استولى عليها، بناءً على شكوى من الشاه «إسماعيل»، ولم يلقَ هذا التصرف قبولاً لدى الجيش أو الشعب، ثم تطورت الأمور، وأجبر الجيش السلطان «بايزيد الثانى» على التخلي عن العرش لابنه «سليم الأول».

ولما تولى «سليم الأول» الحكم سنة (918هـ = 1512م)، جاءته الرسل من كل الأنحاء لتهنئته، ولم يحضر أحد من «إيران» الصفوية، فزاد ذلك من شقة الخلاف بين الدولتين، وتطور الأمر بينهما إلى الاحتكام إلى السيف، فالتقى العثمانيون مع الصفويين فى (2 من رجب 920هـ = 23 من أغسطس سنة 1514م) فى معركة «جالديران»، فانتصر «سليم»، وهزم الشاه «إسماعيل»، الذى هرب ناجياً بحياته، وترك زوجته فى الميدان، ودخل «سليم» العاصمة الإيرانية «تبريز».

وفى طريق العودة ضم «سليم» إلى دولته أراضى «ذى القادر»؛ لأن حاكمها «علاء الدين»، التابع لدولة المماليك رفض مساعدة «سليم» عندما كان فى طريقه لمحاربة الصفويين، مما وتّر العلاقة بين العثمانيين ودولة المماليك، وقام بينهما عداء سافر، ساعد فيه الاتفاق بين دولة المماليك فى «مصر» و «الشام» وبين الصفويين ضد العثمانيين، وزاد الأمر تعقيداً عثور العثمانيين على خطاب يؤكد العلاقة الخفية بين المماليك والصفويين، وهذا الخطاب محفوظ الآن فى أرشيف متحف «طوب قابو» فى «إستانبول».

علاقة السلطان سليم بالمماليك:

برزت أمام السلطان «سليم الأول» عدة أسباب استراتيجية، جعلت الصدام مع المماليك أمراً ضرورياً، فأى اتفاق بين المماليك و «أوربا»

سيفتح الباب أمام حملة صليبية جديدة، ويضع الدولة العثمانية في مأزق، كما أن البرتغاليين بعد معركة «ديو» سنة (915هـ = 1509م) أصبحوا هم أصحاب السيادة على المياه الإسلامية الجنوبية، حتى إنهم أعلنوا عن عزمهم على قصف «مكة» و «المدينة»، وفي الوقت نفسه كانت حالة دولة المماليك الاقتصادية والسياسية والعسكرية سيئة، لا تسمح لهم بحماية المقدسات الإسلامية.

(31/8)

ولم يغب عن ذهن السلطان «سليم الأول» أن انتقال الخلافة إلى «بني عثمان» يجعل منهم قوة معنوية كبيرة عند المسلمين، ويحد من أطماع «أوربا» المسيحية في الدولة العثمانية، ويقضى على الخطر البرتغالي في جنوب «البحر الأحمر».

وقد أدى وقوع الرسائل بين «قانسوه الغورى» سلطان المماليك، والشاه «إسماعيل الصفوى» إلى زيادة هوة الخلاف بين «الغورى» و «سليم» وقطع أى محاولة للحل السلمى بين المماليك والعثمانيين. موقعة مرج دابق وآثارها:

أدرك «الغورى» أن الحرب بينه وبين العثمانيين واقعة لا محالة، فلجأ إلى تحريض أهل «دمشق» ليشتركوا معه في حربه ضد العثمانيين، الذين اتهمهم بخيانة فكرة الجهاد الإسلامى فى «أوربا»، وأشاع أن السلطان العثمانى قد استعان بجنود من النصارى والأرمن؛ ليحارب بهم جند الله المجاهدين ضد البرتغاليين، ولكن يبدو أن هذا الأسلوب لم يلق نجاحًا كبيرًا بين أهل «دمشق»، لاقتناعهم بأن العثمانيين منذ قرون وهم يجاهدون فى الميدان الأوروبى، ولم يتخلفوا عن إمداد المماليك أنفسهم بما يلزمهم لقتال البرتغاليين، مثلما حدث فى عهد السلطان «بايزيد الثانى».

والتقى الجمعان على مشارف «حلب» فى «مرج دابق» سنة (923هـ =

1517م)، وحقق العثمانيون النصر، وقُتل السلطان «الغورى»، ودخل «سليم الأول» «حلب» ثم «دمشق» ودُعى له في المساجد، وفتحت كثير من المدن الشامية أبوابها للعثمانيين دون مقاومة تذكر. وأرسل السلطان «سليم الأول» رسالة إلى «طومان باى» الذى خلف السلطان «الغورى» فى «مصر»، يعرض عليه فيها حقن الدماء، شريطة أن تكون «غزة» و «مصر» تابعتين للدولة العثمانية، ويحكمهما هو باسمها، ويدفع نظير ذلك خراجًا سنويًا، لكن المماليك قتلوا رسول «سليم»، فلم يكن هناك بدٌّ من الحرب، وعزم «سليم» على اللقاء، فالتقى مع المماليك فى «غزة» و «الريدانية» وكان النصر فيهما حليفه، وأدى انتصار العثمانيين فى معركة «مرج دابق»

(32/8)

---

و «الريدانية» إلى وقوع «مصر» و «الشام» و «الحجاز» و «اليمن» تحت حكم الدولة العثمانية.

ويعود انتصار العثمانيين على المماليك إلى مجموعة من الأسباب، منها:

- تفوق العثمانيين التكنولوجى، فسلح المدفعية المملوكى كان يعتمد على مدافع ضخمة ثابتة لا تتحرك، على حين اعتمد سلاح المدفعية العثمانى على مدافع خفيفة يمكن تحريكها فى كل الاتجاهات.

- سلامة الخطط العسكرية العثمانية ومرونتها، من ذلك استدارة القوات العثمانية من خلف مدافع المماليك الثقيلة الحركة، ودخولها «القاهرة» عن طريق المقطم، مما شل دور المدفعية المملوكية، وأحدث اضطرابًا فى صفوف الجيش المملوكى؛ لتدافعهم بلا انتظام خلف العثمانيين.

- ارتفاع معنويات الجيش العثمانى.

ودخل «سليم الأول» «القاهرة»، ونودى به سلطانًا وخليفة للمسلمين،

وخادمًا للحرمين الشريفين، بعد أن تسلّم مفاتيح «مكة» و «المدينة»، وكان «سليم» كريمًا مع ابن أمير «مكة» «الشريف بركات»، الذي جاء يعلن خضوع «الحجاز» للدولة العثمانية، وفي «مصر» أعاد «سليم» تنظيم البلاد، وأصدر قانون «نامه مصر» لهذا الغرض. مسألة انتقال الخلافة إلى العثمانيين:

عندما انتصر السلطان «سليم» في موقعة «مرج دابق» أسر الخليفة العباسي «المتوكل على الله محمد بن المستمسك بالله» وكان في صفوف جيش السلطان «الغوري»، وفي أول صلاة جمعة صلاها السلطان «سليم» في الجامع الكبير بحلب، عُذَّ خليفة، وخطب له في «سوريا» باعتباره خليفة للمسلمين، وسكت العملة باسمه.

وتقول إحدى الروايات التاريخية: إن الخليفة المتوكل تنازل عن الخلافة لبني عثمان في مراسم جرت في «آيا صوفيا» بعد عودته مع السلطان «سليم» إلى «إستانبول»، ويقول بعضها الآخر: إن الخليفة «المتوكل» قلد السلطان «سليماً» السيف وألبسه الخلعة في «جامع أبي أيوب الأنصاري» بعد مراسم «آيا صوفيا»، وأنه اشترك في هذه المراسم علماء الأزهر الذين سافروا إلى «إستانبول»، وعلماء

(33/8)

---

الدولة العثمانية، وأن الخلافة انتقلت إلى «بني عثمان» بقرار هذا المجلس.

اتسعت رقعة الدولة العثمانية في عهد «سليم الأول» بعد أن ضمَّ إليها «مصر» و «الشام» و «الجزيرة العربية»، وبعد عودته إلى العاصمة «إستانبول» وجد فتنة شيعية قد اشتعلت في منطقة «طوقاد» الأناضولية سنة (925هـ = 1519م)، فأرسل إليها أحد قواده فنجح في إخمادها والقضاء عليها، وأعاد السكون إلى تلك المنطقة. وفي سنة (926هـ = 1520م) تُوفِّي «سليم الأول» من جرّاء خراج صغير

في ظهره.

السلطان سليمان القانوني:

تولى السلطان «سليمان القانوني» عرش الدولة العثمانية بعد موت والده السلطان «سليم الأول» عام (926هـ = 1520م) وحكم الدولة العثمانية مدة ست وأربعين سنة وهي أطول مدة حكم فيها سلطان عثمانى.

كان عهد «القانوني» قمة العهود العثمانية سواء في الحركة الجهادية أم في الناحية المعمارية أو العلمية أو الأدبية أو العسكرية، وكان هذا السلطان يؤثر في السياسة الأوربية تأثيراً عظيماً؛ حيث كانت الدولة العثمانية هي القوة العظمى دولياً في زمنه، ونعمت بالرخاء والطمأنينة.

بداية عهد القانوني:

ابتلى «سليمان» في السنوات الأولى من عهده بأربعة تمردات شغلته عن حركة الجهاد؛ إذ إن موت «سليم الأول» ثم جلوس ابنه على العرش وهو صغير السن أتاح الفرصة لكي يظن الولاة الطموحون إلى الاستقلال أنهم قادرون على ذلك. فلما وصل خبر تولية «سليمان» العرش، إلى «الشام» وكان «جان بردى الغزالي» والياً عليها من قبل الدولة العثمانية، تمرد وأشهر العصيان على الدولة.

و «جان بردى الغزالي» هذا، قائد مملوكي، تعاون مع «سليم الأول» في حربه ضد المماليك وكان أميراً طموحاً وأودى به طموحه إلى أن ينقلب على المماليك ويتعاون مع «سليم»، فلما تولى «سليمان» أرسل «الغزالي» من «الشام» رسالة إلى «خاير بك» النائب العثماني على مصر أوضح فيها الأول للثاني أن الوقت قد حان لإعادة الدولة

المملوكية وبعثها من جديد، إلا أن والى «مصر» العثماني أرسل الرسالة هذه إلى العاصمة العثمانية ليطلع عليها السلطان «سليمان»، وهذه الرسالة موجودة الآن في قسم الأرشيف بمتحف «طوب قابو سراي».

فأمر السلطان «سليمان» بقمع الفتنة فقمعت وأرسل رأس الثائر إلى «إستانبول» دلالة على انتهاء التمرد.

أما التمرد الثاني: فقام به «أحمد باشا» الخائن في «مصر» في عام (930هـ = 1524م)، وكان يطمح إلى أن يشغل منصب الصدر الأعظم ولم يفلح في هذا، لذلك طلب إلى السلطان أن يعينه والياً على «مصر» فقبل السلطان. وما إن وصل «مصر» حتى حاول استمالة الناس، وأعلن نفسه سلطاناً مستقلاً، لكن أهل الشرع في «مصر» وكذلك جنود الإنكشارية لا يعرفون إلا سلطاناً واحداً خليفة لكل المسلمين هو السلطان «سليمان القانوني»، لذلك ثاروا ضد هذا الوالى المتمرد وقتلوه وظل اسمه في كتب التاريخ مقروناً باسم الخائن.

والتمرد الثالث ضد خليفة المسلمين تمرد شيعي علوى قام به «بابا ذو النون» عام (932هـ = 1526م) في منطقة الأناضول؛ حيث جمع ما بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف ثائر، وفرض الخراج على المنطقة، وقويت حركته حتى إنه استطاع هزيمة بعض القواد العثمانيين الذين توجهوا لقمع حركته، وانتهت فتنة الشيعة هذه بهزيمة «بابا ذو النون» وأرسلت رأسه إلى «إستانبول».

والتمرد الرابع ضد الدولة العثمانية في عهد «سليمان القانوني» كان تمرداً شيعياً علوياً أيضاً وكان على رأسه «قلندر جلي» في منطقتي «قونية» و «مرعش»، وكان عدد أتباعه (30.000) شيعي قاموا بقتل المسلمين السنين في هاتين المنطقتين.

توجه «بهرام باشا» لقمع هذا العصيان فقتله العصاة، ثم نجحت الحيلة معهم؛ إذ إن الصدر الأعظم «إبراهيم باشا» قد استمال بعض رجال «قلندر جلي»، فقلت قواته وهزم وقتل.

الجهاد في أوربا:

بعد هذا هدأت الأحوال في الدولة العثمانية وبدأ السلطان «سليمان» في التخطيط لسياسة الجهاد في «أوروبا».

(35/8)

بدأ العثمانيون في عصر «سليمان» فتوحاتهم في «أوروبا» بفتح أهم مدن «البلقان» وهي: «بلجراد»، التي كان المجرئون يتولون حمايتها، وكانت علاقة العثمانيين بالمجريين في هذا الوقت متوترة؛ إذ كان «سليمان» قد أرسل إلى ملك «المجر» رسولا يعلنه بتولى «سليمان» عرش العثمانيين، فقتل الملك المجرى رسول «سليمان» ويدعى «بهرام جاووش»، فأعلن السلطان العثماني الحرب على «المجر»، وحاصرت القوات العثمانية «بلجراد» من البر ومن النهر وسلّمت «بلجراد» بعد شهر واحد من الحصار عام (927هـ = 1521م)، واتخذها العثمانيون قاعدة حربية تنطلق منها قواتهم في فتوحاتهم الأوروبية. وأثناء حرب «بلجراد» هذه استولى العثمانيون أيضًا على قلاع مهمة في منطقة «بلجراد» مثل: «صاباج» و «سالانكامن» و «زملين».

وبعد خمس سنوات من استيلاء العثمانيين على «بلجراد»، أخذ ملك «المجر» «لايوش» يجمع القوى الأوروبية لمحاربة العثمانيين، وكتب إلى كل من «شرلكان» الإمبراطور الألماني، و «فرديناند» الأرشيدوق النمساوي يطلب منهما التحالف معه ضد العثمانيين.

وفي الوقت نفسه كان السلطان «سليمان القانوني» يستعد لمحاربة «المجر»، فتحرك بجيشه في سنة (932هـ = 1526م) في أكثر من (60) ألف جندي حتى وصل إلى «صحراء موهاج» المجرية، وهناك دارت معركة ضخمة من معارك الإسلام في يوم (21 من ذى القعدة 932هـ = 29 من أغسطس 1526م)، هزم فيها العثمانيون الجيش المجرى، وكان من أرقى الجيوش الأوروبية، ومعروف بفرسانه المدرعين، ولعبت

المدفعية العثمانية دورها في هذا النصر السريع الذى أحرزه الجيش العثماني في ساعتين، على الرغم من قطعه مسافات طويلة، حتى وصل إلى أرض المعركة.

وقد تكبّد الجيش المجرى خسائر هائلة فلم تقم له قائمة، فقد أسر العثمانيون حوالي (25) ألف جندي، وتعرض نحو (75) ألفًا للقتل أو للغرق في مستنقعات «موهاج»، وكان الملك المجرى «لايوش» ممن مات غرقًا في هذه المستنقعات.

(36/8)

وقد رفعت الرايات العثمانية فوق العاصمة المجرية «بشت»، ولم تكن قد عرفت باسمها الآن «بودابست»، وأعلن منها السلطان «سليمان القانوني» خضوع «مملكة المجر» للحماية العثمانية، وأصدر أمرًا بتعيين «جون زابوليا» أمير منطقة «أردل» المجرية ملكًا على «المجر»، وهو الذى تعرفه المصادر الشرقية باسم الملك «يانوش»، وعاد «سليمان» إلى «إستانبول» بجيوشه.

بعد ثلاث سنوات من الحملة العثمانية لفرض الحماية الإسلامية على «مملكة المجر»، جاءت رسالة إلى «سليمان» من «يانوش» ملك «المجر» يقول فيها بأن أرشيدوق «النمسا» «فرديناند» يستعد لأخذ «المجر» منه، بعد أن قام الكثير من أمراء «المجر» بتأييده ملكًا على «المجر» بدلًا من «يانوش»، واستولى «فرديناند» بالفعل على مدينة «بودين» من الملك المجرى التابع للعثمانيين.

وفي (رمضان 935هـ = مايو 1529م) تحركت الجيوش العثمانية من «إستانبول» إلى «المجر» واستعاد «سليمان القانوني» مدينة «بودين» مرة أخرى، وفي احتفال مهيب توجّ «القانوني» «جون زابوليا» ملكًا على «المجر».

ثم أصر السلطان «سليمان القانوني» على محاربة «فرديناند»،

فحاصرت القوات العثمانية في (الحرم 936هـ = سبتمبر 1529م) مدينة «فيينا» عاصمة «النمسا»، واشترك في الحصار مائة وعشرون ألف جندي وثلاثمائة مدفع، وقبل الحصار خرج ملك «النمسا» من عاصمته وانسحب بعيداً عنها، وقامت معارك كبيرة أمام أسوار «فيينا» لكن الجيش العثماني لم يتمكن من فتحها، إذ جاء الشتاء وبدأت المواد الغذائية تنقص، وعادت القوات العثمانية جميعاً دون التمكن من فتح «فيينا».

وبعد ثلاث سنوات من بداية الحملة على «المجر» وحصار «فيينا»، قام السلطان «سليمان القانوني» بمحاربة «ألمانيا» (939هـ = 1532م) بسبب قيام أرشيدوق «النمسا» «فرديناند» بإرسال سفير إلى السلطان العثماني يطلب منه الاعتراف به ملكاً على «المجر»، ولم يكتف «فرديناند» بذلك بل جرّد حملة وحاصر بها مدينة «بودين».

(37/8)

وقامت الحامية العثمانية في هذه المدينة مع القوات المجرية المحلية بالدفاع عن المدينة. وصل السلطان العثماني إلى «النمسا» مارا بيوغوسلافيا و «المجر»، وكانت القوات العثمانية المشتركة في هذه الحملة تقدر بمائتي ألف، ولم يحاصر العثمانيون «فيينا» هذه المرة بل توجهوا لتأديب أسرة «هابسبرج» العريقة، لكن «آل هابسبرج» وقوادهم خافوا مواجهة السلطان «سليمان» العثماني عندما علموا بوصولهم، ولما لم يتحركوا للحرب أرسل «سليمان» إلى «فرديناند» رسالة كلها احتقار دفعاً لحماسه إلى الحرب، لكن «آل هابسبرج» لم يتحركوا وصدرت للمغربين أوامر بالقيام بعمليات عسكرية سريعة في داخل «ألمانيا» غنموا فيها وأسروا وانتصروا، وعندما حل الشتاء عادت الحملة العثمانية بأكملها إلى «إستانبول».

أسفرت الحملة العثمانية على «ألمانيا» عن خوف «فرديناند» وإيمانه بأن لا قوة في «أوروبا» تستطيع التصدي لسليمان العثماني، فاضطر «فرديناند» إلى طلب الصلح، فوافق السلطان بشرط أن يعترف بأن «يانوش» ملك على «المجر» تحت الحماية العثمانية، وأن يدفع (30.000) دوقة ذهبية؛ جزية للدولة العثمانية.

وفي الجبهة الأوربية، مات «يانوش» عام (947هـ = 1540م)، ولم يكن له إلا طفل صغير، فقامت الملكة «إيزابيلا» بالكتابة إلى السلطان العثماني، تقول له: إنها تريد أن يكون ابنها هو الملك، وكانت تدرك أن «فرديناند» أرشيدوق «النمسا» يطمع في ملك «المجر»، بل وتحرك وحاصر «بودين» فعلاً، وسريعاً ما تحرك جيش العثمانيين بقيادة السلطان «سليمان القانوني» نحو «بودين»، وما إن سمع النمساويون بقرب القوات العثمانية حتى تركوا حصار المدينة وهربوا، وعند انسحابهم كانت بعض وحدات العثمانيين بقيادة الوزير «محمد باشا» تلحق بهم الخسائر الفادحة أثناء انسحابهم.

وفي عام (948هـ = 1541م) دخل السلطان «بودين» وأمر بتحويل أضخم كنائسها إلى جامع للمسلمين، كما أمر بإلحاق هذه المنطقة

(38/8)

---

المهمة من «المجر» بالدولة العثمانية تحت اسم «ولاية بودين»، وأمر بتعيين «سيجموند» الابن الطفل لملك «المجر» «يانوش»، أميراً على إمارة «أردل» التي كان يحكمها أبوه قبل أن يصبح ملكاً على «المجر»، ثم عاد السلطان إلى العاصمة.

لكن «فرديناند» لم يسكت، فقد أقنع البابا «بول الثالث» بضرورة تكوين حملة صليبية قوية لكي تستريح «أوروبا» من العثمانيين بالتخلص منهم والقضاء عليهم، فتحررت هذه الحملة إلى «بودين» عام (949 هـ = 1542م)، وحاصرتها حصاراً محكمًا، لكنها فشلت في

الاستيلاء عليها، ولما وصلت أخبار هذه الحملة إلى السلطان  
«سليمان»، تحرك مرة أخرى عام (950هـ = 1543م) إلى  
«أوربا»، واستولى على أهم القلاع المجرية التي كانت في يد  
النمساويين، وهما «استركون»، و «استولني بلجراد».  
سليمان القانوني والدولة الصفوية:  
أما في جبهة الدولة العثمانية مع عدوها الدولة الصفوية فنذكر ما  
يلي:  
في عام (930هـ = 1524م) تولى الحكم في الدولة الصفوية الشاه  
«طهماسب» ابن الشاه «إسماعيل»، وكان «طهماسب» عدوا  
للعثمانيين؛ فرغب في التحالف مع القوى الأوروبية لحصر العثمانيين  
بين القوتين والقضاء على دولتهم، فأرسل «طهماسب» إلى  
«شرلكان» سفيراً يطلب منه التحالف معه، وكانت البداية الحقيقية  
للنزاع - هذه المرة - بين العثمانيين والصفويين، حين طلب «ذو الفقار  
خان» حاكم «بغداد» الدخول تحت الحماية العثمانية فأرسل له الشاه  
من يقنله عام (935هـ = 1529م)، ودخلت القوات الصفوية «بغداد».  
وعلى الجانب الآخر قام «شرف خان» حاكم «بتليس» بخيانة  
العثمانيين، وتحالف مع الصفويين، عندئذٍ أعلنت الدولة العثمانية  
الحرب على الصفويين، وتحرك الصدر الأعظم «إبراهيم باشا» فدخل  
«تبريز» دون مقاومة تذكر، ومن خلفه كان السلطان «سليمان  
القانوني» يقود الجيوش العثمانية إلى الهدف نفسه، ودخل «تبريز»  
عام (941هـ = 1534م)، ثم اتجه إلى «بغداد» فسلمت القوات الصفوية

(39/8)

---

عام (941هـ = 1534م)، وكان «سليمان» قد استولى على  
«أذربيجان»، وعبر جبال «زاغروس» الإيرانية، ومنها إلى «بغداد»،  
وسميت هذه الحملة حملة العراقيين، أي «العراق العجمي» وهو

«أذربيجان» و «العراق العربي». وبهذه الحملة دخلت «العراق» في كنف الدولة العثمانية.

وعندما انسحب العثمانيون استرجع الصفويون المنطقة؛ مما جعل السلطان يعزم على تأديب الصفويين مرة أخرى، وهذا ما سمي باسم الحملة الثانية على «إيران»، وكانت عام (955هـ = 1548م)، واسترجع فيها «تبريز»، وأضاف إليها قلعتي «وان» و «أريوان»، لكن انسحاب العثمانيين وعودتهم جعل الإيرانيين ينتهزون فرصة انشغال الدولة في «أوربا»، ويعودون مرة أخرى، فقام «سليمان» بحملته الثالثة، ولم يحصل على نتيجة مباشرة؛ إذ إن «طهماسب» خاف من مجابهة الجيوش العثمانية، فلما عاد «سليمان» إلى بلاده وعند وصوله إلى «أماسيا» وصلت إليه رسل «طهماسب» للصلح، فقبل السلطان توقيع معاهدة «أماسيا» عام (963هـ - 1555م) وبموجبها تقررت أحقية الدولة العثمانية في كل من «أريوان» و «تبريز» و «شرق الأناضول». سليمان القانوني وفرنسا:

أما ما كان من أمر السلطان مع «فرنسا» فقد بدأ أول ما بدأ أثناء حروب «القانوني» في «المجر»، فقد لبي السلطان طلب الدعم الذي تقدم به «فرانسوا الأول» ملك «فرنسا» وأمه، وأنقذه من ضغوط «شرلكان» عليه.

أما لماذا قبل السلطان «سليمان القانوني» أن يساعد «فرنسا»؛ فذلك لأن الأوروبيين كانوا ينظمون حملات صليبية على الدولة العثمانية، وعلى العالم الإسلامي، ولا يكتفون من هذا رغم هزائمهم المتكررة، فانتهاز «القانوني» فرصة النزاع بين «شرلكان» و «فرانسوا» ملك «المجر» وفكر في تحييد «فرنسا» وإبعادها عن المعسكر المسيحي واتخاذها مانعاً أوروبا ضد أي تجمع صليبي يستهدف العثمانيين.

وبعد عودة السلطان «سليمان» من حملته البغدادية منتصراً وقع مع «فرنسا» معاهدة عام (942هـ = 1535م)، منح بموجبها السلطان

لفرنسا بعض الامتيازات التجارية، مثل: إعطاء تخفيض جمركى خاص للسفن الفرنسية التى تصل إلى الموانئ العثمانية، وتم الاتفاق على أن هذه المعاهدة تسرى ما دام الحاكمون على قيد الحياة، لكن الفرنسيين نجحوا فى تجديدها كلما جدّ سلطان جديد حتى وصل الأمر إلى تثبيت هذه الامتيازات رسمياً عام (1153هـ = 1740م). كان «القانونى» معواناً لفرنسا، فقد أمدّها بمعونات عسكرية، وأرسل قباطنته العظام مثل: «خير الدين بارباروس»، و «طورغود رئيس»، وتحت إمرتهما الأساطيل العثمانية إلى «فرنسا» لمؤازرتها. وفى عهد «القانونى» تم فتح «جزيرة رودوس» عام (928هـ = 1522م)، و «رودوس» ذات موقع استراتيجى مهم بالنسبة إلى الأناضول والدولة العثمانية، وكانت تضرب السفن التى تسير فى شرق «البحر المتوسط» بين «الأناضول» و «مصر» و «سوريا»، وسبق أن حاصرها السلطان «محمد الفاتح» ثلاث مرات فلم ينجح فى فتحها، وكان انتصار العثمانيين على فرسان القديس «يوحنا» الذين يحكمون الجزيرة انتصاراً هائلاً، حيث كانت «رودوس» أقوى قلعة بحرية فى ذلك الوقت.

وبعدّها سمح السلطان للفرسان المقاتلين بالخروج من «رودوس» بكل ما يستطيعون حملة فى سماحة وكرم.

خير الدين بارباروس والدولة العثمانية:

«خير الدين بارباروس» أحد أربعة أخوة اشتهروا فى التاريخ الإسلامى، وكانوا يعملون فى «البحر المتوسط»، وفى إحدى أسفارهم قتل فرسان «رودوس» أخاهم «إلياس»، وأسروا «أوروج» الذى استطاع الهرب، وراح يتنقل بين الموانئ، حتى استقر بجزيرة «جربة» الواقعة بين «تونس» و «ليبيا» سنة (919هـ = 1513م). ومجيبه هو وأخيه «خير الدين» تغير سير تاريخ الشمال الإفريقى

كله، حيث استطاعا أن يشتريا قسمًا من الساحل التونسي، ويؤسسا قاعدة للحملات ضد الصليبيين، وأقاما علاقات حسنة مع «قانسوه الغورى» سلطان «مصر»، و «أبي عبد الله الخامس» سلطان «تونس»، الذى وافق على إعطائهما قلعة «حلق الوادى»، وكانت ميناء

(41/8)

متحكمًا فى «خليج تونس»، مقابل إعطاء السلطان خمس الغنائم. ولما بدأت القوة البحرية للأخوين فى الاتساع أخذت تضرب السفن الصليبية على نطاق واسع، ونجحت فى الاستيلاء على مدينة «بجاية» سنة (922هـ = 1516م)، واتخذتها قاعدة بحرية للصراع مع قوة «إسبانيا» البحرية.

وبعد استشهاد «أوروج»، المعروف فى المصادر التاريخية العربية باسم «عروج» فى إحدى معاركه، طلب أخوه «خير الدين» المعروف فى المصادر الأوروبية باسم «بارباروس» أى «ذى اللحية الحمراء» مساعدة العثمانيين بعد استيلاء السلطان «سليم» على «مصر»، وقد أذن له السلطان بالحصول على ما يحتاج إليه من سواحل «الأناضول»، فى مقابل سيطرة الدولة العثمانية على «الجزائر»، وقيام «خير الدين» بحكمها نيابة عن السلطان.

ولم تتمكن الدولة العثمانية من تنفيذ هذا الاتفاق بسبب انشغالها بغزو «جزيرة رودوس» وكان قراصنتها يأسرون أعدادًا كبيرة من السفن التى كانت تجلب الغلال والذهب من الولايات العربية وتنقل الحجاج إلى الأماكن المقدسة، وبغزو «المجر»، ومواجهة الصفويين، وبناء أسطول جديد يمكنه مواجهة البرتغاليين؛ لهذا آثر البحارة المسلمون فى الشمال الإفريقي الاعتماد على أنفسهم، إلى أن تتمكن الدولة العثمانية من مَد يد المساعدة لهم.

وقد قام «خير الدين» بسلسلة من الغارات على الأسطول الإسباني،

كما قام في الوقت نفسه بسبع رحلات من «الجزائر» إلى ساحل «الأندلس»، تمكن خلالها من نقل (70) ألف مسلم أندلسي، فأنقذهم بذلك من الموت حرقاً باسم «محاكم التفتيش».

اهتم السلطان «سليمان القانوني»، برفع نظام «الجزائر» من نظام اللواء العثماني إلى نظام الإيالة (أى إقليم شبه مستقل)، وولى عليها «خير الدين بارباروس» سنة (925هـ = 1519م)، ووكل إليه قيادة حملات غرب «البحر المتوسط».

وقد حاول الملك الإسباني القضاء على أسطول «خير الدين»، لكنه كان يتكبد في كل مرة خسائر فادحة، ولعل أعظم انتصاراته البحرية

(42/8)

---

في «البحر المتوسط» يتمثل في موقعة «بروزة» سنة (945هـ = 1538م)، التي تعد من المعارك البحرية الخالدة في التاريخ الإسلامي الحديث، فقد دعا البابا «بول الثالث» الجيوش الأوروبية إلى الاتحاد ضد العثمانيين، وتكوّن منهم تحالف بحري ضمّ أكثر من (600) سفينة و (60) ألف جندي، يقودها «أندريا دوريا»، وهو من أمهر القادة البحرية في ذلك الوقت.

وتكوّن الأسطول الإسلامي من (122) قطعة بحرية، و (22) ألف جندي، والتقى الأسطولان في (4 من جمادى الأولى 945هـ = 28 من سبتمبر 1538م) أمام «بروزة»، ولم تستمر المعركة أكثر من خمس ساعات تمكّن في نهايتها «خير الدين» من حسم المعركة لصالحه، وفر القائد «أندريا دوريا» هرباً بحياته.

ونظراً لجهود «خير الدين» وانتصاراته التي حققها قام السلطان «سليمان القانوني» بتعيينه في القيادة العامة للقوة البحرية العثمانية وناظرًا للحربية، واستقدمه إلى «إستانبول» مع طاقمه المكون من تسعة عشر أميرلاى.

وتوفي «خير الدين» في «إستانبول» سنة (953هـ = 1546م)، تاركًا أسطوله الذي بناه بأمواله للدولة، وترك أموالا وفيرة أوقفها لأعمال الخير، واستطاع خلفاء «خير الدين» من بعده أن ينتزعوا من الإسبان ما احتلوه من «الجزائر» باستثناء «وهران» التي بقيت في أيديهم حتى القرن الثامن عشر.

فتح ليبيا:

كانت «طرابلس الغرب» في تلك الفترة تحت حكم فرسان «مالطة» المسيحيين، فأصدر السلطان «سليمان القانوني» أوامره إلى قبطان «البحر العثماني» «طورغود رئيس» بتخليص «طرابلس الغرب» من النفوذ المسيحي، فقام بمحاصرة «طرابلس الغرب» بأسطوله حصارًا شديدًا فاضطرت حاميتها المسيحية إلى التسليم في سنة (959هـ = 1552م)، وعين السلطان القبطان «طورغود رئيس» واليًا على «طرابلس الغرب».

الحمالات البحرية العثمانية في الخليج العربي والمحيط الهندي:  
واجه العثمانيون نفوذ البرتغاليين في «المحيط الهندي» و «الخليج

(43/8)

العربي»، وكانت تلك المواجهة أحد الأسس الثابتة في السياسة الحربية للعثمانيين، فاستولى «أويس باشا» والي «اليمن» على «قلعة تعز» سنة (953هـ = 1546م)، ثم نجح في ضم صنعاء، وفي الوقت نفسه حاصر «بيرى رئيس» «قلعة هرمز» التي كان يسيطر عليها البرتغاليون، لكنه لم ينجح في الاستيلاء عليها، فدخل ميناء «بندر عباس» الإيراني، واعترفت إمارات «عمان» و «قطر» و «البحرين» بتبعيةهم للدولة العثمانية، على حين ظلّت مسقط تنتقل من السيطرة العثمانية إلى الاحتلال البرتغالي، حتى نجح العثمانيون في إخراج البرتغاليين منها نهائيًا في سنة (1060هـ = 1650م).

وقد أدت هذه السياسة في مواجهة البرتغاليين إلى الحد من عريدهم في المياه الإسلامية، ولم يعد ممكناً أن يجتاز البرتغاليون «باب المندب» وسط السيطرة العثمانية. وفاة السلطان سليمان القانوني: وفي (صفر 974هـ = سبتمبر 1566م) اشتد المرض بالسلطان «سليمان» وهو يحاصر مدينة «سيكتوار» الحجرية، ثم تُوفى في (20 من صفر سنة 974هـ = 5 من سبتمبر سنة 1566م) بعد أن قضى في الحكم 46 عامًا قضاها في توسيع دولته وإعلاء شأنها، حتى بلغت في أيامه أعلى درجات القوة والكمال، وفي وضع النظم الداخلية للدولة حتى اشتهر بلقب «القانوني».

نظام الإقطاع:

لم يكن نظام الإقطاع الحربي أسلوبًا جديدًا ابتكرته العقلية العثمانية، ولم تكن أول من استخدمه، بل إن المتصفح لصفحات التاريخ يجد أن هذا النظام عُرف على عهد الدولة السلجوقية التي كانت تحكم قبل الدولة العثمانية، كما أنه عُرف في «مصر» على عهد الناصر «صلاح الدين الأيوبي» الذي نقله من «الدولة الزنكية» في «الموصل» و «حلب»، ولكن الفرق بين النظام الإقطاعي في «مصر» وفي الدولة العثمانية هو: أن «صلاح الدين الأيوبي» نجح إلى حد بعيد في حماية الفلاحين الذين يخضعون لهذا النظام، فحدد الإيجارات والجبايات التي يدفعها من يعطى له الإقطاع، وكان يراقب

(44/8)

---

هذا مراقبة شديدة؛ منعًا لاستغلال العسكريين للفلاحين ولذلك أطلقت العبارة المشهورة:

«إن السادة الإقطاعيين العسكريين في العصر الأيوبي كانوا في نعمة محدودة».

كما أن هذا النظام ظل معمولاً به على عهد دولة المماليك في «مصر»، حتى إنه أطلق على ديوان الجيش اسم «ديوان الإقطاع».

الإقطاع الحربي في الدولة العثمانية:

كان السلطان يمنح أرضاً زراعية لأفراد من سلاح الخيالة (الفرسان) يستقرون فيها، ويشرفون على زراعتها بمساعدة الفلاحين، الذين كانوا يتولون زراعتها بصفقتهم مستأجرين، وذلك مقابل أن ينضموا إلى الجيش بخيولهم وأسلحتهم عند نشوب أى حرب، وكان على كل فارس من هؤلاء الفرسان أن يقدم إلى الجيش وقت الحرب عدداً من الفرسان، يتراوح بين اثنين وأربعة، بخيولهم وأسلحتهم، وكان عدد هؤلاء الفرسان الإقطاعيين يتناسب تناسباً طردياً مع مساحة الإقطاع الحربي، ومع الإيراد الذي تغله هذه الأرض الإقطاعية، وكانت هذه الأراضي تسمى إقطاعات، وكان يطلق على من يحصل عليها عن طريق الإقطاع الحربي اسم «السباهية الإقطاعية»، وكان هؤلاء لا يتقاضون مرتبات نقدية من الحكومة، بل كانوا يعتمدون في معيشتهم على المحاصيل الزراعية التي تغلها لهم الإقطاعات الممنوحة؛ ولذلك كانوا يمدون الفلاحين عادة بالماشية والبذور في مقابل حصولهم على نصف المحصول، كما كانوا يعتمدون على حصيلة العشور وغيرها من الضرائب المقررة على الفلاحين - الأرض أو المحاصيل - ويقومون بجبايتها منهم لحسابهم، وكانت الإيرادات التي يستولون عليها يطلق عليها بالمصطلح التركي (ماله مقاتله) بمعنى مال المقاتلة.

وكانت الأراضي الإقطاعية تنقسم إلى:

- 1 - إقطاعات صغيرة نسبياً، وتسمى (تيمار)، وتحقق لصاحبها إيراداً يبلغ ثلاثة آلاف أقجة، وهي عملة عثمانية من الفضة.
- 2 - إقطاعات أكبر مساحة من الأولى وتسمى (زعامت)، يمنحها السلطان للفرسان إذا أظهر كفاية قتالية، وكان يطلق على صاحبها

(زعيم)، وكان هذا الإقطاع يدر ربحاً على صاحبه يصل إلى مائة ألف أفجة، وذلك مقابل أن يقدم للجيش وقت الحرب عددًا من الفرسان بخيولهم وأسلحتهم، وكان هذا العدد يتحدد بنسبة فارس عن كل خمسة آلاف أفجة.

وكان هذان النوعان من الإقطاع الحربي يخضعان لنظام التفتيش الذى يقوم به موظفو الحكومة المختصون، ويسمون (الدفتداريين)، وكانت تربية الخيول والعناية بها وتدريبها تدريباً متواصلًا أمورًا تعد في مقدمة واجبات صاحب الإقطاع الحربي، فإذا تبين لموظفى الحكومة فى أثناء دوراتهم التفتيشية على الإقطاعات الحربية إهمال أو تراخٍ من صاحب الإقطاع فى تربية الخيول، كان هذا الإهمال أو التراخى سببًا كافيًا لانتزاع الإقطاع منه.

وكانت الإقطاعات التى من نوع (تيمارات) و (زعامات) توجد فى ولايات الدولة المحكومة من «إستانبول» رأسًا، سواء فى «أوربا» أو فى «آسيا»، ومع ذلك فلم تطبق الدولة هذا النظام على جميع تلك الولايات، ومن الأقاليم التى طبق فيها نظام الإقطاع الحربي: «الروملى»، «بودا» (بودايست)، «البوسنة»، «طمسفار»، «ديار بكر»، «أرضروم»، «دمشق»، «حلب»، «بغداد»، «شهر زور»، «إيالات الأناضول»، «جزر الأرخيبيل»، «فرمان»، «مرعش»، «سيواس».

3 - إقطاع أكبر مساحة من النوعين الأولين ويسمى (خاصا) وكان هذا الإقطاع يُمنح للولاة الذين فى الخدمة الحكومية، فإذا ما تركوا مناصبهم نتيجة الوفاة أو العزل أو الترقية إلى منصب آخر، نزع منهم الإقطاع (الخاص). وجدير بالذكر أن بعض (التيمارات) و (الزعامات) كانت تُمنح لبعض شاغلى المناصب الكبرى فى الدولة، فكانت تشبه الإقطاع (الخاص) الذى كان يرتبط بالمناصب.

4 - الإقطاعات السلطانية الخاصة: وكان يطلق على هذه الإقطاعات

اسم (خواص همايون)، وكانت أكبر وأهم الإقطاعات جميعًا من حيث المساحة وجودة الأرض، وكان السلطان يمنح أجزاء منها لبعض أعضاء الأسرة الحاكمة من أميرات وسيدات من حريمه.

(46/8)

5 - إقطاعات اقتصادية: وكانت تخصص للإنفاق العسكرى على أفراد حرس الحصون، والسلاح البحرى، والحاميات المحلية وغيرها، وكان يطلق على هذا الإقطاع اسم (أوجاقلقات).

كيفية توزيع الإقطاعات الحربية:

- خمس مساحة الإقطاع على القسم الأول (التيمارات).

- عشر مساحة الإقطاع على القسم الثانى (الزعامات).

- خمس مساحة الإقطاع على القسم الثالث (الخواص).

- عشر مساحة الإقطاع على القسم الرابع (الأجاقلقات).

- خمس أوقاف.

أهمية النظام الإقطاعى:

ساعد هذا النظام على التوسع فى زراعة مساحات شاسعة من الأراضى داخل الأقاليم العثمانية فى «أوربا» وفى «آسيا»، وأدى إلى اطمئنان الدولة العثمانية؛ بسبب حرص أصحاب هذه الإقطاعات على بذل أقصى ما لديهم من جهد فى سبيل زراعة هذه المساحات، وحصول الدولة العثمانية على عدد كبير من الفرسان دون أى تكلفة تذكر، فقد كان كل صاحب إقطاع يجهز عددًا من الفرسان بتجهيزاتهم وأسلحتهم.

النظام المالى:

انقسم النظام المالى فى عهد الدولة العثمانية إلى قسمين، هما:

1 - ميرى، أى الدخل والمنصرف العام، ويتكون من: دخل الأرض

الزراعية، والجزية، ورسوم التجارة، ويديره «دفتردار».

2 - خزنة، أى مخصصات السلطان، ويديرها «خزنة وكيلى»، ويتجمع دخلها فى «آل خزنة»، ويديرها موظفو السلطان الخصوصيون. ويضاف إلى النوع الأول ما كان يتبقى من مال الوقف و «الجزية» وكان يدفعها أميراً الأفلاق والبغدان. وكانت الأقاليم المشهورة بالخصب والحبوب مثل «مصر» ترسل هبة من القمح تمثل (1/12) من الحاصل، وفى أغلب الأحيان لم يكن فى وسع الزراع تصدير القمح أو نقله إلى خارج حدود الإقليم، بل كانوا يجبرون على بيع الفائض عنهم للحكومة نظير ثمن محدد. وكانت تقع مصروفات القضاء على المتقاضين؛ إذ كان القضاء يأخذون رسماً لأنفسهم بدلاً من أخذهم رواتب من الدولة.

(47/8)

## الفصل الرابع

\*العثمانيون فى عهدهم الثانى

-الإصلاح عن طريق إحياء الإسلام:

كانت الدولة العثمانية ملء السمع والبصر، وكانت القوة الدولية العظمى التى تؤثر فى مجرى الأحداث العالمية، وضمت بين جوائرها أقواماً من مختلف الأجناس والأعراق واللغات، وامتد عمرها فى التاريخ قرونًا طويلة، وأثمرت حضارة مزدهرة، كانت خلاصة المدنية الإسلامية على مدى القرون التى سبقتها، ثم أتى على الدولة حين من الدهر وجدت نفسها لا تستطيع التقدم والفتح ومواصلة المد الإسلامى، بعد أن توغلت فى «أوربا»، فقد توقف السيل العثمانى أمام أسوار «فيينا» عاصمة «النمسا»، وعندئذٍ نظر العثمانيون إلى أنفسهم، وأيقنوا أن هناك خطأ يستوجب الإصلاح. وقد لاحظ علماء الدولة العثمانية ومصلحوها، ابتداءً من عهد السلطان

«مراد الثالث» أن الفساد قد استشرى في أجهزة الدولة، وكثر التمرد في الأقاليم التابعة لها، وما صاحب ذلك من ثورة وفوضى وفتنة، بل وظهر التمرد والثورة في عاصمة الخلافة نفسها، مما أحدث الخوف على سلامة الدولة ووحدتها السياسية، ولذا أصبحت هناك حاجة ماسة إلى الإصلاح، وضرورة ملحة لعلاج الخلل الذي بدأ يطل برأسه، ويكاد يعصف بالدولة ويعرض مكانتها وهيبتها للاهتزاز، وأصبحت هذه الحاجة هي الشغل الشاغل لجهاز الحكم في عهد الخليفين «عثمان الثاني»، و «مراد الرابع».

واستند الفكر الإصلاحى في بادئ الأمر إلى استلهام الإسلام ومبادئه ونظمه في عملية إصلاح الخلل، وأيقن المصلحون العثمانيون أن تطبيق الشريعة الإسلامية في مختلف مؤسسات الدولة سوف يعيد لها قدرتها، ويجدد شبابها ويبعث القوة والحيوية في عروقها، فتنهض بعد تعثر، وتقوى بعد ضعف.

وقدم هؤلاء المصلحون النصح والتوجيه إلى السلاطين العثمانيين في صورة رسائل وتقارير تحمل أفكارهم، وكان في مقدمة الناصحين الضابط العثماني في البلاط السلطاني «فؤى بك»، الذى قدم تقريراً

(48/8)

---

إلى السلطان يقول فيه: «إن تطبيق الشريعة الإسلامية وأحكامها بقوة وحزم هو العامل الأساسى فى وقف تدهور الدولة وحفظ الأمن، ووقف التمرد والفوضى فى البلاد، ومن ثم تستطيع الدولة التقاط أنفاسها؛ لتتفرغ لإصلاح نفسها، وأن المسلمين إذا استجابوا لدواعى الشرع بقوة سيرجعون إلى عهد الفتوحات».

الإصلاح عن طريق الأخذ بالنموذج الغربى:

وفى منتصف القرن الثانى عشر الهجرى بلغت الدولة العثمانية أشد حالات فسادها وضعفها، فى الوقت الذى كانت فيه «أوروبا» تسير

بخطى واثقة نحو التقدم والمدنية؛ لذا قام بعض المفكرين العثمانيين بالدعوة إلى ضرورة الاستفادة من التقدم الأوربي، والأخذ بأسباب حضارتهم؛ لضمان المحافظة على وحدة الدولة، وصون حياتها، والاطمئنان على دوامها واستمرارها.

وأول حركة إصلاحية تبنت هذا المفهوم كانت في عهد السلطان «أحمد الثالث» الذي يذكر في المصادر العثمانية باسم «عصر زهور شقائق النعمان» دلالة على الأخذ بالمظهر دون الجوهر، وإشارة إلى الاهتمام الزائد والعناية الفائقة بهذه الزهور في كل أنحاء العاصمة العثمانية.

ويمثل هذا العهد بحركته الإصلاحية التي أخذت بالوجهة الغربية؛ بداية نفوذ الثقافة والحضارة الغربيتين في الدولة العثمانية، وتجمع حول السلطان وصدرة الأعظم بطانة من المثقفين المؤمنين بهذه الوجهة، وأن الحل يكمن في الأخذ بالحضارة الأوربية، ولذا أرسلت الدولة سفراء إلى «باريس» و «فيينا» لتعرف حضارتيهما، ودراسة أسباب التقدم وعوامل النهضة هناك، ومن أشهر سفراء هذا العهد «محمد لبي» الذي سافر إلى «فرنسا» سنة (1132هـ = 1720م). وقد شجع هذا العهد العثمانيين على تقليد الغرب ومحاكاة الحياة الأوربية، فأخذ السلاطين يشيدون القصور الفخمة، وظهر في البلاد نمط جديد من الحياة، يميل إلى الإسراف والعيش المترف، والشغف بارتداء الملابس الفخمة الخلاة بالجواهر والأحجار الكريمة.

(49/8)

---

وأدت هذه السياسة، بالإضافة إلى فرض الضرائب الباهظة، إلى ظهور حالة من الاستياء والشعور بعدم الرضا تجاه السلطان وإدارته، وساد البلاد نوع من العصيان الشعبي، ونفور المحافظين من فكرة الإصلاح الذي يستلهم النموذج الغربي، وفتح باب التحالف مع

«الإنكشارية» للوقوف ضد كل إصلاح يتخذ «أوروبا» مثالا يُحتذى، أيا كانت فائدته.

وكان من أسباب الضيق بحركة الإصلاح هذه: احتلال أهل الذمة مواقع خاصة في مؤسسات الدولة العثمانية، بحيث أصبحوا يتميزون عن الموظفين المسلمين. إصلاح الجيش:

تنبه الساسة العثمانيون إلى أن ضعف الدولة يعود إلى عدم مساهمتها لنواحي التقدم التي شهدتها «أوروبا»، وأثبتت لهم هزيمة الدولة المخزنية في حربها مع «روسيا» سنة (1188هـ = 1774م) هذه الحقيقة، فلم يعد هناك مفر من الاقتباس من الحضارة الغربية، وبخاصة في المجالات العسكرية، فاستعان العثمانيون بمستشار عسكري فرنسي هو «البارون دي توت»، لتدريب فرقتي المدفعية والمهندسين.

وقد نجح هذا المستشار في إنشاء فرقة جديدة للمدفعية سريعة الطلقات سنة (1188هـ = 1774م) ضمت (250) جندياً وضابطاً، وفي بناء مصنع لهذه المدافع، وإنشاء مدارس عسكرية حديثة، ومدرسة لتعليم الرياضيات الحديثة، وأعيدت المطبعة، وجرى ترجمة المزيد من الكتب الفرنسية العسكرية.

وشهد عصر «سليم الثالث» بدايات التعليم العسكري على النمط الغربي، وما ارتبط به من اقتباس المعرفة الأوروبية؛ حيث طلب السلطان نفسه من «لويس السادس عشر» أن تساعده «فرنسا» في إعادة بناء الجيش العثماني، كما أنه أوجد حوله هيئة جديدة من الإداريين العسكريين المؤمنين بالإصلاح، وقد رفع هؤلاء مجموعة من التقارير المتصلة بأوضاع الإمبراطورية، وما يجب عمله لإنقاذها، وقد ركزت معظم هذه التقارير على الإصلاح العسكري، وأشارت إلى ضرورة إعادة «وجاق الإنكشارية» وغيره من الفرق إلى تنظيمها الأول، وأن

تتوافر للجيش أسلحة حديثة، وأساليب تمكنه من الوقوف أمام الجيوش الأوروبية، بالإضافة إلى تخفيض أعداد الجنود الإنكشارية إلى (30000) جندي، لتحسين كفاءتهم ونظامهم، وبذل الجهود لإنتاج بنادق وذخائر على النمط الأوربي.

وقام السلطان «سليم الثالث» بإنشاء فرقة عسكرية جديدة، أطلق عليها «النظام الجديد»، توخَّى لها أن تتلقَّى تدريباتها على النمط الأوربي الحديث، وجعل لها خزانة خاصة تنفق عليها، وتستمد موارد من الإقطاعات المجاورة، ومن الضرائب الجديدة التي فُرضت على المشروعات الروحية وتجارة التبغ والبن، وفرض على هذه الفرقة ارتداء الملابس الأوروبية، وتلقت تدريباتها على أيدي خبراء من «فرنسا» و «إنجلترا»، استفادهم السلطان لهذا الغرض.

وأدخلت على أسطول الدولة العثمانية إصلاحات تشبه التي أدخلت على القوات البرية، فجرى توسيع الترسانة الرئيسية بتوجيه من المهندسين الفرنسيين، وأنشئت ترسانات في الأقاليم، وأصلحت السفن القديمة، وبنيت أعداد كبيرة من السفن الحديثة وفق أحدث الطرز في المعمار البحري، وطورت الدراسات البحرية.

عهد السلطان محمود الثاني:

وُلد السلطان «محمود» سنة (1199هـ = 1784م)، وتقلد مقاليد الخلافة

العثمانية وهو في الرابعة والعشرين من عمره، فقلد «مصطفى البيرقدار» منصب الصدارة العظمى، وطلب منه إصلاح نظام «الإنكشارية» فاعترضوا عليه، ووقع الخلاف بينهم وبين السلطان، وأرادوا إعادة الخليفة «مصطفى الرابع» المعزول، لكنه قتل وهم يحاصرون الصدر الأعظم في قصره الذي أحرقوه وهو بداخله.

وقد رأى السلطان «محمود» أن نجاح الإصلاح في دولته يجب أن يكون شاملاً لكل النظم العثمانية ومؤثراً في المجتمع، ولا يقتصر على المجال العسكري، ولذا يجب إزالة النظم القديمة، حتى لا تعترض

طريق الإصلاح، والتخطيط الدقيق للإصلاح، وإيجاد الضمانات اللازمة التي تكفل نجاحه قبل القيام به. وقد نجح السلطان «محمود» في القضاء على فرقة «الإنكشارية»،

(51/8)

التي قامت بالتمرد وإثارة الجماهير ضد الإجراءات المتصلة بإصلاح الجيش، وبخاصة فيما يتعلق بارتداء القوات الجديدة للملابس الأوروبية، لكن الشعب العثماني وقف ضدهم، في الوقت الذي استعد فيه السلطان «محمود» لمواجهةهم، مما مكنه من القضاء عليهم تمامًا، وأنشأ جيشًا قويًا يتولى إمرته قائد عام، كان قوامه (12000) جندي في العاصمة، وقوات أخرى في الولايات. وكما ارتبط التعليم لدى «محمد علي» بالجيش ارتبط بالجيش أيضًا عند «محمود الثاني»، الذي حاول الاقتداء بواليه الناجح، فأرسل البعثات إلى «أوروبا» لتلقي العلوم العسكرية خاصة، وأنشأ المدارس الحديثة، وعنى بتعليم اللغتين العربية والفرنسية والجغرافيا، والتاريخ والرياضيات والعلوم. وحاول السلطان إصلاح أجهزة الدولة المركزية، فوضع الأوقاف تحت إشرافه، وألغى «التيمارات»، وضمها إلى أملاك السلطان، وأجرى أول إحصاء للأراضي العثمانية في العصر الحديث، وأجرى تحسينات على شبكة المواصلات، فأنشأ كثيرًا من الطرق الجديدة، وأدخل البرق، وخطوط السكك الحديدية، كما أنشأ جريدة رسمية للدولة. وبعد وفاة السلطان «محمود» تولى ابنه «عبد المجيد» الخلافة وعمره دون الثامنة عشرة. التنظيمات (محاولة إحياء الدولة): التنظيمات» كلمة عربية دخلت اللغة التركية، وتعني في الاصطلاح السياسي: حركة التنظيم والإصلاح على المنهج الأوروبي الغربي،

وفي الاصطلاح التاريخي: حركة الإصلاح التي حدثت في الدولة العثمانية في القرن (13هـ = 19م) مهتدية بالمؤسسات والتنظيمات الأوروبية، وعرفت بهذا الاسم لأنها تميزت بتنظيم شئون الدولة وفق أسس جديدة في جميع المجالات.

ويمكن تعريف حركة التنظيمات العثمانية بأنها حركة ثقافية وإصلاحية حدثت في الدولة العثمانية في النصف الأول من القرن (19م)، ومهدت لإقامة حكم دستوري على النمط الغربي في البلاد، وللتقارب بين العالمين الإسلامي والمسيحي، وشملت مناحي الحياة

(52/8)

كافة في الديار العثمانية على حساب الحضارة الإسلامية، وانتقلت سلطة السلاطين إلى الصدر الأعظم والوزراء، وتراجعت مشيخة الإسلام إلى درجة أقل من حيث الاعتبار والنفوذ، ثم شل عملها. وكان الحكم العثماني قبل صدور التنظيمات يستند إلى ثلاث دعائم رئيسية هي:

1 - السلطنة.

2 - الخلافة.

3 - مشيخة الإسلام.

فكان الوزراء يأتمرون بأوامر السلطان، ويساعد «ديوان الوزراء» السلطان في إدارة أمور الدولة، وتقوم مشيخة الإسلام بتقديم الشورى للسلطان.

بدأ عهد التنظيمات بصدور فرمان من السلطان «محمود الثاني» باسم «فرمان التنظيمات الخيرية» في (26 من شعبان سنة 1255هـ = 4 من نوفمبر سنة 1839م)، وانتهى عندما تولى السلطان «عبد الحميد الثاني» الخلافة سنة (1293هـ = 1876م)، وهي السنة التي أعلنت فيها الدولة العثمانية ما عُرف باسم «المشروطة الأولى»، أي إعلان

دستور في البلاد لأول مرة على النمط الغربي.  
وقد أكدت التنظيمات ضرورة إيجاد ضمانات لأمن جميع رعايا الدولة  
على حياتهم وشرفهم وأموالهم، ووجوب علانية المحاكمات  
ومطابقتها للوائح، وإلغاء إجراءات مصادرة الأملاك، وضرورة إيجاد  
نظام ثابت للضرائب يحل محل «الالتزام»، وتوفير نظام ثابت للجنسية  
بحيث لا تستمر مدى الحياة، وإنما تحدد مدتها بفترة تتراوح بين أربع  
وخمسة سنوات.

وأدى صدور هذه التنظيمات إلى حدوث تغييرات كثيرة شملت معظم  
مجالات الحياة، فأنشئت المحاكم المختلطة التي تقبل الشهادة من  
المسلمين والمسيحيين على حد سواء، وتبنت في القضايا المختلفة  
التي يكون الأجنبي أطرافاً فيها، وكان يعمل بتلك المحاكم قضاة  
أتراك وأوروبيون، كما صدر قانون تجاري على نمط القانون التجاري  
الفرنسي، وأنشئت مجالس لمعاونة مجالس الولايات، يُمثّل فيها  
الأهالي.

وظلت القوانين الشرعية تطبق في المحاكم التقليدية، وكذلك في  
المحاكم الحديثة التي تطبق القوانين الجديدة المتصلة بالمسائل

(53/8)

---

التجارية والجنائية، المأخوذة عن القوانين الغربية، وبخاصة القانون  
الفرنسي، وبقيت القوانين الشرعية المتصلة بالأحوال الشخصية  
كالطلاق والزواج بدون تعديل.

وقامت لجان يرأسها من يميلون إلى الأخذ والافتباس عن الغرب بوضع  
الخطط الشاملة التي تستهدف إقامة نظام تعليمي يشمل جميع مراحل  
التعليم المختلفة، فصدر في سنة (1386هـ = 1869م) قانون التعليم،  
الذي قسّم المدارس إلى مدارس عمومية وخصوصية، وجعل التعليم  
العام في المدارس الأولية إجبارياً ومجانياً لمدة أربع سنوات، ودون

تفرقة بين الذكور والإناث، وتمييز بين المسلمين وغيرهم.  
أما التعليم الخاص فقد تناولته المادة (129) من قانون سنة (1286هـ = 1869م)، واشترطت حصول مدرسي المدارس الخاصة على مؤهلات  
تقرها وزارة المعارف العثمانية، وأن تقر تعيينهم السلطات التعليمية  
سواء أكانت محلية أم مركزية.  
وأنشئت مدارس خاصة للبنات والفقراء، كما أنشئت في سنة  
(1276هـ = 1859م) مدرسة جديدة لتعريب الإداريين، وتدريب المعلمين  
الذين كانوا يدرسون الشئون العامة والأولية.  
وقد انفصلت مدارس الحكومة رسمياً عن إشراف العلماء، ووضعت تحت  
إشراف وزارة المعارف ذات الصبغة العلمانية منذ سنة (1283هـ = 1866م)، مما أدى إلى ازدياد الهوة بين التعليم الديني والتعليم  
العلماني، وتعميق الازدواج الثقافي.  
وكان للمطبعة أثر كبير في هذا التحول منذ سنة (1251هـ = 1835م)،  
فقد ازداد عدد الكتب المطبوعة، وازداد عدد الصحف والدوريات، ولعب  
المسرح دوره في نشر الأفكار الجديدة، وبخاصة بعد أن كثرت دور  
المسارح، ونشطت حركة ترجمة الكتب الغربية بما في ذلك  
المسرحيات، وقد أدى ذلك كله إلى ظهور مسرحيات عثمانية،  
ساعدت على انتشار الأفكار الجديدة، بما تهيأ لها من لغة سهلة  
وجذابة، لقيت تجاوباً من العامة، وأوجدت اتجاهًا مطلقاً إلى مقاومة  
السلطة المطلقة عن طريق إعلان الدستور وإيجاد حكومة مسئولة أمام

(54/8)

---

برلمان منتخب وفق النمط الديمقراطي الذي عرفه الغرب وبخاصة في  
«بريطانيا».

نظام الحكم في عهد محمود الثاني:

اتجه الإداريون العثمانيون في عهد السلطان «محمود الثاني» (1223 -

1255هـ = 1808 - 1839م) إلى التغريب، وما يهمنا هنا أنه غيّر اسم

الصدارة العظمى إلى «باش وكالت» أي رئاسة الوزراء - كما في «أوربا» - وأوجد نظارتين (وزارتين) جديدتين هما المالية والأوقاف. وقد وصف أ. «سلاد» - الذى كان يخدم الدولة العثمانية برتبة «مشاور باشا» - مع أنه أوربى - السلطان «محمود الثانى» بأنه «قلد نقائص الغرب كما هى وبدأ إصلاحاته للدولة من حيث ما كان يتوجب عليه تركه» ويقصد أنه أخذ من الدول الأوربية المظهر والمدارة. وفى عهد ابنه السلطان «عبد المجيد» أصدرت الدولة بياناً يؤكد أن الدولة العثمانية قد اتجهت إلى الغرب فى تغيير مظهرها وجزء كبير من تقنيها وآليات اتخاذ القرار فيها.

مما سبق نتبين أن الدولة العثمانية كانت تدار، وكانت قراراتها تُتخذ فى الديوان الهمايوى، وكان الديوان ينعقد برئاسة السلطان أو الصدر الأعظم نيابة عنه، كما كان هذا الديوان يعقد فى القصر فى المكان المسمى تحت القبة (Kubbe Altı) واستمر هذا حتى عهد السلطان «محمد الفاتح» الذى ثبت هذا التقليد بقانون. وقد ألغى فى هذه الفترة الديوان الهمايوى بوصفه نظاماً يشكل آليات اتخاذ القرار فى الدولة العثمانية، واستبدل به النظام الأوربى، ومن ثم فقد تكوّن رسمياً بديل عن الديوان ما سُمى فى عهد «محمود الثانى» باسم «مجلس وكلا» والوكيل بالتركية بمعنى الوزير فى العربية، ومن ثم فقد أصبح النظام الجديد يعرف باسم مجلس الوزراء أو ما عرف باسم «الباب العالى».

الباب العالى (مجلس الوزراء).

وهو اصطلاحاً: المجلس الذى يتشكل من شيخ الإسلام والنظار (الوزراء)، والذى يتخذ القرار فى الأمور المتعلقة بسياسة الدولة (العثمانية) الداخلية والخارجية والأمور المهمة ويسمى أيضاً «المجلس

الخاص» أو «مجلس الوزراء الخاص».

وكان يتكون من شيخ الإسلام وناظر العدلية وقائد الجيش ورئيس شورى الدولة، وناظر الخارجية، وناظر الداخلية، وناظر البحرية، ومشير المدفعية، وناظر المالية، وناظر الأوقاف، وناظر التجارة والأمور النافعة (الأشغال)، وناظر المعارف، ومستشار الصدر الأعظم العالى.

وبذلك بعد شيخ الإسلام عن استقلاله، وتوزعت الشؤون الدينية بينه وبين ناظر الأوقاف وأصبح شيخ الإسلام موظفًا كبيرًا في الدولة. وعلى النظام العرقي في تكوين الدولة العثمانية أيضًا أصبح هذا المجلس الوزارى - بعد انقلاب (يوليو/ تموز 1908م) الذى عزل السلطان «عبد الحميد» عن العرش - مقيدًا بقوانين ولوائح وأنظمة محددة ومعينة ومسئولاً أمام السلطان ومجلس المبعوثان (مجلس الأمة) عن الشؤون المتعلقة بسياسة الدولة الداخلية والخارجية والوظائف العامة. السلطان عبد العزيز:

ولد في (14 من شعبان 1245هـ = 9 من فبراير 1830م)، وتولى الخلافة بعد وفاة أخيه «عبد المجيد بن السلطان محمود» في (17 من ذى الحجة 1277هـ = 6 من يونيو 1861م)، وبعد وفاة «غالى باشا» و «فؤاد باشا» اللذين توليا منصب الصدر الأعظم وضيقتا على السلطان، مارس السلطان «عبد العزيز» حكمه الشخصى، فاشتد سخط العثمانيين على ممارسات السلطان الاستبدادية، وتدخل السلطان «الوالدة باشا» في شؤون الحكم، وازداد القلق بسبب سوء الأوضاع الاقتصادية، وإعلان إفلاس الحكومة العثمانية في أواخر سنة (1292هـ = 1875م)، وهو الإفلاس الذى عُزى إلى إسراف «عبد العزيز» وخراب ذمته هو وحاشيته.

وأما المحافظون فقد أرجعوا متاعب الدولة إلى «التنظيمات» العلمانية، ونفوذ الأجانب، وتدخلهم في شؤون البلاد، مما أدى إلى انتعاش إسلامى، كان من نتيجته التضييق على المدارس الأجنبية وأعمال المبشرين، وطرد المعلمين والخبراء الأجانب، كما اشتدت

المطالبة بإلغاء الامتيازات الأجنبية، والوضع الذى كان يتمتع به الأجنب.

(56/8)

وساءت أحوال الدولة الاقتصادية فى أواخر عهد السلطان «عبد العزيز»، بحيث توقف صرف مرتبات الموظفين - بما فى ذلك العسكريون - لعدة شهور، ولم يؤدِّ فرض ضرائب جديدة إلى معالجة الأوضاع المتردية، لهذا سعى «مدحت باشا» إلى تحسين أوضاع الحكومة بخلع «عبد العزيز» خاصة، ولأنه كان مؤمناً بأن ولى العهد الأمير «مراد الخامس» أميل إلى إعلان الدستور.

وفى (6 من جمادى الأولى سنة 1293هـ = 30 من مايو سنة 1876م) قامت مجموعة صغيرة من كبار موظفى الحكومة يرأسهم «مدحت باشا» بانقلاب ضد الخليفة، عززته فتوى شيخ الإسلام، وولى الثائرون السلطان «مراد الخامس» الذى كان قد اتصل بشباب العثمانيين عدة سنوات.

وكان السلطان «مراد الخامس» على جانب كبير من الذكاء والثقافة التركية، كما أبدى اهتماماً بالأدب والعلوم والشئون الأوروبية، وكان يهوى الموسيقى الغربية، وزار «أوربا» سنة (1284هـ = 1867م)، وانخرط فى سلك الماسونية، وكان أميل إلى الليبرالية والدستور وإصلاح التعليم، وطبعه بالعلمانية.

على أن مراقبة «مراد» فى أواخر عهد عمه، وإسرافه فى الشراب أديا إلى اختلاط عقله بالصورة التى ظهرت عليه بعد توليه الحكم، وازداد هذا الاضطراب، حين نعى إلى علمه نبأ انتحار السلطان «عبد العزيز»، ومقتل عدد من الوزراء على يد أتباع الأمير «يوسف عز الدين بن عبد العزيز»، وحينئذ رأى الوزراء ضرورة خلع

«مراد»، وتولية أخيه «عبد الحميد» الذى كان «مدحت باشا» قد انتزع منه وعدًا بإعلان الدستور.

(57/8)

## الفصل الخامس

\*السلطان عبد الحميد الثانى وأهيار الدولة

(1843 – 1918م)

وُلد «عبد الحميد الثانى» (13 من شعبان عام 1258هـ = 21 من سبتمبر عام 1842م)، وهو ابن السلطان «عبد المجيد محمود الثانى» صاحب فرمان التنظيمات الذى ينظم الدولة العثمانية على الطراز الأوربى وتولى العرش خلفًا لأخيه «مراد» فى (10 من شعبان عام 1293هـ = 31 من أغسطس عام 1876م)، وماتت أمه وهو فى الحادية عشرة من عمره، فربته زوجة أبيه وعاملته معاملة الأم شفقة ورحمة وعناية. درس «عبد الحميد» العلوم الأساسية فى عهده وبجانبها تعلّم اللغة العربية وأجادها، والفارسية وأجادها، وكان ينظم الشعر، وكان شخصية قوية منذ صغره، كان متدينًا وسط جو أوربى يعيشه أمراء القصر السلطانى، وحريصًا على أداء الصلاة فى أوقاتها، عفيفًا، لا يشرب الخمر، ويمنع تدخل نساء القصر فى السياسة أو شئون الدولة منعًا باتا، وتروى ابنته الأميرة «عائشة»:

فى اليوم التالى لتنصيب والدى السلطان عبد الحميد سلطانًا على الدولة العثمانية قابل زوجة والده التى أحبها حبا ملأ عليه فؤاده، وقبّل يدها، وقال لها:

بخنانك لم أشعر بفقد أمى، وأنت فى نظرى أمى لا تفتقرين عنها، ولقد جعلتك السلطانة الوالدة (وهو لقب خاص بأى السلطان) .. لكنى أرجوك بإصرار ألا تتدخلى بأى شكل من الأشكال فى أى عمل من

أعمال الدولة.

وانصاعت هي لهذا الأمر تمامًا.»

بدأ «عبد الحميد» حكمه الفردى بافتتاح مجلس «المبعوثان»، لكنه

سرعان ما عطله إلى أجل غير مسمى، وكان هذا التعطيل في (10

من صفر عام 1295هـ = 13 من فبراير عام 1878م)، واستمر الحكم

الفردى لعبد الحميد مدة ثلاثين عامًا ونصف عام تقريبًا يعنى حتى

(17 من جمادى الآخرة عام 1326هـ = 13 من يوليو عام 1908م) عندما

ثار عليه الجيش، فاضطر إلى إعلان الحكم النيابي، وافتتح البرلمان

للمرة الثانية.

لكنه كان رحيماً بالمعارضين له، يستميلهم بقدر إمكانه، وإذا نفى

(58/8)

أحدًا منهم ينفيه إلى مكان بعيد، بعد أن يمنحه منصبًا عاليًا وراتبًا

كبيرًا، فعل هذا على سبيل المثال مع «نامق كمال» الشاعر

العثماني المعروف ومع «ضيا باشا» الأديب العثماني الذائع الصيت.

ونسوق هنا ترجمة لقصيدة نظمها الفيلسوف التركي «رضا توفيق»

وهو من كبار رجال «الاتحاد والترقي» ومن أكبر المعارضين لحكم

«عبد الحميد»، وهذه القصيدة لم يكتبها الشاعر إلا بعد وفاة

السلطان «عبد الحميد»، يقول فيها:

عندما يذكر التاريخ اسمك.

يكون الحق في جانبك ومعك يا أيها السلطان العظيم.

كنا نحن الذين افترينا - دون حياء.

على أعظم سياسيي العصر.

قلنا إن السلطان ظالم وإن السلطان مجنون.

قلنا لا بد من الثورة على السلطان.

وصدقنا كل ما قاله لنا الشيطان.

وعملنا على إيقاظ الفتنة.  
لم تكن أنت المجنون، بل نحن، ولم نكن ندرى.  
علقنا القلادة على فتيل واهٍ.  
لم نكن مجانين فحسب، بل كنا قد عدنا الأخلاق.  
فلقد بصفنا - أيها السلطان العظيم.  
على قبلة الأجداد.  
عبد الحميد ومشاكل دولته:

وقد بدأ عهد «عبد الحميد» بالمشاكل العديدة، فتمرد «الصرب»  
و «الجلب الأسود»، وهو تمرد بدأ في آخر عهد «عبد العزيز»،  
واضطرب الوضع في «جزيرة كريت» ولم يكن في صالح الدولة.  
وانتصر العثمانيون على قوات الصرب في معركة «الكسيناج»، ولكن  
عندما اقترب العثمانيون من دخول «بلجراد» إذا بروسيا توجه إنذاراً  
للدولة العثمانية، فخافت الدول الغربية وعلى رأسها «إنجلترا» من  
مغبة تدخل «روسيا» وعقدت هذه الدول مؤتمر الترسانة المشهور في  
«إستانبول» في (ذى الحجة عام 1293هـ = ديسمبر عام 1876م)  
برئاسة «صفوت باشا» وزير الخارجية العثمانية. في هذا اليوم أعلن  
«عبد الحميد الثاني» الحكم المشروطي (الديمقراطي) في الدولة.  
والواقع أن هذا المؤتمر قد أجبر الدولة العثمانية على القيام  
بإصلاحات في «البوسنة والهرسك» و «بلغاريا». وفي (3 من المحرم

(59/8)

---

عام 1294هـ = 18 من يناير عام 1877م) اجتمع في «الباب العالي»  
(مجلس مكّون من (240) شخصاً) لدراسة مقترحات مؤتمر الترسانة، لكن  
«مدحت باشا» دفع المجلس إلى رفض مقترحات الدولة، وحرّض طلبة  
العلوم الدينية العالية على القيام بمظاهرات لإجبار السلطان «عبد  
الحميد» على الحرب، فقام المجلس بإجبار السلطان على التصديق

على قرار برفض مقترحات المؤتمر، فانفض السفراء وتركوا الدولة العثمانية بمفردها تواجه «روسيا».

ولما كان «نابليون الثالث» قد أرسى دعائم الفكر القومي العرقي في «أوروبا»، فقد استغل الروس فرصة انتشار هذا الفكر، وقاموا بدعايات ضخمة لإنقاذ إخوانهم السلاف الواقعين تحت الحكم التركي، وأعلنوا الحرب في (10 من ربيع الآخر عام 1294هـ = 24 من أبريل عام 1877م) على العثمانيين، وبذلك بدأت الحرب العثمانية - الروسية، المشهورة التي استمرت من عام (1294هـ = 1877م) إلى عام (1295هـ = 1878م)، وتعد هذه الحرب نكبة من نكبات التاريخ العثماني، فقد رافق خسارة العثمانيين في الأرض، مشكلة هجرة مليون مسلم عثماني من «بلغاريا» إلى «إستانبول»، وهذه الهجرة هي أصل مشكلة الأقليات الإسلامية اليوم في «بلغاريا» وغيرها من دول «البلقان»، وعندما هاجر المليون عثماني رافقتهم مشاكل اجتماعية كبيرة في الإسكان وفي المعيشة.

وأخيراً عقدت في (27 من الحرم عام 1295هـ = 31 من يناير عام 1878م) معاهدة لإنهاء الحرب التي استمرت تسعة أشهر وسبعة أيام. تعطيل البرلمان:

وأمام ما تصوّره «عبد الحميد» من قصور في الرأي العام ممثلاً في هذا المجلس، الذي دفع بالأمة إلى الدخول في حرب هي غير مستعدة لها، وليست في حاجة إليها، قام السلطان في (13 من فبراير 1878م) بتعطيل الحياة النيابية إلى أجل غير مسمى، واضطر وزير الخارجية العثمانية أن يوقع معاهدة «أياسطفانوس» التي فرضتها «روسيا» على الدولة عقب هزيمتها أمامها، وقد بكى الوزير وهو يوقع

المعاهدة؛ لأنها كانت مجحفة بالدولة، إلا أن السلطان يذكر في مذكراته أنه عمل كثيراً على تخفيف وقع هذه المعاهدة على الدولة، بتوقيع معاهدة أخرى هي «معاهدة برلين» في (10 من صفر عام 1295هـ = 3 من يوليو عام 1878م) أى بعد أربعة أشهر وأحد عشر يوماً من المعاهدة الأولى.

وفي (18 من جمادى الأولى عام 1295هـ = 20 من مايو عام 1878م) أثناء ما كان جيش الاحتلال الروسى يجثم على أراضي الدولة، وانشغال هذه به، قام شاب يدعى «على سعاوى» مع أنصاره من الشباب الثائر بمحاولة لخلع «عبد الحميد» وإحلال «مراد» - وكان مريضاً مرضاً عقلياً - محله إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل. ديون الدولة العثمانية:

أما عن الديون العثمانية وخطورتها، فقد وصلت الديون المتبقية من عهدى «عبد الحميد» والد «عبد الحميد»، و «عبد العزيز» عمه إلى (252) مليون ليرة ذهبية عام (1298هـ = 1881م)، وكان هذا الرقم وقتها رقماً هائلاً، وكانت كل من «إنجلترا» و «فرنسا» في مقدمة الدائنين. وقد نجح السلطان «عبد الحميد» في حل مسألة الديون هذه بتقليلها إلى النصف تقريباً؛ لذلك كان الموظفون العثمانيون وخاصة الضباط يتضجرون عندما يقبضون رواتبهم متأخرة، وهذا الأمر كان من أسباب ضيق الموظفين في عهد «عبد الحميد». وبعد وفاة السلطان «عبد العزيز» - عم «عبد الحميد» - بخمس سنوات، أثار «عبد الحميد» قضية هذه الوفاة؛ ولذلك قدّم «مدحت باشا» وأعوانه إلى المحاكمة في «محكمة يلدير» في (29 من رجب عام 1298هـ = 27 من يونيو عام 1881م) بتهمة قتل سلطان الدولة، وأصدرت المحكمة قرارها بالإدانة.

ثم نُقل «مدحت باشا» وصاحبه محمود جلال الدين باشا في (1 من رمضان عام 1298هـ = 28 من يوليو عام 1881م) بالسفينة «عز الدين» إلى «قلعة الطائف» حيث حبسوا في السجن العسكرى هناك، واستمر

هذا الحبس سنتين وتسعة أشهر، ثم وجد «مدحت باشا» وزميله في السجن مقتولين خنقًا، ولم يُعرف من الخرض على القتل، والمعروف

(61/8)

أن «إنجلترا» حاولت إنقاذ «مدحت باشا» من هذا السجن بتهريبه منه حتى إنَّها خصصت سفينة عسكرية بريطانية في «البحر الأحمر» لهذا الغرض.

وفي (18 من جمادى الأولى 1323هـ = 21 يوليو 1905م) دبر الأرمن مؤامرة لقتل السلطان «عبد الحميد» عُرفت في التاريخ العثماني باسم «حادث القنبلة»، دبرها ونفذها الأرمن وأيدها المعارضون لعبد الحميد وبخاصة العاملون في النشر والإعلام. ومع هذا فقد كان حكم عبد الحميد بالنسبة إلى الدولة العثمانية عهد استقرار. وكان الشعب يشعر بالأمان، لكن نتيجة أن السلطان كان يربط مؤسسات الدولة بشخصه مباشرة ودائمًا، ويحد من الصحافة والحريات السياسية فقد عاداه الضباط وطلبة العلوم العليا خاصة طلبة الطب العسكرية.

المسائل العربية في عهد عبد الحميد:

بجيش مكّون من (23.000) جندي فرنسي استقدموا من «الجزائر» مع أسطول بحري و (8.000) جندي فرضت «فرنسا» حمايتها على «تونس» ووقعت «معاهدة باردو» (قصر سعيد) في (12 من جمادى الآخرة 1298هـ = 12 من مايو 1881م)، بذلك احتج الباب العالي وأخذ الوزير «محمود صادق باشا» أمير «تونس» يطلب النجدة، فذهب إليه أسطول عثماني مدرّع، إلا أن هذا الأسطول اضطر إلى الانسحاب إلى مياه «كريت»؛ لعدم التوازن في القوى بين الأسطولين العثماني والفرنسي.

ولم تكن الدولة العثمانية في الواقع قادرة على أن تدافع عن

«تونس»، وكل ما استطاعت عمله أنها لم تعترف رسمياً بالاحتلال  
الفرنسي، وظل «عبد الحميد» يعتبر «تونس» قطعة من الدولة  
العثمانية في السانامة الرسمية.  
وكان احتلال «بريطانيا» لمصر في (2 من ذى القعدة 1299هـ = 15 من  
سبتمبر عام 1882م) هو الحدث الكبير الثاني في السياسة العثمانية  
الخارجية فيما يختص بالأمر العربي.  
عبد الحميد والخديو إسماعيل:  
إن العلاقات العثمانية المصرية كانت قد اتخذت طوراً متشدداً تجاه  
إسراف الخديو «إسماعيل»، بعد أن استطاع الحصول من

(62/8)

---

«عبد العزيز» على امتياز بالاقتراض الخارجي، ووصل الأمر بالخديو  
إلى أنه اقترض من «إنجلترا» و «فرنسا» مبلغ مائة مليون جنيه ذهباً  
في عشر سنوات؛ ولتقريب هذه المسألة نقول إن ديون الدولة  
العثمانية كلها - بعد جهود «عبد الحميد» في تخفيضها إلى النصف  
تقريباً - تعادل جملة اقتراضات الخديو «إسماعيل» بمفرده وهو خديو  
على إيالة «مصر» العثمانية؛ مما أعطى انطباعاً لدى السلطان «عبد  
الحميد» بعظم إسراف الخديو، وهذا الإسراف دفع «إسماعيل» في  
(ذى القعدة 1292هـ = نوفمبر 1875م) إلى طرح أسهمه الشخصية في  
«قناة السويس» للبيع، وحاولت «فرنسا» أن تشتريها، إلا أن سرعة  
حركة «دزرائيلي» رئيس وزراء «بريطانيا» في شراء هذه الأسهم  
عطلت حركة «فرنسا» في العمل، وهذا أدى إلى توقع وقوع  
«مصر» فريسة للاحتلال البريطاني. ولم تكن «فرنسا» من القوة بحيث  
تستطيع وقتها عمل شيء لتعطيل تحرك الإنجليز في «مصر»، ومع  
ذلك لم يجد بيع «إسماعيل» لأسهمه في «قناة السويس» نفعاً.  
كان جيش «مصر» قد بلغ أيام «إسماعيل» إلى (30.000) عسكري ما

بين ضابط وجندى، ثم أدى تدخل الوزراء الأوربيين في الوزارة المصرية إلى تخفيض هذه القوة إلى (11.000) وتسريح (2500) ضابط، وكان هذا العدد يقرب من نصف عدد ضباط الجيش، وكان عدد الضباط المصريين قليلاً بالنسبة إلى الضباط الآخرين من رعايا الدولة العثمانية كالألبان والأباظة والشركس وغيرهم، إلا أن أغلب الضباط المحالين إلى التقاعد كانوا من المصريين، فاستاء هؤلاء، وبدأ في «مصر» - لأول مرة - الشعور بالقومية، وظهر الأميرالاي «أحمد عرابي بك».

نتيجة لهذا الجو الجديد قام السلطان «عبد الحميد الثاني» بإصدار إرادة سنوية في (5 من شعبان 1296هـ = 25 من يوليو 1879م) بعزل الخديو «إسماعيل» باشا، وتعيين ابنه الأكبر وولى العهد «محمد توفيق باشا» مكانه، وطلب «إسماعيل» من السلطان «عبد الحميد»

(63/8)

الإذن بالإقامة في «إستانبول» والإفادة من أملاكه هناك، فأذن له وأقام «إسماعيل» في قصره في حي «بايزيد» في «إستانبول»، وكذلك في قصره الصيفي على «اليسفور» في حي «أميركان». ومات «إسماعيل» في «إستانبول» في (27 من رمضان 1312هـ = 2 من مارس 1895م) عن (65) عامًا، والمعروف أن «إسماعيل» درس في الأكاديمية الحربية في «باريس».

وفي علاقة «عبد الحميد» بإسماعيل أيضاً مسألة إهداء السلطان «عبد العزيز» عم «عبد الحميد» جزيرة «ياسى آدا» - وهي جزيرة صغيرة جميلة، بالقرب من إستانبول - إلى «إسماعيل»، وعندما تولى «عبد الحميد» أعاد هذه الجزيرة إلى أملاك الدولة. عبد الحميد والثورة العربية:

أما «أحمد عرابي بك» فقد أيده «عبد الحميد» ومنحه رتبة أمير لواء

مع الباشوية، كما منحه الوسام الحميدى من الطبقة الأولى،  
والمعروف أن الرتب العسكرية في «مصر» فيما فوق أميرالاي لا  
تمنح إلا من السلطان نفسه.

قام «عراي باشا» بإنهاء عمل الموظفين الأوربيين، فاحتجّت عليه  
كل من «إنجلترا» و «فرنسا»، وقامت بمراجعة «الباب العالى» في  
شأن إرسال قوة عسكرية إلى «مصر»، ولم يقع «عبد الحميد» في  
هذا الفخ، ورفض إرسال قوة عسكرية، لأن قمع الحركة الوطنية  
المصرية بجنود أتراك لصالح الدول الأوربية وهى دول استعمارية،  
كان من شأنه الإساءة إلى مقام الخلافة في كل أرجاء العالم  
الإسلامى، ويتنافى مع مبدأ الجامعة الإسلامية التى كان «عبد  
الحميد» قد اتخذها سياسة له.

في هذه الأثناء تولى «عراي باشا» وزارة الحربية، وفي (23 من  
شعبان 1299هـ = 11 من يوليو 1882م) حدثت قلاقل «الإسكندرية»،  
ومات عدد من الأوربيين هناك، كما جرح أربعة قناصل؛ لذلك قام  
الأميرالاي «سيمور» قائد الأسطول البريطانى في «البحر المتوسط» -  
وكانت «إنجلترا» قد أعلنت أنها ستحمى الأجانب في مصر - بضرب  
«الإسكندرية» بالمدفعية البحرية ضرباً متواصلًا. وفي اليوم التالى

(64/8)

---

(24 من شعبان = 12 من يوليو 1882م) احتل «الإنجليز» المدينة، وفي  
(12 من سبتمبر 1882م) قام السير «جرانت ويلزلى» بالتغلب على  
قوات «عراي باشا» في معركة «التل الكبير» في عشرين دقيقة،  
ودخل الجيش الإنجليزى القاهرة في (15 من سبتمبر 1882م)، ونفت  
«بريطانيا» «أحمد عراي» إلى «سيلان».  
وكانت «بريطانيا» تردد دائماً أنها تحتل «مصر» و «السودان» احتلالاً  
مؤقتاً، ولم يكن للاحتلال صفة رسمية، أو وضع قانونى، وإن كان

أمراً واقعاً إلا أن «مصر» رسمياً كانت تابعة للدولة العثمانية، واستمرت «مصر» حتى عام (1331هـ = 1914م) - تاريخ إعلان الحماية البريطانية عليها - ترسل متعلقات تبعيتها للعثمانيين إلى «إستانبول» سنوياً، وكذلك كان تعيين الرتب الكبيرة فوق الأيميرالاي لا يتم إلا عن طريق السلطان. عبد الحميد ومسألة العقبة:

والمسألة الثالثة المهمة في العلاقات العثمانية المصرية في عهد «عبد الحميد» تتجلى في مسألة العقبة عام (1324هـ = 1906م)، فبعد أن ضيق العثمانيون على الإنجليز حلقة العمل الاستراتيجي للاحتفاظ بطريقهم إلى «الهند» سليماً، وخوف «بريطانيا» من خط سكة حديد الحجاز، خاصة بعد دخول «ألمانيا» منافساً للقوى الأوروبية في خط سكة حديد «بغداد»، في تلك الفترة كان السلطان «عبد الحميد» مشغولاً بإنشاء خط سكة حديد «مكة» الطويل، برأس مال إسلامي وأيدٍ عاملة مسلمة، وكان خط سكة حديد الحجاز قد وصل إلى «المدينة المنورة»، وقد ربط هذا الخط بين «إستانبول» و «دمشق» و «المدينة».

في هذه الفترة نفسها أنشأ السلطان مدينة «بير السبع» بين «غزة» و «بحيرة لوط» في جنوب «فلسطين»، وفي عام (1319هـ = 1901م) حلت قوة تركية هناك وتكون حولها قصبة، والواقع أنها كانت قاعدة استراتيجية عثمانية، تشرف على «شبه جزيرة سيناء» و «الجزيرة العربية» وطريق «الحجاز» و «مصر»، وكان من شأنها أيضاً مراقبة الإنجليز الذين كانوا يحتلون «مصر». وتشكل هذه

(65/8)

---

القاعدة العثمانية الاستراتيجية التي أقيمت على أطلال مهجورة متراكمة حول بئر واحدة من بدايات مسألة العقبة.

وفي عام (1323هـ = 1905م) قام الإنجليز بتحريض بعض القبائل اليمينية بالتمرد على الدولة، لكن العثمانيين استطاعوا القضاء على هذا التمرد، عندئذٍ أدركت «بريطانيا» أنها عاجزة عن الإضرار بالعثمانيين في «اليمن»، وهي ولاية ذات أهمية استراتيجية على «البحر الأحمر» و «خليج عدن»؛ لذلك قام الإنجليز باختلاق حادثة على حدود «مصر» وكانت هذه الحادثة هي حادثة قرية تسمى «العقبة».

طلبت «إنجلترا» إرسال جنود إلى هذه القرية التي يسمح الباب العالي بوجود جنود مصريين فيها خاصة بمناسبة أعمال الحج. بذلك كانت «إنجلترا» تريد السيطرة على المدخل الشمالي الشرقي للبحر الأحمر وتدخل منه إلى داخل «الجزيرة العربية».

أرسل السلطان «عبد الحميد» أحد ياورانه المخلصين وهو الأميرالاي «رشدى بك» - باشا فيما بعد - إلى المنطقة، فسار مع طابورين من الجنود ومدفع واحد واتجه إلى العقبة وأخلاها من الجنود المصريين الذين كانوا فيها بعد أن أبلغهم أن هذا قرار من السلطان. وبموجب أمر من «عبد الحميد» احتل «رشدى بك» قصبه «طابا» بعد أن أخلاها من الجنود المصريين ليفاجئ الإنجليز بالأمر الواقع.

أدركت «إنجلترا» أنها على أبواب صدام قريب مع الدولة العثمانية بشأن الحدود، خاصة بعد قيام الشعب المصرى فى «القاهرة» وسائر المدن المصرية بمظاهرات تهتف بحياة «عبد الحميد» ويسقط الاحتلال الإنجليزي، وقدمت «إنجلترا» للباب العالي إنذاراً باحتلال «العقبة» و «طابا» فى مدة عشرة أيام إذا لم يرسل الباب العالي إلى «رشدى بك» تلغرافاً بإخلاء القلعتين، وقالت «إنجلترا» فى إنذارها إن من حقها الدخول فى حرب مع الدولة إذا لم يحدث صدى إيجابى للإنذار، ولكى تضخم «إنجلترا» المسألة أمرت أسطولها فى «الحيط الأطلسى» بدخول «البحر المتوسط» عن طريق «جبل طارق»؛ ليكون

بجوار الأسطول البريطاني في «البحر المتوسط».

أبلغ «عبد الحميد» «إنجلترا» برفضه لهذا الضغط البريطاني، وقال: إن «مصر» جزء من الدولة العثمانية رسمياً وليس لإنجلترا حق فيما تريده، وقال: إن الحدود المصرية العثمانية لا يحلها إلا ضباط من «مصر» ومن الدولة العثمانية.

وفي (شعبان 1324هـ = أول أكتوبر 1906م) قام الضباط العثمانيون والضباط المصريون بتنظيم الحدود واستقر الأمر على أن «طابا» مصرية.

عبد الحميد واليهود:

عندما مات «البارون هيرش» كان يأمل في إقامة وطن لليهود «روسيا» في «الأرجنتين»، وعندما تدخل «تيودور هرتزل» في المسألة اليهودية، أصبح الأمر لا يتعلق بيهود «روسيا» فقط بل بكل اليهود، ولم يصبح الوطن الذي يطلبونه «الأرجنتين»، بل أصبح في «فلسطين»، وكانت «فلسطين» جزءاً من الدولة العثمانية. يقول «تحسين باشا» رئيس أمناء القصر السلطاني في عهد «عبد الحميد»، في مذكراته ما يلي:

«جاءت شخصية كبيرة صهيونية يهودية فمساوية إلى إستانبول، وطلبت إقامة وطن يهودى في سنجق القدس، وقالت هذه الشخصية: إنها تتحدث في هذا باسم الصهاينة، وأن روتشيلد المصرى المشهور، وراء هذا الأمر».

وكان أساس مطلب هذا اليهودى إقامة قرى يهودية في «فلسطين» في مكان تحدده الحكومة العثمانية، ولا مانع من وجود منازل إسلامية في هذه القرى إذا رغبت الحكومة في هذا، وسيتبع اليهود القادمون من الخارج قوانين ونظم الدولة العلية (العثمانية)، وسيتم مقابل هذا تقديم الخدمات والتسهيلات اللازمة في مسألة الديون العمومية، وتقديم الضمان الكافي بهذا الكتاب.

ولأن هذا اليهودى كان له وزنه واعتباره، والمسألة تتعلق بالديون العمومية للدولة عرض الموضوع على السلطان الذى أذن بمقابلته،

وبعد هذه المقابلة التي عاد منها الصهيوني النمساوي إلى بلاده  
صفر اليدين أمر السلطان «عبد الحميد» سفراء الدولة العثمانية في

(67/8)

كل من «واشنطن» و «برلين» و «فيينا» و «لندن» و «باريس»، بتعقب  
الحركة الصهيونية، وإرسال تقاريرهم أولاً بأول إلى السلطان، كما  
قاموا بناءً على هذا الأمر بمقابلة زعماء اليهود في البلدان التي  
يعملون بها أيضاً، بإرسال مخبرين عثمانيين متنكرين إلى  
الاجتماعات الصهيونية في «أوروبا»، وإرسال قصاصات الصحف  
والمجلات الأوروبية المتعلقة بنشاط اليهود في «أوروبا».  
وبذلك خط «عبد الحميد» بنفسه الخطوط الأساسية للسياسة  
العثمانية تجاه اليهود وفهم تفكيرهم تجاه القضية الفلسطينية.  
وفي (10 من ذى القعدة 1307هـ = 28 من يونيو 1890م) وفي (7 من  
يوليو) من العام نفسه أصدر السلطان «عبد الحميد» إرادتين  
سلطانتين ب: «عدم قبول الصهاينة في الممالك الشاهانية (الأراضي  
العثمانية) وإعادتهم إلى الأماكن التي جاءوا منها، وأعطى أوامره  
إلى نظارة الشؤون العقارية بعدم بيع أراضي للمهاجرين إلى  
فلسطين».  
يقول «محرم فوزى طوغاي» في مقالة له في (10 من جمادى الآخرة  
عام 1366هـ = 2 من مايو عام 1947م)، نشرها في «مجلة بيوك  
طوغو» التركية بعنوان «فلسطين والمسألة اليهودية» ما يلي:  
«إن تصرف عبد الحميد تجاه الحركة اليهودية بهذا الشكل المعادي  
كان معناه أنه يتسبب في هدم تاجه وهدم عرشه، ليس هذا فقط، بل  
ومن ثم في هدم الدولة العثمانية كلها».  
ويقول العقيد التركي «حسام الدين أرتورك» في كتابه «خفايا  
عهدين»، نشر في «إستانبول» عام (1377هـ = 1957م) ما يلي:

«قدم كل من تيودور هرتزل والحاخام الأكبر طلبًا شخصيًا إلى السلطان عبد الحميد يطلبان فيه إقامة وطن إسرائيلي مستقل في سنجق القدس، فما كان من عبد الحميد إلا أن طردهما». ويعقب «نظام الدين تبه دنلى أوغلى» بالتعليق على هذه المسألة قائلاً:

«إن تصرف السلطان عبد الحميد تجاه هرتزل بهذا الشكل كان - كما فطن السلطان لذلك - من شأنه أن يعمل هرتزل واليهود على دعم أعداء السلطان». وأعداء السلطان يتمثلون في الآتي:

(68/8)

- 1 - تأييد الأرمن وتدعيم حركتهم ضد السلطان «عبد الحميد».
- 2 - تأييد الحركة القومية في «البلقان» لانفصال هذه المنطقة عن الدولة.
- 3 - تأييد الحركة القومية الكردية التي ظهرت عام (1297هـ = 1880م) وبدأت بمحاولات اتحاد (30) عشيرة كردية متنافرة.
- 4 - تأييد كل حركة استقلال عن الدولة العثمانية.
- 5 - دعم قوى حركة الاتحاد والترقي ودفعها إلى قلب الأوضاع السياسية في الدولة.

عبد الحميد الثاني وحركة الجامعة الإسلامية:

ظهرت فكرة الجامعة الإسلامية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، واتسع ذلك المصطلح ليشمل عدة مفاهيم، فبعض المصلحين رأى فيها دعوة للرجوع بالدين إلى ما كان عليه السلف الصالح. والبعض فسّرهما بأنها دعوة لتحديث المفاهيم الإسلامية وتطويرها بشكل يساير تطور الحياة الحديثة، ويتمشى مع المفاهيم الواردة من مدينة الغرب وثقافته، ورأى ثالث رأى فيها دعوة إلى إحياء الخلافة

العربية القرشية من جديد، لكن من غير أن يكون لهذا الخليفة سلطة دنيوية بل مجرد رمز ديني لوحدة المسلمين. أما الرأى الأخير والأقرب إلى الدقة فرأى فيها تلك الدعوة التي انطلقت من عاصمة الدولة العثمانية والتي استهدفت تشديد قبضة الدولة على ما تبقى من ولاياتها أمام الخطر الأوربي الزاحف عليها من الغرب، وامتداد النفوذ الأدي للسلطان العثماني من منطلق كونه خليفة للمسلمين وخاصة من هم خارج حدود العالم الإسلامى، لتتبادل معهم الدولة الدعم المادى والأدي لمواجهة الغزو الأوربي وما أحدثته هذه الحركة من ردود فعل متباينة بين مؤيد لها ومساند وبين معارض لها ومناهض.

تولى السلطان عبد الحميد الحكم سنة (1293هـ = 1876م)، وقد بلغت أطماع الدول الغربية فى الدولة العثمانية أوجها، وأوشكت المشاكل والفتن الداخلية أن تقوض أركان الدولة من الداخل، وأهمها «جماعة تركيا الفتاة» التى كانت تنادى بالأخذ بالمبادئ الأوربية الغربية فى

(69/8)

---

كل شىء، وحاولوا إخضاع السلطان لنفوذهم كما فعلوا مع سابقيه، إلا أنه رفض وسعى لإضعاف نفوذهم فى الدولة.

وكان انتشار تلك الأفكار فى الدولة العثمانية التى يدين سكانها بالإسلام يشكل خطراً على وحدتها السياسية، وكان للسلطان «عبد الحميد» مفهوم خاص فى إدخال عناصر المدنية إلى بلاده، فهو لا يريد حضارة الغرب بمعنى الثقافة والتراث؛ لأنه كان يرى أن للشرق حضارته الإسلامية المتكاملة المتفوقة على الحضارة الغربية، إنما كان يريد اقتباس ما لديهم من علوم حديثة وليس مرة واحدة، ولكن بالتدرج.

وأدرك السلطان أنه أمام أخطاء داخلية وخارجية ورأى أن الإسلام هو القوة الوحيدة التى تمكنه من ذلك، وفى هذا يقول: إن الإسلام

هو القوة الوحيدة التي تجعلنا أقوياء ونحن أمة حية قوية ولكن شرط أن نصدق في ديننا العظيم.

وكان يرى أن الحروب الصليبية ضد الدولة العثمانية دائمة ومستمرة فلا بد إذن من العمل بالإسلام على توحيد عناصر الدولة المتعددة من عرب وترك وأكراد وغيرهم في جبهة واحدة حتى يمكن الصمود أمام الغرب، ويرى أن جبهة المسلمين في الدولة العثمانية لا تكفى، ولكن لابد من امتداد تأثير الوحدة الإسلامية إلى كل مسلمي العالم في إفريقيا و «آسيا» وغيرها.

وأيد فكرة الجامعة الإسلامية كثير من علماء الدولة العثمانية آنذاك، منهم:

الشيخ «عاطف الإسكليبي» (1876 - 1926م)، والشاعر «محمد عاكف أرسوى» (1873 - 1936م)، والشيخ «بديع الزمان سعيد النورسي» (1876 - 1960م).

وفي بلاد الشام نادى بها:

- 1 - الشيخ «أبو الهدى الصيادى» (1849 - 1909م).
- 2 - الشيخ «عبد الرحمن الكواكبي» (1854 - 1902م).
- 3 - «السيد» محمد رشيد رضا» (1865 - 1935م).
- 4 - «عبد القادر المغربي» (1867 - 1956م).
- 5 - «رفيق العظم» (1867 - 1925م).
- 6 - الأمير «شكيب أرسلان» (1869 - 1946م).

وفي مصر:

- 1 - جمال الدين الأفغانى (1839 - 1897م).
- 2 - محمد عبده (1849 - 1905م).

3 - مصطفى كامل (1874 - 1908م).

4 - محمد فريد (1868 - 1919م).

السلطان عبد الحميد والاتحاد والترقي:

«الاتحاد والترقي» هو أول حزب سياسي في الدولة العثمانية ظهر في عام (1308هـ = 1890م)، وكان سرّياً مكوناً من خلايا طلبة الحربية، والطبية العسكرية، ويهدف إلى معارضة حكم «عبد الحميد» والتخلص منه، وتم اكتشاف هذا الجهاز في سنة (1315هـ = 1897م)، فنفي عديد من أعضائه، وفّر بعضهم إلى «باريس»، وأرسل السلطان «عبد الحميد» مدير الأمن العام الفريق أول «أحمد جلال الدين باشا»، إلى «باريس» لاستمالة أعضاء المعارضة من الاتحاديين، فنجح في استمالة أكثرهم ومنحهم «عبد الحميد» مناصب كبيرة في الدولة، إلا أن المعارضين وعلى رأسهم «أحمد رضا بك» ظلوا على معارضتهم. وفي المدة من (27 من شوال - 1 من ذي القعدة 1319هـ = 4 - 9 فبراير 1902م) عقد في «باريس» مؤتمر للأحرار العثمانيين، حضرته كل العناصر المعارضة لحكم «عبد الحميد»، وعلى رأسهم أعضاء «الاتحاد والترقي»، وكان من ضمن قرارات هذا المؤتمر تقسيم الدولة العثمانية إلى حكومات مستقلة استقلالاً ذاتياً على أساس عرقي قومي، وظهر المعارضون لهذا الرأي ومنهم «أحمد رضا بك» نفسه، إلا أن الأغلبية كانت لها قوتها في تأييد هذا القرار. وطالب المؤتمرون من الدول الأوروبية التدخل لإنهاء حكم السلطان «عبد الحميد» وإقصائه عن العرش. وفي داخل البلاد العثمانية وخصوصاً في «سلانيك» و «مناستر»، افتتح الاتحاد والترقي فروعاً له، التحق بها الضباط الشبان من رتبة «ملازم» و «يوزباشي»، ثم بدأ دخول الضباط من الرتب الكبيرة، حتى إنه يتردد أن كل ضباط الجيش العثماني الثالث (في «البلقان») كانوا في عام (1326هـ = 1908م) منضمين إلى «الاتحاد والترقي»، وكان منهم أركان حرب «قول أغاسي مصطفى كمال أفندي» (أتاتورك فيما بعد)، إلا أنه انسحب فيما بعد من «الاتحاد والترقي».

وفي مذكرة جمعية «الاتحاد والترقي» إلى قناصل الدول الأجنبية في الدولة العثمانية، طالبت الجمعية بتدخل دول هؤلاء القناصل لإنهاء حكم «عبد الحميد»، وتحالفت الجمعية مع الثوار البلقانيين ضد السلطان.

اعتقد الاتحاديون أنهم بإزالة «عبد الحميد» يستطيعون تقريب العناصر المختلفة في الدولة، وأن دول «أوروبا» ستكف عن مضايقاتها للدولة العثمانية، وتصور الاتحاديون أن هذه الدول الأوربية ستتعهد بحماية الدولة العثمانية إذا انتهى حكم «عبد الحميد» الفردى غير المشروط (غير الديمقراطية)، والذي حدث أنه عقب المشروطية فقدت الدولة العثمانية «البوسنة والهرسك» مما أصاب الاتحاديين بالملح.

وفي (23 من جمادى الأولى 1326هـ = 23 يوليو 1908م) اضطر «عبد الحميد» اضطراراً إلى إعلان المشروطية (الثانية)، وتولت جمعية «الاتحاد والترقي» الحكم، وأعلنت تمثلها لمبادئ الثورة الفرنسية «الحرية - العدالة - المساواة - الأخوة».

وفي (23 من رمضان 1326هـ = 15 من أكتوبر 1908م) استقلت عن الدولة العثمانية كل من «بلغاريا» و «كريت» التي أعلنت انضمامها لليونان في (6 أكتوبر)، واستقلت - كما ذكرنا - «البوسنة والهرسك».

وفي (21 من ربيع الأول 1327هـ = 13 من أبريل 1909م) دبر الجيش العثماني حادثة عرفت باسم «حادث 31 مارس»، ثم نسبوها إلى «عبد الحميد» وقالوا إنه أراد ثورة العناصر الرجعية ضد جمعية «الاتحاد والترقي». واتخذ الجيش هذا ذريعة للتحرك لعزل السلطان «عبد الحميد الثاني»، وندبوا لإبلاغه بقرار العزل وقدماً مكوناً من أربعة أشخاص لم يكن منهم تركي ولا عربي واحد، وإنما كان على رأس الوفد يهودى والثلاثة الآخرون: أرمني وألباني وجرجي.

واليهودى هو «إيمانويل قراصو» الذى لعب فيما بعد دوره المشئوم  
فى الاحتلال الإيطالى لليبيا.

وتنازل السلطان «عبد الحميد» عن العرش لأخيه السلطان «محمد  
رشاد» فى (6 من ربيع الآخر 1327هـ = 27 من أبريل 1909م) وكان

(72/8)

على السلطان «عبد الحميد» أن يركب هو وأسرته القطار إلى منفاه  
فى «سلانيك» (وهى مدينة يغلب عليها الطابع اليهودى)، وكان مقر  
منفى السلطان «عبد الحميد» فى هذه المدينة ذات الطابع اليهودى  
فى قصر يمتلكه يهودى يسمى «ألاتينى»، إمعاناً فى إذلال «عبد  
الحميد».

وفى (27 من ربيع الآخر 1336هـ = 10 فبراير 1918م) مات السلطان  
«عبد الحميد الثانى» ابن السلطان «عبد المجيد»، عن ستة وسبعين  
عاماً، واشترك فى تشييع جنازته كل شعب «إستانبول» تقريباً.  
لقد خدم السلطان «عبد الحميد» أمته ثلاثاً وثلاثين سنة، قدم خلالها  
خدمات جليلة، فحفظ الدولة بعد الحرب الروسية التركية من أن تفقد  
المزيد من أراضيها فى «أوربا»، وقام بإنشاء دار العلوم السياسية  
والجامعة بكل فروعها، ودور المعلمين والمعلمات، ومدارس اللغات  
ومدرسة الفنون النسوية، وافتتح متحف الآثار الشرقية، والمتحف  
العسكرى، ومكتبة بايزيد، ومدرسة الطب، وغيرها.  
وفى مجال الإصلاحات العسكرية استقدم الخبراء الألمان لتدريب  
الجيش وفق الأساليب الحديثة، وأرسل البعثات العسكرية للخارج،  
وجهز الجيش بالأسلحة الحديثة.  
ويذكر له فى مجال الإنشاءات والمواصلات، إنشاءه الخط الحديدى  
الحجازى، وعددًا من الطرق فى «سوريا»، وتوسعه فى إنشاء  
خطوط البرق، وجرى فى عهده بناء دار الحكومة فى «دمشق»،

والثكنة الحميدية (جامعة دمشق اليوم)، وإصلاح «الكعبة المشرفة»، وغيرها.

الدولة العثمانية نحو الانهيار:

رأت السلطات العثمانية وعلى رأسها السلطان «وحيد الدين» أن مصلحتها بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى أن تتعاون مع الحلفاء وبخاصة «إنجلترا»، على اعتبار أن ذلك من شأنه أن ينقذ ما يمكن إنقاذه، فتم حل جمعية «الاتحاد والترقي» ومصادرة أملاكها، وحل البرلمان والحكم بمراسيم.

وكانت الدولة العثمانية قد استسلمت في الحرب العالمية الأولى في عهد السلطان «وحيد الدين» بعد أن تولى الخلافة بعدة شهور فقط،

(73/8)

ونتج عن هزيمتها أن سيطر الحلفاء على «إستانبول» والمضائق، واحتلت «اليونان» الأقسام الغربية، وضاعت البلدان العربية من يديها، وأراد السلطان «وحيد الدين» أن ينقذ الدولة مما هي فيه، فوضع ثقته في «مصطفى كمال» الذي لمع نجمه أثناء الحرب، لكنه بدأ يعمل لصالح نفسه.

وفي أثناء الحرب العالمية الأولى كان «مصطفى كمال» أنجح قادة الميدان العثمانيين، فقد تولى في أواخر سنة (1332هـ = 1914م) قيادة القوات التركية التي وكل إليها حماية «الدردينيل»، وكانت قاعدتها الرئيسية «شبه جزيرة غاليبولى»، وبفضل شجاعته فشل الإنزال البريطاني بها لاحتلالها، وقد جعلته هذه المعركة التي أنقذت «الآستانة» من السقوط بطلا قوميا، فأُنعِمَ عليه بلقب «باشا». ثم عقدت «هدنة مودانيا» في (9 من صفر 1340هـ = 12 من أكتوبر 1921م)، اعترفت بمقتضاها حكومات الحلفاء بعودة السيادة التركية إلى «إستانبول» و «البوغازين»، و «ترافيا الشرقية»، وأجّلت عودة

الأترك إلى هذه المناطق حتى توقع معاهدة الصلح.  
وفي (ربيع أول 1341هـ = أول من نوفمبر سنة 1922م) أعلن المجلس  
الوطني الكبير أن السلطنة قد زالت منذ أن احتل الإنجليز «إستانبول»  
قبل ذلك بسنتين، كما أن المجلس قرر أنه هو وحده الذي يختار  
ال خليفة من بين أفراد أسرة «آل عثمان».  
وفي (26 من ربيع الأول 1341هـ = 17 من نوفمبر 1922م) أجبر  
السلطان «وحيد الدين» على ترك منصب السلطنة، وترك عاصمة  
الخلافة إلى «مالطة» حيث أخلته بارجة حربية إنجليزية كانت راسية  
بالميناء تنتظر ذلك، ونودي بالأمر «عبد المجيد بن عبد العزيز» ابن  
عم «وحيد الدين» خليفة للمسلمين بعد موافقة المجلس الوطني الكبير.  
وفي (10 من ذى الحجة 1341هـ = 24 من يوليو سنة 1923م) جرى  
التوقيع على «معاهدة لوزان»، التي نصت على عودة السيادة  
التركية على ما يقرب من كل الأراضي التي تشتمل عليها تركيا الآن،  
وألغيت الامتيازات الأجنبية، ونتيجة لما توصل إليه في «معاهدة

(74/8)

---

لوزان» أحرز «مصطفى كمال» هيبه وسلطة كانتا لازمتين لإتمام  
تشكيل الدولة الجديدة، فلما انسحبت قوات الحلفاء دخلتها القوات  
التركية في (23 من صفر 1342هـ = 6 من أكتوبر 1923م)، وبعد ذلك  
بأسبوع أصدر المجلس الوطني الكبير قانوناً جديداً نص على جعل  
«أنقرة» العاصمة الرسمية للدولة التركية بدلا من «إستانبول» التي  
تحمل ذكريات الخلافة والسلطنة، ثم أقر المجلس قانوناً جديداً في  
(18 من ربيع أول 1342هـ = 29 من أكتوبر 1923م) نص على كون  
«تركيا» جمهورية تستمد كيانها من الشعب، وانتخب «مصطفى  
كمال» أول رئيس للجمهورية.  
وفي (23 من رجب 1342هـ = 1 من مارس 1924م) دعا «مصطفى كمال»

المجلس الوطنى إلى عقد جلسة وقدم مرسومًا بطرد الخليفة، وإلغاء الخلافة، وفصل الدين عن الدولة، واستمر الجدل والنقاش حول هذه الخطوة فى المجلس عدة أيام، وفى صباح اليوم الثالث من شهر مارس أذيع نبأ إلغاء الخلافة وفصل الدين عن الدولة، وأمر فى الوقت نفسه السلطان «عبد المجيد» بمغادرة البلاد إلى «سويسرا». وما إن تم القضاء على الخلافة حتى جرت سلسلة من التغييرات التى استهدفت فصل الدين عن الدولة، فألغيت وزارة الأوقاف وصودرت ممتلكاتها، وألغيت وظيفة شيخ الإسلام، ونقل الإشراف على المدارس الدينية إلى إدارة التعليم المدنى التى أصبحت مسئولة عن التعليم العام، ثم ألغيت المحاكم الشرعية التى انتقلت اختصاصاتها إلى المحاكم المدنية، كما ألغيت الكتابة بالحروف العربية، واستبدلت بها الحروف اللاتينية.

وفى سنة (1353هـ = 1934م) أعطيت المرأة التركية حق الانتخاب والترشيح للمجالس النيابية، وألغيت الألقاب العربية، وفرض على الأتراك استعمال ألقاب أسرية على النمط الغربى، وقد استهل «مصطفى كمال» هذا الإجراء بأن أطلق على نفسه لقب «أتاتورك» بمعنى «أبو الترك»، وجعلت العطلة الرسمية الأسبوعية يوم الأحد بدلا من يوم الجمعة، وفرض على الأتراك ارتداء القبعة والملابس الأوربية.

(75/8)

---

## الفصل السادس

### \*العرب تحت الحكم العثمانى

حكم العثمانيون العرب نحو أربعة قرون، وذلك من أوائل القرن السادس عشر إلى أوائل القرن العشرين، وقد تقلبت أحوال العرب فى هذه القرون وتطورت علاقاتهم بالعثمانيين؛ تبعًا لتطور الحكم

العثماني نفسه، واتجاه الأطماع الأوروبية إلى بلادهم.  
فعندما فتح العثمانيون العالم العربي كان قد حل به قدر كبير من  
الإعياء؛ نتيجة حروبه المتصلة مع المغول والصليبيين والبرتغال  
والإسبان، واضمحلال موارده الاقتصادية؛ ونتيجة لذلك نزل عن مكان  
الصدارة؛ وضعفت قوته.

وقد اعتمد العثمانيون في فتح العالم العربي على عامل الدين؛ إذ  
رأى العرب أن الوازع الديني يدفعهم إلى الولاء للخليفة العثماني،  
أما الخروج عن واجب الولاء فإضعاف للدين والدولة؛ مما يفتح الباب  
للدول الأوروبية الطامعة في بلاد العرب والمسلمين.  
وقد بلغت الدولة العثمانية أقصى اتساعها وقوتها؛ عندما استولت  
على معظم أجزاء العالم العربي، واستلزم ذلك تقسيم الدولة إلى  
ولايات كثيرة العدد، وتقسيم كل ولاية إلى عدد من الألوية، وضم كل  
لواء عددًا من المقاطعات، وعين السلطان في كل ولاية نائبًا له يُلقب  
«باشا».

وكان هؤلاء الولاة لا يعينون إلا لمدة عام، فإذا انتهى العام إما أن  
ينقلوا إلى مناصب أخرى، أو يجدد لهم عامًا آخر، وقد أوجد هذا  
التعيين في نفوس هؤلاء الولاة شيئًا من القلق؛ فلم يكونوا على ثقة  
ببقائهم في مناصبهم، ولذلك لم يهتموا بوضع الخطط لإصلاح الولايات  
التي يحكمونها.

وكان لكل نائب (باشا) ديوان يشير عليه في الأمور المهمة ويتألف من  
كبار الضباط والأعيان والعلماء.

وجرى العثمانيون على ترك شؤون الحكم الداخلي في الولايات  
لأصحاب العصبية الإقليمية أو العنصرية أو الدينية، كأمراء المماليك  
في «مصر»، وزعماء العشائر البدوية في «العراق»، والأمراء  
المعنيين والشهابيين في «لبنان».

محاولات العرب للانفصال عن الدولة العثمانية:

---

احتفظ العرب بقوميتهم إلا أن عاطفة الولاء للخليفة العثماني كانت أقوى أثرًا من العاطفة القومية، وكانت هذه العاطفة الدينية تدعو العرب إلى التمسك بالولاء للسلطان والدولة، فكانوا يرون أن الخروج على الدولة خروج على الدين الإسلامي، وتفتيت لوحده. وكان من الطبيعي أن تحدث بعض الفتن والاضطرابات في أنحاء مختلفة من العالم العربي، نتيجة انتهاز بعض الحكام أو أصحاب العصبية الإقليمية أو العنصرية فرصة اضطراب الأحوال الداخلية في الدولة العثمانية؛ فقاموا ببعض المحاولات للاستقلال ببعض أقاليم الدولة، لكن هذه المحاولات فشلت؛ لأن معظمها حركات لم تنبع من صميم الشعب العربي؛ الذي كان يحرص على الرابطة الدينية؛ إذ قام بها زعماء إقطاعيون؛ كان هدفهم الأول الاستحواذ على السلطة والنفوذ، ومن أمثلة هذه الحركات:

في «مصر»: حاول «علي بك الكبير» أن يستقل عن الدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، فقام بطرد الباشا العثماني، وتعقب القوات العثمانية، كما عمل على الاستحواذ على «سوريا» من الحكم العثماني وضمها إلى «مصر»، وحاول الاتصال بروسيا التي كانت في حرب مع الدولة العثمانية؛ ولكن هذه المحاولة فشلت. وفي «الشام»: كانت هناك ثورات حاولت الانفصال عن الدولة العثمانية؛ ومن أهمها ثورة الأمير «فخر الدين المعنى الثاني» في جبل «لبنان»، وكان زعيمًا واسع الأطماع؛ تغلب على منافسيه من الزعماء الإقطاعيين، وتطلع إلى الاستعانة ببعض الدول الأوروبية في الانفصال عن الدولة العثمانية، فعزمت الدولة العثمانية على القضاء عليه، ففر هاربًا إلى أمير «توسكانا».

وعاش الأمير «فخر الدين» هو وحاشيته في «إيطاليا» نحو خمس سنوات، ثم رجع بعدها إلى «الشام»، وحاول السيطرة عليها مرة

أخرى، ولكن الدولة العثمانية تمكنت من القضاء على فتنته، وقبض على «فخر الدين»، وأرسل هو وأولاده إلى «إستانبول».

(77/8)

وقد دخل في هذه الفترة فن الطباعة، وتعد أول مطبعة دخلت العالم العربي هي التي أنشئت في «لبنان»، وترتب على دخول المطبعة وإنشاء المدارس الدينية قيام حركة ترجمة واسعة، اقترنت بحركة إحياء الآداب وجمع مخطوطاتها وتأليف المعاجم العربية. وظهر أيضاً في «لبنان» في أوائل القرن التاسع عشر شخصية بارزة لعبت دوراً كبيراً في «الشام» وهي شخصية الأمير «بشير الشهابي الكبير»، الذي حالف «محمد علي» والى «مصر» ضد الدولة العثمانية، وأعانه على فتح «الشام»، وحكمها حتى انسحبت القوات المصرية على إثر تدخل الدول الأوربية الكبرى في سنة (1255 - 1256هـ = 1839 - 1840م)، ونفى الأمير «بشير» إلى «مالطة»، ثم انتقل إلى «إستانبول» حيث مات فيها.

وفي «فلسطين»: ظهر الشيخ «ضاهر العمر» وهو من شيوخ البدو في «فلسطين»، وكان واسع الأطماع، فمد بصره إلى خارج «الشام»؛ حيث اتصل بعلي بك الكبير في «مصر»، وحاول الاستعانة بروسيا؛ لكن الدولة العثمانية تمكنت في النهاية من القضاء على حركته.

وفي «العراق»: نجد الباشوات المماليك قد فرضوا شخصيتهم في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، وبرزت في «العراق» شخصيتان مهمتان أولهما: «سليمان باشا» الذي تحدى رجال الدولة وامتنع عن إرسال الأموال إلى «إستانبول»، وعنى بتدريب المماليك حتى استطاعوا الاحتفاظ بالحكم من بعده.

أما الآخر فهو «داود باشا» آخر حكام المماليك في «العراق»، فقد

تولى الحكم في ظروف قاسية؛ حيث سادت الفتن والاضطرابات  
«العراق» من الداخل، وتحفزت «إيران» لغزوه من الخارج، فاتجه  
«داود باشا» إلى تنظيم إدارته، وإشاعة الرخاء وإنشاء المدارس،  
كما أدخل أول مطبعة في «العراق»، وكان «داود باشا» يضيق  
بالنفوذ الإنجليزي، وبالامتيازات التي يتمتع بها الإنجليز.  
وفي «اليمن»: رفض الناس حكم «الأتراك»؛ لاختلاف المذهب الديني،  
فأهل «اليمن» من الشيعة، والعثمانيون من أهل السنة؛ لهذا توالى

(78/8)

الثورات على العثمانيين، وتزعم إمام «صنعاء» حركة المقاومة ضد  
العثمانيين حتى أجلاهم عن «صنعاء»، ثم عن بقية أنحاء «اليمن»  
سنة (1045هـ = 1635م).  
وبهذا كان «اليمن» أول بلد عربي استقل عن الحكم العثماني، إلا أن  
العثمانيين ظلوا يتشبثون بالسيادة على «اليمن»؛ حتى سحقت لهم  
الفرصة في سنة (1289هـ = 1872م) فأعادوه إلى نفوذهم.  
وفي «ليبيا»: كانت هناك أسرة عثمانية اتخذت «ليبيا» موطنًا لها  
هي الأسرة القرمانية، وكان مؤسسها هو «أحمد القرماني» الذي  
قضى على الثورات الداخلية التي قام بها أصحاب العصبية داخل  
البلاد، وعمل على المحافظة على وحدة «ليبيا»، وتأمين التجارة عبر  
الصحراء، فدان له حكم «ليبيا»، فحكمها حتى سنة (1158هـ = 1745م).  
وقد اهتم خلفاء «أحمد باشا» بالبحرية الليبية التي أكسبت «ليبيا»  
في عهدهم قوة ومهابة، وكانت من أهم الموارد الاقتصادية لليبيا،  
وذلك لأن الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية كانوا يدفعون  
ليبيا إتاوة حتى يضمنوا سلامة سفنهم التجارية في «البحر  
المتوسط»، ثم ضعف النشاط البحري الليبي بسبب موقف الدول  
الأوروبية منها وعملها على القضاء عليها، فاضطربت مالية البلاد، ومد

الولاية أيديهم إلى الأجانب طلبًا للقرض.  
وزاد الأمر سوءًا باحتلال «فرنسا» للجزائر سنة (1246هـ = 1830م)،  
فأوجد بذلك خطرًا جديدًا ببلاد المغرب، هذا بالإضافة إلى اضطراب  
الولاية القرمانيين في حكم البلاد.  
وانتهز السلطان «محمود الثاني» الفرصة فأرسل أسطولًا في مايو  
سنة (1251هـ = 1835م) إلى «ليبيا»، ولم يلق مقاومة كبيرة، فأعلن  
تعيين والٍ جديد من قبل الدولة وعادت «ليبيا» ولاية عثمانية.  
أما «الجزائر» و «تونس»: فقد استبد بالسلطة فيهما رؤساء الجند  
واختاروا من بينهم حاكمًا يدعى «الداي» في «الجزائر»، و «الباي»  
في «تونس»، وأصبحت «الجزائر» و «تونس» مستقلتين في إدارة  
شئونهما، وليس للدولة العثمانية عليهما سوى حق السيادة، وقامت

(79/8)

---

في «تونس» أسرة حاكمة هي «الأسرة الحسينية» ومؤسسها  
«حسين بن علي» وفي عهدها استكملت «تونس» شخصيتها، فنظمت  
علاقتها بالدول الأوروبية، وعقدت معها المعاهدات لتأمين تجارتها  
في «البحر المتوسط».  
وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر تعرضت الدولة العثمانية  
لأخطر حركتين كادتتا تعصفان بكيانها في البلاد العربية:  
الأولى: الحركة الوهابية:  
تنتمي هذه الحركة إلى الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» المولود في  
«نجد» سنة (1108هـ = 1696م) في قرية «العينية»؛ حيث كان جده ثم  
أبوه يتوليان منصب القضاء فيها فنشأ في بيت علم نشأة دينية،  
كان لها أثرها في شخصيته، فقام يدعو إلى التوحيد بعد أن أكثر  
من التأمل فيما آلت إليه أحوال المسلمين في عصره، وهاله ما رآه  
من البدع والخرافات التي ألصقتها البعض بالدين، كالاتعانة بالموتى

والتبرك بالأشجار والأضرحة، ووجد أن التوحيد الذى يتميز به الإسلام على سائر الأديان أصبحت تحيط به مظاهر الوثنية والشرك، فأخذ يدعو إلى نبذ هذه البدع، فثار عليه الناس واضطهدوه فبدأ يكتب رسالته المشهورة: «التوحيد الذى هو حق الله على العبيد».

ابن عبد الوهاب فى الدرعية:

وقد اتبعه فى البداية عدد قليل من الناس وعارضه كثير منهم، كما تنقل أكثر من مرة خوفاً من القتل، وفراراً من عدوان الناس؛ حتى انتهى به المطاف فى «الدرعية»؛ حيث أيد أميرها «محمد بن سعود» دعوة الشيخ، وتحالف الاثنان على العمل لنشر الدعوة الجديدة بين المسلمين.

اتساع الحركة والتوسع السعودى:

وإلى جانب النشاط الدعوى للحركة الوهابية بدأ نشاط عسكرى ضد المخالفين للرأى، فأخذت الدولة السعودية الجديدة تتسع، حتى شملت معظم أنحاء «نجد» قبل وفاة «محمد بن سعود» سنة (1179هـ = 1765م)، وبعد وفاته تولى الحكم بعده ابنه «عبد العزيز»، وفى عهده ازدادت الحركة الوهابية قوة وانتشاراً، فتخطت حدود «نجد»، وفى عهد «سعود بن عبد العزيز» (1218 - 1229هـ = 1803 - 1814م)

(80/8)

---

بلغ النفوذ السعودى أقصى اتساعه؛ حيث تم فتح «الحجاز» فأصبحت الأماكن المقدسة تحت سيطرة آل سعود، ووصلت غاراتهم إلى «الشام» و «العراق».

موقف دولة الخلافة العثمانية:

كان فى استيلاء السعوديين على الجزيرة وتهديدهم للشام و «العراق» دوى كبير فى العالم الإسلامى، وتهديد لسمعة الدولة العثمانية التى حاولت القضاء على هذه الحركة عن طريق ولائها فى

«العراق» ثم «الشام» ولكن هذه الغارات باءت بالفشل.  
وفي النهاية اضطر السلطان العثماني إلى الاستعانة بوالى «مصر»  
«محمد على باشا»، فتمكن عن طريق ثلاث حملات قاد إحداها بنفسه  
أن يستولى على «الحجاز»، ثم «نجد»، ودخل «الدرعية» وقضى  
بذلك على الدولة السعودية الأولى.

وعلى الرغم من هزيمة السعوديين وتشتيت ملكهم بقيت الدعوة  
الوهابية كامنة فى النفوس، بل لقيت قبولا لتعاليمها خارج «الجزيرة  
العربية»، ولقد أثبتت الدعوة الوهابية قدرتها على أن تكون دعوة  
يقوم حولها ملك عربى، فقد قامت الدولة السعودية الأولى وانتشرت  
بفضل أمير الدعوة الوهابية، ثم قامت الدولة السعودية الثانية بعد  
انتهاء الحكم المصرى معتمدة على الدعوة الوهابية، كما اعتمد  
عليها «عبد العزيز آل سعود» فى تأسيس الدولة السعودية الثالثة.  
الثانية: الحملة الفرنسية على مصر:

كانت الحملة الفرنسية على «مصر» حلقة من حلقات الصراع الذى عم  
القارة الأوربية فى أعقاب الثورة الفرنسية، فقد حاولت الملكيات  
والإمبراطوريات فى «أوربا» القضاء على الثورة فى مهدها؛ لمنع  
انتشار أفكارها فى بقية القارة، ولكن «فرنسا» بفضل جيشها  
القوى وقائدها «نابليون بونابرت» تمكنت من هزيمة أكثر جيوش  
«أوربا» عدا «إنجلترا» التى أفلتت من يد «نابليون»؛ بسبب موقعها  
البحرى وقوة أسطولها سيد البحار فى ذلك الوقت.  
هذا فى الوقت الذى كان فيه العالم العربى يعيش حالة من الجمود  
والعزلة التى فرضت عليه.  
وبعد صلح «كاميو فورميو» الذى قضى على نفوذ «النمسا» فى

«البحر المتوسط» وحصلت «فرنسا» بموجبه على بعض جزر «البحر المتوسط»، أخذت «فرنسا» تعد العدة لغزو «إنجلترا»، لكن صعوبة هذه الفكرة وخطورة تنفيذها جعلت «فرنسا» تفكر في ضرب «إنجلترا» في تجارتها في الشرق، فاختارت «مصر» لتكون حجر الزاوية في تكوين مستعمرة فرنسية، وتضرب من خلالها «إنجلترا» في تجارتها في الشرق.

فقد أبحر «نابليون» من «ميناء طولون» في (3 من ذى الحجة سنة 1212هـ = 19 من مايو سنة 1798م) على رأس أسطول «فرنسا» وجيش تعداده نحو (36) ألف جندي، واستولى في طريقه على «جزيرة مالطة»، ثم وصل إلى «الإسكندرية»، فاستولى عليها بعد مقاومة عنيفة كاد «نابليون» نفسه أن يقتل فيها. ثم توجه إلى «القاهرة»، فاستولى عليها بعد أن هزم فلول المماليك عند منطقة «إمبابة»، وفرت بقية فلول المماليك إلى «الصعيد» و «الشام».

قضت الحملة الفرنسية في «مصر» نحو ثلاثة أعوام لم ينعم الفرنسيون خلالها بالراحة والطمأنينة، فقد قامت ثورات كثيرة كان أخطرها وأهمها ثورتا «القاهرة الأولى» و «الثانية». كما كان السلطان العثماني يرسل الحملة تلو الأخرى في محاولة لإخراج الفرنسيين من «مصر»، كما قامت «إنجلترا» بإرسال أسطولها إلى الشواطئ المصرية؛ حيث قام بتحطيم الأسطول الفرنسي في معركة «أبي قير البحرية»، ونتيجة لهذه الثورات وانقطاع الاتصالات بين فرنسا الأم وحملتها في «مصر»، وتحطيم الأسطول الفرنسي؛ عاد «نابليون» إلى «فرنسا» تاركًا قيادة الحملة لخليفته «كلبير»، الذي لم يلبث أن قُتل على يد «سليمان الحلبي» أحد طلاب الأزهر الشريف، الذي جاء إلى «مصر» ليتعلم في «الأزهر»، فرأى مدافع «فرنسا» تدك «الجامع الأزهر» وخيولهم ترتع فيه، فقرر الانتقام منهم بقتل قائدهم «كلبير». ولما تولى «مينو» قيادة الحملة كانت أحوالها قد ساءت إلى حد

كبير، ورأى «الإنجليز» والعثمانيين يُحكمون قبضتهم على مصر  
ففاوضهم على الجلاء وغادر «الإسكندرية» بعد توقيع الصلح مع من

(82/8)

---

تبقى من قوات الحملة الفرنسية في (جمادى الآخرة 1216هـ = أكتوبر  
سنة 1801م) عائداً إلى «فرنسا»، وعادت «مصر» ولاية عثمانية مرة  
أخرى.

وعلى الرغم من فشل حملة «نابليون» على «مصر» فإنها كانت ذات  
نتائج أدت إلى تغيير في بنية وعقلية المنطقة، منها أنها كانت بداية  
للاستعمار في الشرق، وظهرت معها فكرة القومية العربية والشعور  
القومي وفكرة الاستقلال.

(83/8)

---

## الفصل السابع

\*بناء مصر الحديثة في عهد محمد علي

خرجت الحملة الفرنسية من «مصر» بعد أن قضت على النظام  
المملوكي والعثماني الذي كان قائماً منذ أوائل القرن (10هـ = 16م)،  
فكانت الفرصة مواتية أمام «محمد علي باشا» لكي يستفيد من تنازع  
النفوذ بين المملوكي والعثماني في السيطرة على مقدرات الأمور في  
«مصر».

رأى «محمد علي» أن الوقت لم يحن ليتقدم لانتزاع السلطة في  
«مصر»، فأثر التريث والعمل على التقرب إلى الشعب المصري، الذي  
ظهرت فاعليته في مقاومة الفرنسيين، فاتحد مع «إبراهيم بك»  
و «البرديسي بك» زعيمى المماليك، وقاموا باحتلال «القاهرة» وطرد

الوالي التركي والحامية العثمانية، وظل «محمد علي» يعمل في الخفاء ويوطد صلاته بزعماء الشعب، ولكن الأمر لم يستقر للمماليك؛ حيث إنهم عادوا إلى ظلم الشعب وإرهاقه بالضرائب، فثار عليهم الشعب وتحالف معه «محمد علي» وقواته التي قامت بمهاجمة المماليك في كل مكان حتى أرغمهم على الفرار وترك «القاهرة»، وتسلم «خورشيد باشا» التركي الحكم، وأراد أن يبعد «محمد علي» عن «القاهرة»؛ فثار الشعب ضده بقيادة الزعماء والعلماء، الذين اتفقوا على عزله وتولية «محمد باشا».

وقام السيد «عمر مكرم» نقيب الأشراف، والشيخ «الشرقاوى» شيخ «الجامع الأزهر» بالباسه خلعة الولاية في (14 من صفر 1220هـ = 13 من مايو 1805م)، بعد أن اشترطوا عليه أن يحكم بالعدل وإقامة الأحكام والشرائع الإسلامية، وألا يفرض على الشعب ضرائب جديدة دون أن يرجع إلى زعمائه وعلمائه.

حرص «محمد علي» في أول حكمه على استمالة زعماء الشعب اعترافاً بفضلهم وانتظاراً للفرصة المواتية للتخلص منهم حتى ينفرد بالحكم، واستطاع في النهاية القضاء على هذه الزعامات الشعبية والاستبداد بالحكم.

إمبراطورية «محمد علي»:

كان «محمد علي» يحلم بإقامة إمبراطورية عربية كبرى مستغلاً مواهبه الشخصية وضعف الدولة العثمانية، ومؤيداً من بعض الدول الأوروبية مثل «النمسا» و «فرنسا».

(84/8)

---

وقد مر تكوين إمبراطورية «محمد علي» بالأدوار الآتية:

أولاً: الاستيلاء على شبه الجزيرة العربية:

بعد ظهور دعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» الإصلاحية، التي

أخذت خطأ سياسيا بعد أن كانت دعوة دينية، وفشلت جهود الدولة العثمانية في القضاء عليها؛ لجأ السلطان العثماني إلى «محمد علي» ليعاونه في إخماد هذه الحركة.

وقد استمرت الحملة المصرية على «شبه الجزيرة» سبع سنوات تمكن خلالها «محمد علي» من القضاء على الحركة الوهابية ودولتها ودخول عاصمتها الدرعية، وقد أكسبت هذه الحملة «محمد علي» صلة وثيقة بالعالم العربي نظرًا لسيطرته على الحرمين الشريفين.  
ثانيًا: السودان:

اتجه «محمد علي» إلى «السودان» في سنة (1235هـ = 1820م) ليفتحه ويستثمر مناجم الذهب، ويسيطر على منابع النيل، فأرسل جيشه إلى «السودان» فسقطت المدن السودانية تباعًا، وقد حققت حملة «محمد علي» في «السودان» امتداد العنصر العربي في «وسط إفريقيا» وزادت من رقعة البلاد التي يسيطر عليها.  
ثالثًا: حرب المورة:

في الوقت الذي كان فيه «محمد علي» يوطد دعائم دولته، دعاه السلطان العثماني ليخوض معركة ضد «بلاد المورة» التي ثارت على حكم العثمانيين، ولم تتمكن الدولة من القضاء عليها سنة (1236هـ = 1821م)، ووافق «محمد علي»، وأرسل جيوشه أملاً في الحصول على «الشام» هدية من السلطان العثماني، وبفضل قوة «مصر» الحربية بدأ إخماد الثورة، غير أن تدخل «روسيا» و «بريطانيا» في الحرب وتحطيمهما للأسطول المصري في معركة «نوارين» جعل «محمد علي» يقبل الهدنة ويسحب جيشه من «المورة».  
ضم بلاد الشام:

تعتبر حملات جيش «محمد علي» على بلاد «الشام» بقيادة ابنه «إبراهيم» أوسع الحروب التي خاضها وأكثرها شأنًا، وإذا كانت حروبه السابقة بأمر السلطان العثماني ودفاعًا عن دولة الخلافة، فقد كانت حروب «الشام» ضد السلطان، وأوجدت الفرصة للتدخل الأوربي المباشر بينهما.

كان «محمد على» ينظر إلى بلاد «الشام» على أنها خط الدفاع الأول عن «مصر» من ناحية الشمال، وكان يطمع في ضمها إلى دولته، لحماية «مصر» من الشمال، بالإضافة إلى ما تتمتع به «سوريا» من مزايا اقتصادية أهمها وجود الأخشاب وبعض المعادن التي تفتقر إليها «مصر».

انتهز «محمد على» انشغال السلطان بحربه في «أوروبا»، فهاجم «سوريا» مفتعلاً خلافاً مع والي «عكا» «عبد الله الجزار»، فأرسل جيوشه بقيادة ابنه «إبراهيم» إلى «الشام» في (جمادى 1247هـ = أكتوبر 1831م).

وتطورت الحرب فدخل «إبراهيم باشا» دمشق» وهزم الأتراك في «حمص» في موقعة «مضيق ميلان»؛ وبذلك وصل إلى «جبال طوروس»، ثم تقابل الجيشان المصري والتركي في «قونية»، وكان النصر لحليف جيش المصريين، وتدخلت دول غرب «أوروبا»، فطلبت من «محمد على» وقف القتال وعزمت على التدخل بعد أن رأت أن «روسيا» تريد أن تتدخل في الأمر، ثم فرضت الدول الأوربية على «محمد على» قبول اتفاق «كوتاهية» ومقتضاه أعطى «محمد على» حكم بلاد الشام وابنه «إبراهيم» حكم «أطنة»، بشرط ألا يكون لهما الحق في توريثهما، وبذلك قامت دولة عربية تمتد من «أطنة» شمالاً إلى «بحر الجبل» بالسودان جنوباً، ومن «الخليج» شرقاً إلى حدود «برقة» غرباً.

ولم تعمر هذه الدولة العربية طويلاً؛ إذ اجتمعت عليها عوامل أدت إلى انهيارها سنة (1256هـ = 1840م)، فلم يحظ الحكم المصري في هذه البلاد بالقبول، ففي «الحجاز» و «السودان» اعتبر الأهالي جنود «محمد على» محتلين لبلادهم، وفي «الشام» استاء الأهالي من سياسة الحكم المصري في جمع الضرائب واحتكار تجارة الحرير،

ومن ثم قاموا ببعض الثورات.  
كما أن السلطان العثماني كان ساخطاً على «محمد علي» وكان  
يعمل جاهداً على عزله، وكانت الدول الأوروبية تعارض قيام دولة  
عربية قوية تقف في وجه أطماعها في أملاك الدول العثمانية.  
اجتمعت كل هذه العوامل للقضاء على «محمد علي»، وتمثلت في

(86/8)

---

اتفاقية لندن سنة (1256هـ = 1840م)، والتي أجبرت فيها الدول  
الأوروبية «محمد علي» على قبول الصلح مع الدولة العثمانية والتنازل  
لها عن «بلاد الشام» وأعطى هو حكم «مصر» وابنه «إبراهيم» ولاية  
«عكا».

وبذلك عادت البلاد العربية في «الشام» و «الجزيرة العربية» إلى ما  
كانت عليه قبل «اتفاق كوتاهية سنة (1249هـ = 1833م).

(87/8)

---

## الفصل الثامن

\*الاستعمار الأوربي في الوطن العربي حتى الحرب العالمية الأولى  
الاستعمار: هو السيطرة التي تفرضها دولة قوية على أخرى ضعيفة،  
وهذه السيطرة قد تأخذ أشكالاً مختلفة، مثل السيطرة العسكرية  
على البلاد أو السيطرة الفكرية والاقتصادية على الأمم المقهورة.  
وقد ادعت الدول الأوروبية كذباً أنها قامت بحركة التوسع الاستعماري  
بهدف تحضير وتطوير العالم الثالث، وأن ذلك رسالة الرجل الأبيض  
تجاه شعوب العالم الثالث، وليس أبلغ في الدلالة على كذب هذه  
الدعوى من رفض الكتاب والمفكرين الغربيين لها.

كانت الدولة العثمانية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر قوة عظمى تسيطر على غرب ووسط «آسيا» وشمال «إفريقيا»، وجنوب شرق «أوربا»، ثم أخذت الدولة العثمانية في الضعف وطمعت دول «أوربا» في ممتلكاتها.

الاستعمار البريطاني:

أولاً: الجنوب العربي:

تعرض الجنوب العربي وبخاصة «عدن» لسيطرة الاستعمار المبكرة، ففي سنة (1214هـ = 1799م) احتلت «بريطانيا» «بريم»، وعين أول مندوب بريطاني في اليمن سنة (1216هـ = 1801م)، ثم أنشأ الإنجليز مستودعاً للفحم سنة (1245هـ = 1829م)، وأرادت «إنجلترا» أن تشتري مرفأ «عدن» من السلطان العثماني ولكنه رفض واستولت عليه بالقوة في (1255هـ = 1839م).

وبعد افتتاح «قناة السويس» سنة (1286هـ = 1869م) امتد نفوذ «بريطانيا» إلى «حزرموت»، واخترعت نوعاً جديداً للسيطرة الاستعمارية وهو فرض الحماية على كل زعماء ومشايخ المنطقة كل على حدة.

ثانياً: وادي النيل:

أراد «إسماعيل باشا» والي «مصر» أن يتشبه بالمدنية الأوروبية، وأن يجعل «مصر» قطعة من «أوربا»، وعمل على أن تكون له إمبراطورية إفريقية امتدت جنوباً إلى خط الاستواء؛ حيث ضمت «دارفور» ومنابع «نهر النيل»، كما ضمت «إريتريا» و «هرر» و «الصومال» في شرق «إفريقيا»، ولكنه مع ذلك أغرق نفسه في الديون التي شجعتة عليها دول «أوربا» حتى وقع في أزمة مالية، فانتهزت «إنجلترا» الفرصة

للتدخل في شئون «مصر» مالياً، فجاءت البعثات الغربية للمحافظة على أموال الدائنين، ثم أنشئ صندوق الدين للحد من حرية تصرف الدولة المصرية في الإدارة والحكم، وكان هذا التدخل السياسي تمهيداً للتدخل العسكري من جانب «إنجلترا» في عهد الخديو «توفيق»، الذي تولى بعد عزل الخديو «إسماعيل».

ولما قامت الثورة العرابية بقيادة «أحمد عرابي» مطالبة بحق المصريين في قيادة الجيش ومناصب الدولة العليا، أذعن الخديو لبعض مطالبها ثم تشكلت وزارة برئاسة «محمود سامي البارودي» تولى «عرابي» فيها نظارة الحربية، ولكن «إنجلترا» و «فرنسا» أخذتا في تصعيد الأزمة بين الخديو ووزارة «البارودي»، ثم تطور الأمر فأرسلت «إنجلترا» و «فرنسا» أساطيلها إلى مياه «الإسكندرية» وطالبتا - في مذكرة مشتركة - الحكومة المصرية بإبعاد زعماء الحركة العرابية عن «مصر» وإقالة حكومة «البارودي»، فرفض الوزراء والشعب هذه المذكرة، ولكن الخديو قبلها، وكان من الصعب تشكيل وزارة بدون «عرابي»، الذي أصبح ينال تأييد كل من الجيش والشعب، ولكن «إنجلترا» التي كانت مصممة على احتلال «مصر» بدأت أساطيلها في ضرب «الإسكندرية» يوم (11 من يوليو 1882م) واضطر الجيش المصري إلى إخلاء المدينة، ثم تقدمت القوات الإنجليزية حتى احتلت «القاهرة»، بعد أن هزمت العرابيين في معركة «التل الكبير» في (ذى القعدة 1300هـ = سبتمبر 1882م).

الحركة المهديّة:

نشأت الحركة المهديّة في «السودان» على يد السيد «محمد أحمد المهدي»، الذي نشأ بالقرب من «دنقلة»، وحفظ القرآن الكريم وتعلم الفقه والحديث والتوحيد.

نادى «المهدي» بالتمسك بكتاب الله وسنة نبيه، وهاجم الاختلاف في الشروح والمسائل الفقهية الفرعية.

وكان من أسباب قيام الحركة المهديّة إرهاب حكومة «السودان»

المواطنين بالضرائب، واحتكارها للمحاصيل والسلع التجارية المهمة، وإهمال السودان وعدم إرسال الإمدادات إليه أثناء انشغال «مصر»

(89/8)

بالحركة الوهابية، فاستغل أنصار «المهدى» انشغال العربيين بالاحتلال الإنجليزي فاستولوا على «كردفان»، فقاد «هكس باشا» حملة مصرية للقضاء على المهديين، ولكن الحملة فشلت وقضى المهديون عليها، فطلب الإنجليز من الحكومة المصرية سحب قواتها من «السودان»، ولكن «شريف باشا» رئيس الوزارة رفض وقدم استقالته احتجاجاً على السياسة البريطانية، وخلفه «نوبار باشا» الذى استجاب وسحب الجيش المصرى من «السودان».

ثم عهد الإنجليز إلى «غوردون باشا» بأمر الانسحاب فاستهان بأمر «المهدى» وحركته، فزحف «المهدى» إليه وحاصره فى «الخرطوم» وقتلوا «غوردون باشا»، مما كان له أثر كبير فى انتشار المهديّة فى ربوع «السودان».

ثم تُوفى «المهدى» فى سنة (1303هـ = 1885م) وخلفه «عبد الله التعايشى» الذى لم يكن على مستوى «المهدى» ونفذه، فحاول غزو «مصر» ولكنه فشل ثم أرسل الإنجليز حملة كبيرة بقيادة «كتشنر» تمكنت من هزيمة المهديّة والقضاء على حركتهم واحتلال «السودان».

الاحتلال الفرنسى للمغرب العربى:

أولاً: الجزائر:

أرادت الحكومة الفرنسية فى عهد الملك «شارل العاشر» أن تصرف شعب «فرنسا» عن الثورة، وأن تشغله عن المشاكل الداخلية بالدخول فى مغامرات خارجية تحقق بها أمجاداً وانتصارات ترضيه بها، وكانت الجزائر فى ذلك الوقت دولة لها ديون على «فرنسا»،

والتي اتخذت من قصة المذبذبة المشهورة ذريعة لاحتلال «الجزائر» في يوليو سنة (1246هـ = 1830م).

ولكن «الجزائر» لم تبدأ فقامت المقاومة بقيادة الأمير «عبد القادر الجزائري» الذي أعلن قيام إمارة مستقلة في جنوب «الجزائر»، ولكن «فرنسا» بعد عقدها معاهدة مع الأمير نقضت بنودها، وتشددت في قتاله حتى استولت على أغلب مدن «الجزائر» فالتجأ الأمير «عبد القادر» إلى «مراكش»، ولكن «فرنسا» أذرت سلطان «مراكش» بعدم قبول اللجوء، فسلم «عبد القادر» نفسه إليهم، حيث نفى إلى «دمشق» ليقتضى بقية حياته بالشام.

احتلال تونس:

(90/8)

---

أراد حكام «تونس» إدخال المدينة الغربية إلى بلادهم، ومن أجل ذلك قبلوا الاستدانة من دول «أوروبا»، مما أوجد في النهاية الفرصة للتدخل الأجنبي في شؤون «تونس».

وكانت «فرنسا» هي المعنية بالدرجة الأولى بأمر «تونس»، ولكي تبرر تدخلها السافر في أمر «تونس»، ادعت قيام إحدى القبائل التونسية بالاعتداء على عمال فرنسيين، فدخلت قوات «فرنسا» «تونس» وحاصرت العاصمة وأجبرت الباي على توقيع «اتفاقية تاردو» سنة (1299هـ = 1881م)، والتي يعترف فيها بالحماية الفرنسية على «تونس»، وبحق «فرنسا» في إبقاء قواتها في الأراضي التونسية بالإضافة إلى رعاية «فرنسا» لمصالح «تونس» في الخارج، أي قبوله احتلال «فرنسا» لتونس.

ولكن الشعب التونسي رفض قبول هذه الاتفاقية وثار عليها، ولكن القوات الفرنسية المجهزة بأحدث الأسلحة أخمدت هذه الثورة بكل عنف سنة (1301هـ = 1883م) وقيدت الباي بمعاهدة جديدة استكملت

بها احتلال «تونس».

احتلال مراكش:

أرادت «فرنسا» أن تكون «مراكش» مكملة لمستعمراتها في «المغرب العربي»، فدخلت في صراع مع عدد من دول أوروبا، فإسبانيا ترى فيها مجالاً حيويًا لتمد سلطانها إلى الجنوب، و «إنجلترا» تريد السيطرة على «مضيق جبل طارق»، و «ألمانيا» التي دخلت حلبة الصراع الاستعماري متأخرة تريد أن تكون «مراكش» مستعمرة لها، ولكن «إنجلترا» التي خشت من تزايد قوة البحرية الألمانية عقدت مع «فرنسا» ما عرف بالاتفاق الودي (1322هـ = 1904م) والذي أنهى النزاع حول «مراكش»، فقد أيدت «بريطانيا» احتلال «فرنسا» لمراكش في مقابل عدم مطالبة «فرنسا» «إنجلترا» بالانسحاب من «مصر»، كما عقدت «فرنسا» معاهدة مع «إسبانيا» اعترفت فيها «إسبانيا» بمركز «فرنسا» في «مراكش» في مقابل اعتراف «فرنسا» بمركز «إسبانيا» في منطقة الريف الساحلية المواجهة لإسبانيا.

ولكن «ألمانيا» رفضت ذلك وساندت السلطان المغربي في مطالبته باستقلال مدينة «طنجة».

(91/8)

---

وعقد مؤتمر الجزيرة الذي وقفت فيه «إنجلترا» و «إسبانيا» و «إيطاليا» إلى جانب «فرنسا»، وتقرر في هذا المؤتمر الاعتراف بالنفوذ الفرنسي والإسباني في «مراكش».

وانتظرت «فرنسا» الفرصة لاحتلال «المغرب» وواتتها الفرصة سنة (1330هـ = 1911م) عندما ثارت القبائل على السلطان «عبد الحفيظ» الذي استنجد بفرنسا التي سارعت إلى نجده و دخلت قواتها مدينة «فاس» في (ربيع 1330هـ = مارس 1911م)، ثم عقدت معاهدة الحماية

مع السلطان «عبد الحفيظ» سنة (1331هـ = 1912م)، كما تمت التسوية بين «فرنسا» و «إسبانيا» في (نوفمبر 1912م) وحددت مناطق نفوذ كل منهما، واتفق على أن يعين السلطان خليفة له في منطقة الريف التي تخضع للنفوذ الإسباني، وبذلك دخل «المغرب» تحت الاحتلال الفرنسي من ناحية، والإسباني من ناحية أخرى.  
الاحتلال الإيطالي لليبيا:

بعد أن أتمت «إيطاليا» وحدتها أخذت تهيب نفسها لدخول حلبة الاستعمار الأوربي، ولكنها وجدت معظم الأقطار الإفريقية والآسيوية وقعت فريسة في يد «إنجلترا» أو «فرنسا»، ولكنها رأت أن «ليبيا» التي تقع في شمال «إفريقيا»، والتابعة للدولة العثمانية من الممكن أن تكون مستعمرة إيطالية، فأخذت الحكومة الإيطالية ترسل الإرساليات المختلفة من مدارس ومستشفيات وبنوك لتقرض الأهالي ثم تستولى على أراضيهم.

ثم لعبت السياسة الاستعمارية دورها فأعلنت «إيطاليا» الحرب على الدولة العثمانية، وقامت باحتلال «ليبيا» سنة (1330هـ = 1911م)، لتكون مستعمرة لها، ومن أجل صرف نظر السلطان العثماني عن «ليبيا» قامت «إيطاليا» بمهاجمة ميناء «الدردينيل» وميناء «بيروت» وساحل «اليمن»، وافتعلت ثورة في منطقة «البلقان» لتجبر السلطان العثماني على توقيع معاهدة سنة (1331هـ = 1912م) والتي اعترف فيها باستعمار «إيطاليا» لليبيا، مقابل اعتراف «إيطاليا» بالسيادة الروحية لتركيا، ولكن الشعب الليبي أخذ يقاوم الاحتلال عن طريق

(92/8)

---

الزوايا السنوسية التي نظمت حركة الجهاد أثناء الحرب العالمية الأولى، وعقدت عدة اتفاقيات حتى الحرب العالمية الثانية، حيث نالت «ليبيا» استقلالها.

## الحركة السنوسية:

تنتسب هذه الحركة إلى مؤسسها السيد «محمد بن علي السنوسي» الذي اتصل بالحركة الوهابية وتأثر بها أثناء قيامه بأداء فريضة الحج، ثم قام بإنشاء أول زاوية له بالحجاز سنة (1253هـ = 1837م)، ثم اتجه إلى موطنه الأصلي في «الجزائر» سنة (1256هـ = 1840م)، ولكنه آثر تركها لوجود الاحتلال الفرنسي بها واتجه إلى «ليبيا»، وهناك التف حوله الأنصار والأتباع واتسعت حركته وانتشرت الزوايا السنوسية في أنحاء «ليبيا»، وكانت تخضع للزاوية الرئيسية في واحة «جغبوب» ثم في «واحة الكفرة».

وقد نادى «السنوسي» بالعقيدة الإسلامية الصحيحة، وتحكيم شرع الله، والعمل على محاربة البدع والمنكرات التي انتشرت في بعض أنحاء العالم الإسلامي.

كما دعا وتمسك بضرورة الانضواء تحت لواء الخلافة العثمانية على أنها الأمل الباقي لجمع المسلمين وتوحيد كلمتهم، وقد تصدى السنوسيون بكل قوة للاحتلال الإيطالي، وقادت الزوايا السنوسية حركة الجهاد ضده، وقد أحرز السنوسيون العديد من الانتصارات على القوات الإيطالية.

(93/8)

## الفصل التاسع

\* بعض الجوانب الحضارية في الدولة العثمانية

العناية باللغة العربية:

منذ أن تولى الأمير «عثمان» مؤسس الدولة العثمانية الحكم سنة (680هـ = 1281م) وحكم (37) سنة أحاط نفسه بعلماء قبيلته ومشايخها الذين كانوا يعنون بحفظ القرآن الكريم وتحفيظه، ومع تولى

«أورخان» الحكم خرج التعليم من المسجد إلى المدرسة، حيث فتح أول مدرسة في مدينة «إزميد» التي فتحها سنة (728هـ = 1327م)، وكان أول مدرس بها هو «داود القيصرى»، ودرست بها كثير من الكتب، فدرّس في مادة التفسير كتابي «تفسير الكشاف» للزمخشري، و «تفسير البيضاوى» لناصر الدين «عبد الله بن عمر البيضاوى»، وفي الحديث كتب الصحاح الستة، وهي: «صحيح البخارى»، و «صحيح مسلم»، و «سنن الترمذى»، و «سنن أبى داود»، و «سنن النسائى»، و «سنن ابن ماجه»، وكتاب «مصابيح السنة» للبعوى.

ودرس في مادة الفقه كتاب «الهداية» لشيخ الإسلام «برهان الدين على بن أبى بكر المرغانى»، وكتاب «العناية فى شرح الوقاية» لعلاء الدين «على بن عمر الأسود»، وفي أصول الفقه كتاب «التلويح» للتفتازانى، و «منار الأنوار» للنسفى، و «المغنى» لجلال الدين عمر، و «مختصر ابن الحاجب».

وتقرر فى العقائد كتاب «القاضى الإيجى»، وكتاب «النسفى» و «الطحاوى»، وفي علم الكلام كتاب «تجريد الكلام» للطوسى، و «طوالع الأنوار» للبيضاوى، و «المواقف» للإيجى، وفي علم البلاغة كتاب «مفتاح العلوم» للسكاكى، و «تلخيص المفتاح فى المعانى والبيان» للقزوينى، وفي المنطق كتاب «الإيساغوجى»، و «مطالع الأنوار» لسراج الدين الأرموى، وفي الفلك كتاب «الملخص» لمحمود بن محسن الجعمينى.

ومن الكتب المقررة فى النحو: «ألفية ابن مالك» و «العوامل» للشيخ «عبد القادر الجرجانى»، و «الكافية فى النحو» لابن الحاجب، وكتب «ابن هشام»: «شذور الذهب»، و «قطر الندى»، و «مغنى اللبيب»، ودرس فى الصرف كتاب «أساس التصريف» لشمس الدين الغنارى، و «الشافية» لابن الحاجب وغيرهما.

وبرز كثير من علماء الدولة العثمانية في مجال الثقافة الإسلامية المكتوبة باللغة العربية، مثل: «حاجى خليفة» صاحب كتاب «كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون»، وهو كتاب بيبليوجرافى مهم، وله مكانته فى الدراسات العربية الإسلامية، جمع فيه أسماء (14500) كتابًا لتسعة آلاف وخمسمائة مؤلف، وتناول فيه نحو (300) فن أو علم، وقد حوى هذا الكتاب أمهات المصادر فى الفكر الإسلامى مما صنّف باللغة العربية أو الفارسية أو التركية.

ومن هؤلاء العلماء - أيضًا - «طاشكو برى زاده» وهو «عصام الدين أبو الخير أحمد بن مصطفى» صاحب كتاب «الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية»، تناول فيه تراجم أكثر من (500) عالم وشيخ من علماء الدولة العثمانية من عهد الأمير «عثمان» حتى السلطان سليمان القانونى، منهم: ابن كمال باشا «شمس الدين أحمد بن سليمان» الذى اشتهر بكثرة تأليفه ورسائله، وهو يشبه فى ذلك «السيوطى» و «ابن الجوزى» و «ابن حزم» ممن اشتهروا بكثرة مؤلفاتهم. يقول «اللكنوى» بأن لابن كمال باشا رسائل كثيرة فى فنون عديدة، لعلها تزيد على ثلاثمائة غير تصانيف له فى لغات إسلامية أخرى كالفارسية والتركية، وكان ذلك فى عهد السلطان «سليم الأول».

وزخر عهد السلطان «محمد الفاتح» بالمصنفات العربية، وبخاصة أساتذته الذين قاموا بتعليمه وتثقيفه، مثل الشيخ «الكورانى»، والشيخ «خسرو»، كما ظهر فى عهد «سليمان القانونى» شيخ الإسلام «أبو السعود أفندى» صاحب التفسير المعروف «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم».

وكانت اللغة العربية هى السائدة فى جميع المدارس والجامعات العثمانية، على حين استخدمت اللغة التركية فى الأعمال الحكومية فقط.

وعنى السلاطين العثمانيون بالأدب والشعر، فكان السلطان «مراد الثاني» (805 – 855هـ = 1402 – 1451م) يعقد مجلسًا في قصره، يدعو إليه الشعراء ليتسامروا ويقرضوا الشعر بين يديه، وكان يشجع حركة

(95/8)

الترجمة من العربية إلى التركية، وجعل من قصره مكانًا للمتترجمين، فأصبح كأنه أكاديمية علمية. ثم خلفه ابنه «محمد الفاتح» الذي وصفه المؤرخون بأنه راعٍ لهضة أدبية، وشاعر مجيد، وكان يجيد عدة لغات، ويداوم على المطالعة وبخاصة الكتب العربية التي ملأت مكتبته، ويعنى بالأدب عامة والشعر خاصة، ويصاحب العلماء والشعراء ويصطفيهم، وقد استوزر منهم الكثير، مثل: «أحمد باشا» و «قاسم الجزرى باشا»، وعهد إلى الشاعر الأناضولى «شهدى» أن ينظم قصيدة تصور التاريخ العثمانى باللغة الفارسية على غرار «الشاهنامه» التي نظمها «الفردوسى». وكان «محمد الفاتح» إذا سمع بعالم متبحر فى فن من الفنون فى الهند أو فى السند استماله بالإكرام، وأمده بالمال، وأغراه بالمناصب، ومثال ذلك: أنه استقدم العالم الكبير «على قوشجى السمرقندى» وكانت له شهرته فى الفلك، كما كان يرسل كل عام مالا كثيرا إلى الشاعر الهندى «خواجه جهان» والشاعر الفارسى «جامى».

وبرع «الفاتح» نفسه فى نظم الشعر، حتى اتخذ لنفسه اسما شعريا يستخدمه فى أشعاره التى تعكس رقة إحساسه، ورهافة مشاعره، وتبرز تكوينه الدينى.

وخلفه ابنه «بايزيد الثانى» وكان عالما فى العلوم العربية، وفى الفلك، ومهتما بالأدب ومكرما للشعراء والعلماء. وكان السلطان «سليم الأول» شغوقا بالشعر والشعراء والعلم

والعلماء، حتى إنه صحب معه في حملته على «فارس» الشاعر  
«جعفر لبي»، واصطحب في حملته على «مصر» و «الشام» الشاعر  
«ابن كمال باشا».  
وقد ازدهر الأدب التركي منذ القرن الثامن الهجري، وبلغ أوجه في  
القرن الحادى عشر، وتأثر بالأدب الفارسى، كما ازدهر نوع من  
الشعر الشعبى الموزون فى أوساط سكان «الأناضول»  
و «الروملى»، وساهمت التزيمات الصوفية لشاعرهم «يونس إمره»  
المتوفى سنة (721هـ = 1321م) فى تجسيد هذا الأدب الذى حافظ على  
وجوده واستمراره فى المراكز الصوفية، ومن هذا الشكل الشعبى

(96/8)

---

من الأدب التركى انطلق الأدب التركى الحديث متأثراً به وبالأدب  
الغربى.  
التاريخ والجغرافيا:  
قام العثمانيون بدور جيد فى مجال التاريخ، وبدأت المحاولات الأولى  
لتدوين التاريخ العثمانى تدويناً منظماً فى عهد السلطان «بايزيد  
الأول» على يد المتصوف «أحمد عاشق باشا»، ثم اهتم الباب العالى  
منذ القرن العاشر الهجرى بكتابة التاريخ، فعين المؤرخين الرسميين  
أمثال «سعد الدين» المتوفى سنة (1007هـ = 1598م).  
وتعد الجغرافيا أحد العلوم التى أجاد فيها العثمانيون نسبياً،  
وأشهر الأعمال الجغرافية ما كتبه الرحالة البحرى أو أمير البحر  
«بيرى رئيس» من كتب تتضمن رحلاته فى «البحر المتوسط»،  
واكتشافات الإسبان والبرتغال فى «إفريقيا»، كما ألف كتاباً عن  
الملاحة أطلق عليه اسم «بحریت»، وفى سنة (919هـ = 1513م) رسم  
خريطة للمحيط الأطلسى والشواطئ الغربية من «أوروبا» وأهداها  
للسلطان «سليم الأول» بالقاهرة، ورسم خريطة أخرى تمثل

اكتشافات البرتغاليين في «أمريكا الجنوبية» و «الوسطى»  
و «نيوزيلاندا»، كما أسهمت كتب «حاجي خليفة» و «أوليا لى»  
الجغرافية إسهامًا كبيرًا في هذا المجال.

الطب:

وفي مجال الطب كانت تلقى المحاضرات العلمية الطبية نظريًا،  
ويجرى تطبيقها عمليًا في مدرسة الطب، وزاول الطلبة تدريباتهم في  
المستشفيات، وكانت الكتب المقررة تشمل كتاب «ابن سينا»  
المشهور «القانون» وكتب «ابن عباس المقوس».  
وقام بالتدريس في المدارس الطبية العثمانية عدد من العلماء والأطباء  
الذين تلقوا تعليمهم في البلاد العربية و «إيران» و «تركستان»، ومن  
أهم الأطباء في ذلك العصر: «قطب الدين العجمي»، والطبيب «شكر  
الله الشرواني»، و «يعقوب الحكيم»، و «إلياس القراماني».

نظام القضاء:

كان «القاضي عسكر» هو رئيس الهيئة القضائية، وهذا المنصب  
استحدثه السلطان «مراد الأول»، ثم أضاف إليه السلطان «محمد  
الفتاح»، والسلطان «سليم الأول» قاضيين آخرين، واحدًا لأوروبا،

(97/8)

---

والآخر لإفريقيا، ولم تكن سلطتهم تقتصر على الشئون العسكرية بل  
تعدتها إلى الشئون المدنية، فهم الذين يعينون القضاة ونوابهم، وكل  
الموظفين القضائيين الآخرين، ويشكلون محكمة الاستئناف العليا.  
ويأتي العلماء الكبار بعد قضاة الجيش من حيث الترتيب، وهم يؤلفون  
قضاة العاصمة وعواصم الولايات، ثم يليهم العلماء الصغار الذين  
يزاولون القضاء في المدن الثانوية، ويليهم قضاة الدرجة الثانية وما  
دونها.

العلماء والفقهاء:

كان مفتي «إستانبول» (شيخ الإسلام) هو الشخصية الثانية التي تخضع لها الهيئات القضائية الدينية.

وخضع الموظفون الدينيون في العاصمة لسلطة المفتي مباشرة، وكان ينوب عنه في الولايات الكبرى قضاة العسكر.

وكان ترتيب الموظفين الدينيين في الجوامع الكبرى كما يلي:

الخطيب - الإمام المقيم - المؤذن، ويقوم المرشحون لهذه المناصب

بالتعلم في المدارس الدينية الكثيرة التي شيدها السلاطين، وكان

الطلاب فيها ينقسمون إلى ثلاث فئات:

1 - الصوفنا.

2 - المعيدون، حيث يحمل الطالب عند التخرج منها لقب «دانشمند» أو

«علم».

3 - فئة «المدرس».

أما مشايخ الطرق الصوفية فقد تعلقت بهم قلوب كثير من الناس، وقد

سادت هذه الطرق معظم أرجاء «آسيا الصغرى» كالتقشبندية

والمولوية والبكتاشية، وكان لهم دور في تهذيب العامة، وحضهم

على التمسك بالفضيلة والأخلاق الإسلامية الحميدة.

ومن أشهر الفقهاء العثمانيين: «أحمد بن إسماعيل الكوراني»

المتوفى سنة (893هـ = 1487م)، والمولى «خسرو» الذي دعى بأبي

حنيفة زمانه من قبل السلطان «محمد الثاني»، وتوفى سنة (885هـ).

ومن العارفين والمتصوفة الشيخ «محمد بن حمزة» الشهير بلقب «آق

شمس الدين» و «عبد الرحمن جامي» الذي توفى سنة (898هـ =

1492م).

ومن العلوم العقلية والنقلية، ظهر اسم: «شمس الدين الفتارى» الذي

خلف مكتبة بها (10) آلاف مجلد.

العمارة عند العثمانيين:

بلغ فن العمارة عند العثمانيين درجة عالية وخلف العثمانيون العديد

من الآثار العمرانية العظيمة أهمها:

- 1 - جامع آيا صوفيا: وهي الكنيسة السابقة التي حولها السلطان «محمد الثاني» إلى مسجد، يمثل الجامع الرئيسى فى العاصمة عقب فتح «القسطنطينية» مباشرة، وعُدلت لتلائم التقاليد الإسلامية، حيث غطيت الرسوم التي تمثل الفن البيزنطى، وشكل محراب وسط الجناح الجنوبي من الكنيسة، كما نصب المنبر على عمود الكنيسة الجنوبي الشرقي الكبير، وفى عهد السلطان «مراد الرابع» كتبت بعض الكلمات ذات الأحرف الكبيرة التي تحمل اسم الجلالة، واسم الرسول، والخلفاء الراشدين، وذلك على لوحات مستديرة شيدت على جدران المسجد، وهى بخط الخطاط «بيشكجى زاده مصطفى شلبى» الذى كتب حرف الألف وحده على سبيل المثال طوله عشرة أذرع، وكلها بخط متشابك بديع، وواصل باقى السلاطين إدخال تعديلاتهم وإصلاحاتهم بها.
  - 2 - جامع السلطان محمد: الذى شيده المهندس اليونانى «خريستو دولوس» بأمر من السلطان «محمد الثاني»، ويقع وسط العاصمة «إستانبول».
  - 3 - جامع السلطان أيوب: وكان السلاطين العثمانيون يتقلدون فيه مقاليد الحكم فى احتفال رسمى، وقد شيده السلطان «محمد الثاني» قرب ضريح الصحابي «أبي أيوب الأنصارى» رضى الله عنه.
  - 4 - مسجد بايزيد: وشيده السلطان «بايزيد»، ويعد من أبرز الآثار العمرانية التي تمتاز بنفاسة المواد البنائية الزخرفية التي جرت على الطريقة الفارسية.
  - 5 - جامع السليمانية، ويعد من أجمل آثار الفن المعماري العثماني، وشيده السلطان «سليمان»، وصممه المهندس المعماري «سنان باشا»، على أعلى قمة جبلية فى «الأستانة».
- إلى جانب العديد من الجوامع العظيمة التي تزيد على الخمسمائة

جامع، بخلاف المدافن والتكايا (الزوايا).  
أما القصور فأهمها قصر «سراى طوب قابو» التي تمتاز بفخامتها  
وامتدادها الواسع، ومبانيها، وحدائقها، وساحتها الواسعة،  
و «سراى دولمة بجهة» على «البسفور» وتمتاز ببهوها الكبير،

(99/8)

وكانت مسكنًا للسلطان «محمد رشاد». وسراى «جراغان» وسراى  
«يلدز» وسراى «بكر بك» التي توفى بها السلطان «عبد الحميد  
الثاني» بعد خلعه.

وأشهر المهندسين المعماريين فى الدولة العثمانية هو «سنان  
باشا»، الذى كان نصرانيا ثم أسلم وعمره (23) عامًا، واشترك فى  
الحمالات العثمانية والفتوحات فى المشرق والمغرب، واطَّلَعَ على كثير  
من الطرز والأعمال المعمارية التى جذبت انتباهه فى «تبريز»  
و «حلب» و «بغداد» ودول «أوربا».

وعندما عاد إلى «إستانبول» تولى منصب كبير معمارى الخاصة  
السلطانية، وأصبح المسئول عن إقامة الأعمال المعمارية من قصور  
وجوامع ومدارس ومطاعم وحمامات وأضرحة، وبلغت أعماله المعمارية  
نحو (441) عملاً موزعة فى مختلف أرجاء الدولة العثمانية، منها  
«جامع صقوللو محمد باشا»، و «جامع رستم باشا»، و «جامع شهر  
زاده»، و «جامع السليمانية»، و «جامع محمد باشا البوسنوى»، إلى  
جانب العديد من الأعمال فى البلدان العربية، وتشهد أعماله بالأصالة  
ويسودها المعرفة العميقة والتكنيك الهندسى، وفهمه الكبير للفن،  
ورقة ذوقه، وقد مكّنه كل ذلك من إضافة أشكال جديدة للفن  
المعمارى.

وتوفى «سنان باشا» سنة (966هـ = 1558م) وعمره يقارب المائة عام،  
بعدها عاصر خمسة من سلاطين العثمانيين.

فن الرسم العثماني:

لم يظهر هذا الفن إلا في عهد السلطان «محمد الفاتح» الذي دعا فناني إيطاليين مشهورين إلى القصر السلطاني، وأوكل إليهم إنجاز بعض اللوحات للسلطان، وليقوموا بتدريب بعض العثمانيين على هذا الفن، وكان من أشهرهم «ماستورى بافلى» و «كونستانزى دافيرارى»، وظهرت كثير من المواهب الوطنية مثل «سنان» تلميذ «ماستورى بافلى» و «حسام زاده». ومن فناني ذلك العهد «أحمد شبلى زاده» و «بابا مصطفى» و «تاج الدين بن «حسين بالى» و «حسن شلبى». ويبدو في هذه الأعمال أثر المدارس الإيرانية، ويبرز اسم «المطرقى» الذى رسم لوحات تمثل حملات الجيش العثماني ومناظر القلاع

(100/8)

والموانئ والمدن؛ مما كان له أثر في تطور فن الرسم الزيتي العثماني.

وفي عهد «سليمان الأول» وصل فن المنمنمات العثماني إلى أوجه، وقدم «كاتب الشيرازى» - الذى اتخذ اسمًا مستعارًا هو «عارفى» - وثائق الحوادث السياسية والاجتماعية التى جرت خلال حياة «سليمان الأول»، وكتب ورسم «عارفى» عملا من مآثر السلاطين العثمانيين حتى عهده هو «شاهنامه آل عثمان» فى خمسة مجلدات. ومن فناني المنمنمات فى ذلك العصر: «على شلبى»، و «مولى قاسم»، و «محمد البورحى» و «أوستان عثمان»، و «لطفى عبدالله» و «رئيس حيدر».

وفي عهد السلطان «مراد الثالث» وصل فن المنمنمات إلى أوجه، ومن أبرز الأعمال فى عصره «خورنامه» و «شاهنشاه نامه» المؤلفة من أشعار مكتوبة بالتركية والفارسية معًا، وتحكى توضيحاتها قصة

فتوحات الجيش العثماني الظاهر، والنشاطات الاجتماعية المتعددة  
لذلك العصر.

ووجدت في ذلك العصر مدرسة الفن الزيتي في «بغداد» في نهاية  
القرن (16م)، ولكن هذا الفن سرعان ما ضعف وتدهور في القرنين  
السابع عشر والثامن عشر.

(101/8)

- المراجع:

- \* برنارد لويس: استانبول وحضارة الخلافة العثمانية - تعريب: سيد رضوان علي - الدارالسعودية  
للنشر والتوزيع - جدة - الطبعة الثانية - 1982م
- \* بول كولز: العثمانيون في أوروبا - ترجمة: عبد الرحمن عبدالله الشيخ - الهيئة المصرية العامة للكتاب  
- القاهرة - 1993م
- \* حسان علاق: موقف الدولة العثمانية من حركة الصهيونية (1897 - 1909م) - دار الأحد -  
بيروت - 1938هـ = 1978م
- \* حسين خوجة: ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان - تحقيق: الطاهر المعموري - الدار  
العربية للكتاب - ليبيا - بدون تاريخ
- \* زياد أبو غنيمه: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك - دار الفرقان للنشر والتوزيع - عمان  
- الأردن - الطبعة الثانية - 1406هـ = 1986م
- \* عبدالعزيز محمد الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها - مكتبة الأنجلو المصرية -  
القاهرة - 1984م
- \* عزيز سامح التري: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية - ترجمة: محمود علي عامر - دار النهضة  
العربية - بيروت - الطبعة الأولى - 1409هـ = 1989م
- \* علي حسون: تاريخ الدولة العثمانية - المكتب الإسلامي - بيروت - الطبعة الثالثة - 1415هـ  
= 1994م
- \* القرماني (احمد تشيلي بن سنان الرومي): تاريخ سلاطين آل عثمان - تحقيق: بسام عبد الوهاب -  
دار البصائر - دمشق - الطبعة الأولى - 1405هـ = 1985م

- \* محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق الأدنى (1514هـ = 1914م) - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - 1984م
- \* محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة - المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي - القاهرة - 1414هـ = 1994م
- \* محمد الخير عبد القادر: نكبة الأمة العربية بسقوط الخلافة العثمانية (1875 - 1925م) - مكتبة وهبة - القاهرة - الطبعة الأولى - 1405هـ = 1985م
- \* محمد صادق العبيسي: فتح القسطنطينية - دار الحوار للنشر والتوزيع - اللاذقية - سوريا - الطبعة الأولى - 1986م

(102/8)

- 
- \* محمد عبد اللطيف البحراوي: حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني (1808 - 1839م) - دار التراث - القاهرة - الطبعة الأولى - 1398هـ = 1978م
- \* محمد فؤاد كوبرلي: قيام الدولة العثمانية - ترجمة: أحمد السعيد سليمان - الطبعة الثانية - الهيئة المصرية العامة للكتاب - 1993م
- \* محمد فريد بك: تاريخ الدولة العثمانية - تحقيق: احسان حقي - دار النفائس - بيروت - الطبعة الثانية - 1403هـ = 1983م
- \* محمود ثابت الشاذلي: المسألة الشرقية - دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية (1299 - 1923م) - مكتبة وهبة - القاهرة - الطبعة الأولى - 1409هـ = 1989م
- \* مصطفى حلمي: الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية - دار الدعوة - القاهرة - 1984م
- \* موفق بني المرجة: صحوة الرجل المريض أو السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة الإسلامية - مؤسسة صقر الخليج للطباعة والنشر - الكويت - 1984م
- \* يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية - منشورات مؤسسة فيصل للتمويل - إستانبول - الطبعة الأولى - 1408هـ = 1988م
- \* يوسف آصاف: تاريخ سلاطين آل عثمان - تحقيق بسام عبد الوهاب - دار البصائر - دمشق - الطبعة الثالثة - 1405هـ = 1985م

(103/8)

## الجزء التاسع

### المسلمون في أفريقيا جنوبي الصحراء

تأليف:

أ. د. رجب محمد عبد الحليم

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة القاهرة

### الفصل الأول

\*الطرق التي سلكها الإسلام إلى قارة إفريقيا

– الطرق التي سلكها الإسلام إلى قارة إفريقيا (جنوب الصحراء)

كثيرة ومتعددة، منها:

طرق القوافل التجارية التي تربط بين شمالي القارة وبلاد السودان الغربي والأوسط (غرب إفريقيا)، ومنها الطريق الذي يبدأ من جنوبي «تونس» ويتجه إلى «بلاد الكانم والبرنو» في حوض بحيرة «تشاد»، والطريق الذي يبدأ من جنوبي «الجزائر» ويتجه إلى «بلاد الهوسا» في شمال «نيجيريا»، والطريق الذي يبدأ من جنوبي «مراكش» ويصل إلى مصب «نهر السنغال» ومنحني «نهر النيجر» و «نيجيريا» و «تشاد».

وطريق بحري يسير عبر مياه «البحر الأحمر» و «خليج عدن» و «المحيط الهندي»، ويربط هذا الطريق بين «شبه الجزيرة العربية» وشرق إفريقيا، ومنه دخل الإسلام إلى شرق القارة وخاصة إلى «إريتريا» و «الصومال» و «الحبشة» و «زنجبار» وساحل شرقي إفريقيا حتى مدينة «سوفالة» جنوب «نهر الزمبيزي» في «موزمبيق».

وطريق وادي النيل وطريق درب الأربعين اللذان تدفق منهما الإسلام

إلى «بلاد البجة» و «بلاد النوبة» وإلى «دار فور» وبقية «بلاد السودان الشرقي»، وهو «سودان وادى النيل» الذى يعرف الآن بجمهورية السودان.

ويلاحظ أن معظم هذه الطرق طرق تجارية، ولم تستخدم كمعابر للجيوش إلا فى القليل النادر، مما يؤكد سمة الطابع السلمى لانتشار الإسلام فى قارة إفريقيا. ومما يؤكد ذلك أيضاً أن أهل القارة أنفسهم سواء أكانوا من البربر أم من الزنج والسودان هم الذين قاموا بنشر الإسلام؛ بعد أن وصلت الدعوة إلى بلادهم وإلى ما وراءها من بلدان، ولم تكن حركات الفتح والجهاد التى حفل بها تاريخ الإسلام فى القارة خلال بعض الفترات لاسيما فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين من بعدهم ذات أثر كبير فى نشر الإسلام؛ إذ لم يكن هدفها نشر هذا الدين بقوة السلاح كما يدعى كثير من المستشرقين وأعداء الإسلام، وإنما كان هدفها هو إزاحة العقبة

(1/9)

---

التي كانت تحول دون وصول الإسلام بالحكمة والموعظة إلى أهل إفريقيا، وكانت هذه العقبة تتمثل فى جيوش الاحتلال البيزنطى، التى كانت تحتل «مصر» والساحل الشمالى لإفريقيا كله قبل فتح الإسلام لهذه البلاد.

وبعد أن أنقذ المسلمون أهالى القارة من هذا الاحتلال البغيض، أصبح الطريق مفتوحاً أمام الدعوة، ومن ثم تلقفها الأفارقة بشغف وحب شديدين، واتخذت الدعوة إلى هؤلاء الأفارقة أشكالاً متعددة وعلى يد أناس مختلفى الصفات والاتجاهات، منهم الدعاة الذين وهبوا حياتهم لهذا العمل العظيم، ومنهم التجار الذين جمعوا بين الدعوة والتجارة، ومنهم الحجاج الذين تأثروا بمظاهر الأخوة الإسلامية فى موسم الحج وأثروا فى إخوانهم وأهاليهم بعد أن

عادوا من الحج مشحونين بشحنة دينية عميقة. ومنهم المهاجرون الذين أتوا في هجرات عديدة شملت العرب وغيرهم، وحملوا معهم الإسلام والثقافة الإسلامية، ومنهم الصوفية الذين اخترقوا أعماق القارة ووصلوا إلى النجوع والكفور والقرى والغابات، وسوف نفصل الحديث عن هذه الوسائل التي انتشر الإسلام بها في القارة الإفريقية (جنوب الصحراء):

## 1 - الدعاة:

ويقصد بالدعاة الأفراد المسلمون الذين تلقوا قدرًا من العلوم الدينية، وعلى رأسهم الفقهاء والعلماء والمشايخ والقراء والقضاة، وكان هؤلاء يسمون في مختلف أنحاء القارة بأسماء مختلفة، مثل المرابط، وألفا، والمعلم، والفقير، والشيخ، وسيدنا، ومولانا. وكانوا يحظون بنصيب كبير من الاحترام والتقدير، وكانت كل قرية في إفريقيا تقيم دارًا لاستقبالهم واستضافتهم، وكان الحكام والملوك الأفارقة سواء أكانوا مسلمين أم وثنيين يعاملوهم باحترام كبير، وكانوا يتخذون منهم مستشارين ووزراء يصرفون لهم أمور الدولة، مثلما كان الحال في دولة «غانة» الوثنية، كما يقول «البكري» الذي عاش في القرن العاشر الميلادي. وكان هؤلاء الدعاة ينشئون الكتاتيب لتعليم الأطفال

(2/9)

---

الوثنيين القراءة والكتابة وبعض العلوم الأخرى، ومن ثم يصبح هؤلاء الأطفال بذرة إسلامية داخل الأسر الوثنية، وكذلك كان الدعاة ينشئون المدارس التي كانت تعد مركزًا مهمًا لنشر الإسلام وثقافته، وكذلك المساجد والزوايا والأربطة والخلاوى التي كان يلتقى فيها الأفارقة بالدعاة ويتلقون عنهم العلوم الدينية؛ حيث يخرجون دعاة للإسلام بين أهليهم وأقاربهم من الوثنيين. ولذلك انتشر الإسلام بين الأفارقة، خاصة بعد أن اعتنقه بعض ملوكهم

الذين كانوا يتحولون تلقائياً إلى دعاة للإسلام في بلادهم. ومن هؤلاء ملك «مالى» وملك «التكرور» وملك «سلى»، فقد نشر هؤلاء الإسلام بين شعوبهم من التكرور والسونتك والماندنجو وغيرهم من شعوب غرب القارة. وخرج من هذه الشعوب دعاة تخصصوا في الدعوة إلى الإسلام حتى أصبحت كلمة تكرورى أوسونكى تعنى داعية للإسلام عند شعوب هذه المنطقة.

ومن أهم الدعاة الذين نشروا الإسلام بين البربر في «الصحراء الكبرى» والتكرور في «السنغال» والسونتك في «غانة»، الشيخ «عبدالله بن ياسين الجزولى» المتوفى عام (451هـ = 1059م)، والذي قامت على يديه «دولة المرابطين» الكبرى قبل ذلك ببضع سنين. وهناك داعية آخر قام بنشاط كبير في حوض «نهر النيجر الأعلى» هو «أبو القاسم على بن يخلف»، الذى أسلم على يديه ملك مالى الذى اتخذ لقب المسلمانى (أى الذى أسلم)، بعد إسلامه فى القرن الحادى عشر للميلاد، وفى بلاد «الهوسا» نجد داعية إسلامياً كبيراً هو الشيخ «محمد عبدالكريم المغيلى» المتوفى عام (909هـ = 1503م) الذى نشر الإسلام فى بلاد «الهوسا»، ثم أتى بعده بعدة قرون داعية كبير من شعب الفولانى هو الشيخ «عثمان بن فودى» الذى أتم حركة نشر الإسلام فى هذه البلاد، وخاصة «نيجيريا» و «الكامبيرون».

وإذا اتجهنا شرقاً ووصلنا إلى بلاد حوض «بحيرة تشاد» حيث «دولة الكانم والبرنو» نجد داعية إسلامياً عظيماً هو الشيخ «محمد بن

(3/9)

---

ماتى» الذى أسلم على يديه ملوك هذه البلاد فى القرن الحادى عشر للميلاد.

وكذلك دخل الإسلام كثير من النوبيين وأهالى «السودان النيلية»

و «دارفور» على يد دعاة وفدوا من «مصر» و «اليمن» و «الحجاز» من أمثال «غلام الله بن عائذ اليمنى»، و «حمد أبي دنانة» من «الحجاز»، والشيخ «محمد القناوى الأزهرى» من «مصر»، وتلقف الدعوة وأذاعها سودانيون من أمثال الشيخ «محمود العركى» والشيخ «صغبرون محمد بن سرحان العدوى» وغيرهم.

ووفد على منطقة القرن الإفريقي وساحل شرقى إفريقيا عدد كبير من الدعاة، من أمثال «ود بن هشام المخزومى» الذى أقبل إلى بلاد «الحبشة» فى عهد «عمر بن الخطاب» - رضى الله عنه - وأنشأ أحفاده دولة إسلامية فى «إقليم شوا» وسط هضبة الحبشة، كذلك وفد دعاة من «بنى عبدالدار» أو من «بنى عقيل بن أبى طالب» إلى بلاد «الزليع» و «الصومال» و «إريتريا» وأنشأ أحفادهم سلطنة إسلامية أخرى فى هذه البلاد تسمى «سلطنة أوفات الإسلامية». وهكذا كان للدعاة فضل كبير فى نشر الإسلام وثقافته، وفى إقامة سلطنات إسلامية فى كثير من نواحي القارة، كما سنرى ذلك فى حينه بالتفصيل فى هذا الجزء من السلسلة.

## 2 - التجار:

كان للتجار الدور الأول فى نشر الإسلام فى القارة بعد الدعاة، ويظهر ذلك من قول السير «توماس أرنولد» فى كتابه «الدعوة إلى الإسلام» إن التجارة والدعوة إلى الإسلام مرتبطان كل الارتباط. وقد تدفق الإسلام عبر الطرق التجارية الموصلة بين مختلف أنحاء القارة، والى أشرنا إليها من قبل، إلى حوض نهرى «السنغال» و «النيجر» ومنطقة حوض «بحيرة تشاد»، وكذلك إلى «الصومال» و «بلاد النوبة» و «السودان» و «الحبشة»، و «ساحل شرق إفريقيا». وقد قام العرب والبربر بدور كبير فى هذا النشاط التجارى، وأصبحت مدن الشمال الإفريقي مراكز للتجارة بجانب كونها مراكز للعلم والثقافة، ووصلت إليها السلع الإفريقية، واتجه تجار العرب والبربر

---

واخترقوا الصحراء الكبرى ووصلوا إلى بلدان إفريقيا جنوب الصحراء، وكان لذلك أثره الكبير في نشر الإسلام الذي أقبل مع قوافل التجار، وازداد انتشاره بعد أن انتقل معظم النشاط التجارى إلى أيدي السودان والزنج أنفسهم من تجار «الفولاني» و «التكرور» و «الهوسا» و «الكامية» والصوماليين وغيرهم من الأفارقة الذين اتخذوا التجارة حرفة رئيسية، وصار هؤلاء التجار الأفارقة دعاة للإسلام، وقلدوا المغاربة في إقامة بعض الأسواق في مدن معينة في أيام معلومة.

وكان هؤلاء التجار سواء كانوا من العرب أو البربر أو السودان ينزلون في هذه الأسواق أو في المراكز التجارية ويحتكون بالزنج ويؤثرون فيهم بنظافتهم وأمانتهم وسلوكهم الشخصى القائم على قيم الإسلام وتقاليده السامية، وغالبًا ما ينتهى هذا الاحتكاك بدخول كثير من هؤلاء الزنج في الإسلام الذى كان يتركز أولاً في المدن التى ينشط فيها التجار بوجه خاص، وكانوا إذا ما استقر بهم المقام فى إحدى هذه المدن ينشئون كتاتيب أو مدارس لتعليم الإسلام وتحفيظ القرآن الكريم وبنون المساجد التى كانت مقرا للدعوة إلى الإسلام، وقاموا فى الوقت نفسه بمزاولة نشاطهم التجارى، وكانوا أثناء الليل يحولون دكاكينهم إلى مكان يتلقى فيه الأطفال الوثنيون مبادئ القراءة والكتابة على ضوء النيران، مما حبيبهم إلى الأهالى الذين وثقوا بهم، مما فتح الباب أمام الإسلام كى ينتشر بينهم. وكذلك وثق بهم رجال الطبقة الأرستقراطية من الملوك والأمراء ومشايخ القبائل؛ حيث كان التجار المسلمون يُستقبلون فى بلاط هؤلاء الملوك الوثنيين بترحاب شديد؛ لسمو أخلاقهم وكرم خصالهم وخبرتهم بالسياسة وشئون الإدارة والمال، ونظرًا لأنهم كانوا يجلبون لهذه الطبقة ما كانت تحتاج إليه من سلع فاخرة، ومن ثم أضفى

هؤلاء الملوك حمايتهم على هؤلاء التجار، فنعموا بالأمان والاستقرار  
وازداد نشاطهم بين أفراد هذه الطبقة، التي سرعان ما تحولت إلى

(5/9)

الإسلام في عدد كبير من البلدان.  
ومن أهم المراكز التجارية التي أنشأها العرب أو أهالي البلاد  
الخليون واتخذوا منها مراكز للتجارة والدعوة: مدينة «أودغشت»  
في «موريتانيا» الحالية، ومدينة «تمبكت» التي بناها المرابطون من  
المغاربة على ضفة نهر «النيجر» أواخر القرن الخامس الهجري، كذلك  
كانت مدن: «كانو»، و «مالي»، و «جاد»، و «نجيمي» في غرب القارة  
مراكز للدعوة والتجارة. وكانت مدينة «عيزاب» التي تقع على ساحل  
«البحر الأحمر»، ومدينة «قوص» التي تقع على «نهر النيل» في  
صعيد «مصر» مراكز انطلق منها تجار الكارم إلى «الحبشة» وشرق  
إفريقيا، كما انطلقوا من موانئ: «سواكن» و «باضع» (مصوع)  
و «زليع» و «بريرة» و «مقديشيو» و «ممبسة» و «مالندي» و «كلوة»  
و «سوفالة»، وكلها موانئ تقع على الساحل الغربي للبحر الأحمر  
وعلى الساحل الشرقي لإفريقيا، ونشط التجار في هذه المراكز  
التجارية كلها ووصل نشاطهم إلى أعماق القارة في بلاد «أوغندا»  
و «الكونغو»، وأسلم على أيديهم أعداد كبيرة من الأفارقة.  
وكانت قوافل الجمال التي تحمل تجارة القارة لاتستطيع العودة من  
هذه المناطق الداخلية إلى المناطق الساحلية في موسم الأمطار،  
فكان التجار ينتظرون الشهر أو الشهرين يتاجرون ويحتكون  
بالأهالي؛ مما كان يؤدي إلى إسلام الكثير منهم، ثم يعودون من  
حيث أتوا حينما تتحسن الأحوال الجوية، هذا في الوقت الذي أصبح  
التجار الخليون المقيمون دائماً في بلدان القارة عُمداً للدعوة  
الإسلامية.

### 3 - الحجاج:

نتيجة للنشاط التجارى الواسع الذى أشرنا إليه والذى ساد شمال القارة، ووسطها وغربها وشرقها وما نتج عنه من انتشار الإسلام والثقافة الإسلامية؛ نشطت قوافل الحج التى كانت فى الوقت نفسه قوافل للتجارة التى كان يمارسها الحجاج على طول طريقهم إلى الأراضى المقدسة، وقوافل لتحصيل العلم عن طريق الالتقاء بعلماء البلدان التى يبرون بها، فكانت تخرج من غرب القارة قوافل عديدة

(6/9)

---

على رأسها ملوك هذه البلدان، الذين كانوا يحرصون على أداء هذه الفريضة رغم ما كانوا يتكبدونه من مشاق ومتاعب، نظرًا لطول الطريق ومخاطره ووعورته، لكنهم كانوا يخرجون فى رحلة قد تستغرق عامًا أو عامين ويلتقون فى موسم الحج بإخوانهم المسلمين على اختلاف بلادهم وألسنتهم وألوانهم، فيشعرون جميعًا بالأخوة الإسلامية، ويشعر الإفريقي بانتمائه إلى عالم إسلامى واسع، وبأخوته لمسلمى ذلك العالم، فتتخطم الحواجز العرقية والقبلية واللغوية والاجتماعية، ويصبح الجميع شعبًا واحدًا يتكلمون بعبارات واحدة، ويتجهون إلى قبلة واحدة، ومن ثم أصبح خروج المسلمين من غرب إفريقيا ووسطها وشرقها جماعات وفرادى إلى الحج، واتصلهم بالشعوب الإسلامية المختلفة فى بلاد الحجاز أو أثناء رحلة الذهاب والعودة تأكيدًا لروح الأخوة الإسلامية التى فرضها الإسلام، فيعود هؤلاء الأفارقة ممتلئين بالحماسة لنشر هذا الدين، ووقف جهودهم على إعلاء شأنه فى بلادهم وما جاورهم من البلاد الوثنية، خاصة أن هؤلاء الحجاج كانوا يعودون محملين بالكتب الدينية التى تزيد من علم الأفارقة وثقافتهم كما كانوا يعودون أحيانًا مصحوبين ببعض الدعاة والفقهاء والتجار من غير الأفارقة، مما كان له أثره

في نشر الإسلام، لاسيما وأنهم كانوا يقومون بإنشاء المدارس لتعليم اللغة العربية وتحفيظ القرآن الكريم ونشر الإسلام بين الوثنيين، ونشر عقائده الصحيحة بين المسلمين الأفارقة.

وكان المسلمون الجدد من هؤلاء الأفارقة يرون ارتفاع المكانة الاجتماعية لإخوانهم وأقربائهم من الذين أدوا هذه الفريضة، فيقدمون هم الآخرون عليها، ولذلك تعددت قوافل الحج التي كانت تخرج من هذه البلدان، والتي كانت تضم آلافًا مؤلفة وعلى رأسها الملوك والحكام في أحيان كثيرة.

ومن أشهر الملوك الذين أدوا هذه الفريضة من حكام إفريقيا «منسا موسى» سلطان «مالى الإسلامية»، الذي خرج إلى الحج من هذا

(7/9)

---

المكان النائي في غرب القارة على رأس موكب كبير تحدث عنه المؤرخون، وذلك في عام (723هـ = 1323م) إذ كان موكبه يضم أكثر من عشرة آلاف حاج، وكان يحمل معه كميات كبيرة من الذهب الخام، أهدى منه إلى سلطان «مصر» وأمرائها وموظفيها، كما أفاض منه على فقراء «مكة» و «المدينة»، ومنح عن سعة حتى قيل إن قيمة الذهب انخفضت في «مصر» انخفاضًا ملحوظًا لكثرة ما أنفقه فيها. كذلك تحدثنا المصادر بأن ملوك «سلطنة صنعى الإسلامية» التي خلفت سلطنة «مالى» في غرب إفريقيا قاموا بأداء هذه الفريضة، ومن أشهرهم السلطان «أسكيا محمد الأول» في عام (495هـ = 1101م)، وقد أدى بعض سلاطين «الكانم» و «البرنو» الذين كانت دولتهم تقوم حول «بحيرة تشاد» الحج ثلاث مرات، وبعضهم توفى أثناء الذهاب أو العودة ودفن في «مصر». وكان حكام بلاد «السودان النيلي»، و «الصومال» و «الحبشة» وشرق إفريقيا بصفة عامة يؤدون هذه الفريضة في سهولة ويسر، نظرًا لقرهم من بلاد

«الحجاز»، وكانوا يحرصون على ذكر لقب الحاج قبل أسمائهم مثلما كان يفعل إخوانهم في شمال إفريقيا وغربها، حتى السلاطين أنفسهم؛ مما يدل على أهمية هذه الشعيرة لديهم، وعلى أن تأثيرها في نفوسهم كان قويا، ولذلك كانوا يعودون من هذه الرحلة ممتلئين حماسة للإسلام ولنشره بين من لم يعتنقه من الوثنيين في بلادهم وقراهم.

#### 4 - الهجرات:

كان لتحركات القبائل وهجراتها سواء أكانت عربية أم بربرية أم سودانية وزنجية دور كبير في نشر الإسلام وثقافته، واللغة العربية وثقافتها في القارة الإفريقية. ومن أهم هذه الهجرات هجرات العرب إلى بلدان القارة المختلفة، وكانت «مصر» هي القاعدة والمنطلق الذي انطلقت منه هذه الهجرات العربية غربًا إلى شمال إفريقيا، وبلاد «النوبة» و «السودان»، فقد هاجرت جماعات عربية من «ربيعة» و «جهينة» و «بلى» إلى «أرض البجة» منذ منتصف القرن السابع للميلاد، ونجحوا في نشر الإسلام

(8/9)

---

بين الأهالي، ودفعت شهرة «وادي العلاقي» الذي يقع في الصحراء الشرقية بين «أسوان» و «البحر الأحمر» بالذهب والزمرد إلى جذب جماعات كبيرة من «ربيعة» و «جهينة» منذ عام (238هـ = 852م) إلى هذه المنطقة، حيث استقر العرب هناك وتزاوجوا مع «البجة» وأقاموا إمارة عربية مدت نفوذها إلى «أسوان» وشمال «بلاد النوبة»؛ حيث صاهروا حكام مملكة «مُثَرَّة» النوبية المسيحية، ونتج عن ذلك انتقال الحكم إلى هؤلاء العرب من الذين عرفوا باسم «بني كنز» نسبة إلى لقب كان قد أطلقه أحد الخلفاء الفاطميين في «مصر» على أحد أمرائهم نظير مساعدته لهذا الخليفة في القضاء على أحد الثائرين

والخارجين على دولته في صعيد «مصر». وتطورت أحوال «بني كنز» هؤلاء حتى استطاعوا أن يقيموا دولة «بني كنز» العربية في «بلاد النوبة» واتخذوا «دنقلة» عاصمة لهم منذ عام (723هـ = 1323م). وقيام هذه الدولة انفتح باب الهجرة العربية على مصراعيه، فهاجرت قبائل عربية كثيرة إلى وسط «السودان»، وأقاموا بين نهرى «النيل الأبيض» و «الأزرق»، وتحالفوا مع قبائل سودانية تسمى «الفونج»، واستطاعوا أن ينشئوا معاً دولة إسلامية أخرى هي دولة «الفونج» التي كانت عاصمتها «سنار»، وذلك عام (911هـ = 1505م). كذلك هاجرت قبائل عربية كثيرة من «مصر» إلى مملكة «دارفور» الوثنية منذ القرن الحادى عشر للميلاد، ووفدت إلى هذه المملكة هجرات عربية أخرى من «تونس» و «شمال إفريقيا»، واختلط هؤلاء المهاجرون بالأهالى وصاهروا ملوك «دارفور»، ونتج عن هذه المصاهرة انتقال الحكم إليهم، فأصبحت «دارفور» سلطنة عربية إسلامية منذ عام (849هـ = 1445م). كذلك تواصلت الهجرات العربية إلى بلاد «الزليع» و «الحبشة»، وهى المنطقة التى تعرف الآن باسم منطقة القرن الإفريقى. ومنها هجرة «ود بن هشام المخزومى» فى عصر «عمر بن الخطاب» - رضى الله عنه - وقد تبع ذلك هجرات عربية استقرت على طول ساحل هذه

(9/9)

---

المنطقة، وأقامت فى المدن الساحلية التجارية، مثل «سواكن» و «باضع» (مصوع) و «زليع» و «بربرة»، وانطلقت إلى الداخل وسكنت مع الأهالى واشتغلت بالتجارة والزراعة والرعى، وازداد عددها حيناً بعد حين حتى تمكنت من إقامة سلطنات إسلامية، مثل «سلطنة شوا» و «سلطنة أوفات» و «سلطنة عدل» الإسلامية. وقد ازدادت هجرات العرب على ساحل شرق إفريقيا وأنشئوا مراكز

تجارية بطول هذا الساحل، حتى قال بعض المؤرخين إنهم أنشئوا ستا وثلاثين مدينة، بدءًا من «مقديشيو» في «الصومال» وحتى «سوفالة» جنوب نهر «الزمبيزي» في «موزمبيق».

ومن أشهر هذه الهجرات هجرة «سليمان» و «سعيد» ابني «عباد بن عبد بن الجلندي»، وكانا ملكين في «عُمان»، واضطرتهما ظروف القتال مع «الحجاج بن يوسف الثقفي»، الذي أراد أن يفرض نفوذه على «عمان» بالقوة المسلحة، إلى ترك وطنهما والاتجاه في سفن إلى ساحل شرق إفريقيا؛ حيث وصلا ومن معهما من رجال وجند وأهالى إلى جزر «أرخبيل لامو» التي تقع في دولة «كينيا» الآن، وذلك في الفترة (75 - 85هـ = 694 - 704م)، واستقروا هناك وأنشئوا إمارة صغيرة كان لها أثرها في نشر الإسلام بين الأهالى الموجودين في تلك المنطقة.

كذلك هاجر بعض الشيعة الزيدية إثر مقتل إمامهم «زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب» - رضى الله عنهم أجمعين - في عام (122هـ = 741م) على يد الخليفة الأموي «هشام بن عبد الملك»، فاضطر أتباعه بعد مقتله إلى الهجرة خوفاً من اضطهاد الحكام لهم، فوصلوا إلى ساحل «بنادر» بالصومال، وأقاموا هناك نحو مائتي عام أرسوا فيها قواعد الإسلام والثقافة الإسلامية بين الصوماليين.

ولم تلبث أن وفدت هجرة أخرى إلى هذا المكان نفسه تعرف باسم هجرة الإخوة السبعة، جاءت من «الأحساء» في عام (292هـ = 904م) ووصلت إلى ساحل «بنادر» بالصومال، بعد أن ضاق بهم المقام في منطقة الخليج؛ نتيجة لصراعات سياسية ومذهبية، وكان هؤلاء الإخوة

من قبيلة «الحارث» العربية، ولما وصلوا إلى هذا الساحل استطاعوا أن يطردوا الزيدية إلى الداخل. وأن ينشئوا مدينة «مقديشيو» في عام (295هـ = 907م) ويتخذوها عاصمة لدولتهم التي أقاموها هناك، والتي كانت تعرف باسم «سلطنة مقديشيو الإسلامية». وبذلك ظهر إلى الوجود مركز إسلامي كبير كان له أثره القوي في نشر الإسلام لا بين الصوماليين فحسب، بل بين كثير من سكان شرق إفريقيا كله. وقد أعقب تلك الهجرة هجرة شيرازية فارسية أتت من «شيراز» بإيران، كان على رأسها أمير يدعى «علي بن حسن بن علي الشيرازي»، وذلك في عام (365هـ = 975م) نتيجة خلافات وقعت بينه وبين إخوته في «شيراز»، اضطرتهم إلى الهجرة هو وأتباعه ورجاله في سبع سفن ضخمة إلى شرق إفريقيا؛ حيث استقر بهم المقام في جزيرة «كلوة» التي تتبع دولة «تنزانيا» الآن، واستطاع أن يؤسس سلطنة إسلامية تسمى «كلوة»، ظل يحكمها هو وأحفاده نحو قرنين من الزمان حتى أتت هجرة عربية أخرى من «اليمن» من «بني الحسن بن طالوت المهدي»، وحكمت هذه السلطنة، ومن ثم تغلبت الصبغة العربية فيها على الصبغة الشيرازية الفارسية واستمرت هذه السلطنة قائمة حتى جاء البرتغاليون وتغلبوا عليها في عام (911هـ = 1505م).

ونتيجة لهذه الهجرات العربية المتتالية انتشر الإسلام واللغة العربية بين السكان المحليين في منطقة «القرن الإفريقي»، وفي منطقة الساحل الشرقي لإفريقيا، وكذلك في الجزر المواجهة لهذا الساحل، مثل «جزيرة زنجبار»، و «جزر القمر»، و «جزيرة مدغشقر» (مالاجاش الآن) وغيرها من الجزر، وتكوّن عالم إسلامي واضح المعالم والقسمات، نشأت فيه دول وسلطنات إسلامية ظلت موجودة حتى اصطدمت بالبرتغاليين والأحباش، ثم بالاستعمار الأوروبي في العصر الحديث.

كذلك خرجت هجرات عربية من «مصر» في اتجاه الغرب إلى بلاد المغرب العربي منذ عصر الفتوحات الإسلامية في القرن الأول للهجرة،

وظلت هذه الهجرات تتتابع حتى القرن الخامس للهجرة؛ حيث نرح من «مصر» إلى هناك «بنو هلال» و «بنو سليم»، ولاشك أن الحكم العربي الإسلامي لهذه البلاد بالإضافة إلى هذه الهجرات قد أديا في النهاية إلى تعريب أهل البلاد الأصليين، فانتشرت بينهم اللغة العربية وأصبحت لسانهم، وغدت هذه البلاد بلداناً عربية إسلامية، وقد انطلقت من هذه البلاد هجرات عربية لكنها كانت قليلة العدد قليلة الأفراد، اتجهت جنوباً إلى الصحراء الكبرى ومنها إلى حوض «نهر السنغال» و «النيجر»، وحوض «بحيرة تشاد» مثل «بنى جذام» و «بنى حسان» و «بنى معقل» و «أولاد سليمان» و «جهينة» وغيرهم، واستقرت هذه القبائل هناك ولا تزال توجد إلى الآن بعض هذه القبائل التي تحتفظ بأصولها العربية، ولكن نظراً لقلّة هذه الهجرات وقلّة عدد أفرادها فإنها لم تؤدّ إلى انتشار اللغة العربية بين الأهالي هناك، وكانت لغة العلم والتعليم والتجارة والوثائق الرسمية للدولة فقط، ولما جاء الاستعمار الأوربي إلى هذه البلاد حارب هذه اللغة وحارب الإسلام بكل ما يستطيع من قوة، ولا يزال يحاربه رغم الاستقلال. وإذا كان العرب قد هاجروا إلى البلدان الإفريقية في مختلف أنحاء القارة، وكان لهم أثرهم الكبير في نشر الإسلام ولغته وثقافته، وكذلك في إقامة سلطنات إسلامية، فقد كان لهجرات البربر أثر كبير أيضاً في هذه الميادين، وخاصة «بربر صنهاجة»، الذين كانوا يسكنون الصحراء الكبرى، واستطاعوا نتيجة لجهود داعية عظيم أشرنا إليه وهو الشيخ «عبدالله بن ياسين الجزولي» أن يقيموا «دولة المرابطين» منذ عام (448هـ = 1056م)، وأن يضموا إليها «بلاد المغرب الأقصى» و «بلاد الأندلس»، ثم «مملكة غانة» الوثنية، وانطلق دعائمهم بين أهالي «غانة» و «السودان الغربي» ينشرون الإسلام،

كذلك وفد كثير من قبائل البربر الأخرى إلى هذه البلاد مهاجرين إليها، واستقروا فيها وأنشئوا المدن والمراكز التجارية مثل مدينة

(12/9)

«أودغشت» ومدينة «تبيكت» وغيرهما.

كما هاجرت قبائل من البربر منذ ما قبل الإسلام إلى حوض «بحيرة تشاد» وأقامت دولة تسمى «دولة الكاخم والبرنو»، ولم يلبث ملوك هذه الدولة أن اعتنقوا الإسلام في أواخر القرن الحادى عشر للميلاد، وظلوا يحكمون هذه البلاد وينشرون الإسلام فيها حتى القرن التاسع عشر.

كذلك كان لهجرات النوبيين والصوماليين والجلالا والأعفار والزنج أثر كبير في نشر الإسلام في منطقة «القرن الإفريقي»، وفي «ساحل شرق إفريقيا»، وكانت هذه الهجرات وراء توسع السلطنات الإسلامية التي قامت في هذه المنطقة، وساعدتها في رد عدوان الأحباش على المسلمين في منطقة «القرن الإفريقي» وخاصة في القرن السادس عشر الميلادى.

5 - الطرق الصوفية:

ارتبط نشاط الدعوة إلى الإسلام لاسيما في غرب إفريقيا وشرقها بانتشار الطرق الصوفية، وخاصة بين المشتغلين بالتجارة، وكانت هذه الطرق قد بزغ نجمها في الأفق منذ أن تعرض العالم الإسلامى لخطر الإستعمار الأوروبى الحديث بدءاً من القرن السادس عشر الميلادى، واستطاعت الطرق الصوفية أن تُسهم إسهاماً كبيراً في الدعوة إلى مقاومة الاستعمار، وكذلك في الدعوة إلى الوحدة الدينية، وفي نشر الإسلام بين من لم يعتنقه، ونتيجة لذلك جذبت هذه الطرق إليها كثيراً من الشباب الأفارقة.

ففى شرق إفريقيا وبلاد «سودان وادى النيل» ظهرت «الطريقة

الميرغنية» في القرن التاسع عشر للميلاد والتي كان لها تأثيرها الكبير على الناس هناك، وكانت قد ظهرت قبلها بعدة قرون «الطريقة القادرية والشاذلية والرفاعية»، وانتشر أتباع هذه الطرق على طول الساحل الشرقي لإفريقيا، وفي الجزر المواجهة له وكذلك في المناطق الداخلية.

وفي سنة (1253هـ = 1837م) ظهرت في شمال إفريقيا الطريقة السنوسية على يد الفقيه الجزائري «محمد بن علي السنوسي»، الذي استطاع أن يقيم دولة دينية في الأراضى الليبية، دون أن يريق قطرة

(13/9)

دم واحدة، وتمكنت هذه الطريقة من خلال أتباعها وزواياها التي انتشرت في إفريقيا جنوب الصحراء أن تنشر الإسلام بين العديد من القبائل الإفريقية الوثنية، مثل قبيلة «بيلي» التي كانت تسكن منطقة «إيندى» شرق «بوركو» في شمال «نيجيريا»، وعمقت الإسلام بين جماعات «التدا» في شمال «بحيرة تشاد».

وكان للسنوسيين فضل كبير في نشر الإسلام في «واداي»، التي تقع شرق «بحيرة تشاد»، وبين قبائل «الجالا» في «الحبشة»؛ حيث كانوا يشترون العبيد أو الأطفال ثم يحرقونهم ويرسلونهم إلى مركز الطريقة الرئيسي في «واحة جغبوب» في الصحراء الكبرى بين «مصر» و «ليبيا»، فيتعلمون ثم يعودون إلى بلادهم دعاة للإسلام. كذلك كان لأتباع «الطريقة القادرية» التي انتشرت في شمال إفريقيا وغربها أثر كبير في نشر الإسلام في هذه البلاد، فقد اتخذ أتباعها من مدينة «ولاتة» بموريتانيا أول مركز لهم في تلك البلاد منذ القرن الخامس عشر الميلادي ثم لجئوا إلى «تمبكت»، وانتشر أتباعهم ودعائهم في أنحاء «السودان الغربي»، وكذلك في منطقة «القرن الإفريقي» وساحل «شرق إفريقيا»، ووصل أتباعها في الداخل

حتى «الكونغو»، وكان أتباع هذه الطريقة يقومون بتأسيس المدارس لتعليم الدين ونشر الإسلام، ويرسلون نوابغ الطلاب إلى مدارس «القيروان» و «تونس» و «فاس» و «الأزهر»، وغيرها، فإذا ما أتموا دراستهم عادوا إلى أوطانهم دعاة للإسلام. ومن الطرق الأخرى التي انتشرت في القارة «الطريقة التيجانية» التي أنشأها «أبو العباس أحمد بن محمد المختار بن سالم التيجاني» المتوفى عام (1231هـ = 1815م)، وقد قام أتباعه بنشر هذه الطريقة بين رجال القوافل والتجار، فانتشرت تعاليمها في حوض «السنغال» وفي «تنبكت» وفي سائر أنحاء غرب إفريقيا، وظهرت هذه الطريقة أيضاً في «السودان النيلي» وشرق إفريقيا على يد بعض التيجانية القادمين من غرب إفريقيا. وقد انخرط في سلك هذه الطريقة عليّة

(14/9)

القوم في «الحبشة»، مثل سلطان «جمّة» «أبي جفار»، و «الرأس على» نائب الإمبراطور الحبشى، وعمل هذان الرجلان على نشر الإسلام بين الوثنيين من الأحباش، ونجحا في ذلك نجاحاً عظيماً فتحول معظم سكان الولايات الوسطى والشمالية في «الحبشة» إلى الإسلام.

6 - طبيعة الإسلام:

ذلك أن الإسلام لم يُفرض كما رأينا على الشعوب الوثنية الإفريقية فرضاً، إنما حمله قوم من أهل إفريقيا نفسها، اتخذوا صفة التجار أو المعلمين أو الدعاة أو الصوفية، فليس غريباً أن يلقى قبولا منهم، فهو في نظرهم دين إفريقي غير دخيل، والدعوة إليه تتم بالطرق السلمية وليس بالغزو المسلح كما فعل الاستعمار الأوربي في العصر الحديث.

كما أن الإسلام لم يستعبد هذه الشعوب، إنما أشعرها بالعزة

والكرامة، فخلق منها دولا كبرى وقوى فيها النزعة إلى الحرية والاستقلال، ولم يقص على نظمها المحلية بل تواءم معها وخلق منها ومن تقاليده تقاليد إسلامية الطابع إفريقية الروح. ومن ثم تقبله الأفارقة، خاصة أن الإسلام لم يكن ديناً أوروبياً فحسب، وإنما كان ديناً وحضارة تقوم على أساس تعمير الدنيا والفوز بالآخرة، ومن ثم لزم أن ينشر الإسلام نور العلم والثقافة بين أتباعه ومعتقيه، فارتبط الإسلام بالعلم والتعليم منذ البداية، وكان الإفريقي لا يكاد يسلم حتى يتعلم القراءة والكتابة ويرتفع قدره اجتماعياً كلما زادت ثقافته، ولذلك سمعنا عن عدد كبير من العلماء الأفارقة الذين ظهروا في مختلف ميادين العلم والثقافة، ولم يكونوا في ذلك أقل من إخوانهم علماء المغاربة أو المشارقة، زد على ذلك أن الإسلام لم يعترف بالفرقة العنصرية، فهو لا يعرف حواجز الطبقات أو العرق أو اللون، ولا يميز بين إنسان وآخر على أساس اللون أو الثروة، لأن معيار التفاضل في الإسلام هو التقوى والعمل الصالح، ولذلك أقبل الأفارقة على اعتناقه، فوحد بينهم وقضى على عناصر الفرقة

(15/9)

والتشردم، كما وحد بينهم لغوياً؛ إذ انتشرت اللغة العربية بين كثير من شعوب القارة، وصارت هي أداة الفكر والعلم والمخاطبة، أما الشعوب التي احتفظت بلغاتها، فقد كانت العربية هي وسيلة العلم والتعامل كما كانت اللغة الرسمية، لأن اللغات الإفريقية لم تكن لغات مكتوبة.

وكما وحد الإسلام بينهم دينياً وحد بينهم سياسياً وقضى على التشردم القبلي والنزاعات القبلية، وأنشأ دولا كبرى، بل إمبراطوريات عظمى مثل «إمبراطورية مالي»، التي ضمت معظم منطقة غرب إفريقيا بالكامل، وكانت مساحتها تفوق مساحة دول

غرب أوروبا مجتمعة، ليس هذا فحسب بل إن الإسلام جعل الإفريقي يشعر بانتمائه ليس إلى بلاده فقط بل إلى عالم إسلامي واسع، يستطيع أن ينتقل بين أرجائه سواء كان تاجرًا أو حاجا أو طالب علم، وفي كل مكان يجد هذا الإفريقي القوت والمأوى والمساعدة والاستقبال الودود، على أساس من أخوة الإسلام التي جمعت بين أفراد هذا العالم الإسلامي الواسع، الذي يمتد من الصين شرقًا حتى المحيط الأطلسي غربًا، ومن هنا اعتبر الأفارقة الإسلام دينًا إفريقيًا قام بنشره بينهم قوم منهم، اتخذوا الدعوة أو التجارة أو التصوف وسيلة إلى ذلك، وطبقوا مبادئ الإسلام السمحة وأخلاقه الحميدة وقيمه السامية من إخاء ومساواة وتكافل وتعاون، ومن ثم انتشر الإسلام في هذه البقاع الواسعة في القارة، حتى إنه يمكن القول بأن قارة إفريقيا هي القارة المسلمة الوحيدة في عالم اليوم، على اعتبار أن غالبية سكانها يعتنقون الإسلام. ويتبين ذلك بوضوح من خلال حديثنا عن السلطنات والممالك الإسلامية التي قامت بالقارة (جنوب الصحراء) في العصور الوسطى.

(16/9)

## الفصل الثاني

\*الإسلام والدول الإسلامية في غرب إفريقيا:

يقتضى الحديث عن الإسلام والدول الإسلامية التي قامت في بلدان غربي إفريقيا، التي كانت تعرف ببلاد «السودان الغربي»؛ أن نبدأ بإعطاء نبذة عاجلة عن انتشاره أولاً بين بربر الصحراء الكبرى، الذين كانوا يعرفون باسم «الطوارق» أو «الملثمين» أو «الصنهاجين»، فهذه القبائل هي التي قامت بمجهود كبير في نشر الإسلام في بلاد «السودان الغربي».

وقد انتشر الإسلام في البداية في شمال إفريقيا؛ بحيث لم يأت القرن الثاني الهجري حتى كانت «بلاد المغرب» قطرًا إسلاميًا خالصًا وكانت الصحراء الكبرى تحده «بلاد المغرب» من ناحية الجنوب، ويسكنها قبائل «الطوارق» أو «الملثمين»، ويلى هذه الصحراء «بلاد السودان الغربي»، التي كانت بها دولة وثنية تعرف بدولة «غانة»، وهى من أقدم الدول التي ظهرت في هذه البقعة النائية من إفريقيا، ولكي يصل الإسلام إلى غربي إفريقيا كان لابد أن ينتشر أولاً بين قبائل «الطوارق»، ثم يتسرب من خلالها إلى دولة «غانة» الوثنية، وقد بدأت المحاولات الأولى لنشر الإسلام بين ديار «الملثمين» في ولاية «عقبة بن نافع الفهري» الثانية (60 - 63هـ) في عهد «بني أمية»؛ إذ استطاع هذا القائد أن يتدفق بقواته إلى «المغرب الأقصى»، ثم هبط جنوبًا إلى «إقليم السوس الأدنى»، ثم واصل تقدمه حتى وصل إلى مدينة «ماسه» بالسوس الأقصى، وأشرف على مدينة «أغمات»، وتوغّل في بلاد «الملثمين» (مسوفة وملتونة وجدالة) حتى وصل إلى مدينة «تارودنت»، وتذكر بعض الروايات أنه وصل إلى بلاد «غانة» و «التكرور».

كان «عقبة» أول من دعا «الملثمين» إلى الإسلام كأول عربي مسلم يرتاد هذه الأقاليم، ولما جاء «موسى بن نصير» فاتح «الأندلس» أتمّ ما بدأه «عقبة»، فقد وصل إلى مواطن «الملثمين»، ودعاهم إلى الإسلام وأنشأ مسجدًا في مدينة «أغمات» التي غدت من أهم مراكز الإسلام وثقافته في «المغرب الأقصى».

(17/9)

---

وعندما قامت «دولة الأدارسة» في «المغرب الأقصى» (172 - 373هـ = 788 - 983م) وحدوا بين السهول الساحلية وإقليم المراعي، كما وحدوا بين قبائل «صنهاجة» ووجهوا أنظارهم إلى نشر الإسلام

فكانوا أشبه بالدعاة منهم بالولاة، فانتشر الإسلام في إقليم  
«الواحاح» بعد أن أصبحت مضارب «الملثمين» القريبة من جبال  
«أطلس» (تعرف بجبال درن) خاضعة للأدارة وجزءاً من أملاكهم،  
وقد أدى إسلام قبائل «الملثمين» في القرن الثالث الهجري، إلى  
قيام حلف قوى جمع بين قبائل «صنهاجة» (لمتونة وجدالة ومسوفة)  
بزعامة «لمتونة»، وكان هذا الحلف يشير إلى موجة من التوسع صوب  
الجنوب؛ لنشر الإسلام بين القبائل الزنجية بالسودان الغربي.  
فقد استطاع «تيولوتان» زعيم هذا الحلف أن يحمل راية الجهاد، ودان  
له معظم ملوك «السودان الغربي»، واستولى على مدينة  
«أودغشت»، التي كانت محطة رئيسية لقوافل الصحراء، واتخذها  
عاصمة له بعد أن خلصها من يد ملك «غانة» الوثني.  
توفي «تيولوتان» عام (222هـ = 836م) وتفرق الحلف الصنهاجي أثناء  
حكم أحفاده عام (306هـ = 918م) واستطاعت مملكة «غانة» أن  
تستعيد مدينة «أودغشت»، واحتفظت تلك المملكة بقوتها كأعظم ما  
تكون في «السودان الغربي»، حتى قام الحلف الصنهاجي الثاني  
عام (426هـ = 1035م) بزعامة الأمير «أبي عبدالله بن يتفاوت  
اللمتوني»، الذي استأنف الجهاد وحارب «غانة» وقبائل من  
«السودان»، لكنه استشهد في موقعة «غارة» بالقرب من مدينة  
«تاتكلاتين» عام (429هـ = 1038م) بعد ثلاث سنوات من حكمه، وبذلك  
أخفق «الملثمون» في استعادة «أودغشت» والسيطرة عليها مرة  
أخرى.  
وكان من نتيجة هذه الهزيمة أن تخلت «لمتونة» عن زعامة «الملثمين»  
وخلفتها في الزعامة قبيلة «جدالة» في شخص «يحيى بن إبراهيم  
الجدالي» الذي اتبع طريقة أسلافه في الجهاد داخل بلاد «السودان  
الغربي» لنشر الإسلام، وأسس دولته على دعوة دينية إصلاحية

رائدها فقيه مغربي مالكي يدعى «عبدالله بن ياسين» فامتد بذلك نفوذ المذهب المالكي من «القيروان» إلى «المغرب الأقصى» ثم تخطى حدود هذا الإقليم نحو الجنوب وانتشر في بلاد «السودان الغربي».

وبعد موت الأمير «يحيى بن إبراهيم» أصبح «عبدالله بن ياسين» بلا معين، وفقد الحماية التي كان يبسطها عليه زعيم «جدالة» ورئيس الحلف الصنهاجي، وأصبح وجوده غير مرغوب فيه، لتشدده في تنفيذ التعاليم الإسلامية، ولاختياره «يحيى بن عمر اللمتوني» خلفاً ليحيى بن إبراهيم الجدالي، فنقل الزعامة بذلك من «جدالة» إلى «لمتونة».

لهذا كله رحل «ابن ياسين» إلى بلاد «السودان الغربي» وأقام رباطاً أو رابطة هناك في أحد الأودية على حافة الصحراء الجنوبية قرب مضارب «لمتونة»، ناحية مصب «نهر السنغال» وتبعه كثير من الذين آمنوا بدعوته، ولما ازدادت قوته قام يجاهد قبائل البربر ويدعوهم إلى تنفيذ تعاليم الإسلام الحقة ومعه «يحيى بن عمر» وأخوه «أبو بكر بن عمر اللمتوني»، لكن «يحيى» استشهد عام (448هـ = 1056م)، فأخذ «ابن ياسين» البيعة لأخيه «أبي بكر» وأقامه مكانه، وتوجّه لقتال «برغواطة» عام (451هـ = 1059م) حيث استشهد «ابن ياسين» من جراح أصابته.

وبعد أن فرغ «أبو بكر» من السيطرة على قبائل «الملثمين» وأعاد الأمن إلى الصحراء رأى أن يوجه جهوده لمحاربة الوثنيين في بلاد السودان الغربي».

وكان «ابن ياسين» قد انتزع مدينة «أودغشت» من ملك «غانة» بل وجاوزها إلى ناحية الجنوب فاتخذها الأمير «أبو بكر» مرتكزاً له في جهاده ضد ملك «غانة»، وبعد جهاد دام أكثر من خمس عشرة سنة استولى «أبو بكر» على القسم الأكبر من مملكة «غانة» وضمه إلى دولته.

ثم رحل هذا الأمير بعد ذلك إلى الشمال في عام (464هـ = 1072م)

قاصدًا «مراكش» التي كان قد بناها عام (454هـ = 1062م)، وتم الصلح بينه وبين ابن عمه «يوسف بن تاشفين» على أساس أن يترك

(19/9)

«أبو بكر» لابن تاشفين بلاد «المغرب الأقصى»، وأن يعود هو إلى الصحراء مؤثرًا وحدة الصف، متجنبًا سفك الدماء، وكرس كل جهوده للتوسع في بلاد «السودان» ونشر الإسلام بين قبائله، وكان هدفه هذه المرة هو إسقاط إمبراطورية «غانة» الوثنية التي أصبحت دولة «غانة» الإسلامية فيما بعد.

دولة غانة الإسلامية [469 - 600 هـ = 1076 - 1203م]:

«غانة» التي نقصدها بهذا الحديث ليست هي «غانة» التي تقع اليوم في أقصى الجنوب من غرب إفريقيا وعاصمتها «أكرا» وإنما هي التي تقع بين منحنى «النيجر» و «نهر السنغال»، وتضرب حدودها في جنوبي «موريتانيا» الحالية، وكانت عاصمتها مدينة تُسمى «كومبي» وتقع على بعد (200) ميل شمال «باماكو» عاصمة دولة «مالي» الحالية.

وكانت غانة القديمة متسعة النفوذ والسلطان حتى قيل عنها: إنها كانت إمبراطورية خضع لها معظم بلاد «السودان الغربي» في النصف الأول من العصور الوسطى. وتعد هذه الدولة أو الإمبراطورية من أقدم ممالك غربي إفريقيا شمال نطاق الغابات، ويرجع تاريخ نشأتها إلى الفترة ما بين القرن الثالث والرابع الميلاديين، ويبدو أن كلمة «غانة» كانت لقبًا يطلق على ملوكهم، ثم اتسع مدلول هذا الاسم حتى أصبح يطلق على العاصمة والإمبراطورية. وقد قامت هذه الدولة على يد جماعة من البيض وفدوا من الشمال، وكان أول ملوكهم المدعو «كازا» قد اتخذ مدينة «أوكار» قرب «تمبكت» الحالية عاصمة له، وكان الشعب يتكون من قبائل «السوننك»، وهي أحد فروع شعب

«الماندى» الذى يسكن معظم نواحي غرب إفريقيا. واستطاعت هذه الدولة منذ أواخر القرن الثامن الميلادى، وبعد أن انتقل الحكم إلى فرع «السوننكى» - أن تُخضع بلاد «فوتا» حيث التكرور والولوف والسيرير، ووصل هذا التوسع إلى نهايته القصوى فى مستهل القرن الحادى عشر للميلاد، فأصبحت «غانة» تسيطر على المسافات الممتدة من أعلى «نهر السنغال» وأعلى «نهر

(20/9)

النيجر»، وامتد نفوذها إلى موقع «تبيكت» شرقاً وبلاد «التكرور» أو «السنغال» غرباً، وينابيع نهر «النيجر» جنوباً، وأغلب الصحراء الغربية (موريتانيا حالياً) شمالاً، وانتقلت عاصمتها إلى مدينة «كومبى» أو «كومبى صالح» وهى نفسها مدينة «غانة». وقد اعتمدت إمبراطورية «غانة» على التجارة كمصدر رئيسى فى اقتصادها خاصة تجارة الذهب، حتى صارت تعرف ببلاد الذهب، وأصبح ملوك «غانة» من أغنى ملوك الأرض؛ بفضل سيطرتهم على الطرق المؤدية إلى مناجم الذهب التى كانت تقع فى منطقة «وانقارة» أو «وانجارة» جنوبي مملكة «غانة». وقد أدّى رواج التجارة إلى أن أصبحت «غانة» (العاصمة «كومبى صالح») أكبر أسواق بلاد «السودان»، ودخل الإسلام إليها سلمياً عن طريق التجار والدعاة المسلمين، ويتبين هذا من رواية «البكرى» الذى زار هذه البلاد فى عام (460هـ = 1068م)، وذكر أن مدينة «غانة» مدينتان يحيطهما سور، إحداها للمسلمين وبها اثنا عشر مسجداً، يُعَيَّن لها الأئمة والمؤدّنون، والقضاة، أما المدينة الأخرى، فهى مدينة الملك وتسمى بالغابة، وبها قصر الملك ومسجد يصلى فيه من يفد عليه من المسلمين. ويضيف «البكرى» أن مترجمى الملك وصاحب بيت ماله وأكثر وزرائه كانوا من المسلمين، وهذا يدل على أن الإسلام قد

انتشر بين زنوج غربي إفريقيا لدرجة أن شعب «التكرور» بأكمله أسلم على يد الملك «وارجاي بن رابيس» الذي توفي عام (432هـ = 1040م)، كذلك امتد الإسلام إلى مدينة «سلي» التي تقع بين «التكرور» و «غانة»، وإلى مدينة «غيارو» التي تبعد عن مدينة «غانة» مسيرة (18) يومًا.

ويتحدث «البكري» عن مملكة أخرى هي مملكة «ملل» ويقصد بها مملكة «مالي» التي تقع جنوبي مملكة «غانة»، ويقول: إن ملكها يعرف بالمسلماني لأنه أعلن إسلامه على يد أحد الفقهاء المسلمين الذي خرج معه للاستسقاء بعد أن أجذبت البلاد وكاد الناس يهلكون،

(21/9)

ولما استجاب الله وهطل المطر أمر الملك بتحطيم الدكاكير (أى الأصنام)، وأخرج السحرة من بلاده، وأسلم هو وأهله وخاصته وحسن إسلامهم، على الرغم من أن أغلب أهل مملكته كانوا وثنيين. ويتحدث «البكري» أيضًا عن مدن أخرى أهلها مسلمون مثل مدينة «كوتمة» ومدينة «الوكن» ومدينة «كوكو» عند المناءة «نهر النيجر» تجاه بلاد «الهوسا»، والمدينة الأخيرة مدينتان، مدينة الملك ومدينة المسلمين، ويبدو أن ملكهم كان مسلمًا، بدليل ما يذكره «البكري» من أن ملكهم كان يتسلم عند تنصيبه خاتمًا وسيفًا ومصحفًا، يزعمون أن أمير المؤمنين بعثها إليه. ويصرح «البكري» في نهاية حديثه بأن ملكهم مسلم ولا يتولى العرش أحد من غير المسلمين.

وحتى يسير الإسلام في مجراه الطبيعي ويستقر بين هذه الشعوب التي آمنت به، وحتى ينتهي دور «غانة» في مناهضة الإسلام والاعتداء على القبائل المسلمة كان الهدف الأساسي الذي كرّس له الأمير «أبو بكر بن عمر اللمتوني» زعيم «الملثمين» جهوده هو

الاستيلاء على «غانة» وإخضاعها لدولة المرابطين التي أقامها هؤلاء «الملثمون» من قبائل صنهاجة. وعلى الرغم من أن أغلب المصادر تغفل تفاصيل جهاد هذا الأمير في بلاد «السودان الغربي» فإننا نعرف أنه استطاع أن يفتح مملكة «غانة»، وأن يستولى على العاصمة عام (469هـ = 1076م) ويسقط الحكومة الغانية الوثنية. ومنذ ذلك الوقت يمكن أن يؤرخ لإمبراطورية «غانة» الإسلامية حتى اختفائها من التاريخ في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي. فقد أضحت حكومتها إسلامية، ويقال إن ملكها اعتنق الإسلام بدليل أن المرابطين تركوه في الحكم بعد أن أعلن الخضوع ودفع الخراج لهم. وبإسلام هذا الملك دخل عدد كبير من سكان المملكة في الإسلام. ولم تستمر سيطرة المرابطين على «غانة»؛ إذ سرعان ما تخلّصت من هذه السيادة على أثر اغتيال الأمير «أبي بكر» أمير المرابطين عام

(22/9)

---

(480هـ = 1087م) على يد أتباع أحد زعماء قبائل «الموسى» بجنوب «داهومي» وانتهزت بلاد «السودان الغربي» هذه الفرصة وما تبعها من اضطراب الجيوش المرابطية هناك بعد موت قائدها فأعلنت «غانة» استقلالها وانفصالها عن الدولة المرابطية، ونقضت تبعيتها لها، وفي الوقت نفسه استطاعت بعض الولايات التي كانت تابعة لإمبراطورية «غانة» أن تنفصل هي الأخرى وتستقل في حكمها، مثل مملكة «أنبارة» وولاية «ديارا» و «كانياجا»، وأصبحت ممالك مستقلة، بينما أصبحت سلطة ملوك «غانة» لا تتعدى «أوكار» و «باسيكورو» مما أضعف الدولة ومهد للقضاء عليها. ومعنى ذلك أن فتح المرابطين لغانة لم يقض عليها تاريخياً، ولكنه حولها إلى الإسلام، وجاءت الصدمة القاضية على الوجود التاريخي

لإمبراطورية «غانة» على يد قبائل «الصوصو» الوثنية التي استقلت بولاية «كانجبا» كما سبق القول، وكانوا من قبل يدفعون الجزية لحكومة «غانة» لفترة طويلة. وفي مطلع القرن الثالث عشر الميلادي استولى أعظم أباطرة «الصوصو» وهو «سومانجورو» على العاصمة «كومي صالح» في عام (600هـ = 1203م) بعد معركة طاحنة مع ملك «غانة» الإسلامية.

وبذلك أهدى «الصوصو» سيادة الملوك الغانيين المسلمين فتركوا في البلاد، وقام زعيم «الصوصو» بالاتجاه نحو الجنوب؛ حيث توجد دولة «الماندنجو» النامية في «كانجبا» واستولى عليها ولكن أحد أبناء ملك «كانجبا» ويسمى «سندياتا» أو (مارى جاطه) نجح في استرداد الأراضي التي ضاعت من أبيه، بل واستطاع أن يقضى على «سومانجورو» نفسه وأن يضم جميع أملاك «الصوصو» إليه. وذلك بعد موقعة حربية فاصلة (632هـ = 1235م)، وفي عام (638هـ = 1240م) نجح «مارى جاطة» في تدمير ما بقى من «كومي صالح» عاصمة «غانة»، وكان ذلك هو الفصل الختامي في اختفاء إمبراطورية «غانة» من مسرح التاريخ.

وعلى الرغم من أن «غانة» الإسلامية لم تعمّر طويلاً فإن أهلها

(23/9)

---

وأغلبهم من «السونك» اشتهروا بحماسهم للإسلام وبال دعوة إليه، حتى إن بعض العشائر السونكية تكاد تختص بالعمل في الدعوة إلى الإسلام، بل إن كلمة «سونك» في أعالي نهر «غمبيا» استخدمها «الماندنجو» الوثنيون مرادفة لكلمة «داعية»، مما يدل على الدور الكبير الذي نھض به «السونك» في نشر الإسلام. ويبدو أن هذه الدعوة التي دفعها المرابطون للإسلام كانت من القوة بحيث تركت في تاريخ الإسلام في غرب إفريقيا آثاراً عميقة، ذلك

أن دعاة المرابطين نشروا الإسلام في المنطقة الواقعة بين «السنغال» و «النيجر» وعلى ضفاف «السنغال»، وتمخض ذلك عن إسلام شعب «التكرور» الذي عمل بدوره على متابعة الدعوة إلى هذا الدين الحنيف بين قبائل «الولوف» و «الفولبة» (الفولاني) و «المندنجو».

وفي ركاب المرابطين دخلت الثقافة الإسلامية متدفقة من مدارس «المغرب» و «الأندلس»، فقد وُحِدَ المرابطون بين «السودان الغربي» و «المغرب» و «الأندلس» في دولة واحدة. وفي عهدهم تم تأسيس مدينة «تمبكت» التي أصبحت حاضرة الثقافة العربية في غربي «السودان» وقد أسَّسها قوم من طوارق «مقشرن» في آخر القرن الخامس الهجري، وأصبحت سوقاً مهمة يؤمُّها الرحالة ويُفدُّ إليها التجار من «مراكش» و «السودان».

وسرعان ما اقتفى العلماء أثر التجار فوفدوا إليها من «المغرب الأقصى» و «الأندلس»، بل ومن «مصر» و «توات» و «تافللت» و «فاس» وغيرها، وأصبح مسجدها الجامع الذي يسمى مسجد «سنكري» جامعة إسلامية زاخرة في هذه البقعة النائية، وامتدَّ الإسلام إلى مدينة أخرى كان لها ما لتمبكت من أثر في تاريخ الإسلام والثقافة العربية، وهي مدينة «جني» التي أسلم أهلها آخر القرن الخامس الهجري، وأمَّها الفقهاء والعلماء، كما انتشرت اللغة العربية بين كثير من أهالي دولة «غانة» الإسلامية، وأصبحت لغة العبادة والثقافة الوحيدة بالبلاد بجانب كونها لغة التجارة والمعاملات.

(24/9)

---

انتهى هذا الدور بانتشار الإسلام في بلاد «السودان الغربي» على نطاق واسع، وتوطُّن الثقافة العربية في مركزين مشهورين في «تمبكت» و «جني»، وبسقوط مملكة «غانة» الإسلامية على يد

«الصوصو»، وورثتها مملكة «مالى» الناشئة، وبدأ دور جديد يمكن أن نسميه دور الازدهار فى تاريخ الدول والممالك الإسلامية التى قامت فى غرب إفريقيا فى العصور الوسطى. وفى هذا الدور انتقلت السلطة إلى أهل البلاد الأصليين الذين دخلوا الإسلام وتشربوا من ثقافته واقتبسوا من نظمه، وهو التطور نفسه الذى حدث فى «المغرب» حينما انتقل السلطان إلى أهل البلاد أنفسهم، بل شاهده كل قطر دخله الإسلام وتغلغل فيه. ومن الدول الإسلامية التى قامت من أهل البلاد الأصليين فى غربى إفريقيا دولة «مالى» ودولة «صنغى» ودولة «الكام والبرنو». وهذه الدول بعد قيامها كانت تشغل بالحياة الإسلامية وتتخذ مظهرًا إسلاميا واضح المعالم.

(25/9)

### الفصل الثالث

\* سلطنة مالى الإسلامية

[569 – 874هـ = 1200 – 1469م]:

أسس هذه السلطنة شعب زنجى أصيل هو شعب «الماندنجو»، أو «الماندنجو» ومعناها «المتكلمون بلغة الماندى»، ويطلق «القولانى» على هذا الشعب اسم «مالى»، ويلقبه المؤرخون العرب بلقب «ملىل» أو «ملىل»، وتقع سلطنة «مالى» بين بلاد «برنو» شرقًا والمحيط الأطلسى غربًا وجبال البربر شمالًا و «فوتاجالون» جنوبًا. وقد اشتهرت باسم بلاد «التكرور» وهى أحد أقاليمها الخمسة التى اشتملت عليها المملكة زمن قوتها وازدهارها، وكان كل إقليم منها عبارة عن مملكة مستقلة استقلالًا ذاتيًا، لكنها تخضع لسلطان «مالى»، وهذه الأقاليم الخمسة حسبما ذكرها «القلقشندى»:

- 1 - «مالي»، ويتوسط أقاليم المملكة.
  - 2 - «صوصو»، ويقع إلى الجنوب من «مالي».
  - 3 - «غانة»، ويقع شمال «مالي» ويمتد إلى «المحيط الأطلسي».
  - 4 - «كوكو»، ويقع شرق إقليم «مالي».
  - 5 - «تكرور»، ويقع غرب «مالي» حول «نهر السنغال».
- ولا يعرف إلا القليل عن نشأة مملكة «مالي» ويتلخص في أنه في نحو منتصف القرن الحادي عشر الميلادي تقريباً اعتنق ملوك «الماندنجو» في «كانجبابا» (مالي) الإسلام، وأنشئوا دُوَيْلَةَ صغيرة انفصلت عن مملكة «غانة»، وظفرت بنوع من الاستقلال الذاتي، مستغلة الصراع الذي نشب بين المرابطين ومملكة «غانة» واستطاع ملوك «كانجبابا» أن يوسعوا مملكتهم في أوائل القرن الثالث عشر في اتجاه الجنوب والجنوب الشرقي، مما أثار حفيظة ملك «الصوصو»، الذي أخذ يعمل للسيطرة على مملكة «كانجبابا» الناشئة وكادت جهوده تكفل بالنجاح، بعد أن استطاع القضاء على دولة «غانة» الإسلامية عام (600هـ = 1203م)، لكن «سندياتا» ملك «كانجبابا» الذي اشتهر باسم «مارى جاطة» (627 - 653هـ = 1230 - 1255م) استطاع أن يقهر ملك «الصوصو»، وأن يقتله في إحدى المعارك عام (632هـ = 1235م) وأن يضم بلاده إليه، ثم وسَّع نفوذه شمالاً واستولى على البقية

(26/9)

---

الباقية من مملكة «غانة» عام (638هـ = 1240م)، وبذلك يعتبر هذا الملك المؤسس الحقيقي لسلطنة «مالي» الإسلامية.

وقد برزت سلطنة «مالي» في سماء الحياة السياسية في غربي إفريقيا كأعظم ماتكون، واتخذت حاضرة جديدة لها، ترمز إلى الدولة وإلى نفوذها وقوتها النامية وهي عاصمتها الجديدة «نياني» أو «مالي»، بدلا من عاصمتها القديمة «جارب»، وتقع العاصمة الجديدة

على أحد روافد «نهر النيجر».

استمرت حركة التوسُّع بعد ذلك، ففي عهد «منسى ولى» (653 - 669هـ = 1255 - 1270م) خليفة «مارى جاطة» استولى قواده على منطقة «وانجار» الغنية بمناجم الذهب، كما استولوا على مدينتي «بامبوك» و «بندو»، ولم تتوقَّف الفتوح بعد «منسى ولى»، إنما استمرت في عهد خلفائه - أيضًا - حتى وصلت الغاية في عهد ملك «مالى» الشهير «منسا موسى» (712 - 738هـ = 1312 - 1337م) الذى استولت قواته على مدن «ولاته» و «تبيكت» و «جاو» في «النيجر الأوسط»، وبلغت دولة «مالى» الإسلامية في عهده ذروة مجدها وقوتها واتساعها، فقد امتدت من بلاد «التكرور» غربًا عند شاطئ «الحيط الأطلسى» إلى منطقة «دندى» ومناجم النحاس في «تكدة» شرقى «النيجر»، ومن مناجم الملح في «تغازة» في الصحراء شمالاً إلى «فوتاجالون» ومناجم الذهب في «نقارة» جنوبًا، كما شملت الحدود الجنوبية منطقة الغابات الاستوائية.

وتقدر مساحة «مالى» زمن السلطان «منسا موسى» بمساحة كل دول غربى أوروبا مجتمعة، وتعتبر «مالى» من أعظم الإمبراطوريات في القرن الرابع عشر الميلادى، وفاقته شهرتها دولة «غانة»؛ من حيث العظمة والقوة والثروة والاتساع والشهرة، فقد ضمت داخل حدودها مناجم الذهب والملح والنحاس، وتحكمت في طرق القوافل بين هذه المناجم شمالاً وجنوبًا، ونتج عن ذلك ثراء جم، يظهر ذلك من وصف «ابن بطوطة» و «الحسن الوزان» لهذه المملكة.

لكن ما كادت الدولة تبلغ الغاية في القوة حتى بدت عليها مظاهر

(27/9)

---

الضعف؛ فأغرق الملوك في الترف، وفقدوا الروح العسكرية، وبدأت أقاليمها تستقل عنها واحدًا بعد الآخر؛ فاستقلت «جاو» واستولى

«الطوارق» على «أروان» و «ولاته» و «تمبكت»، وبدأ «الولوف» و «التكرور» يُعيرون عليها من الغرب، ودولة «الكاخم» من الشرق واستقلّت إمارة «صنغى» التي ورثت مملكة «مالى» وتبوأت مكانتها في غرب القارة فيما بعد.

وقد بلغ ضعف مملكة «مالى» الغاية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين حين استنجدوا في عام (886هـ = 1481م) بالعثمانيين، الذين كانوا قد استقروا بالمغرب، ثم بالبرتغاليين الذين كانوا قد أنشئوا لهم مستعمرة على ساحل إفريقيا الغربى، فلم يستجب لهم أحد، وكان «سُنِّي على» سلطان دولة «صنغى» الإسلامية والمؤسس الحقيقى لها قد أوغل في سلطنة «مالى» فلم يترك بلدًا ولا مدينة في النصف الشمالى منها إلا حاربه بما في ذلك مدينة «مالى» نفسها، واحتل «تمبكت» عام (873هـ = 1469م)، ونرى عهد قوة إمبراطورية «مالى» ينتهى في العام الذى سقطت فيه «تمبكت» فقد أخذت الإمبراطورية تفقد أقاليمها واحدًا إثر الآخر حتى أصبحت في منتصف القرن السابع عشر الميلادى مجرد دُوَيْلة صغيرة في «كانجابا» كما كانت من قبل. وظلّت هذه الدولة قائمة حتى ابتلعها الفرنسيون في عام (1316هـ = 1898م)، بعد أن هزموا آخر زعيم أراد أن يعيد مجد دولة «مالى» الإسلامية، ويوحد شعب «الماندنجو» وهو «سامورى التورى»، ورغم جهاده المستمر فإن الفرنسيين قضوا عليه في العام نفسه، ونفوه إلى «جابون»؛ حيث مات هناك في عام (1318هـ = 1900م).

وقد استطاعت دولة مالى تحقيق كثير من المظاهر الإسلامية. وأول هذه المظاهر، اتصالها بالقوى الإسلامية المختلفة، وإظهارها لروح الأخوة الإسلامية، وقد ظهر هذا في سفر سلاطين هذه المملكة إلى مكة لأداء فريضة الحج وزيارة «مصر» في طريقهم إلى «مكة»، وقد بدت هذه الظاهرة منذ فجر الدولة؛ إذ أشار «القلقشندى» إلى

---

خروج «منساولى بن مارى جاطة» إلى الحج فى عهد السلطان «ببىرس»، وتطورت الصلات بين «مالى» و «مصر» فى عهد السلطان «منسا موسى» الذى يعد موكبه من أروع مواكب الحج التى وفدت على «مصر» فى القرن الثامن الهجرى.

وقد قدّر بعض المؤرخين عدد من جاء فى ذلك الموكب بعدة آلاف، وقالوا إن السلطان حمل خمسين ألف أوقية من الذهب وزّع أكثرها على الناس فى صورة هدايا أو صدقات فى «مصر» و «الحجاز»، وقد بعث إلى الخزانة السلطانية فى «القاهرة» بمحل كبير من الذهب، وقد أكرمه سلطان «مصر» وبعث إليه بالخلع وزوّده بما يحتاج إليه فى سفره إلى «مكة» من الجمال والمتاع والمثونة.

وكان السلطان «منسا موسى» قد بعث قبل مجيئه إلى «مصر» كتاباً إلى السلطان المملوكى «الناصر محمد» خاطبه فيه بما يدل على التقدير والإخاء، وبعث إليه بخمسة آلاف مثقال من الذهب، مما يدل على عمق الصلات الطيبة وروح الأخوة الإسلامية بين القاهرة وغرب إفريقيا، تلك الصلات التى نشأت عنها علاقات ثقافية وتجارية واسعة وقد انتهز السلطان «منسا موسى» فرصة وجوده فى «مصر»، فابتاع جملة من الكتب الدينية ليوفر لأهل بلاده طرفاً من الثقافة الإسلامية المتفوقة فى «مصر» وقتئذٍ وتبع ذلك رحيل كثير من علماء «مصر» إلى «مالى»، ورحيل علماء «مالى» إلى «مصر»؛ حيث كان لهم رواق فى الأزهر يقيمون فيه يسمى «رواق التكرور».

ولم تقتصر العلاقات على «مصر» وحدها، بل كان لسلاطين «مالى» علاقات طيبة أيضاً بملوك «المغرب» وترجع العلاقات بين الطرفين إلى زمن بعيد، فيذكر «ابن عذارى» مؤرخ «المغرب» و «الأندلس» الشهير فى كتابه «البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب» بعض الهدايا التى كان يرسلها ملوك «السودان الغربى» فى القرنين الرابع

والخامس المهجريين إلى ملوك «بني زيري» في «تونس»، أما سلطان مملكة «مالي» «منسا موسى» فقد أرسل إلى السلطان «أبي الحسن

(29/9)

المربني» يهنئه باستيلائه على «تلمسان»، كما بعث بالسفراء الدائمين إلى مدينة «فاس»، وكانت العلاقات الثقافية مع «المغرب» في غاية القوة والازدهار، بسبب انتشار مذهب «مالك» في البلدين. وقد امتدت علاقات مملكة «مالي» إلى «الأندلس»، بدليل ما يروى من أن «منسا موسى» استعان بأحد علمائها وهو «أبو إسحاق السهلي» من أهل «غرناطة» في بناء القصور والمساجد، وإليه يرجع الفضل في إدخال فن البناء بالآجر في غربي «السودان»، وبني مسجداً عظيماً في «جاو» وآخر في «تمبكت»، كما بني قصر «منسا موسى» نفسه.

وكان أهل «مالي» يحتفلون بشهر رمضان وبالأعياد الإسلامية احتفالاً كبيراً، وكان السلطان يوزع الأموال والذهب على القضاة والخطباء والفقهاء وفقراء الناس، ويصف «ابن بطوطة» خروج السلطان لصلاة العيد وصفاً رائعاً لا يقل فخامة وأبهة عن خروج خلفاء «بغداد» و «القاهرة». ويقول إن الأهالي كانوا يواظبون على الصلاة في الجماعات، وإنهم كانوا يضربون أولادهم إذا ما قصروا في أدائها، وإنه إذا لم يبكر الإنسان في الذهاب إلى المسجد يوم الجمعة لم يجد مكاناً لكثرة الزحام.

وبلغ من عمق العقيدة في نفوسهم أنهم كانوا يلزمون أبناءهم بحفظ القرآن الكريم، وكانوا يضعون قيوداً من الحديد في أرجلهم إذا ما قصروا في حفظه، ولا تفك عنهم حتى يحفظوه، ولذلك أتقن كثير من المالين اللغة العربية، وكان السلطان «منسا موسى» نفسه يجيدها، وكان التعليم لا يتم إلا بها كما كانت لغة الحكومة فكانت

الوثائق المهمة والمراسلات الدولية لا تكتب إلا بها، كما كانت لغة التجارة والمعاملات، أى أنها كانت اللغة السائدة بجانب اللغات المحلية، مثل لغة «الهوسا» و «صنغى» و «الفولانيين» التى تأثرت باللغة العربية، وتوجد آلاف الكلمات العربية مستخدمة فى شتى مظاهر الحياة فى غرب إفريقيا حتى اليوم، وقد زار الرحالة الإنجليزى «فرانسيس مور» مالى عام (1144هـ = 1731م) ووجد معظم

(30/9)

أهل «جمبيا» البريطانية يتكلمون العربية. وقد ساعد على ذلك أن سلاطين «مالى» كانوا يكثرون من بناء المساجد التى كانت تتخذ بجانب العبادة مكاناً للعلم والتدريس، ويذكر أن السلطان «منسا موسى» كان يقيم مسجداً فى كل مكان تدركه فيه صلاة الجمعة إذا كان مسافراً أو خارج عاصمته، ومن أهم هذه المساجد مسجد أو جامع سنكرى الذى أصبح جامعة علمية فى مدينة «تمبكت»؛ حيث وفد إليه العلماء وطلاب العلم من داخل «مالى» وخارجها، وبلغ من أهمية هذه المساجد أنها أصبحت حرماً آمناً، فكان السلطان إذا غضب على أحد من الرعية استجار المغضوب عليه بالمسجد، وإن لم يتمكن من ذلك يستجير بدار خطيب المسجد، فلا يجد السلطان سبيلاً إلا أن يعفو عنه، وهذا يدل على مدى تقدير سلاطين «مالى» للأماكن الدينية وللعلماء، وكان مجلس السلاطين لا ينعقد إلا بحضور العلماء ولا يبيت فى رأى إلا بعد مشورتهم، فإذا أضفنا إلى ذلك ما قام به سلاطين «مالى» من جهاد لنشر الإسلام وثقافته بين القبائل الوثنية سواء داخل دولتهم أو خارجها، وما قاموا به من أصول عربية مشرقية لأسرتهم الحاكمة وهى أسرة «كيتا»؛ لأدركنا مدى حرص تلك السلطنة وهؤلاء السلاطين على التقاليد الإسلامية ومظاهر الحياة الإسلامية.

## الفصل الرابع

\*سلطنة صنغى الإسلامية

[777 - 1000هـ = 1375 - 1591 م]:

بدأت سلطنة «صنغى» (صنغى- سنغاي) دويلة صغيرة لا تختلف من حيث قيامها عن سلطنة «مالى» أو «غانة» فقد تدفقت بعض قبائل مغربية - وخاصة قبائل «لمطة» - فى نحو منتصف القرن السابع الميلادى إلى الضفة اليسرى لنهر «النيجر» عند مدينة «دندى»، وسيطروا على الزراع من أهل «صنغى».

ورحب هؤلاء بهم ليحموهم من الصيادين الذين كانوا يعتدون عليهم ونجح هؤلاء الوافدون فى تكوين أسرة حاكمة استفادت إلى حد كبير من العلاقات التجارية مع «غانة» و «تونس»، و «برقة» و «مصر»، وكانت هذه العلاقات التجارية ذات أثر بعيد فى تحويل ملوك «صنغى» إلى الإسلام فى بداية القرن الحادى عشر الميلادى إبان النهضة الإسلامية التى اضطلع بها المرابطون فى ذلك الوقت لنشر الإسلام فى غربى القارة.

رأى ملوك «صنغى» أن ينقلوا حاضرة ملكهم من «كوكيا» إلى «جاو» لتكون على مقربة من طرق القوافل الرئيسية.

ومدينة «جاو» زارها البكرى عام (460هـ = 1068م) وقال: «إن مدينة كوكوا (جاو) مدينتان، مدينة الملك ومدينة المسلمين، وإذا ولى منهم ملك دُفع إليه خاتم وسيف ومصحف يزعمون أن أمير المؤمنين بعث بذلك إليهم، وملكهم مسلم لا يملكون غير المسلمين»، كما زارها «ابن بطوطة» فى منتصف القرن الرابع عشر للميلاد، وقال عنها: إنها مدينة كبيرة تقع على نهر «النيجر»، وهى من أحسن مدن «السودان» وأكبرها وأخصبها، وقد قابل فيها فقهاء ينتسبون إلى

بعض قبائل البربر.

وكانت «جاو» والبلاد التابعة لها تشكل جزءًا من سلطنة «مالي»  
(777هـ = 1375م)، عندما تحرك ملوك «صنغى»، واستردوا استقلالهم  
منتهزين فرصة الضعف الذى أخذ يظهر فى دولة «مالي» منذ ذلك  
الوقت واتخذوا لقب «سنى» أو «السنى».  
وأخذت بلادهم تتسع فى عهد «سنى على» (868 - 897هـ = 1464 -  
1492م) الذى كون جيشًا كبيرًا منظمًا سار على رأسه إلى الغرب،

(32/9)

واستولى على مدينة «تمبكت» (873هـ = 1468م)، ثم على مدينة  
«جنى» (878هـ = 1473م)، وفتح مملكة «الموسى» وضمها إلى  
دولته، وتقدم شرقًا فهاجم بعض إمارات «الهوسا» فخضعت له  
«كاتسينا» و «جوبير» و «كانو» و «زمفرة» و «زاريا»، ثم اتجه غربًا  
فاستولى على بلاد «الماندنجو» و «الفولاني»، ومعظم ممتلكات دولة  
«مالي» الإسلامية، واتجه شمالًا حتى مواطن الطوارق. وبذلك أسس  
«سنى على» إمبراطورية «صنغى» الإسلامية، وكان أول إمبراطور  
لها، حتى مات فى ظروف غامضة، وبموته انتقل الحكم إلى أسرة  
جديدة أسسها أحد قواد «السونكى»، وهو «أسكيا محمد الأول»  
بعد إعلانة الثورة على ابن «سنى على» واستيلائه على السلطة.  
و «أسكيا» لقب يعنى «القاهر» وقام بتنظيم شئون البلاد من الناحية  
الإدارية، واستخدم طائفة من الموظفين الأكفاء، كما نظم الجيش وأفاد  
من الخبرات السابقة، واتخذت حركته مظهرًا إسلاميًا واضحًا نتيجة  
عاملين قام بهما:  
الأول:

هو اهتمامه بالشئون الدينية واستغلاله ثروة سلفه فى النهوض بها  
وقيامه بالحج إلى البيت الحرام فى مكة (900هـ = 1495م)، وكان

موكب في موسم الحج يفوق ما عرف عن موكب ملوك «مالي»، من حيث الأبهة والرخامة، واستردت «تمبكت» في عهده مكانتها كمركز للثقافة الإسلامية في غرب إفريقيا، وبلغ من شهرتها أن ملك «صنغى» كان ينسب إليها.

والعامل الثاني:

هو الجهاد الذي قام به بغرض توسيع رقعة بلاده، ونشر الإسلام بين الوثنيين من جيرانه «الماندنجو» و «الفولاني» في الغرب «والطوارق» في الشمال، وقبائل «الموسى» الزنجية في الجنوب، «والهوسا» في الشرق في مدن «كتسينا» و «غوير» و «كانو» و «زنفروراريا» وقد خضعت هذه المدن كلها لهذا الملك عام (919هـ = 1513م)، وكان هذا بداية لظهور الثقافة الإسلامية في هذا الجزء من شمال «نيجيريا».

وقد أشار كثير من المؤرخين السودانيين إلى أن علماء من «تيمبكت» رحلوا إلى هذه الجهات الخاضعة لنفوذ «صنغى»، وأقاموا هناك

(33/9)

---

يفقهون الناس في الدين وينشرون الثقافة الإسلامية، حتى امتد النفوذ الإسلامى إلى منطقة «بحيرة تشاد»، وبلغت إمبراطورية «صنغى» أقصى اتساع لها، فقد شمل نفوذها منطقة «السافانا» كلها من الشرق إلى الغرب، واستطاع «أسكيا محمد الأول» أن ينشر الأمن والسلام في جميع ربوع هذه المملكة الشاسعة الأرجاء، بتنظيماته الإدارية والعسكرية الرائعة التي قام بها بين صفوف الجيش والإدارة.

لكن حكمه آذن بالزوال حينما أصيب بالعمى وانتابه المرض وتآمر عليه أولاده، وعزله أحدهم عن الحكم في عام (935هـ = 1529م). وظل القواد والمغامرون يتنافسون من أجل السيطرة على الجيش

والحكومة، إلا أن «أسكيا إسحاق الأول» (946 - 956هـ = 1539 - 1549م) استطاع أن يلى العرش بمساندة الجيش، وأن يعيد الأمن إلى نصابه، وأن يقضى على منافسيه، وأن يبعد كبار ضباط الجيش وكبار المسئولين، الذين أساءوا استخدام مناصبهم خلال فترة الاضطراب.

وعلى الرغم من ذلك لم يستطع الاحتفاظ بالعرش مدة طويلة، فقد خلفه «أسكيا داود» (1549 - 1582م) الذى عين أنصاره فى الوظائف المهمة واشتهر بحنكته السياسية فأبعد خطر ملوك «مراكش» عن بلاده بالمهادنة والتودد إليهم.

وبعد وفاة «داود» (990هـ = 1582م) أثرت المنازعات التى قامت بسبب العرش تأثيراً سيئاً على مملكة «صنغى»، فقد كان سلاطين «المغرب» منذ عهد بعيد يتطلعون إلى مناجم الملح فى «تغازة» وإلى السيطرة على تجارة الذهب، وظل ملوك «صنغى» يصدون سلاطين «المغرب» حتى سنة (993هـ = 1585م)، حينما انقسمت البلاد على نفسها، فاستغل «أحمد المنصور الذهبى» سلطان «المغرب» الذى انتصر على البرتغاليين فى موقعة «القصر الكبير» ضعف «صنغى» وسير جيشاً كبيراً عام (998هـ = 1590م) استولى على العاصمة «جاو» بعد أن هزم قوات «إسحاق الثانى» فى موقعة «تونديبي» وبذلك دخلت البلاد فى طور جديد من أطوار تاريخها وهو طور التبعية والفناء.

(34/9)

---

لكن واقعة «تونديبي» لم تكن نصراً للمغرب إلا من الناحية العسكرية؛ إذ إنهم لم يحققوا الأغراض التى قاتلوا من أجلها، وهى السيطرة على مناجم الذهب فى غرب إفريقيا، لأن ثروة «صنغى» لم تكن نتيجة امتلاكها الذهب بقدر ما كانت نتيجة لسيطرتها على تجارته مع

مواطن إنتاجه، في «وانجارة» و «يندوكو» و «أشنتي»، وكلها في جنوب مملكة «صنغى»، وهى تجارة لا تزدهر إلا في ظل الأمن والسلام الذى قضى عليه سلاطين «مراكش»، الذين لم يستطيعوا أن يمدوا نفوذهم إلى ما وراء المدن الرئيسية «جنى» و «تمبكت» و «جاو»، ولما أدركوا قلة الفوائد التى عادت عليهم من وراء هذا الفتح الذى كلفهم كثيراً، كفوا عن إرسال الجند والمثونة اللازمة إلى قواتهم، وتركوا هذه القوات تقرر مصيرها بنفسها، فنشأت أسرة محلية من باشوات «تمبكت» تدين بالتبعية الاسمية لسلطان «مراكش»، وتعتمد على عنصر خليط من البربر وأهل البلاد، أو المولدين الذين سموا باسم «أرما».

وكان هم هؤلاء الباشوات منصرفاً إلى جمع المال وحمل الزعماء المحليين على دفع الإتاوة على أن سلطاتهم ضعف تدريجياً لاعتمادهم على الجيش الذى كان يعزهم متى شاء، حتى بلغ عدد من تولى منهم بين سنتى (1070هـ=1660م) و (1163هـ=1750م) نحو (128) باشا، ولما ضعفت قوة الجيش نفسه اضطر الباشوات منذ عام (1081هـ = 1670م) إلى دفع الإتاوة إلى الحكام الوثنيين من ملوك «البمبارا»، وهم ملوك مملكة «سيجو» الوثنية، التى كانت تقع على وادى نهر «بانى» جنوبى «كانجابا» فى حوض «النيجر».

وظل الأمر على هذا النحو حتى جاء الفرنسيون واتهموا المنطقة بأسرها، وسموها «إفريقية الاستوائية الفرنسية». وبعد نجاح حركة الكفاح الوطنى ضد الاستعمار الفرنسى والإنجليزى؛ ظهرت عدة دول إسلامية حديثة على أنقاض إمبراطورية «صنغى» الإسلامية، وهذه الدول هى: «جمهورية موريتانيا، و «جمهورية غينيا»، و «جمهورية

مالي»، و «جمهورية السنغال»، و «جمهورية النيجر»، و «جمهورية نيجيريا»، و «جمهورية جامبيا».

وإذا كانت دولة «صنغى» قد شابهت دولة «مالي» من حيث تطورها العام، فإنها قد شابهتها أيضاً في اتخاذها مظهرًا إسلامياً واضحاً، بل فاقتها في هذه الناحية في بعض الأحيان، وهذا التطور طبيعي، فقد امتد سلطان «صنغى» إلى القرن السادس عشر الميلادى، وكان الإسلام قد قطع خطوات واسعة في سبيل النمو والانتشار. وقد سعى ملوك «صنغى» كما سعى ملوك «مالي» من قبل إلى الاتصال بالقوى الإسلامية المعاصرة، تحقيقاً لروح الأخوة الإسلامية، وفي هذا المجال كان ملوك «صنغى» اتصالات عديدة بملوك المسلمين في الشرق والغرب.

فقد خرج «أسكيا محمد الأول» إلى الحج ومر بمصر سنة (899هـ= 1494م) في موكب حافل، وأغدق على الناس والفقراء أكثر مما أغدق أسلافه، فقد روى «السعدى» صاحب كتاب «تاريخ السودان» أنه تصدق مثلاً في الحرمين الشريفين بمائة ألف مثقال من الذهب، واشترى بساتين في «المدينة المنورة» حبسها على أهل التكرور (أهل دولة صنغى)، واجتمع في موسم الحج بزعماء المسلمين، وتأثر بما رآه في «مصر» من نظم الحكم، ومن ثقافة عربية مزدهرة، فاتصل بالإمام «السيوطى» وغيره من علماء العصر، وتلقى تقليدًا من الخليفة العباسى بالقاهرة، وعاد إلى بلده متأثرًا بما رآه من روح إسلامية، وعمل على تطبيق ما تعلمه من آراء وتجارب شاهدها بنفسه.

ويقال إن هذا السلطان قلد في تنظيماته الإدارية النظم التى رآها في «مصر»، وأمعن في إحاطة نفسه ببطانة من العلماء الذين كان يحمل لهم كل احترام وتقدير، فقد روى مؤرخو «السودان» أنهم كانوا إذا دخلوا عليه أجلسهم على سريره وقربهم وأمر بالأل يقف أحد إلا للعلماء أو الحجاج، وألا يأكل معه إلا العلماء والشرفاء.

كما أبطل البدع والمنكر وسفك الدماء، وأقام الدين والعقائد،  
وأعطى «جامعة تمبكت» المزيد من عنايته، فتفوقت في عهده

(36/9)

---

ووصلت إلى ما لم تصل إليه من قبل، وكانت في غربي «السودان»  
كجامعة «الأزهر» في «القاهرة»، أو «القرويين» في «فاس» أو  
«الزيتونة» في «تونس» أو «النظامية» في «بغداد».  
وأصبحت هذه السياسة الإسلامية سياسة مقررّة لخلفائه من بعده،  
فأسكيا إسحاق يسير في الطريق نفسه، من تشجيع العلماء  
وإكرامهم والأخذ بيدهم، و «أسكيا داود» يتخذ خزائن الكتب وله  
نساخ ينسخون الكتب وربما يهادى بها العلماء، وقيل إنه كان  
حافظاً للقرآن الكريم.  
وهذا يدل على أن دولة «صنعي» قد شهدت تمكن الإسلام من أهل  
غرب إفريقيا، كما شهدت ازدهار الثقافة الإسلامية إلى أبعد الحدود.  
وبذلك نكون قد انتهينا من الحديث عن الدول الإسلامية التي قامت  
في بلاد «السودان الغربي»، أما «السودان الأوسط» فقد قامت فيه  
دول أهمها وأعظمها على الإطلاق هي سلطنة «الكام والبرنو»  
الإسلامية.

(37/9)

---

## الفصل الخامس

\*سلطنة الكام والبرنو الإسلامية

[479 - 1262هـ = 1086 - 1846م]:

قامت هذه السلطنة في «بلاد السودان الأوسط» الذي يتكون من

حوض «بحيرة تشاد» وما تقع حواليتها من بلدان تمتد من «نهر النيجر» غرباً إلى «دارفور» شرقاً، وكانت منطقة «بحيرة تشاد» مهد سلطنة «الكانم والبرنو».

وقد ضمت هذه الدولة عدداً كبيراً من القبائل والعناصر، فهناك قبائل «الصو»، و«الكانمو»، و«الكانورى» وهى خليط من العرب والبربر والزنوج، وهؤلاء يكوّنون أغلب سكان هذه السلطنة، يضاف إلى ذلك قبائل «التبو» (التدا) من البربر، وكذلك «بربر الطوارق» من سكان المناطق الشمالية الصحراوية، وكذلك قبائل العرب الذين كانوا يُعرفون هناك باسم (الشوا)، وقد قدموا إلى «تشاد» من «وادي النيل»، ومن القارة عبر الصحراء، وكانوا يتمثلون في قبائل «جدام» و «جهينة» و «أولاد سليمان»، وقد أدى اختلاط هؤلاء العرب بالوطنيين إلى ظهور عناصر جديدة، منها: «التنجور» و «البولالا» و «السالمات» وغيرهم.

وينقسم تاريخ هذه السلطنة إلى عصرين: عصر سيادة «كانم»، ثم عصر سيادة «برنو»، ويقع إقليم «كانم» - الذى كان مهدياً لقيام هذه الدولة - فى الشمال الشرقى لبحيرة تشاد وبه العاصمة «جيمى»، أما إقليم «برنو» فإنه يقع غرب هذه البحيرة، وبه العاصمة «بيرنى» نجازرجامو» التى انتقل الحكم إليها بعد انقضاء عصر سيادة «كانم». وقد قامت هذه الدولة فى القرن التاسع للميلاد على يد أسرة من البربر البيض هى الأسرة «الماغومية السيفية»، التى تزعم أنها من أصل عربى من نسل «سيف بن ذى يزن الحميرى»، واستطاعت هذه الأسرة أن تسيطر على حوض «بحيرة تشاد»، وأن تتخذ من مدينة «جيمى» عاصمة لها، وبدأ الإسلام يطرق أبواب هذه الدولة منذ قيامها، وخاصة من الشمال والشرق على يد التجار والمهاجرين الذين توافدوا عليها فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين. وتحدث

المصادر عن قيام داعية إسلامي كبير هو الفقيه «محمد بن ماني»،  
الذي عاش في القرن الحادي عشر الميلادي، وعاصر خمسة من ملوك  
«الكانم» الذين كانوا يعرفون باسم «المايات» (جمع ماي، وهو لقب  
بمعنى: ملك)، أولهم «الماي بولو» الذي كان يحكم نحو (411هـ =  
1020م) وآخرهم هو «الماي أوم بن عبدالجليل» الذي بدأ حكمه في  
عام (479هـ = 1086م) وهو الذي جعل الدين الإسلامي دينًا رسميًا  
للدولة، وذلك نتيجة لجهود هذا الداعية العظيم الذي أسلم على يديه  
هؤلاء المايات الخمسة، وقد قام آخرهم وهو «الماي أوم بن  
عبدالجليل» (479 - 490هـ = 1086 - 1097م) بجهد كبير في نشر  
الإسلام في بلاده، ثم اتجه إلى الشرق، وذهب إلى بلاد «الحجاز»  
لأداء فريضة الحج، ولكن المنية وافته بمصر أثناء عودته من أداء  
هذه الفريضة، فدفن بها، ومنذ عهد هذا الماي لم يتول حكم دولة  
«الكانم» أى ملك وثنى، وأصبحت منذ ذلك التاريخ دولة إسلامية.  
خلف «الماي دوثة بن أوم» والده في حكم البلاد لفترة طويلة (491 -  
546هـ = 1097 - 1151م) وبلغت في عهده دولة «الكانم» درجة كبيرة  
من القوة والانتساع وطبقت شهرته الآفاق، وحج ثلاث مرات. وفي  
عهده بُنيت مدرسة «ابن رشيق» في «فسطاط مصر» بأموال كاثمية؛  
كى تكون مؤنلا للحجاج القادمين من «كانم» وبلاد «التكرور». وتابع  
خلفاؤه العمل على توسيع حدود هذه الدولة حتى صارت إمبراطورية  
كبيرة، وخاصة في عهد «الماي دوثة بن سالم بن بكر» (618 -  
657هـ = 1221 - 1259م) الذى اشتهر بقوة فرسانه، وكثرتهم حتى  
قيل إنها بلغت نحوًا من (41) ألف فارس، ويُعرف هذا الماي باسم  
«دوثة دبالمى»، نسبة إلى والدته «دابال»؛ حيث كانت النسبة إلى  
الأم شيئًا مألوفًا ومشهورًا في هذه السلطنة بالذات.  
وقد حارب هذا الماي القبائل المتمردة، مثل قبائل «البولالا» الذين  
كانوا يعيشون في حوض بحيرة «فتري الصغيرة» الواقعة إلى  
الشرق من «بحيرة تشاد»، وأخضعها وأقام علاقات طيبة مع «الدولة

الحفصية» في «تونس».

واتسعت الإمبراطورية في عهده حتى وصلت شرقاً إلى مشارف «وادي النيل»، وغرباً قرب نهر «النيجر»، مما يعنى أن بلاد «الهوسا» التي تشكّل الآن «نيجيريا الشمالية» كانت تحت سيادته وسلطانه، كما امتدت حدود بلاده شمالاً حتى وصلت قرب «فران» الليبية واقتربت مساحتها من مساحة إمبراطورية «صنغى» الإسلامية التي سبق الحديث عنها، ولكن هذه الإمبراطورية الكبيرة لم تلبث أن دبَّ إليها الوهن نتيجة لعوامل كثيرة، منها الانقسامات التي ظهرت بين أبناء الأسرة الحاكمة، وظهور خطر قبائل «الصو»، التي كانت تسكن في إقليم «بورنو» وقيامها بمهاجمة عاصمة الدولة؛ وتمكنها من قتل أربعة من المايات. كذلك اشتد خطر البولالا الذين ازدادوا ضراوة بعد أن تمكّنوا من إقامة سلطنة صغيرة لهم في حوض «بحيرة فترى» واتخذوها مركزاً لمناوأة أبناء عموماتهم من مايات «الكاهم والبرنو». وقد استطاعت سلطنة «البولالا» التي ظهرت قوتها في عهد سلطانها «عبدالجليل بن سيكوما» أن تشن حرباً شرسة ضد الأسرة «السيفية الماغومية» الحاكمة في «كاهم»، وتمكن «عبدالجليل» هذا من أن يقتل أربعة من المايات من هذه الأسرة. وقد انتهى أمر الصراع بين الفريقين إلى طرد الأسرة «السيفية» الحاكمة في «كاهم» إلى إقليم «بورنو» الذي يقع غرب «بحيرة تشاد»، وذلك في عهد «المأى عمر بن إدريس» (788 - 793هـ = 1386 - 1391م) الذي استأنف حكمه من إقليم «برنو» فيما يعرف بعصر سيادة «برنو»، هذا العصر الذي امتد حتى نهاية الدولة في عام (1262هـ = 1846م)، وقد ترك طرد الماغوميين السيفيين إلى «برنو» فراغاً سياسياً في «كاهم»، ملأه «البولالا» الذين أقاموا سلطنة كبيرة ضمت هذا الإقليم بالإضافة إلى إقليم «بحيرة فترى» والمناطق

الخيطة بما في حوض «بحيرة تشاد». ورغم ذلك فقد استمر الصراع بين «البولالا» وبين الماغوميين في مقرهم الجديد الذي جعلوه مركزاً

(40/9)

لدولتهم، وبنوا فيه مدينة تسمى «بيرني نجازر جامو» واتخذوها عاصمة لهم. ولما تطلعوا إلى إعادة نفوذهم في «كانم»؛ وقعت حروب كثيرة بينهم وبين سلاطين «البولالا»، وتبادل الفريقان النصر والهزيمة، وخاصة في عهد «المای إدريس بن عائشة» (908 - 932هـ = 1502 - 1526م) الذي أنزل بالبولالا هزيمة ساحقة، واستولى على العاصمة «جيمي» وأقام فيها فترة ثم عاد إلى عاصمته «بيرني». وتابع ابنه «المای على بن إدريس» (952 - 953هـ = 1545 - 1546م) محاربة «البولالا» حتى لُقّب بحارق «البولالا»، ولم يلبث أن لقي حتفه في إحدى المعارك معهم. ولم يقض على خطرهم إلا «المای إدريس ألوما» (978 - 1011هـ = 1570 - 1602م) الذي أقام معهم علاقة طيبة نتيجة ارتباط البيت البولالي بالأسرة السيفية برباط المصاهرة، مما سهل على هذا المای أن يقضى على خطر «البولالا» وأن يعيد نفوذ أسرته إلى إقليم «كانم»، ووصلت الإمبراطورية في عهده إلى أقصى اتساعها وقوتها وازدهارها. وكما تكالبت عوامل الضعف الداخلية والخارجية على إمبراطوريتي «مالي» و «صنغي» حتى سقطتا، فقد تعرّضت إمبراطورية «البرنو» للظروف نفسها وشهدت النتيجة نفسها ذلك أن المای «إدريس ألوما» الذي بلغت الإمبراطورية في عهده قمتها وازدهارها خلفه حكام ضعاف لم يكونوا في مثل قوته وحزمه، بلغوا خمسة عشر سلطاناً على مدى قرنين ونصف قرن من الزمان، حدث في أثنائها كثير من الوقائع التي أدّت إلى القضاء على الإمبراطورية، فبالإضافة إلى ضعف هؤلاء المايات أو السلاطين أصيبت البلاد بموجة من المجاعات

المتلاحقة وصلت إلى خمس مجاعات، استمرت إحداها أربع سنوات، وأخرى سبع سنوات، ويدل تكرار حدوث هذه المجاعات على التدهور السريع والضعف العام الذي أصاب البلاد نتيجة إهمال الزراعة وكثرة الفتن والاضطرابات، فضلا عن ظهور أخطار جديدة تمثلت في ظهور قبائل وثنية في منطقة «جومي» تُسمى قبائل «كوارارافا»

(41/9)

اشتهرت بالقوة والشجاعة، وتمكنت من اجتياح الأقاليم الغربية في «برنو»، كما حدثت حروب بين «برنو» وجيرانها من إمارات «الهوسا» وخاصة إمارة «كانو» في النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي، غير أن أخطر ما تعرضت له إمبراطورية «البرنو» هو خطر «الفولانيين» وهم قبائل بيضاء انحدرت من الشمال وأقامت في غربي القارة، ثم انحدرت إلى الشرق واستقرت في إمارات «الهوسا» التي تتكون منها «نيجيريا» الشمالية الآن، وقامت على يد زعيمها الشيخ «عثمان بن فودي» بحركة ضخمة لنشر الإسلام بين من كان على الوثنية في هذه الإمارات، وتمكنت من ضم هذه الإمارات في دولة واحدة تحت زعامة هذا الداعية الكبير، الذي أعلن قيام دولة «الفولاني» في بداية القرن التاسع عشر الميلادي هذا في الوقت الذي كانت إمبراطورية «البرنو» تزداد ضعفاً على ضعف وتلقى سلطانها «المأى أحمد بن على» (1206 - 1223هـ = 1791 - 1808م) أكثر من هزيمة على يد الفولانيين في عهد الشيخ «عثمان بن فودي» حتى اضطر هذا المأى إلى استدعاء أحد الكائمين والعلماء البارزين ويدعى الشيخ «محمد الأمين الكائمي» لمساعدته في محنته ضد هذا الغزو الفولاني، واستجاب هذا الزعيم لهذا الطلب وتبادل عدة رسائل مع الشيخ «عثمان بن فودي»، كل منهما يحتاج الآخر عبر مناقشات فقهية يبرر كل منهما سياسته، ولكن هذه الرسائل لم

تَوَدَّ إلى إزالة حالة الحرب القائمة بين الفريقين، وأخيراً نجح  
الفولانيون في الاستيلاء على عاصمة «برنو» فاضطر الماي إلى  
الهرب منها ولجأ إلى الشيخ محمد الأمين الذي أصبحت له السيطرة  
الكاملة على المايات الذين صاروا حكامًا بالاسم فقط.  
استمر الشيخ «محمد الأمين» يحكم ما بقي من إمبراطورية «البرنو»  
و «الكام» وأجرى مفاوضات مع سلطان الفولانيين «محمد بلو» الذي  
خلف أباه الشيخ «عثمان بن فودي» في زعامة الفولانيين، واتخذ  
مدينة «سوكوتو» عاصمة له، وأرسل له الشيخ الكانمى رسائل

(42/9)

أوضح له فيها أنهم أهل دين واحد هو الإسلام، وأنه لا ينبغي أن  
يجارب بعضهم بعضاً وأن كلا منهما يجب أن يحترم حدود الآخر،  
فهدأت الأحوال بين الدولتين حتى تُوفى الشيخ «محمد الأمين  
الكانمى» في عام (1251هـ = 1835م) وخلفه ابنه الشيخ «عمر».  
وفي عهد هذا الشيخ حاول «الماي إبراهيم بن أحمد» (1232 -  
1262هـ = 1817 - 1846م) أن يسترد سلطاته التي سلبها منه الشيخ  
«محمد الأمين» ثم ابنه «عمر»، واستعان في ذلك بأمر دويلة صغيرة  
تقع بين «كام» و «دارفور» تُسمّى «واداي» وتآمر معه لغزو  
«برنو».

ونفذ أمير «واداي» الخطة المتفق عليها وأباد جيش «برنو» في  
(1262هـ = 1846م) منتهزاً فرصة غياب الشيخ «عمر» عن العاصمة؛  
لحرب كانت واقعة بينه وبين أحد جيرانه الآخرين، ولما علم هذا  
الشيخ نبأ هذا الغزو وهذه المؤامرة عاد إلى «برنو»، وأخرج الغزاة  
منها نظير مبلغ كبير من المال دفعه لهم، وقبض على الماي  
«إبراهيم» ومستشاريه وأعدمهم جميعاً، ثم تخلّص من الماي «علي  
بن دالاتو» عام (1262هـ = 1846م) الذي لم يحكم سوى أربعين يوماً

وكان مفروضاً عليه كشرط لرحيل جيش أمير «واداي» عن «برنو». ومقتل «علي بن دالاتو» انتهى حكم الأسرة «السييفية الماغومية» التي ظلت تحكم هذه البلاد أكثر من ألف عام، وأصبحت «برنو» تحت حكم الأسرة الكاغمية فعلياً ورسمياً منذ ذلك التاريخ وحتى وقوعها في قبضة الاستعمار الفرنسي في عام (1318هـ = 1900م)، وقد أعيد تقسيم أملاك إمبراطورية «برنو» بين «إنجلترا» و «فرنسا» و «ألمانيا» بعد القضاء على مقاومة أحد المجاهدين ضد الاستعمار الأوربي وهو «رابح الزبير». فأخذت «فرنسا» إقليم «كانم»، وأخذت «إنجلترا» إقليم «برنو»، وظفرت «ألمانيا» بالمناطق الجنوبية لبرنو، وهكذا تلاشت إمبراطورية «برنو» التاريخية على يد الغزاة الأوربيين في بداية القرن العشرين الميلادي، وظل الأمر على هذا النحو حتى

(43/9)

---

قامت حركة الكفاح الوطني في هذه المنطقة ضد المستعمر الأوربي، وتكلفت جهودها بالنجاح وظفرت بالاستقلال، وقامت على أنقاض إمبراطورية «الكانم والبرنو» عدة دول حديثة، هي جمهورية «تشاد» التي استقلت عن «فرنسا» في عام (1380 هـ = 1960م)، وهي دولة إسلامية يدين (85%) من سكانها بالإسلام، ويتكلمون اللغة العربية بجانب اللغات المحلية واللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية، وجمهورية «إفريقيا الوسطى» التي استقلت عن «فرنسا» في العام نفسه أيضاً، وتضم هذه الدولة الأطراف الجنوبية من إمبراطورية «البرنو» التاريخية، ولذلك فإن نسبة المسلمين فيها قليلة. وجمهورية «النيجر» التي استقلت عن الفرنسيين في العام نفسه، وضمت أغلب الأجزاء الشمالية الغربية من إمبراطورية «البرنو» ولذلك فإن (95%) من سكانها مسلمون يتكلمون اللغة العربية بجانب اللغات المحلية، واللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية، و «نيجيريا» التي استقلت عن «إنجلترا»

في عام (1381هـ = 1961م) وضمت إقليم «برنو» الذي يقع غرب «بحيرة تشاد»، كما ضمت جميع بلاد «الهوسا»، وأكثر من (70%) من سكانها مسلمون يتكلم الكثير منهم اللغة العربية ولغة الهوسا بجانب اللغة الإنجليزية، وهي اللغة الرسمية، كذلك ضمت «جمهورية الكمرون» التي استقلت عن «فرنسا» في عام (1380هـ = 1960م) وتضم بعض الأجزاء الجنوبية والجنوبية الشرقية من «برنو»، وكذلك فإن هذه الدولة دولة إسلامية؛ إذ إن أكثر من (55%) من سكانها مسلمون، واللغة الفرنسية هي السائدة بجانب اللغة العربية واللهجات المحلية.

وإذا كنا قد تحدثنا عن التاريخ السياسي لسلطنة «الكانم والبرنو» منذ أن أصبحت دولة إسلامية في عام (479هـ = 6801م) وحتى نهايتها على يد الاستعمار الفرنسي، فإن الواجب يحتم علينا أن نتحدث باختصار عن الطابع الإسلامي ومظاهر الحياة الإسلامية في هذه السلطنة الكبيرة.

وفي هذا الصدد نستطيع القول بأن سلطنة «الكانم والبرنو» قد قامت

(44/9)

---

بالدور نفسه الذي قامت به سلطنتنا «مالي» و «صنغي»؛ فقد اتصلت بالقوى المعاصرة لتأكيد روح الأخوة الإسلامية وللإفادة من خبراتها الثقافية والعلمية والإدارية والحضارية فقد اتّصلت بمصر أثناء ذهاب أهلها وسلطينها لتأدية فريضة الحج، وقد سبقت الإشارة إلى قيام أول سلطان في «كانم» وهو «أوم بن عبدالجليل» بأداء هذه الفريضة، وإلى وفاته في «مصر» عام (490هـ = 1097م) عند عودته إلى بلاده، وقام ابنه «دونغمة» بأداء هذه الفريضة ثلاث مرات مرّاً خلالها بمصر وفي حجته الثالثة غرق في مياه «البحر الأحمر» عند مدينة «عيذاب» في عام (546هـ = 1151م) وواصل مايات «الكانم

والبرنو» أداء هذه الفريضة.

ومن مظاهر الاتصال بالدول الإسلامية الرسائل المتبادلة بين سلاطين «مصر» و «البرنو»، من ذلك رسالة أوردها «ابن فضل الله العُمري» و «الْقَلْقَشْنَدِي» وأشارت إلى استغاثة سلطان «البرنو» بسلطان «مصر» «الظاهر برقوق» في عام (795هـ = 1393م) لمساعدته في القضاء على تمرد القبائل العربية التي ساعدت خصومه السياسيين من «البولالا».

كذلك كانت هناك علاقات ثقافية وتجارية بين «مصر» وسلطنة «الكانم والبرنو» من ذلك ما ترويه لنا المصادر من أن «الأزهر» كان به رواقٌ حُصِّص للطلاب القادمين من هذه السلطنة يُسمَّى «رواق البرنوية» كما سمحت «مصر» للكانميين بإنشاء مدرسة تُسمَّى مدرسة «ابن رشيق» في مدينة «القسطاط» بمصر لتدريس الفقه المالكي؛ ولكي تكون مقرا ينزل به حجاج «البرنو».

أما العلاقات التجارية فقد ازدادت بين «مصر» وبلاد «الكانم والبرنو»، ومما يدل على ذلك أن طائفة من أهل «كانم» اشتهرت باسم «التجار الكارمية» رحلوا إلى «مصر» وأقاموا فيها واشتركوا بنصيب موفور في تجارتها الخارجية وخاصة في تصريف المحاصيل السودانية، وتجارة البهار القادمة من «اليمن» و «الهند» و «الصين»، واتخذت من مدينة «قوص» بصعيد «مصر» مركزًا لها.

(45/9)

---

وكان هؤلاء التجار الذين عُرفوا بالتقوى والورع فضل كبير في نشر الإسلام وخاصة في بلاد الحبشة.

كذلك كان لسلطنة «الكانم والبرنو» علاقات تجارية وثقافية مع شمال إفريقيا وخاصة «تونس» فقد اتصل سلاطين «الكانم» بحكامها من «بني حفص» وتبادلوا الرسائل والهدايا، من ذلك سفارة أرسلها

المأى «عبدالله بن كادى» إلى السلطان الحفصى «أبى يحيى المتوكل» فى عام (727هـ = 1307م)، كذلك تبودلت الرسائل والسفارات مع «طرابلس» فى عام (908هـ = 1502م) وسفارة بعث بها أيضاً فى عام (941هـ = 1534م) وأخرى فى زمن المأى «إدريس ألوما» المتوفى عام (1011هـ = 1602م) كذلك نشطت العلاقات التجارية بين «برنو» وهذه البلدان.

وبمثل الجهاد قمة إيمان السلطنة بالإسلام، فقد اتخذها سلاطينها طريقاً لرد العدوان والتعريف بالإسلام بين الوثنيين الذين كانوا يقومون بالاعتداء على هذه الدولة الإسلامية، وخاصة الوثنيين المقيمين فى الجنوب، فقد حاربهم السلاطين ودخل كثير منهم فى الإسلام، بالإضافة إلى اتباع أسلوب الإقناع الذى اتبعه بعض السلاطين وخاصة السلطان «إدريس ألوما»، الذى اشتهر ببناء المساجد الضخمة من الحجارة، وطبق الشريعة الإسلامية خاصة فى معاملة الأسرى، ونظم الجهاد بما يتمشى مع تعاليم الإسلام، فازداد الدخول فى هذا الدين وانتشر فى منطقة «بحيرة تشاد» كلها. كذلك فقد شجع سلاطين «الكانم والبرنو» انتشار الثقافة العربية الإسلامية، فأكثروا من بناء المساجد والكتاتيب، وكانت اللغة العربية هى لغة التعليم ولغة الحكومة الرسمية، فضلاً عن كونها لغة المعاملات التجارية ولغة المراسلات الدولية، كما كان الحال فى جميع الدول الإسلامية التى قامت فى بلاد «السودان الغربى»، وظلت الحال على هذا النحو حتى عصر الاستعمار الأوروبى الذى قضى على اللغة العربية ولم يعد لها إلا وجود محدود بين قليل من الأهلى، ووجود كبير فى المدارس الدينية الإسلامية.

وفي ظل تشجيع سلاطين «الكانم والبرنو» للثقافة الإسلامية ارتقى العلماء والفقهاء منزلة رفيعة، وحرص السلاطين على رعايتهم والإغداق عليهم، وإصدار المحارم (أى الفرمانات) التي كانوا يمنحونهم بمقتضاها كثيراً من الامتيازات المادية والإقطاعات، ويجرمون على أى شخص مهما بلغت منزلته وقدره أن يسلبهم شيئاً منها. ولذلك ظهر في هذه السلطنة كثير من العلماء والفقهاء، منهم الفقيه «محمد بن ماني» الذى سبق الحديث عنه، والإمام «أحمد بن فرتو» الذى كان معاصراً للماي «إدريس ألوما»، والذى تعد كتاباته المرجع الرئيسى لتاريخ «برنو»، والعالم الكبير «عمر بن عثمان بن إبراهيم»، والعالم «عبدالله ديلي بن بكر»، وغيرهم من العلماء الذين صدرت لهم محارم (فرمانات) تشجيعاً لهم على التفرد للعلم والبحث والتدريس؛ مما أدى إلى انتشار العلوم الإسلامية بين أهالى هذه البلاد.

(47/9)

## الفصل السادس

\*إمارات الهوسا الإسلامية فى شمالى نيجيريا  
تشمل بلاد «الهوسا» ما يعرف الآن بنيجيريا الشمالية، وجزءاً من جمهورية «النيجر»، وكانت تقع فى العصور الوسطى فى المنطقة المحصورة بين سلطنتى «مالى» و «صنغى» غرباً، وسلطنة «البرنو» شرقاً، تحدها من الشمال بلاد «أهير» والصحراء الكبرى، ومن الجنوب ما يعرف الآن بنيجيريا الجنوبية.  
و «الهوسا» (أو الحوصا) مصطلح يطلق على الذين يتكلمون بلغة «الهوسا»، ولذلك فليس هناك جنس يمكن أن يتسمى بهذا الاسم؛ إذ إن الهوسويين لا ينحدرون من دم واحد، بل جاء أغلبهم نتيجة امتزاج

حدث بين جماعات قَبَلِيَّةٍ وَعَرَقِيَّةٍ كثيرة، أهمها: السودانيون. أهل البلاد الأصليون، والطوارق من البربر، والفولانيون وغيرهم. ونتج عن هذا الامتزاج هذا الشعب الذى أصبح يتكلم لغة واحدة، هى لغة «الهوسا» التى انتشرت انتشاراً كبيراً فى إفريقيا الغربية، حتى أصبحت لغة الناس والمعاملات المالية والتجارية. وعلى الرغم من أن المتكلمين بلغة «الهوسا» فى هذا الجزء من القارة الذى يعرف الآن بنيجيريا كانوا يعيشون متجاورين، ويتكلمون لغة واحدة، ويدين معظمهم بالإسلام، فإنهم لم يعيشوا تحت حكم دولة واحدة، بل كَوْنُوا سبع إمارات صغيرة، تُعرف باسم إمارات أو ممالك «الهوسا»، وهى: «كانو»، و «كاتسينا»، و «زاريا»، و «جوبير»، و «دورا»، و «رانو»، و «زمفرة». ويرى بعض الباحثين أن «دورا» هى أقدم هذه الإمارات، وأن دماء أهلها وافدة من «مصر العليا» و «الحبشة» وبلاد العرب، و «كاتسينا» التى كانت تتوسط هذه الإمارات، و «زاريا» أوسعها أرضاً، و «كانو» أغناها، و «جوبير» أجدها، وتقع فى شماليها. وعلى ذلك فقد كانت كل إمارة من هذه الإمارات مستقلة عن الأخرى، وكانت الحروب تندلع فيما بينها فى فترات كثيرة؛ نتيجة لأطماع حكامها فى فرض سيطرتهم، كل على الآخر؛ أو نتيجة لتحالف أحدهم مع القوى الكبيرة المجاورة لبلاد «الهوسا» وهى:

(48/9)

---

دولة «البرنو» الإسلامية من الشرق، ودولة «مالى» ثم دولة «صنغى» الإسلامية من الغرب. وقد اشتهر الهوسويون بالمهارة فى الزراعة والصناعة والتجارة، وقد استغلوا موقع بلادهم المتوسط بين «السودان الغربى» و «السودان الشرقى» فى الاشتغال بالتجارة، ولذلك مهروا فى هذه

الحرفة، وكانوا من أكثر التجار مغامرة، وكانت قوافلهم تخترق الصحراء الكبرى ثلاثة أشهر من كل عام؛ لتزوّد «طرابلس»، و «تونس» وغيرهما من بلدان شمال إفريقيا بمنتجات بلاد «السودان» من ذهب وعاج ورقيق.

كما اخترقت قوافلهم مناطق الغابات في الجنوب؛ حيث وصل نشاطهم التجارى إلى «نوب»، واتجهوا شرقاً إلى «برنو»؛ حيث فتحوا طريقاً للتجارة عام (856هـ = 1452م)، وتوغّلوا في الجنوب حتى حوض «فولتا» الأوسط.

وقد أصبحت طرق التجارة الخارجية، وخاصة التي تخرج من بلاد «الهوسا»، متجهة شمالاً إلى «أهير» وتتصل عندها بالطرق الرئيسية المتجهة إلى «غات» و «غدامس» و «فزان» و «تكدا» و «برنو» مفتوحة ومستعملة بطريقة كافية ومنظمة، وأصبحت مألوفة جداً للمسافرين والتجار؛ مما شجّع العلماء والباحثين على زيارة بلاد «الهوسا» بكل سهولة وارتياح، كما شجّع التجار المغامرين على ارتيادها.

وقد أدّى هذا كله إلى انتشار الإسلام، ونموّ الحركة الفكرية، وازدياد تأثير الثقافة العربية الإسلامية، وسيطرة تجار «الهوسا» على النشاط التجارى في جميع أنحاء «السودان الأوسط»، وتضخمت جالياتهم في كل المراكز التجارية المهمة، وأصبحت لغتهم لغة التخاطب العامة في الأسواق والمعاملات المالية والتجارية، وازدادت سيطرتهم على التجارة في بلاد «السودان» بعد انهيار سلطنة «صنغى» الإسلامية أمام الغزو «المراكشى» سنة (1000هـ = 1591م)، مما أدّى إلى تحول المجرى الرئيسى للحركة التجارية إلى بلاد «الهوسا»، وقفزت «كانو» و «كاتسينا» بصفة خاصة إلى مكان الصدارة والشهرة باعتبارهما مركزين مهمين من مراكز التجارة

والحضارة في ذلك الحين، وبخاصة بعد أن أصبحنا من أهم مراكز الإسلام في تلك المنطقة من بلاد «الهوسا».

وقد انتشر الإسلام في إمارات «الهوسا» السبع في فترة مبكرة إذ دخل الإسلام في إمارة «كانو» في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي، وفي باقى الإمارات في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي، وكان لا اعتناق حكام إمارات «الهوسا» الإسلام، بالإضافة إلى ما اتَّسَمُوا به من العدالة وحب الرعية أثر كبير في انتشار الإسلام بين الناس، فازداد تمسكهم به وازداد تفانيهم وإخلاصهم له.

وبعد انتشار الإسلام في هذه الإمارات، كثر وفود العلماء إليها للدعوة ونشر الإسلام وتصحيح العقيدة بين أهلها، فقاموا بإنشاء عدد كبير من المساجد كمراكز لنشر الدعوة الإسلامية في هذه الإمارات وما حولها من المناطق الأخرى، ونجحوا في القضاء على الوثنية التي كانت منتشرة بين السكان قبل دخولهم في الإسلام.

وقد وجد هؤلاء العلماء في هذه الإمارات الأمن والطمأنينة، مما دفعهم إلى إحضار مؤلفاتهم، وبخاصة في علوم اللغة والأدب والتوحيد، ورَحَّبَ بهم حكام هذه الإمارات، فازدهرت الثقافة واتسعت مجالاتها بجهود هؤلاء العلماء، كما ازداد عدد الرجال المتعلمين؛ حيث كان العلماء يعلمون الناس الآداب والثقافة الإسلامية باللغة والحروف العربية.

ومن العلماء الذين يرجع إليهم الفضل في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية في هذه الإمارات الشيخ «عبدالرحمن زيد» الذى مارس نشاطه في الدعوة في إمارة «كانو»، والشيخ «محمد بن عبدالكريم المغيلي» فقيه «توات» الشهير الذى رحل إلى «كانو» و «كاتسينا»، ونشر فيهما عقيدة الإسلام الصحيحة، والشيخ «عبد سلام» الذى أحضر معه كتب «المدونة» و «الجامع الصغير» والشيخ القاضى «محمد بن أحمد بن أبي محمد التاذختى» المعروف باسم «أيد أحمد» بمعنى «ابن أحمد» الذى ولى قضاء «كاتسينا» وتوفى نحو سنة 936هـ = 1529م)، وغيرهم.

وقد كان للتجار - أيضًا - دور كبير في نشر الإسلام في هذه الإمارات، بل كان لهم الدور الأول في معرفة هذه الإمارات بالإسلام، كما أدى انتشار الإسلام إلى ازدهار التجارة ازدهارًا كبيرًا، بسبب كثرة احتكاك هذه الإمارات بالمدن المجاورة لها.

وعلى أية حال فقد كان لجهود العلماء والتجار القادمين إلى بلاد «الهوسا» والمحليين أثرها الكبير في نشر الإسلام في هذه البلاد منذ القرن الثاني عشر الميلادي، وأصبحت «كانو»، و «كاتسينا»، و «زاريا» وغيرها من بلاد «الهوسا» مراكز إسلامية في هذه البقاع من القارة، وتألفت فيها الثقافة الإسلامية، وكان لها فضل كبير في نشر الثقافة الإسلامية بين سكانها وغيرهم من البلاد المجاورة، فإمارة «كانو» يرجع إليها الفضل في نشر الإسلام شرقًا حتى حدود «برنو»، وإمارة «زاريا» يرجع إليها الفضل في نشر الإسلام في أواسط بلاد «الهوسا»، وجنوبيها في حوض «نهر فولتا»، وكان علماء «تمبكت» - التي تقع على نهر «النيجر» - يرحلون إلى هذه الإمارات، كذلك رحل إليها علماء من «مصر»، من أبرزهم الإمام «جلال الدين السيوطي» المتوفى سنة (911هـ = 1505م) والذي نشأت بينه وبين أمير «كاتسينا» علاقة طيبة، وهناك ما يدل على أن الإمام «السيوطي» رحل إلى هذه الإمارة وعاش فيها زمنًا، يعلم الناس ويفتيهم، وعاد إلى «مصر» سنة (876هـ = 1471م)، واتصلت المراسلات بينه وبين علماء هذه البلاد، كما اتصلت بينهم وبين علماء «مصر» وبلاد «الحجاز» وغيرهما، مما يدل على التواصل الإسلامي، وعلى صلة بلاد «الهوسا» بالعالم الإسلامي سواء في إفريقيا، أو في غيرها من القارات.

## الفصل السابع

\* سلطنة البلالة الإسلامية في حوض بحيرة تشاد

[766 - 1318 هـ = 1365 - 1900م]:

قامت هذه السلطنة في حوض بحيرة «تشاد» (أى: في بلاد السودان الأوسط)، وبالتحديد في حوض بحيرة «فتري»، وإلى الشمال منها حتى بحيرة «تشاد»، وظهرت كدولة يمكن التحقق من تاريخها منذ عام (766 هـ = 1365م)، واستمرت حتى بداية القرن العشرين، عندما سقطت المنطقة كلها في يد الاستعمار الفرنسى.

وعلى الرغم من طول مدة بقاء هذه السلطنة، فإن المؤرخين لم يذكروها كثيراً ولم يهتموا بها؛ لأنها كانت تابعة لسلطنة «الكانم والبرنو» في كثير من فترات حياتها.

ويعود اسم «البلالة» إلى أول زعيم لهم ويدعى «بولال» أو «بلال» أو «جيل» أو «جليل»، ومنه جاء اسم أول زعمائهم وهو «عبدالجليل»، وربما جاء اسم «بلالة» أو «بولالة» من «بولو» الذى كان ابناً لقبائل «البيوما» التى كانت تسكن منطقة «بيو» (Biyo)، ثم أُضيف إليه المقطع التماشكى (ilalla) فجاء اسم «بولالا» أو «بلالة»، وهى كلمة تعنى الأحرار النبلاء، وربما جاء الاسم أيضاً من اسم ميناء كان ولا يزال يقع على الساحل الشرقى لبحيرة «تشاد»، ويسمى «بول» (Bol)، ثم أُضيف إليه المقطع التماشكى، فصار «بولالا» أو «بلالة» كما ينطقه البلاليون أنفسهم فى هذه الأيام.

أما أصل قبائل «البلالة» فقد جاء نتيجة اختلاط عناصر متعددة سكنت هذه المنطقة، وهى: البربر والعرب والسودان والزنج، وقد تصاهرت هذه العناصر فيما بينها، فأدى ذلك إلى امتزاجهم وتغير فى صفاتهم.

وقد كان «البلالة» وثنيتين حتى القرن الثانى عشر الميلادى؛ حيث

أسلموا عقب إسلام بنى عمومتهم الذين يتمثلون في «الأسرة السيفية  
الماغومية» الحاكمة في سلطنة «كانم» في القرن الحادى عشر  
الميلادى.

أما من الناحية السياسية فقد ظهر خطر «البلالة» على سلاطين دولة  
«كانم» منذ وقت مبكر، رغم صلة القرابة التى تربط بينهما، ويعود

(52/9)

ذلك إلى أن «البلالة» كانوا يحاولون التخلص من تبعيتهم لأقربائهم  
من حكام «كانم»، وقد ظهر هذا الخطر منذ عهد أول سلاطين «كانم»  
الإسلامية وهو الماى (السلطان) «أوم بن عبدالجليل» (1086 – 1097م)  
الذى حاربهم وانتصر عليهم، فأعلنوا الطاعة والخضوع، وظلوا  
يتقبلون بين التبعية والتحرر من سلطان «كانم» حتى ظهر زعيمهم  
الموصوف بالقوة والشجاعة والدهاء وهو «عبدالجليل سيكومامى»  
الذى حقق لهم الاستقلال التام والتوسع فى حدود سلطنته فى عام  
(1365م)، بفضل معاونة العرب الموجودين فى هذه المنطقة، واتخذ  
من مدينة «ماسيو» التى تقع بين «بحيرة فترى» و «كانم» عاصمة له.  
ثم حارب مايات كانم وانتصر عليهم، وبذلك وقع إقليم «كانم» بأسره  
فى قبضة «البلالة»، مما جعلهم يحكمون دولة واسعة تمتد من حدود  
«دارفور» الغربية وبلاد «النوبة» حتى شواطئ «بحيرة تشاد»  
الشرقية، واضطرت «الأسرة السيفية الماغومية» الحاكمة فى «كانم»  
إلى الهرب إلى إقليم «برنو» الذى يقع فى غرب «بحيرة تشاد».  
ولكن لم يلبث حكام «برنو» أن استعادوا قوتهم على يد الماى «على  
جاجى بن دوئم» الملقب بالغازى؛ نظرًا لغزوه إقليم «كانم»، ونشب  
بينه وبين «البلالة» صراع منذ عام (1472م) فى محاولة لاسترداد  
«كانم» مرة أخرى، واستمر الصراع فترة طويلة انتهى بعقد اتفاقية  
سلام، اتفقا فيها على رسم الحدود بين «كانم» و «برنو».

وعلى الرغم من ذلك وبمرور الوقت بدأ الضعف يدب في جسد سلطنة «البلالة»؛ بسبب الفتن والاضطرابات والحروب الأهلية، وظهر إمارات جديدة بدأت تُغير على سلطنة «البلالة»، مثل سلطنة «واداي» التي تقع في الشمال الشرقي لدولة «البلالة»، وسلطنة «باجرمي» التي تقع في جنوبيها الغربي.

وعلى الرغم من هذا الضعف فقد ظلت هذه السلطنة قائمة حتى بداية القرن العشرين؛ حيث سقطت في قبضة الاستعمار الفرنسي في عام (1900م)، ومع ذلك حكم بعض سلاطين «البلالة» تحت راية هذا

(53/9)

---

الاستعمار، وظلوا كذلك حتى نالت البلاد استقلالها في عام (1960م) ودخلت بلاد «البلالة» ضمن حدود جمهورية «تشاد» الحديثة منذ ذلك التاريخ.

وقد أدت «سلطنة البلالة» دورًا اقتصاديا وعلميا ودينيا مهما في تاريخ المنطقة؛ إذ كانت نظرًا لموقعها بين «دارفور» و «النوبة» في الشرق، و «كانم» و «بحيرة تشاد» وماوراءها من بلاد «الهوسا» و «مالي» في الغرب، و «ليبيا» في الشمال - مركزًا مهما من مراكز التجارة التي تأتي من هذه البلدان مما انعكس أثره على مسيرتها التاريخية، ودعّم اقتصادها، وربط بينها وبين دول تقع خارج منطقة «بحيرة تشاد»، واتسعت تجارتها حتى وصلت إلى «مصر» وغيرها من البلدان، كما زادت محصولاتها الزراعية.

أما الحياة العلمية: فقد تجلت في المدارس والعلماء والفقهاء والأشرف الذين كانوا يُعامَلون بكلّ تبحيل واحترام، كما ظهرت الطرق الصوفية وبخاصة «التيجانية» و «القادرية»، وكان لهذه الطرق أثر كبير في نشر الإسلام في هذه البلدان.

أما اللغات التي كانت منتشرة بين «البلالة»، فهي عديدة، فقد كانوا

يتكلمون لغة «كوكا» وهي قبيلة كانت تسكن مملكة «جاوجا» - أحد أقاليم سلطنة البلالة - وكانوا يتكلمون أيضاً اللغة العربية التي كانت لغة العلم والتعليم ولغة الحكومة الرسمية والتجارة والمراسلات، حتى قضى الاستعمار الفرنسي عليها وعلى استخدام الحروف العربية في الكتابة وحوّنها إلى الكتابة بالحروف اللاتينية، وإن كان كثير من الأهالي - حتى الآن - يحافظون على التحدث والكتابة باللغة العربية، ومعظمهم - أي نحو (85%) - يدينون بالإسلام.

(54/9)

## الفصل الثامن

\*الطابع الإسلامي والثقافة العربية في غرب إفريقيا (السودان الغربي والأوسط):  
يهيمن الآن أن نتحدث عن الطابع الإسلامي ومظاهر الحضارة في غرب إفريقيا، وعن المراكز التي نهضت بهذا العمل وحفظت للإسلام نقاءه وقوته حتى بداية تعرض المنطقة للكشوف الجغرافية الأوروبية والاستعمار الأوربي في العصر الحديث.  
ونلاحظ أن الامتزاج الكامل بين التقاليد الإسلامية والتقاليد السودانية الرغبية في بداية هذا الدور قد تم، كما تمت المواءمة بين هذين العنصرين، وظهرت تقاليد إسلامية الشكل والطابع، إفريقية الروح، وروايات الرحالة والجغرافيين والمؤرخين العرب مثل: «ابن بطوطة» و «الحسن الوزان» و «القلقشندي» وغيرهم، ومن مؤرخي «السودان» مثل «السعدى» صاحب كتاب «تاريخ السودان»، و «محمود كعت» صاحب كتاب «الفتاش» وغيرهما؛ تشعرنا بأننا نتعامل مع مجتمع إفريقي صميم، اكتسب الثوب والصبغة الإسلامية الواضحة.  
فالقلقشندي يتحدث عن تقاليد البلاط في سلطنة «مالي»، فيشير إلى جلوس السلطان على مصطبة كبيرة عليها دكة أو كرسي من

خشب الأبنوس، تحيط بها أسنان القبيلة من كل صوب، ويتحدث عن رجل مهمته أن يكون سفيراً بين السلطان والناس اسمه أو لقبه الشاعر، وعن المحيطين بالسلطان وهيئة الداخلين عليه، وغير ذلك. ورواية «ابن بطوطة» لا تبعد كثيراً عن هذا الوصف، وهو يشير إلى دار السلطان التي تطل على المشور (دار الشورى)، ويصف السلطان وترتيب الجالسين فيشير إلى نائبه، ثم الفرارية، وهم الأمراء، ثم الخطيب، والفقهاء.

ولم ينفرد سلاطين «مالي» بهذا اللون الفريد من الحياة، فقد شاركهم فيه أهل «صنغى» وغيرهم من شعوب «السودان الغربى» والأوسط، فى إمارات «الهوسا» السبع فى شمالى «نيجيريا» وفى بلاد «الكام والبرنو».

وكانت العلاقة بين السلاطين والرعية تقوم على الخضوع الشديد لهؤلاء السلاطين، يدل على ذلك العادات التى كانت منتشرة فى بلاد «السودان الغربى»، والأوسط.

(55/9)

---

ومع ذلك فثمة مظاهر إسلامية أو عربية خالصة، تتجلى فى التشدد والتمسك بمذهب «مالك»، وحرص الفقهاء على التقاليد وعزوفهم عن مصاحبة السلطان وتولى الوظائف، مثلما كان الحال فى بلاد شمال إفريقيا و «الأندلس». وقد تغلغل العلماء فى الحياة وتمتعوا بالزعامة الدينية والشعبية؛ إذ صاروا لسان حال الشعب والمدافعين عنه أمام ظلم الحكام وعنتهم، وهى الصورة نفسها التى نلاحظها فى المغرب الإسلامى وبلاد «الأندلس»؛ مما يدل على وحدة تلك المنطقة من الناحية الدينية والثقافية، كذلك نشعر بتقدير سلاطين السودان هؤلاء الفقهاء واحترامهم لهم، حتى إن من يلجأ إلى ديارهم يأمن عقاب السلطان ولايجرؤ أحد على التعرض له بسوء.

وقد سبقت الإشارة إلى مواظبة أهل «السودان الغربي» على الصلوات والتزامهم بها في الجماعات، وضربهم أولادهم إذا ما قصرُوا في أدائها أو في حفظ القرآن، وازدحام المساجد بالمصلين حتى إنه إذا لم يبكر المرء بالذهاب إلى المسجد لم يجد موضعًا، كما سبقت الإشارة إلى كثرة عدد المساجد واعتناء السلاطين ببنائها وتعيين الأئمة والخدم لها، وقد التزم الجميع بمذهب الإمام «مالك». كما نلاحظ أن جميع الأسر الحاكمة في «السودان الغربي» والأوسط اصطنعت لنفسها نسبًا عربيًا؛ فسلاطين «مالى» يدعون الانتساب إلى «عبدالله بن صالح بن الحسن بن علي»، وانتسب سلاطين «كانم وبنون» إلى «جمير»، واتخذ سلاطين «صنغى» مثل هذا النسب العربي، بل وحرصوا على الحج والحصول على تقليد من الخليفة العباسي بالحكم، كل ذلك ليكتسبوا صبغة إسلامية كاملة وليفوزوا برضا الرعية، وليفسحوا لأنفسهم مجالًا في الحياة الإسلامية الدولية. وقد حرص سلاطين «السودان الغربي» والأوسط وملوكهم ورعيتهم على أن يقتبسوا من التقاليد الشائعة في الحياة الإسلامية المعاصرة لهم، فهم في لباسهم يتشبهون بأهل «المغرب»، وتأثر كل من «منسا موسى» و «أسكيا محمد الأول» اللذين زارا «مصر» بأساليب

(56/9)

---

الحياة في «مصر المملوكية»، فسلطان «مالى» مثلاً يتخذ حاشية من ثلاثين مملوكًا من الترك، اشتراهم من «مصر»، وطريقة جلوسهم وخروجهم إلى المسجد يوم العيد لا تختلف كثيرًا عما كان مألوفًا عند سلاطين المماليك وغيرهم من ملوك الإسلام. كما حرصوا على أن تكون وثائقهم ومكاتباتهم الرسمية باللغة العربية، حتى التنظيمات الإدارية والحربية تأثروا فيها بما شاهدوه في «مصر»، فملوك «صنغى» يقسمون الإمبراطورية إلى ولايات أو

أقاليم وكل ولاية إلى مدن ثم إلى قرى، ثم ينظمون الجيش إلى فرق  
للمشاة والخيالة والأبالة، بل استخدموا الأسلحة النارية وخاصة ملوك  
«الكاخم والبرنو»؛ مما ساعدهم في مشروعاتهم السياسية والحربية  
إلى حد كبير.

أما عن الثقافة الإسلامية فإنه يمكننا القول: إن هذه الثقافة كانت  
عربية خالصة، لم تدخلها تأثيرات أخرى؛ لعدم وجود تقاليد ثقافية  
زنجية في ذلك الوقت، وكانت هذه الثقافة الإسلامية ذات صبغة  
مغربية أندلسية؛ حيث إن الإسلام دخل إلى تلك البلاد من «المغرب»،  
وبالتالي انتقلت ثقافة «المغرب» إلى «أودغشت» و «تمبكت وجاو»  
ويقية مدن «السودان الغربي» والأوسط، حتى طريقة الكتابة نفسها  
تأثرت بالطابع المغربي، فالقلم المستخدم هو القلم المغربي،  
والمناهج والكتب المتداولة هي المناهج والكتب المالكية المغربية  
نفسها مثل كتب «عباض» و «سحنون» و «موطأ مالك» و «المدونة»  
وغيرها، وكلها كانت تدرس في مدارس غربي إفريقيا في «جنى»  
و «تمبكت» و «كانو» و «كاتسينا» و «برنو».

حتى التأثيرات الأندلسية دخلت إلى مدارس «المغرب» وغربي إفريقيا  
وخاصة بعد سقوط دولة الإسلام في «الأندلس»، فقد رحل علماءها  
إلى غربي إفريقيا وأقام كثير منهم في «تمبكت»، وشاهد بعض  
القبور التي كشف عنها في منطقة «النيجر» ظهر أنها صنعت في  
مدينة «المرية» بالأندلس عام (494هـ = 1100م)، وتحمل نقوشاً عربية  
أندلسية، كما تأثرت قصور ملوك «السودان الغربي» والأوسط

(57/9)

بالعمارة المغربية الأندلسية.

وقد تأثرت مدارس «السودان الغربي» والأوسط بالمدارس الإسلامية  
الأخرى، خاصة مدارس «مصر» المملوكية، ورحل أهل «السودان» إلى

«مصر» وتعلموا فيها، ورحل بعضهم إلى «الشام» و «الحجاز»،  
ووصلت مؤلفات المصريين إلى هذه البلاد، وقد عرفنا كيف ابتاع  
«منسا موسى» الكتب وحملها معه إلى بلاده، كما أن مؤلفات  
«السيوطي» وغيره من علماء «مصر» شاعت في هذه البلاد، وكان  
تأثر الطلاب السودانيين بمدارس «مصر» لا يقل عن تأثرهم بمدارس  
«المغرب العربي».

وليس معنى ذلك أن الثقافة الإسلامية في غربي إفريقيا كانت تقل  
عن نظيرتها في بلاد «المغرب»، من حيث الغزارة والعمق، فعلماء  
«السودان» وفقهاؤه لم يختلفوا عن نظائرهم في «المغرب العربي»،  
فقد روى «السعدى» أن فقيهاً اسمه «عبدالرحمن التميمي» جاء من  
الحجاز بصحبة السلطان «منسا موسى» حين عاد من الحج فأقام  
بتمبكت زمناً، ولما رأى فقهاءها يتفوقون عليه غادرها إلى «فاس»  
حتى يتزود من العلم ثم يعود إليهم.

وهناك من اشتهر من مؤرخي السودان الغربي والأوسط وكتّابه  
أمثال: «أحمد بابا التمبكتي»، الذي وُلد بوهران عام (963 - 1037هـ  
= 1556 - 1627م) فهو من أصل صنهاجي، ثم رحل إلى «تمبكت»  
وفيها ظهرت مواهبه وارتفعت مكانته العلمية وكان رجلاً واسع  
الثقافة، أَلَفَ في كل العلوم المألوفة في عصره، وذُيِّلَ كتاب الديباج  
المذهب لابن فرحون وسماه «نيل الابتهاج بتطريز الديباج»، وأرَّخ  
فيه حتى سنة (1006 هـ = 1597م) وهو يعطينا صورة طريفة لتاريخ  
الحركة الفكرية في «السودان الغربي» كله.

وهناك المؤرخ «السعدى» وهو من رجال القرن السابع عشر  
الميلادي، وقد أقام بتمبكت و «جنى» ورحل إلى «المغرب»، وهو  
صاحب الكتاب المشهور المسمى «تاريخ السودان»، والذي يعطينا  
معلومات وافية عن تاريخ «دولة صنغى» وعن أحوالها الاجتماعية  
والثقافية، كذلك كان شأن «محمود كعت التمبكتي» صاحب كتاب

---

«الفتاش في أخبار السودان»، فقد كان فقيهاً من فقهاء «تمبكت»  
صَحَبَ «أسكيا محمد الكبير»، وألف كتابه بالأسلوب المغربي المؤلف  
نفسه.

وهناك أيضاً الإمام المؤرخ «أحمد بن فرتو»، الذي عاش في سلطنة  
«برنو» وكان يعاصر الماي «إدريس ألوما» (978 - 1012هـ = 1570 -  
1603م)، وهذا الإمام سليل أسرة دينية كان لها أثرها الكبير في  
نشر الإسلام في «برنو»، وجده البعيد هو الإمام «محمد بن ماني»  
الذي أسلم على يديه سلاطين «كانم وبرنو» الأوائل في القرن  
الحادي عشر الميلادي.

وقد كتب «أحمد بن فرتو» تاريخاً لبلاده يعتبر المرجع الرئيسي،  
وخاصة تاريخ الفترة التي عاصرها زمن «إدريس ألوما»، ومؤلفاته  
مدونة باللغة العربية ونشرت في عام (1349هـ = 1930م) على يد  
أمير «كانو» في «نيجيريا».

ورغم أن هؤلاء الكتّاب وغيرهم كتبوا باللغة العربية فإننا لا ندرى  
بالضبط مدى انتشار اللغة العربية بين عامة الناس في تلك الفترة،  
ويبدو أنهم كانوا يستخدمون لغتهم الأصلية في حياتهم الخاصة،  
ويقتصر استعمال العربية عندهم على المكاتبات والعقود التجارية،  
ومما يدل على ذلك أن «ابن بطوطة» حضر صلاة الجمعة في أحد  
مساجد «مالي»؛ فرأى رجلاً يقف ويبين للناس بلسانهم كلام الخطيب،  
أى أنه كان يترجم كلام الخطيب إلى اللغة المحلية، ويشير هو وغيره  
إلى وجود وظيفة الترجمان في بلاط السلطان، ويتضح ذلك أيضاً من  
اختلاط «ابن بطوطة» و «الحسن الوزان» ببعض أهالي «السودان»،  
وكانا لا يعرفان لغة هؤلاء الناس إلا عن طريق ترجمان.

هذا عن انتشار الثقافة العربية الإسلامية في غربي إفريقيا، أما  
المراكز التي استقرت فيها هذه الثقافة وانطلقت منها إلى نواحي  
«السودان» المختلفة فعديدة؛ من أهمها: مدينة «تيمبكت»، و «جني»،

و «أودغشت»، و «كانو»، و «كتسينا»، و «جاو».

## 1 - مدينة تمبكت:

تعتبر مدينة «تंबكت» أهم مركز تجارى وثقافى فى غربى إفريقيا،

(59/9)

وقد أنشئت فى أواخر القرن الخامس الهجرى سنة (490هـ = 1097م)

فى عهد الأمير «يوسف ابن تاشفين» على نهر «النيجر» الأعلى،

وبلغت مكانة لا تقل عن مكانة «القيروان» أو «فاس» أو «القاهرة»

أو «قرطبة» فى مجال الثقافة العربية الإسلامية، التقى فيها العلماء

والفقهاء من جميع الأجناس والألوان من بلاد «المغرب» و «الأندلس»

و «مصر» و «الحجاز» وبلاد «السودان».

وكانت «تंबكت» مركزاً مهماً من مراكز الثقافة العربية فى إفريقيا،

تخرّج فى جامعتها - التى يمتلها «جامع سنكرى» الشهير - علماء

ومؤرخون كان لهم فضلٌ كبيرٌ فى نشر الإسلام والثقافة العربية،

وكان الطلاب يفتدون إلى هذه المدينة بعد حفظ أجزاء من القرآن فى

مدارسهم المحلية، ثم يكملون تعليمهم معتمدين على الأوقاف التى

كانت محبوسة عليهم وعلى «جامع سنكرى».

وكان علماء «تंबكت» يقبلون فى شغف على إنشاء مكباتهم

الخاصة، وبعضهم زادت مكنته على ألفى كتاب، كما اقتنى بعض

السلطين مثل هذه المكبات، واتصل علماء «تंबكت» بإخوانهم فى

الأمصار الإسلامية الأخرى، فى «القاهرة» و «فاس» و «القيروان»؛ مما

أعطى الحركة الفكرية فى «تंबكت» صفة العالمية.

وخلاصة القول أن هذه المدينة كانت مدينة إسلامية منذ نشأتها،

فهى كما قال «السعدى»: ما دنتستها عبادة الأوثان، ولا سجد على

أديمها لغير الرحمن، مأوى العلماء والعابدين، ومألف الأولياء

والزاهدين، ولذلك ارتبط تاريخ الثقافة العربية الإسلامية فى غربى

إفريقيا بتاريخ هذه المدينة نفسها.

## 2 - مدينة جَنِّي:

أُسِّسَتْ هذه المدينة على «نهر النيجر» الأعلى في منتصف القرن الثاني من الهجرة (حوالي سنة 800م) وأسلم أميرها «كنبرو» في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي في عهد المرابطين، وحدث حذوه الرعية، وبنى أميرها مسجدها العتيق على نظام المسجد الحرام في مكة المكرمة»، وكان الإسلام والثقافة الإسلامية قد تدفقا إلى هذه

(60/9)

المدينة المهمة التي تلى «تمبكت» في الأهمية قبل اعتناق «كنبرو» الإسلام، بدليل أنه أسلم على يد علمائها وفقهائها الذين جمعهم، وبلغ عددهم حسب رواية «السعدى» ما ينيف على أربعة آلاف، وإن كان هذا العدد مبالغاً فيه إلا أنه ليس غريباً؛ بسبب علاقات مدينة «جنى» التجارية مع بلاد «المغرب» وحوض «السنغال»، وقد نهضت الثقافة الإسلامية بمدينة «جنى» نهضة كبرى، يستفاد ذلك مما رواه «السعدى» عمَّن أقام بها ووفد إليها من العلماء والقضاة ورجال الدين.

## 3 - أودغشت:

مدينة قديمة لم يَعدْ لها وجود الآن، وتعد من المراكز الثقافية الإسلامية المهمة التي كان لها دور كبير في نشر الإسلام وثقافته في غربي إفريقيا.

كانت «أودغشت» أول الأمر محطة تجارية لقبيلة «صنهاجة»، على الحدود الشمالية لمملكة «غانة» الوثنية، ولما فتح الصنهاجيون جزءاً كبيراً من «غانة» في نهاية القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي أصبحت «أودغشت» حاضرة لتلك القبيلة القوية، ثم استولت عليها مملكة «غانة» الوثنية، ولكن الصنهاجين الذين اعتمد عليهم

المرابطون أو المثلثون استطاعوا استعادتها عام (447هـ = 1055م)،  
ومنها انطلقت موجات من دعاة المرابطين إلى بلاد «السودان»،  
وتأكد دورها في نشر الإسلام وازدهر بعد سقوط دولة «غانة»  
الوثنية نفسها عام (469هـ = 1076م).  
وقد وصفها «البكري» المتوفى عام (487هـ = 1094م) بأنها مدينة  
زاهرة، يتألف سكانها من العرب والبربر والسودانيين.  
وكان يوجد بمساجدها معلمون لتعليم القرآن الكريم والسنة النبوية  
وسائر العلوم الإسلامية، كما كثرت بها المدارس لتعليم الأطفال،  
واشتهرت بمبانيها الجميلة وأسواقها العامرة، وكان يوجد بها بعض  
الصناعات المعدنية التي بلغت درجة كبيرة من الرقي والإتقان، كما  
كانت تتجر في الأقمشة الحريرية الموشاة بالذهب، مما جعلها مركزاً  
تجارياً وصناعياً وثقافياً كبيراً؛ يربض على طرف الصحراء من ناحية  
الجنوب.

4 - كانو:

(61/9)

تعتبر هذه المدينة من مراكز الثقافة الإسلامية بغربي القارة، ومن  
أهم مدن شعب «الهوسا» شمالي «نيجيريا» الحالية، ويمكن أن يقال  
إنه كانت هناك سبع إمارات تابعة للهوسا، هي إمارات: «كانو»  
و «رانو» و «زاريا» و «دورا» و «جوير» و «كتسينا» و «زmfارا»، وتقع  
هذه الإمارات في شمالي «نيجيريا» الحالية، شرقي ثنية نهر  
«النيجر» أو بينها وبين بلاد «برنو».

ويذكر «الحسن الوزان» أن «أسكيا الحاج محمد» ملك «جاو»  
(صنغى) قتل ملك «الهوسا» وضم البلاد إلى مملكته في عام (918هـ =  
1512م)، ورغم ذلك فقد كان لبعض إمارات الهوسا فضل ثقافى  
كبير، فإمارة «كانو» يرجع الفضل إليها في نشر الإسلام شرقاً

حتى «بورنو»، وإمارة «زاريا» يرجع الفضل إليها في نشر الإسلام في أواسط «نيجيريا»، وقد ظهرت «كانو» و «كاتسينا» كمراكز للثقافة الإسلامية منذ القرن الخامس عشر الميلادي. وقد تضاعفت الشهرة العلمية لمدينة «كانو» و «كاتسينا» بعد الأحداث التي أصابت مدينة «تمبكت» منذ القرن السادس عشر الميلادي، وخاصة بعد الغزو المرأكشي لها ومملكة «صنغي»، وما نتج عن ذلك من هجرة العلماء والطلاب والفقهاء إلى «كانو» وغيرها من مدن «السودان الغربي» العديدة، ولاتزال تلك المدينة إلى اليوم من أهم مراكز الثقافة الإسلامية في غربي إفريقيا، وبها مدرسة للعلوم العربية ومدرسة للقضاء الشرعي والفقہ الإسلامي.

(62/9)

## الفصل التاسع

\*الإسلام والعروبة في السودان وادى النيل لم تكن بلاد «السودان الشرقي» (النيلي) أو «سودان وادى النيل» مجهولة للعرب قبل الإسلام، فقد محرت سفنهم عباب البحر الأحمر حتى وصلوا إلى الشاطئ الإفريقي ومنه إلى «السودان» و «الحبشة»، فضلا عن الطريق البري عبر «سيناء» إلى «مصر»، ومنها جنوبًا إلى «السودان»، والطريق البحري عبر «باب المندب» إلى «الحبشة» ومنها إلى «السودان»؛ كل ذلك بهدف التجارة بين هذه البلدان وبين عرب «اليمن» و «الحجاز»، وبظهور الإسلام وانتشاره في «مصر» أصبح وادى النيل معبرًا جديدًا للعرب والإسلام إلى بلاد «السودان النيلي» سلكته الجيوش والقبائل العربية، إما بقصد الغزو والفتح وإما بقصد التسرب السلمى بغرض الإقامة ونشر الإسلام بين أهالى هذه البلاد.

وكانت هناك مملكتان مسيحتان في «السودان النيلي»، هما مملكة «مقرة» أو «دنقلة» أو «النوبة» في شمالي هذا السودان، ومملكة «علوة» في وسطه، وكانت هذه الممالك تقف في وجه انتشار الإسلام، وأمام جهود المسلمين للدخول إلى «السودان النيلي» من ناحية «مصر»، ولهذا كان انتشار الإسلام يتوقف على إضعاف هذه الدول أو القضاء عليها.

وبدأ اللقاء الأول بين هذه الدول المسيحية وبين المسلمين منذ وقت مبكر، فقد أرسل «عمرو بن العاص» - رضى الله عنه - والى «مصر» بعض جنده إلى «بلاد النوبة» عام (21هـ = 642م)، لكنه لم يتمكن من فتحها، ثم غزاهم «عبدالله بن سعد بن أبي السرح» والى مصر عام (31هـ = 651م)، ووصل في زحفه حتى «دنقلة» عاصمة مملكة «مقرة» المسيحية، وعقد معهم صلحاً عُرفَ باسم «البقط»، وتدل نصوص هذا الصلح على أنه يهدف إلى التسامح الديني وحسن الحوار، ولا يعكس تبعية «دنقلة» لمصر الإسلامية، أى لم يكن في حقيقته إلا تأميناً للنواحي الاقتصادية والتجارية والدينية، وتشجيعاً للتبادل التجارى، وإقراراً للسلام على الحدود المشتركة؛ ولذلك ظلت

(63/9)

---

هذه المعاهدة سارية المفعول أكثر من ستمائة سنة. ... ويلفت النظر في هذه المعاهدة اشتراط «عبدالله بن سعد» على النوبيين أن يحافظوا على المسجد الذى بناه المسلمون في «دنقلة»، ويحموا التجار المسلمين، وغيرهم ممن يطرقون بلادهم، وهذا يؤكد حرص «عبدالله بن سعد» على أن يظل الطريق مفتوحاً خلال مملكة «مقرة» إلى الجنوب؛ حيث توجد مملكة «علوة» التى يمكن نشر الإسلام بها عبر التجار والمسافرين من المسلمين. وأثناء انصراف «عبدالله بن سعد» من «النوبة» تعرض له «البجة» أو

«البجة»، ويبدو أنه لم يصطدم بهم لهوان شأنهم في نظره، لأنه لم يكن لهم ملك يمكن الرجوع إليه، وكانت أوطان هذا الشعب تمتد في الصحراء الشرقية بين «النيل» و «البحر الأحمر» من حدود جنوب «مصر» في الشمال إلى حدود «الحبشة» في الجنوب، وقد أغاروا على صعيد «مصر» سنة (107هـ = 725م) فصالحهم «عبيد الله بن الحبحاب» والى «مصر»، وكتب لهم عقدًا بذلك.

وعندما أغاروا على «أسوان» بعد ذلك جرّد لهم الخليفة «المأمون» عام (216هـ = 831م) جيشًا بقيادة «عبدالله بن الجهم»، وانتهى الأمر بعقد صلح جديد بينه وبين ملكهم «كنون بن عبدالعزيز»، ومن أهم شروطه أن تكون بلاد «البجة» من حدود «أسوان» إلى ما بين «دهلك» و «مصوع» ملكًا للخليفة، وأن يكون «البجة» وملكهم أتباعًا له، مع بقاء هذا الملك في منصبه ويتعهدون بعدم منع أى مسلم من دخول بلادهم بقصد التجارة أو الإقامة أو الحج، وأن يؤدى ملك «البجة» ما عليه من الخراج.

وهكذا فتحت هذه المعاهدة الباب أمام المهجرات العربية لاجتياز مملكة «مقرة» دون الإقامة بها، في طريقها إلى وسط «السودان النيلي» أو ما عرف باسم «مملكة علوة» بينما سمحت المعاهدة مع «البجة» للمهجرات العربية بالاستقرار والإقامة فيما بين حدود «مصر» الجنوبية وحتى «مصوع»، وبهذا أصبح الباب مفتوحًا للإسلام والثقافة العربية

(64/9)

---

للتوغّل في وسط «السودان النيلي» وحتى حدود «الحبشة» الشمالية. وقد أثّرت أحداث العالم الإسلامي؛ وخاصة الصراع بين الأمويين والعباسيين، وظهور العناصر الأخرى من الفرس وغيرهم على المسرح السياسى واستبداهم بالسلطة والنفوذ، في هجرة الكثير من القبائل العربية إلى الجنوب، وقد انتهزت تلك القبائل فرصة الحملة التي

أعدّها «أحمد بن طولون» والى «مصر» إلى أرض «النوبة» و «البجة»  
فاشترك فيها كثير من العرب وخاصة من «ربيعة» و «جهينة»؛ حيث  
استقروا في هذه المناطق ونشروا الإسلام واختلطوا بالنوبة  
و «البجة».

وقد حرص رؤساء العرب على التزوّج من بنات «البجة» و «النوبة»؛  
مما أدّى إلى انتقال الرئاسة إليهم وفقاً لنظام الوراثة عن طريق الأم،  
وقد استطاعوا إقامة أول إمارة إسلامية عربية كان مقرّها في  
«أسوان» في عهد الفاطميين، وخلع الخليفة «الحاكم بأمر الله  
الفاطمي» على أمير «ربيعة» لقب «كنز الدولة» فعرف «بنو ربيعة»  
في «أسوان» و «النوبة» ببني كنز، واستطاع هؤلاء أن يصاهروا  
البيت المالک النوبى فى «دنقلة»، وتبعًا لذلك انتقل الحكم هناك إلى  
«بني كنزة» وأعلنوا استقلالهم عن الدولة المملوكية فى «مصر»  
سنة (723هـ = 1323م).

وبذلك ظهرت أول إمارة إسلامية فى بلاد «السودان الشرقى»،  
وتدفقت موجات من العرب ولاسيما من عرب «جُهينة» إلى داخل  
«السودان» حتى بلاد «الحبشة» و «دارفور»، واستقر كثير منهم فى  
أرض «مملكة علوة» المسيحية وأسّسوا مدينة «أرجى» على  
الشاطئ الغربى من النيل الأزرق عام (879هـ = 1474م) ومع توالى  
الهجرات العربية إلى مملكة «علوة» وازدياد نفوذها، عمل ملوك  
«علوة» على استمالتهم بالمصاهرة، فانتقل الحكم إلى «جهينة» عن  
هذا الطريق، كما حدث فى مملكة «النوبة» من قبل، وخاصة بعد أن  
تحالف هؤلاء العرب مع «الفونج» القادمين من الجنوب، وقضوا على  
مملكة «علوة» نهائيًا فى مستهل القرن السادس عشر الميلادى وبذلك

انتهت ممالك «النوبة» أو ممالك «السودان الشرقي» (النيلى) المسيحية، وبدأ عهد جديد فى تاريخ تلك البلاد ظهرت فيه عدة ممالك أو سلطنات إسلامية من أهمها:

(66/9)

## الفصل العاشر

\*سلطنة الفونج الإسلامية فى سنار

[910 - 1236هـ = 1505 - 1820م]:

اختلف الباحثون فى أصل «الفونج»، فقبل إنهم من سلالة عربية أموية هربت من وجه العباسيين، وأنهم جاءوا إلى «الحبشة» أولاً ومنها إلى «السودان الشرقي» (النيلى)؛ حيث تصاهروا مع ملوك «السودان»، وظهرت نواة إمارة «الفونج» عقب القضاء على مملكة «دنقلة» المسيحية، وتسرب العرب على نطاق واسع إلى مملكة «علوة» المسيحية، واتسع نطاق هذه الإمارة غرباً، ووصل إلى أطراف منطقة الجزيرة من الشرق، ثم تمّ التحالف بين هذه الإمارة النامية فى عهد أميرها «عمارة دونقس» (911 - 941هـ = 1505 - 1534م) وبين عرب «القواسمة» الذين ينتمون إلى مجموعة «الكواهلة» فى عهد زعيمهم وشيخهم «عبدالله جماع». وقد كان لهذا التحالف نتائج مهمة فى تاريخ «سودان وادى النيل»: أولها: قضاء الحليفين على مملكة «علوة» المسيحية عام (911هـ = 1505م).

وثانيها: قيام مملكة «العبد لاب» التى اتخذت مدينة «قري» حاضرة لها، ثم انتقلت منها إلى «حلفاية»، وشاركت «الفونج» فى السيطرة على القسم الشمالى من البلاد وامتد ملكهم من مصب «دندر» إلى بلاد «دنقلة».

وثالثها: قيام مملكة «الفونج» الإسلامية التي كان «عمارة دونقس» أول سلطان لها وامتدت من «النيل الأزرق» إلى «النيل الأبيض». وقد بلغت هذه السلطنة أوج مجدها في عهد السلطان «بادى الثاني أبو دقن» (1052 - 1088هـ = 1642 - 1677م)؛ إذ امتدت رقعتها من «الشلال الثالث» إلى «النيل الأزرق»، ومن «البحر الأحمر» إلى «كردفان»، واستمر توسُّع هذه الدولة طيلة القرن الثامن عشر الميلادي في عهد الملك «بادى الرابع». غير أنه قبيل نهاية ذلك القرن ظهرت عوامل الضعف في هذه السلطنة، عندما تصدَّعت عُرى التحالف بين سلاطين «الفونج» و «عرب القواسمة»، كما كان لاستبداد الوزراء والقواد أثره في القضاء على هذه الدولة، فقد استطاع «محمد بن أبي لكيك كتمور» المتوفى سنة

(67/9)

---

(1190هـ = 1776م) أن يعزل السلطان «بادى الرابع» ويؤيِّ غيره، وبدأت الانقسامات الداخلية والحروب الأهلية؛ فأدَّت إلى انحلال الأسرة المالكة، حتى جاء الفتح المصرى في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي في عهد «محمد على باشا». وقد اتخذت سلطنة «الفونج» مظهرًا إسلاميا منذ البداية، فقد استهلت حياتها بالإسهام في حركة الجهاد الإسلامى، وساعدت العرب في القضاء على مملكة «علوة» المسيحية، وبذلك تدفَّق الإسلام في وسط «السودان»، ومنه إلى الجنوب والغرب. كما أسهموا في محاربة الوثنيين داخل «السودان» نفسه، فقد حاربوا أهل جبال «النوبا» بسبب غاراتهم على «كردفان»، واستمروا في حربهم زمنًا طويلًا حتى انتشر الإسلام في كثير من مناطق هذه الجبال في غربى «السودان». كما حارب «الفونج» «الشلك» (أو الشلوك) للغرض نفسه، بل شاركوا

في حركة الجهاد الإسلامي ضد الأحباش في القرن الثامن عشر  
الميلادي فقد قضوا على بعثة فرنسية كانت قد قدمت إلى  
«الحبشة»، بهدف مساندة في حربها ضد المسلمين عام (1117هـ =  
1705م)، كما اشتبكوا مع الأحباش في عهد الملك «بادي الرابع أبي  
شلوخ» سنة (1157هـ = 1744م)، وكانت جيوش «الفونج» بقيادة  
شيخ «قرى» التي كان يتولى إمارتها الشيخ «محمد أبو اللكيلك»  
كبير الهمج (المق)، الذي قضى على دولة «الفونج» فيما بعد، وقد  
انتصر هؤلاء القواد على جيش «الحبشة»، وكان لانتصارهم هذا دوى  
هائل في العالم الإسلامي المعاصر في «مصر» و «الشام» و «الحجاز»  
و «تونس» و «إستانبول» و «الهند».  
ولم يسهم «الفونج» في نشر الإسلام عن طريق الجهاد فحسب، إنما  
استعانوا بالوسائل السلمية التي كانت الأصل في غالب الأحوال  
وكان لرواد الدعوة الذين وفدوا من «الحجاز» و «المغرب» و «مصر»  
و «العراق» إلى جانب الدعاة الوطنيين فضل كبير في هذا السبيل  
فالحج والتجارة بين «الحجاز» و «السودان» كانا من أكبر ماهياً

(68/9)

---

للسودان نشر الدعوة. وكان حجاج «السودان» يشجعون علماء  
«الحجاز» على الرحلة إلى بلاد «الفونج»، كما أن كثيراً من  
السودانيين كانوا يتلقون العلم في «مكة» و «المدينة». أما «المغرب»  
فكان منبعاً آخر للثقافة الإسلامية. أما «مصر» فكانت علاقة  
«السودان» بها في ذلك الحين أقل من تلك التي كانت بينه وبين  
«الحجاز» و «المغرب»، ومع ذلك تطلع ملوك «الفونج» إلى «الأزهر»  
وعلمائه ورحبوا بهم، وكان بعض السودانيين يذهبون إلى «الأزهر»  
ثم يعودون إلى بلادهم ناشرين الإسلام وثقافته.  
وقد رحل أحدهم وهو الفقيه «محمد الجعلي» إلى منطقة جبال

«النوبا» التي تقع جنوب «كردفان» مع مجموعة من الفقهاء؛ للدعوة إلى الإسلام في أوائل القرن السادس عشر الميلادي واستطاع أن يتزوج أميرة من البيت الحاكم هناك، فانتقل الحكم إلى ابنه المسمّى «قيلي أبو جريدة». وقد أسّس هذا الابن أول أسرة إسلامية حاكمة في جبال «النوبا»، سنة (926هـ = 1520م) عرفت باسم مملكة «تقلى»، وكان هو أول سلاطينها.

كذلك كان لسلطنة الفونج وعاصمتها اتصال بدارفور التي كانت تستعين بفقهاء «سنار» في نشر الدعوة، وكان للفونج اتصال أيضاً بالباشا التركي في موانئ «البحر الأحمر» في «سواكن» و «مصوع»؛ حيث كان له وكلاء في «سنار» و «أريجي»، وكذلك اتصلوا باليمن وغيره من الأمصار الإسلامية؛ مما يدل على عمق الروح الإسلامية التي تغلغت في مملكة «الفونج».

وتظهر هذه الروح الإسلامية في معاملتهم الحسنة لرجال العلم، وفي احترامهم وإحاطتهم بالرعاية والتكريم، فرحل إليهم كثير من علماء المناطق النائية، وعاشوا في جوارهم، مما كان له أثر كبير على مسيرة الإسلام في هذه السلطنة.

(69/9)

---

## الفصل الحادي عشر

\*سلطنة دارفور الإسلامية

[1292=849هـ = 1445 – 1875م]:

بلاد «دارفور» عبارة عن هضبة تنتشر فيها المراعي وتتخللها بعض المرتفعات، ويتألف سكانها من العنصر الزنجي والعنصر الحامي، وكانت هذه البلاد مستقرا لشعب يُسمّى شعب «الداجو»، وقد عليها من الشرق أو من «جبال النوبا» الواقعة غرب «النيل الأبيض» قبل

القرن الثاني عشر الميلادى وأسس فيها مُلكًا.  
وفي القرن الثاني عشر الميلادى دخل هذه البلاد عنصر مغربي من  
«تونس» يتمثل في «شعب التنجور» أو «عرب التنجور»، وهم عنصر  
من البربر أو العرب، وقد خالط هؤلاء شعب «الداجو» وصاهروهم،  
ونتح عن ذلك وجود جنس مختلط يُسمى شعب الفور استطاع أن يصل  
إلى الحكم.

كان أول السلاطين المولدين من «الداجو» و«التنجور» هو «أحمد  
المعقور» الذى تزوج من ابنة ملك «دارفور» الوثني، بعد أن أثبت  
جدارته فى الإشراف على شئون بيت الملك، وقد اتخذه الملك  
مستشارًا، ولما لم يكن للملك أبناء ذكور، فقد زوج ابنته لأحمد  
المعقور، وعينه خليفة له، فتأسست بذلك أول سلطنة إسلامية فى  
«دارفور».

ولقد اقترنت إصلاحات السلطان «أحمد» وأولاده من بعده بنشاط  
ملحوظ فى نشر الدعوة الإسلامية، على أن «دارفور» لم تدخل فى  
الإسلام حقا إلا نتيجة جهود أحد ملوكها وهو «سليمان سولون» الذى  
وصل إلى الحكم نتيجة لإحدى الهجرات العربية التى وفدت على  
«دارفور» منحدرًا من «وادي النيل» فى القرن الخامس عشر الميلادى  
وأصهر هؤلاء العرب إلى سلاطين «الفور»، كما أصهروا إلى ملوك  
«النوبة» من قبل.

وكان «سليمان سولون» وليد هذه المصاهرة، وتمكن من اعتلاء عرش  
«دارفور» (849 - 881هـ = 1445 - 1476م)، وفتح البلاد للهجرات  
العربية، فوفدت قبائل «الخبانية» و «الرزىقات» و «المسيرية»  
و «التعايشة» و «بنى هلبة» و «الزيادية» و «الماهرية» و «المحاميد»  
و «بنى حسين» وغيرهم، وبفضل هؤلاء العرب المهاجرين إلى  
«دارفور»، اصطبغت السلطنة بالصبغة الإسلامية الواضحة، وعمد

السلطان «سليمان سولون» إلى تنشيط الحركة الإسلامية، عن طريق استدعاء الفقهاء من الشرق ليعلموا الناس أصول دينهم، كما شجع التجارة وأسس المساجد والمدارس.

وبدأت الدولة تتسع، فامتد سلطانها على «كردفان» في عهد السلطان «تيراب» (1768 - 1787م)، وبلغت أقصى اتساعها، فكان حدها من الشمال «بئر النترون» في الصحراء الكبرى، ومن الجنوب «بحر الغزال»، ومن الشرق «نهر النيل»، ومن الغرب منطقة «واداي».

وقد وصل نفوذ الدولة أقصاه في عهد السلطان «عبدالرحمن الرشيد» (1192 - 1214هـ = 1778 - 1799م)، الذي نقل العاصمة إلى مدينة «الفاشر»، واتصل بالسلطان العثماني واعترف بسيادته، فمنحه لقب «الرشيد».

وفي عهد خلفاء «عبدالرحمن الرشيد» كان من الممكن أن تتسع السلطنة إلى آفاق أوسع لولا التوسع المصرى في القرن التاسع عشر الميلادى، ذلك التوسع الذى قضى على هذه السلطنة عام (1292هـ = 1875م) في عهد الخديوى «إسماعيل».

واصطبغت هذه السلطنة بالصبغة الإسلامية الواضحة؛ حيث عمل سلاطينها على ربط بلادهم بالعالم الإسلامى المعاصر، وتوثقت به صلاتهم الثقافية والدينية، فوصل طلاب «دارفور» إلى «مصر» والتحقوا بالأزهر، حيث أنشئ لهم رواق خاص بهم.

وكان سلاطين «دارفور» رغم ندرة أخبارهم ينهجون نهجًا إسلاميًا، فيلتزمون بأحكام الكتاب والسنة، ويحرصون على تحرى العدل فى أحكامهم، كما حرصوا على تشجيع العلماء ومنحهم الهدايا، وعملوا على نشر العلم فى بلادهم، ويذكر «التونسى» أخبارًا كثيرة عن العلماء والفقهاء الذين وفدوا على «دارفور» لما وجدوه فيها من تشجيع وعدالة وكرم واحترام.

ومن مظاهر ارتفاع مكانة العلماء فى سلطنة «دارفور» الإسلامية أن مجلس السلطان كان لا يتم إلا بحضورهم، وكانوا يجلسون عن يمينه،

ويجلس الأشراف وعظماء الناس عن يساره، وعند موت السلطان واختيار سلطان جديد كان هؤلاء العلماء يدخلون ضمن مجلس الشورى

(71/9)

الذى ينعقد لهذا الغرض، وإذا حدث تنازع فإنه لا يتم حسمه إلا على أيديهم، وكان السلاطين يكثر من الإنعام عليهم ويقطعونهم الإقطاعات الواسعة حتى يتفرغوا للعلم والدرس، ولم يكن هذا التشجيع وقفاً على السلاطين وحدهم، فقد شارك فيه الأهالي؛ حيث كان سكان القرية يسارعون لمقابلة العلماء الوافدين ويستضيفونهم، كما كانوا يستضيفون الطلبة الغرباء في بيوتهم ويعاملونهم كأبنائهم أو ذوى قرباهم.

ومن المظاهر الإسلامية التي وضحت في سلطنة «دارفور» أن سلاطينها كانوا يتلقبون بألقاب إسلامية مثل «أمير المؤمنين»، و «خادم الشريعة»، و «المهدى» و «المنصور بالله»، كما كانوا يحرصون على النسب العربي كعادة الحكام في كل ممالك «السودان»، كما أن أختامهم التي يحتمون بها كتبهم ورسائلهم كانت تحمل آية من القرآن، وكانوا يحرصون على إرسال محمل الحرمين الشريفين كل عام إلى «مكة» و «المدينة»، فكانت قافلة المحمل ترسل إلى «مصر» محملة بالبضائع، مثل ريش النعام وشن الفيل والصمغ وغير ذلك من منتجات البلاد، فتباع ويتكون من ثمنها نقود الصرة التي تحملها القافلة المصاحبة لقوافل الحجاج المصريين إلى الأراضي المقدسة، وهكذا نرى أن الحياة الإسلامية كانت زاهرة في سلطنة «دارفور» الإسلامية.

الطابع الإسلامى والثقافة العربية في السودان وادى النيل:  
يمثل عصر «سلطنة الفونج» في «سنار» أو في «وسط السودان» و «سلطنة دارفور» في «غربى السودان» عصر الازدهار الإسلامى

في ذلك الوقت. فقد امتزجت التقاليد الإسلامية الوافدة بالتقاليد المحلية سواء في نظم الحكم أو في الحياة الاجتماعية أو الثقافية، ونشأ لون جديد من الحضارة إسلامية الصورة سوداني الطابع مثلما حدث في «بلاد السودان الغربي» والأوسط (غرب إفريقيا). فالفونج عملوا على إقامة الشريعة الإسلامية لكنهم انتهجوا في الحكم نهجاً محلياً صرفاً، يتميز باللامركزية الصرفة؛ حيث سمحوا

(72/9)

للأمراء المحليين بالاستقلال الذاتي، ولم يكن سلطان سنار يحتفظ بأكثر من تعيين الأمراء أو فرض الإتاوة، وتظهر التقاليد المحلية في طريقة التتويج أو التعيين حين يحضر الأمير إلى «سنار» ويحتفل به السلطان على «الككر» (أى كرسى العرش) ويلبسه طاقية لها ذؤابتان عن اليمين والشمال محشوتان بالقطن كأههما قرنان، ويمنحه سيفاً، وهى تقاليد نوبية قديمة، ثم يذهب الأمير بعد انتهاء مراسم التتويج إلى مكان معين فى انتظار دابة تخرج من الأرض يتفاءل بخروجها، إلى غير ذلك من التقاليد السودانية. والحياة الإسلامية فى «دارفور» خضعت لهذا التطور نفسه، فقد تمسك السلاطين بالكتاب والسنة وطبقوا الشريعة الإسلامية تطبيقاً تاماً، ولكنهم لم يهملوا التقاليد المحلية التى تمثلت فى قانون «دالى»، وهو مجموعة من الأحكام العرفية كان يقوم بتنفيذها حكام الأقاليم والقاضى الأعظم، وهو كبير الخصيان الملقب بأبى شيخ. وهذا القانون ينص على وراثة الملك وعلى إقامة الحدود ودفع الغرامات من الأبقار التى يملكونها بكثرة، وكان لهم تقاليد خاصة فى جلوس السلطان على كرسى العرش، ففى يده اليمنى صولجان، وفى اليسرى سيف مستقيم، وعلى جنبه الأيسر سيف محذب، وفى الدخول عليه يخلع الداخل الطاقية والسلاح ويلقى بنفسه على الأرض

ويجوب على ركبته ويديه كالسحفاة.  
أما في ميدان الثقافة فلم يكن للسودان ثقافة قديمة، كما كان في  
«مصر» وبلاد «الشام» و «العراق»، ولذلك كانت ثقافة «السودان»  
عربية إسلامية خالصة، لكنها تأثرت بعاملين:  
الأول: ضعف النهضة الإسلامية في هذا العصر عمومًا، وغرق الأمة في  
الدراسات الصوفية التي انتشرت طرفها في شتى بلدان العالم  
الإسلامي؛ ولقيت في «السودان» جوا ساعدها على النمو والازدهار.  
فقد شهد «السودان» في هذا العصر كثيرًا من الحروب الداخلية، التي  
كانت تسيطر على البلاد وتعمل على تمزيقها، بالإضافة إلى أن

(73/9)

---

العرب الذين هاجروا إلى «السودان» كان معظمهم من الفارين من  
الدول الإسلامية بسبب التقلبات السياسية، وكان هؤلاء قد كرهوا  
الحياة السياسية، مما وُلد في نفوسهم ونفوس السودانيين رغبة  
شديدة في الحياة، بعيدًا عن مزلق السياسة فلبوا دعوة شيوخ  
الصوفية في ترحاب وحماس شديدين، وانتظموا في الخلايا والزوايا،  
وكان لذلك أثر كبير في التقريب والربط بين القبائل والأجناس في  
بلاد «السودان».

أما الطرق الصوفية التي انتشرت في «السودان» في عصر «الفونج»  
فهما طريقتان: الأولى هي «القادرية»، وكان أتباعها أكثر عددًا من  
أى جماعة أخرى، وقد دخلت هذه الطريقة «السودان» على يد «تاج  
الدين البهاري»، الذي وصل إلى «السودان» عام (952هـ = 1545م)،  
ووفد عليه بعض الأمراء والمشايخ واتبعوا هذه الطريقة وظلت ذريتهم  
تباشرها حتى اليوم.

والطريقة الثانية هي الطريقة «الشاذلية»، المنسوبة إلى «أبي  
الحسن الشاذلي» (592 - 656هـ = 1196 - 1258م) الذي وُلد في

«شاذلة» بتونس، ويقال إن إحدى حفيداته تزوجت من الشريف «حمد أبو دنانة» الذي نرح إلى «السودان» عام (849هـ = 1445م) قبل عصر «الفونج» ونشر تلك الطريقة بين الناس.

أما العامل الثاني الذي أثر في الثقافة العربية في «السودان» في عصر «الفونج»، فهو موقع «السودان» واتصاله الطبيعي بأمم إسلامية مجاورة، ومانتج عن ذلك من تبادل تجارى وثقافى؛ إذ اتصل أهل «السودان» بمصر، ووفد عليها علماءه وطلابه؛ مما يؤكد أن «مصر» هي التي غرست البذور الأولى للثقافة العربية الإسلامية في بلاد «السودان»، وهناك عامل لا يقل شأنًا عما مضى إن لم يفقها جميعًا، وهو أثر القبائل العربية المهاجرة إلى «السودان النيلي»، وهي قبائل كثيرة يمكن أن نحصرها في ثلاث مجموعات قبلية كبرى: أولها «مجموعة الجعليين» وهي عدنانية الأصل ومن أكثر المجموعات العربية نفوذًا وعددًا، وتكرزت هذه المجموعة على

(74/9)

---

«النيل» بين بلاد «النوبة» وموقع «الخرطوم» الحالية، ثم أخذت تنتشر نحو «النيل الأزرق» و «الأبيض» و «كردفان» و «دارفور». وثانيها «مجموعة جهينة» وهي قبائل قحطانية تلى «مجموعة الجعليين» في العدد، وفدت إلى «مصر» بعد الفتح، ثم مضت في طريقها إلى «السودان النيلي» منذ القرن الرابع عشر الميلادى، واتخذت شرقى «السودان» مركزًا لها، ومنه انتشرت بعض بطونها غربًا حتى وصلت إلى بلاد «البرنو».

وثالثها «مجموعة الكواهلة» التي نزلت في «عطبرة» و «النيل الأزرق» وحول «النيل الأبيض» و «كردفان».

وقد أقامت هذه المجموعات مشيخات عربية كبيرة وممالك متعددة، مثل مملكة «العبدلاب» ومملكة «تقلى» التي أسسها العرب من

الجعليين في منطقة جبال النوبا بكردفان في أواسط القرن السادس عشر الميلادي واتخذت هذه المملكة لنفسها منهجاً في نشر الإسلام والعروبة في هذه المناطق الوعرة، فكانت تشجع القبائل العربية على الهجرة والاستيطان، فهاجر إليها كثير من «الجعليين» و «البديرية» و «الجوامعة».

وكانت هذه القبائل ذاتها أداة لنشر الإسلام وثقافته في أرجاء «السودان»، من ذلك ما قام به «الجعليون» خصوصاً «عشيرة المجذوبين»، التي تنتسب إلى الفقيه «حامد بن محمد المجذوب»، وكان كثير من أبناء هذه العشيرة يرحلون إلى «القاهرة» أو «مكة» طلباً للعلم، ثم يعودون إلى «السودان» لمتابعة رسالتهم، فيبنون المساجد وينشئون الزوايا لتصبح مدارس ومعاهد للتعليم، يفد إليها الطلاب من مختلف الآفاق.

وقد أنشأت هذه العشيرة مدينة «الدامر» التي أصبحت حاضرة روحية للجعليين، بل للسودان النيلي كله، وبانتشار العرب في «السودان النيلي» على هذا النحو اكتسبت هذه المنطقة النسب والدم العربيين، بجانب اللغة العربية وثقافتها، وبذلك انضم إلى العالم العربي والإسلامي قطر فسيح الرقعة يسهم في الحياة الإسلامية مساهمة الأقطار الأخرى، ومن أقدم المراكز الإسلامية في «السودان النيلي»

(75/9)

---

مدينة «دنقلة» التي دخلها الإسلام قرب منتصف القرن الرابع عشر الميلادي وارتفعت مكانتها بعد سقوط «مملكة علوة» المسيحية، وقيام «سلطنة الفونج» الإسلامية محلها، وانتشرت فيها المدارس والمساجد، ووفد إليها كثير من العلماء والفقهاء من أمثال «غلام الله اليمنى»، الذي وفد إليها في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي وأنشأ فيها مدارس لتعليم القرآن والفقه والحديث.

على أن أعظم هذه المراكز في المنطقة الشمالية وأوسعها نفوذًا  
وأبعدها أثرًا مدينة «الدامر» مركز «الجعليين» وكعبتهم الثقافية،  
وقد زارها الرحالة «بركهارت» وتحدث عنها طويلاً مشيراً إلى  
مكانتها العلمية وإلى توقير الناس لفقهاءها وانتشار نفوذهم في  
جميع أرجاء «السودان النيلي»؛ وقد وصف مسجدها وتحدث عن  
أهميته وعن الحركة العلمية المزدهرة، وعن المدارس الكبيرة وعن  
الطلاب الوافدين من «دارفور» و «سنار» و «كردفان»، وعن الكتب  
الكثيرة التي اشترت من «القاهرة»، وعن معاهد العلم التي تعلم  
تجويد القرآن والتفسير والتوحيد والمنطق وغيرها من العلوم  
الإسلامية.

وهناك مدينة «سنار» وهي أعظم المراكز الثقافية في ديار  
«الفونج»، وكانت مركزاً تجارياً قبل كل شيء فقد عرفت بغناها  
الوافر وتجارها الراجحة، وكان التجار يجلبون إليها البضائع من  
«مصر» و «الحجاز»، وكان يجلب إليها من «كردفان» التبر والحديد  
والرقيق، كما جلبت إليها تجارة «الحبشة» وأصبحت مركزاً علمياً  
تتطلع إليه جميع المناطق السودانية شرقاً وغرباً.  
ومن المراكز الإسلامية أيضاً مدينة «الفاشر» التي أصبحت بعد  
إنشائها من المراكز الثقافية المهمة في غربي «السودان النيلي»،  
وإن كانت أقل شأنًا من «سنار»، وقد لاحظ الرحالة «محمد بن عمر  
التونسي» انخفاض المستوى العلمي في هذه المدينة، ويعود هذا  
الأمر إلى أن الإسلام تأخر في انتشاره في «دارفور» عن بقية  
أقاليم «السودان النيلي» الأخرى، كما يعود إلى الترحال والتنقل

(76/9)

---

الذي دأبت عليه القبائل العربية التي سكنت «دارفور»، وهو أمر  
لا يؤدي إلى ازدهار العلم الذي يحتاج إلى الاستقرار، ويعود أيضاً

إلى قلة عدد العلماء الذين رحلوا إلى هذا الإقليم، ربما بسبب بعده عن مراكز الثقافة الإسلامية الزاهرة في «بغداد» و «دمشق» و «القاهرة».

أما معاهد التعليم في «السودان» في ذلك العصر فهي: المسجد، والزاوية، والخلوة. والخلوة أو الكتاب أو المكتب من أقدم هذه الأماكن وهي منتشرة في جميع القرى، وعرفها أهل «السودان» على بداية عهد «الفونج» على يد الشيخ «محمود العركي»، الذي قدم من «مصر» عام (926هـ = 1520م)، وأسس خمس عشرة خلوة في «سنار» وعلى «النيل الأبيض» وكان يُدرّس فيها القرآن ويتعلم فيها الأطفال القراءة والكتابة ومبادئ الحساب فيما يمكن أن نطلق عليه المرحلة الأولية أو الابتدائية.

وفي المساجد كان الطلاب يدرسون فيما يشبه المرحلة الثانوية أو العليا، وفيها كانوا يدرسون العلوم الدينية وعلوم العربية والتاريخ؛ حيث يلتف الطلاب حول شيوخهم في حلقات دراسية. أما الزاوية فهي تتميز عن الخلوة والمسجد بأنها تجمع بين السكنى والعبادة والدرس، ففيها ينقطع الطلاب للدرس والعبادة، وهي غالباً للصفوية، وكانت في زمن «الفونج» منتشرة في جميع البلاد. وكانت الطريقة التعليمية في ذلك العهد تعتمد في جملتها على الاستظهار والحفظ كما في سائر البلدان الإسلامية، وعرف «السودان» معظم العلوم التي عرفها العالم الإسلامي من نحو وصرف وبيان وبيدع وعروض ومنطق وتوحيد وتفسير وحديث وفقه وتصوف وجبر ومقابلة وتاريخ، ولكن كان أعظمها شأنًا هو علم الفقه والتوحيد.

وقد ظلت الثقافة الإسلامية مزدهرة طوال ثلاثة قرون في أرجاء «السودان النيلي»، ولكن التعصب القبلي والتنازع على الحكم وسياسة العزلة التي فرضها حكام «الفونج» في القرن الثامن عشر الميلادي أدى إلى انحلال هذه السلطنة، واستطاع «محمد علي»

---

حاكم «مصر» أن يقضى عليها في عام (1235هـ = 1820م). أما سلطنة «دارفور» فقد تم القضاء عليها بعد ذلك بنحو نصف قرن على يد «إسماعيل بن محمد علي»، ثم تمكن الإنجليز من احتلال «مصر» نفسها عام (1299هـ = 1882م) ووضعوا «السودان» تحت سيطرتهم ونفوذهم، وبعد استقلال «مصر» في عام (1371هـ = 1952م) أبرمت «اتفاقية السودان» بين «مصر» و «بريطانيا» التي نصت على إعطاء حق تقرير المصير لأهل «السودان»، فاختاروا الاستقلال وقامت «جمهورية السودان» في عام (1376هـ = 1956م).

---

## الفصل الثاني عشر

### \* الإسلام في شرق إفريقيا

يقصد بتاريخ الإسلام في شرق إفريقيا السلطنات الإسلامية التي ظهرت في بلاد «الحبشة» و «الزليع» في العصور الوسطى، مثل «سلطنة شوا» و «أوفات» و «عدل»، وتلك التي ظهرت على طول الساحل الشرقي من القارة جنوب «الحبشة» حتى «نهر الزمبيزي» في «موزمبيق»، مثل سلطنة «مقديشيو» و «بات» و «كلوا».

أ - الإسلام والسلطنات الإسلامية في بلاد الحبشة والزليع (منطقة القرن الإفريقي):

كان للحبشة صلات قديمة مع بلاد العرب قبل الإسلام، وهي صلات تجارية وسياسية وحرية، تتمثل في التجارة وفي غزو الأحباش لبلاد «اليمن»، ولم يقطع الإسلام هذه العلاقات وإنما زادها قوة، فاتصال

الإسلام بالحبشة يرجع إلى السنة الخامسة من البعثة حين هاجر بعض المسلمين إلى «النجاشي» اعتصامًا بعدله ونجاة من أذى «قريش» وعدوانها.

ثم بدأت الدولة الإسلامية تحتك بالحبشة في عهد «عمر بن الخطاب» الذي أرسل إليها في عام (20هـ = 641م) سرية بقيادة «علقمة بن مجزر المدلجي»، كان نصيبها الفشل، ويرى بعض الباحثين أن أخبار هذه الحملة لا تتفق مع علاقات الود التي سادت بين الأحباش والمسلمين منذ أيام الرسول - صلى الله عليه وسلم -، ولم يكن «عمر» بالرجل الذي يخرج على أمر قرره الرسول، والتعليل الصحيح لإرسال هذه السرية أنها أرسلت لرد إغارات قراصنة البحر من الأحباش الذين كانوا قد أغاروا على ساحل بلاد «الحجاز» مرة في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم -، ومرة أخرى في عهد «عمر بن الخطاب» نفسه، وذلك بعد أن مات «النجاشي» الذي استقبل المهاجرين واعتنق الإسلام سرا، وأعقبه «نجاشي» آخر لم يزع هذه العلاقات الطيبة بين المسلمين و«الحبشة»، وقد عاد الأحباش إلى الإغارة على «جدة» عام (83هـ = 702م) في عهد «بني أمية»، فلم يجد العرب بُدا من الحصول على قاعدة بحرية قريبة من الشاطئ الإفريقي تمكنهم من رد غارة هؤلاء الأحباش، فاستولوا على جزر «دهلك» وأقاموا

(79/9)

---

فيها، وقد وجدت فيها نقوش عربية يرجع تاريخها إلى منتصف القرن التاسع الميلادي. ويبدو أن المسلمين انسحبوا من هذه الجزر بعد ذلك، لكنهم تركوا بها جالية من المسلمين من أهل البلاد، فكانت جزر «دهلك» أول رأس جسر يقيمه المسلمون على الساحل الشرقي لإفريقيا، ويبدو أن هذه كانت آخر محاولة للتدخل الرسمي في شرقي إفريقيا، فقد ترك الإسلام يتسرب إلى البلاد تسربًا سلميًا

بطيئاً في ركاب المهاجرين إلى إفريقيا من التجار والدعاة عبر المسالك البحرية المعهودة.

كانت عودة العلاقات التجارية بين «الحبشة» وبلاد العرب، واتساع دائرتها وخاصة في تجارة الرقيق، بسبب إقبال الإمارات المستقلة في الأمصار الإسلامية المختلفة على الاستعانة بالجنود السودانيين عوضاً عن جنود العرب الذين تفرقوا في الأمصار، وكان لذلك أثر كبير في نمو المدن الساحلية الزيلعية التي ازدحمت بمؤلاء الوافدين من تجار المسلمين.

وظهرت في هذا العصر جاليات إسلامية قوية في «دهلك» و «سواكن» و «باضع» و «زيلع» و «بربرة».

وقد أجمع كتاب القرن العاشر الميلادي مثل «المسعودي» و «ابن حوقل» وغيرهما على ازدهار الحياة الإسلامية في تلك المدن وتوطد النفوذ الإسلامي على طول السهل الساحلي، وقد ظهرت مدن إسلامية على ذلك الساحل كأهمها العقد أو الطراز في الفترة بين القرن العاشر والثالث عشر الميلادي.

وقد أصبحت هذه المدن الإسلامية الساحلية مراكز وتب منها التجار والدعاة إلى المناطق الداخلية في بلاد الزيلع والحبشة؛ إذ كان هؤلاء يرحلون إلى المناطق الداخلية التماساً للتجارة ويقيمون بعض الوقت ثم ينحدرون إلى الساحل من جديد، وفي أثناء إقامتهم يخاطبون الناس وينشرون الإسلام ويوحدون صلتهم بالطبقة الحاكمة. ويبدو أن الإسلام نفذ إلى الداخل في وقت مبكر، ربما في القرن الثالث الهجري حين تطرق إلى منطقة «شوا» حيث قامت سلطنة إسلامية عملت على نشر الإسلام في جنوب وشرق الحبشة، وقد

ألقى ضوء جديد على تاريخ هذه السلطنة حينما عثر المستشرق الإيطالي «تشيروल्ली» على مختصر لتاريخها يؤرخ لخمسين عاماً من عمرها (13م).

(81/9)

## الفصل الثالث عشر

\*سلطنة شوا الإسلامية

(283 - 684هـ = 896 - 1285م)

أسست هذه السلطنة على يد أسرة عربية تسمى «بني مخزوم» سنة (283هـ = 896م)، وليس ثمة شك في أن هؤلاء كانوا عرباً هاجروا إلى هذه الجهات في ذلك الوقت المبكر، وليس بعيداً أن يكونوا قد نزلوا أول الأمر في ضيافة إمارة محلية، ثم اختلطوا بالأمرء عن طريق المصاهرة حتى آل إليهم الملك آخر الأمر. وأيا كان الأسلوب الذي انتقل به الحكم في «شوا» إلى هذه الأسرة العربية المخزومية، فقد أدى ذلك إلى قيام «سلطنة شوا الإسلامية»، التي استمرت أربعة قرون من الزمان في الفترة (283 - 684هـ = 896 - 1285م) تمتعت في معظمها بالأمن والاستقرار وازدهار العمران، وكثرة المدن والقرى والنواحي، حتى إن وثيقة «تشيروल्ली» ذكرت أكثر من خمسين اسمًا لمواقع كانت موجودة، ووقعت على أرضها أحداث مهمة.

ومن أمثلة هذه المدن أو النواحي مدينة «ولله» العاصمة، ومدن هكلة (هجلة) وجداية، ودجن، وأبتا، ومورة، وحديية (لعلها مملكة هدية الإسلامية) والزناير، والمحرة، وعدل التي أصبحت عاصمة لمملكة إسلامية في القرن الخامس عشر الميلادي، مما يدل على أن هذه السلطنة اتسمت بسعة المكان وازدهار العمران وكثرة المدن والبلدان.

وهذا الازدهار العمراني الحضارى الذى تمتعت به سلطنة شوا الإسلامية كان نتيجة لما تملكه من أرض غاية فى الخصوبة استغلها السكان وزرعوا فيها ما يكفى حاجتهم ويسد مطالبهم، خاصة أنه قد استمر توافد الجماعات الإسلامية المهاجرة فى أعداد يسيرة، واستطاعت أن تتجمع وتدعم كيان هذه السلطنة الإسلامية بزعامة هذه الأسرة العربية التى اتخذت من «ولله» عاصمة لها، والتى يصعب تحديد موضعها الآن نتيجة لكثرة التغيرات التى تعرضت لها المنطقة. ونتيجة لهذا الازدهار لم تكن الدولة المخزومية فى «شوا» إمارة أو مملكة صغيرة، بل كانت سلطنة كبيرة، تولى على حكمها كثير من

(82/9)

---

الحكام الذين اتخذوا لقب سلطان كما أشارت إلى ذلك وثيقة «تشيرولى».

هذا وقد ظهر فى هذه السلطنة الوظائف السياسية والدينية المعروفة وقتذاك فى بقية الدول الإسلامية مثل الوزراء والقضاة، يتضح ذلك من الوثيقة المذكورة التى عنى المؤرخ فيها بتسجيل وفاة الفقيه «إبراهيم بن الحسن» قاضى قضاة شوا فى رمضان (653هـ = أكتوبر 1255م)، مما يدل على وجود حياة علمية ودينية زاخرة، شأنها فى ذلك شأن السلطنات الإسلامية الأخرى؛ مما يجعلنا نقول إن هذه السلطنة عاشت عصرًا زاهرًا كبيرًا، وأنها عاشت مستقلة عن جيرانها سواء كانوا مسلمين أم مسيحيين.

والسبب الذى أتاح لهذه السلطنة ذلك الاستقلال وهذا الهدوء مع دولة الحبشة هو ظروف الحبشة نفسها، فقد كانت تعيش حياة مليئة بالاضطراب السياسى وعدم الاستقرار، فقد كانت مملكة «أكسوم» الحبشية القديمة فى أواخر أيامها عندما نشأت سلطنة شوا الإسلامية، ولذلك لم تتمكن «أكسوم» من التصدى لتلك الدولة أو تمنع

قيامها في جزء من الهضبة الحبشية ذاتها لبعدها «أكسوم» التي كانت تقع في أقصى الشمال، بينما كانت دولة «شوا» في أقصى الجنوب، ولذلك لم يحدث بينهما أى نوع من أنواع العلاقات، سواء أكانت ودية أم عدائية.

ومن الأسباب التي أتاحت الهدوء لهذه السلطنة ما حظيت به من موقع حصين فقد كان يحيط بها جبال وعرة تحف بمجرى نهر تكازى الأعلى من ناحية اليمين، والنيل الأعلى من جهة اليسار، وهذه الجبال جعلت من «شوا» حصناً آمناً يوفر الحماية لمن يسكنه.

وقد استغل بنو مخزوم هذا الهدوء وهذا السلام اللذين تمتعوا بهما حوالي ثلاثة قرون ونصف قرن من الزمان في تنمية قدرات السلطنة الاقتصادية والسياسية والدينية، فصار لها نفوذها في المناطق المجاورة وخاصة المناطق الإسلامية التي تقع إلى الشرق منها وهي سبع ممالك صغيرة قامت في القرن الثالث عشر الميلادي.

كما كان لها دورها الديني أيضاً، من ذلك أن أحد سلاطينها ويسمى

(83/9)

---

(حرب) بذل جهوداً كبيرة لنشر الإسلام صوب الداخل وخاصة في «جبل» في سنة (502هـ = 1108م)، وفي بلاد «أرجبة»، وأن هذه البلاد بعد إسلام أهلها أضيفت إلى أملاك سلطنة «شوا» المخزومية، أى أن هذه السلطنة كانت من المراكز التي ساعدت على نشر الإسلام وثقافته في هذه المنطقة.

وقد حافظ الأهالي من الأحباش على إسلامهم، سواء أكانوا من أحباش شوا أم من أحباش المناطق المجاورة لها، وذلك رغم الاضطهاد الشديد والمستمر الذي تعرض له المسلمون في القرن الإفريقي على يد ملوك الحبشة (إثيوبيا) منذ عام (669هـ = 1270م).

ولكن سيطرة «شوا» على جيرانها المسلمين لم تستمر طويلاً أمام

اضطراب أحوالها وكثرة الفتن الداخلية التي جعلتها تسير في طريق الضعف وخاصة في الخمسين عامًا الأخيرة من عمرها، ولذلك انتهز حكام «أوفات» الإسلامية الفرصة وأغاروا عليها وأسقطوها وضموها إلى دولتهم.

وطبيعي أن لسقوط سلطنة «شوا» الإسلامية أسبابًا، وعوامل أدت إليه، أهمها:

العوامل الاقتصادية: وتتمثل في ظروف طبيعية جغرافية حدثت في الثلاثين عامًا الأخيرة من عمر الدولة، وأدت إلى نقص مياه الأمطار بدرجة نتج عنها حدوث مجاعات، وطواعين فتكت بالناس فتكًا ذريعًا، وأضعفت الدولة وسكانها أمام أى هزات داخلية أو خارجية. سوء الأحوال السياسية: ويتمثل في الصراع الداخلى بين أمراء الأسرة المخزومية على الحكم، وكثرة المتمردين والمغتصبين لعرش السلطنة، وكثرة الحروب الأهلية، وما كان ينتج عنها من إحراق المدن وتدميرها ونهبها وقتل كثير من سكانها.

ولم يظهر الصراع الداخلى بين أمراء هذه السلطنة إلا في المائة عام الأخيرة من عمرها وخاصة منذ عهد السلطان «حسين» (575هـ = 1179م)، ثم تولى بعده السلطان «عبدالله» سنة (590هـ = 1194م)، وكان مغتصبًا للعرش، استطاع أن يزيحه ابن السلطان «حسين» في (632هـ = 1232م) واستمر في الحكم 14 عامًا، ثم أعقبه عدد من

(84/9)

---

المغتصبين، ثم عاد العرش إلى صاحبه الشرعى وهو السلطان «دلارة بن والزرة» سنة (668هـ = 1269م) الذى صاهر «عمر ولشمع» سلطان «أوفات» الإسلامية كى يشد أزره بهذه المصاهرة، لكن الطامعين فى العرش ازدادوا شراسة حتى انتهى الأمر بمقتل السلطان «دلارة» فى سنة (682هـ = 1283م) وقد أدت هذه الظروف

السيئة إلى تدخل سلطان «أوفات» (عمر ولشمع) فدخل «شوا» وانتقم من قتلة صهره السلطان «دلمارة» واستطاع أن يعيد الأمن والوحدة إلى «شوا» من جديد، وبهذا حافظ (عمر ولشمع) على سلطنة «شوا» من أن تقع في يد الأحباش وذلك بعد أن ضمها لدولته.

(85/9)

## الفصل الرابع عشر

\*سلطنة أوفات الإسلامية

[حوالى 648 - 805هـ = 1250 - 1402م]:

كانت الحركة الإسلامية قد ازدادت قوة في بلاد الزيلع منذ القرن العاشر الميلادى. وبلاد الزيلع هي البلاد التي تحيط بمضبة الحبشة من الشرق والجنوب الشرقى، وتتمثل الآن فيما يعرف بإريتريا وجيبوتى والصومال الكبير بأقسامه الثلاثة: الشمالى والجنوبى والغربى، المعروف باسم إقليم «أوجادين»، يضاف إلى ذلك كل المناطق الإسلامية التي ضمتها الحبشة بالغلبة والقوة قرب نهاية القرن التاسع عشر الميلادى.

في هذه البقعة الواسعة التي تنحصر بين ساحل البحر الأحمر وخليج عدن وبين هضبة الحبشة قامت مراكز تجارية عديدة على الساحل وانتشرت أيضاً في الداخل، وتحولت في النهاية إلى إمارات وممالك إسلامية نامية تحدث عنها المؤرخون القدامى، وقالوا إنها كانت سبع ممالك هي: «أوفات» و «هدية» و «فطجار» و «دارة» و «بالي» و «أرابينى» و «شرخا»، وامتدت هذه الممالك إلى «هرر» وبلاد «أروسى» جنوباً حتى منطقة البحيرات، مطوقة الحبشة من الجنوب والشرق.

غير أن هذه الممالك والسلطنات التي قامت في شرق الحبشة

وجنوبها تختلف عما رأيناه في أقطار إفريقية أخرى في هذه المرحلة من التطور؛ إذ لم تكن هذه السلطنات إفريقية خالصة، أسستها أسرات من أهل البلاد الأصليين الذين أسلموا، كما حدث في «مالي» و «صنغى» و «كانم و برنو»، إنما أسستها أسرات عربية الأصل، فسلاطين «أوفات» وسلاطين «شوا» وغيرها يمثلون أرستقراطية عربية مهاجرة، استقرت في هذه الجهات ونمت ثروتها وازداد نفوذها واستولت على حكم البلاد وكانت الرعية مسلمة ومن أهل البلاد الأصليين.

وكانت العلاقات بين هذه الإمارات متوترة تسودها المنافسات القبلية، ولم يكن بينها من رابط سوى الصلة الروحية فقط، وكانت من الضعف بحيث إن أمراءها لا يتولون العرش - في كثير من الأحيان - إلا بموافقة ملك الحبشة المسيحي، وليس معنى ذلك أن مسلمي تلك

(86/9)

---

الإمارات قنعوا بالخنوع والخضوع للأحباش، بل إنهم كانوا في أحيان كثيرة مناوئين لملك الأحباش وغازين له في عقر داره كما سنرى. وكان من أسباب ضعف هذه الإمارات أو السلطنات الإسلامية أنها ما كاد يكتمل نموها وتزداد قوتها حتى واجهت حرباً صليبية ضروساً استنزفت مواردها وشغلتها عن التفرغ للدعوة الإسلامية، ولذلك فإن الإنتاج الثقافي لتلك الإمارات كان محدوداً جداً، إذ إن الصراع مع الأحباش أخذ كل وقتها ولم يترك لها فرصة للإبداع والابتكار، ولم تنج سلطنة واحدة من الاشتباك مع هؤلاء الأحباش.

وقد قامت سلطنة «أوفات» حوالى (648 - 805 هـ = 1250 - 1402م) بعبء المقاومة والدفاع ضد هذا الخطر الصليبي الحبشى الذى كان يهدف إلى القضاء على الإسلام فى منطقة القرن الإفريقى كلها، ولذلك كان من الواجب أن نخص هذه السلطنة بمحدث.

كانت سلطنة «أوفات» أقوى سلطنة إسلامية قامت في بلاد «الزيلة»، أسسها قوم من قريش من «بني عبدالدار» أو من «بني هاشم» من ولد «عقيل بن أبي طالب».

ومدينة «أوفات» هي نفسها مدينة «جبرة» أو «جبرت» وكانت من أكبر مدن بلاد «الزيلة»، وكانت تتحكم في الطريق التجاري الذي يربط المناطق الداخلية بميناء «زيلة» على البحر الأحمر. ولم يتضح تاريخ «أوفات» إلا حوالي منتصف القرن الثالث عشر الميلادي حينما ظهر أحد أمراء المسلمين وكان يسمى «عمر» ويعرف بلقب «ولشمع»، وأقام هذه السلطنة التي نمت وازدادت قوتها حتى استطاع صاحبها «عمر ولشمع» أن ينتهز فرصة ضعف سلطنة «شوا» المخزومية وأن يهاجمها عام (684هـ = 1285م) ويقضي عليها ويستولى على أملاكها كما رأينا عند الحديث عن هذه السلطنة.

وقد أدى هذا إلى اتساع سلطان «بني ولشمع» السياسي، واستطاعت «أوفات» في عهدهم أن تبسط نفوذها على بقية هذه الإمارات الصغرى التي أشرنا إليها وأن يصل هذا النفوذ حتى ساحل البحر الأحمر وحتى منطقة «زيلة» وسهل «أوسا».

(87/9)

---

وكانت مساحة الأراضي التي سيطر عليها المسلمون بزعامة «أوفات» تفوق مساحة أرض مملكة الحبشة المسيحية نفسها، بل كانت تحيط بالحبشة من الجنوب والشرق، فضلا عن إحاطة الإسلام بها من ناحية السودان من الشمال والغرب، مما أدى إلى عزل مملكة الحبشة عزلا تاما عن العالم الخارجي، ولاسيما بعد استيلاء المسلمين على ميناء «عدل» قرب «مصوع»، ولذلك لاندحش من أنه عندما تولت الأسرة «السليمانية» عرش الحبشة عام (669هـ = 1270م)، رسمت لنفسها خطة لتوسيع سلطان «الحبشة» على حساب جيرانها من

المسلمين الذين كانوا يسيطرون على الموالي ومن ثم على التجارة الخارجية.

وبذلك بدأت أولى مراحل الجهاد والصراع بين «أوفات» وتوابعها من الإمارات الإسلامية وبين ملوك الحبشة من ذلك الحين، وكانت البداية المبكرة على أيام الملك «ياجياصيون» (684 - 693هـ = 1285 - 1294م) الذي شن حملة صليبية عنيفة ضد إمارة «عدل» التابعة لأوفات، وكان قد استشعر خطر الاتحاد الإسلامي الذي كانت تدعو إليه سلطنة «أوفات»، فضلا عن أن تلك السلطنة أعلنت زعامتها على الممالك الإسلامية المجاورة لها في بلاد «الزِيلَع»، وكان هذا أمرًا يتعارض مع مشاريع ملوك الحبشة الجدد، فقاموا بحملتهم تلك التي أشرنا إليها، وانتهت بانتصارهم.

وترجع هذه الهزيمة إلى أن حركة المقاومة التي تزعمتها «أوفات» لم تكن منبعثة عن وحدة وتعاون فعال بينها وبين الممالك الإسلامية، ولذلك هزمهم الأحباش من أول لقاء، بل يقال إن إمارتين إسلاميتين عاونتا ملك الحبشة في هجومه الذي انتهى بنهب «عدل» وعقد هدنة بين الطرفين، وكان من الممكن أن تكون هذه الحرب هي القاضية لولا تدخل سلطان «مصر» المملوكي الذي هدد بقطع العلاقات وعدم الموافقة على تعيين «المطران» الذي طلبه الأحباش، وكان يعين من قبل بطرك مصر، وأثمر هذا التدخل، فقيل الأحباش الهدنة مع «أوفات».

استطاع المسلمون تقوية مراكزهم ودعم سلطاتهم على طول منطقة

(88/9)

---

الساحل، وكانوا يرتقبون فرصة ضعف أو تخاذل في صفوف أعدائهم، وعندما علموا بوفاة ملك «الحبشة» عام (698هـ = 1299م)، قام شيخ مجاهد يدعى «محمد أبو عبدالله» بحشد طائفة كبرى من

قبائل «الجلال» و «الصومال» وأعدهم للجهاد، وقام بغزو الحبشة، ولم تعتمد الحبشة إلى المقاومة بسبب بعض المتاعب الداخلية، واضطر ملكها إلى التنازل للمسلمين عن بضع ولايات على الحدود نظير الهدنة، ولم يكن سلاطين «أوفات» ليقنعوا بالهدنة، وخاصة أن قوتهم قد ازدادت، فلم يستطع الملك الحبشى «ودم أرعد» (698 - 714هـ = 1299 - 1314م) أن يرد هجماتهم.

ورأت «أوفات» أن تظهر قوتها للحبشة بل وتتوسع في أملاكها وتقضى على عدوانها، فتقدم السلطان «حق الدين» وتوغل في أملاك الحبشة وغزا بعض الولايات المسيحية؛ مما جعل ملك الحبشة يقوم بغزو «أوفات» في عام (728هـ = 1328م) وهاجمها من جميع الجهات وأسر «حق الدين» ووضع يده على مملكته وعلى «مملكة فطجار» الإسلامية وجعلهما ولاية واحدة وعين عليها «صبر الدين» وهو شقيق «حق الدين» بشرط الاعتراف بسيادة الحبشة.

غير أن «صبر الدين» لم يطق صبراً على هذه التبعية وكوّن حلفاً إسلامياً من إمارتي «هدية» و «دوارو»، ثم تقدم لغزو الحبشة واستولى على كثير من الغنائم، وهدد ملك الحبشة الذى خرج على رأس جيشه وهاجم الحلفاء منفردين بادئاً بإمارة «هدية»، فحطمها قتلاً ونهباً وأسراً، وأرغمها على الخروج من الحلف، وحمل ملكها أسيراً إلى عاصمته، ثم تقدم إلى «أوفات» ودخلها ودمرها ونهب معسكر المسلمين فيها، ثم تقدم إلى «فطجار» واستولى عليها وعلى مملكة «دوارو».

وعلى ذلك يمكن القول بأنه في هذه الفترة انتهى استقلال الممالك الإسلامية في «أوفات» و «هدية» و «فطجار» و «دوارو». وعين عليها ملك الحبشة «جلال الدين» أخا «صبر الدين» حاكماً، فقبل على أن يكون تابعاً للحبشة، وهكذا اتسعت مملكة الحبشة وضعف أمر المسلمين.

وفي غمرة هذا الصراع الدموي اتفقت كلمة المسلمين بين عامي (1332 و 1338م) على الاستنجاد بدولة المماليك في «مصر»، وذلك بإرسال سفارة إلى سلطان «مصر» «الناصر محمد بن قلاوون» برئاسة «عبدالله الزيلعي» ليتدخل السلطان في الأمر لحماية المسلمين في بلاد «الزيلع». فطلب «الناصر محمد» من بطرك الإسكندرية أن يكتب رسالة إلى ملك الحبشة في هذا الصدد. غير أن ملك الحبشة لم يكف عن مهاجمة المسلمين الذين لم يتوانوا في انتهاز الفرص للتأثر منه. وتحالفت إمارتا «مورا» و «عدل» مع بعض القبائل البدوية وأخذوا يشنون حرباً أشبه بحرب العصابات، وأخذ ملك الحبشة في مطاردتهم وتقدم في أراضي «مورا» الإسلامية، حتى وصل إلى مدينة «عدل» وقبض على سلطاتها وذبحه، فتقدم أولاد السلطان الثلاثة إلى ملك الحبشة مظهيرين الخضوع.

وفي تلك الأثناء انتاب إمارة «أوفات» بعض الفتن الداخلية بسبب النزاع على العرش بين أفراد الأسرة الحاكمة، وانتهى النزاع بانفراد «حق الدين الثاني» وإعلان استقلاله عن الحبشة، واستطاع أن يهزمها ويردها عن إمارته فترة طويلة حتى هُزم ومات عام (788هـ = 1386م)، والتف المسلمون للمرة الأخيرة حول خليفته وأخيه «سعد الدين»، واستأنفوا حركة الجهاد ودحروا الأحباش، وتوغلوا في أرض «أمهرة» (مملكة النجاشي) لكن «سعد الدين» هُزم في معارك تالية، واضطر إلى الفرار إلى جزيرة «زيلع» حيث حوصر وقتل عام (805هـ = 1402م) نتيجة خيانة رجل دهم على مكمته.

ويعتبر احتلال الأحباش لزيلع بمثابة إسدال الستار على سلطنة أوفات التي احتلها الأحباش نهائياً، ولم يعد يسمع بها أحد، وانتهى دورها في الجهاد، وتفرق أولاد «سعد الدين» العشرة مع أكبرهم «صبر الدين الثاني»، وهاجروا إلى شبه الجزيرة العربية حيث نزلوا في

جوار ملك اليمن «الناصر أحمد بن الأشرف» الذى أجارهم وجهزهم  
لاستئناف الجهاد ضد الحبشة، فعادوا إلى إفريقيا حيث انضم إليهم

(90/9)

---

من بقى من جنود والدهم، فقوى أمرهم واستأنفوا النضال واتخذوا  
لقباً جديداً هو لقب «سلاطين عدل».

(91/9)

---

#### الفصل الخامس عشر

\*سلطنة عدل الإسلامية

[817 – 985 هـ = 1414 – 1577 م]:

كانت «عدل» إقليمًا من الأقاليم التى خضعت لسلاطين «أوفات». وليس بعيداً أن تكون قد تأسست فيها إمارة محلية تدين بالولاء لبنى ولشمع، ويبدو أن موقعها المتطرف قد ساعد على نجاحها من التوسع الحبشى الذى أطاح بالإمارات السابقة. وكان طبيعياً أن يأوى «بنو سعد الدين» إلى إقليم قريب من البحر يتيح لهم الاتصال ببلاد اليمن بعيداً عن مناطق النفوذ الحبشى. وكانت تلك السلطنة تضم البلاد الواقعة بين ميناء «زيلع» و «هرر» وتشمل ما يعرف بالصومال الشمالى والغربى وإقليم «أوجادين»، وسميت هذه البلاد «بر سعد الدين» تخليداً لسعد الدين الذى مات بزيلع ودفن بها. استأنف سلاطين «عدل» الجهاد مرة أخرى فى عهد «صبر الدين الثانى» الذى اتخذ مدينة «دكر» عاصمة له، واستطاع الاستيلاء على عدة بلاد حبشية فيما يعرف بحرب العصابات، وبعد وفاته عام (825 هـ = 1422 م) خلفه أخوه «منصور» المتوفى سنة (828 هـ = 1425 م) الذى

بدأ عهده بحشد عدد كبير من مسلمي «الزليع» وهاجم بهم ملك الحبشة وقتل صهره وكثيراً من جنده، وحاصر منهم نحواً من ثلاثين ألفاً مدة تزيد على شهرين، ولما طلبوا الأمان خيرهم بين الدخول في الإسلام أو العودة إلى قومهم سالمين، فأسلم منهم نحو عشرة آلاف وعاد الباقيون إلى بلادهم، ولم يقتلهم «منصور» ولم يستعبدهم كما كان يفعل ملوك الحبشة بجنود المسلمين الذين كانوا يقعون في أسرهم.

لكن ملك «الحبشة» «إسحاق بن داود» أعد جيشاً كبيراً وهجم به على «منصور» وقواته وهزمها هزيمة شنيعة لدرجة أن السلطان «منصور» وقع هو وأخوه الأمير «محمد» في أسر «إسحاق» عام (828هـ = 1425م).

ولكن راية الجهاد ضد عدوان الأحباش لم تسقط بهذه الهزيمة، فقد قام أخ للسلطان الأسير وهو السلطان «جمال الدين» برفع راية الجهاد من جديد.

وانتصر على ملك الحبشة في مواقع كثيرة، ولكن أبناء عمه حقدوا

(92/9)

---

عليه ربما رغبة في النفوذ والسلطان الذي حرموا منه فاغتالوه في عام (836هـ = 1432م)، فتولى الحكم بعده أخوه السلطان «شهاب الدين أحمد بدلاي» الذي عاقب القتلة وحارب الأحباش واسترد إمارة «بالي» الإسلامية من أيديهم، ولكنه وقع صريعاً أمام الأحباش في (848هـ = 1444م) نتيجة لخيانة أحد الأمراء الذين أظهروا التحالف معه. ومن ثم تمكن الأحباش من اجتياح سلطنة «عدل» وبقية الممالك الزليعية الأخرى، وأصبحت الحبشة إمبراطورية كبيرة امتدت شمالاً حتى مصوع وسهول السودان وضمت «أوفات» و «فطجار» و «دوارو» و «بالي» و «هدية»، ومنحت هذه الإمارات استقلالها الذاتي، وولت

عليها عاملاً يسمى «الجراد» ينحدر من البيت المالك القديم. ويبدو أن الرغبة الصادقة في الجهاد التي عرف بها الجيل الأول من سلاطين «أوفات» قد فترت عند أحفادهم سلاطين «عدل»، فقد سئمو القتال وجنحوا إلى المسالمة ولكن الشعب المسلم لم يتخل عن سياسته التقليدية في جهاد الأحباش ومقاومتهم. وكان تحاذل سلاطين «عدل»، وتحمس الشعب للجهاد مؤذناً ببداية الدور الأخير من أدوار الجهاد وهو دور «هرر».

وتميز هذا الدور بظهور طائفة من الأمراء الأئمة أشريت قلوبهم حب الجهاد وصارت لهم السلطة الفعلية في البلاد، وبذلك أصبح في المجتمع العدلى حزبان: هذا الحزب الشعبي الذي يتزعمه الأمراء الأئمة، وذلك الحزب الذي يريد أن يسالم الأحباش ويتكون من الطبقة الأرستقراطية والتجار، وعلى رأسه سلاطين عدل التقليديون. وكان أول هؤلاء الأئمة ظهوراً هو الداعي «عثمان» حاكم زيلع الذي أعلن الجهاد بعد وفاة السلطان «محمد بن بدلاى» مباشرة عام (876هـ = 1471م)، ثم ظهر في «هرر» الإمام «محموظ» الذي تحدى السلطان «محمد بن أزهر الدين»، واشتبك مع الأحباش، غير أن البرتغاليين ظهوروا على مسرح الأحداث وفاجئوا «زيلع» وأغاروا عليها وانتهى الأمر بفشل حركة «محموظ»، وباغتيال السلطان «محمد» سنة (924هـ = 1518م).

(93/9)

---

وفي بداية القرن (16م) ظهرت تطورات كان لها تأثيرها في مسرح الأحداث بين المسلمين والأحباش، تمثلت في ظهور الأتراك العثمانيين وقيام حركة الكشوف الجغرافية بزعامة الملاحين البرتغاليين، كذلك أدخلت الأسلحة النارية إلى منطقة الأحداث في بلاد «الزِيلَع» و «الحبشة»، وأهم من هذا كله إسلام قبائل البدو من الأعفار

والصومالي، ودخولها ميدان الجهاد، ووقوفها وراء الإمام الذى رشحته الأحداث لتزعم حركة الجهاد الإسلامى فى ذلك الدور، وهو الإمام «أحمد بن إبراهيم الغازى» الملقب بالقرين أى الأشول.

اتبع الإمام «أحمد القرين» بعد أن سيطر على مقاليد الأمور فى سلطنة «عدل» وبعد أن اتخذ «هرر» مقراً له سياسة موفقة جمعت الناس حوله، فقد طبق الشريعة الإسلامية فى حكمه وخاصة فى توزيع أموال الزكاة والغنائم على مستحقيها وفى مصارفها الشرعية، وبذلك كسب حب الجند وحب الفقهاء والعلماء، كما كسب أيضاً محبة الشعب، فقد كان يلطف بالمساكين ويرحم الصغير، ويوقر الكبير، ويعطف على الأرملة واليتيم، وينصف المظلوم من الظالم، ولا تأخذه فى الله لومة لائم، كما قضى على قُطَاع الطرق فأمنت البلاد وانصلح حال الناس وانقادوا له وأحبوه.

بهذه السياسة الداخلية السليمة استطاع الإمام «أحمد القرين» أن يوحد كلمة المسلمين ويتولى زعامتهم وعزم على رد عادية الأحباش، وذلك بفتح بلاد الحبشة ذاتها، وتمكن من التوغل فيها حتى وصل إلى أقاليمها الشمالية، ودارت بينه وبين الأحباش عدة معارك، كان أولها فى عام (933هـ = 1527م) حيث هزم الأحباش لأول مرة منذ بداية الجهاد. وفى عام (934هـ = 1528م) أحرز الإمام «أحمد» نصرًا حاسمًا على الأحباش فى موقعة «شنبر كورى»، ثم بدأ فى غزو بلاد الحبشة نهائيًا.

فى سنة (938هـ = 1531م) دخل «دوارو» و «شوا» و «أمهرة» و «لاستا». وفى سنة (940هـ = 1535م) سيطر المسلمون على جنوب الحبشة ووسطها، وغزوا «تجراى» للمرة الأولى وأصبح مصير

الأحباش في كفة الميزان.

وفي هذا الوقت كان الزحف البرتغالي قد وصل إلى البحر الأحمر فاستنجد بهم الأحباش عام (942هـ = 1535م) فأرسل إليهم ملك البرتغال نجدة عسكرية وصلت البلاد عام (948هـ = 1541م)، وتقابل المجاهدون بقيادة «أحمد القرين» مع الأحباش والبرتغاليين في عدة مواقع عام (949هـ = 1542م)، لكنه هُزم وتكررت هزيمته في العام التالي حيث استشهد وتفرقت جموعه، ونجت الحبشة من السقوط، ولم يعد المسلمون مصدر خطر جدى يهدد الأحباش، ومع ذلك فإن حركة الجهاد لم تمت بموت «أحمد القرين»، بل استأنفها خلفاؤه من بعده وخاصة في عام (966هـ = 1559م) بقيادة الأمير «نور» الذى اتخذ لقب أمير المؤمنين، والسلطان الأسمى المسمى «عليًا» سليل أمراء «عدل» السابقين، لكن هذه الجهود باءت بالفشل.

وكانت انتفاضة «هرر» الأخيرة عام (985هـ = 1577م) حينما تحالفت مع أحد ثوار الأحباش للنيل من ملك الحبشة، وحدثت موقعة انتهت بمقتل «محمد الرابع» آخر أمراء «هرر» عند نهر «وبى»، وانتهت هرر كقوة سياسية ذات شأن، في الوقت الذى استطاع فيه الأحباش أن يقضوا على خطر الأتراك العثمانيين أيضًا بهزيمتهم وعقد هدنة معهم عام (997هـ - 1589م) واكتفى العثمانيون بالسيطرة على «مصوع» و «سواكن»، وبذلك انتهى الصراع في الحبشة لصالح الأحباش.

وإذا كانت هذه الحركة لم تحقق أهدافها بالقضاء على مملكة الحبشة نهائيًا، إلا أنها أثبتت عمق الشعور الإسلامى في نفوس أهل شرق إفريقيا وعمق تمسكهم بالإسلام، فقد دأبوا على الجهاد وأصروا عليه طيلة أربعة قرون، وظهر أثر العلماء والفقهاء وأصبحت لهم الزعامة في المجتمع في ذلك الوقت.

وعلى الرغم من هذه الهزيمة التى منى بها المسلمون في منطقة القرن الإفريقى وانصراف اهتمام العثمانيين إلى أوروبا والعالم

العربي، فإن المسلمين الزيالعة بقيت لهم بعض سلطنتهم وبلادهم.  
ذلك أن الصراع الذي اندلع بينهم وبين الأحباش أنهك الطرفين معًا؛

(95/9)

---

مما هيا الفرصة لدخول قبائل الجلا الوثنية القادمة من الجنوب،  
فاحتلت «هرر» واستقرت في النصف الجنوبي من دولة الحبشة، ثم  
أسلمت هذه القبائل أخيرًا، ولكن أوروبا الغربية أعانت الأحباش على  
المسلمين في القرن التاسع عشر الميلادي، وخاصة في عهد «منليك  
الثاني» الذي استولى على سلطنة «هرر» في عام (1302هـ =  
1885م) وعلى غيرها من البلدان الإسلامية، ثم استولى الأحباش على  
سلطنة «أوسا»، ثم على «إريتريا» و «إقليم الأوجادين الصومالي»  
في القرن العشرين. وظل الأمر على هذا النحو حتى نالت هذه البلاد  
استقلالها وتحورت من نير الأحباش، وإن كان بعضها لا يزال تحت  
سيطرتهم حتى الآن.

(96/9)

---

## الفصل السادس عشر

\*الإسلام والسلطنات الإسلامية في منطقة الساحل الشرقي لإفريقيا:  
كما واجه المسلمون والسلطنات الإسلامية السابقة الخطر الصليبي  
الحبشي في منطقة «القرن الإفريقي»؛ واجه المسلمون والسلطنات  
الإسلامية في «مقديشيو»، وعلى طول الساحل الجنوبي الشرقي من  
القارة خطرًا صليبيًا آخر لا يقل خطرًا، وهو الخطر البرتغالي، ولذلك  
تميزت الحركات الإسلامية سواء هنا أو هناك، بأسلوب الجهاد الذي  
اتبعته حتى تحافظ على كيانها. ولا شك أن هذا الأسلوب كان من

العوامل التي أذكت الحماسة الدينية في نفوس المسلمين، وساعدت على نشر الإسلام في تلك المناطق، وخير دليل على ذلك هو إسلام قبائل «الأعفار» و «الصومال» و «الجالا»، وغيرها من القبائل الزنجية في بداية العصر الحديث، ثم قيام هذه القبائل بتولى عبء الدفاع عن الإسلام سواء ضد الخطر الحبشى في الشمال أو الخطر البرتغالى القادم من الجنوب.

وسوف نتحدث عن السلطنات الإسلامية التي قامت على طول الساحل الشرقى لإفريقيا، بدءاً من «مقديشيو» وحتى نهر «الزمبيري» في «موزمبيق»، وتتمثل هذه السلطنات في ثلاث هي: «سلطنة مقديشيو» و «سلطنة بات»، و «سلطنة كلوة». سلطنة «مقديشيو» الإسلامية (الصومال):

كانت بلاد «الصومال» تعرف في العصور الوسطى باسم «سلطنة مقديشيو». وينتمى الصوماليون إلى العنصر الكوشى الحامى، ومنهم قبائل «الجالا» و «الدناكل»، وهؤلاء اختلطوا بالعناصر السامية التي هاجرت من جنوب بلاد العرب قبل الميلاد، وبالزنوج البانتو، وتكون منهم «شعب الصومال». وبعد ظهور الإسلام تدفقت القبائل العربية على تلك المنطقة، إما بهدف التجارة أو نشر الإسلام أو الإقامة فراراً من الانقسامات السياسية، وأقام هؤلاء المهاجرون العرب مراكز تجارية على طول الساحل الشرقى الإفريقى؛ في «مقديشيو» و «براوة» و «سوفالة»، و «بات» و «مبسة» و «مالندى» و «كلوة» وغيرها، وعلى أيديهم نشأت معظم هذه المدن.

(97/9)

---

وقد سبقت الإشارة - عند الحديث عن الهجرات العربية إلى ساحل شرق إفريقيا - إلى هجرتين وصلتا إلى ساحل «الصومال»، وهى «هجرة الزيدية» التي أقبلت إلى «الصومال» بعد مقتل زعيمهم «زيد

بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب» رضى الله عنهم، ثم هجرة الإخوة السبعة من «بنى الحارث» ومن معهم من العرب إلى بلاد «الصومال» في عام (292هـ = 903م). والهجرة الأخيرة كانت أبقى أثرًا في تاريخ «الصومال»، إذ إنها أقامت «سلطنة مقديشيو» الإسلامية.

وقد كانت «مقديشيو» أول مدينة عربية بناها «بنو الحارث» على «ساحل بنادر» عام (295هـ = 907م)، وتلتها مدينة «براوة» حوالي عام (365هـ = 975م).

وتشير بعض المصادر إلى مواضع مدن أخرى مثل «قرفاوة»، و «النجا»، و «بدونة»، و «ماندا» في جزيرة «ماندا»، و «أعوزى»، و «شاكة» قرب دلتا نهر «تاننا»، وقد بنى «بنو الحارث» هذه المدن في سنوات متفاوتة وأسسوا فيها سلطنة استمروا في حكمها معظم فترات العصور الوسطى، فكان حكام «سلطنة مقديشيو» عند قدوم البرتغاليين من سلالة الإخوة السبعة، بل إن فيها حتى اليوم سبع عشائر تعود بأصولها إليهم.

وفي عهد هذه الأسرة الحاكمة صارت «مقديشيو» سلطنة قوية ذات شوكة ونفوذ على عربان الساحل وعلى المدن التي تحيط بها، وكان تجارها أول من وصلوا إلى بلاد «سفالة»، واستخرجوا منها الذهب، مما درَّ عليهم أموالا كثيرة، استفادوا منها في تطوير «مقديشيو» فحلت المنازل المشيدة بالأحجار على الطراز العربي محل المباني الخشبية ومحل المساكن المتخذة من القش المغطى بجلود الحيوانات. وكانت «مقديشيو» في عهدهم بمثابة العاصمة لجميع البلاد المجاورة ومركزًا للمدن العربية الأخرى التي امتدت على طول الشاطئ، فكانت جموع الناس ترد على «مقديشيو» من هذه المدن، فيجتمعون في مسجدها الجامع حيث يؤدون صلاة الجمعة، مما يدل على أهمية مركز «مقديشيو» الديني والثقافي عند سكان الساحل جميعًا، حتى

---

اعتبرت العاصمة الثقافية لساحل الزنج كله، وزعيمة عرب هذا الساحل؛ نتيجة لما وصلت إليه من قوة ونفوذ، ولما قامت به من دور مهم في نشر العروبة والإسلام.

وعندما وصل الشيرازيون المهاجرون بقيادة «علي بن حسن بن علي» إلى «مقديشيو» بعد حوالي سبعين عامًا من بنائها، لم يستطيعوا دخولها لحصانيتها ومنعتها فتركوها واتجهوا جنوبًا إلى «كلوة»؛ حيث أقاموا هناك سلطنة إسلامية، فكانت هي و«مقديشيو» أهم مدينتين على الساحل من القرن العاشر إلى الخامس عشر الميلادي، ولم تستطع إحداهما أن تسيطر على الساحل سيطرة كاملة.

وعند قدوم «ابن بطوطة» إلى «مقديشيو» كانت تسيطر عليها قبيلة الأجران الصومالية، وكان سلطانها يسمى «أبا بكر بن الشيخ عمر»، ويبدو أن سيطرة هذه الأسرة كان أمرًا عارضًا؛ بدليل أن البرتغاليين عندما قدّموا إليها كان حكامها من أسرة «المظفر» من «بني الحارث» الذين أسسوها من قبل.

ونظرًا لطول مدة حكم هذه الأسرة فقد كانت لها جهود كبيرة في تعريب كثير من القبائل الصومالية خاصة الساحلية، التي دخلت في الإسلام على أيديهم، ذلك أن هذه القبائل وخاصة قبيلة «الأجران» كانت تربطها بأسرة «المظفر» الحارثية صلات تجارية كبيرة.

ولاشك أن هذه العلاقات التجارية لا بد أن تؤتي ثمارها في نشر الإسلام بين هذه القبيلة وغيرها من القبائل الصومالية، التي اتصلت بسلطنة «مقديشيو» الإسلامية، التي أكثرت من إنشاء المساجد والجوامع التي لا يزال بعضها باقياً حتى الآن، منها مسجد عليه كتابة تبين تاريخ تأسيسه وهو سنة (637هـ = 1239م)، أي قبل مرور «ابن بطوطة» بها بنحو قرن من الزمان، ولعله «مسجد عبدالعزيز» الذي بُني في «مقديشيو» منذ سبعمائة عام تقريبًا، ولا زال موجودًا حتى

الآن.

وقد وصل إلينا كثير من المعلومات عن بلاد الصومال بفضل ما كتبه عنها الرحالة والجغرافيون العرب، مثل: «المسعودى» و «الإدريسي»

(99/9)

و «ابن بطوطة» الذى أمدنا بوصف دقيق لعدد من المدن الإفريقية وأحوال سكانها المسلمين، ولاسيما «مقديشيو»، التى زارها عام (1332م) و «زيلع» التى قال عنها: «إنه يسكنها طائفة من السودان شافعية المذهب وهى مدينة كبيرة، لها سوق عظيمة لها رائحة غير مستحبة بسبب كثرة السمك ودماء الإبل التى ينحرونها فى الأزقة والطرق».

ثم أطلع «ابن بطوطة» إلى «مقديشيو» واستقر بها أسبوعاً، وأتيح له أن يتصل بقاضيهاء وعلمائها وسلطانها الشيخ «أبى بكر ابن الشيخ عمر» الذى استضافه مدة إقامته، وقد أمدنا بمعلومات كثيرة عن طعام أهلها وفاكهتها وملابس شعبها وتقاليدها فى مواكبه ومجالسه، وعن مجالس الفقهاء والعلماء وذوى الرأى، وعن كيفية نظرهم فى شكوى الناس، وتطبيقهم للشريعة الإسلامية. بعد ذلك يصف «ابن بطوطة» الازدهار الاقتصادى الذى كانت تنعم به سلطنة «مقديشيو» الإسلامية فىقول: «إن هذه المدينة مدينة واسعة كبيرة يمتلك أهلها عددًا وافراً من الجمال والماعز، ينحرون منها مئات كل يوم، وإنهم تجار أغنياء أقوياء، بعضهم يقوم بصناعة ثياب جميلة لا نظير لها تُصدّر إلى مصر وغيرها من البلاد». وكى يشجعوا التجار على القدوم إلى بلادهم كان من عادتهم أنه متى وصل مركب أو سفينة محملة بالتجار والبضائع إلى ميناء «مقديشيو» يركب شباب هذه المدينة فى قوارب صغيرة ويحمل كل منهم طبقاً مُغطى فيه طعام، فيقدمه لتاجر من التجار القادمين على هذه السفن ويقول

«هذا نزيلي» فينزل معه هذا التاجر إلى داره، ويساعده هذا الشاب في عمليات البيع والشراء، مما أدى إلى رواج تجارتهم مع الأقطار الخارجية.

وقد استمرت سيادة «مقديشيو» على ساحل «بنادر» حتى القرن السادس عشر الميلادي حينما فقدت أهميتها وانحطت منزلتها كمركز تجاري، خاصة بعد انتشار التجارة بين عدة مدن ساحلية أخرى منافسة لمقديشيو، وتعرضها والمنطقة للخطر البرتغالي، فقد ضرب

(100/9)

«فاسكودي جاما» «مقديشيو» بالمدافع في أثناء عودته من «الهند» عام (1498م)، ثم استولى أحد قواد البرتغال على مدينة «براوة» عام (1507م)، وحاول الاثنان الاستيلاء على «مقديشيو» لكنهما فشلا، وغزا «لوبي سواريز» «زيلع» عام (1515م) وأضرم فيها النار، كما حاصر البرتغاليون «بربرة» عام (1516م). وهكذا نرى أن البرتغاليين قادوا حرباً صليبية ضد المسلمين في شرق إفريقيا و «الصومال»، ومن المدهش حقاً أنه كان من نتائج تلك الحملة الوحشية انتشار الإسلام، ذلك لأن السكان المسلمين الذين تركوا الساحل أمام نيران المعتدين البرتغاليين لجئوا إلى الداخل، حيث اختلطوا بالقبائل الصومالية ونشروا الإسلام بينها، فنتج عن ذلك «شعب الصومال» المسلم، وبسبب كثرة الهجرات العربية من بلاد «اليمن» و «الحجاز» وامتزاجها بأهل تلك البلاد؛ انتشرت اللغة العربية والدم العربي بدرجة كبيرة، وأصبحت العربية هي لغة التخاطب بجانب اللغة المحلية، وكانت قبائل «الصومال» بعد اعتناقها الإسلام هي السند والحصن الذي لجأ إليه «أحمد القرين» في صراعه ضد ملوك «الحبشة»، مما يدل على تمسك شعب الصومال بالإسلام

ودفاعهم عنه دفاعًا قويا، ولا غرو فالصومال الآن كما هو معروف  
إحدى دول الجامعة العربية.

(101/9)

## الفصل السابع عشر

\*سلطنة كلوة الإسلامية

[365 - 911هـ = 975 - 1505م]:

قامت هذه السلطنة نتيجة هجرة قدمت من «شيراز» بفارس، كان على  
رأسها «علي بن حسن بن علي» وأبناؤه الستة، حيث كانوا على  
متن سفنهم بما فيها من بضائع بقصد التجارة، ولما وصلوا إلى  
«جزيرة كلوة» التي تقع أمام الساحل الشرقي لإفريقيا، وهي ضمن  
دولة «تنزانيا» الآن، استقروا فيها منذ عام (365هـ = 975م)، ووفد  
عليهم كثير من العرب، وكان هؤلاء الوافدون يفضلون المعيشة في  
الجزر لسهولة الدفاع عنها والاعتصام بها إذا ما حاول الأهالي  
الساكنون في البر الإفريقي الاعتداء عليهم، وعند وفاة «علي بن  
حسن بن علي الشيرازي» كان نفوذه يمتد إلى مدينة «سوفالة» في  
الجنوب، وإلى «مبسة» في الشمال، وبعد وفاته اعتدى الأهالي  
على ابنه، واضطروه إلى الفرار إلى «زنجبار» عام (1020م) وبعد  
قليل جمع السلطان المطرود جنوده وعاد بهم إلى «كلوة» ودخلها  
مرة ثانية، وازدهرت المدينة خلال القرن التالي بسبب تجارة العاج  
والذهب الذي كان يُصدَّر من «سوفالة» التي تقع جنوب نهر  
«الزمبيري»، أي جنوب «كلوة» وحرمت «مقديشيو» من تلك التجارة  
التي كانت تحصل عليها من «سوفالة»، وخاصة في عهد السلطان  
«داود بن سليمان» سلطان «كلوة» (1130 - 1170م)، وبذلك صارت  
الزعامة السياسية والاقتصادية لكلوة، ويعتبر القرنان الثاني عشر

والثالث عشر الميلاديان هما العصر الذهبي لتلك السلطنة الزنجية الإسلامية، فقد أصبحت «كلوة» عروس الشاطئ الإفريقي، وقام سلطانها بسك النقود، وقد عثر في «كلوة» و «مافيا» و «زنجبار» على نحو (10000) قطعة نحاسية من هذه النقود. ولما كان مؤسسو «كلوة» الأوائل من الشيرازيين الفرس، فلا غرو أن يكون لهم تأثير كبير على أسلوب الحضارة الذي ازدهر هناك خلال القرون من العاشر إلى الثالث عشر الميلادي، فظهر الأسلوب الفارسي في البناء بالحجارة، وفي صناعة الجير والأسمنت

(102/9)

واستخدامهما في البناء، وفن النقش على الخشب، ونسج القطن، وشيدوا عدة مساجد ومبانٍ جميلة الطراز، مازال بعض مخلفاتها باقية حتى الآن، ولكن الأثر العربي تغلب بعد ذلك بسبب كثرة الهجرات العربية واستقرارها.

وقد وصل إلينا كثير من المعلومات عن هذه السلطنة من الوثائق التاريخية المهمة وبفضل ما كتبه عنها الرحالة والجغرافيون العرب كالمسعودي، و «الإدريسي»، و «ابن بطوطة» الذي زار مدينة «كلوة» و «ممبسة». وقال عن الأخيرة: «إنها جزيرة كبيرة بينها وبين أرض الساحل مسيرة يومين في البحر، وأشجارها: الموز والليمون والأترج، وأكثر طعام أهلها السمك والموز، والقمح يأتي لهم من الخارج لأنهم لايزرعون. وهم شافعيون يعنون بأمور دينهم ويشيدون المساجد من الأخشاب المتينة». وبعد أن قضى «ابن بطوطة» ليلة في «ممبسة» ركب البحر إلى مدينة «كلوة»، وقال عنها: «إنها مدينة كبيرة، بيوتها من الخشب، وأكثر أهلها زنوج مستحكمو السواد، وهم شافعيون، ويحكمها السلطان «أبو المظفر حسن»، وقد كان في قتال دائم مع السكان المجاورين، وعرف بتقواه وصلاحه، كما

كان محسنًا كريمًا».

ولم يكن السلطان «أبو المظفر حسن» الذى زار «ابن بطوطة» «كلوة» فى عهده فارسى الأصل، بل كان من أصل عربى صميم، فهو من بيت «أبى المواهب الحسن بن سليمان المطعون بن الحسن بن طالوت المهدلى» اليمنى الأصل. وقد انتقل الحكم من البيت الفارسى إلى هذا البيت العربى منذ عام (676هـ = 1277م)، وظل هذا البيت يحكم هذه السلطنة حتى جاء البرتغاليون وقاموا بغزوها فى عام (1505م). وقد ازدادت الهجرات العربية فى عهد هذا البيت العربى الحاكم فى «كلوة»، مما جعل الطابع العربى يتغلب على الطابع الفارسى فى مظاهر الحياة المختلفة، فاللغة الغالبة هى اللغة العربية التى كانت تُكتب بها سجلات «كلوة» بجانب اللغة السواحلية، كما كان المذهب الدينى السائد هو المذهب الشافعى السُّنى وليس المذهب الشيعى،

(103/9)

الذى أتى به البيت الحاكم الأول على يد «على بن حسن بن على الشيرازى»، وما زالت أغلبية المسلمين فى هذه المنطقة من السنة الشافعية حتى الآن.

على أية حال فقد انفعَلَ سلاطين هذه السلطنة سواء أكانوا من الفرس أم من العرب بالحياة والتقاليد الإسلامية كل الانفعال، فأكثرُوا من بناء المساجد والمدارس، واهتموا بالعلوم الإسلامية، واستقدموا العلماء ورحبوا بالأشراف والصالحين، كما شاركوا فى الجهاد ضد الوثنيين الذين كانوا يقيمون فى الداخل، وقد أشار إلى ذلك «ابن بطوطة» وقال: «إن سلطانتها كان كثير الغزو إلى أرض الزنوج، يغير عليهم ويأخذ الغنائم فيُخرج خمسها ويصرفه فى مصارفه المعينة فى كتاب الله تعالى، ويجعل نصيب ذوى القربى فى خزانة على حدة، فإذا جاءه الشرفاء دفعه إليهم، وكان الشرفاء يقصدونه من

العراق والحجاز وسواها .. وكان هذا السلطان له تواضع شديد ويجلس مع الفقراء ويأكل معهم ويعظم أهل الدين والشرف». غير أن ازدهار «كلوة» لم يتجاوز منتصف القرن الرابع عشر؛ إذ أخذ نجمها في الأفول بسبب تعرضها لبعض الاضطرابات الداخلية، وبدأت مدينة «بات» في شامها تقوى وتثرى لانتقال تجارة الذهب إليها، وأخذت في التوسع صوب «كلوة» في عهد أسرة «بني نبهان» العربية التي أسست سلطنة قوية في مدينة «بات» فرضت سيطرتها على كثير من بلاد الساحل الشرقي لإفريقيا، كذلك قام حاكم «سوفالة» بالتخلص من سيادة «كلوة» وأعلن استقلاله عنها، وانتهى الأمر إلى نزوح بعض العرب من «مالندة» (مالندى) إلى «كلوة» وتولوا مناصب الوزراء والأمراء وأبقوا على السلطان الذى لم يكن له من الحكم إلا الاسم فقط، وقام الصراع بين أفراد البيت الحاكم على منصب السلطان فى القرن الخامس عشر الميلادى، وتعاقبوا على العرش الواحد بعد الآخر، وقل المال حتى إن الحكومة لم تجد ما تنفقه على إصلاح المسجد الكبير بعد أن أصابه الخراب.

(104/9)

وقد أعطى كل هذا الفرصة للبرتغاليين للسيطرة على مقاليد الأمور فى البلاد، ففي عهد «فضيل بن سليمان» آخر سلاطين «كلوة» الذى بلغ عددهم (29) سلطاناً احتل البرتغاليون مدينة «كلوة» عام (1505م)، وفى أخريات القرن السابع عشر وقعت «كلوة» تحت سيادة سلاطين عُمان الذين قضوا على النفوذ البرتغالى فى بلادهم ثم فى شرق إفريقيا. ولما فصل هؤلاء السلاطين ممتلكاتهم الأسيوية عن ممتلكاتهم فى إفريقيا فى عام (1856م) آلت «كلوة» إلى سلطان «زنجبار» العُماني، ثم استولى عليها الألمان عام (1885م)، وفى عام (1919م) أصبحت جزءاً من «تنجانيقا» (تنزانيا الحالية).

## الفصل الثامن عشر

\*سلطنة بات النبهانية في شرق إفريقيا

[600 - 1278هـ = 1203 - 1861م]

ظهرت هذه السلطنة على مسرح التاريخ نتيجة لهجرة عربية وفدت من «عُمان» إلى ساحل شرقي إفريقيا في أوائل القرن السابع للهجرة الثالث عشر الميلادي؛ حيث كونت سلطنة إسلامية نبهانية في «بات» تولت حكم شطر كبير من هذا الساحل، وظلت موجودة حتى عام (1278هـ = 1861م).

والنباهنة قوم من العتيك من الأزدي في «عُمان» كانوا قد استولوا على مقاليد السلطة هناك بعد أن دبت الفوضى في البلاد وانقسم العمانيون إلى طائفتين متخاصمتين، وحكم النباهنة عمان نحوًا من خمسمائة عام، حيث قامت دولتهم هناك عام (500هـ = 1106م) أو عام (506هـ = 1112م) واستمرت حتى نهاية القرن العاشر الهجري عندما قامت دولة اليعاربة في عُمان عام (1024هـ = 1615م).

ويبدو أن الدولة النبهانية في عمان قد مرت بأطوار من القوة والضعف بسبب الصراع الداخلي على الحكم، وكان الطور الأول يشمل مدة قرن من الزمان والذي انتهى بهجرة أحد ملوك النباهنة، وهو على أرجح الأقوال «سليمان ابن سليمان بن مظفر النبهاني» إلى ساحل شرقي إفريقيا في عام (600 - 611هـ) واستقر هو وأتباعه في مدينة «بات» التي تقع في «أرخبيل» لامو (في كينيا الآن).

وأقاموا سلطنة هناك وحكموا جزءًا كبيرًا من الساحل متخذين من «بات» مقراً لسلطنتهم، وذلك بعد أن استطاع أول سلطان لهم هناك، وهو «سليمان بن سليمان بن مظفر النبهاني»، أن يتزوج أميرة سواحيلية، ليست فارسية، هي ابنة «إسحاق» حاكم «بات» في ذلك

الحين، وعن طريق زوجته ورث الملك، كما يقال: إن والدها تنازل له عن الحكم فأصبح الحاكم الشرعى لبات، ومن ثم نقل بلاطه من عُمان إلى شرق إفريقيا.

وقد نمت هذه السلطنة واتسعت في عهد أبنائه وأحفاده، ففي عهد السلطان «محمد الثاني بن أحمد» (690 - 732 هـ = 1291 - 1331م) توسعت السلطنة شمالاً بعد حملات ناجحة قام بها هذا السلطان أخضع

(106/9)

فيها كل المدن الساحلية التي تقع شمالي «بات» حتى «مقديشو» وعين حاكمًا لكل منها.

وفي عهد ابنه السلطان «عمر الأول» (732 - 760 هـ = 1331 - 1358م)، توسعت السلطنة جنوبًا؛ حيث أخضع المدن الساحلية بما فيها «كلوة»، ووصل إلى جزر «كيرمبا» جنوب رأس «دلجادو»، وخضعت له كل هذه المنطقة ماعدا جزيرة «زنجبار» التي لم تكن في ذلك الوقت قطرًا مهمًا بدرجة تجذب انتباهه إليها. كذلك فإن حكام «مالندى» أتوا إلى «بات» ليعطوا ولاءهم لسلطانها، ودخلت أيضًا مدينة «مبسة» والمستوطنات القريبة منها ضمن منطقة نفوذه، وهكذا أصبح السلطان «عمر بن أحمد» في غاية القوة والنفوذ بعد أن أصبحت جميع المدن الساحلية تحت سيطرته.

وقد استمرت سيطرة النباهنة على هذه المناطق وكان لهم في كل مدينة خضعت لهم عامل أو قاضٍ يعرف باسم «ماجومب» بمعنى الخاضع لليمب أى للقصر الملكى في «بات»، وكانت دار الشورى في «بات» مقرا للحكومة المركزية التي كانت تحكم كل البلاد التي خضعت لهؤلاء السلاطين الذين اتخذوا اللقب السواحيلي «بوانا فومادى»، أو «فومولوتى» ويعنى الملك أو السلطان. وقد تميزت سلطنة «بات» بنظم إدارية وتقاليدي سياسية واضحة،

وانفردت بتقاليد جديدة في الملاءمة بين الضرائب وبين النشاط الاقتصادي للأهالي، إذ فرضت ضريبة إنتاج لا يتعدى مقدارها 10%، ذلك أن الدولة كانت تتقاضى وسقين أو حملين من كل عشرين وسقاً تنتجها كل جماعة مشتغلة بالزراعة، وهي الضريبة المعروفة بالعشور في الفقه الإسلامي، كما دخلت الزراعة في بقاع كثيرة من الساحل الإفريقي في فترة الحكم النبهاني، وظهر كثير من النباتات التي زرعها العرب هناك مثل القرنفل وقصب السكر، كما اهتموا بالرعى وتربية الماشية والأغنام وأدخلوا تربية الإبل إلى هذه المناطق.

وقد نشطت الحركة التجارية في عهد ازدهار هذه السلطنة إلى حد كبير، وتوافد على الساحل التجاري العرب من عُمان وغيرها، وكذلك

(107/9)

---

تجار الهند المسلمون، وقد عمل هؤلاء التجار بنقل الحاصلات المتوافرة في شرق إفريقيا إلى البلدان المطلة على المحيط الهندي، وإلى الأسواق العربية في مصر والشام والعراق، فأصبحت الدولة على جانب كبير من الثراء.

وقد نتج عن هذا الثراء تطور حضارى كبير، فقد أنشأ أهل «بات» منازل كبيرة واسعة، وضعوا فيها لمبات نحاسية جميلة، كما صنعوا سلام أو درجات مزينة بالفضة يتسلقونها أو يصعدون عليها إلى فرشهم أو سُررهم، كما صنعوا سلاسل فضية تزين بها الرقاب، وزينوا أعمدة المنازل بمسامير كبيرة من الفضة الخالصة، وبمسامير من الذهب على قمتها. وقد تجلت مظاهر هذه الحضارة العربية أيضاً في المباني المعمارية وتخطيط المدن وزخارف الأبواب والنوافذ، كما أدخل العرب فن النقش والحفر والنحت وعقود البناء العالية والفسيفساء المتناسقة مع الرخام الملون.

وفي مجال الثقافة واللغة والعلوم والفنون ظهر في تلك الفترة ما يعرف باللغة السواحيلية، وهي الفترة التي كانت فيها سلطنة «بات» النبهانية صاحبة السيطرة والنفوذ على معظم أجزاء الساحل الشرقي لإفريقيا كما سبق القول، مما أدى إلى وجود تأثير عربي قوى في اللغة السواحيلية حتى في المناطق الجنوبية التي تقع في «تنجانيقا» و «زنجبار»، حيث ظهرت أفصح أنواع اللغة السواحيلية. ونتيجة لذلك ظهرت نظرية تقول بأن الشعب السواحيلي ولغته نشأ كل منهما حول «لامو» حيث توجد «بات»، وأن المهاجرين العرب الذين أقاموا في «لامو» وأنشئوا هذه الإمارة تزوجوا من نساء «البانتو» واضطروا إلى استخدام عدد من الكلمات البانتوية بحكم معيشتهم اليومية مع زوجاتهم، ونشأ أولاد «مولدو» أي نصف عرب ونصف بانتو، مزجوا بين اللغة العربية لغة آبائهم، وبين لغة البانتو لغة أمهاتهم، ومع استمرار التزاوج والاختلاط والمصاهرة تكوّن الشعب السواحيلي وظهرت اللغة السواحيلية التي أصبحت لغة التجارة

(108/9)

ولغة الحياة اليومية، وسرعان ما انتشرت هذه اللغة في شرق ووسط إفريقيا نظراً لغناها ومرونتها. ولاشك أن انتشار اللغة السواحيلية بين السكان الأصليين، بجانب اللغة العربية التي كانت لغة الطبقة العربية الحاكمة، كان له أثره الكبير في نشر الإسلام وثقافته بين القبائل الإفريقية التي تقيم على الساحل، وتلك التي تقيم حول طرق القوافل الرئيسية مما جعل اللغة السواحيلية عاملاً قوياً في توحيد السكان في هذه المنطقة من القارة على اختلاف ألوانهم وتباين لغاتهم وتعدد قبائلهم وشعوبهم وأجناسهم، مما أدى إلى ظهور ثقافة مشتركة هي الثقافة السواحيلية التي غلبت عليها السمة العربية.

ومن ثم فقد ساعد ذلك كثيراً على انتشار الإسلام بين السكان  
الخليين وتطعيم ثقافتهم بعناصر عربية كثيرة، خاصة أن هذه اللغة  
كتبت بحروف عربية، واستمرت كذلك حتى جاء الاستعمار الأوربي  
الحديث وحوّلها إلى الكتابة بالحروف اللاتينية بهدف إيجاد فاصل بين  
الثقافة الإسلامية والثقافة السواحيلية الحديثة. وعندما كانت  
السواحيلية تكتب بحروف عربية دخلها كثير من الألفاظ العربية، وقد  
قدر عدد هذه الألفاظ بحوالى عشرين بالمائة من لغة التخاطب،  
وثلاثين بالمائة من السواحيلية المكتوبة، وخمسين بالمائة من لغة  
الشعر السواحيلي القديم، كما أن العرب غرسوا في السواحيليين حب  
الأدب وفنون الشعر وخرج منهم شعراء وخطباء مطبوعون، وأصبح  
لهم أدب يعتزون به، وتكوّن تراث كبير من الشعر والنثر السواحيلي  
مكتوب بالحروف العربية يشتمل على أعمال دينية ودنيوية، حتى  
إنهم عرفوا الشعر الغنائي (المشارى) منذ زمن بعيد يعود إلى ما قبل  
عام (545هـ = 1150م) وما زالوا ينظمونه، كما كتبوا شعر الملاحم  
المعروف باسم «التندى».

كذلك مهدت اللغة السواحيلية السبيل أمام ظهور شعب جديد هو  
الشعب السواحيلي، وقد ساعد في تكوين هذا الشعب ميل  
المستوطنين العرب إلى السلم وحبهم للسكون والاستقرار، فإن

(109/9)

---

مستوطناتهم وإماراتهم وسلطانهم لم تقم على الفتح بل على  
التجارة، والتجارة كما هو معروف لا تنشط إلا في جو من السلام  
والأمن والعلاقات الطيبة، كما أن أخلاق الإفريقيين، وطباعهم كانت  
قريبة من طباع العرب الذين اعتاد الأفارقة رؤيتهم ورؤية أحفادهم  
يوغلون في البلاد ويعملون بالتجارة وينشرون الإسلام والوثام بين  
الناس، فظهر التآلف واتحدت الأهواء والميول، وظهر ما يعرف

بالشعب السواحيلي.

وقد دعم «النباهنة» هذه الثقافة السواحيلية ذات الطابع الإسلامي وذلك بالعمل على نشر التعليم الديني في المساجد والمدارس والكتاتيب التي وفد إليها كثير من الوطنيين الأفارقة ليحفظوا القرآن الكريم ويتعلموا الكتابة بالحروف العربية، بل ويتعلموا اللغة العربية ذاتها، حتى يتمكنوا من التعمق في فهم عقيدة الإسلام وتراثه الديني واللغوي، وهكذا نرى أن سلطنة «بات» النبهانبة قد فرضت نفوذها على معظم أنحاء الساحل الشرقي لإفريقيا، وأنشأت حضارة إسلامية تغلغت جنوبًا وحملها المهاجرون والتجار العرب معهم لا إلى الساحل فقط، بل إلى الجزر المواجهة له مثل جزر «كلوة» و «زنجبار» و «مبا» و «مافيا»، مكونة بذلك دولة كبيرة تعدد سلاطينها حتى بلغ عددهم اثنين وثلاثين سلطانًا، وقد ظلت هذه السلطنة قائمة رغم مهاجمة البرتغاليين لها، وبعد طردهم برز العثمانيون في الميدان ووضعوا أيديهم على هذا الساحل بما فيه سلطنة «بات»، وظل الأمر على هذا النحو حتى جاء الإنجليز واحتلوا هذه البلاد قرب نهاية القرن التاسع عشر للميلاد، حتى تحررت وصارت تعرف اليوم باسم «جمهورية كينيا».

(110/9)

## الفصل التاسع عشر

### \*الإسلام في الجزر الإفريقية

أما الجزر الإفريقية المواجهة للساحل الشرقي الإفريقي فقد كانت مراكز تجارية وإسلامية مهمة، زحرت بالحياة الإسلامية وانتشر فيها الإسلام بصورة قوية، فمعظم سكان «زنجبار» من المسلمين ويتبعون المذهب «الشافعي»، واللغة التي تسود البلاد هي السواحيلية وهي

لغة إفريقية في مبنائها، عربية في كثير من مفرداتها، وقد عرف العرب «زنجبار» قبل الإسلام بأعوام طويلة واستمر ترددهم عليها ولاسيما منذ القرن الثامن الميلادي، فقد هاجر إليها كثير من العرب، وكانت تحت سيطرة حكام «كلوة» الإسلامية، ثم وقعت تحت حكم البرتغاليين منذ عام (1503م) فشيّدوا كنيسة كبيرة في مدينة «زنجبار»، وقضوا على حكم دولة الزنج. ولما ازدهرت سلطنة «عُمان» في جنوب شبه الجزيرة العربية وقضت على حكم البرتغاليين هناك وفي شرق إفريقيا، انتقل حكم «زنجبار» إلى العُثمانيين وأصبحت جزءًا من أملاكهم ثم نقل السلطان «سعيد بن سلطان» مقر حكمه إليها عام (1832م)، ثم أصبحت محمية بريطانية عام (1890م)، وظل سلاطين «آل بوسعيد» يتولون حكمها تحت السيطرة البريطانية حتى نالت زنجبار استقلالها عام (1963م)، ثم انضمت إلى تنجانيقا في اتحاد عرف باسم «تنزانيا».

والإسلام هو الدين السائد في «زنجبار»، وتقدر نسبة المسلمين بنحو (90%) من مجموع السكان، منهم الشافعية ومنهم الشيعة الإسماعيلية والإباضية. وفي كل من «زنجبار» و «بمبا» محكمة شرعية لكل منها قاضيان أحدهما سُني والآخر إباضي، والمساجد كثيرة ولكل طائفة من الطوائف جمعياتها التي ترعى شؤونها ومدارسها ومكاتبها لتحفيظ القرآن. ويوجد في «زنجبار» بعض الآثار العربية والشيرازية، وأهمها بعض المساجد الكبيرة وخاصة مسجد في قرية «كينز مكازي» والذي شيّد عام (500هـ = 1107م) على الطراز الفارسي. أما جزيرة «ملجاش» التي كانت تعرف باسم «مدغشقر»، وهي أكبر

(111/9)

---

الجزر الإفريقية، فقد عرفها العرب منذ القرن التاسع الميلادي على الأقل، واختلط سكانها الأصليون بالمهاجرين العرب الذين جاءوا إليها

من «زنجبار» و «جزر القمر» وغيرها، واعتنق الإسلام عدة قبائل ملجاشية، وتقدر نسبة المسلمين الآن بحوالى (20%) من السكان تقريباً، وقد كانت من قبل مقراً لسلطنة عربية إسلامية تسمى سلطنة «مسلج» أشار إليها (جيان) وقال إن أهلها كانوا يتكونون من جالية عربية وفدت من شرق إفريقيا، وقد أشار المسعودى والإدريسى إلى هذه الجزيرة، وقالوا إن فيها خلائق من المسلمين ويتوارثها ملوك من المسلمين وأن الإسلام غلب عليها.

والحقيقة أن مظاهر الإسلام في هذه الجزيرة، كانت واضحة وبارزة قبل الغزو الأوربي لها، فالمساجد كانت منتشرة بكثرة، والأهالى يحافظون على أداء الشعائر والعبادات الإسلامية، فقبيلة «الساكلافا» على سبيل المثال يصوم كل أفرادها حتى الآن مسلمون ومسيحيون شهر رمضان، على اعتبار أن الصوم من التقاليد الموروثة عندهم، وهم لا يأكلون لحم الخنزير، ولا تزال أسماء زعمائهم أسماء إسلامية. وجميع المدغشقرين حتى الذين دخلوا المسيحية على أيدي الأوربيين اعتادوا أن يحتنوا أولادهم، ولا يزالون يتلون عند الزواج آيات من القرآن الكريم على اعتبار أن ذلك من التقاليد الموروثة أيضاً، ولا يزال أهالى ثغر «ماجنقا» وجميعهم مسلمون يكتبون لغتهم بالأحرف العربية، ويتكلم بها بعضهم.

أما «جزر القمر» التى تقع شمال غربى «مدغشقر» فيقدر عدد المسلمين فيها بأكثر من (95%) من مجموع السكان، والبقية مسيحيون من أصل فرنسى أو ملجاشى، وقد نزل العرب فى هذه الجزر فى القرن العاشر الميلادى، والمسلمون فيها يتبعون المذهب الشافعى ويتكلمون اللغة السواحيلية. وقد اعتنقوا الإسلام منذ القرن العاشر الميلادى، وقد غزاهم أمراء «كلوة» فى القرن الحادى عشر الميلادى واستولوا على بلادهم، ثم جاء الاستعمار البرتغالى فى

أوائل القرن السادس عشر، ولم يلبث الأهالي أن ثاروا عليه وأخرجوه من بلادهم.

والمؤرخون لا يزالون يتحدثون عن حسن تمسك أهل هذه الجزر بالإسلام وعن كثرة المساجد التي وصل عددها إلى (670) مسجداً في المدن والقرى، ويشيرون إلى انتشار الكتاتيب والمدارس التي تعلم الدين واللغة العربية بجانب اللغة السواحيلية. والعربية هي اللغة الرسمية، فيها تصدر الأوامر السلطانية وأحكام القضاة، أما السواحيلية فهي لغة التجارة. وكذلك فإن عادات الأهالي في الزواج والختان والولادة وفي الاحتفال بالأعياد الإسلامية وبصوم شهر رمضان وبليلة القدر وبليلة الإسراء والمعراج وغيرها من المناسبات الإسلامية لا تبعد عن العادات والتقاليد التي يتبعها المسلمون في بلدان العالم الإسلامي الأخرى، مما يدل على مدى عمق العقيدة الإسلامية في نفوسهم، وعلى مدى الجهد الكبير الذي بذله الدعاة والتجار من العرب وغيرهم في نشر الإسلام في هذه الجزر، حتى أصبح كل أهلها يدينون بهذا الدين، ولذلك لا عجب أن انضمت هذه الجزر إلى الجامعة العربية منذ بضع سنين.

(113/9)

---

## الفصل العشرون

\*طابع الإسلام والثقافة الإسلامية في شرق إفريقيا  
بعد الحديث عن السلطنات الإسلامية وحركات الجهاد في بلاد الحبشة والصومال وعلى طول الساحل الشرقي الجنوبي حتى نهر «زمبزي» في «موزمبيق» نلقى نظرة على طابع الإسلام في تلك الجهات وعن مدى انفعال تلك الشعوب بالإسلام، ومدى انتشار الثقافة الإسلامية في هذه المناطق.

تميزت الإمارات الإسلامية في هذه المنطقة بطابع أثر في كيانها السياسي وفي موقفها ضد الأحباش والبرتغاليين وفي عطائها الحضارى والثقافى. هذا الطابع تمثل فى أن هذه السلطنات والممالك لم يكن بينها أى نوع من أنواع الوحدة السياسية، وكان من أثر ذلك خضوع معظم هذه الإمارات للأحباش فى النهاية رغم حركات الجهاد التى استمرت نحو أربعة قرون من الزمان.

وترجع هذه الفرقة السياسية إلى أن هذه السلطنات تكونت من بطون عربية مختلفة فضلاً عن اختلاف المذاهب الدينية فيما بينها. فكانت هذه المدن والسلطنات تستقل كل واحدة منها عن الأخرى بنشاطها التجارى، وكانت العداوات لا تفتأ تشتعل فيما بينها، مثل النزاع بين «مالندة» و «مبسة» والذى استمر حتى قدوم البرتغاليين الذين استغلوه فى السيطرة على هذه المنطقة، وقد بلغت البغضاء بين هذه المراكز الإسلامية حداً جعل بعضها يتعاون مع البرتغاليين نكاية فى الآخرين.

إذن كان طابع هذه الإمارات اقتصادياً صرفاً، فتنوعت مشروعاتها الاقتصادية، واشتغلت بالزراعة فى المناطق الخصبة، وجمبت مزروعات جديدة لم تألفها البلاد من قبل مثل البرتقال والذرة والفلفل والأرز والقرنفل. وكان لها أيضاً نشاط صناعى، فقد عرفت «مقديشيو» بصناعة المنسوجات الرفيعة التى كانت تصدر إلى العالم الإسلامى كما عرفت «سوفالة» باستخراج الذهب إلى جانب التجارة فى العاج وجوز الهند والرقيق. وقد أدى ذلك إلى ثراء هذه المدن والسلطنات ثراءً كبيراً ظهر فى وصف الرحالة العرب وغيرهم لها.

(114/9)

---

وقد ترك هذا النشاط الاقتصادى أثره فى الحياة الاجتماعية وأدى إلى تنوع الطبقات، فهناك الطبقة الأرستقراطية من العرب، وطبقة

الهنود الذين تركزت في أيديهم الشؤون المالية والمصرفية، وطبقة خليط من العرب وأهل البلاد الأصليين، ثم طبقة العبيد الذين كانوا يقومون بالأعمال اليدوية في المزارع والمصانع والمتاجر. وقد تأثرت الثقافة الإسلامية بهذا النوع من الحياة التجارية وبحركات الجهاد المستمر الذى فرض عليها، سواء في الشمال من مقديشيو ضد الأحباش أم في جنوبها ضد البرتغاليين. فالمدن التجارية والسلطنات التى قامت على طول الساحل كانت ذات صلات وثيقة بالعالم الإسلامى، وشئون التجارة تفرض تلك الصلات وتنميها وتعمقها، وكان للتجارة جانبها المضىء في نشر الإسلام وثقافته فقد أتت معها الفرق والمذاهب التى عرفتها الحياة الإسلامية وقد انتشر فقهاء اليمن والحجاز ومصر في تلك المناطق، وكان هؤلاء غالبًا ما يعملون بالتجارة، وكان تأثيرهم كبيرًا في إذكاء حركات الجهاد هناك، وقد وفد إلى الأزهر كثير من الطلاب والعلماء وأنشئ به رواق لأهل «زيلع» ورواق للجبرية.

وبرز من هؤلاء العلماء الوافدين إلى مصر طائفة كبيرة من أمثال الشيخ الإمام الزيلعى «فخر الدين عثمان بن على» المتوفى سنة (742هـ = 1342م) والحدث الزيلعى «جمال الدين عبدالله بن يوسف» المتوفى سنة (762هـ = 1362م) والعارف بالله «الشيخ على الجبرتي» المتوفى سنة (899هـ = 1493م)، وكان هؤلاء العلماء يعودون إلى بلادهم لمتابعة نشاطهم العلمى. وقد وفد إلى تلك البلاد بعض العلماء المصريين، فابن بطوطة يشير إلى وجود أحد علماء مصر وهو «ابن برهان المصرى» في «مقديشيو».

وقد ترك الجهاد في هذه السلطنات أثره في الحياة الثقافية فقد صبغت الثقافة الإسلامية هناك بطابع دينى عميق، فقد كان الفقهاء والعلماء من وراء حركات الجهاد التى قام بها سلاطين «عدل»،

وظهر الأمراء الأئمة منذ القرن الخامس عشر الميلادي، وكان هؤلاء السلاطين يأتمرون بأمر الفقهاء ويتلقون منهم التوجيه والإرشاد. وكان انتشار الإسلام يسير في ركاب حركات الجهاد التي قام بها السلاطين في «أوفات» و «عدل» و «هرر». وليس ثمة شك في أن انتشار الإسلام كان مصحوبًا بنشاط تعليمي واضح؛ إذ كلما انتشر الإسلام في مكان خف إليه الفقهاء والمعلمون وأقاموا المدارس والكتاتيب، وقد لاحظ المستشرق «توماس أرنولد» أثناء تنقله في بلاد الحبشة أن الوظائف التي تتطلب خبرة خاصة ومستوى ثقافيا معينًا كان لا يشغلها إلا المسلمون، ويعلل ذلك بأن المسلمين كانوا يعلمون أبناءهم القراءة والكتابة في الوقت الذي كان فيه أبناء المسيحيين لا يتعلمون إلا إذا أرادوا الانتظام في سلك الكهنوت. وربما كانت الحياة الثقافية في السلطنات الإسلامية التي انتشرت من «مقديشيو» صوب الجنوب أكثر ازدهارًا منها في مدن الشمال، فقد عاشت هذه المدن عيشة رخاء وطمأنينة منذ نشأتها الأولى حتى بداية الاحتلال البرتغالي في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، ولم تشهد ما شهدته مدن الشمال من جهاد لأجل البقاء، ولذلك كان أمامها من الوقت ما تعطيه لرعاية الفنون والآداب وأنواع الثقافة الإسلامية المختلفة.

وقد حمل إليها العرب والفرس حبههم للأدب والشعر، ويبدو أن فترة الاحتلال البرتغالي وما أعقبها من تحرر وانطلاق أنتجت نهضة أدبية وصلت غايتها في القرن الثامن عشر الميلادي، وامتدت إلى الأدب الشعبي السواحيلي، فظهر في هذا الميدان شاعر من أهل الجنوب اسمه «موياس بن الحاج الغساني» بلغ إنتاجه درجة عالية من التفوق. كما أنتجت ثقافة دينية عميقة تمثلت في مؤلفات السيد «عبدالله بن علي» في كتابه المسمى «الانكشاف» وكان يدرس في المدن الجنوبية كلها في الأربطة والزوايا وغيرها.

وأيضًا في الهمزية التي ألفها السيد «عيد اروس بن الشيخ علي» من

أهل «لامو» والتي اشتملت على نزعة دينية عميقة. وكان تأثر تلك البلاد بالتقاليد والحياة الإسلامية واضحًا في انتشار الطرق الصوفية، وقد تم تبسيط هذه الطرق لتلائم عقلية البدائيين من أهل تلك البلاد.

ويبدو أن الطرق الصوفية لم يكن لها وجود كبير في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي في الوقت الذي زار فيه «ابن فضل الله العمري» هذه البلاد، فهو يتحدث عن المدارس والخوانق والروابط والزوايا ولا يشير إلى الصوفية إلا كأفراد.

والقادرية هي أولى الطرق الصوفية التي دخلت بلاد الحبشة على أيدي المهاجرين من اليمنيين والحضارمة، وقد انتشرت الفرق الصوفية في «مصوع» و «زيلع» و «مقديشيو» وفي المراكز الإسلامية على الساحل الشرقي جنوب «مقديشيو»، وفي الجزر الإفريقية المواجهة له.

وقد ذاعت بين مسلمي الحبشة والصومال عادة تقديس الأولياء وانتشرت أضرحتهم في طول البلاد وعرضها، وأغلبهم من الغرباء الذين وفدوا على البلاد وادعوا انتسابهم إلى بني هاشم، وقد ظهر فضلهم وتقواهم وتقشفهم وعلمهم، فتأثر بذلك المسلمون الذين نالوا حظًا محدودًا من التعليم ولاسيما في المدن والقرى. وكان هؤلاء الشيوخ يؤمون الناس في الصلاة ويعلمونهم القرآن والحديث، فإذا ماتوا أصبحت أضرحتهم مركزًا للتعليم يفد إليها الناس، ومن أشهر هؤلاء الأولياء «الشيخ سعد الدين» في «زيلع»، والشيخ «عمر السكري»، و «الأمير نور بن المجاهد» في «هر».

وعلى ذلك فقد قامت سلطنات وإمارات إسلامية في بلاد الحبشة والصومال وجنوبًا على طول الساحل الشرقي حتى نهر «زمبزي» في «موزمبيق»، وفي الجزر الإفريقية المواجهة له. وكان نصيب هذه

الإمارات هو الدخول في صراع الحياة والموت أمام خطر الأحباش بالنسبة إلى السلطنات الشمالية وطوال أربعة قرون من الثاني عشر إلى السادس عشر، ذلك الصراع الذى انتهى بإخضاع معظم هذه الإمارات سياسيا للأحباش حتى تم تحرير معظمها في النصف الثاني

(117/9)

من القرن العشرين، ثم مواجهة خطر البرتغاليين بالنسبة إلى سلطنات الجنوب بدءًا من القرن السادس عشر وطوال القرن السابع عشر، حتى تم تحرير تلك المناطق من البرتغاليين على يد العرب العُثمانيين. وإذا كان الإسلام قد انتشر في إفريقيا جنوب الصحراء على هذا النحو الذى تحدثنا عنه، فقد أصبحت القارة الإفريقية هي القارة المسلمة الوحيدة في العالم كله؛ حيث إن أغلبية سكانها بما لا يقل عن (65%) مسلمون، وأصبح الإسلام هو مستقبلها، فما هو الأثر الذى تركه منذ انتشاره في هذه القارة؟

أثر الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء:

قبل أن نتحدث عن أثر الإسلام في حياة الأفارقة جنوب الصحراء نود أن نقدم لهذا الحديث بشهادة وردت على لسان أحد الأوربيين المنصفين ويسمى «ميك» في كتابه فقال: «إن الإسلام لم يترك أثرًا عميقًا في التركيب الجنسى لهذه الشعوب فحسب، بل إنه جاء بحضارة أتاحت للشعوب الزنجية طابعًا حضاريًا لا يزال واضحًا حتى اليوم مؤثرًا في نظمهم السياسية والاجتماعية، ذلك أن الإسلام حمل الحضارة إلى القبائل المتبربرة، وجعل من المجموعات الوثنية المنعزلة المتفرقة شعوبًا، وجعل تجارتها مع العالم الخارجى ميسورة. فقد وسع من الأفق ورفع من مستوى الحياة بخلق مستوى اجتماعى أرقى، وخلع على أتباعه الكرامة والعزة واحترام الذات واحترام الآخرين .. لقد أدخل الإسلام فن القراءة والكتابة، وحرّم

الخمر، وأكل لحوم البشر، والأخذ بالثأر، وغير ذلك من العادات الوحشية، وأتاح للزنجى السودانى الفرصة لأن يصبح مواطنًا حراً فى عالم حر».

وشهادة ثانية يتحدث فيها صاحبها «جرانفيل» (الكونغولى) فى العصر الحديث عن شىء من أثر العروبة والإسلام فى عمق القارة فىقول: «لقد زور البلجيك فى الكونغو، فليست مدينة ستانلى فىل سوى مدينة تيبوتيب وهو الزعيم حميد بن محمد المرجى العُمانى العربى الذى أقام هذه المدينة قبل قدوم الرحالة ستانلى، وليس

(118/9)

العرب كما قالوا لنا تجار رقيق، وإنما هم تلك الموجة الإنسانية التى اختلطت بنا وصاهرتنا وتركوا لنا لغة متولدة من لغتهم - يقصد اللغة السواحيلية - ودينًا، وحضارة، وسماحة تسرى بين كل الناس، كما تركوا على أرضنا دماءهم والبلجيك يحصدونهم بالأسلحة الحديثة، وليس أعز علينا شىء من هذا الدم العربى الذى سال فى الماضى كما سال ويسيل دمنا الآن فى بلادنا على أيدى أعداء العرب أنفسهم فى القرن الماضى».

ونشير الآن فى إيجاز شديد إلى أثر الإسلام وحضارته فى شتى

ميادين الحياة فى إفريقيا جنوب الصحراء:

الدين والعقيدة:

وفى هذا المجال نستطيع القول إن الإسلام قضى على العقائد الوثنية وحلت الوحداية محل عبادة الأرواح والأسلاف ومظاهر الطبيعة، فاستبدل الناس الإسلام بهذا الشتات والفرقة الدينية الوثنية ذات الطبيعة الخرافية والوهمية، وتم القضاء على تحكم أرواح الأسلاف والأجداد - كما كانوا يعتقدون - فى حياة الأحياء؛ إذ كانت أرواح هؤلاء الأسلاف من الموتى هم الرؤساء الفعلون للأسرة

وللقبيلة كلها، وهم القوامون والمراقبون لسلوك الأحياء، ولهم عليهم حق الثواب والعقاب، ولا بد من استشارتهم في كل أمر من أمور الحياة ومشاكلها. كما قضى الإسلام على الاحتفالات الدينية المهيبة التي كانت تقام لأهنتهم ولأسلافهم، والتي كانوا يشربون فيها الخمر ويقدمون في أحيان كثيرة القرابين البشرية كي ترضى عنهم الآلهة وأرواح الأسلاف، حرهم الإسلام من كل ذلك ومن أعمال السحر والكهانة المرتبطة بهذه العقائد الوثنية، وحل الفقيه أو الداعية المسلم محل الكاهن أو الساحر، وحل المسجد في القرية الإفريقية محل دار عبادة الأوثان ذات المنظر البشع، وحلت حلقات الذكر التي كان الصوفية يعقدونها محل حفلات الرقص الماجنة، وبذلك تحرر الأفرقة سوداناً كانوا أم زنجاً من هذا التخلف العقيدى والفكرى وتم جمعهم على عبادة واحدة وإله واحد وشريعة واحدة ذات نظم

(119/9)

واضحة تنظم حياة الفرد والمجتمع.

الحياة الاجتماعية:

وفي هذا الصدد نستطيع القول إن الإسلام خلصهم من عادات سيئة كثيرة مثل العرى وأكل لحوم البشر ودفن الجوارى والخدم والزوجات مع الملك المتوفى، ووأد الأطفال أحياء، وكان هؤلاء الأطفال يوءدون لا لشيء إلا لأنهم وُلدوا مشوهين، أو وُلدوا وبهم مس من الشيطان كما كان يعتقد آباؤهم، أو لأن أسناتهم العليا ظهرت أولاً، وهو فال سيئ عندهم، فكانت بعض القبائل تترك هؤلاء الأطفال في الغابة تخلصاً منهم، ولكن الإسلام عدل هذه العادة بين المسلمين الأفرقة.

زد على ذلك أن الإسلام علمهم النظافة فأخذ الأهالى الذين لم يتعودوا من قبل على النظافة يغتسلون ويتنظفون، لأن إقامة الشعائر الدينية

الإسلامية لا تصح إلا بطهارة البدن والملبس والمكان. يضاف إلى ذلك أن الإسلام نظمهم في الزواج ونظام الأسرة، إذ جعل الرجل هو المستول الأول عن الأسرة لا المرأة كما كان الشأن عند كثير من القبائل الإفريقية، فصار الأبناء ينسبون لأبائهم وليس لأمهاتهم، كما حدد عدد الزوجات في أربع فقط وليس كما كان الحال عندما كان الرجال يختلطون بالنساء اختلاطاً جماعياً، أو كان للرجل ما يشاء من نساء حسب قدرته ومقدرته. وبذلك رفع الإسلام مكانة المرأة وأحاطها بسياس من الاحترام والطهر والعفاف، بعد أن كان الابن يرث زوجات أبيه بل ويتزوج بهن، وكان نظامهم أن ابن الزوجة الأولى هو الذى يختص بميراث أبيه كله عند وفاته ويحرم منه باقى الأبناء فوضع الإسلام نظاماً عادلاً لتوزيع التركة بين أفراد الأسرة جميعاً إذا مات عائلها، حسب نظام دقيق يعطى لكل ذى حق حقه دون زيادة أو نقصان، ودون ظلم أو بهتان، مما أورث الحب والمودة فى قلوب الأبناء وزرعها محل الكراهية والبغضاء.

ولا يقل عن ذلك أهمية أن الإسلام أزال تقسيم الناس إلى طبقات حسب اللون أو العنصر أو الثروة أو المنزلة الاجتماعية، وجعل الإخاء

(120/9)

---

والمساواة والتعاون والتكافل أساس الحياة الاجتماعية، وأصبح الأسود باعتناقه الإسلام على قدم المساواة مع غيره داخل وطنه، ومع إخوته فى الإسلام فى أى مكان آخر، مما أشعره بالعزة والكرامة والاعتداد بالنفس بعد أن كان عبداً مهاناً يتحكم الملك الإفريقى الوثنى أو شيخ القبيلة فى أموره كلها بل فى حياته نفسها، وأصبح سلوك الناس ملوكاً وعامة مضبوطاً بضوابط الإسلام وشريعته وأحكامه، ولم يصبح مرتهناً بأوامر الملك المقدس ونزواته أو نزوات شيخ القبيلة. وبذلك حرر الإسلام الإنسان الإفريقى وكل

إنسان يعتنقه من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

الحياة الاقتصادية:

كان النظام الاقتصادي يقوم على احتكار شيخ القبيلة أو المملوك أو الزعماء للأرض والثروة الحيوانية والمحاصيل الزراعية وحق المتاجرة في سلع معينة، فلا يحق للناس العاديين تملك شيء فقد كانوا هم والأرض وما ينتجونه منها ملكاً للملك. فلما جاء الإسلام قضى على ذلك، فأطلق حق التملك حسب الجهد والطاقة وبذل الجهد والعمل، وجعل كسب المال أمراً متاحاً للجميع كل حسب جده وكده، فقضى بذلك على الإقطاع والاستغلال والاحتكار، كما قضى على العبودية ونظام السخرة فصار العامل يأخذ أجره عما يقوم به من عمل بعد أن كان يعمل في مزرعة الشيخ أو الملك دون أجر.

كما حرم الإسلام الربا وفرض الزكاة التي كان الأغنياء يدفعونها للفقراء، وكان السلاطين يأخذونها ويوزعونها في مصارفها الشرعية، مما جعل حياة الناس محاطة بسياج من العدالة والأمن والرخاء.

وقد جلب الإسلام للأفارقة منافع مادية ضخمة؛ إذ ربط الساحل بالداخل من خلال قوافل التجارة التي توغلت حتى الكونغو ومنطقة البحيرات، وحتى أعماق الغابة في غرب القارة مما أدى إلى القضاء على عزلة المناطق الداخلية، بل وعلى عزلة الأفارقة عامة وربطهم بالعالم الإسلامي الواسع وبتجارته الزاهرة، وقد أتاح لهم إسلامهم

(121/9)

---

أن يخرجوا من أوطانهم المحلية ويتعرفوا هذا العالم الواسع، سواء أكان من خلال رحلات الحج التي كانوا يقومون بها إلى بلاد الحجاز، أم من خلال قوافل التجارة التي كانوا يرحلون معها إلى شتى الأقطار حتى وصل بعضهم إلى الهند والصين.

## الحياة الثقافية:

وفي هذا المجال كان أثر الإسلام أمرًا غير مسبوق، ذلك لأن الأفرقة لم تكن لهم ثقافة ناهضة راقية قبل اعتناقهم الإسلام، ولم يكونوا يعرفون مجرد القراءة والكتابة، بل لم يكونوا يعرفون من الثقافة إلا العادات والتقاليد المرتبطة بالكهانة والسحر والشعوذة، وبالطبيعة من مطر وجذب وإنبات وحصاد ونبوءات وأساطير، فلما جاء الإسلام أمدهم بالعلم والفن الرفيع، وعلمهم القراءة والكتابة، واستقدم لهم العلماء من مصر والمغرب وتونس وشتى أنحاء العالم الإسلامي، بل وأرسل طلابهم إلى هذه البلدان استزادة من العلم والفقه، وبني لهم المدارس والكتاتيب، وزوّدهم بلغة القرآن وهي اللغة العربية التي وحدت مشاربهم ونسقت أفكارهم وربطتهم بالدين والعقيدة الإسلامية، فمهدت السبيل أمام ظهور ثقافة إفريقية إسلامية مشتركة بعد أن صارت هذه اللغة هي لغة العلم والدراسة والإدارة والتجارة والعبادة بل والتخاطب بين قبائل كثيرة في القارة. وأصبح العلماء الأفرقة هم حلقة الربط والوصل بين هذا المجتمع السوداني الزنجي وبقية المجتمعات الإسلامية، بذهابهم إلى هذه المجتمعات كما قلنا لمزيد من الدراسة والعلم أو تأدية لفريضة الحج، وبذلك تم القضاء على التخلف الثقافي والحضارى والفكرى الذى كان يسود المجتمعات الإفريقية، وأصبح الإفريقى يزهو بأنه يجيد القراءة والكتابة، بل يفخر بأنه أصبح من العلماء والفقهاء مثله في ذلك مثل غيره من علماء المسلمين في كافة ديار الإسلام.

ولقد أدى هذا الرقى العلمى والثقافى الذى وصلوا إليه أن الدول الإفريقية التى لا يحكمها مسلمون كانت الوظائف التى تتطلب خبرة

خاصة ومستوى ثقافي معين كان لا يشغلها إلا المسلمون من أهلها، لأن هؤلاء المسلمين كما يقول «توماس أرنولد» كانوا أعلى همة وأوفر نشاطاً وأرفع مستوى من غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى، لأن كل مسلم كان ملتزماً بتعليم أبنائه القراءة والكتابة بينما كان غيرهم لا يعلمون أبناءهم إلا عندما يريدون لهم الانتظام في سلك الكهنوت. ولم يفعل المسلمون ذلك إلا لأن الإسلام جعل من التعليم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وبذلك تغير حال الأفرقة وأنتجوا علمًا وفقهًا وأدبًا وحضارة لم يطمس معالمها إلا الاستعمار الأوربي الذي أصيبوا به في مطلع العصر الحديث.

الوحدة السياسية:

لم تعرف إفريقيا جنوب الصحراء قبل الإسلام دولا كبيرة أو صغيرة إلا القليل، وكان النظام القبلي هو السائد، وعندما ظهر الإسلام ودخل القارة (جنوب الصحراء) لم يكن فيها من الدول المعروفة وقتذاك إلا مملكة «غانة» الوثنية في غرب القارة، أما في وسط القارة فلم يكن هناك إلا دولة «الكام» الوثنية في حوض بحيرة تشاد، وهذه الدولة لم تنشأ إلا في القرن التاسع للميلاد، أي بعد ظهور الإسلام بحوالى قرنين من الزمان، أما في شرق القارة فكانت هناك دولة واحدة هي مملكة الحبشة المسيحية، وفي أقصى الجنوب كانت هناك مملكة «مونوموتابا» الوثنية، وباقي إفريقيا جنوب الصحراء لم يكن فيها إلا المشيخات القبلية لا غير، وكانت حياة الناس لا ينظمها قانون أو شريعة، إلا ما يقوله الملك أو الشيخ، فكلمته هي القانون، لأنه هو الذى يهب الحياة ويقضى بالموت، وبارك الزرع والحصاد، وينزل المطر، ويتحكم في كل ما على وجه الأرض، لأنه ببساطة هو الإله والرب المعبود.

وعندما جاء الإسلام لم ينشئ دولا صغيرة شبيهة بالتي أشرنا إليها من قبل فقد أقام إمبراطوريات إسلامية كبرى سبق الحديث عنها، وجمع القبائل المتفرقة المتنازعة والعناصر المتباينة داخل هذه الإمبراطوريات الكبيرة، وقضى على عادات هذه القبائل في النهب

والسلب والإغارة، وقضى أيضاً على استبداد الحكام وتألمهم  
وظلمهم للرعية، بل وجعلهم يخضعون لرجال من رعيتهم نالوا قسماً  
وافراً من العلم والثقافة هم العلماء والفقهاء، فكانوا لا يرمون أمراً  
إلا بعد استشارتهم، فعل ذلك - أيضاً - الملوك الوثنيون الذين لم  
يكونوا قد دخلوا الإسلام بعد و «البكرى» يقص علينا نبأ ملك «غانة»  
الوثني الذي اتخذ من العلماء المسلمين الذين كانوا يقيمون في  
عاصمته وزراءه ومستشاريه.

وقد أقام الحكام والسلاطين دوراً للشورى كان واحداً يسمى  
«المشور» وكان هذا «المشور» هو المكان الذي يلتقى فيه الحاكم  
بالمحكومين، فإذا أصيب أحد من الرعية بظلم أو أصابه مكروه على  
يد غيره من الرعية أو الحكام كان يلجأ على الفور إلى «المشور»  
ويرفع مظلمته، فكان يقضى فيها على الفور على يد العلماء  
والفقهاء أو على يد الوزراء والسلطان نفسه حسب نوع المظلمة.  
ولذلك ساد الأمن والأمان والطمأنينة حياة الناس فيما عدا أوقات  
الفتن والاضطرابات والحروب.

ونتيجة لذلك كله ارتقت الحياة المادية والعمرانية وازدهرت الحضارة  
في إفريقيا جنوب الصحراء، ويكفي في ذلك ما سقناه في صدر هذا  
الحديث من شهادات قالها بعض الغربيين المنصفين، وما قاله آخرون  
منهم من أن الدول الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء شهدت ظهور  
مئات المدن ذات المنازل الجميلة المبنية بالحجارة، وكانت هذه المنازل  
ذات حدائق جميلة وبعضها - وكما تُبين الحفريات والآثار - كان مصمماً  
لأكثر أنواع المعيشة رفاهية وفخامة وكان الناس الذين يعيشون في  
هذه المنازل وتلك المدن ذات الشوارع الفسيحة يرتدون الملابس  
الحريرية والقطنية ويتزينون بمقادير كبيرة من الذهب والنحاس  
والعاج، كما سكّوا العملة الذهبية ووجدت عندهم صناعات راقية حتى

إن المنسوجات المقدشية كانت تباع في مصر وفي شتى أنحاء العالم الإسلامي.

هذا هو الإسلام وذاك هو تأثيره، وتلك حضارته التي أدهشت الرحالة

(124/9)

المسلمين والبرتغاليين ومن أتى بعدهم من الأوروبيين، ولكن هذه الحضارة تلقت ضربة عنيفة على يد الغزاة البرتغاليين وإخوانهم من الأوروبيين الآخرين في العصر الحديث حيث أخضعوا هذه القارة بكاملها لنفوذهم وسيطرتهم ونهبهم واستغلالهم، وحاربوا الإسلام وثقافته وحضارته ولغته بقدر ما وسعهم الجهد وبكل وسيلة ممكنة ولكن إفريقيا جنوب الصحراء بعد أن نالت استقلالها بدأت تفيق من هذا الكابوس الرهيب وتلتمس في الإسلام طوق النجاة من جديد

(125/9)

– المراجع:

- \* إبراهيم طرخان: إمبراطورية غانة الإسلامية - القاهرة - 1970م
- \* إبراهيم طرخان: دولة مالي الإسلامية - القاهرة - 1973م
- \* إبراهيم طرخان: إمبراطورية البرنو الإسلامية - القاهرة - 1975م
- \* أحمد بابا التمبكتي: نيل الانتهاج بتطيريز الديباج - طرابلس - ليبيا - 1989م
- \* أحمد شليبي: موسوعة التاريخ الإسلامي - ج 6 - الطبعة الرابعة - القاهرة - 1983م
- \* أحمد علي أحمد: كلوة؛ تاريخها وحضارتها؛ رسالة ماجستير غير منشورة - جامعة القاهرة - 1983م
- \* الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق - بيروت - 1989م
- \* بازل دافدسون: إفريقيا تحت أضواء جديدة - بيروت - بدون تاريخ
- \* بن بطوطة (أبو عبدالله محمد): تحفة النظار في غرائب الأمصار - بيروت - 1987م

- \* البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب - القاهرة - بدون تاريخ
- \* بوركهات: رحلات بوركهات في بلاد النوبة والسودان - القاهرة - 1979م
- \* ترمنجهام: الإسلام في شرق إفريقيا - القاهرة - 1973م
- \* توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام - القاهرة - الطبعة الثالثة - 1971م
- \* التونسي: تشييد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان - القاهرة - 1965م
- \* جيان: وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقيا الشرقية - القاهرة - 1927م
- \* حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية - القاهرة - الطبعة الثانية - 1984م
- \* حسن عيسى عبدالظاهر: الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا - القاهرة - الطبعة الأولى - 1991م
- \* حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا - القاهرة - الطبعة الثالثة - 1986م
- \* الحسن الوزان: وصف إفريقيا - بيروت - الطبعة الثانية - 1983م
- \* الحيمي: سيرة الحبشة - القاهرة - الطبعة الثانية - 1972م
- \* رجب محمد عبدالحليم: العروبة والإسلام في دارفور في العصور الوسطى - القاهرة - 1991م
- \* زاهر رياض: الإسلام في إثيوبيا - القاهرة - 1964م

(126/9)

- 
- \* زين العابدين عبدالحميد السراج: دولة كانم الإسلامية - رسالة ماجستير - آداب القاهرة - 1975م
- \* السعدي: تاريخ السودان - باريس - 1889م
- \* سعيد المغيرى: جبهة الأخبار في تاريخ زنجبار - القاهرة - 1989م
- \* الشاطر بعيلى عبد الجليل: تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط - القاهرة - 1972م
- \* عبد الرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في غرب إفريقيا؛ الإسلام والمسلمون في شرق إفريقيا - القاهرة - بدون تاريخ
- \* عبد الفتاح مقلد: سلطنة البرنو حتى عام 1808م؛ رسالة ماجستير غير منشورة - جامعة القاهرة - 1978م
- \* عرب فقيه: فتوح الحبشة (تحفة الزمان) - القاهرة 1972م

- \* عطية القوصي: دولة الكنوز الإسلامية - القاهرة - الطبعة الثانية - 1986م
- \* فتحي غيث: الإسلام والحبشة عبر التاريخ - القاهرة - بدون تاريخ
- \* القلقشندي (أحمد بن علي): صبح الأعشي في صناعة الأنشا - ج 8، 5 - القاهرة - بدون تاريخ
- \* محمد بلو: اتفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور - القاهرة - 1964م
- \* محمد ضيف الله: كتاب الطبقات - بيروت - بدون تاريخ
- \* محمد النقيرة: التأثير الإسلامي في غرب إفريقيا - الرياض - 1980م
- \* محمود التمبكتي: تاريخ الفتاش - باريس - 1916م
- \* محمود الحويري: أسوان في العصور الوسطى - القاهرة - 1980م
- \* مصطفى أبو شعيشع: برنو في عصر الأسرة الكاينية - رسالة ماجستير غير منشورة - جامعة القاهرة - 1976م
- \* مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة في العصور الوسطى - القاهرة - 1960م
- \* مكّي شيكة: السودان عبر القرون - بيروت - 1964م
- \* نعم شقير: تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته - القاهرة - 1903م
- \* ياقوت الحموي: معجم البلدان - ج 5 - بيروت - 1979م

(127/9)

### \* العزيز بالله بن المعز

خليفة فاطمي تولى أمرا الدولة الفاطمية في قمة مجدها، ولكنه كان رجلا لا يعرف المستحيل، وفي عهده وامتد ملك الفاطميين من بلاد «الشام» شرقاً إلى ساحل «البحر الأطلسى» غرباً، ومن «آسيا الصغرى» شمالاً إلى بلاد «النوبة» جنوباً، وخطب للعزيز بالموصل وأعمالها سنة (382هـ)، وضرب اسمه على العملة، وكتب على الأعلام، وخطب له باليمن - كما فتحت له «حمص» و «حماة» و «شيزر» و «حلب»، فانصرف إلى نشر عقائد المذهب الشيعي، وأصبحت دواليب الإدارة كلها في يد الشيعة.

(1/10)

### \*الحاكم بأمر الله

هو «أبو علي منصور الحاكم بأمر الله» الفاطمي، بويغ له بالخلافة وهو في الحادية عشرة من عمره، وعين أستاذه «برجوان» التركي وصيا عليه؛ لذا لم يكن للحاكم من أمره شيء حتى تم القضاء على الوصي، وحل محله «ابن عمار الكتامي» المغربي وصيا ووزيراً، فاستبد بالأمر، ولم يسلم من شره أحد، سواء كان من الشيعة أو من السنة أو من أهل الذمة، وكذلك ساءت سيرته بين الجند، فنشب القتال في شوارع «القاهرة» و «الفسطاط»، وطالب الجميع بحياة «ابن عمار»، ولكنه اختفى، وأصبح زمام الأمور في يد «الحاكم»، وهو بعد في الخامسة عشرة من عمره، وأنشأ المرصد الحاكمي على سفح المقطم، وقد روى المؤرخون مواقف غريبة تدل على غرابة أطواره. حاولت «ست الملك» أخت «الحاكم بأمر الله» رده عما يفعل، لكنه أبي أن يرتدع، فدبرت مع «سيف الدولة بن دواس الكتامي» أمر قتله، فلما تم ذلك في عام 411 هـ، حمل جثمانه إليها، فدفنته في مجلسها.

(2/10)

### \*الظاهر

هو «أبو الحسن الظاهر بن الحاكم بأمر الله» تولى الخلافة في شوال سنة (411هـ)، بعد مقتل أبيه مباشرة، وكان لعمته «ست الملك» النفوذ والسيطرة في تسيير دفة الدولة، وقامت بذلك على أحسن وجه، وبذلت العطاء للجند، وتمكنت من تهدئة الأمر حتى وافاها الأجل في سنة (415هـ)، فانتهج «الظاهر» نهجها وعمل بسياستها، وألغى ما سنّه أبوه «الحاكم» من قوانين

محففة، واهتم بتحسين شئون البلاد وأحوال الرعية، ومنح الناس الحرية الدينية، فنعمووا بالكثير من إنجازاته، وعلى الرغم من أن مجاعة حدثت في عهده استمرت ثلاث سنوات، نتيجة انخفاض النيل، فإنه عمل على تخفيف المعاناة عن الشعب، وعقد اتفاقاً مع إمبراطور الروم ليمده بالقمح بمقتضاه، على أن يقوم «الظاهر» بإعادة بناء «كنيسة القيامة» بالقدس. مرض «الظاهر» بالاستسقاء، ولم يلبث أن تُوفِّي سنة (427هـ).

(3/10)

#### \*المستنصر

خليفة فاطمي تولى الخلافة عقب وفاة والده «الظاهر» في جمادى الآخرة سنة (427هـ)، ويُعدُّ أطول الخلفاء عهداً، إذ قضى بالخلافة نحو ستين سنة، لم تكن على وتيرة واحدة، حيث وصف «ناصر خسرو» «مصر» في أوائل عهد المستنصر بقوله: «كانت تتمتع بالرخاء، وأن الشعب محب لخليفته». وفي الفترة الأولى من عهده بلغ النفوذ الفاطمي أقصى مداه، إذ دُعي للخليفة على منابر بلاد الشام و«فلسطين» و«الحجاز» و«اليمن»، بل دُعي له في «بغداد» حاضرة العباسيين نحوًا من سنة، ودُعي له - أيضاً - في «صقلية» و«شمال إفريقيا». وكما شهد «المستنصر» مجد دولته، شهد أيضاً تقلُّص نفوذه، فقد زالت سلطة الفاطميين في بلاد «المغرب الأقصى» سنة (475هـ)، واستولى النورمانديون على «صقلية»، وخلع أميراً «مكة» و«المدينة» طاعتهما - من قبل - في سنة (462هـ)، وانقطع ماء النيل، وحدث ما عُرف في عهده بالشدة العظمى أو المستنصرية، وغلت الأسعار، وانتشرت المجاعات والأوبئة حتى قيل إنه كان يموت بمصر كل يوم عشرة آلاف نفس، ووصل الحال بالناس إلى

أكل القلط والكلاب، فلما لم يجدوها بعد ذلك كان بعضهم يحتال على خطف بعضهم الآخر ليذبحه ويأكله، وبلغت الشدة منتهاها، وباع المستنصر جميع ممتلكات قصوره، وقام صراع عنيف بين الأتراك والسودانيين، وظل الجنود فترة طويلة لا يتقاضون فيها رواتبهم، فنهبوا قصور الخلفاء، واستولوا على ما في المكتبات ودور العلم من مؤلفات باعوها بثمن بخس، واتخذوا من جلودها نعالا وأحذية، واستولى «ناصر الدولة ابن حمدان» زعيم الجند الأتراك على مقاليد الأمور، وهدد بإزالة الخلافة الفاطمية، بل حذف اسم الخليفة من الخطبة في بعض المناطق، ووصلت الحال بالخليفة إلى درجة أنه لم يتمكن من حماية أمه من دخول السجن، ففرت مع بناتها إلى «بغداد» طلبًا للحماية، واستمرت هذه الشدة تسع سنوات، حتى جاء «اليازودي»، فعالج الأمور، وضبط

(4/10)

الأسواق وضرب بشدة على أيدي العابثين، ولكن الوشاة دسُّوا له عند «المستنصر» بأنه على صلة بالسلاجقة وأنه يرأسهم، فقتله «المستنصر»، وعادت البلاد ثانية إلى ما كانت عليه، وظلت تنتقل من سيئ إلى أسوأ مدة تسع سنوات تولى الوزارة فيها أربعون وزيرًا، فاستنجد «المستنصر» ببدر الدين الجمالي حاكم «عكا»، فأتى على الفور، وألقى القبض على العابثين والعناصر المتنافرة، وضرب بيد من حديد على أيدي الخارجين على النظام والقانون، وعمّر الريف، واهتم بالزراعة، وحصن مدينة «القاهرة» التي كانت قد خربت أسوارها من جراء الفتن، وبنى جامعته المعروف بجامع الجيوش بالمقطم، فتحسنت الأحوال في عهده باستثناء إذكائه روح العداة بين الشيعة والسنة، لأنه كان شيعيا متعصبا، وظل وزيرًا للمستنصر حتى وافاه أجله

في عام (487هـ)، بعد أن عهد إلى ابنه بالوزارة من بعده،  
ليصبح هذا الأمر تقليدًا جديدًا، لم يُعمَل به من قبل.

(5/10)

---

### \*المستعلي

خليفة فاطمي تولى الخلافة بعد أبيه المستنصر سنة (487هـ)  
على الرغم من حداثة سنه، وعدم شرعية خلافته لوجود أخيه  
«نزار» الأكبر منه في السن، ولكن الوزير «الأفضل بن بدر»  
أسهم إسهامًا كبيرًا في هذا ليتمكن من السيطرة على الخليفة  
الصغير، وخرج «نزار» إلى الإسكندرية ليكون في حماية واليها  
«أفتكين» فخرج إليهما «الأفضل» بجيش كبير، ودارت الحرب  
بين الفريقين، فاضطر «نزار» و «أفتكين» إلى طلب الأمان،  
فأجابهما «الأفضل» إلى مطلبهما، ثم قتلها بعد أن هدأت  
الأمر، فانقسم الشيعة على أنفسهم، وأعلنت الباطنية (فرقة  
تفرعت عن الشيعة لها معتقداتها الخاصة) وعلى رأسهم «الحسن  
بن الصباح» أن نزارًا كان الأحق بالخلافة، لأن «الحسن» زار  
«مصر» وسأل «المستنصر» عن من يكون خليفته، فقال له: إنه  
«نزار».

(6/10)

---

### \*الحافظ

خليفة فاطمي تولى الخلافة سنة (524هـ) عقب وفاة ابن عمه  
«الأمير»، ولم تكن حاله مع وزيره «علي بن الأفضل» بأحسن من  
حال ابن عمه، فقد كان يتحكم فيه، وجعله كالخجور عليه، ولا  
يسمح لأحد بزيارته إلا بإذن منه، وانعظفت سياسة الدولة - في

عهده- انعطافاً خطيراً يهدد بزوالها، فقد عين اثنين من القضاة الشيعة، ومثلهما من السنة، وجعل لكل الحق في إصدار حكمه وفق مذهبه، ولقب نفسه بالأكمل مالك فضيلتي السيف والقلم، مولى النعم، رافع الجور عن الأمم، وأسقط اسم الخليفة من الخطبة، فكانت نهايته القتل جزاءً لما صنع. لم يكد الخليفة يستريح من سيطرة «ابن الأفضل» حتى وقع تحت سيطرة ونفوذ «بهرام الأرمي» والى «الغربية»، الذي تقلد الوزارة، واستقدم الكثيرين من بني جلدته حتى تجاوزوا ثلاثين ألفاً، وكلهم من الشيعة المتعصبين لمذهبهم، فأذاقوا أهل البلاد الهوان، وبنوا الكنائس والأديرة، فأثار ذلك حفيظة الناس، وثار «رضوان بن الوخشى» والى «الغربية»، وقاد جيشه، وهاجم به الوزير «بهرام» الذي انهزم، وفرَّ هارباً إلى «أسوان»، فتولى «رضوان» الوزارة بدلا منه، ولكنه ارتكب أعمالاً أثارت عليه حفيظة الخليفة، فاستدعى الخليفة «بهرام» من أسوان ليتولى الوزارة من جديد، فهرب «رضوان» إلى الشام، ثم عاد إلى «مصر» ثانية على رأس جيش تصدى له جنود الخليفة، فهزموه وأسروا «رضوان»، ثم قُتل. تُوفِّي «الحافظ» في سنة (544هـ)، وقد تميز عصره بالنزاع الدائم من أجل الوصول إلى منصب الوزارة بالقوة والجيش المسلحة.

(7/10)

### \*الظافر

خليفة فاطمي تولى الخلافة عقب وفاة أبيه «الحافظ» سنة (544هـ)، وقد سلكت الدولة في عهده مسلكاً خطيراً؛ لم يكن معهوداً من قبل؛ إذ استعان الوزراء بالقوى الخارجية للوصول إلى منصب الوزارة، وأبرز مثال على ذلك ما حدث بين «ابن

السلار» و «ابن مصال»، فقد استعان الأول على منافسه الثاني بنور الدين محمود صاحب «حلب»، ودارت بين الطرفين حرب شعواء قُتل فيها «ابن مصال»، ثم تبعه «ابن السلار»، فسعد الخليفة سعادة بالغة لقتل «ابن السلار» لاستعانته «بنور الدين محمود»، ودلل الخليفة على مدى سعادته بمكافأته لنصر بن العباس قاتل «ابن السلار» بمبلغ عشرين ألف دينار. كان الصليبيون قد أسسوا عدة إمارات لهم - في ذلك الوقت - بالشام، وبدأت طموحاتهم تتجه إلى «مصر»، ويتحينون الفرصة لتحقيقها في الوقت الذي كان «نور الدين محمود» يتربص فيه الأوضاع للاستيلاء على «مصر»، وظل كلاهما على ذلك حتى قام «نصر بن عباس» - بالاتفاق مع والده - بقتل الخليفة «الظافر» وإخوته، فغلت «القاهرة» كالمرجل، وهرب «عباس» إلى الشام، فُقُتل في طريقه إليها، وقُبض على ابنه «نصر» ثم وُضِع في قفص من حديد بعد أن جُدع أنفه، وقطعت أذناه، وطُيف به في أنحاء الحروسة، ثم صُلِب حيا على باب زويلة حتى مات، فأحرقت جثته. وتولى «الفائز» الخلافة.

(8/10)

#### \*الفائز

خليفة فاطمي تولى الخلافة (549هـ) وعمره أربع سنوات فحسب بعد وفاة أبيه الظافر، وكانت البلاد في حالة من الفوضى والاضطراب الشديدين، حتى إن نساء القصر لم تأمن على حياتهن في ظل هذه الظروف، فاستنجدن بطلّاع بن زريك وإلى الأشمونيين، الذي حضر على الفور، وقضى على الفتنة والشغب، وضرب على أيدي صانعي الفتنة، وظل الخليفة - بالطبع - مسلوب الإرادة حتى وفاته سنة (555هـ).

### \* العاضد لدين الله الفاطمي

خليفة فاطمي تولى الخلافة (555هـ) خلف «الفاتز»، فتخلص من الوزير «طلائع» بقتله، وأسند منصبه إلى ابنه «أبي شجاع العادل بن طلائع»، فرأى «شاور» والى الصعيد أنه أحق بالوزارة من «أبي شجاع»، وقدم على رأس قواته، وتمكن من خلع «أبي شجاع» من الوزارة، وتنصيب نفسه مكانه سنة (558هـ)، ولكنه لم يهنأ بمنصبه الجديد إذ استطاع «ضرغام» أمير البرقية (فرقة من المغاربة) خلعه، فهرب «شاور» إلى الشام مستجداً بنور الدين محمود ليعيده إلى منصبه، فأحس «ضرغام» بالخطر وخشى من ضياع منصبه فاستنجد بعمورى الصليبي ملك «بيت المقدس»، ولبى كل طرف نداء من استنجد به، وقدمت القوات الإسلامية كما قدمت القوات الصليبية في ثلاث حملات، ولكن «أسد الدين شيركوه» قائد حملات «نور الدين محمود» كانت له عقلية سياسية حكيمة، كما كان يجيد التخطيط الجيد، فتولى الوزارة بنفسه بعد أن قضى على الخصمين المتنافرين، وظل على ذلك حتى مات، فخلفه في منصبه ابن أخيه «صلاح الدين الأيوبي» السنّي المذهب. وتوفي العاضد سنة 567هـ وبوفاته سقطت الدولة الفاطمية.

### \* معاوية بن أبي سفيان

هو «معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبدمناف»، وأمه «هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد

مناف»، ويلتقى نسبه من جهة أبيه وأمه مع نسب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في «عبد مناف»، ولُقِّبَ بخال المؤمنين؛ لأن أخته «أم حبيبة» أم المؤمنين كانت زوجًا للنبي - صلى الله عليه وسلم - . وُلِدَ قبل الهجرة بنحو خمسة عشر عامًا، وأسلم عام الفتح، سنة (8هـ)، مع أبيه وأخيه «يزيد بن أبي سفيان» وسائر «قريش»، وأصبح منذ أن أسلم كاتبًا من كتّاب الوحي لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وشارك في عهد «أبي بكر الصديق» في حروب الردة، وفي فتوح الشام تحت قيادة أخيه الأكبر «يزيد»، وأبلى في ذلك بلاءً حسنًا. عيَّنه «عمر بن الخطاب» واليًا على الشام كله، بعد وفاة أخيه «يزيد» سنة (18هـ)؛ لكفاءته الحربية ومهارته في السياسة والإدارة، وظل في ولايته مدة خلافة «عمر»، ثم أقره «عثمان بن عفان» (24 - 36هـ) على ولايته، فاستمر في سياسته الحكيمة، ضابطًا لعمله، حارسًا لحدود إمارته، متصدية بكل حزم لأعداء الإسلام، محبوبًا من رعيته. استقبل المسلمون خلافة «معاوية» استقبالا حسنًا، واجتمعت عليه كلمتهم، وكان هو عند حسن الظن، جديرًا بالمنصب الجليل، خبيرًا بشئون الحكم وأمور السياسة، تدعّمه في ذلك خبرة واسعة، وتجربة طويلة في الإدارة وسياسة الناس، امتدت إلى أكثر من عشرين عامًا، هي فترة ولايته على الشام، بالإضافة إلى تمتعه بكثير من الصفات الرفيعة، التي تؤهله ليكون رجل دولة من الطراز الأول. وقد أجمع المؤرخون على أنه كان لمعاوية نصيب كبير من الذكاء والدهاء والسماحة والحلم والكرم، وسعة الأفق، وقدرة فائقة على التعامل مع الناس على قدر أحوالهم، أعداء كانوا أم أصدقاء. وقد أفرغ «معاوية» جهده كله، ومواهبه وطاقاته في رعاية مصالح المسلمين وتوطيد دعائم الدولة، ونشر الأمن والاستقرار في ربوعها، واتبع

---

في تحقيق ذلك سياسة حكيمة تقوم على دعائم ثابتة، تتلخص فيما يلي: - العمل على تضييد جراح الأمة، وتسكين نفوسها، وتأليف قلوبها بعد فترة مضطربة من حياتها، والإحسان والتودد إلى كبار الشخصيات من شيوخ الصحابة وأبنائهم، وبخاصة آل بيت النبي - صلى الله عليه وسلم -، وقد أدت هذه السياسة إلى تجميع القلوب حوله، وتحويل الخصوم إلى أعوان وأصدقاء. - وحسن اختياره للولاة والحكام، لأنه أدرك أنه مهما أوتى من ذكاء وفطنة، ومقدرة وحكمة، فلن يستطيع أن يحكم الدولة وحده، ومن ثم لا بد له من أعوان، يساعده في إدارة البلاد على خير وجه، فاخترهم بعناية فائقة من بين أقوى الناس عقلاً، وأحسنهم سياسة، وأحزمهم إدارة، أمثال «عمرو بن العاص»، و «المغيرة بن شعبة»، و «زيد» و «عتبة» أخويه وغيرهم. - ومباشرة أعماله بنفسه، وتكريسه وقته وجهده للدولة وسياستها، وعدم ركونه إلى حياة الراحة والدعة، على الرغم من استعانتها في إدارة الدولة بأعظم الرجال في عصره. بهذه السياسة استقرت الدولة وسادها النظام، وعمّها الأمن والسكينة، ولم يشذ عن ذلك سوى الخوارج، فأخذهم «معاوية» بالشدة؛ حفاظاً على سلامة الأمة، واتسمت سياسته الخارجية وبخاصة تجاه الدولة البيزنطية بمواصلة الضغط عليها، ومحاصرة «القسطنطينية» - عاصمتها - أكثر من مرة، وجعلها تقف موقف الدفاع عن نفسها. وتوفي «معاوية» في شهر رجب سنة (60هـ).

(12/10)

---

\*يزيد بن معاوية

هو «يزيد بن معاوية بن أبي سفيان» وأمه «ميسون بنت مخول

الكلبية». ولد في «دمشق» سنة (26هـ) في خلافة «عثمان بن عفان»، حين كان أبوه واليًا على الشام، فنشأ في بيت إمارة وجاه، وقد عُنى أبوه بتربيته تربية عربية إسلامية، فأرسله وهو طفل إلى البادية عند أخواله من «بنى كلب»، فشب شجاعاً كريماً، أبي النفس، على الهمة، شاعراً فصيحاً، وأديباً لبيباً، حاضر البديهة، حسن التصرف في المواقف. ويعده العلماء من الطبقة الأولى من التابعين، ولبعضهم رأى حسن فيه مع أخذهم عليه ميله إلى حياة اللهو في صدر شبابه، فلقبه «الليث بن سعد» فقيه «مصر» الكبير بلقب «أمير المؤمنين»، وقال عنه «ابن كثير»: «وقد كان في يزيد خصال محمودة من الكرم والفصاحة والشعر والشجاعة، وحسن الرأى في الملك، وكان ذا جمال، حسن المعاشرة». ومنذ أن عزم أبوه على توليته الخلافة بعده أخذ يحمله على الجد والحزم، وترك حياة اللهو والترف، استعداداً لتولى هذا المنصب الجليل، وعهد إليه بالقيام بالمهام الصعبة، فأرسله على رأس الحملة العسكرية التي وجهها في سنتي (49 - 50 هـ) لحصار القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، وكان تحت قيادته بعض كبار الصحابة. كان «يزيد» غائباً عن «دمشق» عند وفاة أبيه في رجب سنة (60هـ)، فأخذ البيعة له «الضحاك بن قيس»، ولما حضر جاءته الوفود وأمراء الأجناد، لتعزيمته في أبيه وتمننته بالخلافة وتجديد البيعة له. وقد ترسّم «يزيد» خطى أبيه، واستوعب وصيته له التي توضّح له معالم طريقه السياسى، وتبيّن له كيفية التعامل مع المشكلات وأحوال الرعية، وهذه الوصية تُعدُّ من أهم الوثائق السياسية في فن الحكم وإدارة الدول. حافظ «يزيد» على سلامة الدولة وهيبتها، وحمى حدودها، واستمرت حركة الفتوحات في عهده، فوصل «عقبة بن نافع» إلى شواطئ «الخيظ الأطلسى»، محترقاً الشمال الإفريقي كله، وعبرت طلائع الفتح نهر «جيحون» لفتح

بلاد «ما وراء النهر» (آسيا الوسطى). وكان يمكن لعهد «يزيد» أن يكون امتداداً لعهد أبيه، استقراراً واستتباباً، لولا عدة حوادث خطيرة، عكّرت صفو الأمة الإسلامية، وألقت بظلال سوداء على عهد «يزيد»، وطمست إنجازاته، منها: حادثة استشهاد «الحسين بن علي» - رضى الله عنهما - في «كربلاء» سنة (61هـ) وغزو «المدينة المنورة» سنة (63هـ) لقمع الثورة التي قام بها أهلها ضده دون سبب قوى، ثم غزو «مكة المكرمة» للقضاء على دولة «عبدالله بن الزبير» سنة (64هـ). ولم تطل أيام «يزيد»، فقد توفي في شهر ربيع الأول سنة (64هـ)، وهو في الثامنة والثلاثين من عمره.

#### \* معاوية بن يزيد

هو «معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان»، وأمه «أم هاشم بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة»، ومع أنه لم ينهض بعمله باعتباره خليفة، فإنه أخذ مكانه في سلسلة خلفاء الدولة الأموية، ويسميه بعض المؤرخين «معاوية الثاني»؛ لأن أباه قد عهد إليه بالخلافة بعده، طبقاً لنظام الوراثة الذي أسسه جده «معاوية»، وقد بايعه الناس بعد وفاة أبيه، لكنه أعلن في صراحة أنه عاجز عن النهوض بمسئولية الخلافة، وعليهم أن يبحثوا عن شخص كفء من أهل الصلاح والتقوى لتحمل عبء مسئولية منصب الخلافة. ولم تطل حياة ذلك الشاب الورع، حيث

تُوفِّي بعد أبيه «يزيد» بنحو أربعة أشهر، أو بعد أربعين يومًا  
في قول آخر سنة (64هـ).

(15/10)

### \*مروان بن الحكم

هو «مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس»، ولد  
في السنة الأولى من الهجرة، ولذلك يعده بعض العلماء من  
الصحابة، وهو ابن عم الخليفة «عثمان بن عفان» رضى الله عنه،  
وكان كاتبه وأمين سره، وولاه «معاوية بن أبي سفيان» في  
خلافته «المدينة المنورة» أكثر من مرة؛ ثقة منه بقدرته وخبرته  
السياسية التي اكتسبها طوال عمله مع «عثمان». وكان  
«مروان» أثناء ولايته على «المدينة» يتحرى العدل، ولا يصدر  
أمرًا إلا بعد استشارة صلحاء الناس، ومن مآثره التي جلبت ثناء  
الناس عليه أنه جمع صيغان «المدينة» التي يكيلون بها، وأخذ  
بأعدائها وأضبطها كيلا، فنسبه الناس إليه، وقالوا: «صاع  
مروان»، وقال عنه الإمام «أحمد بن حنبل»: «كان عند مروان  
قضاء - يقصد كان عادلا في قضاؤه - وكان يتبع قضايا عمر بن  
الخطاب»، ويصفه المؤرخون بالشجاعة والشهامة، والدهاء  
وحسن السياسة. اضطرب أمر «بنى أمية» بعد رفض «يزيد بن  
معاوية» أن يتولى الخلافة، أو يعهد بالأمر إلى أحد من أهل  
بيته، وفي هذه الأثناء أعلن «عبدالله بن الزبير» نفسه خليفة  
للمسلمين سنة (64هـ) في «مكة»، فبايعه «العراق» و «مصر»،  
حتى الشام نفسها معقل الأمويين بايعه معظم أقاليمها، وبدا  
الأمر كما لو أن دولة الزبيريين قامت، ودولة الأمويين بادت. كان  
«مروان بن الحكم» وبنوه يعيشون في «المدينة المنورة»،  
فأخرجهم منها «عبدالله بن الزبير» فرحلوا إلى الشام، حيث

تجمع هناك كل أنصار «بنى أمية» وولائهم، من أمثال: «عبيد الله بن زياد»، و «الحصين بن نمير»، فأخذوا يشجعون «مروان» على تحمل قيادة البيت الأموي، ومنع دولتهم من السقوط. وبعد مداورات طويلة بين زعماء القبائل استغرقت عدة شهور عقد مؤتمر في «الجابية» بالقرب من «دمشق»، في شهر ذى القعدة سنة (64هـ)، بويع فيه «مروان بن الحكم» بالخلافة، باعتباره أكبر أبناء البيت الأموي سناً، وأكثرهم تجربة. كان على

(16/10)

«مروان» بعد بيعته أن يثبت جدارته بهذا المنصب وأهليته له، بأن يسترد نفوذ «بنى أمية» وسلطانهم في الشام، معقلهم الرئيسي، الذي خضع معظمه لعبدالله بن الزبير، ومن ثم خاض «مروان» مع أنصار «ابن الزبير» معركة كبيرة في «مرج راهط»، شرقي «دمشق» في نهاية سنة (64هـ)، وكان النصر فيها حليف «مروان»، وبداية الطريق لاستعادة الأمويين لدولتهم التي كانت قاب قوسين أو أدنى من الزوال. ولم يضيع «مروان» وقتاً بعد هذا الانتصار، فعاد إلى «دمشق»، حيث تلقى وفود المهنيين والمبايعين. وبعد فترة قصيرة اطمأن فيها على استقرار الأوضاع في الشام، ترك ابنه «عبدالمملك» في «دمشق» نائباً عنه في حكمها، وتوجه إلى «مصر» التي كانت تحت حكم «عبدالله بن الزبير»، فاستردها بسهولة، وأقام بها نحو شهرين، رتب فيها أوضاعها، وعين ابنه «عبدالعزیز» والياً عليها، وعاد هو إلى «دمشق»، ليستأنف صراعه مع «ابن الزبير»، لكن الموت عاجله سنة (65هـ) بعد حكم دام عشرة شهور.

(17/10)

## \*عبدالمملك بن مروان

هو «عبدالمملك بن مروان بن الحكم»، ولد في «المدينة» سنة (26هـ) في خلافة «عثمان بن عفان»، ونشأ بها نشأة علمية، وتلمذ لكبار الصحابة، من أمثال «عبدالله بن عمر»، و «أبي سعيد الخدرى»، و «أبي هريرة» رضى الله عنهم، وبرع في الفقه حتى عُدَّ من فقهاء «المدينة»، وقد تواترت الأخبار عن فقهه وجزارة علمه ورجاحة عقله، قال عنه «الذهبي»: «ذكرته لجزارة علمه»، وقال «الشعبي»: «ما جالستُ أحدًا إلا رأيت لى الفضل عليه إلا عبدالمملك بن مروان»، واحتج الإمام «مالك بن أنس» بقضائه. ومكث «عبدالمملك» معظم حياته قبل أن يلي الخلافة في «المدينة المنورة»، لم يغادرها إلا لحج أو لجهاد، فقد اشترك في فتح «شمال إفريقيا» في عهد «معاوية بن أبى سفيان». تولى «عبدالمملك» الخلافة بعد وفاة أبيه في رمضان سنة (65هـ)، ووجد الدولة الإسلامية قد تنازعتها خمس دول: دولته هو، وتتكون من «مصر» والشام وعاصمتها «دمشق»، ودولة «عبدالله بن الزبير» وتتكون من «الحجاز» وبعض «العراق» و «بلاد فارس»، وعاصمتها «مكة المكرمة»، ودولة للشيعة أقامها «المختار بن أبى عبيد الثقفى» في جزء من «العراق»، وعاصمتها «الكوفة»، ودولة للخوارج الأزارقة في إقليم «الأهواز»، جنوبي شرقى «العراق»، ودولة للخوارج النجدات في إقليم «اليمامة» في شرقى الجزيرة العربية وجنوبى شرقىها. رأى «عبدالمملك» أن هذه الدول التى برزت خلال الفوضى التى عمّت بعد وفاة «يزيد بن معاوية» لا رابط يجمع بينها سوى العداء لبني أمية، فتركهم فى البداية يأكل بعضهم بعضًا، فاشتبك «ابن الزبير» مع «المختار الثقفى»، وقضى عليه تمامًا حين أرسل له جيشًا بقيادة أخيه «مصعب بن

الزبير»، فتمكن من هزيمته سنة (67هـ)، وبذلك تخلص «عبدالمملك» من واحد من أقوى خصومه دون أن يبذل أى جهد، ثم توجه هو على رأس جيش استطاع أن يقضى به على «مصعب بن الزبير» سنة (72هـ)، ثم أرسل جيشًا بقيادة «الحجاج بن

(18/10)

يوسف» إلى «مكة» استطاع أن يقضى على «عبدالله بن الزبير» سنة (73هـ)، كما نجح عبدالمملك في القضاء على دولتي الخوارج، وبذلك تخلص من خصومه، وقضى على الانقسامات التي أضعفت الدولة الإسلامية، وأعاد إليها وحدتها، ولذا عدّه المؤرخون المؤسس الثاني للدولة الأموية، وعدّوا سنة (73هـ) عام الجماعة الثاني. أظهر «عبدالمملك» براعة فائقة في إدارة الدولة وتنظيم أجهزتها، مثلما أظهر براعة في إعادة الوحدة إلى الدولة الإسلامية، فاعتمد على أكثر الرجال - في عصره - مهارة ومقدرة، وأعظمهم كفاءة وخبرة، وسياسة وإدارة، ومن أبرزهم «الحجاج بن يوسف الثقفي» الذي عهد إليه «عبدالمملك» بإدارة القسم الشرقي للدولة، الذي يتكون من «العراق»، وكل أقاليم الدولة الفارسية القديمة، وكان «الحجاج» عند حسن الظن به، فبذل أقصى طاقته في تثبيت أركان الدولة، والقضاء على كل مناوئيه، وكذلك إخوة «عبدالمملك» الذين كانوا من أبرز ركان دولته، ومنهم: «بشر بن مروان»، «ومحمد بن مروان» و «عبدالعزیز بن مروان» الذي ولى «مصر» نحو عشرين سنة (65 - 85هـ). وتفقد «عبدالمملك» أحوال دولته بنفسه وتابع أحوال عمّاله وولاته، وراقب سلوكهم، ولم يسمح لأحد منهم بأن يداهنه أو ينافقه. وأنجز أعمالاً إدارية ضخمة، دفعت بالدولة الإسلامية أشواطاً على طريق التقدم والحضارة، تمثلت في تعريب دواوين

الخراج في الدولة الإسلامية كلها، وتعريب النقود، وتنظيم ديوان البريد، وجعله جهازاً رقابياً، يراقب العمال والولاة ويرفع إليه تقارير عن سير العمل في الولايات. وتُوفِّي «عبد الملك بن مروان» في شوال سنة (86هـ) بعد أن كرّس كل وقته وجهده لتوطيد أركان الدولة، والسهر على رعاية مصالح المسلمين.

(19/10)

### \*الوليد بن عبد الملك

هو «الوليد بن عبد الملك بن مروان»، وُلد سنة (50هـ)، وهو أكبر أبناء «عبد الملك»، الذي حرص على تربيتهم تربية إسلامية، فعهد بهم إلى كبار العلماء والصلحاء لتعليمهم وتربيتهم، وخص ابنه «الوليد» بعناية خاصة، لأنه ولي عهده، وخليفته في حكم الدولة الإسلامية، فشب «الوليد» على الصلاح والتقوى، حافظاً للقرآن، دائم التلاوة له. تولى «الوليد» الخلافة بعد وفاة أبيه، الذي ترك له دولة واسعة الثراء، غنية بالموارد، قوية الساعد، مرهوبة الجانب، موخّدة الأجزاء، متماسكة البناء، موطّدة الأركان، فاستثمر ذلك على أحسن وجه في الفتوحات الإسلامية، فاستكمل المسلمون في عهده فتح الشمال الإفريقي كله، وفتحوا بلاد «الأندلس»، وأتمّوا في المشرق فتح بلاد «ما وراء النهر» - آسيا الوسطى - وفتح إقليم «السند» في «شبه القارة الهندية». وبرز في عهده عدد من القادة الكبار، منهم من أشرف على فتح تلك البلاد، مثل: «الحجاج بن يوسف الثقفي»، ومنهم من قاد تلك الفتوحات بنفسه، مثل: «قتيبة بن مسلم الباهلي» فاتح بلاد «ما وراء النهر»، و «محمد بن القاسم الثقفي» فاتح «السند»، و «موسى بن نصير» و «طارق بن زياد» فاتحي «الأندلس». كما نهض «مسلمة بن عبد الملك» أخو «الوليد»

بمنازلة الدولة البيزنطية، ومواصلة الضغط عليها، والاستعداد لمحاصرة عاصمتها «القسطنطينية». وشهد عصره نهضة عمرانية كبرى، فأعاد بناء «المسجد النبوي» وأدخل عليه توسعات كبيرة، وعهد إلى ابن عمه والى «المدينة» «عمر بن عبدالعزيز» بمتابعة ذلك، كما بنى «المسجد الأقصى» في مدينة «القدس»، وبنى «مسجد دمشق»، وأنفق عليه كثيراً ليكون آية من آيات العمارة، وعنى عناية فائقة بتعميد الطرق التي تربط بين أجزاء الدولة، التي امتدت أطرافها من «الصين» شرقاً إلى «الأندلس» غرباً، ومن «بحر قزوين» شمالاً إلى «المحيط الهندي» جنوباً، وبخاصة الطرق التي تؤدي إلى «مكة المكرمة»، لتسهّل سفر

(20/10)

---

حجاج بيت الله الحرام. وفي عهده سبقت الدولة الإسلامية كل دول العالم في تقديم الخدمات للناس مجاناً، وبخاصة الخدمات الطبية لأصحاب الأمراض المزمنة، يقول «الطبري»: «كان الوليد عند أهل الشام أفضل خلائفهم، بنى المساجد، مسجد دمشق، ومسجد المدينة، ووضع المنابر، وأعطى الناس، وأعطى المجذومين، وقال لا تسألوا الناس، وأعطى كل مُقعد خادماً، وكل ضرير قائداً، وفتح في عهده فتوح عظام». وتوفي الوليد بن عبد الملك في جمادى الآخرة سنة (96هـ).

(21/10)

---

**\*سليمان بن عبد الملك**

هو «سليمان بن عبد الملك بن مروان»، وُلد في «المدينة»، ونشأ في الشام، ويُويع له بالخلافة في اليوم الذي تُوفي فيه أخوه

«الوليد بن عبد الملك». كان «سليمان» من أفضل أولاد  
«عبد الملك»، ومن أكبر أعوان أخيه «الوليد» أثناء خلافته،  
وولى له «فلسطين»، وصفه «الدَّهْبي» بقوله: «من أمثال  
الخلفاء - يعني من أفضلهم - نشر علم الجهاد، وكان دينًا فصيحًا  
مفوهًا، عادلاً محباً للغزو، استعان في إدارة دولته وتصريف  
شئونها بعظماء الرجال وصالحينهم، من أمثال: ابن عمه «عمر بن  
عبد العزيز»، و «رجاء بن حيوة». حافظ «سليمان» على هيبة  
الدولة ومكانتها، فواصل الجهاد والفتوحات، وأرسل جيشًا  
بقيادة أخيه «مسلمة بن عبد الملك» لحصار «القسطنطينية»، فدام  
نحو سنة كاملة (98 - 99هـ)، وأشرف بنفسه على هذه الحملة،  
حيث اتخذ من مدينة «مرج دابق» شمالي الشام مركز قيادة له؛  
ليكون على مقربة من ميدان المعارك الحربية، وتُوِّقَ هناك في  
شهر صفر سنة (99هـ)، ولذا قال بعض العلماء: إنه مات شهيدًا،  
بعد أن تَوَجَّ أعماله بعمل يدل على صلاحه وحرصه على مصالح  
المسلمين، وهو تولية ابن عمه «عمر بن عبد العزيز» الخلافة من  
بعده.

(22/10)

### \*عمر بن عبدالعزيز

هو «عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم»، وأمه «أم عاصم  
بنت عاصم بن عمر بن الخطاب». وُلِدَ في «المدينة المنورة» سنة  
(26هـ) على الأرجح، ونشأ بها بناءً على رغبة أبيه، الذي تولَّى  
إمارة «مصر» بعد ولادة «عمر» بثلاث سنوات سنة (65هـ)، فنشأ  
بين أخواله من أسرة «عمر بن الخطاب»، ونهل من علم علمائها  
من بقية الصحابة، وكبار التابعين، حتى صار من كبار الفقهاء  
علمًا وعملاً. ظل «عمر» في «المدينة» حتى سنة (58هـ)، وهي

السنة التي تُوفى فيها أبوه، فاستدعاه عمه «عبدالمملك بن مروان» إلى «دمشق»، وخلطه بأبنائه، وزوّجه ابنته «فاطمة»، ثم عيّنه واليًا على منطقة «خناصر» شمالي شرقي الشام، ثم عيّنه ابن عمه «الوليد بن عبدالمملك» واليًا على «المدينة المنورة»، فكان ذلك مصدر سعادة لعمر ولأهل «المدينة» جميعًا، ونعم الناس في فترة ولايته عليها (87 - 93 هـ) بالعدل والأمن، وأشرك معه أهل العلم والفضل منهم في إدارة أمور الولاية. أخذ «عمر بن عبدالعزيز» منذ أن ولي الخلافة في بذل كل ما يملك من طاقة، وما يتمتع به من خبرة في إصلاح أمور الدولة، واستقرار الأمن، ونشر الرخاء والعدل، وتحقيق الكفاية والوفرة في كل أحوالها، والحرص على مال المسلمين، وإنفاقه في وجوهه المشروعة، وحسن التصرف في الأمور، والدقة في اختيار الولاة والقضاة وسائر كبار رجال الدولة، وتحقيق التوازن بين طبقات المجتمع، ومجادلة الخارجين على الدولة بالحسنى؛ لإقناعهم بالعودة إلى حظيرة الجماعة. وقد سرت تلك الروح في كل ناحية من نواحي الحياة في الأمة الإسلامية، فعمها الرخاء، وسادت فيها الكفاية والعدالة الاجتماعية، حتى إن عمال الصدقات كانوا يبحثون عن فقراء لإعطائهم فلا يجدون. رأى «عمر بن عبدالعزيز» أن الدولة اتسعت كثيرًا، وأن كثيرًا من المشاكل والأخطاء نشأت من ذلك الاتساع، فرأى وقف الفتوحات والاهتمام بنشر الإسلام في البلاد التي تم فتحها،

(23/10)

---

وإرسال الدعاة والعلماء لدعوة الناس بدلا من إرسال الجيوش والحملات، وقد أثمرت تلك الجهود نتائج محمودة، فأقبل أبناء الشعوب المفتوحة على اعتناق الإسلام، يجذبهم إليه سمعة

الخليفة الحسنة، وسمو أخلاقه، ونبله وعدله، الذي تجاوز حدود دولته إلى غيرها من الدول، فكان موضع إعجاب وتقدير، وحمد وثناء من أهلها، وبخاصة الدولة البيزنطية. وقد استمرت خلافة «عمر» سنتين وبضعة أشهر، شهدت فيها الدولة إصلاحات عظيمة في الداخل والخارج، وامتألت الأرض نورًا وعدلا وسماحة ورحمة، وتجدد الأمل في النفوس بإمكان عودة حكم الراشدين، واقعًا ملموسًا وحقيقة لا خيالًا، وأن يقام المعوج، وينصلح الفاسد، ويُرد المنحرف إلى جادة الصواب، إذا استشعر الحاكم مسئوليته عن الأمة أمام الله، واستعان بأهل الصلاح من ذوى الكفاءة والقدرة، ومن ثم فليس بغريب أن يطلق على «عمر» «خامس الخلفاء الراشدين»، وأن يكون موضع تقدير أشد الفرق عداءً لبنى أمية كالشيعة والخوارج. وتُوفى «عمر بن عبدالعزيز» في أواخر شهر رجب سنة (101هـ).

(24/10)

#### \*يزيد بن عبدالمملك

هو «يزيد بن عبدالمملك بن مروان»، وأمه «عاتكة بنت يزيد بن معاوية ابن أبي سفيان»، وُلد في «دمشق» سنة (71هـ) على وجه التقريب، وبويع له بالخلافة في اليوم الذى تُوفى فيه ابن عمه «عمر بن عبدالعزيز» في نهاية شهر رجب (101هـ). وتدل أخباره قبل تولّيه الخلافة على أنه كان يحب العلم ومجالسة العلماء، ولديه ميل إلى الاستقامة، وقد حاول بعد تولّيه الخلافة أن يقتدى بسلفه العظيم «عمر بن عبدالعزيز»، لكن قرناء السوء حالوا بينه وبين ذلك، وزيّنوا له حياة اللهو واللعب، ويعبر عن ذلك «ابن كثير» بقوله: «فلما ولى - «يزيد بن عبدالمملك» الخلافة - عزم على أن يتأسى بسيرة عمر بن عبدالعزيز، فما تركه

قرناء السوء، وحسّنوا له الظلم». ولم تكن مناعة «يزيد» ضد الانغماس في حياة اللهو قوية، فاستجاب لقرناء السوء ورفاق اللهو، ولولا أن الدولة الأموية كانت زاخرة بالرجال الأفاضل، وعامرة بالأبطال من أبناء الأسرة الحاكمة، لانهارت في عصره، فقد عوّض هؤلاء عدم كفاءة الخليفة لقيادة الدولة، ويأتي في مقدمتهم أخوه: «مسلمة بن عبد الملك» فارس «بني مروان»، وابن أخيه «العباس بن الوليد بن عبد الملك»، وابن عمه «مروان بن محمد بن مروان»، وقد نجح الأولان في القضاء على الثورة العارمة، التي أشعلها «يزيد بن المهلب» سنة (102هـ)، أحد أبناء البيوتات العربية الطامحة إلى الخلافة بعد ما نجح في السيطرة على معظم «العراق»، وعرض الدولة للسقوط، كما تصدّوا لحركات الخوارج وكل مناوئى الدولة، وحافظوا على سلامتها. ولم تطل خلافة «يزيد»، فقد توفى في أواخر شهر شعبان سنة (105هـ).

(25/10)

#### \* هشام بن عبد الملك

هو «هشام بن عبد الملك بن مروان»، رابع أبناء «عبد الملك» الذين ولوا الخلافة، أمه «أم هاشم بنت إسماعيل المخزومي»، وُلد في «دمشق» سنة (72هـ)، ويبيع له بالخلافة سنة (105هـ). ومع أن المصادر التاريخية لم تحدثنا كثيراً عن حياته قبل الخلافة، وعمّا إذا كانت له مشاركة في تسيير أمور الدولة أم لا، فإنها تجمع على أنه كان ذا رأى وبصيرة، وحكمة وفطنة، حازماً ذكياً، له بصر بالأمور، جليلها وحقيقتها، محشوا عقلا على حسب تعبير «الطبرى». وكان من حسن الطالع للدولة الأموية وللمسلمين أن يخلف «هشام بن عبد الملك» أخاه «يزيد»، فقد

ظل في الخلافة نحو عشرين عامًا، أدار فيها الدولة بكفاءة عالية، وأظهر حكمة سياسية في تعامله مع الكتلتين العربيتين الرئيسيتين في الدولة، وهما عرب الجنوب (اليمن)، وعرب الشمال (قيس)، فلم يتحيز إلى كتلة ضد الأخرى، واحتفظ بعلاقة طيبة معهما ومع الجميع بصفة عامة، ولعل هذه السياسة هي التي كفلت للدولة الاستقرار النسبي طوال حكمه. وقد تمتع «هشام» بعدد من الصفات اللازمة لرجل الدولة، من حلم وتسامح وسعة صدر، وعدل وحزم، أما أبرز صفاته الإدارية على الإطلاق فهي قدرته الفائقة على تدبير الأموال وحسن التصرف فيها، مع تحرى العدل في جمعها وإنفاقها على حد سواء، فنعمت الدولة في عهده باستقرار مالى كبير. وأظهر «هشام» كفاءة عالية ومقدرة فائقة في إدارة الشؤون الخارجية للدولة، فحافظ على هيبتها في عيون أعدائها، وبخاصة الدولة البيزنطية. ولم يعكر صفو الدولة في عهد «هشام» سوى ثورة «زيد بن على بن الحسين بن على» سنة (121هـ)، حين حرّضه العراقيون على الثورة ضد «هشام»، والخروج عليه، ثم تخلّوا عنه كما فعل أسلافهم مع جده «الحسين بن على»، وتركوه يلقي حتفه سنة (122هـ)، وقد حزن «هشام» على قتله، لأنه كان يكره سفك الدماء. وتوفي «هشام بن عبدالمك» في مطلع شهر ربيع الآخر سنة (125هـ).

(26/10)

#### \*الوليد بن يزيد بن عبدالمك

هو أول حفيد من أحفاد «عبدالمك بن مروان» يتولى الخلافة، طبقاً لنظام الوراثة الذى سار عليه الأمويون، إذ عهد «يزيد بن عبدالمك» إلى ابنه بالخلافة بعد أخيه «هشام بن عبدالمك».

وتُعد خلافة «الوليد بن يزيد» بداية النهاية للدولة الأموية، وطليعة سقوطها؛ لأنه كان على شاكلة أبيه هوًا ولعبًا، وإذا كان أبوه قد رزق من يعوض نقص كفاءته في الحفاظ على سلامة الدولة، من إخوته وأبناء عمومته، فإن «الوليد» لم يجد مثل هذا النوع من أفاذ الرجال، بل ثار عليه أبناء عمومته من أبناء «الوليد بن عبد الملك» وأخيه «هشام»، وشهد عصره أول انقسام داخلي بين الأسرة الأموية وأشدّه خطرًا. وقد حاول «الوليد» استرضاء الجند بزيادة رواتبهم، واستمالة الناس بزيادة أعطياتهم من الأموال الكثيرة التي تركها له عمه «هشام بن عبد الملك» في خزانة الدولة، لكن ذلك لم يمنع الثائرين عليه من أبناء عمومته بزعامته «يزيد بن الوليد» من تلطيخ سمعته واتهامه بالفسق والفجور، والمبالغة في تلك التهم والتشهير به؛ لأن «ابن الأثير» يقول: «إن الوليد لم يكن على هذه الدرجة من السوء، غير أن خصومه نجحوا في خطتهم، وقتلوه في جمادى الآخرة سنة (126هـ)، فاتحين بذلك أبواب الشر على الدولة من كل جانب، مفتحين الثورات والفتن في كل مكان».

(27/10)

### \*يزيد بن الوليد بن عبد الملك

هو أول أموى من أم غير عربية يتولّى الخلافة، فأمه فارسية تُدعى «شاه أفريد بنت فيروز بن يزدجرد الثالث» آخر ملوك الفرس. تولّى الخلافة بعد مقتل ابن عمه «الوليد بن يزيد» سنة (126هـ)، وحاول أن يظهر الصلاح والتقوى، ويتشبه بعمر بن عبدالعزيز في عدله وزهده، ليمحو من أذهان الناس فعلته الشنعاء بابن عمه، لكنه لم ينجح في ذلك، إذ اضطربت عليه الأمور، ونقم عليه الجند بعد أن أنقص أعطياتهم التي كان قد

زادها الخليفة السابق، ولقبوه «يزيد الناقص». وقد اضطرت الدولة في عهده اضطراباً شديداً، وجرَّ عليها بفعلة كوارث لا قبل لها بها، وشغل أبناء الأسرة الأموية في صراعات داخلية دموية، في الوقت الذي كانوا فيه أحوج الناس إلى الوحدة والتضامن إزاء الدعوة العباسية التي نشطت استعداداً للانقضاء على الدولة. وزاد الأمر سوءاً أن «يزيد» عجز عن المحافظة على سياسة التوازن بين القبائل العربية التي انتهجها عمه «هشام بن عبد الملك»؛ فانحاز إلى أهل «اليمن» الذين ساعدوه في الثورة على «الوليد»؛ مما أغضب عرب «قيس»، فثاروا عليه في الشام معقل «بنى أمية»، ثم أخذ الخلل والاضطراب يسريان في جميع أقاليم الدولة. وفي ظل هذه الأحداث الهائجة، والأجواء العاصفة توفى «يزيد» فجأة في نهاية سنة (126هـ)، بعد حكم لم يتجاوز ستة أشهر، تاركاً الدولة غارقة في حالة من الفوضى والغليان.

(28/10)

#### \* إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك

على الرغم من مبايعة بعض الناس لإبراهيم بالخلافة بعد وفاة أخيه «يزيد» الذي كان قد عهد إليه بالخلافة، فإن الأمر لم يتم له، ولم يستطع أن يمسك بزمام الأمور في الدولة التي انفرط عقدها، لذا يقول «الطبري»: «كان الناس في جمعة يسلمون على إبراهيم بن الوليد بالخلافة، وفي الأخرى بالإمارة، وفي الثالثة لا يسلمون عليه لا بالخلافة ولا بالإمارة»، كما رفضت معظم أقاليم الشام بيعته، وحملته هو وأخاه «يزيد» مسئولية قتل «الوليد بن يزيد» وما ترتب على ذلك من فتن وشور. وفي هذه الأثناء تحرك «مروان بن محمد بن مروان»، والى «أرمينيا» و «أذربيجان»، لإنقاذ الدولة من السقوط والضياع، بعد أن هاله

وأفرعه ما أقدم عليه أبناء عمومته، وقدم إلى «دمشق» على رأس ثمانين ألف جندي، للقضاء على «إبراهيم بن الوليد» الذي هرب، فدخلها في ربيع الآخر سنة (127هـ)، وبايعه الناس بالخلافة، مؤملين إنقاذ الدولة من الضياع، ولكن كان للأقدار رأى آخر، فقد شاءت أن تكتب في عهده شهادة وفاة تلك الدولة.

(29/10)

### \* مروان بن محمد بن مروان بن الحكم

هو آخر خلفاء «بنى أمية»، ولى حكم «أرمينيا» و «أذربيجان» منذ خلافة ابن عمه «هشام بن عبد الملك»، وكان من أكفأ الولاة، وأكثرهم خبرة وبصراً بالأمر؛ فارساً شجاعاً، بطلاً مقداماً، غيوراً على ملك «بنى أمية». أدرك «مروان» عواقب مقتل «الوليد بن يزيد» على البيت الأموي، فخرج من «أرمينيا» قاصداً «دمشق»؛ ليثأر لمقتل «الوليد»، لكن الخليفة الجديد «يزيد بن الوليد» ترصّاه، ورجاه أن يرجع، ووعدته بإصلاح الأحوال، فرجع مؤثلاً أن يفى الخليفة بوعدته، غير أن الخليفة توفى فجاءة، تاركاً الدولة وأحوالها مضطربة، لأخيه «إبراهيم»، الذي عجز عن النهوض بأعباء الخلافة؛ مما دفع «مروان» إلى التحرك من جديد، قاصداً «دمشق»، ليجد «إبراهيم» قد غادرها هرباً، فبدخلها، وبايع له بالخلافة، ليقوم بآخر محاولة لإنقاذ الدولة الأموية، التي شاءت الأقدار أن تكون نهايتها على يديه. ولا يستطيع أحد أن يلوم «مروان» أو يحمله مسئولية زوال الدولة، فعوامل سقوطها كانت تتفاعل وتعمل من زمن بعيد، وكُتبت له أن يجنى وحده الثمار المرة لأخطاء من سبقه، على الرغم مما بذله من جهد ومثابرة، وعزم لا يلين، فحارب في أكثر من ميدان،

وصارع أحداثاً عدّة، كانت كلها ضدّه، وأول خطر واجهه هو انقسام البيت الأموي شيعاً وأحزاباً، وإشعال أبناء عمومته الثورات العارمة ضده في الشام و «العراق»، ثم انقسام القبائل العربية؛ حيث وقفت القبائل اليمنية في وجهه، وهم الأنصار التقليديون لبني أمية، وهبوب ثورات الخوارج الأخيرة ضد الدولة، وانفجار المشكالات في أنحاء الدولة كلها من «الأندلس» حتى بلاد «خراسان» و «ما وراء النهر». وفي الوقت الذي يواجه فيه «مروان» كل هذه الظروف الصعبة، منتقلاً من ميدان إلى ميدان، ومن جبهة إلى أخرى دون كلل أو ملل، محاولاً إنقاذ الدولة، وبث روح الحياة فيها، وتجديد الدماء في أوصالها -

(30/10)

---

تفاجئه رايات العباسيين منحدرّة من «خراسان» كالسيل المنهمر، مكتسحة كل قواته في طريقها، ولم تتوقف إلا بهزيمته وهو على رأس جيوشه في معركة على «نهر الزاب» بالعراق، في شهر جمادى الآخرة سنة (132هـ). ولم يجد «مروان» طريقاً سوى الحرب إلى «مصر»، غير أن العباسيين لاحقوه إلى هناك، واستطاع «صالح بن علي بن عبدالله بن عباس»، عم أول خليفة عباسي أن يقتله في قرية تُسمّى «زاوية المصلوب» التابعة لبوصير الواقعة جنوبي «الجيزة»، في ذى الحجة سنة (132هـ)، وبوفاته انتهت الدولة الأموية في المشرق، وقامت الدولة العباسية.

(31/10)

---

### \*أبان بن عثمان

أبوه الخليفة «عثمان بن عفان»، وُلد سنة (20 هـ) بالمدينة، وكان من فقهاء «المدينة» المعدودين، ومن كبار رواة الحديث، تتلمذ لأبيه وغيره من كبار الصحابة، وتعلم على يديه كثير من علماء الحديث والسيرة، في مقدمتهم: «محمد بن مسلم بن شهاب الزهري». وعلى الرغم من اشتغاله بالحديث والفقهِ، فإن شهرته في العلم بالمغازي والسير جعلته من علمائها البارزين، وتوفي في نهاية القرن الأول الهجري.

(32/10)

---

### \*عروة بن الزبير بن العوام

وُلد في «المدينة» سنة (26هـ)، وتتلّمذ على يد خالته أم المؤمنين السيدة «عائشة»، وروى عنها حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - ومغازيه، واشتهر «عروة» بأنه من فقهاء «المدينة»، مثل «أبان بن عثمان»، غير أن شهرته بالمغازي والسير كانت أكبر، وكانت له مؤلفات كثيرة، ذكر «ابن سعد» في كتابه «الطبقات» أنه أحرقها في يوم «الحرة»، وهي الواقعة الحربية المشهورة سنة (63هـ) في «المدينة»، وقد حزن كثيراً على فقدانها، وتوفي «عروة» سنة (94هـ).

(33/10)

---

### \*شرحبيبل بن سعد

وهو ثالث ثلاثة من كتاب الطبقة الأولى من أهل «المدينة» في علم السيرة، نشأ في «المدينة»، وأخذ العلم عن الصحابة، حتى

صار علمًا من أعلام السير والمغازى، ويروى أنه كان أعلم الناس بالمغازى وبخاصة أهل «بدر»، وقد تُوفِّي سنة (123هـ).

(34/10)

---

**\* وهب بن منبه**

وُلد في قرية «زمار» بجوار «صنعاء» باليمن، وهو واحد من رجال الطبقة الأولى من علماء السيرة والمغازى، ومن العلماء الموسوعيين الذين كتبوا في علوم شتى، فكان مصدرًا من مصادر علوم أهل الكتاب، ومن الثقاة في تاريخ الأنبياء. وقد ألّف «وهب» مؤلفات كثيرة، لم يصل إلينا منها شيء، وإن وجدت مؤخرًا في مدينة «هيدلبرج» بألمانيا أوراق بردى، يقال إنها قطعة من كتاب المغازى لوهب بن منبه، تحوى معلومات عن «بيعة العقبة»، وحديث «قريش» في دار الندوة، وتديرها لقتل الرسول - صلى الله عليه وسلم - والاستعداد للهجرة إلى «المدينة». ثم تلا هذه الطبقة طبقة أخرى، واصلت عملها في مجال التأليف والكتابة في السيرة والمغازى، من أبرزهم «محمد بن مسلم بن شهاب الزهري»، الذى امتاز على معاصريه بكثرة الكتابة والتدوين، غير أن مؤلفاته ضاعت ولم يصل إلينا منها شيء، وعلى الرغم من ذلك فإن علمه حفظه لنا تلاميذه الكثيرون، وكان من أعظمهم في مجال السيرة والمغازى:

(35/10)

---

**\* محمد بن إسحاق**

وُلد في «المدينة» سنة (85هـ) في خلافة «عبد الملك بن مروان»، وتلمذ لأبيه الذى كان محدثًا فقيهاً، ولغيره من كبار التابعين

في «المدينة»، مثل: «القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق»،  
و «سالم بن عبد الله بن عمر»، و «أبان بن عثمان بن عفان»،  
و «نافع مولى عبد الله بن عمر»، و «أبي سلمة بن عبد الرحمن بن  
عوف»، و «محمد بن مسلم بن شهاب الزهري»، ثم رحل «ابن  
إسحاق» إلى «مصر» سنة (115هـ)، والتقى بعلمائها الكبار،  
وفي مقدمتهم: «يزيد بن أبي حبيب»، وزار الإسكندرية، ثم عاد  
إلى «المدينة» ليواصل دراسته، ثم رحل إلى «العراق» بعد قيام  
الدولة العباسية، وقضى فيها بقية حياته، حتى تُوفِّي سنة  
(151هـ) وهناك إجماع بين العلماء على إمامة «ابن إسحاق»  
لعلم السيرة والمغازي، فقد حفظ في كتابه معظم روايات  
السابقين وآثارهم العلمية، وكل من أتى بعده عالية عليه في هذا  
العلم كما قال الإمام «الشافعي». ولابن إسحاق كتابان: أحدهما  
عنوانه «كتاب الخلفاء»، وهو مفقود حتى الآن. والآخر: كتاب  
«السيرة والمبتدأ والمغازي» وهو أقدم كتاب وصل إلينا عن  
سيرة الرسول ومغازيه، وأوفاهها علمًا.

(36/10)

#### \*ابن إسحاق

وُلد في «المدينة» سنة (85هـ) في خلافة «عبد الملك بن مروان»،  
وتعلم لأبيه الذي كان محدثًا فقيهاً، ولغيره من كبار التابعين  
في «المدينة»، مثل: «القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق»،  
و «سالم بن عبد الله بن عمر»، و «أبان بن عثمان بن عفان»،  
و «نافع مولى عبد الله بن عمر»، و «أبي سلمة بن عبد الرحمن بن  
عوف»، و «محمد بن مسلم بن شهاب الزهري»، ثم رحل «ابن  
إسحاق» إلى «مصر» سنة (115هـ)، والتقى بعلمائها الكبار،  
وفي مقدمتهم: «يزيد بن أبي حبيب»، وزار الإسكندرية، ثم عاد

إلى «المدينة» ليواصل دراسته، ثم رحل إلى «العراق» بعد قيام الدولة العباسية، وقضى فيها بقية حياته، حتى تُوِّفِّي سنة (151هـ) وهناك إجماع بين العلماء على إمامة «ابن إسحاق» لعلم السيرة والمغازي، فقد حفظ في كتابه معظم روايات السابقين وآثارهم العلمية، وكل من أتى بعده عالية عليه في هذا العلم كما قال الإمام «الشافعي». ولابن إسحاق كتابان: أحدهما عنوانه «كتاب الخلفاء»، وهو مفقود حتى الآن. والآخر: كتاب «السيرة والمبتدأ والمغازي» وهو أقدم كتاب وصل إلينا عن سيرة الرسول ومغازيه، وأوفاهها علمًا.

(37/10)

---

#### \*أبو العباس السفاح

هو «عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب بن هاشم»، ولد سنة (100هـ = 718م) تقريبًا. بويع «أبو العباس» في «الكوفة» في شهر ربيع الأول سنة (132هـ = 749م). واستمر في الحكم أربع سنوات، استطاع خلالها توطيد أركان الخلافة العباسية، والقضاء على كل مقاومة ظهرت في عهده. وتُوِّفِّي الخليفة العباسي الأول «أبو العباس» بالأنبار في (13) من ذى الحجة سنة 136هـ = 9 من يونيو سنة 754م، وعمره نحو ست وثلاثين سنة.

(38/10)

---

#### \*أبو جعفر المنصور

هو «عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب الهاشمي»، وكنيته «أبو جعفر». ولد سنة (95هـ =

714م) في قرية «الحميمة» بالشام، وترى وسط كبار الرجال من «بني هاشم»، فنشأ فصيحاً عالمًا بسير الملوك والأمراء، ودرس النحو والتاريخ والأدب شعرًا ونثرًا وغير ذلك، كما كان كثير الأسفار والتنقل. ولما تولى أخوه «أبو العباس» الخلافة استعان به في محاربة أعدائه وتصريف أمور الدولة، وكان ينوب عنه في الحج، كما أوصى «أبو العباس» قبيل وفاته مباشرة بولاية عهده لأخيه «أبي جعفر»، الذي كان غائبًا في موسم الحج، فلما تُوفّي «أبو العباس» قام ابن أخيه «عيسى بن موسى» بأخذ البيعة لأبي جعفر من «بني هاشم» وغيرهم، وأرسل إلى عمه «أبي جعفر» بوفاة أخيه ومبايعته بالخلافة. يُعدُّ «أبو جعفر المنصور» المؤسس الحقيقي للدولة العباسية، وقد واجه بحزم واقتدار العديد من المشاكل والثورات حتى نجح في السيطرة عليها والقضاء على القائمين بها، ومنها: ثورة عمه «عبدالله بن علي»، وتمرد «أبي مسلم الخراساني»، وثورة «محمد النفس الزكية»، وثورات الفرس، وحركات الخوارج. تُوفّي «المنصور» في (6 من ذى الحجة سنة 158هـ = 7 من أكتوبر سنة 775م)، وهو في طريقه إلى الحج.

(39/10)

### \*المهدى العباسي

هو «محمد بن عبدالله بن محمد» وُلد بالحميمة سنة (126هـ = 743م)، وقد هبأه والده «المنصور» وأعدّه ليكون جديرًا بمنصب الخلافة من بعده، فنشأ على ثقافة عربية واسعة، ودراية بفتون الحرب وأساليب الإدارة. وعقب وفاة «المنصور» بويع «المهدى» بيعة خاصة من قبل الزعماء بمكة، ثم بايعه جمهور المسلمين في «بغداد» في (ذى الحجة سنة 158هـ =

أكتوبر سنة 775م). اختلفت سياسة «المهدى» عن سبقة، فاتسم عهده بالاستقرار والهدوء والتسامح والصفح، فأطلق سراح المسجونين السياسيين، واهتم بإقرار العدل بين الناس، وجلس للنظر في مظالم الناس مستعيناً بالقضاة، وأمر بالإنفاق على مرضى الجذام؛ حتى لا يختلطوا بالناس فتصيبهم العدوى، كما اهتم اهتماماً خاصاً بالحرمين الشريفين وبكسوة «الكعبة». وقد عفا «المهدى» عن بعض آل البيت ومنحهم الأموال والإقطاعات، وحينما أدى فريضة الحج سنة (160هـ = 777م) وزع أموالاً كثيرة على أهل «مكة» و «المدينة»، وأصدر عفواً عاماً عن عاقبهم «المنصور» من أهل «الحجاز»؛ لمشاركتهم في الثورة العلوية، واختار خمسمائة من رجال الأنصار وكوّن منهم حرسه الخاص، كما قام ببث العيون والجواسيس بالبلاد لرصد أى تحرك معادٍ للدولة، ورغم ذلك فقد حاول بعض العلويين مثل «عيسى بن زيد بن علي» و «علي بن العباس بن الحسن» القيام بثورة ضد الخلافة العباسية، لكنها لم تنجح؛ حيث عاجلها الموت. واجه «المهدى» عدة ثورات من الخوارج وقضى عليها بجزمه وسرعة مواجهته، كان «المنصور» قد ترك بعد وفاته في بيت المال أربعة عشر مليون دينار وستمائة مليون درهم، قام «المهدى» بتوزيعها على الناس؛ فشاع بينهم الترف والنعيم واللهو واللعب، كما اتبعه الناس في حبه للآداب والفنون؛ فارتقت الآداب والفنون، وسادت بين طبقات الشعب، وكان «المهدى» أول خليفة يُحمل إليه التلج إلى «مكة» في الحج، كما كان مترفاً في ملبسه ومأكله. تُوفّي «المهدى» سنة (169هـ = 785م)

وعمره ثلاث وأربعون سنة، وقد قضى في الحكم إحدى عشرة سنة.

(41/10)

---

### \*الهادى (خليفة عباسي)

هو «موسى» ابن الخليفة «المهدى»، تولى الخلافة في (22 من الحرم سنة 169هـ = 5 من أغسطس سنة 785م). اتصف الخليفة «الهادى» بالغيرة والشهامة والجرأة، ورفض تدخل أمه «الخيزران» في سياسة الدولة كما كانت تفعل في عهد والده «المهدى». وقد واجه «الهادى» مشاكل خطيرة على رأسها ثورة البيت العلوى بقيادة «الحسين بن على بن الحسن» في «المدينة» سنة (169هـ = 785م)، إلا أن «الهادى» أرسل جيشاً على وجه السرعة نجح في القضاء عليها في (8 من ذى الحجة سنة 169هـ = 11 من يونيو سنة 786م) وحاول «الهادى» نقل ولاية العهد من أخيه «الرشيد» إلى ابنه «جعفر»، الذى لم يكن قد بلغ الثامنة من عمره مخالفاً وصية والده في ترتيب ولاية العهد، إلا أن الموت عاجله فلم يتحقق له ما أراد. تُوفى «الهادى» ليلة الجمعة، (نصف ربيع الأول سنة 170هـ = نصف أغسطس 786م) وبذلك تكون مدة خلافته سنة وشهراً واثنين وعشرين يوماً.

(42/10)

---

### \*هارون الرشيد

هو «هارون بن محمد المهدي»، وُلد بالرى في آخر (ذى الحجة سنة 145هـ = فبراير سنة 763م)، وتولى الخلافة في الليلة التى مات فيها أخوه «الهادى» وعمره اثنان وعشرون عاماً. ويُعدُّ

«الرشيد» أشهر خلفاء العباسيين وأبعدهم صيتاً، فقد ملأت أخباره كتب التاريخ شرقاً وغرباً. اهتم «الرشيد» بإقامة العدل في الناس، فأمر بإعادة الأراضي التي اغتصبها أهل بيته في عهد الخلفاء السابقين إلى أصحابها، ورفع الظلم عن المسجونين ظلماً، وقسم أموال ذوى القربى بين «بنى هاشم» كلهم بالعدل، وأصدر عفواً عن المعتقلين السياسيين، فأخرج من كان في السجن من العلويين، وسمح لهم بالعودة إلى «المدينة»، ومنحهم الرواتب، كما أجرى «الرشيد» تعديلات واسعة في مناصب الدولة في كل من «مكة» و «المدينة» و «الطائف» و «الكوفة» و «خراسان» و «أرمينية» و «الموصل». تمتع البرامكة في بداية عهد «الرشيد» بالسلطة والجاه والنفوذ، وتقلدوا مناصب الدولة المهمة، حتى إذا جاء شهر (صفر سنة 187هـ = يناير سنة 803م) أمر «الرشيد» بسجنهم، ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم، فيما عرف في التاريخ بنكبة البرامكة. ازدهر المجتمع في عهد «الرشيد» اقتصادياً وثقافياً وعلمياً وعمرانياً، فقد تدفقت الأموال من كل مكان، واتسعت رقعة الدولة واستقر الأمن بها وازدهرت التجارة، وأصبحت «بغداد» قبلة للطامحين في الثراء والترف، كما قصدها النوابغ والعباقرة والصناع المهرة من سائر الشعوب، وشيدت فيها القصور الرائعة والمساجد الكبيرة، وانتشرت الحدائق العامة، والأسواق المتخصصة كسوق الذهب والنحاس، والنسيج وغير ذلك. وكان «الرشيد» على قدر عالٍ من الثقافة والمعرفة، واجتمع عنده أقطاب العلم والعمل والسياسة والحرب مثل: «أبي يوسف» تلميذ الإمام «أبي حنيفة»، و «الأصمعي» الراوية المشهور، و «أبي العتاهية» و «أبي نواس» من الشعراء، وداهية السياسة «يحيى البرمكي» وابنيه «الفضل» و «جعفر»، ومن المغنين «إبراهيم

---

الموصلى» وابنه «إسحاق»، ومن الموسيقين «زلزل»  
و «برصوم»، وغيرهم من أمراء العباسيين القادة والخطباء  
والشعراء والساسة. أثناء سفر «الرشيد» من «بغداد» إلى  
«خراسان» اشتد المرض عليه، وتوفي صباح يوم الجمعة (2 من  
جمادى الآخرة سنة 193هـ = 23 من مارس سنة 809م)، وعمره  
خمس وأربعون سنة. وقد حكم «الرشيد» البلاد ثلاثة وعشرين  
عامًا، بلغت فيها «الدولة العباسية» ذروة مجدها، وقد تحدث  
عنه كثير من المؤرخين، فقال عنه «الطبرى»: «غزا سبع مرات،  
وجhez عشرين حملة للجهاد في البر والبحر». وقال عنه «ابن  
خلكان»: «حج في خلافته تسع حجج، وكان يصلى في اليوم  
مائة ركعة».

(44/10)

#### \*محمد الأمين

هو «محمد بن هارون الرشيد»، وُلد بالرصافة وأمه «زبيدة» ابنة  
«جعفر الأكبر بن المنصور»، تولى الخلافة عقب وفاة أبيه  
«هارون الرشيد» باعتباره ولى عهده، وكان عمره حينئذٍ ثمانية  
وعشرين عامًا. تشير مصادر التاريخ إلى أن بداية الخلاف بينه  
وبين أخيه المأمون كانت من جانب «الأمين»، حين خالف أمر  
والده «الرشيد» في مرضه، بأن يكون ما في معسكره من  
أموال ومتاع وجند لأخيه «المأمون»، في «مرو»؛ مما أحدث أثرًا  
سيئًا في نفس «المأمون». وكانت الخطوة التالية قيام «الأمين»  
بتعيين ابنه «موسى» وليا للعهد بدلاً من أخويه «المأمون»  
و «المؤمن»، فقام «المأمون» بإسقاط اسم «الأمين» من الطرز  
والسكة، ومنع البريد من الوصول إليه بأخبار «خراسان»، ثم

طلب من أخيه «الأمين» أن يرد إليه مائة ألف دينار كان والده «الرشيد» قد أوصى بها إليه فرفض «الأمين»، ثم تطور الصراع بينهما إلى المواجهة العسكرية، فجهز «الأمين» جيشًا بقيادة «علي بن عيسى بن ماهان»، وجهَّز «المأمون» جيشًا ضخماً بقيادة «طاهر بن الحسين»، ودارت عدة معارك بين الجيشين انتهت بمحاصرة «بغداد» ومقتل «الأمين» سنة (198هـ = 813م)، وقد دامت خلافة «الأمين» أربع سنوات وثمانية أشهر وخمسة أيام.

(45/10)

#### \*الأمين بن هارون الرشيد

هو محمد بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن المنصور، أبو عبدالله أو أبو موسى، سادس خلفاء الدولة العباسية. ولد ببغداد في شوال سنة (170 هـ = 786 م) وتلقى تعليمه في صغره على الكسائي العالم اللغوي وقرأ عليه القرآن. وكان الأمين حسن الصورة، وشجاعاً، وفصيحاً. وفي سنة (175 هـ = 791 م) قسم أبوه الرشيد الدولة بينه وبين أخيه المأمون ثم أوصى له بالخلافة من بعده. فلما توفي الرشيد سنة (193 هـ = 809 م) بويع للأمين بالخلافة، ولم يكن الأمين والمأمون على وفاق في حياة أبيهما، فلما مات الرشيد ساءت العلاقة بينهما، وقد شجع على ذلك الوزير الفضل بن الربيع وزير الأمين، وتفاقم الأمر حتى إن الأمين أعدَّ جيشاً بقيادة قائده علي بن عيسى وأمره بالتوجه إلى خراسان والياً عليها، وعزل أخيه المأمون، ولكن هذا الجيش هزم، وقتل علي بن عيسى وأرسل الأمين أكثر من جيش كان مصيرهم الهزيمة أمام جيش المأمون حتى خلعت أكثر الأقاليم طاعتها له وبايعت المأمون بالخلافة فأرسل المأمون

قائده طاهر بن الحسين فاستولى على بغداد، وهرب منها الأمين  
ولكن بعض العجم لحقوا به وقتلوه في صفر سنة (198 هـ = 813  
م).

(46/10)

### \*المأمون

هو «عبدالله بن هارون الرشيد»، وُلد في منتصف (ربيع الأول  
سنة (170هـ = أغسطس سنة 786م) وأمه «أم ولد» فارسية تُسمّى  
«مراجل»، وكان يكنى «أبا العباس»، ويُلقب بالمأمون. نشأ  
«المأمون» نشأة إسلامية، وتلقى العلوم العربية، وتدرَّب على  
فنون القتال والنزال وقيادة الجند، كما أسند والده «الرشيد»  
إلى وزيره «جعفر البرمكي» مهمة الإشراف على تنشئته، وقد  
أظهر المأمون نبوغًا خلال دراسته. ولما تولى «المأمون»  
الخلافة عزم أن يقدم القدوة الصالحة والسيرة الحسنة في الناس  
حتى يقتدى به رجال دولته، وكان يقول: «أول العدل أن يعدل  
الملك في بطانته، ثم الذين يلونهم، حتى يبلغ إلى الطبقة  
السفلى». كما اتصف «المأمون» بالعمو والحلم حتى اشتهر بذلك  
وهو القائل: «لو عرف الناس حبي للعمو لتقربوا إلىّ بالجرائم،  
وأخاف ألا أوجر عليه»، يعنى لكونه طبعًا له يستلذ به. انتهج  
«المأمون» سياسة واعية تقوم على أسس واضحة منها: 1 -  
تأليف القلوب بالعمو والعطاء، وقد عد «اليعقوبي» سبع عشرة  
حادثة يستحق صاحب كل واحدة منها القتل عند أمثال  
«المنصور»، لكنها قوبلت عند «المأمون» بالعمو. 2 - العناية  
بالعلم والعلماء: كان للمأمون ولع بالأمور العلمية والفلسفية،  
فكان يعقد مجالس المناظرة ويبعث في طلب العلماء والأعلام من  
«بيزنطة» لحضورها، وكان يتصيّد الكتب النادرة ويدفع فيها

المبالغ الطائلة، ويجعل حصوله عليها شرطاً من شروط الهدنة ووقف القتال مع الروم، كما أقام «بيت الحكمة» وجعل فيها مكتبة ضخمة، وجهازاً كبيراً للترجمة من مختلف اللغات إلى اللغة العربية، حشد له نحو سبعين مترجماً. ظل «المأمون» خليفة للمسلمين عشرين سنة وخمسة أشهر وعشرين يوماً، وقد تُوفّي في (18 من رجب سنة 218هـ = 833م).

(47/10)

### \*المعتصم بالله

هو «محمد بن هارون الرشيد»، وُلد في (شعبان سنة 180هـ = أكتوبر سنة 796م)، وأمه جارية تركية اسمها «مارده»، وقد تولى الخلافة عقب وفاة أخيه «المأمون». اختلفت الأوضاع السياسية في عهد «المعتصم» عنها في عهد من سبقه، بسبب ظهور عوامل جديدة على مسرح الأحداث، كان في مقدمتها ظهور العنصر التركي قوة مؤثرة في حركة الأحداث؛ فتمتع الأتراك بصفات عسكرية كالشدة والقوة والتحمل جعل «المعتصم» يستكثر منهم، يضاف إلى ذلك أن أمه تركية. إلا أن كثرة الأتراك سببت أضراراً كبيرة لسكان «بغداد»، مما دفع «المعتصم» إلى البحث عن مكان جديد يكون عاصمة له فوق الاختيار على المكان الذي بنيت عليه مدينة «سُرّ من رأى» (سامراء حالياً) التي بُدء البناء فيها سنة (221هـ = 836م)، ويتميز موقعها بميزات سياسية واقتصادية وعسكرية، فمن الناحية السياسية فإنها في موقع متوسط يسهل الاتصال بأجزاء الدولة، ومن الناحية الاقتصادية فإن موقعها يسهل عمليات التبادل التجاري بين النواحي الشمالية والجنوبية، وعسكرياً فإن إحاطة المياه بها يجعلها في مأمن من أي عدوان خارجي.

ومن الأعمال العظيمة التي تنسب إلى «المعتصم بالله» نجاحه في القضاء على ثورة «بابك الحرمي»، فحينما تولى أمر البلاد جهز جيشاً بقيادة «الأفشين» وزوّده بكل أدوات القتال وبالمال اللازم؛ حيث دارت عدة معارك، انتهت بالقبض على «بابك الحرمي» وإعدامه. تُوفى «المعتصم بالله» في شهر (ربيع الأول سنة 227هـ = ديسمبر سنة 841م)، وقد أطلق عليه بعض المؤرخين «المُثمن»، لأن خلافته دامت ثمانين سنة وثمانية أشهر ويومين، ومولده في الشهر الثامن من العام الهجري، ومات عن ثمانية بنين وثمانى بنات.

(48/10)

#### \*الواثق بالله

هو «هارون بن المعتصم بالله»، يكنى «أبا جعفر» وأمه أم ولد رومية تُسمى «قراطيس»، وكان فطناً لبيباً فصيحاً ينظم الشعر ويجب الموسيقى وقد تولى «الواثق بالله» الحكم يوم وفاة والده «المعتصم». تظهر ملامح سياسة الواثق فيما يلي: أولاً: تمسكه بمذهب المعتزلة، حتى جعله المذهب الرسمي للدولة، مما أثار أهل السنة ضده، إلا أنه تصدى لهم وقبض على زعمائهم. ثانياً: تقريبه للأتراك جرياً على سياسة والده «المعتصم»، حتى إنه قسم البلاد بين رجلين من الأتراك، الأول «أشناس» وأعطاه الشطر الغربي من الدولة إلى آخر بلاد «المغرب»، والثاني قائده «إيتاخ» وأعطاه الشطر الشرقي: «دجلة» و «فارس» و «السند»، وكان كل منهما يعين الولاة الذين يريدهم، هذا بالإضافة إلى عدد من القادة الأتراك الذين شغلوا مناصب خطيرة، مثل: «وصيف التركي» الذي أوكل إليه «الواثق» القضاء على ثورة المتمردين الأكراد، و «بغا الكبير» الذي أحمده ثورة الأعراب بنواحي

«المدينة». وكان الواثق يصدق عليهم الأموال والهدايا. ثالثاً:  
مصادرة أموال كبار الموظفين، مثل «أحمد بن إسرائيل»، الذى  
أخذ منه ثمانين ألف دينار، و «سليمان بن وهب» كاتب «إيتاخ»،  
الذى أخذ منه أربعمئة ألف دينار، وغيرهما، مما ترك آثاراً  
سيئة فى الجهاز الإدارى والاستقرار المالى للدولة، وأصابهما  
بالفساد والخلل. رابعاً: إحسانه إلى بعض طوائف الأمة، وفى  
مقدمتهم العلويون حيث أغدق عليهم الأموال. استمر «الواثق»  
فى مقعد الخلافة خمس سنين وتسعة أشهر، ثم أصيب بمرض  
الاستسقاء، ومات فى (ذى الحجة سنة 232هـ = يوليو سنة  
847م)، وعمره اثنان وثلاثون عاماً، وقيل: ستة وثلاثون.

(49/10)

### \* المتوكل على الله

هو جعفر بن المعتصم بالله، تولى الخلافة فى ذى الحجة سنة  
(232هـ = 847م)، وكان عهده بداية حقبة الضعف والتدهور،  
وتفكك بنى الخلافة العباسية. ورغم أن «المتوكل»: كان قوى  
الشخصية، وافر الهيبة فإنه لم يستطع أن يضع حداً لاستفحال  
النفوذ التركى فى عهده، الذى كان له دور فى توليته الخلافة  
بعد أن كادت البيعة تتم لمحمد بن الواثق، وكان غلاماً. وقد نجح  
«المتوكل» فى البداية فى التخلص من أخطر العناصر التركبية  
فى عهده، وهو «إيتاخ» الذى استفحل خطره حتى إنه همَّ يوماً  
بقتل الخليفة «المتوكل» حين تبسَّط معه فى المزاح، لكن الخليفة  
نجح فى التخلص منه سنة (235هـ = 849م)، كما عزم على التخلص  
من قادة الأتراك ووجههم، مثل «وصيف» و «بُغا»، إلا أنهم  
استغلوا ما بينه وبين ابنه وولى عهده «محمد المنتصر» من خلاف  
وجفوة ودبروا مؤامرة انتهت بقتل «المتوكل» ووزيره «الفتح بن

خاقان» في الخامس من شوال سنة (247هـ = 861م)، وبايعوا ابنه «المنتصر» خليفة. وقد استطاع «المتوكل» في عهده أن يظفر بمكانة عظيمة في قلوب جماهير المسلمين، حين منع النقاش في القضايا الجدلية التي آثاها المعتزلة، مثل قضية خلق القرآن، كما رد للإمام «أحمد بن حنبل» اعتباره وجعله من المقربين إليه، بعد أن اضطهد في عهد «المأمون» و «المعتصم» و «الواثق»؛ لعدم إقراره القول بخلق القرآن، كما أمر «المتوكل» الفقهاء والمحدثين أن يجلسوا للناس ويحدثوهم بالأحاديث التي فيها رد على المعتزلة فأثنى الناس عليه، حتى قالوا: الخلفاء ثلاثة: «أبو بكر الصديق» قاتل أهل الردة حتى استجابوا له، و «عمر بن عبدالعزيز» رد مظالم «بنى أمية»، و «المتوكل» محاسب البدع وأظهر السنة.

(50/10)

### \*جعفر بن المعتصم بالله

هو جعفر بن المعتصم بالله، تولى الخلافة في ذى الحجة سنة (232هـ = 847م)، وكان عهده بداية حقبة الضعف والتدهور، وتفكك بنيان الخلافة العباسية. ورغم أن «المتوكل»: كان قوى الشخصية، وافر الهيبة فإنه لم يستطع أن يضع حدا لاستفحال النفوذ التركي في عهده، الذي كان له دور في توليته الخلافة بعد أن كادت البيعة تتم لمحمد بن الواثق، وكان غلامًا. وقد نجح «المتوكل» في البداية في التخلص من أخطر العناصر التركبة في عهده، وهو «إيتاخ» الذي استفحل خطره حتى إنه همَّ يومًا بقتل الخليفة «المتوكل» حين تبسَّط معه في المزاح، لكن الخليفة نجح في التخلص منه سنة (235هـ = 849م)، كما عزم على التخلص من قادة الأتراك ووجوههم، مثل «وصيف» و «بُغا»، إلا أنهم

استغلوا ما بينه وبين ابنه وولى عهده «محمد المنتصر» من خلاف وجفوة ودبروا مؤامرة انتهت بقتل «المتوكل» ووزيره «الفتح بن خاقان» في الخامس من شوال سنة (247هـ = 861م)، وبايعوا ابنه «المنتصر» خليفة. وقد استطاع «المتوكل» في عهده أن يظفر بمكانة عظيمة في قلوب جماهير المسلمين، حين منع النقاش في القضايا الجدلية التي آثارها المعتزلة، مثل قضية خلق القرآن، كما رد للإمام «أحمد بن حنبل» اعتباره وجعله من المقربين إليه، بعد أن اضطهد في عهد «المأمون» و «المعتصم» و «الواثق»؛ لعدم إقراره القول بخلق القرآن، كما أمر «المتوكل» الفقهاء والمحدثين أن يجلسوا للناس ويحدثوهم بالأحاديث التي فيها رد على المعتزلة فأنى الناس عليه، حتى قالوا: الخلفاء ثلاثة: «أبو بكر الصديق» قاتل أهل الردة حتى استجابوا له، و «عمر بن عبدالعزيز» رد مظالم «بني أمية»، و «المتوكل» محابدة البدع وأظهر السنة.

(51/10)

### \*المنتصر بالله

هو محمد بن المتوكل على الله جعفر بن المعتصم، تولى الخلافة العباسية في اليوم الذي قُتل فيه أبوه، وذلك في شوال سنة (247هـ = ديسمبر سنة 861م)، وعمره سنة وعشرون عامًا. وحاول التصدي للنفوذ التركي بكل حزم، وصار يسب الأتراك ويقول: هؤلاء قتلة الخلفاء! ورغم أن «المنتصر بالله» كان وافر العقل قوى الشخصية فإن الأتراك احتالوا على قتله، فأعطوا طبيبه «ابن طيفور» ثلاثين ألف دينار، ففصده بمبضع مسموم فمات، في (ربيع الآخر سنة 248هـ = يونيو سنة 862م) بعد حكم دام سنة أشهر فقط، ويروى أنه حينما احتضر، قال لأمه: «يا أماه!

ذهبت منى الدنيا والآخرة، عاجلت أبا فعوجلت». ومن مآثر  
«المنتصر بالله»، خلال فترة حكمه القصيرة، إحسانه إلى  
العلويين، وإزالته عنهم ما كانوا فيه من خوف وضيق في عهد  
أبيه «المتوكل».

(52/10)

---

### \*محمد بن المتوكل

هو محمد بن المتوكل على الله جعفر بن المعتصم، تولى الخلافة  
العباسية في اليوم الذي قُتل فيه أبوه، وذلك في شوال سنة  
(247هـ = ديسمبر سنة 861م)، وعمره ستة وعشرون عامًا. وحاول  
التصدي للنفوذ التركي بكل حزم، وصار يسب الأتراك ويقول:  
هؤلاء قتلة الخلفاء! ورغم أن «المنتصر بالله» كان وافر العقل  
قوى الشخصية فإن الأتراك احتالوا على قتله، فأعطوا طبيبه  
«ابن طيفور» ثلاثين ألف دينار، ففصده بمبضع مسموم فمات،  
في (ربيع الآخر سنة 248هـ = يونيو سنة 862م) بعد حكم دام ستة  
أشهر فقط، ويروى أنه حينما احتضر، قال لأمه: «يا أماه!  
ذهبت منى الدنيا والآخرة، عاجلت أبا فعوجلت». ومن مآثر  
«المنتصر بالله»، خلال فترة حكمه القصيرة، إحسانه إلى  
العلويين، وإزالته عنهم ما كانوا فيه من خوف وضيق في عهد  
أبيه «المتوكل».

(53/10)

---

### \*المستعين بالله

هو «أحمد بن المعتصم»، تولى الخلافة في السادس من (ربيع  
الآخر سنة 248هـ = يونيو سنة 862م)، وعمره ثمانٍ وعشرون

سنة، فعقب وفاة «المنتصر» اجتمع الأتراك بزعامة «يُغا الصغير» و «يُغا الكبير»، وقرروا عدم تولية أحد من أولاد «المتوكل» الخلافة، خوفاً من انتقامه منهم، وبايعوا «أحمد بن المعتصم»، الملقب بالمستعين بالله. وكان من الطبيعي ألا يكون للمستعين بالله مع الأتراك أمر ولا نهي، ولم يمض وقت طويل حتى غضب عليه الأتراك وقرروا خلعه ومبايعة «المعتز بالله محمد بن المتوكل»؛ فاشتعلت الحرب بين أنصار «المستعين» وأنصار «المعتز»، وانتهت بالقبض على «المستعين» وقتله في سجنه في (شوال سنة 252هـ = ديسمبر سنة 866م). وقد شهدت خلافة «المستعين بالله» قيام «الدولة العلوية» بطبرستان سنة (250هـ = 864م)، على يد «الحسن بن زيد العلوي» الملقب بالداعي الكبير، واستمرت هذه الدولة حتى سنة (316هـ = 928م).

(54/10)

### \*المعتز بالله محمد بن المتوكل

هو محمد بن المتوكل على الله، بويغ له بالخلافة العباسية في شوال سنة (252هـ = ديسمبر سنة 866م)، وعمره تسعة عشر عاماً، وكان من أهم الأحداث التي شهدتها خلافة «المعتز» قيام «الدولة الصفارية» في «فارس» بزعامة «يعقوب بن الليث الصفار» وذهاب «أحمد بن طولون» إلى «مصر» سنة (254هـ = 868م) نائباً عن واليها، لكنه استطاع في فترة لاحقة أن يستقل بها عن العباسيين، وأن يضم إليها «الشام» مكوناً بذلك «الدولة الطولونية» في «مصر» و «الشام». وقد استضعفه الأتراك وطلبوا منه مالاً فاعتذر لهم بفراغ بيت المال، فثاروا عليه وضربوه ومزقوا ملابسه، وأقاموه في الشمس، فكان يرفع رجلاً ويضع

أخرى من شدة الحر، ثم سجنوه وعذبوه حتى مات (في شعبان سنة 255هـ = يوليو سنة 869م).

(55/10)

---

### \*المهتدى بالله محمد بن الواثق

هو محمد بن الواثق بن المعتصم، بايعه الأتراك خليفة للمسلمين في (رجب سنة 255هـ = يونيو سنة 869م)، عقب الإطاحة بالمعتز، وقد كان «المهتدى» تقياً شجاعاً حازماً، وكان يتخذ «عمر بن عبدالعزيز» مثله الأعلى، ويقول: إني أستحي أن يكون في «بني أمية» مثله، ولا يكون مثله في «بني العباس»، ولذلك نبذ الملاهي وحرّم الغناء والخمر وحارب الظلم. وقد كان من أهم الأحداث التي شهدتها عصر «المهتدى بالله» ثورة الرّنج وسميت بذلك لأن أعداداً كبيرة من الذين شاركوا فيها كانوا عبيداً سوداً. حاول «المهتدى بالله» أن يوقف طغيان الأتراك واستبدادهم فقتل بعضهم، فثاروا عليه وأسروه وعذبوه ليخلع نفسه فرفض، فقاموا بخلعه وسجنه وتعذيبه حتى مات في (رجب سنة 256هـ = يونيو 870م).

(56/10)

---

### \*المعتمد على الله

هو «المعتمد على الله» أحمد بن المتوكل، تولى الخلافة بعد خلع «المهتدى» سنة (256هـ = 870م)، وقد أتاحت الظروف التي تولى فيها «المعتمد» مقاليد الحكم ظهور ما عُرف باسم «صحوة الخلافة» في «العصر العباسي الثاني». فقد تصاعد النزاع الداخلي بين القادة الأتراك، وساءت معاملتهم لجنودهم، كما

ازدادت شكوى الجمهور من مضايقاتهم، مما أدى إلى ظهور اتجاه قوى داخل الجيش بحتمية جعل القيادة العسكرية العليا في يد أحد أمراء البيت العباسي؛ يقوم الخليفة باختياره، ويدين له الجميع بالطاعة، وقد اختار «المعتمد» أخاه «الموفق» قائداً للجيش، فكانت «صحوة الخلافة»؛ حيث استردت قوتها وهيبتها واستطاع «الموفق» بحكمته وحزمه وصلابة إرادته أن يكبح جماح الأتراك، وأن يعيد تنظيم الجيش، ويقر الأمن والنظام. ورغم أن «المعتمد بالله» كان الخليفة الرسمي فإن أخاه «الموفق» كان صاحب السلطة الفعلية، فكان له الأمر والنهي، وقيادة الجيش ومحاربة الأعداء، ومرابطة الثغور، وتعيين الوزراء والأمراء، وكان قضاء «الموفق» على «ثورة الزنج» سنة (270هـ = 883م) أعظم إنجاز له. وقد تُوِّفِّي «الموفق» في (صفر سنة 278هـ = مايو سنة 891م)، وفي العام التالي تُوِّفِّي الخليفة «المعتمد» في (رجب سنة 279هـ = سبتمبر سنة 892م)، بعد أن حكم البلاد ثلاثة وعشرين عاماً. وقد حفل عهده بالعلماء الأعلام في مجالات المعرفة المختلفة.

(57/10)

### \*أحمد بن المتوكل بن المعتصم

هو «المعتمد على الله» أحمد بن المتوكل، تولى الخلافة بعد خلع «المهتدي» سنة (256هـ = 870م)، وقد أتاحت الظروف التي تولى فيها «المعتمد» مقاليد الحكم ظهور ما عُرف باسم «صحوة الخلافة» في «العصر العباسي الثاني». فقد تصاعد النزاع الداخلي بين القادة الأتراك، وساءت معاملتهم لجنودهم، كما ازدادت شكوى الجمهور من مضايقاتهم، مما أدى إلى ظهور اتجاه قوى داخل الجيش بحتمية جعل القيادة العسكرية العليا

في يد أحد أمراء البيت العباسي؛ يقوم الخليفة باختباره، ويدين له الجميع بالطاعة، وقد اختار «المعتمد» أخاه «الموفق» قائدًا للجيش، فكانت «صحوة الخلافة»؛ حيث استردت قوتها وهيبتها واستطاع «الموفق» بحكمته وحزمه وصلابة إرادته أن يكبح جماح الأتراك، وأن يعيد تنظيم الجيش، ويقر الأمن والنظام. ورغم أن «المعتمد بالله» كان الخليفة الرسمي فإن أخاه «الموفق» كان صاحب السلطة الفعلية، فكان له الأمر والنهي، وقيادة الجيش ومحاربة الأعداء، ومرابطة الثغور، وتعيين الوزراء والأمراء، وكان قضاء «الموفق» على «ثورة الزنج» سنة (270هـ = 883م) أعظم إنجاز له. وقد تُوِّق «الموفق» في (صفر سنة 278هـ = مايو سنة 891م)، وفي العام التالي تُوِّق الخليفة «المعتمد» في (رجب سنة 279هـ = سبتمبر سنة 892م)، بعد أن حكم البلاد ثلاثة وعشرين عامًا. وقد حفل عهده بالعلماء الأعلام في مجالات المعرفة المختلفة.

(58/10)

#### \*المعتضد بالله

هو أبو العباس أحمد بن الموفق طلحة بن المتوكل، تولى الخلافة بعد وفاة عمه «المعتمد»، وكان قوى الشخصية؛ فحفظ هيبة الخلافة، كما كانت في عهد أبيه «الموفق» وعمه «المعتمد»، يقول «السيوطي»: كان «المعتضد» شهماً جلدًا، موصوفًا بالرجلة (أى الشجاعة)، وقد خاض الحروب وغُرف فضله، فقام بالأمر أحسن قيام، وهابه الناس ورهبوه أحسن رهبة، وسكنت الفتن في أيامه لفرط هيئته، وكانت أيامه طيبة كثيرة الأمن والرخاء. وقد تمكن «المعتضد» خلال حكمه الذى دام عشر سنوات من تهيئة المزيد من القوة والاستقرار للدولة العباسية، ففضى على

مصادر الفتن والثورات، وأحمد ثورة «بني شيبان» بأرض  
الجزيرة سنة (280هـ = 893م)، وثورة «حمدان بن حمدون» - رأس  
الأسرة الحمدانية - بالموصل، واستولى على قلعة «ماردين»  
التي كان يتحصن بها سنة (281هـ = 894م)، كما قضى على ثورة  
الخوارج في «الموصل» بزعامه «هارون بن عبدالله الشاربي»  
الذي وقع في الأسر، وأمر «المعتضد» بضرب عنقه سنة  
(283هـ = 896م)، ومن أخطر الحركات التي شهدتها عصر  
«المعتضد» حركة القرامطة. كذلك انتقلت عاصمة الخلافة في  
عهده من سامراء إلى بغداد. تُوفِّي «المعتضد» في ربيع الآخر  
سنة (289هـ = 902م)، وكان عصره يموج بالحركة العلمية والدينية  
والأدبية، فقد عاش في عصره عدد من العلماء والأدباء البارزين.

(59/10)

### \*المكتفى بالله

هو أبو محمد علي بن المعتضد، تولى الخلافة في (ربيع الآخر  
سنة 289هـ = مارس سنة 902م) عقب وفاة أبيه، وعمره خمس  
وعشرون سنة، ورغم أنه كان حسن السيرة محبوباً لدى الرعية  
فإنه لم يكن يتمتع بما كان يتمتع به أبوه «المعتضد»، من قوة  
الشخصية والحزم، فكانت خلافته تمهيداً لعودة الأمور إلى  
أوضاعها السابقة، وفترة انتقالية بين «صحوة الخلافة»  
وانتكاستها. وقد شهد عهد «المكتفى» أحداثاً كثيرة، منها:  
ازدياد خطر القرامطة وتهديدهم للشام و «الحجاز» و «اليمن»، وقد  
جرت على يد زعيمهم «زكرويه بن مهرويه» مذابح بشعة ضد  
حجاج بيت الله الحرام وعمامة الناس، ونشروا الفزع في أنحاء  
العالم الإسلامي، واستطاع «زكرويه» أن يهزم جيشاً للخليفة  
«المكتفى»، وأن يقتل منه عددًا كبيراً، فأعد له «المكتفى»

جيشًا حشد فيه أكفأ القواد، نجح في قتل «زكرويه» وكثيراً من أتباعه عام (294هـ = 907م)، وتبعهم في «العراق»، ولكنه لم يستطع القضاء عليهم تمامًا، فظلوا من بعده مصدر خطر مؤكد على كيان الخلافة. ومما شهدته عصر «المكتفي» أيضًا من أحداث: تولية «المكتفي» «أبي الهيجاء عبدالله بن حمدان النغلي» ولاية «الموصل» والبلاد التابعة لها سنة (293هـ = 906م)، وكان ذلك مقدمة لاستقلال الحمدانيين بالموصل - فيما بعد - وضمهم «حلب» إليها، ونشأة «الأسرة الحمدانية». تُوفّي «المكتفي» وفاة طبيعية في (ذى القعدة سنة 295هـ = أغسطس سنة 908م)، وترك خزانة الدولة ممتلئة بالأموال، وقد أرجع المؤرخون ذلك إلى الجهد الذي بذله أبوه «المعتضد» في جلب أسباب الاستقرار الاقتصادي إلى الدولة، وحسن سيرة «المكتفي بالله».

(60/10)

### \*المقتدر بالله

هو أبو الفضل جعفر بن المعتضد، تولى الخلافة بعد أخيه «المكتفي» بعهد منه في (ذى القعدة سنة 295هـ = أغسطس سنة 908م)، وكان صبيا في الثالثة عشرة من عمره، ولم يل الخلافة قبله أصغر منه. أثار تولى «المقتدر» الخلافة اعتراض كثير من رجال الدولة بسبب صغر سنه، وعدم قدرته على الاضطلاع بشئون الخلافة مع وجود الأقدار منه على تحمل المسؤولية، خاصة «عبد الله بن المعتز» الشاعر المعروف بتمام العقل وجوده الرأى، فاتفق رأى عدد منهم على خلع «المقتدر» وتولية «عبدالله بن المعتز»، وكان عمره نحو تسعة وأربعين عامًا، وعندما عرضوا الأمر على «ابن المعتز» وافق بشرط ألا يسفك دم

أو تنشب حرب، فأخبروه أن الأمر يُسلم إليه عفوًا، وأن جميع من وراءهم من الجند والقواد والكتّاب قد رضوا به فبايعهم على ذلك، وتمت البيعة لابن المعتز في (19 من ربيع الأول سنة 296هـ = نوفمبر سنة 908م)، ولقب بالراضى بالله، ولكن أنصار «المقتدر» - وعلى رأسهم «مؤنس الخادم» - لم يرضوا بهذه البيعة، وتوجهوا نحو «ابن المعتز» وأنصاره وقبضوا عليهم وقتلوا بهم وأعادوا تنصيب «المقتدر» في اليوم التالي لبيعة «ابن المعتز»، الذى لم يمكث في الخلافة إلا يومًا أو بعض يوم، ولهذا يتجاهله المؤرخون عند ذكرهم قائمة خلفاء «بنى العباس». وقد تدهورت الأوضاع في عهد «المقتدر»، وانتشرت الفتن وازداد تمزق الدولة، وأصبحت الخلافة نهبًا للطامعين بسبب صغر سنه، وأفلت زمام الأمور من يده، وتحكم النساء والخدم في شئون البلاد، فكانت «أم المقتدر» وتسمى «شغب» تولّى من تشاء وتعزل من تشاء، كما كان «مؤنس الخادم» صاحب مكانة متميزة وخطيرة في عهد «المقتدر». وقد ازداد خطر القرامطة اتساعًا وعنقًا في عهد «المقتدر»، ووصل مداه سنة (317هـ = 929م)، حينما دخلوا «مكة» بقيادة «أبي طاهر القرمطى» (3) وقتلوا الحجاج في المسجد الحرام، واستولوا على الحجر الأسود وأخذوه إلى

(61/10)

---

مركزهم الرئيسى «هجر» حتى تم رده إلى مكانه في عهد «المطيع» سنة (339هـ = 950م). ومن أهم الأحداث في عهد «المقتدر» بداية ظهور الغبيديين أو الفاطميين في «شمال إفريقيا» وقيام دولة «بنى حمدان» في «الموصل» وقد أسهم أمراء «بنى حمدان» وفي مقدمتهم «سيف الدولة الحمداني» في صد غارات الروم (البيزنطيين) عن مناطق الثغور الإسلامية، وفي

رعاية الحركة العلمية والأدبية التي بلغت في عهدهم مركزاً مرموقاً. ساءت العلاقة بين «المقتدر بالله» وخادمه «مؤنس الخادم»؛ مما أدى إلى مقتله على يد أنصار «مؤنس» في أواخر شوال سنة (320هـ = 932م)، بعد أن ظل في الحكم خمساً وعشرين سنة، هي أطول مدة يقضيها خليفة عباسي في الحكم حتى عصره. ورغم تدهور أحوال البلاد السياسية في عهد «المقتدر» فإن الحياة العلمية قد شهدت ازدهاراً ملحوظاً في هذا العصر. وبمقتل «المقتدر» دخل عصر نفوذ الأتراك مراحلها الأخيرة.

(62/10)

#### \* القاهر بالله

هو أبو منصور محمد بن المعتضد، تولى الخلافة في شوال سنة (320هـ = 932م)، عقب مقتل «المقتدر»، وعمره ثلاث وثلاثون سنة. وقد اتصف «القاهر» بالغلظة وقلة الثبوت، ورغم أنه نجح في التخلص من «مؤنس الخادم»، صاحب النفوذ الأكبر في عهد «المقتدر»، ومن غيره من أعيان الدولة فإن سوء سياسته كان سبباً في تدبير الانقلاب عليه والإطاحة به. وقد لعب الوزير المشهور «أبو علي بن مقله» الدور الأساسي في خلع «القاهر» والتنكيل به، لخوفه منه واعتقاده أنه كان يدبر للقضاء عليه، فهاجم أعوانه الخليفة «القاهر» في دار الخلافة وقبضوا عليه وسلموا عينيه وعذبوه وأعلنوا خلعهم في الثالث من جمادى الأولى سنة (322هـ = 934م). ولعل من أبرز التطورات السياسية التي شهدتها عهد «القاهر» - رغم قصره - ظهور النفوذ البويهى في بلاد فارس سنة (321هـ = 933م)، وكان ذلك مقدمة لامتداد نفوذهم إلى «العراق» وسيطرتهم على مقاليد الأمور هناك في

سنة (334هـ = 945م)، لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ الخلافة العباسية في عصرها الثاني، كما سنبيين بعد قليل.

(63/10)

### \*الراضى بالله

هو أبو العباس محمد بن المقتدر، بايع الجند «الراضى بالله» في السادس من جمادى الأولى سنة (322هـ) وعمره خمسة وعشرون عامًا، وقد كان من خيار الخلفاء، فاضلاً سمحاً جواداً، شاعراً محباً للعلماء. ورغم ما كان يتحلى به «الراضى» من صفات حميدة فإن أمر الخلافة قد اختل في عهده اختلالاً خطيراً، وازداد تمزق الدولة واستفحل نفوذ المتطلعين للسيطرة على زمام الأمور؛ فقد ازداد نفوذ البويهيين في فارس وتطلعوا للاستيلاء على «العراق»، وتمتع «بنو حمدان» بنفوذ مطلق في «الموصل» و «ديار بكر» و «ربيعة» و «مضر»، واستقلت «الدولة الإخشيدية» في «مصر» و «الشام» عن الخلافة العباسية، وكذلك «الدولة السامانية» في «خراسان» و «ما وراء النهر» بزعامة «نصر بن أحمد الساماني»، وأصبح للأمويين خلافة مستقلة في «الأندلس» تحت حكم «عبد الرحمن الثالث» الأموى الملقب بالناصر (300 - 350هـ = 913 - 961م)، وسيطر القرامطة بزعامة «أبي طاهر القرمطى» (5) على «البحرين» و «اليمامة». وتدهورت الأوضاع في أوائل عهد «الراضى» تدهوراً كبيراً، بسبب عجز الوزراء وازدياد نفوذ كبار القواد وتدخلهم في شئون الدولة، وكان «محمد بن رائق» والى «واسط» و «البصرة» واحداً من أبرز هؤلاء القواد وأكثرهم نفوذاً وتأثيراً، فاختره الخليفة «الراضى» ليقوم بمهمة إنقاذ الخلافة من التدهور الإدارى الحاد الذى تعاني منه، وأسند إليه منصب «أمير الأمراء» في عام (324هـ = 936م). وقد

تُوِّفِي الخليفة «الراضى بالله» وفاة طبيعية في (منتصف ربيع  
الأول سنة 329هـ = ديسمبر سنة 940م)، بعد أن فقد السيطرة  
على مقاليد الأمور بصورة تكاد تكون كاملة.

(64/10)

---

### \*المتقى لله

هو أبو إسحاق إبراهيم بن المقتدر، تولى الخلافة في (ربيع  
الأول سنة 329هـ = ديسمبر سنة 940م) بتدبير أمير الأمراء «بجكم  
التركي» وكتابه «أبي عبدالله الكوفي»، وكان عمره حينئذٍ  
أربعًا وثلاثين سنة. وقد كانت خلافة «المتقى» القصيرة (329 -  
333هـ = 940 - 944م) سلسلة من الصراع بين كبار رجال الدولة  
على منصب أمير الأمراء، مما أضاف مزيدًا من الاضطراب  
والفوضى إلى الأوضاع الداخلية، وفقد «المتقى» سيطرته على  
زمام الأمور، فقام أمير الأمراء «توزون التركي» بسماع عينيه  
وخلعه، وبذلك انتهت خلافته في (صفر سنة 333هـ = سبتمبر سنة  
944م).

(65/10)

---

### \*المستكفى بالله

هو أبو القاسم عبدالله بن المكتفى، بويع بالخلافة في (صفر  
سنة 333هـ = سبتمبر سنة 944) بحضور أمير الأمراء «توزون  
التركي» وإشرافه، وعمره واحد وأربعون عامًا ولم يكن له  
أدنى سلطة في إدارة شئون البلاد، بل استمر زمام الأمور في يد  
أمير الأمراء «أبي الوفاء توزون التركي»، وكتابه «أبي جعفر  
بن شيرزاد»، وكان من أبرز الأحداث التي شهدتها خلافة

«المستكفي بالله» امتداد سلطان الحمدانيين بقيادة «سيف الدولة الحمداني» على «حلب» و «حمص» اللتين كانتا تحت سيطرة الإخشيديين. وتدهورت الأحوال الداخلية في عهد «المستكفي» بشكل غير مسبوق؛ مما أدى إلى تطلع البويهيين - أصحاب النفوذ في بلاد فارس - منذ سنة (321هـ = 933م) إلى بسط سلطانهم على «العراق»، وقد نجحوا في ذلك سنة (334هـ = 945م)، لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ العصر الثاني للخلافة العباسية، عُرفت فيما بعد باسم «عصر نفوذ البويهيين».

(66/10)

---

#### \*مسلمة بن مخلد الأنصاري

والى «مصر» من قبل الخليفة «معاوية بن أبي سفيان»، تولى مصر في الفترة ما بين 47 = 667 م و 62 هـ = 681 م وكان من خيرة الولاة في حسن السياسة ونشر العدل، كما كان متسامحاً مع الأقباط، وسمح لهم ببناء كنيسة في مدينة «الفسطاط»، وقام بتجديد مسجد «عمرو» وتوسعته، وشيد له المنارات لأول مرة.

(67/10)

---

#### \*عبدالعزیز بن مروان

والى «مصر» من قبل أبيه الخليفة «مروان بن الحكم» في الفترة ما بين 65 = 684 م و 85 هـ = 705 م، واستمر فيها حتى زمن خلافة أخيه «عبدالمالك بن مروان»؛ لذا كانت فترة ولايته أطول فترة في عصر الولاة. أوصاه أبوه حين ولاه «مصر» بوصية حكيمة، نصحه فيها بأن يحسن إلى الناس، ويعمهم برعايته حتى يحبوه،

فعمل بوصية أبيه؛ فكانت فترة ولايته من أحسن الفترات في حكم «مصر»، قام خلالها بالكثير من الإصلاحات، أبرزها إنشاء مدينة «حلوان» سنة (73هـ).

(68/10)

---

**\*صالح بن علي بن عبدالله بن عباس**

من أشهر ولاة «مصر» في العصر العباسي. أسس لمصر عاصمة جديدة شمالي مدينة «الفسطاط» أسماها «مدينة العسكر» (منطقة «السيدة زينب» الحالية)، كما أنه زاد في «مسجد الفسطاط» زيادة كبيرة. ولى «مصر» مرتين، الأولى كانت سنة 133هـ = 750م واستمرت سنة واحدة، ثم وليها ثانية من سنة (136هـ = 753م) حتى سنة (138هـ = 755م).

(69/10)

---

**\*الفضل بن صالح بن علي**

أحد الولاة العباسيين، تولى مصر في 169هـ = 785م، أسس مسجداً إلى جانب «دار الإدارة» بمدينة العسكر، أصبح من المساجد الجامعة، وسمح للناس بالبناء حول «مدينة العسكر»، فاتصل عمراتها بمدينة «الفسطاط».

(70/10)

---

**\*موسى بن عيسى**

ولاه العباسيون إمرة «مصر» ثلاث مرات، كانت الأولى من سنة

(171هـ) حتى سنة (173هـ)، والثانية من سنة (175هـ) حتى سنة  
(176هـ)، والثالثة من سنة (179هـ) حتى سنة (180هـ)، وحظى  
خلالها «موسى بن عيسى» بمحبة الناس واحترامهم، لخبه للخير  
والعدل، وتسامحه مع الأقباط، فقد سمح لهم ببناء الكنائس.

(71/10)

---

### \*عنبسة بن إسحاق

من أشهر ولاة العصر العباسي، تولى مصر في الفترة ما بين  
238 = 852 م و 242 هـ = 856 م، ومن أهم أعماله: إقامة  
التحصينات في «دمياط» و «تنبيس»، بعد أن تعرضت لغارات  
الروم، وقد اشتهر «عنبسة بن إسحاق» بالورع، وإقامة العدل  
بين الناس.

(72/10)

---

### \*أحمد بن طولون

وُلد «أحمد بن طولون» سنة (220 هـ = 835 م)، وعُنى أبوه  
بتربيته عناية كبيرة، فعلمه الفنون العسكرية، وعلوم اللغة  
والدين، وتردد على العلماء، وأخذ من معارفهم، وروى عنهم  
الأحاديث، فأصبح موضع ثقة الخلفاء العباسيين لشجاعته  
وعلمه، وعمل تحت رعايتهم في خلافة «المتوكل» (242 -  
247 هـ)، و «المستعين» (248 - 252 هـ)، و «المعتز» (252 -  
255 هـ)، و «المعتد» (256 - 279 هـ). فلما مات «طولون» سنة  
(240 هـ) عهد «المتوكل» إلى «أحمد بن طولون» بما كان يتولاه  
أبوه من الأعمال، فأظهر كفاءة عالية، وهمة نادرة، كما احتل  
مكانة بارزة في قلوب رجال البلاط العباسي حين حاولت جماعة

من اللصوص الاستيلاء على قافلة كانت متجهة من «طرسوس» إلى «سامراء» تحت قيادته، فتصدى لهم «ابن طولون»، وأظهر كفاءة عسكرية فريدة، وتمكن من القضاء على هؤلاء اللصوص، ونجا بقافلته، وعندما علم الخليفة بذلك ازداد إعجاباً به وتقديراً له. كان من عادة الخلفاء أن يعينوا ولاة للأقاليم الخاضعة لسلطانهم، وكان هؤلاء الولاة يعينون من ينوب عنهم في حكم هذه الولايات؛ رغبة منهم في البقاء بالعاصمة؛ أملاً في الحصول على منصب أعلى وخوفاً من المؤامرات. وكانت «مصر» - آنذاك - تحت ولاية القائد التركي «باكباك» الذي أناب «أحمد بن طولون» عنه في حكم «مصر»، لما رآه من شجاعته وإقدامه، وأمدّه بجيش كبير دخل به «أحمد بن طولون» «مصر» في (23 من رمضان سنة 254هـ). فلما تُوفي «باكباك» تولى مكانه القائد التركي «بارجوخ»، فعهد إلى «أحمد بن طولون» بولاية «مصر» كلها، فلما آل الأمر إلى «ابن طولون» في حكم «مصر» واجهته المصاعب والعقبات، وأشعل أصحاب المصالح في «مصر» الثورات حتى لا يتمكن «ابن طولون» من تنفيذ إصلاحاته التي عزم عليها، ولكن «ابن طولون» تمكن من القضاء على كل العقبات والصعوبات واحدة تلو الأخرى بكياسة وحزم، كما أخذ

(73/10)

---

الثورات في كل مكان، ولم يكذب يفعل ذلك حتى أعلن «أحمد بن المدبر» عامل الخراج على «مصر» عن حقه على ابن طولون، وعمل على الوقيعة بينه وبين الخليفة، ولكن «أحمد بن طولون» تمكن من كشف ذلك التدبير، وكتب إلى الخليفة يطلب منه عزل عامل الخراج «ابن المدبر» وتعيين «محمد بن هلال» مكانه، فوافق الخليفة على ذلك لثقتة بابن طولون، وأمر بعزل «ابن

المدير»، الذى رفض تسليم ما تحت يديه لمحمد بن هلال عامل الخراج الجديد، فقبض عليه «أحمد بن طولون» وحبسه، وتخلص بذلك من منافس قوى هدد كيان البلاد. كان بالشام - بعد تولية «أحمد ابن طولون» «مصر» - ولاة يتبعون الخلافة العباسية، ولكن اعتداءات البيزنطيين المتكررة على حدود المسلمين بالشام جعلت الخليفة «المعتمد» يقوم بتكليف «أحمد بن طولون» بالسير لمحاربة البيزنطيين سنة (264هـ) فنفذ «ابن طولون» الأمر، وانتصر على البيزنطيين، ومد سلطانه حتى «طرسوس» و «نهر الفرات» و «دمشق»، فأقره الخليفة العباسى على حكم «مصر» والشام والجزيرة العربية ومناطق الثغور، فظل مسيطراً عليها بشخصيته القوية ورجاحة عقله حتى وفاته سنة (272هـ).

(74/10)

---

**\*خمارويه بن أحمد بن طولون**

تولى حكم مصر والشام فى الفترة بين [272 - 282هـ = 885 - 895م]. بعد وفاة أبيه «أحمد بن طولون»، فعمل على تذليل العقبات التى واجهته كى تتوطد أركان دولته، وزوج ابنته «أسماء» المعروفة بقطر الندى من الخليفة العباسى «المعتضد»، وقام «خمارويه» بتجهيز ابنته، وغالى فى ذلك، مما أدى إلى إفلاس مالية البلاد. وظل والياً على «مصر» والشام والجزيرة حتى وفاته سنة (282هـ).

(75/10)

---

**\*محمد بن طغج الإخشيد**

هو «محمد بن أبى بكر بن طغج (معناها فى التركية:

عبدالرحمن) بن جق»، أحد أبناء ملوك «فرغانة» ببلاد «ما وراء النهر»، وكان الملوك في هذه البلاد يتخذون من لفظة «الإخشيدي» لقبًا لهم، فأطلق هذا اللقب على «محمد بن طغج»، وتسمت به دولته، وعُرِفَت باسم «الدولة الإخشيدية». اتصل «جق» جد «الإخشيدي» بالخلفاء العباسيين، أما «طغج» والده؛ فقد كان على درجة عظيمة من الثراء وسعة العيش، واتصل بخدمة الطولونيين في عهد «خمارويه»؛ الذي ولاه على «دمشق» و «طبرية»، فلما سقطت الدولة الطولونية، تولى «محمد ابن طغج» ولاية «دمشق»، ثم أُضيفت إليه ولاية «مصر»، ولكنه أناب عنه من يحكمها، ولم يغادر «دمشق»، ولكن محاولات الفاطميين للسيطرة على «مصر» جعلت الخليفة العباسي «الراضي» يطلب من «ابن طغج» أن يقوم بنفسه على حكم «مصر» والشام، حتى يُوقف الزحف الفاطمي، ويعيد الاستقرار والأمان إلى الولايتين. جاء «محمد بن طغج» سنة (323هـ)، وبدأ يؤسس دعائم دولته الكبرى بها، وضُمت إليه «الحجاز» - التي ظلت مرتبطة بمصر عدة قرون بعد ذلك - كما حصل من الخليفة سنة (323هـ) على حق توريث حكم البلاد التي تحت يده لأسرته من بعده، فأصبحت هذه الولايات في عداد الدول المستقلة. بذل «محمد بن طغج» جهودًا كبيرة في إعادة الاستقرار والأمان إلى بلاده، واستطاع بكفاءته وذكائه أن يتغلب على العواقب التي صادفته كافة، وأخذت «مصر» والشام و «الحجاز» تستعيد مكانتها ثانية، بعد أن استطاع «ابن طغج» رد الفاطميين وإيقاف زحفهم على «مصر»، فحاول الفاطميون استمالته إلى جانبهم، ولكنه رفض، وظل وفيًا للخلافة العباسية، واستطاع في مدة قصيرة أن ييسط سلطانه على «مصر» والشام، وأعاد إليهما النظام، وعرف كيف يسوس الناس فيهما، فعاش حياته عزيزًا كريمًا. فلما شعر بدنو أجله عهد إلى ابنه «أبي القاسم أنوجور» بالحكم من بعده،

وجعل «كافورًا» وصيا عليه لأن «أنوجور» كان في ذلك الوقت صغيرًا، ومات الإخشيد بدمشق سنة (334هـ = 946م .).

### \*الإخشيد

هو «محمد بن أبي بكر بن طغج (معناها في التركية: عبدالرحمن) بن جق»، أحد أبناء ملوك «فرغانة» ببلاد «ما وراء النهر»، وكان الملوك في هذه البلاد يتخذون من لفظة «الإخشيد» لقبًا لهم، فأطلق هذا اللقب على «محمد بن طغج»، وتسمت به دولته، وعُرِّفَت باسم «الدولة الإخشيدية». اتصل «جق» جد «الإخشيد» بالخلفاء العباسيين، أما «طغج» والده؛ فقد كان على درجة عظيمة من الثراء وسعة العيش، واتصل بخدمة الطولونيين في عهد «خمارويه»؛ الذي ولاه على «دمشق» و «طبرية»، فلما سقطت الدولة الطولونية، تولى «محمد ابن طغج» ولاية «دمشق»، ثم أُضيفت إليه ولاية «مصر»، ولكنه أناب عنه من يحكمها، ولم يغادر «دمشق»، ولكن محاولات الفاطميين للسيطرة على «مصر» جعلت الخليفة العباسي «الراضي» يطلب من «ابن طغج» أن يقوم بنفسه على حكم «مصر» والشام، حتى يُوقف الزحف الفاطمي، ويعيد الاستقرار والأمان إلى الولايتين. جاء «محمد بن طغج» سنة (323هـ)، وبدأ يؤسس دعائم دولته الكبرى بها، وضُمت إليه «الحجاز» - التي ظلت مرتبطة بمصر عدة قرون بعد ذلك - كما حصل من الخليفة سنة (323هـ) على حق توريث حكم البلاد التي تحت يده لأسرته من بعده، فأصبحت

هذه الولايات في عداد الدول المستقلة. بذل «محمد بن طغج» جهودًا كبيرة في إعادة الاستقرار والأمان إلى بلاده، واستطاع بكفاءته وذكائه أن يتغلب على العواقب التي صادفته كافة، وأخذت «مصر» والشام و «الحجاز» تستعيد مكانتها ثانية، بعد أن استطاع «ابن طغج» رد الفاطميين وإيقاف زحفهم على «مصر»، فحاول الفاطميون استمالته إلى جانبهم، ولكنه رفض، وظل وفيًا للخلافة العباسية، واستطاع في مدة قصيرة أن يسطر سلطانه على «مصر» والشام، وأعاد إليهما النظام، وعرف كيف يسوس الناس فيهما، فعاش حياته عزيزًا كريمًا. فلما شعر بدنو أجله عهد إلى ابنه «أبي القاسم أنوجور» بالحكم من بعده، وجعل «كافورًا» وصيا عليه لأن «أنوجور» كان في ذلك الوقت

(78/10)

---

صغيرًا، ومات الإخشيد بدمشق سنة (334هـ = 946م .).

(79/10)

---

### \*كافور الإخشيدى

وُلد «كافور» بين سنتي (291 و308هـ) فلم تُحدّد سنة ولادته تحديداً دقيقاً - وكانت كنيته «أبا المسك»، وبدأ حياته مملوكًا بسيطاً، اشتراه «محمد بن طغج» من رجل يُدعى «محمود بن وهب»، وتوسّم فيه «الإخشيد» الذكاء، فاحتفظ به ورباه في بيته تربية عالية، فلما رآه يتقدم ازداد إعجابه به واختصه من بين عبيده وأولاه ثقته وأعتقه، وأخذ يرقيه في بلاطه حتى جعله من كبار قواده؛ لما يتمتع به من ذكاء وصفات طيبة، وبعثه قائداً أعلى على رأس جيوشه لمحاربة أعداء الدولة، وعهد إليه بتربية

ولديه «أبي القاسم أنوجور» و «أبي الحسن على»، كما عهد إليه بأن يكون وصيا عليهما في الحكم من بعده. عندما تولى «أنوجور» حكم «مصر» سنة (334هـ) كان لا يزال طفلاً صغيراً لا يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، فقام «كافور» بتدبير أموره وأمور الدولة، وبقيت علاقتهما - كما كانت - علاقة الأستاذ بتلميذه، وأصبح «كافور» صاحب السلطان المطلق في إدارة الدولة الإخشيدية، واستطاع التغلب على المشاكل التي قابلت الدولة في مستهل ولاية «أنوجور»، وتمكن من القبض على زمام الأمور بيده، وخاطبه الناس بالأستاذ، ودُكر اسمه في الخطبة، ودُعي له على المنابر في «مصر» والبلاد التابعة لها، كما عامل رؤساء الجند وكبار الموظفين معاملة حسنة، فاكتسب محبتهم واحترامهم، فلما كبر «أنوجور» شعر بحرمانه من سلطته، فظهرت الوحشة بينه وبين أستاذه «كافور»، وحاول البعض أن يوقع بينهما، وطلبوا من «أنوجور» أن يقوم بمحاربة «كافور»، فلما علمت أم «أنوجور» بذلك خافت عليه، وعملت على الصلح بينه وبين «كافور»، وما لبث «أنوجور» أن مات سنة (349هـ). كان ولي عهد «أنوجور» في الحكم ولداً صغيراً هو «أحمد بن أبي الحسن على»، فحال «كافور» دون توليته بحجة صغر سنه، واستصدر كتاباً من الخليفة العباسي يقره فيه على توليته «مصر» سنة (355هـ) بدلا من هذا الطفل الصغير، فتولى

(80/10)

---

«كافور» «مصر» وما يليها من البلاد ولم يغير لقبه «الأستاذ»، ودُعي له على المنابر بعد الخليفة. مات كافور سنة (357هـ)، فاختار الجند - بعد وفاته - «أبا الفوارس أحمد بن على بن الإخشيد» والياً على «مصر» وما حولها، وكان طفلاً لم يبلغ

الحادية عشرة من العمر، فلم تستقر البلاد في عهده حتى دخلها  
الفاطميون سنة (358هـ).

(81/10)

---

**\*محمد بن يزيد**

وقع عليه اختيار الخليفة «سليمان بن عبد الملك»، ومنحه ولاية  
«المغرب» وأوصاه بقوله: «يا محمد بن يزيد اتق الله وحده  
لا شريك له، وقم فيمن وليتك بالحق والعدل. اللهم اشهد عليه»،  
فعمل «محمد» بهذه الوصية منذ تولى مقاليد البلاد، واستقر  
بالقيروان، فأقام سياسة العدل بين سكان هذه البلاد، وسار  
فيهم بأحسن سيرة، ثم عمد إلى تجديد النشاط العسكري،  
وأرسل السرايا والبعوث إلى أماكن متفرقة من أرض المغرب،  
فحققت نجاحًا ملحوظًا فيما ذهبت من أجله، وعادت بالمغانم  
الكثيرة والنصر المظفر. وظل «محمد بن يزيد» واليًا على  
«المغرب» حتى وفاة «سليمان بن عبد الملك»، فعزل من ولايته  
بعد أن قضى بها سنتين وعدة أشهر.

(82/10)

---

**\*إسماعيل بن عبد الله**

إختره الخليفة «عمر بن عبدالعزيز» لولاية المغرب لصفاته  
الحسنة وسمعته الطيبة، لتولى هذا المنصب في سنة  
(100هـ=718م)، وبعث معه مجموعة من التابعين، منهم: «سعد بن  
مسعود التجيبي»، لمعاونته في نشر الإسلام، وتعليم الناس  
قواعده، وقد أثمرت سياسة «إسماعيل» الطيبة بين الرعية، في  
إقبال البربر على اعتناق الدين الإسلامي، وأسلم جميع البربر

في أيامه كما ذكر «ابن خلدون». وقد عُزل «إسماعيل» من منصبه عقب وفاة الخليفة «عمر بن عبدالعزيز» في سنة (101هـ=720م)، فتولى «يزيد بن أبي مسلم» ولاية «المغرب» خلفًا له.

(83/10)

---

### \*يزيد بن أبي مسلم

عمل والياً على المغرب في سنة (101هـ=720م)، وتولى مقاليد الأمور فيها، واتبع سياسة الشدة والحزم تجاه أهل «المغرب» مثلما اتبعها مع أهل «العراق» من قبل، وفرض الجزية على مَنْ أسلم من أهل الذمة ليزداد الدخل المالى في خزانة الدولة، كما أنه خصَّ طائفة من قبيلة «البتة» البربرية بحراسته دون غيرها، وأساء إلى آل «موسى بن نصير» وبعض الشخصيات العربية المقيمة بالقيروان، فأثار عليه ذلك حفيظة بعض حرسه من غير «البتة» وقتلوه.

(84/10)

---

### \*بشر بن صفوان

تولى حكم المغرب في أواخر سنة (102هـ=721م)، وقد بدأ أعماله بالتحقيق في مقتل «يزيد ابن أبي مسلم» الوالى السابق، واكتشف أن هناك بعض الخرضين للجند على فعل ذلك لإشعال الفتنة، فأمر بإعدامهم كما أمر بعزل «الحسن بن عبدالرحمن» والى «الأندلس» من منصبه، وولى مكانه «عبدالله بن سحيم الكلبي»، ثم قام في سنة (109هـ=727م) بحملة بحرية على «جزيرة صقلية»، وعاد منتصراً ومحملاً بكثير من المغنم

والأسلاب، ثم مرض عقب عودته من هذه الغزوة، ومات في العام نفسه.

(85/10)

---

### \*عبيدة بن عبدالرحمن السلمي

تولى حكم المغرب في سنة (110هـ=728م)، وأرسل «المستنير بن الحبحاب الحرشي» أحد القادة العسكريين على رأس حملة بحرية إلى «صقلية»، ولكن هذه الحملة لم تحقق نجاحًا، وغرقت معظم سفنها. وقد عين «عبيدة» بعض الولاة من قبيله على «الأندلس» في سنة (114هـ=732م)، ثم توجه إلى مقر الخلافة بدمشق، وطلب إعفائه من منصبه، فأجيب إلى مطلبه.

(86/10)

---

### \*عبيدالله بن الحبحاب

وتولى حكم المغرب في سنة (116هـ=734م)، وبدأ ولايته بتجهيز حملة بقيادة «حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع»، وبعث بها لفتح بعض المناطق؛ لتأمين الأقاليم الإسلامية بالمغرب، فتوغلت هذه الحملة حتى وصلت إلى «السوس الأقصى»، وأرض «السودان»، وحققت الأهداف التي خرجت من أجلها. وقد انتهج «عبيدالله» سياسة مغايرة لسابقه، فأسرف في جمع الأموال مستخدمًا القسوة والقوة وشرع في تخميس البربر، أي اعتبر من أسلم منهم ومن لم يسلم فينًا للمسلمين، بخلاف ما اعتاد عليه هؤلاء البربر حيث منح الولاة من أسلم منهم نفس الحقوق والواجبات الخاصة بالمسلمين كما أنه أركى نار العصبية القبلية، حيث حاي أبناء قبيلته من القيسية وأساء معاملته

اليمنية وغيرهم، فكانت النتيجة أن قامت الثورات المدمرة في أقاليم «المغرب»، ودخل البربر في صراع مسلح مع ولائهم من العرب، وترتب على ذلك انفصال «المغرب الأقصى» عن سلطة الخلافة بدمشق.

(87/10)

---

### \*كلثوم بن عياض القشيري

وقع اختيار الخلافة عليه، لتولى مقاليد الأمور بالمغرب، ومواجهة الأحداث الخطيرة التي نشبت على أرضه، وتوجه على رأس جيش كبير تعداده سبعون ألف مقاتل إلى هذه البلاد، ودعمته الخلافة بكل ما يحتاج إليه، ووصل على رأس جيشه إلى «بقدورة» بالمغرب الأقصى، ودخل في معركة شرسة مع جحافل البربر، وقد انتهت هذه المعركة بهزيمة جيش العرب، فضلاً عن مقتل «كلثوم» نفسه ومعه كثير من زعماء الجيش، وفرّ الباقي إلى «طنجة» ومنها إلى «الأندلس».

(88/10)

---

### \*حنظلة بن صفوان الكلبي

كان «حنظلة» والياً على «مصر»، وكان ذا كفاءة عالية وخبرة كبيرة، فضلاً عن إلمامه بأخبار «المغرب» وأوضاعه بحكم الجوار بين «مصر» و «المغرب»، فوقع عليه اختيار الخليفة «هشام بن عبد الملك» لتولى شئون «المغرب»، وأمره بالتوجه إليها في سنة (124هـ = 742م)، فخرج على رأس جيش بلغ تعداده ثلاثين ألف مقاتل، قاصداً «القيروان»؛ لمواجهة أحداث المغرب. ووصلت الأخبار إلى «حنظلة» بمسير البربر إليه في جيشين

كبيرين، أحدهما بقيادة «عكاشة الصفري الخارجي»، والآخر بقيادة «عبدالواحد بن يزيد الهواري»، وقد سار الجيشان في طريقين مختلفين، فاضطر «حنظلة» إلى لقاء كل جيش على حدة، وبدأ بمحاربة جيش «عكاشة» وأنزل به هزيمة كبيرة؛ أعادت الثقة إلى نفوس جيشه، ثم كان اللقاء الثاني بجيش «عبدالواحد» عند «باجة»، ودارت بين الفريقين معركة عنيفة، انتهت بهزيمة جيش الخلافة، وعودة ما تبقى منه إلى «القيروان» استعدادًا لمحاولة ثانية. ثم حشد «حنظلة» كل ما استطاع من قوة، وخرج للقاء البربر، ودارت بينهما معركة، أثبت جيش «حنظلة» فيها كفاءة عالية وصبرًا على القتال، فانتصر جيش الخلافة وقتل «عبدالواحد» قائد البربر، فضلًا عن مقتل عدد كبير من جنوده، فمكّن هذا النصر للأمويين في البلاد، ودعم وجودهم فيها، وعمد «حنظلة» إلى إقرار الأمن والطمأنينة في النفوس، ثم بعث بأخبار هذا النصر إلى مركز الخلافة «بدمشق» في شعبان سنة (125هـ = يونيو 743م)، فتوافق هذا الوقت مع وفاة الخليفة «هشام بن عبد الملك»، وتولى «الوليد الثاني بن يزيد» خلفًا له. واجه «حنظلة» مشكلة كبيرة، تمثلت في نزول «عبدالرحمن بن حبيب» أحد زعماء العرب على شواطئ «تونس» قادمًا من «الأندلس»، وقد استغل هذا الرجل اضطراب الأوضاع في «دمشق»، وضعف والي «القيروان» بسبب الحروب الكثيرة التي خاضها مع البربر، وسعى إلى جمع عناصر من العرب

(89/10)

---

والأفارقة والبربر حوله، ثم نزل بهم منطقة «سمنجة» في سنة (127هـ = 745م)، استعدادًا للاستيلاء على «القيروان» وعلى مركز السلطة فيها. وحاول «حنظلة» معالجة الأمور بطريقة ودية،

فاختار خمسين من فقهاء «القيروان» وزعمائها، وأرسلهم إلى «عبدالرحمن» للتفاوض معه، فألقى القبض عليهم وهدّد بقتلهم إن لم يتخلَّ «حنظلة» عن الإمارة، ويترك «القيروان» خلال ثلاثة أيام، وألا يأخذ من بيت المال إلا ما يكفيه مئونة السفر، فوافق «حنظلة» على مطالب «عبدالرحمن» حفاظاً على أرواح من بعث بهم إليه، وترك «القيروان» في جمادى الآخرة سنة (127هـ = مارس 745م) فدخلها «عبدالرحمن». ثم وافقت الخلافة على تعيينه والياً على بلاد «المغرب».

(90/10)

#### \*الأغلب بن سالم التميمي

هو الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي. أحد الأمراء القادة المعروفين بالشجاعة، وهو جد الأغالبة ملوك إفريقية، وأول من وليها منهم. كان ممن ساند أبا مسلم الخراساني، ثم قدم إلى إفريقية مع محمد بن الأشعث، ولما بلغ المنصور خروج محمد بن الأشعث من إفريقية بعث إلى الأغلب بولاية إفريقية، فلما أتاه العهد قدم القيروان في جمادى الآخرة سنة (148 هـ = 765 م)، وأخرج جماعة من قواد المضربية، وخرج عليه «أبي قرّة بن دوناس» الخارجي في جمع كثير من البربر، فسار إليه الأغلب، فهرب أبو قرّة من غير قتال، وسار الأغلب يريد طنجة، فاشتد ذلك على الجند، وكرهوا المسير، وتسلبوا إلى القيروان، فلم يبق معه إلا نفر يسير من وجوههم. وكان الحسن بن حرب بتونس، فلما خرج الأغلب يريد أبا قرّة، وأرسل في طلب جميع القواد في عصره، لحق به بعضهم، وأقبل معهم إلى القيروان، فدخلها، وأخذ سالم بن سواده عاملها؛ فحبسه. وبلغ الخبر الأغلب فأقبل في عدة يسيرة، واشتبك مع الحسن في قتالٍ،

تكشف عن هزيمة الحسن، وفراره إلى تونس، ودخول الأغلبي القيروان. ثم حشد الحسن جيشه وسار في عدة عظيمة إلى القيروان، فجمع الأغلبي أهل بيته وخاصته، وخرج إليه، فأصابه سهم، فمات منه في شعبان سنة (150 هـ = 767 م). فكانت ولايته سنة واحدة وثمانية أشهر.

(91/10)

### \* عمر بن حفص

وقع عليه اختيار الخلافة العباسية لتولى مهام إقليم «المغرب» عقب استشهاد «الأغلبي بن سالم التميمي»، وكان «عمر» رجلاً شجاعاً، ذا شخصية قوية، فدخل مدينة «القيروان» في سنة (151هـ = 768م)، وانتهج سياسة جديدة تجاه أهلها وعاملهم بالحنى، وتودد إلى زعمائها وأنزلهم منازلهم، فاستقرت له الأوضاع، وهدأت الأمور، ثم خرج إلى مدينة «طبنة» لإصلاح أحوالها، وبناء سورها، ففاجأته جموع البربر، وحاصرت مدينة «القيروان»، كما حاصرته مع جنوده بمدينة «طبنة»، فلجأ إلى استعمال الحيلة، وأغدق بالأموال على الجيش المحاصر لطبنة، فانصرف عدد كبير من جنود البربر عن المدينة، وتمكن «عمر» من هزيمة الجزء المتبقى منهم، ثم دخل «القيروان» بالحيلة والتمويه، وتولى مهمة الدفاع عنها، ولكن «إباضية» «طرابلس» بزعامة «أبي حاتم» كانوا قد أحكموا حصارهم وسيطرتهم على «القيروان»، وظلوا كذلك ثمانية أشهر، فساءت الأوضاع داخل المدينة، واضطر الناس إلى أكل دوابهم وحيولهم، وفشلت كل محاولات «ابن حفص» لفك الحصار عن المدينة، فخرج على رأس قواته، ودخل في معركة شديدة مع المحاصرين، فاستشهد هو

وكثير من رجاله في سنة (154هـ = 771م) ودخل «الإباضية» بقيادة «أبي حاتم» المدينة.

(92/10)

---

### \*يزيد بن حاتم

تولى «يزيد بن حاتم» إمرة «مصر» في عهد الخليفة العباسي «أبي جعفر المنصور» في سنة (144هـ = 761م)، وأثبت فيها كفاءة عالية، فوقع عليه اختيار الخلافة ليكون ولياً على «المغرب»، ووجه له الخليفة جيشاً كبيراً، ضم تسعين ألف مقاتل، وتم تجهيزه بثلاثة ملايين درهم، وخرج «يزيد» على رأس الجيش قاصداً إفريقية، ووصلها في سنة (154هـ = 771م)، فانضمت إليه فلول الجند المنهزمة أمام «أبي حاتم»، وتم اللقاء بين الجيش العباسي وجيش الخوارج بقيادة «أبي حاتم» في شهر ربيع الأول سنة (155هـ = فبراير 772م)، فكانت المعركة حاسمة، وهُزم جيش الخوارج، وقتل قائده «أبو حاتم»، وبعث «يزيد» بجنوده لاستئصال شأفة الخوارج ثم دخل «القبروان» رافعاً أعلام العباسيين، وبث الطمأنينة في نفوس أهلها، ومات «يزيد بن حاتم» بالقبروان في سنة (170هـ = 786م)، فخلفه ابنه «داود» في الولاية.

(93/10)

---

### \*داود بن يزيد بن حاتم

تولى «داود» مقاليد الأمور في المغرب خلال فترة مرض والده يزيد بن حاتم والى المغرب كمعاون له، فلما مات والده، تولى إدارة البلاد ريثما تتخذ الخلافة قرارها، وواجه ثورة الإباضية

بجزم، وحافظ على ما حققه والده من انتصارات ومكاسب، ولم يستمر في الحكم سوى تسعة أشهر، ثم سلم مقاليد الأمور إلى عمه «روح ابن حاتم»، وعاد إلى المشرق.

(94/10)

---

#### \*روح بن حاتم

اختاره الخليفة «هارون الرشيد» لحكم المغرب خلفاً لأخيه «يزيد» فقدم إلى إفريقية في سنة (170هـ=787م)، وتولى مقاليد أمورها، وأحدث تغييرات في إدارتها، وقضى على ثورات ما تبقى من البربر بها، فهدأت أوضاعها، واستقر أمنها ثم مات «روح» في رمضان سنة (174هـ=يناير 791م).

(95/10)

---

#### \*نصر بن حبيب

تولى حكم المغرب سنة (174 هـ = 791 م) واقتفى سياسة روح بن حاتم الوالي السابق، وعدل بين الناس وحسنت سيرته بينهم، ولكنه لم يستمر طويلاً في الولاية، حيث تم عزله بعد سنتين وثلاثة أشهر قضاها في الحكم.

(96/10)

---

#### \*الفضل بن روح بن حاتم

اختاره «هارون الرشيد» لحكم المغرب بدلا من «نصر ابن حبيب»، فوصل إلى مدينة «القيروان» في سنة (177هـ=793م)،

وجعل ابن أخيه «المغيرة ابن بشير بن روح» على مدينة «تونس»، وكان «المغيرة» غرا تنقصه التجارب والكياسة، فأساء معاملة الجنود، وفرق بينهم في المعاملة، فثاروا عليه بقيادة «ابن الجارود» المعروف بابن عبدويه، وعزلوه عن «تونس»، وأجبروه على تركها، فأدرك «الفضل بن روح» خطورة الموقف، وأرسل «عبدالله بن يزيد» والياً جديداً على «تونس» لتهدئة الموقف، ولكن الثوار قتلوه على أبواب المدينة، وشرعوا في استمالة قادة الجيش بالقيروان وزعماء الجنود إليهم للتخلص من «الفضل»، وقد نجحوا في ذلك، وحاصروا مدينة «القيروان»، ثم دخلوها، وأرغموا «الفضل» على تركها مع بعض أفراد أسرته، ولكن «ابن الجارود» أرسل خلفه من يأتي به إلى «القيروان» ثانية، وأودعه السجن فترة، ثم قتله في شعبان سنة (178هـ = نوفمبر 794م)، فلما بلغ «الرشيد» ذلك بعث ببيحي بن موسى إلى «تونس» برسالة ليُهَيِّئِ النفوس، ويدعو «ابن الجارود» إلى «بغداد»، فامتل «ابن الجارود» للأمر، وهدأت الثورة، وعين الخليفة «الرشيد» «هرثمة بن أعين» على إفريقية.

(97/10)

### \*محمد بن مقاتل العكي

اختاره «الرشيد» لتولى إمرة بلاد «المغرب الأدنى»، فوصلها في رمضان سنة (181هـ = أكتوبر 797م)، ويبدو أنه لم يكن على دراية بأوضاعها، وظروف الجنود بها، فوقع في عدة أخطاء، وقطع أرزاق الجنود، وأساء معاملة وجوه القوم وزعمائهم، فثاروا عليه بقيادة «تمام بن تميم التميمي» ثم توجه بها إلى «القيروان» وحاصرها، ثم دخل مع «العكي» في معركة وهزمه فيها، ولكن «إبراهيم بن الأغلب» والي «الزاب» من قبل

«العكى» كانت له طموحات في هذه المنطقة، فأسرع إلى نجدته بقواته، وقضى على جموع الثائرين. وعمد «إبراهيم بن الأغلب» إلى التقرب إلى أهالي «القيروان» لتحقيق أهدافه ومطامعه بالمنطقة، وظهر بمظهر المدافع عن سلطة الخلافة وممتلكاتها، وقد ساعدته كراهية الناس لابن مقاتل العكى في تحقيق مبتغاه، وطلب منه وجهاء القوم مراسلة «الرشيد» وإعلامه بمسلك «العكى» العدائى تجاه السكان، ومطالبة الرعية بعزله، فاستجاب لمطلبهم، وبعث إلى «الرشيد» برسالة وضح له فيها هذه الأمور، فعينه «الرشيد» على هذه الولاية.

(98/10)

#### \*إبراهيم بن الأغلب

استقل «إبراهيم بن الأغلب» بحكم «المغرب الأدنى» سنة 184هـ = 800م عن الخلافة العباسية، وعمد إلى إقرار الأمن والاستقرار بهذا الإقليم، فضلاً عن تعريبه، واستكمال نظامه الإدارى، وتنمية اقتصاده، فباتت «القيروان» مركزاً من مراكز العلم والحضارة بالدولة الإسلامية، وظهرت أهمية المدن التابعة لها. مثل: «تونس»، و «سوسة»، و «قابس»، و «قفصة»، و «توزر»، و «نفطة»، و «طنبة»، و «المسيلة»، و «بجاية»، وغيرها. ولكن ذلك لم يمنع من وقوع بعض الثورات بالمنطقة، مثل ثورة «عمران بن مجالد الربيعى» الذى جمع حوله أهل «القيروان» فى محاولة للقضاء على حكم «الأغالبة»، ولكن محاولتهم باءت بالفشل، حيث تصدى لهم «إبراهيم بن الأغلب» بحزم وشدة، واستمر فى منصبه حتى وافته منيته فى شوال سنة (196هـ = يونيو 812م)، فذكره المؤرخون بأنه كان أحسن الولاة سيرة، وأفضلهم

سياسة، وأوفاهم بالعهد، وأرعاهم للحرمة، وأرفقهم بالرعية،  
وأخلصهم لأداء واجبه.

(99/10)

---

### \*أبو العباس عبدالله بن إبراهيم بن الأغلّب

تولى «أبو العباس» «المغرب» خلفاً لوالده إبراهيم بن الأغلّب  
سنة 196هـ = 812م، فاستقامت له الأمور واستقرت، ولكنه  
انتهج سياسة ضريبية سيئة، أسفرت عن سخط الناس عليه، وظل  
«أبو العباس» بالحكم مدة خمس سنوات ثم مات من جرّاء قرحة  
أصابته تحت أذنه.

(100/10)

---

### \*زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلّب

تولى «زيادة» مقاليد الحكم بالمغرب سنة 201هـ = 816م خلفاً  
لأخيه «أبي العباس» واستمر في هذه الإمارة حتى سنة (223هـ =  
838م)، فتمتعت البلاد في عهده بالرخاء والازدهار، فضلاً عن  
التشييد وال عمران بالمدن المغربية، مثل: «القيروان»،  
و «العباسية»، و «تونس»، و «سوسة» وقد وجه «زيادة» قدراته  
العسكرية للقضاء على الثورات التي قامت بالمنطقة، ومنها:  
ثورة «زياد بن سهل» المعروف بابن الصقلبية في سنة  
(207هـ = 822م)، وثورة «عمرو بن معاوية العيشي» في سنة  
(208هـ = 823م)، وثورة «منصور الطنبذى» في سنة  
(209هـ = 824م)، وكذلك وجه «زيادة» كفاءته الحربية في العناية  
بالأسطول الإسلامي، ثم توجيهه لغزو بعض الجزر القريبة من  
«تونس»، وإليه يرجع الفضل في إعداد حملة بحرية كبيرة بقيادة

«أسد بن الفرات» لغزو الجزر القريبة من «تونس»، ثم تُوفى في سنة (223هـ=838م).

(101/10)

---

\*أبو عقال الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب

تولى إمارة المغرب خلفاً لأخيه «زيادة الله» في سنة (223هـ=838م)، ومكث بها ما يقرب من ثلاث سنوات؛ نعمت البلاد خلالها بالهدوء والاستقرار، وحرّم «أبو عقال» صنع الخمر بالقيروان، وعاقب على بيعها وشربها، فكان لذلك صداه الطيب في نفوس الناس عامة، فضلاً عن الفقهاء والعلماء، ومات «أبو عقال» بالقيروان في سنة (226هـ=841م).

(102/10)

---

\*أبو إبراهيم أحمد بن محمد

تولّى حكم المغرب خلفاً لأبيه محمد بن الأغلب عقب وفاته في سنة 242هـ=856م، وتميّزت فترة حكمه بالهدوء والاستقرار، وقد غلب الطابع الديني على سلوكه، فكان يخرج في شهرى شعبان ورمضان من مقر إقامته ليوزع الأموال على الفقراء والمساكين بالقيروان، واهتم «أبو إبراهيم» بالبناء والتعمير، وزاد في «مسجد القيروان»، وجدد «المسجد الجامع» بتونس، وحصّن مدينة «سوسة» وبنى سورها، كما اهتم بإمداد سكان المدن بمياه الشرب، وقد تُوفى في سنة (249هـ=863م).

(103/10)

---

### \*أبو محمد زيادة الله الثاني

تولى «أبو محمد» حكم دولة الأغالبة سنة 249هـ=863م خلفاً لأخيه «أبي إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغب»، ولم يستمر في منصبه سوى عام واحد، ثم تُوفى في سنة (250هـ=864م).

(104/10)

---

### \*أبو عبد الله محمد بن أحمد

خلف عمه «أبا محمد زيادة الله الثاني» في إمارة الأغالبة في سنة (250هـ=864م). وقد اشتهر «أبو عبد الله» بأبي الغرائيق؛ لولعه بصيد «الغرائيق»، وبنى لذلك قصرًا كبيرًا، أنفق عليه أموالًا كثيرة، كما شاد الحصون والمخارس الكثيرة على سواحل البحر المتوسط وتوفى «أبو الغرائيق» في سنة (261هـ).

(105/10)

---

### \*إبراهيم بن أحمد

تولى دولة الأغالبة عقب وفاة أخيه «أبي عبد الله محمد بن أحمد» في سنة (261هـ=875م)، وامتد عهده أكثر من ثمانية وعشرين عامًا؛ ظهر خلالها «أبو عبد الله الشيعي»، الذي استقطب إلى دعوته الشيعية عددًا من القبائل، وقد اختلف المؤرخون في تقييم شخصية «إبراهيم بن أحمد»، فذكر بعضهم أن عهده كان عهد استقرار وهدوء، وإقرار للعدل، وتأمين للسبل، فضلًا عن قيامه بإتمام بناء المسجد بتونس، وبناء الحصون والمخارس على سواحل البحر، يضاف إلى ذلك تأسيسه مدينة «رقادة»، وبنائه جامعًا بها، في حين يصفه «ابن خلدون» بقوله: «وذكر أنه كان جائرًا، ظلومًا ويؤخذ أنه أسرف في

معاقبة المعارضين له بالقتل والتدمير، لكنه حاول في أخريات أيامه إصلاح ما أفسده، وبخاصة بعد ظهور داعية الشيعة «أبي عبدالله» وانضمام كثير من الناس إلى دعوته، فأسقط المغارم، ورفع المظالم عن طبقات الشعب الكادحة، كما تجاوز عن ضريبة سنة بالنسبة إلى أهل الضياع، ووزع الأموال على الفقراء والمحتاجين، وختم حياته بالجهاد في «صقلية»، حيث مرض أثناء حصاره لإحدى المدن، ومات ليُحمل ويدفن في مدينة «بلرم» في سنة (289هـ=902م)، وذكر «ابن الأثير» أنه حُمل في تابوت ودفن بالقيروان.

(106/10)

---

#### \*زيادة الله بن أبي العباس عبدالله

تولى حكم الأغالبة سنة 290هـ=903م عقب مقتل أبيه أبي العباس عبد الله بن إبراهيم، وانتهج سياسة أبيه وجده، وتتبع أفراد أسرته بالقتل، في الوقت الذي نشط فيه «أبو عبدالله الشيعي» وأحرز الانتصارات تلو الأخرى، واستولى على كثير من المدن الأغلبية، ولم تفلح جيوش «زيادة» في صدّه أو إيقاف زحفه، فوجد «زيادة» نفسه عاجزاً عن الحفاظ على ملك آبائه وأجداده، فأثر الهرب إلى «مصر»، وحمل معه كل ما استطاع حمله من مال وعتاد، ورحل من «رقادة» في (26 من جمادى الآخرة عام 296هـ= مارس 909م)، فباتت المدينة سهلة المنال «لأبي عبدالله الشيعي»، فبعث «عروبة بن يوسف» أحد قادته للاستيلاء عليها، فدخلها دون قتال، وطويت بذلك صفحة «الأغالبة».

(107/10)

---

### \*عبدالرحمن بن رستم

بويغ «عبدالرحمن» سنة 162هـ=779م ليكون أول إمام للدولة الإباضية (الرستمية) الناشئة في ربوع «المغرب الأوسط»، وقد كان أحد طلاب العلم، ودرس على يد «أبي عبيدة مسلم ابن أبي كريمة»، فلما أتم تعليمه عمل على نشر «المذهب الإباضي» ودعمه، ثم عينه «أبو الخطاب» نائباً له على «مدينة القيروان»، فاكسب الخبرة الإدارية، وعرف طبائع الناس وظروفهم، ولم يدخر جهداً في محاربة الولاة العباسيين، وجمع شمل «الإباضية»، خاصة بعد مقتل «أبي الخطاب». كان «عبدالرحمن» رجلاً زاهداً، وذا صبر على الشدائد، وملتزماً بكتاب الله وسنة نبيه، واشترط على الناس حين وقع اختيارهم عليه للإمامة أن يسمعوا له ويطيعوا ما لم يجد عن الحق، ثم اختط مدينة «تھيرت»، ودخل في طاعته العديد من القبائل مثل: «لماية»، و «سدرانة»، و «مزاتة»، و «لواتة»، و «مكناسة»، و «غمارة»، و «أزداجة»، و «هواره»، و «نفوسة»، وقد افترشت هذه القبائل مساحات واسعة، امتدت من «تلمسان» غرباً حتى «طرابلس» شرقاً. ومضى «عبدالرحمن» في حكم البلاد بالعدل، منتهجاً سياسة شرعية في إدارتها، مما أشاع الاستقرار والأمن بين الناس، فلما شعر بدنو أجله اختار مجلساً للشورى، ليختار من بين أفراد من يصلح للإمامة من بعده، واختار ابنه «عبدالوهاب» ضمن أفراد هذا المجلس، ثم مات في سنة (168هـ=784م).

(108/10)

### \*عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم

اختاره مجلس الشورى سنة 168هـ = 784 م ليكون خلفاً لأبيه عبد الرحمن بن رستم في إمامة الدولة الرستمية في المغرب، واتسم

عهدده ببعض الاضطرابات والقلقل، وواجه العديد من الثورات التي اتخذ بعضها طابعاً مذهبياً، وبعضها الآخر طابعاً قبلياً، فأثرت إلى حد بعيد على «الدولة الرستمية»، وعلى رمزها الديني المتمثل في الإمام. ومات «عبد الوهاب» في سنة (198هـ=814م).

(109/10)

---

### \*أفلق بن عبد الوهاب

بويح الإمام «أفلق» إماماً للدولة الرستمية في المغرب سنة 198هـ = 814م خلفاً لأبيه عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، وكان ذا صفات طيبة، وجاءت مبايعته على عكس ما نهجه الخوارج في تعيين الإمام، إذ اختاره أبوه للإمامة قبل وفاته، وربما يرجع ذلك إلى طبيعة الظروف التي ألمت بالبلاد، حيث أحاط الأعداء بمدينة «تھيرت»، وكان لابد من اختيار رجل شجاع يتمكن من مواجهة الأعداء. وقد اتسم عهد «أفلق» بالهدوء والاستقرار، وبلغت الدولة في عهده أوج ازدهارها، ونشطت التجارة، وأقبل الناس من كل مكان قاصدين العاصمة «تھيرت»، وتوفي الإمام «أفلق» في سنة (240هـ)، إثر حزنه الشديد على وقوع ابنه «أبي اليقظان» في أيدي العباسيين.

(110/10)

---

### \*أبو بكر بن أفلق بن عبد الوهاب

تولى إمامة الدولة الرستمية سنة 240هـ = 854م خلفاً لأبيه أفلق بن عبد الوهاب بدلاً من أخيه أبي اليقظان الذكان مرشحاً لمنصب الإمامة، ولكن وقوعه في أيدي العباسيين حال دون

ذلك، لم يكن أبوبكر في شدة آبائه وأجداده وحزمهم، فضلا عن انغماسه في الترف والنعيم وميله إلى الراحة، وقد تفرغ لراحته وملذاته حين خرج أخوه «أبو اليقظان» من سجن العباسيين وشاركه الحكم، ولكن «أبا بكر» دبر مقتل «محمد بن عرفة» وهو من الشخصيات البارزة بالعاصمة، ليتخلص من نفوذه، فكان ذلك سببًا في نشوب الصراع بين طوائف الدولة الرستمية، وحاولت كل طائفة تحقيق أهدافها من خلال المعارك الطاحنة، التي أسفرت عن هزيمة حكام البيت الرستمي، واعتزال «أبي بكر» منصب الإمامة.

(111/10)

---

**\*أبو اليقظان محمد بن أفلح بن عبد الوهاب**  
تولم منصب الإمامة في الدولة الرستمية في سنة (268هـ=881م)، بعد نجاحه في التغلب على الإضطرابات، وقد تجنب سياسة التعصب وتفضيل قبيلة بعينها على غيرها، وجلس لبحث شكاوى رعاياه والبت فيها بنفسه، واستعان بمجلس الشورى الذى ضم إليه شيوخ القبائل ووجهاءها، فاستقرت الأوضاع، وهدأت النفوس، وظل «أبو اليقظان» يدير دفة الأمور في دولته حتى وفاته في سنة (281هـ=894م).

(112/10)

---

**\*محمد بن أفلح بن عبد الوهاب**  
تولم منصب الإمامة في الدولة الرستمية في سنة (268هـ=881م)، بعد نجاحه في التغلب على الإضطرابات، وقد تجنب سياسة التعصب وتفضيل قبيلة بعينها على غيرها، وجلس

لبحث شكاوى رعاياه والبت فيها بنفسه، واستعان بمجلس الشورى الذى ضم إليه شيوخ القبائل ووجهاءها، فاستقرت الأوضاع، وهدأت النفوس، وظل «أبو اليقظان» يدير دفة الأمور فى دولته حتى وفاته فى سنة (281هـ=894م).

(113/10)

### \*أبو حاتم يوسف بن محمد

تولى «أبو حاتم» إمامة الدولة الرستمية سنة 281هـ = 894 م عقب وفاة والده «أبي اليقظان»، لأن أخاه الأكبر «يقظان» كان غائبًا فى موسم الحج، وقد لعب العامة -بزعامه «محمد بن رباح» و «محمد بن حماد» المعروفين بالشجاعة والنجدة- دورًا بارزًا فى المطالبة ببيعة «أبي حاتم» بالإمامة لسخائه وكرمه، ولكن هذا الدور الذى لعبه العامة أطمعهم فى التدخل فى شئون الحكم وتحقيق المكاسب، فرفض «أبو حاتم» ذلك وضرب على أيديهم وطردهم من المدينة، فعمدوا إلى تأليب القبائل ضده، ونجحوا فى طرده من العاصمة «تهيرت»، وبايعوا عمه «يعقوب بن أفلح» بالإمامة، فصار هناك إمامان من بيت واحد، يقفان وجهًا لوجه فى صراعٍ دامٍ على السلطة، ولكن أحدهما لم يحقق نجاحًا ملموسًا على الآخر، فاحتكما وعقدا هدنة، وعاد «أبو حاتم» إلى العاصمة إمامًا على البلاد، وانسحب عمه «يعقوب» بعد أن حكم العاصمة «أربع سنوات». وقد حاول «أبو حاتم» إصلاح ما أفسدته الحروب داخل العاصمة «تهيرت»، وكوّن مجلسًا استشاريًا من زعماء القبائل ومشايخها للاستعانة بهم فى إدارة البلاد، ولكن محاولاته الإصلاحية كانت بمثابة صحوة الموت للبيت الرستمي، خاصة بعد أن ضعفت قوتهم العسكرية فى محاولة لإنهاء الصراع الذى وقع حول مدينة «طرابلس». وقد تأمر أفراد

البيت الرستمي أنفسهم على حياة إمامهم «أبي حاتم»، وقتلوه  
في سنة (294هـ=907م)

(114/10)

---

### \*اليقطان بن أبي اليقطان

بويغ بإمامة الدولة الرستمية عقب مقتل أخيه أبي حاتم يوسف  
بن محمد في سنة (294هـ=907م)، واتسم عهده بالفتن والقتال،  
وتطلع مختلف القبائل والطوائف إلى الاستئثار بالحكم، كما دبرت  
المؤامرات من داخل البيت الرستمي على يد «دوسر» ابنة «أبي  
حاتم»، وتكاتف فرق الخوارج مثل: «المالكية» و «الواصلية»  
و «الشيعية» لإحباط الفتن والمؤامرات للإطاحة بالإمام، وقد نجح  
«اليقطان» إلى حد بعيد في كبح جماح هذه الطوائف والحد من  
نشاطها، فهربت «دوسر»، ولجأت إلى «أبي عبدالله الشيعي»  
الذي نجح في بسط نفوذه على مساحات كبيرة من أرض  
«المغرب»، واستنجدت به للثأر لأبيها، فاستجاب لها، واتجه إلى  
«تهيرت»، فخرجت لمقابلته وجوه أهل «تهيرت» ورحبوا بمقدمه،  
واستسلم «اليقطان» لمصيره، وخرج مع بنيه إلى «أبي  
عبدالله»، فأمر بقتلهم ودخل العاصمة في سنة (297هـ=910م)،  
واستولى على ما بها من أموال ومغانم، فطويت صفحة «الدولة  
الرستمية».

(115/10)

---

### \*إدريس بن عبدالله

اضطهد العباسيون منذ اللحظة الأولى لقيام دولتهم أبناء  
عمومتهم من العلويين، وأسرف بعض الخلفاء العباسيين في

ذلك، فأسفر الأمر عن قيام عدة ثورات، كانت آخرها ثورة «الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب» علي والي «المدينة» في سنة (169هـ=785م)، ولكن العباسيين استطاعوا قمعها، وقتلوا زعيمها ومجموعة من أهل بيته. وكان «إدريس بن عبدالله» ومولاه «راشد» ممن فرّ من أرض المعركة، واتجها إلى «مصر»، ومنها إلى «المغرب الأقصى»، ونزلا مدينة «وليلي» عاصمة هذا الإقليم، ثم توجهوا إلى أميرها وزعيمها «إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي»، زعيم قبيلة «أورية» التي فرضت نفوذها وسيطرتها على مدينة «وليلي» وما حولها، وعرفه «إدريس» بنفسه، وأعلمه بسبب فراره من موطنه «الحجاز»، وجوئه إلى بلاده، فرحب به «إسحاق» وآمن بدعوته، وبايعه بالإمامة، وكذلك بايعته قبيلته «أورية»، ومعها بقية القبائل في رمضان سنة (172هـ=788م)، ومن ثمّ نجح «إدريس» في تأسيس دولة حملت اسمه بالمغرب الأقصى. لكن ذلك أقلق الخلافة العباسية، خاصة بعد أن مدّ «إدريس» نفوذه إلى مدينة «تلمسان» بالمغرب الأوسط. عمد الخليفة العباسي «الرشيد» إلى الحيلة للقضاء على نفوذ «الأدارسة»، فقبل إنه بعث برجل يدعى «الشمّاح» إلى «إدريس»، فتظاهر بحبه لآل البيت، وفراره من بطش العباسيين، ولازم «إدريس» فترة ثم اغتاله حين سنحت له الفرصة، وهكذا نجحت الخلافة العباسية في التخلص من «إدريس» أبرز المناوئين لها، وفقدت «دولة الأدارسة» مؤسسها في سنة (175هـ=791م) بعد ثلاث سنوات ونصف فقط من قيامها.

## \*إدريس بن إدريس بن عبد الله

بات مقعد الإمامة شاغراً عقب اغتيال «إدريس»، والتف البربر حول مولاه «راشد»، وانتظروا مولود «كنزة» جارية «إدريس بن عبد الله»، فلما وضعت حملها أسموه «إدريس» تبركاً باسم والده، وتعهده «راشد» بالتربية والرعاية، ونشأه تنشأة دينية، حتى إذا بلغ الحادية عشرة من عمره أقيمت القبائل على مبايعته بالإمامة، فدعا ذلك الخلافة العباسية إلى التحرك ثانية للقضاء على هذه الدولة، وأوكلت هذه المهمة إلى والي «المغرب الأدنى» «إبراهيم بن الأغلب» الذي نجح في استمالة مجموعة من البربر بأمواله وهداياهم، ثم أوكل إليهم مهمة قتل «راشد»، فقاموا بتنفيذها في سنة (186هـ = 802م)، لكن «الدولة الإدريسية» واصلت مسيرتها، وانتقلت كفالة «إدريس» والوصاية عليه إلى «أبي خالد بن يزيد بن إلياس العبدى»، وجُددت له البيعة في سنة (188هـ = 804م)، حين بلغ الثالثة عشرة من عمره، وأصبح في سن تؤهله لخلع الوصاية، وإدارة البلاد، وعزز مركزه إقبال الوفود العربية من «القيروان» و «الأندلس» للعيش في كنف دولته فراراً من بطش الحكام، فدعم بهم نفوذه، واتخذ منهم الوزراء والكتاب والقضاة، وجعلهم بطانته وحاشيته، وقد شجعه هؤلاء على بناء عاصمة جديدة لدولته، فبنى مدينة «فاس»، ثم استقر بها. وفي سنة (197هـ = 813م) خرج «إدريس الثاني» على رأس قواته لإخضاع «قبائل المصامدة» التي هددت أمن بلاده، ونجح في ذلك نجاحاً كبيراً، وامتد نشاطه حتى منطقة «السوس الأقصى»، ودخل مدينة «نفييس» ثم عاد إلى عاصمته «فاس»، وخرج في العام التالي صوب الشرق لتأمين حدود دولته، ودخل مدينة «تلمسان»، وأقام بها ثلاث سنوات، يرتب أمورها، ويرمم مسجدها، ثم عاد إلى «فاس» في سنة (201هـ)، وظل في الحكم حتى وافته المنية في سنة (213هـ = 828م).

(117/10)

---

**\*محمد بن إدريس بن إدريس**

هو أكبر أبناء «إدريس الثاني» إمام الأدارسة، وقد تولى الإمامة في سنة (213هـ=828م)، فنفذ وصية جدته «كنزة» بتقسيم أقاليم الدولة بين إخوته، فكان لذلك أثره السيئ على وحدة دولة «الأدارسة»، ولما يمض على قيامها أربعون سنة بعد، وطمع كل أخ في الاستقلال بإقليمه، وشقَّ عصا الطاعة على السلطة المركزية. ولكن «محمد بن إدريس» تصدى لإخوته وضم ممتلكات أخويه «عيسى» و «القاسم» بعد هزيمتهما إلى أخيه «عمر».

(118/10)

---

**\*يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس**

تولى إمامة دولة الأدارسة عام (292هـ=905م)، وقد وصفه المؤرخون بأنه كان أعظم ملوك «الأدارسة» قوة وسلطاناً وصلاًحاً وورعاً وفقهاً ودينياً، وقد ظل بالحكم حتى سنة (305هـ = 917م) حتى طرق «مصالة بن حيوس» أبواب مدن «المغرب الأقصى»، فأطاعه «يحيى بن إدريس»، وبايع «أبا عبيد الله المهدي»، فدخلت دولة «الأدارسة» منذ ذلك الحين في طور التبعية للفاطميين تارة، وللحكم الأموي بالأندلس تارة أخرى.

(119/10)

---

**\*يوسف بُلْكِين بن زيرى بن مناد الصنهاجى**

عينه «المعز لدين الله الفاطمى» على ولاية «المغرب» سنة 362

973 هـ = م، واستثنى من ذلك «طرابلس المغرب»، و «أجدابية»  
و «سرت»، وعين معه «زيادة الله ابن القديم» على جباية  
الأموال، وجعل «عبدالجبار الخراساني» و «حسين بن خلف» على  
الخراج، وأمرهما بالانقياد ليوسف بن زيري. واجه «يوسف» عدة  
ثورات واضطرابات بالمغرب، كان منها عصيان أهل «تھيرت»، ثم  
سيطرة قبيلة «زناتة» على مدينة «تلمسان»، وقد توجه إلى  
«تھيرت» بجنوده وأعادها إلى طاعته، كما توجه إلى  
«تلمسان» وأعادها إلى حكمه في سنة (365هـ = 976م). وفي  
سنة (373هـ = 984م) خرج الأمير «يوسف» على رأس جيوشه  
لاستعادة «سجلماسة» من أيدي بعض الثوار الذين استولوا  
عليها، ولكنه أصيب بمرض أودى بحياته في شهر ذى الحجة  
سنة (373هـ = مايو 984م).

(120/10)

\* المنصور بن يوسف بُلكين بن زيري  
تولى حكم بني زيري سنة 373هـ = 984 م وقد واجه عدة  
مشاكل، كانت منها غارات قبائل «زناتة» المستمرة على المدن  
المغربية في سنة (374هـ = 985م)، واستيلاء «زيري بن عطية  
الزناتي» على مدينتي «فاس» و «سجلماسة»، مما دفع  
«المنصور» إلى إرسال أخيه «يطوفت» على رأس جيش كبير  
لمواجهة هذه القبائل، ودارت معركة كبيرة بين جموع الفريقين،  
أسفرت عن هزيمة الصنهاجيين، وعودتهم إلى «أشير». ثم  
تصدى الأمير «المنصور» في سنة (376هـ = 986م) لعمه «أبي  
البهار» الذي نهب مدينة «تھيرت»، ففر «أبو البهار» أمامه،  
ودخل «المنصور» المدينة، وأعاد إلى أهلها الأمن والهدوء. ثم

تُوفى في يوم الخميس (3 من ربيع الأول سنة 386هـ = مارس 996م)، وُدُفن بقصره.

(121/10)

---

### \*باديس بن المنصور

وُلد «باديس» في سنة (374هـ = 985م)، وتكنى بأبي مناد، وخلف أباه على «المغرب» في سنة (386هـ = 996م)، وأتته الخلع والعهد بالولاية من «الحاكم بأمر الله الفاطمي» من «مصر»، وباع للحاكم، وأعلن تبعية بلاده لخلافته، ثم أقطع عمه «حماد بن يوسف» مدينة «أشير»، وولاه عليها، وأعطاه خيلاً وسلاحاً، وجنداً كثيراً، فكانت هذه هي نقطة البداية لانقسام «بني زيري» إلى أسرتين: تحكّم إحداهما بالمغرب الأدنى في «ليبيا» و «تونس»، وتحكّم الأخرى - أسرة «بني حماد» - في «الجزائر»، متخذة من قلعة «بني حماد» مقراً للحكم. وانفرد «بنو حماد» بإقليم «الجزائر»، نظراً لضعف قبضة الأمير «باديس» على البلاد. وقد واصل «باديس» مطاردة «زناتة»، وأخبر في سنة (387هـ = 997م) بأن «زيري بن عطية الزناتي» قد اعتدى على مدينة «أشير»، فبعث إليه بجيشه لمواجهة، ولكن الجيش هُزم على أيدي الزناتيين، فاضطر الأمير «باديس» إلى الخروج بنفسه لمواجهةهم في «أشير»، فلما علم الزناتيون بذلك انطلقوا إلى الصحراء، وتركوا المدينة، فدخلها «باديس»، وأقر الأمور بها، ثم مات في سنة (406هـ = 1015م).

(122/10)

---

### \*المعز بن باديس

تولى حكم بنى زيري بعد وفاة أبيه المعز بن باديس سنة 406هـ = 1015م وقد أخذت البيعة له بمدينة «المحمدية»، وفرح الناس بتوليته لما رأوا فيه من كرم ورجاحة عقل، فضلا عن تواضعه، ورقة قلبه، وكثير عطائه، على الرغم من حداثة سنه. وقد حدث في عهده بعض التطورات، حيث ألغى المذهب الشيعي، وخلع طاعة الفاطميين، ودعا على منابره للعباسيين، وتصلح مع أبناء عمومته الحماديين سنة (408هـ = 1017م)، وواصل مطاردة «قبائل زناتة» جهة «طرابلس»، في أبناء «حماد». ثم أصيب «المعز بن باديس» بمرض في كبده أودى بحياته في سنة (453هـ = 1061م)، بعد حكم دام سبعا وأربعين سنة.

(123/10)

### \*تميم بن المعز بن باديس

وُلد بالمنصورية في منتصف رجب سنة (422هـ = يونيو 1031م)، ثم تولى إمرة «المهدية» في عهد والده «المعز» في سنة (445هـ = 1053م)، ثم خلف والده في إمارة بنو زيري في سنة (453هـ = 1061م)، فواجه عددًا من الاضطرابات والقلاقل، حيث سيطر العرب الهلاليون على كثير من مناطق «إفريقية»، وثار عليه أهل «تونس» وخرجوا عن طاعته، فأرسل إلى «تونس» جيشًا، حاصرها سنة وشهرين، فلما اشتد الحصار على الناس، طلبوا الصلح، وعاد جيش «تميم» إلى «المهدية»، ثم ثارت عليه مدينة «سوسة» فحاصرها وفتحها عنوة، وأمن أهلها على حياتهم. وقد تعرضت «المهدية» في عهده لهجمات الهلالية، لكنه تمكن من صدّهم، ثم حاصر «قابس» و «صفاقس»، واستولى عليهما من أيدي الهلالية الذين كانوا يحتلونهما. وعمد إلى

مهادنة أبناء عمومته في «الجزائر»، وزوج ابنته للناصر بن  
علناس أمير «الجزائر»، وأرسلها إليه في موكب عظيم، محملة  
بالأموال والهدايا. ثم تُوفى في سنة (501هـ = 1107م).

(124/10)

---

**\*يحيى بن تميم بن المعز بن باديس**

ولد بالمهدية في (26 من ذى الحجة سنة 457هـ)، وولى إمارة  
بنى زيري وعمره ثلاث وأربعون سنة وستة أشهر وعشرون  
يوماً، فوزع أموالاً كثيرة، وأحسن السيرة في الرعية، ثم فتح  
قلعة «أقليبية» التي استعصى على أبيه من قبل فتحها، كما  
جهز أسطولاً كبيراً، كان دائم الإغارة على الجزر التابعة لدولة  
الروم في البحر المتوسط، ومات فجأة في يوم عيد الأضحى سنة  
(509هـ - 1115م).

(125/10)

---

**\*علي بن يحيى بن تميم**

تولى إمارة بنى زيري عقب وفاة والده يحيى بن تميم سنة  
509هـ 1115م، حيث لم يكن حاضرًا بالمهدية - التي وُلد بها - حين  
وفاة والده، فلما وصل إليه الخبر، حضر مسرعًا، ودفن والده،  
وتولى الإمارة خلفًا له، ثم جهز أسطولاً كبيراً لمهاجمة جزيرة  
«جربة»، لأن أهلها قطعوا الطريق على التجار، وتمكن الأسطول  
من إخضاع الجزيرة، وأمن الأمير أهلها وعفا عنهم، ثم قضى  
على عصيان «رافع» عامله على «قابس»، الذي سعى إلى شق  
عصا الطاعة وحشد الجموع لمهاجمة «المهدية». وقد تُوفى الأمير

«على» في العشر الأواخر من شهر ربيع الآخر سنة (515هـ = يونيو 1121م).

(126/10)

### \*الحسن بن علي بن يحيى

ولى إمارة بنى زيرى عقب وفاة والده الأمير «على بن يحيى» سنة 515هـ = 1121م، وكان عمره آنذاك اثنتى عشرة سنة، فقام «صندل الخصى» بإدارة شئون الحكم، إلا أنه توفى بعد فترة قصيرة، فتولى القائد «أبو عزيز موفق» الإشراف على أمور البلاد، وتمكن من صد الأسطول الرومى الذى هاجم بعض حصون الزيريين فى سنة (517هـ = 1123م)، وكذلك ألحق الأمير «الحسن» الهزيمة بجيش «يحيى بن عبدالعزيز بن حماد» أمير «بجاية» الذى جاء لمهاجمة «المهدية» والاستيلاء عليها فى سنة (529هـ = 1135م). وفى سنة (537 - 543هـ = 1142 - 1148م) حل القحط بإفريقية واستغل ملك «صقلية» ذلك وجهد أسطولاً كبيراً، وتوجه به قاصداً «المهدية»، ولم يستطع «الحسن» الدفاع عنها، وهرب بأهله ومتاعه إلى أبناء عمومته من «بنى حماد»، فوضعوه وأهله تحت الحراسة، ومنعوه من التصرف فى شىء من أمواله، ودخل الروم مدينة «المهدية» دون قتال أو ممانعة، فسقط حكم «بنى زيرى»، وسقطت إمارتهم، وكان «الحسن بن على» آخر أمراء «الدولة الزيرية».

(127/10)

### \*يوسف بن تاشفين

يعد «ابن تاشفين» المؤسس الحقيقى لدولة المرابطين بالمغرب

الأقصى، وقد تجمعت فيه صفات الزعامة والشجاعة والقيادة والحزم، وانبثقت حوله قلوب المرابطين، وشرع في بناء مدينة «مراكش» عاصمته الجديدة في سنة (454هـ = 1062م) ونجح في بسط نفوذه على «المغرب الأقصى» في سنة (467هـ = 1074م). وقد نجح ابن «تاشفين» إلى جانب توحيد «المغرب الأقصى» في وقف الزحف النصراني على «الأندلس»، وضمها إلى «دولة المرابطين» التي اتسعت أطرافها وزادت خيراتها، وتمتعت بالازدهار والرقى في مختلف المجالات، ثم مرض «يوسف» في سنة (498هـ = 1104م)، ثم أسلم روحه في سنة (500هـ = 1106م) ودفن بمدينة «مراكش».

(128/10)

---

**\*علي بن يوسف بن تاشفين**

ولى الأمير «علي بن يوسف بن تاشفين» حكم دولة المرابطين بعد وفاة والده يوسف بن تاشفين سنة 500هـ = 1106م واقتفى سياسة والده، وسار بين الناس بالحكمة والعدل، واستعان بالفقهاء والعلماء في حكم البلاد، فتبوا مكانة طيبة في نفوس رعيته. ومضى «علي بن يوسف» في استكمال الجهود الحربية التي بدأها والده بالأندلس، وعبر إليها بنفسه أربع مرات؛ لتثبيت سلطان المرابطين، ومواجهة الهجمات المتكررة للمسيحيين، فأحرز انتصارات كبيرة، ونال رضا الخلافة العباسية.

(129/10)

---

**\*تاشفين بن علي**

تولى «تاشفين» الحكم في دولة المرابطين بعد وفاة والده الأمير

«على» في سنة (537هـ = 1142م)، فدخل في صراع مع دولة «الموحدين»، ولم تفلح جهوده في صد موجاتهم المتتابعة، وانتهى به الأمر إلى «وهران»؛ حيث قُتل في سنة (539هـ = 1144م)، فَفَتَّ ذلك في عضد الدولة، وسقطت أجزاء كثيرة منها في أيدي الموحيدين.

(130/10)

### \*المهدى بن تومرت

هو محمد عبد الله بن تومرت المصمودى البربرى، أبو عبد الله، الملقب بالمهدى: واضع أسس الدولة المؤمنية الكومية، وُلد ونشأ في قبيلة هرغة من المصامدة من قبائل جبال السوسى بالمغرب الأقصى، ثم رحل إلى المشرق طالبًا للعلم سنة (500 هـ)، ولقى الغزالي وإلكيا الهراسى وأبا بكر الطرطوشى، وجاور بمكة، وحصل طرفًا جيدًا من العلم، وكان ناسكًا مهيبًا متقشفًا محشوشًا أمارًا بالمعروف كثير الإطراق متعبدًا يتبسم لمن لقيه، وكان شجاعًا جريئًا فصيحًا عاقلًا بعيد الغور، جمع في شخصه رجل الدين ورجل العلم ورجل السياسة، أخذ من كل مدرسة من مدارس الفكر ومن المذاهب الفقهية ما يتواءم مع شخصيته ومعتقداته ويتلاءم مع أهدافه، التقى بعبد المؤمن بن على الكومى، واتفق معه على الدعوة إليه، واتخذ أنصارًا رحل بهم إلى مراكش، فحضر مجلس ابن تاشفين، فأنكر عليه بدعًا ومنكرات، ثم نزل بموضع حصين من جبال تينملل فجعل يعظ سكانه حتى أقبلوا عليه، واشتهر فيهم بالصلاح، فحرضهم على عصيان ابن تاشفين فقتلوا جنودًا له، وتحصنوا وقوى بهم أمر ابن تومرت، وتلقب بالمهدى القائم بأمر الله، ولكن المنية لم

تمهله حتى يفتتح مراكش؛ حيث إنها عاجلته في جبل تينملل،  
وجاء بعده صاحبه عبد المؤمن فكانت الفتوحات على يده.

(131/10)

---

### \*ابن تومرت

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت المصمودي. المعروف  
بالمهدى بن تومرت. وُلد عام (485 هـ = 1092 م) في هرغة  
إحدى بطون قبيلة المصامدة البربرية، ثم رحل إلى المشرق عام (500 هـ)؛ طلبًا للعلم، فعبر البحر إلى الأندلس، ودخل قرطبة، ثم  
ركب البحر ثانية إلى الإسكندرية، وبعد ذلك دخل العراق،  
والتقى مع الغزالي. وبعد أن أقام بمكة فترة للدرس والتحصيل  
عاد إلى مصر، وركب البحر إلى المهديّة، وهناك بدأ دعوته  
الإصلاحية. وعُرف ابن تومرت بورعه وزهده وشدته في التمسك  
بأحكام الإسلام، وبالنهى عن البدع التي شاعت في عصره، ثم  
انتقل إلى بجاية، والتف حوله الأنصار، فسار بهم إلى مراكش  
إبان سلطنة علي بن يوسف بن تاشفين، وشرع في الأمر  
بالمعروف والنهي عن المنكر، فلما حاول السلطان القبض عليه  
هرب مع أنصاره إلى جبل تينملل عند عشيرته من المصامدة  
الذين استجابوا لدعوته. وكثر أنصاره فهزموا جيش ابن تاشفين،  
وسار ابن تومرت لحصار مراكش، ولكنه مرض وتوفي في الطريق  
سنة (524 هـ = 1130 م)، وأوصى بالبيعة لخليفته عبد المؤمن بن  
علي الكومي، وتنسب إلى ابن تومرت عدة مؤلفات فقهية، منها:  
كنز العلوم، وأعر ما يطلب.

(132/10)

---

## \*عبدالمؤمن بن علي

يعتبر عبد المؤمن بن علي المؤسس الفعلي لدولة الموحدين، وكان قد التقى بابن تومرت وأصبح من أخلص تلاميذه، وصاحبه في كل مكان يذهب إليه. حمل «عبدالمؤمن» أعباء الدعوة عقب وفاة أستاذه، وشغل بتنظيم شئون الموحدين، مدة عام ونصف العام، ثم شرع في الكفاح ضد المرابطين في منطقة «الأطلس» جنوبي «مراكش» في «وادي درعة» و «بلاد السوس» و «بلاد جاحة» القريبة من «تينملل»، ثم استولى الموحدون على «مراكش» عاصمة المرابطين في سنة (541هـ = 1146م)، بعد كفاح دام أكثر من عشر سنوات كان النصر فيها حليفاً للموحدين. وقد نجح «عبدالمؤمن» في إحكام قبضته وسيطرته على «المغرب الأقصى» بعد سقوط دولة المرابطين بسقوط عاصمتهم «مراكش»، ثم وجه اهتمامه إلى الشرق، وبعث بحملاته المتتالية التي وصلت حتى «طرابلس» بإفريقية، فساعد هذا النصر على تحقيق الوحدة السياسية للمغرب الإسلامي، وتلقب «عبدالمؤمن» بلقب خليفة، واتخذ من «مراكش» عاصمة للخلافة، ثم شرع في تجهيز حملة كبيرة لدفع النصارى عن مدن «الأندلس» في سنة (556هـ = 1161م)، إلا أن مرضه حال دون إتمام هذه الحملة، ومات في سنة (558هـ = 1163م).

(133/10)

## \*يوسف بن عبدالمؤمن

بويح «يوسف» في سنة (558هـ = 1163م) لحكم دولة الموحدين، ليكون خلفاً لوالده عبد المؤمن بن علي بعد وفاته. وما إن استقر في العاصمة حتى واجهته ثورة «مرزدغ الصنهاجي» بجبال «غمارة»، فنجح في القضاء عليها وتفريق أعوانها، ثم أمر

بقتل «مرزدغ»، وحمل رأسه إلى العاصمة «مراكش». ووجه «ابن عبدالمؤمن» جُلَّ جهوده إلى دعم سلطة الموحدين بالأندلس، وبعث بالحملات المتتابة إليها، وخرج على رأس إحداهما في سنة (566هـ = 1170م)، لتأمين ثغور «الأندلس» وضبطها وإصلاحها، ثم خرج في سنة (579هـ = 1183م) على رأس حملة كبيرة إلى «الأندلس» لغزوها، إلا أنه أصيب بسهم عند أسوار «شنترين»، فأسع الجند بحمله والعودة به مصاباً إلى «مراكش»، ففضى نخبه في سنة (580هـ = 1184م).

(134/10)

#### \* المنصور الموحدى

ولى «يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن» حكم الموحدين خلفاً لوالده في سنة (580هـ = 1184م)، ولقب نفسه بالمنصور، وتوزعت جهوده العسكرية في أكثر من ميدان؛ حيث قامت ثورة بزعامة «الجزيرى» الذى أخذ يدعو لنفسه بين القبائل في سنة (585هـ = 1189م)، ففضى عليها «المنصور» وقتل زعيمها، ثم قامت ثورة أخرى ببلاد «الزاب» بزعامة رجل يدعى «الأشل» في سنة (589هـ = 1193م)، فكان مصيرها الفشل مثل سابقتها. أما ثورة «بنى غانية»، التى استهدفت إحياء «دولة المرابطين» والدعاء للخلافة العباسية على المنابر بإفريقية، فكانت الخطر الحقيقى الذى هدد «دولة الموحدين»، فوجّه «المنصور» إليها كل جهوده للقضاء عليها، وعلى الرغم من تكرار المحاولة فإنه لم ينجح فى القضاء عليها نهائياً. وقد أولى «المنصور» «الأندلس» اهتمامه وعنايته، ودخل فى عدة معارك مع الإفرنج؛ كانت أبرزها معركة «الأرك» فى سنة (591هـ = 1195م)، تلك التى أوقفت زحف النصارى، وزادت من هيبة الموحدين ومكانتهم

بالشمال الإفريقي، ثم أصيب المنصور بوعكة صحية أدت إلى وفاته في سنة (595هـ = 1199م).

(135/10)

### \* الناصر الموحدى

تولى «الناصر أبو عبدالله محمد بن يعقوب» حكم الموحدين خلفاً لوالده «المنصور» بعد وفاته سنة 595هـ 1199م، فحدثت في عهده بعض التطورات السياسية والعسكرية التي انتقلت بدولة الموحدين من مرحلة القوة والسيادة إلى مرحلة الانهيار والسقوط؛ حيث تمكن في بداية حكمه من القضاء على ثورة «بني غانية» بإفريقية التي دخلها في سنة (598هـ = 1202م)، وعاد منها في سنة (604هـ = 1207م)، بعد أن ولي على «إفريقية» «أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص» أحد أشياخ الموحدين، فعكف «ابن أبي حفص» على معالجة شئون «إفريقية»، ودعم سلطان الموحدين بها، إلا أن ولاية «أبي حفص» كانت البداية لقيام «دولة الحفصيين» بتونس؛ حيث استقل أبناؤه - بعد ذلك - بها وأسسوا ملكاً مستقلاً. وقد فُجع الموحدون بهزيمة قاسية بالأندلس في معركة «العقاب» التي راح ضحيتها عدد كبير من الجند، مما أضعف «دولة الموحدين» وأفقدتهم هيبتهم، وأصيب «الناصر» بالمرض، وتوفي في سنة (610هـ = 1213م).

(136/10)

### \* آباقا خان

يعد «هولاكو» المؤسس الأول لسلسلة سلاطين المغول في

«إيران» و «العراق» الذين ظلوا يحكمون هذه البلاد من سنة (654هـ) حتى سنة (756هـ)، وقد تُوفى «هولاكو» سنة (663هـ)، وخلفه ابنه «آباقا خان» في حكم البلاد، التي امتدت من «نهر جيحون» حتى «العراق العربي» غربًا، ومن جنوبي روسيا شمالًا حتى «البحر العربي» جنوبًا. وقد جنحت الدولة الإيلخانية منذ إنشائها إلى الاستقلال عن العاصمة المغولية، في أمور السياسة والحكم - منذ عهد «آباقا خان» - وكان حكامها مستقلون تمامًا عن العاصمة قراقرم. اتخذ «آباقا» من «تبريز» عاصمة له، فاحتلت في عهده مكانة ممتازة، وجعل «آباقا» قائده الأمير «سونجاق» واليًا على «العراق» وإقليم «فارس»، ففوض هذا الأمير بدوره المؤرخ «علاء الدين عطا ملك الجويني» في حكم «العراق»، وعهد «آباقا» بمنصب الوزارة إلى «شمس الدين محمد الجويني» أخى «علاء الدين»، فكانا سببًا من أسباب ازدهار دولة «آباقا»، وعلى الرغم من الجهود الذى بذها الجوينيون في خدمة هذه الدولة وتوطيد أسسها، ودعم أركانها، فإنهم تعرضوا - في نهاية الأمر - لنكبة تشبه نكبة البرامكة عندما تكاثر عليهم الأعداء والخصوم، وقُتل الجوينيون جميعًا في عهد «أرغون» سنة (683هـ) الذى قضى على جميع أفراد هذه الأسرة. تزوج «آباقا» ابنة امبراطور «القسطنطينية»، فتوطدت علاقته بالنصارى، وأكثر من القساوسة في بلاطه، على الرغم من أنه كان إلى ذلك الوقت وثنيًا، وحرص المسيحيون على مداهنة المغول واجتلابهم نحو المسيحية؛ أملا في انضمام هؤلاء المحاربين الأشداء إلى صفوف النصارى ومحاربة أشد أعدائهم، المسلمين. وفي الوقت نفسه كان «آباقا» يريد من وراء توطيد علاقته بالمسيحيين أن يحصل على معاونتهم في حربه ضد المسلمين، وخاصة المماليك، ليثأر لهزيمة المغول أمامهم في «عين جالوت»، غير أن محاولاته ذهبت جميعها عبثًا، ولحقت به الهزائم في كل مرة التقت فيها جيوشه

بجيوش المماليك بقيادة «الظاهر بيبرس»، وكانت معركة «أبلستين» التي قامت بين الطرفين في عام (675هـ) من أهم المعارك التي دارت بين الجانبين، وانتصر فيها المماليك في «مصر» و «الشام» انتصاراً حاسماً، ثم تُوفي «آباقا» في سنة (680هـ. )

### \* أحمد تكودار

تولى أحمد تكودار حكم الدولة الإيلخانية خلفاً لأبيه آباقا خان سنة 681هـ، وكان قد اعتنق تكودار المسيحية في صغره، لكنه مال إلى الإسلام شيئاً فشيئاً؛ لكثرة اتصاله بالمسلمين، وتوطيد علاقته بعظماء المسلمين وكبار أئمتهم، فأعلن إسلامه، وسمى بالسلطان «أحمد تكودار»، فكان أول من اعتنق الإسلام من الإيلخانيين. كان إسلام السلطان «أحمد» عاملاً قوياً في تهديب طباعه وتقويم خلقه، ولم يعد ذلك المغولى الذى كان كل همه سفك دماء المسلمين وتخريب ديارهم، وإنما أصبح يرى المسلمين إخوته، ويجب أن يحل بينهم الوئام؛ لذا تبادل الرسائل الودية مع السلطان «قلاوون» سلطان المماليك في «مصر»، ففضى بذلك - مؤقتاً - على الأحقاد والضغائن، ولم تحدث حروب بين الجانبين، وكذلك كان لإسلام «أحمد تكودار» أثر كبير في «إيران»، فقويت شوكة المسلمين، وعادت المعابد البوذية وكنائس النصارى إلى مساجد كما كانت من قبل؛ ووصل المسلمون إلى المناصب الرئيسية في الدولة، وتطلّع أبناء البلاد

الأصليين من الفرس إلى شغل المناصب الإدارية بالدولة المغولية. ونتيجة لذلك كله خاف أمراء المغول على مصالحهم الشخصية - خاصة أن السلطان كان يحرص على خطب ودهم - وبخاصة الأمير «أرغون» الذي كان يطمع في العرش فنار على السلطان «تكودار» وتمكن من قتله في سنة (683هـ)، وضعت بذلك شوكة المسلمين في «إيران» ثانية.

(139/10)

### \* أرغون خان

تولى حكم الدولة الإيلخانية بعد مقتل أخيه السلطان «أحمد بن أباخان» في جمادى الآخرة سنة (683هـ)، فنصب ابنه «غازان» حاكمًا على «خراسان» وعين الأمير «نوروز» نائبًا له عليها، وأنعم على الأمير «بوقا» بلقب «أمير الأمراء»، وأطلق يده في تسيير شئون الدولة، وقتل الوزير «شمس الدين الجويني» وجميع أفراد أسرته تقريبًا في شعبان سنة (683هـ)، وذلك لموقفهم مع السلطان «أحمد تكودار» ومساندتهم له في المعركة التي دارت بينه وبين أفراد المغول بقيادة الأمير «أرغون»؛ والتي انتهت بمقتل السلطان وتنصيب الأمير سلطانًا. حاول «أرغون» أن يجد من نفوذ «مصر» في المشرق الإسلامي، فأقام علاقات سياسية وطيدة مع قادة الدول المسيحية مثل: «البابا» و «إدوارد الأول» ملك «إنجلترا»، و «فيليب لوبل» ملك «فرنسا»، تمهيدًا لتكوين حلف للقضاء على النفوذ المصري في «آسيا الصغرى»، و «العراق» و «الشام»، و «فلسطين». وشجعت هذه العلاقات (المغولية - الأوربية) عددًا من الرحالة الأوربيين على زيارة بلاد المغول، وسافر الرحالة الشهير «ماركو بولو» إلى العاصمة المغولية، وأقام في بلاط الامبراطور المغولي

«قوبيلاي» نحو عشرين عامًا، عمل فيها مستشارًا له ووزيرًا، ولم تقع حروب تذكر بين الجانيين - المصري والمغولي - في عهد «أرغون» لانشغال كل منهما بمشكلاته الداخلية.

(140/10)

### \*كيخاتو خان

تولى عرش الدولة الإيلخانية في رجب سنة (690هـ)، وعين «صدر الدين أحمد الزنجاني» وزيرًا له، ولقبه بلقب «صدر جهان» وأوكل إليه التصرف في شئون الدولة كافة دون تدخل من أحد، وعين أخاه «قطب الدين الزنجاني» قاضيًا للقضاة، وأطلق عليه لقب «قطب جهان»، ثم انصرف «كيخاتو» إلى ملذاته وشهواته وإنفاق الأموال في سبيلها دون حساب، فاضطربت مالية الدولة، وأصبحت خزانتها شبه خاوية ومهددة بالإفلاس، ووقف الوزير حائرًا لا يدرى ماذا يفعل حيال ذلك، فظهر له رجل اسمه «عز الدين محمد بن المظفر» - وكان على دراية بالأحوال المالية في «بلاد الصين» - واقترح عليه العدول عن استخدام الذهب والفضة في المعاملات المالية، واستخدام أوراق مالية - تعرف عند الصينيين باسم «الجاو» - بدلًا منها، لإنقاذ البلاد من الإفلاس، كما فعل الصينيون، فاستحسن الوزير هذا الاقتراح، واستصدر قانونًا من الإيلخان في سنة (693هـ) ينص على التعامل بهذه الأوراق، ويحرم التعامل بالذهب والفضة تحريمًا تامًا. رفض الناس التعامل بالأوراق المالية في معاملاتهم، على الرغم من أنهم أُجبروا على ذلك بالقوة، فاضطربت أحوال البلاد والناس اضطرابًا كبيرًا، وكسدت التجارة، وتعذرت الأقوات، وانقطعت الموارد من كل نوع، وامتنع البائعون عن بيع سلعهم بهذه الأوراق، فكان الرجل يضع الدرهم تحت إحدى الأوراق المالية

(الجاء) ويعطيها الخباز أو القصاب وغيرهما، ليحصل على ما يريد، خوفاً من أتباع السلطان الذين يراقبون الناس والبائعين في تعاملاتهم، فضاقت الحياة أمام الناس واستحكمت الأزمة، وكاد الأمر ينذر بثورة عارمة، إلا أن الإيلخان تدارك الموقف وأصدر قانوناً لإبطال التعامل بهذه الأوراق، والعودة إلى النظام القديم. ولما كان «كيخاتو» مغرماً بشرب الخمر، سيئ الخلق فاسقاً، كرهه الأمراء وثاروا عليه، وبخاصة بعد أن أغلظ القول -

(141/10)

---

ذات ليلة - لابن عمه «بايدو» أحد كبار الأمراء، فحقد عليه، وتآمر مع الأمراء الآخرين على قتله، وعلم «كيخاتو» بالمؤامرة، فآثر الفرار، ولكن الأمراء تتبعوه، وتمكنوا من قتله في سنة (694هـ).

(142/10)

---

#### \* بايدوخان

هو «بايدوخان بن طرغاي بن تولوي بن جنكيزخان» أحد سلاطين الدولة الإيلخانية، تولى العرش في جمادى الأولى سنة (694هـ) بعد مقتل كيوخاتو، ثم تخلص من أتباعه، وقرر إعادة الحقوق والوظائف إلى أصحابها، وأعفى الأوقاف الإسلامية من الضرائب، وعهد بأمور الجيش ورئاسة الوزراء إلى الأمير «طغاجار»، وسلك مسلك «آباخان» حيث جعل الإدارة لا مركزية، وجعل أميراً من الأمراء على كل ولاية من الولايات، ونصب «جمال الدين الاستكرداني» وزيراً له. لم يكد «بايدو» يتولى أمور الحكم حتى بلغ «غازان خان» ما حدث لعمه «كيخاتو»، فأقبل بجنوده ومعه الأمير «نوروز»، وأرسل رسله

إلى «بايدو» ينكر عليه قتل كيخاتو، ويطالبه بإجراء تحقيق ليلقى القتلة جزاءهم، فلما لم يلقَ جوابًا دارت رحى الحرب بين الفريقين، وفي هذه الأثناء عرض الأمير «نوروز» الإسلام على «غازان»، وحسّن له اعتناق هذا الدين بتشريعاته السمحة ونظمه الدقيقة، وما ينادى به من عدل ورحمة ومساواة، فاعتنق «غازان» الدين الإسلامي، ومال إليه أكثر الأمراء، وانتصر على «بايدو» في الحرب، فهرب «بايدو» ولحق به الأمير «نوروز»، وألقى القبض عليه، وأرسله إلى «غازان»، فأمر بقتله في شهر ذى الحجة عام (694هـ).

(143/10)

#### \* محمود غازان

تولى «غازان» عرشالدولة الإيلخانية المغولية عقب مقتل «بايدو» في ذى الحجة سنة (694هـ)، وبعد أن اعتنق الإسلام تبعه جميع الأمراء والجنود المغول، وأسلم بإسلامه أكثر من مائة ألف شخص منهم في فترة وجيزة، ولقب «غازان» نفسه باسم السلطان «محمود غازان»، وأعلن الإسلام دينًا رسميًا للدولة، وأمر المغول بأن يغيروا ملابسهم التقليدية، ويلبسوا العمامة للتدليل على خضوعهم للإسلام، وأمر بهدم الكنائس والمعابد اليهودية والمزدكية والهيكل البوذية، وتحويلها إلى مساجد، وبارتداء اليهود والنصارى ثيابًا تميزهم عن غيرهم من المسلمين، كرد فعل لما لقيه المسلمون من ضروب المهانة والذلة في عهد كل من: «هولاكو» و «آباقا» و «أرغون». عرف «غازان» بشخصيته القوية، ونشاطه الموفور، وصره الذى لا ينفد، وبأنه رجل دولة من الطراز الأول يقف على كل صغيرة وكبيرة في شئون البلاد، فضلًا عن إحاطته الكاملة بتقاليد قومه

وعاداتهم، وإمامه التام بمختلف الحرف والصناعات السائدة في عصره، وإطّاعه على العلوم المعروفة لدى المسلمين، وإجاداته عدة لغات إلى جانب لغته المغولية، لكنه كان قاسياً على أعدائه، ولا يأبه بحياة الناس حين تتعارض مع تحقيق أهدافه وطموحاته، وتجلّى ذلك حين تخلص من الأمير «نوروز» الذي ساعده ووقف إلى جانبه في كثير من المواقف بسبب وشاية، وكذلك حين أمر بقتل وزيره «صدر الدين» في رجب سنة (697هـ)، وعين بدلا منه المؤرخ «رشيد الدين فضل الله» الذي توسم فيه النبوغ والعبقرية والإخلاص، وأشرك معه رجلا يدعى «سعد الدولة» لمساعدته في مهام الوزارة. قام «غازان» بثلاث حملات على «بلاد الشام»، كانت الأولى في سنة (699هـ)، وانتصر فيها على قواد «الناصر محمد بن قلاوون» بالقرب من منطقة «مرج المروج» شرقي «حمص»، وقد انتشر المغول بعد انتصارهم في الأماكن المجاورة، وخرّبوا البلاد جرياً على

(144/10)

عادتهم القديمة، وكأنهم لم يعتنقوا الدين الإسلامي، ثم عين «غازان» والياً من قبله على البلاد التي استولى عليها، وعاد بعد ذلك إلى «إيران». وفي سنة (700هـ) عاود المغول الكرّة على بلاد الشام، واستولوا على مناطق جديدة بها، إلا أنهم لم يتمكنوا من التقدم والاستمرار؛ إذ هطلت عليهم الأمطار بغزارة، واشتدت البرودة، وكثر الوحل، وهلك كثير منهم، ووجد «غازان» نفسه مضطراً إلى العودة إلى «إيران»، ولكنه عاد بعد ذلك بعامين في سنة (702هـ) بحملته الثالثة على «سوريا»، وتحرك إلى مدينة «عانة» على شاطئ «الفرات»، وبرفقتة وزيره المؤرخ «رشيد الدين» ثم عاد أدراجه إلى عاصمته

«تبريز» تاركًا جيشه بالشام ليواصل مهمته، ولكن النتيجة جاءت على غير ما كان يتوقع، إذ هُزم جيشه هزيمة منكرة على يد السلطان «الناصر محمد بن قلاوون» في موقعة «مرج الصفر» بالقرب من «دمشق» في (2 من رمضان عام 702هـ)، فاعتلت صحته، وغلبه المرض، وتآمر عليه الأمراء، وكثرت من حوله الدسائس، ومات في شوال سنة (703هـ)، وهو لا يزال في ريعان شبابه. قام «غازان» بإصلاحات كثيرة ومهمة في كثير من الميادين، وكانت أبرزها إصلاحاته العمرانية، حيث أقام شمالي غرب «تبريز» محلة عُرفت باسم «شام غازان»، وتفصلها عن مدينة «تبريز» حدائق ومنتزهات كثيرة، وأمر كبار مهندسيه بإقامة بناء عالٍ في ذلك المكان؛ تعلوه قبة كبيرة، ليكون مدفناً له، وقد استمرت عمارة القبة وتوابعها نحو خمس سنوات، واشتملت على مسجد وخانقاه ومدرستين (إحدهما للشافعية والأخرى للحنفية)، ومستشفى، ومكتبة، ومرصد، ومدرسة لتعليم العلوم الطبية، وبيت لحفظ كتب القوانين التي أصدرها الإيلخان عرف باسم «بيت القانون»، كما أنشأ مسكنًا للأطفال وآخر للأشراف، وضمت هذه الأبنية بعض الحمامات العامة، وملجأ واسعًا لليتامى؛ به مكتب لتعليم القرآن الكريم وتحفيظه، وملجأ آخر يتسع لنحو خمسمائة أرملة من النساء اللاتي فقدن عائلتهن،

(145/10)

---

فضلا عن ذلك أنشأ «غازان» الأجران الواسعة المملوءة بالحبوب، والمزودة بأحواض المياه لكي تنزود منها الطيور المهاجرة من الشمال إلى الجنوب في الفصول الباردة من السنة خلال رحلتها عبر الهضبة الإيرانية التي تغطيها الثلوج في هذا الوقت من السنة، خاصة أن أعدادًا كثيرة من هذه الطيور كانت

تلقي حتفها، لتعذر حصولها على الغذاء، فأقام لها «غازان»  
هذه الأجران رحمة بما، وأصبحت هذه المؤسسات والمنشآت  
التي أقامها «غازان» مفخرة العالم الإسلامي والحضارة  
الإسلامية، حيث حول الإسلام القبائل الهمجية البربرية إلى أناس  
مهذبى الطباع، منظمين محبين للحضارة والعمران، وامتألت  
قلوبهم رحمة وعطفًا حتى على الطيور والحيوانات

(146/10)

### \* غازان

تولى «غازان» عرشالدولة الإيلخانية المغولية عقب مقتل  
«بايدو» فى ذى الحجة سنة (694هـ)، وبعد أن اعتنق الإسلام  
تبعه جميع الأمراء والجنود المغول، وأسلم بإسلامه أكثر من  
مائة ألف شخص منهم فى فترة وجيزة، ولقب «غازان» نفسه  
باسم السلطان «محمود غازان»، وأعلن الإسلام دينًا رسميًا  
للدولة، وأمر المغول بأن يغيروا ملابسهم التقليدية، ويلبسوا  
العمامة للتدليل على خضوعهم للإسلام، وأمر بهدم الكنائس  
والمعابد اليهودية والمزدكية والهيكل البوذية، وتحويلها إلى  
مساجد، وبارتداء اليهود والنصارى ثيابًا تميزهم عن غيرهم من  
المسلمين، كرد فعل لما لقيه المسلمون من ضروب المهانة والذلة  
فى عهد كل من: «هولاكو» و «آباقا» و «أرغون». عرف  
«غازان» بشخصيته القوية، ونشاطه الموفور، وصبره الذى لا  
ينفد، وبأنه رجل دولة من الطراز الأول يقف على كل صغيرة  
وكبيرة فى شئون البلاد، فضلًا عن إحاطته الكاملة بتقاليد قومه  
وعاداتهم، وإلمامه التام بمختلف الحرف والصناعات السائدة فى  
عصره، وإطلاع على العلوم المعروفة لدى المسلمين، وإجاداته  
عدة لغات إلى جانب لغته المغولية، لكنه كان قاسيًا على

أعدائه، ولا يأبه بحياة الناس حين تتعارض مع تحقيق أهدافه  
وطموحاته، وتجلّى ذلك حين تخلص من الأمير «نوروز» الذى  
ساعده ووقف إلى جانبه فى كثير من المواقف بسبب وشاية،  
وكذلك حين أمر بقتل وزيره «صدر الدين» فى رجب سنة  
(697هـ)، وعين بدلا منه المؤرخ «رشيد الدين فضل الله» الذى  
توسم فيه النبوغ والعبقرية والإخلاص، وأشرك معه رجلا يدعى  
«سعد الدولة» لمساعدته فى مهام الوزارة. قام «غازان» بثلاث  
حملات على «بلاد الشام»، كانت الأولى فى سنة (699هـ)،  
وانتصر فيها على قواد «الناصر محمد بن قلاوون» بالقرب من  
منطقة «مرج المروج» شرقى «حمص»، وقد انتشر المغول بعد  
انتصارهم فى الأماكن المجاورة، وخرّبوا البلاد جرياً على  
عادتهم القديمة، وكأنهم لم يعتنقوا الدين الإسلامى، ثم عين

(147/10)

---

«غازان» والياً من قبله على البلاد التى استولى عليها، وعاد  
بعد ذلك إلى «إيران». وفى سنة (700هـ) عاود المغول الكرّة  
على بلاد الشام، واستولوا على مناطق جديدة بها، إلا أنهم لم  
يتمكنوا من التقدم والاستمرار؛ إذ هطلت عليهم الأمطار بغزارة،  
واشتدت البرودة، وكثر الوحل، وهلك كثير منهم، ووجد  
«غازان» نفسه مضطراً إلى العودة إلى «إيران»، ولكنه عاد بعد  
ذلك بعامين فى سنة (702هـ) بحملته الثالثة على «سوريا»،  
وتحرك إلى مدينة «عانة» على شاطئ «الفرات»، وبرفقتة  
وزيره المؤرخ «رشيد الدين» ثم عاد أدراجه إلى عاصمته  
«تبريز» تاركاً جيشه بالشام ليواصل مهمته، ولكن النتيجة جاءت  
على غير ما كان يتوقع، إذ هُزم جيشه هزيمة منكرة على يد  
السلطان «الناصر محمد بن قلاوون» فى موقعة «مرج الصفر»

بالقرب من «دمشق» في (2 من رمضان عام 702هـ)، فاعتلت صحته، وغلبه المرض، وتآمر عليه الأمراء، وكثرت من حوله الدسائس، ومات في شوال سنة (703هـ)، وهو لا يزال في ريعان شبابه. قام «غازان» بإصلاحات كثيرة ومهمة في كثير من الميادين، وكانت أبرزها إصلاحاته العمرانية، حيث أقام شمالي غرب «تبريز» محلة عُرفت باسم «شام غازان»، وتفصلها عن مدينة «تبريز» حدائق ومنتزهات كثيرة، وأمر كبار مهندسيه بإقامة بناء عالٍ في ذلك المكان؛ تعلوه قبة كبيرة، ليكون مدفناً له، وقد استمرت عمارة القبة وتوابعها نحو خمس سنوات، واشتملت على مسجد وخانقاه ومدرستين (إحدهما للشافعية والأخرى للحنفية)، ومستشفى، ومكتبة، ومرصد، ومدرسة لتعليم العلوم الطبية، وبيت لحفظ كتب القوانين التي أصدرها الإيلخان عرف باسم «بيت القانون»، كما أنشأ مسكنًا للأطفال وآخر للأشراف، وضمت هذه الأبنية بعض الحمامات العامة، وملجأ واسعًا لليتامى؛ به مكتب لتعليم القرآن الكريم وتحفيظه، وملجأ آخر يتسع لنحو خمسمائة أرملة من النساء اللاتي فقدن عائلتهن، فضلًا عن ذلك أنشأ «غازان» الأجران الواسعة المملوءة

(148/10)

بالحبوب، والمزودة بأحواض المياه لكي تنزود منها الطيور المهاجرة من الشمال إلى الجنوب في الفصول الباردة من السنة خلال رحلتها عبر الهضبة الإيرانية التي تغطيها الثلوج في هذا الوقت من السنة، خاصة أن أعدادًا كثيرة من هذه الطيور كانت تلقى حتفها، لتعذر حصولها على الغذاء، فأقام لها «غازان» هذه الأجران رحمة بها، وأصبحت هذه المؤسسات والمنشآت التي أقامها «غازان» مفخرة العالم الإسلامي والحضارة

الإسلامية، حيث حول الإسلام القبائل الهمجية البربرية إلى أناس مهذبى الطباع، منظمين محبين للحضارة والعمران، وامتلات قلوبهم رحمة وعطفًا حتى على الطيور والحيوانات

(149/10)

---

### \* أوجايتو

تولى عرش الدولة الإيلخانية خلفًا لأخيه «غازان» فى سنة (703هـ) وكان من قبل حاكمًا على خراسان، وجعل الوزارة مشاركة بين «رشيد الدين فضل الله الهمداني» وسعد الدين الساجى. عمد «أوجايتو» إلى استكمال تشييد مدينة السلطانية التى بدأ إنشاؤها فى عهد السلطان «غازان»، وهى تقع على بعد خمسة فراسخ من «زنجان» وأمر بالتوسعة فى منشآها العمرانية، فساهم الأمراء والوزراء فى بناء بعض أحيائها، وأنشأ الوزير «رشيد الدين فضل الله» محلة بها على نفقته الخاصة؛ اشتملت على ألف منزل، ومسجد كبير. وأمر السلطان ببناء قبة كبيرة فوق مقبرته، ومازالت هذه القبة قائمة حتى اليوم دليلا على عظمة العمارة فى هذا العصر. تمكن «أوجايتو» فى سنة (706هـ) من بسط سيطرته على إقليم «جيان»، وهو الإقليم الذى لم يتمكن المغول من السيطرة عليه حتى هذه السنة لكثرة غاباته، ووعورة مسالكه، وأعاد بناء مرصد «مراغة» الذى بناه «هولاكو» من قبل، وحين بلغ «أوجايتو» الثالثة والثلاثين من عمره اشتد عليه المرض واعتلت صحته، وتوفى فى رمضان سنة (716هـ).

(150/10)

---

### \*أبو سعيد بهادر

تولى «أبو سعيد» حكم الدولة الإيلخانية بعد وفاة السلطان «أولجايتو» سنة 716 هـ، وكان لايزال في الثالثة عشرة من عمره، فاضطربت أحوال البلاد وتعددت ثورات الأمراء المغول في مناطق متفرقة ضده، غير أن «أبا سعيد» استعان عليهم بقائد جيشه الأمير «جوبان»، ففضى عليهم، وأعاد إلى البلاد استقرارها وهدوءها. كان «أبو سعيد» آخر سلاطين الإيلخانيين الأقوياء، كما كان كريماً جواداً، شجاعاً، محباً للعلم، فراجت في عهده العلوم والآداب، وعاش في بلاطه كثير من الشعراء والمؤرخين؛ حين كان هو نفسه شاعراً وله أشعار جيدة باللغة الفارسية، واشتهر بجودة الخط والغناء. وتوفي أبو سعيد في 13 من ربيع الأول سنة 736 هـ

(151/10)

### \*أحمد بن أويس

أحد سلاطين الدولة الجلائرية في العراق وأذربيجان، تولى الحكم بعد أخيه جلال الدين حسين بن أويس سنة (784 - 813 هـ = 1382 - 1410 م)، وقد تمكن «تيمورلنك» من إسقاطه عن عرشه عدة مرات، ثم دخل «بغداد» في عام (795 هـ = 1393 م)، ففر «أحمد بن أويس» إلى «مصر» مستنجداً بالسلطان المملوكي «برقوق»، وتمكن «الشيخ أحمد» -أخيراً- من العودة إلى «بغداد» في عام (804 هـ = 1401 م)، وتمكن من استعادتها في عام (807 هـ = 1404 م)، بعد أن خرجت عدة مرات من حكم «آل جلائر» إلى حكم التيموريين، ثم استعاد «تبريز» في عام (809 هـ = 1406 م)، ولم يلبث أن فقدتها ثانية في العام نفسه على يد حفيد «تيمورلنك». وفي عام (813 هـ = 1410 م)، اختلف «أحمد

بن أويس» مع زعيم قبيلة «قراقيونلو»، وحدث صدام بينهما،  
فقتل «الشيخ أحمد»، وتمكن زعيم «قراقيونلو» من انتزاع  
«تبريز» وما والاها من الجلائريين، ثم أسس دولة له  
في «أذربيجان».

(152/10)

---

### \*إسماعيل ميرزا

أحد حكام الدولة الصفوية، الملقب بالشاه «إسماعيل  
الثاني»، تولى الحكم عام (984هـ = 1576م)، واعتمد سياسة  
الاعتدال في نشر المذهب الشيعي، فأبعد عددًا من علماء  
الشيعة المتعصبين عن بلاطه، وأمر بمنع لعن الخلفاء الثلاثة  
والسيدة «عائشة» فوق المنابر وفي الطرقات، وحاول إعادة  
المذهب السني إلى البلاد بالتدريج، مما أثار عليه حفيظة الطبقة  
الحاكمة وأغلبية المجتمع، وقرروا عزله وتعيين ابن أخيه «حسن  
ميرزا» إذا لم يتراجع عن ذلك، فعمل على تهدئة الثورة التي  
قامت ضده، وأبعد علماء المذهب السني عن بلاطه، ونقش على  
السكة بيتًا مضمونه: أن عليا وآله أولى بالخلافة في العالم  
الإسلامي كله. لم يتمكن الشاه «إسماعيل الثاني» من البقاء في  
الحكم فترة طويلة، حيث قُتل عام 985هـ = 1578م

(153/10)

---

### \*إسماعيل الثاني

أحد حكام الدولة الصفوية، الملقب بالشاه «إسماعيل  
الثاني»، تولى الحكم عام (984هـ = 1576م)، واعتمد سياسة  
الاعتدال في نشر المذهب الشيعي، فأبعد عددًا من علماء

الشيعة المتعصين عن بلاطه، وأمر بمنع لعن الخلفاء الثلاثة  
والسيدة «عائشة» فوق المنابر وفي الطرقات، وحاول إعادة  
المذهب السني إلى البلاد بالتدريج، مما أثار عليه حفيظة الطبقة  
الحاكمة وأغلبية المجتمع، وقرروا عزله وتعيين ابن أخيه «حسن  
ميرزا» إذا لم يتراجع عن ذلك، فعمل على تهدئة الثورة التي  
قامت ضده، وأبعد علماء المذهب السني عن بلاطه، ونقش على  
السكة بيتاً مضمونه: أن علياً وآله أولى بالخلافة في العالم  
الإسلامي كله. لم يتمكن الشاه «إسماعيل الثاني» من البقاء في  
الحكم فترة طويلة، حيث قُتل عام 985هـ = 1578م

(154/10)

---

#### \* عباس الأول

أحد حكام الدولة الصفوية تولى العرش من عام (996هـ = 1588م)  
إلى عام (1038هـ = 1629م)، ويعد عهده من أبرز عهود الحكم  
الصفوي في «إيران» وأهمها؛ إذ عمل على رفاهية شعبه  
وتعمير بلاده، ونقل عاصمة دولته من «قزوين» إلى «أصفهان»،  
وأعاد الحكم المركزي إلى «الدولة الصفوية»، على الرغم من  
الصعوبات والحروب الكثيرة التي اعترضت سبيله، ونجح في  
إقرار أمن بلاده وتأمين رعيته؛ واتخذ مجلساً لبلاطه ضم سبع  
أشخاص بسبعة وظائف هي: «اعتماد الدولة» - «ركن السلطنة» -  
«ركن الدولة» - «كبير الياوران» - «قائد حملة البنادق» - «رئيس  
الديوان» - «كاتب مجلس الشاه»، وبالرغم من وجود هذا المجلس  
كان هو صاحب القرار الأول والأخير في الدولة.

(155/10)

---

### \* عباس الصفوي

أحد حكام الدولة الصفوية تولى العرش من عام (996هـ = 1588م) إلى عام (1038هـ = 1629م)، ويعد عهده من أبرز عهود الحكم الصفوي في «إيران» وأهمها؛ إذ عمل على رفاهية شعبه وتعمير بلاده، ونقل عاصمة دولته من «قزوین» إلى «أصفهان»، وأعاد الحكم المركزي إلى «الدولة الصفوية»، على الرغم من الصعوبات والحروب الكثيرة التي اعترضت سبيله، ونجح في إقرار أمن بلاده وتأمين رعيته؛ واتخذ مجلسًا لبلاطه ضم سبع أشخاص بسبعة وظائف هي: «اعتماد الدولة» - «ركن السلطنة» - «ركن الدولة» - «كبير الياوران» - «قائد حملة البنادق» - «رئيس الديوان» - «كاتب مجلس الشاه»، وبالرغم من وجود هذا المجلس كان هو صاحب القرار الأول والأخير في الدولة.

(156/10)

### \* بابر ظهير الدين

هو ظهير الدين محمد بن عمر الشيخ ميرزا الملقب ببابر ومعناها في الهندية النمر مؤسس إمبراطورية المغول التيمورية الإسلامية في الهند، وأحد أحفاد تيمورلنك. وُلد بابر في المحرم سنة (888هـ = 1483م) بمدينة فرغانة الهندية، التي كان أبوه ملكًا عليها، وبعد وفاة أبيه تولى حكمها وكان لا يزال في الثانية عشرة من عمره، فتعرض لعدة مؤمرات من أعمامه لعزله، اضطر على أثرها إلى الرحيل إلى أفغانستان، واستقر بكاابل، وجعل منها نواة لإقامة دولة قوية، وواتته الفرصة لتوسيع رقعة دولته حينما استغاث به حاكم لاهور ضد حاكم دلهي فزحف بابر بجيشه نحو الهند، فاستولى على السند سنة (925هـ) ثم على لاهور سنة (930هـ) ثم دخل دلهي سنة (932هـ) ثم أكرا. ولما رأى ذلك

أمراء الهندوس تحالفوا ضده ليوقفوا زحفه ويقضوا على دولته، فأعدوا جيشًا كبيرًا لذلك، والتقى الطرفان في معركة حاسمة تمكن فيها بابر من هزيمتهم ثم اتجه إلى شرقي الهند فاستولى على بيهار، وهكذا صارت له دولة مترامية الأطراف، واتخذ من أكرا عاصمة لها. وبعدها أمّن بابر دولته من الخارج، اتجه للإصلاحات الداخلية، فمهّد الطرق، وحفر الترغ والأنهار ونظّم الضرائب، وأقام شبكة بريد جيدة، واهتم بالنواحي الثقافية حيث كان بابر أديبًا رقيقًا يقرض الشعر بالتركية والفارسية، وابتكر خطأً جديدًا نُسب إليه وكتب به مصحفًا، أهداه إلى المسجد الحرام بمكة. وألّف بابر عدة كتب، مثل: الفتح المبين في الفقه الحنفي، وبابرنامه وهو تاريخ حياه بابر في صورة مذكرات أو يوميات ضمنها ترجمة لحياته وعصره، كتبه بالتركية، ثم تُرجم إلى الفارسية وعدة لغات أوروبية. وتُوِّقَ بابر سنة (937هـ = 1531م)، وعمره خمسون سنة، ودفن بكابل بأفغانستان.

(157/10)

#### \* ظهير الدين بابر

هو ظهير الدين محمد بن عمر الشيخ ميرزا الملقب ببابر ومعناها في الهندية النمر مؤسس إمبراطورية المغول التيمورية الإسلامية في الهند، وأحد أحفاد تيمورلنك. وُلِدَ بابر في المحرم سنة (888هـ = 1483م) بمدينة فرغانة الهندية، التي كان أبوه ملكًا عليها، وبعد وفاة أبيه تولى حكمها وكان لا يزال في الثانية عشرة من عمره، فتعرض لعدة مؤمرات من أعمامه لعزله، اضطر على أثرها إلى الرحيل إلى أفغانستان، واستقر بكابل، وجعل منها نواة لإقامة دولة قوية، وواتته الفرصه لتوسيع رقعة دولته حينما استغاث به حاكم لاهور ضد حاكم دلهي فزحف بابر بجيشه

نحو الهند، فاستولى على السند سنة (925هـ) ثم على لاهور سنة (930هـ) ثم دخل دلهي سنة (932هـ) ثم أكرأ. ولما رأى ذلك أمراء الهندوس تحالفوا ضده ليوقفوا زحفه ويقضوا على دولته، فأعدوا جيشًا كبيرًا لذلك، والتقى الطرفان في معركة حاسمة تمكن فيها بابر من هزيمتهم ثم اتجه إلى شرقي الهند فاستولى على بيهار، وهكذا صارت له دولة مترامية الأطراف، واتخذ من أكرأ عاصمة لها. وبعدها أمّن بابر دولته من الخارج، اتجه للإصلاحات الداخلية، فمهّد الطرق، وحفر الترع والأنهار ونظّم الضرائب، وأقام شبكة بريد جيدة، واهتم بالنواحي الثقافية حيث كان بابر أديبًا رقيقًا يقرض الشعر بالتركية والفارسية، وابتكر خطأً جديدًا نُسب إليه وكتب به مصحفًا، أهداه إلى المسجد الحرام بمكة. وألّف بابر عدة كتب، مثل: الفتح المبين في الفقه الحنفي، وبابرنامجه وهو تاريخ حياه بابر في صورة مذكرات أو يوميات ضمنها ترجمة لحياته وعصره، كتبه بالتركية، ثم تُرجم إلى الفارسية وعدة لغات أوروبية. وتُوِّفِّي بابر سنة (937هـ = 1531م)، وعمره خمسون سنة، ودفن بكابل بأفغانستان.

(158/10)

\*أكبر شاه

أحد ملوك امبراطورية المغول في الهند تولى الحكم في عام (963هـ = 1556م)، وانتقل بالبابريين من مجرد غزاة إلى أصحاب دولة قوية راسخة البنيان؛ إذ استولى على أهم مناطق «الهند»، وانتصر في معركة «باني بت» في عام (964هـ = 1556م) - وهي المنطقة نفسها التي انتصر فيها «بابر» من قبل - ونجح «أكبر شاه» في تنظيم حكومة أجمع المؤرخون على دفتها وقوتها، وذلك فضلًا عن النهضة الثقافية التي حدثت في عصره، والتي

بلغت مكانة سامية لم تصل إليها بلاد «أوربا»، ثم تُوفى «أكبر شاه» في سنة (1014هـ = 1605م)

(159/10)

### \*شاه جهان

أحد ملوك امبراطورية المغول في الهند، تولى الحكم في عام (1037هـ = 1628م) خلفاً لوالده جهانكيرخان. اشتهرت «ممتاز محل» زوجة «شاهجهان» بالطيبة والصفات الحميدة، والبر بالفقراء، ودفعت زوجها إلى العفو عن المذنبين، واستخدام «التأريخ الهجرى» بدلا من «التأريخ الألفى» الذى وضع في عهد «جلال الدين أكبر». أحب «شاه جهان» زوجته حبا شديداً، وبلغ وفاؤه لها مبلغاً عظيماً، وبنى لها مقبرة «تاج محل»، التى تعد من روائع الفن المعمارى، وإحدى عجائب الدنيا، ومازالت قائمة حتى الآن. وفي عهد «شاه جهان» حدثت مجاعة شديدة بالهند، فاستغلها البرتغاليون فى خطف الأهالى وأسرههم، ثم بيعهم فى سوق الرقيق، وقد استطاع «قاسم خان» تخلص عشرة آلاف فرد منهم من أيديهم، وعهد «شاه جهان» بالحكم إلى ابنه «أورنك زيب»، بعد أن عهد إليه بالقضاء على ثورات «الدكن».

(160/10)

### \*عثمان بن أرطغرل

تولى مسئولية إمارة آل عثمان بعد أبيه، وبدأ فى توطيد سلطانه على أساس من العدل والنظام، وأخذ فى توسيع رقعة دولته حتى وصلت إلى مدينة «بني شهر» التى اتخذها عاصمة

لبلاده، وبذلك أصبح على مرمى البصر من «بروصة» و «نيقية»  
وكانتا من أهم المدن في غربي «الأناضول». ولما وجد «عثمان»  
أن إمارة «آل قرمان» هي أقوى الإمارات التي قامت على  
أنقاض دولة سلاجقة الروم، أرسى سياسته على عدم الاصطدام  
بها والتوسع غربًا تجاه البيزنطيين، وبدأ في إرسال حملاته من  
موقعه الحصين في «بني شهر» إلى المدن اليونانية المجاورة،  
ونجح في الاستيلاء على كثير من الحصون، قبل أن تتحرك  
جيوش الدولة البيزنطية لمواجهته. عرف الأمير «عثمان» بشخصيته  
القوية، وتحليه بالصبر والمثابرة وضبط النفس، وحماسه  
للإسلام، لكن في غير تعصب، بل في سماحة ورفق، فلم يضطهد  
أهل الذمة، وإنما اجتذبهم إلى خدمته، فأسلم منهم جماعات  
كثيرة صارت ركيزة من ركائز دولته الناشئة. وتوفي «عثمان»  
سنة 726هـ = 1326م ويُعدُّ أول من استقل بالإمارة، وراوده حلم  
إرساء قواعد دولة مترامية الأطراف، وكان أهل إمارته يطلقون  
عليه لقب «قرة عثمان» رمزًا لقوة الشخصية والحيوية الجسمانية.

(161/10)

#### \*أورخان بن عثمان

تولى «أورخان» حكم إمارة آل عثمان بعد وفاة أبيه سنة  
(726هـ = 1326م)، ولم يكد يمضى على توليته وقت طويل حتى  
تقدم نحو بحر «مرمرة» وهزم حملة بيزنطية، كان يقودها  
الإمبراطور «أندرنيكوس الثالث» وبعدها تخلت بيزنطة عن بذل  
الجهود الخاصة بتنظيم المقاومة العسكرية في «الأناضول» أو  
تعزيز حاميات ما تبقى لها من المدن هناك، وقد أدى ذلك إلى  
نجاح «أورخان» في الاستيلاء على معظم شبه جزيرة «نيقيا»،  
وسواحل خليج «نيقوميديا» وسقوط «نيقيا» دون مقاومة، ثم

استيلائه على ما تبقى من الأراضى البيزنطية فى غربى  
«الأناضول» دون صعوبة، مما جعل دولته أقوى إمارات التركمان  
فى المنطقة، لاسيما وقد تعزز مركزها باعتبارها زعيمة الجهاد  
ضد البيزنطيين، كما عزز «أورخان» مركزه بالتوسّع على  
حساب إمارات الطوائف التى تطل على شواطئ «بحر مرمرة»  
وسيطر على ساحله الجنوبى مما سهل له مهمة العبور إلى أوروبا  
حين سنحت له الفرصة. وقد أمضى «أورخان» بعد استيلائه على  
إمارة «قرة سى» عشرين سنة دون أن يخوض معارك، وإنما  
شغل نفسه فى وضع النظم المدنية والعسكرية التى تقوى من  
شأن الدولة، وفى تعزيز الأمن الداخلى، وبناء المساجد  
والمدارس ورصد الأوقاف عليها، وإقامة المنشآت العامة. وتميزت  
الإدارة العثمانية فى عهد «أورخان» بالكفاءة، وإتاحة الفرص  
أمام رعايا الدولة، ومعاملة أهل الذمة بتسامح كامل، والاهتمام  
بالتعليم وأهله.

(162/10)

#### \*مراد بن أورخان

تولى حكم إمارة آل عثمان بعد وفاة أبيه سنة (761 هـ = 1360 م)، وواصل جهود أبيه فى الفتح، ونجح فى العام التالى من توليه الحكم فى فتح مدينة «أدرنة» ونقل إليها العاصمة بعد أن كانت فى «بورصة»، ثم فتح أراضى الدولة البيزنطية فى «البلقان»، حتى أصبحت «القسطنطينية» عاصمة البيزنطيين محاصرة تمامًا بالأراضى العثمانية، ونتيجة لتلك الفتوحات صارت الدولة العثمانية متاخمة لكل من «الصرب» و «البلغار» و «ألبانيا». وأدى هذا النشاط العثمانى إلى انزعاج أوروبا وازدياد قلقها، فكتب أمراء تلك المناطق إلى ملوك أوروبا الغربية وإلى البابا

يستجدون بهم ضد المسلمين، فقام البابا بالدعوة إلى قيام حرب صليبية جديدة، غير أن ملك الصرب هاجم «أدرنة» عاصمة العثمانيين وكان «مراد» غائبًا عنها، فلما علم بأخبار هذا الهجوم عاد بجيشه ليحارب الصرب، ونجح في إلحاق الهزيمة بهم. ثم قام ملك الصرب - الجديد وقتها - بعقد حلف عسكري مع أمير «بلغاريا» لمحاربة العثمانيين، فلما قامت الحرب بينهما هرب أمير البلغار من المعركة، ثم اصطاح الطرفان الصربي والبلغاري مع الدولة العثمانية، نظير جزية سنوية يقدمانها لها، لكن الصرب نقضوا عهدهم فأقام ملكهم تحالفًا صليبيًا مع «ألبانيا» ضد العثمانيين، والتقى الفريقان في مكان يُسمى «قوصوة» سنة (197هـ = 9831م) حيث دارت معركة من أعظم معارك الإسلام، انتصر فيها العثمانيون، وهُزم الصرب هزيمة منكرة، وقتل ملكهم. وعقب انتهاء المعركة قام الأمير «مراد» بتفقد ساحة المعركة، وكان الليل حالك السواد، والهلال والنجوم في السماء، وساحة المعركة مدرجة بالدماء، فأوحى ذلك بفكرة العلم العثماني كما يقال، فجاء علمًا أحمر الأرضية يذكّر بالدماء التي مالت أرض «قوصوة» ويزين العلم الهلال والنجوم، ولا يزال علم تركيا على هذه الصورة حتى الآن. وأثناء تفقد الأمير المنتصر «مراد» ساحة القتال؛ إذا بصربي جريح يقوم من

(163/10)

---

بين القتلى ليطعنه بخنجر فيقتله على الفور، ويستشهد في ساحة الجهاد، وهو يبلغ من العمر (65) عامًا. عُرف الأمير «مراد الأول» بالعدل، وبمعاملة رعيته من أهل الذمة معاملة حسنة، وبكثرة المعارك التي حالفه فيها النصر، حتى إنه دخل (73) معركة في «الأناضول» وفي «البلقان» خرج منها جميعًا مظفرًا،

كما أنه تسلم الدولة من أبيه ومساحتها نحو (59000 كم2)،  
وتركها عند استشهاده وهي تبلغ (500000 كم2)، أى أنها  
زادت في مدى (29) سنة أكثر من خمسة أمثالها حين تسلمها من  
أبيه.

(164/10)

### \*مراد الثانى

أحد سلاطين الدولة العثمانية، تولى عرش السلطنة سنة  
824هـ=1421م وعمره (17) سنة، وبدأ عهده بعقد هدنة مع ملك  
«المجر» لمدة خمس سنوات حتى يتفرغ للأناضول، ويعقد صلح  
مع أمير «قرمان»، ثم اتجه «مراد» إلى محاصرة مدينة  
«القسطنطينية» سنة (825هـ = 1422م)، ودام الحصار (64) يوماً،  
وكان بحريا وبريا، بجيش قوامه ثلاثون ألف جندي، وكان  
احتمال سقوط العاصمة البيزنطية كبيراً، بعد أن أحدثت القوات  
العثمانية أضراراً بالغة بسور المدينة، غير أن السلطان «مراد»  
اضطر إلى رفع الحصار بعد أن جاءته أنباء حدوث فتنة في  
«الأناضول» وعقد الصلح مع «بيزنطة» مقابل أن تدفع جزية  
كبيرة سنوية. ثم اتجه «مراد الثانى» إلى تأديب إمارات  
«الأناضول» التي تمردت عليه أثناء انشغاله بمحاربة «بيزنطة»  
ففضى بصورة نهائية على إمارات «منتشة» و «أيدين»،  
و «تسكا» وقلص حدود إمارة «جاندار». وفي سنة (829هـ =  
1426م) اجتاز السلطان «مراد الثانى» على رأس جيشه «نهر  
الدانوب» والتقى مع الجيش المجرى، وانتصر عليه، وعقد مع ملك  
«المجر» معاهدة تنازل بمقتضاها عن أملاكه في الضفة اليمنى  
لنهر الدانوب، الذى أصبح فاصلاً بين أملاك الدولة العثمانية  
و «المجر»، ثم فتح «مراد» «سالنيك»، و «يانيا» ونجح في إلغاء

إمارة «الصرب» تمامًا وأطلق عليها لواء «سمندرة» كما خضعت «ألبانيا» للدولة العثمانية بعد حروب يسيرة، وعقدت «البندقية» صلحًا معها. وفي عهد «مراد الثاني» توترت العلاقات بين المماليك والعثمانيين بسبب إمارتي «قرامان» و «دلقادر» غير أنه لم يهتم بهذا الأمر بسبب إعلان البابا «أوجينيوس الرابع» سنة (843هـ=1439م) عن حملة صليبية ضد الدولة العثمانية بقيادة القائد المجرى «هونيادى» الذى اتخذ من إخراج العثمانيين من «البلقان» هدفًا لحياته. وقد تمكن هذا القائد المجرى من هزيمة عدة جيوش عثمانية، مما اضطر السلطان إلى محاربته بنفسه، ثم

(165/10)

عقد صلحًا مع «المجر» سنة (848هـ = 1444م)، أعيد بمقتضاه تأسيس إمارة «الصرب» على أن تكون تابعة للدولة العثمانية، ومنطقة عازلة بينها وبين «المجر». ولما شعر السلطان «مراد الثاني» بالتعب تخلى عن عرشه لابنه «محمد الثاني» الذى عرف فيما بعد بمحمد الفاتح، وكان عمره آنذاك (21) عامًا، فشكل الأوربيون على الفور حملة عسكرية على الدولة العثمانية، وشاركت فيها قوات من «المجر» و «قولونية» و «ألمانيا»، و «فرنسا» و «البندقية» و «بيزنطة» و «بيرجودريا» وكانت تلك الحملة بقيادة «هونيادى»، واختير الملك المجرى «لاديسلاس» قائدًا شرفيا للحملة، وقد نُهبت هذه الحملة وهى فى طريقها كل شىء، حتى الكنائس الأرثوذكسية لم تسلم من أيديهم. وإزاء هذه التطورات اجتمع مجلس شورى السلطنة العثمانية، وطلب عودة «مراد الثاني» إلى الحكم مرة أخرى، فعاد وبدأ فى إعداد جيشه للقاء تلك الحملة الصليبية، فتحرك على رأس جيشه الضخم الذى بلغ أربعين ألف جندى، والتقى مع تلك الحملة فى

«فارنا» وهي مدينة بلغارية تقع على شاطئ «البحر الأسود»، ودارت بينهما معركة هائلة عرفت باسم «معركة فارنا» في (28 من رجب 848 هـ = 10 من نوفمبر 1444م)، وفيها حقق العثمانيون نصرًا غالبًا، وقتل الملك «لاديسلاس»، وهرب «هونيادي» من المعركة، وبهذا النصر أيقن الأوروبيون صعوبة طرد العثمانيين من منطقة «البلقان». وقد فرح العالم الإسلامي بهذا النصر فرحًا شديدًا حتى إن السلطان «جقمق» المملوكي أمر أن يذكر اسم السلطان «مراد الثاني» مجاملة بعد اسم الخليفة العباسي في «القاهرة». لم تستسلم «أوربا» لهذه الهزيمة فجهزت حملة صليبية أخرى ضمت نحو مائة ألف جندي بقيادة «هونيادي» وانتقلت بالعثمانيين بقيادة السلطان «مراد الثاني» في صحراء «قوصوه» في (18 من شعبان 852هـ=17 من أكتوبر 1448م)، وانتصر العثمانيون في هذا اليوم انتصارًا عظيمًا.

(166/10)

### \*بايزيد الثاني

هو أحد سلاطين الدولة العثمانية، تولى الحكم بعد أبيه محمد الفاتح بعد نزاع بينه وبين أخيه «جم»، وكان الأخوان قد اختلفا بعد وفاة والدهما في (4 من ربيع الأول سنة 886هـ=3 من مايو سنة 1481م)، وانتهى الصراع بينهما لصالح «بايزيد»، وفر «جم» إلى «القاهرة»، ثم إلى «فرنسا»، ثم إلى «إيطاليا»، وقد تكفل أخوه «بايزيد» بالإنفاق عليه في كل مكان ذهب إليه، وقد حاول بابا روما استخدام الأمير «جم» أداة ضغط على الدولة العثمانية، لكنه لم يعيش طويلًا. عُرف «بايزيد» بلقب الولي أو الصوفي، لأن حروبه ضد «أوربا» لم تكن في مستوى من سبقوه في حكم الدولة العثمانية، لكن كانت له حملات على

«المجر» و «البغدان» و «بلجراد»، كما كانت له معارك في «الأناضول»، وصدام مع المماليك، لكن «يحيى الثالث» سلطان «تونس» قام بالوساطة بين الدولتين. وقامت في عهده أول حملة عثمانية في غربي «البحر المتوسط»، بهدف مساعدة المسلمين في «الأندلس»، ودخلت هذه الحملة المياه الإسبانية، واستولت على ميناء «مالقة» الذي كان الإسبان قد استولوا عليه من مسلمي «الأندلس» قبل أشهر. وبعد سقوط «غرناطة» في أيدي الإسبان سنة (897هـ = 1492م) انتشر نحو (300) ألف مسلم على سواحل «إسبانيا»، وقد قامت السفن العثمانية بنقل هؤلاء إلى «فاس» و «الجزائر»، وأنقذتهم من المصير المؤلم الذي تعرّض له المسلمون بالداخل، وظلّت هذه الحملات تتتابع، وقاد أغلبها «كمال رئيس» نحو (23) سنة حتى استشهد أثناء عودته من حملة على «إسبانيا» سنة (917هـ = 1511م). عقد «بايزيد الثاني» صلحًا مع «أوربا» لمدة عشرين سنة تقريبًا، وكان السبب في ذلك انشغال الدولة العثمانية بتحركات الشاه «إسماعيل الصفوي»، الذي جعل «إيران» دولة شيعية، وكوّن جيشًا قويًا، ووسع حدوده، وتفوق على المماليك عسكريا واقتصاديا، وعمل على التوسع على حساب الدولة العثمانية، والتحالف مع «أوربا»

(167/10)

---

ضد العثمانيين، وحاول التحالف مع «مصر» ضد الدولة العثمانية، لكن المماليك في «مصر» رفضوا ذلك. حدثت مناقشات بين الشاه «إسماعيل الصفوي» وبين «سليم ابن السلطان بايزيد» والي «طرابزون»، كان النصر فيها حليف «سليم بن بايزيد»، فأثار ذلك حفيظة الشاه، فاشتكى إلى السلطان «بايزيد» من ابنه، فأمر بإعادة الأراضي التي استولى عليها إلى الصفويين. وقد

أدى هذا التصرف إلى استياء «سليم بن بايزيد» من والده، وشكّه في مقدرة والده على التصدى للدولة الصفوية، فقام بانقلاب على والده، بمساعدة الجنود الإنكشارية، التي سارت بالأمر «سليم» إلى «إستانبول»، وطلبوا من السلطان «بايزيد» التنازل عن عرش السلطنة لابنه «سليم»، فقبل واستقال في يوم (8 من صفر سنة 918 هـ = 25 من أبريل سنة 1512م).

(168/10)

---

### \*سليمان القانوني

تولى السلطان «سليمان القانوني» عرش الدولة العثمانية بعد موت والده السلطان «سليم الأول» عام (926هـ = 1520م) وحكم الدولة العثمانية مدة ست وأربعين سنة وهي أطول مدة حكم فيها سلطان عثماني. كان عهد «القانوني» قمة العهود العثمانية سواء في الحركة الجهادية أم في الناحية المعمارية أو العلمية أو الأدبية أو العسكرية، وكان هذا السلطان يؤثر في السياسة الأوروبية تأثيرًا عظيمًا؛ حيث كانت الدولة العثمانية هي القوة العظمى دوليًا في زمنه، ونعمت بالرخاء والطمأنينة. وفي (صفر 974هـ = سبتمبر 1566م) اشتد المرض بالسلطان «سليمان» وهو يحاصر مدينة «سيكتوار» المجرية، ثم تُوفى في (20 من صفر سنة 974هـ = 5 من سبتمبر سنة 1566م) بعد أن قضى في الحكم 46 عامًا قضاها في توسيع دولته وإعلاء شأنها، حتى بلغت في أيامه أعلى درجات القوة والكمال، وفي وضع النظم الداخلية للدولة حتى اشتهر بلقب «القانوني».

(169/10)

---

## \*محمود الثاني

وُلد السلطان «محمود» سنة (1199هـ = 1784م)، وتقلد مقاليد الخلافة العثمانية وهو في الرابعة والعشرين من عمره، فقلد «مصطفى البيرقدار» منصب الصدارة العظمى، وطلب منه إصلاح نظام «الإنكشارية» فاعترضوا عليه، ووقع الخلاف بينهم وبين السلطان، وأرادوا إعادة الخليفة «مصطفى الرابع» المعزول، لكنه قتل وهم يحاصرون الصدر الأعظم في قصره الذي أحرقوه وهو بداخله. وقد رأى السلطان «محمود» أن نجاح الإصلاح في دولته يجب أن يكون شاملاً لكل النظم العثمانية ومؤثراً في المجتمع، ولا يقتصر على المجال العسكري، ولذا يجب إزالة النظم القديمة، حتى لا تعترض طريق الإصلاح، والتخطيط الدقيق للإصلاح، وإيجاد الضمانات اللازمة التي تكفل نجاحه قبل القيام به. وقد نجح السلطان «محمود» في القضاء على فرقة «الإنكشارية»، التي قامت بالتمرد وإثارة الجماهير ضد الإجراءات المتصلة بإصلاح الجيش، وبخاصة فيما يتعلق بارتداء القوات الجديدة للملابس الأوروبية، لكن الشعب العثماني وقف ضدهم، في الوقت الذي استعد فيه السلطان «محمود» لمواجهةهم، مما مكنه من القضاء عليهم تماماً، وأنشأ جيشاً قويا يتولى إمرته قائد عام، كان قوامه (12000) جندي في العاصمة، وقوات أخرى في الولايات. وكما ارتبط التعليم لدى «محمد على» بالجيش ارتبط بالجيش أيضاً عند «محمود الثاني»، الذي حاول الاقتداء بواليه الناجح، فأرسل البعثات إلى «أوروبا» لتلقى العلوم العسكرية خاصة، وأنشأ المدارس الحديثة، وعنى بتعليم اللغتين العربية والفرنسية والجغرافيا، والتاريخ والرياضيات والعلوم. وحاول السلطان إصلاح أجهزة الدولة المركزية، فوضع الأوقاف تحت إشرافه، وألغى «التيمارات»، وضمها إلى أملاك السلطان، وأجرى أول إحصاء للأراضي العثمانية في العصر الحديث، وأجرى تحسينات على شبكة

المواصلات، فأنشأ كثيراً من الطرق الجديدة، وأدخل البرق،  
وخطوط السكك الحديدية، كما أنشأ جريدة رسمية للدولة. وبعد

(170/10)

---

وفاة السلطان «محمود» سنة 1255هـ = 1839م تولى ابنه «عبد  
المجيد» الخلافة وعمره دون الثامنة عشرة.

(171/10)

---

**\*عبد العزيز بن محمود الثاني**

ولد في (14 من شعبان 1245هـ = 9 من فبراير 1830م)، وتولى  
الخلافة بعد وفاة أخيه «عبد المجيد بن السلطان محمود» في  
(17 من ذى الحجة 1277هـ = 6 من يونيو 1861م)، وبعد وفاة  
«غالى باشا» و «فؤاد باشا» اللذين توليا منصب الصدر الأعظم  
وضيقا على السلطان، مارس السلطان «عبد العزيز» حكمه  
الشخصى، فاشتد سخط العثمانيين على ممارسات السلطان  
الاستبدادية، وتدخل السلطنة «الوالدة باشا» في شئون الحكم،  
وزداد القلق بسبب سوء الأوضاع الاقتصادية، وإعلان إفلاس  
الحكومة العثمانية في أواخر سنة (1292هـ = 1875م)، وهو  
الإفلاس الذى عُزى إلى إسراف «عبد العزيز» وخراب ذمته هو  
وحاشيته. وأما المحافظون فقد أرجعوا متاعب الدولة إلى  
«التنظيمات» العلمانية، ونفوذ الأجانب، وتدخلهم في شئون  
البلاد، مما أدى إلى انتعاش إسلامى، كان من نتيجته التضييق  
على المدارس الأجنبية وأعمال المبشرين، وطرد المعلمين  
والخبراء الأجانب، كما اشتدت المطالبة بإلغاء الامتيازات  
الأجنبية، والوضع الذى كان يتمتع به الأجانب. وساءت أحوال

الدولة الاقتصادية في أواخر عهد السلطان «عبد العزيز»، بحيث توقف صرف مرتبات الموظفين - بما في ذلك العسكريون - لعدة شهور، ولم يؤدِّ فرض ضرائب جديدة إلى معالجة الأوضاع المتردية، لهذا سعى «مدحت باشا» إلى تحسين أوضاع الحكومة بخلع «عبد العزيز» خاصة، ولأنه كان مؤمناً بأن ولى العهد الأمير «مراد الخامس» أميل إلى إعلان الدستور. وفي (6 من جمادى الأولى سنة 1293هـ = 30 من مايو سنة 1876م) قامت مجموعة صغيرة من كبار موظفى الحكومة يرأسهم «مدحت باشا» بانقلاب ضد الخليفة، عززته فتوى شيخ الإسلام، وولى الثائرون السلطان «مراد الخامس» الذى كان قد اتصل بشباب العثمانيين عدة سنوات.

(172/10)

---

\*أيوب بن حبيب البلخى

أحد ولاية الأندلس، تولى الحكم فى (رجب 97هـ = فبراير 716م)، وهو ابن أخت «موسى بن نصير»، ومن العرب الذين اشتروا فى فتح هذه البلاد، ثم استقروا بها، ورأوا أنهم أولى من غيرهم بحكم الأندلس، ولم تزد ولاية «أيوب» على ستة أشهر لم يفعل فيها شيئاً يذكر سوى نقله العاصمة من «إشبيلية» إلى «قرطبة» لأن موقعها أوسط وأقرب إلى منازل جماعات العرب فى الشرق، والجنوب، والجنوب الشرقى.

(173/10)

---

\*الحر بن عبدالرحمن الثقفى

أحد ولاية الأندلس، تولى الحكم فى (ذى الحجة 98هـ = يوليو

717م)، ودام حكمه سنتين وثمانية أشهر، استطاع خلالها أن يجمع المنازعات التي كانت بين العرب والبربر، ويصلح الجيش، وينظم الإدارة، ويوطد الأمن. وينسب إلى «الحر» إقامته دار الإمارة في «قرطبة» في مواجهة «قنطرة الوادي»، وكانت من قبل مقرا للحاكم القوطي، فاعتنى بها «الحر» وسمى القصر والأرض الواسعة أمامه على ضفة النهر «بلاط الحر». وبعد أن تولى «عمر بن عبدالعزيز» الخلافة عزل «الحر» عن ولاية الأندلس، لاضطراب النظام في آخر عهده.

(174/10)

### \*السمح بن مالك الخولاني

أحد ولاة الأندلس، تولى الحكم في سنة (100هـ = 719م)، وبعد من خيرة ولاة «الأندلس»، فضلا وصلاحا وكفاءة وقدرة؛ حيث نظم شئون البلاد، وأعاد بناء القنطرة التي كانت مقامة على الوادي الكبير، وكانت قد تهدمت ولم يعد الناس يستطيعون العبور إلا في السفن، وكان العرب في أمس الحاجة إلى قنطرة متينة يستطيعون العبور إليها من الجنوب إلى عاصمتهم الجديدة، كما أعاد الأمن والاستقرار إلى البلاد لحسن سياسته، وحمله الناس على طريق الحق، ورفقه بهم. ولم يكن «السمح بن مالك» كفاء من الناحية الإدارية فحسب، بل كان أيضا قائدا عسكريا ممتازا قام بحملة شاملة، اخترقت «جبال البرت» من الشرق، وسيطر على عدد من القواعد هناك، واستولى على «سبتمانيا» وأقام حكومة إسلامية بها في هذا الوقت المبكر، واتخذ من «أربونة» قاعدة للجهاد وراء «البرت»، وقد استشهد في معركة مع النصارى عند «تولوز» في يوم عرفة من سنة (102هـ

=721م)، فتولى القيادة «عبدالرحمن بن عبدالله الغافقي»، وأقر واليًا للأندلس حتى يأتي الحاكم الجديد.

(175/10)

---

### \*عبدالرحمن الغافقي

أحد ولاية الأندلس، تولى الحكم مرتين الأولى كانت سنة 102هـ =721م ولم تدم طويلاً، أما الثانية فبدأت في (صفر 112هـ = مارس / إبريل 730م) وكان «الغافقي» من كبار رجالات الأندلس عدلاً وصلاحاً، وقدرة وكفاءة، نظم شئون البلاد، وأصلح نظم الحكم والإدارة، وعين أصحاب الكفاءات في المناصب المختلفة، وقمع الظلم، ورد إلى النصارى كنائسهم وأملاكهم، وفرض ضرائب عادلة وعنى بتنظيم الجيش وإصلاحه، وأنشأ فرقاً من العرب والبربر، وحصن القواعد والنجور الإسلامية، وجمع أعظم جيش سيره المسلمون إلى فرنسا. وقد استشهد عبد الرحمن الغافقي في موقعة بلاط الشهداء سنة 114هـ = 732م

(176/10)

---

### \*عبدالملك بن قطن الفهري

أحد ولاية الأندلس، ولى حكم الأندلس بعد استشهاد «عبد الرحمن الغافقي» في موقعة بلاط الشهداء، فعبر إلى الأندلس في جيش من جند إفريقية في أواخر سنة (114هـ = 732م) وسار إلى «أراجون» وهزم النائرين في عدة مواقع، ثم عبر جبال البرت إلى بلاد «البشكنس» سنة (115هـ = 733م)، وكانت أشد المقاطعات الجبلية مراساً وأكثرها انتفاضاً وثورة، فشنت جندها وأجأهم إلى طلب الصلح، ثم اضطر بعد ذلك إلى أن يرتد إلى

الجنوب دون أن يتوغل كثيراً في أرض العدو، لقلّة ما معه من الجند، ثم سخط عليه الزعماء، ودب خلاف بين القبائل، وأدى ذلك إلى عزله. ثم أقامى عرب الأندلس «عبد الملك بن قطن» والياً عليهم للمرة الثانية سنة 121هـ، فكان عهده بداية عهد من الفتن والاضطرابات والحروب الأهلية؛ إذ اشتعلت ثورة البربر بسبب تعصب العرب لبني جنسهم وتعاليتهم على غيرهم، وكان معظم هؤلاء من «القيسية» الذين يرون أن الدولة الأموية دولتهم، على حين كان العرب البلدانيون ومعظمهم من «اليمنية» يعيدون عن هذه النزعة وظل الأمر على هذا النحو حتى عزل عبد الملك في (سنة 124هـ = 742م).

(177/10)

#### \*عقبة بن الحجاج السلولى

أحد ولاة الأندلس، تولى الحكم سنة (116هـ = 734م) بعد «عبد الملك بن قطن» وكان رجلاً عظيماً مثل «عبد الرحمن الغافقى»، فنشر العدل ورد المظالم، وأنشأ المساجد ودور العلم ونظم الجيش، وتوغل في أراضي «جليقية» شمالي الأندلس، واهتم بتحسين جميع المواقع الإسلامية، ومنح عناية خاصة لتغر «أربونة» واتخذها قاعدة للجهاد، وأمد رجاله بالجند والذخيرة. وكان يخرج للغزو كل عام على مدار خمس سنوات في الجنوب والشمال الشرقي من فرنسا، حتى أصبح نهر «الرون» رباط المسلمين ومعقل فتوحاتهم بعد أن كان الفرنج قد استردوا مافي أيدي المسلمين، وقد استشهد «عقبة» في معركة مع الأعداء سنة (121هـ = 739م)، فكان خاتمة الولاية للمجاهدين وراء البرت.

(178/10)

### \* أبو الخطار الكلبي

أحد ولاة الأندلس، أرسله والى إفريقية فقدم إلى «الأندلس» في (رجب سنة 125هـ = مايو 743م)، وبدأ ولايته بتأمين العرب البلدانين والبربر على ممتلكاتهم ومصالحهم، وحال بين الشاميين وبين إيدائهم، وعمل على القضاء على المنازعات القبلية بين السكان، ورأى بعد نصيحة ذوى الرأى أن يفرق الشاميين فى مناطق لا يوجد فيها بلدانيون أو يمينيون، ويستقر كل فريق منهم بناحية ويأخذ ثلث خراج الأرض مقابل أن يقدموا عددًا معينًا من الجند، كلما طلبت السلطات منهم ذلك، كما تتبع الزعماء الخارجين وسلك معهم سبيل الحزم، وكان عادلاً؛ فرضى عنه الجميع. غير أن «أبا الخطار» مالبت أن تخلى عن تلك السياسة الحكيمة، ومال إلى قومه من اليمينية وتكرر للمُضَرِّية، فعادت المعارك بينه وبين خصومه من جديد، وقتل بعضهم بعضًا، وانفضت عنه جنده، وعمت الفوضى البلاد إلى أن تولى الفهرى.

(179/10)

### \* يوسف بن عبدالرحمن الفهرى

أحد ولاة الأندلس، تولى الحكم سنة (129هـ = 747م) دون مصادقة من إفريقية أو من دمشق التى كانت قد بدأت فترة من الضعف فلم تتمكن الخلافة من الإشراف على الولايات، واستقلت الأندلس بشئونها. استقل «يوسف» بولاية الأندلس نحو عشرة أعوام، واتفق مع «الصميل ابن حاتم» زعيم المضربية على أن يتداولوا السلطة فيما بينهما، لكن الأمور لم تستقر، وتجدد النزاع بين المضربية واليمينية، ولم تستقر الأوضاع ليوسف إلا بعد مقتل زعيم اليمينية سنة (130هـ = 748م). وقد حاول «يوسف» إصلاح

الدولة، فنظم شئونها المالية، وقسم البلاد إلى خمس ولايات إدارية على نحو ما كانت عليه زمن القوط، كما عني بتنظيم الجيش وإصلاحه، والقضاء على خصومه، وشغلت الخلافة بمشاكلها عن الأندلس. ثم ظهر في شمال البلاد رجل يدعى «عامر بن عمرو بن وهب العبدري»، وبدأ يرأس الخليفة العباسي «أبا جعفر المنصور»، وعين نفسه واليًا على الأندلس، وأصبح الشمال في قبضته، وخرج عن سلطان «يوسف» الذي توجه إلى «سرقسطة»، وحاصرها بشدة سنة (137هـ = 754م) حتى استسلم «عامر»، ثم اتجه «يوسف» بعد ذلك إلى «طليطلة». وفي طليطلة جاء رسول من قرطبة بخبر مؤداه أن فتى من بني أمية يدعى «عبدالرحمن بن معاوية» قد نزل في ثغر المنكب بالأندلس، واجتمع حوله أشياع بني أمية في كورة غرناطة، وأن دعوته انتشرت بسرعة في الجنوب، وقد ذاع هذا الخبر في جند يوسف فأحدث فرعًا واضطرابًا، وتفرق عنه جنده، فاضطر هو و «الصميل» بالعودة بمن معهما متوجهين إلى قرطبة؛ لمواجهة هذا الخطر الداهم، وكان ذلك سنة (138هـ = 755م).

(180/10)

### \*عبدالرحمن الداخل

هو «عبدالرحمن ابن معاوية بن هشام بن عبدالملك» تمكن من الوصول إلى الأندلس، بعد أن عبر فلسطين ومصر وكان ذلك بعد سقوط الدولة الأموية على يد العباسيين، ثم لحق به مولاه «بدر» وهو رومي الأصل، ومولاه «سالم» ومعهما شيء من المال والجواهر، ثم وصل «عبدالرحمن» إلى «برقة» والتجأ إلى أخواله من «بني نفزة» - من برايرة طرابلس - وأقام عندهم مدة، ثم غادر إلى المغرب الأقصى، وتجول هناك، متغلبًا على ما

قابله من صعاب، وأقام حيناً عند شيوخ البدو، وحيناً عند بعض رجال قبيلة زناتة، وكان أثناء ذلك يدرس أحوال الأندلس، ويرقب الفرصة المناسبة للعبور إليها. وقد اتصل بمعونة مولاه «بدر»، الذى كان قد نزل بساحل «لبيرة» فى كورة «غرناطة» موطن أهل «الشام» بموالى خلفاء البيت الأموى والقرشيين عامة، وبالكليبة اليمنية، خصوم الوالى يوسف الفهرى، ثم عبر عبدالرحمن إلى الأندلس فى ربيع سنة (137هـ = 754م)، ونزل بتغر «المنكب» لموقعه الممتاز، وقد التف الناس حوله بما فى ذلك جماعات البربر، على أمل أن ينقذهم من الأوضاع المتردية. تقدم عبدالرحمن نحو العاصمة «قرطبة»، وجمع «يوسف الفهرى» و «الصميل» ما أمكنهما من قوات، والتقى الفريقان عند «المصاراة» أو «المسارة» بالطرف الغربى، وتمكن عبد الرحمن من تحقيق انتصار حاسم، دخل على إثره قرطبة وصلى بالناس الجمعة، وخطب الجند، وعُد ذلك اليوم ميلاداً للدولة الأموية فى الأندلس، ولقب «عبدالرحمن بن معاوية» بعبدالرحمن الداخل، لأنه أول من دخل الأندلس من بنى أمية حاكماً. ولم يكن عمر «عبدالرحمن الداخل» حين حقق هذا الإنجاز يتجاوز السادسة والعشرين من عمره، لكنه كان رجل الموقف، شحذت همته الخطوب والمحن، وأعدته حياة النضال والمغامرة، فقضى بقية عمره اثنين وثلاثين عاماً فى كفاح مستمر، لا ينتهى من معركة إلا ليخوض أخرى، ولا يجمع ثورة إلا تلتها ثورة، ولم تبق بالأندلس

(181/10)

---

ناحية أو مدينة إلا تارت عليه، ولا قبيلة إلا نازعته فى الرئاسة، فكانت الأندلس طوال عهده بركاناً يشتعل بنيران الحرب والثورة والمؤامرة، لكنه صمد لتلك الخطوب جميعاً، واستطاع بما أوتى

من حزم وحسن سياسة وبعد المهمة والجلد والإقدام أن يغالب تلك الأخطار والقوى وأن يقبض على زمام الأمور بالأندلس بيده القوية. تُوفّي عبدالرحمن في (10 من جمادى الآخرة 172هـ = 16 من أكتوبر 788م) بعد حياة طويلة قضاهها في كفاح متواصل، ومواجهة للصعاب والأهوال، وأقام ملكًا ودولة فوق بركان يضطرم بالثورات والمؤامرة، وأثبت أنه بطل فريد من أبطال التاريخ، لا يجود الزمان بمثله كثيرًا، فتى شريدًا بلا أنصار وأعوان يفر من الموت الذي تعرضت له أسرته، ولكنه يستغل ظروف الأندلس فيقودها بكثير من الدهاء والحزم والعزيمة والذكاء، ويقوم دولة على أسس إدارية وسياسية ومالية ثابتة.

(182/10)

### \* هشام الأول

خلف «هشام» أباه «عبدالرحمن الداخل» سنة 172هـ = 788م على حكم الأندلس، وكان أبوه قد اختاره لا لأنه أكبر أبنائه، بل لما توسّمه فيه من المزايا الخاصة، وقد أبدى «هشام» لينًا وورعًا، وحسن سياسة، وبصرًا بالأمر، فجذب الناس إليه بإقامته للحق وتحريه للعدل، ومعاقبته للولاة المقصرين. ولم يعكر صفو أيام «هشام» إلا اشتعال بعض الثورات، منها: الثورة التي قام بها أخواه «سليمان» و «عبدالملك»، وانتهت بالصلح سنة (174هـ = 790م) على أن يقيما بعدوة المغرب، كما قاد حملة على نصارى الشمال الذين أغاروا على البلاد، فنجح في القضاء عليهم سنة (175هـ = 791م) ثم تكررت حملاته عليهم، حتى قضى على محاولاتهم التي استهدفت التوسع جنوبًا. وأهم ما يتميز به عهد «هشام» ذبوع مذهب الإمام «مالك بن أنس»، وحلوله محل مذهب الأوزاعي إمام أهل الشام الذي اتبعه

الأندلسيون، وكان الإمام مالك معاصرًا لهشام بن عبدالرحمن،  
كثير الثناء عليه، وقد وفد بعض الأندلسيين إلى المشرق  
وتعلموا على الإمام مالك، أمثال: الغازي بن قيس، وزياد بن  
عبدالرحمن المعروف بشيطون، وغيرهما، فلما عادوا إلى الأندلس  
رحّب بهم هشام، وسمح لهم بتدريس مذهب «مالك»، وأخذ  
القضاة يصدرون أحكامهم بناءً عليه، واتخذ منهم هشام كبار  
قضائه ومستشاريه، وشيئًا فشيئًا أصبح المذهب المالكي هو  
المذهب الرسمي للدولة. ويكاد يجمع المؤرخون على أن  
«هشامًا» كان رقيقًا تقيًا، صارمًا في الحق، محبا للجهاد، أنفق  
كثيرًا من الأموال في فداء الأسرى، كما كان شغوفًا بالإصلاح  
والتعمير، فأتم بناء مسجد قرطبة الجامع، وأنشأ مساجد  
أخرى، وزين «قرطبة» بكثير من الحدائق والمباني، وجدّد  
قنطرة قرطبة التي بناها «السمح بن مالك»، ونظّم وسائل الري،  
وجلب إلى الأندلس الأشجار والبذور. وكان هشام يحب مجالس  
العلم والأدب، وبخاصة مجالس الفقه والحديث، فقرب إليه الفقهاء

(183/10)

---

والعلماء، وبوَأهم أهم المناصب، خلافًا لما كان عليه زمن والده،  
وقد ترتب على ذلك نتائج سياسية واجتماعية ظهرت فيما بعد.

(184/10)

---

\*هشام بن عبد الرحمن الداخل

خلف «هشام» أباه «عبدالرحمن الداخل» سنة 172هـ = 788م  
على حكم الأندلس، وكان أبوه قد اختاره لا لأنه أكبر أبنائه، بل  
لما توسّمه فيه من المزايا الخاصة، وقد أبدى «هشام» لينًا

وورعًا، وحسن سياسة، وبصرًا بالأمر، فجذب الناس إليه بإقامته للحق وتحريره للعدل، ومعاقبته للولاة المقصرين. ولم يعكر صفو أيام «هشام» إلا اشتعال بعض الثورات، منها: الثورة التي قام بها أخواه «سليمان» و «عبد الملك»، وانتهت بالصلح سنة (174هـ = 790م) على أن يقيما بعدوة المغرب، كما قاد حملة على نصارى الشمال الذين أغاروا على البلاد، فنجح في القضاء عليهم سنة (175هـ = 791م) ثم تكررت حملاته عليهم، حتى قضى على محاولاتهم التي استهدفت التوسع جنوبًا. وأهم ما يتميز به عهد «هشام» ذبوع مذهب الإمام «مالك بن أنس»، وحلوله محل مذهب الأوزاعي إمام أهل الشام الذي اتبعه الأندلسيون، وكان الإمام مالك معاصرًا لهشام بن عبد الرحمن، كثير الثناء عليه، وقد وفد بعض الأندلسيين إلى المشرق وتعلموا على الإمام مالك، أمثال: الغازي بن قيس، وزباد بن عبد الرحمن المعروف بشيطون، وغيرهما، فلما عادوا إلى الأندلس رحب بهم هشام، وسمح لهم بتدريس مذهب «مالك»، وأخذ القضاة يصدرون أحكامهم بناءً عليه، واتخذ منهم هشام كبار قضاة ومستشاريه، وشيئًا فشيئًا أصبح المذهب المالكي هو المذهب الرسمي للدولة. ويكاد يجمع المؤرخون على أن «هشامًا» كان رقيقًا تقياً، صارمًا في الحق، محبا للجهاد، أنفق كثيرًا من الأموال في فداء الأسرى، كما كان شغوفًا بالإصلاح والتعمير، فأتم بناء مسجد قرطبة الجامع، وأنشأ مساجد أخرى، وزين «قرطبة» بكثير من الحدائق والمباني، وجدد قنطرة قرطبة التي بناها «السمح بن مالك»، ونظم وسائل الري، وجلب إلى الأندلس الأشجار والبذور. وكان هشام يحب مجالس العلم والأدب، وبخاصة مجالس الفقه والحديث، فقرب إليه الفقهاء

والعلماء، وبؤأهم أهم المناصب، خلافاً لما كان عليه زمن والده، وقد ترتب على ذلك نتائج سياسية واجتماعية ظهرت فيما بعد.

(186/10)

### \* الحكم الأول بن هشام

أحد حكام الأندلس في فترة الإمارة الأموية، تولى الحكم سنة (180هـ = 796م) بعد أبيه هشام بن عبد الرحمن الداخل. بدأ عهده بالجهاد ضد البشكنس (ثافارا)، لكنه اضطر إلى تركه لمواجهة الثورات التي اشتعلت ضده في الثغر الأعلى سنة (181هـ = 797م)، وكان عمّاه «سليمان» و «عبدالله» قد أتيا إليها سرا واتصلا بملك الفرنج وطلبوا مساعدتهما، ولما علم «الحكم» سار بجيوشه إلى الشمال، فاضطر الفرنج إلى الانسحاب، فأحكم سيطرته على هذه المناطق، وفي هذه الآونة حاول عمّاه الإغارة على قرطبة، فعاد الحكم وهزمهما، وقتل «سليمان»، على حين فرّ «عبدالله» إلى «بلنسية» والتزم الهدوء طوال فترة الحكم. ولم يكن الحكم الرضى كأبيه محبا للعلماء والفقهاء، فتراجعت مكانتهم في زمنه وآثر عليهم حضور مجالس الإماء والشعراء، وانصرف إلى حياة اللهو والصيد. ويُعدُّ الحكم أول من أظهر هيئة الملك بالأندلس وفخامته، ورُتّب للبلاط نظمه ورسومه، واستكثر من الموالي، فظهر «الصقالبة» بكثرة في بلاطه، وأسند إليهم معظم شئون الحكم والحرس الخاص، ووصل بهم إلى مراتب القيادة والرياسة، كما كانت له شرطة قوية وعيون على الناس. وضمت حكومته شخصيات بارزة في تاريخ الأندلس، منهم: «ابن مغيث» الذي تولّى حجابته، واستحدث منصباً يهتم بشئون أهل الذمة، سمّى شاغله بالقومس أو «القمط». وعلى الرغم من اشتعال الفتن والثورات في عهد الحكم، فقد ازدهرت العلوم

والآداب ونبغ عدد كبير من الكتاب والشعراء والعلماء، منهم «عباس بن ناصح الثقفي»، وابنه «عبد الوهاب»، و «أبو القاسم عباس بن فرناس»، و «يحيى الغزال». في أواخر عهد الحكم اشتعلت في «قرطبة» ثورة عنيفة سميت ثورة الربض، بسبب كراهية «المولدين» للحاكم، وبغضهم له لصرامته وقسوته، واتهامهم له بممارسة اللهو والشراب، والمبالغة في فرض الضرائب، وعلى الرغم من نجاح «الحكم» في القضاء على هذه

(187/10)

---

الحركة الثائرة، فإن أهل «قرطبة» تضاعفت كراهيتهم له، وزاد من نفورهم منه ما فرض عليهم من ضرائب. مرض الحكم بعد ذلك، وأخذ البيعة لولى عهده في حياته، وأبدى أسفه لما وقع منه لأهل الربض، ثم مات في (26 من ذى الحجة 206هـ = 22 من مايو 822م) بعد أن لُقّب بالربضي، نسبة إلى ما قام به من أعمال شنيعة في منطقة الربض الجنوبي.

(188/10)

---

### \*عبدالرحمن الأوسط

أحد حكام الأندلس في فترة الإمارة الأموية، تولى الحكم في (27 من ذى الحجة 206هـ = 822م) بعهد من أبيه الحكم بن هشام الربضي؛ وسمى عبد الرحمن الثاني لأنه حكم بعد جده عبد الرحمن الداخل. وكان «عبدالرحمن» منذ صغره شغوفاً بدراسة الأدب والحديث والفقه، ذا عقل مستنير، خبيراً بشئون الحرب والسياسة، هادئ الطباع، حسن العشرة، متقرباً إلى الناس، حازماً في أمره، ولهذا كان مؤهلاً لإزالة ما خلفته إمارة أبيه

الحكم من آثار سيئة. وقد واجه «عبدالرحمن» في أول ولايته سنة (207هـ = 823م) ثورة في «بلنسية» دامت عدة سنوات، ولم تنته إلا في سنة (213هـ = 828م) حيث نجح في القضاء عليها وإخماد فتنتها، كما واجه ثورة في قرطبة نجح في القضاء عليها أيضاً. استأنف «عبدالرحمن الثاني» برنامجه في الجهاد مبكراً، فأرسل في سنة (208هـ = 823م) حملة عسكرية بقيادة «عبدالكريم بن عبدالواحد بن مغيث» إلى «ألبة والقلاع» بعد أن أغار ملك جليقية (ليون) على مدينة سالم في الثغر الأعلى، وقد نجحت الحملة في إلحاق الهزيمة بالنصارى في عدة مواقع، وخربت مدينة «ليون» وأحرقت حصونها، وأطلقت سراح المسلمين، وألزمت القوات المعتدية بدفع جزية كبيرة وعادت الحملة بقيادة «عبدالكريم» إلى قرطبة مثقلة بالغنائم، وكانت تلك آخر غزوات هذا القائد المظفر الذي استمر يدافع عن الأندلس في ميادين القتال أكثر من ثلاثين سنة؛ حيث توفي في سنة (209هـ = 824م) ثم تعرّضت البلاد لعدد من الثورات والفتن والقلاقل في «طليطلة» و «ماردة» دامت سنوات طوال، واستنفدت كثيراً من الجهد والمال وإراقة الدماء حتى تمكن «عبدالرحمن» من القضاء عليها. عاود «عبدالرحمن» نشاط الجهاد، فبدأ يرسل الصوائف كل عام إلى الشمال تارة إلى أطراف الثغر الأعلى لتشتبك مع الفرنجة، وتارة إلى «ألبة والقلاع» حيث تغير على بلاب البشكنس وأطراف مملكة جليقية

(189/10)

---

(ليون)، وكان أحياناً يقود تلك الصوائف، مثلما فعل سنة (228هـ = 843م) حيث سار بجيشه إلى الشمال، وزحف على بلاد البشكنس، وألحق بملكها الهزيمة، واضطر إلى طلب الأمان، وعاد

عبدالرحمن إلى قرطبة بعد أن وطد نفوذه هناك، وفرض هيئته وقوته على البشكنس، حتى لا يتجرءوا على مهاجمة أراضى المسلمين مرة أخرى. وقد حرص «عبدالرحمن» على موالاة إرسال الصوائف في كل عام إلى الحدود الشمالية مما يلي «طليطلة» شمالاً، لأن الصراع هناك كان شديداً، ولأن أهل طليطلة كانوا يستنجدون بالإمارات النصرانية في منازعاتهم مع الإمارة الأندلسية، ويستنجدون أيضاً بنصارى الشمال وبخاصة ملوك ليون. ظهرت آثار الرخاء وترف الحضارة في عهد عبدالرحمن فيما بناه الناس من قصور جميلة، تم تزيينها بالأثاث الفاخر والفرش الوثيرة، والجوارى الحسان اللاتي جلبن من المشرق، وانتشرت في قرطبة البيوت المخاطة بالحدائق المزدانة بالأشجار وأطلقوا عليها اسم «المنى»، وتوسّع بعض الأغنياء في الحدائق المحيطة بهذه المنازل حتى أصبحت رياضاً، أطلق عليها اسم «الجور»، وفي كل منها مكان معد لغناء المغنيات. وامتاز عهد عبدالرحمن بالأمن والسكينة. وازدهار الصناعة والزراعة والتجارة، وازدياد موارد الدولة التي بلغت نحو مليون دينار سنوياً مكنت الأمير من الإنفاق على الحملات العسكرية وإقامة المنشآت العامة، كما أشرفت الحكومة المركزية على أعمال الحكام من خلال ديوان المظالم المختص بالنظر في شكاوى الناس من تصرفات بعض رجال الحكومة. ونالت إقامة المباني والمنشآت قسطاً عظيماً من عناية «عبدالرحمن الأوسط»، فبنى مسجد إشبيلية الجامع، وزاد في المسجد الجامع بقرطبة قدر بهوين كبيرين من ناحية القبلة، ونقل المحراب إلى الجزء الجديد، وأقام أعمدة أخرى، وأقواساً فوق الأعمدة الأصلية، فكانت الأقواس المزدوجة التي يعدها المعمارون من روائع العمارة الإسلامية، وكان صحن المسجد مكشوقاً يدور حوله سور، وتزرع

---

فيه أشجار النارج، ولهذا سُمِّيَ بهو النارج، وهو الآن صحن الكنيسة. ولا يزال مسجد قرطبة الجامع باقياً حتى اليوم بكل عقوده الإسلامية وأروقته ومحاريبه، وقد تحوَّل إلى كاتدرائية في القرن السادس عشر الميلادى، وأقام المسيحيون هياكلهم في عقوده الجانبية، وبنوا مصلى على شكل صليب في وسطه، وأزالوا كثيراً من قباب المسجد وزخارفه الإسلامية، وجعلوا مكانها زخارف نصرانية، وعلى الرغم من ذلك فإن آيات القرآن الكريم، والنقوش الإسلامية لاتزال تزين محاريبه الفخمة وأبوابه. توفي «عبدالرحمن» في (3 من ربيع الآخر 238هـ = 23 من سبتمبر 852م) عن عمر يناهز (62) سنة، بعد أن حكم البلاد أكثر من إحدى وثلاثين سنة، عدت من أزهى سنوات الحكم الإسلامي في الأندلس، فقد عاش الناس في رخاء وعم الهدوء والاستقرار البلاد، وقام الحكم على أسس من العدالة والنظام.

(191/10)

---

#### \*محمد بن عبدالرحمن الأوسط

أحد حكام الأندلس في فترة الإمارة الأموية، تولى الحكم في (4 من ربيع الآخر 238هـ = 24 من سبتمبر 852م)، وقدر له أن يقضى فترة حكمه في إخماد الثورات ومواجهة أعداء دولته من النصارى ومحاولة قمع ثورة عمر بن حفصون. عُنى الأمير محمد بالجيش بسبب الظروف التي عاشتها الإمارة في زمنه، وكان حريصاً على فرض أعداد من الفرسان على كل ناحية أندلسية تحشد دائماً للصوائف، وهؤلاء كانوا يسمون «الفرسان المستقرين» يضاف إليهم حشود المستنقرة والمتطوعة، مما يدل على ضخامة الجيش الذى كانت الإمارة تستطيع تعبئته. كما عني

بالأسطول لحماية الشواطئ الغربية من ناحية، وغزو مملكة «جليقية» من ناحية أخرى، واهتم بتحسين أطراف الثغور، وأقام قلاعاً منيعة؛ لحماية مدينة «سالم» و «طليطلة»، وبني حصوناً في «طلمنكة» و «مجريط» بمنطقة وادي الحجارة. أما من ناحية سياسته الخارجية فقد جمعته مع أمراء المغرب المعاصرين علاقة صداقة متينة خاصة «بني رستم» في «تيهت» و «بني مدرار» في «سجلماسة»، وكان يشاورهم في أموره ويهتم بأخبارهم ويستنصحهم، وتتردد الكتب والرسائل بينه وبين هذه الدول بهدف متابعة أخبار «بني العباس» وأعمالهم في إفريقية وبلاد الشام. كذلك قامت علاقة صداقة بين الأمير «محمد» وملك «فرنسا» وتبادلا الرسائل والهدايا. أما من الناحية المالية فقد خفف الضرائب على المواطنين رغم حاجته إلى المال للإنفاق على الجهاد والقضاء على الثورات المستمرة، وكان يكتفى من أهل «قرطبة» بجهادهم ولا يكلفهم أعباء مالية، وكان الأمير «محمد» بارعاً في مراجعة الحسابات وموازنة الدخل والخرج، وقد ساعده هذا الضبط للأموال المالية على مواجهة بعض المخن الطبيعية التي تعرضت لها الإمارة في زمنه. وعلى الرغم من أن أحداث فترة حكم الأمير «محمد» لم تتح له فرصة كبيرة للقيام بأعمال إنشائية، فإنه أولى للمسجد الجامع في قرطبة اهتماماً

(192/10)

---

كبيراً، فأتم الزيادة التي بدأها أبوه في وسط الجامع وأقام فيه المقصورة، وكان أول من اتخذها، وأصلح القسم القديم الذي بناه جده «الداخل» وجدده، كما أصلح جوامع «استجة» و «شدونة» وغيرها .. وأضاف زيادات لقصر الإمارة، وجدد «منية الرصافة» واستجلب لها الأشجار النادرة واتخذها متنزهًا، وأنشأ

منية خاصة جنوب غربي قرطبة أسماها «منية كنتش» جعلها  
متنزهًا له كذلك. وتوفي الأمير محمد سنة 273هـ = 886م

(193/10)

### \* المنذر بن محمد

أحد حكام الأندلس في فترة الإمارة الأموية، تولى الحكم في  
(273هـ = 886م) خلفاً لأبيه محمد بن عبد الرحمن الأوسط، وكان  
«المنذر» ولى عهده ومحل ثقته، وفارساً شجاعاً، وقائداً متميزاً  
اعتمد عليه أبوه كثيراً في مواجهة المشاكل ومحاربة العصاة  
وقيادة الحملات. وفي أول ولاية «المنذر» عادت «طليطلة» إلى  
الثورة كعادتها، وانضم إلى أهلها كثير من البربر، فأرسل  
الأمير حملة قضت على الثورة وقتلت الألوفا، وفي العام نفسه  
قام حاكم النغر الأعلى بغزو «ألبة والقلاع» ودخل في حرب ضد  
النصارى وهزمهم، لكن أعظم ما كان يشغل «المنذر» هو القضاء  
على «ابن حفصون»، بعد أن استفحل خطره وانتشر سلطانه في  
نواح كثيرة وانضم إليه المغامرون والثائرون والعصاة في كل  
الأندلس. وكان «ابن حفصون» صاحب دعوة سياسية تبغض العرب  
والبربر معاً، وعنده نزعة إلى الاستقلال والتحرر؛ لأن العرب  
حملوا الناس فوق طاقتهم وزادوهم رهقاً وهو إنما قام ليثأر لهم،  
وقد لقيت دعوته استجابة لدى سكان المناطق الجبلية خاصة،  
وكان الرجل متواضعاً يكرم الشجعان، فساعد ذلك على التفافهم  
حوله. وقد أرسل «المنذر» بعض قواته، فاستردت قسماً من  
الحصون التي كان «ابن حفصون» قد سيطر عليها، وفي ربيع  
(274هـ = 887م) خرج «المنذر» بنفسه مصمماً على القضاء على  
«ابن حفصون» واجتثاث ثورته من جذورها، وقد نجح في فتح  
بعض الحصون، وأسر بعض أعوان ذلك الثائر، وبعث بهم إلى

قرطبة حيث صلبوا، بينما بقي «ابن حفصون» ممتنعاً بجبال «بيشتر». ولما شدد «المنذر» حصاره وقطع كل علاقات «ابن حفصون» بالخارج، لجأ «ابن حفصون» إلى الحيلة والخديعة وطلب الصلح على أن يسير ومعه أهله وولده إلى «قرطبة» فوافق الأمير وبعث إليه في قلاعه بكل ما طلبه من الأدوات ووسائل النقل، وتم رفع الحصار، وعاد الأمير بجيشه إلى قرطبة. ولما لم يكن «ابن حفصون» وفيًا؛ فقد هرب في جنح

(194/10)

---

الظلام وامتنع مرة أخرى بجبال «بيشتر» مستفيداً بما حصل عليه من زادٍ وأقوات وإمدادات، فاشتد غضب الأمير ورجع لمحاصرته، وأصر على عدم العودة إلى «قرطبة» إلا بعد القبض على «ابن حفصون» حياً أو ميتاً، ودام الحصار ثلاثة وأربعين يوماً بعدها مرض «المنذر»، وطلب من أخيه «عبدالله» أن يحضر؛ لينوب عنه في متابعة الحصار، ثم مات تحت أسوار «بيشتر» بعد حكم لم يستمر أكثر من عامين وكان موته في (صفر 275هـ = يونيو 888م)، وتم رفع الحصار، وعاد الجيش إلى «قرطبة»

(195/10)

---

**\*عبدالله بن محمد**

أحد حكام الأندلس في فترة الإمارة الأموية، تولى الحكم في (275 هـ = 888م) وما كاد يتوَّى الحكم حتى قامت الثورات ضده في المناطق الجبلية، بل تجاوزت ذلك إلى المدن والقواعد الكبرى، ولم تعد تقتصر على القادة من المولدين بل تجاوزتهم إلى العرب أنفسهم، وبرز العنصر البربري واعتصم كثير من

زعمائته في الحصون النائية، وتنوعت المعارك وتعددت بين العرب والمولدين وبين العرب والبربر، وبين العرب أنفسهم بعضهم ضد بعض، وأعلن بعض زعماء العرب استقلالهم في «جيان» «البيرة» و «لورقة» و «مدينة سالم»، وغيرها. واستقل زعماء البربر في «الثغر الأعلى» و «بطلبوس» و «مرسية» وبعض مناطق «جيان» وغيرها، وأضحت «إشبيلية» مسرحاً لقتال مرير بين العرب والبربر، ونشر «ابن حفصون» سلطانه في أغلب النواحي الجنوبية القريبة. ويجدر بالذكر أن سلطة الأمير الأندلسي لم تنكمش كما انكمشت في عهد الأمير «عبدالله»، فلم تتجاوز سيطرته أحياناً قرطبة وضواحيها وقضى خمسة وعشرين عاماً هي مدة حكمه في كفاح وصراع دائمين بهدف حماية الدولة والحكم الأموي من الانهيار، وقد نجحت جهوده في تفرقة الثوار والسيطرة على بعض القواعد والحصون المهمة، وفي استمالة بعض الزعماء من ذوى النفوذ، وكان ذلك معاوناً للأمير عبدالرحمن الناصر فيما تحقق من نتائج فيما بعض. ومن الطبيعي في ظل هذه الفتن الدائمة ألا يتمكن الأمير «عبدالله» من القيام بغارات ضد النصارى بسبب انشغاله بمحاربة الثائرين والمتمردين، ولم يقم النصارى من جانبهم بأية محاولة ضد الأراضى الإسلامية غير أن ملك ليون (جليقية) حاول إشعال الفتنة بين المسلمين وتشجيع الثوار وعلى رأسهم «ابن حفصون» على العمل ضد حكومة قرطبة. ومن الحوادث البارزة في زمن الأمير «عبدالله» فتح جزر «البليار» أو الجزائر الشرقية، ومن المعروف أن «عبدالرحمن الأوسط» كان قد أرسل حملة إلى «ميورقة»

فلما كانت سنة (290هـ = 903م) سارت إليها قوة بحرية من  
المجاهدين يقودها «عصام الخولاني»، وقامت بمحاصرتها حتى  
تم فتحها، وتولى القائد إمارتها، ومنذ ذلك الحين وهي جزء من  
الدولة الإسلامية. وكان من الطبيعي أيضًا ألا يتسع عهد الأمير  
«عبدالله» للأمور الإنشائية ولا يذكر له في هذا المجال إلا  
«الساباط» الموصل بين القصر والمسجد الجامع وهو ممر مسقوف  
مبنى فوق عقد كبير يفضى من القصر إلى الجامع ويتصل به  
قريبًا من الخراب. كان الأمير «عبدالله» عالمًا أديبًا شاعرًا  
فصيحًا يتصف بالتواضع والجد والبر بالفقراء، حريصًا على رفع  
الظلم والتخفيف من معاناة الشعب، وقد خصص يومًا من كل  
أسبوع للفقراء، كما أقام بابًا حديدًا أسماه «باب العدل» تقدم  
عنده الشكاوى والتظلمات، وكان صارمًا عنيفًا مع الطغاة،  
فشاع العدل في زمنه، وقد آثر الاحتشام والتقشف في حياته  
الخاصة. وقد تولى الحجابة له «عبدالرحمن بن أمية بن شهيد»،  
ثم «سعيد بن محمد بن السليم» ثم عزله ولم يولِّ أحدًا، واكتفى  
بالوزراء والكتاب، وبرز من بينهم بدر الخصى الصقلبي. وقد  
اعتمد - بالإضافة إلى العرب والبربر - على الموالي والفتيان،  
وقدم الموالي الشاميين على البلدانيين كما فعل أبوه. وقد جرى  
حادث مؤسف داخل الأسرة الأموية يتمثل في قتل الأمير  
«عبدالله» لولده «محمد» لاثامه بالتواطؤ مع الثوار لكنه ندم  
على ذلك، وتحول ندمه، إلى عطفٍ وبر بطفل اللقتيل لم يكن قد  
تجاوز عمره أسابيع ثلاثة عند مقتل أبيه فعنى بتربيته وتعليمه  
وجعله موضع سره، وشاء الله أن يتولى هذا الطفل أمر الأندلس  
بعد جده ويصبح أعظم حكامها على الإطلاق. وقد توفي الأمير  
«عبدالله» في (أول ربيع الأول سنة 300هـ = 912م).

## \*عبد الرحمن الناصر

هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الملقب بالناصر، تولى حكم الأندلس في (ربيع الأول سنة 300هـ = أكتوبر 912م) بعد أن بايعه الجميع بنفس راضية في المجلس الكامل بقصر قرطبة مع وجود كثير من أعمامه، لكن «عبد الرحمن» اكتسب محبة الناس بحسن أخلاقه وتوسطه بين الأمراء وأهل الدولة وبين جده فنال محبتهم وولاءهم، وكان عليه أن ينهض بمهمة ثقيلة، فقد تعرضت الإمارة للثورات من كل ناحية حتى أصبحت لا يحسد عليها صاحبها، ولعل هذا أحد الأسباب التي جعلت أعمام «عبد الرحمن» ينصرفون عن منافسته، لشعورهم بعظم المسؤولية التي تنتظر من يتولى الإمارة. وقد نجح عبد الرحمن الناصر في القضاء على ثورة عمر بن حفصون وتوحيد الأندلس التي تنازعتها الفتن والثورات لفترات طويلة، كما نجح في غزو إمارات النصارى في الشمال وتأمين البلاد من أخطارهم. عندما تولى الناصر، وجد أن هناك دولة فاطمية قامت في بلاد الشمال الإفريقي، ووصل نفوذها إلى شواطئ المغرب الأقصى، وقد اتخذ حكامها لأنفسهم لقب الخلافة وسماتها، وإذا كان هو قد نهض بالدولة ووطد سلطان بني أمية في كل الأندلس فلماذا لا يكون من حقه لقب خليفة؟ لذلك أصدر أمرًا بذلك في يوم الجمعة مستهل (ذى الحجة سنة 316هـ = أوائل 929م) وأصبح عبد الرحمن الثالث يلقب بالخليفة أمير المؤمنين الناصر لدين الله، وقد أرسلت نسخ من هذا الإعلان إلى إفريقية والمغرب، وبذلك أصبحت الخلافة الأموية مساوية للخلافة العباسية، وبناط بما رعاية شئون المسلمين، وتولية أمر الإسلام في الجناح الغربي من العالم الإسلامي. ورغم ميل الناصر إلى الاستبداد فإنه لم يعرف عنه أنه كان ظالمًا، ولم تذكر المصادر أنه قتل وزيرًا أو صادر مالا أو اعتدى على حق لأحد أو بالغ في عقوبة، وربما كان الوحيد بين خلفاء المسلمين بالأندلس فيما يتعلق بتصرفاته في الخلافة وسلوكه بما يتفق مع

مكارم الأخلاق ومبادئ الإسلام، وبهذه الأخلاق والوفاء استطاع  
الناصر بعد عشر سنوات من حكمه أن يعيد النظام والهدوء  
والوحدة والأمان إلى دولته الواسعة، كما منح أمانات لبيوتات  
الثغر الأعلى من أمثال: بنى هاشم وبنى قسى وبنى الطويل  
واستفاد بهم وبما تميزوا به من شجاعة في حروبه، ونجح في  
تحويل ملوك إسبانيا النصرانية إلى أتباع له أو حلفاء. ويذكر  
للناصر أنه بنى مدينة الزهراء التي بدأ العمل بها في أول  
الحرم سنة 325هـ = نوفمبر 936م، وتولى الإشراف على بنائها  
«الحكم» ولي العهد، وحشد لها أشهر المهندسين والصناع  
والفنانين من سائر الأنحاء ولاسيما القسطنطينية وبغداد، وجلب  
لها الرخام بألوانه من «المرية» و «رية»، ومن قرطاجنة إفريقية  
وتونس والشام، وجلب لها (4324) سارية من الرخام واشتغل في  
بنائها يومياً عشرة آلاف رجل، و (1500) دابة، واستخدمت من  
الصخر المنحوت ستة آلاف صخرة في اليوم، وقدرت النفقة على  
بنائها ب 300 ألف دينار سنوياً بخلاف ما أنفق في عهد الحكم،  
كما أمر الناصر بإضافة زيادة ثلاثة إلى المسجد الجامع في  
قرطبة سنة (346 هـ = 957م)، وقد ضاعفت هذه الزيادة حجم  
المسجد في الاتجاه الجنوبي، وقد تم بناء الزيادة على طراز  
بقية المسجد نفسه من حيث الأقواس ومواد البناء. وعُد محراب  
هذه الزيادة في المسجد آية من آيات الفن الأندلسي ذلك أنه ليس  
محراباً بل غرفة من الرخام سقفها قطعة واحدة منه في هيئة  
محراب، ووسط هذا المحراب كرسى يوضع عليه المصحف الشريف  
يستخدمه القارئ في تلاوة القرآن الكريم قبل الصلوات. وقد  
اهتم الناصر بالجيش وجمع له الجند من أنحاء المغرب والأندلس،  
واستكثر من الأسلحة، وأمدّه بمجموعة من أمهر القادة، وتولى

القيادة بنفسه أحياناً. كما عنى بالأسطول واهتم بإصلاح وحداته، وأنشأ به وحدات جديدة، وكانت «المرية» هي مركز الأسطول الرئيسي وبها دار الصناعة، وقد ضم أسطول الناصر

(199/10)

---

(200) سفينة بخلاف أسطول المغرب، وكان لأسطول الناصر السيطرة على مياه إسبانيا الجنوبية الشرقية، كما كان ينازع الفاطميين السيادة على غربي البحر الأبيض المتوسط، وعلى الرغم من الحروب فإن عصرالناصر كان عصر رخاء زاد فيه الدخل وازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة وكثرت أخماس الغنائم. وفي سنة (316هـ = 928م) أمر الناصر باتخاذ دار للسكة في قرطبة لضرب الدنانير والدراهم، وبذل جهده في الاحتراس من الغش والتدليس فأصبحت دنانيره ودراهمه عياراً محضاً، وكان ضرب النقد معطلاً قبله. وبلغ الأمن ذروته في سائر البلاد أيام الناصر، وترك ذلك آثاراً طيبة على مصادر الدخل وازدهرت العلوم والآداب ورخصت المعاش. وقد بلغت السفارات والمراسلات والمعاهدات بين قرطبة وبين الدولة النصرانية أوجها في عهد الناصر، وكان بلاط القسطنطينية من الساعين إلى توثيق الروابط مع حكومة الأندلس، ووفدت رسله تحمل هدايا للخليفة، وأهم سفارة تلقاها الناصر هي سفارة إمبراطور ألمانيا زعيم النصرانية سنة (344هـ = 955م). وقد توفي الناصر في (الثاني من رمضان سنة 350هـ = 15 أكتوبر 961م) ودفن في قرطبة، وتولى بعده ابنه «الحكم المستنصر».

(200/10)

---

## \*الحكم بن عبدالرحمن الناصر

أحد خلفاء الدولة الأموية بالأندلس، تولى الحكم في 3 رمضان سنة 350هـ = 16 أكتوبر سنة 961م خلفاً لأبيه عبد الرحمن الناصر ولقب بالحكم المستنصر. استهل الحكم عهده بالأمر بتوسيع المسجد الجامع بعد أن ضاق بالمصلين، فأدخلت عليه زيادة من الناحية الشرقية من الجنوب إلى الشمال إلى أن بلغت الصحن وتضاعف بذلك حجم الجامع، كما بنى الحكم محراب المسجد الثالث واستغرق بناؤه لهذا الجزء أربعة أعوام، وعملت له قبة زخرفت بالفسيفساء الذى جاء معظمه هدية من إمبراطور بيزنطة، وأنشأ الحكم أيضاً قبة على الطراز البيزنطى ومقصورة وداراً للصدقة وأخرى للوعاظ وعمال المسجد، وأنشأ للمسجد الجامع منبراً جديداً، وزود المسجد بالماء بطريقة هندسية وأنفق على ذلك كثيراً، وبهذا أكمل الحكم توسعة المسجد الجامع التى بدأها أبوه ولم يتمها، وتعتبر هذه الزيادة تنويجاً لأعمال الناصر وابنه المستنصر من الناحية الحضارية. يمتاز عصر الحكم بازدهار العلوم والآداب فيه بصورة غير مسبوقة، وهو صاحب الفضل الأكبر فى إنشاء المكتبة الأموية، أعظم مكتبات العصور الوسطى. ويرجع ذلك لشخصية الحكم وشغفه الفائق بالعلم لدرجة دفعته إلى استجلاب نفائس الكتب من كل بلد وفى كل فن. وقد شهد التعليم فى عهد الحكم نهضة عظيمة، فانتشرت بين أفراد الشعب معرفة القراءة والكتابة، بينما كان لا يعرفها أرفع الناس فى أوروبا باستثناء رجال الدين، وقد بنى الحكم مدرسة لتعليم الفقراء مجاناً، كما أسس جامعة قرطبة أشهر جامعات العالم آنئذ، وكان مركزها المسجد الجامع، وتدرس فى حلقاتها كل العلوم ويختار لها أعظم الأساتذة. وقد احتلت حلقات الدرس أكثر من نصف المسجد، وتم تحديد مراتب للشيخ ليتفرغوا للدرس والتأليف، كما خصصت أموال للطلاب ومكافآت

ومعونات للمحتاجين، ووصل الأمر بنفر من الأساتذة إلى ما يشبه منصب الأستاذية اليوم في مجالات علوم القرآن الكريم والحديث

(201/10)

---

النبوي الشريف والنحو، وعهد الحكم إلى أخيه المنذر بالإشراف على جامعة قرطبة، كما عهد بمهمة الإشراف على المكتبة الأموية إلى أخيه عبدالعزيز. وفي عهده أضحت الأندلس كعبة تأتي إليها ملوك النصرانية وتلتمس ودها، بدأ ذلك عام (355هـ = 966م) واستمر بعده، وكان أول الوافدين أمير جليقيه وأمير اشتورياس، ثم وفدت رسل ملك نبرة، وفي سنة (360هـ = 971م) جاءت سفارة من أمير برشلونة تطلب تجديد الصداقة، ثم جاءت عمدة ملك ليون، وغير هؤلاء، كما تلقى الحكم رسائل من قيصر بيزنطة، ومن امبراطور ألمانيا وغيرهما، كل ذلك جعل فندث بيدال - العالم الإسباني الكبير - يقول: «وصلت الخلافة الأندلسية في ذلك العصر إلى أوج روعتها وبسطت سيادتها السلمية على سائر إسبانيا وكفلت بذلك السكينة العامة». وتوفي الحكم في (2 صفر 366هـ = 30 سبتمبر 976م)، وموته انتهى آخر العظماء من بني أمية في الأندلس.

(202/10)

---

### \*الحكم المستنصر

أحد خلفاء الدولة الأموية بالأندلس، تولى الحكم في 3 رمضان سنة 350هـ = 16 أكتوبر سنة 961م خلفاً لأبيه عبد الرحمن الناصر ولقب بالحكم المستنصر. استهل الحكم عهده بالأمر بتوسيع المسجد الجامع بعد أن ضاق بالمصلين، فأدخلت عليه زيادة من

الناحية الشرقية من الجنوب إلى الشمال إلى أن بلغت الصحن  
وتضاعف بذلك حجم الجامع، كما بنى الحكم محراب المسجد  
الثالث واستغرق بناؤه لهذا الجزء أربعة أعوام، وعملت له قبة  
زخرفت بالفسيفساء الذى جاء معظمه هدية من إمبراطور  
بيزنطة، وأنشأ الحكم أيضاً قبة على الطراز البيزنطى ومقصورة  
وداراً للصدقة وأخرى للوعاظ وعمال المسجد، وأنشأ للمسجد  
الجامع منبراً جديداً، وزود المسجد بالماء بطريقة هندسية وأنفق  
على ذلك كثيراً، وبهذا أكمل الحكم توسعة المسجد الجامع التى  
بدأها أبوه ولم يتمها، وتعتبر هذه الزيادة تنويجاً لأعمال الناصر  
وابنه المستنصر من الناحية الحضارية. يمتاز عصر الحكم بازدهار  
العلوم والآداب فيه بصورة غير مسبوقه، وهو صاحب الفضل  
الأكبر فى إنشاء المكتبة الأموية، أعظم مكتبات العصور  
الوسطى. ويرجع ذلك لشخصية الحكم وشغفه الفائق بالعلم  
لدرجة دفعته إلى استجلاب نفائس الكتب من كل بلد وفى كل  
فن. وقد شهد التعليم فى عهد الحكم نهضة عظيمة، فانتشرت  
بين أفراد الشعب معرفة القراءة والكتابة، بينما كان لايعرفها  
أرفع الناس فى أوروبا باستثناء رجال الدين، وقد بنى الحكم  
مدرسة لتعليم الفقراء مجاناً، كما أسس جامعة قرطبة أشهر  
جامعات العالم آنذ، وكان مركزها المسجد الجامع، وتدرس فى  
حلقاتها كل العلوم ويختار لها أعظم الأساتذة. وقد احتلت حلقات  
الدرس أكثر من نصف المسجد، وتم تحديد مراتب للشيخوخ  
ليتفرغوا للدرس والتأليف، كما خصصت أموال للطلاب ومكافآت  
ومعونات للمحتاجين، ووصل الأمر بنفر من الأساتذة إلى ما يشبه  
منصب الأستاذية اليوم فى مجالات علوم القرآن الكريم والحديث

النبوى الشريف والنحو، وعهد الحكم إلى أخيه المنذر بالإشراف على جامعة قرطبة، كما عهد بمهمة الإشراف على المكتبة الأموية إلى أخيه عبدالعزیز. وفي عهده أضحت الأندلس كعبة تأتي إليها ملوك النصرانية وتلتمس ودها، بدأ ذلك عام (355هـ = 966م) واستمر بعده، وكان أول الوافدين أمير جليقيه وأمير اشتورياس، ثم وفدت رسل ملك نبرة، وفي سنة (360هـ = 971م) جاءت سفارة من أمير برشلونة تطلب تجديد الصداقة، ثم جاءت عمدة ملك ليون، وغير هؤلاء، كما تلقى الحكم رسائل من قيصر بيزنطة، ومن امبراطور ألمانيا وغيرهما، كل ذلك جعل فندث بيدال - العالم الإسباني الكبير - يقول: «وصلت الخلافة الأندلسية في ذلك العصر إلى أوج روعتها وبسطت سيادتها السلمية على سائر إسبانيا وكفلت بذلك السكينة العامة». وتوفى الحكم في (2 صفر 366هـ = 30 سبتمبر 976م)، وموته انتهى آخر العظماء من بني أمية في الأندلس.

(204/10)

### \* هشام المؤيد بالله

أحد خلفاء الدولة الأموية بالأندلس، بويع له بالخلافة فصفر 366 = أكتوبر 976 وهو طفل صغير لا يتجاوز عمره اثني عشر سنة ولم يشذ عن بيعته أحد، وأضحت السلطة بيدى الحاجب جعفر المصحفي وصاحب الشرطة والمواريث (القضاء) «محمد بن أبي عامر»، وشخصية ثالثة ذكية طموحة تشاركهما من وراء ستار هي أمه «صبح» البشكنسية أو النفارية، نسبة إلى بلاد البشكنس أو إقليم «نبرة»، وقد اشتركت في الوصاية على ابنها الصبي وأصبحت لها سلطة شرعية في تدبير شئون الحكم. وطوال فترة حكمه التي امتدت ثلاث وثلاثين سنة لم يكن الأمر

في يديه ولكن تركزت السلطة في يد حاجبه المنصور بن أبي  
عامر وابنه عبد الملك بن المنصور، وانتهى الأمر بالخليفة أن  
عزل عن الخلافة في 17 من جمادى الأولى 399هـ = 16 فبراير  
1009م

(205/10)

---

### \* هشام بن الحكم بن عبد الرحمن

أحد خلفاء الدولة الأموية بالأندلس، بويع له بالخلافة فصفى 366  
= أكتوبر 976 وهو طفل صغير لا يتجاوز عمره اثني عشر  
سنة ولم يشذ عن بيعته أحد، وأضحت السلطة بيدى الحاجب جعفر  
المصحفي وصاحب الشرطة والمواريث (القضاء) «محمد بن أبي  
عامر»، وشخصية ثالثة ذكية طموحة تشاركهما من وراء ستار  
هي أمه «صبح» البشكنسية أو النفارية، نسبة إلى بلاد  
البشكنس أو إقليم «نبرة»، وقد اشتركت في الوصاية على ابنها  
الصبي وأصبحت لها سلطة شرعية في تدبير شئون الحكم.  
وطوال فترة حكمه التي امتدت ثلاث وثلاثين سنة لم يكن الأمر  
في يديه ولكن تركزت السلطة في يد حاجبه المنصور بن أبي  
عامر وابنه عبد الملك بن المنصور، وانتهى الأمر بالخليفة أن  
عزل عن الخلافة في 17 من جمادى الأولى 399هـ = 16 فبراير  
1009م

(206/10)

---

### \* المنصور بن أبي عامر

أحد كبار رجالات الأندلس المعروفين، تولى منصب الحجابة في  
عهد الخليفة هشام المؤيد بالله ثم أصبح الأمر كله في يديه

وسيطر على أمور الدولة بعد أن دخل في صراع مع جعفر  
المصحفي الذي كان يتولى الحجابة من قبله وانتهى هذا الصراع  
بالقبض على جعفر ودخوله السجن حتى مات. وبعد أن أصبحت  
السيطرة كاملة لابن أبي عامر فكر في إنشاء مدينة جديدة  
يتوافر فيها الأمان ومظاهر السلطان فكانت مدينته الزاهرة أو  
العامرية شرقي قرطبة والتي استغرق بناؤها عامين، وضمت  
قصرًا ومسجدًا ودواوين للإدارة ومساكن للحرس، ونقل خزائن  
المال والسلاح إليها، وأقيم حولها سور ضخم كما بنى خندقًا  
وتم إقطاع ضواحيها للوزراء والقادة، فابتنوا الدور وأنشئت  
الشوارع والأسواق حتى اتصلت مبانيها بضواحي قرطبة، وقد  
انتقل إليها ابن أبي عامر سنة (370هـ = 980م)، واتخذ له حرسًا  
خاصا من الصقالبة والبربر أحاطوا بقصره، ومنعوا الدخول  
والخروج إليه، وبذلك أفقرت قرطبة وأقفر قصرها ونقلت كل  
مظاهر السلطان إلى المدينة الجديدة، ومنع الخليفة من أى حركة  
إلا بإذن ابن أبي عامر حماية له من المتآمرين وحتى يتفرغ  
للعبادة كما زعم. بدأ المنصور بن أبي عامر سلسلة من الغزوات  
الشهيرة بعد أن استقرت الأمور له، ووصل عددها إلى نحو أربع  
وخمسين غزوة استقصى المؤرخ القرطبي ابن حيان أخبارها  
في كتاب له مفقود عنوانه «الدولة العامرية» ويتحدث عنها ابن  
خلدون فيقول: «غزا ابن أبي عامر اثنتين وخمسين غزوة في  
سائر أيام ملكه، لم ينكسر له فيها راية ولا فل له جيش ولا أصيب  
له بعث ولا هلكت له سرية». اتخذ المنصور في سنة (381هـ =  
991م) خطة غير مسبوقه بمدف دعم سلطانه فرشح ابنه عبدالمملك  
ليتولى الأمر من بعده، وتنازل له عن الحجابة والقيادة وجميع ما  
كان يتولى من خطط مكتفياً بلقب «المنصور» ثم تلقب بالملك  
الكريم في سنة (386هـ = 996م) وبولغ في تعظيمه وإجلاله، ولم

---

يكن المنصور يقصد أن تجتمع السلطات في يده، فكل السلطات السياسية والعسكرية في قبضة يديه بالفعل، لكنه أراد أن يصيغ حكمه بالصيغة الشرعية، وأن تكون له رسوم الملك والخلافة، ويقوم بتأسيس دولة تحل محل دولة بني أمية، لكن الظروف لم تكن مهيأة فالناس لا تقبل كثيراً إلى المنصور؛ بسبب الوسائل الدموية التي لجأ إليها لتصفية خصومه. وقد أظهر المنصور مقدرة كافية ممتازة في جميع المناصب التي تولاها وشهدت البلاد في زمنه أمنًا واستقرارًا وطمأنينة لم تعرفها قبله، وفي زمنه لم تعرف البلاد الثورات مقارنًا بغيره، وازدهرت الصناعة والتجارة والزراعة، وارتقت العلوم والآداب، وامتألت خزائن قرطبة بالمال حتى وصلت الإيرادات إلى نحو أربعة ملايين دينار، بخلاف الموارد من الموارث ومال السبي والغنائم، ولم يخل عهد المنصور من الإنشاءات العظيمة على الرغم من الغزوات المستمرة وقد أشرنا إلى بنائه مدينته الزاهرة بقصورها وحدائقها، وجعلها قصرًا للحكم والإدارة، وقد بنى المنصور بجانبها منية جميلة ازدانت بالحدائق والقصور أسماها «العامة»، وكان يقصدها عندما يريد الاستجمام. كذلك قام بزيادة المسجد الجامع في «قرطبة» بعد أن اتسعت المدينة، وضمت واحدًا وعشرين حيا، الواحد فيها أكبر من أية مدينة أندلسية، وقد حفر حولها خندقًا بلغ 16 ميلًا وزاد سكانها كثيرًا لا سيما البربر، وضاق المسجد الجامع بمؤلاء السكان فأدخل المنصور في سنة (387هـ = 997م) زيادة عليه من الناحية الشرقية، بلغت المساحة الأصلية نفسها تقريبًا، وحرص المنصور على الاشتراك في هذا المشروع بنفسه، واشتغل فيه أسرى النصارى، وتم تعويض أصحاب الدور والأماكن التي صودرت لهذا الغرض، ولا يزال هذا الجناح قائمًا حتى اليوم، ويعرف بمسجد

المنصور، وإن تحولت عقودة الجانبية إلى هياكل وكنايس.  
وبهذه الزيادة بلغت مساحة المسجد الجامع ما يزيد على ستة

(208/10)

أفدنة، كما انفرد بطرازه الرائع، وليس في العالم مسجد ولا  
كنيسة في مثل حجمه اللهم إلا قصر «فرساي» بفرنسا. كما جدد  
المنصور قنطرة قرطبة على نهر الوادي الكبير، وكان «السمح  
بن مالك» قد جددتها من قبل وأنفق المنصور على تجديدها في  
سنة (378هـ = 988م) مائة وأربعين ألف دينار وبنى قنطرة  
«أستجة» على نهر «شنيل» أحد فروع نهر الوادي الكبير. وفي  
ربيع (392هـ = 1002م) خرج المنصور لآخر مرة، وتوجّه إلى  
قشتالة ومنها اتجه غربًا نحو «برغش» وعاث في تلك المنطقة،  
وتقول المصادر النصرانية إنه تعرض لهزيمة على أيدي ملوك  
النصارى متحدين، وإنه اضطر إلى الفرار في جنح الظلام بعد  
موقعة معهم جرت أحداثها بمكان يسمى «قلعة النسور»، وقد  
جرح المنصور ثم مات بعد ذلك متأثرًا بجراحه، لكن الباحثين  
المحدثين - ومنهم المستشرق الهولندي دوزي - يرفضون هذه  
الرواية لأنها تخالف الحقائق التاريخية الثابتة، فهي تتحدث عن  
تحالف بين ملوك من النصارى ماتوا قبل هذه الموقعة، أضف  
إلى ذلك أن المصادر الإسلامية لا تذكر شيئًا عن تلك الموقعة، مع  
أنها لا تخفى هزائم المسلمين، فالصمت قرينة على أنه لم تكن  
هناك هزيمة ولا حتى موقعة أصلاً. ومهما يكن من أمر فقد سار  
المنصور في حملته هذه محمولاً حتى وصل إلى «مدينة سالم»،  
وهناك وافاه الأجل في (27 رمضان 392هـ = 11 أغسطس  
1002م) بعد حكم دام 27 عامًا.

(209/10)

### \*عبدالمملك بن المنصور المظفر بالله

هو عبد الملك بن محمد بن أبي عامر الملقب بالمظفر بالله، تولى منصب الحجابة بعد وفاة والده المنصور، وقد بدأ عهده بإسقاط سدس الجباية (الضرائب) عن السكان بكل نواحي الأندلس فاستبشر الناس به خيراً. ظن ملوك النصارى أن خطر الغزوات الإسلامية عليهم سيقبل بعد وفاة المنصور، لكنهم كانوا واهمين لأن عبدالمملك بدأ بعد أشهر قليلة من ولايته يستعد لغزواته ضدهم التي بلغت سبع غزوات التزم عبدالمملك الأسلوب الذى كان يحكم به والده الأندلس فجعل الخليفة محجوراً عليه لاحول له ولاقوة. وجمع السلطات كلها في يديه، وحداً من نفوذ الوزراء والكتاب وراقبهم وحاسبهم، وجلس للناس وهجر اللهو، وعمل على تنمية الموارد وترتب على هذا تحسن في الأحوال المالية التي كانت قد ساءت بسبب كثرة النفقات. ولم يكن لعبدالمملك نصيب كبير في مجالات العلم والأدب وكان مجلسه لايقوم إلا على الأعاجم من البربر وغيرهم، ومع ذلك فقد استمر يجرى الرواتب التي كان أبوه يجريها على العلماء والأدباء والندماء، كما استمع إلى الشعر ووصل الشعراء. وفي شوال من سنة 398هـ خرج عبدالمملك بغزوته السابعة والأخيرة وتعرف «بغزوة العلة»؛ إذ إنه ما كاد يصل إلى مدينة سالم حتى اشتد به المرض وتفرق عنه المتطوعة، واضطر إلى الرجوع إلى قرطبة في (المحرم 399هـ = سبتمبر 1008م) لكنه شعر بتحسن في صحته فعمل على استئناف الغزو بعد فترة وجيزة لكن حالته ساءت، وتعرض لنكسة سببها التهاب رئوى، وعاد إلى العاصمة في محفة حيث مات في (16 من صفر سنة 399هـ = 21 من أكتوبر 1008م) بعد حكم دام نحو سبع سنوات.

## \*عبدالرحمن بن شنجول

هو عبد الرحمن بن محمد المنصور بن أبي عامر، قلده الخليفة هشام المؤيد بالله الحجابة بعد وفاة أخيه عبد الملك المظفر بالله، وأنعم عليه بالخلع السلطانية، وكانت أمه ابنة ملك «نبرة» تزوجها «المنصور» وأنجب منها، وقد أسلمت وتسمت باسم «عبدة» ولأنه أشبه جده لأمه المسمى «شانجة» لقب بشنجول أو شانجة الصغير. ولم يكن الشعب يميل إلى «عبدالرحمن» لما فيه من دماء نصرانية والانحراف سلوكه، ولأنه جرى على منهج أبيه وأخيه في الحجر على الخليفة هشام مع الاستبداد بالرأى وإن مال هو إلى التودد إلى الخليفة ومخالطته، وقد منحه الخليفة لقب المأمون ناصر الدولة بعد عشرة أيام من ولايته، ليس هذا فحسب، بل إن عبدالرحمن جرؤ على ما لم يجرؤ عليه أحد لا المنصور ولا عبدالملك، حين نجح بعد محاولات في استصدار مرسوم من الخليفة بتعيينه وليا للعهد من بعده، لتنتقل رسوم الخلافة من أسرة بني أمية إلى أسرة بني عامر، وأقر فقهاء قرطبة وعلمائها هذا التحول وزكاه الوزراء والقضاة والقادة، وكان ذلك في ربيع الأول سنة (399هـ = 1008م)، ومضى «عبدالرحمن» أبعد من ذلك حين عين ابنه الطفل في خطة الحجابة ولقبه سيف الدولة، ثم اتخذ قراراً جلب عليه كثيراً من السخط حين طلب من أكابر الموظفين ورجال الدولة خلع القلانس الطويلة التي يتميزون بها لأنها لبس الأندلسيين، وتغطية الرأس بالعمائم التي هي لباس البربر فأذعن هؤلاء كارهين. فكر عبدالرحمن أن يشغل الناس بالغزو، فقرر أن يتوجه إلى جليقية رغم تحذيره من سوء الأحوال الجوية، ومن انقلاب قد يقوم به المروانية ضده، لكنه صمم وسار بالجيش نحو طليطلة، ومنها إلى جليقية وسط أمطار وبرد شديدين وكان يمارس هوايته في اللهو

والشراب، وقد اخترق مملكة ليون قبل أن يصل إلى جليقية،  
فتحصن الأعداء براءوس الجبال، ولم يجد عبدالرحمن سبيلا إلى  
مقاتلتهم بسبب كثرة الثلوج وفيضان الأنهار، فاضطر إلى أن

(211/10)

---

يعود دون أن يفعل شيئا. وعند وصوله إلى طليطلة جاءته الأنباء  
تفيد أن انقلابا قد حدث في قرطبة وأن الثوار استولوا على  
مدينة الزاهرة فاضطربت صفوفهم، واضطر عبدالرحمن إلى أن  
يعود عن طريق قلعة رباح، ولم يلتفت إلى نصح من طلب منه  
البقاء في طليطلة، لاعتقاده أن الناس سترحب به إذا رأوه يقترب  
من قرطبة. وكان السبب الرئيسي للثورة هو استبداد بني عامر  
وقهرهم للناس استنادا إلى قوة قوامها البربر والصقالبة، ثم  
كانت ولاية عبدالرحمن للعهد واستنثاره برسوم الخلافة والحكم  
هى الشرارة التى انتقلت منها نيران الثورة إلى كل العناصر  
الناقمة، وعلى رأسهم بنو أمية، وكان المخطط للثورة والمتابع  
لمراحل تنفيذها «الزلفاء» والدة عبدالملك - التى اعتقدت أن  
«شنجول» سم ابنها - ثم فتى أموى اسمه «محمد بن هشام بن  
عبدالجبار بن عبدالرحمن الناصر» كان عبدالملك قد أعدم أباه. لم  
يكن المرآنية وحدهم يرغبون فى القضاء على العامريين، وإنما  
كان معهم كل العناصر الناقمة من البيوت العربية مضرية أو  
يمنية، يؤازرهم كل طبقات الشعب، وأحكم هؤلاء جميعا خطتهم  
وانتهزوا فرصة خروج عبدالرحمن للغزو ومعه معظم الجيش  
ليقوموا بالتنفيذ، وفى يوم (16 من جمادى الأولى 299هـ = 15  
من يناير 1009م) جاءت الأنباء بأن عبدالرحمن عبر بجيشه إلى  
أرض النصارى، فقام محمد بن هشام بإنزال ضربته، وهجم على  
قصر قرطبة وقتل صاحب المدينة، والتف حوله الساخطون، ثم

اقتحم سجن العامرية وأخرج من فيه، واجتمع حوله المروانية وانضم إليه الناس من كل حدب وصوب، وبعد أن سيطر ابن عبدالجبار على القصر واستولى على كل ما فيه من سلاح وغيره، طلب من الخليفة هشام أن يخلع نفسه فوافق، وانتهت بذلك خلافته الصورية التي دامت (33) سنة وتولى الأمر «محمد بن هشام بن عبدالجبار» وتلقب بالمهدى في (17 من جمادى الآخرة 399هـ = 16 من فبراير 1009م) وجاءه الناس مهئين، وما شعروا

(212/10)

أن تلك هي بداية الفتنة التي ستطيح ليس بالدولة العامرية وحدها بل وبالخلافة بكل ما تمثله وفي اليوم التالي قام الثائرون بهدم مدينة الزاهرة وقصورها، وأحست الحامية المنوط بها الدفاع عنها أن المقاومة غير مجدية ففتحو أبواب المدينة شريطة أن يؤمنهم المهدى، وتم نهب القصور والاستيلاء على كل ما كان فيها من متاع وجواهر، ولم يكتف المهدى بذلك وإنما قام بهدم كل مباني مدينة الزاهرة وأسوارها بعد أن استولى على كل ما فيها من خزائن وأموال وتحف حرصًا منه على إزالة كل آثار بني عامر، وأصبحت المدينة أطلالا، وتحولت إلى أثر بعد عين. وقد حاول «عبدالرحمن» وهو في «طليطلة» بعد أن بلغته أخبار الثورة أن يتنازل عن ولاية العهد مكتفياً بالحجابة، فلم يلتفت إليه أحد ثم سار إلى قرطبة، ولما اقترب منها تركه جند البربر وفرروا في جنح الظلام، ثم تمكن الخليفة الجديد من مطاردته وإلقاء القبض عليه وهو مختبئ في أحد الأديرة، وقتله في (3 من رجب 399هـ = 3 من مارس 1009م).

(213/10)

---

### \*بركة خان

هو «بركة خان بن جوجى بن جنكيزخان» أحد حكام منطقة القبحاق، اعتنق هو ورعيته الإسلام، وطلب العون من المماليك فى «مصر»، لكى يقفوا إلى جانب بلاده ضد «المغول الإيلخانيين» الذين كانوا يحكمون «فارس».

(214/10)

---

### \*قطب الدين أيبك

أول سلاطين المماليك فى الهند (سلطنة دهلى الإسلامية)، حكم من سنة (602 هـ = 1206م) إلى سنة (607 هـ = 1210م)، وقد اشتهر بحبه للعدل، وإقراره السلام والأمن فى نواحي بلاده، وبنى مسجدين كبيرين، أحدهما بدهلى والآخر بآجمير. وتوفى هذا السلطان فى عام (607 هـ = 1210م)

(215/10)

---

### \*ألتمش

هو شمس الدين ألتمش أو إيلتمش. سلطان هندى مسلم. أحد سلاطين دولة المماليك التركية بالهند وبعد المؤسس الحقيقى لهذه الدولة، كان مملوكًا للسلطان قطب الدين أيبك أول سلاطين هذه الدولة، ثم أعتقه وقربه منه وزوجه ابنته. وبعد موت قطب الدين أيبك اتفق أمراؤه على تولية ألتمش لما فيه من خصال حسنة تؤهله لذلك الأمر فتولى الحكم سنة (607 هـ = 1211م)، ودام حكمه نحو ربع قرن قضاه فى تثبيت دعائم دولته التى شملت شمال الهند من السند إلى البنغال، ونجح فى القضاء

على ثورات أمراء الهندوس وعدة ثورات أخرى ولكنه ما كاد يتخلص منها حتى ظهر له خطر المغول، وألحقوا بدياره الخراب والدمار، ولكنهم لم يتحملوا حرارة جو بلاده، واتجهوا صوب الغرب ثانية، فنجت البلاد من شرورهم..، واكتسب حكم ألتمش صفة شرعية بعد أن اعترف به الخليفة العباسى المستنصر بالله سلطاناً على دولة المسلمين بالهند ولقبه بالناصر أمير المؤمنين حامى الإيمان، فكان أول سلطان هندي يعترف به الخليفة العباسى. وعلى الرغم من غزوات ألتمش المتكررة وجهوده لتثبيت دعائم دولة الإسلام في الهند فإن ذلك لم يشغله عن الاهتمام بالإصلاحات الداخلية فأعاد تنظيم الجهاز الإدارى، وأقر العدل والحرية في البلاد، وعنى بتشجيع العلوم والآداب وأنفق أموالاً كثيرة لنسخ أعداد كبيرة من المصحف الشريف، وأسس العديد من المدارس وزين بلاطه بالشعراء والعلماء وقربهم منه، وأتم بناء مسجد قطب الدين في دلهى، وشيد مسجداً آخر في أجمير، وتوفي شمس الدين ألتمش سنة (633هـ = 1235 م). وكان لم ير في أبنائه الذكور من يصلح للحكم من بعده، فأوصى به لابنته «رضية»، ولكن رجال البلاط عهدوا بالملك عقب وفاته إلى الأمير «ركن الدين فيروز شاه»، إلا أنه لم يهنأ بالملك بسبب الفتق والاضطرابات التي عمت أنحاء البلاد، وكان نتيجة ذلك أن قُتل هو وأمه، فألت أمور الحكم إلى السلطنة «رضية» في عام (643هـ = 1236 م).

(216/10)

\*بلبان

يعد السلطان «بلبان» (بلبن) الذى حكم سلطنة دلهى الإسلامية في الهند في الفترة من عام (664هـ = 1265 م) إلى عام (686هـ

= 1287م)، من أقوى سلاطين «الهند» وأعظمها في تاريخها الوسيط، إذ واجه المغول الذين عادوا إلى تهديد «الهند» ثانية، وأعاد الهدوء والاستقرار إلى بلاده، ثم قضى على «الهندوس» الذين قطعوا الطريق بين «دهلي» و «البنغال»، وأقر الأمن والنظام في ربوع دولته. عهد «بلبان» - حين شعر بدنو أجله - بالحكم إلى ابنه «بغراخان»، إلا أن ابنه رفض ذلك، فعهد به إلى حفيده «كيخسرو بن بغراخان»، فتولى أمور البلاد، ولكنه كان ضعيفاً لا يقوى على تسيير أمور الحكم بمفرده، فأسندها إلى «نظام الدين» الذي اعتمد على خواصه والمقربين إليه في إدارة شئون البلاد، فاستبدوا بها، وحاول «بغراخان» أن يتخلص من «نظام الدين» ولكن الترك لم يمكنوه من ذلك، وعزلوا ابنه «كيخسرو» وولوا «كيقباد» أحد أطفاله الصغار، فتصدى لهم «الخلجيون» بقيادة زعيمهم «فيروز شاه»، وقضوا عليهم، فزال حكم المماليك بالهند على أيديهم.

(217/10)

### \*جلال الدين المنكبرتي

أحد سلاطين الدولة الخوارزمية في المشرق الإسلامي، تولى الحكم بعد وفاة أبيه السلطان «محمد خوارزمشاه» سنة 617هـ استطاع جلال الدين تكوين جيش كبير بلغ ثلاثين ألف مقاتل، وانضمت إليه الفلول التي كانت هاربة من المغول، نجح في إلحاق هزيمة كبيرة بمقدمة أرسلها المغول للبحث عنه في هذه المنطقة في سنة (618هـ). (خشي «جنكيزخان» أن يتسع نفوذ «جلال الدين» فأرسل جيشاً كبيراً بقيادة أحد كبار القادة المغول لمحاربتة، فالتقى الجيشان بالسهول القريبة من «بروان»، واستطاع «جلال الدين» أن يلحق هزيمة ساحقة

بالجيش المغولي، وسمع الناس بذلك ففرحوا فرحًا شديدًا، وثار أهالي «هراة» في وجه رئيس الحامية المغولي وقتلوه هو وجنوده، فبعث «جنكيز» بابنه «تولوي» إلى هذه المدينة، فدمرها وقتل جميع سكانها، وخرج «جنكيز» بنفسه على رأس جيش كبير لملاقاة «جلال الدين»، في الوقت الذي حدث فيه خلاف بين اثنين من قادة «جلال الدين» على توزيع الغنائم، وانسحب أحدهما بجنوده تاركًا «جلال الدين» في هذه الظروف الحرجة، فاضطر إلى الانسحاب بجنوده صوب بلاد «الهند» - حين سمع بقدوم المغول - ولكن «جنكيز» أدركه، ودارت بينهما معركة حامية؛ أبلى فيها «جلال الدين» بلاءً حسنًا، ولكن جيش «جنكيز» كان أقوى عدة وأكثر عددًا فأدرك «جلال الدين» أنه لا فائدة من القتال، وانطلق صوب «نهر السند» وعبره بجنوده، فلم يصل منهم إلى الجانب الآخر من النهر إلا أربعة آلاف فارس، وبقي «جلال الدين» في بلاد «الهند» بضع سنوات (618 - 622 هـ)، ثم عاد بعدها إلى إيران. انتهز «جلال الدين» فرصة انشغال المغول عن البلاد الفارسية بعد وفاة «جنكيز» وانطلق بجيشه نحو «إيران»، وعبر «نهر السند»، ودخل في حروب عديدة مع من رأهم سببًا فيما حلَّ بالدولة الخوارزمية، فحارب «الأتابكة» في «فارس» و «كرمان» و «يزد»، ثم حارب الخليفة العباسي،

(218/10)

---

وانتصر عليهم جميعًا، ولكن مجموعة من الولاة الذين يحكمون بلاد «ما وراء النهر» بقيادة «الملك الأشرف الأيوبي» في «الموصل»، تمكنوا من إلحاق الهزيمة بجلال الدين، فاستغل «الإسماعيلية» الفرصة وأرسلوا إلى «أوكتاي» إمبراطور المغول يخبرونه بأن الحلف العربي هزم «جلال الدين»، وقد أقدم

«الإسماعيلية» على ذلك لأن «جلال الدين» حاربهم من قبل وانتصر عليهم، فجرد «أوكتاي» جيشًا كبيرًا قوامه (50) ألف جندي بقيادة أشهر قواده «جرماغون»، الذي تمكن من مطاردة «جلال الدين» وتفريق جيشه، ففر «جلال الدين» في سنة (628هـ) إلى «الجمال الكردية» الواقعة في منطقة «جبال بكر»، فقتله هناك أحد الأكراد حين عرف أنه السلطان، ثارًا لمقتل أخيه على يد جيش «جلال الدين» في إحدى الحروب.

(219/10)

### \*جنكيزخان

وُلد «جنكيزخان» في سنة (549هـ = 1154م)، بإحدى المناطق المغولية، وكان أبوه «يسوكاي بهادر» رئيسًا لقبيلة «قيات» المغولية، وكان يحارب - أحيانًا - القبائل المجاورة له، كما كان يصطدم ببعض قبائل التتار، وقد خرج مرة لمحاربة رئيس إحدى القبائل التترية، وانتصر عليه، وتمكن من أسره وقتله، فلما عاد إلى موطنه وجد امرأته قد ولدت مولودًا، فأسماه «تموجين» بنفس اسم رئيس قبيلة التتار الذي تمكن من أسره وقتله، تيمناً بانتصاره عليه. عاش «تموجين» حياة عز ودلال في مطلع حياته، إلا أنه لم ينعم بها طويلاً، حيث مات أبوه وهو في الثالثة عشرة من عمره، فتغير الحال، وانفض عنه أكثر الناس، واضطر إلى الاعتماد على نفسه في رعاية أسرته، فكانت هذه الفترة شخصيته، وطبعته بطابع الجدة والصرامة، لدرجة أنه كان يستطيع أن يبقى ثلاثة أيام دون طعام أو شراب، فلما بلغ السابعة عشرة من عمره التف حوله جماعة من الناس، وتمكن من خلاصه أن يكون قوة يُخشى بأسها في المنطقة، فبدأ يفرض نفوذه على القبائل المجاورة، واحدة تلو الأخرى. كانت شخصية

«تموجين» القوية من بين الأسباب التي دفعت الناس إلى الالتفاف حوله، فبدأ بفرض نفوذه، ثم السيطرة على القبائل الكبيرة، وتمكن في سنة (599هـ) من إحراز نصر كبير على قبيلة «كرايت»، وأسّرت القبائل الأخرى إلى الدخول في طاعته، وقضى على ملك «النايمان»، ودخلت قبائله تحت إمرته في سنة (600هـ)؛ التي اجتمعت فيها القبائل وأجمعت على اختيار «تموجين» إمبراطوراً لها تحت اسم جنكيزخان. وتعدُّ هذه السنة بداية للدولة المغولية، التي وضع لها «جنكيزخان» مجموعة من القوانين الصارمة عرفت باسم «دستور الياسا» في عام (603هـ)، وكان على كل من يخضع لهذه القوانين أن يدين لها بالولاء، أما من يخرج عليها فليس له من جزاء إلا القتل فوراً، وهكذا استطاع «جنكيزخان» أن يوحد شتات هذه القبائل في

(220/10)

---

دولة واحدة تخضع لدستور واحد، واستغل قُوى هذه الأقوام والقبائل في تكوين جيش قوى استطاع به - بعد ذلك - أن يطيح بالدول المجاورة له، الواحدة تلو الأخرى. وتوفي جنكيز خان سنة 624هـ بعد حياها حافلة بالحروب والدمار.

(221/10)

---

### \*سعد الدولة اليهودي

هو طبيب يهودي عاش في عهد أرغون خان أحد سلاطين الدولة الإيلخانية، وكان اجتماعياً؛ يكثُر الاختلاط بالناس ويوسع دائرة معارفه بينهم، كما كان ملماً بأحوال الموظفين والصيارفة في «بغداد»، ويجيد عدة لغات، ويعمل بالطب الذي كان وفقاً في

بلاد الإيلخان على اليهود وحدهم، ولذا عملوا على التدخل في شئون الدولة من خلال عملهم، وحملوا الإيلخان «أرغون» على تعيين «سعد الدولة» طبيباً لبلاطه، وتصادف أن اعتلت صحة الإيلخان، ومرض مرضاً شديداً، وتمكن «سعد الدولة» من معرفة الدواء المناسب لمرضه، فشفى «الإيلخان»، وكافأ «سعد الدولة» وقربه منه، وزاد قدره عنده، فاستغل الطبيب ذلك، وأخذ يشي بالأمير «بوقا» ويزين للسلطان التخلص منه، حتى أوغر صدره ضده، فأمر السلطان بالقبض على «بوقا» وقتله بتهمة التآمر على السلطان، وتعيين الطبيب «سعد الدولة» وزيراً له على البلاد. استطاع الوزير سعد الدولة أن يستميل إليه قلوب الناس برفع المظالم عنهم، وإجراء الصدقات على فقرائهم ومحتاجيهم، فمدحه الشعراء، وقصد بابه الأدباء والعلماء، ولكنه لم يكد يطمئن إلى ثبات مركزه في الدولة، وارتفاع منزلته عند السلطان حتى أخذ يکید للمسلمين ويعمل على التضيق عليهم، فضاقوا به وتحينوا الفرصة للخلاص منه، كما ضاق به الأمراء المغول لاستبداده بالحكم، وقضائه على ما كانوا يتمتعون به من نفوذ، وانتظروا كذلك الفرصة للقضاء عليه، فمرض «أرغون» فجأة، واشتد عليه المرض، وحاول الأطباء برئاسة «سعد الدولة» معالجته وإنقاذه بكل السبل، ولكنهم عجزوا عن ذلك، فقبض الأمراء المغول على «سعد الدولة» وقتلوه في شهر صفر سنة (690هـ)، ولم يلبث الإيلخان بعده إلا فترة قصيرة ثم مات، فعمت مشاعر البهجة والسرور أنحاء البلاد الإسلامية؛ لمقتل «سعد الدولة»، وثار الناس على اليهود في كل مكان، وقتلوا منهم عدداً كبيراً.

### \*حسن الجلائرى

هو تاج الدين شيخ حسن بزرك بن حسين أول حكام «آل جلائرى» ومؤسس دولتهم «الجلائرية»، وثالث من تولى الحكم في «الدولة الإيلخانية»، وقد امتد سلطانه إلى «العراق»، واتخذ «بغداد» عاصمة له، وأعلن نفسه ملكاً عليها، فظهرت بذلك الدولة «الجلائرية» إلى حيز الوجود. شهدت اللبنة الأولى لقيام «الدولة الجلائرية» عدة حروب بين الأمراء المغول بهدف الوصول إلى الحكم، إلا أن «حسن الجلائرى» تمكن من الاستقلال بالعراق واستطاع أن يوحد الصفوف لتأسيس دولته الوليدة، ومع ذلك لم تتوقف الصراعات والحروب مع بقايا الإيلخانيين، إلى أن تمكن «الشيخ حسن الجلائرى» من طردهم إلى خارج حدود دولته - «العراق» - في عام (748هـ = 1347م). كان «الشيخ حسن الجلائرى» سياسياً حكيماً، وأراد أن يضمن لدولته قوتها ووحدتها، فلم يعلن نفسه خاناً أو سلطاناً؛ بل أعلن ولاءه للسلطان المملوكى فى «مصر» ليكون سنده الذى يحتمى به إذا ما فكر المغول فى غزوه، خاصة وأن دولته قريبة ومتاخمة للإمارات والممالك المغولية فساعده هذا التصرف على استقرار بلاده، وشجعه على الاستيلاء على «لورستان»، و «الموصل»، و «تستر»، وبسط نفوذه على غيرها، فاتسعت رقعة بلاده، وامتد نفوذ حكمه، ثم مات فى عام (757هـ = 1356م)

(223/10)

### \*أويس الجلائرى

هو «الشيخ أويس بن حسن الجلائرى»، تولى حكم الدولة الجلائرية بعد وفاة أبيه سنة 757هـ = 1356م، وقد بلغت الدولة فى عهده أقصى اتساع لها، إذ ضم إليها «أذربيجان»،

و «آران»، و «موقان»، واتخذ من «تبريز» عاصمة لبلاده، وانتقل نشاط الدولة السياسى ومركزها من «العراق» إلى «أذربيجان»، فأدى ذلك إلى قيام حركات التمرد فى «بغداد» على الجلائريين، وكانت حركة «مرجان» نائب «الشيخ أويس» على «بغداد» من أشهر هذه الحركات، وكان «مرجان» طواشيا للشيخ أويس. لقد أخطأ «الشيخ أويس» فى حساباته عندما ابتعد عن «العراق» واتخذ له عاصمة فى «إيران»، فضلا عن تقريبه الفرس دون العرب، فكانت النتيجة انضمام العرب بمختلف طوائفهم إلى «مرجان» وحركته، وحُذِف اسم «الشيخ أويس» من الخطبة؛ رمز السيادة فى الدولة، وحُطِب للسلطان المملوكى فى «مصر». خرج «الشيخ أويس» من «تبريز» إلى «بغداد» فى سنة (765هـ = 1363م)، واستطاع وزيره أن يستميل أعوان «الخواجة مرجان» إلى صفه، فانفضوا من حول «مرجان» وفشلت حركته، ودخل «الشيخ أويس» «بغداد» ثم جعل «شاه خازن» نائباً له عليها، ولكن «مرجان» لم ييأس من المحاولة، وعاد مرة ثانية إلى حكم «بغداد» عقب وفاة «شاه خازن»، مما يؤكد حب أهل «العراق» لمرجان ومكانته عندهم، فاضطر «الشيخ أويس» إلى الصّفح عنه، ثم أرسل ابنه «الشيخ على» ليحكم «العراق». وقد تُوفى «الشيخ أويس» عام (776هـ = 1373م)

(224/10)

### \*تيمور لنك

هو «تيمور بن ترغاي بن أبغاي» مؤسس الدولة التيمورية، أحاط المؤرخون نسبه بمالة من الرفعة وعلو الشأن، ليبرروا استيلاءه على «بلاد ما وراء النهر»، فقد كان أبوه «أمير مائة» عند السلطان المغولى، وكان المغول يستخدمون الأتراك فى

دواوينهم، وأكثروا منهم، حتى صارت اللغة التركية هي لغة البلاط والمجتمع في «بلاد ما وراء النهر»، فلما دخلت «الدولة المغولية» مرحلة الاضمحلال والضعف؛ قامت «الدولة الجغتائية» بمساعدة قبيلة «برلاس»، فحفظ الجغتائيون هذا الجميل، وولوا «تيمور لنك»، ولاية «كش»، حين التجأ إليهم أثناء الاضطرابات التي عصفت ببلاد «ما وراء النهر» ثم لم يلبث أن أخرج الجغتائيين من بلاد «ما وراء النهر»، وطارد قبائل «الجتة» البدوية؛ التي اتسمت بالعنف والوحشية، وتمكن من طردهم من «بلاد ما وراء النهر»، ثم أعلن نفسه سلطاناً في بلخ على هذه المنطقة، واتخذ «سمرقند» عاصمة لملكه، وأعلن ذلك رسمياً في عام (800هـ = 1397م)، ثم مضى في تنظيم حكومته الجديدة، واتبع قانون «جنكيزخان» (الياسا المغولية)، بما لا يتعارض مع القرآن الكريم والسنة النبوية. كان «تيمور لنك» ميالاً إلى الفتح والتوسع، وغزا «خوارزم» في عام (773هـ)، ثم دخلها وسيطر عليها في عام (781هـ)، فأضحت «آسيا الوسطى» كلها تحت سلطانه. بدأ حكم «تيمور كورخان» (تيمورلنك) منذ دخل «سمرقند» في عام (771هـ = 1329م)، فكوّن مجلس شورى من كبار الأمراء والعلماء، وعلى الرغم من أنه كان الحاكم الفعلي للبلاد، فإنه عمد إلى اختيار الأمير الجغتائي «سيورغتمش بن دانشمندجة»، وجعله رمزاً للحكم ولقبه بلقب السلطان في الفترة من سنة (771هـ = 1329م) إلى سنة (790هـ = 1387م)، ثم اتخذ من بعده «محمود بن سيورغتمش» من عام (790هـ = 1387م) إلى عام (800هـ = 1397م). وقد اتسمت سياسة «تيمور لنك» بالتوسع، فزحف إلى «إيران» في سنة (782هـ = 1380م)،

وتمكن من الاستيلاء على «خراسان» و «جرجان»، و «مازندران»،  
و «سيستان»، و «أفغانستان»، و «فارس»، و «أذربيجان»،  
و «کردستان»، ثم دخل «جورجيا» وغرب «إيران» في عام  
(786هـ = 1384م)، وتمكن من فتح «العراق» و «سورية» (حلب  
ودمشق)، وهزم المماليك في الشام، وحقق انتصارات عظيمة في  
«الهند» عقب وفاة «فيروزشاه» سلطان «دهلي» في عام  
(799هـ = 1397م)؛ حيث استولت جيوشه على حصن «أوكا»،  
وأسقطت «الملتان»، وفتحت «آباد»، ودخلت «هراة» بالأمان،  
ولاقى «تيمورلنك» مقاومة شديدة وصعوبة في دخول «دهلي»  
على يد سلطانها «محمود تغلق»، ولكن هذه المقاومة لم تستمر  
طويلا، ودخل «تيمور» هذه المدينة، فقدم إليه أعيانها وعلمائها  
فروض الولاء والطاعة، وخطب له فيها، وعلى الجانب الآخر حقق  
«تيمورلنك» انتصارات كثيرة على الأتراك العثمانيين، وأسر  
حاكمهم «بايزيد خان». وتوفي «تيمورلنك» في «أترار» عن  
عمر يناهز السبعين عامًا في سنة (807هـ = 1405م) بعد أن  
دانت له البلاد من «دهلي» إلى «دمشق»، ومن «بحيرة آرال»  
إلى «الخليج العربي»

(226/10)

### \*شاه رخ بن تيمور لنك

أحد سلاطين الدولة التيمورية، تولى العرش بعد وفاة أبيه تيمور  
لنك سنة (807هـ = 1405م) واستمر في الحكم إلى سنة (850هـ  
= 1447م) فعاشت البلاد في عهده أفضل فترات الحكم؛ إذ كان  
محبا للعلم والعلماء، حفيا بالثقافة، كما كان عادلا تقيا ورعا،  
فاشتهر بسلوكه الحسن وسيرته الطيبة بين الرعية. ولما  
«شاهرخ» أملاك «الدولة التيمورية» فيما عدا «سوريا»

و «العراق العربي»، فقام بإصلاحات كثيرة في البلاد، وشيد المباني، وبنى المدارس الكثيرة في «بخارى» و «سمرقند»، وأنشأ مرصده الشهير، وتوفي شاه رخ سنة 850هـ = 1447م.

(227/10)

---

**\*أبو سعيد السيرافي**

أحد علماء اللغة والأدب في العصر العباسي، ولى القضاء ببغداد، وكان من أعلم الناس بنحو البصريين، ومن بين مؤلفاته كتاب «أخبار النحويين البصريين» وكتاب «الوقف والابتداء». يقول عنه ابن خلكان: «كان الناس يشتغلون عليه بعدة فنون: القرآن الكريم والقراءات وعلوم القرآن والنحو واللغة والفقه والفرائض والحساب والكلام والشعر والعروض والقوافي»، وتوفي ببغداد سنة (368هـ = 979م).

(228/10)

---

**\*ابن جني**

هو «أبو الفتح عثمان بن جني»، يُعدُّ من أعظم علماء اللغة، لا في العصر العباسي الثاني فحسب؛ بل على امتداد العصور الإسلامية كلها، ولد بالموصل وتوفي ببغداد سنة (392هـ = 1002م). ومن بين كتبه الذائعة الشهرة الزاخرة بالقيمة في مجال اللغة كتاب «الخصائص» وله أيضاً «سر صناعة الإعراب»، و «المذكر والمؤنث»، و «المقصود والممدود»، و«اللمع» وغير ذلك. وقد شرح ابن جني ديوان المتنبي وكان من المعجبين بشعره. وكان ابن جني صاحب حس أدبي مرهف، وقد انعكس

ذلك على كتاباته العلمية التي اتسم أسلوبها بالجمال الأخاذ  
فضلاً عن الدقة البالغة.

(229/10)

---

### \*الشريف الرضى

من أبرز شعراء العصر العباسى الثانى، ينتهى نسبه إلى  
الحسين بن على بن أبى طالب، كان وثيق الصلة بالخليفة القادر  
بالله (381 - 422 هـ = 991 - 1031م)، وتوفى ببغداد سنة (406هـ  
= 1015م)، وعده بعض النقاد أشعر قريش. يقول عنه الثعالبي  
فى يتيمة الدهر: «هو أشعر الطالبين من مضى منهم ومن غير،  
على كثرة شعرائهم المفلقين، ولو قلت إنه أشعر قريش لم أبعد  
عن الصدق، وسيشهد بما أخبر به شاهد عدل، من شعره العالى  
القدح الممتنع عن القدح، الذى يجمع إلى السلاسة متانة وإلى  
السهولة رصانة، ويشتمل على معانٍ يقرب جناها ويبعد مداها».

(230/10)

---

### \*الجاحظ

هو أبو عثمان عمرو بن بحر إمام المنشئين فى تاريخ الأدب  
العربى بلا جدال. كان على مذهب المعتزلة وكان موسوعى  
الثقافة متجدد الفكر، وقد ترك أسلوبه بصمات واضحة على  
أساليب كثير من جاءوا بعده، ومؤلفات الجاحظ عديدة وذائعة،  
تمّ عن ذهن ناضج وفكر متدقق، ومن أشهر كتبه: كتاب  
«الحيوان» و «البيان والتبيين» و «البيخلاء». وله رسائل مختلفة  
طبعت تحت اسم «رسائل الجاحظ»، وهى تتناول موضوعات  
شتى. وتوفى بالبصرة سنة (255هـ = 869م).

**\*ابن العميد**

هو أبو الفضل محمد بن العميد، من أبرز الذين تأثروا بالجاحظ وحاولوا أن ينهجوا نهجه، ولتمكنه في فن الإنشاء عرف باسم «الجاحظ الثاني»، وهو الذي قيلت فيه العبارة المشهور: «بدئت الكتابة بعد الحميد وختمت بابن العميد»، وعبد الحميد هنا هو: عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، عاش ابن العميد في ظل البويهيين وعمل وزيراً لركن الدولة - الحسن بن بويه - وكان - كما يصفه ابن خلكان - «متوسعاً في علوم الفلسفة والنجوم، وأما الأدب والترسل فلم يقاربه فيه أحد في زمانه». ويصفه ابن الأثير بأنه كان من محاسن الدنيا، قد اجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره من حسن التدبير وسياسة الملك، والكتابة التي أتى فيها بكل بديع». وتوفي ابن العميد سنة (360هـ = 971م)

**\*محمد ابن العميد**

هو أبو الفضل محمد بن العميد، من أبرز الذين تأثروا بالجاحظ وحاولوا أن ينهجوا نهجه، ولتمكنه في فن الإنشاء عرف باسم «الجاحظ الثاني»، وهو الذي قيلت فيه العبارة المشهور: «بدئت الكتابة بعد الحميد وختمت بابن العميد»، وعبد الحميد هنا هو: عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، عاش ابن العميد في ظل البويهيين وعمل وزيراً لركن الدولة - الحسن بن بويه - وكان - كما يصفه ابن خلكان - «متوسعاً في

علوم الفلسفة والنجوم، وأما الأدب والترسل فلم يقاربه فيه أحد  
في زمانه». ويصفه ابن الأثير بأنه كان من محاسن الدنيا، قد  
اجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره من حسن التدبير وسياسة  
الملك، والكتابة التي أتى فيها بكل بديع». وتوفي ابن العميد  
سنة (360هـ = 971م)

(233/10)

---

### \*الصاحب بن عباد

هو «أبو القاسم إسماعيل بن عباد» المعروف بالصاحب بن عباد،  
لصحبته لابن العميد وتأثره به في طرائقه. وكان يقال له أحياناً  
صاحب ابن العميد. وقد تولى الصاحب بن عباد الوزارة لمؤيد  
الدولة بين ركن الدولة ثم لأخيه فخر الدولة، وفضلاً عن براعة  
الصاحب في فن الإنشاء - كأستاذه ابن العميد - فقد كان محباً  
للعلم ذواقة للأدب، كما كان شاعراً جيد النظم. والجدير بالذكر  
هنا أن كلا من ابن العميد والصاحب بن عباد كان له مجلس يحفل  
بوجوه الشعراء والعلماء والمفكرين، وكان من بين المترددين  
على مجلس ابن العميد أبو الطيب المتنبي شاعر العربية الأكبر،  
وقد مدحه بقصيدة من عيون شعره، وتوفي الصاحب بن عباد  
بمدينة الرى في سنة (385هـ = 995م).

(234/10)

---

### \*الحريري

هو «أبو محمد القاسم بن علي الحريري البصري»، من الذين  
تميزوا في مجال النثر الفني في العصر العباسي الثاني، اشتهر  
بكتابة المقامات ووصل بهذا الفن إلى مداه، وقد حذا في ذلك

حذو استاذہ بديع الزمان الهمذاني. واعترف في صدر مقاماته بأنه جعل مقامات البديع مثلاً له. وقد توفي الحريري في حدود سنة (516هـ = 1122م) بالبصرة إبان فترة نفوذ السلاجقة، وذلك في خلافة المسترشد بالله. والملاحظ أن شهرة مقامات الحريري بلغت من الانتشار حداً تتضاءل بجانبه شهرة مقامات الرائد الأول بديع الزمان. وتكشف مقامات الحريري عن البراعة الكبيرة لصاحبها في التصرف في اللغة وتطويعها لما يريده من معان وأفكار، وهي إحدى الوسائل المهمة لمن يبحثون عن إثراء ملكاتهم اللغوية.

(235/10)

---

**\* ابن قتيبة الدينوري**

هو أبو محمد عبدالله بن مسلم أحد أعلام اللغة والأدب في العصر العباسي، ولد بالكوفة وتنقّل بها وسكن بغداد زمنًا ولكنه نسب إلى الدينور لأنه تولى قضاءها، وقد توفي ابن قتيبة في سنة (276هـ = 889م) في خلافة المعتمد على الله، وقد خُلف لنا ابن قتيبة عددًا من الموسوعات الأدبية المهمة يأتي على رأسها كتاب «عيون الأخبار»، وكتاب «الشعر والشعراء»، ومن كتبه الأدبية المهمة أيضًا كتاب «أدب الكاتب» الذي يتحدث فيه عما يحتاج إليه الأديب من فنون المعرفة ليمارس صنعة الكتابة على الوجه الأمثل.

(236/10)

---

**\* النعالي أبو منصور**

هو عبدالمالك بن محمد بن إسماعيل، من أبرز أصحاب الموسوعات

الأدبية فالعصر العباسي، ولد بنيسابور في سنة (350هـ = 961م)، وتوفي في سنة (429هـ = 1038م)، أى أنه عاش حياته كلها في فترة نفوذ البويهيين، وشهدت فترة تفتحه الأدبي خلافة الطائع لله والقادر بالله، وتوفي في خلافة القائم بأمر الله، وكان الثعالبي غزير الإنتاج متنوع الاهتمامات العلمية، ولكن يقف على رأس مؤلفاته جميعاً كتابه الموسوعي الضخم «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر»، وهو أكبر كتبه وأحسنها وأجمعها كما يقول ابن خلكان، وهو من أربعة مجلدات صرف فيها جل اهتمامه لشعراء القرن (4هـ = 10م) ورتبهم على أوطانهم، فقد تناول في أبواب خاصة شعراء الشام ومصر والمغرب والموصل والبصرة وبغداد وأصفهان والجبل وفارس والأهواز وجرجان، وتحدث عن الدولة السامانية وشعرائها وعن خوارزم، وتحدث أيضاً عن بني بويه وشعرائهم وكتابهم، وأسهب في الحديث عن ابن العميد والصاحب بن عباد، كما تحدث عن بلاط سيف الدولة وشعرائه وكتابه، ولا شك أن يتيمة الدهر تعد إحدى الموسوعات الأدبية الأساسية في تاريخ الأدب العربي، ولا تزال حتى يومنا هذا مصدراً لا غنى عنه للباحثين في الحياة الأدبية في القرن (4هـ = 10م).

(237/10)

### \*محمد بن جرير الطبري

هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، من أهم أعلام المؤرخين في صدر العصر العباسي الثاني، توفي سنة (310هـ = 922م) في خلافة المقتدر بالله، وقد عاش الطبري في فترة التحول المهمة التي انتقلت فيها الخلافة العباسية من عصرها الأول -عصر القوة السياسية المركزية - إلى عصرها الثاني الذي بدأت فيه

السلطة المركزية تضعف ضعفاً ملحوظاً، وهكذا شهد الطبري معظم عصر نفوذ الأتراك، وقد ولد في آمل بطبرستان في سنة (224هـ = 839م) وأخذته الرحلة في طلب العلم إلى كثير من بقاع العالم الإسلامي كالعراق والشام ومصر، ثم استقر به المقام أخيراً في بغداد وبها مات ودفن، وقد ترك لنا الطبري موسوعته التاريخية الذائعة الصيت وهي: «تاريخ الأمم والملوك» المشهورة باسم «تاريخ الطبري»، في عشرة مجلدات، وتناول الطبري في هذه الموسوعة الضخمة تاريخ ما قبل الإسلام منذ بدء الخليقة بقدر من الاختصار في المجلد الأول وبعض الثاني، ثم جاء علاجه المفصل للأحداث منذ بدأ يتناول سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وسيرة الخلفاء الراشدين، وما تلا ذلك من تاريخ الدولة الأموية والعباسية حتى عصره، وقد توقف الطبري بتاريخه عند أحداث سنة (302هـ = 914م) في خلافة المقتدر، وتاريخ الطبري منجم غني بالمعلومات حافل بالروايات المختلفة التي تقدم المادة الأساسية للباحث، وهناك إجماع في الشرق والغرب على أن هذا التاريخ يعدُّ عمدة الباحثين في التاريخ الإسلامي في القرون الثلاثة الأولى للهجرة.

(238/10)

#### \*الطبري محمد بن جرير

هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، من أهم أعلام المؤرخين في صدر العصر العباسي الثاني، توفي سنة (310هـ = 922م) في خلافة المقتدر بالله، وقد عاش الطبري في فترة التحول المهمة التي انتقلت فيها الخلافة العباسية من عصرها الأول -عصر القوة السياسية المركزية - إلى عصرها الثاني الذي بدأت فيه السلطة المركزية تضعف ضعفاً ملحوظاً، وهكذا شهد الطبري

معظم عصر نفوذ الأتراك، وقد ولد في آمل بطبرستان في سنة (224هـ = 839م) وأخذته الرحلة في طلب العلم إلى كثير من بقاع العالم الإسلامي كالعراق والشام ومصر، ثم استقر به المقام أخيراً في بغداد وبها مات ودفن، وقد ترك لنا الطبري موسوعته التاريخية الذائعة الصيت وهي: «تاريخ الأمم والملوك» المشهورة باسم «تاريخ الطبري»، في عشرة مجلدات، وتناول الطبري في هذه الموسوعة الضخمة تاريخ ما قبل الإسلام منذ بدء الخليقة بقدر من الاختصار في المجلد الأول وبعض الثاني، ثم جاء علاجه المفصل للأحداث منذ بدأ يتناول سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وسيرة الخلفاء الراشدين، وما تلا ذلك من تاريخ الدولة الأموية والعباسية حتى عصره، وقد توقف الطبري بتاريخه عند أحداث سنة (302هـ = 914م) في خلافة المقتدر، وتاريخ الطبري منجم غني بالمعلومات حافل بالروايات المختلفة التي تقدم المادة الأساسية للباحث، وهناك إجماع في الشرق والغرب على أن هذا التاريخ يعدُّ عمدة الباحثين في التاريخ الإسلامي في القرون الثلاثة الأولى للهجرة.

(239/10)

### \*البلاذري

هو أحمد بن يحيى البلاذري أحد أعلام المؤرخين في العصر العباسي الثاني، كان مقرَّباً للخليفين المتوكل والمستعين، ويعد كتابه «فتوح البلدان» من أوثق الكتب التي تحدثت عن تاريخ الفتوح الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى عصره، وهو يتميز بدقته في الأسلوب وموضوعيته في العرض والبعد عن الحشو، وهو من بين المصادر التي تحتل قيمة خاصة في هذا الجانب، وللبلاذري كتاب آخر معروف هو «أنساب الأشراف»، وهو يقدم

مادة تاريخية غزيرة في صدر الإسلام والعصر الأموي والعباسي  
الأول من خلال أنساب الرجال الذين يتناولهم بالبحث، وتوفي  
في حدود سنة (279هـ = 892م).

(240/10)

---

### \*أحمد بن يحيى البلاذري

هو أحمد بن يحيى البلاذري أحد أعلام المؤرخين في العصر  
العباسي الثاني، كان مقرباً للخليفين المتوكل والمستعين، ويعد  
كتابه «فتوح البلدان» من أوثق الكتب التي تحدثت عن تاريخ  
الفتوح الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى عصره، وهو يتميز  
بدقته في الأسلوب وموضوعيته في العرض والبعد عن الحشو،  
وهو من بين المصادر التي تحتل قيمة خاصة في هذا الجانب،  
وللبلاذري كتاب آخر معروف هو «أنساب الأشراف»، وهو يقدم  
مادة تاريخية غزيرة في صدر الإسلام والعصر الأموي والعباسي  
الأول من خلال أنساب الرجال الذين يتناولهم بالبحث، وتوفي  
في حدود سنة (279هـ = 892م).

(241/10)

---

### \*أبو حنيفة الدينوري

أحد أئمة العلم في العصر العباسي الثاني، كان موسوعي  
المعرفة وبرع في علوم كثيرة كالنحو واللغة والهندسة والفلك  
وغير ذلك، ولكن الكتاب الذي اشتهر به الدينوري هو كتابه  
التاريخي المعروف باسم «الأخبار الطوال» الذي يتناول فيه  
التاريخ الإسلامي منذ ظهور الإسلام حتى وفاة الخليفة المعتصم

سنة (227هـ = 842م)، مع مقدمة مختصرة عن التاريخ القديم.  
وتوفي سنة (282هـ = 895م)

(242/10)

---

### \*المسعودى

هو على بن الحسين المسعودى، من أبرز المؤرخين الذين شهدوا بداية مرحلة النفوذ البويهى، ومع أن المسعودى نشأ في بغداد فقد كان دائم الترحل في طلب العلم، وهو يقدم نموذجاً للعالم الذى جعل العلم ضالته، فهو ينشده لكل ما أوتى من حول وما وسعه من صبر؛ فقد ذهب إلى الهند والملتان وسرنديب (سيلان) والصين، فضلاً عن مراكز العلم الشهيرة في أرجاء العالم الإسلامى، ومن أشهر مؤلفاته التاريخية كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، وقد تناول فيه تاريخ الأمم القديمة، ثم تناول تاريخ الإسلام منذ ظهوره حتى خلافة المطيع لله، وهو أول الخلفاء العباسيين في العصر البويهى، ومن بين الكتب التاريخية الذائعة للمسعودى أيضاً كتاب «التنبيه والإشراف»، وهو محاولة منه لتقديم كتاب تاريخى مختصر يضم خلاصة ما كتب، وهو يحتوى على معلومات مهمة من كتب أخرى للمسعودى لم تصل إلينا، وتوفي المسعودى سنة (346هـ = 957م).

(243/10)

---

### \*علي بن الحسين المسعودى

هو على بن الحسين المسعودى، من أبرز المؤرخين الذين شهدوا بداية مرحلة النفوذ البويهى، ومع أن المسعودى نشأ في بغداد فقد كان دائم الترحل في طلب العلم، وهو يقدم نموذجاً للعالم

الذى جعل العلم ضالته، فهو ينشده لكل ما أوتى من حول وما وسعه من صبر؛ فقد ذهب إلى الهند والملتان وسرنديب (سيلان) والصين، فضلاً عن مراكز العلم الشهيرة في أرجاء العالم الإسلامي، ومن أشهر مؤلفاته التاريخية كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، وقد تناول فيه تاريخ الأمم القديمة، ثم تناول تاريخ الإسلام منذ ظهوره حتى خلافة المطيع لله، وهو أول الخلفاء العباسيين في العصر البويهي، ومن بين الكتب التاريخية الذائعة للمسعودي أيضاً كتاب «التنبيه والإشراف»، وهو محاولة منه لتقديم كتاب تاريخي مختصر يضم خلاصة ما كتب، وهو يحتوي على معلومات مهمة من كتب أخرى للمسعودي لم تصل إلينا، وتوفى المسعودي سنة (346هـ = 957م).

(244/10)

#### \*الخطيب البغدادى

هو «أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت»، من المؤرخين المتميزين في فترة النفوذ البويهي، وقد عاش في بغداد التي يُنسب إليها ومات بها، ولكنه رحل طلباً للعلم إلى عدة مراكز علمية بارزة كالبصرة والكوفة ونيسابور وحلب وبيت المقدس وغيرها، وهو يتميز بغزارة إنتاجه وتنوع اهتماماته العلمية؛ حيث أَلَّفَ في فروع مختلفة من العلم كالتاريخ والفقه والحديث والنحو والأدب وغيرها، ومعظم مؤلفاته لم تصل إلينا، ولكن موسوعته الضخمة المعروفة باسم «تاريخ بغداد» وصلت إلينا وهي التي أكسبته شهرة واسعة، وهي تاريخ شامل لبغداد من حيث نشأتها وأحيائها وقصورها ومختلف معالمها، فضلاً عن تراجم أعلامها من رجال السياسة والعلم والأدب وغير ذلك، ومن هنا تعد هذه الموسوعة مصدرًا لا غنى عنه للباحثين في تاريخ الخلافة

العباسية منذ نشأتها حتى بداية العصر السلجوقي،  
وتوفى الخطيب البغدادي سنة (463هـ = 1071م)،

(245/10)

---

### \*أسد الساماني

أحد رجالات الدولة العباسية المعروف بالساماني نسبة الى قرية  
سامان القريبة من سمرقند، وكان أباه وأجداده يتوارثون  
إمارتها ويسمون أميرهم (سامان خداه) أى كبير قرية سامان  
وصاحبها. وقد اعتنق أبو أسد الإسلام أثناء خلافة الأمويين. وقد  
طال العمر بأسد الساماني حتى أدرك المأمون فذهب إليه في  
مرو قبل انتقاله إلى بغداد في الفترة من سنة 193هـ = 809م  
الى سنة 202هـ = 817م ومعه أبناؤه الأربعة نوح وأحمد ويحيى  
والياس فاحتفى بهم المأمون وألحقهم بخدمته.

(246/10)

---

### \*ابن الأحمر

هو محمد بن يوسف بن نصر أو ابن الأحمر الملقب بالغالب بالله  
مؤسس دولة بنى نصر فى الأندلس، كانت بداية ظهوره فى وقت  
اشتدت فيه الحن، وانعقدت عليه الآمال؛ لتمييزه بالشجاعة  
ومجاهدة العدو، والتف حوله الناس وبيعوه فى «أرجونة» وما  
حولها على بعد ثلاثين كيلو متراً من «جيان» فى (رمضان 629هـ  
= يوليو 1232م) وتوافد عليه جنود الأندلس؛ فأعلن نفسه أميراً  
وانتقل إلى «جيان»، ودخلت فى طاعته بلاد الجنوب كلها، لكنه  
أحس أنه فى حاجة إلى معقل يعتصم به؛ لأن «جيان» مدينة  
مكشوفة، فوقع اختياره على غرناطة الواقعة عند سفح جبل

الثلج، وكان يوجد في أعلى الجبل حصن منيع سبق تعميره أول  
عصر ملوك الطوائف، فتوجه إليه وسكنه واستقر به، وشيئاً  
فشيئاً أخذ يوسع نطاق سلطانه، حتى أصبحت دولته تضم بين  
جنباتها ثلاث ولايات كبيرة هي: غرناطة وألمرية، ومالقة،  
ووصلت حدودها إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط ومضيق جبل  
طارق، واتخذ مدينة غرناطة عاصمة لدولته، وساعد على دعم  
دولته استيلائه على ألمرية ومالقة لما لهما من أهمية عظيمة في  
المجالين التجارى والبحرى. وقد واجهت «ابن نصر» بعض  
المشكلات الداخلية والخارجية، منها: علاقته بأصحابه «بني  
أشقيولة» الذين عاونوه ثم انقلبوا عليه، ونقص المال الذى كان  
في أشد الحاجة إليه لتثبيت قواعد سلطانه، ومشكلته مع ملوك  
النصارى الذين أدركوا خطر دولته الناشئة وأرادوا القضاء  
عليها، فاضطر إلى أن يعقد معهم معاهدة صلح سنة (643هـ =  
1245م) لمدة عشرين عاماً، وبمقتضاها حكم ابن الأحمر مملكته  
باسم ملك قشتالة «فرناندو الثالث» ودفع له جزية، ووافق على  
حضور البلاط القشتالى باعتباره واحداً من أمراء الملك، وعلى  
مده بالجنود كلما طلب منه ذلك، وبالفعل أمد ابن الأحمر بقوات  
ساعدت على سقوط «إشبيلية» في يد النصارى في (3 شعبان  
646هـ = نوفمبر 1248م). وفي (جمادى الثانية 671هـ = ديسمبر

(247/10)

---

1272م) توفي محمد بن يوسف بن نصر، بعد أخذ البيعة لولده  
محمد، فأقر بذلك مبدأ الملكية الوراثية.

(248/10)

---

### \*محمد الفقيه

هو محمد بن محمد بن يوسف بن نصر الملقب بالفقيه لاشتغاله بالعلم أيام أبيه، وهو أحد أمراء دولة بني نصر في الأندلس، تولى الحكم بعد وفاة أبيه سنة 671هـ=1272م، قال عنه ابن الخطيب: «وهو الذى رتب رسوم الملك للدولة ووضع ألقاب خدمتها، ونظم دواوينها وجبايتها، هذا إلى جانب اعتنائه بالجيش وخاصة فرق الفرسان .. وكان سياسيا بارزاً .. ، أديباً عالماً، يقرض الشعر ويجالس العلماء والأدباء والأطباء والمنجمين والحكماء، والكتاب والشعراء». وقد واجه محمد الفقيه عند توليه الحكم ثلاث مشكلات هي، مشكلته مع الإسبان، وقد نجح في تحقيق انتصارات عليهم منتهزاً فرصة موت مليكهم، ومع المرينيين الذين استنصر بهم ليعاونوه في الجهاد ضد المسيحيين فإذا بهم يطمعون فى الاستيلاء على الأندلس، الشىء الذى دفعه إلى التحالف مع ملك أراجون تارة ومع ملك قشتالة تارة أخرى لدرء خطر المرينيين، وعلى الرغم من تحسن العلاقات بين غرناطة وفاس، فإن الفقيه لم يكن يطمئن إلى نياتهم، وقد دفعهم ذلك إلى التحالف مع النصارى مرات، وأخيراً كانت هناك مشكلة مع أصحاب أبيه «بني أشقيلولة» التى اشتدت فى زمنه، وانتهت بصدور أمر يقضى بتهجيرهم إلى مدينة القصر الكبير بشمالى المغرب جنوب مدينة سبتة سنة (687هـ = 1288 م). وعلى كل حال فقد توفى محمد الفقيه فى (شعبان 701هـ = أبريل 1302م) بعد أن نجح فى دعم دولته داخليا وخارجيا.

(249/10)

### \*إسماعيل بن فرح

هو أبو الوليد إسماعيل بن فرح أحد أمراء دولة بني نصر فى

الأندلس، تولى الحكم سنة (713هـ = 1313م)، اشتهر بإقامة الحدود وتطبيق الشرع، وفي عهده قام القشتاليون بهجوم ضخم على غرناطة، انتهى بمقتل أميرى الجيش النصرانى فى مروج غرناطة، وانتهاز الأمير فرصة منازعات بين أمراء قشتالة واستولى على بعض المدن القشتالية ومنها مدينة «أشكر»، وقد استخدم الغرناطيون المدفع لأول مرة عند منازلتهم لها.

(250/10)

---

### \*محمد الرابع بن إسماعيل

هو أبو عبدالله محمد الرابع بن إسماعيل أحد أمراء دولة بنى نصر فى الأندلس، تولى الحكم بعد وفاة أبيه سنة (725هـ = 1325م) وقد اشتهر بالشجاعة كما كان مغرماً بالصيد محبا للأدب والشعر، وفى عهده قامت بعض الفتن الداخلية التى انتهزها النصارى واستولوا على عدد من الحصون، كما أحرز أسطولهم نصراً على الأسطول الإسلامى فى ألمرية ومالقة. وقد دفع هذا السلطان أن يعبر بنفسه إلى المغرب ليستنجد ببنى مرين الذين أجابوه إلى ما طلب، ونزلت قوات المرينيين على جبل الفتح وأمكنها الاستيلاء عليه عام (733هـ = 1333م)، ولكن السلطان قُتل فى طريق عودته إلى غرناطة

(251/10)

---

### \*يوسف الأول

هو أبو الحجاج يوسف الأول بن إسماعيل بن فرح أحد أمراء دولة بنى نصر فى الأندلس، تولى الحكم بعد وفاة أخيه سنة (733هـ = 1333م)، وشهدت مملكة غرناطة فى عهده عصرها

الذهبي، فأنشئت المدرسة اليوسفية والنصيرية، وجرى الاهتمام  
بتحصين البلاد، وإنشاء المصانع، وإقامة الحصون، وبناء السور  
العظيم حول ربض البيازين في غرناطة، وأضيفت منشآت كثيرة  
إلى قصر الحمراء منها باب الشريعة وغيره، وكان السلطان  
حريصًا على تفقد أحوال شعبه بنفسه. ومن الأحداث العظام في  
عهده: الوباء الأسود الذى تفشى في حوض البحر الأبيض  
المتوسط عامي (749 - 750 هـ = 1348 - 1349م)، وشمل المشرق  
والمغرب، وراح ضحيته عدد عظيم من علماء الأندلس ورجال الدين  
والأدب والسياسة فيها. وعلى الرغم من قيام أبي الحجاج بعقد  
سلام مع ملك قشتالة عام (734 هـ = 1334م) فإنه سرعان ما  
تحطم وبدأ صراع بين غرناطة والمغرب من ناحية، وقشتالة  
تساندها أراجون والبرتغال من ناحية أخرى حول السيطرة على  
جبل طارق، وبعد معارك انتهى الأمر بين كل الأطراف بعقد  
معاهدة مدتها عشر سنوات، وتوفى يوسف الأول قتيلاً في  
(أول شوال 755 هـ = سبتمبر 1357م)

(252/10)

### \*عز الدين أيبك

هو أول سلاطين دولة المماليك في مصر والشام بعد أن زالت  
دولة الأيوبيين، تولى عرش السلطنة سنة (648 هـ) وفي عهده لم  
تستقر الأوضاع تمامًا، شأن كل فترات الانتقال من نظام إلى  
نظام، أو بناء دولة وليدة على أنقاض أخرى بائدة، ولم يخلُ  
عهد «أيبك» من المنازعات التى نشبت بينه وبين المماليك على  
السلطنة، خاصة أن «فارس الدين أقطاي» رئيس «المماليك  
البحرية» لم يكن مقتنعًا بأيبك، فدارت بينهما مناوشات كثيرة،

وتمكن «أيك» من القضاء على «أقطاي»، ولكنه لم يلبث طويلا بعد ذلك وقُتل سنة 655هـ.

(253/10)

---

### \*أيك التركمانى

هو أول سلاطين دولة المماليك فى مصر والشام بعد أن زالت دولة الأيوبيين، تولى عرش السلطنة سنة (648 هـ) وفى عهده لم تستقر الأوضاع تمامًا، شأن كل فترات الانتقال من نظام إلى نظام، أو بناء دولة وليدة على أنقاض أخرى بائدة، ولم يخلُ عهد «أيك» من المنازعات التى نشبت بينه وبين المماليك على السلطنة، خاصة أن «فارس الدين أقطاي» رئيس «المماليك البحرية» لم يكن مقتنعًا بأيك، فدارت بينهما مناوشات كثيرة، وتمكن «أيك» من القضاء على «أقطاي»، ولكنه لم يلبث طويلا بعد ذلك وقُتل سنة 655هـ.

(254/10)

---

### \*على بن أيك (المنصور)

تولى على بن أيك عرش السلطنة المملوكية فى مصر والشام عقب مقتل أبيه سنة 655هـ، وتلقب بالمنصور نور الدين، إلا أنه لم يكن أهلا لهذه المسئولية الجسيمة، خاصة أن البلاد الإسلامية - آنذاك - كان يتهددها خطر المغول، الذين سيطروا على مركز الخلافة الإسلامية، بالإضافة إلى أن «المنصور» كان لا يزال طفلا فى الحادية عشرة من عمره، ولذلك لم يجد الأتابك «سيف الدين قطز» صعوبة فى عزله وتولى عرش السلطنة بدلا منه.

\*سيف الدين قُطز

هو ثالث سلاطين دولة المماليك في مصر والشام، وقد كان «قطز» أتابكًا للمنصور نور الدين علي بن أيبك، ورأى هولاءكو قائد المغول قد سيطر على «بغداد»، وقتل خليفة المسلمين، وزحف يهدد بغزو «مصر»، فأحس أن ظروف البلاد تتطلب منه أن يقوم بدور فعال في إنقاذها من خطر الغزو في هذه المرحلة الخطيرة، فعزل «علي بن أيبك» الذي كان صغيراً لا يدرك عاقبة الأمور، وتولى السلطنة سنة 657هـ، وقام بتنظيم الجيش وإعدادها، وخرج لملاقاة التتار في أواخر شهر شعبان عام (658هـ)، وتمكن في رمضان من العام نفسه من إلحاق هزيمة نكراء بهم في «عين جالوت» (تقع بين «بيسان» و «نابلس» بفلسطين)، وقتل من جيش التتار ما يقرب من نصفه، وأجبر الباقي على الفرار، ثم دخل بعد ذلك «دمشق»، ثم عاد إلى «مصر». وفي «القصير» (بمحافظة الشرقية)، وفي طريق عودة «قطز» إلى «مصر» أمر جنوده بالرحيل تجاه «الصالحية»، وبقي مع بعض خواصه وأمرائه للراحة، فاتفق عدد من المماليك بزعامة «بيبرس» على قتله، وتم لهم ما أرادوا في ذى القعدة سنة (658هـ)، بعد أن قام «قطز» بدحر التتار وهزيمتهم، وتشتيت جيشهم، وحفظ العالم الإسلامي من شرهم الذي لم يسلم منه أحد في طريقهم.

## \*قُطْرُ

هو ثالث سلاطين دولة المماليك في مصر والشام، وقد كان «قُطْرُ» أتباعًا للمنصور نور الدين علي بن أيك، ورأى هولاء قائد المغول قد سيطر على «بغداد»، وقتل خليفة المسلمين، وزحف يهدد بغزو «مصر»، فأحس أن ظروف البلاد تتطلب منه أن يقوم بدور فعال في إنقاذها من خطر الغزو في هذه المرحلة الخطيرة، فعزل «علي بن أيك» الذي كان صغيراً لا يدرك عاقبة الأمور، وتولى السلطنة سنة 657هـ، وقام بتنظيم الجيش وإعداده، وخرج لملاقاة التتار في أواخر شهر شعبان عام (658هـ)، وتمكن في رمضان من العام نفسه من إلحاق هزيمة نكراء بهم في «عين جالوت» (تقع بين «بيسان» و «نابلس» بفلسطين)، وقتل من جيش التتار ما يقرب من نصفه، وأجبر الباقي على الفرار، ثم دخل بعد ذلك «دمشق»، ثم عاد إلى «مصر». وفي «القصير» (بمحافظة الشرقية)، وفي طريق عودة «قُطْرُ» إلى «مصر» أمر جنوده بالرحيل تجاه «الصالحية»، وبقي مع بعض خواصه وأمرائه للراحة، فاتفق عدد من المماليك بزعامة «بيبرس» على قتله، وتم لهم ما أرادوا في ذى القعدة سنة (658هـ)، بعد أن قام «قُطْرُ» بدحر التتار وهزيمتهم، وتشيت جيشهم، وحفظ العالم الإسلامي من شرهم الذي لم يسلم منه أحد في طريقهم.

(257/10)

## \*بيبرس البندقدارى (658 – 679هـ)

هو أحد سلاطين دولة المماليك في مصر والشام، انتقل إليه عرش السلطنة بعد مقتل «قُطْرُ» سنة 658هـ ويُعدُّ المؤسس الفعلي لدولة المماليك وأعظم سلاطينها؛ إذ اجتمعت فيه صفات العدل

والفروسية والإقدام. عقد «بيبرس» العزم على أن تكون «مصر» والشام من أعظم البلاد آنذاك، ووهب حياته للجهاد، وجعل هدفه رفع شأن الأمة الإسلامية، وإليه يرجع الفضل في انتقال الخلافة العباسية إلى «القاهرة» بعد سقوطها في «بغداد»، وأصبحت مصر دار الخلافة الإسلامية؛ إذ استقدم «بيبرس» «أحمد بن الخليفة الظاهر العباسي»، وبايعه بالخلافة في حضرة الأمراء والعلماء ورجال الدولة. وفي (4 من شعبان سنة 659هـ)، عقد الخليفة اجتماعاً منح فيه «بيبرس» تفويضاً منه لتسيير أمور البلاد، فكان ذلك تقوية له ضد خصومه ومنافسيه، كما كان إقراراً بمشروعية النظام المملوكي، وبحقه في تولي شئون البلاد. عادت إلى العالم الإسلامي هيئته بإحياء الخلافة الإسلامية، وأضحت «القاهرة» مقر الخلافة، ومركز السلطة الإسلامية المركزية، ومقصد المسلمين من كل حذب وصوب، وظلت على ذلك حتى انتقلت منها الخلافة إلى «استانبول» بعد قرابة ثلاثة قرون. سنَّ «بيبرس» نظام ولاية العهد لأول مرة في تاريخ دولة المماليك البحرية، وحصر وراثته العرش في أسرته بتعيين ابنه «محمد بركة خان» ولياً للعهد، ليحد من تدبير الدسائس والمؤامرات حول عرش السلطنة، وما يجره ذلك من اضطراب وضعف للدولة. قام «بيبرس» بإصلاحات جوهرية في البلاد، وأعاد إلى الأسطول البحري قوته، وعين قضاة من المذاهب الأربعة للفصل في الخصومات، بعد أن كان القضاء مقصوراً على المذهب الشافعي، فعادت إلى العالم الإسلامي قوته على أسس تنظيمية دقيقة، إذ كان «بيبرس» إدارياً حازماً، وقائداً شجاعاً، فدأب على رعاية شئون البلاد، وتنمية مواردها، وحفر الترع، وأصلح الحصون، وأسس المعاهد، وبنى المساجد التي من

أشهرها مسجده المعروف باسمه في ميدان «الظاهر» بالقاهرة. وكانت لبيرس هيبة كبيرة في قلوب أمراء البلاد، فخشوا بأسه لدرجة أن أحدهم لم يجرؤ على الدخول عليه في مجلسه إلا بطلب وإذن منه. وقام «بيبرس» بدوره على خير وجه في محاربة المغول والصليبيين تقليدًا للقائد البطل «صلاح الدين»، وأصدر عدة قوانين لتطبيق الشريعة الإسلامية، وإصلاح الأوضاع الاجتماعية في «مصر»، وأمر في سنة (664هـ) بمنع بيع الخمر، وإغلاق الحانات، ونفى المفسدين. وكان «بيبرس» قائدًا شجاعًا، ضربت بطولته وشهامته الأمثال، فقد خاض معارك ومواقع عديدة، سجل فيها بطولات رائعة، وأبلى بلاءً حسنًا في مطاردة الصليبيين وتشتيتهم وإجلائهم عن الشرق الأدنى، واستعاد في سنة (666هـ) «قيسارية»، و «أرسوف»، و «صفد»، و «شقيف»، و «يافا»، و «طرابلس»، و «أنطاكية»، فأضعف ذلك الصليبيين، وأتمكهم، وزاد من قوة المسلمين، وحرص على أن يؤكد صورة الحاكم العادل الذي يجلس بنفسه للمظالم، ويعطف على الفقراء. وفي (27 من الحرم سنة 676هـ = 1277م) تُوفّي «الظاهر بيبرس» إثر عودته من واقعة «قيسارية» بالقرب من «دمشق»، وقد دُفن بها بعد حياة حافلة بالبطولة والشجاعة، سطر خلالها صفحات مجيدة مازال التاريخ يحفظها له وسيظل.

(259/10)

### \*قلاوون

هو «المنصور سيف الدين قلاوون» أحد سلاطين دولة المماليك في مصر والشام، انتقل إليه عرش السلطنة سنة 679هـ = 1280م بعد «سلامش» (ابن «الظاهر بيبرس») واستمرت السلطنة في بيته وأسرته حتى انتهاء دولة المماليك البحرية في سنة (784هـ).

ولعل التجارب السياسية التي مر بها وتعرض لها في خدمة «بيبرس» ومن قبله «قطز»، هي التي مهدت له السبيل لكي يكون أحد سلاطين المماليك الأقوياء والبارزين، وسار على نهج «بيبرس» السياسي في إدارة شئون البلاد والتقرب من الشعب، واستقدم كثيراً من المماليك وأطلق عليهم اسم «البرجية» نسبة إلى أبراج القلعة التي أقاموا فيها وجعلهم عوناً له، وأعدهم ليكونوا عوناً لأبنائه من بعده في تثبيت عروشهم. ومضى على نهج «بيبرس» في إخراج الصليبيين من بلاد الشام، واستعاد «اللاذقية» و «طرابلس» من أيديهم في سنة (688هـ)، وتابع التتار وطارد فلوطم وهزمهم وأبعد أذاهم نهائياً عن «مصر» و «الشام». ويُعدُّ «قلاوون» من أبرز سلاطين الدولة المملوكية العظماء، كما يُعدُّ أحد مؤسسي هذه الدولة، إذ أنفق أموالاً طائلة على الإصلاحات والإنشاءات، وأشرف على سير العمل فيها بنفسه في حزم وعزم شديدين، ولعل أبرز الإنشاءات التي ترجع إلى عصره تلك القبة التي بناها، ودُفن تحتها، كما بنى «مدرسة» و «مارستاناً» -حملاً اسمه - عام (688هـ)، ومازال هذا المارستان قائماً حتى الآن ويُعرف باسم: مستشفى قلاوون»، وظل «قلاوون» يقوم بدوره الحربي والسياسي والاجتماعي والحضاري في البلاد على أكمل وجه حتى وفاته سنة (689هـ).

(260/10)

### \*خليل بن قلاوون

هو «الأشرف خليل بن المنصور سيف الدين قلاوون» أحد سلاطين دولة المماليك في مصر والشام، انتقل إليه عرش السلطنة سنة 689هـ=1290م بعد وفاة أبيه، فعاد في عهده نفوذ الأمراء، وتجددت الصراعات الداخلية، إلا أنه استطاع التغلب على هذه

المصاعب كلها على الرغم من قصر مدة حكمه للبلاد، وبرهن على أنه حاكم كفء مهيب، شديد البأس، عارف بأحوال المملكة، لدرجة أن «ابن إياس» قال عنه في تأريخه: «كان الأشرف بطلاً لا يكل عن الحروب ليلاً ونهاراً، ولا يُعرف من أبناء الملوك مَنْ كان يناظره في العزم والشجاعة والإقدام». ويكفي «الأشرف خليل» مجداً يخلد اسمه بين أعظم قادة التاريخ الإسلامي أنه استطاع استعادة «عكا» من أيدي الصليبيين سنة (692هـ)، بعد أن استعصت على مَنْ كان قبله من السلاطين لخصانتها، كما تابع جهاده في تتبع جيوش الصليبيين بالشام، واستعاد «صور» و «حيفا» و «بيروت»، وظل يضيف انتصارات عظيمة إلى سجل هذه الدولة كان من شأنها أن يظل العالم الإسلامي قويا مترابطاً، ويقوم بدوره في البناء الحضارى.

(261/10)

### \*الأشرف خليل

هو «الأشرف خليل بن المنصور سيف الدين قلاوون» أحد سلاطين دولة المماليك في مصر والشام، انتقل إليه عرش السلطنة سنة 689هـ = 1290م بعد وفاة أبيه، فعاد في عهده نفوذ الأمراء، وتجددت الصراعات الداخلية، إلا أنه استطاع التغلب على هذه المصاعب كلها على الرغم من قصر مدة حكمه للبلاد، وبرهن على أنه حاكم كفء مهيب، شديد البأس، عارف بأحوال المملكة، لدرجة أن «ابن إياس» قال عنه في تأريخه: «كان الأشرف بطلاً لا يكل عن الحروب ليلاً ونهاراً، ولا يُعرف من أبناء الملوك مَنْ كان يناظره في العزم والشجاعة والإقدام». ويكفي «الأشرف خليل» مجداً يخلد اسمه بين أعظم قادة التاريخ الإسلامي أنه استطاع استعادة «عكا» من أيدي الصليبيين سنة (692هـ)، بعد أن

استعصت على مَنْ كان قبله من السلاطين لخصانتها، كما تابع جهاده في تتبع جيوش الصليبيين بالشام، واستعاد «صور» و «حيفا» و «بيروت»، وظل يضيف انتصارات عظيمة إلى سجل هذه الدولة كان من شأنها أن يظل العالم الإسلامي قويا مترابطاً، ويقوم بدوره في البناء الحضارى

(262/10)

### \*الناصر محمد بن قلاوون

هو «الناصر محمد بن المنصور سيف الدين قلاوون» أحد سلاطين دولة المماليك في مصر والشام والابن الثاني للسلطان «قلاوون»، انتقل إليه عرش السلطنة سنة 693هـ = 1294م بعد وفاة أخيه «الأشرف خليل» نشأ الناصر محمد في بيت الملك محاطاً بالأمرء والنواب والحراس، غير أنه لم يتمتع طويلاً بعطف ورعاية أبيه «قلاوون»، الذى مات ولما يبلغ «الناصر محمد» الخامسة من عمره، غير أنه لحسن حظه لم يحرم من عطف أخيه «الأشرف خليل» ورعايته، فاهتم بتربيته وأحسن معاملته، فنشأ «محمد» ولديه من صفات أبيه وأخيه الكثير، فأصبح كأسلافه مهتماً بالمشروعات الحيوية، ومحباً للغزو والجهاد. اعتلى «الناصر محمد» عرش «مصر» ثلاث مرات، استمرت الأولى عامًا واحدًا في الفترة: (من سنة 693 إلى سنة 694هـ)، ثم اغتصبها منه «زين الدين كتبغا» الذى لقب نفسه بالعدل، و «حسام الدين لأين» الذى تلقب بالمنصور، واستمرت فترة الاغتصاب هذه أربع سنوات عاشت البلاد خلالها عهدًا من الفتن والاضطرابات، وانتهت مظاهر الضعف والانحلال، مما هيا السبيل إلى عودة «الناصر محمد» إلى السلطنة ثانية ليتدارك تفاقم هذه الأوضاع. ولعل أبرز ما يميز الفترة الثانية لتولى «الناصر محمد» عرش

السلطنة (692هـ - 708 هـ) الفتن والاضطرابات التي أحدثتها وأشعلها أمراء المماليك سعيًا وراء الوصول إلى العرش، الأمر الذي اضطر «الناصر محمد» إلى الرحيل في عام (708هـ) إلى «قلعة الكرك» للاحتماء بها بعيدًا عن مؤامرات الأمراء ودسائسهم، فمكّن ذلك «بييرس الجاشنكير» -أحد القادة العسكريين- من السيطرة على مقاليد الأمور، على الرغم من رسائل أمراء المماليك التي بعثوا بها إلى «الناصر محمد» يرجونه فيها العودة إلى «مصر»، إلا أنه تمهل حتى يقف على حقيقة الأمور، فلما رأى حاجة البلاد إليه قرر العودة إلى «مصر» ثانية، وتمكّن من طرد «الجاشنكير»، وبدأ مرحلة ثالثة على

(263/10)

---

عرش البلاد، كانت من أهم فترات تاريخ «مصر» والشام. استمرت فترة حكم «الناصر محمد» الثالثة على «مصر» و «الشام» وما يتبعهما اثنين وثلاثين عامًا متصلة، انفرد فيها بحكم البلاد، وتمكّن من القضاء على الفتن والدسائس، ونعمت البلاد في عهده بأطول فترة استقرار شهدتها في العهد المملوكي، وتعلق الشعب به وأحبه لما قدمه من أعمال جليلة وعظيمة رفعت من شأنه. تُعد فترة حكم «الناصر محمد» الثالثة (709 - 741 هـ) من أزهى عهود دولة المماليك البحرية على الإطلاق، ففيها توطدت دعائم البلاد، واستقرت أساليب الحكم والإدارة فيها، وازدهرت الفنون والعلوم، وياتت «القاهرة» حاضرة لإمبراطورية شاسعة تشمل «مصر» والشام والجزيرة العربية، وكذلك بلاد «اليمن» التي بسط «الناصر محمد» نفوذه عليها، فخطب وده ملوك «أوربا» و «آسيا»، وأبرموا معه المعاهدات وصاهروه، وأرسلوا إليه بالهدايا الثمينة والتحف النادرة؛ أملا في رضاه. لم يقتصر

نشاط «الناصر محمد» على الحروب والغزوات على الرغم من أنه نجح في طرد فلول الصليبيين، وصد ثلاث غزوات مغولية، بل اتجه إلى الأخذ بكل مقومات الحضارة في عصره، وصبغها - لتدينه الشديد- بصبغة دينية ظهرت واضحة على العمائر التي شيدها، والتي مازال بعضها قائماً - حتى الآن - شاهد صدق على بره وتقواه، وذوقه الراقى في الفنون والعمارة، ولعل أشهرها: «المدرسة الناصرية» التي شيدها بشارع «المعز لدين الله الفاطمي»، وكذا المسجد الذي بناه بالقلعة سنة (718هـ)، ثم هدمه وأعاد بناءه سنة (735هـ) لتوسعته وزخرفة جوانبه، كما شرع في سنة (703هـ) أثناء سلطنته الثانية في تجديد «المارستان» الكبير الذي أسسه والده السلطان «قلاوون» سنة (688هـ)، وكذلك بنى سبيلا، وقبة، ومكتبة عظيمة، وأنشأ «خانقاه» في «سرياقوس» لإقامة فقراء الصوفية خاصة القادمين منهم من البلاد الشرقية. وقد أرخ «ابن إياس» لحكم

(264/10)

«الناصر محمد»، وعبر عنه بقوله: «ولا يُعلم لأحد من الملوك آثار مثله ولا مثل مماليكه، حتى قيل لقد تزايدت في أيامه الديار المصرية والبلاد الشامية من العمائر مقدار النصف من جوامع وخوانق وقناطر، وغير ذلك من العمائر». ولاشك أن هذه المنشآت كانت تعتمد على اقتصاد قوى، ورؤية حضارية من «الناصر محمد»، الذي وضع أسس السياسة العامة لدولة المماليك، وعُدَّ المنفذ الأكبر لها، فكان شديد البأس، سديد الرأي، يتولى أمور دولته بنفسه، مطلعًا على أحوال مملكته، محبوبًا من رعيته، مهيبًا في أمراء دولته، فكان المثل الأعلى لرجل السياسة في دولة المماليك، كما كان «بيبرس» المثل

الأعلى للقائد الحربي، وانطلقت بوفاته في سنة (741هـ)، السنة الشعراء والأدباء لتأبينه والثناء عليه، والإشادة بذكوره، وقد أطراه المؤرخ «أبو المحاسن بن تغرى بردى» بقوله: «إنه أطول الملوك في الحكم زماناً، وأعظمهم مهابة، وأحسنهم سياسة، وأكثرهم دهاء، وأجودهم تدبيراً، وأقواهم بطشاً وشجاعة، مرت به التجارب، وقاسى الخطوب، وباشر الحروب، وتقلب مع الدهر ألواناً، ونشأ في الملك والرياسة، وله في ذلك الفخر والسعادة، خليفاً بالملك والسلطنة؛ فهو سلطان ابن سلطان، ووالد ثمانية سلاطين؛ فهو أجل ملوك المماليك وأعظمهم بلا مدافع». وكانت وفاة «الناصر محمد» في (20 من ذى الحجة سنة 741هـ).

(265/10)

#### \*محمد بن قلاوون

هو «الناصر محمد بن المنصور سيف الدين قلاوون» أحد سلاطين دولة المماليك في مصر والشام والابن الثاني للسلطان «قلاوون»، انتقل إليه عرش السلطنة سنة 693هـ = 1294م بعد وفاة أخيه «الأشرف خليل» نشأ الناصر محمد في بيت الملك محاطاً بالأمراء والنواب والحراس، غير أنه لم يتمتع طويلاً بعطف ورعاية أبيه «قلاوون»، الذي مات ولما يبلغ «الناصر محمد» الخامسة من عمره، غير أنه لحسن حظه لم يحرم من عطف أخيه «الأشرف خليل» ورعايته، فاهتم بتربيته وأحسن معاملته، فنشأ «محمد» ولديه من صفات أبيه وأخيه الكثير، فأصبح كأسلافه مهتماً بالمشروعات الحيوية، ومحباً للغزو والجهاد. اعتلى «الناصر محمد» عرش «مصر» ثلاث مرات، استمرت الأولى عامًا واحدًا في الفترة: (من سنة 693 إلى سنة 694هـ)، ثم اغتصبها

منه «زين الدين كتبغا» الذى لقب نفسه بالعدل، و «حسام الدين لأين» الذى تلقب بالمنصور، واستمرت فترة الاغتصاب هذه أربع سنوات عاشت البلاد خلالها عهدًا من الفتن والاضطرابات، وانتابتها مظاهر الضعف والانحلال، مما هيا السبيل إلى عودة «الناصر محمد» إلى السلطنة ثانية ليتدارك تفاقم هذه الأوضاع. ولعل أبرز ما يميز الفترة الثانية لتولى «الناصر محمد» عرش السلطنة (692هـ - 708هـ) الفتن والاضطرابات التى أحدثتها وأشعلها أمراء المماليك سعيًا وراء الوصول إلى العرش، الأمر الذى اضطر «الناصر محمد» إلى الرحيل فى عام (708هـ) إلى «قلعة الكرك» للاحتماء بها بعيدًا عن مؤامرات الأمراء ودسائسهم، فمكّن ذلك «بيبرس الجاشنكير» -أحد القادة العسكريين- من السيطرة على مقاليد الأمور، على الرغم من رسائل أمراء المماليك التى بعثوا بها إلى «الناصر محمد» يرجونه فيها العودة إلى «مصر»، إلا أنه تمهل حتى يقف على حقيقة الأمور، فلما رأى حاجة البلاد إليه قرر العودة إلى «مصر» ثانية، وتمكّن من طرد «الجاشنكير»، وبدأ مرحلة ثالثة على

(266/10)

---

عرش البلاد، كانت من أهم فترات تاريخ «مصر» والشام. استمرت فترة حكم «الناصر محمد» الثالثة على «مصر» و «الشام» وما يتبعهما اثنين وثلاثين عامًا متصلة، انفرد فيها بحكم البلاد، وتمكّن من القضاء على الفتن والدسائس، ونعمت البلاد فى عهده بأطول فترة استقرار شهدتها فى العهد المملوكى، وتعلق الشعب به وأحبه لما قدمه من أعمال جليلة وعظيمة رفعت من شأنه. تُعد فترة حكم «الناصر محمد» الثالثة (709 - 741 هـ) من أزهى عهود دولة المماليك البحرية على الإطلاق، ففيها توطدت

دعائم البلاد، واستقرت أساليب الحكم والإدارة فيها، وازدهرت  
الفنون والعلوم، وباتت «القاهرة» حاضرة لإمبراطورية شاسعة  
تشمل «مصر» والشام والجزيرة العربية، وكذلك بلاد «اليمن»  
التي بسط «الناصر محمد» نفوذه عليها، فخطب وده ملوك  
«أوربا» و «آسيا»، وأبرموا معه المعاهدات وصاهروه، وأرسلوا  
إليه بالهدايا الثمينة والتحف النادرة؛ أملاً في رضاه. لم يقتصر  
نشاط «الناصر محمد» على الحروب والغزوات على الرغم من أنه  
نجح في طرد فلول الصليبيين، وصد ثلاث غزوات مغولية، بل  
اتجه إلى الأخذ بكل مقومات الحضارة في عصره، وصبغها -  
لتدينه الشديد- بصبغة دينية ظهرت واضحة على العمائر التي  
شيدها، والتي مازال بعضها قائماً - حتى الآن - شاهد صدق  
على بره وتقواه، وذوقه الراقى في الفنون والعمارة، ولعل  
أشهرها: «المدرسة الناصرية» التي شيدها بشارع «المعز لدين  
الله الفاطمي»، وكذا المسجد الذي بناه بالقلعة سنة (718هـ)، ثم  
هدمه وأعاد بناءه سنة (735هـ) لتوسعته وزخرفة جوانبه، كما  
شرع في سنة (703هـ) أثناء سلطنته الثانية في تجديد  
«المارستان» الكبير الذي أسسه والده السلطان «قلاوون» سنة  
(688هـ)، وكذلك بني سبيلا، وقبة، ومكتبة عظيمة، وأنشأ  
«خانقاه» في «سرياقوس» لإقامة فقراء الصوفية خاصة  
القادمين منهم من البلاد الشرقية. وقد أرخ «ابن إياس» لحكم

(267/10)

---

«الناصر محمد»، وعبر عنه بقوله: «ولا يُعلم لأحد من الملوك آثار  
مثله ولا مثل مماليكه، حتى قيل لقد تزايدت في أيامه الديار  
المصرية والبلاد الشامية من العمائر مقدار النصف من جوامع  
وخوانق وقناطر، وغير ذلك من العمائر». ولا شك أن هذه

المنشآت كانت تعتمد على اقتصاد قوى، ورؤية حضارية من «الناصر محمد»، الذى وضع أسس السياسة العامة لدولة المماليك، وعُدَّ المنفذ الأكبر لها، فكان شديد البأس، شديد الرأى، يتولى أمور دولته بنفسه، مطلقاً على أحوال مملكته، محبوباً من رعيته، مهيباً فى أمراء دولته، فكان المثل الأعلى لرجل السياسة فى دولة المماليك، كما كان «بيبرس» المثل الأعلى للقائد الحربى، وانطلقت بوفاته فى سنة (741هـ)، ألسنة الشعراء والأدباء لتأبينه والثناء عليه، والإشادة بذكوره، وقد أطراه المؤرخ «أبو الحاسن بن تغرى بردى» بقوله: «إنه أطول الملوك فى الحكم زماناً، وأعظمهم مهابة، وأحسنهم سياسة، وأكثرهم دهاء، وأجودهم تدبيراً، وأقواهم بطشاً وشجاعة، مرت به التجارب، وقاسى الخطوب، وباشر الحروب، وتقلب مع الدهر ألواناً، ونشأ فى الملك والرياسة، وله فى ذلك الفخر والسعادة، خليفاً بالملك والسلطنة؛ فهو سلطان ابن سلطان، ووالد ثمانية سلاطين؛ فهو أجل ملوك المماليك وأعظمهم بلا مدافع». وكانت وفاة «الناصر محمد» فى (20 من ذى الحجة سنة 741هـ).

(268/10)

### \*برقوق

يُعدُّ «برقوق» المؤسس الأول لدولة «المماليك البرجية»، فعلى يديه تم عزل آخر سلاطين دولة المماليك البحرية السلطان «الصالح حاجى» سنة 784هـ=1382م، فسقطت دولة البحرية، وقامت دولة البرجية، فكثرت الصراعات الداخلية طمعاً فى السلطنة، وسادت الفوضى، وعمت الفتن، وتميز عهد «برقوق» بالمعارضة الشديدة له، فاهتم بالقضاء على هذه الفتن، وإعادة

الهدوء والاستقرار إلى أرجاء ملكه، ثم عمل على إصلاح أحوال البلاد الداخلية، وظل على ذلك حتى استقرت له الأمور في أواخر عهده، ومات في سنة (801هـ = 1399م)، بعد أن عهد إلى ابنه «فرج» بالسلطنة من بعده.

(269/10)

---

### \*فرج بن برقوق

أحد سلاطين دولة المماليك البرجية في مصر والشام تولى العرش بعد أبيه سنة 801هـ = 1399م وله من العمر ثلاث عشرة سنة، فكثرت في عهده الاضطرابات والفتن، وخرج عليه الأمراء، خاصة أمراء «سوريا» الذين عارضوا حكمه، فحاول «فرج» أن يسيطر على الموقف وظل يكافح كفاحًا مضنيًا طويلًا من أجل تحقيق ذلك، وتمكن من القضاء على فتنة الأمراء في «سوريا»، ومع ذلك تهدد عرشه بالسقوط أكثر من مرة، إلا أنه ظل يقاوم حتى قُتل في سنة (815هـ = 1412م).

(270/10)

---

### \*شيخ المؤيد

أحد سلاطين دولة المماليك البرجية في مصر والشام، تولى حكم البلاد سنة 815هـ = 1412م، واستطاع أن يقضى على الثورات، وأعاد إلى البلاد وحدتها واستقرارها، فأتاح له ذلك أن يحكم البلاد حكمًا هادئًا في جو مستقر، وقام ببعض الإصلاحات الداخلية، وبني جامعته المعروف باسمه بجوار باب زويلة مكان سجن قديم. وقد مات «شيخ المؤيد» سنة 824هـ 1424م بعد مرض لم يمهله طويلًا، فترك العرش لابنه أحمد

**\* ططر**

أحد سلاطين دولة المماليك البرجية في مصر والشام، تولى حكم البلاد سنة 824 هـ = 1421م بعد أن دخل في صراع مع الأمير طونبغا الذي كان وصياً على السلطان الرضيع أحمد بن شيخ المؤيد حتى تمكن من عزله وعزل «أحمد»، وتولى هو عرش السلطنة، ولكنه لم يمكث طويلاً، فقد توفي بعد شهرين من سلطنته، فتولى من بعده ابنه «محمد بن ططر» الذي كان صغيراً، ولم يستمر في الحكم أكثر من سنة واحدة، ثم تولى السلطان «برسباي» السلطنة.

**\* برسباي**

أحد سلاطين دولة المماليك البرجية في مصر والشام، تولى حكم البلاد سنة 825 هـ = 1422م. امتاز عهد «برسباي» بالهدوء والاستقرار، فقد نجح في القضاء على قراصنة البحار الذين هددوا التجارة، واستولى من القراصنة على غنائم كثيرة، لدرجة أن ملك «قبرص» قبّل الأرض بين يديه عرفاناً له بما صنع، وكذلك هدأت الأوضاع في «سوريا»، وبسط «برسباي» سلطته على «مكة» و «جدة» واحتكر لبلاده طرق التجارة، وعزز اقتصادها، فانتعشت «مصر» اقتصادياً وحضارياً. تُوفّي «برسباي» سنة (841هـ) وترك العرش لابنه «يوسف» وكان لا يزال طفلاً صغيراً، فلم يحكم سوى ثلاثة أشهر، وخلفه «جمقمق» على عرش السلطنة.

**\*جمقمق**

أحد سلاطين دولة المماليك البرجية في مصر والشام، تولى حكم البلاد سنة 841 هـ. واجه «جمقمق» صعابًا عديدة في بداية عهده؛ إذ واجهته الثورات، واشتعلت في بلاده الفتن، وزادت القلاقل، وكان رجالا يمتاز بالقوة والمثابرة، فتمكن من السيطرة على الموقف وقضى على الصعوبات التي واجهته، واتجه إلى الإصلاح الداخلى وإعادة الهدوء إلى البلاد، ثم عمل على توطيد علاقاته مع الإيرانيين وأمراء «آسيا الصغرى»، وتزوج من ابنة «دلجادير» حاكم مدينة «أبلستين»، فمضى في حكمه بعد ذلك في هدوء، ثم مات سنة (857 هـ)، وتولى من بعده ابنه السلطان عثمان بن جمقمق الذى أساء إلى الرعية، فتم عزله، وتولى عرش «مصر» من بعده السلطان «إينال».

**\*إينال**

هو «سيف الدين إينال»، أحد سلاطين دولة المماليك البرجية في مصر والشام، تولى حكم البلاد سنة 857 هـ = 1435م. وكان يشغل منصب قائد الأسطول الإسلامى قبل توليه السلطنة، ولما تولى العرش سار في الناس سيرة حسنة أرضت عنه المماليك الذين أغدق عليهم بالهبات والأموال والعطايا، وتمكن من القضاء على الفتن التي واجهته، ولم تتعرض البلاد في عهده لأى غزو خارجى، نظرًا إلى العلاقات الحسنة التي أقامها مع زعماء الدول الخارجية، واستطاع أن يستولى على «كرمان»، فتميز

عهده بالهدوء، وظل على ذلك حتى وفاته سنة (865هـ)، فخلفه ابنه «أحمد بن إينال» على العرش، إلا أنه سرعان ما تنازل عنه، وابتعد عن الدسائس والمؤامرات والفتن التي كان يدبرها أمراء المماليك، فأخذ السلطان «خشقدم» مكانه وتولى عرش السلطنة.

(275/10)

---

\*خشقدم

أحد سلاطين دولة المماليك البرجية في مصر والشام، تولى حكم البلاد سنة 865 هـ وكان عهده أكثر العهود اضطرابًا، فوجد نفسه أمام عدة قوى مناهضة كان عليه أن يواجهها، فعمل على تفتيتها والقضاء عليها بالسلم أو بالحرب أو بالحيلة، حتى استطاع القضاء على معظمها، ومات سنة 872 هـ ولا يزال بعضها منقسماً على نفسه نتيجة محاولات التشنيت التي قام بها حياهم.

(276/10)

---

\*قايتباى

أحد أهم سلاطين دولة المماليك البرجية في مصر والشام، تولى حكم البلاد سنة 872 هـ = 1467 م، وكان رجلاً شجاعاً جريئاً ذا مروءة عالية، تجلت حين علم باضطهاد المسلمين في «إسبانيا»، فأرسل إلى ملكها يتهدده ويتوعده إذا لم يقلع عن الإساءة إلى المسلمين في بلاده. واجه «قايتباى» عدة صعاب استطاع التغلب على أكثرها، وتفرغ للإصلاحات الداخلية، والمنشآت الحضارية التي خلدت اسمه، ولعل أبرزها قلعته الحصينة الشهيرة بالإسكندرية. وتوفي قايتباى سنة 901 هـ = 1496 م

### \*قانسوه الغورى

هو أبو النصر قانسوه بن عبد الملك الظاهري، الملقَّب بالأشرف، أحد ملوك الجراكسة المماليك بمصر وُلد سنة (850 هـ = 1446 م). كان مملوكاً للسلطان الأشرف قايتباي، ثم أعتقه، وخدم الغورى عددًا من سلاطين المماليك، وتولَّى الحجابة في حلب، ثم بويع بالسلطنة في القاهرة سنة (906 هـ = 1501 م) وكان عمره قد جاوز الستين. بدأ عهده بتشتيت شمل مثيري الفتن والقتل، وقاوم بصلاية وحزم الثورات التي قامت، وأعد أسطولاً لحماية التجارة من غارات البرتغاليين، فقد دأب البرتغاليون بقيادة «فاسكودي جاما» على إثارة القلاقل في الدول الإسلامية المتاخمة لطريقهم إلى المشرق محاولين بذلك السيطرة على طرق التجارة بين الشرق والغرب، إلا أن سلاطين المماليك وقفوا لهم بالمرصاد، واستطاعوا ردهم على أعقابهم أكثر من مرة، على الرغم مما كان يعانيه هؤلاء السلاطين من الفتن والاضطرابات داخل البلاد. حاول «الغورى» إعادة السيطرة البحرية إلى بلاده ودعم موقفه، وبعث إلى البابا يهدده إذا لم يكف البرتغاليون عن غاراتهم، إلا أن الضعف العام الذي حل بالدولة نتيجة الاضطرابات وزيادة نفقات المماليك أدى إلى سيطرة البرتغاليين على طرق التجارة، وعمل «الغورى» على رد غارات البرتغاليين، وأخذ يستعد لذلك، إلا أن الدولة العثمانية أرسلت قوة حربية للسيطرة على بلاد الشام، ثم أمدت هذه القوة بالجنود والمعدات وحولتها إلى جيش كبير حارب المماليك في منطقة «مرج دابق» بالشام، فتمكن العثمانيون من هزيمة المماليك، وقتلوا السلطان «الغورى» الذي كان يقود الجيش بنفسه في سنة (922 هـ = 1516 م).

**\*الغورى**

هو أبو النصر قانصوه بن عبد الملك الظاهري، الملقَّب بالأشرف، أحد ملوك الجراكسة المماليك بمصر وُلد سنة (850 هـ = 1446 م). كان مملوكاً للسلطان الأشرف قايتباي، ثم أعتقه، وخدم الغورى عددًا من سلاطين المماليك، وتولَّى الحجابة في حلب، ثم بويع بالسلطنة في القاهرة سنة (906 هـ = 1501 م) وكان عمره قد جاوز الستين. بدأ عهده بتشتيت شمل مثيرى الفتن والقتل، وقاوم بصلاية وحزم الثورات التي قامت، وأعد أسطولاً لحماية التجارة من غارات البرتغاليين، فقد دأب البرتغاليون بقيادة «فاسكودى جاما» على إثارة القلاقل في الدول الإسلامية المتاخمة لطريقهم إلى المشرق محاولين بذلك السيطرة على طرق التجارة بين الشرق والغرب، إلا أن سلاطين المماليك وقفوا لهم بالمرصاد، واستطاعوا ردهم على أعقابهم أكثر من مرة، على الرغم مما كان يعانيه هؤلاء السلاطين من الفتن والاضطرابات داخل البلاد. حاول «الغورى» إعادة السيطرة البحرية إلى بلاده ودعم موقفه، وبعث إلى البابا يهدده إذا لم يكف البرتغاليون عن غاراتهم، إلا أن الضعف العام الذى حل بالدولة نتيجة الاضطرابات وزيادة نفقات المماليك أدى إلى سيطرة البرتغاليين على طرق التجارة، وعمل «الغورى» على رد غارات البرتغاليين، وأخذ يستعد لذلك، إلا أن الدولة العثمانية أرسلت قوة حربية للسيطرة على بلاد الشام، ثم أمدت هذه القوة بالجنود والمعدات وحولتها إلى جيش كبير حارب المماليك في منطقة «مرج دابق» بالشام، فتمكن العثمانيون من هزيمة المماليك، وقتلوا السلطان «الغورى» الذى كان يقود الجيش بنفسه في سنة (922 هـ = 1516 م).

### \*طومان باى الثانى

آخر سلاطين دولة المماليك فى مصر والشام، تولى حكم البلاد سنة 922هـ=1516م بعد مقتل «الغورى» بالشام فى موقعة مرج دابق، حيث استقر الراى على تعيين «طومان باى» ابن أخيه سلطاناً على «مصر»، فى فترة كانت شديدة الحرج فى تاريخ «مصر»؛ إذ سيطر العثمانيون على الشام، وساءت الأحوال بمصر بعد هزيمة «مرج دابق»، ولم يكتفِ العثمانيون بما حققوا، بل يمموا شطر «مصر» فى محاولة منهم للسيطرة عليها. حاول «طومان باى» السيطرة على الموقف، وقام بعدة أعمال فى سبيل تحقيق ذلك، وفض الخصومة التى كانت قائمة بين المماليك وصالح بينهم، وساعده فى ذلك حب الشعب له لإخلاصه ووفائه وتفانيه فى خدمة المسلمين. باءت كل محاولات «طومان باى» بالفشل فى إعادة المماليك إلى قوتهم الأولى التى كانوا عليها فى عصور النهضة، فقد أنهكتهم الاضطرابات، وقضت على وحدتهم الفتن، فانتهى الأمر بهزيمتهم على أيدي العثمانيين فى موقعة «الريدانية» الشهيرة فى ظاهر «القاهرة»، ودخل العثمانيون «مصر»، وحاول المصريون مساندة «طومان باى» فى هذه الظروف لحبهم الشديد له، إلا أنهم لم يستطيعوا إيقاف زحف العثمانيين على «مصر»، فخرج «طومان باى» إلى «مديرية البحيرة» فى محاولة منه لاستجماع قوته وجنوده، ولكن العثمانيين تمكنوا منه وقبضوا عليه، ثم شنقوه على «باب زويلة» سنة (923هـ=1517م)، بعدما بذل كل جهوده وأدى واجبه فى سبيل الدفاع عن دولته، إلا أن ظروف عصره لم تمكنه من تحقيق ما أراد، فسقطت بذلك دولة المماليك ونظامهم، ودخلت «مصر» مرحلة جديدة باتت فيها تحت حكم العثمانيين.

\*سُبُكْتِكِين

هو المؤسس الفعلي للدولة الغزنوية. كان غلاماً تركياً من غلمان «ألبتكين» والى خراسان، الذي قد قربه إليه وزوجه ابنته، وعينه قائداً لحرسه، فلما تولى «غزنة» في (شعبان سنة 366هـ = مارس 977م) وسع حدودها في اتجاه بلاد «الهند»، وحقق انتصارات كبيرة في تلك البلاد. وقد استعان الأمير «نوح بن منصور الساماني» (366 - 387هـ = 977 - 997م) بسبكتكين سنة (384هـ = 994م) للقضاء على حركة تمرد وعصيان ضده في «بخارى»، وخلع عليه لقب «ناصر الدولة»، وعين ابنه «محموداً» قائداً لجيش «خراسان» ومنحه لقب «سيف الدولة». واختار «سبكتكين» مدينة «بلخ» مقراً له في أواخر أيامه، وقد تُوفّي في (شعبان سنة 387هـ = أغسطس سنة 997م)

\*محمود بن سبكتكين

أحد سلاطين الدولة الغزنوية، تولى الحكم سنة (387هـ = 997م) خلفاً لأبيه بعد نزاع مع أخيه «إسماعيل» حول أحقيتهما في وراثة الحكم، وانتهى هذا النزاع بانتصار «محمود» الذي أصبح رئيساً للدولة الغزنوية، وأحسن معاملة أخيه «إسماعيل» وأعلى منزلته. وقد حققت إمارة «محمود بن سبكتكين» قفزة هائلة في مسار «الدولة الغزنوية»، فترامت أطرافها، واتسع نفوذها، وذاع صيتها، وأصبحت بلا منافس من حيث هيبتها العسكرية ومكانتها الحضارية، وقد اشتهر «محمود بن سبكتكين» بلقب

«السلطان»، كما خلع عليه الخليفة «القادر بالله» لقب «يمين الدولة وأمين الملة» سنة (389هـ = 999م). نجح «محمود بن سبكتكين» في السنوات الأولى من إمارته في تعزيز وضعه الداخلى والقضاء على معارضييه، ثم صرف اهتمامه إلى الفتوح في بلاد «الهند»، وحقق انتصارات هائلة جعلته واحداً من أعظم الفاتحين في التاريخ الإسلامى؛ ففي سنة (389هـ = 999م) استولى على «خراسان» وقضى على سلطة السامانيين بها، وفي سنة (393هـ = 1003م) استولى على «سجستان» التي كان حاكمها «خلف بن أحمد» وهو من أكبر أعدائه. وتعد فتوحات السلطان «محمود بن سبكتكين» في بلاد «الهند»، أعظم إنجاز له في هذا المجال، ففي سنة (395هـ = 1005م) استطاع فتح مدينة «بهاية» الهندية بجوار إقليم «الملتان»، وأقام بها حتى أصلح أمرها واستخلف بها مَنْ يُعَلِّم مَنْ أسلم من أهلها قواعد الإسلام وفرائضه، وفي سنة (396هـ = 1006م) استولى على «الملتان» التي كانت تخضع لحكومة إسماعيلية شيعية تعادى السلطان «محمود الغزنوى» وتتحالف ضده مع أعدائه الهنود غير المسلمين. واستمرت غزوات السلطان «محمود» المظفرة في بلاد «الهند» بصورة شبه منتظمة حتى سنة (416هـ = 1025م) فجح في الاستيلاء على قلعة «ناردين» الهندية المنبوعة، بعد قتال عنيف سنة (404هـ = 1013م) ودان له كثير من حكام المناطق المجاورة، وأقبل الهنود في تلك المناطق على

(282/10)

---

اعتناق الإسلام، وأرسل إليهم السلطان من يفقههم في الدين، وفتح سنة (409هـ = 1018م) مدينة «قنوج» الحصينة على نهر «الجانج»، الذي يقدسه الهنود، واعتنق أهلها الإسلام. وفي

سنة (416هـ = 1025م)، قام السلطان «محمود» بآخر غزواته في بلاد «الهند»، وهي غزوة «سومونات»، وأثناء قيامه بغزواته في شبه القارة الهندية استطاع السلطان «محمود» أن يضم إلى نفوذه إقليم «خوارزم» ويقضى على الأسرة المأمونية المعادية له بما سنة (407هـ = 1016م)، كما ضم إليه أيضًا «الرى» و «قزوين» و «أصفهان» سنة (420هـ = 1029م) بمعاونة ابنه «مسعود»، فاتسعت مملكته في «خراسان» و «ما وراء النهر» و «شبه القارة الهندية». وبعد غزوة «سومونات» لم يتمكن السلطان «محمود» من مواصلة حملاته الموفقة في «شبه القارة الهندية»، بسبب اهتمامه بمواجهة ثورات «العراق» و «خراسان» وخطر الأتراك السلاجقة. وقد كان السلطان «محمود بن سبكتكين» يتحلى بمواهب إدارية متميزة، فقد استطاع بعد فتوحاته في «الهند» أن يتألف الهندوس، وأن يجعلهم جزءًا من نسيج دولته، وأن يستخدمهم في جهازه الإدارى وأن يجندهم في جيشه، كما كان السلطان «محمود» يتحلى بأخلاق رفيعة، ويكثر الإحسان إلى الرعية والرفق بهم، ويجب العلماء ويكرمهم ويعظمهم وكان على مذهب «أبي حنيفة» في الفقه، وهو المذهب الذى مازال واسع الانتشار في «شبه القارة الهندية» و «أفغانستان» و «أواسط آسيا»، وكان السلطان «محمود» شغوفًا بعلم الحديث النبوى، فكان الشيوخ يقرءونه بين يديه وهو يسمع وقد قصده العلماء والشعراء من كل مكان. وقد توفى السلطان «محمود» بغزنة في شهر (ربيع الآخر سنة 421هـ = أبريل سنة 1030م) وعمره واحد وستون عامًا

### \*القادر بالله (خليفة عباسي)

هو «أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر»، اختاره «بهاء الدولة» بعد خلع «الطائع لله» لتولي الخلافة، وكان غائبًا عن «بغداد»، فلما وصله الخبر حضر إليها وبايعه «بهاء الدولة» والناس في (رمضان سنة 381هـ = نوفمبر سنة 991م)، وعمره خمسة وأربعون عامًا. كان الخليفة «القادر بالله» يتحلى بصفات جعلته إحدى الشخصيات المتميزة في تاريخ «الخلافة العباسية»، فقد كان راجح العقل وافر الحلم، مؤثرًا للخير، ظاهر الكرم، جميل الأخلاق، أمرًا بالمعروف وناهيًا عن المنكر، كما كان شغوفًا بالعلم محبا لأهله، مستقيم الطريقة في الدين بعيدًا عن البدعة، متواضعًا، عزوفًا عن مظاهر الأبهة والتكلف، فكان يخرج من داره في زيّ العامة، ويزور قبور الصالحين، وكان عادلًا وصولاً ظاهر البر باليتامى والمساكين، قوى الشخصية، يحظى بالاحترام والتبجيل؛ فلم يتعرض لما تعرض له غيره من السابقين له من مهانة خلال فترة اضمحلال الخلافة، ورغم ما تعرضت له الخلافة من ظروف وأحداث وتغلغل نفوذ الترك والفرس فإن «القادر بالله» استغل كل ما أتيح له من إمكانيات، وقدم أفضل نموذج يمكن أن نتوقعه لخليفة عباسي في ضوء تلك الظروف. توفّي «القادر بالله» في شهر (ذى الحجة سنة 422هـ = نوفمبر سنة 1031م) وعمره سبع وثمانون سنة، ودامت خلافته واحدًا وأربعين عامًا، فكانت أطول مدة يقضيها خليفة عباسي في هذا المنصب حتى عصره.

(284/10)

### \*البساسيري

هو «أبو الحارث أرسلان المظفر بن عبدالله» المعروف

بالبساسيرى، من أكابر العسكريين الأتراك في «بغداد» في  
أواخر العهد البويهى، وكان يقوم بدور الحاكم العسكرى لمدينة  
«بغداد»، ويعد صاحب النفوذ الأكبر في دار الخلافة، وقد كانت  
هناك خصومة شديدة بينه وبين «أبى القاسم بن المسلمة» (على  
بن الحسن بن أحمد) وزير الخليفة «القائم بأمر الله»، فاتمه  
الوزير بالخيانة، واتصاه بالفاطميين في «مصر» لميوله  
الشيعة، ولما تبين ذلك للخليفة «القائم بأمر الله» خشى أثر  
موقف «البساسيرى» على مستقبل «الخلافة العباسية»، فاتصل  
بالسلطان السلجوقى «طغرل بك»، وطلب منه القدوم إلى  
«بغداد» للاستيلاء على السلطة فيها ووضع حد لمحاولات  
«البساسيرى» الخطيرة ولعجز البويهيين عن إدارة شئون الدولة  
فاستجاب السلطان السلجوقى وتقدم بجنوده نحو «بغداد»،  
وأمر الخليفة بأن يُخَطَّب له على منابرها، قبل دخولها في (25  
من رمضان سنة 447هـ = نوفمبر سنة 1055م) بثلاثة أيام، وتم  
القبض على «الملك الرحيم» آخر ملوك البويهيين. عندما دخل  
«طغرل بك» «بغداد» اضطر «البساسيرى» إلى تركها، وبدأ  
يجمع حوله عددًا من الأنصار الساخطين على الأوضاع في دار  
الخلافة، واستطاع الاستيلاء على «الموصل» سنة (448هـ =  
1056م)، وخطب فيها للخليفة «المستنصر الفاطمى»، ثم مد  
نفوذه إلى «الكوفة» و «واسط»، وأغرى «إبراهيم ينال» - وهو  
أخو «طغرل» لأمه - بالانشقاق على أخيه ليضمن انشغاله عنه  
بفتنة أخيه. وقد أمد «المستنصر الفاطمى» «البساسيرى» بما  
يديم موقفه ويمكّنه من مد نفوذه، فاستطاع في (الثامن من ذى  
القعدة سنة 450هـ = السابع والعشرين من ديسمبر 1058م) أن  
يدخل «بغداد» بجيوشه، ويخطب فيها للخليفة الفاطمى، وخضعت  
«بغداد» للخلافة الفاطمية بمصر، واضطر الخليفة العباسى  
«القائم بأمر الله» ووزيره «ابن المسلمة» أن يضعوا نفسيهما تحت  
حماية أحد أعوان «البساسيرى»، واسمه «قريش بن بدران»،

فطلب «البساسيري» من «قريش» تسليمه «ابن المسلمة»، فقتله شر قتلة في (أواخر ذى الحجة سنة 450هـ = يناير 1059م)، وقام «قريش» بتسليم الخليفة العباسي إلى ابن عم له بنواحي «الأنبار» (21)، فأواه وقام بجميع ما يحتاج إليه مدة سنة كاملة. وحاول «البساسيري» مد سلطانه على مدن «العراق» ما أمكنه ذلك، فاستولى على «البصرة»، وأوشك الأمر أن يستتب للفاطميين بالعراق لولا أن «المستنصر» شك في نيات «البساسيري» وحقيقة مخططاته، فمنع عنه عونه وتأيدته؛ مما كان له أثره السيئ على موقفه في مواجهة «طغرل بك»، الذي نجح في القضاء على ثورة أخيه «إبراهيم يئال»، وقبض عليه وقتله في (التاسع من جمادى الآخرة سنة 451هـ = يوليو سنة 1059م). وعندما اقتربت جيوش السلطان السلجوقي «طغرل بك» من «بغداد» هرب «البساسيري» في اتجاه «الكوفة» في (6 من ذى القعدة سنة 451هـ = 14 من ديسمبر 1059م)، وسيطر «طغرل بك» على «بغداد» بسهولة، بعد عام كامل من سيطرة «البساسيري» عليها، وأعاد الخليفة «القائم بأمر الله» مكرماً إلى دار الخلافة في (25 من ذى القعدة سنة 451هـ = 14 من ديسمبر سنة 1059م) ونجح فرسان «طغرل بك» في قتل «البساسيري» في (8 من ذى الحجة سنة 451هـ = 15 من يناير سنة 1060م)

\*أرسلان المظفر بن عبدالله

هو «أبو الحارث أرسلان المظفر بن عبدالله» المعروف بالباساسيري، من أكابر العسكريين الأتراك في «بغداد» في أواخر العهد البويهى، وكان يقوم بدور الحاكم العسكرى لمدينة «بغداد»، ويعد صاحب النفوذ الأكبر في دار الخلافة، وقد كانت هناك خصومة شديدة بينه وبين «أبى القاسم بن المسلمة» (على بن الحسن بن أحمد) وزير الخليفة «القائم بأمر الله»، فاتهمه الوزير بالخيانة، واتصاه بالفاطميين في «مصر» لميوله الشيعية، ولما تبين ذلك للخليفة «القائم بأمر الله» خشى أثر موقف «الباساسيري» على مستقبل «الخلافة العباسية»، فاتصل بالسلطان السلجوقى «طغرل بك»، وطلب منه القدوم إلى «بغداد» للاستيلاء على السلطة فيها ووضع حد لمحاولات «الباساسيري» الخطيرة ولعجز البويهيين عن إدارة شئون الدولة فاستجاب السلطان السلجوقى وتقدم بجنوده نحو «بغداد»، وأمر الخليفة بأن يُخطب له على منابرها، قبل دخولها في (25 من رمضان سنة 447هـ = نوفمبر سنة 1055م) بثلاثة أيام، وتم القبض على «الملك الرحيم» آخر ملوك البويهيين. عندما دخل «طغرل بك» «بغداد» اضطر «الباساسيري» إلى تركها، وبدأ يجمع حوله عددًا من الأنصار الساخطين على الأوضاع في دار الخلافة، واستطاع الاستيلاء على «الموصل» سنة (448هـ = 1056م)، وخطب فيها للخليفة «المستنصر الفاطمى»، ثم مد نفوذه إلى «الكوفة» و «واسط»، وأغرى «إبراهيم ينال» - وهو أخو «طغرل» لأمه - بالانشقاق على أخيه ليضمن انشغاله عنه بفتنة أخيه. وقد أمد «المستنصر الفاطمى» «الباساسيري» بما يدعم موقفه ويمكنه من مد نفوذه، فاستطاع في (الثامن من ذى القعدة سنة 450هـ = السابع والعشرين من ديسمبر 1058م) أن يدخل «بغداد» بجيوشه، ويخطب فيها للخليفة الفاطمى، وخضعت

«بغداد» للخلافة الفاطمية بمصر، واضطر الخليفة العباسي  
«القائم بأمر الله» ووزيره «ابن المسلمة» أن يضعوا نفسيهما تحت

(287/10)

حماية أحد أعوان «البساسيري»، واسمه «قريش بن بدران»،  
فطلب «البساسيري» من «قريش» تسليمه «ابن المسلمة»، فقتله  
شر قتلة في (أواخر ذى الحجة سنة 450هـ = يناير 1059م)، وقام  
«قريش» بتسليم الخليفة العباسي إلى ابن عم له بنواحي  
«الأنبار» (21)، فأواه وقام بجميع ما يحتاج إليه مدة سنة كاملة.  
وحاول «البساسيري» مد سلطانه على مدن «العراق» ما أمكنه  
ذلك، فاستولى على «البصرة»، وأوشك الأمر أن يستتب  
للفاطميين بالعراق لولا أن «المستنصر» شك في نيات  
«البساسيري» وحقيقة مخططاته، فمنع عنه عونه وتأيدده؛ مما  
كان له أثره السيئ على موقفه في مواجهة «طغرل بك»، الذي  
نجح في القضاء على ثورة أخيه «إبراهيم ينال»، وقبض عليه  
وقتله في (التاسع من جمادى الآخرة سنة 451هـ = يوليو سنة  
1059م). وعندما اقتربت جيوش السلطان السلجوقي «طغرل بك»  
من «بغداد» هرب «البساسيري» في اتجاه «الكوفة» في (6 من  
ذى القعدة سنة 451هـ = 14 من ديسمبر 1059م)، وسيطر  
«طغرل بك» على «بغداد» بسهولة، بعد عام كامل من سيطرة  
«البساسيري» عليها، وأعاد الخليفة «القائم بأمر الله» مكرماً  
إلى دار الخلافة في (25 من ذى القعدة سنة 451هـ = 14 من  
ديسمبر سنة 1059م) ونجح فرسان «طغرل بك» في قتل  
«البساسيري» في (8 من ذى الحجة سنة 451هـ = 15 من  
يناير سنة 1060م)

(288/10)

### \*عميد الملك الكندري

هو (أبي نصر محمد بن منصور بن محمد) أحد وزراء الدولة السلجوقية. تولى الوزارة في عهد طغرل بك بعد دخوله بغداد سنة (447هـ = 1055م)، فكان ساعده الأيمن حتى وفاة «طغرل» سنة (455هـ = 1063م). ويعتبر «عميد الملك» أحد العوامل المهمة في ازدهار دولة «طغرل بك» بفضل ما كان يتمتع به من حنكة وكفاءة، كما كان سبباً مكن «طغرل بك» من السيطرة على «العراق» ودار الخلافة، وإدخال الخليفة «القائم» ووزرائه وحاشيته في طاعة «السلاجقة» دون إراقة دماء، لما تمتع به «عميد الملك» من نفاذ بصيرته في الأمور، وتُعد نظره، وحسن سياسته، إلى جانب رسوخ قدمه في العلم والأدب. واقتزن اسم الوزير عميد الملك باسم «طغرل بك» وأصبح لا يذكر أحدهما دون أن يذكر الآخر. عقب تولى «ألب أرسلان» سلطنة «السلاجقة»، أقر «عميد الملك الكندري» وزير عمه «طغرل» في منصبه، ولكنه سرعان ما تغير عليه فعزله في شهر (الحرم سنة 456هـ = ديسمبر سنة 1063م)، وسجنه، ثم دبر قتله في شهر (ذى الحجة سنة 456هـ = نوفمبر سنة 1064م)، ويبدو أن «نظام الملك» لعب دوراً في ذلك.

(289/10)

### \*نظام الملك

أحد وزراء الدولة السلجوقية في العصر العباسي الثاني، عينه «ألب أرسلان» وزيراً له، وكان وزيره أثناء إمارته على «خراسان» قبل توليه السلطنة، ويُعد «نظام الملك» أشهر وزراء «السلاجقة» كما يعد من أشهر الوزراء في التاريخ

الإسلامي. وكانت بداية معرفة «نظام الملك» بالسلاجقة حينما اتصل بدادود بن ميكائيل بن سلجوق، والد السلطان «ألب أرسلان»، وأعجب بكفاءته وإخلاصه فسلمه إلى ابنه «ألب أرسلان» وقال له: «اتخذه والدًا ولا تخالفه فيما يشير به». وقد ظل «نظام الملك» وزيرًا للسلطان «ألب أرسلان» ثم خليفته «ملكشاه» ما يقرب من ثلاثين عامًا. حيث إنه عقب وفاة «ألب أرسلان» تولى السلطنة ابنه «ملكشاه» بعهد من أبيه، وتولى «نظام الملك» أخذ البيعة له، وأقره الخليفة «القائم بأمر الله» على السلطنة. لم يكتفِ «ملكشاه» بإقرار «نظام الملك» في الوزارة كما كان في عهد أبيه، بل زاد على ذلك بأن فوض إليه تدبير المملكة، وقال له: «قد رددت الأمور كلها كبيرها وصغيرها إليك، فأنت الوالد»، ولقبه ألقابًا كثيرة، أشهرها لقب «أتابك»، ومعناه الأمير الوالد، وكان «نظام الملك» أول من أطلق عليه هذا اللقب. وسبب هذه المكانة الرفيعة التي حظى بها «نظام الملك» عند السلطان «ملكشاه»، أنه هو الذي مهد له الأمور، وقمع المعارضين، فرآه السلطان أهلاً لهذه المكانة. ولم يكن «نظام الملك» مجرد وزير لامع، بل كان راعياً للعلم والأدب محبا لهما، وقد سمع الحديث وقرأه، وكان مجلسه عامراً بالعلماء والفقهاء والصوفية، مثل إمام الحرمين «أبي المعالي الجويني» و «أبي القاسم القشيري»، كما اهتم «نظام الملك» ببناء المدارس ووضع أسس قيام نهضة تعليمية رائعة. وكان لنظام الملك أثر متميز وجهد خلاق في ذلك، على المستوى الإداري والعسكري، والثقافي. فاهتم بإنشاء العديد من المدارس التي نسبت إليه في أنحاء الدولة، فسميت بالمدارس النظامية، وكان أشهرها:

«نظامية بغداد» التي تخيّر «نظام الملك» مشاهير الفكر والثقافة في العالم الإسلامي للتدريس فيها مثل: «حجة الإسلام أبي حامد الغزالي» صاحب كتاب «إحياء علوم الدين»، الذي فوض إليه «نظام الملك» مهمة التدريس في «المدرسة النظامية» ببغداد، ثم في «المدرسة النظامية» بنيسابور، التي كان إمام الحرمين أبو المعالي الجويني يقوم بالتدريس فيها. وقد أسهمت هذه المدارس النظامية في تثبيت قواعد المذهب السني والدفاع عنه ضد مختلف البدع والأهواء والمذاهب المنحرفة التي انتشرت في ذلك الوقت. وقد كان «نظام الملك» مؤلفاً مرموقاً أيضاً، فهو مؤلف كتاب «سياسة نامه» الذي تحدث فيه عن كيفية تدبير شئون الملك، وفضح معتقدات الحشاشين وغيرهم من الخارجين عن الدين. قتل «نظام الملك» في (10 من رمضان سنة 485هـ = 14 من أكتوبر سنة 1092م)، حين تقدم إليه أحد غلمان الباطنية (أو الحشاشين) وهو في ركب السلطان في صورة سائل أو مستغيث، فلما اقترب منه أخرج سكيناً كان يخفيها في طيات ملابسه فطعن به طعنات قاتلة. وقد اختلف المؤرخون في بيان السبب الذي أدى إلى مقتل «نظام الملك»، فقيل إن نفوذ «نظام الملك» وأولاده وشيعته تفاقم بصورة مثلت خطراً على السلطان «ملكشاه» فدبر قتله، وقيل إن السبب في ذلك حربه الدائمة ضد المذاهب الهدامة وعلى رأسها مذهب الباطنية أو الحشاشين.

(291/10)

#### \*سيف الدولة الحمداني

هو: أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان، الملقب بسيف الدولة الحمداني، أحد الأمراء الشجعان. ولد سنة (303 هـ = 916 م)، وأسس إمارة الحمدانيين بحلب عندما استولى عليها سنة (333

ه = 934 م)، ودامت تلك الإمارة نحوًا من ستين سنة، منها (23) سنة تحت حكم سيف الدولة. وسجّل التاريخ له ولدولته جهادهما العظيم في صد غارات الروم المتوالية على مشارف الدولة الإسلامية، وكانت الحرب بينهما سجالًا، وتحقق أعظم انتصار له على الروم سنة (343 هـ = 954 م) في معركة الحدث. اشتهر سيف بالكرم والجود، فقصده الشعراء والكتاب والعلماء، حتى قيل إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع بباب سيف الدولة من الشعراء، ويأتي في مقدمتهم المتنبي، الذي مدحه بقصائد كثيرة عرفت في تاريخ الأدب باسم السيفيات. وتوفي سيف الدولة بحلب سنة (356 هـ) عن (53) عامًا، وحُمل جثمانه إلى ميفارقين فدفن بها.

(292/10)

---

### \*صفي الدين الأردبيلي

هو أحد شيوخ الصوفية وينتسب إليه الصفويون. عاش في الفترة من (650 هـ = 1252 م) إلى (735 هـ = 1334 م)، وقد درس في مطلع حياته العلوم الدينية والعقلية في موطنه، ثم ارتحل إلى «شيراز»، واتصل بالشاعر المعروف «سعدى الشيرازي»، ثم رحل إلى «أردبيل» ومنها إلى «كيلان»، ودخل في زمرة الشيخ «زاهد الكيلاني» وتزوج ابنته، وخلفه في الطريقة، وعهد إلى أبنائه وأتباعه بالعمل على جذب الأتباع والدرأويش، والاجتهاد في نشر طريقتهم والدعاية لها، وكان هؤلاء ينتسبون إلى المذهب الشيعي.

(293/10)

---

## \*صلاح الدين الأيوبي

هو يوسف بن نجم الدين أيوب بن شادى، مؤسس الدولة الأيوبية. ولد سنة 526هـ ونشأ في بلاط «نور الدين زنكى» بالموصل وعُرف باسم «صلاح الدين»، وقضى طفولته في ظل والده «أيوب» بعلبك، وأخذ عنه براعته في السياسة، وشجاعته في الحروب، فشب خبيراً بالسياسة وفنون الحرب، وتعلم علوم عصره وتثقف بثقافة أهل زمانه، وحفظ القرآن، ودرس الفقه والحديث. رحل «صلاح الدين يوسف» مع والده إلى «دمشق» بعد وفاة «عماد الدين زنكى»، ثم دخل في خدمة «نور الدين بن عماد الدين زنكى» سلطان «حلب»، فاستعان «نور الدين» بشيركوه وابن أخيه «صلاح الدين» في ضم «مصر» إليه. في أواخر العصر الفاطمى قام صراع محموم بين «شاور» و «ضرغام» على منصب الوزارة، فاستنجد «شاور» بنور الدين محمود، فلبى نداءه وأرسل حملة كبيرة تحت قيادة «شيركوه» ومعه ابن أخيه «صلاح الدين»، فكان النصر حليف الحملة على «ضرغام» والصليبيين الذين استنجد بهم، وقتل «شاور» في المعركة، فاعتلى «أسد الدين شيركوه» كرسى الوزارة، ولكنه ثُوِّفَ بعد قليل، فخلفه في المنصب ابن أخيه «صلاح الدين» سنة (565هـ) وهو في الثانية والثلاثين من عمره. عمل «صلاح الدين» على توطيد مركزه في «مصر»؛ لتأسيس دولة قوية تحل محل الدولة الفاطمية التي ضعفت، وتحقق له ذلك بعد وفاة «العاضد» آخر خلفاء الدولة الفاطمية سنة (567هـ). لم تكن الأوضاع مهيأة أمام «صلاح الدين» لإقامة دولة إسلامية يكون هو مؤسسها وسلطانها، خاصة أن العالم الإسلامى كان مفككاً وضعيفاً ويحيط به الأعداء من كل جانب، بالإضافة إلى كونه نائباً عن «نور الدين محمود» في «مصر» التى يطمح الصليبيون وبقايا الفاطميين فى امتلاكها والسيطرة عليها، فعمل على مواجهة هذه العقبات والقضاء عليها واحدة بعد الأخرى. ظل

«صلاح الدين» يعمل على توحيد العالم الإسلامي مدة عشر سنوات في الفترة من سنة (572هـ) إلى سنة (582هـ)، حتى

(294/10)

تحقق له ما أراد، واستعد لمواجهة الصليبيين المتربصين بالعالم الإسلامي، ثم تصدّى لهم، فسجل التاريخ أبرز صور البطولة، وأسمى درجات الفداء والجهاد ضد هؤلاء المغتصبين، وكان من أبرز هذه المعارك واقعة حطين [583هـ = يولية 1187م] التي تعد «حطين» من أشهر الحروب التي خاضها «صلاح الدين» ضد الصليبيين وانتصر عليهم فيها انتصاراً عظيماً، وكان هذا الانتصار فاتحة خير على المسلمين، وبداية لسلسلة من الانتصارات على الصليبيين، واستسلمت «قلعة طبرية» وسلمت لصلاح الدين عقب هذا الانتصار، واتجه «صلاح الدين» صوب الساحل وحاصر «عكا» حتى استسلمت بعهد وأمان، ثم تتابع -بعد ذلك - استسلام باقى المدن الساحلية التي تقع جنوب «عكا» وهى: «نابلس» و «الرملة» و «قيسارية» و «أرسوف» و «يافا» و «بيروت»، وكذا المدن الواقعة شمال «عكا» مثل: «الإسكندرونة»، وكلها حصلت على العهد بالأمان من «صلاح الدين» الذى لم يبق أمامه سوى أن يمضى فى طريقه إلى «فلسطين»، فاستسلمت «عسقلان» له أثناء مروره بها، وحانت المواجهة الحاسمة لتحرير «بيت المقدس» التى نجح فى فتحها بعد حصار شديد حتى اضطر من بداخلها إلى الاستسلام وطلب الصلح. وتوفى صلاح الدين فى سنة (589هـ = 1193م)، وله من العمر خمسة وخمسون عاماً، بعد أن أسر الناس بجليل أعماله، وقهر الصليبيين بشجاعته، وخلّص العالم الإسلامى بقوة إيمانه من كوارث داخلية وخارجية كادت تودى به وتوقعه فى أيدي الأعداء.

**\*العزیز عماد الدین**

هو أصغر أبناء صلاح الدين الأيوبي، خلفه على عرش «مصر» سنة 589هـ=1193م، وكان شاباً في الحادية والعشرين من عمره، يتصف بالشجاعة والرحمة والعفة والأخلاق الحميدة، وحكم «مصر» في حياة أبيه «صلاح الدين» نيابة عنه، ومكّنه ذلك من اعتلاء عرشها عقب وفاته، إلا أنه كان يفتقد إلى الدراية السياسية في تسيير أمور البلاد واستقرار أحوالها، فاستعان بعمه «العاقل» واستوزره ليقوم بهذه المهمة، ومات «العزیز» في سنة (595هـ=1199م).

**\*المنصور ناصر الدين**

هو المنصور ناصر الدين بن العزیز عماد الدين بن صلاح الدين الأيوبي، خلف أباه على عرش مصر (سنة 595هـ=1199م) وهو طفل في التاسعة من عمره، فحكم «مصر» مدة سنة وتسعة أشهر، فرأى «الملك العادل» أن الدولة أوشكت على الانهيار تحت حكم الملك الطفل، فجمع العلماء والفقهاء في مجلس للتشاور فيما يجب فعله، فقرّر الجميع وجوب خضوع الصغير للكبير، وتولى «العاقل» عرش «مصر»، فأصبحت تحت يده أهم أجزاء دولة «صلاح الدين»، واعترفت الولايات بسيادته، وساهمت في حروبه، وضربت «السكة» باسمه، وخطب له فوق كل المنابر الإسلامية

## \*العادل سيف الدين

هو العادل سيف الدين بن نجم الدين أيوب، أخو صلاح الدين الأيوبي. يعد أعظم سلاطين الأيوبيين بعد «صلاح الدين»، فقد اكتسب خبرة واسعة من اشتراكه مع أخيه «صلاح الدين» في غزواته ومفاوضاته وإدارة الأقاليم، إذ وكل إليه «صلاح الدين» معاونة «العزیز» في حكم «مصر»، كما عهد إليه بحكم «حلب»، ثم «العراق»، وذاع صيت «العادل» بين ملوك «أوروبا»، واشتهر بالكفاءة والدهاء والدراية بشئون الحكم، ولم يتأخر في حمل المسؤولية حين رأى تدهور الأوضاع بمصر وحاجتها إليه، فكان الرجل المناسب لتلك المرحلة. تأثر «العادل» تأثرًا بالغًا بشخصية أخيه «صلاح الدين»، فسار على نهجه في إدارة البلاد، رغم الصعوبات التي واجهته، فقد ثارت ضده طائفة الشيعة الإسماعيلية مثلما ثارت من قبل في وجه أخيه «صلاح الدين»، وحاولت هذه الطائفة زعزعة ملك «العادل» وتفريق البلاد وتشيت الصفوف، فعمل «العادل» على الحيلولة دون حدوث ذلك، وتمكن من القبض على عناصرها وسجنهم سنة (605هـ)، فخرجت جماعة أخرى تنادى بتولية أحد أبناء «صلاح الدين» أمور الدولة، وكان هذا الابن لا يزال طفلاً صغيراً، فاستطاع «العادل» التغلب عليهم وإعادة الاستقرار إلى بلاده، إلا أن انخفاض مياه النيل كان إحدى العقبات الطبيعية التي واجهته، فقد حدث بسببه مجاعة وقحط شديدان؛ نتيجة قلة الزراعة، كما أن الحملات الصليبية لم تهدأ في عهده؛ إذ لم ترض «أوروبا» عن استقرار أحوال البلاد الإسلامية، فعملت على زعزعتها، وأرسلت حملة صليبية هاجمت «مصر» ووصلت إلى «دمياط» وحاصرت حصونها، ثم تمكنت منها، واستولت على برجها الحصين «برج السلسلة»، يضاف إلى ذلك كله العقبات الداخلية التي واجهت

«العدل» أثناء حكمه لمصر. وعلى الرغم مما واجهه «العدل» من صعاب داخلية وخارجية في الحكم، فقد اتسع ملكه إلى حد كبير، وقلده الخليفة العباسي بمرسوم رسمي حكم «مصر»

(298/10)

والشام وأرض الجزيرة، وخلع عليه الخلع الثمين، فوزع «العدل» حكم مملكته الواسعة بين أبنائه التسعة عشر نيابة عنه؛ ليضمن وحدتها وتماسكها، فأناجى ابنه «الكامل» عنه في «مصر»، وجعل «المعظم عيسى» على الشام، و«نجم الدين أيوب» على «ميفارقين» ونواحيها، وأناجى ابنه «الأشرف مظفر» على «الولايات الشرقية». وقد ضمن «العدل» وحدة دولته في حياته، إلا أنه تركها إرثاً موزعاً بين أبنائه بعد وفاته، فكان لذلك أثره الخطير في قوة الدولة وتماسكها. وحين سمع «العدل» بسقوط «برج السلسلة» بدمياط حزن حزناً شديداً، فمرض ومات سنة (615هـ)، وكنتم أصحابه خير موته ونقلوه إلى «دمشق»، حيث تولى ابنه «الكامل» حكم «مصر». كان «العدل» حاكماً عادلاً، ذكياً، حليماً، حسن التدبير، محباً للعلماء والأدباء ومشجعاً لهم، كما كان سياسياً محنكاً، قام برحلات عديدة جاب بها أطراف مملكته الشاسعة، كي يضمن استتباب الأمن والنظام، كما كان متفقداً لأحوال أبنائه في الأقاليم التي أنابهم عنه في حكمها.

(299/10)

\*الكامل بن العدل

هو الكامل ناصر الدين بن العدل أحد سلاطين الدولة الأيوبية في

مصر، حكم «الكامل» «مصر» نيابة عن أبيه «العادل» في حياته، فلما مات سنة 615هـ=1218م استقل الكامل بحكم «مصر» في ظروف حرجة، إذ كان الصليبيون منتصرين في «دمياط»، وكان عليه دحر هذا الانتصار الذي أدى إلى موت أبيه كمدًا، وخرج عليه عدد من الأمراء لعزله في الوقت الذي يتصدى فيه للصليبيين بدمياط، فتمكن من التغلب عليهم، ولكن الصليبيين استغلوا حالة التمرد والتفكك الداخلى واستولوا على «دمياط»، إلا أن «الكامل» استطاع توحيد بلاد المسلمين، وتمكن من دخول «نابلس»، وتحرير «بيت المقدس»، واتسع ملكه لدرجة جعلت أئمة المساجد يدعون له من فوق المنابر بقولهم: «سلطان مكة وعبرها، واليمن وزبيرها، ومصر وصعيدها، والشام وصناديدها، والجزيرة ووليدها، سلطان القبلتين، ورب العلامتين، وخدام الحرمين الشريفين». ورث عن أبيه صفاته الطيبة، فكان قائدًا قديرًا، وسياسيًا بارعًا، وإداريًا نشيطًا، حازمًا يدير أمور دولته بنفسه، لدرجة أنه لم يعين وزيرًا بعد وفاة وزير أبيه، وقام بالأمر بمفرده، وكان محبا للحديث، مشجعًا للعلماء والأدباء، فقد كان عالمًا، ينظم الشعر ويحيده. ظل في حكم البلاد التي تحت يديه حتى وفاته سنة (635هـ=1237م)، فأخذت الدولة في الضعف والانحلال من بعده.

(300/10)

### \* العادل الثانى بن الكامل

أحد سلاطين الدولة الأيوبية في مصر، وأطلق اسم «العادل الصغير» أو «العادل الثانى» عليه، تمييزًا له عن الملك «العادل» أخى «صلاح الدين»، وقد كان «العادل الثانى» نائبًا عن أبيه «الكامل» في حكم «مصر»، فلما مات أبوه أصبح سلطانًا على

«مصر» سنة 635هـ=1237م، ولكن اضطراب الأوضاع، وضعف الدولة جعلاه لا يستمر طويلا في حكم البلاد، فتولى أخوه «الصالح نجم الدين أيوب» الحكم من بعده سنة 637هـ=1240م.

(301/10)

### \* الصالح نجم الدين أيوب

أحد سلاطين الدولة الأيوبية في مصر، تولى العرش خلفاً لأخيه العادل الثاني بن الكامل. ورث «الصالح نجم الدين أيوب» عرشاً مضطرباً، مززعج الأركان جلب عليه الكثير من المشاكل والمتاعب، فدبر أموره، وأعد عدته وتمكن من القضاء على أكثر هذه المصاعب التي واجهته رغم شدتها، فلما تم له ما أراد تحول بقوته إلى مواجهة الصليبيين، ولم يأل جهداً في جهاده ضدهم، واستطاع استعادة «بيت المقدس» ثانية من قبضتهم، فاستقرت له الأحوال، وحل السلام بينه وبين أمراء مملكته، وتفرغ لمواصلة جهاده ضد الصليبيين؛ أملاً منه في تحرير البلاد كافة من أطماعهم. أكثر «الصالح نجم الدين أيوب» من استجلاب المماليك لمساعدته في حروبه ضد الصليبيين، فنبغ منهم عدة أشخاص كان لهم أكبر الأثر في تغيير مجرى السياسة المصرية، ومنهم «شجرة الدر» الأرمينية الأصل، والتي كانت أم ولد للصالح نجم الدين أيوب، ولازمته في حياة أبيه «الكامل»، وظلت معه بذكائها حتى أنجبت من «الصالح أيوب» ابنه «خليل» فتوطدت مكانتها، فلما أصبح سلطاناً على «مصر» اتخذها إلى جواره ملكة غير متوّجة، فقد كانت تعمل على راحتته، ووجد فيها ما يحبه. مات «الصالح أيوب» في ليلة النصف من شعبان سنة (647هـ)، وكانت الحرب لاتزال دائرة بين المسلمين والصليبيين أمام «المنصورة»، فأعملت «شجرة الدر» عقلها وتجلي

ذكاؤها، وأخفت خبر وفاته عن الناس في تلك الفترة العصبية من تاريخ «مصر» و «الشام»، وأمرت أحد أطبائه بغسل جثمانه ووضعه في تابوت، ثم حمله في الظلام إلى «قلعة الروضة»، ثم إلى «قبو» بجوار المدرسة الصالحية ودفنه هناك، وأخبرت الأمراء أن «السلطان مريض لا يصل إليه أحد»، ولم تعلن خبر وفاته إلا بعد انتصار المسلمين على الصليبيين، ورد حملتهم، فاستمر العزاء ثلاثة أيام بلياليها بمدرسته، وبعثت «شجرة الدر» بالسناجقة السلطانية، وأمرت بأن تُعلّق داخل القاعة على ضريح

(302/10)

---

«الملك الصالح»، ليرى الزائر آلات الجهاد التي كان يحملها آخر سلاطين «بني أيوب» في جهاده ضد الصليبيين في معركة «المنصورة»، فقد كان «الصالح أيوب» من أعظم سلاطين «مصر» وأشجعهم.

(303/10)

---

**\*توران شاه**

هو تورانشاه بن نجم الدين أيوب بن الكامل، آخر سلاطين الدولة الأيوبية، إستدعته شجرة الدر قبل أن تعلن عن وفاة أبيه نجم الدين أيوب حيث كان غائبًا عن «مصر» في «حصن كيفا». وقبل وصوله أصدرت أوامرها للأمراء وأكابر رجال الدولة بأن يخلفوا يمين السلطنة لتوران شاه، وأمرت خطباء المساجد بالدعاء له، وأدارت «معركة المنصورة» حتى وصل «توران شاه»، فتسلم قيادة الحرب وزمام الملك، ولم يمكث على عرش السلطنة أكثر من شهرين، ثم خرج لملاقاة الصليبيين الذين دخلوا «المنصورة».

وأخذوا يتقدّمون نحو «القاهرة»، فتصدّى لهم، وقاد المعركة بمهارة فائقة حتى تم النصر للمسلمين، فأحبه الناس وقدروه، إلا أن سيرته لم تكن حسنة، فقتل سنة (648هـ).

(304/10)

---

### \*أروى بنت أحمد الصليحية

هي أروى بنت أحمد بن محمد بن القاسم الصليحي آخر ملوك الدولة الصليحية باليمن، والمعروفة بالسيدة الحرة والملكة الكاملة. ولدت سنة (440 هـ = 1048 م) وكان أبوها من رجال الملك على الصليحي الذي أرسله إلى الخليفة الفاطمي المستنصر بالله يستأذنه في إظهار الدعوة العبيدية الشيعية. ولقبت بـ بلقيس الصغرى لرجاحة عقلها وحسن تديرها. وتزوجت أروى من أحمد المكرم ابن الملك على الصليحي، وولدت له علياً ومحمداً وفاطمة وأم همدان، وبعد وفاة زوجها قامت بشئون الدولة بتفويض من الخليفة الفاطمي المستنصر بالله حتى سعت لديه بتولية ابنها على حكم اليمن فاستجاب لها. وقد كانت علاقتها بالفاطميين في مصر وطيدة، حتى إنهم أسندوا إليها تنظيم أمور الدعوة الإسماعيلية الشيعية، وبعد وفاة الخليفة الفاطمي الأمر بالله (524 هـ = 1129 م) انفصلت الدولة الصليحية عن الدولة الفاطمية. وقد تُوفيت أروى سنة (532 هـ = 1139 م) بعد أن حكمت (55) عاماً، وبوفاتها زالت الدولة الصليحية.

(305/10)

---

### \*أرطغرل

هو أرطغرل بن سليمان بن فياألب جد خلفاء آل عثمان ووالد

عثمان خان مؤسس الدولة العثمانية، ولا يعرف عن حياته الأولى سوى أن أباه سليمان كان يتزعم قبيلة (قاتي) التركية، وكان موطنها بالقرب من (مرو) قاعدة بلاد (التركمان). هاجرت قبيلته فيمن هاجر من القبائل، حين اكتسح المغول أراضي الدولة الخوارزمية، فانتهى بأرطغرل المطاف بعد موت أبيه إلى الأناضول، وهناك لمع نجمه في مساعدة الأمير علاء الدين كيغباد حاكم إمارة قرمان وهي إحدى إمارات دولة سلاجقة الروم، فكان الأمير يقطعه عقب كل انتصار بعض ما يقع تحت يديه من الأراضي والأموال. وظفر أرطغرل بلقب أوج بكى أى محافظ الحدود من الدولة السلجوقية، ولم يكتف بذلك، بل ظل يتوسع باسم السلطان علاء الدين حتى هاجم الدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية) ونجح في توسيع منطقتة فضم إليها مدينة إسكى شهر واتخذها مقراً، وظل على هذا الوضع حتى توفي سنة (678 هـ = 1228 م) وخلفه ابنه عثمان الذى سميت باسمه الدولة العثمانية.

(306/10)

#### \*أسامة بن زيد

هو أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحبيل الكلبى صحابى جليل وابن صحابى لقبه الرسول بـ الحب بن الحب. ولد فالعام الرابع من البعثة النبوية بمكة المكرمة شهد مع الرسول غزوة الأحزاب وحينئذ ومؤتة، واستعمله الرسول أميراً على بعث إلى البلقاء من أرض فلسطين، فنفذ البعث بعد وفاته (ورجع منتصراً بعد خمسين يوماً. ومن أشهر مواقفه أنه اعتزل الفتنة الكبرى ورفض أن يقاتل مع أحد الطرفين. وقد تُوفّي أسامة بن زيد، رضى الله

عنه، في أرض الجرف قرب المدينة سنة (54 هـ = 674 م) فحمل  
إلى المدينة ودُفن بها

(307/10)

---

### \*أسد بن عبد الله القسري

هو أسد بن عبد الله بن زيد بن أسد بن كرز القسري أحد ولاة  
بني أمية على خراسان. ولد في دمشق وبها أيضاً كانت  
نشأته. وكان أخوه خالد بن عبد الله القسري والياً على العراق  
وخراسان في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، فاختر  
خالد أخاه أسداً نائباً عنه على خراسان سنة (106 هـ = 724 م)  
وظل بها حتى عزل عن نيابته سنة (109 هـ = 727 م) ثم أعيد  
إليها مرة ثانية سنة (117 هـ = 735 م)، وقام أسد خلال فترتي  
ولايته بحملات عسكرية لتأمين حدود الدول الإسلامية، وصد  
المعتدين على أطرافها، فحارب نمرون ملك الغرستان، كما غزا  
بلاد الغور وضم أسد إلى ولايته سمرقند وبلخ، وغزا مدينة خُتل  
حيث دارت بينه وبين الترك معركة شديدة، واستطاع أسد أن  
يهزم ملك الترك، وأن يسترد البلاد التي وقعت في حوزته. وكان  
أسد - إلى جانب شجاعته وحسن بلائه في الحروب - كريماً  
جواداً، يفرح بما يخرج من بين يديه من المال. وإلى أسد تنتسب  
مدينة أسد آباد بالقرب من نيسابور، وعلى يديه أسلم سامان جدّ  
الأمراء السامانيين. وتوفي أسد بن عبد الله القسري بمدينة بلخ  
في (صفر 120 هـ = يناير 738 م).

(308/10)

---

### \*أسماء بنت أبي بكر

هى أسماء بنت أبى بكر الصديق عبد الله بن أبى قحافة الملقبة ب ذات النطاقين صحابية جلييلة، أخت السيدة عائشة، رضى الله عنها، لأبيها، وزوج الصحابي الجليل الزبير بن العوام أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأم عبد الله بن الزبير الذى قتله الحجاج بن يوسف. وُلدت أسماء بمكة قبل الهجرة بسبع وعشرين سنة، وأسلمت بعد سبعة عشر مسلماً، وقد شاركت، رضى الله عنها، فى أحداث الهجرة، فكانت تحمل الزاد والماء والأخبار إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - وأبيها الصديق، رضى الله عنه، أثناء وجودهما فى غار ثور ولقبت خلالها بذاة النطاقين؛ لأنهما اضطرت إلى شق نطاقها نصفين لتضع فى أحدهما الطعام وتستتر بالآخر رأسها. وكانت، رضى الله عنها، مثالاً فى الجود والكرم، كثيرة البذل والعطاء، وكانت تقول لبناتها: أنفقن وتصدقن، ولا تنتظرن الفضل، فإنكن إن انتظرن الفضل، لم تفضلن شيئاً. وروت أسماء الحديث عن النبى - صلى الله عليه وسلم -؛ حيث روى عنها علماء الحديث ثمانية وخمسين حديثاً. وتوفيت، رضى الله عنها، بمكة فى (جمادى الأولى 73 هـ = سبتمبر 692 م) بعد مقتل ابنها عبد الله بن الزبير بثلاثة أشهر.

(309/10)

### \*أسماء بنت خماروية

هى أسماء بنت خمارويه بن أحمد بن طولون المعروفة ب قطر الندى. من شهيرات النساء عقلاً وأدباً وجمالاً. أراد أبوها خمارويه أن يزوجه من المكتفى بالله ابن الخليفة العباسى المعتضد بالله، ولكن المعتضد بالله قال: أتزوجها أنا، فتزوجها فى سنة (282 هـ = 895 م)، وكان زواجها مضرب الأمثال فى

البذخ والإنفاق؛ فقد دفع لها المعتضد بالله مهراً يبلغ ألف ألف درهم، وجهازها أبوها بجهاز عظيم يتجاوز الوصف، ولم يُرَ مثله. وقيل إن المعتضد بالله أراد من نكاحها أن يُفقر أبها في جهازها. ولما دخل بها أحبها حباً شديداً لجمالها وكثرة أدبها. وتوفيت أسماء بنت خمارويه سنة (287 هـ = 900 م).

(310/10)

---

### \*قطر الندى

هي أسماء بنت خمارويه بن أحمد بن طولون المعروفة ب قطر الندى. من شهيرات النساء عقلاً وأدباً وجمالاً. أراد أبوها خمارويه أن يزوجه من المكتفى بالله ابن الخليفة العباسي المعتضد بالله، ولكن المعتضد بالله قال: أتزوجها أنا، فتزوجها في سنة (282 هـ = 895 م)، وكان زواجها مضرب الأمثال في البذخ والإنفاق؛ فقد دفع لها المعتضد بالله مهراً يبلغ ألف ألف درهم، وجهازها أبوها بجهاز عظيم يتجاوز الوصف، ولم يُرَ مثله. وقيل إن المعتضد بالله أراد من نكاحها أن يُفقر أبها في جهازها. ولما دخل بها أحبها حباً شديداً لجمالها وكثرة أدبها. وتوفيت أسماء بنت خمارويه سنة (287 هـ = 900 م).

(311/10)

---

### \*إسماعيل بن إبراهيم (نبي)

هو نبي الله إسماعيل بن إبراهيم الخليل، عليهما السلام، من زوجته المصرية هاجر، وهو من نسل سام بن نوح ومن ذريته محمد (. وُلد إسماعيل بأرض الشام وكان قد تقدم بأبيه العمر دون أن يرزق بولد من زوجته سارة فوُلد له إسماعيل من هاجر

ثم انتقل إبراهيم - عليه السلام - بحما بأمر من الله إلى وادٍ غير  
ذى زرع عند موضع البيت الحرام. وقد ورد ذكر إسماعيل - عليه  
السلام - في القرآن الكريم في قصة رفع قواعد البيت الحرام مع  
أبيه الخليل إبراهيم، قال الله تعالى: (وَإِذ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ  
مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) [البقرة: 127]. وقد أشار القرآن إلى موقف إسماعيل في قصة  
الفداء: قال الله تعالى: (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنِي إِنِّي  
أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا بَتِ يَا بَتِ افْعَلْ  
مَا تَأْمُرُ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ. فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ  
لِلْجَبِينِ، وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ  
نَجْزِي الْحَسَنِينَ. إِنَّ هَذَا لَهُو الْبَلَاءُ الْمُبِينُ. وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ) [الصافات 102 - 107]. ولما بلغ إسماعيل أربعين سنة اصطفاه  
الله نبياً وأرسله إلى قبائل العرب من جرهم والعماليق وقبائل  
اليمن، فأمن به من شاء الله له أن يؤمن وكفر به من كفر.  
وتوفي إسماعيل - عليه السلام - بمكة، ودفن في الحجر عند قبر  
أمه هاجر.

(312/10)

### \*إسماعيل بن إبراهيم (خديو)

هو إسماعيل بن إبراهيم بن محمد على باشا والى مصر  
وحاكمها خلال الفترة [1863 - 1879 م]. وُلد بالقاهرة وتلقى  
تعليمه بمدرسة خاصة أنشأها جده محمد على بالقصر العالى  
بالقاهرة. وعندما أتم إسماعيل السادسة عشرة أوفده جده في  
بعثة علمية إلى باريس، أتقن خلالها اللغة الفرنسية. وعندما  
تولى سعيد باشا حكم مصر استقدم إسماعيل رئيساً لمجلس  
أحكام مصر وعندما توفي سعيد باشا تولى إسماعيل ولاية مصر

سنة [1279هـ = 1863 م]، وكان طامحاً إلى توسيع سلطانه،  
فبذل جهده لقصر ولاية الحكم في مصر على أبنائه بعد أن كانت  
لأرشد أبناء أسرة محمد علي، فحصل على فرمان من السلطان  
يعطيه هذا الحق. ومن أشهر أحداث عصره: إتمام حفر قناة  
السويس؛ حيث احتفل بافتتاحها سنة [1286هـ = 1869 م]، كما  
أنشأ السكك الحديدية التي بلغ طولها في عهده [1085 ميلاً]،  
وأنشئ في عهده أيضاً نحو [4817 مدرسة]، وتم إحياء  
صحيفة الوقائع المصرية وفي عهده أيضاً اتسعت مساحة  
الأراضي الزراعية. وتم عزل الخديو إسماعيل في سنة (1297هـ  
= 1879 م) وخلفه ابنه الأمير محمد توفيق ونفى إسماعيل إلى  
نابولي ثم إلى الأستانة فأقام بها حتى توفي في (رمضان  
1312هـ = مارس 1895 م) ونقل جثمانه إلى القاهرة.

(313/10)

### \*إسماعيل الصفوي

هو إسماعيل بن حيدر بن جُنيد بن إبراهيم بن صدر الدين موسى  
بن صفى الدين الأردبيلي الصفوي مؤسس الدولة الصفوية  
الشيوعية في إيران. وُلد إسماعيل في [25 من رجب 892 هـ = 18  
من يونية 1487 م] ونشأ محباً للشعر وكان يقرضه باللغات  
العربية والتركية والفارسية. أسس «الدولة الصفوية» في عام  
(907هـ = 1502م)، ثم دخل «تبريز» وأعلن نفسه فيها ملكاً على  
«إيران»، وتلقب بأبي المظفر شاه إسماعيل الهادي الوالى،  
وأصدر السكة باسمه، وفرض المذهب الشيعي، وجعله المذهب  
الرسمي لإيران بعد أن كانت تتبع المذهب السني، وقال حين  
أعلن ذلك: «لا يهمنى هذا الأمر، فالله، وحضرات الأئمة  
المعصومين معي، وأنا لا أخشى أحداً، وبإذن الله - تعالى - لو

قال واحد من الرعية حرفاً، فسأسحب سيفي، ولن أترك أحداً يعيش». وأمر المؤذنين أن يزيدوا في الأذان عبارتي: «أشهد أن علياً ولي الله»، و «حي على خير العمل». مضى الشاه «إسماعيل» في إرساء قواعد دولته، وترسيخ دعائم مذهبه، وتنظيم إدارة بلاده، فاتخذ من «حسين بك لله» نائباً له، وجعل «الشيخ شمس الدين اللاهيجي» حاملاً للأختام، واستوزر «محمد زكريا»، ثم قضى على قبيلة «آق قيونلو»، ودخل «شيراز»، وأقر فيها مذهبه الشيعي، فأصبحت «إيران» دولة شيعية بين قوتين سنيتين هما: «الهند» والأتراك من جهة الشرق، والعثمانيون والشام في الغرب. تميز الشاه «إسماعيل» بالصبر والذكاء وقوة الإرادة، والشجاعة والإقدام وحسن الإدارة، فالتف الناس حوله بالترغيب تارة وبالترهيب تارة أخرى، وأقام دولته على أساس مذهبي ذي أصول سياسية واقتصادية وإدارية، ووضع الأساس الذي استمرت عليه هذه الدولة نحو قرنين من الزمان، وباتت ذات دور مؤثر وحيوي في المنطقة، وقد أُعجب معاصرو الشاه «إسماعيل» به وبسياسته، وقد وصفه «ميرخواند» في كتابه «روضة الصفا» بقوله: «كان ذلك الملك نادرة الزمان، وأعجوبة الليل والنهار». ولعل من أبرز إنجازات

(314/10)

---

«إسماعيل الصفوي» هي إقراره لوحدة «إيران» الوطنية والسياسية، وتحديد معالم شخصية دولته في الداخل والخارج، غير أنه صعد - في الوقت نفسه - حدة الصراع بين الصفويين والعثمانيين، وعمق الخلاف المذهبي بين السنين والشيعية.

(315/10)

## \*إسماعيل الأول

هو إسماعيل بن حيدر بن جُنيد بن إبراهيم بن صدر الدين موسى بن صفى الدين الأردبيلي الصفوى مؤسس الدولة الصفوية الشيعية في إيران. وُلد إسماعيل في [25 من رجب 892 هـ = 18 من يونية 1487 م] ونشأ محبًا للشعر وكان يقرضه باللغات العربية والتركية والفارسية. أسس «الدولة الصفوية» في عام (907هـ = 1502م)، ثم دخل «تبريز» وأعلن نفسه فيها ملكًا على «إيران»، وتلقب بأبي المظفر شاه إسماعيل الهادى الولى، وأصدر السكة باسمه، وفرض المذهب الشيعى، وجعله المذهب الرسمى لإيران بعد أن كانت تتبع المذهب السنى، وقال حين أعلن ذلك: «لا يهمنى هذا الأمر، فالله، وحضرات الأئمة المعصومين معى، وأنا لا أخشى أحدًا، وبإذن الله - تعالى - لو قال واحد من الرعية حرفًا، فسأسحب سيفى، ولن أترك أحدًا يعيش». وأمر المؤذنين أن يزيدوا فى الأذان عبارتى: «أشهد أن عليا ولى الله»، و «حى على خير العمل». مضى الشاه «إسماعيل» فى إرساء قواعد دولته، وترسيخ دعائم مذهبه، وتنظيم إدارة بلاده، فاتخذ من «حسين بك لله» نائبًا له، وجعل «الشيخ شمس الدين اللاهيجى» حاملًا للأختام، واستوزر «محمد زكريا»، ثم قضى على قبيلة «آق قيونلو»، ودخل «شيراز»، وأقر فيها مذهبه الشيعى، فأصبحت «إيران» دولة شيعية بين قوتين سنيتين هما: «الهند» والأتراك من جهة الشرق، والعثمانيون والشام فى الغرب. تميز الشاه «إسماعيل» بالصبر والذكاء وقوة الإرادة، والشجاعة والإقدام وحسن الإدارة، فالتف الناس حوله بالترغيب تارة وبالتهيب تارة أخرى، وأقام دولته على أساس مذهبى ذى أصول سياسية واقتصادية وإدارية، ووضع الأساس الذى استمرت عليه هذه الدولة نحو قرنين من

الزمان، وباتت ذات دور مؤثر وحيوى فى المنطقة، وقد أعجب معاصرو الشاه «إسماعيل» به وبسياسته، وقد وصفه «ميرخواند» فى كتابه «روضة الصفا» بقوله: «كان ذلك الملك نادرة الزمان، وأعجوبة الليل والنهار». ولعل من أبرز إنجازات

(316/10)

---

«إسماعيل الصفوى» هى إقراره لوحدة «إيران» الوطنية والسياسية، وتحديد معالم شخصية دولته فى الداخل والخارج، غير أنه صعّد - فى الوقت نفسه - حدة الصراع بين الصفويين والعثمانيين، وعمّق الخلاف المذهبى بين السنين والشيعية.

(317/10)

---

### \*الأسود العنسى

هو عيهلة - وقيل عبهلة - بن كعب بن عوف العنسى نسبة إلى بنى عنس أحد بطون قبيلة مذحج باليمن، والأسود العنسى أحد مثيرى الفتنة فى اليمن بادعائه النبوة، وقومه حديثو عهد بالإسلام، وقيل إنه سمى نفسه رحمان اليمن. وبدأت فتنة الأسود سنة (10هـ = 631 م) وانضم إليه من قبيلته من خُدعوا به، فسار إلى نجران وأجلى عنها القائمين بشئونها من قبل رسول الله (وهما: عمرو بن حزم وخالد بن سعيد. وقد أرسل النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى المسلمين باليمن يأمرهم بمقاومة الأسود والاستعانة بكل ذى دين فى ذلك الأمر، فقام معاذ بن جبل، رضى الله عنه، على تنفيذ ما أمر به النبى وتعاون معه المسلمون من أهل اليمن، وكتبوا إلى فيروز وزير الأسود وعرضوا عليه التعاون معهم فى قتل الأسود، فرد عليهم ألاّ يحركوا شيئاً حتى يدبر الأمر لقربه

منه، فدخل فيروز على الأسود وهو نائم في فراشه فقتله وقطع رأسه، وكان ذلك في سنة (10هـ = 631 م) ومقتله انتهت الفتنة.

(318/10)

---

### \*الأشتر النخعي

هو مالك بن الحارث بن عبد يغوث النخعي، أحد التابعين، ومن كبار أنصار الإمام علي بن أبي طالب، وهو من قبيلة النخع إحدى القبائل العربية التي كانت تعيش في اليمن، ولُقّب بالأشتر لانقلاب جفنه إثر جرح أصابه في إحدى عينيه في معركة اليرموك سنة (15 هـ = 636 م). وعندما تولى علي بن أبي طالب الخلافة كان الأشتر من أنصاره ومؤيديه، فاشترك في معركة صفين سنة (37 هـ = 657 م) التي كانت بين علي ومعاوية، رضى الله عنهما، وأظهر بسالة وشجاعة في القتال. ولاه علي إمارة مصر خلفاً لمحمد بن أبي بكر. وتوفي الأشتر النخعي سنة (37 هـ = 657 م).

(319/10)

---

### \*أشعب بن جبير

هو أشعب بن جبير الملقب بالطامع، وكان مولى لعثمان بن عفان، رضى الله عنه، وقيل إنه ولد في خلافته. وأشهر ما يعرف عن أشعب أنه كان ظريفاً من ظرفاء المدينة، وكان يضرب به المثل في الطمع، وله في هذا نواذر ماثورة وأخبار طريفة، كما كان يجيد الغناء. ومن نواذره أنه كان يُحدّث الناس، فقال: سمعت عكرمة يقول: سمعت ابن عباس يقول: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: خصلتان لا تجتمعان في مؤمن. ثم سكت طويلاً، فقالوا: ماهما؟

فقال: نسي عكرمة واحدة، ونسيت أنا الأخرى! وقد عمّر أشعب  
دهراً طويلاً، فقد قيل: إنه قدم بغداد زمن الخليفة العباسي أبي  
جعفر المنصور. وتُوفى أشعب سنة (154 هـ = 771 م) عن نحو  
(120 سنة).

(320/10)

---

### \*الأشعث بن قيس

هو الأشعث بن قيس بن معدى كرب الكندي صحابي جليل، وأحد  
أمراء قبيلة كِنْدَةَ في الجاهلية، ولقب بالأشعث لأنه كان كثيراً  
ما يرى أشعث الرأس، وأسلم في السنة العاشرة من الهجرة.  
وفي خلافة أبي بكر الصديق، رضى الله عنه، امتنع الأشعث  
وقومه عن أداء الزكاة، فسير أبو بكر جيشاً هزمهم وأسر  
الأشعث، ولما حضر إلى أبي بكر تاب وحسنت توبته فأطلق  
سراحه وزوجه أخته، وفي خلافة عمر بن الخطاب، رضى الله  
عنه، اتسعت الفتوحات الإسلامية، فشارك الأشعث في معارك:  
اليرموك (13 هـ = 634 م)، والقادسية (14 هـ = 635 م)، والمدائن  
(16 هـ = 637 م)، وجولاء (16 هـ = 637 م)، ونهاوند (21 هـ =  
641 م). وفي خلافة عثمان بن عفان، رضى الله عنه، عينه والياً  
على أرمينية فظل عليها حتى خلافة على بن أبي طالب، وفي  
خلافة على بن أبي طالب، رضى الله عنه، كان الأشعث من  
أنصاره وشهد معه موقعة صفين. وتُوفى الأشعث بالكوفة سنة  
(40 هـ = 661 م).

(321/10)

---

## \*أشناس

قائد تركى مسلم اشتهر فى خلافة العباسيين المأمون والمعتمصم والواثق، وكان يكنى بأبى جعفر. عرف أشناس بشجاعته وفروسيته حتى إن الخليفة المأمون عندما خرج سنة (215 هـ = 830 م) قاصداً غزو الروم كان معه جماعة من القواد، منهم أشناس الذى وجهه إلى حصن سندس فى الشام فجاء برئيسه إلى الخليفة. وفى ولاية المعتمصم جعل ولاية مصر لـ أشناس فكان اسم أشناس يذكر فى خطبة الجمعة مع اسم الخليفة، كما ضرب اسمه على السكة [العملة]. وكان لأشناس فضل كبير فى فتح عمورية فقد وضع الخطط الحربية المناسبة لمواجهة الروم، مما كان له أثر بالغ فى انتصار المسلمين. وفى ولاية الواثق أقر أشناس على ولاية مصر، وضم إليه إدارة شئون البلاد من بغداد حتى آخر حدود الدولة بالمغرب، ثم لقبه بلقب سلطان، وكان أول من لقب بذلك. وتوفى أشناس سنة (230 هـ = 843 م).

(322/10)

## \*الإصطخرى

هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الكرخى الإصطخرى رحالة من علماء الجغرافية المشهورين. وُلد ونشأ بمدينة إصطخر بـيران، فنسب إليها، وسعى فى طلب العلم وهو صغير، ونشأت لديه رغبة قوية فى السياحة والتطواف، فقد طاف معظم بلاد المسلمين. وكان الإصطخرى يصف كل بلدٍ زاره وصفاً دقيقاً، مبيناً مدنه وأثماره وطرق موصلاتته، والمسافات التى تفصل بين المدن. وألّف الإصطخرى عدة كتب، منها: صور الأقاليم ومسالك الممالك. وكُتِبَ الإصطخرى تجمع بين المتعة والفائدة، وكانت

أساساً لمن صنّف بعده من جغرافيّ العرب، مثل ابن حوقل الذى اعتمد على كتاب الإصطخرى فى كتابه الذى ألفه بعد ذلك وسماه المسالك والممالك. وتُوفى الإصطخرى سنة (346 هـ = 957 م).

(323/10)

---

\*ابن أبى أصيبعة

هو موفق الدين أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجى وكان ملقباً باسم جده ابن أبى أصيبعة. وُلد ابن أبى أصيبعة بدمشق فى بيت علم وأدب، فقد كان والده من أشهر الكحالين ( أطباء العيون) بدمشق، فتعلم الطب على يد أبيه وتخصص فى علومه، وبرع فى طب العيون، فسافر إلى مصر سنة (634 هـ = 1226 م) والتحق بالبيمارستان الناصرى بالقاهرة. واشتهر ابن أبى أصيبعة بحسن مداواته لمرضى العيون، فعينه عز الدين أيبك أمير صرخد - إحدى مدن جبل حوران بسوريا - طبيباً خاصاً له. ومن أهم مؤلفات ابن أبى أصيبعة كتاب باسم عيون الأنبياء فى طبقات الأطباء وترجم فيه لكبار الأطباء منذ عُرف الطب لدى الإغريق والرومان والهنود والعرب. ومن كتبه أيضاً: حكايات الأطباء فى علاجات الأدوية، إصابات المنجمين، التجارب والفوائد. وتُوفى ابن أبى أصيبعة فى (جمادى الأولى 668 هـ = يناير 1270 م).

(324/10)

---

\*امرؤ القيس

هو خنْدُج بن خُجْر بن الحارث بن عمرو بن خُجْر بن عمرو بن

معاوية الكِنْدِي. شاعر عربي من قبيلة كندة. وُلد بأرض نجد في ديار بني أسد نحو سنة (130 ق. هـ = 497 م). نشأ امرؤ القيس مترفاً لا يألف خشونة العيش، وكان من العشاق الذين يميلون إلى العبث، ويقال: إن أباه طرده إلى قرية دَمون بمحضر موت لتشبيبه بفاطمة بنت العُبَيْد. وقد لقب امرؤ القيس بالملك الضليل، وبذى القروح. وقد قيل: إن امرأ القيس هو أول من وضع قواعد للشعر العربي، ومن ثم لُقّب بأمير شعراء الجاهلية. وقد تنوعت أغراض شعره، وجاء الغزل والنسيب في مقدمة هذه الأغراض، ومن ذلك قوله في معلقته الشهيرة: قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل وقوله: يظل العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهْدَاب الدمقس المفتل وقوله: وليلِ كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلى وقد توفي امرؤ القيس سنة (80 ق. هـ = 545 م) بعد أن لبس حُلّة مسمومة، فظهرت على جسمه القروح، ومن ثم عُرف بذى القروح.

(325/10)

\*أُمَيَّة بن خلف

هو أُمَيَّة بن خلف بن وهب بن خُذافة بن جُمح، أحد سادات قريش وعظمائها، أدرك الإسلام ولم يسلم، وكان من أشد أهل قريش عناداً وحرماً للنبي - صلى الله عليه وسلم - . كان أُمَيَّة بن خلف سيِّداً لبلال بن رباح وكان يبتدع في وسائل تعذيبه فكان يُخرج بلالاً إذا حميت ظهيرة مكة ويلقيه على رمالها ثم يضع أثقل الصخور على ظهره، كما كان أُمَيَّة شديد الإيذاء للنبي - صلى الله عليه وسلم - مشتركاً في ذلك مع بعض سادات قريش. وقد نزل في أُمَيَّة بن خلف قرآنٌ يهدده ويوضح موقفه من الدعوة، من ذلك قوله تعالى: (ويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخلده كلا لينبذن في الحطمة

ومأدراك ما الحطمة نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة  
إنما عليهم مؤصدة في عمد ممددة [الهمزة]. وكان أمية بن  
خلف من المشاركين في الندوة التي عقدتها قريش قبل الهجرة  
ليتخلصوا من النبي ولكن الله نجى رسوله ورد كيدهم. وقد  
توفي أمية بن خلف في غزوة بدر سنة (2هـ = 623 م).

(326/10)

---

### \*أنس بن مالك

هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد الخزرجي  
الأنصاري، صحابي جليل كنيته أبو حمزة ويقال أبو ثمامة  
الأنصاري. وُلد أنس، رضى الله عنه، قبل الهجرة بعشر سنوات،  
ونشأ في كنف الرسول منذ صباه يكلؤه برعايته، ويظله بمظلته،  
ويخصه بجانب من العلم، وقد أحسن أنس التلقى عن النبي  
(والحفظ منه، ولذا روى عن الرسول أحاديث كثيرة حتى لُقّب  
راوية الإسلام، وبلغ مارواه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - من أحاديث، ألفين ومئتين  
وستة وثمانين حديثاً. وقد شهد أنس، رضى الله عنه، مع الرسول  
(الحديبية والفتح وحنيناً والطائف وخيبر، ولم يحارب يوم بدر؛  
لأنه كان صغير السن آنذاك. وقد استعمله أبو بكر ثم عمر، رضى  
الله عنهما، على عمالة البحرين، وشكرا له حسن قيامه بعمله،  
وحرصه على أدائه ورعايته حق الله والمسلمين. وعَمَّر أنس،  
رضى الله عنه، طويلاً، حتى قيل: إنه كان آخر الصحابة موتاً،  
وكان يرى في كل ليلة حبيبه (ويكى بكاءً شديداً. وقد تُوفي  
أنس بن مالك سنة (93 هـ = 711 م).

(327/10)

---

## \*الأوزاعي

هو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد الأوزاعي من كبار تابعي التابعين. ولقب بالأوزاعي نسبة إلى الأوزاع وهي بطن من ذى الكلاع باليمن. ولد سنة (88 هـ = 706 م) بقرية بعلبك في لبنان وربته أمه يتيماً، ثم استقر بدمشق. وقد برع الأوزاعي في تفسير القرآن الكريم، وحفظ الحديث، والأخبار، والمغازي، وكان صاحب مذهب ساد في الشام زمنياً، ثم ما لبث أن ضعف انتشاره، بسبب انتشار المذهبين المالكي والشافعي اللذين حلا محلّه. وقد التزم الأوزاعي في فتاويه بالتوقف عند النصوص الصحيحة من الكتاب والسنة. وللأوزاعي كتابان في الفقه، هما السنن والمسائل، وقد ضمّن كتاب المسائل الفتاوى التي أفتى بها. وتوفي الأوزاعي سنة (157 هـ = 773 م) في بيروت.

(328/10)

## \*عبد الرحمن الأوزاعي

هو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد الأوزاعي من كبار تابعي التابعين. ولقب بالأوزاعي نسبة إلى الأوزاع وهي بطن من ذى الكلاع باليمن. ولد سنة (88 هـ = 706 م) بقرية بعلبك في لبنان وربته أمه يتيماً، ثم استقر بدمشق. وقد برع الأوزاعي في تفسير القرآن الكريم، وحفظ الحديث، والأخبار، والمغازي، وكان صاحب مذهب ساد في الشام زمنياً، ثم ما لبث أن ضعف انتشاره، بسبب انتشار المذهبين المالكي والشافعي اللذين حلا محلّه. وقد التزم الأوزاعي في فتاويه بالتوقف عند النصوص الصحيحة من الكتاب والسنة. وللأوزاعي كتابان في الفقه، هما السنن والمسائل، وقد ضمّن كتاب المسائل الفتاوى التي أفتى بها. وتوفي الأوزاعي سنة (157 هـ = 773 م) في بيروت.

**\*ابن إياس**

هو أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس زين الدين المصرى الحنفى. أحد المؤرخين المصريين البارزين فى كتابة التاريخ فى القرن (9هـ = 15م). وُلد فى القاهرة سنة (852 هـ = 1448 م) لأسرة مملوكية رفيعة القدر؛ حيث كان أبوه وجده من الأمراء. وقد كان لابن إياس منهج فى كتابة التاريخ، فقد كان يتحرى الدقة فيما يكتب، وفيما يصدر من أحكام على معاصريه من السلاطين والأمراء. وكان يقف عند كل حادثة بالشرح والتعقيب مع شىء من القوة فى الحكم والجرأة فى التقدير. وقد اعتنى ابن إياس فى كتابته للتاريخ بتسجيل تاريخ مصر والإفاضة فيه. وقد ترك ابن إياس مؤلفات عديدة نافعة، منها: بدائع الزهور فى وقائع الدهور. - عقود الجمان فى وقائع الزمان. - نزهة الأمم فى العجائب والحكم. - نشق الأزهار فى عجائب الأقطار. وقد تُوفى ابن إياس سنة (930 هـ = 1523 م).

**\*أبو أيوب الأنصارى**

هو خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة بن النجار بن الخزرج المعروف بأبي أيوب الأنصارى، صحابى جليل، ومن السابقين الذين بايعوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى بيعة العقبة الثانية. وكان لأبي أيوب الأنصارى شرف ضيافة النبى - صلى الله عليه وسلم - عندما هاجر من مكة إلى المدينة. وعندما آخى الرسول - صلى الله عليه وسلم - بين المهاجرين والأنصار آخى بين أبي أيوب ومصعب بن عمير، رضى الله عنهما. وشهد أبو أيوب

غزوة بدر وأحد والخندق، وسائر المشاهد مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم -،  
وحرس في غزوة خيبر خيمة رسول الله وسهر على حمايته. وقد  
روى أبو أيوب الأنصاري عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (150) حديثاً، واتفق  
البخاري ومسلم على سبعة منها وانفرد البخاري برواية حديث  
واحد، ومسلم بخمسة أحاديث، في حين تفرق الباقي في كتب  
الحديث الأخرى. وتوفي أبو أيوب الأنصاري سنة (52 هـ = 672  
(م)

(331/10)

---

### \*أبو بردة بن أبي موسى

هو أبو بُردة عامر بن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري  
الإمام الفقيه الثبت، كان أبوه صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. كان أبو بُردة  
ثقة كثير الحديث له مكارم ومآثر مشهورة. تولى أبو بُردة  
القضاء على الكوفة بعد القاضى شريح في أيام الحجاج ثم  
عزله الحجاج وولى على الكوفة أخوا أبي بردة وهو أبو بكر بن  
أبي موسى الأشعري. تُوفي أبو بردة بالكوفة سنة (103 هـ =  
721 م).

(332/10)

---

### \*بطرس قيصر روسيا

هو بطرس الثالث قيصر روسيا ابن الامبراطورة أنا ابنة بطرس  
الأكبر مؤسس روسيا. تولى بطرس الثالث الحكم بعد عمته  
الإمبراطورة اليصابات سنة (1176 هـ = 1762 م)، وقد أخرج  
روسيا من حرب السنين السبع. تزوج بطرس الثالث من الأميرة  
صوفيا أميرة أتمالت التي تعرف ب كاترين الثانية وكان بطرس

عريداً (سبى الخلق) فلم يكن يصلح لتولى الحكم فقامت مؤامرة  
تزعمها الإخوة أودلوف لإرغام بطرس على النزول عن العرش،  
وإعلان كاترين العاهل الوحيد على روسيا، وبعد أيام وُجد  
بطرس ميتاً في ظروف غامضة، ويعتقد أنه اغتيل.

(333/10)

### \*جمال الدين الأفغاني

هو محمد بن صفتر الحسيني جمال الدين فيلسوف الإسلام في  
عصره. وُلد في بيت شرف وعلم بقرية أسعد آباد من قرى كندر  
بالأفغانستان سنة (1254 هـ = 1838 م) ثم انتقل إلى كابل وهو  
في الثامنة من عمره، فتلقى العلوم العربية والشرعية  
والرياضية، وبرع في العلوم الرياضية. كان جمال الدين الأفغاني  
من العقول الواسعة؛ فقد أتقن الإنجليزية والروسية، وكان واسع  
الاطلاع على العلوم القديمة والحديثة، خصوصاً الفلسفة القديمة  
وفلسفة تاريخ الإسلام. سافر الأفغاني إلى الهند ومصر ثم إلى  
الأستانة وعيّن فيها عضواً في مجلس المعارف، ثم غادرها إلى  
مصر فمكث فيها ثمان سنوات فطارت شهرته في البلاد وأقبل  
عليه الطلاب يتلمسون منه علماً ونوراً. وشهد الأفغاني الثورة  
العربية، وبعد إخفاقها سافر إلى باريس، ولحقه تلميذه محمد  
عبده وأنشأ معه جريدة العروة الوثقى. وليس للأفغاني غير  
مؤلفين هما: -تاريخ الأفغان. -رسالة الرد على الدهريين. وفي  
آخر أيامه داهمه مرض السرطان في فكه وامتد إلى عنقه  
فتوفي بالأستانة ودُفن في أفغانستان، وكان ذلك سنة (1315  
هـ = 1897 م).

(334/10)

---

### \*جيش بن خمارويه (أبو العساكر)

هو أبو العساكر جيش بن خمارويه بن أحمد بن طولون أمير مصر والشام. وُلد ونشأ بمصر. ولى مصر والشام بعد مقتل أبيه خمارويه بدمشق، وقد تقاعس عن مبايعته جماعة من كبار القواد، ولكن بايعه آخرون فتمت له البيعة وهو صبي. وكانت ولايته في (ذى القعدة 282 هـ = يناير 896 م). وغلب عليه اللهو والمجون فنقمت عليه الخاصة وخلعوه عن الولاية في (جمادى الآخرة 283 هـ = يونيو 896 م) وسجن وقتل في السجن بعد خلعه بأيام يسيرة، وكانت مدة ولايته ستة أشهر.

(335/10)

---

### \*ابن حبيب

هو عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون بن جاهمة السلمى الإلبيرى القرطبي عالم الأندلس وفتيها في عصره. وُلد في إلبيرة سنة (174 هـ = 790 م) وسكن قرطبة. كان عالماً بالتاريخ والأدب والنحو والعروض، حافظاً للأخبار والأنساب والأشعار، كان يقول الشعر أيضاً، وكان رئيساً في فقه المالكية. وقال عنه محمد بن عمر بن لبابة: عبد الملك بن حبيب عالم الأندلس، ويحيى بن يحيى عاقلها، وعيسى بن دينار فقيها. ولابن حبيب مؤلفات كثيرة في الفقه والتاريخ والأدب منها: -فضل الصحابة. - غريب الحديث. - تفسير الموطأ. - الواضحة. - حروب الإسلام. - طبقات الفقهاء والتابعين. تُوفي ابن حبيب بقرطبة سنة (238 هـ = 853 م).

(336/10)

### \*زرياب

هو أبو الحسن علي بن نافع الملقب بزرياب، نابغة الموسيقى في عصره، ولُقّب بزرياب؛ لأنه كان أسود اللون مع فصاحة لسانه تشبيهاً له بطائر مغرد أسود اللون. كان زرياب شاعراً مطبوعاً وتتلّمذ على يد إسحاق الموصلي المغني العباسي ببغداد، وفاقه في الغناء، وغنى بين يدي هارون الرشيدى. وهو أول من جعل في العود خمسة أوتار. سافر زرياب إلى الأندلس وقد سبقته شهرته، وأقام بقرطبة، وبها اخترع مضراب العود من قوادم النسر، بعد أن كان يُصنع من الخشب. وتوفي زرياب بالأندلس سنة (230 هـ = 845 م).

(337/10)

### \*عمرو بن العاص:

هو فاتح «مصر»، وأول والٍ عليها من قبل الخليفة «عمر بن الخطاب»، وكان والياً عادلاً، عمل على نشر الأمن والأمان في ربوع «مصر»، ومنح الأقباط الحرية الدينية التي افتقدوها قبل الفتح الإسلامى، وأعاد البطريق «بنيامين» من منفاه في «وادي النطرون» إلى «كنيسة الإسكندرية»، لذلك أحبه المصريون. قام «عمرو بن العاص» بالإصلاحات المالية والإدارية في «مصر»، واعتمد فيها على الأقباط من أهلها، فنعم المصريون -جميعاً- في ولايته بالحرية الدينية والحياة الكريمة. تأسس الفسطاط: لم يقتصر دور «عمرو بن العاص» على الإصلاحات المالية والإدارية، بل أسس مدينة «الفسطاط» (مصر القديمة حالياً)؛ لتكون عاصمة لمصر الإسلامية بأمر من الخليفة «عمر بن الخطاب»، ثم أسس مسجده - الذى لا يزال يحمل اسمه حتى الآن - في وسط تلك

المدينة. وهو أول مسجد في قارة إفريقيا. ومن أهم أعمال «عمرو بن العاص» حفر قناة تصل «النيل» بالبحر الأحمر، بأمر من الخليفة «عمر بن الخطاب»، لتسهيل السفر والتجارة بين «مصر» والجزيرة العربية، وكان اسم هذه القناة: «خليج أمير المؤمنين». وقد تولى «عمرو بن العاص» ولاية «مصر» مرتين، كانت الثانية من سنة (38هـ = 658م) حتى سنة (43هـ = 663م).

(338/10)

---

### \*علي بن نافع

هو أبو الحسن علي بن نافع الملقب بزرياب، نابغة الموسيقى في عصره، ولُقّب بزرياب؛ لأنه كان أسود اللون مع فصاحة لسانه تشبيهاً له بطائر مغرد أسود اللون. كان زرياب شاعراً مطبوعاً وتتلّمذ على يد إسحاق الموصلي المغني العباسي ببغداد، وفاقه في الغناء، وغنى بين يدي هارون الرشيدى. وهو أول من جعل في العود خمسة أوتار. سافر زرياب إلى الأندلس وقد سبقته شهرته، وأقام بقرطبة، وبها اخترع مضرب العود من قوادم النسر، بعد أن كان يُصنع من الخشب. وتوفي زرياب بالأندلس سنة (230هـ = 845م).

(339/10)

---

### \*معمّر بن راشد

هو أبو عروة معمّر بن راشد بن أبي عمرو الأزدي أحد الأعلام النقات في اليمن، فقيه حافظ للحديث. وُلد بالبصرة سنة (95هـ = 713م) واشتهر فيها، ثم سكن اليمن، وهو أول من صنف باليمن. كان معمّر من أوعية العلم مع الصدق والتحرى والورع وحسن

التصنيف، وكان من الثقات الذين يؤخذ منهم، فقد قال عنه ابن جرير: عليكم بمعمر فإنه لم يبق في زمانه أعلم منه. ومن أهم كتب معمر بن راشد كتاب الجامع. وتوفي معمر بصنعاء في (رمضان 153 هـ = سبتمبر 770 م).

(340/10)

---

### \*مغيث الرومي

هو مغيث بن الحارث بن الحويرث بن جبلة بن الأيهم الغساني المعروف ب مغيث الرومي فاتح قرطبة. أُسر مغيث من قبل الروم وهو صغير، ونشأ بدمشق وتآدب مع أولاد عبد الملك بن مروان فتلقى الفصحى وصار يقول الشعر والنثر، ومن شعره قوله: أعتكُم ولكن ما وفيتم فسوف أعيث في غرب وشرق ودخل مغيث الأندلس غازياً مع طارق بن زياد، ثم أرسله لفتح قرطبة ومعه سبعمائة فارس ففتحها في (شوال سنة 92 هـ = أغسطس 711 م)، ثم فتح الكنيسة التي تحصن بها ملك قرطبة بعد حصار دام ثلاثة أشهر. وبعد فتح قرطبة حدث بين مغيث وطارق بن زياد خلاف فرحل مغيث إلى دمشق سنة (96 هـ = 715 م) وخدم سليمان بن عبد الملك ثم عاد إلى الأندلس. وتوفي مغيث الرومي بالأندلس سنة (100 هـ = 718 م).

(341/10)

---

### \*المغيرة بن شعبة

هو أبو عبد الله المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي صحابي جليل، أحد دهاة العرب وقاداتهم. وُلد المغيرة في الطائف بالحجاز سنة (20 ق. هـ = 603 م). أسلم المغيرة بن

شعبة سنة (5 هـ) وشهد الحديبية واليمامة وفتوح الشام، وذهبت  
عينه باليرموك، وشهد أيضاً القادسية ونهاوند وهمدان. ولأه  
عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، البصرة، ثم عزله وولاه الكوفة.  
والمغيرة بن شعبة من رواة الحديث، فقد روى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - (136)  
حديثاً. وقد وُصف المغيرة بالدهاء، قال الشعبي: دهاة العرب  
أربعة: معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن  
شعبة، وزياد. وتوفي المغيرة بالكوفة سنة (50 هـ = 570 م)،  
ولما تُوفى وقف مصقلة بن هبيرة الشيباني على قبره، فقال:  
إن تحت الأحجار حزماً وجوداً وخصيماً ألد ذا معلق حية في  
الوجار أريد، لاین فع منه السليم نقت الراقى ثم قال: أما والله  
لقد كنت شديد العداوة لمن عاديت شديد الأخوة لمن آخيت.

(342/10)

### \*المقريزى

هو أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم  
تقى الدين المقريزى مؤرخ الديار المصرية. وُلِدَ المقريزى سنة ( )  
766 هـ = 1365 م) بحارة برجوان بقسم الجمالية بمحافظة  
القاهرة بمصر، ونشأ في أسرة معروفة بالاشتغال بالعلم،  
فَعَكف على دراسة علوم الدين وحفظ القرآن ومعرفة النحو  
والتاريخ والأدب والحساب. عمل المقريزى كاتباً في ديوان  
الإنشاء بالقلعة ثم عُيِّن نائباً من نواب الحكم، ثم عُيِّن مدرساً  
للحديث بالمدرسة المؤيدية، ثم عيَّنه السلطان برقوق سنة (801  
هـ = 1398م) محتسباً للقاهرة والوجه البحرى. وبعد ذلك انقطع  
المقريزى للعلم واشتغل بالتاريخ، وأثر بالمكتبة العربية بكتب  
كثير منها: - اتعاط الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفاء. - إمتاع  
الأسماع. - إغاثة الأمة بكشف الغمة. - العقود في تاريخ اليهود. -

نبذة العقود في أمور النقود. - السلوك لمعرفة دول الملوك.  
وتوفي المقرئ سنة (845 هـ = 1441 م).

(343/10)

---

### \*ابن المقفع

هو عبد الله بن المقفع من أئمة الكتاب، وأول من عُني في الإسلام بترجمة كتب المنطق، وهو فارسي الأصل. وُلد ابن المقفع سنة (106 هـ = 724 م)، في قرية جُور بفارس ونشأ بها، وعمل على تحصيل الثقافة الفارسية، ثم رحل إلى البصرة، وتعلم اللغة العربية سريعاً لاختلاطه بمواليه آل الأهمم وهم مشهورون بالفصاحة. وكان ابن المقفع مجوسياً فأسلم، وكان كريم الأخلاق، وعقله شديد الاتساع. وترجم ابن المقفع عن الفارسية كتاب كليلة ودمنة، وهو من أشهر كتبه. وترجم أيضاً كتب أرسطو طاليس الثلاثة في المنطق، وله رسائل غاية في الإبداع، منها: الأدب الصغير والأدب الكبير والصحابة. وقد أتم ابن المقفع بالزندقة، فقتله أمير البصرة سفيان بن معاوية المهلي وكان ذلك سنة (142 هـ = 759 م).

(344/10)

---

### \*أبو الأسود الدؤلي

هو ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل الدؤلي الكنائي. وُلد بمكة ، ولا تُعرف سنة ولادته على وجه التحديد، أسلم في عهد النبي (ولم يره. صحب على بن أبي طالب، رضى الله عنه، فبرز شأنه في خلافته، وقاتل معه يوم الجمل وشهد معه صقيين وولاه قضاء البصرة ثم جعله والياً عليها. ويذهب معظم العلماء إلى أن أبا

الأسود الدؤلى هو أول من وضع قواعد النحو العربى بأمر من  
على بن أبى طالب. وأبو الأسود الدؤلى هو أول من نقط  
المصحف نقط إعراب. وقد بقى من أثر أبى الأسود ديوان شعر،  
كان قد جمعه اللغوى المعروف أبو الفتح بن جنى. ومن شعره:  
يأيتها الرجل المعلم غيره هلاً لنفسك كان ذا التعليم تصف الدواء  
لذى السقام وذى الضنا كيما يصح به وأنت سقيم ونراك تصلح  
بالرشاد عقولنا أبداً وأنت من الرشاد عديم ابداً بنفسك فانها  
عن غيرها فإذا انتهت عنه فأنت حكيمٌ لآتته عن خُلق وتأتى مثله  
عازٌ عليك إذا فعلت عظيم وتوفى أبو الأسود الدؤلى بالبصرة  
سنة (69 هـ = 688 م).

(345/10)

### \*الأصمعى

هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن أصمع  
الباهلى. أحد أعلام اللغة والأدب. وُلد الأصمعى بالبصرة نحو سنة  
(122هـ = 740 م) فى حى بنى أصمع وحفظ القرآن وأتقن  
تجويده وقد رغب الأصمعى فى أخذ اللغة والنحو والشعر من  
مصادرهما الأولى فارتحل إلى البوادرى يخالط أهلها؛ ويدون ما  
يسمعه منهم؛ مما أكسبه معرفة واسعة بحياة الجاهليين  
وأشعارهم وأراجيزهم. واتسم الأصمعى بالدقة فى الرواية  
والخبرة فى الشعر حتى إن الأخفش كان يقول عنه ما رأيت أحداً  
أعلم بالشعر من الأصمعى، وعلى الرغم من كثرة محفوظاته  
ومروياته الشعرية فإنه لم يكن شاعراً، ولما سُئل عن ذلك قال:  
منعنى عن نظم الشعر نظرى إلى جيده. وكانت للأصمعى خبرة  
جغرافية بالجزيرة العربية ودرونها ومسالكها، وقد استشهد به  
ياقوت الحموى فى كتابه معجم البلدان فى (341) موضعاً. وترك

الأصمعي ثروة علمية طائلة، فمن كتبه: - النبات والشجر - خلق  
الإنسان - فحولة الشعراء - الأصمعيات وتُوفى الأصمعي بالبصرة  
سنة (216 هـ = 831 م).

(346/10)

\*ابن السَلَّار

هو أبو الحسن علي بن السلار، ولقبه العادل سيف الدين ناصر  
الحق، وقيل: أبو منصور علي بن إسحاق، وعرف بابن السلار.  
وزير الظافر بالله العبيدي الفاطمي (5 من جمادى الآخرة 544 هـ  
= 13 من سبتمبر 1149 م) (آخر المحرم 549 هـ = 16 من أبريل  
1154 م). تولى ابن السلار الوزارة بعد تغلبه على نجم الدين أبي  
الفتح سليم بن محمد بن مصال وزير الظافر بالله، وكان ابن  
السلار والياً على البحيرة والإسكندرية، وكان غير راضٍ عن  
تولى ابن مصال الوزارة، فجاء إلى القاهرة ليأخذ الوزارة  
بالقهر، والتقى بابن مصال عند دِلاص قرب البهنسا (التابعة  
لمحافظة المنيا)، فقتل ابن مصال وتقلد ابن السلار الوزارة في  
سنة (544 هـ = 1144 م). كان ابن السلار سنياً شافعيًا شجاعاً  
مقداماً مانلاً إلى أرباب الفضل والصلاح، عمّر بالقاهرة الكثير من  
المساجد، كما كان له دور في مواجهة الفرنج الصليبيين، فكان  
أول من حاول عقد اتفاق مع نور الدين أمير حلب لعمل جبهة  
موحدة لمواجهتهم، كما عمل ابن السلار على تقوية الجيش واهتم  
بتحصين عسقلان. ومع هذا فقد كان شديداً في معاملته للناس،  
وكان زوج أم عباس بن باديس الصنّهاجي فقتله نصر بن عباس  
هذا على فراشه بالقاهرة، وتولى عباس بعده الوزارة يوم  
الخميس سادس المحرم سنة (548 هـ = 1153 م)، وقيل: السبت  
الحادي عشر من المحرم من السنة نفسها، وبعدها دخل الفرنج

مدينة عسقلان واستولوا عليها في (27 من جمادى سنة 548 هـ =  
20 من أغسطس 1153 م). وتُوفى ابن السلار سنة (548 هـ =  
1153 م).

(347/10)

---

**\*ابن سعد**

هو محمد بن سعد بن منيع الزهري أبو عبد الله. مؤرخ، ثقة،  
صاحب الطبقات. وُلد سنة (168 هـ = 784 م) في البصرة وسكن  
بغداد، وصحب الواقدي المؤرخ، فكتب عنه، وروى عنه، ويُعد  
من أهل العدالة، يتحرى في كثير من رواياته. روى عنه سفيان  
بن عيينة وهشيم وغيرهما، وروى عنه أبو بكر ابن أبي الدنيا،  
أشهر كتبه: طبقات الصحابة اثنا عشر جزءًا، ويعرف بطبقات ابن  
سعد. قال أبو حاتم: صدوق. وتُوفى ببغداد سنة (230 هـ = 845  
م).

(348/10)

---

**\*محمد بن سعد**

هو محمد بن سعد بن منيع الزهري أبو عبد الله. مؤرخ، ثقة،  
صاحب الطبقات. وُلد سنة (168 هـ = 784 م) في البصرة وسكن  
بغداد، وصحب الواقدي المؤرخ، فكتب عنه، وروى عنه، ويُعد  
من أهل العدالة، يتحرى في كثير من رواياته. روى عنه سفيان  
بن عيينة وهشيم وغيرهما، وروى عنه أبو بكر ابن أبي الدنيا،  
أشهر كتبه: طبقات الصحابة اثنا عشر جزءًا، ويعرف بطبقات ابن  
سعد. قال أبو حاتم: صدوق. وتُوفى ببغداد سنة (230 هـ = 845  
م).

**\*نبيامين البطريق**

ينتمي إلى أسرة قبطية موسرة من قرية فرشوط في البحيرة، ثم رحل إلى دير قريوس بالإسكندرية، وترهب على يد رئيسه تيوناس وقد جد في تحصيل العلم، وكان ذكي الفؤاد، شديداً في الدين. وقد أحبه المسيحيون، واتبعوه، واختير بطريقاً للكنيسة في منتصف عمره، وظل فيها إلى أن توفي سنة (42 هـ = 662 م) بعد ولاية تسع وثلاثين سنة. ومما يذكر أنه واجه الفرس، وحض الناس على الثبات والصبر، ودبر أمور الكنيسة، وهرب قبل مجئ قيرس إلى الإسكندرية، ولاقى المسيحيون العذاب والتكيل على يد هرقل لإجبارهم على اعتناق مذهب خلقدونية.

**\*هاجر**

هي أم إسماعيل بن إبراهيم، عليهما السلام. كانت جارية مصرية جميلة. وهبها فرعون مصر لسارة زوجة إبراهيم عليه السلام، حينما كانا في زيارة لمصر، ثم وهبتها سارة لزوجها، فرزقه الله منها إسماعيل، ثم أوحى الله - تعالى - إلى إبراهيم - عليه السلام - أن يسكنهما مكة ففعل وأنزلهما موضع الحجر، ثم تركهما ورجع إلى الشام. ونفذ الماء من هاجر، فعطشت هي وولدها، فأخذت تسعى بلهفة بين الصفا والمروة، وتدعو الله أن ينجيها وابنها، فإذا هي بجبريل - عليه السلام - يضرب موضع زمزم بجناحه فتفجر الماء من هذا الموضع، فجعلت تزمه بحيث لا

يخرج الماء خارجه؛ خوفاً من نفاذه. ومرت جماعة جرهم تريد الشام، فأرأوا الطير يحلق فوق الجبل فعلموا أن هذا المكان به ماء فنزلوا به واستأذنوا السيدة هاجر في السكن به، فأذنت لهم؛ فصاروا سكان مكة، وشب إسماعيل بينهم، وماتت هاجر قبل سارة، ودفنها إسماعيل بالحجر.

(351/10)

---

### \*مسيلمة الكذاب

هو أبو ثمامة مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفى الوائلى. ولد ونشأ باليمامة، وهو أحد مدعى النبوة؛ إذ قدم مع وفد بنى حنيفة على النبي - صلى الله عليه وسلم -، إلا أنه تخلف عنهم، وأسلم الوفد، وأخبروا النبي بموضع مسيلمة، فأمر له النبي بمثل ما أمر لهم، فلما رجعوا ادعى مسيلمة النبوة، وطالب الرسول باقتسام الأرض معه مناصفة، ثم أخذ يكثر من وضع أسجاع يضاهى بها القرآن، وتوفى النبي - صلى الله عليه وسلم - ومازال مسيلمة على حالته تلك. وفي خلافة أبي بكر - رضى الله عنه - التحم الجيش الإسلامى بقيادة خالد بن الوليد مع جيش مسيلمة فى معركة شديدة، أسفرت عن هزيمة مسيلمة ومقتله سنة (12هـ=633م).

(352/10)

---

### \*نوح عليه السلام

هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن إدريس، عليه السلام. رسول من أولى العزم، وأطلق عليه الأب الثانى للبشر. كان بينه وبين آدم عشرة قرون كلها على الإسلام، كما فى البخارى، وبعد تلك القرون آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام؛ فأرسل

الله نوحاً ليعود الناس إلى عبادة الله فاستجابت له فئة قليلة،  
وتصدى له الباقون بالإيداء. فتأبر على أداء واجب الدعوة إلى  
الله على مدار ألف سنة إلا خمسين عاماً وما آمن معه إلا قليل  
(هود: 40)، وأوحى الله إليه (إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد  
آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون. واصنع الفلك بأعيننا ووحينا  
ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون (المؤمنون: 27)،  
فلما اشتد إيذاء قومه له ولمن آمن معه دعا ربه (أنى مغلوب  
فانتصر (القمر: 10)؛ فحل بالأرض طوفان دمر قومه ولم ينج  
منهم إلا المسلمون بالسفينة. وقد ذكر الله تعالى نوحاً عليه  
السلام في أكثر من أربعين موضعاً في القرآن الكريم، وذكر  
قصته وما كان من قومه، وأن زوجته وأحد أبنائه كانا من  
المكذبين له الكافرين بدعوته.

(353/10)

### \*مصطفى كامل

هو مصطفى كامل بن على محمد، السياسى الخطيب الكاتب  
الذى وُلد بالقاهرة فى (14 من أغسطس 1874م). كان أبوه  
ضابطاً مهندساً، عُني بتعليمه؛ فصار فصيحاً، ساحر البيان.  
التحق بكلية الحقوق؛ لكى يعد نفسه لأداء مهمته الوطنية،  
وحصل على شهادة الحقوق، من جامعة تولوز، بفرنسا قبل  
بلوغه سن العشرين. وقد اتجه إلى مقاومة الاحتلال الإنجليزي  
بإلقاء الخطب وكتابة المقالات والكتب، ونشر دعوته السياسية  
فى صحف فرنسا وأسس بمصر جريدة اللواء اليومية كما أصدر  
جريدتين أخريين بالاسم نفسه؛ إحداهما بالفرنسية والأخرى  
بالإنجليزية وتنقل بين البلاد الأوربية، مطالباً باستقلال مصر،  
وكان يرى أن قضية الاستقلال قضية دولية؛ فالاستقلال من حق

جميع الشعوب، وأسس الحزب الوطني، وانتخب رئيساً له سنة (1907 م) طوال حياته. ومن آثاره: أعجب ما كان في الرق عند الرومان ودفاع مصرى عن بلاده والشمس المشرقة في حرب اليابان وروسيا والمسألة الشرقية ومصر والاحتلال الإنجليزي ورسائل مصرية فرنسية وقد جمع شقيقه على فهمى كامل سيرته بعنوان مصطفى كامل باشا؛ سيرته وأعماله، وألفت حوله عدة كتب مستقلة، مثل مصطفى كامل لمحمد ثابت البندارى ومصطفى كامل باعث الحركة الوطنية لعبد الرحمن الرافعى ومصطفى كامل؛ حياته وكفاحه لأحمد رشاد. ومات مصطفى كامل وهو في ريعان شبابه متأثراً بالمرض، في (10 من فبراير 1908 م).

(354/10)

#### \*ابن مصال

هو نجم الدين أبو الفتح سليمان بن محمد بن مصال اللُّكى المفضل وُلد في لُكَّ بالقرب من برقة وعمل بالبيطرة، كما كان عالماً بأصول الدين. وعرف بالتواضع ولين الجانب وقد عينه الحافظ ناظراً للمصالح، ثم عينه الظافر وزيراً؛ تنفيذاً لوصية أبيه الحافظ في (5 من جمادى الآخرة 544 هـ = 13 من سبتمبر 1149م) ولقبه بالأفضل وأمير الجيوش وسعد الملك وليث الدولة. وقد غضب العادل بن السلار لتولى ابن مصال الوزارة، ونجح في طرده من الوزارة، فخرج ابن مصال من القاهرة إلى الجيزة، فتبعته جيوش العادل، وقتل قرب دلاص في المنيا بمصر، في (19 من شوال 544 هـ = 19 من فبراير 1150 م).

(355/10)

### \*مدحت باشا

هو مدحت باشا أو أحمد مدحت بن حاجي حافظ أشرف أفندي،  
أبو الأحرار العثماني. وُلد سنة (1238 هـ = 1822 م) في  
إستامبول وكان أبوه قاضياً، وسماه محمد شفيق وغلب عليه  
اسم أحمد مدحت ثم مدحت. تعلم العربية والفارسية، وتقلب في  
الوظائف، حتى كان والياً على الدانوب (الطونة). وقضى على  
ثورات البلغار، وأصدر الدستور العثماني في أواخر سنة  
(1293 هـ = 1876 م)، ثم عزله السلطان عبد الحميد، فسافر إلى  
لندن، ثم عاد والياً علي الشام فأزمير، ثم حوكم لآتهامه في  
الاشتراك في تدبير قتل السلطان عبد العزيز سنة (1293 هـ =  
1876 م). وكان يستهدف إصلاح الحكم والإدارة، حيث حاول أن  
ينتفع من الحضارة الأوروبية الحديثة بما يتوافق مع الإسلام في  
تنظيم الحكم والإدارة والاقتصاد. وقد صدر الحكم بإعدامه، ولكن  
السلطان اكتفى بنفيه إلى قلعة الطائف بالحجاز ثم تُوفّي سنة  
(1301 هـ = 1883 م)، وقد اختلف في سبب وفاته؛ فقيل: وُجد  
مخنوقاً في سجنه، وقيل: مات بالسرطان.

(356/10)

### \*المدائني

هو علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف، أبو الحسن  
المدائني. وُلد سنة (135 هـ) وكان مولى شمس بن عبد مناف،  
وقيل: مولى عبد الرحمن بن سمرة القرشي وكان راوية ومؤرخاً.  
وكان من أهل البصرة؛ إذ سكن المدائن، ثم انتقل إلى بغداد.  
وكان صدوقاً في روايته؛ لذا قال عنه يحيى بن معين: ثقة ثقة  
ثقة، وروى عنه الزبير بن بكار والحسن بن علي بن المتوكل

وقد كان كثير التأليف؛ حيث وصلت كتبه إلى ما يزيد على  
المائتين، لكن لم يصل إلينا من كتبه سوى كتابين، وهما:  
المردفات من قريش، والتعازي. وتُوفِّي في ذي القعدة سنة  
(225هـ).

(357/10)

---

### \* هند بنت عتبة

هي الصحابية الجلييلة هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن  
عبد مناف اشتهرت بالجمال وسداد الرأي والعقل والحزم والعزة  
والفصاحة والبلاغة وإنشاء الأدب شعراً ونثراً. وهي زوجة أبي  
سفيان؛ إذ تزوجته بعد مفارقتها لزوجها الأول الفاكهه بن  
المغيرة المخزومي. وكانت قبل إسلامها من أشد أعداء الإسلام  
والمسلمين، حتى إنَّها كانت تحرض على قتال المسلمين في بدر  
وأحد، وقد دفعت أفعالها الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى إعلانها إهدار دمها يوم  
فتح مكة، إلا أنَّها جاءت مع بعض النساء لإعلان إسلامهن،  
فرحب بها النبي - صلى الله عليه وسلم - . وروت عن النبي وروى عنها ابنها معاوية بن  
أبي سفيان، وشهدت اليرموك، وحرضت على قتال الروم. ومن  
مأثور أقوالها: المرأة غل لا بد للعنق منه، فانظر من تضعه في  
عنقك. وتُوفِّي في خلافة عمر، رضى الله عنه، سنة (14هـ).  
وقيل: في خلافة عثمان رضى الله عنه.

(358/10)

---

### \* محمود سامي البارودي

هو محمود سامي بن حسن حسني بن عبد الله البارودي المصري  
رائد النهضة في الشعر العربي الحديث. وُلد في (27 من رجب

1255هـ = 6 من أكتوبر 1839 م)، وهو من أسرة جركسية الأصل،  
ولُقّب بالبارودي، نسبة إلى إتاى البارود إحدى بلاد محافظة  
البحيرة. وقد توفي أبوه وهو في سن السابعة، فقامت أمه  
بتربيته إذ أحضرت له المعلمين، لكي يعلموه ويلقنوه القرآن  
وشيئاً من الفقه الإسلامى والشعر، فتفجر ينبوع الشعر على  
لسانه، ثم التحق بالمدرسة الحربية، وبعد تخرجه فيها مضى  
يفغذى موهبته بالشعر القديم، إذ كانت المطابع تُعنى بنشر بعض  
الدواوين فأتاحت له فرصة الاطلاع والقراءة. ورحل البارودي  
إلى الآستانة فأتقن اللغتين الفارسية والتركية، واستوعب  
آدابهما ثم عاد إلى مصر، والتحق بحاشية الخديو إسماعيل،  
ورُقى إلى رتبة قائمقام ثم أميرلاى، ثم عُيّن مديراً للشرقية،  
فمحافظةً للعاصمة. وقد اشترك البارودي في الثورة العرابية،  
فلما أخفقت نفى مع زملائه إلى جزيره سيلان، فأقام بها سبعة  
عشر عاماً، ثم عُفى عنه، وعاد إلى مصر حاملاً معه ديوان  
شعره. ومن شعره قوله: سلّ مصر عنى إن جهلت مكانتى  
تخبرك عن شرفٍ وعزٍّ أقدم بلد نشأت مع النبات  
بأرضها ولثمتُ ثغرَ غديرها المتبسّم فنسيئها روحى ومعدنُ  
تربها جسمى وكوثر نيلها محيا دمي وثوقى البارودي في  
(شوال 1322 هـ = ديسمبر 1904 م).

(359/10)

### \*أبو مسلم الخراسانى

هو عبد الرحمن بن مسلم. مؤسس الدولة العباسية، وأحد كبار  
القادة. كان شجاعاً، ذا رأى سديد، وحزم شديد، وُلد بأصبهان  
سنة (100هـ = 718 م)، ونشأ بالكوفة واتصل بإبراهيم ابن الإمام  
محمد، فأرسله إلى خراسان داعيةً، فأقام فيها واستمال أهلها

، ثم استولى على نيسابور وخطب على منابرها باسم السفاح  
العباسي ثم نجح في هزيمة مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية  
الذي فر إلى مصر وقتل أبو مسلم سنة (137هـ = 755 م) في  
خلافة أبي جعفر المنصور.

(360/10)

---

### \*مسروق

هو مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني. فقيه تابعي ثقة، ومن  
المخضرمين الذين أسلموا في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - . وكان أبوه أمهر  
فرسان اليمن، وخاله عمرو بن معد يكرب، كما كان أعلم  
بالتوى من شريح. وقد قدم من اليمن بعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وصلى  
خلف أبي بكر. وحدث عن عمر وعلي، رضى الله عنهما، وشهد  
قتال الحرورية مع علي، كما شهد صفين فوعظ فيها ولم يقاتل،  
وشلت يده يوم القادسية. ومن أقواله المأثورة: لأن أفضى  
بقضية وفق الحق أحب إليّ من رباط سنة في سبيل الله. وقد  
توفي في واسط ودفن بها سنة (63 هـ = 683 م).

(361/10)

---

### \*يحيى بن الحكم الغزال

هو يحيى بن الحكم البكري الجبلي، المعروف بالغزال. شاعر  
وفيلسوف وسياسي، أصله من جيان، ولقب بالغزال؛ لجماله  
وظرفه وأناقته. وُلِدَ سنة (156هـ = 773م)، وعاصر خمسة من  
أمرأ بني أمية بالأندلس، ونظم الشعر وهو صغير السن وبلغ  
ذروة شهرته في عهد الحكم. وكان متمكناً من علوم عصره.  
وكان الغزال ذا شخصية قوية تتمتع بالكياسة واللباقة التي

رشحته ليكون سفير عبدالرحمن بن الحكم إلى الامبراطور  
تيوفيلوس قيصر القسطنطينية، وكان عمره آنذ يقارب السبعين،  
كما بعثه عبدالرحمن بن الحكم إلى ملك النورمان، ليرد على  
رسالته ويعلنه بقبول الصلح معه، ثم عاد الغزال إلى الأندلس بعد  
رحلة دامت عشرين شهراً. وتوفي الغزال في سنة (250هـ = 864  
م).

(362/10)

---

### \*الغزال

هو يحيى بن الحكم البكرى الجباني، المعروف بالغزال. شاعر  
وفيلسوف وسياسي، أصله من جيان، ولقب بالغزال؛ لجماله  
وظرفه وأناقته. وُلد سنة (156هـ = 773م)، وعاصر خمسة من  
أمراء بني أمية بالأندلس، ونظم الشعر وهو صغير السن وبلغ  
ذروة شهرته في عهد الحكم. وكان متمكناً من علوم عصره.  
وكان الغزال ذا شخصية قوية تتمتع بالكياسة واللباقة التي  
رشحته ليكون سفير عبدالرحمن بن الحكم إلى الامبراطور  
تيوفيلوس قيصر القسطنطينية، وكان عمره آنذ يقارب السبعين،  
كما بعثه عبدالرحمن بن الحكم إلى ملك النورمان، ليرد على  
رسالته ويعلنه بقبول الصلح معه، ثم عاد الغزال إلى الأندلس بعد  
رحلة دامت عشرين شهراً. وتوفي الغزال في سنة (250هـ = 864  
م).

(363/10)

---

### \*هشام بن هبيرة

هو هشام بن هبيرة بن فضالة الليثي قاضي البصرة. عينه في

القضاء عبدالله بن الزبير سنة (64هـ) وهو شاب، فكتب إلى شريح يستشيريه فيما يعرض له من مسائل. وقد استقال من القضاء بعد مقتل مصعب بن الزبير سنة (71هـ)، وأعيد بعد تولية الحجاج بن يوسف على العراق، وتوفي سنة (75 هـ = 694 م).

(364/10)

---

### \*أبو هريرة

هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي. كنى بأبي هريرة؛ لأنه كان يحمل قطة صغيرة معه. وُلد سنة (21 ق. هـ = 602 م) وهو أكثر الصحابة حفظاً للحديث ورواية له؛ إذ روى (5374) حديثاً، نقلها عنه أكثر من (800) رجل ما بين صحابي وتابعي. نشأ أبوهريرة يتيماً ضعيفاً في الجاهلية، وقدم إلى المدينة ورسول الله (بخير، فأسلم سنة (7 هـ) ولازمه، وكان يسأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن أشياء لا يسأله عنها غيره. ودعا له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأن يجيبه الله إلى المؤمنين. وكان أكثر مقامه بالمدينة. وتولى إمرتها أكثر من مرة، كما استعمله عمر بن الخطاب على البحرين، ثم عزله لما رآه لين الجانب مشغولاً بالعبادة. وتوفي أبوهريرة بالمدينة سنة (59 هـ = 679 م).

(365/10)

---

### \*هارون (نبي)

هو نبي الله، وأخو موسى نبي الله أيضاً، عليهما السلام، ورد ذكره في القرآن عشرين مرة. وقد شد الله به أزر موسى؛ لأنه كان أفصح منه لساناً وأكبر منه سنناً، وجعله موسى خليفة له في قومه وقت غيابه عنهم، وأثناء ذلك حلت الفتنة بيني

إسرائيل؛ إذ كان في صفوفهم منافق يقال له: السامري قال للقوم: إن موسى لن يرجع، وصنع لهم من حليهم عاجلاً، وقال لهم: هذا ربكم، فعكف على عبادته أغلب بني إسرائيل، ونهاهم هارون عن ذلك، لكنهم استمروا في عنادهم، فلما رجع موسى إليهم اشتد غضبه، وسقطت ألواح التوراة من يده، وأخذ برأس هارون ولحيته يؤنبه ويؤاخذة، إلا أن هارون بيّن له أنه نّاهم فلم يستجيبوا له واستضعفوه وكادوا يقتلونه، فأخذت موسى الشفقة بأخيه، وطلب من الله الرحمة له ولأخيه.

(366/10)

---

#### \*مصعب بن الزبير

هو أبو عبدالله مصعب بن الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي القرشي، أمير العراقيين. ولد سنة (26هـ = 647 م) وكان فارساً شجاعاً وسيماً سخياً حتى أطلق عليه: آنية النحل لسعة كرمه. وقام بدور كبير في تثبيت ملك أخيه بالحجاز والعراق؛ إذ قتل المختار الثقفي؛ فوجه إليه عبدالمملك بن مروان الجيوش، لكنه فشل في القضاء عليه، فلم يجد عبدالمملك بُدّاً من التوجه إليه بنفسه، وعندما وصل بجيشه إلى العراق فرّق قواد جيش مصعب عنه، لكنه ظل ثابتاً وواصل القتال هو ومن بقى معه من جنوده، فأرسل إليه عبد الملك أخاه محمد بن مروان يعرض عليه الأمان وولاية العراقيين ومليون درهم، على أن يرجع عن القتال، إلا أن مصعباً رفض، فشد عليه جيش عبد الملك في وقعة عند دير الجاثليق فقتله، وبمقتله نُقلت بيعة أهل العراق إلى ملوك الشام.

(367/10)

---

### \*مسلم

هو أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد القشيري النيسابوري أحد الأئمة الحفاظ وأعلام المحدثين، ولد بنيسابور سنة (204هـ = 820م) ورحل إلى الحجاز والعراق ومصر والشام. وسمع من أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه والقعبي وطبقته، ولازم الإمام البخاري ودافع عنه وشهد له بالفضل والتفرد. وروى عنه أهل بغداد والترمذي وابن خزيمة وأبو عوانة وابن حاتم ومن أشهر مؤلفاته: صحيح مسلم أحد الصحيحين اللذين هما أصح كتب السنة على الإطلاق، وقد شرحه واختصره كثيرون، ومن مؤلفاته أيضاً: المسند الكبير والكنى والأسماء وكتاب أولاد الصحابة وأوهام المحدثين والتمييز والعلل، وتوفي سنة (261هـ = 875م) في نيسابور.

(368/10)

---

### \*ابن مرزوق الخطيب

هو شمس الدين محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن مرزوق أبو عبد الله الخطيب. فقيه من أعيان تلمسان، ومن أئمة المحدثين. ولد سنة (710هـ = 1311م)، ورحل إلى عدة بلدان إسلامية، مثل مكة والقاهرة والأندلس، وكان له منزلة عالية عند ملوك المغرب، وسجنه بعضهم وتقلب به الحال فعاد إلى مصر فأكرمه الأشرف، ودرس بالشيخونية والنجمية وغيرهما. ومن أشهر مؤلفاته شرح عمدة الأحكام وإزالة الحاجب لفروع بن الحاجب. وقد توفي سنة (781هـ = 1380م) بالقاهرة ودفن فيها.

(369/10)

---

### \*مراجل أم المأمون

هي مراجل بنت أستاذ سيس فارسية الأصل. تزوجها هارون الرشيد ولم ينجب منها غير المأمون. وكان أبوها قائد حركة خروج على العباسيين، وقيل: إنه ادّعى النبوة.

(370/10)

---

### \*المستورد بن عُلفَة التيمي

هو المستورد بن عُلفَة التيمي. أحد الخوارج الإباضية، وكان ممن حاربهم على بن أبي طالب، رضى الله عنه، في النخيلة بعد موقعة النهروان، إلا أن المستورد نجا من القتل، واختبأ بالكوفة ، ولم يظهر إلا مع تولى المغيرة بن شعبة الكوفة سنة (42 هـ = 662 م)؛ إذ كان المغيرة مشهوراً بالتسامح، والتف حول المستورد طائفة من الخوارج، ولقبوه بأمر المؤمنين؛ فسير إليه المغيرة جيشاً من ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة معقل بن قيس الرياحي، فدارت بينه وبين المستورد وجيشه البالغ ثلاثمائة مقاتل، عدة معارك؛ انتهت بقتل المستورد سنة (43 هـ = 663 م).

(371/10)

---

### \*نور الدين محمود

هو محمود بن زنكى بن آق سنقر نور الدين، الملقب بالعدل، ملك مصر والشام والجزيرة العربية، كان من أعدل ملوك زمانه وشديد الكراهية لإراقة دماء المسلمين. وُلد في (شوال 511 هـ = فبراير 1118 م)، واشترك مع والده في عدة حروب وسار على نهجه في الجهاد. تولى حلب سنة (540 هـ = 1146 م)، واتخذها مقراً له، واستعاد مملكة الرها من الصليبيين، ووحّد بلاد الشام

وصارت ضمن مناطق حكمه سنة (1154 م)، ثم ضم الجزيرة العربية  
ومصر سنة (1167 م). وكانت خطته الحربية تقوم على توجيه كل  
قواه من أجل تحقيق غاية واحدة دون أن يفتح جبهتين من  
القتال في وقت واحد. وكان يعتقد باسترداد بيت المقدس لذلك  
صنع منبراً لثُخِّطَ عليه خطبة الجمعة في المسجد الأقصى بعد  
تحريره، وتحقق هذا بالفعل؛ إذ استطاع صلاح الدين الأيوبي  
بعد ذلك تحرير القدس. وكان نور الدين محبباً للعلم؛ فبنى عدة  
مدارس منها: العادلية ودار الحديث. وكان يُعرَف باسم نور الدين  
الشهيد، رغم أنه مات مريضاً سنة (569 هـ = 1174 م).

(372/10)

---

#### \*مسلمة بن عبد الملك

هو مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم قائد وأمير من أمراء  
الدولة الأموية. شارك في حروب ومواقع كثيرة، أهمها حربه  
للقيضاء على ثورة يزيد بن المهلب في البصرة سنة (102 هـ =  
720 م)، وقد استطاع القضاء عليها؛ فتولى إمارة كل من  
الكوفة والبصرة وخراسان، وغزا بلاد الترك والسند سنة  
(109 هـ = 727 م). وتُوِّفِّي بالشام سنة (120 هـ = 738 م)، وقيل:  
سنة (121 هـ = 739 م).

(373/10)

---

#### \*مسلم بن الوليد

هو مسلم بن الوليد شاعر الغزل المعروف بصريع الغواني. ولد  
نحو سنة (140 هـ = 757 م) في الكوفة، ونشأ بها، ثم انتقل إلى  
البصرة واتصل بالخلفاء والقواد والأعيان في عصره فمدحه،

وشغل بعض المناصب عن طريق شعره. وقد غلب على شعره  
البديع والتصنيع (كثرة المحسنات البديعية من جناس  
وطباق .... إلخ) ومزج الفكر بالشعر، والرصانة والجزالة في  
صياغة الشعر. ومن شعره: هل العيشُ إلا أن أروحَ مع الصِّبا  
وأغدو صريعَ الرَّاحِ والأعينِ التُّجَلِ وتُوفِّيَ مسلم بن الوليد سنة  
(208 هـ = 823 م).

(374/10)

---

### \*الهرمزان ملك الأهواز

هو أحد قادة الفرس، وملك الأهواز، هُزم وأسر أمام جيش  
المسلمين بقيادة النعمان بن مقرن بمدينة تستر، وقد طلب من  
المسلمين أن يذهبوا به إلى عمر بن الخطاب، رضى الله عنه،  
ليحكم فيه بما يشاء، فلبوا طلبه. وجاء الهرمزان إلى عمر مع  
وفد أنس بن مالك فلما دخلوا المدينة قصدوا المسجد فوجدوا عمر  
نائماً في المسجد وليس في المسجد غيره، فقال الهرمزان: أين  
عمر؟ فقالوا: هو ذا، فقال: أين حجابته؟ وأين حراسه؟ فقالوا:  
ليس له حجاب ولا حراس ولا كاتب. فلما دخل على عمر سأله عن  
نقض العهد، فطلب الهرمزان الماء، وقال: إني أخاف أن أقتل  
وأنا أشرب، فقال عمر: لا بأس عليك حتى تشرب. وبعد حوار مع  
عمر أسلم الهرمزان، وحسن إسلامه، وكان لا يفارق عمر، حتى  
قتل عمر.

(375/10)

---

### \*هرقل

هو هرقل ملك الروم. تولى الحكم بعد الملك فوقا. وإثر توليه

مقاليد الحكم بدأ في الاستعداد لقتال الفرس، بعد أن خربوا  
بلاده، واستطاع أن ينزل بهم الهزيمة، حتى وصل إلى المدائن.  
وكان هرقل متابعاً لما يحدث في الجزيرة العربية؛ إذ علم ببعثة  
النبي - صلى الله عليه وسلم - . ولما وصل إليه كتاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع دحية  
بن خليفة

الكلبي الذي دعاه فيه إلى الإسلام أخذه ثم كتب إلى رجل  
برومية كان يعرف اللغة العربية؛ يذكر له هذا الأمر، ويصف له  
النبي - صلى الله عليه وسلم -، فكتب إليه هذا الرجل إنه للنبي الذي كنا ننتظره،  
فاتبعه وصدقته. فجمع هرقل بطارقة الروم، وأخبرهم بكتاب  
النبي فثاروا، فخاف منهم؛ فأخبرهم أنه أراد أن يختبرهم.  
وتوفي هرقل سنة (20هـ=641م).

(376/10)

---

#### \*ابن البطريق

هو يوحنا بن البطريق المترجم مولى المأمون بن هارون الرشيد  
عُرف بجودة الترجمة والأمانة فيها، ومع ذلك فقد كان ضعيف  
اللسان في العربية. وغلبت عليه دراسة الفلسفة، ومن أشهر  
ترجماته ترجمته لكتب أرسطو طاليس. وقد ألف عدة كتب، وصل  
إلينا منها كتاب السياسة في تدبير الرياسة. وتوفي ابن البطريق  
سنة (200هـ = 815 م).

(377/10)

---

#### \*مصعب بن عمير

هو مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف القرشي. صحابي  
جليل، ومن السابقين إلى الإسلام. كان مصعب فتى مكة شاباً

وجمّالاً، وكان أبواه يجبانه، وكانت أمه تلبسه أحسن الثياب،  
وقد أسلم والرسول في دار بني الأرقم لكنه كتم إسلامه؛ خوفاً  
من إيذاء قومه له، فقد كان يذهب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سرّاً حتّى تعلم  
ذلك قومه؛ فحبسوه وعذبوه، فلم يزل محبوساً إلى أن هرب  
وهاجر إلى الحبشة، وعاد إلى مكة ثم هاجر إلى المدينة.  
ويُسَمَّى مصعب بن عمير المقرئ؛ لأنه يقرئ الناس القرآن الكريم  
، ويقال: إنه أول من جمع الجمعة بالمدينة. وأسلم على يديه  
أسيد بن حضير وسعد بن معاذ. وشهد مصعب غزوة بدر، وحمل  
لواء الرسول - صلى الله عليه وسلم - يوم أحد؛ إذ استشهد سنة (3 هـ = 625 م).

(378/10)

---

#### \* معاذ بن جبل

هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ الأنصاري الخزرجي.  
صحابي جليل، أسلم وعمره ثمانى عشرة سنة، وهو أحد الستة  
الذين جمعوا القرآن الكريم في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - وأحد السبعين الذين  
شهدوا بيعة العقبة من الأنصار. وقد شهد معاذ بن جبل معظم  
الغزوات وفي مقدمتها غزوة بدر، وبعثه الرسول - صلى الله عليه وسلم - قاضياً إلى  
الجند باليمن، يعلم الناس شريعة الإسلام، وأرسل معه كتاباً إليهم  
يقول فيه إنما بعثت لكم خير أهلى. كما أنه من رواة الأحاديث؛  
فقد روى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (157) حديثاً. وقد ولاه عمر بن الخطاب  
، رضى الله عنه، على الشام فمات هناك في طاعون عمواس  
سنة (18هـ = 639م) وهو ابن ثمانٍ وثلاثين سنة.

(379/10)

---

### \*يعرب بن قحطان

هو يعرب بن قحطان بن يمن بن قيدير، وقيل: يعرب بن قحطان بن غابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام، أحد أعظم ملوك العرب في الجاهلية. قال عنه ابن هشام: إن يعرب بن قحطان كان يُسمَّى يمناً، وبه سُميت اليمن؛ ولذا يقولون: إنه أبو قبائل اليمن كلها، وبنوه هم العرب العاربة. غزا يعرب الآشوريين في العراق وبابل، وانتصر عليهم وفاز بغنائم كثيرة، وحارب العمالقة في الحجاز فغلبهم، وولى إخوته على جميع أعمالهم؛ فولّى أخاه جُرهماً الحجاز، وأخاه عاداً الشحر، وأخاه حضرموت جبال الشحر، وأخاه عمان بلاد عمان. كما يقال: إن يعرب هو أول من حياه قومه بتحية الملوك، وأنه دعا العرب إلى الحفاظ على لغتهم ومقاومة غزو اللغات الأخرى.

(380/10)

### \*وهب بن منبه

هو أبو عبد الله وهب بن منبه الهمداني. مؤرخ كثير الأخبار عن الكتب القديمة. وُلد عام (34هـ) في ذمار قرب صنعاء لأبٍ فارسي من بلاد خراسان، وقد أسلم أبوه في زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - . نشأ وهب في اليمن وثقف نفسه ثقافة واسعة؛ فقرأ كتب الأديان والفلسفة الإغريقية والمسيحية واليهودية، وحفظ كثيراً من قصص الأنبياء. وقيل: إنه أتقن اللغات العبرية والسريانية واليونانية والحميرية. ولأه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز قضاء صنعاء. وقد ألف وهب عدة مؤلفات، من أشهرها: ذكر الملوك المتوجة من حمير وقصص الأخبار. وتُوفّي في مدينة صنعاء ما بين عامي (110، 124هـ).

(381/10)

### \*وحشى بن حرب

هو أبو دسمة وحشى بن حرب الحبشى مولى بنى نوفل.  
صحابي من مكة وكان من أبطال الموالى فى الجاهلية، وهو  
الذى قتل حمزة بن عبد المطلب عم النبى - صلى الله عليه وسلم - يوم أحد فأعتقه سيده  
مكافأة له، فأقام بمكة حتى فتحها النبى - صلى الله عليه وسلم - ففر إلى الطائف ثم  
وفد على النبى مع وفد الطائف وأعلن إسلامه. شارك وحشى  
فى حروب الردة وذكر أنه قتل مسيلمة الكذاب بحربته التى قتل  
بها حمزة، وكان يقول: قتلْتُ بحربتي هذه خير الناس وشر الناس.  
كما شهد معركة اليرموك، وفتح بلاد الشام ثم سكن فى مدينة  
حمص، حتى تُوفِّي نحو سنة (25 هـ).

(382/10)

### \*ابن سيده

هو أبو الحسن على بن إسماعيل بن سيده الأندلسى أحد أئمة  
اللغة العربية وآدابها. وُلد بمدينة مرسية شرق الأندلس عام (398 هـ)،  
ونشأ ضريباً كأبيه، وتلقى علوم اللغة عنه. وقد عوضه الله  
عن فقدان البصر بنعمة الذكاء وقوة الحافظة، وتوقد الذهن فبلغ  
من العلم مرتبة رفيعة، حتى قال عنه المترجمون له: لم يكن فى  
زمانه أعلم منه فى النحو واللغة والأشعار وأيام العرب وما  
يتعلق بها. وترك ابن سيده عدة مؤلفات، من أشهرها: المخصص  
وهو من أثن كنوز اللغة العربية، ولا يزال إلى يومنا هذا محط  
اهتمام الباحثين، ويقع فى (17) جزءاً، والمحكم. وتُوفِّي ابن  
سيده عام (458 هـ).

(383/10)

---

### \*ابن سينا

هو أبو علي الحسين بن عبدالله بن سينا الفيلسوف والطبيب المعروف، والملقب بالشيخ الرئيس. وُلد بإحدى قرى بخارى عام (370هـ = 980م)، ثم انتقل إلى بخارى فنشأ وتعلم بها. وقد عُرف - منذ صغره - بذكائه الشديد، حتى إنه حفظ القرآن الكريم قبل سن العاشرة. وأكب على دراسة علوم اللغة والمنطق والفلسفة والفقه والطب، وذاعت شهرته كطبيب قبل سن السابعة عشرة، ثم أخذ يطوف البلاد ويصنف الكتب، ثم عاد في أواخر أيامه إلى همدان. وقد خَلَف ابن سينا ذخيرة ضخمة من المؤلفات، أهمها: كتاب القانون في الطب، وقد ترجم وطبع في أوربا أكثر من (15) مرة، وكان العمدة في دراسة الطب في الجامعات الأوروبية حتى منتصف القرن السابع عشر الميلادي. وتُوفِّي ابن سينا في مدينة همدان عام (428هـ = 1037م).

(384/10)

---

### \*المسترشد بالله

هو أبو منصور الفضل بن أحمد بن المقتدى أحد خلفاء الدولة العباسية. وُلد في سنة (485هـ = 1092م)، وبويع بالخلافة بعد وفاة أبيه سنة (512هـ). حدث خلاف بينه وبين السلطان السلجوقي مسعود بن محمد بن ملكشاه أدى إلى نشوب معركة بينهما، فرَّ فيها جند الخليفة من حوله، ولكنه ثبت وأُسر، وتسلسل إليه ثلاثة من الباطنية فقتلوه في المعسكر سنة (529هـ) ودُفِن بمراغة.

(385/10)

---

### \*خالد بن سعيد بن العاص

هو أبو سعيد خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس.  
أحد الصحابة السابقين إلى الإسلام. هاجر إلى الحبشة بعد أن  
اشتد إيذاء أبيه له، ومعه زوجته أميمة بنت خالد الخزاعية، وأقام  
هناك حتى قدم إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - بخيبر عام (7 هـ). وشهد مع النبي - صلى الله  
عليه وسلم -

عمرة القضاء وفتح مكة والطائف وحنين وتبوك ثم استعمله  
النبي - صلى الله عليه وسلم - على صدقات مَدْحَج، ثم بعثه عاملاً على اليمن فأقام بها  
حتى توفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. وفي خلافة أبي بكر الصديق - رضى  
الله عنه - خرج خالد مجاهداً مع جيوش المسلمين المتجهة إلى  
الشام، فاستشهد في معركة أجنادين، وقيل في معركة مرج  
الصفّر بالقرب من مدينة دمشق.

(386/10)

---

### \*المستضى بأمر الله

هو أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد بالله. أحد خلفاء الدولة  
العباسية. وُلِدَ سنة (536 هـ = 1142 م)، وأمه من أصل رومى،  
تُسَمَّى غَضَّة. بُويع بالخلافة بعد موت أبيه سنة (566 هـ)، وفي  
عهده انتهت الدولة العبيدية الفاطمية الشيعية بمصر سنة (567  
هـ) ولم يعد للمسلمين إلا خليفة واحد هو المستضى بأمر الله.  
وتُوفِّي سنة (575 هـ).

(387/10)

---

### \*المستظهر بالله

هو أبو العباس أحمد بن عبد الله المقتدى بن محمد بن القائم. أحد خلفاء الدولة العباسية، ولد سنة (470هـ = 1077م) وبويع بالخلافة بعد وفاة أبيه عبد الله المقتدى سنة (487هـ). وفي عهده بدأت الحروب الصليبية على المشرق الإسلامي؛ فاستولى الصليبيون على بيت المقدس سنة (492هـ) وارتكبوا به مذبحه هائلة. وتوفي سنة (512هـ = 1118م).

(388/10)

---

### \*مسعود (سلطان سلجوقي)

هو أبو الفتح غياث الدين مسعود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي. أحد سلاطين الدولة السلجوقية التركية. ولد سنة (502هـ)، وعهد أبوه بتربيته إلى حاكم الموصل الأتابك مورود سنة (505هـ)، فظل بالموصل حتى موت أبيه وتولية أخيه محمود مقاليد الحكم، وزين له أحد حكام الموصل الخروج على أخيه فجرت بينهما مناوشات هزم فيها مسعود. ثم تولى حكم السلطنة سنة (528هـ) وقد اتسعت رقعة الدولة الإسلامية في عهده وهو الذي ولي الخليفة العباسي المكتفي بالله الخلافة في بغداد، ثم رحل إلى بلاده. ومات بجمدان سنة (547هـ)، ودفن في أصفهان.

(389/10)

---

### \*مصطفى الرابع

هو مصطفى بن عبد الحميد الأول أحد سلاطين الدولة العثمانية، وهو السلطان التاسع والعشرون، ولد سنة (1193هـ = 1779م)،

وبويع بالخلافة سنة (1223هـ)، بعد عزل السلطان السابق سليم الثالث. وجه مصطفى الرابع اهتمامه نحو تنظيم الجند وتأديب الانكشارية، ومع ذلك فقد تحكّم فيه بعض رجال الدولة. وقد قامت ثورة ضده خُلع على إثرها سنة (1224هـ = 1808م)، وسُجن، ثم مات في سجنه، ولم تجاوز فترة حكمه (13) شهراً.

(390/10)

### \*المختار الثقفي

هو المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي. أسهم إسهاماً كبيراً في الأحداث السياسية والدينية والاجتماعية في الدولة الإسلامية في عهد بني أمية. وُلد سنة (1هـ = 622م) بالطائف، ثم انتقل منها إلى المدينة مع والده، وظل بها حتى خرج مع علي بن أبي طالب، رضى الله عنه، إلى العراق، وسكن في البصرة، ولما قتل الحسين، رضى الله عنه، سنة (61هـ = 680م) قبض عليه عبيد الله بن زياد لتشييعه، وجلده، ونفاه إلى الطائف. وفي سنة (64هـ = 683م) خرج عبد الله بن الزبير مطالباً بالخلافة بعد موت يزيد بن معاوية، فبايعه المختار الثقفي، واستأذنه في أن يدعو له في الكوفة، ولكنه ما إن وصل إليها حتى دعا لابن الحنفية، وجعل همه إبادة قتلة الحسين. والتف حوله كثيرون استطاع بهم أن يستولى على الكوفة والموصل، وتتبع قتلة الحسين حتى أفناهم، وأرسل جيشاً إلى مكة لإنقاذ محمد بن الحنفية وعبد الله بن عباس عندما حاصرهما عبد الله بن الزبير في شُعب مكة. وتجهز مصعب بن الزبير أمير البصرة لحرب المختار، ونشبت بينهما عدة معارك انتهت بحصار المختار في قصر الكوفة، وقُتل هو ومن معه في (14 من رمضان 67هـ = 3 من أبريل 687م).

(391/10)

---

### \*مرثد بن أبي مرثد الغنوي

هو صحابي جليل، آخى الرسول - صلى الله عليه وسلم - بينه وبين أوس بن الصامت. وشهد مرثد بدرًا على فرس، يقال له: السبل، ثم شهد أحدًا. كان مشهوراً بالقوة، حتى إنه كان يحمل الأسارى من مكة إلى المدينة. وأراد - بعد إسلامه - أن يتزوج من بغى يقال لها عناق، فنهاه الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن ذلك، بعد نزول قوله تعالى: (الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة) [النور: من 3]. واستشهد يوم الريح سنة (4 هـ).

(392/10)

---

### \*مُطعم بن عدى

هو مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف. من حلفاء قريش وساداتهم، ورئيس بني نوفل في الجاهلية، وقائدهم في حرب الفجار. أجاز رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما انصرف عن الطائف، وكذلك أجاز سعد بن عبادة حين قدم إلى مكة معتمراً فاعترضته قريش، كما شارك في تمزيق الصحيفة الجائرة التي كتبتها قريش ضد بني هاشم، وعلقتها في جوف الكعبة. وهو أبو الصحابي الجليل جبير بن مطعم، رضى الله عنه، ولحسان بن ثابت - رضى الله عنه - مدح في المطعم بن عدى، وقال فيه النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم بدر: لو كان المطعم بن عدى حياً، ثم كلمني في هؤلاء النتنى (يعنى أسارى بدر) لتركتهم له. وقد عمى مطعم بن عدى في أخريات حياته. وتوفي قبل بدر سنة (2هـ = 623 م).

(393/10)

---

### \*أم هانئ بنت أبي طالب

هي الصحابية الجليلة فاختة أو عاتكة أو فاطمة بنت أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمية القرشية المشهورة بأم هانئ، أخت علي بن أبي طالب، رضى الله عنه وعنهما، وبنت عم النبي - صلى الله عليه وسلم - . وقد أسلمت عام الفتح بمكة، وهرب زوجها هبيرة بن عائذ بن عمران بن مخزوم إلى نجران، ففرق الإسلام بينهما، فعاشت أيماءً. وقد أنجبت من هبيرة عمراً وجعدة وهانئاً ويوسف. وروت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - (46) حديثاً، وحدّث عنها أبو صالح باذام وكريب مولى ابن عباس وعبد الرحمن بن أبي ليلى وعطاء بن أبي رباح وعروة بن الزبير، وآخرون. وقيل: ما أخبر أحد أنه رأى النبي - صلى الله عليه وسلم - يصلى الضحى إلا أم هانئ؛ فإنها حدثت أن رسول الله (دخل بيتها يوم فتح مكة فاغتسل، فسيح ثمانى ركعات مارأيته صلى صلاة قط أخف منها، غير أنه كان يتم الركوع والسجود [سنن الترمذى].

(394/10)

### \*نوبار باشا

وُلد نوبار باشا بأزمير سنة (1241 هـ = 1825 م)، وهو أرمنى مسيحي، وأرسل إلى سوريذ ليتعلم في مدرستها. درس الفرنسية وتعمق فيها وفي آدابها والأدب القديم، كما أتقن التركية. وحاول الالتحاق بالجندية الفرنسية فلم يقبل، واستدعاه خاله بوغوص بك وزير محمد على إلى مصر. شغل عدة مناصب منذ عهد محمد على باشا حتى عهد عباس باشا الثاني، حين تولى رئاسة الوزراء بعد رفض شريف باشا التخلي عن السودان ووافق هو على ترك السودان، وبقي في الوزارة سنة وبضعة أشهر، ثم استقال؛ بسبب تدهور حالته الصحية التي جعلته

يتنحى عن السياسة تماماً. وقد أقامت له بلدية الإسكندرية تمثالاً  
في إحدى حدائقها. وتُوفى سنة (1317هـ = 1899م).

(395/10)

### \* المهدي السوداني

هو محمد أحمد بن عبد الله المهدي السوداني. زعيم سياسي  
و ديني سوداني، ظهر في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي.  
ولد في أغسطس (1844م) في جزيرة (لب) إحدى جزر دنقلا.  
حفظ القرآن وهو صغير، ثم تلقى علوم الفقه والتفسير والتصوف  
واللغة، وانقطع (15) سنة في جزيرة آبا في النيل الأبيض  
للعادة، وتلقى العلم وقام بالتدريس، وكان مشهوراً بالصلاح؛  
فكثرت أتباعه؛ فانتقل إلى كردفان، ونشر دعوته بين قبيلة  
البقارة. وفي سنة (1881م) أعلن المهدي دعوته، ودعا الفقهاء  
والأعيان ومشايخ الصوفية إلى مبايعته، وعندما علم رءوف  
باشا حاكم السودان بذلك وجه حملة للقضاء عليه، لكنه لم يفلح  
في ذلك، وتكررت الحملات المصرية والإنجليزية، إلا أن المهدي  
كان ينتصر عليها. وكان عمر المهدي عند إعلان دعوته (38)  
سنة. وحاول الإنجليزي غوردون الذي عين حاكماً عاماً  
للسودان، القضاء على المهدي، إلا أن قوات المهدي استطاعت  
سنة (1885م) دخول الخرطوم وقتل غوردون الذي أطلقت عليه  
الصحف الإنجليزية: شهيد المسيحية. وحاول المهدي إقامة دولة  
إسلامية في السودان، وقام بمراسلة ملك مصر وملكة بريطانيا  
والسلطان العثماني، وقام بسك النقود، إلا أن الأجل لم يسعفه  
فمات سنة (1885م). وقد أثرت هذه الثورة التي قادها المهدي  
في حركات الجهاد الإسلامي ضد الاستعمار الأوربي المسيحي  
في إفريقيا.

\*أبوسلمة الخلال

هو أبو سلمة حفص بن سليمان الهمداني الخلال. أول من لُقِّبَ بالوزير في الإسلام. وُلِدَ في الكوفة وعاش بها، في حى يُسمَّى درب الخلالين فنسب إليه. وكان أبو سلمة من أثرياء الكوفة، بذل من ماله وجهده الكثير في سبيل الدعوة العباسية في بداية عهدها، فلما استتبَّ الأمر للعباسيين، اتخذته الخليفة أبو العباس السفاح وزيراً له، ولكنه سُرعان ما قُتِلَ بعد نحو أربعة أشهر من توليته الوزارة، سنة (132هـ) وقيل: إن الذي حرَّض على قتله هو أبو مسلم الخراساني لخلاف بينه وبين أبي سلمة، وقيل: إنه أبو العباس لتوهمه ميل أبي سلمة لآل علي. وكان أبو سلمة، سمحاً كريماً، حاضر الحجة، عالماً بالأخبار والأشعار والسير والتفسير.

\*شُرْحِبِيلُ بن حَسَنَةَ

هو شرحبيل بن عبد الله بن المطاع بن عمرو، ويُعرف باسم شرحبيل بن حسنة، وحسنة هي أمه. وهو صحابي جليل له بعض الروايات عن النبي - صلى الله عليه وسلم -، وكان أحد القادة المشهورين. أسلم بمكة. ثم هاجر إلى الحبشة، وغزا مع النبي - صلى الله عليه وسلم -، وأوفده النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى -  
مصر، فظلَّ بها حتى تُوفِّي النبي - صلى الله عليه وسلم -، فولَّاه أبو بكر قيادة أحد جيوش المسلمين في حروب الردَّة، ففتح بلاد الأردن، وظلَّ بها حتى عزله عمر بن الخطاب. تُوفِّي شرحبيل - رضی الله عنه - في طاعون عمواس سنة (18هـ)، وقد بلغ من العمر (67) سنة.

### \*الشاطبي

هو إبراهيم بن موسى بن محمد بن اللخمي الغرناطي. أحد أئمة المالكية، أصولي حافظ من أهل غرناطة، وكان مفسراً وقيماً ولغوياً، وعرف بالزهد والورع. تلقى علومه على يد كبار علماء عصره، مثل: ابن الفخار البيري، وأبي القاسم البستي، وأبي عبد الله التلمساني، وأبي عبد الله المقرئ، وأبي جعفر الشقوري وغيرهم. وأخذ عنه جماعة كبيرة منهم: أبو يحيى بن عاصم، وأبو بكر بن عاصم، وأبو عبد الله البياني، وغيرهم. وتوفي سنة (790 هـ). من أهم مؤلفاته: الموافقات في أصول الشريعة، والمجالس، وشرح كتاب البيوع في صحيح البخاري، والاتفاق في علم الاشتقاق، والاعتصام.

### \*ضاهر العمر

هو ظاهر بن عمر بن أبي زيدان. وُلد في صغد سنة (1106هـ)، وكان والده وجده وأعمامه حكاماً في صغد وعكا. تولى إدارة عكا وصغد، وكان له دور مهم في تاريخ فلسطين خلال القرن الثاني عشر الهجري، فأقام إمارة قوية في شمالي فلسطين ضمّت صغد وطبرية والجليل الأعلى والناصرية ونابلس وعكا، وأصبحت إمارته مصدر قلق وتهديد دائمين للولاة العثمانيين في دمشق على مدى ربع قرن، فقاتله سليمان باشا - والى دمشق - سنة (1150هـ)، فتحصن في طبرية، إلا أن موت سليمان باشا أدّى إلى ازدياد نفوذ ظاهر العمر، فقام بتحسين عكا وبناء

سورها، وضمها إلى إمارته، واتخذها عاصمة لها، وانتعشت التجارة في عهده، واستقر الأمن، ولكن طموح ظاهر العمر دفعه إلى التوقف عن دفع الضرائب للعثمانيين، وتحالف مع علي بك الكبير - حاكم مصر - واتفقا على عصيان العثمانيين، فحاربا الوالي العثماني في الشام - عثمان باشا الصادق - واضطرت الأستانة إلى الاعتراف بولاية ظاهر العمر، ولكن سرعان ما ضعف أمره بعد مقتل علي بك الكبير، فأصدرت الدولة العثمانية أوامرها إلى حسن باشا الجزائري - أمير البحر العثماني - بالقضاء على ظاهر العمر واحتلال عكا فاغتاله رجل مغربي وهو يستعد لمقاومة العثمانيين، فآخرت دولته بمقتله.

(400/10)

#### \*صُهَيْبُ الرَّومِيِّ

هو صهيب بن سنان بن مالك، صحابي جليل. كان من أهل الموصل. أسره الروم وهو صغير، ونشأ فيهم فكان لسانه فيه عُجْمَة، واشتراه رجل من قبيلة كلب فباعه في مكة فاشتراه عبد الله بن جُدعان ثم أعتقه. أسلم صهيب هو وعمَّار بن ياسر في يوم واحد، وكان صهيب من السبعة الأوائل في الإسلام، وعُدَّب كثيرا بسبب إسلامه، وأراد صهيب أن يلحق بالنبي - صلى الله عليه وسلم - في المدينة، فأراد أهل مكة منعه من الهجرة، فترك لهم ماله على أن يخلُّوا سبيله، فبلغ ذلك النبي - صلى الله عليه وسلم - فبشره قائلاً: ربح البيع أبا يحيى .. ربح البيع أبا يحيى. وشهد صهيب مع النبي - صلى الله عليه وسلم - المشاهد كلها، فقال عنه (: صُهَيْبُ سابق الروم إلى الجنة. وحينما تُوفى عمر بن الخطاب أوصى بأن يصلِّي عليه صهيب، وأن يصلِّي بالناس إلى أن يجتمع المسلمون على إمام. وتُوفى صهيب في المدينة سنة (38 هـ) عن عمر بلغ نحو (70) سنة.

### \*شجرة الدرّ

هي شجرة الدر الصّاحية، أم خليل، الملقبة بعصمة الدين ملكة مصر، كانت جارية اشتراها الملك الصالح نجم الدين أيوب، وحظيت عنده بمكانة كبيرة، فولدت له ابنه خليلاً الذي مات طفلاً، فأعتقها الملك الصالح وتزوجها. وكانت ذات عقل راجح، تقوم بتدبير شئون الدولة في أثناء مرض زوجها، وكان خطها يشبه خط زوجها الملك الصالح، فلما تُوفى الملك الصالح بدمياط في أثناء حربه مع الإفرنج سنة (647 هـ)، كتمت خبر موته، وأرسلت إلى ابنه توران شاه ليتولى أمور الملك من بعده، إلا أن توران شاه هُدّدها، وطالبها بأموال الملك الصالح، فدبّرت لقتله، وبعد مقتله اجتمعت الآراء على توليتها السلطنة في صفر سنة (648 هـ)، فكانت المراسيم تصدر عليها توقيع شجرة الدر بخطها باسم والدة خليل، وحُطِب لها أيام الجمع في مصر والشام. وكان عمرها عند توليها السلطنة يقارب الأربعين، وتزوجت من الأمير عز الدين أيوب في ربيع الآخر سنة (648 هـ)، فتنازلت له عن السلطنة، ولم تدم مدّة حكمها أكثر من (80) يوماً. وتقلصت سلطتها بازدياد نفوذ أيوب، وبلغها أنه يريد الزواج من بنت الملك بدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل؛ فدبّرت لقتله سنة (655 هـ)، إلا أن أمراء المماليك حاصروا قصرها واعتقلوها حتّى قُتلت سنة (655 هـ) عن نحو (42) سنة، ونصبوا المنصور على بن أيوب سلطاناً خلفاً لأبيه.

### \*عاتكة بنت يزيد

هي عاتكة بنت يزيد بن معاوية. من فضليات نساء بني أمية. زوجها عبد الملك بن مروان، وابنها يزيد بن عبد الملك، وحرمت علي (12) خليفة من خلفاء بني أمية. وكانت من محدّثات الشام، وعاشت حتّى شهدت مقتل حفيدها الوليد بن يزيد سنة (126 هـ).

(403/10)

---

### \*عائشة بنت طلحة

هي عائشة بنت طلحة بن عبيد الله بن عثمان التيمية، أمها أم كلثوم بنت أبي بكر. وكانت عائشة من أجمل نساء عصرها، وكانت تشبه خالتها عائشة بنت أبي بكر. تزوّجت من ابن خالها عبد الله بن عبد الرحمن، فلما مات تزوجت من مصعب بن الزبير، وكان صداقها مائة ألف دينار، فلمّا قُتِل مصعب تزوجت من عمر بن عبيد الله التميمي، وكان صداقها منه مليون درهم. لم تنجب عائشة إلا من عبد الله بن عبد الرحمن فولدت له عمران، ولما تُوفّي عمر بن عبيد الله سنة (82 هـ) لم تتزوج بعده. واشتهرت بالأدب، وكانت تقيم في مكة سنة وفي المدينة سنة. وتوفيت سنة (101 هـ).

(404/10)

---

### \*ابن عبد الحكم

هو أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم. مؤرخ مصري. وُلِدَ في مدينة الفسطاط بمصر نحو سنة (187 هـ)، في أسرة مصرية عريقة في العلم والجاه، واشتهرت بالفقه والأدب. كان أبوه شيخ المالكية في مصر فنشأ ابن عبد الحكم نشأة

دينية علمية، وحفظ القرآن الكريم في صغره، وتعلّم على أبيه - وغيره من علماء عصره - علوم الحديث والفقه، حتى نبغ فيها، وذاع صيته بين الناس. وغلب على ابن عبد الحكم الاهتمام بكتابة السير والتاريخ، واشتهر بذلك الفن، وكثرت فيه مصنفاته، ويعدُّ أقدم من كتب كتابًا في تاريخ مصر، وهو كتاب فتوح مصر وأخبارها، واستند في تدوينه له إلى طريقة الرواية. فكان ابن عبد الحكم أوّل من انفرد بكتابة التاريخ المحلي لبلدٍ من البلدان، وكان كتابه مصدرًا مهمًّا لمن بآءبعده من المؤرخين الذين كتبوا عن تاريخ مصر، مثل: السيوطي والمقريزي. وتُوفى ابن عبد الحكم بمصر في المحرم سنة (257 هـ).

(405/10)

#### \*ابن عبد البر

هو أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي. من كبار حفاظ الحديث، ومؤرخ أديب، وُلِد في قرطبة بالأندلس سنة (368هـ)، ونشأ بها، وأخذ العلم عن علمائها أمثال: أبي القاسم خلف بن القاسم، وعبد الوارث بن سفيان، وأبي محمد بن عبد المؤمن، وأبي الوليد بن الفرضي، وأبي عمر أحمد بن عبد الملك وغيرهم. وكان ابن عبد البر دءويًا في طلب العلم، فرحل رحلات كثيرة في شرقى الأندلس وغربها، ودرس الفقه والحديث والقراءات وغيرها، فبرع في هذه العلوم، وبلغ منزلة عالية، حتى قال عنه أبو الوليد الباجي - أحد كبار علماء الأندلس - : لم يكن مثل أبي عمر بن عبد البر في الحديث. واهتم ابن عبد البر اهتمامًا كبيرًا بالسير والتاريخ والأنساب وله فيها عدة مؤلفات. ووُلّي قضاء لشبونة وقضاء شنترين، وألّف في الفقه والحديث والطبقات والمغازي، وتميزت كتاباته بالنظرة

النقدية الفاحصة، والترتيب، والخلو من الاستطراد. ومن أهم مؤلفاته: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ومهجة المجالس والدُّرر في اختصار المغازى والسير وجامع بيان العلم وفضله والإنباه على قبائل الرواة. وتوفي ابن عبد البر بشاطبة سنة (463 هـ).

(406/10)

---

### \*العباس بن عبد المطلب

هو العباس بن عبد المطلب بن هاشم عمُّ النبي - صلى الله عليه وسلم - . وُلِدَ في مكة قبل عام الفيل بثلاث سنوات، نحو عام (51 ق. هـ)، وكانت أمه نتيلة بنت جناب بن كليب قد فقدته - وهو صغير - فنذرت إن وجدته أن تكسو الكعبة، فلما عثرت عليه أوفت بنذرهما. وكانت له سقاية البيت وعمارته في الجاهلية، فلما أسلم - قبل الهجرة - كان يرسل للنبي - صلى الله عليه وسلم - في المدينة بأخبار المشركين في مكة. وفي غزوة بدر وقع العباس أسيراً في أيدي المشركين، فافتدى نفسه بمائة أوقية من الذهب، وثبت مع النبي في غزوة حنين. وفي عام الرمادة استسقى به عمر بن الخطاب لما اشتدَّ الأمر على المسلمين وعمَّ الجذبُ وانقطع المطر، فسقاهم الله. وكان العباس حسن الهيئة، جَهْوَرِيَّ الصوت، كُفَّ بصره في آخر عمره، حتى مات في رجب سنة (32 هـ) فصلى عليه عثمان ودُفِنَ بالبقيع.

(407/10)

---

### \*عَبَّاس بن فرناس

هو أبو القاسم عباس بن فرناس بن ورداس. فيلسوف وعالم رياضيات وكيميائي، وفلكي، وموسيقي، وشاعر. وُلِدَ في كورة تاكرنا (رندة) بجنوب الأندلس نحو (190 هـ)، وينتمي إلى

أسرة من البربر، ونشأ في قرطبة، وبرع - منذ شبابه - في الفلسفة والكيمياء والطبيعة والفلك، وانتهت تجاربه في مجال الكيمياء الصناعية إلى اختراع الزجاج من الرمال، كما اختراع آلة لمقياس الزمن الميقاتة. كان من أعلام الشعراء الذين يضمهم بلاط الحكم بن هشام، وله بعض الألحان الموسيقية. وهو أول من حاول أن يخترع أداة للطيران، فكانت محاولته الطيران في الجو هي التي اشتهر بها. تُوفى ابن فرناس سنة (260 هـ) عن عمر يناهز سبعين عامًا.

(408/10)

#### \*ابن طباطبا

هو صفى الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن طباطبا العلوى المعروف بابن الطقطقى. مؤرخ وأديب. وُلِدَ في بغداد سنة (660 هـ)، ونشأ وتعلم في الموصل، وكان أبوه نقيب الأشراف العلويين، بالحلة والنجف وكربلاء فخلفه - بعد موته - في نقابة العلويين، وتزوج من امرأة فارسية من خراسان. وتنقل طباطبا بين بعض البلدان، ثم عاد إلى الموصل، واشتغل بالتأليف والتصنيف. وترجع شهرة طباطبا إلى كتابه الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، وهو كتاب يدون لتاريخ الخلفاء الراشدين، ثم الأمويين، ثم العباسيين، ويذكر أمورًا في الآداب السلطانية والسياسات الملكية، وفيه محاولة لفلسفة التاريخ. وله أيضًا كتاب في التاريخ يسمى منية الفضلاء، وكتاب في الأنساب يُسمى الأصيلي. وتُوفى ابن طباطبا في بغداد سنة (709 هـ)، ولم يبلغ خمسين عامًا.

(409/10)

---

### \*طريف بن مالك

قائد من البربر شارك في فتح الأندلس. أرسله موسى بن نصير على رأس حملة استطلاعية مكونة من خمسمائة مقاتل، فعبروا البحر من سبتة في أربع سفن إلى جزيرة طريف - التي سُميت باسمه - وذلك في سنة (91 هـ)، وتوغّلت الحملة داخل الجزيرة الخضراء، فأصابت كثيراً من الغنائم، وقوبلت بالإكرام والترحيب، ثم عادت في أمن وسلام، وقص طريف نتائج رحلته على موسى، فاستبشر بالنصر، وجدَّ في الاستعداد لفتح الأندلس.

(410/10)

---

### \*شكيب أرسلان

هو شكيب بن حمود بن حسين بن يونس أرسلان. العالم والسياسي والأديب، عرف بلقب أمير البيان، وكان من أعضاء الجمع العلمي العربي، وهو من سلالة التنوخيين ملوك الحيرة. وُلد في الشويفات ببلبنان سنة (1286 هـ = 1869 م)، وتعلم في مدرسة دار الحكمة ببيروت، وعين مديراً للشويفات لمدة عامين، ثم عين قائم مقام في الشوف ثلاث سنين، وانتخب عن حوران في مجلس المبعوثان العثماني. أقام شكيب أرسلان في دمشق خلال الحرب العالمية الأولى، ثم انتقل إلى برلين بألمانيا، ثم إلى جنيف بسويسرا، فأقام بها (25) عامًا، ثم عاد إلى بيروت. وكان شكيب أرسلان عالمًا بالسياسة، فعالج السياسة الإسلامية - قبل انهيار الدولة العثمانية - وكان مدافعًا عنها. واضطلع بالقضايا العربية، وأصدر مجلة باللغة الفرنسية - في جنيف - يدافع فيها عن القضايا العربية، وقام برحلات إلى أوروبا وأمريكا والأندلس وكان يجيد اللغتين الفرنسية والتركية، وله

إلمام بالإنجليزية والألمانية، وله ديوان شعر، وعدة كتب منها:  
الحلل السندسية في الرحلة الأندلسية، وغزوات العرب في  
فرنسا وشمال إيطاليا وسويسرا، ولماذا تأخر المسلمون؟،  
وغيرها. تُوفى شكيب أرسلان سنة (1366 هـ = 1946 م)، ودفن  
في الشويفات.

(411/10)

---

\*صَفِيَّة بنت عبد المطلب

هي صفية بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشيَّة  
الهاشمية، عَمَّة النبي - صلى الله عليه وسلم - وصحابية جلييلة. أسلمت مبكرًا، وهاجرت  
إلى المدينة. كانت قد تزوّجت في الجاهلية الحارث بن حرب بن  
أمية، فلما مات تزوّجت من العوام بن خويلد، فولدت له الزبير  
والسائب وعبد الكعبة. وكانت صفية من شواعر العرب، وقد قالت  
شعرًا في رثاء أخيها حمزة، وشهدت غزوة أحد مع النبي - صلى الله عليه وسلم -،  
وكذلك غزوة الخندق، وقتلت فيها أحد جواسيس اليهود، وهي  
أول امرأة قتلت رجلاً من المشركين. وقد عاشت صفية حتى  
خلافة عمر بن الخطاب، وتُوفيت سنة (20 هـ) عن عمر بلغ (73)  
سنة، ودفنت بالبقيع.

(412/10)

---

\*ابن شهاب الزُّهريّ

هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهريّ.  
أحد الفقهاء والمحدّثين، ومن التابعين في المدينة وله شعر جيد.  
رأى عشرة من صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وروى عن عبد الله بن عمر،  
وسهل بن سعد، ومحمود بن الربيع، وأبي الطفيل وغيرهم.

وروى عنه مالك بن أنس، وسفيان بن عيينة، وسفيان الثوري  
وآخرون. وكان في صحبة عبد الملك بن مروان، وهشام بن عبد  
الملك، ويزيد بن عبد الملك الذي ولّاه القضاء. وتوفي ابن شهاب  
سنة (124 هـ) عن عمر بلغ نحو (72) سنة.

(413/10)

---

\*محمد بن مسلم بن عبيد الله الزُهْرِيّ

هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري.  
أحد الفقهاء والمحدثين، ومن التابعين في المدينة وله شعر جيد.  
رأى عشرة من صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وروى عن عبد الله بن عمر،  
وسهل بن سعد، ومحمود بن الربيع، وأبي الطفيل وغيرهم.  
وروى عنه مالك بن أنس، وسفيان بن عيينة، وسفيان الثوري  
وآخرون. وكان في صحبة عبد الملك بن مروان، وهشام بن عبد  
الملك، ويزيد بن عبد الملك الذي ولّاه القضاء. وتوفي ابن شهاب  
سنة (124 هـ) عن عمر بلغ نحو (72) سنة.

(414/10)

---

\*الشَّعْبِيّ

هو عامر بن شراحيل بن عبد بن ذى كبار. تابعيٌ جليلٌ، وعالم  
كبير من أهل اليمن. وُلِدَ نحو عام (31 هـ) في خلافة عثمان بن  
عفان، وروى عن عدد من الصحابة منهم: سعد بن أبي وقاص  
وسعيد بن يزيد، وأبو موسى الأشعري، وأسامة بن زيد، وأبو  
هريرة، وابن عمر، وعائشة، حتى إنه قال: أدركت خمسمائة من  
أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . وروى عنه الحكم، وحمّاد، وعاصم  
الأحول، وابن أبي ليلى وغيرهم. تولى قضاء الكوفة من قبل

عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب والى عمر بن عبد العزيز على العراق. وتوفي الشعبي نحو عام (104 هـ) عن عمر بلغ نحو (80) سنة.

(415/10)

---

### \*عامر بن شراحيل

هو عامر بن شراحيل بن عبد بن ذى كبار. تابعيٌ جليلٌ، وعالم كبير من أهل اليمن. وُلِدَ نحو عام (31 هـ) في خلافة عثمان بن عفان، وروى عن عدد من الصحابة منهم: سعد بن أبي وقاص وسعيد بن يزيد، وأبو موسى الأشعري، وأسامة بن زيد، وأبو هريرة، وابن عمر، وعائشة، حتى إنه قال: أدركت خمسمائة من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . وروى عنه الحكم، وحمّاد، وعاصم الأحول، وابن أبي ليلي وغيرهم. تولى قضاء الكوفة من قبل عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب والى عمر بن عبد العزيز على العراق. وتوفي الشعبي نحو عام (104 هـ) عن عمر بلغ نحو (80) سنة.

(416/10)

---

### \*الشرقاوى

هو عبد الله بن حجازى بن إبراهيم الشرقاوى الأزهرى. فقيه مصرى، وأحد مشايخ الأزهر الشريف. وُلِدَ في قرية الطويلة - إحدى قرى محافظة الشرقية - سنة (1150 هـ = 1737 م)، وحفظ القرآن الكريم في طفولته، ثم ذهب إلى الجامع الأزهر لدراسة العلوم الشرعية الإسلامية، فدرس على عدد من العلماء منهم: الشهاب الملوى، والشهاب الجوهري، والشيخ على الصعيدى،

والشيخ الحفنى، والإمام الدمهوى. ومال إلى التصوف، وتولى  
مشيخة الأزهر بعد الشيخ أحمد العمروسى سنة (1208 هـ =  
1793 م)، فأنشأ رواق الشراقوة، وكان دائماً يطالب الحكام  
برفع المظالم عن الناس، والحكم بالعدل، وبأن يكفوا أيديهم عن  
أموال الناس. وكان يدرس فى المدرسة الصلاحية، وله مواقف  
مشرفة مع زعماء الحملة الفرنسية، حتى إنهم اعتقلوه فى سجن  
القلعة بسبب ذلك. وللشيخ الشراقوى عدد من الكتب فى الفقه،  
من أهمها: حاشية على شرح التحرير فى الفقه الشافعى،  
والتحفة البهية فى طبقات الشافعية، وفتح المبدى بشرح مختصر  
الزبيدى وغيرها. وتوفى الشيخ الشراقوى سنة (1227 هـ =  
1812 م).

(417/10)

#### \* شارلمان

هو شارل الكبير ملك الفرنجة، منحه البابا أدريان الأول لقب  
حامى الرومان، وقام بغزو سكسونيا وأرغم أهلها على  
الدخول فى المسيحية، وحينما توجه الرومان امبراطوراً عليهم  
سنة (800 م)، أقام علاقات ودية مع الخليفة العباسى هارون  
الرشيد. وسعى شارلمان إلى غزو إسبانيا، واستمر يحارب فيها  
سبعة أعوام، حتى تمكن من فتح موانئها ومدنها، ماعدا  
سرقسطة التى كانت معقلاً للملك مارسيل، وقد أدت هذه  
الحروب إلى القضاء على خيرة جنود شارلمان، واختتمت بنكته.  
وكان شارلمان محباً للعلوم والفنون والآداب، وشجع على نشر  
التعليم فى إمبراطوريته، وتحول شارلمان - بعد موته - إلى  
شخصية أسطورية بمرور الزمن، فنسبت إليه كل الأعمال العظيمة  
التي تمت فى أسرته. وشاع فى عصر الحروب الصليبية أنه قام

من بين الموتى ليأخذ شارة الصليب، ويحارب المسلمين. وقد نسجت حول هذه الأسطورة ملاحم وأشعار وقصص كثيرة.

(418/10)

\*صالح عليه السلام (نبي)

هو صالح بن عبد بن ماسح. بعثه الله تعالى إلى ثمود، وهي قبيلة عربية ترجع جذورها إلى من نجا من قوم عاد. وكانت ثمود تسكن منطقة تسمى الحجر، تقع بين الحجاز وتبوك. وقد أحسن الله إلى قوم ثمود، وأنعم عليهم بنعم كثيرة، ومكّن لهم في الأرض، ولكنهم جحدوا تلك النعم، وطغوا وتجبروا، وانحرفوا عن دين الله، فأرسل الله تعالى نبيّه صالحًا - عليه السلام - يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وترك الشرك والأوثان، ولكنهم كذبوه، وتعرضوا له ولمن آمن معه بالإيذاء، وازدادوا عصيانيًا وكفرًا. وأراد الكافرون أن يُعجزوا نبي الله صالحًا فطلبوا منه أن يأتيهم بمعجزة تدل على صدق نبوته، وتحدّوه أن يُخرج لهم ناقة من قلب الصخر. فدعا صالح ربه أن يؤيده بتلك المعجزة، لعلهم يؤمنون، ويتوبون إلى ربهم، فاستجاب الله لدعاء نبيه، وأخرج لهم ناقة من الصخر، وأخبرهم صالح أن عليهم أن يشربوا من الماء يومًا ويتركوا الناقة تشرب يومًا، ثم أمرهم بعدم إيذاء الناقة أو التعرض لها بسوء. ولكنهم عزموا على التخلّص من تلك الناقة فتربصوا بها ذات يوم وذبحوها، فتوعدهم صالح بأن الله سيصيبهم بالعذاب الشديد بعد ثلاثة أيام، فسخروا منه، وازدادوا إيذاءً له ولمن آمن به. وبعد مرور الأيام الثلاثة استيقظ قوم ثمود على أصوات عالية رهيبية، وزلزلة شديدة، وطموت البيوت، وتهدمت القصور، وسيطر الرعب والفرع على الكافرين، فأسرعوا يحاولون الفرار، وانطلقوا يَعدّون في كل اتجاه، ولكن

الدمار والهلاك كان ينتظرهم في كل مكان. وحفظ الله تعالى  
نبيّه صالحًا والمؤمنين الذين أسلموا معه، ونجّاهم من ذلك العذاب  
وتلك الأهوال، فهاجروا إلى قرية أخرى - بعد أن عمّ الخراب  
والدمار تلك القرية الظالمة - لينشروا دعوة الحق وكلمة التوحيد  
في أرض جديدة.

(419/10)

---

### \*الشافعي

هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب  
وينتهي نسبه إلى هاشم بن عبد المطلب. وُلد سنة (150هـ)  
لأبوين هاشميين في مدينة غزة - إحدى مدن الشام - ومات والده  
وهو ابن عامين، فرحلت به أمه إلى مكة، فعاش فيها، ونشأ  
بها، وحفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين، ثم حفظ الموطأ  
وهو ابن عشر، وتعلم العربية والشعر وبرع فيهما، ودرس الفقه  
والحديث، حتى أصبح عالم زمانه، وهو أوّل من ألّف في أصول  
الفقه، وهو الذى استنبطه، وتعرض للفتيا وهو لم يتجاوز عشرين  
سنة، وكان كثير الرحلة في طلب العلم، فرحل إلى المدينة فتعلم  
على الإمام مالك، ثم إلى بغداد ورحل إلى مصر سنة (199 هـ)  
فألّف بها معظم كتبه، وظل بها حتى تُوفى سنة (204 هـ).  
والإمام الشافعي واحد من أئمة الفقه الأربعة المشهورين، وإليه  
تنسب الشافعية. وقد ترك الإمام الشافعي عددًا من الكتب  
والمصنفات الرائدة منها: كتاب الأمّ وهو كتاب في الفقه،  
والمسند، وكتاب أحكام القرآن، وكتاب الرسالة في أصول الفقه،  
وكتاب اختلاف الحديث وكتاب أدب القاضي.

(420/10)

### \*محمد بن إدريس الشافعي

هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب وينتهي نسبه إلى هاشم بن عبد المطلب. وُلِدَ سنة (150هـ) لأبوين هاشميين في مدينة غزة - إحدى مدن الشام - ومات والده وهو ابن عامين، فرحلت به أمه إلى مكة، فعاش فيها، ونشأ بها، وحفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين، ثم حفظ الموطأ وهو ابن عشر، وتعلم العربية والشعر وبرع فيهما، ودرس الفقه والحديث، حتى أصبح عالم زمانه، وهو أوّل من ألّف في أصول الفقه، وهو الذي استنبطه، وتعرض للفتيا وهو لم يتجاوز عشرين سنة، وكان كثير الرحلة في طلب العلم، فرحل إلى المدينة فتعلم على الإمام مالك، ثم إلى بغداد ورحل إلى مصر سنة (199 هـ) فألّف بها معظم كتبه، وظل بها حتى تُوفى سنة (204 هـ). والإمام الشافعي واحد من أئمة الفقه الأربعة المشهورين، وإليه تنسب الشافعية. وقد ترك الإمام الشافعي عددًا من الكتب والمصنفات الرائدة منها: كتاب الأمّ وهو كتاب في الفقه، والمسند، وكتاب أحكام القرآن، وكتاب الرسالة في أصول الفقه، وكتاب اختلاف الحديث وكتاب أدب القاضي.

(421/10)

### \*أبو العاص بن الربيع

هو أبو العاص القاسم بن الربيع بن عبد العزّي بن عبد شمس بن عبد مناف. زوج زينب بنت النبي - صلى الله عليه وسلم - . حارب مع المشركين يوم بدر فأسره المسلمون، فأرسلت زينب في فدائه بقلادة أمها خديجة، فرّق لها النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وخيّر المسلمين في إطلاق سراحه فأطلقوه، فأخذ النبي - صلى الله عليه وسلم - منه

عهدًا أن يخلى سبيل زينب لتهاجر، ففعل. ثم أُسِرَ أبو العاص مرة أخرى، وهو راجع في تجارة من الشام فاستجار بزينب؛ فقبل المسلمون إجارتها، ثم رجع إلى مكة فأدى الحقوق إلى أصحابها، ثم أعلن إسلامه، وهاجر إلى المدينة، وكان ذلك قبل الحديبية بنحو ستة أشهر. فردَّ له النبي زينب بزواجه الأول منها. وتوفي أبو العاص في خلافة الصديق، في ذى الحجة سنة (12 هـ).

(422/10)

---

#### \*طهماسب الأول

هو الابن الأكبر لإسماعيل الصفوى - مؤسس البيت الصفوى. وقد وُلِدَ طهماسب نحو سنة (920 هـ)، وتولى الحكم بعد وفاة والده سنة (930 هـ) وامتد حكمه (52) سنة، خاض خلالها العديد من الحروب ضد الدولة العثمانية. استطاع طهماسب أن يهزم الأوزبك والشيشان سنة (935 هـ) في معركة استخدم خلالها الأسلحة الحديثة، كما استولى على بغداد، واستطاع الاحتفاظ بحدوده الشرقية، لكنه لاقى العديد من الهزائم على يد العثمانيين الذين وصلوا إلى العاصمة تبريز ثم أصفهان؛ لذلك نقل طهماسب عاصمته إلى قزوین خوفاً من التهديد التركي. وكان طهماسب خطاطاً وفناناً بارعاً. وتوفي مسموماً سنة (984 هـ) عن عمر بلغ نحو (64) عامًا.

(423/10)

---

#### \*ابن عبد ربه

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن

سالم، الأديب المؤرخ الأندلسي. ولد بقرطبة سنة (246 هـ) في أسرة فقيرة، وكان جدُّه سالم مولى للأمير هشام بن عبد الرحمن بن معاوية. درس ابن عبد ربه علوم عصره من تاريخ وشعر ونحو وفقه، وتتلّمذ على أيدي بعض علماء عصره، وعُرفَ بسعة الاطلاع، واعتدال الرأي، واهتم بجمع الأخبار والطرائف والنوادر، ولكن غلب عليه الشعر والاشتغال بالأدب، وتقرب من الأمراء ومدحهم، ونادمهم بطرائفه؛ فأثرى من ذلك كثيراً. واشتهر ابن عبد ربه بكتابه العقد الفريد، وكان قد سماه العقد ولكن الناسخين المتأخرين أضافوا لفظ الفريد إليه، وهو كتاب في الأدب. وله أيضاً أرجوزة تاريخية ذكر فيها الخلفاء. وقد مال ابن عبد ربه في أواخر حياته إلى الزهد فانقطع للعبادة والوعظ، ونظم قصائد سماها الممحصات في المواعظ، نقض فيها كل ما قاله في صباه من غزل. وتوفي ابن عبد ربه سنة (328 هـ) عن عمر بلغ (82) سنة.

(424/10)

#### \*عبد الحميد بن يحيى الكاتب

هو أبو يحيى عبد الحميد بن يحيى بن سعد الأنباري. من كبار الكتاب، وبه يضرب المثل في الكتابة، وكان أوّل من أطال الرسائل، واستعمل التحميدات في فصول الكتب، وقد اتسم أسلوبه بالفصاحة والبلاغة والاستقامة. وكان عبد الحميد يسكن الرقة ويعلم الصبيان، وأكثر من التنقل في البلاد، حتى دخل في خدمة مروان بن محمد - آخر خلفاء بني أمية - وظلّ في خدمته حتى قُتل معه سنة (132 هـ). وكان عبد الحميد قد تتلمذ لسالم مولى هشام بن عبد الملك، وتعلم عليه خالا بن برمك، ويعقوب

بن داود. وترك عبد الحميد تراثاً رائعاً في مجموعة رسائل تبلغ ألف ورقة.

(425/10)

---

### \* طاش كبرى زاده

هو أبو الخير عصام الدين أحمد بن مصطفى بن خليل، مؤرخ ومصنف تركي، وُلد في أبروسة سنة (901 هـ)، ونشأ في أنقرة، وتأدب وتفقه بها، وتنقل في البلاد التركية مدرساً للفقهِ والحديث وعلوم العربية. ولى القضاء في القسطنطينية سنة (958 هـ)، فرمد وكُفَّ بصره سنة (961 هـ). وهو يُعدُّ من العلماء الموسوعيين، وقد ألف في أكثر الموضوعات، وبلغت مؤلفاته نحو الثلاثين، ما بين كتاب ورسالة ومنظومة. ومن أشهر أعماله كتاباه الموسوعيان: الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، ويشتمل على (522) ترجمة لمشاهير العلماء العثمانيين حتى عهد السلطان سليمان القانوني، وكتاب مفتاح دار السعادة ومصباح السيادة، وهو في موضوعات العلوم التي قسمها إلى نحو (300) علم، مبوية تحت ستة أقسام رئيسية. وله أيضاً: توارد الأخبار في مناقب الأخيار في التراجم، وشرح على كتاب الفوائد الغيائية في علم المعاني للإيجي. وتوفي طاش كبرى زاده سنة (968 هـ) عن عمر يناهز السابعة والستين.

(426/10)

---

### \* طغرل بك

هو ركن الدين أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق مؤسس الدولة السلجوقية، وأول سلاطينها العظام. وُلد سنة (385 هـ)،

ونشأ نشأة عسكرية، واشترك في حروب قومه السلاجقة في بداية توسعاتهم مع الدولة الإيلخانية في بلاد ما وراء النهر، والدولة الغزنوية بفارس. وعرف طغرل بك بالشجاعة، وقوة الشخصية؛ مما ساعده على تبوء مكانة عالية في قومه، فاتفق الأمراء على زعامته لهم، والتفوا حوله. وتمكن طغرل بك بعد فترة وجيزة من السيطرة على مساحة كبيرة، ضمت خراسان وجرجان وخوارزم وطبرستان وقزوين وزنجاب وهمدان وأذربيجان وكرمان، وآلت إليه أملاك الدولة الغزنوية بعد انهيارها، فصار مجاوراً لبغداد حاضرة الخلافة العباسية، وكان البويهيون أصحاب السلطة الحقيقية في البلاد، ولم يكن للخليفة العباسي أية سلطة فعلية، فلما رأى قوة السلاجقة استنجد بطغرل بك، ليخلصه من سيطرة البويهيين، فتوجه طغرل بك إلى بغداد وقبض على آخر حكام البويهيين فلقبه الخليفة بملك المشرق والمغرب. وعندما قامت ثورة البساسيري، الذي دخل بغداد، وعات فيها فساداً، هرب الخليفة حتى نجح طغرل بك في القضاء على الثورة، وأعاد الخليفة إلى قصره، وقد ساعد ذلك على ازدياد نفوذ طغرل بك وعلو مكانته في الخلافة، حتى تُوفي سنة (455 هـ).

(427/10)

#### \*طلحة بن عبيد الله

هو طلحة بن عبيد الله بن عثمان التميمي. صحابي جليل، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الثمانية السابقين في الإسلام، وأحد الستة أصحاب الشورى بعد وفاة عمر بن الخطاب. عُرف بطلحة الخير، وطلحة الفيّاض، وطلحة الجود. أسلم على يد أبي بكر الصديق، وأظهر شجاعة كبيرة وبأساً شديداً في الدفاع

عن النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم أُحُد، حتى أصيب بأربعة وعشرين جرحًا، وشهد المشاهد كلها مع النبي - صلى الله عليه وسلم -، وعندما هاجر إلى المدينة آخى النبي (بينه وبين كعب بن مالك الأنصاري. وكان طلحة ميسورًا، ولم يدع أحدًا من بني تميم إلا كفاه هو وأولاده، وقضى عنه دينه. وقد قُتل طلحة يوم الجمل سنة (36 هـ)، وكان عمره ستين سنة.

(428/10)

---

### \* طليحة بن خويلد الأسدي

هو طليحة بن خويلد بن نوفل الفقعسي، من شجعان العرب، وكان يُعدُّ بألف فارس. شهد مع المشركين غزوة الأحزاب، ثم أسلم سنة (9 هـ) ولكنه عاد فارتدَّ، فأرسل إليه النبي - صلى الله عليه وسلم - ضرار بن الأزور الأسدي ليقاتله، وبعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - عظم خطر طليحة وكثر أتباعه من أسد وغطفان وطبي، فقاتله خالد بن الوليد في خلافة أبي بكر الصديق، وهُزم طليحة، وفر إلى الشام وظلَّ بها حتى توفى أبو بكر، رضى الله عنه. وفي خلافة عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، خرج محرماً وأسلم، وحسن إسلامه، وخرج إلى بلاد الشام مجاهدًا، وشهد اليرموك وبعض المعارك الأخرى، وأوصى عمر بن الخطاب قائده النعمان بن مقرن بأن يستعين بطليحة في حروبه. واستشهد طليحة بنهاوند سنة (21 هـ).

(429/10)

---

### \* ابن عائشة

هو إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام، يعرف بابن عائشة وعائشة جدته أم أبيه، ويلتقى ابن عائشة مع

المأمون في الجدل الثالث. قاد ابن عائشة حركة استهدفت خلع المأمون ومبايعة عمه إبراهيم المهدي سنة (202 هـ)، إلا أن الحركة فشلت، واختفى ابن عائشة فترة طويلة، حتى استطاع المأمون القبض عليه وحسبه، وحينما أراد الاتصال بنصر بن شيبان - أحد الخارجين على المأمون - عند وصوله إلى بغداد سنة (210 هـ)، إلا أن ابن عائشة قام ببعض الشغب في السجن، فأمر المأمون بضرب عنقه وصلبه السنة نفسها، فكان أول مصلوب من بني العباس.

(430/10)

---

#### \*الضحك بن قيس

هو الضحك بن قيس الشيباني زعيم من الحروريين، خرج مع سعيد بن بهدل سنة (126 هـ) في مائتين من حرورية الجزيرة، ومات سعيد سنة (127 هـ) فخلفه الضحك، وبايع له الشراة، فقصده أرض الموصل ثم شهرزور، واجتمعت عليه الصفرية حتى صار في أربعة آلاف، فسار إلى العراق واستولى على الكوفة، وحاصر واسط فصالحه عاملها، وكتبه أهل الموصل فاحتلها. وقارب عدد جيشه مائة ألف، فخرج إليه الخليفة الأموي مروان، فالتقى بنواحي كفر توشا، وتقاتلا قتالاً شديداً، ولما كان المساء خرج الضحك في ستة آلاف من أصحابه، فأحاط بهم جنود مروان، وحملوا عليهم حتى قتلوهم في الظلام، وفر من نجا من أصحاب الضحك إلى معسكرهم، وقُتل الضحك فيمن قتل من أصحابه.

(431/10)

---

### \*الطائع لله

هو أبو الفضل عبد الكريم الطائع لله بن المقتدر العباسي. أحد خلفاء الدولة العباسية، وُلِدَ في بغداد نحو سنة (320 هـ)، وحينما بلغ الثالثة والأربعين تنازل له أبوه عن الخلافة سنة (363 هـ)، وكانت الدولة - آنذاك - تمر بمرحلة ضعف، فلم يتمكن الطائع من إصلاح الأمر، بل ازدادت الأمور سوءاً؛ فكثرت - في عهده - الفتق والاضطرابات الداخلية، واشتد النزاع بين كبار قواد الجيش، وكانت أمور الدولة كلها في يد البويهيين، وسيطر عليه عضد الدولة البويهى، وابنه بهاء الدولة من بعده، وبلغ الأمر أن قبض بهاء الدولة على الخليفة الطائع سنة (381 هـ) وسجنه، وأجبره على كتابة مرسوم يخلع فيه نفسه من الخلافة، وأشهد عليه، واستمر الطائع سجيناً، حتى توفي في العام نفسه.

(432/10)

### \*القلقشندى

هو أحمد بن علي بن أحمد الفزارى القلقشندى. مؤرخ وأديب وعالم بحاثة، ولد في قلقشندة - إحدى قرى محافظة القليوبية - سنة (756 هـ = 1355 م)، ونشأ بها صغيراً. ودرس القلقشندى بالقاهرة والإسكندرية على كبار علماء عصره؛ فبرع في الأدب وعلوم اللغة والبلاغة والإنشاء، وأجازته الشيخ سراج الدين أبو حفص عمر بن أبي الحسن (ابن الملتن) بالفتيا والتدريس على المذهب الشافعى، وكذلك أجازته علي أن يروى في الفقه والحديث وكتب الصحاح الستة ومسند الشافعى ومسند أحمد وغيرها من كتب أصول الفقه. عمل القلقشندى في ديوان الإنشاء سنة (791 هـ = 1388 م) في عهد السلطان الظاهر برقوق، وظل به حتى سنة (816 هـ = 1413 م). ومن أهم كتبه:

صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، حلية الفضل وزينة الكرم في  
المفاخرة بين السيف والقلم، قلائد الجمال في التعريف بقبائل  
عرب الزمان، ضوء الصبح المسفر نهاية الأرب في معرفة أنساب  
العرب. وقد تُوفِّي القلقشندي سنة (821 هـ = 1418 م) عن عمر  
يناهز (65) سنة.

(433/10)

---

### \*أبو الهدى الصيادى

هو أبو الهدى محمد بن حسن وادى بن على بن خزام الصيادى  
الرفاعى الحسينى، من رجالات الدولة العثمانية في عهد  
السلطان عبد الحميد الثانى. ولد في خاد شيخون عام (1266 هـ  
= 1849 م)، وتعلم بمدينة حلب وولى نقابة الأشراف بها، ثم سكن  
مدينة الآستانة بتركيا. وتوثقت الصلة بينه وبين السلطان عبد  
الحميد وحظى عنده بمكانة عظيمة، وكان من كبار ثقافته،  
واستمر في خدمته ثلاثين سنة. وعرف عنه سعة علمه في العلوم  
الإسلامية والآداب، وكان أذكى الناس، وعرف عنه تصوفه  
وظرفه، ولما خُلع السلطان عبد الحميد نُفى الشيخ الصيادى إلى  
جزيرة الأمراء. وقد صنّف الشيخ الصيادى العديد من المؤلفات،  
مثل: ضوء الشمس في قوله (بنى الإسلام على خمس، قلادة  
الجواهر في ذكر الغوث الرفاعى وأتباعه الأكابر، وفرحة  
الأحباب في أخبار الأربعة الأقطاب، والجوهر الشفاف في  
طبقات السادة الأشراف والسهم الصائب لكبد من آذى طالب.  
تُوفِّي الصيادى في جزيرة الأمراء عام (1328 هـ = 1909 م).

(434/10)

---

### \*سعيد بن المسيب

هو سعيد بن المسيب بن حزم بن أبي وهب بن عائذ بن عمران بن مخزوم سيد التابعين على الإطلاق. كان يقال له: فقيه الفقهاء، وهو أحد الفقهاء السبعة بالمدينة. ولد سعيد لسنتين مضتا - وقيل: بقتنا - من خلافة عمر بن الخطاب، وكان سعيد مثال النباهة والاستقامة من طفولته. لزم وهو صغير مجالس عمر بن الخطاب وسمع منه، ومن عثمان بن عفان وسعد بن أبي وقاص، وابن عباس وابن عمر وكثير من الصحابة. وتزوج سعيد من ابنة الصحابي الجليل أبي هريرة. وبلغ من فقهه وعلمه أن ابن عمر كان يرسل إليه يسأله عن قضايا عمر وأحكامه. وكان سعيد من أروع الناس وأزهدهم في فضول الدنيا ومن أكثرهم أدبًا، كما عرف عنه حسن تفسيره للرؤى. وتوفي سعيد - رحمه الله - سنة (94هـ = 763م).

(435/10)

### \*لسان الدين بن الخطيب

هو محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي الغرناطي الأندلسي، مؤرخ، وطبيب وكاتب وشاعر جيد. ولد سنة (713هـ = 1313م) في أسرة ذات علم وجاه وفضل، فكان أهله يعرفون ببني وزير ثم ببني الخطيب لأن أباه كان خطيبًا بارعًا. ودرس لسان الدين اللغة والأدب والشريعة على كبار علماء عصره في غرناطة، مثل: أبي عبد الله بن الفخار، وأبي القاسم محمد بن علي الحسيني السبتي، وأبي عبد الله بن مرزوق، وأبي عبد الله بن الحكيم اللخمي، ودرس الطب والفلسفة على الفيلسوف الكبير أبي زكريا يحيى بن هزبل، ولما أنهى دراسته العلمية تولى رئاسة الكتاب وديوان الإنشاء، ومنحه السلطان أبو

الحجاج رتبة الوزارة وألقابها. واستوزره الغنى بالله بن أبي  
الحجاج وخلع عليه لقب ذى الوزارتين، لجمعه بين الكتابة  
والوزارة، ولما حيكّت الدسائس ضده هرب إلى بلاد المغرب  
العربي، فاستقبله سلطانها عبد العزيز بن أبي الحسن المريني  
أحسن استقبالاً، وأرسل إلى غرناطة يطلب أهله وماله. وسعى  
أعداء لسان الدين بن الخطيب في القضاء عليه، فاتهموه  
بالزندقة والخروج على الإسلام، والطعن في النبي - صلى الله عليه وسلم - والقول  
بالحلول، وقضوا بحرق كل كتبه، وبالفعل تم لهم ما أرادوا سنة  
(773هـ = 1371م) وأرسلوا إلى السلطان المغربي عبد العزيز  
في طلبه ولكنه رفض طلبهم. وبعد أن توثق السلطان عبد  
العزيز بن أبي الحسن المريني قامت فتنة في البلاد، فساعد  
سلطان غرناطة الغنى بالله قادة الثورة بشرط أن يسلموه لسان  
الدين بن الخطيب، فلما جلس أحمد بن أبي سعيد سلطان المغرب  
على عرش بلاد المغرب، قبض على ابن الخطيب وأودعه السجن،  
وعقد له مجلساً، حقق فيه حول التهم المنسوبة إليه، فأفتى  
بعض المتشددين من الفقهاء بقتله، في الوقت الذي دخل فيه  
عليه بعض رجال الغنى بالله السجن وخنقوه، ودفن عند باب  
الحروق (أحد أبواب فاس القديمة)، وكان ذلك سنة (776هـ =

(436/10)

---

1374م). ومن أهم مصنفاته وكتبه: الإحاطة في تاريخ غرناطة،  
الإعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، الحلل  
الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، نفاضة الجراب، الكتيبة  
الكامنة، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، التاج المحلى  
في مساجلة القدح المعلى، خطرة الطيف في رحلة الشتاء  
والصيف.

\*بن الخطيب

هو محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي الغرناطي الأندلسي، مؤرخ، وطبيب وكاتب وشاعر جيد. ولد سنة (713هـ = 1313م) في أسرة ذات علم وجاه وفضل، فكان أهله يعرفون ببني وزير ثم ببني الخطيب لأن أباه كان خطيبًا بارعًا. ودرس لسان الدين اللغة والأدب والشريعة على كبار علماء عصره في غرناطة، مثل: أبي عبد الله بن الفخار، وأبي القاسم محمد بن علي الحسيني السبتي، وأبي عبد الله بن مرزوق، وأبي عبد الله بن الحكيم اللخمي، ودرس الطب والفلسفة على الفيلسوف الكبير أبي زكريا يحيى بن هزبل، ولما أنهى دراسته العلمية تولى رئاسة الكتاب وديوان الإنشاء، ومنحه السلطان أبو الحجاج رتبة الوزارة وألقابها. واستوزره الغني بالله بن أبي الحجاج وخلع عليه لقب ذي الوزارتين، لجمعه بين الكتابة والوزارة، ولما حيكت الدسائس ضده هرب إلى بلاد المغرب العربي، فاستقبله سلطانها عبد العزيز بن أبي الحسن المريني أحسن استقبال، وأرسل إلى غرناطة يطلب أهله وماله. وسعى أعداء لسان الدين بن الخطيب في القضاء عليه، فاتهموه بالزندقة والخروج على الإسلام، والطعن في النبي - صلى الله عليه وسلم - والقول بالحلول، وقضوا بحرق كل كتبه، وبالفعل تم لهم ما أرادوا سنة (773هـ = 1371م) وأرسلوا إلى السلطان المغربي عبد العزيز في طلبه ولكنه رفض طلبهم. وبعد أن توفى السلطان عبد العزيز بن أبي الحسن المريني قامت فتنة في البلاد، فساعد سلطان غرناطة الغني بالله قادة الثورة بشرط أن يسلموه لسان الدين بن الخطيب، فلما جلس أحمد بن أبي سعيد سلطان المغرب على عرش بلاد المغرب، قبض على ابن الخطيب وأودعه السجن،

وعقد له مجلسًا، حقق فيه حول التهم المنسوبة إليه، فأفتى بعض المتشددين من الفقهاء بقتله، في الوقت الذي دخل فيه عليه بعض رجال الغنى بالله السجن وخنقوه، ودفن عند باب الحروق (أحد أبواب فاس القديمة)، وكان ذلك سنة (776هـ =

(438/10)

---

1374م). ومن أهم مصنفاته وكتبه: الإحاطة في تاريخ غرناطة، الإعلام في من يبيع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، نفاضة الجراب، الكتيبة الكامنة، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، التاج المحلى في مساجلة القدح المعلى، خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف.

(439/10)

---

#### \*الكندى

هو أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب التجيبي الكندى، مؤرخ مصرى، ينسب إلى قبيلة تجيب أحد بطون قبيلة كندة الشهيرة. ولد في فسطاط مصر في (10 من ذى الحجة 283هـ = 17 من يناير 897 م). وتعد جهود الكندى في التأريخ متممة لجهود المؤرخ المصرى ابن عبد الحكم المتوفى سنة (257 هـ = 871 م)، ووصل الكندى بتأريخه إلى سنة (335هـ) حيث ذكر ولائها. وترك الكندى بعض المؤلفات، أهمها: ولاية مصر وهو مطبوع، ويتناول الكندى فيه ولاية مصر حتى عصر محمد بن طغج الإخشيدى المتوفى سنة (334هـ)، وكتاب قضاة مصر وهو مطبوع أيضاً،

ويقف فيه الكندى عند سنة (246هـ). وتوفي الكندى في  
(رمضان سنة 350هـ = أكتوبر 961م).

(440/10)

---

### \*كعب الأحبار

هو أبو إسحاق كعب بن ماته الحميري اليمنى، تابعى. كان في  
الجاهلية من كبار علماء اليهود وأخبارهم، أسلم في خلافة عمر  
بن الخطاب وحسن إسلامه، وكان يسكن اليمن فقدم إلى المدينة  
وحضر مجالس أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - وتعلم منهم فقه الإسلام وسنن  
النبي - صلى الله عليه وسلم -، وكان يحدثهم عن كتب اليهود وأخبارهم. وشارك كعب  
الأحبار في الفتح والجهاد مع صحابة النبي في بلاد الشام،  
واستقر بها وتوفي بحمص سنة (32هـ = 652م) في خلافة عثمان  
بن عفان وهو ذاهب للغزو وكان عمره (104) سنوات ولكعب  
الأحبار روايات عن كثير من الصحابة، وحديث عنه كثير، ومن كتب  
السنة التي روت له سنن أبي داود والترمذى والنسائى.

(441/10)

---

### \*الكسائى

هو أبو الحسن على بن حمزة بن عبد الله المعروف بالكسائى،  
أحد القراء السبعة، وإمام النحو واللغة والقراءات في الكوفة،  
وسمى بالكسائى لأنه أحرم في كساء. ولد بالكوفة سنة ( )  
119هـ = 737م) ونشأ وتعلم بها، وقرأ النحو بعد الكبر، وكان  
الكسائى مؤدباً (معلماً) لهارون الرشيد ثم لابنيه: الأمين  
والمأمون، وظل يُقرئ الناس في بغداد بقراءة حمزة ثم اختار  
لنفسه قراءة صارت إحدى القراءات السبع المتواترة. ويعد

الكسائي إمام مدرسة الكوفة في النحو، فهو الذي وضع رسومها ووطأ منهجها، وفيه يقول أبو الطيّب اللغوي: كان الكسائي عالم أهل الكوفة وإمامهم، إليه ينتمون بعلمهم، وعليه يعولون في روايتهم. وللكسائي كتب كثيرة، منها: معاني القرآن والمصادر والحروف والمتشابه في القرآن والقراءات. وتوفي الكسائي بالري سنة (189هـ = 805م).

(442/10)

---

\*ابن كثير

هو أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير، مؤرخ ومفسر ومحدث. وُلد في بصرى سنة (701 هـ)، وتوفي والده سنة (703 هـ) فانتقل ابن كثير مع عائلته إلى دمشق، حيث شهد هجوم التتار على البلاد الإسلامية وغزوات الصليبيين. أخذ ابن كثير العلم عن كبار علماء عصره، ولازم الشيخ ابن تيمية وتأثر به، وكان ابن كثير ذا ذاكرة حادة وفهم جيد. صنف ابن كثير في مجالات التاريخ والتفسير والحديث، وأهم كتبه: البداية والنهاية في التاريخ، وتفسير القرآن العظيم وجامع المسانيد، والاجتهاد في طلب الجهاد، وأحاديث التوحيد والرد على الشرك، واختصار علوم الحديث، وبعض كتبه مازال مخطوطاً والآخر مفقوداً. وتولى ابن كثير مشيخة أم صالح ومشيخة دار الحديث الأشرافية، وتوفي بدمشق في (26 من شعبان سنة 774 هـ).

(443/10)

---

\*قويلاى قا آن

هو قويلاى بن تولوى بن جنكيز خان، أحد ملوك المغول

وحكامهم. كان له دور بارز في فتح أقاليم الصين الجنوبية؛ حيث أمضى ما يقرب من (20) سنة في القتال في تلك المناطق حتى تم له فتحها، حارب أخاه أريق بوكا عندما أعلن نفسه خاناً أعظم للمغول، واستطاع دخول عاصمة المغول قراقورم وأسر أخيه سنة (662 هـ = 1263 م)، وأصبح حاكماً للمغول. ثم واصل قوبيلاي فتوحاته في الصين حتى استطاع توحيدها، وأقام بها مدينة عظيمة وقصرًا فخماً لإقامته، واعتنق البوذية وتأثر بالثقافة والعادات الصينية، وبدأ يعمل على نهضة الصين وإعمار ما خربته الحروب. وكانت دولة المغول في عهده تضم: الصين، وكوريا، والهند الصينية، والتبت، والهند، وإيران، وآسيا الصغرى، والقرم، وأجزاء من روسيا، وكان الإيرانيون يتمتعون في عهده بنفوذ كبير. وتوفي قوبيلاي سنة (693 هـ = 1294 م).

(444/10)

### \* القفطي

هو أبو الحسن جمال الدين علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني القفطي، وزير وقاضٍ ومؤرخ وكاتب مصري، وُلد بقفط بصعيد مصر سنة (568 هـ = 1172 م)، وتعلم بالقاهرة، وأقام بحلب، واستفاد من علمائها، وتولى القضاء فيها، ثم تولى الوزارة أيام الملك العزيز سنة (633 هـ)، وأطلق عليه لقب الوزير الأكرم. وكان القفطي عظيم الهبة عادلاً محبباً للكتب مؤثراً لها على غيرها؛ حتى إنه لم يتزوج، وكان القفطي عالماً باللغة والنحو، والفقه والحديث وعلوم القرآن، والمنطق والنجوم والهندسة والتاريخ وعلم الجرح والتعديل. وألّف القفطي العديد من المصنفات، منها: إنباه الرواة على أبناء النحاة، وإخبار العلماء بأخبار الحكماء،

وأخبار مصر من ابتدائها إلى أيام صلاح الدين. وتُوقِّ القفطى  
في حلب سنة (664 هـ = 1248 م).

(445/10)

---

### \*كعب بن مالك

هو كعب بن مالك بن كعب (عمرو بن القين) الأنصارى الخزرجى.  
صحابى جليل، وأحد شعراء النبي - صلى الله عليه وسلم - . أسلم كعب مع من أسلم من  
الأنصار وأخى النبي - صلى الله عليه وسلم - بينه وبين الزبير بن العوام، وقيل: بينه  
وبين طلحة بن عبيد الله. ولم يشهد كعب - رضى الله عنه - غزوة  
بدر، ولكنه شهد أحدًا وما بعدها، وكان يوم أحد أول من عرف  
النبي - صلى الله عليه وسلم - لما انكشف الناس وبشر به المؤمنين حيًّا سويًّا، فألبسه  
النبي لأُمَّتَهُ وقاتل بها يومئذ قتالاً شديداً حتى جرح سبعة عشر  
جرحاً، ولم يتخلف عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في غزو، حتى كانت غزوة تبوك،  
فكان أحد الثلاثة الذين خُلِّفوا، ثم تاب الله عليهم، وهم المشار  
إليهم في قوله تعالى (وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا) [التوبة: من  
188]. وبعد موت النبي شارك كعب في الفتح والجهاد في خلافة  
أبي بكر وعمر، وكان بجوار عثمان - رضى الله عنه - حينما  
قامت ضده الثورة وكان من أصحابه ومعاونيه، ولكنه اعتزل  
على بن أبي طالب في خلافته، ولم يشهد معه حروبه، وعمى  
كعب في آخر حياته ومات وعمره (77) سنة، وروى عن النبي  
(أحاديث كثيرة بلغت (80) حديثاً، وله ديوان شعر مطبوع.

(446/10)

---

### \*كليبير

أحد كبار قادة الحملة الفرنسية على مصر. وُلِدَ كليبير في مدينة

ستراسبورج عاصمة الألزاس سنة (1753 م)، وشارك في حروب الثورة الفرنسية، حيث توثقت صلته بنابليون في ميدان القتال؛ لذلك اصطحبه نابليون معه في حملته على مصر حيث أصيب كليبر بجرح في رأسه أثناء اشتراكه في الهجوم على الإسكندرية. عارض كليبر نابليون في بعض سياساته مما أوقع الخلاف بينهما، وشارك كليبر في الحملة على الشام سنة (1799 م) وعُيِّن في العام نفسه حاكمًا على دمياط. وبعد سفر نابليون تولى كليبر قيادة الحملة في مصر، واستطاع الانتصار على العثمانيين في موقعة أبي قير البرية، وقام بتحصين القاهرة سنة (1799 م)، وعقد صلحًا مع الأتراك في العريش سنة (1800 م) إلا أنه عاد وحاربهم وانتصر عليهم في معركة عين شمس سنة (1800 م) واستطاع إخماد ثورة القاهرة الثانية مستخدمًا وسائل القهر والعنف، مما دفع سليمان الحلبي - أحد الطلاب الشاميين في الأزهر - إلى قتله في مقر حكمه بالروضة في (يونيو 1800 م)، وتولى الحكم بعد كليبر الجنرال مينو.

(447/10)

---

\*أم كلثوم بنت محمد - صلى الله عليه وسلم -  
ابنة النبي - صلى الله عليه وسلم -، وأمها خديجة بنت خويلد - رضى الله عنها - تزوجها في الجاهلية عتبة بن أبي لهب ولم يدخل بها، فلما بُعث النبي - صلى الله عليه وسلم - طلقها عتبة، وهاجرت إلى المدينة المنورة، وتزوجت عثمان بن عفان سنة (3 هـ) بعد وفاة أختها رُقبة، ولم تزل عنده حتى تُوفيت في شعبان سنة 9 هـ = 630 م)، ولم تلد له، وحزن النبي (عليها حزنًا شديدًا ونزل قبرها، وقال النبي - صلى الله عليه وسلم - بعد وفاتها: لو أن لنا ثلاثة لزوجنا عثمان بها.

(448/10)

---

### \*كثير عزة

هو أبو صخر كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الخزاعي، أحد عشاق العرب المشهورين، وشاعر مُتَيِّم مشهور، وكثير تصغير كثير، وإنما صُغِرَ لأنه كان شديد القصر. وكثير صاحب عزة بنت جميل بن حفص الضمرية، وله معها حكايات ونوادر مشهورة وأكثر شعره فيها، وبها عُرف. وتُوفِّي كثير بالمدينة سنة (105 هـ = 723 م).

(449/10)

---

### \*أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب

هي ابنة علي بن أبي طالب، أمها فاطمة بنت النبي - صلى الله عليه وسلم -، وُلدت سنة (6 هـ) تقريبًا، رأت النبي - صلى الله عليه وسلم - ولم ترو عنه شيئًا، خطبها عمر بن الخطاب، وتزوجها وهي صغيرة، وأصدقها (40) ألف درهم، فولدت له زيدًا، وقيل: ولدت له رقية أيضًا. وبعد وفاة عمر بن الخطاب تزوجها عون بن جعفر بن أبي طالب، ثم محمد بن جعفر، ثم عبد الله بن جعفر، وماتت بعد وفاة ابنها زيد مقتولا في بداية عهد معاوية بن أبي سفيان، وصلى عليها سعيد بن العاص أمير المدينة.

(450/10)

---

### \*القاضي عياض

هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو، أحد أئمة الحديث والفقهِ في القرن السادس الهجري. ولد بسبته سنة (476 هـ = 1083 م) وبها نشأ وتعلم، ثم رحل إلى الأندلس سنة

(507هـ) لطلب العلم من كبار علمائها، ثم عاد إلى سبته، وتولى قضاءها سنة (515هـ)، ولما ذاع صيته في القضاء ولاه ابن تاشفين قضاء غرناطة، لكنه أقيّل من منصبه بسبب الوشايات، فرجع إلى سبته، وتولى قضاءها ثانية سنة (539هـ) وقصده طلاب العلم لواسع معرفته. ألّف القاضي عياض عددًا من المصنفات، أهمها: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، وترتيب المدارك وتقريب المسالك، والإكمال في شرح كتاب مسلم ومشارك الأنوار. وتُوفّي القاضي عياض سنة (544هـ = 1149م) بمراكش ودُفِنَ بها.

(451/10)

---

#### \*أبو حمزة الخارجي

هو المختار بن عوف بن سليمان الأزدي، أحد زعماء الخوارج إبّان العصر الأموي. وُلد بالبصرة، واعتنق مذهب الإباضية، وبرز اسمه بعد مقتل الضحّاك بن قيس الخارجي سنة (128هـ). وكان أبو حمزة يهجّج إلى مكة كل عام، ويثير المسلمين على مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، ويحثهم على قتاله، وبايع عبد الله بن يحيى المعروف بطالب الحق على الخلافة، ثم خرج في جمع من أتباعه والتقى جيش عبد الواحد بن سليمان أمير الحجاز، وألحق به هزيمة شديدة، ودخل على إثرها المدينة سنة (130هـ)، وأحسن السيرة في أهلها، ثم سار يريد الشام، لكنه هُزم عند وادي القرى، وقُتل في المعركة. وكانت هذه الثورة هي آخر ثورات الخوارج في عصر الدولة الأموية.

(452/10)

---

## \*البخارى

هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بردزبه البخارى الجعفى أحد أئمة الحديث الكبار وصاحب الجامع الصحيح المعروف باسم صحيح البخارى. وُلد البخارى سنة (194هـ = 810م) فى بخارى، وبدأ فى طلب العلم مبكراً، ساعده على ذلك حافظته القوية التى لا يندُّ عنها شئ، ثم رحل فى طلب الحديث رحلات طويلة إلى بلخ وبنسبور والرى وبغداد والبصرة والكوفة ومكة والمدينة، ودمشق وقيسارة وغيرها. اشتهر البخارى بالدقة المتناهية فى قبول الرواية، إذ اشترط فى الراوى شرطين: معاصرته لمن يروى عنه، وسماعه لما يروى. صنف البخارى ما يزيد على عشرين مصنفاً، منها: الجامع الصحيح، وهو المعروف بصحيح البخارى وقد طبع الكتاب مستقلاً عدة مرات، كما طبع مع شروحه مثل: فتح البارى لابن حجر العسقلانى، وإرشاد السارى للقسطلانى. والأدب المفرد والتاريخ الكبير، والتاريخ الصغير، والقراءة خلف الإمام، والتفسير الكبير. وتُوفى البخارى ليلة عيد الفطر من سنة (256هـ = 870م) ودُفن فى قرية خواجة صاحب على بعد (30) كم من سمرقند.

(453/10)

## \*خاير بك

هو خاير بن بلباى الجركسى، أول حاكم على مصر من قبل الدولة العثمانية. بدأ حياته مملوكاً تابعاً للسلطان قايتباى، وظل يتدرج فى المناصب، حتى أوفده السلطان الناصر محمد سنة (903هـ = 1497م) مبعوثاً إلى السلطان العثمانى بايزيد، ثم عمل حاجباً للسلطان الغورى، ثم ولَّاه الشام، ثم نيابة حلب سنة

(920هـ). وعندما بدأ الفتح العثماني لمصر انضمَّ خايربك سرّاً إلى العثمانيين، فكان ذلك من الأسباب التي أدت إلى هزيمة المماليك في معركة مرج دابق ومهدت الطريق للاستيلاء على مصر. ولما تم للسلطان سليم فتح مصر سنة (923هـ) عين خايربك والياً على مصر، وأطلق عليه اسم ملك الأمراء. واستمر خايربك والياً على مصر حتى توفّي سنة (928هـ = 1521م).

(454/10)

---

#### \*سعيد بن جبير

هو أبو عبد الله سعيد بن جبير بن هشام، أحد كبار التابعين. ولد سنة (45هـ = 665م) وعاش بالكوفة، وأخذ الفقه والحديث والتفسير عن ابن عباس وابن عمر وغيرهما. وعندما ولى الحجاج أبا بردة بن أبي موسى الأشعري قضاء الكوفة أمره ألاّ يقطع أمراً دون أن يستفتي سعيداً، ومازال الحجاج يعرف له قدره ومكانته حتى جعله على نفقة الجنود. ولما خلع ابن الأشعث طاعة الحجاج وخرج على الدولة الأموية كان سعيد ممن خرجوا معه وخلع طاعة الحجاج، وبعد معركة دير الجماجم التي انهزم فيها ابن الأشعث فرّ سعيد إلى مكة سنة (83هـ) واختبأ بها. وفي عام (94هـ) قبض عليه والي مكة خالد القسري، وأرسل به إلى الحجاج فقام بقتله.

(455/10)

---

#### \*ممتاز محل

معناها زينة القصر، وهي أرجمند بانوبكم زوجة الإمبراطور شاه جهان، وابنة وزيره آصف خان، تزوج بها الإمبراطور وهي في

سن الحادية والعشرين، فأُنجبت له أربعة عشر طفلاً في ثمانية عشر عاماً، ثم قضت نحبها في سن التاسعة والثلاثين، وهي تلد آخر هؤلاء الأبناء، ببلدة برهان بور عام (1041 هـ = 1631 م)، وقد شيّد الإمبراطور شاه جهان ضريحاً تذكاريّاً بالقرب من مدينة آجرا بالهند، يعرف بتاج محل، أقامه تخليداً لذكراها، وهو تحفة معمارية رائعة، وقد بدئ العمل في تشييد هذا الضريح في (1041 هـ = 1631 م) وانتهى منه في (1058 هـ = 1648 م) وقد عمل في بنائه عشرون ألف عامل بدون انقطاع.

(456/10)

---

### \*المفضل الضبي

هو المفضل بن محمد بن يعلى بن عامر الضبي، أبو العباس: راوية، أديب، نحوي، لغوي، عالم بالشعر وأيام العرب، من أوثق من روى الشعر من أهل الكوفة، خرج على المنصور العباسي فظفر به وعفا عنه، ولزم المهدي وصنف له كتاب المفضليات. أخذ عنه أبو عبد الله الأعرابي وأبو زيد الأنصاري وخلف الأحمر وغيرهم، وكان ثقة ثبّتاً، له العديد من المصنفات، منها: الأمثال والألغاز والعروض والمفضليات. وتوفّي المفضل الضبي سنة (168 هـ = 784 م).

(457/10)

---

### \*سفيان الثوري

هو أبو عبد الله، سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، من بني ثور بن عبد مناة، من مضر، ولد سنة (97 هـ = 716 م)، وكان أمير المؤمنين في الحديث، وإمام الحفاظ، وسيد العلماء العاملين

في زمانه، ولد ونشأ بالكوفة، وطلب العلم وهو حدث باعتهاء والده، أخذ العلم عن نحو ستمائة شيخ، وأخذ عنه نحو من ألف نفس، روى له أصحاب السند الستة، كان يُستَفَقَى وهو لم يزل صبيًّا بفضل ذكائه وفطنته، عرف بالزهد والتقوى والورع وكثرة ذكر الموت، كتب إليه الخليفة المهدي عهدًا بقضاء الكوفة ودفعه إليه، فأخذه، ولما خرج من عنده قذفه في دجلة وهرب، فطُلب في كل بلد فلم يعثر عليه، وظل مستخفيا حتى مات بالبصرة سنة (161 هـ = 778 م). من مصنفاته: الجامع الكبير والجامع الصغير، وكلاهما في الحديث، وكتاب في الفرائض.

(458/10)

### \*الحسن بن الصباح

الحسن بن الصباح بن علي الإسماعيلي، صاحب الدعوة النزارية، وجد أصحاب قلعة الموت، ومن كبار الزنادقة ودهاة العالم، ومن أعيان الباطنية في عهد ملكشاه السلجوقي، ثم كان مقدم الإسماعيلية بأصفهان، أصله من مرو، وقيل يمانى من حمير، ومولده في مرو سنة (428 هـ = 1037 م)، تتلمذ لأحمد بن عطاش (من أعيان الباطنية) ورحل إلى أصفهان ومصر، وأكرمه المستنصر الفاطمي وعاد إلى الجزيرة والشام وبلاد الروم ورجع إلى خراسان ودخل كاشغر وماوراء النهر؛ داعيا للمستنصر، ودخل قلعة الموت وطرد صاحبها وضم إليها عدة قلاع، واعتد الاغتيال السياسي وسيلة للتخلص من أعداء طائفته، وكان أول من قتله رجاله هو الوزير نظام الملك، رائد البعث الإسلامي في القرن (5 هـ = 11 م). وقد كان الحسن بن الصباح داهية شجاعاً، عالماً بالهندسة والحساب والسحر، وكانت له آثاره الفكرية في

علم الكلام، وقد أجهَّ الإسماعيلية النزارية، وساروا على نهجه.  
وكانت وفاته في سنة (518 هـ = 1124 م).

(459/10)

---

### \*الحسن القرمطي

الحسن بن الصباح بن علي الإسماعيلي، صاحب الدعوة النزارية،  
وجد أصحاب قلعة الموت، ومن كبار الزنادقة ودهاة العالم، ومن  
أعيان الباطنية في عهد ملكشاه السلجوقي، ثم كان مقدم  
الإسماعيلية بأصفهان، أصله من مرو، وقيل يمان من حمير،  
ومولده في مرو سنة (428 هـ = 1037 م)، تتلمذ لأحمد بن عطاش )  
من أعيان الباطنية) ورحل إلى أصفهان ومصر، وأكرمه  
المستنصر الفاطمي وعاد إلى الجزيرة والشام وبلاد الروم ورجع  
إلى خراسان ودخل كاشغر وماوراء النهر؛ داعياً للمستنصر،  
ودخل قلعة الموت وطرد صاحبها وضم إليها عدة قلاع، واعتبر  
الاغتيال السياسي وسيلة للتخلص من أعداء إسماعيليته، وكان  
أول من قتله رجاله هو الوزير نظام الملك، رائد البعث الإسلامي  
في القرن (5 هـ = 11 م). وقد كان الحسن بن الصباح داهية  
شجاعاً، عالماً بالهندسة والحساب والسحر، وكانت له آثاره  
الفكرية في علم الكلام، وقد أجهَّ الإسماعيلية النزارية، وساروا  
على نهجه. وكانت وفاته في سنة (518 هـ = 1124 م).

(460/10)

---

### \*ابن الجوزي (أبو الحاسن)

هو محي الدين يوسف بن عبد الرحمن بن علي بن الجوزي أبو  
الحاسن، فقيه حنبلي وواعظ، والده أبو الفرج بن الجوزي

ووالدته خاتون بنت عبد الله، ينتهي نسبه عند أبي بكر الصديق.  
وُلد سنة (580 هـ = 1185 م) في بغداد في بيت علم فتلقى عن والده الذى برع في علوم شتى وقرأ القرآن وحفظه بالقراءات العشر على ابن الباقلاني وتعلم لأشهر علماء عصره، مثل أبي القاسم الخفاف ويحيى بن سعد وأبي الفرج بن عبد الوهاب الحرائى وابن سكينه. مات أبوه ولم يبلغ السابعة عشرة من عمره فكفلته والده الخليفة (أحمد بن المتوكل) وورث فن الوعظ عن والده وظل نابغاً حتى قُلبد الحسبة، وكان عمره (23) سنة، إلا أنه صرف عنها، ثم أعيد إليها حتى عزل، وكان مشهوراً بالعقل وحسن التدبير، لذا أرسل في سفارات من لدن دار الخلافة إلى عدد من الممالك مثل الروم ومصر ودمشق، وكان محباً للعلم فأنشأ المدارس وأوقف لها أملاكاً، انتدب للتدريس في أرقى أكاديمية علمية في العصور الوسطى وهى المدرسة المستنصرية، وكان الخليفة المستنصر يحضر لسماعه من خلف شبك، ثم اختير لمنصب أستاذ دار الخلافة. أما تلاميذه فلا حصر لهم وأشهرهم أولاده الثلاثة (عبد الرحمن وعبد الله وعبد الكريم). قال عنه ابن رجب الحنبلى: اشتغل بالفقه والخلاف والأصول ويرع في ذلك وكان أمهر فيه من أبيه. وأهم مؤلفاته: معدن الإبريز في تفسير الكتاب العزيز، والإيضاح لقوانين الإصلاح في الجدل والمناظرة، والمختار من أخبار المختار - صلى الله عليه وسلم -، واستشهد محيى الدين هو وأولاده الثلاثة على يد التتار في صفر سنة (656 هـ = 1258 م).

(461/10)

\*جرير بن عطية

هو أبو حزة جرير بن عطية بن حذيفة الخطفى بن بدر بن سلمة

الكلبي اليربوعي من تميم، أمه أم قيس بنت سعد الكلبية اليربوعية. وُلد باليمامة سنة (28 هـ = 640 م) لسبعة أشهر فعيه الفرزدق بذلك. اتفقت العرب على أن أشعر أهل الإسلام ثلاثة: جرير والفرزدق والأخطل، وكان جرير أكثرهم معرفة لفنون الشعر، وأسهلهم ألفاظاً، وأقلهم تكلفاً، وكان ديباً عفيفاً، عاش يناضل شعراء زمنه، ومع ذلك فكان هجاءً مرّاً في شعره: إذ بينه وبين الفرزدق مهاجاة ونقائض، وقال عن الأخطل: إنه ليهجوني معه خمسون شاعراً. ولما مات الفرزدق سنة (110 هـ = 728 م) وبلغ خبره جريراً بكى وقال: أما والله إني لأعلم أني قليل البقاء بعده ... وقلّما مات ضد أو صديق إلا وتبعه صاحبه وقد كان. وتوفى باليمامة سنة (110 هـ = 728 م) وجمعت نقائضه مع الفرزدق في ثلاثة أجزاء وديوان شعره في جزأين.

(462/10)

#### \*ابن الجوزي (أبو الفرج )

هو أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي الجوزي، فقيه حنبلي وواعظ ومفسر، ينتهي نسبه عند الخليفة الأول أبي بكر الصديق، رضى الله عنه، عرف جدهم بالجوزي لجوزة كانت في داره بواسطة وقيل لتجارته في الجوز، وعرف أيضا بالصفار لتجارة أسرته في النحاس، ولد في بغداد، وتاريخ ميلاده غير معروف على وجه الدقة، مات أبوه وعمه ثلاث سنوات وتولت عمته تربيته، ثم حفظ القرآن على يد خاله وسمع منه الحديث قرابة ثلاثين عاماً، وكان شغوفاً بالعلم، واشتغل بفنونه كلها، ونشأ في بغداد فأخذ عن أحمد بن أحمد المتوكل وأحمد بن علي البناء وابن الطبر الحيرى، وأخذ القراءات عن أحمد بن الحسين وأبي منصور بن خيرون، وجلس إلى إبراهيم بن دينار

وأخذ اللغة عن الجواليقي والفقهاء عن أحمد بن محمد الدينوري  
وأبي الحسن الزاغوني وغيرهم حتى إنه تلقى عن ثلاث من  
النساء. وجلس للوعظ وهو دون العشرين، وكان يحضر مجلسه  
آلاف، يستعدون لدرس العصر منذ الضحى، فيهم الخلفاء والوزراء  
من وراء ستار، وكان ذكيًا حاد الذكاء، محبًا للخلو، ناصحًا  
للخلفاء، يكره أذعبياء التصوف ومخالفى الشريعة، لم يسلم من  
الطعن والتجريح حتى سجن وأوذى، وكان قد تجاوز الثمانين،  
فصبر واحتسب، وكان محافظًا على وقته، كثير التأليف، يؤلف  
الكتاب ولا يرجع إليه لتنقيحه بل يشتغل بغيره. ومن مؤلفاته:  
المغنى، وزاد المسير في علم التفسير، وتذكرة الأريب في  
تفسير الغريب، ومنهاج الوصول إلى علم الأصول، والمنتظم في  
تاريخ الأمم والملوك، والإنصاف في رسائل الخلاف، والمنفعة  
في المذاهب الأربعة، وبحر الدموع، وصفة الصفوة، وتلبس  
إبليس، وصيد الخاطر، والوفا بأخبار المصطفى، ومؤلفات كثيرة  
أخرى. وأبرز تلاميذه ابنه محبي الدين يوسف وسبطه شمس  
الدين يوسف. قال عنه الذهبي: ما رأيت أحدًا من العلماء صنّف ما  
صنّف هذا الرجل. وتوفّي يوم الجمعة 12 من رمضان سنة (597 هـ

(463/10)

---

= 1201 م) عن عمر يناهز (87) عامًا وكانت جنازته مهيبة حضرها  
الآلاف.

(464/10)

\*مقاتل بن سليمان

هو مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي، الخراساني، أبو الحسن

البلخي، صاحب التفسير، أصله من بلخ، انتقل إلى البصرة،  
ودخل بغداد فحدّث بها. قال عنه ابن عدى: عامة حديثه لا يتابع  
عليه، على أن كثيراً من الثقات والمعروفين قد حدث عنه، ومع  
ضعفه يكتب حديثه، وقال ابن حبان كان يأخذ عن اليهود  
والنصارى علم القرآن الذي يوافق كتبهم. من مصنفاته: التفسير  
الكبير، ونوادير التفسير، والرد على القدرية، ومتشابه القرآن،  
والناسخ والمنسوخ، والقراءات، والوجوه والنظائر. تُوفي مقاتل  
بالبصرة سنة (150 هـ = 767 م).

(465/10)

---

#### \*الخصين بن نمير

هو الخصين بن نمير بن فاتك، أبو عبد الرحمن، الكندي، ثم  
السكوني: قائد أموى من أهل حمص. روى عن بلال، وروى عنه  
ابنه يزيد، كان بدمشق حين عزم معاوية على الخروج إلى  
صفين، وخرج معه. وولى الصافية ليزيد بن معاوية، وكان أميراً  
على جند حمص. وكان فى الجيش الذى وجهه يزيد إلى المدينة  
لقتال أهل الحرة، وأمر مسلم بن عتبة أن يخلفه الخصين بن نمير  
على الجيش إن نزل به الموت، فمات مسلم بين مكة والمدينة،  
فحاصر عبد الله بن الزبير بمكة، ورمى الكعبة بالمنجنيق،  
وجاءه خبر موت يزيد بن معاوية، فأخذ الأمان من ابن الزبير،  
ودخل الحرم، ثم رحل إلى الشام. وقوم حصين السكون خرجت  
منهم فتن كثيرة؛ فقد كان منهم من غزا عثمان، ومنهم قاتله  
سودان بن حمران، ومنهم ابن ملجم قاتل على. وقد قتل حصين  
عام الخازر سنة (67 هـ = 686 م) مع عبيد الله بن زياد، قتلها  
إبراهيم بن الأشر.

(466/10)

### \*الأحنف بن قيس

هو الضحاك بن قيس بن معاوية بن حصين المرى السعدى، أبو  
بجر، أحد كبار التابعين وواحد من حكماء العرب وخطبائهم،  
ولقب بالأحنف لحنف كان برجله: أى اعوجاج. ولد فى البصرة  
سنة (3 ق. هـ = 69 م). لم ينل شرف صحبة النبى - صلى الله عليه وسلم - ولا رؤيته،  
ولكن النبى - صلى الله عليه وسلم - دعا له بالخير حين أرسل النبى - صلى الله عليه وسلم - رجلاً  
إلى بنى سعد

رهب الأحنف يعرض عليهم الإسلام، فقال الأحنف لقومه: إنه يدعو

إلى الخير ويأمر بالخير وحين بلغ النبى - صلى الله عليه وسلم - ذلك قال لهم: اللهم اغفر

للأحنف. شارك الأحنف فى الفتوحات الإسلامية لبلاد فارس؛ حيث

شهد فتح الأهواز ومناذر ونهر تبرى سنة (17 هـ = 638 م)، وقد

أخذ الخليفة عمر بن الخطاب برأى الأحنف فى انسياح المسلمين

فى بلاد فارس وفتحها. وفى سنة (22 هـ = 664 م) غزا الأحنف

بلاد خراسان، وتمكن من فتح هراة عنوة، ثم دخل مرو

الشاهجان فاتحاً، ثم هزم يزدجرد - ملك الفرس - فى بلخ، وبذلك

بسط نفوذه على خراسان، وفى عهد عثمان بن عفان اشترك

الأحنف فى إعادة فتح خراسان سنة (31 هـ = 651 م). وحين

نشبت الفتنة بعد مقتل عثمان بن عفان، اعتزل الأحنف الناس ولم

يشترك فى موقعة الجمل سنة (36 هـ = 656 م)، إلا أنه اشترك

مع على بن أبى طالب فى معركة صفين، وكان الأحنف موضع

تقدير خلفاء الدولة الأموية وإجلالهم، وقد اشترك فى قتال

المختار الثقفى سنة (67 هـ = 686 م). وكان الأحنف من

المشهورين بالحلم والأناة حتى صار يُضرب به المثل أحلم من

الأحنف. وتوفى الأحنف بالكوفة سنة (67 هـ = 686 م)، وقيل

سنة (72 هـ = 691 م).

### \*أبو إسحاق المروزي

هو أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن إسحاق المروزي. أحد أئمة الفقهاء الشافعية، وإمام عصره في الفتوى والتدريس في القرن (4 هـ = 10 م)، وإليه ينسب درب المروزي ببغداد. ولد في مرو (قصة خراسان)، ونشأ في بغداد، وتلقى تعليمه فيها فتفتق عن عقل راجح، وبصيرة ثاقبة، وأخذ الفقه عن أبي العباس بن سريج وقيل: شريح، فبرع فيه، ولم يلبث أن آلت إليه رئاسة الشافعية بالعراق بعد وفاة ابن سريج. وأثنى عليه علماء عصره ومن بعدهم؛ حيث كان إماماً جليلاً، غواصاً على المعاني، ورعاً، زاهداً، وقد انتشر الفقه عن أصحابه في مختلف البلاد، فقبل: خرج من مجلسه إلى البلاد سبعون إماماً ينشرون العلم. انتقل في آخر حياته إلى مصر وأقام بها، وعرفت له عدة مصنفات، فشرح مختصر المزني شرحين، وصنف في أصول الفقه والشروط. وتوفي المروزي في مصر سنة (340 هـ = 951 م).

(468/10)

### \*أسد الدين شيركوه

هو أسد الدين شيركوه بن شاذى بن مروان، من أسرة الأيوبيين الأكراد المشهورة، وأول من ولي مصر منهم، يلقب بالملك المنصور، ويعرف في التاريخ باسم المنصور شيركوه ولفظة شيركوه لفظة فارسية معناها: أسد الجبل. ولد في قرية دُوبين (بلدة من إقليم أذربيجان)، وأصله من قبيلة الروادية، إحدى قبائل الأكراد، ونشأ بقلعة تكريت (قلعة حصينة في غربي نهر دجلة ببغداد)؛ حيث كان أبوه نقيباً عليها، ثم انتقل إلى الموصل

ودخل هو وأخوه نجم الدين أيوب في طاعة عماد الدين زنكى  
فشملمها بعطفه ورعايته. وبعد وفاة عماد الدين زنكى تولى  
نور الدين محمود الأمر من بعده، وحظى أسد الدين وأخوه نجم  
الدين عنده بمنزلة رفيعة ومكانة عالية، فاشتركا معه في قتال  
الصلبيين، فأظهر أسد الدين براعة وشجاعة، دفعت نور الدين  
إلى تقريبه إليه، وجعله أكبر قواد جيشه، واستعان به في كثير  
من المهام العسكرية الخطيرة وبخاصة في مصر، وواجه  
الصلبيين فيها أكثر من مرة، وردهم على أعقابهم، ولم يلبث  
الخليفة الفاطمي العاضد بالله أن أعجب به فالتقاه سرًا وطلب  
منه الخليفة أن يقتل وزيره شاور؛ لأنه سبب الفساد وكثير  
الموالاة للصلبيين وهو الذى استدعاهم إلى مصر، فقتله أسد  
الدين وأرسل برأسه إلى الخليفة الذى لم يلبث أن أسند إليه  
الوزارة، ولقبه بالملك المنصور، وكتب للناس منشورًا بذلك. ولكن  
لم يمكث أسد الدين فى الوزارة طويلاً؛ إذ وافته المنية بعد أشهر  
قليلة فى (جمادى الآخرة 564 هـ = مارس 1169 م) بعد أن عهد  
بالوزارة إلى ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي.

(469/10)

#### \*شيركوه بن شادى

هو أسد الدين شيركوه بن شادى بن مروان، من أسرة الأيوبيين  
الأكراد المشهورة، وأول من ولى مصر منهم، يلقب بالملك  
المنصور، ويعرف فى التاريخ باسم المنصور شيركوه ولفظة  
شيركوه لفظة فارسية معناها: أسد الجبل. ولد فى قرية دوين  
(بلدة من إقليم أذربيجان)، وأصله من قبيلة الروادية، إحدى  
قبائل الأكراد، ونشأ بقلعة تكريت (قلعة حصينة فى غربى نهر  
دجلة ببغداد)؛ حيث كان أبوه نقيباً عليها، ثم انتقل إلى الموصل

ودخل هو وأخوه نجم الدين أيوب في طاعة عماد الدين زنكى  
فشمليهما بعطفه ورعايته. وبعد وفاة عماد الدين زنكى تولى  
نور الدين محمود الأمر من بعده، وحظى أسد الدين وأخوه نجم  
الدين عنده بمنزلة رفيعة ومكانة عالية، فاشتركا معه في قتال  
الصلبيين، فأظهر أسد الدين براعة وشجاعة، دفعت نور الدين  
إلى تقريبه إليه، وجعله أكبر قواد جيشه، واستعان به في كثير  
من المهام العسكرية الخطيرة وبخاصة في مصر، وواجه  
الصلبيين فيها أكثر من مرة، وردهم على أعقابهم، ولم يلبث  
الخليفة الفاطمي العاضد بالله أن أعجب به فالتقاه سرًا وطلب  
منه الخليفة أن يقتل وزيره شاور؛ لأنه سبب الفساد وكثير  
الموالات للصلبيين وهو الذى استدعاهم إلى مصر، فقتله أسد  
الدين وأرسل برأسه إلى الخليفة الذى لم يلبث أن أسند إليه  
الوزارة، ولقبه بالملك المنصور، وكتب للناس منشورًا بذلك. ولكن  
لم يمكث أسد الدين فى الوزارة طويلاً؛ إذ وافته المنية بعد أشهر  
قليلة فى (جمادى الآخرة 564 هـ = مارس 1169 م) بعد أن عهد  
بالوزارة إلى ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي.

(470/10)

#### \*أسد بن الفرات

هو أبو عبد الله أسد بن الفرات بن سنان الحرّاني، قاضى  
القيروان، وأحد أئمة الفقه المالكي، وواحد من القادة المسلمين  
الفاحين البارزين فى القرن (3 هـ = 9 م). ولد بجران سنة (142  
هـ = 759 م)، وقيل: إن أصله من نيسابور (فى إيران حالياً)  
وقدم القيروان مع أبيه وهو صغير، فتلقى دراسته الأولى فيها،  
ورحل مع أبيه إلى تونس، ولزم الفقيه المعروف على بن زياد.  
بدأ رحلته العلمية إلى المشرق سنة (172 هـ = 788 م). فنزل

المدينة، وأخذ عن عالمها الشهير الإمام مالك بن أنس، رضى الله عنه، موطأه، ثم رحل إلى العراق وأخذ وروى عن عدد كبير من علمائها، مثل أبي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني صاحبي أبي حنيفة، رضى الله عنه، ثم نزل مصر ولزم الفقيه المالكي عبد الرحمن بن قاسم وجمع أجوبته عن الأسئلة التي وجهها إليه في الفقه في كتاب عُرف بالأسدية. قدم القيروان سنة (181 هـ = 797 م) فسمع منه علماؤها، وأشركه واليها زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب في قضائها مع أبي محرز محمد سنة (203 هـ = 818 م)، ثم لم يلبث أن ولاه قيادة الجيش المتجه إلى صقلية لفتحها وطرد البيزنطيين منها وإعادتها إلى ديار الإسلام، فآتم أسد مهمته بنجاح منقطع النظر سنة (212 هـ = 827 م)، وحاول فتح سرقوسة فحاصرها عامًا كاملاً، ولكنه لم يتمكن من فتحها؛ إذ وافته المنية أثناء الحصار، فتوفّي سنة (213 هـ = 828 م).

(471/10)

### \*الإسكندر الأكبر

هو الإسكندر الثالث بن فيليب المقدوني ملك مقدونيا، إحدى دويلات بلاد اليونان، وأحد رجال الحرب البارزين في التاريخ القديم. ولد في العقد السادس من القرن الرابع قبل الميلاد تقريباً، وتلقى تعليمه على يد الفيلسوف الشهير أرسطو، وآل إليه عرش مقدونيا سنة (336 ق. م) وهو في العشرين من عمره، فأظهر براعة في الحكم، ودانت له معظم الدويلات اليونانية، وطال صراعه مع الإمبراطورية الفارسية، أملاً في القضاء عليها، لثأر قديم بينها وبين الإمبراطورية اليونانية، وتعددت المعارك بينهما مثل معركة جراتيكوس وأسوس، وجاؤ جميلًا، إلى أن تمكّن الإسكندر من دخول العاصمة سوسة سنة (331 ق. م)، معلناً بذلك

سقوط الإمبراطورية الفارسية. وكان الإسكندر طموحًا كثير المعارك، استطاع أن يصنع لنفسه أكبر إمبراطورية عرفها التاريخ، فاستولى في اتجاه الشرق على صور وغزة، ودخل مصر، فأحاطت به دعاية بنوته لآمون، أحد الآلهة التي عبدها المصريون قديمًا، ونجحت هذه الدعاية بتشجيع منه، فأكسبته قداسة وسط جماهير الشعب، فحمل لقبًا فرعونيًا، وأعلن الكهنة أنه ابن الإله، ونقشت صورته على العملات مزينة بقرني كبش آمون المقدس، ولذلك لقبه بعض مؤرخي العرب بلقب الإسكندر ذى القرنين. وفي سنة (331 ق. م) ترك مصر واتجه إلى بابل، ثم واصل جهوده الحربية، فوصل إلى شواطئ بحر قزوين، واستولى على أفغانستان وبلاد ما وراء النهر وسمرقند الحالية، ووصل إلى الهند، وأصابه جنون العظمة لاتساع ملكه وكثرة انتصاراته، فكان يقتل أعوانه لأقل شبهة، ولم يلبث جنوده أن أعلنوا تمردهم وتدميرهم، نتيجة للجهود الحربية المضنية والمعارك الكثيرة التي خاضوها، وطالبوا بالعودة إلى بلادهم، فوافق على ذلك، وأثناء العودة أصيب بالحمى عند بابل، ومات فجأة سنة (323 ق. م) وهو في عامه الثالث والثلاثين، وبعد أن أقام أكبر إمبراطورية عرفها التاريخ.

(472/10)

### \*إسحاق الموصلی

هو أبو محمد إسحاق بن إبراهيم بن ميمون وقيل: هو ماهان بن بهمن بن نسل التميمي، من أشهر المغنين الذين صاحبوا الخلفاء العباسيين في القرن (3 هـ = 9 م). ولد سنة (155 هـ = 772 م) لأب ترجع أصوله إلى الفرس، ونشأ في كنفه؛ حيث كان مقربًا من الخلفاء لبراعته في الغناء. اجتهد إسحاق في طلب العلم،

فروى الحديث عن أعلامه آنذاك، وأخذ الأدب عن الأصمعي المتوفى سنة (216 هـ = 831 م)، وبرع في اللغة، فشهد له أهل البادية بالفصاحة والعلم باللغة. وقد اعتلى إسحاق قمة الغناء في عهود ستة من الخلفاء العباسيين، وهم الرشيد، والأمين، والمأمون والمعتمد والواثق، والمتوكل، وقيل: إنه أول من ضبط الأوزان وصحح الأجناس التي تبنى عليها مقامات الموسيقى العربية، وميز طرائقها، وكان لا يأخذ الموسيقى ارتجالاً كعادة أمثاله في ذلك العصر، وإنما أخذها باعتبارها علماً له قواعد وأصول. وتشير الدراسات الحديثة إلى أن هناك احتمالاً قوياً أن يكون إسحاق قد توصل إلى طريقة الكتابة الموسيقية (النوتة الموسيقية)، ولكنها لم تصل إلينا. وعُرف بالشعر، فكان شاعراً مجيداً، وروى عنه عدد من التلاميذ، وله عدد من المؤلفات، منها كتاب أغانيه التي غنى بها، وكتاب أخبار المغنين المكيين، وكتاب الاختيار الذي صنفه للخليفة العباسي الواثق. توفي إسحاق الموصلى سنة (235 هـ = 850 م) في خلافة المتوكل على الله العباسي.

(473/10)

### \*المقدسي

هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، المعروف بالبناء، وبالبيشاري، وبالشامي، وبالمقدسي. ولد سنة (335 هـ = 946 م) ومهدت له وشائج النسب والقربى وحدها تعرف نصف رقعة العالم الإسلامي، ودفعه ولعه بالأسفار إلى التجوال في أنحاء العالم حتى صنف كتابه الجغرافي الضخم: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم وكان يتنكر في رحلاته ويغير اسمه ليتمكن من الدخول في الطوائف المختلفة ويدرسها عن قرب.

وهو رحالة دقيق التوصيف لما يرى، وناقد بصير لما يسمع،  
ويَعده الجغرافيون أكبر جغرافي عرفته البشرية قاطبة. رسم  
المقدسى خرائط مستقلة لكل قسم من الأقسام الأربعة التي قسم  
إليها العالم الإسلامى، واستخدم فيها طرقاً لتمثيل الظواهر  
الجغرافية المختلفة. وتوفى سنة (390 هـ = 1000م).

(474/10)

---

### \*أبو إسحاق الصابئ

هو إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الحراني، أبو إسحاق  
الصابئ، نابغة كتاب جيله. ولد سنة (313 هـ = 925 م)، تقلد  
دواوين الرسائل والمظالم في أيام المطيع لله العباسى، ثم معز  
الدولة الديلمي، ثم ابنه عز الدولة بختيار الذى ما إن قُتل حتى  
قبض عضد الدولة على الصابئ سنة (367 هـ = 977 م) ثم أطلق  
صمصام الدولة بن عضد الدولة سنة (371 هـ = 981 م) سراحه.  
وكان صلباً في دين الصابئة، وقد عرض عليه عز الدولة الوزارة  
إن أسلم، فامتنع، وكان يحفظ القرآن ويشارك المسلمين صوم  
رمضان. أحبه الصاحب بن عباد والشريف الرضى، وكان بينهم  
مراسلات أدبية إخوانية. وقد مات على كفره ببغداد يوم الاثنين  
أو الخميس (12 من شوال سنة 384 هـ = 30 من نوفمبر 993م) عن  
(71) سنة.

(475/10)

---

### \*أرسلان بن سلجوق

هو أرسلان بن سلجوق بن تغلق أو دقاق أو يقاق. هاجر أبوه  
من تركيا إلى بخارى واعتنق الإسلام وخلف أولاداً، وهم

ميكائيل، وموسى، وأرسلان المدعو إسرائيل أويغو وكان أقوى هؤلاء الأبناء، وساند على تكين ضد السلطان محمد الغزنوى حتى أسر في إحدى المعارك سنة (420 هـ = 1029 م)، وتوفي عام (427 هـ = 1035 م).

(476/10)

### \*ألب أرسلان

هو أبو شجاع محمد بن جفري بك داود بن ميكائيل بن سلجوق التركي، عضد الدولة الملقب بألب أرسلان. ثاني سلاطين الدولة السلجوقية التركية الإسلامية التي حكمت مساحة كبيرة من العالم الإسلامي باسم الخلافة العباسية. ولد ألب أرسلان سنة (424 هـ = 1032 م) وقيل سنة (420 هـ = 1028 م)، ونشأ نشأة عسكرية دينية. وكان والده حاكمًا على خراسان، فأُسند إليه وهو في سن مبكرة قيادة الجيوش فأظهر شجاعة نادرة وانتصر في المعارك التي دخلها. ولما مات أبوه نحو سنة (451 هـ = 1059 م) تولى ألب أرسلان إمارة خراسان مكان أبيه. وبعد موت عمه السلطان طغرلبيك بايع أمراؤه ألب أرسلان بالسلطنة، وقلده الخليفة العباسي القائم بأمر الله السلطنة وضم إليه جميع أملاك السلاجقة وذلك سنة (455 هـ = 1063 م). وقد واجه ألب أرسلان عدة مشكلات داخلية تمثلت في أقاربه الطامعين في السلطنة، وفي غيرهم، ولكنه تمكن من السيطرة عليهم جميعًا. أما مشكلاته الخارجية فتمثلت في الجانب الشرقي من إمارته وقد استخدم في حلها الحرب تارة والسلم والموادعة تارة أخرى، وكانت هذه المشكلات من صاحب الكرج وخاقان بلاد ما وراء النهر. وبعد توطيده الأمن في الجانب الشرقي اتجه إلى الجانب الغربي فضم مكة المكرمة إلى سلطانه سنة (462 هـ = 1069 م)

وعظم سلطان ألب أرسلان وملك مصر والشام وخطب له على منابرهما. وخشيت الدولة البيزنطية على نفسها من وجود جار قوى لها، فأعد الإمبراطور أرمانوس جيشًا قوامه (200000) مقاتل لمحاربة ألب أرسلان. وخرج ألب أرسلان على رأس (15) ألف مقاتل مسلم والتقى الجيشان عند ملاذكرد سنة (463 هـ = 1070م) فحصد جيش ألب أرسلان جنود الروم وأسر ملكهم، ولأول مرة في التاريخ يأسر حاكم مسلم إمبراطورًا بيزنطيًا فأحسن معاملته وأطلق سراحه. وكانت هذه المعركة الفاصلة مقدمة الفتوحات الإسلامية في آسيا الصغرى. وعرف ألب أرسلان بشجاعته وفروسيته وحبه للجهاد ونصرة الإسلام

(477/10)

---

واشتهر بالجزم والحكمة والعدل والكرم والرحمة واحترام العلماء. ومات ألب أرسلان سنة (465 هـ = 1073م) في إحدى حروبه في بلاد ماوراء النهر، ودفن بمرو عند قبر أبيه وعمه.

(478/10)

---

**\*الأفشين**

هو حيدر بن كاوس، من أشهر القادة الأتراك في خلافة المعتصم بالله العباسي. والأفشين لقب كان يطلق على ملوك أشروسنة إحدى كور بلاد ماوراء النهر. كان أبوه حاكمًا على أشروسنة ووقع خلاف بينهما فترك حيدر بلدته ورحل إلى بغداد وتقرّب من الخليفة العباسي المأمون وشجعه على غزو أشروسنة وسهل له ذلك، ولما تم للمأمون فتحها وولاه عليها حاكمًا بعد أبيه. وبعد موت المأمون وتولّى المعتصم الحكم قرّب منه الأفشين واستعان

به في كثير من حروبه وجعله من كبار قواده، حتى إنه ولاه  
على جيش للقضاء على ثورة بابك الخرمي التي استعصت على  
جيش الخلافة منذ عهد المأمون، ونجح الأفشين في القضاء على  
تلك الحركة وأسر بابك الخرمي نفسه في بغداد فأعجب  
المعتصم بقدرة الأفشين وخلع عليه وشاحين مطرزين بالجواهر،  
ومنحه وجنده 20 مليون درهم. وكان الأفشين أحد قواد الفرق  
الثلاث في جيش المعتصم في فتح عمورية ببلاد الروم. بيد أن  
الأفشين أتهم بعد ذلك بالتآمر ضد الخلافة فعزل من منصبه  
وسجن وتوفي بالسجن سنة (226 هـ = 841 م).

(479/10)

### \*الأعمش

هو أبو محمد سليمان بن مهران الأسدي الملقب بالأعمش لضعف  
بصره، ويعد من صغار التابعين. ولد بقرية من قرى طبرستان  
بشمال إيران تسمى أمه وقيل ولد بالكوفة في عاشوراء سنة  
(61 هـ = 681 م). تعلم الأعمش بالكوفة فقرأ القرآن على يحيى  
بن وثاب مقرئ العراق حتى صار أقرأ أهل الكوفة، وأخذ  
الحديث عن أنس بن مالك الصحابي الجليل وقد رآه، كما روى  
عن بعض التابعين مثل سعيد بن جبير ومجاهد وإبراهيم  
النخعي. وبلغ الأعمش منزلة عالية في الحديث فروى عنه أبو  
حنيفة والأوزاعي ووكيع وسفيان بن عيينة. وله نحو 1300  
حديث. واشتهر الأعمش بين الناس بالقناعة وعزة النفس  
والشجاعة في الحق، وكثرة ذكره للموت. وعرف بين أصحابه  
ومعاصريه بظرفه وفكاهته. ومات الأعمش بالكوفة في ربيع  
الأول سنة (148 هـ = 765 م) وعمره يقارب ثمانين عامًا.

(480/10)

### \*أحمد المنصور الذهبي

هو أحمد بن محمد بن عبد الله عبد الرحمن بن علي السعدي الملقب بالمنصور بالله، يعرف أيضاً بالذهبي. رابع سلاطين الدولة السعدية بالمغرب الأقصى. ولد بمدينة فاس بالمغرب سنة (956هـ = 1549 م) ونشأ محباً للعلم وأهله، متديناً. تولى ولاية العهد وقيادة الجيش في عهد أخيه السلطان عبد الملك بن محمد واشترك معه في معركة وادي المخازن لقتال البرتغال، التي انتهت بهزيمة البرتغاليين ومقتل ملكهم، وأثناء المعركة مات أخوه السلطان عبد الملك فبويع أحمد بالسلطنة سنة (986هـ = 1578 م). بدأ أحمد حكمه بالقضاء على الفتن الداخلية التي نشبت بعد وفاة أخيه، أما في سياسته الخارجية فقد تمكن من ضم عدة مناطق إلى دولته مثل بلاد الصحراء تيكورارين، وتوات، وبلاد السودان، وتمبكتو، وتمكن من هزيمة البرتغاليين سنة (996هـ = 1588 م) واستعاد مدينة سبتة من أيديهم. واتصف أحمد المنصور بأنه كان سياسياً حاذقاً، محباً للفتح والجهاد، وأقام علاقات طيبة مع الدول الأوروبية توخى فيها مصلحة بلاده. وترك أعمالاً معمارية كبيرة، منها المسجد الكبير بمراكش وقصر البديع وحصنان في ثغر العرائس ومات أحمد المنصور بمراكش في (ربيع الأول 1012 هـ = أغسطس 1603م) ودفن بقبور الأشراف.

(481/10)

### \*إسماعيل بن جعفر الصادق

هو إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الملقب بإسماعيل الأعرج وإسماعيل الأمين.

تنسب إليه فرقة الإسماعيلية، إحدى فرق الشيعة الذين قالوا  
بإمامته بعد أبيه. ولد إسماعيل سنة (110 هـ = 728 م) بالمدينة  
المنورة لأبوين يمتد نسبهما إلى آل البيت رضوان الله  
عليهم. وكان لإسماعيل عدد كبير من الإخوة منهم عبد الله  
وموسى الكاظم المتوفى سنة (183 هـ = 799 م) والذي تقول  
بإمامته فرقة الإثنا عشرية الشيعية. وقد حدث بين أتباعه  
وأتباع أخيه موسى الكاظم خلاف حول من أحق بالإمامة بعد  
أبيه. وقيل إنه خلف من الأبناء محمدًا وعليًا وفاطمة الذين  
واجهوا اضطهادًا في خلافة العباسيين فاضطروا إلى التخفى  
والتنقل بين البلدان، فاستقر محمد بالرى وذهب أخوه على إلى  
بلاد المغرب وأخذ كل منهما ينشر دعواته بين الناس ليبشروا  
بمبادئه حتى قويت الفرقة المناصرة لها، والتي اشتهرت باسم  
الفاطميين، وقامت في بلاد المغرب ثم فتحت مصر واستقرت بها  
قراءة ثلاثة قرون فيما عرف باسم الدولة الفاطمية.

(482/10)

### \*الأرطوبون

الأرطوبون لفظة معربة تطلق على الرجل الداهية البعيد النظر أو  
المقدم في الحرب. وأرطوبون هو حاكم روماني لمدينة بيت  
المقدس إبان الفتح الإسلامي لها سنة (15 هـ = 636 م)، ولا يعرف  
شئ عن حياته ونشأته الأولى، وكل ما يعرف عنه أنه بعد  
ماهزم في معركة أجنادين أمام المسلمين سنة (15 هـ = 636 م)  
فر إلى مصر منضمًا إلى حكامها الرومان. ولما كان الفتح  
الإسلامي لمصر سنة (20 هـ = 641 م) حارب الأرطوبون ضد  
المسلمين وقتل.

(483/10)

## \*الأفضل بن بدر الجمالى

هو أبو القاسم أحمد بن بدر الجمالى الملقب بالملك الأفضل، أحد كبار وزراء الدولة الفاطمية بمصر فى عهد كل من الخليفة المستنصر بالله والمستعلى بالله والأمر بأحكام الله. ولد الأفضل بمصر سنة (458 هـ = 1066 م). كان أبوه بدر الجمالى وزيراً للخليفة المستنصر بالله وبعد موت بدر الجمالى حل ابنه الأفضل محله وبلغ منزلة رفيعة عند الخليفة ويتبين ذلك من الألقاب التى لقب بها مثل السيد الأجل وأمير الجيوش وسيف الإسلام. وفى فترة وزارته شهد المذهب الشيعى انقسامًا شديدًا حيث انقسم الفاطميون إلى فرقتين: 1 - نزارية نسبة إلى نزار بن المستنصر. 2 - المستعلية وهم المعروفون بالبهرة حاليًا فى اليمن والهند. وشهدت وزارته أيضًا ضعف سلطان الفاطميين فى بلاد الشام بسبب ظهور قوة الأتراك السلاجقة المسلمين السنيين، وازدياد نفوذ الصليبيين واستيلائهم على كثير من بلدان الشام. وأهم تلك الأحداث استيلائهم على بيت المقدس سنة (492 هـ = 1099 م) وقتلهم سبعين ألفًا من المسلمين. ومن أهم أعماله الداخلية نقله مقر الحكم سنة (501 هـ = 1106 م) من القصر الفاطمى بالقاهرة إلى مقر جديد بناه لنفسه على النيل جنوبى الفسطاط وأسماه دار الملك، كما أنشأ ديوانًا للمحاسبات سماه ديوان التحقيق كانت مهمته مراجعة الدواوين. ويُعد عهد هـ من العهود التى نعمت فيها مصر بالرخاء والاستقرار نسبيًا، حيث شهدت البلاد بعض الإصلاحات خاصةً فى مجال الزراعة والرى. ومات الأفضل مقتولاً سنة (515 هـ = 1121 م). وقيل إن من الأسباب التى يمكن أن يكون لها أثر فى قتله إلغاءه كثيرًا من مراسم الفاطميين الشيعية كاحتفال بالمولد النبوى ومولدى على بن أبى طالب وفاطمة الزهراء مما يعنى ضمنيًا ميله إلى مذهب أهل السنة.

### \*ألفونسو الثالث

هو ألفونسو بن أردون بن زدمير الأول الملقب بألفونسو الثالث أو ألفونسو الكبير، أحد ملوك مملكة غاليسيا وأستورياس الإسبانية. ولد سنة (234 هـ = 848 م) واشتهر بحروبه ضد المسلمين في الأندلس. وتولى الحكم سنة (252 هـ = 866 م) ولقب أيضاً بالعظيم بسبب استيلائه على كثير من أراضي المسلمين وتوسيع حدود مملكته على حسابهم، فاستولى على مدينة سمورة سنة (280 هـ = 893 م) واتخذها قاعدة للإغارة على الأراضي الإسلامية. وشجع بعض الثائرين المسلمين ضد حكومتهم مثل ابن حفصون. وقد قامت ضد ألفونسو بعض الثورات الداخلية بتحريض من إخوته ولكنه قضى عليها، وعرف عنه - على الرغم من ذلك - حبه للعلم والأدب فكان يصل العلماء بمودته وعطاياه. وبلغت درجة حبه للعلم أن عهد بتربية ولده إلى عدد من العلماء المسلمين. ومات ألفونسو سنة (298 هـ = 910 م)، وبعد وفاته سميت المملكة باسم مملكة ليون بعد أن كانت تسمى غاليسيا وأستورياس.

### \*ألفونسو الثامن

هو الهنشة بن شانجة بن الهنشة إنبرزور المشهور بألفونسو الثامن، ويعرف أيضاً بالنبييل، أحد ملوك مملكة قشتالة (إسبانيا) في القرن الثالث عشر الميلادي. اعتلى العرش وعمره ثلاث سنوات فتنابح الوصاية عليه عدد من الأمراء حتى بلغ الحادية

عشرة من عمره فأعلن ملكاً على قشتالة سنة (562 هـ = 1166 م). ومارس ألفونسو السياسة الإسبانية التقليدية بالحرب ضد المسلمين، وهاجم مراراً المناطق المحيطة بقرطبة وغرناطة وعاث فيها فساداً، ثم وضع خطة للاستيلاء على قرطبة وإشبيلية. غير أن ظهور دولة الموحدين كقوة إسلامية جديدة حدّ من آماله؛ إذ تمكنوا من هزيمته هزيمة كبيرة في موقعة الأرك سنة (591 هـ = 1194 م). ومات ألفونسو الثامن سنة (611 هـ = 1214 م).

(486/10)

### \*ألفونسو السادس

هو ألفونسو بن فرديناند الأول بن شانجة غرسيه. أحد ملوك قشتالة وليون بإسبانيا. ولد ألفونسو سنة (421 هـ = 1030 م)، ومات أبوه سنة (457 هـ = 1065 م)، فقسمت مملكته بين أبنائه الثلاثة فجعل ابنه الكبير شانجة حاكماً على قشتالة وألفونسو السادس حاكماً على ليون وأستورياس وابنه الصغير غرسيه حاكماً على جليقية والبرتغال، وسرعان ما دارت الحروب بين الإخوة الثلاثة، انتهت لصالح شانجة الذى قبض على أخيه ألفونسو وأودعه أحد الأديرة، ولكنه تمكن من الهرب إلى طليطلة لاجئاً عند ملكها المسلم يحيى بن إسماعيل الملقب بالمأمون فرحب به وأكرمه، وقضى ألفونسو بطليطلة تسعة أشهر درس فيها أحوالها تمهيداً للاستيلاء عليها. وبعد موت أخيه شانجة استدعى ألفونسو من طليطلة ليتولى الحكم فأصبح ملكاً على قشتالة وليون وجليقية بعدما قبض على أخيه غرسيه وسجنه بقية حياته، وهكذا أصبح ألفونسو ملكاً على إسبانيا كلها، وأخذ يعمل للاستيلاء على المدن الإسلامية واحدة تلو الأخرى، وأجبر كثيراً من ملوكها على دفع الجزية استهزاءً بهم،

ونقض عهده مع ملك طليطلة واستولى عليها سنة (478 هـ = 1085 م) وحوّل مسجدها إلى كنيسة وأحرق الكتب العربية بما وأجر المعتمد بن عباد حاكم إشبيلية وأعظم ملوك الطوائف آنذاك على دفع الجزية. وكان لتلك السياسة أثر كبير في إفاقة ملوك الطوائف الإسلامية واتحادهم؛ فأرسلوا إلى أمير دولة المرابطين بالمغرب يوسف بن تاشفين يستغيثون به، فعبر إليهم على رأس جيش كبير، والتقى مع ألفونسو السادس في معركة حاسمة هي معركة الزلاقة سنة (479 هـ = 1086 م) هزم فيها ألفونسو هزيمة ساحقة وفر هارباً. وتوفي ألفونسو سنة (503 هـ = 1109 م).

(487/10)

#### \*ألفونسو العاشر

هو ألفونسو العاشر بن فرناندو الثالث المعروف بالحكيم، أحد ملوك قشتالة بإسبانيا في القرن الثالث عشر الميلادي. ولد سنة (618 هـ = 1221 م)، واعتلى عرش قشتالة سنة (650 هـ = 1252 م)، وعمره واحد وثلاثون عامًا، وواصل جهود أبيه فرناندو الثالث في حربه ضد المسلمين بالأندلس؛ إذ كان يكن لهم عداءً شديداً وتمكن من الاستيلاء على مدينة قádiz سنة (659 هـ = 1261 م) وهي إحدى المدن الأندلسية التي كانت في أيدي المسلمين، وبلغ من شدة عدائه للمسلمين أنه كان يريد نقل الحروب الصليبية الدائرة في الأندلس إلى إفريقيا، ولقى التشجيع على مشروعه هذا من البابا إنوسنت الرابع والبابا إسكندر الرابع وأنشأ لهذا الغرض أحواضاً كبيرة لبناء السفن في إشبيلية التي كانت قد سقطت في أيدي الإسبان. وقد خُلع عليه لقب الحكيم لاهتمامه بالآداب والعلوم، وشكل لجنة لوضع

مجموعة القوانين الخاصة بمملكته، وكتابة تاريخ إسبانيا العام، وقد ونقل كثيراً من النصوص العربية إلى القشتالية في علوم مختلفة، وكتب بنفسه عددًا من القصائد الشعرية خاصة في مدح السيدة مريم العذراء. وتوفي ألفونسو الحكيم سنة (683 هـ = 1284 م).

(488/10)

### \*إليزابيث

هي الملكة إليزابيث ابنة الملك هنرى الثامن ملك إنجلترا من زوجته غير الشرعية آن بولين التي اتهمت بالخيانة فأعدمت. ولدت إليزابيث سنة (940 هـ = 1533 م)، وأتمت في بداية حياتها بأنها ابنة غير شرعية، وحرمت من حق اعتلاء العرش ولكن هذا القرار ألغى سنة (951 هـ = 1544 م) وصار لها الحق في وراثة العرش بعد أختها غير الشقيقة الملكة ماري. ولما تولت الحكم الملكة ماري سجنها لاختلافها معها في المذهب؛ حيث كانت إليزابيث تعتنق المذهب البروتستانتي وتتحمس له، بينما كانت ماري كاثوليكية متعصبة. ونجحت إليزابيث في التظاهر باتباع الطقوس الكاثوليكية فأطلقت أختها سراها. وتحسنت العلاقة بين الأختين حتى ماتت ماري في (صفر 966 هـ = نوفمبر 1558 م)، فتولت إليزابيث العرش، واستقبل الناس حكمها بالفرح والسرور لما ذاقوه من قسوة واضطرابات في عهد الملكة ماري التي لقت بالدموية لما ارتكبتته من مذابح ضد شعبها. تولت إليزابيث الحكم والبلاد تمر بحالة من الفوضى والاضطراب وسوء الأحوال بسبب الشقاق الديني الذي كلف البلاد كثيراً من المتاعب والديون. ونجحت إليزابيث خلال مدة حكمها التي دامت ما يقرب من نصف قرن في الحفاظ على كيان دولتها والارتقاء بها بين

دول العالم، وكان عهدها أزهى عهود إنجلترا، فتحسنت أحوال الزراعة والصناعة والتجارة، وكان لها أسطول قوى، وبدأت مرحلة التوسع والاستعمار، وحسنت علاقاتها بالدول الخارجية، في حين تمكنت من هزيمة إسبانيا وإضعاف مركز فرنسا الدولي، وأعدت الاستقرار والاطمئنان للبلاد بعد الفوضى الدينية التي شهدتها، وأصدرت قوانين صارمة ضد الكثلكة. وظهرت قدرة إليزابيث الفائقة وقوة ذكائها في اختبارها لمستشاريها ووزرائها الذين كانوا على درجة عالية من الكفاءة والحنكة، وقد ساعدوها في إتمام أعمالها. وقد ظهر في عهدها أبرز علماء أوروبا مثل شكسبير، وسبنسر، وبيكر، وغيرهم. وماتت

(489/10)

---

إليزابيث سنة (1012 هـ = 1603 م) ووُصفت بالذكاء الخارق والشجاعة وضبط النفس والاعتدال في تصرفاتها والحذر، كما كانت حريصة على التعلم وطلب العلم وكانت تتحدث عدة لغات بطلاقة هي الفرنسية والإيطالية والإنجليزية واليونانية، وتعمقت في دراسة اللاهوت، خاصة المذهب البروتستانتي.

(490/10)

---

### \*أندرونيكوس الثالث

هو أندرونيكوس باليولوجس إمبراطور بيزنطي، وأحد أفراد أسرة باليولوجس البيزنطية التي حكم الإمبراطورية البيزنطية منها عدد من الأباطرة (1261 م - 1453 م). وشهدت الإمبراطورية في عهده فترات من الضعف، نجح خلالها السلطان العثماني أورخان بن عثمان في مهاجمة مدينة نيقية التي كانت بمثابة

العاصمة الثانية للإمبراطورية وأسرع أندرونيكوس للدفاع عنها  
ولكن الهزيمة حلت به سنة (730 هـ = 1329 م)، وفتح العثمانيون  
المدينة في العام التالي. وامتد حكم أندرونيكوس حتى سنة  
(1341 م) ولا تعرف سنة موته.

(491/10)

### \*أندرى دوريا

هو أندرى دوريا، قائد بحرى شهير، ولد سنة (871 هـ = 1466 م)، ويعود أصله إلى أسرة جنوية (من جمهورية جنوة بإيطاليا) عريقة في المجد والشرف، واشتهر منهم عدد كبير من القادة البحريين، أشهرهم أندرى دوريا. عمل أندرى دوريا بجنوده البحريين في خدمة شارلكان الإمبراطور الروماني ضد ملك فرنسا فرانسوا الأول ثم انضم إلى فرانسوا وحارب شارلكان وانتصر عليه. غير أن شهرته في التاريخ تعود إلى جهوده المتواصلة في حرب المسلمين وقتال السفن الإسلامية في البحر المتوسط ومهاجمة سواحل شمال إفريقيا خاصة. وقد انحاز أندرى دوريا إلى الإمبراطور شارلكان لمقاتلة سفن العثمانيين مقابل اعتراف شارلكان باستقلال بلدته جنوة وتم له ذلك، ودارت بينه وبين الأسطول العثماني معارك عديدة كان أشهرها معركة بروزة في (جمادى الأولى 945 هـ = سبتمبر 1538 م) التي منى فيها بهزيمة ساحقة أمام الأسطول العثماني بزعامه خير الدين بربروسا. وفي نهاية حياته اشتغل أندرى بتنظيم جمهورية جنوة فلقبه الجنويون (أبا الوطن) وأقاموا له نصبًا ضخماً كتب تحته (إلى أبي الوطن). وتوفي أندرى في (جمادى الأولى 968 هـ = نوفمبر 1560 م) إثر وصول نبأ هزيمة أسطوله أمام الأسطول العثماني في ميناء جربة بتونس.

**\*ابن النديم**

هو أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق الوراق النديم البغدادى مؤرخ، وصاحب كتاب الفهرست أقدم كتب التراجم وأفضلها. وُلد أبو الفرج ببغداد سنة (325 هـ = 937 م) ونسب إليها، وكان أبوه وراقًا، فتعلم منه ابنه هذه الصنعة، وبرع فيها، كما تتلمذ فى علوم الحديث والفقه واللغة والأدب والتاريخ والمنطق لأشهر علماء عصره، ومنهم أبو سعيد السيرافى وأبو الفرج الأصفهاني والحسن بن سوار الخمار وإسماعيل بن محمد الصفار. وكان أبو الفرج معتزليًا متشيعًا. كما اشتهر بسعة الإطلاع، وساعده على ذلك طبيعة عمله وراقًا، حيث أتاحت له أيضًا الاتصال بالطبقة المثقفة فى مجتمعه وتوثيق الصلة بهم، وساعدته بعد ذلك على التصنيف. وتعود شهرته إلى كتاب الفهرست الذى انتهى منه سنة (377 هـ = 987 م) وقد صنف فيه للعلوم المعروفة فى عصره وما كتب حولها. ويعد هذا الكتاب من أقدم كتب التراجم وأفضلها، فقد لخص فيه التراث الفكرى الإسلامى وجمع فيه أسماء الكتب التى صنفت حتى أواخر القرن الرابع الهجرى، ويعد أول عمل بليوغرافى ألف بالعربية.

**\*أورنك زيب**

هو أبو المظفر محمد محيى الدين أحد سلاطين الدولة المغولية الإسلامية فى شبه القارة الهندية. اشتهر باسم أورنك زيب أو أورنج زيب وتعنى زينة العرش، كما اشتهر باسم عالم كبير

وتعنى العالم أو الآخذ بسلطان الدنيا. ولد أورنك زيب ببلدة  
دوحد في كجرات بالهند سنة (1028 هـ = 1619 م)، وعنى أبوه  
بتربيته تربية إسلامية، وتعلم في صغره كثيراً من العلوم وتبحر  
فيها وبخاصة العلوم الدينية. واكتسب أورنك زيب منذ صغره  
خبرة عسكرية بفضل الحروب التي خاضها مع أبيه، كما اكتسب  
حنكة إدارية بفضل توليه بعض الولايات في حياة أبيه. وبعد موت  
أبيه سنة (1069 هـ = 1658 م) تولى أورنك زيب عرش  
الإمبراطورية المغولية الهندية، فقام بأعمال كثيرة في النواحي  
السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية، ثبت بما دعائم  
دولته، وحافظ عليها، وأقر العدل والحرية فيها، فقضى على  
المجاعات وألغى المكوس والضرائب، وأبطل الاحتفال بالأعياد  
الوثنية، وطبق نظام الحسبة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)  
وأمر مجموعة من العلماء فوضعوا موسوعة للفقهاء على المذهب  
الحنفي سميت الفتاوى الهندية. ومن الناحية العسكرية أمّن  
حدود دولته الشمالية من غارات قبائل البطهان والأفغان وقضى  
على كثير من الثورات الداخلية التي قام بها الأمراء الهندوس،  
والطوائف الدينية الهندية، وبعض من الشيعة. وتميز عهد أورنك  
زيب بشيوع الصبغة الحضارية الإسلامية في تعمير المساجد  
وكثرة الأئمة والوعاظ وظهور القيم الإسلامية، وإلغاء المظاهر  
الفاسدة في حياة الناس وفي بيوت الحكام. وتوفي أورنك زيب  
سنة (1119 هـ = 1707 م).

(494/10)

\*أوليا جلي

هو إدريس محمد ظلي رحالة ومؤرخ تركي مسلم. ولد في مدينة  
إسلام بول (إستانبول) بتركيا في (10 من المحرم 1020 هـ = 25

مارس 1611 م)، وأطلق عليه والده اسم أوليا جلبي تيمناً باسم صديق له كان يعلم ابنه. وينتمى أوليا جلبي إلى أسرة عريقة في الجاه والثراء، تقلد كثير من أفرادها مناصب رفيعة في الدولة العثمانية. تدرج أوليا جلبي في مدارس إستانبول، وتعلم لبعض علمائها وفقهائها المرموقين، وتعلم من والده فن الخط والكتابة على الأحجار الكريمة، وتمكن عن طريق خاله من الالتحاق بالقصر السلطاني والعمل فيه، فدرس الخط والموسيقى والنحو والقوافي على كبار علماء القصر، وحاز إعجاب السلطان العثماني مراد الرابع فجعله من المقربين إليه. وبدأ أوليا جلبي حياته العملية موظفاً بالقصر، حيث تولى حسابات الجيش، مما هيا له فرصة السفر والترحال برفقة الجيش، فتمنى عنده حب الأسفار والرحلات، وأتيحت له فرصة الطواف بالبلدان وتسجيل كل ماتقع عليه عينه من آثار وأنهار ومدن وقرى وعادات وتقاليد وغيرها عن البلدان التي ينزل بها، وصنف من ذلك كتاباً جليلاً هو سياحتنامه (أى كتاب السياحة)، ويقع في عشرة مجلدات، وهذا الكتاب هو الذى أكسبه شهرة واسعة بين الرحالة الأتراك خاصة والمسلمين عامة، واعدّه كثير من المستشرقين من أعظم الرحالة والجغرافيين الأتراك والمسلمين قاطبة.

(495/10)

**\*الإيجي**

هو عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي من كبار الأشاعرة المشهورين في القرن (8 هـ = 14 م). ولد في بلدة إيج في أقصى بلاد فارس سنة (680 هـ = 1281 م). فنسب إليها، وأخذ العلم عن شيوخ عصره، ولازم شيخه زين الدين الهنكى. ونبغ الإيجي في علم الكلام والفقه والأصول والبلاغة والنحو، وبلغ

مرتبة عالية بين أمراء عصره فولاه أبو سعيد - آخر أمراء الدولة الإيلخانية بفارس - القضاء بمدينة شيراز. وفي سنة (756 هـ = 1355 م) وقع خلاف بين الإيجي وأمير كرمان (بلدة بفارس)، فعزله من القضاء وسجنه. وكان للإيجي مال كثير أنفقه في رعاية طلاب العلم، وتتلמד على يديه كثير من التلاميذ منهم شمس الدين الكرماني وسعد الدين التفتازاني وسعد الدين بن عمر بن عبد الله وغيرهم. وتعد آراء الإيجي في علم الكلام هي الصورة النهائية لفكر الأشاعرة التي لم تحط بتجديد أو إضافة بعده، فقد أكثر من مزج المسائل الفلسفية بعلم الكلام. وللإيجي مصنفات كثيرة اتسمت بحسن التنسيق ودقة العرض أهمها: المواقف في علم الكلام وتحقيق المقاصد وتبيين المرام وأشرف التواريخ وآداب البحث والعقائد العضدية وغيرها. وتوفي الإيجي في سجنه في قلعة درميان بإيج سنة (756 هـ = 1355 م).

(496/10)

### \*إيزابيل الكاثوليكية

هي إيزابيل ابنة الملك خوان الثاني حاكم قشتالة المتوفى سنة (860 هـ = 1455 م) ولقبت بالكاثوليكية لتعصبها للمذهب الكاثوليكي، ولعملها الدائب لتوحيد ممالك إسبانيا والقضاء على مملكة بنى الأحمر الإسلامية آخر مملكة إسلامية بالأندلس. ولدت إيزابيل بمدينة مدرتجال سنة (855 هـ = 1451 م)، وتوفى أبوها ولم تكن قد تجاوزت الرابعة من عمرها، وتولى عرش قشتالة أخوها غير الشقيق إنريكي الرابع فطردها هي وأمها وأخاها من قشتالة إلى أريغال؛ حيث عاشت الأسرة عيشة قاسية بأحد الأديرة، مما أذكى في نفسها عوامل الحزن والأسى منذ الصغر. وسرعان ماتهيأت لها الظروف وسمحت

بعودتها وأخيها الشقيق ألفونسو إلى قشتالة، وقامت ثورة ضد إنريكي فخلع وتولى ألفونسو، ولكنه مات فعاد إنريكي إلى الحكم مرة ثانية. تزوجت إيزابيل من الأمير فرناندو ولي عهد مملكة أراغون النصرانية، وفي سنة (879 هـ = 1474 م) مات الملك إنريكي، وتوَّجت إيزابيل ملكة سنة (884 هـ = 1479 م) بعد فترة من الاضطرابات الداخلية. وضعت إيزابيل منذ توليها الحكم هدفاً لها هو القضاء على مملكة غرناطة الإسلامية وطرد المسلمين نهائياً من الأندلس، وجعلت ذلك من شروطها للزواج بالملك فرناندو الذي وافق أيضاً على ذلك. ونجح الملكان في القضاء على المملكة؛ حيث استوليا عليها مدينة تلو الأخرى، وكانا يجبران المسلمين على التحول إلى النصرانية، وقاما بإحراق الكتب العربية، ولاقت إيزابيل في عملها هذا تأييداً مطلقاً من البابوية وجميع الممالك النصرانية، وأصبحت إيزابيل في نهاية حياتها بالمرض لعدة أشهر ثم ماتت في (جمادى الآخرة 910 هـ = نوفمبر 1504 م) بعدما قضت على دولة الإسلام في الأندلس.

(497/10)

#### \*الفتازاني (سعد الدين)

هو سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله الفتازاني من كبار علماء العربية والبيان وعلم الكلام والمنطق، ولد بفتازان بخراسان سنة (712 هـ) وقيل: (722 هـ والأرجح الأول) وعاش بسرخس ثم أبعده تيمورلنك إلى سمرقند فعاش بها فترة حتى توفي بها سنة (793 هـ = 1390 م) ثم حمل إلى سرخس فدفن بها. كان الفتازاني عالماً مشهوراً في علوم النحو والصرف والمعاني والبيان والمنطق وعلم الكلام وبلغ منزلة عظيمة في

تلك العلوم حتى علا شأنه وذاع صيته، كما اشتهر بالتصوف،  
وتناول في كتب الكلام والمنطق الحديث عن الصوفية وابن  
عربي خاصة، وعارض كتابه فُصُوص الحِكم وقال عنه: إنه نقيص  
الحِكم. وللتفتازاني مؤلفات غزيرة، منها: تهذيب المنطق  
والمطول في النحو، ومقاصد الطالبين في البلاغة، وشرح العضد  
على مختصر ابن الحاجب في الأصول، وشرح الشمسية في  
المنطق، وشرح الأربعين النووية وغيرها.

(498/10)

#### \*سعد الدين التفتازاني

هو سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني من كبار  
علماء العربية والبيان وعلم الكلام والمنطق، ولد بتفتازان  
بخراسان سنة (712 هـ) وقيل: (722 هـ والأرجح الأول) وعاش  
بسرخس ثم أبعده تيمورلنك إلى سمرقند فعاش بها فترة حتى  
توفي بها سنة (793 هـ = 1390 م) ثم حمل إلى سرخس فدفن  
بها. كان التفتازاني عالماً مشهوراً في علوم النحو والصرف  
والمعاني والبيان والمنطق وعلم الكلام وبلغ منزلة عظيمة في  
تلك العلوم حتى علا شأنه وذاع صيته، كما اشتهر بالتصوف،  
وتناول في كتب الكلام والمنطق الحديث عن الصوفية وابن  
عربي خاصة، وعارض كتابه فُصُوص الحِكم وقال عنه: إنه نقيص  
الحِكم. وللتفتازاني مؤلفات غزيرة، منها: تهذيب المنطق  
والمطول في النحو، ومقاصد الطالبين في البلاغة، وشرح العضد  
على مختصر ابن الحاجب في الأصول، وشرح الشمسية في  
المنطق، وشرح الأربعين النووية وغيرها.

(499/10)

### \*حازم القرطاجنى

هو أبو الحسن حازم بن محمد بن حسن بن حازم القرطاجنى أديب وشاعر أندلسى، ولد حازم سنة (608 هـ = 1211 م) بمدينة قرطاجنة بالأندلس فى أسرة عريقة عرفت بالعلم والأدب؛ حيث كان أبوه قاضى قرطاجنة مدة (40) سنة، وانصرف حازم منذ صغره لدراسة الأدب والعلم؛ فأخذ عن والده علوم اللغة والفقه، ثم انتقل إلى عدد من المدن الأندلسية المجاورة لطلب العلم فتردد على مرسية وأخذ عن شيوخها أمثال الطرسونى والعروضى، كما ذهب إلى غرناطة وإشبيلية وأخذ عن علمائهما. وبرع حازم فى الأدب والشعر والنحو واللغة والعروض والبيان، ومات أبوه سنة (632 هـ = 1235 م) وهو لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره. ولما زاد ضغط الممالك النصرانية على قرطاجنة وماحوطها للاستيلاء عليها، هاجر حازم إلى مراكش ثم إلى بجاية ثم إلى تونس سنة (640 هـ = 1242 م) فاستقر بها وعاصر حكم أربعة من سلاطين الدولة الحفصية بتونس، وبلغ عندهم مكانة عالية، حتى اشتهر بأنه شاعر تلك الدولة، وتوفى حازم القرطاجنى سنة (684 هـ = 1285 م). وله بعض المؤلفات، منها سراج البلغاء، وله ديوان شعر مطبوع.

(500/10)

### \*أبو حنيفة الدينورى

هو أحمد بن داود بن وتند الدينورى أبو حنيفة، مؤرخ مهندس نباتى، فارسى الأصل. ولد فى العقد الأول من القرن الثالث الهجرى بقرية دينور قرب همذان، وأمضى شبابه فى الرحلات بين العراق والحجاز والشام لطلب العلم، وعاش بأصفهان فترة.

درس أبو حنيفة النحو واللغة على يد البصريين والكوفيين، ودرس علم الهيئة وعمل بالمرصد الفلكي في أصبهان، ودرس أيضاً الطب والحساب والجغرافيا والقرآن والحديث، واشتهر ككاتب بليغ حتى عدّه أبو حيان التوحيدى ثالث ثلاثة هم أروع من كتب في العربية، وهم: الجاحظ، وأبو زيد البلخي، وأبو حنيفة الدينوري. ولتعدد مواهب أبي حنيفة بلغ منزلة عالية في بلاط الخلفاء العباسيين في وقته. ولأبي حنيفة مجموعة من المصنفات تعكس تنوع ثقافته؛ حيث كتب في النبات وفي القرآن والجغرافيا والتاريخ وغيرها نحو عشرين كتاباً، أهمها: البلدان في الجغرافيا التاريخية، والأخبار الطوال في التاريخ، والأنواء، والنبات، وتفسير القرآن، وغيرها. وتوفي أبو حنيفة سنة (282 هـ = 895 م).

(501/10)

#### \*الخطيب البغدادي

هو أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي، أحد كبار الحفاظ والمؤرخين ببغداد في القرن (5 هـ = 11 م). ولد بموضع يسمى غزية بين الكوفة والمدينة سنة (392 هـ = 1002 م)، ونشأ ببغداد وكان أبوه خطيباً بقرية درزنجان بالعراق، فسمع أبو بكر من أبيه وهو في سن الحادية عشرة، ثم طاف بعدد من البلدان في طلب العلم، وكان شديد الحرص على ذلك، فطاف بالبصرة والكوفة وأصبهان والرى وهمدان والحجاز لسماع الحديث وتعلم القراءات، وأخذ من كثير من شيوخ هذه البلدان، ثم عاد إلى بغداد واستقر بها للتدريس، وأعجب به ابن مسلمة وزير الخليفة العباسي القائم بأمر الله فقربه، وبلغ منزلة عالية عند الخليفة، ثم وقعت أمور ببغداد رحل على إثرها إلى

بلاد الشام وأقام مدة في دمشق وصور وحلب والقدس، ثم عاد إلى بغداد. وكان شديد الثراء ينفق من ماله الكثير على طلبه العلم، فلما مرض مرضه الأخير وقف كتبه وفرق جميع ماله في وجوه البر وعلى أهل العلم والحديث، وكان فصيح اللهجة، عارفاً بالأدب، يقول الشعر، ولعاً بالمطالعة والتأليف، عرف له أهل العلم مكانته فقال عنه السمعاني: كان إمام عصره بلا مدافعة، وحافظ وقته بلا منازعة. وله مؤلفات كثيرة أشهرها: تاريخ بغداد، والكفاية في علم الرواية، والأمالى، والرحلة في طلب الحديث، واقتضاء العلم والعمل، وغيرها. وتوفي الخطيب البغدادي ببغداد سنة (463 هـ = 1072 م)، وأوصى أن يدفن بجانب بشر الحافي فتم له ذلك.

(502/10)

### \*الراضى بالله

هو محمد بن جعفر المقتدر بالله بن أحمد المعتضد بالله أبو العباس، خليفة عباسى. ولد سنة (297 هـ = 909 م)، وأمه أم ولد (كانت أمة فأنجبت فأعتقها سيدها فصارت حرة) كانت تدعى ظلوم، بويج بالخلافة بعد عزل عمه القاهر سنة (322 هـ = 934 م) وعمره آنذاك (25) سنة. كان الراضى سمحاً، كريماً، أديباً، شاعراً، فصيحاً، محباً للعلماء، وله شعر مدون. كانت أحوال الخلافة قبله مضطربة فحاول إصلاحها، ولكنه لم يستطع، واستدعى عامله على واسط محمد بن رائق وقلده إمارة الجيش والخراج والدواوين وخلع عليه لقب أمير الأمراء فانفرد ابن رائق بالحكم من دونه وصارت له الكلمة العليا في البلاد، وليس للخليفة معه من الأمر شيء، واستقل كل والٍ بما تحت يده من الأقاليم ولم يبق للخليفة سوى بغداد وما حولها والأمر فيها لابن رائق،

حتى ضاق الخليفة به ذرعًا فأحل محله الأمير بجكم. وتوفي  
الراضى بالله ببغداد سنة (329 هـ = 940 م) وله من العمر (32)  
سنة، ودامت خلافته سبع سنوات.

(503/10)

---

### \*سفيان بن عيينة

هو سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي من كبار  
المحدثين في القرن (2 هـ = 8 م). ولد سفيان بالكوفة في شعبان  
سنة (107 هـ = 725 م)، ثم رحل مع أبيه إلى مكة واستقر بها  
وأخذ الفقه والحديث عن كبار علمائها أمثال الزهري وعمرو بن  
دينار ومحمد بن المنكدر والأعمش وغيرهم، حتى بلغ في العلم  
منزلة رفيعة وصار حافظًا ثقة واسع العلم كبير القدر. قال عنه  
الشافعي: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز. وتلمذ على يديه  
عدد كثير من طلاب العلم الذين بلغوا منزلة عالية بعد ذلك، منهم  
الشافعي وشعبة بن الحجاج وابن جريج والزيبر بن بكار  
 وغيرهم. وتوفي سفيان بن عيينة في جمادى الآخرة سنة (198  
هـ = 814 م). وله من المؤلفات الجامع في الحديث، وكتاب في  
التفسير.

(504/10)

---

### \*أحمد بن محمد بن حجاج

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن حجاج أحد علماء النبات البارعين  
في إشبيلية بالأندلس في عصر ملوك الطوائف. عاش في  
إشبيلية، وألف كتابًا في الزراعة اسمه المقنع لم يصل إلينا.

**\*ملكشاه بن ألب أرسلان**

هو جلال الدين أبو الفتح ملكشاه بن السلطان ألب أرسلان السلجوقي التركي، أحد سلاطين الدولة السلجوقية. ولد ملكشاه سنة (447 هـ = 1055 م)، وآل إليه حكم السلطنة بعد وفاة أبيه سنة (465 هـ = 1073 م) وعمره آنذاك سبع عشرة أو ثمان عشرة سنة. وبدأ ملكشاه عهده بتأمين دولته من المخاطر والفتن الداخلية والخارجية ف قضى على بعض الثورات التي قامت ضده وأخطرها ثورة عمه قاوت حاكم كرمان الذي هزمه ملكشاه وقتله. وتمكن ملكشاه من ضم كثير من البلدان لدولته حتى صارت مترامية الأطراف شملت (بلاد الشام - الجزيرة - ديار بكر - اليمن - بلاد الترك) وخطب له في جميع منابر العالم الإسلامي ماعدا بلاد المغرب. وعلى الرغم من جهوده الحربية فإنه كان محبًا للأدب مشجعًا للعلماء، اهتم بالجوانب الحضارية فحفر الترع وأقام الجسور وبني كثيرًا من العمائر كالمساجد والقصور، وأبطل المكوس، وأمنت الطرق في دولته، وانخفضت الأسعار، وبني مرصدًا. ووُصف بأنه كان حسن السيرة، يجلس للمظالم بنفسه ويقضى بين الناس، وكان بابه مفتوحًا لكل قاصد.

**\*معن بن زائدة الشيباني**

هو معن بن زائدة بن عبد الله بن مطر الشيباني أحد شجعان العرب، ومن أشهر أجياد العرب، من قبيلة بكر بن وائل بن ربيعة. كان في أيام الدولة الأموية كثير التجوال منقطعًا إلى

يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري أمير العراقيين، وحارب معه بنى العباس في مدينة واسط، فلما قتل يزيد خاف معن على نفسه من أبي جعفر المنصور الذي جدّ في البحث عنه فاستتر معن عنه فترة حتى كان يوم الهاشمية في ذى القعدة سنة (134 هـ = 751 م) بعد أن انتهى أبو جعفر المنصور من بناء مدينة الأنبار؛ إذ خرج عليه جماعة من أهل خراسان في الهاشمية يريدون قتله، وكان معن بن زائدة مجاوراً لهم، فخرج متنكراً وقاتل بجانب المنصور قتالاً شديداً، فسأله أبو جعفر عن نفسه، فكشف لثامه وقال: أنا طلبتك يا أمير المؤمنين معن بن زائدة، فأمنه المنصور وأكرمه، وصار من خواص رجاله المقربين منه. وفي سنة (142 هـ = 759 م) ولأه على اليمن مكافأة له، فظل والياً عليها تسع سنوات وتركها، وولاه على سجستان سنة (151 هـ = 768 م) فخرج عليه بعض الخوارج فقتلوه وهو يحتجم، فتبعهم ابن أخيه يزيد بن مرثد حتى أفناهم عن آخرهم. ولمعن بن زائدة أشعار جيدة، أكثرها في الشجاعة.

(507/10)

#### \*ابن المعتز

هو عبد الله بن محمد المعتز بالله بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد العباسي، أبو العباس. أديب، وصاحب شعر بديع ونثر فائق. ولد سنة (247 هـ = 861 م) في بغداد، وأخذ الأدب والعربية عن المبرد وثعلب، وعن مؤدبه أحمد بن سعيد الدمشقي، وأولع بالأدب، كان يقصد فصحاء الأعراب ويأخذ عنهم، آلت الخلافة في أيامه إلى المقتدر، فسعى جماعة من الكتاب والقواد إلى خلع المقتدر والبيعة لعبد الله بن المعتز، فاستجاب لهم عبد الله، على ألا يُسْفَك دم ولا تكون حرب، فبويع

له وسُلم عليه بالخلافة، إلا أن غلمان المقتدر وثبوا عليه فخلعوه، وعاد المقتدر فقبض عليه وسلمه إلى خادم له اسمه مؤنس، فقتله. ولابن المعتز العديد من المصنفات، منها: البديع، والآداب، والجامع في الغناء والجوارح والصيد وفصول التماثيل، وحلى الأخبار وأشعار الملوك وطبقات الشعراء. وتوفي ابن المعتز سنة (296 هـ = 909 م).

(508/10)

---

### \*سعيد بن العاص

هو سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية، الأموي، القرشي، ثم المدني. صحابي من الأمراء الولاة الفاتحين. ولد سنة (3هـ = 624 م)، قتل على بن أبي طالب أباه يوم بدر مشرغاً، رُي في حجر عمر بن الخطاب، وأسلم قبل الفتح بيسير، استعمله النبي - صلى الله عليه وسلم - على سوق مكة، ولأه عثمان على الكوفة، ثم عزله عنها عندما اشتكاه أهلها، ولأه معاوية على المدينة غير مرة، فتولأها إلى أن مات، كان سعيد أشبه الناس لهجة برسول الله (وهو الذي افتتح طبرستان، وهو أحد الذين كتبوا المصحف لعثمان. اعتزل سعيد فتنة الجمل وصفين، ولم يدخل مع معاوية في شيء من حروبه. له بدمشق دار تعرف بدار نعيم وحمام نعيم بنواحي الديماس، وما زالت آثار قصره شامخة إلى الآن. وقد توفي سعيد بن العاص بقصره بالعرصة على بُعد ثلاثة أميال من المدينة، وحمل إلى البقيع في سنة (59 هـ = 679 م).

(509/10)

---

### \*المقوقس

لفظ أطلق على ثلاثة أشخاص: (1) الحاكم الذى جاءه كتاب النبي (قبل الفتح بسنوات). (2) الحاكم الذى كان فى وقت الفتح. (3) عظيم القبط فى وقت ثورة منويل. أمّا الأول فقد بعث إليه النبي (برسالة مع حاطب بن أبى بلتعة، يدعوّه فيها إلى الإسلام، فأكرم رسول النبي، وأهدى إلى النبي مارية، وأختها سيرين وعبدًا مخصيًا وألف مثقال ذهبًا. وأمّا الثانى فاسمه جريج بن مينا، عقد صلحًا مع عمرو بن العاص، رضى الله عنه، غير أن هرقل عتقه، ولم يقر صلحه. وأمّا الثالث فاسمه قيرس، وكان رئيس مذهب خلقدونية، واستعمل واليًا وبطريقًا على مصر. وقاسى البطريق بنيامين من شدة عظيمة على يد قيرس؛ فهرب إلى الصعيد؛ حيث قضى عشر سنوات كاملة.

(510/10)

### \*المعتمد بن عباد

هو المعتمد على الله محمد بن المعتضد بالله أبى عمرو عبّاد بن الظافر المؤيد بالله أبى القاسم محمد قاضى إشبيلية، آخر ملوك بنى عبّاد بالأندلس. ولد فى باجة (بالأندلس)، وتولى حكم قرطبة وإشبيلية وماحولهما بعد وفاة والده سنة (461 هـ = 1068 م)، وكان أكرم ملوك الأندلس، كما كان ملتقى الرجال ومحط أنظار الشعراء والأدباء، وله شعر جيد ونظم فريد جمع فى ديوان شعر. وكان ألفونس السادس ملك الفرنج قد حاول أن يستولى على قرطبة وإشبيلية فلما لم يكن لدى المعتمد بن عبّاد قوة لدفعه، أقنعه العلماء والفقهاء بطلب المساعدة من أبى يعقوب يوسف بن تاشفين ملك المغرب، الذى استجاب لطلبه وانطلق على رأس جيوشه، حتى التقى مع المعتمد بن عبّاد

وسارا إلى الحرب معًا، فانتصرا في معركة الزلاقة سنة (479 هـ = 1086 م) وغنم المسلمون مالا يحصى من الدواب والأسلحة والأموال. وفي سنة (483 هـ = 1090 م) ثارت فتنة في قرطبة وإشبيلية، قضى عليها المعتمد بن عباد بشجاعة نادرة، ولكنها ما لبثت أن ظهرت من جديد بإيعاز من ابن تاشفين، الذي كان يريد أن يستولى على الأندلس، فأرسل جيوشه سنة (484 هـ = 1091 م) فحاصرت المعتمد بن عباد في إشبيلية ووقع أسيرًا وقتل ابنه الراضى والمأمون، وأرسل إلى مراکش ومنها إلى إغمات التي ظل بها إلى أن توفي سنة (488 هـ = 1095 م).

(511/10)

---

#### \* معاذ بن جبل

هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي صحابي جليل، أسلم وهو صغير، وحفظ القرآن الكريم، وكان أعلم الأمة بالحلال والحرام، وشهد مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المواقع كلها. أرسله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد غزوة تبوك إلى اليمن قاضيًا ومرشدًا لأهلها، فظل معاذ بن جبل هناك حتى توفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فعاد معاذ إلى المدينة، وخرج مع أبي عبيدة بن الجراح في غزو بلاد الشام، ولما توفي أبو عبيدة في طاعون عمواس خلفه معاذ بن جبل في القيادة. وتوفي، رضى الله عنه، سنة (18 هـ = 639 م) ودُفن بالقصير المعينى (الغور).

(512/10)

---

#### \* أحمد بن محمد بن درّاج

هو أحمد بن محمد بن العاص بن أحمد بن سليمان بن عيسى بن

درّاج القسطلی، أديب بليغ وشاعر فحل، ولم يكن بالأندلس  
أشعر منه، وله ديوان شعر. توفي في جمادى الآخرة سنة (421 هـ = 1030 م) عن عمر يناهز (74) سنة.

(513/10)

---

#### \*المعتضد بن عباد

هو عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي صاحب إشبيلية  
في عهد ملوك الطوائف. ولد سنة (404 هـ = 1013 م)، وتولى  
حكمها بعد وفاة والده سنة (433 هـ = 1041 م)، وظلت الخطبة  
في عهده للمؤيد بالله (هشام بن الحكم) الأموي حتى سنة (451 هـ = 1059 م) عندما أعلن المعتضد بالله عن وفاته، وأخذ البيعة  
لنفسه، وأخذ يستولى على ممالك الأندلس وإماراتها الواحدة تلو  
الأخرى، واتخذ خشبًا في قصره يعلق عليه رءوس أعدائه من  
الملوك والأمراء. وكان مهيبًا، صارمًا، جبارًا عسوفًا، حتى إنه  
قتل ابنه إسماعيل وولى عهده بيده عندما علم أنه يتآمر عليه،  
وكان ذلك سنة (449 هـ = 1057 م)، وكان ينظم الشعر الجيد، وله  
ديوان شعر. وقد توفي بإشبيلية سنة (461 هـ = 1069 م).

(514/10)

---

#### \*الأشرف الأيوبي

هو موسى بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب ملك  
الرها وحرّان. ولد بمصر وقيل بالكرك سنة (578 هـ = 1182 م)،  
ولما كبر ملكه والده على مدينة الرها وحران بعد سنة (598 هـ =  
1201 م). وفي سنة (600 هـ = 1203 م) حارب نور الدين أرسلان  
شاه صاحب الموصل وهزمه وأخرجه من الموصل، وفي سنة

(606 هـ = 1209 م) استولى على نصيبين وسنجار. وفي سنة  
(609 هـ = 1212 م) توفي أخوه الملك الأوحى نجم الدين أيوب  
صاحب خلاط وميفارقين، فاستولى على ملكه فاتسعت مملكته،  
بعد أن استولى على حلب وأقام بها ثلاث سنوات. وفي سنة  
(631 هـ = 1233 م) وقعت بلاد الشرق في يد ملك الروم، فخرج  
الملك الأشرف مع أخيه الملك الكامل صاحب مصر لحربه، فهزماه  
سنة (633 هـ = 1235 م)، وظلا على وفاق ووثام وبينهما شعور  
الأخوة والحب المتبادل، حتى كانت سنة (635 هـ = 1237 م)  
عندما وقعت بينهما وحشة، فتعاهد الملك الأشرف مع صاحب  
الروم وصاحب حماة، وصاحب حلب، وصاحب حمص، وأصحاب  
الشرق على الخروج لحرب الملك الكامل، ولم يبق مع الملك  
الكامل سوى ابن أخيه الملك الناصر صاحب الكرك. ولما تجهزت  
الجيوش لحرب الملك الكامل، مرض الملك الأشرف مرضاً شديداً  
توفي على إثره في (الحرم 635 هـ = أغسطس 1237 م) في  
دمشق ودفن بقلعتها. وكان واسع الصدر، كريماً، حليماً، كثير  
العطاء، يحب أهل الخير والصلاح والتقوى، وبني داراً للحديث  
في دمشق.

(515/10)

\*أبو نواس

هو الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن صباح الحكمي المعروف  
بأبي نواس الشاعر المشهور. ولد في الأهواز في خلافة أبي  
جعفر المنصور ونشأ بالبصرة ورحل إلى بغداد فاتصل بالخلفاء  
من بني العباس ومدح بعضهم. ويُعدّ أبو نواس من أعاجيب عصره  
في الشعر؛ إذ كان يحظى بملكات شعرية بديعة. قال عنه  
الجاحظ: ما رأيت رجلاً أعلم باللغة ولا أفصح لهجة من أبي نواس.

وقد نظم أبو نواس في جميع أنواع الشعر، وأجود شعره  
خمرياته، وله ديوان أبي نواس وديوان آخر اسمه الفكاهة  
والاثناس في مجون أبي نواس. ومن شعره المشهور قصيدته  
الميمية التي حسده عليها أبو تمام وأولها: دَمَنْ أَلَمَّ بِهَا فَقَالَ  
سَلَامٌ كَمَ حَلٍّ عَقْدَةً صَبْرِهِ الْإِلْمَامُ وَأَبُو نَوَاسٍ أَوَّلُ مَنْ تَوَسَّعَ فِي  
وَصَفِ الْخَمْرِ وَالتَّغْرُلِ بِالْغُلْمَانِ، ولعله أكثر الشعراء انغماساً في  
اللهو.

(516/10)

---

#### \* نفيسة

هي نفيسة بنت أمية بن أبي عبيدة بن همام بن الحارث التميمي  
الحنظلي وتعرف بنفيسة بنت منية وهي صحابية جلييلة أخت  
الصحابي يعلى بن أمية .. ونفيسة بنت أمية هي صديقة السيدة  
خديجة بنت خويلد، رضى الله عنها، وهي التي مشت بين النبي  
(والسيدة خديجة في زواجهما. وهي التي زفّت البشري للسيدة  
خديجة بزواج الرسول منها. وقد روت نفيسة أحاديث عن النبي.

(517/10)

---

#### \* نعيم بن مسعود

هو نعيم بن مسعود بن عامر بن أنيف بن ثعلبة بن قنفذ بن هلال  
بن حلاوة أبوسلمة العطفاني الأشجعي صحابي مشهور، أسلم  
أيام غزوة الخندق وكنم إسلامه، وهو الذي خذل المشركين  
وبنى قريظة حتى صرف الله المشركين بعد أن أرسل عليهم  
ريحاً وجنوداً لم يروها، فكفى الله المؤمنين القتال بجيلة نعيم  
والريح، كما أرسله الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى ابن ذى اللّححية. وقد روى عن

النبي - صلى الله عليه وسلم - وروى عنه ولداه: سلمة وزينب، وله حديث عند أحمد وأبي داود وغيرهما، قتل نعيم في أول خلافة عليّ قبل قدومه من البصرة في وقعة الجمل، وقيل: مات في آخر خلافة عثمان، رضى الله عنه، والله أعلم.

(518/10)

### \*أبو نعيم

هو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، الحافظ والمؤرخ المشهور، من أكابر الثقات في الحفظ والرواية، ولد ومات بأصبهان، استجاز له أبوه طائفة من شيوخ العصر تفرد عنهم، فمن الشام خيثمة بن سليمان، ومن بغداد جعفر الخلدي، ومن واسط عبد الله بن عمر بن شوؤب، ومن نيسابور الأصم، وسمع من عبد الله بن جعفر بن أحمد والقاضي محمد بن أحمد العسّال وأحمد بن معبد السّمسار وأحمد بن محمد القصار وأحمد بن بندار الشّقار وأبي الشيخ الجعابي، وسمع بمكة أبا بكر الأجرى وبالبصرة فاروق الخطابي وبالكوفة أبا بكر الطّنجي، كما سمع من أصحاب السّراج ومن بعدهم. وروى عنه أبو سعيد الماليني، والحافظ الخطيب البغدادي، وهو من أخصّ تلامذته، رحل إليه وأكثر عنه، وأبو صالح المؤذن الحافظ، والقاضي أبو علي الوخشي ومستمليه أبو بكر محمد بن إبراهيم العطار وآخرهم وفاة أبو طاهر عبد الواحد بن محمد الذهبي وغيرهم كثير. قال ابن مرّذويه: كان أبو نعيم مرحولاً إليه ولم يكن في أفق من الآفاق أسند، ولا أحفظ منه، ومن مصنفاته: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء وهو من أحسن الكتب، وله أيضا معرفة الصحابة وكتاب دلائل النبوة وكتاب المستخرج على البخارى وكتاب المستخرج على مسلم وكتاب تاريخ أصبهان

وكتاب فضائل الصحابة، وصنّف شيئاً كثيراً من المصنفات الصِّغار. وأبو نعيم إمام ثقة لا يلتفت إلى قول من تكلم فيه.

(519/10)

---

### \*النعمان بن بشير

هو النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة الخزرجي الأنصاري صحابي جليل، وأمه عمرة بنت رواحة أخت عبد الله بن رواحة وُلد النعمان سنة (2هـ = 623م) أي قبل وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - بثماني سنين وسبعة أشهر، وهو أول مولود للأنصار بعد الهجرة. والنعمان بن بشير من رواة الأحاديث، فقد روى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - (124 حديثاً)، وشهد النعمان معركة صفين مع معاوية، وولى قضاء دمشق، وولى اليمن لمعاوية، ثم استعمله معاوية على الكوفة ثم عزله وولاه مدينة حمص، واستعمله بعده ابنه يزيد. فلما مات يزيد بن معاوية دعا النعمان الناس إلى بيعه عبد الله بن الزبير بالشام فخالفه أهل حمص فخرج منها فاتبعوه فقتلوه، وذلك بعد وقعة مرج راهط، وكان ذلك في سنة (65هـ = 684م). وكان النعمان بن بشير يقول الشعر، فمن شعره: وإني لأعطي المال من ليس سائلاً وأدرك للمولى المعاند بالظلم وإني متى ما يلقي صارماً له فما بيننا عند الشدائد من صرم فلا تعدد المولى شريكك في الغنى ولكنما المولى شريكك في العُدم

(520/10)

---

### \*نصر بن سيار

هو نصر بن سيار بن رافع بن حري بن ربيعة الكناني، أمير خراسان في عهد الدولة الأموية، كان شيخ مضر بخراسان،

وولى بلخ، ثم ولى إمرة خراسان سنة (120 هـ) بعد وفاة أسد بن عبد الله القسرى. غزا ما وراء النهر، ففتح حصوناً وغنم مغنم كثيرة، وأقام بمرو، وقويت الدعوة العباسية في أيامه، فكتب إلى بنى مروان بالشام يحذرهم وينذرهم فلم يأبجوا بالخطر، حتى استفحل أمر العباسيين، وخرج عليه أبو مسلم الخراساني وحاربه، وعجز عنه نصر بن سيار، فاستصرخ بمروان غير مرة إلا أنه بَعُد عن نجدته، لانشغاله باختلال أمر أذربيجان والجزيرة. وبينما نصر بن سيار في تقهقره أمام جيوش أبي مسلم الخراساني إذا به يمرض بالرى، ويحملة جنوده إلى ساوة، ويموت بها، وعمره خمس وثمانون سنة.

(521/10)

### \*النجاشي

هو أصحمة بن أبحر النجاشي ملك الحبشة، واسمه بالعربية عطية، والنجاشي لقب ملوك الحبشة، أسلم على عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - وأخفى إيمانه عن قومه ولم يهاجر، وكان ردءاً للمسلمين الذين هاجروا إليه في صدر الإسلام، ولم تنجح محاولات المشركين للوقيعة بينه وبين المهاجرين إليه، وكتب إليه النبي - صلى الله عليه وسلم - ضمن الملوك، وأرسل إليه عمرو بن أمية الضمري فرد عليه يخبره أنه أسلم على يد جعفر بن أبي طالب، كما أرسل إليه النبي - صلى الله عليه وسلم - ليزوجه أمّ حبيبة بنت أبي سفيان ويبعث بها إليه ففعل وأصدقها أربعمائة دينار. قيل: إنه أرسل ابنه وستين من أهل الحبشة إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فغرقوا جميعاً في الطريق، كما أسلم عنده عمرو بن العاص وكان صديقاً له في الجاهلية. ولما مات قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: قد مات اليوم عبد صالح يقال له أصحمة، فقوموا فصلُّوا على

أصحمة، وصفَّ الصحابة وصلى بهم عليه صلاة الغائب، وكان ذلك أول مشروعاتها.

(522/10)

---

### \*ابن نباتة

هو أبو يحيى بن نباتة خطيب الخطباء، عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نباتة الفارقي، الحذاقي (نسبة إلى حذاقة بطن من قضاة، وقيل قبيلة من إياد) اللخمي العسقلاني المولد المصري الدار، ولي خطابة حلب لسيف الدولة، وفي خطبه دلالة على قوة علمه، وسعته وقوة قريحته، واجتمع بالمتنبي في خدمة سيف الدولة الحمداني. وهو من أهل ميفارقين (بديار بكر)، وكان خطيب حلب، وكان تقيًا صالحًا، وله خطبة تعرف بالمنامية، ويروى أنه رأى الرسول في المنام، وسمَّاه الرسول - صلى الله عليه وسلم - خطيبًا، وتفل في فيه فضل ثمانية عشر يومًا لا يستطيع فيها طعامًا ولا شرابًا من أجل تلك التفلة وبركتها. تُوفِّي بحلب سنة (374 هـ = 984 م)، وكان مولده في سنة (335 هـ = 946 م) ودفن بميفارقين.

(523/10)

---

### \*نافع بن الأزرق

هو أبو راشد نافع بن الأزرق بن قيس بن نهار الحنفي البكري من رؤساء الخوارج وإليه تنسب فرقة الأزارقة. كان نافع من أنصار عثمان بن عفان، رضى الله عنه، ووالى على بن أبي طالب، رضى الله عنه، إلى أن كانت قضية التحكيم بين علي ومعاوية فاجتمع هو وأصحابه في حروراء ونادوا بالخروج على

عليّ. وكان أول خروجه بالبصرة في عهد عبد الله بن الزبير.  
وفي سنة (65 هـ = 685 م) اشتدت شوكته وكثرت جموعه، فبعث  
إليه عبدُ الله بن الحارث مسلم بن عبس بن كرينز علي جيش كثيف  
فاشتد بينهما القتال حتى قُتل مسلم أمير الجيش، وقُتل نافع  
أمير الخوارج، وكان ذلك في (جمادى الآخرة 65 هـ = يناير 685  
م).

(524/10)

---

### \*ميسون بنت بحدل الكلبية

هي ميسون بنت بحدل بن أنيف بن ذلجة الكلبية زوج معاوية بن  
أبي سفيان وأم ابنه يزيد، وكانت تسكن البادية. وهي شاعرة  
عربية كانت تشتهر بالفصاحة، وتزوجها معاوية بن أبي سفيان  
ونقلها من البادية إلى دمشق، وأسكنها قصرًا من قصور  
الخلافة. وكانت ميسون تحنُّ إلى مسقط رأسها (البادية) وقد  
قالت: للبس عباءةً وتقرَّ عيني أحبُّ إليَّ من لُبْسِ  
الشفوفِ وكلب ينبح الأضيافِ دوني أحبُّ إلي من هزِّ  
الدفوفِ وتُوفيت ميسون سنة (80 هـ = 699 م).

(525/10)

---

### \*موسى بن أبي العافية

هو موسى بن أبي العافية بن أبي بسال بن أبي الضحاك  
المكناسي مؤسس الإمارة المكناسية بمراكش. كان يمتاز  
بالشجاعة والدهاء، وقد استولى على فاس والمغرب وقام بطرد  
الأدارسة فأخرجهم من ديارهم وأجلاهم عن بلادهم، وصار في  
ملكه سنة (317 هـ = 929 م) من أحواز تيهرت إلى السوس

الأقصى. وكان موسى بن أبي العافية يدعو لعبد الرحمن الناصر الأموي، فعلم عبید الله المهدي الفاطمي فسیر إليه جيشاً يقاتله، فظلت الحرب سجالاً إلى أن قُتل موسى بن أبي العافية في صحارى قلوبية وكان ذلك سنة (341 هـ = 952 م).

(526/10)

---

### \*موسى بن شاكر

موسى بن شاكر. فلكي: والد المهندسين الثلاثة المعروفين ببني موسى، وهم: محمد بن موسى، وأحمد بن موسى، والحسن بن موسى، وكانوا جميعاً متقدمين في الرياضيات وهيئة الأفلاك. كان في شبابه من قُطَاع الطرق، وتاب فدخل في خدمة المأمون، وتعلم التنجيم وهيئة الأفلاك. ثم مات وأبناؤه صغار، فألحقوا ببيت الحكمة للتعلم، ونبغوا، ولهم كتب في علوم الأوائل، جمعوها من بلدانها واستقدموا لها المترجمين من كل الأصقاع. يُنسب إليه كتاب الدرجات في طبائع الكواكب السبعة.

(527/10)

---

### \*أرسطو

أرسطو طاليس أو أرسطاطاليس كما يُعرف في المصادر العربية، من كبار فلاسفة الإغريق القدماء، واشتهر عند فلاسفة المسلمين بلقب (المعلم الأول). وُلد أرسطو في عام (384 ق. م) في بلدة أسطاغيرا المطللة على بحر إيجه، وكان أبوه طبيباً ملك مقدونيا فنشأ أرسطو في بيت الملك مهذب الخلق دقيق الفكر، وبعد وفاة والده رحل إلى الريف ثم أقام في أثينا بعد سنة (367 ق. م) واستمع إلى البلغاء والخطباء وأعجب بهم وبقدرتهم على

صناعة الكلام، ثم التحق بمدرسة أفلاطون وتتلّمذ على يديه فكان أفضل تلاميذه. وفي أخريات حياته أسس مدرسة أثينا التي سميت بالمدرسة المشائية. وكان لأرسطو أثر في تنشئة الأمير المقدوني الإسكندر الأكبر، ومن أفكاره أنه يقسم العلم إلى المنطق، والنظر، والعمل، والشعر، ونادى بالمدينة الفاضلة، وقسم العلل إلى العلة المادية، والعلة الصورية، والعلة الفاعلية، والعلة الغائية. وقد ترك أرسطو نحوًا من (25) كتابًا جمعها تلميذه ثيوفراست، وكانت هذه الكتب مرجعًا لعلماء اليونان والرومان، ومن هذه الكتب: 1 - كتاب الأورجانون أو المنطق. 2 - كتاب الطبيعة ووظائف الأعضاء. 3 - كتاب التاريخ الطبيعي. 4 - كتاب ما وراء الطبيعة. 5 - كتاب الرياضيات. وتوفي أرسطو عام (222 ق. م).

(528/10)

### \*الإدريسى

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس بن يحيى الحموري الملقب بالشريف الإدريسي، عمدة الجغرافيين المسلمين في القرن (6هـ = 12م). وُلد بمدينة سبتة بالمغرب الأقصى سنة (493 هـ = 1099م) لأب ينتهي نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، وجده الحادي عشر تلقى الإدريسي علوم الجغرافيا والهندسة والفلك والنبات وغيرها في مسقط رأسه سبتة، ولم يكتفِ بالدرس والمطالعة، بل كان يطوف في الأرض وهو في السادسة عشرة، وكان لرحلاته أثر كبير في تنمية الجغرافية. ومن أهم أعماله رسم خريطة للكورة الأرضية على كرة من الفضة أهداها إلى الملك روجر الثاني ملك صقلية، كما ألف كتبًا، منها: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، وروض الأنس ونزهة النفس

أو المسالك والممالك، وروض الفرج ونزهة المهج، والجامع  
لصفات أشتات النبات في علم النبات، كما استطاع أن يقدر  
محيط الأرض. وتوفي الإدريسي سنة (560 هـ = 1164 م) وقيل:  
سنة (569 هـ = 1173 م).

(529/10)

### \*الزخشرى

هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزخشرى جار  
الله أبو القاسم، من أئمة النحو واللغة والأدب والتفسير، وُلِدَ في  
سنة (467 هـ = 1075 م) في زخشر (إحدى قرى خوارزم) في  
أزهى عصور العلوم والآداب، وكان إمام عصره، تُشَدُّ إليه  
الرحال في فنونه، وقد سافر إلى بلاد كثيرة منها مكة، وعاش  
بها زمناً، وما دخل بلدًا إلا واجتمع عليه الناس وأفادوا منه،  
وكان الزخشرى معتزلى المذهب مجاهرًا به شديد الإنكار على  
المتصوفة، ومن شيوخه: أبو مضر محمود بن جرير الضبي  
الأصفهاني، وأبو منصور نصر الحارثي، وأبو سعد الشقاني،  
وأبو على الحسن بن المظفر النيسابوري، وغيرهم، ومن  
تلاميذه: أبو عمرو عامر بن الحسن السمار، وأبو الحاسن عبد  
الرحيم بن عبد الله البزار، وأبو سعد أحمد بن محمود الشاني،  
وغيرهم، وكان الزخشرى مقطوع الرجل قد صنعت له رجل من  
خشب يستعين بها في المشى. وقد ألف الزخشرى كثيرًا من  
المؤلفات، من أشهرها: الكشاف في تفسير القرآن، والمفصل  
والأمموزج في النحو، والمستقصى في الأمثال، وأساس البلاغة  
في اللغة. وتوفي الزخشرى سنة (538 هـ = 1144 م).

(530/10)

### \*ابن أبي مهاجر

هو إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر، أبو عبد الحميد،  
الدمشقي، مولى بني مخزوم: تابعي، من العلماء الثقات، ومفقه  
أولاد الخليفة عبد الملك بن مروان، يضرب به وبعمربن عبد العزيز  
المثل في الزهد. حدث عن السائب بن يزيد، وأنس بن مالك،  
وعبد الرحمن بن غنم، وأم الدرداء، وغيرهم. روى عنه الأوزاعي،  
وسعيد بن عبد العزيز، وغيرهما، وثقه أحمد العجلي وغيره،  
ولاه عمر بن عبد العزيز المغرب فأقام بها سنتين، فأسلم عامة  
البربر في ولايته. مات ابن أبي المهاجر في سنة اثنتين وثلاثين  
ومائة، قبل دخول بني العباس دمشق بثلاثة أشهر.

(531/10)

### \*محمد رشيد رضا

هو محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين. أحد رجال  
الإصلاح في العصر الحديث. وُلد سنة (1282 هـ = 1865 م) في  
القلمون، من أعمال طرابلس، وبها نشأ وتعلم. رحل إلى مصر  
سنة (1315 هـ)، فلازم الإمام محمد عبده وتلمذ على يديه، وقد  
اتصل به من قبل في بيروت، واستقر في مصر. وتعددت رحلات  
الشيخ رشيد إلى سوريا والهند والحجاز وأوروبا، وكان من دعاة  
الجامعة الإسلامية تحت رعاية الخليفة العثماني، وعُرف عنه أنه  
كان لا يلتزم بمذهب من المذاهب الإسلامية المعروفة. وكانت له  
آراء جرّت عليه حملات كثيرة. وقد ترك الشيخ رشيد رضا عدداً  
من الآثار الفكرية، يأتي في مقدمتها: مجلته المعروفة المنار،  
وأصدر منها (34) مجلداً، وتفسير القرآن الكريم في (12) مجلداً،  
ولم يكمله، والوحي الحمدي، والوهابيون والحجاز. وتوفّي

الشيخ رشيد بمصر فجأة في سيارة كان راجعاً بها من السويس  
إلى القاهرة، سنة (1354 هـ = 1935 م).

(532/10)

---

### \*ابن بسام

هو أبو الحسن علي بن بسام الشنتريي. أحد أعلام الأندلس في  
الأدب في القرنين الخامس والسادس الهجريين. وُلد بمدينة  
شنترين، على بعد نحو سبعين كيلو متراً من الشمال الشرقي  
لمدينة لشبونة، ومن المرجح أن يكون مولده بين سنتي (450، و  
460 هـ = 1058، و 1068 م)، ونشأ في أسرة ثرية أغنته عن  
التكسب. وبعد سقوط شنترين في أيدي المرابطين سنة (485 هـ  
= 1092 م) تعددت رحلات ابن بسام حتى استقر في إشبيلية،  
وفي هذه الفترة جمع أشعار الوزير ابن عمار في كتاب سماه  
نخبة الاختيار في أشعار ذى الوزارتين أبي بكر بن عمار،  
وجمع رسائل محمد بن إسحاق بن طاهر في كتاب سماه سلك  
الجواهر في ترسيل ابن طاهر. ويُعد كتابه الذخيرة في محاسن  
أهل الجزيرة من أعظم كتب الأدب في الأندلس؛ إذ تبدو فيه  
ثقافة المؤلف الواسعة ورؤيته النقدية الفاحصة. وتوفي ابن بسام  
سنة (542 هـ = 1147 م).

(533/10)

---

### \*سعد بن أبي وقاص

هو سعد بن مالك بن أهيب. أحد كبار الصحابة، ومن العشرة  
المبشرين بالجنة. أسلم مبكراً، وهو في التاسعة عشرة من  
عمره، وكان سابع سبعة دخلوا في الإسلام. شهد سعد بن أبي

وقاص المشاهد كلها مع رسول الله، وكان أول من رمى بسهم في سبيل الله، كما كان مستجاب الدعوة. أمره عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، على حرب العراق؛ فقاد جيوش المسلمين في معركة القادسية، وحقق فيها نصراً مؤزرًا فتح الطريق أمام الفتوحات الإسلامية جهة الشرق، فسقطت المدائن عاصمة الفرس في يده، وكان ذلك إيذاناً بانتهاء الإمبراطورية الفارسية. وقد أسس سعد مدينة الكوفة سنة (18 هـ)، وأصبحت عاصمة للعراق، ومقرًا لسعد حتى سنة (21 هـ)؛ حيث عزله عمر بن الخطاب، ثم مال سعد إلى حياة العزلة والاعتكاف؛ فرفض الترشيح للخلافة بعد مقتل عمر؛ إذ كان أحد ستة رشحهم عمر لتولى الخلافة، كما لزم سعد بيته في أثناء الفتنة الكبرى وبعدها، وظل في عزلته حتى تُوفِّي سنة (55 هـ = 675 م).

(534/10)

#### \*سعيد بن زيد

هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل. أحد كبار الصحابة، ومن العشرة المبشرين بالجنة، وابن عم عمر بن الخطاب، وزوج أخته فاطمة، رضى الله عنهم جميعاً. أسلم قبل عمر بن الخطاب هو وامراته فاطمة التي كانت سبباً في إسلام أخيها عمر، وكان من المهاجرين الأولين، وآخى الرسول - صلى الله عليه وسلم - بينه وبين أبي بن كعب. وشهد المشاهد مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا بدرًا؛ لأن الرسول بعثه مع طلحة بن عبيد الله إلى طريق الشام يتحسسان أخبار قافلة أبي سفيان، ثم رجعا إلى المدينة يوم وقعة بدر، فضرب لهما رسول الله (بسهمهما وأجرهما، كما شهد سعيد معركة اليرموك وحصار دمشق. وتُوفِّي سنة (50 هـ)، وقيل: سنة (51 هـ)، بالعقيق من نواحي المدينة.

### \*ياقوت الحموى

هو شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى. أحد كبار المؤرخين والجغرافيين في القرن السابع الهجرى. وُلد سنة (574هـ = 1178م)، وأُخذ أسيراً من بلاد الروم وبيع في بغداد لتاجر يُدعى عسكر الحموى؛ فنسب إليه ياقوت، فأرسله إلى من يعلمه لينتفع به في أعماله التجارية. وبعد فترة انفصل ياقوت عن سيده، واكتسب عيشه من نسخ الكتب، فأفاد علمًا ومالًا. وتعددت أسفار ياقوت الحموى حتى استقر به المقام في خوارزم، ثم تركها سنة (616هـ = 1219م) حين أغار عليها جنكيز خان، واتجه إلى الموصل ثم إلى حلب. وقد ألف ياقوت عدة كتب نالت شهرة واسعة ورواجاً بين أهل العلم، يأتي في مقدمتها: معجم الأدباء، ومعجم البلدان، والمشارك وضعاً والمفترق صقلاً. وتوفي ياقوت الحموى بظاهر حلب سنة (626هـ = 1229م).

### \*سليمان الحلبي

هو سليمان بن محمد أمين. وطنى من حلب، ارتبط اسمه بقتل الجنرال الفرنسى كليبر قائد الحملة الفرنسية بعد نابليون. وُلد بحلب سنة (1191هـ = 1777م)، ورحل إلى القاهرة؛ حيث درس بالأزهر لمدة ثلاث سنوات، عاد بعدها إلى مسقط رأسه. وفي أثناء محاولة الدولة العثمانية استعادة مصر من قبضة الحملة الفرنسية عن طريق الشام وفلسطين، اتصل سليمان - وكان

وقتها بغزة - ببعض القادة العثمانيين، وعاهدهم على اغتيال  
كليب، فقصده القاهرة وأخذ يتعقب كليب حتى ظفر به وطعنه  
عدة طعنات مات على أثرها، وحوكم سليمان ونفذ فيه حكم  
الإعدام في (17 من يونيو 1800م) بتل العقارب، وأعدم معه ثلاثة  
من علماء الأزهر لم يفشوا سر سليمان، وهم: عبد الله الغزى  
ومحمد الغزى وأحمد الوالى.

(537/10)

### \*التونسي

هو محمد بن عمر بن سليمان التونسي. أحد مؤرخي القرن الثالث  
عشر الهجري. وُلد في تونس سنة (1204هـ = 1789م)، لأبٍ  
تونسي وأمٍ مصرية، ونشأ في مصر، وتلقى تعليمه في الجامع  
الأزهر، ثم رحل إلى دافور بالسودان؛ حيث التقى بأبيه، وأقام  
معهُ نحو سبع سنوات، ألمَّ خلالها بأحوال البلاد السياسية  
والاجتماعية، ثم رحل إلى تونس، ثم عاد مرة أخرى إلى  
القاهرة، والتحق بالجيش المصرى واعظاً، وسافر مع الفرقة  
المصرية التي اشتركت في حرب المورة سنة (1827م)، ثم اشتغل  
بتنقيح الترجمة العربية لكتب الطب التي كانت تدرس في كلية  
الطب البيطرى بأبي زعبل، بعد أن عُيِّن فيها كبيراً للمراجعين.  
وترك التونسي عدداً من المؤلفات، منها: الشذور الذهبية في  
المصطلحات الطبية، والدر اللامع في النبات وما فيه من الخواص  
والمنافع، وروضة النجاح الكبرى في العمليات الجراحية  
الصغرى، وتشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان. وفي  
أخريات حياته كان يلقي دروساً في الحديث بمسجد السيدة  
زينب، حتى تُوفِّي بالقاهرة سنة (1274هـ = 1857م).

(538/10)

### \*سلمان الفارسي

صحابي جليل من صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ويُعرف بسلمان الخير،  
ولما سئل عن نسبه قال: أنا سلمان بن الإسلام. أصله من فارس،  
وكان مجوسياً. وقصة إسلامه تتلخص في محاولته البحث عن  
الحقيقة فقد أعجبه دين النصارى لكن أباه قيده ومنعه من  
الاتصال بهم، ثم استطاع فك قيده وأن يذهب إلى الشام لهذا  
الغرض، وهناك أخبره رجل في عمورية أن هذا زمن ظهور خاتم  
الأنبياء؛ فرحل إلى بلاد العرب مع ركب منهم لكنهم باعوه لرجل  
يهودي من بني قريظة. وعندما هاجر النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة جلس  
سلمان بين يديه وبكى عندما رأى خاتم النبوة بين منكبيه،  
وقص قصته وأسلم، وأخى الرسول - صلى الله عليه وسلم - بينه وبين أبي الدرداء.  
وكان أول مشاهده مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هي غزوة الأحزاب، وهو  
الذي أشار على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بحفر الخندق، ولم يتخلف بعدها عن  
مشهد من مشاهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. وتوفي في آخر خلافة عثمان بن  
عفان، رضى الله عنه.

(539/10)

### \*الزيلي

هو أبو محمد عثمان بن علي بن محجن. أحد أئمة الفقه الحنفي  
في القرن الثامن الهجري وهو من أهل زيلع، وإليها نُسب. وقدم  
إلى القاهرة سنة (705هـ = 1305م)، وكان متمكناً من فقه  
الحنفية؛ فجلس للتدريس والإفتاء. وقد ترك الزيلي عدداً من  
المؤلفات، أشهرها: تبين الحقائق لما فيه تبين ما أكنز من  
الدقائق في فقه الحنفية، وهو شرح لكتاب كنز الدقائق  
للنسفي، وقد طبع الكتاب بمصر سنة (1303هـ = 1885م)، وله

أيضاً كتاب بركة الكلام على أحاديث الأحكام، وشرح الجامع الكبير. وتوفي الزيلعي في القاهرة في رمضان سنة (743هـ = 1343م)، ودُفن بقرافة الشافعي إبان سلطنة الناصر محمد.

(540/10)

---

### \*الترمذى

هو محمد بن عيسى بن سورة. أحد أئمة الحديث في القرن الثالث الهجري. وُلد في ترمذ سنة (209 هـ = 824 م)، وجدَّ - منذ صغره - في طلب الحديث؛ فرحل إلى الحجاز والعراق وخراسان وغيرها يأخذ عن الحفاظ وكبار المحدثين، منهم: الإمام البخارى صاحب الجامع الصحيح، وبلغ من تقدير البخارى لتلميذه الترمذى أن روى عنه حديثاً في صحيحه. وقد صنف الترمذى عدة كتب، وصل إلينا منها اثنان، هما: الجامع الصحيح المعروف بسنن الترمذى، وهو أحد الكتب الستة المعتمدة في الحديث النبوى، والشمائل الحمديّة. وقد كُفَّ بصر الترمذى في آخر عمره حتى تُوفّي سنة (279 هـ = 892 م).

(541/10)

---

### \*نابليون بوناپرت

عسكري عبقرى وإمبراطور فرنسى. وُلد في جزيرة كورسيكا الإيطالية سنة (1769 م)، ودرس العلوم العسكرية في فرنسا، وتخرج ضابطاً في سلاح المدفعية. برز اسمه عندما تمكن من حماية مدينة طولون في أثناء الثورة الفرنسية عام (1793 م)، ثم عُيِّن قائداً للجيش الفرنسى في إيطاليا، فأخذ ينتقل من نصر إلى نصر ضد الجيوش الإيطالية والنمساوية المناوئة، ثم قام

بحملة على مصر سنة (1798 م)، وأراد أن يتوسع شرقاً بعد غزو مصر، لكن عكا استعصت عليه، فعاد إلى فرنسا، تاركاً الجيش لقيادة كليبر. وبعودة نابليون إلى فرنسا أصبح زعيمها الأول، وخاض عدة معارك ناجحة ضد روسيا والنمسا، ثم ضد بريطانيا وحلفائها الأوربيين، ثم انفرد بالسلطة ونصّب نفسه إمبراطوراً سنة (1804 م)، وشرع في تحقيق حلمه الكبير، وهو توحيد أوروبا تحت قيادته، لكن حلمه تبدد أمام حرب العصابات التي واجهها في إسبانيا والبرتغال، وإخفاقه في تحقيق نصر حاسم في روسيا، رغم احتلاله العاصمة موسكو. وكما كسب المعارك خسر الواحدة تلو الأخرى حتى تخلّى عن العرش، ونُفي إلى جزيرة ألبا سنة (1814 م)، وبعد مائة يوم عاد إلى فرنسا معتمداً على ولاء ضباط الجيش له، وقام بحملة عسكرية ضد الجيوش المتحالفة ضده حقق فيها انتصارات، لكنه مُني بهزيمة منكرة في واترلو في أثناء محاصرته الجيش البريطاني، وبعد الهزيمة نُفي إلى جزيرة هيلانة في المحيط الأطلسي، وتوفي بها عام (1821 م).

(542/10)

\*بونابرت

عسكري عبقرى وإمبراطور فرنسى. وُلد في جزيرة كورسيكا الإيطالية سنة (1769 م)، ودرس العلوم العسكرية في فرنسا، وتخرج ضابطاً في سلاح المدفعية. برز اسمه عندما تمكن من حماية مدينة طولون في أثناء الثورة الفرنسية عام (1793 م)، ثم عُيّن قائداً للجيش الفرنسي في إيطاليا، فأخذ ينتقل من نصر إلى نصر ضد الجيوش الإيطالية والنمساوية المناوئة، ثم قام بحملة على مصر سنة (1798 م)، وأراد أن يتوسع شرقاً بعد غزو مصر، لكن عكا استعصت عليه، فعاد إلى فرنسا، تاركاً الجيش

لقيادة كبير. وبعودة نابليون إلى فرنسا أصبح زعيمها الأول،  
وخاض عدة معارك ناجحة ضد روسيا والنمسا، ثم ضد بريطانيا  
وحلفائها الأوربيين، ثم انفرد بالسلطة ونصّب نفسه إمبراطوراً  
سنة (1804 م)، وشرع في تحقيق حلمه الكبير، وهو توحيد أوربا  
تحت قيادته، لكن حلمه تبدد أمام حرب العصابات التي واجهها  
في إسبانيا والبرتغال، وإخفاقه في تحقيق نصر حاسم في  
روسيا، رغم احتلاله العاصمة موسكو. وكما كسب المعارك خسر  
الواحدة تلو الأخرى حتى تخلّى عن العرش، ونُفي إلى جزيرة  
ألبا سنة (1814 م)، وبعد مائة يوم عاد إلى فرنسا معتمداً على  
ولاء ضباط الجيش له، وقام بحملة عسكرية ضد الجيوش المتحالفة  
ضده حقق فيها انتصارات، لكنه مُني بهزيمة منكرة في واترلو  
في أثناء محاصرته الجيش البريطاني، وبعد الهزيمة نُفي إلى  
جزيرة هيلانة في المحيط الأطلسي، وتوفي بها عام (1821 م).

(543/10)

#### \*يزيد الشيباني

هو أبو خالد يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني. أحد القادة  
المعروفين في العصر العباسي. مات أبوه وهو صغير، فكفله  
عمه معن بن زائدة، وقدمه على أولاده؛ لفطنته وشجاعته. ولى  
اليمن وأرمينية وأذربيجان، وعندما ثار الخوارج على الدولة  
العباسية بقيادة الوليد بن طريف الشيباني، انتدبه هارون الرشيد  
لقتاله، فكانت بينهما وقائع انتهت بقتل ابن طريف وهزيمة  
الخوارج سنة (179 هـ). واشتهر يزيد بالشجاعة والكرم  
والمروءة؛ فوفد إليه الشعراء يمدحونه راغبين في عطائه.  
وتوفي يزيد سنة (191 هـ = 807 م).

(544/10)

---

### \*وكيع بن الجراح

هو أبو سفيان وكيع بن الجراح بن مليح. أحد أئمة الحديث في القرن الثاني الهجري. وُلد بالكوفة سنة (129 هـ = 746 م)، وتلقى علوم الحديث والفقه، حتى أصبح محدث العراق في عصره. وكان وكيع ثقة ثبتاً ورعاً زاهداً. قال عنه الإمام أحمد بن حنبل: ما رأيت أحداً أوعى منه ولا أحفظ، وكيع إمام المسلمين. وقد ألف وكيع عدداً من المصنفات، منها: تفسير القرآن، والسنن، والزهد. وتُوفّي وهو عائد من الحج سنة (197 هـ = 812 م).

(545/10)

---

### \*واصل بن عطاء

هو أبو حذيفة واصل بن عطاء الغزّال، رأس مذهب الاعتزال. ولد بالمدينة سنة (80 هـ)، ونشأ بالبصرة، ولزم دروس الحسن البصرى، فلما قالت الخوارج بكفر مرتكب الكبيرة، وقالت الجماعة بأن مرتكب الكبائر مؤمن غير كافر، وإن كان فاسقاً، خرج واصل عن الفرقتين، وقال: إن الفاسق ليس بمؤمن وليس بكافر، واعتزل مجلس الحسن، وتبعته جماعة فُعرفوا بالمعتزلة. كان واصل من كبار البلغاء والمتكلمين، وكان يلثغ بالراء فيجعلها غيناً فتجنب الراء في خطابه، وضُرب به المثل في ذلك. وقد أُلّف واصل بن عطاء عدّة كتب، منها: أصناف المرجئة، والمنزلة بين المنزلتين، ومعاني القرآن، والسييل إلى معرفة الحق. وتُوفّي واصل بن عطاء سنة (131 هـ).

(546/10)

---

### \*حاجى خليفه

هو مصطفى بن عبد الله المعروف بحاجى خليفه، مؤرخ تركى. ولد بإستانبول سنة (1017 هـ = 1608 م)، وحفظ القرآن، ودرس العربية والفقه والحساب، وعنى عناية خاصة بالتاريخ والجغرافيا. صحبه والده فى أسفاره، حيث كان يعمل فى خدمة الجيش العثمانى، فزار عدداً من البلاد، ثم استقر فى إستانبول منذ سنة (1055 هـ = 1645 م)، وانصرف إلى التدريس والتأليف، ومعظم مؤلفاته باللغة العربية. ويعد كتابه كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون أشهر مؤلفاته، وهو يشتمل على زهاء (15) ألفاً من أسماء الكتب العربية والتركية والفارسية. وله أيضاً: تقويم التواريخ، وسلم الوصول إلى طبقات الفحول، وتحفة الكبار فى أسفار البحار. وتوفى حاجى خليفه بإستانبول سنة (1067 هـ = 1656 م).

(547/10)

---

### \*الحسن البصرى

هو الحسن بن يسار البصرى أحد كبار التابعين. وُلد سنة (21 هـ = 642 م) فى المدينة لأبوين من الموالى، فقد كان أبوه فارسياً، أُسر فى ميسان بالعراق، وجرى به إلى المدينة، وأصبح مولى لزيد بن ثابت، رضى الله عنه. وكانت أمه مولاة لأم المؤمنين أم سلمة، رضى الله عنها. شب الحسن بالمدينة، ثم رحل إلى البصرة سنة (38 هـ)، واشترك فى الفتوحات التى وقعت فى شرقى إيران. وتولى منصب الكاتب فى ولاية خراسان إبان خلافة معاوية بن أبى سفيان. تتلمذ الحسن البصرى على مجموعة من كبار علماء البصرة، ولما نهل من العلم جلس للتدريس، وتخرج

على يديه كثير من العلماء في مختلف فروع المعرفة الإسلامية. يدل على ذلك تصدر اسمه كتب الطبقات التي ترجمت لأعلام المسلمين، فيتصدر اسمه أسماء العلماء الذين بدأت بهم مدرسة السيرة والتاريخ ومذاهب علم الكلام، وأئمة الزهد والوعظ، وأساطين الفصاحة والبلاغة، ورجال الفقه والتفسير، وغيرهم. وتوفي الحسن البصرى سنة (110 هـ = 728 م).

(548/10)

---

### \*محمد بن على السنوسى

زعيم السنوسيين، وواحد من كبار المصلحين في العالم الإسلامى فى العصر الحديث. ولد بمقاطعة وهران بالجزائر سنة (1202 هـ = 1798 م)، ورحل إلى فاس سنة (1812 م)، والتحق بالقرويين، وبعد تخرجه فيها عُيِّن مدرسًا بالجامع الكبير بفاس. ترك السنوسى عددًا من المؤلفات بلغ نحو (40) كتاباً، منها: إيقاظ الوسنان فى العمل بالحديث والقرآن، وشفاء الصدور، والتحفة فى أوائل الكتبة، والدرر السنبة فى أخبار السلالة الإدريسية. وتوفى السنوسى سنة (1859 م) فى جغوب بليبيا.

(549/10)

---

### \*عمرو بن مسعدة

هو عمرو بن مسعدة بن سعد بن صول، وزير الخليفة المأمون، وواحد من الكتاب البلغاء فى العصر العباسى، وابن عم الشاعر الناثر المعروف إبراهيم بن العباس الصولى. اشتهر عمرو بالفصاحة وقوة البيان، فاتصل بالمأمون وعلت مكانته عنده لعلمه وأدبه، فكان يكتب له رسائله وكتبه. وتميزت كتابات عمرو

بن مسعدة بالإيجاز واختيار الجزل من الألفاظ، وتضم كتب الأدب  
كثيراً من رسائله وتوقيعاته. وتوفي عمرو بن مسعدة في أذنة  
(أطنه) بتركيا سنة (217 هـ = 832 م).

(550/10)

---

### \* عمير بن أبي وقاص

صحابي جليل وأخو سعد بن أبي وقاص. وُلد قبل الهجرة بأربعة  
عشر عاماً وهاجر إلى المدينة مع من هاجر، وشهد بدرًا، وكان  
يتوارى من النبي - صلى الله عليه وسلم - مخافة ألا يسمح له بحضورها، فلما بكى  
أجازه النبي، وكان سيفه طويلاً، فعقد عليه حمائل سيفه.  
استشهد ببدر سنة (2 هـ)، وعمره (16) سنة، قتله عمر بن عبدود.

(551/10)

---

### \* ابن فضل الله العمري

هو أحمد بن يحيى بن فضل الله بن مجلى، مؤرخ وأديب  
وجغرافي، ولد في دمشق سنة (700 = 1301 م)، وبها نشأ  
وتعلم على يد عدد من علمائها أمثال الشيخ كمال الدين بن  
قاضي شهبة، وشمس الدين بن مسلم، وتقى الدين بن تيمية،  
وظل مقيمًا في دمشق إلى أن وقع الطاعون بها، فخرج للحج  
فأصابته الحمى في الطريق، فمات في يوم عرفة سنة (749 هـ =  
1349 م). وقد ترك ابن فضل الله عددًا من المؤلفات، أهمها:  
مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، وهو أشهر كتبه، ومختصر  
قلائد العقيان، وممالك عباد الصليب، وصبابة المشتاق في  
المدائح النبوية، وفواصل السمر في فضائل آل عمر.

(552/10)

---

**\*الفضل بن يحيى**

هو أبو العباس الفضل بن يحيى بن خالد البرمكى من كبار رجال الدولة فى العصر العباسى. عهد إليه الرشيد بالوزارة لفترة قصيرة، ثم جعله والياً على القسم الشرقى من الخلافة سنة (178 هـ)، فأقام بخراسان وحسنت سيرته بين الناس، وقام بإصلاحات عديدة، وقرب إليه العلماء والأدباء والشعراء. وظل الفضل والياً على المشرق حتى سنة (187 هـ)، وهى السنة التى نكبت فيها البرامكة، فقبض عليه، وأودع السجن، وظل فيه حتى توفى سنة (193 هـ = 808 م).

(553/10)

---

**\*القاسم بن محمد بن أبى بكر**

هو أبو محمد القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق، من كبار التابعين، وأحد الفقهاء السبعة المعروفين. روى عن كثير من الصحابة، وروى عنه كثير من التابعين وتابعيهم. توفى سنة (107 هـ = 725 م) وقيل غير ذلك، عن عمر يناهز السبعين عاماً بعد أن كُفَّ بصره، ودفن بقديد (مكان بين مكة والمدينة).

(554/10)

---

**\*زهير بن أبى سلمى**

هو زهير بن أبى سلمى ربيعة بن رياح المزنى، أحد فحول شعراء الجاهلية الأربعة، وهم: امرؤ القيس، والنابغة، وزهير،

والأعشى، ومن أصحاب المعلقات. وآل أبي سلمى نشأوا في غطفان أحلافًا لهم، وإن كان نسبهم في مزينة وتخرج زهير في الشعر على بشامة بن الغدير الشاعر، خال أبيه، وعلى زوج أمه أوس بن حجر شاعر مضر في زمانه، ففاقهما في الشعر، وله ديوان شعر، الكثير منه في مدح هَرم بن سنان الذبياني المَرى، ومن ذلك معلقته الشهيرة التي مدحه بها لحسن سعيه هو والحارث بن عوف في الصلح بين عيس وذبيان في حرب داحس والغبراء بتحمُّلهما ديات القتلى. وتوفي زهير قبل البعثة النبوية بعام.

(555/10)

---

#### \*القعقاع بن عمرو

هو القعقاع بن عمرو التميمي صحابي جليل، وأحد فرسان المسلمين وشعرائهم، شهد فتح دمشق، وأكثر فتوح العراق. له بلاء حسن في قتال الفرس بالقادسية، وله في ذلك أشعار مشهورة. وشهد مع علي - رضى الله عنه - معركة الجمل وصدّيقين، وكان أبو بكر الصديق يقول عنه: صوت القعقاع في الجيش خير من ألف رجل. وتُوفِّي القعقاع نحو سنة (40 هـ = 660 م).

(556/10)

---

#### \*أحمد دراني

هو أحمد شاه بن محمد زمان خان السدوزائي، مؤسس أسرة دراني التي حكمت أفغانستان (1747 - 1834 م)، ويعرف بالإبدال نسبة إلى قبيلة الإبدال بأفغانستان. وُلد أحمد دراني

سنة (1724 م)، وكان أبوه أميراً على أفغانستان فلما تُوفِّي قبض حسين شاه حاكم قندهار على أحمد وأخيه ذى الفقار، وعندما غزا نادر شاه - ملك فارس - بلاد الهند أطلق سراح أحمد، وجعله تابعاً شخصياً له ثم عينه قائداً لكتيبته، وفي سنة (1747 م) قُتل نادر شاه فانتخب الجنود الأفغان أحمد زعيماً لهم وسموه بدر دراني، أى: درة الدرر وكان عمره وقتئذٍ (23) عاماً. نجح أحمد دراني في تأسيس الدولة الأفغانية واتخذ قندهار عاصمة لها، وبعد أن أرسى قواعد حكومته انحدر إلى سهول البنجاب، وقاد حروباً كثيرة في الهند كان يهدف من ورائها إلى دفع خطر الجماعات التي كانت تكيد للدولة الإسلامية بالهند، وعلى رأسها المراهتا والسيخ. كما قام أحمد دراني بسبع غزوات في الهند ونجح في تأمين حكم الدولة الإسلامية بها وقضى على ثورات المراهتا والسيخ. وقد قام بجانب أعماله الحربية العديدة ببعض الأعمال العمرانية المهمة، مثل استكمال بناء مدينة قندهار الذي بدأه نادر شاه. وتوفي أحمد دراني سنة (1773 م).

(557/10)

#### \*آمنة بنت وهب

هي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة أم النبي محمد (. وُلدت بمكة المكرمة في بيت عُرف بالشرف وعراقة النسب، حيث كان أبوها سيد قومه وزعيم عشيرته. كانت آمنة تمتاز بشدة الذكاء وحسن البيان، وقد خطبها عبد المطلب جدُّ النبي - صلى الله عليه وسلم - لابنه عبد الله، وبعد أيام من زواج عبد الله خرج في تجارة أبيه إلى بلاد الشام، وفي طريق عودته مات بيثرب ودفن عند أخواله من بني النجار، وكانت آمنة حينئذٍ حاملاً في النبي - صلى الله عليه وسلم -، ولم تجد في حملها ووضعها ما تجده النساء من مشقة وتعب. وقد رأت آمنة في

منامها قبل مولد النبي - صلى الله عليه وسلم - أن نوراً خرج منها فأضاء قصور الشام، فقد ورد في حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - : ... ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاء قصور الشام، وكذلك ترى أمهات النبيين صلوات الله وسلامه عليهم. [مسند أحمد: 4 / 128]. ووضعت السيدة آمنة مولودها يتيماً في يوم الاثنين (12 من ربيع الأول 50 ق. ه = 570 م)، ثم أعطته لمرضعة من بني سعد وهي السيدة حليلة السعدية فأرضعته. ولما انتهت فترة الرضاعة عاد إلى أمه وعاش معها في كفالة جده عبد المطلب. وفي إحدى زيارات آمنة لقبر زوجها أخذت معها النبي - صلى الله عليه وسلم -، وأقامت هناك شهراً، وأثناء العودة مرضت وماتت في الطريق بين مكة ويثرب في سنة (45 ق. ه = 575 م) ودُفنت بمكان يسمّى الأبواء.

(558/10)

#### \*الآمر بأحكام الله

هو أبو علي المنصور بن أحمد المستعلي بالله عاشر خلفاء الدولة الفاطمية الشيعية. وُلِدَ في (13 من المحرم سنة 490 هـ)، وتُويع بالخلافة بعد موت أبيه المستعلي في (9 من صفر سنة 495 هـ) ولم يتجاوز السادسة من عمره، فكان أصغر مَنْ أُطلق عليه لقب خليفة. ولصغر سنه قام بتدبير شئون الدولة الوزير الأفضل الجمالي حتى كبر الأمر بأحكام الله فتولّى تدبير شئون الدولة. وكان الأمر محبباً للعلم، فاهتم بدار الحكمة، وازدهرت حركة الفنون والعمارة في عهده. ومن أهم أعماله المعمارية: بناء جامع الأقمر، الذي تُعدُّ مئذنته من أروع مآذن مصر، وعلى الرغم من هذه الجوانب الإيجابية في حياته إلا أنه كان سيء السيرة، وشهدت البلاد في عهده بعض الاضطرابات الداخلية، إلى جانب سقوط بعض بلاد الشام في أيدي الصليبيين، مثل:

عكا وبيروت وصور وطرابلس وصيدا. ومات الأمر مقتولاً سنة  
(524 هـ).

(559/10)

---

### \* ابن الأبار

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي  
الأندلسي، وُلد سنة (595 هـ = 1198 م). كان ابن الأبار محدثاً  
بارعاً حافظاً، سمع على العديد من علماء عصره، وروى عنه  
الكثير من العلماء والمحدثين، وكان أدبياً بليغاً، له اليد الطولى  
في البلاغة والإنشاء. ومن أهم مؤلفاته: 1 - كتاب: تحفة القادم.  
2 - كتاب: الأربعون. 3 - كتاب: الحلة السيرة في أشعار الأمراء. 4 -  
كتاب: إيماض البرق. 5 - كتاب: تكملة الصلة، تكملة لكتاب الصلة  
الذي ألفه ابن بشكوال. 6 - كتاب: أعتاب الكتاب. 7 - كتاب درر  
السّمط في خبر السّبط عليه السلام. وتوفي ابن الأبار في (20 من  
الحرم سنة 658 هـ) في تونس.

(560/10)

---

### \* أبان بن سعيد بن العاص

هو أبان بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس القرشي  
الأموي، أسلم بين الحديبية سنة (6 هـ = 627 م) وخير سنة (7  
هـ = 628 م)، واستعمله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على البحرين سنة (9 هـ =  
630 م). وقيل: إنه أجاز عثمان بن عفان - رضى الله عنه - لما  
أرسله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم الحديبية إلى مكة. واستشهد أبان يوم  
أجنادين سنة (12 هـ = 633 م)، وقيل في اليرموك سنة (15 هـ =  
636 م)، وقيل في يوم مرج الصّفّر سنة (14 هـ = 635 م).

**\*أبان بن عبد الحميد اللاحقي**

هو أبان بن عبد الحميد بن لاحق بن عُفْر، مولى بني رقاش، شاعر مطبوع، جيد النظم والحفظ، وكان حسن السيرة، حافظاً للقرآن الكريم، عالماً بالفقه، اتصل بالبرامكة، ومدحهم، ونظم كتاب كليلة ودمنة شعراً؛ فحسن موقعه عندهم، وأصبح مسئولاً عن ديوان الشعر. وله ترجمات شعرية من الفارسية مثل: سيرة أردشير، وسيرة أنوشروان، وتُوفِّي أبان سنة (200 هـ = 815 م).

**\*إبراهيم الإمام**

هو إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، كنيته أبو إسحاق، يُعدُّ أول قائد للدعوة العباسية قبل إقامة دولتها، وهو أخو أبي العباس السفاح. وُلِد إبراهيم سنة (82 هـ = 701 م)، وسكن الحميمة بالقرب من البحر الميت، وبعد موت أبيه سنة (125 هـ = 742 م) حمل إبراهيم مسؤولية الدعوة العباسية، وكان أبوه قد أوصى له بالإمامة من بعده، وكان أتباعه يطلقون عليه الرضى من آل محمد إمعاناً في التخفى. واشتهر إبراهيم بفصاحة اللسان ورجاحة العقل، ورواية الحديث والأدب، والجود والكرم. أرسل إبراهيم أبا مسلم الخراساني سنة (128 هـ = 745 م) إلى خراسان فاستطاع أن يستولى عليها ويخضعها للدعوة العباسية، وأدى سقوط خراسان إلى انكشاف أمر إبراهيم؛ فقُبِض عليه وسجن في حرَّان بالعراق، وتُوفِّي

إبراهيم سنة (131 هـ = 748 م)؛ بسبب الطاعون، وقيل: نُوفِّي مسمومًا، وكانت البيعة من بعده لأخيه أبي العباس السفاح بناءً على وصيته.

(563/10)

### \*إبراهيم باشا

هو إبراهيم بن محمد علي، والى مصر من قبل الدولة العثمانية. وُلِدَ في مدينة قولة (اليونان حاليًا). ولأه أبوه منصب الدفتردار سنة (1222 هـ)، فقام بعمل مسح كامل لأطيان القطر المصري، ومطاردة فلول المماليك حتى أخرجهم من القطر المصري كله في أعقاب مذبحه القلعة سنة (1226 هـ)، كما قاد الحملة التي وُجِّهَتْ للقضاء على دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الحجاز، وتمكَّن من أن يُحْكَم الحصار على الدرعية عاصمة الوهابيين؛ مما جعل عبد الله بن سعود - قائد جيش الوهابيين - ينجح إلى الصلح والتسليم. وأرسله محمد علي سنة (1237 هـ) لفتح السودان، إلا أن إبراهيم مرض في الطريق، فعاد إلى القاهرة. كما أسند إليه محمد علي مهمة القضاء على تمرد اليونان التي كانت في ذلك الوقت جزءًا من دولة الخلافة، فتحرك إبراهيم سنة (1240 هـ = 1824 م)، واستطاعت جيوشه أن تحرز عديدًا من الانتصارات على اليونانيين في نقرين. وكذلك بعثه محمد علي على رأس حملة كبيرة مكونة من ثلاثين ألف جندي لضم الشام، فاستطاع أن يستولى على غزة ويافا وصيدا وبيروت وعكا والقدس، وواصل إبراهيم باشا زحفه حتى وصل إلى مدينة بيلان، واستطاع أن يهزم الجيش العثماني، وأصبح الطريق مفتوحًا أمامه إلى بلاد الأناضول فمضى تجاهها تستسلم له المدينة تلو الأخرى، وأصبح على مقربة (17) ميلاً من

الآستانة، إلا أن أوروبا تدخلت وقصرت حكم محمد علي على مصر وحدها. ونظراً إلى حالة محمد علي الصحية المتدهورة، تولى إبراهيم باشا ولاية مصر نيابة عنه، وكان هذا لمدة سبعة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً، عُني فيها بتحصين ثغور البلاد وتحديث قوتها الحربية، وتوفي في نوفمبر سنة (1265 هـ)، وله من العمر ستون عاماً.

(564/10)

### \*إبراهيم بن محمد علي

هو إبراهيم بن محمد علي، والى مصر من قبل الدولة العثمانية. وُلد في مدينة قولة (اليونان حالياً). ولأه أبوه منصب الدفتردار سنة (1222 هـ)، فقام بعمل مسح كامل لأطيان القطر المصري، وبمطاردة فلول المماليك حتى أخرجهم من القطر المصري كله في أعقاب مذبحه القلعة سنة (1226 هـ)، كما قاد الحملة التي وُجِّهت للقضاء على دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الحجاز، وتمكّن من أن يُحكم الحصار على الدرعية عاصمة الوهابيين؛ مما جعل عبد الله بن سعود - قائد جيش الوهابيين - ينجح إلى الصلح والتسليم. وأرسله محمد علي سنة (1237 هـ) لفتح السودان، إلا أن إبراهيم مرض في الطريق، فعاد إلى القاهرة. كما أسند إليه محمد علي مهمة القضاء على تمرد اليونان التي كانت في ذلك الوقت جزءاً من دولة الخلافة، فتحرك إبراهيم سنة (1240 هـ = 1824 م)، واستطاعت جيوشه أن تحرز عديداً من الانتصارات على اليونانيين في نقارين. وكذلك بعثه محمد علي على رأس حملة كبيرة مكونة من ثلاثين ألف جندي لضم الشام، فاستطاع أن يستولى على غزة ويافا وصيدا وبيروت وعكا والقدس، وواصل إبراهيم باشا زحفه حتى

وصل إلى مدينة بيلان، واستطاع أن يهزم الجيش العثماني، وأصبح الطريق مفتوحاً أمامه إلى بلاد الأناضول فمضى تجاهها تستسلم له المدينة تلو الأخرى، وأصبح على مقربة (17) ميلاً من الآستانة، إلا أن أوربا تدخلت وقصرت حكم محمد على على مصر وحدها. ونظراً إلى حالة محمد على الصحية المتدهورة، تولى إبراهيم باشا ولاية مصر نيابة عنه، وكان هذا لمدة سبعة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً، عُني فيها بتحصين ثغور البلاد وتحديث قوتها الحربية، وتوفي في نوفمبر سنة (1265 هـ)، وله من العمر ستون عاماً.

(565/10)

---

\*إبراهيم بن تاشفين

هو إبراهيم بن تاشفين بن علي بن يوسف الحميري، آخر ملوك دولة المرابطين بمراكش، بُوع بالخلافة سنة (539 هـ)، وتولى الحكم في ظل الاضطرابات التي سادت الدولة بسبب الانقسامات الداخلية، وزحف عبد المؤمن ابن علي - زعيم الموحدية - على مراكش وحاصرها لعدة أشهر، ثم دخلها ففر إبراهيم بن تاشفين إلى إحدى القلاع الحصينة، لكن قبض عليه - وكان عمره لم يتجاوز السادسة عشرة - واقتيد إلى عبد المؤمن بن علي، الذي أشفق عليه لصغر سنه، وكان يرغب في العفو عنه إلا أن أبا الحسن بن واجاج - أحد كبار رجال عبد المؤمن - قتله.

(566/10)

---

\*إبراهيم (الخليل) عليه السلام

هو أبو الأنبياء، خليل الرحمن، ينتهي نسبه إلى سام بن نوح -

عليه السلام - وُلِدَ فِي مَدِينَةِ أُورُ بَبَابِل (العراق حاليًا). كان عليه السلام - حنيفيًا مسلمًا، موحدًا لله، قانتًا شاكِرًا، حليمًا أوامًا وقيًا صادقًا، بدأ دعوته بأهل بيته، ثم قومه الذين تمادوا في الباطل والضلال، وتعرض لحن وآلام كثيرة، اضطر معها إلى أن يهاجر إلى مصر، والحجاز، ومعه زوجته هاجر وابنه إسماعيل عليهما السلام. وفي الأرض المقدسة أمره الله ببناء البيت الحرام، فبناه بمساعدة ابنه إسماعيل عليهما السلام. وقد عمّر - عليه السلام - طويلاً حتى بلغ (200) سنة، وقيل: (175 سنة)، وقيل: (160) سنة.

(567/10)

---

\*إبراهيم بن المهدي

هو إبراهيم بن المهدي بن أبي جعفر المنصور أخو الخليفة العباسي هارون الرشيد. وُلِدَ سَنَةَ (162 هـ = 779 م) لأم زنجية، وكان غامق البشرة، قويّ البنيان، وافر الفضل، مولعًا بالغناء والموسيقا، وكانت له مساجلات في أصول النغم والإيقاع مع إسحاق الموصلي الموسيقي المشهور. وكان إبراهيم ذا مكانة عظيمة في بني العباس، وولي الخلافة بعد المأمون، وُلِّقَ بالمبارك. ولم تزد فترة خلافة إبراهيم على سنتين (201 - 202 هـ = 816 - 817 م). وتُوِّفِيَ إبراهيم بن المهدي سنة (224 هـ = 839 م) بمدينة سُرَّ مَنْ رَأَى (سامراء حاليًا بالعراق).

(568/10)

---

\*أبرهة الحبشي

هو أبرهة بن الصباح. وُلِدَ بِالْحَبِشَةِ (إثيوبيا حاليًا) وقدم إلى

شبه الجزيرة العربية مع الجيش الذى أرسله النجاشي ملك الحبيشة إلى اليمن. ولقبه أبرهة الأشرم. وترتبط حياة أبرهة وسيرته بحادثة محاولة هدمه الكعبة، وهذه الحادثة دلالة عظيمة على رعاية الله لهذه البقعة المباركة التي اختارها الله لتكون حرماً آمناً. ثم شاء الله - عز وجل - أن يهلك أبرهة وجيشه، فأرسل عليهم جماعات من الطير أخذت ترميهم بحجارة فقضت عليهم، كما يحكى عنهم القرآن الكريم في قوله تعالى: (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) (ألم يجعل كيدهم في تضليل) (وأرسل عليهم طيراً أبابيل) (ترميهم بحجارة من سجيل) (فجعلهم كعصفٍ مأكول) [سورة الفيل]. وبذلك أهلك الله أبرهة، فسَمِيَ العام الذي وقعت فيه الحادثة عام الفيل وهو العام الذي وُلِد فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

(569/10)

\*أبي بن كعب  
هو: أُبَيُّ بن كعب بن قيس من بني النجار، أحد كبار الصحابة، شهد بيعة العقبة الثانية، كما شهد بدرًا، وأحدًا، والمشاهد كلها مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . وقد شارك في جمع القرآن الكريم، وكان من كُتَّاب الوحي، كما كان كاتب رسائل الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى رؤساء القبائل والملوك. وقد برع أُبَيُّ في قراءة القرآن مع جمال صوته حتى لُقِّب بسيد القُرَّاء، واشتهر بأنه كان يختم القرآن كله في ثمان ليالٍ، ولم يكن قارئًا فحسب، بل كان فقيهاً بالقرآن. ولأُبَيُّ بن كعب في كتب السنة بضعة وستون حديثًا، رواها عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - . وقد تُوِّفِّي - رضى الله عنه - في خلافة عثمان بن عفان - رضى الله عنه - سنة (21 هـ = 642 م).

(570/10)

## \*أتاتورك

هو مصطفى كمال الملقب بالغازى، وكلمة أتاتورك تعنى أبا الأتراك، وهو الذى أسقط الخلافة الإسلامية سنة (1343 هـ = 1924 م). وُلِدَ أتاتورك سنة (1299 هـ = 1880 م) بمدينة سالونيك باليونان، وكانت خاضعة لدولة الخلافة العثمانية، وعندما بلغ سن الثانية عشرة التحق بمدرسة سالونيك العسكرية، ثم التحق بأكاديمية موناستير العسكرية، وانتقل منها إلى كلية الحرب فى إستانبول، وعُيِّنَ بعد تخرجه فى دائرة الأركان للجيش الثالث فى سالونيك. اتجهت أفكار أتاتورك اتجاهاً معادياً للإسلام وللخليفة العثماني منذ تخرجه فى الكلية الحربية، فقد حذّر زملاءه من الانخداع بفكرة العالم الإسلامى. وقد كوّن جمعية الوطن والحرية لمكافحة الديكتاتورية التى تتجسد - من وجهة نظره - فى الخليفة العثماني. وزادت شهرة أتاتورك فى الحرب العالمية الأولى؛ حيث عُيِّنَ قائداً للفرقة التاسعة عشرة فى سناق قلعة. وقد هُزِمَ أمامه البريطانيون مرتين فى جزيرة غاليبولى بالبلقان. والحقيقة أن هذا النصر كان نصراً مزيغاً صنعه الإنجليز لإكسابه شهرة واسعة فى الدولة العثمانية. وقد كان أتاتورك مستبداً، يفتال معارضيه، كما أغلق الصحف وألقى القبض على رؤساء تحريرها، ووضع العلماء كلهم تحت المراقبة. وقد تُوفِّيَ أتاتورك سنة (1357 هـ = 1938 م).

(571/10)

## \*مصطفى كمال أتاتورك

هو مصطفى كمال الملقب بالغازى، وكلمة أتاتورك تعنى أبا الأتراك، وهو الذى أسقط الخلافة الإسلامية سنة (1343 هـ =

1924 م). وُلد أتابورك سنة (1299 هـ = 1880 م) بمدينة سالونيك باليونان، وكانت خاضعة لدولة الخلافة العثمانية، وعندما بلغ سن الثانية عشرة التحق بمدرسة سالونيك العسكرية، ثم التحق بأكاديمية موناسيتر العسكرية، وانتقل منها إلى كلية الحرب في إستانبول، وعُيّن بعد تخرجه في دائرة الأركان للجيش الثالث في سالونيك. اتجهت أفكار أتابورك اتجاهاً معادياً للإسلام وللخليفة العثماني منذ تخرجه في الكلية الحربية، فقد حذّر زملاءه من الانخداع بفكرة العالم الإسلامي. وقد كوّن جمعية الوطن والحرية لمكافحة الديكتاتورية التي تتجسد - من وجهة نظره - في الخليفة العثماني. وزادت شهرة أتابورك في الحرب العالمية الأولى؛ حيث عُيّن قائداً للفرقة التاسعة عشرة في شناق قلعة. وقد هُزم أمامه البريطانيون مرتين في جزيرة غاليبولي بالبلقان. والحقيقة أن هذا النصر كان نصرًا مزيفًا صنعه الإنجليز لإكسابه شهرة واسعة في الدولة العثمانية. وقد كان أتابورك مستبدًا، يفتال معارضيه، كما أغلق الصحف وألقى القبض على رؤساء تحريرها، ووضع العلماء كلهم تحت المراقبة. وقد توفّي أتابورك سنة (1357 هـ = 1938 م).

(572/10)

### \*ابن الأثير

ابن الأثير اسم لثلاثة إخوة برعوا في العلوم الإسلامية، خاصة علوم الحديث والفقه واللغة والأدب والتاريخ، وهم من جزيرة ابن عمر - بلدة تقع على نهر دجلة بالعراق - وكان أبوهم من أعيان البلدة وأثرياتها، وكان يتولى ديوان البلدة من قبل أمير الموصل. وهؤلاء الثلاثة هم: 1 - مجد الدين هو مجد الدين أبو السعادات المبارك بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم

الشيبياني، محدث، فقيه نحوي، وأحد العلماء الأفاضل، وُلد سنة (544هـ = 1149 م) بجزيرة ابن عمر ونشأ بها، ثم انتقل إلى الموصل ودرس بها الحديث والأدب وغيرهما، ثم رحل إلى بغداد لسماع الحديث، فأخذ عن يحيى بن سعدون القرطبي وعبد الله الطوسي وغيرهما، كما تعلم النحو على كبار علمائه، مثل: ابن الدهان ومكي بن ريان. وبلغ مجد الدين منزلة عظيمة عند علماء الموصل فولاه أمير الموصل مسعود بن مورور ديوان الرسائل حتى أصيب بمرض النقرس فلزم بيته وتفرغ للتصنيف، وقد ترك مؤلفات عظيمة، من أشهرها: جامع الأصول في أحاديث الرسول، وكتاب الإنصاف في الجمع بين الكشف والكشاف في تفسير القرآن، وكتاب النهاية في غريب الحديث. وتوفي ابن الأثير يوم الخميس آخر ذى الحجة سنة (606 هـ = 1209 م). 2 - عز الدين هو عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، أحد كبار المؤرخين المسلمين، وُلد سنة (555 هـ = 1160 م) بجزيرة ابن عمر، ثم سار إلى الموصل ليأخذ العلم عن علمائها، فسمع من أبي الفضل عبدالله بن أحمد الخطيب الطوسي، وانتقل إلى كثير من البلدان في طلب العلم، فذهب إلى بغداد والشام والقدس، وسمع من كبار علماء هذه البلدان، ثم عاد إلى الموصل واستقر بها وانقطع للتصنيف والنظر في العلم. ولم يكن عز الدين عالماً في التاريخ فحسب، بل كان إماماً في الحديث وعلومه، خبيراً بأنساب العرب وأيامهم ووقائعهم وأخبارهم. وأشهر مؤلفاته التاريخية: كتاب الكامل

(573/10)

---

في التاريخ، بدأه منذ أول الزمان حتى آخر سنة (628 هـ = 1230 م)، أي قبل وفاته بسنتين، وكتاب أسد الغابة في

معرفة الصحابة، وهو معجم عن صحابة النبي - صلى الله عليه وسلم - رتب ترتيباً هجائياً. وتوفي عز الدين بن الأثير سنة (630 هـ = 1232 م). 3 -  
ضياء الدين هو ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، كاتب، وأديب. وُلد ضياء الدين بجزيرة ابن عمر سنة (558 هـ = 1163 م) ونشأ بها، ثم انتقل إلى الموصل فحفظ بها القرآن الكريم والحديث النبوي وتلقى علوم اللغة والأدب والبيان، وحفظ كثيراً من الأشعار وأتقن صنعة الكتابة واشتهر بها وبجودة أسلوبه وتمكنه من صياغة المعاني. وبلغ منزلة عالية في العلم فأعجب به الأمراء والحكام؛ فقلدوه عديداً من المناصب. والتحق ضياء الدين بخدمة الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي سنة (587 هـ)، وتولى للملك الأفضل نور الدين بن صلاح الدين في دمشق، ثم عمل بخدمة أخيه الملك الظاهر غازي بحلب، ثم عاد إلى الموصل واستقر بها وتولى ديوان الإنشاء. وترك ضياء الدين عديداً من المؤلفات، أشهرها كتابه المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، وهو كتاب يعالج فيه ابن الأثير فن الكتابة وطرق التعبير في النثر والشعر. وتوفي ضياء الدين في إحدى رحلاته إلى بغداد سنة (637 هـ = 1239 م).

(574/10)

#### \*أحمد بابا التمبكتي

هو أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت التمبكتي، أحد فقهاء المذهب المالكي في القرن (11 هـ = 17 م). وُلد في (21 من ذي الحجة 963 هـ = 26 من أكتوبر 1556 م) بأروان، وهي إحدى قرى مدينة تمبكتو التي كانت تابعة للسودان قديماً (في مالي حالياً). نشأ أحمد بابا في أسرة عرفت بالعلم والصلاح ورئاسة

القضاء في السودان، ودرس الفقه واللغة على أبيه وجده وتلقى علوم الحديث والتفسير والمنطق والنحو على جماعة من علماء عصره. وقد سُجِن أحمد بابا في مراكش سنة (1002 هـ = 1594 م). وبعد سيطرة سلطان مراكش أحمد المنصور بالله السعدي على تمبكتو عام (1004 هـ = 1596 م) أفرج عنه واشترط عليه الإقامة في مراكش، فبدأ يلقي دروس الحديث والفقه، وذاعت شهرته في المغرب، وبعد موت المنصور بالله سنة (1012 هـ = 1603 م) عاد أحمد بابا إلى بلده وكَرَس حياته للتأليف والتدريس؛ إذ ترك مؤلفات كثيرة تربو على (40) كتابًا في الفقه والتراجم والنحو، منها: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، والنكت الوفية في شرح الألفية في النحو. وتُوفِّي أحمد بابا سنة (1036 هـ = 1627 م).

(575/10)

#### \*أحمد بن بويه

هو أحمد بن بويه بن فنا خسرو بن تمام، أبو الحسن معز الدولة البويهى، من ملوك دولة بني بويه بالعراق، فارسى الأصل، خلع عليه الخليفة العباسى لقب معز الدولة، وكان في أول أمره يبيع الحطب على رأسه، ثم ملك هو وإخوته العراق، وكان أصغرهم، وكان يُقال له: الأقطع؛ لأن يده قُطِعَت في حروب مع الأكراد. تولى في صباه كرمان وسجستان والأهواز في ظل حكم أخيه عماد الدولة، وامتلك بغداد في خلافة أخيه المستكفى سنة (334 هـ)، ثم امتلك العراق واستمر ملكه (22) سنة، وعندما حضرته الوفاة أحضر العلماء وتاب من مظلله وأعتق ممالিকে وتصدَّق بأموال كثيرة. وتُوفِّي ابن بويه سنة (356 هـ = 967 م) ببغداد، وتولى المُلْك بعده ابنه عز الدولة أبو المنصور بختيار.

**\*معز الدولة البويهى**

هو أحمد بن بويه بن فنا خسرو بن تمام، أبو الحسن معز الدولة البويهى، من ملوك دولة بني بويه بالعراق، فارسى الأصل، خلع عليه الخليفة العباسى لقب معز الدولة، وكان فى أول أمره يبيع الحطب على رأسه، ثم ملك هو وإخوته العراق، وكان أصغرهم، وكان يُقال له: الأقطع؛ لأن يده قُطعت فى حروب مع الأكراد. تولى فى صباه كرمان وسجستان والأهواز فى ظل حكم أخيه عماد الدولة، وامتلك بغداد فى خلافة أخيه المستكفى سنة (334 هـ)، ثم امتلك العراق واستمر ملكه (22) سنة، وعندما حضرته الوفاة أحضر العلماء وتاب من مظالمه وأعتق ممالئكه وتصدَّق بأموال كثيرة. وتوفى ابن بويه سنة (356 هـ = 967 م) ببغداد، وتولى المُلْك بعده ابنه عز الدولة أبو المنصور بختيار.

**\*أحمد بن تيمية**

هو الإمام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله أبى العباس تقى الدين بن تيمية شيخ الإسلام. وُلد فى حران عام (661 هـ = 1263 م)، وانتقل به أبوه إلى دمشق عندما أغار التتار على بلاد الإسلام عام (667 هـ)، وحفظ القرآن الكريم فى سن مبكرة، ثم اتجه إلى تحصيل علوم الحديث والفقه والأصول والكلام، وسمع كثيراً من الفقهاء والمحدِّثين وقرأ عليهم، وكان إذا أفتى لم يلتزم بمذهب معين. وعندما أغار التتار على العراق أخذ ابن تيمية يحرض الناس على محاربتهم وتطهير البلاد منهم،

متقدماً الصوفوف. دافع ابن تيمية عن السلف والسلفية الصحيحة،  
كما بين فساد منطق أرسطو وتصوره، ونقد غلاة الصوفية،  
وكان يجمع في منهجه بين الحجة العقلية والسند الشرعي، وقد  
بلغت مؤلفاته ثلاثمائة مجلد، منها: الجوامع في السياسة الإلهية  
والآيات النبوية، ويُسمى السياسة الشرعية، والفتاوى والإيمان  
، والجمع بين النقل والعقل، ومنهاج السنة، وغيرها. واعتقل  
ابن تيمية أكثر من مرة حتى تُوفِّي معتقلاً في سجن دمشق عام  
(728 هـ = 1328 م)، وخرجت دمشق كلها في جنازته تبكيه.

(578/10)

#### \*أحمد بن الحسين بن يحيى

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد بن بشر  
الهمداني، الملقب ببديع الزمان الهمداني، أحد أعلام الأدب في  
القرن (4 هـ = 10 م). وُلِدَ في همدان سنة (358 هـ = 969 م)،  
وعُني أبوه بتأديبه وتهديبه، فتتلمذ لعدد من الأعلام أمثال  
عيسى بن هشام وابن فارس، وغيرها. وكان بديع الزمان محباً  
للتنقل والترحال، وتنوع آثاره الأدبية في ثلاثة فنون هي:  
المقامات والرسائل والشعر، وقد أجمع العلماء على أنه أول  
من فتح الباب لتأليف المقامات وتبعه من جاء بعده كالحري،  
واشتهرت مقاماته باسم مقامات بديع الزمان، وطُبعت أكثر من  
مرة. أما عن رسائل بديع الزمان فهي مدونة مشهورة، ومعظم  
موضوعاتها في المديح والهجاء والتفريغ والتهنئة بالمولود. وقد  
كتب هذه الرسائل إلى الرؤساء من الأمراء والوزراء، وغيرهم  
من الوجهاء، وقد طبعت رسائله أكثر من مرة. وبديع الزمان ممن  
جمعوا بين الشعر والنثر، واشتهر بأنه ذو حافظه قوية وقريحة  
ذكية، وقد جرت مناظرات بينه وبين شيخ الأدباء في عصره

أبي بكر الخوارزمي، تفوّق فيها الهمذاني على خصمه الذي مات بعد ذلك كمدًا؛ فذاع صيت بديع الزمان بين الناس. وترجم له كثيرون، مثل: ابن الأثير وابن تغري بردي والثعالبي، وغيرهم. وتوفّي بديع الزمان في هراة يوم الجمعة (11 من جمادى الآخرة 398 هـ).

(579/10)

### \*بديع الزمان الهمذاني

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد بن بشر الهمذاني، الملقب ببديع الزمان الهمذاني، أحد أعلام الأدب في القرن (4 هـ = 10 م). وُلد في همدان سنة (358 هـ = 969 م)، وعنى أبوه بتأديبه وتهذيبه، فتتلمذ لعدد من الأعلام أمثال عيسى بن هشام وابن فارس، وغيرهما. وكان بديع الزمان محبًا للتنقل والترحال، وتتنوع آثاره الأدبية في ثلاثة فنون هي: المقامات والرسائل والشعر، وقد أجمع العلماء على أنه أول من فتح الباب لتأليف المقامات وتبعه من جاء بعده كالحريري، واشتهرت مقاماته باسم مقامات بديع الزمان، وطُبعت أكثر من مرة. أما عن رسائل بديع الزمان فهي مدونة مشهورة، ومعظم موضوعاتها في المديح والهجاء والتقريع والتهنئة بالمولود. وقد كتب هذه الرسائل إلى الرؤساء من الأمراء والوزراء، وغيرهم من الوجهاء، وقد طبعت رسائله أكثر من مرة. وبديع الزمان ممن جمعوا بين الشعر والنثر، واشتهر بأنه ذو حافظة قوية وقريحة ذكية، وقد جرت مناظرات بينه وبين شيخ الأدباء في عصره أبي بكر الخوارزمي، تفوّق فيها الهمذاني على خصمه الذي مات بعد ذلك كمدًا؛ فذاع صيت بديع الزمان بين الناس. وترجم له كثيرون، مثل: ابن الأثير وابن تغري بردي والثعالبي،

وغيرهم. وتوفي بديع الزمان في هراة يوم الجمعة (11 من جمادى الآخرة 398 هـ).

(580/10)

### \*أحمد بن حنبل

هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، من كبار المحدثين، وأحد أئمة الفقه الإسلامي، وصاحب المذهب الحنبلي، أحد مذاهب الفقه المعروفة. وُلد في بغداد في (ربيع الأول 164 هـ = نوفمبر 780 م) لأبٍ كان يعمل قائدًا عسكريًا في مرو عاصمة خراسان، وتوفي أبوه في الثلاثين من عمره ولم ير وليده أحمد، فتعهدته أمه بالرعاية والتنشئة، وعاش طفولته مع أبناء عمومته. وحفظ أحمد القرآن الكريم على قراء عصره مثل: يحيى بن آدم وسعيد بن الصاح، وبعد أن أتم حفظه انكبَّ على دراسة الحديث، وكان من شيوخه أبو يوسف تلميذ أبي حنيفة، وهشيم بن بشير السلمى، والشافعي، وكان ابن حنبل كثير الترحال لطلب العلم، وفي سن الأربعين جلس للفتيا والحديث، وكان له درسان، أحدهما في منزله، والآخر في المسجد، وكان من تلاميذه أبو بكر المروزي وأبو بكر الأشرم وإسحاق بن منصور التميمي، وابنه صالح الذي روى مسنده. وقد حرص الإمام أحمد على ألا يُفتى إلا بما يقع من الأمور إلا إذا كان في ذلك سُنَّة أو فتوى صحابي. وعاش الإمام أحمد فقيرًا وكان يأكل من عمل يده ويرد عطاء الخلفاء له. وفي عام (218 هـ = 833 م) تعرض الإمام أحمد لحنّة خلق القرآن فرفض الإذعان للخليفة في ذلك، فعُدِّب وسُجن. وترك الإمام أحمد كتبًا كثيرة، منها: المسند، والناسخ والمنسوخ، والزهد، وغيرها. وتوفي الإمام أحمد في (ربيع الآخر 241 هـ = أغسطس 855 م) ودُفن في بغداد.

**\*أحمد بن سليمان**

هو شمس الدين أحمد بن سليمان الحنفى المعروف بابن كمال باشا، تركي الأصل. وُلد في طوقات نواحي سيواس، وهو من علماء الحديث. كان جده من أمراء الدولة العثمانية، واشتغل هو في شبابه بالعلم؛ فعكف على القراءة بالليل والنهار، وقد تلقى تعليمه في أدرنة وعُيِّن مدرسًا في مدارس كثيرة، ثم صار قاضيًا لأدرنة، ثم مفتيًا بالقسطنطينية. وقد ترك أحمد بن سليمان مصنفات كثيرة منها: كتاب طبقات المجتهدين، وكتاب طبقات الفقهاء، وكتاب المهمات في فروع الفقه الحنفى، وكتاب محيط اللغة. وتوفي أحمد بن سليمان وهو مفتٍ بالقسطنطينية سنة (640 هـ = 1534 م).

**\*ابن كمال باشا**

هو شمس الدين أحمد بن سليمان الحنفى المعروف بابن كمال باشا، تركي الأصل. وُلد في طوقات نواحي سيواس، وهو من علماء الحديث. كان جده من أمراء الدولة العثمانية، واشتغل هو في شبابه بالعلم؛ فعكف على القراءة بالليل والنهار، وقد تلقى تعليمه في أدرنة وعُيِّن مدرسًا في مدارس كثيرة، ثم صار قاضيًا لأدرنة، ثم مفتيًا بالقسطنطينية. وقد ترك أحمد بن سليمان مصنفات كثيرة منها: كتاب طبقات المجتهدين، وكتاب طبقات الفقهاء، وكتاب المهمات في فروع الفقه الحنفى، وكتاب محيط

اللغة. وتُوفِّي أحمد بن سليمان وهو مفتٍ بالقسطنطينية سنة  
(640 هـ = 1534 م).

(583/10)

### \*أحمد عرابي

هو أحمد عرابي بن محمد عرابي بن محمد وافي بن محمد غنيم،  
قائد الثورة العرابية، وأحد زعماء مصر في العصر الحديث. وُلد  
أحمد عرابي في (7 من صفر 1257 هـ = 31 من مارس 1841 م)  
في قرية هرية رزنة بمحافظة الشرقية بمصر، والتحق بكتاب  
القرية حيث حفظ قدرًا من القرآن الكريم، وتعلم مبادئ القراءة  
والكتابة، ثم أرسله أبوه إلى الجامع الأزهر، فمكث به أربع  
سنوات، أتم خلالها حفظ القرآن الكريم. وفي سنة (1271 هـ =  
1854 م) جُنِد عرابي بالجيش المصري وعُيِّن كاتبًا إداريًا، ثم  
رُفِّي إلى رتبة ملازم، وواصل تدرجه في مناصب الجيش، حتى  
وصل إلى رتبة قائمقام (عقيد)، وفي عهد الخديو توفيق رُفِّي  
إلى رتبة أميرالاي (عميد)، ثم شغل منصب نظارة الجهادية في  
سنة (1299 هـ = 1882 م)، حيث قام بالثورة التي عُرفت بالثورة  
العرابية ضد الخديو توفيق. ونُفِيَ أحمد عرابي بعد فشل ثورته  
إلى جزيرة سيلان (سرنديب - سيريلانكا حاليًا) وكان ذلك في  
سنة (1300 هـ = 1883 م). وكان لأحمد عرابي في فترة نفيه دور  
إيجابي في الحياة التعليمية لأبناء سيريلانكا وبخاصة مدينة  
كولومبو، إذ أسس مدرسة ميردانة الإسلامية وشارك في إنشاء  
المدرسة الحميدية. وتُوفِّي أحمد عرابي في (17 من رمضان  
1329 هـ = 21 من سبتمبر 1911 م)، بعد أن سجَّل مذكراته في  
كتاب أسماه: كشف الستار عن سر الأسرار.

(584/10)

### \*أحمد بن علي بن الإخشيد

هو أحمد بن علي بن الإخشيد محمد بن طعج التركيّ المصري. ولى سلطنة مصر بعد وفاة كافور الإخشيدى فى (20 من جمادى الأولى 357 هـ = 23 من أبريل 968 م)، وكان صبياً لم يبلغ الحادية عشرة من عمره، وقد أجمع أولو الأمر على بيعته، ولم يخرج على البيعة إلاّ الحسن بن عبيد الله بن طعج الذى أخذ البيعة لنفسه، واستولى على ما كان لكافور من أموال الرملة. ولم تستقر البلاد فى عهد أحمد بن على حتى دخلها الفاطميون سنة (358 هـ = 969 م). وخلال العام الذى تولى فيه أحمد السلطنة حسنت سيرته،، وأمر بتعطيل المواخير ورفع الكُلف والمؤن، ونشر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

(585/10)

### \*ابن حزم

هو أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم، المعروف بابن حزم الظاهرى. فقيه فيلسوف مؤرخ. وُلد بقرطبة سنة (384هـ = 994 م)، لأبٍ كان وزيراً للمنصور بن أبى عامر؛ فعُني بتربيته وتعليمه؛ فأتيحت له فرصة الاطلاع على شتى فروع العلم من معارف دينية وفلسفية وتاريخية وأدبية، وعُني بدراسة الفرق الإسلامية وأهل العقائد الأخرى، كاليهودية والنصرانية. عمل ابن حزم وزيراً للخليفة الأموى فى الأندلس عبد الرحمن الخامس، ثم عاش بعد مقتل الخليفة متنقلاً بين أنحاء الأندلس. وكان ابن حزم شافعى المذهب، ثم تحول إلى المذهب الظاهرى. وترك ابن حزم مؤلفات كثيرة، من أشهرها: المحلى، وهو فى الفقه، والفصل فى الملل والأهواء والنحل، والإحكام فى أصول الأحكام، وهو

في أصول الفقه، وجوامع السيرة النبوية، ونقط العروس في  
تواريخ الخلفاء. وتُوفِّي ابن حزم في قرطبة سنة (456 هـ =  
1064 م).

(586/10)

---

### \*بقي بن مخلد

هو أبو عبد الرحمن بقي بن مخلد بن يزيد القرطبي. أحد أئمة  
الحديث في القرن الثالث الهجري، وُلِدَ في قرطبة سنة (201 هـ =  
816 م). ودرس الفقه والحديث على يد يحيى بن يحيى الليثي  
راوى موطأ الإمام مالك. وكان لبقي بن مخلد رحلتان في طلب  
الحديث؛ الأولى بدأها وهو في الثالثة والعشرين من عمره إلى  
القيروان ومصر واستغرقت عشرين عامًا، والأخرى إلى مصر  
والشام والجزيرة والبصرة والكوفة وواسط، واستغرقت أربعة  
عشر عامًا. وقد التقى في هاتين الرحلتين بكثير من شيوخه  
الذين بلغ عددهم (284) شيخًا، ثم جمع بقي بن مخلد مسنده،  
وعاد به إلى الأندلس؛ حيث جلس للتدريس. وقد ترك بقي أربعة  
كتب لم يصل إلينا منها شيء، وهي: المسند الكبير، والتفسير  
الكبير، ومصنف في فتوى الصحابة والتابعين، وما رُوِيَ في  
الحوض والكوثر، وقد شارك بقي بن مخلد في (72) غزوة،  
مرابطاً على الثغور. وتُوفِّي بقي بن مخلد بالأندلس سنة (276 هـ =  
889 م).

(587/10)

---

### \*ابن بطوطة

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي

الطنجي. رحالة مشهور. وُلد في طنجة بالمغرب الأقصى سنة (703 هـ = 1304م)، ونشأ في أسرة علمية؛ فحفظ القرآن الكريم، ودرس الفقه، وشغف بقراءة كتب الرحالة والاستماع إلى أخبار البلدان من الحجاج والتجار، ثم أخذ هذا الشغف بُعدًا عمليًا، فبدأ ابن بطوطة رحلاته وهو في الحادية والعشرين من عمره، وقام برحلات ثلاث: الأولى: امتدت أربعًا وعشرين سنة، زار فيها مراكش والجزائر وتونس ومصر والشام والعراق وإيران وتركيا والحجاز واليمن وشرق إفريقيا وعمان والبحرين والهند وخراسان وتركستان وأفغانستان والسند والصين وغيرها. والثانية: امتدت سنتين تقريبًا، ففي السنة التي عاد فيها من رحلته الأولى إلى فاس سافر إلى الأندلس. والأخيرة: إلى غرب إفريقيا؛ فزار سجلماسة وتغازا ومالي وزاغري وتمبكتو وتكدًا وغيرها. وتعد رحلة ابن بطوطة من أهم الرحلات التي كتبت في عصره؛ فقد قطع (140) ألف كيلو متر، ودون فيها عادات أهل البلاد التي زارها ونواديرهم، وقابل العلماء والأمراء والوزراء. ثم استقر ابن بطوطة في رحاب السلطان المغربي أبي عنان المريني، يحدث الناس بما رآه، وأمر السلطان وزيره ابن جزي بكتابة ما يمليه ابن بطوطة، فكتبه، وسماه تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. وتوفي ابن بطوطة في مراكش، وقيل: في فاس سنة (770 هـ = 1368م)، وقيل: سنة (779 هـ = 1377م).

(588/10)

### \*سجاح بنت الحارث

ادّعت النبوة بعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم -، وكانت لها معرفة بالأخبار، فلما أعلنت دعوتها تبعها بعض قومها من تميم،

واتصل خبرها بمسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة أيضاً، فرأى من السياسة عدم الدخول معها في قتال؛ فتزوجها، وعادت إلى قومها، ثم قُتِل مسيلمة وهُزم جيشه هزيمة منكرة، وانتهت تلك الفتنة التي أطلت برأسها وكادت تعصف بالدولة الإسلامية. وتذكر بعض الروايات أنها أسلمت، وهاجرت إلى البصرة، وتوفيّت سنة (55 هـ = 675 م) وصلى عليها سمرة بن جندب.

(589/10)

**\*بارثلميو دياز**

ملاّح برتغالي من القرن الخامس عشر الميلادي. قام سنة (1486 م) برحلته المشهورة على امتداد ساحل إفريقيا الغربي نحو الجنوب، فمر بساحلي الذهب والعاج، ثم مصب نهر الكونغو، وواصل سيره جنوباً، ثم هبت عاصفة أبعدت السفن عن الساحل، وبعد هدوئها اتجه صوب الشرق؛ لعله يرى الساحل، لكنه فشل، فارتدّ ثانية صوب الشمال فشهد اليابسة، فاتجه إلى الشرق كي يحقق هدفه، وهو اكتشاف أن الشاطئ يمتد نحو الهند، لكن التعب حل برجاله، فقرر العودة، وفي الطريق شاهدوا الرأس الجنوبي لإفريقيا، وسماه دياز رأس العواصف. ولما وصل إلى البرتغال سنة (1488 م) أطلق الملك على ذلك الرأس اسم رأس الرجاء الصالح. وبهذا الكشف أيقن الملك بإمكانية الالتفاف حول إفريقيا صوب الهند؛ ومن ثم يصبح الشرق كله مفتوحاً أمام البرتغال. اشترك دياز سنة (1500 م) في رحلة أخرى لم يكن هو قائدها. فهبت عليها عاصفة شديدة أبعدتها عن إفريقيا كثيراً، حتى إنهم اكتشفوا البرازيل، ومن هناك أبحروا صوب الهند، لكن العواصف أفقدتهم أربع سفن منها سفينة دياز، ومات مفقوداً في عرض البحر.

**\*خالد بن برمك**

وهو خالد بن برمك بن جاماس، وُلد سنة (90 هـ)، ولُقّب بأبي البرامكة؛ لأنه أول من تمكن من هذه الأسرة في الدولة العباسية؛ بفضل بسالته وبراعته الحربية وحسن رأيه. كان خالد بن برمك فصيح اللسان، على الرغم من أعجميته، حتى إن أبا العباس السفاح ظنه عربيًّا خالصًا حين دخل لمبايعته، فأقره على الغنائم، ثم جعله على ديوان الخراج وديوان الجند، وبعد وفاة الخليفة أبي العباس السفاح أبقاه الخليفة المنصور في منصبه سنّة، ثم قلّده بلاد فارس، وظل بها سبع سنين، ثم أقره على ولاية الموصل. وكان خالد دور في نقل ولاية العهد إلى المهدي بن المنصور، فلما تولى المهدي الخلافة حفظ له هذا الجميل؛ فأعادته إلى إمارة فارس، ثم أرسله المهدي مع ابنه هارون الرشيد لغزو الروم. وتُوفّي خالد بن برمك سنة (163 هـ = 780 م).

**\*يحيى الوطاسي**

هو يحيى بن يحيى بن زيان بن عمر الوطاسي. وزير السلطان عبد الحق المريني بفاس. وقد نجح في أن يستبدّ بالأمر، ويجعل أمور الدولة كلها في يده وأيدي أقاربه. ولما أحسَّ السلطان أن الوطاسيين يشاركونه في الأمر، وكادوا يغلبونه على سلطانه. انقلب عليهم جميعًا، فقتلهم ولم ينج منهم إلا قليل. وكان الوزير يحيى بن يحيى ممن قُتِل، وذلك عام (866 هـ = 1461 م).

### \*أبو الحسن الشاذلي

هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم، المعروف بالشاذلي؛ نسبة إلى قرية شاذلة، من نواحي تونس؛ حيث جبل زغوان الذي انقطع فيه للعبادة. وُلد أبو الحسن الشاذلي بقرية غمارة من نواحي سبتة بالمغرب سنة (593 هـ = 1197 م)، ودرس علوم القرآن والحديث والفقه واللغة، ثم رحل إلى بغداد، والتقى مع الصوفي أبي الفتح الواسطي، ثم عاد إلى مسقط رأسه، ثم رحل إلى تونس، ثم إلى مكة؛ لأداء فريضة الحج. وفي طريق العودة نزل بالإسكندرية، وأقام في أحد أبراج سورها، ثم رحل إلى القاهرة واستقر بها؛ حيث تزوج وأنجب، وجلس للتدريس بالمدرسة الكاملية. ولم تكن حياة الشاذلي حياة عزلة؛ فعندما غزا الصليبيون دمياط، كان في مقدمة العلماء الذين اشتركوا في معركة المنصورة حاثاً على الجهاد، حتى تمّ النصر للمسلمين، على الرغم من فقدانه البصر. ويُعد الشاذلي أحد أئمة التصوف، وإليه تنسب الطريقة المعروفة باسمه (الشاذلية)، ولم يؤلف الشاذلي كتباً ولا رسائل، بل له عدة أورايد وأدعية، تشمل: حزب البحر، وحزب البر أو الحزب الكبير وحزب الفتح. وتُوفِّي الشاذلي في مكان يُقال له: حميثة، بين قنا والقصير، أثناء رحلة حجّه.

### \*الواقدي

هو محمد بن عمر بن واقد. أحد كبار المؤرخين. وُلد بالمدينة سنة

(130 هـ = 747م). وتلقى الحديث والفقہ عن مالك بن أنس وسفيان الثوري وابن جريج. ونال شهرة واسعة، فانتقل إلى العراق سنة (180هـ) في عهد الرشيد، واتصل بيحيى بن خالد البرمكي الذي قرّبه إلى الخليفة، فولى القضاء ببغداد، وظل في منصبه حتى عهد المأمون الذي أكرم وفادته. وترك الواقدي كتبًا كثيرة، ذكر ابن النديم في الفهرست أنّها (28) كتابًا، وصل إلينا منها كتاب المغازي في ثلاثة مجلدات، وكتاب فتوح الشام وفتوح العراق، وفي نسبتها إليه كثيرٌ من الشك. وتُوفّي الواقدي سنة (207هـ = 823م).

(594/10)

---

#### \*وحيد الدين (سلطان عثمانى)

هو محمد وحيد الدين بن مراد. أحد سلاطين الدولة العثمانية في أخريات عهدها. تولى الخلافة بعد أخيه السلطان محمد رشاد سنة (1916م) أثناء الحرب العالمية الأولى التي اشتركت فيها الدولة العثمانية، ولم تكد أشهر تمضى على ولاية وحيد الدين حتى استسلمت الدولة؛ إذ استولى جيوش أعدائها على كل البلاد عدا شرقي الأناضول. وأراد السلطان وحيد الدين إنقاذ ما يمكن إنقاذه؛ فاستعان بمصطفى كمال الذي عُرف فيما بعد بأتاتورك، وكان يعمل على تحقيق مصالحه الشخصية. ولما رأى السلطان أن الأمور تجرى على غير ما يجب ويرجو تنازل عن العرش سنة (1922م) واعتزل الحياة السياسية.

(595/10)

---

### \*ابن سيد الناس

هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس. من أئمة الحديث في مصر. وُلد في القاهرة سنة (671هـ = 1273م)، وسمع الحديث، وارتحل في طلبه، ثم جلس للتدريس والتصنيف. ومن مؤلفاته: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، وهو أشهر كتبه، وبشرى اللبيب في ذكرى الحبيب، والنفح الشذى في شرح جامع الترمذى ولم يكمله. وتُوفِّي ابن سيد الناس بالقاهرة سنة (734هـ = 1334م).

(596/10)

---

### \*جميل بثينة

هو جميل بن عبد الله بن معمر شاعر الغزل العذرى المعروف. وُلد في وادى القرى شمالي المدينة المنورة، وتردد منذ صغره على مجالس العلم والأدب، ولازم الشاعر هدبة بن خشرم وحفظ شعره كله وأصبح راويته. اشتهر جميل بقصائده الغزلية في بثينة التي تعلق قلبه بها، وارتبط اسمه باسمها حتى قيل: جميل بثينة. ولما فشا ذكرها بين العرب، واستغاث أهلها بالخليفة مروان بن الحكم أهدر دمه حتى يُثنيه عنها، لكنه ظل يتنقل في البلاد عشرين سنة، أبدع خلالها روائع في الشعر الغزلى العربى. ومعظم شعر جميل في الغزل العفيف العذرى، وله بعض القصائد في المدح والهجاء. وتُوفِّي جميل بن معمر في مصر عام (82هـ).

(597/10)

---

### \*جوهر الصقلى

هو جوهر بن عبد الله الصقلى مؤسس مدينة القاهرة وُلد بصقلية،

وإليها نُسب. وأرسله الخليفة الفاطمي المعز لدين الله إلى مصر لفتحها سنة (358 هـ)، فتمَّ له ذلك، ثم بدأ في إنشاء مدينة القاهرة وتشبيد الجامع الأزهر، ثم أرسل جعفر بن الفلاح للاستيلاء على الشام. ولما قدم الخليفة المعز إلى مصر سنة (362 هـ = 972 م) وجد الأمور قد استقرت بها؛ بفضل جوهر الصقلي. وقد ظل رفيع المنزلة، على القدر حتى تُوفِّي سنة (381 هـ = 992 م).

(598/10)

### \*أبو الريحان البيروني

هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني. أحد علماء المسلمين في الرياضيات والفلك والجغرافيا. وُلد في بيرون بإقليم خوارزم الفارسي سنة (362 هـ = 973 م)، وحفظ القرآن والحديث، ثم اتصل بعالم نباتات يوناني حُبب إليه العلوم الطبيعية، وعلمه اللغتين السريانية واليونانية، ثم لازم أبا نصر منصور عالم الرياضيات والفلك، فتعلم على يديه؛ إذ درس له كتب إقليدس وآراء بطليموس في الفلك، كما تعلم اللغة السنسكريتية؛ مما أتاح له أن يقرأ حضارة الهند. وقد كتب البيروني معظم مؤلفاته بالعربية، في الفلك والطب والرياضيات والجغرافيا والتاريخ والفلسفة وغيرها. ويُعدُّ كتابه القانون المسعودي من أضخم مؤلفاته، وفيه وضع معادلته المشهورة لاستخراج محيط الأرض، وأطلق عليها قاعدة البيروني. وصفه المستشرق سخاو بأنه من أضخم العقول التي ظهرت في العالم. إنه أعظم علماء عصره... ومن أعظم العلماء في كل العصور. وتُوفِّي البيروني سنة (440 هـ = 1048 م).

(599/10)

### \*محمد بن أحمد البيروني

هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني. أحد علماء المسلمين في الرياضيات والفلك والجغرافيا. وُلِدَ في بيرون بإقليم خوارزم الفارسي سنة (362 هـ = 973 م)، وحفظ القرآن والحديث، ثم اتصل بعالم نباتات يوناني حُبب إليه العلوم الطبيعية، وعلمه اللغتين السريانية واليونانية، ثم لازم أبا نصر منصور عالم الرياضيات والفلك، فتعلم على يديه؛ إذ درس له كتب إقليدس وآراء بطليموس في الفلك، كما تعلم اللغة السنسكريتية؛ مما أتاح له أن يقرأ حضارة الهند. وقد كتب البيروني معظم مؤلفاته بالعربية، في الفلك والطب والرياضيات والجغرافيا والتاريخ والفلسفة وغيرها. ويُعدُّ كتابه القانون المسعودي من أضخم مؤلفاته، وفيه وضع معادلته المشهورة لاستخراج محيط الأرض، وأطلق عليها قاعدة البيروني. وصفه المستشرق سخاو بأنه من أضخم العقول التي ظهرت في العالم. إنه أعظم علماء عصره... ومن أعظم العلماء في كل العصور. وتُوِّفِيَ البيروني سنة (440 هـ = 1048 م).

(600/10)

### \*سعد بن عباد

هو سعد بن عباد بن ذُليم بن حارثة الخزرجي. أحد كبار الصحابة. وكان قبل إسلامه رئيس قومه. واشتهر بالكرم وإتقان السباحة والرماية والكتابة، وسمِّي بالكامل. أسلم قبل الهجرة، وحضر بيعة العقبة الثانية، وكان أحد نقبائها الاثني عشر، وشهد الغزوات مع النبي - صلى الله عليه وسلم - إلا بدرًا، فقد كان يتهيأ للخروج، ويحضُّ الأنصار على ذلك، لكنه مرض، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: لئن كان

سعد لم يشهدها، لقد كان عليها حريصًا [مستدرك الحاكم].  
ويعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - تخلف سعد عن مبايعة أبي بكر، رضى الله  
عنه، لأنه كان يرى أن الأنصار أحق بها، ثم هاجر إلى الشام  
في عهد عمر بن الخطاب، رضى الله عنه. وتوفي هناك سنة (15 هـ = 636 م).

(601/10)

---

### \*يعقوب (نبي الله)

هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. نبي كريم مثل أبيه وجده،  
عليهم السلام. ولم ينزل على يعقوب كتاب سماوي، وإنما ظل  
يدعو إلى التوحيد واعتناق ملة إبراهيم الحنيفية. ومن أكثر  
المواقف المؤثرة في حياة يعقوب عليه السلام، ما حدث لابنه  
يوسف، عليه السلام، من حسد إخوته له، ومحاولتهم قتله، وحفظ  
الله تعالى له إلى أن أصبح حاكمًا على مصر. وقد ذهب بصر  
يعقوب حزنًا على يوسف وظل كذلك حتى التقى مع يوسف في  
مصر. وعاش يعقوب في مصر مع أبنائه وعشيرته، واتخذوها  
وطنًا لهم وتناسلوا واختلطوا بالمصريين إلى أن أخرجهم فرعون  
مصر منها.

(602/10)

---

### \*جعفر بن أبي طالب

هو جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم. صحابي جليل.  
أسلم قبل أن يدخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دار الأرقم. وهاجر جعفر إلى  
الحبشة في الهجرة الثانية، ومعه زوجته أسماء بنت عميس،  
وهناك أنجبت أبناءه؛ عبد الله وعونًا ومحمدًا، وظل بالحبشة

حتى هاجر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة ثم قدم إليها في العام السابع من الهجرة، والرسول بخير. وقد تلقاه الرسول - صلى الله عليه وسلم - فرحًا مستبشرًا وقبّل ما بين عينيه. كما شهد جعفر بن أبي طالب غزوة مؤتة وأبلى فيها بلاءً حسنًا، حتى نال الشهادة. قال ابن عمر: كنت يوم مؤتة فلما فقدنا جعفر بن أبي طالب طلبناه في القتلى، فوجدنا به بضعاً وتسعين ما بين طعنة ورمية.

(603/10)

---

### \*جوردون باشا

هو تشارلز جورج جوردون قائد إنجليزي. وُلد سنة (1833 م). وعيّن في سلاح الهندسة الملكية، واشترك في حرب القرم وعمره واحد وعشرون عامًا، ثم اشترك في حرب الصين؛ حيث أسهم في الاستيلاء على بكين، ثم تولى قيادة الجيش الصيني الذي قمع ثورة تيينج. وفي سنة (1874 م) عينه الخديو إسماعيل حاكمًا عامًا للسودان، وظل في منصبه سبع سنوات، عاد بعدها إلى بريطانيا، ثم رجع مرة أخرى لإجلاء الجيش المصري عن السودان، لكن قوات المهدي حاصرت الخرطوم، حتى سقطت، ولقى جوردون مصرعه في يناير سنة (1885 م).

(604/10)

---

### \*يزيد بن أبي حبيب

فقيه ومحدّث مصري. وُلد سنة (53 هـ)، في خلافة معاوية، وتلقى العلم على أيدي عدد من العلماء، منهم: عبد الله بن الحارث الزبيدي وسعيد بن أبي هند. وتلمذ له كثيرون، في مقدمتهم: سعيد بن أبي أيوب وحيوة بن شريح ويحيى بن

أيوب. وكان يزيد مفتي مصر، ويُعد من أوائل مَنْ أظهروا العلم  
ومسائل الحلال والحرام في مصر، حتى قال عنه الليث بن سعد:  
يزيد عالمنا وسيدنا. وتُوفِّي يزيد بن أبي حبيب سنة (128 هـ).

(605/10)

---

### \*يوسف بن عمر الثقفي

هو يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم الثقفي. والِ أموى، يلتقى  
مع الحجاج الثقفي في جدهما الحكم، ويشبهه في انتهاج  
سياسة الشدة. ولآه الخليفة هشام بن عبد الملك ولاية اليمن سنة  
(106 هـ)، ثم ضم إليه ولاية العراق، فاستخلف يوسف ابنه الصلت  
على اليمن، وذهب إلى العراق، واستمر يوسف والياً حتى قُتل  
سنة (127 هـ).

(606/10)

---

### \*أبو سفيان بن حرب

هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. صحابي  
جليل. أسلم عام الفتح، وحسن إسلامه، وشهد مع النبي - صلى الله عليه وسلم - حينئذ  
والطائف، وكان قبل ذلك رأس المشركين في غزوتي أحد  
والأحزاب. تزوج النبي - صلى الله عليه وسلم - ابنته أم حبيبة قبل أن يُسلم أبوها،  
وكانت قد أسلمت قديماً وهاجرت مع زوجها إلى  
الحبشة، وتُوفِّي زوجها هناك. وقد رفع النبي - صلى الله عليه وسلم - من شأنه يوم  
الفتح حين أمّن كل من يدخل دار أبي سفيان. واشترك أبو  
سفيان في الفتوحات؛ فحضر معركة اليرموك، وولّاه أبو بكر  
على نجران. وتُوفِّي أبو سفيان سنة (652 م) عن (88) سنة.

**\*أبو بكر بن العربي**

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد المعافى الإشبيلي. المعروف بالقاضي أبي بكر بن العربي. أحد أئمة الحديث والفقه في الأندلس في القرن السادس الهجري. وُلد بإشبيلية سنة (468 هـ = 1076 م)، ونشأ في أسرة مشغولة بالعلم؛ فقرأ منذ صغره كثيراً من الكتب، ثم رحل إلى الشرق لينهل من علمائه، أمثال: أبي حامد الغزالي وأبي بكر الطرطوشي، ثم عاد إلى إشبيلية، وتولى قضاءها فترة، ثم ترك القضاء وتفرغ للتدريس والتصنيف، ومن أشهر ما صنفه: أحكام القرآن، والعواصم من القواصم، وعارضة الأحوذى شرح سنن الترمذى. وتوفي ابن العربي سنة (543 هـ = 1148 م).

**\*البغوى**

هو أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوى. أحد أئمة الحديث في القرن الخامس الهجري. وُلد سنة (433 هـ = 1042 م) بمدينة بغ الإيرانية. وشغف بالعلم؛ فرحل في طلبه، وأخذ عن كثير من أعلامه في عصره، أمثال: حسين المروزي شيخ الشافعية، وأبي نصر أكركانجي المروزي وأبي بكر البيهقي. وقد غلبت على البغوى صناعة الحديث على الرغم من كونه واحداً من فقهاء الشافعية، وله مصنفات كثيرة يأتي في مقدمتها: شرح السنة ومعالم التنزيل، وهو تفسير للقرآن معروف

باسم تفسير البغوى، ومصايح السنة. وتُوفِّي البغوى نحو  
سنة (516 هـ = 1122 م)، ودُفِن بمرورالروز.

(609/10)

---

### \*فاطمة بنت محمد

هى فاطمة بنت محمد. وُلدت بمكة قبل البعثة بخمس سنوات،  
وهى صغرى بنات النبى - صلى الله عليه وسلم -، وأمها السيدة خديجة بنت خويلد  
رضى الله عنها. تزوجت على بن أبى طالب، رضى الله عنه، بعد  
غزوة أحد، وهى فى الثامنة عشرة من عمرها، فولدت له  
الحسن والحسين وأم كلثوم وزينب، وانقطع نسل رسول الله  
(إلا منها). وكانت فاطمة من أحب الناس إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وقال  
عنها: إنها سيدة نساء العالمين. وتُوفِّيت بعد النبى - صلى الله عليه وسلم - بستة  
أشهر.

(610/10)

---

### \*الفتح بن خاقان (وزير عباسى)

هو الفتح بن خاقان بن أحمد. وزير الخليفة العباسى المتوكل  
على الله، وكانت علاقته به حسنة؛ فقوضه الخليفة فى حكم بلاد  
الشام. وكان الفتح بن خاقان أديبًا شاعرًا، ذكيًا فطنًا، له مجلس  
يحضره فصحاء العرب وعلماء البصرة والكوفة. ومن نوادر  
فطنته وحسن أدبه أن الخليفة المعتصم دخل دار أبيه ليعودده،  
ف رأى الفتح وهو صبى صغير، فمازحه، وقال له: أيما أحسن  
أدارى أم داركم؟، فقال الفتح: يا سيدى دارنا إذا كنت فيها  
أحسن. وألف الفتح بن خاقان عدة كتب، منها: اختلاف الملوك،

والصيد والجوارح، والروضة والزهر، والبستان. وقُتِل الفتح مع الخليفة المتوكل سنة (247 هـ = 861 م).

(611/10)

---

### \*الفراء

هو يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي، المعروف بالفراء. أحد أئمة اللغة والنحو في القرن الثاني الهجري. وُلِد بالكوفة سنة (144 هـ = 761 م)، ثم انتقل إلى بغداد، ولزم الكسائي، وأخذ عنه النحو حتى برع فيه، وصار إمام أهل الكوفة. وقد ترك الفراء مؤلفات كثيرة، من أهمها: معاني القرآن والمقصود والممدود والمذكر والمؤنث. وتُوِّفِي الفراء سنة (207 هـ = 822 م).

(612/10)

---

### \*أبو فراس الحمداني

هو الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي، المعروف بأبي فراس الحمداني، ابن عم سيف الدولة أمير حلب. كان فارسًا مغوارًا، شاعرًا بليغًا، وشعره يجمع بين الحسن والجودة والسهولة والجزالة والعدوية والفخامة. اشترك أبو فراس في عدة معارك مع سيف الدولة حارب فيها الروم، فأُسر في إحداها وهو جريح في فخذه، فحُمِل إلى القسطنطينية، وسجن فيها أربع سنين، ونظم وهو في السجن قصائد امتازت بالرقّة والحنين إلى الوطن، وعُرِفَت بالقصائد الروميات، ثم أُطلق سراحه وعاد إلى وطنه. ولما مات سيف الدولة طمع هو في حمص فاعترضه أبو المعالي بن سيف الدولة، وجرت بينهما حرب، انتهت بقتل أبي فراس سنة

(357 هـ) عن (37) سنة. وقد جُمع شعره في ديوان حققه سامي الدهان في دمشق.

(613/10)

---

### \* ابن فرحون

هو القاضي برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد بن محمد أبي القاسم بن محمد بن فرحون مؤرخ وفقه مالكي. وُلد بالمدينة المنورة سنة (700هـ) بقليل، وعاش في كنف أسرة عُرفت باشتغالها بالعلم؛ فدرس الفقه والحديث واللغة والتاريخ على عدد من العلماء، منهم أبوه وعمه، حتى برز في تلك العلوم، وجلس للتدريس، كما تولى قضاء المدينة فعرف بعدالته وشجاعته في الحق. ترك ابن فرحون عدة مصنفات منها: الديباج المذهب، وهو في تراجم فقهاء المالكية، وكتاب تبصرة الحكام في أصول الأقضية، ومناهج الأحكام، وغيرها. وتوفي ابن فرحون بالمدينة المنورة في (10 من ذى الحجة 799 هـ = 4 من سبتمبر 1397 م).

(614/10)

---

### \* الفردوسى

هو أبو القاسم منصور بن فخر الدين أحمد بن فُرح الفردوسى. الشاعر الفارسى المعروف. وُلد بطوس سنة (329 هـ)، واتصل بالسلطان محمود الغزنوى. واشتهر الفردوسى بشهنامته التى نظمها في (35) سنة تقريباً، وتحوى نحو (60) ألف بيت من الشعر الفارسى، سجّل فيها الفردوسى تاريخ الفرس ومعاركهم منذ أقدم العصور حتى الفتح الإسلامى، وهى مرتبة ترتيباً

تاريخياً. وعندما تقدم الفردوسى برائعته الشهنامة إلى السلطان الغزنوى لم يعطه ما كان ينتظره من مكافأة؛ فهجاه الفردوسى ، وترك غزنة، وتنقل في البلاد، وزار بغداد، ثم رجع إلى مسقط رأسه؛ حيث تُوفّي سنة (411 هـ)، وقيل: سنة (416 هـ).

(615/10)

---

### \*الفردوق

هو أبو فراس همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية التميمي، المعروف بالفردوق. أحد فحول الشعر العربي في العصر الأموي. وُلد في البصرة وأقام في باديتها مع أبيه وظهرت لديه ملكة الشعر وهو صغير، ثم اتصل بولاة العراق يمدحهم ويهجوهم، ورحل إلى دمشق يمدح الخلفاء الأمويين وبنال جوائزهم. وقد دارت بينه وبين جرير نقائض تُعد وثيقة تاريخية لعصرهما ولكثير من أيام العرب وأحوالهم في الجاهلية والإسلام، وقد برع الفردوق في أغراض المدح والهجاء والفخر. ويمتاز شعره بخشونة الألفاظ، ووعورة المعاني، والميل إلى الفخر. وكان الفردوق عظيم الأثر في اللغة؛ فقليل: لولا شعر الفردوق لذهب ثلث لغة العرب، ونصف أخبار الناس. وتُوفّي الفردوق بالبصرة سنة (110 هـ = 728 م).

(616/10)

---

### \*محمد عبده

هو محمد عبده بن حسن خيرالله. من كبار رجال الإصلاح والتجديد في الإسلام. وُلد في شنرا إحدى قرى محافظة الغربية بمصر سنة (1265هـ)، ونشأ بمحلة نصر، ثم التحق بالجامع الأحمدي

بطنطا ثم بالأزهر، ثم عمل في التعليم، وكتب في الصحف  
وبخاصة جريدة الوقائع المصرية، ثم تولى رئاسة تحريرها بعد  
ذلك. وشارك محمد عبده في الثورة العربية؛ فسُجِن فترة، ثم  
نُفِيَ إلى الشام، ثم سافر إلى باريس؛ حيث أصدر مع أستاذه  
جمال الدين الأفغاني جريدة العروة الوثقى. وفي سنة (1306 هـ =  
1888 م) سُيِّح له بالعودة إلى مصر، وتولى منصب القضاء، ثم  
تدرج في المناصب حتى اختير مفتيًا للديار المصرية. وقد أثرى  
المكتبة العربية بمؤلفات كثيرة، منها: تفسير القرآن الكريم، ولم  
يكمله، وشرح نهج البلاغة، والإسلام والنصرانية مع العلم  
والمدينة. وتوفي محمد عبده سنة (1323 هـ = 1905 م).

(617/10)

### \*محمد على

هو محمد على باشا بن إبراهيم أغا بن علي المعروف بمحمد  
علي الكبير. مؤسس آخر دولة ملكية بمصر. وُلِدَ سنة (1184 هـ =  
1770 م) بقولة التابعة لليونان الآن، وتوفي أبوه وهو صغير،  
واشتغل بتجارة الدخان، ثم جاء إلى مصر مع الحملة العثمانية  
لإجلاء القوات الفرنسية بقيادة نابليون، واشترك في معركة أبي  
قير البحرية سنة (1214 هـ = 1799 م). تولى محمد علي حكم  
مصر سنة (1220 هـ = 1805 م)، بعد ما طلب المصريون من الباب  
العالي عزل خورشيد باشا، وتولية محمد علي عليهم. وبعد توليه  
الحكم عُني بتنظيم الحكومة، وتغلب على كثير من الصعاب،  
ونجح في التخلص من المماليك، ألد أعدائه في مذبح القلعة.  
ومن أهم أعمال محمد علي: إنشاء كثير من المدارس العليا،  
 وإرسال البعثات العلمية، وتشديد القناطر الخيرية، وحفر كثير من  
الترع الرئيسية والفرعية، وتحسين ميناء الإسكندرية، وفتح

السودان، ونشر الأمن في البلاد، لكن يُؤخذ عليه انتزاعه جميع الأراضي من المصريين، وإرهاقه الأهالي بالضرائب الفادحة. وقد اعتزل محمد على الحكم سنة (1848 م)، وولّى ابنه إبراهيم خلفاً له، ثم تُوفّي بالإسكندرية، ودُفِن بالقاهرة سنة (1265 هـ = 1849 م).

(618/10)

### \*محمد فريد

هو محمد فريد بن أحمد فريد باشا. رئيس الحزب الوطنى أيام الاحتلال البريطانى لمصر. وُلد بالقاهرة سنة (1284 هـ = 1868 م)، لأبٍ من أصل تركى، وتعلم فى مدرستى الألسن والحقوق، وبعد تخرجه عُيّن فى نيابة الاستئناف، ثم احترف الحمامة، وانقطع للخدمة العامة. شارك محمد فريد فى العمل السياسى فى مراحلهِ المختلفة، إلى أن اختير رئيسًا للحزب الوطنى سنة (1908 م)، بعد وفاة مصطفى كامل. وقد سُجن لأسباب سياسية، وأنفق معظم ثروته فى سبيل القضية المصرية، ثم فرضت عليه الظروف مغادرة البلاد فى (مارس 1912 م)؛ فذهب إلى الآستانة واتخذ منها مركزًا لنشاطه، ثم أخذ يتنقل بين المدن الأوربية أثناء الحرب العالمية الأولى؛ بحثًا عن الوسائل الممكنة لكسب استقلال بلاده وإخراج الإنجليز منها. وعلى الرغم من انشغال محمد فريد بالعمل الوطنى فإنه ترك عددًا من المؤلفات، منها: تاريخ الدولة العلية العثمانية، والبهجة التوفيقية فى تاريخ محمد على باشا، وتُوفّي محمد فريد فى برلين بألمانيا سنة (1318 هـ = 1919 م)، ثم نقلت جثته إلى القاهرة حيث دُفِن بها.

(619/10)

---

### \*محمد بن القاسم الثقفي

هو محمد بن القاسم بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي. أحد قادة الفتح الإسلامي في العصر الأموي، وُلد سنة (62 هـ = 681 م)، لأبٍ كان واليًا على البصرة والسند من قبل الحجاج بن يوسف الثقفي. وظل محمد بن القاسم قائدًا للمؤمنين حتى تُوفِّي سنة (98 هـ = 717 م).

(620/10)

---

### \*محمد بن محمد بن بقية

هو محمد بن محمد بن بقية بن علي. أحد وزراء بني بويه في العصر العباسي. وُلد سنة (314 هـ = 926 م) في قرية أوانا بالقرب من بغداد. واتصف في شبابه بالأخلاق الكريمة التي ساعدته على التدرج في المناصب، حتى ولَّاه الأمير عز الدين بختيار الوزارة، فاستطاع بكرمه وسماحة خلقه وسعة صدره أن يكسب ودَّ الناس والجند. وعندما انتزع الأمير عضد الدولة إمارة العراق من ابن عمه عز الدين بختيار سنة (364 هـ = 974 م) قدَّم إليه ابن بقية مساعدات كثيرة خلال إقامته ببغداد؛ فكافأه عضد الدولة بأن جعله وزيرًا لابنه أبي الحسين، ولكن ابن بقية كان يطمع في أن يكون وزيرًا لعضد الدولة نفسه، فلم يطب نفسًا بما ولَّاه عضد الدولة، ونقم عليه، وعمل على تأليب مدن العراق عليه؛ لذلك عندما تمكَّن عضد الدولة من هزيمة عزالدين بختيار سنة (367 هـ = 977 م) قبض على ابن بقية، وأمر بقتله.

(621/10)

---

### \*محمد بن مسلمة الأنصاري

صحابي جليل، من الطبقة الأولى من الأنصار. وُلد سنة (35 ق. هـ = 589 م)، وأسلم بالمدينة على يدى مصعب بن عمير، وأخى الرسول - صلى الله عليه وسلم - بينه وبين أبي عبيدة بن الجراح. شهد محمد بن مسلمة المشاهد كلها مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا تبوك؛ إذ استخلفه الرسول على المدينة آنذاك. وفي عهد عمر بن الخطاب كان محمد بن مسلمة رسوله إلى المدن والأمصار؛ لتقصي أحوال الولاة وأخبارهم. وفي الفتنة اعتزل الناس فلم يشهد معركة صفين والجمل، وأقام بالريذة حتى تُوفِّي سنة (43 هـ)، ودُفِن إلى جانب أبي ذر الغفاري وقيل: تُوفِّي بالمدينة.

(622/10)

---

### \*محمد بن موسى بن شاکر

عالم من علماء المسلمين الذين اشتهروا في الهندسة والفلك والموسيقا. وكان هو وأسرته من المقربين إلى الخليفة العباسي المأمون، وكان ذا همة عالية في طلب العلم، وبخاصة علم الأوائل، وأنفق كثيراً من ماله في سبيل الحصول على الكتب القديمة من بلاد الروم. وله كتاب يُسمَّى رسم المعمور من البلاد وتُوفِّي محمد بن موسى سنة (259 هـ = 873 م).

(623/10)

---

### \*محمد بن هانئ الأندلسي

هو محمد بن هانئ بن محمد بن سعدون الإشبيلي. أشهر شعراء المغاربة. وُلد سنة (326 هـ = 938 م) بإشبيلية، ولما ظهرت موهبته الشعرية اتصل بأميرها وحظي بمكانة عنده، لكنه كان

ماجنًا متهمًا بالفلسف، فغضب الناس عليه فترك إشبيلية إلى شمال إفريقيا، واتصل بالخليفة المعز لدين الله الفاطمي وأقام عنده في المنصورية قرب القيروان. ولما رحل المعز إلى القاهرة شيعه ابن هانئ وعاد إلى إشبيلية فأخذ أسرته وقصد مصر لاحقًا بالمعز، فلما وصل إلى برقة قُتل فيها غيلة في شهر رجب سنة (362 هـ = 973 م). وديوانه كبير، فيه غلو في المدح، ونزعة إسماعيلية بارزة.

(624/10)

---

### \* عمرو بن أمية الضمري

صحابي جليل. أسلم بعد غزوة أحد. وكان شجاعًا، وأول مشاهده التي اشترك فيها بئر معونة، فأسره عامر بن الطفيل، وجزَّ ناصيته، وأطلق سراحه. بعثه النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى مكة؛ ليأتي بجثة خبيب بن عدى بعدما قتله المشركون، كما أرسله إلى النجاشي في الحبشة سنة (6 هـ) في أمر زواجه - صلى الله عليه وسلم - من أم حبيبة. وعاش عمرو بن أمية إلى خلافة معاوية بن أبي سفيان، وتوفي في آخر عهده بالمدينة.

(625/10)

---

### \* عمرو بن عبيد

هو أبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب البصري. أحد أئمة المعتزلة. وُلد سنة (80 هـ)، واتصل بالحسن البصري، ثم انفصل عنه هو وزميله واصل بن عطاء، وأسس مذهب المعتزلة. واشتهر عمرو بن عبيد بالصلاح والتقوى، والوعظ النافذ إلى القلوب، والبيان العذب، وكان صديقًا لجعفر المنصور. وكتب رسائل كثيرة، لكن

لم يصل إلينا منها شيء. وتُوفِّي عمرو بن عبيد سنة (144 هـ = 761 م).

(626/10)

---

### \*محمد بن زكريا الرازي

هو محمد بن زكريا الرازي. فيلسوف، وأحد كبار الأطباء في تاريخ المسلمين. وُلِدَ في الري سنة (251 هـ = 865 م)، واشتغل في صباه بالغناء، ثم انصرف عنه، وأقبل على دراسة الطب والفلسفة، وسافر بعد الثلاثين من عمره إلى بغداد؛ لدراسة الطب على يدي علي بن زين الطبري، حتى نبغ واشتهر. وكان يحضر مجلسه أجيال من التلاميذ، فيأتي المريض فيذكر مرضه لأول مَنْ يلقاهم، فإن كان عندهم علم شخَّصوا مرضه، وإلَّا تعداهم إلى غيرهم، فإن لم يصيبوا تكلم الرازي في ذلك. وكان الرازي كريماً رحيماً بالفقراء، يجرى عليهم الجرايات الواسعة ويمرّضهم. وقد أَلَفَ نحو (232) كتاباً، يأتي في مقدمتها: الحاوي في صناعة الطب، والجدري والحصبة، والطب الملوكي، والأقربازين. وقد عمى الرازي في أخريات حياته، وتُوفِّي ببغداد سنة (313 هـ = 925 م).

(627/10)

---

### \*الداعي سبأ

هو محمد بن سبأ بن أبي السعود الزريعي. من دعاة الباطنية الإسماعيلية، ولُقِّبَ بالملك المعظم المتوجح المكين. ملك عدن أبين وتعز والدُّمْلُوَّة وغيرها في عهد الحرة الصليحية، واشترى أكثر

أملأها بعد وفاتها من المنصور بن المفضل وقصده الشعراء  
فبذل لهم الأعطيات. ومات في الدُّمْلُوة سنة (549 هـ = 1155 م).

(628/10)

---

### \*محمد بن سبأ

هو محمد بن سبأ بن أبي السعود الزريعي. من دعاة الباطنية  
الإسماعيلية، ولُقِّب بالملك المعظم المتوجح المكين. ملك عدن أبين  
وتعز والدُّمْلُوة وغيرها في عهد الحرة الصليحية، واشترى أكثر  
أملأها بعد وفاتها من المنصور بن المفضل وقصده الشعراء  
فبذل لهم الأعطيات. ومات في الدُّمْلُوة سنة (549 هـ = 1155 م).

(629/10)

---

### \*محمد بن سلام الجمحي

هو أبو عبيد محمد بن سلام الجمحي البصري. أحد أئمة اللغة  
والأدب في القرنين الثاني والثالث الهجريين. وُلِدَ بالبصرة سنة  
(139 هـ). وعاش في بغداد، ونشأ في بيت يُعنى باللغة والأدب،  
ودرس على كثير من أعيان عصره من أهل اللغة والأدب، مثل:  
خلف الأحمر والمفضل الضبي ويونس بن حبيب. ويُعد ابن سلام  
أول من ألَّفَ كتابًا يتناول تاريخ الأدب العربي، ويعالج قضية  
الانتحال في الشعر الجاهلي، وهو كتاب طبقات فحول الشعراء  
، كما أثرى ابن سلام المكتبة العربية بعدة مؤلفات أخرى منها:  
بيوتات العرب. وتُوفِّي ابن سلام ببغداد سنة (231 هـ = 846 م).

(630/10)

---

### \*المستكفي بالله (خليفة أندلسي)

هو محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر الأموي. خليفة أموي بالأندلس. وُلد سنة (366 هـ = 976 م)، وتولى الحكم بقرطبة سنة (414 هـ = 1023 م)، عندما ساعد على اغتيال المستظهر بالله عبد الرحمن بن هشام، وكانت سياسته سيئة؛ فكرهته الرعية، ثم ثارت عليه، وخلعته من منصبه، فخرج من البلاد ولحق بالثغور؛ حيث تُوفِّي هناك قتيلاً في قرية شمنت سنة (416 هـ = 1025 م).

(631/10)

### \*محمد الفاتح:

ولد السلطان «محمد» في (27 من رجب 835هـ = 30 من مارس 1432م) وتولى عرش السلطنة بعد وفاة أبيه في (5 من المحرم 855هـ = 7 من فبراير 1451م) بعد أن بايعه أهل الحل والعقد في الدولة العثمانية. إعداد محمد الفاتح: خضع السلطان «محمد» - شأنه في ذلك شأن كل أمير عثماني - لنظام تربوي صارم تحت إشراف مجموعة من علماء عصره المعروفين. وهو ما يزال غصنا، فتعلم القرآن الكريم والحديث والفقه والعلوم العصرية - آنذاك - من رياضيات وفلك وتاريخ ودراسات عسكرية نظرية وتطبيقية، كما كان السلطان «محمد» يشترك في الحروب التي كان يشنها والده السلطان «مراد الثاني» ضد «أوروبا» أو التي كان يصد فيها اعتداءاتهم. وكعادة «آل عثمان» في إسناد إدارة ولاية لكل أمير وهو صغير حتى يؤهل لقيادة الدولة بعد ذلك، قضى «محمد» فترة إمارته في «مغنيسيا» تحت إشراف مجموعة من أساطين علماء العصر، وفي مقدمتهم: الشيخ «آق شمس الدين» والملا «الكوراني». وقد أثرت هذه المجموعة من العلماء في

تكوين الأمير الصغير وتشكيل اتجاهاته الثقافية والسياسية والعسكرية، وكان الشيخ «آق شمس الدين» صارمًا مع الأمير حتى إن السلطان «محمد» وهو سلطان قال لأحد وزرائه عن شيخه هذا: «إن احترامي لهذا الشيخ احترام يأخذ بمجامع نفسي وأنا مائل في حضرته مضطربًا ويدأى ترتعشان». ثقافة محمد الفاتح: درس السلطان «محمد» إلى جانب دراسته الأكاديمية المنظمة للغات الإسلامية الثلاثة التي لم يكن يستغنى عنها مثقف عصرى آنذاك وهى: العربية والفارسية والتركية، وعنى بالأدب والشعر خاصة، فكان شاعرًا له ديوان بالتركية، وله بيت مشهور يقول فيه: نيتى هى الامتثال للأمر الإلهى «جاهدوا فى سبيل الله». وحماسى إنما هو حماس فى سبيل دين الله. وتعلم السلطان «محمد» أيضًا اللغات: اللاتينية واليونانية والصربية، ولاتخفى أهمية هذه اللغات لأمير فى طريقه إلى تولى الدولة

(632/10)

---

العثمانية. وقد أثرت فترة إمارة «محمد» فى شخصيته فجعلته - بفضل توعية أساتذته - أكثر الأمراء العثمانيين وعيًا فى دراسة علوم التاريخ والجغرافيا والعلوم العسكرية، وبخاصة أن أساتذته وجهوا اهتمامه إلى دراسة الشخصيات الكبيرة، التى أثرت فى مجرى التاريخ، وأبانوا له عن جوانب العظمة فى تلك الشخصيات، كما وضحو له نقاط الضعف فيها، أملا أن يكون أميرهم ذات يوم من أكثر الحكام خبرة وحكمة وعبقريّة. ولا شك أن الشيخ «آق شمس الدين» استطاع أن يلعب دورًا كبيرًا فى تكوين شخصية «محمد» وأن يبث فيه منذ صغره أمرين، جعلاه منه فاتحًا، وهما: مضاعفة حركة الجهاد العثمانية. الإيحاء دومًا لمحمد منذ صغره بأنه هو الأمير المقصود بالحديث النبوى،

«لنتفتح القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش». وقد استغرق تحقيق النقطة الأولى فترة تاريخية من حياة السلطان «محمد» - بعد أن أصبح سلطاناً للدولة - لئلا يرى فيه حملاته العسكرية، ونكتفى هنا بذكر حروبه البرية على الجبهة الأوربية. ففي عام (857هـ=1453م) فتح «القسطنطينية»، وفي عام (863هـ=1459م) فتح «بلاد الصرب»، وفي عام (568هـ=0641م) فتح «بلاد المورة»، وفي عام (866هـ=1462م) ضم «بلاد الأفلاق»، وبين عامي (867 - 884هـ = 1462 - 1479م) فتح بلاد «ألبانيا»، وبين عامي (867 - 870هـ = 1462 - 1465م) فتح بلاد «البوسنة والهرسك»، وفي عام (881هـ = 1476م) وقعت حرب «المجر». ومنذ حرب بلاد «المجر» وحتى وفاة الفاتح عام (886هـ = 1481م) دخلت الدولة العثمانية في حروب بحرية كثيرة منها: ضم الجزر اليونانية عام (884هـ = 1479م) وضم «أوترانتو» عام (885هـ=1480م) ومعلوم أنه كان قد أعد بالفعل جيوشه وتحرك على رأسها لمحاربة المماليك إلا أن الموت عاجله. فتح القسطنطينية: رأى السلطان «محمد الفاتح» أن فتح «القسطنطينية» كما أنه يحقق أملاً عقائدياً عنده فإنه أيضاً

(633/10)

---

يسهل للدولة العثمانية فتوحاتها في منطقة «البلقان» ويجعل بلاده متصلة لا يتخللها عدو، وكانت «القسطنطينية» تمثل الأرض التي تعترض طريق الفتوحات في «أوروبا»، فبدأ في عاصمته «أدرنة» الاستعداد لعملية فتح «القسطنطينية»، ومن ذلك: صب المدافع خاصة الضخم منها، والاستعداد لنقل هذه المدافع إلى أسوار مدينة «القسطنطينية». ثم رأى السلطان «محمد» أن جده «بايزيد الصاعقة» كان قد بنى - أثناء محاولته فتح

«القسطنطينية» - قلعة على الضفة الآسيوية من «البوسفور» سماها «أناضولو حصارى» أى «قلعة الأناضول». كانت تقوم على أضيق نقطة من «مضيق البوسفور»، فقرر «محمد» أن يبني في مواجهة هذه القلعة على الجانب الأوربي من «البوسفور» قلعة سماها «روملى حصارى» أى «قلعة منطقة الروم» (يطلق الأتراك على الجانب الأوربي من تركيا والمنطقة الملاصقة له والمعروفة الآن باسم «البلقان» اسم «روم إيلي» أى منطقة الروم)، وكان القصد من هذا هو التحكم في «البوسفور» تمامًا، وكان السلطان «محمد» هو الذى وضع بنفسه تخطيط هذه القلعة، ونفذها المعمارى «مصلح الدين آغا» ومعه (7000) عامل أمروا مهمتهم في أربعة أشهر كاملة. وبعد أن تم البناء خرج بعض الجنود العثمانيين لرؤية «القسطنطينية» فما لبث أن وقع بينهم وبين البيزنطيين المجاورين لأسوار المدينة بعض حوادث شغب، كان لها رد فعل عند السلطان «محمد» فأصدر أوامره بإبعاد البيزنطيين المجاورين للأسوار والقرويين المجاورين للمدينة، فقام إمبراطور «بيزنطة» «قسطنطين دركازيز» بإخلاء القرى المجاورة، وسحب سكانها إلى داخل المدينة، ثم أمر الإمبراطور بإغلاق أبواب «القسطنطينية» وإحكام رتاجها. وبينما الاستعدادات العثمانية تجرى على قدم وساق في «أدرنة» لفتح «القسطنطينية» كان الوضع في المدينة غاية في الاضطراب، فقد طلب الإمبراطور «قسطنطين» معونة عاجلة من البابا «نيقولا الخامس» فاستجاب البابا وأرسل الكاردينال

(634/10)

---

«إيزودور» إلى «القسطنطينية» فتوجه هذا الكاردينال وهو كاثوليكى - إلى «كنيسة آياصوفيا» وأقام فيها المراسم

الكنسية على الأصول الكاثوليكية مخالفًا بذلك بل ومتحديًا  
مشاعر شعب «القسطنطينية» الأرثوذكسي. وقف الشعب ينظر  
إلى الكاردينال المنقذ باشمزاز بالغ، وكان إمبراطور  
«القسطنطينية» يميل إلى فكرة اتحاد الكنيستين الأرثوذكسية  
والكاثوليكية، أما رئيس الحكومة «لوكاس نوتاراس»  
و «جناديوس» (الذى صار بطريقًا بعد الفتح) فقد عارضها بشدة  
هذا الاتحاد خوفًا على الأرثوذكسية من الفناء، وقال «نوتاراس»  
قولته الشهيرة: «إني أفضل رؤية العمامة التركية في  
القسطنطينية على رؤية القبعة اللاتينية» ولم يكن البيزنطيون قد  
نسوا الأعمال الوحشية التي قام بها «اللاتين» عندما احتلوا  
«القسطنطينية» عام (601هـ = 1204م) ومع ذلك فإن الكنيسة  
اللاتينية لم تتوان عن إرسال موجات المتطوعين إلى  
«القسطنطينية» بناء على طلب إمبراطورها، لكن مجيء  
«ايزودور» لم يحقق أدنى نتيجة في مسألة اتحاد الكنيستين.  
الحصار والفتح: حاصر العثمانيون «القسطنطينية» برا وبحرًا في  
سنة (857هـ = 1453م) واشترك في الحصار من الجنود البحرية  
(20.000) جندي على (400) سفينة، أما القوات البرية فكانت  
(80000) جندي، والمدفعية (200) مدفع. وقفت القوات البحرية  
العثمانية بقيادة «بلطة أوغلو سليمان بك» على مدخل «الخليج  
الذهبي» وكان عليه تدمير الأسطول البيزنطي المكلف بحماية  
مدخل الخليج وكان البيزنطيون قد أغلقوا - قبل الحصار - الخليج  
بسلسلة حديدية طويلة يصعب من جرائها دخول أى سفينة إلى  
الخليج، مما شكل أكبر معضلة أمام العثمانيين، لأن سفنهم كان  
عليها أن تحمل الجنود وتدخل الخليج لإنزالهم لكي يضربوا  
«القسطنطينية». ثم جاءت ثلاث سفن جنوبية، وسفينة بيزنطية  
بقيادة القائد الشهير «جوستينيان» أرسلها البابا للدفاع عن  
«القسطنطينية» ولنقل الإمدادات إليها، جاءت هذه السفن ولم

تستطع البحرية العثمانية منعها، فبعد معركة عنيفة مع البحرية العثمانية تغلب «جوستينيان» ومضى بسفنه إلى الخليج، ففتح لها أهل «القسطنطينية» السلسلة الحديدية وأدخلوها، وكانت هذه الحادثة دافعاً لكي يفكر السلطان «محمد» في خطة عسكرية شهد لها القواد العسكريون بالبراعة. كانت هذه الخطة تقضى بنقل (67) سفينة من السفن الخفيفة عبر البر من منطقة «غلطة» إلى داخل الخليج لتفادي السلسلة، وتمت هذه العملية بوضع أخشاب مطلية بالزيوت على طول المنطقة المذكورة، ثم دفعت السفن لتتزلق على هذه الأخشاب في جنح الظلام، بعد أن استطاعت المدفعية العثمانية بإطلاقها مدافع الهاون أن تشد انتباه البيزنطيين إليها، ومن ثم لم يلتفت أحد لعملية نقل السفن إلى الخليج. نقلت السفن وأنزلت إلى الخليج ووضعت الواحدة تلو الأخرى على شكل جسر على عرض الخليج، حتى استطاع الجنود الانتقال عليها وصولاً إلى بر «القسطنطينية» وما إن جاء الصباح إلا وتملكت الدهشة أهل «القسطنطينية»، ويصف المؤرخ «دوكاس» وهو بيزنطي عاصر الحادثة دهشته من هذه العملية قائلاً: «إنها لمعجزة لم يسمع أحد بمثلها من قبل ولم ير أحد مثلها من قبل». وبعد أن فشلت البحرية العثمانية في إحباط محاولة «جوستينيان» دخول الخليج، لم يملك السلطان «محمد» إلا الأمر بالهجوم العام الذي اشتركت فيه كل القوات العثمانية مرة واحدة، وقبل هذا مباشرة أرسل السلطان «محمد» إلى الإمبراطور للمرة الثانية - يطلب منه تسليم المدينة سلمًا حقًا للدماء، وللإمبراطور أن ينسحب إلى أي مكان يريد به بكل أمواله وخزائنه، وتعهد السلطان «محمد» بتأمين أهل «القسطنطينية» - في هذه الحالة - على أموالهم وأرواحهم وممتلكاتهم، لكن

الإمبراطور - بتحريض من الجنويين - رفض هذا العرض. وفي  
(16 من ربيع الأول 857 هـ = 26 من مايو 1453م) أراد ملك «المجر»  
أن يضغط على السلطان «محمد» في هذا الوقت الحرج، فأرسل

(636/10)

يقول له: «إنه في حالة عدم توصل العثمانيين إلى اتفاق مع  
إمبراطور «القسطنطينية» فإنه (أى ملك المجر) سيقود حملة  
أوربية لسحق العثمانيين، ولم تغير هذه الرسالة شيئاً. مضى  
نهار يوم (28 من مايو) هادئاً، وعند الفجر وبعد الصلاة مباشرة،  
اتجه السلطان «محمد» إلى مكان الهجوم ومع دوى المدافع  
الضخمة الذى بدأ، صدر الأمر السلطاني بإخراج العلم العثماني  
من محفظته، وهذا يعنى عند الأتراك الأمر ببداية الهجوم العام.  
واستطاعت المدافع أثناء ذلك إحداث فتحة في الأسوار، ثم  
اجتاز الجنود العثمانيون الخنادق المحفورة حول «القسطنطينية»  
واعتلوا أسلالم الأسوار، وبدأ الجنود يتدفقون على ثلاث موجات،  
اشتركت «الإنكشارية» في الثالثة منها، فاضطر «قسطنطين»  
أن يدفع بقواته الاحتياطية التي كانت مرابطة بجوار كنيسة  
الحواريين «سانت أبوترس» (مكان جامع الفاتح بعد ذلك) لتدخل  
المعركة، وما لبث أن أطلق جندى عثمانى سهمه فأصاب القائد  
«جوستنيانى» إصابة بالغة فانسحب «جوستنيانى» من ميدان  
المعركة رغم توسلات الإمبراطور له، لأن «جوستنيانى» كان له  
دور كبير في الدفاع عن المدينة. وكان أول شهداء العثمانيين  
هو الأمير «ولى الدين سليمان» الذى أقام العلم العثماني على  
أسوار المدينة البيزنطية العريقة، وعند استشهاده أسرع (18)  
جنديا عثمانيا إليه لحماية العلم من السقوط واستطاعوا حمايته  
حتى واصل بقية الجنود تدافعهم على الأسوار، وثبت العلم تماماً

على الأسوار بعد أن استشهد أيضًا هؤلاء الثمانية عشر جنديًا،  
أثناء ذلك كان العثمانيون يواصلون تدفقهم إلى المدينة، عن  
طريق الفتحات التي أحدثتها المدفعية في الأسوار، ثم عن طريق  
تسليق السلاسل التي أقاموها على أسوار المدينة، وتمكن جنود  
من فرق الهجوم العثمانية من فتح بعض أبواب «القسطنطينية»  
ونجح آخرون في رفع السلاسل الحديدية التي وضعت في مدخل  
الخليج لمنع السفن العثمانية من الوصول إليها، فتدفق الأسطول

(637/10)

العثماني إلى الخليج وبعد ذلك إلى المدينة نفسها، وساد الذعر  
البيزنطيين وكان قد قتل منهم من قتل، وهرب من استطاع إلى  
ذلك سبيلاً. الفاتح يعطى الأمان: عندما دخل «محمد الفاتح»  
المدينة أمر بإحراق جثث القتلى تفادياً للأمراض، وسار على ظهر  
جواده إلى كنيسة «آيا صوفيا» حيث تجمع الشعب البيزنطي  
ورهبانه، وما إن علموا بوصول السلطان الفاتح حتى خروا سجداً  
راكعين بين أنين وبكاء وعويل، ولما وصل الفاتح، نزل من على  
ظهر حصانه وصلى ركعتين شكراً لله على توفيقه له بالفتح، ثم  
سار يقصد شعب بيزنطة ورهبانه، ولما وجدهم على هذه الحالة  
من السجود انزعج وتوجه إلى رهبانهم قائلاً: «قفوا استقيموا  
فأنا السلطان محمد، أقول لكم ولجميع إخوانكم ولكل  
الموجودين هنا، إنكم منذ اليوم في أمان في حياتكم  
وحریاتكم»، وهذا ما سجله مؤرخ بولوني كان معاصراً. وكان  
لهذا التصرف من الفاتح أثر كبير في عودة المهاجرين النصراني  
الذين كانوا قد فروا من المدينة، وأمر الفاتح قواده وجنوده  
بعدم التعرض للشعب البيزنطي بأذى، ثم طلب من الناس العودة  
إلى ديارهم بسلام، وحول «آيا صوفيا» إلى جامع، على أن

تصلى فيه أول جمعة بعد الفتح (كان الفتح يوم الثلاثاء) وكانت  
«آيا صوفيا» أكبر كنيسة في العالم وأقدم مبنى في أوروبا  
كلها، وسميت المدينة «إسلامبول» أى مدينة الإسلام. كان سلوك  
الفتاح عندما دخل «القسطنطينية» ظافرًا؛ سلوكًا مختلفًا تمامًا  
عما تقول به شريعة الحرب في العصور الوسطى، وهو نفى  
شعب المدينة المفتوحة إلى مكان آخر أو بيعه في أسواق  
النخاسة، لكن الفاتح قام بما عجز عن فهمه الفكر الغربي  
المعاصر له من تسامح ورحمة، فقد قام بالآتى: - أطلق سراح  
الأسرى فورًا نظير مقابل مادي قليل يسدد على أقساط طويلة  
المدى. - وأسكن الأسرى الذين كانوا من نصيبه في المغام في  
المنازل الواقعة على ساحل الخليج. - وعندما أبيحت  
«القسطنطينية» للجنود ثلاثة أيام عقب الفتح، كان هذا الإذن

(638/10)

---

مقتصرًا على الأشياء غير المعنوية، فلم تُغتصب امرأة ولم يُمسَّ  
شيخ ولا عجوز ولا طفل ولا راهب بأذى، ولم تهدم كنيسة ولا  
صومعة ولا دير ولا بيعة، مع أن المدينة أخذت بالحرب ورفضت  
التسليم. - وكان من حق الفاتح قانونًا - ما دامت المدينة قد أخذت  
عنوة- أن يكون هو نيابة عن الجيش الفاتح مالكًا لكل ما في  
المدينة، وأن يحول نصف الكنائس والبيع على مدى زمني طويل  
إلى جوامع ومساجد، وأن يترك النصف الآخر لشعب المدينة على  
ما هو عليه، وفي وقفيات السلطان «محمد الفاتح» بنود كثيرة  
على بقاء أديرة «جوكاليجا» و «آيا» و «ليبس» و «كيرا ماتو»  
و «الكس» في يد البيزنطيين. - واعترف لليهود بملكيتهم لبيعهم  
كاملة، وأنعم بالعطايا على الخاخام «موسى كابسالى». -  
وعين في سنة (865هـ = 1461م) للجماعات الأرمنية بطريقًا يدعى

«يوأكيم» ليشرف على مصالح الأرمن ويوحد صفوفهم. - وبدأ  
في أعمال تعمير المدينة ابتداء من (23 من ربيع الأول 857هـ =  
12 من يونية 1453م) (كان الفتح يوم 29 من مايو من العام  
نفسه) وأمر بنقل جماعات كثيرة من مختلف أنحاء الدولة إلى  
«القسطنطينية» للإسهام في إعادة إنعاشها. - وأعاد  
للأرثوذكس كرامتهم التي أهدرها اللاتين الكاثوليك بأن أعطاهم  
حق انتخاب رئيس لهم، يمثلهم ويشرف على شئونهم، وأصبح  
«سكولا ريوس» (جنادايوس) أول بطريق لهم بعد الفتح العثماني  
للقسطنطينية، وبذلك أنقذ الفاتح إيمان الأمة التي فتح ديارها،  
وأحيا الأرثوذكية بعد أن أخذت تخفت. - وجعل الفاتح مسائل  
الأحوال الشخصية مثل: الزواج والطلاق والميراث وأمور الوفاة  
الخاصة بأهل المدينة المفتوحة من حق الجماعات الدينية  
المختصة، وكان هذا امتيازاً منعدم النظر في «أوروبا» في ذلك  
الوقت. الفاتح وحكام عصره: كان تصرف «الفاتح» تصرفاً  
حضارياً في الوقت الذي كان الحكام من الشرق والغرب يتلذذون  
بسفك الدماء وبقتل الناس بالآلاف، ويتلذذون وهم على موائد

(639/10)

---

الطعام بمنظر الأسرى وقد اخترقت بطونهم أسنة رماح الجنود،  
ويرفع الأسرى على الخوازيق ويخلط دمائهم بأنواع الشراب،  
كما فعل «جنكيزخان» و «تيمورلنك» في الشرق، و «فال»  
و «هونبادي» في الغرب. إن دولة «بيزنطة» هدمت حتى المسلمين  
في «القسطنطينية» وأبادت سكانه بعد أن علم الإمبراطور  
بانتصار «تيمورلنك» على السلطان العثماني «بايزيد الصاعقة»  
في واقعة أنقرة عام (805هـ = 1402م). وأزهقت الجيوش  
الصليبية في عملية احتلال القدس أرواح (70000) برىء، يقول

«هـ. ج. ويلز» في ذلك: «كانت المذبحة التي دارت في بيت المقدس رهيبية وكان الراكب على جواده يصيبه رشاش الدم الذي سال في الشوارع ..» ويقول المؤرخ نفسه عن «هولاكو»: «كان هولاكو يفتح فارس وسوريا وأظهر المغول في ذلك الزمان عداوة مريرة للإسلام، ولم يكتفوا بتذبيح سكان بغداد .. بل وقد صارت أرض الجزيرة منذ تلك اللحظة التعسة يبابًا من الخرائب والأطلال لا تتسع إلا للعدد القليل من السكان». وتقول «ساحمة آى ويردى»: «إن الجيوش الصليبية التي تدفقت على القسطنطينية عام (603هـ = 1206م) قامت بتحويل المدينة إلى خرابة بائسة فقيرة معدمة بعد أن كانت غنية معمورة يسودها الرخاء». وعندما دخل «شارل الخامس» «تونس» عام (947هـ = 1540م) لم يترك حيا أمامه إلا قتله ولم تسلم من وحشيته حتى الجمال والقطط، وهذا ما ذكره «شهاب الدين تكين داغ» في مذكراته عن الدولة العثمانية. إن هذه الأمثلة إذا ما قارناها بموقف «الفتح» الحضارى من «القسطنطينية» وأهلها، نرى «الفتح» قائدًا منعدم النظر بين أقرانه من أباطرة الشرق وحكام الغرب، ولو كان «الفتح» قد اتبع ما كان يجرى على الجانب الغربى من البحر المتوسط من فظائع الإسبان في «الأندلس» وما فعلوه بالمسلمين وبالغرب ما أصبح هناك مسيحي واحد في «القسطنطينية».

(640/10)

\*محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله

هو محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر الأموى. خليفة أموى بالأندلس. وُلد سنة (366 هـ = 976 م)، وتولى الحكم بقرطبة سنة (414 هـ = 1023 م)، عندما ساعد على اغتيال

المستظهر بالله عبد الرحمن بن هشام، وكانت سياسته سيئة؛ فكرهته الرعية، ثم ثارت عليه، وخلعته من منصبه، فخرج من البلاد ولحق بالثغور؛ حيث تُوفِّي هناك قتيلاً في قرية شميت سنة (416 هـ = 1025 م).

(641/10)

---

### \*محمد بن عبد الملك الزيات

هو محمد بن عبد الملك بن أبان بن أبي حمزة، المعروف بالزيات. أحد بلغاء الكتاب والشعراء. وُلِدَ سنة (173 هـ = 789 م)، وبدأ حياته كاتبًا. وقد مكنته براعته الأدبية من أن يتخذه المعتصم وزيرًا له، يعوّل عليه في كل شئونه، وأن يظل في منصبه في عهده الوثاق والمتوكل. وتُوفِّي الزيات سنة (233 هـ = 847 م).

(642/10)

---

### \*العتبي

هو أبو نصر محمد بن عبد الجبار العتبي. مؤرخ من الكتاب والشعراء. أصله من الرى. نشأ وتعلم في خراسان وولى نيابتها، كما تولى رئاسة ديوان الإنشاء في خراسان والعراق، ثم رحل إلى نيسابور واستوطنها، وعمل بتدريس الآداب والعلوم، واشتهر بكتابة التاريخ. وله عدد من الكتب، منها: لطائف الكتاب، في الأدب، واليمينى، نسبة إلى السلطان الغزنوى يمين الدولة محمود بن سبكتكين، ويُعرف بتاريخ العتبي. وتُوفِّي العتبي سنة (427 هـ = 1036 م).

(643/10)

---

### \*محمد بن عبد الجبار

هو أبو نصر محمد بن عبد الجبار العتبي. مؤرخ من الكتاب والشعراء. أصله من الرى. نشأ وتعلم في خراسان وولى نيابتها، كما تولى رئاسة ديوان الإنشاء في خراسان والعراق، ثم رحل إلى نيسابور واستوطنها، وعمل بتدريس الآداب والعلوم، واشتهر بكتابة التاريخ. وله عدد من الكتب، منها: لطائف الكتاب، في الأدب، واليمينى، نسبة إلى السلطان الغزنوى يمين الدولة محمود بن سبكتكين، ويُعرف بتاريخ العتبي. وتُوفى العتبي سنة (427هـ = 1036 م).

(644/10)

---

### \*محمد بن عبد الوهاب

هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن أحمد بن راشد. زعيم النهضة الإصلاحية الحديثة في شبه الجزيرة العربية. وُلد في العيننة من بلاد نجد، سنة (1115 هـ = 1703 م)، لأبٍ كان فقيهاً حنبلي المذهب، فتتلمذ له، وأخذ عنه الفقه الحنبلي. واشتهر بالتقوى وصدق التدين. وطوّف محمد بن عبد الوهاب بكثير من بلدان العالم الإسلامى، كالبصرة وبغداد وكردستان وهمدان وأصفهان وغيرها، وقام بالدعوة في شبه الجزيرة إلى العودة إلى منهج السلف الصالح. وقد ناصر دعوة الشيخ محمد بن سعود أمير الدرعية وبنيه بعده، حتى انتشرت هذه الدعوة في الجزيرة العربية. وترك محمد بن عبد الوهاب مؤلفات كثيرة، منها: تفسير سورة الفاتحة، وأصول الإيمان وفضائل الإسلام، ونصيحة المسلمين، وكتاب التوحيد. وتُوفى ابن عبد الوهاب بالدرعية سنة (1206 هـ = 1792 م).

**\*ابن رشد**

هو محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الأندلسي. أحد أئمة الفقه والفلسفة في القرن السادس الهجري. وُلد سنة (520 هـ) في قرطبة، ودرس الفقه والطب وفلسفة أرسطو، ونقل أكثرها إلى العربية. وتولى قضاء إشبيلية سنة (565 هـ = 1169 م)، وقضاء قرطبة سنة (567 هـ = 1171 م). وتوثقت صلته بالخليفة الموحد يعقوب المنصور بالله؛ فكثر أعداؤه وحساده، واتهموه بالزندقة والإلحاد، وأوغروا صدر المنصور عليه؛ فنفاه إلى مراكش وأحرق كتبه، لكنه مال بث أن رضى عنه؛ فأذن له بالعودة إلى قرطبة، لكن الموت كان أقرب إليه، فمات في مراكش سنة (595 هـ = 1198 م)، ونُقل جثمانه إلى قرطبة حيث دُفِن هناك. وقد ترك ابن رشد مؤلفات كثيرة، منها: بداية المجتهد ونهاية المقتصد، وجماعت التهافت، وفصل المقال، والكلبيات في الطب، ومنهاج الأدلة.

**\*محمد بن أحمد بن محمد بن رشد**

هو محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الأندلسي. أحد أئمة الفقه والفلسفة في القرن السادس الهجري. وُلد سنة (520 هـ) في قرطبة، ودرس الفقه والطب وفلسفة أرسطو، ونقل أكثرها إلى العربية. وتولى قضاء إشبيلية سنة (565 هـ = 1169 م)، وقضاء قرطبة سنة (567 هـ = 1171 م). وتوثقت صلته بالخليفة الموحد يعقوب المنصور بالله؛ فكثر أعداؤه وحساده، واتهموه

بالزندقة والإلحاد، وأوغروا صدر المنصور عليه؛ فنفاه إلى  
مراكش وأحرق كتبه، لكنه مالبت أن رضى عنه؛ فأذن له  
بالعودة إلى قرطبة، لكن الموت كان أقرب إليه، فمات في  
مراكش سنة (595 هـ = 1198 م)، ونُقل جثمانه إلى قرطبة حيث  
دُفِن هناك. وقد ترك ابن رشد مؤلفات كثيرة، منها: بداية المجتهد  
ونهاية المقتصد، وتهافت التهافت، وفصل المقال، والكلبيات  
في الطب، ومنهاج الأدلة.

(647/10)

\*عثمان بن مظعون

هو أبو السائب عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذيفة  
الجمحي صحابي جليل من أوائل من أسلموا مع النبي - صلى الله عليه وسلم - بعد ثلاثة  
عشر رجلاً، وهاجر إلى الحبشة هو وابنه السائب، ثم عاد إلى  
مكة بعد سماعه أن قريشاً قد أسلمت، ولما تبين الحقيقة ثقل  
عليه العودة للحبشة، فدخل مكة في جوار الوليد بن المغيرة.  
هاجر عثمان مع النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة، وشهد غزوة بدر وكان من  
أشد الناس اجتهاداً في العبادة، يصوم النهار؛ ويقوم الليل،  
ويعتزل النساء، فنهاه رسول الله عن ذلك وأوصاه بالاعتدال  
في الأمر، وكان ممن حرّم الخمر على نفسه في الجاهلية، وقال:  
لا أشرب شراباً يُذهب عقلي، ويُضحك بي من هو أدنى مني.  
ومات عثمان - رضى الله عنه - سنة (2 هـ = 624 م) بعد غزوة  
بدر. وهو أول رجل مات بالمدينة من المهاجرين وأول من دُفن  
بالبقيع، فوضع النبي - صلى الله عليه وسلم - عند رأسه حجراً وقال: هذا قبر فرطنا،  
ووصف عثمان - رضى الله عنه - بأنه كان شديد الأدمة، ليس  
بالقصير ولا بالطويل، كبير اللحية عريضها.

(648/10)

### \*عبد القادر المغربي

هو عبد القادر بن مصطفى المغربي. أديب وناثر ولغوى، ومفسر وصحافي. أصله من تونس وُؤلد بطرابلس الشام سنة (1284 هـ)، وتلقى العلم والده وعن حسين الجسر وغيرهما، واتصل بجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده، وجاء إلى مصر فعمل محرراً في المؤيد ثم عاد إلى طرابلس وأصدر جريدة البرهان، وساهم في إنشاء كلية الفنون بالمدينة مع عبد العزيز جاويش وشكيب أرسلان، والكلية الصلاحية بالقدس، وكان عضواً بالجمع العلمى العربى بدمشق، ثم نائباً للرئيس، واختير للتدريس في الجامعة السورية، ومن مؤلفاته: الاشتقاق والتعريب، والبيئات والأخلاق والواجبات، وعشرات اللسان وتفسير جزء تبارك، وكان - مع تقدمه في السن - دائم الحركة، نشيطاً حتى توفى بدمشق سنة (1375هـ) عن عمر يقارب التسعين.

(649/10)

### \*عبد القادر الجزائرى

هو عبد القادر بن محيى الدين بن مصطفى الحسينى الجزائرى أمير مجاهد من العلماء والشعراء فى الجزائر. وُؤلد فى القيطنة - إحدى قرى وهران بالجزائر - فى سنة (1222 هـ) وتعلم فى وهران وحجَّ مع أبيه سنة (1241 هـ)، وعندما احتل الفرنسيون الجزائر عام (1246 هـ) أخذ يجاهدهم. ولما وجد فيه العلماء ورؤساء القبائل شجاعة، وعقلاً سليماً، وحزماً بايعوه زعيماً للجهاد وكان عمره (24) عاماً فتحصن بهم وقاتل الفرنسيين وأعوأهم، وعمل على تنظيم جيشه وأنشأ مصانع للأسلحة والمعدات الحربية وملابس الجند، وعمل على إخضاع القبائل التى

تهدد الأمن أو تتعاون مع الفرنسيين، وكان يلجأ إلى الترغيب، وعندما لا يجدي الإقناع يلجأ إلى القوة والحزم، فإذا انتصر انقلب الحزم حلمًا والقوة عفوًا. وظل يقاتل الفرنسيين خمسة عشر عامًا، وكان في معاركه يتقدم جيشه ببسالة فائقة، ولما هادنهم سلطان المغرب عبد الرحمن بن هشام ضعف موقف عبد القادر فاشترط شروطًا للاستسلام رضى بها الفرنسيون واستسلم عام (1263 هـ) فنفوه إلى طولون ومنها إلى أنبواز فأقام بها نحو أربع سنين، وزاره نابليون الثالث فأطلق سراحه واشترط عليه ألا يعود إلى الجزائر وخصَّص له مبلغًا من المال يأخذه كل عام، فزار باريس والآستانة واستقر في دمشق سنة (1271 هـ) حتى تُوفِّي بها سنة (1300 هـ).

(650/10)

### \*عكرمة بن أبي جهل

هو عكرمة بن أبي جهل بن هشام القرشي المخزومي، صحابيٌ جليل، يُعدُّ من مشاهير الفرسان، كان في جاهليته شديد العداوة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - كأبيه أبي جهل. أباح رسول الله دمه يوم فتح مكة ففر إلى اليمن إلا أن زوجته أم حكيم استأمنت له من رسول الله (فأمنه، فأدركته باليمن، وأتت به النبي، وذلك فالسنة الثامنة من الهجرة، فأسلم وحسن إسلامه. وكان له الأثر العظيم في حروب الردة؛ حيث وجَّهه أبو بكر إلى أهل عمان فظَهَر عليهم، ثم وجهه إلى اليمن، وبعد أن انتهى من حروب الردة التحق بجيش المسلمين في الشام حيث قاتل قتالاً شديدًا حتى نال الشهادة يوم اليرموك عن عمر يناهز اثنتين وستين سنة.

(651/10)

---

### \*ابن العَلْقَمِيّ

هو أبوطالب مؤيد الدين محمد بن محمد بن علي بن العلقمي، وزير الخليفة العباسي المستعصم. اشتغل بالأدب حتى ارتفعت مكانته وتولّى الوزارة سنة (642 هـ)، إلا أنه كان من المبغضين لأهل السنة، فكتب التتار وحرّضهم على غزو بغداد ولكنهم بعد سقوط بغداد عاملوه بإذلال ومهانة، فمات كمدًا وحرزًا وكانت مدة وزارته (14) سنة، ومات بعد دخول التتار بغداد بثلاثة أشهر سنة (656 هـ = 1258 م)، وكان عمره (66) عامًا.

(652/10)

---

### \*مؤيد الدين بن العَلْقَمِيّ

هو أبوطالب مؤيد الدين محمد بن محمد بن علي بن العلقمي، وزير الخليفة العباسي المستعصم. اشتغل بالأدب حتى ارتفعت مكانته وتولّى الوزارة سنة (642 هـ)، إلا أنه كان من المبغضين لأهل السنة، فكتب التتار وحرّضهم على غزو بغداد ولكنهم بعد سقوط بغداد عاملوه بإذلال ومهانة، فمات كمدًا وحرزًا وكانت مدة وزارته (14) سنة، ومات بعد دخول التتار بغداد بثلاثة أشهر سنة (656 هـ = 1258 م)، وكان عمره (66) عامًا.

(653/10)

---

### \*عبد الله بن جحش

هو عبد الله بن جحش بن رثاب بن يعمر الأسدي، حليف بن عبد شمس صحابي جليل، أحد السابقين إلى الإسلام. هاجر إلى بلاد الحبشة ثم إلى المدينة، وآخى النبي - صلى الله عليه وسلم - بينه وبين عاصم بن ثابت،

وهو أول أمير في الإسلام، وأول مغنم قُسم في الإسلام مغنمه،  
وهو صهر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أخو زينب بنت جحش أم المؤمنين، وأمه  
أميمة بنت عبد المطلب عممة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . روى عنه سعد بن أبي  
وقاص وسعيد بن المسيب. وكان عبد الله بن جحش ثالث ثلاثة  
استشارهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - في أسرى بدر. دعا الله يوم أحد أن يُرزق  
الشهادة، فناها، وعمره نيف وأربعون سنة، ودُفن هو وحمزة  
عم النبي - صلى الله عليه وسلم - في قبر واحد.

(654/10)

---

### \*عبد الله بن الزبير

هو عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي وأمه أسماء  
بنت أبي بكر، وهو أول مولود في الإسلام من المهاجرين، وُلد  
بالمدينة بعد الهجرة. وروى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - (33) حديثًا. شهد عبد الله  
اليرموك مع أبيه الزبير وشارك في فتح إفريقية في خلافة  
عثمان بن عفان، كما شهد معركة الجمل مع أبيه. وامتنع عبد  
الله بن الزبير عن مبايعة يزيد بن معاوية بعد موت معاوية بن  
أبي سفيان، وقد بُيع له بالخلافة في المدينة سنة (64 هـ)  
عقب موت يزيد بن معاوية. وكان عبد الله أول من ضرب الدراهم  
المستديرة، فجعل نقش الدراهم بأحد الوجهين محمد رسول الله  
وبالآخر أمر الله بالوفاء بالعهد. ولكن عبد الملك بن مروان -  
الخليفة الأموي - أرسل جيشًا بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي  
للقضاء على عبد الله بن الزبير فنشبت بينهما معركة انتهت بقتل  
ابن الزبير بعد ما خذله أصحابه، وكان ذلك سنة (73 هـ).

(655/10)

---

### \*ابن الزبير

هو عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي وأمه أسماء بنت أبي بكر، وهو أول مولود في الإسلام من المهاجرين، وُلد بالمدينة بعد الهجرة. وروى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - (33) حديثًا. شهد عبد الله اليرموك مع أبيه الزبير وشارك في فتح إفريقية في خلافة عثمان بن عفان، كما شهد معركة الجمل مع أبيه. وامتنع عبد الله بن الزبير عن مبايعة يزيد بن معاوية بعد موت معاوية بن أبي سفيان، وقد بُيع له بالخلافة في المدينة سنة (64 هـ) عقب موت يزيد بن معاوية. وكان عبد الله أول من ضرب الدرهم المستديرة، فجعل نقش الدرهم بأحد الوجهين محمد رسول الله وبالأخر أمر الله بالوفاء بالعهد. ولكن عبد الملك بن مروان - الخليفة الأموي - أرسل جيشًا بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي للقضاء على عبد الله بن الزبير فنشبت بينهما معركة انتهت بقتل ابن الزبير بعد ما خذله أصحابه، وكان ذلك سنة (73 هـ).

(656/10)

### \*عبد الله بن رواحة

هو عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن عمرو الأنصاري الخزرجي، صحابي جليل، وشاعر مشهور. كان أحد النقباء يوم العقبة وشارك مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - في معظم غزواته. وكان عبد الله بن رواحة - رضى الله عنه - عظيم القدر في الجاهلية والإسلام. وكان واحدًا من الشعراء المحسنين الذين كانوا يزودون بشعرهم عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد استشهد - رضى الله عنه - في غزوة مؤتة سنة (8 هـ)، وكان أحد الأمراء فيها بعد زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب.

(657/10)

---

### \*عبد الله بن عباس

هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، صحابي جليل، ويُسمَّى حَبْرَ الأُمَّة. وُلِدَ قبل الهجرة بثلاث سنين، وكان ابن ثلاث عشرة سنة حين تُوفِّي رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وقد دعا له الرسول - صلى الله عليه وسلم -

بأن يفقهه الله في الدين. وقد روى عبد الله بن عباس عن الرسول أحاديث كثيرة، وله في الصحيحين وغيرهما (1660) حديثاً، واشتهر ابن عباس بتفسير القرآن وكان يُلقب بترجمان القرآن. وكان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يقول: ابن عباس فتى الكهول، وله لسان قنول، وقلب عقول. وشهد ابن عباس مع على بن أبي طالب الجمل وصفين وولاه على البصرة، ثم فارقه قبل أن يُقتل على وعاد إلى الحجاز. وتُوفِّي - رضى الله عنه - بالطائف في أيام ابن الزبير سنة (68 هـ).

(658/10)

---

### \*عبد القاهر الجرجاني

هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوى واضع أصول البلاغة، من كبار أئمة النحو واللغة. من أهل جُرجان. كان عبد القاهر مولعاً بالعلم محباً للثقافة شغوفاً بالكتب وخصوصاً كتب النحو واللغة. وتصدر عبد القاهر العلم بجرجان وذاع صيته وتوافد عليه طلاب العلم، ولكنه - رغم علمه وشهرته - كان فقيراً لم يعيش حياة ناعمة أو مترفة. وكان عبد القاهر ورعاً شديد التدين يكثر من العبادة والصلاة، وكان يقول الشعر ولكن شعره قليل. وقد ترك عبد القاهر الجرجاني ثروة علمية هائلة تنوعت بين النحو والبلاغة والتفسير، من مؤلفاته:

المقتصد، الجمل، إعجاز القرآن الإيجاز، دلائل الإعجاز، شرح  
الفاحة، أسرار البلاغة. وتُوفِّي عبد القاهر سنة (471 هـ).

(659/10)

---

### \*أبو عبيد القاسم بن سلام

هو أبو عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله الهراوى، وُلِدَ بمرارة  
سنة (157 هـ) وكان أبوه مملوكًا روميًا. من كبار العلماء  
بالقراءات والحديث واللغة والفقه. رحل إلى بغداد وولى قضاء  
طرسوس - في خراسان - ثماني عشرة سنة من سنة (192 هـ)  
حتى (210 هـ)، ورحل إلى مصر مع يحيى بن معين سنة (211 هـ).  
وقد صنّف العديد من المؤلفات في فروع العلم المختلفة، منها:  
غريب القرآن، الناسخ والمنسوخ، فضائل القرآن، كتاب  
الطهارة، غريب الحديث، أدب القاضي، الأمثال السائرة. انقطع  
أبو عبيد إلى الأمير عبد الله طاهر بن الحسين الذي أحسن  
تقديره حتى رتّب له عشرة آلاف درهم شهريًا. وتُوفِّي ابن سلام  
بمكة سنة (224 هـ).

(660/10)

---

### \*عبد الله بن عمر بن الخطاب

هو عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي صحابي جليل.  
وُلِدَ - رضى الله عنه - في السنة الثالثة من البعثة. وأسلم مع أبيه  
وهو صغير لم يبلغ الحلم، وهاجر إلى المدينة قبل أبيه. شارك  
في غزوات الخندق ومؤتة واليرموك كما شارك في فتح مصر  
وأفريقية، ولم يشارك في بدر وأحد لصغر سنه، ولم يأذن له  
النبي - صلى الله عليه وسلم - بذلك. كان عبد الله بن عمر من رواة الحديث، فقد روى

عن النبي - صلى الله عليه وسلم - (2630) حديثاً، وكان من أهل العلم، أفقى الناس  
ستين سنة، وكان شديد الورع والتوقى لدينه حتى إنه ترك  
المنازعة فى الخلافة مع كثرة ميل أهل الشام إليه ومحبتهم له،  
فبعد مقتل عثمان بن عفان - رضى الله عنه - عرضت عليه البيعة  
بالخلافة فرفض، حتى قيل: ما من أحد أدرك الدنيا إلا مالت به  
ومال بها إلا عبد الله بن عمر، ولم يقاتل عبد الله بن عمر - رضى  
الله عنهما - فى شىء من الفتن. وتوفى عبد الله بن عمر - رضى  
الله عنه - سنة (73هـ = 692م) بعد مقتل ابن الزبير بثلاثة أشهر.

(661/10)

---

#### \*عبد العزيز بن محمد بن سعود

أحد أمراء آل سعود فى دولتهم الأولى التى كانت عاصمتها  
الدرعية. وُلد عبد العزيز فى الدرعية سنة (1132 هـ)، وقد اختاره  
والده ولياً لعهدده. وقد ساهم فى معظم المعارك التى جرت بين  
الدرعية وأعدائها وقاد أغلبها، وتولى الحكم بعد وفاة أبيه  
سنة (1179 هـ)، ولقب بالإمام، واتسعت الدولة فى عهدده حيث  
أخضع أواسط شبة الجزيرة العربية، فدانت له العارض والوشم  
وسدير وجبل شمر، ووصلت هجماتده إلى حدود الحجاز والطائف  
ومكة والمدينة وهاجم العراق - التى كانت تابعة للدولة العثمانية -  
سنة (1217 هـ) وخرب مزارات الشيعة بها، وقد أثار ذلك الشيعة  
عليه، فاغتاله أحددهم فى مسجد الدرعية سنة (1218هـ).

(662/10)

---

#### \*أبو العتاهية

هو أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني العنزى

المشهور بأبي العتاهية، شاعر ذائع الصيت في العصر العباسي. وُلِدَ في عين التمر بالقرب من الكوفة ونشأ في الكوفة، واتصل بالخلفاء، وعلت مكانته عندهم. وكان أبو العتاهية يبيع الفخار بالكوفة حتى قال الشعر فبرع فيه، وكان شعره لطيف المعاني، سهل الألفاظ، قليل التكلف. وأكثر شعره في الزهد والأمثال. ويُعدُّ أبو العتاهية من مقدمي المولدين من طبقة بشار وأبي نواس. وقد هجر أبو العتاهية الشعر فترة فبلغ ذلك المهدي العباسي فسجنه وهدده بالقتل إن لم يعد إلى قول الشعر، فعاد. وتوفي أبو العتاهية ببغداد سنة (211 هـ).

(663/10)

#### \*عبد الحفيظ

هو عبد الحفيظ بن الحسن الأول بن محمد بن عبد الرحمن، الحسني العلوي من سلاطين الدولة العلوية في المغرب الأقصى. وُلِدَ عبد الحفيظ بمدينة فاس عام (1280 هـ = 1863 م) وعُرف منذ نشأته بمبولة الفقهية، فدرس اللغة والدين والتصوف. وبعد وفاة أبيه تولى الحكم أخوه عبد العزيز، وكان عبد الحفيظ نائباً عنه في مراكش فنأدى به الجنود سلطاناً، فانقسمت الدولة بين عبد العزيز بفاس وعبد الحفيظ بمراكش، ثم عُزل عبد العزيز واستقر الأمر لعبد الحفيظ، فانتقل إلى العاصمة فاس فثارت عليه قبائل بني مطير، وشراقة والنازلة وحاصرته فطلب المساعدة من الحكومة الفرنسية التي سرعان ما أجابته وأعلنت حمايتها على المغرب، بعد أن وقع عبد الحفيظ معاهدة (30 من مارس 1912 م) المعروفة بمعاهدة الحماية. وفي (31 من أغسطس 1912 م) أعلن المولى عبد الحفيظ تنازله عن العرش، وغادر المغرب إلى ميناء مرسيليا، وخلفه على العرش أخوه الثالث يوسف. وقد كان

المولى عبد الحفيظ فقيهاً أديباً، ألف العديد من الكتب منها:  
الجواهر اللوامع في نظم جمع الجوامع، نيل النجاح والفلاح في  
علم ما به القرآن لاح، العذب السلسيل في حل ألفاظ الخليل.  
وتُوفِّي المولى عبد الحفيظ سنة (1356هـ = 1937 م) بمدينة  
انجان لبيان بفرنسا، ودُفن في المغرب.

(664/10)

### \*عبد الرحمن الكواكبي

هو عبد الرحمن بن أحمد بن مسعود الكواكبي، الملقب بالسيد  
الفراتى. أحد أبرز مجددى والمصلحين المسلمين فى العصر  
الحديث. وُلِد سنة (1854 م) فى حلب لأسرة ذات نفوذ ومكانة  
علمية. كان يجيد العربية والفارسية والتركية. اطلع على التيارات  
الفكرية الغربية، واشتغل بالصحافة فى سن مبكرة فأصدر  
صحيفة الشهباء سنة (1878 م) وكان عمره (24) سنة، إلا أن  
هجومه على العثمانيين وطلبه استقلال العرب عنهم أدى إلى  
إغلاقها، فأنشأ فى (1879م) جريدة الاعتدال إلا أنها أغلقت  
هى الأخرى فاشتغل بالتجارة والإدارة فترة، وقام  
بتحرير عرائض الشكاوى للمظلومين، وسجنه العثمانيون وحكم  
عليه بالإعدام بتهمة محاولة قتل الوالى العثمانى إلا أن رأى  
العام جعل العثمانيين يُطلقون سراحه فرحل إلى مصر سنة (1899  
م) حيث نشر كتابه طبائع الاستبداد وكتاب أم القرى، وأجرت له  
الحكومة المصرية راتباً ساعده على القيام بسياحتين فى بلاد  
العرب، وشرقى إفريقيا، وبعض بلاد الهند، وطاف بالسواحل  
الجنوبية للصين، وسجل رحلته التى استمرت (6) أشهر فى كتاب  
لم يخرج إلى النور بسبب اغتيال صاحبه على يد أحد عملاء  
العثمانيين الذى دس له السم وذلك فى مساء الخميس (14

يونيو 1902 م)، ودفن بالقاهرة وصادر العثمانيون أوراق الكواكبي الخاصة بعد اغتياله.

(665/10)

---

### \*عبد الرحمن بن عوف

هو عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد الحارث، صحابي جليل من المسلمين الأوائل، وكان اسمه فاجاهلية عبد الكعبة فغيره النبي - صلى الله عليه وسلم - . وُلِدَ بعد عام الفيل بعشر سنين، وكان من المهاجرين الأولين. هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة، وشهد مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - المشاهد كلها، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، كما كان أحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - الخلافة فيهم. وكان - رضى الله عنه - يعمل بالتجارة؛ فاجتمعت له ثروة كبيرة، فكان كثير الإنفاق في سبيل الله، حتى أعتق في يوم واحد ثلاثين عبدًا، وروى أنه تصدق بشطر ماله في عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . بعثه النبي إلى دومة الجندل وأذن له أن يتزوج بنت ملكها الأصبغ بن ثعلبة الكلبي فتزوجها، وهى تماضر أم ابنه أبي سلمة. وكان عبد الرحمن بن عوف من رواة الحديث فقد روى (65) حديثاً، وتُوفِّيَ - رضى الله عنه - في المدينة سنة (32 هـ).

(666/10)

---

### \*عبد الله بن مسعود

هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي صحابي جليل، من كبار الصحابة، ومن أكثرهم قربًا من الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وأسلم - رضى الله عنه - مبكرًا وكان خادم الرسول وصاحب سره، وهو

أول من جهر بقراءة القرآن بمكة، وروى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أحاديث كثيرة بلغت (848) حديثاً، وهاجر إلى الحبشة، ثم إلى المدينة.  
وقد آخى النبي - صلى الله عليه وسلم - بينه وبين الزبير بن العوام، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة. وشهد - رضى الله عنه - بدرًا وأحدًا والخندق  
وبيعة الرضوان وسائر المشاهد مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وهو الذى أجهز على أبي جهل فى بدر، كما شهد اليرموك بعد وفاة  
النبي - صلى الله عليه وسلم -. وبعثه عمر بن الخطاب إلى الكوفة مع عمار بن ياسر  
وكتب إلى أهلها: إني قد بعثت إليكم بعمار بن ياسر أميراً وعبد  
الله بن مسعود معلماً ووزيراً، وهما من النجباء من أصحاب  
الرسول - صلى الله عليه وسلم - من أهل بدر فاقتدوا بهما وأطيعوا واسمعوا لهما، وقد  
أثرتكم بعبد الله بن مسعود على نفسى. وقد تُوفِّيَ - رضى الله  
عنه - سنة (32 هـ) عن عمر بلغ بضعة وستين سنة.

(667/10)

### \*أبو عبيدة بن الجراح

هو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال الفهري القرشى،  
صحابي جليل اشتهر بكنيته ونسبه إلى جده. وُلِدَ بمكة، وهو من  
السابقين إلى الإسلام، وهاجر الهجرتين إلى الحبشة وإلى  
المدينة، وشهد المشاهد مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وهو أحد العشرة  
المبشرين بالجنة. وقد لقبه النبي - صلى الله عليه وسلم - بأمين الأمة فقال: لكل أمة  
أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح. وقد صار - رضى  
الله عنه - أهُتَمَ، حينما نزع الحلقتين اللتين دخلتا فى وجه النبي  
(من المغفر يوم أحد، فانتزعت ثنيتاه. ولأه عمر بن الخطاب -  
رضى الله عنه - قيادة الجيش الزاحف إلى الشام، بعد خالد بن  
الوليد فتمَّ له فتح الديار الشامية، وبلغ الفرات شرقاً وآسيا

صغرى شمالاً. وقد تُوفِّي أبو عبيدة - رضى الله عنه - في طاعون عَمَواس بالشام سنة (18 هـ = 639 م).

(668/10)

---

\*عبد الله بن حُدَافة السَّهْمِيُّ  
هو عبد الله بن حذافة بن قيس السهمي القرشي. صحابي جليل، من المهاجرين الأولين الذين هاجروا إلى الحبشة، وكان رسول الله (قد بعثه إلى كسرى. شهد بدرًا وأسره الروم في زمن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ثم شهد فتح مصر، وأقام بها حتى تُوفِّي سنة (33 هـ). وروى عنه أبو وائل وأبو سلمة بن عبد الرحمن وسليمان بن يسار.

(669/10)

---

\*عبد الملك بن هشام  
هو عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري. مؤرِّخ وعالم بالأنساب واللغة وأخبار العرب. وُلِد في البصرة في منتصف القرن الثاني الهجري، ثمَّ رحل إلى مصر وأقام بها. جمع سيرة النبي - صلى الله عليه وسلم - من كتاب المغازي والسير لابن إسحاق وهذَّبها وخصَّصها في كتاب يُعرف الآن بسيرة ابن هشام، وله كتاب التيجان في ملوك حمير الذي يرويه بسند عن وهب بن منبه، وكتاب شرح ما وقع في أشعار السير من الغريب. وتُوفِّي ابن هشام في مصر في ربيع الآخر سنة (218 هـ).

(670/10)

---

### \*ابن هشام

هو عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري. مؤرخ وعالم بالأنساب واللغة وأخبار العرب. وُلد في البصرة في منتصف القرن الثاني الهجري، ثم رحل إلى مصر وأقام بها. جمع سيرة النبي - صلى الله عليه وسلم - من كتاب المغازي والسير لابن إسحاق وهذبها وخصها في كتاب يُعرف الآن بسيرة ابن هشام، وله كتاب التيجان في ملوك حمير الذي يرويه بسند عن وهب بن منبه، وكتاب شرح ما وقع في أشعار السير من الغريب. وتوفي ابن هشام في مصر في ربيع الآخر سنة (218 هـ).

(671/10)

### \*عبد الله التعايشي

هو عبد الله بن محمد التعايشي، زعيم سياسي وديني سوداني ، ينسب إلى قبائل البقارة القاطنة غربي النيل الأبيض. وُلد في كردفان سنة (1850 م) ودرس علوم الدين وحفظ القرآن، ثم انتقل إلى دارفور واستقر مع عائلته فيها. اتصل بمحمد أحمد ( المهدي) الذي عينه خليفته حيث بايعه المهديون بعد وفاة المهدي سنة (1885 م) قائداً للحركة المهدية، وبدأ عهده بإخضاع الأشراف أتباع المهدي الذين عارضوا تنصيبه عليهم، وقام التعايشي بهجمات على الحبيشة وجنوب مصر إلا أن حملته على مصر سنة (1889 م) فشلت وأدت هزيمته إلى مجاعة في السودان، وتوالت الهزائم عليه في شرق السودان، وعملت بريطانيا على القضاء على التعايشي فجهزت حملة مصرية إنجليزية عام (1896م) لغزو السودان، وسيطرت على أم درمان بعد سنتين واستطاعت قتل التعايشي في تلك الحملة سنة ( 1899 م).

**\*أم عمار بن ياسر**

هي سُمِّيَّة بنت خياط، أم عمار بن ياسر، صحابية جلييلة شهيدة. كانت أمة لأبي الحذيفة بن المغيرة فزُوجها لياسر بن عمار وأعتقها. أسلمت في بداية الدعوة، وكانت من السبعة الأوائل في الإسلام حيث أسلمت وهي كبيرة السن، فعذبها بنو المغيرة إلا أنها كانت صابرة، واستشهدت في العام السابع قبل الهجرة حيث ضربها أبو جهل بحربة فقتلها فكانت أول شهيدة في الإسلام.

**\*أبو العلاء المعري**

هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد المعري، شاعر فيلسوف، من قبيلة تنوخ العربية. وُلِدَ في معرة النعمان شمال بلاد الشام بين حمص وحلب في ربيع الأول سنة (363 هـ) لأسرة ذات علم وفضل، وكُفِّ بصره وهو ابن ست سنوات، وتعلم أبو العلاء اللغة والنحو والأدب والحديث، ثم رحل إلى حلب وهو حدث صغير فقرأ الأدب والنحو، نظم أبو العلاء الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة. وقد عاش أبو العلاء عيشة زهد وتقشف رغم امتلاكه المال. وقد زار بغداد سنة (398 هـ) ثم تركها سنة (400 هـ) وعاد إلى مسقط رأسه ولزم بيته وانقطع للتدريس والتأليف لذلك سُمِّيَ رهين الحبسين. وللمعري كتب ودواوين عديدة، منها: سقط الزند ولزوم ما لا يلزم ورسالة الغفران. وتُوفِّي أبو العلاء في مسقط رأسه في ربيع الأول سنة (449 هـ).

(674/10)

---

**\*عطاء بن أبي رباح**

هو أبو محمد عطاء بن أبي رباح أسلم بن صفوان، تابعيٌ من أجلاء الفقهاء. وُلد في جند باليمن ونشأ بمكة المكرمة، وتلقَّى العلم عن عدد من الصحابة منهم عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وزيد بن أرقم وغيرهم. وبلغ منزلة عظيمة في العلم حتى صار فقيه مكة ومحدثها. وأخذ عنه العلم كثير من معاصريه، منهم: الزُّهري وقتادة والأوزاعي والأعمش وتوفيَّ عطاء نحو سنة (115 هـ).

(675/10)

---

**\*عطاء بن يسار**

هو عطاء بن يسار مولى أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية. تابعي جليل، وأخو الفقيه الواعظ سليمان بن يسار. نشأ في مكة المكرمة وأخذ العلم عن صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فسمع من ابن مسعود وحدث عن أبي أيوب، وزيد بن أرقم وعائشة أم المؤمنين وأبي هريرة وأسامة بن زيد وغيرهم. وقد بلغ في العلم والفقهِ منزلة كبيرة وأخذ عنه كثير من العلماء، منهم: زيد بن أسلم وصفوان بن سليم وعمرو بن دينار. وتوفيَّ عطاء بن يسار سنة (103 هـ) وهو ابن (84) سنة.

(676/10)

---

### \*العلاء بن الحضرمي

هو العلاء بن الحضرمي بن عبّاد صحابي جليل، أصله من حضرموت بعثه النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين، ثم ولّاه النبي - صلى الله عليه وسلم - على البحرين بعد أن فتحها الله له، وجعل له جمع الزكاة؛ يأخذ من الأغنياء ليعطى الفقراء. وبعد وفاة النبي (أقره أبو بكر ثم عمر. وكان العلاء أوّل مسلم يركب البحر للغزو، كما أنه أول من نقش خاتم الخلافة، وهو الذي بعث عرفجة بن هرثمة إلى شواطئ فارس سنة (14 هـ) فكان أول من فتح جزيرة بأرض فارس في الإسلام. وكان للعلاء دور بارز في قتال المرتدين بالبحرين. واشتهر العلاء بأنه مجاب الدعوة، وقد مات العلاء وهو في طريقه إلى البصرة حينما وجهه إليها عمر بن الخطاب سنة (21 هـ).

(677/10)

### \*عبيد الله المهدي

هو عبيد الله بن محمد بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم الفاطمي العلوي مؤسس الدولة العلوية الفاطمية بالمغرب. وُلد بسلمية بسوريا وقيل بالكوفة، ونشأ بسلمية، وكان يتخفى من بني العباس، ولما طارده الخليفة العباسي المكتفى بالله هرب إلى المغرب، وكان كبير دعائه أبو عبد الله الحسين بن أحمد - الشهير بأبي عبد الله الشيعي - قد نشر الدعوة الإسماعيلية الشيعية هناك وكسب إلى صفها قبيلة كنانة، وأخذ يبشر أنصاره بقرب ظهور المهدي المنتظر ثم أرسل إليه يدعوهم للانتقال للمغرب بعد أن أصبح الوقت مناسباً لظهوره. وفي طريق المهدي إلى المغرب مرّ بالعراق ثم مصر ثم القيروان وفيها تمت له البيعة بالخلافة في ربيع الآخر سنة (297 هـ)، فنجح في

نشر مبادئه وتأسيس دولة امتدت حدودها إلى طرابلس وبرقة  
وصقلية وتاهرت وحاول الاستيلاء على مصر مرتين ولكنه لم يفلح  
في ذلك. ومن أهم أعمال المهدي بناء مدينة المهديّة بالمغرب  
وقد اتخذها عاصمة لدولته، ودامت خلافته حتى وفاته في ربيع  
الأول سنة (322 هـ) بعد حكم دام (24) سنة.

(678/10)

---

### \* حفصة بنت عمر بن الخطاب

هي أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب - رضى الله عنهما - .  
وُلدت قبل بعثة النبي - صلى الله عليه وسلم - بخمس سنين. تزوجت حفصة خنيس بن  
حذافة وهاجرت معه إلى المدينة فمات عنها بعد غزوة بدر.  
فخطبها النبي - صلى الله عليه وسلم - من أبيها سنة (2 هـ). وكانت حفصة - رضى الله  
عنها - كثيرة الصيام، دائمة العبادة لله، وقد روت الحديث عن  
النبي - صلى الله عليه وسلم - وعن عمر، رضى الله عنه. وتُوفيت - رضى الله عنها - سنة  
(45 هـ) في خلافة معاوية، عن عمر بلغ نحو (65) سنة، وصلى  
عليها مروان بن الحكم، ودُفنت بالبقيع.

(679/10)

---

### \* الدارقطني

هو أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن  
دينار بن عبد الله الحافظ الكبير، ويُلقب بأَمير المؤمنين في  
الحديث. وُلد الدارقطني نحو عام (305 هـ) واسمه نسبة إلى دار  
القطن ببغداد وعرف منذ صغره بقوة الحافظة، والفهم الثاقب،  
وقد اجتمع له ذلك مع المعرفة بالحديث والعلم بالقراءات والنحو  
والفقه والشعر. وكان الدارقطني إمام عصره في علوم الرجال

والجرح والتعديل، وحسن التأليف واتساع الرواية. ومن أهم مؤلفاته كتاب السنن وكتاب الضعفاء والمتروكين، والإلزامات، وله أيضاً كتابا العلل والأفراد، وغيرها من المصنفات. ورحل الدارقطني إلى مصر، فلقى كل التقدير والإكرام من الوزير أبي الفضل. وقد تُوفي عام (385 هـ).

(680/10)

---

### \* حذيفة بن اليمان

هو أبو عبد الله حذيفة بن حسل بن جابر العيسى، واليمان لقب أبيه حسل، صحابي جليل، وكان صاحب سر النبي - صلى الله عليه وسلم - في المنافقين، ولم يعلمهم أحد غيره، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - إذا مات ميت يسأل عن حذيفة فإن حضر الصلاة عليه، صلى عليه عمر وإلا لم يصل عليه. وكان حذيفة - رضى الله عنه - من الولاة الشجعان الفاتحين، ولأه عمر على المدائن بفارس، وكانت عادته إذا استعمل عاملاً كتب في عهده: وقد بعثت فلاناً وأمرته بكذا، فلما استعمل حذيفة كتب في عهده: اسمعوا له وأطيعوه وأعطوه ما سألكم. وفتح حذيفة العديد من المدن الفارسية، وهاجم نهاوند عام (22 هـ)، ثم صالح أهلها على أن يدفعوا الجزية. وقد روى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - (225) حديثاً. وظل والياً على المدائن حتى تُوفي عام (36 هـ = 656 م).

(681/10)

---

### \* رفيق العظم

هو رفيق بن محمود بن خليل العظم عالم وباحث من رجال النهضة الفكرية في سوريا. وُلد في دمشق عام (1284 هـ = 1867 م).

نشأ مقبلاً على كتب التاريخ والأدب ثم جاء إلى مصر واستقر بها وشارك في كثير من الأعمال والجمعيات الإصلاحية والسياسية والعلمية ونشر بحوثاً قيمة في الصحف والمجلات، وألف كتابه المعروف أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة. وجمع شقيقه عثمان العظم طائفة من مقالاته ونشرها في كتاب سماه مجموعة آثار رفيق العظم وله أشعار قليلة. وقد أهدى مكتبته - وتضمن نحو ألف مجلد - إلى المجمع العلمي العربي في دمشق. وكان - رحمه الله - حسن الخلق، محمود السيرة، متصفاً بالعزة والإباء. وتوفي رفيق العظم بالقاهرة عام (1343 هـ = 1925 م).

(682/10)

---

\*سكينة بنت الحسين

هي سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب. وُلدت عام (40 هـ = 660 م). وشهدت مع أبيها حادثة كربلاء سنة (61 هـ)، ثم رحلت إلى الكوفة ثم إلى دمشق ثم عادت مع أهلها إلى المدينة. وتزوجت سكينة مصعب بن الزبير بن العوام الذي مات عام (71 هـ) فتزوجها عبد الله بن عثمان. وكانت - رضى الله عنها - سيدة نساء عصرها، ومن أجمل النساء وأظرفهن وأحسنهن أخلاقاً، وكانت كثيرة العبادة. وتوفيت سكينة - رضى الله عنها - بالمدينة المنورة عام (117 هـ = 735 م) في السابعة والسبعين من عمرها.

(683/10)

---

\*ابن الحاجب

هو أبو عمر عثمان بن عمر الكردي إمام وعالم لغوي شهير، من

أصل كردى. ولد فى إسنا - بصعيد مصر، من أعمال محافظة قنا  
الآن، سنة (570 هـ) ونشأ بمصر، وكان أبوه حاجبًا لأحد أمرائها  
فعرف بلقب ابن الحاجب. وقد نبغ ابن الحاجب فى كثير من  
العلوم العربية والإسلامية، ومنها علم النحو فألف فيه رسالة  
الكافية، التى جمع فيها دقائق مسائل النحو. وقد سعى  
العلماء من بعده إلى شرح الكافية. وله أيضًا رسالة الشافية  
التي تُعد أهم مراجع علم الصرف. وتُوفى ابن الحاجب  
بالإسكندرية سنة (646 هـ).

(684/10)

**\* سالم بن عبد الله**

هو سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب وكان أشبه ولد عبد الله  
به. أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، وكان من سادات التابعين  
وعلمائهم، وقد عرف عنه ورعه وزهده، فكان يعيش حياة  
خشنة، يلبس الصوف، ويأكل نوعًا واحدًا من الطعام، وكان ثقة.  
ومما يُروى عنه أن الحجاج بن يوسف الثقفى أعطى سالمًا  
سيفًا وأمره بقتل رجل، فقال سالم للرجل: أمسلم أنت؟ قال:  
نعم، فقال سالم: أصليت صلاة الصبح؟ قال: نعم. فرجع سالم  
إلى الحجاج ورمى إليه بالسيف وقال: إنه ذكر أنه مسلم، وأنه  
قد صلى صلاة الصبح اليوم. وإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: مَنْ صلى صلاة  
الصبح فهو فى ذمة الله. فقال الحجاج: لسنا نقتله على صلاة  
الصبح، ولكنه ممن أعان على قتل عثمان. فقال سالم: هاهنا من  
هو أولى بعثمان منى. فبلغ ذلك عبد الله بن عمر فقال: مكيس  
مكيس. وكان عبد الله بن عمر شديد الحب لسالم. وتُوفى سالم  
عام (106 هـ = 725 م).

(685/10)

### \*زيد بن الخطاب

هو زيد بن الخطاب بن نُقَيْل بن عبد العزى. صحابي جليل، وأخو الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب - رضى الله عنهما-، ولكنه كان أسنَّ منه. وقد أسلم زيد في مكة وهاجر إلى المدينة. وكان زيد فارساً في الجاهلية وفي الإسلام. وشهد بدرًا وأحدًا والخندق، وسائر المشاهد كلها مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . وبعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - ومبايعة

أبي بكر ارتدت بعض القبائل عن الإسلام فقام المسلمون لمحاربتهم، وكان زيد يحمل راية المسلمين يوم اليمامة، وعندما انكشف المسلمون في بداية المعركة صاح زيد بأعلى صوته: اللهم إني أعتذر إليك من فرار أصحابي وأبرأ إليك مما جاء به مسيلمة، وأخذ يتقدم بالراية نحو العدو ثم قاتل بسيفه حتى استشهد، وكان ذلك في السنة الحادية عشرة من الهجرة. ويُروى له يوم أحد أن عمر - رضى الله عنه - قال له: أقسمت عليك إلا لبست درعى، فلبسها ثم نزعها وقال لعمر: إني أريد بنفسى ماتريد بنفسك. وقد حزن عليه عمر حزنًا شديدًا وظل يذكره ويبكيه.

(686/10)

### \*ابن سريج

هو أبو يحيى عبيد الله بن سريج. من موالى بعض أشراف مكة في القرن الأول الهجرى، أبوه تركى وأمه جارية. وُلِدَ بمكة في خلافة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - عام (20 هـ = 640 م). وأخذ الغناء عن ابن مسجع، ثم برع في التلحين والضرب على العود الفارسى، وعُدَّ أول من ضربه في مكة من العرب. وأصبح

ابن سريج يغبني في مجالس السمر وفي ختان أبناء الأشراف،  
كما اشتهر بألحان النواح. وقد بلغت ألحانه التي غناها بصوته  
نحو (68) لحنًا، واتصلت سيرته بالشاعر العربي الكبير عمر بن  
أبي ربيعة، وسعى إليه الكثير من الشعراء ليستمعوا منه.  
وانقطع ابن سريج لعبد الله بن جعفر، ثم للحكم بن عبد المطلب.  
وتوفي ابن سريج عام (98 هـ = 716 م).

(687/10)

---

### \*الشيرازي

هو محمود بن مسعود بن مصلح الفارسي، قطب الدين الشيرازي  
عالم ومفسر وقاضٍ. وُلِدَ بشيراز عام (634 هـ = 1236 م)، وأخذ  
العلم عن أبيه، ونصير الدين الطوسي، ثم تولى القضاء، وزار  
الشام ثم استقر في مدينة تبريز. وكان من محور العلم، وله  
تصانيف كثيرة، منها: فتح المنان في تفسير القرآن نحو (40)  
مجلدًا، مشكلات التفسير، تاريخ العلوم خزانة الرباط ومفتاح  
المفتاح في البلاغة. وتوفي الشيرازي بمدينة تبريز عام (710 هـ  
= 1310 م).

(688/10)

---

### \*حسن بن الناصر محمد

هو السلطان حسن بن الناصر محمد السلطان المصري السابع من  
سلاطين دولة المماليك البحرية. وُلِدَ السلطان حسن عام (735 هـ =  
1334 م). تولى الحكم بعد أبيه الملك الناصر محمد لكنه استبدَّ  
بحكم البلاد، فتآمر عليه الأمراء وخلعوه، وولوا أخاه الملك  
الصالح عام (751 هـ = 1350 م). وفي عام (755 هـ = 1354 م)

عاد السلطان حسن إلى الحكم فقضى على الفتن والثورات التي قامت ضده. ثم أرسل جيشًا إلى أرمينية، واستولى على أطنة وطرسوس من بلاد الأناضول. وكانت سياسته الداخلية تهدف إلى القضاء على الحكم المملوكي، وإقامة أسرة حاكمة من أهل البلاد فكان ذلك سببًا في تأمر المماليك عليه، حتى اعتقلوه، ثم اغتالوه عام (762 هـ).

(689/10)

---

#### \*الناصر حسن

هو السلطان حسن بن الناصر محمد السلطان المصري السابع من سلاطين دولة المماليك البحرية. وُلد السلطان حسن عام (735 هـ = 1334 م). تولى الحكم بعد أبيه الملك الناصر محمد لكنه استبدَّ بحكم البلاد، فتآمر عليه الأمراء وخلعوه، وولوا أخاه الملك الصالح عام (751 هـ = 1350 م). وفي عام (755 هـ = 1354 م) عاد السلطان حسن إلى الحكم فقضى على الفتن والثورات التي قامت ضده. ثم أرسل جيشًا إلى أرمينية، واستولى على أطنة وطرسوس من بلاد الأناضول. وكانت سياسته الداخلية تهدف إلى القضاء على الحكم المملوكي، وإقامة أسرة حاكمة من أهل البلاد فكان ذلك سببًا في تأمر المماليك عليه، حتى اعتقلوه، ثم اغتالوه عام (762 هـ).

(690/10)

---

#### \*ابن دقيق العيد

هو أبو الفتح تقي الدين محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري، قاضٍ من أكابر العلماء. وُلد بمدينة يَنْبُع على ساحل

البحر الأحمر سنة (625 هـ = 1228م)، ونشأ بمدينة قوص - بصعيد مصر - وتلقى علومه في عدد من البلدان، مثل: دمشق والإسكندرية والقاهرة. وعندما ذاع صيته وظهر فضله وعلمه تولى قضاء الديار المصرية سنة (695هـ) حتى وفاته. وله مؤلفات قيمة، منها: إحكام الأحكام في الحديث، الإمام بأحاديث الأحكام، شرح الأربعين حديثاً للنووي، الإمام في شرح الإمام، أصول الدين، الاقتراح في بيان الاصطلاح. وتوفي ابن دقيق العيد بالقاهرة عام (702 هـ = 1302 م).

(691/10)

---

**\* ابن خالويه**

هو أبو عبد الله الحسيني بن أحمد بن خالوية النحوي، واللغوي. أصله من همدان. دخل بغداد وأخذ العلم عن علمائها مثل: ابن دريد وابن مجاهد، وأبي عمر الزاهد. وصار إلى حلب فعظمت مكانته عند آل حمدان، وكان سيف الدولة يكرمه، وجعله أحد جلسائه، وكانت له مع الشاعر الكبير المتنبى مناظرات داخل البلاط الحمداني. وكان إلى جانب تفوقه وبراعته في علم النحو، شاعرًا حسن الشعر عهد إليه سيف الدولة بتأديب أولاده. وله مصنفات كثيرة، منها: شرح مقصورة ابن دريد (شرح الدرديدية)، إعراب ثلاثين سورة من القرآن، ليس في كلام العرب. وتوفي ابن خالويه عام (370 هـ = 980 م).

(692/10)

---

**\* توماس أرنلد**

هو توماس ووكر أرنلد مستشرق إنجليزي، تخصص في العلوم

العربية والإسلامية. وُلد في لندن سنة (1864 م)، وتعلم في كمبرج ثم سافر إلى الهند وعيّن مدرسًا في كلية عليكره عام (1888 م)، ثم عين أستاذًا لفلسفة في جامعة لاهور، ثم عين رئيسًا للكلية الشرقية في جامعة البنجاب. ثم عاد إلى لندن ليعين أستاذًا للعربية في جامعة لندن عام (1904 م)، ثم مديرًا لمعهد الدراسات الشرقية. وقد زار مصر قبل وفاته سنة (1930 م) ، وله كتب بالإنجليزية، مثل: تعاليم الإسلام، المعتزلة، الخلافة، وقد تُرجم إلى العربية، وله كتب أخرى في الفنون الإسلامية.

(693/10)

---

#### \*ابن السائب الكلبي

هو أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب بن بشر الكلبي مؤرخ، عالم بالأنساب وأخبار العرب وأيامها، من أهل الكوفة. وقد تحفظ البعض في الرواية عنه. قال عن نفسه: حفظت ما لم يحفظه أحد، ونسيت ما لم ينسه أحد، كان لي عم يعاتبني على حفظ القرآن فدخلت بيتًا وحلفت ألا أخرج منه حتى أحفظ القرآن فحفظته. وله تصانيف كثيرة، منها: جمهرة الأنساب والأصنام ونسب الخيل، بيوتات قريش والكنى وألقاب اليمن وملوك الطوائف. وتوفي ابن الكلبي نحو عام (204 هـ).

(694/10)

---

#### \*ابن الرُّومى

هو علي بن العباس بن جريح الرومى، أحد شعراء العصر العباسى الثانى، رومى الأصل، كان جده من موالى بنى العباس وأمه فارسية. ولد ابن الرومى ببغداد سنة (221 هـ = 836 م)،

ونشأ بها، وكان ضئيل الجسم نحيلاً، وظل طوال حياته يعيب على نفسه دقة جسمه وضآلته، وله أشعار كثيرة يصرح فيها بذلك. وعرفت أسرته بالثراء؛ مما مكن له الاتجاه إلى التعليم منذ صغره؛ فحفظ القرآن الكريم، وتلقى كثيراً من العلوم. وظهرت موهبته الشعرية مبكراً، وهو لا يزال حدثاً في الكتّاب، ولما شب اتخذ الشعر حرفة يتكسب بها، فقربه كثير من الأمراء والحكام ببغداد، وعاصر حكم عدد من الخلفاء العباسيين. وكان أكثر شعر ابن الرومي في المهجاء، وكان ذلك سبباً في مقتله على يد القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد سنة (83هـ = 896م)، كما شمل شعره المدح، والرثاء، والوصف. وله ديوان شعر، يقع في ستة مجلدات حققه حسين نصار.

(695/10)

\*بُعَا الصغير

هو أحد قادة الأتراك البارزين في العصر العباسي الثاني، وكان يُسَمَّى بُعَا الشرايبي. وقد تمتع بعَا بشخصية قوية وشجاعة نادرة، أهلته لأن يكون قائداً لجيوش الدولة العثمانية، تجمع حوله كثيراً من الجنود، حتى قوى نفوذه، وتمكن من السيطرة على مقاليد الأمور. ولما أحسن الخليفة المتوكل على الله بازدياد نفوذ بعَا حاول التخلص منه، ففطن بعَا وانضم إلى الأمراء الأتراك الذين تمردوا على المتوكل وَاغتالوه سنة (247هـ) ثم تولى ابنه المنتصر بالله الخلافة من بعده. ولما تُوفِّي المنتصر بالله عام (248هـ = 862م)، اتفق بعَا والقادة الأتراك على تولية أحمد بن محمد المعتصم الخلافة ولقبوه بالمستعين بالله. وفي عهد الخليفة المعتز بالله عاد بعَا للمؤمرات والقتل والتخلص من

منافسيه، فأمر الخليفة المعتز بالله بالقبض عليه وقتله عام (254 هـ = 868 م).

(696/10)

---

### \*أرنولد توينبي

مؤرخ وفيلسوف إنجليزي معروف، وُلد في لندن عام (1889 م). بدأ حياته العملية مدرساً في جامعة أكسفورد في الفترة من سنة (1912 م) إلى سنة (1915 م)، ثم التحق بالعمل في قسم الاستخبارات السياسية في وزارة الخارجية البريطانية. ثم ترك الخدمة الحكومية ليصبح أستاذاً للتاريخ البيزنطي واللغة اليونانية المعاصرة سنة (1919 م) في جامعة لندن. ثم عُين عام (1925 م) أستاذاً للتاريخ الدولي في الجامعة نفسها ومديراً للدراسات في المعهد الملكي للشئون الدولية، واحتفظ بأستاذيته في جامعة لندن حتى تقاعده عام (1955 م). ويُعد أرنولد من أكبر المؤرخين العالميين المعاصرين وأغزرهم علماً وتأليفاً ومن أشهر كتاباته: دراسة في التاريخ الذي نشر ما بين عامي (1934 م و 1961 م) في (12) جزءاً. وتُوفّي أرنولد عام (1976 م).

(697/10)

---

### \*أحمد بن أبي يعقوب بن واضح

هو أحمد بن إسحاق بن جعفر بن واضح اليعقوبي، مؤرخ وجغرافي من أهل بغداد. وُلد في أسرة كانت تعمل في دواوين الخلافة. ارتحل عن بغداد في سن مبكرة فعاش طويلاً في أرمينيا وخراسان حتى سنة (260 هـ = 873 م)، ثم رحل عنها فراراً إلى الأقطار العربية، وكان المعتصم يبعثه في خلافة المأمون إلى

سمرقند كل سنة لشراء الرقيق الأتراك، وتمتع اليعقوبي برعاية الطولونيين أثناء مقامه بمصر والمغرب، وصنّف اليعقوبي كتباً، أهمها: التاريخ اليعقوبي الذي يُعدُّ أول تاريخ عالمي تناول فيه تاريخ الأمم السابقة على الرغم من وجود بعض الأساطير في الكتاب. ويبدأ هذا الكتاب منذ بدء الخليقة حتى سنة (259هـ=872م). وهذا التاريخ يجمع بين أسلوب العهود والحوليات. أما كتاب البلدان - الذي أنجزه في مصر في خلافة المعتمد العباسي المتوفى سنة (277 هـ) - فيُعدُّ أقدم كتاب من نوعه في مجال الجغرافيا التاريخية في العربية. وطبع هذا الكتاب في ليدن سنة (1892 م) ثم في مصر، وهو كتاب مهم في تعرّف بغداد في تلك الفترة. واختلف في وفاة اليعقوبي، إلا أن الراجح أنه تُوفّي بعد عام (292هـ=905م).

(698/10)

#### \*اليعقوبي

هو أحمد بن إسحاق بن جعفر بن واضح اليعقوبي، مؤرخ وجغرافي من أهل بغداد. وُلد في أسرة كانت تعمل في دواوين الخلافة. ارتحل عن بغداد في سن مبكرة فعاش طويلاً في أرمينيا وخراسان حتى سنة (260هـ = 873م)، ثم رحل عنها فزار الهند والأقطار العربية، وكان المعتمد يبعثه في خلافة المأمون إلى سمرقند كل سنة لشراء الرقيق الأتراك، وتمتع اليعقوبي برعاية الطولونيين أثناء مقامه بمصر والمغرب، وصنّف اليعقوبي كتباً، أهمها: التاريخ اليعقوبي الذي يُعدُّ أول تاريخ عالمي تناول فيه تاريخ الأمم السابقة على الرغم من وجود بعض الأساطير في الكتاب. ويبدأ هذا الكتاب منذ بدء الخليقة حتى سنة (259هـ=872م). وهذا التاريخ يجمع بين أسلوب العهود والحوليات.

أما كتاب البلدان - الذى أنجزه فى مصر فى خلافة المعتمد العباسى المتوفى سنة (277 هـ) - فيُعدُّ أقدم كتاب من نوعه فى مجال الجغرافيا التاريخية فى العربية. وطبع هذا الكتاب فى ليدن سنة (1892 م) ثم فى مصر، وهو كتاب مهم فى تعرّف بغداد فى تلك الفترة. واختلف فى وفاة اليعقوبى، إلا أن الراجح أنه تُوفى بعد عام (292هـ=905م).

(699/10)

---

### \*منسا موسى

هو موسى بن أبى بكر بن مارى جاطة، أعظم سلاطين مالى على الإطلاق وأبرز شخصية تاريخية فى أسرة كيتا، وذلك لما بلغته سلطنته من اتساع وقوة وشهرة. كان منسا موسى يتمتع بقوة فى حكمه، كما كان يُجيد العربية، وقد أقام علاقات ودية مع الدول الإسلامية، وفتح بلاده للاجئين من مسلمى الأندلس، وكان كريماً مع العلماء المسلمين. تولى العرش سنة (1312هـ) بعد أبيه، وزار مصر فى عهد الناصر محمد بن قلاوون، وقام بتوسيع مملكته؛ حيث استولى على بقية إمبراطورية غانه وتكرور الغرب، ودانت له صنغى، وفتح تمبكتو سنة (1328هـ). وكانت رحلة حجّه سنة (1324هـ = 1906 م) - التى مر خلالها بمصر - من الفخامة بحيث بمرت العالم؛ إذ كانت تضم (60) ألف جندي، ومائة جمل محمل بالذهب. وكان الثراء الذى وصلت إليه بلاده سبباً مميّزاً لحركة الكشوف الجغرافية. وقد تُوفى منسا موسى سنة (1337 هـ)، وتولى ابنه محمد الأول الحكم بعده.

(700/10)

---

## \*بشير الشهابي

هو بشير بن قاسم بن عمر الشهابي، أكبر الأمراء الشهابيين في لبنان. وُلِدَ في قرية غزير بالقرب من بيروت سنة (1760م). وبعد وفاة والده الذي كان من أصل عربي سنة (1181هـ) تزوجت أمه وأهملته فكفلته خادمة أبيه، وعندما ما بلغ سن السادسة عشرة قصد دير القمر وأقام هناك، ثم اتصل بأحمد باشا الجزائر والى عكا الذي قرّبه إليه حتى استطاع أن يحكم جبل لبنان سنة (1788م)، وأثناء فترة حكمه قام ببعض الإصلاحات مثل بناء جسر نهر الكلب (1809م)، وجسر نهر الصفا (1811م)، وربط لبنان بإستنابول رأسًا لمنع تدخل الولاة في شئون الجبل. وعندما قدم الفرنسيون لفتح سوريا سنة (1799م) كان الأمير الشهابي عونًا كبيرًا لهم، ودارت بينه وبين أحمد باشا الجزائر حروب استمرت أربع سنوات، حتى تم الصلح بينهما عام (1803م). وقد حالف بشير الشهابي محمد علي - حاكم مصر - ضد الدولة العثمانية، وحكم الشام حتى انسحاب القوات المصرية سنة (1840م) إلا أنه بعد خروج المصريين من الشام قبض الإنجليز عليه ونفى إلى مالطة، ثم الآستانة؛ حيث تُوفِّيَ بها سنة (1850م). ويقال: إنه مات مسلمًا ولم يتنصّر وإنه كان يدعى النصرانية تقية، كما ذكر الدكتور محمد علي ضناوى في كتابه: قراءة إسلامية في تاريخ لبنان.

(701/10)

## \*أربان الثاني

أربان الثاني أحد باباوات روما، فرنسي الأصل، اسمه أودو دي لاجيري، ولد سنة (1042م) من أسرة نبيلة، تلقى تعليمًا كنسيًا حتى صار قسًا، ثم رحل إلى روما ودخل في خدمة البابا

جرجورى السابع، واختير فى الكرسى البابوى سنة (1088م) وأصبح اسمه أربان الثانى، وكان يتمتع بجاذبية وعقل وحسن إدارة، واستطاع أن يقوى نفوذه فى أوربا ويتمتع بالسيادة الروحية وأن يخضع له الكنائس سنة (1095 م)، وكان مشهوراً بعقد الاجتماعات العامة، وأشهرها مجمع كليرمونت (1095م) الذى دعا فيه إلى الحروب الصليبية على الشرق الإسلامى. تُوفى أربان فى (29 من يوليو سنة 1099م) بعد أسبوعين من دخول الصليبيين بيت المقدس قبل أن يصله نبأ الفتح.

(702/10)

---

#### \*أبو بكر المنصور بن قلاوون

هو أبو بكر بن محمد بن قلاوون، من سلاطين الدولة المملوكية بمصر والشام، وهو الثالث عشر من ملوك الترك بمصر والأول من أولاد محمد بن قلاوون الذين تولوا ملك مصر. جلس فى الملك بعهد من أبيه بعد وفاته فى (ذى الحجة سنة 741هـ)، ولقب بالمنصور، وقرب إليه سيف الدين قوصون وجعله أتابك عسكره، إلا أنه تغير عليه وهم باعتقاله، فسبقه قوصون وسيطر على القلعة وخلع المنصور بن قلاوون وحبسه وأجلس الملك الأشرف علاء الدين كنجك، وهو صغير فى الملك، وذلك فى (ربيع الآخر سنة 742هـ)، ثم نفى قوصون الملك المنصور بن قلاوون إلى قوص حيث قتله عبد المؤمن - الذى كان والياً على قوص -، وحمل رأسه سرّاً إلى الأمير قوصون. وكانت مدة حكمه شهرين وأياماً، وقتل وهو فى العشرين من عمره.

(703/10)

---

### \*تولوى بن جنكيز خان

هو تولوى خان الابن الرابع لجنكيزخان وأصغر أبنائه، وكان يلقَّب بالأَمير الكبير، كان لتولوى عشرة أبناء. وكان والده يثق به ويجعله ملازمًا له في أغلب الأحيان ويستشيرَه في أمورِه، وولاه جنكيزخان الإشراف على معسكراته وأمواله، وكان تولوى كثير الانتصارات في الحروب، حيث فتح ولاية الخطا وبخارى وبلاد خراسان، وكان يتعقَّب السلطان جلال الدين منكبرتى، وقد تمكَّن من التغلب على جيوشه وتُوفِّي تولوى سنة (630هـ).

(704/10)

---

### \*ابن رُشيد

هو محمد بن عمر بن محمد، أبو عبد الله، محب الدين بن رُشيد الفهرى السبتي، رحالة ومفسِّر وأديب ولغوى من المغرب وُلد ابن رُشيد في (جمادى الأولى سنة 657هـ) في سبتة حيث نشأ بها وكان مهتمًّا بالأدب منذ صغره وبرع فيه. رحل إلى فاس في طلب الحديث ثم رجع إلى سبتة وتولى الخطابة والتدريس بجامع غرناطة، ورحل إلى تونس والإسكندرية وجاور بمكة المكرمة فترة بعد حجِّه؛ حيث ألَّف كتابًا كبيرًا باسم الرحلة المشرقية في (6) مجلدات، وأهم كتبه: تلخيص القوانين في النحو، وإفادة النصيح في مشورة رواة الصحيح. وتوفى ابن رُشيد سنة (721هـ) بفارس.

(705/10)

---

### \*منساولى بن مارى جاطه

هو منساولى أو (على) ابن مارى جاطه، أحد الحكام المسلمين لدولة مالى الإسلامية فى القرن الثالث عشرالميلادى. تولى الحكم فى مالى بعد وفاة والده سنة (1255م)، وكان منساولى مشهوراً بالصلاح والتقوى، وقد زار مصر أثناء رحلته للحج سنة (658هـ = 1259 م) زمن السلطان الظاهر بيبرس ويُعدُّ منسا على من أعظم سلاطين مالى؛ حيث استطاع بسط نفوذ مالى على دولة صنغى الناشئة فى حوض النيجر الأوسط، وكانت مالى فى عهدة تتمتع بثروة كبيرة بسبب كثرة الذهب بها، وبعد وفاة منساولى بن مارى جاطه تعرضت دولة مالى لفترة من الاضطرابات حتى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى. غيلة أثناء صلاة الصبح فى شوال سنة (836هـ)، ودُفن بحصن كيفا.

(706/10)

---

### \*بهرام الأرمى

هو أبو المظفر بهرام الأرمى، وزير فاطمى نصرانى الديانة أرمى الجنسية، قدم إلى القاهرة والتحق بخدمة الدولة وارتفعت مكانته لحكمته وحسن سياسته فتولى ولاية (الحلة)، ثم قدم إلى القاهرة وتولى الوزارة سنة (529هـ) وقام بالعديد من الإصلاحات، واستمر فى وزارته قرابة العامين حتى طرده منها رضوان بن الوحشى وتولى مكانه. وقد مات بهرام فى (20من ربيع الآخر سنة 535هـ).

(707/10)

---

## \*النسائي

هو أبو عبد الرحمن أحمد بن علي بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار النسائي القاضي الحافظ، ولد بنساء، بلده مشهورة بخراسان، كان أحد الأئمة الحافظين وركنًا من أركان الحديث، قال عنه الدارقطني: النسائي مقدم على كل من يذكر بعلم الحديث ويجرح الرواة وتعديلهم في زمانه وكان من المتشددين في الرجال. سمع من إسحاق بن راهويه وأبي داود السجستاني وهشام بن عمار وكثيرين، وروى عنه الإمام الطحاوي، وأبوبكر أحمد بن إسحاق السني الحافظ وغيرهما، وأهم مؤلفاته السنن الكبرى وهو كتاب ضخم جمع فيه طرق الحديث، ثم اختصر منه كتابه المجتبى المعروف بالسنن، أحد الكتب الستة الكبرى. عُمر النسائي تسعةً أو ثمانيةً وثمانين عامًا، خرج من مصر، وامتحن وضُرب بدمشق فطلب أن يحمل إلى مكة فمات شهيدًا، ودُفن بين الصفا والمروة، وقيل مات بالرملة.

(708/10)

## \*ناصر خسرو

هو ناصر خسرو، أبو معين: شاعر فارسي، متفلسف، ومؤسس فرقة الناصرية. شغل منصبًا كبيرًا في ديوان الغزنويين، ثم ارتحل إلى القاهرة، وانضم إلى الفاطميين، فأضفى عليه الخليفة المستنصر لقب حجة. قام ناصر خسرو برحلة تُعدُّ من أقدم الرحلات المعروفة، وقعت حوادثها بين سنتي (437، و 444هـ)، تجول فيها في بلاد إيران مبتدئًا من مرو في خراسان مارًا بأذربيجان وأرمينية والشام وفلسطين ومصر والحجاز ونجد وجنوبي العراق، ثم عاد إلى إيران منتهيًا إلى مدينة بلخ في خراسان. وطوّف ناصر كثيرًا في خراسان، وهي جزيرته التي

عُيِّنَ حُجَّةٌ لَهَا مِنْ قَبْلِ الْفَاطِمِيِّينَ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى مَازَنْدَرَانَ فَأَقَامَ  
بِهَا زَمَنًا طَوِيلًا حَتَّى نُسِبَ إِلَيْهَا، وَقَدْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَقْنَعَ كَثِيرًا مِنْ  
أَهْلِهَا بِالْدُخُولِ فِي مَذْهَبِهِ، وَلَكِنْ بَعْدَ فِتْرَةٍ ثَارَ عَلَيْهِ النَّاسُ  
وَالْحُكُومَةُ، وَاعْتَدُوا عَلَى مَنْزِلِهِ، فَاضْطُرَّ أَهْلُهُ إِلَى هِجْرِهِ، كَمَا  
اضْطُرَّ هُوَ إِلَى أَنْ يَنْجُو بِنَفْسِهِ فَهَاجَرَ إِلَى يَمَّكَانَ؛ وَفِيهِ أَخَذَ  
يَدْعُو مِنْ جَدِيدٍ إِلَى مَذْهَبِهِ، كَمَا أَخَذَ يَصْنِفُ الْكُتُبَ وَالرِّسَالَةَ فِي  
مَذْهَبِهِ، وَكَانَ بَعْضُهَا بُوْحَى مِنْ الْخَلِيفَةِ الْفَاطِمِي الْمُسْتَنْصِرِ بِاللَّهِ  
نَفْسِهِ. وَلِنَاصِرِ كُتُبَ كَثِيرَةٍ، مِنْهَا الْمَنْظُومُ وَمِنْهَا الْمُنْتَهَرُ، فَمِنْ  
الْمَنْظُومِ: الدِّيْوَانُ، وَسَعَادَاتُ نَامِهِ، وَرُوشْنَائِي نَامِهِ. وَمِنْ  
الْمُنْتَهَرِ: زَادُ الْمَسَافِرِينَ، وَخَوَانُ الْإِخْوَانِ، وَالرِّسَالَةُ، وَوَجْهُ  
دِينِ، وَسَفَرُ نَامِهِ. وَكُلُّ هَذِهِ الْكُتُبُ بِالْفَارْسِيَّةِ، وَلَا يَزَالُ سَكَانُ  
بِأَمِيرِ يَتَّبِعُونَ فِرْقَتَهُ النَّاصِرِيَّةَ، وَيَتَّخِذُونَ مِنْ كِتَابِهِ وَجْهَ الدِّينِ  
شَرِيعَةً لَهُمْ. تُوفِّيَ نَاصِرٌ سَنَةَ (1061م)، وَلَا يَزَالُ قَبْرُهُ إِلَى الْآنِ  
مَزَارًا يُؤْمَهُ الْإِسْمَاعِيلِيُّونَ النَّزَارِيُّونَ.

(709/10)

### \*موسى (عليه السلام)

هُوَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ بْنِ قَاهَاتِ بْنِ لَأْوِي بْنِ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ  
بْنَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: كَلِمَةُ اللَّهِ، وَأَعْظَمُ أَنْبِيَاءِ بَنِي  
إِسْرَائِيلَ، ذَكَرَتْ قِصَّتُهُ فِي عِدَّةِ سُورٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَلَمْ تَفْصَلْ قِصَّةَ  
كَمَا فَصَلَتْ قِصَّتَهُ، فَذَكَرَ مَوْلَدَهُ وَرِضَاعَهُ وَزَوْاجَهُ وَبِعْثَهُ  
وَمُعْجَزَاتِهِ. أَنْزَلَتْ عَلَيْهِ التَّوْرَةَ، وَكَلَّمَهُ اللَّهُ مَبَاشَرَةً دُونَ وَاسِطَةٍ،  
وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ مُوسَى أَنَّهُ لَمَّا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ كَانَ فِرْعَوْنُ مِصْرَ  
يَأْمُرُ بِقَتْلِ الْأَطْفَالِ، فَخَافَتْ عَلَيْهِ أُمُّهُ وَأَلْقَى اللَّهُ تَعَالَى فِي  
قَلْبِهَا أَنْ تَلْقِيَهُ فِي النَّيْلِ، فَجَعَلْتَهُ فِي تَابُوتٍ، وَأَلْقَتْهُ فَالْتَقَطْتَهُ  
آسِيَا امْرَأَةً فِرْعَوْنَ، وَرَبَّتَهُ فَكَبُرَ، فَبَيْنَمَا هُوَ يَمْشِي فِي بَعْضِ

الأيام إذ وجد إسرائيلياً ومصرياً يختصمان، فوكن المصري  
فقتله، ثم اشتهر ذلك وخاف موسى من فرعون فهرب وقصد  
مدين، واتصل بشعيب فزوجه ابنته، وأقام يرعى غنم شعيب  
عشر سنوات، ثم سار موسى بأهله في زمن الشتاء، فظهرت له  
نار، فلما دنا منها رأى نوراً ممتداً من السماء إلى شجرة  
عظيمة، ونودي من جانب الطور الأيمن من الشجرة: أن يا موسى  
إني أنا الله رب العالمين. وجعل الله عصاه ويده آيتين، وأرسله  
إلى فرعون، ثم دخل موسى بأهله مصر ليلاً، وحدث أخاه  
هارون بما جرى له، وانطلق الاثنان إلى فرعون، وأراه موسى  
الآيتين، إلا أن فرعون أبي، وجمع السحرة ووعدهم ومناهم إن  
هم تغلبوا على موسى، فسحروا أعين الناس، فتخيلوا حيات  
تسعى، فألقى موسى عصاه فإذا هي حية كبرى تلتهم  
حياتهم، وآمن به السحرة، فقتلهم فرعون، ثم أراهم الله آيات  
بينه من القمل والضفادع وصيرورة الماء دمًا، فلم يؤمن فرعون  
ولا أصحابه، وآخر الحال أن سار موسى ببني إسرائيل،  
فاتبعهم فرعون حتى لحقهم عند بحر القلزم، فضرب موسى  
بعصاه البحر فانشق، ودخل فيه هو وبنو إسرائيل، ولما أراد  
فرعون وجنوده أن يعبروا البحر كما عبر هؤلاء عاد البحر إلى  
حالته الأولى، فغرقوا جميعاً.

(710/10)

### \*النسفي

هو عبد الله بن أحمد بن محمود، حافظ الدين، النسفي، أبو  
البركات. فقيه حنفي، مفسر، من أهل إيدج من كور أصبهان،  
نسبة إلى نسف ببلاد السند بين جيحون وسمرقند، تفقه على  
شمس الأئمة الكردي، وروى الزيادات عن العتابي، وسمع منه

السفناقي. له مصنفات كثيرة منها: كتاب المستصفي في شرح المنظومة، والكافي في شرح الوافي، والمنافع في شرح النافع، وكنز الدقائق، والمنار في أصول الفقه، والعمدة في أصول الدين، وشرح الهداية. تُوفّي عبدالله النسفي في إيذج سنة (710هـ).

(711/10)

---

### \*النعمان بن المنذر

هو النعمان الثالث بن المنذر الرابع بن المنذر بن امرئ القيس اللخمي، أبو قابوس: من أشهر ملوك الحيرة في الجاهلية، كان أبرش أحمر قصيراً، مَلِك الحيرة إرثاً عن أبيه نحو سنة (592هـ)، وكانت تابعة للفرس، فأقره عليها كسرى. كان في أول عهده عابد وثن؛ يتعبد للعزى ويذبح الذبائح للأوثان، ثم تحوّل إلى النصرانية سنة (593م) تقريباً، وصار يعد نفسه من حماة المذهب النسطوري، كانت وفود العرب تفد عليه فيكرمها ويحبوها ويقضى حوائجها. قدم على كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين، فذكروا من ملوكهم وبلادهم ماذكروا، فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم، ولم يستثن بلاد فارس ولا غيرها، مدحه كل من النابغة الذبياني وحسان بن ثابت وحاتم الطائي. والنعمان بن المنذر هو الذي قتل عبيد بن الأبرص الشاعر، وهو الذي قتل عدى بن زيد وهو الذي غزا قرقيسيا وهو الذي بنى مدينة النعمانية على ضفة دجلة اليمنى. واستمر النعمان على الحيرة حتى نقم عليه كسرى أبرويز، فعزله ونفاه إلى خانقين، فسجن فيها إلى أن مات.

(712/10)

### \*المهاجر بن أبي أمية

هو المهاجر بن أبي أمية سهيل بن المغيرة المخزومي القرشي صحابي جليل ومن الولاة القادة، أخو أم سلمة زوجة النبي - صلى الله عليه وسلم -، كان اسمه الوليد، فكره النبي هذا الاسم، وسماه المهاجر، وكان قد شهد معركة بدر مع المشركين. وكان قد تخلف عن تبوك، فغضب عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم رضى عنه بشفاعة أخته أم المؤمنين، وجعله أميراً على الصدقات. وبعد أن تُوفّي رسول الله (وتولى أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - بعث المهاجر بن أبي أمية إلى اليمن لقتال الأسود العنسي، وتولى إمارة صنعاء سنة (11هـ = 632م)، وفتح حصن النجير بحضور موت سنة (12هـ = 633م)، وكان له شعر جيد في حروب الردة. وقد تُوفّي المهاجر بعد سنة (12هـ = 633م).

(713/10)

### \*أبو المهاجر دينار

هو دينار مولى بني مخزوم، وقيل: كان مولى مسلمة بن مخلد حاكم مصر. ولأه مسلمة بن مخلد على إفريقية بعد عقبه بن نافع سنة (55هـ)، فأساء دينار عزل عقبه، وخرج من القيروان وبنى مدينة جديدة تخليداً لاسمه، وأمر الناس بأن يتركوا القيروان ويسكنوا مدينته وأمر بتخريب القيروان. وخاض عدة معارك ضد البربر بقيادة كسيلة بن لمزم البربري وفتح جزيرة شريك، وهزم كسيلة بالقرب من تلمسان، فأعلن إسلامه. وفي سنة (62هـ = 681م) عزله يزيد بن معاوية بن أبي سفيان وأعاد عقبه بن نافع، فأوثق أبا المهاجر في الحديد وأمر الناس بالعودة إلى القيروان، واشترك أبو المهاجر في حروب عقبه بن

نافع بعد ذلك. وفي سنة (63هـ = 682م) ارتدَّ كسيلة البربري  
وجمع جموعًا من البربر والروم وفاجأ بما عقبه بن نافع في  
جمع من أصحابه يبلغ ثلاثمائة صحابي وتابعي جليل في أرض  
الزاب في معركة تمودة. وكان أبو المهاجر ممن معه، وأبلى  
بلاء حسنًا حتى قُتل رحمه الله.

(714/10)

---

### \*نجم الدين أيوب

هو أيوب بن شاذى بن مروان. الملك الأفضل والد السلطان صلاح  
الدين الأيوبي، كان كريمًا سمحًا، حسن النية. من أهل دُوَيْن  
(بلدة في أذربيجان)، وكان والده واليًا على تكريت من قبل  
بهرز والى بغداد وتكريت، وبعد أن تُوفِّي، تولى ابنه أيوب،  
ولكن بهروز مال بث أن غضب عليه وعلى أخيه أسد الدين  
شيركوه، وطردهما من خدمته، فخرجا إلى الموصل واتصلا  
بعماد الدين زنكي، فأقطع أيوب بن شاذى قلعة بعلبك. ولما  
تولى ابنه صلاح الدين الأيوبي الوزارة في مصر بعد وفاة عمه  
أسد الدين شيركوه، استدعى والده نجم الدين من بلاد الشام  
إلى مصر سنة (565هـ = 1169م)، فعرض عليه الوزارة ولكنه  
رفضها. ولما خرج صلاح الدين ل حرب الصليبيين أناب عنه والده  
نجم الدين على القاهرة، فخرج يومًا مع العسكر، فسقط عن  
جواده، فظل أيامًا مريضًا، حتى تُوفِّي، وكان ذلك سنة (568هـ  
= 1172م). ومن أهم أثاره خانقاه في دمشق، وأخرى في مصر.

(715/10)

---

### \*موسى الكاظم

هو موسى بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو الحسن: سابع الأئمة الاثني عشر، عند الإمامية، كان من سادات بني هاشم، ومن أعبد أهل زمانه، وأحد كبار العلماء الأجواد. وُلِدَ بالأبواء (قرب المدينة) يوم الأحد (7 من صفر 128هـ)، سكن المدينة، فأقدمه المهدي العباسي إلى بغداد ثم رَدَّه إلى المدينة. وبلغ الرشيد أن الناس يباعون موسى الكاظم فلما حج مر بها سنة (179هـ) فحمله معه إلى البصرة، وحبسه عند واليها عيسى بن جعفر سنة واحدة، ثم نقله إلى بغداد فتُوِّفَى بها سجيناً. ويلقب بالعبد الصالح، وينعت أيضاً بالكاظم لما كظم من الغيظ وما صبر عليه من فعل الظالمين به حتى تُوفِّي. كان أولاده سبعة وثلاثين ولدًا ذكرًا وأنثى، كان شديد السمرة، عظيم الفضل، رابط الجأش، واسع العطاء، وكان عالمًا، حكيماً متواضعًا، كريم، الأخلاق، شديد الخوف من الله. حَدَّثَ بأحاديث عن أبيه وحدث عنه أولاده، وقال أبو حاتم: ثقة صدوق، إمام من أئمة المسلمين. من مؤلفاته: وصيته لهشام بن الحكيم، ووصفه للعقل، وله تحقيق الأحكام في الفقه. كانت وفاته في رجب سنة (183هـ) في السجن.

(716/10)

### \*مؤنس الخادم

هو مؤنس الخادم الملقب بالمظفر المعتضدي: أحد الخدام الذين بلغوا رتبة الملوك، كان شجاعًا، مقدامًا فاتكًا مهيبًا، كان في خدم المعتضد العباسي، من الساسة الدهاة، بقى ستين سنة أميرًا، أبعده المعتضد إلى مكة، ولما بُويِعَ المقتدر بالخلافة

أحضره وقربه، وفوّض إليه الأمور؛ فنال من السعادة والوجاهة ما لم ينله خادم قبله. نُدب لحرب المغاربة العُبيدية، وولى دمشق للمقتدر، ثم جرت له أمور، وحارب المقتدر فقتل يومئذ المقتدر، فسقط في يد مؤنس وقال: كلنا نُقتل، ثم نصّب مؤنس القاهر بالله خليفةً، فلما تمكن القاهر، قتل مؤنسًا وغيره في سنة (321هـ = 933م) وخلف أموالاً لا تحصى.

(717/10)

---

### \* المهلب بن أبي صفرة

هو المهلب بن أبي صفرة ظالم بن سراق الأزدي، والى خراسان أيام عبد الملك بن مروان. وُلد المهلب في دبا ونشأ في البصرة. تولى إمارة البصرة لمصعب بن الزبير، وقربّه الحجاج إليه لقتاله الخوارج؛ حيث قاتل الأزارقة (19) سنة حتى قضى عليهم، وكان يأخذ خراج كل بلد يُجلبهم عنها سنة. تولى إمارة خراسان سنة (79هـ) في خلافة عبد الملك بن مروان، وقد أصيبت عينه يوم فتح سمرقند. كان المهلب مشهوراً بالكرم والحكمة والبلاغة ومن وصاياها: الحياة خير من الموت، والثناء خير من الحياة. تُوفّي المهلب غازياً بإحدى مدن خراسان في (ذى الحجة سنة 83هـ) وتولى ابنه يزيد بن المهلب ولاية خراسان من بعده.

(718/10)

---

### \* نصيرالدين الطوسي

هو أبو جعفر محمد بن محمد بن الحسن، نصير الدين الطوسي، فيلسوف ورياضي وفلكي. وُلد الطوسي بطوس سنة (597هـ = 1201م) كانت له علاقة وثيقة بهولاكو، وكان هولاء لا يسافر إلا

في وقت يأمره به النصير الطوسي. انضم الطوسي إلى جانب أمراء المغول، وكان من المنادين بغزو بغداد وشجع هولاءكو على ذلك حتى سقطت سنة (656هـ = 1257م). وابتنى الطوسي بمراغة مرصدًا ضخماً أنفق عليه هولاءكو من خزائنه. ألف الطوسي العديد من الكتب في الفلسفة والفلك والرياضيات مثل: الليل والنهار، والمخروطات والجواهر والأسطوانة إلى غير ذلك من الكتب. ومات الطوسي سنة (672هـ = 1274م) ودُفن في المشهد الكاظم، وكان يُقارب الثمانين.

(719/10)

\*مينو

هو جاك فرانسوا دي مينو آخر قائد للحملة الفرنسية في مصر. ولد مينو في أسرة نبيلة في جنوب فرنسا سنة (1750م) اشترك في الثورة الفرنسية وكان له صداقة مع نابليون، انتخب عضواً في الجمعية الوطنية في فرنسا لكنه انحاز إلى جانب الثورة. قدم مع نابليون في حملته على مصر، وكان مشهوراً باللهو والتبذير. تولى حكم رشيد وأسلم وتزوج من امرأة مسلمة من رشيد أسمها زبيدة بنت محمد، وأنجب منها ابناً اسماه سليمان باشا مراد وكان زواجه سنة (1799م)، ومازالت وثيقة زواجه موجودة حتى الآن في محكمة رشيد. تولى قيادة الإسكندرية ورشيد والبحيرة بعد رحيل نابليون عن مصر، وكان من أنصار البقاء في مصر وتأسيس صرح الإمبراطورية الفرنسية في الشرق التي قاعدتها مصر. تولى قيادة الحملة الفرنسية في مصر بعد مقتل كليبر سنة (1800م)؛ لكونه أقدم القواد الفرنسيين وليس أكفأهم. رحل عن مصر مع الحملة هو وزوجته سنة (1801م)، وبعد

رحيله منحه الإمبراطور عددًا من الأوسمة. وتُوقِّ مينو سنة  
(1810م) بفرنسا.

(720/10)

---

### \* نافع مولى ابن عمر

هو نافع المدني، أبو عبد الله: مولى ابن عمر وراويته، من أئمة  
التابعين بالمدينة، أصابه ابن عمر صغيراً في بعض مغازيه،  
ونشأ في المدينة، سافر مع ابن عمر بضعةً وثلاثين حجةً وعمرة،  
سمع مولاة وأبا سعيد الخدري، وروى عنه الزهري وأيوب  
السختياني ومالك بن أنس، وهو من المشهورين بالحديث، ومن  
الثقات الذين يؤخذ عنهم ويجمع حديثهم ويُعمل به، ومعظم حديث  
ابن عمر عليه دار، وأهل الحديث يقولون: رواية الشافعي عن  
مالك عن نافع عن ابن عمر سلسلة الذهب لمكانة كل واحد من  
هؤلاء الرواة. ولا يُعرف لنافع خطأ في جميع ما رواه، أرسله  
عمر بن عبد العزيز إلى مصر ليعلم أهلها السنن. تُوقِّ نافع سنة  
(117هـ).

(721/10)

---

### \* نقفور

إمبراطور بيزنطي، كان معاصراً للخليفة هارون الرشيد، خلع  
الإمبراطورة إيريني وخلفها (802م)، وعقب استيلائه على  
الإمبراطورية أرسل نقفور إلى هارون الرشيد كتاباً نقض فيه  
الهدنة التي عقدتها الإمبراطورة إيريني، وألح في طلب الجزية  
التي دفعتها إليه إيريني، فاشتد غضب الرشيد وكتب إليه: بسم  
الله الرحمن الرحيم: من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب

الروم، قد قرأت كتابك، والجواب ماتراه دون أن تسمعه والسلام.  
وخرج لخاربتة، فسار إليه بجيوشه الجرامة مخترقاً آسيا  
الصغرى، وظل يتابع حروبه حتى استولى على هرقله قبل أن  
يتمكن الإمبراطور من رده، لانشغاله بإخماد الفتنة التي قامت  
في بلاده. وانتهت بذلك كبرياء هذا الإمبراطور وصلفه بعقد صلح  
أرغم فيه على دفع الجزية من جديد، واشترط نقفور ألا يخرب  
الرشيد ذا الكلام ولا سملة ولا حصن سنان، واشترط الرشيد عليه  
ألا يعمر هرقله، وأن يدفع نقفور جزية قدرها ثلاثمائة ألف دينار  
سنوياً.

(722/10)

#### \*سراقة بن مالك

هو أبو سفيان سراقة بن مالك بن جُعشم المدلجي الكناني،  
صحابي ارتبطت سيرته - رضى الله عنه - بهجرة النبي - صلى الله عليه وسلم - وصاحبه  
أبي بكر الصديق - رضى الله عنه - من مكة إلى المدينة. كان  
سراقة ممن يقتصون الأثر، فخرج وراء النبي - صلى الله عليه وسلم - يريد اللحاق بركب  
الهجرة حتى يفوز بالجائزة التي رصدتها قريش لمن يعيد إليهم  
محمدًا، وعندما رأى النبي (وصاحبه أبا بكر وأوشك أن  
يدرکہما، خرَّ فرسه مرتين ثم غاصت قدماه في الرمال في المرة  
الثالثة؛ فطلب الأمان من النبي - صلى الله عليه وسلم - وعاهده على ألا يدل عليهما  
أحدًا، ثم عاد سراقة إلى مكة، وبقى على شركه حتى فتحت  
مكة عام (8هـ) فأعلن إسلامه. وبشره النبي - صلى الله عليه وسلم - بسواري كسرى  
ومنطقته، وتحققت نبوءة النبي - صلى الله عليه وسلم - في عهد أمير المؤمنين عمر بن  
الخطاب، رضى الله عنه، عندما جاءت كوز فارس. وتوفي  
سراقة - رضى الله عنه - نحو عام (24هـ).

(723/10)

---

### \*زيد بن ثابت

هو أبو خارجة زيد بن ثابت بن الضحاك الخزرجي البخاري. صحابي جليل من كُتَّاب الوحي. وُلد في المدينة في العام الحادى عشر قبل الهجرة، ورده النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم بدر لصغر سنه، ولكنه شهد غزوتى الخندق، وتبوك. وكان زيد يتقن الكتابة والقراءة؛ فكلفه النبي - صلى الله عليه وسلم - بكتابة الوحي، كما كان يكتب رسائل النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى الملوك والحكام، وطلب منه أن يتعلم اللغتين العبرية والسريانية، فتعلمهما وأتقنهما، وبعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - أصبح كاتباً لأبي بكر ثم عمر. وقد كلفه أبو بكر أن يجمع القرآن الكريم ويكتبه، ثم كلفه عثمان بن عفان بكتابة عدة نسخ من المصحف الذى جمع في عهد أبي بكر. وكان زيد أعلم الصحابة بالفرائض، وكان عمر وعثمان لا يقدِّمان على زيد أحداً في القضاء والفتوى والفرائض والقراءة. وتُوفِّي زيد - رضى الله عنه - ما بين عامى (45 و 55هـ).

(724/10)

---

### \*أبو الدرداء

هو أبو الدرداء عويمر بن مالك بن زيد بن قيس بن أمية الخزرجي. صحابي جليل، أسلم يوم بدر، وحينما هاجر سلمان الفارسى إلى المدينة آخى النبي - صلى الله عليه وسلم - بينه وبين أبي الدرداء. اشتهر أبو الدرداء بالفروسية والشجاعة والحكمة، وفيه قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: نِعَمَ الفارس عويمر، وعويمر حكيم أمتى. وأبو الدرداء أحد الذين جمعوا القرآن الكريم حفظاً في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم -. وعُرف - رضى الله عنه - بالفقه، وولَّاه معاوية - حينما كان أمير الشام - قضاء

دمشق وهو أول قاضٍ بها. وتُوفِّي أبو الدرداء بالشام نحو (32هـ).

(725/10)

---

### \*توفيق بن إسماعيل

هو محمد توفيق بن الخديو إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي باشا، وُلد بمدينة القاهرة عام (1269هـ = 1852م) ونشأ وتعلم بها. تقلد المجلس الخصوصي في حياة أبيه عام (1871م)، ثم تقلد وزارتي الداخلية والأشغال، ثم رئاسة الوزراء في مارس (1879م)، ثم تولى حكم مصر في يونيو (1879م) عقب عزل والده. وقد عمل الخديو توفيق في بداية حكمه على التقرب إلى الشعب، وسعى إلى تخليص مصر من أزمته المالية؛ فتنازل عن جزء كبير من أملاكه وقام بالعديد من الإصلاحات الداخلية، إلا أنه كان يميل إلى الحكم المطلق، وكان ضعيفاً أمام النفوذ الأوربي. وفي عهده أثارَت وزارة مصطفى رياض سخط الشعب والجيش الذي تحرك في حادثة ميدان عابدين الشهيرة في سبتمبر (1881م) بقيادة أحمد عرابي، وفرض على توفيق تشكيل وزارة وطنية. وما لبثت العلاقة أن ساءت بين توفيق والعرابين فخاف على عرشه واستعان بالإنجليز الذين احتلوا مصر بعد معركة النيل الكبير. واستمر توفيق حاكماً اسمياً، وانتقلت السلطة الفعلية إلى الإنجليز حتى وفاته في (8 من يناير 1892م).

(726/10)

---

### \*حسان بن ثابت

هو أبو الوليد حسان بن ثابت بن حرام بن مالك بن النجار

الخزرجي. صحابي جليل، وشاعر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . اشتهرت مدائحه في ملوك الغساسنة بالشام والمناذرة بالحيرة قبل الإسلام. وحينما أسلم حسان وأصبح شاعر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تصدى بشعره لكل من يناهض الدعوة الإسلامية. وكان رسول الله ينصب له منبراً في المسجد يقوم عليه يفاخر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيقول النبي: إن الله يؤيد حسناً بروح القدس ما نافح عن رسول الله. ولم يشهد حسان مع النبي - صلى الله عليه وسلم - الغزوات، وقد وهب له النبي - صلى الله عليه وسلم - جاريتيه سيرين - أخت مارية المصرية - فأنجبت له عبد الرحمن. وقد عمّر حسان طويلاً جداً، فعاش ستين سنة قبل الإسلام ومثلها في الإسلام. وتوفي في المدينة في نحو عام (50هـ)، وله ديوان شعر مطبوع.

(727/10)

#### \*محمد توفيق باشا

هو محمد توفيق بن الخديو إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي باشا، وُلد بمدينة القاهرة عام (1269هـ = 1852م) ونشأ وتعلم بها. تقلد المجلس الخصوصي في حياة أبيه عام (1871م)، ثم تقلد وزارتي الداخلية والأشغال، ثم رئاسة الوزراء في مارس (1879م)، ثم تولى حكم مصر في يونيو (1879م) عقب عزل والده. وقد عمل الخديو توفيق في بداية حكمه على التقرب إلى الشعب، وسعى إلى تخليص مصر من أزمته المالية؛ فتنازل عن جزء كبير من أملاكه وقام بالعديد من الإصلاحات الداخلية، إلا أنه كان يميل إلى الحكم المطلق، وكان ضعيفاً أمام النفوذ الأوربي. وفي عهده أثارت وزارة مصطفى رياض سخط الشعب والجيش الذي تحرك في حادثة ميدان عابدين الشهيرة في سبتمبر (1881م) بقيادة أحمد عرابي، وفرض على توفيق تشكيل وزارة

وطنية. وما لبثت العلاقة أن ساءت بين توفيق والعراقيين فخاف على عرشه واستعان بالإنجليز الذين احتلوا مصر بعد معركة التل الكبير. واستمر توفيق حاكمًا اسميًا، وانتقلت السلطة الفعلية إلى الإنجليز حتى وفاته في (8 من يناير 1892م).

(728/10)

---

### \*حسان بن ثابت

هو أبو الوليد حسان بن ثابت بن حرام بن مالك بن النجار الخزرجي. صحابي جليل، وشاعر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . اشتهرت مدائحه في ملوك الغساسنة بالشام والمناذرة بالحيرة قبل الإسلام. وحينما أسلم حسان وأصبح شاعر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تصدى بشعره لكل من يناهض الدعوة الإسلامية. وكان رسول الله ينصب له منبراً في المسجد يقوم عليه يفاخر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيقول النبي: إن الله يؤيد حساناً بروح القدس ما نافح عن رسول الله. ولم يشهد حسان مع النبي - صلى الله عليه وسلم - الغزوات، وقد وهب له النبي - صلى الله عليه وسلم - جاريتيه سيرين - أخت مارية المصرية - فأنجبت له عبد الرحمن. وقد عمّر حسان طويلاً جداً، فعاش ستين سنة قبل الإسلام ومثلها في الإسلام. وتوفي في المدينة في نحو عام (50هـ)، وله ديوان شعر مطبوع.

(729/10)

---

### \*البحترى

هو أبو عبادة الوليد بن عبيد الله بن يحيى بن عبيد. أحد أعلام الشعراء في العصر العباسي، وأحد رواد الشعر العربي عبر العصور. وُلد في منبج (تقع في الشمال الشرقي من مدينة حلب

بسوريا) عام (206هـ = 821م) على الراجح، وبها نشأ، وتلقى ثقافته الأولى؛ حيث حفظ القرآن الكريم وقرأ بليغ الشعر والنثر وأخذ من علوم اللغة وغيرها. وظهرت موهبته مبكراً فنزل بمدينة حمص واتصل بالشاعر الكبير أبي تمام وتعلمذ له، ثم اتجه إلى بغداد وأقام فيها سنوات طويلة، مدح خلالها الخلفاء العباسيين الذين عاصروهم، وكان الخليفة المتوكل أشهر ممدوحيه. ولما قتل الخليفة المتوكل مع وزيره الفتح بن خاقان عاد البحتري إلى منبج، وكان له فيها ضياع فأخذ يردّها ويترد - أحياناً - على بعض الولاة. وقد نظم البحتري الشعر في أغراضه المختلفة، كاملدح والرثاء والغزل والمهجاء والوصف، وله مختارات من الشعر جمعها وأسماها كتاب الحماسة. وتوفي البحتري في منبج عام (284هـ = 897م).

(730/10)

### \* بلال بن رباح

هو بلال بن رباح الحبشي مؤذن الرسول - صلى الله عليه وسلم - . أسلم مبكراً فكان من أوائل الذين أظهروا إسلامهم في مكة، وكان سيده أمية بن خلف يُبالغ في تعذيبه ليردّه عن الإسلام، ولكنه ظل صابراً ثابتاً، حتى اشتراه أبو بكر الصديق، وأعتقه. هاجر بلال إلى المدينة وصار مؤذن النبي - صلى الله عليه وسلم - لجمال صوته، كما جعله النبي خازناً على بيت المال. وقد شهد بلال الغزوات كلها مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وحين فتحت مكة عام (8هـ = 629م) أمره النبي بأن يعتلى ظهر الكعبة ليؤذّن عليها، وبعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - توقف بلال عن الأذان. وفي خلافة عمر بن الخطاب خرج بلال إلى الشام مجاهداً في سبيل الله حتى توفي عام (20هـ = 641م) بمدينة دمشق بعد أن جاوز الستين من عمره.

**\*ورقة بن نوفل**

هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى القرشى ابن عم  
السيدة خديجة رضى الله عنها. اعتزل عبادة الأصنام قبل  
الإسلام، ودخل النصرانية، وقرأ كتب الديانات الأولى. أدرك  
ورقة عصر النبوة وهو شيخ كبير كفيف، بشرَّ النبي - صلى الله عليه وسلم - بالنبوة  
عندما قصَّ عليه ما حدث في غار حراء، فقال ورقة: هذا الناموس  
(يقصد جبريل عليه السلام) الذى نزله الله على موسى، ياليتنى  
فيها جذع! ليتنى أكون حيًّا إذ يخرجك قومك .. وإن يدركنى  
يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا ...). ولم يلبث ورقة أن تُوفِّي، ولم يدرك  
بعثة النبي - صلى الله عليه وسلم -.

**\*بابك الحُرْمى**

هو أحد زعماء فرقة البابكية الحُرْمية، اختلفت الروايات في  
أصله ونسبه، إلا أنها أجمعت على أنه نشأ فقيرًا يعمل بالرعى  
مقابل كسوته وإطعامه عند أهل قريته الواقعة بإقليم البذ بين  
إيران وأذربيجان جنوبي بحر قزوين. والتحق بابك بفرقة  
الحُرْمية التى ظهرت في بلاد فارس ثم أصبح أحد زعمائها،  
وتجمع حوله عدد كبير من الأتباع، فبدأ في محاربة الدولة  
العباسية وأمر أتباعه بالإغارة على المسلمين المقيمين بالإقليم  
الجاور لإقليم البذ وقتلهم سواء كانوا أطفالاً أو رجالاً أو نساءً.  
وأصبح بابك يهدد أمن الدولة العباسية، واشتدَّ خطره في عهد  
الخليفة المأمون الذى أرسل إليه عدة حملات عسكرية غير أنها

لم تستطع القضاء على حركته. فلما تولى المعتصم الخلافة أرسل جيوشه بقيادة الأفشين لمحاربة بابك وأتباعه فألحقت بهم الهزيمة عام (222هـ = 836م)، وتمكّن الأفشين من أسره وتسليمه إلى المعتصم عام (223هـ = 838م) الذي أمر بقتله وقتل أخيه عبد الله، وبذلك قضى المسلمون على فتنة استمرت أكثر من (20 عامًا).

(733/10)

---

### \*السكاكي

هو سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي. ولد في السكاكي خوارزم عام (555هـ = 1160م)، ونشأ بها، وتلقى دروسه في علوم اللغة على أيدي كبار العلماء بها، ثم بدأ في إلقاء الدروس فظهر علمه، وذاع صيته، ولع اسمه في عهد السلطان محمد خوارزمشاه. واشتهر السكاكي بكتابه مفتاح العلوم الذي عُني فيه بعلوم اللغة من نحو وصرف ومعانٍ وبديع ومنطق وعروض وقوافٍ، واعتمد فيه على آراء سابقيه، ووضع عليه الشروح والخواشي، كما عمد فيه إلى التفصيل والإيضاح فأصبح الكتاب مرجعًا جامعًا، وتوفي السكاكي في خوارزم عام (626هـ = 1229م).

(734/10)

---

### \*سعود بن عبد العزيز

هو سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود الأول. وُلد عام (1160هـ = 1746م)، وقاد خلال ولاية أبيه جيش السعوديين في نشر الدعوة الوهابية التي تدعو إلى ترك البدع، والعودة إلى

القرآن والسنة، وأبلى في ذلك بلاءً حسنًا، واستولى على الأحساء، وفتح طريق الحج أمام النجديين، ودخل مدينة كربلاء، وهدم قبة الإمام الحسين ثم دخل مكة على رأس الجيش عام (1217هـ = 1802م). بُويع سعود خلفًا لأبيه عام (1218هـ = 1803م) ودام حكمه إحدى عشرة سنة، فتح خلالها الحجاز والعراق، وامتدت فتوحاته إلى رأس الخيمة على الخليج العربي وإلى زبيدة باليمن. ودخل سعود في صدام مع الخلافة العثمانية، فندهورت الحالة الاقتصادية للحجاز، وأمر السلطان سليم بتولية واليه على مصر - محمد علي - أمور الحجاز ومحاربة الوهابيين؛ فاستولى الجيش المصرى على مكة والمدينة والطائف. وتُوفى سعود بمدينة الدرعية عام (1229هـ = 1814م).

(735/10)

#### \*زَيْنَب بنت محمد

هى زينب بنت محمد (، وأمها السيدة خديجة، رضى الله عنها. وهى كبرى بنات النبي - صلى الله عليه وسلم -، وُلدت بمكة، وتزوجت أبا العاص بن الربيع قبل بعثة النبي - صلى الله عليه وسلم - . فلما بُعث النبي - صلى الله عليه وسلم - بدعوة الإسلام؛ أسلمت زينب، وامتنع أبو العاص عن الإسلام وظلَّ على شركه، وحارب إلى جانب المشركين فى غزوة بدر فأسر فيها، ثم أُطلق سراحه، بعد أن أرسلت السيدة زينب فى فدائه قلادة أهدتها إليها أمها عند زواجها. هاجرت السيدة زينب إلى المدينة، وبقي أبو العاص فى مكة متمسكًا بما رافضًا الزواج بغيرها. وقبل فتح مكة بعام أعلن أبو العاص إسلامه، وقدم على الرسول فى المدينة فرد إليه الرسول السيدة زينب. وتُوفيت السيدة زينب -

رضى الله عنها - عام (8هـ)، ثم توفي أبو العاص - رضى الله عنه  
- بعدها بأربعة أعوام سنة (12هـ).

(736/10)

### \* بنيامين دزرائيلي

هو بنيامين إيزاك دزرائيلي، كاتب ورئيس وزراء إنجليزي. كان  
أبوه إيزاك دزرائيلي مؤرخاً يهودياً معروفاً في لندن، ثم تحوّل  
عن اليهودية واعتنق المسيحية، وكان عمر بنيامين آنذاك ثلاثة  
عشر عاماً، فنشأ نشأةً مسيحية، إلا أن أصوله وعائلته اليهودية  
أثرت في شخصيته وتفكيره وكتاباته. اهتم بالسياسة إلى جانب  
كتاباته الأدبية، وانتخب عضواً بالبرلمان عن المحافظين في عام  
(1837م)، وأصبح رئيساً لمجلس العموم عام (1852م) ثم أصبح  
رئيساً لوزراء إنجلترا. كان بنيامين وراء الصفقة التي اشترت  
إنجلترا بمقتضاها نصيب مصر في أسهم قناة السويس عام  
(1875م). ساند بنيامين دزرائيلي حركات اليهود، وتبنى قضيتهم  
، وجعل سياسة بلاده الخارجية مع الدول ترتبط بمعاملة هذه  
الدول لليهود.

(737/10)

### \* خير الدين برباروسا

هو خضر بن يعقوب. وُلد في عام (871هـ = 1466م)، وعاش هو  
وأخوه قمرج في جزيرة جربة التونسية، وجعلها مركزاً للقيام  
بعملياتهما الحربية في البحر المتوسط والتصدي لقراصنة البحار  
والصليبيين. كما ساعدا على تأمين سواحل الجزائر والمغرب،  
وباتا خطراً كبيراً يهدد أساطيل الإسبان والبرتغال. وفي عام )

922هـ = 1516م) عين السلطان العثماني سليم الأول خير الدين حاكمًا على الجزائر بعد أن هزم الأسطول الإسباني عام (919هـ = 1513م)، واستطاع خير الدين إنقاذ عشرات الآلاف من مسلمي الأندلس من محاكم التفتيش ونقلهم إلى الشمال الإفريقي عام (940هـ = 1533م) فاستدعاه السلطان سليمان القانوني إلى إستانبول وعهد إليه بمهمة قيادة أسطول الدولة، فنجح في بناء أسطول قوى ضمَّ به تونس إلى الخلافة العثمانية، كما قاد معركة بَرُوْزة أشهر معركة بحرية في القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي ضد الجيوش الأوروبية وهزمهم هزيمة ساحقة. وتوفي خير الدين بإستانبول عام (953هـ = 1546م).

(738/10)

#### \*برباروسا

هو خضر بن يعقوب. وُلد في عام (871هـ = 1466م)، وعاش هو وأخوه تَمْرُوج في جزيرة جربة التونسية، وجعلها مركزًا للقيام بعملياتهما الحربية في البحر المتوسط والتصدي لقرصنة البحار والصلبيين. كما ساعدا على تأمين سواحل الجزائر والمغرب، وباتا خطرًا كبيرًا يهدد أساطيل الإسبان والبرتغال. وفي عام (922هـ = 1516م) عين السلطان العثماني سليم الأول خير الدين حاكمًا على الجزائر بعد أن هزم الأسطول الإسباني عام (919هـ = 1513م)، واستطاع خير الدين إنقاذ عشرات الآلاف من مسلمي الأندلس من محاكم التفتيش ونقلهم إلى الشمال الإفريقي عام (940هـ = 1533م) فاستدعاه السلطان سليمان القانوني إلى إستانبول وعهد إليه بمهمة قيادة أسطول الدولة، فنجح في بناء أسطول قوى ضمَّ به تونس إلى الخلافة العثمانية، كما قاد معركة بَرُوْزة أشهر معركة بحرية في القرن العاشر الهجري،

السادس عشر الميلادى ضد الجيوش الأوربية وهزمهم هزيمة ساحقة. وتُوفِّي خير الدين بإستانبول عام (953هـ = 1546م).

(739/10)

---

### \*ابن خلدون

هو ولى الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد. فيلسوف ومؤرخ، وُلد بتونس عام (732هـ = 1332م). درس علوم اللغة والتفسير والحديث والأدب، وتخصّص فى الفقه المالكي، ودرس المنطق والفلسفة وتفوق فيهما، ثم بدأ العمل فى الوظائف الديوانية، وانتقل إلى فاس، ودخل فى خدمة المرينيين - حكام هذه البلاد- حتى وصل إلى منصب قاضى القضاة. ثم تنقل ابن خلدون بين بلاد المغرب والأندلس والحجاز والشام، وعاش بالقاهرة فترة درّس خلالها فى الجامع الأزهر، وقربه السلطان المملوكى برقوق وولاه قضاء المالكية فى مصر سنة (786هـ)، فبعث يستقدم أهله وولده من تونس ليقيموا معه فى القاهرة؛ فغرقوا جميعاً فى الطريق، فعظم عليه الأمر، فاستقال من منصبه، وانقطع للتدريس والتأليف. ويُعدُّ كتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والعجم والبربر أشهر مؤلفاته وأوسعها انتشاراً. وتُوفِّي ابن خلدون بالقاهرة عام (808هـ = 1405م).

(740/10)

---

### \*عبد الرحمن ابن خلدون

هو ولى الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد. فيلسوف ومؤرخ، وُلد بتونس عام (732هـ = 1332م). درس علوم اللغة

والتفسير والحديث والأدب، وتخصص في الفقه المالكي، ودرس المنطق والفلسفة وتفوق فيهما، ثم بدأ العمل في الوظائف الديوانية، وانتقل إلى فاس، ودخل في خدمة المرينيين - حكام هذه البلاد- حتى وصل إلى منصب قاضي القضاة. ثم تنقل ابن خلدون بين بلاد المغرب والأندلس والحجاز والشام، وعاش بالقاهرة فترة درّس خلالها في الجامع الأزهر، وقربه السلطان المملوكي برقوق وولاه قضاء المالكية في مصر سنة (786هـ)، فبعث يستقدم أهله وولده من تونس ليقيموا معه في القاهرة؛ فغرقوا جميعًا في الطريق، فعظم عليه الأمر، فاستقال من منصبه، وانقطع للتدريس والتأليف. ويُعدُّ كتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر أشهر مؤلفاته وأوسعها انتشارًا. وتوفي ابن خلدون بالقاهرة عام (808هـ = 1405م).

(741/10)

### \*خالد بن الوليد

هو خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي. صحابي جليل اشتهر بشجاعته ورجاحة عقله، ويُعدُّ من أعظم القادة العسكريين في التاريخ. كان قبل إسلامه من فرسان قريش، واشترك مع قومه في غزوة أحد ضد المسلمين. أسلم خالد بعد صلح الحديبية عام (7هـ)، واشترك في غزوات النبي - صلى الله عليه وسلم -، وقاد المسلمين في غزوة مؤتة بعد استشهاد قادة الجيش الثلاثة، وشارك في فتح مكة وحينئذ والطائف، ولقبه النبي بلقب سيف الله. واستعان به الخليفة أبو بكر الصديق في ردع أهل الردة وقتلهم، فهزم جيش مسيلمة الكذاب وطلحة الأسدي، ثم اتجه إلى العراق بعد أن ولاه أبو بكر قيادة الجيش، فحارب الفرس، وفتح العراق، ثم

حارب الروم في الشام وقاد معركة اليرموك الفاصلة. ثم شارك في فتح بقية بلاد الشام بعد إسناد قيادة الجيش إلى أبي عبيدة. وتوفي خالد بن الوليد - رضى الله عنه - في حمص - وقيل في المدينة - سنة (21هـ).

(742/10)

---

### \*أبو حنيفة النعمان

هو النعمان بن ثابت بن زوطى بن ماه. مؤسس المذهب الحنفي، وُلد بالكوفة عام (80هـ = 699م). بدأ أبوحنيفة حياته تاجرًا، وعُرف بين الناس بأمانته وكرمه، ولقيه يومًا الإمام الشعبي ونصح به بطلب العلم مع التجارة. فصادف ذلك هوى في نفسه فاتجه إلى علم الكلام حتى بلغ فيه شأنًا عظيمًا وناظر أصحاب الملل والعقائد الفاسدة. ثم اتجه إلى دراسة الفقه على كبار علماء عصره. وعندما أخذ أبوحنيفة في إلقاء الدروس ذاع صيته وعرف الناس فضله وتكالبوا على حلقات درسه، ولقب بالإمام الأعظم. وأسس مذهبه الفقهي الذي تميز بال مرونة والإعلاء من قيمة العقل الإنساني وأخذ مصالح المسلمين في الاعتبار بما لا يتناقض مع القرآن والسنة. وتوفي أبوحنيفة سنة (150هـ = 767م).

(743/10)

---

### \*الحسن بن علي بن أبي طالب

هو الحسن بن علي بن أبي طالب، ابن فاطمة الزهراء بنت النبي (. وُلد بالمدينة عام (3هـ = 624م)، وسمّاه أبوه حربًا، ولكن الرسول أسماه الحسن. تربي الحسن -رضى الله عنه - في بيت

النبوة على الإيمان والتقوى والفضيلة، ولاقى من جدّه (كل العناية والاهتمام. وشهد الحسن معركة صفين مع أبيه، فلما قُتِل أمير المؤمنين على يد الخوارج؛ بايعه أهل العراق وفارس بالخلافة. إلا أنه تنازل عنها لمعاوية بن أبي سفيان بعد ستة أشهر تجنباً للفتنة وحقناً لدماء المسلمين وتوحيداً لصفوفهم، وبخاصة أن الحسن كان ضد مبدأ اقتتال المسلمين من البداية. وقد لقى ما فعله الحسن كل تقدير وإجلال من المسلمين، ورأوا فيما أقدم عليه تحقيقاً لنبوء جده محمد (حينما قال مشيراً إلى الحسن: إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين [البخارى]. وتُوفِّي الحسن - رضى الله عنه - عام (50هـ = 670م).

(744/10)

#### \*حسان بن النعمان الغساني

هو حسان بن النعمان بن عدى الأزدي الغساني. من قادة الدولة الأموية وفرسانها. برز اسم حسان في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، حيث اشترك في عدة فتوحات في شمال إفريقيا في عام (76هـ = 695م). ثم دخل في عدّة حروب مع البيزنطيين، واستعاد منهم مدينة قرطاجنة. وفي عام (80هـ = 698م) ظهرت امرأة تُدعى الكهانة في شمال إفريقيا والتف حولها البربر وأعلنوا الثورة على الخلافة الإسلامية، فتصدى لهم حسان، وقضى على ثورتهم وأقر الأمن في المنطقة. وكان حسان محباً للعمارة والصناعة، فبنى مسجد القيروان ثم أنشأ دار الصناعة واتخذ منها ترسانة بحرية، صنّع بها أكثر من سبعمائة سفينة بما يلزمها من معدات حربية، استخدمت في فتح صقلية. وتُوفِّي حسان عام (86هـ = 705م) في خلافة الوليد بن عبد الملك.

(745/10)

---

**\*أم حبيبة**

هى أم المؤمنين رملة بنت أبى سفيان بن حرب، وُلدت قبل الهجرة بنحو ثلاثين عامًا. تزوجت عبيد الله بن جحش الأسدى وأعلنت إسلامها مع زوجها، ثم هاجرت معه إلى الحبشة، وبها ولدت ابنتها حبيبة، وفي أرض الحبشة مات زوجها عبيد الله كافرًا بعد أن تنصّر، فلما علم النبي - صلى الله عليه وسلم - بذلك خطبها فأصدقها النجاشى (400) دينار نيابة عن النبي، وكان خالد بن سعيد ابن العاص وكيلًا في هذا الزواج. وقد عادت أم حبيبة مع المهاجرين إلى المدينة عام (7هـ) عند فتح خيبر لتعيش مع النبي - صلى الله عليه وسلم -. وقد تفرغت أم حبيبة بعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - للعبادة، حتى تُوفيت بالمدينة المنورة عام (44هـ = 664م)، في خلافة أخيها معاوية

(746/10)

---

**\*حاطب بن أبى بلتعة**

هو حاطب بن أبى بلتعة اللخمي. صحابي جليل من المسلمين الأوائل. شهد غزوة بدر وغيرها من المشاهد وأبلى فيها بلاءً حسنًا. بعثه النبي - صلى الله عليه وسلم - سفيرًا إلى المقوقس - حاكم مصر - فلما أتاه أحسن المقوقس استقباله، وحمله هدايا ثمينة إلى النبي، وكانت مارية القبطية من بين الهدايا فتزوجها الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وأنجبت له ابنه إبراهيم. وتوفي حاطب - رضى الله عنه - عام (30هـ).

(747/10)

---

### \*تيودور هرتزل

زعيم صهيوني، وُلد بالجر عام (1860م) وتلقى تعليمه في مدرسة يهودية ثم انتقل مع أسرته إلى فيينا فدرس القانون بها، واشتغل بالحاماة، ثم عمل بالصحافة. ومن خلال عمله الصحفي كتب عدة قصص ومسرحيات لنشر الفكر الصهيوني، وبدأ يخطط لإقامة دولة صهيونية، واتصل بالأثرياء من اليهود لتمويله وتحقيق حلمه. وفي عام (1897م) عقد هرتزل المؤتمر الصهيوني الأول برئاسته في مدينة بازل السويسرية، وحدد المؤتمر (50) عامًا لإقامة دولة إسرائيل، وتم اختيار فلسطين من بين عدة أماكن اقترحت لإقامة الدولة، منها: الأرجنتين وأوغندا وقبرص وقد تُوفي هرتزل إثر مرض مفاجئ عام (1904م).

(748/10)

---

### \*ابن بطّال

هو ابو الحسن علي بن خلف بن عبدالملك بن بطّال. وُلد في مدينة قرطبة، في أواخر القرن الرابع الهجري، وتلقى العلم لعدد من كبار علماء الأندلس مثل: الطلمنكي والقنازعي وأبي الوليد يونس بن عبدالله القاضي وأبي عمر بن عفيف وغيرهم. وقد عُنى ابن بطّال بالحديث وعلومه عناية خاصة، وأتقنه حتى برز فيه، وتتلّمذ له عدد من التلاميذ، مثل: أبي داود المقرئ وعبد الرحمن بن بشر، وله مصنفات عدة وصلنا منها: شرح صحيح البخاري، وله كتاب في الزهد والرفائق. وتُوفي ابن بطّال سنة (449هـ=1057م).

(749/10)

---

### \*البيضاوى

هو القاضى أبو سعيد ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوى الشيرازى. من كبار علماء التفسير والفقه وأصوله. وُلد بمدينة البيضاء بفارس، وتفقّه على مذهب الإمام الشافعى حيث كان أبوه وجده عالِمين من علماء الشافعية. وقد تولى البيضاوى القضاء ثلاث مرات. وتلمذ له كثيرون فى المذهب الشافعى، واهتمَّ العلماء بكتب البيضاوى وخصوصاً: تفسيره المعروف باسم أنوار التنزيل وأسرار التأويل، وكتاب الغاية القصوى فى دراية الفتوى، وكتاب منهاج الوصول فى معرفة علم الأصول. ولليضاوى مؤلفات أخرى كثيرة، مثل: تحفة الأبرار، ونظام التواريخ، ومطالع الأنوار. وتُوفى البيضاوى سنة (685هـ = 1286م) ودُفن بتبريز.

(750/10)

---

### \*جبريل (عليه السلام)

هو أحد الملائكة المقربين إلى الله تعالى، وهو المكلف بنقل أوامر الله تعالى إلى الأنبياء من البشر. وقد ورد اسم جبريل - عليه السلام - فى القرآن الكريم ثلاث مرات، ولكنه جاء فى آيات أخرى بأسماء وصفات له، مثل: الروح وروح القدس. وجبريل هو الذى نزل على النبى - صلى الله عليه وسلم - فى غار حراء وهو يتعبد، وكان يظهر للنبي - صلى الله عليه وسلم - فى صور مختلفة وظهر للنبي فى هيئته الحقيقية مرتين. وقد صحب النبى - صلى الله عليه وسلم - فى رحلة الإسراء والمعراج.

(751/10)

---

### \*جبله بن الأيهم الغساني\*

آخر ملوك الغساسنة بالشام الذين انتهت إمارتهم التابعة للرومان بظهور الإسلام. وقد حارب جبله مع الروم ضد المسلمين في معركة دومة الجندل واليرموك. ثم أعلن إسلامه بعد هزائم الروم المتعددة في خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه. وتعدى جبله - في أثناء الحج - على رجل من عامة الناس وصفه على وجهه، فأراد عمر أن يقتص منه، ففر إلى القسطنطينية وارتد عن الإسلام إلى النصرانية. ومات جبله عام (20 هـ = 641م).

(752/10)

### \*جهانكيز خان\*

هو سليم بن محمد بن بابر بن عمرالشيخ ميرزا. رابع سلاطين الدولة المغولية في الهند التي أسسها أبوه ظهير الدين بابر. وُلد سليم سنة (977هـ = 1579م). وعند خروج أبيه لفتح الدكن أعلن سليم نفسه سلطاناً على مدينة أباد الله ولكنه عاد إلى أبيه واعتذر إليه عن عصيانه. وبعد وفاة أبيه (1014هـ = 1605م) تولى سليم السلطنة وعرف باسم السلطان أبي المظفر نور الدين محمد جهانكيز. ودام حكمه (22 سنة) خاض خلالها العديد من المعارك وقضى على الثورات التي أثارها أهل بيته عليه. وقد تميّز عهده بنهضة في العلوم والفنون والآداب والدراسات التاريخية، ويُعدُّ جهانكيز أول أباطرة المغول المسلمين في الهند، الذين فتحوا أبوابها للبريطانيين حين استقبال عام (1017هـ = 1608م) أول بعثة بريطانية أوفدها الملك جيمس الأول. وقد تُوفّي جهانكيز عام (1037هـ = 1627م).

(753/10)

### \*أم أيمن

هى بركة بنت ثعلبة بن عمرو بن حصن. صحابية جلييلة، وحاضنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومولاته. انتقلت إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - عن أبيه عبد الله،

وكانت تساعد أمه السيدة آمنة بنت وهب على رعايته، وقد صحبته (مع أمه لزيارة أخواله بالمدينة، وعادت به وحيداً بعد وفاة أمه في طريق عودتها إلى مكة. وقد أعتقها النبي حين تزوج السيدة خديجة، فتزوجت عبيد بن زيد الخزرجي، فولدت له أيمن وكانت تُكنى به. ثم تزوجت من زيد بن حارثة فولدت له أسامة. وقد هاجرت أم أيمن إلى الحبشة، وإلى المدينة وجهدت مع النبي وشهدت معه غزوات أحد وخيبر وحنين فكانت تسقى الماء وتداوى الجرحى. وكان النبي يحبها ويمارحها، ويعرف لها قدرها، فإذا رآها قال: هذه بقية أهل بيتي. وعرف الصحابة لأم أيمن قدرها فكان أبو بكر وعمر يزورانها بعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - وقد تُوفيت -رضى الله عنها - في بدايات خلافة عثمان بن عفان.

(754/10)

### \*بشر بن المعتمر

هو أبو سهل بشر بن المعتمر شيخ المعتزلة في عصره. وُلد بشر بالكوفة، وسكن بغداد، وتوثقت الصلة بينه وبين الخليفة هارون الرشيد والبرامكة. ويُعدُّ بشر من فصحاء المتكلمين وبلغائهم، ويُعدُّه البعض من أوائل مؤسسى علم البلاغة العربية. وقد أسس بشر في بغداد طائفة البشيرية من المعتزلة، وأورد الجاحظ له بعض أقواله وأشعاره في كتابي البيان والتبيين والحيوان.

ولبشر العديد من المؤلفات في علم الكلام، منها: الكفر والإيمان والإمامة والعدل والرد على الخوارج. وقد عُمرَ بشر طويلاً، وتُوفِّي ببغداد عام (210هـ = 825م).

(755/10)

---

### \*أبو بكر الرازي

هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي. أحد أعلام الحضارة الإسلامية في الفلسفة والطب والعلوم الطبيعية. وُلد عام (250هـ = 864م) بمدينة الرّي بإيران حالياً، وبها نشأ ودرس الرياضيات والفلك والمنطق والكيمياء، ثم رحل إلى بغداد حيث درس الفلسفة والطب، وبذل في ذلك جهداً كبيراً، فلخص كتب الطب اليونانية، كما نقد جالينوس في كتابه الشهير الشكوك على جالينوس. ثم عاد إلى الرّي فأُسندت إليه رئاسة بيمارستانها، ثم أُسندت إليه رئاسة بيمارستان بغداد. وقد ترك الرازي العديد من المؤلفات، بلغ (148) مؤلفاً، لا يوجد منها سوى (24) كتاباً. وتُوفِّي الرازي نحو عام (313هـ = 925م)، بعد أن كُفِّ بصره.

(756/10)

---

### \*بشار بن برد

هو أبو معاذ بشار بن برد بن يرجوخ. أحد كبار الشعراء في العصر العباسي. جدُّه يرجوخ أو بضمن من طُخارستان، أسرَه المهلب بن أبي صُفرة والى خراسان فيمن أسر، فنشأ ابنه برد على الرق، وجعله في رقيق زوجه التي وهبته لامرأة من بني عقيل، وفيهم وُلد بشار بالبصرة سنة (96هـ = 714م). وقد اعتقت المرأة العقيلية بشاراً بعد موت أبيه، فأصبح من موالي

بني عقيل. وُلِدَ بشار أعمى، فاتجه إلى حلقات العلم في المساجد يتزود منها، كما انتقل إلى الأعراب في بوادي البصرة؛ ليأخذ اللغة من مصادرها الأصلية. وقد وهبه الله ذكاءً متقدماً، وحافظة لاقطة، فسال ينبوع الشعر على لسانه ولماً يبلغ العاشرة من عمره، كما يقول الرواة. تأثر بشار بثقافات عصره، وتسربت إليه آراء المتكلمين وغيرهم، فنبغ في الشعر نبوغاً متميزاً، حتى عدّه النقاد أشعر المخضرمين الذين عاشوا في عهد الدولتين الأموية والعباسية، كما عدّوه رأس الخدّتين الذي مهّد لمدرسة البديع في الشعر العربي، وعدّوا شعره فيصلاً بين القديم والحديث، وجسراً عبر عليه الشعر من مرابع البداوة إلى ربوع الحضارة. وحين قدم الخليفة المهدي إلى البصرة شكّا إليه كثير من أهلها مجون بشار وزندقته، وشعوبيته وتعصبه ضد العرب والعروبة، فأمر الخليفة بضربه سبعين سوطاً تُوقَى على إثرها، ودُفِنَ بالبصرة. وحقق ديوانه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، بعد أن جمع شعره من مظانه المتعددة، وصدر الديوان في أربعة مجلدات عن لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة عام (1369 هـ = 1950 م).

(757/10)

---

\*ابن البقال

هو يوسف بن علي بن أحمد البغدادي. أحد الحنابلة، وكان شيخ رباط المرزبانية ببغداد. ومن مصنفاته سلوك الخواص. وتُوقَى ابن البقال سنة (668 هـ = 1269 م).

(758/10)

---

### \*سيبويه

هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، إمام النحو العربي الشهير بسبويه، وهي كلمة فارسية تعني: رائحة التفاح. وُلِدَ في إحدى قرى مدينة شيراز ببلاد فارس عام (148 هـ)، ثم رحل إلى مدينة البصرة، وانصرف إلى دراسة اللغة والنحو على أيدي كبار العلماء، كالخليل بن أحمد، والأخفش الأكبر، ثم انتقل إلى بغداد وفيها التقى مع الكسائي وناظره المناظرة الشهيرة التي تُعرف في كتب اللغة بمسألة الزنبور والنحلة أو المسألة الزنبورية. واشتهر سيبويه بكتابه الفريد في علم النحو الكتاب الذي قال عنه الجاحظ: لم يكتب الناس في النحو كتابًا مثله، وجميع كتب الناس عليه عيال. وقيل: إن سيبويه تُوفِّيَ عام (180 هـ = 796 م)، وقيل غير ذلك.

(759/10)

---

### \*أبو سعيد الخدري

هو أبو سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري الخزرجي. استشهد أبوه يوم أحد، وكان قبل المعركة قد صحب سعدًا وهو ابن ثلاثة عشر عامًا إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فردّه - صلى الله عليه وسلم -؛ لصغر سنه، ثم شهد غزوة الخندق وبقية الغزوات. وكان أبو سعيد أحد الفقهاء المجتهدين، وقد حدّث عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وعن أبي بن كعب وعمر، وغيرهما من الصحابة، وروى له الشيخان البخاري ومسلم (1170) حديثًا. وتُوفِّيَ أبو سعيد بالمدينة عام (74 هـ).

(760/10)

---

### \*الخليل بن أحمد الفراهيدي

هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو الفراهيدي. وُلِدَ في مدينة البصرة عام (100 هـ = 717 م)، وأخذ علوم اللغة عن ابن العلاء، وأحاط بأصولها وقواعدها، وقضى عمره في البحث فيها. واشتهر الخليل بأنه واضع علم العروض، وقد جمع فنونه في (15) مجرًا، وظل هذا العلم كما وضعه الخليل، حتى أضاف إليه الألفبجاء واحدًا، والخليل هو أول من صنع معجمًا في اللغة العربية؛ إذ ينسب إليه معجم العين. وقد ترك الخليل تلامذة أصبحوا من أعلام اللغة مثل سيبويه. وتُوفِّي الخليل بالبصرة عام (170 هـ = 786 م).

(761/10)

### \*سعد بن معاذ

هو سعد بن معاذ بن النعمان بن عبد الأشهل الأوسى. صحابي جليل. كان سيد بني عبد الأشهل. أسلم على يد مصعب بن عمير قبل هجرة النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة، وعقب إسلامه جمع قومه ورغبتهم في الإسلام؛ فأسلم القوم جميعهم. كان سعد، رضى الله عنه، من أشد المناصرين للنبي - صلى الله عليه وسلم -، وكانت مكانته في الأنصار كمكانة أبي بكر في المهاجرين، وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - شديد الحب له. وشهد سعد بدرًا وأحدًا. وفي غزوة الخندق عام (5 هـ) أصيب سعد، فحُمِلَ إلى المسجد، وأمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - بضرب خيمة فوقه، وكان الرسول يعودُه كل يوم. وقد ولَّاه النبي - صلى الله عليه وسلم - الحكم في أمر بني قريظة، وكان سعد حليفهم، بعد أن نقضوا عهدهم مع النبي، وتحالفوا مع الأحزاب في حربهم ضد المسلمين في المدينة، فقضى سعد أن يقتل الرجال وتُسبى النساء والأطفال، وتُقسم

الأموال، فأثنى النبي - صلى الله عليه وسلم - على حكمه، وبعد شهر من إصابة سعد انفجر جرحه؛ فمات عام (5 هـ).

(762/10)

---

### \* ابن باجة

هو أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ التُّجيبى، الشهير بابن باجة. أحد أعيان القرن السادس الهجرى. وُلد في مدينة سرقسطة بالأندلس في أواخر القرن (5 هـ = 11 م). وتنقل ابن باجة بين مدن سرقسطة وإشبيلية وقرطبة وفاس، وتولى الوزارة في عهد دولة المرابطين بالمغرب والأندلس. وعرف عن ابن باجة غزارة علمه؛ وبراعته في الفلسفة والمنطق والرياضيات والعلوم الطبيعية والطب والموسيقا، كما عُرف عنه إجادة فن الموشح. وقد ألف ابن باجة عدة كتب، وشرح كثيراً من كتب أرسطو والفارابي، ومن أشهر مؤلفاته: تدير المتوحد، والنفس، والسمع الطبيعي. وتوفي ابن باجة عام (533 هـ = 1139 م).

(763/10)

---

### \* الحاكم النيسابورى

هو محمد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم الضبي الطهماني النيسابورى الشهير بالحاكم. وُلد عام (321 هـ = 933 م) بمدينة نيسابور، ورحل إلى العراق عام (341 هـ)، وطاف ببلاد خراسان وما وراء النهر يأخذ العلم حتى قيل: إنه أخذ العلم عن نحو ألفي شيخ، ثم تولى قضاء نيسابور عام (359 هـ). وكان من أعلم الناس في زمانه بصحيح الحديث وتمييزه عن سقيمته، ومن أكابر

حفاظه والمصنفين فيه. وقد ترك الحاكم العديد من الكتب القيمة،  
من أشهرها: المستدرك على الصحيحين في أربعة مجلدات،  
وتاريخ نيسابور. وتُوفِّي الحاكم عام (405 هـ = 1014 م).

(764/10)

---

### \*برجوان

هو أبو الفتح برجوان التركي. لا يعرف شيء عن مؤلده أو  
نشأته؛ فقد بدأ في الظهور بعد وفاة الخليفة الفاطمي العزيز  
بالله الذي أوصى أن يكون برجوان وصياً على ابنه الحاكم بأمر  
الله فقام برجوان بذلك، وكان يتطلع إلى السلطة والنفوذ؛ فدخل  
في صدام مع الوزير الفاطمي الحسن بن عمار، الذي كانت له  
الكلمة العليا في الدولة، حتى تمكن برجوان من عزله، وعزل  
الموالين له، وبسط سيطرته على الشام وبقية وطرابلس  
والمغرب، وأصبحت كلمته مسموعة، وأمره نافذاً في كل أمور  
الدولة الفاطمية، وتُوفِّي برجوان سنة (389 هـ = 999 م).

(765/10)

---

### \*بيبرس الجاشنكيرى

هو ركن الدولة بيبرس بن عبد الله المنصورى أحد سلاطين دولة  
المماليك الجراكسة في مصر والشام. اشتراه الملك المنصور  
قلاوون صغيراً، وجعله من مملكته، ورفعته إلى مرتبة الأمراء،  
واتخذه جاشنكيراً (أى: مشرفاً على طعام الملك)؛ ومن ثم نُسب  
إليه، ثم عمل بيبرس في خدمة أخيه الملك الناصر محمد الذى  
جعله مشرفاً على الحاشية والخزائن. وقد عُزل بيبرس من منصبه  
على يد زين الدين كتبغا الذى استولى على الملك من الناصر

محمد، ولكن الناصر ما لبث أن عاد ثانية إلى السلطة فأعاد  
بيبرس إلى منصبه، فاستأثر بحكم البلاد هو ونائب السلطنة  
سالار؛ فأغضب ذلك الناصر، وخلع نفسه من السلطنة. وقد اختير  
بيبرس لتولى أمور السلطنة عام (708 هـ = 1309 م)، ولقب بالملك  
المظفر، وتميّز برجاحة العقل، وبالعدل، واهتم بالبناء والتعمير.  
وتُوفي سنة (709 هـ = 1309 م).

(766/10)

---

### \*دوزي

هو رينهارت بيتران دوزي أحد كبار المستشرقين. وهو من أصل  
فرنسي. وُلد عام (1235 هـ = 1820 م) بمدينة ليدن إحدى مراكز  
الاستشراق المهمة في هولندا وأوروبا. نشأ دوزي في بيت عُني  
بالدراسات الشرقية، خاصة العربية، وعكف على دراسة  
المخطوطات العربية في ليدن، ثم في مكتبات ألمانيا وإنجلترا.  
وارتبط اسم دوزي بدراساته العميقة الخاصة بتاريخ الأندلس،  
وانصرف إلى التدريس والتأليف والتحقيق، ووضع عدة مؤلفات  
مهمة في موضوعاتها، أهمها: معجم عن الملابس عند العرب،  
ورسالة عن الكلمات العربية الدخيلة في اللغة الإسبانية وأصول  
الكلمات العربية في اللغتين الإسبانية والبرتغالية، إلى جانب  
تاريخ إسبانيا الأدبي والسياسي إبّان القرون الوسطى، ويؤرخ  
فيه للفترة التي حكم فيها العرب إسبانيا، وتاريخ المسلمين في  
إسبانيا، ومن تحقيقاته: كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس  
والمغرب لابن عذارى. وتُوفي دوزي عام (1883 م).

(767/10)

---

## \*أبو تمام

هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائي كُنِيَ بابنه تمام، وُلِدَ بقريّة جاسم من قرى حوران بالقرب من دمشق، سنة (188 هـ = 804 م) على الأرجح. وعاش في صباه بدمشق، ثم انتقل إلى حمص، ورحل منها إلى مصر، وفيها جالس الأدباء وأخذ عنهم، وكان يسقى الماء بجامع عمرو بن العاص في القسطنطينية، ثم عاد إلى دمشق وانتقل منها إلى الموصل، فيبغداد في خلافة المأمون، ونبغ في الشعر، وقرّبه الخليفة المعتصم بالله إليه واختصه بنفسه، وصحبه معه في حروبه ضد الروم، وشهد معه معركة عمورية عام (223 هـ = 837 م)، وسجّل انتصار المسلمين فيها. ويُعد أبو تمام رائد مدرسة البديع في الشعر العربي. وله ديوان شعر كبير، طُبِعَ بالقاهرة عام (1292 هـ = 1875 م)، ثم نشر محققاً، وله أيضاً ديوان الحماسة الذي يُعرَفُ باسم حماسة أبي تمام، وكتابا فحول الشعراء، ومختار أشعار القبائل. وتُوِّفِيَ أبو تمام بالموصل عام (231 هـ = 846 م) على الأرجح، في خلافة الواثق بن المعتصم.

(768/10)

## \*بدر الجمالي

هو أبو النجم بدر بن عبد الله الجمالي. من أصل أرمني، وقد اشتراه الأمير جمال الدولة بن عمار غلاماً صغيراً فربّاه وعلمه؛ ومن ثم نُسب إليه. وتميز الجمالي بالهمة والنشاط، وتولى إمارة الشام في عهد الخليفة المستنصر عام (455 هـ)، فجذب إليه الأنظار. وقد استدعاه المستنصر إلى مصر؛ لإخماد فتنة نشبت هناك، وولاه مصر والشام، ثم قلده وزارة السيف والقلم، فخدمت في عهده الفتن، وأصبحت له الكلمة العليا في البلاد. وتميز

عهده بالحزم والشدة على المجرمين والخارجين على النظام،  
إلى جانب الإنصاف، وبث الطمأنينة في نفوس ذوى الحاجات،  
كما نشطت التجارة وازدهرت الزراعة. وتُوفِّي بدر الجمالى  
بالقاهرة عام (487 هـ = 1094 م) وقد تجاوز ثمانين عامًا، فأقام  
المستنصر أبا القاسم شاهنشاه بن بدر الجمالى مكان أبيه ولقبه  
بالأفضل، فسار على درب أبيه، وأحسن إلى الرعية، حتى بلغت  
سيرته الآفاق.

(769/10)

---

### \*ابن حيان القرطبي

هو أبو مروان حيّان بن خلف بن حسين بن حيّان. أحد المؤرخين  
الكبار فى الأندلس. وُلِدَ بقرطبة عام (377 هـ = 987 م). وقد تلقى  
علومه على يد والده، ثم مجموعة من كبار علماء الأندلس، منهم:  
عمر بن نابل، وأبو الحباب القرطبي، وصاعد البغدادى. وله  
عدة كتب فى التاريخ والتراجم، فُقِدَ أكثرها، من أشهرها:  
المقتبس من أبناء أهل الأندلس، ويقع فى عشرة أجزاء، وقد  
طُبِعَ أجزاء منه، والمتين فى تاريخ الأندلس، وهو أكبر من  
المقتبس. وتُوفِّي ابن حيان عام (469 هـ = 1076 م).

(770/10)

---

### \*عبد الله بن ياسين

هو عبد الله بن ياسين بن مكو الجزولى المصمودى، الزعيم الأول  
للمرابطين، وصاحب الدعوة الإصلاحية فيهم. نشأ طالبًا للعلم فى  
دارٍ أنشئت بمدينة السوس وسُميت دار المرابطين. ثم ذهب مع  
يحيى الصنهاجى إلى صنهاجة؛ لتعليم الناس أمور دينهم، ولما لم

يستجيب الناس لدعوته اعتزلهم مع بضعة أشخاص في جزيرة قريبة من النيجر، فلحقت به جماعة، ثم توافد عليه الناس، حتى بلغوا الألف، فسماهم المرابطين. وبدأ معاركة للقضاء على الفساد والمنكرات، ثم هاجم صنهاجة ودرعة وسجلماسة، واستولى على بلاد نارو دانت، وفتح بلاد المصامدة، ثم استولى على بلاد قبائل برغواطة. وكان له دور كبير في إحياء تعاليم الإسلام بالمغرب. واستشهد ابن ياسين عام (451 هـ = 1059 م)، بعد إحدى المعارك مع قبائل برغواطة، ودُفن في قبيلة زعير بالقرب من مدينة الرباط.

(771/10)

### \*بديع الزمان النورسي

هو سعيد ميرزا النورسي المعروف ببديع الزمان. عالم ومجاهد تركي. وُلد في إحدى قرى محافظة بدليس بتركيا عام (1290 هـ = 1873 م). كان منذ طفولته شديد الذكاء، سريع الفهم، فتلقى دروس اللغة والفقه ونبغ في تحصيلهما قبل سن بلوغه، كما انصرف إلى التقشف والزهد وطلب العلم، حتى اشتهر أمره بين الناس، وصارت له مكانة عظيمة بين العلماء. وعندما قام الاتحاديون بعزل السلطان عبد الحميد الثاني، واستحداث تشريعات علمانية على النمط الغربي، والهيمنة على مقاليد الأمور. تصدى لهم ببديع الزمان؛ فقام بكتابة المؤلفات التي تدعو الناس إلى التمسك بدينهم الإسلامي، وألقى الخطب، وأشعل الحماسة في صدر الأمة لتدافع عن عقيدتها، وتعرض من أجل ذلك للنفي والسجن، ولكنه بقي مجاهدًا حتى وفاته. وترك ببديع الزمان عددًا كبيرًا من المؤلفات، أشهرها: رسائل النور، ووثوق ببديع الزمان بمدينة أورقة عام (380 هـ = 1960 م).

**\*الجويني**

هو أبو المعالي ركن الدين عبد الملك بن عبد الله. وُلِدَ بإحدى قرى مدينة نيسابور عام (419هـ = 1028م)، ثم رحل إلى بغداد في عهد دولة السلاجقة، ثم انتقل إلى الحجاز عام (450هـ) وجلس للتدريس في مكة والمدينة فعُرف بإمام الحرمين، ثم عاد إلى نيسابور في عهد الوزير نظام الملك الذي اشتهر بتشجيع العلم والعلماء، فأنشأ للإمام الجويني مدرسة عُرفت بالنظامية، جلس فيها للتدريس والإفتاء. وللجويني مؤلفات عديدة، منها: البرهان في أصول الفقه، والورقات، والعقيدة النظامية، وغيث الأمم، والشامل. وتُوفِّي الجويني بنيسابور عام (478هـ = 185م).

**\*أبو المعالي الجويني**

هو أبو المعالي ركن الدين عبد الملك بن عبد الله. وُلِدَ بإحدى قرى مدينة نيسابور عام (419هـ = 1028م)، ثم رحل إلى بغداد في عهد دولة السلاجقة، ثم انتقل إلى الحجاز عام (450هـ) وجلس للتدريس في مكة والمدينة فعُرف بإمام الحرمين، ثم عاد إلى نيسابور في عهد الوزير نظام الملك الذي اشتهر بتشجيع العلم والعلماء، فأنشأ للإمام الجويني مدرسة عُرفت بالنظامية، جلس فيها للتدريس والإفتاء. وللجويني مؤلفات عديدة، منها: البرهان في أصول الفقه، والورقات، والعقيدة النظامية،

وغياث الأمم، والشامل. وتُوفِّي الجويني بنيسابور عام (478هـ = 185م).

(774/10)

---

### \*أبو جهل

هو عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي. يُعرف بأبي الحكم وكناه المسلمون من معاصريه بأبي جهل. وُلِدَ في عام الفيل، وكان من سادات قريش، وعندما بُعث النبي - صلى الله عليه وسلم - كان أبو جهل من أشد أعداء الإسلام، وتعرض بالإيذاء للنبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه، رضى الله عنهم. وهو صاحب فكرة اختيار شاب من كل قبيلة من القبائل العربية؛ لقتل النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى يتفرق دمه بين القبائل، وهو الذى طعن سمية أم عمار بن ياسر بحربته فقتلها؛ لأنها أغلظت له القول، فكانت أول شهيدة في الإسلام. واشترك أبو جهل في غزوة بدر في العام الثاني للهجرة، وأصر على قتال المسلمين حتى بعد أن نجت قافلة قريش فقال: والله لا نرجع حتى نردَ بدرًا، فنقيم بها ثلاثًا، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابونا أبدًا. وفي هذه الغزوة قتل أبو جهل. وقد أسلم ابنه عكرمة، وحسُنَ إسلامه، واستشهد في غزوة اليرموك عام (13هـ = 634م).

(775/10)

---

### \*ابن جبير

هو محمد بن أحمد بن جبير الكنانى الأندلسى. رحالة وأديب. وُلِدَ في بلنسية سنة (540هـ = 1145م)، وكان بارعًا في الأدب ونظم الشعر خاصة. سمع من والده، وأخذ عن أبي عبد الله الأصيلي،

وأبي الحسن علي بن أبي العيش المقرئ، وعبد العزيز الخليلي، وعبد الله عيسى التميمي، وغيرهم. وأخذ عنه أبو إسحاق بن هيب، وأبو الحسن بن نصر بن فاتح بن عبد الله البجائي، وأبو الحسن الشاري، وأبو العباس بن عبد المؤمن البناي، وغيرهم. وقد عينه أمير غرناطة أبو سعيد بن عبد المؤمن ملك الموحدين كاتم سره، وكان ابن جبير يحب الرحلة والتنقل؛ فترك الأمير وسافر إلى بلاد المشرق؛ حيث زارها ثلاث مرات، تُوِّفِّي في المرة الأخيرة منها بالإسكندرية سنة (614هـ = 1217م)، وألف كتابًا سماه رحلة ابن جبير، يصف فيه البلاد والأماكن التي زارها في رحلته من سنة (578 - 581هـ). ولابن جبير ديوان شعر يُطلق عليه نظم الجمان في التشكى من إخوان الزمان، وله كتاب آخر يُسمى نتيجة وجد الجوانح في تأيين القرن الصالح.

(776/10)

#### \*محمد بن أحمد ابن جبير

هو محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي. رحالة وأديب. وُلِدَ في بلنسية سنة (540هـ = 1145م)، وكان بارعًا في الأدب ونظم الشعر خاصة. سمع من والده، وأخذ عن أبي عبد الله الأصيلي، وأبي الحسن علي بن أبي العيش المقرئ، وعبد العزيز الخليلي، وعبد الله عيسى التميمي، وغيرهم. وأخذ عنه أبو إسحاق بن هيب، وأبو الحسن بن نصر بن فاتح بن عبد الله البجائي، وأبو الحسن الشاري، وأبو العباس بن عبد المؤمن البناي، وغيرهم. وقد عينه أمير غرناطة أبو سعيد بن عبد المؤمن ملك الموحدين كاتم سره، وكان ابن جبير يحب الرحلة والتنقل؛ فترك الأمير وسافر إلى بلاد المشرق؛ حيث زارها ثلاث

مرات، تُوقَى في المرة الأخيرة منها بالإسكندرية سنة (614هـ = 1217م)، وألف كتابًا سماه رحلة ابن جبير، يصف فيه البلاد والأماكن التي زارها في رحلته من سنة (578 - 581هـ). ولابن جبير ديوان شعر يُطلق عليه نظم الجمان في التشكى من إخوان الزمان، وله كتاب آخر يُسمى نتيجة وجد الجوانح في تأيين القرن الصالح.

(777/10)

---

### \*الوليد بن طريف

هو الوليد بن طريف بن الصلت التغلبي الخارجي. كان زعيم الخوارج؛ إذ خرج بالجزيرة الفراتية سنة (177هـ) في خلافة الرشيد، وتبعته جموع كثيرة، وكان ينتقل بين نصيبين والخابور، واستولى على أرمينية، وحاصرها خلط، وسار إلى أذربيجان ثم إلى حلوان وأرض السودان، وعبر إلى غربي دجلة، وعاش فسادًا في بلاد الجزيرة، فأرسل إليه الرشيد يزيد بن مزيد الشيباني على رأس جيش كبير، فقاتله وهزمه وقتله، بعد حروب شديدة سنة (179هـ).

(778/10)

---

### \*شارل مارتل

هو شارل مارتل بن بيبين الثاني؛ أو بيبين هرستال. أحد أباطرة دولة الفرنجة أو الميروفنجية. كان شارل مارتل في بداية أمره يعمل رئيسًا للبلاط الملكي، واستطاع أن يدعم نفوذه حتى غدت السلطة الفعلية في يده سنة (719 م)، فوحد ممالك الدولة الميروفنجية الثلاث (أوستراسيا، نستريا، بروجنديا) تحت

سلطته، وقام بسلسلة من الحروب لتأمين دولة الفرنجة من ناحية الشرق؛ فحارب السكسون، والفريزيين، والألمان، والبافارين. وكان الخطر الأكبر الذى هددته هو زحف المسلمين من الأندلس جنوبًا. وتمكن شارل مارتل من إلحاق هزيمة بالجيش الإسلامى بقيادة عبد الرحمن الغافقى سنة (732م) فى معركة بلاط الشهداء أو توربواتيه، وأضفى هذا النصر على شارل مارتل قوة ومكانة أكسبته لقب مارتل أى المطرقة، بعد أن بدا فى نظر العالم الغربى بطل المسيحية الأول، الذى حمى غرب أوروبا من الزحف الإسلامى. إلا أن استيلاء شارل مارتل على بعض أراضى الكنيسة، علاوة على رفضه مساعدة البابوية ضد اللبارديين، أثارا جفوة بينه وبين الكنيسة، حتى تُوفّي شارل مارتل سنة (741م).

(779/10)

#### \*الليث بن سعد

هو أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمى، إمام أهل مصر فى الفقه والحديث، ولد سنة (94 هـ) بقرية قرقشندة - إحدى قرى صعيد مصر - وأصله من خراسان. أخذ العلم عن كبار علماء عصره مثل: ابن شهاب الزهري، وهشام بن عروة، وعطاء بن رباح، حتى برع فى الفقه والحديث والنحو والشعر، وكان مقربًا من الولاة والأمراء فكانوا لا يقطعون أمرًا إلا بمشورته، وقد عرض عليه الخليفة أبو جعفر المنصور أن يتولى مصر فاعتذر الإمام الليث عن عدم قبول ذلك. وكان الليث كثير المال، فكان دخله كل عام (20) ألف دينار لا تجب عليها الزكاة لكثرة صدقاته وكرمه وجوده، فكان يتصدق على (300) مسكين

كل يوم. وكان الإمام الشافعي يبدى أسفه لعدم رؤيته الإمام  
الليث. وقد توفي الليث في القاهرة ليلة الجمعة سنة (175 هـ).

(780/10)

---

### \*يحيى البرمكى

هو: يحيى بن خالد بن برمك، من وزراء الدولة العباسية، ولد سنة  
(120هـ)، ولازم والده فاكنتسب منه الخبرة والحنكة السياسية.  
وكان أول ظهور ليحيى عندما ولاه الخليفة العباسى المنصور  
سنة (158 هـ) على أذربيجان، ثم وكل إليه في سنة (161 هـ)  
تأديب هارون الرشيد - في خلافة المهدي - وفي سنة (163 هـ)  
ولى المهدي ابنه هارون المغرب كله، وجعل يحيى على ديوان  
رسائله، ولعب دوراً مؤثراً في تمسك هارون الرشيد بولاية العهد.  
عندما أراد الخليفة الهادي جعل ولاية العهد لابنه جعفر، حتى إن  
الهادي حبس يحيى إلا أن وفاة المهدي عجّلت بخروجه من  
السجن؛ وقام بتهنئة الرشيد بالخلافة سنة (170 هـ) وتألّق نجمه  
بعد تفويض الرشيد له في سلطة تصريف شؤون الخلافة، التي  
استمر بها هو وأسرته (17) عامًا من (170 هـ) حتى (187 هـ)،  
حين نكبهم الرشيد وقام بسجن يحيى لاثامه بميله للعلويين،  
وتوفي يحيى في السجن سنة (190هـ).

(781/10)

---

### \*محمد بن أبي بكر الصديق

هو: أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عثمان بن عامر التيمي،  
المشهور بمحمد بن أبي بكر الصديق، رضى الله عنهما، أمير  
مصر وابن الخليفة الأول أبي بكر الصديق، ولدته أمه أسماء بنت

عميس بذي الحليفة بين مكة والمدينة سنة (10 هـ) أثناء حجة الوداع. تولى تربيته على بن أبي طالب، رضى الله عنه، الذى تزوج أمه بعد وفاة الصديق. كان محمد يعرف بعابد قريش، وكانت له مكانة كبيرة لدى الخليفة على بن أبي طالب فقد شهد معه صفين والجمل، وولاه على مصر سنة (37 هـ) ودامت ولايته عليها خمسة أشهر حتى دخلها جيش معاوية بن أبي سفيان بقيادة عمرو بن العاص.

(782/10)

---

### \*قتيبة بن مسلم الباهلى

هو: قتيبة بن مسلم بن عمر بن الحصين الباهلى، أبو حفص أحد قادة المسلمين البارزين فى القرن الأول الهجرى. ولد سنة (49 هـ = 669 م)، وتولى الرى أيام عبد الملك بن مروان وخراسان أيام الوليد بن عبد الملك، وكان لقتيبة فتوح عظيمة فى بلاد ما وراء النهر، حيث فتح خوارزم، وسجستان، وسمرقند، وبخارى وغزا أطراف الصين وانتصر على الترك فى مواقع كثيرة واستطاع توطيد الإسلام فى تلك المناطق، واستمرت ولايته على بلاد ما وراء النهر (13) سنة حتى قتل سنة (96 هـ = 714 م).

(783/10)

---

### \*محمد بن سيرين

هو أبو بكر محمد بن سيرين البصرى، الأنصارى بالولاء، فقيه محدث، مفسر، معبر للرؤيا، إمام زمانه فى علوم الدين بالبصرة، نشأ بزراً (بائع ثياب) وفى أذنه صمم، واشتهر بتعبير الرؤيا، سمع أبا هريرة وعمران بن حصين وطائفة وروى الحديث،

ورواه عنه جماعة، كان قصيراً، عظيم البطن، كثير المزاح، إذا ذكر الموت يموت كل عضو منه، يصوم يوماً ويفطر يوماً، وكانت أمه صفية مولاة أبي بكر، رضى الله عنه. وثقه الأصمعي. ينسب إليه كتاب تعبير الرؤيا وهو غير كتاب منتخب الكلام في تفسير الأحلام المنسوب إليه وليس له. تُوفى ابن سيرين سنة (110هـ).

(784/10)

---

### \*قراقوش

هو قراقوش بن عبد الله الأسدي بهاء الدين الخادم الأبيض، وإلى مصرى، وقراقوش لفظ تركى معناه العقاب، وهو الطائر المعروف. كان صلاح الدين قد جعله نائباً على مصر عندما استقل بها عن الدولة النورية، وعوّل عليه في تدبير أمور مصر وأحوالها، فقام ببناء السور المحيط بالقاهرة، وبنى قلعة الجبل، وبنى قناطر الجيزة، وبنى خاناً للسبيل على باب الفتوح بالقاهرة. وبعد أن حرر صلاح الدين مدينة عكا من أيدي الصليبيين، ولى عليها بهاء الدين قراقوش، ولكنه وقع أسيراً في أيدي الصليبيين سنة (588 هـ = 1192 م) عندما حاولوا استرداد المدينة، فافتدى نفسه بعشرة آلاف دينار. وقد نسبت إليه بعض الأفعال، والأحوال العجيبة أثناء ولايته على مصر، حتى إن أسعد بن مماتي ألف كتاباً أسماه الفاشوش في أحكام قراقوش، جمع فيه بعضاً من غرائب الحكايات عن بهاء الدين قراقوش. وتوفى قراقوش في شهر رجب سنة (597 هـ = 1200 م) بالقاهرة، ودُفن بسفح المقطم.

(785/10)

---

### \*القزويني

هو محمد بن عبد الرحمن بن عمر جلال الدين القزويني الشافعي، قاضٍ أديب، يعرف بخطيب دمشق. ولد سنة (666 هـ = 1268 م) في الموصل، وأصله من قزوين، وكان أديبًا بارعًا، يجيد اللغة العربية والتركية والفارسية، واشتغل بالفنون، وأتقن الأصول والمعاني والبيان. تولى القضاء لأول مرة وهو دون العشرين من عمره، ثم تولى قضاء دمشق سنة (724 هـ - 1324م) وتولى خطابة الجامع الأموي بها فترة من الزمن. وفي سنة (727 هـ - 1327م) تولى منصب قاضي القضاة بمصر، وعين خطيبًا بجامع القلعة، وظل مقيمًا بمصر فترة. ارتفعت منزلته لدى السلطان حتى إنه لم يكن يرد له شفاعة يشفع فيها أبدًا. وفي سنة (738 هـ - 1337م) عين على قضاء دمشق، وظل بها إلى أن توفي سنة (739 هـ - 1338م) بمرض الفالج. ومن أهم كتبه: 1 - تلخيص المفتاح في المعاني والبيان. 2 - الإيضاح في شرح التلخيص. 3 - السور المرجاني في شعر الأرجاني.

(786/10)

### \*إيمانويل قرّة صو

سياسي يهودي، إسباني الأصل، استقر في سالونيك باليونان ، حيث كانت مركزًا لنشاط الجمعيات السرية المعادية للدولة العثمانية. عمل إيمانويل قرّة صو محاميًا، واشترك في حركة تركيا الفتاة، وجمعية الاتحاد والترقي، وكان من أنشط أعضاء الاتحاد والترقي في إثارة الشعب وتحريضه ضد السلطان عبد الحميد، ولما تولت جمعية الاتحاد والترقي الحكم عملت على تعيينه في المجلس النيابي العثماني نائبًا عن سالونيك مرة وعن إستانبول مرتين بالتناوب. وكان إيمانويل طوال مدة إقامته

باستانبول يعد الأستاذ الأعظم لحفل مقدونيا زيرولتا  
الماسوني. ولعب أيضًا قرة صو دورًا مهمًا في احتلال إيطاليا  
لليبيا نظير مبلغ من المال دفعته إليه إيطاليا، وبعد تبين خيانتها  
للدولة العثمانية هرب إلى إيطاليا، وحصل على حق المواطنة  
الإيطالية، واستقر في تريستا حتى مات سنة (1934م).

(787/10)

---

### \*محمد الشيخ السعدى

هو محمد بن زيدان بن أحمد المنصور السعدى، أبو عبد الله،  
الملقب بالشيخ. من ملوك الأشراف السعديين بمراكش. خرج ثائرًا  
مع أخيه الوليد على أخيهما عبد الملك لما ولى السلطنة، إلا أن  
عبد الملك تمكن من إخماد ثورتهم، واستمر في الحكم إلى أن  
توفي، وولى بعده الوليد. وكان محمد متواضعًا، لينًا، ميالًا إلى  
الراحة والدعة، مفتقدًا إلى العزيمة والحزم. قامت عليه الثورات  
فضعف عن إخمادها، ولم يبق له إلا مراكش وبعض أعمالها.  
وتوفي بمراكش سنة (1064هـ).

(788/10)

---

### \*قس بن ساعدة الإيادى

هو قس بن ساعدة بن عمرو الإيادى. أحد خطباء العرب  
وحكمائهم وشعرائهم في الجاهلية. كان أسقف نجران، وهو  
أول من علا على شرف (موضع عالٍ) وخطب عليه، وأول من اتكأ  
على عصا أو سيف في خطبته، وأول من قال أما بعد في  
كلامه. رآه النبي - صلى الله عليه وسلم - قبل البعثة، أثناء خطابته للعرب في عكاظ،  
وكان قس يفد على قيصر الروم فيكرمه ويعظمه، وعندما سمع

النبي - صلى الله عليه وسلم - بعض كلماته قال: يرحم الله قسًا، إني لأرجو أن يُبعث يوم القيامة أمة وحده. وتُوفِّي قس سنة (600م).

(789/10)

---

### \*القشيري

هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك المعروف بالقشيري؛ نسبة إلى قشير أحد بطون سعد العشيرة القحطانية. وُلِدَ في نيسابور في ربيع الأول سنة (376هـ)، ونشأ يتيماً، ودرس اللغة العربية والأدب، وتعلم الحساب، وكان شافعياً صوفياً. قضى معظم حياته في نيسابور التي كانت مشهورة بكثرة علمائها ووجود أعلام التصوف بها، إلا أنه تعرض لحنة في سنة (440هـ)؛ بسبب بعض وشايات المعتزلة، وانتهت هذه الحنة بخروجه إلى بغداد، واستمراره بها (15) عاماً، عاد بعدها إلى نيسابور؛ حيث قضى بقية حياته بها. وكان القشيري ينظم الشعر الذي يغلب عليه نزعة التصوف، وله عديد من المؤلفات، أشهرها: الرسالة القشيرية في التصوف، والتيسير في علم النفس، وشرح الأسماء الحسنى، ولطائف الإشارات واللمع في الاعتقاد. وتُوفِّي القشيري في نيسابور سنة (465هـ) = 1703م عن عمر يناهز (87) عاماً.

(790/10)

---

### \*أبو ذر الغفاري

هو جندب بن جنادة بن سفيان بن عبيد الغفاري من كبار الصحابة، رضى الله عنهم، ومن السابقين إلى الإسلام، ومن أوائل من جَهَرَ بالقرآن في مكة، ولم تكن له بها عصبة تمنعه

وتذود عنه. شهد مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - كثيراً من المشاهد، وهو أول من  
حيّا النبي - صلى الله عليه وسلم - بتحيةة الإسلام. وعندما تُوفّي النبي - صلى الله عليه وسلم -  
هاجر أبو ذر إلى

الشام، وظل بها إلى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه.  
وكان يحضُّ الأغنياء على مواساة الفقراء ويلح عليهم في ذلك  
بالتريغيب والترهيب؛ مما دعا الأغنياء إلى أن يشكوه إلى  
معاوية، فطلب منه معاوية أن يكف عمّا يدعو إليه، فأبى،  
فشكاه معاوية إلى عثمان، فاستقدمه عثمان إلى المدينة ثم  
أرسله إلى الربذة (من قرى المدينة) فأقام بها إلى أن مات سنة  
(32هـ = 652م)، وروى له البخارى ومسلم (218) حديثاً.

(791/10)

#### \*زيد بن علي بن الحسين

هو أبو الحسن زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن  
أبي طالب. وُلد بالمدينة عام (79هـ = 698م)، ثم رحل إلى  
الكوفة، وبها تلقى العلم عن علمائها، وممن تتلمذ لهم واصل بن  
عطاء المعتزلى. نبغ زيد في العلم، وعُدَّ من الفقهاء المجتهدين،  
ويُنسب إليه كتاب المجموع في الفقه، ويشتمل على الأحاديث  
التي رويت عنه، وفتاواه التي أفتى بها، وروايات الكتاب كلها  
عن آبائه من الأئمة، فإذا صحت نسبة المجموع إليه اعتبر أقدم  
كتب الفقه، ويُنسب إليه - أيضاً - كتاب الصفوة، وهو من  
مخطوطات المتحف البريطاني. وقد خالف زيد فرق الشيعة الأخرى  
في كثير من المبادئ، مثل: جواز إمامة المفضول مع وجود  
الأفضل، وعدم القول بعصمة الأئمة، وخرج زيد على هشام بن  
عبد الملك، وعلل سبب خروجه بالعودة إلى الكتاب والسنة،  
وجهاد الظالمين والدفاع عن المستضعفين، ورد المظالم، والعدل

بين الناس، واستشهد زيد في هذه المعركة عام (122هـ = 740م)، وله من العمر (44) سنة.

(792/10)

### \*فاسكو دى جاما

وُلد عام (1460م) في عائلة نبيلة، ودرس الحساب والملاحة البحرية. وعندما بلغ الثامنة والعشرين من عمره أوكل إليه ملك البرتغال مانويل الأول حملة بحرية كان لها الأثر العظيم في تطور التجارة العالمية، ومن ثم في تطور العلاقات السياسية الدولية. انطلق برحلته عام (1497م) من لشبونة ووصل بها حتى الهند عبر طريق رأس الرجاء الصالح، وذلك باعتماده على كشافين أفارقة وعرب، ثم انتهت الحملة بعودته إلى لشبونة عام (1499م). وكان لهذه الرحلة نتائج من أهمها زيادة الأطماع الاستعمارية للبرتغال؛ فبعث الملك مانويل الأول بحملة بحرية عسكرية مؤلفة من (13) سفينة إلى الهند، وقد صدَّ الهنود بدعم من العرب هذه الحملة ببسالة، وقتلوا عددًا كبيرًا منها. وبعد فشل هذه الحملة أوكل الملك مانويل الأول إلى فاسكو دى جاما رحلة مكونة من (15) سفينة؛ وذلك من أجل تحقيق ما لم تحققه الحملة السابقة. وبدأت الرحلة عام (1502م) وعبرت رأس الرجاء الصالح ثم المحيط الهندي، حتى وصلت إلى بحر العرب، فسيطرت على مركب تجارى عربى. وبأمر من فاسكو دى جاما تم قتل جميع ركابها من رجال ونساء وأطفال، وبلغ عددهم (400) شخص؛ وكان هذا سببًا في إشعال الحرب بين البحرية البرتغالية والبحرية العربية. وقد اضطر فاسكو دى جاما إلى الهروب شرقًا، حتى وصل إلى مدينة غوا، وبعد فترة قصيرة عاد إلى البرتغال عام (1503م). وبعد وصوله إلى لشبونة تنقل في عدة مناصب

عسكرية، ونعم بحياة عائلية مترفة مع زوجته وأطفاله الستة.  
وفي عهد الملك جون الثالث عينه نائباً عنه في الهند عام  
(1524م). وبعد وصوله إلى غوا في سبتمبر من العام نفسه  
عاجلته المنية في (ديسمبر 1524م)، ثم نقلت رفاتة إلى البرتغال  
عام (1538م).

(793/10)

---

#### \*فاطمة بنت الخطاب

هي فاطمة بنت الخطاب بن نفيل، أخت عمر بن الخطاب، وزوجة  
سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل أحد العشرة المبشرين بالجنة،  
رضى الله عنهم جميعاً. أسلمت مع زوجها، وكانت سبباً في  
إسلام عمر بن الخطاب، وكانت تحضُّ نساء قريش على الإسلام.  
وثُوِّقَت في خلافة أخيها عمر بن الخطاب.

(794/10)

---

#### \*فاطمة بنت عبد الملك بن مروان

هي فاطمة بنت عبد الملك بن مروان، زوجة الخليفة عمر بن عبد  
العزیز، وابنه الخليفة عبد الملك بن مروان، وأخت الخليفين  
الوليد وسليمان ابنا عبد الملك. كانت من فضليات نساء بني  
أمية. قال فيها الشاعر عمر بن أبي ربيعة الشعر. تزوجها عمر  
بن عبد العزيز قبل أن يتولى الخلافة فعاشت معه في نعيم  
ورفاهية، ولما آلت الخلافة إليه عاشت معه عيشة التقشف  
والزهد حتى وفاته. وتزوجت بعد وفاته داود بن سليمان بن  
مروان.

**\*ابن حوقل**

هو أبو القاسم محمد بن علي الموصلى المشهور بابن حوقل. رحالة ومن علماء البلدان. وُلد ببغداد، ونشأ بها، وعمل تاجرًا في الموصل، وكان مولعًا بقراءة كتب تقويم البلدان، فشوّقه ذلك إلى الرحلة ومعرفة أقطار الأرض، متخذًا التجارة مهنة له، وراغبًا في دراسة البلاد والشعوب. أمضى في رحلاته الواسعة زهاء ثلاثين عامًا، بدأها من بغداد عام (331هـ = 943م)، ساح خلالها في أرجاء العالم الإسلامى شرقًا وغربًا، من نهر السند حتى المحيط الأطلسى. وفي إحدى رحلاته تقابل مع الرحالة الكبير الإصطخرى عام (340هـ = 952م)، وكان لتلك المقابلة أثرها في الرجلين حيث استفاد كل منهما من الآخر. ويُعد ابن حوقل الخبير الأول بشئون المغرب؛ حيث كتب فصولاً عنها اتسمت بالدقة والشمول. ألف كتابه العظيم المسالك والممالك ليذكر البلاد التي زارها والمسافات التي قطعها، وصفات البحار والأنهار وخواص البلاد وتجاراتها، ويُعتقد أنه انتهى من الكتاب عام (367هـ = 977م)، وتُرجم كتابه صورة الأرض إلى الفرنسية، وصدر عام (1964م)، وتُوِّفى ابن حوقل بعد سنة (367هـ = 977م).

**\*ابن خلكان**

هو أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان، قاضى القضاة شمس الدين أبو العباس البرمكى الإبلى. مؤرخ وأديب وصاحب الكتاب

العظيم وفيات الأعيان، وهو من أشهر كتب التراجم وأحسنها. وُلد بإربل سنة (608هـ = 1211م). وكثرت تنقلاته ورحلاته في البلاد الإسلامية، فقدم إلى الشام والموصل وحلب ومصر، وأخذ العلم عن أكابر علمائها، وتولَّى القضاء في مصر والشام، وولى التدريس في كثير من مدارس دمشق. وتُوفِّي ودُفن بها عام (681هـ = 1282م).

(797/10)

### \*رجاء بن حيوة

هو أبو المقدم رجاء بن حيوة الكندي. أحد كبار التابعين، قال عنه ابن كثير في البداية والنهاية: هو تابعي جليل، كبير القدر، ثقة، فاضل عادل، وزير صدق لخلفاء بني أمية، وكان مكحول إذا سُئل يقول: سلوا شيخنا وسيدنا، رجاء بن حيوة. وقد أثنى عليه غير واحد من الأئمة، ووثقوه في الرواية، وله روايات وكلام حسن، رحمه الله. وقد سجل التاريخ لرجاء موقفه مع الخليفة سليمان بن عبد الملك عندما أراد أن يعهد بالخلافة إلى ابنه - وكان غلامًا صغيرًا - فقال له رجاء: ما تصنع يا أمير المؤمنين! إنه مما يحفظ على الخليفة في قبره أن يستخلف على المسلمين الرجل الصالح، فعهد سليمان إلى عمر بن عبد العزيز بالخلافة، وكتب بذلك كتابًا وعهدًا جعله مع رجاء على ألا يطلع عليه أحد. وبعد وفاة سليمان أخفى رجاء الخبر، وأرسل إلى قائد الشرطة كعب بن حامد العبسي، فجمع أهل بيت سليمان فاجتمعوا، وقال لهم: بايعوا. هذا عهد أمير المؤمنين. فبايعوه فأخبرهم بوفاة سليمان، وقرأ عليهم الكتاب، فلما انتهى إلى ذكر عمر بن عبد العزيز نادى هشام بن عبد الملك: لا نبايعه أبدًا، فأجابه رجاء في قوة: أضرب والله عنقك، قم فبايع؛ فقام هشام يجرُّ

رجليه. وكان رجاء مستشاراً أميناً لخلفاء بني أمية، وخاصة سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز. وتُوفِّي رجاء عام (112هـ).

(798/10)

---

### \*أبو الوليد الباجي

هو أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب التُّجيبِيُّ المالكي الأندلسي. من علماء الأندلس وحفاظها في علم الحديث. وهو أحد أئمة المسلمين، وُلِدَ في مدينة باجة بالأندلس عام (403هـ = 1012م)، ثم رحل إلى الشرق الإسلامي سنة (426هـ)، وأقام بمكة ثلاثة أعوام، ثم رحل إلى بغداد، فأقام بها ثلاثة أعوام يدرس الفقه ويقرأ الحديث، ولقى بها كبار العلماء، مثل: أبي ذر الهروي وأبي إسحاق الشيرازي، وأقام بمدينة الموصل عامًا يدرس الفقه على يد أبي جعفر السمناني. ظلَّ أبو الوليد بالمشرق نحو ثلاثة عشر عامًا، ثم عاد إلى الأندلس؛ حيث تولى القضاء. وصنف كتبًا كثيرة، منها: المنتقى، وإحكام الفصول في أحكام الأصول، والتسديد إلى معرفة التوحيد، والتعديل والتجريح فيمن روى عنه البخاري في الصحيح. وكانت بينه وبين ابن حزم الظاهري مجالس ومناظرات كثيرة، وأخذ عنه ابن عبد البر صاحب كتاب الاستيعاب، وتُوفِّي الباجي عام (474هـ = 1081م).

(799/10)

---

### \*أبو يوسف

هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد. أحد أئمة الفقه

الإسلامى فى القرن الثانى الهجرى. وُلد فى الكوفة عام (113هـ = 731م)، وتُوِّفَى أبوه وهو صغير، وتعلق بحلقة الإمام أبى حنيفة، وداوم عليها، حتى أصبح أعلم تلامذة أبى حنيفة. كان أبى يوسف فقيهاً علامة، من حفاظ الحديث، ثم غلب عليه فقه أبى حنيفة، فقام بنشر مذهبه، كما كان أبى يوسف واسع العلم، وأول من وضع الكتب فى أصول الفقه على مذهب أبى حنيفة، وكان غزير العلم بالتفسير والمغازى وأيام العرب، وتولى القضاء ببغداد أيام الخلفاء المهدي والهادى وهارون الرشيد، وهو أول من دُعِيَ قاضى القضاة، وكان يقال له: قاضى قضاة الدنيا؛ لأنه كان يقوم بتعيين قضاة جميع الأقاليم الإسلامية. ولأبى يوسف تصانيف كثيرة، منها: الخراج والنواد واختلاف الأمصار وأدب القاضى والأمالى فى الفقه والبيع وغيرها. وتُوِّفَى أبى يوسف عام (182هـ = 798م) ببغداد فى خلافة هارون الرشيد.

(800/10)

#### \*يعقوب بن إبراهيم

هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد. أحد أئمة الفقه الإسلامى فى القرن الثانى الهجرى. وُلد فى الكوفة عام (113هـ = 731م)، وتُوِّفَى أبوه وهو صغير، وتعلق بحلقة الإمام أبى حنيفة، وداوم عليها، حتى أصبح أعلم تلامذة أبى حنيفة. كان أبى يوسف فقيهاً علامة، من حفاظ الحديث، ثم غلب عليه فقه أبى حنيفة، فقام بنشر مذهبه، كما كان أبى يوسف واسع العلم، وأول من وضع الكتب فى أصول الفقه على مذهب أبى حنيفة، وكان غزير العلم بالتفسير والمغازى وأيام العرب، وتولى القضاء ببغداد أيام الخلفاء المهدي والهادى وهارون الرشيد،

وهو أول من دُعِيَ قاضى القضاة، وكان يقال له: قاضى قضاة الدنيا؛ لأنه كان يقوم بتعيين قضاة جميع الأقاليم الإسلامية. ولأبي يوسف تصانيف كثيرة، منها: الخراج والنواد واختلاف الأمصار وأدب القاضى والأمالى فى الفقه والبيع وغيرها. وتوفى أبو يوسف عام (182هـ = 798م) ببغداد فى خلافة هارون الرشيد.

(801/10)

### \*هود (عليه السلام)

هو نبي الله هود عليه السلام. كان من قبيلة عاد، وهى قبيلة عربية كانت تسكن الأحقاف (جبال الرمل). والعلماء مختلفون فى تحديد مكان مساكن قبيلة عاد التى اشتهرت مبانيها بالضخامة. وقوم عاد أول من عبدوا الأصنام بعد الطوفان، فبعث الله فيهم هوداً عليه السلام، فدعاهم إلى الله، كما قال تعالى: (وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون). وكانوا أشد أهل زمانهم فى الخلق والشدة والبطش؛ قال تعالى: (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة)، ولكن قوم عاد كانوا كافرين معاندين؛ فأبوا اتباع هود. وظل هود - عليه السلام - يدعوهم إلى عبادة ربهم، ويوضح لهم أنه رسول رب العالمين إليهم؛ ليبلغهم رسالات ربه، ولكنهم ظلوا على عنادهم وكفرهم قائلين: (ياهود ماجئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء). فتبرأ هود من آلهتهم، وبين لهم أنها لا تنفع ولا تضر قائلاً: (إني أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون). ثم أرسل الله عليهم ريحاً عاتية بعد جفاف شديد، أهلكتهم إلا

مساكنهم العالية الضخمة، فقد أبقاها الله عبرة لأولى الأبصار، قال تعالى: (فلما رأوه عارضاً مستقبلاً أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين .) ونجى الله هوداً ومن آمن معه برحمة منه سبحانه؛ قال تعالى: (ولما جاء أمرنا لنجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ .)

(802/10)

---

\*هرثمة بن أعين

هو هرثمة بن أعين. من قادة الدولة العباسية وأمرائها، ولاه أمير المؤمنين هارون الرشيد ولاية مصر عام (178هـ)، ثم أرسله على رأس جيش إلى إفريقية لإخضاع عصاتها، فدخل مدينة القيروان سنة (179هـ)، وأحسن معاملة أهلها، ثم طلب من الرشيد أن يعفيه من ولاية القيروان فنقله عام (181هـ) إلى خراسان، ثم انتقل إلى مدينة مرو عام (192هـ). عُرف عنه حبه للعمارة والعمران؛ فكان كثير البناء في البلاد التي يتولاها، فبنى قصر المنستير بالقيروان، وسور طرابلس الغرب، والعديد من المباني في إفريقية وأرمينية. ولما بدأت فتنة الأمين والمأمون انحاز هرثمة إلى المأمون، وأخلص له، وحارب معه حتى قُتل الأمين، وسكنت الفتنة، ثم أمر المأمون بحبس هرثمة بعد أن اتهمه بخيانتته وتعاونه مع الخارجين على الخلافة، وظل في حبسه بمدينة مرو حتى تُوِّفِّي سنة (200هـ = 816م).

(803/10)

---

### \*شبيب الخارجي

هو شبيب بن يزيد بن نعيم بن قيس الشيباني. تُنسب إليه الفرقة الشيبية من فرق النواصب. وُلد عام (26هـ = 647م). وأعلن ثورته في مدينة الموصل مع صالح بن مسرح على الحجاج بن يوسف الثقفي. ونادى شبيب لنفسه بالخلافة، فبايعه أتباعه، وقويت شوكته. وحاول الحجاج القضاء عليه؛ فوجّه إليه خمسة قواد، قتلهم شبيب واحدًا تلو الآخر وفرّق جموعهم؛ فتوجه إليه الحجاج بجيش عظيم، ونشبت بينهما معارك كاد الحجاج أن يُهزم فيها لولا نجدة جيش الشام له، فهُزِمَ شبيب وقتل كثير من أتباعه؛ ففر شبيب بفرسه من ساحة القتال، وأثناء مروره بجسر دجيل في نواحي الأهواز نَفَرَ به فرسه، فألقاه في الماء؛ فغرق سنة (77هـ = 696م).

(804/10)

### \*أبو عبد الله الرِّعْل

هو أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بالرِّعْل أى الشجاع الباسل، ويعرف أيضًا بمحمد الثاني عشر؛ للتفريق بينه وبين أبي عبد الله محمد بن علي بن سعد المعروف بأبي عبد الله الصغير، أحد ملوك الأندلس وآخرهم في آخر عهدها بالحكم العربي الإسلامي. دخل الرِّعْل في صراع مع أخيه أبي الحسن بن سعد الذى تولى الحكم بعد وفاة أبيه سعد بن محمد سنة (868هـ) واستمر الصراع عدة سنوات، وانتهى بانقسام غرناطة إلى قسمين؛ حيث حكم الرِّعْل مالقا، أما أبو الحسن فاستقر حكمه في غرناطة. كان الرِّعْل وافر الشجاعة والجرأة، واستطاع الانتصار على النصارى في مواقع مهمة مثل موقعة الشرقية سنة (888هـ) وقتل وأسرا آلاف النصارى، كذلك انتصر

على القشتاليين سنة (890 هـ). وبعد وفاة أبي الحسن بن سعد تولى الزغل حكم غرناطة سنة (888هـ)، إلا أن الحرب الأهلية قامت في غرناطة بينه وبين ابن أخيه أبي عبد الله الصغير دفعت النصارى إلى احتلال مناطق عديدة من الأندلس، وتحصن الزَّغَلُ في وادى آش، وبذلك انقسمت غرناطة ثانية إلى قسمين؛ أحدهما في غرناطة وسيطر عليه أبو عبد الله الصغير والآخر في وادى آش وسيطر الزَّغَلُ عليه. وقد حاول الزَّغَلُ الاستعانة بالملوك المسلمين في إفريقية ومصر لإنقاذ مالقا أقوى ثغور الأندلس، بيد أن مالقا سقطت في أيدي النصارى سنة (892هـ)، وبدأ النصارى في القضاء على الزَّغَلُ؛ خوفاً من شديد بأسه وشجاعته. واستطاعوا السيطرة على وادى آش سنة (895 هـ) بعد استسلام الزَّغَلُ بناءً على المعاهدة التي وقَّعها معهم. واستقر الزَّغَلُ في مدينة أندَرَش تحت حماية ملك قشتالة، غير أنه غادرها مقابل مبلغ ضخم، ونزل وهران، ثم استقر في تلمسان وقضى بها بقية حياته.

(805/10)

\*أبو عبد الله محمد الزَّغَلُ هو أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزَّغَلُ أى الشجاع الباسل، ويعرف أيضاً بمحمد الثانى عشر؛ للتفريق بينه وبين أبي عبد الله محمد بن على بن سعد المعروف بأبي عبد الله الصغير، أحد ملوك الأندلس وآخرهم فى آخر عهدهما بالحكم العربى الإسلامى. دخل الزَّغَلُ فى صراع مع أخيه أبى الحسن بن سعد الذى تولى الحكم بعد وفاة أبيه سعد بن محمد سنة (868 هـ) واستمر الصراع عدة سنوات، وانتهى بانقسام غرناطة إلى قسمين؛ حيث حكم الزَّغَلُ مالقا، أما أبو الحسن فاستقر

حكّمه في غرناطة. كان الزَّغَل وافر الشجاعة والجرأة، واستطاع الانتصار على النصارى في مواقع مهمة مثل موقعة الشرقية سنة (888 هـ) وقتل وأسرا آلاف النصارى، كذلك انتصر على القشتاليين سنة (890 هـ). وبعد وفاة أبي الحسن بن سعد تولى الزغل حكم غرناطة سنة (888هـ)، إلا أن الحرب الأهلية قامت في غرناطة بينه وبين ابن أخيه أبي عبد الله الصغير دفعت النصارى إلى احتلال مناطق عديدة من الأندلس، وتحصن الزَّغَل في وادي آش، وبذلك انقسمت غرناطة ثانية إلى قسمين؛ أحدهما في غرناطة وسيطر عليه أبو عبد الله الصغير والآخر في وادي آش وسيطر الزَّغَل عليه. وقد حاول الزَّغَل الاستعانة بالملوك المسلمين في إفريقية ومصر لإنقاذ مالقا أقوى ثغور الأندلس، بيد أن مالقا سقطت في أيدي النصارى سنة (892هـ)، وبدأ النصارى في القضاء على الزَّغَل؛ خوفاً من شديد بأسه وشجاعته. واستطاعوا السيطرة على وادي آش سنة (895 هـ) بعد استسلام الزَّغَل بناءً على المعاهدة التي وقَّعها معهم. واستقر الزَّغَل في مدينة أندرَش تحت حماية ملك قشتالة، غير أنه غادرها مقابل مبلغ ضخم، ونزل وهران، ثم استقر في تلمسان وقضى بها بقية حياته.

(806/10)

### \*عبد الله بن المبارك

هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، عالم وزاهد ومجاهد وتاجر وشاعر، ولد سنة (118 هـ) لأب تركي كان مولى لبني حنظلة، وطلب ابن المبارك العلم وهو صغير، فرحل إلى مصر والشام والجزيرة والعراق وغيرها؛ وأدرك جماعة من التابعين، مثل: الأعمش وخالد الحذاء وسليمان التميمي وغيرهم.

وجمع ابن المبارك الحديث والفقه واللغة، وصنف عددًا من الكتب، مثل: الجهاد، وهو أول من صنف في هذا الموضوع، والرقائق. وكان ابن المبارك كثير الأسفار للجهاد والتجارة، كما أنه كان غنيًا؛ حيث بلغ رأس ماله نحو (400) ألف درهم. وكان ابن المبارك ثقة في الحديث. وتوفي ابن المبارك في أثناء عودته من جهاد الروم سنة (181 هـ)، ودفن بناحية هيت، وهي مدينة على الفرات بالعراق. وعندما علم الخليفة العباسي هارون الرشيد بموته قال: مات سيد العلماء.

(807/10)

### \*علي بن الحسين (زين العابدين)

هو أبو الحسن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضى الله عنهم، تابعى ثقة. أمه سُلَافَة بنت ملك الفرس يزدجرد، وقيل: غزاة، وهو علي الأصغر بن الحسين غير علي الأكبر الذى استشهد مع أبيه بمعركة كربلاء. ولد سنة (38 هـ)، وكان عمره حينما استشهد أبوه نحو (23) سنة، وهو العقب من ولد الحسين، كان ذا منزلة عظيمة في قلوب التابعين، فكان ابن عباس عندما يراه يقول: مرحبًا بالحبيب ابن الحبيب. كان زين العابدين من الزهاد الأوائل، ورؤى أنه لما توفي وُجِدَتْ في ظهره آثار مما كان يحمل على ظهره بالليل إلى منازل الأرامل، وأنه كان يعول أهل مائة بيت بالمدينة سرًّا. كان متواضعًا يجالس الموالي، رحيماً لا يضرب بعيره، يعرف للصحابة مكانتهم ومنزلتهم؛ فأحبه عامة الناس وخاصتهم، وأجلُّوه. وروى أنه كان يصلى ألف ركعة في اليوم والليل، وكان يسمّى زين العابدين لعبادته. كان فقيهاً، أسند كثيراً من الأحاديث، وسمع من ابن

عباس وجابر ومروان وصفية وغيرهم. وتوفي زين العابدين  
في شهر ربيع الأول سنة (94 هـ).

(808/10)

---

### \* زين العابدين (علي بن الحسين)

هو أبو الحسن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضى الله عنهم، تابعى ثقة. أمه سُلَافَة بنت ملك الفرس يزدجرد، وقيل: غزاة، وهو علي الأصغر بن الحسين غير علي الأكبر الذي استشهد مع أبيه بمعركة كربلاء. ولد سنة (38 هـ)، وكان عمره حينما استشهد أبوه نحو (23) سنة، وهو العقب من ولد الحسين، كان ذا منزلة عظيمة في قلوب التابعين، فكان ابن عباس عندما يراه يقول: مرحبًا بالحبيب ابن الحبيب. كان زين العابدين من الزهاد الأوائل، ورؤى أنه لما توفي وُجِدَتْ في ظهره آثار مما كان يحمله على ظهره بالليل إلى منازل الأرامل، وأنه كان يعول أهل مائة بيت بالمدينة سرًّا. كان متواضعًا يجالس الموالي، رحيماً لا يضرب بعيره، يعرف للصحابة مكانتهم ومنزلتهم؛ فأحبه عامة الناس وخاصتهم، وأجلُّوه. وروى أنه كان يصلى ألف ركعة في اليوم واللييلة، وكان يسمَّى زين العابدين لعبادته. كان فقيهاً، أسند كثيراً من الأحاديث، وسمع من ابن عباس وجابر ومروان وصفية وغيرهم. وتوفي زين العابدين في شهر ربيع الأول سنة (94 هـ).

(809/10)

---

### \* عبد الله بن إباح

هو عبد الله بن إباح المقاعسى المرى التميمي، تنسب إليه

فرقة الإباضية - إحدى فرق الخوارج المعتدلة - التي تنتشر في عمان وتنزانيا وشمال إفريقيا. ينتمي عبد الله بن إباح إلى قبيلة تميم، واختلف المؤرخون في سيرته إلا أنهم اتفقوا على أنه كان معاصراً لمعاوية بن أبي سفيان. واشترك ابن إباح في الدفاع عن الكعبة مع عبد الله بن الزبير ضد جيش يزيد بن معاوية. وكان ابن إباح يرفض آراء غلاة الخوارج مثل الأزارقة، واتخذ ابن إباح منهجاً يتعد عن استخدام السلاح والعنف؛ لذلك أخذ في تفقيه أصحابه وتعليمهم. وكانت الإباضية قبل نسبتها إلى عبد الله بن إباح تعرف بأسماء مختلفة، مثل: جماعة المسلمين والشراة. وتوفي ابن إباح سنة (86 هـ).

(810/10)

### \*عروج

هو أروج بن يعقوب. أحد أخوين اشتهرا بجهادهما البحري في شمالي إفريقيا وسواحل البحر المتوسط إبان القرن (10 هـ = 16 م)، وأطلق عليهما لقب بارباروسا، أى: ذا اللحية الشقراء، وهما: أروج أو عروج وخير الدين. كان أبوهما جندياً في الجيش العثماني، وانتقل إلى جزيرة مديللي بعد أن فتحها العثمانيون سنة (861 هـ)، وتزوج ورزق بأربعة أبناء هم: عروج وخضر (خير الدين) وإلياس وإسحاق، وعمل الأخير بالتجارة، وقتل إلياس في إحدى الأسفار على يد قرصان جزيرة رودوس، ووقع عروج في الأسر أثناء إحدى رحلاته البحرية في أيدي قراصنة جزيرة رودوس الصليبيين وسجنوه، غير أنه تمكن من الهرب، وعزم على الانتقام من صليبي إسبانيا، والبرتغال، الذين كانوا يهاجمون مسلمي شمالي إفريقيا، واتفق مع أخيه خير الدين على الاستقلال في جزيرة جربة التونسية، وجعلها مركزاً

لعملياتهم البحرية في البحر المتوسط، ولما ذاعت شهرته طلب منه أهالي الجزائر المساعدة؛ لاستعادة ميناء بجاية من الإسبان، فأعد حملة قوية، وتمكن من استعادة المدينة سنة (921 هـ)، ونجح في تأسيس حكومة قوية خاضعة له في مدينة الجزائر، وانضم إليه عدد كبير من القبائل وسكان المدن من أقاليم المغرب الأوسط، فأرسل إلى السلطان العثماني سليم الأول يعلن ولاءه وطاعته له، ويخبره بما حققه من انتصارات. واستنجد به أهالي تلمسان لتخليصهم من ظلم بني زيان، فتمكن من دخولها وطرد حكامها من بني زيان، وحكمها باسم الخلافة العثمانية. ولكن الإسبان أعدوا حملة قوية للاستيلاء على المدينة، ووقع عروج أسيراً، ثم قتلوه في شعبان سنة (924 هـ) عن عمر يناهز (44) عامًا، وخلفه في جهاده أخوه خير الدين.

(811/10)

#### \*عز الدين بن عبد السلام

هو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن، الملقب بسلطان العلماء، شيخ الإسلام، فقيه شافعي، ولد في دمشق سنة (577 هـ). تلقى العلم على يد عدد من العلماء منهم القاسم بن عساكر، وتفقه على فخر الدين بن عساكر والقاضي جمال الدين بن الحرساني، وقرأ الأصول على الآمدي. وروى عنه الديمياطي وابن دقيق العيد، وتولى التدريس والخطابة براوية الغزالي، ثم خطب بالجامع الأموي، وبلغ رتبة الاجتهاد، وقصده الطلاب من جميع البلاد، وكان ناسكًا ورعًا لا يخاف في الله لومة لائم. فعندما سلم الصالح إسماعيل بن العادل قلعة صفد والشقيف للفرنج انتقده العز، وترك الدعاء له؛ فغضب وحبسه ثم أطلقه، فخرج إلى مصر فولاه الصالح نجم الدين القضاء، ثم عزل

نفسه من القضاء، وعزله السلطان عن الخطابة، فلزم بيته يدرس للناس التفسير. وتوفي سنة (660 هـ) بمصر، وترك كتباً كثيرة منها: التفسير الكبير وقواعد الشريعة والفوائد والفتاوى وقواعد الأحكام في إصلاح الإمام وغيرها.

(812/10)

### \*العقاد

هو عباس محمود إبراهيم مصطفى العقاد، أديب عملاق، من المكثرين - مع الإتيان - كتابة وتصنيفاً في شتى الميادين. ولد العقاد في أسوان في صعيد مصر سنة (1889 م)، وتلقى تعليمه الابتدائي بمدرسة أسوان الأميرية، وحصل على الشهادة الابتدائية عام (1903 م). كان العقاد يميل إلى الاطلاع والقراءة، وكان ينفق الساعات الطوال في البحث والتنقيب العلمي، كما تعلم اللغة الإنجليزية في صغره، وتأثر بالأدب الإنجليزي في مذهبه الشعري. عمل العقاد في عدة وظائف حكومية، ثم تركها وعمل بالصحافة، وكان أول عمل صحفى له في جريدة الدستور، ثم كتب في صحف أخرى، هي: المؤيد والأهالي والأهرام، وفي أثناء عمله بالصحافة كان يزاول التدريس تارة بالقاهرة، وتارة بأسوان. وقد أسس العقاد هو وزميلاه عبد الرحمن شكرى وإبراهيم عبد القادر المازنى مدرسة الديوان، ودعوا فيها إلى التجديد في الشعر. وقد ألف العقاد عشرات الكتب في شتى الموضوعات، فكتب في الدراسات الإسلامية سلسلة عن عباقرة الإسلام، وهي: عبقرية محمد، وعبقرية الصديق، وعبقرية عمر، وعبقرية خالد كما كتب في نقد الأدب كتاب الديوان بالاشتراك مع زميله إبراهيم المازنى، وهاجما فيه

المنفلوطى وشوقى. وللعقاد عدة دواوين شعرية. وتوفى  
العقاد سنة (1964 م).

(813/10)

---

### \*عمر مكرم

هو عمر مكرم بن حسين السيوطى، زعيم شعبى مصرى. ولد  
بأسيوط نحو سنة (1755م)، وتعلم بالأزهر، وولى نقابة الأشراف  
سنة (1794م)، وناهض الفرنسيين، ورفض موالاتهم، وكان يميل  
إلى الدولة العثمانية ويرى فيها دولة الإسلام الكبرى، استمد  
زعامته من الشعب، وكان ملجأ لهم من ظلم الحكام، تزعم الثورة  
ضد أحمد خورشيد باشا فى مايو (1805م)، وولى محمد على  
على مصر، شارك فى التصدى للحملة الإنجليزية سنة (1807م)،  
وأوقف الدراسة بالأزهر، وأرسل المتطوعين إلى رشيد. ورغم  
أنه السبب فى تولية محمد على الحكم، فقد تنكر له محمد على،  
بعد أن وصل إلى الحكم، فعزله من نقابة الأشراف، وأثار ضده  
العلماء ووعدهم بالمناصب، وحينما رفض مفتى الحنفية السيد  
أحمد الطحطاوى التوقيع على العريضة، عزله هو الآخر، وأبعد  
عمر مكرم إلى دمياط سنة (1807م) فأقام أربعة أعوام، ثم نقل  
إلى طنطا سنة (1812م) فأقام فيها إلى سنة (1819م)، ثم أدى  
فريضة الحج، وعاد إلى القاهرة فقامت فتنة فنقله محمد على  
إلى طنطا سنة (1822م)، ومالبت أن توفى بها فى العام نفسه.

(814/10)

---

### \*عمر (الشريف)

أحد أئمة عمان، من بنى نيهان، لم تذكر المصادر اسمه ولا

نسبه، وقد بويع له بالإمامة بعد اعتزال الإمام محمد بن سليمان بن أحمد بن مفرح. ولم يذكر المؤرخون تاريخ مبايعته، إلا أنه بقي في الإمامة عامًا واحدًا، ثم خرج من مقر الإمامة بنزوى إلى بهلا، وبذلك سقطت إمامته، فبويع محمد بن سليمان إمامًا من بعده.

(815/10)

### \*عمار بن ياسر

هو أبو اليقظان عمار بن ياسر بن عامر العنسى، صحابي جليل، رضى الله عنه، كان عمار من السابقين إلى الإسلام هو وأخوه عبد الله وأبوه ياسر وأمه سمية بنت خياط التي كانت أول شهيدة في الإسلام. أسلم عمار بن ياسر مع صُهب الرومى، وجهر عمار بإسلامه فأؤذى وعُذّب هو وأسرته، وكان النبي e يمر بهم وهم يعذبون فيقول لهم: صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة. هاجر عمار، رضى الله عنه، مع النبي e وشهد معه بدرًا وأحدًا والأحزاب وبيعة الرضوان وسائر المشاهد، وكان النبي e يحبه ويقربه وأثنى عليه في كثير من أحاديثه، وكان يلقبه بالطيب المطيب، وروى عن النبي e (62) حديثًا. وبعد موت النبي e شارك عمار في الجهاد والفتوحات في عهدهى أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب، رضى الله عنهما، وولاه عمر على الكوفة كما شهد الفتوحات في عهدهى عثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب، رضى الله عنهما، وشهد مع على بن أبي طالب، رضى الله عنه، وقعتي الجمل وصفين، وكان يقف بجواره ويسانده حتى استشهد في معركة صفين سنة (37 هـ) وعمره (93) سنة.

(816/10)

### \*عماد الدين زنكى

هو عماد الدين زنكى بن قسيم الدولة الحاجب آق سنقر، ولد سنة (478هـ). وكان والده أول ملوك الدولة الأتابكية فى الموصل، وحينما مات كان ابنه زنكى صغيراً، فتواصى به أصحاب أبيه إلى أن شبَّ وتولى مدينة واسط. وقاد ميمنة الجيش فى حرب الخليفة المسترشد بالله وسلمَّ إليه السلطان محمود ولديه ألب أرسلان والخفاجى ليربيهما؛ ولذا أطلق عليه لقب أتابك. استولى زنكى على بلاد كثيرة بعد أن عظم أمره فافتتح الرها وتملك حلب والموصل وحماة وحمص وبعبك وبنياس، وحرر كفرطاب والمعرة من الفرنج، ودانت له البلاد فعمرها وتحرى العدل فى الرعية؛ فامتألت البلاد بالحركة والحياة، بعد أن خربها الفرنج وظلموا أهلها. وأراد زنكى الاستيلاء على قلعة جعبر سنة (541هـ)، فحاصر ملكها على بن مالك وأوشك أن يفتحها، إلا أن جماعة من مماليكه غدروا به ليلاً فقتلوه عن عمر يزيد على الستين عاماً.

(817/10)

### \*على بن مؤمن

هو أبو الحسن على بن مؤمن بن محمد بن على الحضرمى الإشبيلية المعروف بابن عصفور النحوى، حامل لواء العربية بالأندلس. ولد ابن عصفور بإشبيلية سنة (597هـ). وأخذ النحو على يد أستاذه الشلوين، وكان ابن عصفور كثير الاطلاع لايملُّ المطالعة والقراءة، حتى برع فى النحو. وقد تصدَّر لإقراء النحو بعدة بلاد فى موطنه، منها: إشبيلية ومالقا ولورقة ومرسية. وكان ابن عصفور يقول الشعر، وله عدد من المؤلفات، منها:

المقرب، والممتع، وشرح الجمل، والسالف والعدار، وشرح الحماسة، وسرقات الشعراء. وتوفي ابن عصفور بتونس سنة (669 هـ).

(818/10)

---

### \*ابن عصفور

هو أبو الحسن علي بن مؤمن بن محمد بن علي الحضرمي الإشبيلي المعروف بابن عصفور النحوي، حامل لواء العربية بالأندلس. ولد ابن عصفور بإشبيلية سنة (597 هـ). وأخذ النحو على يد أستاذه الشلوبين، وكان ابن عصفور كثير الاطلاع لايملُّ المطالعة والقراءة، حتى برع في النحو. وقد تصدّر لإقراء النحو بعدة بلاد في موطنه، منها: إشبيلية ومالقا ولورقة ومرسية. وكان ابن عصفور يقول الشعر، وله عدد من المؤلفات، منها: المقرب، والممتع، وشرح الجمل، والسالف والعدار، وشرح الحماسة، وسرقات الشعراء. وتوفي ابن عصفور بتونس سنة (669 هـ).

(819/10)

---

### \*أبو عليّ ابن مُقلّة

هو أبو علي محمد بن علي بن الحسين بن مقلّة، وزير، وأديب، وشاعر، يضرب المثل بحسن خطه. ولد في بغداد في شهر شوال سنة (272 هـ). وولى جباية الخراج، واستوزره الخلفاء العباسيون: المقتدر، والظاهر بالله والراضي بالله. كما كتب أيضاً بيده اليسرى، مات سنة (328 هـ). ومن آثاره: كتاب هدنة بين المسلمين والروم بخطه، ورسالة في علم الخط والقلم.

**\*أبو علي القالي**

هو أبو علي إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد ابن سلمان القالي، اللغوي الكبير، عالم زمانه في اللغة، والشعر، ونحو البصريين، وأروى العرب للشعر الجاهلي وأحفظهم له. ولد سنة (288 هـ) بديار بكر، فنشأ بها، ورحل في طلب العلم فطوف في البلاد وسافر إلى بغداد وأقام بها (25) عامًا، ثم ذهب إلى الموصل، ووالأندلس، واستوطن قرطبة وأملى بها أكثر كتبه. ومن أهم كتبه: الأملى، والبارع في اللغة، وفعلت وأفعلت والمقصور والممدود، ومقاتل الفرسان، وفي الإبل وتناجها، وفي حلى الإنسان والخيال وشياتها. وتوفي أبو علي القالي في قرطبة سنة (356 هـ) عن عمر يقارب السبعين عامًا.

**\*علي بن عيسى بن ماهان**

هو علي بن عيسى بن ماهان من كبار القادة في عهدى الرشيد والأمين. قيل: إنه هو الذي حرض الأمين على خلع المأمون من ولاية العهد. ولما أراد الأمين خلع المأمون، بعث علي بن عيسى بن ماهان لقتاله، وولاه إمارة الجبل وهمذان وأصبهان، وولاه خراجها وحرابها، وأعطاه مائة ألف دينار، وألقى سيف محلاة وستة آلاف ثوب، فخرج في أربعين ألف فارس من بغداد، وأرسل الكتب إلى ملوك الديلم وطبرستان يعدمهم بالصلوات والهبات، وأمرهم أن يقطعوا طريق خراسان في وجه طاهر بن

الحسين قائد المأمون، فأجابه ملوك تلك المناطق. ولما التقى الجيشان لم يثبت جيش علي بن عيسى بن ماهان أمام جنود طاهر بن الحسين وفروا هاربين، وقتل علي بن عيسى وكان ذلك سنة (195هـ).

(822/10)

---

### \*أبو علي الفارسي

هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي. أحد أئمة اللغة والأدب. ولد سنة (288هـ) في مدينة فسا بفارس، ونشأ بها، ورحل إلى البلاد، فذهب إلى بغداد سنة (307هـ)، ثم إلى حلب فأقام عند سيف الدولة الحمداني، ثم رحل إلى فارس فصاحب عضد الدولة بن بويه وصنف له كتاب الإيضاح في قواعد اللغة العربية، ثم عاد إلى بغداد ثانية وأقام بها. وكان أبو علي الفارسي قد تعلم على الزجاج وأبي بكر محمد علي بن إسماعيل العسكري النحوي، وأبي بكر السراج، وأخذ عنه أبو الفتح بن جني وعلي بن عيسى الربيعي، وعضد الدولة بن بويه الذي قال: أنا غلام أبي علي الفارسالنحوي. ومن كتبه: التذكرة، والعوامل، والحجة والمقصود، والممدود، وجواهر النحو، وتعاليق سيبويه. وتوفي أبو علي الفارسي ببغداد سنة (377هـ).

(823/10)

---

### \*عكرمة مولى ابن عباس

هو أبو عبد الله القرشي. أحد فقهاء مكة، ومن التابعين الأعلام. أصله من البربر، وكان مولى لابن عباس، فاجتهد في تعليمه،

وأذن له بالفتوى في حياته. تزوّج أم سعيد بن جبير، ويعد من أعلم الناس بتفسير كتاب الله، وبالسيرة. كان كثير التنقل في الأقاليم حيث ارتحل إلى مصر وخراسان واليمن وأصبهان والمغرب. توفي عكرمة بالمدينة نحو سنة (104هـ) عن أربع وثمانين سنة.

(824/10)

### \*عقبة بن نافع

هو عقبة بن نافع بن عبد القيس الأموي الفهري، من كبار القادة العرب والفاحين في صدر الإسلام، ولد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم سنة (1ق. هـ) ولا صحبة له. شهد مع عمرو بن العاص - ابن خالته - فتح مصر، ثم شارك معه في المعارك التي دارت في إفريقية، فولاه عمرو برقة بعد فتحها، فقاد منها - بجنوده - حركة الفتح باتجاه الغرب، فظهرت مقدرته الحربية الفائقة وحنكته وشجاعته، وعلا شأنه. وفي خلافة معاوية بن أبي سفيان ولاه إفريقية، وبعث إليه عشرة آلاف فارس، فأوغل بهم في بلاد المغرب حتى أتى وادياً يسمى القيروان فأعجب بموقعه، وبنى به مدينته المشهورة، كما بنى به جامعاً لا يزال حتى الآن يعرف باسم جامع عقبة. وفي سنة (55هـ) عزله معاوية من ولاية إفريقية فعاد للمشرق، وبعد وفاة معاوية وفي خلافة ابنه يزيد أعاد عقبة مرة ثانية للولاية سنة (62هـ) فولاه المغرب فقصد عقبة القيروان، وخرج منها بجيش كثيف، فتح حصوناً ومدناً حتى وصل ساحل المحيط الأطلسي وتمكن من طرد البيزنطيين من مناطق واسعة من ساحل إفريقية الشمالي. واستشهد عقبة في إحدى حروبه سنة (63هـ) في بلاد المغرب في مكان يعرف حتى الآن باسم سيدي عقبة.

**\*عبد الله بن عمرو بن العاص**

هو عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل القرشي السهمي. صحابي جليل، كان أصغر من أبيه باثنتي عشرة سنة، أسلم قبل أبيه. وكان، رضى الله عنه، من رواة الأحاديث فروى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - نحو سبعمائة حديث، وكان فاضلاً عالماً، قرأ القرآن والكتب المتقدمة، قال عنه أبو هريرة، رضى الله عنه: ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مني إلا عبد الله بن عمرو بن العاص فإنه كان يعي بقلبه، وأعى بقلبي، وكان يكتب ولا يكتب، استأذن الرسول في ذلك فأذن له. وكان، رضى الله عنه، كثير العبادة يكثر الصوم، ولا ينام إلا قليلاً فشكاه أبوه إلى الرسول، فقال له رسول الله e: إن لعينك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً، فم وتم، وضّم وأفطر ... شهد عبد الله مع أبيه فتح الشام واليرموك، وشهد معه أيضاً صفيين بعدما أمره أبوه، وقد كان الرسول يقول له: أطع أباك. وقد اعتذر عبد الله عن أن يشهد صفيين فكان يقول: ما لى ولصفيين، ما لى ولقتال المسلمين، لوددت أنى مت قبله بعشر سنين، أما والله ما رميت بسهم ولا طعنت برمح ولا ضربت بسيف. وتوفي، رضى الله عنه، سنة (65 هـ).

**\*السيوطي**

هو جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيرى السيوطي، الإمام الحافظ المؤرخ الأديب. ولد في

مستهل رجب سنة (849هـ)، ونشأ يتيمًا، وعُرف بالنبوغ والذكاء منذ طفولته؛ فقد حفظ القرآن، وهو دون ثمانى سنين، ثم حفظ العمدة، ومنهاج الفقه، وألفية ابن مالك، وهو فى نحو الخامسة عشرة من عمره. وأجيز لتدريس العربية فى مستهل سنة (866هـ)، فألف أول كتاب له، وهو شرح الاستعاذة والبسملة، وهو فى السابعة عشرة من عمره، وقد كتب له الشيخ علم الدين البلقينى تقريرًا على الكتاب، وظل السيوطى ملازمًا له إلى أن مات الشيخ، فلزم ولده وقرأ عليه، فلما مات الابن سنة (878هـ) لزم الشيخ شرف الدين المناوى فسمع عنه دروسًا من تفسير البيضاوى وشرح البهجة. ولزم فى الحديث والعربية الإمام تقى الدين الشبلى الحنفى، فتتلمذ له أربع سنين، كما لزم الشيخ محى الدين الكافيجى وتتلمذ له أربع عشرة سنة، فأخذ عنه فنون التفسير والأصول والعربية والمعانى وغيرها. وحضر عند الشيخ سيف الدين الحنبلى دروسًا عديدة فى علوم البلاغة، ودرس عليه الكشاف والتوضيح وتلخيص المفتاح. وكان السيوطى كثير الأسفار، محبًا للعلم، فسافر إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب وغيرها. وأفتى فى مستهل سنة (871هـ)، وعقد مجلسه لإملاء الحديث فى مستهل سنة (872هـ)، وكان متبحرًا فى علوم التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبديع والبيان، إلا أنه لم يجب علم الحساب، بل كان يرى أنه أعسر شىء عليه، وأبعده عن ذهنه. ومشايخ السيوطى فى الرواية سماعًا وإجازة كثيرون، عدَّ منهم نحو مائة وخمسين فى كتابه حسن المحاضرة، أما كتبه فقد أحصى منها نحو ثلاثمائة فى علوم التفسير والقراءات والحديث والفقه والعربية والبيان والتاريخ والأدب، وذكر بعض المؤرخين أنها بلغت ستمائة مؤلف، وقيل أكثر من ذلك. ولما بلغ الأربعين من عمره أخذ فى التجرد

للعادة، والانقطاع إلى الله تعالى، فأقام في بيته في روضة  
المقياس فلم يغادرها حتى مات سنة (911هـ). وترك الإمام  
السيوطي تراثاً عظيماً من العلم والمعرفة في مختلف العلوم  
والفنون، ومن أبرز كتبه: الدر المنثور في التفسير بالمأثور،  
والإتقان في علوم القرآن، وجمع الجوامع وتدريب الراوي في  
شرح تقريب النواوي، وجمع الهوامع، وطبقات الحفاظ،  
وطبقات المفسرين، وتاريخ الخلفاء، والأشباه والنظائر،  
والحاوي للفتاوى، وعقود الزبرجد على مسند الإمام أحمد.

### \*أوم بن عبد الجليل

هو الماي الثامن في سلسلة المايات الذين حكموا سلطنة الكانم  
الإسلامية التي كانت تقع شمال شرق بحيرة تشاد، ويعتبر من  
أعظم هؤلاء المايات أو السلاطين. وقد دام حكمه (12) عامًا من  
478 - 490 هـ = 1085 - 1097 م). ولم يكن هذا الملك أو السلطان  
مجرد (فوجو) أي شيخ قبيلة وإنما كان منظمًا وإداريًا كبيرًا  
دانت له بلاد كانم بأسرها وأسس فيها دولة مستقرة منظمة،  
ويعتبر هو المؤسس الحقيقي لسلطنة كانم الإسلامية؛ حيث قام  
بنشر الإسلام في معظم أنحاء البلاد وجعله الدين الرسمي  
للدولة، ساعده على ذلك الداعية العظيم محمد بن ماني الذي قرأ  
الماي أوم بن عبد الجليل القرآن الكريم كله على يديه، وكذلك  
سيرة النبي - صلى الله عليه وسلم -، وكافأه الملك على ذلك  
بمنحه (100) بعير، و (100) قطعة من الذهب، و (100) قطعة من

الفضة، و (100) من الرقيق. وقد تزعم الماي أوم مرحلة الانتقال من الوثنية إلى الإسلام بنجاح كبير حتى إن عمله هذا يعتبر ثورة إصلاحية كبرى أقرب إلى المعجزة؛ نظرًا لصعوبة تحلى الناس عن معتقداتهم التي ألفوها منذ أزمان بعيدة. وفي عهد هذا الماي ظهر خطر قبائل البلالة لأول مرة، فأرسل إليهم جيشًا انتصر عليهم وقتل منهم نحو (3000)، مما وفر قدرًا كبيرًا من الهدوء والاستقرار في البلاد التي اتسعت في عهده حتى وصل نفوذها إلى نهر النيجر غربًا، وحتى حدود مصر الجنوبية وأرض النوبة شرقًا. واستمر الماي أوم بنى عبد الجليل يحكم هذه المنطقة الواسعة حتى وافته المنية في مصر وهو في طريقه إلى بلاد الحجاز؛ لتأدية فريضة الحج، أو في طريق عودته منه. ويتميز عهد هذا الماي بنشاط الدعاة والعلماء الذين شجعهم وأقطعهم اقطاعات واسعة، جعلها وقفًا عليهم وعلى أسرهم من بعدهم، وأصدر لهم صكوكًا تصون حقوقهم تُسمى بالخاص (مفردًا محرم) تُحرم على أى فرد من الأسرة الحاكمة أو حاكم

(829/10)

---

يأتى بعده أو أى فرد من الرعية أن يتعرضوا لهؤلاء العلماء أو لذرياتهم أو لممتلكاتهم وامتيازاتهم بأى سوء، مما كان سببًا في ازدهار الثقافة العربية الإسلامية في هذه السلطنة إلى حدٍ كبير.

(830/10)

---

\*أسكيا إسحاق الأول

هو أحد الأساكى الذين حكموا إمبراطورية صغى الإسلامية التي

حكمت غرب إفريقيا بعد ضعف إمبراطورية مالي الإسلامية منذ القرن (15 م). وهو ابن أسكيا محمد الأول المؤسس الحقيقي لإمبراطورية صنغى الإسلامية. وقد حكم أسكيا إسحاق هذه الإمبراطورية في الفترة من (946 - 956 هـ = 1539 - 1549 م) بعد أن استطاع أن يلى العرش بانتخاب الجيش له، وبعد أن استقرت له الأمور سعى إلى الحد من تدخل الجيش في شئون الحكم فأبعد كبار الضباط والمسؤولين الكبار واستبدلهم بآخرين ممن يخضعون لأوامره وتوجيهاته، كما قام بتعيين العديد من القضاة والأئمة في مدن الدولة، وعمل على إقرار الأمن وإقامة العدالة وتوفير الرخاء لرعاياه جميعاً، وأخذ يضرب على أيدي الظلمة والمفسدين، ولذلك امتدحه المؤرخون وقالوا عنه: إنه كان صالحاً مباركاً كثير الصدقات ملازماً لصلاة الجماعة، عاقلاً فطناً، ذا دهاء، وأنه أجل من دخل في تلك السلطنة وأعظمهم خوفاً وهيبه. استطاع أن يفرض نفوذ بلاده على سلطنة مالي الإسلامية واقتحم جيشه عاصمتها مدينة نيباني (مالي)؛ بسبب رفض سلطانها دفع الإتاوة المقررة عليه لسلطان صنغى، كما دفعت تطلعات سلطان مراكش إلى السيطرة على مناجم الملح في تغازة التي كانت تقع في شمالي الصحراء، وتخضع لنفوذ صنغى والتي كان امتلاكها يعد إمساكاً بمفتاح التجارة في غربي إفريقيا، فرفض أسكيا إسحاق التنازل عنها لسلطان مراكش وأرسل رده إليه على شكل حملة عسكرية صغيرة عبرت الصحراء الكبرى، وأغارت على وادي درعة في جنوبي مراكش؛ إظهاراً لقوة صنغى وردعاً لسلطان هذه البلاد. ورغم صلاح أسكيا إسحاق الأول وتقواه إلا أن رجاله اشتطوا في جمع الضرائب من رعاياه؛ ولذلك لم يقبلوا أن يكون ابنه عبد الملك سلطاناً عليهم بعد وفاة والده، واختاروا داود بن أسكيا محمد الأول لهذا المنصب في عام (956 هـ = 1549 م) بعد وفاة أخيه

(831/10)

---

أسكيا إسحاق الأول الذى حكم صغى تسع سنين وتسعة أشهر .

(832/10)

---

### \*بأى الثانى أبو دقن

هو بأى الثانى أبو دقن، أحد سلاطين سلطنة الفونج الإسلامية ، التى ظهرت فى السودان منذ عام (1505 م) على أنقاض مملكة علوة المسيحية على يد زعيم سودانى يُسمى عمارة دونقس تولى أبناؤه وأحفاده السلطة بعده، وكان منهم بأى الثانى أبو دقن الذى حكم السلطنة من عاصمته سنار فى الفترة من (1643 – 1678 م) واشتهر هذا السلطان بالشجاعة والتقوى وتشجيع العلم والعلماء، وكان على صلة وطيدة بمصر وعلمائها. واختط بأى الثانى جامعاً فى سنار ومقرّاً للحكومة يعتبر ديواناً للحكم، وغزا النيل الأبيض وفتك بسكانه المعروفين بالشلك، كما غزا جبال تقلى الواقعة غرب النيل الأبيض بنحو مرحلتين؛ حيث توجد سلطنة تقلى وتصالح مع سلطانها نظراً لحسن معاملته للسلطان الغازى وجنوده، وتم التصالح على أساس أن يدفع سلطان تقلى إتاوة سنوية لسلطان سنار؛ مما جعله تابعاً لهذا السلطان. ويعود السبب الرئيسى فى قيام الحرب بين هاتين السلطنتين هو اشتداد التنافس التجارى بين سنار ودارفور حيث اتخذت تقلى موقفاً أكثر ميلاً إلى دارفور منه إلى سنار. وفى الشمال حدث فى عهد بأى الثانى حرب بين الشايقية والعبدلاب حوالى عام (1672 م) بسبب نفوذ دارفور

إلى الشايقية الذين حاولوا الانفصال عن الحلف السنارى، فأدى ذلك إلى نشوب قتال بين الفريقين انتهى باستقلال الشايقية عن هذا الحلف الذى كان يتكون بصفة رئيسية من الفونج والعدلاب. كذلك اشتد فى عهد السلطان بارى الثانى نشاط البعثات التبشيرية من الفرنسيسكان، يساندهم بابا روما، والجزويت يساندهم لويس الرابع عشر ملك فرنسا، وتتابع رحلات هذه البعثات إلى السودان ومنها إلى إثيوبيا، كما شهد عصره الرحلة التى قام بها الرحالة العثمانى أوليا شلبى حيث شهد الحرب التى قامت بين الشايقية والعدلاب التى أشرنا إليها. ولم يلبث بادى الثانى أن مات فى عام (1678 م) بعد حياة حافلة، ويُعد

(833/10)

---

عصره عهد ازدهار فى تاريخ سلطنة الفونج.

(834/10)

---

#### \*بادى الرابع

هو بادى الرابع (أبو شلوخ)، الذى يُعد من أعظم سلاطين سلطنة الفونج الإسلامية التى ظهرت فى السودان منذ عام (1505 م) على أنقاض مملكة علوة المسيحية على يد زعيم سودانى يُسمى عمارة دونقس، تولى أبناؤه وأحفاده السلطنة بعده وكان منهم بادى الرابع، الذى يُعد من أعظم سلاطين الفونج، وكانت عاصمته مدينة سنار التى تقع على نهر النيل الأزرق؛ ولذلك كانت تُسمى سلطنة سنار. وحكم بادى الرابع مدة طويلة فى الفترة من (1724 – 1762 م). وفى عهده تمتعت سلطنة الفونج بمظاهر القوة والازدهار والعظمة، حتى إنها هزمت مملكة

الحبشة المسيحية في معركة فاصلة في (8 من مارس 1744م) عقب قيام الملك الحبشى ياسو الثانى بزحفه على سنار فى ذلك التاريخ، وحقق بعض الانتصارات فى بداية الحرب، ولكن جيش الفونج والعبدلاب سرعان ما قاما فى (إبريل 1744 م) وأنزلا بالمعتدين هزيمة قاسية، سقط فيها من جيش الأحباش عدد كبير. وفر ملك الحبشة تاركًا خلفه كثيرًا من الأسلحة والذخائر والأموال، وكان لهذا النصر دوى هائل فى العالم الإسلامى المعاصر، وحدثًا يدعو للزهو والإعجاب؛ مما جعل الفونج يطعمون فى ضم سلطنة كردفان الإسلامية. وبالفعل زحفت عليها جيوش سنار فى عام (1747 م)، وكان الجيش بقيادة أمراء من الفونج ومعهم قائد آخر اسمه محمد أبو اللكيلك واستطاع هذا الجيش أن ينزل الهزيمة بجيش كردفان وأن يطرد قبيلة المسبعات التى كانت تحكم هذه السلطنة التى أصبحت جزءًا من سلطنة سنار وأصبح الحكم فيها للشيخ محمد أبو اللكيلك نيابة عن السلطان بادى الرابع. الذى ساءت سيرته فى الرعية نتيجة ظلمه وقسوته فى جمع الضرائب، ولم ينبج من عسفه أهل بيته وأعاونيه؛ فتآمروا عليه وشجعوا تابعه القائد محمد أبو اللكيلك حاكم كردفان على الزحف على سنار وعزل السلطان، وتم تنفيذ المؤامرة وعزل بادى الرابع وخلفه ابنه ناصر، الذى لم يكن له من

(835/10)

---

السلطة إلا الاسم. لذلك يُعد بادى الرابع هو آخر سلاطين الفونج الذين أمسكوا بزمام السلطة وخلفهم سلاطين ضعاف، ومهد هذا الوضع إلى انهيار الدولة، كما مهد للحكم المصرى الذى استقر فى هذه البلاد منذ عام (1820 م) بعد أن أصبحت مصر والسودان دولة واحدة منذ ذلك التاريخ.

**\*بولو**

يُعد الماي بولو بن بيونا هو الماي (الملك أو السلطان) الثامن في سلسلة مايات دولة الكانم التي ظهرت شمال شرق بحيرة تشاد، قبل مطلع القرن (9 م). وبدأ الإسلام ينتشر في هذه الدولة حوالي عام (390 هـ = 1000 م) على يد الدعاة والمهاجرين من مصر وليبيا والصحراء، والتجار العرب الذين وصلوا إلى هذه البلاد. وقد اعتنق الماي بولو الإسلام على يد الداعية العظيم محمد بن ماني وقرأ على يديه الجزئين الأخيرين من القرآن الكريم، من أول سورة المُلِك إلى نهاية سورة الناس، ومنحه نظير ذلك مكافأة سخية مقدارها (50) بعيراً. وقد حكم هذا الماي كانم حوالي سنة (411 هـ = 1020 م) ويمكن أن يُعد أول ملوك كانم المسلمين، وجاء بعده أربعة مايات قرأوا شيئاً من القرآن الكريم على يد هذا الداعية نفسه، كان آخرهم الماي أوم بن عبد الجليل الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لسلطنة كانم الإسلامية. ولم يلبث الماي بولو أن مات في عام (427 هـ = 1036 م) في مكان يُسمّى ماكي جيبيدام ومعناه معسكر الملك الحربي، بعد أن حكم البلاد (16) عاماً. ولم يذكر المؤرخون أى أحداث وقعت فيها.

**\*جلال الدين (سلطان أوفات)**

هو جلال الدين بن عمر ولشمع، خامس من تولى حكم سلطنة أوفات الإسلامية. من أسرة عمر ولشمع التي تنتمي إلى بني

عقبيل بن أبي طالب أو إلى بنى عبد الدار من قريش. وكان أفراد  
وجماعات من هذه الأسرة قد هاجروا إلى بلاد الزيلع في منطقة  
القرن الإفريقي في عصور الإسلام الأولى ونشروا الإسلام بين  
الأهالي الزيالية والأحباش، وأقاموا هذه السلطنة على يد عمر  
ولشمع، وحكم أولاده من بعده وكان منهم جلال الدين، والذي  
كان معاصرًا لملك الحبشة عمداصيون (1314 - 1344 م). وكانت  
مملكة الحبشة النصرانية لا تطيق أن يكون بجوارها سلطنة  
إسلامية قوية، ومن ثم فقد شنت عليها حروبًا شبه مستمرة،  
وكان سلاطين أوفات في فترات ضعفهم يعلنون الطاعة لها  
ولا يلبثون أن يثوروا ويحققوا استقلالهم، ومن هؤلاء السلاطين  
جلال الدين الذي كان ملك الحبشة عمداصيون قد عزل أخاه صبر  
الدين الأول وعينه سلطانًا على أوفات وتوابعها بعد أن رضى  
بالتبعية ودفع الجزية. ولكن أهل أوفات لم يرضوا بهذه التبعية  
لملك الحبشة واستصرخوا سلطان مصر الناصر محمد بن قلاوون  
وانقضوا على حامية حبشية كان عمداصيون قد تركها في  
أوفات وأبادوها عن آخرها، وتشجعت إمارتا عدل ومورة بهذا  
العمل وثاروا ضد تسلط الأحباش، وأعلن السلطان جلال الدين  
الثورة ضد هيمنتهم، فعاد عمداصيون إلى بلاد الزيلع يجارب  
ممالكها وأعمل فيها النهب والتدمير، وفي سكاكها الذبح  
والاسترقاق، وفي مساجدها ومدنها الهدم والإحراق، وكان  
يعذب من ترك المسيحية ودخل في الإسلام، واستمر في هجومه  
على أوفات وتوابعها لدرجة أن جنوده ملوا هذا الهجوم  
المتواصل وهذا الزحف المستمر، وذلك القتال الذي لا يهدأ ضد  
الزيالية المسلمين وطلبوا منه العودة إلى بلادهم؛ محتجين بأن  
موسم المطر قد حلّ ولكن عمداصيون رفض طلبهم بحجة أن  
الزيالية المسلمين في أوفات وغيرها مازالوا يهددون ملكه طالما

---

أن سُلطانهم جلال الدين على قيد الحياة، وأمر جنوده ألا يفتحوه في هذا الأمر مرة أخرى. وانتهى حكم السلطان جلال الدين بقيام فتنة داخلية - بإيعازٍ من ملك الحبشة غالبًا - كان من نتيجتها أن تولى على بن صبر الدين حكم السلطنة وانتهى حكم عمه جلال الدين في زمن لا يمكن تحديده بدقة.

(839/10)

---

\*جمال الدين (سلطان عدل)

هو جمال الدين محمد بن سعد الدين، من أسرة عمر ولشمر القرشية، التي أقامت سلطنة أوفات الإسلامية شرق الحبشة، ثم سلطنة عدل الإسلامية في جزءٍ كبيرٍ من أراضي السلطنة السابقة. وجمال الدين هو ثالث سلطان يحكم السلطنة الأخيرة وذلك لمدة سبع سنوات في الفترة من (828 - 835 هـ = 1424 - 1431 م). وكان ملك الحبشة إسحاق بن داود قد أسر سلطان عدل السابق وأخاه، وهما منصور ومحمد ابنا سعد الدين وظلا في سجنه حتى تُوفيا. وتمكن إسحاق أن ينزل بالمسلمين في بلاد زيلع وقائع شنيعة، كما كاتب ملوك الفرنجة يستحثهم على التعاون معه لإزالة دولة المسلمين من كل مكان. ومن ثم قام جمال الدين سلطان عدل وأخذ يستعد لملاقاة هذا الملك الحبشى، الذى عزم على ألا يبقى بالمنطقة مسلم قط، واستطاع جيش جمال الدين أن ينزل هزيمة ساحقة بجيش ملك الحبشة، كما هاجم جيش جمال الدين الأحباش مرة ثانية في إمارة بالى، فهزهم وأسر معظمهم. وموت إسحاق تعرضت الحبشة لكثير من الفتن والمنازعات على العرش، فانتهز جمال الدين الفرصة وأمعن في غزو بلاد الحبشة فغزا إمارة دوارد وأسر ثلاثة من أمراء ملك

الحبشة وهاجم أمهرة عقر دار هذا الملك، ودخل كثير من عماله وأمرائه في طاعة جمال الدين الذى كثرت غنائمه وأسلم على يديه عددٌ كبير من الأحباش. ولكن الحقد والحسد والجهالة أعمت قلوب بنى عمه؛ فاغتالوه فى عام (835 هـ = 1431 م) وهو فى ذروة مجده وانتصاره، دون أن يلقوا بالأل إلى مصير الإسلام الذى أصبح فى كفة الميزان. ويبدو أن هؤلاء المتآمرين كانوا على اتصال بملك الحبشة زرع يعقوب الذى أطمعهم فى كرسى الحكم وحرصهم على ارتكاب هذه الجريمة؛ حتى يتخلص من هذا السلطان الشجاع المجاهد الذى تمكن من التوغل داخل هضبة الحبشة نفسها، والذى كان محبوباً من الرعية نظراً لاهتمامه بأمرهم ونشره العدل بينهم، وكان كما يقول المقرئى: خير

(840/10)

---

ملوك زمانه ديناً ومعرفة وقوة وشجاعة ومهابة وجهاداً فى أعداء الله - تعالى - عز الله به الإسلام والمسلمين، وأسلم على يديه عالمٌ من أمهرة) لا يحصى عددهم. ولذلك كان لابد أن يدبر الأحباش قتله غيلة ويبد أفرادٍ من أسرته، بعد أن فشلوا فى قتله فى ميدان المعارك التى خاضها ضدهم وانتصر عليهم فيها.

(841/10)

---

\*حسين (سلطان شوا)

هو أحد سلاطين سلطنة شوا الإسلامية التى كانت تقع فى جزء من الهضبة الوسطى للحبشة شرقى النيل الأزرق، والتى تقع بالقرب منها مدينة أديس أبابا العاصمة الحالية للحبشة (إثيوبيا). وهذه السلطنة الإسلامية التى قامت فى قلب هضبة الحبشة لم

نعرف شيئاً عن تاريخها إلا من خلال وثيقة عربية اكتشفها الإيطالي تشيرونلي في عام (1926 م)، ومن أسفٍ أن هذه الوثيقة تتحدث عن الفترة الأخيرة من عمر هذه السلطنة الإسلامية التي كانت تجاورها من الشرق حتى البحر الأحمر سلطنات وإمارات إسلامية أخرى أهمها سلطنة أوفات الإسلامية. ولذلك فإننا لم نعرف شيئاً عن تاريخها ولا عن سلاطينها رغم أن هذه السلطنة استمرت في الوجود طوال أربعة قرون من الزمان (283 - 684 هـ = 896 - 1285 م). لكن ورد في الوثيقة المشار إليها أسماء بعض السلاطين، منهم: السلطان حسين والذي تولى الحكم في عام (575 هـ = 1180 م)، ولاتذكر الوثيقة شيئاً عن الأحداث التي وقعت في عصره إلا تولى السلطان عبد الله حكم السلطنة في عام (590 هـ = 1194 م)، مما يدل على أن حكم السلطان حسين انتهى في ذلك العام، ثم عاد الحكم إلى ابنه السلطان محمد ابن السلطان حسين في شوال من عام (632 هـ = 1232 م) استمر في أعقابه من بعده حتى انتهت هذه السلطنة على يد سلطنة أوفات الإسلامية؛ إنقاذاً لها من الحروب الأهلية التي سادتها وإنقاذاً لها من تطلع الأقباش إلى الاستيلاء عليها. ومعنى استمرار الحكم في أسرة السلطان حسين أن هذه الأسرة كانت تحكم هذه السلطنة عن طريق الوراثة، ولذلك فمن المرجح أنها تنتمي إلى الأسرة التي أسست هذه السلطنة، وهي الأسرة المخزومية العربية الأصل حسبما جاء بالوثيقة الآنفة الذكر.

(842/10)

\*حق الدين الثاني (سلطان أوفات)

هو حق الدين الثاني بن أحمد حرب أرعد من أسرة عمر ولشمع

القرشبية، التي أقامت سلطنة أوفات الإسلامية شرق الحبشة  
حوالى منتصف القرن (13 م). وكان حق الدين الثانى ثامن من  
تولى حكمها من سلاطين هذه الأسرة الذين كافحوا طويلاً ضد  
هيمنة الأحباش، الذين قتلوا بعض سلاطينهم وأسروا بعضهم  
الآخر، منهم والد السلطان حق الدين الذى أخذه ملك الحبشة  
سيف أَرعد إلى عاصمته وجعله فى خدمته، وترك أحمد ابنه حق  
الدين هذا فى أوفات، فاشتغل هذا الابن بطلب العلم والمعرفة  
وابتعد عن العمل السياسى؛ بعد أن رأى ماحلّ بأبيه ونظراً  
لإعراض جده على بن صبر الدين محمد بن عمر ولشجع وهجره  
إياه، ومعاداة عمه ملا أصفح القائم بأمر الدولة وعداوته  
الشديدة له، لدرجة أنه أخرجته من مدينة أوفات إلى بعض  
نواحيها، وهناك جمع حق الدين الثانى الناس حوله وجنّد جيشاً  
اتجه به إلى مدينة أوفات وقاتل عمه ملا أصفح الذى كان يخضع  
لملك الحبشة وهزمه ومن جاء لمساعدته من الأحباش الذين كان  
عددهم يقدر بثلاثين ألفاً؛ فذهب ملا أصفح إلى ملك الحبشة  
يستنجد به مرة ثانية فأرسل معه جيشاً جراراً، ولكن حق الدين  
الثانى تمكن من هزيمة هذا الجيش وقتل عمه وأباد من كان معه  
من جند، وسار إلى مدينة أوفات فاستسلم له جده على بن صبر  
الدين، الذى عامله حق الدين الثانى معاملة طيبة وأقرّه على  
ولاية أوفات وصار حق الدين الثانى سلطاناً على سلطنة أوفات  
وتوابعها وحكمها عشر سنوات (766 - 776 هـ = 1364 - 1374 م)،  
ولكنه رحل عن مدينة أوفات العاصمة وبنى فى إقليم شوا  
عاصمة جديدة سماها (وحل) واتخذها قاعدة له فى قتال ملك  
الحبشة سيف أَرعد الذى مات وتولى بعده ابنه ودم بن سيف  
أَرعد، فاستأنف حق الدين الثانى قتاله متحصناً بموقع شوا  
المنيع، والتقى بالملك الحبشى فى بضع وعشرين موقعة على  
مدى تسع سنوات استشهد فى آخر موقعة منها فى عام (676

(843/10)

---

هـ = 1374 م) على أرض شوا بعد أن أرهق الأحباش وحطم جيوشهم؛ نظرًا لما كان يمتاز به من شجاعة وإقدام وإصراره على الجهاد وعدم القبول بالتبعية للأحباش.

(844/10)

---

### \*أسكيا داود

هو أحد الأساكي الذين حكموا إمبراطورية صنغى الإسلامية التي حكمت غرب إفريقيا بعد ضعف إمبراطورية مالى الإسلامية منذ القرن (15 م). وهو ابن أسكيا محمد الأول المؤسس الحقيقي لإمبراطورية صنغى الإسلامية. حكم أسكيا داود هذه الإمبراطورية في الفترة من (956 - 990 هـ = 1549 - 1582 م)، وبدأ حكمه بتعيين أنصاره في الوظائف المهمة، ونظم الجهاز الإدارى وبنى الكثير من المنشآت العامة مثل المساجد والمدارس، واهتم بنشر الثقافة الإسلامية، وهو أول من اتخذ خزائن الأموال وخزائن الكتب، وكان له نساخ ينسخون له الكتب التي كان يُهادى ببعضها العلماء وطلاب العلم، وكان حافظًا للقرآن الكريم، وكان له شيخ يعلمه ويُقرئه القرآن. رعى العلم والعلماء وعمل جاهدًا على توفير الأمن والرخاء لرعاياه جميعًا ولذلك فإنه يعتبر من أبرز السلاطين الذين حكموا صنغى من آل أسكيا محمد الأول، نظرًا لإصلاحاته الداخلية وكياسته وحنكته السياسية. إذ أنه حاول جاهدًا أن يعيد إلى نفوذ صنغى البلاد التي كانت قد استقلت عنها وقت الحن والأزمات، فجهز جيشًا غزا به قبائل الموس (الموش) الوثنية وفر سلطانها أمامه مهزومًا

في عام (969 هـ = 1562 م)، وغزا دولة مالي ودخل العاصمة  
نياني في عام (966 هـ = 1559 م)، وانتصر على سلطانها  
وتزوج ابنته، ثم غزا إمارة كاتسينا في شرق النيجر، وأعاد  
الطوارق إلى الطاعة. ولما أرسل سلطان مراکش عبد الملك في  
عام (986 هـ = 1578 م) جيشاً للاستيلاء على تفازة وما فيها من  
مناجم الملح، رد أسكيا داود بجيش كبير أرسله لتأمين تفازة من  
أى هجوم جديد، ولما أرسل له سلطان مراکش الجديد أحمد الأول  
يستأذنه في أن يسمح له باستخراج الملح من تفازة عامًا واحدًا،  
رد عليه أسكيا داود بهدية مقدارها (10000) من الذهب، فحل  
التفاهم والود بين الدولتين طيلة عهد أسكيا داود مما أبعد خطر  
سلاطين مراکش عن بلاده، وظل يسير على هذه السياسة حتى

(845/10)

---

مات في شهر رجب سنة (990 هـ = 1582 م) بعد حكم دام (34)  
عامًا وخمسة أشهر.

(846/10)

---

**\*دوئمة بن أوم**

هو الماي (13) في سلسلة المايات الذين حكموا سلطنة كانم  
الإسلامية التي كانت تقع شمال شرق بحيرة تشاد. وقد حكمها  
مدة طويلة بلغت (55) عامًا (491 - 546 هـ = 1097 - 1151 م) قام  
أثناءها بغارات متعاقبة على جيرانه الوثنيين، واستطاع توسيع  
رقعة دولته حتى وصلت من فزان شمالاً إلى تلال دكوا جنوباً،  
ومن واداي شرقاً حتى نهر النيجر غرباً. ويتميز عهد الماي  
دوئمة بن أوم بازدياد الداخلين في الإسلام، واشتهر بتقواه

وتمسكه بالدين وإنشاء المساجد، وقام بعدة حروب للقضاء على ما بقي من مظاهر الوثنية في بلاده، وأعد جيشًا جرارًا بلغ عدد فرسانه نحو (100) ألف، ومشاته نحو (120) ألفًا، مما مكنه من أحراز انتصارات كبيرة. كما يتميز هذا الماي أيضًا بكثرت رحلاته لأداء فريضة الحج والتي بلغت ثلاث رحلات، ترك في مصر خلال رحلتي حجه الأولى والثانية (600) عبد. ويبدو أنه أثناء رحلته الثالثة تدخل في شئون مصر الداخلية، بأن ناصر فريقًا على فريق آخر كان الصراع محتدمًا بينهما على منصب الوزارة زمن الخليفة الفاطمي الظافر (544 - 549هـ = 1149 - 1194م)، فكان ذلك سببًا في إغراقه عند ميناء عيذاب الذي كان يستقبل الحجاج الذهبين والعائدين عبر البحر الأحمر في ذلك الحين. والراجح أن الماي دوثة بن أوم ناصر الفريق الذي كان يدعمه الجند السودانيون الذين كانوا يشكلون أحد عناصر الجيش الفاطمي، منذ عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله (427 - 487هـ = 1036 - 1094م) والذي كان أمه سودانية؛ فأكثر من جلب هذا العنصر. وكان على العناصر الأخرى من الأتراك والمغاربة العمل بسرعة حتى لاتعطى الفرصة للماي دوثة بن أوم كي يدعم الفريق الذي يعتمد على بني جلدته من العنصر السوداني، فأحدثوا ثقبًا في سفينته التي كانت راسية أمام ميناء عيذاب مما تسبب في غرقه أمام هذا الميناء في عام (546هـ = 1151م). وربما كان غرقه على هذا النحو بسبب آخر،

(847/10)

---

هو أنه كان بإيعاز من أفراد أسرته الطامعين في العرش، أو نتيجة خيانة أو مؤامرة من أعدائه وخصومه.

(848/10)

## \*دوغة بن سالم

هو الماي السابع عشر في سلسلة المايات أو السلاطين الذين حكموا سلطنة كام الإسلامية التي كانت تقع شمال شرق بحيرة تشاد. حكم هذه البلاد مدة بلغت (40) عامًا (618 - 657 هـ = 1221 - 1259 م). وهو مشهور باسم دوغة دباليمي، نسبة إلى أمه دابال، حيث كانت النسبة إلى الأم أمرًا طبيعيًا في هذه البلاد. ويعتبر الماي دوغة بن سالما أعظم ملوك كام قاطبة، ويعتبر عهده قمة الازدهار والعظمة في تاريخ هذه السلطنة. فقد عرف بالعزم والحزم وكان محاربًا قويًا حتى وصف بأنه أشد إحرًاقًا من النار، كَوْن جيشًا قويًا كان عدد فرسانه لا يقلون عن (41) ألفًا حارب بهم قبائل التيبو من البربر في الشمال، وأخضعهم لسلطانه بعد حروب دامت أكثر من سبع سنوات، كما حارب قبائل البلالة وتغلب عليهم، مما أتاح فرصة للهدوء والاستقرار داخل البلاد، مما أدى إلى اتساع رقعة الدولة في عهده، حتى امتد نفوذها من مشارق وادى النيل الأوسط شرقًا حتى قرب نهر النيجر غربًا، وجعلها تتحكم في الطرق التجارية التي تمر عبر هذه المنطقة الشاسعة، وأفاض ذلك كثيرًا من الأموال على خزائن الدولة. ومما يُذكر لهذا الماي العظيم بالفضل أنه اهتم كثيرًا بالقضاء على مابقى من مظاهر الوثنية في بلاده، فهو الذى جرؤ وحطم الوثن الكبير المعروف باسم مون Mune، وكانت عبادته لاتزال قائمة في بعض أجزاء كام ومرتفعات تيبستى التي تقع في شمالي البلاد. ومنذ تحطيم هذا الوثن لم يستطع أحد أن يقف في وجه انتشار الإسلام، لأن هذا التحطيم بين للناس أن هذا الوثن كان أسطورة أو خرافة، كما منح الإسلام فرصة كبيرة لتأكيد سلطانه على شعب الكانم، وجعل هذا الماي يتخذ لقب أمير المؤمنين، وهو أول من اتخذ

من مايات كانم وربما كان هذا الأمر تأسياً بالسلطان الحفصي المنتصر، سلطان تونس الذي كان يعاصره. ذلك أن علاقات هذا الماي بذلك السلطان الحفصي كانت قوية، بدليل أنه أرسل إليه

(849/10)

---

سفارة وهدية اشتملت على زرافة أثارت إعجاب أهل تونس، وذلك في عام (1257 م). وقد حدث في عهد هذا الماي أيضاً أن الكائمين الذين كانوا يرحلون إلى مصر في طريقهم لتأدية فريضة الحج، بنوا مدرسة للمالكية في الفسطاط تُسمى باسم مدرسة ابن رشيق في عام (640 هـ = 1242 م) لتكون موطئاً للحجاج القادمين من كانم، ومركزاً لتدريس الفقه المالكي على يد هذا الفقيه الذي سميت باسمه هذه المدرسة. وقد مات الماي دوغمة بن سالما بعد أن حدثت حروب أهلية في سلطنته؛ بسبب جشع أولاده وتنافسهم على الحكم والسلطان، وازدياد نفوذ الأمراء في أقاليم الدولة. ولولا قوة جيشه وشدة بأسه لتحطمت دولته منذ وقت مبكر.

(850/10)

---

### \*سامورى التورى

يُعد سامورى التورى من الزعماء الأفارقة المسلمين، الذين قاوموا الاستعمار الأوروبى لغرب إفريقيا في النصف الثانى من القرن (19م). وُلد سامورى عام (1830م) في مدينة ساناكورو التى تقع جنوب نجر بائى أحد روافد نهر النيجر، وهو ينتمى إلى شعب الديولا الذى يعتنق الإسلام. وكان سامورى محارباً فذاً من محاربى هذا الشعب الذى التف حوله لتجميع شتات

المسلمين بعد القضاء على دولة الحاج عمر على يد الفرنسيين في عام (1864م). وقد ركز سامورى التورى نشاطه في منطقة فوتاجالون التى تُعرف الآن بدولة غينيا، والتي تقع جنوب دولة الحاج عمر والتي حاول الفرنسيون الاستيلاء عليها أيضاً. نظم سامورى جيشاً وحصل على الأسلحة الحديثة وأنشأ مصنعاً للسلاح والذخيرة فى تيرى، وبدأ يشن هجماته على خصومه المحليين ويستولى على القرى والمدن والإقاليم لينشئ دولة كبرى، منتهزاً فرصة الصراع بين هذه القوى المحلية، واتخذ من مدينة بيزاندوغو عاصمة له واستولى على تومودغو دكانكان دسانكاران وباماكو، وبدأت قوته تخيف الفرنسيين والإنجليز؛ فعقدت بريطانيا وفرنسا فى عام (1889م) اتفاقاً اعترفت فيه الأولى للثانية بحقوقها فى فوتاجالون وب حمايتها على سامورى ودولته، واعترفت الثانية للأولى بترك الحرية التجارية لها فيما تحت خط العرض العاشر. ولم تلبث فرنسا أن جرت سامورى فى حرب مع إمارة سيكاسو التى تقع إلى الشرق من دولته والتي رأى أنها مفتاح الطريق إلى بلاد فولتا العليا التى يمكن أن تكون منفذاً له إلى البحر؛ لأن دولته دولة داخلية. وقد فشل سامورى فى حصار سيكاسو وانسحب منها، وتحت ضغط الفرنسيين انتقل بدولته ناحية الشرق فى المناطق التى تقع فى أعالي ساحل العاج بعد أن استطاع الفرنسيون أن يستولوا على العاصمة بيزاندوغو وساناكورو موطنه الأصلي فى عام (1891م)، ثم قطعوا عليه الطريق إلى الشرق واحتلوا ساحل

(851/10)

---

العاج نفسها؛ حتى لاتقع فى يده أو فى يد الإنجليز، ثم فاجأه الفرنسيون فى (سبتمبر عام 1898م) وأحاطوا به واعتقلوه

ونفوه إلى الجابون فبقى فيها حتى وافته المنية بعد ذلك  
بعامين، بعد أن أنشأ إمبراطورية كبيرة في غرب إفريقيا،  
وكافح في سبيل الاستقلال بما عن النفوذ الأوربي، ورأى أن  
خير وسيلة لربط أجزاء هذه الإمبراطورية هو الإسلام، فعمل على  
نشره بين الوثنيين، واتخذ لنفسه لقب إمامي أى إمام، ونظم  
تعليم القرآن للأطفال في القرى على يد الفقهاء والمشايخ،  
وكانت له إرادة لا تلين، ولم يقهره إلا الاستعمار الفرنسي قرب  
نهاية القرن الماضي.

(852/10)

#### \*سعد الدين (سلطان أوفات)

هو سعد الدين أبو البركات محمد بن أحمد حرب أرعد بن علي بن  
صبر الدين الأول، من أسرة عمر ولشمع القرشية التي أقامت  
سلطنة أوفات الإسلامية شرق الحبشة حوالى منتصف القرن (13  
م)، وكان سعد الدين محمد آخر سلاطين هذه الأسرة الذين حكموا  
هذه السلطنة. فقد حكمها (29) عامًا في الفترة (776 – 805 هـ =  
1374 – 1402 م) وذلك عقب استشهاد أخيه حق الدين الثاني  
أثناء جهاده ضد ملك الحبشة، فقام سعد الدين باتباع السياسة  
نفسها، وجاهد الأحباش وكانت الحرب سجالاً بينهما في معظم  
الأحيان. واستطاع سعد الدين أن يجند كثيراً من المجاهدين  
فتعددت غاراته واتسعت مملكته، ولكنه هزم في بعض المواقع،  
ثم حقق نصرًا مبيّنًا على داود ملك الحبشة وأسر من كان معه من  
جند كثير، كما أحرز نصرًا آخر في مكان يسمى زمدوة وغنم  
غنائم وفيرة. وقد شجعت هذه الانتصارات على الزحف على  
مملكة بالى الإسلامية، التي كانت تدين بالطاعة للأحباش،  
فانتصر على من كان فيها من جند ملك الحبشة رغم كثرتهم وقلة

جنده، وكان القتلى منهم كثيرون لدرجة أن رءوسهم كانت تغطي ميدان المعركة، بخلاف الأسرى الذين كانوا لا يحصون عددًا. فقام ملك الحبشة داود وزحف على أوفات وهزم أحد قواد سعد الدين، وتتابع الهزائم حتى هلك أكثر جند سعد الدين وتقهقر إلى جزيرة زيلع فحاصره ملك الحبشة وقطع عنه الماء حتى يستسلم، ولكنه ظل يقاوم الأحباش حتى أرشدهم على محبته أحد الخونة، فهاجمه الأحباش بغتة وقتلوه وسيفه في يده فمات شهيدًا في عام (805 هـ = 1402 م)، وبعد حياة حافلة بالجهاد ضد هيمنة الأحباش، وتمسكًا بالاستقلال والحرية، ودفاعًا عن الإسلام والمسلمين. ولم تكن هزيمة سعد الدين إلا بسبب قلة عدد الفرسان في جيشه، ولعدم اتحاد ممالك الزيلع الإسلامية وتفرقها وطاعة بعضها لملك الحبشة، مما مكّنه من الانتصار في النهاية على سعد الدين وقتله والقضاء على سلطنة

(853/10)

---

أوفات الإسلامية. ولكن سلطنة عدل الإسلامية - التي أقامت أولاد سعد الدين بعد فترة وجيزة من مقتل أبيهم في هذا الإقليم الذي يُعرف بعدل والذي كان جزءًا من سلطنة أوفات - رفعت راية الجهاد من جديد.

(854/10)

---

\*سندياتا (سلطان مالى )

هو أول من اشتهر أمره وذاع صيته وتحقيق تاريخه في القرن (13 م) من أسرة كيتا صاحبة الفضل في تكوين دولة واسعة مترامية الأطراف تُعرف باسم سلطنة مالى الإسلامية. وكانت هذه

الدولة تقع في المنطقة المحصورة بين نهر النيجر والمحيط الأطلسي. وتمتد شمالاً وجنوب حتى بلغت مساحتها مساحة غرب أوروبا مجتمعة، واشتهرت باسم بلاد التكرور. وكانت في الأصل إقليمًا صغيرًا يعرف باسم كنجابا **Kangala** اعتنق ملوكه الإسلام، وكانوا تابعين لمملكة غانة الإسلامية في القرن (11 م)، ثم انفصلوا عنها وتوسع ملوكها في أوائل القرن (13 م) في الجنوب الشرقي مما أثار حفيظة ملك الصوصو المجاور له؛ إذ انقض عليهم في عام (1230م)، وقتل ملكهم وإخوته العشرة، ولم يبق إلا الأخ الحادى عشر الذى يُسمى سندياتا ويُعرف باسم مارى جاطة أى الأمير الأسد، والذى كان قد تمكن من الهرب نحو الجنوب؛ حيث جمع حوله كثيرًا من القبائل الموالية لأسرة كيتا، وأخضع بفضلها القبائل المجاورة وانتصر في جميع الحروب التى شنّها، مما ساعده في تثبيت ملكه. ثم أعد جيشًا كبيرًا مكونًا من (12) فرقة مدربة أحسن تدريب؛ لقتال ملك الصوصو والانتقام منهم، والتقى به في موقعة فاصلة عند كيرينا في عام (1235م)؛ حيث انتصر سندياتا وقتل ملك الصوصو واستولى على بلاده، ثم نجح في عام (1240م) في الاستيلاء على مملكة غانة الإسلامية، واتخذ من مدينة أنشأها على نهر النيجر تُسمى نيبانى عاصمةً لملكه، واشتهرت هذه المدينة باسم مالى وصار اسمها علمًا على الدولة كلها التى اتسعت في عهده، وصارت إمبراطورية واسعة تمتد من بلاد الولوف والمحيط الأطلسي غربًا إلى أواسط نهر النيجر شرقًا، ومن فوتاجالون جنوبًا إلى كومبى صالح عاصمة غانة السابقة شمالًا. وقد مات سندياتا في عام (1255م) بعد أن وضع لأبنائه وأحفاده أساس هذه الدولة الواسعة؛ ولذلك فإنه يُعد المؤسس الحقيقى لسلطنة مالى

**\*ماري جاتا (سلطان مالي )**

هو أول من اشتهر أمره وذاع صيته وتحقيق تاريخه في القرن (13 م) من أسرة كيتا صاحبة الفضل في تكوين دولة واسعة مترامية الأطراف تُعرف باسم سلطنة مالي الإسلامية. وكانت هذه الدولة تقع في المنطقة المحصورة بين نهر النيجر والمحيط الأطلسي. وتمتد شمالاً وجنوب حتى بلغت مساحتها مساحة غرب أوروبا مجتمعة، واشتهرت باسم بلاد التكرور. وكانت في الأصل إقليمًا صغيرًا يعرف باسم كنجابا **Kangala** اعتنق ملوكه الإسلام، وكانوا تابعين لمملكة غانة الإسلامية في القرن (11 م)، ثم انفصلوا عنها وتوسع ملوكها في أوائل القرن (13 م) في الجنوب الشرقي مما أثار حفيظة ملك الصوصو المجاور له؛ إذ انقض عليهم في عام (1230م)، وقتل ملكهم وإخوته العشرة، ولم يبق إلا الأخ الحادي عشر الذي يُسمى سندياتا ويُعرف باسم ماري جاطة أي الأمير الأسد، والذي كان قد تمكن من الهرب نحو الجنوب؛ حيث جمع حوله كثيرًا من القبائل الموالية لأسرة كيتا، وأخضع بفضلها القبائل المجاورة وانتصر في جميع الحروب التي شنها، مما ساعده في تثبيت ملكه. ثم أعد جيشًا كبيرًا مكونًا من (12) فرقة مدربة أحسن تدريب؛ لقتال ملك الصوصو والانتقام منهم، والتقى به في موقعة فاصلة عند كيرينا في عام (1235م)؛ حيث انتصر سندياتا وقتل ملك الصوصو واستولى على بلاده، ثم نجح في عام (1240م) في الاستيلاء على مملكة غانة الإسلامية، واتخذ من مدينة أنشأها على نهر النيجر تُسمى نياني عاصمة لملكه، واشتهرت هذه المدينة باسم مالي وصار

اسمها علمًا على الدولة كلها التي اتسعت في عهده، وصارت  
إمبراطورية واسعة تمتد من بلاد الولوف والمحيط الأطلسي غربًا  
إلى أواسط نهر النيجر شرقًا، ومن فوتاجالون جنوبًا إلى  
كومبي صالح عاصمة غانة السابقة شمالًا. وقد مات سندياتا في  
عام (1255م) بعد أن وضع لأبنائه وأحفاده أساس هذه الدولة  
الواسعة؛ ولذلك فإنه يُعد المؤسس الحقيقي لسلطنة مالي

(857/10)

---

الإسلامية في العصور الوسطى.

(858/10)

---

#### \*سومانجورو (ملك الصوصو)

سومانجورو آخر ملك من ملوك دولة الصوصو الوثنية. والصوصو  
فرع من الفولانيين كان قد هاجر من تكرر التي تقع في حوض  
نهر السنغال واتجه شرقًا إلى إقليم كانياجا في حوض نهر  
النيجر، حيث أسس طبقة حاكمة ودولة اتسعت فيما حولها في  
نهاية القرن (12 م)، بعد أن تخلصوا من تبعيتهم لدولة غانة  
الإسلامية التي كانت مجاورة لهم من ناحية الشمال والغرب،  
وكانوا يدفعون لها الجزية، واستطاع ملك الصوصو الذي يُعرف  
باسم سومانجارو أن يحطم هذه الدولة ويستولى عليها في عام  
(1203 م). ثم اصطدم بعد ذلك بدولة مالي النامية في كانجابا  
وشن عليها الحرب وأباد الكثير من سكانها وقتل ملكها المدعو  
كوننيوغو سبماكيئا، كما قتل إخوته العشر الذين تولوا الحكم  
تباعًا بعد أخيهم المقتول، ولم يفلح في القضاء على الأخ  
الحادي عشرة الذي يعرف باسم سندياتا واشتهر باسم ماري

جاطة، والذي كان قد هرب ناحية الجنوب وبدأ يكون جيشًا  
جرارًا للانتقام من ملك الصوصو الذي قتل إخوته الأحد عشر  
واستولى على الجزء الشمالي من بلادهم، وكان يستعد للقضاء  
على سندياتا قبل أن يستفحل أمره، وتذرع بأن سندياتا اقتحم  
بلاد الصوصو خلال توسعه وغزواته للأقاليم التي تقع بين  
بلديهما. ويقال: إن سومانجارو كان قد تزوج بأخت سندياتا  
عندما تغلب على إخوتها وقتلهم، وشجعت هذه الأخت هذا  
الزواج حتى تضع يدها على أسرار هذا الملك الوثني وتتعرف  
على مواطن ضعفه. ولما وصلت إلى غرضها عادت إلى أخيها  
سندياتا وزودته بما جمعت من معلومات عن سومانجارو مما كان  
سببًا من أسباب هزيمته على يد سندياتا الذي قضى عليه وعلى  
دولة الصوصو بآجمعها وضمها إلى دولة مالى الإسلامية، وذلك  
بعد موقعة حربية فاصلة وقعت بين سومانجارو وسندياتا تعرف  
باسم المكان الذي وقعت فيه وهو كيرينا وذلك في عام (1235 م  
)، وهو العام الذي شهد نهاية هذه الدولة الوثنية ونهاية زعيمها  
سومانجارو نفسه.

(859/10)

#### \* سيف بن ذى يزن

هو أحد أبطال اليمن، من حمير، استعان بالفرس لإخراج الأحباش  
من بلاده بعد أن كانوا قد احتلوها عام (525م) على يد أرباط  
القائد الحبشى الذى حكمها منذ ذلك الحين، ثم تنافس معه في  
حكمها قائد حبشى آخر هو أبرهة الأشرم الذى تغلب على أرباط  
وقتله، فدانت له اليمن وتعاقب على حكمها بعده ابنه يكسوم  
ثم مسروق. وفي عهد الأخير ظهر سيف بن ذى يزن الحميرى،  
وثار على حكم الأحباش لبلاده واستعان فى قتاله لهم بالفرس

حوالى عام (575 م). فقد أرسل له كسرى فارس حملة فارسية بقيادة دهرز تمكنت بالتحالف مع سيف والوطنيين اليمنيين من قتل مسروق والقضاء على حكم الأحباش لليمن، وصار سيف بن ذى يزن ملكًا على هذه البلاد وقفل دهرز عائداً إلى فارس، ولكن بعض الأحباش الباقين في اليمن وثبوا على سيف وقتلوه غيلة، فأعاد كسرى فارس قائده دهرز على رأس قوة جديدة قضت على التمرد الحبشى وبقيت اليمن في قبضة الفرس يحكمها ولاية منهم حتى ظهر الإسلام، وكان حاكمها وقتذاك فارسي يدعى باذان، ولم يلبث أن أسلم وأقره الرسول - صلى الله عليه وسلم - عاملاً على اليمن تحت راية الإسلام. والجدير بالذكر أن الأسرة الحاكمة لدولة الكانم والبرنو الإسلامية في حوض بحيرة تشاد انتسبت إلى سيف بن ذى يزن، وتسمت باسم الأسرة السيفية الماغومية، على أساس أن امرأة من كانم كانت قد تزوجت من سيف، ثم عاد أبناؤها منه إلى بلادهم في كانم وأسسوا هذه الدولة الإفريقية التي حكمت هذه البلاد لمدة ألف عام، من القرن التاسع إلى القرن التاسع عشر للميلاد، بعد أن اعتنقوا الإسلام ونشروه بين قومهم، كما نشروا الثقافة العربية الإسلامية في هذه المنطقة من القارة التي كانت تُعرف باسم السودان الأوسط، والتي تعرف اليوم باسم جمهورية تشاد.

(860/10)

### \*صبر الدين الأول (سلطان أوفات)

هو صبر الدين الأول محمد بن عمر ولشمع الذى ينتمى إلى بنى عقيل بن أبى طالب أو بنى عبد الدار من قريش، حيث هاجر نفر منهم إلى منطقة القرن الإفريقى فى عصور الإسلام الأولى، وأقاموا سلطنة أوفات الإسلامية على يد عمر ولشمع حوالى

منتصف القرن (13 م) فيما بين هضبة الحبشة وبين ساحل البحر الأحمر. حكم أولاد عمر ولشمع ومنهم صبر الدين الأول وهو ثالث من حكمها من أفراد هذه الأسرة العربية، وكان معاصرًا لملك الحبشة عمدا صيون (1314 - 1344م). وكان هذا الملك الحبشى قد خرج بجيوشه الجزاراة عام (729هـ = 1328م)، وهجم على سلطنة أوفات من جميع نواحيها وأسر سلطانها حق الدين الأول بن عمر ولشمع، وعين عليها أخاه صبر الدين الأول، على أن يعترف هذا السلطان الجديد بسيادة ملك الحبشة ويعلمن طاعته له. وكان الأحباش منذ نهاية القرن (13م) لا يريدون أن تقوم بجوارهم سلطنة إسلامية قوية تستقل بحكم هذه المنطقة الواسعة التي فاقت مساحة مملكة الحبشة نفسها، ومن ثم فقد حاربوا سلطنة أوفات وفرضوا طاعتهم على بعض سلاطينها، ومنهم السلطان صبر الدين الأول الذى لم يطق صبرًا على تبعيته لهم، وأراد أن يتخلص من نير الأحباش وسيطرتهم، وكون حلفًا إسلاميًا من أوفات ومملكة هدية الإسلامية ومملكة دوارو الإسلامية، وكانتا تقعان جنوب أوفات، وغزا كثيرًا من أقاليم مملكة الحبشة وهدد عمدا صيون ملك الحبشة فى عقر داره، فقام هذا الملك وعبأ جيوشه وغزا هذه الممالك الإسلامية وأسر ملوكها وكثيرًا من أهلها وحملهم معه إلى عاصمته؛ مما أجبر صبر الدين الأول على المثل بنفسه أمام عمدا صيون، فقتله وضم أوفات وهدية وفتحها وجعلها مملكة واحدة وعين عليها جلال الدين أخا السلطان القليل بعد أن رضى جلال الدين أن يدفع له الجزية وأن يكون تابعًا له.

## \*صبر الدين الثاني (سلطان عدل)

هو صبر الدين الثاني على بن سعد الدين، من أسرة عمر ولشمع القرشية التي أقامت سلطنة أوفات الإسلامية، ولما قضى عليها الأحباش أقامت سلطنة عدل الإسلامية فيما بقى من أراضى سلطنة أوفات، فيما يُعرف الآن بالصومال الشمالى والغربى (أوجادين) ومنطقة هرر وجيبوتى، وهى البلاد التى تقع جنوب نهر عواش، وكان صبر الدين الثانى هذا هو أول سلطان يتولى حكم هذه السلطنة الجديدة، وذلك فى الفترة من (817 - 825 هـ = 1414 - 1422 م). وكان صبر الدين قد فرَّ هو وإخوته التسعة إلى اليمن عقب استشهاد والدهم سعد الدين آخر سلاطين أوفات فى عام (805 هـ = 1402م)، فساعدهم ملك اليمن وعادوا إلى إقليم عدل، وأقاموا هذه السلطنة بعد أن انضم إليهم جنود أبيهم وأولياء دولتهم السابقة. واتخذ صبر الدين الثانى مدينة دُكر عاصمة له، وجمع شمل المسلمين حوله واستأنف الجهاد ضد الأحباش انتقامًا لمقتل أبيه سعد الدين، واسترجاعًا لنفوذ أسرته، وإنقاذًا للإسلام من الضياع، وهاجم الأحباش فى عدة مواقع انتصر فيها، ثم هزمه إسحاق ملك الحبشة الذى كان قد كوّن دولة منظمة وجيشًا مدرّبًا أحسن تدريب بمساعدة بعض قبض مصر وبعض فرسان المماليك الفارين من مصر إلى الحبشة خوفًا من خصومهم فى مصر. ومن ثم اضطر صبر الدين الثانى إلى اتباع أسلوب حرب العصابات نظرًا لكثرة جنود الأحباش وقلة جنده، وتمكن أخوه محمد وقائده حرب جوش - الحبشى الأصل والذى كان قد أسلم وانضم إلى صبر الدين الثانى - أن يهزم جيشًا حبشيًا فى موقعة يُقال لها رطوى؛ مما شجع صبر الدين على القتال بنفسه، فهاجم أحد قصور ملك الحبشة وأحرقه وهزم جنده، وأرسل عددًا من قواده فتوغلوا فى بلاد أمهرة، أى فى قلب هضبة الحبشة، وكان هذا خطأ من الناحية العسكرية؛ ذلك

أن الأحباش أحاطوا بجيش صبر الدين الثاني وقتلوا جميع الجند  
ومثلوا بجثثهم، فلم يطق صبر الدين الثاني صبراً على هذه

(862/10)

---

الهزيمة القاسية فاندفع يقاتل الأحباش في تمور، وتوغل في  
إحدى معاركه بين صفوفهم فكادوا يأسرونه، ولكنه أسرع  
بالفرار ونجا من الأسر، واستمر يقاوم هيمنة الأحباش وسيطرتهم  
على ما استعمروه من بلاد الزيلع حتى مات حتف أنفه في عام  
(825 هـ = 1422 م).

(863/10)

---

### \* عبد الله الزيلعي

هو أحد فقهاء بلاد الزيلع التي تُعرف اليوم باسم إريتريا  
وجيبوتي والصومال (الشمال)، وهرر وجزء كبير من إثيوبيا ضم  
إليها قهراً قرب نهاية القرن الماضي بمساعدة الدول الأوروبية.  
ويُعتبر هذا الفقيه من المصادر الرئيسية التي اعتمد عليها ابن  
فضل الله العمري في كتابه تاريخ بلاد الزيلع، وعنه أخذ  
المقريزي والقلقشندي. وقد وصل عبد الله الزيلعي إلى مصر  
في عام (737 هـ = 1337 م) ربما لتلقي العلم في الجامع الأزهر،  
أو لتقديم شكواه إلى سلطان مصر الناصر محمد بن قلاوون  
ليتوسط هذا السلطان عند ملك الحبشة (إثيوبيا) حتى يمتنع هذا  
الملك عن اضطهاده وحروبه لبلاد المسلمين الزيالعة المجاورين  
له، وربما كان مجيء هذا الفقيه لتحقيق الهدفين معاً. المهم أن  
هذا الشيخ الزيلعي انتهاز فرصة وصول رسول ملك الحبشة لطلب  
المطران القبطي - الذي كان يُرسل من مصر لرأس كنيسة الحبشة

حسب التقليد المتبع في ذلك منذ ما قبل الإسلام - وسعى لدى سلطان مصر كي يعمل ما في وسعه وينتهز هذه الفرصة ويكتب إلى ملك الحبشة حتى يكفأ أذاه عمَّن في بلاده من المسلمين وعن أخذ حريمهم. وكانت مصر تضغط بهذه الورقة - وهي إرسال أو عدم إرسال المطران القبطي للحبشة - حتى يمتنع ملوكها عن اضطهادهم للمسلمين الزيالة الذين يقعون تحت سلطانهم أو المسلمين في بلاد الحبشة ذاتها، ذلك أن منع إرسال هذا المطران كان يصيب الحياة السياسية والاجتماعية والدينية في الحبشة بأضرار بالغة. وكان الزيالة في ذلك الحين قد أصيبوا بضربة شديدة عندما قام ملك الحبشة عمدا صيون بغزو بلادهم وخاصة سلطنة أوفات الإسلامية التي كانت سلاطينها يتزعمون حركة الجهاد ضد الأحباش في ذلك الحين، فدمر عمدا صيون وخرَّب الكثير من هذه البلاد في عام (728هـ = 1328 م)، وأخضع سلطنة أوفات وما جاورها لحكمه، وعزل سلاطينها صبر الدين وعين أخاه جلال الدين الذي رضى بأن يدفع

(864/10)

---

له الجزية وأن يكون تابعًا له. ومن ثم سعى الشيخ عبد الله الزيالي إلى مقابلة سلطان مصر لدفع هذا الضر عن قومه وبلادهم، فاستجاب له الناصر محمد بن قلاوون وأمر بطيريك مصر بكتابة رسالة لملك الحبشة في هذا المعنى، فكتب البطريرك كتابًا بليغًا شافيًا فيه معنى الإنكار لهذه الأفعال، وأنه جرَّم هذا على من يفعله بعبارات أجاد فيها على حد تعبير ابن فضل الله العمري، وذلك نتيجة لمسعى الشيخ عبد الله الزيالي الذي يمكن أن يُعتبر رسولاً من ملوك الزيالع إلى سلطان مصر لتحقيق هذا الغرض.

\*عبد الله بن كادى

هو الماي الواحد والعشرون فى سلسلة المايات (السلطين) الذين حكموا سلطنة الكاخم الإسلامية التى تقع شمال شرقى بحيرة تشاد، فقد حكم هذا الماي (21) عامًا فى الفترة من (1321 - 1342م). وكانت البلاد تعيش منذ بداية القرن (14م) عصر تدهور وضعف؛ نتيجة للصراع الداخلى الذى شبَّ بين أبناء البيت الحاكم على كرسى العرش، ونتيجة للمنافسات الدموية التى اشتدت بين السادة الإقطاعيين من أمراء البيت الحاكم ومن يلوذ بهم، ونتيجة لاشتداد خطر قبائل البلالة وقبائل الصو؛ وترتب على ذلك أن ضعفت البلاد واشتدت الفتن حتى قام أحد المايات وهو الماي إبراهيم بن بىرى (1300 - 1321م) بقتل ابنه، وتعرض هذا الماي نفسه للقتل على أيدى اليريمة - أى حاكم الشمال - وهو أحد أعضاء مجلس الأكابر الأعلام المكون من (12) عضوًا كانوا يساعدون الماي فى حكم البلاد - وقد خلفه فى الحكم الماي عبد الله بن كادى ولم يؤثر عنه إلا أنه كافأ الأشخاص الذين انتشلوا جثة السلطان القتيل عند مدينة دسكام بالقتل لأنهم رأوا عورة السلطان القتيل. كما حدث فى عهده حرب أهلية بين البفاريمة - أحد أعضاء المجلس المشار إليه - وجايو ابن حاكم مدينة سينا التى تقع فى الجنوب من العاصمة نجيمى، ربما بسبب محاولة الأخير الانفصال عن الدولة. ويقال: إن الماي عبد الله بن كادى كان قد تلقى أخبارًا عن أربعة لصوص كانوا أبناء أمٍّ واحدة، فأرسل فى استدعائهم وعندما حضروا بين يديه أمر بقتلهم فقتلوا، فابتهلت أمهم إلى الله سبحانه وتعالى أن ينتقم من هذا الماي وأن يقطع دابره، فاستجاب الله لدعائها، فمات الماي توفًا فى أحد الحروب التى اشتعلت ضده فى بعض أقاليم

الدولة التي كانت تحاول الانفصال والتمرد على حكم الأسرة  
الحاكمة في نجيمى.

(866/10)

### \*عبد الجليل بن سيكوما (سلطان البلالة)

هو أول زعيم بارز من زعماء قبائل البلالة التي كانت تعيش  
شرق بلاد كانم وشمال بحيرة فترى. وكان هؤلاء الزعماء  
يخضعون لبني عمومتهم من مايات (ملوك) الأسرة السيفية  
الماغومية التي كانت تحكم بلاد كانم التي تقع شمال شرق  
بحيرة تشاد منذ ما قبل القرن (9 م). ويعود الفضل إلى هذا  
الزعيم في تخليص البلالة من هذه التبعية منتهزاً فرصة ضعف  
كانم، فقد أقام دولة كانت عاصمتها مدينة ماسيو التي تقع  
شمال بحيرة فترى منذ عام (767هـ=1365م)، ثم تحالف مع قبائل  
النجيزام وغيرها من قبائل مملكة كوكا (جاوجا) التي كانت  
عاصمتها جاو والتي كانت تقع في حوض بحيرة فترى، نظراً  
لكراهية هذه القبائل لحاكمهم على زينا بسبب قسوته عليهم  
وظلمه لهم، فحاربه عبد الجليل وضم بلاده إليه واتخذ من مدينة  
جاو عاصمة له، ثم بدأ يتوسع في البلاد المحيطة به حتى امتدَّ  
نفوذه ليشمل المنطقة الممتدة من بورقو إلى مويو وأهير. ثم  
اتجهت جهود هذا الزعيم إلى القضاء على حكم الأسرة الماغومية  
في كانم، وضم هذه البلاد الواسعة إلى دولته، وخاض في  
سبيل ذلك صراعاً مريئاً ضد سلاطينها وتمكن بمساعدة العرب له  
من قتل أربعة منهم؛ مما أجبر هذه الأسرة الحاكمة في كانم  
إلى الهرب إلى إقليم برنو الذى يقع شمال وغرب بحيرة تشاد،  
وذلك في عهد الماي عمر بن إدريس (788 - 793 هـ = 1386 -  
1391 م)، وبدأ حكم البلالة لكانم منذ ذلك الحين. وهكذا يعود

الفضل في اتساع سلطنة البلالة على هذا النحو إلى زعيمها عبد  
الجليل بن سيكوما، وما كان يتمتع به من صفات الزعامة والقوة،  
حيث كان مشهوراً بالفروسية والقوة والشجاعة فضلاً عن  
المغامرة، إذ لم يكتفِ باتساع دولته على هذا النحو، بل طارد  
الماغوميين في برنو وقتل بعض سلاطينهم، ثم هدأت الأمور بينه  
وبينهم حتى مات في عام (814هـ = 1411م)، بعد أن حكم سلطنة  
البلالة الواسعة (46) سنة.

(867/10)

### \*عثمان بن فودي

وُلد الشيخ عثمان بن فودي في عام (1168هـ = 1754م) في  
مملكة غوبير - وهي إحدى ممالك الهوسا في شمالي نيجيريا -  
لأبوين صالحين ينتميان إلى إحدى قبائل شعب الفولاني الذي  
كان يسكن وقتذاك هذه البلاد. وقد نشأ الشيخ عثمان نشأة  
دينية إسلامية، وأولع منذ صغره بالعبادة والعلم، وارتحل في  
طلب العلم حتى شهد بفضله وعلمه علماء زمانه، وارتحل إليه  
الطلاب للاستفادة من علمه الغزير، وكان الشيخ عثمان يتعهدهم  
لا بتحصيل العلم وحده ولكن بتنشئتهم على منهج الإسلام في  
سلوكهم وعاداتهم وتقاليدهم؛ فأوجد جيلاً من الطلاب والعلماء  
يدينون له بالطاعة والولاء، وبفضلهم اتسعت دعوته التي كانت  
موجهة للمسلمين بهدف تصحيح إسلامهم، وإلى غير المسلمين  
بهدف إدخالهم في الإسلام، وإلى المجتمع بهدف إقامة شريعة  
الإسلام. ثم انتقل الشيخ عثمان بعد ذلك إلى مرحلة تالية، وهي  
الهجرة إلى واحة تقع على حافة الصحراء في شمال غوبير  
بهدف إقامة رباط يتجمع فيه أتباعه والمخلصون لدعوته بعد أن  
اضطهده ملك جوبير؛ فهاجر إليه ما يربو على (5000) حيث

بايعوه في عام (1804م) بالإمارة، وعلى اتباع الكتاب والسنة، وعلى نصرته دين الله تعالى. ولم يلبث عثمان أن اختار وزراءه، وعين قائدًا لجيشه، وإمامًا لصلاته. ولما علم بذلك ملوك بلاد الهوسا تضافروا جميعًا وعلى رأسهم ملك جوبير على القضاء على الشيخ عثمان ودعوته، وجرّدوا عليه عدة حملات عسكرية؛ فأعلن الشيخ الجهاد ضدهم، وظل يجاهدهم حتى قضى على حكمهم الذي كان يخالف الإسلام في كثير من مظاهره، وقامت على يديه دولة إسلامية كبرى هي دولة الفولانيين، اتخذت من مدينة سوكوتو عاصمة لها، واستطاعت أن تصبغ السودان الأوسط الذي يمتد من نهر النيجر إلى بحيرة تشاد بصبغة الإسلام التي لازال يتميز بها حتى الآن. كما زحفت قواته شرقًا إلى دولة البرنو الإسلامية التي كان قد أصابها الضعف والانحلال منذ

(868/10)

---

قرون، وهزمت قوات هذه الدولة واستولت على مدينة بيرني عاصمة البرنو وهرب سلطانها في عام (1811م)، ولم تعد هذه العاصمة للبرنويين بعد ذلك، وصارت معظم نواحي إقليم برنو جزءًا من دولة الشيخ عثمان وأبنائه من بعده، ولم يلبث أن توفّي الشيخ عثمان في عام (1817م) بعد أن كوّن هذه الإمبراطورية الواسعة، وترك القيام بأمر الدعوة والدولة لأخيه عبد الله وابنه محمد بلو.

(869/10)

---

\*على بن دالاتو

هو الماي الثامن والستون في سلسلة المايات أو السلاطين الذين

حكّمو سلطنة البرنو الإسلامية التي تقع أساسًا غربي بحيرة تشاد، وامتد نفوذها لتضمّ بلاد كانم بعد أن كانت الأسرة الحاكمة في كانم قد انتقلت إلى إقليم برنو قرب نهاية القرن (14م) فرارًا من بطش البلالة بهم، واستقرت الأسرة الحاكمة في برنو واستردت نفوذها في كثير من أنحاء كانم في عهد الماي إدريس ألوما قرب نهاية القرن (16م). وتطورت الأمور بهذه السلطنة البرنوية حتى تعرضت في بداية القرن (19م) إلى خطر جديد هو خطر الفولانيين الزاحف عليها من حوض نهر النيجر، فقد زحف الفولانيون واستولوا على عاصمة برنو في (مارس سنة 1808م)، وهربت الأسرة الماغومية الحاكمة وعلى رأسها الماي دوغة بن الماي أحمد بن علي نحو الشمال، حيث التقى هناك بأمر من أمراء الشمال هو الشيخ محمد الأمين الكانمي، الذي قدم المساعدة لهذا الماي الهارب، فاستعاد العاصمة في عام (1811 م)، ولكن الفولانيين استولوا عليها مرة أخرى، فلجأ الماي دوغة إلى الشيخ محمد الأمين الكاغى، الذي اشتد نفوذه وأصبح هو الحاكم الفعلي للبلاد. ولما اشتدت وطأته على هذا الماي تأمر الأخير عليه مستعينًا بسُلطان سلطنة باجرمي التي تقع جنوب بلاد كانم. وحدث أن قُتل الماي دوغة خطأ على يد جيش باجرمي، فتقدم أخوه إبراهيم وعينه الشيخ محمد الأمين الكانمي مأيًا بشروط معينة، ولكن الماي إبراهيم كرر خطأ أخيه فتآمر مع سلطان واداي - التي تقع شرق بلاد كانم - كي ينقذ برنو من تحكم أسرة الشيخ محمد الأمين الكانمي، وتقدم سلطان واداي وأباد جيش برنو في عام (1846م)، واشترط على الشيخ عمر بن الشيخ محمد الأمين الكانمي الذي كان هو الحاكم الفعلي بعد موت أبيه أن يُعيّن علي بن دالاتو - وهو أحد أمراء الأسرة الماغومية الشرعية - في منصب الماي، فقبل عمر بهذا الشرط. ولما رحل جيش واداي وزال الخطر، قام الشيخ عمر بمحاربة

(870/10)

---

المأى على بن دالاتو وقتله في عام (1846م) بعد أن حكم أربعين يوماً فقط، ومقتل على بن دالاتو في ذلك العام انتهى عهد الأسرة الماغومية السيفية التي حكمت بلاد الكانم والبرنو حوالى ألف عام، وكان على بن دالاتو هو آخر سلاطين هذه الأسرة.

(871/10)

---

#### \*فضيل بن سليمان (سلطان كلوة)

هو السلطان فضيل بن سليمان أحد سلاطين سلطنة كلوة الإسلامية، التي نشأت أولاً في جزيرة كلوة التي تقع أمام ساحل ما يُعرف الآن بتنزانيا في عام (365هـ = 975م)، وامتد نفوذها إلى هذا الساحل وإلى المناطق التي تحيط به والتي تمتد من ممبسة في الشمال إلى ميناء سوفالة جنوب نهر الزمبزي، فيما يُعرف الآن بموزمبيق من ناحية الجنوب. وقد استمرت هذه السلطنة الإسلامية في الوجود وتمتعت بالازدهار الحضارى والتجارى والعمرانى، حتى هاجمها البرتغاليون قرب نهاية القرن (15م)؛ مما هيا الفرصة للقضاء عليها، خاصة وأن الأمراء كانوا يتصارعون فيما بينهم على السلطة، وكانوا يُولون من شاءوا من السلاطين ويعزلونهم. وكان آخر هؤلاء السلاطين فضيل بن سليمان الذى حكم هذه السلطنة في الفترة من (901 – 905هـ = 1495 – 1500م)، وكان الحاكم الفعلى هو الأمير محمد كواب الذى عين هذا السلطان بعد أن عزل السلطان السابق وهو السلطان حسن الذى فرَّ شمالاً، ولم يلبث أن كون جيشاً وحاول

استعادة نفوذه في كلوة مستعينًا في ذلك بسلطان زنجبار،  
وحدثت حرب أهلية بين الفريقين انهزم فيها حسن وعاد من حيث  
جاء. ولم يلبث أن مات الأمير محمد كواب القابض الفعلي على  
السلطة في كلوة وخلفه في منصب الإمارة الأمير إبراهيم بن  
سليمان الدموي، وفي عهد هذا الأمير وفي عهد السلطان فضيل  
بن سليمان جاءت الأنباء بوصول سفن برتغالية وأنهم مروا  
بكلوة إلى ممبسة في عام (1498م)، ثم منها إلى بلاد الهند  
بقيادة فاسكوداجاما، ثم عادت إلى البرتغال التي أرسلت حملة  
أخرى بقيادة بدرو ألفاريز كابرال عبرت رأس الرجاء الصالح  
ووصلت إلى كلوة في (يونيه 1500 م). ولم يلبث الأمير إبراهيم  
أن انقضَّ على السلطان فضيل وعزله وتولى العرش وقتله، وفي  
عهده أتى البرتغاليون للمرة الثانية إلى كلوة بقيادة  
فاسكوداجاما واحتلوا المدينة في (يوليه 1502م) وأرغموا الأمير

(872/10)

---

إبراهيم على الاعتراف بتبعيته لملك البرتغال. ولم يفعل ذلك  
السلطان فضيل عندما كان في الحكم رغم أنه لم يكن له من الأمر  
شئ. وهذا السلطان هو آخر سلاطين أسرة المهدي العربية  
التي حكمت سلطنة كلوة الإسلامية في أواخر العصور الوسطى.

(873/10)

---

\*قبلى أبو جريدة (سلطان تقلى السودانية)

هو ابن فقيه من أصل عربي يُدعى محمد الجعلى. وكان هذا  
الفقيه يقيم قرب مصب نهر عطبرة في نهر النيل بالسودان، ثم  
هاجر هذا الفقيه الذى كان أحد مشايخ الطرق الصوفية إلى

جبال النوبا حوالى عام (1530م) مع مجموعة من العلماء والفقهاء لنشر الإسلام فى هذه الجبال التى تقع جنوب كردفان وغرب النيل الأبيض وشمال بحر العرب، وهى غير بلاد النوبة التى تقع جنوبى مصر وشمالى السودان. وقد قاده السكان عند وصوله إلى هذه الجبال إلى زعيمهم المسمى كبر كبر، فأكرم وفادته، وبدأ محمد الجعلى عمله فى نشر الإسلام واجتذب قلوب الناس بورعه وطيب أخلاقه وحميد صفاته، ولما آنس منه كبر كبر ذلك زوجه ابنته، فولدت له ولدًا سماه قىلى أبوجريدة، وقىلى لفظ نوبى يعنى: الأحمر، فىكون اسمه: الأحمر صاحب الجريدة، والأحمر هنا تعنى أنه من غير السود، لأنه من أصل عربى، وبعد وقت قليل مات الزعيم كبر كبر فانتقل الحكم تلقائياً إلى حفيده قىلى أبو جريدة حسب التقاليد المرعية هناك والتى تجعل الحكم ينتقل إلى ابن البنت أو ابن الأخت. وبذلك أصبح قىلى أبوجريدة سلطاناً على سلطنة حملت اسم سلطنة تقلى الإسلامية، ويعتبر هو المؤسس لهذه السلطنة، التى ظل سلاطينها من ذريته يتعاقبون على حكمها حتى بداية القرن (20 م). حكم السلطان قىلى أبو جريدة هذه السلطنة فى الفترة من (1560 - 1585م)، وبنى مسجداً وعمل على نشر الإسلام بين شعبه، وشجع المسلمين من مختلف البلاد على الهجرة إلى بلاده والاستقرار فيها، كما شجع التجارة بين بلاده ومختلف البلاد الإسلامية، وبدأ التزاوج بين القبائل النوباوية وبين القبائل العربية والتجار العرب المهاجرين إلى تقلى يؤتى ثماره، فازداد انتشار الإسلام وانتشرت العروبة فى جبال النوبا، وكان فى كل قرية زاوية تجمع بين المدرسة والمسجد، وظلت هذه الزوايا تتمتع بشهرة

كبيرة، وكان لها أثرها الكبير في نشر الثقافة العربية الإسلامية في هذه السلطنة السودانية النائية. كل ذلك بفضل مؤسس هذه السلطنة الإسلامية قبلي أبوجريدة بن محمد الجعلي، العربي الأصل الذي مات وخلفه في حكمها (29) من أبنائه وأحفاده، حتى جاء الحكم المصري في عهد محمد علي باشا.

(875/10)

### \*أسكيا محمد الأول

كان أسكيا محمد الأول في الأصل قائداً من قواد سني علي ملك دولة صنغي الإسلامية التي كانت تقع في غرب إفريقيا، وكان أسكيا محمد من قبائل السوننك المشهورة بنشر الإسلام في هذه المنطقة من القارة منذ القرن (11م)، بينما كان سني علي مشغولاً بمشروعاته السياسية وتوسعاته في المناطق المحيطة بدولته؛ مما صرفه عن الاهتمام بالأمور الدينية، مما مهد السبيل أمام أحد قواده وهو محمد بن أبي بكر التوري، إذ أعلن هذا القائد الثورة ضد ابن سني علي الذي كان قد تولى العرش بعد وفاة والده، واستطاع هذا القائد الاستيلاء على السلطة، وأطلق على نفسه لقب أسكيا ومعناه: القاهر، وأصبح يُعرف باسم أسكيا محمد الأول، أو أسكيا الحاج محمد، أو أسكيا محمد الكبير. وحكم أسكيا محمد البلاد في الفترة من (1493 – 1529م)، وقام بتنظيمها من الناحية الإدارية ونظم الجيش، واتخذت حركته مظهرًا إسلاميًا واضحًا، إذ اعتنى بتطبيق الشريعة الإسلامية وقضى على مظاهر الفساد، وأنشأ المساجد، وأدى فريضة الحج في عام (1496م) في موكب اتصف بالعظمة والأبهة والفخامة، وأنفق مئات الألوف من الذهب على فقراء الحرمين الشريفين، واهتم بحركة الجهاد لنشر الإسلام بين الوثنيين

الخطين بدولته، وأرسل علماء من تمبكت لتتحقيق هذا الغرض،  
وبلغت إمبراطورية صنغى فى عهدده أقصى اتساع لها، حتى  
صارت أضخم من إمبراطورية مالى الإسلامية التى كان ملوك  
صنغى الأوائل قد ضموا معظم أراضيها إلى بلادهم وأكمل  
أسكيا محمد الأول مافعلوه، ولكن حكمه آذن بالزوال حينما  
أصيب بالعمى وانتابه المرض وتآمر عليه أولاده، وعزله أحدهم  
وتولى الحكم فى (1529م). واستمر أسكيا محمد الأول سجين  
داره وبصره حتى تُوفى بعد ذلك ببضعة أعوام، بعد أن أسس  
لأولاده وأحفاده من بعده إمبراطورية واسعة الأرجاء، ونشر  
الإسلام فى كثير من البلدان المحيطة به، وطبّق الشريعة

(876/10)

---

الإسلامية فى بلاده؛ ولذلك استحق أن ينسج المؤرخون حوله  
كثيراً من الكرامات والخوارق حتى وصلوا به إلى مرتبة الخلفاء  
الراشدين نظراً لاهتمامه بأمر العلم والدين.

(877/10)

---

**\*محمد بن مانى**

يُعتبر محمد بن مانى من أعظم الدعاة إلى الإسلام فى بلاد  
الكانم والبرنو التى تقع فى حوض بحيرة تشاد وما يحيط بها من  
بلدان. عاش فى القرن (15م) وعُمر (120) سنة، وعاصر (5) من  
مايات (سلاطين) كانم، أولهم الماى بولو الذى بدأ حكمه لهذه  
البلاد حوالى عام (1020م)، وآخرهم الماى أوم بن عبد الجليل  
الذى بدأ حكمه عام (1085م). وقد اجتهد هذا الداعية العظيم فى  
تحويل هؤلاء السلاطين إلى الإسلام وتثقيفهم فى الدين، ونجح

في ذلك النجاح كله فأسلموا وأقرأهم القرآن، فقرأ مع الماي بولو الجزئين الأخيرين من القرآن الكريم من أول سورة الملك إلى نهاية سورة الناس، وكافأه هذا الماي على ذلك بمنحه (50) جملاً، كما قرأ الماي مع الماي أركى - الذى بدأ حكمه حوالى عام (1035م) - من أول سورة يس إلى نهاية سورة الناس فكافأه بمنحه (60) جملاً، وقرأ مع الذى خلفه وهو كادى - الذى بدأ حكمه حوالى عام (1075م) - من سورة مريم إلى سورة الناس فكافأه بأن منحه (70) جملاً، كما كافأه الماي عبد الجليل -الذى بدأ حكمه حوالى عام (1080م) - بأن أعطاه (80) جملاً، بعد أن أقرأه من سورة الأعراف إلى ما بعدها. أما الماي أوم بن عبد الجليل - الذى بدأ حكمه لبلاد كاتم عام (1085م)، فقد قرأ مع هذا الداعية العظيم القرآن الكريم كله، وقرأ معه أيضاً سيرة النبي - صلى الله عليه وسلم -، وأمر هذا الماي بمنحه مكافأة سخية عبارة عن: (100) بعير، و (100) قطعة من الذهب ومثلها من الفضة، و (100) من الرقيق، كما أصدر هذا الماي لهذا الداعية (محرماً) أى صكاً أوصى فيه بهذا الداعية، وأمر بجرمة أمواله ودمه هو وأسرته وذريته من بعده، ودعا على من يعتدى عليه وعليهم بالحرق فى نار جهنم. ومعنى ذلك أنه أعطاه الحصانة بمفهوما المعاصر، فلا يستطيع أحداً مهما كان - حتى لو كان من أسرة الماي نفسه - أن يمسه هو أو ذريته أو أمواله أو

(878/10)

---

امتيازاته بسوء. وقد أشار هذا الخرم أيضاً إلى أن الإسلام دخل هذه البلاد على يد هذا الداعية العظيم، وأصبح شائعاً بين الناس بفضل محمد بن مانى و الماي أوم بن عبد الجليل اللذين يعتبران المؤسسان الحقيقيان لسلطنة كاتم الإسلامية.

### \*محمد أبو اللكيلك

كان محمد أبو اللكيلك قائد الفرسان في جيش بادى الرابع أبو شلوخ سلطان الفونج في سلطنة سنار بالسودان، كما كان هذا القائد زعيم جماعة سودانية تُعرف باسم الهمق (الهمج)، كانت السلطنة تستعين بها في حروبها، وأصبح لها نفوذ كبير في هذه السلطنة السودانية الإسلامية بعد عزل السلطان بادى الرابع في عام (1762م). وكان هذا العزل على يد هذا القائد الذى زاد نفوذه واشتد سلطانه منذ أن حققت السلطنة نصرًا مؤزرًا على ملك الحبشة في (أبريل سنة 1744م). وكان هذا الملك قد هاجم السلطنة وقام جيشها بمدافعتة والانتصار عليه، واشترك في هذه المدافعة وساهم في هذا النصر الشيخ محمد أبو اللكيلك الذى علا نجمه منذ ذلك الحين، وقد توطد نفوذه بعد اشتراكه في جيش سنار الذى هاجم سلطنة كردفان في عام (1747م)، وأنقذ هذا الجيش من هزيمة منكرة وأحرز نصرًا مؤزرًا على سلطان كردفان؛ فعهد إليه بادى الرابع سلطان الفونج في سنار بحكم هذه السلطنة بعد طرد الأسرة الحاكمة منها. وكان الجند يحبونه لعزمه وقيادته الرشيدة، فألفتهم النفوس، وانقادت إليه القلوب، في الوقت الذى سار السلطان بادى الرابع على سياسة الظلم وقهر الرعية والتعسف في جباية الضرائب؛ مما جعل زعماء سنار بل وبعض أبناء الأسرة الحاكمة فيها يطلبون من محمد أبو اللكيلك سرعة التدخل والزحف على سنار وعزل هذا السلطان الظالم. فسار محمد بالجيش من كردفان إلى سنار، حيث قابله ناصر ابن السلطان نفسه وانضمَّ إلى جيش محمد، وحاصر هذا الجيش سنار فاستسلم السلطان وخلعه محمد أبو اللكيلك وولى ابنه ناصرًا مكانه في عام (1762م). وبذلك انتقلت

السلطة الفعلية من الأسرة الفونجية الحاكمة إلى الشيخ محمد أبو اللكيلك الذى تولى الوزارة وصار هو الذى يُعين ويعزل السلاطين، وأخذ يطارده منافسيه ويتخلص منهم، فكان أن قتل كبار أمراء الأسرة الحاكمة الشرعية، وامتدت يده إلى السلطان

(880/10)

---

ناصر نفسه، فعزله وحدد إقامته ثم قتله، وعين بدلاً منه أخاه إسماعيل بن السلطان بادی الرابع ملكاً على سنار. واستمر الأمر على هذا النحو حتى تُوفِّي محمد أبو اللكيلك. وبعد وفاته دار صراع على السلطة اشترك فيه الطامعون من الهمق والطامعون من بقايا الفونج، وآذن ذلك باختيار الدولة ومهد الطريق لتدخل مصر بجيشها الذى اجتاحت البلاد فى عهد محمد على باشا فى عام (1820م).

(881/10)

---

### \*محمود كعت التمبكتي

هو أحد العلماء البارزين فى سلطنة صنغى الإسلامية التى قامت فى غربى إفريقيا فى النصف الثانى من القرن (14 م)، وأصبحت إمبراطورية كبرى على عهد سلطانها أسكيا محمد الأول (899 - 935 هـ = 1493 - 1529 م). وكان محمود كعت يعيش فى عصر هذا السلطان العظيم الذى اهتم بالعلم والعلماء، وكان محمود كعت مؤرخ دولته وقاضيه، ولذلك كان فى معيته عندما أزمع هذا السلطان الرحيل إلى بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج فى عام (902 هـ = 1496 م)، تلك الرحلة التى وصفها محمود كعت فى كتابه الذى ألفه فى تاريخ هذه السلطنة الإسلامية وسمَّاه:

تاريخ الفتناء فى أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، وذكر وقائع التكرور وعظامم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار، وهو من أهم الكتب التى رصدت تاريخ هذه الدولة بدءاً من عصر أسكيا محمد الأول، وذيل عليه حفته. وقد امتد العمر بالشيخ محمود كمت حتى عاصر عددًا من أولاد أسكيا محمد الأول الذين حكموا بعد والدهم، إذ يذكر فى كتابه بعض الأحداث التى حدثت فى عصر أسكيا داود بن أسكيا محمد الأول الذى حكم سلطنة صنغى فى الفترة من (956 - 990هـ = 1549 - 1582 م) وكان شاهدًا عليها، ومن ذلك قصة تدل على ما كان يتمتع به هذا الفقيه القاضى وغيره من علماء عصره فى هذه السلطنة، وموجز هذه القصة أن أحد الحجاج صافح أسكيا داود على عادتهم فى ذلك، إذ كان السلطان يستقبل الحجاج ويصافحهم عند عودتهم تبركًا بهم، ولما حدث أن صافحه رجل من الرقيق ولاحظ ذلك رئيس الحرس - الذى كان يعرف أصل هذا الرجل - قام ونزع يد الرجل من يد السلطان وأقسم أن يقطعها، وكان محمود كمت جالسًا بجوار أسكيا داود فسأله الرأى، فأخذ محمود كمت يستنكر قطع يد الرجل بأسلوب فيه توبيخ شديد لرئيس الحرس، عندئذ قام أسكيا داود وسالت دموعه وقبّل الرجل ومنحه عطاءً جزيلاً، وأمر بعقاب رئيس الحرس، وأهدى القاضى محمود كمت

(882/10)

---

عشرة أثواب وخمسة عبيد جزاء نصيحته الخالصة لوجه الله تعالى، التى منعت السلطان أن يقع فى الإثم ومعصية الله؛ مما يدل على أن محمود كمت كان فقيهاً لا يخشى فى الله لومة لائم، كما كان محمود كمت مؤرخاً؛ إذ حفظ لنا بكتابه - الذى أشرنا إليه - تاريخ فترة مهمة لدولة إسلامية كبرى قامت فى هذا الجزء

الغربي من القارة في أواخر العصور الوسطى وأوائل العصر الحديث.

(883/10)

### \*منليك الثاني ملك الحبشة (إثيوبيا)

وُلد منليك الثاني في عام (1844م) وكان والده ملكًا على إقليم شوا في الجزء الشرقي من هضبة الحبشة، وعندما ظهر تيودور وأصبح ملكًا على الحبشة أخذ في القضاء على منافسيه ومنهم والد منليك الذي مات في معركة معه في عام (1855م)، وقبض تيودور على منليك وأخذه رهينة وسجنه، لكنه فر من سجنه وعاد إلى إقليم شوا وأعلن نفسه ملكًا على هذا الإقليم في عام (1865م)، وظل ينافس الملك يوحنا بن تيودور، فتحالف معه الأخير وصاهره، فتفرغ منليك للقضاء على السلطنات والإمارات الإسلامية التي تقع في بلاد الحبشة وفي بلاد الزيلع المجاورة لها. وواتته الفرصة بموت الملك يوحنا فتولى منليك عرش الحبشة كلها وورث جيش سلفه والكميات الضخمة من العتاد والأسلحة الحديثة التي أهدتها له بريطانيا، وتلك التي كان يوحنا قد حصل عليها من روسيا وإيطاليا. وبهذه الأسلحة وبمساعدة الإرساليات التنصيرية الأوروبية وبدعم من الدول الأوروبية استطاع منليك أن يُنفذ سياسته في القضاء على السلطنات الإسلامية، مثل: سلطنة هرر، وسيداما، وجيما وغيرها، واستولى عليها في عام (1887م) بعد أن انسحب منها الجيش المصري بضغط من الدول الأوروبية، وكانت مصر قد بسطت حكمها على تلك المناطق وحتى بلاد الصومال منذ عهد الخديو إسماعيل. كما كان من أهداف منليك القضاء على قبائل الجالا (الأوروموالآن)، التي ازداد خطرها وكثر عددها حتى أصبحت تمثل نصف سكان الحبشة،

بخلاف أنها اعتنقت الإسلام؛ ولذلك أصبح معظم سكان الحبشة من المسلمين، مما مثّل خطرًا كبيرًا على منليك وعلى المسيحية، وكان من أهم هذه القبائل قبائل الولوجالا التي كانت تقيم في قلب هضبة الحبشة وسط الممالك المسيحية، فحاربها منليك وانتصر على ملكها السلطان محمد علي وخيّر بين القتل أو اعتناق المسيحية، فتنصّر شكلاً وتسمّى بالرأس ميخائيل وزوجه

(884/10)

---

منليك من ابنته أريجاش وأنجب منها ولدًا سمّاه ليح ياسو أي: قلب يسوع. ولما لم يكن لمنليك أبناء ذكور فقد جعل حفيده هذا وليًا للعهد. ولما مات منليك في عام (1913م) أصبح ليح ياسو ملكًا على بلاد الحبشة (إثيوبيا الآن)، وفي التوّ أعلن هذا الملك إسلامه وبدأ ينشر الإسلام ويبني المساجد؛ فتآمرت عليه الدول الأوروبية والكنيسة المصرية والإثيوبية وعزلته عن الحكم في عام (1917م)، وخلفه الإمبراطور هيلاسلاسى آخر ملوك الحبشة من هذه الأسرة الحاكمة.

(885/10)

---

**\*نور بن مجاهد**

هو الأمير نور بن الوزير مجاهد الذي كان أحد وزراء الإمام أحمد بن إبراهيم الغازي المعروف باسم أحمد جران أو أحمد العزّين: أي الأشول، والذي غزا مملكة الحبشة وطارد ملكها لبنا دنجل حتى مات مغمومًا حزنيًا، وخلفه ابنه كالاديوس الذي استعان بالبرتغاليين وتمكن من هزيمة الإمام أحمد وقتله في بداية عام (1543م)، وموته انهارت المقاومة الإسلامية التي تزعمها هذا

الإمام، وبدأ الانهيار الفعلي لسلطنة عدل التي كانت تقود هذه المقاومة من مدينة هرر مركز الإمام، وحاولت أرملته وبعض وزرائه الانتقام من الأحباش واستعادة نفوذهم الذي ضاع في ممالك دوارو وفتحجار وبالي ولكنهم هزموا. ورغم ذلك لم يهدأ المسلمون والتفوا حول نور بن الوزير مجاهد ابن أخت الإمام أحمد وانتخبوه إماماً لهم في عام (1552م) وأسموه صاحب الفتح الثاني. فقد قام هذا القائد أو هذا الإمام الجديد. بتحصين مدينة هرر التي كانت منذ عهد الإمام أحمد مركزاً للمقاومة الإسلامية ضد الأحباش، وبني سورها الذي لا يزال يحيط بها إلى الآن، وكانت محاولاته في غزواته الأولى غير موفقة، ولكن سرعان ما تغير الموقف عندما أصبحت مملكة الحبشة مهددة بزحف قبائل الجالا جنوباً ومن الشمال بواسطة الأتراك العثمانيين. وكانت قبائل الجالا الوثنية قد انتهزت فرصة الفراغ السياسي الذي حدث في المنطقة بعد مقتل الإمام أحمد وأغارت على دوارو وبالي في عام (1547م)، وهاجمت جنوب الحبشة وتوغلت فيها، وفي الوقت نفسه تمكن العثمانيون على مصوع وحرقيقو وتوغلوا داخل أريتريا، بينما كان نور بن مجاهد يعزز قواته، اشتبك مع قوات ملك الحبشة جلاوديوس في معركة انتصر فيها نور انتصاراً مبيئاً؛ حيث هزم قوات هذا الملك الحبشي وقتله في (مارس عام 1559م)، واسترد كثيراً من الممالك الإسلامية التي كانت قد وقعت تحت نير الأحباش بعد مقتل الإمام أحمد جران؛ ولذلك سمّاه المسلمون الزبالعة بصاحب الفتح الإسلامي. وظل

نور بن مجاهد يحكم هذه الممالك الإسلامية حتى تُوفى في عام (1567م)، ودُفن في هرر، ولا يزال مسلموا الحبشة إثيوبيا يزورون قبره إلى اليوم.

(887/10)

### \*يجباصيون (ملك الحبشة)

هو يجباصيون بن يكونو أملاك، أحد ملوك الحبشة، خلف أباه على عرش هذه البلاد وحكمها في الفترة من (1285 - 1294 م). وكان والده يكونو أملاك قد حارب سلطنة أوفات الإسلامية المجاورة للحبشة واعتدى على المسلمين فيها وفي ممالك الزيلع الإسلامية الأخرى، فانتهم المسلمون هناك فرصة عودة مبعوث يجباصيون إلى بلاده عبر إقليم عدل - وهو أحد الأقاليم التابعة لسلطنة أوفات الإسلامية - وتعرضوا له ولم يقتلوه، ولكن يجباصيون انتهم هذه الفرصة وقام بمحجوم مفاجئ على عدل نهب فيه المدينة وخربها، بعد أن ساعدته إمارتان إسلاميتان كان قد أخضعهما بالقوة العسكرية من قبل في هذا الهجوم الوحشي، وانتهى الأمر بقبوله عقد هدنة مع سلاطين المسلمين في بلاد الزيلع المجاورة لبلاده. بعد ذلك أرسل إلى سلطان مصر المنصور قلاوون رسالة ذكر فيها أنه سيتخذ سياسة غير تلك التي سار عليها أبوه من قبل، وأنه ليس مثل والده، وأنه يحفظ المسلمين في جميع مملكته، على اعتبار أن المسلمين وبلادهم التي خضعت له بالقوة العسكرية جزءاً من مملكته حسبما يدعى الغزاة في كل عصر، ويطلب في رسالته أيضاً من سلطان مصر أن يرسل له مطراناً مصرياً، إذ أن المطران السوري - الذي كان أبوه يكونو أملاك قد أتى به لعدم إرسال مصر المطران المطلوب بسبب عدوانه على الزياعة المسلمين - لم يستطع أن يقوم

بأعباء الكنيسة الحبشية على الوجه المطلوب، وأن الأحباش نظروا إليه على أنه أجنبي عنهم وعن كنيستهم. وقد استجاب السلطان قلاوون لهذا الطلب وسمح بترسيم المطران القبطي وسفره إلى الحبشة. ومعنى ذلك أن يجيياصيون اتبع سياسة المهادنة ولم يتبع سياسة أبيه المطلقة في العدوان المستمر على بلاد الزيلع الإسلامية، وإنما هاجمها مرة وتوقف حتى يرسل له سلطان مصر المطران المطلوب. والجدير بالذكر أن يجيياصيون ليس اسمًا وإنما هو عبارة معناها: (سيصير الله صهيون)، واسم

(888/10)

---

هذا الملك الحقيقي هو سولومون.

(889/10)

---

**\*الحسن بن المستنجد بالله**

هو الحسن بن يوسف بن محمد، أبو محمد، المستضيء بأمر الله، أحد الخلفاء العباسيين. وُلد في (23 من شعبان سنة 536 هـ)، أبوه الخليفة العباسي المستنجد بالله، وأمّه أمٌ ولد أرمينية. تولى الخلافة سنة (566 هـ) بعد وفاة والده، وكان مشهوراً بالعدل والإحسان والتواضع، وفي عهده انهارت الخلافة الفاطمية في مصر، وخطب له على منابرها وضربت السكّة باسمه. واستمرت خلافة الحسن بن المستنجد بالله (9) سنوات وسبعة أشهر، وتوفي سنة (575 هـ)، وتولى بعده ابنه الناصر لدين الله.

(890/10)

## \*لويس التاسع

هو لويس التاسع بن لويس الثامن، أحد ملوك فرنسا في القرن الثالث عشر الميلادي، المعروف بالقديس لويس، المولود سنة (1214 م). مات أبوه وعمره (12) سنة فتولت أمه الوصاية عليه. حاول الأمراء الإقطاعيون القضاء عليه لصغر سنه لكنهم لم ينجحوا في ذلك. انتهت فترة الوصاية عليه سنة (1235م)، فتولى لويس الحكم بنفسه، ونجح في المحافظة على قوة دولته والارتقاء بها حتى أصبحت فرنسا في عهده أقوى دولة في أوروبا. عُرف لويس بتدينه الشديد وصلاحه، حتى لُقّب بالقديس لويس. قام بعدة أعمال داخلية في المجال الإداري والقضائي والمالي، واهتم برعاية التجارة، ونشر الأمن والسلام بين الناس، واشتهر بعطفه على الفقراء والمحتاجين وحبه لهم، وتقدمت في عهده الفنون والعلوم، وأقام عدة مدن في جنوب فرنسا. أما في مجال السياسة الخارجية لفرنسا فقد استهدف لويس المسالمة مع باقي دول أوروبا؛ فعقد صلح باريس مع إنجلترا سنة (1259 م)، الذي أوقف الحروب المستمرة بين الدولتين. ونتيجة لما اشتهر به لويس من التدين، فقد حاول التقرب من البابوية أكثر؛ فأعد حملة صليبية لغزو مصر، ثم احتلال بيت المقدس، وهي الحملة التي أُطلق عليها الحملة الصليبية السابعة. ولكنها مُنيت بالفشل وأُسر لويس في معركة المنصورة بمصر سنة (1249 م)، وسُجن بدار ابن لقمان، ثم افتدى نفسه، وأقام بالشام أربع سنوات ثم عاد إلى فرنسا. وفي أواخر حياته قام بحملة صليبية جديدة على تونس، ونزل بساحلها، لكنه تُوفي إثر نزوله على الساحل مباشرة، وكان ذلك سنة (1270 م).

### \*اللكنوى

هو محمد عبد الحى بن محمد عبد الحليم الأنصارى اللكنوى، أبو الحسنات، عالم بالحديث والرجال والتراجم، ومن فقهاء الحنفية بالهند، وُلد سنة (1264 هـ = 1848 م) لأسرة اشتهرت بالعلم. ألف العديد من الكتب، منها: الفوائد البهية فى تراجم الحنفية، والرفع والتكميل فى الجرح والتعديل، وظفر الأمانى فى مختصر الجرجانى، وإنباء الخلان بأنباء علماء هندستان.

(892/10)

### \*خباب بن الأرت

هو خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد بن خزيمه، ينتهى نسبه إلى بنى تميم، وقيل: ينتهى إلى خزاعة، وهو رأى ضعيف، وهو من السابقين الأولين إلى الإسلام، فكان سادس ستة فى الإسلام، هم: أبو بكر وصهيب وبلال وعمار وسمية (أم عمار) وخباب، رضى الله عنهم جميعاً، ولم يكن لخباب جاه أو قوم يمنعون عنه تعذيب قريش، فبلغ منه الجهد والتعذيب مبلغه، حتى ذهب لحم ظهره فصبر واحتسب ولم يعط الكفار ما سألوه إياه. وكان خباب، رضى الله عنه، حداداً يصنع السيوف، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يألفه ويأتيه، فلما علمت مولاته أم أئمار بذلك كانت تضع الحديدية الحماة على رأسه، فشكا ذلك إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فقال - صلى الله عليه وسلم -: اللهم انصر خباباً، فاشتكت أم أئمار رأسها فكانت تعوى مثل الكلاب، فقيل لها: اكتوى، فكان خباب يأخذ الحديدية الحماة فيكوى بها رأسها. وقد روى خباب الحديث عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وشهد معه بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها. ومرض خباب مرضًا شديدًا طويلاً، وكان يقول: لولا أن

رسول الله نمانا أن ندعو بالموت لدعوت به. ونزل خباب الكوفة، ومات بما سنة (37 هـ)، وقيل: إنه شهد صفين مع علي بن أبي طالب، رضى الله عنه، وقيل: إن مرضه منعها من شهودها.

(893/10)

---

### \*أبو زيد الأنصاري

هو أبو زيد سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري، جدّه ثابت الأنصاري، أحد الستة الذين جمعوا القرآن الكريم وممن شهدوا أحدًا. وُلد أبو زيد سنة (119 هـ = 737 م)، ويُعدُّ من أبرز اللغويين والرواة في العصر العباسي الأول. أخذ أبو زيد اللغة عن أبي عمرو بن العلاء، وروى عنه كثيرون، وكان من أعلام الأدب، وغلبت عليه النوادر ورواية العربية، وقال عنه سفيان الثوري: إنه أوثق الرواة. وكان سيويبه إذا روى عنه يقول: سمعت الثقة. من أشهر ما صنف أبو زيد كتاب النوادر. كما صنف معاني القرآن، وغريب الأسماء، وخلق الإنسان، وتخفيف الهمز، والمطر، والقوس والترس وغيرها. عاش أبو زيد بالبصرة، ومات بها في خلافة المأمون سنة (215 هـ = 830 م).

(894/10)

---

### \*عيسى (عليه السلام)

عبد الله ورسوله، آخر المرسلين من بني إسرائيل وعيسى هو يشوع بالعبرية أو يسوع أو يسوس باليونانية بمعنى المخلص، ولقبه المسيح أي: الممسوح بالزيت المقدس بمعنى السيد أو الملك. جاءت قصته في عدد من سور القرآن الكريم حيث جاءت إشارات إلى مولده، وتبشير أمه السيدة مريم به، والدفاع عن

طهارتها، وإنكار اتهام اليهود لها بجرمة الزنا، ورد عبث العابثين وقذف القاذفين منهم، كما تضمنت هذه السورة ذكر اصطفاة الله له نبياً ورسولاً. وكان ليعسى، عليه السلام، اثنا عشر حوارياً وكانوا أصفياء وأنصاره ووزراءه، ومما أكرمه الله به: أنه سبحانه وتعالى علّمه التوراة والإنجيل، وجعله يخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، ويبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى، ويخبر بالمغيبات. وأحاديث عيسى، عليه السلام، فى قصة الدجال مشهورة فى الصحيح، حيث ينزل من السماء حاكماً عدلاً لا رسولاً، ويصلى وراء المهدي المنتظر - وهو رجل من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - - تكريمة من الله تعالى لهذه الأمة.

(895/10)

#### \*حمزة بن عبد المطلب

هو حمزة بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصى، عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وأخوه من الرضاعة، أرضعتها ثويبة مولاة أبى لُهب. أمّه ابنة عم أمّنة بنت وهب أم النبي - صلى الله عليه وسلم - . وكان أعز قريش وأشدها شكيمة، وحين أسلم علمت قريش أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عزّ وامتنع. هاجر حمزة، رضى الله عنه، إلى المدينة، وشهد بدرًا وأحدًا وأبلى فيهما بلاءً حسنًا. وبعد أن قتل إحدى وثلاثين نفسًا يوم أحد عشر عشرة فأنكشف درعه فرماه وحشى الحبشى بالرمح فقتله، ومثّل به المشركون، وبقرت هند بنت عتبة بطنه وأخرجت كبده وجعلت تلوكه ثم لفظته. ولما رآه النبي - صلى الله عليه وسلم - اشتدّ وجده عليه، وقال: لئن ظفرت لأمثلن بسبعين، فنزل قوله تعالى: ( وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولنن

صبرتم هو خير للصابرين واصبر وما صبرك إلا بالله .) وحمزة بن عبد المطلب هو سيد الشهداء، وحينما قُتل كان عمره (57) سنة، وقيل: (59) سنة.

(896/10)

---

### \*الفتح بن خاقان

هو أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان بن عبد الله القيسى، كاتب ومؤرخ أندلسي، وُلِدَ بإشبيلية سنة (480هـ = 1087م) ونشأ بها، وكان يحب الرحلات والأسفار. وقد ترك الفتح بن خاقان عددًا من المؤلفات، منها: قلائد العقبان، ومطع الأنفس ومسرح التأنس في مُلح أهل الأندلس، وراية المحاسن وغاية المحاسن، ورسالة في ترجمة ابن السيد البطليموسى ومجموع رسائل. وتُوِّفِيَ الفتح بن خاقان سنة (528هـ = 1134م)، وقيل: سنة (535 = 1140م).

(897/10)

---

### \*عَمِيرُ بن سعد

هو عمير بن سعد بن عبيد الأوسى الأنصارى صحابي من الولاة الزُّهاد، شهد فتوح الشام، واستعمله عمر بن الخطاب على حمص، وكان يُقال له: نسيج وَخده، وقد قال عنه عمر، رضى الله عنه: وددت أن لى رجالاً مثل عمير بن سعد، أستعين بهم على أعمال المسلمين. وروى عن النبي - صلى الله عليه وسلم -، وروى عنه ابنه عبد الرحمن، وأبو طلحة الخولاني، وغيرهما. ونزل عمير فلسطين ومات بها.

**\*داود باشا**

آخر الولاية المماليك الذين حكموا العراق منذ سنة (1817م) إلى سنة (1831م) وكان حكمه مطلقاً على غرار حكم محمد علي باشا لمصر. وفي عهده - وعهد المماليك عموماً - لم تحظ سلطة الباب العالي بأى احترام، وما إن تسلم داود باشا الولاية حتى أراد أن يحقق بعض الإصلاحات؛ فحاول إلغاء نظام الامتيازات الممنوح لشركة الهند الشرقية، ووضعها على قدم المساواة مع التجار المحليين، لكن الشركة ردت بحرب شرسة أفشلت هذه المحاولة. وسعيًا وراء وضع العراق تحت سيطرته الكاملة واجه داود باشا الحركات الانفصالية بكل عنف؛ فأخمد انتفاضة القبائل العربية، وأقصى شيوخها غير الموالين له، ولكن استعصت عليه القبائل الكردية بسبب دعم القوات الفارسية لها، وظل إقليم كردستان تحت سلطة الأتراك. وبحثًا وراء زيادة موارده لإعادة تنظيم الجيش؛ احتكر داود باشا شراء المنتجات العراقية الرئيسية وتصديرها، وحاول زراعة القطن وقصب السكر، وأراد أن يستغل تركيا أمام روسيا سنة (1828 - 1829م)، فأعلن تمرده على الباب العالي فأرسل الأخير إليه جيشًا بقيادة علي باشا وإلى حلب فانهزم داود باشا سنة (1831م) وانتهى حكمه وحكم المماليك.

**\*أحمد القرين**

وهو الإمام «أحمد بن إبراهيم الغازي» الملقب بالقرين أي

الأشول. زعيم الجهاد الإسلامى فى سلطنة عدل. اتبع الإمام «أحمد القرين» بعد أن سيطر على مقاليد الأمور فى سلطنة «عدل» وبعد أن اتخذ «هرر» مقرًا له سياسة موفقة جمعت الناس حوله، فقد طبق الشريعة الإسلامية فى حكمه وخاصة فى توزيع أموال الزكاة والغنائم على مستحقيها وفى مصارفها الشرعية، وبذلك كسب حب الجند وحب الفقهاء والعلماء، كما كسب أيضًا محبة الشعب، فقد كان يلفظ بالمساكين ويرحم الصغير، ويوقر الكبير، ويعطف على الأرملة واليتيم، وينصف المظلوم من الظالم، ولا تأخذه فى الله لومة لائم، كما قضى على قُطَاع الطرق فأمنت البلاد وانصلح حال الناس وانقادوا له وأحبوه. بهذه السياسة الداخلية السليمة استطاع الإمام «أحمد القرين» أن يوحد كلمة المسلمين ويتولى زعامتهم وعزم على رد عادية الأحباش، وذلك بفتح بلاد الحبشة ذاتها، وتمكن من التوغل فيها حتى وصل إلى أقاليمها الشمالية، ودارت بينه وبين الأحباش عدة معارك، كان أولها فى عام (933هـ = 1527م) حيث هزم الأحباش لأول مرة منذ بداية الجهاد. وفى عام (934هـ = 1528م) أحرز الإمام «أحمد» نصرًا حاسمًا على الأحباش فى موقعة «شنبر كورى»، ثم بدأ فى غزو بلاد الحبشة نهائيًا. وفى سنة (938هـ = 1531م) دخل «دوارو» و «شوا» و «أمهرة» و «لاستا». وفى سنة (940هـ = 1535م) سيطر المسلمون على جنوب الحبشة ووسطها، وغزوا «تجراى» للمرة الأولى وأصبح مصير الأحباش فى كفة الميزان. وفى هذا الوقت كان الزحف البرتغالى قد وصل إلى البحر الأحمر فاستنجد بهم الأحباش عام (942هـ = 1535م) فأرسل إليهم ملك البرتغال نجدة عسكرية وصلت البلاد عام (948هـ = 1541م)، وتقابل المجاهدون بقيادة «أحمد القرين» مع الأحباش والبرتغاليين فى عدة مواقع عام (949هـ = 1542م)، لكنه هُزم وتكررت هزيمته فى العام التالى حيث استشهد وتفرقت جموعه

### \*أحمد بن إبراهيم الغازي

وهو الإمام «أحمد بن إبراهيم الغازي» الملقب بالقرين أي الأشول. زعيم الجهاد الإسلامي في سلطنة عدل. اتبع الإمام «أحمد القرين» بعد أن سيطر على مقاليد الأمور في سلطنة «عدّل» وبعد أن اتخذ «هرر» مقراً له سياسة موفقة جمعت الناس حوله، فقد طبق الشريعة الإسلامية في حكمه وخاصة في توزيع أموال الزكاة والغنائم على مستحقيها وفي مصارفها الشرعية، وبذلك كسب حب الجند وحب الفقهاء والعلماء، كما كسب أيضاً محبة الشعب، فقد كان يلطف بالمساكين ويرحم الصغير، ويوقر الكبير، ويعطف على الأرملة واليتيم، وينصف المظلوم من الظالم، ولا تأخذه في الله لومة لائم، كما قضى على قُطَاع الطرق فأمنت البلاد وانصلح حال الناس وانقادوا له وأحبوه. بهذه السياسة الداخلية السليمة استطاع الإمام «أحمد القرين» أن يوحد كلمة المسلمين ويتولى زعامتهم وعزم على رد عادية الأحباش، وذلك بفتح بلاد الحبشة ذاتها، وتمكن من التوغل فيها حتى وصل إلى أقاليمها الشمالية، ودارت بينه وبين الأحباش عدة معارك، كان أولها في عام (933هـ = 1527م) حيث هزم الأحباش لأول مرة منذ بداية الجهاد. وفي عام (934هـ = 1528م) أحرز الإمام «أحمد» نصرًا حاسمًا على الأحباش في موقعة «شنبر كورى»، ثم بدأ في غزو بلاد الحبشة نهائيًا. ففي سنة (938هـ = 1531م) دخل «دوارو» و «شوا» و «أمهرة» و «لاستا». وفي سنة (940هـ = 1535م) سيطر المسلمون على جنوب الحبشة ووسطها، وغزوا «تجراي» للمرة الأولى وأصبح مصير الأحباش في كفة الميزان. وفي هذا الوقت كان الزحف البرتغالي قد وصل إلى البحر الأحمر فاستنجد بهم الأحباش عام (942هـ = 1535م)

فأرسل إليهم ملك البرتغال نجدة عسكرية وصلت البلاد عام (948هـ = 1541م)، وتقابل المجاهدون بقيادة «أحمد القرين» مع الأحباش والبرتغاليين في عدة مواقع عام (949هـ = 1542م)، لكنه هُزم وتكررت هزيمته في العام التالي حيث استشهد وتفرقت جموعه

(901/10)

### \*أحمد بن فارس

هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، من كبار علماء اللغة والأدب. وُلد بقزوين سنة (329هـ) فنسب إليها، ونشأ بها، وتعلّم على كثير من علمائها، منهم أبوه وعلى بن إبراهيم بن سلمة القطان وعلى بن محمد بن مهرويه وغيرهم، ورحل إلى كثير من البلدان لطلب العلم، فرحل إلى همدان وأقام بها مدة. ونبغ أحمد بن فارس في علوم كثيرة، منها: اللغة والنحو والشعر والفقه. وفي نهاية حياته انتقل إلى الري؛ حيث مات بها سنة (395هـ = 1004م). وقد كان أحمد بن فارس من أعيان أهل العلم يجمع بين إتقان العلماء وظرف الكتاب والشعراء، وله كتب بديعة ورسائل مفيدة وأشعار جيدة وتلامذة كثيرون. وكان أيضاً كريم النفس، جواد اليد، لا يكاد يرد سائلاً حتى يكاد يهب ثيابه وفرش بيته. وترك أحمد بن فارس عديداً من المصنفات في شتى العلوم، منها: كتاب المجمل في اللغة، وهو من أشهر كتبه، وكتاب الصاحي في فقه اللغة، وكتاب غريب إعراب القرآن وكتاب حلية الفقهاء، وكتاب دارات العرب، وغيرها.

(902/10)

---

### \*أبو إبراهيم أحمد بن محمد

أحد سلاطين دولة الأغالبة، تولى خلفاً لأبيه عقب وفاته في سنة (242هـ)، وتميزت فترة حكمه بالهدوء والاستقرار، وقد غلب الطابع الديني على سلوكه، فكان يخرج في شهرى شعبان ورمضان من مقر إقامته ليزرع الأموال على الفقراء والمساكين بالقيروان، واهتم «أبو إبراهيم» بالبناء والتعمير، وزاد في «مسجد القيروان»، وجدد «المسجد الجامع» بتونس، وحصّن مدينة «سوسة» وبنى سورها، كما اهتم بإمداد سكان المدن بمياه الشرب، وقد تُوفى في سنة (249هـ=863م).

(903/10)

---

### \*الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب

هو أبو عقال الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب أحد سلاطين دولة الأغالبة، تولى الإمارة خلفاً لأخيه «زيادة» في سنة (223هـ=838م)، ومكث بها ما يقرب من ثلاث سنوات؛ نعمت البلاد خلالها بالهدوء والاستقرار، وحرّم «أبو عقال» صنع الخمر بالقيروان، وعاقب على بيعها وشربها، فكان لذلك صداه الطيب في نفوس الناس عامة، فضلاً عن الفقهاء والعلماء، ومات «أبو عقال» بالقيروان في سنة (226هـ=841م).

(904/10)

---

### \*ألبتكين

ويكتب أحياناً: ألب تكين أو ألفتكين، وهو غلام تركي التحق بخدمة السامانيين، وتدرج في المناصب حتى وصل إلى منصب

«حاجب الحجاب»، وهو منصب كان يتيح سلطة خطيرة لصاحبه، ثم تقلد «ألبتكين» ولاية «خراسان» نيابة عن الأمير الساماني «عبدالمملك بن نوح» سنة (349هـ = 960م) حتى عزله عنها الأمير «منصور بن نوح» الذي خلف أخاه «عبدالمملك» فلجأ «ألبتكين» إلى «بلخ»، واستطاع هزيمة جيش «منصور» الذي أرسله إليه سنة (351هـ = 962م)، ثم توجه إلى «غزنة» في السنة نفسها، واستولى عليها واتخذها مقراً له في خلافة «المطيع لله».

(905/10)

### \*أبو بكر الصديق

هو «عبد الله بن عثمان بن عامر»، من قبيلة «تيم بن مرة بن كعب»، وفي «مرة بن كعب» يلتقى نسبه مع نسب النبي - صلى الله عليه وسلم -، وأمّه «أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر»، تميمية كأبيه وكنيته: «أبو بكر»، ولقبه: «عتيق». وُلد «أبو بكر» سنة (573م) بعد مولد الرسول - صلى الله عليه وسلم - بثلاثة أعوام، ونشأ في «مكة»، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر؛ لعلمه وتجارته وحسن مجالسته. وعُرف «أبو بكر» بترفعه عن عادات الجاهلية، وما كانوا يقترفونه من مجون وشرب خمر، وارتبط قبل البعثة بصداقة قوية مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وكان الاتفاق في الطباع وصفاء النفس من أقوى الروابط بين النبي و «أبي بكر». تُجمع مصادر السيرة والتاريخ على أن «أبا بكر» كان أول من أسلم وآمن بالنبي - صلى الله عليه وسلم - من الرجال الأحرار، وكان لسلامة فطرته التي كانت تعاف ما عليه قومه من عبادة الأوثان أثر في تبكيه بالدخول في الإسلام، وما إن دعاه النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى الإسلام حتى أسلم على الفور؛ لثقتة بصدق النبي - صلى الله

عليه وسلم - وأمانته، يقول النبي - صلى الله عليه وسلم - : «ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة - تأخر في الإجابة- إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة، ما عكم عنه - تأخر عنه - حين ذكرته له، وما تردد فيه». ومنذ أن أسلم وهو يهب نفسه وماله لله ورسوله، فكان يشتري من أسلم من العبيد الذين كانت «قريش» تعذبهم، ويعتقهم كبلال بن رباح، وكان يذود عن النبي - صلى الله عليه وسلم - بكل ما أوتى من قوة، فيروى «البخارى» عن «عبد الله بن عمرو ابن العاص» قوله: «رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو يصلى، فوضع رداءه في عنقه، وخنقه به خنقًا شديدًا، فجاء أبو بكر - رضى الله عنه - حتى دفعه عنه، فقال: أتقتلون رجالا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم». [صحيح

(906/10)

[البخارى]. ومن أجلّ مواقف «أبي بكر» تصديقه للنبي - صلى الله عليه وسلم - في حادث الإسراء، فحين أخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - بذلك أسرعوا إلى «أبي بكر» يخبرونه، ظنا منهم أنه لن يصدق، فقال لهم: «والله لئن كان قاله لقد صدق، فإنى أصدقه في أبعد من هذا، أصدقه في خبر السماء يأتيه في ساعة من ليل أو نهار»، فلُقب بالصديق من يومئذٍ. واختاره النبي - صلى الله عليه وسلم - لثقتته - به ليرافقه في رحلة الهجرة دون غيره من الصحابة، ثم لازم النبي بعد الهجرة في ليله ونهاره، فلم يتخلف عن غزوة من غزواته أو مشهد من مشاهدته، وكان مجاهدًا بنفسه وماله حتى وصفه النبي بقوله: «ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه بها، إلا أبا بكر، فإن له عندنا يدًا يكافئه الله بها يوم القيامة، وما نفعنى مال أحد قط ما نفعنى مال أبي بكر». ومما

لاشك فيه أن «أبا بكر الصديق» عند علماء الأمة أفضل المسلمين  
مطلقًا بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ودليل ذلك أنه جعله  
أميرًا على الحج في العام التاسع من الهجرة، وأنابه في الصلاة  
عند مرضه - دون غيره -، وكان هذا أقوى مرشح له لتولي  
الخلافة بعد وفاة النبي بعد أن بويع «أبو بكر الصديق» البيعة  
العامة قام فخطب الناس خطبة قصيرة، وضح لهم فيها منهجه  
في الحكم، فقال بعد أن حمد الله وصلى على نبيه: «أما بعد  
أيها الناس فإنني وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت  
فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب  
خيانة، والضعيف فيكم قوى عندي حتى أزيح عليه حقه إن شاء  
الله، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا  
يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذلّ، ولا تشيع  
الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت  
الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم،  
قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله». كان أول القرارات التي اتخذها  
«أبو بكر» وأصعبها قراره بإنفاذ جيش «أسامة» إلى «جنوبي

(907/10)

---

الشام»، كما أمر به رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وذلك لأن  
«الصديق» أقدم عليه في ظروف دقيقة وحرجة، فالعرب قد  
ارتدت عن الإسلام، حتى «مكة» نفسها همت بالردة، لولا أن  
«سهيل بن عمرو» رؤّعهم، قائلاً: «لماذا تتردون والنبوة كانت  
فيكم، والخلافة أصبحت فيكم؟»، وحاولت «الطائف» أن تترد،  
فمنع من حدوث ذلك عقلاؤها؛ إذ قالوا لقومهم: لقد كنتم آخر من  
أسلم، فلا تكونوا أول من يرتد. كما استفحل أمر مدعى النبوة  
«مسيلم الكذاب» في «اليمامة» شرقى شبه الجزيرة العربية،

و «طليحة بن خويلد الأسدى» في «بني أسد»، في منطقة  
«بذاخة» - ماء لبني أسد يقع إلى الشرق من «المدينة المنورة» -  
و «لقيط بن مالك» في «عمان» جنوبي شرقي بلاد العرب،  
و «الأسد العنسى» في «اليمن». وكل أولئك ظهروا في أواخر  
حياة النبي - صلى الله عليه وسلم -، لكنه لم يحفل بهم كثيراً؛  
لثقته بالقدرة على القضاء على تلك الحركات، وفي الوقت نفسه  
أمر بإنفاذ جيش «أسامة بن زيد» إلى جنوب «الشام»؛ لتأديب  
القبائل القاطنة هناك، التي تعادى المسلمين، ولتثبيت هيبة  
الإسلام في أعين الروم، التي فرضها عليهم في غزوة «تبوك»،  
وللفت أنظار أصحابه إلى خطورة دولة الروم على الإسلام، لكن  
هذا الجيش لم يذهب لأداء مهمته؛ لمرض النبي - صلى الله عليه  
وسلم - ووفاته، فكان أول قرار للصديق، هو تنفيذ ما عزم عليه  
الرسول - صلى الله عليه وسلم - . لكن الصحابة جميعاً عارضوا «أبا  
بكر» في قراره بإرسال جيش «أسامة»، وتعللوا بأن الردة قد  
عمت شبه جزيرة العرب، وأن الخطر داهم ومحدد بهم، حتى لم  
تسلم منه «المدينة» نفسها، واشترأت أعناق أعداء الإسلام من  
يهود ونصارى وغيرهما، وتحفزوا للقضاء على الإسلام، ولذا  
فإن بقاء الجيش في «المدينة» ضرورة ملحة؛ لحمايتها من  
الأخطار المحدقة بها. لكن ذلك كله لم يثن عزيمة الصديق عن  
إرسال جيش «أسامة»، ووقف كالأسد المصور يذود عن الإسلام

(908/10)

---

بتخاذ ذلك القرار الصعب قاتلاً: «والذى نفس أبى بكر بيده، لو  
ظننت أن السباع تخطفتنى لأنفذت بعث أسامة، كما أمر به  
رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ولو لم يبق في القرى غيرى  
لأنفذته». وقد ظهرت نتائج سياسة «الصديق» الموفقة، عندما

ذهب جيش «أسامة» وحقق ما قصده الرسول - صلى الله عليه وسلم - من أهداف، وعاد محملاً بالغنائم، وألقى الرعب والفرع في قلوب القبائل العربية التي مرَّ عليها في شمالي شبه الجزيرة العربية وهو في طريقه إلى الشام؛ لأنهم قالوا: «لو لم يكن بالمسلمين قوة لما أرسلوا هذا الجيش الكبير إلى هذا المكان البعيد في مثل هذا الوقت»؛ ولذا كانت حركة الردة في المناطق التي مرَّ بها «أسامة» بجيشه أضعف منها في أى مكان آخر من شبه الجزيرة العربية. يعد موقف «الصديق» من حركة الردة ومواجهته لها من أروع المواقف في التاريخ، لأنه آمن إيماناً عميقاً بانتصار الحق مهما تكن قوة أعدائه، وأظهر تصميمًا على الدفاع عن الإسلام مهما يبذل من جهد. وقد بدأت حركة الردة بالقبائل التي منعت الزكاة كعبس و «ذبيان» و «غطفان» وغيرها، حيث أرسلت وفدًا إلى «المدينة»، يعرض على «الصديق» مطالبهم، وأنهم لم يرفضوا الإسلام، ولكنهم يرفضون دفع الزكاة لحكومة «المدينة»؛ لأنها في ظنهم معرّة، ويعدونها إتاوة تدفع لأبي بكر، ولم تدرك تلك القبائل أثر الزكاة في التكافل الاجتماعى بين المسلمين. كان رأى فريق من الصحابة وعلى رأسهم «عمر بن الخطاب» أن يستجيب «أبو بكر» لتلك القبائل، ولا يجبرها على دفع الزكاة، وخاصة أن «المدينة» مكشوفة، وليس بها قوة تحميها وتدافع عنها؛ لأن جيش «أسامة» لما يعد بعد من شمالي بلاد العرب، لكن «الصديق» لم يقتنع بهذا الرأى، ورد على «عمر بن الخطاب» رداً جازماً قائلاً له: «والله لو منعوني عقالا -الحبل الذى يجرُّ به الحمل - لجاهدتهم عليه». وكان هذا الموقف الثابت من «الصديق»

رائعًا كل الروعة، فماذا لو وافق «أبو بكر» «عمر» ومن معه على رأيهم؟ ربما شجع هذا التنازل قبائل أخرى، فتمتنع عن دفع الزكاة أسوة بمؤلاء، ولربما تطور الموقف إلى أبعد من هذا، فتمتنع قبائل عن إقامة الصلاة أو غيرها من أركان الإسلام، ويكون هذا هدمًا للدين من أساسه. وكان «الصديق» حين فعل هذا تمثل واقتدى بموقف لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - عندما جاءه وفد «ثقيف» يعلنون إسلامهم، ويطلبون منه إعفاءهم من أداء الصلاة، فرفض النبي - صلى الله عليه وسلم - ذلك، وقال لهم: «لا خير في دين لا صلاة فيه»، ولعل «الصديق» قصد ذلك حين قال: «والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة». ولم يكن «الصديق» صاحب قرارات صائبة فحسب، بل كان يقرنها بالعمل على تنفيذها، فلما رأى الغدر في عيون مانعي الزكاة أدرك أنهم سيهاجمون «المدينة» على الفور؛ لأنهم عرفوا غياب معظم الرجال مع جيش «أسامة»، وأعلن حالة الاستعداد للدفاع عن «المدينة» عقب عودة المانعين إلى ديارهم، واتخذ مسجد رسول الله، مقرا لغرفة عمليات عسكرية، وبات ليلته يُعد للمعركة ويستعد لها، وأمر عددًا من كبار الصحابة بحراسة مداخل «المدينة»، على رأسهم «علي بن أبي طالب»، و «طلحة بن عبيد الله»، و «الزبير بن العوام»، و «عبد الله بن مسعود» رضى الله عنهم. وحدث ما توقعه «الصديق» فبعد ثلاثة أيام فقط هاجم مانعو الزكاة «المدينة»، فوجدوا المسلمين في انتظارهم، فهزّمهم المسلمون وردوهم على أعقابهم إلى «ذى القصة» - شرقى «المدينة». ثم تعقبهم «الصديق» وألحق بهم هزيمة منكرة، وفرت فلوطهم، وغنم المسلمون منهم غنائم كثيرة، واتخذ «الصديق» من «ذى القصة» مكانًا لإدارة المعركة ضد حركة الردة كلها، وفي هذه الأثناء جاءت الأخبار بوصول جيش «أسامة» سالمًا غانمًا، فأسرع «الصديق» بنفسه لاستقبال قائد الجيش الشاب، الذى قام بهذه المهمة الخطيرة خير قيام، وبعد أن

احتفى به وهناه على عمله، أنابه عنه في حكم «المدينة»،  
وعاد هو إلى «ذى القصة» ليدير المعركة مع المرتدين بعزيمة لا  
تلين. أراد «أبو بكر الصديق» أن يبصر المرتدين بخطورة ما  
أقدموا عليه، فواجههم مواجهة سلمية بأن دعاهم إلى العودة  
بدون قتال إلى الإسلام، الذى أكرمهم الله به، وأرسل إليهم  
كتابًا يقرأ على القبائل كلها؛ لعلهم يعقلون، جاء فى آخره: «  
وإني بعثت إليكم فلاتاً فى جيش من المهاجرين والأنصار  
والتابعين بإحسان، وأمرته ألا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه  
إلى داعية الله، فمن استجاب له وأقرَّ وكف وعمل صالحاً، قبل  
منه وأعانه عليه، ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك، ثم لا  
يبقى على أحدٍ منهم قدر عليه، .. ولا يقبل من أحدٍ إلا الإسلام  
فمن اتبعه فهو خير له، ومن تركه فلن يعجز الله، وقد أمرت  
رسولى أن يقرأ كتابي فى كل مجمع لكم، والداعية الأذان،  
فإذا أذن المسلمون فأذّنوا كفوا عنهم، وإن لم يؤذّنوا  
عاجلوهم ...». وفى الوقت الذى كان يأمل فيه أن يستجيب  
المرتدون، ويعودوا إلى دين الله دون قتال؛ كان يعد أحد عشر  
جيشاً فى وقت واحد، تغطى المناطق التى ارتد أهلها فى شبه  
جزيرة العرب، جاهزة للانطلاق إلى كل منطقة؛ ليشغل كل قبيلة  
بالدفاع عن نفسها فى ديارها، ولا تأخذ فرصة للتجمع والتكتل  
ضده، وكان هذا تصرفاً بارعاً وحكيماً من «الصديق». لم يستجب  
المرتدون لدعوة «أبي بكر» السلمية، فبدأ قادته ينفذون ما عهد  
إليهم من مهام، وخاض «خالدين الوليد» أول معارك الردة  
فى «بذاخة» ضد المرتدين من «غطفان» و «بنى أسد» وحلفائهم  
من التفوا حول «طليحة بن خويلد الأسدى» مدعى النبوة، وكان  
النصر حليف «خالد»، بعد أن ألحق بهم هزيمة منكرة وغنم

كثيراً، وأرسل عددًا من زعمائهم أسرى إلى الخليفة، وفر «طليحة»، وظهر كذبه، ويجدر بالذكر أن «طليحة» قد أسلم بعد ذلك، وحسن إسلامه في عهد «أبي بكر الصديق»، واشترك

(911/10)

في الفتوحات الإسلامية في «فارس»، في عهد «عمر بن الخطاب»، وكان له دور بارز فيها. وبعد ذلك توجه «خالد بن الوليد» إلى «البطاح» في «نجد» لقتال المرتدين من «بنى تميم» بزعامه «مالك بن نويرة»، ونجح في إلحاق الهزيمة بهم، والقضاء على الردة في بلادهم. ولما فرغ من القضاء على فتنة المرتدين من «بنى أسد» و «غطفان» و «تميم»، فجاءته أوامر من «أبي بكر» بالتوجه إلى «اليمامة» للقضاء على فتنة «مسيلمة الكذاب». وفي أثناء حروب الردة طارد «المنفى بن حارثة» - أحد قادة المسلمين - المرتدين إلى الشمال، على الساحل الغربي للخليج العربي، فلما وصل إلى حدود «العراق» تكاثرت عليه قوات الفرس، بعد أن رأوا فشل عملائهم من المرتدين في القضاء على الإسلام فألقوا بثقلهم في المعارك ضد المسلمين. ولما رأى «المنفى» أنه غير قادر بمن معه على مواجهة القوات الفارسية، أرسل إلى الخليفة يشرح له الموقف، ويطلب منه المدد، فأدرك الخليفة خطورة الموقف، ورأى أن يردع الفرس ويرد عدوانهم، فرماهم بخالد بن الوليد أعظم قواده، وأردفه بعباض بن غنم. وفي المحرم من العام الثاني عشر من الهجرة تحرك «خالد بن الوليد» من «اليمامة»، وكان لا يزال بها، بعد أن قضى على فتنة «مسيلمة الكذاب»، وتوجه إلى «العراق». حيث خاض سلسلة من المعارك ضد الفرس في خلال عدة شهور، في «ذات السلاسل» و «المدار»، و «الولجة»، و «أليس»، وهذه أسماء الأماكن التي

دارت فيها الحروب، وكان النصر حليفه فيها، ثم تَوَجَّ انتصاراته بفتح «الحيرة» عاصمة «العراق» في ذلك الوقت، واستقر بها في شهر ربيع الأول من العام نفسه، ثم فتح «الأنبار» و «عين التمر» إلى الشمال من «الحيرة»، ثم جاءته أوامر من «أبي بكر» أن يعود إلى «الحيرة» ويستقر بها إلى أن تأتيه أوامر أخرى. وخلاصة القول أنه في خلال بضعة أشهر نجح «خالد» في فتح أكثر من نصف «العراق»، وصالح أهله على دفع الجزية، ولم

(912/10)

يجبر أحدًا على الدخول في الإسلام». كما تم فتح أجزاء من الشام الجمع الأول للقرآن في عهد أبي بكر الصديق: فرع «عمر بن الخطاب» لاستشهاد عدد كبير من حفظة القرآن في حروب الردة، وبخاصة معركة «اليمامة»، فأشار على «أبي بكر» بضرورة جمع القرآن في مصحف واحد؛ خشية أن يُستشهد عدد آخر من الحفاظ، فيضيع القرآن، أو يدخله تحريف إذا تباعد الزمن بين نزوله وجمعه، كما حدث للكتب السابقة. تردد «أبو بكر» في بادئ الأمر من اقتراح «عمر»، وقال: «كيف أفعل شيئًا لم يفعله رسول الله - صلى الله عليه وسلم -»، فقال له «عمر»: «أرى والله أنه خير»، فلم يزل «عمر» بأبي بكر حتى قبل، ثم استدعى «أبو بكر» «زيد بن ثابت الأنصاري»، وكلفه بمهمة جمع القرآن، قائلاً له: «إنك رجل شاب عاقل، لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فلتبضع القرآن فاجمعه»، فقبل «زيد» هذه المهمة الثقيلة، وبدأ في تبضع القرآن، وجمعه من الرقاع والعظام، والعسب (سعف النخل) التي كان مكتوبًا عليها ومن صدور الرجال، وجعل ذلك في مصحف واحد. وقد ظل هذا المصحف عند «أبي بكر»، ثم انتقل بعد وفاته

إلى «عمر بن الخطاب»، ثم انتقل بعد وفاته إلى ابنته أم المؤمنين «حفصة»، وفي عهد «عثمان» دعت الضرورة إلى جمع الناس على قراءة واحدة، فأخذ «عثمان» منها، ونسخ منه عدة نسخ ووزعها على الأمصار. وهكذا تَوَجَّح «أبو بكر الصديق» أعماله الجليلة بجمع القرآن. وفاة أبي بكر الصديق: قضى «أبو بكر» في الخلافة سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام قام فيها بجلائل الأعمال، ونهض بمسئولية قيادة الدولة على خير وجه، وعاش حياته للإسلام وللمسلمين، ووهب حياته لخدمة رعيته، والدفاع عن عقيدتها، دون أن يأخذ أجرًا على تحمله تبعات هذا المنصب الجليل، منصب الخليفة، وعاش مثل بقية رعيته دون أن يمتاز عنهم في مسكن أو ملبس، بل إنه رد ما خصصه له كبار الصحابة من راتب ضئيل، كى يترك التجارة ويتفرغ لمنصبه.

(913/10)

---

وفي أواخر شهر جمادى الآخرة من العام الثالث عشر للهجرة، فاضت روح «أبي بكر» إلى بارئها بعد مرض استمر أسبوعين، كان سببه الحمى، وتولى بعده الفاروق «عمر بن الخطاب».

(914/10)

---

### \*عمر بن الخطاب

هو «عمر بن الخطاب بن نُفَيْل بن عبد العُزَّى بن رباح» وأمه «حنتمة بنت هشام بن المغيرة». أسلم في العام الخامس من البعثة، وعمره سبع وعشرون سنة، بعد أربعين رجلاً، وإحدى عشرة امرأة، أسلموا قبله، وكان قبل إسلامه معاديًا للإسلام شديدًا في عداوته، لكن الله شرح صدره للإسلام استجابة لدعاء

النبي - صلى الله عليه وسلم - له: «اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب». وعُرف «عمر بن الخطاب» بشخصية قوية، وإرادة لا تلين، وحزم وعزم في الأمور، وهيبة في القلوب، وكان سفير «قريش» في الجاهلية، وهي مهمة تحتاج إلى علم وعقل، وكياسة وحسن تصرف. عمل «عمر» في بداية نشأته بالرعي، ثم عمل في التجارة إلى الشام وإلى «اليمن»، وكان يحرص على مقابلة ذوى الشأن في تلك البلاد؛ ليزداد علمًا وخبرة بالحياة، وكان واحدًا من سبعة عشر رجلاً من «قريش» يعرفون القراءة والكتابة في «مكة». واشتهر «عمر بن الخطاب» أنه كان قوى البنية، طويل القامة، إذا مشى بين الناس أشرف عليهم، كأنه راكب على دابته، أبيض اللون تعلوه حمرة، جهورى الصوت، قليل الضحك، لا يمازح أحدًا، مقبلاً على شأنه. أما صفاته الأخلاقية فهي «الإحساس الكامل بالمسئولية، والشدة والفراسة، والعدل والهيبة، وواضح أن هذه الصفات هي نتاج عوامل كثيرة متنوعة، مثل نشأة «عمر» الأولى وثقافته، والقيم التي غرسها الإسلام في نفسه. أما إحساس «عمر» الكامل بمسئوليته قبل الرعية، فذلك ما لاحتاجة بنا إلى التذليل عليه، ويمكن إرجاعه إلى النزعة الدينية التي ملكت عليه شغاف نفسه، والتي شهد له بها الجميع، وعلى رأسهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فالعقيدة وحدها هي التي تبلغ المرء هذا المستوى القدسي، وهي التي تجعل الإنسان رقيباً على نفسه في جميع حركاته وسكناته، ولن تغنى عنها أية رقابة أخرى». احتل «عمر بن الخطاب» منذ أن أسلم المكانة التالية لمكانة

«أبي بكر الصديق» عند النبي - صلى الله عليه وسلم -، لصفاته العالية التي سبق أن ذكرنا بعضها، ولدعوة النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يُعز الله الإسلام بعمر بن الخطاب، وكانت دعوة ناشئة عن معرفة دقيقة بخصائص الرجل الذي سيكون ثالث ثلاثة في الإسلام قدرًا ومنزلة. وعلى أية حال فإن أخلاق «عمر» وصفاته مهما تكن لم تكن لتبلغ به ما بلغ من المكانة العالية والقدر الرفيع إلا بإسلامه وبصلته برسول الله - صلى الله عليه وسلم -، الذي تعهده بالتربية والرعاية، وأفسح لمواهبه أن تنطلق إلى أفاق عالية، لتؤدي دورها الخلاق لا في تاريخ الإسلام فحسب، بل في تاريخ البشرية، وليكون صاحبها واحدًا من عظماء الدنيا، وقد وضعه الكاتب الأمريكي «مايكل هارت» بين الخالدين المائة في التاريخ الإنساني كله. ومنذ أن أسلم «عمر بن الخطاب»، وهو من أكثر الصحابة ملازمة للنبي - صلى الله عليه وسلم -، حتى إن الصحابة أطلقوا عليه وعلى أبي بكر الصديق: وزيرى محمد. واشتهر «عمر» دون غيره من الصحابة بمواقف كثيرة، كان يناقش النبي - صلى الله عليه وسلم - فيها ويعترض عليه في صراحة، مثل: موقفه من أسرى «بدر»، و «صلح الحديبية» والصلاة على «عبد الله بن أبي بن سلول» رأس النفاق، ولم يكن النبي - صلى الله عليه وسلم - يضيّق بذلك، بل يسمع برحابة صدر وسعة أفق، ويشجع «عمر» وغيره على إبداء آرائهم دون خوف أو وجل، يعلمهم بذلك حرية الرأى، والمشاركة في صنع القرار. وكثير من تلك الآراء التي عارض فيها النبي - صلى الله عليه وسلم - نزل القرآن مؤيدًا لها لفرط إخلاصه لدينه، وشفافية روحه، وقد عدّ العلماء نحو عشرين موقفًا من هذا القبيل منها: تحريم الخمر، وضرب الحجاب على زوجات النبي - صلى الله عليه وسلم -. وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل «عمر»، منها قوله - صلى الله عليه وسلم -: «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه». أراد «الصديق أبو بكر» أن

يختار المسلمون خليفتهم بأنفسهم دون قيد، وإيرادتهم الحرة بلا تدخل، فقال لهم وهو على فراش المرض: «إني قد نزل بي ما ترون، ولا أظنني إلا ميتًا لما بي من المرض، وقد أطلق الله أيما نكم من بيعتي، وحلَّ عنكم عقدتي، ورد عليكم أمركم، فأمرُوا عليكم من أحببتم، فإنكم إن أمرتم في حياة مني كان أجدر ألا تختلفوا بعدى». لكنهم طلبوا منه أن يرشح لهم من يراه أهلاً لتولي الخلافة بعده، وأقدر على تحمل تبعاتها الجسام، فقبل ذلك، وطلب منهم مهلة حتى ينظر الله ولدينه ولعباده، وبعد تفكير عميق، واستشارة لكبار الصحابة مثل: «عثمان بن عفان» و «علي بن أبي طالب» و «عبدالرحمن بن عوف» استقر رأيه على «عمر بن الخطاب». ولم يكن ترشيح كبار الصحابة «عمر بن الخطاب» للخلافة وتركيتهم له، بعد «أبي بكر» غريباً أو مفاجأة، فهم يعرفون قدره ومنزلته، وقد سبق أن ذكرنا تقديم النبي - صلى الله عليه وسلم - «أبا بكر» ليوم الناس في الصلاة، ورفضه أن يقوم بهذا «عمر بن الخطاب»، فلما تأخر «أبو بكر» يوماً عن الصلاة، قدّم «بلال» «عمر بن الخطاب» اجتهاداً منه ليؤم الناس، فلما سمع الرسول «عمر» يقيم الصلاة رفض ذلك، وقال «أين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون». وعلى الرغم من ذلك فإن هذا التصرف التلقائي من «بلال» يدل على أن الصحابة كانوا يعلمون أن أفضل الناس بعد «أبي بكر الصديق» هو «عمر بن الخطاب». ولم يعترض على ترشيح «عمر» للخلافة إلا عدد قليل من كبار الصحابة، وعللوا ذلك بغلظته وشدته، لكن «أبا بكر» طمأنهم وبين لهم أن ما يجدونه من شدته، إنما هو لله وفي الله، وإنه يشتد لأنه يراني أحياناً ليلاً، حتى يحدث نوعاً من التعادل، وأنه لو أفضى الأمر - أي الخلافة - إليه لترك كثيراً

مما هو فيه. ولا يقلل هذا الاعتراض من سداد رأى «أبي بكر»  
في «عمر»، ولا من شأن «عمر» نفسه، بل يدل ذلك على حرية  
الرأى تجاه الشخصية التى ستلى أمر الخلافة، فلن يضير «عمر»

(917/10)

أن نفرًا من ذوى الرأى لم يؤيدوا ترشيحه، بل يكفيه أن أغلب  
الصحابة أجمعوا على تزكيته، ورضوا به لهذا المنصب الجليل،  
وهذا ما تسير عليه الآن الأمم الحرة فى اختيار حكامها،  
فالإجماع ليس شرطاً ضرورياً فى اختيار الحاكم. اطمأنت نفس  
«أبي بكر الصديق» بعد أن استشار كبار الصحابة إلى اختيار  
«عمر بن الخطاب» خليفة من بعده، فأشرف على الناس وهو  
مريض، وقال: «أترضون بمن أستخلف عليكم؟، فإنى والله ما  
آلوت من جهد الرأى، ولا وليت ذا قرية، وإنى قد وليت عليكم  
عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا» فقالوا: سمعنا وأطعنا.  
بايع المسلمون «عمر بن الخطاب»، وبذا أصبحت خلافته شرعية.  
وبعد الفراغ من دفن «أبي بكر الصديق» صعد «عمر بن الخطاب»  
منبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ووقف على درجة أدنى  
من الدرجة التى كان يقف عليها «أبو بكر الصديق»، فحمد الله  
وأثنى عليه وصلى على النبى - صلى الله عليه وسلم -، وذكر  
«أبا بكر» - رضى الله عنه - بكل خير، وقال: «أيها الناس ما أنا  
إلا رجل منكم، ولولا أنى كرهت أن أرد أمر خليفة رسول الله ما  
تقلدت أمركم»، فأثنى المسلمون عليه خيراً، وزاد ثناؤهم حين  
رأوه يرفع بصره إلى السماء ويقول: «اللهم إنى غليظ فليتي،  
اللهم إنى ضعيف فقونى، اللهم إنى بخيل فسحني». وفى اليوم  
التالى لتولية الخلافة خطب خطبة أخرى، أراد أن يوضح فيها  
طريقته فى الحكم، ويزيل ما قد علق فى نفوسهم من خوفٍ من

شدته التي صرحوا بها لأبي بكر حين رشحه للخلافة، فقال:  
«بلغني أن الناس هابوا شدتي وخافوا غلظتي، وقالوا: كان  
عمر يشند علينا ورسول الله بين أظهرنا، ثم اشتد علينا وأبو  
بكر والينا دونه، فكيف وقد صارت الأمور إليه؟ ومن قال ذلك  
فقد صدق .. إنني كنت مع رسول الله فكنت عبده وخادمه، وكان  
من لا يبلغ أحد صفته من الدين والرحمة، وكان كما قال الله  
تعالى بالمؤمنين رءوفًا رحيمًا، فكنت بين يديه سيفًا مسلولا،

(918/10)

---

حتى يغمدني أو يدعني فأمضي، فلم أزل مع رسول الله حتى  
توفاه الله، وهو عني راضٍ، والحمد لله كثيرًا، وأنا به أسعد،  
ثم ولى أمر المسلمين أبو بكر، فكان من لا تنكرون دعتهم وكرمه  
ولينه، فكنت خادمه وعونه، أخلط شدتي بليته، فأكون سيفًا  
مسلولا، حتى يغمدني أو يدعني فأمضي، فلم أزل معه كذلك  
حتى قبضه الله عز وجل، وهو عني راضٍ، فالحمد لله على ذلك  
كثيرًا، وأنا به أسعد، ثم إني وليت أموركم أيها الناس، فاعلموا  
أن تلك الشدة قد أضعفت - أى زادت - فارتعد بعضهم من الخوف  
لكنه طمأنهم فقال: ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي  
على المسلمين، فأما أهل السلامة والقصد - أى الاعتدال - فأنا  
ألين لهم من بعضهم على بعض، ولست أدع أحدًا يظلم أحدًا أو  
يتعدى عليه حتى أضع خده على الأرض، وأضع قدمي على الخد  
الآخر، حتى يدعن بالحق، وإني بعد شدتي تلك أضع خدي على  
الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف، ولكم على أيها الناس خصال  
أذكرها لكم، فخذوني بها، لكم على ألا أجي شيئًا من  
خراجكم، ولا ما أفاء الله عليكم إلا من وجهه، ولكم على إذا  
وقع في يدي ألا يخرج مني إلا في حقه، ولكم على أن أزيد

عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله - تعالى - وأسد ثغوركم، ولكم  
على ألا ألقىكم في المهالك، وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو  
العيال - أرى يرعاهم - فاتقوا الله عباد الله وأعينوني على  
أنفسكم بكفها عني، وأعينوني على نفسى بالأمر بالمعروف  
والنهي عن المنكر، وإحضارى النصيحة فيما ولائى الله من  
أمركم، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم». فى خلال  
السنوات العشر التى تولى «عمر» فيها الخلافة (13 - 23هـ)  
امتدت حدود الدولة الإسلامية من ولاية «برقة» - فى «ليبيا» حاليًا  
- غربًا إلى نهر «جیحون» شرقًا، ومن بحر «قزوين» فى الشمال  
إلى «المحيط الهندى» فى الجنوب. وقد حار المؤرخون فى  
تفسير نجاح هذه الفتوحات، وتعليل أسبابها، فقد أذهلهم أن

(919/10)

العرب الذين كانوا قبل دخولهم الإسلام قليلى الشأن، لا حول لهم  
ولا قوة، ولا يأبه بهم أحد ولا يحسب لهم حساب، هم فى سنوات  
قليلة بنجحون فى إزالة الإمبراطورية الفارسية كلها، وهى التى  
وقفت نداءً للإغريق والرومان نحو ألف سنة، وفى فتح الشام،  
و «مصر» وهما أعظم ولايات الدولة البيزنطية وأكثرها غنى فى  
الشرق بعد إنزال هزائم قاسية بجيوشها فى «اليرموك»  
وغيرها. وسبب حيرة هؤلاء المؤرخين أنهم يربطون عادة بين  
الانتصارات والهزائم فى الحروب، وبين أعداد الجيوش المتحاربة  
وما معها من عدة وأسلحة، ولما كان المسلمون أقل عددًا  
وعتادًا على نحو لا يقارن بما كان عند الفرس والروم، راحوا  
يبحثون عن أسباب أخرى غير قضية العدد والأسلحة، وذهبوا  
فى ذلك مذاهب شتى. ذهب بعضهم إلى القول بأن المسلمين  
واجهوا دولتى الفرس والروم، وهما فى حالة ضعف وانهايار بعد

الحروب الطويلة التي دامت بينهما، وانتصروا عليهما بسهولة  
وفي وقت قصير. غير أن هذا التفسير بعيد عن الواقع ومخالف  
للحقيقة، فالمعارك التي دارت في «القادسية» و «نھاوند»  
و «اليرموك» لا تؤيد هذا التعليل؛ لأنها كانت معارك كبيرة، ولم  
تكن جيوش الفرس والروم فيها ضعيفة، وهي لم تهزم أمام  
المسلمين لضعف قوتها المادية من الرجال والأسلحة، ولكن لأن  
معنويات أفرادها كانت منحطة إلى أبعد الحدود، في حين  
كانت معنويات المسلمين عالية، ويعرفون الهدف الذي يحاربون  
من أجله، وكان الموت أحب إليهم من الحياة. وهذا هو السبب  
الرئيسي في انتصاراتهم الذي نسيه الكتاب الغربيون أو  
تناسوه، فمنع هذه القوة وسبب هذا الانقلاب العظيم الذي لا  
يوجد له مثيل في التاريخ أن العرب أصبحوا بفضل رسالة الإسلام  
أصحاب دين ورسالة، فبعثوا بعثًا جديدًا، وخلقوا من جديد،  
وعلموا أن الله قد ابتعثهم ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور،  
ومن عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها،

(920/10)

---

ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، .. وعرفوا أن الله قد ضمن  
لهم النصر ووعدهم الفتح، فوثقوا بنصر الله ووعد رسوله،  
واستهانوا بالقلة والكثرة، واستخفوا بالمخاوف والأخطار. وفي  
ذلك قال المؤرخون: «لما أقبل خالد بن الوليد من العراق، ليتولى  
قيادة الجيوش في الشام لحرب الروم، قال رجل من نصارى  
العرب أمامه: ما أكثر الروم وأقل المسلمين، فنهره خالد، وقال  
له: ويحك بل قل: ما أكثر المسلمين وأقل الروم إن الجيوش تكثر  
بالنصر وتقل بالهزيمة لا بعدد الرجال». وهذه الحقيقة عرفها  
أعداؤهم حتى إن هرقل لما انتهى إليه خبر زحف المسلمين

وانتصاراتهم، قال وكان عندئذٍ موجودًا في حمص: «ويحكم إن هؤلاء أهل دين جديد، وإنهم لا قبل لأحد بهم، فأطيعوني وصالحوهم على نصف خراج الشام، ويبقى لكم جبال الروم، وإن أنتم أبيتم ذلك أخذوا منكم الشام، وضيقوا عليكم جبال الروم». لقد ترتب على الفتوحات الإسلامية نتائج وآثار بعيدة المدى في تاريخ العالم، وإذا ما قورنت بغيرها - مثل فتوحات «الإسكندر» قبلها، وفتوحات المغول بعدها - فإن تلك المقارنة تظهر عظمة المسلمين، وأن فتوحاتهم كانت أكثر الفتوحات في العالم خيرًا وبركة، وفتوحات «الإسكندر» وامبراطوريته التي شادها في الشرق انهارت وتمزقت أوصالها بعد وفاته مباشرة، وأصبحت ذكرى من ذكريات التاريخ، أما غزوات المغول التي لم يعرف لها تاريخ العالم مثيلاً من قبل في همجيتها ووحشيتها، فقد دمرت معظم العالم الإسلامي في الشرق بما كان فيه من حضارة مزدهرة، ولم يوقف زحفها المدمر سوى الجيش المصرى في معركة «عين جالوت» سنة (658هـ). وهذه الغزوات المغولية البربرية كان يمكن أن ينساها التاريخ أو يذكرها باعتبارها عملاً بربرياً ألم بالإنسانية في مسيرتها الطويلة، لولا أن الله - تعالى - أدرك برحمته الواسعة هذه الجموع الوحشية وهداها إلى دينه، فأسلم أغلب المغول، وأظلمهم الإسلام بحضارته،

(921/10)

---

وحولهم من قوة مدمرة إلى طاقة خيرة، ومن أعداء مهاجمين إلى أتباع مدافعين، بل مشاركين في صنع الحضارة الإسلامية. تجلت عبقرية «عمر بن الخطاب» أعظم ما تجلت في ميادين الإدارة، فقد ضبط نظم الدولة الإسلامية، وكانت مترامية الأطراف، وأحكم إدارتها بمقدرة فائقة تثير الدهشة والإعجاب، في وقت

كانت فيه وسائل الاتصال بطيئة تمامًا. ويصعب على أى باحث أن يحيط بالجوانب الإدارية عند «عمر بن الخطاب»، ولذا سنعرض لبعض منها: أولاً: عمر واختيار الولاية: استعان «عمر بن الخطاب» برجال يديرون شئون الولايات البعيدة عنه، أما القربة منه فكان يديرها بنفسه، وكان يقول: «ما يحضرنى من أموركم لا ينظر فيه أحد غيرى، أما ما بعد عنى فسوف أجتهد فى توليته أهل الدين والصلاح والتقوى، ثم لا أكتفى بذلك، بل لابد من متابعتهم؛ لأعرف هل يقومون بالعدل بين الناس أم لا؟». وكان لعمر بن الخطاب طريقة فى اختيار ولاته، فلم يكن يستعمل أحداً من أهل بيته، وقلما استعمل كبار الصحابة على الأمصار، بل استبقاهم معه فى «المدينة» ليعينوه فى شئون الدولة، ويقدموا له المشورة، ومن أهم شروط «عمر» فى الولى: - القوة والأمانة: والمقصود بالقوة قوة الدين، وقوة الإرادة والحزم فى الأمور، ومن أقواله المأثورة: «إنى لأتخرج أن أستعمل الرجل وأنا أجد أقوى منه»، ولذا فقد عزل «شرحبيل بن حسنة» عن «الأردن»، و «عمير بن سعد» عن «حمص»، وضم ولايتهما إلى «معاوية بن أبى سفيان»، وكان المعزولان أسبق إسلاماً من «معاوية» وأفضل، فلما كلمه الناس فى ذلك قال إنه لم يعزلهما عن سخط أو خيانة، ولكنه كان يريد رجلاً أقوى من الرجل. - الهيبة مع التواضع: أدرك «عمر بن الخطاب» حاجة ولى الأمر إلى الهيبة واحترام الناس، حتى يستطيع أن يقودهم، ولكن لا ينبغي لها أن تتجاوز الحد لتصبح تسلطاً وتعالياً، وكان يقول: «أريد رجلاً - أى والياً - إذا كان فى القوم وليس أميرهم، كان كأنه

أميرهم، وإذا كان أميرهم كان كأنه واحد منهم». - الرحمة بالناس: كان «عمر» يختار للولاية من اشتهر بالرحمة ولين الجانب وحب الخير للناس، وحين كان يولى أحداً يكتب له كتاب تولية، ويشهد عليه بعض الصحابة، ويشترط عليه ألا يظلم أحداً في جسده ولا في ماله، ومن وصاياه لعماله: «ألا وإنى لم أبعثكم أمراء ولا جبارين، ولكن بعثتكم أئمة الهدى، يهتدى بكم فادروا على المسلمين حقوقهم، ولا تضربوهم فتذلوهم، ولا تغلقوا الأبواب دونهم، فإكل قلوبهم ضعيفهم، ولا تستأثروا عليهم فتظلموهم، ولا تجهلوا عليهم». ثانياً: قواعد العمل بالنسبة إلى العمال والولاية: لم يكن «عمر» يقنع بحسن اختيار الولاية وفق شروطه، وإنما كان يحدد لهم أسلوب العمل، والقواعد التي يسرون عليها، إما في صورة خاصة محددة كما كان يحدث في عهد الولاية، وإما في توجيهات عامة كما في المؤتمرات التي كان يعقدها للعمال والولاية، وبخاصة في موسم الحج. ثالثاً: المتابعة: فطن «عمر بن الخطاب» إلى فاعلية المتابعة، وأثرها في حسن سير الإدارة، ولذا لم يكتفِ بالتدقيق في اختيار الولاية، وإنما وضع عليهم العيون والأرصاء، يحرصون عليهم حركاتهم وسكناتهم، ويسجلون أعمالهم وينقلونها إلى الخليفة فور وقوعها، لأنه أدرك أن الخطأ قد يقع بدون قصد، وأن الانحراف لا يبدأ كبيراً، وأن كل شيء يمكن وقفه في أوله قبل استفحاله، عملاً بالحكمة الخالدة: «الوقاية خير من العلاج». رابعاً: سياسة الباب المفتوح: أدرك «عمر بن الخطاب» أن آفة الإدارة في كل عصر هي احتجاج كبار المسؤولين عن أصحاب الحاجات فتضيق مصالح الناس أو تتعطل، ولذا لم يكن يتهاون مع أى أمير أو والٍ يسمع أنه يحتجب عن الناس مهما يكن شأنه، وحين بلغه أن «سعد بن أبي وقاص» قد بنى بيتاً في «الكوفة» من طابقين، وسماه الناس قصر «سعد»، لأن بقية البيوت كانت من طابق واحد، وأنه اتخذ لمكانه الذى يباشر منه أعمال الولاية

بابًا، أرسل إليه «محمد بن مسلمة الأنصاري»، وكان مبعوث «عمر» في المهمات الكبيرة، وأمره أن يحرق ذلك الباب الذي يحول بين الأمير وبين الناس، وأن يقدم بسعد معه، فلما قدم عليه وبخه ولم يقبل اعتذاره بأن داره قريبة من السوق وأنه كان يتضايق من ارتفاع أصوات الناس وجلبتهم، ثم رده إلى عمله بعد أن أكد عليه ألا يعود إلى مثل هذا أبدًا. خامسًا: المؤتمرات العامة: ابتكر «عمر» عقد المؤتمرات العامة لمناقشة أمور الدولة، حتى يتيح لأكثر عدد من المسلمين المشاركة في صنع السياسة والقرار بالحوار والمشاورة، فاهتدى إلى استثمار مناسبة الحج، وتجمع الناس في البلد الحرام، وقرر أن يحج كل عام، عدا السنة الأولى من خلافته، وأن يحج معه كل ولاية الأمصار، وهناك يدور النقاش والحساب مع الولاة عما صنعوا في عامهم الذي مضى، وما ينوون عمله في العام القادم، وفوق ذلك تكون تقارير عيونه بين يديه قبل مجيء الولاة، بحيث تكون أمورهم كلها واضحة، ولا يستطيع أحد منهم أن ينكر شيئًا، ولما كانوا يعرفون ذلك فإنهم حرصوا على أن تكون سجلات أعمالهم نظيفة، فالخليفة لا يتهاون في حساب المقصر أو من تثبت عليه مخالفة لشرع الله. سادسًا: محاسبة الولاة والأمراء: دأب «عمر بن الخطاب» على محاسبة كل وائل مقصر، أو من يشتبه أنه قصر في عمله، لا يمنعه من ذلك كون الوالي كبير القدر أو صاحب سابقة في الإسلام، وقلما نجا وائل من ولاته من المحاسبة، وإذا كان الجرم صغيرًا يمكن إصلاحه؛ اكتفى بالتوبيخ، ورد الوالي إلى عمله كما فعل مع «سعد بن أبي وقاص»، أما إذا كان الجرم كبيرًا من وجهة نظره؛ فإنه يأمر بعزل الأمير على الفور، ومن أشهر إجراءاته في هذا المجال: عزله «خالد بن الوليد» حين علم بأنه

أعطى «الأشعث بن قيس» عشرة آلاف درهم، فساورته شكوك  
في أن من يعطى عشرة آلاف مرة واحدة لرجل واحد، كم يكون  
لديه؟ فأمر «أبا عبيدة بن الجراح» أمير الأمراء في الشام

(924/10)

بمحاكمة «خالد» ومقاسمته ماله، فامتثل «خالد» لهذا العزل كما  
امتثل من قبل للعزل الأول عن القيادة العامة. ولم يكن «عمر»  
يقصد بهذا التصرف الإساءة إلى «خالد» قط، وإنما كان يريد أن  
يعلم الجميع أن الإسلام فوقهم، وليس هناك استثناء لمخالف،  
ولو كان قائدًا عظيمًا في مكانة «خالد». سابعًا: القدوة الحسنة:  
أدرك «عمر» أثر القدوة في سياسة الناس، وأن عليه أن يعلم  
الناس بأعماله قبل أن يعلمهم بأقواله. وكثيرًا ما كان يردد للناس  
قوله: «سأسوكم بالأعمال وليس بالأقوال»، وأن الرعية مؤدية  
إلى الإمام ما أدى الإمام إلى الله، فإن رتع الإمام رتعوا. وكان  
«عمر» قدوة في حياته الخاصة، يعيش كما يعيش عامة الناس  
دون تميز، وحين فرضوا له عطاءً (راتبًا) من بيت مال المسلمين،  
ليعمل منه أسرته قدروا له راتبًا يمكنه من معيشة رجل من أوسط  
الناس، لا أغناهم ولا أفقرهم. وفوق ذلك هو يشارك المسلمين  
ويواسيهم إذا أصابهم ضرر، كما حدث في عام «الرمادة»  
المشهور سنة (18هـ) الذي أصاب الناس فيه مجاعة شديدة في  
شبه الجزيرة العربية لقلة الأمطار، فكان يجلب إليهم الأقوات من  
الأمصار، ويأكل مما يأكله الناس، حتى ساءت صحته، فنصحته  
بعض أصحابه بأن يحسن من طعامه، ليقوى على العمل وإنجاز  
مصالح المسلمين، لكنه أجاب بقوله: «كيف يعينني شأن الرعية  
إذا لم يصبني ما أصابهم؟». ولا شك أن ما عبر عنه الخليفة  
«عمر» هو مفتاح الحكم الصالح في كل عصر وزمان فيوم يحس

الحاكم بإحساس شعبه فسوف يستقيم الحكم، وينصلح حال الرعية، ويوم يفصل الحاكم عن شعبه، وتكون له حياته الخاصة، فحينئذٍ يفتح باب الفساد. وقد حرص «عمر» على أن يجعل من أبنائه وأهله قدوة كذلك، فأخذهم بما أخذ به نفسه، لأنه الناس ينظرون إليهم، وكان يقول لهم إذا عزم على أمر يهم المسلمين: «لقد عزمت على كذا وكذا، أو نهيته الناس عن كذا وكذا، وأقسم بالله لو خالفني أحد منكم لأضاعفن له العقوبة». بهذه

(925/10)

الإجراءات حصن «عمر» نفسه وأولاده وكل من يلوذون به ضد أية انحرافات أو إغراءات، فأطاعه المسلمون وأحبوه سواء أكانوا أمراء أم من عامة الناس، ولم يعرف التاريخ رجلاً بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - و «أبي بكر الصديق» أطاعه كبار الأمراء وصغارهم كما أطاعوا «عمر بن الخطاب»، لا لهيبته في عيونهم فحسب، بل للقدوة الحسنة في حياته وانضباطه الشديد، ولهذا كله احتل مكانة عالية في التاريخ الإنساني. لم ترتبط صفة من صفات «عمر» الكثيرة باسمه كما ارتبطت به صفة العدل، فإذا ذُكر «عمر» ذكر الناس عدله، الذي كان لا يفرق بين قريب وبعيد، أو كبير وصغير، أو صديق وعدو، والأخبار المتواترة في ذلك أكثر من أن تحصى، ولعل قصته مع «أبي مريم السلولى» قاتل أخيه «زيد» في معركة «البيامة» أصدق مثال على تجرده في عدله، وعدم خلطه بين عواطفه ومسئوليته باعتباره حاكماً يُجرى العدل بين الناس. فحين قابل «عمر» - وهو خليفة - قاتل أخيه بعد أن أسلم، قال له: أنت قاتل «زيد» بن الخطاب؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: والله لا أحبك أبداً، فقال «أبو مريم»: أو تمنعني بذلك حقاً، قال: لا. قال:

إدًا يا أمير المؤمنين إنما يأسى على الحب النساء. يريد أنه مادام لا يظلمه الخليفة فلا يعنيه أحبه أم كرهه، لأن النساء هن اللاتي يأسفن على الحب. ولا لوم على «عمر» في التعبير عن عواطفه التي لا يملكها تجاه قاتل أخيه، فقد ورد أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال لوحشى قاتل عمه «حمزة بن عبدالمطلب» حين رآه بعدما أسلم: «غيب وجهك عني يا وحشى لا أراك». ولكن للقصة دلالة على ضبط النفس والتجرد المطلق لعمر ابن الخطاب، فلم يحمله غضبه من قاتل أخيه على ظلمه. وامتد عدل «عمر» ليشمل كل من يعيش على أرض الإسلام، سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين، فحين رأى يهوديا يتسول أحزنه ذلك. وأخذ الرجل من يده، وأعطاه معونة عاجلة من بيت

(926/10)

الدقيق (8)، وأمر له براتب دائم من بيت مال المسلمين. إحساسه بالمسئولية: بلغ من شدة إحساس «عمر» بالمسئولية أنه لم يكتفِ بأن يكون مسئولاً عن حياة البشر الذين يعيشون في دولته، بل مسئولاً عن البهائم والدواب أيضاً. وذلك في مقولته الشهيرة: «والله لو أن بغلة عثرت بشط الفرات لكنت مسئولاً عنها أمام الله، لماذا لم أعبد - أسوى - لها الطريق». وأعمال «عمر» العظيمة من الفتوحات واستكمال بناء الدولة ومؤسساتها لم تشغله عن متابعة أحوال الناس وتفقدتها؛ ليقف على أوجه النقص ليتلافها أولاً بأول، فكان كثير الطواف ليلاً بالمدينة، وسمع ذات ليلة طفلاً يبكي بكاء مستمراً، فسأل عن أمره، فعرف أن أمه منعت عنه الرضاع، لأنه لا يُفرض عطاء من بيت المال إلا للأطفال المفقومين، فانزعج «عمر»، وأصدر أوامره أن يفرض عطاء لكل مولود في الإسلام، ونادى مناديه: لا تعجلوا فطام

أولادكم. وحوادث «عمر» التي من هذا القبيل كثيرة، وقد يظنها بعض الناس أنها من المبالغات، ولكنها متواترة في المصادر التي أرّخت لعمر وعصره، فمن يصدق أن خليفة المسلمين يأخذ امرأته «أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب» ومعها كل ما تحتاج إليه عملية ولادة، لمساعدة امرأة غريبة جاءها المخاض، فيشترك هو معها في الإشراف على ولادتها؛ وصنع الطعام لها، ولما أنجز مهمته، قال لزوج المرأة: «إذا كان الغد فأنا تأمر لك بما يصلحك»، ففعل الرجل فأجازته وأعطاه. عمر والقضاء: عندما بويح «أبو بكر» بالخلافة شكى لعمر من كثرة أعبائها وخوفه من عدم النهوض بكل مسؤولياتها، فقال له «عمر»: «أنا أكفيك القضاء وأبو عبيدة يكفيك الأموال»، ومعنى ذلك أن «عمر» كان قاضيًا لأبي بكر. وفي عهد «عمر» اتسعت الدولة، واحتاج كل إقليم إلى قاضٍ، فعين «عمر» القضاة وكان يدقق في اختيارهم، فعين: «شريح بن الحارث الكندي» على قضاء «الكوفة»، و «أبا الدرداء» على قضاء الشام، و «عثمان بن

(927/10)

---

قيس» على قضاء «مصر». ولم يكن «عمر» في حاجة إلى سن قوانين للقضاة، لأنهم يحكمون طبقًا لكتاب الله وسنة رسوله، ولكنه كان في حاجة إلى تعليمهم كيف يتصرفون حين يلتبس الأمر عليهم، وقد كتب لأحدهم يقول له: «فإن جاءك أمر ليس في كتاب الله ولم تكن فيه سنة من رسول الله، ولم يتكلم فيه أحد قبلك، فاختر أي الأمرين شئت، إن شئت أن تجتهد رأيك وتقدم فتقدم، وإن شئت أن تأخر فتأخر». ومن أعظم وصاياه للقضاة وصيته لأبي موسى الأشعري، ومما جاء فيها: «آس - أي سؤ بين الناس في مجلسك ووجهك - حتى لا يطمع شريف في حيفك -

ظلمك - ولا ييأس ضعيف من عدلك، والبينة على من ادعى واليمين على من أنكرك، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرم حلالاً أو حل حراماً ..». إصلاحات عمر بن الخطاب وإنشاءاته: لعمر بن الخطاب كثير من الإصلاحات والإنشاءات التي لم يسبق إليها، وسماها مؤرخو سيرته «أوليات عمر»، فهو أول من سُمي أمير المؤمنين، وأول من اتخذ حدث الهجرة مبدأ التاريخ للدولة الإسلامية، بعد أن استشار في ذلك كبار الصحابة، وهو أول من اتخذ بيت المال، وهو يشبه خزانة الدولة، وأول من مصرَّ الأمصار، أي بني مدناً جديدة كالبصرة و «الكوفة» في «العراق»، و «الفسطاط» - حي مصر القديمة حالياً - في «مصر»، وأول من وسَّع مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وأدخل فيه دار «العباس بن عبدالمطلب»، وفرشه بالحصباء، أي الحجارة الصغيرة، وكانوا قبل ذلك يصلون على التراب. وهو أول من دوَّن الدواوين، وهي تشبه الوزارات في الوقت الحاضر، وقد اقتبس هذا النظام من الفرس والروم، فأنشأ «ديوان العطاء»، وكان مختصاً بالعطاء الذي فرضه «عمر» للمسلمين، وأنشأ «ديوان الجند» - وزارة الدفاع حالياً - و «ديوان الخراج» - وزارة المالية - و «نظام البريد» الذي كان يُستخدم في أمور الدولة. ومن أعظم اجتهاداته إبقاؤه الأرض المفتوحة في أيدي أهلها يزرعونها،

(928/10)

---

ويدفعون خراجاً -إيجاراً - للدولة، تنفق منه على الجيش والمرافق العامة، كما أمر بإعادة مسح الأرض - أي قياسها واختبارها - ووضع الخراج المناسب عليها. حسب جودة الأرض. وهو أول من قنن الجزية على أهل الذمة، فوضع على الأغنياء ثمانية وأربعين درهماً للفرد الواحد في السنة، وعلى متوسطي الحال

أربعة وعشرين درهماً، وعلى الفقراء القادرين على الكسب  
اثنى عشر درهماً، وأعفى منها الشيوخ والنساء والأطفال  
ورجال الدين والعاجزين عن الكسب، وقد سبق القول إنه فرض  
للعاجزين عن الكسب من أهل الذمة عطاءً من بيت المال. وكما  
ترك «عمر بن الخطاب» الأرض لأهلها يزرعونها؛ ترك معظم  
الدواوين - وبخاصة «ديوان الخراج» - في أيدي أبناء البلاد  
المفتوحة يزاوولونها بلغاتها؛ لأنها كما يقول العقاد: «ليست من  
أسرار الدولة، وليس من الميسور أن ينصرف إليها فتيان العرب  
عما هو أولى بهم، وهو فرائض الدفاع والجهاد». ولاشك أن  
ترك تلك الأعمال في أيدي أبناء البلاد المفتوحة كان مبعث  
ارتياح لهم، فاطمأنوا للحكم الإسلامي، بل أخذوا يعتنقون  
الإسلام، ويتعلمون اللغة العربية. استشهاده: في يوم الأربعاء  
الموافق 26 من شهر ذي الحجة سنة 23هـ وبينما «عمر بن  
الخطاب» يسوي صفوف المسلمين في صلاة الفجر كعادته كل  
يوم، وبدأ ينوي مكبراً للصلاة، إذا بأبي لؤلؤة الجوسى يسدد  
للخليفة عدة طعنات بخنجر مسموم، فقطع أمعاءه، وسقط  
مغشياً عليه، واضطرب المسلمون في الصلاة اضطراباً شديداً من  
هول المفاجأة، وأقبلوا على القاتل محاولين القبض عليه، لكنه  
أخذ يضرب شمالاً ويميناً بدون هدى، فأصاب اثني عشر من  
الصحابة، مات ستة منهم، ثم أتاه رجل من خلفه وألقى عليه  
رداءه وطرحه أرضاً فلما أيقن «أبو لؤلؤة» أنه مقبوض عليه لا  
محالة، طعن نفسه بالخنجر الذي طعن به أمير المؤمنين، ومات  
على الفور قبل موت الخليفة نفسه ومات معه السر الخفي الذي

دفعه إلى هذه الجريمة البشعة. حمل المسلمون الخليفة إلى بيته، وظل فاقد الوعي فترة طويلة، فلما أفاق كان أول سؤال سأله للمسلمين: هل صليتم الصبح؟ قالوا: نعم، قال: الحمد لله، لا إسلام لمن ترك الصلاة، ثم سأل: من الذى قتلنى؟ قالوا: «أبو لؤلؤة» غلام «المغيرة بن شعبة». قال: الحمد لله الذى جعل منيتى على يد رجل كافر، لم يسجد لله سجدة واحدة يحاجنى بما عند الله يوم القيامة. أيقن «عمر بن الخطاب» بعد طعنه أنه لم يبق من عمره سوى ساعات، وكذلك أيقن المسلمون، ولذا ألخوا عليه أن يختار لهم من يخلفه فيهم، فرشَّح لهم ستة من الصحابة، هم بقية العشرة المبشرين بالجنة، يختارون من بينهم واحداً للخلافة، ومع أن ابن عمه «سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل» واحد من العشرة المبشرين بالجنة، فقد استبعده من الترشيح، خوفاً أن يقع عليه الاختيار لقربته منه، كما استبعد ابنه «عبد الله» من الترشيح تماماً، بل رد على من اقترح عليه ترشيحه رداً قاسياً، إبعاداً لشبهة الوراثة عن نظام الحكم الإسلامى، وجعل الأمر فى يد الأمة تختار الأصلح ليتولى أمرها. قال «عمر» لهم: «عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إنهم من أهل الجنة، سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل منهم، ولست مدخله فيهم، ولكن الستة، هم: على بن أبى طالب، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وسعد بن أبى وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله». واهتم «عمر» وهو فى تلك الحال بأمر دفنه، وطلب أن يُدفن إلى جوار الرسول - صلى الله عليه وسلم - و «أبى بكر الصديق» - رضى الله عنه - فى بيت «عائشة»، لينعم بصحبته فى الآخرة كما نعم بها فى الدنيا، فأرسل ابنه «عبد الله» إلى «عائشة» - رضى الله عنهما - وقال له: قل لها: «عمر» يقرأ عليك السلام ويستأذنك فى أن يُدفن مع صاحبيه، فأتاها «عبد الله» فوجدتها تبكى، فسلم عليها، ثم قال لها ما أمره به أبوه، فقالت: «كنت والله أريده

لنفسى - أى المكان - ولأثرته به اليوم على نفسى»، فلما رجع  
«عبدالله»، وأخبر أباه أن «عائشة» أذنت له، تملل وجهه،  
وقال: الحمد لله ما كان شىء أهم إلى من ذلك المضجع. وفي  
اليوم التالى لطعنه أى يوم الخميس الموافق 27 من ذى الحجة  
سنة 23هـ فاضت روح «عمر» بعد أن قضى فى الخلافة عشر  
سنوات وبضعة شهور، وكُفن فى ثلاثة أثواب أسوة بكفن  
رسول الله، وصلى عليه «صهيب الرومى» -رضى الله عنه - وكان  
«عمر» قد أمره أن يصلى بالناس بعد طعنه، ودُفن مع رسول الله  
- صلى الله عليه وسلم - و «أبى بكر الصديق».

#### \*عثمان بن عفان

هو «عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن  
عبد مناف»، ولد بعد «عام الفيل» بست سنوات (576م)، وأمه  
«أروى بنت كرز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس»، فعثمان  
يلتقى فى نسبه من جهة أمه وأبيه مع النبى - صلى الله عليه  
وسلم - فى «عبدمناف». كان ربعة من الرجال، ليس بالقصير ولا  
بالطويل، حسن الوجه أبيض مشرباً بحمرة، غزير الشعر يكسو  
ذراعيه شعر طويل، طويل اللحية، ومن أحسن الناس ثغراً.  
أجمعت المصادر التى أرخت له على وصفه بسماحة النفس، ورقة  
المشاعر، وكان رضى الخلق، كريماً، شديد الحياء، صوّاماً  
قوّاماً، محبوباً من الناس فى جاهليته وإسلامه. وتحدث هو عن  
نفسه فقال: لقد اختبأت لى عند ربي عشراً، إني لرباع أربعة

في الإسلام، ولقد ائتمنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -  
على ابنته - رقية - ثم توفيت، فزوجني الأخرى - أم كلثوم -  
ووالله ما سرقت ولا زنيت في جاهلية ولا إسلام قط ولا تغيت،  
ولا تميت ولا مسحت فرجى بيمينى منذ بايعت رسول الله، ولقد  
جمعت القرآن على عهد رسول الله، ولا مرت بي جمعة منذ  
أسلمت إلا وأنا أعتق فيها رقية، فإن لم أجد فيها رقية أعتقت  
في التي تليها رقتين. أسلم «عثمان» مبكرًا، وكان الذي دعاه  
إلى الإسلام هو «أبو بكر الصديق»، وجاء به إلى رسول الله  
- صلى الله عليه وسلم - فأسلم على يديه بعد إسلام «أبي بكر»  
مباشرة، ولذا كان يقول: «إني لرابع أربعة في الإسلام بعد  
«أبي بكر» و «خديجة» و «زيد بن حارثة»، وحرص عثمان على  
إسلامه أشد الحرص، على الرغم من الضغوط التي تعرض لها،  
فعندما علم عمه «الحكم بن أبي العاص» بإسلامه أوثقه  
بالحبال، وقال له: «ترغب عن دين آباءك إلى دين محدث؟ والله  
لا أدعك حتى تدع ما أنت فيه» فأجابه «عثمان»: «والله لا أدعه  
أبدًا ولا أفارقه». تزوج «عثمان بن عفان» من ابنتي رسول الله  
- صلى الله عليه وسلم -، فتزوج «رقية»، وظلت معه حتى توفيت

(932/10)

يوم انتصار المسلمين في غزوة «بدر»، ولهذا لم يحضر «عثمان»  
«بدرًا»، لأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أمره بالبقاء معها  
لتمريضها، وقد عده النبي - صلى الله عليه وسلم - من البدرين  
رغم غيابه عن المعركة، وفرض له في غنائمها، ثم زوجه النبي  
- صلى الله عليه وسلم - ابنته «أم كلثوم»، ولهذا لقب بذي  
النورين، فلما توفيت في العام التاسع من الهجرة؛ حزن  
«عثمان» حزنًا شديدًا؛ لانقطاع مصاهرته للنبي - صلى الله عليه

وسلم -، فواساه مواساة رقيقة قائلاً: «لو كانت لنا أخرى لزوجناكها يا عثمان». جاهد «عثمان بن عفان» منذ أن أسلم مع النبي - صلى الله عليه وسلم - بماله ونفسه، فهاجر الهجرتين: إلى «الحبشة» وإلى «المدينة»، وصاحبتة زوجته رقية بنت النبي - صلى الله عليه وسلم -، وتحمل كثيراً من الأذى. بذل «عثمان» ماله في سبيل الله ونصرة دعوته، وكان من أكثر «قريش» مالا، فاشتري «بئر رومة» باثني عشر ألف درهم، وجعلها للمسلمين في «المدينة»، وكانوا يعانون من قلة المياه، وغلاء أسعارها. كما أنفق ماله في تجهيز الجيوش وبخاصة جيش العسرة في غزوة «تبوك» في العام التاسع من الهجرة، فقد جهز وحده ثلث الجيش، وكان عدده نحو ثلاثين ألفاً، فدعا له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بخير، وقال: «ماضر عثمان ما فعل بعد اليوم»، قالها مرتين. وشهد «عثمان» المشاهد كلها مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، عدا غزوة «بدر»، فقد تخلف عنها بأمر من النبي - صلى الله عليه وسلم -، وأرسله النبي إلى «مكة» عام «الحديبية» لمفاوضة «قريش»، بعد اعتذار «عمر بن الخطاب» لرسول الله بقوله: «إني أخشى على نفسي من «قريش» لشدتي عليها وعداوتي إياها، ولكني أدلك على رجل أمان وأقوى بها مني، عثمان بن عفان». ولما أشيع أن «قريشاً» قد قتلت «عثمان»، قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: «لو كانوا فعلوها فلن نبرح حتى نناجزهم»، وبايعه أصحابه «بيعة الرضوان» تحت

(933/10)

---

الشجرة، وبايع النبي نفسه نيابة عن «عثمان»، وقال: «إن عثمان بن عفان في حاجة الله وحاجة رسوله» وضرب بإحدى يديه على الأخرى مشيراً إلى أن هذه بيعة «عثمان»، فكانت يد

النبي - صلى الله عليه وسلم - لعثمان خيرًا من أيديهم لأنفسهم.  
وكان من كتاب الوحي كما هو معلوم. والأحاديث الواردة في  
فضل «عثمان بن عفان» وثناء النبي عليه كثيرة، من ذلك قوله  
- صلى الله عليه وسلم -: «ألا أستحي من رجل تستحي منه  
الملائكة؟». وكان عثمان بن عفان قريبًا من الخليفين، «أبي  
بكر الصديق» و «عمر بن الخطاب»، وموضع ثقتهما وأحد أركان  
حكومتهم، ومن كبار مستشاريهما، وكان يكتب لهما، وهو  
الذى كتب كتاب ولاية العهد من «أبي بكر» إلى «عمر بن  
الخطاب» - رضى الله عنهما - وترتيب «عثمان» في الفضل بين  
الصحابه كترتيبه في تولي الخلافة عند جمهور علماء الأمة. لم  
يشأ «عمر بن الخطاب» أن يعهد بالخلافة إلى شخص بعينه،  
وقال: «إن أعهد - يعنى لشخص محدد - فقد عهد من هو خير  
منى - يقصد أبا بكر عندما عهد إليه هو نفسه - وإن لم أعهد فلم  
يعهد من هو خير منى - يقصد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -  
حين تركها شورى بين المسلمين». ولعل اجتهاده أداه إلى أن  
تصرف الرسول و «أبي بكر» يعطى له الفرصة أيضًا أن يختار  
طريقة أخرى لاختيار من يخلفه، ليشرى بذلك طرق الاختيار،  
وليرسخ في أذهان الناس أن أمر اختيار الحاكم منوط دائمًا  
بالأمة وإرادتها ورضائها، وهى التى تملك محاسبته وعزله إن  
ارتكب ما يوجب العزل. رشح «عمر بن الخطاب» ستة من  
الصحابه، ليتولى واحد منهم منصب الخلافة، ولم يأمر أحدًا منهم  
أن يصلى بالناس إمامًا، حتى لا يظن الناس أنه يميل إليه، بل أمر  
صهيبًا أن يصلى بالناس، لتكون فرصتهم فى الاختيار متساوية،  
وشدد على ألا تمضى ثلاثة أيام بعد وفاته إلا ويكون عليهم أمير  
من هؤلاء الستة يتولى مسؤولية الخلافة ويتحمل تبعاتها. وبعد

أن فرغ المسلمون من دفن «عمر»، شرع المرشحون الستة في التفاوض، وبعد نقاش طويل اقترح عليهم «عبد الرحمن بن عوف» أن يتنازل عن حقه في الخلافة. ويتركوا له اختيار الخليفة، فوافقوا على ذلك، فشرع في معرفة آرائهم واحدًا بعد واحد على انفراد، فرأى أن الأغلبية تميل إلى «عثمان»، ثم أخذ يسأل غيرهم من الصحابة، «فلا يخلو به رجل ذو رأى فيعدل بعثمان». اطمأن «عبد الرحمن» إلى أن الأغلبية تزكى «عثمان بن عفان» فأعلن ذلك على ملاء من الصحابة في مسجد النبي - صلى الله عليه وسلم -، ولما كان يعلم أن الذى يلي «عثمان» فى المنزلة عند الصحابة، هو «على بن أبى طالب»، الذى مال إليه عدد منهم، فإنه رأى أن يوضح له أن الأغلبية مع «عثمان»، فقال له: «أما بعد يا على، فإنى نظرت فى الناس، فلم أرهم يعدلون بعثمان، فلا تجعل على نفسك سبيلا» - كأنه يحذره من المخالفة- ثم أخذ بيد «عثمان»، فقال: «نبايعك على سنة الله ورسوله، وسنة الخليفين بعده»، فبايعه «عبد الرحمن»، وبايعه المهاجرون والأنصار؛ ولم يتخلف أحد عن بيعته من الصحابة، وكان ذلك بعد وفاة «عمر» بثلاثة أيام. استقبل «عثمان» بخلافته أول الحرم سنة 24هـ، وصعد المنبر بعد تمام البيعة، وخطبهم قائلاً -بعد حمد الله والصلاة على رسوله-: «إنكم فى دار قلعة -أى دار الدنيا - وفى بقية أعمار، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرُونَ عليه .. ألا وإن الدنيا طويت على الغرور، فلا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنكم بالله الغرور، اعتبروا بما مضى، ثم جدوا ولا تغفلوا، فإنه لا يغفل عنكم، أين أبناء الدنيا وإخوانها: الذين أثاروها وعمروها، ومنتعوا بما طويلا، ألم تلفظهم؟ ارموا الدنيا حيث رمى الله بها، واطلبوا الآخرة ..». وأول ما يلاحظ على الخطبة الأولى، التى افتتح بها «عثمان» خلافته، خلوها من الإشارة إلى المنهج الذى سيسير عليه، ولعله اكتفى بما قاله لعبد الرحمن بن عوف لحظة البيعة، من أنه سيعمل بكتاب الله،

وسنة نبیه، وسیره الخلیفتین بعده. کتب «عثمان» - رضی الله عنه - فی الأيام الأولى من خلافته عددًا من الكتب إلى الولاة وأمرء الجند، بل وإلى عامة الناس، تتضمن نصائحه وإرشاداته، يقول «الطبری»: أول كتاب كتبه «عثمان» إلى عماله: «أما بعد فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة - يرعون مصالح الأمة - ولم يتقدم إليهم - أي لم يطلب منهم - أن يكون جباة، وإن صدر هذه الأمة خلقوا دعاة، ولم يخلقوا جباة، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا دعاة، فإن عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء، ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فيما عليهم، فتعطوهم ما لهم، وتأخذوهم بما عليهم، ثم تشنوا بالذمة، فتعطوهم الذي لهم، وتأخذوهم بالذي عليهم، ثم العدو الذي تنتابون، فاستفتحوا عليهم بالوفاء». وكتب إلى أمراء الأجناد وقادة الجيوش: «أما بعد، فإنكم حماة المسلمين وذادتهم، وقد وضع لكم عمر ما لم يرغب عنا، بل كان عن ما لا منا، فلا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل، فيغير الله ما بكم، ويستبدل بكم غيركم، فانظروا كيف تكونون، فإنني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه، والقيام عليه». وكتب إلى عمال الخراج المسئولين عن الشؤون المالية: «أما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق، ولا يقبل إلا الحق، خذوا الحق، وأعطوا الحق، والأمانة والأمانة، قوموا عليها، ولا تكونوا أول من يسلبها.. والوفاء الوفاء، ولا تظلموا اليتيم ولا المعاهد، فإن الله خصم لمن ظلمهم». وكتب إلى عامة الرعية: «أما بعد فإنكم إنما بلغتكم ما بلغتكم بالافتداء والاتباع، فلا تفتنكم الدنيا عن أمركم، فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع». وهذه الكتب توضح سياسة «عثمان بن عفان» العامة، التي كان يتوخى أن

يتبعها عماله وولاته في إدارة شئون الأمة، وهي سياسة  
طابعها الرفق بالرعية، والسهر على مصالحها، والإنصاف في  
جمع الخراج، وإيصال الحقوق إلى أصحابها، والإحسان إلى

(936/10)

أهل الذمة، ورعاية جميع طوائف الأمة. وفي عهده استمر  
المسلمون في فتح شمال أفريقيا كما تم نشأة الأسطول  
الإسلامي للدفاع عن الثغور الإسلامية وكان مما قام به هذا  
الأسطول هو فتح جزيرة قبرص سنة 28 هـ وإلحاق الهزيمة  
بالأسطول البيزنطي في معركة ذات الصواري سنة 34 هـ. مصحف  
عثمان: إذا كان لعهد «عثمان بن عفان» - رضى الله عنه - أن  
يفخر بما أنجز فيه من الأعمال العظيمة؛ فإن له أن يفخر بما هو  
أعظم منها جميعاً، وهو جمع القرآن الكريم على لغة واحدة.  
للقرآن صورتان: صورة صوتية مقروءة، وأخرى مكتوبة مدونة،  
وقد حرص الرسول - صلى الله عليه وسلم - على تدوين الآيات فور  
نزولها، وقبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى راجع مع «جبريل» -  
عليه السلام - ترتيب الآيات والصور مرتين. وقد حفظ الصحابة  
القرآن باللهاجات التي درجوا عليها، وأجاز لهم النبي - صلى الله  
عليه وسلم - ذلك، ولذا ظهر الاختلاف في وجوه القراءة بين  
الصحابة من بدء نزول القرآن، نتيجة للهجة التي اعتادها اللسان.  
ولما جُمع القرآن الكريم للجمع الأول في الصحف في عهد «أبي  
بكر» بهيئته المكتوبة، بقيت الصورة الصوتية كما هي، ولما  
فُتحت البلاد وتفرقت الصحابة فيها، أخذ أهل كل إقليم يقرءون  
القرآن بقراءة الصحابي أو الصحابة الذين عاشوا بينهم، فتمسك  
أهل «الكوفة» بقراءة «عبد الله بن مسعود»، وأهل الشام  
بقراءة «أبي بن كعب»، وأهل «البصرة» بقراءة «أبي موسى

الأشعري»، ومع اتساع الفتوحات، زاد الخلاف بين المسلمين حول قراءة القرآن، وتحول الأمر إلى تعصب، بل كاد أن يؤدي إلى فتنة بينهم، مما أفرع «حذيفة بن اليمان» الصحابي الجليل، وكان يقرأ في «أذربيجان»، فرجع إلى «المدينة»، وأخبر «عثمان بن عفان» بما رأى. جمع «عثمان» الصحابة، وأخبرهم الخبر، فأعظموه، ورأوا جميعاً ما رأى «حذيفة» من ضرورة جمع الناس على مصحف واحد، وأرسل «عثمان» إلى أم المؤمنين «حفصة بنت عمر» أن تبعث إليه بالمصحف الذي جُمع في عهد

(937/10)

«أبي بكر» - وكان «عمر بن الخطاب» قد أخذه بعد وفاة «أبي بكر»، ثم حُفظ بعد موته عند ابنته «حفصة» - ثم أمر «زيد بن ثابت» - الذي جمع القرآن الجمع الأول في عهد «أبي بكر الصديق» - و «عبدالله بن الزبير»، و «سعيد بن العاص»، و «عبدالرحمن بن الحارث بن هشام»، أن ينسخوه، وقال لهم: إذا اختلفتم - يعني في كلمة أو كلمات - فاكتبوها بلسان «قريش»، فإنما نزل بلسانهم، فلما نسخوه، أرسل إلى كل إقليم مصحفاً وأمر بإحراق ما سوى ذلك، وقد سمي هذا المصحف بالمصحف الإمام أو «مصحف عثمان». الفتنة وأسبابها: سارت الأمور في الدولة الإسلامية على خير ما يرام في الشطر الأول من خلافة «عثمان» - رضى الله عنه - (24 - 30هـ)، ولكن مع بداية سنة (31هـ) هبت على الأمة الإسلامية رياح فتنة عاتية، زلزلت أركانها، وكلفتها تضحيات جسيمة، واستمرت هذه الفتنة نحو عشر سنين، شملت ما تبقى من خلافة «عثمان بن عفان»، وكل زمن خلافة «علي بن أبي طالب» - رضى الله عنهما - (31 - 40هـ). ومما لاشك فيه أن تلك الفتنة كانت نتيجة لمؤامرة واسعة النطاق

كانت أحكم في تدبيرها، وأوسع في أهدافها، وأخطر في نتائجها من مؤامرة اغتيال «عمر بن الخطاب» - رضی الله عنه -، لأن اغتيال «عمر» لم يخلف آثاراً خطيرة بين المسلمين، ولم يقسمهم شيعاً وأحزاباً كما حدث في آخر عهد «عثمان»، ولأن الذين خططوا لقتل «عمر» والذين قاموا بتنفيذ ذلك كانوا غير مسلمين وغير عرب، في حين أن الذين قتلوا «عثمان» و «علياً» من بعده كانوا عرباً مسلمين، وهذا هو وجه الخطورة، حتى وإن كان التخطيط من غيرهم. والذي لاشك فيه أن الذي تولى التخطيط للفتنة، وقتل «عثمان»، وإغراق الأمة في بحر من الدماء، هو «عبد الله بن سبأ» اليهودي، الذي ادعى الإسلام؛ ليتمكن من الكيد له من داخله، والذي لُقّب بابن السوداء. وقبل الحديث عنه يحسن تناول الظروف والأجواء التي كانت سائدة في عهد «عثمان» - رضی الله عنه - واستغلها «ابن سبأ»

(938/10)

لتحقيق أهدافه المدمرة: أولاً: تغيرت الظروف في آخر حياة «عثمان» بل وفي بداية خلافته عما كانت عليه في خلافة «عمر بن الخطاب»، وربما كان هذا تطوراً طبيعياً في حياة الأمة، فقد كثرت الغنائم في أيدي الناس، وبدءوا يتوسعون في المأكل والملبس والمشرب، وبخاصة الجيل الجديد من العرب الذي دخل في الإسلام بعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم -، ولم يتأدب بآدابه، ولم يتعود حياة القناعة والقصود في المعيشة التي كان يحياها الصحابة في حياته - صلى الله عليه وسلم - . ولم يُرض ذلك التوسع في المعيشة صحابياً جليلاً اشتهر بالزهد، هو «أبو ذر الغفاري»، فسخط على «عثمان» وولاته وعماله، وحملهم مسؤولية ذلك التطور الاجتماعي الطبيعي الذي لم يكن من

صنعهم، وراح ينادى بتحريم امتلاك المسلم لشيء من المال فوق حاجة يومه وليلته، واستشهد على ذلك بقوله تعالى: {والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم}. التوبة: 34]. ولم يوافق أحد من الصحابة «أبا ذر» فيما نادى به، وكانوا يرون أن المال إذا جُمع من حلال، وأدى عنه صاحبه حق الله وهو الزكاة: لا يعتبر كنزاً، ولا تنطبق عليه الآية موضع الاستشهاد، والنبى - صلى الله عليه وسلم - كان يخزن مؤنة بيوته لمدة سنة إذا كانت الظروف تسمح بذلك، وتشريع الله للمواريث في نظام دقيق يقتضى ترك الميعة ثروة تقسم بين ورثته، وكثير من الصحابة كانوا أغنياء على عهد النبى - صلى الله عليه وسلم -، ولم يعب النبى - صلى الله عليه وسلم - ثراءهم، بل يُروى أنه قال: «نعم المال الصالح للمرء الصالح». [مسند أحمد]. وقد نصح النبى - صلى الله عليه وسلم - «سعد بن أبى وقاص» حين أراد أن يتصدق بماله كله بقوله: «إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس». [صحيح البخارى، كتاب الجنائز]. ولو أن «أبا ذر الغفارى» - رضى الله عنه - احتفظ برأيه لنفسه، لكان الأمر هيناً، ولكنه أذاعه في

(939/10)

---

الناس؛ ووجد صداه عند الكسالى والذين يريدون أن يعيشوا عالة على غيرهم، فألبوا الناس على «عثمان» وولاته، وكانت تلك الدعوة سبباً من أسباب الفتنة. وعلى الرغم من اعتزال «أبي ذر» الناس فى الربذة «شرقى المدينة» امتثالاً للخليفة؛ فإن دعوته كانت قد استشرت، وتلقفها «ابن سبأ» اليهودى وأشعلها بين الناس. ثانياً: شارك عدد كبير من أهل «اليمن» ومنطقة «الخليج» فى الفتوحات الإسلامية، وكان دورهم فى

تحقيق النصر لا ينكر، ولكنهم وجدوا بعد الفتح أن الإمارات  
والوظائف الرئيسية قد أُسندت إلى غيرهم وبخاصة أبناء  
«قريش»، وكبار المهاجرين والأنصار وأبنائهم، فلم يعجبهم  
ذلك، ورأوا أنفسهم أحق بالإمارات التي فتحوها بسيوفهم، مع  
أنه كان من الضروري أن يتولى المهاجرون والأنصار هذه  
الولايات؛ لأنهم يعرفون الإسلام وشرائعه أكثر، فقدمهم علمهم  
وفقههم في الدين وسابقتهم في الإسلام، وجهادهم مع رسول  
الله - صلى الله عليه وسلم - لا أنسابهم وأحسابهم. ونتيجة لذلك  
تكونت جبهة عريضة من أبناء تلك المنطقة معارضة لسيطرة  
أبناء المهاجرين والأنصار على الدولة الإسلامية، ولم تكن  
شكواهم من الولاة واتهامهم بالظلم حقيقية، بل كانت ذريعة  
للنيل منهم، ومن الخليفة «عثمان»، وهدفًا لقلب الدولة وتغيير  
نظام الحكم المتهم بالظلم، وهؤلاء كانوا صيدًا سمينًا لابن سبأ  
فاستغل السخط الذي ملأ قلوبهم لتحقيق هدفه الشرير. ثالثًا:  
عندما بدأت هذه الفتنة كان معظم ولاة الأقاليم من «قريش»، بل  
من «بنى أمية» أهل «عثمان»، وأقربائه، مما سهل على «ابن  
سبأ» مهمته في إشعال نار الفتنة، والحق أن هؤلاء الولاة، وهم  
«معاوية بن أبي سفيان» والى الشام، و «عبدالله بن سعد بن  
أبي السرح» والى «مصر»، و «عبدالله بن عامر» والى  
«البصرة»، و «الوليد بن عقبة» والى «الكوفة»، كانوا من خيرة  
الولاة، ومن أسهموا في تثبيت الفتوحات الإسلامية بعد  
استشهاد «عمر»، ومن مارسوا الحكم قبل خلافة «عثمان»، بل

(940/10)

---

إن «معاوية بن أبي سفيان» كان واليًا على الشام من عهد  
«أبي بكر الصديق». ومن ثم لم يولهم «عثمان» هوى في نفسه،

أو لأنهم من أقربائه، بل ولاهم لكفائيتهم ومقدرتهم الإدارية. ومما يؤسف له أن بعض الكتاب الكبار صوّروا الأمر على غير ما تقتضيه الحقيقة التاريخية، وكان «عثمان بن عفان» أتى بهؤلاء الولاة من قارة الطريق، وعينهم على الولايات الكبيرة، وحملهم على رقاب الناس؛ لأنهم أقرباؤه فحسب. ويذهب بعضهم إلى تصوير أمر استعفاء «عمرو بن العاص» من إمارة «مصر» بناء على طلبه على أنه عزل من «عثمان» ليعين مكانه أخاه من الرضاة «عبدالله بن سعد»، ولا يذكر شيئاً مما يعرضه مؤرخو «مصر» الإسلامية كابن عبدالحكم و «الكندى»، من أن «عبدالله بن سعد» كان والياً على صعيد «مصر» من قبل «عمر بن الخطاب»، فلما تولى «عثمان بن عفان» الخلافة طلب منه «عمرو بن العاص» أن يخصه وحده بإمارة «مصر» كلها، فرفض «عثمان»، فاعتزل «عمرو» الولاية بناء على طلبه، ولم يعزله «عثمان بن عفان». رابعاً: أن من أبناء البلاد المفتوحة وبخاصة بلاد فارس، من لم يسترح إلى سيادة العرب عليهم، وسيطرتهم على بلادهم، وهم الذين كانوا بالأمس يحتقروهم وينظرون إليهم في استعلاء، فعزّ على أنفسهم ذلك، فلم يتركوا فرصة لزعة الدولة الإسلامية إلا وانتهزوها، خاصة من لم يتمكن الإسلام في قلوبهم منهم، وهؤلاء كان لهم دور في إثارة الفتنة على «عثمان»، واستمر حتى آخر العصر الأموي. خامساً: أن كل ما تقدم كان يمكن تداركه وعلاجه، بل إن «عثمان» - رضی الله عنه - حاول إجابة كل مطالب الثائرين عليه والمؤلمين للناس ضده، لكنهم لم يقتنعوا؛ لأن الخليفة لان معهم وحلم عليهم أكثر مما كان ينبغي، ولو أخذهم بالشدة والحزم كما كان يفعل «عمر بن الخطاب» مع أمثالهم لارتدعوا، وحُسمت الفتنة. عبدالله بن سبأ: هو رجل يهودى من «صنعاء» ادعى الإسلام في عهد «عثمان»،

وأخذ يبيث في المسلمين أفكارًا غريبة وبعيدة عن الإسلام، مثل قوله بالوصية أي أن «علي بن أبي طالب»، هو وصي النبي - صلى الله عليه وسلم - وخليفته من بعده، ومعنى ذلك أن الخلفاء الثلاثة، «أبا بكر» و «عمر» و «عثمان» اغتصبوا حق «علي» في الخلافة. وبدأ «ابن سبأ» من هذه النقطة، مستغلا كل الأطراف التي سبق الحديث عنها، ووضع للتائرين والناقمين على اختلاف مشاربهم وأهدافهم خطة للتحرك ضد الخليفة وولاته، وأشار عليهم بالنيل من الولاية أولا؛ لما كان يعرف أن «عثمان» نفسه فوق الشبهات، حتى إذا نجحوا في تشويه سمعة الولاية، انتقلوا إلى «عثمان» باعتباره المسئول الأول عنهم، ومما قاله لأتباعه: «إن عثمان أخذها بغير حق، وهذا وصي رسول الله - يقصد علياً - فانهضوا في هذا الأمر فحركوه، وابدءوا بالظعن في أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تستميلوا الناس». أخذ «ابن سبأ» يتنقل بهذا التدبير الشيطاني بين الأقاليم من «البصرة» إلى «الكوفة» إلى الشام إلى «مصر»، يبيث أفكاره وسمومه، وكانت خطته بالغة الإحكام، جعلت أتباعه ينجحون في زرع الشكوك في نفوس الصحابة في «المدينة»، مثل «علي بن أبي طالب»، و «الزبير بن العوام»، و «طلحة بن عبيد الله»، والسيدة «عائشة» - رضى الله عنها - وهؤلاء كلهم كانت تصلهم معلومات كاذبة عن ظلم ولاية الأقاليم، لكنهم صدقوها للأسف، ولم يتبينوا كذبها إلا بعد فوات الأوان، وبعد أن وقعت الواقعة، وقتل الخليفة الثالث مظلوماً. موقف عثمان من الفتنة: لما سمع «عثمان بن عفان» ما يقال عن ولاية أقاليمه جمع أهل «المدينة»، وقال لهم: أشيروا علي، فأشاروا عليه أن يرسل رجالا إلى الأقاليم للتحقيق فيما وصله من كلام عنهم، كما كان يفعل «عمر بن الخطاب»، فاستجاب

على الفور، وحدد أربعة من الصحابة من غير «بنى أمية» - حتى لا يتهمهم أحد بالتحيز للولاة - للقيام بما كلفهم به، فأرسل

(942/10)

«محمد بن مسلمة» إلى «الكوفة»، و «أسامة بن زيد» إلى «البصرة»، و «عبدالله بن عمر» إلى الشام، و «عمار بن ياسر» إلى «مصر»، وعاد الثلاثة الأول إلى «المدينة»، وقدموا تقارير للخليفة بأن الأمور تجرى على خير وجه، وأن الشكاوى التي تصل إلى «المدينة» كلها باطلة، ولا أساس لها من الصحة؛ وأن الولاة يقومون بعملهم خير قيام، أما «عمار بن ياسر» فلم يعد من «مصر»، لأنه لما وصل إليها، تصادف وجود «ابن سبأ» فيها، فاستقطبه للأسف وضمه إلى صفه، مما جعل الأمر يستفحل ويزداد خطرًا. وبعد أن تبين بطلان مزاعم أتباع «ابن سبأ»، الذين أبوا الناس على «عثمان» - وكلهم عرب مسلمون- لان لهم الخليفة، وعطف عليهم وحاول استرضاءهم بدلا من عقابهم وأخذهم بالشدة. ولما تهيأ الجو، ورأى زعماء الفتنة أن الفرصة سانحة للتخلص من الخليفة، خرجوا إلى «المدينة» على رأس وفود أهل «مصر» و «البصرة» و «الكوفة»، وكانوا نحو عشرة آلاف متظاهرين بالحج، مخفين نياتهم الخبيثة عن عامة الناس، الذين شكوا إلى الخليفة من تصرفات لولاتهم لا يرضونها، فوعدهم خيرا، وأمرهم بالعودة إلى أمصارهم، فرضوا لما رأوه من سماحته وعطفه، وعادوا. أما زعماء الفتنة من أمثال: «الأشتر النخعي»، و «عمرو بن الأصم»، و «حرقوص بن زهير السعدي»، و «الغافقي بن حرب»، فقد ساءهم عودة عامة الناس الذين لا علم لهم بالمؤامرة، وسقط في أيديهم، وعزموا على قتل الخليفة أو عزله، فتخلفوا في «المدينة»، وزوروا كتابًا، ادعوا

كذباً أنهم وجدوه مع غلام من غلمان «عثمان»، موجه إلى «عبدالله بن سعد» والى «مصر» يأمره فيه بقتل بعض الثائرين وتعذيب بعضهم الآخر. عاد الثائرون من الطريق بهذا الكتاب، فعرضوه على «علي بن أبي طالب»، فأدرك أنه مزور، لأن الذين ادعوا أنهم وجدوه هم أهل «مصر»، ولكنهم عندما عادوا عادوا جميعاً، أهل «مصر» و «الكوفة» و «البصرة»، مع أن طرقهم مختلفة، فعودتهم في وقت واحد، تدل على أن الأمر

(943/10)

مدبر، فقال لهم علي: «كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وطريقكم مختلف وقد سرتهم علي مراحل؟! هذا والله أمر أبرم بالمدينة». ولما علموا أن أمرهم قد ظهر، وخطتهم انكشفت، قالوا لعلي: «ضعوه حيث شئتم - أي الكتاب مصممين على كذبهم - لا حاجة بنا إلى هذا الرجل، ليعتزلنا»، ولا شك أن هذا تسليم منهم بأن قصة الكتاب مختلقة، وأن غرضهم الأول والأخير هو خلع أمير المؤمنين أو سفك دمه، الذي عصمه الله بشريعة الإسلام. محاصرة بيت الخليفة وقتله: تشبث الأشرار بهذا الكتاب المزور، ولم يستجيبوا لنصح الصحابة بالرجوع إلى بلادهم؛ لأن الخليفة لم يرتكب خطأ يستحق عليه العقاب، فحاصروه في بيته، ولم تكن هناك قوة تدافع عنه، فقد رفض عرضاً من «معاوية بن أبي سفيان» بالذهاب معه إلى الشام، وكره أن يغادر جوار رسول الله كما رفض أن يرسل «معاوية» إليه جنداً من الشام لحمايته، لأنه كره أن يضيق على أهل مدينة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بجيش يضايقهم في معاشهم. ولما رأى «علي بن أبي طالب» و «الزبير بن العوام» و «طلحة بن عبيد الله» وغيرهم الحصار المضروب على بيت

الخليفة؛ أرسلوا أبناءهم لحراسته، لكنه رفض ذلك أيضاً، وأقسم عليهم بما له من حق الطاعة عليهم أن يذهبوا إلى بيوتهم ويغمدوا سيوفهم، لأنه أدرك أن أبناء الصحابة وهم عدد قليل، إن تصدوا لهؤلاء الأشرار - وكانوا زهاء عشرة آلاف - فقد يقتلونهم جميعاً، فأثر سلامتهم وحقن دماءهم، ولعله كان يفكر أن الثوار إذا قتلوه هو فستنتهى المشكلة، فرأى أن يضحى بنفسه، حقناً للدماء، ولم يدر أن دمه الطاهر الذى سيُسفك، كان مقدمة لبحور من دماء المسلمين، سالت بعد ذلك نتيجة مقتله. امتثل أبناء الصحابة لأمره، وعادوا إلى بيوتهم، لكنه طلب منهم ماء للشرب، بعد أن منعه الثوار عنه، وهو الذى اشترى للمسلمين «بئر رومة» ووهبها لهم، بناء على طلب من الرسول

(944/10)

---

- صلى الله عليه وسلم - الذى بشره بنهر عظيم فى الجنة. وكانت أم المؤمنين «أم حبيبة بنت أبى سفيان» أول المغيبيين لعثمان، لكنها لم تستطع أن توصل الماء إليه لأن الثوار منعوها، وأساءوا معها الأدب وسبوا، ولم يراعوا لها حرمة. فلما فعلوا بأمر حبيبة ذلك، ذهب إليهم «على بن أبى طالب» - رضى الله عنهم - وقال لهم: «إن الذى تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين، لا تقطعوا عن الرجل المادة (الطعام والشراب) فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقى، وما تعرض لكم هذا الرجل، فبم تستحلون حصره وقتله؟! قالوا: لا والله ولا نعمة عين - يعنى ولا قطرة ماء تصله - لا نتركه يأكل ويشرب». وبعد ذلك اقتحموا على الخليفة داره اقتحاماً، متسلقين من دور مجاورة، وقتلوه وهو صائم يقرأ القرآن، وروعوا الأمة الإسلامية فى إمامها، الذى كانت تستحى منه الملائكة، والذى بشره النبى

- صلى الله عليه وسلم - بالجنة، وتنبأ له بالشهادة، وكان استشهاده في أواخر شهر ذى الحجة سنة (35هـ). قُتِل «عثمان بن عفان» مظلومًا لم يرتكب ذنبًا أو يقترف جرماً يستحق به أن يرفع هؤلاء الأشرار أصواتهم عليه ولو كان كل ما رموه به من ثمَّ صحيحًا - مع أنه باطل وملفق - ما أباح لهم قتله، ولكنه الحقد الأسود والأفكار الهدامة، التي زرعتها «ابن سبأ» في نفوسهم وعقولهم، جعلهم يرون فضائله وإنجازاته تممًا وجرائم، فاتهموه -مثلا - بأنه تخلف عن «بيعة الرضوان» في «الحديبية»، مع أنهم يعلمون أنه عندئذٍ كان في «مكة» سفيرًا للرسول - صلى الله عليه وسلم - يقوم بمهمة اعتذر عنها «عمر بن الخطاب» لخطورتها، وناب النبي - صلى الله عليه وسلم - نفسه عن «عثمان» في البيعة، فكانت بيعة عن «عثمان» أفضل من بيعة الصحابة لأنفسهم، كما اعتبروا جمعه للقرآن في مصحف واحد جريمة، مع أنه أعظم أعماله باعتراف الصحابة أنفسهم. وقد وصف «أبو بكر بن العربي» قتلة «عثمان» وصفًا صادقًا، فقال:

(945/10)

«وأمثل ما روى في قصته - أى عثمان - أنه بالقضاء السابق، تألب عليه قوم لأحقاد اعتقدوها، ممن طلب أمرًا فلم يصل إليه، أو حسد حسادة أظهر داءها، وحمله على ذلك قلة دين، وضعف يقين، وإيثار العاجلة على الآجلة، وإذا نظرت إليهم ذلك صريح ذكرهم على دناءة قلوبهم، وبطلان أمرهم». وقد لا يصدق بعض الناس أن رجلا واحدًا هو «عبدالله بن سبأ» يستطيع أن يفسد أمر أمة بكاملها، مهما تبلغ قدراته، بل وصل الأمر ببعضهم إلى إنكار وجوده أصلا، ولكن الواقع أن «ابن سبأ» كان موجودًا ووجوده حقيقة، وهو كأي متآمر خبيث يتمتع بقدر كبير من

الدهاء والمكر، مكنه من أن يستميل إلى صفه صحابيين جليلين هما «أبو ذر الغفاري» و «عمار بن ياسر»، وأن يستغل كل الساخطين من أبناء العرب الطامعين في الوظائف، بالإضافة إلى الحاقدين من أبناء البلاد المفتوحة، الذين سقطت دولهم، وبادت عروشهم، وخلق من ذلك كله تياراً عاماً، أدى إلى فتنة عارمة، ذهب ضحيتها «عثمان بن عفان»، ولم تنته بعد موته.

(946/10)

### \*على بن أبي طالب

هو «على بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف»، وأمه «فاطمة بنت أسد بن هاشم»، وهي أول هاشمية ولدت هاشمياً، وقد أسلمت وهاجرت إلى «المدينة»، وهو ابن عم النبي - صلى الله عليه وسلم -، وترى في بيته، لأن أباه كان كثير العيال قليل المال، فأراد النبي أن يخفف عن عمه أعباء المعيشة، فأخذ «عليّاً» ليعيش معه في بيته، وكان عمره يومئذ ست سنوات، فشاءت إرادة الله أن ينشأ «على» في بيت النبوة، فوقاه الله أرجاس الجاهلية، فلم يسجد لصنم قط، وكان أول من أسلم من الصبيان. كان «على بن أبي طالب» ربعة من الرجال، يميل إلى القصر، أسمر اللون، حسن الوجه واسع العينين، أصلع الرأس، عريض المنكبين، غزير اللحية، قوى الجسم. عُرف «على بن أبي طالب» بالشجاعة والعلم الغزير، والزهد في الدنيا مع القدرة عليها، وكان واحداً ممن حفظوا القرآن كله من الصحابة، وعرضوه على النبي - صلى الله عليه وسلم -، ومن أكثرهم معرفة بالقرآن وتفسيره وأسباب نزوله، وأحكامه، وكان من كتاب الوحي، ولذا اختص في سيرته بلقب «الإمام» لأفضليته العلمية والفقهية، وكان أفضى الصحابة رضى

الله عنهم جميعًا، واشتهر بالفصاحة والخطابة وقوة الحجّة، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وقد تآخى الرسول - صلى الله عليه وسلم - مع علي بعد الهجرة، ثم زوجته ابنته «فاطمة»، وأنجب منها «الحسن» و «الحسين»، وهما اللذان حفظا نسل الرسول - صلى الله عليه وسلم - . شهد «علي» المشاهد كلها - عدا تبوك - مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فكان في طليعة من صرعوا المشركين في «بدر»، وواحدًا من الذين ثبتوا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في غزوة «أحد»، وحمل اللواء عندما سقط من يد «مصعب بن عمير» بعد استشهاده، حمّله بيده اليسرى، وظل يقاتل بيده اليمنى، وصرع في غزوة الخندق «عمرو بن عبد ود» فارس «قريش» والعرب كلها عندما لم يقدم

(947/10)

أحد علي مبارزته وأعطاه الرسول - صلى الله عليه وسلم - الراية يوم «خيبر»، وقال: «لأعطين اللواء غدًا رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»، وأخبر أن الفتح سيكون على يديه، وتحقق ذلك، وثبت مع من ثبتوا مع النبي - صلى الله عليه وسلم - في «حنين». وفي غزوة «تبوك» خلفه النبي - صلى الله عليه وسلم - في أهله يرعى مصالحهم وشئونهم، ولما تأذى من ذلك، وقال: يارسول الله، تخلفني في النساء والصبيان؟!، فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم -: «أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي؟»، إشارة من النبي إلى أن «موسى» عندما ذهب لمناجاة ربه، ترك أخاه «هارون»، خلّفًا له في قومه، كما جاء في قوله تعالى: { وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين }. [الأعراف:142]. وكان رضى الله عنه موضع ثقة

واحترام من الصحابة جميعًا، فكان من أكبر أعوان «أبي بكر الصديق» في قمع حروب الردة، ولازم «عمر بن الخطاب»، فكان لا يقطع أمرًا دون مشاورته، والاستئثار برأيه، وكان «عمر» يقول: «قضية ولا أبا حسن لها». وعاون «عثمان» بالرأى والمشورة مثلما كان يفعل مع «أبي بكر» و «عمر»، فلم يحجب عنه نصحه ومؤازرته في الفتنة التي أطبقت على الأمة، وأرسل أولاده مع بقية أولاد الصحابة لحراسته والدفاع عنه، ثم ذهب بنفسه لمواجهة الأشرار. زوّعت «مدينة» رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمقتل أمير المؤمنين «عثمان بن عفان» - رضى الله عنه - وعم الناس الهلع والرعب، لهذه الجريمة التي أقدم عليها هؤلاء الأشرار. سيطر الثائرون على «المدينة»، وظل «الغافقي بن حرب» زعيم ثوار «مصر»، وأحد كبار زعماء الفتنة يصلى بالناس إمامًا في مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خمسة أيام، والدولة كلها بدون خليفة، ولم يكن في وسع أحد من الثوار أن يرشح نفسه لها، لأنهم يعلمون أن هذا الأمر يخص المهاجرين وحدهم. وبدأ الثائرون يعرضون منصب الخلافة على

(948/10)

---

كبار الصحابة: «علي بن أبي طالب»، و «طلحة بن عبيد الله»، و «سعد بن أبي وقاص»، و «الزبير بن العوام»، و «عبدالله بن عمر بن الخطاب»، فرفضوا جميعًا، وسماهم «علي بن أبي طالب» الثائرين ولعنهم على فعلتهم الشنعاء، فهددهم الثائرون بقتلهم جميعًا كما قتلوا «عثمان» إن لم يقبل أحدهم منصب الخلافة. وفي مثل هذه الظروف العصيبة كان لابد من رجل شجاع غير هيب، يتقدم الصفوف لحمل الأمانة وسط الأخطار المحدقة بها، واتجهت الأنظار إلى «علي بن أبي طالب»، وتعلقت به

الآمال، ترجوه تحمل المسئولية، وقيادة الراكب إلى بر الأمان، وألح عليه كبار الصحابة إلحاحًا شديدًا لتولى المنصب الشاغر، منصب الخلافة الجليل، فقبل تجشم تبعاتها في هذه الظروف الدقيقة، وكان قبوله لها ضربًا من ضروب الفروسية والشجاعة، والاحتساب عند الله، والنزول على رغبة كبار الصحابة. كان «علي بن أبي طالب» هو أول خليفة يخطب قبل البيعة، وكانت خطبة قصيرة، أشهد الله عليهم، وأشهدهم على أنفسهم أنهم هم الذين أخوا عليه تقبل أمرٍ كان له كارهاً، لتبعاته ومسئوليته، فلما وافقوا بايعوه، ولهذا كان عليه أن يخطب مرة أخرى خطبة يوضح فيها أسلوبه في الحكم، فقال: «إن الله أنزل كتابًا هاديًا، بين فيه الخير والشر، فخذوا بالخير ودعوا الشر، الفرائض الفرائض أدوها إلى الله تعالى يؤدكم إلى الجنة، إن الله حرم حرمات غير مجهولة، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها، وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين، فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق، لا يحل دم امرئ مسلم إلا بما يجب، بادروا أمر العامة، وخاصة أحدكم الموت، فإن الناس أمامكم، وإن من خلفكم الساعة تحذوكم تخففوا تلحقوا، فإنما ينتظر الناس أخراهم، اتقوا الله عباد الله في بلاده وعباده، إنكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم، أطيعوا الله فلا تعصوه {واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض}

(949/10)

---

[الأفعال: 26]. علي والقرارات الصعبة: تمت بيعة «علي بن أبي طالب» في اليوم الخامس والعشرين من شهر ذي الحجة سنة (35 هـ)، فاستقبل بخلافته عام (36 هـ)، وكان عليه أن يواجه الموقف العصيب، الذي نتج عن استشهاد أمير المؤمنين «عثمان بن

عفان»، باتخاذ قرارات صعبة تجاه عدد من المعضلات، التي كان أولها: - القصاص من قتلة «عثمان» - رضی الله عنه - وكان ذلك مطلب الصحابة، ففي أول يوم من خلافته ذهب إليه «طلحة» و «الزبير»، وطالباه بإقامة الحد على القتلة، وكان هو مقتنعاً بذلك، ولذلك قال لهما: «يا إخواني لست أجهل ما تعلمون ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم؟ هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم، وثابت إليهم أعرابكم، وهم خلالكم - أي يعيشون بينكم - يسومونكم ماشاءوا - أي يسيطرون عليكم - فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون؟ قالوا: لا، قال: فلا والله لا أرى إلا رأياً ترونه أبداً». ويتضح من هذا أن «علي بن أبي طالب» لم يكن أقل من غيره حرصاً على إقامة الحد على قتلة «عثمان»، ولكن الظرف الذي هم فيه لا يمكنه من ذلك، فإذا كان الذين نفذوا القتل في «عثمان» عددًا محدودًا، وهم «الغافقي بن حرب»، ومعه «سودان بن حمران» و «كنانة بن بشر التنجي»، فإن وراءهم نحو عشرة آلاف من الثوار الذين ضللوهم، وهم مستعدون للدفاع عنهم، ولذلك عندما كانوا يسمعون قائلاً يقول: من قتل «عثمان»؟ كان هؤلاء جميعاً يصيحون: نحن جميعاً قتلناه، ولذا كان رأى الإمام التريث حتى تهدأ الأمور، ويعود الناس إلى بلادهم، حتى يتمكن من التحقيق في الأمر وإقامة الحد، وقد اقتنع الصحابة بهذا الحل، لكن الأمور تطورت تطوراً آخر على غير ما يهوى الجميع. - وتغيير كل ولاية «عثمان» على الولايات الكبرى: «مصر» و «الشام»، و «الكوفة»، و «البصرة» حتى تهدأ الفتنة. وقد اتخذ «علي» بالفعل قراراً بذلك، فعزل «معاوية بن أبي سفيان» عن الشام، وعين بدلا منه

«سهل بن حنيف»، وعزل «عبدالله بن سعد بن أبي السرح» عن «مصر» وعين بدلا منه «قيس بن سعد بن عبادة»، وعزل «عبدالله بن عامر» عن «البصرة» وعين بدلا منه «عثمان بن حنيف»، وعزل «أبا موسى الأشعري» عن «الكوفة»، وعين بدلا منه «عمارة بن شهاب». وهذا القرار الخطير راجعه فيه أقرب الناس وأخلصهم له، ابن عمه «عبدالله بن عباس»، ونصحه بالانتظار فترة ولو لمدة سنة، لتكون الأمور قد هدأت واستقرت، ويتم التغيير في ظرف مناسب، لكن الإمام أصر على تنفيذ قراره محتجًا بأن هؤلاء الثوار ثاروا غضبًا من ولاية «عثمان»، سواء أكانوا مخطئين أم مصيبين، ولن تهدأ ثورتهم إلا إذا عُزلوا. وإزاء إصرار علي - رضى الله عنه - على تنفيذ قراره، اقترح «ابن عباس» أمرًا آخر، بأن يعزل من يشاء من الولاة، ويُبقى «معاوية» على ولاية الشام، وكان اقتراحًا ذكيًا وجيهًا، فمعاوية لم يكن موضع شكوى أحد من رعيته، ولم يشترك أهل الشام في الثورة على «عثمان» وقتله، وعلى هذا فلو أقره عليّ في ولاية الشام، فلن يلومه أحد، وكان «ابن عباس» يعرف من ناحية أخرى أن «معاوية» لن يدعن لقرار العزل، وسيبقى في لايته، مسببًا متاعب كثيرة، ومع هذا صمم الإمام «علي بن أبي طالب» على عزل ولاية «عثمان» جميعًا بما فيهم «معاوية». بدأ الولاة الجدد يتجهون إلى ولاياتهم لمباشرة أعمالهم، فذهب «قيس بن سعد» إلى «مصر»، ودخلها بدون متاعب؛ لأن واليها القديم «عبدالله بن سعد» تركها منذ علمه بمقتل «عثمان»، وذهب إلى «فلسطين»، واعتزل الفتنة، وبقي هناك حتى مات في مدينة «عسقلان» سنة (37هـ). وكذلك دخل «عثمان بن حنيف» «البصرة»، وتولى شئونها بدون مشاكل؛ لأن واليها «عبدالله بن عامر» كان قد تركها وذهب إلى «مكة». أما «عمارة بن شهاب» فلم يمكنه أهل «الكوفة» من دخولها،

وتمسكوا بوالهيم «أبي موسى الأشعري»، فوافق الإمام  
«علي» على ذلك، وأقر عليهم «أبا موسى الأشعري». وكذلك

(951/10)

لم يستطع «سهل بن حنيف» دخول الشام، فقد منعه «معاوية بن  
أبي سفيان»، رافضاً قرار العزل. وهنا لم يعامل الإمام «علي»  
الشام معاملة «الكوفة»، فإنه رفض إقرار «معاوية» في ولاية  
الشام، مع أن تمسك أهلها به كان أشد من تمسك أهل  
«الكوفة» بأبي موسى الأشعري. بين علي ومعاوية: دارت  
مراسلات عديدة بين «علي» و «معاوية» - رضى الله عنهما -  
يطلب الأول من الآخر مبايعته بالخلافة، والإذعان لأوامره،  
باعتباره الخليفة الشرعي الذي بايعه معظم الصحابة في  
«المدينة»، علي حين يطلب الثاني من الأول القصاص من قتلة  
«عثمان»، باعتباره ولى دمه، لأنه ابن عمه، وبعدها ينظر في  
بيعته. ولم تكن وجهة نظر الإمام في قضية القصاص رافضة، لكنه  
كان يرغب في تأجيلها حتى تتهيأ الظروف المناسبة، ولكن  
«معاوية» تمسك بالقصاص أولاً، وجعله شرطاً لازماً يسبق البيعة.  
ولما لم تؤد الاتصالات بينهما إلى نتيجة، وصلت رسالة من  
«معاوية» إلى «علي» تتضمن جملة واحدة، هي: «من معاوية  
إلى علي»، بعثها «معاوية» بيضاء مع رجل يدعى «قبيصة» من  
«بني عبس»، وأمره أن يدخل بها «المدينة»، رافعاً يده حتى  
يراها الناس، ويعلموا أن «معاوية» لم يبايع «علياً»، إذ يخاطبه  
باسمه فقط دون أن يصفه بأمير المؤمنين. وأدرك عليّ رضى  
الله عنه - أن حمل معاوية على البيعة سلماً غير ممكن، فأخذ يعد  
العدة لحملة على البيعة بالقوة، باعتباره خارجاً على طاعة  
الخليفة، على الرغم من أن كثيرين نصحوه بعدم اللجوء إلى

الحرب لعواقبها الوخيمة، ومن بينهم ابنه «الحسن» لكن الإمام «علي» أصر على موقفه، وبينما هو يستعد لذلك، جاءته أخبار أخرى مفزعة من «مكة»، تخبره بمسير «عائشة» وجماعتها إلى «البصرة». خرجت السيدة «عائشة» - رضى الله عنها - ومعها في البداية نحو ألف رجل لكن هذا العدد تضاعف عدة مرات، بانضمام كثيرين إلى الجيش، نظرًا إلى مكانة «عائشة»، فلما اقتربوا من «البصرة»، أرسل واليها «عثمان بن حنيف» إلى أم

(952/10)

المؤمنين «عائشة» رسولين من عنده، هما «عمران بن حصين» و «أبو الأسود الدؤلى» يسألانها عن سبب مجيئها. فقالت لهما: «إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وأحدثوا فيه الأحداث وآووا فيه المحدثين، واستوجبوا لعنة الله ورسوله، مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين، بلا ترة ولا عذر، فخرجت في المسلمين، أعلمهم ما أتى هؤلاء». وكذلك سأل الرسولان «طلحة» و «الزبير» - رضى الله عنهما - عن سبب مجيئهما، فقالا: «الطلب بدم عثمان»، فرجع الرجلان وأخبرا «عثمان بن حنيف»، فقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون! دارت رحى الإسلام ورب الكعبة»، وأصرَّ على منعهم من دخول «البصرة»، فدارت بينه وبينهم معركة عند مكان يُسمى «الزابوقة» قُتل فيها نحو ستمائة من الفريقين، فلما رأوا كثرة القتلى تنادوا إلى الصلح والكف عن القتال، وانتظار قدوم الإمام «علي» إلى «البصرة»، وتم الصلح على أن يتركوا للوالى دار الإمارة والمسجد وبيت المال، وينزلوا هم في أى مكان بالبصرة. وصل «علي» إلى «البصرة» وعلم بما حدث من سفك الدماء وهاله ذلك، فأرسل على الفور «القعقاع بن عمرو التميمي» إلى

معسكر «عائشة» و «طلحة» و «الزبير»، ليعرف ماذا يريدون، فقالت «عائشة» - رضى الله عنها - : «خرجنا لنصلح بين الناس»، وكذلك قال «طلحة» و «الزبير»، فسأهم «ما وجه الإصلاح الذى تريدون»، قالوا: «قتلة عثمان»، قال: «لقد قتلتم ستمائة من قتلة عثمان، فغضب لهم ستة آلاف من قبائلهم، وكنتم قبل ذلك أقرب إلى السلامة منكم الآن»، قالوا: «فماذا ترى أنت؟»، قال: «أرى أن هذا الأمر دواؤه التسكين»، واقترح عليهم تجديد البيعة لعلی، ومقابله، والتفكير بعد ذلك فيما يصلح المسلمين، فقبلوا. ومعنى ذلك أن الجميع كانوا راغبين، فى الإصلاح، كل على حسب اجتهاده، لكن عناصر الشر التى كانت لاتزال فى معسكر «علی» هى التى أفسدت السعى الذى قام به

(953/10)

---

«القعقاع». كانت نقطة الضعف التى فى معسكر الإمام «علی» هى وجود كثيرين ممن اشتركوا فى قتل «عثمان» والتخطيط له، وعلى رأسهم «عبدالله بن سبأ»، و «الأشتر النخعی»، ولم يكن لعلی حيلة فى وجودهم معه، ولا قدرة على إبعادهم، لكونهم قوة كبيرة تساندتهم عصابات قبلية، وقد أدرك زعماءهم الذين تولوا كبر الثورة على «عثمان» أن الصلح بين الفريقين سيجعل «علیاً» يتقوى بانضمام الفريق الآخر إليه، ويقيم الحد عليهم باعتبارهم قتلة «عثمان»، فعزموا على إفساد الأمر كله. وترتب على هذا العزم أن عقد «ابن سبأ» لهم مؤتمراً تدارسوا فيه الأمر، فاقترح «الأشتر» أن يقتلوا «علیاً» كما قتلوا «عثمان» من قبل، فتهيج الدنيا من جديد، ولا يقدر عليهم أحد، لكن هذا الاقتراح لم يعجب «ابن سبأ»، فهو يريد أن يدخل الأمة كلها فى حرب طاحنة، لا أن يقتل فرد واحد وإن كان خليفة المسلمين، فأمرهم

بشن هجوم في ظلام الليل على جيش «عائشة» و «طلحة» و «الزبير»، بدون علم الإمام «علي»، فاستجابوا لرأيه، وبينما الناس نائمون مطمئنون بعد أن رأوا بوادر الصلح تلوح في الأفق، إذا بهم يفاجئون بقعقة السلاح، وكانت هذه هي بداية حرب «الجملة» المشؤومة التي راح ضحيتها خيرة الصحابة «طلحة» و «الزبير» المبشرين بالجنة، ونحو عشرين ألفاً من المسلمين. لم تكن أم المؤمنين «عائشة»، ولا «طلحة» ولا «الزبير» ولا أمير المؤمنين «علي» يريدون سفك الدماء، ولا يتصورون حدوث ذلك، وكل ما دفع السيدة «عائشة» ومن معها إلى الخروج إنما هو اقتناعهم بأن «عثمان» قُتل مظلوماً، وعليهم تقع مسئولية إقامة الحد على قتلته، ولم يكونوا أبداً معادين لعلي، أو معترضين على خلافته، وقد رأينا ميلهم جميعاً إلى الصلح، لولا أن أتباع «ابن سبأ» (السبئية) أفسدوا كل شيء وأشعلوا الحرب، ولقد ندمت السيدة «عائشة» ندماً شديداً على ما حدث، وقالت: «والله لو ددت أني مت قبل هذا اليوم

(954/10)

بعشرين سنة». بعد معركة «الجملة» توجه «علي ابن أبي طالب» بجيش يبلغ عدده نحو مائة ألف إلى «صفين»، واستعد «معاوية» لمقابلته بجيش يقاربه في العدد، ودارت بينهما معركة شرسة في شهر صفر سنة (37هـ) قُتل فيها من الجانبين نحو سبعين ألفاً، خمسة وعشرين ألفاً من جيش «علي»، وخمسة وأربعين ألفاً من جيش «معاوية»، ولما رأى الناس كثرة القتلى من الجانبين تنادوا يطلبون وقف القتال، فجعل أهل «العراق» (جيش «علي») يصيحون في أهل الشام (جيش «معاوية») قائلين: من لثغور «العراق» إن في أهل «العراق». ويرد الآخرون: من لثغور

الشام إن فنى أهل الشام. ومن هنا جاءت فكرة التحكيم. رفع جيش «معاوية» المصاحف للاحتكام إليها، ووقف القتال فوراً، بدلا من سفك الدماء، وكانت فكرة التحكيم من عند «عمرو بن العاص»، وقد قبلها الطرفان، وأوقفت الحرب، بعد أن فرغ الناس لكثرة عدد القتلى. أوقفت الحرب، وطلب من «علي» و «معاوية» أن ينيب كل منهما شخصا يتفاوض باسمه، للفصل في القضايا محل الخلاف، فأناوب «معاوية» «عمرو بن العاص»، وأناوب «علي» «أبا موسى الأشعري» على كره منه وذلك في شهر صفر (37هـ) وكان «علي» قد حاول أن ينيب عنه «عبدالله بن عباس»، لكن أنصاره، وبخاصة من أبناء «اليمين» بزعامة «الأشعث بن قيس»، رفضوا ذلك بحجة عصبية، وأعلنوها صراحة، كيف يكون الخلاف بين رجلين من «قريش»، ثم يكون الحكمان رجلين من «قريش» أيضاً، لقد حسدوا قريشاً على زعامتها للدولة الإسلامية التي استحققتها بسابقتها في الإسلام، لا بنسبها فقط. واتفق على أن يأخذ الطرفان مهلة مدتها ستة أشهر، تهدأ فيها النفوس، ويجتمع الحكمان للتباحث والوصول إلى حل، وبعد مفاوضات طويلة وصل الحكمان إلى نتيجة رأياها أفضل الحل، وهي عزل «علي» -رضى الله عنه- عن الخلافة، ورد الأمر إلى الأمة تختار من تشاء، أما التصرف العملي في إدارة البلاد التي كانت تحت يد كل من الرجلين المتحاربين،

(955/10)

---

فيبقى كما كان: «علي» يتصرف في البلاد التي تحت حكمه (وهي كل الدولة الإسلامية عدا الشام) و «معاوية» يتصرف في البلاد التي تحت حكمه (الشام). اجتهد الحكمان فيما توصلا إليه، وأعلناه على الناس، غير أن «علياً» -رضى الله عنه- لم يقبل

تلك النتيجة، واعتبر الحكمين قد تجاوزا حدودهما؛ لأن الخلاف لم يكن على منصب الخلافة، وإنما على إقامة الحد على قتلة «عثمان»، وبيعة «معاوية» له، أيهما يسبق الآخر، ولذلك عدّ نفسه في حل من هذه النتيجة، فعادت الأمور إلى ما كانت عليه قبل التحكيم، أي إلى حالة الحرب. حاول «علي» أن يدعو أنصاره إلى حرب «معاوية» من جديد لكنهم كانوا قد ملوا القتال، وتفاعسوا عنه، بل إنهم انقسموا إلى «شيعة» وافقوه على ماصنع «وخوارج» اعتبروا التحكيم كان خاطئاً من أساسه، مع أنهم هم الذين فرضوه عليه، ثم تجاوزوا ذلك إلى ما هو أكثر تطرفاً، فاتهموا «علياً» بالكفر، لأنه حكّم الرجال في القرآن، وصاغوا شعاراً أخذوا يرددونه «الحكم لله لا لك يا علي»، وكان هو يقول لهم: «كلمة حق أريد بها باطل»، وطالبوه بأن يعلن كفره، ويتوب ويسلم من جديد، حتى يعودوا إليه ويقاتلوا معه، فإذا لم يفعل فسوف يقاتلونه. ولا يمكن لمسلم أن يتصور كيف يُكفّر رجل من صحابة رسول الله المبشرين بالجنة، ومن رضى الله عنهم تحت الشجرة في «بيعة الرضوان»، وإزاء هذا التطرف من «الخوارج» اضطر الإمام أن يجارهم في معركة شهيرة تُسمى معركة «النهران» بالقرب من «الكوفة»، وبعدها لم يستطع أن يجمع شمل أنصاره لقتال «معاوية» من جديد كما كان يريد، بل أجبرته الظروف على التفاهم والاتفاق معه. بعد انقسام جبهة «علي» إلى «شيعة» و «خوارج» ازداد موقفه ضعفاً؛ لأن صراعه مع «الخوارج» كبده متاعب جسيمة، وفي الوقت نفسه كان موقف «معاوية» يزداد قوة، وبخاصة بعد أن استطاع الاستيلاء على «مصر» سنة (38هـ)، بجيش قاده فاتحها

الأول «عمرو بن العاص»، ونشر قوات له في أطراف «العراق»،  
وضم «اليمن» إليه، وأصبحت دولته تتسع بمرور الزمن، في  
الوقت الذى تضيق فيه دولة «على». وانتهى الأمر بأن جرت  
بينهما مفاوضات طويلة، اتفقا على وضع الحرب بينهما وتكون  
لعلى «العراق» وبلاد فارس ولعاقبة الشام فلا يدخل أحدهما  
على صاحبه في عمله بجيش ولا غارة .. وتراضيا على ذلك ..  
وهكذا أجبرت الظروف التى تكون أحياناً أقوى من الرجال  
«على بن أبى طالب» أن يصالح «معاوية»، ويسلم له بنصف  
الدولة الإسلامية تقريباً، يحكمها حكماً مستقلاً، وهو الذى رفض  
في بادئ الأمر إبقاءه والياً على الشام وحدها يأتمر بأمره،  
وينتهى بنهيه. إدارة الدولة وتثبيت الفتوحات في عهده: على  
الرغم من الظروف الصعبة التى واجهت الإمام «عليّاً» -رضى الله  
عنه- فإنه أدار الدولة باقتدار وعدالة ونزاهة وتجرد، ولم يقصر  
في شأن من شئونها، واتخذ من «الكوفة» عاصمة لدولته منذ أن  
خرج من «المدينة» إلى «البصرة» وبعد معركة «الجمل»، وظل  
يحكم منها إلى أن لقي الله، وعهد بإدارة بقية أجزاء دولته إلى  
أقرب الناس إليه، وأخلصهم له، فجعل «عبدالله بن عباس» والياً  
على «البصرة» وأخاه «عبيد الله بن عباس» والياً على «اليمن»،  
وأخاهما الثالث «قثم بن عباس» على «مكة» و «الطائف»، وعزل  
«قيس بن سعد» عن «مصر»، وولى مكانه «محمد بن أبى بكر  
الصديق». ولا لوم على «عثمان» و «على» إذا وليا أهل  
قربتهما؛ لأن كل واحد منهما اجتهد لمصلحة الأمة، وكان أميناً  
عليها، فعهد بإدارة الدولة إلى من رأى أنهم ينفذون سياسته،  
ولم يولّ أى منهما أحدًا محاباة أو لقرابة. ولم تشغل الإمام  
«عليّاً» مشكلات الدولة الداخلية عن التصدى لمحاولات الانتقاض  
التي حدثت في بلاد فارس، فقد حاول الفرس تكرار ما فعلوه بعد  
استشهاد «عمر بن الخطاب»، فأرسل إليهم «زيد بن أبية» في  
جمع كثير، «فوطئ بهم أهل فارس، وكانت قد اضطربت، فلم

يزل يبعث إلى رءوسهم، يعد من ينصره ويعينه، ويخوف من امتنع عليه، وضرب بعضهم ببعض، فدل بعضهم على عورة بعض، وهربت طائفة، وأقامت طائفة، فقتل بعضهم بعضاً، وصفت له فارس، فلم يلقَ منهم جمعاً ولا حرباً». أما الروم فلم يتحركوا؛ لأن الإمبراطور «قنسطانز» لما عرض عليه بعض قواده أن ينتهزوا فرصة الحروب التي جرت بين «علي» وأصحاب «الجملة»، وبينه وبين «معاوية»، ويغيروا من جديد على «مصر» و «الشام»، رفض الإمبراطور معللاً ذلك بأن غزوه لمصر والشام سيجعل المسلمين يتصالحون ويتحدون ويقاتلوننا جميعاً، ولن نقوى عليهم، فخير لنا أن نتركهم يقتل بعضهم بعضاً حتى يضعف شأنهم. استشهاد علي رضي الله عنه: جاءت نهاية الإمام «علي بن أبي طالب» على يد «الخوارج»، أنصاره السابقين، الذين بلغ بهم الغلو والتطرف حدًا اعتبروا فيه «عليًّا» و «معاوية» و «عمرو بن العاص» أئمة ضلالة، وحملوهم مسئولية ما حدث، وقرروا قتل الثلاثة جميعاً، واتفقوا أن يتم التنفيذ في وقت واحد، هو فجر اليوم السابع عشر من شهر رمضان سنة (40هـ)؛ تيمناً بذكرى معركة «بدر» حسب تصور نفوسهم المريضة وعقولهم الفاسدة، وانتدبوا ثلاثة للقيام بهذه المهمة، هم «عبدالرحمن بن ملجم»، و «البرك بن عبدالله»، و «عمرو بن بكر»، علي أن يذهب الأول إلى «الكوفة» لقتل «علي»، والثاني إلى «دمشق» لقتل «معاوية»، والثالث إلى «مصر» لقتل «عمرو بن العاص». وشاءت إرادة الله - تعالى - أن ينجو «معاوية» و «عمرو» من القتل، وأن تكون الشهادة من نصيب «علي»، حيث ضربه «عبدالرحمن بن ملجم» بسيف مسموم في جبهته، فشققها فمات من أثر الضربة بعد وقت يسير، بعد أن قضى أربع

سنوات وبضعة شهور، لم يذق فيها طعم الراحة، وحاصرته المشكلات والمتاعب، وأنهكته الحروب من كل جانب.

(958/10)

---

### \*زهير بن قيس البلوى

تسلّم «زهير بن قيس البلوى» قيادة الجيش خلفاً لعقبة بن نافع سنة (63هـ)، وعزم على الثأر من البيزنطيين و «البربر»، لكنه لم يستطع أن يحقق هدفه إلا في سنة (69هـ)، نظراً لانشغال الدولة الأموية بالأحداث والفتن الخطيرة التي حدثت في الداخل بعد وفاة «يزيد بن معاوية» سنة (64هـ). تحرك «زهير» بجيش كبير وزحف على «القيروان» سنة (69هـ)، والتقى على مقربة منها بجيش «كسيلة»، فهزم «البربر» هزيمة ساحقة بعد معركة شديدة وفي أثناء عودته إلى «برقة» للدفاع عنها - بعد ما نعى إلى علمه أن البيزنطيين زحفوا عليها في جموع عظيمة - تعرض لهجوم بيزنطى مفاجئ، فلقى حتفه هو ومن معه.

(959/10)

---

### \*الفارابي

هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي، أكبر فلاسفة الإسلام، والمعلم الثاني بعد أرسطو. وُلِد في بلدة قرب فاراب (مدينة أترار الحالية بجمهورية قازاقستان) سنة (260هـ = 874م)، وكان والده جندياً تركياً فقيراً، وانتقل الفارابي إلى بغداد فنشأ بها وتعلم النحو والعربية على ابن السراج المتوفى سنة (316هـ)، والحكمة والفلسفة على عالم مسيحي يُدعى يوحنا بن جيلان، وأجاد العديد من اللغات وبرع في الرياضيات

والشعر والموسيقى، ويُنسب إليه اختراع آلة القانون، وانتقل بعد ذلك إلى دمشق وعاش في كنف الأمير سيف الدولة الحمداني، ويُعد الفارابي أول من نقل المنطق اليوناني تامةً إلى اللغة العربية، وقد أعجب بأرسطو، فشرح كتبه المنطقية، وعلق عليها، وعنه نقلت إلى عدة لغات أوروبية. وأهم كتبه: رسالة في العقل وإحصاء العلوم وآراء أهل المدينة الفاضلة. وكان الفارابي زاهدًا قليل المخالطة للناس، وقد تُوفِّي سنة (339هـ = 950م) في دمشق وُدفن بها وقد تجاوز الثمانين من عمره.

(960/10)

---

\*أبو داود

هو أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني، أحد كبار حفاظ الحديث، وأحد رجل الصحاح، وُلِد سنة (202هـ) وأصله من خراسان. سَمِع من المحدثين بمصر والشام والحجاز والعراق وخراسان، وكان كثير الترحال في طلب الحديث حتى أصبح إمام أهل الحديث في عصره، وصنَّف كتابه السنن الذي انتخب فيه (4800) حديث من (500.000) حديث ، وقد عُرض هذا الكتاب على الإمام أحمد بن حنبل فاستحسنه، ومن كتبه أيضًا: المراسيل والدعاء. وقد حدث عنه الإمام النسائي، والإمام أحمد بن حنبل. وكان أبو داود زاهدًا كثير العبادة، وتُوفِّي بالبصرة سنة (275هـ).

(961/10)

---

## \*الغزالي

هو أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالي، حُجة الإسلام وأكبر فلاسفة الإسلام ومتصوفيه. وُلد سنة (450هـ = 1059م) في مدينة طوس (مشهد الإيرانية)، وكان والده رجلاً صالحاً فقيراً، مات وعهد بأبنائه ومنهم الغزالي إلى صديق له، تولى تربيتهم، وألحق الغزالي بمدرسة تلقى من خلالها العلم، ثم ذهب إلى جرجان ونيسابور فتتلمذ لإمام الحرمين الجويني المتوفى سنة (478هـ) وأخذ عنه أصول الفقه والمذهب الأشعري، وأتقن الغزالي الفارسية، وعاش في كنف آل سلجوق حتى علا شأنه عند الوزير نظام الملك الذي عهد إليه بإدارة المدرسة النظامية، وكان واسع العلم والاطلاع فاحتل مكانة عالية بين العلماء، رغم أنه لم يكن قد تجاوز (33) سنة من عمره، وقد رحل الغزالي إلى دمشق والإسكندرية وبيت المقدس واعتكف فترة لتأليف الكتب فأخرج أشهر كتبه التي تجاوزت (200) مصنف، أهمها: إحياء علوم الدين وتمامات الفلاسفة وبعض الرسائل في نقد المذهب الباطني، والاقتصاد في الاعتقاد، والمنقذ من الضلال، ثم تحول الغزالي إلى التصوف وتعمق في علومه ومعارفه، حيث أسس في مسقط رأسه ملجأ للصوفية، وقضى بقية أيامه في تعبد وتأمل حتى وفاته سنة (505هـ = 1111م).

(962/10)

## \*أبو حامد الغزالي

هو أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالي، حُجة الإسلام وأكبر فلاسفة الإسلام ومتصوفيه. وُلد سنة (450هـ = 1059م) في مدينة طوس (مشهد الإيرانية)، وكان والده رجلاً صالحاً فقيراً، مات وعهد بأبنائه ومنهم الغزالي إلى صديق له، تولى تربيتهم،

وألقى الغزالي بمدرسة تلقى من خلالها العلم، ثم ذهب إلى جرجان ونيسابور فتتلمذ لإمام الحرمين الجويني المتوفى سنة (478هـ) وأخذ عنه أصول الفقه والمذهب الأشعري، وأتقن الغزالي الفارسية، وعاش في كنف آل سلجوق حتى علا شأنه عند الوزير نظام الملك الذي عهد إليه بإدارة المدرسة النظامية، وكان واسع العلم والاطلاع فاحتل مكانة عالية بين العلماء، رغم أنه لم يكن قد تجاوز (33) سنة من عمره، وقد رحل الغزالي إلى دمشق والإسكندرية وبيت المقدس واعتكف فترة لتأليف الكتب فأخرج أشهر كتبه التي تجاوزت (200) مصنف، أهمها: إحياء علوم الدين وثمافت الفلاسفة وبعض الرسائل في نقد المذهب الباطني، والاقتصاد في الاعتقاد، والمنقذ من الضلال، ثم تحول الغزالي إلى التصوف وتعمق في علومه ومعارفه، حيث أسس في مسقط رأسه ملجأ للصوفية، وقضى بقية أيامه في تعبد وتأمل حتى وفاته سنة (505هـ = 1111م).

(963/10)

#### \*ابن مالك

هو أبو عبد الله محمد بن مالك الطائي الأندلسي، من أشهر علماء النحو. وُلد في جيان الأندلسية سنة (600هـ)، وتلقى النحو والقراءات على يد ثابت بن خيار الأندلسي المتوفى سنة (628هـ) وأبي الحسن السخاوي المتوفى سنة (643هـ) وموفق الدين بن يعيش المتوفى سنة (643هـ). وقد استخدم ابن مالك بعض المصطلحات الجديدة فالنحو، مثل: نائب الفاعل والبدل المطلق، وألف في النحو واللغة والقراءات والحديث، وأهم كتبه: الكافية الشافية وهي أرجوزة في قواعد النحو والصرف، والألفية (أشهر ماكتب)، قواعد جمعت العربية في ألف بيت،

وتعددت شروحيها، وتسهيل الفوائد وتكميل المقاصد وهو كتاب مختصر فالنحو. وقد تُوفِّي ابن مالك في دمشق سنة (672هـ = 1274م).

(964/10)

---

**\*زياد بن أبيه**

وُلد زياد في العام الأول للهجرة بالطائف، واختلف في اسم أبيه ، فقيل: عبید الثقفي، وقيل: أبو سفيان. أدرك زياد النبي، ولكنه لم يره، وأسلم في عهد أبي بكر الصديق، رضی الله عنه، ولمعرفته بالكتابة جعله أبو موسى الأشعري كاتبًا له أيام ولايته على البصرة واستعمله عمر بن الخطاب، رضی الله عنه، على صدقات البصرة ثم عزله، وفي خلافة علي بن أبي طالب، رضی الله عنه، ولاه على فارس، ولما استشهد علي وتولى معاوية الخلافة اعتصم زياد بفارس، وامتنع على معاوية، ثم صالحه معاوية واستقدمه، فلما قدم زياد عليه استلحقه معاوية بنسبه وولاه البصرة ثم الكوفة، وعُرف زياد في ولايته بالشدة والحزم، وقد أدت شدته هذه إلى الحد من خطر الخوارج. وتُوفِّي زياد عام (53هـ = 673م) بالكوفة.

(965/10)

---

**\*رقية بنت محمد - صلى الله عليه وسلم -**

هي رقية بنت محمد - صلى الله عليه وسلم -، أمها خديجة بنت خويلد أم المؤمنين، رضی الله عنهما. وُلدت رقية في الجاهلية، وهي الثانية من بنات النبي الأربع، وهن: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، رضی الله عنهن. تزوجت رقية عتبة بن أبي

لهب، ولم يدخل بها، فلما بُعث النبي أمره أبو هب أن يُطلقها، فطلقها، وتزوجها عثمان بن عفان، رضى الله عنه، بعد إسلامه، وهاجر بها إلى الحبشة المهجرتين، ثم هاجرت معه إلى المدينة ومرضت قبيل غزوة بدر الكبرى، وحين خرج الرسول إلى بدر تخلف عثمان لتمريضها مع أسامة بن زيد، ثم تُوفيت، والمسلمون في المعركة، وجاءت البشرية بالنصر وهم يوارونها التراب.

(966/10)

---

### \*زبيدة بنت جعفر

هى زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور الخليفة العباسى. وُلدت عام (145هـ = 762م) وكان اسمها أمة العزيز وكنيتها أم جعفر وأم الواحد. تزوجت ابن عمها الخليفة هارون الرشيد عام (165هـ)، وأنجبت له محمدًا الأمين. اشتهرت زبيدة بأعمال البر والخير، وإقامة العمائر، ومن منشئاتها: عين زبيدة بمكة التى أجزت إليها الماء من وادى النعمان على مسيرة (10) كم من مكة، ومهدت طريق الحج من العراق إلى الحجاز، وشيدت عليه المرافق والمنازل، وحفرت الآبار والبرك، ومازال يُعرف باسم درب زبيدة. تولى ابنها الأمين الخلافة، ثم قُتل فى صراعه مع أخيه المأمون عام (198هـ)، وكان المأمون بعد توليه الخلافة يبرها ويتعهد لها، فكان يرسل إليها أموالاً كثيرة كل عام، فتتصدق بأكثرها. وتُوفيت زبيدة عام (216هـ = 831م) فى عهد الخليفة المأمون.

(967/10)

---

### \*الحسن بن سهل

هو أبو محمد الحسن بن سهل بن عبد الله السرخسي، من وزراء الدولة العباسية. وُلد عام (166هـ)، وهو أخو الوزير الفضل بن سهل، وكلاهما كان من الصابئة ثم أسلم. تولى الحسن عددًا من المناصب، مثل: ديوان الخراج، وإمارة العراق والجزيرة، واستطاع القضاء على بعض الثورات والفتن، مثل: ثورة أبي السرايا والفتنة التي أثارها حميد الطوسي ببغداد. قرّبه الخليفة المأمون إليه واستوزره، وتزوج من ابنته بوران. واشتهر الحسن بالأدب وجودة التوقيعات، وقرب إليه الشعراء وامتدحه كثير منهم. وتُوفّي الحسن بن سهل بسرخس عام (236هـ).

(968/10)

### \*بجيري الراهب

راهب نصراني، وقيل: إنه حبر من أحبار يهود تيماء، يدعى سرجس من بني عبد القيس. كان يتعبّد في صومعة له بالقرب من مدينة بصرى بأرض الشام. وقد وردت قصة هذا الراهب مع رسول الله في كتب السيرة؛ فعندما خرج النبي وهو في التاسعة من عمره مع عمه أبي طالب وعير قريش في رحلة إلى أرض الشام، ونزلوا بصرى بالقرب من بجيري الراهب، دعاهم إلى صومعته، ولم يكن يدعوهم قبل ذلك حينما كانوا يمرون عليه، وذلك لما رأى الغمامة التي تُظلل النبي، فاجتمعوا إليه، فلما رأى بجيري النبي جعل يتأمله، وينظر إلى أشياء من جسده، قد كان يجدها في كتب عنده من صفاته، فلما فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا، قام بجيري إلى النبي فسأله عن أمور فأجابه النبي بما وافق ما عنده، فجعل ينظر بين عينيه، ثم كشف عن ظهره، فرأى خاتم النبوة بين كتفيه، على موضع الصفة التي قرأها؛ فقَبِلَ موضع

الخاتم. ثم أوصى بالنبي عمه أبا طالب وعرفه أنه سيكون له شأن عظيم.

(969/10)

\*ابن البيطار

هو ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن البيطار المالقي الأندلسي. من كبار علماء النبات والأعشاب والطب فالنصف الأول من القرن (7هـ = 13م). وُلد ابن البيطار في مدينة مالقة الأندلسية سنة (575هـ = 1179م)، وكان والده بيطرياً، ودرس في إشبيلية أنواع النباتات والأعشاب على كثير من العلماء. وقام برحلة علمية بهدف حصر أنواع الأعشاب والنباتات الطبية المختلفة، والتقاء الأطباء وعلماء النبات، فرحل إلى المشرق ماراً بالمغرب وتونس والجزائر وطرابلس وبرقة والحجاز وغزة والقدس، ثم ذهب إلى اليونان وإيطاليا. والتقى خلال هذه الرحلة كثيراً من الأطباء وعلماء النبات والأعشاب، واستغرقت هذه الرحلة من حياة ابن البيطار أكثر من ثلاثين عاماً، مكنته من هذا العلم وأكسبته شهرة ومكانة مرموقة، وقد اتصف ابن البيطار بالذكاء والخبرة واتساع المعرفة بعلم النبات والأعشاب، واستخدمت كتبه في تكوين أول معشبة نباتية، وأول صيدلية إنجليزية أعدتها كلية الطب في عهد جيمس الأول، ويُعد كتابه الأدوية المفردة أحد أسس تكوين علم العقاقير الحديث. ترك ابن البيطار عدداً من المصنفات العلمية في الأعشاب والأدوية، منها: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، والمعنى في الأدوية المفردة، وميزان الطبيب. وتوفي ابن البيطار في دمشق سنة (646هـ = 1248م).

(970/10)

### \*ست الملك

هى ست الملك بنت الخليفة العزيز بالله نزار، وُلدت بالمهدية فى تونس عام (359هـ = 969م)، ورحلت مع أبيها إلى مصر، وهى طفلة، وكانت أمها رومية مسيحية، تزوجها العزيز بالله حينما كان وليًا للعهد فأنجب منها ست الملك والحاكم بأمر الله. اشتهرت ست الملك بعدة خصائص، أبرزها: الحزم والعزم والكرم والسخاء والتسامح الدينى. وقد اتهمت ست الملك بتدبير مقتل أخيها الحاكم، واختلفت روايات المؤرخين فى هذا الشأن بين مؤيد ومعارض، وقد تم قتل الحاكم عام (411هـ = 1020م)، وتولت ست الملك الوصاية على ابن أخيها الظاهر خلال السنوات الأربع لحكمه، فأظهرت كفاءة ممتازة فى إدارة شئون البلاد، وبذلت العطاء للجنود، وظلّت تشرف على أعمال الدولة حتى وفاتها عام (415هـ = 1024م).

(971/10)

### \*أحمد بن ماجد

هو شهاب الدين أحمد بن ماجد بن عمر بن فضل. أحد كبار الملاحين العرب. وُلد بجلفار على الساحل الجنوبي من الخليج العربى؛ حيث إمارة رأس الخيمة الحالية، ولا يعرف بالتحديد سنة مولده، ويقال: إنه وُلد سنة (838هـ)، وينحدر ابن ماجد من أسرة اشتهرت بالملاحة وارتباد البحار، فورث ذلك الفن عن أبيه وجده، وحصل بجواره كثيرًا من العلوم والفنون خاصة فى علم الفلك. ولا ترجع شهرة ابن ماجد إلى كونه ملاحًا قديرًا فحسب ولا إلى مؤلفاته الغزيرة فى علوم البحار والملاحة، وإنما اكتسب شهرته من قيادته لسفينة الملاح البرتغالى فاسكو ديجاما سنة (1498م)

من مالندى على ساحل إفريقيا الشرقية (في كينيا حالياً) إلى  
كلكتا في الهند، وكان لهذا الحادث أثر خطير في تاريخ  
الملاحة، وأثر في توالى الحملات الاستعمارية الأوروبية لاحتلال  
السواحل والمراكز المهمة في المحيط الهندي. ولابن ماجد  
مؤلفات كثيرة، منها: كتاب الفوائد في أصول علم البحار  
والقواعد، وحاوية الاختصار في أصول علم البحار والأرجوزة  
المعربة، وغيرها.

(972/10)

---

#### \*أحمد بن المدبر

هو ابو الحسن أحمد بن محمد بن عبيد الله المدبر. أحد كبار كتّاب  
الدولة العباسية في القرن الثالث الهجرى، كان بليغاً، مترسلاً،  
برع في كثير من الفنون؛ فأعجب به الخليفة العباسى المتوكل  
فولاه ديوان الخراج وغيره من الأعمال الجليلة، فحقد عليه بعض  
الكتاب ووشوا به؛ فخرج إلى بلاد الشام، وتولى خراج دمشق،  
ثم تولى خراج مصر واستقر بها وكثر ماله ونفوذه وأتباعه. ولما  
وصل أحمد بن طولون إلى مصر والياً عليها من قبيل العباسيين  
خرج أحمد بن المدبر لاستقباله في موكب كبير، فلما رأى أحمد  
بن طولون ما فيه أحمد بن المدبر من أبهة ونفوذ؛ خشى من  
ازدياد نفوذه، وأرسل ابن المدبر هدية لابن طولون فردّها،  
وساءت العلاقة بينهما. ومات أحمد بن المدبر سنة (256هـ)،  
وقيل: سنة (270هـ).

(973/10)

---

## \*آق شمس الدين

هو شمس الدين محمد بن حمزة، أحد أئمة العلم في الدولة العثمانية في القرن التاسع الهجري = الخامس عشر الميلادي، وهو معلم السلطان محمد الثاني ومربيه، ومحمد الثاني هو فاتح القسطنطينية الذي لُقّب بمحمد الفاتح. وُلد آق شمس الدين في دمشق سنة (792هـ = 1389م)، وحفظ القرآن الكريم وهو في السابعة من عمره، وتلقى العلم في مدينة آماسيا، ثم في حلب، ثم في أنقرة. وبرع آق شمس الدين في علوم ولغات شتى، منها: علوم القرآن الكريم والسنة، والفقه، واللغات العربية، والفارسية، والتركية إلى جانب علوم الرياضيات، والفلك، والطب، والنبات، والصيدلة، والتاريخ. وبلغ منزلة عظيمة في هذه العلوم؛ فاختره السلطان العثماني مراد خان ليعلم ابنه محمد الثاني، فكان نعم المعلم والمربي؛ حيث أخذ عنه السلطان محمد الفاتح ما عنده من علم. ولما كبر السلطان محمد الثاني وتولى الحكم كان يصطحب آق شمس الدين في كل أعماله ويستشيره، وقد شارك آق شمس الدين في حصار القسطنطينية، وهو الذي اكتشف قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري الذي استشهد سنة (52هـ) أثناء حصار المسلمين للقسطنطينية في خلافة معاوية بن أبي سفيان، رضى الله عنه. وكان لآق شمس الدين جهد كبير في فتح القسطنطينية، بفضل توجيهاته للجنود والقادة، وبيان عظمة هذا العمل وفضله عند الله، إلى جانب دعائه المستمر لله وخشوعه وتذللته لله أن ينجز لهم هذه المهمة. وبعد الفتح قال السلطان محمد الثاني: إنكم ترونني فرحًا، فرحًا ليس لفتح هذه القلعة فقط، إن فرحى يتمثل في وجود شيخ في عهدي هو مؤدبى الشيخ آق شمس الدين. ولآق شمس الدين العديد من المصنفات باللغة التركية والعربية في علوم شتى، منها: كتاب في الطب يُسمى مادة الحياة، وهو مكتوب باللغة التركية، وله بالعربية: حل المشكلات، ومقالات

الأولياء ورسالة في ذكر الله، وغيرها. وتوفي آق شمس الدين  
ببلدة كونوك سنة (1459م).

(974/10)

---

**\*ابن برد**

هو أبو حفص بن أحمد بن محمد بن أحمد برد. كاتب، وشاعر  
أندلسي مجيد، من أهل بيت أدب ورياسة؛ إذ كان جده وزيراً  
في دولة بني عامر. له رسالة في السيف والقلم والمفاخرة  
بينهما، فكان أول من سبق إلى القول في ذلك بالأندلس، وله  
في علوم القرآن التحصيل في تفسير القرآن. وكانت وفاته بعد  
سنة (440هـ = 1048م).

(975/10)

---

**\*أحمد بن محمد بن الأغل**

هو أحمد بن محمد بن عقال الأغل بن إبراهيم الأغل. وُلد سنة ( )  
220هـ = 835م)، وهو سادس أمراء دولة الأغالبة بشمال إفريقيا  
، تولى حكم إفريقيا سنة (242هـ = 856م). وكان حسن السيرة  
في رعيته، كثير العطاء لهم، تميز عهده بالأمن والأمان والسلام،  
وفتح مدينة قصريانة إحدى مدن جزيرة صقلية سنة (244هـ =  
859م). وكان يحب العمارة؛ فبنى ما يقرب من عشرة آلاف  
حصن، وزاد في جامع القيروان، كما بنى مسجد تونس، وبنى  
سور سوسة. وتوفي أحمد بن محمد الأغل سنة (249هـ =  
863م).

(976/10)

## \*شريف باشا

هو محمد شريف باشا بن أحمد سعيد. أحد رؤساء الوزارات في مصر في العهد المالكي، وهو تركي الأصل. وُلد سنة (1823م) في إستانبول عاصمة الخلافة العثمانية، ثم تربى في قصر محمد علي باشا والى مصر ثم ألقه بمدرسة الخانكة التي أنشئت سنة (1826م)، ثم انتقل إلى مدرسة السوارى بالجيزة، ثم أرسله سنة (1844م) في بعثة علمية إلى فرنسا، فكان ضمن من تخصص في العلوم العسكرية بها. وكان محمد شريف من الطلاب الناجحين، حتى إنه منح رتبة البكوية وهو مازال طالباً في المدرسة الحربية المصرية في فرنسا، ولكنه ما لبث أن اضطر للرجوع إلى مصر عندما أغلق عباس الأول المدرسة الحربية المصرية بفرنسا سنة (1849م). وعندما عاد إلى مصر عُيّن ياوراً لسليمان باشا الفرنسي، ولكنه ظل بهذه الوظيفة بدون ترقية لمدة ثلاث سنوات؛ مما دفعه إلى أن يقدم استقالته من العمل بها، وسافر إلى الآستانه، فتقابل هناك مع الأمير محمد عبد الحليم بن محمد علي باشا فأقنعه بالعودة إلى مصر سنة (1853م)، وعينه سكرتيراً ومشرفاً على دائرته. وفي سنة (1854م) عينه سعيد باشا أميرلاى حرسه الخاص، ثم رقيه إلى رتبة لواء بالجيش المصرى، بالإضافة إلى رئاسة حرسه الخاص، ومُنح لقب الباشوية بعد ذلك بقليل. وفي سنة (1857م) عهد إليه سعيد باشا والى مصر بنظارة الخارجية المصرية، وعندما تولى إسماعيل باشا بعد وفاة سعيد باشا سنة (1863م)، عهد إليه بتولى نظارة الداخلية مع نظارة الخارجية، وكذلك نظارة المعارف، وفي سنة (1869م) ولاه رئاسة المجلس الخصوصى (مجلس الوزراء حالياً). وفي سنة (1879م) عينه إسماعيل باشا رئيساً للوزارة الوطنية، وكذلك تولى رئاسة الوزارة في عهد

الخدبو توفيق ثلاث مرات: الأولى سنة (1879م)، والثانية سنة (1881م)، والثالثة سنة (1882م). وفي (7 من يناير 1884م) قدم محمد شريف باشا استقالته من منصب رئاسة الوزارة المصرية؛

(977/10)

---

احتجاجًا على التدخل الأجنبي في الشؤون الداخلية لمصر. وكانت وفاته بمصر في (28 من أبريل سنة 1887م).

(978/10)

---

\*محمد بن الحنفية

هو أبو القاسم محمد بن علي بن أبي طالب. المعروف بابن الحنفية. وأمه خولة بنت جعفر الحنفية، ويُنسب إليها؛ تمييزًا له عن أخويه الحسن والحسين. وُلد محمد بن الحنفية في المدينة سنة (21هـ = 642م). وكان ابن الحنفية كثير العلم ورعًا، شديد القوة، وله في ذلك أخبار عجيبة، وكانت راية أبيه يوم صفين بيده، ويُحكى أنه توقف أول يوم في حملها؛ حتى لا يقاتل المسلمون بعضهم بعضًا، فقال له علي بن أبي طالب: هل عندك شك في جيش مقدمه أبوك؟ فحملها. وكان المختار بن أبي عبيد الثقفي يدعو الناس إلى إمامة محمد بن الحنفية، ويزعم أنه المهدي. وتوفي محمد بن الحنفية سنة (81هـ = 700م)، ودُفن بالبقيع، وزعمت فرقة الكيسانية أنه لم يمِت، وأنه مقيم في شعب بجبل رضوى.

(979/10)

---

### \*ابن الحنفية

هو أبو القاسم محمد بن علي بن أبي طالب. المعروف بابن الحنفية. وأمه خولة بنت جعفر الحنفية، ويُنسب إليها؛ تمييزاً له عن أخويه الحسن والحسين. وُلد محمد بن الحنفية في المدينة سنة (21هـ = 642م). وكان ابن الحنفية كثير العلم ورعاً، شديد القوة، وله في ذلك أخبار عجيبة، وكانت راية أبيه يوم صفين بيده، ويُحكى أنه توقف أول يوم في حملها؛ حتى لا يقاتل المسلمون بعضهم بعضاً، فقال له علي بن أبي طالب: هل عندك شك في جيش مقدمه أبوك؟ فحملها. وكان المختار بن أبي عبيد الثقفي يدعو الناس إلى إمامة محمد بن الحنفية، ويزعم أنه المهدي. وتوفي محمد بن الحنفية سنة (81هـ = 700م)، ودُفن بالبقيع، وزعمت فرقة الكيسانية أنه لم يميت، وأنه مقيم في شعب بجبل رضوى.

(980/10)

---

### \*محمد الذخيرة

هو أبو العباس محمد بن القائم بأمر الله، الملقب بالذخيرة، وكان هو الابن الوحيد للخليفة العباسي القائم. وتوفي محمد الذخيرة سنة (448هـ)، وترك زوجته قرّة العين حاملاً، فوضعت بعد موته ولداً سماه جده عبد الله، وعهد إليه بالخلافة من بعده؛ فتولاها بعد وفاة القائم سنة (467هـ).

(981/10)

---

### \*محمد رشاد

هو محمد خان رشاد الدين بن عبد المجيد خان. السلطان الخامس

والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية. وُلد سنة (1260هـ = 1844م)، ونشأ نشأة عسكرية؛ حيث انخرط في سلك الجندية فعهدي السلطان عبد العزيز والسلطان مراد خان. وتدرج في المناصب حتى وصل إلى رتبة فريق. وقد حجر السلطان عبد الحميد الثاني على تحركاته فجعله يلزم السرايا، فلم يكن يخرج منها إلا يرقبه كثير من العيون، وظل على هذه الحالة حتى إعلان دستور سنة (1909م)، وعزل السلطان عبد الحميد الثاني؛ حيث بويع محمد رشاد بالخلافة. وتولى إدارة الحكومة في عهده حزب الاتحاد والترقي. وتُوِّقِي السلطان محمد رشاد سنة (1336هـ = 1917م).

(982/10)

#### \*الماوردي

هو علي بن محمد بن حبيب أبو الحسن الماوردي فقيه شافعي، وأديب وقاضٍ وسياسي. وقد أُطلقَ عليه الماوردي؛ نسبة إلى عمله في بيع ماء الورد، وقد وُلد في البصرة سنة (364هـ = 974م)، وتلقى تعليمه في البصرة وبغداد، واختير للقضاء في بلدان كثيرة، وتلقب بأفضى القضاة سنة (429هـ)، واختير سفيراً للخلافة الإسلامية. وكان كثير المنازعات والخصومات؛ وذلك لذكائه ومهارته في الإقناع. وعاش حياة متواضعة رغم منصبه، وأتَّهم بالاعتزال. وألَّف في الفقه وتفسير القرآن والسياسة والنحو والأدب. وأهم كتبه: النكت والعيون، وهو في تفسير القرآن، والحاوي الكبير، وهو في الفقه الشافعي، والأحكام السلطانية، وهو في السياسة، وتسهيل النظر وتعجيل الظفر. وتُوِّقِي الماوردي في بغداد في (30 من ربيع الأول 450هـ = 27 من يونيو 1058 م).

**\*البكرى**

هو أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكرى الأندلسى. أحد الجغرافيين العرب المعروفين، وُلِدَ في شلطيش (سالتيس) عام (432هـ = 1040 م). وكان جده واليًا على شلطيش وولبة في خلافة المؤيد الأموى، وحاول أبوه أن يستقل بها، فلم ينجح؛ ففرَّ مع ابنه إلى قرطبة، وفيها تتلمذ البكرى لعلماء عصره، ثم التحق بخدمة أمير ألمرية محمد بن معن. وفي عام (478 هـ = 1085 م) سافر البكرى إلى مراكش في وفد من أمراء الأندلس؛ لطلب العون من أمير المرابطين يوسف بن تاشفين في قتال ألفونس السادس ملك قشتالة، الذى استفحل أمره، وعاد البكرى بعد ذلك إلى قرطبة، واستقر بها حتى وفاته. واشتهر البكرى بمؤلفاته في الجغرافيا والتاريخ والأدب، وأشهرها كتاب المسالك والممالك، ومعجم ما استعجم، وأعلام النبوة، وشرح أمالى القالى. وتُوِّفِيَ أبو عبيد البكرى سنة (487هـ = 1094م).

**\*ابن ماجه**

هو أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه الرَّبِيعى القزوينى. أحد أئمة الحديث في القرن الثالث الهجرى. وُلِدَ سنة (209هـ = 824 م)، ثم ارتحل إلى بغداد والبصرة والكوفة ومكة والشام ومصر والرى. سمع على محمد الطنافسى، ومصعب بن عبد الله بن الزبير، وأبى بكر بن أبى شيبه وخلق كثير، وروى عنه محمد

بن عيسى الأبحري، وأبو عمرو أحمد بن محمد بن حكيم  
المدائني وغيرهما. كان إمامًا في الحديث، ومن تصانيفه: سنن  
ابن ماجه، وهو أحد الكتب الستة الصحاح، وله تفسير القرآن  
وكتاب في تاريخ قزوين. وتُوفِّي ابن ماجه سنة (273هـ = 887  
م). \*ماركو بولو هو ماركو بن نيقولا بولو. مستكشف ورحالة  
إيطالي. وُلِد في البندقية سنة (652هـ = 1254م)، وقيل: سنة ( )  
653هـ = 1255م). وكان من عائلة من كبار التجار، الذين أقاموا  
علاقات تجارية في القسطنطينية والبحر الأسود وإمبراطورية  
التتار. وفي عام (1271م) أثار ماركو اهتمام إمبراطور الصين؛  
فأبقاه فيبلاطه بلاط كوبلاي خان لمدة (20) سنة؛ فكلفه بمهمة  
السفير؛ فعرف القسم الأعظم من الصين الغربية والهند والخليج  
العربي، وغيرها من المناطق التي كانت خاضعة للإمبراطور  
الصيني آنذاك. وقد اعتقل لمدة ثلاث سنوات، خلال الحرب التي  
دارت رحاها بين البندقية وجنوة سنة (1298م). روى ذكرياته  
لرفيقه في السجن روستيشللو، فبدأ بالحديث عن حياته، ثم  
بالأماكن التي زارها، وعادات المغول، وتاريخهم. وكانت  
كتابات المصدر الوحيد تقريبًا لمعلومات الغرب عن الشرق في  
عصر النهضة، وكذلك عن بعض جهات آسيا حتى القرن التاسع  
عشر الميلادي، وتُوفِّي ماركو بولو سنة (725هـ = 1324م).

(985/10)

### \*مأرية القبطية

هي مأرية بنت شمعون القبطية. وُلِدت لأبٍ قبطي مصري وأم  
رومية، في قرية حفن من أنصفا الواقعة على الضفة الشرقية  
للنيل تجاه الأشمونين (مركز ملوى بمحافظة المنيا بصعيد مصر).  
أهداها المقوقس حاكم الإسكندرية إلى رسول الله سنة (7هـ =

628م)، وأرسلها إليه مع حاطب بن أبي بلتعة فعرض عليها الإسلام فأسلمت. وقد أنزلها الرسول في بيت لخارثة بن النعمان، ثم حولها إلى العالية. وعندما ولدت مارية للنبي إبراهيم قال الرسول: أعتقها ولدها، ولما حضرت إبراهيم الوفاة سنة (10هـ = 631 م) قال النبي: إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولانقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون. وهى تشابه هاجر زوجة إبراهيم الخليل وأم إسماعيل عليهما السلام، فكلتاها من مصر، وأهديتا إلى نبي، وأم ولد، كما فُسِّرَ بهما (النسب والصهر) الوارد في قوله: استوصوا بأهل مصر خيراً، فإن لهم نسباً وصهراً. فالنسب لهاجر والصهر لمارية. وبعد وفاة النبي أنفق عليها أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، حتى تُوفِّي، ثم أنفق عليها عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، حتى توفيت في خلافته في المحرم سنة (16هـ = 637 م)، وكان عمر يحشر الناس لشهود جنازتها، وصلى عليها، ودفنت بالبقيع بالمدينة.

(986/10)

### \*مالك بن أنس\*

هو أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك الحميرى. أحد الأئمة الأربعة من أهل السنة، وإليه يُنسب المذهب المالكي. وُلِدَ سنة (93هـ = 712 م) بالمدينة، ونشأ في بيت اشتغل أهله بالحديث. حفظ القرآن الكريم، وعمره (11) سنة، وتلقى العلم عن كبار التابعين والعلماء في عصره. وأدرك مالك الدولتين الأموية والعباسية. وكان يجلُّ حديث رسول الله والعلم؛ إذ كان إذا خرج لمجلس العلم يتطيب ويلبس أحسن ثيابه. وكان ذا هيبة كبيرة، يعتنى بطعامه وشرابه ولباسه، قوى الحافظة، وإذا شك في

حديث تركه. وصنف الإمام مالك عدة كتب، منها: الموطأ، وهو أشهر كتبه، وعندما أراد المنصور حمل الناس على الموطأ رفض الإمام مالك ذلك؛ منعًا للفتنة، وله أيضًا الرد على القدرية، وتوفي الإمام مالك بالمدينة سنة (179هـ = 795 م)، ودُفن بالبقيع بجوار إبراهيم ابن النبي.

(987/10)

---

### \*مالك بن نويرة

هو مالك بن نويرة بن حمرة بن شداد اليربوعي التميمي. يكنى أبا حنظلة، ويلقب بالجفول. كان شاعرًا معدودًا في فرسان بني يربو [AZ1] ع في الجاهلية، وأشرفهم. أدرك الإسلام، وأسلم، وولاه النبي صدقات قومه (بني اليربوع).

(988/10)

---

### \*المتنبى

هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي الكندي، أبو الطيب المتنبى: من كبار شعراء المسلمين، وأحد مفاخر الأدب العربي سنة (303هـ = 915م). ولد بالكوفة ونشأ بالشام، ثم تنقل في البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس. التحق المتنبى بالأمير سيف الدولة بن حمدان سنة (337هـ) فمدحه وحظى عنده، ثم فارقه ودخل مصر سنة (346هـ) فمدح كافور الإخشيدى؛ طمعًا منه في أن يوليه بعض الإمارات، فلمَّا لم يولَّه شيئًا هجاه، ورحل عنه قاصدًا بلاد فارس، ومدح عضد الدولة بن بُويّه الدَّيلمي، فأجزل جائزته، ولما رجع من عنده قاصدًا بغداد عرض له فاتك بن أبي الجهل الأسدي في عدد من

أصحابه، وكان مع المتنبي أيضًا جماعة من أصحابه، فقَاتلوههم،  
فقتل المتنبي وابنه وغلّامه بالقرب من النعمانية، في موضع  
يقال له الصفا، وذلك سنة (354هـ = 965م).

(989/10)

### \*المتنبي بن حارثة

هو المتنبي بن حارثة بن سلمة بن ضمضم صحابي جليل، من كبار  
قادة المسلمين الفاتحين، أسلم سنة (9هـ = 630م). ساهم في  
حروب الردة في عهد أبي بكر الصديق - رضى الله عنه -  
واستطاع أن يقضى على ردة أهل البحرين، ثم تقدم إلى القطيف  
وهجر، ووصل إلى نهرى دجلة والفرات وأخذ يُعبر على بلاد  
فارس؛ فاستولى على مدينة دهشتاباذ أردشيد (البصرة حاليًا)،  
ثم استولى على مدينة الأبله (البصرة حاليًا أيضًا)، ثم اتجه نحو  
الحيرة (الكوفة حاليًا)، وقد نبهت هذه الهجمات المتكررة جيوش  
الفرس إلى خطورة المتنبي بن حارثة، فأخذوا يحرضون القبائل  
العربية لمواجهة لجيوش المتنبي على حربه، مما دفعه إلى  
الذهاب إلى الصديق أبي بكر في المدينة يطلب منه الإمدادات  
لحربهم. وبالفعل فقد أرسل إليه أبو بكر الصديق مددًا بقيادة  
خالد بن الوليد، ثم أرسل إليه عمر بن الخطاب مددًا - عندما تولى  
الخلافة - بقيادة أبي عبيد بن مسعود الثقفي، وظل المتنبي بن  
حارثة ينظم جيشه ويحارب ضد الفرس وجرح في معركة قس  
الناطف ثم ثمال للشفاء وخاض عدة معارك أخرى، إلا أن جراحه  
لم تكن قد شفيت تمامًا، فقضى نحبه - رضى الله عنه - سنة  
(14هـ = 635م).

(990/10)

---

### \*محمد بن محمد المقرئ

هو محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر التلمساني المقرئ، من الفقهاء الأدباء، والمتصوفين العلماء، من كبار علماء المالكية، وقاضي الجماعة بفاس وتلمسان، وهو جد المقرئ صاحب نفتح الطيب. وُلد محمد المقرئ في تلمسان، وتعلّم بها على كبار علماء عصره، كأبي زيد عبد الرحمن، وأبي موسى عيسى ابني محمد بن عبد السلام، وعلى أبي موسى عمران بن موسى بن يوسف وإبراهيم بن حكيم الكناقي. ودرس العربية والفقه والتفسير وحفظ الحديث الشريف، وتعلم الأخبار والتاريخ والآداب، وله علم في الجدل والمنطق والكتابة ونظم الشعر. وكان يحب الرحلة، فرحل إلى فاس فتولى القضاء بها، فكان حسن السيرة، وأحبه الناس، ورحل إلى بجاية وتونس، وحج بيت الله الحرام، ودخل دمشق وبيت المقدس. وتوفي محمد بن محمد المقرئ بفاس سنة (758هـ = 1357م) ودفن في تلمسان. أهم كتبه: كتاب القواعد، وكتاب الحقائق والرفائق، وكتاب المحاضرات، وكتاب التحف والطرف وكتاب رحلة المتبتل، وكتاب إقامة المريدين.

(991/10)

---

### \*ابن هشام

هو أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، وُلد ونشأ بالبصرة. كان عالماً بالأنساب واللغة وأيام العرب وأخبارها، وهو الذي جمع سيرة رسول الله من المغازي والسير لابن إسحاق، وهي التي عُرفت بسيرة ابن هشام. له مجموعة تصانيف غير السيرة، منها: القصائد الحميرية في أخبار اليمن

وملوكتها في الجاهلية، والتيجان في ملوك حمير وشرح ماوقع  
في أشعار السير من الغريب، وتوفي ابن هشام سنة (213هـ =  
828م).

(992/10)

---

### \*يزيد بن المهلب

هو أبو خالد يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، أحد مشاهير الولاة،  
ومن القادة الشجعان. وُلد سنة (53هـ = 673م)، ونشأ في بيت  
عزّ وسلطان، ولى خراسان بعد وفاة أبيه سنة (83هـ)، وذلك  
بعهد من أبيه، وكان يقدمه على إخوته، ومكث في ولايته قريباً  
من ست سنين ثم عزله الوليد بن عبد الملك بتحريض من الحجاج  
بن يوسف والى العراق، الذي كان يخشى بأسه وطموحه، فلما  
عزله، حبسه الحجاج فهرب يزيد إلى الشام واستجار بولى العهد  
سليمان بن عبد الملك فأجاره وتشفع فيه عند الخليفة فشفعه  
وعفا عنه، ولما تولى سليمان بن عبد الملك الخلافة ولاة العراق  
ثم خراسان فنجح في فتح جرجان وطبرستان، وعندما  
أستخلف عمر بن عبد العزيز عزله وطلبه، فأحضر إلى الشام  
فحبسه بحلب، ولما مات عمر، أخرجته غلمانته من السجن وسار  
إلى البصرة ودخلها وغلب عليها وأعلن الخروج على بني أمية  
وخلعهم، فقاتله مسلمة بن عبد الملك وانتهى الأمر بقتل يزيد في  
مكان يُسمى العقر بين واسط وبغداد سنة (102هـ = 720م).

(993/10)

---

### \*ابن هشام الأنصاري

هو جمال الدين عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام

الأنصارى المصرى، وُلد بالقاهرة في ذى القعدة سنة (708هـ = 1308م). تلقى العلم على يد عدد من العلماء، منهم: الشهاب عبد اللطيف بن المرحل وابن السراج وابن حيان والتاج التبريزى وابن جماعة واشتهر ابن هشام بالتعمق في مذاهب النحاة وتمثلها تمثلاً غريباً نادراً، وطارت شهرته في العربية، فأقبل عليه الطلاب من كل فجّ يفيدون من علمه ومباحثه النحوية الدقيقة واستنباطاته الرثعة، وبلغ الإعجاب به لدى بعض معاصريه حدّاً جعلهم يقولون: إنه أنحى من سيبويه. وترك ابن هشام مصنّفات كثيرة، منها: مغنى اللبيب عن كتب الأعراب، والإعراب عن قواعد الإعراب وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك وغيرها. وتُوّفّي ابن هشام الأنصارى عام (761هـ = 1360م).

(994/10)

\*رستم

من مشاهير قادة الفرس في العصر الساماني، اتصلت سيرته بفتوح العرب لفارس زمن خلافة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وذلك عندما وجه أبو بكر جيشاً إلى العراق بقيادة خالد بن الوليد ومعه المثنى بن حارثة فاستولى على الحيرة والأنبار. ثم وجه أبو بكر الصديق خالد بن الوليد إلى جبهة الشام فتوقفت الفتوحات في العراق، ثم استكمل عمر بن الخطاب فتح العراق فأنفذ جيشاً بقيادة سعد بن أبي وقاص في نحو ثمانية آلاف مقاتل فالتقى في القادسية مع الجيش الساساني بقيادة رستم على رأس ثلاثين ألف مقاتل، ونشبت المعركة الحاسمة التي عُرفت بمعركة القادسية وفيها هزم الفرس هزيمة منكرة وقتل رستم، وتلا ذلك استيلاء المسلمين على جلولاء ثم على المدائن.

### \*الحسن الوزان

هو أبو علي الحسن بن محمد الوزان المسمى في أسره يوحناً الأسدى والمعروف عند الإفرنج باسم ليون الإفريقي، وُلد في غرناطة نحو سنة (888 هـ = 1483م)، وهاجر مع أسرته وهو طفل صغير إلى فاس فتعلم بجامع القرويين، وانتدب أبوه لبعض السفارات والوساطات السياسية، ثم انتدب هو أيضاً لمثل تلك الأعمال، فتيسرت له الرحلة إلى أكثر بلاد شمال إفريقيا والشرق الأوسط. اشترك الحسن الوزان في الحرب التي كانت بين البرتغال والشريف محمد السعدى وأسره قرصان إيطالى سنة (926هـ) بالقرب من جزيرة جربة، وأخذوه إلى نابلى، وعندما عرفوا أنه من أهل العلم قدّموه إلى البابا ليون العاشر، ومعه كتبه وأوراق رحلته. وكانت للبابا عناية بعلوم العرب فأكرمه وأدخله في خاصته وسمّاه جان ليون، وتعلم الإيطالية واللاتينية وكان يحسن الإسبانية والعبرية، وترجم في تلك الفترة كتاب وصف إفريقية إلى الإيطالية، وهو القسم الثالث من كتاب له ألفه في الجغرافية العامة وكان في طليعة الكتب التي ابتدأت بها المطبعة بفرنسا، ولذا كان تأثيره في النهضة الأوربية تأثيراً كبيراً. ومن مؤلفاته: مختصر تاريخ الإسلام وتاريخ إفريقية، وغيرهما. وقد عاد الوزان إلى بلاده نحو سنة (934هـ = 1527م) ومات مسلماً في تونس نحو سنة (957هـ = 1552م).

### \*ابن رشد (الجد)

هو محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد شيخ المالكية، وقاضى الجماعة بقرطبة، وصاحب الصلاة بمسجدها الجامع. وُلد في قرطبة سنة (450هـ = 1048م) ونشأ بها فتعلّم على أيدي علماء الأندلس المشهورين كأبي جعفر أحمد بن رزق الفقيه، وأبي مروان بن سراج، وأبي عبد الله محمد بن فرج، وغيرهم كثير. وكان ابن رشد عالماً بالفقه، عارفاً بالفتوى على مذهب الإمام مالك. تولى قضاء قرطبة فأحسن إلى الناس فأحبوه، وكان حسن الخلق، سهل اللقاء والعشرة، باراً بالناس. وتوفي ابن رشد في ذى القعدة سنة (520هـ = 1156م) عن عمر يناهز (70) سنة. ومن أهم كتبه: كتاب المقدمات لأوائل كتب المدونة، وكتاب البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل، وكتاب اختصار مشكل الآثار للطحاوي، وكتاب نوازل ابن رشد، وكتاب المسائل الخلافية.

(997/10)

### \*محمد بن الأغلّب

هو أبو العباس محمد بن أبي عقّال بن إبراهيم بن الأغلّب. أحد حكام دولة الأغالبة بالمغرب الأدنى (تونس حالياً). تولى الحكم سنة (226هـ = 841م) وعمره إحدى وعشرون سنة، وفي السنوات الأولى من حكمه نعمت البلاد بالهدوء والسكينة ثم سرعان ما قامت ضده بعض الثورات؛ كان أخطرها ثورة أخيه أحمد بن الأغلّب، وثورة سالم بن غليون والى إقليم الزاب، وثورة تامر بن عمرو التجيبي بتونس، ولكنه تمكن من القضاء على تلك الثورات وأمن دولته من الأخطار الخارجية والداخلية، وواصل مسيرة سابقه في فتح صقلية، كما أغار بجيشه على روما

العاصمة الإيطالية ردًا على إغارة الإيطاليين على سواحل تونس،  
ونجح في دخول روما والبقاء بها لمدة شهرين ثم غادرها بعد  
وصول الإمدادات الأوروبية إليها. ومن أهم أعمال محمد بن الأغلب  
بناؤه مدينة العباسية. وتميز عهده بظهور مجموعة بارزة من  
العلماء مثل: أبي محمد عبد الله بن حسان اليحصبي، المتوفى  
سنة (227هـ) والإمام سحنون بن سعيد الذي ولى قضاء إفريقية  
سنة (233هـ)، وتوفى سنة (240هـ). وتوفى ابن الأغلب سنة  
(242هـ) بعد حكم دام خمسة عشر عامًا وثمانية أشهر واثني  
عشر يومًا.

(998/10)

#### \*أبو العباس محمد بن الأغلب

هو أبو العباس محمد بن أبي عقال بن إبراهيم بن الأغلب. أحد  
حكام دولة الأغالبة بالمغرب الأدنى (تونس حاليًا). تولى الحكم  
سنة (226هـ = 841م) وعمره إحدى وعشرون سنة، وفي  
السنوات الأولى من حكمه نعمت البلاد بالهدوء والسكينة ثم  
سرعان ما قامت ضده بعض الثورات؛ كان أخطرها ثورة أخيه  
أحمد بن الأغلب، وثورة سالم بن غليون والى إقليم الزاب، وثورة  
تامر بن عمرو التجيبي بتونس، ولكنه تمكن من القضاء على تلك  
الثورات وأمن دولته من الأخطار الخارجية والداخلية، وواصل  
مسيرة سابقه في فتح صقلية، كما أغار بجيشه على روما  
العاصمة الإيطالية ردًا على إغارة الإيطاليين على سواحل تونس،  
ونجح في دخول روما والبقاء بها لمدة شهرين ثم غادرها بعد  
وصول الإمدادات الأوروبية إليها. ومن أهم أعمال محمد بن الأغلب  
بناؤه مدينة العباسية. وتميز عهده بظهور مجموعة بارزة من  
العلماء مثل: أبي محمد عبد الله بن حسان اليحصبي، المتوفى

سنة (227هـ) والإمام سحنون بن سعيد الذي ولى قضاء إفريقية  
سنة (233هـ)، وتوفي سنة (240هـ). وتوفي ابن الأغلب سنة  
(242هـ) بعد حكم دام خمسة عشر عامًا وثمانية أشهر واثني  
عشر يومًا.

(999/10)

### \*محمد بابر ظهير الدين

هو ظهير الدين محمد بن عمر الشيخ ميرزا الملقب ببابر ومعناها  
في الهندية النمر مؤسس إمبراطورية المغول التيمورية الإسلامية  
في الهند، وأحد أحفاد تيمورلنك. وُلد بابر في المحرم سنة  
(888هـ = 1483م) بمدينة فرغانة الهندية، التي كان أبوه ملكًا  
عليها، وبعد وفاة أبيه تولى حكمها وكان لا يزال في الثانية  
عشرة من عمره، فتعرض لعدة مؤمرات من أعمامه لعزله، اضطر  
على أثرها إلى الرحيل إلى أفغانستان، واستقر بكابل، وجعل  
منها نواة لإقامة دولة قوية، وواتته الفرصه لتوسيع رقعة دولته  
حينما استغاث به حاكم لاهور ضد حاكم دلهي فزحف بابر بجيشه  
نحو الهند، فاستولى على السند سنة (925هـ) ثم على لاهور  
سنة (930هـ) ثم دخل دلهي سنة (932هـ) ثم أكرا. ولما رأى ذلك  
أمراء الهندوس تحالفوا ضده ليوقفوا زحفه ويقضوا على دولته،  
فأعدوا جيشًا كبيرًا لذلك، والتقى الطرفان في معركة حاسمة  
تمكن فيها بابر من هزيمتهم ثم اتجه إلى شرقي الهند فاستولى  
على بيهار، وهكذا صارت له دولة مترامية الأطراف، واتخذ من  
أكرا عاصمة لها. وبعدما أمّن بابر دولته من الخارج، اتجه  
للإصلاحات الداخلية، فمهّد الطرق، وحفر الترغ والأنهار ونظّم  
الضرائب، وأقام شبكة بريد جيدة، واهتم بالنواحي الثقافية حيث  
كان بابر أديبًا رقيقًا يقرض الشعر بالتركية والفارسية، وابتكر

خطاً جديداً نُسب إليه وكتب به مصحفاً، أهداه إلى المسجد الحرام بمكة. وألّف بابر عدة كتب، مثل: الفتح المبين في الفقه الحنفي، وبابرنامه وهو تاريخ حياه بابر في صورة مذكرات أو يوميات ضمنها ترجمة لحياته وعصره، كتبه بالتركية، ثم تُرجم إلى الفارسية وعدة لغات أوروبية. وتُوفّي بابر سنة (937هـ = 1531م)، وعمره خمسون سنة، ودفن بكابل بأفغانستان.

(1000/10)

---

### \*محمد بركة خان

هو أبو المعالي ناصر الدين محمد بركة بن الملك الظاهر بيبرس، لقّب محمد بركة بالملك السعيد، وهو الملك الخامس من ملوك الترك بمصر. وُلد في العش (من ضواحي القاهرة) في (صفر 658هـ = يناير 1260م) ونشأ بديار مصر تحت كنف أبيه. تولى السلطنة بعد أبيه واتبع سياسة في الحكم أغضبت الأمراء، فحاصر الأمراء القلعة سنة (1279م) وقطعوا عن الملك السعيد الماء وأصروا أن يخلع نفسه، فطلب منهم أن يعطوه الكرك فأجابوه إلى ذلك. وكانت مدة سلطنة محمد بركة خان سنتين وشهرين وثمانية أيام. وتُوفّي سنة (679هـ = 1280م) ودفن في بغداد.

(1001/10)

---

### \*الرُّبَيْدِي

هو أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد الله (أو: عبيد الله) بن مَدْحِج بن محمد بن عبد الله بن بشر الرُّبَيْدِي الإشبيلي. أديب، لغوي، وفقهه، محدث، سكن قرطبة وأصله من حمص (في الشام). وُلد

سنة (316هـ = 928م) بإشبيلية وبها نشأ واشتهر، ثم طلبه الخليفة الأموي الحكم المستنصر بالله إلى قرطبة؛ فأدب فيها ولى عهده هشامًا المؤيد بالله، ثم ولى قضاء إشبيلية. أخذ العربية عن القالى وأبى عبد الله الرياحى وروى عنه ولده أبو الوليد محمد بن محمد وإبراهيم بن محمد الأفليلى، وولده أبو الوليد أحمد الأديب قاضى إشبيلية. من تصانيفه: مايلحن فيه عوام الأندلس وطبقات النحويين واللغويين بالمشرق والأندلس يترجم فيه للنحاة ابتداءً من أبى الأسود الدؤلى إلى زمن شيخه أبى عبد الله النحوى الرياحى، والواضح فى العربية ومختصر كتاب العين فى اللغة وسماه الاستدراك على كتاب العين، والغاية فى العروض، والاستدراك على سيبويه فى كتاب الأبنية، وهتك ستور الملحدين، وله كتاب فى الرد على ابن مسرّة. وتوفى الزبيدى فى جمادى الآخرة سنة (379هـ = 989م).

(1002/10)

### \*محمد بن الحسن الشيبانى

هو محمد بن الحسن بن فرقد الشيبانى، أحد أئمة الفقه الكبار، وناشر علم الإمام أبى حنيفة. وُلد محمد بواسطة سنة (131هـ = 748م)، ونشأ بالكوفة، وسمع العلم بها، وجالس ابا حنيفة، وسمع منه، ونظر فى الرأى، فغلب عليه، وبرع فيه وعُرف به وقدم بغداد فنزلها، وتردد عليه الناس، وسمعوا منه الحديث والرأى، وخرج إلى الرقة، وهارون الرشيد أمير المؤمنين بها، فولاه قضاء الرقة ثم عزله، فقدم بغداد. وللشيبانى كتب كثيرة فى الفقه والأصول، منها: المبسوط والزيادات والجامع الكبير والجامع الصغير والآثار والسير الكبير والأمالى. توفى الشيبانى بالرى وهو فى صحبة هارون الرشيد سنة (189هـ).

(1003/10)

---

### \*محمد بن الحسن العسكري

هو أبو القاسم محمد بن الحسن العسكري بن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق. الإمام الثاني عشر عند الشيعة الإمامية، عُرف عندهم بالمهدي المنتظر، والحجة، وصاحب الزمان، وصاحب السرداب. وُلد في سامراء ومات أبوه وله من العمر نحو خمس سنين في (8 من شعبان سنة 256هـ)، وقيل: إنه دخل السرداب سنة (275هـ) وعمره - آنذاك - سبعة عشر عامًا، والشيعة ينتظرون خروجه - في آخر الزمان - من السرداب بسامراء، ومن المؤرخين من يقول: إن الحسن بن علي العسكري لم يكن له نسل.

(1004/10)

---

### \*محمد حسين هيكل

هو محمد بن حسين بن سالم هيكل، أديب ومؤرخ وسياسي، من أعضاء المجمع اللغوي، وُلد في قرية كفر غنام بالدقهلية سنة (1305هـ = 1888م)، حصل على الدكتوراة في الحقوق من جامعة السُّربون بفرنسا سنة (1912م)، أكثر من الكتابة في صحيفة الجريدة وأخرج مجموعة من الكتب الأدبية استهلها بروايته المشهورة زينب التي كتبها أثناء دراسته في باريس. ترأس تحرير جريدة السياسة اليومية سنة (1922م)، ثم الأسبوعية، وكان من أركان حزب الأحرار الدستوريين المناوئ لسعد زغلول وحزبه، ولى وزارة المعارف مرتين، ثم تولى رئاسة مجلس الشيوخ في الفترة (1945 - 1950م). ومن مصنفاته: في منزل

الوحي وثورة الأدب والصديق أبو بكر والفاروق عمر  
والإمبراطورية الإسلامية وثلاث قصص: زينب وأبيس وهكذا خلقت.  
وتُوفِّي محمد حسين هيكل بالقاهرة سنة (1956م).

(1005/10)

---

### \* حفصة بنت الحاج

هي حفصة بنت الحاج الركونية، شاعرة أندلسية شهيرة، من أهل غرناطة، لا يعرف تاريخ مولدها. كانت أديبة أهل زمانها، ومن أبلغ شعراء أوانها وأدقهم نظرًا، ولم يكن شعرها مقصورًا على أسلوب واحد، بل كانت تتفنن فيه وتدخل فيه أساليب مختلفة، وكانت غزيرة المادة الأدبية، مطلعة على شعر العرب الخالص وغيرهم. وصفها ابن بشكوال بأستاذة عصرها. رحلت عن غرناطة إلى مراكش وتُوفيت بها سنة (586هـ = 1190م).

(1006/10)

---

### \* لكة (نهر)

نهر صغير، كان يُعرف بوادي لكة، ويعرف الآن بنهر جوادليتي الذي يصب في خليج قادس من المحيط الأطلنطي، على مقربة من مدينة شريش في بلاد الأندلس وهو ينحدر من الشرق إلى الغرب. يقال: إن المسلمين بقيادة طارق بن زياد حاربوا عنده القوط في سهل الفرنتيرة على ضفاف وادي لكة سنة (92هـ = 711م)، وفي هذه المعركة غرق رديك ملك القوط في النهر.

(1/11)

---

\*يزد

مدينة في وسط إيران، تقع على سهل إرتفاعه نحو (4070) قدمًا فوق سطح البحر، وشيّدت في القرن الخامس الميلادي، وتشتهر بإنتاج المنسوجات والسجاد اليدوي.

(2/11)

---

\*لوت (نهر)

نهر يقع في الجزء الجنوبي من فرنسا، وينبع من سلسلة جبال سيفين، ويجري غربًا حتى يصل إلى نهر عارون ويبلغ طوله نحو (480) كم.

(3/11)

---

\*اليمامة

منطقة في المملكة العربية السعودية، تقع في إقليم نجد، وتعرف اليوم باسم العارض، وفيها - الآن - مدينة الرياض عاصمة المملكة، ومن مدنها الدرعية والشعيب والعينية، كما وقعت فيها معركة اليمامة بين المسلمين والمرتدين من أتباع مسيلمة الكذاب.

(4/11)

---

\*يافا

مدينة عربية فلسطينية، تقع على الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط، إلى الجنوب من مصب نهر العوجا بنحو (7) كم، وإلى

الشمال الغربي من مدينة القدس بنحو (60) كم. وهي إحدى البوابات الرئيسية الغربية لفلسطين، وعبرها يتم اتصال فلسطين بدول حوض البحر المتوسط والدول الأوروبية والإفريقية والأمريكية. وكانت يافا منذ القدم محطة تتلاقى فيها بضائع الشرق والغرب، وكانت جسر عبور للقوافل التجارية بين مصر وبلاد الشام. تتبع يافا مناخ البحر المتوسط ذا الحرارة المعتدلة نسبياً، وتھطل الأمطار خلال النصف الشتوي من السنة. عُرفت يافا عند قدماء المصريين بيبابو، وتبادل احتلالها المكابيون والسوريون، كما دمرها الإمبراطور فسياسيانوس (68)، ثم استولى عليها الصليبيون في القرن الثاني عشر، ثم استعادها العرب، ودخلها نابليون سنة (1799 م)، والبريطانيون في أعقاب الحرب العالمية الأولى عام (1917 م). ثم وقعت بأيدي اليهود عام (1948 م).

(5/11)

### \*اليمن

جمهورية عربية تقع في الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية، تحدها المملكة العربية السعودية شمالاً، وسلطنة عمان شرقاً. ولليمن سواحل على البحر الأحمر وبحر العرب وخليج عدن ومضيق باب المندب. تبلغ مساحتها 533.000 كم<sup>2</sup>، والعاصمة صنعاء. أهم المحاصيل: القمح والذرة والبن والقطن والفواكه. والثروة الحيوانية هي: الإبل والماشية والخيول والماعز والأغنام. ازدهرت في اليمن قديماً حضارات عريقة، هي: حضارة معين، وحضارة سبأ، وحضارة حمير. غزاها الأحباش ثم الفرس قبيل البعثة النبوية. انتشر الإسلام في أرجائها قبيل انتقال الرسول (إلى الرفيق الأعلى). وفي القرن التاسع الميلادي أسس أتباع

زيد بن على بن الحسينى دولة علوية فى اليمن. فتحها الأتراك العثمانيون فى منتصف القرن السادس عشر الميلادى ولكن اليمنيين قاوموا الإحتلال وثاروا عليه، وتمكنوا على الرغم من الحملات العسكرية المتكررة التى جردتها الدولة العثمانية ضدّهم من الإحتفاظ باستقلالهم، وذلك بفضل وعورة أراضيهم من ناحية، وقرسهم بالقتال من ناحية أخرى. وفى عام (1962 م) أطاح عبد الله السّلال بالإمام محمد البدر آخر أئمة اليمن، وأعلن قيام الجمهورية. وفى (22 من مايو 1990 م) تمّ توحيد شطرى اليمن باسم الجمهورية العربية اليمنية.

(6/11)

---

#### \*ينبع (وادى)

وادٍ فى الحجاز بالمملكة العربية السعودية، به عدة قرى، يعرف بينبع النخل، تميّزاً له عن المدينة الساحلية التى تعرف بينبع البحر، يوجد به نخيل وماء وزرع. ينسب إليه أبو عبد الله حرملة المدلجى الينبعى، له صحبة ورواية عن النبى - صلى الله عليه وسلم -.

(7/11)

---

#### \*يوغسلافيا

دولة أوروبية تقع فى جنوب أوروبا الشرقية. تبلغ مساحتها (98.804) أميال مربعة، يحدها من الغرب البحر الأدرياتيكي وإيطاليا، ومن الشمال النمسا والمجر، ومن الشرق رومانيا وبلغاريا، ومن الجنوب اليونان وألبانيا. تغلب الطبيعة الجبلية على البلاد حيث تشغل الجبال نحو ثلثى مساحتها وتجرى فى يوغسلافيا عدة أنهار، أهمها: الدانوب، ومورافا، وسافا.

ومناخ يوغسلافيا معتدل يميل إلى الحرارة صيفاً والبرودة شتاءً. وأهم مدنها: بلجراد العاصمة، وزغرب، ويتكلم أهلها المقدونية والصربية والكرواتية والألبانية والسلوفانية، ويوجد فيها ما يقرب من (12) مجموعة عرقية، أهمها: الصرب والكروات والبوسنويون والألبان والمقدونيون، وتوجد عدة أديان في يوغسلافيا: المسيحية بمذاهبها المختلفة من أرثوذكس وكاثوليك وبروتستانت ونسبتهم تزيد على (70%)، ونسبة المسلمين بها (20%). ويشغل السكان بالصناعة والزراعة وتربية الحيوان وصناعة الأخشاب ونسبة الأمية بها منخفضة، ونظامها السياسي فيدرالى، وكانت يوغسلافيا تنتهج نهجاً اشتراكياً. خضعت يوغسلافيا طيلة قرون كثيرة للعديد من القوى الأجنبية المتعاقبة مثل: النمساويين والمجريين والإيطاليين والعثمانيين والفرنسيين والألمان. وأصبحت يوغسلافيا مملكة سنة (1917م) بعد اتحاد صربيا والجبل الأسود، واستولى عليها الشيوعيون، وتم إعلانها جمهورية سنة (1946م) بزعامة الرئيس الشيوعى تيتو، وفى سنة (1948م) اتخذت يوغسلافيا نهجاً مغايراً للاتحاد السوفيتى، إلا أن السمة الأساسية التى كانت تحكم الحياة السياسية فى يوغسلافيا هى الصراع بين القوميات المتعددة، سواء فى العهد الملكى أو الجمهورى، وقد انعكست هذه الانقسامات سلبياً على بناء الدولة وحياتها السياسية، وأدت إلى انشطارها إلى جمهوريات مستقلة مع مطلع التسعينيات، واحتدام الصراع العرقى الذى ما زال مستمراً بين الصرب -الذين

(8/11)

---

يدعمهم الروس -والمسلمين من جانب، والكروات والصرب من جانب آخر. وقد استقلت عن يوغسلافيا كرواتيا وسلوفينيا سنة

(1990م) ثم مقدونيا والبوسنة سنة (1992م)، وتمسكت صربيا والجبل الأسود ببقاء يوغسلافيا في دولة واحدة.

(9/11)

### \*ألبانيا

إحدى دول البلقان في أوروبا. تقع على الشاطئ الشرقي للبحر الأدرياتيكي. يحدها من الشمال والشرق جمهورية الجبل الأسود، ومن الجنوب اليونان، ومن الغرب البحر الأدرياتيكي والبحر الأيوني. تبلغ مساحتها (28.748 كم<sup>2</sup>). وهي ذات أرض جبلية؛ حيث إن (70 %) من مساحتها يزيد ارتفاعها على (300) متر. ويوجد فيها جبل كوريب الذي يبلغ طوله (3021) متر. ومناخها حار جاف صيفاً، معتدل ممطر شتاءً، حتى إن الثلج يكسو المرتفعات لمدة تسعة أشهر. ويبلغ عدد سكانها (3.346.000) ملايين نسمة حسب إحصائية سنة (1992 م)، معظمهم مسلمون يمثلون نحو (88 %) من عدد السكان، وتوجد أقلية يونانية وأخرى مقدونية. واللغة الرسمية هي الألبانية. ويقوم الاقتصاد الألباني على الزراعة؛ لكثرة الأنهار في ألبانيا، ويعمل بالزراعة (90 %) من السكان. وأهم المحاصيل: القمح والذرة والقطن والتبغ والأرز والشعير والخضراوات. كما توجد في ألبانيا ثروة حيوانية كبيرة؛ حيث تغطي المراعى الطبيعية (30 %) من مساحة الأراضي. ويُستخرج من ألبانيا البترول والغاز الطبيعي والفحم والنيكل كروم والحديد والألومنيوم. وتوجد بعض الصناعات المعدنية ومواد البناء والزجاج والأثاث والمعلبات. وأهم مدن ألبانيا: تيرانا العاصمة، وكورس وشكودري ودروس وفولورى. والعملة الألبانية هي الليك. ويرجع تاريخ ألبانيا إلى ألف سنة قبل الميلاد عندما نرح الألبان إلى مدينة ألبانوبوليس

التي تقع شرقي دروس. وفي نهاية القرن (8 هـ = 14م) بدأ الفتح العثماني لألبانيا، فأخذ الإسلام في الانتشار فيها. وبعد الحرب البلقانية حصلت ألبانيا على استقلالها سنة (1912 م). وبعد الحرب العالمية الأولى تم الاعتراف بها دولياً. وفي سنة (1925 م) أعلنت جمهورية ألبانيا برئاسة أحمد زوغو، ثم تعرضت للاحتلال الإيطالي، ثم الألماني الذي انسحب وترك الحكم للشيوخين بقيادة أنور خوجا الذي أعلن نفسه رئيساً لألبانيا،

(10/11)

---

بعد انتخابات عام (1945 م)، وقد حكم ألبانيا حتى عام (1985 م)، وتولى بعده رامز عليا الذي انتهج سياسة أكثر مرونة؛ ففتح باب العلاقات مع الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية. والرئيس الحالي لألبانيا هو صالح بريشا الذي طالب بتدخل قوات أوروبية؛ بسبب أعمال العنف والاضطرابات التي تجتاح البلاد وسيطرة المتمردين على (10 %) من البلاد، وقيام البرلمان بإعلان حالة الطوارئ في (مارس 1997 م).

(11/11)

---

### \*البحيرات (منطقة)

أحد أقسام الأحواض الثلاثة الجامعة لمورد نهر النيل. وتبدأ هضبة البحيرات من شمالي نهر الزمبيزي؛ حيث تقع بحيرة مالواي، ثم تمتد شمالاً؛ لكي تغطي كلاً من تنزانيا وكينيا وأوغندا. وتتكون من: 1 - حوض بحيرة فيكتوريا، وهي أكبر مساحة من الماء العذب في إفريقيا؛ إذ تبلغ مساحتها (65) ألف كم<sup>2</sup>، وطولها من الشمال (بورت بل) إلى الجنوب (مونزا) (315

(كم)، وأكبر عرض لها (275 كم)، ومتوسط عمقها (40) متراً،  
وفيها جزر كثيرة، مثل: أوكروى وهى أهمها، وحوض بحيرة  
كيوجا التى تبلغ مساحتها (6270 كم2)، وعمقها من ثلاثة أمتار  
إلى خمسة أمتار، وفى غربها هضبتا بوغندا وبنورو. وتتجمع  
مياه بحيرة فيكتوريا، وكيوجا فى نيل فيكتوريا. 2 - حوض  
بحيرتى: جورج (أودويرو) التى تبلغ مساحة سطحها (300 كم2)،  
وإدوارد التى تبلغ مساحة سطحها (2200 كم2)، وحوض نهر  
السمليكى وطوله (250 كم)، ويقع أكثره فى بلاد الكونغو، إلا  
الجزء الشمالى فإنه يمثل الحد ما بين أوغندا والكونغو إلى  
مسافة طولها (80 كم). 3 - حوض بحيرة ألبرت، ويخرج منها نيل  
ألبرت، ومساحتها فى منسوبها الطبيعى (5300 كم2)، وأكبر  
طول لها (1175 كم)، وأكبر عرض لها (45 كم)، ومتوسط عمقها  
(12) متراً، ويغذيها نهران كبيران، هما نيلا فيكتوريا  
والسمليكى.

(12/11)

#### \*بروسيا

ولاية ألمانية سابقة. مساحتها (294.880 كم2). عدد سكانها )  
39.934.011) نسمة وهو يمثل نحو ثلثى مجموع سكان ألمانيا.  
عاصمتها برلين. كانت تشغل النصف الشمالى من ألمانيا. وازداد  
نفوذها بعد تحقيق الوحدة الألمانية عام (1871 م)، وأصبح لها  
الهيمنة الفعلية على الحياة السياسية الألمانية، حتى إن الدولة  
الألمانية كانت امتداداً جغرافياً لدولة بروسيا، ومنذ سنة (1871  
م) حتى سنة (1918 م) كان ملك بروسيا إمبراطوراً على الرايخ  
كله، وكان رئيس الوزراء البروسى مستشاراً للإمبراطورية  
الموحدة. ومنذ إعلان جمهورية بروسيا سنة (1918 م) حتى سنة

(1932 م)، ظلت محافظة على علاقاتها الفيدرالية مع بقية الولايات الألمانية. وبعد الحرب العالمية الثانية قُسمت بين الاتحاد السوفييتي السابق وبولندا وجمهورية ألمانيا الديمقراطية، وأعلن الحلفاء نهاية وجودها الدستوري عام (1947 م).

(13/11)

### \*إثيوبيا

إحدى دول حوض نهر النيل الواقعة في شرق إفريقيا، شمالي خط الاستواء. يحدها من الشمال والغرب السودان، ومن الشمال الشرقي البحر الأحمر، ومن الجنوب كينيا، ومن الشرق والجنوب الشرقي الصومال. وتبلغ مساحتها نحو (1.221.900 كم<sup>2</sup>). وقد كان يُطلق على إثيوبيا اسم الحبشة؛ نسبة إلى قبيلة حبشت التي هاجرت من اليمن إليها. وإثيوبيا عبارة عن هضبة جبلية مرتفعة، تتميز باعتدال مناخها، وغزارة أمطارها. ويبلغ عدد سكان إثيوبيا (49.263.000) مليون نسمة حسب إحصائية سنة (1992 م)، يشكل المسلمون منهم (55%). ويتكون السكان من عدة قبائل، أهمها: الأمهرا والتيجري والشاوا والجالا والدناكلة والصوماليون. وتوجد أقلية يهودية حبشية اسمها الفلاشا. وعاصمة إثيوبيا أديس أبابا. ويوجد في إثيوبيا (80) لغة، لكن اللغة الرسمية هي الأمهرية. وتعد الزراعة عماد الاقتصاد الإثيوبي؛ حيث يشتغل بها نحو (80%) من السكان. وأهم المحاصيل فيها: الشعير وقصب السكر والبن، كما تمتلك ثروة حيوانية كبيرة من الماشية والأغنام. وأهم الصناعات فيها صناعة المنسوجات والأسمت والزيت والجلود والتبغ. كما توجد فيها معادن، أهمها: الذهب والبوتاسيوم. وقد عرفت إثيوبيا الإسلام منذ الأعوام الأولى من بعثة النبي - صلى الله عليه وسلم - عندما هاجر الصحابة

إليها، وقد أكرمهم النجاشي ملك الحبشة، وأسلم بعد ذلك. وقد احتلت إيطاليا إثيوبيا في سنة (1355 هـ = 1936 م)، ثم استقلت، وحكمها الإمبراطور هيلاسلا الذي أقام مذابح للمسلمين، وضم إلى إثيوبيا إرتيريا عام (1962 م)، ثم جاء الرئيس منجستو هيلاماريام فأكمل ما بدأه هيلاسلا من إقامة مذابح للمسلمين، ثم قام ميلس زناوى بانقلاب استولى به على الحكم في إثيوبيا. وميلس زناوى هو الرئيس الحالي لإثيوبيا.

(14/11)

### \* طهران

عاصمة إيران وكبرى مدنها. تتكون من كلمتين: ته، بمعنى ساخن، واران، بمعنى مكان في الفارسية؛ فهي تعنى المكان الساخن، وتكتب طهران أو طهران. وتبلغ مساحتها (13717 م<sup>2</sup>). تقع جنوبي بحر قزوين على بعد (65 كم) منه، وعلى ارتفاع (3810) أقدام؛ ولهذا فمناخها شديد البرودة شتاءً، حار صيفاً. وهي تقع شرق إيران عند سفح جبال البرز، على بعد (112 كم) جنوباً، وسط سهل دارمين. وقد مرت بسلسلة من مراحل التجديد والتوسيع منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وقد ساعد على تطورها السريع موقعها الاستراتيجي الممتاز؛ فهي ملتقى لخطوط المواصلات البرية والجوية، وتعد مركزاً تجارياً مهماً، كما تعد المدينة الصناعية الأولى في إيران. ولقد انتقل إليها عام (1788 م) الشاه أغا محمد خان مؤسس أسرة الفاجار، وجعل منها عاصمة لإيران، وعمل على تعميمها وتشجيع الهجرة إليها. ثم قام الشاه ناصر الدين بتوسيعها وتجميلها في عام (1869 م)، فأصبح محيط سورها الجديد يبلغ (12.2) ميلاً، وبه (12) باباً، كما أنشأ بها حيّاً جديداً على النسق الأوربي، ثم أعيد تخطيطها منذ

تولية الشاه محمد رضا بهلوى؛ فهدمت الأسوار القديمة، وامتد العمران بإقامة ضاحية سكنية جديدة ناحية الغرب؛ فشملت المنشآت العامة من المعاهد والمدارس والمتاحف والمستشفيات والمصانع. وفي التاريخ الحديث ارتبط اسم طهران باتفاقية سعد آباد التي عقدت عام (1937 م)، ثم بمؤتمر طهران الذي عقد بين (26 من نوفمبر و2 من ديسمبر 1943 م)، واشترك فيه الرئيس الأمريكي روز فلت والسوفييتي ستالين والبريطاني ونستون تشرشل. وقد أنشئت بها الجامعة عام (1934 م). ومن أشهر علمائها وأدائها: الفقيه على بن خليل بن محمد على الرازي التهراني النجفي والفقيه محمد تقى عبد الرحيم التهراني الرازي والفقيه محمد حسين بن عبد الرحيم الرازي والأديب محمد عبد الوهاب القزويني.

(15/11)

### \*القوقاز

مجموعة سلاسل جبلية بين أوروبا وآسيا؛ فما يقع إلى الشمال منها يدخل ضمن أوروبا، وما يقع جنوبها يدخل ضمن آسيا. تمتد إلى مسافة (1206 كم) من البحر الأسود إلى بحر قزوين، ويصل ارتفاع قممها إلى (5630) مترًا في جبال البروز، فهي بهذا تمثل أعلى ارتفاع في أوروبا. وتوجد المراعى والغابات في المرتفعات، وتزرع الفاكهة والكروم في الوديان، كما أنها غنية بثرواتها المعدنية، وتوجد حقول البترول في باكو وجروزني وميكوب، ويوجد المنجنيز في تشياتورا. وقد تعرضت المنطقة لكثير من الغزوات والهجرات؛ مما ترك أثرًا في التكوين الجنسي للسكان. وبالقوقاز الشمالية بلاد الجركس. وتنقسم أراضي القوقاز إلى جمهوريات جورجيا وأذربيجان وأرمينيا، وقد

قاومت العناصر الإسلامية التوغل الروسى خلال القرن (13 هـ = 19 م) حتى فشلت ثورة الزعيم شامل سنة (1859 م).

(16/11)

### \*طرابلس (الغرب)

عاصمة الجماهيرية الليبية المعاصرة. وقد قرنت بالغرب، تمييزاً لها عن مدينة طرابلس الشام اللبنانية، ويُطلق الاسم كذلك على المحافظة التي تحيط بالمدينة. وتبلغ مساحتها نحو (248640 كم<sup>2</sup>). وتقع غرب ليبيا. وتحدها تونس والجزائر من الغرب، وفزان من الجنوب. وتبعد عن مدينة تونس بنحو (655 كم)، ومناخها رطب صيفاً، ممطر شتاءً، ويربطها بالمدن المجاورة شبكة من خطوط المواصلات. وتنقسم إلى طرابلس القديمة وطرابلس الحديثة. وقد أقيمت طرابلس القديمة في العصر الفينيقي حيث أنشئت مستعمره باسم ليوتش، أى: ذات المدن الثلاث، وهى أويا (طرابلس المدينة) وليوتش ماجنا (صبراتة) وليوتش مافيا (لبدة)، ثم تحولت المستعمرة إلى ولاية رومانية في عهد الإمبراطور سيفيروس، واستولى عليها الفندال في القرن (5 م)، ثم استعادها البيزنطيون عام (534 م). وقد فتحها المسلمون إبان العصر البيزنطى عام (22 هـ = 634 م)، على يد عمرو بن العاص، بعد حصار طويل وأصبحت تابعة لإمارة إفريقية (تونس) وتولى حكمها ولاية من العرب والبربر. وفي عام (541 هـ = 1146 م) استولى عليها النورمان. وفي عام (755 هـ = 1354 م) استولى عليها الجنديون. وفي عام (916 هـ = 1510 م) استولى عليها الإسبان بقيادة فردناند الكاثوليكي، حيث بلغت قواته (18 ألف مقاتل، ثم استعادها العثمانيون بعد (21) عاماً بقيادة سنان باشا القائد البحرى في (13 من شعبان 958 هـ = 26 من

أغسطس 1551 م). وقد دام الحكم العثماني لطرابلس (361) عامًا. وفي عام (1801 م) قامت الحرب الطرابلسية الأمريكية؛ بسبب اتهام الولايات المتحدة بحكام طرابلس بمؤازرة أعمال القرصنة ضد سفنها في البحر الأبيض المتوسط. وفي عام (1904 م) ضرب الفرنسيون الميناء بقنابلهم قبل الحرب الطرابلسية التي شنها الإيطاليون، وتمكنوا من دخول طرابلس عام (1911 م). وتم انسحاب إيطاليا من طرابلس نهائيًا عام (1943 م). وفي عام

(17/11)

---

(1951 م) أقامت الولايات المتحدة الأمريكية قاعدة للطيران على مسيرة سبعة أميال شرقي المدينة، عرفت بقاعدة هويلس، وقد استعادتها حكومة الثورة الليبية، ثم عرفت باسم قاعدة عقبة بن نافع. وقد كونت طرابلس وبرقة وفزان دولة ملكية مستقلة أعلنت في (24 من ديسمبر 1951 م).

(18/11)

---

### \*الأردن

دولة عربية إسلامية. تقع في غربي قارة آسيا. يحدها من الشمال سوريا ومن الشمال الشرقي العراق ومن الجنوب والجنوب الشرقي المملكة العربية السعودية، ومن الغرب فلسطين المحتلة. وتبلغ مساحتها (91880 كم<sup>2</sup>). والأردن عبارة عن هضبة ترتفع ما بين (700، و 1000) متر، ومناخها بحر متوسطي؛ حار جاف في الصيف، مع قلة الأمطار، والاعتدال النسبي في المناطق المرتفعة، أما الشتاء فشديد البرودة. وتُعد الزراعة من أهم الأنشطة الاقتصادية في الأردن؛ إذ يعمل بها نحو (35 %) من

السكان. وأهم المحاصيل الزراعية: القمح والشعير والزيتون والفواكه والمواخح وغيرها. ويوجد بالأردن ثروة حيوانية ممثلة في الماشية والأغنام والإبل. وأهم الصناعات فيها صناعات المنسوجات والأدوية والأدوات الكهربائية والورق. ويوجد فيها بعض المعادن، مثل الفوسفات والملح الذي يوجد بكثرة في البحر الميت. والعاصمة عمّان. وأهم المدن: إربد والزرقاء ومعان وعجلون والعقبة. ويبلغ عدد السكان (3.510.000) ملايين نسمة، حسب إحصائية سنة (1992 م). ويدين السكان بالإسلام الدين الرسمي للدولة، وتوجد أقلية نصرانية. ويتكلم السكان اللغة العربية، وهي اللغة الرسمية. وقد خضعت الأردن للدولة الأكادية سنة (2450 ق. م)، ثم للبابليين في أوائل الألف الثاني قبل الميلاد، ثم خضعت للآشوريين في الفترة من عام (750 - 612 ق. م)، ثم للرومان، ثم للغساسنة، إلى أن دخلها الإسلام على يد شرحبيل بن حسنة سنة (6 هـ = 627 م) في عهد الخليفة أبي بكر الصديق، ثم أصبحت تحت حكم الأمويين، ثم العباسيين، ثم الفاطميين، ثم وقعت في يد الصليبيين إلى أن حررها صلاح الدين الأيوبي، ثم أصبحت تحت حكم العثمانيين، إلى أن وُضعت تحت الوصاية البريطانية (الانتداب البريطاني)، ثم استقلت، وأطلق عليها المملكة العربية الهاشمية والتي يحكمها الآن الملك حسين بن طلال منذ سنة (1952 م).

(19/11)

### \*العريش

بلدة مصرية ساحلية بسيناء، وعاصمة سيناء الشمالية (حاليًا). تقع على بعد كيلو متر من ساحل البحر الأبيض المتوسط، وهي أول حدود مصر الشرقية، وتقع على الضفة الغربية لوادي

العريش، عند مصبه في البحر الأبيض، وعلى بعد (5 كم) من الطرف الشرقي لبحيرة البردويل، وتحيط بها كثبان رملية قرب الساحل. وهي مركز إدارى يشمل مدينة العريش، وبعض البلدان، منها: أبو سقل والنوانيق والمساعد وجرادة. وتبعد العريش (28 كم) عن رفح وتقع غربيها، و (85 كم) من القنطرة المطلة على قناة السويس. وقيل في سبب تسميتها بهذا الاسم: أن أولاد يعقوب - عليه السلام - لما أصابهم القحط نزلوا بهذا المكان، أقاموا لهم عريشًا يستظلون تحته من الشمس، حتى يُؤدّن لهم بالدخول إلى مصر؛ فسُمّي الموضع بالعريش. ويقال: إنها كانت منفى للمجرمين، يُرسلون إليها بعد أن تُجدّع أنوفهم؛ وسماها الرومان رينوكورورا (مجدوعى الأنوف). وقد مرت بها جيوش الفتح الإسلامي في مختلف العصور الإسلامية، وقد بنى فيها السلطان سليمان العثماني قلعة عام (1560 م)، وكانت قائمة حتى الحرب العالمية الأولى، ولم يبقَ منها سوى أطلال. وفي (18 من فبراير 1899 م) استولى عليها نابليون، وفي (17 من نوفمبر 1899 م) استعادها العثمانيون، واستولى عليها الحلفاء في (20 من ديسمبر 1916 م)، وفيها عقد اتفاقية العريش في (27 من شعبان 1214 هـ = 24 من يناير 1800 م)، بين جيش نابليون والعثمانيين؛ للجلء عن مصر، دون شروط. ومن آثارها: - أطلال معبد من العصر الروماني، وكنيسة مسيحية. وتُوفى بها الملك بولدوين الأول ملك بيت المقدس سنة (1118 م) في حملته الصليبية على مصر. وتشتهر بالنخيل والرمان والبطيخ.

(20/11)

\*قوص

مدينة بمحافظة قنا، على الشاطئ الشرقي للنيل، شديدة

الحرارة ومشهورة بنسج القطن، وكانت محطة تجارية للقادمين من عدن، ومنها يبدأ الطريق البرى إلى عيذاب على النيل، ويسير شرقاً بجنوب حتى ساحل البحر الأحمر حيث ميناء عيذاب، وبينها وبين فنا (31 كم). سماها الأغر يق أبولو نوبوليس بارفا، وبها أطلال معبد منذ عهد البطالمة. وكانت ملتقى الحجاج في طريقهم إلى الحجاز في العصر الإسلامى، وأشهر ما بقى من آثار ذلك العصر المسجد العمري. وقد أنجبت عدة علماء وشعراء، منهم: القاضى ابن دقيق العيد، والفقيه شهاب الدين القوصى، والوزير الشاعر بهاء الدين زهير.

(21/11)

#### \*مدغشقر

جزيرة تقع في المحيط الهندي، وهى الجزيرة الرابعة فى العالم من حيث المساحة؛ إذ تبلغ مساحتها نحو (330) ألف ميل مربع. وهى عبارة عن منطقة جبلية وهضبية واسعة، تحصر سهولاً ساحلية ضيقة فى الشرق والجنوب واسعة نسبياً فى الشمال والغرب. وعاصمتها تناناريف. وأهم مدنها: تاماتاف وماجنجا. ويسكنها الملا جاش، وهم من العنصر الملاوى. وأهم صادراتها البن. وعرفها العرب المسلمون منذ زمن مبكر، وكانت مجموعة دويلات قبلية اتحدت فيما بعد؛ إذ كونت مملكة مدغشقر الإسلامية، التى ضايقها البرتغاليون منذ وصولهم إلى الجزيرة سنة (1500 م)، فدارت عدة حروب بين الطرفين، كان النصر فى آخرها للمسلمين الذين طلبوا معونة من جزيرة العرب، وبعد حين عاد البرتغاليون إلى تلك الجزيرة، واستطاعوا احتلالها والقضاء على الحضارة الإسلامية فيها، ثم قدم إليها الفرنسيون بعد رحيل البرتغاليين، ولكنهم لم يستطيعوا السيطرة عليها إلا سنة (1885

(م)، حين وقعوا اتفاقية صلح مع المملكة، أنهت حرباً دامت أربع سنوات. وفي سنة (1895 م) رفضت الحكومة الوطنية اتفاقية الصلح، فتدخلت فرنسا لفرض سيطرتها بواسطة القوات العسكرية. وأعلنت الحماية المباشرة وتعيين حاكم فرنسي سنة (1896 م). وفي سنة (1946 م) جعلتها فرنسا جزءاً من أراضيها فيما وراء البحار. ونالت الاستقلال سنة (1958 م) برئاسة فليب سيرانانا. وفي سنة (1960 م) عرفت بجمهورية ملجاش. وفي سنة (1972 م) وقع أول انقلاب عسكري فيها بقيادة الجنرال رامانانا تسوا الذي عين نفسه رئيساً للبلاد فيما بعد.

(22/11)

#### \*ملجاش

جزيرة تقع في المحيط الهندي، وهي الجزيرة الرابعة في العالم من حيث المساحة؛ إذ تبلغ مساحتها نحو (330) ألف ميل مربع. وهي عبارة عن منطقة جبلية وهضبية واسعة، تحصر سهولاً ساحلية ضيقة في الشرق والجنوب واسعة نسبياً في الشمال والغرب. وعاصمتها تناناريف. وأهم مدنها: تاماتاف وماجنجا. ويسكنها الملاجاش، وهم من العنصر المالاوي. وأهم صادراتها البن. وعرفها العرب المسلمون منذ زمن مبكر، وكانت مجموعة دويلات قبلية اتحدت فيما بعد؛ إذ كانت مملكة مدغشقر الإسلامية، التي ضايقها البرتغاليون منذ وصولهم إلى الجزيرة سنة (1500 م)، فدارت عدة حروب بين الطرفين، كان النصر في آخرها للمسلمين الذين طلبوا معونة من جزيرة العرب، وبعد حين عاد البرتغاليون إلى تلك الجزيرة، واستطاعوا احتلالها والقضاء على الحضارة الإسلامية فيها، ثم قدم إليها الفرنسيون بعد رحيل البرتغاليين، ولكنهم لم يستطيعوا السيطرة عليها إلا سنة (1885

(م)، حين وقعوا اتفاقية صلح مع المملكة، أنهت حربًا دامت أربع سنوات. وفي سنة (1895 م) رفضت الحكومة الوطنية اتفاقية الصلح، فتدخلت فرنسا لفرض سيطرتها بواسطة القوات العسكرية. وأعلنت الحماية المباشرة وتعيين حاكم فرنسي سنة (1896 م). وفي سنة (1946 م) جعلتها فرنسا جزءًا من أراضيها فيما وراء البحار. ونالت الاستقلال سنة (1958 م) برئاسة فليب سيرانانا. وفي سنة (1960 م) عرفت بجمهورية ملجاش. وفي سنة (1972 م) وقع أول انقلاب عسكري فيها بقيادة الجنرال رامانانا تسوا الذي عين نفسه رئيسًا للبلاد فيما بعد.

(23/11)

---

\*شَهْرُزُور

مدينة بإقليم كردستان. تقع في سهل خصب غربي جبال أورامان، وهي كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمدان، وأهلها كلهم أكراد وبالقرب منها جبل يُعرف بشعران، وآخر يُعرف بالزرم. وتنسب إلى زور بن الضحاك، وهو الذي أسسها، فمعنى كلمة شهرزور: مدينة زور. وكانت موطنًا للعلماء على مر العصور، ومن علمائها: أبو أحمد القاسم بن المظفر على بن القاسم، والمرتضى الشهرزوى، وكمال الدين أبو الفضل محمد.

(24/11)

---

\*لندن

عاصمة المملكة المتحدة. تقع على جانبي نهر تيمز. ومساحة لندن الكبرى (1794 كم2)، وتشمل أجزاءً من مقاطعات إسكس وكنت وهرتفوردشر ومدلسكس وسرى، أما مقاطعة لندن

الإدارية فمساحتها (303 كم2)، وتضم (28) بلدة، لها مجالس بلدية، ولكل منها عمدة ومجلس، وقد بدأ الشكل الحالي لحكم المجالس البلدية منذ القرن (6 هـ = 12 م). وفقدت لندن أهميتها بعد أن تركها الرومان في (5 م)، ثم صارت ذات أهمية مرة ثانية عام (886 م). وانتشر بها الطاعون سنة (1665 م) وقتل نحو (75000) نسمة، ونشب بها حريق هائل، دمر معظم المدينة سنة (1666 م)، ثم أعاد كريستوفر بناءها. وأشهر متاحفها المتحف البريطاني ومتحف العلوم، وأشهر شوارعها: فليت ستريت، وستراند وبكاديللي. وتربط أحياءها أعظم شبكة للمواصلات الكهربائية تحت الأرض.

(25/11)

\*بالي

جزيرة صغيرة. تقع شرق جزيرة جاوة، وتكوّن إحدى المقاطعات الإدارية في جمهورية إندونيسيا. تبلغ مساحتها (6560 كم2). ويبلغ عدد سكانها (1.200.000) نسمة. وهي إحدى جزر مجموعة سوندا الصغرى، ويفصلها عن جزيرة جاوة مضيق بالي. عاصمة بالي (سنجاراجا)، والميناء الرئيسي بولينج. وقد اعتنق السكان الهندوكية منذ زمن بعيد، وخضعوا لحكم الجاويين حتى أواخر القرن (9 هـ = 15 م). ونزل الهولنديون بالجزيرة سنة (1597م)، وفي القرن (11 هـ = 17 م) بدأت شركة الهند الشرقية الهولندية تجارتها مع الجزيرة، وخضعت بالي للحكم البريطاني من سنة (1811 - 1815م)، ولم تستقر السيادة الهولندية فيها نهائياً إلا بعد سلسلة من الحروب الاستعمارية دارت بين سنتي (1846، 1849م). وقد نشأت دولة إندونيسيا الشرقية في مؤتمر عقد في دنباسار سنة (1946م).

### \*بريطانيا

اسم اشتهرت به المملكة المتحدة، وهي تتكون من مجموعة من الجزر تقع أمام الساحل الغربي لأوروبا، ويفصل بينها وبين أوروبا القناة الإنجليزية ومضيق دوفر وبحر الشمال، وجارتها المباشرة جمهورية أيرلندا في الغرب ثم فرنسا عبر بحر الشمال. وتنقسم بريطانيا إدارياً إلى أربع ولايات، تُحكم كلٌّ منها من قِبل حاكم إداري عام، وتنقسم تلك الولايات إلى عدد من المقاطعات، وهذه الولايات هي: إنجلترا وويلز واسكتلندا وأيرلندا الشمالية، ويُعيّن الحاكم فيها بقرار من الملك بعد اقتراح من رئيس مجلس الوزراء، ويعد النظام السياسي ملكياً ديمقراطياً. ومناخ بريطانيا معتدل صيفاً، شديد البرودة شتاءً، عدا شمالي اسكتلندا؛ إذ تخضع لجو شديد البرودة صيفاً وشتاءً. والعاصمة لندن. وعدد السكان (57.384.000) نسمة حسب إحصائية سنة (1990 م). والدخل القومي الإجمالي لبريطانيا (834.1) مليار دولار حسب إحصائية سنة (1989 م)، ومتوسط دخل الفرد (14.750) دولاراً. وأهم المحاصيل الزراعية: الحبوب وبنجر السكر والفواكه والخضراوات والبطاطس. وأهم المعادن: الفحم والقصدير والحديد والحجر الجيري والملح والجبس والرصاص والسيلكا والطباشير والصلصال، كما تنتج البترول والغاز الطبيعي. وأهم الصناعات: بناء السفن والمنسوجات والكيماويات والأجهزة الكهربائية والإلكترونية والطائرات. والعملية المتداولة في بريطانيا هي الجنيه الإسترليني.

## \*سوريا

جمهورية عربية تقع في الطرف الجنوبي الغربي من قارة آسيا. يحدها من الغرب البحر الأبيض المتوسط، ومن الشمال تركيا، ومن الشرق والجنوب الشرقي العراق، ومن الجنوب المملكة الأردنية وفلسطين المحتلة، ومن الجنوب الغربي الجمهورية اللبنانية تبلغ مساحتها (184.050 كم2). وأهم أنهارها: نهر الفرات والعاصي والخابور، إلى جانب عشرات الأنهار الصغيرة. ويقوم اقتصادها على الزراعة وبعض الصناعات الخفيفة؛ حيث تنتج القمح والقطن والحبوب، وتصنع النسيج والمواد الغذائية والأدوات الكهربائية والمعدنية. وقد تنازعت السيطرة عليها قديماً الإمبراطوريتان المصرية والحيثية. وفي عام (333 ق. م) استولى عليها الإسكندر المقدوني، ثم خضعت لحكم السلجوقيين، واحتلها الرومان عام (64 ق. م)، ثم أصبحت جزءاً من الإمبراطورية البيزنطية عام (395 م). وقد فتحها المسلمون بين عامي (634، 636 م)، وأصبحت دمشق عاصمة الخلافة في عهد الأمويين (661 – 750 م)، وبعد أن غزاها الصليبيون والمغول فتحها العثمانيون عام (1516 م)، وبعد الحرب العالمية الأولى استقلت ونُصّب الملك فيصل الأول ملكاً عليها، ولكن استقلالها لم يستمر؛ إذ خضعت للانتداب الفرنسي عام (1920 م)، فثار السوريون ثورات عديدة حتى نالوا الاستقلال عام (1941 م). وقد اتحدت مع مصر عام (1958 م)، ثم انفصلت عنها عام (1961 م)، وفي عام (1967 م) خاضت حرب الخامس من يونيو ضد إسرائيل، وفي عام (1973 م) خاضت مع مصر حرب أكتوبر ضد إسرائيل.

## \*صيدا

ميناء لبنان، وعاصمة قضاء يُعرَف باسمها بمحافظة لبنان الجنوبي. تقع جنوبي بيروت، على بعد (45 كم) منها، ويصلها بها طريق للسيارات وخط حديدي يمتد بمحاذاة ساحل البحر المتوسط. وتحيط بالمدينة بساتين الفاكهة وحقول الخضراوات، ومن أهم محاصيلها الزراعية: الموالح والموز، ويعد صيد الأسماك من المهن الرئيسية فيها. وتشتهر بعدة صناعات تقليدية، كعصر الزيتون واستخراج ماء الزهر وصناعة الحلوى. وهى من المدن المعروفة في التاريخ القديم؛ أطلق عليها سيدة البحار؛ لأهميتها التجارية في حوض البحر المتوسط، ويرجع تاريخها إلى القرن (14 ق. م). وفتحها المسلمون في خلافة عمر، رضى الله عنه، سنة (638 م)، ثم اغتصبها الصليبيون، وحررها صلاح الدين الأيوبي سنة (1182 م)، ثم تداولها الفريقان على مدى مائة عام حتى استقرت في يد المسلمين سنة (1292 م)، وقد أعاد بناءها الأمير فخر الدين المعنى. وفي سنة (1837 م) دمرتها الزلازل، وأعاد بناءها سليمان باشا. وقد زادت أهميتها بعد مد خط الزيت إليها. وأهم آثارها قلعة البحر وقلعة القديس لويس وخان الفرنج.

(29/11)

## \*الطائف

بلدة بالحجاز، تقع على بعد (120 كم) من شرقي مكة، فوق هضبة رملية، يبلغ متوسط ارتفاعها (5000) قدم عن سطح البحر، وتحيط بها مجموعات من التلال، وتكثر بها الآبار والعيون التي تسقى الحقول وبساتين الفاكهة التي حولها، وتشمل العنب والرمان والسفرجل والخوخ والمشمش، كما تجود بها زراعة الورد

الذى يستخرج منه عطر فاخر كانت له أسواق إبان موسم الحج،  
ونظرًا لارتفاعها وغزارة مياهها وكثرة بسايتها؛ عُدت منتجًا  
صيفيًا لأهل مكة. وتعد من أقدم بلاد الحجاز، وسار إليها  
الرسول - صلى الله عليه وسلم - يدعو أهلها إلى الإسلام، إلا أنهم ردوه ردًا قبيحًا.  
وفي سنة (3 هـ) جاء وفد ثقيف إلى المدينة، ودخلوا في  
الإسلام، وتبعهم قومهم بعد أن كسروا صنم اللات. وفي عام  
(1216هـ = 1802 م) استولى عليها الوهابيون، ودخلها سعود بن  
عبد العزيز الأول، وفي عام (1813م) احتلها طوسون بن محمد  
على، وفي سنة (1814 م) حاصرها الوهابيون، ثم رفعوا عنها  
الحصار بتدخل محمد على، وفي عام (1815 م) هزم جيش محمد  
على الوهابيين عند بسل شمالى الطائف، وفي عام (1827 م)  
حاصرها واستولى عليها أحمد باشا يكن، وتم رحيل المصريين  
عن الحجاز في عام (1841 م). وفي عام (1916م) استولى عليها  
الملك حسين بن على من العثمانيين، وفي نهاية عام (1924م)  
استولى عليها عبد العزيز آل سعود، ومنها دخل إلى مكة ودان  
له الحجاز.

(30/11)

### \*طخارستان

اسم أطلق على الإقليم الذى يمثل اليوم المنطقة الشمالية من  
أفغانستان وعرف قديمًا باسم بلاد بكتريا وقد ورد ذكره في  
فتوحات الملك قورش إبان القرن (6 ق. م)، ثم في فتوحات  
الإسكندر الأكبر إبان القرن (3 ق. م) وهو يقع جنوبى مجرى  
جيحون، ويمثل منطقة جبلية إلى الشرق من مدينة بلخ الحالية،  
وتمتد استدارة النهر حول فيض أباد المعاصرة أو إقليم  
بدخسان، وفي جنوبها يقع إقليم جوزجان وسجستان. وقد

دخله الإسلام في خلافة عثمان، رضى الله عنه، بعد أن توقفت مقاومة الدولة الساسانية في إيران. وشهد في أواخر حكم الدولة الأموية عدة ثورات، منها: ثورة الحارث بن سريج عام (117هـ = 735 م)، وقد نجح في بسط سلطانه على الإقليم داعياً إلى المساواة بين العرب وغيرهم من المسلمين الموجودين فيها، إلى أن استعادها أسد بن عبد الله. وفي عام (129 هـ) أصبحت مهدياً لثورة أبي مسلم الخراساني، إذ نجح في نشر الدعوة العباسية ومنها انتشرت إلى أنحاء خراسان.

(31/11)

### \*طبرية

بلدة فلسطينية قديمة. تطل على الضفة الغربية للبحيرة التي تعرف باسمها. تقع جنوبي صفد، وإلى الشمال الشرقي من مدينة الناصرة. وتقع جنوبي طبرية قرية الحمة التي اشتهرت بينابيعها المعدنية الساخنة. وقد شيدها هيرود أنتيباس، وفتحها المسلمون صلحاً عام (14هـ)، وأصبحت عاصمة للإقليم الذي عرف باسم كورة الأردن، وكانت تتبع إمارة دمشق ثم استولى عليها الإمبراطور البيزنطي يوحنا زيمسكس سنة (365 هـ = 975 م)، وفي عام (583 هـ = 1187 م) فتحها صلاح الدين الأيوبي، ماعدا قلعتها، ولكن بعد معركة حطين الفاصلة التي حدثت بالقرب من طبرية في العام نفسه استسلمت قلعة طبرية. وجددت المدينة في عهد سليمان القانوني، وخلال القرن (12 هـ = 18 م) حصنها ظاهر العمر حين ثار على الحكم العثماني، واتخذها مقراً لإمارته، وفي عام (1837 م) تعرضت لزلزال مخرب، أثناء الحكم العثماني الأخير لها، كانت تمثل قضاء يحكمه قائم مقام يتبع والي عكا حتى سقطت فلسطين في أيدي البريطانيين إبان الحرب العالمية

الأولى؛ فأصبحت تابعةً لحاكم الجليل حتى احتلها الصهاينة سنة (1948 م).

(32/11)

---

### \*طبرستان

اسم يطلق على الإقليم الذى يقع جنوبي بحر قزوين، ويشمل المنطقة الجبلية التى تمثلها جبال البورز، وهو الإقليم الذى يعرف اليوم باسم ولاية مازندران، وهو أحد الأقسام الإدارية لإيران المعاصرة، وعاصمته بابل، وهى ميناء صغير يطل على بحر قزوين إلى الغرب من ميناء سارى. وكانت تعرف باسم بارفوروش. وقد بلغت الدعوة الإسلامية عندما كان الصراع قائماً بين العرب والدولة الساسانية (18هـ)، ثم استقر الإسلام فيها؛ بسبب غلبة التشيع حتى غدا الإقليم ملجأً للعلويين بعد قيام الدولة العباسية. وفى سنة (250 هـ = 864 م) أصبحت دولة شبه مستقلة، يحكمها بيت علوى، وعرفت بالدولة الحسينية؛ نسبة إلى مؤسسها الحسن بن زيد، ودام حكم هذه الدولة لها (37) سنة حتى حكمها السامانيون عام (287هـ)، ثم استعادها العلويون مرة ثانية سنة (301 هـ = 914 م) وقد عرفت فى هذه المرحلة بالدولة الحسينية. كما دانت بعد ذلك لبنى بويه وللدولة الزيارية، ثم تعرضت لموجات الغزو المغولى حتى قيام الدولة المستقرة التى حكمت إيران، وأصبح الإقليم جزءاً منها.

(33/11)

---

### \*كرمان

ولاية كبيرة بإيران. يحدها من الشرق مكران ومن الغرب فارس،

ومن الشمال خراسان، ومن الجنوب بحر فارس. وتشتهر بالزراعة  
والماشية وصناعة السجاد والأدوات النحاسية. وحكمها قطن بن  
قبيصة بن مخارق نائباً عليها من قبل الحجاج بن يوسف الثقفي  
في ظل الخلافة الأموية. وفي أثناء حكم الدولة العباسية،  
حكمتها الأسرة المظفرية سنة (741 هـ = 1340 م)، فبنت بها  
المساجد، وأوقفت عليها الأوقاف، وضربت بها السكة، ونقشت  
عليها اسم الخليفة العباسي. ومن أشهر علمائها وشعرائها  
العماد الكرماني.

(34/11)

---

### \*القطائع

عاصمة الدولة الطولونية أنشأها ابن طولون شمالي مدينة  
الفسطاط، وقد زالت آثارها الآن من مصر، وكان طولها يمتد بين  
قلعة الجبل وجامع ابن طولون، أما عرضها فكان من أول الرميطة  
من تحت القلعة إلى زين العابدين، وكانت مساحة القطائع ميلاً  
مربعاً. والقطائع عدة قطع يسكن فيها ممالك أحمد بن طولون  
وعساكره وغلماؤه. وسبب بناء ابن طولون لها كثرة ممالئك؛  
فضاقت دار الإمارة عليه، فركب إلى سفح الجبل، وبنى قصرًا  
وميدانًا، ثم أمر أصحابه وغلماؤه أن يبنوا لأنفسهم حول قصره  
وميدانه بيوتًا، ففعلوا حتى اتصل البناء بعمارة الفسطاط، ثم  
بنيت القطائع، وسميت كل قطعة باسم من سكنها.

(35/11)

---

### \*ما وراء النهر (بلاد)

منطقة في آسيا الوسطى. تقع إلى الشرق من نهر أمودا ريا

وإلى الغرب من نهر سيرداريا في الأراضى التى تشكل اليوم جمهورية أوزبكستان وجزءًا من جنوب جمهورية كازاخستان، وبلغت أقصى رقيها فى عهد السامانيين والتموريين، وكانت مركزًا مهمًا من مراكز الثقافة الإسلامية، ونالت مدنها شهرة عالمية، مثل سمرقند وبخارى.

(36/11)

---

### \*كانو

مدينة بنيجيريا. تقع فى شرق نيجيريا. أسست فى القرن (10 هـ = 16 م)، مكان مدينة ترجع إلى القرن (3 هـ = 9 م). وازدهرت كمركز للقوافل فى القرن (13 هـ = 19 م)، وهى الآن مركز مهم للمواصلات، وأهم مدن نيجيريا فى تجارة الفول السودانى، كما أن بها مطارًا دوليًا.

(37/11)

---

### \*القيروان

مدينة تونسية كبيرة. بناها عقبة بن نافع الفهري عندما كان واليًا على بلاد المغرب العربى وإفريقية، فى عهد معاوية بن أبى سفيان، وجعل عقبة بن نافع منها دارًا للإمارة، ومركزًا لتجمع الجند عند القتال، وبنى بها منازل للمسلمين، وبنى بها مسجدًا جامعًا كبيرًا، وانتهى من بنائها سنة (55 هـ = 674 م). ومنذ ذلك الوقت أصبحت القيروان قاعدة حربية للمسلمين فى بلاد المغرب، وقاعدة سياسية وحضارية ودينية عظيمة فى عهد الأغالبة والموحدين والفاطميين الذين جعلوا منها عاصمة لهم قبل أن ينقلوا عاصمتهم إلى القاهرة بمصر. وفى سنة (981 هـ =

1573 م) استولت الدولة العثمانية على تونس، وكانوا قد استولوا على مدينة القيروان سنة (958 هـ = 1551 م). ومنذ سنة (1086 هـ = 1675 م) تدخل الجزائريون في حكم تونس والقيروان، فأنشأ حسين باى الأكبر بها المدارس، وظل أبناؤه يحكمونها حتى دخلها الفرنسيون سنة (1299 هـ = 1881 م). وفرضت عليها الحماية الفرنسية سنة (1330 هـ = 1912 م)، وظلت بها حتى سنة (1383 هـ = 1963 م). ومن أهم علماء القيروان: ابن رشيقي القيرواني، ومحمد بن أبي بكر عتيق بن أبي نصر المعروف بابن أبي كدية، وعبد القادر الصدفي المعروف بابن الحناط، ومحمد بن نعمة الأسدي القيرواني، وممن وفد عليها: أبو الحسن أحمد الحصائري، وأبو بكر بن عباس، وأبو القاسم عبد الرحمن البكري.

(38/11)

---

#### \*القلزم (ميناء)

ثالث الموانئ المصرية. كان اسمه القديم كلسيما، وسماه العرب القلزم. وفي القرن (4 هـ = 10 م) نشأت قرية صغيرة جنوبي القلزم، اسمها السويس، وما لبثت أن شملت القلزم، وأصبحت ميناء مصر على البحر الأحمر. نمت المدينة، وزاد عدد سكانها حينما وصلت إليها مياه النيل عن طريق ترعة السويس سنة (1869 م)، واكتشف البترول على سواحل البحر الأحمر، وفي ضواحيها معمل لتكرير البترول، ومصانع للسماد، كما أنها تعد مدينة سياحية؛ فبالقرب منها عيون موسى.

(39/11)

---

## \*قرطاجنة

مدينة قديمة، تقع على الساحل الشمالى لإفريقيا، على مقربة من مدينة تونس. أسسها الفينيقيون فى القرن التاسع قبل الميلاد، وابتداءً من القرن السادس قبل الميلاد طور أهلها تجارتهم، وقوتهم البحرية، فسيطروا على السواحل الشمالية الشرقية لإفريقيا، وبعض الجزر فى البحر المتوسط، وأسسوا لهم مستعمرات، فنافسوا روما، وتعرضوا لمصالحها، فدخلها الرومان ودمروها عن آخرها حتى محوا حضارتها عام (146 ق.م)، وأصبحت مقرًا للبيزنطيين فى إفريقيا. وفتحها حسان بن النعمان الغساني قائد الجيش الإسلامى من قبل الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان. وكان لفتحها أثر كبير فى حركة الفتح الإسلامى فى إفريقيا، وقد كانت مبنية بالرخام، وزاخرة بالآثار. وقد تعرضت للتخريب الذى طوى صفحاتها على يد الرومان.

(40/11)

## \*القاهرة

عاصمة جمهورية مصر العربية. تقع على النيل، على بعد نحو (20 كم) من رأس الدلتا، عند خط طول (15° 31) شرقًا، ودائرة عرض (3° 30) شمالًا. وتبلغ مساحتها (214 كم<sup>2</sup>). أنشأها القائد جوهر الصقلى للمعز لدين الله الفاطمى؛ لتكون مقرًا للحكم الفاطمى، وعاصمة لمصر، سنة (358 هـ = 969م)، وشيد بها الجامع الأزهر، وأقام سورًا جمع عواصم مصر الإسلامية (الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة). وكانت تسمى المنصورية، لكن عندما انتقل المعز من مدينة المهديّة دخل المنصورية سنة (362 هـ = 973م)؛ فعرفت بالقاهرة منذ ذلك الوقت، ويقال لها: القاهرة المعزية، وقاهرة المعز ثم عرفت

باسم مصر باعتبار أن هذا الاسم يطلق على كبرى مدن القطر المصرى. وهى مركز ثقل سكانى. ومن أشهر مساجدها الأثرية جامع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون والجامع الأزهر.

(41/11)

---

### \*الكوفة

مدينة بجمهورية العراق تقع على الجانب الأيمن لنهر الكوفة، أحد فروع نهر الفرات. بدأ تشييدها الصحابى سعد بن أبى وقاص، رضى الله عنه، عام (17 هـ = 638 م)، وترجع أهميتها التاريخية إلى اتخاذها عاصمة خلافة على، رضى الله عنه، كما أن بها المسجد الذى قتل فيه. وقد نافست البصرة فى مدارسها الفقهية واللغوية فى أيام الأمويين والعباسيين، ومما نغم على أهل الكوفة أنهم قتلوا الحسين بعد أن استدعوه إليها. وينسب إلى الكوفة جماعة من الأعلام، منهم: أبو حنيفة النعمان وسفيان الثورى والكسائى والفراء وشريح القاضى وأبو عبد الله سعيد بن جبير والمثنبى.

(42/11)

---

### \*ليون

منطقة فى الجزء الشمالى الغربى من إسبانيا تقع فى مقاطعة ليون. أسسها الرومان فى القرن الأول الميلادى، وخضعت لسلطان العرب منذ مطلع القرن الثامن الميلادى إلى أواسط القرن التاسع. يبلغ سكانها (125.000) نسمة.

(43/11)

---

### \* لاهور

من أهم مدن إقليم البنجاب. تقع على الجانب الأيمن لنهر رافي، وتعد المدينة الثانية في باكستان، كما أنها مركز ثقافي حضارى منذ عهد المغول. وتقع عند التقاء عدة طرق، فأصبحت أكبر المراكز الداخلية للتجارة، كما تعد أحد المداخل إلى الهند. ازدهرت تحت حكم المغول المسلمين خلال القرنين (10، 11 هـ = 16، 17 م)، وفي القرن (13 هـ = 19 م) أصبحت عاصمة الشيخ. وتتميز بمبانيها التاريخية، والحدائق العالمية، وأهم آثارها الإسلامية قصر جمهانجيز، وحدائق شليمار، وبها متحف للآثار، وجامعة البنجاب، وهي مركز لكثير من الصناعات الصلبية والجلدية والكيمائية والكهربائية.

(44/11)

---

### \* مالقا

مدينة إسبانية. تقع على البحر المتوسط، وهي ميناء ومدينة سياحية ومشتى. أسسها الفينيقيون، ثم فتحها المسلمون سنة (711 م)؛ حيث ازدهرت وفتت في العصر الإسلامي باعتبارها الميناء الرئيسى لمملكة غرناطة، واستمرت تحت الحكم الإسلامى فترة طويلة حتى احتلها الإسبان بزعامة فرديناند سنة (1487 م).

(45/11)

---

### \* ما بين النهرين

منطقة قديمة في جنوب غرب آسيا. تقع ما بين نهر دجلة ونهر

الفرات، وتمتد من جبال آسيا الصغرى شمالاً إلى الخليج العربي جنوباً. ويقع عرضها في العراق.

(46/11)

---

### \*الأفلاق

الأفلاق أو الفلاخ هو الاسم التركي لولاية دالاشيا التي كونت مع ولاية البغدان أو مولدافيا ما عُرف باسم جمهورية رومانيا. نشأت الأفلاق في القرن (7هـ - 13م) وتتابع عليها غارات الغزاة حتى سيطر عليها البيزنطيون، وظلت في أيديهم حتى سنة (1392م) إذ تمكن العثمانيون من بسط نفوذهم عليها، فأبقوا على النظام السياسي فيها كما هو؛ حيث كان الأمراء ينتخبون من بينهم حاكمًا عليهم، ثم يثبته العثمانيون. وفي سنة (1858م) تمكن أحد حكامها وهو الأمير كوزا من ضم الولايتين الأفلاق والبغدان ووافق الباب العالي على ذلك، وعرفت باسم رومانيا.

(47/11)

---

### \*ألبرت

ألبرت أو البرانس جبال تمتد في جنوب غرب فرنسا، وتفصل بينها وبين إسبانيا وتعد حاجزًا طبيعيًا بين البلدين، ولكنها ليست عازلاً؛ لأنها لم تفصل فصلاً تامًا بينهما، وليس أدل على ذلك من انتصار عناصر الباسك عبر هذه الجبال في كل من فرنسا وإسبانيا. وقد أثر وجود هذه الجبال كحدود طبيعية بين فرنسا وإسبانيا في عدم وجود مشكلات بين الدولتين؛ حيث إن هذه الحدود ثابتة ومستقرة لم تتغير.

**\* الأنبار**

اسم لمدينتين، إحداهما في خراسان قرب بلخ بإيران حالياً، والأخرى مدينة عراقية قديمة، تقع على الجهة الشرقية لنهر الفرات غربي بغداد وتبعد عنها بنحو (68 كم). والأنبار في اللغة الفارسية تعنى صومعة القمح، وقيل: إن العرب هم الذين بنوها، واستقرت فيها بعض القبائل العربية حتى سيطر عليها الفرس، وضموها إلى بلادهم. واستطاع المسلمون بقيادة خالد بن الوليد فتحها سنة (12هـ = 633 م) في عهد الخليفة الراشد أبي بكر الصديق، رضى الله عنه، وتم الصلح بين المسلمين وأهلها، على أن يدفعوا الجزية، ثم دخل أهلها الإسلام، وظلت ثغراً إسلامياً له أهميته في عهد الخلفاء الراشدين ثم الأمويين. واتخذها الخليفة العباسي أبو العباس السفاح - أول خلفاء العباسيين - عاصمة لدولته في طورها الأول وظلت عاصمة للخلافة العباسية حتى جعل أبو جعفر المنصور بغداد عاصمة للخلافة. وفي سنة (269 هـ = 882 م) تعرضت الأنبار لغارات بعض البدو، وفي سنة (315 هـ = 927 م) تعرضت لغارات القرامطة الذين لم يلبثوا أن استولوا عليها، وحاول العباسيون استردادها فلم يتمكنوا من ذلك. واشتهر مكان الأنبار بالزراعة، وكانت تقسم إلى أحياء، على رأس كل حي مسئول يُعرف بالشيخ، وكان فيها مكان لبناء السفن. وفي سنة (661 هـ = 1262 م) دخلها المغول، ونهبوها، وذبحوا عدداً كبيراً من سكانها، وفر الباقي، فتحولت المدينة إلى أطلال لاتزال موجودة بالعراق، وتعرف باسم الأنبار حتى الآن. وينسب عدد من العلماء إليها، منهم: أبو بكر الأنباري النحوي المتوفى سنة (238 هـ) وأبو البركات الأنباري المتوفى سنة (577 هـ = 1181 م).

\*أيلة

ميناء صغير . يقع على خليج العقبة. يعرف بالآرامية باسم أيلون، وبالعبرية إيلات، وأول من أطلق عليه أيلة هم الأنباط. وأول من حكم أيلة هم الأيدرميون في القرن (14 ق. م) حتى القرن (4 ق. م) ، ثم حكمها الأنباط، وازدهرت في عهدهم ازدهارًا تجاريًا ملحوظًا؛ حيث كانت مركزًا متوسطًا بين مصر والشام والجزيرة العربية. واستولى عليها الرومان سنة (106 ق. م)، وخلفهم البيزنطيون الذين تركوها لخصائهم من العرب، وهم الغساسنة، وفي سنة (8 هـ) في أعقاب غزوة تبوك فتحها النبي - صلى الله عليه وسلم -؛ حيث أتاه حاكمها يوحنا بن رؤبة، وصالحه على أن يدفع للمسلمين الجزية. وشهدت في فترات الحكم الإسلامي تقدمًا وازدهارًا ملحوظًا؛ حيث كانت ملتقى الحجيج المصري والشامي، فانتعشت فيها التجارة. وخضعت لنفوذ مصر في فترة حكم أحمد بن طولون الذي أنشأ فيها طريقًا عرف باسم عقبة أيلة ثم أطلق عليها اسم العقبة اختصارًا. وفي سنة (465 هـ) تعرضت لزلزال هائل دمرها، فمات أكثر أهلها. وفي سنة (509 هـ) احتلها الصليبيون، ثم استعادها صلاح الدين الأيوبي سنة (566 هـ) وانتزعها الصليبيون مرة أخرى، ثم استردها بيبرس سنة (665 هـ = 1267م)، وفي فترة الحكم المملوكي في مصر بنى قانصوه الغوري قلعة جديدة، وجردها السلطان العثماني مراد الثاني سنة (996 هـ = 1588 م). وهي اليوم ميناء عربي بالأردن. وقد قامت إسرائيل بتأسيس ميناء على خليج العقبة حمل اسمها القديم إيلات سنة (1951 م).

## \*البرتغال

دولة أوروبية. تقع جنوب غرب القارة الأوروبية. وتحدها إسبانيا من الشمال والشرق، والمحيط الأطلنطي من الجنوب والغرب. وتبلغ مساحتها نحو (88.941 كم<sup>2</sup>). ويبلغ عدد سكانها نحو (10.343.000) نسمة حسب إحصائية سنة (1992 م). ويتكلم سكانها اللغة البرتغالية. ويدين أغلبهم بالنصرانية، وبها جالية مسلمة يزيد عددها على (12) ألف نسمة، يتركز معظمهم في مدينة لشبونة. ويعتمد اقتصاد البرتغال على الزراعة والصناعة؛ إذ يعمل بالزراعة نحو (28 %) من السكان، وتبلغ نسبة الأراضي الزراعية نحو (40 %)، وأهم المحاصيل بها: القمح والذرة والزيتون والفاكهة والفلين والعنب والخضراوات. أما الصناعة فتتركز في مدينتي لشبونة وأبورتو، وأشهرها صناعة السفن، كما يعمل بعض السكان بصيد الأسماك، وتصدر منه كميات كبيرة. وقد كانت البرتغال وإسبانيا تكوّنان في العصور الوسطى والقديمة ما يُعرف باسم شبه جزيرة أيبيريا أو الأندلس، وسيطر عليها الرومان في القرن (2 ق. م)، ثم احتلتها القبائل الجرمانية، كالوندال في القرنين (3، 4 م)، ثم احتلها القوط الغربيون في القرن (5 م)، حتى فتحها المسلمون سنة (92 هـ = 711 م) بقيادة طارق بن زياد. وأطلق اسم البرتغال على المنطقة الشمالية من شبه الجزيرة الأيبيرية، وكان يطلق عليها اسم لوستيانيا. وبدأ ميلاد دولة البرتغال في القرن (5 هـ = 11 م) حيث اتحدت كونتية أبورتو مع غيرها من الكونتيات القريبة، وكونت كونتية البرتغال سنة (451 هـ = 1059 م)، وبعد ألفونسو الأول المؤسس الحقيقي لتلك المملكة بعد ما تمكن من طرد المسلمين من لشبونة التي أصبحت منذ ذلك الوقت عاصمة للبرتغال. وفي عهد الملك حنا الأول (785 - 837 هـ = 1383 -

1433 م) اهتمت البرتغال بحركة الكشوف الجغرافية في العالم،  
وبخاصة السواحل الغربية للقارة الإفريقية حتى نجح هنري  
الملاح ابن الملك حنا في اكتشاف بعض الجزر المهمة في المحيط

(51/11)

---

الأطلنطي؛ مما ساعد البرتغال في توسيع نفوذها وإحكام  
سيطرتها على عدد من المناطق في العالم؛ فاستولى  
البرتغاليون على البرازيل في أمريكا الجنوبية، وأجزاء شاسعة  
من قارة إفريقيا وبعض القواعد في الهند والصين. وفي نهاية  
القرن (10 هـ = 16 م) ضعفت مملكة البرتغال فاستولى عليها  
الإسبان سنة (1580 م)، وظلت تابعة لهم حتى استقلت سنة  
(1640 م)، كما احتلتها فرنسا سنة (1807 م)، ثم تركتها سنة  
(1821 م). ثم شهدت البرتغال منذ سنة (1910 م) بعض الفوضى  
والاضطرابات السياسية والاقتصادية استمرت حتى سنة (1926  
م)، وانتهت بسقوط النظام الملكي وإعلان النظام الجمهوري.  
وشهدت الفترة من سنة (1950 - 1974 م) تحرر جميع البلاد  
الخاضعة للبرتغال، مثل: أنجولا وموزمبيق وغينيا وجزر الرأس  
الأخضر إلى جانب الأقاليم الهندية. وشهدت البرتغال طوال القرن  
(14 هـ = 20 م) عدداً من الاضطرابات حول منصبى رئاسة  
الجمهورية ورئاسة الوزراء حتى تولى ماريو سواريس رئاسة  
الجمهورية سنة (1985 م) وتولى كافاكوسليفا رئاسة الحكومة.  
ونظام الحكم جمهوري، وينتخب الرئيس لمدة (5) سنوات. وأهم  
الأحزاب فيها: الحزب الاشتراكي والحزب الشيوعي وحزب الوسط  
الاجتماعي. والبرتغال عضو في عدة منظمات دولية، منها: هيئة  
الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي للتجارة الحرة وحلف الأطنطي.

(52/11)

### \*بلجراد

بلجراد أو بيوجراد ( BEOGRAD ) وتعنى فى اللغة الصربية: المدينة البيضاء. وهى أشهر مدن البلقان وعاصمة دولة الصرب. تقع على نهر الدانوب بالقرب من مصب نهر ساق، وكانت تُسمَّى مفتاح البلقان؛ لأهمية موقعها الاستراتيجى منذ عهد الرومان. ارتبط تاريخها بتاريخ منطقة البلقان بصفة عامة، وحكمها الرومان حتى تمكن العثمانيون من فتحها سنة (1521م)، وظلت محل نزاع بين العثمانيين ومملكة النمسا، يحكمها كلٌّ منهما فترة من الزمن حتى خرج منها العثمانيون نهائياً سنة (1867م) فألت إلى دولة الصرب. واحتلها النمساويون فى الحرب العالمية الأولى، لكن بعد هزيمتهم وفى أعقاب الحرب تكونت المملكة اليوغسلافية، وأصبحت عاصمة لها. واحتلها الألمان فى الحرب العالمية الثانية، وبعد الحرب سقطت المملكة اليوغسلافية، وأُعلنت الجمهورية التى ضمت (6) دول، منها الصرب، وكانت بلجراد عاصمة الصرب وعاصمة يوغسلافيا أيضاً. ولما تفتتت يوغسلافيا واستقلت كل دولة من الدول الست صارت بلجراد عاصمة لجمهورية الصرب. وقد نمت بلجراد بعد الحرب العالمية الأولى سياسياً واقتصادياً وإدارياً، واشتهرت بكونها مركزاً تجارياً وصناعياً كبيراً، وأصبحت مركزاً للصناعات الآلية والكهربائية والكيميائية والاستهلاكية.

(53/11)

### \*البندقية

مدينة إيطالية. تقع شرق إيطاليا، بالطرف الشمالى من البحر الأدرياتي. أقيمت على عدد من الجزر التى تقع فى بحيرات

ساحلية إلى الشمال من دلتا نهر ألبو، ويفصلها عن البحر الأدرياتي خط من الكثبان الرملية. وتحول اسمها في العصور الحديثة من البندقية إلى فينيسيا. وعدد سكانها (375) ألف نسمة. واشتهرت كمركز سياحي وتجاري، وأصبحت من أغنى المدن الأوروبية. وأهم الصناعات بها: الأساور، والعقود، والحلى الذهبية والفضية، والمنسوجات الحريرية، كما يوجد بها أماكن لصناعة السفن ومصانع للقصدير والألومنيوم والآلات. وقد ظهرت البندقية كمدينة في القرن (6 م)؛ حيث كان أهالي المدن الإيطالية يلجئون إليها؛ هرباً من غزوات القبائل البربرية. وبمرور الوقت نمت قوتها، وجاءت فترات ضعف الإمبراطورية الرومانية عامةً وضعف إيطاليا بصفة خاصة فشجعت على ظهور ما يعرف باسم القومونات أو المدن ذات الكيان السياسي والاقتصادي المستقل؛ فظهرت البندقية وجنوة وبيزة، وكانت كل منها جمهورية مستقلة لها دوقها الذي ينتخبه أبنائها ولها نفوذها السياسي، وامتلكت أسطولاً بحرياً قوياً له نشاطه الملحوظ في البحر المتوسط. وكانت الحروب الصليبية فرصة كبيرة للبندقية وغيرها من الجمهوريات الإيطالية؛ حيث عرض عليهم البابا نقل الجيوش الصليبية إلى الأراضي المقدسة بالشام، مقابل أخذ ثلث الغنائم التي يستولون عليها من أى مدينة، وأن يكون لهم أحياء تجارية في هذه المدن، وساعد ذلك البندقية على أن تستولى في الحرب الصليبية الرابعة على ثلث القسطنطينية وجزر كريت وأيونيا وغيرها من الموانئ المطلة على البحر الأدرياتي. وأدت المنافسة التجارية والبحرية بين البندقية وجنوة إلى قيام حرب بينهما استمرت أعواماً كثيرة، تبادلًا فيها النصر والهزيمة حتى انتهت بهزيمة البندقية سنة (1353م)، كما شهدت البندقية صراعاً مع الدولة العثمانية بسبب النشاط التركي في بحر إيجه، ونجحت

---

في الاستيلاء على جزيرة سالونيك ولكن العثمانيين استردوها سنة (1430 م). وبلغت البندقية أوج مجدها الفني في عصر النهضة، وخرج منها مجموعة من العلماء، مثل: تيسيان وجيوفاني بليني وتنتورتو. وفي سنة (1798م) بسطت النمسا سيطرتها على البندقية، ولكن البنادقة نجحوا في طردها سنة (1848م)، ثم عادت البندقية إلى حوزة إيطاليا سنة (1866م)، وتحول اسمها بعد ذلك إلى فينيسيا عاصمة مقاطعة فينيتو شرق إيطاليا.

(55/11)

---

#### \*فينيسيا

مدينة إيطالية. تقع شرق إيطاليا، بالطرف الشمالي من البحر الأدرياتي. أقيمت على عدد من الجزر التي تقع في بحيرات ساحلية إلى الشمال من دلتا نهر ألبو، ويفصلها عن البحر الأدرياتي خط من الكثبان الرملية. وتحول اسمها في العصور الحديثة من البندقية إلى فينيسيا. وعدد سكانها (375) ألف نسمة. واشتهرت كمركز سياحي وتجاري، وأصبحت من أغنى المدن الأوروبية. وأهم الصناعات بها: الأساور، والعقود، والحلي الذهبية والفضية، والمنسوجات الحريرية، كما يوجد بها أماكن لصناعة السفن ومصانع للقصدير والألومنيوم والآلات. وقد ظهرت البندقية كمدينة في القرن (6 م)؛ حيث كان أهالي المدن الإيطالية يلجئون إليها؛ هرباً من غزوات القبائل البربرية. وبمرور الوقت نمت قوتها، وجاءت فترات ضعف الإمبراطورية الرومانية عامةً وضعف إيطاليا بصفة خاصة فشجعت على ظهور ما يعرف باسم القومونات أو المدن ذات الكيان السياسي والاقتصادي

المستقل؛ فظهرت البندقية وجنوة وبيزة، وكانت كل منها جمهورية مستقلة لها دوقها الذى ينتخبه أبنائها ولها نفوذها السياسى، وامتلكت أسطولاً بحرياً قوياً له نشاطه الملحوظ فى البحر المتوسط. وكانت الحروب الصليبية فرصة كبيرة للبندقية وغيرها من الجمهوريات الإيطالية؛ حيث عرض عليهم البابا نقل الجيوش الصليبية إلى الأراضى المقدسة بالشام، مقابل أخذ ثلث الغنائم التى يستولون عليها من أى مدينة، وأن يكون لهم أحياء تجارية فى هذه المدن، وساعد ذلك البندقية على أن تستولى فى الحرب الصليبية الرابعة على ثلث القسطنطينية وجزر كريت وأيونيا وغيرها من الموانئ المطلة على البحر الأدرياتي. وأدت المنافسة التجارية والبحرية بين البندقية وجنوة إلى قيام حرب بينهما استمرت أعواماً كثيرة، تبادلًا فيها النصر والهزيمة حتى انتهت بجزية البندقية سنة (1353م)، كما شهدت البندقية صراعاً مع الدولة العثمانية بسبب النشاط التركى فى بحر إيجه، ونجحت

(56/11)

---

فى الاستيلاء على جزيرة سالونيك ولكن العثمانيين استردوها سنة (1430 م). وبلغت البندقية أوج مجدها الفنى فى عصر النهضة، وخرج منها مجموعة من العلماء، مثل: تيسيان وجيوفانى بلينى وتنتورتو. وفى سنة (1798م) بسطت النمسا سيطرتها على البندقية، ولكن البنادقة نجحوا فى طردها سنة (1848م)، ثم عادت البندقية إلى حوزة إيطاليا سنة (1866م)، وتحول اسمها بعد ذلك إلى فينيسيا عاصمة مقاطعة فينيتو شرق إيطاليا.

(57/11)

## \*بورصة

ولاية تركية، تقع في إقليم مرمره شمالي غربي الأناضول. وتضم أحد عشر مركزاً. وعاصمتها تحمل الاسم نفسه. وتبلغ مساحتها نحو (12466 كم<sup>2</sup>). ويبلغ عدد سكانها نحو (1.148.492) نسمة حسب إحصائية سنة (1980 م)، ويعمل سكانها بالزراعة والصناعة والرعى والتعدين. وكانت مدينة بورصة العاصمة الأولى للدولة العثمانية في بداية قيامها. وبلغ عدد سكانها نحو (445.113) نسمة، وهي الآن إحدى المحافظات الشهيرة ذات المكانة الاقتصادية المهمة في جمهورية تركيا. وتُعرف المدينة أيضاً باسم بروسة وبورسة وبورصة. حكمها البيزنطيون حتى سنة (467 هـ)، وفتحها السلطان السلجوقي سليمان شاه قتللمسن، ولكن الحملة الصليبية الأولى انتزعتها من السلاجقة سنة (491 هـ = 1097 م)، وعادت إلى البيزنطيين مرة ثانية، وفي سنة (507 هـ) استعادها السلاجقة، ثم استولى عليها البيزنطيون مرة أخرى، وظلت في أيديهم حتى قام عثمان غازي مؤسس الدولة العثمانية أثناء توسعه بفتح ضواحيها، وحاصر قلعتها، ولكنه توفّي قبل الاستيلاء عليها، فواصل ابنه أورخان غازي محاصرتها لمدة عشر سنوات حتى استسلمت، ودخلها سنة (726 هـ = 1326 م)، وأسلم حاكمها البيزنطي إفرينوس، واستقر بها السلطان أورخان، واتخذها عاصمة لدولته؛ لأهمية موقعها. وازدهرت بورصة في عهد أورخان ازدهاراً كبيراً، وظلت مقراً للسلطين العثمانيين بعده، فأولوها عناية فائقة، وأنشئوا بها مجموعة من المراكز الدينية والتجارية. وأثناء حروب السلطان العثماني بايزيد الأول مع تيمور لنك هُزم السلطان بايزيد سنة (1401 م)، ودخل تيمور لنك المدينة، ودمرها، فتحولت العاصمة بعد ذلك منها إلى أدرنة، وفقدت

بورصة مكانتها. ولكن سرعان ما عاد إليها الازدهار الملحوظ في حكم السلطان مراد الثاني (1421 - 1451 م)، وظلت تحتفظ بأهميتها حتى بعد انتقال العاصمة إلى إسطنبول. وبعد الحرب

(58/11)

---

العالمية الأولى وهزيمة الدولة العثمانية احتل اليونانيون بورصة سنة (1920 م) لمدة عامين، ثم رحلوا عنها، وعادت إلى تركيا سنة (1922 م). ويمكن القول: إن الأهمية الاقتصادية لمدينة بورصة على مدى تاريخها فاقت أهميتها السياسية. وتعد بورصة من أغنى مناطق تركيا بالآثار، خاصة التي تعود إلى العصر العثماني، مثل: متحف الآثار القديمة، ومتحف المنزل العثماني، وجامع الشهادات، وجامع قاوقلة، والجمع المرادي، ومجمع يلدرم بايزيد، والجامع الأخضر، والجامع الكبير، إلى جانب عدد كبير من المزارات السياحية المشهورة.

(59/11)

---

### \*البوسنة والهرسك

دولة أوروبية إسلامية. تقع في وسط أوروبا. يحدها من الشمال والغرب كرواتيا، ومن الشرق صربيا، ومن الجنوب الجبل الأسود. وتبلغ مساحتها (51.129 كم<sup>2</sup>). يبلغ عدد سكانها (4.519.000) نسمة حسب إحصائية سنة (1992 م)، وتبلغ نسبة المسلمين بينهم (44%)، ويبلغ الصرب الأرثوذكس (31.4%)، أما الكروات الكاثوليك فيبلغون (17.3%). وأهم مدنها: سراييفو العاصمة وجوراجدة وبيهاش وموستان وزينيسيا. وتعد البوسنة دولة زراعية وصناعية، وأهم المحاصيل بها: القمح والشعير والبطاطس

والفاكهة. وكان يُطلق على شعب البوسنة اسم البوشناق، وهم أحد العناصر السلافية (الصقلية) التي سكنت منطقة يوغسلافيا من القرن (1 هـ = 7 م)، وتضم: البوشناق والصرب والكروات. واعتنق الصرب النصرانية على المذهب الأرثوذكسي، أما الكروات فعلى المذهب الكاثوليكي، وأما البوشناق فاعتنقوا العقيدة البوخميلية التي ترفض ألوهية المسيح وعبادة الصليب وتنتقد التنظيم الكنسي؛ مما أثار ضدهم حقد البابا وملوك الإمبراطورية الرومانية الذين حاولوا إرغام البوشناق على التخلي عن عقيدتهم بكل وسائل الضغط فلم يفلحوا. وحينما بدأت الدولة العثمانية الإسلامية فتوحاتها في أوروبا استنجد بها حاكم البوسنة فدخلها العثمانيون سنة (867 هـ = 1463 م)، وأقبل أهلها على الإسلام، واشترك (30) ألفاً منهم في الجيش العثماني وتبوأ بعض الشخصيات منها مراكز مرموقة في الدولة العثمانية، مثل منصب الصدر الأعظم. وظلت البوسنة ولاية إسلامية عثمانية حتى سنة (1878 م) حيث عقدت الدول الأوروبية مؤتمر برلين الذي فرق وحدة الدولة العثمانية، وجعل إدارة البوسنة من حق مملكتي النمسا والمجر، ثم ضمتها النمسا إليها سنة (1909 م). وبعد الحرب العالمية الأولى ظهرت مملكة يوغسلافيا التي ضمت البوسنة وصربيا والجبل الأسود وكرواتيا ومقدونيا وكوسوفو. وفي فترة الملكية هذه تعرض

(60/11)

---

المسلمون في البوسنة لألوان شتى من التعذيب والاضطهاد على يد عصابات الصرب والكروات، بهدف التخلي عن دينهم. وخرجت يوغسلافيا من الحرب العالمية الثانية مهزومة ثم حكمها جوزيف بروزيتو سنة (1945م)، وكان ذا فكر شيوعي طبقه على

يوغسلافيا بعدما ألغى الملكية، وأعلن الجمهورية، واضطهد المسلمين، وألغى تطبيق الشريعة الإسلامية وجميع مظاهر الإسلام فيها، واستمر هذا الوضع حتى سنة (1972 م)؛ إذ سمحت الحكومة للمسلمين ببعض الحريات، وأعدت لهم مساجدهم ومدارسهم. وفي سنة (1990 م) سقطت الشيوعية وتجزأت الجمهورية اليوغسلافية الفيدرالية إلى (6) جمهوريات، كان منها البوسنة التي أعلنت استقلالها، ولكن صربيا رفضت ذلك؛ لأنها كانت تريد إقامة دولة باسم صربيا الكبرى تخلف دولة يوغسلافيا، تكون مقاليد الحكم فيها للصر، فأعلنت الحرب على المسلمين واستمرت هذه الحرب حتى سنة (1995 م)؛ حيث تم توقيع اتفاق دايتون الذي اعترفت فيه الصرب بدولة البوسنة مستقلة، على أن يكون لصر البوسنة دولة لهم داخل البوسنة وإيجاد اتحاد فيدرالى بين المسلمين والكروات.

(61/11)

### \* الصومال

دولة إفريقية تقع بين دائرتي عرض (12) شمالاً و (2) جنوباً، وهى جزء من منطقة القرن الإفريقي، وتجاورها كل من جيبوتي وإثيوبيا وكينيا من الغرب، ولها سواحل على خليج عدن والمحيط الهندي. وتبلغ مساحتها (637.657 كم2)، وعاصمتها مقديشيو. وعدد السكان (7.555.000) نسمة حسب إحصائية سنة (1990 م)، يتكلم معظمهم العربية، إلى جانب لغات أخرى سواحلية، ويعمل (75 %) منهم بالرعى. والإسلام هو الديانة الرسمية. ويبلغ إجمالي الدخل القومي (1.03) مليار دولار، ومتوسط دخل الفرد (170) دولاراً في السنة حسب إحصائية سنة (1989 م). وأهم المحصولات الزراعية: البخور وقصب السكر

والموز والذرة الرفيعة والذرة الشامية والصمغ العربي. وأهم المعادن: الحديد والقصدير والجبس والبوكسيت والأورانيوم. وتعد الصومال دولة رعى من الدرجة الأولى؛ حيث تسهم الثروة الحيوانية بنحو (70%) من الدخل؛ إذ تملك نحو (4) ملايين رأس من البقر، و (6) ملايين رأس من الإبل و (25) مليون رأس من الغنم و (15) مليوناً من الماعز، ونحو (50.000) رأس لكل من الحمير والبعال والخيل، كما تلعب الثروة السمكية دوراً مهماً في الدخل القومي للبلاد. والعملية المتداولة في البلاد هي الشلن.

(62/11)

\* صور

أكبر موانئ الفينيقيين، وواحدة من عظمى مدن العالم القديم. تقع بلبنان جنوبي بيروت، على بعد (85 كم) منها، وتجاورها صرفند وصيدا في شمالها والناقورة في جنوبها. وقد بنيت على جزيرة بموازاة ساحل لبنان في فترة ترجع إلى نحو (2800 ق. م)، ومنذ القرن (5 هـ = 11 م) أصبحت مدينة تجارية عظيمة ذات أسواق تجارية عديدة. وقد أسس الصوريون قرطاجة في القرن (9 ق. م)، واشتهرت صور بصبغها الأرجواني. استولى عليها الآشوريون فالبابليون فالفرس، ثم خضعت للإسكندر الأكبر بعد أن حاصرها شهوراً (333 - 332 ق. م)؛ حيث بنى جسراً وصلها بالبر، ثم ازدهرت تحت حكم الرومان سنة (64 ق. م) ثم فتحها المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، سنة (638 م)، واستولى عليها الصليبيون سنة (1124 م). ويعتمد اقتصادها على صيد الأسماك وزراعة الحمضيات والتجارة الساحلية التي تمتد إلى قبرص وأزمير وبورسعيد. وأهم

صادراتها: التين والخروب والزعر والمصوغات التقليدية التي  
اشتهرت بها.

(63/11)

---

### \*غزنة

مدينة وولاية واسعة في طرف خراسان، وهي الحد بين خراسان  
والهند وتتميز بشدة البرودة. ازدهرت إبان حكم الأسرة الغزنوية  
التركية (962 – 1152 م) وأسسها محمود الغزنوي الذي امتد  
سلطانه من إيران إلى البنجاب، واستولى عليها الإنجليز في  
أثناء الحروب الأفغانية (1839 – 1842 م).

(64/11)

---

### \*الإسكندرونة

لواء الإسكندرونة أو سنجق الإسكندرونة هو الاسم القديم  
لمحافظة هاتاي الواقعة جنوب تركيا وأقصى الشمال الغربي  
من جمهورية سوريا، كانت الإسكندرونة إحدى المدن السورية  
حتى سنة (1939 م) حيث ضمت إلى تركيا. والإسكندر الأكبر  
المقدوني هو الذى بنى مدينة الإسكندرونة سنة (333 ق. م)  
تخليدًا لذكرى انتصاره في معركة إسوس، وأتاح لها موقعها  
الجغرافى أن تكون أحد المنافذ الرئيسية لتجارة الشرق الآتية  
من بلاد الفرس والهند حتى فتح قناة السويس. كانت  
الإسكندرونة ضمن المناطق العربية التي عقدت بشأنها اتفاقية  
سايكس بيكو بين فرنسا وإنجلترا سنة (1916 م)، وكانت من  
نصيب فرنسا التي أعلنت الانتداب على سوريا. وكان عدد من  
سكان لواء الإسكندرونة تركيًّا؛ لذلك سعى أتاتورك – الذى كان

يسعى إلى كسب ود الشعب التركي - إلى إعادة جميع المناطق التي تسكنها عناصر تركية إلى تركيا، ونجح في عقد اتفاقية سنة (1921 م) مع فرنسا وهي اتفاقية أنقرة التي قدمت فرنسا بمقتضاها إلى تركيا بعض الامتيازات في هذا اللواء، منها: السماح للأتراك بحرية تطوير ثقافتهم، واعتبار اللغة التركية لغة رسمية. ثم أخذت الحكومة التركية تشجع سكان هذا اللواء الأتراك على مطالبة فرنسا بالانفصال عن سوريا وعرضت القضية على عصبة الأمم المتحدة سنة (1936 م)، فأرسلت لجنة لعمل استفتاء؛ لمعرفة رغبات السكان. وعلى الرغم من أن الاستفتاء الذي أجرى أظهر أن نسبة الأتراك لا تزيد على (35%) فإن هذه اللجنة أوصت بمنح هذا اللواء استقلالاً ذاتياً في شئونه الداخلية ، على أن تتولى عصبة الأمم إدارته، وكانت هذه الخطوة بموافقة كل من إنجلترا وفرنسا؛ حيث كانتا ترغبان في كسب عطف الشعب التركي وتأييده؛ إذ كانت العلاقة تزداد سوءاً بينهما وبين ألمانيا، وكانت الحرب بينهم على وشك الوقوع فخشيت هاتان الدولتان من انضمام تركيا إلى ألمانيا. وأحس

(65/11)

---

السوريون أن ذلك مخطط لاقتطاع جزء من بلادهم؛ فأخذوا يتصدون للدعوى التركية، ولكن دون فائدة؛ إذ نجحت تركيا سنة (1939 م) في عقد معاهدة مع فرنسا ضمت بمقتضاها هذا اللواء إليها نهائياً، ثم عُرف باسم مقاطعة هاتاي، وهو الآن محافظة من المحافظات التركية. ولا تزال سوريا تطالب بالإسكندرونة باعتباره لواءً سُلِبَ منها.

(66/11)

## \*الصين

تقع في شرق آسيا، وتجاورها منغوليا شمالاً، والاتحاد السوفيتي سابقاً في الشمال الشرقي والشمال الغربي، وأفغانستان وباكستان في الغرب، وكل من الهند ونيبال وبوتان وبورما ولاوس وفيتنام في الجنوب، وكوريا الشمالية في الشمال الشرقي. وتبلغ مساحتها (9.596.961 كم<sup>2</sup>). وعدد سكانها نحو (1.143.729.000) نسمة حسب إحصائية سنة (1992 م)، نصفهم من فئة الشباب الذين لا تتجاوز أعمارهم ثمانى عشرة سنة. واللغة الرسمية هي الصينية. والديانة الرسمية هي البوذية. وعدد المسلمين فيها حوالى (150) مليون مسلم، والعاصمة بكين وفيها نحو (8) ملايين نسمة. وأهم مدنها شنغهاي وتيان تسين، ويبلغ إجمالي الدخل القومي (393) مليار دولار حسب إحصائية سنة (1989م)، ودخل الفرد (360) دولاراً في السنة، وأهم المحاصيل الزراعية: الأرز والقطن والشاي، وأهم المعادن: الحديد والرصاص والمنجنيز والزئبق والقصدير، وأهم مصادر الطاقة: الفحم، وأهم الصناعات: الحديد والصلب والمنسوجات والأدوات الزراعية. والعملة المتداولة (اليوان). وتعد أسرة شانج أول أسرة حكمت الصين (1523 - 1027 ق. م)، وفي العصر الحديث بدأ ضعف الصين عندما هزمتها اليابان في حربها الأولى ضدها (1894 - 1895 م)، ثم وضعت يدها على معظم الأراضى التي كان الأجانب قد انتزعوها منها، وذلك بعد الحرب العالمية الثانية بين سنتى (1939، 1945 م). وفي سبتمبر سنة (1949 م) أعلنت جمهورية الصين واختير ماوتسى تونج رئيساً لها.

## \* إنجلترا

أكبر قسم سياسى فى المملكة المتحدة (بريطانيا). مساحتها (130.800) كم2. ويجدها من الشرق بحر الشمال، ومن الغرب إمارة ويلز، ومن الشمال اسكتلندا، ومن الجنوب القناة الإنجليزية ومضيق دوفر. وعاصمتها لندن. ومناخ إنجلترا معتدل، ويسهل اتصالها بالعالم الخارجى عن طريق موانئها الجنوبية والشرقية والغربية الواقعة على مصاب أنهار أو على سواحل البحار والمحيطات. استمدت إنجلترا معظم ثروتها الطائلة فى الأعوام المائتين الأخيرة من الأرض السوداء التى توجد فيها صناعاتها الكبرى؛ لتوافر الفحم والحديد فيها، وأهم مدنها الصناعية: لندن (العاصمة) ومانشستر وليفربول وليدز وشفيلد وبرمنجهام. وكانت إنجلترا فى القرن (13 هـ = 19 م) تقود العالم فى تصدير السلع المصنوعة، وكان من أسباب توسع تجارتها ازدهار مدنها. وتكون إنجلترا وويلز واسكتلندا وشمال أيرلندا جميعاً المملكة المتحدة. والتعليم فى إنجلترا بالمجان حتى السادسة عشرة. وفيها (11) جامعة، أعظمها وأقدمها جامعة أكسفورد وكمبرج.

(68/11)

## \* أنقرة

عاصمة الجمهورية التركية منذ سنة (1342 هـ = 1924 م). وتقع فى القسم الآسيوى من تركيا، على الضفة الغربية للوادى الذى تمر فيه مياه نهر أنجورة. وتبعد عن إستانبول مسافة (578) كم ، وتبلغ أقرب مسافة بينها وبين البحر الأسود (185) كم. ولا يُعلم على وجه التحديد تاريخ تأسيس أنقرة، إلا أنه يُروى أن الحثيين الذين حكموا المنطقة سنة (2000 ق. م) هم الذين

أسسوها. وكانت أنقرة تابعة للإمبراطورية البيزنطية مدة سبعة قرون ونصف قرن من سنة (334 م) إلى سنة (1073 م). وقد تمكن المسلمون من فتحها سنة (34 هـ = 654 م)، غير أنهم لم يستقروا فيها، ثم تمكنت جيوش الخليفة العباسي هارون الرشيد من فتحها سنة (183 هـ = 799 م). وبعد انتصار السلطان السلجوقي ألب أرسلان على الجيوش البيزنطية في موقعة ملاذكرد سنة (464 هـ = 1071 م) فتحت الأناضول وأنقرة ذراعها للفاحين الأتراك. وعندما تدهورت السلطنة السلجوقية وقعت أنقرة في أيدي الجرمانيين، واستمر حكمهم لها حتى سنة (708 هـ = 1308 م)؛ إذ دخلت الأناضول كلها تحت حكم الإيلخانيين، ثم ضمها السلطان الإيلخاني سليمان باشا بن أورخان إلى الدولة العثمانية سنة (755 هـ = 1354 م). وأهم الآثار في أنقرة: - جامع أصلان خانة الذي أنشئ في سنة (689 هـ = 1290 م). - قصر جانقايا كوشكو، وهو الآن متحف ومقر لرياسة الجمهورية. - متحف مجلس الأمة. وقد بلغ عدد المساجد في أنقرة (2209) مساجد في سنة (1410 هـ = 1989 م). ويبلغ سكان مدينة أنقرة نحو (2.918.261) نسمة، حسب إحصائية سنة (1405 هـ = 1984 م)، وهي بذلك تحتل المرتبة الثالثة في التعداد بعد إستانبول وأزمير. وتمثل اللغة التركية نسبة (97%) من لغات سكان أنقرة، ويتجاوز عدد المسلمين بها هذه النسبة بقليل.

(69/11)

### \* الأهواز

منطقة إيرانية قريبة من البصرة بالعراق. كانت تُسمى: خوزستان، وقد يطلق عليها عربستان أيضاً. تتألف الأهواز من عدة مدن أو قرى، هي: رامهرمز وإنديج وعسكر مكرم وتستر

وجنديسا بور والسوس وسُرق ومناذر، وعاصمتها سوق الأهواز، ويجرى فيها نهر تيرى. وفتح المسلمون الأهواز على إثر موقعة القادسية سنة (14 هـ = 635 م). وقد أنجبت منطقة الأهواز عددا من العلماء والزهاد والصوفية طيلة الفترة التي ظلل فيها الإسلام أهلها بحضارته، وانتشرت بها اللغة العربية. وعُنت إيران عناية خاصة بالأهواز في العقود الأخيرة؛ فقامت ببناء سد محمد رضا، ويقوم هذا السد بتنظيم رى مساحة تبلغ (125000) هكتار، وأهم المحاصيل الزراعية فيها: النخيل والأرز. وفي الأهواز أكبر مصفاة للنفط في العالم، وهي تكرر نحو (25) مليون طن منه سنوياً في ميناء عبدان.

(70/11)

### \*البصرة

مدينة عربية في العراق. تقع على الضفة الغربية لشط العرب، على بُعد (590) كم من جنوبي شرقي بغداد، و (110) كم من شمالي الخليج العربي، وتبلغ المسافة بينها وبين الحدود العراقية الكويتية نحو (50) كم. والبصرة في اللغة: هى الأرض الغليظة ذات الحجارة الصلبة. وقد فتحها المسلمون سنة (14 هـ = 635 م) في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، وكان عتبة بن غزوان أحد قادة الجيش. وقد بنى فيها عتبة مسجداً وداراً للإمارة، كما بنى المساكن حولها مستخدماً القصب. وكانت البصرة مركزاً لإدارة العراق خلال عهد بنى أمية، وكثر عمرانها، وأنشئ فيها عدد كبير من الدور الفخمة، وبلغت في العصر العباسى شأناً عظيماً؛ إذ كانت مركزاً تجارياً مهماً، وخاصة في عهد هارون الرشيد، كما قصدتها طلاب العلم للدراسة على أيدي علمائها. وتعد البصرة من أكبر مراكز الحركة العلمية

في القرون الأربعة الأولى للهجرة. ونبغ فيها عدد كبير من العلماء، مثل: أبي الأسود الدؤلي والخليل بن أحمد وسيبويه، كما برز فيها عدد كبير من فحول الشعراء، مثل: الفرزدق وبشار بن برد ومسلم بن الوليد وأبي نؤاس. واشتهر من أدبائها وكتابها ابن المقفع والجاحظ والحريري، كما ظهر فيها مذهب الاعتزال على يد واصل بن عطاء، ومن علمائها المعروفين في العلوم الطبيعية الحسن بن الهيثم. وقد اشتهرت البصرة بزراعة النخيل، وإنتاج التمور، ويوجد بالعراق أكثر من (30) مليون نخلة معظمها في البصرة. وهي اليوم مدينة كبيرة، تتخللها شوارع فسيحة، وتنتشر فيها الحدائق الواسعة، وبها عديد من مؤسسات الدولة، مثل: جامعة البصرة التي أنشئت سنة (1384 هـ = 1964 م)، ومتحف التاريخ الطبيعي الذي أنشئ سنة (1392 هـ = 1972 م).

(71/11)

---

### \*البطاح

البطاح والأباطح: جمع بطحاء، ومعناها في اللغة: مسيل فيه دُقاق الحصى، وهي بطاح مكة، ويقال لقريش الداخلة: البطاح، وقريش البطاح هم الذين يسكنون بالشعب الذي بين أخشى مكة، كما توجد بطحاء المدينة، فقد قيل: وَطَحَا المدينة لى منزلٌ فيأحبُّذا ذاك من منزل

(72/11)

---

### \*بطحاء

البطحاء في اللغة: المسيل الواسع الذي فيه دقاق الحصى،

وقيل: كل موضع متسع، وقال عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، بطحوا المسجد، أى: ألقوا فيه الحصى الصغار. وهى منطقة بالقرب من ذى القار. ويطحاء مكة: الجذع من وادى إبراهيم الممتد من الحجون إلى المسجد الحرام، وما فوق ذلك إلى المنحنى يُسمى الأبطح، وما أسفل ذلك يُسمى المسفلة. وقال البكرى: البطحاء: ماحاز السيل من الردم إلى الحنطين يميناً مع البيت، وليس الصفا من البطحاء. وهناك بطحاء المدينة، ويطحاء المغرب الموجودة قرب تلمسان؛ إذ تبعد عنها بنحو ثلاثة أو أربعة أيام.

(73/11)

---

#### \*بودابست

عاصمة المجر. تقع على ضفتى نهر الدانوب، وتتألف من مدينتين، هما بودا، وتقع على الضفة اليمنى، وبست، وتقع على الضفة اليسرى، وقد اتحدت المدينتان فى مدينة واحدة منذ عام (1873 م) لتصبح عاصمة المجر. ويتركز فى بودابست نحو (60%) من مصانع المجر. ومن أهم الصناعات فيها: المنسوجات والأدوات الكهربائية. وتُعد بودابست المركز الثقافى الرئيسى بالمجر؛ فتوجد فيها كبرى الجامعات، كما أنّها من أجمل المدن الأوربية، واشتهرت بنشاطها فى الأدب والمسرح والموسيقى، واجتذبت السياح بمياهها المعدنية وآثارها التاريخية.

(74/11)

---

#### \*بودا

عاصمة المجر. تقع على ضفتى نهر الدانوب، وتتألف من

مدينتين، هما بودا، وتقع على الضفة اليمنى، وبست، وتقع على الضفة اليسرى، وقد اتحدت المدينتان في مدينة واحدة منذ عام (1873 م) لتصبح عاصمة المجر. ويتركز في بودابست نحو (60%) من مصانع المجر. ومن أهم الصناعات فيها: المنسوجات والأدوات الكهربائية. وتعد بودابست المركز الثقافي الرئيسي بالمجر؛ فتوجد فيها كبرى الجامعات، كما أنها من أجمل المدن الأوروبية، واشتهرت بنشاطها في الأدب والمسرح والموسيقى، واجتذبت السياح بمياهها المعدنية وآثارها التاريخية.

(75/11)

### \*شيراز

مدينة تقع جنوب إيران، وهي عاصمة إقليم فارس. يحدها من الشمال محافظة آبادة، ومن الجنوب محافظة فيروز آباد، ومن الشرق محافظة فسا، ومن الغرب محافظة كازرون. وتنقسم إدارياً إلى ثلاثة أقسام، هي: القسم المركزي، وزركان، ومسروستان. ويبلغ عدد سكانها نحو (1.126.591) نسمة حسب إحصائية سنة (1406 هـ = 1986 م). وتعد شيراز إحدى المدن الزراعية المهمة بإيران، وتشتهر بزراعة الأرز والحبوب وقصب السكر والبنجر والقطن الصيفي، كما يتميز العنب الذي يزرع فيها بجودته عالمياً بين دول الشرق المنتجة له. وقد تأسست مدينة شيراز إبان الحكم الأموي عام (64 هـ = 685 م)، وأصبحت حاضرة لإقليم فارس، وفي عام (232 هـ = 847 م) استولى عليها الطاهريون، ثم الصفاريون عام (255 هـ = 869 م) على يد يعقوب الصفار، ثم ضمها البويهيون عام (331 هـ = 944 م) فالسلاجقة، ثم دخلت حكم الصفويين حتى جعلها الزنديون عاصمة لهم. وكانت شيراز على مر العصور موطناً للعلماء والشعراء الذين أقبلوا

إليها من كل بقاع الأرض. وأهم العلماء الذين أنجبتهم: سلمان  
الفراسى وعبد الله بن المقفع وأبوحيان التوحيدى وإبراهيم  
بن على بن يوسف الفيروز آبادى وسعدى الشيرازى وحافظ  
الشيرازى وشهاب الدين عبد الله الشيرازى.

(76/11)

---

### \*الصحراء الشرقية

تمتد ما بين البحر الأحمر ووادى النيل. ويبلغ طولها (1076) كم،  
أى طول مصر، أما عرضها فيتراوح بين (200 و 500) كم. وتبلغ  
مساحتها (225) ألف كم<sup>2</sup>. وتتألف الصحراء الشرقية من سلسلة  
جبلية مكونة من الصخور النارية التى تحيط بها من الجانبين،  
ومن الشمال رواسب بحرية، مؤلفة صخوراً رسوبية، وهى صحراء  
حجرية تحيط بها الرمال من كل الجهات؛ فمن الشرق رمال الأودية  
ورمال ساحل البحر، ومن الغرب تتمة الصحراء الغربية، ومن  
الشمال رمال صحراء شرقى الدلتا. وتوجد فيها سلسلة جبال  
البحر الأحمر التى تمتد على طول ساحل البحر، وفيها جبل  
حناطة وجبل الشايب وجبل غارب، وتنتهى هذه الجبال مقابل  
رأس غارب على خليج السويس.

(77/11)

---

### \*الصحراء الغربية

تمتد من الجنوب من حدود السودان إلى الشمال حتى ساحل  
البحر المتوسط، بطول يبلغ أكثر من (1000) كم، وتمتد من الغرب  
من حدود ليبيا إلى وادى النيل فى الشرق، بعرض يبلغ ما يقرب  
من (665) كم، ويبلغ معدل ارتفاعها (1000) متر فى الجنوب

حيث هضبة الجلف الكبير، و (200) متر في الشمال قرب ساحل البحر. وتبلغ مساحتها (681) ألف كم<sup>2</sup>. وتنتشر الواحات في الصحراء الغربية، وتختلف هذه الواحات من حيث المساحة؛ إذ إن بعضها كبير يزيد على ضعف مساحة لبنان، مثل: منخفض القطارة، وبعضها صغير لا يزيد على عدة مئات من الكيلومترات المربعة، مثل: وادي كركر، كما تختلف هذه الواحات من حيث السكان؛ إذ إن بعضها غير مأهول بالسكان، مثل: منخفض القطارة، وكركر، وبعضها مزدحم بالسكان، مثل: الخارجة والداخلة والفيوم وسيوة والفرافرة والبحرية. ويوجد في الجزء الشمالى والجزء الأوسط من الصحراء الغربية سلسلة من المنخفضات، تقع كلها دون مستوى سطح البحر. ومساحة هذه المنخفضات أكثر من (45) ألف كم<sup>2</sup> في حين أن سكانها لا يزيدون على مائة ألف نسمة.

(78/11)

#### \*الفسطاط

مدينة أسسها عمرو بن العاص بإذن من الخليفة عمر بن الخطاب، رضى الله عنهما، بعد فتح مصر، وكان موضعها فضاء ومزارع بين النيل والمقطم، بالقرب من حصن بابليون، وكان إلى الشمال والشرق من هذا الحصن أشجار ونخيل، وبين الحصن والجبل عدة كنائس وأديرة، وكانت الفسطاط تقع في المنطقة التي حول جامع عمرو، وتمتد شرقاً حتى قرب سطح جبل المقطم، وشمالاً حتى جهة فم الخليج وقناطر السباع وجبل يشكر، وغرباً حتى النيل، وجنوباً حتى ساحل أثر النبي. وبعد أن فتحها عمرو بن العاص، رضى الله عنه، شيد فيها مسجداً وداراً للإمامة حتى بنيت مدينة العسكر سنة (132هـ). ولما أسس الفاطميون القاهرة

تفهدقر حال الفسطاط؁ وشملها الإهمال وهى الآن ضمن مدينة القاهرة عاصمة مصر .

(79/11)

### \*فرنسا

هى أكبر دولة فى أوربا؁ ومساحتها نحو (551.500) كم2؁ وعدد سكانها نحو (60) مليون نسمة؁ وتقع بين خطى عرض (42؁ و51) شمالاً؁ ويحدها من الشمال القنال الإنجليزى؁ ومن الغرب المحيط الأطلنطى؁ ومن الجنوب الغربى إسبانيا والبحر المتوسط؁ ومن الشرق إيطاليا وسويسرا وألمانيا. وأهم مدنها باريس العاصمة ومرسيليا ونانت وبوردو وسانت إيتيان؁ ويعتمد اقتصادها على الزراعة والصناعة؛ فالزراعة تشغل مكانة مهمة فى الاقتصاد الفرنسى؁ ويحصل ثلث السكان على دخولهم من الزراعة؁ ومن أهم الحاصلات الزراعية: الذرة والأرز والقمح والكروم وبنجر السكر والفواكه والخضراوات والبطاطس؁ أما الصناعة فيشتغل بها أكثر من (35 ٪) من الأيدى العاملة؁ ومن أهم الصناعات فيها: صناعة السيارات والحديد والصلب والمنسوجات والكيماويات والطائرات والعطور والأجهزة الإلكترونية؁ كما توجد بها ثروة حيوانية كبيرة ومصادر للأسمك؁ وكثير من المعادن؁ مثل: البوكسيت والحديد؁ ومصادر الطاقة؁ كالفحم والبتترول. وكانت فرنسا تُعرف باسم غاليا أو بلاد الغال. وقد احتلها الرومان بقيادة يوليوس قيصر سنة (58 ق.م)؛ بحجة مساعدة أهلها على طرد الجرمان؁ إلا أنه رفض مغادرتها فيما بعد. وفى القرن الخامس الميلادى تعرضت غاليا لهجوم البرابرة؁ وبعد عدة سنوات من المعارك تمكن القائد الإفرنجى كلوفيس من أن يفرض سيطرته عليها؁ فأصبحت تُسمى

بلاد الإفرنجية أو فرنسا، وبعد موت كلوفيس انقسمت البلاد إلى ثلاث ممالك، وفي عام (687 م) تمكن دي هرشتال من أن يصبح القائد الحقيقي للممالك الثلاث. وفي عام (751 م) أسس الوزير بيان الصغير الدولة الكارولنجية، ومن أشهر ملوكها شارلمان بن بيان. وفي (987 م) تُوفّي آخر ملوك الدولة الكارولنجية، وانتخب محله هوغ كابي الذي أسس الدولة الكايبية. وفي عهد حكم الفالوا قامت الحرب الفرنسية-الإنجليزية التي استمرت نحو

(80/11)

---

مائة سنة (1337 - 1440 م). وفي القرن (10هـ = 16 م) قامت الحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت. ولم تنته تلك الحروب إلا في عام (1598 م). وفي القرن (11هـ = 17 م) سيطرت فرنسا على أوروبا من خلال سلسلة من الحروب قادها الملك لويس الرابع عشر. وفي عصر نابليون بونابرت قام نابليون بإلغاء الحريات وتركيز السلطات في السلطة التنفيذية. وفي القرن (14هـ = 20 م) خاضت فرنسا الحرب العالمية الأولى (1914 - 1918 م) ضد ألمانيا، وانتصرت فرنسا فيها، كما خاضت الحرب العالمية الثانية (1939 - 1945 م) ضد ألمانيا أيضاً بعد إقدام هتلر على غزو بولونيا. وانحزمت فرنسا في هذه الحرب هزيمة قاسية في أقل من شهر، بسبب عدم استعداد جيشها. ويحكم فرنسا الآن (1997 م) - الرئيس جاك شيراك، خلفاً للرئيس فرانسوا ميتران.

(81/11)

---

\*صُحار

ميناء بسلطنة عُمان. يطل على خليج عُمان. وتقع صُحار في

موضع متوسط بين مطرح وكلبا. وتتميز بنقاء هوائها، وإنتاج الفواكه. وقد قيل: إنها تُنسب إلى صحار بن إرم بن سام بن نوح، وفتحها المسلمون دون حرب في عهد أبي بكر الصديق، رضى الله عنه، سنة (12 هـ = 633م)، ولا تزال تحتفظ بأسوارها وتحصيناتها؛ لصد قوات الغزو البحرى الأجنبى. ومع ذلك فقد قضى البرتغاليون على أهميتها التجارية. ويُنسب إلى صحار عدد من العلماء والأدباء، أشهرهم الشاعر أبو على محمد بن زوزان الصحارى العماني.

(82/11)

---

\*شيزر

مدينة بسوريا. تقع على نهر العاصى، وهى ذات موقع استراتيجى حصين، ولا تزال أطلال حصنها قائمة حتى اليوم، وتعد من المعالم التاريخية السورية، وأقيمت قلعتها على جرف وعر يُعرف باسم عرف الديك. وقد فتحها المسلمون بدون حرب بقيادة أبي عبيدة بن الجراح سنة (17هـ = 638م)، ونظرًا إلى موقعها الاستراتيجى فقد ارتبط تاريخها بأحداث الحروب بين الإمبراطورية البيزنطية وأمراء الشام المسلمين، ثم ارتبطت بأحداث الحروب الصليبية. ومن أحداث شيزر العامة ما أصابها من زلازل عام (552 هـ = 1157 م). ويُنسب إليها جماعة من العلماء، منهم: الحسين بن سعيد بن المهند بن سلمة بن أبي على الطائى الشيزرى، وأبو الحسن الجنابى وعلى بن الخضر السلمى.

(83/11)

---

## \*باكو

ميناء على بحر قزوين، وعاصمة جمهورية آذربيجان. ويوجد فيها نحو (15 %) من رصيد العالم من البترول، وهى المركز الرئيسى للبترول فى آذربيجان. وقد بدأت صناعة البترول فيها فأواخر القرن التاسع عشر الميلادى، كما أن فيها كثيرًا من المؤسسات الثقافية. وقد استولى العثمانيون على باكو فى عام (991 هـ = 1583 م)، ثم تبادلتها أيدى الفرس والروس حتى استسلمت للفرس عام (1806 م). وفى عام (1338 هـ = 1920 م) كانت باكو مقرًا للمؤتمر الذى دعت إليه الحكومة السوفيتية آنذاك، واشتركت فيه كثير من الأمم الشرقية الإسلامية.

(84/11)

## \*الأحساء

الأحساء علم لعدة مواضع من بلاد الجزيرة العربية أشهرها، أحساء الخليج، وهى منطقة سعودية تقع شرق شبه الجزيرة العربية، وتطل على الخليج العربى، وتحيط بها صحراء الدهناء من الغرب، ويحدها من الشمال الكويت، وتلتقى مع الربع الخالى من الجنوب. وكانت خاضعة لحكم الفرس قبل ظهور الإسلام، وفى سنة (6هـ = 627م) أرسل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الصحابى العلاء بن عبد الله الحضرمى - رضى الله عنه - إليها، وكان عليها المنذر بن ساوى ملك البحرين من قبل الفرس، وقد أسلم المنذر وحسن إسلامه، ثم ولى الرسول - صلى الله عليه وسلم - العلاء الحضرمى على البحرين، وظلت الأحساء تابعة للدولة الإسلامية إلى أن حكمها القرامطة (180 عامًا) بدءًا من سنة (286هـ = 899 م)، ثم نزلت بالقرامطة الهزيمة من أحد فروع عبد القيس، وظلت هذه المنطقة خاضعة لحكم الأعراب حتى دخلت تحت حكم العثمانيين فى القرن (10هـ = 16م). وفى سنة

(1074هـ = 1663م) استعاد شيوخ بني حميد حكم الأحساء، ثم تمكن آل سعود من فتحها، وإزالة آل حميد عند قيام دولتهم الأولى بقيادة محمد بن سعود، ثم أعادها إبراهيم بن محمد علي إلى الحكم العثماني، ثم ضمها تركي بن عبد الله إلى الدولة السعودية الثانية سنة (1245هـ = 1829م)، ثم تمكن الوالي التركي مدحت باشا في سنة (1288هـ = 1871م) من ضمها إلى ولاية البصرة وبقيت تابعة للخلافة العثمانية لمدة (42) سنة استطاع بعدها عبد العزيز آل سعود سنة (1332هـ = 1913م) أن يضمها إلى الدولة السعودية الثالثة؛ فأصبحت جزءًا من المملكة العربية السعودية التي أسسها عبد العزيز آل سعود. ويوجد بالأحساء معالم سياحية كثيرة أشهرها عين أم سبعة؛ فهي أشهر عيون الأحساء الطبيعية، وعين نجم التي تمتاز بمياهها المعدنية، كما تحتوى على بعض الآثار التاريخية، وأهمها: مسجد جوثا الذي يعد أول مسجد أسس في شرق الجزيرة العربية.

(85/11)

### \*آذربيجان

جمهورية إسلامية. تقع غربى بحر قزوين. يحدها من الغرب جمهورية أرمينيا، ومن الشمال الغربى جمهورية جورجيا، ومن الشمال داغستان، ومن الجنوب إيران. وكلمة آذربيجان فارسية الأصل، وتعنى أرض النار؛ لكثرة معابد النار التي كانت قائمة فيها قبل الإسلام. وتبلغ مساحة آذربيجان نحو (86.630 كم<sup>2</sup>)، ويبلغ عدد سكانها نحو (8.794) نسمة، وفق إحصائية سنة (1412هـ = 1992م). وأهم المدن فى آذربيجان باكو، وهى عاصمة البلاد، وتقع على بحر قزوين، وهى من كبريات مدن

آسيا الوسطى، ومن المدن المهمة أيضاً كيروفاباد وأرمية وسمحيت وتاخشتفان. ويعتمد اقتصاد آذربيجان على الزراعة؛ نظرًا لتوافر مياهها، وتوجد فيها زراعة الفاكهة، كما أن لديها ثروة حيوانية هائلة، بالإضافة إلى الصناعات المختلفة في مدينة باكو، مثل: صناعات البترول، وصناعة الحديد، وصناعة الأسمت ، ونسج القطن. وقد بدأ الإسلام ينتشر في آذربيجان عقب حملات الفتوح الإسلامية التي سارت إليها في عهد عمر بن الخطاب. وقد ازداد الانتشار الإسلامى فيها في عهد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك واستمر هذا الانتشار في العصر العباسى. وقد استولى المغول على آذربيجان سنة (628هـ = 1230م)؛ فأصبحت جزءًا من إمبراطوريتهم، وفي سنة (1221هـ = 1806م) قام الجيش الروسى بقيادة الإسكندر الأول بغزو آذربيجان، واحتل القوقاز، ثم أخضعها له نهائيًا سنة (1281هـ = 1864م). وقد عانت آذربيجان معاناة شديدة تحت وطأة السيطرة الروسية؛ فهدمت مساجدها، ودمرت دور العلم الدينية فيها، وحرقت المكتبات، وقد استمرت روسيا على هذه السياسة حتى انهار الاتحاد السوفييتى سنة (1412هـ = 1991م)، وأعلنت آذربيجان استقلالها، وأخذت تعمل على توطيد علاقاتها بالدول الإسلامية، خاصة إيران وتركيا وأفغانستان.

(86/11)

### \*الأبواء

قرية تقع بين المدينة المنورة والجحفة وتبعد عن المدينة بنحو (46 كم)، وهى الآن وادٍ فيه آبار كثيرة، وزراعة في إمارة رابع، من إمارات مكة المكرمة. وسميت بهذا الاسم؛ لتبوء السيل بها، أى نزوله فيها. وقد دفنت السيدة آمنة بنت وهب أم رسول الله

(بالأبواء، عندما كانت تزور أبا جد النبي - صلى الله عليه وسلم - وكان معها سيدنا محمد (، وكان الرسول يتذكر أشياء حدثت له في تلك الزيارة؛ فقد نظر إلى بني النجار بعد الهجرة قائلاً: وهنا نزلت بي أمي، وفي هذا الدار قبر أبي عبد الله، وأحسنت العموم في بئر بني عدى بن النجار. وقد حدثت فيها غزوة الأبواء؛ وذلك أن النبي (خرج في سبعين رجلاً من المهاجرين، ليعترض عيراً لقريش حتى بلغ ودان (بقرب الأبواء)، وكان يحمل لواء هذه الغزوة حمزة بن عبد المطلب، وفي هذه الغزوة عقدت معاهدة حلف بين النبي - صلى الله عليه وسلم - وعمر الضمري، وكان نصها: هذا كتاب من محمد رسول الله لبيئ ضمرة، فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وإن لله النصر على من رامهم، إلا أن يحاربوا دين الله، ما بل بحر صوفة (أى دائماً) وإن النبي إذا دعاهم لنصره أجابوه.

(87/11)

### \*أرخبيل

أرخبيل كلمة معربة عن اللفظ اللاتيني A (صلى الله عليه وسلم) chipelago، وتعني مجموعة من الجزر المتجاورة، أو بحرًا يضم عدة جزر، وغالبًا ما تتكون من صخور بركانية قوسية الشكل. وتظهر جزر الأرخبيل بوضوح في وسط المحيط الهادى وجنوبه، مثل: جزر إندونيسيا وجزر ماركوس وجزر هاواي، كما تظهر في المحيط الأطلنطي، مثل: أرخبيل الأنتيل. ويتكون أرخبيل جزر إندونيسيا من مجموعة من الأقواس الجزرية، وتتكون من أربع جزر كبرى، هي: جاوا وسومطرة وبورنيو وسيليبس، وتقع عاصمة إندونيسيا جاكارتا في أقصى الطرف الشمالى الغربى لجزيرة جاوا، ويمتد أرخبيل جزر إندونيسيا من الشرق إلى الغرب إلى مسافة طولها نحو (4000 كم) بين دائرتى

عرض (6) شمالاً و (10) جنوباً. أما أرخبيل الأنتيل فيتكون من مجموعة من الجزر العديدة التي تتناثر في المسطح المائي الذي يفصل أمريكا السكسونية عن أمريكا اللاتينية، وكانت تعرف بجزر الهند الغربية، وتبلغ مساحتها نحو (230000 كم<sup>2</sup>). وتقع معظم جزر هذا الأرخبيل في المحيط الهادى تحت حماية الدول الكبرى، مثل: الولايات المتحدة الأمريكية وشيلي والمكسيك وأستراليا والاتحاد السوفيتى السابق. وترجع أهمية جزر المحيط الهادى إلى أنها مصدر للسماد الطبيعي، وأن بها صخوراً تحوى خامات معدنية، مثل: الذهب والفوسفات والمنجنيز والنيكل كروم. ولبعض تلك الجزر أهمية استراتيجية أيضاً؛ نظراً لمواقعها الجغرافية الممتازة، مثل: جزر هاواى التي تعد البوابة الغربية لأراضى الولايات المتحدة الأمريكية.

(88/11)

### \*أريحا

مدينة عربية تقع على مسافة (37 كم) شرقى الشمال الشرقى لمدينة القدس. وتقع أريحا في الطرف الغربى لغور الأردن الغربى، أو ما يعرف محلياً بغور أريحا، وهى أقرب إلى الحافة الجبلية لوادى الأردن الانهدامى منها إلى نهر الأردن. وتقوم أريحا اليوم على هضبة منبسطة هى إحدى المدرجات البحرية القديمة التى نشأت بعد انحسار البحيرة الأردنية القديمة وجفافها، وتنخفض أريحا نحو (276 م) عن سطح البحر. ومناخ أريحا ينتمى إلى المناخ المدارى الصحراوى؛ فمتوسط درجة الحرارة السنوى (23.5)، وقلما يحدث الصقيع، أو تسقط الثلوج فى أريحا؛ لذلك تعد من أكثر أماكن فلسطين المفضلة للتشبية. وتعتمد أريحا فى اقتصادها على الزراعة والسياحة والصناعة: -

الزراعة: عُرفت أريحا منذ القدم بغزارة مياهها، وخصوبة تربتها؛ ولذلك اشتهرت بالزراعة منذ صدر الإسلام، وتؤكد منتجاتها الزراعية مدى أهميتها بالنسبة إلى الأسواق المحلية والخارجية. وتزرع أريحا القمح والشعير والذرة والسّمسم والموز والعنب والنخيل. - السياحة: يزور أريحا عدد كبير من السياح سنويًا، ولاسيما في فصل الشتاء؛ لزيارة الأماكن الأثرية والدينية وللاستمتاع بدفء الشتاء. - الصناعة: في أريحا عدة صناعات، مثل: صناعة السكر من قصب السكر، والتمر من البلح، والحصير من القصب، وهناك مصانع للنسيج أيضًا.

(89/11)

#### \*إشبيلية

مدينة أندلسية قديمة النشأة. تقع في الجانب الغربي من بلاد الأندلس (إسبانيا والبرتغال)، وتبعد عن ساحل المحيط الأطلسي بنحو (60) ميلاً. ويحدها من الغرب غرناطة، ومن الشمال الغربي قرطبة، وأصل كلمة إشبيلية إشبالي، بمعنى المدينة المنبسطة. وقد فتحها المسلمون سنة (94 هـ = 713 م) بقيادة طارق بن زياد، بعد أن حاصرها عدة شهور، واتخذها موسى بن نصير عاصمة، وبعد قيام الدولة الأموية في بلاد الأندلس تمتعت إشبيلية بازدهار شامل، وعاش فيها مجموعة من الأسر المسلمة، بالإضافة إلى بعض الطوائف اليهودية، وعدد كبير من النصارى. وقد دخلت إشبيلية تحت حكم المرابطين سنة (484 هـ = 1091 م)، ثم الموحدين سنة (541 هـ = 1147 م)، ثم سقطت في أيدي النصارى القشتاليين سنة (646 هـ = 1248 م). وتوجد في إشبيلية مصانع للسماد والزيوت والأسمت والخزف، ويعد مصنع الخزف فيها من أشهر مصانع إسبانيا. وإشبيلية - حاليًا -

جامعة بنيت منذ قرنين، ومن الآثار الحضارية الباقية في هذه المدينة إلى الآن متذنة المسجد الأعظم، ويبلغ ارتفاعها (96) متراً، وفيها - أيضاً - قصور غاية في الروعة الفنية، منها: المبارك والبستان وسعد السعود والثريا والزاهر.

(90/11)

### \*أصفهان

أصفهان أو أصبهان - بفتح الهمزة وكسرها - ثانية كبرى المدن الإيرانية بعد العاصمة طهران، وأصلها في الفارسية أسباهان، أى: مدينة الجيش. تقع بين مدينتي شيراز وطهران، وتبعد عن الأخيرة بنحو (240) ميلاً. وقد فتحها المسلمون سنة (23 هـ = 643 م)، وقيل: سنة (19 هـ = 640 م) بقيادة أبي موسى الأشعري وعبد الله بن بديل الخزاعي في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، وانتشر الإسلام فيها. وفي سنة (301 هـ = 913 م) دخلت أصفهان تحت حكم الساميين. وفي سنة (321 هـ = 933 م) دخلت تحت حكم البويهيين. وقد استولى عليها التتار بقيادة تيمورلنك سنة (879 هـ = 1474 م) فدمروها، وقتلوا عددًا كبيرًا من أهلها. وفي سنة (955 هـ = 1548 م) فتحها العثمانيون، وبقيت تحت الحكم العثماني إلى أن استولى عليها الصفويون، وفي عهدهم انتشر فيها المذهب الشيعي. وفي سنة (1335 هـ = 1916 م) احتلها الروس، ثم تمكن الإيرانيون من استردادها. وتعد أصفهان مركزًا زراعيًا وصناعيًا وتجاريًا: - فمن الناحية الزراعية تتنوع المحاصيل الزراعية فيها، ويمثل القطن أهمها، ومن الفواكه تزرع البطيخ والشمام والليمون والبرتقال. - ومن أشهر الصناعات بأصفهان صناعات المنسوجات الحريرية والصوفية، والسجاد. وتنتج أصفهان وحدها منها نحوًا من (92

(%) من إنتاج إيران. - أما من الناحية التجارية فتتميز أصفهان بحركة تجارية رائجة منذ القدم، كما تتميز بعدد من الأسواق العريقة.

(91/11)

### \*أصفهان

أصفهان أو أصفهان - بفتح الهمزة وكسرهما - ثانية كبرى المدن الإيرانية بعد العاصمة طهران، وأصلها في الفارسية أسباهان، أى: مدينة الجيش. تقع بين مدينتي شيراز وطهران، وتبعد عن الأخيرة بنحو (240) ميلاً. وقد فتحها المسلمون سنة (23 هـ = 643 م)، وقيل: سنة (19 هـ = 640 م) بقيادة أبي موسى الأشعري وعبد الله بن بديل الخزاعي في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، وانتشر الإسلام فيها. وفي سنة (301 هـ = 913 م) دخلت أصفهان تحت حكم الساميين. وفي سنة (321 هـ = 933 م) دخلت تحت حكم البويهيين. وقد استولى عليها التتار بقيادة تيمورلنك سنة (879 هـ = 1474 م) فدمروها، وقتلوا عددًا كبيرًا من أهلها. وفي سنة (955 هـ = 1548 م) فتحها العثمانيون، وبقيت تحت الحكم العثماني إلى أن استولى عليها الصفويون، وفي عهدهم انتشر فيها المذهب الشيعي. وفي سنة (1335 هـ = 1916 م) احتلها الروس، ثم تمكن الإيرانيون من استردادها. وتعد أصفهان مركزًا زراعيًا وصناعيًا وتجاريًا: - فمن الناحية الزراعية تتنوع المحاصيل الزراعية فيها، ويمثل القطن أهمها، ومن الفواكه تزرع البطيخ والشمام والليمون والبرتقال. - ومن أشهر الصناعات بأصفهان صناعات المنسوجات الحريرية والصوفية، والسجاد. وتنتج أصفهان وحدها منها نحوًا من (92 %) من إنتاج إيران. - أما من الناحية التجارية فتتميز أصفهان

بحركة تجارية رائجة منذ القدم، كما تتميز بعديد من الأسواق العريقة.

(92/11)

---

### \*المرية

من أشهر مدن الأندلس، وهي ميناء على ساحل البحر المتوسط. أسسها الفينيقيون، على الأرجح، وازدهرت ما بين القرنين (13، و15 م) في ظل الحكم الإسلامي، وعلا شأنها في دولة المنصور بن أبي عامر الذي ولى عليها مولاه خيران، وإليه تنسب القلعة المنبئة قلعة خيران. ويُستخرج من المرية بعض المعادن، مثل: الرخام والحديد، كما تتميز بصناعة الديباج، وتُزرع فيها الفاكهة، وفيها أطلال حصن عربي، وكاتدرائية قوطية الطراز. ووادي المرية طوله أربعون ميلاً، تكثر فيه البساتين والحدائق والأثمار والطيور. وتعد المرية من أغنى بلاد الأندلس، حتى قيل: لم يكن في بلاد الأندلس أكثر مالاً من أهل المرية.

(93/11)

---

### \*أبو صير

قرية قديمة اسمها الأصلي بو صير، وتُعرف الآن باسم أبو صير دفنو؛ لجاورتها لناحية دفنو التي كانت تُسمى دفنو من أعمال الفيومية (محافظة الفيوم حالياً)، وهي تتبع مركز إطسا. ويقال: إن مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين قُتل فيها، بعد أن أُلجأه أبو مسلم إلى مصر بعد سقوط دمشق في يد العباسيين، فتنبعوه حتى قُتل هناك في كنيسة أبي صير.

**\*أسيوط**

مدينة بصعيد مصر، غربي النيل، على بعد (378) كم جنوبي القاهرة عاصمة مصر، ويُقال: إن الدنيا صُوِّرت للرشيد فلم يستحسن إلا كورة أسيوط، وكانت أحد متنزهات خمارويه بن أحمد بن طولون، ويُنسب إليها جماعة من العلماء، مثل: جلال الدين السيوطي. ومدينة أسيوط عاصمة محافظة أسيوط وهي ذات تجارة عظيمة، واشتهرت قديماً بصناعة العاج وقرن الخرتيت والأبنوس والأواني الخزفية والمنسوجات القطنية والحربية. ولأسيوط مورد على النيل وهو قرية تُسمَّى الحمراء مكانتها بالنسبة إلى أسيوط مثل مكانة بولاق بالنسبة إلى القاهرة. وكان يمر بها طريق درب الأربعين الذي يربط السودان بمصر.

**\*أفغانستان**

جمهورية إسلامية. تقع في وسط آسيا. عاصمتها كابل. يحدها من الشمال جمهوريات أوزبكستان وتركستان وطاجيكستان، ومن الشمال الشرقي الصين وإقليم كشمير، ومن الجنوب والشرق جمهورية باكستان، ومن الغرب جمهورية إيران. ولغاتها الرسميتان هما: الباشتو والداري، وهما خليط من عدة لغات منها العربية. وهي ملتقى طرق قوافل الشرق والغرب، مما أدى إلى طمع الاحتلال البريطاني والروسي فيها. تبلغ مساحتها نحو (647.5) ألف كم<sup>2</sup>، وتكثر فيها الجبال المرتفعة، وأعلى قمة جبل تبلغ نحو (6059) مترًا، وتعد منبعًا لعدد من الأنهار، من

أشهرها: جيحون (أموداريا) وكابل وهري رود، وعلى ضفافها تقع أغلب المدن الأفغانية. ويُعد الرعى مصدرًا للمعيشة. ولم تُعرف أفغانستان بهذا الاسم إلا في القرن (12هـ = 18 م)، وكانت قبل ذلك ضمن إقليم خراسان، وعرفت قبل الإسلام باسم أريانا وبدأ الفتح الإسلامي لها في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه. ولم يمضِ القرن الأول الهجرى حتى كانت تلك البلاد ترفع أعلام التوحيد وتدين بالإسلام، وظل حاكمها واليًا من قبل الخليفة حتى عصر الخليفة العباسي المأمون، حيث بدأت حكومات عدة دول فيها، مثل: الدولة الطاهرية، ومن بعدها الصفارية ثم السامانية والغزنوية والغورية والتمورية، ثم حكمها شاهات إيران ثم استقلت عن إيران وخاضت بريطانيا حروبًا ضدها فاحتلتها. ثم استقلت نهائيًا سنة (1340 هـ = 1921 م)، ولتعاون بعض حكامها مع الروس والغرب انتشرت فيها الأحزاب اليسارية والأفكار الشيوعية، وكان رد الفعل الطبيعي ظهور حركات إسلامية تنادى بالعودة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، وقد احتلها السوفييت، وانتهكوا فيها كل القوانين الدولية، وقاموا بأعمال وحشية استخدموا فيها الأسلحة المحرمة دوليًا، فتجمعت جبهات الجهاد الإسلامي ومنظماته ضد الروس، وأسهمت باكستان وغيرها من الدول الإسلامية في دعم هذا الجهاد. وبعد

(96/11)

---

جهاد عشر سنوات ضاع ضحيتها أكثر من مليون شهيد وشُرد نحو خمسة ملايين نسمة، تمكن الأفغان من إجبار الروس على الجلاء نهائيًا في (26 من جمادى الآخرة 1408 هـ = 15 من فبراير 1988 م). وتُدْرَس الآن اللغة العربية في المدارس الأفغانية كلغة أصلية. وينتسب إلى أفغانستان عدد من العلماء منهم

الإمام أبو حنيفة النعمان صاحب المذهب الحنفي، والمتوفى سنة (150 هـ = 767 م)، ومن رجال الإصلاح في العصر الحديث جمال الدين الأفغانى المتوفى (1315 هـ = 1897 م).

(97/11)

### \*أوروبا

إحدى قارات العالم. تبلغ مساحتها نحو عشرة ملايين كم<sup>2</sup>. تقع بين دائرتى عرض (36°، و 71°) شمالى خط الاستواء، وبين خطى طول (10°) غرباً و (60°) شرقاً. وهى شبه جزيرة غير منتظمة الشكل. يحدها من الشمال المحيط المتجمد الشمالى، ومن الغرب المحيط الأطلسى، ومن الجنوب البحر المتوسط. ويحدها من الشرق جبال الأورال ونهر آرال وجبال القوقاز. وتنقسم إلى ستة أقاليم سياسية، تضم (55 دولة) وهى مزدهمة بالسكان؛ ويرجع ذلك إلى النهضة الحضارية، ويتركزون فالسهول الغربية والوسطى وتقل الكثافة فى الشمال والمناطق الجبلية، وينحدرون من السلالة القوقازية ومعظمهم يعتنق النصرانية، وينقسمون إلى طوائف لها كنائسها (الكاثوليكية، والبروتستانتية، والأرثوذكسية الشرقية)، فضلاً عن وجود المسلمين فى معظم البلدان بالقارة، كما توجد أقلية يهودية، وخصوصاً فى شرق أوروبا. ويتكلم سكان قارة أوروبا البالغ عددهم نحو (699) مليون نسمة نحو ثلاثين لغة، أشهرها: الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والإسبانية والألمانية والهولندية والدنمركية والنرويجية والمقدونية والمجرية، بالإضافة إلى عدد كبير من اللهجات. وتاريخ أوروبا القديم مرتبط بحضارتين كبيرتين، هما حضارة اليونان التى بلغت أقصى اتساع لها على يد الإسكندر المقدونى، والحضارة الرومانية التى استمدت منها

أوروبا تاريخها، ثم أتت فترة اتسمت أوروبا فيها بالتخلف والجهل؛ فسميت بالعصور الوسطى (تمتد حتى القرن 9 هـ = 15 م). وبدأ عصر النهضة في أوروبا من بداية القرن (9 هـ = 15 م)؛ حيث أخذت حركة الكشوف الجغرافية دورها في كشف سواحل إفريقيا وشمالي القارتين الأمريكيتين وجنوبيهما، وانتقل النفوق التجارى من عالم البحر المتوسط إلى الأمم القريبة من المحيط الأطلنطى، وبدأت أوروبا فى تأسيس مستعمراتها وإمبراطورياتها فيما وراء البحار، وانتشر نفوذها تدريجياً فى أنحاء الأرض. وشهد القرن (10 هـ = 16 م) قيام حركات الإصلاح

(98/11)

الدينى ضد الكنيسة الكاثوليكية. وفى مطلع القرن العشرين الميلادى أسقطت الخلافة الإسلامية (العثمانية) وتحولت تركيا إلى دولة صغيرة، وكانت منطقة البلقان مستغرقة فى خلافات عرقية ودينية، وتعرض المسلمون خلالها لحركتى إبادة. وفى العشرينيات من القرن العشرين الميلادى قامت الثورة البلشفية فى روسيا وتأسس الاتحاد السوفييتى، كما اشتعلت نار حرب عالميتين انتهتا بظهور قوتين عظميين (الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى) وقسمت أوروبا إلى شرقية وغربية، ونشأت حرب باردة بين حلف الأطلنطى وحلف وارسو، وانتهت الحرب الباردة بسقوط الاتحاد السوفييتى، كما برزت حركات الوحدة الأوروبية، فتأسس مجلس أوروبا والسوق الأوروبية المشتركة، وفتح مشروع أوروبا الكبرى، وتوسع فى إجراءات الوحدة الأوروبية اقتصادياً وسياسياً. وبالنسبة إلى دخول الإسلام إلى أوروبا فقد طرق أبوابها بمحاولات فتح القسطنطينة من الشرق، وفتح صقلية، وجنوبي إيطاليا من الجنوب، وفتحه الأندلس والتوغل فى فرنسا

من الغرب، ثم عاد المسلمون ليدقوا أبواب أوروبا الشرقية ثم الوسطى زمن السلطان محمد الفاتح وخلفائه، وتبعته ذلك حرب ضارية لغزو الأراضى الإسلامية فى القرن (10هـ = 16م) تمثلت هذه الحرب فى الحملات القادمة من غرب أوروبا، وظهور حركة ضدها تقاومها من الشرق المسلم، وكانت الأندلس إحدى نقاط الاحتكاك الحضارى بين المسلمين والأوروبيين؛ إذ كانت بمنزلة مركز إشعاع وتنوير لغرب أوروبا.

(99/11)

### \*أيبيريا

شبه جزيرة. تقع فى الجنوب الغربى من القارة الأوروبية. تضم إسبانيا والبرتغال. يفصلها عن سائر أوروبا جبال البرانس الممتدة من خليج بسكاي فى الغرب إلى البحر المتوسط فى الشرق على امتداد نحو (425) كم، ويصل ارتفاعها إلى (3720 م)، وبهذا تكون حاجزاً منبعاً بينها وبين أوروبا، ويفصلها عن إفريقيا مضيق جبل طارق، وفى وسط الجزيرة هضبة كبرى تنحدر نحو الشرق مطلة على البحر المتوسط، وتنحدر نحو الغرب مطلة على المحيط الأطلسى الذى يطوق شمالها الغربى فى خليج بسكاي. ويتصل فى جنوبها بالبحر المتوسط. وتمتد سلسلة من الجبال من الشرق إلى الغرب فى هضبة أيبيريا الوسطى، كما يوجد فيها أنهار كثيرة تصب فى المحيط الشمال إلى الجنوب، أهمها: نهر المنبو ودويرة وتاجة الذى تقع عليه مدينة مدريد عاصمة إسبانيا وطليلة، ثم نهر الوادى الكبير، وتقع عليه قرطبة وإشبيلية، وأهم الأنهار التى تصب فى البحر المتوسط: نهر إيرو المتعدد الفروع، وينبع من شرقى قشتالة، ونهر الوادى الأبيض ومصبه عند بلنسية. ومناخ أيبيريا

متباين؛ لاختلاف أقاليمها، واسم أيبريا مشتق من الأيبيريين، وهم قبائل من غالة والبسك، ويُعتقد أنهم هاجروا إليها من إفريقيا، ثم وفد عليها الفينيقيون ثم الإغريق في القرن (5 ق. م)، وهم الذين سموها أيبريا، ثم وفد عليها القرطاجنيون، ثم استولى عليها الرومان الذين أشاعوا فيها النصرانية. وفي القرن الخامس الميلادي أغار عليها المتبررون من الألمان، كما أضاف الفتح الإسلامي إلى سكان أيبريا سنة (86 هـ = 706 م) عناصر جديدة من آسيا والبربر والصقالبة. وكانت حياة أهل أيبريا قبل الفتح الإسلامي أشبه بحياة البداوة، وظل المسيحيون يعيشون هذه الحياة؛ لوعورة موطنهم مثلهم في ذلك مثل العرب، ولم يأخذوا في التحضر إلا في زمن الدولة الأموية. ثم جاءت نهاية دولة الإسلام في الأندلس سنة (897 هـ = 1492 م) -

(100/11)

---

تلك الدولة التي عاش فيها اليهود والمسيحيون في أمن وطمأنينة - فأكره المسلمون على اعتناق النصرانية، ووجدت في شبه الجزيرة الأيبيرية دولتا إسبانيا والبرتغال.

(101/11)

---

### \*البحرين

دولة عربية إسلامية. تقع في منتصف الخليج العربي، بين رأس الخليج عند البصرة، ومدخله عند مضيق هرمز، بين خطي عرض (525) و (527) شمالاً، وخطي طول (550) و (551) شرقاً، وهي على شكل أرخبيل جزري. وتتكون من (33) جزيرة، كبرها جزيرة البحرين، تليها جزيرة المحرق ثم جزيرة سترة. تبلغ

مساحتها (678) كم2 تقريبًا. وأهم مدن البحرين المنامة العاصمة، ومناخها حار رطب صيفًا، معتدل قليل الأمطار شتاءً، وتهب عليها رياح شرقية رطبة تسمى الكوس في الصيف، وتعرض لرياح جنوبية ساخنة تسمى سهيل، ورياح شمالية غربية في الشتاء. ويبلغ عدد السكان (557) ألف نسمة وفق إحصائية سنة (1413هـ = 1992 م)، يدينون بالإسلام. وكان السكان يعتمدون على الزراعة وصيد اللؤلؤ والأسماك حتى اكتشاف البترول في الثلاثينيات من القرن العشرين. وقد ورد ذكر البحرين في الأساطير السومرية باسم دلمون أو تلمون، وتعنى عندهم أرض الحياة، أى: الأرض المقدسة، وقد بينت عمليات التنقيب قيام كل من حضارة نيدوك - كى الأكادية وحضارة دلمون الآشورية في البحرين. ودخل أهل البحرين في الإسلام في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم -؛ حيث بعث إليهم العلاء بن الحضرمي، ثم ارتدَّ بعضهم وقضى عليهم العلاء، وشهدت البحرين في العهد الأموي حركة استقلال تمهد إلى نشر مذهب الخوارج، قضى عليها الخليفة عبد الملك بن مروان، كما شهدت في العصر العباسي حركة الزنج، ثم حكمها القرامطة، ثم العيونيون، واستولى عليها الفرس ثم المغول، ثم غزاها البرتغاليون، ثم سيطر عليها الفرس مرة أخرى حتى سيطر عليها آل خليفة نحو سنة (1196هـ = 1782م)، واحتلتها بريطانيا، وتم استقلالها سنة (1391هـ = 1971 م).

(102/11)

### \*بخارى

مدينة إسلامية. تقع في غرب جمهورية أوزبكستان في آسيا الوسطى الإسلامية. وكانت حاضرة إقليم ما وراء النهر، واسمها مشتق من كلمة بخار المغولية، وهي تعنى: العلم الكثير،

وسُميت بهذا الاسم؛ لوجود كثير من العلماء فيها، ولبخارى عدة أسماء منها: أرض النحاس؛ لتوافره بها، ومدينة التجار؛ لمركزها التجاري بين آسيا الشرقية والغربية واشتهار أهلها بالصيرفة، وبخارى الشريفة وبخارى العظيمة. وبخارى إقليم يمتد من نهر جيحون حتى صحراء قزل قم. ومساحتها (57630) كم2، وموقع المدينة من الإقليم على شاطئ نهر زرافشان. وأصل سكان بخارى من الطاجيك والفرس والأوزبك والترك والروس، ويتحدثون التركية والفارسية والروسية، وقد اشتهروا بالعلم والفروسية والرماية. وتتكون حالياً من بخارى الجديدة، ويسكن الروس معظمها، وبخارى القديمة، وفيها المساجد الأثرية، وتحيطها الحدائق، ويمر بها طريق دولي، ولها إحدى عشرة بوابة. وفي بخارى عدة أنهار، وتشتهر بالفاكهة، وتنتج الحرير والقطن والسجاد، كما تعرف بصياغة الفضة والذهب. وكانت بخارى إحدى مدن الدولة الأكمينية الإيرانية (553 - 330 ق. م)، واستولى عليها الإسكندر الأكبر ومن بعده دولة الباخترين، وتلاههم الصينيون، وفتحها قتيبة بن مسلم الباهلي سنة (90هـ = 705 م) حتى خربها جنكيزخان سنة (616هـ = 1219م)، وأعاد الأوزبك بناءها وجعلوها عاصمة لدولتهم، ثم استولى عليها الإيرانيون، ثم الروس سنة (1336هـ = 1918م)، وظلت تحت سيطرتهم حتى انهيار الاتحاد السوفيتي سنة (1412هـ = 1991م)؛ فصارت إحدى مدن أوزبكستان المستقلة. والتراث المعماري في بخارى دليل على المستوى الرفيع الذي وصل إليه طراز العمارة عند المسلمين في آسيا الوسطى وهي تعد متحفاً كبيراً؛ لما فيها من مبانٍ أثرية، مثل: القلعة العسكرية المشيدة في القرن (12هـ = 18م)، وفيها قصر الحاكم، والمسجد، وبيت المال، وإلى جوارها مسجد بولاحاووظ الذي

---

شُيِّد في القرن (11 هـ = 17 م)، وضريح السامانيين المشيد خلال القرن (3 هـ = 9 م)، وألوانه تتبدل حسب أوضاع الشمس، ويصل إلى قمة جماله في الليالي القمرية، وهذه خاصية يمتاز بها على كل الآثار المعمارية في العالم. وينتسب إلى بخارى كثير من العلماء، أشهرهم: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى المتوفى سنة (256 هـ = 870 م) وهو صاحب الصحيح، وعمر بن منصور البخارى المعروف بالبخارى، المتوفى سنة (461 هـ = 1069 م)، وبهاء الدين النقشبندى المتوفى سنة (1242 هـ = 1826 م).

(104/11)

### \*برشلونة

مدينة إسبانية. تقع في الطرف الشمالى الشرقى لشبه جزيرة أيبيريا بين جبال البرانس ونهر إبرة. أطلق عليها المسلمون اسم برسلونة أو برجلونة عند فتحها على يد موسى بن نصير سنة (95 هـ = 713 م). وسقطت في يد النصارى على يد الإمبراطور شارلمان سنة (164 هـ = 780 م)، وأصبحت عاصمة لإقليم أراجون وقطلونيا. وعاود المسلمون فتحها سنة (242 هـ = 856 م)، ثم عام (375 هـ = 985 م) على يد المنصور بن أبى عامر، ولكنها سرعان ما عادت إلى الإفرنج؛ ولهذا خلت من الآثار الإسلامية، ولا يذكر عنها سوى تحويل مسجدھا الجامع إلى كنيسة. وتعد الآن من كبرى مدن إسبانيا من حيث عدد السكان، كما تعد أكبر موانئها والمركز التجارى والصناعى الرئيسى بها.

(105/11)

## \*برقة

إقليم لبيى. يقع على البحر المتوسط، ويمتد من خليج السلوم على الحدود المصرية شرقاً، إلى خليج سدره غرباً مكوناً شبه جزيرة تتوسطها مرتفعات متدرجة نحو ساحل البحر، ترويتها الأمطار، وتكسوها النباتات، يُطلق عليها: الجبل الأخضر. مساحتها (855.000 كم<sup>2</sup>). وتقع بين دائرتي عرض (30 5، 33 5) شمالاً، وخطي طول (20 5، 30 5) شرقاً، وعاصمتها مدينة بنغازى. وتتميز برقة بالنشاط الزراعى الوافر، ويشغل سكانها برعى الماشية. والبتول من أهم الثروات فى برقة. وكانت برقة تُسمى مدينة المرج وقد استقر بها الإغريق، ثم دخلها الفرس، ثم حكمها البطالمة، ثم استولى عليها الرومان والوندال والبيزنطيون، ثم استجاب أهلها للفتح الإسلامى على يد عمرو بن العاص، وظلت ولاية إسلامية تابعة لمصر حتى عهد الدولة العباسية، ثم دخلها الفاطميون، واستولى عليها الزيريون، وزحف إليها الموحدون، واستعادها الأيوبيون، ثم المماليك، وتعرضت لهجوم الإسبان الذين تنازلوا عنها لفرسان القديس يوحنا (فرسان مالطة)، ثم خضعت لحكم العثمانيين؛ بحكم تبعيتها لمصر. ثم حكمتها الأسرة القرمانلية، ثم استردها العثمانيون، ثم ظهرت الحركة السنوسية على يد محمد بن على السنوسى، واحتلتها إيطاليا ودارت أحداث دامية حتى تم طرد القوات الإيطالية والألمانية من ليبيا، لكن برقة خضعت للإدارة العسكرية البريطانية، حتى اعترف باستقلال ليبيا. وفى سنة (1389 هـ = 1969 م) قامت ثورة الفاتح من سبتمبر، وأعلنت الجمهورية الليبية الديمقراطية. وينتسب إلى برقة عدد من العلماء، منهم: أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن بن العاص البرقى المتوفى سنة (245 هـ = 859 م)، وأبو بكر أحمد بن عبد

الله بن زرعة الزهري البرقي المتوفى سنة (286هـ = 899 م)،  
وأبو الطاهر إسماعيل بن أحمد بن زيادة الله التُّجيبى المعروف  
بالبرقي والمتوفى سنة (445 هـ = 1053 م).

(106/11)

---

### \*البشكنس (بلاد)

بلاد تمتد من شمالى غربى إسبانيا عبر جبال البرانس إلى  
فرنسا، وهى تحيط بخليج بسكاي. وسكان هذه البلاد يُطلق  
عليهم الباسك، وسماهم المسلمون الفاتحون للأندلس البشكنس  
أو البشكنس، ويتميزون بلغتهم الفريدة فى اصطلاحاتها. وأهم  
أقاليم البشكنس: بسكاي وجيبوسكو. ولقد حاول المسلمون  
عدة محاولات لفتح هذه البلاد، وكان منها محاولة عبد الملك بن  
قطن الفهري التى هزم فيها جند البشكنس، واضطروهم إلى طلب  
الصلح سنة (115هـ = 733 م)، ولكنه رجع عنها لقلّة ما معه من  
الجنّد، كما دخلها عبد الرحمن الأول سنة (167 هـ = 783 م)  
وفرض عليها الجزية، ثم عاد مظفراً إلى قرطبة. ومن المعروف  
عن شعب البشكنس أنه شعب ثورى يكثر من صنع الاضطرابات،  
وكان له دور مهم فى حروب طرد المسلمين من الأندلس فقد  
اشتركوا فى جيوش ملك نافار؛ ولهذا منحوا ألقاب النبالة،  
وامتلكوا الأرض التى كانت للعرب المسلمين.

(107/11)

---

### \*بغداد

عاصمة الجمهورية العراقية الآن، وكانت عاصمة للخلافة  
العباسية فترة طويلة. تقع على ضفتى نهر دجلة، وترتفع عن

سطح البحر بمقدار (32) متراً ومساحتها (850) كم<sup>2</sup>. أسسها الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور سنة (145 هـ = 762 م)، وأطلق عليها اسم مدينة السلام، كما أطلق عليها عدة أسماء، منها: الزوراء والمنصورية والمدينة المنورة. وبغداد كلمة فارسية تعنى عطية الله، وهناك خلاف حول أصلها ومعناها. وقد أحيطت بسورين وخندق، وجعل لها أربعة أبواب سُمِّي كل باب باسم الإقليم الذي يواجهه، وهى: باب الشام وباب الكوفة وباب البصرة وباب خراسان، وفي وسطها قصر لإقامة الخليفة، وفي طرف القصر إيوان بجواره مسجده، ثم عمل أبو جعفر المنصور على توسيعها سنة (151 هـ = 768 م)؛ فأقام مدينة الرُصافة، وجعلها مقراً لابنه وولى عهده، ثم اتسعت أكثر في عهد الرشيد، ثم تعرضت للتخريب والتدمير؛ بسبب الصراع بين ولدى الرشيد، ثم أنشأ المعتصم سُرْمَنْ رَأى (سامراء)، وجعلها عاصمة لدولته، ثم عاد المعتمد إلى بغداد واتخذها عاصمة مرة أخرى. وقد أدى ازدياد الفتن إلى اضمحلال المدينة، لكنها استعادت بعض مكانتها في العهد السلجوقي، وظلت عاصمة الخلافة حتى دمرها التتار سنة (656 هـ = 1258 م)، واستمرت تحت حكمهم حتى دخل تيمور لنك بغداد سنة (795 هـ = 1393 م)، ثم حكمها التركمانيون حتى دخلها الصفويون ثم استعادها العثمانيون، ثم دخلها المماليك، ثم استعادها العثمانيون حتى احتلتها إنجلترا سنة (1335 هـ = 1917 م)، وفرضت على العراق الانتداب الإنجليزي حتى قامت الثورة سنة (1378 هـ = 1958 م)، ومنذ ذلك الوقت وهى عاصمة للجمهورية العراقية. وقد تضررت بغداد من الحرب العراقية الكويتية سنة (1412 هـ = 1992 م). وتعد بغداد عاصمة علمية وأدبية وفكرية على مدى قرون عديدة، فالعباسيون شجعوا الناس على استيطان بغداد وبخاصة

---

العلماء، فمن اشتهر فيها: أبو حنيفة النعمان المتوفى سنة (150هـ = 767 م)، والمفضل الضبي المتوفى سنة (171هـ = 787 م)، والكسائي المتوفى سنة (189هـ = 804 م)، والفراء المتوفى سنة (207هـ = 822 م)، وأحمد بن حنبل المتوفى سنة (241هـ = 855 م)، وابن السكيت المتوفى سنة (244هـ = 858 م) وغيرهم. ويوجد ببغداد عدد من المعالم الحضارية التاريخية، مثل: القصر العباسي، والمشهد الكاظمي، وجامع المنصور، وجامع المهدي، وجامع الرُّصافة، والمدرسة الشرفية بجوار قبر أبي حنيفة النعمان، والمدرسة السلجوقية، والمدرسة المستنصرية.

(109/11)

### \*أنطاكية

مدينة تركية تقع في قارة آسيا، على حافة وادٍ خصيب معتدل المناخ يقع على نهر العاصي وتبعد عن البحر المتوسط بنحو (22) كم، وتقع على دائرة عرض (36.10) شمالاً وخط طول (36.6) شرقاً، وتمتد إلى سفح جبل حبيب النجار على ارتفاع (1525) قدمًا من سطح البحر، وتشغل حاليًا نحو (5205 م). وقد أسسها الرومان نحو سنة (300 ق. م) على أنقاض مستعمرتين يونانيتين قديمتين، وتحولت إلى مركز تجاري كبير، كما تأثرت بالصراع القائم بين ملوك فارس والرومان. وقد حاصرها الصحابي الجليل أبو عبيدة بن الجراح، رضي الله عنه، وأدوا له الجزية، ووطن معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنه، أعدادًا من المسلمين فيها، بعد أن تركها أهلها أمام هجمات الروم عليها، واهتم المسلمون بها؛ لكونها ثغرًا من ثغور الدولة

الإسلامية. وفي عهد العباسيين أصبحت عاصمة لإقليم كلبليكيّا، ثم دخلت تحت حكم الدولة الطولونية، واحتلها البيزنطيون، ثم ردها السلاجقة، وعاملوا سكان المدينة معاملة حسنة، وعفوا عن النصارى، ودخلها الصليبيون وأعملوا السيف في أهلها ثلاثة أيام في (جمادى الآخرة 491 هـ = يونيو 1098 م)، ثم حررها بيبرس (667 هـ = 1268 م). وفي فترة الحكم العثماني لها شهدت ازدهاراً عمرانياً وسكانيّاً. وبعد الحرب العالمية الأولى احتلها الإنجليز ثم الفرنسيون، ثم أقيمت دولة هاتاي وعاصمتها أنطاكية، ثم انضمت هاتاي إلى تركيا، وأصبحت جزءاً منها في سنة (1358 هـ = 1939 م). وكانت أنطاكية تتحكم في نقاط التقاء الطرق التجارية من الفرات وسورية إلى الأناضول، كما قامت فيها صناعة المنسوجات الحريرية وغيرها، كما تُصاد ثعابين الماء من نهر العاصى بكميات كبيرة. وأهم الآثار الموجودة فيها: الأسوار، وبعض القناطر المعلقة، وأبواب الأسوار، وقبر حبيب النجار الحواري الذي استشهد فيها.

(110/11)

#### \*أوغندا

دولة إفريقية تقع شرق القارة على هضبة مرتفعة، بين دائرتي عرض (4) شمالاً، و (1.30) جنوباً. يحدها من الشمال السودان، ومن الشرق كينيا، ومن الغرب زائير، ومن الجنوب تنزانيا. وتبلغ مساحتها (236000 كم<sup>2</sup>) تقريباً. فيها مجموعة من القمم الجبلية، وتنتشر فيها البحيرات، التي من أهمها: بحيرات فيكتوريا التي ينبع منها النيل الأبيض، وإدوارد وألبرت وكيوغا، إلى جانب عدد من الأنهار والشلالات؛ وبذا تشرف أوغندا على أهم منابع نهر النيل؛ مما جعل لها أهمية استراتيجية

كبيرة. ومناخ أوغندا معتدل؛ بسبب وجود البحيرات والأنهار فيها، وارتفاع سطحها. ويبلغ عدد سكانها (19) مليون نسمة وفق إحصائية سنة (1412 هـ = 1992 م)، وينتمي (70 %) منهم إلى الزنوج وقبائل البانتو التي اكتسحت البلاد، وشكلت معظم السكان الحاليين، والباقي نيليون من أصل سوداني، وعناصر أخرى عربية وهندية وأوربية. ويعتق نحو (40 %) من السكان الدين الإسلامي، على حين يدين بالمسيحية نحو (30 %)، وبالوثنية نحو (30 %). والإنجليزية هي اللغة الرسمية، بالإضافة إلى لغة البانتو والسواحلية ولغات محلية خاصة بأغلب القبائل. وكمبالا هي عاصمة البلاد، وتقع على بحيرة فيكتوريا، وفيها مركز تجارى كبير، كما تنتشر المدارس والمؤسسات الإسلامية فى مدينة مازاكا. ويعتمد الاقتصاد الأوغندى على الزراعة، وأهم المحاصيل: البن؛ فأوغندا خامس دولة فى العالم إنتاجاً له، ويليه القطن وقصب السكر والشاى والكافوا، كما تتمتع أوغندا بثروة حيوانية كبيرة من الماشية، وتتوافر الأسماك فيها نظراً لتعدد شواطئها، كما تمتلك مناجم للنحاس والقصدير. كانت أوغندا تتكون من قبائل متفرقة توحدت فى شكل ممالك، وفى سنة (1281 هـ = 1864م) أرسل الخديو إسماعيل البعثات العسكرية لفتح هذه المناطق، وضم أوغندا وما وراءها، وأطلق عليها مديريةية خط الاستواء، وبعد القضاء على الثورة المهديّة

(111/11)

---

فى السودان سنة (1317 هـ = 1899م) خرج الجيش المصرى منها، وتكالتب عليها بريطانيا فرقع عليها العلم البريطانى سنة (1314 هـ = 1896م)، ثم حصلت أوغندا على استقلالها سنة (1382 هـ = 1962 م). ويُعد الإسلام أول الشرائع السماوية التى دخلت إلى

أوغندا، وذلك في نهاية القرن (6 هـ = 12 م) عن طريق التجار العرب المسلمين من مسقط وعمّان واليمن أولاً، ثم من خلال حسن المعاملة التي لاقاها الأوغنديون من البعثات العسكرية المصرية في عهد إسماعيل فلقيت ترحيباً من قبل ملك أونيبورو إحدى الممالك الأوغندية، وقد رفع العلم المصري على مملكته، كما طلب ملك أوغندا من المصريين بسط نفوذهم على مملكته. وبعث عدد من العلماء لتعليمه هو وشعبه الإسلام، فأجيب إلى ذلك. وفي أوغندا عدد من الجمعيات والمؤسسات الإسلامية، وأكبر المساجد فيها: مسجد نكسيرو، وهو في العاصمة، ومسجد كيبيلي في ضاحيتها. وأوغندا عضو في منظمة المؤتمر الإسلامي والأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الإفريقية.

(112/11)

#### \*بلغاريا

دولة أوروبية. عاصمتها صوفيا تقع جنوب شرق أوروبا. يحدها البحر الأسود من الشرق، ويوغسلافيا السابقة من الغرب، ورومانيا من الشمال واليونان وتركيا من الجنوب. وتبلغ مساحتها نحو (110.669) كم<sup>2</sup>. وتنقسم بلغاريا إلى عدة أقاليم تضاريسية هي: هضبة الدانوب وجبال البلقان ووادي ماريتزا ومرتفعات رودوب. ومناخ بلغاريا حار صيفاً، بارد شتاءً، وعدد سكانها نحو (9.021.000) نسمة وفق إحصائية سنة (1413 هـ = 1992 م)، وهم من عناصر شتى، منها البلغار ويمثلون (85.5%)، والأتراك ويمثلون (8.6%)، والعجر بنسبة (2.6%) إلى جانب كل من المقدونيين والأرمن، والروس واليونانيين، ومعظم السكان مسيحيون، ويبلغ عدد المسلمين مليوني نسمة، يرعى شئونهم مفت أكبر، ولهم نحو (1200) مسجد، وقد تعرضوا لمحاولات

تهدف إلى تذويبهم في المجتمع البلغاري، فالمتحف الموجود الآن في العاصمة أصله مسجد خُرب منارته. واللغة السائدة هي البلغارية، وتوجد التركية واليونانية. وتعتمد بلغاريا في اقتصادها على الزراعة والثروة الحيوانية والثروة المعدنية والصناعة. وكان معظم بلغاريا إحدى ولايات الإمبراطورية الرومانية، ثم خضعت لبيزنطة، ثم قامت مملكة بلغاريا الأولى ثم عادت مرة أخرى إلى بيزنطة، ونجح أبناؤها مرة أخرى في إقامة مملكة بلغاريا الثانية، وفي سنة (773 هـ = 1371م) اعترف حكام بلغاريا ومقدونيا بسيادة السلطان العثماني عليها، ثم تحالفت بلغاريا مع الصرب والبوسنة ضد العثمانيين، وقد نجح العثمانيون في دخول ترنوفو عاصمة المملكة البلغارية الثانية، فاصطبغت بصبغة عثمانية، وشكل المسلمون في شرقها أغلبية كبيرة، وتطورت المدن البلغارية تطوراً كبيراً في هذه الفترة. ويسبب رفع الموظفين المحليين لمعدلات الرسوم المطلوبة؛ اشتعلت الفتنة ضد العثمانيين، ودعمتها روسيا؛ وكان ذلك سبب قيام الحرب التركية الروسية، وبعد انتهاء الحرب، تقرر تقسيم

(113/11)

---

بلغاريا إلى ثلاثة أقسام: إمارة بلغاريا، وكانت تحت سيادة اسمية للعثمانيين، وتؤدى لهم جزية سنوية، ويحكمها مسيحي يوافق عليه العثمانيون. ولاية الرومللي المشرقية. مقدونيا. وفي سنة (1327هـ = 1909م) أعلن فرديناند دي ساس استقلال بلغاريا واعترفت بها تركيا وروسيا، ودخلت بلغاريا الحرب العالمية الأولى والثانية، وسقطت بها الملكية، وقامت جمهورية بلغاريا الشعبية سنة (1367 هـ = 1947 م)، وتولى حكمها

شيوعيون. وبلغاريا عضو في عدد من المنظمات الدولية، منها  
هيئة الأمم المتحدة.

(114/11)

### \*البلقان

شبه جزيرة. تقع جنوب شرق أوروبا. يحدها من الشرق البحر  
الأسود ومن الغرب البحران الأيوني والأدرياتي، ومن الجنوب  
مضيقا البوسفور والدردنيل، وبحرا مرمرية وإيجة، ومن الشمال  
نهر الساف والدانوب. وتشمل منطقة البلقان مجموعة من الدول،  
هي: بلغاريا وألبانيا واليونان ورومانيا وصربيا وكرواتيا  
وسلوفاينيا والبوسنة والهرسك ومقدونيا والقسم الأوربي من  
تركيا. والبلقان كلمة تركية تعني: التلال المرتفعة أو الجبال  
الوعرة التي تكسوها الغابات. وهي تكون الحد الجنوبي لحوض  
نهر الدانوب الأدنى. ويتراوح ارتفاعها ما بين (2000) و (2374)  
متراً، على حين يصل ارتفاع الجنوب الشرقي من هذه الجبال في  
بعض المواضع إلى نحو (1000) متر. وقد استوطن الرومان  
البلقان قديماً ثم البيزنطيون حتى خضعت للعثمانيين الذين عبروا  
نهر الدردنيل، واستولوا على مدينة أدرنة سنة (762هـ = 1360م)  
وفتحوا مقدونيا، ودانت لهم جميع أجزاء تراقيا، وفتحوا  
البوسنة سنة (794هـ = 1391م)، واكتسحوا بلغاريا سنة (796هـ  
= 1393م)، ومالبثوا أن تراجعوا عن منطقة البلقان وغيرها. وقد  
قام مراد الثاني بغزو بلاد البلقان، ونجح في السيطرة على  
معظم بلدانها، ثم خلفه ابنه محمد الفاتح الذي استطاع فتح  
القسطنطينية سنة (857هـ = 1453م) ومدَّ سيطرته على الساحل  
الشمالي للبحر الأسود، وأدخل كلاً من اليونان وألبانيا سنة ( )  
883هـ = 1478م) في طاعة دولته، ولم تأت نهاية القرن الخامس

عشر الميلادى حتى كان العثمانيون قد سيطروا على جميع بلاد  
البلقان. وكان الصربيون أول من ثار من البلقانيين ضد الدولة  
العثمانية، فأعطوا استقلالاً ذاتياً، ثم خرجت الجيوش العثمانية  
من بلادهم سنة (1284هـ = 1832م)، ثم استقل اليونانيون سنة (1248هـ = 1832م) ثم البلغاريون، وهكذا حتى أصبحت منطقة  
البلقان مهداً للدسائس والمؤامرات الدولية، حتى أطلق عليها

(115/11)

---

المؤرخون والساسة مخزن البارود أو برمبل البارود في أوروبا.  
ولتوالى ثورات بلاد البلقان وتدخل روسيا والدول العظمى في  
أوروبا؛ استقلت هذه البلاد عن دولة الخلافة العثمانية وتركيا،  
وحُكمت بحكومات شيوعية. وعندما سقطت الشيوعية في أوروبا  
الشرقية سنة (1411هـ = 1990م) سعت معظم دول البلقان إلى  
رفض النظام الشيوعى واختيار الأنظمة الديمقراطية، كما تفجرت  
المشكلات العرقية (حيث ينظر إلى الدين في هذه المناطق على  
أنه قومية) ففي البوسنة والهرسك حدث انقسام حاد،  
فالمسلمون يمثلون (43.7%) من عدد سكانها البالغ (43) مليون  
نسمة، والصرب يمثلون (31.3%) والكروات يمثلون (17.2%)،  
واشتعل القتال بين الأطراف الثلاثة عقب استقلال البوسنة  
والهرسك عن يوغسلافيا سنة (1413هـ = 1992م) حتى توقفت  
الحرب بموجب اتفاق دايتون سنة (1417هـ = 1996م).

(116/11)

---

\*بلنسية

إحدى حواضر الأندلس. تقع الآن في جنوب شرق إسبانيا. يجدها

من الشمال مدينة طرطوشة، ومن الجنوب مرسية، ومن الشرق البحر المتوسط، ومن الغرب مدينة طليطلة. أسسها الرومان سنة (139 ق. م)، وكانت تُسمى فالنثيا، واستولى عليها القوط الغربيون، ثم فتحها المسلمون. وكان أول ولاية الأندلس عبد العزيز بن موسى بن نصير، وظلت الأندلس بكل مدنها ومقاطعاتها ولاية واحدة عاصمتها إشبيلية حتى سقوط الخلافة الأموية بالأندلس. وظهر عهد ملوك الطوائف فكانت بلنسية من نصيب بني عامر، وظلت عاصمة لهم مدة (66) عامًا، وتوالت الحوادث، ودخل ألفونسو السادس - ملك قشتالة - طليطلة، وكثر استنجد الولاة به للحفاظ على ممالكهم حتى آل الأمر إلى سقوط بلنسية في يد النصارى ومعاملة أهلها بوحشية. وظلت بلنسية تحت سيطرة النصارى حتى استعادها المرابطون سنة (495هـ = 1102م)، ثم حكمها الموحدون حتى حاصرها النصارى، واستنجد أهلها بمن حولهم من الممالك الإسلامية دون جدوى، واشتد الحصار فاقترح أمير بلنسية أبو جميل زيّان على خايمي ملك أراجون المسيحية أن يسلم إليهم المدينة، نظير مغادرة المسلمين لها بأمتعتهم دون أن يتعرض لهم أحد، فوافق على ذلك؛ فغادرها خمسون ألفًا، ورفع علم أراجون على أعلى قمة برج في أسوار المدينة، وحوّلت المساجد إلى كنائس، وإن بقيَ فيها عدد كبير من المسلمين، وجاء هذا السقوط بعد أن ظلت بلنسية خمسة قرون وربع قرن تحت حكم المسلمين. وفي سنة (907هـ = 1501م) أصدرت الملكة إيزابيلا مرسومًا بتنصير جميع المسلمين، ثم أصدر فرناندو سنة (914هـ = 1508م) مرسومًا يحظر على المسلمين استخدام اللغة العربية وارتداء الملابس التقليدية وممارسة أي عادة إسلامية، وأخذت الثورات، وتم تنصير المسلمين بالقوة سنة (928هـ = 1522م) وسموا بالأندلسيين المواركة، أو الموريسكيين، أي: النصارى الجدد أو النصارى الصغار. ويُنسب

إلى بلنسية عدد من العلماء، وأرضها أخصب أراضي إسبانيا حالياً، وأوفرها محصولاً، ويوجد بها عدد من الصناعات، كالنسيج والصناعات الخزفية، ولم يبق من الآثار الإسلامية فيها إلا أطلالها؛ لأن النصارى كانوا حريصين على محو المعالم الإسلامية منها؛ فأحرقوها ودمروها وحولوا مساجدها كنائس، وعلى الرغم من ذلك فقد بقيت بعض القرى تحمل أسماءها العربية إلى اليوم، مثل: بنى قاسم والكدية والبيضاء والقصر.

#### \* عيذاب

ميناء مندثر. كان على الساحل المصرى للبحر الأحمر بالقرب من أخذودها الجنوبي. ويقابلها بوادى النيل مدينة أسوان، وقد ازدهرت بعد الفتح العربى لمصر؛ بسبب موقعها المواجه لجدة. والطريق البرى المؤدى إليها يبدأ من مدينة قوص بمحافظة قنا على النيل، وتبعد عنها بنحو (17) يوماً، وكان البجاة يسكنون عيذاب، ويعاملون الرحالة معاملة سيئة، حتى إن السلطان صلاح الدين رفع عن الداخلين والخارجين المكوس بمكتوب قرئ على منبر جامعها الأكبر. واختفى اسم عيذاب منذ العصر المملوكى فحوّل الظاهر بيبرس المتوفى سنة (676هـ = 1277م) طريق الحجاج عبر سيناء والعقبة، وانتقلت طريق تجارة الشرق منها إلى عدن وجدة والسويس، ولم يبق من عيذاب حتى مايدل على موقعها، ولم يكن لها حظ من مقومات الاستمرار، فما إن هجرها

التجار والحجاج حتى هجرها أهلها، واحتلت مكانتها موانئ  
سواكن وبورسودان والقصر والغردقة.

(119/11)

---

### \*عين التمر

بلدة قريبة من الأنبار بجنوب العراق، واشتهرت بالتمر؛ لكثرتها  
بها. وافتتحها خالد بن الوليد في عهد الخليفة الأول أبي بكر  
الصديق، رضى الله عنهما، سنة (12هـ = 634 م)، وأشهر  
أعلامها: محمد بن سيرين مولى أنس بن مالك، رضى الله عنه،  
وحمران بن أبان مولى عثمان بن عفان، رضى الله عنه، وأبو  
موسى بن نصير بن عبد الرحمن اللخمي.

(120/11)

---

### \*أمريكا

قارة تقع بين المحيط الأطلسي من الشرق والمحيط الهادى من  
الغرب، وبين المحيطين المتجمدين فى الشمال والجنوب، وتُعرف  
باسم العالم الجديد. وتبلغ مساحة قارة أمريكا نحو  
(52.867.000) كم<sup>2</sup>. وعدد سكانها نحو (680.500.000) نسمة.  
وتنقسم قارة أمريكا إلى ثلاثة أقسام: الشمالية والوسطى  
والجنوبية. وتتميز بامتدادها واحتوائها لجميع الأقاليم المناخية،  
ولأعظم أنهار العالم وبحيراته وسهوله، كما تتميز بانفصالها عن  
بقية القارات.

(121/11)

---

### \*الغزال (بحر)

عدة أنهار بجنوب جمهورية السودان. تنحدر من خط تقسيم المياه بين الكونغو والنيل انحدارًا هادئًا إلى حد كبير. وتجري في حوض مساحته (52600) كم<sup>2</sup>. وأهم روافدها الرهل والجود وبحر العرب. ويُطلق اسم بحر الغزال على المجرى من مشروع الرق إلى بحيرة نو كما يطلق على محافظة بجنوب غرب السودان عاصمتها واو، وأهم مدنها مشروع الرق ومبيك وديم الزبير ويجري فيها بحر الغزال وروافده. وسكان محافظة بحر الغزال من الدنكا وهم رعاة بقر، يتجولون في السهول المنخفضة في فصل الجفاف، ويتجمعون في الجهات المرتفعة في فصل المطر، وتوجد بعض الغابات، ومناشر الخشب في واو. ويعتمد سكان الجنوب على الزراعة، والتصريف السنوي لبحر الغزال يمثل (0.605 مليار م<sup>3</sup>)، و (656 مليار م<sup>3</sup>) عند المصب، فهو أكبر الأحواض من حيث المساحة التي يتألف منها حوض النيل العظيم، ويمثل أقصى امتداد للوطن العربي في قلب إفريقيا.

(122/11)

### \*آسيا الصغرى

شبه جزيرة، تقع في غرب آسيا. يحدها البحر الأسود شمالاً، والبحر المتوسط جنوباً، وبحيرة إيجه غرباً، ويصل البحر الأسود ببحر إيجه بحر مرمرة ومضيقا البسفور والدردينيل. تحتلها هضبة الأناضول التي تحف بها الجبال، وقد كانت ملتقى الحضارات القديمة؛ إذ يربطها نهرا دجلة والفرات بالعراق، وتربطها سواحلها باليونان. قام الفرس بغزوها ونتج عن ذلك قيام الحروب الفارسية، ثم أدمجها الإسكندر الأكبر في إمبراطوريته، ومن بعده انقسمت إلى ولايات صغيرة، حتى وَّحَّدها الرومان. وكانت

خاضعة للخلافة العثمانية فيما بين القرنين (9، و10هـ = 15، و16م).

(123/11)

---

### \*آسيا الوسطى

تقع في هذا الجزء من آسيا الدول الإسلامية الست التي كانت ضمن الاتحاد السوفييتي قبل زواله، ثم استقلت عنه، وأصبحت ضمن رابطة الكومنولث الروسي الجديد، وهذه الدول هي: أوزبكستان وكازاخستان ووتركمانستان وطاجيكستان وآذربيجان وقيرغيزيا، وتضم هذه الجمهوريات أكثر من (40) مليون نسمة من المسلمين. ومعظم هذا الإقليم صحراوي، تتباين فيه العناصر المناخية، خاصة درجات الحرارة والأمطار، وكان هذا الإقليم مجالاً واسعاً لخطط التنمية السوفييتية؛ وذلك لفتح روسيا الآسيوية، واستغلال مواردها الضخمة من الثروة المعدنية والغابات والأراضي الصالحة للزراعة.

(124/11)

---

### \*أرمينيا

إحدى جمهوريات الكومنولث وكانت إحدى جمهوريات الاتحاد السوفييتي قبل سقوطه سنة (1411هـ = 1991م). تقع غرب آسيا بين خطي عرض (37.5°)، و (41°) شمال خط الاستواء، ويحدها من الشمال جمهورية جورجيا، ومن الشرق آذربيجان وبحر قزوين، ومن الغرب تركيا ومن الجنوب إيران، ونظراً لهذا الموقع الفريد فقد كانت منذ القدم مطمناً لقوى عديدة، ومساحتها نحو (300.000) كم<sup>2</sup> وتبدو أرمينيا للناظر إليها من بعيد كأنها جزيرة

من الكتل البركانية، تنهض بين البلدان التي تحيط بها. وهي تشتهر بوجود العديد من البحيرات فيها، وأهمها: بحيرة سيفان وبحيرة سونكة الشهيرة باسم البحيرة الزرقاء ومناخها قارى، وتعلو الثلوج قمم الجبال فيها. ويبلغ عدد سكانها (3.3) مليون نسمة، حسب إحصائية سنة (1407هـ = 1987م) وتبلغ نسبة المسلمين فيها (13 %). وأهم المحاصيل الزراعية فيها: القمح والقطن والفاكهة والتبغ، وأهم الصناعات فيها: صناعة الآلات الزراعية والأسمدة، وأهم المعادن فيها الألومونيوم.

(125/11)

### \*الأحمر (بحر)

نشأ البحر الأحمر نتيجة لانشقاق بركاني هائل في المنطقة الآسيوإفريقية، وسمى أحمر؛ لأن قاعه أحمر، أو لأن انعكاس الشمس على صفحة مياهه عند الشروق والغروب تضيف هذا اللون على مياهه. ويبلغ طوله من باب المندب حتى ميناء السويس أكثر من ثلاثة آلاف كيلو متر، ويقع ثلث شواطئه الشرقية داخل الأراضي المصرية، والباقي في السودان وإريتريا والصومال، ويمتد الشاطئ الغربي بطول شبه الجزيرة العربية والجمهورية العربية اليمنية وجمهورية اليمن الشعبية، ومن ثم فإن البحر الأحمر بحر عربي. وينفرد البحر الأحمر بخصائص لا تتوافر في البحار الأخرى؛ فهو البحر الوحيد في العالم الذي يسير فيه التيار المائي عكس اتجاه الرياح، فالتيار يسير من الجنوب إلى الشمال، والرياح تتجه - في الغالب - من الشمال إلى الجنوب، ولعله هو الوحيد أيضاً الذي لا يصب في مياهه أى نهر من الأنهار؛ ومن هنا كانت مياهه صافية كالزجاج البلورى الملون، حتى إن العين المجردة تستطيع أن تنفذ إليها. ونسبة الملوحة

في البحر الأحمر تزيد على أى نسبة في بحار العالم. وهو  
يحتوى على أكثر من ألف نوعٍ من أنواع الأسماك، تشكل مصدرًا  
رئيسيًا لغذاء الإنسان.

(126/11)

---

### \*القلزم (بحر)

نشأ البحر الأحمر (القلزم) نتيجة لانشقاق بركاني هائل في  
المنطقة الآسيوإفريقية، وسمى أحمر؛ لأن قاعه أحمر، أو لأن  
انعكاس الشمس على صفحة مياهه عند الشروق والغروب تضيف  
هذا اللون على مياهه. ويبلغ طوله من باب المندب حتى ميناء  
السويس أكثر من ثلاثة آلاف كيلو متر، ويقع ثلث شواطئه  
الشرقية داخل الأراضي المصرية، والباقي في السودان  
واريتريا والصومال، ويمتد الشاطئ الغربي بطول شبه الجزيرة  
العربية والجمهورية العربية اليمنية وجمهورية اليمن الشعبية،  
ومن ثم فإن البحر الأحمر بحر عربي. وينفرد البحر الأحمر  
بخصائص لا تتوافر في البحار الأخرى؛ فهو البحر الوحيد في  
العالم الذى يسير فيه التيار المائى عكس اتجاه الرياح، فالتيار  
يسير من الجنوب إلى الشمال، والرياح تتجه - فى الغالب - من  
الشمال إلى الجنوب، ولعله هو الوحيد أيضًا الذى لا يصب فى  
مياهه أى نهر من الأنهار؛ ومن هنا كانت مياهه صافية كالزجاج  
البلورى الملون، حتى إن العين المجردة تستطيع أن تنفذ إليها.  
ونسبة الملوحة فى البحر الأحمر تزيد على أى نسبة فى بحار  
العالم. وهو يحتوى على أكثر من ألف نوعٍ من أنواع الأسماك،  
تشكل مصدرًا رئيسيًا لغذاء الإنسان.

(127/11)

## \*أحد

جبل في شمالي المدينة، على مقدار ستة أميال منها وهو أقرب الجبال إليها، وهو مطل على أرض فيها مزارع، وضياع كثيرة لأهل المدينة وفيه قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : أحد جبل يحبنا ونحبه. وقيل: سُمي بهذا الاسم لتوحده، وانقطاعه عن جبال أخرى، وفي بعض الآثار المسندة أن أحدًا سيكون يوم القيامة عند باب الجنة من داخلها، وفي بعضها أنه سيكون ركنًا لباب الجنة. وعند أحد كانت الغزوة بين النبي - صلى الله عليه وسلم - وقريش في (شوال سنة 3هـ = 624م)، بعد غزوة بدر بسنة، وفيها نزل النبي - صلى الله عليه وسلم - الشَّعْب من أحد في عدوة الوادي إلى الجبل، فجعل عسكره وظهره إلى أحد. وكان يوم أحد يوم بلاء وتمحيص؛ ففيه قُتل حمزة عم النبي - صلى الله عليه وسلم -، وسبعون من المسلمين، وكسرت رباغية النبي - صلى الله عليه وسلم -، وشُخَّ رأسه الشريف، وجرحت شفتيه.

(128/11)

## \*ألمانيا

دولة أوروبية. تقع في قلب القارة الأوروبية. وتبلغ مساحتها (356910) كم<sup>2</sup>، ويحدها من الشمال الدنمارك وبحر الشمال، ومن الجنوب سويسرا والنمسا، ومن الشرق جمهورية التشيك وبولندا، ومن الغرب بلجيكا ولكسمبورج. وتتأثر ألمانيا بالرياح الغربية القادمة من المحيط الأطلسي، كما تتأثر بالمناخ القاري في الشرق، ومتوسط درجة الحرارة فيها (6) في الشتاء، و (18) في الصيف، وتسقط الأمطار عليها في جميع فصول السنة. ويبلغ عدد سكان ألمانيا نحو (77) مليون نسمة حسب إحصائية سنة (1413هـ = 1992م)، ويدين معظمهم بالمسيحية (نحو 30 مليوناً

على المذهب البروتستانتي، و28 مليوناً على المذهب الكاثوليكي، إلى جانب أقليات مسيحية أخرى)، ويبلغ عدد المسلمين فيها نحو (4) ملايين مسلم. وأهم مدن ألمانيا: برلين العاصمة وهامبورج وميونخ وكولونيا وفرانكفورت. ويعتمد الاقتصاد الألماني على عدة دعائم، أهمها: الصناعة والتعدين، والزراعة، والثروة الحيوانية والتجارة. ويقوم نظام الحكم في ألمانيا على أساس أن الشعب هو مصدر السلطات وله حق الاستفتاء، ويمثل الشعب البرلمان الاتحادي الذي ينتخب لمدة أربع سنوات، كما يوجد مجلس الولايات الذي يتكون من (16) ولاية. وتصدر في ألمانيا (410) صحيفة وأكثر من عشرين ألف مجلة.

(129/11)

### \*أمريكا الجنوبية

إحدى قارات العالم الست، وهي رابعة قارات العالم مساحة، إذ تبلغ مساحتها (7.855.000) ميل مربع، وتقع بين دائرتي عرض (13.5) شمالاً و (56) جنوباً، وتقطعها دوائر العرض الثلاثة (مدار السرطان وخط الإستواء ومدار الجدي). وتضم عددًا من الدول، منها: البرازيل والأرجنتين وكوبا، وتوجد في القارة بعض المرتفعات مثل: سلاسل جبال الإنديز التي تمتد لمسافة (4000) ميل، وهضبة اليونان التي يتراوح ارتفاعها بين (4000 و 8000) قدم، وبالقارة بعض السهول مثل: سهل اللانوس والسلفا، حيث يجرى به نهر الأمازون الذي يبلغ طوله حوالي (4500) ميل. ويتكون سكان أمريكا الجنوبية من خليط من الأجناس البشرية مثل الهنود الأمريكيين والأوروبيين والزنج والزامبو والمولاتو. ويبلغ عدد السكان حسب احصائية سنة 1992م (308) مليون

نسمة. ويدين أغلب السكان بالمسيحية، ويوجد بها عدد من الجاليات الإسلامية، ويتحدث السكان عددًا من اللغات مثل: الإسبانية والبرتغالية والهولندية والإنجليزية. وتعد الزراعة من أهم الأنشطة الاقتصادية وأهم محاصيلها: القمح والأرز وقصب السكر والقطن، وتوجد بالقارة ثروة حيوانية ضخمة من الأبقار والأغنام والخيول؛ بالإضافة إلى ثروة سمكية كبيرة وثروة معدنية مثل: الذهب والفضة والقصدير واليوكسيت. وكانت توجد بها بعض الحضارات القديمة مثل: حضارة المايا والأزتك، وقد اكتشف المسلمون القارة قبل كولومبس سنة (545 هـ = 1150م) ووصلوا إلى ما يعرف الآن بساحل البرازيل ووصل إليها كولومبس سنة (898 هـ = 1492 م)، وشهدت القارة بعد ذلك صراعًا استعماريًا بين إسبانيا والبرتغال ثم إنجلترا وفرنسا. وفي أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر الميلاديين قامت في القارة عدة ثورات للتخلص من الاستعمار الأوروبي، ونجحت أغلب الدول في الحصول على الإستقلال، وبعد الحرب العالمية الثانية ازدادت هيمنة الولايات المتحدة

(130/11)

---

الأمريكية ونفوذها داخل القارة.

(131/11)

---

\*عين شمس

من أشهر المدن المصرية القديمة. تقع في الشمال الشرقي للقاهرة. واسمها المصرى القديم أتوم أو رع، ومعناها الشمس، واسمها العبرى أون، والرومى هليوبوليس، أى: مدينة الشمس.

وقد اندثرت هذه المدينة، ومحلها اليوم وماجاوره بأرض المطرية يُعرف بتل الحصن؛ حيث توجد إحدى المسلتين اللتين أقامهما على باب معبد المدينة الملك سنوسرت الأول المعروف بسيزوستريس الأول. وكان بجوار هليوبوليس نبع ماء، سماه العرب عين شمس؛ فغلب اسمه عليها. تطلق عين شمس الآن على المنطقة الواقعة بجوار محطة عين شمس في ضواحي القاهرة.

(132/11)

### \*أوراس (جبل)

جبل بأرض إفريقيا، فيه عدة بلاد وقبائل من البربر؛ ويتكون من سلسلة جبلية بالجزائر في أطلس الصحراء، على شكل رباعي مساحته (3600) ميل مربع، ويبلغ ارتفاعها (3000) قدم. ويتصل بهذه السلسلة من الغرب تلال الزاب، وهي قليلة الارتفاع، ويمر بها طريق حديدي يصل بين بطنة وبسكرة، وفي الشمال تعلو هضبة سباخ وحوض الطرف، وفي الجنوب تحف بالصحراء الكبرى، ويتخللها عدة نهيرات صغيرة وجداول وأودية قليلة الحجم يزرع عليها أشجار الزيتون، والفاكهة، مثل: المشمش والكرز والكروم والكمثرى، وأشجار البندق والبلوط والأرز. يبلغ عدد سكانها (88.100) نسمة، متألفين من عدة عناصر من البربر والرومان والبيزنطيين وغزاة الوندال والعرب. والدين الإسلامي هو السائد بين القبائل الموجودة في هذه الجبال مع وجود ديانات أخرى كالمسيحية والوثنية واليهودية والدوناتية. وقد فتح عقبة بن نافع هذه المناطق، إلا أنه لم يتوغل في جبال أوراس؛ مما جعل هذه الجبال مصدر مقاومة دائمة للمسلمين، حتى قضى عليها حسان بن النعمان في القرن (8هـ = 14م)، ولكن أهل جبال أوراس استطاعوا أن يحتفظوا باستقلالهم فترة

طويلة من الزمن، حتى جعل الأتراك عليهم واليًا سنة (1138هـ = 1725م). وفي سنة (1260هـ = 1844م) احتل الجيش الفرنسي البلاد؛ فنار الشعب، واستمرت الثورة حتى سنة (1297هـ = 1879م)؛ إذ أخدمت بكل قوة، ولم تقم لها قائمة بعد ذلك.

(133/11)

### \*أمريكا الشمالية (قارة)

إحدى قارات العالم الست. تقع في القسم الشمالى الغربى من الكرة الأرضية. وهى ثلاثة قارات العالم مساحة بعد كل من آسيا وإفريقيا؛ إذ تبلغ مساحتها (24) مليون كم<sup>2</sup>. وعدد سكانها (429) مليون نسمة. وهى على هيئة مثلث، قاعدته فى الشمال ورأسه فى الجنوب. ويحدها من الشمال المحيط المتجمد الشمالى، ومن الشرق المحيط الأطلنطى وخليج المكسيك، ومن الجنوب أمريكا الوسطى، ومن الغرب المحيط الهادى. وتشتمل أمريكا الشمالية على عدة دول مهمة، هى: الولايات المتحدة الأمريكية، وكندا، والمكسيك، وجرينلاند، وألاسكا. ومن أهم المحاصيل الزراعية فيها: القمح والقطن والمواالح والذرة الشامية الرفيعة والتفاح والكمثرى والأناناس وفول الصويا. ومن أهم ثرواتها المعدنية: الحديد والفحم والنحاس والزنك والرصاص، كما تنتج النفط والغاز الطبيعى. والمسيحية هى الديانة السائدة فى أمريكا الشمالية وفيها أقليات يهودية، وكذلك دخل الإسلام إلى أمريكا الشمالية منذ سنة (1202هـ = 1787م)، فأصبح للمسلمين فيها جماعة تدعى البلالين نسبة إلى الصحابى الجليل بلال بن رباح، وبلغ عدد المسلمين فيها نحو (250) ألف نسمة، ولهم (70) مسجدًا، إلى جانب عدة مراكز إسلامية كبرى فى شيكاغو ونيويورك ولوس أنجلوس وواشنطن وسان فرانسيسكو. ومنذ

سنة (1189 هـ = 1775 م) بدأت حرب الاستقلال الأمريكية ضد الاحتلال الإنجليزي الذي كان يسيطر عليها منذ أمدٍ بعيد. وبعد توقيع معاهدة فرساي سنة (1197 هـ = 1783 م) نالت أمريكا الشمالية استقلالها، واعترفت إنجلترا بذلك، ومنذ هذا التاريخ ظهرت الولايات المتحدة الأمريكية على مسرح الأحداث العالمية. وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية سنة (1364 هـ = 1945 م) أصبح لها دور كبير في السياسة الدولية، وخاصة في توجيه الاقتصاد العالمي.

(134/11)

### \*باريس

عاصمة فرنسا، وأحد المراكز السياسية والثقافية والاقتصادية المهمة في العالم. وتتكون من مدينة مركزية، وعدة ضواحي إقليمية. وقد قسمت إلى (20) حيًا منذ سنة (1276 هـ = 1859 م). وتبلغ مساحتها نحو (105) كم<sup>2</sup>. ويبلغ عدد سكانها (3) ملايين نسمة. وهي مقر الحكومة الفرنسية والوزارات والمجالس النيابية والسفارات الأجنبية، وفيها عدة مؤسسات دولية، مثل منظمة اليونسكو للتربية والعلوم. ومن أشهر معالمها: الحى اللاتيني، وميدان النجمة - شارل ديغول - وميدان الكونكورد، ومتحف اللوفر. ومن أشهر شوارعها: الشانزليزيه. ومن المعاهد العلمية فيها المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية، وجامعة السوربون القديمة، ومعهد الكوليج دي فرانس. ومن مكنتها الشهيرة: الخزانة السلطانية (الوطنية)، ومكتبة الأرسنال، ومكتبة مزارنيه، ومكتبة أكدمة الفرنسيين أو الأكاديمية الفرنسية. وتنسب باريس إلى قبيلة الكلت التي تدعى الباريس وكانت تسكن جزيرة لوتيس التي تتوسط نهر السين. وخلال القرنين (8، و9 هـ = 14، و15 م)

سادت باريس حالات من الفوضى والاضطراب؛ ولم تعد إليها حالة الاستقرار السياسي إلا في عهد فرانسوا الأول من سنة (921 - 954 هـ = 1515 - 1547 م). ومنذ القرن (11 هـ = 17 م) ظهرت أهمية باريس الثقافية، مع ظهور المذهب الكلاسيكي؛ حيث أصبحت مصدرًا مهمًا للحركات الأدبية والمسرحية والفكرية. وقد عانت باريس كثيرًا من ويلات الحرب العالمية الأولى والثانية؛ فقد احتلتها ألمانيا النازية سنة (1359 هـ = 1940 م)، وتم تحريرها سنة (1363 هـ = 1944 م). وتوجد في باريس جالية إسلامية كبيرة، تشكل أكبر تجمع إسلامي في فرنسا، ويوجد فيها عدد من المساجد، أشهرها: المسجد الكبير في جوبلان، ومسجد ضاحية بلفيل، هذا بالإضافة إلى عشرات المساجد الأخرى والمراكز الإسلامية.

(135/11)

#### \*الصعيد

منطقة في جنوب مصر تبدأ من أسوان في أقصى جنوب مصر وتنتهي عند الفسطاط في الشمال. وينقسم الصعيد إلى ثلاثة أقسام؛ الأول: الصعيد الأعلى، ويمتد من أسوان إلى أخميم، والثاني: من أخميم إلى البهنسا، والأدنى من البهنسا إلى الفسطاط. والصعيد منطقة جبلية، تقع على جانبي النيل وهي كثيرة الرياض والزروع، ويزرع فيها البلح والقصب، كما تكثر فيها صناعة السكر. ومن أهم مدنها: أسوان والأقصر وقنا وأسيوط وبنى سويف وغيرها. وكانت تحت حكم العباسيين منذ سنة (198 هـ = 813 م) في عهد المأمون ثم ملكها الفاطميون، فغلب عليها المذهب الشيعي الذي مالبت أن انحصر عنها في عهد الأيوبيين والمماليك. ومن أشهر علمائها وأدبائها: إبراهيم

بن عمر الأسواني، وأحمد بن أبي الكرم بن عرام الأسواني،  
وعطاء الله بن علي بن زيد الإسناي، ومحمد بن علي بن وهب  
بن دقيق العيد.

(136/11)

---

### \* صفاقس

ميناء ومدينة إفريقية شرق تونس وجنوب سوسة، وتطل على  
خليج قابس، ويبلغ عدد سكانها نحو (45) ألف نسمة. وتشتهر  
بالزيتون الذي يأتي إليه التجار من كل مكان؛ لرخص ثمنه بها،  
وقامت عليه صناعة زيت الزيتون الذي يعد من أهم صادراتها،  
كما تصدر الفوسفات والإسفننج. وقد احتلتها فرنسا سنة  
(1299هـ = 1881م)، كما تعرضت للهجوم البريطاني في أثناء  
الحرب العالمية الثانية، وذلك سنة (1361هـ = 1942م) فاحتلتها  
بريطانيا سنة (1362هـ = 1943م). ومن أشهر علمائها: أبو  
حفص عمر بن محمد بن إبراهيم البكري وأبو الحسن علي بن  
محمد الربعي المعروف باللخمي.

(137/11)

---

### \* صفين

مكان على شاطئ نهر الفرات بالعراق من الجانب الغربي بين  
مدينتي الرقة وبالس، ودارت على أرضه معركة صفين بين الإمام  
علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، رضى الله عنهما،  
سنة (37 هـ = 657 م).

(138/11)

### \*صقلية

جزيرة من جزر البحر المتوسط تقع في مواجهة الساحل الإفريقي، وهى مثلثة الشكل. تبلغ مساحتها (25815) كم<sup>2</sup>. ويبلغ عدد سكانها (4.000.078) نسمة. وأهم المدن بها العاصمة بالرمو. ومن أهم محاصيلها الزراعية: العنب والزيتون والبرتقال، وهى خصبة التربة، جيدة الهواء، كثيرة الأنهار، يترى بها الخيل والبغال والحمير والبقر والغنم والحيوان الوحشى. وبها معادن، مثل: الذهب والفضة والنحاس والرصاص والزئبق. وقد فتحها قاضى القيروان أسد بن الفرات سنة (212هـ = 827 م) فى عهد إبراهيم بن الأغلب، وأسلم معظم أهلها، وبنوا بها المساجد. وشجع المسلمون الزراعة والتجارة والفنون بها، فأصبحت ذات حضارة مزدهرة يقصدها الناس من كل مكان. وقد أحكم الفاطميون السيطرة عليها، وجعلوا منها ساترًا لحمايتهم من أعدائهم الفرنجة، وخاصة ضد إيطاليا، وكذلك فعل الأيوبيون والمماليك من بعدهم.

(139/11)

### \*غزة

مدينة فلسطينية. تقع على البحر المتوسط، فى أقصى بلاد الشام من ناحية مصر وكانت مركزًا تجاريًا مهمًا؛ حيث إنها ملتقى قوافل التجارة بين مصر وبلاد الشام والهند واليمن. وهى مدينة زراعية وصناعية فى آن واحد، فتقوم الزراعة بها على الشعير والحمضيات والفواكه كالعنب والتين والتوت والبطيخ، وتقوم بها صناعة النسيج بأنواعه الصوفية والحريرية وصناعة البسط والسجاد والحصر والصباغة والتطريز والصابون

والفخار والسجائر والبلاط ومواد البناء والمياه الغازية وزيت  
السمسم وغيرها. وقد فتحها المسلمون سنة (13هـ = 634م)  
وأطلقوا عليها اسم غزة هاشم لوفاة هاشم بن عبد مناف جد  
الرسول - صلى الله عليه وسلم - بها. وتوالى على حكمها ولاية من قبل الدولة الأموية  
والعباسية والفاطمية والأيوبيية والمملوكية والعثمانية، ودخلها  
الفرنسيون بعد احتلال مصر سنة (1214هـ = 1799م)، وشهدت  
أرضها عدة معارك بين بريطانيا وتركيا في الحرب العالمية  
الأولى، ثم احتلها البريطانيون سنة (1336هـ = 1917م). وفي  
سنة (1368هـ = 1948م) دخلها الجيش المصرى في حرب  
فلسطين، ومنذ ذلك الوقت يطلق عليها قطاع غزة وتقيم بها  
جيوش التحرير الفلسطينية والقوات المصرية. وبعد هزيمة الجيش  
المصرى في حرب سنة (1368هـ = 1948م) احتلتها القوات  
الإسرائيلية، فشهدت الكثير من الحركات الفدائية التي قام بها  
الجانبان المصرى والفلسطينى وكان أشهرها سنة (1955م -  
1956م) ولا يزال قطاع غزة حتى اليوم تحت سلطة الاحتلال  
الإسرائيلى. ومن أشهر العلماء الذين ظهروا بها: الإمام أبو عبد  
الله محمد بن إدريس الشافعى وأبو عبد الله محمد بن عمرو بن  
الجراح الغزى والشاعر إبراهيم بن عثمان الأشهبى. ومن أشهر  
آثارها الإسلامية: جامع غزة الكبير، وجامع الشيخ زكريا الذى  
بنى سنة (449هـ = 1057م)، وجامع على بن مروان الذى أسس  
عام (715هـ = 1315م)، وجامع ابن عثمان، وجامع المحكمة  
البروية الذى أقيم سنة (859هـ = 1455م).

(140/11)

\*صنعاء

عاصمة الجمهورية اليمنية، ومن كبرى مدنها. تقع في وسط

الهضبة اليمينية على سفح جبل نقم. يبلغ عدد سكانها نصف مليون نسمة. وكانت تُسمَّى أزال، وكانت مساحتها أقل مما هي عليه الآن، وقد حكمتها الدولة الحميرية والحبشية والفرس قبل الإسلام. ويرجع اتساعها إلى العهد العثماني؛ حيث بنيت فيها مساكن موظفي الدولة ومنازل الأئمة وقصورهم وبساتينهم. وكانت مدينة مهمة في عصر صدر الإسلام؛ فقد سكنها كثير من الصحابة وبنوا بها المساجد والجامع، فازدهرت بها العلوم الإسلامية، وظهر بها الفقهاء والعلماء والمحدثون. وقد توسعت الإنشاءات المعمارية بها في عهد الدولة الهمدانية في القرن (6هـ = 12 م)، والدولة الأيوبية في القرن (7هـ = 13 م)، والعهد العثماني في القرن (10هـ = 16 م)؛ إذ أنشئ فيها حي بير العزب وحي قاع اليهود في الجانب الغربي منها. ومنذ سنة (945هـ = 1538 م) حتى سنة (1040هـ = 1630 م) أصبح الأئمة رؤساء دينيين فقط، ولما انسحب الأتراك منها أصبح للأئمة اليمينيين سلطانهم الكامل في اليمن سياسياً ودينياً، ولكن بعودة الأتراك إليها ثانية سنة (1289هـ = 1872 م) لم تعد لهم سلطة سياسية. وهي من المدن المليئة بالآثار الإسلامية وغير الإسلامية؛ ولهذا صدر قرار من مجلس الوزراء بتشكيل لجنة للمحافظة على تراثها سنة (1405هـ = 1984 م). ومن أشهر علمائها وأدائها: عبد الرازق بن همام، ووهب بن منبه، والحسن بن أحمد الهمداني، وعلقمة ذوجدن، ووضاح اليمن.

(141/11)

\*إمبابة

أحد مراكز الجيزة بمصر؛ حيث تقع على بعد (10 كم) شمال الجيزة. وقاعدته إمبابة بالقرب من الشاطئ الغربي للنيل تجاه

بولاق؛ حيث توصل بينهما قنطرة، واسمها الأصلي نبابة ثم قلبت النون ميماً؛ لوقوعها قبل الباء، ثم أضيف همزة في بداية الكلمة. فُسِّمَت إِمبابة سنة (715هـ) إلى ثلاث نواحٍ، هي منية تاج الدولة ومنية كرداك ومنية أبي علي؛ ونتيجة لهذا التقسيم لم يستعمل اسم نبابة آنذاك في التقسيمات الإدارية، وفي سنة (1274هـ) فصل عن تاج الدولة ناحية كفر الشيخ إسماعيل، لكن هذه النواحي ظلت معروفة عند الناس باسم إِمبابة؛ بسبب تجاورها مع بعضها، ثم أعيد استخدام اسم إِمبابة في الوثائق الرسمية سنة (1939م)، وضمَّت إليها بقية النواحي السابقة وجعلت مدينة واحدة باسم إِمبابة فعاد إليها اسمها بعد أن بطل استعماله سبعة قرون. وكانت أوسيم مقرّاً لقسم أوسيم منذ سنة (1826م)، ولوقوع إِمبابة على السكة الحديدية؛ نقل ديوان مركز أوسيم وإدارات مصالح أخرى إلى إِمبابة، مع بقاءه باسم قسم أوسيم، ومنذ بداية سنة (1896م) سُمِّي مركز إِمبابة، ثم أصبح لأوسيم مركز مستقل عن مركز إِمبابة. ونبغ من إِمبابة مشاهير منهم: شمس الدين الإنبائي شيخ الأزهر المتوفى سنة (1313هـ = 1896م)، ومحمد بن حجازي الرِّقباوي الإنبائي أحد الأدباء. وقد جرت بالقرب منها معركة إِمبابة بين المماليك بقيادة مراد بك والفرنسيين بقيادة نابليون وقد هزم فيها المماليك هزيمة منكرة سنة 1213هـ = 1798م.

(142/11)

\*سببيرا

منطقة كانت ضمن الاتحاد السوفييتي السابق، تشمل آسيا الشمالية كلها، وتمتد من جبال الأورال غرباً إلى المحيط الهادى شرقاً، ومن المحيط القطبي الشمالي شمالاً إلى مرتفعات جزر

الشمال من وسط كازاخستان، وإلى حدود الاتحاد السوفيتي السابق، مع منغوليا والصين جنوباً. تبلغ مساحتها (12.820.000) كم<sup>2</sup>. وقد بدأ الاحتلال الروسي لها بحملة قوقازية أطاحت بخانية، وهي إمارة سيبيريا الصغيرة، التي أطلق اسمها على المنطقة كلها. وفي العهد القيصري كانت سيبيريا مجرد منفى للمجرمين والمعتقلين السياسيين. وبعد إنشاء سكة حديد سيبيريا (1891 - 1905م) بدأ تدفق أعداد كبيرة من المهاجرين، وفي أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين الميلادي نشطت الحكومة السوفييتية لتطوير الحياة الصناعية فيها، فتمت نموًا ملحوظًا.

(143/11)

#### \*بنزرت

ميناء تونس على البحر المتوسط. وكانت مدينة قديمة ومطعمًا للغزاة، مثل الفينيقيين والقرطاجنيين والرومان والبيزنطيين. استولى عليها معاوية بن خديج سنة (41هـ) في خلافة معاوية بن أبي سفيان. ودانت لولاة تونس من العرب والبربر حتى استولى عليها خير الدين بارباروسة عام (941هـ) وضمها إلى الدولة العثمانية. وفي القرن (12هـ = 18م) أصبحت مركزًا للقراصنة البحرية، وحاول البنادقة تخريبها سنة (1785م)، وقد استولى عليها الفرنسيون عام (1881 م)، وجعلوها قاعدة بحرية لأسطولهم في البحر المتوسط. وبعد رحيل القوات الفرنسية من تونس سنة (1957م) استمرت سيطرة القوات الفرنسية على قاعدة بنزرت؛ مما أدى إلى وقوع مصادمات عسكرية بين القوات التونسية والفرنسية حتى تمّ الجلاء التام عنها عام (1963 م).

(144/11)

### \*بندر عباس

ميناء ومدينة إيرانية. تقع على الخليج العربي، وتواجه جزيرة هرمز، وتتبع محافظة هرمزخان، وسكانها من أهل السنة، ويوجد فيها بعض الشيعة. يرجع تأسيسها إلى الشاه الإيراني عباس الأول الذي أمر بتأسيسها سنة (1615م)، وأطلق عليها اسمه، بعد أن طرد منها البرتغاليين بمساعدة الأسطول البريطاني، وقد أنشأها الشاه عباس الأول؛ لتنافس هرمز من الناحية التجارية. وكان الأوربيون يطلقون عليها في القرنين (11، و12 هـ = 17، و18 م) اسم جمبرون أو كوهارون، بمعنى برغوث البحر. وكان لموقع بندر عباس المتميز استراتيجياً أثره في أن تصبح مكاناً لتقاتل الأساطيل البحرية بين الدول الاستعمارية الكبرى، وتعرضها للاعتداءات العسكرية. وفي القرن (11 هـ = 17 م) أصبحت أهم الموانئ الفارسية، ونظراً لنمو التجارة بما تعددت الأجناس والأعراق بها. وقد سيطر عليها العمانيون سنة (1793 م)، لكن الشاه نصر الدين استردها مرة أخرى سنة (1868 م).

(145/11)

### \*بكين

عاصمة الصين. تبلغ مساحتها سبعة آلاف كيلو متر مربع، وتُسمى العاصمة الشمالية؛ تمييزاً لها عن العاصمة الجنوبية نانكينج، ويرجع تاريخ إنشائها إلى ما يزيد على ألف سنة، وقد أنشئت لتكون قلعة أمامية لحماية الصين من غزوات المغول، وقد بقيت عاصمة للصين حتى سنة (1928 م) باستثناء فترة قصيرة فيما بين عامي (1341 و 1368م) وتحولت وظيفتها كعاصمة إلى

نانكينج فيما بين عامي (1928 و 1949 م). ومجىء النظام الشيوعي أصبحت بكين عاصمة لجمهورية الصين الشعبية. وقد تمت المدينة كمركز عظيم للإدارة والتجارة والثقافة، وصارت مركزاً مهماً للسكك الحديدية. وتتألف المدينة من عدة مدن داخلية، وتحيط بها أسوار عملاقة، وهي ذات طابع معماري رفيع الذوق، وتتميز بحدائقها واتساع شوارعها، ويوجد بها عدد من الصناعات.

(146/11)

---

\*أزمير

مدينة وميناء غرب تركيا، على خليج أزمير الواقع على بحر إيجه، وتُعد أهم موانئ تركيا بعد إسطنبول، وهي مدينة صناعية تشتهر بصناعة السجاد الأزميري. كان اسمها سميرنا. أسسها اليونانيون القدماء، وكانت مركزاً للمسيحية في آسيا الصغرى، وخرَّبها تيمور لNK سنة (1402 م). واستولى عليها السلاجقة في أواخر القرن (5 هـ = 11م) وغزاها فرسان القديس يوحنا سنة (1344م)، واستولى عليها السلطان مراد الثاني سنة (1425 م)، ثم استولى عليها محمد علي سنة (1833 م) لكنه تخلى عنها للفرنسيين. وفي عام (1920 م) استولى عليها اليونانيون بعد معاهدة سيفر بمساعدة الحلفاء، إلا أن الاتراك استردوها عام (1922 م)، وأصبحت تحت السيادة التركية.

(147/11)

---

\*بورسعيد

مدينة تقع شمال مصر، عند المدخل الشرقي لقناة السويس، على

البحر المتوسط. وهي مقامة على شريط ضيق من الأرض بين قناة السويس وبحيرة المنزلة؛ ومن ثم فهي عبارة عن شبه جزيرة صغيرة. وترجع نشأة بورسعيد إلى حفر قناة السويس سنة (1859 م)، ثم أصبحت مدينة مع افتتاح القناة سنة (1869م)، وسميت بهذا الاسم نسبة إلى والى مصر فى تلك الفترة محمد سعيد باشا. وأخذ عدد سكان المدينة فى الازدياد فيها؛ نظرًا إلى نمو التجارة وفرص العمل بها، حتى أصبحت ثانى أهم موانئ مصر. وفى عام (1956 م) قاومت مدينة بورسعيد العدوان الثلاثى على مصر رغم الحسائر التى لحقت بها، وأعيد تخطيط المدينة بعد هذا العدوان. وبور سعيد تنقسم إداريًا إلى أربعة أقسام، هى بورفؤاد والشرق والغرب والمناخ، وهى مدينة تتمتع بحرية التجارة (منطقة حرة)، وتوجد فيها بعض الصناعات الغذائية والمنسوجات، كما توجد فيها ثروة سمكية ضخمة؛ نظرًا لتعدد بحيراتها، كما تُعد بور سعيد مصيفًا رائعًا.

(148/11)

#### \*القسطنطينية

مدينة تركية قديمة، تسمى الآن إستانبول، وكانت تسمى بيزنطة، فلما انتقل إليها الملك الرومانى قسطنطين تاركًا روما، بنى عليها سورًا، واتخذها عاصمة للإمبراطورية البيزنطية، وكانت أكبر مدينة فى أوروبا فى العصور الوسطى. وبعدما فتحها السلطان محمد الفاتح سنة (1453م) ازدهرت، وأصبحت مركزًا سياسيًا وتجاريًا عظيمًا؛ لأنها أصبحت عاصمة لدولة الخلافة العثمانية حتى سنة (1923م)؛ إذ انتقلت العاصمة إلى أنقرة.

(149/11)

---

### \*قادش (قادس)

جزيرة بالأندلس عند طالقة من مدن إشبيلية. كان من أعجب آثارها الصنم الذى بناه هرقاس أحد قواد الروم الإغريقين فى زمن موسى عليه السلام. وقد فتح طارق بن زياد قادش مع فتحه للأندلس عام (92هـ)، ولاتزال ضمن المدن التى يطلق عليها اسم الأندلس حتى الآن فى إسبانيا.

(150/11)

---

### \*ماردة

مدينة فى الجزء الجنوبى الغربى من إسبانيا. أسسها الإمبراطور الرومانى أوغسطس عام (25 ق. م). وفتحها المسلمون عام (713 م) فشهدت فى عهدهم ازدهاراً كبيراً. وهى غنية بالآثار الرومانية. وقد سقطت فى يد النصارى سنة (1231 م). وهى الآن مدينة إسبانية.

(151/11)

---

### \*مالى

جمهورية فى الجزء الشمالى الغربى من إفريقيا. يحدها من الشمال الجزائر، ومن الجنوب غينيا وكوت دوفوار (ساحل العاج)، ومن الشرق النيجر وفولتا العليا، ومن الغرب موريتانيا والسنغال. ديانتها السائدة الإسلام. ولغتها الرسمية الفرنسية. ومساحتها نحو (1.240.000) كم<sup>2</sup>. وعاصمتها باماكو. ويعتمد اقتصادها على الزراعة وبعض الصناعات. وقد شكلت جزءاً أساسياً من دولة غانا السودانية القديمة التى ازدهرت فيما بين

القرن الثامن ومنتصف القرن الحادى عشر الميلاديين، ثم قامت فيها إمبراطورية مالى الإسلامية من القرن (7 هـ = 13 م) إلى القرن (10 هـ = 16 م). واحتلتها فرنسا فيما بين سنتى (1880م، و1895 م)، وضممتها إلى إفريقيا الغربية الفرنسية، وأطلق الفرنسيون عليها اسم السودان الفرنسى. ثم نالت استقلالها التام سنة (1960 م).

(152/11)

### \*لبنان

جمهورية عربية تنسب إلى جبل لبنان. عاصمتها بيروت. تقع لبنان غرب آسيا، بين دائرتى عرض (10° 33) و (35° 34) شمالاً، وبين خطى طول (15° 35) و (30° 36) شرقاً. ويحدها من الغرب البحر المتوسط، وتحيط بها سورية من الشمال والشرق والجنوب الشرقى، وفلسطين من الجنوب، ومساحتها (10.306) كم<sup>2</sup> وتمتد في نطاق مستطيل. وقد اعتنق اللبنانيون المسيحية إبان الحكم الرومانى الذى تعرضوا أيامه للاضطهاد فترة من الزمن، ودخل الإسلام إلى لبنان على أثر فتح أبى عبيدة بن الجراح لمدينة دمشق سنة (14 هـ = 635 م)، وكانت أول مدينة لبنانية تحظى بدخول الإسلام إليها هى مدينة بعلبك، ثم صارت الأراضى اللبنانية تحت لواء الخلافة الإسلامية، ولم تلقَ الجيوش الإسلامية أى مقاومة حتى وصلت إلى وادى عربة؛ حيث واجهها جيش الروم الذى فرَّ غرباً ففضى عليه المسلمون في غزة، لكنهم حفظوا للنصارى حقوقهم. ثم أعلن إنشاؤها باسم دولة لبنان الكبير سنة (1920 م)، ثم باسم الجمهورية اللبنانية سنة (1926 م).

(153/11)

## \*كينيا

دولة إفريقية. عاصمتها نيروبي. تقع في الدائرة الاستوائية. وهي إحدى دول شرق إفريقيا وتطل على ساحل المحيط الهندي في شرقها، وتجاورها أوغندا في الغرب، وتنزانيا من الجنوب، والصومال من الشرق، وكل من إثيوبيا والسودان في الشمال. مساحتها (580.367) كم<sup>2</sup>، ويخترقها خط الاستواء. وتعتمد على الزراعة وتربية الحيوان. وقد بدأت الهجرات الإسلامية إلى ساحل كينيا سنة (76 هـ) بجماعة من مسلمي الشام، ثم كانت الهجرة الثانية من مسلمي عمان؛ حيث كونوا إمارة إسلامية في لامو، ثم توالى الهجرات إليها إلى أن جاء بنونيهان من عمان سنة (703 هـ = 1303 م) إلى مدينة بانا في كينيا شمالي لامو فتكاثرت المدن الإسلامية على الساحل. وبدأت اللغة السواحلية في الظهور، واتخذت لها الأحرف العربية. ثم احتلها البرتغاليون، وحرقوا المدن الإسلامية بمعاونة من الحبشة، فقاوم المسلمون المحتلين حتى تحرر الإقليم الساحلي سنة (1728م)، وصارت تحت حكم آل مزروعى العرب الخليجيين، ثم صارت كينيا جزءاً من سلطنة عمان، إلى أن خضعت لبريطانيا سنة (1895م)، ولم تنل استقلالها إلا سنة (1963م)، وكانت قبيل الاستقلال تؤلف مع تنزانيا وأوغندا اتحاد شرق إفريقيا البريطانية.

(154/11)

## \*مرسية

مقاطعة في الجزء الجنوبي الشرقي من إسبانيا. تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط. عاصمتها مدينة مرسية. واقتصادها يقوم على الزراعة والتعدين. ومساحتها نحو (11 317) كم<sup>2</sup>.

وكانت مركزًا للاستيطان القرطاجي في إسبانيا، وفتحها المسلمون في القرن (2هـ = 8م) ثم سقطت في يد النصارى سنة (1243م).

(155/11)

---

### \*مخاضة الأحرار

حصن بناه الصليبيون سنة (574هـ)، وكان حصنًا منيعًا بلغ عرض حائطه ما يزيد على عشرة أذرع، وقد قطعت له الحجارة الكبيرة، وتكلف تكاليف باهظة، فسار إليه صلاح الدين الأيوبي بعد موقعة مرج العيون فحاصره أربعة عشر يومًا، واستطاع أن يفتحه ويستولى عليه وهدمه، وأسر المسلمون (700) أسير، إلى جانب كثير من الغنائم.

(156/11)

---

### \*عين جالوت

بلدة بفلسطين. تقع بين بيسان والنصرة في الجنوب الغربي من النصر، في موضع وافر المياه، تكتنفه الأحرار والأشجار. وارتبط اسم عين جالوت بالمعركة الحاسمة التي انتصر فيها سلطان مصر المظفر قطز على هولاكو بجيشه المغولي، وأوقف بها موجة المد التتري على الشرق الإسلامي. وقد صدَّ الهجمة الثانية عليها السلطان المملوكي قلاوون وهزم أبا قابن هولاكو سنة (687هـ). وصدَّ الثالثة السلطان المصري الناصر ضد غازان حفيد هولاكو سنة (700هـ = 1301م)، وكان صلاح الدين الأيوبي صاحب سبقٍ حينما اتخذ عين جالوت مركزًا لغزواته على الإمارات الصليبية التي سبقت معركة حطين.

### \*باكستان

جمهورية إسلامية. عاصمتها إسلام آباد. تقع في القسم الغربي من جنوب آسيا. ويحدها من الغرب إيران، ومن الشمال أفغانستان والصين، ومن الشرق الهند. ومساحتها (803.943) كم<sup>2</sup>. ومناخ باكستان حار وجاف. ولغتها الوطنية هي الأردية، وتوجد لغات قومية، مثل: البنجابية والسندية والبوشتية بشكل واسع، بالإضافة إلى الإنجليزية. والدين الرسمي هو الإسلام؛ حيث تمثل نسبة المسلمين (97%). خضعت باكستان للاحتلال البريطاني منذ القرن (12هـ = 18م)، وعُرفت باسم الهند البريطانية، واستقلت عنها سنة (1947م)، وقامت المعارك بينها وبين الهند؛ لأن الهند ضمت إليها منطقتي جامو وكشمير ذاتي الأثرية الإسلامية، كما اندلعت في باكستان حرب أهلية سنة (1951م)، كانت بدايتها بسبب اللغة. وفي سنة (1956م) أعلن الدستور، وأصبحت باكستان بموجبه جمهورية إسلامية. وأهم المشاكل التي واجهتها الحروب التي عاقت تقدمها وأفقدتها إقليمها الشرقي بنجلاديش. وكبرى مدن باكستان: كراتشي ولاهور وليالبور وحيدرآباد وملتان. وتمثل الزراعة دعامة أساسية في الاقتصاد الباكستاني. ونظام الحكم في باكستان جمهوري منذ سنة (1947م)،. وباكستان عضو في الأمم المتحدة ومنظمة المؤتمر الإسلامي.

## \*بلييس

عاصمة مركز بلييس بمحافظة الشرقية بمصر. تبلغ المسافة بينها وبين مدينة الزقازيق (28 كم). فتحها عمرو بن العاص، رضى الله عنه، نحو سنة (18هـ)، وكانت ذات حصون ومنعة. وقد حشد الروم فيها جيشاً ضخماً، وقد راسلهم عمرو وأمهلهم أربعة أيام، ولكن القائد الرومانى اختار القتال، فنصر الله المسلمين عليهم؛ فقتلوا من جيشه ألفاً، وأسروا ثلاثة آلاف. وكانت بلييس قاعدة الحوف الشرقى، ثم قاعدة الأعمال الشرقية فى عهد الفاطميين حتى آخر عهد الجركس، ثم قاعدة ولاية الشرقية إلى سنة (1832م)، وفى تلك السنة أصدر محمد على باشا والى مصر أمراً بنقل ديوان المديرية (المحافظة) والمصالح الأميرية الأخرى إلى مدينة الزقازيق؛ لتوسطها بين بلاد المديرية، وبذلك أصبحت بلييس قاعدة لقسم بلييس الذى أنشئ فيها بدلاً من ديوان المديرية، وفى سنة (1871م) سُمى هذا المركز مركز بلييس. وممن نبغ من العلماء فيها عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان الفخر البلييسى المقرئ، إمام الأزهر، وهو من علماء القرن (9هـ = 15م).

(159/11)

## \*البحر الأسود

بحر داخلى. مساحته (414400) كم2، وأقصى عمق له (224 م). يربطه بالبحر المتوسط مضيق البسفور وبحر مرمرة والدردينيل. تحف به بلغاريا ورومانيا والاتحاد السوفييتى السابق وتركيا. وأهم موانيه: أوديسا وباطوم وكنستانتا. وتصب فيه أنهار: الدانوب والدنيير والدون. وأطلق عليه بحر طرابزنده والبحر البنطسى (من الاسم اليونانى القديم)، وأطلق عليه الأتراك والتتر

قره دكر. وارتبط تاريخ هذا البحر بالفتح العثماني في الأناضول والبلقان والقرم إبان القرن (9 هـ = 15 م). وقد تم إغلاقه في وجه جميع السفن حتى عقدت معاهدة كجك قينارجه عام (1188 هـ = 1774 م)، وقد سمحت بمرور السفن الروسية، وتلتها الدول الأوروبية الأخرى، وعقدت معاهدة لوزان عام (1923 م) ونظمت حرية الدخول إلى البحر الأسود.

(160/11)

---

### \*الغربية

تكونت كورة الغربية بمصر في العصر الفاطمي. وأطلق عليها اسم الغربية؛ لوقوعها غربي النيل، وعرفت بأعمال الغربية في العصر المملوكي، ثم ولاية الغربية في العصر العثماني، وفي سنة (1833 م) سُميت مديرية الغربية، ثم أصبحت محافظة الغربية سنة (1960 م)، وكانت المحلة الكبرى عاصمة لإقليم الغربية في عهد الدولة الفاطمية، حتى سنة (1836 م)، التي نقل فيها ديوان المديرية من المحلة إلى طنطا بناءً على طلب عباس حلمي الأول، وكان مديراً للغربية والمنوفية اللتين كان يديرهما باسم مديرية روضة البحرين؛ وبسبب هذا النقل أصبحت المحلة قرية صغيرة من توابع قسم سمود، ثم عادت إليها شهرتها، وزاد عدد سكانها؛ بسبب الحاج والمعامل الكبيرة التي أنشأتها فيها شركة مصر منذ سنة (1927 م) لحلج القطن وغزله ونسجه وتلوينه، بحيث أصبحت المحلة الآن من كبرى المدن المصرية، وأشهرها.

(161/11)

---

## \*إستانبول

مدينة إسلامية اتخذها سلاطين الدولة العثمانية عاصمة لدولتهم منذ فتحها سنة (857 هـ = 1453 م) حتى سنة (1342 هـ = 1923 م). وإستانبول تحريف لكلمة إسلامبول التي تعني دار الإسلام بالتركية. وهي تقع في القسم الأوربي لتركيا الآن، على مضيق البسفور؛ حيث تحتل موقعًا فريدًا بين مدن العالم، وتحيط بها البحار من جهات ثلاث، وتقع عند ملتقى قارتي أوروبا وآسيا، وفيها أوسع ميناء في العالم، وهو ميناء القرن الذهبي المطل على شواطئ البسفور. وتبلغ مساحة المدينة (5565) كم<sup>2</sup>. وعرفت قديمًا باسم بيزنطة، ثم القسطنطينية، وكانت مطمعًا للغزاة والفاخرين على مر العصور؛ نظرًا لما تتمتع به من موقع متميز وجو رائع، وكذلك كانت موضع اهتمام المسلمين الدائم؛ حيث بشرهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بفتحها بقوله: لتفتحنَّ القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش جيشها. [مسند أحمد]

(162/11)

## \*البنجاب

إقليم يقع غرب باكستان ويمثل إحدى الولايات الأربع التي تكون باكستان. ويقع بين نهر السند وجمنة. والبنجاب معناه في اللغة الأردية المياه الخمسة، وسمى بذلك لوجود خمسة أنهار فيه. ويوجد به عدة سهول صالحة للزراعة، خاصة المناطق الواقعة بين الأنهار. وتبلغ مساحة الإقليم (98) ألف ميل مربع. ويتركز في الإقليم ثلث سكان الهند. ومناخ الإقليم متطرف؛ بحكم موقعه الداخلي؛ فهو شديد البرودة شتاءً، شديد الحرارة صيفًا، ويشتهر الإقليم بزراعة القمح والفواكه والحمص، وتكثر فيه الأمطار الموسمية. وأهم المدن فيه لاهو وهي عاصمته، وأهم

المدن في شبه القارة الهندية، وهي أكثر سكاناً من كراتشي،  
ويوجد بها مسجد بادشاهي، وبعض الآثار التاريخية، مثل قبر  
الشاعر المسلم محمد إقبال، وهي مدينة العلم والثقافة في  
باكستان، وبها حدائق شاليمار الشهيرة، ومن المدن الأخرى  
ليالبور وملتان وسيالكون ومنتجمرى. وكان هذا الإقليم موطناً  
لأقدم القبائل الآرية، واحتله الإسكندر الأكبر ثم آل إلى  
إمبراطورية الموريا. وبدأت أولى حملات الفتح الإسلامي للإقليم  
سنة (94 هـ) على يد محمد بن القاسم حيث استولى على ملتان،  
إلا أن إكمال الفتح قام به محمود الغزنوي سنة (392 هـ) حيث  
ضم البنجاب إلى الدولة الغزنوية، ثم دخل تحت حكم سلاطين  
دهلي، وظلت تتداوله الأيدي حتى ضمته بريطانيا إلى أملاكها  
سنة (1849 م) ثم قسم بين الهند وباكستان سنة (1947م) على  
أساس التجمعات المسلمة والهندوكية.

(163/11)

### \*إيران

دولة إسلامية آسيوية. تقع في نصف الكرة الشمالي. يحدها من  
الشمال بحر قزوين وتركمانستان وأذربيجان وأرمينية، ومن  
الغرب تركيا والعراق، ومن الشرق أفغانستان وباكستان، ومن  
الجنوب بحر عمان والخليج. وتبلغ مساحة إيران (1648195) كم<sup>2</sup>،  
وتقع بين دائرتي عرض (25) و (39.5)، وبين خطي طول (44)  
و (63). وأهم المدن الإيرانية: طهران العاصمة ومشهد وأصفهان  
وتبريز وقم. وأهم الموانئ: أنزلي وبندر عباس وخميني. ويبلغ  
عدد سكان إيران نحو (56.293.660) نسمة حسب إحصائية سنة  
(1412 هـ = 1991 م). ومتوسط دخل الفرد في السنة (1800)  
دولار حسب إحصائية سنة (1988 م). وأهم المحصولات الزراعية:

الحبوب والأرز والفواكه والسكر والقطن والعب. وأهم المعادن:  
الكروميوم، كما تنتج البترول والغاز الطبيعي. وأهم الصناعات:  
البتروكيماويات والسجاد والأسمت. والريال هو العملة المتداولة  
في إيران.

(164/11)

### \*غانا

جمهورية بغرب إفريقيا، على خليج غينيا. وعاصمتها أكرا.  
ومساحتها (238394) كم<sup>2</sup>. وتقع غرب إفريقيا، على ساحل غانا  
وتجاورها كوت دى فوار (ساحل العاج) في الغرب، وبوركينا  
فاسو في الشمال، وتوجو في الشرق. وفتحها الشيخ عبد الله  
ياسين عام (469 هـ) بعد أن اجتمع عليه المرابطون، كما هاجرت  
إليها قبائل الماندى المسلمة في القرن (10 هـ = 16 م)، وقبائل  
الهوسا في القرن (12 هـ = 18 م)؛ حيث استقرت في شمال  
غانا، وكانت تُسمى ساحل الذهب. واحتلها البرتغاليون والألمان  
والإنجليز والهولنديون، وبنوا لهم (35) قلعة، سيطر عليها  
الإنجليز، وأعلنت إنجلترا احتلالها عام (1874 م)، ولكن المسلمين  
الأشانتى ظلوا حاملين السلاح في وجه بريطانيا حتى عام  
(1900م)، وفي (2 من فبراير 1994 م) قامت قبائل كونكмба  
النصرانية بالهجوم على قرية بمبلا التي تبعد (960 كم) عن  
العاصمة، وسرعان ما انتشر الهجوم ليشمل (150) قرية، وكان  
المهاجمون يركزون على إحراق المساجد وهدمها على المصلين،  
فقدر عدد القتلى بنحو (8.000)، وعدد المشردين بنحو (20.000)،  
ولم يصل منهم إلى ثمانى إلا (4.000)، أما الأطفال والنساء  
والعجائز والشيخوخ فلم يصلوا جميعاً، ونزح إلى التوجو نحو  
(5.000) مسلم. وغانا عضو في منظمة الوحدة الإفريقية،

والكومنولث، والمجموعة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا، وعقدت اتفاق شراكة مع السوق الأوروبية المشتركة.

(165/11)

---

### \*قرطبة

كانت عاصمة مقاطعة قرطبة بجنوب الأندلس، على نهر الوادي الكبير، وقد ازدهرت في عهد الرومان، وفتحها المسلمون سنة (711 م)، وبلغت أوج ازدهارها في العهد الأموي سنة (756 هـ = 1031 م). واشتهرت بمركزها الثقافي الكبير، وازدهار العلم بها، فكان بها (200.000) بيت و (600) مسجد و (50) مستشفى و (80) مدرسة عامة كبرى، و (900) حمام سوقى، وكان في مسجد قرطبة الموجود حتى الآن (1093) عمودًا من الرخام و (19) بابًا، مبطنة بصفائح من نحاس التوج (نحاس المدافع) ومرصعة بصفائح من ذهب، وبلغت قناديله (4700) قنديل، أحدها في المحراب من الذهب والإبريز. وكانت قرطبة مشهورة بصناعة الذهب والفضة والجلود. وكانت تصبح مضئبة معطرة بما يلقي فيها من الزهور، وكانت عاصمة الخلافة الأموية في الأندلس، كما كان بها دار للكتب تتوى على أكثر من (600.000) مجلد، استولى عليها المسيحيون بعد أن سقطت في أيديهم على يد فرديناند الثالث ملك قشتالة سنة (1236 م).

(166/11)

---

### \*مازندران

مقاطعة في الجزء الشمالى من إيران، تتاخم بحر قزوين من الجنوب. وأهم منتجاتها الحبوب والفاكهة والمنسوجات

والأسماء. ومساحتها نحو (47.365) كم2، وعاصمتها سارى.  
وقد فتحها المسلمون سنة (644 م)، وأطلقوا عليها اسم  
طبرستان. وقد حكمها السامانيون والغزنويون والسلجوقيون،  
واستولى عليها المغول، ثم أعادها الإيرانيون، وينسب إليها أبو  
عبد الله محمد المازندراني.

(167/11)

### \*مشهد

عاصمة إقليم خراسان، من بلاد إيران. تقع في شماله الشرقي،  
على ارتفاع (985 م) عن سطح البحر، على بعد (20 كم) شمالي  
غربي مدينة طوس القديمة التي كانت مشهد في بداية نشأتها -  
قرية تتبعها، وكانت تسمى سناباد، ودفن بها هارون الرشيد  
وابنه المأمون. ويمر بمشهد نهر كشف. ومناخها شديد الحرارة  
صيفاً، شديد البرودة شتاءً. ومشهد كلمة عربية مرادفة لكلمة  
مزار، وسميت بهذا الاسم؛ لأن علي بن موسى الكاظم الرضا إمام  
الشيعة دفن بها عام (203 هـ = 817 م). وتعد مشهد المصدر  
الرئيسي لغذاء إيران الشرقية؛ باعتبارها مدينة زراعية وصناعية  
وتجارية. وتعرضت مشهد لغارات قبائل الغز وللهجمة التتيرية التي  
دمرت طوس. وكان ذلك أحد عوامل ظهور مشهد وخصوصاً بعد ما  
دمرها الأمير ميرانشاه بن السلطان تيمور كوركان. ولما تولى  
ميرزاشاهرخ عرش إيران سنة (850 م) أولى التعمير اهتمامه  
فشيد بها كثيراً من الأبنية، كما أن زوجته كوهرشاد أغا أنشأت  
كثيراً من الأبنية والمدارس والدور الخيرية التي لا تزال آثارها  
باقية ومعروفة باسمها حتى الآن. وفي عهد الصفويين أرسيت  
دعائم المذهب الشيعي الجعفري في إيران ولمع نجم مدينة  
مشهد. ومن مشاهيرها الفردوسي المتوفى سنة (411 هـ) صاحب

الشاهنامه، وأسدى الطوسى المتوفى سنة (447هـ) ونظام  
الملك المتوفى سنة (485هـ).

(168/11)

---

### \*قشتالة

إقليم عظيم بالأندلس. يقع حاليًا بشمال وسط إسبانيا ويشمل  
معظم هضبة إسبانيا الوسطى العالية الجافة. والأحواض الرئيسية  
بها هي أحواض أنهار الدور والأعلى والتاجة والوادي البانع.  
وأهم مدن قشتالة مدريد وطليطلة وكونسكا. ويشغل السكان  
بالزراعة ورعى الغنم. وفي سنة (1028 م)، سقطت في يد  
سانكوه الثالث ملك نفار، وجعلها مملكة مستقلة لابنه فرديناند  
الأول، ووسعت على حساب البلاد الإسلامية، واتحدت مع ليون.  
وعندما تزوجت إيزابيلا الأولى ملكة قشتالة من فرديناند الثاني  
ملك أراجون أصبحت المملكتان مملكة واحدة، وتأكد الاتحاد حين  
اعتلى حفيدها شارل العرش سنة (1516 م). وبعد القرن (10 هـ =  
16 م) أصبحت قشتالة قلب إسبانيا.

(169/11)

---

### \*أخميم

بلدة مصرية قديمة من مدن الصعيد الأوسط. تقع على الشاطئ  
الشرقى لنهر النيل، وتقابلها مدينة سوهاج، وتصل بينهما  
قنطرة. اشتق اسمها من الاسم الفرعونى خنت مين. وكانت فى  
العصر الفاطمى عاصمة كورة الأخميمية حتى نهاية العصر  
المملوكى، وكان فيها مقام الوالى، ثم كانت مسكناً لنائب  
الوجه القبلى. وفى العصر العثمانى ألغيت الأخميمية، وأضيفت

بلادها إلى ولاية جرجا (محافظة سوهاج حاليًا)، وأصبحت  
أخميم إحدى المدن التابعة لمركز سوهاج. وفي سنة (1903م)  
فصلت البلاد الواقعة شرقي النيل عن مركز سوهاج، وجعلت  
مركزاً باسم أخميم، وهي تتبع الآن محافظة سوهاج، وكانت من  
أشهر مدن الصعيد في صناعة المنسوجات في العصرين القبطي  
والإسلامي، وكانت فيها مصانع حكومية لصناعة النسيج تُعرف  
بالطراز، كما اشتهرت بثمرها وغلالها، وكان فيها معاصر لزيت  
السلجم، وكان فيها جماعة من بني قرة (فصيلة من بني هلال بن  
عامر بن صعصعة، ينتهي نسبهم إلى معد بن عدنان جد النبي - صلى الله عليه وسلم -)،  
وكان بأخميم بربا (محل للعبادة عند القبط) مشهورة، ونفى  
إليها نسطور رئيس الفرقة المسيحية المسماة النسطورية. وفيها  
آثار قديمة ذات قيمة عالية عند المؤرخين، ومن أشهر أعلامها ذو  
النون المصري، وكان من أعظم علماء عصره أدبًا وعلمًا،  
وتوفي سنة (248هـ).

(170/11)

### \*باب المنذب

مضيق عربي ذو أهمية استراتيجية بالغة، يصل البحر الأحمر  
بالمحيط الهندي وخليج عدن. أطلق عليه العرب باب المنذب  
وبوابة الدموع؛ لخطورة الملاحة فيه، وهو يتحكم في المواصلات  
البحرية بين البحر المتوسط والشرق. وبالمضيق عدة جزر، منها:  
جزر الفرسان ودهلك وجزيرة قمران التي احتلتها بريطانيا سنة  
(1841م)، وأهمها جميعًا جزيرة بريم أو ميوم التي استولت عليها  
بريطانيا سنة (1857م)، وهي تقسم المضائق إلى ممر شرقي  
قليل العمق، وعرضه (2.2) ميل، وممر غربي أكثر عمقًا يبلغ  
عرضه (17.4) ميل. ويحاذي مضيق باب المنذب من الشرق

الآسيوى اليمن، ومن الغرب الإفريقى الصومال وجيبوتى  
والحبشة. وللأهمية البالغة للمضيق بذلت القوى الغربية عدة  
محاولات تهدف إلى وضع المضيق تحت صورة من صور السيادة  
الدولية، وفي حرب (رمضان 1393هـ = أكتوبر 1973م) سيطرت  
عليه البحرية المصرية، وسدّت بذلك سبل الملاحة فى خليج  
العقبة، وبذلك فرضت حصاراً بحرياً على العدو الصهيونى، وقام  
العدو بإرسال طائرات الفانتوم للتخليق فوق مناطق مختلفة من  
البحر الأحمر، وتعاون مع النظام الإثيوبى لمعارضة اعتبار البحر  
الأحمر بحيرة عربية.

(171/11)

#### \* الأناضول

هى المنطقة الآسيوية من الجمهورية التركية. يحدها من الشمال  
مضيق غاليبولى وبحر مرمرة، ومضيق إستانبول (البسفور)  
والبحر الأسود، ومن الجنوب العراق وسوريا والبحر المتوسط،  
ومن الشرق آذربيجان وجورجيا وأرمينيا وإيران، ومن الغرب  
بحر إيجه. وتقع الأناضول بين خطى طول (36°، 42°)، وبين  
دائرتى عرض (45°، 6°) وتبلغ مساحتها (756.946) كم<sup>2</sup>. وأهم  
مدن الأناضول: إستانبول وأنقرة وأزمير وقونية وبورصة  
وسامسون. وفى الأناضول بحيرات طبيعية، يبلغ عددها (48)  
بحيرة، كبرها بحيرة وان، وتبلغ مساحتها (3713) كم<sup>2</sup>. وتُحاط  
الأناضول بجبال شمال الأناضول، ومن الجنوب بجبال طوروس،  
وبين الجهتين تمتد الأناضول على شكل هضبة تسمى هضبة  
الأناضول. والزراعة فى الأناضول هى العمود الفقارى  
للاقتصاد، وأهم المحاصيل الزراعية بها: القمح والذرة والعدس  
والشعير والفاصوليا والتفاح والتين والبرتقال والليمون. وتشتهر

الأناضول بغاباتها ومواردها الطبيعية، كالبتروك والنحاس  
والفحم والمنجنيز، وقد اكتشف البترول لأول مرة فى الأناضول  
عام (1359 هـ = 1940م) فى جبل رامان. وقد مرت بمنطقة  
الأناضول عدة حضارات قبل ظهور الاسلام: - حضارة الحاتيين  
(2500 - 2000 ق.م). - حضارة الحيتيين (1750 - 1200 ق.م). -  
وحضارة الفيريجيين بعد سنة (1750 ق.م). - حضارة الليديين  
(1050 - 300 ق.م). ودخلت الأناضول تحت الحكم الإسلامى سنة  
(464هـ = 1071م)، وقد فتحها الأتراك السلاجقة بقيادة السلطان  
ألب أرسلان، بعد انتصاره على البيزنطيين أو الرومانيين فى  
موقعة ملاذكرد. وبعد انهيار دولة سلاجقة الأناضول وحّد  
العثمانيون إمارات الأناضول التركمانية، وبفضل جهودهم  
أصبحت الأناضول وحدة سياسية وعلماً على تركيا. ويحكم  
الأناضول (تركيا) الآن (1997م) الرئيس سليمان ديميريل.

(172/11)

#### \*إندونيسيا

دولة إسلامية تقع جنوب شرقى آسيا، بين دائرتى عرض (7°  
شمالاً و 11° جنوباً، وخطى طول (45° 94) و (141° شرقاً).  
وإندونيسيا كلمة مركبة من كلمتين، هما: إندو بمعنى الهند  
ونيسيا بمعنى جزر؛ فإندونيسيا معناها جزر الهند. ويحد  
إندونيسيا من الشرق المحيط الهادى، ومن الغرب والجنوب  
المحيط الهندى، ومن الشمال بحر الصين الجنوبى. وإندونيسيا  
عبارة عن أرخبيل (مجموعة من الجزر) وتعد أكبر أرخبيل فى  
العالم؛ إذ يصل عدد جزرها إلى نحو (17.000) جزيرة. والمناخ  
فى إندونيسيا مدارى معتدل؛ بسبب التأثير البحرى، ومعدل  
الحرارة السنوى لا يزيد على (25°) مئوية. وأهم المدن فى

إندونيسيا: جاكرتا العاصمة، وباندونج وميدان وباليمبانج وسورابايا. وتُعدّ إندونيسيا أكبر دولة إسلامية من حيث عدد السكان؛ إذ يبلغ عدد سكانها نحو (188) مليون نسمة، وتبلغ نسبة المسلمين بها (94%). النشاط الاقتصادي في إندونيسيا: تعدّ الزراعة أهم حرفة للسكان، وتبلغ المساحة المزروعة (18) مليون هكتار، وأهم المحاصيل فيها: الأرز وفول الصويا والقمح والمطاط وقصب السكر والبن والشاي. وتمتلك إندونيسيا ثروة حيوانية وسمكية هائلة، كما تمتلك ثروة معدنية ضخمة، أهمها: القصدير والنحاس والمنجنيز، إلى جانب مصادر غنية للطاقة، أهمها: البترول والغاز الطبيعي. ويحكم إندونيسيا الآن (1997 م) الرئيس سوهارتو.

(173/11)

### \*بعلبك

مدينة عربية معاصرة. تقع في سهل البقاع، على سفح جبل لبنان الشرقي. وتبعد عن شرق بيروت بمسافة (85) كم، وهي الآن إحدى مدن محافظة البقاع في جمهورية لبنان الحاليّة. وتتمتاز بخصوبة أراضيها وتُزرع فيها الحنطة والشعير والذرة. وبعلبك مكونة من كلمتين؛ (بعل) و (بك)، وتعني في اللغة السامية: رب سهل البقاع. وقد فتحها المسلمون سنة (16هـ = 637م) في عهد عمر بن الخطاب على يد قائده أبي عبيدة بن الجراح، رضى الله عنهما. وعندما فتح المعز لدين الله الفاطمي مدينة دمشق سنة (361هـ = 972م) عين على بعلبك واليًا من قبله، وظلت تابعة للفاطميين حتى سنة (468هـ = 1075م)، حين دخلها السلاجقة. وفي سنة (570هـ = 1174م) استولى عليها صلاح الدين الأيوبي، ثم استولى عليها قائد المغول كتبغا سنة

(658هـ = 1260م)، وعندما هزم قطز سلطان مصر المغول في السنة نفسها انتقلت بعلبك إلى سيطرة المماليك، ثم دخلها القائد المغولي تيمورلنك سنة (803 هـ = 1400م)، لكنها عادت إلى حوزة المماليك مرة أخرى، وظلت تحت حكمهم حتى سنة (992هـ = 1516م)، حين فتح السلطان سليم الأول بلاد الشام. وفي سنة (1344هـ = 1925م) أُعلن قيام دولة لبنان وضمت إليها بعلبك. ومن آثار بعلبك الشهيرة: معبد جوبيتر، وقلعة بعلبك، والمسجد الأموي، ويُنسب إلى الصحابي الجليل أبي عبيدة بن الجراح. وقد برز كثير من العلماء والأدباء في بعلبك، منهم: الأوزاعي المتوفى سنة (157 هـ = 774 م)، والمقرئ المتوفى سنة (845 هـ = 1441 م)، ومحمد بن علي بن أبي المضاء المتوفى سنة (509 هـ = 1115 م)، وخليل مطران المتوفى سنة (1369 هـ = 1949 م).

(174/11)

#### \*شنترين

مدينة بالأندلس. تقع غربي الأندلس، وتُعرف اليوم باسم سيتاريم بالبرتغال، وتبعد عن لشبونة - العاصمة البرتغالية - بنحو (43) ميلاً. ويشتهر أهلها بتجارة زيت الزيتون والفاكهة والحبوب والأسماك. وقد فتحها المسلمون سنة (93 هـ = 711 م)، وسقطت في يد المسيحيين سنة (486 هـ = 1093 م) على يد ألفونسو السادس، وبقيت في يد المسلمين حتى عام (543 هـ = 1147 م)، وملكها الإفرنج في هذه السنة. ومن آثارها: أجزاء من أسوار القلعة الأندلسية، وبرج كاباساس. ويُنسب إليها كثير من العلماء، من أشهرهم: ابن بسام الشنتريني صاحب كتاب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة).

(175/11)

---

### \* الفيوم

محافظة بجمهورية مصر العربية. مساحتها (1778) كم2. وتحتل منخفضاً في الصحراء الليبية، غربى محافظة بنى سويف. وقد كانت تابعة لمحافظة بنى سويف، ثم انفصلت عنها، وأصبحت محافظة قائمة بذاتها منذ سنة (1870 م). ويربطها بالقاهرة طريق صحراوى طوله (81) كم. وتشتهر محافظة الفيوم بزراعة الأرز والموايح والتين والعنب، كما يوجد فيها عدة مناطق سياحية. ومن أهم بلدانها: أبشواى وأطسا وسنورس.

(176/11)

---

### \* المراغة

مدينة كبيرة من مدن أذربيجان، تقع فى آسيا الوسطى. وكان محمد بن مروان بن الحكم يعسكر بالقرب من أرضها، فكانت دواب الجيش تتمرغ فى أراضيها، فبنى مكانها مدينة أطلق عليها المراغة. وبنى هارون الرشيد أسوارها وحصننها، وأنزل بها كثيراً من الجنود، كذلك تحصن بها الناس عندما وقعت فتنة بابك الخرمى. وفى سنة (618هـ) هاجمها التتار، وقتلوا أهلها، وسلبوا وحرقوا ما وجدوه بها. وبالمراغة كثير من الآثار والعمائر الإسلامية، ونبغ بها العديد من الفقهاء والمحدثين والشعراء.

(177/11)

---

## \*عمورية

مدينة بإقليم فرنجيا القديم، في الأناضول. تقع في الشمال الغربي من قونية، وإلى الغرب من أزمير. فتحها الخليفة العباسي المعتصم بالله سنة (223هـ = 838 م)؛ إذ قتل ثيوفيل بن ميخائيل ملك الروم كثيراً من مسلمي ملطية في مذبحه عظيمة، وأسر كثيراً منهم، وكان أكثر الأسرى من النساء، وعلم المعتصم بذلك فسأل أمراءه: أى بلاد الروم أمنع؟ فقالوا: عمورية، فتوجه إليها وفتحها. كما شهدت عمورية صراعاً بين السلاجقة والبيزنطيين حتى دخلها السلطان السلجوقي ألب أرسلان سنة (1067 هـ = 1656 م).

(178/11)

## \*قم

إحدى مدن إيران. تقع على مساحة (147) كيلو متراً، جنوبي العاصمة طهران، عند مفترق الطرق الرئيسية التي تربط شمال إيران بجنوبها، كما أن خطوط السكك الحديدية التي تربط جميع أنحاء إيران تعبرها من ناحية الشمال. تنقسم قم إدارياً إلى قم (مركز المدينة)، وجاسب، وإدهال، وآراض، وقهستان، واخلجستان. وتعد قم المدينة المقدسة بالنسبة إلى الإيرانيين، والعاصمة الدينية لإيران في الوقت الحاضر. أما قديماً فقد قام الإسكندر بتخريبها عند غزوه لإيران عام (330 ق. م). وافتتحها المسلمون على يد أبي موسى الأشعري عام (23 هـ)، ثم تعرضت قم في القرن (7 هـ = 13 م) للغزو المغولي، فلحق بها الدمار، ومع بداية القرن (10 هـ = 16 م) دخلت قم عصرًا جديدًا من العمران والازدهار في ظل الدولة الصفوية التي جعلت المذهب الشيعي المذهب الرسمي لإيران، فولت وجهها شطر قم بالتعمير

والإصلاح. ودفن خمسة من سلاطينها بجوار قبر السيدة فاطمة بنت الإمام موسى بن جعفر الصادق، فصارت قم منذ ذلك الحين ميداناً لدفن وجهاء إيران وأمرائها، كما أصبحت قبلة للشيعة في كل مكان.

(179/11)

### \*مقدونيا

إقليم جنوب شرق أوروبا. يشبه جزيرة البلقان. ويمتد شمالاً من بحر إيجه بين إيروس وتراقيا. وينقسم من الناحية السياسية إلى مقدونيا اليونانية (34654 كم2) وعاصمتها سالونيك، وجمهورية مقدونيا المتمتعة بالحكم الذاتي (26493 كم2) وعاصمتها سكوبيي، ومقدونيا البلغارية. وكانت مقدونيا في العصور الوسطى خاضعة للأباطرة البيزنطيين، وكان حكمهم لها مضطرباً؛ إذ كانت باستمرار فريسة للغزاة، وخاصة البلغار، وفتحها ستيفان دوشان ملك صربيا في القرن الرابع عشر، وبعد موته فتحها الترك. واتسم سكان مقدونيا بكونهم خليطاً من الأديان والقوميات، من المسيحيين والمسلمين واليهود والصرّب والبلغار واليونانيين. وحينما أخذت الخلافة العثمانية تتفكك في القرن التاسع عشر أدعت كل من اليونان وصرّبيا وبلغاريا حقها في تملكها، وأعطت معاهدة سان ستفانو الجانب الأكبر لبلغاريا، ولكن مؤتمر برلين سنة (1878 م) أعاد إليها الحكم التركي السابق، وكونت منظمات سرّية إرهابية للعمل على استقلال مقدونيا عن الحكم العثماني، ونالت هذه المنظمات تأييد بلغاريا التي ظفرت بنصيب كبير من مقدونيا في حرب البلقان الأولى (1912 - 1913 م)، لكن اليونان وصرّبيا هزمتا بلغاريا في حرب البلقان الثانية سنة (1913 م)، وحصلتا على حدودهما

الحالية تقريبًا. وفي الحرب العالمية الثانية وقعت مقدونيا في قبضة البلغار فترة قصيرة فيما بين سنتي (1941، و 1944م)، إلا أن معاهدة الصلح سنة (1947 م) أعادت الحدود السابقة.

(180/11)

### \*الاتحاد السوفييتي

دولة اتحادية سابقة، كانت تضم (15) جمهورية، كل جمهورية ذات سيادة. وقد أطلق عليها اسم جمهوريات روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفييتية في عام (1337 هـ = 1918 م)، وكلمة سوفييت معناها في اللغة الروسية مجلس، وكان الاتحاد السوفييتي السابق يشترك مع (12) دولة في حدوده السياسية، ست منها في أوروبا، وست في آسيا. وكانت مساحته (22.4 مليون كم<sup>2</sup>). وقد كان أحد أقوى دولتين عسكريتين في العالم، وكان عضوًا في حلف وارسو وهيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي، وكان له حق النقض (الفيتو). وتنوعت تضاريسه بين مرتفعات تمثل (10%) وسهول تمثل (90%)، ووجد به كثير من الأنهار والبحيرات، وتنوعت ظروفه المناخية؛ نظرًا لاتساع مساحته. وأهم المحاصيل الزراعية التي كانت به: القمح، والذرة، والقطن، وبنجر السكر، وكان يتصدر دول العالم في تربية الماشية وإنتاج الأسماك، كما كان في مقدمة دول العالم في إنتاج البترول، والغاز الطبيعي، والمعادن مثل: الحديد، والمنجنيز، والنيكل، والألومنيوم، والنحاس، والفحم. وأهم الصناعات التي كانت به: صناعة الحديد والصلب، والأسمدة، والورق، والمنسوجات القطنية، والسيارات، وغيرها. وكان عدد السكان يقدر بنحو (287) مليون نسمة وفق إحصائية سنة (1989م)، منهم نحو (60.3) مليون مسلم. وكان به (125) لغة،

وكانت اللغة الروسية هي اللغة الرسمية، كما كانت الديانة المسيحية هي الديانة الرسمية. وينسب تأسيس الدولة الروسية إلى الأمير روريك، وقد تمكن أولاده من بعده من الاستيلاء على القسم الجنوبي من الاتحاد السوفيتي، ثم تعرض الاتحاد السوفيتي لغزو المغول وظل أكثر من قرنين ونصف قرن يدفع الجزية للمغول المسلمين، إلى أن استطاع إيفان الثالث سنة (844 - 911 هـ = 1440 - 1505 م) أن يقيم دولة قوية كانت البداية لتكوين الإمبراطورية الروسية، ثم قامت روسيا القيصرية سنة

(181/11)

---

(1022 هـ = 1613 م)، وأخذ الاتحاد السوفيتي السابق في التوسع حتى ضم أجزاء من أوروبا. وفي التسعينيات من القرن العشرين بدأت الجمهوريات السوفيتية تستقل عن الاتحاد السوفيتي بعد سقوطه.

(182/11)

---

\*آسيا

كبرى قارات العالم، ومهد الديانات السماوية والحضارات القديمة. تبلغ مساحتها (44.043.000 مليون كم<sup>2</sup>). يطل ساحلها الجنوبي على بحر العرب والمحيط الهندي، ويطل ساحلها الشمالي على المحيط المتجمد الشمالي، ويطل ساحلها الشرقي على المحيط الهادئ وبحر الصين وبحر اليابان. ويوجد فيها أكثر جهات الأرض انخفاضاً، وهو منخفض الأردن، والبحر الميت، وبها أكثر جهات الأرض ارتفاعاً، وهي قمة إفرست في جبال الهيمالايا. ومناخها يختلف من مكان إلى آخر؛ نظراً لاتساع مساحتها، وتختلف أنواع

النبات أيضاً باختلاف المناخ، وأهم المحصولات الزراعية بها: الأرز وهو الغذاء الرئيسي لغالبية السكان، والقمح، والذرة، والكتان، والشاي، والبن، والبنجر، والقطن، وغيرها. كما تشتهر بوجود الإبل والماعز والأغنام والخيول والحمير، وتكثر فيها الفيلة والخراتيت. وهي غنية بالمعادن ومصادر الطاقة، مثل: الذهب والفضة والرصاص والنحاس والبلاتين والفحم والجرافيت والبتروكيمياويات وغيرها، ويبلغ عدد سكانها ثلاثة مليارات وثلاثمائة وثمانية ملايين نسمة حسب إحصائية سنة (1992م)، منهم (752) مليون مسلم. ومن الدول الإسلامية فيها: أفغانستان، وبنجلاديش، واندونيسيا، وإيران، وماليزيا، وباكستان، وتركيا، والعراق، والأردن، ولبنان، والسعودية، وسوريا، واليمن، والكويت، والبحرين، وقطر، والإمارات العربية، وعمان، وبروناي، وفلسطين المحتلة. ويتكلم السكان اللغات العربية، والفارسية، والتركية، والإندونيسية، والأوردية، والباشتو، والروسية، والصينية، واليابانية.

(183/11)

#### \*أدرنة

مدينة تركية، اتخذها سلاطين الدولة العثمانية عاصمة لدولتهم فترة من الزمان قبل فتح مدينة القسطنطينية. وهي تقع في القسم الأوربي لتركيا، وسط سهل خصيب، وتحتل موقعا عند ملتقى ثلاثة أنهار، هي: مريج وآراد وطونجة. وتشتهر أدرنة بزراعة التفاح واللوز والجوز وأصناف من الحبوب، كما تتميز بجبالها بكثرة الأشجار، ويستخرج من أرضها عديد من المعادن، مثل: الحديد والمرمر، كما توجد بها عدة صناعات، منها: صناعة المنسوجات الحريرية والقطنية والصوفية وصناعة العطور

والجبن. وقد كانت أدرنة في العصر العثماني مركزًا تجاريًا مهمًا، وكانت تضرب فيها العملة، كما تشتهر بكثرة الآثار الإسلامية، ففيها أكثر من (40) مسجدًا أثريًا، أشهرها مسجد سليم الثاني المعروف باسم جامع السليمية. ويقدر عدد سكان أدرنة، بنحو (72) ألف نسمة. وقد كانت أدرنة قبل أن يفتحها العثمانيون سنة (763 هـ = 1361 م) مسرحًا لصراعات عديدة ومعارك حربية زمنًا طويلًا، ثم اتخذها العثمانيون قاعدة أمامية لتوسعهم في أوروبا، ثم أصبحت عاصمة لهم سنة (816 هـ = 1413 م)، إلى أن فتح محمد الفاتح القسطنطينية سنة (857 هـ = 1453 م)، فاتخذ القسطنطينية عاصمة للدولة بدلا من أدرنة، ولما تولى السلطان أحمد الأول خلافة الدولة العثمانية سنة (1012 هـ = 1603 م) جعل أدرنة عاصمة للدولة. وأثناء فترات ضعف الدولة العثمانية تعرضت أدرنة للاحتلال الروسي مرتين، ولكن أنور باشا استردها منهم، ثم احتلتها اليونان إلى أن انسحبت منها، وبعد ذلك أصبحت أدرنة تابعة للدولة التركية المعاصرة.

(184/11)

### \*أسوان

مدينة كبيرة. تقع في صعيد مصر، قرب الحدود الجنوبية. وهي الآن عاصمة لمحافظة تحمل هذا الاسم. تبلغ مساحتها (873 كم<sup>2</sup>). وهي آخر محافظات مصر من جهة الجنوب. وتقع على الضفة الشرقية لنهر النيل. يحدها من الشمال إدفو، ومن الجنوب أرض النوبة، ومن الشرق الصحراء الشرقية، ومن الغرب النيل، وتواجهها في وسطه جزيرة الفنتين أو جزيرة أسوان. ويبلغ عدد سكانها نحو نصف مليون نسمة. وأهم مدنها: كوم امبو، وغيبية، وإدفو. وأسوان مدينة قديمة ذات تاريخ عريق؛ فقد وجد

فيها بقايا آثار من العصر الحجري القديم الذى استخدم فيه الإنسان آلات مصنوعة من حجر الصوان، وتوجد منها نماذج محفوظة بمتحف أسوان. وقد كانت هذه المدينة عند نشأتها قرية متواضعة اتخذها التجار مكاناً يتبادلون فيه سلعهم، وأطلقوا عليها الكلمة الفرعونية سوان، أى: السوق، واتخذها الفراعنة مركزاً للدفاع عن مصر، كما اتخذوها عاصمة لمصر الجنوبية، واعتمد عليها أمم في محاربة الهكسوس وطردهم من مصر. وعندما فتح المسلمون مصر سنة (21 هـ = 642 م) دخلوا أسوان، وجعلوها قاعدة الجنوب الكبرى؛ لتأمين حدود مصر الجنوبية. وقد استقرت فيها القبائل العربية، مثل: قبيلة ربيعة، وقد كانت أسوان ملتقى طرق القوافل الآتية من النوبة والسودان والصحراء الشرقية، وكذلك بالنسبة إلى القوافل التى تمر بميناء عيذاب على البحر الأحمر. وقد بنى محمد على باشا أولى مدارس الحربية فى مصر الحديثة فى أسوان، وقد زادت أهميتها فى العصر الحديث بعد إنشاء سد أسوان سنة (1321 هـ = 1903 م)، ثم السد العالمى الذى بدأ العمل فيه سنة (1380 هـ = 1960 م). بدأت هذه المدينة فى الازدهار فى مجال السياحة، حتى احتلت مكانة مرموقة بين مدن العالم فى هذا المجال. ومن الآثار الفرعونية فيها: الحجر الشمالى وفيه المسلة الناقصة، ومقابر الأمراء، ومعابد البطالمة. كما يوجد فيها دير الأنبا

(185/11)

---

سمعان والمآذن الإسلامية، مثل: مئذنة المشهد القبلى (بلال) ومئذنة المسجد البحرى ومئذنة الطابية.

(186/11)

### \*أشبونة

مدينة أندلسية قديمة، ترجع أصولها إلى العصر الروماني، وكانت تُسمى أليسيو. تقع غرب بلاد الأندلس (إسبانيا والبرتغال) عند مصب نهر تاجة على ساحل المحيط الأطلسي، وهي الآن عاصمة دولة البرتغال، وإن كان اسمها قد تغير قليلاً من أشبونة إلى لشيونة. وترجع أصول هذه المدينة إلى العصر الروماني. وفتحها المسلمون سنة (93هـ=712م) أثناء فتوحات طارق بن زياد وموسى بن نصير لبلاد الأندلس. وقد كانت لشبونة من مراكز الثقافة الإسلامية، وهي الآن من أهم مراكز الاتصالات الجوية الدولية المهمة في العالم، كما أنها مركز حيوي عظيم للتجارة والثقافة والفن، وتعد الميناء البحري الأول في البلاد، كما أنها تشتهر بالتقدم العمراني العظيم. أما سكان أشبونة فيبلغ عددهم (2.062.200) نسمة، حسب إحصائية سنة (1981م).

(187/11)

### \*إصطخر

مدينة من أقدم المدن الفارسية، تقع إلى الجنوب الغربي من إيران أقيمت على أنقاض مدينة برسيبوليس التي أسسها داريوس في القرن السادس قبل الميلاد، وجعلها عاصمة اللخمين، وكانت تبعد عن مدينة شيراز الحالية بنحو (50كم)، وهي تقوم على تل صخري قرب نهر بندمير وسط سهل فسيح يعد من أخصب السهول ويُعرف الآن باسم مردشت. وقد اتخذتها الدولة الساسانية مركزاً دينياً لها، وفيها كانت النار التي أطفأها الله، عز وجل، يوم مولد الرسول e، وقد فتحها المسلمون سنة (23هـ=643م) على يد أبي موسى الأشعري

وعثمان بن العاص، وقيل: فتحت سنة (19هـ=640م) على يد العلاء الحضرمي، رضى الله عنهم جميعاً. وقد قلت أهمية إصطخر بعد بناء مدينة شيراز سنة (64هـ=684م)، ثم أصابها التدهور، فلم يبقَ منها غير أطلال مسجدتها الكبير وبقايا سورها، وكان ذلك في عهد الدولة البويهية (320 - 447هـ=932 - 1055م). وعلى أنقاض إصطخر أنشئت قرية حاجي آباد. وإلى إصطخر ينتسب أبو إسحاق إبراهيم الكرخي الإصطخري، من علماء الجغرافيا، ويُنسب إليها عدد من العلماء والأدباء أيضاً.

(188/11)

#### \* إفريقيا

إحدى قارات العالم الست. يحدها من الشمال البحر المتوسط، ومن الجنوب ممر رأس الرجاء الصالح، ومن الشرق البحر الأحمر، ومن الغرب المحيط الأطلنطي. وتبلغ مساحتها (30.3) مليون كم<sup>2</sup>. وهي ثانية قارات العالم من حيث المساحة بعد قارة آسيا. وقد كانت إفريقيا جزءاً من قارة جندوانا القديمة التي تصدعت، وانفصلت عنها إفريقيا في صورتها الحالية منذ حوالي (65) مليون سنة. وإفريقيا هضبة مرتفعة، يبلغ أقصى ارتفاع لها في الجنوب، ويشغل الأخدود الإفريقي الجزء الشرقي من الهضبة، كما توجد الجبال الالتوائية في الجزء الشمالي الغربي، وهي جبال أطلس، وتشكل هضبة البحيرات المنابع الدائمة لنهر النيل، وأهم هذه البحيرات بحيرات: تانا، وفيكتوريا، وتنجانيفا، وألبرت. كما تجرى في القارة أنهار: النيجر، والأورانج، والفولتا، والسنگال، والزمبيزي، وغيرها، ونتيجة لاتساع مساحة القارة تنوع المناخ فيها حيث يوجد المناخ الاستوائي والمناخ الصحراوي ومناخ البحر المتوسط. وتنقسم السلالات في إفريقيا إلى سلالات

قديمة، وهي الأقزام والبشمن، وسلالات زنجية، وسلالات قوقازية. ويبلغ عدد سكان إفريقيا (692) مليون نسمة حسب إحصائية سنة (1992م)، يدين أكثر من (50%) منهم بالإسلام. وتوجد أكثر من (800) لغة في إفريقيا، منها لغات سامية، مثل: اللغة العربية، ولغات حامية، مثل: لغة البربر، ولغات سودانية، ولغة البانتو. وتعد الزراعة من أهم مصادر الدخل في إفريقيا. وأهم المحاصيل فيها الذرة الرفيعة والشامية والقمح والكسافا والأرز والقطن والقرنفل والمطاط والطباق وغيرها. ويعد الرعي وتربية الحيوانات ركيزة أساسية في اقتصاديات الدول الإفريقية، وحرقة لعدد كبير من السكان، وترتبط مناطق الرعي بمناطق قلة المطر، كما تشكل الثروة المعدنية مصدرًا أساسيًا للثروة في إفريقيا، ولكنها تصدر كمواد خام، ومن أهمها: الحديد والمنجنيز والنحاس والفوسفات. والصناعة في إفريقيا

(189/11)

---

متخلفة كثيرًا عن دول العالم، وتأتي جنوب إفريقيا في مقدمة الدول الإفريقية الصناعية، تليها مصر خاصة فيما يتعلق بالصناعات التحويلية. وقد ظهرت على أرض إفريقيا حضارات عديدة، إلى أن وصل الإسلام إليها وانتشر فيها، وبنى أول مسجد فيها وهو مسجد عمرو بن العاص. وشهدت القارة تطورات كبيرة خلال تاريخها.

(190/11)

---

\*الإسكندرية

كبرى الموانئ المصرية والإفريقية، والمدينة الثانية في مصر بعد

القاهرة. تقع في الجزء الشمالى الغربى من مصر، ويحيط بها من الشمال البحر المتوسط، ومن الجنوب بحيرة مريوط. وتتميز بطبيعة صخرية جيرية ويبلغ عدد سكانها نحو (4) ملايين نسمة، وهى تُنسب إلى الإسكندر الأكبر المقدونى الذى أمر المهندس دينوقراطيس بإنشائها سنة (332 ق. م). وكانت تُعرف من قبل باسم راقودة، ثم جاء بطليموس بعد الإسكندر واتخذها عاصمة لمصر، وأحاطها بسور ضخيم به أبراج وحصون. وقد ظلت الإسكندرية عاصمة لمصر فى العصر الرومانى حتى تم الفتح الإسلامى لمصر، ففتحت الإسكندرية سنة (20هـ=641م)، ودخلها عدد من الصحابة، رضى الله عنهم، منهم: أبو الدرداء، وقد عدّها المسلمون ثغراً مهماً؛ فاهتموا بها، فاتخذوها قاعدة للفتوحات الإسلامية فى إفريقيا، كما اهتموا ببناء المساجد فيها، وأهمها مسجد عمرو بن العاص، ثم اعتنى الفاطميون بالمنشآت البحرية فيها، كما اعتنى صلاح الدين الأيوبي بالأسطول البحرى. أما فى العصر الحديث فقد شهدت هذه المدينة أحداثاً خطيرة؛ فقد نزلت فيها الحملة الفرنسية، وشهدت موقعة أبى قير البحرية بين الأسطولين الإنجليزى والفرنسى، ثم جاء محمد على فاهتم بتنمية المدينة، فشق فيها ترعة الحمودية، وأقام ترسانة بحرية فيها، وعندما احتل الإنجليز مصر اتخذوا الإسكندرية قاعدة لأسطولهم فى البحر المتوسط خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية. وعندما استقلت مصر وأصبحت جمهورية شهدت الإسكندرية تطوراً عمرانياً وحضارياً؛ حيث قامت بها بعض الصناعات، مثل: صناعة الغزل والنسيج والورق والأسمت وتكرير البترول. ويوجد بالمدينة عديد من المتاحف والمزارات التاريخية، مثل: المتحف اليونانى الرومانى، ومعهد الأحياء المائية، وغيرهما.

### \*المدائن

مدينة فارسية قديمة. تقع اليوم في الضفة الشرقية إلى الجنوب من بغداد بما يقرب من (30 كم)، وسميت بالمدائن؛ لأن ملوك فارس كانوا يسكنونها منذ القرن الثاني قبل الميلاد، فإذا ملك أحدهم البلاد، قام ببناء مدينة له بجانب الأخرى، حتى وصل عدد هذه المدن إلى سبع مدن، فأطلق العرب عليها المدائن. ومن أهم هذه المدن، العتيقة والإسكندرية ورومية وطيسفون. وفي سنة (16هـ=637م) فتح سعد بن أبي وقاص المدائن في عهد عمر ابن الخطاب، رضى الله عنهما، فسكنها المسلمون، ولكنهم خرجوا منها وتركوها بعدما بنيت الكوفة والبصرة وبغداد وسامراء، فهجرت قصور المدائن ومنازلها وهدمت، ولم يبق منها إلا قرية صغيرة يعيش بها بعض الفلاحين على الزراعة.

(192/11)

### \*إريتريا

إحدى الدول العربية الإسلامية. تقع شرق إفريقيا على الساحل الغربي للبحر الأحمر، بين خطي عرض (15° و18°) شمالاً. يحدها من الشمال والغرب السودان، ومن الجنوب أثيوبيا وجيبوتي، ومن الشرق البحر الأحمر. وتبلغ مساحتها (120) ألف كم<sup>2</sup>. يعمل بالزراعة في إريتريا (80%) من السكان. وأهم المحاصيل الزراعية: الذرة والشعير والقمح والفواكه. وتوجد ثروة حيوانية فيها ممثلة في الأغنام والإبل والأبقار، كما توجد ثروة معدنية أهمها: الذهب والفضة والحديد والنحاس وأملاح البوتاسيوم والصدويوم والكالسيوم. ويبلغ عدد سكان إريتريا نحو (5) ملايين نسمة، أغلبهم مسلمون سنيون، ويوجد عدد قليل من المسيحيين

يتبعون الكنيسة القبطية المصرية. ويتكلم السكان اللغة العربية والتجريدية. وأسمره هي العاصمة. وأهم الموانئ مصوع وعصب. ومن أهم المدن نقفة. وقد كان النجاشي ملك الحبشة يحكم إريتريا عندما وصل إليها الإسلام، ثم انتشر فيها الإسلام بعد الهجرات العربية إليها، حتى أصبحت مملكة إسلامية، ثم أصبحت ضمن الدولة المملوكية في مصر، ثم احتلها البرتغاليون، ثم أخذها العثمانيون، وأطلقوا عليها اسم إيالة الجيش، ثم احتلتها إيطاليا حتى الحرب العالمية الثانية، ثم سيطرت عليها بريطانيا، فقامت أثيوبيا بعمل دعاية لإقناع الشعب الإريتري بالانضمام إليها، وقامت بريطانيا، بتحويل قضية إريتريا إلى الأمم المتحدة سنة (1368هـ=1949م)، ووافقت الأمم المتحدة على ضم إريتريا إلى أثيوبيا لكن الشعب الإريتري لم يرض بذلك، فقام بتوحيد صفوفه ضد الاحتلال الأثيوبي، واستطاع بعد أكثر من (30) سنة أن يعلن استقلاله سنة (1411هـ=1991م)، وتشكلت حكومة برئاسة أسيااس أفورقي الذي قام باتخاذ الإجراءات اللازمة لانضمام إريتريا إلى المنظمات الدولية.

(193/11)

\*مرو

لفظ مرو في اللغة العربية يعنى الحجارة البيضاء التي يُقْتَدَح بها. وقد كانت مرو أشهر مدن خراسان وأعظمها، والنسبة إليها مروزي. وتقع في واحة كبيرة بصحراء كاراكوم بجمهورية تركمستان، على نهر مرجب. كان يطلق عليها مرجيانا، حين كانت عاصمة إحدى المقاطعات الشمالية في فارس القديمة. وكانت مركزًا للثقافة الإسلامية في العصور الوسطى، ثم انتزعتها روسيا من الأوزبك سنة (1884م)، ونشأت المدينة

الجديدة بجانب المدينة القديمة التي تسمى الآن بيرام على،  
وهي مركز لصناعة النسيج.

(194/11)

---

### \*مسقط

عاصمة سلطنة عمان. تقع شرق شبه الجزيرة العربية، على خليج  
عُمان وبحر العرب. يوجد في شمال غرب المدينة سهل ساحلي  
خصيب يشتهر بتموره المميزة التي تنضج مبكرًا. ومعظم السكان  
من العرب والهنود والبلوختانيين والزنوج، ويعمل الهنود  
بالتجارة. واستولى عليها البرتغاليون بين سنتي (1508 و1648م)  
وآلت إلى حكم بعض أمراء فارس، ثم أصبحت عاصمة عمان سنة  
(1741م)، وتتركز تجارة مسقط الخارجية مع اليابان وبريطانيا.  
وأهم الصادرات: الفواكه، والتمور والحمضيات.

(195/11)

---

### \*مصر

دولة تقع في الشمال الشرقي من قارة إفريقيا عند التقائها مع  
قارة آسيا، ويقع جزء منها في قارة آسيا، وهذا الجزء هو شبه  
جزيرة سيناء. ويحدها من الشمال البحر المتوسط، ومن الجنوب  
السودان ومن الغرب ليبيا، ومن الشرق البحر الأحمر وخليج العقبة  
وفلسطين. وتبلغ مساحة مصر نحو مليون كم<sup>2</sup>. تمتد بين دائرتي  
عرض (21.47° و31.40°) شمالاً، وخطي طول (24.45° و35.50°)  
شرقاً. ويبلغ عدد سكانها نحو (61.452.382) نسمة حسب  
إحصائية سنة (1996م). واللغة الرسمية فيها هي اللغة العربية.  
ومن أهم مدنها: القاهرة (العاصمة) والإسكندرية والجيزة

وأسوان والأقصر والسويس والإسماعيلية والفيوم وبنى  
سوف. ويعتمد اقتصادها على الصناعة والزراعة والتعدين، فقد  
تطورت الصناعة في مصر تطوراً كبيراً خاصة في صناعة الغزل  
والنسج، والصناعات الهندسية والكهربائية والمعدنية والبتروولية  
وصناعة الحديد والصلب والأسمت، وأهم المحاصيل الزراعية في  
مصر: الأرز والذرة والقطن وقصب السكر والشعير والمانجو  
والبوسفى والموز والليمون والبرتقال، وأهم مصادر الطاقة  
وموارد الثروة المعدنية: البترول والفوسفات والحديد. والتعليم في  
مصر مجاني في جميع المراحل، وتقوم الدولة بإرسال أبنائها  
إلى الخارج للحصول على الدراسات العليا والماجستير  
والدكتوراه، وأهم الجامعات في مصر: الأزهر والقاهرة  
والإسكندرية وعين شمس. وتصدر في مصر صحف كثيرة، من  
أهمها: الأخبار والأهرام والجمهورية. كما يبث التلفزيون والإذاعة  
في مصر برامجهما، ويقومان بتغطية أحداث الدولة ودول العالم.  
ويرجع تاريخ مصر إلى نحو عام (4240 ق. م)، وكانت عاصمتها  
هليوبوليس (عين شمس الحالية)، وقد قسمت إلى قسمين، الوجه  
البحرى في الشمال، والوجه القبلى في الجنوب، كما قسمت  
إلى ثلاثة عصور تاريخية، هي: العصر الفرعوني والعصر  
البطلمى والعصر الرومانى. وقد بدأ الفتح الإسلامى لمصر في

(196/11)

---

سنة (18هـ=639م) بقيادة عمرو بن العاص، رضى الله عنه،  
وتحقق الفتح سنة (20هـ=641م) فأصبحت ولاية إسلامية إبان  
حكم الراشدين وبنى أمية وبنى العباس، واعتنق غالبية السكان  
الدين الإسلامى، وقد حكمها الفاطميون  
(358 - 367هـ=969 - 1171م)، ثم الأيوبيون (567 - 648هـ)

=1171 - 1250 م)، ثم المماليك (648 - 923 هـ = 1250 - 1517 م)، ثم  
العثمانيون. وفي سنة (1798م) وصلت الحملة الفرنسية إلى مصر،  
واحتلتها، لكن الحملة لم تستمر سوى ثلاث سنوات، وبعد خروج  
الفرنسيين من مصر آلت السلطة إلى محمد علي سنة (1805م)  
وأسرته من بعده. وفي عام (1882م) احتل الإنجليز مصر،  
وأعلنوا الحماية عليها سنة (1914م)، وأصبحت مملكة وراثية  
سنة (1922م). وفي سنة (1923م) أصدرت إنجلترا تصريحًا يتضمن  
إسقاط الحماية البريطانية عن مصر. وفي سنة (1945م) دخلت  
مصر الجامعة العربية. وفي (23 من يوليو 1952م) قامت ثورة  
الجيش الوطنية، فقضت على النظام الملكي، وأعلنت الحكم  
الجمهوري. وفي سنة (1958م) اتحدت مصر مع سوريا، وتكونت  
الجمهورية العربية المتحدة، ثم انفصلت سوريا في عام (1961م).  
وقد خاضت مصر في القرن العشرين عدة حروب، أهمها حرب  
(1973م) ضد إسرائيل التي انتهت بانتصار مصر. ويحكم مصر الآن  
(1997م) الرئيس محمد حسني مبارك.

(197/11)

### \*معرفة النعمان

منطقة قريبة من حلب. يُنسب إليها الشاعر أبو العلاء المعري،  
وتنسب إلى النعمان بن بشير الأنصاري الذي كان واليًا على  
حمص وقنسرين، في عهد معاوية بن أبي سفيان، ويقال: إن  
السبب في إنشائها أن ابنًا للنعمان خرج في رحلة صيد  
فافترسه سبع في موضع المعرفة، فجزع عليه أبوه، وبنى بيتًا  
في ذلك المكان عند قبر ابنه، وأقام هنالك، فبنى الناس منازل  
لهم في ذلك المكان وعُمرت البلدة، ونسبت إليه.

(198/11)

## \*أثينا

عاصمة اليونان. تقع على دائرة عرض (38) شمالاً، وبين خطي طول (32)، و (23) شرقاً. مناخها حار جاف صيفاً، دافئ ممطر شتاءً، وعدد سكانها يقدر بنحو (625) ألف نسمة، لكن إذا أضيف إليها ميناء بيرايوس وعدة ضواحي حولها فسيزيد عدد سكانها ليصل إلى (2.8) مليون نسمة. أهم الأنشطة الاقتصادية فيها صناعة المنسوجات والآلات. وهي من أقدم مدن العالم؛ إذ أسست في أثناء حكم ميكروبيس منذ عام (1582 ق. م)، واشتهرت بعلومها وفنونها وآدابها، وارتبطت بها أسماء كثير من الفلاسفة والأدباء، أمثال: سقراط وأفلاطون وثوكيديدس وأرسطو طاليس وليسياس، وغيرهم. وقد قامت بين أثينا وبلاد الشام ومصر والعراق والجزيرة العربية علاقات تجارية وسياسية، ثم اضطرت أحوال المجتمع، فعندما ظهرت أول حكومة فيها عام (681 ق. م) عرف المجتمع الأثيني الطبقة ممثلة في طبقة النبلاء وطبقة الصناع وطبقة المزارعين وطبقة العمال المأجورين، ثم قام بعض الزعماء بحركات إصلاحية، إلى أن خضعت البلاد لحكم المقدونيين ثم الرومان ثم البيزنطيين، حتى قامت الحروب الصليبية وسقطت القسطنطينية سنة (601هـ=1204م)، وقُسمت بلاد اليونان بين الأمراء الفرنسيين. وكان أول اتصال بين أثينا والمسلمين عام (283هـ=896م) حين دخلها المسلمون لأول مرة، ولم يقيموا فيها إلا فترة قصيرة، وفي عام (800هـ=1397م) دخلها السلطان بايزيد الأول، لكن الإسلام لم يستقر فيها إلا في عهد السلطان محمد الثاني الملقب بالفاتح؛ إذ دخلها عام (861هـ=1456م)، فعامل أهلها بحلم ورفق، وخلصهم من المظالم، وطبق تعاليم الإسلام فيها، فنعمت بنور الإسلام قرابة أربعة قرون، وتحدث أهلها اللغتين العربية

والتركية. وفي عام (1248هـ=1832م) نجحت المؤامرة الأوربية الصليبية التي اتفق عليها في مؤتمر لندن الذي 'عقد سنة (1246هـ=1830م)، في فصل أثينا وبلاد اليونان عن الخلافة

(199/11)

---

العثمانية، ثم قامت إنجلترا وروسيا وفرنسا بتنصيب الملك أوتو على بلاد اليونان، وفي عهده عادت أثينا عاصمة لليونان.

(200/11)

---

\*إسبانيا

دولة أوربية. تقع جنوب غرب قارة أوروبا. يحدها من الشمال فرنسا ومن الشرق والجنوب البحر المتوسط، ومن الغرب البرتغال. وتبلغ مساحتها (504.782 كم<sup>2</sup>). ويوجد بإسبانيا هضبة الميزيتا وجبال أيبيريا وجبال البرانس التنتفصل بينها وبين فرنسا. ويسود إسبانيا مناخ بحر متوسطي بصيفه الجاف وشتائه الممطر. ويعمل بالزراعة ما يقرب من (25%) من السكان، وأهم المحاصيل الزراعية: القمح والزيتون والبرتقال والعنب. وتعد إسبانيا مستودعاً للثروة الفلزية؛ حيث تنتج الزئبق والنحاس والزنك والفضة كما تنتج اليورانيوم. وإسبانيا دولة صناعية؛ حيث تسهم الصناعة بنحو (37%) من الإنتاج القومي. وأهم صناعاتها: صناعة السفن والسيارات وتكرير البترول وغيرها، وتعد السياحة من أهم مصادر الدخل القومي؛ حيث تسهم بأكثر من نصف عائدات النقد الأجنبي، في إسبانيا. ويبلغ عدد سكان إسبانيا (39.625.000) نسمة، حسب إحصائية سنة (1992م)، يتركز معظمهم في السهول الساحلية وأودية الأنهار.

ويتكلم السكان الإسبانية، اللغة الرسمية، كما يتكلمون لغة  
الباسك واللغة الكتالانية. ويدين معظمهم بالمسيحية الكاثوليكية.  
والعاصمة مدريد. وأهم المدن برشلونة وبلنسية وقرطاجنة. وقد  
ظلت إسبانيا، (الأندلس) دولة إسلامية تابعة للخلافة الإسلامية إلى  
أن سقطت الدولة الأموية، وقامت الدولة العباسية، غير أن عبد  
الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك استطاع أن يكون دولة  
مستقلة عن الدولة العباسية في الأندلس، ولم تستمر هذه الدولة  
أكثر من ثلاثة أرباع القرن؛ حيث غرقت البلاد بعدها في  
الفوضى السياسية لمدة أربعة قرون، عُرفت بعصر ملوك  
الطوائف الذي انتهى بسقوط غرناطة في سنة (898هـ=1492م)،  
وانتهى الحكم الإسلامي هناك، وتوحدت إسبانيا في وقت  
مبكر، واستطاعت أن تبنى نفسها، وأصبحت في العصر الحديث  
من الدول الصناعية.

(201/11)

### \* الأندلس

كانت تُطلق على جميع المناطق التي سيطر عليها المسلمون في  
شبه جزيرة أيبيريا (إسبانيا والبرتغال حالياً). وتقع في أقصى  
الطرف الجنوبي الغربي لأوروبا. وتبلغ مساحتها (581.666 كم<sup>2</sup>).  
ومن الشعوب الأولى التي سكنت في هذه المنطقة الأيبيريون  
الذين أطلق اسمهم على هذه البلاد، وهم أقوام من أصل  
إفريقي، ومع مطلع العصور التاريخية بدأت بلاد الأندلس في  
الاحتكاك بالشعوب الأخرى، فعرفها الفينيقيون، وتبادلوا  
التجارة مع سكانها، ثم عرفها الإغريق، ثم الرومان، وبدأ  
المسلمون يعرفونها عندما أرسل إليهم والى سبتة يطلب منهم  
فتح بلاد الأندلس، وبدأ الاستعداد لفتحها سنة (91هـ=710م)،

وبدا موسى بن نصير يعد قواته لذلك الفتح بقيادة طارق بن زياد  
وفي (ربيع الأول 92 هـ = يناير 711 م) بدأت مراحل الجهاد؛  
واستطاع موسى بن نصير وطارق بن زياد بعد معارك كثيرة  
فتح بلاد الأندلس فأصبحت تدين بالإسلام، وأصبحت اللغة العربية  
هي السائدة. وظلت الأندلس تحت حكم المسلمين طيلة (8) قرون،  
حتى سقطت في أيدي المسيحيين سنة (897 هـ = 1491 م)،  
وبعدها أجبر المسلمون على مغادرة البلاد أو التنصر، وكانت  
هذه هي أسوأ عملية تطهير عرقي عرفها مطلع العصر الحديث.

(202/11)

#### \*بجاية

مدينة جزائرية تابعة لولاية قسنطينة. تقع على ساحل البحر  
المتوسط، على خط طول (5) شرقاً، وخط عرض (36) شمالاً،  
ويحيط بها البحر من ثلاث جهات. وقد بنيت على هيئة مدرج  
أسفل منحدرات جبل كوراية. وهي تطل على خليج سُمِّي  
باسمها، وبه مرفأ. ويعتدل مناخها في الصيف ويغزر المطر  
شتاءً، وتكثر فيها أشجار الزيتون والصفصاف والشوبر. وقد  
أنشأها الناصر بن علناس أشهر ملوك الدولة الحمادية سنة  
(460 هـ = 1068 م)، وبنى فيها قصره المعروف بقصر اللؤلؤة، كما  
بنى داراً لصناعة السفن، وقناطر معلقة لجلب المياه، وأنشأ  
سوراً حول المدينة. وقد بلغت بجاية قمة ازدهارها في القرن  
(6 هـ = 12 م)، ثم استولى عليها الموحدون بعد بني حماد سنة  
(547 هـ = 1152 م)، ثم آلت إلى الحفصيين سنة (629 هـ = 1231 م) ثم  
المريزيين سنة (748 هـ = 1347 م)، إلى أن استعادها الحفصيون  
سنة (763 هـ = 1361 م). وتعرضت بجاية لأطماع الأوربيين فاستولى  
عليها يدروانافارود الإسباني، فخرّب قصر بني حماد، لكن

صالح ريس قائد البحرية العثمانية في البحر المتوسط استطاع أن يدك الحصون التي تحصن بها الإسبان، ويهزمهم، ويسترد بجاية من الإسبان. واحتفظ بها العثمانيون قرابة (188) سنة، إلى أن استولى الفرنسيون عليها سنة (1246هـ=1830م) بعد معركة دامت خمسة أيام. وقد شن أهل بجاية ثورات عديدة ضد المستعمر الفرنسي، فكانت مرحلة جهاد الشعب الجزائري ضد المحتل الفرنسي، إلى أن استقلت الجزائر عن فرنسا. وبجاية غنية بالزراعة؛ لسقوط الأمطار ووجود الأنهار والعيون فيها، كما تكثر فيها البساتين التي تتخللها أشجار النارج والرمان. وهي أيضاً مدينة تجارية ارتبطت بعلاقات مع بعض مدن أوروبا. واشتهرت بجاية في عصورها المختلفة بحركة علمية طيبة؛ فوفد إليها العلماء والأدباء، واستقر بها العلماء الأندلسيون، وقصدها كثير من العلماء في مصر والشام، وقد ألف أبو العباس الفيريني

(203/11)

---

كتاباً عن العلماء الذين زاروا بجاية سَمَّاه عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء المائة السابعة ببجاية، كما ظهرت في بجاية الطرق الصوفية، وكان أشهرها الطريقة الرحمانية.

(204/11)

---

\*الجزر

دولة أوروبية. تقع في شرق أوروبا. تحيط بها سلوفاكيا من الشمال، والنمسا من الغرب ويوغسلافيا من الجنوب، ورومانيا والاتحاد السوفييتي (سابقاً) من الشرق. وتبلغ مساحتها (93) ألف كيلومتر مربع. وعاصمتها بودابست. وأهم محاصيلها

الزراعية: الحبوب والخضراوات، وتنتج البوكسيت والغاز الطبيعي. وأهم صناعاتها الحديد والصلب والسيارات. وعملتها فورينت. ولغتها المجرية. والديانة الرسمية المسيحية البروتستانتية. ويمر بها نهر الدانوب الذي يبلغ طوله فيها (410) كم. ومناخ المجر قارى؛ فصيفها حار، وشتاؤها بارد. ويرجع تاريخ المجر إلى استقرار بعض القبائل المجرية في حوض نهر الدانوب، بعد أن تركوا موطنهم الأصلي في سهول شرقى الأورال، وخلال القرن الثاني عشر الميلادى اجتاحتها التتار. وفي سنة (1526م) فتحها العثمانيون، واستمروا فيها لمدة تزيد على القرن ونصف القرن. وفي عام (1699م) أصبحت جزءاً من الإمبراطورية النمساوية المجرية، وظهرت كدولة بعد الحرب العالمية الأولى، ثم تحولت إلى الاشتراكية في أعقاب الحرب العالمية الثانية، واستطاعت الدبابات الروسية إخماد الثورة التي قامت في المجر ضد الشيوعية سنة (1956م). وفي عام (1989م) تم تعديل الدستور المجرى؛ حيث أصبحت المجر بمقتضاه دولة ديمقراطية. وفي عام (1990م) فاز اليمين في الانتخابات التشريعية. وأهم أحزاب المجر: المنبر الديمقراطى المجرى، واتحاد الديمقراطيين الشباب، وحزب الشعب الديمقراطى المسيحى. وتعانى المجر تباطؤ نموها الاقتصادى، وارتفاع التضخم، ومشكلات الأقليات المجرية في بعض الدول الأوروبية.

(205/11)

\*مدريد

عاصمة إسبانيا تقع على أحد روافد نهر تاجة وعلى هضبة واسعة، وهى أهم مركز مواصلات فيها. تطورت حياتها الاقتصادية والتجارية نحو سنة (1890م)، وليس لها منافس سوى

برشلونة. وأول ذكر لها يرجع إلى القرن (4هـ=10م) كحصن  
عربي. واستولى عليها ألفونسو السادس حاكم قشتاله سنة  
(1083م)، وتطورت المدينة ببطء في عهد فيليب الثاني، لكنها  
سرعان ما اتسعت في القرن (12هـ=18م)، وقامت فيها ثورة  
شعبية في بداية حرب شبه الجزيرة ضد الفرنسيين سنة (1808م).  
كما أسهمت مدريد إسهامًا بطوليًا في الحرب الأهلية الإسبانية  
(1936 – 1939م)؛ فقد قاومت حصارًا لمدة (29) يومًا، واستسلمت  
في مارس (1939م). ومن أهم معالمها: القصر الملكي، ومتحف  
الفن الإسلامي.

(206/11)

#### \*مجرى

عاصمة إسبانيا تقع على أحد روافد نهر تاجة وعلى هضبة  
واسعة، وهي أهم مركز مواصلات فيها. تطورت حياتها  
الاقتصادية والتجارية نحو سنة (1890م)، وليس لها منافس سوى  
برشلونة. وأول ذكر لها يرجع إلى القرن (4هـ=10م) كحصن  
عربي. واستولى عليها ألفونسو السادس حاكم قشتاله سنة  
(1083م)، وتطورت المدينة ببطء في عهد فيليب الثاني، لكنها  
سرعان ما اتسعت في القرن (12هـ=18م)، وقامت فيها ثورة  
شعبية في بداية حرب شبه الجزيرة ضد الفرنسيين سنة (1808م).  
كما أسهمت مدريد إسهامًا بطوليًا في الحرب الأهلية الإسبانية  
(1936 – 1939م)؛ فقد قاومت حصارًا لمدة (29) يومًا، واستسلمت  
في مارس (1939م). ومن أهم معالمها: القصر الملكي، ومتحف  
الفن الإسلامي.

(207/11)

### \*مراكش

ثانية مدن المملكة المغربية، والعاصمة الجنوبية التقليدية. وهي على شكل واحة في الصحراء، وتقع على بعد (225 كم) إلى الجنوب الغربي من مدينة الدار البيضاء عند سفح جبال أطلس، وتتصل بمدينة الدار البيضاء بواسطة خط للسكة الحديدية. وأهم صناعاتها السجاد والمنتجات الجلدية، وصيفها حار وشتاؤها لطيف، والمعدل السنوي لهطول الأمطار فيها (23) سم. وهي مركز تجارى، وسوق كبيرة؛ حيث يتم فيها تبادل منتجات المناطق الغربية والشمالية الرطبة من حبوب وفواكه، بالإضافة إلى السلع المستوردة، بمنتجات الداخل والجنوب الشرقى الجاف من تمور وجلود. وكانت حصناً للدفاع ضد غارات القبائل الحاربة الغازية التي كانت تغير على المنطقة من وقت إلى آخر من جبال أطلس والصحراء. وبها الكثير من الحرفيين الذين يصوغون الذهب، ويصنعون النحاس والأواني والجلود والصوف.

(208/11)

### \*كشمير

ولاية إسلامية. تقع في الطرف الشمالى الغربى من شبه القارة الهندية. تحيط بها الصين من الناحيتين الشرقية والشمالية، كما تحيط بها باكستان من الناحيتين الغربية والشمالية، في حين تطل على الهند من ناحية الجنوب. وتبلغ مساحتها (217935 كم<sup>2</sup>). وتنقسم أراضيها حاليًا إلى قسمين: الأول: يخضع للهند، وتبلغ مساحته ثلثى مساحة الولاية، ويسكنه حاليًا نحو أربعة أخماس السكان. والآخر: يتبع باكستان، ومساحته الثلث، وسكانه يناهزون (1.5) مليون نسمة، وهو أقل غنى وإنتاجًا.

وكانت كشمير حتى تاريخ تقسيمها في عام (1948م) تنقسم إلى ثلاث محافظات، هي: جامو وكشمير والتخوم. ودخل الإسلام كشمير عن طريق بلبل شاه، وصارت جزءاً من الإمبراطورية الإسلامية الهندية التي حكمها أباطرة الهند المسلمون منذ فتحها الشاه أمير في عام (740هـ=1339م). وحين أعلن تقسيم الهند في عام (1367هـ=1947م) كان المهراجا الحاكم يريد الانضمام إلى الهند، في حين كان الشعب المسلم يريد الانضمام إلى باكستان لكن المهراجا أعلن انضمام كشمير إلى الهند، متحدثاً رغبات معظم السكان. ودارت معارك بين الشعب المسلم والجيش الهندي المعتدى، وواجه مسلمو كشمير القتل الجماعي والإبادة من قبل الهنود، جزاء إصرارهم على تقرير مصيرهم، ثم تدخلت الأمم المتحدة، وحددت خط وقف إطلاق النار، في عام (1368هـ=1948م)، فعدت الهند تسيطر على ثلثي مساحة كشمير تقريباً، ونحو أربعة أخماس سكانها، وتدير باكستان الجزء الواقع في شمال كشمير وغربها، ويعرف باسم كشمير آزاد، أي: كشمير الحرة، وهي ثلث مساحة كشمير، وعدد سكانها يقدر بأكثر من مليون ونصف المليون.

(209/11)

\*مرعش

مدينة بآسيا الصغرى في جمهورية تركيا، بالقرب من بلاد الروم. تبلغ مساحتها نحو (11207 كم<sup>2</sup>)، وكانت مركزاً تجارياً كبيراً للتجارة الكردية. وكان مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية قد بنى حولها سوراً، وحصناً كبيراً في وسطها، فلما ملك بنو العباس أخذها هارون الرشيد، وطور مبانيها. وبعد أن ضعفت الخلافة العباسية ارتفع نفوذ السلاجقة الذين حكموا مرعش

وأقطعوها لأمرائهم، فأقطعها السلطان قلع أرسلان بن سلجوق  
لغلام له يسمّى إبراهيم، فحكمها أولاده من بعده. وعندما بدأت  
الحروب الصليبية تتجه إلى بلاد المسلمين استولت على مرعش،  
ولكنها ما لبثت أن فقدتها أمام إصرار المسلمين على استردادها.  
وفي سنة (1832 م) سقطت في يد الجيش المصرى بقيادة  
إبراهيم باشا بن محمد على.

(210/11)

### \*مصر القديمة

يرجع تاريخ مصر إلى ما قبل المسيح - عليه السلام - بأربعة آلاف  
وخمسمائة سنة تقريباً. وفي نحو عام (3110 ق. م) وحّد الملك  
مينا مملكة مصر العليا ومملكة مصر السفلى. ولا يعرف غير  
القليل عن عهد الأسرتين الأولى والثانية (نحو 3110 - نحو 2665  
ق. م). وفي عهد المملكة القديمة (الأسرات 3 - 6) (نحو 2614 - 2181  
ق. م) بنيت أهرامات الجيزة، وكانت العاصمة مدينة ممفيس. وفي  
تلك الفترة كانت سلطة الفرعون في أوجها، لكنها ما لبثت أن  
ضعفت بعد أن تعاضم نفوذ أمراء الإقطاع، ونشب الصراع فيما  
بينهم (الأسرات 7 - 10) (نحو 2181 - نحو 2052 ق. م)، ثم ظهرت  
المملكة الوسيطة (الأسرات 11 و12) (نحو 2052 - نحو 1786  
ق. م)، وكانت عاصمتها طيبة، وتعد هذه الفترة العهد الكلاسيكى  
للفن المصرى، وفي عهد هذه المملكة - أيضاً - ازدهرت الحياة  
الاقتصادية، وبدأ التوسع المصرى خارج الحدود. وفي عهد  
الأسرات (13 - 17) (نحو 1786 - نحو 1570 ق. م) سيطر الهكسوس  
على مصر، ثم قامت المملكة الحديثة (الأسرات 18 - 20) (نحو  
1570 - نحو 1075 ق. م) فطرد الهكسوس من مصر، وبرزت حكومة  
مصرية قوية ذات إدارة بيروقراطية واسعة، وأنشأ المصريون

إمبراطورية ضخمة، امتدت من بلاد النوبة إلى الفرات، لكن الغزو  
الحيثي سرعان ما قوض دعائمها، ثم ظهرت المملكة الحديثة  
المتأخرة (الأسرات 21 - 25) (نحو 1075 - 657 ق. م)، وفي أواخر  
عهدا احتل الآشوريون مصر (670 - 654 ق. م)، ثم ظهرت الأسرة  
السادسة والعشرون (664 - 525 ق. م)، وبعد سقوطها احتل  
الفرس مصر (525 - 332 ق. م)، ثم طردهم الإسكندر منها عام (332  
ق. م). وبعد وفاة الإسكندر عام (323 ق. م) حكم البطالمة مصر  
(323 - 40 ق. م)، وبعد وفاة كليوباترا عام (30 ق. م) أصبحت مصر  
جزءاً من الإمبراطورية الرومانية. وتعد الحضارة المصرية القديمة  
إحدى الحضارات العريقة في التاريخ.

(211/11)

---

#### \* مرمرة (بحر)

بحر كان يطلق عليه برو بنتس. يقع شمال غرب تركيا، بين أوروبا  
وآسيا. طوله (276 كم)، ومساحته (11137 كم<sup>2</sup>). يتصل بالبحر  
الأسود عن طريق مضيق البسفور، كما يتصل ببحر إيجه عن  
طريق الدردنيل. ويحتوى على عدة جزر، أهمها: مرمرة في  
الغرب، والأمراء بالقرب من إستانبول.

(212/11)

---

#### \* مريبوط

من المدن القديمة بالبحيرة؛ فقد ذكرها هيروdot ومؤرخو العرب.  
وتقع بالقرب من الإسكندرية، وموقعها الآن في مواجهة بركة  
الشيخ أبي الخير، وكانت من أهم المراكز التجارية، كما كانت  
تقع في منطقة استراتيجية مهمة بالنسبة إلى مدينة الإسكندرية؛

فقد مر بها قيصر الروم، ثم عمرو بن العاص، رضى الله عنه، عند توجهه إلى الإسكندرية لفتحها، وفي القرن التاسع عشر كانت الطريق الذى سلكته جيوش الحملة الفرنسية فى طريقها من الإسكندرية إلى القاهرة.

(213/11)

---

### \*مصر العليا

اسم يطلق على الجزء الممتد من جنوبي القاهرة إلى الحدود السودانية المصرية، وتعرف أيضاً بالصعيد. وكانت فى فجر التاريخ المصرى مملكة منفصلة عن مصر السفلى، ولكن الفرعون مينا وحّد المملكتين نحو عام (3110 ق. م)، فعرف بملك مصر العليا ومصر السفلى وبموحّد القطرين.

(214/11)

---

### \*سالانيك

مدينة يونانية تقع شمال شرق اليونان على خليج سالونيك، وتقوم على جزيرة صغيرة فى بحر إيجه. تأسست نحو سنة (351 ق. م)، وشهدت ازدهاراً فى فترة حكم المقدونيين لليونان، وقد خضعت فى فترة من تاريخها لحكم الرومان ثم البيزنطيين ثم استولى عليها نورمان صقلية سنة (1115 م)، ثم فتحها العثمانيون الأتراك سنة (1386 م) فى عصر السلطان مراد خان الأول، ثم استعادها البيزنطيون مرة أخرى وتركوا بها حامية عجزت عن حمايتها، فاستولى عليها البنادقة سنة (1425 م)، ثم استعادها العثمانيون سنة (1429 م) فى عصر السلطان مراد الثانى، وشهدت فى العصر العثمانى ازدهاراً فى شتى

المجالات. ومنح السلطان جميع الجنسيات بها الحرية الدينية وحرية التعليم، فنشأ بها العديد من المنشآت كالمساجد والكنائس والمدارس، وصارت سالونيك ثاني الموانئ العثمانية في أوروبا بعد إستانبول. وفي سنة (1492 م)، بعد طرد اليهود والمسلمين من الأندلس، استقرت جماعة كبيرة من اليهود بسالونيك. وهم الذين أطلق عليهم يهود السفارديم، الذين ظهرت منهم بعد ذلك طائفة يهود الدونمة التي لعبت دوراً كبيراً في سقوط الخلافة العثمانية. وفي نهاية القرن (19م) وبداية القرن (20م) تمت جميع التدابير والسياسات المعادية للخلافة بسالونيك بزعامة اليهودي إيمانويل قره صو، كما كانت سالونيك مقراً لجمعية الاتحاد والترقي وحزب تركيا الفتاة. وقد انتهت سيادة العثمانيين على سالونيك سنة (1912م) وعادت لسيادة اليونان. وتعرضت سالونيك لأضرارٍ جسيمة أثناء الحربين العالميتين الأولى والثانية، ثم عاد إليها الازدهار والنمو بعد الحرب العالمية الثانية حتى صارت أشهر المدن اليونانية بعد أثينا. وهي الآن مركز صناعي مهم لصناعة المنسوجات، والسجائر، والآلات، والأدوات، والصناعات الجلدية.

(215/11)

#### \*الهند

دولة آسيوية، تحيط بها باكستان، والاتحاد السوفيتي السابق (عند شريط حدودى ضيق)، والصين، ونيبال، وبوتان، وبورما وبنجلاديش، والمحيط الهندي (خليج البنغال وبحر العرب). تبلغ مساحتها (1.269.340) ميلاً مربعاً = (3.287.590 كم<sup>2</sup>). ويدين معظم سكانها بالهندوسية، وتبلغ نسبة المسلمين بها (10%) من السكان، بالإضافة إلى المسيحية

والبوذية واليهودية والزرادشتية. العاصمة نيودلهي، وأهم المدن: كالكتا، وبومباي، ودلهي، ومدراس، وحيدر آباد، وكانبور، وبنغالو، وأحمد آباد. واللغات التي يتحدثها أهلها: الهندية والإنجليزية (رسميتان)، ولغات أخرى كالبنغالية، والبنجاب الاسمية، والسندية، والتامول، والأوردو. الاقتصاد: الزراعة يعمل بها (70%) من السكان، و (40 - 45%) من صادرات الهند نصفها من محصول الشاي وحده، وهناك محاصيل أخرى كالأرز، والقطن. ولدى الهند ثروة حيوانية، ومناجم فحم ونفط وحديد ومنجنيز وكذلك صناعات الأقمشة وتكرير النفط والبن. وأهم وارداتها: القمح والأرز والقطن الخام والفولاذ والآلات. ونظام الحكم بها جمهوري اتحادى مع برلمان فيدرالى، وعدة أحزاب، وهى عضو بالأمم المتحدة، والكومنولث، ومشروع كولومبو. وعملتها النقدية هى الروبيّة. أما تاريخها فطويل؛ فبين عامى (2500، و 1500 ق. م) قامت بها حضارة فى موهنجو وهارابا فى البنجاب (فى الباكستان الآن). غزاها الفرس من شمالها فى القرن (4 ق. م)، وبعد قرنين أخضعها الإغريق، وفى سنة (324 ق. م) أسس أسوكا أول إمبراطورية هندية كان هو أول ملوكها (274 - 232 ق. م). اعتنق البوذية وعمل على نشرها. ومن (320 - 500 م) قامت إمبراطورية غويتا فى الشمال، وبمثل عصرها العصر الذهبى للهند. وفى سنة (1206 م) أسس الأتراك مملكة دلهي، وفى سنة (1526 م) شيد المغول إمبراطورية كبرى، متخذين من أغرا ودلهي عاصمتين لهم، وفى سنة (1498 م) بدأت العهود الأوربية

(216/11)

---

بوصول البحار البرتغالى فاسكو دى جاما، وفى القرن (17م) أقامت الشركة الإنجليزية للهند الشرقية مراكز تجارية لها فى

شبه الجزيرة الهندية، وكذلك بعدها فرنسا ثم تغلبت إنجلترا  
(منتصف القرن الثامن عشر) واحتلت الهند وقامت ثورات هندية،  
أشهرها سنة (1857 م) وقُيِّمت، وفي سنة (1885 م) تأسس حزب  
المؤتمر الوطني الهندي كرد فعل ضد الاحتلال، واعتمد على  
تأييد الجماهير له. وفي سنة (1905 م) أصبح تنظيمًا مناضلاً من  
أجل الاستقلال. وفي سنة (1920 م) تزعمه المهاتما غاندى وقام  
بدور كبير في النضال من أجل استقلال بلاده، وفي (1935 م)  
نالت المقاطعات الهندية حكمها الذاتى، ونحت تجاه القومية  
الهندية حركة قومية إسلامية بالمناطق ذات الأغلبية المسلمة  
بقيادة محمد على جناح مطالبة بالاستقلال، وقامت في (14  
و15 من أغسطس عام 1947 م) دولتان منفصلتان هما: الهند  
وباكستان؛ مما ضاعف من حدة المشاكل الاقتصادية بسبب  
المساحات الزراعية بالباكستان. واغتيل غاندى عام (1948 م)،  
وتولى نهرو ووضع دستوراً - مستوحى من الدستور الأمريكى -  
عام (1950 م)، أتاح لمختلف المناطق الهندية الاشتراك في  
حكومة الاتحاد الوطنى. وكبرى مشاكل الشعب الهندى هي  
الفقر. والهنود يقبلون على الانتخابات بحماس، والهند من حيث  
علاقتها الخارجية. من مجموعة دول عدم الانحياز، وقد عقدت  
بنبودهى القمة السابعة للمجموعة في (7 من مارس 1983 م)،  
كما عقد بها المؤتمر الثانى لدول الكومنولث. وتركز الهند على  
ضرورة قيام نظام عالمى جديد على العدالة والمساواة. وقد  
قامت ثورة في البنجاب من قبل السيخ لإنشاء دولة خاصة بهم -  
باسم خالستان- قوبلت بحزم، وقام متطرفو السيخ بأعمال عنف  
ضد المسلمين هناك. ولا يخشى على الهند من الأخطار الخارجية  
بقدر ما يخشى عليها من المشاكل الداخلية كالفقر والأوضاع  
الاجتماعية المضطربة.

---

### \*الواحات

كلمة مصرية قديمة معناها مكان للراحة. وهى عبارة عن قطع متفرقة من الأراضى الزراعية وسط الصحراء. تروى أراضيها من ماء يخرج طافياً من عيون تتفجر من باطن الأرض. وبلاد الواحات تقع بين القاهرة والإسكندرية والصعيد والنوبة والحبشة، وهى بلد قائم بنفسه، غير متصل بغيره. ومن أهم الظواهر الطبيعية فى الواحات تلال الرمال السيالة المتحركة، وهى تلال رملية، هلالية الشكل، لها خاصية الحركة البطيئة نحو الجنوب؛ لذلك كان خطرها عظيمًا على المزارع والمباني، وهى تعد أخطر الأسلحة ضد الإنسان فى الواحات. وتتجمع هذه التلال فى شكل مجاميع كالبحر المتماوج، وتختلف فى الارتفاع، وقد تصل أحياناً إلى (50) متراً، وفى الاتساع إلى نحو (10 كم). ويسكن أرض الواحات الممتدة غربى النيل فريقان من البدو هما: السعادى والمرابطون.

(218/11)

---

### \*الواحات الداخلة

مركز بمحافظة الوادى الجديد. يقع إلى الغرب من الواحات الخارجة، والمسافة بينهما (180 كم)، وبين الداخلة ووادى النيل (380 كم). عرفت بالداخلة؛ لأنها متوغلة فى الصحراء، وهى كبرى الواحات وأكثرها محصولاً. وتشمل الواحات الداخلة عشر قرى، أهمها: موط عاصمة الواحات الداخلة. ويوجد بالواحات الداخلة نحو (464) عيناً تفيض بالمياه على الأرض، كما تتصل الواحات بالوادى عبر الطريق الطويل الذى يربطها بمحافظة

أسيوط. وكانت الواحات الداخلة قديماً تتبع محافظة الصحراء الغربية الجنوبية.

(219/11)

---

### \*الهندي (المحيط)

ثالث محيطات العالم مساحة (بعد الهادي والأطلسي)، ويمتد من الهند إلى المنطقة المتجمدة الجنوبية، ومن شرقي إفريقيا إلى جزيرة تسمانيا، وينبسط حوالي (6436 كم) بمحاذاة خط الاستواء، و (9654 كم) من شماله إلى جنوبه. وتتكون الأجزاء الساحلية من هضاب قديمة مثل: إفريقية وبلاد العرب والدكن وغربي أستراليا أو من بقايا قارة جندوانا القديمة، وذلك فيما عدا الجزء الشمالي الشرقي حيث توجد جزر الهند الشرقية بجبالها الالتوائية. أما في الجنوب فيوجد جزء من قارة أنتاركتيكا بين خطي طول (20) شرقاً و (115) شرقاً. وكبرى جزر المحيط الهندي عبارة عن جزر قارية كمدغشقر وسيلون، وهناك جزر صغيرة مثل سقطرة، وزنجبار وكومورو، وبعض الجزر المرجانية وبخاصة في جنوب غرب شبه جزيرة الهند، والبحار المتصلة بالمحيط الهندي هامشية وقليلة كالبحر العربي وخليج البنغال والبحر الأحمر. والخليج العربي هو الخليج الوحيد المستقل بالمحيط الهندي. وأعمق أغوار المحيط الهندي المعروفة يصل إلى (4270) متراً بالقرب من جزيرة جاوة. وتجلب رياحه الموسمية الكبرى (مونسون) الأمطار لجنوبي شرقآسيا، ويتميز الجزء الشمالي منه بحركة السفن الملاحية.

(220/11)

---

## \* هيدلبرج

مدينة تقع في شمالي بادن، وغرب ألمانيا على نهر نيكر وسط وادٍ مليء بجذائق الفاكهة، والكروم. بها قلاع مشهورة يرجع تاريخها إلى القرن (15 م)، ومنازل وكنائس ترجع إلى العصور الوسطى وعصر النهضة. أول إشارة إليها ترجع إلى القرن (12م)، كانت عاصمة بلاتينات الراين حتى عام (1720م). تشتهر بصناعة الباصات وآلات الطباعة. يوجد بها أقدم جامعة ألمانية؛ وهى جامعة هيدلبرج، التى أسست عام (1386 م).

(221/11)

## \* هولندا

تقع في شمال غرب أوروبا. تحيط بها ألمانيا، وبلجيكا وبحر الشمال. تبلغ مساحتها (40.922 كم2) (15.800 ميل مربع، وسكانها يتبعون كنيسة هولندا الإصلاحية، وهناك كاثوليك يخضعون لسلطة البابا. عاصمتها: أمستردام، لكن مقر الحكومة في لاهاى. أهم المدن: روتردام، ولاهاى، وأولترخت، وايدوهوفن، ولغتها: هولندية (نيرلندية). وأهم الثروات المنجمية: الملح، والفحم، والغاز الطبيعي، وأهم المنتجات الزراعية: الورد، والبطاطا، والقمح. وأهم الصناعات: منتجات الحليب وبعض الأدوات الإلكترونية. وأهم الصادرات: منتجات الحليب، والخضراوات وبعض الأجهزة الإلكترونية. وأهم الواردات: النفط، والحديد والفولاذ. نظام الحكم: ملكى دستورى وراثى، والبرلمان هو السلطة التشريعية. وهولندا عضو بالأمم المتحدة، والحلف الأطلسى، والبنلوكس، والسوق الأوروبية المشتركة، والمجلس الأوربى. أهم الأحزاب: المسيحيون الديمقراطيون الليبراليون، والحزب الاشتراكى. الوحدة النقدية لهولندا هى: الفلورن. وفي

سنة (1568 م) ولدت الجمهورية الهولندية، ثم عقدت المقاطعات الجنوبية سنة (1579 م) صلحًا مع إسبانيا، أما الشمالية فظلت تناضل حتى استقلت عام (1648 م) وبدأ العصر الذهبي لهولندا حيث تكوّنت إمبراطورية واسعة الأرجاء لجمهورية هولندا الصغيرة، نافست القوة الإسبانية في القارة الأوربية، وأسسوا عدة مستعمرات كمستعمرة الهند الشرقية الهولندية. وخلال عصرها الذهبي أنجبت عددًا من الأعلام منهم هوغو غروسفيوس، الذى أَلَّف كتاب قانون الحرب والسلام الذى استحق عليه لقب أبى القانون والأشخاص، واستحقت لاهأى بعده بعدة قرون أن تكون مقر محكمة العدل الدولية، والفيلسوف باروخ سبينوزا. وفى أواخر القرن السابع عشر بدأ عصر هولندا الذهبى فى الأفول، وفى عام (1794 م) ضمها نابليون بونابرت تحت حكمه، وفى عام (1815 م) أصبحت هولندا مملكة تضم بلجيكا حتى عام (1831

(222/11)

---

م)، ولوكسمبورج حتى عام (1839 م)، ثم تحولت إلى دولة ملكية دستورية ديمقراطية، وشهدت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ازدهارًا واسعًا. وفى الحرب العالمية الأولى (1914 - 1918 م) كانت هولندا على الحياد، وفى الثانية (1939 - 1945 م) احتلت فى (14 من مايو 1940م) من جانب هتلر. وبعد انتهاء الحرب أعادت هولندا بناء اقتصادها بسرعة مذهلة.

(223/11)

---

\*نجد

إقليم بوسط المملكة العربية السعودية. يشغل الجزء الأكبر من

وسط الجزيرة العربية، ويمتد من إقليم الحجاز غربًا حتى نطاق الدهناء الرملى شرقًا فى نحو (400) مىل، وىجده شمالا العراق والمملكة الأردنية الهاشمية، وجنوبًا رمال الربع الخالى، وىبلغ أقصى ارتفاع له فى الغرب بنحو (4000) قدم ومتوسط ارتفاعه فى الشرق (2000) قدم فوق سطح البحر؛ ولذلك سىمى نجدًا لارتفاعه، وتبرز فى نجد سلسلة جبال الطرىق وىقطعها عدد من الودىان، أهمها: وادى الرقة، ووادى حنىفة. وتوجد سلسلة من الواحات بالقسم الشرقى تمثل مركز الاستقرار البشرى، والسكان خارج الواحات بدو رحل ىرعون الإبل والأغنام. أهم قبائلها: عنزة، وعىتبية وحرى، ومطىر، وىتكون سكان نجد أساسًا من جنس البحر المتوسط، ونظرًا إلى بقائهم فى شبه عزلة لفترة طويلة فهم ىمثلون أنقى سلالات مجموعة الثقافة السامىة. أى أنهم ىمثلون العرب الخالص، كما وىوجد فى بعض المدن النجدىة عناصر كثىرة من الزنوج. ومناخ نجد شدىد الحرارة صىفًا شدىد البرودة شتاءً وخصوصًا أثناء اللىل. وىنقسم إقليم نجد إلى عدد من المناطق، هى جبل شمر، والقصىم، وسدىر، والوشم، والعارض، وتوجد بها مدىنة الرىاض، والخرج وهى واحة غنىة، والحرىق والإفلاج ووادى الدواسر. وخرج من نجد مسىلمة الكذاب والقرامطة، ونشأت فىها دعوة الشىخ محمد ابن عبد الوهّاب وتأسس فىها البىت السعودى، ومنها بسط السعودىون نفوذهم على الأحساء والحجاز وعسىر وتكونت المملكة العربىة السعودىة سنة (1932 م).

(224/11)

\*أوربا العربىة

ىضم إقليم أوربا العربىة - أو غرب أوربا - الدول التالىة: فرنسا،

وهولندا، وبلجيكا، وبريطانيا، وتطل هذه الأقطار على الساحل الغربي لأوروبا بين خطى عرض (43، و53) شمالا، وتتمتع بمناخ معتدل بارد. وتتميز بتنوع كبير في تضاريسها بين الجبال الشاهقة، والسهول الفسيحة التي يقع بعضها تحت منسوب البحر، والهضاب والأودية. التاريخ: يمكن القول بأن تاريخ غرب أوروبا بدأ حينما دخل الرومان في القرن الثاني قبل الميلاد جنوب فرنسا، ثم تقدموا عن طريق منخفض الروق وبوابة كركاسون ليحتلوا الأراضي المنخفضة (هولندا) حتى بحيرة جنيف شمالا ومدينة تولوز غربًا. ثم امتدت توسعاتهم في القرن الأول قبل الميلاد في غرب أوروبا في نهر الراين، ولم يبق سوى شمال هولندا خارج ممتلكاتهم وإن كان لهم بعض النفوذ به. وفي القرون التالية برزت الحضارة الرومانية، التي تمثلت في الجوانب السياسية والفكرية والاقتصادية في هذا الجزء، وحلت المسيحية محل الوثنية، وشهد غرب أوروبا فترة من الرقي والتقدم. وفي القرن الرابع الميلادي ازداد ضغط الشعوب التوتونية المتقدمة من السهل الشمالى على حدود الإمبراطورية الرومانية، وأدى ذلك إلى انقسام الإمبراطورية قسمين: شرقى وغربى. ثم تعرض غرب أوروبا لغزو من الشمال تمثل في هجرات بعض الشعوب أو القبائل والمجموعات الصغيرة مثل الجوت، والبرجنديين، واللومبارديين، والفرانك، والساكسون، والأنجل. فاحتل الفرانك بلاد **Goul** (فرنسا) واحتل الساكسون والفريزيان الأراضي المنخفضة (بلجيكا) و (هولندا) وتحرك الساكسون والجوت والأنجل واحتلوا إنجلترا. وفي بداية القرن السابع الميلادي وصل المسلمون إلى جنوب فرنسا بعد فتحهم الأندلس ومحاولتهم نشر الإسلام في أوروبا، ولكنهم هُزموا في معركة بلاط الشهداء جنوب فرنسا. وظل غرب أوروبا يخضع للإمبراطورية الرومانية حتى نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة واستقلال

(225/11)

---

كل قطر من أقطار الإمبراطورية بنفسه، وظهر أربع دول عظمى مثلت غرب أوروبا هي: بريطانيا، وفرنسا، وهولندا وبلجيكا، وقادت هذه الدول حركة الاستعمار عبر البحار واحتلت مناطق عديدة من العالم في آسيا وإفريقيا والعالم الجديد وكونت كل منها مملكة عظمى. وظل غرب أوروبا لمدة ثلاثة قرون سبقت الحرب العالمية الأولى يقود العالم سياسيًا واقتصاديًا حتى سقطت هذه الممالك الاستعمارية بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية. وفي القرن العشرين انحسر تفوق غرب أوروبا بعد ظهور القوتين العظميين أمريكا والاتحاد السوفيتي السابق، ثم انفراد أمريكا بهذا التفوق والنفوذ.

(226/11)

---

\*نيس

مدينة ومنتجع سياحي في الريفيرا الفرنسية، بالجزء الجنوبي الشرقي من فرنسا. تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط على بعد (32 كم) من الحدود الإيطالية. أسست منذ (2000) سنة على يد اليونان، ثم خضعت للرومان والأتراك، وفي القرون التالية حكمت من البروفنس وسافوى. وأهم صادراتها: زيت الزيتون، والصابون، والجلود، والأثاث.

(227/11)

---

## \* طليطلة

طليطلة أو توليدو مدينة إسبانية ذات تاريخ عربي إسلامي عريق امتد (375) سنة. وتقوم المدينة على أكمة صخرية يبلغ ارتفاعها (568 م)، وتشرف على مجرى نهر تاجة الذى يحيط بها من ثلاث جهات، وتبعد نحو (40) ميلا فى الجنوب الغربى من مدريد ويربطها بها خط حديدى. عرفت طليطلة فى التاريخ القديم باسم تولتيوم، واستولى عليها الرومان سنة (193 م) وأصبحت بعد ذلك مستعمرة رومانية ثم صارت عاصمة لإسبانيا الرومانية إلى أن استولى عليها القوط الغربيون، واتخذوها عاصمة لدولتهم سنة (534 م) وظلوا يحكمونها حتى الفتح الإسلامى لها على يد طارق بن زياد وموسى ابن نصير سنة (711 م)، وترك المسلمون حكمها لأحد أبناء الأسرة المالكة ومنحوا أهلها حرية العبادة. وأثناء الخلافة الأموية فى الأندلس كانت قرطبة حاضرة الدولة وكانت طليطلة تابعة لها إلا أنها كانت مركزاً لعدد من الثورات التى قامت ضد الأمويين بالأندلس بسبب بعدها عن مقر الحكم وحصانتها ومؤامرات رجال الكنيسة. وفى عصر ملوك الطوائف بالأندلس حكم طليطلة أسرة بنى ذى النون وظلت فى أيديهم حتى استولى عليها ألفونسو السادس ملك قشتالة فى مايو سنة (1085 م) وفشلت سلسلة المحاولات من جانب المرابطين والموحدين بعد ذلك فى استرجاعها، وهى الآن إحدى مدن إسبانيا وتسمى توليدو. ومازال بها بعض المعالم التاريخية المتمثلة فى بقايا الأسوار التى ترجع إلى العصر الرومانى، ومجرى المياه، والقنطرة الحجرية التى أقامها المنصور بن أبى عامر والتى تعرف الآن باسم الكانترا، ومبنى الكازار أى القصر، إلى جانب عدد من الكنائس التى كانت مساجد ثم حولها النصارى إلى كنائس. وقد قلَّ شأن طليطلة فى العصور الحديثة مع أنها ما زالت مقرّاً لكبير أساقفة الكنيسة الإسبانية.

(228/11)

---

**\*عُمان (خليج)**

ذراع من البحر العربي، تمتد بين الجزء الشرقي من عمان وسواحل إيران الجنوبية الشرقية، وتتصل بالخليج العربي عبر مضيق هرمز. يبلغ طولها (563) كيلو متراً، وعرضها عند مدخلها (370) كيلو متراً.

(229/11)

---

**\*بربرة (ميناء)**

يطل على خليج عدن، ويسكنه نحو (70) ألف نسمة، ويقع مرفأه في ظهر لسان رملي يحميه من الأمواج، ويصله طريق معبّد ببلدة هارجابا، التي كانت عاصمة للصومال البريطاني. ويتم تصدير الحيوانات ومنتجاتها من خلال ذلك الميناء.

(230/11)

---

**\*هرر**

كبرى مقاطعات أثيوبيا، تقع في الجزء الجنوبي الشرقي من البلاد، مساحتها (259.700 كم<sup>2</sup>). بينما تقع عاصمتها على ارتفاع (6.000) قدم عن سطح البحر. يعود تاريخها إلى القرن السابع الميلادي. وبلغت أوج مجدها في القرن السادس عشر عندما غدت عاصمة لإمارة قوية ومركزاً للدراسات الإسلامية. كانت تابعة لمصر من عام (1292 هـ = 1875 م) إلى عام (1302 هـ = 1885 م). يسكنها الصوماليون وعناصر الجالا مع القليل من الجماعات

الحامية من الكوشيين، وقد اعتنق الكثير منهم الإسلام، ولهم اتصال وثيق ببلاد العرب.

(231/11)

---

\*النحّاسين (حى)

حى من أحياء مدينة القاهرة، به دكاكين لبيع النحاس، وتقام فيه سوق لذلك؛ فعرف بحى النحّاسين، وكان يعرف بخط بين القصرين، ابتداءً من سبيل عبد الرحمن كتبخدا الذى أنشئ سنة (1157 م) المعروف الآن بسبيل بين القصرين، وانتهأؤه عند حارة الصالحية التى تقع تجاه باب الصاغة. وحى النحاسين زاخر بالمنشآت الأثرية، فبأوله من جهة اليمين حمام السلطان، الذى يعرف أيضاً بحمام سيدنا الحسين، ثم المدرسة الكاملة التى أنشأها الملك الكامل سنة (622 هـ) وتعرف الآن بجامع الكاملة، ثم المدرسة البروقية التى أنشأها الملك برقوق سنة (786 هـ) وتعرف الآن بجامع البروقية، ثم المدرسة الناصرية التى أتمّ عمارتها الناصر محمد بن قلاوون سنة (703 هـ) وتعرف الآن بجامع الناصرية، ثم المدرسة المنصورية التى تقع داخل الليمارستان، وأنشأها المنصور قلاوون قبل سنة (690 هـ)، وبعدهما حمام قلاوون الذى يعرف بحمام النحاسين. وأما من جهة اليسار فبأوله درب قرمز ثم المدرسة السابقة، التى أنشأها سابق الدين الأنوكى سنة (760 هـ) وتعرف الآن بجامع درب قرمز.

(232/11)

---

## \*لورقة

بلد بالأندلس من بلاد تدمير، بينها وبين مرسية (40) ميلا ومعنى لورقة: الزرع الخصب. فتحها المسلمون بعد معركة شدونة سنة (92 هـ = 711 م). وفي عهد ملوك الطوائف كانت تابعة لمملكة المرية، بيد أنها انفصلت عنها على يد ابن شبيب النائر بها في سنة (443 هـ = 1051 م) وحكمها وإخوته الثلاثة من بعده، واعترف آخرهم بطاعة ابن عباد صاحب إشبيلية. وبعد معركة الزلاقة سنة (479 هـ) - التي هزم فيها المسلمون المرابطون والممالك الأندلسية) القشتاليين - تحوّل عدوان القشتاليين إلى شرق الأندلس حيث كان الضعف يسود الإمارات الأندلسية الصغيرة، وربطوا في حصن لبيط الواقع بين مرسية ولورقة فأخذت جيوشهم ترهق الأنحاء القريبة بغاراتها المتوالية، فعادت إليهم قوات المرابطين من المغرب وحاصرتهم، وبعد فك الحصار أحلى النصارى الحصن، ثم دخلت لورقة تحت حكم المرابطين وكان مصيرها بعد ذلك مرتبطاً بتاريخ الأندلس.

(233/11)

## \*الجزائر الشرقية

الجزائر الشرقية أو جزائر البليار اسم يطلق على ثلاث من الجزر الإسبانية غربى البحر الأبيض المتوسط، هي: ماجوركا، وميورقة، ووايفيزا، وهي حالياً إحدى ولايات إسبانيا وعاصمتها بالما وكبرى هذه الجزر هي ماجوركا. وتبلغ مساحة جزر البليار ما يقرب من (1514 كم<sup>2</sup>)، وترتبط هذه الجزر بخط مواصلات جوى جيد، ويشغل سكانها بالزراعة وصيد الأسماك. وأهم المحاصيل الزراعية بها: الطماطم والبطاطس والفاكهة. أما الصناعة في جزر البليار فقيرة جداً، فالمالح والحجر الجيرى

والليمونييت هي الثروات المعدنية الوحيدة الموجودة بها. وأهم الصناعات: نسج الصوف وحفظ الأطعمة وصناعة سوبر الفوسفات. وقد سكن الإنسان جزر البليار منذ فجر التاريخ وخضعت لعدد من الشعوب كان أولهم الأيبيريون ثم الفينيقيون واليونانيون والقرطاجينيون والرومان والبيزنطيون، ثم فتحها المسلمون في القرن (8م)، ولما خرج المسلمون من الأندلس أصبحت مملكة مستقلة في القرن (11م). وفي القرن (13م) استولى عليها ملك أراجون ثم صارت فيما بعد إحدى ولايات إسبانيا ولا تزال كذلك حتى الآن.

(234/11)

---

\* طابا

تقع في الجزء الشرقي من شبه جزيرة سيناء، على الطرف الشمالي الغربي من خليج العقبة. احتفظت بها إسرائيل عند انسحابها من شبه جزيرة سيناء سنة (1403 هـ = 1982 م) زاعمة أنها جزء من أراضيها، وقامت ببناء فندق سياحي كبير فيها، وقد أدى هذا إلى نشوب نزاع سياسي بينها وبين مصر، لجأت فيه مصر إلى هيئة التحكيم الدولية، التي حكمت بعودة طابا إلى السيادة المصرية، وكان ذلك سنة (1409 هـ = 1988 م).

(235/11)

---

\* العلاقي (وادي)

هو واد يقع على بعد (109) كيلو مترات جنوب سد أسوان، وينتهي عند مناجم الذهب بالمنطقة المعروفة باسم وادي أم القريات. بدأ المصريون يستغلون تلك المناجم منذ أيام الدولة

الوسطى، كما استعملت في عصور مصر الإسلامية. ويوجد بالقرب من المناجم أطلال منازل العمال، وطواحين حجر الكوارتز، وعلى الصخور بين النيل والمناجم نقوش خلفها أعضاء البعثات في مختلف العصور. وهذا الوادي كانت تسكنه قبائل البجة، ثم استوطنته قبيلة ربعة العربية، واختلطوا بالبجة وصاهروهم، ونجح أبو مروان بن بشر بن إسحاق في تأسيس أول إمارة عربية في وادي العلاقي، ثم انتقل مقر الإمارة من وادي العلاقي إلى أسوان.

(236/11)

#### \*النمسا

دولة أوروبية تقع في جنوب أوروبا الوسطى، يحدها من الشمال جمهورية التشيك والسلوفاك، ومن الجنوب يوغسلافيا السابقة وإيطاليا، ومن الغرب ألمانيا وسويسرا، ومن الشرق المجر. وتبلغ مساحتها (13850 كم<sup>2</sup>)، وأراضيها مرتفعة، خاصة في المناطق الوسطى والغربية، وأعلى قممها جبل جروس جلوكنر - (3757) متراً -، ويحترقها نهر الدانوب بالإضافة إلى نهرى المور وانز، ومناخها معتدل صيفاً وبارد شتاءً. واللغة الألمانية هي اللغة الرسمية. وأغلب سكان النمسا مسيحيون كاثوليك بالإضافة إلى البروتستانت والمسلمين. وأهم مدنها فيينا وهي العاصمة، وسالزبورج ولبنز. والنمسا بلد سياحي يوجد به بعض الصناعات المتقدمة مثل الكيماويات والمنسوجات والصناعات الثقيلة، ويشتهر بتربية الأبقار وتصدير اللحوم. ونظام الحكم في النمسا اتحادى دستورى حيث تنقسم إلى (9) مناطق تتمتع بالحكم الذاتى، وهى دولة حيادية. ودخلت المسيحية النمسا فى القرن الرابع الميلادى ثم سيطرت على النمسا بعد ذلك قبائل

الهون والقوط وخضعت النمسا لفرنسا سنة (1788 م)، ثم المجر، وبافاريا. وقد اتحدت النمسا والمجر في إمبراطورية واحدة سنة (1867 م) إلا أنها انهارت مع قيام الحرب العالمية الأولى. وقامت النمسا بحدودها الحالية سنة (1918 م) وكان أول رئيس لها ميشل هانثن، غير أنها وقعت تحت الاحتلال الألماني سنة (1938 م) واستمر الوضع هكذا حتى دخلها الحلفاء سنة (1945 م) وتم تقسيمها بينهم إلى أربع مناطق. وقد جلت عنها قوات الحلفاء سنة (1955 م) بعد أن أعلنت النمسا حيادها.

(237/11)

---

#### \*نيسابور

مدينة إيرانية تقع جنوبي غربي مشهد على بعد (110 كم). فتحها الأحنف ابن قيس في خلافة عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، ثم أعاد فتحها عبد الله بن عامر سنة (31 هـ) في خلافة عثمان بن عفان، رضى الله عنه. وكانت نيسابور مدينة متميزة بإقليم خراسان لموقعها الجغرافي؛ لذلك صارت عاصمة للدولة السلجوقية في القرن الخامس الهجري ثم الدولة الطاهرية. وفي سنة (618 هـ) هدمها المغول، إلا أنها أخذت في النمو والعمران مرة أخرى. ويوجد بنيسابور مقبرة الشاعر عمر الخيام. وقد نبغ من نيسابور عدد من العلماء مثل الإمام مسلم بن حجاج صاحب الصحيح، المتوفى سنة (261 هـ)، والمفسر أبي إسحاق الثعلبي المتوفى سنة (427 هـ).

(238/11)

---

### \*المحمدية

مدينة مغربية تقع على شاطئ المحيط الأطلسي على بعد (23 كم) شمالي الدار البيضاء في طريق الرباط. أسسها المولى محمد بن عبد الله سنة (1182 هـ) وكانت تدعى فضالة. وهي ميناء كبير لتصدير الأسماك والمنتجات الزراعية. وتوجد بها بعض الصناعات مثل تصفية البترول، والسيارات، وكذلك يوجد بها أكبر مطبعة في المغرب.

(239/11)

---

### \*سَيِّحُون

هو أحد الأنهار الشهيرة بالقرب من سمرقند على حدود تركيا، ويقع في بلاد ما وراء النهر، وكان اسمه قديماً سرداريا، وأطلق عليه الأتراك اسم سيحون، وعرفه العرب بهذا الاسم. وقد تردد اسم هذا النهر كثيراً أثناء الحديث عن فتوحات المسلمين في بلاد ما وراء النهر. وتتجمد مياه هذا النهر نحو ثلاثة أشهر في فصل الشتاء، فتتعذر الملاحة به أثناء تلك الفترة. ويبلغ طوله (300) ميل.

(240/11)

---

### \*غرناطة

مدينة أندلسية تقع على بعد (696 كم) من مدريد. وكانت قبل الفتح الإسلامي مدينة صغيرة قرب مدينة إلبيرة، ومرار الزمن حلت غرناطة محلها، وتقع غرناطة في وادي نهر شنبيل، وبعد الفتح الإسلامي كانت القبائل الشامية تقيم فيها ثم توافد عليها البربر. وكانت تضم نيفاً ومائة بلد وقريّة. وفي منتصف القرن

قامت مملكة غرناطة على يد محمد بن الأحمر، بعد سقوط باقي مدن الأندلس في يد النصارى الإسبان، واستمرت هذه المملكة زهاء قرنين ونصف القرن تحافظ على الإسلام في إسبانيا باعتبارها آخر معاقل المسلمين هناك، وقد تولى الحكم خلال هذه الفترة ما يزيد على عشرين حاكمًا، وقد ساعدها على البقاء هذه المدة الطويلة وقوعها في الطرف الجنوبي من الأندلس مما سهّل اتصالها بالمسلمين في المغرب، وغناها بالموارد الاقتصادية ووفرة مياهاها، وكذلك قوتها العسكرية، حيث كانت تستطيع أن تحشد (50) ألف مقاتل رغم أن عدد سكانها لا يزيد على نصف مليون نسمة، وكان سورها يتخلله (1300) برج منيع. فقد كان صمود غرناطة في مواجهة النصارى يعتمد على هذه القوة العسكرية، واشتهرت بجودة صناعاتها مثل الورق والذهب والأسلحة والذخائر، وكذلك بجودة محاصيلها مثل البساتين والفواكه، وبمبانيها الفخمة مثل قصر الحمراء الذى يسع (40) ألف شخص. وسقطت غرناطة في أيدي النصارى الإسبان في (21 من الحرم سنة 897 هـ). ومن علماء غرناطة وأدبائها: لسان الدين بن الخطيب، والمقرئ صاحب كتاب نفح الطيب.

(241/11)

### \*هراة

مدينة كبيرة من مدن خراسان، تقع في إقليم سجستان شمالي غربي أفغانستان، فتحها الأحنف بن قيس سنة (18هـ=639م)، عندما فتح بلاد خراسان في عهد عمر بن الخطاب، رضى الله عنه. وفي سنة (604هـ=1207م) حاصرها خوارزم شاه محمد بن تكشن حتى سقطت في يده، ثم توجه إلى سمرقند ولكنها ما

لبثت أن سقطت في يد تيمورلنك. وبعد أن تفككت إمبراطورية  
تيمورلنك، أصبحت قاعدة للدولة الصفارية منذ سنة  
(867هـ=1462م)، وظلت محل نزاع بين الإيرانيين والأفغان حتى  
بدايات القرن (19م).

(242/11)

### \* سيلان

هي إحدى الجزر الواقعة على المحيط الهندي، وتبعد مسافة  
(35 كم) عن الهند، ويفصل بينهما مضيق جسر آدم، وتبلغ  
مساحتها (65610 كم<sup>2</sup>)، وكان العرب قد عرفوها باسم سرنديب،  
ثم حُرف الاسم إلى سيلان. ويرجع اتصال العرب بهذه الجزيرة  
إلى ما قبل الإسلام، حيث كانت ملتقى السفن القادمة من الصين  
والشرق الأقصى مع السفن القادمة من الخليج العربي وسواحل  
الجزيرة العربية الجنوبية، ثم امتزجت العناصر الإسلامية من سنة  
وشيعة بأهل سيلان ودخل التاميل في الإسلام، وانتشر الإسلام  
بالجزيرة. وتقع الجزيرة في المنطقة الاستوائية، وتشغل  
مساحتها سلسلة هضاب تنحدر تدريجياً حتى السهول الساحلية  
لها. وقد اجتذبت سيلان الأوربيين وأصبحت محط أنظارهم  
وأطماعهم، فسيطر عليها البرتغاليون أواخر القرن (15م)، ثم  
الهولنديون سنة (1658م)، ثم الإنجليز سنة (1796م)، وسيطروا  
عليها فترة طويلة، ثم نالت الجزيرة استقلالها في 4 من فبراير  
سنة (1948م)، وتحولت إلى جمهورية، وتغير اسمها إلى  
سيريلانكا، واتخذت من كولومبو عاصمة لها. ويعتق أهل  
سيريلانكا أكثر من ديانة (إسلامية - مسيحية - بوذية - هندوسية)  
وتتعدد بها اللغات: السنغالية (السنهالية) - التامول (التاميل) -  
الإنجليزية. وهي من الدول النامية التي تعتمد على الزراعة،

وبعض الصناعات البسيطة. ويعد الشاي والكاوتشوك (المطاط) والجرافيت من أهم صادراتها، وعملتها المتداولة هي الروبية السيريلانكية.

(243/11)

---

### \*سويسرا

دولة أوروبية، تقع بين إيطاليا وفرنسا وألمانيا والنمسا، وتبلغ مساحتها نحو (41.293 كم2)، وتتمتع بمناخ معتدل في الجنوب والوسط، قارى في الشمال الشرقى. وهى البلد الأكثر ارتفاعاً في قارة أوروبا وتقع في منتصف الطريق بين خط الاستواء والقطب الشمالى. وتشغل سلسلة جبال الألب وجبال الجورا السويسرية معظم مساحة سويسرا. وقد انعكس ذلك على مواردها الزراعية، إذ لا يُستغل زراعياً من مساحتها سوى ثلثها فقط. وتتألف سويسرا من (26) مقاطعة، تشكل كل منها دولة صغيرة مستقلة بذاتها، وجميعها يخضع لحكم مركزى بالعاصمة برن. ولا يُجمَع السويسريين لغة واحدة، حيث تتباين ألسنتهم بلغات أربع هي: الألمانية والفرنسية والإيطالية والرومانش (المحلية السويسرية). وتتميز سويسرا باستقرارها السياسى والاقتصادى، ويتمتع شعبها برخاء اقتصادى جيد. وتعد صناعة الساعات والأدوات الدقيقة، والمصنوعات المعدنية، والكيميائيات والجواهر والآلات والأجهزة والملابس والأغذية من أهم صناعات سويسرا وكذلك من أهم صادراتها.

(244/11)

---

## \*السودان

هناك فرق بين السودان كإقليم والسودان كدولة، فالسودان الإقليمي يطلق جغرافيًا على الحزام الإقليمي الذي يفصل جنوب الصحراء الإفريقية الكبرى عن الأقاليم الاستوائية، ويقع تقريبًا بين خطى عرض (10 و20) شمالًا، ويمتد من ساحل البحر الأحمر شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا. وينقسم إقليم السودان إلى ثلاث مناطق هي: السودان الغربي، ويضم الوحدات السياسية التالية: السنغال وغينيا ومالي والنيجر وشمال الكونغو مع أطراف سيراليون وغانا وفولتا العليا. أما السودان الأوسط فيشمل تشاد وجمهورية إفريقيا الوسطى وشمال الكاميرون وشرق نيجيريا. والسودان الشرقي، ويتألف من وحدة سياسية واحدة هي جمهورية السودان وهذه الأخيرة هي المقصود بالسودان كدولة، ويحدها من الشرق البحر الأحمر وأثيوبيا، ومن الجنوب كينيا وأوغندا والكونغو، ومن الغرب إفريقيا الوسطى وتشاد وليبيا، ومن الشمال مصر. وعاصمة جمهورية السودان هي الخرطوم، ويشغل أهل السودان بالزراعة والرعى حيث المطر ونهر النيل بفروعه المختلفة، وهما المصدر الرئيسي لهاتين المهنتين. وسكان السودان الشمالي من السلالات القوقازية، ودينهم الإسلام، ولغتهم العربية. أما السودان الجنوبي فعناصره مختلطة ولهم عدة لغات. ومن الناحية التاريخية كانت جمهورية السودان موحدة تحت الحكم المصري حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادي، ثم قامت ثورة المهدي سنة (1881م-1899م)، وكانت مصر خاضعة للاحتلال البريطاني آنذاك وحاولت استعادتها، ثم انسحب الجيش المصري بعد مقتل حاكم السودان سنة (1924م)، وعاد مرة أخرى سنة (1936م)، وفي عام (1953م) وقّعت مصر وبريطانيا اتفاقية السودان، وفي أول يناير سنة (1956م) أُعلن استقلال السودان

### \*السنغال

جمهورية إفريقية، اشتق اسمها من نهر السنغال، الذي يشقها ويصب في المحيط الأطلسي. ويحدها من الشمال موريتانيا، ومن الجنوب غينيا، ومن الشرق مالي، ومن الغرب المحيط الأطلسي، وتبلغ مساحتها نحو (203.793 كم2)، وعاصمتها دكار. أُعلنت جمهورية مستقلة عام (1960م) بعد ثلاثة قرون من الاستعمار الفرنسي. يتألف سكانها من قبائل بربرية نازحة وقبائل زنجية. ومن أهم هذه القبائل الفولاني والمانديجو والأولوف والبابارا. معظم سكانها من المسلمين (75%)، وقد دخلها الإسلام من المغرب شمالاً، ومن الشرق عبر نهر النيجر (عن طريق الدعاة المسلمين القادمين من وادي النيل وليبيا). كانت السنغال أكثر المستعمرات الفرنسية تقدمًا، إذ كانت دكار مقر الحاكم العام الفرنسي لجميع المستعمرات الفرنسية في غرب إفريقيا. اللغة الرسمية هي الفرنسية، وتوجد لغات أخرى محلية بالإضافة إلى العربية. أهم منتجاتها: الذرة والبول السوداني والصبغ العربي. ووحدة السنغال النقدية هي الفرنك الإفريقي (فرنك الجماعة المالية الإفريقية)، والسنغال عضو بهيئة الأمم المتحدة منذ عام (1960م).

### \*الشرقية

إحدى محافظات مصر الشمالية، عرفت بإقليم الشرقية منذ عهد الدولة الفاطمية، وكان قبل ذلك مقسمًا إلى عدة كور صغيرة،

كل كورة قائمة بذاتها، ثم ضُمَّ بعضها إلى بعض. وسُمِّيتُ  
الشرقية لوقوعها في الجهة الشرقية من الوجه البحرى. وفي  
سنة (1826م) قُسمت الشرقية إلى مأموريات، وكانت كل  
مأمورية قائمة بذاتها، وفي سنة (1833م) ضُمَّت هذه المأموريات  
بعضها إلى بعض، وأصبحت إقليمًا واحدًا، باسم مديرية  
الشرقية، وعاصمتها مدينة الزقازيق، وفي سنة (1960م) تغير  
اسمها إلى محافظة الشرقية، وظلت عاصمتها مدينة الزقازيق.  
ومن أشهر قبائل العرب في الشرقية: الهنادى وسمالوى  
والطمبلات والعبادة والسماعنة والصوالح والحرايى. وتمثل  
المحافظة أهمية استراتيجية منذ أقدم العصور، إذ إنها مَعَبَر  
القوات الغازية من مصر إلى آسيا، أو العكس، وكانت الطريق  
الذى سلكه الفتح الإسلامى لمصر عام (19هـ=640م).

(247/11)

#### \*سمرقند

اسم يطلق على إقليم ومدينة في جمهورية أوزبكستان  
الإسلامية. الإقليم يقع شمالها، أما المدينة فتقع على ضفة نهر  
زرافستان، وتبعد (130) ميلا عن بخارى. واتصل اسم سمرقند  
بالتاريخ الإسلامى في خلافة معاوية، رضى الله عنه، عام  
(57هـ=677م) حين فتحها صلحًا سعيد بن عثمان بن عفان أمير  
خراسان، ثم أعاد فتحها بعد قتال شديد قتيبة بن مسلم في  
خلافة الوليد بن عبد الملك عام (93هـ=711م)، وينسب إلى قتيبة  
أنه عمل على نشر الإسلام بين أهلها الوثنيين. وقد أصبحت  
سمرقند منذ القرن الثالث الهجرى عاصمة لعدد من الدول التى  
قامت في آسيا الوسطى، مستقلة عن دولة الخلافة الإسلامية،  
مثل الدولة السامانية ثم الإيلخانية ثم دولة السلاجقة، إلى أن

غزاها جنكيزخان، الذي خربها وأحاطها إلى أطلال عام (1221م). وعندما استولى عليها تيمورلنك جعلها عاصمة لإمبراطوريته، ودخلت سمرقند عصرًا من الازدهار. وتقع سمرقند بعد ذلك تحت أيدي الشيبانيين ثم أيدي أمراء بخارى حتى احتلها الروس عام (1285هـ=1868م) وأصبح أميرها مظفر الدين تحت السيادة القيصرية، ثم أصبحت سمرقند عاصمة لجمهورية أوزبكستان حتى عام (1930م). وأنشأ الروس سمرقند الحديثة، تفصلها عن المدينة القديمة قلعة سمرقند. ومن آثارها جامع جورأمير، وجامع شاهي زندا ومسجد مزار شاه، الذي أقيم حول ضريح الصحابي قثم بن العباس، وكذلك قبر تيمورلنك. وسمرقند مركز لعدة صناعات، تشمل: نسج الحرير والقطن، والصناعات الثقيلة.

(248/11)

### \*السويس

محافظة مصرية تقع على رأس خليج السويس وعاصمتها مدينة السويس. تعد السويس ثالث الموانئ المصرية، كان اسمها كليسا ، وسماها العرب القلزم والسويس مدينة حضرية، ذات منشآت صناعية، أقيمت بجوارها مصانع البترول والسماذ. وقد زاد من أهمية مدينة السويس افتتاح قناة السويس سنة (1869م)، واكتشاف البترول على ساحل البحر الأحمر. وتعد مدينة السويس سياحية، فبالقرب منها عيون موسى، ذات المياه العذبة، التي تعد من معجزات موسى، عليه السلام. والسويس مدينة قديمة قامت في موضع مدينة مندثرة، كانت تعرف باسم كليسا، وأنشئت إبان القرن العاشر، وقد حفرت فيها قناة تصلها بالنيل في العصر الروماني، وبعد اندثارها أعاد حفرها عمرو بن

العاص سنة (23هـ = 644م)، وعرفت بقناة أمير المؤمنين، ثم اندثرت إلى أن تم حفر قناة السويس سنة (1869م).

(249/11)

### \*قونية

قونية مدينة قديمة وعاصمة المقاطعة التي تحمل اسمها، تقع بوسط تركيا، على بُعد (233 كم) إلى الجنوب من العاصمة أنقرة، وإلى الشمال من البحر الأبيض المتوسط، وعلى ارتفاع (990) متراً على حافة الهضبة الوسطى. تقع في وسط زراعي مهم، وتشتهر بصناعة النسيج والسجاد والمصنوعات الجلدية، وتجارتها الحبوب والصوف والموهير. عرفت قونية عند الرومان باسم إيكونيوم، وبلغت أزهى مجدها بعد أن أصبحت قاعدة السلاطين السلاجقة الأقوياء بآسيا الصغرى في القرن (11م)، ثم آلت إلى أمراء قرمان بعد انتصار المغول والأرمن على السلاجقة في أخريات القرن (13م) ثم آلت إلى الترك العثمانيين في القرن (15م)، وصارت مركزاً دينياً مهماً وبقربها هُزِمَ الجيشُ المصريّ بقيادة إبراهيم بن محمد على الجيش العثماني سنة (1832م). بها مسجد علاء الدين السلجوقي، الذي بنى سنة (1220م)، وعدة متاحف، وبها قبر جلال الدين الرومي المنسوب إليه الطريقة المولوية (أو مؤسسها)، وهو صوفي وشاعر مشهور، وقد أُبطلت طريقتهم اليوم، ويقال: إن بقونية قبر أفلاطون الحكيم.

(250/11)

### \*مالطة

مجموعة جزر بالبحر الأبيض المتوسط، مساحتها (316 كم2)،

أهمها جزيرة مالطة التي تبلغ مساحتها (216 كم<sup>2</sup>)، وهذه المجموعة من الجزر تقع على بعد (95 كم) جنوبي صقلية، و (300 كم) من الشواطئ التونسية ومثلها من الشواطئ الليبية، وفي منتصف الطريق من قناة السويس ومضيق جبل طارق، ومناخها مناخ البحر المتوسط، حار جاف صيفًا، دافئ ممطر شتاءً، وعاصمتها فاليتا المسماة باسم حاكمها جان باريزو دولا فاليت، وأهم مدنها بيركيركارا وسليما. ولغتها الرسمية: المالطية، وهي مزيج من العربية والإيطالية والإنجليزية، وأغلبية سكانها مسيحيون كاثوليك. أما عن تاريخها: فقد كانت بما حضارة الألف الثانية قبل الميلاد، ثم اندثرت في القرن التاسع قبل الميلاد. استقر بها الفينيقيون، وخضعت للقرطاجنيين في القرن الخامس قبل الميلاد، ثم الرومان نحو سنة (218 ق. م)، ثم خضعت للإمبراطورية البيزنطية من القرن (5 ق. م: 870)، ثم فتحها المسلمون، وكانت أول محاولة لأسد بن الفرات سنة (828 م) ثم فتحت نهائيًا وضمت إلى إمارة إفريقية (شمال إفريقيا، والأندلس، وصقلية). وفي عهد محمد الثاني الأغلب انتشر الإسلام في ربوعها، وعندما احتلها روجر غير الديانة الرسمية للجزر دون التعرض للجالية العربية المسلمة، ثم طرد فريديريك الثاني العرب منها بكل قسوة ووحشية بين سنتي (1240 و1250 م)، ثم هاجمتها القوات العثمانية سنة (1488 م)، وفي سنة (1530 م) أعطيت للفرسان الإسبانية الذين حكموها حتى هزيمتهم أمام نابليون سنة (1798 م)، وهؤلاء الفرسان لعبوا دورًا كبيرًا في احتلال إسبانيا لتونس والعبث بجامع الزيتونة وذبح المواطنين، ثم هاجمها العثمانيون سنة (1551 م)، وحوصرت سنة (1565 م) ثم فك الحصار بعد تدخل الأسطول الإسباني، ثم ضمت لبريطانيا سنة (1814 م) وكانت مالطة قاعدة لها في الحرب العالمية الثانية، وفي سنة (1947 م) مُنحت استقلالًا ذاتيًا محدودًا،

(251/11)

---

ونالت استقلالها في (21 من سبتمبر سنة 1964م) مع بقائها في الكومنولث، وفي سنة (1971م) طالب رئيس الوزراء دوم منتوف بإجلاء القوات البريطانية عنها، وفي سنة (1974م) أصبحت جزيرة مالطة جمهورية، وفي سنة (1979م) تم إجلاء آخر جندي بريطاني عنها، بعد احتلال دام (180) سنة.

(252/11)

---

### \*سواكن

هي ميناء سوداني يطل على البحر الأحمر بين بور سودان في الشمال وطوكر في الجنوب، وكان أقدم موانئ السودان وأكبرها حتى سنة (1906 م)، التي تأسس فيها ميناء بور سودان. استولى العثمانيون على سواكن سنة (923 هـ = 1517 م)، وانحصرت أهميتها آنذاك في مراقبة تحركات الأسطول البرتغالي في البحر الأحمر. وقامت مصر في عهد الخديو إسماعيل بضم سواكن إلى إدارتها، وأحيطت سواكن بسور لصد حملات الدراويش، وحفر المصريون بها ترعة تستمد مياهها من خزان أقيم لتجميع الأمطار. وعُنى الخديو إسماعيل بتعميرها، وأصبحت منفذ السودان الرئيسي الذي يرتبط بمصر عن طريق ميناء السويس، ولكنها فقدت أهميتها بعد إنشاء الخط الحديدي الذي ربط بور سودان بكسلا في الجنوب وعطبرة في الغرب، لنقل حاصلات السودان الرئيسية من القطن والماشية والصبغ. وكانت السفن النيلية التي استخدمت في الاستكشافات الجغرافية، أو في نقل الجنود إلى جنوب السودان تتجمع في

سواكن، وأصبحت سواكن، بعد اندلاع الثورة المهدية نقطة انطلاق الحملات المصرية البريطانية. وضُمَّت سواكن إلى السودان وأصبحت تابعة لمديرية كسلا بموجب اتفاقية سنة (1899 م).

(253/11)

### \*هندوستان

كلمة فارسية معناها أرض الهنود، وكانت تطلق على مناطق متعددة في الهند وباكستان. ومنذ تقسيم الهند سنة (1947 م) يطلق أحياناً على دولة الهند الهندوسية لتمييزها عن باكستان الإسلامية، وهي مشتقة من سندهو اسم نهر الأندوس (السند) ومنها اشتقت كلمتا أند وهند ومعناها الأرض التي تقع فيما وراء الأندوس، وأصبح سكانها يسمون الهندوس أو الهنود، كما أصبحت بلادهم تعرف بهندوستان. يحد هندوستان من الشمال سلسلة جبال الهمالايا، ومن الغرب جبال هندكوش وسليمان، حيث تقع أفغانستان وإيران، ثم تمتد الهند إلى الجنوب في شبه جزيرة، يقع بحر العرب في غربيها، وخليج البنغال في شرقيها، وسيلان في طرفها الجنوبي، ويتجه الإقليم منها إلى الشرق حتى جبال آسام. وتقع هندوستان بين خطي عرض (8° و37°)، وطول (61° - 100°) شرق جرينتش، وبذلك تقع في الإقليم الحار والمعتدل، وبها نهر الأندوس (السند) وهو أطول أنهار الدنيا إذ يبلغ مجراه (2900 كم)، ينبع من الشمال؛ حيث جبال الهمالايا. ويصب نهر الأندوس في بحر العرب. وأنهار البنجاب، ومنها نهر الكنج (أو كَنكا) المقدس لدى الهندوس، وبراهما بترا ونريدا وتابقي.

(254/11)

---

### \*همدان

مدينة تقع غربى إيران على سفح جبل الفند، وهى مركز تجارى، تشتهر منطقتها الجبلية بالآثار البرنزىة التى تنسب إلى إيران قبل الإسلام بعدة قرون. كان اسمها عند الآشوريين هجماتانا، وعند الإغريق أكباتان، وكانت قاعدة مملكة ميديا القديمة. وقد توفى فى همدان الفيلسوف على بن سينا.

(255/11)

---

### \*وهران

عاصمة المقاطعة التى تحمل اسمها، وهى ميناء بحرى، وثانية كبرى المدن فى الجزائر، وتقع على خليج وهران على البحر الأبيض المتوسط. صادراتها الرئيسية: القمح والخضراوات والأصواف، وصناعاتها: طحن الغلال وتعليب الأسماك والفواكه وصهر الحديد، وصناعة النسيج والأحذية والزجاج والسجائر، وتتصل بالجزائر عن طريق خط سكة حديدية. تأسست وهران فى القرن الخامس عشر الميلادى، وسقطت فى أيدي الإسبان عام (1509 م)، واحتلها العثمانيون سنة (1708 - 1732 م). أصابها زلزال مدمر عام (1790 م) واحتلها الفرنسيون سنة (1831 م). تطورت وازدهرت بسرعة، وتطور الميناء فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى، دمر جزء منها أثناء الحرب العالمية الثانية بواسطة المدمرات البريطانية؛ وذلك لمنع الألمان من احتلالها، واحتلتها قوات الحلفاء عام (1942 م).

(256/11)

---

## \*واشنطن

هى عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية، تقع على الضفة اليسرى من نهر بوتوماك، يتوسطها بناء الكابيتول، وموقعه آخر البيت الأبيض. يرجع تأسيسها إلى خلاف بين ولايات الشمال والجنوب على اختيار عاصمة البلاد، انتهى بالاتفاق على إقامتها على ضفة نهر بوتوماك، واختار الموقع جورج واشنطن وأطلق اسمه عليها، وشرع فى بناء البيت الأبيض سنة (1792 م) وإقامة الكابيتول سنة (1793م) الذى عقد فيه أول اجتماع للكونجرس الأمريكى سنة (1800 م)، وكان توماس جيفرسون أول رئيس للجمهورية نصب فى واشنطن سنة (1801 م)، وفى حرب الاستقلال استولى الإنجليز على المدينة سنة (1814 م)، وكانت إبان الحرب الأهلية (1861 - 1865م) المقر العسكرى للشمالين. وقد كانت واشنطن مدينة صغيرة اتسعت بعد ذلك حتى صارت مساحتها الآن (180 كم2) وبها عدد من الأبنية الفخمة كالكونجرس، والبيت الأبيض، ومكتبة الكونجرس، ودار المحفوظات القومية، وخمس جامعات، ويطلق اسم واشنطن على أربع عشرة بلدة أخرى، تقع فى أنحاء متفرقة من الولايات المتحدة. ويبلغ تعداد سكان مدينة واشنطن ما يزيد على مليون نسمة حسب إحصائية سنة (1992م)، وواشنطن كولاية تقع فى الجهة الشمالية من الولايات المتحدة الأمريكية، وتبلغ مساحتها (176617 كم2)، ويصل عدد سكانها إلى نحو (2 5) مليون نسمة، وهى الولاية رقم (42) فى الاتحاد الذى انضمت إليه فى عام (1889م). عاصمتها أولمبيا، أهم صناعاتها: المنتجات الزراعية (وبخاصة الفواكه والقمح). تركز تاريخها الأول فى تجارة الفراء، وصارت إقليمًا فى عام (1853 م)، وساعد مدّ السكك الحديدية إليها على ترويج صناعة الأخشاب، وصيد الأسماك، ونمت الصناعات بها حتى صارت مدينة سيتل من المراكز الصناعية بها

في الحرب العالمية الثانية، وتعد ولاية واشنطن مركزًا بحريًا مهمًا للمواصلات مع ولاية ألاسكا الأمريكية، ويتألف مجلسها

(257/11)

---

التشريعي من مجلس الشيوخ الذي يتكون من (41) عضوًا لمدة أربع سنوات، ومجلس النواب الذي يتكون من (99) عضوًا لمدة سنتين، بينما ينتخب حاكم الولاية لمدة (4) سنوات، ويمثلها في الكونجرس شيخان و (7) نواب.

(258/11)

---

\*مقديشو

عاصمة الصومال، وهي مركز عمراني قديم أقامه العرب في نحو القرن العاشر الميلادي؛ خدمةً للتجارة في شرق إفريقيا والمحيط الهندي. ويختص ميناء مقديشو بالاستيراد فعن طريقه ترد السلع المختلفة من الآلات، والمعدات، والملابس، والبن، والبترو، لكنه لا يصدر سوى عشر صادرات البلاد، وذلك لبعده عن مراكز إنتاج سلع التصدير. وقد تم تحديثه منذ أواخر السبعينيات، وزوّد بحاجز للأمواج، وبأربعة مراسٍ، وبمخازن ومستودعات، ومعدات للشحن والتفريغ. وبمقديشو عدد من الأقليات الإيطالية والهندية والباكستانية.

(259/11)

---

### \*المقس

أطلق اسم المقس بعد الفتح الإسلامي لمصر على قرية صغيرة تسمى أم دين، كانت تقع شمالي الفسطاط. هذه القرية كان يجلس فيها الموظف المناط به جمع المكس (الضرائب) من التجار، ومن ثم أطلق على المكان كله اسم المكس ثم حُرّف إلى المقس. وكانت المقس تقع على النيل مباشرة في المكان الذي تشغله حاليًا حديقة الأزبكية بالقاهرة قبل أن يغير النيل مجراه إلى الغرب قليلاً. وقد نزلت بها جيوش العباسيين سنة (292 هـ)، وفي عهد الإخشيديين تحولت إلى بستان كبير، وفي عهد الفاطميين أقيمت بها دار لصناعة السفن، وبنى بها صلاح الدين الأيوبي قلعة سُميت قلعة المقس بقيت إلى سنة (770 هـ)، وفي سنة (713 هـ) سمح السلطان الناصر محمد بن قلاوون للناس بالبناء في المقس فتسابق الأمراء والتجار إلى البناء فيها وتكون من مجموع ذلك كله بلدة جديدة هي بولاق التي احتلت مكان المقس.

(260/11)

### \*مكناسة

من كبريات المدن المغربية، ومن العواصم الملكية. تقع قرب جبل زرهون في موقع يبلغ ارتفاعه (522 م) عن سطح البحر، نشأت من اجتماع قرى بربرية، كان أهلها يقومون بزراعة الزيتون والأشجار المثمرة، ومن أقدم هذه القبائل قبيلتنا زناتة ومكناسة. ثم اتسعت عمارة مكناسة في العصر المريني، وتأسست بها عدة مساجد وحصون ومدارس وأسواق، واتخذها المولى إسماعيل عاصمة لمملكته، فبنى بها الأسوار والقصور والحدائق والدور والمساجد والحصون والأبراج، وخلف بها عدة مآثر تشهد بعظمة ملكه، منها باب المنصور، والهري الذي

أعدده السلطان لإيداع زاد الجنود، والحوض الكبير الذي تبلغ مساحته أربعة هكتارات، وكان يُستعمل في سقى البساتين المجاورة.

(261/11)

---

### \*مليلة

ميناء كبير على شاطئ البحر المتوسط في منتصف الطريق بين وهران وسبتة. تبلغ مساحته نحو (17 كم2)، كان يتبع المغرب إلا أن الإسبان يحتلونه منذ عام (1497 م) بعد سقوط غرناطة بخمس سنوات. وهو عبارة عن ميناء شُيّد على رأس روك ويمتد داخل البحر لمسافة (40 كم). ويرجع تاريخ إنشاء هذه المدينة إلى العصور القديمة؛ حيث عرفها الفينيقيون والقرطاجيون والرومان والقوط والمسلمون، وأنشأ بها الموحدون والمرينيون عدة منشآت إلى أن احتلها الإسبان ومازالت تحت سيطرتهم حتى الآن.

(262/11)

---

### \*منى

بلدة قريبة من مكة، تبعد عنها بنحو ستة كيلو مترات. سميت بذلك لما يمنى فيها من الدماء، يوجد فيها مرمى الجمار، وبها مسجد الخيف، وعلى مقربة منها غار كان يتعبد فيه النبي e أحياناً، ويسمى غار المرسلات، وسبب تسميته بهذا الاسم نزول سورة المرسلات على النبي e وهو يتعبد فيه. ويقال: إن إبراهيم عليه السلام، همّ في منى بذبح ابنه إسماعيل، عليه السلام؛ ولذا كانت موضع الذبح في الحج.

### \* المنصورة

مدينة كبيرة من مدن مصر، وعاصمة محافظة الدقهلية، تقع على رأس بحر أشمون طنّاح وتسمى اليوم أشمون الرماح، بناها السلطان الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب سنة (616 هـ = 1219 م). ونزل السلطان الكامل في موضعها، عندما استولى الفرنجة على دمياط وقضوا على من بها من المسلمين، وبنى بها قصرًا، وأمر أمراءه وقادة جيشه ببناء دورٍ لهم، وبنى حولها سورًا كبيرًا ونصب حوله الآلات الحربية للدفاع عنها، وانتشرت بها الحمامات والفنادق والأسواق مع مرور الزمن. وظل الملك الكامل بها حتى استخلص مدينة دمياط من أيدي الصليبيين سنة (618 هـ = 1221 م)، فأطلق على المدينة اسم المنصورة تيمناً بانتصاره على الفرنجة في دمياط. وفي سنة (648 هـ = 1250 م) هزم توران شاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب جيوش لويس التاسع ملك فرنسا عند المنصورة، بعد وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب، وسجن لويس التاسع في دار ابن لقمان بالمنصورة.

### \* منغوليا

منطقة واسعة في الجزء الشرقي من آسيا، تعد وطن الشعوب المنغولية. مساحتها الإجمالية نحو (2.700.000 كم2) والمغول شعب من العرق المنغولي أنشئوا إمبراطورية كبيرة خلال حكم جنكيز خان وأحفاده امتدت من الصين شرقًا إلى نهر الدانوب

واجتاحوا في ظل حكم تيمورلنك المنطقة من منغوليا إلى البحر الأبيض المتوسط ونهر الدانوب. وكان الغموض يكتنف تاريخ هذه المنطقة حتى القرن الثالث عشر الميلادي عندما برز جنكيز خان، وكان أقصى اتساع لها قد بلغته في عهد تيمورلنك في أواخر القرن السابع عشر الميلادي. قامت في منغوليا دولتان - بعد طول احتلال صيني - تفصل بينهما صحراء غوبي: الأولى: هي جمهورية منغوليا الشعبية (الخارجية). معظم سكانها من المغول، استقلت عن الصين سنة (1924 م) وأصبحت جمهورية، وانضمت إلى الأمم المتحدة عام (1961 م) ومساحتها (1.565.000 كم2) وعاصمتها: أولان باتور وحدودها الشرقية والجنوبية والغربية الصين وفي الشمال الاتحاد السوفيتي السابق. والثانية: هي جمهورية منغوليا الداخلية عاصمتها: هوهيهوت ومساحتها حوالي (1.177.500 كم2).

(265/11)

#### \* المنيا

مدينة في صعيد مصر الأدنى، وهي عاصمة محافظة المنيا منذ سنة (1890 م)، وكانت تابعة لولاية الأشمونين. تقع على الضفة الغربية لنهر النيل على بعد (243 كم) إلى الجنوب من القاهرة، عرفت باسم منية أبي الخصب ومنية الخصب، ويقال: إن الخصب مولى لأحد الخلفاء العباسيين ولاة مصر فعامل أهلها معاملة حسنة فسمى الإقليم باسمه. وبالمنيا آثار إسلامية وفرعونية تنتشر في المحافظة ومراكزها، منها مسجد اللمطي بمدينة المنيا، الذي بنى في العهد الأيوبي سنة (578 هـ)، وآثار بنى حسن الشروق وتونا الجبل والأشمونين وتل العمارنة، التي اتخذت عاصمة لإحدى دول الفراعنة في مصر.

### \*موريتانيا

جمهورية تقع في شمال غرب إفريقيا، يحدها من الشمال الشرقي الجزائر، ومن الشرق والجنوب الشرقي مالي، ومن الجنوب السنغال حيث يفصلها عنها نهر السنغال، ومن الغرب المحيط الأطلسي، ومن الشمال الغربي الصحراء الغربية والمغرب. وتبلغ مساحتها (1.030.000 كم2)، وعاصمتها نواكشوط، وأهم المدن نواذيبو وقايدى وزويران، واللغة العربية هي لغة أغلبية السكان، والإسلام هو الدين الرسمي. عرفت موريتانيا قديماً ببلاد شنقيط العربية، وقد وصلها الإسلام في العهد الأموي، ولكنها لم تخضع للمسلمين بشكل رئيسي إلا في عهد المرابطين الذين بسطوا نفوذهم إلى السنغال، ثم خضعت بعدهم للموحدين ثم لبنى وطاس وبعدهم لبنى مرين. وفي سنة (1903 م) احتلتها القوات الفرنسية، وأعلنت مستعمرة فرنسية سنة (1920 م)، وفي سنة (1958 م) أصبحت عضواً في المجموعة الإفريقية الفرنسية، واستقلت برئاسة مختار ولد دادا سنة (1960 م)، وفي سنة (1973 م) انضمت إلى جامعة الدول العربية، وفي سنة (1975 م) احتلت القوات الموريتانية نحو ثلث الصحراء الغربية، بينما احتل المغرب الثلثين الشماليين بعد انسحاب إسبانيا، وعلى إثر ذلك قامت حرب بين القوات المغربية والموريتانية، مما أزهق موريتانيا، فأعلنت انسحابها من الجزء الذي في حوزتها.

## \*موزمبيق

دولة إفريقية تقع على الشاطئ الجنوبي الشرقي للمحيط الهندي. يحدها من الغرب جنوب إفريقيا وسوازيلاند وزيمبابوى، ومن الشمال زامبيا ومالاوى وتنزانيا، ومساحتها (801.000 كم2). وأراضى موزمبيق غنية بالأعشاب، وأهمها نهر الزمبىزى. وتشارك موزمبيق فى ملكية بحيرة المالاوى. وعاصمة موزمبيق مابوتو وأهم مدنها سوفالا وموزمبيق، واللغة الرسمية هى البرتغالية بالإضافة إلى لغات الجانتو، وتعتمد موزمبيق على تصدير المنتجات الزراعية، وأهمها: القطن والسكر. ويوجد بها مجمع ضخمة لإنتاج الطاقة الكهربائية على نهر الزمبىزى ويدين (60%) من السكان بالوثنية، وثلث السكان مسلمون بالإضافة إلى أقلية مسيحية. وكان فى موزمبيق مراكز عربية وإسلامية تشتهر بتجارة الذهب إلا أنها تعرضت لاعتداءات البرتغال حتى سيطروا عليها سنة (1500م) واستعمروها نحو (500) سنة وجعلوها مصدرًا لتجارة الرقيق حتى تم إلغاؤها سنة (1878م). وفى سنة (1700م) تعرضت موزمبيق للركود بسبب انخفاض الحركة التجارية فى مرفئ البلاد بسبب فقدان البرتغال لأغلب مستعمراتهم. وفى سنة (1884م) بعد مؤتمر برلين أصبحت موزمبيق تحت السيطرة البرتغالية فاعتبرها البرتغال مقاطعة برتغالية فرضوا عليها لغتهم وديانتهم الكاثوليكية. وفى عام (1964م) اندلعت الثورة الإسلامية ضد البرتغال بزعامة حركة فريليمو حتى حصلت على استقلالها سنة (1975م) وارتبطت موزمبيق بعلاقات صداقة مع الاتحاد السوفيتى السابق والدول الاشتراكية. وتعانى البلاد الحرب الأهلية التى استمرت (14) سنة وأدت إلى تدمير الاقتصاد فى موزمبيق.

## \*موسكو

عاصمة روسيا، تقع على نهر موسكو، تبلغ مساحتها (325 كم<sup>2</sup>)، بها شبكات من الطرق والسكك الحديدية والخطوط الجوية والممرات المائية. صناعاتها الرئيسية النسيج والاشغال والتعدين والقاطرات والسيارات والطائرات والآلات والمواد الكيماوية والمطاط والبضائع الجلدية والورق والسجائر. ونقل الركاب في موسكو يتم بواسطة شبكة سكك حديدية تحت الأرض، شوارعها الرئيسية تنطلق من الكرملين باتجاه الضواحي، وفيها مطاران، أحدهما مركزي والآخر خارجي بالإضافة إلى شبكة من الممرات المائية تخدم ثلاثة موانئ: اثنان منها على نهر موسكو والثالث على قناة موسكو- فولغا. ورد ذكر موسكو لأول مرة سنة (1147م)، ثم أصبحت سنة (1271م) مركزاً إماراتياً تحت حكم دانييل فلاديمير. أحرقت النار مرتين في سنتي (1381م) و (1572م)، ثم احتلها البولنديون فترة قصيرة حتى حررها الأمير بوزهارسكي سنة (1612م)، واحتلها نابليون الأول في سبتمبر سنة (1812م)، ثم لم تلبث أن ثار أهلها بعد أيام قليلة فاضطر الفرنسيون إلى التقهقر، وفي المدة من سنة (1713م) إلى سنة (1918م) تركت مكانها كعاصمة لروسيا لسنت بطرسبرج، وقد تضاعف عدد سكانها بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، وازدهرت بسرعة بعد انتهاء الحرب.

(269/11)

## \*الموصل

هي ثانية كبرى مدن العراق، مركز تجارى مهم للبتروال العراقي، تقع على طرف دجلة شمالي غربي بغداد، قيل سميت بالموصل لأنها وصلت بين نهرى دجلة والفرات وقيل لأنها وصلت

بين الجزيرة والعراق، وقيل غير ذلك. فتحتها المسلمون سنة (16هـ=637م) في عهد عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، على يد عتبة بن فرقد السلمى، وكان أول منا اهتم بها مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية، فنصب عليها الجسور، وأعد الطرق، وبني حولها سوراً كبيراً، وجعل لها ديواناً خاصاً بها. وسكنها هارون الرشيد سنة (183هـ=719م)، وظلت تحت سلطة الدولة العباسية حتى حكمها نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى وظلت مقرّاً للدولة النورية حتى ظهرت الدولة الأيوبية. وقامت بريطانيا باحتلال الموصل بعد الحرب العالمية الأولى ببضعة أيام، ثم أخذتها تركيا حتى سنة (1344هـ=1925م)، ثم عادت إلى العراق. ومن أهم الآثار الإسلامية بالموصل: المدرسة الأتابكية ورباط الصوفية اللذان بناهما سيف الدين غازى بن زنكى، والمسجد النورى أو الجامع الكبير ومئذنته الحدباء، الذى بناه نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى سنة (566هـ=1171م) وانتهى منه سنة (568هـ=1173م)، ومسجد مجاهد الدين قيمان سنة (572هـ=1176م) وانتهى مجاهد الدين منه سنة (576هـ=1180م). ومن أشهر علمائها: عبد العزيز بن حيان بن جابر بن حريث، أبو القاسم الأزدي الموصلى وأبو يعلى أحمد بن على بن المثنى بن يحيى بن هلال التميمى الموصلى المحدث المعروف صاحب المسند. ومن أهم صادراتها: البترول، والحبوب، والفاكهة، والأصواف، وبها المصنوعات القطنية والسكر، والدباغة والمطاحن.

(270/11)

\* نابلس

مدينة فلسطينية، عاصمة محافظة نابلس، تتوسط المرتفعات

الجبلية الفلسطينية وخاصة جبال نابلس، وتبعد (69 كم) عن القدس و (42 كم) عن البحر المتوسط و (114 كم) عن عمّان، وترتفع نحو (550م) عن سطح البحر، وتنحدر الأودية من منطقة نابلس نحو الغرب والشرق. ومناخ نابلس ينتمي إلى مناخ البحر المتوسط وسمّى الكنعانيون نابلس شكيم، أى: الأراضى المرتفعة (النجد) ودخلها الفراعنة ثم الهكسوس ثم السامريّون ثم الرومان، وفتحها المسلمون بقيادة عمرو بن العاص في خلافة أبي بكر الصديق، رضى الله عنهما، وقام المسلمون بحماية من بقى من أهلها على ديانتهم - النصرانية - على أن يدفعوا الجزية، ثم استولى عليها الصليبيون سنة (493 هـ = 1099 م) وبنوا فيها قلعة وعقدوا فيها مجمعاً كنسياً كبيراً، واستردها صلاح الدين الأيوبي بعد انتصاره في معركة حطين ثم احتلها الإنجليز سنة (1918 م) وهى الآن - كباقي مدن فلسطين - تحت وطأة الاحتلال الإسرائيلى. وسكان نابلس - كبقية سكان فلسطين - يعودون بأنساجهم إلى العرب القحطانيين والعدنانيين، وتعد نابلس من أهم المراكز الصناعية فى فلسطين.

(271/11)

### \* ولىلى

مدينة مغربية أثرية يرجع تاريخها إلى العصر الرومانى، تقع بجبل زهرون على بعد ثلاثة كيلو مترات من مدينة المولى إدريس. ومدينة ولىلى مستطيلة الشكل تتدرج بناءاتها على سفح الجبل، وتشتهر بالآثار الرومانية، وأهم هذه الآثار قوس النصر وباب كارا كالا وكان المغاربة يسمّون هذه المدينة قصر فرعون، واسمها الرومانى فوليبس. وقد دمر هذه المدينة زلزال أشبونة

الشهير سنة (1775 م). وكان يحيط بهذه المدينة قديماً سور كبير له عدة أبواب. وتشتهر هذه المدينة بزراعة الزيتون وتجارته.

(272/11)

---

### \*الكرج

الكرج مدينة فارسية تقع بين همدان وأصبهان وهي إلى همدان أقرب، لم تكن في أثناء حكم الفرس مدينة مشهورة، وإنما كانت في عداد القرى الكبيرة، وأول من مصّرها وجعلها مدينة أبو ذؤلف القاسم بن العجلي أحد أكابر قواد الخليفة العباسي المأمون وجعلها وطنه، وإليها قصده الشعراء وذكروها في أشعارهم. وكانت الكرج تشتهر بأبنيتها المتفرقة، وقصورها الواسعة، وكانت ذات زروع ومواشٍ كثيرة. ينسب إليها القاضي أبو سعد سليمان بن محمد بن الحسين القصارى المعروف بالكافي الكرجي، كان فقيهاً فاضلاً عالماً، ولى قضاءها، وتوفي سنة (538هـ).

(273/11)

---

### \*الشمال (بحر)

بحر مفتوح يقع في غرب القسم الأوسط من اليابس الأوربي ويفصل بينه وبين الجزر البريطانية وتكتنفه دول النرويج، والدانمارك، وألمانيا، وهولندا، وبلجيكا من الجهة الشرقية، وبريطانيا من الجهة الغربية، وهو واسع وضحل، وبالرغم من ذلك فهو يخلو من الجزر بداخله. يبلغ طوله حوالي (965 كم) ويبلغ أقصى عرض له (643 كم). يتميز بأن مياهه لا تتجمد في فصل

الشتاء لذا فهو صالح للملاحة طوال العام، ومعظم سواحله باستثناء السواحل النرويجية والاسكوتلاندية قليلة التعرجات.

(274/11)

---

\*قزوين (بحر)

أكبر بحر داخلي (مغلق) في العالم يقع بين إيران والاتحاد السوفييتي سابقًا. تقع على ساحله الجنوبي الإيراني جبال البورز وعلى ساحله الجنوبي الغربي جبال القوقاز، وتصب فيه عدة أنهار منها: نهر الفولجا، ونهر الأورال، ونهر كورا، وغيرها. ومن أهم خصائص بحر قزوين انخفاض مستوى مياهه كل عام عن العام السابق بسبب ارتفاع معدل التبخر وقلّة مياه الأنهار التي تصب فيه، والمياه في غربه وجنوبه الغربي أعمق من المياه في شرقه وجنوبه الشرقي، وعلى الرغم من انكماش حجمه وتناقصه المستمر فإنه أقل ملوحة من معظم بحار العالم، ويسبب انخفاض مياهه المستمر أخطارًا جسيمة للموانئ التي تقع عليه حيث أصبحت هذه الموانئ في الوقت الحاضر لا يصلح الوصول إليها إلا بالقوارب الصغيرة. ولبحر قزوين أسماء أخرى مثل: بحر الخزر وبحر مازندران. وأهم موانئه باكو، وأهم جزيرة في جنوبه الشرقي أشورادة، وأيسكون.

(275/11)

---

\*بلرم

عاصمة جزيرة صقلية تقع على ساحلها الشمالي إلى الغرب، وهي مدينة قديمة، يرجع تأسيسها إلى الفينيقيين ثم تداولها أهل قرطاجنة، ثم الرومان والقوط فالروم. وقد فتح العرب مدينة

بلرم سنة (235 هـ = 831 م) بقيادة أبو الأغب العباس بن الفضل  
إبان إمارة إبراهيم الأغبلى على تونس، وقد ازدهرت بلرم ثقافياً  
واقصادياً إبان حكم العرب. وكانت مدينة بلرم تنقسم إلى  
قسمين: القصر والمدينة. وكانت مدينة القصر تشتمل على قصور  
وكنائس ومساجد ومنازل كبار التجار، أما المدينة فكانت تشغل  
مساحة واسعة وبها المنازل والمساجد والحمامات. ومدينة بلرم  
غنية بالعمارة التي يظهر فيها التأثير العربي في مساجدها  
وقصورها وقد تحولت المساجد والعمائر التي أقامها العرب إلى  
كنائس. وقد أصابت مدينة بلرم خسائر فادحة خلال الحرب  
العالمية الثانية. ويوجد بالمدينة جامعة بالرمو التي أنشئت سنة  
(1805 م).

(276/11)

#### \*شبه القارة الهندية

هو شبه قارة، يقع داخل نطاق إقليم آسيا الموسمية إلى الشمال  
من الدائرة الاستوائية، بين خطى عرض (8°، 36°) شمالاً، وخطى  
طول (61°، 97°) شرقاً، ويبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب  
(2000) ميل، ومن الشرق إلى الغرب (2200) ميل، ويبلغ طول  
سواحل (2000) ميل. ويمكن تقسيمه تضاريسياً إلى: كتلة هضبة  
الدكن القارية في الجنوب، ونطاق المرتفعات الألبية في الشمال،  
الذى توجد به جبال الهيمالايا، التي توجد بها قمة إفريست،  
أعلى قمة في العالم، وسهول الكانج والسند، وتقع بين  
الإقليمين السابقين. ويسود شبه القارة مناخ موسمي يشهد ثلاثة  
فصول، هي: فصل بارد وفصل حار وفصل ممطر. وتوجد ثروة  
زراعية ضخمة في شبه القارة الهندية، وأهم الحاصلات بها:  
الأرز، والقمح، وقصب السكر، والشاي، والبن، والطباق،

والقطن، والجوت. كما توجد في شبه القارة صناعات متقدمة مثل صناعة الحديد والصلب وصناعة الغزل والنسيج، علاوة على وجود خامات معدنية مثل الحديد والفحم والمنجنيز والبترو، كما توجد أعداد كبيرة من الأغنام والماشية. وقد وفدت إلى شبه القارة الهندية في مراحل تعميرها الأولى عناصر بشرية عرفت باسم ما قبل الدرافيديين وجماعات الآريون. وتتنمى هذه الجماعات إلى الجماعات الهندوأوربية، ويتحدثون اللغة السنسكريتية، ويتركزون في القسم الشمالي، وجماعات أخرى تنتمى إلى المغول، ويتركزون في نيبال وبيوتان، وأجزاء من آسام، ثم حدث اختلاط بين هذه الجماعات وجاءت إليها في القرن العاشر الميلادي جماعات عربية خلال الفتوحات العربية الإسلامية، وجماعات أخرى من جماعات المغول المسلمين بين سنتي (1219 - 1398 م)، ويوجد نحو (225) لغة في شبه القارة، أهمها: اللغة الهندية الآرية، واللغة الدرافيدية، واللغة الصينية التبتية. وأكثر الديانات في شبه القارة انتشاراً: الهندوسية، والدين الإسلامي، وديانة السيخ. وعندما وصل فاسكوداجاما

(277/11)

---

إلى ميناء قاليقوت عام (1498 م) تنبه الاستعمار الأوربي إلى المواد الخام الصناعية الموجودة في شبه القارة؛ فتأسست الشركات التجارية الأوربية لاستغلال الخامات الموجودة في البلاد، وعظم النفوذ البرتغالي في الفترة من سنة (1530 م) إلى سنة (1600 م)، ثم الاستعمار الهولندي والفرنسي، إلى أن استعمر البريطانيون شبه القارة وأسسوا إمبراطورية الهند البريطانية سنة (1858 م)، وفي أغسطس عام (1947 م) قسم شبه القارة الهندية إلى الوحدات السياسية الحالية، وهي: جمهورية

الهند، وجمهورية باكستان، وجمهورية بنجلاديش ومملكة  
نيبال، وإمارة سكيم داوتان، وجمهورية سيريلانكا.

(278/11)

---

### \* النيجر

هي إحدى الدول الداخلية في إفريقيا الغربية، وعاصمتها:  
نيامي، ويجاورها كل من ليبيا والجزائر من الشمال، ومالي  
وبوركينا فاسو من الغرب، وبنين ونيجيريا من الجنوب، وتشاد  
من الشرق، وليس لها منافذ بحرية ومساحتها (2.267) كم<sup>2</sup>،  
والمناخ حار جاف، ومعظم سكانها من الأفارقة السود، وهم  
ينتمون إلى مجموعات متنوعة. ويشكل فلاحو الهوسا والجيرما  
الذين يسكنون في جنوب البلاد أكبر كثافة في البلاد، أما  
باقي سكان النيجر فهم من البدو الذين يسكنون المناطق  
الصحراوية الشمالية. وعلى الرغم من أن الفرنسية هي اللغة  
الرسمية للنيجر فإن العديد من السكان يتحدثون لهجات مختلفة.  
والإسلام هو الدين السائد، ويوجد بعض الأقليات المسيحية.  
ويعتمد اقتصاد النيجر على الزراعة بشكل رئيسي رغم أن  
الأراضي الصالحة للزراعة قليلة، والجفاف سمة عامة في البلاد.  
كانت النيجر معبراً للعديد من الشعوب في بداية تاريخها،  
وسيطرت عليها عدة إمبراطوريات إفريقية حتى وصلتها  
الكشوفات الأوروبية ف وقعت تحت نفوذ فرنسا سنة (1855م)،  
وأعلنت مستعمرة فرنسية سنة (1922م) باسم غرب إفريقيا  
الفرنسية حتى حصلت على استقلالها سنة (1960م).

(279/11)

---

## \*النيجر (نهر)

نهر بغرب إفريقيا، يبلغ طوله أكثر من (4160) كم، ينبع قرب حدود سيراليون، وعلى بعد (320) كم من المحيط الأطلسي. يجرى تجاه الشمال الشرقي في الهوامش الجنوبية للصحراء الكبرى، مزوداً منطقة تمبوكتو وما يليها شمالاً بمياه الري، ثم ينحى في اتجاه الجنوب الشرقي، ويصل إلى خليج غينيا، محترقاً دلته ضخمة. والنيجر هو النهر الوحيد في إفريقيا الذي يتميز بمصب طويل صالح للملاحة، فهو يسمح بالملاحة للسفن المحيطية حتى مدينة ماتادى على بعد (128) كم من البحر.

(280/11)

## \*نيجيريا

نيجيريا جمهورية إسلامية إفريقية تتكون من (19) ولاية، تقع غرب إفريقيا على ساحل خليج غانا (المحيط الأطلسي)، وتجاورها دولة بنين في الغرب، والنيجر في الشمال، والكاميرون وتشاد في الشرق، ومساحتها (923.786) كم<sup>2</sup>، وكانت عاصمتها لاجوس، ثم نُقلت إلى مدينة أبوجا في وسط البلاد، وتُعد نيجيريا من أكثر دول إفريقيا كثافة بالسكان، وتضم أكثر من (200) قبيلة إفريقية بارزة أكبرها: الهوسا والفولاني المسلمتان، ويكثر وجودهما في الشمال، في حين تعيش التجمعات المسيحية في الجنوب. وقد دخل الإسلام شمال نيجيريا عن طريق التجار في القرن الثامن الميلادي، وازداد انتشاره في القرن الثالث عشر الميلادي عن طريق دولتي الموحدين والمرابطين. واحتلت بريطانيا نيجيريا سنة (1553م)، وصحب ذلك وصول بعثات تنصيرية، عملت على نشر المسيحية

في الجنوب الوثقى، وخاض المسلمون ضد المحتلين معارك حتى نجحوا في تحرير بلادهم وإعلان استقلالها سنة (1960م).

(281/11)

### \*النييل (نهر)

نهر شمال شرق إفريقيا، وهو من أطول أنهار العالم؛ إذ يبلغ طوله نحو (6825) كم، تبلغ مساحة حوضه (2.9) مليون كم<sup>2</sup>، وتتقاسم هذه المساحة عشر دول هي: مصر والسودان وإثيوبيا وكينيا وتنزانيا وأوغندا ورواندا وبورندي وزائير وإريتريا، ولنهر النيل مجموعتان من المنابع هما: بحيرات الهضبة الاستوائية، ومياه هضبة الحبشة، وتلتقى مياه المنبعين عند الخرطوم، وأهم روافده: بحر الغزال وبحر الزراف والسوبات والنيل الأزرق والعطبرة. ويظل نهر النيل في معظم مجراه محافظاً على اتجاهه نحو الشمال حتى يصب في البحر المتوسط بدلتا واسعة، تبدأ إلى الشمال من القاهرة بنحو (23) كم، ويتفرع فيها النيل إلى فرعي دمياط ورشيد، ويجرى النيل في مصر في وادٍ ضيق لا يزيد اتساعه في الجنوب عن (1.5) كم، ويزداد اتساعاً بالاتجاه شمالاً حتى يصل إلى أقصى اتساع له (25) كم عند مدينة بنى سويف، ويستمد نهر النيل مياهه من موردين رئيسيين: الأول: هضبة البحيرات، وتسهم بنحو (28%) من إيرادات نهر النيل في مصر، والثاني: هضبة إثيوبيا، وتسهم بنحو (72%) من جملة الإيراد السنوي. ولنهر النيل أهمية كبيرة؛ إذ قامت على ضفافه حضارة من أقدم الحضارات التي عرفها التاريخ؛ وهي الحضارة الفرعونية، كما نشأ على ضفافه أيضاً كثير من المدن الكبرى منذ آلاف السنين مثل طيبة ومنف. وقد أقيم على نهر النيل من منبعه حتى مصبه كثير من المشروعات

لتوفير مياه الري وتوليد الكهرباء، منها في مصر: سد أسوان الذى بُنى سنة (1902م) والسد العالى الذى بُنى سنة (1970م) بالإضافة إلى عدد كبير من القناطر مثل قناطر الدلتا وأسيوط ونجع حمادى وإسنا وغيرها. وفي السودان: سد جبل الأولياء، وسد سنار، وسد الرصيرص، وفي أوغندا: سد أوين.

(282/11)

---

### \*النيل الأبيض

جزء من نهر النيل يبدأ من مصب السوبات وينتهى عند مدينة الخرطوم حيث مصب النيل الأزرق فيكونان نهر النيل الرئيسى. وبه بعض الجزر أهمها: بجاني وبولى ومصران وأبا، ويمثل النيل الأبيض همزة الوصل بين المجارى النيلية فى حوض الغزال والهضبة الاستوائية وبين الجريان النيلي فى الأحواض شمال الخرطوم، وذلك فى نحو (800) كم. ويجمع النيل الأبيض إيراد نهرين، هما: بحر الجبل والسوبات.

(283/11)

---

### \*النيل الأزرق

أهم روافد نهر النيل، ينبع من مرتفعات جوجام بالقرب من بحيرة تانا التى يخرج منها على ارتفاع نحو (1750م)، ويسير فى مجارى ضيقة إلى أن يصل إلى السودان عند الرصيرص فى نحو (1520) كم، يجرى جنوباً ثم غرباً ويتعرج كثيراً فى هضبة الحبشة، فيجمع الجزء الأكبر من مياهها، وأهم روافده الدندر والرهد، ولئن كفلت بحيرة تانا للنيل الأزرق بداية متواضعة، وحصتها فى جريانه لا تزيد عن (7%) من إيراده الكلى، فإن انضمام الروافد

إليه من كل جانب يجمع حجمًا هائلًا من الإيراد من مساحة حوضه الكبير في الهضبة الحبشية البالغ قدرها نحو (217620) كم<sup>2</sup>، ومن ثم يتعاظم الجريان ويفعم بالمياه، وتكون قمة الزيادة في أغسطس وسبتمبر. يسيطر فيهما على جريان النيل سيطرة شبة تامة يكاد يوقف اندفاعه - عندما يتصل بالمجرى الرئيسى - الجريان الهادئ للنيل الأبيض، وتحققت - ضمن إيراد النيل الأزرق - أهمية تمثلت في الحمولة الهائلة من المواد العالقة والرواسب التي أسهمت في بناء التربة الفيضية.

(284/11)

#### \*اليونان

دولة أوروبية. تقع شرقي البحر المتوسط جنوبي البلقان. يحدها من الشمال ألبانيا ويوغسلافيا السابقة، ومن الشمال الشرقي تركيا. وتبلغ مساحة اليونان (132) ألف كم<sup>2</sup>. وتنتشر بها الجزر التي تكون (1/5) مساحة البلاد، وأهمها رودس وكريت والمورة. وتتميز أراضيها بالسهول الساحلية الضيقة والمناطق الجبلية الواسعة، وأهم جبالها أولمبس، ويصل ارتفاعه إلى (2985) مترًا. وثالث مساحة اليونان صالح للزراعة؛ لذلك يعتمد اقتصادها على الزراعة ثم الصناعة ثم السياحة والتجارة. وأهم محاصيلها الزراعية: القمح والزيتون والفواكه، ويوجد بها بعض المعادن مثل: الحديد، والصناعات مثل: الأقمشة والزيوت. وعملتها المتداولة الدراخمة، وسكان اليونان مسيحيون أرثوذكس، وتوجد بعض الجاليات الإسلامية فيها، وترجع أصول اليونانيين إلى أصول إغريقية. وأهم المدن اليونانية: أثينا العاصمة، وسالونيك الميناء الرئيسى. والنظام السياسى فى اليونان جمهورى برلمانى. وأهم أحزابها السياسية: حزب الديمقراطية الجديدة،

وحزب الحركة الاشتراكية الهيلينية، وتوجد بعض المشكلات السياسية مع تركيا حول بحر إيجه والأزمة القبرصية. ويرجع تاريخ اليونان إلى حضارة الإغريق القديمة التي أثرت في العالم ثم تكونت إمبراطورية اليونان سنة (1500 ق. م)، ثم خضعت للإمبراطورية الرومانية سنة (14 ق. م)، ثم للإمبراطورية البيزنطية حتى سنة (1456م)؛ إذ فتحها المسلمون العثمانيون واستمروا فيها حتى سنة (1821م)؛ إذ قامت ثورة المورة التي طالبت بالاستقلال عن العثمانيين وتمّ ذلك سنة (1827م). وفي سنة (1913م) تنازل العثمانيون عن كريت لليونان، وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى سيطرت اليونان على بعض المناطق الحدودية من ألبانيا وبعض جزر بحر إيجه ومقدونيا، إلا أن اليونان خضعت للمحور في الحرب العالمية الثانية، وبعد انتهائها قامت حرب أهلية استمرت (3) سنوات، وسيطر بعدها اليمين على مقاليد

(285/11)

---

السلطة. وفي سنة (1973م) أعلنت الجمهورية في اليونان.

(286/11)

---

**\*طنجة**

ميناء ومدينة مغربية، تُعد من أقدم مدن المغرب التي لعبت أدواراً مهمة في تاريخ المغرب القديم والحديث. وتقع هذه المدينة في بوغاز جبل طارق بين المحيط الأطلسي والبحر المتوسط في مقابلة الشاطئ الإسباني، ولا يفصلها عن هذا الشاطئ سوى (17) كم. وقد عرف القرطاجيون والرومان هذه المدينة، التي كانت مركزاً مهماً للجيش الإسلامية والمغربية التي كانت تتوجه

إلى الأندلس؛ لتثبيت دعائم الإسلام بها. واحتلتها الإسبان والبرتغال والإنجليز، كذلك نزل بها الإمبراطور الألماني غليوم الثاني سنة (1905م)، وألقى خطاباً شهيراً ضد السياسة الفرنسية. وكانت طنجة عاصمة المغرب الدبلوماسية حتى سنة (1912م)؛ إذ خضعت لنظام دولي خاص، وقد احتلتها إسبانيا سنة (1940م)، ثم عادت إلى المغرب سنة (1956م). ويقطن طنجة عديد من الأوربيين، ويوجد فيها عديد من الآثار التاريخية وبعض القصور الملكية، ويقال: إن بها ضريح الرحالة الشهير ابن بطوطة المتوفى سنة (779هـ)، كما يوجد بها بعض مقار المنظمات الدولية.

(287/11)

---

#### \*المهدية

مدينة مغربية قديمة تقع على شاطئ المحيط الأطلسي بين العرائش والرباط، عند مصب نهر سبو، على بعد (9) كم من القنيطرة، أسست في العصر الموحدى، وكانت تُسمى بالمعمورية؛ لقربها من غابة المعمورية الشهيرة. احتلتها البرتغال في القرن السادس عشر، ووجدت بناءها المولى إسماعيل بعدما طرد المغيرين منها سنة (1091هـ = 1680م)، ولا تزال أطلالها بادية للعيان.

(288/11)

---

#### \*دهلى

دهلى أو دهلي كبرى مدن الهند وأشهر مركز تجارى وصناعى بها. تقع في شمال الهند ويزيد عدد سكانها على (6) ملايين

نسمة. ويُطلق اسم دهلى على عدة مدن أقيمت في مواقع متجاورة على الضفة اليمنى لنهر جمنة. وكانت دهلى كغيرها من بلاد الهند يحكمها الهندوس حتى سنة (1194م)، حيث تمكن أحد القادة المسلمين، وهو قطب الدين أيبك، أحد مماليك الدولة الغورية بالهند من فتحها، وأسس دولة إسلامية عُرفت باسم دولة المماليك التركية، واتخذ دهلى عاصمة لها، واستمرت دولته حتى سنة (1290م)، حيث استولى عليها جلال الدين نيروز وأسس الدولة الخلدجية، ثم خلفتها الدولة التغلقيه سنة (1320م)، وفي عهد مؤسسها غياث الدين تغلق استعادت دهلى أهميتها كعاصمة كبرى حتى استولى عليها تيمورلنك وأحدث بها خراباً ودماراً. وفي سنة (1526م) نجح ظهير الدين بابر، أحد أحفاد تيمورلنك في دخولها، أثناء توسع دولته، واتخذها عاصمة لها، ثم اتخذها بعد ذلك السلطان أكبر عاصمة لإمبراطوريته الكبيرة. ويُعدُّ شاهجهان المجدد الحقيقي لمدينة دهلى منذ سنة (1638م)، فأقام أسوارها وبنى قلعتها وأسس مسجد دهلى الكبير. وفي سنة (1739م) تعرضت دهلى للغزو الفارسى على يد نادرشاه، ثم أصبحت بعد ذلك مسرحاً للثورات والاضطرابات مع استمرارها عاصمة للسلطين حتى استولى عليها الإنجليز سنة (1857م). وفي سنة (1877 م) أُعلِنَت الملكة فيكتوريا في دهلى إمبراطورة على الهند. وفي سنة (1911م) تُوجَّ الملك جورج في دهلى إمبراطوراً على الهند، وفي العام التالي اتخذ الإنجليز عاصمة أخرى وأطلقوا عليها نيودلهى. وتضم مدينة دهلى عددًا كبيراً من الآثار الإسلامية، أهمها: مسجد دهلى الجامع الذى بناه شاهجهان، وضريح الإمبراطور همايون، ومسجد اللؤلؤة الذى بناه أورنكزيب، ومنارة قطب الدين أو قطب منار، وغيرها.

## \*ديار بكر

مدينة تقع اليوم في حدود الجمهورية التركية بالأناضول، وعلى الضفة الغربية لنهر دجلة في مجراه الأعلى، وعند أقرب نقطة يقترّب فيها من مجرى الفرات. ويبلغ عدد سكانها (44.000) نسمة، وهي مدينة قديمة ذات أهمية إستراتيجية، يدل على ذلك الأسوار التي تُحيط بها، ويرجع تاريخ إنشائها إلى العصر الروماني، ويرتفع عليها (72) برجًا. وتشتهر ديار بكر بعدة صناعات تقليدية كالأقمشة الحريرية ومشغولات الجلود والنحاس، وفتحتها العرب سنة (19هـ)، على يد عياض بن غنم فاتح أرمينية، وبعد اختيار دولة الخلافة العباسية، كانت ديار بكر من نصيب السلاجقة، ثم التركمان، ثم الأيوبيين، ثم الأرتقيين، ثم الفرس، وأخيرًا العثمانيين.

(290/11)

## \*ذو الحليفة

مكان بالقرب من المدينة في الطريق الموصل إلى مكة، ويقع على مسيرة ستة أميال من جنوب المدينة، ويُعرف اليوم باسم آبار على. وأهمية هذا الموضع في أنه ميقات أهل المدينة، فعنده يبدأ الحاج القادم من المدينة إحرامه، وقد أحرم رسول الله (بذى الحليفة حين خرج إلى عمرة القضاء وحجة الوداع. والطريق إلى ذى الحليفة مستوٌّ يُحاذى حرة الوبرة، ويمر ببئر عروة. واكتُشف في ذى الحليفة آثار مسجد كان مطمورًا، قيل مسجد المعرس: أى المكان الذى يبني به الرسول - صلى الله عليه وسلم - عند عودته من مكة.

(291/11)

### \*رأس الرجاء الصالح

هو الطريق الذى اكتشفه الرحالة البرتغالى فاسكو ديجاما سنة 1498م)، أثناء محاولة البرتغال الوصول إلى الشرق من خلال طريق البحر، للحصول على تجارة الشرق، خاصة البهارات والتوابل، كما استهدفوا أيضاً تطويق المسلمين من خلال التعاون مع مملكة الحبشة النصرانية لحرب المسلمين، وفصم عرى الارتباط بين الكنيسة المصرية والكنيسة الإثيوبية. ر فقام فاسكو ديجاما برحلته سنة (1497م)، ووصل إلى نهاية القارة وعبر رأس الرجاء الصالح سنة (1498م)، واستطاع الوصول إلى الساحل الغربى للهند من خلال الدوران حول إفريقيا. وتتابع حملات البرتغال ورحلاتهم لتأمين الطريق وإقامة الحصون حوله وحماية التجارة، واعتبر البرتغال هذا الطريق سرّاً من أسرار الدولة؛ لذلك صدر قانون بتحريم حمل خرائط هذا الطريق. واستطاع البرتغال تحقيق أرباح طائلة من سيطرتهم على هذا الطريق، ولذلك حاول المماليك محاربة البرتغال؛ لتأثير اكتشاف هذا الطريق سلبياً على دولة المماليك، إلا أنهم هُزموا فى موقعة ديو البحرية سنة (1509م)، مما عَجَّل بسقوط دولة المماليك. وقد أدى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح إلى قيام بعثات التبشير، وعزل الشرق عن النهضة الأوروبية، وركود العالم الإسلامى

(292/11)

### \*الرباط

هى العاصمة السياسية والإدارية للمملكة المغربية، وأهم موانئها، تُطل على المحيط الأطلنطى، وتقع شمال الدار البيضاء،

وتعتبر مركزاً مهماً للمواصلات، وبها جامعة الرباط وجامعة محمد الخامس. ويرجع تاريخ إنشائها إلى القرن السادس الهجري عندما أمر السلطان الموحدي عبد المؤمن بن علي بتأسيسها وجعلها رباطاً لحشد الجيوش والأساطيل لغزو الأندلس، وسمّاها رباط الفتح، تيمناً بانتصاره على الإسبان في موقعة الأرك عام (1195م)، ثم أتمّ الخليفة يعقوب المنصور بناءها، وشيّد بها مسجداً كبيراً ليكون أكبر مساجد العالم، إذ تبلغ مساحته (26) ألف متر مربع، ويُسمى مسجد حسان. واستوطن الأندلسيون الرباط بعد طردهم من بلادهم عام (1610م)؛ ولذا تميزت الرباط بالطابع الأندلسي. ثم احتلها الفرنسيون سنة (1911م)، وأصبحت مقرّاً لهم، وبعد التحرير سنة (1957م)، وصار الرباط عاصمة المملكة المغربية.

(293/11)

#### \*رشيد

مدينة مصرية تقع على الضفة الغربية لفرع رشيد - أحد فرعي النيل - اشتقّ اسمها من اللفظ القبطي (رشيت)، وتتبع محافظة البحيرة. ويرجع تأسيسها إلى الفراعنة، حيث كانت سوقاً رائجة في ذلك الوقت، فتحها عمرو بن العاص سنة (641م) وسكنها بعض الصحابة، مثل: عبد الله بن الصامت. واهتم سلاطين المماليك برشيد فقام الأشرف قايتباي بإنشاء قلعة كبيرة بها سنة (1472م)، وبني حولها سوراً لحمايتها، كما بنى السلطان الغوري سوراً آخر حول المدينة على شاطئ البحر سنة (1516م). وكان لاكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح أثره في تراجع أهمية رشيد ، لكن بعد الفتح العثماني سنة (1517م)، أصبحت من أهم ثغور مصر، حتى إن أهميتها كانت تفوق الإسكندرية. وقد احتلها

الفرنسيون سنة (1798م)، وقاموا ببناء قلعة سان جوليان - التي سُميت باسم مَنْ اكتشف حجر رشيد أثناء بنائها - وتولى حكم رشيد الجنرال مينو الذى أسلم وتزوج من رشيد، ومازالت وثيقة زواجه موجودة حتى الآن. وقد تصدت رشيد لحملة فريزر الإنجليزية سنة (1807م)، واستطاعت المقاومة الشعبية أن تهزمها. وتشتهر رشيد بإنتاج الملح الجيد، وزراعة الأرز.

(294/11)

### \*الرصافة

اسم يُطلق على عدة مواضع في عددٍ من العواصم الكبرى وتُعرف بأسمائها، فيقال: رصافة بغداد ورسافة البصرة ورسافة قرطبة، أو أنها تنسب إلى منشئها، مثل: رصافة أبي العباس، والنسبة إلى رصافة: [رصافي]. ويحمل هذا اللقب عدد من الأعلام من رجال الفقه والأدب. رصافة الشام أو رصافة هشام: نسبة إلى هشام بن عبد الملك - الخليفة الأموي الذى عمَّرها - وكان ينزل بها لنقاء هوائها، أُقيمت على مشارف الصحراء إلى الغرب من المجرى الأعلى لنهر الفرات وتبعد عنه (25) ميلاً، وأقرب مدينة لها الرقة، على الجانب الشرقى للنهر، وتبعد عنها مدينة تدمر المسافة نفسها. ويرجع تاريخ بناء الرصافة إلى العصر الآشورى، ثم إنها أصبحت أسقفية إبان الحكم البيزنطى، وأقيم بها ديرٌ أُعتبر من عجائب المعمار، وبرز اسمها إبان العصر الإسلامى. رصافة بغداد: إحدى ضواحي مدينة بغداد، تُطل على الجانب الشرقى لنهر دجلة، ويقابلها على الجانب الغربى الكرخ أو مدينة المنصور، ويمتد تاريخها إلى تأسيس مدينة بغداد ذاتها، وقد انتقل إليها المنصور من الأنبار عام (149هـ)؛ فأمر ابنه المهدي أن يعسكر على الجانب الشرقى وهو الرصافة،

وأن يبنى به الدور والحاشية، ثم التحق به الناس وعمروا المكان.  
ومن آثار الرصافة: مشهد الإمام أبي حنيفة، وجامع مرجان،  
وقبة زبيدة. رصافة قرطبة: هي مدينة أنشأها عبد الرحمن بن  
معاوية بن هشام الملقب بعبد الرحمن الداخل. وقد نُسب إلى هذه  
الرصافة قوم من أهل العلم، منهم: يوسف بن مسعود الرصافي،  
وأبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن ضيفون الرصافي.

(295/11)

### \*الرملة\*

مدينة كبيرة بفلسطين، كانت مقرًا لملك داود وسليمان، عليهما  
السلام، وكانت رباطًا للمسلمين. وعندما تولى الوليد بن عبد  
الملك الخلافة الأموية، ولى أخاه سليمان على جند فلسطين،  
فنزل الرملة، وبنى بها قصرًا ومسجدًا ودارًا تُعرف الآن بدار  
الصباغين. وكان خلفاء بني أمية ينفقون على آبارها، وكذلك  
فعل من بعدهم (بنو العباس)؛ مما جعل الرملة تزدهر وتنمو  
باستمرار، حتى صارت أكثر البلاد صهاريج، وأكثرها فاكهة،  
وطيب هواء. وظلت الرملة في يد العباسيين فترة حتى أخذها  
الصلبيون سنة (492هـ)، فأصبحت جزءًا من المملكة الصليبية  
في بيت المقدس. وكان الفاطميون ينظرون إليها على أنها مفتاح  
الطريق عبر بلاد الشام إلى بغداد حيث هدفهم الأكبر وهو القضاء  
على الخلافة العباسية، مما جعلهم يحرصون على نشر مذهبهم  
الشيعة في الرملة وجنوب الشام بكل الطرق المتاحة لهم. وفي  
سنة (583هـ) استطاع صلاح الدين الأيوبي، أن يُنقذ الرملة من  
أيدي الصليبيين، وقام بتخريبها خوفًا من استيلائهم عليها مرة  
أخرى. ومن أهم العلماء والشعراء الذين ظهوروا بالرملة:

أبو الحسن علي بن محمد التهامي، وأبو خالد يزيد بن خالد بن عبد الله بن موهب الرملي الهمداني.

(296/11)

---

### \*الرها

مدينة تاريخية تقع ما بين نهر الفرات ونهر دجلة، وتقوم مكانها حالياً مدينة أورفا التركية. ويرجع تأسيسها إلى ما قبل الميلاد إبان حكم السلوقيين حيث بناها الملك سلوقس الأول وبناها أودسا، ثم دخلت في حوزة الرومان، ثم أصبحت قاعدة لنشر المسيحية. وفي الرها انتصر هرقل على الفرس سنة (628م). وفتح المسلمون الرها سنة (18هـ)، على يد القائد عياض بن غنم، ونظراً إلى وقوعها على الحدود، فقد امتدت إليها الأيدي بالتخريب، واستولى عليها ألب أرسلان السلجوقي سنة (463هـ)، بعد معركة ملاذكرد، إلا أن الصليبيين استولوا عليها سنة (491هـ)، وأقاموا بها أول مملكة صليبية في الشرق. واستمرت خاضعة لهم حتى استردها القائد عماد الدين زنكي سنة (539هـ)، ثم ضُمَّت إلى الأيوبيين سنة (578هـ)، وخرَّبها هولاكو بعد ذلك، ثم سيطر عليها بيبرس، وبعد ذلك أخذ نجم هذه المدينة في الأفول.

(297/11)

---

### \*رودس

جزيرة تقع في أقصى الشرق من البحر المتوسط، وتبعد (12) ميلاً عن ساحل آسيا الصغرى. كانت مركزاً من مراكز الحضارة القديمة لازدهار التجارة البحرية بها، وكان لها نفوذ قوى؛ فقد

قامت بإنشاء عدة مستعمرات لها على سواحل إيطاليا وصقلية. وفتحها المسلمون سنة (53هـ) في خلافة معاوية بن أبي سفيان، عندما أرسل معاوية الأزدى على أسطول المسلمين ففتحها. وفي سنة (708هـ) استطاع البيزنطيون أن يستولوا على الجزيرة في عهد السلطان خليل بن قلاوون سلطان مصر، واشترك فرسان بيزنطة مع فرسان رودس في الإغارة على سواحل المسلمين في آسيا ومصر، واشتهرت هذه الإغارات بأعمال القرصنة. ومنذ القرن الخامس عشر الميلادي توالى محاولات غزو رودس من قبل السلاطين المماليك في مصر، في الوقت الذي أصبحت فيه رودس قاعدة مهمة لتجمع الأساطيل الصليبية التي تهاجم المسلمين في مصر والشام وتركيا. وفي سنة (928هـ) قام السلطان العثماني سليمان القانوني بغزو رودس وضمها إلى الإمبراطورية العثمانية، وظلت تابعة لسلطان العثمانيين حتى انضمت إلى إيطاليا سنة (1918م)، ثم ضُمَّت إلى اليونان سنة (1946م)، بعد الحرب العالمية الثانية

(298/11)

### \*روسيا

هي عبارة عن مجموعة إمارات ظلت قرونًا عديدة متفرقة متشذمة داخل المربع الذي يحده شرقًا نهر الدنيبر، وغربًا نهر الفستولا، وشمالًا مستنقعات برييب، وجنوبًا جبال الكربات، ونهر الدنيستر. ويرجع تاريخها إلى العصر الحجري. وتعرضت روسيا للغزاة من مختلف الشعوب، ومن هؤلاء: القوط الألمان في القرن الثالث الميلادي، والهون الآسيويون في القرن الرابع الميلادي، والأفار الترك في القرن السادس الميلادي. وشيد الخازار الترك دولة قوية في جنوب روسيا في القرن السابع

الميلادى، وأسس البلغار الشرقيون إمبراطوريتهم فى إقليم  
الفلجا فى القرن الثامن الميلادى، واستوطنت قبائل السلاف  
الشرقية غرب روسيا فى القرن التاسع الميلادى. وقد أدخل  
القديس أولجا المسيحية إليها، وجعلها فلاديمير الأول سنة (980 -  
1015م) دين الدولة، وأتبعها للكنيسة الشرقية الأرثوذكسية.  
وفى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى احتل المغول روسيا،  
وأقاموا إمبراطورية فى الجنوب والشرق دامت حتى سنة  
(1480م)، ولكن لتوانيا أخذت تفرض سيطرتها على غرب روسيا،  
وقامت دولة جديدة على أنقاض روسيا القديمة هى دوقية  
موسكو، تزعمت تشييد إمبراطورية كبيرة فى روسيا.

(299/11)

---

\*روما

عاصمة إيطاليا، وكبرى مدنها، تقع فى الشمال الشرقى من  
القسطنطينية، وتمثل المركز الإدارى والروحى للكنيسة  
الكاثوليكية، ومقر بابا الفاتيكان. وظلت عاصمة للدولة الرومانية  
حتى بُنيت القسطنطينية، التى أصبحت عاصمة مُلك الأباطرة  
الرومان بعد روما. وفى سنة (1944م) تحررت روما من الاحتلال  
النازى الألمانى، وظهرت بها مشاكل دينية كثيرة، ومشكلات  
اقتصادية كبيرة. وبعد سنة (1961م) بدأت تتقدم فى حل  
مشكلاتها خاصة فيما يتعلق بالصناعات الميكانيكية  
والإلكترونية، والطباعة والنشر، والصناعات الغذائية،  
والمفروشات.

(300/11)

---

## \*رومانيا

هي إحدى دول أوروبا الشرقية. تأسست سنة (1974م)، وتنحدر من أصل روماني. تقع في الجزء الشرقي من البلقان، ويحدها من الشمال والشمال الشرقي الاتحاد السوفيتي (السابق)، ومن الغرب المجر، ومن الجنوب بلغاريا. وتبلغ مساحتها نحو (237500) كم<sup>2</sup>، ويبلغ عدد سكانها نحو (21) مليوناً و (566) ألف نسمة، ويتألف سكانها من عدة أجناس مختلفة، فمنهم: التتار والأتراك والرومان وعناصر مجرية وصربية وبلغارية وروسية. ورومانيا بلد زراعي، من أهم محاصيله: القمح والذرة والشوفان، والأعشاب، والشمندر، وتربى به الأغنام والأبقار والخنازير، ومن أهم ثرواته المعدنية: الفحم الجيري، والمنجنيز والبوكسيت والحديد والبتروول. وقد دخل الإسلام رومانيا سنة (661هـ) على يد رجل تركماني الجنسية يدعى سامي سالتيك، وبذل بعده الأتراك العثمانيون جهوداً كبيرة في نشر الإسلام في تلك البقاع. وأمام التسامح الديني للمسلمين فقد أسلم كثير من سكان رومانيا. وظل الحكم في رومانيا لأحد الولاة الأتراك حتى سنة (1882م)، عندما تولى حكمها أسر محلية من أهل البلاد، وكانت هذه الأسر هي السبب الأول في مساعدة روسيا ضد الدولة العلية في حروبها معها، وبعد انتهاء هذه الحروب استقلت رومانيا بولاياتها عن الدولة العلية. وبعد سنة (1946م) أسفرت الانتخابات التي أجريت في رومانيا عن فوز الحزب الشيوعي الروماني واستقالة الملك في العام التالي لتحل محل الملكة جمهورية ديمقراطية شعبية. ومن أهم الآثار الإسلامية في رومانيا: مسجد (جنكار) أو الجامع العزيزي، ومسجد (بوخارست) أو جامع قارل (كارول)، ومسجد (آطه كاليه)، ومسجد (شرنا فوده). وفي رومانيا عدة مدارس عليا للشريعة.

## \*الرياض

عاصمة المملكة العربية السعودية. تقع في وادي حنيفة، وهي كبرى مدن المملكة إذ تبلغ مساحتها (1600) كم<sup>2</sup>. اتخذها تركي بن عبد الله بن سعود - مؤسس الدولة السعودية الثانية - عاصمة لدولته بعد تخريب الدرعية سنة (1818م). وتم تعميمها على يد فيصل الأول الذي حصنها إلا أنها أهملت في فترة حكم آل رشيد، ثم استعادت مكانتها مرة أخرى بعد سيطرة عبد العزيز آل سعود عليها سنة (1902م)، ثم أعيد تأسيسها من جديد عام (1933م). وتقع الرياض في منطقة جافة عند مفترق الطرق الرئيسية، وتبعد عن المدينة المنورة بنحو (800) كيلو متر، وعن مكة المكرمة بالمسافة نفسها، والرياض قريبة من الخرج التي تمدها بالمنتجات الزراعية، وكانت الرياض تُعرف في الماضي باسم (حجر) حيث كانت عاصمة لإقليم اليمامة. والرياض حالياً تعتبر مركزاً تجارياً وصناعياً واقتصادياً مهماً في السعودية، وبها جامعة الملك سعود، وجامعة الإمام محمد بن سعود، كما يوجد بها مطار الملك خالد الذي يعتبر من أكبر مطارات العالم، ويوجد بها قصر المصمك الذي شُيّد عام (1885م).

(302/11)

## \*الريف (بلاد)

الريف في اللغة: أرض بما زرع، أو هي حيث الخضرة والمياه والزروع. ويُطلق اسم (الريف) على المنطقة المطلة على البحر الأبيض المتوسط، وتمتد من رأس بسكادور بالقرب من الحدود الجزائرية إلى ميناء سبتة الواقع على بوغاز جبل طارق. وتتكون من مجموعة سلاسل جبلية التوائية وعرة، منفصلة

بعضها عن بعض، ويفصلها عن جبال أطلس الوسطى سلسلة من الأودية والجاري المائية، وتغزر بها الأمطار وتتراكم فوق رءوس الثلوج إبان فصل الشتاء. وتسكن منطقة الريف قبائل بربرية مازالت متأثرة بالتقاليد القبلية، وهم شديداً التمسك بالشعائر الإسلامية، ولِعُون بالدراسة والتعلم. وقد كانت هذه المنطقة مسرحاً لحرب التحرير بين عامي (1920 - 1926م)، والتي عُرفت بحرب الريف، فلم تخضع منطقة بلاد الريف إلا في عام (1926م)، عندما تعاونت القوات الفرنسية والإسبانية للتغلب على قائد الثورة الأمير عبد الكريم الخطابي، وفي سنة (1956م) أُلغيت الحماية الإسبانية، وأصبحت المنطقة جزءاً من المملكة المغربية المستقلة.

(303/11)

\*الزَّاب (نهر)

الزَّاب أو الزَّابِي اسم رافدين من روافد نهر دجلة. وقد قيل: إن زاب بن توركان بن منوشهر بن إيرج بن أفريدون - ملك من قدماء ملوك الفرس - حفر عدة أنهار بالعراق فسُميت باسمه. وهما يقعان في شمال العراق، ويتصلان بالنهر من ضفته اليسرى؛ لهذا يُطلق عليهما الزابيان. والأول هو الزاب الأعلى أو الأكبر، ويقال له أيضاً: الجنون لشده جريانه، ويبلغ طوله (650) كم، وهو يرفد دجلة في جنوب مدينة الموصل عند بلدة الحديثة، ويمثل اليوم الحد الإداري بين لواء إربيل في الجنوب والموصل في الشمال، ومن فروعها الخازر الذي ارتبط اسمه بالمعركة بين ابن الأشتر وعبيد الله بن زياد (66هـ)، والتي قُتل فيها الأخير، وله شأن في التاريخ الحربي بين العرب والبيزنطيين. أمَّا الزاب الأسفل أو الأصغر فينبع من المرتفعات التي تقع جنوبي بحيرة

أورمية، ويرفد دجلة في شمال بلدة الفتحة، طوله (530) كم،  
وبينهما يقع لواء إربيل. وعلى الزاب الأعلى كانت موقعة الزاب  
سنة (132هـ) بين العباسيين بقيادة عبد الله بن علي عم الخليفة  
العباسي الأول أبي العباس السفاح والأمويين بقيادة مروان بن  
محمد، وهُزم الأخير وبه انتهى حلم الأمويين في الاستيلاء على  
المشرق.

(304/11)

---

### \*الزيمبزي (نهر)

يُعدُّ نهر الزيمبزي رابع أنهار إفريقيا طولاً؛ إذ يبلغ طوله (2660)  
كم، ويمتد هذا النهر في جنوب وسط إفريقيا وفي جنوبها  
الشرقي، ومنابعه في روديسيا الشمالية، ثم يجري شرقاً مكوّناً  
الحدود بين روديسيا الشمالية وروديسيا الجنوبية، ثم يدخل  
موزمبيق حتى يصبَّ في مضيق موزمبيق على المحيط الهندي.  
ويكوّن نهر الزيمبزي شلالات فيكتوريا العظيمة، وقد أنشأ هذا  
النهر دلتا عظيمة تبلغ مساحتها (8000) كم<sup>2</sup>، ويتفرع نهر  
الزيمبزي إلى (10) فروع في موزمبيق، لا يصلح منها للملاحة  
النهرية سوى فرع تشندا. ويوجد على النهر سد كاريبا،  
ويعرقل النهر حركة المواصلات البرية بسبب اتساع مجراه الذي  
يبلغ في بعض المناطق ميلين، ولا يقطع النهر سوى ثلاثة كبارٍ.  
ويرتبط اكتشاف هذا النهر بالرحالة الاسكتلندي لفنجستون  
فالفتره من (1841 – 1856م).

(305/11)

---

### \*زمنم

بئر بالمسجد الحرام قريبة من الكعبة، وبينهما مقام إبراهيم - عليه السلام - وزمنم في اللغة تعني: (الماء الغزير)، وهي من المواضع التي يُعظمها الحجاج لارتباطها بسيرة إبراهيم الخليل وولده إسماعيل - عليهما السلام - وبناء الكعبة، وكان لظهور بئر زمنم ووجود الماء بها أثر بالغ في إعمار المكان، فقد نزلت بالمكان أسرة من جرهم تبعها غيرها حتى أصبح الموضع حول البيت مأهولاً بالسكان، ثم تمضى الأيام ويجيء الحارث بن مضاض، فيطم البئر، وتنقضى ثلاثة قرون وهي رديم، ويكون الذى يعيد حفرها من جديد هو عبد المطلب جد الرسول - صلى الله عليه وسلم - . وقد اهتم بتوسيعها وتعميقها أبو جعفر المنصور والمأمون، وغيرهما. ويبلغ عمق بئر زمنم (100) قدم، وقد أقيمت عليها بناية من الحجر تعلوها قبة، وماء زمنم قلوى، مما يجعله شبيهاً بالمياه المعدنية، الصحية في تأثيرها.

(306/11)

### \*زنجبار

جمهورية مستقلة. تبلغ مساحتها (2652) كم<sup>2</sup>. تقع تجاه ساحل تنجانيقا بشرق إفريقيا. تشمل جزر زنجبار، ومبا، وثالثة غير مأهولة بالسكان. وزنجبار من أكثر بلاد العالم إنتاجاً للقرنفل. ويرجع أهميتها إلى تميز موقعها؛ فهي نقطة ارتكاز لمنطقة ساحل إفريقيا الشرقى. اتصلت منذ القدم بالهند وبلدان الخليج العربى والبحر الأحمر. وقامت بها عدة سلطنات عربية وفارسية متنافسة منذ القرن التاسع الميلادى، وسيطر عليها البرتغاليون سنة (1503م)، واتخذوها قاعدة لتوسعهم في شرق إفريقيا. وخضعت زنجبار لسيطرة عمان سنة (1652م)، حينما قدم أئمتها

لنجدة الإمارات العربية المتناثرة على الساحل الإفريقي  
الشرقي، ثم استولوا على منبسة سنة (1698م)، التي كانت في  
قبضة البرتغاليين، وتوغل منها تجار العرب داخل إفريقيا، ونقل  
الإمام السيد سعيد قاعدته إلى زنجبار في أعقاب ضعف سلطنته  
بعمان سنة (1832م)، ثم أصبحت عمان محمية بريطانية سنة  
(1856م)، ثم صارت زنجبار محمية بريطانية سنة (1890م). ومُنحت  
الحكم الذاتي في سنة (1963م)، ثم استقلت، واتحدت مع  
تنجانيقا وجزيرة ممبا لتشكّل جمهورية تنزانيا، وذلك عام  
(1964م).

(307/11)

---

### \*الزهاء

اسم مدينة أندلسية قرب قرطبة. وقد بناها عبد الرحمن الناصر،  
وجعل منها ضاحية لقرطبة. وتقع الزهاء على مرتفعات  
سيرامورينا. والمسافة بينها وبين قرطبة نحو ثلاثة أميال. وقد  
بدأ عبد الرحمن الناصر بناء مدينة الزهاء سنة (325هـ)، ثم أتم  
البناء من بعده ابنه الحكم المستنصر، وأشرف عليه مشاهير  
المهندسين الذين استفدوهم الناصر من بغداد والقسطنطينية  
وشمال إفريقيا. ولم تعش مدينة الزهاء أكثر من نصف قرن؛ إذ  
أصابها الخراب في عهد محمد بن هشام سنة (399هـ). وقد زالت  
معالم الزهاء حتى بدأت أعمال الحفر والتنقيب عنها منذ سنة  
(1910م)؛ فظهر الكثير من الآثار المعمارية والتحف التي تُنسب  
صناعتها إلى الزهاء.

(308/11)

---

## \*زَيْلَع

هى قرية على ساحل البحر. تقع اليوم فى جمهورية الصومال، مجاورة لحدود الصومال، بين جيبوتى فى الغرب وبربارة فى الشرق. كانت زيلع ميناءً مهمًا ومنفذًا بحريًا لتجارة إقليم هرد الغنى، وكان يصدر منها البن والجلود والصمغ، إلا أن أهميتها الاقتصادية هبطت بعد إنشاء الخط الحديدى بين جيبوتى وأديس أبابا. وكانت زيلع تابعة للخلافة العثمانية، إبان حكم الخديو إسماعيل سنة (1875م)، ثم أصبحت محافظة مصرية، إلا أن البريطانيين أجبروا الحكومة المصرية على إخلائها، واحتلوها سنة (1885م)، ووضع الإقليم كله تحت الحماية البريطانية حتى عام (1960م)، ويُنسب إلى هذه المدينة جماعة من العلماء أكثرهم فقهاء، منهم: فخر الدين الزيلعى وجمال الدين الزيلعى.

(309/11)

## \*سالم

تقع مدينة سالم فى الشمال الشرقى لإسبانيا، ما بين مدريد إلى الغرب، وسرقسطة فى الشرق، وعلى بعد (30) كم من شنتمرية. وتقع مدينة سالم على هضبة يبلغ ارتفاعها نحو ألف متر. وعندما فتح طارق بن زياد الأندلس كانت مدينة سالم خرابًا فعمرت فى الإسلام، وكانت من مدن الإسلام وأشرفها وأكثرها شجرًا وماءً. وترجع آثار مدينة سالم إلى العصر الرومانى. وقد أطلق عليها العرب اسم الثغر الأوسط؛ لقيامها بحماية الإمارات الإسلامية من الغزو المسيحى فى الشمال الأوسط. ويُنسب إلى مدينة سالم كثير من العلماء والقراء والأدباء، منهم: أبو الحسن على بن خلف السالمى صاحب كتاب شذور الذهب فى الكيمياء، وأبو

عامر محمد بن أحمد البلوى السالمى صاحب كتاب درر القلائد  
وغير الفوائد فى اللغة.

(310/11)

---

### \*سامراء

مدينة عراقية قديمة. كان يُطلق عليها: سُرّ من رأى. تقع على  
نهر دجلة بقرب بغداد، ويربط بينهما خط حديدى وآخر للسيارات.  
وكان المعتصم بالله العباسى قد رأى سنة (219هـ) مدى ازدحام  
مدينة بغداد بأهلها، وتضجر الناس بالجنود الأتراك، فاضطر إلى  
شراء أرض خارج بغداد سنة (220هـ)، وأقام عليها مدينة  
سامراء، وبنى بها مسجدًا جامعًا، كما بنى بها الأسواق  
والمنازل والقصور. واهتم بما المتوكل بالله، فأقام بها عدة  
قصور، منها: قصر العروس، والمختار، والجعفرى، والغريب،  
والشيدان، والبرج، والمليح، وبستان الإيتاخية، واللؤلؤة،  
والمتوكلية. وكانت سامراء موضع اضطرابات خلال حكم الدولة  
العباسية، واستبدَّ الأتراك بالحكم دون الخلفاء العباسيين، فخرج  
منها المعتضد بالله إلى بغداد، فخربت سامراء وسويت بالأرض.  
ومن الآثار الإسلامية بسامراء: مسجد الروضة الذى يضم قبر  
الإمام على بن محمد بن على بن موسى بن جعفر، وابنه الحسن  
بن على، وبها المئذنة الملوية، وكذلك عدد من التكايا والخانات،  
وقبور بعض الخلفاء، مثل: الواثق والمتوكل، وابنه المنتصر،  
وأخيه المعتز والمهدى.

(311/11)

---

## \*سبتة

مدينة وميناء كبير بالمملكة المغربية. تقع سبتة على ساحل البحر المتوسط في مواجهة مضيق جبل طارق، ويجدها من الجنوب الغربي مدينة طنجة. وقد تم ضمُّ سبتة للخلافة الأموية على يد عقبة بن نافع الفهري، عندما رحب به حاكمها لوليان؛ منعًا للقتال بين الطرفين. وكان بسط النفوذ الإسلامي على سبتة سببًا للتمهيد لفتح الأندلس من خلالها. وقد تعاقب في حكمها ولاية من قبل الدول الإسلامية الكبرى، مثل: العباسيين، والفاطميين، والمرابطين، والموحدين، والحفصيين، والمرينيين. وفي سنة (818هـ) سقطت في أيدي البرتغاليين، ثم في أيدي الإسبان سنة (988هـ). وفي سنة (1814م) ضمها البريطانيون، ولكنها ما لبثت أن عادت للحكم الإسباني، وظلت خاضعة له بالرغم من استقلال المغرب سنة (1956م). ومن نُسب إليها من العلماء: ابن حرانة السبتي، وابن العربي الفرضي السبتي، وأبو بكر عبد الرحمن السبتي، وأبو عبد الله محمد بن علي بن هاني السبتي.

(312/11)

## \*سجستان

مدينة تاريخية يُعرف بها الإقليم الذي يشمل القسم الجنوبي والشرقي من أفغانستان. ويجدها من الشمال إقليم خراسان، ويفصلها عن البحر إقليم مكران، وعاصمتها هي زرنج. وقد فتح المسلمون زرنج سنة (30هـ)، في خلافة عثمان بن عفان، رضى الله عنه، وضمّت سجستان إبان العصر الأموي إلى ولاية العراقيين، وفي العصر العباسي أصبحت سجستان ولاية مستقلة. وبعد فتح الهند برزت أهمية سجستان؛ لوقوعها على

طريق التجارة إلى الشرق الأوسط. وفي القرن الثامن الهجري  
خرب تيمورلنك عاصمتها واختفى اسم زرنج، وأصبح اسم  
سجستان يُطلق على الإقليم وعلى المدينة التي فقدت وجودها  
بعد ذلك. ويُنسب إلى مدينة سجستان كثير من العلماء، منهم: أبو  
حاتم السجستاني، وأبو داود السجستاني وأبو بكر  
السجستاني، وأبو سعيد أحمد السجستاني، وأبو محمد خلف  
السجستاني.

(313/11)

#### \*سردينيا

جزيرة إيطالية. تقع ما بين جزيرتي كورسيكا وصقلية، وتمثل  
اليوم أحد المقاطعات الإيطالية. تبلغ مساحتها (24092) كم<sup>2</sup>.  
وعاصمتها كاجلياري. وتملك سردينيا أراضي واسعة للرعى،  
ويوجد بها الكثير من المعادن، مثل: الزنك والرصاص. وفتح  
المسلمون جزيرة سردينيا سنة (92هـ) بقيادة موسى بن نصير.  
وفيما بين القرنين (8، و 11م) كانت سردينيا أحد ميادين الصراع  
البحري بين المسلمين وأوروبا المسيحية، وارتبط تاريخها  
باستيلاء المسلمين على صقلية وبالحملة البحرية على ساحل  
كلابريا الإيطالي. وفي القرن (14م) وهبها البابا لأسرة أرجون،  
وبقيت تابعة لإسبانيا حتى سنة (1713م)، ثم خضعت للنمسا، ثم  
انتزعتها الإسبان بالقوة سنة (1717م)، ولكن أكرهها التحالف  
الرباعي على التنازل عنها سنة (1720م)، ثم ضُمَّت إلى فرنسا  
بعد هزيمتها في حروب الثورة الفرنسية في بدايات القرن  
التاسع عشر. وقد لعبت سردينيا الدور الرئيسي في البعث  
الإيطالي، وقد ضمت إليها: عبارديا، وبارما، ومودينا، وصارت  
تُسمى مملكة إيطاليا.

\*سرقسطة

مدينة إسبانية. تقع على جانبي نهر أبرو، على ارتفاع (184) متراً عن سطح البحر. وتعتبر مركزاً مهماً للتجارة والمواصلات، وبها معامل لتكرير السكر، ومطاحن للدقيق، وصناعات كيمياوية. وقد فتحها المسلمون عام (94هـ)، على يد موسى بن نصير، بعد استيلائه على طليطلة، وعرفت باسم الثغر الأعلى؛ بسبب موقعها الاستراتيجي. وبعد سقوط سرقسطة في أيدي المسيحيين هدموا عددًا من مساجدها، منها المسجد الكبير، وقد أقيم على أنقاضه كندراية سيوة. ومن الآثار الإسلامية الباقية فيها: برج الجرس في كنيسة المجدلية، وكان منارة جامع، وأطلال الجعفرية الذي تحول إلى ثكنة عسكرية، ومازال يحتفظ بمصلاه مكسوة بالحصى. ويُنسب إلى مدينة سرقسطة جماعة من العلماء، منهم: أبو الحسن علي بن إبراهيم بن يوسف السرقسطي، وإبراهيم بن نصر السرقسطي، وثابت بن حزم بن عبد الرحمن العوفي السرقسطي.

\*السلطانية

مدينة أثرية بإيران. تقع بين مدينتي زنجان وأبهر، ويُنسب تأسيسها إلى أرغون من بني هولوكو، وأتم بناءها ابنه السلطان أوجايتو، وسماها سلطانية. وقد قام أوجايتو بتعمير المدينة، وجعلها عاصمة له، وجعل لها سوراً مربعاً، كما بنى بها مقبرة له تعلوها قبة كانت تُعد من أهم الآثار المعمارية في

العصر الإيلخاني، وأقام فيها مسجدًا ودارًا للحكم ومدرسة على نسق المدرسة المستنصرية ببغداد، حتى أصبحت من أعظم المدن الإسلامية في المشرق لا يتفوق عليها سوى تبريز. وما زال موجودًا بها إلى الآن أطلال بعض الأضرحة، وقد عانت كثيرًا من التخريب إبان الغزو التيموري.

(316/11)

---

\*سَلْمِيَّة

بلدة في سوريا بمحافظة حماة، شرقي نهر العاصي. ارتبط اسمها بنشأة الدعوة الفاطمية؛ فقد اتخذها العلويون مقرًا لهم، تستروا فيه بعيدًا عن الخلفاء العباسيين؛ إذ كان الشيعة بعد زيارتهم قبر الحسين بكربلاء يُعرجون على سلمية لزيارة الأئمة من ولد إسماعيل الإمام. وكان أبو عبد الله الشيعي - المعروف بالقداح - أخطر الدعاة للفاطميين، وهو الذي نجح في بث الدعوة الفاطمية في المغرب، بعد أن انتقل إليه من سلمية. وفي عام (196هـ) انتقل مركز الدعوة الفاطمية من سلمية إلى سجلماسة، ويُنسب إلى سلمية كثير من العلماء، منهم: أبو ثور هاشم بن ناجية السلمى، وعبد الوهاب السلمى، وأيوب بن سلمان السلمى.

(317/11)

---

\*تَمْبُكْت

مدينة إسلامية قديمة بجمهورية مالي. تقع بالقرب من مجرى نهر النيجر كانت سوقًا تجارية رائجة، تنفرع عنها طرق التجارة على الطريق الصحراوي من الجزائر والمغرب. يُنسب إنشاؤها إلى

عرب الطوارق، إذ أسسوها سنة (1087 م)، ثم أخذت هذه المدينة في النمو، بسبب ازدهار التجارة، خاصة الذهب والعبيد، بالإضافة إلى كونها مركزًا للقوافل. واستمرت في نموها حتى أصبحت أهم حاضرة إسلامية في غرب إفريقيا، خاصة في عهد منسا موسى؛ حيث أصبحت مدينة العلم، ووفد إليها طلاب العلم للدراسة في جامعة سنقر، وتخرج فيها عددٌ من العلماء، مثل: أحمد بابا التمبكتي. وحكمها الماليون والصنغى والطوارق والتكرور، واستولى عليها الفرنسيون سنة (1894 م).

(318/11)

#### \*تنزانيا

هي إحدى دول شرق إفريقيا المطلة على المحيط الهندي. يحدها من الشمال أوغندا وكينيا، ومن الغرب زائير، ومن الجنوب زامبيا ومالاوي وموزمبيق. وتتكون تنزانيا من تنجانيقا على البر الإفريقي وجزيرة زنجبار في المحيط الهندي. وتبلغ مساحة تنزانيا (945 087 كم<sup>2</sup>). ويقدر عدد سكانها بنحو (29 393 000) نسمة. ويتكلم سكان تنزانيا اللغتين السواحلية والإنجليزية، بالإضافة إلى بعض اللغات المحلية. وأهم المدن في تنزانيا: دار السلام (العاصمة) وزنجبار وتانغا وموانزا وأروشا. ويعتمد اقتصاد تنزانيا على الزراعة بشكل أساسي، وأهم المحصولات الزراعية فيها: القطن والبن والسيزل والشاي والطباق والكاشو، كما يوجد في تنزانيا بعض الثروات المعدنية، مثل: الألماس والذهب والنيكل كروم. وتحتل تنزانيا المرتبة الثانية في استخراج الألماس. أما عن النشاط الصناعي في تنزانيا فيها مصانع لتحضير الألماس ومصانع لصناعة الأقمشة والتبغ والأسمنت، ودباغة الجلود. وتصدر في تنزانيا عدة صحف،

أهمها: ديلي نيوز وكيانجا وصوت زائير ومن أهم جامعاتها جامعة دار السلام التي تشكل فرعاً من جامعة شرق إفريقيا. وكان للتجار العرب دور كبير في دخول الإسلام إلى تلك البلاد؛ فقد كانت لهم علاقات جيدة بأهلها، واستقروا فيها، وعملوا على نشر الإسلام بها، وقد استطاع البرتغاليون أن يحتلوا هذه المنطقة في القرن السادس عشر الميلادي، وظلوا بها حتى القرن الثامن عشر الميلادي، ثم خضعت تنزانيا للاحتلال الألماني عام (1884م)، وبعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى قُسمت تنزانيا بين بريطانيا وبلجيكا ووُضعت تحت انتداب عصبة الأمم حتى عام (1946م)، ثم تحت وصاية الأمم المتحدة. وحصلت تنزانيا على الاستقلال الذاتي عام (1960م)، وعلى استقلالها التام سنة (1961م)، وانضمت إليها زنجبار سنة (1964م)، وأعلنت الوحدة بينهما وأصبح اسمها جمهورية تنزانيا المتحدة، وانتخب

(319/11)

---

جوليوس نيريري رئيساً لها وعبيد كرومي نائباً له. وفي عام (1967م) دخلت تنزانيا وأوغندا وكينيا في اتحاد ثلاثي سمي اتحاد دول شرق إفريقيا، إلا أنه لم يدم طويلاً. والنظام السياسي في تنزانيا جمهوري ديمقراطي، ويحكمها حزب تنزانيا الثوري، وهو الحزب الوحيد، وكان يرأسه جوليوس نيريري، إلى أن استقال من رئاسة الجمهورية في عام (1985م)، وخلفه في الحكم على حسين معيني، ثم أُجريت انتخابات في منتصف عام (1995م) على أساس التعددية الحزبية، وتم تحويل تنزانيا إلى دولة علمانية.

(320/11)

## \*تنجانيقا

هي إحدى دول شرق إفريقيا المطلة على المحيط الهندي. يحدها من الشمال أوغندا وكينيا، ومن الغرب زائير، ومن الجنوب زامبيا ومالاوي وموزمبيق. وتتكون تنزانيا من تنجانيقا على البر الإفريقي وجزيرة زنجبار في المحيط الهندي. وتبلغ مساحة تنزانيا (087 945 كم<sup>2</sup>). ويقدر عدد سكانها بنحو (29 393 000) نسمة. ويتكلم سكان تنزانيا اللغتين السواحلية والإنجليزية، بالإضافة إلى بعض اللغات المحلية. وأهم المدن في تنزانيا: دار السلام (العاصمة) وزنجبار وتانغا وموانزا وواروشا. ويعتمد اقتصاد تنزانيا على الزراعة بشكل أساسي، وأهم المحصولات الزراعية فيها: القطن والبن والسيزل والشاي والطباق والكاشو، كما يوجد في تنزانيا بعض الثروات المعدنية، مثل: الألماس والذهب والنيكل كروم. وتحتل تنزانيا المرتبة الثانية في استخراج الألماس. أما عن النشاط الصناعي في تنزانيا فيها مصانع لتحضير الألماس ومصانع لصناعة الأقمشة والتبغ والأسمنت، ودباغة الجلود. وتصدر في تنزانيا عدة صحف، أهمها: ديلي نيوز وكيبانجا وصوت زائير ومن أهم جامعاتها جامعة دار السلام التي تشكل فرعاً من جامعة شرق إفريقيا. وكان للتجار العرب دور كبير في دخول الإسلام إلى تلك البلاد؛ فقد كانت لهم علاقات جيدة بأهلها، واستقروا فيها، وعملوا على نشر الإسلام بها، وقد استطاع البرتغاليون أن يحتلوا هذه المنطقة في القرن السادس عشر الميلادي، وظلوا بها حتى القرن الثامن عشر الميلادي، ثم خضعت تنزانيا للاحتلال الألماني عام (1884م)، وبعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى قُسمت تنزانيا بين بريطانيا وبلجيكا ووُضعت تحت انتداب عصبة الأمم حتى عام (1946م)، ثم تحت وصاية الأمم المتحدة. وحصلت تنزانيا

على الاستقلال الذاتي عام (1960م)، وعلى استقلالها التام سنة (1961م)، وانضمت إليها زنجبار سنة (1964م)، وأعلنت الوحدة بينهما وأصبح اسمها جمهورية تنزانيا المتحدة، وانتخب

(321/11)

---

جوليوس نيريري رئيسًا لها وعبيد كرومي نائبًا له. وفي عام (1967م) دخلت تنزانيا وأوغندا وكينيا في اتحاد ثلاثي سمي اتحاد دول شرق إفريقيا، إلا أنه لم يدم طويلًا. والنظام السياسي في تنزانيا جمهوري ديمقراطي، ويحكمها حزب تنزانيا الثوري، وهو الحزب الوحيد، وكان يرأسه جوليوس نيريري، إلى أن استقال من رئاسة الجمهورية في عام (1985م)، وخلفه في الحكم على حسين معيني، ثم أجريت انتخابات في منتصف عام (1995م) على أساس التعددية الحزبية، وتم تحويل تنزانيا إلى دولة علمانية.

(322/11)

---

\*تونس

دولة عربية تقع في شمال غرب قارة إفريقيا وتحدها من الشرق والجنوب ليبيا، ومن الغرب الجزائر، وتبلغ مساحتها (163.610) كيلو مترات مربعة، ومناخها حار جاف صيفًا، دافئ ممطر شتاءً. وأهم المدن: بنزرت وسوسة والقيروان وشفاقس، والعاصمة تونس، ويقدر عدد سكان تونس بنحو (8.9) مليون نسمة، واللغات المستخدمة في تونس هي: العربية والفرنسية، وعملة البلد الدينار التونسي. والإسلام هو الدين الرسمي للدولة، حيث تبلغ نسبة المسلمين بها (99%) من السكان. وكانت تونس خاضعة

للاحتلال الفرنسي في العصر الحديث، إلا أنها نجحت في الحصول على الاستقلال في (30 من مارس 1956 م). وبعد الاستقلال أصبح النظام الجمهوري هو نظام الحكم فيها. وأهم مصادر الدخل التونسية: الزراعة، ومن أشهر المحاصيل الزراعية: القمح والبطاطس والزيتون، كما توجد في تونس ثروة حيوانية كبيرة من الأبقار والإبل والماعز، علاوة على بعض الثروات المعدنية، مثل: الفوسفات والحديد والرصاص.

(323/11)

### \* الجابون

دولة إفريقية تقع غرب إفريقيا على شاطئ المحيط الأطلسي. تحيط بها الكونغو من الشرق والجنوب، والكاميرون وغينيا الاستوائية من الشمال، وتبلغ مساحة الجابون (667 267 كم<sup>2</sup>)، ومناخها حار رطب، مع سقوط أمطار غزيرة طوال العام. ويتكون السكان من عدة قبائل، أهمها: البانتو، وتمثل نحو (40%) من السكان، ويعتق الدين الإسلامي نحو (50%) من سكان الجابون، في حين أن (30%) مسيحيون، و (20%) وثنيون. واللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية، ولغة البانتو هي اللغة الشائعة. وأهم المدن في الجابون ليرفيل (العاصمة)، وبورت جنتل أهم الموانئ. ويعتمد الاقتصاد الجابوني على تصدير البترول والمعادن والأخشاب وبعض المنتجات الزراعية. وقد دخل الإسلام الجابون على أيدي المرابطين سنة (493 هـ)، وعندما ضعف سلطان المسلمين احتلها البرتغاليون، وأقاموا بها بعض المراكز لتجارة الرقيق سنة (1472 م)، وأقام الفرنسيون فيها مستعمرة سنة (1839م)، حتى تمت لهم السيطرة الكاملة على البلاد، وأصبحت مستعمرة مستقلة سنة (1910م)، وفي سنة (1958م) تم منح

الجابون الحكم الذاتى بعد استفتاء ديجول، ثم حصلت على استقلالها سنة (1960م)، وتولى ليون مبا الحكم فيها. وفي عهد الرئيس الحالى عمر بونجو - الذى أعلن إسلامه - وقعت فى البلاد عدّة اضطرابات، بسبب تدهور الأوضاع الاقتصادية. ونظام الحكم فى الجابون رئاسى برلمانى، حيث تتركز السلطة فيها فى يد رئيس الدولة. وللجابون علاقات وثيقة مع فرنسا، وتمارس الإرساليات التبشيرية بها دوراً مؤثراً فى التعليم، وتوجد بالجابون جامعة واحدة، كما أنشأ الأزهر بها معهداً دينياً.

(324/11)

#### \*جامبيا

دولة إفريقية. تمتد على شكل لسان أرضى بطول (300 كم)، وأقصى عرض له (50 كم). وتقع على ساحل المحيط الأطلنطى فى غرب إفريقيا، حول الجزء الأوسط والأدنى من نهر جامبيا، وهى محاطة بالسنگال من ثلاث جهات، وتطل من الغرب على المحيط الأطلسى. وتبلغ مساحة جامبيا (11 295 كم2)، وعاصمتها بانجول. وأهم المدن بها: بريكاما ويوندوم وجورجتاون. ويبلغ عدد السكان (860 000) نسمة حسب إحصائية سنة (1990م)، يدين (85%) منهم بالإسلام، و (10%) بالإحيائية، و (5%) بالمسيحية البروتستانتية. واللغة الإنجليزية هى اللغة الرسمية للبلاد. وتعتمد جامبيا فى اقتصادها على الزراعة، ومن أهم المنتجات الزراعية: الفول السودانى، وهو أهم الصادرات، بالإضافة إلى صيد الأسماك وتصنيعها. والعملة المتداولة هى دالاسى (Dalasi).

(325/11)

### \*الجانج (نهر)

ويطلق عليه أيضاً الكنج وكنكا، وهو نهر طوله نحو (2510 كم)،  
يجرى بشمال الهند وشرق باكستان، وينبع من جبال هيمالايا  
بمقاطعة أوتار برادش، وهو أعظم الأنهار قداسة عند الهنود،  
وعمر بمناطق الاعتدال المقدسة في الله آباد (حيث يلتقى مع نهر  
جمنة)، وفي بنارس، ويستمر الجانج في سيره شرقاً عبر ولاية  
بيهار حتى مقاطعة البنغال الغربية، ثم يتفرع إلى نهرى هوغلى  
وبادما، وبين هذين النهرين تقع دلتا الجانج؛ حيث تزرع كميات  
كبيرة من الأرز. ويجرى نهر بادما في اتجاه جنوبي شرقي عبر  
مقاطعة البنغال الشرقية بباكستان؛ حيث يلتقى مع نهر براهما  
بترا الذى يُسمى في هذه المنطقة جامونا، وتصب المجارى  
المتجمعة للنهر أخيراً في خليج البنغال. وتقوم على شواطئ  
الجانج معابد كثيرة يؤمها الملايين من الهندوس؛ للعبادة  
والتطهر.

(326/11)

### \*الجبل الأسود

إحدى جمهوريات يوغسلافيا السابقة. تجاورها كل من صربيا  
والبوسنة والمهرسك وبحر الأدرياتيك، ومن أهم المدن بها العاصمة  
تليثوجراد. وتبلغ مساحة الجبل الأسود نحو (13 812 كم2). وعدد  
سكانها (899 582) نسمة، تمثل نسبة المسلمين منهم نحو (12  
5%). ومن أهم المحاصيل الزراعية بها الذرة والتين ومحاصيل  
العلف والشيلم والشوفان والریتون والتبغ، ومن أهم ثرواتها  
المعدنية: البوكسيت والزنك والقصدير والفحم والحديد. وقد ضمت  
الدولة العلية إليها إقليم الجبل الأسود سنة (871 هـ)، ثم ضمت

كل المناطق التابعة له بعد ذلك. وفي سنة (905 هـ) انتقلت حكومة إقليم الجبل الأسود إلى يد رئيس الأساقفة، وانحصرت السلطة الدينية والملكية في يده. وفي سنة (1875 م) اشترك الجبل الأسود مع صربيا بتشجيع من روسيا في الثورة على الدولة العثمانية، وقامت الحرب بين الطرفين، انتصرت فيها الدولة العثمانية، ولكن الجبل الأسود استقل عن الدولة العثمانية سنة (1878 م)، بموجب معاهدة برلين، وأصبح مملكة منذ سنة (1910 م)، وانضم إلى جمهوريات يوغسلافيا السابقة سنة (1918 م).

(327/11)

---

\*حمص

مدينة سورية. تقع غرب سوريا، على نهر العاصي، وهي بين دمشق وحلب. كانت حمص تابعة للرومان في القرن الأول الميلادي، وقد فتحها المسلمون سنة (15هـ)؛ فبعد أن فرغ أبو عبيدة بجيشه من فتح دمشق، اتجه بجيشه وجيش خالد بن الوليد نحو حمص وحاصروها، ودام حصارها طويلا حتى استسلم حاكمها الروماني. وقد قامت بحمص دولة أيوبية دامت نحو قرن من الزمان. وقد استولى إبراهيم باشا بن محمد علي على حمص بعد معركة فاصلة سنة (1832م) عُرفت باسم معركة حمص. ومن آثار حمص الإسلامية: الجامع الكبير وجامع خالد بن الوليد، واشتهرت حمص ببساتينها المطلة على نهر العاصي.

(328/11)

---

### \*الحيرة

مدينة على بعد ثلاثة أميال من الكوفة. تقع على الضفة اليمنى من نهر الفرات. وكانت مسكنًا لملوك العرب في الجاهلية. وقيل في سبب تسميتها: إن تُبَّعًا لما بلغ بجيوشه موضع الحيرة ضلَّ دليله وتخيَّر؛ فسميت الحيرة بذلك. وكان أول من ملك الحيرة من العرب جذيمة الأبرش، وأول من اتخذها منزلاً من الملوك ابن أخته عمرو بن عدى بن نصر اللخمي. وكان يسكن الحيرة ثلاث طوائف من العرب، هم تنوخ وبنزلون غربي الفرات بين الحيرة والأنبار، والعباد ويسكنون الحيرة نفسها وبنوا فيها الدور والمسكن، والأحلاف وهم الذين لحقوا بأهل الحيرة ونزلوا بها. وكانت الحيرة قد خربت بعد بخت نصر، ثم عمرت في زمن عمرو بن عدى، إلى أن فتحها خالد بن الوليد سنة (12هـ) وعاهد أهلها على أن يدفعوا للمسلمين جزية مقدارها (190) ألف درهم، وكتب لهم كتابًا بذلك. وفي عهد علي بن أبي طالب، رضی الله عنه، تم بناء مدينة الكوفة بجوار الحيرة، فانتقل المسلمون من الحيرة إلى الكوفة واستوطنوها بدلا منها.

(329/11)

### \*حيفا

مدينة فلسطينية ساحلية. تقع شمالي فلسطين على البحر المتوسط. وهي أكبر موانئ فلسطين. ويسودها مناخ البحر المتوسط، وتكثر بها الينابيع والآبار على جبل الكرمل وحيفا معناها (المرفأ)، وكان الصليبيون يُحَرِّفُون الاسم ويطلقون عليها كيفا. وأقدم ذكر لحيفا في المصادر العربية أورده الرحالة ناصر خسرو عام (1060م)، وأول من سكن حيفا هم الكنعانيون، وتعاقب عليها الآشوريون والكلدانيون والفرس واليونان ومرَّ

بها المسيح عليه السلام، وبعض الأنبياء. احتلها الصليبيون عام (1110م)، ثم عادت إلى المسلمين عام (1188م)، وسيطر عليها الصليبيون مرة أخرى بعد صلح الرملة مع صلاح الدين الأيوبي، إلا أن الظاهر بيبرس استعادها ثانية سنة (1265م)، ثم سيطر عليها العثمانيون سنة (1516م) بعد معركة مرج دابق، فعملوا على تعميمها وتحصينها، كما سيطر عليها أحمد باشا الجزائر، واحتلها كليبر سنة (1799م)، ثم دخلت تحت حكم محمد علي، حتى عام (1840م) وزادت أهميتها بعد عام (1890م) بعد مد الخط الحديدي الذي ربطها بدمشق. وكانت حيفا في مطلع القرن العشرين الميلادي مركزاً ثقافياً مهماً في فلسطين وكثرت بها المدارس الأجنبية. وأحتلها البريطانيون عام (1918م)، وقام الإنجليز بتوسيع ميناء حيفا الذي أنشأه العثمانيون سنة (1908م). وأخذت حيفا في النمو حتى أصبحت من أهم موانئ البحر المتوسط ثم احتلها الإسرائيليون عام (1948م)، وطردوا منها سكانها العرب، وتدفق إليها المهاجرون اليهود من أنحاء العالم.

(330/11)

#### \*الخانكة

أصلها الخانقاه، وهي كلمة فارسية استعملت في اللغة العربية للدلالة على الأماكن أو المباني، ثم حُرِّفَتْ، فأصبحت تعرف بالخانكة، والخانقاه، وهي مكان ينقطع فيه المتصوفون للعبادة. وقد أنشأ الناصر محمد بن قلاوون خانقاه بصحراء سرياقوس بمصر في الطريق إلى الشام، وبنى بجوارها مسجداً وحماماً، وعمّر قصوراً وبيوتاً، وكان ذلك سنة (725 هـ)، وبذلك أقبل الناس على البناء والسكنى والتعمير حول الخانقاه حتى

صارت بلدة كبيرة، عرفت باسم خاناقاة سرياقوس. وبقيت الخانقاه تابعة لناحية سرياقوس حتى سنة (923 هـ)، ثم فصلت عنها وأصبحت مدينة قائمة بذاتها تتبع مركز شبين القناطر بمحافظة القليوبية. وقد اندثرت الخانقاه التي أخذت المنطقة منها اسمها، وإن كانت لا تزال تحتفظ ببعض الآثار، وأهمها: مسجد الأشرف برسباي.

(331/11)

### \*خراسان

مدينة قديمة في آسيا. تتقاسمها اليوم إيران الشرقية الشمالية، وأفغانستان، وتركمانيا. ومن أهم المدن بها: مرو ونيسابور وبلخ وهراة وخوارزم وجرجان وطبرستان وأصبهان وسرخس وكابول وقنجار. فتحها الأحنف بن قيس في عهد عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، سنة (18 هـ)، فأصبحت قاعدة ودار هجرة للمسلمين. وفي سنة (51 هـ) انتقل إليها أكثر من (50) ألف جندي بأسرهم وأقاموا بها، ومنذ ذلك الوقت أصبحت خراسان موضع ثقة خلفاء بني أمية وقادتها، ولها مساهمة كبيرة في شئون الدولة. وقد خرج منها أبو مسلم الخراساني بالدعوة لبني العباس سنة (132 هـ)، واستطاع أن يقضى على الدولة الأموية، فعلا شأن خراسان ها في عهد العباسيين. وسيطرت عليها الدولة الطاهرية التي أسسها طاهر بن الحسين سنة (205 هـ)، ثم سيطرت عليها الدولة السامانية التي أسسها إسماعيل بن أحمد الساماني سنة (286 هـ)، وأصبح لهم حكم بلاد ما وراء النهر، واستولى عليها السلاجقة سنة (429 هـ). ودانت لحكم جنكيز خان وضمها لإمبراطوريته سنة (617 هـ)، ثم خضعت للدولة التيمورية حتى سنة (1160 هـ)، عندما أقام أحمد

شاه أبدالى دولة أفغانية مستقلة بها، فأصبحت تسمى أفغانستان وطغى اسم أفغانستان على اسم خراسان التاريخى. ومن أشهر علماء خراسان، الرازى، والجرجاني، والبخارى، ومسلم والترمذى وأحمد بن حنبل، وأبو حامد الغزالي، والجوينى إمام الحرمين، والأزهري، والجوهري والفارابي، وعبد الله بن المبارك، والزمخشري.

(332/11)

---

### \*الخرطوم

عاصمة جمهورية السودان. تقع على ضفتى النيل الأزرق، عند ملتقاه مع النيل الأبيض. وقد عُرفت باسم العاصمة المثلثة، ويربط المدينة ببعضها جسور على النيل. وترتفع الخرطوم عن سطح البحر بنحو (1450) قدمًا، وتبعد عن القاهرة بنحو (1345) ميلاً. أسسها محمد على باشا سنة (1832 م)، وجعل منها عاصمة لإقليم السودان، ومقرًا للحاكم المصرى، ثم خربت سنة (1885 م) أثناء الثورة المهدية، ثم أعيد تخطيطها سنة (1898 م). والخرطوم مدينة كثيرة التجارة، وسكانها خليط من المصريين والبربر والبدو والأتراك والأوربيين والزنج، ومعظم نشاطهم الاقتصادى قائم على الزراعة، وأهم محاصيلها: القطن والذرة والقمح والسمن والصمغ العربى، كما تقوم بها بعض الصناعات، مثل: حلج الأقطان والنسج وصناعة الأسمت والسكر والجلود، كما توجد بها ثروات معدنية. ومن أهم معالمها: الجامع الكبير ومتحف الخرطوم.

(333/11)

---

### \*خط الاستواء

هو دائرة تخيلية تحيط بسطح الأرض، في منتصف المسافة بين قطبي الأرض، وهو أكبر دائرة عرضية من دوائر العرض الأرضية. ويمثل دائرة عرض صفر أو خط العرض الرئيسي، ومنه تتدرج دوائر العرض شمالاً وجنوباً حتى نقطتي القطب الواقعتين عند دائرتي عرض (90) شمالاً و (90) جنوباً. ويبلغ طوله نحو (40092 كم). ويبعد عن القطبين بنحو (10000 كم). وتبلغ سرعة الأرض عنده في دوراتها حول نفسها نحو (1600 كم) في الساعة. ويمر خط الاستواء في شمال قارة أمريكا الجنوبية، وفي وسط إفريقيا وجنوب آسيا، وتتعامد الشمس عليه يوم (20) أو (21) من مارس، أي: بداية فصل الربيع، في نصف الكرة الشمالي، ويوم (22) أو (23) من سبتمبر، أي: بداية فصل الخريف، في نصف الكرة الجنوبي، في حين تتعامد على مدار السرطان يومي (21،22) من يونيو، أي: بداية فصل الصيف، وتتعامد على مدار الجدي يومي (21،22) من ديسمبر، أي: بداية فصل الشتاء.

(334/11)

### \*خيبر

لفظ خيبر في لغة اليهود يعني الحصن، ولأن هذه البقعة تشمل عدة حصون؛ سُميت خيابر. وهي واحة بالحجاز على بعد (95 كم) من المدينة، وترتفع عن سطح البحر بنحو (850 م)، وتتألف من عدة أودية أو واحات متجاورة. وقد كثرت قراها وسكانها، واشتهرت بكثرة عيونها. وبها عدة حصون، منها: حصن ناعم، وحصن العموص، وحصن الشق، وحصن النطاة وحصن السلام، وحصن الوطيح، وحصن الكتبية. وقد اشتهرت فيها سوق نطاة خيبر ونظرًا إلى وقوعها على الطريق التجارية الكبرى بين اليمن

والشام؛ فقد كانت إحدى محطات القوافل التجارية. وقيل: إن خير مصرف الجزيرة المالى. وكانت تُعرف بكثرة نخيلها وتمرها؛ إذ اشتهر أهلها بالزراعة، وكانت موطنًا لليهود بنى قريظة وبنى النضير، وأقاموا بها عدة حصون للدفاع عنها. وقد فتحها النبي (7 هـ)، وقيل سنة (8 هـ)، ولما فتحها الرسول e صالحه اليهود على حقن دمائهم.

(335/11)

---

\*دابق

قرية قرب حلب. اشتهرت بالمرج الذى يجاورها، ويعرف باسم مرج دابق. بينها وبين حلب نحو (22 كم). وهذا المرج عبارة عن سهل معشب، كان يعسكر به الأمويون إبان حروبهم مع الروم. وبه قبر ينسب إلى نبي الله داود عليه السلام، وتُوفى بدابق الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك، ودُفن بها عام (99 هـ)، كما عُقدت البيعة بمسجد دابق للخليفة عمر بن عبد العزيز بوصية من سليمان بن عبد الملك.

(336/11)

---

\*الدار البيضاء

مدينة وميناء مغربى يقع على شاطئ المحيط الأطلنطى. مساحتها (3900) هكتار. وهى ميناء المغرب الأول، وكبرى مدن الشمال الإفريقى. كان اسمها أنفا. وفتحها عقبة بن نافع سنة (62 هـ)، ثم احتلها البرتغاليون، وأعادوا بناءها سنة (1515 م)، وقد خربت بعد زلزال عام (1755 م)، ثم احتلتها القوات الفرنسية عام (1907 م)، وتوافد إليها السكان الأجانب، وأصبحوا يشكلون

نسبة كبيرة بها. وفي سنة (1942 م) تعرضت لهجوم الأسطول الأمريكي في أثناء الحرب العالمية الثانية، وعقد فيها مؤتمر الحلفاء بين تشرشل وروزفلت وستالين عام (1943 م). ويتركز في الدار البيضاء نصف الصناعات المغربية، مثل: الزيوت والأسمنت والملابس، وهي أهم موانئ التصدير المغربية، وميناء مهم أيضاً لصيد الأسماك وتصدير الفوسفات، ومركز مهم للمواصلات البرية والبحرية والجوية؛ حيث بها مطار محمد الخامس، وبها جامعة الحسن الثاني.

(337/11)

### \* دارفور

هي إقليم جغرافي يمثل إحدى مديريات جمهورية السودان. تقع على حدود السودان الغربية، وتشترك في حدودها مع كل من ليبيا وجمهورية تشاد. وتبلغ مساحتها (503.272 كم<sup>2</sup>). ومعظمها على شكل هضبة ترتفع بين (900.600 م) فوق سطح البحر، وتحيط بها السهول وتتخللها بعض التلال. واشتق اسمها من قبائل القور التي ما زالت تسكنها، هي وعدة قبائل عربية ونبوية وزنجية، امتزجت سلالاتها، وتأثرت باللغة العربية والثقافة الإسلامية، وأهم هذه القبائل: الرزيقات والتعايشة والحوازمة والكواهلة والمناصير والزعاوة والتنجور والمساليب. وقد حكم المديرية زنوج التاجو، منذ أقدم العصور حتى القرن الرابع عشر الميلادي، وخلفهم التنجور العرب الذين حملوا إليها الإسلام قادمين من بور نود واداي. وقامت بدارفور سلطنة وراثية منذ عام (1051م - 1460م)، وينسب تأسيسها إلى سليمان سلويج الذي اتخذ بلدة طراة عاصمة له قبل أن تنتقل إلى الفاشر. وقد دام حكم سلاطين القور نحو ثلاثة قرون ما بين

سنتي (1875م، و1900 م)، كان الحكم فيها للولاة المصريين وخلفاء المهديّة. وقد اعترفت حكومة السودان سنة (1899 م) بعلى دينار حفيد سلاطين دار فور، سلطاناً لكنها عادت فحاربتّه، واستولت على دارفور بعد مقتله عام (1916م). وتعتمد دارفور اقتصادياً على رعى الماشية، وبخاصة الأبقار، كما تعتمد على الزراعة والصناعات التقليدية. ونظراً إلى مركزها المتوسط بين وادي النيل وإفريقيا الوسطى؛ فإنها تعدّ أحد المراكز التجارية المهمة. وتتصل بمصر عن طريق درب الأربعين الذي يمر بالوحدات الغربية وينتهي عند مدينة أسيوط. وعاصمة دارفور الحالية مدينة الفاشر.

(338/11)

#### \*الدانوب

أطول أنهار أوروبا؛ إذ يبلغ طوله (2816 كم)، ومساحة حوضه نحو (828800 كم<sup>2</sup>). وينبع من مجموعة من الجبال الألبية، ويخترق جبال الكريات عبر بافاريا والنمسا والتشيك وسلوفاكيا والنمسا، ثم يفصل بين جبال الكريات وجبال البلقان في منطقة الحدود البلغارية حتى يصب في البحر الأسود. ويعد الدانوب أعظم أنهار أوروبا من حيث إمكانيات الملاحة، ولكن الانقسامات السياسية أثناء الحرب العالمية الثانية وعقبها، قللت من هذه الأهمية، ونظراً إلى أنه يجري بين غرب أوروبا وشرقها؛ فقد تضاءلت أهميته الملاحية في القارة. ويمر هذا النهر بمدن أولم وريجنزيرج وباسا وولنتس وفيينا وبودابست وبلجراد وبراتيسلاف، ويصلح للملاحة ابتداءً من مدينة أولم.

(339/11)

---

### \*درب الأربعين

طريق برى يخترق الصحراء الليبية، ويربط السودان وإفريقيا الوسطى بمصر. كانت تقطعه القوافل فى أربعين يوماً؛ ومن ثم أطلق عليه هذا الاسم، وكان هذا الطريق معروفاً قبل القرن الخامس الهجرى، وهو يمتد من دارفور ماراً بالواحات الداخلة، والخارجة حتى يصل إلى أسيوط، ثم يسير محاذياً لنهر النيل إلى القاهرة. ومما أعطى هذا الطريق، أهمية قيام مملكة دارفور فى غرب السودان وارتباطها بالأقاليم السودانية الوسطى التى لا منفذ إليها لإمكان التبادل التجارى مع وادى النيل الأدنى إلا عن طريقها، وكان أهم ما يتم تبادله المصنوعات المصرية والرقيق والعاج والصمغ عبر القوافل التى كان يُعيّن لها رئيس من قبل ملك دارفور.

(340/11)

---

### \*الدردنيل

مضيق يمثل المدخل الجنوبي لبحر مرمرة. طوله (64 كم)، واتساعه يصل إلى (6 كم). كان يعرف باسم هلسبونتوس، وهو يصل بحر إيجه ببحر مرمرة، ويفصل بين شبه جزيرة جاليبولى الواقعة فى الجزء الأوروبى من تركيا، والجزء الآسيوى من تركيا. وقد تردد ذكره إبان الحروب الإغريقية الفارسية، وازدهرت طروادة القديمة بمقربة من المدخل الغربى له. وعبر هذا المضيق كل من أجزر كسيسس الأول سنة (481 ق. م) والإسكندر الأكبر سنة (334 ق. م) على جسر من القوارب، وفى عهد الإمبراطوريتين البيزنطية والعثمانية كانت للمضايق أهمية كبرى فى الدفاع عن القسطنطينية. وتدهور تركيا أصبح وضع

المضايق مشكلة دولية، ففي سنة (1841 م) اتفقت الدول الكبرى على إغلاق المضائق في وجه جميع السفن الحربية في وقت السلم، باستثناء السفن التركية، وأكد مؤتمر باريس سنة (1856 م) هذه الاتفاقية، وفي الحرب العالمية الأولى فشلت حملة جاليبولي التي دبرها الحلفاء لاختراق المضائق بالقوة، ولكن بعد انهيار تركيا مرَّ أسطول للحلفاء بالمضائق في (نوفمبر 1918 م)، واحتل القسطنطينية، وقضت معاهدة سيفر سنة (1920 م) بتدويل منطقة المضائق، ولكن مؤتمر لوزان سنة (1923 م) أعادها لتركيا بشرط عدم تسليحها. وفي سنة (1936 م) سمحت اتفاقية طمونترو لتركيا بتحسينها.

(341/11)

---

#### \*الدرعية

مدينة سعودية تقع في نجد على بعد (13 كم) إلى الشمال الغربي من الرياض. كان يطلق عليها اسم غبراء. وقد ازدهرت بعد أن استقل بها الأمير محمد بن سعود سنة (2722 م)، وعندما هاجر إليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب سنة (1744 م) اتخذها مقرًا لدعوته. وقد قامت الدولة العثمانية عن طريق محمد علي بالسيطرة على المدينة وتخطيطها سنة (1818 م)، وانتقلت بعد ذلك العاصمة السعودية إلى الرياض. والدرعية الجديدة تقع شمالي وادي حنيفة مقابل الدرعية القديمة، وتتبعها عدة قرى زراعية، وأهم محاصيلها الزراعية: النخيل والقمح والشعير والفاكهة والخضراوات، ويوجد بالدرعية عدة سدود، والدرعية من الأراضي الخصبة.

(342/11)

## \*دمشق

عاصمة الجمهورية العربية السورية، كانت عاصمة الخلافة الأموية. قيل: إن الذى بناها هو دمشق بن قانى بن مالك بن سام، من أبناء نوح، عليه السلام، قبل مولد إبراهيم، عليه السلام، بخمس سنوات. وهى مدينة كثيرة الأنهار والأشجار، تقع فى أرض مستوية تحيط بها الجبال، وبها كثير من قبور الصحابة والتابعين وتابعى التابعين والقادة المشاهير، مثل: محمود زنكى ملك الشام وصلاح الدين الأيوبي. وقد فتحت دمشق سنة (14 هـ) فى عهد عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، وظلت تحت الحكم الإسلامى منذ ذلك الوقت، وحكمها كل من الأيوبيين والمماليك والعثمانيين، ثم احتلها الفرنسيون سنة (1920 م). وقد تعرضت لكثير من المحن والشدائد، ففي سنة (543 هـ = 1148 م) تعرضت للحملة الصليبية الثانية، وفى سنة (803 هـ = 1400 م) تعرضت لغزو تيمور لنگ، الذى قضى على الرجال وهتك أعراض النساء، وحرقت المنازل، ولم يبقَ من أهلها أحد إلا من هرب منها قبل قدومه إليها. ومن العلماء المبرزين بدمشق: عبد العزيز بن أحمد بن محمد التميمى الدمشقى، وأبو زرعة عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان، ويوسف ابن رمضان بن بندار الدمشقى، ومنصور بن عمار السلمى الخراسانى، وعمر ابن حسن الخرقى وهو من التابعين، وأبو الفتح نصر بن إبراهيم بن نصر المقدسى. ويوجد بدمشق كثير من المساجد والجوامع والمدارس والخانات والحمامات، والأضرحة ودور الحديث.

## \*دمياط

إحدى المدن الكبرى في مصر، تقع على الشاطئ الشرقى لفرع النيل الشرقى المعروف بفرع دمياط. وقد أنشئت سنة (1225 هـ) على أنقاض دمياط القديمة التي دُمرت في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب. وقد فتحت دمياط على يد المقداد بن الأسود. أحد رجال عمرو بن العاص، في عهد عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فظلت في أيدي المسلمين، مع ما تخلل هذه الفترة من سيطرة صليبية عليها لبعض الوقت. وقد تعرضت دمياط للعديد من الهجمات الأوروبية الصليبية؛ ففي سنة (90 هـ) تعرضت لغزو الروم، ثم تعرضت لهجمات أوروبية عديدة في سنة (121 هـ) وسنة (200 هـ) وسنة (238 هـ) وسنة (357 هـ)، ودارت بها معركة كبيرة سنة (565 هـ) بين الصليبيين وصلاح الدين الأيوبي، هزمهم فيها صلاح الدين. وفي سنة (615 هـ) احتلها الصليبيون حتى استردها الملك الكامل سنة (618 هـ)، وفي سنة (646 هـ) تعرضت لهجوم لويس التاسع ملك فرنسا، الذي احتلها وحاول مهاجمة المنصورة منها، ولكنه فشل، وهُزم جيشه وأسر هو نفسه وافتدى نفسه بمال كثير، وخرجت دمياط من هذه الحروب وهي مدمرة تمامًا، فقيل: إن الفرنجة دمروها في سنتي (616 هـ) و (647 هـ)، وقيل: إن أمراء المسلمين المماليك هم الذين دمروها سنة (648 هـ)؛ خوفًا من رجوع الفرنجة إليها. وتشتهر دمياط بالصيد والزراعة وصناعة المنسوجات الحريرية وصناعة الأثاث، وطحن الحبوب، واستخراج الزيوت النباتية من السمسم والقطن. ومن أهم المساجد بها: مسجد الشيخ شطا بن الهاموك، ومسجد أبي المعاطي، وجامع المتبولي (المدرسة المتبولية). وقد كان بها عدة قلاع هدمت في زمن الاحتلال الفرنسي لمصر، ثم أعاد بناءها محمد علي. ومن أهم علمائها المبرزين: خليل الدمياطي، وعبد السلام الدمياطي، ومحمد معين الدين الدمياطي.

**\*دنقلة**

إقليم سودانى يقع جنوب جندل النيل الثالث مباشرة على بعد (140 كم). وكانت منزلا لملك النوبة على شاطئ النيل، ولها أسوار عالية مشيدة بالحجارة. وكانت تمثل إحدى الوحدات الإدارية قبل استقلال السودان. ودنقلة اليوم بالاشتراك مع مديرتى حلفا وبربر تكوّن ما يُعرف باسم المديرية الشمالية، وسكانها نوبيون من الدناقلة والجعليين والشايقية، وقد تأثروا بالعرب الذين يحيطون بهم من كل جهة. ويعد السهل النيلي الفسيح الذى يشق الإقليم، مشجعاً على الاستقرار والزراعة فى الإقليم، باستخدام السواقي، كما تكثر به كروم النخيل المشهورة بتمورها الجافة. وقد شهدت دنقلة عدداً من الحضارات القديمة والوسيطه، وتوجد بها آثار فرعونية من أهرامات ومعابد، تدل على امتداد النفوذ المصرى؛ ومن ثم الحضارة المصرية القديمة إليها. ودخلت المسيحية هذا الإقليم، وقامت مملكتان مسيحتان، عرفت الأولى بمملكة مقرة وعاصمتها دنقلة القديمة، وعرفت الثانية بمملكة علوة وعاصمتها سوية. ودام الحكم المسيحى فى دنقلة حتى القرن الرابع عشر الميلادى. وقد فتحها عبد الله بن سعد بن أبى السرح، فى خلافة عثمان بن عفان، رضى الله عنه، سنة (20 هـ)، وعقد مع ملكها قليدرون معاهدة تتضمن دفع الجزية، والعناية بأمر المسجد الذى بناه المسلمون بالمدينة. ودخلت بلاد النوبة بما فى ذلك دنقلة فى الإسلام منذ القرن الرابع عشر الميلادى، إبان حكم السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وحكمها أحد ملوكها ممن اعتنقوا الإسلام.

### \*حلب

مدينة سورية كبيرة. تقع في الشمال الغربي من سوريا. تبلغ مساحتها نحو (36) ميلا. وعدد سكانها (995.800) نسمة. بناها العماليق بعد موت الإسكندر الأكبر بثلاثة عشر عامًا، وجعلوها حصنًا لهم، حتى انتزعها منهم نبي الله داود، عليه السلام. وقد اتسعت حلب منذ عهد سيف الدولة الحمداني سنة (420 هـ) حتى وصلت حدودها إلى نهر الفرات، وبلغت أقصى اتساع لها في عهد المماليك في القرن التاسع الهجري، وكانت - في ذلك الوقت - أكبر ولاية بعد دمشق. وظلت حلب في عهد العثمانيين مركزًا مزدهرًا للتجارة، حتى استولى عليها المصريون بقيادة إبراهيم باشا ابن محمد علي سنة (1247 هـ)، الذي ظل بها ثماني سنين، وبعدها بدأت حلب تخطو خطوات واسعة نحو التّقدم والرقى. ومن أهم الآثار الإسلامية بها: قلعة حلب التي بها رأس نبي الله يحيى عليه السلام، ومشهد الإمام علي بن أبي طالب، رضى الله عنه، كما أن بها كثيرًا من المساجد، منها: المسجد الجامع، ومسجد الشجرة، ومسجد ابن الأقرع، ومسجد الهروي. وتشتهر حلب بكثرة المدارس، ومنها: المدرسة الزجاجية، والمدرسة الحلاوية، والمدرسة السيفية ومدرستا: المالكية، والحنابلة. وبها عدد ضخم من الخانات، والخوانق، والحمامات، والبيمارستانات. وتشتهر حلب بزراعة الذرة، والقطن، والسّمسم، والبطيخ، والخيار، والتين، والتفاح، والكروم.

## \*حضر موت

إقليم يقع في جنوب شبه الجزيرة العربية. يحده من الشرق عمان ، ومن الغرب عدن، وتتصل حدوده الشمالية بالسعودية بطول يبلغ (160 كم). ويتكون من ساحل رملي تعلوه بعض المرتفعات الجبلية التي يخترقها عدد من الأودية، تختلف ضيقاً واتساعاً، أهمها: وادي الكسر، ووادى دمعن، ووادى الجزع، ووادى حجر، ووادى ميفع، ووادى سنام، ووادى المسيلة. وينتشر في حضر موت العديد من المدن، أهمها: مدينة شبام، ومدينة شبوة، ومدينة نريم، ومدينة المكلا وهي أهم موانئها. ويسكن حضر موت عدد من القبائل الشهيرة، مثل: قبيلة شبان، وقبيلة مهرة، وكان يطلق على حضر موت اسم وادى الأحقاف وهم قوم هود، عليه السلام، حيث يوجد بها قبره، وهي تُعدّ من أقدم الممالك العربية التي مازالت تحتفظ باسمها القديم حتى الآن. وهي تنسب إلى حضر موت بن حمير أو حضر موت بن يقظان من القحطانيين. وقد شهدت حضر موت في القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد نهضة كبيرة؛ بسبب التجارة، كما خاضت حرب الثلاثمائة عام؛ لتوحيد سبأ وذي ريدان، ودخلها الإسلام في عهد النبي e، ولكن زعيمها قيس بن الأشعث ادّعى النبوة، وتم القضاء على حركته في خلافة أبي بكر الصديق. وقد تمتعت حضر موت بنوع من الاستقلال في عهد الدولة العباسية، وساهم الحضارمة في نشر الثقافة الإسلامية في جزر الهند الشرقية، وسواحل المحيط الهندي. وحضر موت حالياً إحدى محافظات اليمن، وتبلغ مساحتها (155.376 كم2)، وتنقسم إلى ثماني مديريات، وبها مطارات، وتوجد فيها بعض الزراعات.

## \*حطّين

قرية عربية فلسطينية، دارت بها معركة حطين التي استرد بعدها صلاح الدين الأيوبي، بيت المقدس من أيدي الصليبيين سنة (583 هـ)، وبها قبر نبي الله شعيب، عليه السلام. وتقع حطين غربي مدينة طبرية بنحو تسعة كيلو مترات، وتتحكم في سهل حطين المتصل بسهل طبرية عبر فتحة طبيعية، كما تتصل بسهولة الجليل الأدنى عبر ممرات جبلية، وترتفع حطين عن سطح الأرض بمسافة تتراوح بين (100) و (125) متراً، ويمر في وسطها وادي خنفور، وتتميز أراضيها بخصوبة التربة، واعتدال المناخ، وكثرة الأمطار، وتوافر المياه الجوفية، ولاسيما في الجزء الشمالي من السهل، وأهم محاصيلها الزراعية: الحبوب والزيتون والفاكهة. وكان سكان حطين في عام (1945 م) يقدر عددهم بنحو (1190) نسمة، وقد أبلوا بلاءً حسناً في الدفاع عن أرضهم، ولكن قوة الاحتلال الإسرائيلي طردتهم من بيوتهم، وقامت بتدمير قريتهم. وأنشأ اليهود عددًا من المستعمرات فوق أراضيها، مثل: كفار زيتيهم في الشمال الشرقي من موقع حطين، وأحوازات نفتالي في الجنوب الشرقي، وكفار حينيم في الشرق.

(348/11)

## \*حلوان

إحدى مدن مصر تقع في جنوب القاهرة. أنشأها عبد العزيز بن مروان سنة (73 هـ)، بعد أن ظهر وباء الطاعون في مصر، وقيل: بعد أن أغرق الفيضان مدينة الفسطاط. وبنى عبد العزيز بن مروان بحلوان دورًا كثيرة، وقصورًا رائعة، وأنشأ بها عددًا من المساجد، واستوطنها، وأسكن بها جنوده وقواده، وزرع بها بساتين الكروم والنخيل، وأقام مقياسًا على النيل، فظلت في

ازدهار دائم طوال فترة حكمه. وبعد أن زالت الدولة الأموية،  
أهملت المدينة؛ فاختلفت العيون المعدنية التي كانت موجودة  
بها، حتى عهد الخديو عباس، الذي أقام بها مركزاً لعلاج الجنود  
المرضى، وبخاصة من الأمراض الجلدية والروماتيزمية. وفي سنة  
(1286 هـ) شيد بها العديد من الحمامات عند العيون المعدنية،  
وأقام الملك فاروق قصرًا صيفيًا على النيل بجوار حلوان، أصبح  
الآن متحفًا وحديقة عامة.

(349/11)

#### \* الحبشة

هو الاسم الذي أطلقه العرب على الإقليم الإفريقي الذي يطل  
على البحر الأحمر، ويواجه اليمن والذي يُعرف حاليًا باسم  
إثيوبيا، وقد اختلفت حدوده على مرّ العصور. وينسب اسم  
الحبشة إلى قبيلة حبشت السامية التي هاجرت من اليمن إلى  
هذه المنطقة، واستقرت في هذا الإقليم نحو القرن السادس قبل  
الميلاد، واختلطت بالقبائل الكوشية الحامية مثل قبيلتي البجة  
والجالا، ومع مطلع القرن الرابع الميلادي غلب اسم قبيلة حبشت  
على المنطقة. وقد كان للتجارة دور كبير في توطيد العلاقات  
بين الحبشة وبيزنطة، ونشأ عن هذا الامتزاج الحضارى تأثر  
الحبشة بالمسيحية، ودخول بعض القبائل الوثنية فيها؛ مما أدى  
إلى قيام بعض الممالك المسيحية، مثل مملكة أكسوم، وأصبحت  
الكنيسة الحبشية تابعة للكنيسة المصرية. وفي القرن السادس  
الميلادي غزت الحبشة اليمن، وحاول أبرهة هدم الكعبة  
المشرفة، ولكن الله أهلكه قبل أن يمسه بسوء. وعندما ظهر  
الإسلام كان يحكم الحبشة ملك عرف بالحكمة والعدل؛ ولذا فقد  
أوصى النبي e أصحابه بالهجرة إليها، بعد أن اشتد إيذاء

المشركين لهم في مكة، فعاش هؤلاء المهاجرون في كنفه في أمن وطمأنينة. وكانت هذه الهجرة هي النواة الأولى لنشر الإسلام في الحبشة، وما لبث الإسلام أن انتشر بين كثير من القبائل، وساعد على ذلك الهجرات المتعاقبة للقبائل العربية والتجار المسلمين؛ مما أدى إلى قيام عدد من الممالك الإسلامية في الحبشة، وقامت حروب وصراعات بين تلك الممالك وغيرها من الممالك المسيحية والوثنية، استمرت طويلا، حتى غزت إيطاليا الحبشة ثم احتلتها سنة (1936 م)، إلى أن تحررت سنة (1941 م). وقد تعرّض المسلمون في الحبشة لمذابح وحشية، وحملات تطهير عرقية بشعة، واضطهاد عنيف، خاصة في عهد الإمبراطور هيلاسلاسى والرئيس الشيوعى منجستو هيلاماريام. ويصل عدد المسلمين في الحبشة (إثيوبيا) إلى نحو (26) مليون

(350/11)

---

مسلم، ومن أشهر القبائل المسلمة فيها قبائل جبرت والجالا والبجة.

(351/11)

---

\*جَيْحُون (نهر)

هو الاسم الذى أطلقه الترك على النهر المعروف باسم آمو أو آموداريا، أو أوكسوس، بالتركستان في وسط آسيا، وكان اسمه القديم أوجزوس. وينبع نهر جيحون من مرتفعات هندكوش، من مكان يسمى ريو ساران، وهو جبل يتصل بكلّ من السند والهند وكابل، ويسير غربًا على هيئة شبه قوس حتى يصبّ في

الطرف الجنوبي من بحر آرال. ويبلغ طوله (2523 كم)، وتبلغ مساحة حوضه (221) ألف متر مكعب.

(352/11)

---

### \*الجزيرة الخضراء

مدينة في الأندلس (إسبانيا)، لا تزال تحتفظ باسمها العربي حتى الآن. تقع على خليج جبل طارق، ويقابلها من البر بلاد سبتة، وتبعد عن قرطبة بنحو (300 كم). وقد اشتهرت في تاريخ فتح العرب للأندلس بأنها أول مدينة استولى عليها طريف بن مالك عام (710 م)، بعد عبوره البحر المتوسط من ميناء سبتة إلى الأندلس، وفي العام التالي دخلها طارق بن زياد. ويُنسب إليها عدد من العلماء، منهم: أبو زيد عبد الله بن عمر بن سعد الجزيري. وفي عام (1906 م) عُقد في الجزيرة الخضراء مؤتمر الجزيرة، واشترك فيه عدد من الدول الأوربية؛ للاتفاق على نظام الحكم في مراكش، وأُقرّ فيه تكليف فرنسا وإسبانيا برعاية مراكش، وحفظ الأمن فيها. وهذه المعاهدة هي التي مهدت لتقسيم مراكش إلى منطقتي نفوذ؛ إحداهما فرنسية، والأخرى إسبانية.

(353/11)

---

### \*تشاد (بحيرة)

بحيرة في وسط إفريقيا. تحيط بها جمهوريات: نيجيريا والنيجر والكاميرون، وتقع ضمن حوض تكتوني كبير، يمتد في اتجاه الشمال الشرقي، وقد زُدم بالرواسب أثناء الزمن الرابع البليستوسين. وقد كانت البحيرة أكثر امتدادًا واتساعًا أثناء

العصر المطير البلايوسين. وتصب في بحيرة تشاد عدة مجار مائية، أهمها: نهر شارى، وكانت قديماً متصلة ببحيرة بودول التي جفت فيما بعد. وتختلف مساحة بحيرة تشاد باختلاف فصول السنة ونزول الأمطار، وتتراوح مساحتها ما بين (10) آلاف و (20) ألف كم<sup>2</sup>.

(354/11)

---

### \*بيزنطة

مدينة قديمة أسسها الإغريق سنة (658 ق. م). تقوم في موقعها الآن مدينة إستانبول بتركيا. وقد اكتسبت تلك المدينة شهرة واسعة، بسبب موقعها على مضيق البسفور، وأصبحت مركزاً تجارياً مهماً. استولى عليها الرومان سنة (196 م)، واختارها قسطنطين الأول موقعاً لمدينة القسطنطينية التي حملت اسمه، وأصبحت - فيما بعد - عاصمة للإمبراطورية البيزنطية، ثم صارت عاصمة للخلافة العثمانية حتى قيام الجمهورية التركية سنة (1923 م). وبها عدد من الآثار القديمة، من أهمها: جامع ومتحف آيا صوفيا، الذى يرجع إلى العصر البيزنطى، وجامع السلمانية وجامع أبي أيوب، وغيرها من الآثار. ويبلغ عدد سكانها أكثر من مليونى نسمة.

(355/11)

---

### \*تراقيا

إقليم يطل على بحر إيجه، ويمتد - الآن - ما بين الجزء الأوربي من تركيا واليونان، ومن أهم مدنه: إستانبول وأدرنة وجالبيولى. وكانت تراقيا أول أرض أوربية فتحتها الأتراك

العثمانيون، على يد الأمير سليمان ابن السلطان عثمان سنة (758 هـ)، واحتفظ العثمانيون بهذا الإقليم حتى قيام الحرب البلقانية سنة (1912 م) التي انتهت بمعاهدة لوزان سنة (1923 م) والتي نصّت على منح بلغاريا منفذا لها على بحر إيجه عن طريق تراقيا بين اليونان وتركيا.

(356/11)

### \* جيبوتي

دولة عربية تقع في الطرف الشرقي من قارة إفريقيا. يحدها من الشمال إريتريا، وإثيوبيا، من الغرب ومن الجنوب الغربي، وتقع جمهورية الصومال الديمقراطية على الحدود الجنوبية لجيبوتي. وتتمتع جيبوتي بأهمية كبيرة؛ نظراً إلى موقعها الاستراتيجي، بجانب تحكمها في مضيق باب المندب من الجهة الغربية. ومساحتها (21.783 كم<sup>2</sup>). وتمتد سواحلها بطول (370 كم). وتعد المنفذ الرئيسي لصادرات إثيوبيا، وبها خط حديدي يربطها بأديس أبابا. ويقدر عدد سكانها بنحو (240) ألف نسمة، وبها نسبة عالية من العرب والأجانب، ويعيش في عاصمتها جيبوتي أكثر من (65%) من السكان. ولغتها الرسمية هي اللغة العربية، كما تنتشر اللغة الفرنسية على نطاق واسع بها. والإسلام هو الدين الرسمي للبلاد. تحررت جيبوتي من الاستعمار الفرنسي سنة (1977 م)، ولكن لا تزال فرنسا تحتفظ بقوة عسكرية بها تقدر بنحو (4500) جندي. ويوجد بجيبوتي خمسة أحزاب، أهمها: الاتحاد الوطني للاستقلال، والرابطة الشعبية الإفريقية للاستقلال، وحركة تحرير جيبوتي. ونظامها السياسي جمهوري رئاسي؛ فالرئيس هو نفسه رئيس الحكومة، والسلطة التشريعية في يد مجلس النواب. وجيبوتي هي الدولة رقم (148) في الأمم

المتحدة، ورقم (22) في جامعة الدول العربية، ورقم (49) في منظمة الوحدة الإفريقية. وتعتمد جيبوتي على الرعى والزراعة، لكن المساحة المخصصة للزراعة لا تزيد على ثلاثة آلاف هكتار، وبها ثروة حيوانية وفيرة تبلغ (770) ألف رأس، كما أن بها ثروة سمكية وفيرة؛ لموقعها المتميز على مدخل البحر الأحمر، إلا أن الصيد يتم بمعدات بدائية. والعملة الرسمية لجيبوتي هي الفرنك الجيبوتي، وهو مقسم إلى مائة سنتيم. وتوجد بها شركتان للخطوط الجوية؛ إحداهما فرنسية، والأخرى جيبوتية.

(357/11)

---

### \*الجزيرة

اسم يطلق على الإقليم الشمالى لبلاد ما بين النهرين (دجلة والفرات). وتعرف باسم الجزيرة الفراتية، وتشمل الإقليم الذى يمتد فى شمال الأنبار وتكريت. وكانت تشمل ديار بكر وربيعة ومصر، وإليها ينسب الإمام الجزرى. وعند ظهور الإسلام كانت الجزيرة من الأقاليم الرومانية، وكانت تعرف باسم ولاية الشام، وعندما فتح المسلمون هذه الأقاليم عُدت الجزيرة الفراتية وأرمينيا وأذربيجان، ولاية واحدة.

(358/11)

---

### \*التل الكبير

إحدى مدن محافظة الشرقية بمصر. تقع على الخط الحديدى الممتد من القاهرة إلى الإسماعيلية. توجد بالقرب منها آثار حصون قديمة ومدن مندثرة. اشتهرت فى تاريخ مصر الحديث بالمعركة الفاصلة التى جرت عندها، بين القوّات المصرية والقوات

البريطانية سنة (1882 م) والتي انتهت بهزيمة المصريين، بعد أن تمكن الجيش البريطاني من الإغارة على معسكر الجيش المصري ليلاً، فارتد أحمد عرابي وبعض فلول الجيش نحو القاهرة؛ لتحصينها والدفاع عنها، ومحاولة وقف تقدم الإنجليز إليها، إلا أن الهزيمة الساحقة للجيش في النبل الكبير، فتحت أبواب العاصمة أمام جيوش المستعمرين دون مقاومة تذكر. وكان ذلك بداية الاحتلال البريطاني الذي جثم على البلاد أكثر من سبعين عامًا.

(359/11)

---

#### \*جغبوب

واحة ليبية. تقع على بعد (295 كم) من شاطئ البحر المتوسط، وتوازي واحة سيوة التي تقع على بعد (150 كم) داخل حدود مصر مع ليبيا. وكلمة جغبوب تعني المنخفضات التي فيها عيون الماء، والمستنقعات الصغيرة وتوجد فيها بعض البحيرات المالحة. وقد أقام بهذه الواحة المصلح الليبي محمد بن علي السنوسي سنة (1856م)، وأسس بها عددًا من الزوايا لنشر الإسلام بين الجماعات الوثنية الموجودة في السودان وحوض بحيرة تشاد. وكانت جغبوب هي الطريق الرئيسي للسلاح القادم إلى المجاهدين في ليبيا أثناء حربهم مع الإيطاليين، ولم تستطع إيطاليا السيطرة عليها إلا بعد (25) عامًا من احتلال ليبيا؛ فأقامت حائطًا من الأسلاك الشائكة على حدودها مع مصر، وتحت الضغط البريطاني تنازلت مصر لإيطاليا عن جغبوب التي كانت جزءًا من أراضيها.

(360/11)

### \*تعز

مدينة يمنية. تقع بالقرب من الحدود الجنوبية لليمن، في جبل صبر، على ارتفاع (1300) متر فوق سطح البحر، وهي إلى الشرق من ميناء مخا، وعلى الطريق البري الذي يمتد شمالاً إلى مدينة زبيد. وتبلغ مساحتها (12 ألف كم<sup>2</sup>). وكانت - في بداية نشأتها - عبارة عن مجموعة من القلاع، فوق جبل صبر، ولكنها لم تحظَ بالاهتمام إلا بعد وصول توران شاه الأيوبي إليها سنة (569 هـ) في ثلاثة آلاف مقاتل، وبنائه قلعة بها. وشهدت عصرها الذهبي أيام سلاطين بني رسول في منتصف القرن السابع الهجري، كما شهدت ازدهاراً اقتصادياً؛ لوقوعها في طريق التجارة، ثم فتحها العثمانيون سنة (952 هـ)، وسيطر عليها إبراهيم باشا ابن محمد علي قبيل منتصف القرن التاسع عشر الميلادي. وفي منتصف القرن العشرين اتخذها الإمام أحمد مقرّاً لإقامته، وقاعدة لحكمه، ولكن سرعان ما ضعفت أهميتها بعد ثورة اليمن وتحول مقرّ الحكم إلى صنعاء. وتتنوع المحاصيل الزراعية في تعز؛ بسبب كثرة الأمطار، وتشتهر تعز بزراعة الفاكهة والخضراوات والزيتون والبن والقمح.

(361/11)

### \*تركيا

تقع تركيا في شمال غرب آسيا، وهي عبارة عن منطقة آسيا الصغرى بين البحر المتوسط والبحر الأسود. وتحدها بلغاريا واليونان من الغرب، ومن الشمال الاتحاد السوفيتي سابقاً، ومن الشرق إيران، ومن الجنوب العراق وسوريا. وتبلغ مساحة تركيا (779.452 كم<sup>2</sup>)، وعاصمتها أنقرة. ويبلغ عدد سكانها نحو

(56.941.000) نسمة، إلى جانب بعض الأقليات، مثل: العرب والأكراد. واللغة الرسمية فيها هي اللغة التركية، كما توجد بها بعض اللغات الأخرى، مثل: اللغة العربية واللغة الكردية. والدين الرسمي للبلاد هو الإسلام؛ حيث يمثل المسلمون نحو (99%) من السكان، منهم (85%) على المذهب السني، و (14%) على المذهب الشيعي. وتشتهر تركيا بعدد من المحاصيل الزراعية، من أهمها: الطباق والفاكهة والقطن والذرة والشعير والبطاطس والبنجر، كما توجد بها بعض المعادن، مثل: الأنتيمون والكروميوم والزنك والنحاس. ومن مصادر الطاقة فيها: الفحم، والبترو. ومن أهم الصناعات بها: صناعة الحديد والصلب، وصناعة السيارات، والسجاد، والمنسوجات، والآلات. والعملة المتداولة هي الليرة التركيّة.

(362/11)

#### \*تلمسان

أشهر مدن الجزائر. تقع في منطقة جبلية بالقرب من حدود المغرب، وتبعد عن مدينة وهران بنحو (130 كم). وتبلغ مساحتها (250) فدانا. وتلمسان كلمة بربرية تعني مدينة الينابيع، وأطلق عليها المرابطون اسم تاقراوت وتعني المعسكر، وذلك في أثناء حصارهم لها في القرن الخامس الهجري؛ إذ أنشئوا تلمسان الحديثة ومسجدها الجامع. وقد فتحت تلمسان سنة (55 هـ) على يد القائد أبي المهاجر دينار، في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان، ثم تتابع عليها الأمويون والعباسيون والزناتيون والفاطميون والمرابطون والموحدون والحفصيون، وبنو زيان، ثم احتلها الإسبان سنة (1555 م)، ثم خضعت للعثمانيين، ثم صارت تابعة لسلطان مراكش، حتى احتلها الفرنسيون سنة (1836

(م)، لكنهم تنازلوا عنها لنائب الأمير عبد القادر الجزائري بمقتضى معاهدة سنة (1837 م)، إلا أنهم عادوا فاستولوا عليها سنة (1842 م)، حتى أصبحت بلدة لها استقلالها الذاتي سنة (1854 م). وتشتهر مدينة تلمسان بالزراعة والرعى، وهى تنتج الحبوب والفلين، وتوجد بها بعض الآثار الإسلامية، مثل: مسجد تلمسان، الذى بناه يوسف بن تاشفين، وبها بعض المزارات، مثل: مزار أبى مدين الزاهد. وينتسب إليها عدد من العلماء، منهم: المقرئ التلمسانى صاحب كتاب نفح الطيب، وأبومدين التلمسانى أحد كبار الصوفية، والشاعر الشهير العفيف التلمسانى.

(363/11)

#### \*بئر سبع

مدينة فلسطينية. تقع شمالى صحراء النقب، فى منتصف المسافة بين البحر الميت شرقاً، والبحر المتوسط غرباً. ومناخها شبه صحراوى بصفة عامة. وتشتهر المدينة بالزراعة والرعى والتجارة، كما توجد بها بعض الصناعات، وتعتمد الزراعة فيها على المياه الجوفية، وتوجد بها جامعة النقب التى أنشئت عام (1970 م). ونظراً إلى أهمية موقعها؛ صارت مركزاً للاستيطان البشرى؛ لقربها من حافة الصحراء، وقد كان مرور القوافل التجارية قديماً بها أثره فى ازدهار المدينة، وثناء أهلها. كما أن لها أهمية استراتيجية كبيرة، وبخاصة من الناحية العسكرية والحروب، ولا سيما فى الصراع العربى - الإسرائيلى؛ فقد كانت قاعدة للهجوم الإسرائيلى على قطاع غزّة وسيناء وقناة السويس؛ لذلك اهتمت إسرائيل بربطها بجميع أنحاء فلسطين بشبكة من طرق المواصلات الجيدة، منذ احتلالها عام (1948م). وقد خضعت بئر سبع، على مدار التاريخ للأمم التى استولت على

فلسطين، مثل: الآشوريين والبابليين والفرس واليونانيين  
والمصريين، حتى فتحها المسلمون مع بلاد الشام في صدر  
الإسلام، واستمرت تحت لواء الإسلام حتى احتلها الصليبيون،  
فتعرضت للضعف بعد أن حولت طرق التجارة عنها. وفي العهد  
العثماني اهتم العثمانيون بتعمير المدينة. وكانت قاعدة للجيش  
العثماني في أثناء الحرب العالمية الأولى، ثم احتلها  
البريطانيون سنة (1917 م)، حتى احتلها الإسرائيليون سنة  
(1948 م)، فعملوا على إجلاء السكان العرب عنها، ونشطوا في  
تهجيرهم منها.

(364/11)

### \*تطوان

مدينة مغربية تقع بالقرب من بوغاز جبل طارق، وتبعد عن طنجة  
بنحو (60 كم) من جهة الجنوب الشرقي، ويطلق عليها أيضاً  
تطوان وتيطاوين. قيل: إن الذي بناها هو السلطان أبو ثابت  
المريني، أحد سلاطين دولة بني مرين بالمغرب، وقيل: إنها  
مدينة قديمة حكمها الرومان، ثم تتابع عليها القوط، ثم العرب،  
وازدهرت إبان حكم بني مرين، وحينما شهدت فترة من الضعف  
بعد ذلك اتخذها قراصنة البحر ملجأ لهم. وبلغت تطوان أوج  
مجدها وقمة ازدهارها في القرن التاسع الهجري، عندما  
استوطنها المهاجرون الأندلسيون، بعد سقوط غرناطة، بزعامة  
القائد أبي الحسن المنذري، الذي قام بتحصينها، وجعلها قاعدة  
للغزو البحري للبرتغال، وأسر منهم عددًا كبيرًا، استخدمهم في  
تعمير المدينة وبناء الأسوار والقلاع. وفي سنة (1860 م)  
استولى عليها (الإسبان)، ثم خرجوا منها، ولكنهم عادوا  
فاستولوا عليها مرة أخرى سنة (1912 م)، وجعلوها عاصمة

للمنطقة الشمالية من المغرب التي احتلوها، ثم عادت إلى المغرب بعد استقلالها سنة (1956 م). وترجع شهرة تطوان إلى كونها مدينة تجارية، إلى جانب جمالها الرائع؛ حيث تحيط بها مجموعة من الحدائق والبساتين التي أنشأها الأندلسيون، كما يوجد بها العديد من الآثار التاريخية، مثل: الأسوار القديمة، والأبراج، والمساجد، والأضرحة. وتوجد بها بعض الكليات والمتاحف الفنية، ومتحف للآثار التاريخية، وكان لشهرتها ورواجها التجاري والسياحي أثر كبير في هجرة أعداد كبيرة إليها من سكان الريف (من أهل الشمال) ومن سكان بعض المدن، مثل: فاس ومراكش وسوسة في الجنوب.

(365/11)

#### \*حمّاة

مدينة في شمال سوريا. تقع على ضفتي نهر العاصي، وتبعد شمالاً عن دمشق بنحو (210 كم)، وعن حمص بنحو (40 كم)، وتبعد جنوباً عن حلب بنحو (165 كم)، وترتفع عن سطح البحر بنحو (308) أمتار. وخضعت حمّاة لحكم العمالقة ثم الأموريين، والسومريين، والأكاديين والحثيين، واجتاحها الهكسوس، ثم الآراميون، وغزاها الآشوريون، ودمروها، ثم الفراعنة، ثم حكمها الفرس، ودخلت تحت نفوذ الإسكندر الأكبر، واستمرت مع خلفائه الهلنستيين فترة، وحكمها الرومان حتى أشرق عليها نور الإسلام سنة (17هـ)، على يد الصحابي أبي عبيدة بن الجراح، وظلت تحت الحكم الإسلامي طوال القرون التالية. وعندما اجتاحت الحملات الصليبية مختلف مدن سوريا وفلسطين، وقفت حمّاة سداً منيعاً ضدّ الغزاة؛ فلم يدخلوها، واستحوذ عليها صلاح الدين الأيوبي، ثم خضعت لسلطان المماليك حتى سقطت في يد

التتار، ثم دخلت في حكم العثمانيين، واحتلها الفرنسيون سنة (1920 م)، ثم أجلوا عنها سنة (1946 م). وقد اشتهرت حماة بالنواعير (السواقى)، وبها عدة أماكن أثرية، منها: الجامع الكبير، والجامع النورى، كما اشتهرت بقصورها التي أطب في وصفها المؤرخون، والتي بقى منها: قصر العظم، وقصر الطيارة الكيلانية، ومكتبة نوري باشا الكيلاني المؤرخ.

(366/11)

### \*بيروت

عاصمة لبنان، وأشهر مدنها. تقع على ساحل البحر المتوسط، وهي من أهم مراكز الثقافة العربية في الشرق، بما تملكه من مطابع ودور نشر، كما أنها تستقطب معظم الأنشطة الثقافية، والمؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في لبنان، ويوجد بها عدد كبير من الصناعات، أهمها: صناعة الكتاب ونشره، والصناعات الغذائية، والنسيج، والصناعات المعدنية والكيميائية، ومواد البناء. وتضم بيروت عددًا من الآثار الإسلامية، مثل: الجامع العمري، وجامع السراى، ومسجد الخضر، وضريح الإمام الأوزاعي. وتعد بيروت من المدن القديمة التي استوطنها الإنسان منذ العصور الحجرية القديمة، وقد استولى عليها الرومان، وخضعت للدولة البيزنطية، حتى فتحها المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب سنة (13 هـ)، وظلّت تحت لواء الخلافة الإسلامية أيام الأمويين، فكانت في عهدهم مركزًا لانطلاق الأساطيل الإسلامية في البحر المتوسط، ثم أصبحت تحت لواء الخلافة العباسية، إلى أن اجتاحتها جيوش الصليبيين سنة (503 هـ)، وظلّت كذلك (80) عامًا، حتى تمكن صلاح الدين من استردادها بعد معركة حطين سنة (583 هـ)، ثم دخلت تحت حكم

المماليك، ثم ضُمَّت إلى الدولة العثمانية، وشهدت بيروت ازدهاراً اقتصادياً وحضارياً في عهد العثمانيين. ثم أصبحت تحت حكم محمد علي، حتى استردتها الدولة العثمانية. وبعد الحرب العالمية الأولى احتلتها فرنسا سنة (1918 م)، إلى أن استقلت بيروت سنة (1943م)، وقسمت إلى بيروت الشرقية وبيروت الغربية، ثم شبت الحرب الأهلية (الطائفية) بين أهلها سنة (1975 م)، فشهدت بيروت من الدمار والحراب ما لم تشهده من قبل، حتى هدأت الحرب الأهلية، فبدأت بيروت تستعيد مكانتها من جديد.

(367/11)

\*تبريز

إحدى مدن جمهورية إيران الإسلامية. تقع في الشمال الغربي من طهران، وهي أشهر مدن محافظة تبريز، عاصمة إقليم أذربيجان الشرقية. وتنقسم محافظة تبريز إلى ستة قطاعات، هي: بستان آباد، واسكو، وهجوارقان، وشبستر، وهريس، بالإضافة إلى تبريز. ويرجع أصل تسمية تبريز إلى كلمتين فارسيتين، هما: تب، بمعنى: الحمم، وريز بمعنى: القاذفة؛ فهي تعني: قاذفة الحمم؛ وذلك لكثرة ما يحدث بها من زلازل وبراكين. وسكانها مسلمون، معظمهم من الشيعة. وقد فتحها المسلمون سنة (22هـ)، ثم غزاها المغول سنة (628 هـ)، وشهدت ازدهاراً أثناء حكم الإيلخانيين، سلاطين المغول الذين حكموا إيران، ثم وقعت تبريز تحت سيطرة الأسرة الجلائرية سنة (759 هـ)، ثم سيطر عليها التيموريون، ثم حكمتها أسرة تركمانية، واتخذتها عاصمة لدولتها، ثم دخلها الشاه إسماعيل الصفوي، وعمل على نشر المذهب الشيعي فيها بالقوة، حتى سيطرت الدولة القاجرية على أذربيجان وعاصمتها تبريز. ولما توترت العلاقات بين إيران

وروسيا تأثرت تبريز بذلك، ودخلت تحت سيطرة روسيا، حتى انسحبت روسيا من شمال إيران بعد انتهاء الحرب؛ فعادت تبريز إلى إيران سنة (1946 م). وتتمتع تبريز بمناخ معتدل صيفًا، إلا أنه شديد البرودة شتاءً؛ إذ تقل درجة الحرارة عن الصفر. وتشتهر تبريز بالزراعة، وتنتج كميات وفيرة من الفاكهة والخضراوات والحبوب، وتنتشر فيها المراعى الكثيرة، كما تتوافر فيها ثروة حيوانية كبيرة من الأغنام والماشية. وهى غنية بالثروات المعدنية من الفحم الحجري والزرنيخ والأملاح المعدنية، وبها عدد من الصناعات، أهمها: صناعة الجلود والسجاد والنسيج. وتعد تبريز - حاليًا - مركزًا للتبادل التجارى العالمى، وحلقة اتصال مهمة بين إيران وتركيا وروسيا ودول أوروبا.

(368/11)

#### \*تشاد

دولة إسلامية إفريقية. تحدها من الشمال ليبيا، ومن الجنوب إفريقيا الوسطى، ومن الشرق السودان، ومن الغرب النيجر ونيجيريا والكاميرون. وتبلغ مساحتها (1.284.000 كم<sup>2</sup>). ويعتمد اقتصادها على الزراعة، ومن أهم المحاصيل الزراعية بها: الذرة، والبقول السوداني، والأرز، والقمح، وقصب السكر، والقطن، والصمغ العربى، كما يعتمد الأهالى فيها على صيد الأسماك من بحيرة تشاد. ولا تكاد توجد بها ثروات معدنية، وهى تنتج أملاح النطرون فقط، وبها بترول يستخرج من شمال بحيرة تشاد، وبها بعض الصناعات البسيطة، مثل: حلج القطن، وتكرير السكر، وتصنيع الأسماك، وحفظ اللحوم. ويبلغ عدد سكانها نحو خمسة ملايين نسمة، تبلغ نسبة المسلمين منهم (85%)، والنصارى (7%)،

في حين تمثل نسبة الوثنيين (8%) . واللغة الرسمية للبلاد هي اللغة التشادية والفرنسية، وتنتشر اللغة العربية بين قبائل الشمال. ومن أهم المدن بما: إنجامينا العاصمة، وسارا، وموندو، ويونجور. وقد دخلها الإسلام في القرن الخامس الهجري، وقامت على أرضها عدة ممالك إسلامية، مثل: الكانم والبرنو، وواداي، وباقيرمي. وبعد ضعف هذه الممالك بسطت فرنسا نفوذها على تلك المناطق منذ بداية القرن العشرين، وضمتهما إلى مجموعة دول إفريقيا الاستوائية الفرنسية، وحكمها عدد من القادة العسكريين الفرنسيين، حتى حصلت على استقلالها سنة (1959 م)، ثم قامت بما عدة اضطرابات داخلية بين قبائل الشمال والجنوب؛ بسبب الاختلافات العرقية والدينية. وكانت قبائل الشمال، من الفولاني والهوسا والتيبو، تتكلم اللغة العربية، وتدين بالإسلام، ولم تتأثر بعمليات التنصير النشطة المستمرة، ولم تفقد هويتها الثقافية الإسلامية في تيار الغزو الثقافي الفرنسي، أما قبائل الجنوب (البانتو) فيتكلمون اللغة الفرنسية، وأغلبهم وثنيون، وقد تأثروا كثيراً بثقافة الفرنسيين، وخضعوا لعمليات تنصير واسعة. ونتيجة للاضطرابات

(369/11)

---

شهدت البلاد العديد من الانقلابات العسكرية، كان آخرها الانقلاب الذي قام به إدريس ديبي، وانتخب على إثره رئيساً للبلاد، وسمح بتعدد الأحزاب. ونظام الحكم في تشاد جمهوري رئاسي. وهي عضو في منظمة الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الإفريقية ومنظمة شرق ووسط إفريقيا (أوريك).

(370/11)

## \*تركستان

كلمة فارسية تتكون من مقطعين: ترك وستان، وتعنى: بلاد الترك. وكانت تطلق على المنطقة الواقعة بين بحر الخزر (قزوين)، ونهر الأورال غربًا، وحتى حدود التبت ومنغوليا والصين شرقًا، وسيبيريا شمالًا، وأفغانستان جنوبًا. وتنقسم تركستان إلى قسمين، هما: تركستان الغربية: وتشغل الثلث الشمالى من قارة آسيا. وتحدها من الغرب جبال الأورال وبحر قزوين، ومن الجنوب هضبة إيران، ومن الشرق جبال تيان شان، ومن الشمال بعض السلاسل الجبلية قليلة الارتفاع. وتبلغ مساحتها (4.106.000 كم2)، وتتنوع خصائصها الطبيعية؛ فتحوى العديد من السهول والمرتفعات والأخار، ومن أشهر سهولها: مرتفعات تشونسكى وتيان شان، وأهم أنهارها: نهر جيحون (أموداريا)، ونهر سيحون (سيرداريا)، وأهم مدنها طشقند، وسمرقند، وبخارى، وعشق آباد، وغيرها. ويعيش فيها خليط من الأجناس البشرية، أهمها: الكاجيك والتركمان والقازان والقيرغيز والأوزبك، وهم يدينون بالإسلام، ويتكلمون اللغة التركية باستثناء الطاجيك فيتكلمون اللغة الفارسية. وقد دخل الإسلام هذه المنطقة فى القرن الأول الهجرى، وتتابعت عليها الدول الإسلامية، مثل: السامانية والخاقانية والغزنوية والسلجوقية والخورزمية، ثم استولى عليها المغول، ثم التيموريون، ثم انقسمت إلى عدة خانيات. وفى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى تمكن الروس القياصرة من الاستيلاء على تلك المنطقة، وخلفهم فيها الشيوعيون فقسموها إلى خمس جمهوريات، هى: أوزبكستان وطاجيكستان وفيرغيزستان وتركمانستان وقازاقستان، وأطلق عليها اسم جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية. تركستان الشرقية: وتعرف الآن باسم

مقاطعة سيكيانج أو المستعمرة الجديدة، وتوجد بالصين.  
وتحدها من الجنوب باكستان وكشمير والتبت، ومن الغرب  
أفغانستان وتركستان الغربية، ومن الشرق والجنوب الشرقي  
الصين ومنغوليا، ومن الشمال سيبيريا، ومن أهم مدنها: بخارى

(371/11)

---

الصغرى، وكاشغر. ويدين معظم أهلها بالإسلام. ويرتبط  
تاريخها بتاريخ تركستان الغربية، حتى تم الانفصال بينهما سنة  
(1760م)، بعد احتلال الصين لها، فقد كانت تلك المنطقة موضع  
نزاع دائم بين روسيا والصين، وتحول اسمها من تركستان  
الشرقية إلى مقاطعة سيكيانج سنة (1950م). وتبلغ مساحتها  
(1.710.745 كم<sup>2</sup>)؛ ويقدر عدد سكانها بنحو (8.5) مليون نسمة،  
يدين نحو (95%) منهم بالإسلام. وتمتلك تركستان الشرقية أغنى  
أنواع اليورانيوم وأجودها في العالم، ولديها احتياطي ضخم من  
البتترول، إلى جانب العديد من المناجم والثروات المعدنية التي  
تعتمد عليها الصين اعتمادًا كبيرًا.

(372/11)

---

### \*بيت المقدس

مدينة عربية قديمة. أسسها اليبوسيون الكنعانيون منذ حوالي  
خمسة آلاف عام، وسموها أورشليم نسبة إلى شالم، وهو معبود  
كنعاني معناه السلام، جاءت تسميتها في العهد القديم باسم  
أورشليم، وهي ليست كلمة عبرية وإنما هي كنعانية الأصل  
قبل أن تظهر العبرية، كما أُطلقَ عليها ييوس نسبة إلى  
اليبوسيين، من بطون العرب الأوائل في الجزيرة العربية، وهم

سكان القدس الأصليون وقد نزحوا مع القبائل الكنعانية نحو سنة (2500ق.م). وترتفع القدس عن سطح البحر المتوسط بنحو (750) متراً، وعن سطح البحر الميت بنحو (1150) متراً، وهي ذات موقع جغرافي مهم، على هضبة القدس والخليل، وفوق القمم الجبلية. وللقدس مكانة عظيمة في نفوس المسلمين، فهي أولى القبلتين، ومسرى النبي e، مما يجعلها ميراً إسلامياً يجب حمايته والمحافظة عليه. لم يدخل اليهود القدس إلا في عهد نبي الله داود، عليه السلام، الذي جعلها عاصمة له، حتى فتحها نبوخذ نصر (بختنصر) سنة (586ق.م)، ودمرها، وأجلى اليهود إلى بابل، ثم فتحها الإسكندر المقدوني سنة (332ق.م)، وتتابع عليها البطالمة والسلوقيون. وفي عهد الملك السلوقي أنطيوخوس الرابع أرغم اليهود على اعتناق الوثنية اليونانية، حتى نجح اليهود في الاستقلال بأورشليم تحت حكم الحاسميين سنة (135 ق. م)، ثم استولى الرومان على سوريا وفلسطين. وعندما ثار اليهود من جديد سنة (132 ق. م) استطاع الإمبراطور هادريانوس إخماد ثورتهم، وخرّب أورشليم، وبنى مكانها مستعمرة رومانية، حرّم على اليهود دخولها، وأطلق عليها اسم إيليا كابيتولينا. ولما اعتنق قسطنطين المسيحية، أعاد إلى المدينة اسم أورشليم، وقامت والدته هيلانة ببناء بعض الكنائس فيها، ومنها كنيسة القيامة. وعندما فتحها المسلمون، دخلها الخليفة عمر بن الخطاب آمن أهلها على أرواحهم واموالهم وعقيدتهم وكنائسهم، ورفض أن يُصلى في كنيسة القيامة،

(373/11)

---

حتى لا يتخذها من يأتي بعده سنّة. وفي عهد الأمويين بنى عبد الملك بن مروان قبة الصخرة المشرفة سنة (72هـ)، ثم أقام الوليد

بن عبد الملك المسجد الأقصى سنة (90هـ)، وواصل التعمير والتجديد فيها العباسيون، والطولونيون والإخشيديون، ثم الفاطميون، والسلاجقة، حتى احتلها الصليبيون سنة (492هـ)، فقتلوا نحو سبعين ألفاً من المسلمين في مذبحه بشعة، وأشاعوا الفساد في القدس ونهبوا كنوزها، ووضعوا الصليب على قبة الصخرة، حتى عادت على يد القائد صلاح الدين الأيوبي سنة (583هـ). وأصبحت القدس في زمن المماليك مركزاً من أهم المراكز العلمية في العالم الإسلامي، ثم تعاقب فيها العثمانيون حتى تأمرت عليها قوى الغرب الاستعمارية، وسعت إلى تقسيمها عن طريق وعد بلفور، الذي مهد لسيطرة اليهود على فلسطين كلها، فتدفقت أعداد كبيرة من شتى أنحاء العالم، إلى فلسطين عامة، والقدس خاصة حتى ضاقت بهم المدينة، فتوسعوا خارجها، فيما يسمى بالقدس الجديدة (الغربية). وما زالت اليهود تصرّ على ضمّ المدينتين، واتخاذ القدس الموحدة عاصمة لها وصبغها بالصبغة اليهودية، وقد تعرضت مباني المدينة للتدمير والتخريب. ويتعرض المسلمون لأشد حملات العنف والاضطهاد. وكانت جريمة حرق المسجد الأقصى وإطلاق النار على المصلين فيما عُرف بمذبحة الحرم الإبراهيمي من أبشع الجرائم التي ارتكبت في حق الإنسانية على مرّ التاريخ. ولم تقف ممارسات اليهود عند حدّ المذابح والإبادات الجماعية للمسلمين، فقد تعرض القرآن الكريم والنبى e لإساءات بالغة من المستعمرين اليهود في القدس!

(374/11)

\*طرابلس

ميناء شمالي لبنان على البحر المتوسط، بينها وبين بيروت (87)

كم، كانت عاصمة اتحاد مدن صيدا وصور وأرواد فسماتها الإغريق طرابلس، أى ذات المدن الثلاث، وبعد السيادة الفينيقية عليها، وقعت فى أيدي السلوقيين فالرومان ثم البيزنطيين حتى فتحها المسلمون نحو سنة (14هـ)، وبعد فتح دمشق فى خلافة عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، وحصنوها. وبعد سنة (365هـ)، تتابعت عليها الحملات الصليبية، فقام فيها خلال تلك الفترة إمارة شبه مستقلة على يد القاضى الشيعى الحسن بن عمار المتوفى سنة (464هـ) وخلفه ابن أخيه على بن محمد بن عمار الذى خلفه أخوه عمار بن محمد سنة (492هـ)، ولم تسقط طرابلس فى أيدي الصليبيين رغم سقوط بيت المقدس حتى سنة (502هـ)، وظلت معهم حتى نفر إليها السلطان قلاوون فهزعت للدفاع عنها الإمارات الصليبية، وأساطيل قبرص والجمهورية الإيطالية، ولكن حاميتها استسلمت لجيش قلاوون، فحكمها المماليك ثم العثمانيون حتى استولى عليها البريطانيون عام (1918م)، وفى سنة (1920م) أعلن الجنرال غورو الفرنسى قيام دولة لبنان الكبير التى ضمّت مقاطعات منها طرابلس. وينتهى بطرابلس خط أنابيب بترول العراق وبها مصفاة للبتروى العراقى، كما تقع طرابلس على الخط الحديدى القادم من بيروت ويتصل عند حمص بخط سكة حديد الشرق إلى حلب فالأناضول، ومن مشاهدها اليوم: الجامع الكبير، وقلعة ريمون سان جل الصليبية، وبعض الحمامات التركية، فضلاً عن أطلال القلعة البحرية بأبراجها الستة.

(375/11)

\*كردستان

تقع منطقة كردستان فى الجزء الغربى من قارة آسيا، ويحدها

الاتحاد السوفيتي (سابقاً) من الشمال وتركيا من الغرب، وسوريا والعراق من الجنوب، وإيران من الشرق، وتقدر مساحتها بنحو (409.650) كم<sup>2</sup>، وترتفع منطقة كردستان عن سطح البحر ما بين (1000 – 1500) متر، لذلك تتصف كردستان بأنها بلاد الجبال العالية والهضاب المرتفعة، فجبال آارات ترتفع بعض قممها إلى (5168) متراً وتمتد السهول الخصبة في منطقة كردستان وهي بلاد غنية بمصادر المياه المختلفة من أنهار وأمطار ومياه جوفية. لذلك فالمنطقة تتمتع باقتصاد قوى من الناحية الزراعية والسياحية إذا أمكن إغناء مشكلاتها السياسية التي تتبع من أن المنطقة مقسمة بين ثلاث دول هي تركيا والعراق وإيران، وتسمى كردستان في تركيا كردستان الشمالية ، وفي العراق كردستان الجنوبية وفي إيران كردستان الشرقية، وكردستان تعني أصلاً (بلاد الأكراد)، وأول من أطلق لفظة كردستان هو سنجر آخر ملوك السلاجقة في القرن الثاني عشر الميلادي، وأول من أَرخ هذه الكلمة هو القزويني في كتابه نزهة القلوب سنة (720هـ). وأغلب سكان منطقة كردستان من الأكراد، بالإضافة إلى العرب والتركمان والأتراك والأرمن والآشوريين، ويتكلم سكان كردستان اللغة الكردية بلهجاتها المختلفة، وتكتب الكردية بالحرف العربي رغم محاولات البعض كتابتها باللاتيني. ويوجد بعض الأحزاب السياسية الكردية في المنطقة مثل: حزب العمال الكردستاني (PKK)، وحزب شورش والحزب الديمقراطي الكردستاني والحزب الشيوعي الكردي. وأهم المدن في المنطقة: السليمانية وأربيل وديار بكر وكرمنشاه ومها باد. وللأكراد بعض الجامعات مثل الجامعة الموجودة في جنوب كردستان، وقد نبغ منهم عدد من الشعراء والأدباء والقادة، من أشهرهم القائد صلاح الدين الأيوبي.

## \*كردستان

تقع منطقة كردستان في الجزء الغربي من قارة آسيا، ويجدها الاتحاد السوفيتي (سابقاً) من الشمال وتركيا من الغرب، وسوريا والعراق من الجنوب، وإيران من الشرق، وتقدر مساحتها بنحو (409.650) كم<sup>2</sup>، وترتفع منطقة كردستان عن سطح البحر ما بين (1000 – 1500) متر، لذلك تتصف كردستان بأنها بلاد الجبال العالية والهضاب المرتفعة، فجبال آارات ترتفع بعض قممها إلى (5168) متراً وتمتد السهول الخصبة في منطقة كردستان وهي بلاد غنية بمصادر المياه المختلفة من أنهار وأمطار ومياه جوفية. لذلك فالمنطقة تتمتع باقتصاد قوى من الناحية الزراعية والسياحية إذا أمكن إنهاء مشكلاتها السياسية التي تنبع من أن المنطقة مقسمة بين ثلاث دول هي تركيا والعراق وإيران، وتسمى كردستان في تركيا كردستان الشمالية، وفي العراق كردستان الجنوبية وفي إيران كردستان الشرقية، وكردستان تعني أصلاً (بلاد الأكراد)، وأول من أطلق لفظة كردستان هو سنجر آخر ملوك السلاجقة في القرن الثاني عشر الميلادي، وأول من أرخ هذه الكلمة هو القزويني في كتابه نزهة القلوب سنة (720هـ). وأغلب سكان منطقة كردستان من الأكراد، بالإضافة إلى العرب والتركمان والأتراك والأرمن والآشوريين، ويتكلم سكان كردستان اللغة الكردية بلهجاتها المختلفة، وتكتب الكردية بالحرف العربي رغم محاولات البعض كتابتها باللاتيني. ويوجد بعض الأحزاب السياسية الكردية في المنطقة مثل: حزب العمال الكردستاني (PKK)، وحزب شورش والحزب الديمقراطي الكردستاني والحزب الشيوعي الكردي. وأهم المدن في المنطقة: السليمانية وأربيل وديار بكر وكرمنشاه ومها باد. وللأكراد بعض الجامعات مثل الجامعة

الموجودة في جنوب كردستان، وقد نبغ منهم عدد من الشعراء والأدباء والقادة، من أشهرهم القائد صلاح الدين الأيوبي.

(377/11)

### \*المورة

هو إقليم كان مجزئاً بين البنادقة وعدة إمارات صغيرة يحكمها بعض أعيان الإفرنج الذين تخلّفوا بعد انتهاء الحروب الصليبية. وفي سنة (1460م) قام بفتحها السلطان العثماني محمد الفاتح، وفي سنة (1463م) أرسلت البندقية حملة بحرية أنزلت ما بها من الجيوش إلى بلاد المورة فثار سكانها وقاتلوا الجنود العثمانيين، وأقاموا ما كان تهدم من سور برزخ كورنته لمنع وصول المدد من الدولة العثمانية، لكن لما علموا بقدوم السلطان مع جيش يبلغ عدده ثمانين ألف مقاتل تركوا البرزخ راجعين على أعقابهم؛ فدخل العثمانيون بلاد المورة دون مقاومة كبيرة، وأرجعوا السكينة إلى البلاد، وفي السنة التالية أعاد البنادقة الكرّة على بلاد المورة، ولكن دون جدوى. وفي سنة (1538م) تم الاتفاق على وضع صلح بين البندقية والدولة العثمانية، تنازلت فيه البندقية عن ملفوازي ونابولي ودي رومانيا من بلاد المورة. وفي سنة (1686م) خضعت بلاد المورة للبنادقة من جديد، وعندما تولى السلطان سليمان خان الثاني أباخ للمسيحيين بناء ما تهدم من كنائسهم في الآستانة، وعاقب بأشد أنواع العقاب كل من تعرض لهم في إقامة شعائر دينهم، حتااستمال جميع مسيحي الدولة، وكانت نتيجة معاملة المسيحيين بالقسط أن ثار أهالي المورة على البنادقة، فطردوهم من ديارهم لتعرضهم لهم في إقامة شعائر مذهبهم الأرثوذكسي وإجبارهم على اعتناق المذهب الكاثوليكي، ودخلوا في حمى الدولة العثمانية طائعين

مختارين؛ لعدم تعرضها لديانتهم مطلقاً. وبمقتضى معاهدة كارلوفتس تنازلت الدولة العثمانية عن بلاد الحورة، وعندما تولى على باشا داماد منصب الصدارة العظمى (رئاسة الوزراء) أعلن الحرب على البندقية، وفي زمن قليل استرد بلاد الحورة.

(378/11)

### \*فلسطين

دولة إسلامية عربية محتلة، عاصمتها القدس تقع على الساحل الشرقي للبحر المتوسط في الغرب من قارة آسيا، يحدها من الشرق سوريا والأردن ومن الشمال لبنان وسوريا ومن الجنوب شبه جزيرة سيناء المصرية، وتبلغ مساحة فلسطين نحو (27009) كم<sup>2</sup>، سميت قديماً أرض كنعان باعتبار أن الكنعانيين الساميين أول من سكنها؛ جاءوها من الجزيرة العربية، ثم دخلتها قبائل عبرانية واستقرت بها ثلاث جماعات هم الفلسطينيون والكنعانيون والعبرانيون، وكانت المعارك بينهم كثيرة. وغزاها الإسكندر عام (331ق.م) وفي أواخر القرن الأول قبل الميلاد وُلد سيدنا عيسى بن مريم، عليهما السلام، في بيت لحم، ونشأ في الناصرة - وهما من مدن فلسطين -، وانتشرت تعاليمه ولقيت مقاومة عنيفة من اليهود والرومان، حتى تنصّر قسطنطين في مطلع القرن الرابع الميلادي. وقد تمرد اليهود وانتهى تمردهم بالقضاء عليهم ونكّل بهم ومُنِعُوا من دخول القدس وبذلك انتهت صلتهم بفلسطين وازداد تشتتهم حتى القرن التاسع عشر الميلادي وفي سنة (636م) وعلى أثر معركة اليرموك دخل المسلمون فلسطين وظلت ولاية إسلامية خالصة حتى ما بعد الحرب العالمية الأولى حيث بسطت بريطانيا نفوذها عليها فأعطت اليهود وعداً بإنشاء وطن قومي لهم فيها سنة

(1917م) سمي وعد بلفور واستكملت مهمتها فأعدت وأنشأت الكيان الصهيوني، حتى أعلنوا لهم دولة سنة (1947م)، وقامت قبل الإعلان وبعده حركات وحدوية إسلامية ومسيحية ضد التهجير. وشكّلت لجان مقاومة بقيادة العلماء المسلمين، ونجحت مؤتمرات الدول العربية في إقامة منظمة التحرير الفلسطينية سنة (1964م)، وكان الدور الفعّال لحركات الجهاد الإسلامي والتي كان من أبرزها حركة المقاومة الإسلامية (حماس)، والتي عرفت أيضاً بانتفاضة أطفال الحجارة، وكان آخر فعاليات القضية الفلسطينية مؤتمر مدريد سنة (1992 م)، واتفاقية غزة - أريحا.

(379/11)

---

وأهم مايميز القضية الفلسطينية كونها قضية ذات سمّة عقائدية عند اليهود من جهة والشعوب العربية والإسلامية من جهة أخرى. وأن مطامع اليهود لا تتقف عند حد فلسطين وحدها، بل تمتد أطماعهم إلى دولة كبرى تمتد حدودها من النيل إلى الفرات.

(380/11)

---

\*مصوع

مدينة وميناء بإريتريا، على ساحل البحر الأحمر، وهي سوق للؤلؤ. وتمتد مصوع من رأس قصار إلى بالارثيا، وتمتد غرباً إلى سبدرات قرب كسلة. وهي جزيرة في البحر طولها نحو ميل، وعرضها زهاء (400) ياردة، وبينها وبين البر جزيرة صغيرة تعرف بجزيرة طالوت، كان الناس يعبرون منها إلى البر بالزوارق إلى سنة (1290هـ)، فشيّد لهم مونسنجر باشا جسراً ضيقاً من خشب، أقامه على عمد من حجر جاعلاً طالوت وصلة فيه. وتوجد

قرب مصوع جزائر دهلك التى يستخرج منها اللؤلؤ والصدف،  
وفىها آثار قديمة عليها كتابة، قيل إنها من عهد الفرس. وتجاه  
مصوع فى البر ثلاث قرى صغيرة، ويوجد جنوبها ميناء زولا  
المشهور قديماً باسم أدولس، وفيه آثار من عهد البطالسة. كانت  
مصوع خاضعة لحكم مصر فى القرن التاسع عشر الميلادى،  
وكانت قاعدة للحلفاء فى الحرب العالمية الثانية.

(381/11)

---

### \*المقطم

المقطم جبل يقع شرق القاهرة، وقد حدث هذا الجبل فى العصور  
الجيولوجية القديمة نتيجة التواء طبقات الأرض شرقى النيل، فى  
شبه قوس متوسط الارتفاع نحو (240) متراً، ويصل ارتفاعه فى  
بعض أجزائه عند منطقة المعادى (375) متراً، وتقارب قمته قلعة  
صلاح الدين الأيوبي، وينتهى طرف القوس شمالاً عند منطقة مصر  
الجديدة، وجنوباً عند منطقة المعادى، وتوجد بعض الوديان فى  
جبل المقطم، مثل: وادى التيه ووادى دجلة ووادى أبو سالى،  
ويمتاز جبل المقطم بوجود ظواهر طبيعية متنوعة فى هضابه  
مثل: الطبقات الصخرية النارية فى محاجر أبو زعبل، وقد أفاض  
مؤرخو مصر فى العصور المختلفة فى مدح هذا الجبل، ودُكرت  
أساطير عنه، وكان هذا الجبل ملجأً للزهاد والمتصوفة، وتم بناء  
العديد من المساجد فى هذا الجبل، بالإضافة إلى قلعة الجبل  
الشهيرة وتوجد تحت سفح هذا الجبل مقابر القاهرة.

(382/11)

---

### \*الفجاق

الفجاق ويقال قجاق هو وطن القبائل التركية من سنة (1103م) حتى سنة (1223م)، وكان وقتئذ حوض نهر أرتش في سهل سيبريا. وقد نزلوا إلى الجنوب الغربي بضغط من قبيلة كيمك التركية نحو سنة (1030م) ثم ساقوا قبائل أوغز التي كانت أمامهم ودخلوا أوروبا وأخذوا مكان قبيلة الكومان التركية التي انصاعت لأمرهم، كما أطاعهم البجك. وقد أبادهم باطوخان حفيد جنكيز خان مع تابعيهم الأمراء الروس في سنة (1223م) في حوض نهر حلقة وأصبحوا تابعين لخاقانية الطون أوردي واكتسبوا الدم المغولي، غير أنهم جعلوا المغول في النهاية يتكلمون اللغة التركية، ومما يذكر أن العرب أطلقوا على أوكرانيا الحالية من عهد القجاق سهل القجاق. ومعظم سلاطين المماليك أتراك قجاق، وقد صُنِّفَتْ لأجل ذلك - كتبًا عربية لتعليم اللهجة القجاقية التركية مثل كتاب المشتاق في لغة الترك والقجاق.

(383/11)

### \*الفولجا (نهر)

أطول أنهار أوروبا، يقع في روسيا الأوربية، ويبلغ طوله ( 3684) كم، وينبع الفولجا من تلال فالداي وينحى شرقاً من جوركي إلى قازان ثم جنوباً إلى كوبيشيف وستالينجراد، وأهم روافده كاما وأوكا. ويمثل نهر الفولجا نحو ثلث مساحة روسيا الأوربية، وتربطه قنوات ملاحية بأنهار روسيا الأخرى، وهو صالح للملاحة في الفترة من أواخر إبريل إلى أواخر نوفمبر في المنطقة حتى شتيرباكوف، ومن أوائل مارس حتى منتصف ديسمبر في المنطقة حتى إستراخان. وتستخدم مياه نهر

الفولجا في رى مساحات واسعة من الأراضى الزراعية، وقد  
أقيمت في مجارى نهر الفولجا العليا سدود كثيرة ومحطات  
للكهرباء.

(384/11)

### \*القرن الإفريقي

منطقة تقع في شرق إفريقيا تضم ثلاث دول هي الصومال  
وأثيوبيا وجيبوتى، وتعتبر حلقة الاتصال بين أجزاء الوطن  
العربى في إفريقيا وآسيا، ويتحكم هذا القرن في المدخل  
الجنوبى للبحر الأحمر من خلال سيطرته على مضيق باب المندب.  
ويحد منطقة القرن الإفريقي من الشمال البحر الأحمر وخليج عدن  
، ومن الشرق المحيط الهندى ومن الجنوب كينيا ومن الغرب  
والشمال الغربى السودان. وتبلغ مساحة القرن الإفريقي ( )  
1882557 كم2). وتتمتع هذه المنطقة بأهمية استراتيجية كبيرة؛  
لتحكمها في طريق التجارة الدولية بين المحيط الهندى والبحر  
الأحمر من ناحية والمحيط الأطلنطى والبحر المتوسط من ناحية  
أخرى؛ وقد ازدادت أهمية هذه المنطقة بعد اكتشاف البترول  
في منطقة الخليج العربى. وكانت هذه المنطقة مَحَطَّ أطماع  
الدول العظمى والاستعمارية فسيطر عليها العرب البرتغاليين  
والإسبان والعثمانيون والبريطانيون والإيطاليون وغيرهم،  
بالإضافة إلى التنافس بين الاتحاد السوفييتى - سابقاً -  
والولايات المتحدة لإثبات النفوذ وإقامة القواعد العسكرية، فنجد  
أن الولايات المتحدة حصلت على استخدام قاعدة كاغنيوم  
الأثيوبية منذ عام (1953م) ولمدة (25) سنة، وعمق السوفييت  
نفوذهم في الصومال، كما أن اسرائيل لها نفوذ كبير في هذه  
المنطقة الحيوية في ظل علاقاتها مع أثيوبيا.

**\* فيينا**

عاصمة النمسا، تقع على نهر الدانوب. مساحتها (1214) كم2، وتعد مركزاً ثقافياً واجتماعياً كبيراً، وتكثر بها الصناعات المختلفة، حاصرها السلطان العثماني سليمان القانوني سنة (1529م) وهدم جزءاً من أسوارها ثم تراجع عنها لدخول الشتاء ونفاد الذخيرة، كما حاصرها العثمانيون مرة أخرى سنة (1683م). وبلغت فيينا ذروة مجدها كمركز للعلوم والفنون، فلمعت فيها أسماء مثل: موتسارت وهايدن وبيتهوفن وشوبرت وغيرهم، وأخذت أهميتها تتضاءل بعد الحرب العالمية الأولى، وأصابتها تخریب ذريع في الحرب العالمية الثانية عندما استولى عليها الجيش الروسي في إبريل سنة (1945م)، كما احتلتها القوات الروسية والأمريكية والبريطانية والفرنسية، وتم جلاء القوات الأجنبية، تنفيذاً لمعاهدة الصلح التي أبرمتها النمسا مع الحلفاء سنة (1955م).

**\* القطيف**

مدينة بالمنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية بإقليم الأحساء. كانت في القديم تسمى هجر. تقع على خليج تاروت بالخليج العربي من ورائها واحة زراعية واسعة، وعلى بعد (6 كم) من القطيف تقع جزيرة تاروت في قلب خليج كيبوس وقد تأثر سكان القطيف بالمؤثرات الإيرانية والمؤثرات الأرمينية، ولهذا يندر أن نجد عناصر نقية لجنس البحر المتوسط، وينتشر

بينهم المذهب الشيعي. وتسمى المنطقة الرئيسية في القطيف باسم القلعة وهي على ساحل الخليج العربي، وكان يحيط بها سور قديم لم يبق منه سوى أجزاء متهدمة، وبالقلعة بعض الآثار التاريخية، من أهمها مسجد منذ القرن الثامن الهجري، وقد نقل القرامطة الحجر الأسود إلى مكان يقع على بعد نحو (8 كم) من القطيف سنة (317هـ)، وبقي الحجر بها حتى أعاده القرامطة سرًا إلى مكة عام (339هـ).

(387/11)

---

#### \* وادي النطرون

وادي يقع في الصحراء الغربية بمصر، قريبًا من حدود الدلتا، في منتصف الطريق الصحراوي بين القاهرة والإسكندرية. كان قدماء المصريين منذ فجر تاريخهم يحصلون من بحيراته على ملح النطرون، وتوجد به أطلال حصن داخله معبد، بناه أمنمحات الأول الذي ينتمي إلى الأسرة الثانية عشرة. اشتهر هذا الوادي فبالعصر القبطي بأديرته الكبيرة التي تحرّب معظمها الآن، ولم يبقَ منها إلا أربعة ماتزال آهلة برهبانها، وهي: أنبا بشوى، والسوريان والبراموس وأبو مقار.

(388/11)

---

#### \* طوروس

سلسلة من الجبال في تركيا تمثل الحد الجنوبي للأناضول، وتمتد موازية ساحل البحر المتوسط. وتنقسم جبال طوروس إلى مجموعتين تعرفان باسم بلغار داغ وألاداغ. ويوجد في جبال طوروس ثلاث قمم ترتفع إلى أكثر من (11) ألف قدم، وتخرقها

عدة مجارٍ مائة منها الفرات الأعلى مكوّنة ممرات جبلية تصل سوريا بالأناضول، وكان لهذه الممرات دور في غزو جيش محمد على لآسيا الصغرى التركية سنة (1832م)، ومن ثم تمثل هذه الجبال أهمية لكل من تركيا والعالم العربى. وتحتوى جبال طوروس على كثير من المعادن أهمها: النحاس والفضة.

(389/11)

---

#### \*اليرموك (نهر)

نهر من فروع نهر الأردن طوله نحو (90 كم)، يجرى في بدايته قرب حدود سوريا وفلسطين ثم ينحدر جنوباً إلى فلسطين ويصب في جنوب بحيرة الحولة. وقد انتصر عنده المسلمون بقيادة خالد بن الوليد على البيزنطيين بقيادة ملكهم سنة (13هـ) والتي كانت بمثابة فتح للأردن.

(390/11)

---

#### \*الهمالايا (جبال)

الهمالايا كلمة تعنى فى اللغة السنسكريتية موطن الجليد، وهى سلسلة جبال آسيوية تمتد نحو (2414) كم فى باكستان وكشمير والهند وإقليم التبت والصين، ونيبال وسكيم وبوتان، وتتكون من عدة سلاسل تمتد متوازية، وإحدى هذه السلاسل مكوّنة من صخور بلورية قديمة؛ ولهذا قاومت عوامل التعرية واحتفظت بارتفاعها الشاهق المتمثل فى قمة إفرست التى يزيد ارتفاعها على (8800 م) وقمة تشنجنجا وارتفاعها (7450م). وتنتهى سلاسل الهمالايا فى شمال شرق الهند نحو الجنوب بسبب اعتراض هضبة يونان القديمة لها، وتكون مجموعة من

السلاسل الجبلية، تلك السلاسل التي تمتد متجاورة في امتدادات طولية من الشمال إلى الجنوب، وتختصر بينها ودياناً أهدودية وعرة تجرى فيها المجارى العليا للأهوار الرئيسية في الهند والصين، كأهوار: إيراوادى وسالوين وميكونج ويانج تسي، وتعرف السلسلة الرئيسية في غرب بورما باسم أركان يوما، هذه السلسلة تمتد غرب دلتا نهر إيراوادى ثم تهبط في خليج بنغال وتظهر قممها في سلاسل جزر أندمان ونيكوبار ثم في جزيرة سومطرة وجاوة ومجموعة جزر إندونيسيا الممتدة على طولها.

(391/11)

---

### \*اللووار

اسم لنهرين في فرنسا: الأول لووار الشمالى ويقع وسط فرنسا وطوله (310 كم) ويجرى نحو الجنوب الغربى لصب في نهر سارت. والثانى: وهو أطول أهوار فرنسا طوله نحو ألف كيلو متر ويجرى نحو الشمال الغربى حتى أورليان ثم ينحرف إلى الجنوب الغربى ليصب في المحيط الأطلنطى عند سان نازير لمسافة (1012 كم). وكان نهر اللوار قديماً ممراً رئيسياً للمواصلات يبدأ من قلب فرنسا إلى المحيط الأطلنطى، إلا أن ظهور السكك الحديدية أدى إلى حرمان النهر من هذه الميزة. ويوجد في وادى اللوار كثير من القصور والقلاع التي ترتبط بتاريخ فرنسا وبالحضارة الفرنسية.

(392/11)

---

### \*نجران

واد كبير على حدود اليمن والمملكة العربية السعودية وهو مقسم بين البلدين، نصفه الشمالى تابع للسعودية ونصفه الجنوبى لليمن، وقعت فيه أحداث قصة أصحاب الأخدود فى نحو سنة (533م) والى أشار إليها القرآن الكريم فى سورة البروج، وتم فتح نجران على عهد النبى - صلى الله عليه وسلم - فى سنة عشر صلحًا على الفئ على أن يقاسموا العشر ونصف العشر، وتسكن نجران قبائل بدوية، وفيه بقايا المدن والمعابد القديمة والسدود، ويوجد على صخور بعض وديانه كثير من النقوش، أكثرها كتابات يرجع تاريخها إلى حضارتى سبأ ومعين.

(393/11)

---

### \*البلقاء

بلدة من قرى دمشق ببلاد الشام، بما قرى كثيرة، ومزارع واسعة، قيل: إن بما قرية الجبارين التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: (إن فيها قومًا جبارين) [المائدة: من 22]، وبها الكهف والرقيم، ومن أشهر علمائها: حفص بن عمر بن حفص بن أبى السائب، وموسى بن محمد الأنصارى المقدسس، وموسى بن محمد بن عطاء بن أيوب.

(394/11)

---

### \*أطلس (جبال)

أطلس جبال تقع فى شمال القارة الإفريقية، يمتد من غرب إفريقيا نحو (2500 كم) من المملكة المغربية ويمر بالجزائر حتى شمال شرقى تونس ويتكون من سلسلتين كبيرتين هما: سلسلة

أطلس الشمالية في المغرب، وتمتد من الغرب إلى الشرق، وتسمى في المغرب أطلس الريف وتتميز بعدم ارتفاعها الشديد الذي لا يتعدى (2480 م) كما تتميز بشدة الوعورة وصعوبة الاجتياز. وتنقسم إلى فرعين هما أطلس الريف، وأطلس الوسطى، وسلسلة أطلس الجنوبية تُعرف في الجزائر بأطلس الصحراء أو التل، وتُعرف في المغرب بأطلس العليا أو الكبرى، ويوازيها سلسلة جبال أطلس الخلفية التي تكوّن هي وجبال أطلس الكبرى سدًا منيعًا بين مراكش والصحراء الكبرى، ويبلغ أعلى ارتفاع في أطلس الكبرى (4165 م)، وتعلوها الثلوج دائمًا، ويسودها مناخ البحر الأبيض المتوسط. وبصفة عامة تعد جبال أطلس امتدادًا لجبال الألب الأوربية، وأول من أطلق عليها اسم أطلس هم اليونان.

(395/11)

---

\*طَلْبِيرَة

مدينة إسبانية تُعرف اليوم بالاسم الإسباني تالافيرا. وتقع طلبيرة على نهر تاجة وعلى مسافة (70) كم إلى الغرب من طليطلة كما تبعد (175 كم) في الجنوب الغربي من مدريد. فتح المسلمون مدينة طلبيرة على يد طارق بن زياد سنة (92هـ)، وبعد سقوط الخلافة الأموية أصبحت طلبيرة من نواحي طليطلة. وقد استولى الإسبان على مدينة طلبيرة سنة (475هـ). وينسب إلى مدينة طلبيرة جماعة من أهل العلم، منهم: المحدث أبو الحسن عبد الرحمن بن سعيد الشماخ، والأديب أبو القاسم سعيد.

(396/11)

---

### \* طولون

ميناء جنوب شرق فرنسا على البحر المتوسط استولى عليه الإنجليز من الفرنسيين (الملكيين) سنة (1793م)، وقد استرعى نابليون الأول الأنظار إلى ميناء طولون بسبب الدور المتميز الذي لعبه في طرد الإنجليز من طولون، وكان ذلك سبب شهرته. وأغرق فيها الأسطول الفرنسي سنة (1942م) حتى لا يقع في يد الألمان وحُرِّب طولون سنة (1942م) في الحرب العالمية الثانية بقنابل الحلفاء لكونها قاعدة لغواصات الألمان.

(397/11)

---

### \* العقبة

ميناء يقع في المملكة الأردنية عند الطرف الجنوبي لواد عربية على البحر الأحمر ويبعد (64) ميلاً جنوبي بلدة معان الأردنية. فتح المسلمون العقبة سنة (8هـ)، وكانت إبان العصور الوسطى من أهم موانئ فلسطين، تنازع عليها المسلمون والصليبيون إلى أن استولى الصليبيون عليها، ثم استردها صلاح الدين الأيوبي سنة (567هـ)، ثم أصبحت تابعة لمصر على حدودها الشرقية، ثم آلت سياسياً إلى تركيا، ثم ضُمت إلى الحجاز سنة (1917م)، حتى أُدمجت في الأردن سنة (1925م). واشتهرت العقبة بقلعتها الشهيرة التي بناها السلطان قانصوه الغوري، ولم يبقَ من هذه القلعة الآن سوى أطلال تشمل الواجهة والمدخل.

(398/11)

---

### \* شاطبة

مدينة بشرقي إسبانيا بمقاطعة بلنسية تُعرف اليوم بالاسم

الإسبانى خاتيفا، وتقع بعيداً عن ساحل البحر البيض فى الجنوب من مجرى نهر شقر وعلى الخط الحديدى القادم من بلنسية فى الشمال. اشتهرت مدينة شاطبة بمتنزهاتها الثلاثة وهى: البطحة والغدير والعين الكبيرة، كما اشتهرت بصناعة الورق الجيد. كانت شاطبة تابعة لإمارة بلنسية، وبعد سقوط الخلافة الأموية بقرطبة دخلت فى حوزة العامريين، ثم استولى عليها القادر ذو النون ثم ابن تاشفين بعد معركة الزلاقة. وتم إجلاء المسلمين عنها سنة (645 هـ) بعد هزيمتهم أمام نصارى الأندلس. وكانت شاطبة بفضل موقعها الحربى حصناً من أعظم الحصون الأندلسية، لاتزال آثار سورها وحصنها باقية إلى اليوم. وينتسب إلى شاطبة جماعة من العلماء، منهم: أبو محمد القاسم بن فيرة بن خلف الشاطبى، وأبو عبد الله بن سلمان الشاطبى، وأبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد الشاطبى.

(399/11)

### \*طرسوس

مدينة تركية تقع بقرب ساحل الأناضول الجنوبى، وتطل على نهر طرسوس، وهى مدينة فى موقع متوسط بين مدينتى مرسية وأطنة. فتح المسلمون مدينة طرسوس سنة (15 هـ)، فأصبحت مركزاً إسلامياً مرموقاً، وقد استولى الصليبيون على طرسوس إبان الحملة الصليبية الأولى سنة (490 هـ)، وكانت طرسوس خلال الحكم الصليبي تابعة لبطركية أنطاكية، ثم استولى المماليك على طرسوس إبان سلطنة بيبرس على يد قائده قلاوون، ودامت السيطرة المملوكية المصرية على طرسوس نحو ثلاثة قرون، حتى خضعت للعثمانيين سنة (1017 هـ)، ثم استولى عليها الجيش المصرى بقيادة إبراهيم باشا سنة (1832 م). وينتسب إلى مدينة

طرسوس جماعة من العلماء، منهم: محمد بن أحمد بن محمد  
الطرسوسى الحنفى.

(400/11)

### \*جزر القمر

إحدى الدول العربية فى قارة إفريقيا، تقع فى المنطقة الممتدة  
فى مضيق موزمبيق بالمحيط الهندى بين شمالى مدغشقر  
وجنوب شرق إفريقيا، وتبلغ مساحتها (2235 كم<sup>2</sup>)، وتتكون من  
عدة جزر، هى: جزر القمر الكبرى وأنجوان، وموهيلى،  
ومايوت. ومناخها حار ممطر. وينتمى سكانها إلى أصول عرقية  
مختلفة؛ وذلك لوقوعها على طرق التجارة. وتعد اللغتان العربية  
والفرنسية اللغتين الرسميتين، وأغلبية سكانها مسلمون، مع  
وجود أقلية مسيحية. ويعتمد اقتصادها على بعض المحاصيل  
الزراعية، مثل: الفانيليا وزهرة إيلانغ- إيلانغ، كما يعتمد  
اقتصادها على المساعدات الخارجية. وأول من سكن جزر القمر  
العنصر الماليزى، ثم توافدت عليها الهجرات ونزل بها جماعات  
من العرب من حضرموت فى القرن (2هـ=8م)، وسموها جزر القمر،  
واعتنق أهلها الإسلام فى القرن (4هـ=10م)، واحتلها البرتغاليون  
سنة (908هـ)، إلا أنهم طردوا منها. وقد قامت بجزر القمر  
سلطنات عدة كثرت الصراعات بينها؛ مما جعلها مطمعاً  
للاستعمار الفرنسى فى القرن التاسع عشر، حتى حصلت على  
استقلالها سنة (1975م). واختير أحمد عبد الله رئيساً لها،  
ووقعت فى جزر القمر عدة انقلابات، وكان للمرتقة الأجانب دور  
بارز فى هذه الانقلابات. ويعتمد النظام السياسى فى جزر القمر  
على دستور (1978 م) الذى يعدها جمهورية فيدرالية إسلامية،  
ويوجد بها جمعية تشريعية تتكون من (38) عضواً، ويبلغ عدد

الأحزاب بها (24) حزبًا وتنظيمًا سياسيًا. وجزر القمر عضو في الأمم المتحدة والجامعة العربية ومنظمة الوحدة الإفريقية، ويوجد لفرنسا بها قاعدة عسكرية دائمة.

(401/11)

---

### \*جورجيا

جورجيا جمهورية مستقلة عن الاتحاد السوفيتي السابق، يحدها من الشمال والشمال الشرقي جمهوريات تابعة لروسيا الاتحادية، ومن الجنوب الشرقي جمهورية أذربيجان ومن الجنوب جمهورية أرمينيا والجمهورية التركية، وتقع من الغرب على البحر الأسود. ومساحة جورجيا نحو (70) ألف كم<sup>2</sup>، تشغل الجبال نحو (80%) من هذه المساحة، ويبلغ عدد سكان جورجيا نحو خمسة ملايين ونصف مليون نسمة، نصفهم تقريبًا يعيشون في المدن. وعاصمة جورجيا تبيليسي. ويعتمد اقتصاد جورجيا على الصناعة والزراعة والتجارة، ومناخها انتقالي من شبه المداري إلى المعتدل. وقد استقلت جورجيا عن الاتحاد السوفيتي السابق سنة (1991م)، وكان شيفرنادزة أول رئيس لها.

(402/11)

---

### \*الجزائر

تقع الجزائر شمال غرب إفريقيا، وتطل على ساحل البحر المتوسط شمالًا، وتحدها من الشرق تونس وليبيا، ومن الغرب المغرب وموريتانيا، ومن الجنوب مالي والنيجر، وتبلغ مساحتها (2.381.741 كم<sup>2</sup>)، وأهم مدنها: الجزائر العاصمة، ووهران، وقسنطينة، وعنابة، وسيدى بلعباس. ويبلغ عدد سكان الجزائر

نحو (25.063.000) نسمة حسب إحصاء عام (1989م) أغلبهم من العرب والبربر، وتعد اللغة العربية هي اللغة الرسمية للجزائر، ويوجد بجانبها اللغة الفرنسية ولغات البربر ولهجاتهم. ويبلغ إجمالي الدخل القومي للجزائر نحو (53.1) مليار دولار حسب تقديرات عام (1989م) ومتوسط دخل الفرد سنوياً (2170) دولار. وأهم مصادر الدخل بها: الحبوب، والكروم، والبطاطس، والتمر، والفواكه والخضراوات، والبترو، والحديد والصلب، والأسمدة، والمنسوجات، وتجميع السيارات، وبالإضافة إلى ذلك تتمتع الجزائر بثروة حيوانية كبيرة، والعملة المتداولة هي الدينار الجزائري.

(403/11)

#### \*جدة

ميناء بالمملكة العربية السعودية. يطل على البحر الأحمر، ويعد المنفذ البحري لمكة المكرمة وأكبر الموانئ التجارية السعودية. ويتوسط ميناء جدة المسافة بين طرفي البحر الأحمر الشمالي والجنوبي، وجدة ميناء الحجاج الوافدين إلى الحجاز عبر البحر الأحمر. ومناخ جدة حار شديد الرطوبة. ويرجع تأسيس جدة إلى ما قبل الإسلام، إلا أن أهميتها كميناء اكتسبتها على يد الخليفة عثمان بن عفان، رضى الله عنه، الذى أنشأها عام (26هـ). ونظراً لأهميتها قام سلاطين المماليك بحمايتها؛ فقد أنشأ السلطان الغورى حولها سوراً كبيراً منيعاً، حتى عام (915هـ). وقد أغار البرتغاليون عليها سنة (1541م)؛ لتحطيم السفن العثمانية إلا أنهم فشلوا فى ذلك، واستولى عليها المصريون عام (1812م)، ثم خضعت لنفوذ السعوديين. ويوجد فى جدة

محطات لتحلية المياه ومدينة للحجاج ومطار دولى، وتشتهر بعدة صناعات مختلفة.

(404/11)

---

### \*جبل طارق

هو شبه جزيرة صغيرة، بمثابة مرتفع صخرى يشرف على المدخل الغربى للبحر الأبيض المتوسط، يبلغ ارتفاعه (425.5) متر، وطوله (4.5 كم)، وعرضه (1.2 كم)، ومساحته (5.5 كم<sup>2</sup>). وتبعد القارة الإفريقية عن جبل طارق عبر المضيق مسافة (20) ميلا. وهو ينسب إلى القائد العربى طارق بن زياد الذى استولى على شبه الجزيرة عام (711م) فى بداية فتحه للأندلس. وقد بلغ عدد سكان مدينة جبل طارق (30117) نسمة فى عام (1976م)، واللغة الرسمية هى الإسبانية والإنجليزية، والديانة السائدة هى المسيحية وفق المذهب الكاثوليكى؛ إذ يمثل المسيحيون (84%) من عدد سكان المدينة، فى حين لا تتجاوز نسبة المسلمين بما (8%). وبريطانيا هى الحاكم العام فى جبل طارق، فهى تقوم بمهام السلطة التنفيذية بالتشاور مع مجلس منتخب مكون من (15) عضواً، والعملة المتداولة هى الجنيه الاسترلى، والدولار الأمريكى. وأهم الموارد الاقتصادية: السياحة، ورسوم الشحن، والرسوم البحرية والجوية التى تتقاضاها المستعمرة مقابل التسهيلات التى تقدمها للسفن والطائرات.

(405/11)

---

### \*بولاق

حى من أحياء القاهرة القديمة، كان حتى العصر المملوكى

مبناؤه نهرًا تفصله عن المدينة المزراع والحقول. بدأ إنشاؤه منذ ولاية محمد على (1805م = 1848م) فأقام به عدة منشآت علمية وصناعية، كان المقصود بها إضفاء الجانب الحضارى على الحياة المصرية. وحى بولاق مشهور بمطابعه، وهى أول مطابع أقيمت فى مصر بعد مطابع الحملة الفرنسية التى جلبها بونابرت معه، ولم تعمر طويلا، وصدر عن مطبعة بولاق جريدة الوقائع المصرية سنة (1828م)، وهى أول جريدة عربية تطبع بالقاهرة. وأقيم بحى بولاق متحف للآثار المصرية حتى نقل إلى قصر النيل. ومن أهم معالم بولاق الأثرية: مسجد سنان باشا ومسجد السلطان أبى العلاء.

(406/11)

#### \*الجيزة

إحدى محافظات مصر. تقع على الجانب الغربى من النيل تجاه القاهرة عند تفرع نهر النيل. وتبلغ مساحتها (4820 كم2)، وتشترك فى حدودها مع محافظات: القاهرة والبحيرة والمنوفية والقليوبية وبنى سويف. ويبلغ عدد سكانها (3 ملايين نسمة، وتنقسم إدارياً إلى ستة مراكز، هى إمبابة وأوسيم والجيزة والبدرشين والعياط والصف، وتضم (172) قرية. والجيزة من المحافظات الزراعية التى تمد القاهرة بالمواد الغذائية، وبها جامعة القاهرة أعرق جامعات الوطن العربى، وعدد من المدارس المختلفة، وتنتشر بها الآثار الفرعونية والإسلامية مثل: أهرامات الجيزة. وقد استقرت بعض القبائل العربية فى منطقة الجيزة أيام الفتح الإسلامى لمصر، وقامت ببناء حصن لهم بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، وكانت هذه القبائل هى النواة التى قامت عليها مدينة الجيزة.

وعرفت الجيزة في العهد الفاطمي باسم الجيزية، ثم سميت في  
العصر العثماني ولاية الجيزة، ثم أصبحت مديرية الجيزة سنة  
(1889م)، ووقعت فيها معركة إمبابة أيام الحملة الفرنسية سنة  
(1798م). وتضم الجيزة عددًا من الآثار الإسلامية، مثل: المسجد  
الجامع الذي بنى في عهد الأمير علي بن الإخشيد سنة (961هـ)،  
ويوجد بها أيضاً قبر الصحابي الجليل كعب الأحمار. وينتسب إلى  
الجيزة عدد من العلماء، مثل: الربيع الجيزي المتوفى سنة  
(256هـ)، وشيخ الجامع الأزهر سابقاً أبي الفضل الجيزاوي.

(407/11)

---

### \*كربلاء

عاصمة المقاطعة التي تحمل اسمها، وهي تبعد (88) كم إلى  
الجنوب الغربي من مدينة بغداد. ويبلغ عدد سكانها (107.000)  
نسمة حسب إحصائية سنة (1970م)، وتقع على الضفة اليسرى  
من جدول الحسينية الذي يتفرع من نهر الفرات، على مسافة  
(104) كم من بغداد، وتحيط بها البساتين المشهورة بنخيلها  
وفاكهتها. وهي مدينة إسلامية مقدسة؛ إذ بها قبر الحسين،  
رضي الله عنه، وإلى جواره قبر أخيه العباس، وفي أطرافها  
عدد من القبور الأخرى، مثل: قبر الحر وقبر عون بن عبد الله،  
ويقصد إلى كربلاء الآلاف من الزوار المسلمين من العراق  
والأقطار الإسلامية الأخرى وخاصة من إيران وأفغانستان  
وباكستان.

(408/11)

---

## \* صربيا

إحدى جمهوريات يوغسلافيا السابقة. تقع في الجزء الشرقي منها، وكانت قديماً تابعة للدولة البيزنطية. تبلغ مساحتها نحو (88920 كم<sup>2</sup>). وعدد سكانها (6.979.154) نسمة، معظمهم يعملون بالزراعة. وفي سنة (792هـ = 1389م) هُزمت صربيا أمام الجيوش العثمانية في معركة قوصوه، وفي سنة (928هـ = 1521م) ضمها سليمان القانوني إلى مملكته، وأصبح يتولى حكمها ولاية أتراك الجنسية، يقيمون فعاصمتها بلجراد. ومنذ سنة (1284 هـ = 1828 م) بدأت روسيا تساعد صربيا على الثورة ضد الدولة العثمانية، حتى خرجت تركيا منها سنة (1295 هـ = 1867 م)، واعترفت باستقلالها في معاهدة برلين سنة (1299 هـ = 1878 م). وفي سنة (1303هـ = 1885م) قامت الحرب بين صربيا وبلغاريا، بسبب رغبة صربيا في التوسع على حساب بلغاريا، ولكنها هُزمت، ومع هذا مالبت أن حاربت النمسا سنة (1333هـ = 1914م)، ولكنها هُزمت أيضاً؛ فانسحبت من الحرب. وفي سنة (1336هـ = 1917م) أعلن مؤتمر الشعوب السلافية الجنوبية، اتحاد كل من صربيا وكرواتيا وسلوفانيا والجبل الأسود تحت سلطة الملك بطرس الأول ملك صربيا. وفي سنة (1360هـ = 1941م) احتلت القوات الألمانية يوغسلافيا، وأصبحت صربيا تحت السلطة الألمانية، لكن بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية سنة (1365هـ = 1945م) أعلن الدستور اليوغسلافي أن صربيا إحدى جمهوريات الاتحاد اليوغسلافي، وصارت بقية دول المجموعة السلافية تتمتع بالحكم الذاتي. وكانت صربيا تطمح في إقامة دولة كبرى يُطلق عليها صربيا الكبرى تضم أجزاء من كرواتيا وسلوفينيا والبوسنة والهرسك، وفي سنة (1992م) قامت القوات الصربية بمهاجمة المدن البوسنية أثر إعلان استقلال البوسنة والهرسك سنة (1992م)، ودمرت معظم مدن البوسنة والهرسك.

### \*الكامبيرون

تقع في غرب إفريقيا، على ساحل غانا في طرفه الشرقي. يحيط بها كل من نيجيريا في الشمال الغربي، وتشاد وإفريقيا الوسطى في الشرق، والكونغو والجابون وغينيا الاستوائية في الجنوب. تبلغ مساحتها (475442) كم<sup>2</sup>، وعاصمتها ياوندي، وعدد سكانها (11.900.000) نسمة، حسب إحصائية سنة (1990م)، وأهم المحصولات الزراعية: الكاكاو، والبن، والفول السوداني، والموز، والقطن، وأهم مصادر الطاقة البترول. وقد تعرضت الكامبيرون لمختلف أشكال الصراعات الأوروبية، وذلك عندما كان الأوروبيون في طريقهم إلى السيطرة على خليج غينيا وحوض نهر الكونغو، سواء لتجارة الرق والعاج، أو لزراعة الكاكاو واكتشاف المعادن، ف جاء إليها البرتغاليون والإسبان في أوائل القرن (9 م)، ثم جاء الفرنسيون فالإنجليز فالألمان. وبعد الحرب العالمية الثانية أصبحت تحت وصاية الأمم المتحدة. وفي (أكتوبر 1961م) أصبحت جمهورية فيدرالية برئاسة أحمدو أهيدجو ونائبه فوتشا، (وفي يناير 1984م) تم إعلان جمهورية الكامبيرون الاتحادية برئاسة بول بيا.

### \*المغرب (بلاد)

يتألف المغرب العربي من ثلاث دول، هي: تونس والجزائر والمملكة المغربية، وهي تؤلف وحدة اقتصادية. ويقع المغرب العربي في القسم الشمالي من قارة إفريقيا. وتبلغ مساحته مع

القسم الصحراوي (2.782.000). ويعيش فيه نحو (56.000.000) نسمة، أكثرهم من العرب المسلمين. ومناخ المغرب العربي معتدل عمومًا فالشمال؛ لتأثره بالبحر، ولكنه يصبح باردًا في جبال أطلس، ويتحول إلى مناخ صحراوي في الدخل. وأما المغرب العربي قليلة وقصيرة، وأهمها: نهر الملوية، ونهر الشليف، ونهر المجردة. وفي المغرب ثروات زراعية وغابية. أما الثروات المعدنية فأهمها: الحديد والفوسفات.

(411/11)

---

#### \*قندهار

ثانية مدن أفغانستان حجمًا بعد العاصمة كابول. تقع على رافد جنوبي (أيسر) لنهر هيلماند في جنوب البلاد، وتتحكم في الطريق الذي يعبر ممر بولان، ويصلها بمدينة كويتا بباكستان، وترتبط بالعاصمة بطريق برى مرصوف. وهى السوق الرئيسية لجنوب أفغانستان. وتوجد فيها جالية من الهنود يسكنون بأيديهم زمام التجارة، وفيها ضريح الشاه أحمد خان الذى أسس الأسرة الدورانية التى حكمت البلاد (1160 - 1250هـ = 1747 - 1835م)، وعلى الضريح قبة مغطاة بصفائح الذهب، تحيط بها المآذن المحلاة بالقيشاني. وكانت قندهار عاصمة أفغانستان سنة (1747 - 1773م)، واستولى عليها الإنجليز فى القرن (13هـ = 19م) إبان الحروب الأفغانية. وتشتهر قندهار بزراعة الفاكهة.

(412/11)

---

#### \*قناة السويس

أهم شريان ملاحى فى العالم. وممر مائى بمصر، يصل البحر

المتوسط شمالاً عند بورسعيد حتى بورتوفيق جنوباً بالبحر الأحمر عند السويس. وترجع أهميتها الدولية إلى اختصارها طريق الملاحة البحرية بين الشرق والغرب. ويبلغ طولها (195) كم، ومتوسط عرضها (60) م وعمقها (13) م. وتسير مع الحافة الشرقية لبحيرة المنزلة في خط مستقيم حتى بحيرة التمساح، ثم تنحرف شرقاً إلى البحيرات المرة، فخليج السويس. وكان شق القناة هدفاً من أهداف الحملة الفرنسية على مصر سنة (1798م)، وقد رفض محمد علي هذا المشروع مخذراً من زيادة الأطماع الغربية في مصر، ثم أقنع فرديناند دي ليسبس الولى سعيد بالمشروع، فشرع في شق القناة في (أبريل 1859م). وقد تم حفر القناة على عهد الخديو إسماعيل سنة (1869م)، واستتبع شق القناة زيادة أطماع الدول الأوربية فيها، إلى أن احتل الإنجليز مصر سنة (1882م). وعندما أمم جمال عبد الناصر قناة السويس تعرضت مصر للعدوان الثلاثي البريطاني الفرنسي الإسرائيلي في (أكتوبر 1956م) فأغلقت القناة، ثم افتتحت بعد انسحاب أصحاب هذا العدوان، ثم أغلقت مرة أخرى بسبب العدوان الإسرائيلي على مصر في (يونيو 1967م)، ثم أعيدت للملاحة في (يونيو 1975م). وقد بلغ دخل مصر من قناة السويس (931) مليون جنيه مصرى حسب إحصائية سنة (1984م).

(413/11)

\*ليبيا

تقع في شمال قارة إفريقيا. تبلغ مساحتها (1.759.540) كم<sup>2</sup>. وتمتد بين دائرتي عرض (18.5°، و 33°) شمالاً، وبين خطي طول (9°، و 25°) شرقاً. ويحدها البحر المتوسط من الشمال، وتتصل حدودها من جهة الشرق بحدود مصر، ومن جهة الغرب بحدود كل

من تونس والجزائر، ومن جهة الجنوب بحدود النيجر وتشاد  
والسودان. ويرتبط سكانها بروابط التاريخ والنسب بسكان مصر  
والسودان وتونس. وتنقسم إلى: الإقليم الطرابلسي، وإقليم  
الصحراء وفزان، وإقليم برقة. ومناخها صحراوي حار جاف.  
ويبلغ عدد سكانها (3.3) مليون نسمة حسب إحصائية سنة  
(1983م)، ومعظمهم من العرب، وبعضهم من البربر المتعربين،  
وقليل منهم من البربر الذين مازالوا محتفظين ببعض مظاهر  
ثقافتهم الأصلية إلى جانب الثقافة العربية. ويُعد البترول - منذ  
اكتشافه عام (1961م) - العمود الفقري للاقتصاد الليبي.

(414/11)

---

#### \*اللاذقية

مدينة سورية، وهي عاصمة المحافظة التي تحمل اسمها وتبعد  
(137) كم إلى الجنوب الغربي لمدينة (حلب)، وهامليها  
البحري الرئيسي لسورية. وكانت مدينة فينيقية، وازدهرت تحت  
حكم الرومان وضمت إلى سورية سنة (1942م) وهي مشهورة  
بنوع خاص من التبغ. وخضعت لحكم البيزنطيين. والمسلمين  
والصليبيين؛ إذ استولى عليها صلاح الدين الأيوبي سنة (1188م)  
ثم استعادها الصليبيون، ثم استولى عليها قلاوون سنة  
(1287م). وبها آثار رومانية، أهمها قوس نصر. وفي عام  
(1950م) أُدخلت تحسينات على مينائها؛ لتحويل التجارة السورية  
إليه بدلاً من بيروت، واللاذقية الآن المقر الصيفي لرئاسة  
الجمهورية.

(415/11)

---

## \*كريت

جزيرة تقع في شرق البحر المتوسط. وهي كبرى جزر اليونان. تبلغ مساحتها (8380) كم<sup>2</sup>. وعاصمتها كانيا وكبرى مدنها كانديا. وهي جزيرة جبلية إلى درجة كبيرة، ترتفع إلى (2458 م) في جبل آيدا، وحضارتها من أقدم حضارات العالم، وبلغت أوجها سنة (1600 ق. م)؛ إذ اكتشف آثار في كتوسوس ترجع إلى هذه الحضارة. وقد استولى عليها الرومان فيما بين سنتي (68 - 67 ق. م)، ثم فتحها المسلمون سنة (826م)، إذ انتزعوها من الأباطرة البيزنطيين، وظلت تحت الحكم الإسلامي إلى أن استعادها نيسفورس الثاني سنة (961م) ثم استولت عليها البندقية سنة (1204م) ثم تركيا سنة (1669م). وفي سنة (1913م) اتحدت مع اليونان. ومن محاصيلها: زيت الزيتون والفواكه والخضراوات والكروم. وبها خامات الحديد والفحم.

(416/11)

## \*قطر

شبه جزيرة على الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية على الخليج العربي تبلغ مساحتها (11437) كم<sup>2</sup>. وتمتد بين دائرتي عرض (30° - 24°)، و (10° - 26°) شمالاً لمسافة (60) كم، وخطي طول (30° - 50°)، و (30° - 51°) شرقاً بعرض أقصاه (78) كم. وتحدها السعودية من الغرب والإمارات العربية المتحدة من الشرق، وعاصمتها الدوحة. ويبلغ عدد سكانها (444.000) نسمة حسب إحصائية سنة (1410هـ = 1990م)، ويعتمد الاقتصاد القطري على النفط الذي يرجع تاريخ اكتشافه إلى عام (1939م)، ويسودها نظام ملكي؛ حيث يهيمن آل ثاني على السلطة. وقطر عضو في عديد من المنظمات العربية والإسلامية

والدولية، مثل: جامعة الدول العربية، ومجلس التعاون لدول الخليج العربية، ومجموعة عدم الانحياز، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، والأمم المتحدة، ومنظمة الأمم المصدرة للنفط الأوبك، ومنظمة الدول العربية المصدرة للبترول أوابك، ومجموعة ال 77.

(417/11)

---

### \*القليوبية

أحد أقاليم الوجه البحرى بمصر. استُحدثت سنة (715هـ = 1315م) بمرسوم من الملك ناصر محمد بن قلاوون، وكانت نواحيها تابعة لإقليم الشرقية، ثم فصلت عنها، وأطلق عليها اسم الأعمال القليوبية؛ نسبة إلى مدينة قليوب التي كانت عاصمة لها سنة (1826م). وفي سنة (1833م) صدر أمرعالي بتسمية المأموريات باسم مديريات، فسميت مديرية القليوبية، وعاصمتها الآن مدينة بنها. تتكون القليوبية من أربعة مراكز، هي: بنها وشبين القناطر وطوخ وقليوب، بالإضافة إلى مأمورية ضواحي مصر. ومجموع قرى القليوبية (188) قرية؛ القديمة منها (114)، والحديثة (74).

(418/11)

---

### \*كردفان

مديرية بوسط السودان، غربى النيل، عاصمتها الأبيض. تبلغ مساحتها (385838) كم<sup>2</sup>. وأهم مدنها الأبيض العاصمة والنهود، وبادا وأبوزيد ومجلد، ويربطها بالخرطوم خط حديدى. وتوجد بها مراعٍ غنية، وتزرع فيها الذرة والسمسم والبقول السودانى والقطن، وتُعد كبرى مناطق جمع الصمغ العربى. أما بالنسبة

إلى السكان فإن العرب يسكنون الجزء الشمالي، ويسكن  
النوبيون الجزء الجنوبي. وقد حكمها النوبيون فترة طويلة،  
وكانت عاصمتهم جبل كردفان وفي سنة (1881م) أعلن المهدي  
الجهاد من جبل قدير، وهزم حملتين أرسلتهما الحكومة،  
واستولى على الأبيض وبارا سنة (1883م)، وأرسل هكس  
لاستعادتها فهلكت حملته في (نوفمبر 1883م) قرب شيكان.  
واعترف جوردون بالمهدي سلطاناً على كردفان في (فبراير  
1884م) فكان رده أن طالبه بالتسليم، وسار قاصداً الخرطوم  
واستولى عليها في (يناير 1885م)، ثم استردت المديرية سنة  
(1899م) بعد معارك عنيفة مع عبد الله التعايشي خليفة المهدي.

(419/11)

\*فزان

مدينة ليبية قديمة. تقع بين الفيوم في مصر وطرابلس الغرب في  
ليبيا، سُميت باسم فزان بن حام بن نوح، عليه السلام. وأرضها  
منخفضة كبيرة المساحة، تمتد من الحمادة الحمراء وجبل السودا  
شمالاً إلى مرتفعات إيفاي وتيبستي جنوباً، ومن جبال تاسيلي  
وحمادة غرباً إلى مرتفعات الهروج شرقاً، وتنقسم فزان إلى  
حوضين كبيرين هما: حوض أوباي وحوض مرزق، كما أنهما  
كثيرة القلاع والقرى، يندر فيها الحبوب واللحوم. وقد فتحها  
عقبة بن نافع الفهري سنة (49هـ = 669م)، واحتلها العثمانيون  
سنة (985هـ = 1577م)، وحاول أحمد القرمانلي أن يوطد حكمه  
بها منذ سنة (1129هـ = 1716م)، لكنه لم يستطع، ثم حاول ذلك  
مرة أخرى سنة (1247هـ = 1831م). وقد احتلها الإيطاليون سنة  
(1331هـ = 1913م)، وجعلوا عاصمتها مدينة (سبها)، وذلك بعد  
خروج جيوش الدولة العثمانية من ليبيا سنة (1329هـ = 1911م)

فشغل الإيطاليون طرابلس كلها، والمراكز المهمة في فزان. وفي سنة (1361هـ = 1942م) احتلها الفرنسيون، وحاولوا ربطها بالإدارة الفرنسية في الجزائر، لكنهم اضطروا إلى الرحيل عنها سنة (1376هـ = 1956م).

(420/11)

---

### \*القرى (وادي)

وادي بين بلاد الشام والمدينة المنورة. يمر به الحجاج وهم في طريقهم إلى الحج، سُمي بذلك لانتظام القرى وكثرتها به، وقد أصبح معظمه خراباً. وكانت عدة قبائل عربية تنزل به، ومنها: قضاة وجهينة وبنو عذرة، وكان به عاد وثمود، وسكنه كثير من اليهود، وظلوا به حتى سنة (7هـ). وفي هذه السنة غزا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أهل وادي القرى ودعاهم إلى الإسلام فرفض اليهود وحاربوه؛ ففتحها عنوة، وأخذ الأموال والمتاع وترك النخيل والأرض لليهود. ولما تولى عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، الخلافة أجلى اليهود عن وادي القرى، وقسم الأرض بين المسلمين، لكنها أصبحت اليوم من أحياء المدينة المنورة.

(421/11)

---

### \*المتوسط (بحر)

أكبر بحار العالم. يقع بين أوربا شمالاً وشمالاً بغرب، وإفريقيا جنوباً، وآسيا شرقاً، ويتصل بالبحر الأطلسي عن طريق مضيق جبل طارق، وبالبحر الأسود عن طريق مضيق الدردنيل وبحر مرمرة ومضيق البسفور، وبالبحر الهندي عن طريق قناة السويس. وأهم أقسامه: بحر إيجه والبحر الأيوني والبحر

الأدرياتي والبحر التيراني والبحر الليغوري. وأهم جزره: جزر البليار وجزيرة سردينيا وجزيرة صقلية وجزيرة كورسيكا وجزيرة رودس وجزيرة كريت وجزيرة مالطة وجزيرة قبرص. وكان البحر المتوسط طريق التجارة العالمية إلى الشرق حتى اكتشاف الطريق المنعطفة حول رأس الرجاء الصالح عام (1488م)، ثم استعاد مكانته بعد إنجاز حفر قناة السويس (1869م). ويبلغ طوله نحو (4.000) كم. ويبلغ أقصى عرض له (1.365) كم، ومساحته نحو (2.512.300) كم<sup>2</sup>.

(422/11)

#### \*الروم (بحر)

هو البحر المتوسط، أكبر بحار العالم. يقع بين أوروبا شمالاً وشمالاً بغرب، وإفريقيا جنوباً، وآسيا شرقاً، ويتصل بالبحر الأبيض المتوسط عن طريق مضيق جبل طارق، وبالبحر الأسود عن طريق مضيق الدردنيل وبحر مرمرة ومضيق البسفور، وبالبحر الهندي عن طريق قناة السويس. وأهم أقسامه: بحر إيجه والبحر الأيوني والبحر الأدرياتي والبحر التيراني والبحر الليغوري. وأهم جزره: جزر البليار وجزيرة سردينيا وجزيرة صقلية وجزيرة كورسيكا وجزيرة رودس وجزيرة كريت وجزيرة مالطة وجزيرة قبرص. وكان البحر المتوسط طريق التجارة العالمية إلى الشرق حتى اكتشاف الطريق المنعطفة حول رأس الرجاء الصالح عام (1488م)، ثم استعاد مكانته بعد إنجاز حفر قناة السويس (1869م). ويبلغ طوله نحو (4.000) كم. ويبلغ أقصى عرض له (1.365) كم، ومساحته نحو (2.512.300) كم<sup>2</sup>.

(423/11)

### \*الأطلنطى (محيط)

يشغل المحيط الأطلنطى (1/6) مساحة العالم، ويشبهه فى شكله العام حرف (S) ويمتد هذا المحيط أكثر من أى محيط بين الشمال والجنوب؛ إذ يبلغ طوله (16) ألف كم، أما عرضه فيختلف من موضع إلى آخر. وتوجد أضيق أجزاءه بين رأس بالماس فى ليبيريا ورأس سان روك على ساحل البرازيل إذ يبلغ عرضه (800) كم. ولا يوجد حدٌ واضح بينه وبين المحيط الهندى، ولكن يمكن اعتبار خط طول (20°) شرقاً حدًا فاصلاً بينه وبين المحيط الهندى، كذلك يمكن اعتبار خط طول (67°) غرباً حدًا فاصلاً بينه وبين المحيط الهادى. وتبلغ المساحة الكلية للمحيط الأطلنطى (82.400.000) كم<sup>2</sup>. ويتصل به عدة بحار، أهمها: البحر المتوسط والبحر الأسود وبحر الشمال والبحر الكارىبى. وتصب فى المحيط الأطلنطى عدة أنهار، أهمها: الأمازون والكونغو والراين والمسيسى والسين والنيجر والسنغال والأورانج. وتوجد فى الأطلنطى عدد من الجزر، أغلبها فى الشمال منها: آيسلندا والرأس الأخضر وترينداد جنوباً. وتوجد فى المحيط الأطلنطى عدة تيارات بحرية، مثل: تيار فوكلاند البارد، وتيار لبرادور؛ لذلك يضم أكبر مصايد الأسماك فى العالم، وينتج (40%) من إنتاج السمك العالمى. وتختلف ملوحة مياه هذا المحيط من مكان إلى آخر، ويضم قاع المحيط الأطلنطى كميات من المعادن، مثل: المنجنيز والبتروىل.

(424/11)

### \*الأطلسى (محيط)

يشغل المحيط الأطلنطى (1/6) مساحة العالم، ويشبهه فى شكله

العام حرف ( S ) ويمتد هذا المحيط أكثر من أى محيط بين الشمال والجنوب؛ إذ يبلغ طوله (16) ألف كم، أما عرضه فيختلف من موضع إلى آخر. وتوجد أضيق أجزائه بين رأس بالماس في ليبيريا ورأس سان روك على ساحل البرازيل إذ يبلغ عرضه (800) كم. ولا يوجد حدٌ واضح بينه وبين المحيط الهندي، ولكن يمكن اعتبار خط طول (20) شرقاً حدًا فاصلاً بينه وبين المحيط الهندي، كذلك يمكن اعتبار خط طول (67) غربًا حدًا فاصلاً بينه وبين المحيط الهادى. وتبلغ المساحة الكلية للمحيط الأطلنطى (82.400.000) كم<sup>2</sup>. ويتصل به عدة بحار، أهمها: البحر المتوسط والبحر الأسود وبحر الشمال والبحر الكاريبى. وتصب في المحيط الأطلنطى عدة أنهار، أهمها: الأمازون والكونغو والراين والمسيبى والسين والنيجر والسنغال والأورانج. وتوجد في الأطلنطى عدد من الجزر، أغلبها في الشمال منها: آيسلندا والرأس الأخضر وترينداد جنوبًا. وتوجد في المحيط الأطلنطى عدة تيارات بحرية، مثل: تيار فوكلاند البارد، وتيار لبرادور؛ لذلك يضم أكبر مصايد الأسماك في العالم، وينتج (40%) من إنتاج السمك العالمى. وتختلف ملوحة مياه هذا المحيط من مكان إلى آخر، ويضم قاع المحيط الأطلنطى كميات من المعادن، مثل: المنجنيز والبتروول.

(425/11)

\*عُمان

دولة عربية. تحتل القرن الجنوبي الشرقى لشبه الجزيرة العربية وتطل علىالمحيط الهندي الغربى (بحر العرب)، وخليج عُمان. عُرقت بسلطنة عُمان إثر انقلاب قام به السلطان قابوس بن سعيد على حكم والده في (23 من يوليو 1970م)، وكانت تعرف باسم

سلطنة مسقط وعمان، أو سلطنة مسقط وإمامة عمان منذ أواخر القرن (19م). أما عمان المعاصرة فتمتد من حدود إمارة رأس الخيمة إلى رأس الجد جنوبًا، ثم تسير جهة الجنوب الغربي إلى خليج القمر، عند حدود حضرموت باليمن، وامتداد هذه الشواطئ نحو (1700) كم. ومساحتها (15.000) م<sup>2</sup>. وتتصل حدودها بالمملكة العربية السعودية عبر الربع الخالي، أما حدودها مع اليمن فقد عينها حكم أصدرته محكمة التحكيم الدولية سنة (1905م). وتنقسم جغرافيًا إلى أربعة أقسام: الأول سهل البطينة الساحلي، والثاني: جبال الحجر، والثالث: هضبة جرداء إلا من بعض الواحات تتلاشى في الربع الخالي، والرابع: إقليم ظفار. وسكان السلطنة من قبائل بني بو علي وريام والحارث وبني حسن وغيرها. ويعتمد اقتصادها على التمر والبترو. وعملتها: الريال العماني. وعاصمتها مسقط. وأهم موانئها: صحار، وأهم مدنها نزوى. وتاريخها قديم متصل فالعمانيون ينسبون إلى العماليق، وفي القرن (7 ق. م) أقام يعرب بن قحطان شبه دولة جعل عليها أخاه عمان الذي سُمي الإقليم باسمه، وغزاه الفرس، وأطلقوا عليه فرويا وفي مطلع الدعوة الإسلامية سنة (6هـ = 627م) - وهو بداية التاريخ الموثق لعمان - تردد اسم الغبراء، ودخل ابنا زعيم عمان جلندی بن المستكبر في الإسلام، ثم ساهما في نشر الدعوة الإسلامية وقاما برحلات بحرية، ووقفما إلى جانب الإمام علي بن أبي طالب ضد معاوية بن أبي سفيان، رضى الله عنهما. ثم انتشر مذهب الإباضية ونظريتهم في الإمامة، وانتخب جلندی إمامًا سنة (135هـ = 752م)، وكانت نزوى حاضرة لهم، وفي سنة (1034هـ = 1624

(م) قامت الدولة اليعربية؛ فدحرت الصفويين والبرتغاليين على يد سلطان بن سيف ثاني الأئمة، ودام حكمها مائة سنة، وكانت مصدر قلق للأساطيل الأوربية، ثم قامت الدولة البوسعيدية عام (1167 هـ = 1753 م). وفي عام (1933 م) تولى سعيد بن تيمور حكم مسقط، في حين انتخب في عمان الداخل غالب بن علي الهنائي. وفي عام (1954 م) وقع بينهما نزاع، وتدخلت بريطانيا لصالح سعيد بن تيمور. وفي (20 من جمادى الأولى 1390 هـ = 23 من يوليو 1970 م) قام قابوس بن سعيد بانقلاب داخلي تولى على إثره الحكم، وبدأ بالإنفتاح على العالم العربي والخارجي، معتمداً على اقتصاديات البترول المتزايدة.

(427/11)

#### \*عكاظ (سوق)

أشهر أسواق العرب الموسمية التي بلغت قمة ازدهارها في أواخر العصر الجاهلي، وعاشت فترة في الإسلام. أقيمت قبل (15) عاماً من عام الفيل (وهو العام الذي وُلد فيه النبي - صلى الله عليه وسلم -)، وكانت تستقبل قاصديها مع مستهل شهر ذي القعدة من كل عام، وكان انعقادها يستمر (20) يوماً. وعكاظ موضع بين نخلة والطائف، على طريق بين الطائف ومكة، وهي واحدة من (10) أسواق كانت تعقد بالجزيرة العربية في الأشهر الحرم؛ حيث يمتنع القتال ويُردع من يتمرد على ذلك، عن طريق سكان المكان الذين يتقاضون العشور من الصفقات التي تعقد في السوق. ويجانب التجارة، وبخاصة الجلود المدبوغة، تُعد عكاظ لقاءً سنوياً للخطباء والشعراء؛ إذ كانوا يتطارحون فيها أحدث إنتاجهم الأدبي، لا سيما شعر الفخر، وكان ينصب فيها حكام من فحول اللغة والشعر، مثل: النابغة الذبياني، وعمرو بن كلثوم

وقس بن ساعدة الخطيب. كما كانت هذه السوق مكاناً للفصل في المنازعات، وعقد الاتفاقات، ومنبراً لكل صاحب دعوة، حتى قيل: إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - تردد عليها؛ للدعوة إلى الإسلام. ومما كانت تتميز به أنها سوق حرة؛ لا يلتزم التجار فيها بدفع مكوس أو عشور لسادات القبائل، لا سيما من قريش وتميم، وكان لهذا أثره في ازدهار السوق؛ مما زاد من أهمية قريش ومكانتها، وساعد على انتشار لهجتها وسيادتها، كما كان لهذه السوق أثرها في تهذيب اللغة. وفي أواخر الدولة الأموية سنة (128 هـ = 744 م) نهب بعض الخوارج هذه السوق؛ فهجرت بعد ذلك، وإن كانت أهميتها اضمحلت، بانتقال عاصمة الدولة، وهجرة سادات قريش من مكة إلى المدينة.

(428/11)

#### \*عكا

تقع في الطرف الشمالى لخليج عكا، وتبعد عن ميناء حيفا بنحو (15) كم، وتقع بالقرب من سفوح جبل الكرمل. وهى ذات موقع استراتيجى؛ مما عرضها للأطماع الخارجية، وتبعد عن القدس بنحو (128) كم، وعن ميناء صور بنحو (44) كم. وتكثر في أطرافها المستنقعات، كالشاحوطة وعين البقر، ومناخها مناخ البحر المتوسط؛ حار جاف صيفاً، دافئ ممطر شتاءً. وتأسست عكا في الألف الثالثة قبل الميلاد على يد إحدى القبائل الكنعانية العربية المعروفة بالجرجاشيين، وأطلقت عليها عكو، أى: الرمل الحار، وهم مستنبطو صناعة الزجاج، كما يروى بلخى، المتوفى سنة (113 م)، واستمرت كنعانية عربية؛ فلم تخضع للمصريين ولا للبرانيين إلى القرن الثامن قبل الميلاد، حين خضعت للملك الآشورى شلمنصر الخامس، ثم للفرس في

القرن السادس قبل الميلاد، ثم للإسكندر المقدوني. وفي عهد البطالمة والسلوقيين غُيِّرَ اسمها إلى بتولمايس، ثم احتلتها الأرمن عام (69 ق. م)، وفيها قامت حضارة هلنستية؛ نتيجة التداخل بين الثقافة اليونانية والسامية خلال العصر السلوقي. وقد فتحها شرحبيل بن حسنة نحو سنة (15 هـ = 637 م)، وبها أنشأ معاوية بن أبي سفيان، رضى الله عنه، أسطولاً بحرياً، وقامت منها حملة على قبرص سنة (28 هـ = 649 م) ورودس سنة (34 هـ = 654 م)، وازدهرت تجارتها في العصر الأموي، واستولى عليها أحمد بن طولون عام (164 هـ = 877 م)، ثم الإخشيديون ثم الفاطميون، ثم وقعت تحت سيطرة الصليبيين عام (497 هـ = 1104 م). وشهد لعكا بالعظمة والمنعة كل من زارها. وقد كان لها أهمية تجارية بارزة تحت الحكم العثماني، ثم تصدت لحصار نابليون عام (1214 هـ = 1799 م)، ثم فتحها إبراهيم بن محمد علي عام (1247 هـ = 1832 م)، ثم تضاءلت أهميتها التجارية بإلحاقها بسورية عام (1281 هـ = 1864 م)، ثم ألحقت ببيروت عام (1305 هـ = 1888 م)، وبعد الاحتلال الصهيوني لعكا سنة (1948 م)

(429/11)

---

تغيرت معاملها العربية. وتُعدُّ الآن من أهم الموانئ الفلسطينية لصيد السمك، وأنشأت بها سلطات الاحتلال الإسرائيلي منطقة صناعية، فيها مصنع لإنتاج الصلب، وآخر لإنتاج أنابيب الفولاذ.

(430/11)

---

\*عطرة

مدينة تقع شرق السودان، ويلتقى عندها نهر عطبرة بالنيل،

وهي الرابعة من حيث عدد السكان، وتتبع إداريًا المديرية الشمالية، وعاصمتها الدامر، وهي بلدة صغيرة تقع على النيل الأبيض جنوبي عطبرة على بعد (15 كم) منها، وإلى شمالها تقع مدينة ببرة. وهي ملتقى عدة خطوط سكك حديدية، وقد أكسبتها هذه السكك الحديدية التي مُدت أوائل القرن العشرين أهمية بارزة، كما أن إقامة جسر يصل شرق السودان بوادي النيل جعلها مركزًا مهمًا للمواصلات. وقد قامت فيها صناعة الأسمت، كما أن لها شهرة تقليدية بسوق الماشية. وعند بلدة النخيلة نشبت معركة عطبرة في (8 من إبريل 1898 م)، بين قوات الخليفة التعايشي، والجيش المصري بقيادة كتشنر، وانتهت باستسلام قوات التعايشي، ومهدت هذه المعركة الطريق لمعركة أم درمان الفاصلة. ونهر عطبرة جنوب عطبرة يتصل بالنيل وطوله نحو (1125 كم) بشمال شرق السودان، وتأتي منابعه من غربي هضبة الحبشة، ويُعد أكثر الأنهار الجبشية طميًا، وهو أحد الروافد اليمنى لنهر النيل.

(431/11)

### \*العسكر

كانت العاصمة المصرية الإسلامية الثانية منذ الفتح بعد الفسطاط، وهي مندثرة، وموقعها الحالي حي السيدة زينب. واشتق اسمها من عسكر صالح بن علي أول الولاة العباسيين على مصر، بعد سقوط الدولة الأموية؛ ذلك أن صالحًا نزل بعسكره في هذا الموضع، وكان خرابًا منذ قدم إلى مصر عام (133 هـ = 750 م)، فأقام به دارًا للخلافة، وعندما خلفه أبو عون في العام التالي أمر أصحابه بالبناء فيه، فبنوا، وسمي من يومئذٍ بالعسكر، وكان أمراء مصر بعد أبي عون ينزلون به. وبنيت بالعسكر دار

للشرطة تُعرف بالشرطة العليا؛ تميّزًا لها عن دار شرطة الفسطاط أو الشرطة السفلى، وشُيّد بها مسجد عرف بجامع العسكر، بجوار دار الإمارة. وقد تحولت إلى ديوان للخراج أيام خمارويه، واندجمت مع الفسطاط، ثم طغت القطائع على حدها الشرقي، ثم اختفى اسم العسكر فأصبحت تُعرف بالفسطاط والقطائع. وفي أواخر الدولة الفاطمية امتد إليها الخراب، وقد بنى بها الفضل بن صالح بن علي جامع العسكر سنة (169 هـ = 785 م)، وظل إلى مابعد سنة (500 هـ)، وكان أحد الجوامع الستة الكبرى آنئذٍ، ولا أثر له اليوم. ونسب إليها عدد من العلماء، مثل: محمد بن عليّ العسكري وكان مفتي العسكر بمصر، ومحدثًا وفقهًا شافعيًا، والحسن بن رشيق العسكري المحدث المشهور، وغيرهما.

(432/11)

#### \*عسقلان

بلدة بفلسطين. تطل على ساحل البحر بين غزة ويافا شمالاً، وتقع في الجنوب الغربي من يافا، وتبتعد عنها بنحو (50 كم)، يقع في شمالها ميناء أسدود، وشرقيها بلدة المجدل، وعدت أحد أبواب مصر الشرقية. استولى عليها رمسيس الثاني عام (1285 ق. م)، وتوالت عليها الإمبراطوريات عدا اليهود الإسرائيليين، فلم تقع تحت أيديهم طوال التاريخ، لكنها اكتسبت أهمية خاصة إبان الحروب الصليبية. وفتحها المسلمون عام (15 هـ = 636 م). وخضعت للحكم الفاطمي حتى عام (492 هـ = 1099 م)، ثم استولى عليها الصليبيون، ثم عادت إلى الحكم الفاطمي، ثم استولى عليها بلدوين الثالث في (26 من جمادى الأولى 548 هـ = 19 من أغسطس 1153 م)، بعد توليه عرش بيت المقدس، وذلك بعد حصار دام سبعة أشهر، وتحول الجامع إلى كنيسة، ثم

استعادها صلاح الدين الأيوبي في (28 من رجب 584 هـ = 4 من سبتمبر 1187 م). ويُطلق عليها عروس الشام، ونزل بها جماعة من الصحابة والتابعين، وحَدَّث بها عدد كثير منهم.

(433/11)

---

### \*البوسفور

مضيق وممر مائي، طوله (32 كم)، واتساعه (549 كم) في أضيق جزء منه. يفصل تركيا الأوربية عن تركيا الآسيوية، ويصل البحر الأسود ببحر مرمرة. تقع إستانبول على كلا ساحليه. ويبلغ عرضه عند مدخله نحو (1500) متراً، وتمتد على شاطئيه سلسلة من القرى المتجاورة أو من ضواحي مدينة إستانبول، أهمها: سكودار التي تقابل إستانبول. ويُعد البوسفور طريقاً استراتيجياً، ارتبط تاريخه بغزو دارا ملك الفرس لليونان، وفتح محمد الثاني للقسطنطينية، ومحاولة الحلفاء الاستيلاء على إستانبول إبان الحرب العالمية الأولى، وقد نصت معاهدة مونترنو عام (1936 م) على حرية الملاحة المدنية في البسفور أيام السلم، ومنع مرور سفن الدول المتحاربة في حالة الحرب، وحياد تركيا.

(434/11)

---

### \*البنغال (بلاد)

تقع في إقليم البنغال في الشمال الشرقي لشبه الجزيرة الهندية ، ويشمل هذا الإقليم نهر الجانج وبراهما بترا وفروعهما العديدة، من سفوح الهمالايا شمالاً إلى ساحل خليج البنغال. تبلغ مساحة البنغال نحو (83) ألف ميل مربع. وينسب فتح المسلمين لإقليم البنغال إلى محمد بختيار خلجي قائد السلطان معز الدين

محمد الغورى منذ عام (602 هـ = 1205 م)، واتخذ المسلمون  
لخنوتى عاصمة لهم، وحكمها بعد ذلك سلاطين عديدون، وتنقلت  
عاصمتها بين كور، وراج محل، ودكا، ومرشد آباد. سقطت  
البنغال فى يد الإنجليز بعد موقعة بلاسى عام (1171 هـ = 1757  
م)، وأصبح حكمها المسلمون موالين للبريطانيين فى عام (1764  
م). وفى عام (1947 م) قُسم البنغال قسمين بين الهند  
وباكستان: مقاطعة البنغال الشرقية، ومساحتها (130.157 كم2)،  
وعدد سكانها (41.932.329) نسمة، وهى متحدة مع باكستان  
الشرقية (بنجلاديش). وعاصمتها دكا. وتنتج كميات ضخمة من  
الجوت. ومقاطعة البنغال الغربية، ومساحتها (87.951 كم2)،  
وعدد سكانها (26.306.602) نسمة، وهى إحدى ولايات الهند.  
وعاصمتها كلكتا. وتضم ولاية كوش بهار سابقًا. وتُعدُّ منطقة  
صناعية غنية بمناجم الفحم.

(435/11)

### \*برلين

مدينة عالمية، وهى من أكبر مدن ألمانيا، مساحتها (883  
كم2. عدد سكانها (3.4) مليون. وقد ظلت رمزًا لتقسيم ألمانيا  
وللمواجهة بين الشرق والغرب ومركزًا للحرب الباردة. وكانت  
عاصمة لألمانيا الشرقية، وبها بُنى جدار برلين فى (13 من  
أغسطس 1961م)، وسقط هذا الجدار فى (9 من نوفمبر 1989م)  
بعد الثورة السلمية فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية. وقد كانت  
الحاضرة الاقتصادية الأولى فى ألمانيا، والعاصمة الثقافية  
لأوروبا كلها فى العشرينيات الذهبية ومن المتوقع أن يصل عدد  
سكانها عام (1420 هـ = 2000م) إلى ثمانية ملايين نسمة.  
ولاتزال حتاليوم أكبر موقع صناعى فى أوروبا، وبها ثلاث دور

للأوبرا، وهي أشهر مدن العالم في مجال المتاحف. وتضم برلين ثلاث جامعات، هي: هومبولت والجامعة الحرة، والجامعة التقنية، كما تضم عددًا من مراكز البحوث، مثل: معهد هان - ماينر ومعهد هاينرش هيرتز. وقد اعتمدها البرلمان الألماني مقرًا للحكومة، إضافة إلى كونها العاصمة لألمانيا الموحدة.

(436/11)

### \*إيطاليا

دولة أوروبية مساحتها (301225) كم<sup>2</sup>. تقع جنوب قارة أوروبا. تحدها من الشمال النمسا وسويسرا، والبحر المتوسط من الجنوب، والبحر الأدرياتي ويوغسلافيا السابقة من الشرق، والبحر التيراني وفرنسا من الغرب. ومناخ إيطاليا حار جاف صيفًا، دافئ ممطر شتاءً. وأهم مواردها الاقتصادية: الزراعة والثروة الحيوانية، والثروة المعدنية، والصناعة خاصة الحديد والصلب، ومصادر طاقتها: الغاز الطبيعي والكهرباء والبترو، وإن كان قليلاً. ويعمل بالصناعة نحو (41%) من القوى العاملة، ويعتمد اقتصادها على القيام بدور الوسيط بين كثير من دول العالم، وتُعد السياحة من أهم موارد الدخل القومي الإيطالي. وأهم مدنها: روما ونابولي وتورينو وفينيسيا أو (البندقية) وجنوة وجزيرتا صقلية وسردينيا. وعدد سكانها (57.425.000) نسمة، وعدد المسلمين فيها نحو (400) ألف مسلم. واللغة الرسمية هي الإيطالية، وهناك لهجات خاصة، إلى جانب الألمانية لدى بعض سكان الشمال، والديانة السائدة في إيطاليا: مسيحية كاثوليكية، يوجد في روما مقر الكنيسة الكاثوليكية الغربية. وقد مرَّ تاريخ إيطاليا بمراحل كثيرة حتى وصلت إلى تكوين إمبراطورية. بعد موقعة أكتيوم البحرية سنة (31 ق. م)، ثم أخذت

تفقد مكائنها منذ منتصف القرن (3 م)، وتعرضت لغزو القبائل الجرمانية. وقد ظهر المسلمون كقوة في القرن (3 هـ = 9 م) حتى غلبهم النورمان، ووقعت إيطاليا تحت النفوذ الأجنبي حتى الستينيات من القرن (19م)، وجاءت الحرب العالمية الأولى والثانية، فاحتل الإيطاليون الحبشة سنة (1354 هـ = 1935م)، واستقال موسوليني بعد هزيمته، وفي (رجب 1365 هـ = يونيو 1946م) ألغيت الملكية، وأعلنت الجمهورية، وفي (جمادى الآخرة 1374 هـ = يناير 1955م) انضمت إيطاليا إلى عصبة الأمم. والبرلمان في إيطاليا ينقسم إلى مجلس النواب (مدته خمس سنوات)، والشيوخ (السناتو) (ومدته ست سنوات). وتُعاني

(437/11)

---

إيطاليا من مشكلتين: النظام الانتخابي، والإرهاب وعصابات المافيا، وأشهر الأحزاب فيها هو الحزب المسيحي الديمقراطي، وهو المهيمن على بقية الأحزاب. كما يُوجد بها الحزب الشيوعي والحزب الليبرالي والحزب الاشتراكي.

(438/11)

---

\*إيجة (بحر)

ذراع من البحر المتوسط. طوله نحو (643.5) كم، وعرضه نحو (322) كم. يقع بين اليونان وآسيا الصغرى ويربطه الدرنيل ببحر مرمرة، واسمه القديم أرخبيلاجو، ويُطلق الآن على جزره العديدة التي تشمل أيوبوتا وسبورادس الشمالية وسبورادس الجنوبية وسايكلادس ودوديكانس. ومن بين روايات الإغريق القدماء أن

اسم هذا البحر اشتق من اسم العاصمة القديمة لمقدونيا مدينة  
إيجي. ويضم هذا البحر ثلاث مجموعات من الجزر.

(439/11)

---

### \*أطنة

أطنة أو أدنة أو أذنة أو أضنة: مدينة جنوب تركيا في الأناضول  
(آسيا الصغرى). تقع على الضفة اليسرى لنهر سيهان، وهي  
عاصمة ولاية سيهان، وتعد رابعة مدن تركيا حجمًا، كما أنها  
مركز تجارى مهم. وعدد سكانها (190.000) نسمة. وقيل: بناها  
الرومان وجددت عمارتها في الدولة العباسية، وقيل: بناها  
هارون الرشيد سنة (90هـ)، لكنه لم يتم بناءها، فأكملة ابنه  
محمد الأمين. ازدهرت إبان الحكم الرومانى والبيزنطى،  
واستولى عليها الجيش المصرى وحكمها من سنة (1832م) إلى  
سنة (1840م) بقيادة إبراهيم باشا، وجعل منها قاعدة حربية  
للزحف على الأناضول، وبعد معاهدة لندن سنة (1840م) استولت  
عليها القوات الفرنسية، واحتلتها فرنسا من سنة (1919 – 1921م  
)، وعُقد فيها مؤتمر الحلفاء سنة (1943م). ومن آثارها الإسلامية:  
أطلال قلعة قديمة يُنسب بناؤها إلى هارون الرشيد عام (166هـ =  
782م) فى أثناء ولايته العهد، وأولو جامع الذى بناه بىرى بك.

(440/11)

---

### \*الأدرياتك (بحر)

ذراع من البحر المتوسط يقع بين إيطاليا وشبه جزيرة البلقان.  
وطوله (804) كم، وعرضه من (93 – 255) كم، وأقصى عمق له  
(1230م). وسواحله الغربية والشمالية المنخفضة تنتمى إلى

إيطاليا، في حين تنتمي سواحلها الشرقية الوعرة إلى  
يوغوسلافيا وألبانيا. ومن أهم الموانئ عليه تريست  
والبنديقية، وباري، وفيومي وبرنديزي.

(441/11)

---

### \*كراتشي

مدينة بباكستان الغربية، على بحر العرب، وهي المركز الحضري  
في باكستان، وقد تطورت لتصبح الميناء والمخرج الرئيسي  
الوحيد لحوض السند، وكانت أهم الثغور منذ سنة (1843م) في  
شمالى غربى الهند، ثم أصبحت عاصمة للدولة الجديدة، بعد  
تقسيم شبه القارة الهندية عام (1947م)، ومع أن أهميتها كانت  
في ازدياد وسكانها في نمو مستمر قبل هذا العام، فبعد أن  
غدت عاصمة للدولة تضاعفت الأعداد من (400) ألف نسمة إلى  
مليون نسمة سنة (1951م)، ثم إلى خمسة ملايين نسمة سنة  
(1983م). وفي عام (1959م) رأت الحكومة نقل العاصمة إلى  
روالبندي تمهيداً لنقلها نهائياً إلى المدينة التي كان يجري  
تخطيطها؛ لتكون عاصمة للدولة، وهي إسلام آباد، ورغم ذلك  
فإن كراتشي بقيت المركز الصناعي الرئيسي؛ ففيها تتركز  
وتنمو الصناعات الهندسية والمنسوجات، والمواد الغذائية. كما  
أنها سوق مهم للإقليم الزراعى الذى تقع فيه، ومركز تجارى  
مرموق، وبها مطار دولى هو أهم مطار فى شبه القارة الهندية؛  
لأنه يقع على خط من أهم الخطوط العالمية. ومع ذلك فهي  
تعانى من التضخم السكانى؛ بسبب الهجرة الداخلية من الريف،  
والهجرة الخارجية للوافدين إليها عقب تقسيم شبه القارة  
الهندية.

(442/11)

## \*كابول

عاصمة أفغانستان. تقع على نهر كابل في منطقة مشهورة بزراعة الفاكهة، على ارتفاع (1760) متراً من سطح البحر، وهي كبرى مدن أفغانستان. تحيط بها سلسلة من السهول الفيضية الخصبة، يتراوح ارتفاعها بين (1700، و 2000) متر. كما تقع كابل على الطريق إلى ممر خيبر الذي يوصلها إلى مدينة بشاور بباكستان. والمدينة قسمان: الشرقي، يمثل المدينة القديمة، والغربي، يمثل المدينة الحديثة، وفي وسطها العمود النذاري كرمز لانتصارهم على الجيوش الإنجليزية سنة (1919م)، وبالمدينة متحف كبير، وجامعة كابل التي أسست سنة (1931م). ويعود تاريخ كابل إلى سنة (770 ق. م)، ومرت بها جيوش الغزاة والفاحين عبر التاريخ، وفيها التقت الثقافات والحضارات المختلفة، من هندية ويونانية وفارسية ومغولية وعربية، وكانت قاعدة لانطلاق هذه الحضارات إلى غيرها من الدول والبلدان. وبدأت نهضة كابل في مستهل القرن الأول قبل الميلاد، وتقدمت عمرانياً ومادياً في عهد الكوشانيين، وأصبحت مركزاً روحياً مهماً، واتخذها السلطان المغولي بابر ظهير الدين محمد عاصمة ملكه سنة (1504 - 1519م)، ثم عاصمة لأفغانستان في عهد الملك تيمورشاه سنة (1776م) بدلاً من قندهار، وبرزت أهميتها في أثناء الحرب الأفغانية الأولى (1839 - 1842م). وبالمدينة مصانع للمنسوجات والملابس والجلود، كما تشتهر بتجارها مع الهنود والفرس.

### \*قيسارية

بلدة بفلسطين. تقع على ساحل بحرالشام على بعد (42) كم إلى الجنوب الغربي من حيفا، على ارتفاع قرابة (10م) عن سطح البحر، في منطقة تُعد جزيرة بين الكثبان الرملية التي تحفُّ بالشاطئ بمسافة تتراوح بين (2.1) كم، تاركة نحو (1.5) كم تمثل المنطقة التي تقع في وسطها البلدة. ويعتمد اقتصادها على الزراعة، خاصة البرتقال. وأول بُناها الكنعانيون (الفينيقيون)، وأسماها برج ستراتون، وجُددت في عام (10 ق. م) على يد هيرودس، وسماها قيصرية. واحتلها الفرس عام (1613م)، واسترجعها الرومان، ثم حاصرها عمرو بن العاص، رضى الله عنه، عام (13هـ = 634م)، وفتحت عام (19هـ = 640م) على يد معاوية بن أبي سفيان، رضى الله عنه، وفي عام (975 م)، احتلها البيزنطيون من الفاطميين، ثم استعادها الفاطميون، وتداولها المسلمون والإفرنج بين سنتي (1101 - 1265م)، واحتلها الظاهر بيبرس إلى أن نزلها البشائقة (مسلمو البوسنة والهرسك) عام (1878 م)، فعمروها، وشرد الصهيونيون أهلها ودمروها عام (1948م). ويُنسب إلى قيسارية عبد الحميد الكاتب المتوفى سنة (132هـ = 750 م) 0

(444/11)

### \*قنسرين

مدينة سورية، كانت هي وحمص شيئاً واحداً. فتحها المسلمون على يد أبي عبيدة بن الجراح، رضى الله عنه. وكانت عامرة حتى سنة (351هـ) حين تغلب الروم على مدينة حلب وقتلوا جميع مَنْ كان بها، فخاف أهل قنسرين، ودُمرت سنة (355هـ). وينسب إليها جماعة من أهل الحديث، أشهرهم: أبو بكر محمد بن بركة

المعروف بَبَرْدَاعَس، المتوفى سنة (328هـ). ومنها هاجرت عدة قبائل، واستوطنت جَيَّان بالأندلس.

(445/11)

#### \*السند

ولاية أقامها المسلمون في القرن (1هـ = 7م)، وشملت الحوض الأدنى لنهر السند؛ فكانت بذلك بوابة بلاد الهند التي فتحها المسلمون. ولم تكن هذه البلاد مجهولة للعرب قبل الإسلام؛ إذ كانت تجارتها تمر بالأرض العربية عن طريق اليمن أو البحرين إلى سواحل الشام ومصر. ومرت علاقة الدولة الإسلامية بالسند بعدة مراحل، بدأت بحملة بحرية بقيادة المغيرة بن أبي العاص الثقفي عام (15هـ)، واستطلع المسلمون أمر الهند في خلافة عثمان، وقاد الحارث بن مرة حملة إليها في خلافة علي بن أبي طالب. وتعددت الحملات عليها في خلافة الدولة الأموية، وأشهرها التي قادها المهلب بن أبي صفرة في خلافة معاوية بن أبي سفيان عام (44هـ = 664م) حتى بلغ الأهوار (لاهور)، وتكررت الحملات بعد ذلك للقضاء على الخارجين عن الدولة الإسلامية، أهمها كانت بقيادة محمد بن القاسم بن أبي الحجاج. وبدأ الضعف يتغلغل في أنحاء الدولة الإسلامية في السند؛ بسبب ضعف الولاة الأمويين والصراعات القبلية، وواجه العباسيون ما لاقاه الأمويون من قبل، وانتشر التشيع، وخاصة للعلويين؛ فانتشر فكر الطائفة الإسماعيلية، وقد أدى كل هذا إلى انحطاط شأن السند، حتى تثبتت الشيعة الإسماعيلية أقدامها، واستطاع جلم بن شيبان الاستيلاء على السند وأقام أول دولة إسماعيلية في الهند.

(446/11)

### \* سجلماسة

مدينة مغربية مندثرة. كانت تقع على الجانب الأيسر لوادي زيز في إقليم تافيلالت الذي يمتد في الجنوب الشرقي من الصحراء المغربية. واختار مكانها بربر مكناسة؛ فقد بدأ عيسى بن يزيد - أحد زعمائهم - بناءها عام (140 هـ = 757 م)، إلا أن عمرائها يُنسب إلى اليسع بن سمعون والد مدرار مؤسس دولة بني مدرار التي جعلت سجلماسة عاصمة لها. وحتى عام (296 هـ = 908 م)؛ حيث انتهى حكمهم. وقد استوطن إقليم تافيلالت الأشراف العلويون، وباع أهل سجلماسة المولى محمد بن الشريف، وجاء بعده أخوه المولى الرشيد، وجعل سجلماسة عاصمة لدولة الأشراف، إلى أن جاء المولى إسماعيل فنقل العاصمة إلى مكناسة الجديدة عام (1048 هـ = 1673 م)، ففقدت سجلماسة أهميتها، وامتد إليها الاضمحلال، وتحولت إلى أطلال. وقد زار ابن بطوطة سجلماسة، وقال: إنها من أجمل البلدان.

(447/11)

### \* سوسة

ميناء تونس، وهي تطل على مدينة الحمامات بين تونس في الشمال وصفاقس في الجنوب، وهي أقرب ما تكون إلى القيروان التي تقع غربيها. وتعدُّ سوسة أقدم تاريخاً من قرطاجنة. وتضم أطلالها القديمة عدة مقابر رومانية، فضلاً عن سورها وقلعتهما، وتشتهر بالنسج والحياكة. وقد اتخذها الألمان إبان الحرب العالمية الثانية قاعدة عسكرية، واستولى عليها الحلفاء سنة (1943 م).

**\*سرخس (مدينة)**

مدينة قديمة. تقع الآن في ولاية خراسان الإيرانية، بالقرب من حدودها مع تركمانستان، وهي مدينة يقل فيها المطر، وليس فيها أنهار سوى نهر صغير لا تدوم فيه المياه طوال السنة، وتعتمد المدينة على مياه الآبار العذبة في سد احتياجها. وقد فتحها المسلمون بقيادة الأحنف بن قيس سنة (21 هـ = 642 م) أثناء خلافة عمر بن الخطاب، رضى الله عنهما، وكانت من مراكز الدعوة العباسية في أوائل القرن الثاني الهجري، ثم دخلت تحت إمرة الغزنويين، ثم السلاجقة ثم الخوارزميين، ثم استولى عليها التيموريون، وضموها إلى حكمهم. ويُنسب إليها بعض العلماء، ومنهم: الفقيه الشافعي أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد السرخسي، والفقيه أبو علي زاهر بن أحمد بن محمد بن عيسى السرخسي، وأبو العباس بن الطيب السرخسي عالم الرياضيات والفلك والفلسفة والموسيقى، وأبو قدامة عبيد الله بن سعيد السرخسي الذي كان من الثقات في رواية الحديث وأخذ عنه الإمامان الجليلان البخاري ومسلم.

**\*شلب**

مدينة أندلسية، كانت من أهم المواقع في أقصى الجنوب الغربي؛ بسبب موقعها الاستراتيجي، فهي تقع على حدود جمهورية البرتغال، بالقرب من ساحل المحيط الأطلنطي على نهر أرا، كما أنها تقع بالقرب من ميناء شنتميرة. وكانت هذه

المدينة قاعدة لولاية الغرب تحت الحكم الإسلامي الذي امتد نحو خمسة قرون، ثم أصبحت تابعة لمملكة إشبيلية أثناء عصر الطوائف. وتولى إمرتها الشاعر ابن عمار - وكان من أبنائها - في عهد المعتمد بن عباد، واستقلت المدينة عن إشبيلية في عصر المرابطين والموحدين، ثم عمل البرتغاليون على الاستيلاء عليها سنة (585 هـ = 1189 م)، وحاصروها ثلاثة أشهر، ومنعوا عنها مياه الشرب، واستعانوا بالقوات البحرية الصليبية من الإنجليز والألمان، ولكن السلطان الموحدى المنصور تمكن من استعادة هذه المدينة من أيدي البرتغاليين بعد عامين من غزوهم، وتم له ذلك في (جمادى الآخرة 587 هـ = يوليو 1191 م)، إلا أن البرتغاليين استولوا على المدينة ثانية سنة (640 هـ = 1242 م) ولا تزال تحت أيديهم حتى الآن.

(450/11)

#### \* إقليم السوس

اسم يُطلق على إقليمين بالمغرب؛ يُعرف أحدهما بإقليم السوس الأدنى، ويعرف الآخر بإقليم السوس الأقصى. وقد ظهر اسم هذا الإقليم منذ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب؛ حيث مدَّ عقبة بن نافع فتوحاته الإسلامية سنة (62 هـ = 681 م) غربًا إلى المغرب الأقصى حتى طنجة، ثم اتجه جنوبًا محاذيًا الساحل إلى إقليم السوس الأدنى، وأحرز انتصارات كبيرة على البربر من قبيلة المصامدة، ثم واصل ابن نافع انتصاراته، واتجه إلى إقليم السوس الأقصى، وأمن الناس على حياتهم، وبنى فيها مسجدًا. ويُعد ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين بالمغرب، من أبرز الشخصيات التي تُنسب إلى إقليم السوس.

(451/11)

## \*الأرجنتين

إحدى دول قارة أمريكا الجنوبية. وتمتد من وسط القارة إلى أقصى جنوبها، بين خطى عرض (22° ، 55°)، جنوبي خط الاستواء. والأرجنتين. لفظة إسبانية تعني: أرض الفضة. ومساحة الأرجنتين نحو (2.800.000 كم<sup>2</sup>)، ويشاركها في الحدود (6) دول هي: بوليفيا وباراجواي والبرازيل شمالاً، والبرازيل وأورجواي شرقاً، وشيلي غرباً، وتطل على المحيط الأطلنطي من الجنوب. وتلي الأرجنتين البرازيل من حيث عدد السكان، ويُعد معدل النمو السكاني فيها من أعلى المعدلات في العالم؛ إذ كان عدد السكان سنة (1970 م) نحو (23.5) مليون نسمة، ثم أصبح نحو (32.880) مليون نسمة حسب إحصائية سنة (1990 م)، في حين أنه لم يكن يسكنها منذ قرن واحد سوى (1.5) مليون نسمة. وأهم مدن الأرجنتين: العاصمة بيونس آيرس، وفرطبة، وتقع في وسط البلاد، وروزاريو، وتقع في شمال البلاد. واللغة الرسمية للأرجنتين هي الإسبانية، والديانة الرسمية هي المسيحية الكاثوليكية، كما توجد أقلية مسلمة يبلغ عددها نحو (100) ألف، ويوجد في العاصمة بيونس آيرس الجمعية الإسلامية الخيرية. ويقوم الاقتصاد الأرجنتيني على الزراعة، وأهم المحاصيل فيها: القمح والذرة والشعير والأرز والقطن، كما تمتلك ثروة حيوانية ضخمة تُمثل مع الزراعة نحو (90%) من صادراتها. وأهم الصناعات في الأرجنتين: المنسوجات، والورق، والمطاط، والحديد، والآلات الميكانيكية، كما يستخرج من أرض الأرجنتين بعض المعادن، مثل: الحديد والمنجنيز والكبريت والفضة والذهب.

## \*الصحراء الكبرى

هي صحراء شمال إفريقيا، وهي المنطقة الصحراوية الكبرى في العالم. وتمتد من المحيط الأطلنطي إلى البحر الأحمر، ومن البحر المتوسط إلى السودان، ويحدها من الشمال جبال أطلس. وبالصحراء الكبرى كثبان رملية عالية، ثابتة ومتحركة، ويُعد معظمها هضبة قليلة الارتفاع، لكنها تتميز بوجود كتل بركانية ومنخفضات تقع تحت مستوى سطح البحر. وكان معظم سكان الصحراء الكبرى في العصور القديمة من الزنوج السودانيين، ثم أصبحت السيادة للبربر ثم للعرب. ويقطع الصحراء الكبرى - الآن - طرق السيارات، وقد فكر العلماء في إنشاء خط حديدي يعبرها من الشمال إلى الجنوب، فلم ينفذ سوى جزء صغير منه في القطاع الشمالي. وزادت أهمية الصحراء الكبرى بعد اكتشاف البترول فيها.

(453/11)

## \*قابس

مدينة بين طرابلس و صفاقس والمهدية على ساحل البحر المتوسط، على بعد (320 كم) من مدينة تونس ناحية الجنوب. وقد فتحها المسلمون مع القيروان سنة (27 هـ). وهي ذات مياه جارية، وتشتهر بصيد الأسماك ويساتين الرمان والمشمش، بالإضافة إلى وجود (300) ألف شجرة نخيل بها، كما أنها تصدر كميات كبيرة من التمر. ويُنسب إلى قابس طائفة كبيرة من العلماء، منهم: عبد الله بن محمد القابسي، ومحمد بن رجاء القابسي، وعيسى بن أبي عيسى بن نزار بن بجير أبو موسى القابسي الفقيه المالكي الحافظ.

(454/11)

---

### \*النجف

مدينة عراقية تقع على مقربة من نهر الفرات وتبعد (161 كم) إلى الجنوب من بغداد، بناها هارون الرشيد في القرن (2هـ = 8م)، وتتبع الآن محافظة كربلاء، وكانت تعدُّ مركزًا مهمًّا لتعليم العلوم الدينية واللغة العربية. ويوجد بها مدفن الإمام علي، رضى الله عنه، الذى يتميز بقبته الذهبية الشاححة ومنارتيه المذهبتين، والذى يحوى نفائس لا تقدر بثمن، من هدايا الملوك والسلاطين.

(455/11)

---

### \*النورمان

شعب أوربي، استقر في مقاطعة نورماندى الواقعة شمال غرب فرنسا في القرن التاسع الميلادى، وينتمى النورمان (أى: رجال الشمال) إلى قبائل الفايكنج الذين كانوا يسكنون إسكاندافيا، ثم نزحوا إلى نورماندى واستقروا بها واعتنقوا المسيحية، وتأثروا بالحضارة الفرنسية مع احتفاظهم بجبههم للغزو والمغامرة، وأصبحت نورماندى من أغنى المقاطعات الأوروبية في القرن الحادى عشر الميلادى، ثم انتقل النورمان واستقروا في جنوب إيطاليا وأسسوا مدينة أفرسا سنة (1030م) التى أصبحت مركزًا لتجمعهم، وانتصروا على البابا ليو التاسع سنة (1053 م)، ثم حصلوا على شرعية حكمهم لجنوب فرنسا من البابا مقابل دفعهم مبلغًا من المال سنويًا، وشنوا الغارات على الدولة البيزنطية وفتحوا إنجلترا سنة (1066م) على يد وليم الفاتح، وأدخلوها تحت حكمهم، واستطاعوا فتح جزيرة صقلية المسلمة على يد رجار سنة (1091م) بعد حروب استمرت (30) سنة، وكان

لهم دور فعال في بداية الحروب الصليبية، وقد سيطر الفرنسيون على نورماندى سنة (1450م).

(1/12)

---

### \*الألبان

شعب غالبته تدين بالإسلام، وقد كان يُعرف أيام العثمانيين بالأرناؤوط، وينحدر الألبان من الإلبيرين القدماء الذين سكنوا البلقان، وأسسوا حضارة ودولة لهم اصطدمت بالإمبراطورية الرومانية في عدة حروب، ثم خضعت للرومان سنة (168 ق. م)، وقد اعتنقوا بعد ذلك المسيحية، وعرف الألبان الإسلام خلال حكم العثمانيين في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي، ولم يلبث الإسلام أن انتشر بينهم خلال القرن السادس عشر، بالإضافة إلى اللغة العربية. وأفاد العثمانيون من الألبان في الجيش والإدارة في البلاد المختلفة، وأدى ذلك إلى اختلاطهم واندماجهم مع سكان هذه البلاد. واشتهر من الألبان عدد من الولاة، مثل: محمد على باشا والمعماري الشهير سنان باشا، وقد استقل الألبان عن الدولة العثمانية سنة (1912م) بعد الحرب البلقانية، ويعيش معظم الألبان داخل دولة ألبانيا، بالإضافة إلى بعض الأقليات الألبانية في الخارج مثل يوغسلافيا.

(2/12)

---

### \*البربر

هم السكان الأصليون لشمال إفريقيا من حدود مصر الغربية إلى المحيط الأطلنطي، وهم ليسوا سلالة نقية، ولكنهم أخلاط سلالية وحضارية متعددة على مر التاريخ. ويسكنون الآن مناطق منفصلة

متباعدة في الصحراء الكبرى من واحة سيوة إلى موريتانيا  
وجبال الأطلس في المغرب والجزائر. ويعود مصطلح البربر في  
الأغلب إلى الأصل اللاتيني بربارى، أى: الشعوب الأجنبية  
بالنسبة إلى الرومان، وقد كانت القبائل البربرية تقاوم كل  
أجنبي يغزو بلادها، فقاوموا القرطاجنيين والرومان والوندال  
والقوط والروم البيزنطيين، كما قاوموا الفتح الإسلامي لبلادهم  
مقاومة شديدة كانت سبباً في إطالة مدته التي استمرت أكثر من  
نصف قرن تقريباً، وأشهر المعارك التي دارت بين المسلمين  
والبربر موقعة قهودة سنة (62هـ)، التي استشهد فيها عقبة بن  
نافع الفهري، ومعارك حسان بن النعمان مع كاهنة البربر، التي  
انتهت بجزيمتها سنة (83هـ). وشارك البربر - بعد إسلامهم - في  
الفتوح الإسلامية في الأندلس، ونبغ القائد البربري طارق بن زياد  
في هذا الفتح، وقام البربر بعدة ثورات ضد العرب في المغرب  
والأندلس، وانضموا إلى صفوف الخارجين على دولة بني العباس،  
وساعدوا على إقامة دول مستقلة، مثل الأدارسة والرسومية،  
كذلك ظهرت للبربر كيانات مستقلة، مثل دول: بنزيرى وبنى  
يفرن والحمايرية والمرابطين وبنى مرين وبنى وطاس. واشتهر  
من البربر عدد من الأعلام، منهم: طارق بن زياد فاتح الأندلس،  
ويوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين، والمهدى بن تومرت  
مؤسس دولة الموحدين. وقد فشل الفرنسيون في القرن العشرين  
في إذكاء روح الفرقة بين العرب والبربر. وأهم القبائل البربرية:  
القبائل وتوات وبربر الريف وشلوح.

(3/12)

\*الأتراك

جماعة عرقية استقرت بعد هجرتها من موطنها الأصلي في وسط

آسيا، فيما يسمى اليوم بجمهورية تركمانستان، ولهذه الجماعة العرقية امتداد في شمال إيران وشمال غرب أفغانستان. اعتمد الترك في حياتهم على الرعى والتجارة؛ ولذا كثر ترحالهم، ثم اتجهوا إلى الزراعة، وقد فصل نهر المرغاب بين الشعوب التركية والفارسية. وتعددت القبائل التركية فنجد الترك القراخانية والترك القفجاق، والترك البلغار. وساهم الترك في نشر الإسلام فوطد محمود بن سبكتكين الغزنوي دعائم الحكم الإسلامي في الهند، وكان للترك نفوذ كبير أيام العباسيين حتى إنهم استولوا على بغداد سنة (447هـ)، واستطاعوا نشر الإسلام في آسيا الوسطى بعد انتصارهم على الروم البيزنطيين في موقعة ملاذكرد سنة (470هـ)، ثم قام الأتراك العثمانيون بتأسيس إمبراطورية بلغت ذروة مجدها في القرن العاشر الهجري، واستمرت حتى سنة (1343هـ). وينتمي المماليك إلى العنصر التركي، واستطاع المماليك إقامة دولة تركية في مصر عندما استطاع أيبك التركماني تأسيس دولة للمماليك أطلق عليها المماليك البحرية. ويمكن تقسيم الأتراك الموجودين حاليًا من حيث الأصل السلافي واللغوي إلى قسمين: أحدهما: الأتراك الخُص، وهم الذين يعيشون في تركيا، بالإضافة إلى الأقليات التركية في بلغاريا والجبل الأسود وكريت وقبرص. والآخر المتأثرون: وهم مجموعة من الشعوب المختلفة ثقافيًا ولغويًا، غير أنها اختلطت بأصول تركية، ومن هذه الشعوب: قازاقستان وأذربيجان وتركمانستان.

(4/12)

\*الترك

جماعة عرقية استقرت بعد هجرتها من موطنها الأصلي في وسط

آسيا، فيما يسمى اليوم بجمهورية تركمانستان، ولهذه الجماعة العرقية امتداد في شمال إيران وشمال غرب أفغانستان. اعتمد الترك في حياتهم على الرعى والتجارة؛ ولذا كثر ترحالهم، ثم اتجهوا إلى الزراعة، وقد فصل نهر المرغاب بين الشعوب التركية والفارسية. وتعددت القبائل التركية فنجد الترك القراخانية والترك القفجاق، والترك البلغار. وساهم الترك في نشر الإسلام فوطد محمود بن سبكتكين الغزنوي دعائم الحكم الإسلامي في الهند، وكان للترك نفوذ كبير أيام العباسيين حتى إنهم استولوا على بغداد سنة (447هـ)، واستطاعوا نشر الإسلام في آسيا الوسطى بعد انتصارهم على الروم البيزنطيين في موقعة ملاذكرد سنة (470هـ)، ثم قام الأتراك العثمانيون بتأسيس إمبراطورية بلغت ذروة مجدها في القرن العاشر الهجري، واستمرت حتى سنة (1343هـ). وينتمي المماليك إلى العنصر التركي، واستطاع المماليك إقامة دولة تركية في مصر عندما استطاع أيبك التركماني تأسيس دولة للمماليك أطلق عليها المماليك البحرية. ويمكن تقسيم الأتراك الموجودين حاليًا من حيث الأصل السلالي واللغوي إلى قسمين: أحدهما: الأتراك الخُص، وهم الذين يعيشون في تركيا، بالإضافة إلى الأقليات التركية في بلغاريا والجبل الأسود وكريت وقبرص. والآخر المتأثرون: وهم مجموعة من الشعوب المختلفة ثقافيًا ولغويًا، غير أنها اختلطت بأصول تركية، ومن هذه الشعوب: قازاقستان وأذربيجان وتركمانستان.

(5/12)

\*قريش (قبيلة)

قبيلة كبيرة من قبائل العرب، سُميت بقريش لقولهم: فلان يتقرش

مال فلان، أى: يجمعه شيئاً إلى شئ، وكانت تُنسب إلى النضر بن كنانة بن خزيمه بن مُدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وتنقسم قريش إلى قسمين كبيرين: أحدهما: قريش البطاح، ومنهم: بنو عبد مناف وبنو عبد العزى وبنو عبد الدار وبنو زهرة، وبنو تيم، وغيرهم. والآخر: قريش الظواهر، ومنهم: قبائل بنى عامر بن لؤى. وكانت بطون قريش متفرقة فى أرض العرب، فجمعها قصى بن كلاب وحارب بهم قبيلة خزاعة، وأخرجها من حول البيت الحرام، وجمع قومه فى مكة، وأصبح ملكاً عليهم. وعندما بُعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، حاربه قريش فى أكثر من غزوة، منها: بدر الكبرى، وأحد، والأحزاب، أو (الخدق)، وهى الغزوة التى تحالفت فيها قريش مع غطفان ويهود المدينة المنورة، ولكن قريشاً ما لبثت أن دخلت فى الإسلام عندما فُتحت مكة سنة (8هـ = 629م). وكانت قريش تعتمد على التجارة مع الحبشة وبلاد الشام، واشتهر عنهم قيامهم برحلتى الشتاء والصيف. وكانت تعبد الأصنام التى وُضعت حول الكعبة وداخلها، ومن أشهر تلك الأصنام: هبل وأساف، ونائلة ومناة، والعزى، وكانت قريش تجمع من أمواها لكساء الكعبة. وتنقسم قريش فى الوقت الحاضر إلى قسمين: أحدهما: الأشراف القرشيون، وهم بقايا قريش الذين يقيمون فى منى وعرفات وماجاورهما. والآخر: يطلق على فرع من تقيف يُسمى قريشاً، ويقوم بالقرب من الطائف.

(6/12)

\*صنهاجة

قبيلة كبرى من قبائل البربر ببلاد المغرب العربى، ترجع إلى أصل عربى حميرى يمنى، وكانت هذه القبيلة تؤيد الدولة

الفاطمية ضد قبائل زناتة التي كانت تؤيد الدولة الأموية بالأندلس؛ ولهذا فقد نشأ بين القبيلتين نزاع شديد استمر عدة قرون. وكان لهذه القبيلة عدة إمارات مستقلة في عدة جهات مختلفة، منها: إمارة بني زيري بتونس، وإمارة بني حمّاد بالجزائر، إلى جانب دولة المرابطين بالمغرب العربي والأندلس. ولاتزال هناك عدة قبائل تحمل اسم صنهاجة نفسه حتى الآن بإقليمي تازة والناظور.

(7/12)

---

#### \*مغادرة

فرع من قبيلة زناتة الكبرى. ظهرت في نهاية القرن الرابع الهجري، عندما انضمت هذه القبيلة إلى الدولة الأموية بالأندلس، فحاربت دولة الأدارسة. وأسس زعيمها زيري بن عطية إمارة مستقلة، استمرت إلى ما يقرب من نصف قرن من سنة (381هـ) إلى سنة (428هـ)، وكانت عاصمتها مدينة وجدة.

(8/12)

---

#### \*لمتونة

قبيلة كبيرة من قبائل البرانس الصنهاجية، كانت تسكن الصحراء الكبرى بين بلاد المغرب والسودان، ومن أبرز رجالها: أبو بكر بن عمر، ويحيى بن عمر، ويوسف بن تاشفين، مؤسسو دولة المرابطين بالمغرب.

(9/12)

---

## \*أمية (بنو)

أمية إحدى البطون القرشية الكبيرة التي تُنسب إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مُرّة، أحد سادات قريش في الجاهلية. كان بنو أمية يسكنون الحجاز، ثم تفرقوا بعد انتشار الإسلام فإلبلاذ، فسكنوا الشام ومصر والأندلس، وغيرها. وقد أقام بنو أمية دولتين إسلاميتين، عُرفتَا بنسبتهما إليهما، هما: الدولة الأموية في المشرق، وعاصمتها دمشق، وقد ظلت تحكم العالم الإسلامي من نحو سنة (41 - 132هـ)، ومن أبرز رجالها: معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية بالشام، ومروان بن الحكم، وعبد الملك بن مروان، والوليد بن عبد الملك والخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، وقد انتهى حكم بني أمية فالمشرق بعد مقتل مروان بن محمد سنة (132هـ). أما الدولة الإسلامية الثانية التي أقامها بنو أمية فكانت في الأندلس، وظلت تحكم الأندلس نحو (284) سنة، من سنة (138 - 422 هـ). وينقسم حكم بني أمية في الأندلس من حيث نظام الحكم إلى ثلاثة أقسام، هي: عهد الولاية: ويبدأ سنة (92هـ) وينتهي سنة (138هـ). وعهد الإمارة: ويبدأ سنة (138هـ) بإمارة عبد الرحمن بن معاوية الملقب بعبد الرحمن الداخل، وصقر قريش الذي يُعد مؤسس الدولة الأموية في الأندلس، وينتهي سنة (316هـ). وعهد الخلافة: ويبدأ سنة (316هـ)، وينتهي سنة (422هـ). وقد بدأ هذا العهد بأعظم خلفاء بني أمية في الأندلس وهو عبد الرحمن الناصر. وقد انتهت دولة بني أمية في الأندلس بعزل هشام الثالث سنة (422هـ)، وصار الحكم بعد ذلك لملوك الطوائف.

## \*الغساسنة

قبائل عربية أزدية يمانية، حكمت حوران والبلقاء والغوطة ببلاد الشام، وأقامت مملكة عربية مسيحية بمساعدة الروم البيزنطيين، كانت درعًا للروم تحميهم من هجمات الفرس وعرب المناذرة. واسم الغساسنة - في رأى البعض - مأخوذ من عين ماء سقوا منها، اسمها غسان. ويعرف الغساسنة - أيضًا - بآل جفنة نسبة الى أول ملك لهم، ويسمى جفنة بن عمرو. وقد استقر الغساسنة - بعد ترحال - في جنوب شرقي دمشق في أواخر القرن الثالث الميلادي، ولم تكن لهم عاصمة محددة، فقد كانت الجولان والجابية أهم حواضرهم، واعتنقوا المسيحية على المذهب اليعقوبي، الذى ينادى بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح، عليه السلام. وساند الغساسنة الروم في حربهم ضد الفرس في مواقع كثيرة، وتعاضمت قوتهم وحاولوا الإفلات من سيطرة الروم؛ لذلك وقع قتال بينهم وبين الروم، انتهى بأسر النعمان بن المنذر، ملك الغساسنة، سنة (583 م) ونفيه إلى جزيرة صقلية. وبذلك انفرط عقد القبائل الغسانية. واستغل الفرس ذلك واستولوا على سوريا، وبيت المقدس سنة (613 م)، فقام الروم بتجميع هذه القبائل مرة ثانية وتكوين مملكة لهم، على رأسها جبلة بن الأيهم، الذى حارب المسلمين، ثم أسلم بعد ذلك وارتدَّ ومات بأرض الروم. وكانت الغساسنة من أرغد العرب عيشًا، وكانت لهم حضارة وكانوا يتكلمون اللغة الآرامية إلى جانب اللغة العربية.

(11/12)

## \*الأكراد

شعب من مجموعة الشعوب (الهند وأوربية)، وقد تعددت الآراء

والنظريات حول أصل الأكراد، فبعضها يرى أنهم ينحدرون من أصل آري، وبعضها يرى أنهم من أصل آشوري، وبعض ثالث يرى أنهم من أصل عربي. ولكن معظم الكتاب والمفكرين الأكراد يرون أن أصولهم آرية. ويقطن الأكراد منطقة كردستان في قارة آسيا، داخل ثلاث دول، هي: تركيا وإيران والعراق. ولا يزيد عدد الأكراد على تسعة ملايين نسمة، موزعين على الدول التي تضم منطقة كردستان، ويتوزع باقي الأكراد كأقليات في كل من سوريا ولبنان وجمهورية الاتحاد السوفييتي السابق وأفغانستان وباكستان. والأكراد مسلمون سُنيون في غالبيتهم، ومعظمهم على المذهب الشافعي، وتوجد قلة شيعية تعيش في كردستان وكرمنشاه ولورستان. وقد حكم الأكراد بابل في عهد الملك أميبا فترة امتدت من سنة (2300 ق. م) إلى سنة (2175 ق. م)، ثم خضع سكان كردستان لحكم الأرمن، والإخمينيين، والسلوقيين، والرومان، والفرس، والبيزنطيين، والساسانيين، والعرب. وقد دخل الأكراد في الإسلام في الثلث الأول من القرن الأول الهجري. ومن أبرز الشخصيات الكردية في التاريخ: صلاح الدين الأيوبي، مؤسس الدولة الأيوبية، وقائد المعارك الحاسمة ضد الصليبيين. وفي أوائل القرن العشرين الميلادي نشأت بين الأكراد فكرة القومية الكردية؛ كرد فعل تجاه القوميات التركية والعربية التي بدأ الترويج لها منذ نهايات القرن التاسع عشر الميلادي، ونتيجة لمعاناتهم من النظم الحاكمة في المنطقة، وبخاصة في تركيا والعراق وإيران. ويتكلم الأكراد اللغة الكردية، وتكتب في إيران والعراق بحروف عربية، وفي جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق وتركيا تكتب بالحروف اللاتينية.

## \*الأوزبك

إحدى المجموعات التركية التي تعيش في وسط آسيا، وهم كبرى المجموعات التركية المعاصرة عددًا؛ إذ يبلغون (20) مليون نسمة، ويسكنون فيما كان يعرف قديمًا باسم بلاد ما وراء النهر ، وهو نهر جيحون، ويسكن نحو (15.5 مليون) منهم في جمهورية أوزبكستان الحالية، و (1.8 من المليون) في شمالي أفغانستان، و (1.2 من المليون) في طاجيكستان، والباقيون موزعون على الجمهوريات المجاورة، وهي: قيرغيزيا وقازاقستان وتركمانيا. وقد ظهرت الأوزبك في نحو القرن (2 م) وكونت مملكتين في القرن (5 م)؛ إحداهما في منغوليا الحالية، والأخرى في آسيا الوسطى وعرفت باسم مملكة قره اقطاي. واشتغل الأوزبك برعاية الأغنام والخيول والإبل، وعاشوا بعد تغلبهم على قبائل السارت في أعالي نهر سيحون. ويتميز الأوزبك بأنهم خليط تركي إيراني. وكانت المنطقة التي عاشوا فيها مرآً مهمًا للتجارة بين حضارة الصين وحضارات غربي آسيا، ونجم عن ازدهار الحضارة والثروة في هذه المنطقة أن صارت المنطقة محطاً أطماع الدول القوية من حولها. وبدأ دخول الإسلام في المنطقة التي يسكنها الأوزبك سنة (31 هـ). ومن أشهر المعارك التي خاضها المسلمون في هذه المنطقة معركة تالاس سنة (134 هـ)، وقامت للأوزبك بعض السلطنات مثل خوارزم السلجوقية، ثم سيطر المغول ومن بعدهم الروس على تلك المناطق الأوزبكية، وخضع الأوزبك لسيطرة الشيوعيين السوفييت سنة (1917 م)، واستمروا خاضعين لهم حتى انهيار الاتحاد السوفييتي السابق سنة (1990 م).

## \*التكرور

شعب مسلم من الزنج، ينتشر في غرب إفريقيا في السنغال والنيجر وحول بحيرة تشاد. والتكرور خليط من عدة أجناس زنجية. وقد دخل الإسلام المنطقة التي كان يقيم فيها التكرور مع جهاد المرابطين في منتصف القرن الخامس الهجري؛ لذلك فهم من أقدم الإفريقيين في جنوب الصحراء إسلامًا، حيث أسلم التكرور وقاموا بنشر الإسلام بين الوثنيين حتى صار لفظ التكروري مرادفًا للمسلم. وكان التكرور شعبًا يعمل بالزراعة ويحترف بعض الصناعات ويحيد فنون القتال، لذلك استطاع إقامة عدة ممالك مستقلة أو متحالفة في منطقة غرب إفريقيا، وقامت هذه الممالك بمواجهة الاستعمار الأوربي، خاصة الفرنسي، وظهر عدد من المجاهدين المسلمين الذين حققوا بعض الانتصارات على الفرنسيين، مثل الحاج عمر الفوني التكروري، الذي قاد الجهاد حتى استشهاده سنة (1864 م). واستطاع الفرنسيون القضاء على نفوذ التكرور سنة (1898 م) بعد موت أحمد ابن الحاج عمر الفوني التكروري.

(14/12)

## \*الأوس

قبيلة عربية يرجع نسبها إلى أوس بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد. و (الأوس) في اللغة معناها: (الذئب). وهي خمس أفخاذ: عمرو بن عوف، والنبيت، وحشم، ومرة، وامرؤ القيس، ومن الأفخاذ الثلاث الأخيرة تكونت قبيلة أوس الله أو الأوس. وكانت الأوس تسكن اليمن مع الخزرج ضمن قبيلتهم الكبرى الأزد، ثم خرجوا مع رؤسائهم من تهامة إلى شمالي الجزيرة العربية، فنزلت كل من الأوس والخزرج بضواحي

المدينة، وظلنا فيها حتى خرج مالك بن العجلان الخزرجي منها إلى الشام، فنزل هناك على ملك الغساسنة أبي جبيلة الغسانی، فشكا إليه مالك حالهم وصراعهم مع اليهود، واستجار به منهم، فجهَّز أبو جبيلة جيشه، وغزا المدينة فأعمل السيف في اليهود حتى أذَّهم وقتل كبراءهم ورؤساءهم، وأصبح الأوس والخزرج هم أصحاب السيادة في المدينة، وظلت القبيلتان على عدائهما لليهود. وعاشت الأوس مع الخزرج في الإسلام حيناً من الدهر، ثم ما لبثت الحرب أن نشبت بينهما، وكان من أشهر أيامها: يوم سمير، ويوم كعب، ويوم حاطب، ويوم بعث. وفي بيعة العقبة الثانية اختار النبي - صلى الله عليه وسلم - ثلاثة نقباء من الأوس، هم: أسيد بن حضير، وسعد بن خثيم، وأبو الهيثم بن النيهان. ولما هاجر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة جمع الله به بين الأوس والخزرج، فأصبحوا إخواناً في فعل الخيرات، والجهاد في سبيل الله؛ انتصاراً للإسلام، وإعلاءً لكلمة الله، وتأيداً لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

(15/12)

### \*الخزرج

قبيلة من عرب الجنوب، هاجرت هي وقبيلة الأوس التي تنحدر معها من أصل واحد إلى يثرب، ثم اتسعت منازلها شمالاً في فجر الإسلام، حتى بلغت خيبر وتيماء. وتُعرف هاتان القبيلتان بالأنصار تشريفاً وتكريماً، لما كان لهما من شأن كبير في مؤازرة الإسلام ونشر الدعوة. وكانت الخزرج في عهد النبي (منقسمة إلى عشائر غير متكافئة في العدد، وكان أكثرها عدداً عشيرة بني النجار، ثم الحارث، ثم جشم، ثم عوف، ثم كعب. وخرج من بين الخزرج شعراء النبي - صلى الله عليه وسلم - حسان بن ثابت، وكعب ابن مالك، وعبد الله بن رواحة). وقد نزح عدد من الخزرج إلى مصر

في وقت مبكر، وأثرت لغتهم في اللهجة المصرية؛ لنشوتهم في جنوبي بلاد العرب، فكانوا ينطقون الجيم معطشة على خلاف أهل المشرق.

(16/12)

---

### \*الخطا

الخطا أو القره خطائيون مجموعة من القبائل التركية التي سكنت شمال شرقي إيران فالعصر السلجوقي، واستطاعت تثبيت أقدامها في تلك المنطقة حتى أسست دولة لها، وكان كل ملك من ملوكهم يُطلق عليه كورخان. ويرجع أصل هذه القبائل إلى قبائل الكيتان الصينية، التي أقامت دولة لها في شمال الصين في القرن الرابع الهجري، واستمرت قرنين من الزمان حتى انهارت ونزحت من موطنها واستقرت في شمال شرقي إيران، وتوسعت شرقاً وغرباً على حساب أملاك السلاجقة؛ مما أدى إلى وقوع الحرب بين الطرفين، خاصة أن الخطا كانوا يدينون بالبوذية. واستطاع الخطا الانتصار على السلاجقة في موقعة قطوان الشهيرة سنة (536هـ)، وبذلك قامت دولتهم، واستمروا يحكمونها (89) سنة، وسيطروا على بلاد ما وراء النهر، ودفع الخوارزميون لهم الجزية التي كان مقدارها (30) ألف دينار ذهب سنوياً، واستمر الحال هكذا حتى استطاع السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه القضاء على مملكة الخطا بمساعدة المغول سنة (607هـ). وأدى انهيار مملكة الخطا إلى اجتياح المغول للعالم الإسلامي، والقضاء على دولة الخلافة العباسية بعد ذلك في سنة (656هـ).

(17/12)

### \*هلال (قبيلة)

هلال بن عامر بطن من قبيلة عامر بن صعصعة من العدنانية. وهم بنو هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس بن عيلان. كانوا يسكنون الحجاز ونجدًا حول مكة، وفي بسائط الطائف، ما بينه وبين جبل غزوان، وأقاموا بالشام إلى أن رحلوا إلى مصر والمغرب. ومن أيامهم في الجاهلية: يوم الوندرة وكانوا قد أغاروا على نِعم بنى نَمِشَل فَأَنْزَلْتَهُمْ بَنُو نَمِشَل بِالْوَنْدَرَةِ، وهى بالدهناء، فما أفلت من المغيرين إلا رجل واحد، كما خرجوا مع هوازن يوم حنين لمحاربة النبي - صلى الله عليه وسلم -، وساروا إلى مصر في حروب القرامطة ثم إلى إفريقية، فلما زاحمهم بنو سليم ساروا إلى الغرب ما بين بونة وقسطنطينية، إلى الخيطة. وكان هلال خمسة من الولد، بطونها كلها ترجع إليهم، وهم: شعبة وناشرة ونهيك وعبد مناف، وعبد الله. ومن بطون هؤلاء أيضاً: بنو قرة، وبنو بعجة، وبنو حرب، وبنو رياح.

(18/12)

### \*هوازن

بطن من بطون قيس بن عيلان، وهم بنو هوازن بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. كانوا يقطنون نجدًا بالقرب من اليمن، ووادي حنين (بين الطائف ومكة)، وقد غزاهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد فتح مكة ووقعت معركة كبيرة هُزم فيها جيش هوازن، ووقع أبناؤهم ونساؤهم ومعظم رجالهم في الأسر. ودخل أبناء هذا البطن الإسلام بعد ذلك، ولكنهم ما لبثوا أن ارتدّوا عنه بعد وفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيمن

ارتد من قبائل العرب، فحاربهم أبو بكر الصديق - رضى الله عنه  
- حتى تابوا إلى رشدهم.

(19/12)

---

**\*هاشم (بنو)**

بطن من قبيلة قريش، يرقى إلى هاشم بن عبد مناف، الذى أُطلق  
عليه هذا اللقب؛ لأنه كان أول من هشمَّ الثريد لقومه فى جماعة  
أصابتهم. وإلى بنى هاشم ينتسب النبى - صلى الله عليه وسلم - وعلى بن أبى طالب -  
كرم الله وجهه - والحسن والحسين، رضى الله عنهما. أما فى  
العصر الحديث، فأبرز ممثلهم فى المشرق هم: الشريف حسين،  
شريف مكة، وابناه الملك عبد الله والملك فيصل وخلفاؤهما.  
وأبرز ممثلهم فى المغرب الأسرة الملكية الحاكمة فى المملكة  
المغربية.

(20/12)

---

**\*التركمان**

شعب ينتسب إلى مجموعة الشعوب الناطقة باللغات التركية. يقدر  
عددهم بنحو (1.750.000) نسمة، يعيش معظمهم فى جمهورية  
تركمانستان الاشتراكية السوفيتية، ويعيش بعضهم فى الأجزاء  
الشمالية من إيران وأفغانستان. والتركمان يتكلمون اللغة  
التركمانية، وهى إحدى اللغات التركية، وكانت تكتب فى الأصل  
بجروف عربية، حتى سنة (1927م) عندما استعيض عن الحروف  
العربية بحروف لاتينية معدلة.

(21/12)

---

### \*جدالة\*

قبيلة من قبائل صنهاجة الملثمة السبعين، تقع غرب لتونة في الصحراء الغربية، على سواحل المحيط الأطلسي، بالقرب من أرجوين ورأس الأسود. أقام المصلح ياسين فيها فترة، وأجبر أهلها على التمدد بمذهبه سنة (432هـ). ولما توفي رفضت القبيلة الانتماء بمن جاء بعده، فما كان إلا أن اعتكف من جاء بعده في قبائل لتونة المجاورة. وقد أخضع يوسف بن تاشفين - رأس الدولة الموحدية - قبيلة جدالة لحكمه، ومنذ ذلك الحين لم يعد لهم ذكر في التاريخ.

(22/12)

---

### \*هود (بنو)\*

أسرة ملكية إسلامية عربية، حكمت سرقسطة بالأندلس في عهد ملوك الطوائف. أسسها سليمان بن محمد بن هود، المعروف بالمستعين سنة (534هـ)، فلما توفي خلفه ابنه أحمد الأول المقتدر في الفترة من سنة (441هـ) إلى سنة (477هـ)، بعد أن نشب صراع بين أولاد المستعين الخمسة. وآخر ملوك أسرة بني هود المستنصر أحمد الثالث، الذي لقي مصرعه في معركة خاضها ضد النصارى عام (541هـ)، وموته زالت دولة بني هود.

(23/12)

---

### \*جهينة (قبيلة)\*

قبيلة عربية وثيقة النسب بيلي،، وبهراء، وكلب، وتنوخ. وتنتمي مثلها إلى قضاة، تلك القبيلة العربية الكبيرة في

جنوبي بلاد العرب. وقد نزلت جهينة في الجاهلية نجدًا أول الأمر، ثم نزلت فيما جاور المدينة بين البحر الأحمر ووادي القرى. واستقر بنو جهينة في هذه الناحية عندما أخذ الإسلام في الظهور، ودخلوا في الإسلام طائعين، وثبتوا عليه بعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - . وظل حتى من هذه القبيلة في منازلهم القديمة، ولا يزالون فيها إلى اليوم، بينما نرح معظم القبيلة إلى مصر بصفة خاصة، واستقروا عند الحدود النوبية، وكان لهم أكبر الأثر في فتح النوبة وتعريبها، ودخولها في الإسلام.

(24/12)

### \*الأرمن

هم أحد الشعوب القديمة التي لا يُعرف أصلها بدقة، ولا سبب تسميتها بوضوح. وتعددت الآراء حول أصلهم، فيرى بعض المؤرخين أن أصولهم السلالية تعود إلى القبائل الهندو أوربية التي سكنت أواسط آسيا على حدود الهند قديمًا، ثم هاجرت إلى أماكن أخرى في آسيا مثل جبال القوقاز، وجورجيا، وأرمينيا وكونت شعوبًا بأكملها تعرف بأسماء معينة، مثل: الهنود والفرس والساسانيين والأرمن. ويرى بعض المؤرخين أنهم من القبائل الهندو أوربية التي هاجرت إلى أوروبا واستقرت بها حينًا من الدهر، ثم عاد قسم منهم فعبروا إلى الشرق، مجتازين منطقة البلقان ومضيق البسفور والدرديبل واستقروا أخيرًا في آسيا الصغرى. ويتميز الشعب الأرمني من الناحية النفسية بأنه هادئ الطبع إلا إذا أُثير، كثير التحمل للمشاق، ويصعب توجيهه كمجموعة؛ نظرًا لانفراد كل منهم برأيه. وقد بدأ اسم الأرمن يتردد في كثير من وسائل الإعلام العربية والأجنبية بعد الزلزال المدمر الذي أحاق بجمهورية أرمينيا سنة (1408 هـ = 1988 م)،

ثم النزاع على الحدود بين أرمينيا وأذربيجان سنة (1409 هـ = 1989 م).

(25/12)

### \*أسد (بنو)

قبيلة عربية كبيرة، تنسب إلى أسد بن خزيمه بن مدركة بن إلياس من العدنانية، تشعبت بطوناً وتفرعت عشائر، فمن بطونها: بنو كاهل، وبنو غنم، وبنو ثعلبة وبنو عمرو بن قعيد. ومن عشائرها: بنو أسد عبد العزى وأسد بن جشم وأسد بن مسلبة وأسد بن مناة. كانت هذه القبيلة تسكن منطقة نجد، ثم ارتحلت جماعات منها إلى ما وراء شَمْر، واتخذ بعضهم الكوفة مستقراً لهم، واستوطن بنو غنم، مكة، وهاجرت جماعة إلى شمالي إفريقيا وسكنت سطيف غربي القيروان. وقبيل منتصف القرن الثالث الميلادي هاجرت قبيلة بني أسد إلى خط الفرات، وعاشت تحت حكم اللخمين. وبظهور الإسلام انحاز معظم بني أسد إلى جانب مشركي مكة، وأعانوهم في حروبهم ضد رسول الله ﷺ وحاولوا غزو المدينة بعد غزوة أحد، فأنفذ إليهم الرسول سرية بقيادة أبي سلمة فلما أحسَّ بنو أسد مقدمها فروا هاربين. وفي عام الوفود قدم وفد من بني أسد يعلنون إسلامهم. وفي حياة الرسول خرج منهم طليحة بن خويلد، يدعى النبوة، فتبعه قومه من بني أسد، وشايعه بعض القبائل المجاورة. وقد وجَّه إليهم أبو بكر جيشاً بقيادة خالد بن الوليد، فانتصر عليهم وأعادهم إلى الإسلام. وقد سكن بنو أسد الكوفة، وانضموا إلى جيش علي بن أبي طالب ومن بعده ابنه الحسين، وبمرور الزمن أصبح كثير منهم من رواة الحديث على المذهب الشيعي.

(26/12)

### \*البجة

اسم يطلق على بدو الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الأحمر، ومن بقايا الشعوب التي تألفت منها مملكة أثيوبيا القديمة، ويظن أنهم من سلالة أولاد كوش ابن حام بن نوح، الذين هاجروا إلى السودان بعد الطوفان. ومن الثابت المقطوع به أنهم من سلالة غير سلالة السود، وأنهم أقدم الشعوب في إفريقيا بعد السود. وهم منقسمون إلى قسمين رئيسيين: العبابدة، والبشارين، ويبلغ عددهم نحو المليونين ونصف المليون نسمة، منهم نحو نصف المليون يعيشون داخل الأراضي المصرية، ويعيش الباقون في السودان. وهم رعاة يعتمدون في حياتهم على تربية الإبل والماشية والأغنام، إلى جانب زراعة الشعير، التي تعتمد على مياه الأمطار. وهم يعيشون في شبه عزلة اجتماعية وثقافية.

(27/12)

### \*التتار

قبيلة مغولية، استقرت بعد القرن الخامس للميلاد في منغوليا الشرقية ومنشوريا الغربية، وشكلت جزءاً من جحافل جنكيز خان التي اجتاحت أوروبا الشرقية في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي، وبعد انقسام إمبراطورية جنكيز خان أطلق اسم التتار على الشعوب التركية، التي تألفت منها ما يعرف عادة ب الجحفل الذهبي، وخلال القرن الرابع عشر الميلادي دخل التتار في الإسلام. وعدد التتار حالياً خمسة ملايين نسمة، يقيم معظمهم في جمهورية تتارستان، وفي الجزء الشمالي من بلاد القوقاز، وفي شبه جزيرة القرم وأجزاء من سيبيريا. وقد أطلق اسم التتار في

كثير من الأحيان على جميع المغول وعلى الأتراك أيضاً. وأشهر طوائفهم: تثار (كنشاه)، الذين كان الروس تحت حكمهم قبل القرن العاشر للميلاد، وتثار (القازان)، وتثار (سيبيريا).

(28/12)

---

### \*تغلب

قبيلة عربية من أعظم قبائل ربيعة شأناً، تنسب إلى جد جاهلي يدعى تغلب ابن وائل بن قاسم، ويطلق على بني تغلب الأرقام. كانت تغلب تسكن - قديماً - نجد والحجاز ثم هاجرت واستقرت في ديار ربيعة بالقرب من الشام. وتغلب من القبائل التي كانت تخوض حروباً كثيرة في جاهليتها فقد حاربت بني بكر أربعين سنة في حرب البسوس، وقد اعتنق بنو تغلب النصرانية، ثم اعتنق بعض بني تغلب الإسلام سنة (9 هـ) إلا أنهم ارتدوا وناصروا سجاح كما ساندوا الفرس في حربهم ضد المسلمين، إلا أن خالد بن الوليد انتصر عليهم في عين التمر سنة (12 هـ)، وقد شاركت تغلب في ثورة القرامطة. وتفرقت تغلب في بلاد الشام بعد ذلك وكان لها دور بارز في قتال التتار سنة (681 هـ). ونبغ من تغلب عدد من الشعراء مثل: المهلهل بن ربيعة والأخطل وعمرو بن كلثوم. وتفرعت تغلب إلى عدة فروع، منها بنو شعبة بالطائف وبنو حمدان ملوك الموصل.

(29/12)

---

### \*تيم

اسم تنسب إليه عدة قبائل وبتون عربية في العصر الجاهلي منها: 1 - تيم بن مرة: وهي بطن من بتون قريش، وتنسب إلى تيم

بن مرة بن كعب بن لؤى وكان بنو تميم من سادات قريش، وكان لهم حى بمكة، ومن شخصياتهم البارزة فى الجاهلية عبد الله بن جدعان، أما فى الإسلام فقد برز من تميم الخليفة الأول أبو بكر الصديق والصحابى الجليل طلحة ابن عبىء الله، رضى الله عنهما. 2 - تيم الله: وهى قبيلة عربية عدنانية كانت مسيحية ثم أسلمت وشاركت فى الفتوحات الإسلامية. 3 - تيم الله بن النمر: وهى عربية عدنانية أيضاً، كما أنها بطن من بطون جديلة بن ربيعة. بالإضافة إلى عدة قبائل ويطون أخرى، مثل: تيم بن ثعلبة بن جدعان وتيم ابن غالب وتيم بن عبد مناة وغيرها.

(30/12)

#### \*تقيف

قبيلة عربية مشهورة فى الجاهلية والإسلام، تسكن الطائف وما حولها إلى الجنوب الشرقى من مكة المكرمة. تنسب هذه القبيلة إلى تقيف بن منبه بن بكر بن هوازن وجدهم الأعلى هو: قيس بن عيلان. وقد انفردت تقيف بسكنى الطائف بعد تغلبها على بنى عامر بن صعصعة، وكان الثقفيون أصحاب أموال كثيرة لمهارتهم فى الزراعة. انتصر النبى على تقيف فى حنين سنة (8 هـ = 629 م)، ثم ما لبث الثقفيون بعد ذلك أن دخلوا الإسلام وشاركوا فى الفتوحات الإسلامية، كذلك شاركوا فى تخطيط وبناء عدد من المدن، مثل: الكوفة والبصرة، وتولى الثقفيون إدارة العديد من الأمصار المفتوحة مثل أرمينية وأذربيجان، وكان الثقفيون منحازين إلى بنى أمية مما كان سبباً فى عداوة بنى العباس لهم - فيما بعد - ثم أوغلت جماعات من تقيف فى بلاد اليمن ونجران فى القرن (3 هـ = 9 م) وكان لهم دور بارز فى بعض أحداث اليمن واشتهر من الثقفيين رجال فى الحديث والشعر

والطب واللغة والحكم والسياسة والحرب، مثل الحجاج بن يوسف  
الثقفى والمغيرة بن شعبة الثقفى ومحمد بن القاسم الثقفى.

(31/12)

---

**\*ثمود**

قبيلة من قبائل العرب البائدة تنسب إلى ثمود بن جاثر بن إرم بن  
سام بن نبي الله نوح، عليه السلام، عاشت قديماً في منطقة  
بابل بالعراق، ثم انتقلت إلى موضع بالحجر (دومة الجندل) في  
المنطقة الواقعة بين الأردن وشمال الحجاز. وقد ورد ذكر ثمود  
في القرآن الكريم (27) مرة، ومرة واحدة باسم أصحاب الحجر.  
واختلف الباحثون في التحديد الدقيق لديار ثمود، والراجح أن  
مواطن ثمود كانت في الحجاز على ساحل البحر الأحمر، وتدل  
بعض الكتابات التمودية الأثرية أن قوم ثمود أصحاب زراعة  
وأهم كانوا أقرب إلى الحضرة، وكانت لهم أماكن ثابتة ومعابد  
بها عدد من الأصنام مثل ود. وكانت ثمود ذات قوة وبأس  
وحضارة حتى إنهم نحتوا من الجبال بيوتاً، إلا أنهم تكبروا في  
الأرض وتجرّوا وكذبوا نبي الله صالحاً، عليه السلام، وقتلوا  
الناقة التي أرسلها الله لهم آيةً على صدق نبوة صالح، عليه  
السلام، فأهلكهم الله بالصاعقة. ولم يرد في المصادر العربية  
والإسلامية ما يفيد وجود قبائل ثمودية قبيل الإسلام أو في  
الإسلام.

(32/12)

---

**\*الوندال**

شعب جرمانى عبر الراين عام (406 م)، واجتاح بلاد الغال

(فرنسا)، ومن ثم اجتاحت جبال البرانس إلى إسبانيا؛ حيث هزم القوط والرومان. وفي عام (429 م) استولى الوندال على المقاطعات الرومانية في شمال إفريقيا؛ حيث أسسوا مملكة عمرت حتى عام (534 م)، وفي غضون ذلك احتلوا روما ونهبوها عام (455 م) وكان الوندال شعبًا غير ميّال إلى الفنون، فلم يتركوا آثارًا لحكمهم، ولشدة همجيتهم اشتق من اسمهم لفظ الوَندلة، الذى يفيد معنى التخريب المتعمد للممتلكات العامة والخاصة.

(33/12)

---

### \*الفونج

هم الذين أسسوا مملكة سنار القديمة مع العبد لاب، وكان لهم شأن عظيم في السودان. وقد اختلف في أصلهم؛ فمنهم من قال: إنهم فرع من الشلك، ومنهم من قال: إنهم من سكان دارفور الأصليين، أمّا هم فيدعون النسبة إلى بنى أمية؛ حيث قالوا: إن العباسيين لما تغلبوا على الأمويين في الشام، ونزعوا الملك من أيديهم سنة (132 هـ = 750 م) أخذ من بقى من الأمويين ومن والاهم بالفرار، فتفرقوا في أنحاء العالم، فذهبت جماعة منهم إلى إسبانيا فأسسوا مملكة الأندلس، وذهب آخرون إلى السودان، وسكنوا البلاد التي في أعالي جزيرة سنار، وكان سكانها من السود وبينهم الفونج، فملكوهم، وتزوجوا منهم، فغير ذلك من لوهم، ولكنه لم يذهب بأصلهم بالكلية، فما زالوا يحتفظون بملامحهم العربية واضحة.

(34/12)

---

## \*الأحباش

هم قوم نشئوا من اختلاط وتزاوج أهالى منطقة الحبشة بالمصريين القدماء والأقوام السامية الوافدة من جنوب جزيرة العرب، فيشبه البعض منهم العرب والبعض الآخر يشبه السودانين. أما الذين يشبهون العرب فإنهم يمتازون عن الآخرين بجمال الشكل والهيئة واللون المائل للبياض، ودقة الأنوف والأفواه واعتدال القامة وتناسب الأعضاء. والأحباش لا يعدون من جنس الزنوج، بل هم معدودون من الأجناس السامية، وهم شغوفون بحمل السلاح والحروب، وهم على جانب عظيم من الذكاء والحساسة. ويبلغ عدد الأحباش اثني عشر مليوناً، منهم ثمانية ملايين مسلمون، وأربعة ملايين مسيحيون أرثوذكس، تابعون للكنيسة القبطية في مصر. والحرفة الرئيسية عندهم رعى الماشية، كما توجد زراعة بسيطة جداً، يعتمدون فيها على الآلات الخشبية.

(35/12)

## \*زهر (بنو)

أسرة عربية من أشرف الأندلس اشتهرت بالطب وذاع صيتها ما بين القرنين الخامس والسابع الهجريين، وبنو زهر قبيلة تنحدر من إياد العدنانية التي هاجرت من الجزيرة العربية واستقرت في الأندلس، واشتهرت هذه الأسرة بنبوغ عدد كبير من الأطباء بها مثل: أبي بكر محمد بن مروان بن زهر المتوفى سنة (422 هـ) وكان فقيه إشبيلية، وأبي مروان عبد الملك بن أبي بكر بن زهر المتوفى سنة (471 هـ) من كبار أطباء إشبيلية، وأبي العلاء زهر بن عبد الملك المتوفى سنة (526 هـ) وكان طبيباً مشهوراً وتولى الوزارة لأمير المرابطين يوسف بن تاشفين وله

مؤلفات عديدة منها: الإيضاح بشواهد الافتضاح والرد على ابن سينا، وأبي مروان عبد الملك بن زهر المتوفى سنة (557 هـ) أشهر أطباء بني زهر وقد قام ببعض العمليات الجراحية مثل: رفع الحصى من الكلى، وفتح القصبة الهوائية، وكان ابن زهر أول من دعا إلى تغذية المريض عن طريق فتحة الشرج وأشهر كتبه الطبية كتاب الاقتصاد في إصلاح الأنفس والأجساد، والتيسير في مداواة والتدبير الذي ترجم إلى العبرية واللاتينية وكان ذا أهمية كبيرة في الجامعات الأوروبية في العصور الوسطى، وأبي بكر محمد بن عبد الملك بن زهر المتوفى سنة (596 هـ) المشهور بالحفيد ابن زهر، وكان أديبًا وشاعرًا وطبيبًا وكان له علاقات وطيدة بالموحدين، إلا أن بعض الحاقدين عليه دسّوا له السمّ فمات سنة (596 هـ). وللحفيد ابن زهر بعض الرسائل في طب العيون.

(36/12)

### \*زهرة (بنو)

قبيلة من قريش تنسب إلى زهرة بن كلاب وهو الجد الثاني للسيدة آمنة بنت وهب أم النبي e وكان لبني زهرة مكانة في الجاهلية، كما أنهم اشتروا في حلف الفضول الذي أقامته قريش قبل البعثة وأسلم الكثير من بني زهرة مثل: عبد الرحمن بن عوف وعمير بن أبي وقاص، وشارك العديد منهم في الفتوحات الإسلامية، واستقروا في المنيا بصعيد مصر، ومازالت إحدى قرى المنيا تسمى حتى الآن ب زهرة. وظهر من بني زهرة في مصر بعض الشخصيات البارزة مثل: هارون بن عبد الله المتوفى (226 هـ) قاضى مصر في ذلك الوقت.

(37/12)

---

### \*ربيعة (قبيلة)

اسم أطلق على عدة قبائل ويطون عربية، تنسب إلى أجداد عليا من أشهرها: 1 - ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، وإليه تنسب أكبر القبائل التي تعرف بريعة، وأخوه النضر بن نزار، الذي يعرف بريعة الحمراء، كما يعرف نزار بريعة الفرس، وكانت قبيلة ربيعة العدنانية تسكن شرق الجزيرة من العراق شمالا إلى اليمامة والبحرين، وتسلسلت من ربيعة عدة قبائل ويطون منها: بنو أسد، وعنزة، ووائل، ومن وائل ثعلب وبكر، ومن بكر بنو حنيفة ومن ربيعة الحمراء صعصعة. ومن صعصعة كلاب ومالك وعامر وكعب. ومن أحفاده ربيعة بن عامر، وربيعة بن حنظلة؛ تنسب إلى الأول قبيلة ربيعة الكبرى ومنازلها بنجد، وتعرف الثانية بريعة الصغرى. 2 - ربيعة بن حذار من بني سعد وكان في الجاهلية من حكام العرب. والنسبة إلى ربيعة ربيعي.

(38/12)

---

### \*جذام (بنو)

قبيلة عربية يمنية الأصل تنسب إلى جذام بن الحارث بن مرة هاجرت شمالا واستقرت في المنطقة الواقعة بين مدين وتبوك، وكان بنو جذام يرشدون القوافل التجارية في المنطقة الصحراوية فيما بين الحجاز والشام ومصر، وكانوا يعبدون - في بادئ الأمر - كوكب المشترى وصنمًا يسمّى الأقيصر ثم اعتنقوا المسيحية إلا أن إيمانهم بها كان سطحيًا كما أنهم كانوا حلفاء للروم، وقد غزاهم النبي e مرتين، وقاتلوا المسلمين، ثم أسلموا وشاركوا في الفتوح الإسلامية، وقد استقر كثير من الجذاميين بمصر بعد فتحها حيث استقروا في الإسكندرية والشرقية ومن

أشهر بطون جذام في مصر سعد ووائل، وهاجر بعضهم إلى الأندلس وسكنوا شذونة وإشبيلية. ومن أشهر الجذاميين روح بن زنباع المتوفى سنة (84 هـ) الذي تولى إمارة فلسطين، وكان مشهوراً بالدهاء والخطابة.

(39/12)

### \*عامر (آل)

آل عامر اسم يطلق - في تاريخ الأندلس - على بعض أحفاد وموالى المنصور بن أبي عامر الذي كان يحكم الأندلس باسم الخليفة الأموي حتى توفي سنة (392 هـ = 1002م)، فتولى عبد الملك بن المنصور حكم مرسية، وتولى أخوه عبد الرحمن بن المنصور حكم بلنسية فلما توفي سنة (399 هـ = 1019م) خلفه مواليه المعروفون بالفتيان العامرين وبعد سقوطهم تولى ابنه عبد العزيز الملقب بالمنصور سنة (412 هـ = 1021م) ولما توفي سنة (452 هـ = 1061م) خلفه ابنه عبد الملك المظفر الثاني وطرده صاحب طليطلة من بلنسية فاستعادها محمد بن عبد العزيز العامري الذي خلفه ولده عثمان وبوفاة عثمان انتهت دولة آل عامر في بلنسية. ومما يذكر أن الفتیان العامرين - وهم الموالي الذين نشأهم المنصور ليكونوا خاصته - كان لهم دور مهم في الأحداث التي تتابعت خلال العصر الأول لملوك الطوائف بشرق الأندلس، وكان من أبرزهم مجاهد العامري الذي حكم بلنسية والفتي العامري خيران الصقلي الذي حكم ألمرية ومرسية وأبو الجيش الموفق مجاهد العامري الذي حكم دانية وطرطوشة وجزر الشرق.

(40/12)

---

### \*سلول (بنو)

قبيلة عربية عدنانية من هوازن كانت تسكن جبال السّراة وهي سلسلة جبلية تمتد من مشارق فلسطين إلى اليمن محاذية ساحل البحر الأحمر الشرقي بين الحجاز واليمن. وتنسب هذه القبيلة إلى أمّ جاهلية هي سلول بنت ذهل بن شيبان، والنسبة إليها سلولّى.

(41/12)

---

### \*المغول

شعب من العراق المغولاني، موطنه منغوليا الداخلية، ومنغوليا الخارجية التي تُعرف الآن بجمهورية منغوليا الشعبية. وقد أنشأ المغول في ظل جنكيز خان وخلفائه إمبراطورية امتدت من الصين شرقاً إلى نهر الدنواب، واجتاحوا في ظل تيمورلنك كامل المنطقة الممتدة من منغوليا إلى البحر الأبيض المتوسط. وكان المغول ولا يزالون من الرعاة، وكان نظامهم الاجتماعي النموذجي إلى وقت قريب يضم أمراء ونبلاء ورجال دين وأقناناً، ولهم لغة مكتوبة، ويرجع تاريخ أقدم مؤلف موجود ومكتوب باللغة المغولية إلى سنة (638هـ = 1240م).

(42/12)

---

### \*خزاعة

قبيلة من عرب الجنوب، وهي فرع من قبيلة الأزد الكبيرة. يرجع نسب بني خزاعة إلى عمرو الملقب بلُحَيّ بن ربيعة بن حارثة بن مزريقاء. نزحت خزاعة مع غيرها من بطون الأزد في عهد سحيق،

واتجهوا جميعاً صوب الشمال، فلما بلغوا ربوع مكة تابع أغلبهم الرحلة، فذهب بنوغسان إلى الشام، وذهب أزد شنوءة إلى عمان، بيد أن لحياً بقي مع عشيرته بالقرب من مكة، وبذلك انفصلوا عن بقية القبيلة. وكانت مكة إذ ذاك في يد قبيلة جرهم، فدارت بين خزاعة وجرهم حرب ضروس، استمرت عدة أيام، وانتهت بهزيمة جرهم، وأصبح بنو خزاعة السادة المسيطرين على مكة وما جاورها من ربوع.

(43/12)

### \*المولدون

هم المسلمون الذين من أصل إسباني، ودخل أجدادهم في الإسلام. وقد نموا بمضى الزمن حتى أصبحوا عنصراً مهماً بين سكان الأمة الأندلسية. وأصبحوا يمثلون أنفسهم تمثيلاً قوياً في المجتمع الأندلسي. وكان العرب والبربر ينظرون إليهم بشيء من الريب، وكان المولدون - بالرغم من تمتعهم في ظل الحكومات الإسلامية المتعاقبة بجميع الحقوق التي كان يتمتع بها باقي المسلمين - يميلون إلى القيام بثورات في أحيان كثيرة؛ إذ كان لهم دور كبير في إثارة بعض الثورات الخطيرة التي قامت ضد حكومة قرطبة، مثل: ثورة الربض، وثورة طليطلة في عهد الحكم بن هشام، وثورة بنى قسى في الثغر الأعلى، وكان المولدون أعوان ابن حفصون أخطر ثوار الأندلس؛ إذ استطاع بمؤازرتهم ومؤازرة معاهديه من النصارى أن ينشئ مملكة مستقلة في منطقة رندة أواخر القرن التاسع للميلاد. ووقف المولدون إلى جانب مواطنيهم الأندلسيين ضد المرابطين ثم الموحيدين. وكان قائد الثورة ضد المرابطين في غرب الأندلس زعيماً من المولدين وهو الفقيه المتصوف أحمد بن قسى شيخ المريدين، وكان قائد

الثورة ضد الموحدين في شرق الأندلس زعيمًا من الموحدين وهو محمد بن سعد بن مردنيش أمير بلنسية ومرسية.

(44/12)

### \*النضير (بنو)

أحد أقوام ثلاثة من اليهود الذين كانوا يسكنون المدينة مع النبي - صلى الله عليه وسلم -، وكان يهود بني النضير ممن عاهدتهم النبي - صلى الله عليه وسلم - على أن يأمن كل فريق منهم الآخر، لكنهم لم يفوا بالعهد؛ فهُمُّوا بقتل الرسول حينما خرج إليهم - صلى الله عليه وسلم - يستعينهم في دية رجلين قتلتهما أحد أصحابه، وهو عمرو بن أمية الضمري، فلما جاءهم أظهروا له حسن الاستعداد للاستجابة لطلبه، ثم خلا بعضهم إلى بعض، فتأمروا على قتل الرسول - صلى الله عليه وسلم -، واختاروا رجلاً منهم، وهو عمرو بن جحَّاش؛ ليصعد فوق أحد البيوت، ثم يلقي صخرة على النبي - صلى الله عليه وسلم -، وهو جالس بجوار جدارٍ لهم، فصعد هذا اليهودي ليلقى الصخرة، فأتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الخبر من السماء بما أراد اليهود؛ فقام وخرج راجعًا إلى المدينة، فلما تأخر النبي - صلى الله عليه وسلم - عن أصحابه قاموا في طلبه حتى انتهوا إليه بالمدينة فأخبرهم بما كان من اليهود، واعتزاهم الغدر بهم. فبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - محمد بن مسلمة إلى بني النضير يطلب منهم الخروج من جواره بالمدينة، وأمهلهم عشرة أيام، وإلا حاق بهم الهلاك، فأيقنوا أن الله أطلع رسوله على ما أرادوا، وصاروا متحيرين لا يدرون ما يفعلون، وبينما هم في حيرتهم وترددهم جاءهم رأس أهل النفاق عبد الله بن أبي بن سلول وأتباعه قائلاً: اثبتوا وتمنعوا؛ فإننا لن نُسلمكم؛ إن قوتلتم قاتلنا معكم،

وإن أُخرجتم خرجنا معكم؛ فقويت عند ذلك نفوسهم، وبعثوا إلى رسول الله أنهم لن يخرجوا، وناذوه بنقض العهود. فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالاستعداد لحربهم، وسار إليهم في (ربيع الأول سنة 4 هـ) وحاصرهم؛ فقذف الله في قلوبهم الرعب، وأيقنوا أن حصونهم لا تمنعهم من سوء المصير؛ فسألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يجليهم ويؤمنهم على دمائهم، على

(45/12)

---

أن لهم ما حملت الإبل من ممتلكاتهم إلا السلاح، فوافق الرسول؛ فحملوا ما استقلت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته فيضعه على ظهر بعيره، فينطلق به، وخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى أذرعاء في الشام، وتركوا وراءهم مغنم كثيرة. ولم يدخل في الإسلام من بني النضير إلا رجلان هما: يامين بن عمير، وأبو سعد بن وهب، ونزلت في بني النضير سورة الحشر.

(46/12)

---

\* حنيفة

بطن من بطون قبيلة بكر بن وائل التي نزلت شمال بلاد العرب، وكان بعض حنيفة في الجاهلية وثنيًا وبعضها نصرانيًا، وكان الوثنيون منهم يعظمون صنمًا يصنعونه من الزبد والعسل على هيئة كعكة، وقد جرت عادتهم على أكله إذا أصابهم الجذب. واستقر المقام بحنيفة في اليمامة؛ حيث أنشئوا فيها مدينة حجر الحصينة، واتخذوها قسبة لهم فيما بعد. وانفصلت حنيفة في السنوات الأخيرة من حرب البسوس عن بكر، وانضمت إلى خصومهم تغلب، وحاربت في صفوفهم آنذ، والتزمت الحيات في

وقعة ذى قار الشهيرة التي نشبت بين بكر والفرس. وفي عام الوفود سنة (9 هـ) مثلت حنيفة أمام النبي - صلى الله عليه وسلم - وعلى رأسها هارون بن حبيب المعروف بمسيلمة، الذي ادعى النبوة فيما بعد، وزعم أنه صاحب النبي - صلى الله عليه وسلم - وخليفته، وقد تبعته حنيفة بإيعاز زعيمهم الرجال بن عنقوة، واستمر أمر مسيلمة في الازدياد حتى قاتله المسلمون بقيادة خالد بن الوليد، وتمكنوا من قتله وهزيمة حنيفة التي استسلمت، وقبلت أن تعود إلى الإسلام، وأن تسلّم كل أملاكها وقسمت بين جند المسلمين.

(47/12)

---

#### \*زناتة

إحدى المجموعتين الكبيرتين اللتين ينقسم إليهما البربر في شمال إفريقيا. ينتشر أفرادها في الصحارى الممتدة من غدامس إلى المغرب. نشأ بينها وبين قبيلة صنهاجة البربرية صراع عنيف، خلال القرن العاشر للميلاد. ومن أشهر أعلامها: أبو يزيد الزناتى الذى قاتل الفاطميين قتالاً ضارياً، وحاصر خليفتهم القائم بأمر الله في عاصمته المهديّة عامًا كاملاً.

(48/12)

---

#### \*زبرى (بنو)

سلالة إسلامية بربرية. تنسب إلى زبرى بن مناد الصنهاجى. وأولى عواصمها مدينة آشير بالجزائر. سيطرت فروعها المختلفة على تونس، والجزء الشرقى من الجزائر، وغرناطة بالأندلس، فيما بين عام (927 م) وعام (1152 م)، وكانت فى بادئ أمرها

موالية للفاطميين، ولكنها سرعان ما استقلت عنهم، وأعلنت ولاءها للعباسيين.

(49/12)

---

### \*السلاف

شعوب تسكن بين جبال الأورال والبحر الإدرىاتى فى أوربا الشرقية والوسطى، وتتكلم بلغات تنتمى إلى فصيلة اللغات الهندو - أوربية. وتنقسم هذه الشعوب إلى ثلاثة أقسام، هى: ( السلاف الغربيون: يشملون البولنديين، والتشيكيين، والسلوفاكيين، وعناصر أخرى صغيرة شرقى المانيا. السلاف الشرقيون: هم الروس الكبار، والأوكرانيون، والروس البيض. السلاف الجنوبيون: يضمون الصربيين، والكرواتيين، والسلوفينيين، والمقدونيين، والبلغاريين. وينقسم السلاف إلى طائفتين رئيسيتين: الأولى: ترتبط بالكنيسة الأرثوذكسية الشرقية. والأخرى: ترتبط بكنيسة الروم الكاثوليك. ويعتبر السلاف أكبر مجموعة عرقية فى أوربا؛ إذ يبلغ عددهم نحو (275.000.000) نسمة.

(50/12)

---

### \*سليم (بنو)

قبيلة عربية عظيمة من قيس بن عيلان، من العدنانية. تنسب إلى سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان. كانت تتفرع إلى عدة عشائر وبطون، منها: بنو ذكوان، وبنو بھثة بن سليم، وبنو مطرود، وبنو عصية، وبنو ظفر، وغيرهم. وكانت منازلها فى عالية نجد بالقرب من خيبر (بين مكة والمدينة)، ومن منازلها:

حرة سليم، وحرّة النارين، ووادي القرى، وتيماء. وكانت لها أيام مشهورة في الجاهلية، مثل: يوم ذات الرمرم، ويوم تثليث وغيرهما. وقد هزم السليميون جيش النعمان بن المنذر في إحدى حروبهم. واستجاب بنو سليم قبل إسلامهم لعامر بن الطفيل وقتلوا - عذراً - رجال البعثة التي أوفدها الرسول - صلى الله عليه وسلم - لدعوة أهل نجد إلى الإسلام، وخرج إليهم الرسول سنة (3 هـ) في مائتي رجل، فبلغ ماء يقال له: الكدر؛ فعرفت هذه الغزوة بغزوة الكدر، فأقام النبي - صلى الله عليه وسلم - عدة أيام، فلم يلقَ أحداً من سليم وغطفان. ولا يعرف على وجه التحديد متى أسلم بنو سليم، ولكن الثابت أنهم كانوا مع النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم فتح مكة، وأنه قدم لواءهم على الأولوية. وبعد وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ارتد بعضهم فأرسل إليهم أبو بكر، رضى الله عنه، جيشاً لحربهم. وتفرقت بطونهم بعد ذلك بين البحرين وعمان، كما استوطنوا شمال إفريقيا وشرقها.

(51/12)

#### \*سهل (بنو)

أسرة فارسية، ظهرت وعلا شأنها في العصر العباسي الأول، وتولت شئون الوزارة في عهد المأمون العباسي. تنسب أسرة بنى سهل إلى سهل بن زاذا نفروخ، وكان من أبناء ملوك الفرس، فأسلم على عهد الرشيد، وقيل: أسلم على عهد المهدي، وكان له ولدان، هما: الفضل، والحسن. اتصل الفضل بن سهل بعد إسلامه بالمأمون فأحسن إليه، وأجرى عليه رزقاً، ولعب الفضل دوراً كبيراً في الصراع بين الأمين والمأمون، وكانت له اليد الطولى في انتصار المأمون وانفرادة بالخلافة،

وأحس المأمون بفضله؛ فولاه على المشرق سنة (196 هـ)، ولقبه  
بذي الرياستين، أى: أنه أصبح له مطلق التصرف فى الأمور  
الإدارية والسياسية والحربية. كما كافأ المأمون الحسن بن سهل  
بأن ولاه ديوان الخراج، كما ولاه كور الجبال والعراق والحجاز  
واليمن. واستغل الفضل ما منحه المأمون من سلطة فاستأثر  
بالسلطة وصارت بيده مقاليد الأمور، وخص أقرابه وأعوانه  
الفرس بأعظم مناصب الدولة دون العرب؛ مما أوغر صدور العرب  
عليه وعلى أسرته، وبلغ من تأثير الفضل بن سهل فى المأمون  
أنه أغراه بتولية على بن عيسى الرضا - وهو علوى - العهد من  
بعده، وأراد تحويل الخلافة من العباسيين إلى العلويين. وقد  
أحس المأمون بالخطر من ازدياد سلطة بنى سهل؛ فتحين الفرصة  
حتى تمكن من القضاء على الفضل بن سهل سنة (202 هـ)،  
وقضى بذلك على نفوذ تلك الأسرة.

(52/12)

### \*الشركس

شعب ينتمى إلى المجموعة القوقازية الشمالية، ويقوم فى ولاية  
كوبان فى روسيا، فى مساحة قدرها (20.000) ميل مربع.  
ويبلغ عدد السكان نحو (300.000) نسمة. وتكثر النخاسة فى  
الشركس، لكن الحكومة شيدت الحصون والمخافر على شاطئ  
البحر لمنع النخاسة. والشراكسة معظمهم رعاة ومقاتلون،  
ويتصفون بطول القامة، وعرض المنكبين، ونحافة الجسم، وحدة  
البصر، ولهم هيبه وبأس، وأغلبهم يدين بالإسلام وبعضهم يدين  
بالمسيحية، ويوجد لكل قبيلة منهم لهجة.

(53/12)

## \*الصرّب

هم نواة يوغسلافيا، ومملكة الصرب التي كانت تسكنها في أقدم العصور التاريخية قبائل إيليرية وتراقية من الرعاة. وفي القرنين السادس والسابع الميلاديين قدم الصربيون من إقليم جاليسيا الحالية، واستقروا في شبه الجزيرة البلقان، واعتنقوا المسيحية، وخضعوا لسيادة الإمبراطورية البيزنطية، وكونوا مملكة مستقلة سنة (1217م). وبلغت صربيا في العصور الوسطى أقصى اتساع لها تحت حكم الملك ستيفن دوشان في القرن الرابع عشر الميلادي، ولكنها سرعان ما تدهورت بعد موته، وسيطرت عليها الخلافة العثمانية، وفرضت عليها الجزية، وأخضعتها لحكمها سنة (1459م). وفي سنة (1828م) أجبرت روسيا السلطان العثماني في معاهدة أدرنة على الاعتراف بصربيا. وفي سنة (1867م) جلت آخر الكتائب العثمانية عن صربيا. وقد استغلت صربيا حرب البلقان في تحقيق مطامعها؛ فقد أصبحت بعدها الدولة السلافية الأولى في البلقان. وكان اغتيال ولي عهد النمسا على يد طالب صربي، الشرارة التي أشعلت نار الحرب العالمية الأولى، وفيها انسحب جيش صربيا وحكومتها إلى جزيرة كورفو؛ حيث تم إعلان اتحاد صربيا وكرواتيا، وسلوفانيا، والجبل الأسود تحت راية الملك بطرس الأول ملك صربيا، وأعلن رسمياً قيام الدولة الجديدة التي اتخذت فيما بعد اسم يوغسلافيا سنة (1918م). وفي الحرب العالمية الثانية اكتسحت الجيوش الألمانية يوغوسلافيا. وبانتهاء الحرب جعل الدستور اليوغسلافي سنة (1945م) صربيا إحدى الجمهوريات الاتحادية في يوغسلافيا، وفصل عنها مقدونيا والجبل الأسود والبوسنة والهرسك، التي صارت جمهوريات تتمتع بالحكم الذاتي.

### \* الطوارق

شعب مسلم من البربر، يُعرف أحيانًا باسم الملثمين؛ لأن رجاله يضعون على وجوههم لثامًا أسود أو أزرق طيلة الوقت. ويسكن الطوارق الأجزاء الوسطى والغربية من الصحراء الكبرى، كما يوجدون على طول نهر النيجر، من تمبكتو في مالي إلى نيجيريا. ويبلغ عددهم نحو (500.000) نسمة، يشتغلون بتربية الإبل والأغنام والماعز. وتتألف القبيلة من طبقتين هما: النبلاء والعبيد ويعكس تنظيمهم القبلي بعض ملامح النظام الأموي؛ فمركز الرجل تحدهه طبقة الأم، فابن الأمة يعتبر عبدًا، حتى لو كان أبوه نبيلًا.

### \* عاد (قوم)

قوم عاد أقدم الأقاليم العربية البائدة، ويُنسبون إلى عاد بن عوص بن أرم بن سام وقد ورد ذكر عاد في القرآن الكريم في (24) موضعًا، واقتزن ذكرهم باسم نبي الله هود، عليه السلام. وتدل الآيات الكريمة التي وردت عن هؤلاء القوم وعن نبيهم، على أنهم قد استكبروا في الأرض بغير الحق واغتروا بقوتهم؛ فقد كانوا أشداء أقوياء، وزادهم الله تعالى - بسطة في الجسم. كما بلغوا شأوا من الحضارة لم يبلغه قوم آخرون من معاصريهم في المنطقة التي كانوا يسكنون فيها وانتهى أمرهم إلى عبادة الأوثان، وترك عبادة الله الواحد القهار؛ ومن ثم أرسل الله إليهم نبيه هود، عليه السلام؛ ينهاهم عن عبادة

الأوثان، ولينذرهم بعذاب عظيم غير أنهم كذبوا، واغتروا بقوتهم. ونتيجة لذلك أنزل الله بهم العذاب الشديد، وكان أول العذاب أن الله أصابهم بالجذب الشديد الذى استمر ثلاث سنوات، فلم يفيقوا ويهتدوا، بل ظلوا على كفرهم وغيهم؛ فأرسل الله عليهم ريحًا عاتية استمرت سبع ليالٍ وثمانية أيام، فلم تُبقِ منهم أحدًا، بل تتبعهم حتى كانت تدخل عليهم كهوف الجبال والمغارات فتبيدهم وتهلكهم وتدمر عليهم البيوت والقصور المشيدة. ويذهب المؤرخون المسلمون إلى أن منطقة عاد تقع في الأحقاف إلى الشمال الشرقى من حضرموت في جنوبي الربع الخالى في حين تتجه الآراء الحديثة إلى أن عادًا تقع في شمال الجزيرة العربية.

(56/12)

#### \*عبس (قبيلة)

عبس بطن عظيم من غطفان من قيس بن عيَّان من العدنانية، وينتسبون إلى عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيَّان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. كانت منازلهم بنجد، وتنسب إليهم محلة في الكوفة بالعراق، كما سكنوا بلبيس (أحد مراكز محافظة الشرقية بمصر). وتمثل عبس اليوم قبيلة صغيرة تسكن شمال ينبع في المملكة العربية السعودية، ومن بطونها: اهتمام والشرارات. وتُعد عبس من القبائل المحاربة؛ حيث لهم أيام مشهورة في الجاهلية، استعرت فيها نار الحروب مدة طويلة مع قبائل عدة، وكان أشهر من يُنسب إلى عبس الفارس عنزة بن شداد العبسى شاعر الجاهلية. وقد قدم وفد من عبس على النبي - صلى الله عليه وسلم - في عام الوفود وأسلموا.

(57/12)

### \* غطفان

إحدى القبائل العربية. تُنسب إلى غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان من العدنانية. كانت منازلهم بنجد مما يلي وادي القرى، وجبل طيء، ثم افترقوا في الفتوحات الإسلامية وتنقسم غطفان إلى ثلاثة أفخاذ عظيمة، هي: أشجع وعيس وذبيان. ومن أيامهم في الجاهلية يوم الرقم ويوم القرنين ويوم طوالة ويوم قرن. وقد شاركوا مع قريش في غزوة الأحزاب، ثم دخلوا الإسلام، ولكنهم ارتدوا بعد موت النبي - صلى الله عليه وسلم - فحاربهم أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، وبعث إليهم خالد بن الوليد فقاتلهم حتى عادوا إلى الإسلام.

(58/12)

### \* القوط

إحدى الشعوب البربرية التي هبطت من شمال أوروبا، وقضت على الامبراطورية الرومانية. وينقسم شعب القوط إلى قسمين، هما: القوط الشرقيون، وهم قليلوا العدد، وقيمون في الزاوية الشمالية الشرقية لجبال ألبرت، والقوط الغربيون، وقيمون في جنوبي غانة، وقد أخذوا يتوسعون على حساب جيرانهم الوندال حتى أجلوهم عن إسبانيا، واستقروا بها، وأعلن زعيمهم يوريك نفسه ملكاً غير تابع لأحد سنة (467م)، ثم استطاع أن يضم البرتغال ولوزيتانيا، وامتد حتى الجنوب فضم قرطاجنة الرومانية وشمال جبال ألبرت ومرسيليا، والهضبة الفرنسية الوسطى. وكان القوط مسيحيين آريين لا يعتقدون بألوهية المسيحية، ولا يعترفون بالقساوسة كوسطاء بين الله والناس؛ فشجع القساوسة ملك الفرنجة على حرب القوط وساعده

ضدهم، حتى استطاع هزيمة القوط سنة (507م)، وأخرجهم إلى جنوب الجزيرة الإسبانية. وفي سنة (586هـ) تحول القوط إلى المسيحية الكاثوليكية، فأصبحت الديانة الرسمية لهم، وجعلوا اللغة اللاتينية هي اللغة الرسمية للبلاد؛ ونتيجة لذلك اتحد الشعب القوطي مع الشعب الأيبيري الروماني وشكلاً دولة واحدة، ولكن القوط احتفظوا بالمناصب العليا في الدولة لهم؛ مما كان له أكبر الأثر في سوء أحوال البلاد؛ نتيجة لسوء معاملة الحكام لباقي طوائف الشعب، وظهور الطبقة العرقية، فزادت الاضطرابات والفتن وظهر الفساد السياسي والاجتماعي والتأخر الاقتصادي وعدم الاستقرار. وبدأت الدولة القوطية في الانهيار أمام ضربات المسلمين المتلاحقة لها، حتى تم الفتح الإسلامي لها سنة (93هـ = 711م).

(59/12)

#### \*قبنقاع (بنو)

أحد ثلاثة أقوام من اليهود، هم بنو قبنقاع وبنو النصير وبنو قريظة. كانوا يسكنون المدينة المنورة (يثرب) قبل هجرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - إليها، ولما هاجر الرسول - صلى الله عليه وسلم - إليها نظم علاقة المسلمين باليهود من خلال ما عرف باسم الصحيفة، لكن هؤلاء اليهود ما لبثوا أن حاكوا الدسائس والمكائد للتخلص من النبي، ونقضوا ما بينهم وبينه من عهود، وكان أولهم يهود بني قبنقاع. وذات يوم ذهبت امرأة مسلمة إلى سوق بني قبنقاع، ثم جلست إلى صائغ منهم لتشتري منه، فحاولوا كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى عقد طرف ثوبها إلى ظهرها - وهي لاتشعر - فلما قامت انكشفت سواها، فضحكوا منها، فصاحت واستغاثت؛ فوثب رجل من المسلمين على الصائغ

اليهودى فقتله؛ فتجمع اليهود على المسلم فقتلوه؛ فاستصرخ أهل المسلم على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع؛ فحاصروهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خمس عشرة ليلة حتى نفذوا حكم الله ورسوله. واستشار الرسول - صلى الله عليه وسلم - كبار أصحابه، فأشاروا بقتلهم، وكان لهم حليفان: عبد الله بن أبي، وعبادة بن الصامت، فأما عبادة فقد تبرأ منهم إلى الله رسوله وأما عبد الله بن أبي فقال: يا محمد أحسن في موالي، فأعرض عنه الرسول، ثم كرر عبد الله مقاتلته، والرسول يعرض عنه، ومازال يلح على الرسول ويقول: إني أخشن الدوائر، حتى قبل شفاعته فيهم، على أن يخرجوا من المدينة، وهم النساء والذرية وللمسلمين الأموال، فأمهلهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثلاث ليالٍ؛ فذهبوا إلى أذرعات على حدود الشام، وكان ذلك أوائل سنة (3هـ).

(60/12)

### \*عين التمر

حصن في جنوب العراق، توجه إليه خالد بن الوليد، رضى الله عنه، بعد فتح الأنبار، وكان عليها من الفرس والعرب وبعض الأعراب جيش كثيف يقوده مهران بن بهرام جوين، وكان قائد العرب المتحالفين مع الفرس عقبة بن أبي عقبة الذى قال لمهران: إن العرب أعلم بقتال العرب، فدعنا وخالدًا. فقال مهران له: دونكم وإياهم، وإن احتجتم إلينا أعنَّاكم. وعدل خطته على أن تكون المواجهة للعرب، فإن غلبوا المسلمين انتهى الأمر، وإن انتصر المسلمون حمل عليهم مهران، وقد أعياهم التعب، فلما تواجه الجيشان قال خالد لمجنبيه: احفظوا مكانكم فإنى حامل، وأمر حماته أن يكونوا من ورائه وحمل على عقبة وهو ينظم

الصفوف وأسره، وهُزِمَ جيش عَقَّة من غير قتال، فأكثروا فيهم الأسر. وتوجه المسلمون إلى حصن عين التمر، فنزل مهران من الحصن، وهرب، وعرفت هذه الهزيمة بهزيمة جيش عَقَّة. ولما وصل خالد إلى الحصن وجد الفارين من نصارى الأعراب دخلوا الحصن واحتموا به، فحاصره خالد أشد الحصار حتى فتحه.

(1/13)

### \*أحد (غزوة)

وقعت هذه الغزوة في شهر شوال من العام الثالث للهجرة عند جبل «أحد»؛ شمالي «المدينة المنورة»، فقد جندت «قريش» ثلاثة آلاف من رجالها وحلفائها للانتقام من المسلمين، والثأر لهزيمتها الساحقة في «بدر» التي جلبت في كل بيت من بيوت «مكة» مأثماً. وعندما وصلت أخبار ذلك إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؛ جمع أصحابه على الفور، واستشارهم في أفضل طريقة لمواجهة هذا الموقف، فأشار عليه شيوخ «المدينة» أن يتحصنوا داخلها، ويتركوا الأعداء خارجها لأن شوارع «المدينة» ضيقة، ويمكن إغلاقها عليهم، وقتالهم فيها بكل طريقة ممكنة حتى بالحجارة، ويمكن أن يشترك النساء والأطفال في مقاومتهم، وكان هذا رأى الكبار ورأى النبي - صلى الله عليه وسلم - . أما الشباب فقد أخذهم الحماس، وخشوا أن يتهمهم الأعداء بالجبن؛ ففضلوا الخروج لمواجهةهم في مكان مكشوف. ولما رأى الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن الرأى الأخير هو رأى الأغلبية قام إلى بيته ولبس درعه وحمل سلاحه وخرج إليهم، فأدركوا أنهم أخرجوه مكرهًا، فقالوا له: يارسول الله، لقد استكرهناك وما كان لنا ذلك، فافعل ما شئت، فقال - صلى الله عليه وسلم - : «ما كان لنبي لبس لأمته - عدة حربه - أن

ينزعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه». وخرج النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى ساحة «أحد»، وجعل ظهر جيشه إلى الجبل، والأعداء أمامه، ونظر إلى ميدان المعركة نظرة فاحصة، وعرف أن الخطر يكمن خلف ظهر الجيش، فأعد خمسين رجلاً ممن يُحسنون الرمي بالنبل، وأمر عليهم «عبد الله بن جبير الأنصاري»، وكلفهم بالصعود إلى قمة عالية خلف ظهورهم، سُميت بعد ذلك بجبل الرماة، وقال لهم في حسم: «احموا ظهورنا، لأننؤتى من قبلكم»، وأمرهم برمي المشركين بالنبال، وألا يتركوا مواقعهم أبداً سواء انتصر المسلمون أو انهزموا، لخطورة الموقع وأهميته، وكرر عليهم أوامره مراراً. ودارت

(2/13)

المعركة، وكانت الغلبة للمسلمين في البداية، لكنهم تعجلوا النصر ولم يصبروا، وظنوا أن المعركة انتهت، فالذين في الميدان تركوا القتال وبدءوا في جمع الغنائم، والذين فوق الجبل خالفوا أوامر النبي - صلى الله عليه وسلم - وأوامر قائدهم «عبدالله بن جبير»، وتركوا مواقعهم، ليشتروا في جمع الغنائم. انتهز «خالد بن الوليد» هذه الفرصة، وانقض بفرسانه من الخلف، مستغلاً الثغرة التي حدثت بترك الرماة مواقعهم، فحول بحركته العسكرية سير المعركة من نصر للمسلمين في أولها إلى هزيمة، وارتبك المسلمون من هول المفاجأة، حتى إن بعضهم أخذ يقتل بعضاً، وزاد ارتباكهم عندما أشاع المشركون أنهم قتلوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذي كان قد سقط في حفرة، وجرح وكسرت ربايعيته، وانجلت المعركة عن هزيمة للمسلمين، وسقوط واحد وسبعين شهيداً، وكان ذلك درساً قاسياً، أنزل الله بشأنه أكثر من ستين آية في سورة «آل عمران»، وضح لهم أسباب ما

حدث، وأن الهزيمة إنما كانت لمخالفة أوامر الرسول، والحرص على جمع الغنائم، قال تعالى: {ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين}. [آل عمران: 152]. ثم واساهم وعفا عنهم، وذكرهم بأنهم إن كانوا قد أصابهم قرح وخسروا معركة، فقد أصاب أعداءهم قرح مثله {وتلك الأيام نداؤها بين الناس}، ثم طلب من نبيه أن يعفو عنهم ويستغفر لهم، وألا يدع مشورتهم، حتى لو أدت إلى الهزيمة في معركة، فخسارة المعركة أسهل من خسارة مبدأ الشورى الذى يربى الرجال ويدبرهم على إبداء الرأى والمشاركة فى صنع القرار.

(3/13)

### \*الأحزاب غزوة

إحدى الغزوات التى وقعت بين المسلمين وأحزاب المشركين سنة (5 هـ = 672م) بعد غزوة أحد. وسُميت بهذا الاسم؛ لأن قريشاً وغطفان وبنى سليم وبنى مرة تحزّبوا وتجمعوا للقضاء على الإسلام ودعوته بالمدينة المنورة. وقد قام اليهود من بنى النضير بتحزيب هذه القبائل وتجميعها وتأليبها على المسلمين؛ إذ ذهب وفد منهم على رأسه حُيى بن أخطب إلى قريش، وحرّضهم على غزو المسلمين، فاستجابوا للدعوة، ثم توجهوا إلى غطفان فأغروهم بأن يكون لهم نصف ثمار بنى النضير ثم طافوا بقبائل أخرى. وتمّ الأمر لهم كما أرادوا؛ فقد تجمع جيش كبير قوامه (10) آلاف مقاتل، أعدوا عدتهم للسير تجاه المدينة. وكان ذلك فى شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة. علم الرسول - صلى

الله عليه وسلم - بهذه الأخبار المفزعة، فجمع كبار الصحابة واستشارهم كيف يواجهون هذا الموقف، فأشاروا عليه بالتحصن داخل «المدينة»؛ لأنهم استفادوا من درس «أحد»، وأخذوا يعدون العدة لتحمل حصار طويل من الأعداء. وهنا جاءت فكرة رائعة من «سلمان الفارسي» - رضى الله عنه - وهى حفر خندق فى الجهة الشمالية الغربية من «المدينة»؛ لمنع اقتحام جيوش الأحزاب لها، لأن بقية جهاتها الأخرى كانت محصنة بغابات من النخيل، يصعب على الخيول اقتحامها. وتم حفر الخندق فى نحو أسبوع، وعمل النبي - صلى الله عليه وسلم - بنفسه مع المسلمين فى حفره، ويشهرهم وهم فى هذا الموقف العصيب بفتح «الشام» و «العراق» و «اليمن». جاءت قوات الأحزاب وهى واثقة لا بالنصر على المسلمين فحسب، بل باستنصاهم، لكن المفاجأة أذهلتهم عندما رأوا الخندق يحول بينهم وبين اقتحام المدينة، وظلوا أمامه عاجزين، تأكل قلوبهم الحسرة، لأنهم لم يتعودوا مثل هذا الأسلوب فى القتال، ولما حاول واحد منهم اقتحام الخندق لقى حتفه فى الحال. وعلى الرغم من أن الخندق قد حمى المسلمين من هجوم المشركين، فإن الكرب قد اشتد عليهم، وضاقوا بطول

(4/13)

---

الحصار، وكانوا فى موقف عصيب بالغ الصعوبة، فالمشركون من فوقهم يحيطون بالخندق، وبنو قريظة أسفل منهم قد نقضوا العهد، والمنافقون فى المدينة يرجفون، ويخذلون الناس، واشتد الخوف، وعظم البلاء، وزلزل المسلمون زلزلاً شديداً. وصفه الله - تعالى - أدق وصف بقوله: {إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزلاً شديداً

(الأحزاب: 10 - 11) اجتهد النبي - صلى الله عليه وسلم - في تفريج الكرب عن المسلمين، فاتصل بقبائل «غطفان» وعرض عليها ثلث ثمار «المدينة» على أن يعودوا إلى ديارهم ويتخلوا عن «قريش» فوافقوا، وعرض الرسول - صلى الله عليه وسلم - هذا الأمر على الأنصار، فسألوه إن كان هذا أمرًا من الله فليس لهم أن يخالفوه، أما إذا كان اجتهادًا من أجلهم فلن يوافقوا عليه، فأعلمهم أنه اجتهاد منه لمصلحتهم ولتفريق الأحزاب عنهم، فأبوا وعزموا على مواصلة الجهاد والدفاع عن بلدهم، فأوقف النبي - صلى الله عليه وسلم - المفاوضات مع «غطفان» نزولاً على رأى أصحابه. وفي هذه اللحظة لاحت فرصة عظيمة حيث جاء إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - رجل من غطفان اسمه نعيم بن مسعود الأشجعي - وكان قد أسلم وقدم مع الأحزاب دون أن يعلموا - يعرض عليه أن يأمره بما يشاء للتخفيف عن المسلمين، فأمره الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يفرق بينهم وبين «بنى قريظة»، الذين نقضوا عهدهم مع النبي - صلى الله عليه وسلم - واتفقوا مع الأحزاب على الانضمام إليهم حين تبدأ الحرب، وقد نجح «نعيم» في مسعاه نجاحًا عظيمًا، وزرع الشكوك في قلوب الأحزاب و «بنى قريظة» تجاه بعضهم بعضًا وفرق كلمتهم، ثم أرسل الله ريحًا شديدة قلعت خيام المشركين، وكفأت قلوبهم، وانقلب الموقف كله بفضل الله - تعالى - عليهم، وأدرك «أبو سفيان بن حرب» قائد الأحزاب ألا فائدة من البقاء، فأمرهم بالرحيل فرحلوا، وقد علق

(5/13)

---

الرسول - صلى الله عليه وسلم - على هذا الموقف بقوله: «الآن نغزوهم ولا يغزونا». أى أن قريشًا لن تستطيع مهاجمة

«المدينة» مرة أخرى؛ لأن ميزان القوى أصبح يميل مع المسلمين.

(6/13)

---

**\*أستاذ سيس (حركة)**

«أستاذ سيس» رجل فارسي ادّعى النبوة، وقاد حركة تمّدف إلى تخليص بلاد فارس من قبضة العباسيين، واستطاع بجيوشه الضخمة بسط نفوذه على مناطق «سجستان» و «هراة» و «كور خراسان» وغيرها، فحشدت له الخلافة العباسية قوات ضخمة بقيادة «خازم بن خزيمه التميمي»، استطاعت القضاء على هذه الحركة، وانتهى الأمر بالقبض على «أستاذ سيس» وإعدامه.

(7/13)

---

**\*ابن الأشعث (ثورة)**

هي واحدة من أعنف الثورات التي هبت في وجه الدولة الأموية، ولم يكن الدافع إليها خلاف مذهبي مع الدولة، كما هو الحال مع الخوارج والشيعة، وإنما كان دافعها الأساسي الطموح الشخصي الذي لعب برءوس بعض أبناء القبائل الكبرى، وكان «عبدالرحمن بن الأشعث» زعيم هذه الثورة نموذجًا لها؛ إذ استغل العداة التقليدي والحقد الدفين الذي يكنه العراقيون لبني أمية أسوأ استغلال، وأعلن الثورة عليهم. خلاصة القصة أن «الحجاج بن يوسف» والى «العراق» (75 - 95هـ) أمر «عبدالرحمن بن الأشعث» على جيش كبير سنة (80هـ) أطلق عليه المؤرخون «جيش الطواويس»؛ لضخامته وحسن إعداده، وأمره بالتوجه إلى «سجستان» شرقي بلاد فارس؛ لمعاقبة ملكها

«رتبيل» الذى نقض المعاهدة التى بينه وبين المسلمين، وفتح حدود بلاده للخارجين على الدولة الأموية، موقراً لهم الأمن والحماية، فصبر عليه «الحجاج» على مضض، إلى أن فرغ من أمر الخوارج وقضى على «ابن الزبير»، فأرسل إليه هذا الجيش الهادر لتأديبه والقصاص منه. وبدلاً من أن يمضى «عبدالرحمن بن الأشعث» لأداء المهمة المكلف بها، وقتال ملك كافر متمرد على الدولة، ارتد ثائراً عليها، وشجعه على ذلك استجابة أهل «العراق» للثورة ورغبتهم فى التمرد على الدولة، وكانوا أغلبية فى الجيش الذى بلغ عدده مائة ألف مقاتل. وزاد الأمر سوءاً انخداع بعض العلماء من كبار التابعين بدعوة «ابن الأشعث»، فصدقوا دعواه بأنه إذا بويع بالخلافة فسيحكم بالعدل، ويعيد حكم الراشدين ويمحو مظالم «بنى أمية»، فاستجابوا له، وكان على رأسهم: «عامر الشعبي»، و «سعيد بن جبير» الذى جعله «الحجاج» أميناً على الأموال التى ينفق منها على الجيش، وكان لموقفهم هذا أثر كبير فى تمادى «ابن الأشعث» فى الثورة واستجابة الجنود له، وترتب على ذلك أعنف ثورة واجهت «عبدالملك بن مروان»، دامت نحو سنتين (81 - 83هـ)، ودارت

(8/13)

---

بينهما نحو ثمانين موقعة، قتل فيها عشرات الألوف من الرجال، وكان أشهرها معركة «دير الجماجم» التى استمرت مائة يوم، وانتهت بهزيمة «ابن الأشعث» فى شهر جمادى الآخرة سنة (83هـ). لجأ «ابن الأشعث» بعد هزائمه إلى «رتبيل» ملك «سجستان»، وكان قد عقد معه اتفاقاً على أن يوفر له الحماية إذا هُزم، لكن «الحجاج» طلب من «رتبيل» أن يسلمه «ابن الأشعث»، فعزم على تسليمه؛ لأنه كان حريصاً على عدم إثارة

«الحجاج» أكثر من ذلك، فلما أحس «ابن الأشعث» بنية «رتبيل» على تسليمه، ألقى بنفسه من فوق القصر الذى كان يقيم به، فمات منتحرًا سنة (85هـ).

(9/13)

### \*الأندلس (فتح)

كان الذى دعا المسلمين إلى فتح تلك البلاد هو «يوليان» حاكم ولاية «سبتة» المغربية الواقعة على ساحل البحر، والخاصة لحكم «القوط» آنذاك، ولم يكن المسلمون قد فتحوها، فاتصل حاكمها بطارق بن زياد حاكم «طنجة»، وعرض عليه الفكرة، فنقلها إلى «موسى بن نصير» الذى اتصل بالخليفة «الوليد بن عبد الملك»، فأذن له الخليفة، على أن يتأكد من صدق نيات «يوليان»، وأن يرتاد البلاد بحملة استطلاعية، ليعرف أخبارها قبل أن يدخلها فاتحًا. كلف «موسى بن نصير» أحد رجاله وهو «طريف بن مالك» على رأس خمسمائة جندي، بدخول «الأندلس» وجمع ما يمكن جمعه من أخبار، كما طلب من «يوليان» أن يوافيه بتقرير عن أوضاع البلاد، فاتفقت معلومات «طريف» التى جمعها مع تقرير «يوليان»، وكلها تفيد أن البلاد فى حالة فوضى، وتعانى من الضعف العسكرى، وأن الناس ينتظرون المسلمين ليرفعوا عنهم الظلم، وعاد جيش «طريف» سنة (91هـ) محملاً بالغنائم. اختار «موسى بن نصير» للقيام بمهمة فتح «الأندلس» طارق بن زياد» وهو من أصل بربرى لما يتمتع به من شجاعة ومهارة فى القيادة، فخرج فى سبعة آلاف جندي، معظمهم من «البربر»، وعبر المضيق الذى يفصل بين الساحل المغربى والساحل الأندلسى، والذى لا يزال يحمل اسمه، ونزل على الجبل - الذى حمل اسمه أيضًا - فى شهر رجب سنة (92هـ)،

واستولى عليه بعد عدة معارك مع القوات القوطية التي كانت تقوم بحراسته، وتوغّل في جنوبي البلاد. وما إن علم الملك «روذريق» بنزول المسلمين في بلاده - وكان في شمالي غربي البلاد مشغولاً بقمع ثورة اندلعت ضده - حتى عاد مسرعاً للقاء المسلمين على رأس جيش قوامه نحو مائة ألف جندي، ولما علم «طارق» بعودة الملك طلب مدداً من «موسى بن نصير»، فأمدّه بخمسة آلاف، وأصبح عدد جيشه اثني عشر ألفاً، والتقى الفريقان في أواخر شهر رمضان سنة (92هـ)، وحقق المسلمون

(10/13)

نصرًا حاسمًا، ويؤكد المؤرخون أن هذه المعركة المعروفة باسم معركة «شدونة» قد قررت مصير «الأندلس» لصالح المسلمين، لأن الجيش القوطي دُحر تمامًا، وهبطت روحه المعنوية إلى الحضيض، ولم يعد قادرًا على المقاومة، فانفتح الطريق أمام البطل الفاتح «طارق بن زياد»، ليستولى على مدن مهمة، مثل: «قرطبة»، و «غرناطة»، ووصل إلى «طليطلة» في وسط البلاد، وكانت عاصمة البلاد في ذلك الوقت. أرسل «طارق» إلى «موسى بن نصير» يبشره بهذه الانتصارات، ويطلب منه مددًا جديدًا، فعبر إليه بنفسه على رأس قوة كبيرة قوامها ثمانية عشر ألفاً، ونجح في فتح عدد من المدن في غربي البلاد مثل «إشبيلية» وهو في طريقه إلى لقاء «طارق» في «طليطلة». اتفق القائدان العظيمان على استكمال فتح «الأندلس»، فاتجه كل منهما إلى ناحية فأخذ «طارق بن زياد» طريقه إلى الشمال الشرقي، في حين اتجه «موسى» إلى الشمال الغربي، ونجح الاثنان في غضون عامين (93 - 95هـ) في فتح معظم «شبه الجزيرة الأيبيرية».

\*بدر (غزوة)

وقعت هذه الغزوة الخالدة في السابع عشر من شهر رمضان المبارك من السنة الثانية من الهجرة عند بئر بين «مكة» و «المدينة»، وقد سمى الله - تعالى - يومها «يوم الفرقان»؛ لأنه فرّق بين الحق والباطل، وأعلى كلمة الإسلام. وسببها أن قافلة تجارية لقريش، كانت قادمة من «الشام» إلى «مكة»، فأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - أصحابه بالتعرض لها والاستيلاء عليها؛ تعويضاً لهم عن أموالهم التي استولت «قريش» عليها في «مكة»، وعندما وصل النبي - صلى الله عليه وسلم - بجيشه إلى المكان الذي دارت فيه المعركة علم أن القافلة أفلتت ونجت، بعد أن نجح قائدها «أبو سفيان بن حرب» في اتخاذ طريق الساحل بعيداً عن طريق القوافل المعتاد، حين علم بخروج المسلمين للاستيلاء عليها، وكان قبل أن يفلت بقافلته قد أرسل سرياً إلى «قريش» يستنفرها للخروج لاستنقاذ أموالها التي توشك أن تقع في أيدي المسلمين فخرجت في نحو ألف رجل للقتال، وأصرروا على ذلك حتى بعد أن علموا بنجاة قافلة «أبي سفيان». وعندما علم المسلمون بإفلات القافلة، رأى بعضهم العودة إلى «المدينة»، لأن كثيراً ممن خرجوا لم يكن في حسابهم أنهم خرجوا لقتال وأن حرباً ستقع، وإنما خرجوا للاستيلاء على القافلة، فكرهوا القتال. لكن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يعلم أن الرجوع إلى «المدينة» ستفسره «قريش» على أنه جبن وضعف عن لقاءها ومواجهتها، وسوف تضيع ذلك في أوسع نطاق ممكن من شبه الجزيرة العربية، وفي هذا ضرر بالغ بالدولة الإسلامية ودعوها، فتصرف الرسول - صلى الله عليه وسلم - بحكمة بالغة وبعد نظر، واستشار كبار أصحابه

فيما يصنعون، فتحدث «أبو بكر الصديق» و «عمر بن الخطاب»  
وغيرهما فأحسنوا الكلام، وأبدوا استعدادًا للتضحية والجهاد  
في سبيل الله. سمع الرسول - صلى الله عليه وسلم - كلامهم  
فسعد به وسرَّ، لكنه لا يزال في حاجة إلى معرفة رأى الأنصار

(12/13)

---

في وضوح وجلاء، لأن بيعتهم معه كانت تنص على الدفاع عنه  
داخل «المدينة» لا خارجها، فلما كرَّر قوله: «أشيروا عليَّ أيها  
الناس»، قال له: «سعد بن معاذ» وغيره من زعماء الأنصار:  
«لعلك تقصدنا يا رسول الله»، قال: «نعم». قالوا: «يا رسول الله،  
آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك  
على ذلك عهدنا وموآثيقنا على السمع والطاعة، فامض بنا يا  
رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو  
استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل  
واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصبر في الحرب،  
صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر على  
بركة الله. اطمأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لموقف أصحابه  
وسلامة جبهتهم، وقوة ترابطهم، وبدأ يُعدُّ للمعركة الأولى في  
تاريخ الإسلام، وأعدَّ له المسلمون عريشًا (مقر قيادة) يدير منه  
المعركة. وعرف الرسول - صلى الله عليه وسلم - عدد أعدائه  
وقوتهم من عيونه ومخبراته العسكرية فكانوا نحو ألف رجل  
مدججين بالسلاح، فيهم عدد كبير من الفرسان، في حين كان  
عدد المسلمين نحو ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فيهم فرسان  
فقط. وبدأت المعركة صبيحة اليوم السابع عشر من شهر رمضان  
سنة (2هـ) بالمبارزة، حيث خرج ثلاثة من صفوف المشركين، هم  
«عتبة بن ربيعة»، و «شبية بن ربيعة»، و «الوليد بن عتبة»،

يطلبون المبارزة، فأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - عمه «حمزة»، وابني عمه «علي بن أبي طالب»، و «عبيدة بن الحارث» بالخروج إليهم، وهذا تصرف له مغزاه من القائد الأعلى «محمد» رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، حيث بدأ المعركة بأقرب الناس إليه، فضرب المثل في التضحية والفداء لدين الله، واستطاع الثلاثة المسلمون القضاء على الثلاثة المشركين من أعدائهم، وتركوهم صرعى في ميدان المعركة، ثم احتدمت الحرب، وتلاحم الناس، وحمى الوطيس، والرسول في عريشه

(13/13)

---

يدعو الله سبحانه وتعالى ويستنزل نصره الذي وعده به، فيقول: «اللهم نصرك الذي وعدتني، اللهم إن تملك هذه العصابة من المسلمين فلن تُعبَد على وجه الأرض، يامولاي»، واستجاب الله لدعاء نبيه، وانجلى المعركة عن نصر ساحق للمسلمين، وهزيمة ماحقة للمشركين الذين قُتِلَ منهم سبعون، وأُسِرَ مثلهم، وفر الباقون، وامتألت أيدي المسلمين من غنائمهم التي تركوها، واستشهد من المسلمين أربعة عشر شهيداً، وتحقق وعد الله، فنصر القلة القليلة المؤمنة، على الكثرة المشركة المتغطرسة.

(14/13)

---

\*بلاد ماوراء النهر (فتح)

أطلق المسلمون اسم بلاد «ما وراء النهر» على البلاد المعروفة الآن باسم «آسيا الوسطى» الإسلامية، وتضم خمس جمهوريات إسلامية، كانت خاضعة للاتحاد السوفيتي، ثم من الله عليهم،

فاستقلُّوا بعد انهياره. طرق المسلمون هذه البلاد عدة مرات منذ خلافة «عثمان بن عفان» رضى الله عنه، وغزاها عدد كبير من القادة المسلمين كان آخرهم «المهلب بن أبي صفرة»، ولم تكن حملاتهم عليها للاستقرار الدائم والفتح المنظم، وإنما كانت لتعرفها ومعرفة أحوالها. وبدأت المرحلة الحاسمة في الفتح والاستقرار مع تسلم «قتيبة بن مسلم» قيادة جيوش الفتح وولاية إقليم «خراسان» سنة (85هـ)، وقد مرت خطوات «قتيبة» في فتح تلك البلاد التي استمرت نحو عشر سنوات (86 - 96هـ) عبر مراحل أربع هي: - المرحلة الأولى (86 - 87هـ): وفيها أخضع «قتيبة بن مسلم» إقليم «طخارستان»، الواقع على ضفتي نهر «جیحون»، ويبدو أن أوضاعه لم تكن قد استقرت للمسلمين تمامًا، منذ أن فتحه «الأحنف بن قيس» في خلافة «عثمان بن عفان»، وكانت تلك بداية ناجحة، فبدون توطيد أقدامه في «طخارستان» لم يكن ممكنًا أن يمضى لفتح «ما وراء النهر»، وأصبح يتمتع بهيبة كبيرة في تلك البلاد؛ فما إن يسمع الملوك بمسيره إليهم، حتى يسرعوا إلى لقائه وطلب الصلح. - المرحلة الثانية (87 - 90هـ): وفيها فتح «قتيبة» إقليم «بخارى»، بعد حروب طاحنة، وانتظام حملاته عليها، وكان الغزو يحدث في الصيف، لأن شتاء تلك البلاد كان قاسيًا شديد البرودة على العرب، لكنهم صبروا وجاهدوا حتى تمَّ لهم الفتح. - المرحلة الثالثة (90 - 93هـ): وفيها أكمل فتح حوض نهر «جیحون» كله، وتوجَّ عمله بالاستيلاء على «سمرقند»، أعظم مدائن «ما وراء النهر» كلها. - المرحلة الرابعة (93 - 96هـ): وفيها عبر «قتيبة» نهر «سيحون»، وفتح الممالك السيحونية الثلاث: «الشاش»، و «أشروسنة»، و «فرغانة»، ووصل إلى إقليم «كاشغر» الذي

يلامس حدود «الصين»، التي تهيأ لفتحها، لولا أن وفاة  
«الحجاج» سنة (95هـ)، وبعده الخليفة «الوليد بن عبد الملك» سنة  
(96هـ)، جعلته يتوقف عند هذا الحد، لكنه أجبر ملك «الصين»  
على دفع الجزية له مع رسوله إليه «هبة بن المشمرج  
الكلابي».

(16/13)

### \* بلاط الشهداء (معركة)

في أوائل سنة (114هـ = 732م) سار «الغافقي» بجيوشه نحو  
الشمال وعبر جبال «البرت» من طريق «بنبلونة» ودخل فرنسا؛  
حيث قام بمعارك ناجحة ضد أعدائه، وفتح نصف فرنسا الجنوبي  
كله من الشرق إلى الغرب في بضعة أشهر، وواصل زحفه المظفر  
حتى أشرف بجيشه على نهر اللوار، وهناك احتشد له «شارل  
مارتل» بجيش ضخم من الفرنج والمرتقة نصف العراة، ويتشحون  
بجلود الذئاب، وتنسدل شعورهم الجعدة فوق أكتافهم العارية.  
استولى المسلمون على مدينتي «بواتيه» و «تور»، ثم فاجأهم  
العدو دون أن تشعر به طلائع المسلمين أو تحسن تقدير عدده،  
وأراد عبدالرحمن أن يقتحم «اللوار» ففاجأه «شارل مارتل»  
بجموعه الجرارة فارتد إلى السهل الواقع بين مدينتي «بواتيه»  
و «تور»، وعبر جيش الفرنج «اللوار» وعسكر غربي الجيش  
الإسلامي. عزم «الغافقي» على لقاء العدو على الرغم من أن  
بعض قبائل البربر في جيشه كانت تتوق إلى الانسحاب بما  
تحمله من غنائم كثيرة، وأن عدد جنوده قد قل بسبب تخلف  
حاميات كثيرة في المدن والقرى المفتوحة. ودامت المعركة تسعة  
أيام دون أن يحقق الفريقان نصرًا حاسمًا، وفي اليوم العاشر  
أبدى كلا الطرفين غاية الجلد والشجاعة، وظهر الإعياء على

الفرنج، وبدت علامات انتصار المسلمين، لكن حدث أن افتتح  
الفرنج ثغرة في معسكر غنائم المسلمين وارتفعت فيه صيحة  
مجهول تقول إن معسكر الغنائم سيقع في يد العدو، فارتدت  
قوات كبيرة إلى ما وراء الغنائم لحمايتها، واختلت صفوف  
المسلمين، وبينما يحاول «الغافقي» إعادة النظام إلى جيشه  
أصابه سهم أوداه من فوق جواده قتيلًا، فعم الاضطراب بين  
المسلمين، وكثر القتل فيهم، واشتد الفرنج عليهم، لكنهم صبروا  
حتى جن الليل وافترق الجيشان دون فصل في (أوائل رمضان  
114هـ = 21 أكتوبر 732م)، ثم انسحب المسلمون نحو مراكزهم  
في «سبتمانيا» تاركين غنائمهم. وفي فجر اليوم التالي تقدم

(17/13)

---

«شارل» بجذر فوجد المعسكرات الإسلامية خالية إلا من الجرحى  
ومن لم يتمكنوا من مرافقة الجيش المنسحب فذبجوهم، وخشى  
«شارل مارتل» الخديعة فاكتفى بانسحاب المسلمين ولم  
يتعقبهم، وآثر العودة بجيشه إلى الشمال.

(18/13)

---

\*تاريخي (ثورة)

تنتسب هذه الثورة إلى زعيمها «محمود الترابي»، الذي كان  
يعمل صانعًا للغرابيل، بقريّة «تاراب»؛ أقدم قرى مدينة  
«بخاري»، وهدفت هذه الثورة - التي أطلق عليها بعض  
المؤرخين الفرس: حركة شعبية - إلى رفض الحكم المغولي،  
واعتمدت على الدين كأساس لها في ذلك، فالتف الناس حولها،  
على الرغم من أن دعواتها اعتمدوا على الخرافات، وادعوا

اتصلهم بالأرواح، إلا أن انضمام «شمس الدين الحبوبي» أحد علماء «بخارى» إليها أكسبها قوة؛ إذ كان على خلاف مع أئمة «بخارى»، فساند «محمود تارابي» زعيم الثورة، وذكر له أن أباه قرأ في أحد الكتب نبوءة مفادها: أن رجلاً سيظهر ببخارى، سيكون فتح العالم على يديه، وأن مواصفات هذا الرجل تنطبق على «محمود تارابي»، وأكد المنجمون صدق ذلك، وأعلنوا أن نجم «محمود تارابي» قد بزغ، وأن الحظ سيحالفه، ولأن هذه المعتقدات كانت سائدة آنذاك، فقد اهتم الناس بأقوال المنجمين، والتفوا حول زعيم هذه الثورة، وحققوا انتصارات كبيرة، ودخلوا «بخارى»، غير أن المغول تمكنوا من صد الثورة ومقاومتها، وسقط «التارابي» و «حبوبي» صريعين، فأعلن الثوار «محمدًا» و «عليًا»، أخوي «تارابي»، زعيمين للثورة، فعزز المغول قواهم، وتمكنوا من القضاء على هذه الثورة، وقبضوا على الثائرين، وأرادوا معاقبتهم، ولكن «محمود يلواج» استطاع الحصول على العفو لهم من قادة المغول

(19/13)

### \*تبوك (غزوة)

قام النبي - صلى الله عليه وسلم - بقيادة هذه الغزوة في شهر رجب سنة 9 هـ، وهي آخر غزوة غزاها، وكان سببها أن أخباراً وصلت إليه من عيونه التي بثها لمراقبة تحركات الروم في الشمال، أنهم يعدون العدة للهجوم عليه. فأعد جيشاً لصدده، وكان عدده ثلاثين ألفاً، وهو أكبر جيش قاده النبي - صلى الله عليه وسلم - وسمى «جيش العسرة»، لأن المسافة كانت بعيدة والجو صيف شديد الحرارة، والناس يحبون المقام في مزارعهم وبساتينهم لجنى الثمار، والاستمتاع بالظل الوارف، ولكن

مادامت الدولة الإسلامية ودعوتها في خطر، فلا بد من التضحية والاستهانة بكل راحة ومتعة، وقد ضحى أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - تضحيات كبيرة، وأسهموا في تجهيز الجيش وإعداده بأموالهم، وبخاصة «عثمان بن عفان» الذي جهز نحو ثلث الجيش من ماله الخاص. سار النبحتى وصل إلى «تبوك»، فإذا به يعلم أن جيش الروم الذي كان يُعد يومئذٍ أقوى جيش في الدنيا قد فرَّ مذعورًا إلى داخل «الشام»، فعسكر النبي في «تبوك» ثلاثة أسابيع، رتب خلالها أوضاع المنطقة، وأظهر هيبة الإسلام وضرب هيبة الروم ضربة قاصمة، جعلت سكان الإمارات الصغيرة في المنطقة الخاضعة لسيطرة الروم - كأيلة و «أدرح» و «الجرساء» - يهرعون إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مدعين، وقالوا له: ماذا تريد منا؟ فعرض عليهم الإسلام فرفضوا، وقالوا: غير هذا، قال: «تدفعون الجزية وتؤمنكم على عقائدكم وأرواحكم وأموالكم»؛ فقبلوا، فأعطاهم بذلك معاهدات، وكان تصرف النبي - صلى الله عليه وسلم - مثلاً عاليًا ودليلاً على تسامح الإسلام، وأنه لا يُفرض على الناس بالقوة.

(20/13)

#### \*التوابون (ثورة)

«التوابون» مجموعة من الشيعة الذين أحسوا بخطئهم الفادح حين دعوا «الحسين» إلى «الكوفة» لبيابعه خليفة وإمامًا، ثم خذلوه لما حضر إليهم، لذلك قرروا الثأر له، وسمُّوا أنفسهم التوابين، أي الذين تابوا عن تقصيرهم في نصرته، وترغمهم «سليمان بن صرد الخزاعي». وقد اجتمع لهم عدة آلاف من الناس، قيل إنهم بلغوا ستة عشر ألفًا، وبايعوا «ابن صرد» على الموت طلبًا لثأر «الحسين»، لكنهم انفضُّوا عنه حين جدَّ الجدد، كما

انفضوا عن «الحسين» من قبل، ولم يبقَ معه سوى نحو ثلاثة آلاف، توجه بهم لقتال الأمويين، فتصدَّى لهم «عبيدالله بن زياد» في جيش ضخيم، بلغ عدده نحو ستين ألفاً، فهزّمهم وقتل معظم التوابين وعلى رأسهم زعيمهم «سليمان بن سرد»، في مكان يُسمَّى «عين الوردة» في شمالي «العراق» سنة (65هـ).

(21/13)

### \*الجملة (معركة)

كانت أم المؤمنين «عائشة» - رضی الله عنها - عائدة من أداء فريضة الحج، وسمعت بمقتل «عثمان»، فعادت من الطريق إلى «مكة»، وأعلنت سخطها على قتله، وأخذت تردد «قُتل والله عثمان مظلوماً لأطلبن بدمه»، ثم وافاها في «مكة» «طلحة» و «الزبير» - رضی الله عنهما - و «بنو أمية»، وكل من أغضبه مقتل «عثمان»، وراحوا يتباحثون في الأمر، وهداهم تفكيرهم إلى تجهيز جيش للأخذ بالثأر من قتلة «عثمان» والسير به إلى «البصرة»، باعتبارها أقرب بلد إليهم من البلاد التي اشترك أهلها في الثورة على «عثمان» وقتله، وصلت أخبار سير «عائشة» ومن معها إلى «علي» وهو يتأهب للخروج إلى الشام لقتال «معاوية»، فاضطر إلى تغيير خطته، فلم يعد ممكناً أن يذهب إلى الشام، ويترك هؤلاء يذهبون إلى «البصرة»، فاستعد للذهاب إلى هناك. خرجت السيدة «عائشة» - رضی الله عنها - ومعها في البداية نحو ألف رجل لكن هذا العدد تضاعف عدة مرات، بانضمام كثيرين إلى الجيش، نظراً إلى مكانة «عائشة»، فلما اقتربوا من «البصرة»، أرسل إليها «عثمان بن حنيف» إلى أم المؤمنين «عائشة» رسولين من عنده، هما «عمران بن حصين» و «أبو الأسود الدؤلي» يسألانها عن سبب

مجيئها. فقالت لهما: «إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وأحدثوا فيه الأحداث وآووا فيه المحدثين، واستوجبوا لعنة الله ورسوله، مع مانالوا من قتل إمام المسلمين، بلا ترة ولا عذر، فخرجت في المسلمين، أعلمهم ما أتى هؤلاء، وكذلك سأل الرسولان «طلحة» و «الزبير» - رضى الله عنهما - عن سبب مجيئهما، فقالا: «الطلب بدم عثمان»، فرجع الرجلان وأخبرا «عثمان بن حنيف»، الذأصّر على منعهم من دخول «البصرة»، فدارت بينه وبينهم معركة عند مكان يُسمى «الزابوقة» قُتل فيها نحو ستمائة من الفريقين، فلما رأوا كثرة القتلى تنادوا إلى الصلح والكف عن

(22/13)

---

القتال، وانتظار قدوم الإمام «على» إلى «البصرة». وصل «على» إلى «البصرة» وعلم بما حدث من سفك الدماء وهاله ذلك، فأرسل على الفور «القعقاع بن عمرو التميمي» إلى معسكر «عائشة» و «طلحة» و «الزبير»، ليعرف ماذا يريدون، فقالت «عائشة» - رضى الله عنها - : «خرجنا لنصلح بين الناس»، وكذلك قال «طلحة» و «الزبير»، فسأهم «ما وجه الإصلاح الذى تريدون»، قالوا: «قتلة عثمان»، قال: «لقد قتلتم ستمائة من قتلة عثمان، فغضب لهم ستة آلاف من قبائلهم، وكنتم قبل ذلك أقرب إلى السلامة منكم الآن»، قالوا: «فماذا ترى أنت؟»، قال: «أرى أن هذا الأمر دواؤه التسكين»، واقترح عليهم تجديد البيعة لعلى، ومقابلته، والتفكير بعد ذلك فيما يصلح المسلمين، فقبلوا. كانت نقطة الضعف التى فى معسكر الإمام «على» هى وجود كثيرين ممن اشتركوا فى قتل «عثمان» والتخطيط له، وعلى رأسهم «عبدالله بن سبأ»، و «الأشتر النخعي»، ولم يكن

لعلى حيلة في وجودهم معه، ولا قدرة على إبعادهم، لكونهم قوة كبيرة تساندهم عصابات قبلية، وقد أدرك زعمائهم الذين تولوا كبر الثورة على «عثمان» أن الصلح بين الفريقين سيجعل «عليًا» يتقوى بانضمام الفريق الآخر إليه، ويقيم الحد عليهم باعتبارهم قتلة «عثمان»، فعزموا على إفساد الأمر كله. وترتب على هذا العزم أن عقد «ابن سبأ» لهم مؤتمرًا تدارسوا فيه الأمر، فاقترح «الأشتر» أن يقتلوا «عليًا» كما قتلوا «عثمان» من قبل، فتهيج الدنيا من جديد، ولا يقدر عليهم أحد، لكن هذا الاقتراح لم يعجب «ابن سبأ»، فهو يريد أن يدخل الأمة كلها في حرب طاحنة، لا أن يقتل فرد واحد وإن كان خليفة المسلمين، فأمرهم بشن هجوم في ظلام الليل على جيش «عائشة» و «طلحة» و «الزبير»، بدون علم الإمام «علي»، فاستجابوا لرأيه، وبينما الناس نائمون مطمئنون بعد أن رأوا بوادى الصلح تلوح في الأفق، إذا بهم يفاجئون بقعقعة السلاح، وكانت هذه هي بداية

(23/13)

---

حرب «الجمل» المشنومة التي راح ضحيتها خيرة الصحابة «طلحة» و «الزبير» المبشرين بالجنة، ونحو عشرين ألفًا من المسلمين.

(24/13)

---

\*الحسين بن علي (ثورة)

لم يقيم الشيعة بأى ثورة ضد «معاوية بن أبي سفيان»، طوال مدة خلافته (41 - 60هـ)، وإنما اندلعت أولى ثوراتهم بقيادة «الحسين بن علي» في خلافة «يزيد بن معاوية»، بعد أن رفض

«الحسين» بيعة «يزيد»، وكان قد رفض من قبل تعيينه وليا للعهد في زمن أبيه. اعتصم «الحسين» بمكة المكرمة، وهناك توالت عليه رسائل أهل «الكوفة» يطلبون منه الحضور إليهم؛ لبياعوه بالخلافة، فاستجاب لهم على الرغم من تحذير «ابن عباس» - وهو من أقرب الناس إليه - من الذهاب إلى «العراق»، لأنها دعوة من لا أمان أو عهد لهم، وقد خذل أهل العراق أباه من قبل، لكنه أصر على الذهاب، وأرسل - قبل أن يتحرك - ابن عمه «مسلم بن عقيل بن أبي طالب» إلى «الكوفة»، ليستطلع الأمر، ويكتب له بحقيقة الموقف هناك. وصل «مسلم بن عقيل» إلى «الكوفة»، فاستقبله الناس بحماس شديد وبخفاوة بالغة، وبياعه منهم نحو ثمانية عشر ألفاً، فانخدع بهم بعد أن تغافل «النعمان بن بشير» والى «الكوفة» عنه، فكتب إلى «الحسين» يطمئنه، ويطلب منه الحضور إلى «الكوفة». ولما علم «يزيد» بما فعله «مسلم» في «الكوفة»، اضطر إلى عزل «النعمان بن بشير» عن ولايتها لتغاضيه عما يقوم به «مسلم»، وولّى مكانه «عبيدالله بن زياد»، فحضر على الفور، وقبض على «مسلم» وقتله بعد أن انفضت عنه الآلاف التي تجمعت حوله من أهل «الكوفة»، وتركوه يلقي مصرعه وحده. وفي أثناء هذه الأحداث المتلاحقة كان «الحسين» في طريقه إلى «الكوفة»، فلما وصلته أخبار «مسلم»، وتخاذل الكوفيين عنه، قرر العودة إلى «مكة»، لكن إخوة «مسلم» أصرّوا على مواصلة السير، طلباً لثأر أخيهم، فلم يجد «الحسين» بداً من مطاوعتهم، وكان هذا من الأخطاء الكبيرة، فالذى قتل «مسلم» دولة لا فرد، وليس في استطاعتهم - وهم قلة في عددهم - التصدي للدولة، فقد كانوا نحو سبعين رجلاً. واصل «الحسين» سيره حتى بلغ «كربلاء»

بالقرب من «الكوفة»، فوجد جيشاً كبيراً في انتظاره بقيادة «عمر بن سعد بن أبي وقاص» يزيد عدده عمّا معه من أفراد بنحو خمسين مرة، وعسكرت القوات دون تكافؤ بينهما في القوة، فعرض «الحسين» على «عمر بن سعد» ثلاثة حلول للخروج من هذا المأزق، إمّا أن يتركه يعود إلى «مكة»، وإما أن يتركه يذهب إلى ثغر من ثغور الإسلام فيجاهد في سبيل الله، وإما أن يدعه يذهب إلى «دمشق» لمقابلة الخليفة «يزيد بن معاوية» ويضع يده في يده. وكانت هذه الخطوة من «الحسين» - رضى الله عنه - طيبة؛ لأن ذلك معناه أنه أئتمى ثورته وجنح إلى السلام، كما سرّ بهذه الخطوة «عمر بن سعد»، لأنه لم يكن راغباً في مواجهة «الحسين»، ولكن عليه أن يستشير «عبيد الله بن زياد»، فهو الوالى وصاحب القرار، فرحب بالفكرة لأول وهلة، لأن فيها حقن الدماء، وبخاصة دم «الحسين» حفيد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، غير أن شيطاناً من شياطين الإنس يدعى «شمر بن ذى الجوش» أشار على «ابن زياد» ألا يقبل من «الحسين» إلا أن يسلم نفسه باعتباره أسير حرب، وأن يرسله بهذه الصفة إلى الخليفة «يزيد بن معاوية» في «دمشق». وكان من الطبيعى أن يرفض «الحسين بن على» هذا الطلب، فالموت عنده أهون عليه من هذا كما قال هو نفسه، ولو أن مشركاً أو ذمياً كان في مكان «الحسين»، وعرض عليهم هذه الحلول السلمية لكان عليهم قبولها، لكن «ابن زياد» خضع لهذه الفكرة الشيطانية، ورفض «الحسين» تسليم نفسه أسير حرب، فدارت معركة غير متكافئة بين الفريقين في «كربلاء» في العاشر من الحرم سنة (61هـ)، استشهد فيها «الحسين»، رضى الله عنه، وقتل من كان معه من أهل بيته، ولم ينج من القتل إلا ابنه «على» الملقب بزین العابدین.

### \*حطين (معركة)

تعد «حطين» من أشهر الحروب التي خاضها «صلاح الدين» ضد الصليبيين، بعد سلسلة من الحروب التي خاضها مثل: موقعة «مرج العيون» سنة (574هـ) التي انتصر فيها عليهم، ثم موقعة «مخاضة الأحزان» سنة (575هـ)، وهمعركة فاصلة. بدأت في ربيع الثاني سنة (583 هـ)، بين المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي والصليبيين. وكان صلاح الدين قد وَّخَد مصر والشام والعراق والجزيرة وجمع كلمة العرب تحت لوائه، فقرر التصدي للصليبيين فوضع خطة لاستدراجهم بعيداً عن معانقهم وحصونهم فانتهاز فرصة تعدى الأمير رينو دوشاتيون - المعروف بأرناط - على قوافل المسلمين والحجاج ونقضه بذلك الهدنة التي بين المسلمين والصليبيين؛ فحرق لهم طبرية، ونفذ خطته، فجاءوه مجتمعين ومعهم صليب الصلبوت أو الصليب الأعظم وعلى رأسهم الملك غي ملك بيت المقدس في خمسين ألف مقاتل، وساروا إليه في أرض جرداء وعرة لا كالأ فيها ولا ماء في يوم شديد الحرارة ، فعانى الصليبيون من التعب والحر والعطش. على حين كانت دوريات صلاح الدين تهاجمهم في المقدمة والقلب والمؤخرة، وتقوم بحرب إزعاج ضدهم، ثم تنسحب بسرعة، دون أن تعطيهم فرصة للالتحام، وكان عسكر المسلمين على سفوح هضاب حطين ينتظرون وصول الجيش الصليبي، ولما وصل الصليبيون طَوَّق صلاح الدين بجيشه الهضبة التي تركز عليها جيش الصليبيين، ومنع عنهم الماء، وأحرق المسلمون الأراضي المكسوة بالأشواك، وكانت الريح مواتية فحملت إليهم حر النار والدخان. وبدأ جيش المسلمين بالهجوم، وقاتل الفرنجية ببسالة لا نظير لها، ولم يترك لهم المسلمون فرصة لالتقاط أنفاسهم، فهُزِم المشاة، وفرَّ قسم من الفرسان، وطوق المسلمون خيمة الملك غي،

ودكوها، وأسروا الملك وجميع الأمراء والفرسان الصليبيين  
وعددًا كبيرًا من رجالهم وقادتهم، فأكرم صلاح الدين  
ضيافتهم، وسقى مليكهم الماء المثلج. ثم شرع صلاح الدين في

(27/13)

---

فتح البلاد والمدن والثغور الصليبية حتى تَوَجَّ جهاده بتحرير بيت  
المقدس في شهر رجب من السنة نفسها.

(28/13)

---

\*حنين (غزوة)

بعد فتح «مكة» بدأ الرسول - صلى الله عليه وسلم - يرتب  
أمورها، فعين لها واليًا من قبله، هو «عتاب بن أسيد»، ومعلمًا  
يعلم أهلها شرائع الإسلام هو «معاذ بن جبل»، ولكن بعد أقل  
من أسبوعين من ذلك الفتح العظيم وصلت إلى النبي - صلى الله  
عليه وسلم - أخبار بأن قبائل «هوازن» و «ثقف» قد جمعت  
جموعها في وادي «حنين» بين «مكة» و «الطائف» لمحاربتة؛  
لظنهم أن ذلك الفتح وعلو شأن الرسول - صلى الله عليه وسلم -  
خطر عليهم، ولا شك أنهم كانوا في ذلك مخطئين، فالإسلام ليس  
خطرًا عليهم ولا على غيرهم، بل هو رحمة وعدل وعزة وكرامة  
لهم وللعرب وللعالم أجمع. أمر النبي - صلى الله عليه وسلم -  
الجيش بالتأهب لمواجهةهم في أوائل شهر شوال سنة 8هـ، وكان  
يضم اثني عشر ألفًا بعد أن انضم إلى جيش الفتح ألفان من أهل  
«مكة»، واتجه به إلى وادي «حنين»، ففاجأهم جموع «هوازن»  
و «ثقف» من مكانها في الأودية والجبال، وكادت تهزمهم، وفر  
معظم المسلمين من هول المفاجأة، ولم يثبت مع النبي - صلى الله

عليه وسلم - إلا قلة قليلة من أهله وأصحابه، تقدر بنحو عشرة رجال، وصاح النبي - صلى الله عليه وسلم - بالمسلمين «إلى أين أيها الناس؟ إلى أيها الناس، أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»، وأمام ثبات النبي - صلى الله عليه وسلم - وشجاعته عاد المسلمون وراءه، وتماسكوا من جديد، وحملوا على عدوهم حملة صادقة، فهزموهم هزيمة شديدة، وقتلوا منهم عددًا كبيرًا، وأسروا كذلك نحوًا من ستة آلاف، وغنموا غنائم كثيرة.

(29/13)

### \*الخنديق (غزوة)

إحدى الغزوات التي وقعت بين المسلمين وأحزاب المشركين سنة (5 هـ = 672م) بعد غزوة أحد. وسميت بهذا الاسم؛ لأن قريشًا وغطفان وبنى سليم وبنى مرة تحزّبوا وتجمعوا للقضاء على الإسلام ودعوته بالمدينة المنورة. وقد قام اليهود من بنى النضير بتحزيب هذه القبائل وتجميعها وتأليبها على المسلمين؛ إذ ذهب وفد منهم على رأسه حُيى بن أخطب إلى قريش، وحرّضهم على غزو المسلمين، فاستجابوا للدعوة، ثم توجهوا إلى غطفان فأغروهم بأن يكون لهم نصف ثمار بنى النضير ثم طافوا بقبائل أخرى. وتمّ الأمر لهم كما أرادوا؛ فقد تجمع جيش كبير قوامه (10) آلاف مقاتل، أعدوا عدتهم للسير تجاه المدينة. وكان ذلك في شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة. علم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بهذه الأخبار المفزعة، فجمع كبار الصحابة واستشارهم كيف يواجهون هذا الموقف، فأشاروا عليه بالتحصن داخل «المدينة»؛ لأنهم استفادوا من درس «أحد»، وأخذوا يعدّون العدة لتحمل حصار طويل من الأعداء. وهنا جاءت فكرة رائعة من «سلمان الفارسي» - رضى الله عنه - وهي حفر خندق في الجهة

الشمالية الغربية من «المدينة»؛ لمنع اقتحام جيوش الأحزاب لها، لأن بقية جهاتها الأخرى كانت محصنة بغابات من النخيل، يصعب على الخيول اقتحامها. وتم حفر الخندق في نحو أسبوع، وعمل النبي - صلى الله عليه وسلم - بنفسه مع المسلمين في حفره، وبشرهم وهم في هذا الموقف العصيب بفتح «الشام» و «العراق» و «اليمن». جاءت قوات الأحزاب وهي واثقة لا بالنصر على المسلمين فحسب، بل باستنصاحهم، لكن المفاجأة أذهلتهم عندما رأوا الخندق يحول بينهم وبين اقتحام المدينة، وظلوا أمامه عاجزين، تأكل قلوبهم الحسرة، لأنهم لم يتعودوا مثل هذا الأسلوب في القتال، ولما حاول واحد منهم اقتحام الخندق لقي حتفه في الحال. وعلى الرغم من أن الخندق قد حمى المسلمين من هجوم المشركين، فإن الكرب قد اشتد عليهم، وضاقوا بطول

(30/13)

---

الحصار، وكانوا في موقف عصيب بالغ الصعوبة، فالمشركون من فوقهم يحيطون بالخندق، وبنو قريظة أسفل منهم قد نقضوا العهد، والمنافقون في المدينة يرجفون، ويخذلون الناس، واشتدَّ الخوف، وعظم البلاء، وزلزل المسلمون زلزلاً شديداً. وصفه الله - تعالى - أدق وصف بقوله: {إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزلاً شديداً (الأحزاب: 10 - 11) اجتهد النبي - صلى الله عليه وسلم - في تفريج الكرب عن المسلمين، فاتصل بقبائل «غطفان» وعرض عليها ثلث ثمار «المدينة» على أن يعودوا إلى ديارهم ويتخلوا عن «قريش» فوافقوا، وعرض الرسول - صلى الله عليه وسلم - هذا الأمر على الأنصار، فسألوه إن كان هذا أمراً من الله فليس لهم أن

يخالفوه، أما إذا كان اجتهادًا من أجلهم فلن يوافقوا عليه، فأعلمهم أنه اجتهاد منه لمصلحتهم ولتفريق الأحزاب عنهم، فأبوا وعزموا على مواصلة الجهاد والدفاع عن بلدهم، فأوقف النبي - صلى الله عليه وسلم - المفاوضات مع «غطفان» نزولاً على رأى أصحابه. وفي هذه اللحظة لاحت فرصة عظيمة حيث جاء إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - رجل من غطفان اسمه نعيم بن مسعود الأشجعي - وكان قد أسلم وقدم مع الأحزاب دون أن يعلموا - يعرض عليه أن يأمره بما يشاء للتخفيف عن المسلمين، فأمره الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يفرق بينهم وبين «بنى قريظة»، الذين نقضوا عهدهم مع النبي - صلى الله عليه وسلم - واتفقوا مع الأحزاب على الانضمام إليهم حين تبدأ الحرب، وقد نجح «نعيم» في مسعاه نجاحًا عظيمًا، وزرع الشكوك في قلوب الأحزاب و «بنى قريظة» تجاه بعضهم بعضًا وفرق كلمتهم، ثم أرسل الله ريحًا شديدة قلعت خيام المشركين، وكفأت قلوبهم، وانقلب الموقف كله بفضل الله - تعالى - عليهم، وأدرك «أبو سفيان بن حرب» قائد الأحزاب ألا فائدة من البقاء، فأمرهم بالرحيل فرحلوا، وقد علق

(31/13)

---

الرسول - صلى الله عليه وسلم - على هذا الموقف بقوله: «الآن نغزوهم ولا يغزونا». أى أن قريشًا لن تستطيع مهاجمة «المدينة» مرة أخرى؛ لأن ميزان القوى أصبح يميل مع المسلمين.

(32/13)

---

### \*الخذق (موقعة)

هى معركة جرت بين عبد الرحمن الناصرو ملك ليون قائد التحالف النصرانى فى الأندلس عند باب قلعة «شنت منكش» (سيمانقة) وكانت الحرب سجالا، ثم انكشف المسلمون انكشافاً لم يسمع بمثله وردهم العدو إلى خندق عميق نسبت الموقعة إليه، وقد تساقط فيه المسلمون حتى امتلأ بهم عن آخره وانكشف الناصر واستولى العدو على محلاته وما فيها من عدة ومتاع وفقد مصحفه الشريف ودرعه. وكان للخونة وعلى رأسهم «فرتون بن محمد الطويل» أثره فى الهزيمة، وقد أعدمه الناصر جزاءً وفاقاً لخيانته، كما كان لتولية قائد صقلبي أثره فى امتعاض العرب وتأثيره على روحهم المعنوية أثناء القتال، وقد قتل ذلك القائد فى المعركة، وأسر من كبار المسلمين «محمد بن هاشم التجيبى» وبقي فى أسر ملك ليون مدة عامين حتى اقتداه الناصر بمبلغ كبير.

(33/13)

### \*الخوارج (ثورات)

الخوارج لفظ يطلق على طائفة عقائدية سياسية، ظهرت فى أواخر عصر الخلفاء الراشدين، وهى أولى الفرق الإسلامية. وقد خرجوا على على بن أبى طالب، رضى الله عنه، وصحبه رافضين التحكيم بينه وبين معاوية بن أبى سفيان. وانبثقت عنهم عدة فرق - عُرف كل منها باسم خاص - بلغت اثنتين وعشرين فرقة، ومن أهمها: الأزارقة والصفرية والنجداث. واشتهر الخوارج بالتشدد فى العبادة، وكانوا يرون أن الخلافة حق لكل مسلم مادام مستحقاً لها، ومادامت شروطها متحققة فيه، كما اتفقوا على تكفير عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب، رضى الله

عنهما، وأصحاب الحمل، وتكفير الحكمين، وكذلك معاوية بن أبي سفيان، رضى الله عنه، وأصحابه. وقد أعلن الخوارج الثورة على على ومعاوية وقاموا بثورات كثيرة، وتصاعدت هذه الثورات منذ حريم ضد على بن أبي طالب سنة (38 هـ = 658 م) بالهروان، حتى تحولت إلى تحرك جماهيري مسلح ضد بنى أمية، حيث لجأ الخوارج إلى القوة واستخدام السيف في فرض أفكارهم وآرائهم على الناس، وأبدوا في صراعهم الدموي مع الدولة الأموية كثيراً من ضروب الشجاعة والتضحية والإقدام وكانت الأعداد القليلة منهم تهزم جيوشاً جرارة للدولة، ولو أن شجاعتهم وبطولاتهم اتجهت اتجاهًا صحيحًا، ووجدوا جهودهم مع الدولة الأموية في مجال الفتوحات الإسلامية ومحاربة أعداء الإسلام، لكان ذلك أجدى وأنفع، والعجيب أن أغلبهم لم يكونوا من طلاب الدنيا، والتطلع إلى المال والمنصب، وإنما كانوا طلاب آخرة، ولكنهم أخطئوا الطريق إليها، كما قال لهم «عمر بن عبدالعزيز». أعلن الخوارج وبخاصة «الأزارقة» حرباً شعواء على الدولة الأموية منذ قيامها، ولم تفلح معهم سياسة «معاوية بن أبي سفيان» - رضى الله عنه - القائمة على التسامح وسعة الأفق، فثاروا في وجهه سنة (41هـ) - أى عام الجماعة - قبل أن يغادر «الكوفة»، وكان أول من ثار عليه «عبدالله بن أبي

(34/13)

---

الحوساء» في مكان قريب من «الكوفة»، ثم ثار عليه «المستورد بن عُلَّة الطائي». وكان عجيبيًا أن تشب هذه الثورات في «الكوفة» أيام واليها «المغيرة بن شعبة» الذى انتهج سياسة متسامحة مع الناس كلهم، ولم يشأ أن يزيد في آلام الناس في «العراق»، أو يترك جروحهم بعد الحروب الكثيرة التى عانوها

في «الجملة» و «صفيين». وكان حريا بالخوارج أن يركنوا إلى الهدوء ويتعدوا عن سياسة العنف إزاء سياسة التسامح التي انتهجها «المغيرة»، لكنهم تمردوا وثاروا، فاضطر «المغيرة» إلى التصدي لهم والقضاء على ثوراتهم. ثم ازداد ضغط الدولة عليهم منذ أن ولي «زياد بن أبي سفيان» ولاية «البصرة» سنة (45هـ) فأخذ يتعقبهم في «البصرة»، في الوقت الذي يتعقبهم فيه «المغيرة بن شعبة» في «الكوفة»، حتى ضيقا عليهم الخناق، وضربا عليهم بيد من حديد، حتى ضعفت شوكتهم. وعلى الرغم من ذلك فقد استأنف الخوارج نشاطهم على نحو أعنف بعد وفاة «معاوية» سنة (60هـ)، فأرسل إليهم «يزيد بن معاوية» حملة بقيادة «عبيدالله بن زياد»، فتصدى لهم بقوة، ثم ازدادت ثوراتهم بعد وفاة «يزيد» سنة (64هـ)، مستغلين في ذلك حالة الفوضى التي سادت «العراق»، ولما استقامت الأمور للأُمويين كلف «عبدالمملك بن مروان» «المهلب بن أبي صفرة»، بمواجهة الخوارج، فاستطاع أن يكسر شوكتهم، ويخمد أنفاسهم، فاستكانوا فترة طويلة تزيد على العشرين عامًا (78 - 100هـ)، لم تقم لهم ثورة خلالها، ثم عاودوا نشاطهم في عهد «عمر بن عبدالعزيز»، فاستعمل معهم أسلوب الحوار، فاستجابوا له لما أقنعهم بخطأ أفكارهم المتطرفة، ووعدوه بالهدوء، لكنهم هبوا من جديد بعد وفاته سنة (101هـ)، ولم تهدأ ثوراتهم التي استمرت حتى آخر أيام الدولة الأموية. وبلغت حركة الخوارج أقصى درجات العنف في عهد «مروان بن محمد» آخر خليفة أموي (127 - 132هـ)، وقد شهد آخر ثورات الخوارج وأشدّها خطرًا، بقيادة «الضحاك بن قيس الشيباني» في

«العراق»، و «أبي حمزة الخارجي» في جنوبي الجزيرة العربية.

(36/13)

### \*خيبر (غزوة)

وهي قرية كبيرة تقع شمالي شرقي «المدينة المنورة» بنحو  
مائة وثمانين كيلو متراً، يسكنها بعض اليهود الذين لم تبد منهم  
أية إساءة إلى المسلمين من البداية، ولم يُسمع أن لهم ضلعاً في  
أية مؤامرة أو موقف من مواقف اليهود المخزية ضد الرسول  
- صلى الله عليه وسلم - فاحترم الرسول موقفهم وحيادهم، غير  
أنهم تبدلوا وتغيرت مواقفهم. منذ أن نزل عندهم يهود «بني  
قينقاع» و «بني النضير»، فأفسدوهم وجعلوا بلدهم وكراً للتآمر  
على المسلمين والكيد لهم. ولما كانت «خيبر» تقع على الطريق  
المؤدى إلى «الشام»، فكان لابد من تطهير ذلك الطريق من أية  
عوائق، وبخاصة أنه الطريق الرئيسى للدعوة الإسلامية وللجيوش  
الإسلامية التي ستخرج بعد وقت قصير لمواجهة دولة الروم، التي  
تكرر اعتداؤها على المسلمين؛ لذلك قرر الرسول - صلى الله عليه  
وسلم - تصفية آخر وكر يهودى في شبه جزيرة العرب؛ لتسلم  
قاعدة الإسلام الأساسية ومنطلقه إلى العالم من عدو ماكر، فبعد  
عودته من «الحديبية» بأقل من شهر - أى في المحرم من العام  
السابع للهجرة - غزا «خيبر»، ودك حصونها، فاستسلمت، وكان  
النبي - صلى الله عليه وسلم - كريماً ورحيماً مع أهلها، فلم  
يجبرهم على الدخول في الإسلام، ولم يطردهم من بلدهم، بل  
أبقاهم يزرعون أرضهم، ولهم نصف محاصيلها، وللمسلمين  
النصف الآخر.

(37/13)

### \*ذات الصواري (معركة بحرية)

أثار بروز الأسطول الإسلامي في البحر المتوسط حفيظة «قنسطانز الثاني» الإمبراطور البيزنطي، وجعله يفكر في القضاء على الأسطول الإسلامي وتحطيمه، قبل أن تكتمل قوته، ويزداد خطره، وحتى تظل السيطرة على «البحر المتوسط» للأسطول البيزنطي وحده دون غيره، فعبأ الإمبراطور قواته البحرية كلها، واتجه بها قاصداً سواحل الشام، وهو لا يراوده شك في قدرته على تدمير السفن الإسلامية؛ لحداثة نشأتها، وقلة خبرة رجالها، لكن المسلمين استعدوا لهذا اللقاء جيداً وتعاون الأسطولان في «مصر» والشام، لرد هذا العدوان، وأسندت قيادتهما إلى «عبدالله بن سعد» والى «مصر». والتقى الأسطولان الإسلامي والبيزنطي - الذي كان بقيادة الإمبراطور نفسه - في شرقي «البحر المتوسط»، جنوبي شاطئ «آسيا الصغرى» (تركيا الحالية)، ودارت بينهما معركة بحرية كبيرة، سُميت بمعركة «ذات الصواري»، لكثرة السفن التي اشتركت من الجانبين (خمسمائة سفينة من جانب الروم، مقابل مائتي سفينة من جانب المسلمين) وانتهت المعركة بنصر عظيم للمسلمين، وهزيمة ساحقة للأسطول البيزنطي، ونجاة الإمبراطور من القتل بأعجوبة. ونتيجة لهذه الهزيمة لم يرجع الإمبراطور إلى عاصمة «القسطنطينية» بعد المعركة، وإنما ذهب إلى «جزيرة صقلية»، قبالة شاطئ «تونس»، في محاولة منه لحماية ما تبقى من دولة الروم في «شمال إفريقيا»، لكنه قتل في «صقلية» سنة (688هـ = 688م).

## \*الربض (ثورة)

هى ثورة عنيفة اشتعلت فى «قرطبة» فى أواخر عهد الحكم الأول بن هشام المعروف بالربضى، وقد سميت بثورة الربض بسبب كراهية «المولدين» للحاكم، وبغضهم له لصرامته وقسوته، واتهامهم له بممارسة اللهو والشراب، والمبالغة فى فرض الضرائب، وقد تأجج لهيب الثورة فى الربض الجنوبى المسمى «شقنדה» بصفة خاصة يوم (13 من رمضان 202هـ = 25 من مارس 818م) وتوجه الثوار إلى القصر، وتأهب الحكم ورجاله لردّهم، وقد نجحوا فى ذلك، ثم مالبت أن شقت قوات الحكم طريقها إلى النهر، وعبرته إلى الضاحية الأخرى موطن الثائرين وأضمرت النيران فى جوانبها، فأسرع الثوار إلى دورهم، لإطفاء النيران وإنقاذ الأهل والعشيرة. وفى هذه اللحظة أحاط الجنود بالثوار، وأوسعوهم قتلا ومطاردة ونهبوا دورهم، واستمرت هذه المأساة ثلاثة أيام، فرّ خلالها إلى طليطلة من استطاع، ثم نودى بالأمان بعد أن هدأت الفتنة، ثم أصدر الحكم قراراً بهدم دور الثوار ولاسيما فى الضاحية التى شهدت ميلاد الثورة، فتم محوها تماماً، ثم أمر بإخراج الثائرين من قرطبة، فتنفروا فى الثغور، وعبر بعضهم إلى العدو الأخرى بالمغرب، وهاجر بعضهم إلى طليطلة وشمالي غربي الأندلس. كما ركب نحو (15) ألفاً منهم سفناً رست بهم فى ميناء الإسكندرية، حيث أقاموا فيها، غير أن والى مصر «عبدالله بن طاهر» أجبرهم على الرحيل، فتوجهوا إلى جزيرة «كريت» وفتحوها سنة (212هـ = 827م)، وأسسوا بها دولة زاهرة، بقيت هناك إلى أن استولى عليها البيزنطيون سنة (350هـ = 961م).

## \*الردة (حروب)

بدأت حركة الردة بالقبائل التي منعت الزكاة كعبس و «ذبيان» و «غطفان» وغيرها، حيث أرسلت وفدًا إلى «المدينة»، يعرض على «الصديق» مطالبهم، وأنهم لم يرفضوا الإسلام، ولكنهم يرفضون دفع الزكاة لحكومة «المدينة»؛ لأنها في ظنهم معرّة، ويعدونها إتاوة تدفع لأبي بكر، ولم تدرك تلك القبائل أثر الزكاة في التكافل الاجتماعي بين المسلمين. كان رأى فريق من الصحابة وعلى رأسهم «عمر بن الخطاب» أن يستجيب «أبو بكر» لتلك القبائل، ولا يجبرها على دفع الزكاة، وخاصة أن «المدينة» مكشوفة، وليس بها قوة تحميها وتدافع عنها؛ لأن جيش «أسامة» لما يعد بعد من شمالي بلاد العرب، لكن «الصديق» لم يقتنع بهذا الرأى، ورد على «عمر بن الخطاب» رداً جازماً قائلاً له: «والله لو منعوني عقالا - الحبل الذى يجز به الحمل - لجاهدتم عليه». ولم يكن «الصديق» صاحب قرارات صائبة فحسب، بل كان يقرنها بالعمل على تنفيذها، فلما رأى الغدر في عيون مانعي الزكاة أدرك أنهم سيهاجمون «المدينة» على الفور؛ لأنهم عرفوا غياب معظم الرجال مع جيش «أسامة»، وأعلن حالة الاستعداد للدفاع عن «المدينة» عقب عودة المانعين إلى ديارهم، واتخذ مسجد رسول الله، مقراً لغرفة عمليات عسكرية، وبات ليلته يُعد للمعركة ويستعد لها، وأمر عددًا من كبار الصحابة بحراسة مداخل «المدينة»، على رأسهم «على بن أبى طالب»، و «طلحة بن عبيدالله»، و «الزبير بن العوام»، و «عبدالله بن مسعود» رضى الله عنهم. وحدث ما توقعه «الصديق» فبعد ثلاثة أيام فقط هاجم مانعو الزكاة «المدينة»، فوجدوا المسلمين فى انتظارهم، فهزمهم المسلمون وردوهم على أعقابهم إلى «ذى القصة» - شرقى «المدينة». ثم تعقبهم «الصديق» وألحق بهم هزيمة منكرة، وفرت فلولهم، وغنم

المسلمون منهم غنائم كثيرة، واتخذ «الصديق» من «ذى القصة» مكاناً لإدارة المعركة ضد حركة الردة كلها، وفي هذه الأثناء

(40/13)

جاءت الأخبار بوصول جيش «أسامة» سالمًا غانمًا، فأسرع «الصديق» بنفسه لاستقبال قائد الجيش الشاب، الذى قام بهذه المهمة الخطيرة خير قيام، وبعد أن احتفى به وهنأه على عمله، أنابه عنه فى حكم «المدينة»، وعاد هو إلى «ذى القصة» ليدير المعركة مع المرتدين بعزيمة لا تلين. أراد «أبو بكر الصديق» أن يبصّر المرتدين بخطورة ما أقدموا عليه، فواجههم مواجهة سلمية بأن دعاهم إلى العودة بدون قتال إلى الإسلام، الذى أكرمهم الله به، وأرسل إليهم كتابًا يقرأ على القبائل كلها؛ لعلهم يعقلون، جاء فى آخره: «وإني بعثت إليكم فلانًا فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، وأمرته ألا يقاتل أحدًا ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله، فمن استجاب له وأقرّ وكف وعمل صالحًا، قبل منه وأعاناه عليه، ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك، ثم لا يبقى على أحدٍ منهم قدر عليه، .. ولا يقبل من أحدٍ إلا الإسلام فمن اتبعه فهو خير له، ومن تركه فلن يعجز الله، وقد أمرت رسولى أن يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم، والداعية الأذان، فإذا أذن المسلمون فأذّنوا كفوا عنهم، وإن لم يؤذّنوا عاجلوهم ...». وفى الوقت الذى كان يأمل فيه أن يستجيب المرتدون، ويعودوا إلى دين الله دون قتال؛ كان يعد أحد عشر جيشًا فى وقت واحد، تغطى المناطق التى ارتد أهلها فى شبه جزيرة العرب، جاهزة للانطلاق إلى كل منطقة؛ ليشغل كل قبيلة بالدفاع عن نفسها فى ديارها، ولا تأخذ فرصة للتجمع والتكتل ضده، وكان هذا تصرفًا بارعًا وحكيمًا من «الصديق».

واختار «الصديق» لهذه الجيوش أمهر القادة وأكثرهم خبرة بالقتال، وهم: «خالد بن الوليد»، سيف الله وعبرى الحرب، وأمره بقتال المرتدين من «بني أسد» و «غطفان» وحلفائهم بقيادة «طليحة بن خويلد» في «بذاخة»، فإذا انتهى من مهمته توجه لقتال المرتدين من «بني تميم» في «البطاح»، إلى الشرق من ديار «بني أسد». - و «عكرمة بن أبي جهل» وأردفه

(41/13)

بشرحبيل بن حسنة، وأمرهما بالتوجه إلى «مسيلمة الكذاب» ومن معه في «اليمامة»، وأمرهما ألا يقاتلاه حتى يأمرهما بذلك، لمعرفة «أبي بكر» بقوة جيش «مسيلمة»، وأنهما لن يقدرتا على هزيمته بسهولة، بل يشغلاه حتى يحين الوقت المناسب لإرسال قوات أكبر؛ لمواجهة «بني حنيفة» في جموعهم الكبيرة. - و «العلاء بن الحضرمي»، وأمره بقتال المرتدين في «البحرين» وما والاها. - و «حذيفة بن محصن»، وأمره بقتال المرتدين في «دبا» في جنوبي شرقي شبه الجزيرة. و «عرفجة بن هرثة»، وأمره بقتال المرتدين في «مهرة» في جنوبي شبه الجزيرة. و «المهاجر بن أبي أمية المخزومي»، وأمره بقتال المرتدين في جنوبي «اليمن». و «سويد بن مقرن»، وأمره بقتال المرتدين في «تامة اليمن» على ساحل «البحر الأحمر». - و «عمرو بن العاص»، وأمره بقتال قبائل «قضاة» في الشمال. - و «معن بن حجاز» وأمره بقتال المرتدين في «هوازن» و «بني سليم». و «خالد بن سعيد بن العاص»، وأمره أن يعسكر في «تيماء»، ولا يقاتل أحدًا إلا إذا قوتل. لم يستجب المرتدون لدعوة «أبي بكر» السلمية، فبدأ قاداته ينفذون ما عهد إليهم من مهام، وخاض «خالد بن الوليد»

أول معارك الردة في «بذاخة» ضد المرتدين من «غطفان» و «بنى  
أسد» وحلفائهم ممن التفوا حول «طليحة بن خويلد الأسدي»  
مدعى النبوة، وكان النصر حليف «خالد»، بعد أن ألحق بهم  
هزيمة منكرة وغنم كثيرا، وأرسل عدداً من زعمائهم أسرى إلى  
الخليفة، وفر «طليحة»، وظهر كذبه، ويجدر بالذكرى أن  
«طليحة» قد أسلم بعد ذلك، وحسن إسلامه في عهد «أبي بكر  
الصديق»، واشترك في الفتوحات الإسلامية في «فارس»، في  
عهد «عمر بن الخطاب»، وكان له دور بارز فيها. وبعد ذلك توجه  
«خالد بن الوليد» إلى «البطاح» في «نجد» لقتال المرتدين من  
«بنى تميم» بزعماء «مالك بن نويرة»، ونجح في إلحاق الهزيمة  
بهم، والقضاء على الردة في بلادهم. وكان «أبو بكر» قد أرسل

(42/13)

«عكرمة بن أبي جهل» و «شرحبيل بن حسنة» للوقوف في وجه  
«مسيلمة»، ولم يأمرهما بقتال؛ لكنهما تعجلا مخالفيين أوامر  
الخليفة، واشتبكا مع «مسيلمة» في حرب لم يصمدا فيها، وعادا  
منهزمين، ولعلهما أرادا أن يتشبهها بخالد بن الوليد حتى يحوزا  
أكاليل النصر، كما حازها هو. وما إن وصلت أنباء هزيمتهما  
إلى «أبي بكر» حتى غضب غضباً شديداً، وطلب منهما ألا يعودا  
إلى «المدينة»، وقرر في الوقت نفسه أن يرسل «خالد بن  
الوليد» إلى «اليمامة» للقضاء على فتنة «مسيلمة»، فهو أصلح  
الناس لهذه المهمة. وكان «خالد» قد فرغ من القضاء على فتنة  
المرتدين من «بنى أسد» و «غطفان» و «تميم»، فجاءته أوامر من  
«أبي بكر» بالتوجه إلى «اليمامة» للقضاء على فتنة «مسيلمة»  
الكذاب». امتثل «خالد بن الوليد» لأوامر الخليفة، وسار في  
صحراء وعرة نحو ألف كيلو متر، حتى التقى بجيوش «مسيلمة» -

وكانت نحو أربعين ألفاً - في مكان يسمى «عقرباء» في حين كانت قوات «خالد» تبلغ نحو ثلاثة عشر ألفاً، فيهم عدد كبير من المهاجرين والأنصار، ودارت الحرب بين الفريقين، وكانت حرباً شرسة، اشتدت وطأتها على المسلمين في البداية، وكادوا ينهزمون، لولا أن زار «خالد» كالأسد الهصور، ونادى بأعلى صوته «واحمدها»، وكان شعار المسلمين في المعركة، فاشتعلت جذوة الإيمان في القلوب، وهانت الحياة على النفوس، وأقبل المسلمون على القتال دون خوف أو وجل، طمعاً في النصر أو الشهادة، وصبروا لأعداء الله حتى هزموهم هزيمة منكرة، وقتلوا «مسيلمة» الكذاب مع نحو عشرين ألفاً من رجاله، واستسلم من بقى من قواته أسرى للمسلمين، واستشهد من المسلمين أكثر من ألف ومائتي رجل، منهم عدد كبير من القراء وحفظة القرآن الكريم. وحين ترامت إلى المرتدين أخبار انتصارات «خالد» وما فعله في «بني حنيفة»، وقر في أذهانهم أن المسلمين لا ينهزمون؛ ولذا كانت مهمة بقية القادة في المناطق

(43/13)

---

التي توجهوا إليها أقل صعوبة مما واجهه «خالد بن الوليد» في «اليمامة». وقبل أن يمضى عام على بدء حركة الردة كان «أبو بكر الصديق» قد نجح في القضاء عليها في كل مكان، وعادت شبه الجزيرة العربية موحدة دينياً وسياسياً تحت لواء المسلمين وحكومتهم في «المدينة» ما كانت في آخر حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم -.

(44/13)

---

## \*الزلاقة (معركة)

أشهر المعارك الحربية وأعظمها في تاريخ المسلمين بالأندلس. وقعت في (رجب 479هـ = أكتوبر 1086م) عند سهل فسيح تسميه المصادر العربية بالزلاقة أو ساكرا خاس ( Sac ) صلى الله عليه وسلم ( ajas ) شمالي بطليوس على الحدود الإسبانية البرتغالية حالياً حيث جرت وقائعها بين المرابطين وألفونسو السادس وحلفائه وكانوا ما بين أربعين إلى ثمانين ألفاً على حين قدر الجيش الإسلامي بما بين عشرين إلى نحو خمسين ألفاً، وكان يقود مقدمة جيش المسلمين المعتمد بن عباد، وعلى الميمنة «المتوكل بن الأفطس» وتكونت الميسرة من أهل شرقي الأندلس، أما المؤخرة فكانت من البربر بقيادة «داود بن عائشة»، وكان أنجاد المرابطين من لمتونة وصنهاجة وغيرها بقيادة يوسف بن تاشفين. لبث الجيشان ثلاثة أيام لا يفصلهما سوى نهر، والرسل تتردد بينهما، وقد أرسل «ابن تاشفين» إلى خصمه يدعو إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب، فاستاء الملك النصراني ورد بقوله: «إني ما كنت أتوقع أن يصل الحد بالمسلمين الذين كانوا يعطونني الجزية منذ سنين أن يعرضوا على مثل هذه الاقتراحات الجارحة ومع هذا فإن لدى جيشاً في استطاعته أن ينزل العقوبة على هذه الوقاحة البالغة من الأعداء» ولم يكن جواب «يوسف» على أكثر من هذه العبارة» الذي يكون ستره». جرت اتصالات تهدف إلى تحديد موعد المعركة، وحاول «ألفونسو» خديعة المسلمين، فأرسل إليهم يوم الخميس يخبرهم أن المعركة ستكون يوم الإثنين، لكن المعتمد بن عباد أدرك خديعته، وقد أخبرته طلائعه بما في معسكر العدو من حركة وجلبة سلاح، رغم أن الوقت المتفق عليه لبدء القتال لم يكن قد حان بعد. فتوقع المسلمون أن يبدأ ألفونسو الحرب صباح يوم الجمعة، وبالفعل تحقق ما توقعه المسلمون، وهجم ألفونسو بجيشه،

ودارت المعركة. ففي أوائل (رمضان 480هـ = ديسمبر 1087م)  
بدأ القتال في الصباح الباكر واشتد لهيب المعركة وهاجم

(45/13)

النصارى بعنف مقدمة «المعتمد بن عباد» ونجح في ردها عن  
مواقعها واختل نظامها وارتد معظمها إلى بطليوس ولم يثبت إلا  
الإشبيليون وابن عباد الذي كان مثالا للشجاعة والإقدام حيث  
صمد للعدو، وقاوم هجماته العنيفة رغم جرحه الذي في وجهه  
ويده، وهجم «ألفونسو» على مقدمة المرابطين التي يقودها  
«داود بن عائشة» وردها عن مواقعها، وفي اللحظة المناسبة  
دفع ابن تاشفين بقوات البربر إلى نجدة الأندلسيين والمرابطين،  
ونفذت قواته إلى قلب النصارى بكل قوة، وسرعان ما تغير وجه  
المعركة، لأن يوسف هاجم عدوه من الخلف مباغتة وهذا شجع  
الفارين فعادوا ونظموا صفوفهم، وشدوا من أزر المعتمد، ورغم  
أن «ألفونسو» كان قد وصل إلى خيام المرابطين، فإن ابن  
تاشفين تقدم على رأس من معه من قواته وتجاوز جموع النصارى  
وقصد إلى معسكرهم نفسه وهاجمه بشده وفتك بجراسته، ثم  
وثب إلى مؤخرة القشتاليين النصارى، وأثنخ فيهم قتلاً وطبولة  
تضرب فتشق أجواز الفضاء، ثم أضرم النار في معسكر الأعداء.  
اضطر «ألفونسو» أن يستدير لينقذ معسكره؛ لكنه اصطدم  
بالمرابطين ولم يصل إلى محلته إلا بعد خسائر فادحة، وكان  
«يوسف» أثناء القتال يجول على سهوة جواده بين المحاربين  
يهيب بهم «أن تشجعوا أيها المسلمون، أعداء الله أمامكم  
والجنة تنتظركم، وطوبى لمن أحرز الشهادة». وكان سماع  
النصارى لدوى الطبول ووقوف المسلمين يقاتلون في صفوف  
متراصة ثابتة من العوامل المساعدة على انتصار المسلمين

وإلحاقهم الهزيمة بصفوف عدوهم، وقد دفع «ابن تاشفين» بحرسه الأسود البالغ عدده نحو أربعة آلاف إلى قلب المعركة في الوقت المناسب، وتمكن واحد منهم من الوصول إلى «ألفونسو» وطعنه في فخذه، الأمر الذي اضطره إلى الاعتصام بتل قريب حتى جن الليل ثم هرب في نحو خمسمائة فارس معظمهم من الجرحى ووصل إلى طليطلة منهم مائة فقط. أمضى المسلمون الليل يرقبون حركات النصارى وفي اليوم التالي طارد

(46/13)

---

الفرسان الفارين، وجمعت الأسلاب الهائلة. وقد استبشر المسلمون في شبه الجزيرة بهذا النصر العظيم غير أن وصول نبأ وفاة الأمير أبي بكر بن يوسف بن تاشفين كدر صفو النصر، وجعل «ابن تاشفين» يقرر العودة إلى بلاد المغرب ومعه عامة الجند، وترك تحت إمرة المعتمد جيشًا من المرابطين مؤلفًا من ثلاثة آلاف جندي. بعد أن نجح «يوسف» بما حققه من نصر مؤزر في إعادة روح الثقة والأمل إلى نفوس المسلمين بالأندلس. ومن نتائج تلك المعركة توقف المد النصراني على حدود الأندلس لمدة أربعة قرون؛ إذ حكم المرابطون ثم الموحدون الأندلس.

(47/13)

---

\*زيد بن علي بن الحسين (ثورة)

مضت فترة امتدت إلى أكثر من نصف قرن، منذ مصرع «المختار النقفى» سنة (67هـ)، دون أن يقوم الشيعة بأية ثورة ضد الدولة الأموية، بسبب الضربات المتلاحقة التي حاقت بهم، وافتقارهم إلى الزعامة القوية التي تقودهم، لأن «علي بن الحسين» - وهو

الوحيد الذى نجا من مذبحه «كربلاء» - كان عازفاً عن الاشتغال بالسياسة، محبا للعلم متفرغاً للعبادة، غير أن ابنه «زيد بن على» - وكان عالماً فاضلاً - حدّثته نفسه بالخلافة، ورأى أنه أهل لها، وعرف أهل «الكوفة» منه ذلك، فزيّنوا له الثورة على «بنى أمية»، وقالوا له: «إنا لنترجو أن تكون المنصور، وأن يكون هذا الزمان الذى يهلك فيه بنو أمية». تشكك «زيد بن على» فى صدق نيتهم، وقوة عزيمتهم، وقال لهم: «إني أخاف أن تخذلوني وتسلموني كفعلتكم بأبي وجدى»، لكنه استجاب لهم على الرغم من تحذير أهله وأولاد عمومته من غدر أهل «الكوفة». انخدع «زيد بن على» بأهل «الكوفة» وأعلن الثورة على «هشام ابن عبدالمك» سنة (121هـ)، فتكررت أحداث قصة جده «الحسين»، وأعاد التاريخ نفسه، فلم يتساهل الخليفة «هشام» مع ثورة تريد نقض ملكه والإطاحة بدولته، على الرغم من كراهيته لسفك الدماء، فأمر واليه على «الكوفة» «يوسف بن عمر الثقفى» فتصدى لزيد بن على الذى انفض عنه شيعته، وأسلموه إلى عدوه، كما أسلم أسلافهم جدّه «الحسين»، ولم يبق معه فى اللحظات الحرجة من بين خمسة عشر ألفاً بايعوه وعاهدوه على النصر، إلا نحو مائتى رجل، فاستطاع «يوسف بن عمر» أن يقضى فى سهولة ويسر على تلك الثورة، وقتل «زيد بن على» فى صفر سنة (122هـ).

(48/13)

\*السند (فتح)

عزم «الحجاج» على فتح إقليم «السند»، بعد أن استقرت أحوال الدولة الأموية، فأسند هذه المهمة إلى «محمد بن القاسم» وكان دون العشرين من عمره، وجّهزه بما يكفل له النجاح من عدة

وعتاد، وأمدّه بـ ستة آلاف جندي من أهل الشام، بالإضافة إلى ما كان معه من الجنود، فأصبح تحت قيادته نحو عشرين ألفاً في تقدير بعض المؤرخين. اتخذ «محمد بن القاسم» من مقاطعة «مهران» في جنوبي «فارس» قاعدة للفتح ونقطة انطلاق، فقسّم جيشه نصفين، أحدهما برى والآخر بحرى، ثم تحرك قاصداً مدينة «الديبل» - وهي تقع قريباً من «كراتشي» الحالية في «باكستان» - وفتح في طريقه إليها «فنزبول»، و «أرمائيل»، ثم وافته السفن التي كانت تحمل الرجال والعتاد، فحاصر «الديبل» واستولى عليها بعد قتال دام ثلاثة أيام، وترك فيها حامية من أربعة آلاف رجل، وبنى لهم مسجداً. وكان لفتح المسلمين مدينة «الديبل» أثر كبير في أهل «السند»، فسارعوا يطلبون الصلح فصالحهم «محمد بن القاسم» ورفق بهم، ثم سار إلى «البيرون» - «حيدر آباد السند» حالياً - فتلقاه أهلها وصاحوه كذلك، وكان لا يمر بمدينة إلا فتحها صلحاً أو عنوة، وتوج ذلك كله بالانتصار على «داهر» ملك «السند»، ومضى يستكمل فتحه، فاستولى على حصن «راوڏ»، ثم «برهماناباذ»، و «الروور» و «بهرور»، ثم اجتاز نهر «بياس» وعبر إلى إقليم «الملتان»، فاستولى عليه بعد قتال شديد، وغنم كميات كبيرة من الذهب. وبينما يواصل «محمد بن القاسم» فتوحاته؛ إذ جاءته الأخبار بوفاة «الحجاج» سنده وعونه في الفتح، فاغتم لذلك غما شديداً؛ لكنه واصل فتوحاته حتى أتم فتح بلاد «السند»، وجاءته قبائل «الميد» و «الجات» و «الزط» تفرع الأجراس فرحة هاتفة، مرحبة به، لأنهم عدّوه محرّهم من ظلم الهندوس واستعبادهم. وفي هذه الأثناء مات الخليفة «الوليد بن عبدالمك» سنة (96هـ)، وتولّى أخوه «سليمان بن عبدالمك» منصب

الخلافة، فعينَ على «العراق» «صالح بن عبدالرحمن»، وكان واحدًا من ألد خصوم «الحجاج»، فقرر الانتقام منه على الرغم من وفاته سنة (95هـ)، في شخص ابن عمه «محمد بن القاسم»، فعزله عن قيادة الجيش، ولم يكتفِ بذلك، بل أمر بالقبض عليه ووضعه في السجن، وظل يعذبه حتى مات.

(50/13)

---

### \*شذونة (معركة)

علم «لذريق» ملك القوط بمجيء القوات الإسلامية إلى الأندلس بقيادة طارق بن زياد، وهو مشغول بحاربة أعدائه في شمالي شبه الجزيرة، فأصيب بهلع ورعب عظيمين، وجمع جنوده وانحدر بهم لمواجهة المسلمين، ووصلت أنباء تلك الحشود الضخمة إلى «طارق بن زياد»، فكتب إلى «موسى بن نصير» يخبره بذلك، فأمدّه بخمسة آلاف جندي صار بهم مجموع جنود المسلمين بالأندلس (21) ألف جندي. وصل «لذريق» إلى بلدة «شذونة» وأتم بها استعداداته، ثم اتجه للقاء المسلمين ودارت بين الفريقين معركة فاصلة في كورة «شذونة» جنوب غربي إسبانيا، استمرت ثمانية أيام من (الأحد 82 من رمضان إلى الأحد 5 من شوال سنة 29هـ = 91 - 62 يوليو 117م)، وكانت معركة هائلة، اقتتل فيها الطرفان اقتتالا شديدًا حتى ظنوا أنه الفناء، وكان النصر في النهاية حليف المسلمين، وفر «لذريق» من أرض المعركة، وتبعه المسلمون حتى أدركوه وقتلوه بالقرب من بلدة «لورقة».

(51/13)

---

## \*الشام (فتح)

كان «خالد بن سعيد بن العاص»، أحد قادة حروب الردة، معسكرًا بقواته في «تيماء» شمالي «الحجاز» بأمر من الخليفة الذى ألزمه بألا يقاتل أحدًا إلا إذا قوتل، وقصد الخليفة بذلك أن يكون هذا الجيش احتياطيًا، يمد -عند الضرورة - القوات المحاربة في جهات أخرى، وأن يراقب تحركات الروم؛ لأنه كان على يقين أنهم سوف يستغلون فرصة انشغاله بحروب الردة، ويكرروا عدوانهم. وحدث ما توقعه «أبو بكر الصديق»، فقد هجم الروم على جيش «خالد»، ومعهم القبائل العربية القاطنة في الشام، وألحقوا به هزيمة قاسية، وقتلوا معظم جنوده، واستشهد ابنه في المعركة، فلما وصلت أخبار الهزيمة إلى الخليفة «أبي بكر» جمع كبار الصحابة لدراسة الموقف، فاستقر رأيهم على ضرورة صد العدوان، وشرع «أبو بكر» في حشد أربعة جيوش لتحقيق ذلك: - جيش بقيادة «أبي عبيدة بن الجراح» وجهه إلى «حمص» شمالي الشام. - وجيش بقيادة «يزيد بن أبي سفيان»، ووجهه إلى «دمشق» في وسط الشام. - وجيش بقيادة «شرحبيل بن حسنة»، ووجهه إلى «الأردن». - وجيش بقيادة «عمرو بن العاص»، ووجهه إلى «فلسطين». وقال «أبو بكر» لقادة جيوشه: إذا عملتم منفردين، فكل واحد منكم أمير على من معه من قوات - وكان مع كل واحد منهم نحو ثمانية آلاف جندي - ثم أمير على المنطقة التي يفتحها، أما إذا أجاتكم الظروف إلى الاجتماع في مكان واحد، فالقائد العام «أبو عبيدة بن الجراح» تحرك القادة الأربعة بجيوشهم، فلما دخلوا جنوبي الشام، وجدوا جيشًا روميًا، قوامه نحو (250) ألف جندي، بقيادة «تذراق» أخى «هرقل»، يساندهم نحو ستين ألفًا من العرب - تقريبًا - بقيادة «جيلة بن الأيهم الغساني»، فلم يستطيعوا الالتحام مع هذه الجموع الحاشدة، فدارت بينهم مراسلات تجمعوا بعدها في

وادی «اليرموك»، تحت قيادة «أبي عبيدة بن الجراح». لكن  
تجمعهم لم يؤد إلى تحريك للموقف ضد الروم، فأخبروا الخليفة

(52/13)

«أبا بكر» بما هم فيه، وطلبوا المدد منه، فرأى أنه لن ينقذ  
الموقف في الشام سوى «خالد بن الوليد»، وقال عبارته  
المشهورة: «والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن  
الوليد»، ثم كتب رسالة إليه: «أما بعد فإذا جاءك كتابي هذا،  
فدع العراق، وخلف فيه أهله الذين قدمت عليهم وهم فيه وامض  
متخفياً في أهل القوة من أصحابك الذين قدموا العراق معك من  
اليمامة، وصحبوك من الطريق، وقدموا عليك من الحجاز، حتى  
تأتى الشام، فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين،  
فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة والسلام عليك». امتثل «خالد»  
لأوامر الخليفة، وسار من «العراق» في سبعة آلاف جندي في  
واحدة من أجراً المسيرات العسكرية في التاريخ وأكثرها خطراً،  
حيث قطعوا أكثر من ألف كيلو متر في ثمانية عشر يوماً، في  
صحراء قاحلة مهلكة، حتى وصلوا إلى «وادي اليرموك» فتسلم  
«خالد بن الوليد» القيادة من «أبي عبيدة» وخاض معركة مع  
الروم تُعد من أعظم المعارك وأبعدها أثراً في حركة الفتح  
الإسلامي، وسحق جيش الروم الذي كان يعد يومئذ أقوى جيوش  
العالم. بعد تولى «عمر بن الخطاب» الخلافة عزل «خالد بن  
الوليد» من قيادة جيوش الشام، وأعاد «أبا عبيدة بن الجراح»  
إليها، وجعل «خالداً» تحت قيادته، وقد قبل القائد البطل هذا  
التعديل دون تذمر، لأنه كان جندياً يعمل للإسلام لا لمجده  
الشخصي، وإذا كان قد احتل المكان الأعلى بين قادة الفتوحات  
بيطولاته وانتصاراته، فإنه اعتلى ذروة أعلى بقبوله العزل،

وضرب أروع الأمثلة في الانضباط والطاعة، وتلك أهم صفات  
القادة العظام. وكانت تعليمات «عمر» لأبي عبيدة بعد  
«اليرموك»، أن تعود الأمور إلى ما كانت عليه من قبل في مطلع  
فتح الشام، حين رتب ذلك «أبو بكر الصديق»، فسير «أبو  
عبيدة» ومعه «خالد بن الوليد» إلى «حمص»، و «يزيد بن أبي  
سفيان» إلى «دمشق»، و «شرحبيل بن حسنة» إلى «الأردن»،

(53/13)

---

و «عمرو بن العاص» إلى «فلسطين»، وكل قائد يكون أميراً  
على منطقته التي يفتحها، على أن يكون ذلك بعد أن يشتركوا  
جميعاً في فتح «دمشق». وبعد أن نجح القادة جميعهم في فتح  
«دمشق» وأعطوا أهلها معاهدة صلح بقي «يزيد بن أبي  
سفيان» أميراً عليها، في حين اتجه القادة الباقون إلى  
مناطقهم، وفي خلال عامين فقط تم فتح الشام كله. وفي سنة  
(15 هـ) جاء «عمر ابن الخطاب» إلى «فلسطين»؛ ليتسلم مفاتيح  
«بيت المقدس» من البطريك «صفرونيوس»، وأعطى معاهدة  
لأهلها هي آية في التسامح والعدل، أمنهم على عقائدهم  
وأموالهم وأنفسهم، وأخذت منهم نظير ذلك الجزية لرفضهم  
الدخول في الإسلام. وقد رفض «عمر بن الخطاب» أن يصلى في  
«كنيسة القيامة»، معللاً ذلك بخوفه أن يأتي من المسلمين من  
يقول: لقد صلى «عمر» في الكنيسة فهي من حقنا، وهذا ظلم  
للمعاهدين لا يقره عمر.

(54/13)

---

## \*شمال أفريقيا (فتح)

لما ولي «عبدالله بن سعد بن أبي السرح» ولاية «مصر» من قبل «عثمان بن عفان»؛ كتب إليه أن الروم الذين لا يزالون يسيطرون على «شمال إفريقيا» يغيرون على حدود «مصر» الغربية، ولا بد من مواجهتهم قبل أن يتجرءوا ويهاجموا «مصر» نفسها، فافتتح «عثمان» بعد أن استشار كبار الصحابة، وأذن له بتجريد حملات عسكرية لردعهم وكف عدوانهم، كما أرسل إليه جيشاً من «المدينة» مدداً، يضم عدداً من الصحابة كابن عباس، و «عبد الله بن الزبير» رضى الله عنهما. وفي سنة (27هـ = 647م) انطلق جيش المسلمين بقيادة «عبدالله بن سعد»، وتوغل غرباً حتى وصل إلى «قرطاجنة» عاصمة إقليم «تونس» في ذلك الوقت، ودارت عدة معارك بين المسلمين وبين ملكها «جرجوار» أو «جرجير» كما تسميه المصادر العربية، انتهت بانتصار المسلمين وقتل الملك «جرجوار» على يد «عبدالله بن الزبير». ولم تكن تلك الحملة تهدف إلى الاستقرار، بل إلى ردع العدوان، ولذا اكتفى «عبدالله بن سعد» بعقد معاهدات صلح مع زعماء تلك البلاد تعهدوا فيها بدفع مبلغ كبير. وصل المسلمون في أواخر خلافة «عثمان» إلى «تونس» الحالية، لكنهم لم يواصلوا فتوحاتهم بسبب الفتن التي استمرت حتى نهاية خلافة «علي بن أبي طالب» (36 - 40هـ)، فلما استتب الأمر لمعاوية سنة (41هـ)، كانت جبهة «شمال إفريقيا» أولى الجبهات التي اهتم بها، لأنها كانت تخضع لنفوذ الدولة البيزنطية التي عزم على تضيق الخناق عليها، فأرسل سنة (41هـ) حملة إلى «شمال إفريقيا» بقيادة «معاوية بن حديج»، ثم أرسله على رأس حملة أخرى سنة (45هـ)، فاستطاع أن يفتح العديد من البلاد، مثل «جلولاء» و «سوسة». أسند «معاوية بن أبي سفيان» قيادة الجيش الفاتح إلى «عقبة بن نافع»، وهو واحد من كبار القادة الذين لمعت

أسماءهم في الفتوحات الإسلامية في العصر الأموي، ولم يكن  
«عقبة» جديدًا على الميدان، فقد شارك في فتح تلك البلاد منذ

(55/13)

أيام «عمرو»، واكتسب خبرة كبيرة، فواصل فتوحاته في هذه  
الجهة. ولما رأى «عقبة» اتساع الميدان، وبعد خطوط مواسلاته  
عن قواعده في «مصر»، شرع في بناء مدينة تكون قاعدة  
للجيش، ومركزًا لانطلاقاته وإمداداته، فبنى مدينة «القيروان»  
(50 - 55هـ) بإذن من «معاوية»، وكان لهذه المدينة شأن عظيم  
في الفتوحات وفي الحركة العلمية، وأثناء تأسيسها كان  
«عقبة» يرسل السرايا للفتح، ويدعو الناس إلى الإسلام، فدخل  
كثير من «البربر» - سكان البلاد - في الإسلام. ظل «عقبة بن  
نافع» يواصل فتوحاته ونشر الإسلام حتى عزله «معاوية» وولّى  
مكانه قائدًا آخر، لا يقل عنه شجاعة وإقدامًا، وحبًا للجهاد في  
سبيل الله، هو «أبو المهاجر دينار»، وكان يتمتع إلى جانب  
مهارته العسكرية بقدر من الكياسة وحسن التصرف والفتنة، فقد  
أدرك أن «البربر» سكان الشمال الإفريقي قوم أشداء، يعتدّون  
بكرامتهم ويحرصون على حريتهم كالعرب تمامًا، وأن سياسة  
اللين والتسامح قد تجدى معهم أكثر من سياسة الشدة. وقد  
نجحت سياسة «أبي المهاجر» في اجتذاب البربر إلى الإسلام،  
وبخاصة عندما أظهر تسامحًا كبيرًا مع زعيمهم «كسيلة بن  
لمزم»، وعامله في إجلال وإكرام، فأسلم الرجل متأثرًا بتلك  
المعاملة، وأسلم بإسلامه طائفة كبيرة من قومه. وفي مقابل  
تلك السياسة المتسامحة مع «البربر» كان «عقبة» حازمًا في  
تعامله مع الدولة البيزنطية التي حاولت أن تحتفظ بالشمال  
الإفريقي بعد أن فقدت «مصر» والشام، لكنها لم تنجح، فقد

حقق «أبو المهاجر» نصرًا عسكريًا عليها، مكّنه من السير إلى الغرب، فاتحًا معظم «المغرب الأوسط» - الجزائر الحالية - ووصل إلى «تلمسان». أعاد الخليفة «يزيد بن معاوية» «عقبة بن نافع» مرة أخرى إلى «شمال إفريقيا»، فواصل جهود «أبي المهاجر»، وقام بحملته التي اخترق بها الساحل كله في شجاعة وجرأة حتى بلغ شاطئ «البحر الأبيض المتوسط»، وأوطأ أقدام

(56/13)

فرسه في مياهه، وقال قولته المشهورة: «اللهم اشهد أني قد بلغت الجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد، أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحدًا دونك». وفي أثناء عودة «عقبة» من غزوته المظفرة تعرض لكمين نصبه له البيزنطيون بمساعدة «كسيلة» زعيم «البربر»، الذي كان «عقبة» قد أهانه، فبينما هو يسير في عدد قليل من جنوده يبلغ زهاء ثلاثمائة جندي انقضت القوات البيزنطية عليه وعلى من معه عند بلدة تمودة فاستشهدوا جميعًا سنة (63هـ). ومما أسهم في وقوع الكارثة أن «عقبة» قد وقع في خطأ عسكري كبير، إذ سرح معظم جيشه، وأمرهم بالسير أمامه، فابتعد عنه لمسافة طويلة، مما جعل الجيش البيزنطي ينفرد به ويهزمه هزيمة ثقيلة أضاعت كل الجهود التي بذها المسلمون في فتح تلك البلاد، واضطر المسلمون إلى الارتداد إلى الخلف، ولم يستطيعوا الاحتفاظ بالقيروان، وعادوا إلى «برقة». تسلم «زهير بن قيس البلوي» قيادة الجيش خلفًا لعقبة بن نافع سنة (63هـ)، وعزم على الثأر من البيزنطيين و «البربر»، لكنه لم يستطع أن يحقق هدفه إلا في سنة (69هـ)، نظرًا لانشغال الدولة الأموية بالأحداث والفتن الخطيرة التي حدثت في الداخل بعد وفاة «يزيد بن معاوية» سنة

(64هـ). تحرك «زهير» بجيش كبير وزحف على «القيروان» سنة  
(69هـ)، والتقى على مقربة منها بجيش «كسيلة»، فهزم «البربر»  
هزيمة ساحقة بعد معركة شديدة وفي أثناء عودته إلى «برقة»  
للدفاع عنها - بعد ما نعى إلى علمه أن البيزنطيين زحفوا عليها  
في جموع عظيمة - تعرض لهجوم بيزنطى مفاجئ، فلقى حتفه  
هو ومن معه. وصلت أخبار استشهاد «زهير» ومن معه إلى  
الخليفة «عبد الملك بن مروان» وهو مشغول بصراعه مع الخوارج  
والشيعة وآل الزبير، فلم يتمكن من القيام بعمل حاسم إلا بعد أن  
استقرت له الأوضاع، فأسند قيادة جبهة الشمال الإفريقي إلى  
«حسان بن النعمان» وأمدّه بجيش كبير من «مصر» والشام، بلغ

(57/13)

عدده نحو أربعين ألف جندي. واستطاع «حسان» بعد جهد جهيد  
القضاء على الوجود البيزنطى فى الشمال الإفريقي، وأن يحطم  
مدينة «قرطاجنة» أكبر مركز بيزنطى، وأن يبنى محلها مدينة  
«تونس» الحالية، كما قضى على كل مقاومة للبربر، بعد أن  
حقق نصرًا هائلًا على زعيمتهم الكاهنة التى آلت إليها الزعامة  
بعد مقتل «كسيلة»، ونعم المسلمون بأولى فترات الاستقرار فى  
«المغرب». ولم يكن «حسان بن النعمان» قائدًا عسكريًا عظيمًا  
فحسب، بل كان رجل دولة وتنظيم وإدارة أيضًا، فأنشأ  
الدواوين، ورَتَّبَ أمور الخراج والجزية، ووطَّد سلطان الحكم  
الجديد فى الثغور والنواحي، وجدد مدينة «القيروان»، وأنشأ  
بها المسجد الجامع، ووضع سياسات مستقبلية انتهت بأهل  
الشمال الإفريقي كله إلى اعتناق الإسلام. حلَّ «موسى بن  
نصير» سنة (85هـ) محل «حسان بن النعمان» فى ولاية شمالى  
إفريقيا وقيادة جيوش الفتح بها، فأكمل ما بدأه سابقيه من

القادة العظام، وقدّر له أن يجني ثمار غرسهم، ففي ولايته تم فتح «المغرب» كله، وأقبل أبناؤه على اعتناق الإسلام في حرية تامة، بعدما أدركوا وفهموا ما يحمله من عزة وكرامة وحرية وعدل ومساواة.

(58/13)

### \*صفين (معركة)

بعد معركة «الجمل» توجه «علي ابن أبي طالب» بجيش يبلغ عدده نحو مائة ألف إلى «صفين»، واستعد «معاوية» لمقابلته بجيش يقاربه في العدد، ودارت بينهما معركة شرسة في شهر صفر سنة (37هـ) قُتل فيها من الجانبين نحو سبعين ألفاً، خمسة وعشرين ألفاً من جيش «علي»، وخمسة وأربعين ألفاً من جيش «معاوية»، ولما رأى الناس كثرة القتلى من الجانبين تنادوا يطلبون وقف القتال، فجعل أهل «العراق» (جيش «علي») يصيحون في أهل الشام (جيش «معاوية») قائلين: من لثغور «العراق» إن فني أهل «العراق». ويرد الآخرون: من لثغور الشام إن فني أهل الشام. ومن هنا جاءت فكرة التحكيم. رفع جيش «معاوية» المصاحف للاحتكام إليها، ووقف القتال فوراً، بدلا من سفك الدماء، وكانت فكرة التحكيم من عند «عمرو بن العاص»، وقد قبلها الطرفان، وأوقفت الحرب، بعد أن فزع الناس لكثرة عدد القتلى. أوقفت الحرب، وطلب من «علي» و «معاوية» أن ينيب كل منهما شخصاً يتفاوض باسمه، للفصل في القضايا محل الخلاف، فأناب «معاوية» «عمرو بن العاص»، وأناب «علي» «أبا موسى الأشعري»

(59/13)

### \*الطائف (غزوة)

بعد هزيمة «هوازن» و «ثقيف» في وادي «حُنين». فرت فلولهم وتحصنت بالطائف فحاصره النبي - صلى الله عليه وسلم - نحوًا من ثلاثة أسابيع، وكانت حصونهم قوية، وأخذوا في قذف المسلمين بالنبال فأذوهم، فاضطر النبي أن يتراجع بقواته بعيدًا عن مرمى النبال، ثم استشار أصحابه ماذا يفعل معهم، فقالوا له: «يارسول الله هم كضب في جحر إن أقمت عليه أخذته وإن تركته فلن يضرك»، أي أنهم بعد فتح «مكة» وبعد هزيمتهم في وادي «حُنين» لن يستطيعوا الصمود في وجهك، وهم مستسلمون لا محالة إن أطلت الحصار، وإن رفعته عنهم فسيقدمون عليك من تلقاء أنفسهم، فاقتنع الرسول - صلى الله عليه وسلم - بهذا الرأي، ورفع عنهم الحصار، ورفض أن يدعو عليهم عندما طلب منه ذلك بعض الصحابة، بل قال: «اللهم اهدِ ثقيفًا وأتِ بهم». وبعد أقل من عام جاءت وفودهم إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - في «المدينة»، وأعلنوا إسلامهم، في رمضان سنة 9هـ، وعين الرسول - صلى الله عليه وسلم - «عثمان بن العاص الثقفي» واليًا عليهم.

(60/13)

### \*العراق (فتح)

في أثناء حروب الردة طارد «المثنى بن حارثة» - أحد قادة المسلمين - المرتدين إلى الشمال، على الساحل الغربي للخليج العربي، فلما وصل إلى حدود «العراق» تكاثرت عليه قوات الفرس، بعد أن رأوا فشل عملائهم من المرتدين في القضاء على الإسلام فألقوا بثقلهم في المعارك ضد المسلمين ولما رأى

«المثنى» أنه غير قادر بمن معه على مواجهة القوات الفارسية، أرسل إلى الخليفة يشرح له الموقف، ويطلب منه المدد، فأدرك الخليفة خطورة الموقف، ورأى أن يردع الفرس ويرد عدوانهم، فرماهم بخالد بن الوليد أعظم قواده، وأردفه بعباض بن غنم. وفي المحرم من العام الثاني عشر من الهجرة تحرك «خالد بن الوليد» من «اليمامة»، وكان لا يزال بها، بعد أن قضى على فتنة «مسيلمة الكذاب»، وتوجه إلى «العراق». حيث خاض سلسلة من المعارك ضد الفرس في خلال عدة شهور، في «ذات السلاسل» و «المذار»، و «الولجة»، و «أليس»، وهذه أسماء الأماكن التي دارت فيها الحروب، وكان النصر حليفه فيها، ثم توج انتصاراته بفتح «الحيرة» عاصمة «العراق» في ذلك الوقت، واستقر بها في شهر ربيع الأول من العام نفسه، ثم فتح «الأنبار» و «عين التمر» إلى الشمال من «الحيرة»، ثم جاءته أوامر من «أبي بكر» أن يعود إلى «الحيرة» ويستقر بها إلى أن تأتية أوامر أخرى وخلاصة القول أنه في خلال بضعة أشهر نجح «خالد» في فتح أكثر من نصف «العراق»، وصالح أهله على دفع الجزية، ولم يجبر أحداً على الدخول في الإسلام». وبعد أن رحل «خالد بن الوليد» من «العراق» إلى الشام؛ ليتولى قيادة الجيوش في «اليرموك»؛ تنمّر الفرس بالمثنى بن حارثة خليفة «خالد» على قيادة الجيش في «العراق» وبدءوا في الضغط عليه، فطلب مدداً من «أبي بكر»، الذي كان مشغولاً بحرب الروم. فلما تأخر رد «الصدّيق أبي بكر» على «المثنى» جاء بنفسه ليعرف سبب ذلك، فوجد الخليفة على فراش المرض، فلم يستطع أن يكلمه،

ولما علم بذلك الخليفة أدرك أن «المثنى» لم يأت إلا لضرورة، فكان آخر كلامه لعمر بن الخطاب أن أوصاه بتجهيز جيش، يرسله مع «المثنى» إلى «العراق»، لصد عدوان الفرس، فعمل «عمر» بوصية «أبي بكر»، وأرسل جيشًا على الفور إلى «العراق» بقيادة «أبي عبيد بن مسعود الثقفي». وفي شهر شعبان من سنة 13هـ خاض «أبو عبيد بن مسعود» معركة ضد الفرس سميت بموقعة الجسر، لأن المسلمين أقاموا جسرًا على «نهر الفرات» لعبور قواتهم البالغة تسعة آلاف جندي، وكان عبورهم النهر خطأ عسكريًا جسيمًا وقع فيه «أبو عبيد»، ولم يستمع إلى نصيحة قادة جيشه ومنهم «المثنى بن حارثة»، الذين نبهوه إلى خطورة ذلك، وأن موقف المسلمين غربى النهر أفضل وضع لهم، وليتركوا قوات الفرس تعبر إليهم، فإذا انتصروا كان عبور النهر إلى الشرق أمرًا سهلاً، وإذا انهزموا كانت الصحراء وراءهم يتراجعون فيها، ليعيدوا ترتيب أوضاعهم، لكن «أبا عبيد» لم يستجب لهم، فحلت الهزيمة بالمسلمين على يد القائد الفارسي «بهمن جاذويه»، وقتل «أبو عبيد» نفسه، واستشهد أربعة آلاف مسلم. بذل «المثنى بن حارثة» جهدًا كبيرًا في تأمين عبور من بقى من قوات المسلمين إلى الناحية الأخرى، وأدرك أنه لا بد من خوض معركة أخرى مع الفرس، حتى لا تؤثر الهزيمة في معنويات المسلمين، وبخاصة أنها كانت أول مرة يهزمون فيها في هذه الجبهة منذ أن بدأت الفتوحات. استدرج «المثنى بن حارثة» قوات الفرس للعبور إلى غرب النهر، فعبروا إليه مدفوعين بنشوة النصر السابق، وظنوا أن تحقيق نصر آخر سيكون أمرًا سهلاً، لكن «المثنى» فاجأهم بعد أن استثار حمية العرب القاطنين في المنطقة، وأوقع بالفرس هزيمة كبيرة، على حافة نهر يُسمى «البويب» الذى سميت المعركة باسمه. وعلى الرغم من هذا النصر الذى أعاد به

«المثنى» الثقة إلى قواته، فإنه أدرك بعد طول تجربة أنه لن يستطيع بمن معه من قوات أن يواجه الفرس الذين ألقوا بثقلهم

(62/13)

كله في الميدان، فتراجع إلى الخلف، ليكون بمأمن من هجمات الفرس، وأرسل «إلى» «عمر» يخبره بحقيقة الموقف. لما وصلت إلى «عمر بن الخطاب» تقارير «المثنى» عن الوضع في جبهة «العراق» عزم على الخروج بنفسه على رأس جيش كبير، لينسى الفرس وساوس الشيطان كما أنسى «خالد بن الوليد» الروم تلك الوسوس، لكن الصحابة لم يوافقوه على رأيه، ورأوا أن الأفضل أن يبقى هو في «المدينة» يدير أمور الدولة، ويشرف على تجهيز الجيوش، ويختار واحدًا لقيادة الحرب ضد الفرس، فقبل نصيحتهم، وقال لهم: أشيروا على، فأشاروا عليه بسعد بن أبي وقاص، وقالوا عنه: هو الأسد في عرينه، فاستدعى «سعدًا» وأمره على الجيش، فاتجه به «سعد» إلى «العراق» حيث عسكر في القادسية. وقبل نشوب المعركة أرسل «سعد» وفدًا إلى بلاط فارس، ليعرض الإسلام على «يزدجرد الثالث» آخر ملوكهم، فإذا قبله فسيتركونه ملكًا على بلاده، كما ترك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «باذان» ملكًا على «اليمن»، وإذا رفض الدخول في الإسلام، فلن يكرهه عليه أحد، ولكن لا بد من دفع الجزية دليلاً على عدم المقاومة، فإذا امتنع عن دفعها، حاربوه، لأن رفضه دفع الجزية يعنى عزمه على حرب المسلمين، ومنعهم بالقوة من تبليغ دعوة الإسلام إلى الناس. سمع «يزدجرد» هذا الكلام، فأخذه العجب، وعلته الدهشة؛ لأنه لم يتعود سماع مثل هذا الكلام من هؤلاء الناس، فخاطب رئيس الوفد قائلاً: «إني لا أعلم أمة كانت أشقى، ولا أقل عدداً، ولا

أسوأ ذات بين منكم، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي -الحدود- فيكفونناكم، لا تغزون فارس، ولا تطمعون أن تقوموا لهم .. وإن كان الجهد - الجوع - دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم، وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم، وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم». فقام زعيم الوفد ورد على الملك الذي كان لا يزال يتحدث بروح السيادة، ومنطق الاستعلاء، قائلاً: «إن ماقلته عنا صحيح قبل

(63/13)

بعث النبي - صلى الله عليه وسلم -، الذي قذف الله في قلوبنا التصديق له واتباعه، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين، فما قال لنا فهو قول الله، وما أمرنا فهو أمر الله .. وقال: من تابعكم على هذا فله مالكم وعليه ما عليكم، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية، ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم، ومن أبى فقاتلوه». رفض الملك هذا العرض في كبرياء وصلف، ثقة منه بقدره جيوشه بقيادة «رستم» على سحق هؤلاء العرب، وعاد الوفد إلى «سعد بن أبي وقاص» وقصوا عليه ما حدث، فاستعد هو للمعركة الحاسمة. وفي «القادسية» دارت رحى الحرب بين الفريقين، واستمرت ثلاثة أيام ونصف اليوم الرابع، وأسفرت عن نصر حاسم للمسلمين، وهزيمة منكرة للفرس، وقتل قائدهم «رستم»، وتشيتت من نجا منهم من القتل. وتعد معركة «القادسية» من المعارك الفاصلة في التاريخ؛ لأنها حسمت أمر «العراق» العربي نهائياً، وأخرجته من السيطرة الفارسية التي دامت قرناً، وأعادته إلى أهله العرب المسلمين. انفتح الطريق أمام المسلمين بعد انتصارهم في «القادسية» إلى «المدائن» عاصمة الفرس، فعبر «سعد» نهر «دجلة» من أضيق مكان فيه بنصيحة «سلمان الفارسي»، ودخل «المدائن»؛ ليجد الملك الفارسي قد فرّ منها،

وكان قبل أيام قليلة يهدد المسلمين ويتوعددهم من قصره الأبيض، مقر ملك الأكاسرة، الذى كان آية من آيات الفخامة والبهاء. وفي ذلك القصر صلى «سعد ابن أبي وقاص» صلاة الشكر لله على هذا الفتح العظيم وتلا في خشوع قول الله تعالى: {كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قومًا آخريين فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين}. [الدخان: 25 - 29].

أرسل «سعد» إلى «عمر بن الخطاب» رسولاً يبشره بالنصر وبما حازوه من غنائم، ويطلب منه السماح لهم بمواصلة الفتح في بلاد فارس، لكن «عمر» رفض ذلك، وقال له: «وددت لو أن بيننا

(64/13)

---

وبينهم سدًا من نار، لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم، حسبنا من الأرض السواد - أى أرض العراق - إني آثرت سلامة المسلمين على الأنفال». اعتقد «عمر بن الخطاب» أن الفرس سيجنحون إلى السلام بعد هزيمتهم في «القادسية»، واسترداد المسلمين «العراق» وهى أرض عربية، لكن الحوادث كثيرًا ما تكون أقوى من الرجال، وتدفعهم دفعًا إلى تعديل سياساتهم، فقد وردت الأنباء إلى «عمر» أن الفرس التفوا حول ملكهم الذى هرب من «المدائن»، واحتشدوا في جموع هائلة في «نھاوند» (7) تصل إلى نحو مائتى ألف جندي بقيادة «الغيزان». وكانت سياسة «عمر بن الخطاب» أن يقف بالفتوحات الإسلامية عند حدود «العراق» و «الشام»، ولا يتعداها، حيث قبائل العرب التى نزحت من شبه الجزيرة العربية وأقامت هناك، أما ما وراء ذلك من أرض الفرس والروم فلم يكن للمسلمين مطمع في غزوه وفتحه، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، فقد حملت حوادث

الفتوحات وتطوراتها «عمر بن الخطاب» على تعديل سياسته تجاه الفرس والروم. ولما وصلت أخبار استعداد الفرس جمع «عمر» كبار الصحابة واستشارهم في كيفية مواجهة هذا الموقف، فأشاروا عليه بتجهيز جيش لردع الفرس قبل أن ينقضوا على المسلمين في بلادهم، فعمل بمشورتهم، وجهاز جيشاً قوامه نحو أربعين ألف مجاهد تحت قيادة «النعمان بن مقرن». ودارت معركة «نھاوند»، وانتهت بنصر عظيم للمسلمين، وهزيمة ساحقة للفرس، وقد سمى المؤرخون المسلمون هذا النصر «فتح الفتوح»، لأن الفرس قد تفرقت كلمتهم، وانفرط عقد دولتهم بهذا النصر.

(65/13)

#### \*الفيل (حادثة)

بعد أن حكم «أبرهة» «اليمن» تملكته الغيرة من الكعبة المشرفة، وأراد أن يصرف العرب عن زيارتها، فبنى كنيسة ضخمة بالغة الروعة، تُسمى «القليس»، وساق أهل «اليمن» إلى التوجه إليها والتعبد فيها، لكنه لم يفلح في ذلك، وزاد من غضبه أن أحد الأعراب عبث بالكنيسة وقدرها، فأقسم «أبرهة» ليهدم الكعبة، ويطأن «مكة»، وجَهَّز لذلك جيشاً جراراً، تصاحبه الفيلة، وفي مقدمتها فيل عظيم، ذو شهرة خاصة عندهم. وحينما علمت العرب بنية «أبرهة» تصدّوا له، لكنهم لم يفلحوا في وقف زحفه، حتى إذا بلغ جيش «أبرهة» «المغمس» - وهو مكان بين «الطائف» و «مكة» - ساق إليه أموال «تھامة» من «قريش» وغيرها، وكان فيها مائتا بعير لعبد المطلب بن هاشم، فهتّت «قريش» وقبائل العرب بقتال «أبرهة»، ولكنهم وجدوا أنفسهم لا طاقة لهم بحربه، فتفرقوا عنه دون قتال. أرسل «أبرهة» إلى «عبدالمطلب» يُبلغه أنه لم يأتِ لحربهم، وإنما جاء

لهدم البيت، فإن تركوه وما أراد فلا حاجة له في دمائهم، فذهب  
«عبدالمطلب» إليه، فلما دخل نزل «أبرهة» من سريره، وجلس  
على البساط، وأجلس «عبدالمطلب» إلى جانبه، وأكرمه وأجلّه،  
فطلب «عبدالمطلب» منه أن يرد عليه إبله التي أخذوها، فقال  
«أبرهة»: أعجبتني حين رأيتك، وزهدتُ فيك حين كلمتني،  
تترك بيتًا هو دينك ودين آبائك، جئتُ لأهدمه، وتكلمني في  
مائي بعير أصبتها لك؟ فقال: «عبدالمطلب»: إني رب الإبل  
(أى صاحبها) وإن للبيت ربًا سيحّميه. قال «أبرهة»: ما كان  
ليمتنع مني، فرد عليه «عبدالمطلب»: أنت وذاك، ثم رد «أبرهة»  
الإبل لعبدالمطلب. أمر «عبدالمطلب» قريشًا بالخروج من «مكة»،  
والاحتماء في شعاب الجبال، وتوجه هو إلى باب «الكعبة»،  
وتعلّق به مع نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه، وانطلق  
جيش «أبرهة» نحو «مكة»، وحينما اقترب منها برك الفيل الأكبر  
الذي يتقدم الجيش رافضًا الدخول، وتعبوا في إجباره على

(66/13)

---

اقتحام «مكة»، وكانوا عندما يوجهونه إلى جهة غير «مكة»  
ينهض ويهرول. ثم شاء الله أن يهلك «أبرهة» وجيشه، فأرسل  
عليهم جماعات من الطير، أخذت ترميهم بحجارة، فقضت عليهم  
جميعًا، وتساقطوا كأوراق الشجر الجافة الممّرقّة، كما حكى  
ذلك القرآن الكريم: [لم تتركيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم  
يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيرًا أبابيل ترميهم  
بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول]. (سورة الفيل)

(67/13)

---

## \*القادسية (معركة)

لما وصلت إلى «عمر بن الخطاب» تقارير «المثنى» عن الوضع في جبهة «العراق» عزم على الخروج بنفسه على رأس جيش كبير، لينسى الفرس وساوس الشيطان كما أنسى «خالد بن الوليد» الروم تلك الوسوس، لكن الصحابة لم يوافقوه على رأيه، ورأوا أن الأفضل أن يبقى هو في «المدينة» يدير أمور الدولة، ويشرف على تجهيز الجيوش، ويختار واحدًا لقيادة الحرب ضد الفرس، فقبل نصيحتهم، وقال لهم: أشيروا على، فأشاروا عليه بسعد بن أبي وقاص، وقالوا عنه: هو الأسد في عربنه، فاستدعى «سعدًا» وأمره على الجيش، فاتجه به «سعد» إلى «العراق» حيث عسكر في القادسية. وقبل نشوب المعركة أرسل «سعد» وفدًا إلى بلاط فارس، ليعرض الإسلام على «يزدجرد الثالث» آخر ملوكهم، فإذا قبله فسيتكونه ملكًا على بلاده، كما ترك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «باذان» ملكًا على «اليمن»، وإذا رفض الدخول في الإسلام، فلن يكرهه عليه أحد، ولكن لا بد من دفع الجزية دليلاً على عدم المقاومة، فإذا امتنع عن دفعها، حاربوه، لأن رفضه دفع الجزية يعنى عزمه على حرب المسلمين، ومنعهم بالقوة من تبليغ دعوة الإسلام إلى الناس. سمع «يزدجرد» هذا الكلام، فأخذه العجب، وعلته الدهشة؛ لأنه لم يتعود سماع مثل هذا الكلام من هؤلاء الناس، فخاطب رئيس الوفد قائلاً: «إني لا أعلم أمة كانت أشقى، ولا أقل عددًا، ولا أسوأ ذات بين منكم، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي -الحدود- فيكفونناكم، لا تغزون فارس، ولا تطمعون أن تقوموا لهم .. وإن كان الجهد - الجوع - دعاكم فرضنا لكم قوتًا إلى خصبكم، وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم، وملكنا عليكم ملكًا يرفق بكم». فقام زعيم الوفد ورد على الملك الذى كان لا يزال يتحدث بروح السيادة، ومنطق الاستعلاء، قائلاً: «إن ماقلته عنا

صحيح قبل بعث النبي - صلى الله عليه وسلم -، الذي قذف الله  
في قلوبنا التصديق له واتباعه، فصار فيما بيننا وبين رب

(68/13)

---

العالمين، فما قال لنا فهو قول الله، وما أمرنا فهو أمر الله ..  
وقال: من تابعكم على هذا فله مالكم وعليه ما عليكم، ومن أبي  
فاعرضوا عليه الجزية، ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم، ومن  
أبي فقاتلوه». رفض الملك هذا العرض في كبرياء وصلف، ثقة  
منه بقدرة جيوشه بقيادة «رستم» على سحق هؤلاء العرب،  
وعاد الوفد إلى «سعد بن أبي وقاص» وقصوا عليه ما حدث،  
فاستعد هو للمعركة الحاسمة. وفي «القادسية» دارت رحى  
الحرب بين الفريقين، واستمرت ثلاثة أيام ونصف اليوم الرابع،  
وأسفرت عن نصر حاسم للمسلمين، وهزيمة منكرة للفرس، وقتل  
قائدهم «رستم»، وتشتيت من نجا منهم من القتل. وتعد معركة  
«القادسية» من المعارك الفاصلة في التاريخ؛ لأنها حسمت أمر  
«العراق» العربي نهائياً، وأخرجته من السيطرة الفارسية التي  
دامت قروناً، وأعادته إلى أهله العرب المسلمين.

(69/13)

---

\*قبرص (فتح)

كان أول عمل بحري ناجح قام به الأسطول الإسلامي، هو فتح  
«جزيرة قبرص» التي كانت تهدد شواطئ المسلمين باستمرار  
لقربها منها من ناحية، وباعتبارها محطة مهمة من محطات  
الأساطيل البيزنطية من ناحية أخرى. وقد غزاها «معاوية» سنة  
(28هـ)، أى بعد أربع سنوات فقط من بناء الأسطول الإسلامي،

وهي مدة ليست بالطويلة لإنشاء أسطول بحري، ولكنها عزيمة الرجال وإصرارهم على إنجاز العمل. وكانت الغزوة مشتركة أسهمت فيها قوات الشام، وقوات «مصر» بقيادة «عبدالله بن سعد»، ونزلوا «قبرص» واستولوا عليها، فعرض أهلها الصلح، فقبل «معاوية»، واشترط لعقده عدة شروط: - أن يدفع أهل «قبرص» جزية سنوية، مقدارها سبعة آلاف دينار. - وأن يُعلموا المسلمين بأية تحركات عدائية من جانب الروم ضد سواحلهم. - وأن يقف أهل «قبرص» على الحياد، إذا نشبت حرب بين المسلمين والروم، ولكن لا يمنعون المسلمين من المرور بجزيرتهم إذا احتاجوا إلى ذلك. ولم يلتزم أهل «قبرص» بما تعاهدوا عليه في الصلح، مما جعل «معاوية» يعاود غزو الجزيرة مرة أخرى سنة (33هـ) ويضمها إلى دولة الخلافة، وينقل إليها اثني عشر ألفاً من المسلمين من أهل الشام، وأسكنهم فيها، وبنى لهم الدور والمساجد.

(70/13)

### \*مصر (فتح)

بعد فتح «بيت المقدس» اتجه «عمر» إلى الشمال، وعقد في «الجابية» جنوبي «دمشق» مؤتمراً حضره جميع القادة المسلمين، ناقش فيه ماتم إنجازهِ والترتيبات اللازمة لإدارة البلاد المفتوحة إدارة حسنة، والعمل على إشاعة العدل والحرية بين الناس بعد الظلم والاستبداد والاستعباد الذي ذاقوه من الروم. وفي هذا المؤتمر عرض «عمرو بن العاص» والى «فلسطين» على «عمر بن الخطاب» ضرورة فتح «مصر»، لأن فلول قوات الروم في «الشام» لجأت إلى «مصر» التي كانت في ذلك الوقت تحت حكم الروم، كما لجأ «الأطربون» قائد قواتهم في فلسطين

إلى «مصر»؛ ليستعد من جديد للانقضاض على المسلمين في الشام، ولذا فإن بقاء «مصر» في أيدي الروم سيكون خطرًا على فتوحات المسلمين في الشام، بل قد يصل الخطر إلى شبه الجزيرة العربية نفسها. ولما اقتنع «عمر بن الخطاب» بما أبداه «عمرو بن العاص» أذن له بالسير إلى «مصر» لفتحها، فخرج في أربعة آلاف جندي، ودخل «العرش» دون قتال، ثم توجه إلى «الفرما» (مدينة قديمة شرقى «بور سعيد») ففتحها بعد معارك يسيرة مع حاميتها الرومية، ثم توجه إلى «بليس» في محافظة «الشرقية» الحالية، فهزم جيشًا روميا كان يقوده «الأطربون»، ثم هزم الروم مرة أخرى في «عين شمس». ولما تجمعت قوات الروم كلها في «حصن بابليون» بالقرب من «مصر القديمة» الحالية؛ طلب «عمرو» مددًا من الخليفة «عمر»، فأمدته بثمانية آلاف جندي، مكنته من فتح الحصن والاستيلاء عليه، ثم اتجه إلى «الإسكندرية» ففتحها، وأرسل فرقة من قواته لفتح «الفيوم». وفي نحو «عامين» (19 - 21هـ) فتحت «مصر» بأكملها، وكان فتحًا سهلاً ويسيرًا، لأن القبط لم يشتركوا في معارك ضد المسلمين، بل ساعدوهم وقدموا لهم يد العون، فدلوهم على أيسر الطرق، وأمدوهم بالطعام، تخلصًا من حكم الروم الذين اضطهدوهم دينياً، مع أنهم مسيحيون مثلهم، وأرهقوهم بالضرائب، واستغلوهم أبشع استغلال. ولما تعامل

(71/13)

---

أهل «مصر» مع الفاتحين المسلمين أدركوا أن ما سمعوه كان حقيقة، فقد منحوهم الحرية الدينية الكاملة، وأعادوا بطيركهم «بنيامين» إلى كنيسته بالإسكندرية، وكان الروم قد نفوه إلى «وادي النطرون»، وقد حفظ الرجل هذا العمل الجليل لعمرو بن

العاص، فعاونه كثيراً في إدارة «مصر» إدارة حسنة. وقد أتاح الفتح الإسلامي لمصر جوا من الحرية والتسامح لم تشهد البلاد منذ زمن بعيد، بنص المعاهدة التي أعطاها «عمرو بن العاص» لأهل «مصر»: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص، ولا يساكنهم النوب - أهل النوبة - وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية .. ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب، فله مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، على ما في هذا الكتاب عهد الله، وذمة رسوله، وذمة الخليفة أمير المؤمنين، وذمة المؤمنين». وقد عمل المسلمون بوصية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - التي أوصاهم فيها بأهل «مصر» خيراً عندما يفتحونها؛ لأن لهم ذمة ورحماً، كما نصحهم أن يتخذوا منها جنداً كثيفاً، فأجنادها من خير أجناد الأرض، لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة.

(72/13)

### \*مكة (فتح)

التزمت «قريش» بمعاهدة «الحديبية» لمدة عام وبعض العام، فقد ذهب الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه لأداء عمرة القضاء في العام السابع من الهجرة. لكنها ما لبثت أن نقضت المعاهدة عندما أعانت قبيلة «بنى بكر» حليفاتها على قبيلة «خزاعة» حليفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فطلبت «خزاعة» من الرسول نصرتها طبقاً للمعاهدة التي بينها وبينه، فوعدهم بالنصر، وبدأ في الاستعداد لغزو «مكة». شعر «أبو سفيان» زعيم «مكة» بالخطأ الفاحش الذي وقعوا فيه، فسافر إلى

«المدينة» لمقابلة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولتجديد المعاهدة، فلم يقبل الرسول اعتذاره. وفي بداية الأسبوع الثاني من شهر رمضان من العام الثامن للهجرة توجه الرسول - صلى الله عليه وسلم - على رأس جيش قوامه عشرة آلاف مجاهد لفتح «مكة»، وكان «أبوسفيان» يتوقع - منذ أن عاد من «المدينة» دون أن يحقق هدفه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سيغزو «مكة»، ولكن لا يعرف متى يقع ذلك، فكان قلقًا ودائمًا يتحسس الأخبار. وفي ليلة من الليالي رأى أبو سفيان نيران جيش النبي التي أوقدها المجاهدون فاستبد به الخوف والهلع، فسمع صوته «العباس بن عبد المطلب»، وكان قد خرج من «مكة» من قبل، والتقى بالنبي - صلى الله عليه وسلم - وأعلن إسلامه، فلما التقى بأبي سفيان أخبره بالجيش القادم لفتح «مكة»، ولا قبل لهم به، وأخذه إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - فأعلن إسلامه، وأعطاه النبي ميزة كبيرة، بناء على اقتراح من «العباس بن عبد المطلب»، ضمن الإعلان الذي أمره أن يبلغه لأهل «مكة»: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابَه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن». حرص النبي - صلى الله عليه وسلم - على دخول «مكة» بدون قتال، فهي بلد الله الحرام، وأحبُّ بلاد الله إليه، وفيها أهله وذووه، فكانت أوامره صريحة لجيشه، ألا يقاتلوا إلا إذا قوتلوا، وبالفعل دخل الجيش

(73/13)

---

«مكة» في العشرين من شهر رمضان دون قتال، إلا مناوشات بسيطة حدثت في الجهة التي دخلت منها الفرقة التي كان يقودها «خالد بن الوليد» عند جبل «خدمة» فقضى عليها «خالد»، وكان قد أسلم هو و «عمرو بن العاص» بعد عمرة

القضاء سنة (7هـ). دخل النبي - صلى الله عليه وسلم - «مكة»  
فاتحاً منتصراً، وهي التي طرده قبل ثمان سنوات وتآمرت  
على حياته، فماذا هو فاعل بمؤلاء الذين عادوه وآذوه أذى  
شديداً هو وأصحابه؟ وهل فكر في الانتقام منهم؟ لم يحدث  
ذلك منه، بل جمعهم بعد أن دخل «الكعبة» وطاف بها، وكسر  
أصنامها بيده وهو يتلو: {وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل  
كان زهوقاً}. وقال لهم: «ما تظنون أنى فاعل بكم؟» قالوا:  
خيبراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».  
وبهذا ضرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أروع الأمثلة في  
العفو والتسامح عند المقدرة، فلم تحمله نشوة النصر وزهو  
القدرة على الانتقام ممن أساء إليه، بل نسي كل ما فعلوه معه  
ومع أصحابه من ألوان العذاب.

(74/13)

#### \*نهاوند (معركة)

وردت الأنباء إلى «عمر» أن الفرس انتفوا حول ملكهم الذي هرب  
من «المدائن»، واحتشدوا في جموع هائلة في «نهاوند» (7) تصل  
إلى نحو مائتي ألف جندي بقيادة «الفيروزان». ولما وصلت أخبار  
استعداد الفرس جمع «عمر» كبار الصحابة واستشارهم في  
كيفية مواجهة هذا الموقف، فأشاروا عليه بتجهيز جيش لردع  
الفرس قبل أن ينقضوا على المسلمين في بلادهم، فعمل  
بمشورتهم، وجهاز جيشاً قوامه نحو أربعين ألف مجاهد تحت  
قيادة «النعمان بن مقرن». ودارت معركة «نهاوند»، وانتهت  
بنصر عظيم للمسلمين، وهزيمة ساحقة للفرس، وقد سمي  
المؤرخون المسلمون هذا النصر «فتح الفتوح»، لأن الفرس قد  
تفرقت كلمتهم، وانفرط عقد دولتهم بهذا النصر.

**\*اليرموك (معركة)**

تحرك القادة الأربعة - «أبوعبيدة بن الجراح» و «يزيد بن أبي سفيان» و «شرحبيل بن حسنة» و «عمرو بن العاص» - بجيوشهم بعد تكليفهم بفتح الشام، فلما دخلوا جنوبي الشام، وجدوا جيشاً رومياً، قوامه نحو (250) ألف جندي، بقيادة «تذراق» أخى «هرقل»، يساندتهم نحو ستين ألفاً من العرب - تقريباً - بقيادة «جبله بن الأيهم الغساني»، فلم يستطيعوا الالتحام مع هذه الجموع الحاشدة، فدارت بينهم مراسلات تجمعوا بعدها في وادي «اليرموك»، تحت قيادة «أبي عبيدة بن الجراح». لكن تجمعهم لم يؤد إلى تحريك للموقف ضد الروم، فأخبروا الخليفة «أبا بكر» بما هم فيه، وطلبوا المدد منه، فرأى أنه لن ينقذ الموقف في الشام سوى «خالد بن الوليد»، وقال عبارته المشهورة: «والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد»، ثم كتب رسالة إليه: «أما بعد فإذا جاءك كتابي هذا، فذرع العراق، وخلف فيه أهله الذين قدمت عليهم وهم فيه وامض متخففاً في أهل القوة من أصحابك الذين قدموا العراق معك من اليمامة، وصحبوك من الطريق، وقدموا عليك من الحجاز، حتى تأتي الشام، فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين، فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة والسلام عليك». امتثل «خالد» لأوامر الخليفة، وسار من «العراق» في سبعة آلاف جندي في واحدة من أجراً المسيرات العسكرية في التاريخ وأكثرها خطراً، حيث قطعوا أكثر من ألف كيلو متر في ثمانية عشر يوماً، في صحراء قاحلة مهلكة، حتى وصلوا إلى «وادي اليرموك» فتسلم «خالد بن الوليد» القيادة من «أبي عبيدة» وخاض معركة مع الروم تُعد من أعظم المعارك وأبعدها أثراً في حركة الفتح

الإسلامي، وسحق جيش الروم الذي كان يعد يومئذٍ أقوى جيوش العالم، إذ قتل منه نحو مائة وعشرين ألفاً، وقد أدرك «هرقل» إمبراطور الروم حجم الكارثة التي حلت بجيشه، فغادر المنطقة نحائياً، وقلبه يقطر دماً، ويتحسر على جهوده التي بذلها في

(76/13)

---

استرداد الشام من الفرس، ثم ها هي ذى يفتحها المسلمون، وقال: «السلام عليك يا سوريا، سلاماً لا لقاء بعده، ونعم البلد أنت للعدو وليس للصديق، ولا يدخلك رومي بعد الآن إلا خائفاً». وقد استشهد من المسلمين نحو ثلاثة آلاف، وقد فتح هذا النصر العظيم الطريق لفتح بقية الشام، الذي تم في عهد «عمر بن الخطاب».

(77/13)

---

#### \*اليمامة (معركة)

اليمامة مصطلح جغرافي قديم، يشمل المناطق الشرقية من شبه الجزيرة العربية التي تقع فيها الآن مدينة «الرياض» عاصمة المملكة العربية السعودية». ووقعت معركة «اليمامة» نفسها في مكان قريب من هذه المدينة. عندما مات النبي - صلى الله عليه وسلم - واستخلف أبا بكر الصديق، رضى الله عنه، ارتدت بعض القبائل وامتنعت عن دفع الصدقات، وادعى مسيلمة الكذاب النبوة، فأرسل «أبو بكر» «عكرمة بن أبي جهل» و «شرحبيل بن حسنة» للوقوف في وجه «مسيلمة الكذاب»، ولم يأمرهما بقتال؛ لكنهما تعجلا مخالفين أوامر الخليفة، واشتبكا مع «مسيلمة» في حرب لم يصمدا فيها، وعادا منهزمين، ولعلهما أرادا أن يتشبهوا بخالد بن

الوليد حتى يحوزا أكاليل النصر، كما حازها هو. وما إن وصلت  
أبناء هزيمتهما إلى «أبي بكر» حتى غضب غضباً شديداً، وطلب  
منهما ألا يعودا إلى «المدينة»، وقرر في الوقت نفسه أن يرسل  
«خالد بن الوليد» إلى «اليمامة» للقضاء على فتنة «مسيلمة»،  
فهو أصلح الناس لهذه المهمة. وكان «خالد» قد فرغ من القضاء  
على فتنة المرتدين من «بني أسد» و«غطفان» و«قيم»،  
فجاءته أوامر من «أبي بكر» بالتوجه إلى «اليمامة» للقضاء  
على فتنة «مسيلمة الكذاب». امتثل «خالد بن الوليد» لأوامر  
الخليفة، وسار في صحراء وعرة نحو ألف كيلو متر، حتى التقى  
بجيوش «مسيلمة» - وكانت نحو أربعين ألفاً - في مكان يسمى  
«عقرباء» في حين كانت قوات «خالد» تبلغ نحو ثلاثة عشر  
ألفاً، فيهم عدد كبير من المهاجرين والأنصار، ودارت الحرب بين  
الفريقين، وكانت حرباً شرسة، اشتدت وطأتها على المسلمين  
في البداية، وكادوا ينهزمون، لولا أن زار «خالد» كالأسد  
المنصور، ونادى بأعلى صوته «والمحمداه»، وكان شعار  
المسلمين في المعركة، فاشتعلت جذوة الإيمان في القلوب،  
وهانت الحياة على النفوس، وأقبل المسلمون على القتال دون  
خوف أو وجل، طمئناً في النصر أو الشهادة، وصبروا لأعداء الله

(78/13)

---

حتى هزموهم هزيمة منكرة بنصر أنزله الله تعالى على عباده  
المسلمين؛ حيث لجأ الكفار إلى حديقة احتشدوا فيها، فأحاط  
المسلمون بها ودخلوها وقتلوا من فيها قتلاً شديداً حتى قتل  
مسيلمة على يد وحشى مولى جبير بن مطعم، واشترك مع  
وحشى في قتل مسيلمة رجل من الأنصار، كما قتل من رجال  
مسيلمة نحو عشرين ألفاً من رجاله، واستسلم من بقى من قواته

أسرى للمسلمين، واستشهد من المسلمين أكثر من ألف ومائتي رجل، منهم عدد كبير من القراء وحفظة القرآن الكريم.

(79/13)

### \*يزيد بن المهلب (ثورة)

ينتمي «يزيد بن المهلب» إلى أسرة كانت من أهم الأسر التي قامت بدور كبير في التاريخ الإسلامي بعامة، وفي تاريخ الدولة الأموية بخاصة، فأبوه «المهلب» أبلى بلاءً حسنًا في محاربة الخوارج وكسر شوكتهم. عمل «آل المهلب» تحت رئاسة «الحجاج» ثم غضب عليهم، فعزلهم عن العمل سنة (85هـ) ووضع أكبرهم وهو «يزيد بن المهلب» في السجن، مع أنهم كانوا أصهاره، فقد كان متزوجًا من «هند بنت المهلب» أخت «يزيد»، واستطاع إقناع الخليفة «عبدالمملك بن مروان» بضرورة الاستغناء عنهم، فوافق الخليفة. ظل «آل المهلب» في الظل، بعيدين عن السلطة إلى أن جاءت خلافة «سليمان بن عبدالمملك» فأعادهم إلى ما كانوا عليه، وعيّن «يزيد» واليًا على «العراق» والمشرق، وظل في منصبه حتى عزله «عمر بن عبدالعزيز» عن الولاية لأنه كان يراه جبارًا قاسيًا، ثم أمر بسجنه حتى يؤدي ما عليه، وكان قد أخذ أموالًا كثيرة من بيت المال، وظل سجينًا حتى بعد أن تولى «يزيد بن عبدالمملك» الخلافة بعد «عمر»، لكنه نجح في الهرب من السجن ليقود ثورة هائلة ضد الدولة الأموية. قوى «يزيد بن المهلب» بتأييد أهل «العراق» له، كعادتهم خلف كل ثائر على الأمويين، وبعضية قبيلته الكبيرة - «الأزد» - ذات النفوذ في «العراق»، فوثب على «عدى بن أرطاة الفزارى» وإلى «البصرة» من قبل «يزيد بن عبدالمملك»، وسيطر على الموقف في «البصرة»، وخلع طاعة «يزيد بن عبدالمملك»، وانضم

إليه كل معادٍ للدولة الأموية حتى استفحل أمره، واتسع نفوذه وتجاوز «البصرة» إلى «الجزيرة الفراتية» و «البحرين» و «عمان» و «فارس» و «الأهواز». وإزاء هذه الأحداث وجدت الدولة الأموية نفسها من جديد أمام ثورة عارمة تريد القضاء عليها، فأرسل الخليفة «يزيد بن عبد الملك» أخاه «مسلمة» بجيش كبير من أهل الشام، تمكن به من إلحاق الهزيمة الساحقة بابن المهلب في معركة «عفر» قرب «الكوفة» في شهر صفر سنة (102هـ) بعد

(80/13)

---

أن خذله العراقيون كعادتهم وقتل هو في المعركة ومعظم رجالات بيته، ومن نجا من القتل هرب إلى إقليم «السند».

(81/13)

---

\*المغرب (فتح)

لما ولى «عبدالله بن سعد بن أبي السرح» ولاية «مصر» من قبل «عثمان بن عفان»؛ كتب إليه أن الروم الذين لا يزالون يسيطرون على «شمال إفريقيا» يغيرون على حدود «مصر» الغربية، ولا بد من مواجهتهم قبل أن يتجرءوا ويهاجموا «مصر» نفسها، فاقتنع «عثمان» بعد أن استشار كبار الصحابة، وأذن له بتجريد حملات عسكرية لردعهم وكف عدوانهم، كما أرسل إليه جيشاً من «المدينة» مدداً، يضم عدداً من الصحابة كابن عباس، و «عبد الله بن الزبير» رضى الله عنهما. وفي سنة (27هـ = 647م) انطلق جيش المسلمين بقيادة «عبدالله بن سعد»، وتوغل غرباً حتى وصل إلى «قرطاجنة» عاصمة إقليم «تونس» في ذلك الوقت، ودارت عدة معارك بين المسلمين وبين ملكها «جرجوار»

أو «جرجير» كما تسميه المصادر العربية، انتهت بانتصار المسلمين وقتل الملك «جرجوار» على يد «عبدالله بن الزبير». ولم تكن تلك الحملة تهدف إلى الاستقرار، بل إلى ردع العدوان، ولذا اكتفى «عبدالله بن سعد» بعقد معاهدات صلح مع زعماء تلك البلاد تعهدوا فيها بدفع مبلغ كبير. وصل المسلمون في أواخر خلافة «عثمان» إلى «تونس» الحالية، لكنهم لم يواصلوا فتوحاتهم بسبب الفتن التي استمرت حتى نهاية خلافة «علي بن أبي طالب» (36 - 40هـ)، فلما استتب الأمر لمعاوية سنة (41هـ)، كانت جبهة «شمال إفريقيا» أولى الجبهات التي اهتم بها، لأنها كانت تخضع لنفوذ الدولة البيزنطية التي عزم على تضيق الخناق عليها، فأرسل سنة (41هـ) حملة إلى «شمال إفريقيا» بقيادة «معاوية بن حديج»، ثم أرسله على رأس حملة أخرى سنة (45هـ)، فاستطاع أن يفتح العديد من البلاد، مثل «جلولاء» و «سوسة». أسند «معاوية بن أبي سفيان» قيادة الجيش الفاتح إلى «عقبة بن نافع»، وهو واحد من كبار القادة الذين لمعت أسماءهم في الفتوحات الإسلامية في العصر الأموي، ولم يكن «عقبة» جديدًا على الميدان، فقد شارك في فتح تلك البلاد منذ

(82/13)

---

أيام «عمرو»، واكتسب خبرة كبيرة، فواصل فتوحاته في هذه الجبهة. ولما رأى «عقبة» اتساع الميدان، وبعد خطوط مواسلاته عن قواعده في «مصر»، شرع في بناء مدينة تكون قاعدة للجيش، ومركزًا لانطلاقاته وإمداداته، فبنى مدينة «القيروان» (50 - 55هـ) بإذن من «معاوية»، وكان لهذه المدينة شأن عظيم في الفتوحات وفي الحركة العلمية، وأثناء تأسيسها كان «عقبة» يرسل السرايا للفتح، ويدعو الناس إلى الإسلام، فدخل

كثير من «البربر» -سكان البلاد- في الإسلام. ظل «عقبة بن نافع» يواصل فتوحاته ونشر الإسلام حتى عزله «معاوية» وولى مكانه قائداً آخر، لا يقل عنه شجاعة وإقداماً، وحبا للجهاد في سبيل الله، هو «أبو المهاجر دينار»، وكان يتمتع إلى جانب مهارته العسكرية بقدر من الكياسة وحسن التصرف والفتنة، فقد أدرك أن «البربر» سكان الشمال الإفريقي قوم أشداء، يعتدُّون بكرامتهم ويحرصون على حريتهم كالعرب تماماً، وأن سياسة اللين والتسامح قد تجدى معهم أكثر من سياسة الشدة. وقد نجحت سياسة «أبي المهاجر» في اجتذاب البربر إلى الإسلام، وبخاصة عندما أظهر تسامحاً كبيراً مع زعيمهم «كسيلة بن لمزم»، وعامله في إجلال وإكرام، فأسلم الرجل متأثراً بتلك المعاملة، وأسلم بإسلامه طائفة كبيرة من قومه. وفي مقابل تلك السياسة المتسامحة مع «البربر» كان «عقبة» حازماً في تعامله مع الدولة البيزنطية التي حاولت أن تحتفظ بالشمال الإفريقي بعد أن فقدت «مصر» والشام، لكنها لم تنجح، فقد حقق «أبو المهاجر» نصراً عسكرياً عليها، مكَّنه من السير إلى الغرب، فاتحاً معظم «المغرب الأوسط» - الجزائر الحالية - ووصل إلى «تلمسان». أعاد الخليفة «يزيد بن معاوية» «عقبة بن نافع» مرة أخرى إلى «شمال إفريقيا»، فواصل جهود «أبي المهاجر»، وقام بحملته التي اخترق بها الساحل كله في شجاعة وجرأة حتى بلغ شاطئ «البحر الأطلسي»، وأوطأ أقدام

(83/13)

---

فرسه في مياهه، وقال قولته المشهورة: «اللهم اشهد أني قد بلغت الجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد، أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحداً دونك». وفي أثناء عودة «عقبة» من

غزوته المظفرة تعرض لكمين نصبه له البيزنطيون بمساعدة «كسيلة» زعيم «البربر»، الذى كان «عقبة» قد أهانه، فبينما هو يسير فى عدد قليل من جنوده يبلغ زهاء ثلاثمائة جندى انقضت القوات البيزنطية عليه وعلى من معه عند بلدة تهودة فاستشهدوا جميعاً سنة (63هـ). ومما أسهم فى وقوع الكارثة أن «عقبة» قد وقع فى خطأ عسكري كبير، إذ سرح معظم جيشه، وأمرهم بالسير أمامه، فابتعد عنه لمسافة طويلة، مما جعل الجيش البيزنطى ينفرد به ويهزمه هزيمة ثقيلة أضاعت كل الجهود التى بذها المسلمون فى فتح تلك البلاد، واضطر المسلمون إلى الارتداد إلى الخلف، ولم يستطيعوا الاحتفاظ بالقيروان، وعادوا إلى «برقة». تسلّم «زهير بن قيس البلوى» قيادة الجيش خلفاً لعقبة بن نافع سنة (63هـ)، وعزم على الثأر من البيزنطيين و «البربر»، لكنه لم يستطع أن يحقق هدفه إلا فى سنة (69هـ)، نظراً لانشغال الدولة الأموية بالأحداث والفتن الخطيرة التى حدثت فى الداخل بعد وفاة «يزيد بن معاوية» سنة (64هـ). تحرك «زهير» بجيش كبير وزحف على «القيروان» سنة (69هـ)، والتقى على مقربة منها بجيش «كسيلة»، فهزم «البربر» هزيمة ساحقة بعد معركة شديدة وفى أثناء عودته إلى «برقة» للدفاع عنها - بعد ما نعى إلى علمه أن البيزنطيين زحفوا عليها فى جموع عظيمة - تعرض لهجوم بيزنطى مفاجئ، فلقى حتفه هو ومن معه. وصلت أخبار استشهاد «زهير» ومن معه إلى الخليفة «عبدالمملك بن مروان» وهو مشغول بصراعه مع الخوارج والشيعية وآل الزبير، فلم يتمكن من القيام بعمل حاسم إلا بعد أن استقرت له الأوضاع، فأسند قيادة جبهة الشمال الإفريقى إلى «حسان بن النعمان» وأمدّه بجيش كبير من «مصر» والشام، بلغ

عدده نحو أربعين ألف جندي. واستطاع «حسان» بعد جهد جهيد القضاء على الوجود البيزنطي في الشمال الإفريقي، وأن يحطم مدينة «قرطاجنة» أكبر مركز بيزنطي، وأن يبنى محلها مدينة «تونس» الحالية، كما قضى على كل مقاومة للبربر، بعد أن حقق نصرًا هائلًا على زعيمتهم الكاهنة التي آلت إليها الزعامة بعد مقتل «كسيلة»، ونعم المسلمون بأولى فترات الاستقرار في «المغرب». ولم يكن «حسان بن النعمان» قائدًا عسكريًا عظيمًا فحسب، بل كان رجل دولة وتنظيم وإدارة أيضًا، فأنشأ الدواوين، ورتب أمور الخراج والجزية، ووطد سلطان الحكم الجديد في الثغور والنواحي، وجدد مدينة «القيروان»، وأنشأ بها المسجد الجامع، ووضع سياسات مستقبلية انتهت بأهل الشمال الإفريقي كله إلى اعتناق الإسلام. حلّ «موسى بن نصير» سنة (85هـ) محل «حسان بن النعمان» في ولاية شمالي إفريقيا وقيادة جيوش الفتح بها، فأكمل ما بدأه سابقوه من القادة العظام، وقدّر له أن يجني ثمار غرسهم، ففي ولايته تم فتح «المغرب» كله، وأقبل أبناؤه على اعتناق الإسلام في حرية تامة، بعدما أدركوا وفهموا ما يحمله من عزة وكرامة وحرية وعدل ومساواة.

(85/13)

#### \*سنباذ (حركة)

قاد «سنباذ» - وهو أحد أتباع «أبي مسلم» - حركة ثورية للثأر لمقتل «أبي مسلم الخراساني»، ومحاربة الإسلام، وأحس الخليفة «المنصور» بخطر هذه الحركة فأرسل جيشًا كبيرًا استطاع القضاء على قوات «سنباذ» وقتله وهو في طريقه لاجئًا إلى حاكم «طبرستان».

**\*سومنات (معركة)**

في سنة (416هـ = 1025م)، قام السلطان «محمود بن سبكتكين الغزنوي» بآخر غزواته في بلاد «الهند»، وهي غزوة «سُومَنَات» وكان بقلعة «سومنات» الحصينة معبد يضم نفائس الذهب والفضة والجواهر، مما لا يوجد له نظير في أى مكان آخر في شبه القارة الهندية، بالإضافة إلى صنم البراهمة الأعظم الذى يحج إليه الهنود من كل مكان، فافتحم السلطان «محمود» هذه القلعة، في (ذى القعدة سنة 416هـ = ديسمبر سنة 1025م) بعد أن استبسل الهنود في الدفاع عنها، واستولى على كل ما فيها من نفائس قُدِّرت قيمتها بأكثر من عشرين مليون دينار، وحطم السلطان «محمود» بنفسه صنم البراهمة الأعظم بسومنات وأرسل منه قطعاً إلى «غزنة»، و «مكة» و «بغداد» إعلاناً بهذا الفتح العظيم، وكان السلطان «محمود» يتصل -عادة- بالخليفة «القادر بالله» في «بغداد» بعد كل فتح عظيم في البلاد الهندية؛ ليخبره بما فتح الله للمسلمين في هذه البلاد، مجدداً ولاءه له.

**\*شبه الجزيرة الأيبيرية (فتح)**

كان الذى دعا المسلمين إلى فتح تلك البلاد هو «يوليان» حاكم ولاية «سبتة» المغربية الواقعة على ساحل البحر، والخاضعة لحكم «القوط» آنذاك، ولم يكن المسلمون قد فتحوها، فاتصل حاكمها بطارق بن زياد حاكم «طنجة»، وعرض عليه الفكرة، فنقلها إلى «موسى بن نصير» الذى اتصل بالخليفة «الوليد بن

عبدالمملك»، فأذن له الخليفة، على أن يتأكد من صدق نيات «يولييان»، وأن يرتاد البلاد بحملة استطلاعية، ليعرف أخبارها قبل أن يدخلها فاتحًا. كلف «موسى بن نصير» أحد رجاله وهو «طريف بن مالك» على رأس خمسمائة جندي، بدخول «الأندلس» وجمع ما يمكن جمعه من أخبار، كما طلب من «يولييان» أن يوافيه بتقرير عن أوضاع البلاد، فاتفقت معلومات «طريف» التي جمعها مع تقرير «يولييان»، وكلها تفيد أن البلاد في حالة فوضى، وتعاني من الضعف العسكري، وأن الناس ينتظرون المسلمين ليرفعوا عنهم الظلم، وعاد جيش «طريف» سنة (91هـ) محملاً بالغنائم. اختار «موسى بن نصير» للقيام بمهمة فتح «الأندلس» طارق بن زياد» وهو من أصل بربري لما يتمتع به من شجاعة ومهارة في القيادة، فخرج في سبعة آلاف جندي، معظمهم من «البربر»، وعبر المضيق الذي يفصل بين الساحل المغربي والساحل الأندلسي، والذي لا يزال يحمل اسمه، ونزل على الجبل - الذي حمل اسمه أيضًا - في شهر رجب سنة (92هـ)، واستولى عليه بعد عدة معارك مع القوات القوطية التي كانت تقوم بحراسته، وتوغّل في جنوبي البلاد. وما إن علم الملك «رودريق» بنزول المسلمين في بلاده - وكان في شمالي غربي البلاد مشغولاً بقمع ثورة اندلعت ضده - حتى عاد مسرعًا للقاء المسلمين على رأس جيش قوامه نحو مائة ألف جندي، ولما علم «طارق» بعودة الملك طلب مددًا من «موسى بن نصير»، فأمدّه بخمسة آلاف، وأصبح عدد جيشه اثني عشر ألفًا، والتقى الفريقان في أواخر شهر رمضان سنة (92هـ)، وحقق المسلمون

نصرًا حاسمًا، ويؤكد المؤرخون أن هذه المعركة المعروفة باسم معركة «شدونة» قد قررت مصير «الأندلس» لصالح المسلمين، لأن الجيش القوطي دُحر تمامًا، وهبطت روحه المعنوية إلى الحضيض، ولم يعد قادرًا على المقاومة، فانفتح الطريق أمام البطل الفاتح «طارق بن زياد»، ليستولى على مدن مهمة، مثل: «قرطبة»، و «غرناطة»، ووصل إلى «طليطلة» في وسط البلاد، وكانت عاصمة البلاد في ذلك الوقت. أرسل «طارق» إلى «موسى بن نصير» يبشره بهذه الانتصارات، ويطلب منه مددًا جديدًا، فعبر إليه بنفسه على رأس قوة كبيرة قوامها ثمانية عشر ألفًا، ونجح في فتح عدد من المدن في غربي البلاد مثل «إشبيلية» وهو في طريقه إلى لقاء «طارق» في «طليطلة». اتفق القائدان العظيمان على استكمال فتح «الأندلس»، فاتجه كل منهما إلى ناحية فأخذ «طارق بن زياد» طريقه إلى الشمال الشرقي، في حين اتجه «موسى» إلى الشمال الغربي، ونجح الاثنان في غضون عامين (93 - 95هـ) في فتح معظم «شبه الجزيرة الأيبيرية».

(89/13)

### \*عمورية (معركة)

تعدُّ معركة «عمورية» سنة (223هـ = 838م)، أبرز المعارك بين المسلمين والبيزنطيين في عهد «المعتصم بالله»، وكان سببها اعتداء الإمبراطور البيزنطي «تيوفيل بن ميخائيل» على بعض الثغور والحصون على حدود «الدولة الإسلامية»، وحين بلغ «المعتصم» ما وقع للمسلمين في هذه المدن، وصيحة امرأة مسلمة وقعت في أسر الروم: وامعتصماه، فأجابها وهو جالس على سريره: لبيك لبيك، وجهز جيشًا ضخماً أرسله على وجه

السرعة لإنقاذ المسلمين، ثم خرج بنفسه على رأس جيش كبير  
وفتح مدينة «عمورية»، وهي من أعظم المدن البيزنطية،  
واستولى على ما بها من مغام وأموال كثيرة جدا.

(90/13)

### \*محمد النفس الزكية (ثورة)

هو «محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب»، المعروف بالنفس الزكية، زعيم البيت العلوي والشيعة، ومنذ مقتل الإمام «علي» - كرم الله وجهه - والشيعة يحاولون الوصول إلى مقعد الحكم عن طريق الثورات والخروج على السلطة، باعتبارهم أصحاب الحق الشرعي. وقيام «الدولة العباسية» وتولي العباسيين الخلافة انتقل صراع العلويين على الخلافة من محاربة الأمويين إلى محاربة أبناء عمومتهم العباسيين. وعلى الرغم من أن أسرة «محمد النفس الزكية» لم تتخذ موقفاً عدائياً واضحاً في بدء الخلافة العباسية فإن الأمر تغير حين تولى «أبو جعفر المنصور» الخلافة وبدأ يتعقب «محمد النفس الزكية» وأخاه «إبراهيم» اللذين اختفيا وأخذا يعملان سرا في الدعوة لنفسيهما والخروج على «الدولة العباسية». ولما فشل «أبو جعفر المنصور» في القبض على «محمد النفس الزكية» أمر بالقبض على عدد كبير من أفراد أسرته، وحملهم إلى سجون «العراق» وعذبهم لإرغام «محمد النفس الزكية» على الظهور، وقد نجح «أبو جعفر» في ذلك؛ فظهر «محمد النفس الزكية» في «المدينة المنورة» في (رجب سنة 145هـ = سبتمبر سنة 762م) وقتله العباسيون هناك، كما قتلوا أخاه «إبراهيم» بالعراق، وكثيراً من أهلها.

(91/13)

### \*المختار بن أبي عبيد الثقفي (ثورة)

وهو من الشخصيات التي كانت تسعى إلى السلطة بأى ثمن، تقلّب من العدا لآل البيت، إلى الاتصال بعبدالله بن الزبير حين أعلن نفسه خليفة سنة (64هـ)، فلما لم يجد تجاوباً به، انطلق إلى «الكوفة» التي كانت تموج بالفوضى بعد هزيمة التوابين فادّعى أنه جاء مندوباً من عند «محمد بن علي بن أبي طالب»، المشهور بابن الحنفية للمطالبة بدم الحسين والأخذ بثأره. ولم يكن «المختار» صادقاً في دعواه، وإنما هداه تفكيره الانتهازي إلى استخدام مأساة «الحسين» ذريعة للوصول إلى مطالبه، وكان الشيعة في تلك الفترة يفتقرون إلى الزعامة بعد مقتل «سليمان بن صرد الخزاعي»، فلما وجدوا «المختار» - وكان بارعاً في الحيل وخداع الناس - التفوا حوله وأسلموا له القيادة. ازداد نفوذ «المختار» بعد أن حالفه التوفيق فانتصر على جيش أموى، وقتل قائده «عبيدالله بن زياد» في معركة عند نهر «الخازر» بالقرب من «الموصل» سنة (67هـ)، ولما كان «ابن زياد» يعد المسئول الأول عن قتل «الحسين» في «كربلاء»، فقد دعم مقتله «المختار»، وزاد من ثقة الشيعة به ووقوفهم خلفه، فاستفحل أمره، وعظم شأنه، واتسع نفوذه، وقامت له دولة في «الكوفة»، اتسعت رقعتها لتشمل معظم «العراق». لم ينعم «المختار» بدولته طويلاً، فقد أزعج صعود أمره «آل الزبير» في «مكة»، و «عبدالمملك بن مروان» في «دمشق»، فأرسل «عبدالله بن الزبير» أخاه «مصعباً» بجيش ضخم، قضى به علي «المختار» في سنة (67هـ). وانتهت بذلك حركة واحد من كبار المغامرين المتطلعين إلى السلطة في العصر الأموى، ولم تنفعه مزاعمه وادعاءاته حب آل البيت والثأر لقتلاهم، فقد

انكشفت حيله، وتخلّى عنه الشيعة وأسلموه إلى مصيره  
الختوم.

(92/13)

### \*ملاذكرد (معركة)

عزم الإمبراطور البيزنطي «رومانوس الرابع» على طرد  
«السلاجقة» من «أرمينيا» وضمها إلى النفوذ البيزنطي، فأعد  
جيشاً كبيراً سنة (463هـ = 1071م) يتكون من مائتي ألف مقاتل،  
وتولّى قيادته بنفسه، وزحف به إلى «أرمينيا»، وعندما علم  
السلطان «ألب أرسلان» بذلك وهو بأذربيجان لم يستطع أن  
يجمع من المقاتلين إلا خمسة عشر ألف فارس، فتقدم بهم إلى  
لقاء الإمبراطور البيزنطي وجحافلهم، والتقت مقدمة جيش السلطان  
بمقدمة جيش «رومانوس» في «أرمينيا» فهزمتها. وقد أراد  
السلطان «ألب أرسلان» استغلال هذا النصر المبدئي فأرسل إلى  
الإمبراطور «رومانوس» يعرض عليه الصلح، إدراكاً منه لخرج  
موقفه بسبب قلة جنده، فرفض «رومانوس» الصلح وهدد  
السلطان بالهزيمة والاستيلاء على ملكه، وقد ألهب هذا التهديد  
حماس السلطان وجيشه وعزموا على إحراز النصر أو الشهادة،  
ووقف فقيه السلطان وإمامه «أبو نصر محمد بن عبدالمملك  
البخارى» يقول للسلطان: «إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره  
وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله - تعالى - قد  
كتب باسمك هذا الفتح، فآلَقَهُمْ يوم الجمعة بعد الزوال، في  
الساعة التي تكون الخطباء على المنابر، فإنهم يدعون  
للمجاهدين بالنصر، والدعاء مقرون بالإجابة». فلما جاءت هذه  
الساعة صلى بهم، وبكى السلطان فبكى الناس لبكائه ودعا  
ودعوا معه، ولبس البياض وتحنّط وقال: إن قُتِلْتُ فهذا كفى!

والتقى جيش السلطان وجيش الإمبراطور في مدينة «ملاذكرد»  
بأرمينيا، وحمل المسلمون على الروم حملة رجل واحد، وأنزل  
الله نصره عليهم فانهمز الروم وامتألت الأرض بجثثهم، وتمكن  
المسلمون من أسر إمبراطور الروم «رومانوس»، فأحسن  
السلطان «ألب أرسلان» معاملته، وأعفاه من القتل مقابل فدية  
مقدارها مليون ونصف مليون دينار، وعقد معه صلحاً مدته  
خمسون عاماً، وأطلق سراحه وأرسل معه جنداً أوصلوه إلى

(93/13)

---

بلاده ومعهم راية مكتوب عليها «لا إله إلا الله محمد رسول الله».  
وقد أنهت معركة «ملاذكرد» النفوذ البيزنطي في «أرمينيا»  
بصورة مطلقة، وفتحت المجال لامتداد النفوذ الإسلامي  
السلاجوقي إلى «آسيا الصغرى»، وتهديده العاصمة البيزنطية  
وما وراءها في «أوروبا». وقد حدثت هذه المعركة المظفرة -  
معركة «ملاذكرد» - في شهر (ذى القعدة سنة 463هـ = أغسطس  
1071م).

(94/13)

---

### \*عين جالوت (معركة)

بعد سقوط «بغداد» زحف التتار بقيادة «هولاكو» تجاه «سوريا»  
واحتلوا «حلب»، وقتلوا خمسين ألفاً من سكانها، ثم احتلوا  
«حماة» و «دمشق» وعقدوا معاهدة مع «أنطاكية» (على حدود  
الروم) للتحالف ضد المسلمين، ولم يكتفِ «هولاكو» بذلك، بل  
أرسل إلى ملك «مصر» يطلب منه التسليم، ويهدده بالقضاء على  
جيوش المسلمين كلها إن لم يُسرِع بذلك، فقد رأى «هولاكو» أثر

تهدياته بهذه الصورة على مقر الخلافة في «بغداد»، وظن أن يجد الصدى نفسه لدى حكام «مصر»، ويدخل «مصر» بسهولة ودون مقاومة مثلما دخل «بغداد»، إلا أن «سيف الدين قطز» أجبره على أن يفيق من أحلامه بصاعقة لم تكن متوقعة، فقد مزق رسالته وقتل رسله وعلق رؤوسهم على مداخل «القاهرة»، وتوعده بالموت والهلاك إن لم يرحل عن هذه البلاد التي قتل من مسلميها ما لا يحصى عدده، وجعل الدماء أنهارًا في «بغداد» والشام. خرج «المظفر قطز» في أواخر شهر شعبان سنة (658هـ) لملاقاة التتار الذين وصلت طلائعهم إلى غزة بقيادة «كتبغا»، ودارت رحى المعركة بين الطرفين في «عين جالوت» بفلسطين في رمضان من سنة (658هـ)، وأظهر فرسان المماليك، والجنود المصريون شجاعة بالغة بقيادة السلطان «المظفر قطز» وبحواره «بيبرس» أعظم فرسان المماليك البحرية. وتجدر الإشارة إلى الارتباك الشديد الذي حدث بين صفوف المسلمين في بداية المعركة، فلما رأى «قطز» ذلك عمل على رفع معنويات جنده وشد عزيمتهم، وألقى خوذته عن رأسه إلى الأرض، وصاح بأعلى صوته: وإسلاماه .. وإسلاماه؛ فاستجاب له الجنود، ودوت الصيحة في ميدان المعركة، ورفع المسلمون أصواتهم بالتكبير .. الله أكبر .. الله أكبر، وعمدوا إلى قتال عدوهم، وجاهدوا بإخلاص وثقة في سبيل الله للحفاظ على الدين والأرض والمال والولد، فكتب الله لهم النصر المؤزر على جحافل التتار، وقضوا عليهم قضاء مبرماً.

(95/13)

\*مرج الصقر (معركة)

معركة جرت وقائعها بين «الناصر محمد بن قلاوون» والمغول

بقيادة زعيمهم «غازان» في «مرج الصقر» على مقربة من «حمص» في سنة (702هـ)، فقد حاول المغول الثأر لهزيمتهم في «عين جالوت»، فواجههم «الناصر محمد» بما تميز به من شدة وبأس وقوة عزيمة، وهزمهم هزيمة ساحقة مات على إثرها «غازان» زعيم المغول حزناً، وقوبل «الناصر محمد» بأعظم مظاهر الترحيب حين عودته من الشام إلى «مصر»، وأقيمت له أقواس النصر، وخرج الشعب كله لاستقباله وتهنئته والترحيب به.

(96/13)

### \*العقاب (معركة)

بعد موقعة الأرك عقدت هدنة بين المسلمين والنصارى سنة (594هـ = 1198م)، ولكن ملك النصارى ما كان ليستريح بعد هزيمته القاسية فتلك المعركة، ولذلك أخذ في الاستعداد لمعركة جديدة مع المسلمين قبل انتهاء أمد الهدنة وأعد جيشاً ضخماً واحتشد بكل ما يستطيع بمعاونة كاملة من ملوك النصارى في غرب أوروبا ومن البابوية ومن نصارى إسبانيا وشجعه موت أبي يوسف يعقوب خليفة الموحدين، وتولية خلفه أبي عبد الله محمد الناصر الذي كان أقل كفاءة من أبيه وقد عبر الخليفة الجديد إلى الأندلس في ذى الحجة (607هـ = 1211م) على رأس جيش ضخم ونزل إشبيلية ومن هناك صعد شمالاً الوادى الكبير وعسكر في سهل تكثر فيه التلال الصغيرة ويقع غربى الحصن المسمى بالعقاب (جمع عقبة)، وأقبل النصارى كذلك، وعسكروا فوق هضبة الملك المشرفة على معسكر المسلمين، وقبل اللقاء استولى النصارى على قلعة «رباح» من قائدها الأندلسى، وعندما وصل هذا القائد إلى معسكر الناصر قتله دون تحقيق، الأمر الذى أغضب الأندلسيين وأثر في معنوياتهم. بدأ اللقاء في

(15 من صفر 609هـ = 16 من يوليو 1212م)، وانخذل الأندلسيون والخارجون على المسلمين من العرب بعد قليل، وتركوا الجناح الشرقي للمسلمين مكشوفاً فانقض عليهم النصارى وحصدوا الألوف من متطوعة المسلمين المجاهدين من الأندلس كما حصدوا زهرة مقاتلي الأندلس، وعددًا كبيراً من خيرة العلماء والفقهاء والقضاة، وكان الخطب عظيمًا حتى قيل إن الإنسان كان يتجول في المغرب بعد المعركة فلا يصادف شابًا قادرًا على القتال.

(97/13)

---

#### \*قلونية (معركة)

حين وصل إلى مسامع عبدالمملك المظفر بالله حاجب الخليفة الأندلسى هشام المؤيد بالله أن أمير قشتالة يفكر في الاعتداء على أراضى المسلمين، خرج لغزوته الخامسة المسماة «غزوة قلونية» في (صيف 397هـ = 1007م)، واخترق أراضى قشتالة ليحارب ملكها الذى تحالف معه ملك ليون وملك نبرة، وعدد من زعماء النصارى الذين وحدوا صفوفهم، ومع ذلك فقد تمكن عبدالمملك من إلحاق هزيمة بهم جميعًا عند مدينة «قلونية»، وحملهم على طلب الصلح ثم عاد إلى قرطبة أواخر العام المذكور، فسر الناس بما حقق، واتخذ هو لقب «المظفر بالله» إشادة بما أحرز من نصر عظيم.

(98/13)

---

#### \*العله (معركة)

في شوال 397هـ خرج عبدالمملك المظفر بالله حاجب الخليفة هشام المؤيد بالله بغزوته السابعة والأخيرة وتعرف «بغزوة

العلّة»؛ إذ إنه ما كاد يصل إلى مدينة سالم حتى اشتد به المرض وتفرق عنه المتطوعة، واضطر إلى الرجوع إلى قرطبة في (المحرم 399هـ = سبتمبر 1008م) لكنه شعر بتحسّن في صحته فعمل على استئناف الغزو بعد فترة وجيزة لكن حالته ساءت، وتعرض لنكسة سببها التهاب رئوي، وعاد إلى العاصمة في محفة حيث مات في (16 من صفر سنة 399هـ = 21 من أكتوبر 1008م) بعد حكم دام نحو سبع سنوات.

(99/13)

---

#### \*مرج دابق (معركة)

معركة دارت بين المماليك بقيادة السلطان الغوري والعثمانيين بقيادة سليم الأول حيث التقى الجمعان على مشارف «حلب» في «مرج دابق» سنة (923هـ = 1517م)، وحقق العثمانيون النصر، وقتل السلطان «الغوري»، ودخل «سليم الأول» «حلب» ثم «دمشق» ودُعي له في المساجد، وفتحت كثير من المدن الشامية أبوابها للعثمانيين دون مقاومة تذكر.

(100/13)

---

#### \*المورة (معركة)

وقعت بين الأتراك والمصريين من ناحية واليونانيين من ناحية أخرى، بعد إعلان اليونانيين الثورة على العثمانيين، وإعلان استقلالهم، وفشل القوات العثمانية في القضاء على هذه الثورة سنة (1236هـ = 1821م). واستعان السلطان العثماني بمحمد علي وجيشه الحديث للقضاء على هذه الثورة، فأعد محمد علي جيشاً كبيراً بقيادة ابنه إبراهيم باشا، وتكوّن من (17) ألف جندي من

المشاة و (700) فارس و (51) سفينة حربية و (146) سفينة نقل.  
والتقى الأسطول المصرى مع الأسطول التركى فى ميناء  
بوردروم، وسارا إلى المورة، ودارت معارك شديدة هناك،  
وأدرك إبراهيم باشا أنه لا سبيل إلى الانتصار على اليونانيين  
إلا فى البر؛ لذلك خاض معارك شرسة ضد اليونانيين فى البر،  
واستطاع أن يحقق انتصارات عظيمة عليهم، وأوشك على  
القضاء على هذه الثورة، إلا أن تأمر الدول الأوربية وتدخل  
«روسيا» و «بريطانيا» فى الحرب وتحطيمهم للأسطول المصرى  
فى معركة «نوارين» سنة 1827م جعل «محمد على» يقبل الهدنة  
ويسحب جيشه من «المورة».

(101/13)

#### \*موهاج (معركة)

بعد خمس سنوات من استيلاء العثمانيين على «بلجراد»  
سنة (927هـ = 1521 م)، أخذ ملك «المجر» «لايوش» يجمع القوى  
الأوربية لمحاربة العثمانيين، وكتب إلى كل من «شرلكان»  
الإمبراطور الألماني، و «فرديناند» الأرشيدوق النمساوى يطلب  
منهما التحالف معه ضد العثمانيين. وفى الوقت نفسه كان  
السلطان «سليمان القانونى» يستعد لمحاربة «المجر»، فتحرك  
بجيشه فى سنة (932هـ = 1526م) فى أكثر من (60) ألف جندى  
حتى وصل إلى «صحراء موهاج» المجرية، وهناك دارت معركة  
ضخمة من معارك الإسلام فى يوم (21 من ذى القعدة 932هـ = 29  
من أغسطس 1526م)، هزم فيها العثمانيون الجيش المجرى،  
وكان من أرقى الجيوش الأوربية، ومعروف بفرسانه  
المدرعين، ولعبت المدفعية العثمانية دورها فى هذا النصر  
السريع الذى أحرزه الجيش العثمانى فى ساعتين، على الرغم

من قطعه مسافات طويلة، حتى وصل إلى أرض المعركة. وقد تكبّد الجيش المجرى خسائر هائلة فلم تقم له قائمة، فقد أسر العثمانيون حوالي (25) ألف جندي، وتعرض نحو (75) ألفاً للقتل أو للغرق في مستنقعات «موهاج»، وكان الملك المجرى «لايوش» ممن مات غرقاً في هذه المستنقعات. وقد رفعت الرايات العثمانية فوق العاصمة المجرية «بشت»، ولم تكن قد عرفت باسمها الآن «بودابست»، وأعلن منها السلطان «سليمان القانوني» خضوع «مملكة المجر» للحماية العثمانية.

(102/13)

#### \* مؤتة

هي إحدى الغزوات التي شهدتها النبي - صلى الله عليه وسلم - بنفسه، ووقعت أحداثها في (جمادى الآخرة 8هـ = أغسطس 629م) بمؤتة، إحدى قرى البلقاء بالشام، وموضعها بالأردن حالياً، وسببها: أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد أرسل الحارث بن عمير الأزدي بكتاب إلى حاكم بصرى بأرض الشام - والتي كانت تابعة للروم - يدعوه إلى الإسلام، ولكن شرجبيل بن عمرو الغساني حاكم البلقاء قتل الحارث بن عمير؛ فجهز النبي - صلى الله عليه وسلم - جيشاً قوامه ثلاثة آلاف رجل، وجعل إمرته يزيد بن حارثة، فإن قُتل فجعفر بن أبي طالب فإن قتل فعبد الله بن رواحة، فإن قتل فليختر المسلمون من بينهم أميراً. وتحرك الجيش حتى نزل معان من أرض الشام وجاءتهم الأخبار أن هرقل نزل بمآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم مائة ألف أخرى من قبائل لحم وجدام وبلقين وبهراء، وفوجئ المسلمون بهذا العدد الكبير، وأقاموا ليلتين في معان تشاوروا خلاهما في الأمر، واتفقوا على المواجهة، وتحركوا حتى التقوا جيش الروم عند مؤتة، وأبلى المسلمون بلاءً حسناً، وثبتوا ثباتاً

عظيمًا، على الرغم من استشهاد قادتهم الثلاثة، ثم اختاروا خالد بن الوليد أميرًا عليهم فقام ببعض التعديلات، فجعل المقدمة ساقية، والميمنة ميسرة، والعكس، وفوجئ العدو بذلك فظنوا أن مددًا قد جاء إلى المسلمين، وأثناء سير المعركة نجح خالد في أن يتأخر بجيشه قليلاً قليلاً - مع حفظ نظام الجيش - وخاف الروم من تتبعهم خشية أن تكون مكيدة. واستشهد في هذه المعركة (12) رجلاً، وعاد المسلمون إلى المدينة فاستقبلهم الناس باللوم وهو يحسون التراب عليهم ويقولون: يأفرار، فررتم في سبيل الله، فيقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: ليسوا فُرَّارًا ولكنهم كُرَّار إن شاء الله. وكانت غزوة مؤتة أول قتال بين المسلمين والروم.

(103/13)

#### \*كربلاء

معركة وقعت في (العاشر من الحرم سنة 61هـ) بمدينة كربلاء بالعراق بين الحسين بن علي بن أبي طالب وجيش يزيد بن معاوية، وسببها: أن يزيدًا لما ولي الخلافة رفض الحسين مبايعته وكان بالمدينة، فتركها ورحل إلى مكة، واجتمع الشيعة بالكوفة وأرسلوا له كتبًا يدعونه إلى الذهاب إليهم، فلما وصلت تلك الرسائل إلى الحسين بعث ابن عمه مسلم بن عقيل ليتبين حقيقة الأمر، فسار إلى الكوفة، والتف حوله كثير من الشيعة وبايعوه، فاغتر بما شاهده، وأرسل إلى الحسين يستحثه على القدوم. وفي تلك الأثناء تولى عبيد الله بن زياد إمارة الكوفة إلى جانب البصرة، فأخذ الشيعة بالشدة، ففرقوا عن مسلم بن عقيل وانتهى الأمر بقتله. ولما أستبطن الحسين أخبار مسلم خرج إلى الكوفة على رأس ثمانين رجلاً، فلما دنا منها وعلم بقتل مسلم بن عقيل وخذلان أهلها له، همَّ بالرجوع، لكن إخوة مسلم

صمموا على الأخذ بثأر أخيهم أو يُقتلونه، فنزل الحسين على رأيهم وسار حتى نزل كربلاء، وهناك التقى جيش عبيد الله بن زياد ونشب قتال بينهما انتهى بمقتل الحسين وكثير من أهل بيته.

(104/13)

---

### \*مرج الصفر (معركة)

موضع بالشام، كانت به معركة، انتصر فيها المسلمون على نصارى الشام بعد وقعة أجنادين، قبل وفاة أبي بكر الصديق رضى الله عنه بأربعة أيام. ونشبت هذه المعركة لما كان المسلمون يحاصرون دمشق، أتاهم آتٍ فأخبرهم أن: جيشاً قد أقبل نحوكم من عند ملك الروم، فنهض خالد بن الوليد بالناس، وأقبلوا نحو ذلك الجيش، وألحقوا الهزيمة به، وتفرق المشركون، فمنهم من دخل دمشق مع أهلها، ومنهم من رجع إلى حمص، ومنهم من لحق بقيصر الروم. وقتل من الروم نحو خمسمائة، وأسّر منهم نحو ذلك.

(105/13)

---

### \*وادي نكور (معركة)

جرت بين الموحدين وبنى مرين سنة (613 هـ)؛ حيث كان الضعف قد ضرب بجذوره في دولة الموحدين، وانشغل زعماء الموحدين بالمؤامرات والدسائس؛ للوصول إلى السلطة، وأتاح هذا الجو الفرصة للقبائل أن تمارس السلب والنهب، ومن هذه القبائل بنو مرين الذين أخذوا في الإغارة على القرى والمدن وترويع الأمنين وإشاعة الفوضى؛ لذلك قرر الموحدون تأديبهم؛ فجرد

الخليفة جيشاً بقيادة أبي على بن وانورين، وانضمت إليه قوات  
والى فاس بقيادة أبي إبراهيم بن يوسف الذى تولى القيادة،  
والتقى الجيشان فى وادى نكور، واستطاع بنو مريم هزيمة  
الموحدين هزيمة ساحقة، وقتل قائد الموحدين.

(106/13)

---

### \*نفاين (معركة)

وقعت فى خليج نفاين غربى اليونان، بين الأسطول المصرى  
والعثمانى من جهة، والأسطول الأوروبى من جهة أخرى، وكان  
الأسطول المصرى العثمانى يدعم القوات البرية بقيادة إبراهيم  
باشا، وكانت هذه القوات تحاول القضاء على ثورة المورة.  
وتألف الأسطول الأوروبى من بريطانيا وروسيا وفرنسا. وقد ضم  
الأسطول المصرى العثمانى (62) قطعة بحرية و (1962)  
مدفعاً، فى حين شمل الأسطول الأوروبى (27) قطعة بحرية  
و (1294) مدفعاً. وقد استهدف الأوربيون تدمير الأسطول المصرى  
العثمانى، ونجحوا فى ذلك، ووصلت الخسائر المصرية العثمانية  
إلى ثلاثة آلاف قتيل، إلى جانب عدد من الجرحى، ولم يخسر  
الأوربيون سوى (140) قتيلاً؛ ومن ثم فقد قضت هذه المعركة  
على البحرية العثمانية. ويجدر بالذكر أن إبراهيم باشا لم يشهد  
هذه المعركة؛ لانشغاله بالحرب داخل المورة. وعقب هذه  
المعركة أعلن السلطان العثمانى الجهاد المقدس.

(107/13)

---

### \*مليد بن حرمة الشيبانى (ثورة)

مليد بن حرمة: أحد قواد الخوارج فى العصر العباسى. قاد ثورة

بالجزيرة في العراق في عهد المنصور العباسي سنة (137 هـ)،  
ومعه ألف فارس، فوجه إليه المنصور عدة جيوش، إلا أن ملبد بن  
حرملة انتصر عليها؛ فوجه إليه المنصور خازم بن خزيمه في  
ثمانية آلاف مقاتل، وكاد ملبد أن ينتصر عليهم، إلا أن خازمًا قتل  
(800) من أتباع ملبد، على رأسهم ملبد نفسه سنة (138 هـ)،  
وبذلك انتهت ثورة ملبد بمقتله.

(108/13)

---

### \*مرج راهط (معركة)

وقعت بين القيسيين المؤيدين لعبد الله بن الزبير، والكلبيين  
المؤيدين للأمويين في مرج راهط سنة (64 هـ)، بالقرب من الشام.  
وكان القيسيون بقيادة الضحاک بن قيس، والأمويون بقيادة  
مروان بن الحكم؛ فبعد أن خلع معاوية بن يزيد نفسه من الخلافة  
ومات صار أهل الشام بلا خليفة، فأراد مروان بن الحكم مبايعة  
عبد الله بن الزبير، فنشبت الحرب، وكان أنصار عبد الله بن  
الزبير (30) ألفاً، أما أنصار الأمويين فكان عددهم (7) آلاف،  
واستمرت المعركة بين الطرفين (20) يوماً، وأسفرت عن مقتل  
الضحاک وبعض أنصاره، وهروب القيسيين وانتصار مروان بن  
الحكم، وتثبيت حكم الأمويين وخلافتهم.

(109/13)

---

### \*هارون بن عبد الله الشاري (ثورة)

قامت في العصر العباسي في عهد المعتضد بالله أبي العباس،  
بزعامه هارون بن عبد الله الشاري الذي خرج في أطراف  
الموصل، وتبعه عدد كبير، فقصده المعتضد سنة (282 هـ) =

895م)، ودار بينهما قتال شديد انهزم فيه هارون، واستسلم أصحابه. وبقي هارون في قلعة، فعبر نهر دجلة فتعقبه الحسين بن حمدان التغلبي في ثلاثمائة فارس، ودار بينهما قتال، انتهى بهزيمة هارون الشاري، وأسرته وقتله سنة (283 هـ = 896 م).

(110/13)

---

\*أبو قير

معركة بحرية، وقعت في (2 من أغسطس 1798 م)، بين الأسطول الفرنسي بقيادة الأميرال برويس، والأسطول الإنجليزي بقيادة الأميرال نلسون. وكان قوام الأسطول الفرنسي (55 سفينة بحرية و (280) ناقلة، في حين لم يتجاوز الأسطول الإنجليزي (14) سفينة حربية، ومع ذلك فقد تمكن الأسطول الإنجليزي من إلحاق هزيمة ساحقة بالأسطول الفرنسي؛ إذ أغرق معظم سفن أسطولهم، واستسلم ما تبقى منها، ولم ينج من الأسطول كله سوى ثلاث سفن، هربت اثنتان منها إلى مالطة، وفرت الثالثة إلى البحر الأدرياتيكي. ولم يكن ممكناً للأسطول البريطاني القليل العدد بالنسبة إلى الأسطول الفرنسي أن يهزم هذا الأخير لولا عنصر المفاجأة الذي استغله الإنجليزي استغلالاً تاماً وناجحاً. وبعد هذه المعركة قام الأسطول الإنجليزي بقطع الإمداد البحري عن فرنسا؛ فاصطرت الحملة الفرنسية إلى أن تعتمد في تموين الجيش وسد نفقاته على مصر وحدها. وكان لذلك أثر كبير في الحد من تطلعات نابليون التوسعية.

(111/13)

---

### \*الأعراب (ثورة)

ثورة قام بها بنو سليم وغيرهم من البدو في بلاد الحجاز، ضد الخليفة العباسي الواثق، وقام فيها هؤلاء الأعراب بنهب الأسواق، وقطع الطرق، والإيقاع بجند والى المدينة المنورة. أرسل إليهم الواثق في (شعبان 230هـ) جيشاً بقيادة بغا الكبير أحد قواد الأتراك، فقتل منهم نحو خمسين رجلاً، وأسر مثلهم، وهزم سائرهم، فدعاهم بغا إلى الأمان على حكم الواثق فاجتمعوا إليه، فاحتبس منهم من وصف بالشر والفساد، وهم زهاء ألف رجل، وخلص سبيل سائرهم. ثم رحل بالأسرى إلى المدينة في (ذى القعدة 230هـ) فحبسهم بها، ثم سار لإخضاع بني مرة بعدن، فحاول هؤلاء الخروج من حبسهم، وثاروا في المدينة، فأحاط بهم أهلها، وقتلوه عن آخرهم. ولما قدم بغا ووجههم قُتلوا شق ذلك عليه، وحزن حزناً شديداً.

(112/13)

### \*الأرك (معركة)

معركة دارت أحداثها سنة (591 هـ = 1195 م)، بالقرب من حصن الأرك، بين الجيش الإسلامي من الموحدين والأندلسيين وبين جيش قشتالة. وكان الدافع إليها اعتداء ألفونسو الثامن ملك قشتالة على أراضي الأندلس بعد انقضاء الهدنة التي كانت معقودة بينه وبين الموحدين. كانت خطة المسلمين أن تبدأ معظم الجيوش الأندلسية ومن جاء مع الموحدين بالاشتباك، ويبقى الخليفة المنصور في جيش من الموحدين في موضع مستور، فإن كان النصر للمسلمين فهو المطلوب، وإن كانت الكرة عليهم يبادر الخليفة بقواته للقاء العدو، بعد أن يكون قد خبت قوته وأصابه الوهن. كان جيش القشتاليين كبيراً؛ فقد كان يزيد على (25) ألف

فارس و (200) ألف راجل. وفي (9 من شعبان 591هـ) التحم الطرفان في قتال عنيف، وكثر القتل في مقدمة القشتاليين، ثم التحمت بقية الجيوش، واضطر الجيش القشتالي إلى التقهقر والفرار، كما فر ألفونسو الثامن صوب طليطلة. استمرت المعركة يومًا واحدًا، غنم المسلمون فيها مغانم كثيرة، وافتتحوا حصن الأرك، ومن نتائج هذه المعركة وقف اعتداءات القشتاليين على الأندلس.

(113/13)

---

### \*فتح الحيرة

فتح تم صلحًا على يد خالد بن الوليد، رضى الله عنه، سنة (12هـ)، في عهد الخليفة أبي بكر الصديق، رضى الله عنه، بعد أن انتهى خالد من حرب اليمامة؛ حيث أمره أبو بكر بالمسير إلى العراق، فسار من اليمامة إلى الحيرة، وخرج إليه أشرافها مع إياس بن قبيصة الطائي الأمير عليها بعد النعمان بن المنذر، فخيرهم بين الدخول في الإسلام ودفع الجزية وخوض الحرب، فاختراروا دفع الجزية، ومقدارها (190) ألف درهم. ولمّا رأى دهاقين البلاد ذلك أتوا خالدًا، وصالحوه على دفع الجزية من منطقة الفلاليح إلى هُرمزجرد، وكتب لهم بذلك كتابًا، وأقام خالد بالحيرة، وجعلها مركز قيادته.

(114/13)

---

### \*أقليس

معركة جرت أحداثها في بلدة أقليس، الواقعة شمالي جبال طليطلة، بين المرابطين بقيادة تميم والى غرناطة وبين

القشتاليين بقيادة البرهانس وكونت دى قبرة وكونتات طليطلة،  
وبينهم الأمير الفتى الإنفانت سانشو. وكان قوام جيش المرابطين  
بضعة آلاف فارس، وكان يتكون من حشود غرناطة وقرطبة  
وشرق الأندلس، أما الجيش القشتالى فقد كان متفوقاً على  
المرابطين فى الكثرة؛ إذ بلغ قوامه نحو (10) آلاف فارس. دار  
القتال بين الفريقين فجر يوم الجمعة (16 من شوال 501هـ)،  
وبينما القتال على أشده إذ وقع حادث كان حاسماً لمصير  
المعركة، وهو إصابة الأمير سانشو بطعنة قاتلة، وسقوط  
الكونت دى قبرة مدافعاً عنه، فدبت الفوضى بين صفوف  
القشتاليين، وكثر القتل بينهم، ولجأ الكثيرون منهم إلى الفرار،  
وسقط معظم القادة والكونتات قتلى، وارتدت فلول القشتاليين  
صوب طليطلة، وحاول الكوننتات السبعة الذين كانوا يؤلفون  
حاشية الأمير القتل الفرار، إلا أن جماعة من المسلمين لحقت بهم  
وقتلتهم عن آخرهم. وبانتهاء القتال أمر الأمير تميم بجمع رءوس  
القتلى من النصارى، فجمعت الدانية منها، وتركت النائية، فبلغ  
ما جمع منها أكثر من (3000) رأس، مُيّزت منها رءوس غرسيه  
أردونيش وقواد طليطلة، فكدست، وأذن من فوقها المؤذنون؛  
وفقاً للتقليد المأثور. واستولى المرابطون فى الوقت نفسه على  
عدد كبير من الأسلاب والغنائم. ومن نتائج موقعة أقليس توطيد  
سلطان المرابطين فى المناطق الوسطى والشرقية فى الأندلس،  
وإعلاء مكانتهم العسكرية والدفاعية.

(115/13)

\*أليس

معركة وقعت فى أليس، إحدى قرى الأنبار، بين جيش المسلمين  
بقيادة خالد بن الوليد، رضى الله عنه، ومن تجمع من نصارى

العرب وجموع فارس بقيادة جابان. التقى الفريقان، واقتتلوا قتالاً شديداً، أظهر فيه المشركون صبراً؛ لأنهم كانوا ينتظرون قدوم مدد بقيادة بھمن جاذويه، ولما رأى خالد منهم ذلك ضيق عليهم الخناق حتى نفذ صبرهم، وتداعت قوتهم، وأسرعوا إلى الفرار، وأسر منهم المسلمون الكثير. وبعث خالد إلى الخليفة بفتح أليس، وبقدر الفىء، وعدد السبايا، وما حصل من الأخماس.

(116/13)

### \*أنقرة (معركة)

معركة دارت أحداثها في سهل أنقرة في (19 من ذى القعدة 804 هـ = 20 من يوليو 1402 م)، بين الجيش العثماني بقيادة السلطان بايزيد، والجيش المغولي بقيادة تيمورلنك. وكان الدافع إليها أن أحمد الجلائرى أمير بغداد والعراق لجأ إلى السلطان بايزيد حينما هاجمه المغول في بلاده، فأرسل تيمورلنك إلى السلطان في طلبه، فأبى تسليمه إليه، فأغار تيمورلنك بجيوشه الحرارة على بلاد آسيا الصغرى، وافتتح مدينة سيواس بأرمينيا، وأخذ أرطغرل ابن السلطان بايزيد أسيراً، وقطع رأسه. وانتقاماً لذلك جمع السلطان بايزيد جنوده، وسار لمحاربة تيمورلنك، فتقابل الجيشان في سهل أنقرة، وكان قواد عسكر تيمورلنك أربعة من أولاده، وقواد السلطان بايزيد خمسة من أولاده، وهم: موسى وسليمان ومحمد وعيسى ومصطفى، فدار بينهم القتال من الصباح إلى المساء، وأظهر السلطان من الشجاعة ما بهر العقول وأدهش الأذهان، ولكن ضعف جيشه بفرار فرق آيدين ومنتشا وصاروخان وكرميان، وانضمامها إلى جيوش تيمورلنك؛ لوجود أولاد أمرائهم الأصليين في معسكر التتار، ولم يبق مع السلطان إلا عشرة آلاف انكشارى وعسكر الصرب،

فحارب معهم طوال النهار، حتى سقط أسيراً في أيدي المغول هو وابنه موسى، وهرب أولاده سليمان ومحمد وعيسى ولم يعثر لابنه الخامس مصطفى على أثر. وعامل تيمورلنك السلطان بايزيد بالحسنى، وأكرم مثواه، لكنه شدد في المراقبة عليه، بعد أن شرع في الهروب ثلاث مرات. وتوفي السلطان بايزيد الأسر في (15 من شعبان 805هـ)، وعمره (44) سنة، فنقل ابنه موسى جثته إلى مدينة بورصة؛ حيث دفن بجانب السلطان مراد.

(117/13)

### \*بابك الخرمي (حركة)

هي حركة منحرفة تُعدُّ أخطر الحركات الفارسية المعادية للخلافة العباسية، تزعمها بابك الخرمي، إبان خلافة المأمون والمعتمد، وامتدت عشرين سنة، وتُعرف بالخرمية، واتسمت بدقة التنظيم وبراعة القيادة، والاتصال السياسي بالأكراد والأرمن وغيرهم، وكانت تؤمن بمبادئ هدامة منها: 1 - الإيمان بالحلول والتناسخ حتى إن زعيمها «بابك» ادعى الألوهية. 2 - المشاعة المزدكية في الأموال والأعراض. 3 - ضرورة التخلص من السلطان العربي والدين الإسلامي. أخذ الخرميون في العبث والفساد منذ سنة (201هـ) فبعث إليهم المأمون عدة حملات، ولكنها هزمت الواحدة تلو الأخرى، ومن قوادها: يحيى بن معاذ، وعيسى بن أبي خالد، وصدقة بن علي، والجنيد الإسكافي، ومحمد بن حميد الطوسي. وكان من وصية المأمون لأخيه المعتصم أن يتابع محاولات القضاء على الخرمية وبدعهم، فبعث المعتصم جيشين بقيادة إسحاق بن إبراهيم وبغا الكبير إلا أن بابك انتصر عليهما. واستمر أمر بابك في الظهور حتى سنة (221هـ) إذ بعث المعتصم قائده الأفشين؛ لقتال بابك فنظم البريد، وأقام الحصون

بين سامراء وآذربيجان؛ لاستجلاب المدد، وتمكن من تحقيق أول نصر على الخرمية، وفي السنة التالية نجح الأفشين في الاستيلاء على البذ، ثم وقع بابك في يده، فحمله إلى سامراء؛ حيث أمر المعتصم بقتله، وبذلك انتهى أمر الخرمية. ويقدر ضحايا بابك خلال عشرين سنة بنحو (255) ألفاً.

(118/13)

### \*التل الكبير (معركة)

معركة وقعت يوم (10 من ذى القعدة 1299هـ = 13 من سبتمبر 1882 م) بين الجيش الإنجليزي بقيادة الجنرال ولسلي والجيش المصري وحلفائه من رجال الثورة. والتل الكبير تل يقع على الضفة اليسرى لترعة الإسماعيلية بمصر، بين الصالحية والقصاصين، وكان قائد الجيش المصري في هذه المعركة الزعيم أحمد عرابي، وكانت الهزيمة في وقعة القصاصين الثانية في يوم الأحد (6 من ذى القعدة 1299هـ = 9 من سبتمبر 1882 م) ضربة قاصمة، ارتد على أثرها الجيش المصري إلى مواقعه الدفاعية الرئيسية في التل الكبير. تراوح عدد الجيش المصري بين (10) و (12) ألف مقاتل، أما الجيش الإنجليزي فكان عدده (11) ألف مقاتل من المشاة، وألفين من الفرسان، مع ستين مدفعاً من مختلف العيارات. والمسافة بين القصاصين والتل الكبير خمسة عشر كيلو متراً، قطعها ولسلي بسرية تامة، وكان في مقدمة جيشه بعض ضباط أركان حرب من المصريين، وكذا جماعة من عرب الهنادي، ولم يصادف الجيش الإنجليزي أثناء زحفه ليلاً أية قوة تصده، سوى فرقة من الخيالة ظلت تتقهقر أمامه بدلاً من الصمود. وبلغت المسافة بين الجيشين (150 ياردة تقريباً) دون أن يكون الجيش المصري في وضع التأهب للدفاع، وقبل

الصباح طوق الجيش المصرى بتشكيل نصف دائرى، واحتل خط الدفاع الأول، وقتل مائتين، واستبسل عدد من المصريين منهم اليوزباشى حسن أفندى رضوان - قائد المدفعية - حتى إن القائد الإنجليزي ولسلى أعجب به وبشجاعته، وتراوحت خسائر المصريين بين (1500) و (2000) قتيل، أما خسائر الإنجليز فبلغت (57) قتيلًا، بينهم (9) ضباط و (402) جريح، بينهم (27) ضابطًا، وغنم الإنجليز مدافع الجيش المصرى ومؤنه وعتاده وذخائره. أما عرابى فانطلق إلى القاهرة للدفاع عنها، بعدما تعرض للخيانة، خاصة المعلومات المضللة التى كان يقدمها على يوسف لعرابى.

(119/13)

#### \*البياض (موقعة)

موقعة حدثت بين المنصور بن أبى عامر مؤسس الدولة العامرية بالأندلس (368 - 399 هـ = 978 - 1009 م) وملك مملكة نافار (إحدى الممالك النصرانية الإسبانية خلال القرن (4هـ = 10 م)؛ فبعد أن غزا المنصور ليون؛ ردًا على مطاردة برمود وملك ليون للمسلمين، ثم سار غربًا إلى مدينة قلمرية فى (378 هـ = 987 م) أغار النافاريون أو البشكنس بقيادة ملكهم سانشو غرسيه الثانى على أراضى النغر الشمالى، فسار المنصور بن أبى عامر لقتالهم، وطاردهم حتى مدينة بنبلونة عاصمة نافار. وتقول الرواية النصرانية: إن البشكنس انقلبوا إلى الهجوم، وهزموا المسلمين سنة (378 هـ = 987 م)، ولم تتحدث المصادر الإسلامية عن هزيمة المسلمين، وتسميها بغزوة البياض وتحدد تاريخها بسنة (379 هـ = 989 م)، وتضيف أن المنصور عاد بجيشه إلى سرقسطة؛ حيث التقى بولده عبد الملك إثر عودته من بلاد المغرب.

### \*بروزة

موقعة بحرية بين الجيوش الأوربية المتحالفة والعثمانيين. وهتعد من المعارك البحرية الخالدة في التاريخ الإسلامي الحديث، فقد دعا البابا «بول الثالث» الجيوش الأوربية إلى الاتحاد ضد العثمانيين، وتكوّن منهم تحالف بحرى ضمّ أكثر من (600) سفينة و (60) ألف جندي، يقودها «أندريا دوريا»، وهو من أمهر القادة البحرية في ذلك الوقت. وتكوّن الأسطول الإسلامي من (122) قطعة بحرية، و (22) ألف جندي، والتقى الأسطولان في (4 من جمادى الأولى 945هـ = 28 من سبتمبر 1538م) أمام «بروزة» في البحر المتوسط. وضع خير الدين برباروس أسطوله على شكل هلال، وعيّن على رأس جناحه الأيمن صالح رئيس. وعلى رأس جناحه الأيسر سيدي على رئيس. وقاد خير الدين الجناح الأيسر بنفسه، وأمر طورغود بأن يقود احتياطي الأسطول، ويبقى في الخلف. واستعمل خير الدين برباروس عنصر المباغتة، ولم يكن أسطول الصليبيين مستعداً؛ مما أدى إلى اختلال نظامه؛ فما لبث أن تفرق، وهرب قائده أندريا دوريا؛ نجاة بحياته. ولم تستمر المعركة أكثر من خمس ساعات تمكّن في نهايتها «خير الدين» من حسم المعركة لصالحه، وصارت العزة والسيادة للعثمانيين في البحر المتوسط.

### \*البحيرة (معركة)

نشبت بين الموحدين والمرابطين - بعد الانتصارات المتتالية

للموحدين - معركة جديدة في بقعة البحيرة، وهُزم الموحدون،  
وتمزقت قواتهم، وقتل البشير قائد الموحدين ومعظم زملائه،  
وانسحب عبد المؤمن بن علي في فلوله، وفتكت القوات  
المرابطية بالموحدين، وارتدت القوات الموحدية إلى تينملل. وقعت  
بالمغرب الأقصى يوم الجمعة (29 من ربيع الآخر 524هـ = 11 من  
أبريل 1130م)، وشارك فيها ابن تومرت، وقيل: كان مريضاً،  
فلما وقف على أخبار النكبة سأل: هل عبد المؤمن على قيد  
الحياة؟ فلما أُجيب بالإيجاب، قال: الحمد لله، قد بقى أمركم.  
وكانت هزيمة الموحدين فادحة؛ فقد كان المرابطون يتفوقون  
في العدد وقد أرهقت الموحدين المعارك المتوالية، وبدأ القتال  
بمعركة محلية نشبت بين جيش سجلماسة وحرس الأمير النصراني،  
وبين قوة من الموحدين، فهُزم الموحدون، ثم كانت معركة عامة  
قاتل فيها الموحدون بشجاعة فائقة، ولكن المرابطين - فضلاً عن  
كثرتهم - كانت تحدهم روح الانتقام، فقاتلوا بشدة رائعة. وقُتل  
من الموحدين أربعون ألفاً، وقيل: إنه لم يسلم من الموحدين إلا  
أربعمائة؛ بين فارس وراجل، وارتد عبد المؤمن بن علي إلى  
أغमत حتى أرض هيلانة، وطارده المرابطون، وانتصروا على  
الموحدين، وارتد المرابطون إلى مراكش، وسارت فلول الموحدين  
إلى تينملل. ورغم هذا الانتصار الساحق للمرابطين في موقعة  
البحيرة فإن النصر كان للموحدين في النهاية؛ إذ كانت هذه  
المعركة درساً مفيداً للموحدين؛ فقد امتنعوا عن منازل أعدائهم  
في السهل، واعتصموا بالجبال.

(122/13)

\*ذات السلاسل

أول لقاء عسكري بين المسلمين بقيادة خالد بن الوليد، رضى

الله عنه، والفرس بقيادة هرمز جنوب العراق سنة (12هـ = 633 م). وسميت ذات السلاسل؛ لأن قائد الفرس هرمز ربط كل مجموعة من جنوده بسلسلة واحدة؛ حتى لا يفروا من المعركة. وسبب المعركة أن الخليفة الأول أبا بكر الصديق، رضى الله عنه، بعد انتصاره على المرتدين وإخضاع القبائل العربية الموالية للفرس على حدود العراق، أرسل إلى خالد بن الوليد يأمره بالسير إلى العراق لفتحها، وكان المثنى بن حارثة الشيباني قد استأذنه أيضاً في المسير بجيش لفتح العراق فأذن له، ثم أصدر أمراً آخر إلى القائد عياض بن غنم بالتوجه إلى العراق. التقت الجيوش الثلاث تحت قيادة خالد بن الوليد فسار بها حتى توقف قبل حدود العراق وأرسل إلى هرمز حاكم الأبله (مدينة بجانب البصرة) يعرض عليه الإسلام أو الجزية أو الحرب، فأبى هرمز إلا الحرب. قسم خالد جيشه أربع مجموعات، والتقى الجيشان في موضع يُسمى الكاظمية، فتقاتل خالد وهرمز وحدهما في بداية المعركة، فقتله خالد، ثم اشتبك الطرفان، فهزمت القوة الرئيسية لجيش الفرس، وفر الباقيون، وغنم المسلمون الغنائم، ودخلوا الأبله، وكانت هذه بداية الفتوحات في العراق وبلاد فارس.

(123/13)

#### \*الراوندية

إحدى الطوائف المنحرفة. تنسب إلى مدينة راوند قرب أصفهان ببلاد فارس. كانت بداية ظهورها في الدولة الأموية، عندما خرج رجل يقال له: الأبلق، وكان أبرص، وزعم أن الروح التي كانت في عيسى بن مريم صارت في علي بن أبي طالب والأئمة من بعده واحداً واحداً وأنهم آلهة. ولما شاع أمرهم وما يرتكبونه من الحرمات، قام عليهم أسد بن عبد الله القسرى والى بنى أمية

على خراسان فقتلهم، ولكن ظل منهم قليل حتى ظهروا ثانية في خلافة أبي جعفر المنصور العباسي، وخرجوا جميعاً على الناس بالسلاح فأقبلوا يصيحون: بأبي جعفر أنت أنت! يعنون أنت الله، فخرج إليهم بنفسه ورد عليهم ادعاءهم، وقتلهم وحبس مائتي رجل من زعمائهم، ولكن الباقين اقتحموا السجن، وأخرجوهم منه، ثم ذهبوا إلى قصر أبي جعفر فخرج إليهم مترجلاً وكادوا يقتلونه لولا دفاع معن بن زائدة الشيباني الذي دفعهم عنه، وظل المنصور في جهادهم حتى قضى عليهم.

(124/13)

### \*الزنج (ثورة)

إحدى الثورات التي قامت في عهد الدولة العباسية، في إقليم البطائح بين واسط والبصرة، بزعامة رجل عرف باسم صاحب الزنج، وكان يسمى نفسه محمد بن علي وادعى أنه من نسل علي بن أبي طالب، رضى الله عنه. كان الزنج عبارة عن مجموعات كبيرة من السود الذين جلبوا من إفريقيا، خاصة الصومال وزنجبار، واستخدمتهم الدولة؛ لتحويل إقليم البطائح من غابات ومستنقعات وأرض سبخة إلى أرض صالحة للزراعة دون أن تعطيتهم مقابل، سوى ما يأكلون من السويق والتمر بأثمان بخسة. شعر هؤلاء الزنوج بالظلم فتحركت في نفوسهم الرغبة في الثورة خاصة أن الدولة كانت تمر بمرحلة من الضعف شجعتهم على الثورة، وكانوا ينقسمون إلى مجموعات يبلغ عدد المجموعة ما بين (500 و 1500) رجل. تجمعت هذه المجموعات تحت إمرة صاحب الزنج ثم ساروا في سنة (249هـ) إلى البحرين وانضم إليهم عبيدها، كما انضم إليهم عبيد البصرة وواسط وما حولهما، فلما قويت شوكتهم انتشروا في العراق وخوزستان

والبحرين ونهبوا القادسية والبصرة وغيرها من المدن واستولوا على ألف وتسعمائة سفينة، كانت تحمل بعض الحجاج إلى مكة، وألقوا الرعب في قلوب الأهلين بهذه المناطق، وهزموا جيشين أرسلتهما الخلافة في عهد الخليفة المهتدي وهددوا بغداد العاصمة نفسها، وملكوا كثيراً من الأموال والنساء والأطفال. وبعد ارتفاع شأن صاحب الزنج بنى لنفسه مدينتين يتحصن بهما من جيوش الخلافة، وهما: المختارة والمنبوعة. وكان يعتمد في حروبه على التخفي في المستنقعات والغابات؛ مما صعب مهمة أى جيش يرسل إليها، حتى قاد الموفق أخو الخليفة المعتضد بنفسه الجيوش، وكانت أمور الخلافة بيده، وأدرك سر تفوق الزنج فأعد الخطط، وجهاز الجيوش، وتمكن من إلحاق عدة هزائم بهم وتدمير مدينتهم المختارة، وبنى بجوارها مدينة جديدة تسمى الموفقية؛ ليتحصن بها أثناء حروبه لهم، وتوالت انتصاراته عليهم، وفر كثير منهم من حول صاحبهم، حتى هزم

(125/13)

---

وقتل سنة (270هـ = 883 م) كما قتل قائده ببهودا. وبذلك خمدت الثورة التي دامت (14) سنة و (4) أشهر، فكثرت ضحاياها وقوضت اقتصاديات الدولة، وساعدت على نشوب عدة ثورات داخلية.

(126/13)

---

\*ديو البحرية (معركة)

معركة بحرية. وقعت في فبراير (1509 م)، بين أسطول برتغالي وأسطول مشترك للمماليك وسلطنة غوجرات. وسببها أنه في عام (1498 م) وصلت مجموعة من السفن البرتغالية بقيادة

فاسكوداجاما حول رأس الرجاء الصالح إلى ساحل مالابار،  
وأنشأ البرتغاليون سلسلة من المراكز التجارية على الساحل  
الهندي بين سنتي (1500، و 1505 م)، كما استولوا على جزيرة  
هرمز على مدخل الخليج العربي عام (1507 م)، وغيرها من  
النقاط الاستراتيجية؛ فأثر هذا التوسُّع سلبيًا على التجارة بين  
الدول الإسلامية في الهند فقام السلطان قانصوه الغوري سلطان  
المماليك بإعداد حملة بحرية كبيرة ضد البرتغاليين، وأسند  
القيادة إلى حسين الكردي نائب السلطان في جدة. وأبحر  
حسين على رأس قوته في عام (1505 م)، للبدء في مراقبة  
البرتغاليين. وفي عام (1508 م) عقد السلطان قانصوه الغوري  
حلفًا مع محمود بغارها سلطان غوجارت؛ للقضاء على التدخل  
البرتغالي في التجارة بين الهند والبحر الأحمر. ووقعت في عام  
(1508 م) معركة دابول البحرية التي أسفرت عن مقتل لورنزو ابن  
القائد البرتغالي فرانسيسكو دو ألميدو؛ فأقدم فرانسيسكو  
على احتلال عدد من المواقع الإسلامية على الساحل الهندي في  
أول عام (1509 م) ومنها غوا ودابول. وفي فبراير (1509م)  
اكتشف فرانسيسكو وجود أسطول المماليك وسلطنة غوجرات  
قرب ديو الواقعة على الساحل الهندي الغربي شمالي غربي  
بومباي؛ فشن هجومًا فوريًا أدى إلى تدمير أسطول الدولتين  
الإسلاميتين. وكانت معركة ديو البحرية حاسمة؛ إذ ترسخ النفوذ  
البرتغالي بعدها في الهند والمحيط الهندي فترة طويلة من  
الزمن.

(127/13)

### \*الحملة الصليبية الأولى

بدأت هذه الحملة عام (489 هـ = 1096م) بكتائب شعبية من

المشاة والأطفال والنساء بقيادة بطرس الناسك إلا أنها فشلت بعد هزيمتها على يد السلطان السلجوقي قلع أرسلان في مدينة نيقية عاصمة السلجوقيين. أما الحملة الصليبية العسكرية الأولى فكانت تتكون من (700) ألف مقاتل، وانطلقت بأربعة جيوش: الأول: من جنوب فرنسا بقيادة ريموند دي ساى جيل. والثاني: من شمال فرنسا بقيادة روبرت كورت هوذ. والثالث: من أعلى فرنسا بقيادة جودفرى بويون. والرابع: من جنوب إيطاليا بقيادة تنكريدو بوهيموند النورماندى. واتفق القادة الأربعة أن يلتقوا في القسطنطينية عام (1097م) فوصلوا إلى القسطنطينية، ولم يلبثوا فيها طويلاً حتى تجاوزوها إلى الأناضول واستولوا على نيقية سنة (1097م)، وهزموا السلاجقة في دور يليوم واحتلوا أنطاكية عام (1098م)، وعسقلان والقدس سنة (1099م) وتأسست مملكة القدس اللاتينية، واختير جودفرى بويون حاكمًا لها، ولقب بحامي القبر المقدس.

(128/13)

#### \*الحرّة (موقعة)

حدثت سنة (63هـ = 682م)، بين جيش يزيد بن معاوية وأهل المدينة. وسببها أن أهل المدينة لما خلعوا يزيد بن معاوية وولوا على قريش عبد الله بن مطيع وعلى الأنصار عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر وسجنوا من بالمدينة من بنى أمية وطردها عامل يزيد - بعث إليهم يزيد ليعودوا إلى الطاعة دون قتال، فامتنعوا؛ فأرسل إليهم جيشاً عدته (12) ألف مقاتل بقيادة مسلم بن عقبة المرى، وقال له يزيد: ادعهم إلى البيعة ثلاثة أيام دون حرب، ولا تقاتلهم إلا بعد انتهاء المدة. ففعل مسلم، ولكن أهل المدينة

امتنعوا عن البيعة؛ فحاصر مسلم المدينة من ناحية الحرة ولما فتحها أباحها لجنده ثلاثة أيام.

(129/13)

### \*الحرب العالمية الثانية

هي الحرب التي اشتركت فيها معظم دول العالم في الفترة من سبتمبر سنة 1939م وحتى سبتمبر سنة 1945م، واستمرت ست سنوات؛ انقسم العالم فيها إلى معسكرين هما: الحور بزعامة ألمانيا وإيطاليا واليابان، والحلفاء بزعامة بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي السابق. وكان السبب في هذه الحرب صعود الاتجاهات المتطرفة في ألمانيا وإيطاليا وسيطرة النازية والفاشية على مقاليد الحكم فيهما، واتجاه ألمانيا لبناء قوتها العسكرية بعد نقضها معاهدة فرساي في سنة 1935م، وقيامها باستعادة بعض الأقاليم الألمانية التي انتزعت منها بعد الحرب العالمية الأولى، وغزوها للنمسا ثم بولونيا ولكسمبورج وهولندا وبلجيكا ثم سيطرتها على فرنسا وتشكيل حكومة فيشي في فرنسا، وتشديد ألمانيا لضغطها العسكري على بريطانيا. واستمر الألمان في انتصارات حتى فصل الربيع من سنة 1942م، حينما فشل الغزو الألماني للاتحاد السوفيتي السابق، وهُزم القائد الألماني رومل في العلمين بمصر، ودخلت الولايات المتحدة الحرب إلى جانب الحلفاء بعد تدمير اليابان للأسطول الأمريكي في بيرل هاربر سنة 1941م، كما نجحت عملية انزال جيوش الحلفاء إلى ساحل نورماندى وتحرير فرنسا سنة 1944م. وانتهت الحرب العالمية الثانية في سنة 1945م، بعد استسلام ألمانيا في مايو 1945م، والقضاء القنبلة الذرية على اليابان واستسلامها في سبتمبر سنة 1945م.

ونتج عن هذه الحرب خسائر فادحة في الأرواح والأموال  
والعمران، كما أنها خلفت مشكلات اجتماعية عديدة، وقدرت  
هذه الخسائر ب (1154) مليار دولار، وفقد فيها (41) مليون قتيل  
بخلاف الجرحى والأسرى. وكان من أهم نتائجها انقسام ألمانيا  
إلى دولتين، وسيطرة الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد  
السوفييتي السابق على العالم، وقيام هيئة الأمم المتحدة،  
وتصفية الاستعمار في آسيا وإفريقيا.

(130/13)

### \*الزباب (معركة)

إحدى المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي. كانت بين مروان  
بن محمد الخليفة الأموي وجيش العباسيين بقيادة عبد الله بن  
علي، في (11 من جمادى الآخرة 132 هـ = 25 من يناير 750 م).  
وسميت بهذا الاسم؛ لأن أحداثها دارت عند نهر الزباب الأكبر، أحد  
روافد نهر دجلة، ويقع في شمال العراق، ويتصل بدجلة من جهته  
اليسرى. وكانت الخلافة الأموية قد وصلت إلى مرحلة الضعف في  
عهد مروان بن محمد، وعمت الثورة - التي قام بها أتباع  
العباسيين ضده - منطقة خراسان، وعلا شأن بني العباس،  
فتوجه مروان إلى الثوار في جيش كبير، وزحف به حتى وصل  
إلى الموصل، ونزل دجلة، وسار إليه جيش العباسيين، وعسكر  
على الزباب الأكبر بقيادة عبد الله بن علي. فكان النهر بينهما.  
وفي البداية أرسل بد الله بن علي قوة من جيشه بقيادة عيينة  
بن موسى عبرت النهر، واقتتل مع جيش مروان بن محمد، لكنها  
هُزمت، فارتدت عائدة. ثم أنشأ مروان جسراً على النهر، ليعبر  
عليه إلى الضفة الأخرى، ولما عبر التقى الجيشان، واستمرت  
المعركة بينهما تسعة أيام، اقتتلا فيها قتالاً شديداً ومات عدد

كبير من الجيشين، إلا أن النصر كان حليف العباسيين، وفر جيش مروان بن محمد، ثم قطع العباسيون الجسر فغرق من جيش مروان أكثر ممن قُتل، وفر مروان إلى مصر ثم تتبعه العباسيون حتى قتلوه في سنة (132هـ = 750 م)، وبذلك سقطت الخلافة الأموية، وقامت الخلافة العباسية.

(131/13)

---

### \*ديوبالبور

معركة وقعت بين غياث الدين تُغلق مؤسس الدولة التغلقيية، وخسروشاه آخر حكام الدولة الخلجية بالهند. وكان خسروشاه قد أتى من الأعمال ما يخالف الإسلام، وقرب الهندوس منه؛ مما شجعهم على إيذاء المسلمين؛ فغضب شعبه عليه بسبب ذلك، وقرروا التخلص منه. ولما رأى تغلق ما فعله خسروشاه جمع حوله الجند وزحفوا إلى دهلي للقضاء على خسروشاه فقابلهم بجيش كبير في ديوبالبور، واقتتل الجيشان حتى هُزم خسروشاه، وقُتل، وبذلك انتهت الدولة الخلجية، وقامت الدولة التغلقيية.

(132/13)

---

### \*الجسر (معركة)

إحدى المعارك التي دارت بين المسلمين والفرس سنة (13 هـ)، أثناء فتوحات المسلمين في العراق (بلاد فارس آنذاك). وسميت باسم الجسر لأن المسلمين أقاموا جسراً على «نهر الفرات» لعبور قواتهم البالغة تسعة آلاف جندي، كما سميت باسم قس الناطف. وكان جيش المسلمين بقيادة أبي عبيد بن مسعود الثقفي، في

حين كان جيش الفرس بقيادة بهمس جازويه المعروف بذي الحجاب. وفي بداية المعركة عبر أبو عبيد الجسر بجيشه، وكان عبورهم النهر خطأ عسكرياً جسيماً وقع فيه «أبو عبيد»، ولم يستمع إلى نصيحة قادة جيشه ومنهم «المثنى بن حارثة»، الذين نبهوه إلى خطورة ذلك، وأن موقف المسلمين غربى النهر أفضل وضع لهم، وليتركوا قوات الفرس تعبر إليهم، فإذا انتصروا كان عبور النهر إلى الشرق أمراً سهلاً، وإذا انهزموا كانت الصحراء وراءهم يتراجعون فيها، ليعيدوا ترتيب أوضاعهم، لكن «أبا عبيد» لم يستجب لهم، والتقى بجيش الفرس الذى كان يتقدمه مجموعة كبيرة من الفيلة الضخمة التى أخافت خيول المسلمين وأربكت حركتهم؛ فاضطربت صفوف المسلمين، واستشهد عدد كبير منهم، ثم أمر أبو عبيد جيشه بقتل الفيلة أولاً ففعلوا ذلك، وقد أصيب أبو عبيد بضربة شديدة أدت إلى استشهاده، فتناوب عدد من الفرسان المسلمين اللواء فاستشهدوا، ثم تسلّم المثنى بن حارثة اللواء، فأمر المسلمين بالتراجع حتى ينظموا صفوفهم، ولكن الجسر انكسر بمقدمتهم؛ فانحصر المسلمون فى أرض المعركة فاستشهد منهم عدد كبير قتلاً وغرقاً، فى حين قتل من جيش الفرس نحو ستة آلاف مقاتل.

(133/13)

### \*البويب (معركة)

البويب اسم نهر كان بالعراق موضع الكوفة أو مما يلي موضع الكوفة اليوم، وسميت باسمه المعركة التى دارت عليه (فى رمضان سنة 13 هـ) بين المسلمين بقيادة المثنى بن حارثة الشيبانى والفرس بقيادة مهراڤ الهمدانى. وقد هُزم المسلمون فى المعركة السابقة فى حربهم مع الفرس، وهى معركة الجسر

في العام نفسه؛ مما أطمع الفرس فيهم، في حين رغب المسلمون في الثأر لهزيمتهم. وقد استعان المثنى قبل المعركة بقبائل العرب في العراق، مثل قبيلتي نمر وتغلب، وكانوا من النصارى، كما أمده الخليفة عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، بجيش من المدينة فبلغ جيشه نحو (10) آلاف مقاتل. وعسكر جيش المسلمين على الضفة الغربية لنهر الفرات، في حين عسكر جيش الفرس على الضفة الشرقية، وأرسل مهران إلى المثنى يسأله: إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم، فأجاب المثنى: أن اعبروا أنتم. ونظم المثنى جيشه ومر بفرسه المسمى الشموس على صفوف الجيش؛ يحثهم على الصمود والاستبسال. ولما عبر مهران بجيشه دارت معركة بين الطرفين حامية الوطيس، واشتد القتال، وحمل المثنى وجماعة معه على قلب جيش العدو ففرقوه، وقتلوا قائدهم مهران؛ فاضطرت صفوف جيش الفرس، وضعفت مقاومتهم، وحاولوا الهرب، فقطع المسلمون عليهم الجسر، وأعملوا فيهم سيوفهم؛ فقتل منهم الكثير، وغرق الكثير، حتى قدر عدد قتلاهم بنحو (100) ألف قتيل، وهو رقم مبالغ فيه، ولكنه يدل على كثرة من قتل في المعركة. وكانت هذه المعركة مقدمة لانتصار المسلمين الحاسم على الفرس في معركة القادسية.

(134/13)

### \*الحروب الصليبية

هى سلسلة من الحروب شنها المسيحيون الأوروبيون خلال القرنين (6 و 7 هـ = 12 و 13م)؛ لاستعادة الأراضى المقدسة، وتسمى - أيضاً - الحملات الصليبية، ويبلغ عددها تسع حملات، هى: الحملة الصليبية الأولى (1096 - 1099م): بدأت هذه الحملة

بكتائب شعبية من المشاة والنساء والأطفال، قادها بطرس الناسك، إلا أنها أُبِيدت على أبواب مدينة نيقية على يد السلطان قلعج أرسلان. أما الحملة العسكرية الأولى فكانت تتكون من نحو (700) ألف مقاتل، وانطلقت بأربعة جيوش، واتفق القواد على أن يلتقوا في القسطنطينية، واستولت هذه الجيوش على نيقية عاصمة السلجوقيين، ثم استولت على الرها وأنطاكية وبيت المقدس وعكا وطرابلس، وانتهت هذه الحملة سنة (1099م).  
الحملة الصليبية الثانية: (1147 – 1149م): دعا إليها سنت برنارد لكيرفر بعد أن استولى عماد الدين زنكى على الرها، وكان عماد الدين زنكى يترجم الدفاع عن الإسلام، ولكنه تُوفّي قبل أن يطرد الصليبيين، وخلفه ابنه نور الدين زنكى، فقدمت الحملة الصليبية الثانية؛ لتتصدى له، ولكن هذه الحملة باءت بالفشل؛ لاحتدام الخلاف بين قادتها، ولاندحارها أمام السلجوقيين عند قونية. الحملة الصليبية الثالثة (1189 – 1192م): قادها ثلاثة من أشهر ملوك أوروبا، وهم: فريدريك بربوس إمبراطور ألمانيا، وفيليب أوغست ملك فرنسا، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا. وكان مصير هذه الحملة الفشل؛ بسبب غرق إمبراطور ألمانيا في نهر السالف، وهو في طريقه إلى الشرق؛ فتشتت جيشه، ثم نشب الخلاف بين ملك فرنسا وملك إنجلترا، وكان من نتائجه أن رحل ملك فرنسا راجعاً إلى بلاده، وظل ريتشارد يقاتل صلاح الدين الأيوبي راجعاً في إعادة بيت المقدس إلى الحكم الصليبي، ولكنه عجز عن ذلك، وتم توقيع صلح الرمل سنة (1192م) بين صلاح الدين وريتشارد. الحملة الصليبية الرابعة (1203 – 1204م): وكانت موجهة أصلاً ضد مصر، وكان داعيتها

فولوك دى توي، وقد استجاب لدعوته كثير من الإقطاعيين والأشراف بفرنسا، ولكن كراهية الأوربيين للبيزنطيين جعلتهم يعتقدون أنه لن يكون بإمكانهم مقارعة المسلمين، إلا إذا أقاموا دولة لاتينية على أنقاض الدولة البيزنطية، فاتجهت الحملة نحو القسطنطينية، واحتلتها سنة (1204م). الحملة الصليبية الخامسة (1216 – 1221م): دعا إليها البابا هونوريوس الثالث، وكان هدفها الاستيلاء على مصر، واستولى الصليبيون خلالها على دمياط، ولكنهم لم يلبثوا أن أخلوها، وانتهت الحملة بالفشل. الحملة الصليبية السادسة (1228 – 1229م): قادها فريدريك الثاني إمبراطور ألمانيا، وكان زائراً مسالماً؛ فتفاهم مع المسلمين، وعقد معاهدة سنة (1229م) مع الملك الكامل سلطان مصر، وكان من شروطها: التخلي عن الناصرة وبيت لحم والقدس للصليبيين، واستمرت هذه المعاهدة إلى أن تُوفي الملك الكامل سنة (1239م) وخلفه ابنه الملك الصالح الذي أعلن الحرب على الصليبيين، واحتل بيت المقدس ليعيدها إلى حوزة الإسلام سنة (1244م). الحملة الصليبية السابعة (1248 – 1251م): تولى قيادتها لويس التاسع ملك فرنسا وتمكّن من احتلال دمياط، وفي هذا الوقت تُوفي الملك الصالح، وقامت بالدفاع عن مصر امرأته شجرة الدر، وفشلت حملة لويس، وأسر، ولم يُطلق سراحه إلا بعد تعهده بمغادرة أرض مصر. الحملة الصليبية الثامنة (1270م): قادها الملك لويس التاسع أيضاً؛ فأغار على تونس، ولكن وفاته حالت دون استمرارها. الحملة الصليبية التاسعة (1271 – 1272م): قادها الأمير إدوارد الأول، وكان نصيبها الفشل أيضاً، وتمكن المماليك من طرد الصليبيين من الشرق الأدنى.

### \*دير الجماجم (معركة)

كانت بين الحجاج بن يوسف الثقفي وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وكان الحجاج قد سير عبد الرحمن بن الأشعث بجيش لغزو رتبيل بسجستان، فدخلها عبد الرحمن، واتفق مع قادة جيشه على إخراج الحجاج من أرض العراق، بعد أن ملك سجستان وكرمان والبصرة وفارس، ثم خرج يريد الكوفة لأن أهلها يبغضون الحجاج، وبها عشائره ومواليه؛ فقصده الحجاج بن يوسف فنزل ابن الأشعث دير الجماجم، وهو دير بظاهر الكوفة، على طريق البر إلى البصرة ونزل الحجاج بإزائه بدير قرة، ووقعت الحرب بينهما، واشتد القتال، ولما بلغ ذلك رءوس القبائل عرضوا على عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين أن يخلع الحجاج من العراق؛ ليحقن دماء المسلمين، فبعث عبد الملك إلى العراق محمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك؛ ليعرضوا على أهل العراق عزل الحجاج مقابل حقن الدماء، فرفض أهل العراق وأبو إلا القتال. وأخذ الفريقان يقتتلان حتى انتهت المعركة بهزيمة عبد الرحمن بن الأشعث في (14 من جمادى الآخرة 83 هـ = 18 من يونية 702 م) بعد مائة يوم من الحرب.

(137/13)

### \*تونديبي (موقعة)

تونديبي (أوتندي) موقعة حدثت يوم الأربعاء (16 من جمادى الأولى 999 هـ = 12 من مارس 1591 م)، بين جيش السلطان أحمد المنصور الذهبي (أحد سلاطين الدولة السعدية بالمغرب الأقصى التي حكمت من سنة 1057 - 1159 هـ = 1552 - 1654 م) وسلطنة سنغاي (سنغاي أو سنغاي). جرت أحداثها شمالي مدينة جاو (أو كاو) في السودان الغربي. كان لأحمد المنصور الذهبي تطلع

إلى هذه المنطقة حتى قبل أن يكون سلطاناً، فلما تولى السلطنة وحدث خلاف بين المغاربة وسلطنة صنغاي حول واحة تغازة التي كان المغاربة يحصلون منها على الملح؛ انتهز فرصة خلاف وقع بين أهالي هذه الواحة وصمم على شن حملة تسيطر على الإقليم، رغم صعوبة المناخ وقلة المياه. تألفت هذه الحملة المغربية من عشرين ألف جندي، وعدد من الأسرى الإسبانين، وقيل: ثلاثة آلاف جندي معظمهم من الإسبان الذين أسلموا، وكان الزحف عملية صعبة، حتى قيل: لم يبق إلا ألف جندي من أصل ثلاثة آلاف بقيادة جودر ولكنهم يتميزون بامتلاكهم الأسلحة النارية؛ مما حقق لهم النصر على جيش مملكة صنغاي، وألحقت بملكهما إسحاق الهزيمة، فقد كان جيشه يقاتل بالحراب والسهام والسيوف، فتمكن جودر من دحر أعدائه، ودخل جاو العاصمة. وقيل السلطان أن يحكم تحت سلطة أحمد المنصور، لكن الأخير رفض، وسير قائداً آخر فاستند القائد الأول للجنود؛ فبدأ سلطان صنغاي في مقاومة المغاربة من الغابات، وحصل المنصور على غنائم كثيرة في شكل أحمال جمال من التبر والذهب، وأصبح يلقب بالذهبي، وأصبح ينظر إلى المغرب على أنه مورد كبير من الذهب؛ لكن هذا الوضع كان بالنسبة إلى المغرب مؤقتاً، وقيل: تم القضاء على مملكة صنغاي سنة (1593م)، واتخذ القائد جودر تمبكتو مقراً له.

(138/13)

### \*ثورة القاهرة الأولى والثانية

ثورة القاهرة الأولى: أدت الضرائب والقروض الإجبارية، خاصة بعد كارثة الأسطول الفرنسي في أبي قير، بالإضافة إلى العادات الاجتماعية (كترج النساء)، وما قام به نابليون من هدم

بعض البيوت والمساجد لدواعي الأمن، وإعدام السيد محمد كريم،  
والتعرض لنفيسة هانم زوج مراد بك - وكانت ذات منزلة كبيرة  
في قلوب الشعب - وفرض مبلغ من المال مصالحة. وقد أدت  
الضريبة التي فرضت على المنازل إلى ثورة القاهرة في وجه  
نابليون. ولم تُدْم هذه الثورة سوى يومين، وبدأت في يوم الأحد  
(11 من جمادى الأولى 1213 هـ = 21 من أكتوبر 1798 م) من  
الأزهر، واستعمل نابليون المدافع التي ركبت فوق جبل المقطم،  
وصبَّ القنابل فوق حى الأزهر والجامع ذاته. وبلغ من قتلوا ثلاثة  
أو أربعة آلاف، ودخلت الخيل الأزهر، وعسكرت فيه، وأعدم  
ثلاثة عشر من مشايخ الأزهر، واتسعت الهوة بين نابليون  
والشعب المصرى. وانتهت هذه الثورة في (13 من جمادى الأولى  
1213 هـ = 23 من أكتوبر 1798 م). ثورة القاهرة الثانية: أثناء  
معركة عين شمس بين الجيش العثماني والجيش الفرنسي شرع  
القاهريون في ثورتهم الثانية في (17 من شوال 1214 هـ = 15  
من مارس 1800 م) ودامت سبعة وثلاثين يومًا بزعامة السيد عمر  
مكرم الذى أصبح رمزًا لمقاومة الشعب التي لا تقهر. وفرضت  
الجيوش الفرنسية حصارًا حول المدينة، ومنعت عنها الأقوات،  
وعقد كليبر صلحًا مع مراد بك حاكم الصعيد، وشرع في حرق  
القاهرة. وكان حى بولاق هو نقطة البداية؛ لقيامه بدور كبير في  
الثورة، ولمع فيه اسم زعيم شعبي هو الحاج مصطفى  
البشتيلي، ونصبت المدافع، ففتحت دخل ثغرة منها الجنود  
الفرنسيون، لحرق كل شيء؛ من بيوت ومخازن ومحال تجارية.  
وفي (25 من ذى القعدة 1214 هـ = 21 من أبريل 1800 م) تم  
الاتفاق بين بقية الثوار وكليبر على جلاء الأتراك والمماليك  
وزعماء الثورة عن القاهرة، على أن يعلن كليبر العفو العام عن

السكان. واحتل كليبر القاهرة، وفرض غرامة حربية قدرها اثنا عشر مليوناً من الفرنكات، وعشرون ألف بندقية، وعشرة آلاف سيف، وعشرون ألف طبنجة، ثم قتل كليبر على يد سليمان الحلبي السوري.

(140/13)

### \*باني بت (معركة)

معركة نشبت بالقرب من باني بت، إحدى المدن الهندية، بين ظهير الدين محمد بابر مؤسس الدولة المغولية التيمورية، والسلطان إبراهيم اللودي حاكم دلهي. وقد بدأت وقائع هذه المعركة باستنجد حاكم لاهور ضد ابن عمه إبراهيم اللودي فانتهاز هذه الفرصة، خاصة أنه أحد أحفاد تيمورلنك وأن للهند أهمية، وأن الدولة التيمورية تسعى إلى توطيد أركانها وتوسيع رقعتها - فسار إلى الهند باثني عشر ألف مقاتل فقط، لكنهم كانوا مزودين بالمدافع الحديثة التي لم يعرفها حاكم دلهي الذي اعتمد على كثرة الجنود؛ إذ كانوا مائة ألف من الفرسان مزودين بالفيلة. والتقى الجيشان في باني بت في (رجب 932هـ = أبريل 1526م)، ولم تنفع الكثرة أمام تنظيم بابر ومدافعه، لاسيما أن إبراهيم اللودي كان رجلاً متكاسلاً متردداً، غير مَعْنِيٍّ بتنظيم جيشه، فدارت الدائرة عليه، وقُتِل هو وآلاف من جيشه، وفر الباقون، ودخل بابر دلهي ظافراً؛ حيث نودي به ملكاً على الهند يوم الجمعة (رجب 932هـ = أبريل 1526م). ومما يذكر أن حاكم لاهور الذي استدعاه مستنجداً به خانه، ولم يكن بابر رجلاً عسكرياً فحسب، وإنما كان نابغة في مختلف العلوم؛ فقد كان حنفيًا مجتهدًا، وألف في علم العروض، وفي الفقه، واخترع خطًا سُمِّي باسمه وكتب به مصحفًا وأهداه إلى مكة،

كما كان أديبًا شاعرًا مجيدًا يقرض الشعر باللغتين التركية  
والفارسية، وكتب مذاكراته بنفسه، وقد طبعت في قازان سنة  
(1875م)، وترجمت إلى الفارسية ومنها إلى اللغات الأوروبية،  
لكنها لم تترجم إلى العربية.

(141/13)

### \*المدائن (فتح)

وقعت بين المسلمين والفرس معركة في المدائن سنة (16هـ)،  
واستطاع المسلمون خلالها السيطرة على المدائن عاصمة الفرس؛  
فبعد فراغ سعد بن أبي وقاص من فتح القادسية أقام شهرين،  
ثم كاتب عمر بن الخطاب فيما يفعل، فأمره بالسير إلى المدائن  
وفتحها، فقابل سعد بعض جيوش الفرس، فقاتلهم، وأقام فترة  
ببابل، ثم أرسل أحد قواده فاستطاع فتح المدائن الغربية ثم  
سار إلى المدائن الشرقية التي يوجد فيها إيوان كسرى؛ حيث  
عبر «سعد» نهر «دجلة» من أضيق مكان فيه بنصيحة «سلمان  
الفراسي» على خيولهم، فلما رأى الفرس ذلك هربوا إلى حلوان  
وأخذوا ما استطاعوا من متاع، ودخل سعد بن أبي وقاص إيوان  
كسرى وكان قبل أيام قليلة يهدد المسلمين ويتوعددهم من قصره  
الأبيض، مقر ملك الأكاسرة، الذي كان آية من آيات الفخامة  
والبهاء. وفي ذلك القصر صلى «سعد ابن أبي وقاص» صلاة  
الشكر لله على هذا الفتح العظيم وتلا في خشوع قول الله  
تعالى: {كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة  
كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قومًا آخريين فما بكت  
عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين}. [الدخان: 25 – 29]. وغنم  
المسلمون غنائم كثيرة في فتح المدائن، منها: كنوز كسرى  
وتاجه وثيابه وأساوره، وأدى المسلمون الأمانات التي كانت

لديهم، فقال عمر بن الخطاب عند ذلك: إن قومًا أدوا هذا لذوو  
أمانة. وأخذ سراقه بن مالك سوارى كسرى اللذين وعده بهما  
النبي. وكان سهم الفارس (12) ألف درهم. أرسل «سعد» إلى  
«عمر بن الخطاب» رسولا يبشره بالنصر وبما حازوه من غنائم،  
ويطلب منه السماح لهم بمواصلة الفتح في بلاد فارس، لكن  
«عمر» رفض ذلك، وقال له: «وددت لو أن بيننا وبينهم سدًا من  
نار، لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم، حسبنا من الأرض السواد - أى  
أرض العراق - إني آثرت سلامة المسلمين على الأنفال».

(142/13)

#### \* المنصورة (معركة)

وقعت بين المصريين - بزعامة الأيوبيين والمماليك - والفرنجية (الفرنسيين) بزعامة لويس التاسع في المنصورة سنة (1250م).  
فبعد احتلال الفرنسيين لدمياط سنة (1249م) سعوا إلى الزحف  
على القاهرة، عن طريق الدلتا، خاصة بعد موت نجم الدين أيوب،  
واستطاعوا هزيمة الأمير فخر الدين قائد جيش الأيوبيين، وقتله  
قرب فارسكور؛ حيث عسكر لويس على ضفاف البحر الصغير،  
وظلت المناوشات بين الجيشين لمدة (6) أسابيع، استطاع خلالها  
لويس التاسع إقامة جسر على البحر الصغير بمساعدة بعض  
النصارى في قرية سلمون، وعانى جيش لويس الحصار والأوبئة؛  
لذلك عبر روبرت دى أرتوا أخو لويس بحر أشموم مع مقدمة من  
الجيش الصليبي، ولم ينتظر قدوم بقية الجيش الصليبي إليه، فبادر  
باقتحام المنصورة واستطاع المصريون بقيادة بيبرس البندقدارى  
قتل روبرت ومقدمة جيش الصليبيين التي وصل عددها (1500)  
مقاتل، وعبر لويس، واحتتمى المصريون بالمنصورة، وبدءوا  
يشنون الغارات على الفرنسيين حتى قدم توران شاه وتولى

الحكم خلفاً لأبيه، وأنشأ أسطولاً من السفن الخفيفة، نقلها إلى النيل، واستطاعت أسر مايزيد على (80) سفينة من سفن الفرنج، وتعرض الإفرنج للمجاعة والأوبئة، وفروا إلى دمياط إلا أنهم لم يدمروا الجسر الذي أقاموه، فعبه المصريون، واستطاعوا أسر لويس التاسع والجيش الصليبي حيث افتدى لويس نفسه بنصف مليون دينار.

(143/13)

### \*الحرب العالمية الأولى

استمرت هذه الحرب أربع سنوات وخمسة عشر أسبوعاً؛ إذ بدأت سنة (1914م) وانتهت سنة (1918م)، واشترك فيها ثلاثون دولة، وجُنِّد فيها خمسة وستون مليون مقاتل، لقي مصرعه منهم ثمانية ملايين ونصف المليون، وجرح وأسر تسعة وعشرون مليوناً. وكان السبب المباشر لنشوبها اغتيال فرانسيو فرديناند وليء عهد النمسا في سراييفو في (28 من يونيو 1914م) بيد برنشيو الصربي، وفي نهاية صيف سنة (1914م) اشتبك الحلفاء (إنجلترا وفرنسا وروسيا وبلجيكا وصربيا واليابان) في حرب عنيفة ضد قوات التحالف المكون من (ألمانيا والنمسا والمجر والإمبراطورية العثمانية). وفي العام الأول من الحرب حققت ألمانيا انتصارات في الجبهة الغربية؛ فاحتلت بلجيكا وتقدمت نحو باريس، أما في الجبهة الشرقية فقد مُنيت القوات الروسية بهزائم كبيرة نجمت عن عدم فاعلية قيادتها. واستمرت الحرب على الجبهة الغربية في عام (1915م) ولم يحقق أى الطرفين انتصارات بارزة، وفي مايو (1915م) أعلنت إيطاليا الحرب على النمسا، وفي الجبهة الشرقية استمرت هزائم روسيا أمام قوات ألمانيا، كما شهد عام (1915م) عدة معارك بحرية غير حاسمة،

غير أن عمليات الغواصة الألمانية اتسعت بشكل كبير. ولم يشهد عام (1916م) تغيرات جوهرية على الجبهة الغربية باستثناء استخدام الدبابة لأول مرة إبان معركة السوم، كما استمرت عمليات الغواصة الألمانية، وقيام معركة جونلانند البحرية. وقد شهد عام (1917م) عدة تحولات مهمة، أهمها إعلان الولايات المتحدة الأمريكية الحرب على ألمانيا في (6 من أبريل 1917 م)، وشهدت الجبهة الشرقية تحولاً أساسياً، تمثل في الثورة الروسية في (مارس 1917م) وتعهده النظام المؤقت الجديد بمتابعة الحرب ضد ألمانيا، واستمر البريطانيون في تقدمهم فتمكنوا من احتلال القدس وبغداد. وفي مطلع عام (1918م) حدد الرئيس الأمريكي ويلسون برنامجاً يحتوى على (14) بنداً للسلام ضمنه

(144/13)

---

مبادئ عامة، منها حرية الملاحة في البحار، ونزع القيود على التجارة، وتخفيض السلاح. وفي (28 من يونيو 1919 م) تم توقيع معاهدة فرساي التي تضمنت تجريد ألمانيا من مستعمراتها، كما فرضت عليها دفع تعويضات بلغت (56) مليون دولار. وقد أدت الحرب العالمية الأولى إلى تغيرات جذرية في العالم؛ إذ اختفت أربع إمبراطوريات كبرى، هي: الألمانية والنمساوية والروسية والعثمانية، وظهرت عدة دول جديدة، مثل: فنلندا وبولونيا وإستونيا وليتوانيا. وخرجت فرنسا وبريطانيا بمكاسب كثيرة، وتعززت سيطرتهم الاستعمارية على مناطق واسعة من العالم.

(145/13)

---

### \*جالديران (معركة)

وهى معركة دارت بين العثمانيين والفرس فى (2من رجب 920 هـ = 23 من أغسطس 1514 م)، فى سهل جالديران، بالقرب من تبريز؛ فعرفت بهذا الاسم. فبعد إعلان السلطان العثمانى سليم الأول الحرب على الشاه إسماعيل الصفوى سار الجيش العثمانى حتى التقى مع الجيش الفارسى فى سهل جالديران. وقد نجح العثمانيون فى الانتصار على الفرس؛ بسبب استخدام العثمانيين الأسلحة الحديثة. ومن أهم النتائج التى أسفرت عنها هذه المعركة: انتقال الأناضول الشرقية والجنوبية إلى حوزة الدولة العثمانية، عدا القسم الموجود لدى المماليك، وأفول نجم الصفويين السياسى لمدة عشرين سنة، وانضمام الأمراء الأكراد السنيين إلى الدولة العثمانية، وأن الدولة العثمانية أصبحت على حدود الدولة المملوكية، خاصة بعد احتلال الرقة فى سوريا.

(146/13)

### \*حادث 31 مارس

ثارت حامية الآستانة - وكان عددها ثلاثين ألفاً - على مجلس المبعوثان وجماعة الاتحاد والترقى. وكان الثائرون يطالبون بإحياء الشريعة الإسلامية، وبعزل الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) وناظرى (وزيرى) الحرية والبحرية، وطرد أحمد رضا بك وحسين جاهد بك وأمثالهما من مجلس المبعوثان، وعزل محمود مختار باشا وبالغفو عنهم. وقد عقد مجلس المبعوثان اجتماعاً واستجاب لمطالب الثوار، وانتخبوا وفدًا ليلبغ السلطان قرارهم، وعين توفيق باشا صدرًا أعظم (رئيسًا للوزراء)، وأدهم باشا ناظرًا (وزيرًا) للحرية. وقد حاصر الروم الآستانة ودخلها الجيش بقيادة محمود شوكت باشا وحاصر يلديز، ودارت معركة كبيرة

انتهت بتسليم حامية يلديز وأطلقت القنابل على حامية الباب  
العالي والنادى العسكرى، وقبض على الكثيرين، كمراد بك  
الداغستاني، وأعدم عدد كبير رمياً بالرصاص، وبلغ عدد القتلى  
(1200) قتيل، واجتمعت الجمعية العمومية؛ لتداول في أمر  
السلطان عبد الحميد الثانى وقررت عزله، وتولية السلطان رشاد  
مكانه.

(147/13)

### \* بنو قريظة (غزوة)

لما نقض بنو قريظة العهد مع المسلمين في غزوة الأحزاب، وجاء  
جبريل عليه السلام، وقال للنبي - صلى الله عليه وسلم - : إن الملائكة لم تضع أسلحتها،  
قال ( : لا يصلين أحدكم العصر إلا في بنى قريظة. وأعطى الراية  
لعلى، واستخلف ابن أم مكتوم على المدينة، ووصل النبي إليهم،  
وقال لهم: نقضتم العهد يا إخوة القروء، أخزاكم الله، وأنزل بكم  
نقمته، فقالوا: ما كنت جاهلاً يا محمد، فلا تجهل علينا. وحاصرهم  
النبي - صلى الله عليه وسلم - بضعةً وعشرين ليلة، وعرض عليهم سيدهم كعب بن أسد  
ثلاثة اختيارات ليختاروا أيها شاءوا؛ إما الإسلام، وإما قتل  
نساءهم وأبنائهم وقتل المسلمين، وإما إتيان المسلمين في ليلة  
السبت حين طمأنينتهم فيقتلوهم قتلاً، فأبوا الإسلام والقتال،  
وعن الثالث قالوا: لا نتعدى في السبت. واستشاروا أبا لُبابة،  
فقال لهم: نعم انزلوا على حكمه، وأشار إلى عنقه - يعنى الذبح  
- ثم ندم؛ لأنه علم أنه خان الله ورسوله، وربط نفسه في سارية  
المسجد، ثم تاب الله عليه، ونزل ثعلبة وأسيد ابنا سَعِيَة، وأسد  
بن عبيد - نزلوا مسلمين، وخرج عمرو بن سَعْدَى (الْقُرْظَى)، وقد  
أبى أن ينقض العهد، قائلاً: لا أعدر بمحمد أبداً، وبات ليلة في  
المسجد، ثم خرج فلم يُعْلَم أين سقط، وقال عنه ( : ذلك رجل نجَّاه

الله بوفائه. وحكم في بني قريظة سعد بن معاذ الأوسى بأن يقتل الرجال، وتُسي الدَّارَى والنساء وتقسم الأموال، فقال (: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة، وقتل يومئذٍ حُيُّ بن أخطب وكعب بن أسد، وكانوا من الستمئة إلى السبعمئة. وقتلت امرأة، وهي بُنانة امرأة الحكم القرظي التي طرحت الرحي على خلاد بن سويد، فقتلته أثناء الحصار، وقسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أموال بني قريظة، واستشهد بعد ذلك سعد بن معاذ، وهو الذي أتى فيه الحديث: أنه اهتز لموته عرش الرحمن، يعني سكان العرش من الملائكة، فرحوا بقدم روحه.

(148/13)

#### \*الريدانية (موقعة)

آخر معركة دارت بين الجيش العثماني بقيادة السلطان سليم الأول وجيش المماليك بقيادة طومان باى فى يناير (1517م). كانت دولة المماليك قد أخذت فى الضعف منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادى، فى حين كانت الدولة العثمانية تضم إليها بلدان العالم الإسلامى فى مرحلة توسعها، ونجحت سنة (1516م) فى ضم سوريا بعد هزيمة السلطان قانصوه الغورى سلطان مصر والشام فى معركة مرج دابق، ثم اتجهت إلى ضم مصر. وأرسل السلطان سليم الأول رسالة إلى طومان باى الذى خلف قانصوه الغورى فى حكم مصر، يأمره بتسليم مصر، فى مقابل الاعتراف به نائباً عليها من قبل العثمانيين، ولكنه رفض وآثر الحرب. سار السلطان سليم بجيشه من غزة وسلك الطريق الساحلى الممتد على الشاطئ الشمالى لشبه جزيرة سيناء حتى وصل إلى الصاحية داخل الأراضى المصرية، ثم اتجه نحو بلبس فى حين خرج طومان باى إلى الريدانية قرب العباسية بظاهر القاهرة،

وعسكر بجيشه الذى ضم نحو (40) ألفاً من الجنود تدعمهم المدفعية والفرسان، ولكنهم غير متجانسين، ويفتقرون إلى الروح القتالية العالية. وقد امتاز جيش السلطان سليم الأول بالتفوق العددي والقيادة الحكيمة والمعنويات المرتفعة، ودارت المعركة، وفي بدايتها قام جيش طومان باى بعدة هجمات لاختراق صفوف الجيش العثماني، لكن التفوق العددي والمناورات القتالية للعثمانيين تغلبت عليه، وانفرط عقد جيشه، وفر من حوله كثير من جنده، فهرب بمن بقى معه، وعاد إلى القاهرة لينظم باقى جنده، ويستأنف الحرب. ودارت عدة اشتباكات بينه وبين العثمانيين حتى تمكنوا من هزيمته نهائياً، والقبض عليه، ثم إعدامه. ومن نتائج هذه المعركة سقوط دولة المماليك، وإعلان مصر ولاية عثمانية، وانتقال الخلافة من العباسيين إلى العثمانيين؛ فكان السلطان سليم الأول أول خليفة عثماني سنة (1517م).

(149/13)

#### \*الحسين بن الحسن (ثورة)

قام بما أحد أفراد البيت العلوي بالحجاز، وهو الحسين بن الحسن الأفيطس، ضد المأمون سنة (199هـ)، وشجعه على ذلك غلبة الطالبين على الكوفة والبصرة وكور العراق ولما رأى الحسين بن الحسن ومن معه من أهل بيته تغير معاملة الناس لهم، وبلغهم أنه قد طرد من الكوفة والبصرة وكور العراق ومن كان بها من الطالبين، ورجعت الولاية فيها للعباسيين - اجتمعوا إلى محمد بن جعفر بن محمد ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وكان محبباً إلى الناس، وطلبوا منه أن يبايعوه بالخلافة، فأبى، فألح عليه ابنه علي والحسين بن الحسن حتى استجاب

لهما فبايعه الناس بالخلافة، ثم توجه إليه إسحاق بن موسى بن عيسى وإلى اليمن فقاتله ببئر معونة وهزمه، فطلب محمد بن جعفر وأصحابه الأمان حتى يخرجوا من مكة فأجابهم إسحاق، وتفرق الطالبيون كل قوم في ناحية.

(150/13)

---

### \*فارنا (معركة)

دارت عند مدينة فارنا على البحر الأسود معركة بين الجيش العثماني وحملة صليبية كبيرة. وسببها تخلى مراد الثاني عن الحكم لولده محمد الفاتح الذي كان طفلاً آنذاك، فأطمع ذلك الأوربيين وعلى رأسهم الجريون والبيزنطيون. وتشكلت الحملة الصليبية الخامسة بقيادة الملك لاديلاس ظاهراً وبقيادة هنيادي فعلياً، ضد العثمانيين. وبعد عودة مراد الثاني إلى الحكم قاد جيشاً قوامه أربعون ألفاً، ونزل الجيش الصليبي ساحل البحر الأسود، واقترب من فارنا، ونهب المدن والكنائس الأرثوذكسية التي قابلوها في طريقهم وبدأت الحرب بهجوم هنيادي، وترك مراد الثانىالعدو يتوغل إلى عمق صفوف المسلمين، ثم أعطى الأمر لجيشه بالهجوم، ولم يدرك الملك لاديسلاس أن المسلمين قد طوقوه، وقتل العثمانيون لاديسلاس بعد قتلهم خمسين فارساً من الحرس الملكى، كما قُتل الكاردينال جسابيني، وتمكن هنيادي من الهرب، وبلغ عدد الأسرى مابين ثمانين وتسعين ألف جندي، وأبيد الباقي، واستشهد من العثمانيين نحو مائة وخمسين، وكان عدد الجرحى كبيراً، وأيقن الأوربيون صعوبة طرد العثمانيين من منطقة البلقان، وانفصلت بولونيا عن الحجة مرة ثانية؛ لأن ديسلاس قُتل، ولم يترك وارثاً ملكه.

(151/13)

### \*الإسكندر (فتوحات)

هو الإسكندر الثالث بن فيليب المقدوني، ملك مقدونيا. تتلمذ لأرسطو، وقضى على الثورات التي قامت بعد موت أبيه في المدن الإغريقية وتراقيا والديريا. وفي سنة (334 ق. م) بدأ تنفيذ مشروع محاربة الفرس الذي ورثه عن أبيه. أحرز نصرين كبيرين عند نهر جرانيكوس، في موقعة أسوس، ثم استولى على صور وغزة في نحو عام، ثم واصل سيره تجاه مصر حتى وصل إلى بلوزيوم بوابة مصر الشرقية، فاستسلم له حاكم مصر الفارسي، وقدم الإسكندر القرابين إلى الآلهة المصرية، وتوج فرعوناً في منف، وأسس مدينة الإسكندرية وهو في طريقه إلى معبد الوحي بسبوة. وفي سنة (331 ق. م) اتجه إلى بابل والتقى بالجيش الفارسي في معركة جوجميلا، وأحرز نصرًا مؤزرًا على الإمبراطور الفارسي دارا الثالث الذي لقي مصرعه، ودخل الإسكندر العاصمة سوسة معلنًا بذلك سقوط الدولة الفارسية. واصل الإسكندر سيره حتى بلغ شواطئ بحر قزوين، واستولى على أفغانستان وبلاد ماوراء النهر، ثم اتجه غربًا حتى وصل إلى منطقة سمرقند الحالية، واشتبك في أثناء رحلته مع عديد من القبائل المنتشرة في هذه المناطق، حتى وصل إلى الهند، واستولى على بعض أقاليمها. وبعد هذه الرحلة الشاقة والمعارك الكثيرة أصاب الكلل الجيش، فتذمر جنوده وطالبوا بالعودة إلى بلادهم، وفي أثناء هذه العودة أصيب الإسكندر بالحمى عند بابل، ومات فجأة، سنة (323 ق. م)، وهو في سن الثالثة والثلاثين، بعد أن أسس إمبراطورية كبيرة.

### \*الحسين بن علي بن الحسن (ثورة)

هى ثورة قام بها العلويون فى عهد الهادى بمكة والمدينة،  
بزعامه الحسين بن على بن الحسين بن الحسن بن على؛ بسبب  
سوء معاملة عامل الهادى على المدينة لهم، واتهامه لهم بشرب  
الخمى، وقبضه عليهم، والتشهير بهم بين أهل المدينة. وقد توجه  
الحسين بن علبعد خروجه من المدينة نحو مكة، فلقبه جيش  
العباسيين بوادى فخ الذى يبعد عن مكة بستة أميال، وقتل  
الحسين بن على بعد أن أبلى بلاء حسناً، وقتل معه بعض أهل  
بيته. وكانت هذه الموقعة من الشدة بحيث قيل: لم تكن مصيبة  
بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ. وقد كثر شعر الشيعة فى رثاء  
من قتل فى هذه المعركة.

(153/13)

### \*عمرو بن معاوية القيسى (ثورة)

ثورة ضد دولة الأغالبة؛ نتيجة لسياسة العنف التى انتهجها زيادة  
الله بن إبراهيم بن الأغلب، أمير الأغالبة، وكان عمرو بن معاوية  
والياً من قبل زيادة الله على منطقة القصرين، فأعلن العصيان  
سنة (208هـ=823م)، وسيطر على المنطقة، وأدخل ولديه حباباً  
وسجمان فى الفتنة رغم معارضة حباب لأبيه وتخوفه إياه من  
عواقب الفتنة فتعرض للتنكيل من والده. ولم تطل ثورة عمرو  
القيسى فقد سار إليه موسى بن هارون بقوات الأغالبة، فقبلوا  
الاستسلام، على أن يأخذوا الأمان، وجيء بهم إلى زيادة الله  
الذى أمر بحبسهم فى بيت ابن عمه ووزيره الأغلب بن عبد الله  
المشهور باسم غلبون، إلى أن يرى فيهم رأيه، وسرعان ماراح  
الثلاثة ضحية القيل والقال فقد أشيع أن الأمير لم يقتص منهم؛  
خوفاً من عصبية بنى قيس فى مصر إبقاءً على عمه والى مصر

آنذاك فقتلهم جميعًا، ولم تشفع لديه معارضة الحباب لأبيه أول الأمر، وقيل: إن ثورة الطنبدى ضد الأغالبة كانت انتقامًا لمقتل عمرو بن معاوية وولديه، إلى جانب عنف زيادة الله وفساده.

(154/13)

---

### \*العقر (معركة)

وقعت سنة (102هـ=720م) في خلافة الأمويين، بين يزيد بن المهلب وجيش الخلافة بقيادة مسلمة بن عبد الملك في خلافة أخيه يزيد بن عبد الملك. وكان يزيد بن عبد الملك واليًا على العراق ثم خراسان ثم البصرة في خلافة سليمان بن عبد الملك، ولما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة عزله وسجنه، فلما مات عمر ذهب غلمان يزيد، وأخرجوه فصار بجيش إلى البصرة، واستولى عليها، وتجهز لحرب جيش الخلافة. وأرسل يزيد بن عبد الملك جيشًا بقيادة أخيه مسلمة، والتقى الجيشان في موضع يقال له: العقر، في أواسط العراق، واقتتلا قتالا شديدًا، فقتل كثير من جيش يزيد بن المهلب، وفر كثير من جنده من حوله، كما قُتل في المعركة يزيد وأخوه حبيب ومومتها انتهى دور الأسرة المهلبية (أسرة بن المهلب) في التاريخ الأموي.

(155/13)

---

### \*كينونة (معركة)

كينونة أو كبنونة: إحدى المعارك التي دارت بين أبي عبد الله الشيعي دولة الأغالبة ببلاد المغرب سنة (292هـ=905م). وكان أبو عبد الله قد أخذ ينشر المذهب الشيعي الفاطمي، ويدعو إلى إمامة أبي عبيد الله المهدي في المغرب قبل قيام الدولة

الفاطمية، وتبعه عدد كبير من القبائل، واستولى على مناطق تابعة للأغالبة؛ مما أوقع الصدام بينهما، وانتصر جيش أبي عبد الله على الأغالبة في أكثر من معركة، أشهرها معركة كينونة؛ حيث التقى جيش أبي عبد الله الشيعي مع جيش زيادة الله الأغلبى الذى بلغ نحو (40) ألف رجل مابين فارس وراجل، وعهد بقيادته إلى إبراهيم بن حبش، وتقدم إلى مقر أبي عبد الله في بلدة إجانة أو إيكحان، ونزل في موضع يسمى كبونة أو كينونة بالجزائر، ودارت بينهما معركة شديدة مُنى فيها جيش الأغالبة بهزيمة ساحقة.

(156/13)

#### \*ميسرة المضفرى (ثورة)

إحدى ثورات الخوارج ببلاد المغرب على الخلافة الأموية. قام بها ميسرة المضفرى؛ نسبة إلى قبيلة مضفر إحدى القبائل البترية بالمغرب، ويلقب بالفقير والحقير، وكان في بداية حياته يعمل سقاءً يبيع الماء في سوق القيروان حتى عرف مبادئ الخوارج ومطالبهم فتحمس لها خاصة فرقة الصفرية، ولما عاد إلى موطنه نشر هذا المذهب بين أفراد قبيلته الذين بايعوه إمامًا لهم، ثم انضمت إليه قبائل أخرى، مثل: غمارة ومكناسة وبرغواطة؛ فأعلن ثورته على الخلافة، ونجح في الاستيلاء على طنجة بعد هزيمة عاملها، وحاولت الخلافة القضاء عليه، فأرسلت إليه قواتها أكثر من مرة لمحاربتة لكنها فشلت في القضاء عليه حتى كانت نهايته في إحدى المعارك بالقرب من وادى شلف قرب تلمسان، انتصر فيها جيش الخلافة على جيش ميسرة، وانتهى الأمر بقتله سنة (123هـ) على أيدي أتباعه الذين اتهموه بالفرار من المعركة.

**\*حادث القنبلة**

كون الثوار الأرمن جمعيات إرهابية ضد المسلمين من رعايا الدولة العثمانية، داخل أراضي الدولة العثمانية وخارجها، وأحدثوا اضطرابات دامية، وذلك بتنظيم ماسوني مع جمعية الطاشناق الأرمنية وبتشجيع من كال إدوارد السابع ملك بريطانيا الماسوني الذي قدم إليهم (23) ألف ليرة ذهبية؛ لقتل السلطان عبد الحميد الثاني فكان هذا الحادث الذي اشتهر بحادث القنبلة، وكلف فيه يهود سويسرا إدوارد جورج اليهودى الفرنسى الجنسية بالتعاون مع الطاشناق؛ لادخال عربة إلى إستانبول فوصلت إلى إستانبول قطعةً قطعةً، وتم تركيبها لتكون قنبلة جحيم تنفجر في الوقت الذي يخرج فيه السلطان عبد الحميد من مسجد محمد الفاتح بعد صلاة الجمعة، فانفجرت، ولم يتم لهم مآرادوا، ووقع اشتباك مع رجال الحرس السلطاني والشرطة، فلقى عشرون منهم مصرعهم، وقبض على المنفذين الأرمن بالباب العالى، فتدخل السفير لحياتهم بحجة الامتيازات الأجنبية، وتم له مآراد. ولم يكن حادث القنبلة المحاولة الوحيدة للأرمن لاغتيال السلطان عبد الحميد.

**\*القصر الكبير (معركة)**

وقعت في (4 من أغسطس 1578م) في مدينة القصر الكبير غرب إقليم الريف بالمغرب العربى، بين البرتغاليين بقيادة ملكهم سيباسيتان والسلطان أحمد المنصورالذهبي أحد سلاطين دولة

الأشراف السعديين بالمغرب الأقصى. وكان ملك البرتغال قد قام-  
بإيعاز من رجال الدين الجزويت بالبرتغال - بإعداد حملة لغزو  
بلاد المغرب، فعبر بجيشه إلى المغرب، ودارت بين الطرفين  
معركة شديدة انتهت بهزيمة الجيش البرتغالي وقتل الملك.

(159/13)

---

### \*فخ (معركة)

اسم وادٍ في الطريق بين مكة والمدينة، يبعد عن مكة بستة  
أميال. وقعت به معركة سنة (169 هـ) في خلافة موسى  
الهادي، أحد خلفاء بني العباس، بين العلويين بقيادة الحسين  
بن علي بن الحسن بن الحسن بن أبي طالب وجيش الخلافة  
العباسية. وكان الحسين قد خرج هو وأتباعه العلويون في  
المدينة على عاملها، ودعا إلى نفسه، واجتمع حوله الشيعة  
والعلويون، وقصدوا دار الإمارة واقتحموا السجون وأخرجوا من  
كان بها. وأقام الحسين بدار الإمارة (11) يومًا بعد بيعته، ثم  
خرج منها قاصدًا مكة، وفي الطريق قابله جيش الخلافة  
العباسية، ودارت معركة بينهما بفخ، قُتل فيها الحسين وبعض  
أمرائه بيته.

(160/13)

---

### \*يوسف بن إبراهيم البرم (ثورة)

هو يوسف بن إبراهيم المعروف بيوسف البرم. أحد ثوار خراسان،  
خرج على الخليفة العباسي محمد المهدي بعد أن جمع الناس  
حوله، واستولى على عدة مدن في خراسان ومروالروذ  
والطالقان، فأرسل إليه المهدي جيشًا بقيادة يزيد ابن مزيد

الشيبانى؛ حيث اقتتلا، واستطاع يزيد أن يأسره، وأرسله إلى المهدي الذي قتله.

(161/13)

---

### \* النهروان (معركة)

وقعت بين على بن أبي طالب، رضى الله عنه، والخوارج الذين رفضوا التحكيم مع معاوية بن أبي سفيان، عند النهروان الواقعة بين بغداد وواسط. وكان الخوارج بقيادة عبد الله بن وهب الراسبي قد طالبوا على بن أبي طالب بأن يعلن كفره، ويدخل الإسلام من جديد، واستباحوا دماء المسلمين، واعتدوا على أعراضهم وأملاكهم، ولم تنجح محاولات على في ردهم عن القتال، فاستعد الطرفان للقتال. وانصرف عن الخوارج كثير من الجيش بعد ما أعلن لهم على الأمان. ودارت المعركة، وقتل فيها رءوس الخوارج، وقتل من جيش على (7) أفراد، إلا أن الخوارج قاموا بعد ذلك باغتيال الإمام على.

(162/13)

---

### \* الوجلة

بعد هزيمة الفرس في معركة المذار في جنوب العراق أرسل أردشير ملك الفرس جيشاً، لقتال المسلمين بقيادة الأندرزغر واستعان بالعرب، ولما علم خالد بن الوليد بنبأ هذا الجيش سار بجيش المسلمين لحربهم في منطقة الوجلة جنوب العراق واقتتل الطرفان قتالاً شديداً، ولما خرج الكمين الذي أعده مسبقاً خالد ابن الوليد ساد الذعر في صفوف الفرس، حتى إن الرجل لم ير مقتل صاحبه، ومات قائد الفرس عطشاً، وقتل خالد بن الوليد

رجالاً كانت الفرس تعده بألف رجل، وغنم المسلمون في هذه المعركة غنائم كثيرة.

(163/13)

---

### \*بنو المصطلق (غزوة)

وقعت سنة (6هـ)، وقيل: سنة (5هـ)، وتسمى المريسيع، وهو ماء قريب من المدينة المنورة، حيث غزا النبي e بنو المصطلق الذين كانوا يعدون العدة لقتال المسلمين، بعدما علم النبي e بذلك، وخرج إليهم في (700) من أصحابه فهاجمهم على ماء المريسيع وهم غافلون، وقتل المسلمون منهم (10)، واسروا الباقين، ولم يقتل من المسلمين إلا هشام بن صبابة الذي قتله أحد المسلمين خطأ. وغنم المسلمون في هذه الغزوة غنائم كثيرة بلغت ألفي بعير وخمسة آلاف شاة وكثيراً من السبايا والأسرى، ومن بينهم السيدة جويرية بنت الحارث، رضى الله عنها، التي تزوجها النبي e، بعد أن أعتقها. وأعتق المسلمون أسرى بنو المصطلق؛ إكراماً لأصحاب النبي e. فأسلم بنو المصطلق جميعاً. وكان شعار المسلمين في هذه الغزوة يامنصور أمت أمت، ووقعت في هذه الغزوة عدة أحداث مهمة، مثل: الفتنة التي كاد المنافقون يشعلونها بين الأنصار والمهاجرين، وقول زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، وحادثة الإفك التي أشاعها المنافقون حول السيدة عائشة، رضى الله عنها. فبرأها الله - تعالى - في صدر سورة النور.

(164/13)

---

### \*المدار (معركة)

وقعت في البصرة سنة (12هـ) بين المسلمين والفرس، ويقال لها الثنى؛ حيث التقت جيوش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد، رضى الله عنه، مع قائد الفرس قارن بن قريانس الذى أرسله كسرى مددًا لهرمز بعد هزيمته في ذات السلاسل فعسكر قارن بالمدار بالقرب من واسط، وجمع فلول الفرس الهاربة، واتفقوا على قتال المسلمين. وعندما علم خالد بن الوليد بذلك خرج إليهم في المدار، وقتلهم، وقتل منهم ثلاثين ألفًا، من بينهم قارن، وأقام خالد في المدار عدة أيام ينظم الجيش ويوزع الغنائم. وممن أسر في هذه المعركة حبيب أبو الحسن البصرى.

(165/13)

### \*الفجار (حرب)

نشبت بعد عام الفيل، بين قريش ومن معها من كنانة وقيس عيلان، وسميت بالفجار؛ لأن القتال حدث في الأشهر الحرم. وسببها أن عروة الرحال بن عتبة أجاز تجارة للنعمان بن المنذر، فقال البراض بن قيس: أتجيزها على كنانة؟ قال: نعم، وعلى الخلق. فخرج فيها عروة وخرج البراض يطلب غفلته، حتى إذا كان بتيمن ذى طلال بالعالية غفل عروة فوثب عليه البراض فقتله في الشهر الحرام، فأتى آتٍ قريشًا فقال: إن البراض قد قتل عروة بعكاظ وهو في الشهر الحرام، فارتحلوا، وهوازن لاتشعر بهم، ثم بلغهم الخبر، فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم، فاقتتلوا حتى جاء الليل، فدخلوا الحرم، فأمسكت هوازن عنهم، ثم التقوا بعد هذا اليوم أيامًا. وقد شاركهم رسول الله في بعض أيامهم؛ إذ أخرجه أعمامه معهم، وكان عمره خمس عشرة سنة. وفي

هذه الحرب قال رسول الله كنت أنبل على أعمامى، أى: أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها.

(166/13)

---

### \*دومة الجندل (غزوة)

بلغ النبي - صلى الله عليه وسلم - أن جمعًا من الأعراب بدومة الجندل يقطعون الطريق على من مرَّ بهم، وأنهم يريدون غزو المدينة، فخرج إليهم في ألف من أصحابه في ربيع الأول سنة (5 هـ)، وولى على المدينة سباع بن عرفطة، فلما بلغهم الخبر تفرقوا، ثم نزل المسلمون ساحتهم فلم يلقوا أحدًا، فغنموا ماشيتهم وأغنامهم، وصالح النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو عائد عيينة بن حصن الفزاري، وأقطعته أرضًا؛ لأن أرضه كانت قد أجذبت.

(167/13)

---

### \*ذى قرد (الغابة) (غزوة)

بعد غزوة بني لحيان في جمادى الأولى سنة (5 هـ) أغار عيينة بن حصن في أربعين راكبًا على لقاح لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فاستلبها من راعيها، فبلغ سلمة بن الأكوع - أحد رماة الأنصار - رسول الله (بذلك)، وكان سلمة عداءً فأمره الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يخرج في أثرهم؛ ليشغلهم بالنبال والكر والفر، حتى يدركهم المسلمون، ففعل، واستنقذ وحده أكثر ما في أيديهم من أموال المسلمين، فلما أدرك المسلمون أواخر العدو حصلت بينهم مناوشات قُتل فيها مسلم ومشركان، واستنقذ المسلمون أغلب اللقاح، وهرب المشركون.

(168/13)

---

\*بني لحيان (غزوة)

قصد النبي - صلى الله عليه وسلم - بني لحيان، يطلب ثار عاصم بن ثابت وخبيب بن عدى وأصحابهما المقتولين بالرَّجيع، وكان في مائتي راكب، وسار حتى نزل عُسفان وبعث بعثًا، بلغ كُراع الغميم جنوبي عُسفان في الطريق إلى مكة، حتى تسمع قريش بتلك الغزوة، فرجعوا ولم يلقوا أحدًا، ورجع (إلى المدينة. وكان ذلك في جمادى الأولى سنة (5 هـ).

(169/13)

---

\*ذات الرقاع (غزوة)

بلغ النبي - صلى الله عليه وسلم - أن قبائل من نجد تنهياً لغزو المسلمين؛ فخرج لهم في سبعمائة مقاتل، وساروا حتى وصلوا ديار القوم فلم يجدوا أحدًا غير نسوة، فأخذهن المسلمون، فبلغ الخبر رجاءهن؛ فتفرقوا في رءوس الجبال، ثم اجتمع جمع منهم، وجاءوا للحرب، فلما صلى المسلمون صلاة الخوف - وكان ذلك أول مشروعيتها - تفرقوا وفروا؛ لما رأوا من حذر المسلمين. وسميت هذه الغزوة ذات الرقاع؛ لأن أقدام الصحابة - رضى الله عنهم - نقتب فلفوا عليها رقاعًا من قماش. واختلف في زمن وقوع هذه الغزوة، ودارت الآراء بين سنوات (4 هـ)، و (5 هـ)، و (7 هـ).

(170/13)

---

### \*بني النضير (غزوة)

همّ بنو النضير بإلقاء حجر على النبي - صلى الله عليه وسلم -، وهو جالس إلى جدار عندهم؛ ليقتلوه؛ فأوحى الله - تعالى - بذلك إلى نبيه - صلى الله عليه وسلم -، فقام وأمر أصحابه بالتهيؤ لحربهم، فحاصروهم ست ليال، وقال لهم المنافقون: إنا معكم؛ فاغزوا بذلك، فلما بدأ القتال خذلوهم وأسلموهم فسأل بنو النضير النبي أن يوافق على إجلائهم، والكف عن قتلهم، على أن يكون لهم ما حملت الإبل من ممتلكاتهم إلا السلاح، فأعطوا ذلك، وذهبوا إلى خيبر، ومنهم من ذهب إلى الشام، ولم يُسلم منهم إلا أبا سعد بن وهب، ويامين بن عمير بن كعب. وفي خبر إجلائهم نزلت سورة الحشر.

(171/13)

---

### \*وادي القري (غزوة)

في سنة (7هـ) بعد غزوة خيبر انصرف الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى وادي القري فدعا سكانها من اليهود إلى الاستسلام، فأبوا وقاتلوا المسلمين فأصاب المسلمون منهم أحد عشر رجلاً، وغنموا منهم مغنم كثيرة، وتم الفتح الإسلامي، وترك لليهود الأرض في مقابل دفع نصف ما يخرجون منها.

(172/13)

---

### \*حمراء الأسد (غزوة)

بعد غزوة أحد وفي (16 من شوال 3هـ) خرج الرسول - صلى الله عليه وسلم - في طلب العدو، وعهد ألا يخرج معه إلا من شهد أحدًا، فخرجوا وقد أصابهم قدر من الجهد والجراح. وكانت قريش قد همّت أن تُغير على المدينة فلما سمعت بخروج الرسول - صلى

الله عليه وسلم - فر رجاها إلى مكة؛ فنزل المسلمون حمراء الأسد (على بعد 8 أميال من المدينة) فأقاموا بها ثلاثة أيام، ثم رجعوا. وقد ظفر الرسول - صلى الله عليه وسلم - بمعاوية بن المغيرة بن العاص فأمر بقتله.

(173/13)

---

### \*بدر الثالثة (غزوة)

بعد انتهاء غزوة أحد قال أبو سفيان بن حرب للمسلمين: موعدنا بدر من العام المقبل. فأجابه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى ذلك، فلما جاء الميعاد في شعبان سنة (4هـ). كانت قريش مجذبة؛ فلم يتمكن أبو سفيان من الوفاء بوعدده، فأرسل نعيم بن مسعود يخذل المسلمين عن الخروج، فيكون الخلف منهم فإذا خرج هو لم يجد أحدًا عند الخروج؛ فقال نعيم للمسلمين: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم. فلم يلتفت المسلمون لهذا الإرجاف، وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل. وخرج الرسول - صلى الله عليه وسلم - على رأس (1500) من أصحابه، رضى الله عنهم، حتى أتوا بدرًا، فلم يجدوا بها أحدًا؛ لأن أبا سفيان خرج وعاد من مسيرة ليلة؛ ظنًا منه أن إرجاف نعيم قد أفاد، ولكن المسلمين خرجوا، وأقاموا ببدر، وكان موسم تجارة {فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم}.

(174/13)

---

### \*بني قينقاع (غزوة)

حدثت في (15 من شوال سنة 2هـ)؛ إذ نقض بنو قينقاع عهدهم

مع الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وقالوا له بعد غزوة بدر الكبرى: يا محمد لا يغرنك من نفسك أن نلت من قومك ما نلت؛ فإنه لا علم لهم بالحرب، أما والله لو حاربتنا لعلمت أن حربنا ليس كحربهم، وإنا لنحن الناس، وانتهمكوا حرمة سيده من الأنصار، فتبرأ عبادة بن الصامت (أحد رؤساء الخزرج) من حلفهم. ولما ظهرت العداوة من بني قينقاع، استخلف النبي - صلى الله عليه وسلم - على المدينة أبا لبابة الأنصاري، وحاصروهم (15) يوماً؛ فطلبوا الخروج مقابل أموالهم، فقبل النبي - صلى الله عليه وسلم - ذلك، وأمهلهم ثلاث ليالٍ، ووكل بجلائهم عبادة بن الصامت، فذهبوا إلى أذرعات من بلاد الشام، ولم يمر عليهم العام حتى هلكوا.

(175/13)

---

#### \*بحران (غزوة)

بلغ النبي - صلى الله عليه وسلم - أن جمعاً من بني سليم يريدون أن يغيروا على المدينة؛ فسار إليهم في (300) من أصحابه، رضى الله عنه، وذلك في (جمادى الأولى سنة 3 هـ)، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم. فلما وصل إلى بحران تفرق بنو سليم، ولم يلق حرباً؛ فرجع إلى المدينة.

(176/13)

---

#### \*ذى أمّر (غطفان) (غزوة)

في مطلع العام الثالث الهجرى بلغ الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن غطفان تجمعوا؛ بقصد الإغارة على المدينة؛ فخرج إليهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - في (450) من أصحابه، رضى الله

عنهم، بعد أن استخلف على المدينة عثمان بن عفان، رضى الله عنه، فلما سمع الغطفانيون بسير الرسول هربوا إلى رءوس الجبال، فعسكر المسلمون عند ماء يسمى ذا أمّر، ثم انصرف الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولم يلق حربًا.

(177/13)

---

### \*السويق (غزوة)

حلف أبو سفيان أن يغزوا الرسول - صلى الله عليه وسلم -؛ لأنه لم يحضر غزوة بدر فخرج في (200) راكب حتى أتى العُريض في طرف المدينة، فحرق بعض نخيلها وقتل رجلاً من الأنصار وحليفًا له ثم كَرَّ راجعًا؛ فخرج الرسول - صلى الله عليه وسلم - في أثرهم في (200) من أصحابه، رضى الله عنهم، واستخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر، ولكن الكفار طرحوا كثيرًا من أزوادهم من السويق؛ ليتخفوا فيسرعوا في الهرب، فأخذها المسلمون؛ فسميت هذه الغزوة بغزوة السويق، وكان ذلك في (ذى الحجة سنة 2هـ) بعد بدر بنحو شهرين.

(178/13)

---

### \*بني سليم (غزوة)

بعد سبعة أيام من انتهاء غزوة بدر الكبرى سنة (2هـ) خرج الرسول - صلى الله عليه وسلم - يريد بني سليم، واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري، ثم سار حتى بلغ ماء يقال له: الكُدْر، فأقام عنده ثلاثة أيام، ثم انصرف ولم يلق حربًا.

(179/13)

---

### \*بدر الأولى (سفوان) (غزوة)

بعد غزوة العشيرة التي كانت في (جمادى الأولى سنة 2 هـ) لم  
يقم النبي - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة إلا نحو عشر ليالٍ حتى  
أغار كُرُز بن جابر الفهري القرشي على إبل المدينة وغنمها؛  
فخرج الرسول - صلى الله عليه وسلم - في طلبه حتى بلغ وادي  
سفوان ناحية بدر لكن كُرُزاً هرب؛ فرجع النبي - صلى الله عليه  
وسلم - إلى المدينة.

(180/13)

---

### \*العشيرة (غزوة)

في (جمادى الأولى سنة 2 هـ) خرج الرسول - صلى الله عليه  
وسلم - بعد أن استخلف على المدينة أبا سلمى بن عبد الأسد  
المخزومي ليعترض عيراً عظيمة لقريش، جمعوا فيها أموالهم  
وكان يرأسها أبو سفيان بن حرب، فلما بلغ الجيش الإسلامي  
الذي كان قوامه (150) من المهاجرين ذا العشيرة وجد العير قد  
مضت. وحالف النبي في هذه الغزوة بني مدلج وحلفاءهم، ثم  
رجع إلى المدينة ينتظر العير حينما ترجع من الشام، ولما رجعت  
حدثت غزوة بدر الكبرى.

(181/13)

---

### \*بواط (غزوة)

في (ربيع الآخر سنة 2 هـ) خرج الرسول - صلى الله عليه وسلم -  
بعد أن استخلف على المدينة السائب بن مظعون؛ ليعترض عيراً

لقريش راجعة من الشام، فسار حتى بلغ بواط فوجد العير قد فاتته، فرجع ولم يلقَ حربًا.

(182/13)

---

\*الأبواء (ودّان) (غزوة)

كانت في (صفر سنة 2 هـ) وهي أول غزوة غزاها النبي - صلى الله عليه وسلم - بنفسه؛ إذ خرج بعد أن استخلف على المدينة سعد بن عباد؛ ليعترض عيرًا لقريش، فسار حتى بلغ ودّان (قرية من نواحي الفرع على الطريق إلى مكة)، فلم يلقَ حربًا؛ لأن العير كانت قد سبقته، وعقد صلحًا مع بني ضمرة على أن لا يغزوه ولا يغزوهم، ولا يكتثروا عليه جمعًا ولا يعينوا عدوًّا، وأنهم آمنون على أنفسهم، ولهم النصر على من اعتدى عليهم، وعليهم النصرة إذا دعوا، ثم رجع الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة.

(183/13)

---

\*الدولة الطولونية

تنسب هذه الدولة إلى مؤسسها «طولون»، الذي ينحدر من أسرة كان موطنها «بخارى» ببلاد «التركستان»، وفي سنة (200 هـ) وصل «طولون» إلى «بغداد» إبان خلافة «المأمون» (198 - 218 هـ)، فأهدى بعض الرجال إلى الخليفة «المأمون»، الذي رأى فيه اتزانًا في الفكر وبسطة في الجسم، فجعله رئيسًا لحرسه الخاص، فعلا نجم طولون في الدولة، ومهدّ لنفسه ولأسرته طريق السيادة والسلطة فيها. وكان من عادة الخلفاء أن يعينوا ولاةً للأقاليم الخاضعة لسلطانهم، وكان هؤلاء الولاة

يعينون من ينوب عنهم في حكم هذه الولايات؛ رغبة منهم في البقاء بالعاصمة؛ أملاً في الحصول على منصب أعلى وخوفاً من المؤامرات. وكانت «مصر» - آنذاك - تحت ولاية القائد التركي «باكباك» الذي أتاب «أحمد بن طولون» عنه في حكم «مصر»، لما رآه من شجاعته وإقدامه، وأمدّه بجيش كبير دخل به «أحمد بن طولون» «مصر» في (23 من رمضان سنة 254هـ). فلما تُوفي «باكباك» تولى مكانه القائد التركي «بارجوخ»، فعهد إلى «أحمد بن طولون» بولاية «مصر» كلها، فلما آل الأمر إلى «ابن طولون» في حكم «مصر» واجهته المصاعب والعقبات، وأشعل أصحاب المصالح في «مصر» الثورات حتى لا يتمكن «ابن طولون» من تنفيذ إصلاحاته التي عزم عليها، ولكن «ابن طولون» تمكن من القضاء على كل العقبات والصعوبات واحدة تلو الأخرى بكياسة وحزم، كما أخذ الثورات في كل مكان. بعد وفاة «أحمد بن طولون» خلفه ابنه «خمارويه»، فعمل على تذليل العقبات التي واجهته كي تتوطد أركان دولته، وزوج ابنته «أسماء» المعروفة بقطر الندى من الخليفة العباسي «المعتضد»، وقام «خمارويه» بتجهيز ابنته، وغالى في ذلك، مما أدى إلى إفلاس مالية البلاد. وظل والياً على «مصر» والشام والجزيرة حتى وفاته سنة (282هـ). وبعد وفاة «خمارويه» سنة (282هـ)، بدأت الدولة الطولونية في الانحلال، فتولّى زمامها طائفة من أفراد البيت الطولوني، وكانت تنقصهم الحنكة

(1/14)

---

السياسية، وهم: «أبو العساكر جيش بن خمارويه» (282 - 284هـ)، الذي خلعه الجند، فتولّى من بعده أخوه «أبو موسى هارون بن خمارويه» (284 - 292هـ)، وهو في الرابعة عشرة من

عمره، فازدادت البلاد ضعفاً حتى مات، فتولى بعده عمه «شيبان»، إلا أن الجند رفضوا تعيينه، وكان ذلك إيذاناً بزوال الدولة الطولونية، وعودة «مصر» والشام والجزيرة إلى ولايات تابعة مباشرة للخلفاء العباسيين، بعد أن استقلت منذ عهد «أحمد بن طولون» كان «أحمد بن طولون» مثلاً عالياً للحاكم العادل والوالى المصلح، وكان عهده عهد سلام شامل، ورخاء تام، وفنون وآداب عالية المستوى، وخلف «ابن طولون» آثاراً رائعة بقي منها جامعه الذى مازال معروفاً باسمه حتى الآن.

ومن مظاهر الحضارة فى عهد الدولة الطولونية: أ - إنشاء القطائع: أقام «أحمد بن طولون» عاصمة خاصة به شمالى مدينة «الفسطاط»، وبنها على نظام مدينة «سامراء» عاصمة الخلافة العباسية، وبنى بها مستشفى عظيمًا، وقسم المدينة وجعل لكل من كبار رجاله وقواده وغلمانه قطعة خاصة به، وكذلك فعل مع أرباب الحرف والصناعات والتجار، فسميت المدينة «بالقطائع»؛ وهى ثالث عواصم «مصر» بعد «الفسطاط» و «العسكر». ب - جامع ابن طولون: هو أحد مآثر الدولة الطولونية، فلا يزال شاهد صدق على عظمة هذه الدولة، ويقع بجهة «الصلبية» و «قلعة الكبش»، ويعد أقدم بناء إسلامى بقى على أصله حتى اليوم، والناظر إليه يرى مدى ما وصلت إليه الفنون والعمارة الإسلامية من ازدهار، وتعدُّ مئذنته من أقدم المآذن التى لاتزال قائمة حتى اليوم. ج - الجانب الاقتصادى: بلغت عناية الطولونيين بالناحية الاقتصادية مبلغًا عظيمًا، ليضمنوا لبلادهم الرخاء والاستقلال، خاصة بعد اتساع رقعة دولتهم وانضمام الشام إلى «مصر» تحت إمرتهم، فشجعوا الصناعات وعملوا على ازدهارها، كصناعة النسيج التى كانت أهم الصناعات فى هذا العهد، وأقاموا

مصانع للأسلحة، وتقدمت صناعة ورق البردى وصناعة الصابون والسكر والخزف في عهدهم، وظلت التجارة رائجة، ونشطت في «مصر» و «الشام» وذلك لموقعهما الفريد المتحكم في طرق التجارة، فأصبحتا حلقة اتصال بين تجارة الشرق والغرب، إلى جانب ما كانتا تحصيلانه من ضرائب جمركية على البضائع التي تمر بهما. كما اهتم الطولونيون بالزراعة، واعتنوا بتطهير «نهر النيل»، وأقاموا الجسور، وشقوا الترع، وشجع «أحمد بن طولون» الفلاحين على امتلاك الأراضى، وخصص لذلك ديواناً أسماه: «ديوان الأملاك»، كما قلل من الضرائب، وأصلح «مقياس الروضة»، وأنشأ القناطر، وحفر الآبار في الصحراء حين علم بما يعانيه الناس في هذه المناطق في الحصول على الماء، فتقدمت الزراعة في عهده ونشطت، كما تقدمت الصناعة والتجارة، وبلغت مالية «مصر» و «الشام» في عهده مبلغاً عظيماً، فكثرت الإنشاءات العظيمة، مثل «الحصن المنيع» الذى بناه «أحمد بن طولون»، ليكون مأوى له إذا ما حاق به خطر، وقد تكلفت هذه المشروعات العظيمة أموالاً طائلة، تدل على تحسن الأحوال المالية والاقتصادية في هذا العهد، وعاش الناس في رخاء وسعة. د - الناحية الاجتماعية: يبدو أن الأثرak قد حظوا بمكانة عظيمة في عهد الطولونيين، وشاركهم في ذلك طبقة الأشراف؛ التى نالت احترام الشعب والأمراء، وإلى جانبهم كانت تعيش طبقة الأغنياء من كبار التجار وكبار الملاك. أما عامة الشعب فقد تحسنت أحوالهم نتيجة استقرار الأوضاع، واهتمام الحاكم بشئونهم، وحرصه على إقامة العدل بينهم؛ لدرجة أن «أحمد بن طولون» تولى القضاء بنفسه في فترة من الفترات، وعامل أهل الذمة معاملة كريمة طيبة، جعلتهم يقبلون على أعمالهم بشغف واطمئنان. واهتم الطولونيون بإحياء الأعياد الإسلامية كعيدى «الفطر» و «الأضحى»، كما اهتموا أيضاً بإحياء الأعياد المسيحية كعيد الميلاد، وكانت ألعاب الفروسية التى أولاها

الطولونيون عنايتهم من أهم مظاهر الترفيه في هذه الأعياد.

### \*الدولة الإخشيدية

تنسب هذه الدولة لمحمد بن طغج بن جق الإخشيدى (طغج معناها في التركية: عبدالرحمن)، أحد أبناء ملوك «فرغانة» ببلاد «ما وراء النهر»، وكان الملوك في هذه البلاد يتخذون من لفظة «الإخشيد» لقباً لهم، فأطلق هذا اللقب على «محمد بن طغج»، وتسمت به دولته، وعُرفت باسم «الدولة الإخشيدية». اتصل «جق» جد «الإخشيد» بالخلفاء العباسيين، أما «طغج» والده؛ فقد كان على درجة عظيمة من الثراء وسعة العيش، واتصل بخدمة الطولونيين في عهد «خمارويه»؛ الذى ولاه على «دمشق» و «طبرية»، فلما سقطت الدولة الطولونية، تولى «محمد ابن طغج» ولاية «دمشق»، ثم أُضيفت إليه ولاية «مصر»، ولكنه أناب عنه من يحكمها، ولم يغادر «دمشق»، ولكن محاولات الفاطميين للسيطرة على «مصر» جعلت الخليفة العباسى «الراضى» يطلب من «ابن طغج» أن يقوم بنفسه على حكم «مصر» والشام، حتى يُوقف الزحف الفاطمى، ويعيد الاستقرار والأمان إلى الولايتين. جاء «محمد بن طغج» سنة (323هـ)، وبدأ يؤسس دعائم دولته الكبرى بها، وضُمت إليه «الحجاز» - التى ظلت مرتبطة بمصر عدة قرون بعد ذلك - كما حصل من الخليفة سنة (323هـ) على حق توريث حكم البلاد التى تحت يده لأسرته من بعده، فأصبحت هذه الولايات في عداد الدول المستقلة. بذل

«محمد بن طغج» جهودًا كبيرة في إعادة الاستقرار والأمان إلى بلاده، واستطاع بكفاءته وذكائه أن يتغلب على العواقب التي صادفته كافة، وأخذت «مصر» والشام و «الحجاز» تستعيد مكانتها ثانية، بعد أن استطاع «ابن طغج» رد الفاطميين وإيقاف زحفهم على «مصر»، فحاول الفاطميون استمالة إلى جانبهم، ولكنه رفض، وظل وفيًا للخلافة العباسية، واستطاع في مدة قصيرة أن يبسط سلطانه على «مصر» والشام، وأعاد إليهما النظام، وعرف كيف يسوس الناس فيهما، فعاش حياته عزيزًا كريمًا. فلما شعر بدنو أجله عهد إلى ابنه «أبي القاسم أنوجور»

(5/14)

بالحكم من بعده، وجعل «كافورًا» وصيا عليه لأن «أنوجور» كان في ذلك الوقت صغيرًا، ومات الإخشيد بدمشق سنة (334هـ = 946م). وعندما تولى «أنوجور» ابن محمد بن طغج حكم «مصر» سنة (334هـ) كان لا يزال طفلًا صغيرًا لا يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، فقام «كافور» بتدبير أموره وأمور الدولة، وبقيت علاقتهما - كما كانت - علاقة الأستاذ بتلميذه، وأصبح «كافور» صاحب السلطان المطلق في إدارة الدولة الإخشيدية، واستطاع التغلب على المشاكل التي قابلت الدولة في مستهل ولاية «أنوجور»، وتمكن من القبض على زمام الأمور بيده، وخطبه الناس بالأستاذ، ودُكر اسمه في الخطبة، ودُعِيَ له على المنابر في «مصر» والبلاد التابعة لها، كما عامل رؤساء الجند وكبار الموظفين معاملة حسنة، فاكتسب محبتهم واحترامهم، فلما كبر «أنوجور» شعر بحرمانه من سلطته، فظهرت الوحشة بينه وبين أستاذه «كافور»، وحاول البعض أن يوقع بينهما، وطلبوا من «أنوجور» أن يقوم بمحاربة «كافور»، فلما علمت أم

«أنوجور» بذلك خافت عليه، وعملت على الصلح بينه وبين «كافور»، وما لبث «أنوجور» أن مات سنة (349هـ). كان ولي عهد «أنوجور» في الحكم ولدًا صغيرًا هو «أحمد بن أبي الحسن علي»، فحال «كافور» دون توليته بحجة صغر سنه، واستصدر كتابًا من الخليفة العباسي يقره فيه على توليته «مصر» سنة (355هـ) بدلا من هذا الطفل الصغير، فتولى «كافور» «مصر» وما يليها من البلاد ولم يغير لقبه «الأستاذ»، ودُعي له على المنابر بعد الخليفة. مات كافور سنة (357هـ)، فاختر الجند - بعد وفاته - «أبا الفوارس أحمد بن علي بن الإخشيد» واليًا على «مصر» وما حولها، وكان طفلا لم يبلغ الحادية عشرة من العمر، فلم تستقر البلاد في عهده حتى دخلها الفاطميون سنة (358هـ). كان الاتجاه الحضاري في العهد الإخشيدى شديد الشبه بالاتجاه الحضاري في العصر الطولوني؛ لقرب الصلة الزمنية بين

(6/14)

العهدين، وتميزت حضارة الإخشيديين بزيادة العمران بالفسطاط ومدّ ضواحيها، وتشبيد القصور وإقامة البساتين الجميلة، كما كان «ضرب السكّة» من مظاهر الاستقلال في العهد الإخشيدى، فقد ضربوا السكّة وجعلوا عليها أسماء الإخشيديين إلى جانب الخليفة، وفي عهدهم ظهر منصب «الوزارة» رسميا، لأول مرة في «مصر» منذ الفتح الإسلامي لها، وكان «أبو الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات» أول من تولى هذا المنصب حتى وفاته سنة (327هـ)، ثم من بعده ابنه «جعفر»، الذي ظل يشغل هذا المنصب حتى نهاية الدولة الإخشيدية، وكذلك كان منصب «الحاجب» من المناصب التي ظهرت أهميتها في البلاط الإخشيدى، وقد أولى الإخشيديون القضاء عنايتهم، وكان من أشهر قضائهم: «محمد

ابن بدر الصيرفي» و «الحسين بن أبي زرعة الدمشقي»، وكان  
«عمر ابن الحسن الهاشمي» من أشهر القضاة في عهد  
«كافور»، وكذلك «أبو طاهر الزهلي» الذي ظل على قضاء  
«مصر» حتى دخلها الفاطميون. ولعل من أبرز مآثر «الإخشيدي»  
أنه كان يجلس للنظر في المظالم يوم الأربعاء من كل أسبوع،  
وحذا «كافور» حذوه في ذلك، كما أن «الإخشيدي» كان ذا  
عزيمة، فقد أعد جيشاً قويا بلغ أربعمئة جندي فيما عدا حرسه  
الخاص، فنعمت البلاد بالرخاء والثراء خلال هذا العهد الذي لم  
يخل فيه «الإخشيدي» بأى مال أو معونة، وأنعم على الفقراء  
وقدم لهم المساعدات، ومضى «كافور» على نفس الدرب،  
ويروى عنه أنه كان يعمل على إسعاد الفقراء وخاصة في  
الأعياد، وكان يخرج من ماله يوم عيد الأضحى حمل بغل ذهباً،  
وكشوفاً بأسماء المحتاجين، وينيب عنه من يمر عليهم ويعطى  
كلاً منهم نصيبه. كان للعلم والأدب دولة ذات شأن في بلاط  
الإخشيديين، ونبغ في عهدهم عدد كبير من العلماء منهم: «أبو  
إسحاق المروزي» المتوفى سنة (340هـ) أحد الأئمة المعروفين  
بسعة معارفهم وكثرة مؤلفاتهم، و «علي بن عبد الله المعافري»  
قاضي «الإسكندرية» المتوفى سنة (339هـ)، ومن المحدثين:

(7/14)

---

«الحسن بن رشيق المصري» المتوفى سنة (370هـ) ومن النحاة:  
«أحمد بن محمد بن الوليد التميمي المصري»، ومن المؤرخين:  
«أبو عمرو الكندي»، ومن الشعراء: «المتنبى»، وغيره  
كثيرون، وكان لهؤلاء العلماء أثر كبير في الحياة الحضارية  
والعلمية في «مصر»، فقد عملوا على شرح علومهم وتبسيطها  
للناس، فزاد عدد المتعلمين، وارتفع مستوى التفكير والفهم لدى

الناس خلال هذه الفترة من حكم الإخشيديين. اهتم الإخشيديون بالبناء والإصلاح، ولكن معظم ما أقاموه قد زال، ولم يبق منه سوى الاسم فقط. قام «الإخشيد» بالكثير من مشروعات الإصلاح، فتحسنت أحوال البلاد الاقتصادية، ونهضت نهضة قوية أدهشت المؤرخ الشهير «أبا الحسن على المسعودي»، الذي زار «مصر» في عهد «الإخشيد»، وأعجب بما أقامه «الإخشيد»، ووصف نظام الري، وجبر الخليج، وقطع السدود، ولبلة الغطاس في ذلك العصر، الذي نعمت فيه البلاد بالأمن والأمان في ظل قيادة قوية، تخاف عليها وتحميها، يدعمها جيش قوى وأسطول حديث، فتقدمت البلاد خطوات واسعة في مجالات الحضارة.

(8/14)

#### \*الدولة الجغتائية

تنسب «الدولة الجغتائية» إلى مؤسسها «جغتاي» الابن الثاني لجنكيزخان الذي أصبح ولي عهده بعد وفاة أخيه الأكبر «جوجي» في حياة والدهما، فلما مات «جنكيزخان» في سنة (624هـ = 1227م)، آلت إلى «جغتاي» أملاك «الدولة الجغتائية» (خانات جغتاي)، التي تُعرف باسم: «منطقة التركستان»، وهي تعتبر حدا فاصلا بين دولة «القبجاق» ودولة الخاقانات. حكم «جغتاي» مؤسس هذه الدولة منذ وفاة والده في عام (624هـ = 1227م) إلى عام (639هـ = 1242م)، وكان رجلا حازما وصارما وعيندا، ذلك لأنه كان المسئول عن تنفيذ الياسا، وقد اشتهر بسوء معاملة المسلمين، وتعطشه لسفك دماهم. كانت دولة «خانات جغتاي» دولة تابعة للدولة الأم التي أسسها «جنكيزخان»، وكانت ذات علاقة حدودية بين هذه الدولة الأم (دولة الخاقانات) من جانب، ودولة «القبجاق والإيلخانية» من

جانب آخر؛ ولذلك فقد دخلت في صراعات طويلة مع هذه الدول بسبب موقعها المتوسط بينها، ولم تكن صراعاتها من أجل التوسعة أو الوصول إلى حكم دولة مغولية أخرى، وإنما كان صراعاً على عرش «دولة الخاقانات»؛ فعندما تُوفى «متكوقا آن» الحاكم الأعظم (الخان) (4) لدولة «خاقانات المغول»، كان ابنه «قوبيلاي» يقود الجيوش ببلاد «الصين» لتوسعة أملاك «دولة الخاقانات» بها، وكان «أريق بوقا» في «قراقورم» عاصمة الدولة، وتم إعلانهما خاقانين على البلاد خلفاً «لمتكوقا آن»، وحيث إن «قراقورم» كانت منطقة فقيرة، فقد أراد «أريق بوقا» أن يوفر لقواته ما يلزمهم، وأغار على «الدولة الجغتائية»، وأخضع حاكمها «ألغو بن بايدار بن جغتاي» تحت سلطانه ليأمن شره، ويضمن عدم تحالفه مع غيره، ولكن ذلك لم يتم؛ فقد انقلب عليه حاكم «الدولة الجغتائية» وانضم إلى «قوبيلاي قا آن» حين عاد من «الصين»، واعترف به خاقاناً للمغول، فاضطر «أريق بوقا» إلى الاستسلام لخصمه «قوبيلاي»، الذي انفرد بحكم دولة الخاقانات وأسس بها حكماً

(9/14)

---

جعلته لأسرته، التي عُرفت في التاريخ باسم: أسرة اليوان. وهكذا دخلت «الدولة الجغتائية» في صراع لم تكن سبباً في حدوثه، بل لم تسلم من الصراعات بعد ذلك، فقد دخلت في صراع مع «قايدوخان» (وهو من نسل أوكتاي قا آن)، بتحريض من «بركة خان» حاكم «القبجاق»، ودارت الحروب سجلاً بين الطرفين إلى أن مات «ألغو بن بايدار» حاكم «الجغتائين»، فاعتلى «مباركشاه» عرش الدولة في عام (662هـ = 1264م)، ولكنه لم يلبث طويلاً في الحكم، إذ استطاع «براق خان»

الاستيلاء على العرش في عام (664هـ = 1266م)، بمساعدة «قوبلاي قاآن» خاقان المغول، وذلك يؤكد أن العلاقة الخارجية لهذه الدولة كانت ذات صلة وثيقة بالسياسة الخارجية لدولة خاقانات المغول. تُعد «بخارى» أعظم مدن «الدولة الجغتائية»، وكانت حاضرتها التي يشار إليها بالبنان ضمن بلاد «ما وراء النهر»، إذ كانت تزخر بالأبنية الفخمة، والحدائق الغناء، والبساتين والمنتزهات والثمار الكثيرة، التي يعد البرقوق أشهرها حتى الآن، كما كانت سوقاً ومركزاً تجارياً مهماً، فيها مصانع للحزير والديباج، وأخرى للمنسوجات القطنية، وكذلك كانت ذات مكانة خاصة في العالم الإسلامي، ولم يضارع «بخارى» في كل ذلك سوى «سمرقند» بأصاحتها وبنفواكها، ومصنوعاتها من الجلود، والمنسوجات القطنية. ولقد شهدت بلاد «ما وراء النهر» فترة ازدهار حضارى على يد حاكمها «مسعود يلواج» في ظل «الدولة الجغتائية»، وبنى ببخارى مدرسة نسبها إليه هي «المدرسة المسعودية»، فدمرها الإيلخانيون في عام (1273م)، فأعاد البخاريون بناءها ثانية، ودفن بها «مسعود يلواج» في عام (1289م). ولم يقتصر مجهود «يلواج» على «بخارى» وحدها، بل تعداها ليشمل منطقة حكمه كلها، وشيد «بكاشغر» «مدرسة مسعودية» أخرى، وبذا تمكنت بلاد «ما وراء النهر» من الصمود أمام غزوات المغول عليها، وأن تعيد بناءها بفضل موقعها ومناخها، وبفضل حكامها الذين

(10/14)

---

عملوا على تأسيس الحضارة فيها وبنائها.

(11/14)

## \*الدولة الإيلخانية

تعود تسمية الدولة الإيلخانية بهذا الاسم إلى هولوكو خان الذى لُقّب بإيلخان، وهى كلمة مكونة من مقطعين «إيل» بمعنى تابع، و «خان» بمعنى ملك أو حاكم، والمقصود أن حاكم الدولة الإيلخانية تابع للخان الحاكم فى قراقورم. ويعد «هولوكو» المؤسس الأول لسلسلة سلاطين المغول فى «إيران» و «العراق» الذين ظلوا يحكمون هذه البلاد من سنة (654هـ) حتى سنة (756هـ)، وقد تُوفى «هولوكو» سنة (663هـ)، وخلفه ابنه «آباقا خان» فى حكم البلاد، التى امتدت من «نهر جيحون» حتى «العراق العربى» غربًا، ومن جنوبى روسيا شمالًا حتى «البحر العربى» جنوبًا. وقد جنحت الدولة الإيلخانية منذ إنشائها إلى الاستقلال عن العاصمة المغولية، فى أمور السياسة والحكم - منذ عهد «آباقا خان» - وكان حكامها مستقلون تمامًا عن العاصمة قراقورم. كان «آباقا خان» يريد أن يخلفه عن العرش ابنه «أرغون» لكنه لم يستطع لأن هذا الإجراء كان يعد مخالفة كبيرة لأحكام الدستور المغولى الذى وضعه جنكيز الذى يسمى «الياسا»، فقد كان يتعين إذا مات الخان أن يخلفه على العرش أكبر الأمراء الأحياء، ولقد كان أكبرهم هو «تكودار» وليس «أرغون»، ولذلك أجمع الأمراء المغول الذين اجتمعوا فى المجلس العام الذى يسمى «قوريلتاي» وقرروا انتخاب «تكودار» إيلخانًا فى سنة (681هـ). اعتنق تكودار المسيحية فى صغره، لكنه مال إلى الإسلام شيئًا فشيئًا؛ لكثرة اتصاله بالمسلمين، وتوطيد علاقته بعظماء المسلمين وكبار أئمتهم، فأعلن إسلامه، وسُمى بالسلطان «أحمد تكودار»، فكان أول من اعتنق الإسلام من الإيلخانيين. بعد مقتل السلطان «أحمد» اجتمع الأمراء المغول ونصبوا الأمير «أرغون ابن آباقا» إيلخانًا عليهم فى جمادى

الآخرة سنة (683هـ)، فنصب ابنه «غازان» حاكمًا على «خراسان» وعين الأمير «نوروز» نائبًا له عليها، وأنعم على الأمير «بوقا» بلقب «أمير الأمراء»، وأطلق يده في تسيير شئون

(12/14)

الدولة، وقتل الوزير «شمس الدين الجويني» وجميع أفراد أسرته تقريبًا في شعبان سنة (683هـ)، وذلك لموقفهم مع السلطان «أحمد تكودار» ومساندتهم له في المعركة التي دارت بينه وبين أفراد المغول بقيادة الأمير «أرغون»؛ والتي انتهت بمقتل السلطان وتنصيب الأمير سلطانًا. حاول «أرغون» أن يجد من نفوذ «مصر» في المشرق الإسلامي، فأقام علاقات سياسية وطيدة مع قادة الدول المسيحية مثل: «البابا» و «إدوارد الأول» ملك «إنجلترا»، و «فيليب لوبل» ملك «فرنسا»، تمهيدًا لتكوين حلف للقضاء على النفوذ المصري في «آسيا الصغرى»، و «العراق» و «الشام»، و «فلسطين». وشجعت هذه العلاقات (المغولية - الأوربية) عددًا من الرحالة الأوربيين على زيارة بلاد المغول، وسافر الرحالة الشهير «ماركو بولو» إلى العاصمة المغولية، وأقام في بلاط الامبراطور المغولي «قوبلاي» نحو عشرين عامًا، عمل فيها مستشارًا له ووزيرًا، ولم تقع حروب تذكر بين الجانيين - المصري والمغولي - في عهد «أرغون» لانشغال كل منهما بمشكلاته الداخلية. بعث الأمراء المغول عقب وفاة «أرغون» إلى أخيه «كيخاتو خان» يخبرونه بوفاة، فقدم على الفور من بلاد الروم التي كان يحكمها، وتولى عرش الإيلخانية في رجب سنة (690هـ)، ثم عين «صدر الدين أحمد الزنجاني» وزيرًا له، ولقبه بلقب «صدر جهان» وأوكل إليه التصرف في شئون الدولة كافة دون تدخل من أحد، وعين أخاه

«قطب الدين الزنجاني» قاضيًا للقضاة، وأطلق عليه لقب «قطب جهان»، ولما كان «كيخاتو» مغرمًا بشرب الخمر، سبى الخلق فاسقًا، كرهه الأمراء وثاروا عليه، وبخاصة بعد أن أغلظ القول - ذات ليلة - لابن عمه «بايدو» أحد كبار الأمراء، فحقد عليه، وتآمر مع الأمراء الآخرين على قتله، وعلم «كيخاتو» بالمؤامرة، فأثر الفرار، ولكن الأمراء تتبعوه، وتمكنوا من قتله في سنة (694هـ). بعد مقتل «كيخاتو» وقع اختيار الأمراء على «بايدوخان بن

(13/14)

طرغاي بن تولوي بن جنكيزخان» ليكون إبلخانًا، فاعتلى العرش في جمادى الأولى سنة (694هـ)، ثم تخلص من أتباع «كيخاتو»، وقرر إعادة الحقوق والوظائف إلى أصحابها، وأعفى الأوقاف الإسلامية من الضرائب، وعهد بأمر الجيش ورئاسة الوزراء إلى الأمير «طغاجار»، وسلك مسلك «آباخان» حيث جعل الإدارة لا مركزية، وجعل أميرًا من الأمراء على كل ولاية من الولايات، ونصب «جمال الدين الاستكرداني» وزيرًا له. لم يكد «بايدو» يتولى أمور الحكم حتى بلغ «غازان خان» ما حدث لعمه «كيخاتو»، فأقبل بجنوده ومعه الأمير «نوروز»، وأرسل رسله إلى «بايدو» ينكر عليه قتل كيوخاتو، ويطالبه بإجراء تحقيق ليلقى القتلة جزاءهم، فلما لم يلقَ جوابًا دارت رحى الحرب بين الفريقين، وفي هذه الأثناء عرض الأمير «نوروز» الإسلام على «غازان»، وحسّن له اعتناق هذا الدين بتشريعاته السميحة ونظمه الدقيقة، وما ينادى به من عدل ورحمة ومساواة، فاعتنق «غازان» الدين الإسلامي، ومال إليه أكثر الأمراء، وانتصر على «بايدو» في الحرب، فهرب «بايدو» ولحق به الأمير «نوروز»، وألقى القبض عليه، وأرسله إلى «غازان»،

فأمر بقتله في شهر ذى الحجة عام (694هـ). تولى «غازان»  
عرش المغول عقب مقتل «بايدو» في ذى الحجة سنة (694هـ)،  
وبعد أن اعتنق الإسلام تبعه جميع الأمراء والجنود المغول،  
وأسلم بإسلامه أكثر من مائة ألف شخص منهم في فترة وجيزة،  
ولقب «غازان» نفسه باسم السلطان «محمود غازان»، وأعلن  
الإسلام ديناً رسمياً للدولة، وأمر المغول بأن يغيروا ملابسهم  
التقليدية، ويلبسوا العمامة للتدليل على خضوعهم للإسلام، وأمر  
بهدم الكنائس والمعابد اليهودية والمزدكية والهيكل البوذية،  
وتحويلها إلى مساجد، وبارتداء اليهود والنصارى ثياباً تميزهم  
عن غيرهم من المسلمين، كرد فعل لما لقيه المسلمون من ضروب  
المهانة والذلة في عهد كل من: «هولاكو» و «آباقا»  
و «أرغون». قام «غازان» بإصلاحات كثيرة ومهمة في كثير من

(14/14)

الميادين، وكانت أبرزها إصلاحاته العمرانية، حيث أقام شمالي  
غرب «تبريز» محلة عُرفت باسم «شام غازان»، وتفصلها عن  
مدينة «تبريز» حدائق ومنتزهات كثيرة، وأمر كبار مهندسيه  
بإقامة بناء عالٍ في ذلك المكان؛ تعلوه قبة كبيرة، ليكون  
مدفنًا له، وقد استمرت عمارة القبة وتوابعها نحو خمس سنوات،  
واشتملت على مسجد وخانقاه ومدرستين (إحدهما للشافعية  
والأخرى للحنفية)، ومستشفى، ومكتبة، ومرصد، ومدرسة لتعليم  
العلوم الطبية، وبيت لحفظ كتب القوانين التي أصدرها الإيلخان  
عرف باسم «بيت القانون»، كما أنشأ مسكنًا للأطفال وآخر  
للأشراف، وضمت هذه الأبنية بعض الحمامات العامة، وملجأ  
واسعًا لليتامى؛ به مكتب لتعليم القرآن الكريم وتحفيظه، وملجأ  
آخر يتسع لنحو خمسمائة أرملة من النساء اللاتي فقدن عائلهن،

فضلا عن ذلك أنشأ «غازان» الأجران الواسعة المملوءة بالحبوب، والمزودة بأحواض المياه لكي تتزود منها الطيور المهاجرة من الشمال إلى الجنوب في الفصول الباردة من السنة خلال رحلتها عبر الهضبة الإيرانية التي تغطيها الثلوج في هذا الوقت من السنة، خاصة أن أعدادا كثيرة من هذه الطيور كانت تلقى حتفها، لتعذر حصولها على الغذاء، فأقام لها «غازان» هذه الأجران رحمة بها، وأصبحت هذه المؤسسات والمنشآت التي أقامها «غازان» مفخرة العالم الإسلامي والحضارة الإسلامية، حيث حول الإسلام القبائل الهمجية البربرية إلى أناس مهذبى الطباع، منظمين محبين للحضارة والعمران، وامتألت قلوبهم رحمة وعطفًا حتى على الطيور والحيوانات. قدم السلطان «أولجايتو» من «خراسان» التي كان حاكمًا عليها، وتولى العرش خلفًا لأخيه «غازان» في سنة (703هـ)، وجعل الوزارة مشاركة بين «رشيد الدين فضل الله الهمداني» وسعد الدين الساوجي. بدأ إنشاء مدينة السلطانية في عهد السلطان «غازان»، وهى تقع على بعد خمسة فراسخ من «زنجان»، فعمد «أولجايتو» إلى استكمال تشييدها وأمر بالتوسعة في

(15/14)

منشآتها العمرانية، فساهم الأمراء والوزراء في بناء بعض أحيائها، وأنشأ الوزير «رشيد الدين فضل الله» محلة بها على نفقته الخاصة؛ اشتملت على ألف منزل، ومسجد كبير. وأمر السلطان ببناء قبة كبيرة فوق مقبرته، ومازالت هذه القبة قائمة حتى اليوم دليلا على عظمة العمارة في هذا العصر. تمكن «أولجايتو» في سنة (706هـ) من بسط سيطرته على إقليم «جيان»، وهو الإقليم الذى لم يتمكن المغول من السيطرة عليه

حتى هذه السنة لكثرة غاباته، ووعورة مسالكه، وأعاد بناء  
مرصد «مراغة» الذى بناه «هولاكو» من قبل، وحين بلغ  
«أولجايتو» الثالثة والثلاثين من عمره اشتد عليه المرض واعتلت  
صحته، وتوفى في رمضان سنة (716هـ). تولى «أبو سعيد»  
حكم البلاد بعد وفاة السلطان «أولجايتو»، وكان لايزال في  
الثالثة عشرة من عمره، فاضطربت أحوال البلاد وتعددت ثورات  
الأمرء المغول في مناطق متفرقة ضده، غير أن «أبا سعيد»  
استعان عليهم بقائد جيشه الأمير «جوبان»، فقضى عليهم،  
وأعاد إلى البلاد استقرارها وهدوءها. تعرضت «الدولة  
الإيلخانية» -عقب وفاة السلطان «أبي سعيد بهادر» - للضعف  
والزوال، حيث كان السلاطين الذين اعتلوا عرش هذه الدولة بعد  
«أبي سعيد» ضعاف الشخصية، كما كانوا ألعوبة في أيدي  
الأمرء المغول وكبار رجال الدولة، وظل هذا حال هذه الدولة  
حتى وفاة «أنوشيروان» آخر السلاطين الإيلخانيين في سنة  
(756هـ)، فتقسم خمسة من كبار الأمرء المغول أملاك هذه  
الدولة، وكون كل منهم دولة صغيرة مستقلة، وهذه الدول هي:  
دولة آل جلاتر (الجلاتريون) - دولة الجوبانيين. - دولة آل المظفر. -  
دولة السربداريون. - دولة آل كرت.

(16/14)

### \*الإيلخانيون

تعود تسمية الدولة الإيلخانية بهذا الاسم إلى هولاكو خان الذى  
لقب بإيلخان، وهى كلمة مكونة من مقطعين «إيل» بمعنى تابع،  
و «خان» بمعنى ملك أو حاكم، والمقصود أن حاكم الدولة  
الإيلخانية تابع للخان الحاكم في قراقورم. ويعد «هولاكو»  
المؤسس الأول لسلسلة سلاطين المغول في «إيران» و «العراق»

الذين ظلوا يحكمون هذه البلاد من سنة (654هـ) حتى سنة (756هـ)، وقد تُوفى «هولاكو» سنة (663هـ)، وخلفه ابنه «آباقا خان» في حكم البلاد، التي امتدت من «نهر جيحون» حتى «العراق العربي» غربًا، ومن جنوبي روسيا شمالًا حتى «البحر العربي» جنوبًا. وقد جنحت الدولة الإيلخانية منذ إنشائها إلى الاستقلال عن العاصمة المغولية، في أمور السياسة والحكم - منذ عهد «آباقا خان» - وكان حكامها مستقلون تمامًا عن العاصمة قراقورم. كان «آباقا خان» يريد أن يخلفه عن العرش ابنه «أرغون» لكنه لم يستطع لأن هذا الإجراء كان يعد مخالفة كبيرة لأحكام الدستور المغولي الذي وضعه جنكيز الذي يسمى «الياسا»، فقد كان يتعين إذا مات الخان أن يخلفه على العرش أكبر الأمراء الأحياء، ولقد كان أكبرهم هو «تكودار» وليس «أرغون»، ولذلك أجمع الأمراء المغول الذين اجتمعوا في المجلس العام الذي يسمى «قوريلتاي» وقرروا انتخاب «تكودار» إيلخانًا في سنة (681هـ). اعتنق تكودار المسيحية في صغره، لكنه مال إلى الإسلام شيئًا فشيئًا؛ لكثرة اتصاله بالمسلمين، وتوطيد علاقته بعظماء المسلمين وكبار أئمتهم، فأعلن إسلامه، وسُمي بالسلطان «أحمد تكودار»، فكان أول من اعتنق الإسلام من الإيلخانيين. بعد مقتل السلطان «أحمد» اجتمع الأمراء المغول ونصبوا الأمير «أرغون ابن آباقا» إيلخانًا عليهم في جمادى الآخرة سنة (683هـ)، فنصب ابنه «غازان» حاكمًا على «خراسان» وعين الأمير «نوروز» نائبًا له عليها، وأنعم على الأمير «بوقا» بلقب «أمير الأمراء»، وأطلق يده في تسيير شئون

الدولة، وقتل الوزير «شمس الدين الجويني» وجميع أفراد أسرته تقريباً في شعبان سنة (683هـ)، وذلك لموقفهم مع السلطان «أحمد تكودار» ومساندتهم له في المعركة التي دارت بينه وبين أفراد المغول بقيادة الأمير «أرغون»؛ والتي انتهت بمقتل السلطان وتنصيب الأمير سلطاناً. حاول «أرغون» أن يجد من نفوذ «مصر» في المشرق الإسلامي، فأقام علاقات سياسية وطيدة مع قادة الدول المسيحية مثل: «البابا» و «إدوارد الأول» ملك «إنجلترا»، و «فيليب لوبل» ملك «فرنسا»، تمهيداً لتكوين حلف للقضاء على النفوذ المصري في «آسيا الصغرى»، و «العراق» و «الشام»، و «فلسطين». وشجعت هذه العلاقات (المغولية - الأوربية) عددًا من الرحالة الأوربيين على زيارة بلاد المغول، وسافر الرحالة الشهير «ماركو بولو» إلى العاصمة المغولية، وأقام في بلاط الامبراطور المغولي «قوبلاي» نحو عشرين عامًا، عمل فيها مستشارًا له ووزيرًا، ولم تقع حروب تذكر بين الجانيين - المصري والمغولي - في عهد «أرغون» لانشغال كل منهما بمشكلاته الداخلية. بعث الأمراء المغول عقب وفاة «أرغون» إلى أخيه «كيخاتو خان» يخبرونه بوفاته، فقدم على الفور من بلاد الروم التي كان يحكمها، وتولى عرش الإيلخانية في رجب سنة (690هـ)، ثم عين «صدر الدين أحمد الزنجاني» وزيرًا له، ولقبه بلقب «صدر جهان» وأوكل إليه التصرف في شئون الدولة كافة دون تدخل من أحد، وعين أخاه «قطب الدين الزنجاني» قاضيًا للقضاة، وأطلق عليه لقب «قطب جهان»، ولما كان «كيخاتو» مغرمًا بشرب الخمر، سبى الخلق فاسقًا، كرهه الأمراء وثاروا عليه، وبخاصة بعد أن أغلظ القول - ذات ليلة - لابن عمه «بايدو» أحد كبار الأمراء، فحقد عليه، وتآمر مع الأمراء الآخرين على قتله، وعلم «كيخاتو» بالمؤامرة، فآثر الفرار، ولكن الأمراء تتبعوه، وتمكنوا من قتله في سنة (694هـ). بعد مقتل «كيخاتو» وقع اختيار الأمراء على «بايدوخان بن

طرغاي بن تولوي بن جنكيزخان» ليكون إيلخانًا، فاعتلى العرش في جمادى الأولى سنة (694هـ)، ثم تخلص من أتباع «كيخاتو»، وقرر إعادة الحقوق والوظائف إلى أصحابها، وأعفى الأوقاف الإسلامية من الضرائب، وعهد بأمر الجيش ورتاسة الوزراء إلى الأمير «طغاجار»، وسلك مسلك «آباقا خان» حيث جعل الإدارة لا مركزية، وجعل أميرًا من الأمراء على كل ولاية من الولايات، ونصب «جمال الدين الاستكرداني» وزيرًا له. لم يكد «بايدو» يتولى أمور الحكم حتى بلغ «غازان خان» ما حدث لعمه «كيخاتو»، فأقبل بجنوده ومعه الأمير «نوروز»، وأرسل رسله إلى «بايدو» ينكر عليه قتل كيوخاتو، ويطالبه بإجراء تحقيق ليلقى القتلة جزاءهم، فلما لم يلق جوابًا دارت رحى الحرب بين الفريقين، وفي هذه الأثناء عرض الأمير «نوروز» الإسلام على «غازان»، وحسن له اعتناق هذا الدين بتشريعاته السميحة ونظمه الدقيقة، وما ينادى به من عدل ورحمة ومساواة، فاعتنق «غازان» الدين الإسلامي، ومال إليه أكثر الأمراء، وانتصر على «بايدو» في الحرب، فهرب «بايدو» ولحق به الأمير «نوروز»، وألقى القبض عليه، وأرسله إلى «غازان»، فأمر بقتله في شهر ذي الحجة عام (694هـ). تولى «غازان» عرش المغول عقب مقتل «بايدو» في ذي الحجة سنة (694هـ)، وبعد أن اعتنق الإسلام تبعه جميع الأمراء والجنود المغول، وأسلم بإسلامه أكثر من مائة ألف شخص منهم في فترة وجيزة، ولقب «غازان» نفسه باسم السلطان «محمود غازان»، وأعلن الإسلام دينًا رسميًا للدولة، وأمر المغول بأن يغيروا ملابسهم التقليدية، ويلبسوا العمامة للتدليل على خضوعهم للإسلام، وأمر بهدم الكنائس والمعابد اليهودية والمزدكية والهيكل البوذية،

وتحويلها إلى مساجد، وبارتداء اليهود والنصارى ثياباً تميزهم عن غيرهم من المسلمين، كرد فعل لما لقيه المسلمون من ضروب المهانة والذلة في عهد كل من: «هولاكو» و «آباقا» و «أرغون». قام «غازان» بإصلاحات كثيرة ومهمة في كثير من

(19/14)

الميادين، وكانت أبرزها إصلاحاته العمرانية، حيث أقام شمالى غرب «تبريز» محلة عُرفت باسم «شام غازان»، وتفصلها عن مدينة «تبريز» حدائق ومنتزهات كثيرة، وأمر كبار مهندسيه بإقامة بناء عالٍ في ذلك المكان؛ تعلوه قبة كبيرة، ليكون مدفنًا له، وقد استمرت عمارة القبة وتوابعها نحو خمس سنوات، واشتملت على مسجد وخانقاه ومدرستين (إحدهما للشافعية والأخرى للحنفية)، ومستشفى، ومكتبة، ومرصد، ومدرسة لتعليم العلوم الطبية، وبيت لحفظ كتب القوانين التي أصدرها الإيلخان عرف باسم «بيت القانون»، كما أنشأ مسكنًا للأطفال وآخر للأشراف، وضمت هذه الأبنية بعض الحمامات العامة، وملجأ واسعًا لليتامى؛ به مكتب لتعليم القرآن الكريم وتحفيظه، وملجأ آخر يتسع لنحو خمسمائة أرملة من النساء اللاتي فقدن عائلتهن، فضلًا عن ذلك أنشأ «غازان» الأجران الواسعة المملوءة بالحبوب، والمزودة بأحواض المياه لكي تتزود منها الطيور المهاجرة من الشمال إلى الجنوب في الفصول الباردة من السنة خلال رحلتها عبر الهضبة الإيرانية التي تغطيها الثلوج في هذا الوقت من السنة، خاصة أن أعدادًا كثيرة من هذه الطيور كانت تلقى حتفها، لتعذر حصولها على الغذاء، فأقام لها «غازان» هذه الأجران رحمة بها، وأصبحت هذه المؤسسات والمنشآت التي أقامها «غازان» مفخرة العالم الإسلامى والحضارة

الإسلامية، حيث حول الإسلام القبائل الهمجية البربرية إلى أناس مهذبى الطباع، منظمين محبين للحضارة والعمران، وامتألت قلوبهم رحمة وعطفًا حتى على الطيور والحيوانات. قدم السلطان «أولجايتو» من «خراسان» التي كان حاكمًا عليها، وتولى العرش خلفًا لأخيه «غازان» في سنة (703هـ)، وجعل الوزارة مشاركة بين «رشيد الدين فضل الله الهمداني» وسعد الدين الساجي. بدأ إنشاء مدينة السلطانية في عهد السلطان «غازان»، وهى تقع على بعد خمسة فراسخ من «زنجان»، فعمد «أولجايتو» إلى استكمال تشييدها وأمر بالتوسعة في

(20/14)

---

منشآتها العمرانية، فساهم الأمراء والوزراء في بناء بعض أحيائها، وأنشأ الوزير «رشيد الدين فضل الله» محلة بها على نفقته الخاصة؛ اشتملت على ألف منزل، ومسجد كبير. وأمر السلطان ببناء قبة كبيرة فوق مقبرته، وما زالت هذه القبة قائمة حتى اليوم دليلا على عظمة العمارة في هذا العصر. تمكن «أولجايتو» في سنة (706هـ) من بسط سيطرته على إقليم «جيان»، وهو الإقليم الذى لم يتمكن المغول من السيطرة عليه حتى هذه السنة لكثرة غاباته، ووعورة مسالكه، وأعاد بناء مرصد «مراغة» الذى بناه «هولاكو» من قبل، وحين بلغ «أولجايتو» الثالثة والثلاثين من عمره اشتد عليه المرض واعتلت صحته، وتوفى في رمضان سنة (716هـ). تولى «أبو سعيد» حكم البلاد بعد وفاة السلطان «أولجايتو»، وكان لايزال في الثالثة عشرة من عمره، فاضطربت أحوال البلاد وتعددت ثورات الأمراء المغول في مناطق متفرقة ضده، غير أن «أبا سعيد» استعان عليهم بقائد جيشه الأمير «جوبان»، ففضى عليهم،

وأعاد إلى البلاد استقرارها وهدوءها. تعرضت «الدولة الإيلخانية» -عقب وفاة السلطان «أبي سعيد بمادر» - للضعف والزوال، حيث كان السلاطين الذين اعتلوا عرش هذه الدولة بعد «أبي سعيد» ضعاف الشخصية، كما كانوا ألعوبة في أيدي الأمراء المغول وكبار رجال الدولة، وظل هذا حال هذه الدولة حتى وفاة «أنوشيروان» آخر السلاطين الإيلخانيين في سنة (756هـ)، فتقاسم خمسة من كبار الأمراء المغول أملاك هذه الدولة، وكون كل منهم دولة صغيرة مستقلة، وهذه الدول هي: دولة آل جلائر (الجلاتريون) - دولة الجوبانيين. - دولة آل المظفر. - دولة السربداريون. - دولة آل كرت.

(21/14)

#### \*الدولة الجلائرية

كان «آل جلائر» من القبائل المغولية، ويعد «تاج الدين شيخ حسن بزرگ بن حسين» أول حكام «آل جلائر» ومؤسس دولتهم «الجلائرية»، وثالث من تولى الحكم في «الدولة الإيلخانية»، وقد امتد سلطانه إلى «العراق»، واتخذ «بغداد» عاصمة له، وأعلن نفسه ملكاً عليها، فظهرت بذلك الدولة «الجلائرية» إلى حيز الوجود. شهدت اللبنة الأولى لقيام «الدولة الجلائرية» عدة حروب بين الأمراء المغول بهدف الوصول إلى الحكم، إلا أن «حسن الجلائري» تمكن من الاستقلال بالعراق واستطاع أن يوحد الصفوف لتأسيس دولته الوليدة، ومع ذلك لم تتوقف الصراعات والحروب مع بقايا الإيلخانيين، إلى أن تمكن «الشيخ حسن الجلائري» من طردهم إلى خارج حدود دولته - «العراق» - في عام (748هـ = 1347م). كان «الشيخ حسن الجلائري» سياسياً حكيماً، وأراد أن يضمن لدولته قوتها ووحدتها، فلم يعلن نفسه

خائناً أو سلطاناً؛ بل أعلن ولاءه للسلطان المملوكي في «مصر» ليكون سنده الذي يحتمى به إذا ما فكر المغول في غزوه، خاصة وأن دولته قريبة ومتاخمة للإمارات والممالك المغولية فساعده هذا التصرف على استقرار بلاده، وشجعه على الاستيلاء على «لورستان»، و «الموصل»، و «تستر»، وبسط نفوذه على غيرها، فاتسعت رقعة بلاده، وامتد نفوذ حكمه، ثم مات في عام (757هـ = 1356م)، وخلفه ابنه «الشيخ أويس بن حسن الجلائري»، فبلغت الدولة في عهده أقصى اتساع لها، إذ ضم إليها «أذربيجان»، و «آران»، و «موقان»، واتخذ من «تبريز» عاصمة لبلاده، وانتقل نشاط الدولة السياسي ومركزها من «العراق» إلى «أذربيجان»، فأدى ذلك إلى قيام حركات التمرد في «بغداد» على الجلائريين، وكانت حركة «مرجان» نائب «الشيخ أويس» على «بغداد» من أشهر هذه الحركات، وكان «مرجان» طواشياً للشيخ أويس. لقد أخطأ «الشيخ أويس» في حساباته عندما ابتعد عن «العراق» واتخذ له عاصمة في «إيران»، فضلاً عن تقريبه الفرس دون العرب، فكانت النتيجة

(22/14)

---

انضمام العرب بمختلف طوائفهم إلى «مرجان» وحركته، وحُذف اسم «الشيخ أويس» من الخطبة؛ رمز السيادة في الدولة، وحُطبت للسلطان المملوكي في «مصر». خرج «الشيخ أويس» من «تبريز» إلى «بغداد» في سنة (765هـ = 1363م)، واستطاع وزيره أن يستميل أعوان «الخواجة مرجان» إلى صفه، فانفضوا من حول «مرجان» وفشلت حركته، ودخل «الشيخ أويس» «بغداد» ثم جعل «شاه خازن» نائباً له عليها، ولكن «مرجان» لم يئأس من المحاولة، وعاد مرة ثانية إلى حكم «بغداد» عقب وفاة

«شاه خازن»، مما يؤكد حب أهل «العراق» لمرجان ومكانته  
عندهم، فاضطر «الشيخ أويس» إلى الصفح عنه، ثم أرسل ابنه  
«الشيخ علي» ليحكم «العراق». تُوفى «الشيخ أويس» عام  
(776هـ = 1373م)، وخلفه في الحكم ابنه «جلال الدين حسين بن  
أويس» (776 - 784هـ = 1373 - 1382م)، فضاعت هيبة الدولة في  
عهده، وبدأت في التدهور والانهيار؛ حيث اهتم بملذاته ومصالحه  
الشخصية على حساب أمور الدولة والرعية، وزادت الأمور  
اضطرابًا في عهد أخيه «أحمد بن أويس» الذي خلفه في الحكم  
(784 - 813هـ = 1382 - 1410م)، إذ تمكن «تيمورلنك» من إسقاطه  
عن عرشه عدة مرات، ثم دخل «بغداد» في عام (795هـ =  
1393م)، ففر «أحمد بن أويس» إلى «مصر» مستنجدًا بالسلطان  
المملوكي «برقوق»، وتمكن «الشيخ أحمد» -أخيرًا- من العودة  
إلى «بغداد» في عام (804هـ = 1401م)، وتمكن من استعادتها  
في عام (807هـ = 1404م)، بعد أن خرجت عدة مرات من حكم «آل  
جلانر» إلى حكم التيموريين، ثم استعاد «تبريز» في عام  
(809هـ = 1406م)، ولم يلبث أن فقدتها ثانية في العام نفسه على  
يد حفيد «تيمورلنك». وفي عام (813هـ = 1410م)، اختلف «أحمد  
بن أويس» مع زعيم قبيلة «قراقيونلو»، وحدث صدام بينهما،  
فقتل «الشيخ أحمد»، وتمكن زعيم «قراقيونلو» من انتزاع  
«تبريز» وما والاها من الجلاليين، ثم أسس دولة له  
في «أذربيجان». تولى الحكم بعد «أحمد بن أويس» عدد من

(23/14)

---

السلطين، وصلت الدولة في عهدهم إلى أقصى مراحل الضعف  
حتى انتهت بموت «حسين بن علاء الدولة» آخر السلطين  
الجلاليين سنة (835هـ)، وسلطين هذه الفترة هم: - شاه ولد

(813 - 814 هـ). - محمود بن شاه ولد (814 - 818 هـ). - أويس بن شاه ولد (818 - 824 هـ). - محمد بن شاه ولد (824 - 827 هـ). (حسين بن علاء الدولة (827 - 835 هـ). تمتعت «الدولة الجلائرية» باستقلالها في عهد «الشيخ حسن الجلائري» الذي أدت سياسة حكمه إلى انتعاش اقتصاد البلاد، وبناء حضارة زاهرة، وتشبيد المدارس والمكتبات وأماكن العلاج، فتردد طلاب العلم على «بغداد» من كل مكان؛ طلباً للعلم والمعرفة، فأعاد لبغداد عهداً قديماً المشرق، واعتمد على العرب والترك في الجيش، فقل تأثير الفرس على المجتمع العراقي، وبات «آل فضل» العرب ذوي مكانة خاصة في هذه الدولة، ولكن ذلك لم يدم طويلاً؛ إذ تولى «الشيخ أويس بن حسن» عرش «الدولة الجلائرية» واعتمد فيها على العنصر الفارسي، وأساء إلى العرب، فتقلص نفوذ العرب ونشاطهم في الدولة، وازداد الأمر سوءاً حينما اتخذ «الشيخ أويس» «تبريز» عاصمة لبلاده بدلاً من «بغداد»، وجعل اللغة الفارسية لغة بلاده الرسمية؛ فازداد نفوذ الفرس، واشتعلت الثورات في «العراق»، وطمع المظفريون في فارس، فأحدقت الأخطار بالدولة الجلائرية من كل جانب فغزاها التيموريون، فأفقدوا ذلك القدرة على مواصلة الإصلاح الاقتصادي، وأهملت المنشآت الخاصة بالزراعة والري، وأصبح شغل الحكام الجلائريين الشاغل هو الحفاظ على وجودهم في الحكم، ونشبت بينهم الصراعات الكثيرة التي أطاحت بهم جميعاً في النهاية. كما ساعدت الفيضانات والأوبئة التي تعرضت لها هذه الدولة على انهيار اقتصادها، وتدهور الأحوال فيها، واضطر الحكام إلى فرض الضرائب لملاحقة المجهود العسكري، فضجر الناس من ذلك، وانتكست تجارتهم بسبب الضرائب، وأصبحت الصناعة

بالخمول والكساد أيضاً، ولم تبقَ إلا بعض الصناعات القليلة مثل: صناعة الحرير، وصناعة الأسلحة، وبات همُّ الحكام الحفاظ على العرش، وضحوا في سبيل تحقيق ذلك بكل غالٍ ونفيس.

(25/14)

### \*الدولة المظفرية

ينسب «آل مظفر» إلى الأمير «مبارز الدين محمد» ابن الأمير «شرف الدين بن منصور بن غياث الدين حاجي الخراساني»، وقد تولى الأمير «شرف الدين» عدة مناصب في عهد الإيلخانيين، فولاه السلطان «أولجايتو» مدينة «مبيد» (6)، ثم توفى «شرف الدين» بعد أن قضى على المتمردين في منطقة «شبانكاره»، فاتخذ السلطان «أبو سعيد بهادرخان» ابنه «مبارز الدين محمد» ولم يكن قد تجاوز الثالثة عشرة من عمره مكان أبيه، وولاه مناصبه في عام (717هـ = 1317م)، ولذا يعد الأمير «مبارز الدين» أول حكام المظفرين. استقل الأمير «مبارز الدين محمد بن مظفر» بإقليم «فارس» عقب سقوط الحكم الإيلخاني، ثم استولى على «كرمان» في سنة (741هـ = 1340م)، وطمح في تكوين إمبراطورية واسعة الأرجاء، فضم كثيراً من المدن الإيرانية إلى دولته، وأعلن ولاءه للخليفة العباسي «المعتضد بالله» واتخذ لنفسه لقب «ناصر أمير المؤمنين»؛ ليضفي الشرعية على حكمه، وظل يسعى إلى تحقيق هدفه حتى بات الخليفة ألعوبة في يده. اعترض «آل إينجو» بزعامة «الشيخ أبي إسحاق» طريق «آل مبارز» في تحقيق حلمهم، ونشبت الخلافات والصراعات بينهما، وظلت العلاقة بين الطرفين سيئة حتى قتل المظفريون «الشيخ أبا إسحاق» عقب إحدى المعارك التي دارت بينهما في عام (758هـ = 1356م)، واستولى «شاه شجاع» ابن الأمير «مبارز

الدين» على «شيراز»، فانتقل إليها الأمير «مبارز» وأقام بها وأرسل ابنه «شاه شجاع» إلى حكم «كرمان». وفي عام (758هـ) فتح الأمير «مبارز الدين» منطقة «تبريز»، ثم لما علم بقدوم الشيخ إدريس الجلائرى إليها، غادرها إلى «شيراز»، وهناك اصطدم بولديه «شاه شجاع»، و «شاه محمود»، اللذين تحالفا مع «شاه سلطان» أحد الناقمين على أبيهما، فقبضوا عليه، وأمر ابنه «شاه شجاع» بسمل عينيه، ثم حبسوه في إحدى القلاع، والتمس الأب عطف ولديه، وطلب منهما الصلح،

(26/14)

فغفوا عنه، وحكما البلاد نيابة عنه، وضربا السكة باسمه، وظل الوضع على ذلك فترة، ثم أرسله للإقامة بقلعة «جم» بكرمان، ولكن الأمير «مبارز الدين» كان قد اشتد به المرض ومات في الطريق قبل أن يصل إلى هذه القلعة قى عام (765هـ = 1364م). وظل أبناء «مبارز الدين» يحكمون من بعده «كرمان» و «فارس» و «کردستان»، فحكم «جلال الدين شاه شجاع» في حياة أبيه في سنة (759هـ = 1357م)، وظل في الحكم حتى سنة (786هـ = 1384م)، وقضى فترة حكمه في مطاردة المارقين والعصاة والخارجين على الدولة، ثم تولى بعده ابنه «مجاهد الدين زين الدين» (786 - 789هـ = 1384 - 1387م)، إلى أن عزله الأمير «تيمور كوركان»، فخلفه «شاه يجي» في «يزد»، و «سلطان أحمد» في «كرمان». وكان «شاه منصور» آخر حكام دولة «آل المظفر» في «أصفهان»، وسقطت «الدولة المظفرية» في عام (795هـ = 1393م). وقد اشتهر المظفريون بحبهم للعلم والثقافة طيلة اثنتين وسبعين سنة هي عمر دولتهم من النشأة حتى السقوط. عانت «الدولة المظفرية» كثيراً من الصعاب من أجل الاحتفاظ بالحكم،

فدار صراع بينها وبين «آل إينجو» بزعامة الشيخ «أبي إسحاق»، ودخلت حروب عدة مع «الدولة الجلائرية»، وكذلك مع «الدولة التيمورية» التي اجتاحت ما اعترض سبيلها من الدول والحكام، ولم تستطع دولة «آل المظفر» الصمود أمام تسلط «تيمور كوركان» الذي قسم أملاكها بحجة الوصاية التي منحه إياها الأمير «مجاهد الدين زين العابدين» لرعاية أولاده من بعده، فوضع «تيمور» النهاية لهذه الدولة في عام (795هـ = 1393م) بعد أن فرق وحدتها، وشتت حكمها، وقسم أرضها، ثم عمد بعد ذلك إلى إسقاطها. تميز عهد الأمير «مبارز الدين محمد بن مظفر» بالنشاط الحضاري، والازدهار الفكري والثقافي، بفضل تشجيعه للعلماء والفقهاء والنايغين، فتعهد علماء «شيراز» بالرعاية، وبنى في «كرمان» مسجداً كبيراً أوقف عليه الأملاك لرعايته، وضرب السكة في عهده ونقش عليها اسم

(27/14)

---

الخليفة العباسي رمز المسلمين، وتذكر المصادر الفارسية أن «مبارز الدين» كان ضيق الصدر، ويعاقب المخطئ بنفسه؛ حتى أُطلق عليه: «الملك المحتسب»، وكان شاه شجاع محبا للشعر والشعراء، فازدهر الشعر في عصره، ونبغ عدد كبير من الشعراء منهم: «الشاعر الحافظ الشيرازي»، و «العماد الفقيه الكرمانى».

(28/14)

---

\*آل مظفر

ينسب «آل مظفر» إلى الأمير «مبارز الدين محمد» ابن الأمير

«شرف الدين بن منصور بن غياث الدين حاجي الخراساني»، وقد تولى الأمير «شرف الدين» عدة مناصب في عهد الإيلخانيين، فولاه السلطان «أولجايتو» مدينة «مبيد» (6)، ثم توفى «شرف الدين» بعد أن قضى على المتمردين في منطقة «شبانكاره»، فاتخذ السلطان «أبو سعيد بهادرخان» ابنه «مبارز الدين محمد» ولم يكن قد تجاوز الثالثة عشرة من عمره مكان أبيه، وولاه مناصبه في عام (717هـ = 1317م)، ولذا يعد الأمير «مبارز الدين» أول حكام المظفرين. استقل الأمير «مبارز الدين محمد بن مظفر» بإقليم «فارس» عقب سقوط الحكم الإيلخاني، ثم استولى على «كرمان» في سنة (741هـ = 1340م)، وطمح في تكوين إمبراطورية واسعة الأرجاء، فضم كثيراً من المدن الإيرانية إلى دولته، وأعلن ولاءه للخليفة العباسي «المعتضد بالله» واتخذ لنفسه لقب «ناصر أمير المؤمنين»؛ ليضفي الشرعية على حكمه، وظل يسعى إلى تحقيق هدفه حتى بات الخليفة ألعوبة في يده. اعترض «آل إينجو» بزعامه «الشيخ أبي إسحاق» طريق «آل مبارز» في تحقيق حلمهم، ونشبت الخلافات والصراعات بينهما، وظلت العلاقة بين الطرفين سيئة حتى قتل المظفريون «الشيخ أبا إسحاق» عقب إحدى المعارك التي دارت بينهما في عام (758هـ = 1356م)، واستولى «شاه شجاع» ابن الأمير «مبارز الدين» على «شيراز»، فانتقل إليها الأمير «مبارز» وأقام بها وأرسل ابنه «شاه شجاع» إلى حكم «كرمان». وفي عام (758هـ) فتح الأمير «مبارز الدين» منطقة «تبريز»، ثم لما علم بقدم الشيخ إدريس الجلائري إليها، غادرها إلى «شيراز»، وهناك اصطدم بولديه «شاه شجاع»، و «شاه محمود»، اللذين تحالفا مع «شاه سلطان» أحد الناقمين على أبيهما، فقبضوا عليه، وأمر ابنه «شاه شجاع» بسمل عينيه، ثم حبسوه في إحدى القلاع، والتمس الأب عطف ولديه، وطلب منهما الصلح، فغفوا عنه، وحكما البلاد نيابة عنه، وضربا السكة باسمه، وظل

الوضع على ذلك فترة، ثم أرسله للإقامة بقلعة «بم» بكرمان، ولكن الأمير «مبارز الدين» كان قد اشتد به المرض ومات في الطريق قبل أن يصل إلى هذه القلعة في عام (765هـ = 1364م). وظل أبناء «مبارز الدين» يحكمون من بعده «كرمان» و «فارس» و «کردستان»، فحكم «جلال الدين شاه شجاع» في حياة أبيه في سنة (759هـ = 1357م)، وظل في الحكم حتى سنة (786هـ = 1384م)، وقضى فترة حكمه في مطاردة المارقين والعصاة والخارجين على الدولة، ثم تولى بعده ابنه «مجاهد الدين زين الدين» (786 - 789هـ = 1384 - 1387م)، إلى أن عزله الأمير «تيمور كوركان»، فخلفه «شاه يحيى» في «يزد»، و «سلطان أحمد» في «كرمان». وكان «شاه منصور» آخر حكام دولة «آل المظفر» في «أصفهان»، وسقطت «الدولة المظفرية» في عام (795هـ = 1393م). وقد اشتهر المظفريون بحبهم للعلم والثقافة طيلة اثنتين وسبعين سنة هي عمر دولتهم من النشأة حتى السقوط. عانت «الدولة المظفرية» كثيراً من الصعاب من أجل الاحتفاظ بالحكم، فدار صراع بينها وبين «آل إينجو» بزعامة الشيخ «أبي إسحاق»، ودخلت حروب عدة مع «الدولة الجلائرية»، وكذلك مع «الدولة التيمورية» التي اجتاحت ما اعترض سبيلها من الدول والحكام، ولم تستطع دولة «آل المظفر» الصمود أمام تسلط «تيمور كوركان» الذي قسم أملاكها بحجة الوصاية التي منحه إياها الأمير «مجاهد الدين زين العابدين» لرعاية أولاده من بعده، فوضع «تيمور» النهاية لهذه الدولة في عام (795هـ = 1393م) بعد أن فرق وحدتها، وشتت حكمها، وقسم أرضها، ثم عمد بعد ذلك إلى إسقاطها. تميز عهد الأمير «مبارز الدين محمد بن مظفر» بالنشاط الحضاري، والازدهار الفكري والثقافي،

بفضل تشجيعه للعلماء والفقهاء والنايغين، فتعهد علماء  
«شيراز» بالرعاية، وبنى في «كرمان» مسجدًا كبيرًا أوقف  
عليه الأملاك لرعايته، وضرب السكة في عهده ونقش عليها اسم  
الخليفة العباسي رمز المسلمين، وتذكر المصادر الفارسية أن

(30/14)

---

«مبارز الدين» كان ضيق الصدر، ويعاقب المخطئ بنفسه؛ حتى  
أطلق عليه: «الملك المحتسب»، وكان شاه شجاع محبا للشعر  
والشعراء، فازدهر الشعر في عصره، ونيغ عدد كبير من  
الشعراء منهم: «الشاعر الحافظ الشيرازي»، و «العماد الفقيه  
الكرماني».

(31/14)

---

### \*كرت (دولة)

استقل ملوك «كرت» ببلادهم استقلالًا محدودًا تحت لواء  
الإيلخانات في «إيران»، وإن استمروا في الحكم فترة بعد  
سقوط «الدولة الإيلخانية»، وقد استقر ملوك «آل كرت» في  
«هراة»، و «بلخ»، و «غزنة»، و «سرخس»، و «نيسابور»، ولم  
يصلوا إلى ما وصلت إليه الأسر المغولية الأخرى من أهمية في  
تاريخ المشرق الإسلامي؛ إذ حكموا الجزء الشرقي لإيران من  
منتصف القرن السابع الهجري إلى نهاية القرن الثامن الهجري،  
وأزال ملكهم الأمير «تيمور كوركان» مثلما أزال ملك الأسر  
المغولية الأخرى. كان «شمس الدين الأول محمد»، أول ملوك  
«آل كرت»، وهو ابن ابنة «ركن الدين بن تاج» الذي تزوج ابنة  
السلطان «غياث الدين محمود الغوري»، الذي عينه حاكمًا على

قلعة «خنسبار» (تقع بين هراة والغور) والتي آل أمرها -فيما بعد - إلى الملك «شمس الدين». وعندما زحف المغول على العالم الإسلامي رأى الجدل «ركن الدين بن تاج» الدخول تحت لوائهم، ليضمن سلامة ملكه، فتركه المغول، وبعث بجفيده «شمس الدين كرت» إليهم ليكون في خدمتهم، تعبيراً عن الطاعة والولاء. حكم «شمس الدين كرت» مناطق كثيرة، منها: «هراة»، و «بلخ»، و «غزنة»، و «سرخس»، و «نيسابور»، ووصل بملكه إلى ضفاف «سيحون»، و «سيستان»، و «كابل» حتى «نهر السند»، وتمكن من الاستقلال بالحكم في سنة (648هـ)، ومن المؤكد أن «شمس الدين» لعب دوراً كبيراً في حملة «هولاكو خان» على بلاد طائفة «الإسماعيلية»، إذ كان أول المشاركين فيها إظهاراً لولائه وطاعته للمغول، وكان له الفضل في تسليم «ناصر الدين محتشم» «قلعة قهستان» إلى المغول. لم تسر سياسة «شمس الدين» على نهج واحد في علاقته بالمغول، إذ انحاز إلى «براق خان» الجغتائي في هجومه على «آباقا خان بن هولاكو» للاستيلاء على «خراسان» التابعة للدولة الإيلخانية، وذلك بعد وفاة «هولاكو»، وتولى ابنه «آباقا خان» الحكم خلفاً له، فغضب «آباقا خان» على «شمس الدين» لموقفه، وخشى «شمس

(32/14)

الدين» على حياته من غضب «آباقا خان» وانتقامه. شعر «براق خان» بقرب نهاية دولته (الدولة الجغتائية)، فعرض على «شمس الدين كرت» أن يعرف له أسماء الأغنياء في «خراسان» -طمعاً في ما لهم- مقابل أن يحصل «شمس الدين» على تفويضه في أملاك «الدولة الإيلخانية»، فأحس «شمس الدين» بذكائه قرب زوال ملك الجغتائيين، خاصة أن جيشهم بدت عليه أمارات

القسوة والتجبر، فعاد إلى «هراة»، واعتصم بقلعة «خنسيار»،  
وانتظر ما ستسفر عنه الأحداث، ولكنه لم يلبث طويلاً وتمكن من  
النجاة بشفاعته «شمس الدين الجويني» صاحب الديوان (7) له عند  
«آباقا خان» الذي عفا عنه، ومات «شمس الدين كرت» في  
«تبريز» مسموماً في عام (676هـ = 1277م)، فوُلِّيَ «آباقا خان»  
«ركن الدين بن شمس الدين» حكم «هراة» (677 - 682هـ = 1278 -  
1283م). واتخذ هذا الابن لقب أبيه وعرف باسم «ركن الدين بن  
شمس الدين الأصغر». فلما تُوفِّيَ الإيلخان «آباقا خان» خشي  
ركن الدين على حياته، واعتصم بقلعة «خنسيار» الحصينة حتى  
وفاته سنة (705هـ = 1305م)، ثم تولى ابنه «فخر الدين» مكانه  
من قِبَل «غازان خان» سنة (695هـ = 1295م)، وشغل عهده  
بالخلاف مع «غازان»، حتى تُوفِّيَ سنة (706هـ = 1306م)، فعين  
«أولجايتو» مكانه أخاه «غياث الدين»، وظل في الحكم حتى  
سنة (729هـ = 1328م)، فخلفه بالتتابع ولداه «شمس الدين  
الثاني» الذي مات سنة (730هـ = 1329م)، و «الملك حافظ» الذي  
قتل سنة (732هـ = 1331م)، ثم جاء من بعدهما الأخ الثالث «معز  
الدين حسين»، وكان من أبرز حكام «بني كرت»، فقد قرأت  
الخطبة باسمه، وأهداه «سعد الدين التفتازاني» كتابه المشهور  
في البلاغة باسم «المطول» وقد توفي «معز الدين حسين» سنة  
(771هـ = 1370م)، وحل مكانه ابنه «غياث الدين بير علي» الذي  
دعاه «تيمورلنك» للاجتماع به، فلما لم يلبِّ دعوته، قاد بنفسه  
جيشاً تمكن من الاستيلاء على هراة سنة (783هـ = 1381م)،

(33/14)

---

وأسر «غياث الدين» وابنه «بير محمد» وأخاه الملك «محمد»  
والى «سرخس» وأركان حكومته، وساقهم إلى «سمرقند»، ثم

أعدمهم في أواخر سنة (784هـ) وبذلك انقضت أسرة ملوك كرت. كانت إمارة «آل كرت» إمارة ثرية؛ إذ ضمت إلى حكمها مناطق عدة اشتهرت بثرواتها وخيراتها ومزروعاتها، وسعة أرضها، وعدوية مائها، وخصوبة تربتها، فاشتهرت «هراة» ببساتينها الكثيرة، و «غزنة» بسعة أرضها وخصوبة تربتها ووفرة مائها العذب، وكانت تقع في أطراف «خراسان» وتربطها بالهند، أما «سرخس» فتقع بين «مرو» و «نيسابور» وبها خيرات كثيرة، واشتهرت «نيسابور» (إحدى مدن خراسان) بالفواكه والثمار، والمعادن الكثيرة وبخاصة الفيروز، كما كانت تزخر بالعلماء الفضلاء، وتعد هذه المدينة عتبة الشرق. والواقع أن تلك البقاع التي شملتها أقاليم «آل كرت» كانت تفيض بالخير والثراء، فلم يجد الحكام صعوبة في توفير احتياجات البلاد، وكذلك لم يكن لهم طموح في توسيع حدودهم، أو إدخال دولة ما تحت تبعيتهم؛ إذ كانوا أنفسهم تابعين للحكم الإيلخاني المغولي، وحرص الإيلخانيون على ولائهم وكسب ودهم، وبقاء تبعية «آل كرت» لهم. وقد أدى استقرار الأوضاع الاقتصادية في دولة «آل كرت» إلى استقرار الأوضاع السياسية، فشجع «الحكام» العلماء والأدباء، وعمدوا إلى مساعدتهم، فبرز منهم عدد كبير، ومنهم «ابن يمين» (المتوفى عام 769هـ)، وقد مدح بأشعاره «آل كرت» والسريداريين، وتضمن شعره الحكم والمواعظ، ومما يجدر ذكره أن العالم الجليل والقطب الكبير «جلال الدين الرومي»، قد وُلد وعاش في «بلخ» في الفترة من (604هـ إلى 672هـ)، وهو من أكبر شعراء الصوفية الفرس، وصاحب كتاب «مثنوى».

## \*قراقيونلو (دولة)

ظهرت جماعة من التركمان أطلقوا على أنفسهم اسم «قراقيونلو» (8) في أواخر عهد السلطان «أبي سعيد بهادرخان» آخر حكام «الدولة الإيلخانية» - في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري = النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي - في الشمال الغربي لآسيا جنوبي بحيرة «وان». ومما لاشك فيه أن هذه الجماعة قد استفادت استفادة كبيرة من الضعف الذي منيت به «الدولة الإيلخانية» في عهد خلفاء السلطان «أبي سعيد بهادرخان»، ودخلوا في صراع مع التيموريين، واعتنقوا المذهب الشيعي، ويرجع نسب أمرائهم إلى الأمير «محمد تورمش ابن بيرام خواجه». استطاع الأمير «أبو نصر قرا يوسف نويان بن محمد» أول أمراء «قراقيونلو» أن يقود كتائبهم المنتشرة بالأقاليم المجاورة لأرمينيا و «أذربيجان»، ويستولى على «تبريز» ويجعلها عاصمة لإمارته، ثم اصطدم بأحمد بن أويس الجلانري في عام (813هـ = 1410م)، وتمكن منه وقتله، ومد سلطانه وسيطرته على «أذربيجان» (أذربايجان). ولما غزا «تيمور» بلاد «قرا يوسف» في عام (802هـ = 1400م)، سلبه ملكه، ولكنه استعاد ما سلب منه في عام (808هـ = 1405م)، ونادى بابنه «بيربوداق» أميراً على «أذربيجان» سنة (810هـ = 1407م)، فاستطاع أن يتخلص من «قرا عثمان» رئيس «الآق قيونلو» في «ديار بكر»، ويحقق لقبيلته كثيراً من الانتصارات والفتوح من ناحية الغرب، ثم توجه إلى الشرق لصد القوات التيمورية بقيادة «شاه رخ»، ولكنه توفي فجأة في الطريق بأذربيجان، وكذلك توفي والده «قرا يوسف» في الوقت نفسه، فتولى الأمير «إسكندر بن قرا يوسف» الحكم في عام (823هـ = 1420م)، واستمر حتى عام (841هـ = 1437م). وفي أثناء هذه الفترة وقعت أحداث كثيرة، فهاجم «شاه رخ» الذي كان يحكم القسم الشرقي لإيران الأمير

إسكندر بن قرا يوسف، وألحق به الهزيمة في «تبريز»، وطرده من «أرمينية» في عام (824هـ = 1421م)، ولكن الأوضاع

(35/14)

الداخلية للدولة التيمورية أجبرت الأمير «شاه رخ» على العودة إلى «خراسان»، مما أتاح الفرصة للأمير «إسكندر» للعودة إلى إمارته واسترداد ملكه، وتحقيق انتصارات متتالية في «أرمينية» و «أران»، و «بلاد الأكراد». واستمر الصراع بينهما حتى قتل الأمير إسكندر سنة (841هـ) فتولى أخوه الأمير «جهانشاه» زعامة أمراء «قراقيونلو»، واصطدم بالتيموريين وهزم «الميرزا علاء الدولة التيموري» واستولى منه على «خراسان»، وفي الوقت نفسه تمرد ابن «جهانشاه» عليه في «أذربيجان»، فاضطر إلى مصالحة التيموريين ثانية، وأعاد إليهم «خراسان»، ثم عاد إلى «تبريز» عاصمته ليتمكن من مواجهة ابنه والقضاء على تمرده، فخرج عليه «حسن بيك» أحد أفراد قبيلة «آق قيونلو»، وقتله في سنة (872هـ = 1467م). كان الأمير «حسن علي» هو آخر أمراء هذه الدولة، وهو ابن الأمير «جهانشاه» الذي اعتقله في «باكو» نحو خمسة وعشرين عامًا؛ فلما ولي الأمير «حسن» الحكم، لقي هزيمة منكرة على أيدي قبيلة «آق قيونلو» بزعامة «أوزون حسن» في عام (873هـ = 1495م)، وسقطت أسرة «قراقيونلو»، فكانت النهاية. لم تتح الحروب والمعارك العسكرية فرصة كافية أمام أمراء «قراقيونلو» للاهتمام بمظاهر الحضارة، فقد عاشت دولتهم في صراعات متواصلة من أجل الحفاظ على حدودها من الجلازين والتيموريين، ولكن ذلك لم يمنع الأمير «جهانشاه» من الاهتمام بالأدب والشعر، إذ كان هو نفسه ينظم الشعر، وكان محبا له.

وقد شيد «جهانشاه» مسجدًا يعد تحفة فنية في عمارته، وهو «المسجد الأزرق» الذي يمثل العمارة الإسلامية في هذه المنطقة. لم يمنح التيموريون أيا من أمراء «قراقيونلو» فرصة الاتجاه نحو الاهتمام بمظاهر الحضارة، لأنهم كانوا يحطمون كل شيء ويقضون على الأخضر واليابس في غزوهم الشامل على مناطق نفوذ أمراء «قراقيونلو»، لذا لم يهتم هؤلاء الأمراء بمظاهر الحضارة، وصرفوا جهودهم إلى النشاط الحربي.

(36/14)

### \*الصفوية (دولة)

ينتسب الصفويون إلى «صفي الدين الأردبيلي» الذي عاش في الفترة من (650هـ = 1252م) إلى (735هـ = 1334م)، وهو أحد شيوخ الصوفية، وقد درس في مطلع حياته العلوم الدينية والعقلية في موطنه، ثم ارتحل إلى «شيراز»، واتصل بالشاعر المعروف «سعدى الشيرازي»، ثم رحل إلى «أردبيل» ومنها إلى «كيلان»، ودخل في زمرة الشيخ «زاهد الكيلاني» وتزوج ابنته، وخلفه في الطريقة، وعهد إلى أبنائه وأتباعه بالعمل على جذب الأتباع وال دراويش، والاجتهاد في نشر طريقتهم والدعاية لها، وكان هؤلاء ينتسبون إلى المذهب الشيعي. الوضع الداخلي: شهدت «إيران» فترة عصيبة ضاعت فيها حقوق المواطنين، وساءت معاملتهم، في الفترة التي سبقت قيام «الدولة الصفوية»، فمهد ذلك الطريق أمام شيوخ الصفويين، وتحولوا من أصحاب دعوة وشيوخ طريقة إلى مؤسسي دولة لها أهدافها السياسية والمذهبية. وكانت «إيران» - آنذاك - مقسمة إلى عدة أجزاء، يحكمها عدة حكام، ويستقل كل منهم بما تحت يديه، فعاش الناس حياة قلقة يشوبها الصراع على الحكم، وبحثوا عن

مخرج لذلك ناشدين الراحة والهدوء، فلم يجدوا أمامهم سوى أن يكونوا مریدين وأتباعاً لشيوخ الصفويين وطريقتهم، وذلك في الوقت الذي آلت فيه رئاسة الأسرة الصفوية إلى «إسماعيل»، الابن الثالث لحيدر حفيد الشيخ «صفي»، فأسس «إسماعيل» «الدولة الصفوية» في عام (907هـ = 1502م)، ثم دخل «تبريز» وأعلن نفسه فيها ملكاً على «إيران»، وتلقب بأبي المظفر شاه إسماعيل الهادي الوالي، وأصدر السكة باسمه، وفرض المذهب الشيعي، وجعله المذهب الرسمي لإيران بعد أن كانت تتبع المذهب السني، وقال حين أعلن ذلك: «لا يهمني هذا الأمر، فالله، وحضرات الأئمة المعصومين معي، وأنا لا أخشى أحداً، وبإذن الله - تعالى - لو قال واحد من الرعية حرفاً، فسأسحب سيفي، ولن أترك أحداً يعيش». وأمر المؤذنين أن يزيدوا في الأذان عبارتي: «أشهد أن علياً ولي الله»، و «حي على خير

(37/14)

---

العمل». مضى الشاه «إسماعيل» في إرساء قواعد دولته، وترسيخ دعائم مذهبه، وتنظيم إدارة بلاده، فاتخذ من «حسين بك لله» نائباً له، وجعل «الشيخ شمس الدين اللاهيجي» حاملاً للأختام، واستوزر «محمد زكريا»، ثم قضى على قبيلة «آق قيونلو»، ودخل «شيراز»، وأقر فيها مذهبه الشيعي، فأصبحت «إيران» دولة شيعية بين قوتين سنيتين هما: «الهند» والأترک من جهة الشرق، والعثمانيون والشام في الغرب. خلف الشاه «طهماسب الأول» أباه «إسماعيل الأول» على العرش في (يوم الاثنين 19 من رجب عام 930هـ = 1524م)، وحكم أكثر من نصف قرن دخل خلالها في حروب كثيرة مع العثمانيين والأوزبك و «كرجستان»، ثم خلفه ابنه الشاه «إسماعيل ميرزا» الذي تلقب

بالشاه «إسماعيل الثاني» في عام (984هـ = 1576م)، واعتمد سياسة الاعتدال في نشر المذهب الشيعي، فأبعد عددًا من علماء الشيعة المتعصبين عن بلاطه، وأمر بمنع لعن الخلفاء الثلاثة والسيدة «عائشة» فوق المنابر وفي الطرقات، وحاول إعادة المذهب السني إلى البلاد بالتدريج، مما أثار عليه حفيظة الطبقة الحاكمة وأغلبية المجتمع، وقرروا عزله وتعيين ابن أخيه «حسن ميرزا» إذا لم يتراجع عن ذلك، فعمل على تهدئة الثورة التي قامت ضده، وأبعد علماء المذهب السني عن بلاطه، ونقش على السكة بيتًا مضمونه: أن عليا وآله أولى بالخلافة في العالم الإسلامي كله. لم يتمكن الشاه «إسماعيل الثاني» من البقاء في الحكم فترة طويلة، حيث قُتل، وقد اختلفت الروايات في كيفية قتله، وتم اختيار «محمد خدا بنده» ملكًا على «إيران» في عام (985هـ = 1578م)، فكثرت في عهده الاضطرابات التي لم يستطع السيطرة عليها، إذ لم يكن جديرًا بالحكم، فخلفه ابنه الشاه «عباس الأول» على العرش من عام (996هـ = 1588م) إلى عام (1038هـ = 1629م)، ويعد عهده من أبرز عهود الحكم الصفوي في «إيران» وأهمها؛ إذ عمل على رفاهية شعبه وتعمير بلاده،

(38/14)

---

ونقل عاصمة دولته من «قزوين» إلى «أصفهان»، وأعاد الحكم المركزي إلى «الدولة الصفوية»، على الرغم من الصعوبات والحروب الكثيرة التي اعترضت سبيله، ونجح في إقرار أمن بلاده وتأمين رعيته؛ واتخذ مجلسًا لبلاطه ضم سبع أشخاص بسبعة وظائف هي: «اعتماد الدولة» - «ركن السلطنة» - «ركن الدولة» - «كبير الياوران» - «قائد حملة البنادق» - «رئيس الديوان» - «كاتب مجلس الشاه»، وبالرغم من وجود هذا المجلس

كان هو صاحب القرار الأول والأخير في الدولة. ثم توالى على حكم «الدولة الصفوية» - عقب وفاة الشاه «عباس الصفوي» - شاهات ضعاف؛ أدى الصراع فيما بينهم على السلطة إلى ضعف الدولة، فضلاً عن أن ذلك أعطى الفرصة للأعداء الخارجيين الذين كانوا متربصين بالدولة، وبخاصة الأتراك العثمانيون، لغزوها ومحاولة السيطرة عليها. وعلى الرغم من ذلك فإن كثيراً من الرحالة الأوروبيين الذين وفدوا على بلاط الصفويين؛ وصفوا مدى الأبهة والعظمة التي وفرها الصفويون في بلاطهم، ولعل أبرز ما كان يميز هذا البلاط هو سيطرة رجال الدين واتساع نفوذهم، حتى بات أمر الدولة كله في أيديهم، نظرًا إلى أنها دولة مذهبية، اتخذت من الدين أساسًا لقيامها، والدعوة إلى مذهبها. بدأ نجم «الدولة الصفوية» في الأفول عقب وفاة الشاه «عباس الصفوي»، وحكمها «صفى الأول» عام (1038هـ = 1629م)، ثم «عباس الثاني» عام (1052هـ = 1642م)، ثم «سليمان الأول» عام (1077هـ = 1667م)، ثم «حسين الأول» عام (1105هـ = 1694م)، ثم «طهما سب الثاني» (1135هـ = 1722م) ثم «عباس الثالث» الذي حكم من عام (1144هـ = 1731م) إلى عام (1148هـ = 1736م). وجميع هؤلاء الشاهات الصفويين لم تكن لديهم الصفات التي تمتع بها الشاه «عباس الأول»، وبدت الأمور أمامهم مجرد مظاهر ملكية يجب الحفاظ عليها، ونسوا أمور بلادهم، فضعفت الدولة، وضاعت هيبتها، وسقطت أجزاءها واحدة تلو الأخرى، فضاعت

(39/14)

---

الدولة، وسقط العرش، وسقطت «الدولة الصفوية» في عام (1148هـ = 1736م) فانقسمت «إيران» إلى عدة مناطق منفصلة. تمكن الصفويون من إقامة دولة قومية لهم في «إيران» على

أسس مذهبية، وأحيوا بها الروح القومية، ووحّدوا عناصر الشعب تحت لواء مذهبهم الذى قاموا بنشره بالترهيب والترغيب بين الطبقات كافة. وانتفع الصفويون فى تكوين حضارتهم بالصراع العسكرى فى حروبهم ضد العثمانيين؛ إذ كلفوا «روبرت»، و «أنتونى شيرلى» الإنجليزيين بإنشاء مصنع للمدافع لهم، فكان سبباً من أسباب تقدم حضارتهم العسكرية، وانتقل «طهما سب» بعاصمة بلاده من «تبريز» إلى «قزوين» نتيجة توغل السلطان العثمانى «سليمان القانونى» فى «العراق»، ثم فى «تبريز» و «أصفهان»، وأخذ «طهما سب» فى بلاطه الجديد بكل أسباب التحضر والتأنق والدقة، حيث كان خطأً ماهراً، وله دراية عالية بفنون النقش من خلال دراساته فى هذا المجال. وفى سنة (1007هـ = 1598م)، نقل الشاه «عباس الصفوى» عاصمة بلاده إلى «أصفهان»؛ فدبت بها حياة جديدة، وراجت بها التجارة، وازدهرت الصنائع والفنون، وعمد «الشاه عباس» إلى تطوير الجيش وتحديثه، فاستبدل جيشه القديم -المكون من قوات قبلية- بجيش نظامى جديد، واستحدث فيه فرقة عسكرية جديدة أطلق عليها اسم «أصدقاء الملك»، وكانت هذه الفرقة تضم عشرة آلاف فارس، وكان ضعف هذا العدد من المشاة، ثم مضى فى طريق التحديث العمرانى فشىد الطرق، وشق القنوات، وأعد الأماكن اللازمة لنزول القوافل التجارية فى طول البلاد وعرضها، وأقام مدينة ملكية جديدة فى «أصفهان»، وجعلها مجاورة للمدينة القديمة، وأنشأ بها الإنشاءات اللازمة، ثم ضاعف هذه الإنشاءات فى عام (1020هـ = 1611م)، وبنى لنفسه بها قصرًا عظيمًا، وأنشأ حول ميدانه مسجدًا كبيرًا أسماه «مسجد شاه»، وجعل بجواره مسجدًا آخر أصغر منه، وأحاط المدينة بسور من الآجر والطين، وأقام بها الأسواق المسقوفة، ومائة واثنتين

---

وستين مسجداً، وثمانياً وأربعين مدرسة دينية، وألفى رباط  
لإقامة القوافل، وثلاثمائة حمام عام، وجعل لكل منزل بها حديقة  
خاصة، كما جعل شوارع هذه المدينة متعرجة وضيقة، ربما  
لأسباب أمنية ودفاعية، فبلغ تعداد السكان بالمدينة الجديدة  
نحو ستمائة ألف نسمة في ذلك الوقت، ولقد بقيت آثار هذه  
المدينة شاهد صدق على عظمة الحضارة الصفوية إلى وقتنا  
الحاضر.

(41/14)

---

#### \*الأفاغنة

تمرد الأفغاني «محمود بن ميرويس» ورفع راية العصيان على  
«الدولة الصفوية» في عهد الشاه الصفوي «حسين الأول»، فلما  
لم يجد هذا الرجل من يأخذ على يديه ويوقف عصيانه؛ تمكن من  
الاستيلاء على مدينتي «هراة» و «مشهد»، وهما من أهم مدن  
دولة الصفويين، ولم يكتف بذلك: بل استولى على العاصمة  
«أصفهان» في سنة (1135هـ = 1722م)، فدخلت دولة الصفويين  
في طور السقوط والانهيار النهائي، وتحولت من دولة كانت  
تتمتع بالنفوذ والسطوة والهيبة في عهد «عباس الأول» ومن  
سبقوه، إلى هيكل ضعيف لا حول له ولا قوة، وظهرت إلى  
جانبها قوى أخرى جديدة وفتية سلبتها حق التمتع بإمكاناتها  
وممتلكاتها، وسلبت حكامها حق الانفراد بحكم البلاد. أقام  
الأفغانيون دولتهم على ما سلبوه من أراضي الدولة الصفوية،  
وكان أول حكامهم هو «محمود بن ميرويس» الذي حكم في  
(11 من المحرم عام 1135هـ = 1722م)، وقُتل في سنة (1137هـ =  
1725م)، فخلفه «أشرف بن عبدالله» في الحكم، وظل به حتى

عام (1142هـ = 1729م)، ثم ظهر الأمير الأفغاني «آزاد خان» مطالبًا بالحكم في «أصبهان» في سنة (1166هـ = 1753م)، وتم له ما أراد، وظل في الحكم حتى سنة (1169هـ = 1756م).

(42/14)

### \*الأفشارية

لم يستمر حكم الأفاغنة طويلًا؛ إذ استعان الشاه «طهما سب الثاني» - على دفع تهديد الأفغان - بالقوى المحيطة، فأسرت «روسيا» إلى مساعدته فيما طلب، نظير السماح لها بدخول «استراباد»، وهكذا تمكن الروس من وضع أقدامهم في هذه المناطق. ثم ظهرت قوة جديدة حكمت في الفترة من سنة (1148هـ = 1736م) إلى سنة (1210هـ - 1796م) عرفت باسم الأفشارية، واستطاع «نادر شاه الأفشاري» أن يقضى على حكم الأفغان، ويخلع الشاه «طهما سب الثاني» ويسجنه مع طفله الرضيع «الميرزا عباس الثالث»، ثم أعلن تتويجه ملكًا على «إيران» في سنة (1148هـ = 1736م)، وظلت أسرته تحكم أكثر من ستين عامًا، أي إلى سنة (1210هـ = 1796م)، وقد اتسم حكم «نادر شاه» بالسطوة والعنف ضد الرعية، مما أسرع بقتله على يد أحد ضباطه، فأدى ذلك بدوره إلى ظهور «الزنديين»، وأصبح زعيمهم «محمد كريم خان» شاه «إيران» في سنة (1163هـ = 1750م)، ولكن هذه الأسرة لم تستطع مد نفوذها إلى «خراسان» التي كانت في قبضة «شاه رخ» الإفشاري، وبقيت هذه الأسرة الزندية في الحكم مدة خمسين عامًا، حتى قُتل آخر حكامهم «لطف علي» على يد «آقا محمد القاجاري» في الرابع عشر من المحرم عام (1211هـ = 1799م)، فظهرت الأسرة القاجارية.

### \* القاجارية

هى إحدى الأسر المغولية، وانتشر أفرادها فى البلاد الإسلامية، وأقاموا بصفة خاصة بأرمينية، واقتصر دورهم فى عهد الشاه «إسماعيل الأول الصفوى» على تقديم العون إلى الصفويين، حيث اتخذ منهم جنوداً لمواجهة شر القبائل المهاجمة لحدوده، فزادوا بذلك قوة ونفوذاً، ثم استطاع «آقا محمد خان» توحيد فروع قبيلته بالقوة والعنف حتى تمكن من الاستيلاء على «طهران» فى سنة (1193هـ = 1779م)، ثم أقام «الدولة القاجارية»، وأصبح أول ملوكها، وأطلق على نفسه لقب ملك «إيران» فى عام (1211هـ = 1796م)، وقضى على «الزنديين»، وحقق السيطرة الكاملة على «إيران» و «جورجيا»، ثم خلفه «فتحعلى شاه» فى الفترة من (1212هـ = 1797م) إلى (1250هـ = 1834م)، وامتاز عصره بالهدوء النسبى، وإن تخللته بعض الاضطرابات والمشاكل السياسية.

### \* التيمورية (دولة)

ينتسب التيموريون إلى قبيلة «برلاس» المغولية، ويرجعون فى أصلهم إلى «تيمور بن ترغاي بن أبغاي»، الذى أحاط المؤرخون نسبه بمالة من الرفعة وعلو الشأن، ليبرروا استيلاءه على «بلاد ما وراء النهر»، فقد كان أبوه «أمير مائة» عند السلطان المغولى، وكان المغول يستخدمون الأتراك فى دواوينهم، وأكثروا منهم، حتى صارت اللغة التركية هى لغة

البلاط والمجتمع في «بلاد ما وراء النهر»، فلما دخلت «الدولة المغولية» مرحلة الاضمحلال والضعف؛ قامت «الدولة الجغتائية» بمساعدة قبيلة «برلاس»، فحفظ الجغتائيون هذا الجميل، وولوا «تيمور لنك»، ولاية «كش»، حين التجأ إليهم أثناء الاضطرابات التي عصفت ببلاد «ما وراء النهر» ثم لم يلبث أن أخرج الجغتائيين من بلاد «ما وراء النهر»، وطارد قبائل «الجنة» البدوية؛ التي اتسمت بالعنف والوحشية، وتمكن من طردهم من «بلاد ما وراء النهر»، ثم أعلن نفسه سلطاناً في بلخ على هذه المنطقة، واتخذ «سمرقند» عاصمةً لملكه، وأعلن ذلك رسمياً في عام (800هـ = 1397م)، ثم مضى في تنظيم حكومته الجديدة، واتبع قانون «جنكيزخان» (الياسا المغولية)، بما لا يتعارض مع القرآن الكريم والسنة النبوية. كان «تيمور لنك» ميالاً إلى الفتح والتوسع، وغزا «خوارزم» في عام (773هـ)، ثم دخلها وسيطر عليها في عام (781هـ)، فأضحت «آسيا الوسطى» كلها تحت سلطانه. بدأ حكم «تيمور كورخان» (تيمورلنك) منذ دخل «سمرقند» في عام (771هـ = 1329م)، فكوّن مجلس شورى من كبار الأمراء والعلماء، وعلى الرغم من أنه كان الحاكم الفعلي للبلاد، فإنه عمد إلى اختيار الأمير الجغتائي «سيورغتمش بن دانشمندجة»، وجعله رمزاً للحكم ولقبه بلقب السلطان في الفترة من سنة (771هـ = 1329م) إلى سنة (790هـ = 1387م)، ثم اتخذ من بعده «محمود بن سيورغتمش» من عام (790هـ = 1387م) إلى عام (800هـ = 1397م). وقد اتسمت سياسة «تيمور لنك»

(45/14)

---

بالتوسع، فزحف إلى «إيران» في سنة (782هـ = 1380م)، وتمكن من الاستيلاء على «خراسان» و «جرجان»، و «مازندران»،

و «سيستان»، و «أفغانستان»، و «فارس»، و «أذربيجان»،  
و «کردستان»، ثم دخل «جورجيا» وغرب «إيران» في عام  
(786هـ = 1384م)، وتمكن من فتح «العراق» و «سورية» (حلب  
ودمشق)، وهزم المماليك في الشام، وحقق انتصارات عظيمة في  
«الهند» عقب وفاة «فيروزشاه» سلطان «دهلي» في عام  
(799هـ = 1397م)؛ حيث استولت جيوشه على حصن «أوكا»،  
وأسقطت «الملتان»، وفتحت «آباد»، ودخلت «هراة» بالأمان،  
ولاقى «تيمورلنك» مقاومة شديدة وصعوبة في دخول «دهلي»  
على يد سلطانها «محمود تغلق»، ولكن هذه المقاومة لم تستمر  
طويلا، ودخل «تيمور» هذه المدينة، فقدم إليه أعيانها وعلماؤها  
فروض الولاء والطاعة، وخطب له فيها، وعلى الجانب الآخر حقق  
«تيمورلنك» انتصارات كثيرة على الأتراك العثمانيين، وأسر  
حاكمهم «بايزيد خان». وتوفي «تيمورلنك» في «أترار» عن  
عمر يناهز السبعين عامًا في سنة (807هـ = 1405م) بعد أن  
دانت له البلاد من «دهلي» إلى «دمشق»، ومن «بحيرة آرال»  
إلى «الخليج العربي»، فلما علمت بوفاته الأسر الحاكمة من «آل  
المظفر»، و «آل جلائر» و «ملوك كرت»، وكذا الأسر التركية  
والتركمانية أخذت جميعها تطالب باستقلالها عن خلفاء  
«تيمور»، وعودتها إلى الحكم ثانية، فأثارت الفتن والقتال،  
وكثر الاضطرابات والمشاكل في طول البلاد وعرضها،  
وتعرضت «الدولة التيمورية» إلى نكسة حقيقية عقب وفاة  
عاهلها ومؤسسها «تيمور»، وتمكنت بعض الأسر الحاكمة - من  
قبل - من العودة إلى الحكم، وإعادة ما سلب من أملاكها  
وممتلكاتها، فصارت هناك عدة أسر حاكمة تنافس خلفاء «آل  
تيمور» ثم خلف «تيمورلنك» ابنه «شاهرخ» على العرش سنة  
(807هـ = 1405م) واستمر في الحكم إلى سنة (850هـ = 1447م)  
فعاشرت البلاد في عهده أفضل فترات الحكم؛ إذ كان محبا للعلم

والعلماء، وحفيا بالثقافة، كما كان عادلا وتقيا وورعًا، فاشتهر  
بسلوكه الحسن وسيرته الطيبة بين الرعية. ولى «شاهرخ»  
أملاك «الدولة التيمورية» فيما عدا «سوريا» و «العراق العربي»،  
فقام بإصلاحات كثيرة في البلاد، وشيد المباني، وبنى المدارس  
الكثيرة في «بخارى» و «سمرقند»، وأنشأ مرصده الشهير، ثم  
خلفه ابنه «أولوغ بك» على العرش، وقتله ابنه «عبد اللطيف بن  
أولوغ» في سنة (853هـ = 1449م)، ثم قُتل هو الآخر من بعده،  
ولم يستفد، من قتل أبيه، وتمكن «أبو سعيد ميرزا» من  
الاستيلاء على الحكم بسمرقند في سنة (854هـ = 1450م)، ثم  
تولى من بعده «أحمد» في سنة (872هـ = 1467م)، ثم من بعده  
«محمود» في سنة (899هـ = 1493م)، ولم يلبث بالحكم سوى  
عام واحد فقط، ثم حدثت الاضطرابات في سنة (906هـ =  
1500م)، وقضى «الشيبيانون» على «الأسرة التيمورية» فيما  
عدا «ظهير الدين بابر» الذى فر إلى «الهند»، وتمكن بعد ذلك  
من تأسيس دولة عظيمة بها. لم يشهد العهد التيمورى ازدهارًا  
في مناحى الحياة كافة مثلما حدث في عصر «شاهرخ»؛ الذى  
يعد من أكثر حكام «إيران» ثقافة وذكاءً ومعرفة، فقد جعل من  
«هراة» مركزًا ثقافيا لأواسط آسيا، وتبوأ المهندسون  
والمعماريون والرسامون والشعراء والعلماء مكانة بارزة في  
بلادهم، وأغدق عليهم بالعطايا، وتولى رعايتهم بنفسه، فشهدت  
البلاد في عصره نهضة حضارية في كل الفنون ومختلف  
التخصصات، ويعد مسجد «جوهر شاد» (12) من أبرز إنجازات هذا  
العصر، وظل العمل في بنائه اثنى عشر عامًا في الفترة (808 -  
820هـ = 1405 - 1417م)، وقد أقيم تكريمًا لزوجته - التى حمل  
المسجد اسمها - بمدينة «مشهد». وكذلك بنى المعماري «قوام

الدين الشيرازي» مدرسة كبيرة - بتكليف من شاهرخ - بمنطقة  
«خرگرد» التي تقع إلى الغرب من «هراة»، وتقع حاليا في  
شرقي «إيران»، ثم خلف «ألوغ بيك» أباه على العرش، فكانت  
فترة حكمه قصيرة، ومع ذلك فقد حرص خلالها على رعاية

(47/14)

---

الفنون والآداب الفارسية. يعد «شمس الدين محمد حافظ  
الشيرازي» ألمع شخصية أدبية عرفها العصر التيموري، ويمثل  
شعره ازدهارا للحركة الثقافية في هذا العصر، وقد توفي في  
سنة (792هـ = 1389م)، وكذلك يُعد «الجامي» المتوفى في سنة  
(898هـ = 1492م)، من أبرز العلماء والشعراء في هذا العصر؛ إذ  
ألف ستة وأربعين كتابا في مختلف فروع العلم، ثم يأتي «نظام  
الدين الشامي»، صاحب كتاب «ظفرنامه»، الذي يعد سجلا  
لفتوحات «تيمورلنك».

(48/14)

---

### \*الغزنوية (دولة)

اعتمد السامانيون على الأتراك في صفوف الجيش، وفي تولي  
المناصب الكبيرة في «الدولة السامانية»، فعلا شأن الأتراك،  
وازداد نفوذهم، ويعد «البتكين» الذي ولي منصب صاحب الحجاب  
للأمير «عبدالله بن نوح» (343 - 350هـ = 954 - 961م) أبرز  
الشخصيات التركية في بلاط السامانيين، وبلغ من نفوذه أن  
خشى الأمير «عبدالله بن نوح» منه على ملكه فأبعده عن  
العاصمة، وأسند إليه ولاية «خراسان» في عام (349هـ = 961م).  
ولما تولى «منصور بن نوح» الإمارة خلفا لأخيه «عبدالله» الذي

توفي سنة (350هـ = 961م)؛ تمرد عليه «البتكين» في «خراسان»، وأرسل جيشًا لمحاربته والقضاء على تمرده، وأسند «خراسان» إلى «أبي الحسين سيمجور»، فتوجه «البتكين» إلى «غزنة» واستولى عليها من حاكمها الساماني، وأسس بها إمارة مستقلة عن السامانيين، ثم جعلها مركز حكمه وعاصمة دولته المناهضة للدولة السامانية. حاول الأمير «منصور» جاهدًا أن يقضى على تمرد «البتكين» في غزنة، ويوقف تأسيس دولته المناهضة، لكن جهوده جميعها باءت بالفشل. لم يتمكن «البتكين» أول حكام «الدولة الغزنوية» ومؤسسها من ترسيخ دعائم دولته الجديدة، فقد وافاه أجله في سنة (352هـ)، بعد عام واحد تقريبًا من توليه الحكم، ثم خلفه ابنه «إسحاق»، ثم غلامه «بلكانين» - من بعده - ولكنهما لم يتمكنوا من تحقيق ذلك، فلما ولى «سبكتكين» أمور الدولة سنة (366هـ)، تمكن بجمته العالية وحسن سياسته أن يبسط نفوذه ويوطد دعائم دولته، ويحقق لها ما لم يقدر عليه سابقوه، فعُدَّ المؤسس الفعلي لها. ويُعد «محمود الغزنوي» -الذي ولى الحكم في الفترة من سنة (388هـ) إلى سنة (421هـ) - من أكبر الشخصيات في التاريخ الإسلامي وأشهرها، إذ قاد الجيوش والحملات والفتوحات من أجل نشر الدين الإسلامي بالهند، ونزل من أعلى «إيران الشرقية» إلى «هندوستان»، ثم واصل جهاده حتى بلغ حدود

(49/14)

---

«كشمير» و «البنجاب»، وغزا «سومنا» ومنها إلى «كجرات»، ثم استولى على بلاد «الغور» في عام (401هـ = 1010م)، وأخضع مناطق «ما وراء النهر»، ومدينتي «بخارى» و «سمرقند» لحكمه، فلقبه المؤرخون بلقب «مكسر الأصنام»، كما كان أول

من تلقب بلقب السلطان من أمراء المسلمين. وأضحت مدينة «غزنة» في عهده منارة للعلم، ومقصداً للعلماء، ووفد عليها أشهر أدباء هذا العصر أمثال الشاعر «الفردوسي»، وأصبحت عامرة بالمساجد والسدود والأبنية الخيرية، التي لا تقل بهاءً وجمالاً عن المنشآت الهندية التي اشتهرت بدقة التصميم وجمال العمارة. وتوفي السلطان «محمود» في عام (421هـ = 1030م)، بمدينة غزنة. وفي سنة (556هـ = 1161م)، أسقط الغوريون «غزنة» وسيطروا عليها، ولم يستطع أحفاد السلطان «محمود الغزنوي» الصمود أمام هجمات الغوريين، ولم يتمكنوا من استعادة عاصمة بلادهم، فسقطت «الدولة الغزنوية» في سنة (582هـ = 1186م). ولعل أبرز ما يميز «الدولة الغزنوية» عن مثيلاتها من الدول المستقلة في شرق العالم الإسلامي هي نهضتها الثقافية، التي ازدهرت على أيدي أمرائها الذين قدروا رجال الأدب، وعملوا على تشجيعهم والعناية بهم، فقد كان كل أمير يريد أن يحيط نفسه برجال العلوم والفنون؛ ليتفوق على أقرانه، وبرزت «غزنة» في أواخر القرن الرابع الهجري كمركز إشعاع كبير في جنوبي غرب «آسيا»، بفضل تشجيع السلاطين الغزنويين الذين لم يألوا جهداً في سبيل رفع شأن العلوم والفنون في دولتهم، واستطاع السلطان «محمود الغزنوي» أن يضم إليه رجال العلم والأدب الذين كانوا يحيطون بأمرء البلاد المجاورة، وزين «غزنة» بأجمل ما حصل عليه من مغام «الهند»، وأعاد تشييد مسجدها الجامع، وأضاف إليه مدرسة كبيرة، ووضع بها مؤلفات وتصانيف نقلها من خزائن الملوك السابقين في العلوم كافة، ليقوم علماء «غزنة» وفقهاؤها بدرسها وتدريسها. وجدير بالذكر أن السلطان «محمود بن سبكتكين»

كان مولعًا بعلم الحديث، ويستمع إلى علمائه، ويستفسر عما يتلونه عليه من أحاديث، وكان يستدعى إلى «غزنة» كل من له سعة في العلم والأدب والشعر، مثل «بديع الزمان الهمذاني» صاحب فن المقامات، قال عنه «التعالى»: «إنه معجزة همذان، وغرة العصر، كان ينشد القصيدة إذا سمعها مرة واحدة، ويترجم ما يستمع إليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعاني الغريبة إلى الشعر العربى، فيجمع فيها من الإبداع والإسراع». ومنهم أبو ریحان محمد بن أحمد البيرونى (362 - 440هـ) الذى يعد من أعظم رجال الحضارة الإسلامية وأبرزهم، وقد نال تقديرًا علميا كبيرًا، وترجمت كتبه إلى اللغات الأوربية، وسمت روسيا جامعة حديثة باسمه وأقيم له تمثال فى جامعة موسكو، وأصدر اليونسكو وبعض جامعات أمريكا وألمانيا فهارس بأعماله. وكذلك ظهر عشرات العلماء والفقهاء والشعراء فى «الدولة الغزنوية»، وبلغ اهتمام الغزنويين بالنهضة الثقافية والعلمية مدى كبيرًا تفوقت به على مثيلاتها؛ لدرجة أنها كادت تتفوق على «بغداد» مركز الإشعاع الثقافى فى العالم الإسلامى.

(51/14)

#### \*الغورية (دولة)

كان الغوريون أسرة صغيرة تحكم «ولاية الغور» التى تقع بين «هراة» و «غزنة»، وكانت «قلعة فيروزكوه» مقر حكمهم، ودأبوا على شن الغارات على رعايا «الدولة الغزنوية»، واتخذوا من وعورة بلادهم وصعوبة مسالكها معصمًا يقيهم من بطش السلطان «محمود الغزنوى»، حين أراد معاقبتهم بعد أن باتوا خطرًا جسيمًا يهدد دولته. ولكن السلطان «محمود الغزنوى» تمكن من استمالة «محمد بن سورى» - أحد رؤسائهم - فى عام

(401هـ = 1010م)، ثم عين أولاده في حكم «فيروزكوه» و «باميان»، ومن ثمّ تصاهر الغوريون مع الغزنويين، واتحدوا مع ملوك «غزنة»، فلما قتل «بهرامشاه الغزنوي» «قطب الدين محمود» والد زوجته الغورية، نهض أخوه «سيف الدين سوري» مطالباً بثأره، واحتل «غزنة» في عام (543هـ = 1148م). ولمّا تمكن «بهرامشاه الغزنوي» من قتل «سيف الدين سوري» في عام (543هـ = 1148م)، قام «علاء الدين حسين» (جهانسوز) الأخ الثاني لقطب الدين بالهجوم على «غزنة»، ثم دخلها ونهبها، ولكنه وقع أسيراً - بعد فترة قصيرة - في قبضة السلطان «سنجر السلجوقي»، وتوفي في عام (556هـ = 1161م)، فخلفه «غياث الدين محمد»، وأقيمت له الخطبة في «غزنة»، ولكن الغز طمعوا في «غزنة» بعد وفاة «علاء الدين» واستولوا عليها، وظلت في أيديهم مدة خمس عشرة سنة، ثم ألحق «غياث الدين محمد» أمير الغور الهزيمة بالغز وطردهم من «غزنة»، إلا أنه لم يكتفِ بذلك، وعمل على استئصال شأفة «آل سبكتكين»، وتمكن منهم، وضم أملاكهم إلى دولته، ثم اتجهت فتوحات «الغور» إلى «الهند» لعدم قدرتهم على الزحف إلى أواسط «آسيا» حيث توجد «الدولة الخوارزمية»، ودولة الخطا، اللتان وقفنا حصناً منيعاً أمام راغبى التوسع في هذه المناطق، ثم جاءت نهاية «الدولة الغورية» على أيدي الخوارزميين في عام (612هـ = 1215م). كانت مدينة «فيروزكوه» أشهر مدن الغوريين، ومركز حضارتهم، وقصبة

(52/14)

---

ملكهم، وكان السلطان «غياث الدين محمد» الذي تُوفي في عام (599هـ = 1202م) من أعدل وأعظم حكام «الدولة الغورية»، وكان شافعي المذهب ومع ذلك لم يحمل الناس على اتباع

مذهبه، وقرب إليه الشعراء والعلماء، ونبغ منهم الكثيرون في عهده.

(53/14)

### \*دهلى (سلطنة)

شهد العالم الإسلامى فترة من تاريخه، تبيوأ فيها الأرقاء والعبيد عرش البلاد، وتقاليد الحكم، ومناصب الدولة المهمة، وكان هؤلاء العبيد من الأتراك الذين جلبهم السلاطين للخدمة فى صفوف الجيش، فتدرجوا فى مناصبه حتى بلغوا المناصب القيادية المهمة، فزاد نفوذهم، وعلا شأنهم، وباتوا قوة ضاربة تتحكم فى سير الأمور وتطورها؛ حتى إن أحدهم انتزع الملك لنفسه حين توفى أحد السلاطين، ولم يكن له وارث، وأقام المماليك دولتهم بالهند عقب زوال دولة الغور، وظلّت دولتهم قائمة مدة أربعة وثمانين عامًا فى الفترة من سنة (602هـ = 1206م) إلى سنة (689هـ = 1290م). كان «قطب الدين أيبك» الذى حكم من سنة (602هـ = 1206م) إلى سنة (607هـ = 1210م)، أول سلاطين المماليك فى «الهند»، واشتهر بحبه للعدل، وإقراره السلام والأمن فى نواحي بلاده، وبنى مسجدين كبيرين، أحدهما بدهلى والآخر بأجمبر. وتوفى هذا السلطان فى عام (607هـ = 1210م)، ثم خلفه ابنه «آرام شاه»، وعجز عن تسيير أمور البلاد وإدارتها، فاستدعى رجال الدولة والبلاط «ألتمش» وطلبوا منه أن يلى أمور السلطنة، فوافق على مطلبهم وطرده «آرام شاه» من السلطنة، وتربع على عرشها فى عام (607هـ = 1211م). يُعدّ «شمس الدين ألتمش» المؤسس الحقيقى لدولة المماليك فى «الهند»، وهو مملوكى اشتراه «قطب الدين أيبك» من «غزنة»، وحمله معه إلى «الهند»، ثم جعله رئيسًا لحرسه، ثم أسند إليه

حكم ولايات «الهند»، فتعرض «شمس الدين» لمحاولات كثيرة للإطاحة به، وما كاد يتخلص منها حتى ظهر له خطر المغول، وألحقوا بدياره الخراب والدمار، ولكنهم لم يتحملوا حرارة جو بلاده، واتجهوا صوب الغرب ثانية، فنجت البلاد من شرورهم. لم ير «ألتمش» في أبنائه الذكور مَنْ يصلح للحكم من بعده، فأوصى به لابنته «رضية»، ولكن رجال البلاط عهدوا بالملك عقب وفاته إلى الأمير «ركن الدين فيروز شاه»، إلا أنه لم يهنأ بالملك

(54/14)

بسبب الفتن والاضطرابات التي عمت أنحاء البلاد، وكان نتيجة ذلك أن قُتل هو وأمه، فألت أمور الحكم إلى السلطانة «رضية» في عام (643هـ = 1236م). يعد السلطان «بلبان» (بلبن) الذي حكم في الفترة من عام (664هـ = 1265م) إلى عام (686هـ = 1287م)، من أقوى سلاطين «الهند» وأعظمها في تاريخها الوسيط، إذ واجه المغول الذين عادوا إلى تهديد «الهند» ثانية، وأعاد الهدوء والاستقرار إلى بلاده، ثم قضى على «الهندوس» الذين قطعوا الطريق بين «دهلي» و «البنغال»، وأقر الأمن والنظام في ربوع دولته. عهد «بلبان» - حين شعر بدنو أجله - بالحكم إلى ابنه «بغراخان»، إلا أن ابنه رفض ذلك، فعهد به إلى حفيده «كيخسرو بن بغراخان»، فتولى أمور البلاد، ولكنه كان ضعيفاً لا يقوى على تسيير أمور الحكم بمفرده، فأسندها إلى «نظام الدين» الذي اعتمد على خواصه والمقربين إليه في إدارة شئون البلاد، فاستبدوا بها، وحاول «بغراخان» أن يتخلص من «نظام الدين» ولكن الترك لم يمكنوه من ذلك، وعزلوا ابنه «كيخسرو» وولوا «كيقباد» أحد أطفاله الصغار، فتصدى لهم «الخلجيون» بقيادة زعيمهم «فيروز شاه»، وقضوا عليهم، فزال

حكم المماليك بالهند على أيديهم. نعمت «دهلى» بالاهتمام ببعض مظاهر الحضارة في عهد الملوك المماليك، فبنى «قطب الدين أيبك» مدرسة كبيرة إلى جانب مسجده الشهير الذى بدأ بناءه فى عام (1191م)، ثم أكمله له «ألُتمش» فى عام (1230م)، ولاتزال منارة هذا المسجد - التى كانت مكونة من سبعة طوابق - قائمة حتى الآن، ولم يتبقَّ من طوابقها سوى خمسة فقط. كما قام «ألُتمش» بتشجيع العلوم والآداب فى السلطنة، وأنفق أموالاً كثيرة فى نسخ أعداد كثيرة من القرآن الكريم لتكون فى متناول أفراد شعبه، وأسس العديد من المدارس، وزين بلاطه بالعلماء والشعراء، وأولى الفن المعماري عناية فائقة، فأتم مسجد «أيبك» فى «دهلى»، وشيّد آخر فى «آجميز»، وجعل

(55/14)

---

عاصمته أحد مراكز العلوم والآداب المهمة.

(56/14)

---

\*الخليجية (دولة)

يرجع الفضل فى ظهور «الخليجين» فى «بلاد الهند» إلى الأمير «قطب الدين أيبك»، الذى ولى «الهند» نيابة عن سلطان «الغور»، فحرص على توسيع رقعة ولايته بها، وأسند أمرها إلى قائده «محمد بن بختيار الخلجى»، الذى قام بدوره على خير وجه، واستولى على «بندنديورى» عاصمة «إقليم بهار» من ملوك أسرة «بالا»، ثم استولى على الإقليم كله، وقضى على «البوذية» التى كانت منتشرة هناك، وحطم معابدها وأصنامها، ونشر الدين الإسلامى فى ربوع هذه المملكة، ثم استولى على

عاصمة إقليم «البنغال»، وأقام الخطبة فيها للسلطان الغورى. حرص خلفاء هذا القائد على توطيد نفوذهم بالأقاليم الهندية التي استولوا عليها، فلما قامت «دولة الممالك» بالهند، وولى «شمس الدين ألتمش» أمور السلطنة بدهى، قامت في وجهه المشاكل والاضطرابات الداخلية التي هدفت إلى الإطاحة بحكمه، ثم أعقبها وفاة «قطب الدين آيبك»، فانتهاز «الخليجون» هذه الفرصة، وسيطروا على «بهار» والبنغال. عمد سلاطين «دولة الممالك» بالهند إلى القضاء على حركات الاستقلال التي تزعمها «الخليجون» للانفصال عنهم، والاستقلال بما تحت أيديهم، فتصدى «الخليجون» لهم، وعولوا على تغيير نظام الحكم في «دهلى»؛ حيث استبد الأتراك بالأمر فيها، ثم جمعوا قواتهم تحت قيادة زعيمهم «فيروز»، وأحدثوا انقلاباً في «دهلى»، وأطاحوا بالسلطان الطفل، وأعلنوا «فيروز» سلطاناً عليهم، ولقبوه بجلال الدين، وذلك في سنة (689هـ = 1290م)، فكان أول السلاطين الخليجيين الذين استمر حكمهم ثلاثين عاماً تقريباً، حتى سنة (720هـ = 1320م). يعد «علاء الدين الخلجى»، الذى حكم فى الفترة من سنة (695هـ = 1295 م) إلى سنة (715هـ = 1315م)، من أعظم سلاطين عصره، حيث كان محارباً شجاعاً، وحاكماً عادلاً، وكان أول من قاد الجيوش فاتحاً شبه القارة الهندية، رافعاً راية الجهاد تحت لواء الإسلام. تأثر

(57/14)

---

الخليجون بالبيئة الأفغانية التي انتشر بها التصوف على يد رجل فارسي يُدعى «سيدى مولى»، الذى فر إلى «الهند» عقب الغزو المغولى لبلاد فارس، فالتف حوله الناس من مختلف الطبقات، ووفدوا عليه من كل مكان، فقويت شوكته، وتدخل

في شؤون الحكم، ودبر مؤامرة للإطاحة بجلال الدين الخلجي، ولكن «جلال الدين» أحبط هذه المؤامرة، ثم خلفه السلطان «مبارك شاه» في عام (716هـ = 1316م)، في الوقت الذي كانت البلاد تمر فيه بظروف صعبة، وتحتاج إلى حكومة قوية؛ تنقذها من هاوية الأزمات التي تردت فيها، فعمل على إعادة الهدوء والسكينة إلى البلاد، وأصلح شئونها، وأغدق على المحتاجين من رعاياه، ومنح الجنود المكافآت، وخفف عن الناس عبء الضرائب، وشجع التجارة، وألغى القوانين التي تحدّد أرباحها، فانتعشت وراجت، وكان لذلك أثره المباشر في تنمية موارد البلاد وازدهار حضارتها، رغم الفترة القصيرة التي قضاه «مبارك شاه» في الحكم، حيث قُتل في عام (720هـ = 1320م).

(58/14)

#### \*التغلقيون (دولة)

استمال «تغلق شاه» جنود شمالي غرب «الهند» إلى صفه، ثم قادهم إلى «دهلي»، وقرّد على السلطان «خسرو شاه ناصر الدين» آخر حكام «الدولة الخلجية»، فقد عدد كبير من جيش «خسرو شاه»، ثم التقى الفريقان في «ديوبالپور»، وخسر الخلجيون المعركة، وفروا منها، تاركين خلفهم الأسلحة والخيول والفيلة والأموال والمعدات، فدخل «تغلق» العاصمة «دهلي» دون معارضة، ولجئ الناس نداءه للدخول في طاعته، بسبب كرههم لخسرو شاه الذي آذاهم وأهان معتقداتهم، ثم دارت معركة فاصلة بين الطرفين في عام (720هـ = 1320م)، وانتهت بهزيمة الخلجيين، ومقتل «خسرو شاه»، وسقوط «دولة الخلجيين» ببلاد الهند. قامت «دولة التغلقين» على أنقاض «دولة الخلجيين» ببلاد الهند»، وتولى «تغلق شاه الأول» الحكم في عام (720هـ =

1320م)، واستمر فيه حتى سنة (725هـ = 1324م)، وعرف باسم السلطان «غياث الدين تغلق»، ويرجع أصله إلى الجغتائين الأتراك، وقد قدم في مطلع شبابه إلى «بلاد السند»؛ لخدمة بعض التجار في عهد السلطان «علاء الدين»، ثم دخل في خدمة «أولوخان» أمير «السند» آنذاك، وتدرج في الفروسية حتى احتل وظيفة أمير الخيل، فلما ولى «قطب الدين» عهد بهذه الإمارة إلى ابنه «محمد تغلق»، فشغل هذا المنصب إلى عهد «خسرو شاه»، أعلن الثورة، ودخل «دهلي»، ودارت بينه وبين «خسرو شاه» عدة معارك، تمكن - في نهايتها - من قتله، والانتصار على جيشه، ثم دخل القصر الملكي وجلس على سرير الملك. لم تستقر أمور هذه السلطنة في عهد «بني تغلق»؛ حيث ظهرت بها المؤامرات، واشتعلت الفتق لانتزاع كرسي الحكم، وثار «محمد بن تغلق» على أبيه في سنة (725هـ = 1325م)، حين أعلن هذا الأب استيائه من تصرفات ابنه، ومن استكثاره شراء المماليك، ومبالغته في بذل العطايا، ومنح الهبات، فدبر الابن حيلة تمكن بواسطتها من قتل أبيه. كان «محمد بن تغلق»

(59/14)

---

غريب الأطوار؛ حيث كان محبا للإنفاق والإغداق وبذل الهبات والعطايا، وفي الوقت نفسه يعمل على إراقة الدماء، ويسعد برؤيتها، فساءت الأحوال في عهده، ونقل عاصمته إلى مدينة «ديوكر» التي أطلق عليها اسم: «دولت آباد» لكي يأمن خطر المغول، وأجبر سكان «دهلي» على الانتقال إلى العاصمة الجديدة، فاشتدت الأمور سوءاً، وقامت الثورات في وجهه، ونشطت الحركات الاستقلالية في عهده، فعدل عن الاستقرار في هذه العاصمة الجديدة، ولكن الخراب والدمار قد لحقا بدهلي

نتيجة هجرها، ولم يتمكن الناس من العودة إليها، فبنى لهم مدينة جديدة بالقرب منها. لم يكن للسلطان «محمد بن تغلق» وريث للحكم حين وفاته، فورثه ابن عمه «فيروز تغلق» في عام (752هـ = 1351م)، وحكم في الناس بالعدل، وسار بينهم سيرة حسنة، ثم خلفه حفيده «غياث الدين تغلق شاه الثاني» في عام (790هـ = 1388م)، ونشطت في عهده الحركات الاستقلالية، وظلت البلاد في هذا الوضع المضطرب حتى وفاة آخر سلاطين «آل تغلق» في عام (815هـ = 1412م)، فاجتمع أعيان «دهلي»، ونصبوا «دولت خان» حاكمة على البلاد، ثم تعرضت «دهلي» للغزو التيمورى الذى قضى على مظاهر الحضارة فيها، وأهلك الحرث والنسل، ولكن هذه الحضارة عادت مظهرها ثانية إلى هذه السلطنة في عهد «ظهير الدين محمد بابر» فاتح «الهندوستان»، الذى ينتهى نسبه إلى «تيمورلنك» من ناحية أبيه، وإلى «جنكيزخان» من ناحية أمه. شجع «تغلق شاه» رعيته على تعمير الأرض والاهتمام بالزراعة، فشق الترع والقنوات، وأصلح طرق الري، وخفض الضريبة على الأراضى الزراعية. وكان «محمد بن تغلق» من المشتغلين بالعلوم والفنون والآداب، وله منثورات ومنظومات رفيعة المستوى باللغتين العربية والفارسية، وكذلك كان يجيد الفلسفة والحكمة والمنطق، كما برع في الطب، وعالج الناس بنفسه، وأشرف على ملاجئ العجزة التى أقامها لهم، وأنشأ مدينة «دولت آباد» لكى تكون

(60/14)

---

عاصمة لبلاده، إلا أنه عدل عن هذه الفكرة، ووفد عليه الكثيرون من المشتغلين بالعلوم والفنون والآداب، وعمل على رعايتهم، ونهج حكام أسرة «آل تغلق» سياسة في استقطاب

الأدباء والعلماء. ظلت الحياة الثقافية في «الهند» مزدهرة في عهد «بني تغلق»، ووفد على السلطان «محمد بن تغلق» الكثير من العلماء والأدباء والفلاسفة، فقد كان هذا السلطان أديبًا وشاعرًا، كما كان فيلسوفًا وطبيبًا بارعًا. ولم يكن «فيروز شاه» أقل منه اهتمامًا بالعلم وأهله، إذ أسس ثلاثين مدرسة لعلوم الدين واللغة والتاريخ والحكمة والرياضيات والفلك والطب، وجلب العلماء المسلمين إلى السلطنة للتدريس بهذه المدارس، وعنى بدراسات «الهند» وعلومها القديمة للاستفادة منها. وقد لاحظ «ابن بطوطة» في رحلاته ببلاد «الهند» كثرة المدارس، وذكر أنه كانت هناك مدارس للصبية وأخرى للفتيات، وأوضح أن النساء بالهند كن يقبلن على التعليم باهتمام بالغ وخصوصًا العلوم الدينية، وقد وفد «ابن بطوطة» على بلاد «الهند» في عام (734هـ = 1333م)، واتصل بالسلطان «محمد بن تغلق»، وتولى منصب القضاء في دولته، وأقام بها مدة ثمان سنوات، ووصف بلاد «الهند» ونظمها وسياسة حكامها، وطرق إدارتها، وأحوال المعيشة، ومعايش الناس فيها. وأنشأ «فيروز شاه» المدرسة «الفيروزشاهية»، وعنى بعمارها، وأحاطها بالحدائق الغناء، وجعلها مقصد العلماء وطلاب العلم من كل مكان، فكان من أساتذتها «جلال الدين الرومي» الذي قام بتدريس علوم التفسير والحديث والفقه بها، ومارس الوعظ والتدريس، وبرع في نظم الشعر، فأقبل عليه التلاميذ من كل مكان، وكانت آخر وصاياه لتلاميذه وصيته التي قال فيها: «أوصيكم بتقوى الله في السر والعلانية، وقلة النوم والطعام والكلام، وهجران المعاصي والآثام، ومواظبة الصيام، ودوام القيام، وترك الشهوات على الدوام، واحتمال الجفاء من جميع الأنام، وترك مجالسة السفهاء

والعوام، ومصاحبة الصالحين والكرام. فإن خير الناس من ينفع الناس، وخير الكلام ما قل ودل».

(62/14)

### \*تغلق شاه (بنو)

استمال «تغلق شاه» جنود شمالي غرب «الهند» إلى صفه، ثم قادهم إلى «دهلي»، وتمرد على السلطان «خسرو شاه ناصر الدين» آخر حكام «الدولة الخلجية»، فقد عدد كبير من جيش «خسرو شاه»، ثم التقى الفريقان في «ديوبالپور»، وخسر الخلجيون المعركة، وفروا منها، تاركين خلفهم الأسلحة والخيول والقبيلة والأموال والمعدات، فدخل «تغلق» العاصمة «دهلي» دون معارضة، ولجئ الناس نداءه للدخول في طاعته، بسبب كرههم لخسرو شاه الذي آذاهم وأهان معتقداتهم، ثم دارت معركة فاصلة بين الطرفين في عام (720هـ = 1320م)، وانتهت بهزيمة الخلجيين، ومقتل «خسرو شاه»، وسقوط «دولة الخلجيين» ببلاد الهند. قامت «دولة التغلقين» على أنقاض «دولة الخلجيين» ببلاد «الهند»، وتولى «تغلق شاه الأول» الحكم في عام (720هـ = 1320م)، واستمر فيه حتى سنة (725هـ = 1324م)، وعرف باسم السلطان «غياث الدين تغلق»، ويرجع أصله إلى الجغتائين الأتراك، وقد قدم في مطلع شبابه إلى «بلاد السند»؛ لخدمة بعض التجار في عهد السلطان «علاء الدين»، ثم دخل في خدمة «أولوخان» أمير «السند» آنذاك، وتدرج في الفروسية حتى احتل وظيفة أمير الخيل، فلما ولي «قطب الدين» عهد بهذه الإمارة إلى ابنه «محمد تغلق»، فشغل هذا المنصب إلى عهد «خسرو شاه»، أعلن الثورة، ودخل «دهلي»، ودارت بينه وبين «خسرو شاه» عدة معارك، تمكن - في نهايتها - من قتله،

والانتصار على جيشه، ثم دخل القصر الملكي وجلس على سرير الملك. لم تستقر أمور هذه السلطنة في عهد «بني تغلق»؛ حيث ظهرت بها المؤامرات، واشتعلت الفتن لانتزاع كرسي الحكم، وثار «محمد بن تغلق» على أبيه في سنة (725هـ = 1325م)، حين أعلن هذا الأب استيائه من تصرفات ابنه، ومن استكثاره شراء المماليك، ومبالغته في بذل العطايا، ومنح الهبات، فدبر الابن حيلة تمكن بواسطتها من قتل أبيه. كان «محمد بن تغلق» غريب الأطوار؛ حيث كان محبا للإنفاق والإغداق وبذل الهبات

(63/14)

والعطايا، وفي الوقت نفسه يعمل على إراقة الدماء، ويسعد برؤيتها، فساءت الأحوال في عهده، ونقل عاصمته إلى مدينة «ديوكر» التي أطلق عليها اسم: «دولت آباد» لكي يأمن خطر المغول، وأجر سكان «دهلي» على الانتقال إلى العاصمة الجديدة، فاشتدت الأمور سوءاً، وقامت الثورات في وجهه، ونشطت الحركات الاستقلالية في عهده، فعدل عن الاستقرار في هذه العاصمة الجديدة، ولكن الخراب والدمار قد لحقا بدهلي نتيجة هجرها، ولم يتمكن الناس من العودة إليها، فبنى لهم مدينة جديدة بالقرب منها. لم يكن للسلطان «محمد بن تغلق» وريث للحكم حين وفاته، فورثه ابن عمه «فيروز تغلق» في عام (752هـ = 1351م)، وحكم في الناس بالعدل، وسار بينهم سيرة حسنة، ثم خلفه حفيده «غياث الدين تغلق شاه الثاني» في عام (790هـ = 1388م)، ونشطت في عهده الحركات الاستقلالية، وظلت البلاد في هذا الوضع المضطرب حتى وفاة آخر سلاطين «آل تغلق» في عام (815هـ = 1412م)، فاجتمع أعيان «دهلي»، ونصبوا «دولت خان» حاكماً على البلاد، ثم تعرضت «دهلي»

للغزو التيمورى الذى قضى على مظاهر الحضارة فيها، وأهلك الحرث والنسل، ولكن هذه الحضارة عادت مظاهرها ثانية إلى هذه السلطنة فى عهد «ظهير الدين محمد بابر» فاتح «الهندوستان»، الذى ينتهى نسبه إلى «تيمورلنك» من ناحية أبيه، وإلى «جنكيزخان» من ناحية أمه. شجع «تغلق شاه» رعيته على تعمير الأرض والاهتمام بالزراعة، فشق الترع والقنوات، وأصلح طرق الرى، وخفض الضريبة على الأراضى الزراعية. وكان «محمد بن تغلق» من المشتغلين بالعلوم والفنون والآداب، وله منشورات ومنظومات رفيعة المستوى باللغتين العربية والفارسية، وكذلك كان يجيد الفلسفة والحكمة والمنطق، كما برع فى الطب، وعالج الناس بنفسه، وأشرف على ملاجئ العجزة التى أقامها لهم، وأنشأ مدينة «دولت آباد» لكى تكون عاصمة لبلاده، إلا أنه عدل عن هذه الفكرة، ووفد عليه

(64/14)

الكثيرون من المشتغلين بالعلوم والفنون والآداب، وعمل على رعايتهم، ونهج حكام أسرة «آل تغلق» سياسة فى استقطاب الأدباء والعلماء. ظلت الحياة الثقافية فى «الهند» مزدهرة فى عهد «بنى تغلق»، ووفد على السلطان «محمد بن تغلق» الكثير من العلماء والأدباء والفلاسفة، فقد كان هذا السلطان أديباً وشاعراً، كما كان فيلسوفاً وطبيباً بارعاً. ولم يكن «فيروز شاه» أقل منه اهتماماً بالعلم وأهله، إذ أسس ثلاثين مدرسة لعلوم الدين واللغة والتاريخ والحكمة والرياضيات والفلك والطب، وجلب العلماء المسلمين إلى السلطنة للتدريس بهذه المدارس، وعنى بدراسات «الهند» وعلومها القديمة للاستفادة منها. وقد لاحظ «ابن بطوطة» فى رحلاته ببلاد «الهند» كثرة المدارس،

وذكر أنه كانت هناك مدارس للصبيّة وأخرى للفتيات، وأوضح أن النساء بالهند كن يقبلن على التعليم باهتمام بالغ وخصوصاً العلوم الدينية، وقد وفد «ابن بطوطة» على بلاد «الهند» في عام (734هـ = 1333م)، واتصل بالسلطان «محمد بن تغلق»، وتولى منصب القضاء في دولته، وأقام بها مدة ثمانى سنوات، ووصف بلاد «الهند» ونظمها وسياسة حكامها، وطرق إدارتها، وأحوال المعيشة، ومعايش الناس فيها. وأنشأ «فيروز شاه» المدرسة «الفيروزشاهية»، وعنى بعمارها، وأحاطها بالحدائق الغناء، وجعلها مقصد العلماء وطلاب العلم من كل مكان، فكان من أساتذتها «جلال الدين الرومى» الذى قام بتدريس علوم التفسير والحديث والفقه بها، ومارس الوعظ والتدريس، وبرع في نظم الشعر، فأقبل عليه التلاميذ من كل مكان، وكانت آخر وصاياه لتلاميذه وصيته التى قال فيها: «أوصيكم بتقوى الله فى السر والعلانية، وقلة النوم والطعام والكلام، وهجران المعاصى والآثام، ومواظبة الصيام، ودوام القيام، وترك الشهوات على الدوام، واحتمال الجفاء من جميع الأنام، وترك مجالسة السفهاء والعوام، ومصاحبة الصالحين والكرام. فإن خير الناس من ينفع

(65/14)

---

الناس، وخير الكلام ما قل ودل».

(66/14)

---

\*المغول (دولة فى الهند)

ترجع نشأة المغول إلى «عمر شيخ» الذى تولى إمارة «فرغانة»، ثم دخل فى حروب طويلة مع جيرانه وأصهاره

المغول، وإخوته الأتراك، لتوسيع أملاكه، ثم تُوفى في عام (899هـ = 1493م)، نتيجة سقوطه من فوق حصن له، وخلفه ابنه «ظهير الدين محمد بابر»، وكان عمره اثنتي عشرة سنة آنذاك، وحكم سلاطين الإمبراطورية المغولية «الهند» نحو ثلاثة قرون. ولد «ظهير الدين بابر» في عام (888هـ = 1482م) بإمارة «فرغانة» التي كان يحكمها والده، ثم أخرجته منها «الأزبك» و «الشييبانيون»، فاتجه إلى «أفغانستان»، واستولى على «كابل» في عام (910هـ = 1504م)، ثم استولى على «قندهار» في عام (913هـ = 1507م)، ومن ثم عقد العزم على غزو «هندوستان»، والاستيلاء عليها، وأعد العدة لذلك، ثم خرج بقواته وجيوشه، وبصحبته قاداته الأتراك الذين أطلق عليهم اسم «المغول»، وقصد «هندوستان»، فغزا «البنجاب» واستولى على «لاهور» في (السابع من شهر رجب سنة 932هـ = 20 من إبريل سنة 1526م)، وانتصر على «إبراهيم اللودي» وقضى على اللوديين في معركة «باني بت»، وتمكن من السيطرة على «دهلي» و «آكره»، ثم واصل زحفه إلى «هندوستان»، وسيطر على شمالها من «نهر السند» إلى سواحل «بنكاله»، ولكن وافته أجله في عام (937هـ = 1530م)، قبل أن يدخل «بنكاله»، و «كجرات»، و «مالوه». كان «ظهير الدين» قد بعث بابنه «همايون» على رأس الجيش للاستيلاء على «آكره»، فاستولى عليها، وعلى كنوزها الثمينة التي كانت تضم جوهرة «كوه نور» أثنى جوهرة في العالم، فأثار ذلك ملوك الهندوس، فتحالفوا ضده، إلا أنه تمكن من الانتصار عليهم، في معركة «رانا سنك»، وأسس «بابر» دولته، واهتم بالإصلاحات الداخلية فيها. خلف «ناصر الدين همايون» أباه «ظهير الدين بابر» في التاسع من جمادى الأولى عام (937هـ = 1530م)، وكان عمره آنذاك تسعة عشرة عامًا، فواجه صعوبات شديدة، وتوفى في

عام (963هـ = 1556م)، وخلفه ابنه «أكبر شاه» الذى انتقل بالبابريين من مجرد غزاة إلى أصحاب دولة قوية راسخة البنين؛ إذ استولى على أهم مناطق «الهند»، وانتصر فى معركة «باني بت» فى عام (964هـ = 1556م) - وهى المنطقة نفسها التى انتصر فيها «بابر» من قبل - ونجح «أكبر شاه» فى تنظيم حكومة أجمع المؤرخون على دقتها وقوتها، وذلك فضلا عن النهضة الثقافية التى حدثت فى عصره، التى بلغت مكانة سامية لم تصل إليها بلاد «أوربا»، ثم تُوفى «أكبر شاه» فى سنة (1014هـ = 1605م)، وخلفه ابنه «سليم» الذى تَلَقَّب باسم «نور الدين بادشاه» «جهانكير»، وكان عمره - آنذاك - ستا وثلاثين سنة، فنهج سياسة أبيه فى التسامح، وأشاع العدل بين رعاياه، ثم خلفه ابنه «شاه جهان» فى عام (1037هـ = 1628م). وإذا كانت «نورجهان» زوجة «جهانكير» قد اشتهرت بمكائدها، فقد اشتهرت «ممتاز محل» زوجة «شاهجهان» بالطيبة والصفات الحميدة، والبر بالفقراء، ودفعت زوجها إلى العفو عن المذنبين، واستخدام «التأريخ الهجرى» بدلا من «التأريخ الألفى» الذى وضع فى عهد «جلال الدين أكبر». أحب «شاه جهان» زوجته حبا شديداً، وبلغ وفاؤه لها مبلغاً عظيماً، وبنى لها مقبرة «تاج محل»، التى تعد من روائع الفن المعمارى، وإحدى عجائب الدنيا، ومازالت قائمة حتى الآن. وفى عهد «شاه جهان» حدثت مجاعة شديدة بالهند، فاستغلها البرتغاليون فى خطف الأهالى وأسرههم، ثم بيعهم فى سوق الرقيق، وقد استطاع «قاسم خان» تخليص عشرة آلاف فرد منهم من أيديهم، وعهد «شاه جهان» بالحكم إلى ابنه «أورنك زيب»، بعد أن عهد إليه بالقضاء على ثورات «الدكن». تولى «أورنك زيب» العرش فى

سنة (1069هـ)، فألغى الاحتفال بأعياد «النيروز»، وتمسك بتعاليم السنة، وأمر بتعمير المساجد، وعين لها العلماء والوعاظ، وعمل على تفضة هذه البلاد، ثم أدت الاضطرابات التي قامت وعمت مناطق واسعة من الإمبراطورية المغولية إلى سقوط

(68/14)

هذه الإمبراطورية في قبضة الإنجليز في عام (1275هـ = 1858م). اتسم حكام الإمبراطورية المغولية بالهند بالتسامح والعدل بين الرعية، وأدى ذلك إلى اقتراب الناس منهم، ومصاهرتهم، وإلى انتشار الإسلام في ربوع دولتهم، وقد تجلى هذا التسامح في أبقى صورته في عهد السلطان «جلال الدين أكبر»، الذى نادى بأن تكون «الهند» لأهلها من المسلمين والهندوس. ظلت السلطة الفعلية فى أيدي السلاطين، إذ كانوا يسيطرون على نظم الحكم كلها، ففويت البلاد فى عهد الحكام الأقوياء، وسقطت بالسلاطين الضعفاء، ولم تكن للوزير أو الوالى سلطات قوية. انقسمت إدارة الأراضى الزراعية للدولة إلى نوعين، أولهما: إقطاع القادة والأمراء مساحات من الأرض، ليقوموا على زراعتها ورعايتها، ثم ينفقوا من غلتها على جنودهم وخدمهم وتابعيهم، والنوع الثانى: شبيه بما يحدث اليوم؛ إذ كان الرجل يأخذ قطعة أرض مقابل الالتزام بدفع بدل يؤديه إلى خزانة الدولة. ولعل العمارة كانت من أبرز مظاهر الحضارة فى الإمبراطورية المغولية فى «الهند»، إذ اهتم بها البابليون اهتمامًا بالغًا، وعمدوا إلى تعمير المدن، وأصبح لهم طرازهم المعمارى المميز، الذى كان مزيجًا من فنون المسلمين والهندوس، وكانت أهم سماته القباب البصلية الشكل؛ المرصعة بالأحجار الكريمة، و «الميناء» و «الخزف»؛ فضلا عن الأقواس

الحادة، والأبواب الفخمة التي في أعلاها نصف قبة، يُضاف إلى ذلك «تاج محل» إحدى عجائب الدنيا، ذلك البناء الذي شيده «شاهجهان» ليكون مثوى لزوجته «ممتاز محل» تخليدًا ووفاءً لذكراها. عنى أباطرة «الدولة المغولية» عناية فائقة بالحركة الفكرية بالهند، حيث ساهموا في إخراج كتب قيمة للناس مثل كتاب: «بابرنامه» الذي وضعه «بابر» عن نفسه وحكمه، وأظهر هذا الكتاب إلمام «بابر» الواسع بالتاريخ وتقويم البلدان، والعلوم العقلية والنقلية، كما أظهر إلمامه بالأدب العربية

(69/14)

---

والتركية والفارسية. وكذلك كتبت «كلبدن بيكيم» ابنة «بابر» كتاب «همايون نامه» الذي يعد مرجعًا وثيقًا في تاريخ «همايون» ثاني سلاطين الإمبراطورية المغولية. أعفى «أكبر» الهنادكة من ضريبة الرءوس، واهتم بالعلوم والآداب والفنون، وأصدر القوانين والتشريعات الاجتماعية التي تكفل للناس حقوقهم، وتحافظ عليهم وعلى ممتلكاتهم، ونبغ في عصره العديد من المؤرخين والعلماء والأدباء من المسلمين والهنادكة.

(70/14)

---

### \*الأغالبة

ينسب الأغالبة إلى «الأغلب بن سالم التميمي»، وهو عربي من قبيلة «تميم»، التي شاركت في القضاء على «الأمويين»، وإقامة «الدولة العباسية»، وقد تولى «الأغلب» إفريقية في سنة (148هـ=765م)، ثم استشهد بها في حربه ضد الطامعين بقيادة «الحسن بن حرب الكندي». إبراهيم بن الأغلب

[184هـ=800م]: تلقى «إبراهيم بن الأغلب» - في نشأته الأولى - دروسه الدينية بمسجد القسطنطين على يد الإمام «الليث بن سعد»، فلما بلغ مبلغ الشباب التحق بالجنديّة، ثم جاء إلى «المغرب» وشارك في أحداثها، ثم ظهر على مسرح الأحداث في إفريقية - كما سبقت الإشارة إليه - في عهد «محمد بن مقاتل العكي». استقل «إبراهيم» بحكم «المغرب الأدنى» عن الخلافة، وعمد إلى إقرار الأمن والاستقرار بهذا الإقليم، فضلاً عن تعريبه، واستكمال نظامه الإداري، وتنمية اقتصاده، فباتت «القيروان» مركزاً من مراكز العلم والحضارة بالدولة الإسلامية، وظهرت أهمية المدن التابعة لها. مثل: «تونس»، و «سوسة»، و «قابس»، و «قفصة»، و «توزر»، و «نفطة»، و «طبنة»، و «المسيلة»، و «بجاية»، وغيرها. ولكن ذلك لم يمنع من وقوع بعض الثورات بالمنطقة، مثل ثورة «عمران بن مجالد الربيعي» الذي جمع حوله أهل «القيروان» في محاولة للقضاء على حكم «الأغالبة»، ولكن محاولتهم باءت بالفشل، حيث تصدى لهم «إبراهيم بن الأغلب» بحزم وشدّة، واستمر في منصبه حتى وافته منيته في شوال سنة (196هـ= يونيو 812م)، فذكره المؤرخون بأنه كان أحسن الولاة سيرة، وأفضلهم سياسة، وأوفاهم بالعهد، وأرعاهم للحرمة، وأرفقهم بالرعية، وأخلصهم لأداء واجبه. أبو العباس عبدالله بن إبراهيم بن الأغلب [196هـ=812م]: تولى «أبو العباس» «المغرب» خلفاً لوالده، فاستقامت له الأمور واستقرت، ولكنه انتهج سياسة ضريبية سيئة، أسفرت عن سخط الناس عليه، وظل «أبو العباس» بالحكم مدة خمس سنوات ثم مات من جرّاء قرحة

أصابته تحت أذنه. زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلِب  
[201هـ=816م]: تولى «زيادة» مقاليد الحكم بالمغرب خلفاً لأخيه  
«أبي العباس» واستمر في هذه الإمارة حتى سنة (223هـ=  
838م)، فتمتعت البلاد في عهده بالرخاء والازدهار، فضلا عن  
التشييد وال عمران بالمدن المغربية، مثل: «القيروان»،  
و «العباسية»، و «تونس»، و «سوسة» وقد وجه «زيادة» قدراته  
العسكرية للقضاء على الثورات التي قامت بالمنطقة، ومنها:  
ثورة «زياد بن سهل» المعروف بابن الصقلبية في سنة  
(207هـ=822م)، و ثورة «عمرو بن معاوية العيشي» في سنة  
(208هـ=823م)، و ثورة «منصور الطنبذى» في سنة  
(209هـ=824م)، وكذلك وجه «زيادة» كفاءته الحربية في العناية  
بالأسطول الإسلامي، ثم توجيهه لغزو بعض الجزر القريبة من  
«تونس»، وإليه يرجع الفضل في إعداد حملة بحرية كبيرة بقيادة  
«أسد بن الفرات» لغزو الجزر القريبة من «تونس»، ثم تُوفى في  
سنة (223هـ=838م). أبو عقال الأغلِب بن إبراهيم بن الأغلِب  
[223هـ=838م]: تولى الإمارة خلفاً لأخيه «زيادة» في سنة  
(223هـ=838م)، ومكث بها ما يقرب من ثلاث سنوات؛ نعمت البلاد  
خلالها بالهدوء والاستقرار، وحرّم «أبو عقال» صنع الخمر  
بالقيروان، وعاقب على بيعها وشربها، فكان لذلك صداه الطيب  
في نفوس الناس عامة، فضلا عن الفقهاء والعلماء، ومات «أبو  
عقال» بالقيروان في سنة (226هـ=841م). أبو العباس محمد بن  
الأغلِب [226هـ=841م]: تولى الإمارة خلفاً لأبيه «الأغلِب»، وظل  
بها أكثر من خمسة عشر عامًا، اتسمت بالخلافات بين أبناء  
«الأسرة الأغلِبية»، فضلا عن محاولة أخيه «أحمد» الفاشلة  
للإطاحة به والوصول إلى الحكم، يضاف إلى ذلك انتفاضات الجند  
التي لم يكتب لها النجاح بمنطقتي «الزاب»، و «تونس»، وقد  
تُوفى «أبو العباس» في سنة (242هـ) بالقيروان. أبو إبراهيم

أحمد بن محمد [242هـ=856م]: تولى خلفاً لأبيه عقب وفاته في سنة (242هـ)، وتميزت فترة حكمه بالهدوء والاستقرار، وقد غلب

(72/14)

الطابع الديني على سلوكه، فكان يخرج في شهرى شعبان ورمضان من مقر إقامته ليوزع الأموال على الفقراء والمساكين بالقيروان، واهتم «أبو إبراهيم» بالبناء والتعمير، وزاد في «مسجد القيروان»، وجدد «المسجد الجامع» بتونس، وحصن مدينة «سوسة» وبنى سورها، كما اهتم بإمداد سكان المدن بمياه الشرب، وقد تُوفى في سنة (249هـ=863م). أبو محمد زيادة الله الثاني [249هـ=863م]: تولى «أبو محمد» خلفاً لأخيه «أبي إبراهيم أحمد»، ولم يستمر في منصبه سوى عام واحد، ثم تُوفى في سنة (250هـ=864م). أبو عبد الله محمد بن أحمد [250هـ=864م]: خلف عمه «أبا محمد زيادة» في الإمارة في سنة (250هـ=864م). وقد اشتهر «أبو عبدالله» بأبي الغرائيق؛ لولعه بصيد «الغرائيق»، وبنى لذلك قصرًا كبيرًا، أنفق عليه أموالًا كثيرة، كما شاد الحصون والمخارس الكثيرة على سواحل البحر المتوسط وتوفى «أبو الغرائيق» في سنة (261هـ). إبراهيم بن أحمد [261هـ=875م]: ولى أمور الحكم عقب وفاة أخيه «أبي الغرائيق» في سنة (261هـ=875م)، وامتد عهده أكثر من ثمانية وعشرين عامًا؛ ظهر خلالها «أبو عبدالله الشيعي»، الذي استقطب إلى دعوته الشيعية عددًا من القبائل، وقد اختلف المؤرخون في تقييم شخصية «إبراهيم بن أحمد»، فذكر بعضهم أن عهده كان عهد استقرار وهدوء، وإقرار للعدل، وتأمين للسبل، فضلًا عن قيامه بإتمام بناء المسجد بتونس، وبناء الحصون والمخارس على سواحل البحر، يضاف إلى ذلك تأسيسه

مدينة «رقادة»، وبنائه جامعاً بها، في حين يصفه «ابن خلدون» بقوله: «وذكر أنه كان جائراً، ظلوماً ويؤخذ أنه أسرف في معاقبة المعارضين له بالقتل والتدمير، لكنه حاول في أخريات أيامه إصلاح ما أفسده، وبخاصة بعد ظهور داعية الشيعة «أبي عبدالله» وانضمام كثير من الناس إلى دعوته، فأسقط المغارم، ورفع المظالم عن طبقات الشعب الكادحة، كما تجاوز عن ضريبة سنة بالنسبة إلى أهل الضياع، ووزع الأموال على الفقراء

(73/14)

والمحتاجين، وختم حياته بالجهاد في «صقلية»، حيث مرض أثناء حصاره لإحدى المدن، ومات ليُحمل ويدفن في مدينة «بلرم» في سنة (289هـ=902م)، وذكر «ابن الأثير» أنه حُمل في تابوت ودفن بالقيروان. أبو العباس عبدالله بن إبراهيم [289هـ=902م]: تولى الإمارة في سنة (289هـ=902م)، ولم يستمر بها سوى عام ونصف العام، حيث قُتل على يد ابنه «زيادة الله»، وكانت فترة حكمه امتداداً لسياسة والده «إبراهيم بن أحمد» في الحكم، فبدأت عوامل الضعف والوهن تدب في أوصال دولة الأغلبية. زيادة الله بن أبي العباس عبدالله [290هـ=903م]: تولى «زيادة» الحكم عقب مقتل أبيه، وانتهج سياسة أبيه وجده، وتبع أفراد أسرته بالقتل، في الوقت الذي نشط فيه «أبو عبدالله الشيعي» وأحرز الانتصارات تلو الأخرى، واستولى على كثير من المدن الأغلبية، ولم تفلح جيوش «زيادة» في صدّه أو إيقاف زحفه، فوجد «زيادة» نفسه عاجزاً عن الحفاظ على ملك آبائه وأجداده، فأثر الهرب إلى «مصر»، وحمل معه كل ما استطاع حمله من مال وعتاد، ورحل من «رقادة» في (26من جمادى الآخرة عام 296هـ= مارس 909م)، فباتت المدينة سهلة

المنال «لأبي عبدالله الشيعي»، فبعث «عروبة بن يوسف» أحد  
قادته للاستيلاء عليها، فدخلها دون قتال، وطويت بذلك صفحة  
«الأغالبة».

(74/14)

### \*الرستمية (دولة)

دولة نشأت بالمغرب الأوسط (الجزائر) سنة 161 هـ في عهد  
الخلافة العباسية، وظلت حتى سنة 296 هـ وتوالى عليها عدد من  
الولاة هم: عبدالرحمن بن رستم [162هـ=779م]: بويح  
«عبدالرحمن» ليكون أول إمام للدولة الإباضية الناشئة في ربوع  
«المغرب الأوسط»، وقد كان أحد طلاب العلم، ودرس على يد  
«أبي عبيدة مسلم ابن أبي كريمة»، فلما أتم تعليمه عمل على  
نشر «المذهب الإباضي» ودعمه، ثم عينه «أبو الخطاب» نائباً له  
على «مدينة القيروان»، فآكتسب الخبرة الإدارية، وعرف طبائع  
الناس وظروفهم، ولم يدخر جهداً في محاربة الولاة العباسيين،  
وجمع شمل «الإباضية»، خاصة بعد مقتل «أبي الخطاب». كان  
«عبدالرحمن» رجلاً زاهداً، وذا صبر على الشدائد، وملتمزاً بكتاب  
الله وسنة نبيه، واشترط على الناس حين وقع اختيارهم عليه  
للإمامة أن يسمعوا له ويطيعوا ما لم يجد عن الحق، ثم اختط  
مدينة «تھيرت»، ودخل في طاعته العديد من القبائل مثل:  
«لماية»، و «سدرانة»، و «مزاتة»، و «لواتة»، و «مكناسة»،  
و «غمارة»، و «أزداجة»، و «هواره»، و «نفوسة»، وقد افترشت  
هذه القبائل مساحات واسعة، امتدت من «تلمسان» غرباً حتى  
«طرابلس» شرقاً. ومضى «عبدالرحمن» في حكم البلاد بالعدل،  
منتهجاً سياسة شرعية في إدارتها، مما أشاع الاستقرار والأمن  
بين الناس، فلما شعر بدنو أجله اختار مجلساً للشورى، ليُختار

من بين أفرادهِ مَنْ يصلح للإمامة من بعده، واختار ابنه  
«عبد الوهاب» ضمن أفراد هذا المجلس، ثم مات في سنة (168هـ=  
784م). عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم [168هـ=784م]:  
اختاره مجلس الشورى ليكون خلفاً لأبيه في الإمامة، واتسم  
عهده ببعض الاضطرابات والقلقل، وواجه العديد من الثورات  
التي اتخذ بعضها طابعاً مذهبياً، وبعضها الآخر طابعاً قبلياً،  
فأثرت إلى حد بعيد على «الدولة الرستمية»، وعلى رمزها  
الديني المتمثل في الإمام. ومات «عبد الوهاب» في سنة

(75/14)

(198هـ=814م). أفلح بن عبد الوهاب [198هـ=814م]: بويح الإمام  
«أفلح» خلفاً لأبيه، وكان ذا صفات طيبة، وجاءت مبايعته على  
عكس ما نَحجه الخوارج في تعيين الإمام، إذ اختاره أبوه للإمامة  
قبل وفاته، وربما يرجع ذلك إلى طبيعة الظروف التي أملت  
بالبلاد، حيث أحاط الأعداء بمدينة «تهيرت»، وكان لابد من  
اختيار رجل شجاع يتمكن من مواجهة الأعداء. وقد اتسم عهد  
«أفلح» بالهدوء والاستقرار، وبلغت الدولة في عهده أوج  
ازدهارها، ونشطت التجارة، وأقبل الناس من كل مكان قاصدين  
العاصمة «تهيرت»، وتوفي الإمام «أفلح» في سنة (240هـ)، إثر  
حزنه الشديد على وقوع ابنه «أبي اليقظان» في أيدي  
العباسيين. أبو بكر بن أفلح بن عبد الوهاب [240هـ=854م]: كان  
«أبو اليقظان» مرشحاً لمنصب الإمامة، ولكن وقوعه في أيدي  
العباسيين حال دون ذلك، وتولاها أخوه «أبو بكر» الذي لم يكن  
في شدة آبائه وأجداده وحزمهم، فضلاً عن انغماسه في الترف  
والنعيم وميله إلى الراحة، وقد تفرغ لراحته وملذاته حين خرج  
أخوه «أبو اليقظان» من سجن العباسيين وشاركه الحكم، ولكن

«أبا بكر» دبر مقتل «محمد بن عرفة» وهو من الشخصيات البارزة بالعاصمة، ليتخلص من نفوذه، فكان ذلك سبباً في نشوب الصراع بين طوائف الدولة الرستمية، وحاولت كل طائفة تحقيق أهدافها من خلال المعارك الطاحنة، التي أسفرت عن هزيمة حكام البيت الرستمي، واعتزال «أبي بكر» منصب الإمامة. أبو اليقظان محمد بن أفلح بن عبد الوهاب [268هـ=881م]: شهدت العاصمة «تهيرت» فترة من القلاقل والاضطرابات، ثم نجح «أبو اليقظان» في تهدئة الأوضاع ودخول العاصمة «تهيرت» في سنة (268هـ=881م)، فتولى منصب الإمامة، وتجنب سياسة التعصب وتفضيل قبيلة بعينها على غيرها، وجلس لبحث شكاوى رعاياه وألبت فيها بنفسه، واستعان بمجلس الشورى الذي ضم إليه شيوخ القبائل ووجهاءها، فاستقرت الأوضاع، وهدأت النفوس، وظل «أبو اليقظان» يدير دفة الأمور في دولته حتى وفاته في

(76/14)

سنة (281هـ=894م). أبو حاتم يوسف بن محمد [281هـ=894م]: تولى «أبو حاتم» الإمامة عقب وفاة والده «أبي اليقظان»، لأن أخاه الأكبر «اليقظان» كان غائباً في موسم الحج، وقد لعب العامة -بزعامه «محمد بن رباح» و «محمد بن حماد» المعروفين بالشجاعة والنجدة- دوراً بارزاً في المطالبة ببيعة «أبي حاتم» بالإمامة لسخائه وكرمه، ولكن هذا الدور الذي لعبه العامة أطمعهم في التدخل في شئون الحكم وتحقيق المكاسب، فرفض «أبو حاتم» ذلك وضرب على أيديهم وطردهم من المدينة، فعمدوا إلى تأليب القبائل ضده، ونجحوا في طرده من العاصمة «تهيرت»، وبايعوا عمه «يعقوب بن أفلح» بالإمامة، فصار هناك إمامان من بيت واحد، يقفان وجهاً لوجه في صراعٍ دامٍ على

السلطة، ولكن أحدهما لم يحقق نجاحًا ملموسًا على الآخر، فاحتكما وعقدا هدنة، وعاد «أبو حاتم» إلى العاصمة إمامًا على البلاد، وانسحب عمه «يعقوب» بعد أن حكم العاصمة «أربع سنوات». وقد حاول «أبو حاتم» إصلاح ما أفسدته الحروب داخل العاصمة «تهيرت»، وكوّن مجلسًا استشاريًا من زعماء القبائل ومشايخها للاستعانة بهم في إدارة البلاد، ولكن محاولاته الإصلاحية كانت بمثابة صحوة الموت للبيت الرستمي، خاصة بعد أن ضعفت قوتهم العسكرية في محاولة لإنهاء الصراع الذي وقع حول مدينة «طرابلس». وقد تآمر أفراد البيت الرستمي أنفسهم على حياة إمامهم «أبي حاتم»، وقتلوه في سنة (294هـ=907م) اليقظان بن أبي اليقظان [294هـ=907م]: بوبع بالإمامة عقب مقتل أخيه في سنة (294هـ=907م)، واتسم عهده بالفتن والقلاقل، وتطلع مختلف القبائل والطوائف إلى الاستئثار بالحكم، كما دبرت المؤامرات من داخل البيت الرستمي على يد «دوسر» ابنة «أبي حاتم»، وتكاتفت فرق الخوارج مثل: «المالكية» و «الواصلية» و «الشيعة» لإحباط الفتن والمؤامرات للإطاحة بالإمام، وقد نجح «اليقظان» إلى حد بعيد في كبح جماح هذه الطوائف والحد من

(77/14)

---

نشاطها، فهربت «دوسر»، ولجأت إلى «أبي عبدالله الشيعي» الذي نجح في بسط نفوذه على مساحات كبيرة من أرض «المغرب»، واستنجدت به للثأر لأبيها، فاستجاب لها، واتجه إلى «تهيرت»، فخرجت لمقابلته وجوه أهل «تهيرت» ورحبوا بمقدمه، واستسلم «اليقظان» لمصيره، وخرج مع بنيه إلى «أبي عبدالله»، فأمر بقتلهم ودخل العاصمة في سنة (297هـ=910م)،

واستولى على ما بها من أموال ومغانم، فطويت صفحة «الدولة  
الرستمية».

(78/14)

### \*الأداسة (دولة)

دولة نشأت بالمغرب الأقصى سنة 172 هـ في عهد الخلافة  
العباسية، وظلت حتى سنة 300 هـ وتنسب إلى مؤسسها إدريس  
بن عبد الله وتوالى عليها عدد من الحكام هم: إدريس بن عبد الله  
(172هـ = 788م): اضطهد العباسيون منذ اللحظة الأولى لقيام  
دولتهم أبناء عموماتهم من العلويين، وأسرف بعض الخلفاء  
العباسيين في ذلك، فأسفر الأمر عن قيام عدة ثورات، كانت  
آخرها ثورة «الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن  
بن علي بن أبي طالب» علي والي «المدينة» في سنة  
(169هـ = 785م)، ولكن العباسيين استطاعوا قمعها، وقتلوا  
زعيمها ومجموعة من أهل بيته. وكان «إدريس بن عبد الله»  
ومولاه «راشد» ممن فرّ من أرض المعركة، واتجها إلى «مصر»،  
ومنها إلى «المغرب الأقصى»، ونزلا مدينة «وليلي» عاصمة هذا  
الإقليم، ثم توجهوا إلى أميرها وزعيمها «إسحاق بن محمد بن  
عبد الحميد الأوربي»، زعيم قبيلة «أوربة» التي فرضت نفوذها  
وسيطرتها على مدينة «وليلي» وما حولها، وعرفه «إدريس»  
بنفسه، وأعلمه بسبب فراره من موطنه «الحجاز»، ولجونه إلى  
بلادهم، فرحب به «إسحاق» وآمن بدعوته، وبايعه بالإمامة،  
وكذلك بايعته قبيلته «أوربة»، ومعها بقية القبائل في رمضان  
سنة (172هـ = 788م)، ومن ثمّ نجح «إدريس» في تأسيس دولة  
حملت اسمه بالمغرب الأقصى. لكن ذلك أقلق الخلافة العباسية،  
خاصة بعد أن مدّ «إدريس» نفوذه إلى مدينة «تلمسان» بالمغرب

الأوسط. عمد الخليفة العباسي «الرشيد» إلى الحيلة للقضاء على نفوذ «الأدارسة»، فقبل إنه بعث برجل يدعى «الشمخ» إلى «إدريس»، فتظاهر بحبه لآل البيت، وفراره من بطش العباسيين، ولازم «إدريس» فترة ثم اغتاله حين سنحت له الفرصة، وهكذا نجحت الخلافة العباسية في التخلص من «إدريس» أبرز المناوئين لها، وفقدت «دولة الأدارسة» مؤسسها في سنة (175هـ=791م) بعد ثلاث سنوات ونصف فقط من قيامها. إدريس بن إدريس بن عبد

(79/14)

الله: [175 - 213 هـ = 791 - 828 م]: بات مقعد الإمامة شاعرًا عقب اغتيال «إدريس»، والتف البربر حول مولاه «راشد»، وانتظروا مولود «كنزة» جارية «إدريس بن عبدالله»، فلما وضعت حملها أسماه «إدريس» تبرًا باسم والده، وتعهده «راشد» بالتربية والرعاية، ونشأ تنشأة دينية، حتى إذا بلغ الحادية عشرة من عمره أقبلت القبائل على مبايعته بالإمامة، فدعا ذلك الخلافة العباسية إلى التحرك ثانية للقضاء على هذه الدولة، وأوكلت هذه المهمة إلى والي «المغرب الأدنى» «إبراهيم بن الأغلب» الذي نجح في استمالة مجموعة من البربر بأمواله وهداياهم، ثم أوكل إليهم مهمة قتل «راشد»، فقاموا بتنفيذها في سنة (186هـ=802م)، لكن «الدولة الإدريسية» واصلت مسيرتها، وانتقلت كفالة «إدريس» والوصاية عليه إلى «أبي خالد بن يزيد بن إلياس العبدى»، وجددت له البيعة في سنة (188هـ=804م)، حين بلغ الثالثة عشرة من عمره، وأصبح في سن تؤهله لخلع الوصاية، وإدارة البلاد، وعزز مركزه إقبال الوفود العربية من «القيروان» و «الأندلس» للعيش في كنف دولته فرارًا من بطش الحكام، فدعم بهم نفوذه، واتخذ منهم الوزراء والكتاب والقضاة،

وجعلهم بطانته وحاشيته، وقد شجعه هؤلاء على بناء عاصمة جديدة لدولته، فبنى مدينة «فاس»، ثم استقر بها. وفي سنة (197هـ = 813م) خرج «إدريس الثاني» على رأس قواته لإخضاع «قبائل المصامدة» التي هددت أمن بلاده، ونجح في ذلك نجاحًا كبيرًا، وامتد نشاطه حتى منطقة «السوس الأقصى»، ودخل مدينة «نفييس» ثم عاد إلى عاصمته «فاس»، وخرج في العام التالي صوب الشرق لتأمين حدود دولته، ودخل مدينة «تلمسان»، وأقام بها ثلاث سنوات، يرتب أمورها، ويرمم مسجدها، ثم عاد إلى «فاس» في سنة (201هـ)، وظل في الحكم حتى وافته المنية في سنة (213هـ = 828م). محمد بن إدريس بن إدريس (213 - 234هـ = 828 - 848م): تولى «محمد» أكبر أبناء «إدريس الثاني»

(80/14)

الإمامة في سنة (213هـ = 828م)، فنفذ وصية جدته «كنزة» بتقسيم أقاليم الدولة بين إخوته، فكان لذلك أثره السيئ على وحدة دولة «الأدارسة»، ولما يمض على قيامها أربعون سنة بعد، وطمع كل أخ في الاستقلال بإقليمه، وشقَّ عصا الطاعة على السلطة المركزية. ولكن «محمد بن إدريس» تصدى لإخوته وضم ممتلكات أخويه «عيسى» و «القاسم» بعد هزيمتهما إلى أخيه «عمر». ولم تشهد البلاد بعد هذا التقسيم استقرارًا إلا في بعض الفترات مثل: عهد «يحيى بن محمد» الذي تولى الإمامة في سنة (234هـ = 848م)، فازدهرت في عهده مدينة «فاس» وشهدت تطورًا ملحوظًا في أنشطتها، ثم عهد «يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس» عام (292هـ = 905م)، الذي وصفه المؤرخون بأنه كان أعظم ملوك «الأدارسة» قوة وسلطانًا وصلاحًا وورعًا وفقهاً ودينًا، وقد ظل بالحكم حتى سنة (305هـ = 917م) حتى طرق

«مصالة بن حيوس» أبواب مدن «المغرب الأقصى»، فأطاعه  
«يحيى بن إدريس»، و«بايع» «أبا عبيد الله المهدي»، فدخلت دولة  
«الأدارسة» منذ ذلك الحين في طور التبعية للفاطميين تارة،  
وللحكم الأموي بالأندلس تارة أخرى.

(81/14)

### \* بنو مدرار (دولة)

ساهمت الظروف السياسية التي مر بها إقليم «المغرب» عقب  
نجاح الثورة التي قادها «ميسرة المصفرى الصفرى» ضد الدولة  
الأموية في سنة (122هـ=740م) في استقلال «المغرب الأقصى»  
وانفصاله عن الحكم الأموي، فأسهم ذلك - إلى جانب اضطراب  
الأوضاع في إقليمى «المغرب الأوسط» و «الأدنى» - في قيام  
تجمع مذهبي في جنوب «المغرب الأقصى»؛ هو تجمع  
«الصفرين» الذين وجدوا بمنطقة «سجلماسة» المجال المناسب  
لإقامتهم، ثم أسسوا مدينة تحمل اسم المنطقة، لتكون نواة لدولة  
صفرية، و«بايعوا» «عيسى بن يزيد بن الأسود» إماماً لهم، وسانده  
«أبو القاسم سمكو» زعيم قبيلة «مكناسة» بمبايعة قبيلته له،  
ولكن جماعة «الصفرية» - بعد خمس عشرة سنة - أخذوا عليه  
بعض المآخذ، وأنكروا عليه بعض الأمور، وقتلوه في سنة  
(155هـ=772م)، وقد تولى «أبو القاسم بن سمنون بن واسول  
المكناسى بن مدرار» الحكم خلفاً لعيسى، وجعل الحكم متوارثاً  
في أفراد «الأسرة المدرارية» حتى سقوط المدينة في أيدي  
الفاطميين، وقد توالى الأئمة بعد وفاة «مدرار»، حتى جاءت  
سنة (174هـ=790م) فتولى «اليسع بن أبي القاسم» الملقب  
بأبي منصور شئون الحكم، وظل في مقعد الإمامة حتى سنة  
(208هـ=823م)، وشهدت المدينة في عهده ازدهاراً اقتصادياً،

ونفوذًا سياسيًا كبيرًا، لذا يعد «اليسع» المؤسس الحقيقي لدولة «بني واسول» المعروفة بدولة «بني مدرار»، وامتد نجاح «اليسع» إلى تعمير العاصمة «سجلماسة»، فشهدت في عهده تطورًا واتساعًا، ومات «اليسع» في سنة (208هـ = 823م). وتولى «مدرار» خلفًا لوالده في سنة (208هـ = 823م)، ولقب نفسه بالمنتصر، وظل بالحكم حتى سنة (223هـ = 838م)، ونشب النزاع- خلال هذه الفترة - بين أبناء «مدرار»، مما أضعف نفوذهم، وفكك وحدة بيتهم. وخلفه «محمد بن ميمون بن مدرار»، ووفاه أجله في سنة (270هـ = 883م)، فتولى من بعده عمه «اليسع بن مدرار»، ودخل «عبيدالله المهدي» وابنه «القاسم» إلى

(82/14)

---

«سجلماسة» في عهده، فلما اكتشف حقيقة أمرهما، قبض عليهما، وأودعهما السجن، فظلا به حتى أقبل «أبو عبدالله الشيعي» على رأس قواته وخلصهما، ثم استولى على المدينة في سنة (296هـ = 909م)، وحاول بعض أفراد البيت المدراري استرداد مدينتهم واستعادة حكمهم من قبضة الفاطميين، وقد حققوا نجاحًا نسبيًا في ذلك، ولكن «جوهر الصقلي» تمكن من القضاء على ملكهم في سنة (347هـ = 958م)، وقبض على «الشاعر بالله» آخر أمرائهم، وأودعه سجن مدينة «رقادة»، فمات به في سنة (354هـ = 965م). وطويت صفحة التاريخ السياسي لمدينة «سجلماسة» في القرن الثالث الهجري.

(83/14)

---

## \*بنو واسول (دولة)

ساهمت الظروف السياسية التي مر بها إقليم «المغرب» عقب نجاح الثورة التي قادها «ميسرة المصفرى الصفرى» ضد الدولة الأموية في سنة (122هـ=740م) في استقلال «المغرب الأقصى» وانفصاله عن الحكم الأموى، فأسهم ذلك -إلى جانب اضطراب الأوضاع في إقليمى «المغرب الأوسط» و «الأدنى» - في قيام تجمع مذهبي في جنوب «المغرب الأقصى»؛ هو تجمع «الصفرين» الذين وجدوا بمنطقة «سجلماسة» المجال المناسب لإقامتهم، ثم أسسوا مدينة تحمل اسم المنطقة، لتكون نواة لدولة صفرية، وبايعوا «عيسى بن يزيد بن الأسود» إماماً لهم، وسانده «أبو القاسم سمكو» زعيم قبيلة «مكناسة» بمبايعة قبيلته له، ولكن جماعة «الصفرية» - بعد خمس عشرة سنة - أخذوا عليه بعض المآخذ، وأنكروا عليه بعض الأمور، وقتلوه في سنة (155هـ=772م)، وقد تولى «أبو القاسم بن سمنون بن واسول المكناسى بن مدرار» الحكم خلفاً لعيسى، وجعل الحكم متوارثاً في أفراد «الأسرة المدرارية» حتى سقوط المدينة في أيدي الفاطميين، وقد توالى الأئمة بعد وفاة «مدرار»، حتى جاءت سنة (174هـ=790م) فتولى «اليسع بن أبي القاسم» الملقب بأبي منصور شئون الحكم، وظل في مقعد الإمامة حتى سنة (208هـ=823م)، وشهدت المدينة في عهده ازدهاراً اقتصادياً، ونفوذاً سياسياً كبيراً، لذا يعد «اليسع» المؤسس الحقيقي لدولة «بنى واسول» المعروفة بدولة «بنى مدرار»، وامتد نجاح «اليسع» إلى تعمير العاصمة «سجلماسة»، فشهدت في عهده تطوراً واتساعاً، ومات «اليسع» في سنة (208هـ=823م). وتولى «مدرار» خلفاً لوالده في سنة (208هـ=823م)، ولقب نفسه بالمنتصر، وظل بالحكم حتى سنة (223هـ=838م)، ونشب النزاع - خلال هذه الفترة - بين أبناء «مدرار»، مما أضعف نفوذهم، وفكك وحدة بيتهم. وخلفه «محمد بن ميمون بن مدرار»، ووفاه

أجله في سنة (270هـ = 883م)، فتولى من بعده عمه «اليسع بن مدرار»، ودخل «عبيدالله المهدي» وابنه «القاسم» إلى

(84/14)

«سجلماسة» في عهده، فلما اكتشف حقيقة أمرهما، قبض عليهما، وأودعهما السجن، فظلا به حتى أقبل «أبو عبدالله الشيعي» على رأس قواته وخلصهما، ثم استولى على المدينة في سنة (296هـ = 909م)، وحاول بعض أفراد البيت المدراري استرداد مدينتهم واستعادة حكمهم من قبضة الفاطميين، وقد حققوا نجاحًا نسبيًا في ذلك، ولكن «جوهر الصقلي» تمكن من القضاء على مُلكهم في سنة (347هـ = 958م)، وقبض على «الشاكر بالله» آخر أمرائهم، وأودعه سجن مدينة «رقادة»، فمات به في سنة (354هـ = 965م). وطويت صفحة التاريخ السياسي لمدينة «سجلماسة» في القرن الثالث الهجري.

(85/14)

#### \*الزيرية (دولة)

يرجع نسب «بني زيري» إلى قبيلة «صنهاجة» البربرية؛ التي تنتمي إلى فرع من «البرانس»، ولم تكن «صنهاجة» مجرد قبيلة؛ بل كانت شعبًا عظيمًا، لا يكاد يخلو قطر من أقطار «المغرب» من بطونه وأفراده، مما دفع «ابن خلدون» إلى القول بأنهم يمثلون ثلث البربر. وقد سكنت «صنهاجة» في مساحات شاسعة؛ امتدت من «نول لمطة» في جنوب «المغرب الأقصى» إلى «القيروان» بإفريقية، وهي منطقة صحراوية، آثروا السكنة فيها على غيرها من المدن الآهلة، لأنها - كما علل «ابن خلدون» - تتوافق مع

طباعهم، ورغبتهم في الابتعاد عن الاختلاط بالناس، والفرار من الغلبة والقهر. وظهرت أسرة «بني زيري» - في أول أمرها - في طاعة الفاطميين، وتعاونت معهم في صد الأخطار التي تعرضت لها دولتهم بالمغرب، وكان أول اتصال بينهما في عهد «المنصور الفاطمي»، حين قدم «زيري بن مناد» وأهل بيته وقبيلته لمحاربة «أبي يزيد الخارجي» في سنة (335هـ=946م)، فخلع عليه «المنصور»، ووصله، وعقد له على أهل بيته وأتباعه وقبيلته، فعظم شأنه، وصار «بنو زيري» أعواناً وأتباعاً للفاطميين، ومن ثم نشب الصراع بين الصنهاجيين، وقبائل «زناتة»، لأن «زناتة» كانت دائمة الإغارة على ممتلكات «الدولة الفاطمية». وحين عزم «المعز» على الرحيل إلى «مصر» في سنة (361هـ=972م) للانتقال إليها بخلافته، وقع اختياره على «يوسف بُلْكِين ابن زيري بن مناد الصنهاجي» ليتولى الإمارة بالمغرب خلفاً للفاطميين. 1 - يوسف بُلْكِين بن زيري بن مناد الصنهاجي [362 - 373هـ=973 - 983م]: عينه «المعز» على ولاية «المغرب»، واستثنى من ذلك «طرابلس المغرب»، و «أجدابية» و «سرت»، وعين معه «زيادة الله ابن القديم» على جباية الأموال، وجعل «عبدالجبار الخراساني» و «حسين بن خلف» على الخراج، وأمرهما بالانقياد ليوسف بن زيري. واجه «يوسف» عدة ثورات واضطرابات بالمغرب، كان منها عصيان أهل «تھيرت»، ثم

(86/14)

---

سيطرة قبيلة «زناتة» على مدينة «تلمسان»، وقد توجه إلى «تھيرت» بجنوده وأعادها إلى طاعته، كما توجه إلى «تلمسان» وأعادها إلى حكمه في سنة (365هـ=976م). وفي سنة (373هـ=984م) خرج الأمير «يوسف» على رأس جيوشه

لاستعادة «سجلماسة» من أيدي بعض الثوار الذين استولوا عليها، ولكنه أصيب بمرض أودى بحياته في شهر ذى الحجة سنة (373هـ = مايو 984م). 2 - المنصور بن يوسف بُلْكِين بن زيرى [373 - 386هـ = 984 - 996م]: أوصى الأمير «يوسف بلكين» قبل وفاته بالإمارة من بعده لابنه «المنصور» الذى كان بمدينة «أشير» حين بلغه خبر وفاة والده، وأقبل عليه أهل «القيروان» وغيرها من المدن، لتعزيتته، وتهنئته بالولاية، فأحسن إليهم وقال لهم: «إن أبى يوسف وجدى زيرى، كانا يأخذان الناس بالسيف، وأنا لا آخذهم إلا بالإحسان، ولست ممن يُؤلَّى بكتاب، ويُعزل بكتاب»، وقصد «المنصور» من ذلك أن الخليفة الفاطمى بمصر لا يقدر على عزله بكتاب. وقد واجهت «المنصور» عدة مشاكل، كانت منها غارات قبائل «زناتة» المستمرة على المدن المغربية فى سنة (374هـ = 985م)، واستيلاء «زيرى بن عطية الزناتى» على مدينتى «فاس» و «سجلماسة»، مما دفع «المنصور» إلى إرسال أخيه «يطوفت» على رأس جيش كبير لمواجهة هذه القبائل، ودارت معركة كبيرة بين جموع الفريقين، أسفرت عن هزيمة الصنهاجيين، وعودتهم إلى «أشير». ثم تصدى الأمير «المنصور» فى سنة (376هـ = 986م) لعمه «أبى البهار» الذى نهب مدينة «تھيرت»، ففر «أبو البهار» أمامه، ودخل «المنصور» المدينة، وأعاد إلى أهلها الأمن والهدوء. ثم تُوفى فى يوم الخميس (3 من ربيع الأول سنة 386هـ = مارس 996م)، ودُفن بقصره. 3 - باديس بن المنصور [386 - 406هـ = 996 - 1015م]: وُلد «باديس» فى سنة (374هـ = 985م)، وتكنى بأبى مناد، وخلف أباه على «المغرب» فى سنة (386هـ = 996م)، وأتته الخلع والعهد بالولاية من «الحاكم بأمر الله الفاطمى» من

«مصر»، وبيع للحاكم، وأعلن تبعية بلاده لخلافته، ثم أقطع عمه «حماد بن يوسف» مدينة «أشير»، وولاه عليها، وأعطاه خيلاً وسلاحاً، وجنوداً كثيراً، فكانت هذه هي نقطة البداية لانقسام «بنى زيرى» إلى أسرتين: تحكم إحداهما بالمغرب الأدنى في «ليبيا» و «تونس»، وتحكم الأخرى - أسرة «بنى حماد» - في «الجزائر»، متخذة من قلعة «بنى حماد» مقراً للحكم. وانفرد «بنو حماد» بإقليم «الجزائر»، نظراً لضعف قبضة الأمير «باديس» على البلاد. وقد واصل «باديس» مطاردة «زناتة»، وأخبر في سنة (387هـ = 997م) بأن «زيرى بن عطية الزناتى» قد اعتدى على مدينة «أشير»، فبعث إليه بجيشه لمواجهته، ولكن الجيش هُزم على أيدي الزناتيين، فاضطر الأمير «باديس» إلى الخروج بنفسه لمواجهتهم في «أشير»، فلما علم الزناتيون بذلك انطلقوا إلى الصحراء، وتركوا المدينة، فدخلها «باديس»، وأقر الأمور بها، ثم مات في سنة (406هـ = 1015م). 4 - المعز بن باديس [406 - 453هـ = 1015 - 1061م]: أخذت البيعة للمعز بمدينة «الحمدية»، وتولى الأمر يوم وفاة أبيه وفرح الناس بتوليته لما رأوا فيه من كرم ورجاحة عقل، فضلاً عن تواضعه، ورقة قلبه، وكثير عطائه، على الرغم من حداثة سنه. وقد حدثت في عهده بعض التطورات، حيث ألغى المذهب الشيعى، وخلع طاعة الفاطميين، ودعا على منابره للعباسيين، وتصالح مع أبناء عمومته الحماديين سنة (408هـ = 1017م)، وواصل مطاردة «قبائل زناتة» جهة «طرابلس»، في أبناء «حماد». ثم أصيب «المعز بن باديس» بمرض في كبده أودى بحياته في سنة (453هـ = 1061م)، بعد حكم دام سبعاً وأربعين سنة. 5 - تميم بن المعز بن باديس [453 - 501هـ = 1061 - 1108م]: وُلد بالمنصورية في منتصف رجب سنة (422هـ = يونيو 1031م)، ثم تولى إمرة «المهدية» في عهد والده «المعز» في سنة (445هـ = 1053م)، ثم خلف والده في الإمارة في سنة (453هـ = 1061م)، فواجه عدداً

من الاضطرابات والقلاقل، حيث سيطر العرب الهلاليون على كثير من مناطق «إفريقية»، وثار عليه أهل «تونس» وخرجوا عن طاعته، فأرسل إلى «تونس» جيشاً، حاصرها سنة وشهرين، فلما اشتد الحصار على الناس، طلبوا الصلح، وعاد جيش «تميم» إلى «المهدية»، ثم ثارت عليه مدينة «سوسة» فحاصرها وفتحها عنوة، وأمن أهلها على حياتهم. وقد تعرضت «المهدية» في عهده لهجمات الهلالية، لكنه تمكن من صددهم، ثم حاصر «قابس» و«صفاقس»، واستولى عليهما من أيدي الهلالية الذين كانوا يخلوئهما. وعمد إلى مهادنة أبناء عمومته في «الجزائر»، وزوج ابنته للناصر بن علناس أمير «الجزائر»، وأرسلها إليه في موكب عظيم، محملة بالأموال والهدايا. ثم تُوفى في سنة (501هـ = 1107م). 6 - يحيى بن تميم بن المعز بن باديس [501 - 509هـ = 1107 - 1115م]: ولد بالمهدية في (26 من ذى الحجة سنة 457هـ)، وولى الإمارة وعمره ثلاث وأربعون سنة وستة أشهر وعشرون يوماً، فوزع أموالاً كثيرة، وأحسن السيرة في الرعية، ثم فتح قلعة «أقليبية» التي استعصى على أبيه من قبل فتحها، كما جهز أسطولاً كبيراً، كان دائم الإغارة على الجزر التابعة لدولة الروم في البحر المتوسط، ومات فجأة في يوم عيد الأضحى سنة (509هـ - 1115م). 7 - علي بن يحيى بن تميم [509 - 515 هـ = 1115 - 1121م]: لم يكن الأمير «علي» حاضراً بالمهدية - التي وُلد بها - حين وفاة والده، فلما وصل إليه الخبر، حضر مسرعاً، ودفن والده، وتولى الإمارة خلفاً له، ثم جهز أسطولاً كبيراً لمهاجمة جزيرة «جربة»، لأن أهلها قطعوا الطريق على التجار، وتمكن الأسطول من إخضاع الجزيرة، وأمن الأمير أهلها وعفا عنهم، ثم قضى على عصيان «رافع» عامله

على «قابس»، الذى سعى إلى شق عصا الطاعة وحشد الجموع لمهاجمة «المهدية». وقد تُوفى الأمير «على» فى العشر الأواخر من شهر ربيع الآخر سنة (515هـ = يونيو 1121م). 8 - الحسن بن

(89/14)

على بن يحيى [515 - 543هـ = 1121 - 1148م]: ولى الإمارة عقب وفاة والده الأمير «على»، وكان عمره آنذاك اثنتى عشرة سنة، فقام «صندل الخصى» بإدارة شئون الحكم، إلا أنه تُوفى بعد فترة قصيرة، فتولى القائد «أبو عزيز موفق» الإشراف على أمور البلاد، وتمكن من صد الأسطول الرومى الذى هاجم بعض حصون الزيريين فى سنة (517هـ = 1123م)، وكذلك ألحق الأمير «الحسن» الهزيمة بجيش «يحيى بن عبدالعزيز بن حماد» أمير «بجاية» الذى جاء لمهاجمة «المهدية» والاستيلاء عليها فى سنة (529هـ = 1135م). وفى سنة (537 - 543هـ = 1142 - 1148م) حل القحط بإفريقية واستغل ملك «صقلية» ذلك وجهاز أسطولاً كبيراً، وتوجه به قاصداً «المهدية»، ولم يستطع «الحسن» الدفاع عنها، وهرب بأهله ومتاعه إلى أبناء عمومته من «بنى حماد»، فوضعوه وأهله تحت الحراسة، ومنعوه من التصرف فى شىء من أمواله، ودخل الروم مدينة «المهدية» دون قتال أو ممانعة، فسقط حكم «بنى زيرى»، وسقطت إمارتهم، وكان «الحسن بن على» آخر أمراء «الدولة الزيرية». شكلت العلاقات الزيرية الفاطمية حجر الزاوية فى وضع «بنى زيرى» بالمغرب؛ إذ أسفرت هذه العلاقات عن هجوم القبائل الهلالية على أقاليم «الدولة الزيرية»، بمساعدة الفاطميين فى «مصر» وتوجيههم، وكان ذلك سبباً رئيسياً فى سقوط «بنى زيرى» وانتهاء دولتهم، كما اتخذ «المعز بن باديس» خطوات جريئة فى سبيل

الاستقلال بإمارته عن الخلافة الفاطمية، حين قاطع أهل  
«إفريقية» صلاة الجمعة بالمساجد لأنها تمثل المذهب الشيعي،  
فضلا عن نبذ الرعية للمذهب الشيعي وتمسكهم بالمذهب  
المالكي، وبدأ «المعز» في السعي إلى الاستقلال عن الفاطميين  
وراسل الخلافة العباسية في سنة (435هـ = 1044م)، وبعث رسولا  
من قبله إلى «بغداد» ليأتيه بالعهد واللواء، ورحب «العباسيون»  
بذلك، للانتقام من الفاطميين، واسترجاع بعض مظاهر سيادتهم  
على هذه المناطق التي انفصلت عنهم منذ زمن بعيد، وبعثوا

(90/14)

بالعهد واللواء مع «غالب الشيرازي» أحد رجالهم، ولكن «غالب»  
وقع في قبضة الروم، وأرسلوه إلى أصدقائهم الفاطميين  
بمصر، فأحرق الفاطميون العهد واللواء، وطافوا بالرجل في  
شوارع «القاهرة»، فقطع «بنو زيري» علاقتهم بالفاطميين،  
وعادوهم ولعنوهم على المنابر، ودعوا للعباسيين، ثم دعموا  
استقلالهم وارتباطهم بالعباسيين، وهدموا دار «الإسماعيلية»؛  
مركز نشر الدعوة الفاطمية بالبلاد، وغيروا العملة، واتخذوا اللون  
الأسود شعار العباسيين رمزا لهم. وقد حاولت الخلافة الفاطمية  
إرجاع العلاقات إلى ما كانت عليه بالترغيب والترهيب حتى  
وصل «اليازوري» إلى منصب الوزارة وقبض على مقاليد الأمور  
بالخلافة، فعمد إلى تشجيع القبائل الهلالية على التوجه إلى  
«القيروان» وأطلق لها العنان في التدمير والتخريب، وامتلاك كل  
ما يقع تحت سيطرتها. ويرجع تشجيع الوزير الفاطمي لهذه  
القبائل لعدة أمور، منها: رغبته في الانتقام من «المعز بن  
باديس»، وتوفير الأموال الطائلة التي ستنفقها الجيوش إذا ما  
خرجت إلى المغرب لمحاربة «بنو زيري»، فضلا عن أمله في

التخلص من القبائل الهلالية ذاتها؛ لأنها تشكل مصدر إزعاج وقلق للسلطة الحاكمة بالقاهرة. وقد فرض الوزير الفاطمي «اليازوري» ديناراً وبعيراً لكل رجل من «الهلالية»، فخرجت هذه القبائل قاصدة «القيروان» واستولت على مدينة «برقة» دون مقاومة، وتقاسمت فيما بينها المناطق الشرقية، واستأثرت بعض قبائل «بني هلال» بالمناطق الغربية، واتجهت جموع «دياب» و «عُرف» و «زغب». وبقية البطون الهلالية إلى «إفريقية»، واستولوا على «سرت» و «أجدابية» ودمروها، كما دمروا بقية المدن والقرى في طريقهم إلى «القيروان». وخرج «المعز بن باديس» بجيشه وجموع «زناتة» و «صنهاجة» و «عبيدة» لملاقاة الهلاليين، ولكنهم تغلبوا عليه وهزموه على الرغم من أن عددهم كان لا يتجاوز ثلاثة آلاف فارس، في حين بلغ تعداد جيش

(91/14)

---

«المعز» ثلاثين ألف مقاتل، وأسرع المعز إلى «القيروان» وأقام حولها سوراً لحمايتها في سنة (446هـ = 1054م)، ثم أمر السكان من النساء والأطفال والشيوخ بالانتقال إلى مدينة «المهدية» الحصينة للاحتماء بها، فلما ينس من حماية «القيروان»، انتقل برجال دولته وحاشيته إلى «المهدية»، فدخلها الهلاليون في سنة (449هـ = 1057م). ولم يمكث «المعز» طويلاً بعد سقوط «القيروان» والكثير من مدن دولته، وتوفي بالمهدية في سنة (453هـ = 1061م)، ومن ثمّ انهار الحكم الزييري بالمنطقة، وتحكمت فيها القبائل الهلالية، وامتد تأثيرهم السياسي حتى وصل إلى «المغرب الأوسط»، وهاذهم «بنو حماد»، وأعطوهم نصف غلات بلادهم اتقاء لشركهم، ودفعاً لأذاهم وخطرهم. كانت الزراعة هي دعامة الحياة الاقتصادية في المنطقة، التي تمتعت بالهدوء

والاستقرار في ظل الحكم الزيرى فيما عدا الفترة التي شهدت هجوم العرب الهلالية على البلاد، وقد ساعد تطور نظام الري على تطور الزراعة، فعرفت المنطقة زراعة «القطن» و «قصب السكر» و «الشعير» وازدهرت زراعة «التمر» و «العنب» و «الموز»، ولعبت تربية الأغنام دوراً مهماً في حياة الفلاح المغربي. وقامت الأسواق المنتشرة بالمدن المغربية بدور مهم في تنشيط الحركة التجارية؛ حيث كانت هناك أسواق: البرازين، والجزارين، والرجاجين، وسوق الدجاج، وسوق الغزل، وغيرها من الأسواق التي ساعدت على ازدهار التجارة، وبخاصة في مدينة «القيروان»، فأصبحت «المغرب» بلدًا غنيا، وباتت قبلة تجار الشرق والغرب. ونشطت حركة التصدير والاستيراد بها، واشتهرت مدينة «باجة» بتصدير كميات كبيرة من «القمح»، كما صُدِّرَ «زيت الزيتون» عن طريق ميناءى «سوسة» و «صفاقس» إلى بلدان المشرق، وبلاد «أوربا»، فأدى هذا الازدهار إلى تطور الصناعات، وعرفت المدن المغربية صناعات «النسيج» و «الجلود»، و «الأواني الفخارية»، وغيرها من الصناعات

(92/14)

---

المتنوعة. أما الناحية الفكرية: فقد شهدت ازدهاراً كبيراً وتطوراً ملحوظاً، وبخاصة في مدينة «القيروان» التي أصبحت في طليعة العواصم الإسلامية ذات الأثر في تاريخ الفكر الإسلامى، وشهدت مساجد المغرب المناظرات الفقهية والكلامية بين الشيعة، والمالكيين من أهل السنة، وصمد علماء المذهب المالكي وفقهاؤه رغم ما لاقوه من سجن وتعذيب على أيدي الشيعة الفاطميين، وتعلق السكان بهذا المذهب، وأصبح مذهبهم الرسمي منذ ذلك الوقت حتى الآن. وتطورت الحركة الأدبية في

عهد «المعز بن باديس» الذى اشتهر بتشجيع أهل الأدب والعلم،  
وأحسن معاملتهم، مثلما أخبر عنه «ياقوت» بقوله: وكانت  
«القيروان» فى عهده وجهة العلماء والأدباء، يشدون إليها  
الرحال من كل فجّ، لما يرونه من إقبال «المعز» على أهل العلم  
والأدب وعنايته بهم. ثم كان لاختلاط الهلاليين بسكان «المغرب»  
أثره الكبير فى تعريب جزء من هؤلاء السكان، حيث امتزج  
المغاربة بالعرب الهلاليين على مر الأيام، وتزاجا، فاختلطت  
الدماء، وتعلم سكان البلاد الأصليون لغة الوافدين العرب،  
فانتشرت اللغة العربية فى مناطق كثيرة من المغرب، ومن ثم  
انتشرت الثقافة العربية بهذه البلاد.

(93/14)

#### \*المرابطون (دولة)

قامت «دولة المرابطين» على أساس دعوة دينية، نمت وازدهرت  
فى «ديار الملثمين» بجنوب «المغرب الأقصى» بفضل جهود  
الفقيه المالكي «عبدالله ابن ياسين»، الذى تمتع إلى جانب علمه  
وفقهه ببعده النظر ونفاذ البصيرة، وتوجه إلى قبيلة «جدالة»  
بصحبة زعيمها «يحيى بن إبراهيم»، ففرحت بمقدمه، ثم ما لبث  
هذا الفرع طويلا حتى تحول إلى جفوة وإعراض حين بدأ «ابن  
ياسين» فى تغيير ما ألفوه من عادات وملذات تخالف أحكام  
الدين، وحسبه الزعماء والنبلاء ينتقص من حقوقهم، ويُسوّى  
بينهم وبين مواليتهم، وساءت العلاقة بينهم وبين «ابن ياسين»  
ونهبوا داره وهدموها، واضطر هذا الفقيه إلى الرحيل بمن تبعه  
إلى جزيرة منعزلة بالسنگال. وبدأ «ابن ياسين» فى هذه  
الجزيرة بإعداد التلاميذ ونشر الدعوة، فذاع صيته، وكثر عدد  
أتباعه، فأطلق عليهم لقب: «المرابطين»، ومضوا فى تنفيذ ما

أمر به. وقد بدأ المرابطون نشر دعوتهم بين قبيلة «جدالة» التي تمردت على «ابن ياسين» من قبل، فقصدوا قبيلتي «لمتونة» و «سوقة» ونجحوا في نشر دعوتهم بينهما، فكان ذلك مدعاة لانضواء بقية القبائل تحت لوائهم. تُوفّي الأمير «يحيى بن إبراهيم الجدالي» في سنة (447هـ = 1055م)، فاختر «ابن ياسين» «يحيى بن محلاكين اللمتوني» قائداً لجند المرابطين، فنقل بذلك السلطة العسكرية من «جدالة» إلى «لمتونة» التي كانت تتمتع بمكانة مرموقة بين بقية «قبائل الملمثين»، فضلا عن سيطرتها على طرق التجارة الساحلية، وهكذا ظهرت قبيلة «لمتونة» على مسرح الأحداث، وتتابع أبنائها في السلطة حتى نهاية حكم المرابطين. وفي سنة (447هـ = 1055م) استغاث فقهاء «درعة» و «سجلماسة» بعبدالله بن ياسين لإنقاذ بلادهم من الفساد والظلم، فاستجاب لهذه الدعوة، وخرج بجيشه متوجهاً إلى «درعة» و «سجلماسة»، وتمكن من القضاء على أمراء «مغراة»، وولى المرابطون عمالا تابعين لهم على هذه البلاد. ولم يستمر الهدوء طويلاً بمدينة

(94/14)

---

«سجلماسة» وقامت بها ثورة؛ اضطرت المرابطين بقيادة «يحيى بن محلاكين» إلى العودة إليها، ونجحوا في إخماد ثورتها، إلا أن قائدهم «يحيى اللمتوني» استشهد في المعركة، فوقع اختيار «ابن ياسين» على الأمير «أبي بكر بن عمر» في سنة (448هـ = 1056م) لقيادة الجيوش، فانتقل «أبو بكر» بالدعوة من مرحلة تلبية نداء المعونة لسجلماسة و «درعة» إلى مرحلة الغزو المسلح للمغرب الأقصى، ودخل مع قبائل «برغواطة» التي اعتنقت المجوسية في عدة معارك، فأصيب الداعية «ابن

ياسين» في إحدائها بإصابات قاتلة أودت بحياته في سنة (451هـ = 1059م). وواصل «أبو بكر» جهاده، وفرّق جموع «برغواطة»، واستأصل شأفتهم، ثم رجع إلى مدينة «أغمات» التي اتخذها عاصمة له. وقد شاركه في نشاطه المسلح ابن عمه «يوسف بن تاشفين الصنهاجي اللمتوني»، الذي أثبت كفاءة عالية، ومقدرة فائقة، وحقق نجاحًا بارزًا؛ غير أن أحداثًا ما وقعت بالصحراء، جعلت «أبا بكر» يتوجه إلى الجنوب تاركًا قيادة بقية المرابطين لابن عمه «يوسف بن تاشفين» الذي يعد المؤسس الحقيقي لدولة المرابطين بالمغرب الأقصى، وقد تجملت فيه صفات الزعامة والشجاعة والقيادة والحزم، والتفت حوله قلوب المرابطين، وشرع في بناء مدينة «مراكش» عاصمته الجديدة في سنة (454هـ = 1062م) ونجح في بسط نفوذه على «المغرب الأقصى» في سنة (467هـ = 1074م). وقد نجح ابن «تاشفين» إلى جانب توحيد «المغرب الأقصى» في وقف الزحف النصراني على «الأندلس»، وضمّها إلى «دولة المرابطين» التي اتسعت أطرافها وزادت خيراتها، وتمتعت بالازدهار والرقى في مختلف المجالات، ثم مرض «يوسف» في سنة (498هـ = 1104م)، ثم أسلم روحه في سنة (500هـ = 1106م) ودفن بمدينة «مراكش». ولى الأمير «علي بن يوسف بن تاشفين» الحكم واقتفى سياسة والده، وسار بين الناس بالحكمة والعدل، واستعان بالفقهاء والعلماء في حكم البلاد، فنبأ مكانة طيبة في نفوس رعيته.

(95/14)

---

ومضى «علي بن يوسف» في استكمال الجهود الحربية التي بدأها والده بالأندلس، وعبر إليها بنفسه أربع مرات؛ لتثبيت سلطان المرابطين، ومواجهة الهجمات المتكررة للمسيحيين،

فأحرز انتصارات كبيرة، ونال رضا الخلافة العباسية. تُوفّي  
الأمير «علي» في سنة (537هـ = 1142م)، فتولى ابنه «تاشفين»  
الحكم من بعده، فدخل في صراع مع دولة «الموحدين»، ولم  
تفلح جهوده في صد موجاتهم المتتابعة، وانتهى به الأمر إلى  
«وهران»؛ حيث قُتل في سنة (539هـ = 1144م)، فَتَّ ذلك في  
عضد الدولة، وسقطت أجزاء كثيرة منها في أيدي الموحدين.  
حاول المرابطون الاحتفاظ بكيانهم المتداعي، وأَمَرُوا عليهم  
«إبراهيم بن تاشفين» إلا أنه لم ينعم بالسلطة طويلاً، حيث نازعه  
عليها عمه «إسحاق بن علي ابن تاشفين»، وتولى مكانه، ولكنه  
لم يستطع أن يدفع حصار الموحدين بقيادة «عبدالمؤمن» خليفة  
«ابن تومرت» حول العاصمة «مراكش» في سنة (541هـ = 1146م)،  
فسقطت «مراكش» في يد «عبدالمؤمن» الذي أعمل فيها السيف  
وقضى على كثير من أهلها، وترتب على ذلك سقوط «دولة  
المرابطين». ضعفت القيادة العليا للمرابطين منذ تولى «علي بن  
يوسف» حكم البلاد، واستبد كثير من الأمراء بالأمر، ثم جاء  
الخلاف الخطير بين «إبراهيم بن تاشفين» وعمه «إسحاق بن  
علي» على السلطة، في الوقت الذي كان يزحف فيه الموحدون  
نحو العاصمة «مراكش». يضاف إلى ذلك تخاذل الجند، فضلاً عن  
الحروب المستمرة التي خاضوها بالأندلس، فاستنزفت قواهم  
واقْتَصَاد بلادهم، وظهور شخصية «ابن تومرت» الذي نجح في  
جذب أعداد كبيرة إليه. فكان ذلك كله من أسباب سقوط «دولة  
المرابطين» وقيام «دولة الموحدين». تركزت علاقات المرابطين  
في جبهتي «الأندلس» و «الدولة العباسية»؛ حيث هبوا لنجدة  
«الأندلس» من النصارى الإفرنج، ثم قرروا -بعد عدة معارك-  
ضمها إلى دولتهم، وظلت المعارك هي الطابع المميز لعلاقة  
المرابطين بالممالك الإفرنجية في الشمال الأندلسي. أما علاقتهم

---

بالعباسيين فقد بدأت بعد أن قاموا بنشر دعوتهم بأرجاء  
«المغرب الأقصى»، ومن ثم اتصلوا بالخلافة واعترفوا بسلطة  
الخليفة الروحية في العالم الإسلامي، وطلبًا لتأييد «الخلافة  
العباسية» لهم، وفي ذلك دعم لدعوتهم التي تأسست عليها  
دولتهم، وكان الترحيب والاستجابة سمة العلاقة بين الجانبين.  
شهد «المغرب الأقصى» في عهد «دولة المرابطين» ازدهارًا  
اقتصاديًا ورخاءً في مناحي الحياة كافة؛ حيث حرص المرابطون  
على النهوض بالزراعة والصناعة والتجارة، واهتموا بالنظام  
المالى وإدارته وكيفية جمعه وإنفاقه، واتخذ «يوسف بن  
تاشفين» حصنًا صغيرًا لحفظ الأموال والسلاح، ثم دَوَّن لذلك  
الدواوين حين اتسعت أعمال دولته واستقرت أوضاعها فجعل  
للمالية دواوين: «الغنائم»، و «نفقات الجند»، و «الضرائب»،  
و «الجباية»، و «مراقبة الدخل والخرج»، وكان الكتاب يقومون  
بتدوين النواحي المالية المختلفة، والعمال الذين يقومون  
بجبايتها، وكان جمع أموال الزكاة والجزية المفروضة على أهل  
الذمة يتم كل عام، أما غير ذلك من مصادر المال كالغنيمة  
والعشور، فإنها كانت مرتبطة بظروفها. وكان المشتغلون بمالية  
الدولة -دائمًا- تحت المراقبة الشديدة، والحساب المستمر،  
والعقاب السريع في حالة التقصير. وتأتى الزكاة في مقدمة  
مصادر الدخل المالى لهذه الدولة، ثم تليها الجزية المفروضة على  
أهل الكتاب نظير ما يتمتعون به من أمن وحماية، وقد فُرِضت  
الجزية على الرجال الأحرار العقلاء، ولم تُؤخذ من النساء، ولا من  
الصبية والمجانين والعبيد، وكان مقدارها موكولاً إلى ولاة الأمر  
واجتهادهم. أما فيما يتعلق بالضرائب، فإن المرابطين في بداية  
عهدهم التزموا بأحكام الشرع، ولم يفرضوا إلا ما جاء بالكتاب  
والسنة، وألغوا ما عدا ذلك من الضرائب بالمغرب والأندلس،

وشكلت الغنيمة مصدرًا مهما من مصادر الدخل للدولة، نظرًا للمعارك الكثيرة التي خاضها المرابطون ضد الإفرنج. وقد

(97/14)

ساهمت المصادر المالية المتنوعة في الإنفاق على تجهيز الحملات العسكرية المتكررة، وإقامة المنشآت، والإنفاق على أوجه الإصلاح والتعمير، فضلًا عن المرتبات والأرزاق، وأصدر المرابطون العملات النقدية لتأكيد سلطتهم الاقتصادية. واهتموا بالزراعة وما يتعلق بها، فشيد «علي بن يوسف» قنطرة على نهر «تانسيفت» لتوزيع المياه اللازمة للزراعة، فشهدت البلاد - لخصوبة أرضها - وفرة في المزروعات، وكذلك في الغابات التي نبتت في أجزاء متفرقة من البلاد. فأمدت البلاد بكميات وفيرة من الأخشاب التي استخدمت في كثير من الصناعات مثل صناعة السفن. وكان للصناعة دور بارز في ازدهار اقتصاد «دولة المرابطين»؛ حيث ازدهرت صناعات كثيرة ومتنوعة نتيجة استقرار الأوضاع، وتوافر المواد الخام، ووجود الخبرة الصناعية المتمثلة في الأيدي العاملة التي حركت عجلة التصنيع، ودفعتها إلى الأمام. وقد ظهرت عدة صناعات منها: صناعة السفن والزجاج، وأدوات النحاس والحديد، واستخراج الزيوت من الزيتون، والسكر من القصب، وكذلك صناعة الملابس من القطن والصوف، وصناعة دبغ الجلود. وشاركت التجارة في دفع عجلة الاقتصاد بدولة المرابطين منذ تأسيسها؛ حيث وجه أمراء هذه الدولة اهتمامهم إلى التجارة، وعملوا على تنشيطها؛ بتشجيع التجار على ارتياد البلاد، ووفروا لهم سبل الإقامة، وأنشأوا لهم الفنادق، مثلما فعل «يوسف بن تاشفين» حين دخل مدينة «فاس» في سنة (462هـ = 1069م). وقد وُجدت المراكز التجارية في

أنحاء دولة المرابطين، وبخاصة في العاصمة «مراكش» التي حظيت باهتمام التجار، وصارت مركزاً للتجارة الداخلية بين مدن الشمال والجنوب، كما كانت مدينة «فاس» مركزاً تجارياً مهماً، لموقعها الممتاز في قلب البلاد، وتوافر المحاصيل الزراعية والصناعات المختلفة بها. وارتبطت مراكز التجارة الخارجية بالمغرب الأقصى في عهد المرابطين، بعدة طرق برية يضاف

(98/14)

إليها الطريق الملاحي الذي تنقل التجارة بواسطته من هذه البلاد وإليها، وكانت أهم الطرق البرية هي: الطريق الذي كان يربط البلاد بمنطقة «السنغال» و «النيجر»؛ إذ كان يمر بسجلماسة «ودرعة» ومدن «المغرب الأقصى»، متجهًا إلى «أودغشت»، ثم إلى منحنى «النيجر»، وهناك طريق الساحل الذي يربط «دولة المرابطين» بالشرق حتى «مصر»، إلى جانب طريق آخر من «أودغشت» و «سجلماسة»، تسير فيه القوافل بالصحراء حتى «الواحات الداخلة» بمصر. وكان للموانئ المنتشرة على ساحل «البحر المتوسط» و «البحر الأطلسي» أثر كبير في تنشيط حركة التجارة، فتنوعت صادرات البلاد، وشملت: القطن، والقمح، والسكر، والزيتون، والزيت المستخرج من الأسماك، والنحاس المسبوك، وغيرها من الصادرات. أما أهم وارداتها، فكانت: الذهب، والزئبق، وبعض أنواع النسيج البلنسي، والعطر الهندي، وبعض الواردات الأخرى. شكل البربر الغالبية العظمى من سكان «بلاد المغرب» الذين تأسست على أيديهم دولة المرابطين، وقد شاركهم العرب في الإقامة بالمنطقة منذ بدأت فتوح المسلمين لهذه البلاد، ثم جاءت القبائل العربية الهلالية بعد ذلك إليها، وشاركهم السودانيون الذين انضموا إلى جيوش

المرابطين، فضلاً عن تواجد عنصر الروم والصقالبة الذين عاشوا في ظل المرابطين، واتخذ منهم بعض الأمراء حرسه الخاص، كما استخدمهم بعض الأمراء في جباية الأموال. وقد تبوأَت المرأة مكانة مرموقة في المجتمع المرابطي، وتمتعت بوضع كريم في القبيلة الصنهاجية؛ إذ كانت تشترك في مجلس القبيلة، وتشارك في الأمور المهمة. وبلغ احترام المرابطين للمرأة حداً جعل القادة والأمراء يُلقبون أنفسهم بأسماء أمهاتهم، تقديراً لدور المرأة في المجتمع، فنجد «ابن عائشة»، و «عبدالله بن فاطمة»، وهما من أبرز قادة المرابطين. وعاش أهل الذمة في بلاد المرابطين إلى جانب غيرهم من طبقات المجتمع وفنائه في ظل حماية

(99/14)

---

القيادة العليا للبلاد، وأصبحت طائفة اليهود على قدر كبير من الثراء، ولكن بعض أهل الذمة عمدوا إلى مساعدة أعداء البلاد، وتحريضهم على غزوها، فكان رد فعل أمراء المرابطين هو نفي عدد كبير من هؤلاء، ومنع اليهود من المبيت بالعاصمة «مراكش»، والسماح لهم بالعمل تهازاً، والانصراف منها ليلياً؛ وهو إجراء وقائي للحفاظ على العاصمة من المؤامرات والدسائس والفتن، وبما ما بها من تجمعات الجند وقادة الجيوش، وإدارة البلاد، فضلاً عن كونها مقر أمير البلاد وأسرته وأعوانه وحاشيته. انتعشت حركة البناء والتعمير في «دولة المرابطين»، وقد بدأها الأمير «يوسف بن تاشفين» بتأسيس مدينة «مراكش» وبنائها، وغيرها من المنشآت، وتبعه في ذلك ابنه «علي» والأمراء من بعده، وامتازت مباني المرابطين بالضخامة والقوة والاتساع، والاقتصاد في الزخرفة تمشياً مع بساطتهم. وتعد «مراكش» من أبرز أعمال المرابطين، وكان سبب بنائها، ازدحام

مدينة «أغمات» بقبائل المرابطين القادمين من الجنوب، يضاف إلى ذلك موقعها الاستراتيجي في مفترق طرق الأطلس والصحراء، وقربها من مواطن المصامدة الذين يشكلون غالبية السكان، وكذلك قربها من صحراء المرابطين ومواطن «لمتونة»؛ حيث توجد الإمدادات العسكرية، وتأسست «مراكش» على أرجح الآراء في سنة (454هـ = 1062م)، وشارك الأمير «يوسف» في البناء لتشجيع من حوله في المساهمة، ثم بنى فيها ابنه الأمير «علي» قصره المعروف بدار الحجر، وأحاطه بالأسوار. عاشت «دولة المرابطين» نهضة فكرية مزدهرة، ازدهرت فيها علوم الأدب واللغة والعلوم والفلسفة والطب، ووفد طلاب العلم على المدن المغربية من كل مكان، وقد ساعد على ذلك تشجيع الأمراء المرابطين للعلماء وطالبي العلم، فقصده العلماء العاصمة «مراكش»، وانتظم الطلاب في دراساتهم، واجتهد كل ذي موهبة في إبراز ما لديه، ورغب كثير من أبناء «المغرب» في طلب

(100/14)

العلم، لأن مناصب الدولة ووظائفها كانت مقصورة على المتعلمين والمتقنين. وأصبحت «مراكش» تضاهي «بغداد» في ازدهار العلوم وكثرة العلماء وشاركتها مدينة «فاس» التي أسسها «إدريس بن عبد الله» في المكانة، وظل مسجدها الكبير (جامع القرويين) مركز إشعاع علمي يقصده طلاب العلم من كل مكان. أسهمت الروح الدينية التي سادت «بلاد المغرب» منذ قيام «دولة المرابطين» في ازدهار العلوم الشرعية؛ مثل: علوم التفسير والحديث والفقه والكلام، ووفود كثير من علماء الأندلس على مراكش وغيرها فأسهموا في دفع حركة التأليف، وشاركهم أبناء المغرب الذين أقبلوا على الدراسة والبحث في دفع هذه

الحركة، فنبغ عدد كبير من العلماء. وعنى المغاربة بكتاب «الوجيز» في التفسير لعبدالحق بن غالب بن عطية المحاربي، المتوفى في سنة (541هـ = 1146م)؛ حيث جمع فيه «ابن غالب» خلاصة التفاسير كلها، وتحرى منها ما هو أقرب إلى الصحة. ونال علم الحديث عناية فائقة من ولاة الأمر، وكان «موطأ» الإمام «مالك» مدار الدراسات في الدولة، وكذلك نشط علم الفقه، ولم ينل علم الكلام الرعاية والعناية خلال حكم المرابطين، لأنهم نهجوا طريق السلف، ولم يميلوا إلى الخوض في هذا العلم. ازدهر الأدب بنوعيه الشعر والنثر في هذه الفترة باعتباره مظهرًا من مظاهر الحركة الفكرية بالبلاد، وحظى الأدباء برعاية الولاة، وكان بالبلاط المرابطي بعض كبار الكتاب والأدباء الأندلسيين، أمثال: «أبي القاسم بن الجدد»، و «ابن القبطرنة»، و «أبي عبدالله بن أبي الخصال»، و «ابن خلدون» وغيرهم. وقد أثر المذهب المالكي وعلماءه وفقهاؤه في توجيه الأدب المغربي وجهة تميزت بالبساطة والوضوح، وبعدت عن الزخرف والصنعة وبعده عن تناول بعض الأغراض التي تناولها أدباء المشرق مثل: «الخمریات»، التي تتنافى مع الجو الديني الذي ساد البلاد. كثر عدد المكتبات التي ازدحمت بالمؤلفات في عهد المرابطين، نظرًا

(101/14)

لكثرة العلماء والمؤلفين والكتاب، واهتمام ولاة الأمر بهم وتكريمهم لهم، وقد ساعد ذلك على ازدهار الحركة الفكرية للبلاد. ولم تكن الرغبة في جمع الكتب مقصورة على ولاة الأمر، بل تعدتها إلى أبناء الشعب، ودفع الكثير منهم مبالغ كبيرة لشراء مرجع أو اقتناء كتاب. مثلما فعل القاضي: «عيسى بن أبي حجاج بن الملجوم» الذي اشترى من «أبي علي الغساني»

نسخة من «سنن أبي داود» بخمسة آلاف دينار. وكان منصب «أمين مكتبة الخزانة العلية» من المناصب الرفيعة في الدولة، ولا يتولاه إلا أحد أكابر العلماء المشهورين بالثقافة والكفاءة ودقة التصنيف. وقد تحددت أماكن كثيرة لبيع الكتب بدولة المرابطين، ففي «مراكش» كانت متاجر بيع الكتب المخطوطة إلى جوار جامع الكتبيين، وكانت في «تلمسان» سوق لبيع الكتب. وهكذا ساهمت المكتبات في دفع تيار الثقافة بالبلاد، وتزويدها بما تحتاجه من مختلف فروع العلم والمعرفة.

(102/14)

#### \*الموحدون (دولة)

لم تنعم «دولة المرابطين» بالهدوء والاستقرار منذ ظهور الداعية «محمد ابن تومرت» على مسرح الأحداث، وقد نشأ «ابن تومرت» نشأة دينية بقبيلة «هرنمة» إحدى قبائل المصامدة، ولكن ما تلقاه من علوم في وطنه لم يَرَوْ ظمأه، فسافر إلى المراكز الثقافية المشهورة بالعالم الإسلامي، وبدأ رحلاته إلى «الأندلس» في مطلع القرن السادس الهجري، ثم إلى المشرق ماراً بالإسكندرية، ومنها إلى «مكة» ثم إلى «بغداد» حيث التقى هناك بأكابر العلماء أمثال «أبي بكر الطرطوشي»، واستغرقت رحلته في طلب العلم نحو خمسة عشر عاماً مكنته من التزود بقدر كبير من الثقافة والمعرفة، وتعرّف أحوال العالم الإسلامي، ومدى انقسام المسلمين وفرقتهم بالمشرق. وبعد أن عاد إلى «المغرب» بدأ دعوته بمدن المغرب محاولاً إصلاح الأوضاع الفاسدة وتغييرها. فوجدت دعوته قبولاً وترحيباً من الجماهير، ورفضاً شديداً من الحكام؛ إذ رأوا خطراً يهدد مصالحهم ومراكزهم. والتقى «ابن تومرت» خلال هذه الرحلة بعبد المؤمن

بن على الذى أصبح من أخلص تلاميذه، وصاحبه فى كل مكان يذهب إليه، ثم دخل «ابن تومرت» العاصمة «مراكش» فى منتصف ربيع الأول سنة (515هـ = 1121م)، وقام بدوره فى الوعظ والإرشاد، واعترض على سياسة الدولة فى بعض الأمور، فوصل خبره إلى الأمير «على بن يوسف» الذى استدعاه، وجمع كبار العلماء والفقهاء لمناظرته. وانتهى الأمر بطرده من العاصمة خشية التأثير على العامة وإضعاف مراكز الفقهاء. وكانت الحصافة السياسية تقتضى سجن هذا الداعية أو التحفظ عليه لخطورته على الدولة، وهو ما تحقق عقب مغادرة «ابن تومرت» «مراكش»، إذ أعلن عن نيّاته فى مواجهة السلطة الحاكمة، وخلعه الأمير «على بن يوسف»، وبايعه من حوله إمامًا للدعوة الجديدة فى سنة (515هـ = 1121م)، واتخذ من مدينة «تينملل» مقرا له، ومركزًا لدعوته، وشرع فى تحقيق أهدافه السياسية

(103/14)

والدينية لإقامة خلافة إسلامية بالمغرب، ولم يدخر فى ذلك وسعًا ولا وسيلة إلا استغلها، وعمد إلى نشر دعوته بين السذج، وألّف لهم فى التوحيد والعقيدة بلغتهم البربرية حتى يسهل عليهم التعلم، ويسهل عليه السيطرة عليهم، ومن ثم باتت له الكلمة العليا فى كل شئوهم. شارك «ابن تومرت» فى الكفاح المسلح ضد «دولة المرابطين»، وتذكر المراجع أنه اشترك فى تسع غزوات، وكانت معركة «البحيرة» التى أصيب فيها الموحدون بالهزيمة هى السبب الرئيسى فى خيبة أمل «ابن تومرت» ومرضه؛ حيث قتل فيها عدد كبير من أتباعه، ولكن بقاء تلميذه ومساعدته «عبد المؤمن بن على» على قيد الحياة كان سببًا فى تخفيف هذه الصدمة، ومع ذلك لزم «ابن تومرت» داره، واشتد

عليه مرضه، وفارق الحياة في سنة (524هـ = 1130م)، وخلف وراءه حرباً مشتعلة على أرض «المغرب الأقصى». حمل «عبدالمؤمن بن علي» أعباء الدعوة عقب وفاة أستاذه، وشغل بتنظيم شئون الموحدين، مدة عام ونصف العام، ثم شرع في الكفاح ضد المرابطين في منطقة «الأطلس» جنوبي «مراكش» في وادي درعة» و «بلاد السوس» و «بلاد جاحة» القريبة من «تينملل»، ثم استولى الموحدون على «مراكش» عاصمة المرابطين في سنة (541هـ = 1146م)، بعد كفاح دام أكثر من عشر سنوات كان النصر فيها حليفاً للموحدين. وقد نجح «عبدالمؤمن» في إحكام قبضته وسيطرته على «المغرب الأقصى» بعد سقوط دولة المرابطين بسقوط عاصمتهم «مراكش»، ثم وجه اهتمامه إلى الشرق، وبعث بحملاته المتتالية التي وصلت حتى «طرابلس» بإفريقية، فساعد هذا النصر على تحقيق الوحدة السياسية للمغرب الإسلامي، وتلقب «عبدالمؤمن» بلقب خليفة، واتخذ من «مراكش» عاصمة للخلافة، ثم شرع في تجهيز حملة كبيرة لدفع النصارى عن مدن «الأندلس» في سنة (556هـ = 1161م)، إلا أن مرضه حال دون إتمام هذه الحملة، ومات في سنة (558هـ = 1163م). بويع «يوسف بن عبد المؤمن» في

(104/14)

سنة (558هـ = 1163م)، ليكون خلفاً لوالده. وما إن استقر في العاصمة حتى واجهته ثورة «مرزوغ الصنهاجي» بجبال «غمارة»، فنجح في القضاء عليها وتفريق أعوانها، ثم أمر بقتل «مرزوغ»، وحمل رأسه إلى العاصمة «مراكش». ووجه «ابن عبدالمؤمن» جُلَّ جهوده إلى دعم سلطة الموحدين بالأندلس، وبعث بالحملة المتتالية إليها، وخرج على رأس إحداهما في

سنة (566هـ = 1170م)، لتأمين ثغور «الأندلس» وضبطها وإصلاحها، ثم خرج في سنة (579هـ = 1183م) على رأس حملة كبيرة إلى «الأندلس» لغزوها، إلا أنه أصيب بسهم عند أسوار «شنترين»، فأسرع الجند بحمله والعودة به مصاباً إلى «مراكش»، ففضى نجه في سنة (580هـ = 1184م). ولى «يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن» خلفاً لوالده في سنة (580هـ = 1184م)، ولقب نفسه بالمنصور، وتوزعت جهوده العسكرية في أكثر من ميدان؛ حيث قامت ثورة بزعامة «الجزيري» الذي أخذ يدعو لنفسه بين القبائل في سنة (585هـ = 1189م)، ففضى عليها «المنصور» وقتل زعيمها، ثم قامت ثورة أخرى ببلاد «الزاب» بزعامة رجل يدعى «الأشل» في سنة (589هـ = 1193م)، فكان مصيرها الفشل مثل سابقتها. أما ثورة «بني غانية»، التي استهدفت إحياء «دولة المرابطين» والدعاء للخلافة العباسية على المنابر بإفريقية، فكانت الخطر الحقيقي الذي هدد «دولة الموحدين»، فوجه «المنصور» إليها كل جهوده للقضاء عليها، وعلى الرغم من تكرار المحاولة فإنه لم ينجح في القضاء عليها نهائياً. وقد أولى «المنصور» «الأندلس» اهتمامه وعنايته، ودخل في عدة معارك مع الإفرنج؛ كانت أبرزها معركة «الأرك» في سنة (591هـ = 1195م)، تلك التي أوقفت زحف النصارى، وزادت من هيبة الموحدين ومكانتهم بالشمال الإفريقي، ثم أصيب المنصور بوعكة صحية أدت إلى وفاته في سنة (595هـ = 1199م). تولى «الناصر أبو عبدالله محمد بن يعقوب» خلفاً لوالده «المنصور»، فحدثت في عهده بعض التطورات السياسية

والعسكرية التي انتقلت بدولة الموحدين من مرحلة القوة والسيادة إلى مرحلة الانهيار والسقوط؛ حيث تمكن في بداية حكمه من القضاء على ثورة «بني غانية» بإفريقية التي دخلها في سنة (598هـ = 1202م)، وعاد منها في سنة (604هـ = 1207م)، بعد أن ولى على «إفريقية» «أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص» أحد أشياخ الموحدين، فعكف «ابن أبي حفص» على معالجة شئون «إفريقية»، ودعم سلطان الموحدين بها، إلا أن ولاية «أبي حفص» كانت البداية لقيام «دولة الحفصيين» بتونس؛ حيث استقل أبناؤه - بعد ذلك - بها وأسسوا ملكاً مستقلاً. وقد فُجع الموحدون بهزيمة قاسية بالأندلس في معركة «العقاب» التي راح ضحيتها عدد كبير من الجند، مما أضعف «دولة الموحدين» وأفقدتهم هيبتهم، وأصيب «الناصر» بالمرض، وتوفي في سنة (610هـ = 1213م). وقد عرف الانهيار والضعف طريقتهما إلى «دولة الموحدين» عقب وفاة «الناصر»، ودخلت الدولة مرحلة من الفوضى، والصراع بين أفراد البيت الموحدى، فضلاً عن اندلاع الثورات والقتال في أماكن متعددة، وظل هذا حالها حتى سنة (668هـ = 1269م)، التي قتل فيها «أبو دبوس» آخر خلفاء الموحدين أمام أسوار العاصمة «مراكش» التي دخلها «المرينيون» وقضوا على «دولة الموحدين». وقد تولى عقب وفاة «الناصر» عدد من الخلفاء الضعاف، هم: 1 - أبو يعقوب يوسف الثاني المستنصر بالله [611 - 620هـ]. 2 - أبو محمد عبد الواحد المخلوع [620 - 621هـ = 1223 - 1224م]. 3 - أبو محمد عبد الله العادل [621 - 624هـ = 1224 - 1227م]. 4 - المأمون أبو العلاء إدريس ابن يعقوب المنصور [624 - 630هـ = 1227 - 1233م]. 5 - أبو محمد عبد الواحد الرشيد [630 - 640هـ = 1233 - 1242م]. 6 - أبو الحسن على السعيد المقتدر بالله [640 - 646هـ = 1242 - 1248م]. 7 - أبو حفص عمر المرتضى [646 - 665هـ = 1248 -

1267م]. 8 - أبو العلاء إدریس الثانی (المعروف بأبي دبوس)  
[665 - 668هـ = 1267 - 1269م]. انحصرت علاقات الموحدين

(106/14)

الخارجية في جبهتين هما: «الأندلس»، و «الخلافة العباسية». أما «الأندلس»، فقد استولى عليها الموحدون مع غيرها من المدن من المرابطين، وساروا على نهج من سبقهم في التصدي لعدوان النصارى، وأعدوا الحملات، وخاضوا المعارك من أجل تحقيق هذا الهدف، ولكن هزيمتهم في معركة «العقاب» في عام (609هـ = 1212م)، كانت بداية انحسار نفوذهم على أرض «الأندلس»، ومن ثم بدأت القوى النصرانية تحقق انتصاراتها حتى زالت «دولة الموحدين». وقد اختلف موقف الموحدين من الخلافة العباسية عن موقف المرابطين؛ حيث لم يعترف الموحدون بالعباسيين، واعتبروا أنفسهم خلفاء، وأن مركز الخلافة مدينة «مراكش»، وليس «بغداد»، ودعموا خلافتهم بالادعاء بأن «ابن تومرت» و «عبدالمؤمن» من نسل الرسول عن طريق «الأدراسة»، واتخذوا اللون الأخضر شعاراً لهم كي يظهروا ميلهم إلى الدعوة العلوية، وتشبهوا بالرسول في تصرفاته وأفعاله. نعمت البلاد بالرخاء الاقتصادي في عهد الموحدين؛ إذ وضعوا نظاماً مالياً دقيقاً، تمثل في الإدارة المشرفة على الجوانب المالية في الجباية والإنفاق، فضلاً عن وجود دواوين للمال بالعاصمة، وديوان للمال بكل إقليم يختص بماليته، وأفرد الموحدون داراً للإشراف على النواحي المالية، كما استحدثوا منصب الوزير المسئول عن الشئون المالية أطلقوا عليه اسم «صاحب الأشغال»، ومهمته استخراج الأموال وجمعها وضبطها، وتعقب نظر الولاية والعمال فيها، ثم تنفيذها على قدرها وفي مواقيتها، وكان

يعاون صاحب الأشغال رؤساء الدواوين المالية بالدولة. فوفرت هذه المصادر إلى جانب الزكاة وخمس الغنائم أموالاً كثيرة لخزينة الدولة، أنفق معظمها على إعداد الجيش في البر والبحر، ودفع مرتبات الوزراء ورجال البلاط والحشم والقضاة والفقهاء، وكذلك في الإنفاق على الطلبة المنتظمين بالمدرسة التي أنشأها الخليفة «عبدالمؤمن»، كما أنفق منها على إنشاء المدن

(107/14)

والقصور والحصون وغيرها من المنشآت. وأصدر الموحدون عملة نقدية من الدنانير والدراهم. وقد اهتم الموحدون بالزراعة وشجعوا المزارعين على استغلال الأرض، ووفروا لهم المياه اللازمة للزراعة، فتوافرت محاصيل القمح والشعير، والقطن، وقصب السكر، وغير ذلك من المحاصيل، كما نعمت البلاد بأصناف الفواكه المتنوعة مثل: العنب والتفاح والكمثرى، وغيرها، وانتشرت الغابات بالبلاد، وتوافر بها شجر الأرز والزان والبلوط. ونشطت الحركة الصناعية، وتوافرت المراكز الصناعية بالبلاد، مثل مدينة «فاس» و «مراكش»، وغيرها من المدن التي تنوعت بها الصناعات وضمت: صناعة الصابون، والتطريز، والدباغة، وسبك الحديد والنحاس، وصناعة الزجاج، والفخار، وغير ذلك من الصناعات. وازدهرت التجارة في الداخل والخارج، وكثرت المراكز التجارية التي أولاهها الموحدون عنايتهم، وشيدوا بها عدة أسواق، كما شيدوا بها الفنادق، كما ساهمت «مكناسة» في دعم ازدهار التجارة حيث كانت محطة للمسافرين يبيعون ويشترون بها، فضلاً عن وجود عدد من الأسواق العامة والتجارات المختلفة بها. وتمتعت البلاد بنهضة تجارية خارجية، لوجود شبكة من الطرق التي ربطت المدن المغربية بغيرها من

المراكز التجارية، فضلاً عن وجود عدد من الموانئ المطلّة على «البحر المتوسط» و «البحر الأطلسي»، وكانت محطات للسفن المحملة بالبضائع القادمة أو الخارجة منها، فتنوعت الصادرات مثل: القطن والقمح والسكر، وكذلك الواردات مثل: الذهب وبعض أنواع النسيج البلنسي، والعطر الهندي ولعب ميناء «سبتة» على «البحر المتوسط»، وميناء «سلا» على «البحر الأطلسي»، دوراً بارزاً في تنشيط الحركة التجارية في ظل حماية الأسطول الموحدى. شكلت قبائل المصامدة العنصر الرئيسى لسكان دولة الموحدين، وقد استقرت بالمنطقة منذ زمن، واتخذت المعامل والحصون والقلاع، وشيدت المباني والقصور، وامتحن أفرادها

(108/14)

---

الزراعة وفلاحة الأرض، ولم يحاولوا الهجرة من أرضهم، بل تمسكوا بها، ودافعوا عنها ضد أى محاولة للاعتداء أو الاستيلاء عليها. أما العنصر الثانى من سكان «دولة الموحدين» فهم العرب الهلالية الذين ظهروا على مسرح الأحداث، وعمد الموحدون إلى تهجيرهم من «إفريقية» إلى «المغرب الأقصى»، ليتخلصوا من ثوراتهم، كما استخدموهم فى عمليات الجهاد بالأندلس، فأقبلت أعداد كبيرة منهم إلى «المغرب الأقصى»، وانتقلت أعداد أخرى إلى الإقامة بالأندلس من خلال الحملات التى قام بها الموحدون هناك، ثم حدد الموحدون إقامة بعض القبائل وقد تمتع العرب الهلالية بما يتمتع به جند الموحدين، وأقطعهم ولاية الأمر بعض الأراضى، وأنفقوا عليهم النفقات الكبيرة، وأغدقوا عليهم بالعطايا حتى يوفروا لهم الاستقرار ويبعدوهم عن الفتن وإثارة القلاقل والاضطرابات. ونالت المرأة حظها من التكريم والإنصاف والاحترام فى «دولة الموحدين»، وأتاحت لها

الظروف أن تنال حظاً من العلوم المختلفة، وقسطاً من ثقافة العصر وأدبه، وبرزت الكثيرات من النساء مثل: «زينب» بنت الخليفة «يوسف بن عبدالمؤمن»، والشاعرة العاملة «حفصة بنت الحاج الركونية»، و «فاطمة بنت عبدالرحمن». وعاش أهل الذمة في أنحاء متفرقة من البلاد، وكانت لهم أحياءهم بالعاصمة «مراكش» وبمدينة «سجلماسة»، وكانوا يشتغلون بالبناء. اهتم الموحدون بالبناء والتعمير بالمغرب و «الأندلس»، وحظيت «مراكش» و «الرباط» وغيرهما من المدن المغربية بكثير من المنشآت الموحدية، وأنشأ الخليفة «عبدالمؤمن» «مدينة الفتح»، كما شيد المساجد والقصور في أنحاء متفرقة من البلاد، وكان «المنصور» مولعاً بالعمارة، فشهدت البلاد نهضة معمارية استمرت طيلة عهده. شهدت «بلاد المغرب» حركة فكرية نشيطة في عهد المرابطين، واستمرت كذلك في عهد الموحدين، وساعدها على ذلك استقرار الأوضاع بالبلاد، والصلة الوثيقة بين

(109/14)

---

«المغرب» و «الأندلس»، إلى جانب رغبة الكثيرين من أبناء «المغرب» في طلب العلم، فضلاً عن تكريم الموحدون للعلماء، والمتعلمين ووصلهم بالعطايا، والهبات، والإنفاق عليهم، كما كانت الأسس الدينية التي قامت عليها «دولة الموحدين» سبباً في انتعاش دراسة علوم الدين، وانتعاش الحركة الفكرية. شن «ابن تومرت» حرباً شعواء على العلماء والفقهاء وأتهمهم بالجمود، ولكنه لم يستطع مهاجمة المذهب المالكي الذي رسخ في أذهان عامة الشعب وقلوبهم، وتحايل على ذلك بإعداد مؤلف جمع فيه الأحاديث النبوية التي وردت بموطأ الإمام «مالك»، وحذف منها معظم الإسناد للاختصار، في محاولة لصرف

أذهان الناس عن المؤلفات المالكية، ثم جاء «عبدالمؤمن» من بعده وأمر بحرق كتب الفروع، والاقتصار على الأحاديث النبوية. فلما تولى «المنصور الموحدى» عمداً إلى محو المذهب المالكي من البلاد، وجمع كتب المذهب المالكي وحرقها، وأمر بجمع الأحاديث المتعلقة بالعبادات من كتب الأحاديث مثل: «البخارى» و«مسلم» وغيرهما، وألزم الناس بدراستها وحفظها، وعاقب علماء المذهب المالكي المتمسكين بتدريسه، وعلل ذلك بميله إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة والأخذ بظاهرها، وكرهيته للخلافات التي امتلأت بها كتب الفروع، ولكن علماء المالكية لم يؤثر فيهم التهديد والعقاب، وظلوا يكافحون في سبيل بقاء مذهبهم وتدريسه، فسُجِن بعضهم مثل «ابن سعيد الأنصارى»، وتُوفى بعضهم نتيجة التعذيب مثل: «أبي بكر الجبائي المالكي»، ومع ذلك نجح هؤلاء العلماء في إبقاء هذا المذهب وظل مذهب المالكية راسخاً ببلاد المغرب. ازدهرت العلوم الدينية بدولة الموحدين، وزاد الإقبال على تفسير القرآن ودراسته باعتباره مصدر التشريع الأول للبلاد، وبرز عدد من المفسرين منهم: «عبدالجليل بن موسى الأنصارى الأوسى» المتوفى عام (608هـ = 1211م)، و«أبو بكر بن الجوزى السبتي»، كما لاقى

(110/14)

---

علم القراءات رعاية ولاة الأمر، واشتهر فيه: «أبو بكر بن يحيى بن محمد بن خلف الإشبيلي» المتوفى عام (602هـ = 1205م)، و«علي بن محمد بن يوسف اليابرى الضيرير» المتوفى عام (617هـ = 1220م). أما علم الحديث فقد صار له شأن كبير واهتم به الخلفاء، وأمر الخليفة «عبدالمؤمن» بحرق كتب الفروع، وردّ الناس إلى قراءة الحديث، وأملى ابنه «يوسف» وحفيده

«المنصور» الأحاديث بنفسيهما على الكتاب لتوزيعها على الناس، واشتهر «أبو الخطاب بن دحية السبتي» و «ابن حبيش» المتوفى عام (584هـ = 1188م)، و «القاضي عياض السبتي» بتمكنهم من علم الحديث، ووضع بعضهم المصنفات في هذا العلم، أما في مجال الفقه فقد وضع «ابن تومرت» كتابه «الموطأ» على غرار «موطأ الإمام مالك» بعد حذف أسانيده. ومن أعلام الفقه في هذا العصر: «عبدالمملك المصمودي» قاضي الجماعة بمراكش، و «إبراهيم بن جعفر اللواتي» الفقيه المعروف بالفاسي. ويعد كتاب: «الإعلام بحدود قواعد الإسلام» للقاضي عياض من أبرز مؤلفات هذا العصر الفقهية. وقد نال علم الكلام عناية الموحدين منذ قيام دولتهم؛ حيث دعا «ابن تومرت» إلى دراسته، واتهم علماء المرابطين بالجمود لتحريمهم دراسة هذا العلم، وقد اشتهر في هذا العلم: «أبو عمرو عثمان بن عبدالله السلاجي» المتوفى سنة (564هـ = 1168م)، و «محمد بن عبدالكريم الغندلاوي الفاسي» المعروف بابن الكتاني المتوفى عام (596هـ = 1200م). تابعت اللغة العربية انتشارها بدولة الموحدين، لأنها لغة البلاد الرسمية في مكاتباتها ومعاملاتها وشؤونها، وقد ساعد مجيء العلماء إلى المدن المغربية على انتشار اللغة العربية وازدهارها، كما كان لقدوم القبائل الهلالية إلى «المغرب الأقصى» واستيطانهم بعض مناطق البلاد أكبر الأثر في دعم اللغة العربية وانتشارها؛ لتمسك هذه القبائل البدوية باللسان العربي وما فيه من مفردات وتراكيب وبلاغة في الأساليب. وازدهر الأدب بفرعيه

(111/14)

---

الشعر والنثر، وبلغ درجة عالية من الرقي، وكثرت محافله ببلاد المغرب، وأقبل ولادة الأمر على تشجيعه ودعمه، وسعى المغاربة

إلى المساواة بالأندلسيين الذين يفتخرون بمنزلتهم الأدبية، فضلاً عن رغبة المغاربة في الوصول إلى المناصب العليا التي لا يرقى إليها إلا ذوو العلم والأدب. وقد تدفق أدباء «الأندلس» وغيرهم على البلاط الموحدى؛ حيث العطايا والمنح، وبرزت مجموعة من الشعراء منهم: «أحمد بن عبدالسلام الجراوى»، و «أبو عبدالله محمد بن حبوس» من أهل «فاس»، و «أبو بكر بن مجبر» من «شقورة»، وغيرهم كثير. وكانت أبرز أغراض الشعر آنذاك هي الوصف والغزل والمدح. حرص خلفاء الموحدين على تزويد أنفسهم من مختلف الثقافات، لدعم موقف دولتهم، التي قامت على أساس ديني، ولذا تنوعت ثقافة الخليفة «عبدالمؤمن»، وأجاد في علوم الفقه والجدل والأصول، كما حفظ الأحاديث النبوية، وأحاط بالنحو واللغة، والأدب، والتاريخ، وعلم القراءات، والأنساب، وتنوعت ثقافة ابنه «يوسف»، حيث حظى بقسط وافر من العلوم المختلفة حين كان والياً من قبل أبيه على «الأندلس»، وكذلك كان «المنصور» عالماً بالحديث والفقه واللغة. أما طبقات الشعب فقد قامت المؤسسات التعليمية بتتقيفهم، سواء بالمكتب أو الرباط أو المسجد أو المدرسة، وقد قامت المدرسة التي أسسها الخليفة «عبدالمؤمن» بدور فعال في إثراء ثقافة طبقات الشعب؛ إذ جمعت هذه المدرسة بين الدراستين النظرية والعملية. وكان أبرز علومها النظرية هي: حفظ القرآن وتدريسه، ودراسة «موطأ تومرت»، وحفظ «صحيح مسلم»، أما العلوم العملية، فكانت: ركوب الخيل والرمى بالسهم والقوس، وتعليم السباحة في بحيرة صنعت من أجل ذلك بالمدرسة.

## \*المرينية (دولة)

ينتمي المرينيون إلى قبائل «زناتة»، وهم - على أرجح الآراء- من فرع بربر البتر، الذين كانوا ينتقلون من مكان إلى آخر سعيًا وراء الماء والكأ، وبدأ ظهورهم على مسرح الأحداث خلال عهد المرابطين حيث شاركوا في مجريات الأحداث بزعامة «المخضب بن عسكر» أحد أبناء «بني مرين»، وكان زعيمًا قويًا مرهوب الجانب، ونجح في السيطرة على جميع «بلاد زناتة» و «بلاد الزاب»، فحاول المرابطون مصانعتة، وأرسلوا إليه الهدايا والأموال. ثم انتقل ولاء المرينيين إلى الموحدين وساعدوهم في إقامة دولتهم، وتثبيت أقدامهم، وشاركوهم في معاركهم بالميدان الأندلسي. ولقد كان ضعف الموحدين سببًا رئيسيًا في انتقال «بني مرين» من المغربين الأدنى والأوسط إلى «المغرب الأقصى» حيث الخصب والرخاء. مراحل قيام دولة بني مرين: أولًا: مرحلة تثبيت أقدامهم في مناطق التلول والأرياف: (592 - 614هـ = 1191 - 1217م). اتصف الأمير عبدالحق زعيم قبائل بني مرين بالتقوى والصلاح والشجاعة والعدل والعطف على الفقراء مما كان له أثره على جموع المرينيين الذين التفوا حوله، وجذبوا إليهم عددًا من القبائل المغربية التي انضمت إليهم، وعمدوا إلى التوسع وفرض النفوذ على حساب الموحدين، ودخلوا في عدة معارك كانت أشهرها معركة «وادي نكور» التي خسرها الموحدون. وقد حمل «عثمان بن عبدالحق» (614 - 637هـ = 1217 - 1239م) راية المرينيين عقب مقتل والده الأمير «عبدالحق»، فواصل حملاته العسكرية، وفرض نفوذه على مساحات واسعة من أرض «المغرب»، ثم دعا شيوخ القبائل واتفق معهم على خلع طاعة الموحدين، والقيام بأمر الدنيا والدين، والنظر في صلاح المسلمين، فعملوا على تحقيق ذلك حتى عام (625هـ = 1228م)، فقوى شأنهم، وخضعت لهم جميع

قبائل «المغرب»، وسيطروا على جميع موانئ «المغرب» التي امتدت من «وادي ملوية» إلى «رباط الفتح». ثانيًا: مرحلة

(113/14)

الاستيلاء على المدن الكبرى: وحمل أعباء هذه المرحلة فارس «زناتة» الأمير «أبو يحيى أبو بكر ابن عبدالحق»، الذي كان بطلاً شجاعاً، قوى الإرادة، حازم الرأي، فقام بتأمين الجبهة الداخلية للمرينيين، وأخضعها لإشراف مالي وإداري دقيق، ثم واصل مهاجمة المدن المغربية الكبرى، واستولى على «مكناسة»، و «فاس»، و «سلا»، و «رباط الفتح»، و «سجلماسة»، و «درعة». ثالثًا: المرحلة الأخيرة للاستيلاء على العاصمة مراكش: هياً الله لبني مرين في هذه المرحلة أن يقوم بقيادتهم الأمير «أبو يوسف يعقوب بن عبدالحق» (656 - 685هـ = 1258 - 1286م)، الذي اعتبرته المصادر سيد «بني مرين» على الإطلاق، وبدأ عهده بمواجهة بعض المشاكل التي واجهت المرينيين في هذه الفترة، ودخل في عدة معارك مع الموحدين تمهيداً لدخول العاصمة «مراكش». وقد أعد «أبو يوسف» حملة كبيرة، ثم خرج بها من «فاس» في شعبان سنة (666هـ = إبريل 1268م)، وعبر بها النهر المجاور لمدينة «فاس»، ثم هاجم كل القوى والقبائل المعاونة للموحدين. ونجح في إخضاعها والسيطرة عليها، ثم كانت المعركة الأخيرة بين الموحدين والمرينيين في شهر الحرم سنة (688هـ = يناير 1289م) عند «وادي غفو»، ودارت بين الفريقين معركة قوية، أسفرت عن هزيمة الموحدين، ومقتل «أبي دبوس» خليفتهم، ثم دخل الأمير «أبو يوسف يعقوب» العاصمة «مراكش» معلناً سقوط «دولة الموحدين»، وقيام «دولة بني مرين». ظلت «دولة بني مرين» في اتساعها ودعم

استقرارها مدة خمس وسبعين سنة، في الفترة من سنة (685هـ = 1286م) إلى سنة (759هـ = 1359م)، وحكمها خلال هذه الفترة مجموعة من السلاطين الأقوياء، هم: 1 - أبو يعقوب يوسف بن يعقوب [685 - 706هـ = 1286 - 1306م]. 2 - أبو ثابت عامر بن أبي عامر [706 - 708هـ = 1306 - 1308م]. 3 - أبو الربيع سليمان بن أبي عامر [708 - 710هـ = 1308 - 1310م]. 4 - أبو سعيد عثمان (الثاني) بن يعقوب [710 - 732هـ = 1310 - 1332م]. 5 - أبو الحسن

(114/14)

---

علي بن عثمان [732 - 749هـ = 1332 - 1348م]. 6 - أبو عنان فارس المتوكل بن علي [749 - 759هـ = 1348 - 1358م]. وقد اتسمت هذه الفترة بتوسع نفوذ «بني مرين» بالمغرب و «الأندلس»، على الرغم من الثورات الكثيرة والقلاقل المتتالية التي واجهتهم. كان مقتل السلطان «أبي عنان فارس المتوكل بن علي» في سنة (759هـ = 1358م) إيذاناً بدخول «دولة بني مرين» في مرحلة الضعف والانهيار؛ حيث انتقلت السلطة من أيدي «بني مرين» إلى أيدي الوزراء، فضلاً عن فقدان الدولة لنفوذها، وانكماشها داخل حدودها بالمغرب الأقصى، وتعرضها للأزمات الاقتصادية، والأوبئة والكوارث الطبيعية، التي حلت بالمغرب الأقصى، مما عجل بسقوط الدولة، في عهد السلطان «عبدالحق بن أبي سعيد»، الذي تمكن الثوار من القبض عليه وقتله في صبيحة يوم الجمعة (27 من رمضان سنة 869هـ = 23 مايو 1465م). تعددت العلاقات الخارجية لدولة «بني مرين»، وشملت «الأندلس»، و «دول المغرب» المختلفة، وتراوحت علاقتهم ببني الأحمر بالأندلس بين الود والعداء، وشابها الحذر والترقب، على الرغم من أنهما تحالفا ضد الفرنج وهزموهما في سنة (676هـ =

1277م) بالأندلس، وانحصرت العلاقات بينهما في أحيان كثيرة على التمثيل الدبلوماسي وتبادل الرسائل. وكانت علاقة المرينيين بجيرانهم من «بنى عبد الواد» بالمغرب الأوسط علاقة عدائية لتضارب المصالح بينهما، وكانت فترات السلام بينهما قليلة وقصيرة، لأن «بنى عبد الواد» درجوا على نقض ما بينهما من معاهدات، على الرغم من أن المرينيين سعوا إلى كسب ودهم؛ ليتفرغوا للجهاد بالأندلس، واضطر السلطان «أبو يوسف يعقوب بن عبدالحق» إلى مهاجمة «المغرب الأوسط» وإحراق هزيمة نكراء بجيوش «بنى عبد الواد»، ثم عقد الصلح معهم. وحاول «بنو عبد الواد» الإغارة على الحدود الشرقية لدولة «بنى مرين» في سنة (679هـ = 1280م)، فخرج إليهم المرينيون للدفاع عن

(115/14)

بلادهم وأحقوا بهم الهزيمة بالقرب من «تلمسان». وفي سنة (698هـ = 1299م) حاصر السلطان «أبو يعقوب يوسف» مدينة «تلمسان» ودام الحصار مدة سبع سنوات؛ ذاق فيها «بنو عبد الواد» مرارة الحصار، ولم ينقذهم من الهلاك سوى مقتل السلطان «أبي يعقوب» وعودة المرينيين بعدها إلى بلادهم. ثم دخلت «دولة بنى عبد الواد» في تبعية «بنى مرين» بعد أن غزاهم السلطان «أبو الحسن على»، واستولى على عاصمتهم «تلمسان» في سنة (732هـ = 1332م)، ثم استغلت بقايا «بنى عبد الواد» الخلافات التي دبت بالبيت المريني وعادوا إلى عرش بلادهم في «تلمسان» سنة (749هـ = 1348م)، ولكنهم عادوا إلى تبعية «بنى مرين» ثانية في سنة (759هـ = 1358م)، وظلوا على عدائهم لبنى مرين، وحاولوا العودة إلى «المغرب الأوسط» مرتين خلال فترة نفوذ الوزراء بدولة المرينيين، كانت الأولى في

سنة (772هـ = 1370م)، والثانية في سنة (791هـ = 1389م). شهدت  
«الدولة المرينية» رخاءً وازدهاراً في نواحي الحياة كافة.

وجعل المرينيون كل إقليم من أقاليم دولتهم وحدة اقتصادية  
مستقلة، وجعلوها جميعاً تحت إشراف الوزير المختص أو صاحب  
الأشغال، وقد تعددت مصادر الدخل المالى وشملت الزكاة،  
والخراج، والجزية، والضرائب، والغنائم، والمصادرات، وكذلك  
تنوعت أوجه الإنفاق وشملت: الرواتب، والعطايا، ونفقات الجيش،  
والبناء والتعمير. وقد ازدهرت الزراعة ببلاد «المغرب الأقصى»  
نظراً لتوافر أسبابها؛ حيث تمتعت البلاد بعدد من الأنهار، إلى  
جانب الأمطار التي تسقط على جهات متفرقة، مع تنوع المناخ،  
فضلاً عن خصوبة التربة، واهتمام السلاطين بالزراعة، فأسفر  
ذلك عن وفرة وتنوع في المحاصيل مثل: القمح، والبقول،  
والشعير، والزيتون، وقصب السكر، والبقول، وكذلك توافرت  
الفواكه والخضراوات، ونمت الغابات في مساحات واسعة،  
فأمدت البلاد بأنواع الأخشاب المختلفة لصناعة السفن والمنازل  
وغير ذلك من الأغراض. وشهدت الصناعة ازدهاراً ورواجاً كبيراً،

(116/14)

---

وتعددت أغراضها ونشطت مراكزها، خاصة وأن الموحدين تركوا  
وراءهم صناعة مزدهرة بهذه البلاد، وجاء المرينيون فازدهرت  
في عهدهم صناعة عصر الزيتون وصناعة السكر، واهتموا  
بالصناعات الحربية نظراً لكثرة حروبهم، ويُروى أنهم كانوا  
رؤاداً في استعمال البارود، بل لعلهم - كما يقول «ابن خلدون» -  
أول من استعمله في صناعة المدافع التي استخدمت في قذف  
الأسوار وتحطيمها. ولم يهمل «بنو مرين» التجارة، بل حرصوا  
على توفير الأمن للقوافل واهتموا بالتجارة، وأكثروا من

الأسواق المتخصصة، وزادوا من عدد الحوانيت ووفروا الراحة للتجار، وأنشأوا لهم الفنادق مثل: «فندق الشماعين»، الذي كان من أهم مراكز التجميع لكبار التجار. وقد تعددت طرق التجارة، وأقام المرينيون علاقات تجارية مع كثير من الأقطار، فنشطت التجارة الخارجية، وكان التجار المغاربة يحملون الذهب والصمغ من «السودان» إلى «الأندلس»، وقاموا بتصدير المنسوجات الصوفية والجلدية إلى «أوروبا»، واستوردوا الآلات الحديدية والأحواض الرخامية، وكان لميناء «سبتة» وغيره من الموانئ دور بارز في تسهيل عمليتي استيراد هذه البضائع وتصديرها. تشكل المجتمع المريني من عدة عناصر جاء البربر في مقدمتها، وجاءت «قبيلة هنتانة» التي تنتمي إليها الأسرة الحاكمة في مقدمة القبائل البربرية. ولاشك أن هذه القبيلة التي أسست «الدولة المرينية» قد احتلت مركز الصدارة بالدولة، وتلتها في المرتبة القبائل الهلالية، ثم القبائل التركية، ثم بقايا الروم والفرنج الذين انضموا إلى الجيش المريني. وقد اتسم بلاط المرينيين في بداية عهدهم بالبداوة، ثم أخذوا بمظاهر الرقي والترف بعد أن استقرت لهم أوضاع البلاد، وثبتت أركانها وتنوعت احتفالات المرينيين، وتعددت بها مظاهر الأبهة والعظمة وكان لاستقبال الوفود وتوديعها احتفال خاص يليق بالدولة، كما كان الاحتفال بعيدى الفطر والأضحى، والمولد النبوي، من أهم

(117/14)

---

ما حرص عليه سلاطين هذه الدولة. وحظى البناء والتعمير بمرتبة رفيعة لدى المرينيين، واهتموا به اهتماماً بالغاً، وشيدوا عدة مدن تأتي في مقدمتها مدينة «فاس الجديدة» أو «الدار البيضاء» التي أنشأها السلطان «يعقوب بن عبدالحق»، في سنة (674هـ=

1275م)، لتكون عاصمة لبلادها بدلا من العاصمة القديمة «فاس» التي ازدحمت بالناس. كما بنى «يوسف بن يعقوب» مدينة «المنصورة» أثناء حصاره لمدينة «تلمسان» سنة (698هـ = 1299م) واختط بها قصره ومسجداً، ومسكن للجند والدور والفنادق والبساتين، ثم أحيطت المدينة بسور كبير. هكذا بنى المرينيون المساجد الكبيرة بشتى مدن «المغرب الأقصى»، وعنوا بفرشها وتزويدها بالماء اللازم للوضوء، وكان المسجد الجامع الذى بنى بفاس الجديدة سنة (677هـ = 1278م) من أهم هذه المساجد. وكانت المدارس من أهم المنشآت التى حرص المرينيون على إقامتها، فأقاموا «مدرسة الصغار» فى عهد السلطان «يعقوب» الذى عين لها المدرسين، وأجرى على طلبتها النفقات اللازمة، وزودها بخزانة للكتب، وبنى السلطان «أبو سعيد» عدة مدارس منها: مدرسة العطارين، ومدرسة المدينة البيضاء، ومدرسة الصهريج. ولم يغفل المرينيون إنشاء المستشفيات، فأقام السلطان «يعقوب بن عبد الحق» عدة مستشفيات للمرضى والمجانين، ووفر لها الأطباء، وأجرى عليهم المرتبات، كما خصص جزءاً كبيراً من أموال الجزية لرعاية الجذامى والعميان. ورث «بنو مرين» عن المرابطين والموحدين ثروة ثقافية كبيرة، فأسهموا بدورهم فى زيادة هذه الثروة، وأنشئوا المؤسسات العلمية كالمساجد والمدارس، ورحبوا بالعلماء القادمين من «الأندلس» وغيرها؛ وشجعوهم على بذل ما لديهم دفعاً للحركة العلمية بالبلاد. فاهتم العلماء بتفسير القرآن، وبرع عدد كبير منهم فى هذا العلم أمثال: «محمد بن يوسف بن عمران المزداغى» المتوفى عام (655هـ = 1257م)، و «محمد بن محمد بن على» المعروف بابن البقال المتوفى عام (725هـ =

1325م)، و «محمد بن علي العابد الأنصاري» الذي اختصر تفسير الزمخشري المتوفى عام (762هـ = 1361م). أما علم الحديث فقد ازدهر باعتباره المصدر الثاني للتشريع، ومن أبرز علمائه: «عبدالمهيمن الحضرمي»، و «محمد بن عبدالرازق الجزولي»، و «ابن رشيد» الذي تُوفى في سنة (721هـ = 1321م). وقد تقدم علم الفقه تقدماً كبيراً بسبب تشجيع سلاطين «بني مرين» للفقهاء؛ فكثرت المؤلفات، وظهر كثير من الفقهاء مثل: «محمد بن محمد بن أحمد المقرئ» المعروف بالمقرئ الكبير المتوفى عام (758هـ = 1357م)، و «أحمد بن قاسم بن عبدالرحمن الجذامي» الذي عُرف بالقباب المتوفى عام (778هـ = 1376م). وإلى جانب هذه العلوم الدينية ازدهرت علوم اللغة، والنحو والتاريخ، والسير، والرحلات، والجغرافيا، والفلك، والرياضيات، والفلسفة والمنطق والطب، كما ازدهرت الحركة الأدبية، واشتهر عدد كبير من الشعراء، مثل: «أبي القاسم رضوان البرجي» الذي تولى وظيفة الإنشاء في عهد «أبي عنان المريني»، و «لسان الدين بن الخطيب» أشهر الشعراء الأندلسيين الذين عاشوا مدة طويلة بالدولة المرينية، وكذا اشتهر عدد كبير في فن النثر، منهم: «ابن خلدون» و «ابن مرزوق الخطيب». وأسهمت المكتبات إسهاماً بارزاً في تنشيط الحركة الفكرية، وكان السلطان «أبو عنان المريني» قد أفرد داراً للكتب وزوّدها بالكتب في شتى مجالات العلوم والمعرفة، واستخدم بها الأمناء لحفظ الكتب وترتيبها وتصنيفها، وكذا لاستقبال الزائرين.

(119/14)

\*بنو وطاس (دولة)

بنو وطاس» فخذ من قبيلة «بني مرين»، ولكنهم ليسوا من فرع

الأسرة المرينية الحاكمة، وقد قامت علاقة حذرة بين أسرتي «بني وطاس» و «بني مرين»، ثم تعدى «بنو وطاس» هذا الحذر، واتخذوا موقفًا عدائياً من دولة «بني مرين» منذ قيامها، وساندوا الموحديين في صراعهم معهم، ومن ثم عمد المرينيون - بعد قيام دولتهم واستقرار الأوضاع لهم - إلى إحكام قبضتهم على حصن «تازوطا» الذي كان مقر «بني وطاس» في ذلك العهد، ولكن الوطاسيين قاموا بثورة في سنة (691هـ = 1292م) للاحتفاظ بنفوذهم في هذا الحصن، وامتدت ثورتهم فشملت منطقة الريف، ثم طردوا الوالي المريني وحاشيته، وسيطروا على الحصن، مما دفع السلطان «يوسف بن يعقوب المريني» إلى تجهيز جيش كبير، وجعل عليه «عمر بن المسعود بن خرباش» أحد قادته المخلصين، وأمره بالتوجه إلى حصن «تازوطا»، ثم خرج السلطان بنفسه على رأس جيش آخر، وحاصر الجيشان الحصن مدة عشرة أشهر، وتمكن «عمر» و «عامر» ابنا «يحيى بن الوزير الوطاسي» زعيما الوطاسيين من الفرار بأموالهما إلى «تلمسان»، ودخل السلطان الحصن، وأنزل العقاب بالوطاسيين ثم عاد إلى عاصمته «فاس» في آخر جمادى الأولى سنة (692هـ = أبريل 1693م). وقد تآمر «زيان بن عمر الوطاسي» مع الأمير «أبي عبدالرحمن المريني» ضد والده السلطان «أبي الحسن»، في محاولة للاستيلاء على السلطة، ولكن محاولتهما باءت بالفشل، وسُجن الأمير، وفر «الوطاسي» إلى «تونس». وعلى الرغم من كل ما سبق فإن الوطاسيين نالوا حظاً وافراً من المراكز العامة بالدولة المرينية، وتغلغل نفوذهم داخل مراكز الحكم المدني، وكذا العسكري، ووصل بعضهم إلى منصب الوزارة، مثل: «رحو بن يعقوب الوطاسي» الذي ولى الوزارة في عهد السلطان «عامر بن عبدالله المريني»، واستمر إلى عهد «سليمان بن عبدالله»، وتولى «عمر بن علي الوطاسي» الإمارة في مدينة «بجاية» في عهد «أبي عنان المريني» في سنة

(759هـ = 1358م). دخل «محمد الشيخ الوطاسي» سلطان الوطاسيين في مواجهة مستمرة - منذ أسس دولته - مع الفتن والقلاقل والثورات التي قامت بالدولة على أيدي العرب الذين أغاروا على «فاس» و «مكناسة» ودمروهما، ثم واجه ثورة «علي بن راشد» في «شفادن» وهي مدينة قريبة من «البحر المتوسط» و «المحيط الأطلسي»، و «مضيق جبل طارق»، ثم حاول «محمد بن أحمد المريني» الاستقلال بمدينة «دبرو» التي تقع شمال شرق «المغرب»، ونجح في ذلك، وبسط نفوذه على المناطق الغربية منها، فأدرك «محمد الشيخ» خطورته، وخرج لمواجهة مرتين، كانت الأولى في سنة (895هـ = 1490م)، وهُزم فيها الوطاسيون، وكانت الثانية في سنة (904هـ = 1498م)، وانتصر فيها «بنو وطاس»، وعقد سلطانهم الصلح مع «محمد بن أحمد المريني»، وزوج السلطان ابنته لولدي الأمير «محمد»، فحل بينهما السلام. وقد واجهت هذه الدولة ثورة بالمنطقة الجنوبية، قادها «عمرو بن سليمان الشيطمي»، الشهير بالسياف، في سنة (870هـ = 1465م)، ولم تهدأ هذه الثورة إلا بعد أن أعتيل «الشيطمي» على يد زوجته في سنة (890هـ = 1485م). والواقع أن «بنو وطاس» لم يتمكنوا من فرض سلطانهم ونفوذهم على كل «المغرب الأقصى»، بل يمكن القول بأن نفوذهم لم يتجاوز العاصمة «فاس»، واقتسمت القبائل والأشراف والزعامات المحلية ومشايخ الصوفية باقي البلاد. فأدى هذا إلى نشوب الاضطرابات والقلاقل بالبلاد، وتزايد الانقسامات بها، واستغلال البرتغال والإسبان لهذه الأوضاع للتوسع وفرض النفوذ ونشر المسيحية. ثم بدأت مرحلة أخرى من الصراع بين الوطاسيين والسعديين الذين حشدوا الناس إلى جانبهم بحجة

الدفاع عن البلاد من خطر الإسبان والبرتغال، وكانوا في حقيقة الأمر يسعون لإسقاط «دولة الوطاسيين»، ونجحوا في السيطرة على بعض المدن المغربية، ثم دخلوا «مراكش»، وفشل «بنو وطاس» في صدّهم، وتدخل العلماء للصلح بينهما، ونجحت

(121/14)

محاولتهم، واتفق الفريقان على اقتسام «بلاد المغرب الأقصى»، ولكنهما دخلا في صراع ثانية، وتوسع السعديون على حساب أملاك الوطاسيين، ثم دخلوا مدينة «فاس»، وقتلوا السلطان الوطاسي «أبا حسون علي بن محمد بن أبي ذكرى» في يوم السبت (24 من شوال سنة 961هـ=22 من سبتمبر 1554م)، وبدأ السعديون بقيادة «محمد الشيخ السعدي» في فرض نفوذهم على بقية المناطق التابعة للوطاسيين، وهكذا سقطت دولة بني وطاس تعددت العلاقات الخارجية بين «بني وطاس» و «دول المغرب»، فضلا عن الإسبان والبرتغال، وحاولوا كسب ود الحفصيين بتونس، وبإيعوهم، ولكن هذا الود لم يدم، لأن الحفصيين ساندوا ثورة «الشيظمي» التي استمرت نحو عشرين عامًا، وكذلك حاول «بنو وطاس» مسالمة الإسبان والبرتغال، وعقد «محمد الشيخ الوطاسي» مؤسس الدولة معاهدة سلام مع البرتغال في سنة (876هـ=1471م)، ولكن البرتغاليين نقضوا هذه المعاهدة، ثم توالى الاتفاقات بين الطرفين. وقد تطورت العلاقات بين «بني وطاس» و «الإسبان»، أثناء الصراع الذي دار بين «ابن حسون الوطاسي» والسعديين؛ حيث التمس «ابن حسون» العون من الإسبان، وأعلن ولاءه لامبراطورهم، واستعداده لتسليمهم «بادس» في مقابل مساعدته في استرداد عرش «فاس»، وساعده الإسبان بالسفن والأموال، ولكنه فشل في استعادة

عرشه، فلجأ إلى البرتغال، وساندوه بالجنود والأموال وعدة الحرب، ولكن هذه المساعدات لم تحقق أغراضها؛ إذ حاصرتها قوات الدولة العثمانية واستولت عليها، مما جعل «ابن حسون» يلجأ إليهم طلباً للعون في مقابل الاعتراف بسلطة الخليفة العثماني، فمكّنه العثمانيون من العودة إلى عاصمته «فاس» ثانية في سنة (961هـ = 1554م)، ثم مالبت الأتراك أن سيطروا على مقاليد الأمور بفاس، وضاق الناس بذلك، فاضطر «ابن حسون» إلى تعويض الأتراك بمبالغ مالية كبيرة للرحيل عن العاصمة، ففعلوا، وواصل «ابن حسون» نشاطه ضد السعديين،

(122/14)

حتى سقط قتيلا، ومن ثم سقطت «دولة بني وطاس». كان الحكم وراثيا في «بني وطاس»، وكان السلطان يعين كبار مستشاريه من كبار الشخصيات، وكان للسلطان أمين سر مهمته الإشراف على أموال السلطان، كما كان السلطان يُعيّن حكاماً على كل مدينة، وجعل لهم الحق في التصرف في مواردها، وتزويد جيش السلطان بالجنود من مدّتهم، وتعيين وكلاء من طرفهم على القبائل التي تسكن الجبال، وجباية الأموال، وأخضع السلطان كل ذلك لسلطته، وأحكم قبضته على مقاليد الأمور، كما أخضع كل موارد الدولة لخدمة الأغراض العسكرية. واتخذوا الوزراء من أقاربهم، واستوزر «محمد الشيخ الوطاسي» أخويه «محمد الحلو» و «الناصر أبا زكريا»، وعين مسعود بن الناصر خلفاً لأبيه على الوزارة، وقد تنوعت اختصاصات الوزراء بين المهام السياسية والحربية إلى جانب أعمالهم الإدارية. وتنوعت الوظائف الإدارية وشملت: الباشا، والقائد، والقاضي، والمحتسب، ويساعدهم مجموعة من الموظفين، منهم: الأمين والناظر، وأمين

الموارث. وقد نشطت حركات الاستقلال أثناء ضعف الحكومة المركزية بفاس، وغياب سلطتها عن مناطق الأطراف، والمناطق النائية. نجحت الزراعة نجاحًا عظيمًا، كعادتها ببلاد «المغرب»، وكثرت المحاصيل وزادت أنواع الفواكه، وساعدت هجرة الأندلسيين إلى «بلاد المغرب» على إدخال النظم الزراعية الحديثة، واستحداث أنواع كثيرة من المحاصيل بالبلاد. وقد ترتب على ازدهار الزراعة قيام صناعات كثيرة، إلى جانب الصناعات التي كانت موجودة من قبل، واشتهرت «فاس» بصناعات الأحذية والأواني النحاسية والخيوط والمنسوجات. وكذلك صناعة الحلوى. ونشطت التجارة - خاصة في أوقات السلم- وتوافرت الطرق الداخلية التي تربط بين المدن، كما توافرت الطرق الرئيسية التي تسير فيها القوافل من المدن المغربية وإليها، مثل: «سوسة» و «درعة» اللتين حظيتا بنشاط تجارى كبير. وتنوعت صادرات «المغرب» من الأواني النحاسية، والمصنوعات الجلدية

(123/14)

---

والزجاجية، والقطنية والحربية، وكذلك التمور بأنواعها والتين والحلى، أما وارداتهم فكانت الذهب وبعض التوابل. لم تختلف طبقات المجتمع كثيرًا في العهد الوطاسى عما سبقه من عهود، واحتل الجيش مكانًا بارزًا، نظرًا لكثرة الحروب التي خاضها الوطاسيون، وقد انقسم هذا الجيش إلى قسمين هما: الجيش النظامى، وأفراده من البربر، ويضم: الفرسان والرماة وراشقى السهام، والمشاة، والقسم الثانى: من المتطوعة من العرب وغيرهم، وقد عرف جيش الوطاسيين نظام الحصون والحاميات. وتوقف نشاط الوطاسيين العمرانى على مدينة «فاس»، ويرجع ذلك إلى الأوضاع السياسية المضطربة التي سادت تلك الفترة،

وانصراف «بني وطاس» إلى المعارك والحروب، وصراف  
إمكاناتهم المادية في التسليح والإنفاق على الجيش. وقد أدى  
كل ذلك إلى توقف النشاط العمراني، وتناقص عدد الفنادق  
والمستشفيات، وقلة الاهتمام بالمرضى. شهدت العلوم الدينية  
نشاطاً ملحوظاً، وبرز عدد كبير من العلماء في المجالات كافة،  
منهم: «أبو عبدالله بن أبي جمعة الهبطي»، صاحب كتاب:  
«الوقف في القرآن الكريم»، والمتوفى عام (930هـ = 1524م)،  
والفقيه «محمد بن عبدالله بن عبدالواحد الفاسي» المتوفى عام  
(894هـ = 1489م)، وألف «الوتشريشي» عدة كتب منها: «المعيار  
المعرب، والجامع المعرب عن علماء إفريقية والأندلس والمغرب»،  
وهو في اثني عشر جزءاً. وفي علم التاريخ برز القاضي «أبو  
عبدالله محمد الكراسي الأندلسي»، الذي ألف منظومة عن «بني  
وطاس»، أسماها: «عروسة المسائل فيما لبني وطاس من  
فضائل». وتقع هذه المنظومة في نحو ثلاثمائة بيت، وهي  
المصدر الوحيد الذي يعتمد عليه المؤرخون في التأريخ لهذه  
الفترة، حيث لم يصل إليهم غيره. ويعد كتاب «وصف إفريقيا»  
للجغرافي «حسن الزان» من أهم الكتب وأشهرها في هذا  
المجال، وقد تناول فيه جغرافية «إفريقية» عمومًا، و «المغرب  
الأقصى»، و «مملكة فاس»، و «مملكة مراكش»، كما تناول

(124/14)

---

العادات والتقاليد والحياة الاقتصادية والفكرية والدينية، والنظم  
الإدارية. وتنافس الشعراء والوعاظ - في هذه الفترة- في تأليف  
الخطب والقصائد الحماسية؛ لحث الناس على جهاد الأسبان  
والبرتغال، ومن أبرز هؤلاء المؤلفين «أبو عبدالله محمد بن عبد  
الرحيم التازي» المتوفى عام (920هـ = 1514م)، وله مؤلف عنوانه:

«تنبيه المهمم العالية، والانتصار للملكة الذاكية، وقمع الشرذمة الطاغية، عجل الله دمارها، ومحا بيواتر المسلمين آثارها». ووجدت علوم اللغة اهتمامًا بالغًا، وألف «عبدالعزیز بن عبدالواحد اللمطى الميمونى» ألفية فى النحو تضاهى ألفية «ابن مالك»، و «ابن عبدالواحد»، وهو من أهل «فاس» وقد توفى عام (880هـ = 1475م)، وكذلك قام العالم «أبو العباس أحمد بن محمد» المتوفى عام (995هـ = 1587م) بتدريس الفلك والحساب بجامع القرويين بفاس.

(125/14)

### \*زيان (بنو)

ترجع تسمية هذه الدولة بهذا الاسم إلى «زيان بن ثابت»، والد «يغمراس» مؤسسها، كما أنها تسمى بدولة بنى عبدالواد (العبد الوادية) نسبة إلى قبيلة «عبد الواد» التى ينتمى إليها «بنو زيان». وقد قامت هذه الدولة بالمغرب الأوسط (الجزائر حاليا) وكان يحدها غربًا «نهر ملوية»، ومدينة «قسنطينة» من الجانب الشرقى، وكانت هذه المنطقة تضم عدة مدن منها: «بجاية»، و «الجزائر»، و «وهران»، و «قسنطينة»، و «مليانة»، و «تلمسان». شجع ضعف «دولة الموحدین» عقب هزيمتهم فى معركة «العقاب» فى سنة (609هـ = 1212م)، بعض القوى على الاستقلال، فشجع ذلك بدوره «بنى عبدالواد» على الاستقلال بالمغرب الأوسط، فاستولوا على «تلمسان» فى سنة (627هـ = 1230م). وبعد «يغمراس بن زيان» الذى تولى الإمارة بعد أخيه فى سنة (633هـ = 1235م) هو المؤسس الحقيقى لهذه الدولة، حيث سالم جيرانه من الموحدین كى لا يعرض دولته الناشئة لمعارك جانبية، تصرفه عن تأسيس الدولة، وبنى سياسته فى

هذه المرحلة على عاملين مهمين هما: العامل العسكري: جاور  
«الحفصيون» «بني زيان» من جهة الشرق، وجاورهم «بنو  
ميرين» من الغرب، وهاجم «بنو حفص» مدينة «تلمسان» في سنة  
(640هـ = 1242م)، فهادتهم «بنو زيان» وبايعوهم، ودعوا على  
منابرهم للحفصيين، وفي الوقت نفسه بعثوا بجنودهم إلى  
الجبال واتخذوا من الإغارة على القوات الحفصية وسيلة لطردهم  
من «تلمسان» و «المغرب الأوسط»، فاضطر الحفصيون إلى عقد  
الصلح معهم وأعادوا «يغمراس» إلى مقر حكمه بتلمسان ثانية،  
وكذلك فعل «بنو زيان» مع الموحدين في سنة (646هـ = 1248م)  
ثم قاموا بغارات كثيرة على القبائل الموجودة داخل «المغرب  
الأوسط»، مثل قبائل «تؤين» و «مغراة». العامل السلمي: لم  
يكتف «يغمراس» بالمعارك والغارات، وعمد إلى تحصين بلاده  
شرقاً وغرباً، وجاء بقبيلة «بني عامر» وأقطعها نواحي  
«وهران» و «تلمسان» لتكون حائط الصد لأعدائه، ثم دعم كيان

(126/14)

دولته بمصاهرة الحفصيين، حيث زوج إحدى بناته لعثمان ابن  
الأمير الحفصي «أبي إسحاق»، فأمن بذلك شهرهم، وهجماتهم  
على الحدود الشرقية لدولته. كانت القبيلة من أهم العوامل التي  
أثرت في سياسة دولة «بني زيان» وكيانها؛ حيث دخلت هذه  
الدولة في صراع طويل مع قبائل: «بني تؤين» و «مغراة» من  
البربر، و «بني عامر سويد» من العرب، لرفض هذه القبائل  
الخضوع لغيرها، ولتعصبها لبني جلدتها وقبيلتها، وشقت عصا  
الطاعة، ثم زادت حدة موقفها بعد وفاة «يغمراس» في سنة  
(681هـ = 1282م)، واضطر الأمير «عثمان» الذي خلف والده  
«يغمراس» إلى مواجهتهم، فاستولى على «مازونة» من

«مغراة» في سنة (686هـ = 1287م)، ثم احتل مدينة «تس»،  
ودخل «إنشريس» ولكن هذا الاتساع عاد إلى الانكماش ثانية  
نتيجة احتلال «بني مرين» للمغرب الأوسط، وحصارهم «تلمسان»  
في سنة (698هـ = 1299م)، وعادت القبائل مرة أخرى إلى التمرد  
والعصيان عقب وفاة الأمير «عثمان»، فخرج إليهم الأمير «أبو  
زيان محمد الأول» (703 - 707هـ = 1303 - 1307م)، ثم خضعت هذه  
الدولة أكثر من مرة لدولة بني مرين مثلما حدث في سنة (670 -  
680هـ = 1271 - 1281م) وسنة (689هـ = 1290م) وسنة (737 -  
749هـ = 1336 - 1348م) ولكن بني زيان كانوا يرفضون هذا  
الخضوع، وينتهزون الفرصة للعودة إلى حكم بلادهم. وقد عاشت  
هذه الدولة في حروب واضطرابات دائمة، ونشبت الخلافات بين  
أفراد البيت الزياني، وأدى التهاافت على السلطة بينهم إلى أن  
يشهر الولد السيف في وجه أبيه، بل يتعدى ذلك، ويقتل أباه،  
مثلما حدث مع «أبي تاشفين (الثاني) عبد الرحمن» (791 -  
795هـ = 1389 - 1393م) ووالده السلطان «أبي حمو موسى  
(الثاني) بن يوسف»، حين خلع «تاشفين» أباه من السلطة،  
واستولى على الحكم، ثم اعتقل أباه وإخوته في سنة (788هـ =  
1386م) فقامت حروب بين أفراد هذه الأسرة، وعاد «أبو حمو»  
إلى عرشه، واستعان «ابنه تاشفين» ببني مرين عليه، وحرابه،

(127/14)

---

ثم قتله وعاد «تاشفين» إلى الحكم في ظل التبعية لبني مرين.  
تفشيت ظاهرة قتل السلاطين بدولة بني زيان، وزاد التنافر بين  
أفراد البيت الزياني، وتكررت هجمات الاسبان على الشواطئ  
المغربية، واستولوا على «مرسى وهران» في سنة (911هـ =  
1505م)، ثم استولوا سنة (912هـ = 1506م) على «وهران»

و «بجاية» و «تدلس» وهى موانى تابعة «لبنى زيان»، وارتضى  
«أبو حمو الثالث» (909 - 923هـ = 1503 - 1517م) دفع ضريبة  
سنوية للإسبان لكى يبقى فى مقعد الحكم، فاستنجد الناس  
بالأتراك العثمانيين لتخليصهم من هذا الاحتلال، فأسع لنجدتهم  
الأخوان «عروج» و «خير الدين» ابنا «يعقوب التركى»، اللذان  
كانا يميلان المتطوعين فى السفن لإنقاذ مهاجرى الأندلس،  
ونقلهم إلى أرض «المغرب»، ودارت معركة بين الطرفين،  
وأرسلت إسبانيا بالإمدادات لتعزيز قواتها وحليفها «أبى حمو»  
الذى فر إلى «وهران» للاحتماء بالقوة الإسبانية هناك، وحاصر  
الإسبان مدينة «تلمسان» واستشهد «عروج» فى سنة (924هـ =  
1518م)، ومات «أبو حمو الثالث» فى السنة نفسها. وتوالى  
الاضطرابات، وزاد التنافس على العرش، وأقبل السعديون من  
«المغرب الأقصى» واستولوا على «تلمسان» فى سنة (957هـ =  
1550م). وانقسم البيت الزياني إلى طوائف ثلاث: إحداها تضامنت  
مع الأتراك، والأخرى استعانت بالإسبان، والأخيرة تحالفت مع  
السعديين، وتحرك الأتراك، ودخلوا فى معركة مع السعديين  
وهزموهم، فعادوا إلى «المغرب الأقصى»، ودخل الأتراك  
العاصمة «تلمسان». وكان آخر حكام «بنى زيان» هو «الحسن  
بن عبدالله» (957 - 962هـ = 1550 - 1555م) الذى ثار عليه الناس  
لميله إلى الإسبان فخلعه الأتراك، وضموا «تلمسان» إلى حكومة  
«الجزائر» التركية فى سنة (962هـ = 1555م). كان موقع «الدولة  
الزيانية» بالمغرب الأوسط حافزاً للقوى الأخرى بالمغرب على  
التطلع إليها، بغرض السيطرة وفرض النفوذ، ولعل هذا هو ما  
فعله الموحدون، و «بنو مرين»، و «الحفصيون». وظلت العلاقات

بين هذه الدولة وهذه القوى بين شد وجذب، فتارة يخضع «بنو زيان» للنفوذ الموحدى والمربى والحفصى، وتارة ينعمون باستقلالهم، وأخرى يمتد فيها نفوذهم إلى بعض مناطق المغربين الأدنى والأقصى. ولقد وقف «بنو زيان» في بداية الأمر في وجه الزحف الموحدى، إلا أن الموحدين تمكنوا من إخضاعهم والسيطرة على «المغرب الأوسط»، ودخل «بنو زيان» في تبعية الموحدين، فلما قويت شوكة «بنى زيان» كانت «دولة الموحدين» في مرحلة الضعف والانهيار، فبدأ الموحدون يتوددون إليهم ويهادنونهم، فخشى الحفصيون من هذا التحالف، وتوجهوا إلى «تلمسان» واستولوا عليها في سنة (640هـ = 1242م) بمساعدة بعض قبائل «المغرب الأوسط»، واشتروا لعودة «بنى زيان» إلى الحكم أن يخلعوا طاعة الموحدين ويعلموا تبعيتهم للحفصيين، فقبل «بنو زيان» ذلك، وعادوا إلى حكم «تلمسان». ولكن الموحدين لم يعجبهم هذا الوضع وحشدوا جيوشهم وحاصروا «تلمسان»، فأعلن «بنو زيان» طاعتهم لهم، وساعدوهم في صراعهم مع المرينيين على الرغم من العلاقات المتوترة بينهما، وظل هذا شأنهما حتى سقوط «دولة الموحدين» في سنة (668هـ = 1269م). أما علاقة «بنى زيان» بالحفصيين، فكانت علاقة عداوة؛ نظرًا لتضارب مصالح الدولتين، حيث رغبت كل منهما في التوسع على حساب الأخرى. وقد بدأت هذه العلاقات باستيلاء الحفصيين على «تلمسان» في سنة (640هـ = 1242م)، ثم بدأت بينهما المفاوضات، وعاد «يغمراش» إلى عاصمته «تلمسان» وأعلن تبعيته للحفصيين، ولكن «بنى زيان» لم يرضوا بهذه التبعية وأعلنوا استقلالهم عن هذه التبعية في عهد «المتوكل الزياني» في سنة (868هـ = 1464م)، ومن ثم حاصرتهم جيوش الحفصيين في «تلمسان» في سنة (871هـ = 1466م)، وهدموا أسوارها، وأجبروهم على إعلان الطاعة

والتبعية للحفصيين ثانية. وقد عمد الحفصيون إلى إحداث الفرقة،  
وإشعال الفتنة بين أفراد البيت الزياني، حتى يتسنى لهم إحكام

(129/14)

قبضتهم عليهم، ويضمنوا تبعيتهم، وتم لهم ذلك واستمر حتى دبَّ  
الضعف والتفكك بين سلاطين «بني حفص» وأفراد أسرهم،  
فوجه إليهم بنو زيان عدة ضربات متوالية، وتمكنوا من هزيمتهم  
والاستيلاء على «تونس» في سنة (730هـ = 1330م). وعلى الرغم  
مما سبق فقد شهدت العلاقات الزيانية الحفصية - أحياناً - بعض  
حالات الهدوء، وحسن الجوار، وتجلى ذلك حين صاهرهم  
«يغمراس» وزوج ابنه «عثمان» إحدى بنات «أبي إسحاق  
الحفصي» في سنة (681هـ = 1282م). كان الحكم في «دولة بني  
زيان» وراثياً، وكانت ألقاب حكامهم تتراوح بين «أمير  
المسلمين» ولقب «السلطان»، وقد تفتت ظاهرة قتل سلاطينهم  
على أيدي أفراد أسرهم الحاكمة للوصول إلى الحكم، كما فعل  
«تاشفين» مع والده «أبي حمو». وتعددت المناصب الإدارية في  
هذه الدولة، وجاء منصب «الوزارة» في مقدمتها، كما كان  
قاضى القضاة يتقدم مجموعة القضاة بالدولة، وكذلك كان قائد  
الجيش من رجال هذه الدولة البارزين، ولذا كان السلطان يختاره  
من أفراد أسرته، أو يتولى هو مكانه، ويخرج بنفسه على رأس  
الجيش. وكان ديوان الإنشاء والتوقيع من أبرز الدواوين، لأنه  
يختص بالمراسيم السلطانية، ومراسلات الدولة مع غيرها من  
الدول. تمتع «المغرب الأوسط» بسطح متنوع، جمع بين السهل  
الساحلى والوديان الداخلية، وسلسلة جبال الأطلس، فضلاً عن  
تمتعه بمناخ يختلف من منطقة إلى أخرى، وبترية خصبة صالحة  
للزراعة، وبأنهار منتشرة في كل مكان مثل نهرى «شلف»

و «سبرات»، وبعيون مائية منبثة، وبأمطار تسقط على منطقة الساحل، فهيات كل هذه العناصر لقيام زراعة ناجحة، أولاها ولادة الأمر عنايتهم ورعايتهم، فتنوعت المحاصيل الزراعية، كما ازدهرت صناعة الأقمشة الحريرية والصوفية، وصناعة السجاد والبسط، وكذلك صناعة السفن الحربية والتجارية، والأسلحة، والمصنوعات الجلدية، والمشغولات الذهبية والفضية والنحاسية. وكان لموقع «المغرب الأوسط» دور كبير في تنشيط التجارة،

(130/14)

باعتباره همزة الوصل بين المغربين الأدنى والأقصى، حيث تمتد شواطئه، وتكثر موانيه المطلة على «البحر المتوسط»، فضلا عن طرق التجارة المتعددة بجنوبه، والتي كانت تمر منها القوافل التجارية القادمة من جنوب الصحراء قاصدة الموانئ المطلة على «البحر المتوسط»، لتكمل رحلتها إلى «أوروبا» وغيرها من المناطق. وقد تعددت صادرات «المغرب الأوسط»، وكان الصوف والأسلحة والمنتجات الزراعية من أهم صادرات «بني زيان» وأسهمت موانئ: «وهران» و «تنس» و «الجزائر» و «بجاية» إسهامًا بارزًا في تنشيط التجارة، وازدهار الاقتصاد، وكان ذلك سببًا رئيسيًا في اهتمام سلاطين «بني زيان» بالبناء والتعمير، فتنوعت في عهدهم المؤسسات وعُنوا بإنشاء المساجد والمدارس والقصور، والمنشآت العسكرية، وكانت أبرز مساجدهم هي: «مسجد أبي الحسن» الذي أمر «عثمان بن يغمراس» ببنائه سنة (696هـ = 1296م)، و «مسجد الولي إبراهيم» الذي تم بناؤه في عهد أبي حمو الثاني، كما شهد عهد «أبي تاشفين الأول» نهضة عمرانية كبيرة. وتعددت المدارس بتلمسان ووهران، وكانت أبرز هذه المدارس هي «المدرسة التاشفينية» (أو المدرسة

القديمة) التي أنشأها «أبو تاشفين بن عبد الرحمن» (718 - 736هـ = 1318 - 1336م)، و «المدرسة اليعقوبية» التي بناها «أبو حمو موسى الثاني»، وكان افتتاحها في الخامس من صفر سنة (765هـ = نوفمبر 1363م). وبنى «بنو زيان» الحصون والأبراج والأسوار والقلاع العسكرية لتحصين بلادهم، ومن أبرز قلاعهم: قلعة «تامز يزدكت» التي كانت مركز مقاومتهم على الحدود الشرقية مع «بنو حفص». اهتم «بنو زيان» بتنشيط الحركة الفكرية في بلادهم، ودعموها بإنشاء المدارس والمساجد والكتاتيب والزوايا لتعليم الطلاب، ولم يختلف أسلوب التعليم في دولتهم عن مثيله في «دولة بني مرين» و «دولة الحفصيين»، وامتألت المؤسسات التعليمية بالعلماء المتخصصين في كل علم وفن، وقد لقي هؤلاء من الدولة معاملة حسنة

(131/14)

وأغدقت عليهم المنح والعطايا، وولتهم المناصب الرفيعة حتى ينهضوا بالمستوى التعليمي والفكري في البلاد. واستعاد المذهب المالكي مكانته بدولة «بنو زيان» كما استعاده في بقية الدول الأخرى عقب سقوط «دولة الموحدين»، وازدهرت علوم التفسير والفقه والحديث والمنطق والجدل والكلام، وغيرها من العلوم، وتبوأ مجموعة من العلماء مكانة ممتازة لدى «بنو زيان»، منهم: «أبو إسحاق إبراهيم بن يخلف التنسي» المتوفى عام (680هـ = 1281م)، و «أبو عبدالله محمد بن محمد المقرئ» المتوفى عام (759هـ = 1358م) والذي تتلمذ على يديه مجموعة من العلماء النابغين، أمثال: ابن الخطيب، وابن خلدون، والشاطبي وغيرهم. وبرزت كذلك جماعة من العلماء في علوم اللغة والأدب منهم: «أبو عبدالله بن عمر بن خميس التلمساني» المتوفى عام

(708هـ = 1308م)، وقد أشرف على «ديوان الإنشاء» بتلمسان في عهد «عثمان بن يغمراس»، و «أبو عبدالله محمد بن منصور القرشي التلمساني» الذي أنشأ «ديوان الرسائل» في عهد أبي حمو الأول.

(132/14)

### \*عبد الواد (بنو)

ترجع تسمية هذه الدولة بهذا الاسم إلى «زيان بن ثابت»، والد «يغمراس» مؤسسها، كما أنها تسمى بدولة بني عبد الواد (العبد الوادية) نسبة إلى قبيلة «عبد الواد» التي ينتمي إليها «بنو زيان». وقد قامت هذه الدولة بالمغرب الأوسط (الجزائر حاليا) وكان يحدها غرباً «نهر ملوية»، ومدينة «قسنطينة» من الجانب الشرقي، وكانت هذه المنطقة تضم عدة مدن منها: «بجاية»، و «الجزائر»، و «وهران»، و «قسنطينة»، و «مليانة»، و «تلمسان». شجع ضعف «دولة الموحدين» عقب هزيمتهم في معركة «العقاب» في سنة (609هـ = 1212م)، بعض القوى على الاستقلال، فشجع ذلك بدوره «بني عبد الواد» على الاستقلال بالمغرب الأوسط، فاستولوا على «تلمسان» في سنة (627هـ = 1230م). وبعده «يغمراس بن زيان» الذي تولى الإمارة بعد أخيه في سنة (633هـ = 1235م) هو المؤسس الحقيقي لهذه الدولة، حيث سالم جيرانه من الموحدين كي لا يعرض دولته الناشئة لمعارك جانبية، تصرفه عن تأسيس الدولة، وبني سياسته في هذه المرحلة على عاملين مهمين هما: العامل العسكري: جاور «الحفصيون» «بني زيان» من جهة الشرق، وجاورهم «بنو مرين» من الغرب، وهاجم «بنو حفص» مدينة «تلمسان» في سنة (640هـ = 1242م)، فهادتهم «بنو زيان» وبايعوهم، ودعوا على

منابرهم للحفصيين، وفي الوقت نفسه بعثوا بجنودهم إلى الجبال واتخذوا من الإغارة على القوات الحفصية وسيلة لطردهم من «تلمسان» و «المغرب الأوسط»، فاضطر الحفصيون إلى عقد الصلح معهم وأعادوا «يغمراس» إلى مقر حكمه بتلمسان ثانية، وكذلك فعل «بنو زيان» مع الموحدين في سنة (646هـ = 1248م) ثم قاموا بغارات كثيرة على القبائل الموجودة داخل «المغرب الأوسط»، مثل قبائل «تؤين» و «مغراة». العامل السلمي: لم يكتف «يغمراس» بالمعارك والغارات، وعمد إلى تحصين بلاده شرقاً وغرباً، وجاء بقبيلة «بني عامر» وأقطعها نواحي «وهران» و «تلمسان» لتكون حائط الصد لأعدائه، ثم دعم كيان

(133/14)

دولته بمصاهرة الحفصيين، حيث زوج إحدى بناته لعثمان ابن الأمير الحفصي «أبي إسحاق»، فأمن بذلك شرهم، وهجماتهم على الحدود الشرقية لدولته. كانت القبيلة من أهم العوامل التي أثرت في سياسة دولة «بنو زيان» وكيانها؛ حيث دخلت هذه الدولة في صراع طويل مع قبائل: «بني تؤين» و «مغراة» من البربر، و «بني عامر سويد» من العرب، لرفض هذه القبائل الخضوع لغيرها، ولتعصبها لبني جلدتها وقبيلتها، وشقت عصا الطاعة، ثم زادت حدة موقفها بعد وفاة «يغمراس» في سنة (681هـ = 1282م)، واضطر الأمير «عثمان» الذي خلف والده «يغمراس» إلى مواجهتهم، فاستولى على «مازونة» من «مغراة» في سنة (686هـ = 1287م)، ثم احتل مدينة «تنس»، ودخل «إنشريس» ولكن هذا الاتساع عاد إلى الانكماش ثانية نتيجة احتلال «بني مرين» للمغرب الأوسط، وحصارهم «تلمسان» في سنة (698هـ = 1299م)، وعادت القبائل مرة أخرى إلى التمرد

والعصيان عقب وفاة الأمير «عثمان»، فخرج إليهم الأمير «أبو زيان محمد الأول» (703 - 707هـ = 1303 - 1307م)، ثم خضعت هذه الدولة أكثر من مرة لدولة بني مرين مثلما حدث في سنة (670 - 680هـ = 1271 - 1281م) وسنة (689هـ = 1290م) وسنة (737 - 749هـ = 1336 - 1348م) ولكن بني زيان كانوا يرفضون هذا الخضوع، وينتهزون الفرصة للعودة إلى حكم بلادهم. وقد عاشت هذه الدولة في حروب واضطرابات دائمة، ونشبت الخلافات بين أفراد البيت الزياني، وأدى التهاافت على السلطة بينهم إلى أن يشهر الولد السيف في وجه أبيه، بل يتعدى ذلك، ويقتل أباه، مثلما حدث مع «أبي تاشفين (الثاني) عبد الرحمن» (791 - 795هـ = 1389 - 1393م) ووالده السلطان «أبي حمو موسى (الثاني) بن يوسف»، حين خلع «تاشفين» أباه من السلطة، واستولى على الحكم، ثم اعتقل أباه وإخوته في سنة (788هـ = 1386م) فقامت حروب بين أفراد هذه الأسرة، وعاد «أبو حمو» إلى عرشه، واستعان «ابنه تاشفين» ببني مرين عليه، وحاربه،

(134/14)

---

ثم قتله وعاد «تاشفين» إلى الحكم في ظل التبعية لبني مرين. تفشت ظاهرة قتل السلاطين بدولة بني زيان، وزاد التنافر بين أفراد البيت الزياني، وتكررت هجمات الاسبان على الشواطئ المغربية، واستولوا على «مرسى وهران» في سنة (911هـ = 1505م)، ثم استولوا سنة (912هـ = 1506م) على «وهران» و «بجاية» و «تدلس» وهي موانئ تابعة «لبني زيان»، وارتضى «أبو حمو الثالث» (909 - 923هـ = 1503 - 1517م) دفع ضريبة سنوية للإسبان لكي يبقى في مقعد الحكم، فاستنجد الناس بالأتراك العثمانيين لتخليصهم من هذا الاحتلال، فأسرع لنجدتهم

الأخوان «عروج» و «خير الدين» ابنا «يعقوب التركي»، اللذان كانا يحملان المتطوعين في السفن لإنقاذ مهاجري الأندلس، ونقلهم إلى أرض «المغرب»، ودارت معركة بين الطرفين، وأرسلت إسبانيا بالإمدادات لتعزيز قواتها وحليفها «أبي حمو» الذى فر إلى «وهران» للاحتماء بالقوة الإسبانية هناك، وحاصر الإسبان مدينة «تلمسان» واستشهد «عروج» في سنة (924هـ= 1518م)، ومات «أبو حمو الثالث» في السنة نفسها. وتوالى الاضطرابات، وزاد التنافس على العرش، وأقبل السعديون من «المغرب الأقصى» واستولوا على «تلمسان» في سنة (957هـ= 1550م). وانقسم البيت الزياني إلى طوائف ثلاث: إحداها تضامنت مع الأتراك، والأخرى استعانت بالأسبان، والأخيرة تحالفت مع السعديين، وتحرك الأتراك، ودخلوا في معركة مع السعديين وهزموهم، فعادوا إلى «المغرب الأقصى»، ودخل الأتراك العاصمة «تلمسان». وكان آخر حكام «بنى زيان» هو «الحسن بن عبدالله» (957 - 962هـ= 1550 - 1555م) الذى ثار عليه الناس لميله إلى الإسبان فخلعه الأتراك، وضموا «تلمسان» إلى حكومة «الجزائر» التركية في سنة (962هـ= 1555م). كان موقع «الدولة الزيانية» بالمغرب الأوسط حافزاً للقوى الأخرى بالمغرب على التطلع إليها، بغرض السيطرة وفرض النفوذ، ولعل هذا هو ما فعله الموحدون، و «بنو مرين»، و «الحفصيون». وظلت العلاقات

(135/14)

---

بين هذه الدولة وهذه القوى بين شد وجذب، فتارة يخضع «بنو زيان» للنفوذ الموحدى والمرينى والحفصى، وتارة ينعمون باستقلالهم، وأخرى يمتد فيها نفوذهم إلى بعض مناطق المغربين الأدنى والأقصى. ولقد وقف «بنو زيان» في بداية الأمر

في وجه الزحف الموحدى، إلا أن الموحدين تمكنوا من إخضاعهم والسيطرة على «المغرب الأوسط»، ودخل «بنو زيان» في تبعية الموحدين، فلما قويت شوكة «بنى زيان» كانت «دولة الموحدين» في مرحلة الضعف والانهيار، فبدأ الموحدون يتوددون إليهم ويهادنونهم، فخشى الحفصيون من هذا التحالف، وتوجهوا إلى «تلمسان» واستولوا عليها في سنة (640هـ = 1242م) بمساعدة بعض قبائل «المغرب الأوسط»، واشترطوا لعودة «بنى زيان» إلى الحكم أن يخضعوا طاعة الموحدين ويعلنوا تبعيتهم للحفصيين، فقبل «بنو زيان» ذلك، وعادوا إلى حكم «تلمسان». ولكن الموحدين لم يعجبهم هذا الوضع وحشدوا جيوشهم وحاصروا «تلمسان»، فأعلن «بنو زيان» طاعتهم لهم، وساعدوهم في صراعهم مع المرينيين على الرغم من العلاقات المتوترة بينهما، وظل هذا شأنهما حتى سقوط «دولة الموحدين» في سنة (668هـ = 1269م). أما علاقة «بنى زيان» بالحفصيين، فكانت علاقة عداوة؛ نظرًا لتضارب مصالح الدولتين، حيث رغبت كل منهما في التوسع على حساب الأخرى. وقد بدأت هذه العلاقات باستيلاء الحفصيين على «تلمسان» في سنة (640هـ = 1242م)، ثم بدأت بينهما المفاوضات، وعاد «يغمراس» إلى عاصمته «تلمسان» وأعلن تبعيته للحفصيين، ولكن «بنى زيان» لم يرضوا بهذه التبعية وأعلنوا استقلالهم عن هذه التبعية في عهد «المتوكل الزياني» في سنة (868هـ = 1464م)، ومن ثم حاصرتهم جيوش الحفصيين في «تلمسان» في سنة (871هـ = 1466م)، وهدموا أسوارها، وأجبروهم على إعلان الطاعة والتبعية للحفصيين ثانية. وقد عمد الحفصيون إلى إحداث الفرقة، وإشعال الفتنة بين أفراد البيت الزياني، حتى يتسنى لهم إحكام

قبضتهم عليهم، ويضمنوا تبعيتهم، وتم لهم ذلك واستمر حتى دبّ الضعف والتفكك بين سلاطين «بني حفص» وأفراد أسرهم، فوجه إليهم بنو زيان عدة ضربات متوالية، وتمكنوا من هزيمتهم والاستيلاء على «تونس» في سنة (730هـ = 1330م). وعلى الرغم مما سبق فقد شهدت العلاقات الزيانية الحفصية - أحياناً - بعض حالات الهدوء، وحسن الجوار، وتجلى ذلك حين صاهرهم «يغمراس» وزوج ابنه «عثمان» إحدى بنات «أبي إسحاق الحفصي» في سنة (681هـ = 1282م). كان الحكم في «دولة بني زيان» وراثياً، وكانت ألقاب حكامهم تتراوح بين «أمير المسلمين» ولقب «السلطان»، وقد تفتت ظاهرة قتل سلاطينهم على أيدي أفراد أسرهم الحاكمة للوصول إلى الحكم، كما فعل «تاشفين» مع والده «أبي حمو». وتعددت المناصب الإدارية في هذه الدولة، وجاء منصب «الوزارة» في مقدمتها، كما كان قاضي القضاة يتقدم مجموعة القضاة بالدولة، وكذلك كان قائد الجيش من رجال هذه الدولة البارزين، ولذا كان السلطان يختاره من أفراد أسرته، أو يتولى هو مكانه، ويخرج بنفسه على رأس الجيوش. وكان ديوان الإنشاء والتوقيع من أبرز الدواوين، لأنه يختص بالمراسيم السلطانية، ومراسلات الدولة مع غيرها من الدول. تمتع «المغرب الأوسط» بسطح متنوع، جمع بين السهل الساحلي والوديان الداخلية، وسلسلة جبال الأطلس، فضلاً عن تمتعه بمناخ يختلف من منطقة إلى أخرى، وبترية خصبة صالحة للزراعة، وبأنهار منتشرة في كل مكان مثل نهرى «شلف» و «سيرات»، وبعيون مائية منبثة، وبأمطار تسقط على منطقة الساحل، فهيات كل هذه العناصر لقيام زراعة ناجحة، أولاًها ولإدارة الأمر عنايتهم ورعايتهم، فتنوعت المحاصيل الزراعية، كما ازدهرت صناعة الأقمشة الحريرية والصوفية، وصناعة السجاد والبسط، وكذلك صناعة السفن الحربية والتجارية، والأسلحة،

والمصنوعات الجلدية، والمشغولات الذهبية والفضية والنحاسية.  
وكان لموقع «المغرب الأوسط» دور كبير في تنشيط التجارة،

(137/14)

باعتباره همزة الوصل بين المغربين الأدنى والأقصى، حيث تمتد شواطئه، وتكثر موانئه المطللة على «البحر المتوسط»، فضلا عن طرق التجارة المتعددة بجنوبه، والتي كانت تمر منها القوافل التجارية القادمة من جنوب الصحراء قاصدة الموانئ المطللة على «البحر المتوسط»، لتكمل رحلتها إلى «أوروبا» وغيرها من المناطق. وقد تعددت صادرات «المغرب الأوسط»، وكان الصوف والأسلحة والمنتجات الزراعية من أهم صادرات «بني زيان» وأسهمت موانئ: «وهران» و «تنس» و «الجزائر» و «بجاية» إسهامًا بارزًا في تنشيط التجارة، وازدهار الاقتصاد، وكان ذلك سببًا رئيسيًا في اهتمام سلاطين «بني زيان» بالبناء والتعمير، فتنوعت في عهدهم المؤسسات وعُنوا بإنشاء المساجد والمدارس والقصور، والمنشآت العسكرية، وكانت أبرز مساجدهم هي: «مسجد أبي الحسن» الذي أمر «عثمان بن يغمراس» ببناؤه سنة (696هـ = 1296م)، و «مسجد الولي إبراهيم» الذي تم بناؤه في عهد أبي حمو الثاني، كما شهد عهد «أبي تاشفين الأول» نهضة عمرانية كبيرة. وتعددت المدارس بتلمسان ووهران، وكانت أبرز هذه المدارس هي «المدرسة التاشفينية» (أو المدرسة القديمة) التي أنشأها «أبو تاشفين بن عبد الرحمن» (718 - 736هـ = 1318 - 1336م)، و «المدرسة اليعقوبية» التي بناها «أبو حمو موسى الثاني»، وكان افتتاحها في الخامس من صفر سنة (765هـ = نوفمبر 1363م). وبني «بنو زيان» الحصون والأبراج والأسوار والقلاع العسكرية لتحصين بلادهم، ومن أبرز

قلاعهم: قلعة «تامز يزدكت» التي كانت مركز مقاومتهم على الحدود الشرقية مع «بني حفص». اهتم «بنو زيان» بتنشيط الحركة الفكرية في بلادهم، ودعموها بإنشاء المدارس والمساجد والكتاتيب والزوايا لتعليم الطلاب، ولم يختلف أسلوب التعليم في دولتهم عن مثيله في «دولة بني مرين» و «دولة الحفصيين»، وامتألت المؤسسات التعليمية بالعلماء المتخصصين في كل علم وفن، وقد لقي هؤلاء من الدولة معاملة حسنة

(138/14)

وأغدقت عليهم المنح والعطايا، وولتهم المناصب الرفيعة حتى ينهضوا بالمستوى التعليمي والفكري في البلاد. واستعاد المذهب المالكي مكانته بدولة «بني زيان» كما استعاده في بقية الدول الأخرى عقب سقوط «دولة الموحدين»، وازدهرت علوم التفسير والفقه والحديث والمنطق والجدل والكلام، وغيرها من العلوم، وتبوأ مجموعة من العلماء مكانة ممتازة لدى «بني زيان»، منهم: «أبو إسحاق إبراهيم بن يخلف التنسي» المتوفى عام (680هـ = 1281م)، و «أبو عبدالله محمد بن محمد المقرئ» المتوفى عام (759هـ = 1358م) والذي تتلمذ على يديه مجموعة من العلماء النابغين، أمثال: ابن الخطيب، وابن خلدون، والشاطبي وغيرهم. وبرزت كذلك جماعة من العلماء في علوم اللغة والأدب منهم: «أبو عبدالله بن عمر بن خميس التلمساني» المتوفى عام (708هـ = 1308م)، وقد أشرف على «ديوان الإنشاء» بتلمسان في عهد «عثمان بن يغمراس»، و «أبو عبدالله محمد بن منصور القرشي التلمساني» الذي أنشأ «ديوان الرسائل» في عهد أبي حمو الأول.

(139/14)

## \*الحفصية (دولة)

ينتسب الحفصيون إلى «أبي حفص عمر بن يحيى» الذى ينتمى إلى «قبيلة هنتاتة»، وهى من قبائل المصامدة التى عاشت بالمغرب الأقصى، واتخذت المعقل والحصون، وشيدت المباني والقصور، وامتهنوا الفلاحة وزراعة الأرض. وقد طمع الحفصيون فى الاستقلال بإفريقية بعد هزيمة الموحدين فى معركة «العقاب» بالأندلس فى سنة (609هـ = 1212م)، وعملوا على تحقيق ذلك حتى سنة (625هـ = 1228م)، فوصل «أبو زكريا بن عبد الواحد الحفصى» إلى مقعد الإمارة بتونس، ومهد لقيام «دولة الحفصيين» حتى سنة (627هـ = 1230م) فبايعه الحفصيون واستقل عن طاعة الموحدين وضم إليه «الجزائر» و «تلمسان». وقد واجهت الدولة الحفصية عدة ثورات، إلا أنها تمكنت من القضاء عليها فى عهد قوتها، فلما حل الضعف بخلفاء الأمير «أبي زكريا الحفصى»، زادت الخلافات بين أفراد الأسرة الحاكمة، وقامت الثورات فى أماكن كثيرة، ولم يتمكن أمراء الحفصيين من مواجهة هذه الاضطرابات، فحل الضعف بدولتهم حتى سقطت على أيدي العثمانيين سنة (893هـ = 1488م). تنوعت علاقات «الدولة الحفصية»، وشملت «الأندلس»، و «أوروبا»، ودول: «بنى مرين» والوطاسيين والزيايين. واتسمت علاقتهم بالأندلسيين بالهدوء تارة وبالتوتر والمنافسة تارة أخرى، وكذلك تمثلت علاقتهم بالأوروبيين فى عدة حملات عسكرية، عُرفت باسم الحروب الصليبية، وسعى الصليبيون إلى تحويل مسلمى «المغرب الأدنى» إلى المسيحية، غير أن وباءً تفشى بالمعسكر الصليبي، وتوفى لويس متأثرًا بهذا الوباء، فلجأ الصليبيون إلى التفاوض والصلح مع الحفصيين، ثم الانسحاب فى سنة (669هـ = 1270م) ولكن الصليبيين عاودوا الهجوم على مدينة

«طرابلس» في سنة (755هـ = 1354م)، واستولوا عليها واستباحوها، ولم يخرجوا منها إلا بعد الحصول على قدر كبير من المال، ثم توالى حملاتهم الصليبية بعد ذلك على بلاد «المغرب الأوسط» ومدنه. وقد مرت العلاقات الحفصية المرينية بعدة مراحل

(140/14)

ارتبطت بالأحوال والظروف السياسية التي كانت تمر بها كل من الدولتين، واتسمت هذه العلاقات بالصراع بين الطرفين، ودخول بني حفص في تبعية «بني مرين» في أحيان كثيرة، ولكن ذلك لم يمنع من قيام بعض العلاقات الطيبة في فترة حكم «عثمان ابن أحمد المريني» (801 - 823 هـ = 1398 - 1420 م)، و«عبدالحق بن سعيد المريني» (863 - 869 هـ = 1459 - 1465 م). عرفت «دولة بني حفص» نظام الخلافة، وكان الحكم بما وراثياً، ويعاون الخليفة هيئة استشارية، يُطلق عليها اسم أشياخ البساط، وجميعهم من قبيلة «هنتاتة» التي تنتمي إليها الأسرة الحاكمة، وكذلك عرفت هذه الدولة نظام الحجابة، وتطور هذا النظام لدرجة أن الحاجب كان يفصل في الأمور دون الرجوع إلى الخليفة، وجاء منصب الوزارة في مرتبة تلي منصب الحجابة، ويأتى إلى جانبها منصب القضاء الذى أولاه الحفصيون عنايتهم لأهميته. تنوعت مصادر الدخل في «دولة بني حفص»، وشملت: الضرائب والزكاة، والجزية، والمصادرات، والخراج، وانتعشت الزراعة وكثرت المحاصيل، ونشطت الصناعات مثل: المنسوجات بأنواعها، والصناعات الجلدية والزجاجية، وصناعة الأسلحة والسفن، واستخدم «بنو حفص» عملة خاصة بهم ليؤكدوا استقلالهم. تشكل المجتمع الحفصى من عدة عناصر، وكانت قبيلة هنتاتة البربرية في مقدمة هذه العناصر، كما كان العرب

المقيمون، والعرب الهلالية ممن شكلوا هذا المجتمع، تضاف إليهم مجموعات الروم والأتراك. وشهدت «الدولة الحفصية» حركة واسعة في البناء والتعمير، وأقام الحفصيون المؤسسات التعليمية مثل: الكتاتيب، والزوايا والمساجد، فقامت بدورها في دعم العلوم المختلفة وتدريسها، ثم أنشأ الحفصيون المدارس بالعاصمة «تونس»، وكانت أول مدرسة هي «المدرسة الشماعية» التي أنشأها «أبو زكريا يحيى الأول» في سنة (633هـ = 1235م)، وتلتها «التوفيقية» في سنة (650هـ = 1252م). وأخذت «الدولة الحفصية» بالمذهب المالكي، واهتمت بالعلوم

(141/14)

الدينية مثل تفسير القرآن، وعلم الحديث، والفقه، وكذلك اهتم الحفصيون بالعلوم العقلية مثل: المنطق والكيمياء والفلك وغيرها. وساهمت المكتبات - التي زُوِّدت بالكتب في شتى فروع المعرفة- في تنشيط الحركة الثقافية بالبلاد، وكذا ساهمت المجالس العلمية، التي شجعها بعض الحكام الحفصيين في إثراء النشاط العلمي ودعمه. وقد أثمرت هذه الحركة الثقافية المزدهرة مجموعة من العلماء البارزين في شتى فروع العلم والمعرفة، فكان من الفقهاء «أبو عبدالله محمد بن عرفة» المتوفى عام (802هـ = 1399م)، ومن الحديثين: «أبو بكر بن سيد الناس» المتوفى عام (659هـ = 1261م)، ومن النحويين: «أبو الحسن علي بن موسى» المعروف «بابن عصفور» المتوفى عام (969هـ = 1561م)، ومن الشعراء: «حازم القرطاجني» المتوفى عام (684هـ = 1285م)، و «ابن الأبار» المتوفى عام (662هـ = 1264م). وقد أسهم هؤلاء وغيرهم في دعم المعرفة، وتنشيط الثقافة، ومؤازرة الحركة الفكرية في دولة «بني حفص».

**\*نبهان (آل)**

ظهر ملوك «آل نبهان» ولاية للبويعيين على «عمان» في القرن الرابع الهجرى الذى ساءت خلاله أحوال «عمان»؛ نتيجة الصراعات والاضطرابات الداخلية التى زادت بتولى «آل نبهان» حكم «عمان»؛ إذ استبدوا بأمورها، وأساءوا معاملة أهلها، ومع ذلك لم يكونوا وحدهم المسئولين عما ألمَّ بعمان من اضطرابات، فقد ساعدتهم فى ذلك صراعات الأئمة التى شهدتها «عمان» خلال تلك الفترة، وظل «آل نبهان» يحكمون «عمان» حتى القرن التاسع الهجرى، ثم عادت إلى الأئمة قوتهم السياسية فى «عمان» من جديد. وكان أهم ملوك «آل نبهان» خلال هذه الفترة: «أبو عبدالله محمد بن عامر بن نبهان» وإخوته، ثم «الحسين أحمد» و «أبو محمد نبهان» وغيرهم. فلما زالت دولة «آل نبهان» بدأ الأئمة يستعيدون مجدهم وسلطتهم من جديد.

**\*نجاح (بنو)**

قامت دولة بني نجاح فى اليمن (403هـ - 555هـ) وتنتسب إلى الأمير نجاح الذى استتب له الأمر فى «زبيد» و «تامة»، فكتب إلى الخليفة العباسى فى «بغداد» معلناً له ولاءه وطاعته للدولة العباسية، فأقره الخليفة عليها، ونعته بالمؤيد نصر الدين، وكان «نجاح» سمحاً يتبع المذهب الشافعى، فدانت له تامة طيلة حياته، فلما وافته المنية فى سنة (452هـ) دار صراع طويل بين أولاده وأحفاده من جانب ودولة «صليح» التى نشأت فى

«صنعاء» سنة (429هـ) من جانب آخر، واستقر الأمر لبني نجاح -  
بعد معارك طويلة - في عام (472هـ) وبقي فيهم حتى سنة  
(554هـ)، وأمراء «بني نجاح» هم: 1 - الأمير «نجاح» (403 -  
452هـ). 2 - سعيد بن نجاح» (452 - 481هـ). 3 - «جياش بن  
نجاح» (483 - 498هـ). 4 - «فاتك بن جياش» (498 - 503هـ). 5 -  
«منصور بن فاتك» (503 - 521هـ). 6 - «فاتك بن منصور» (521 -  
540هـ). 7 - «فاتك بن محمد بن فاتك» (540 - 554هـ). وجاء  
سقوط «بني نجاح» على أيدي «بني المهدي» الذين يعودون  
في نسبهم إلى أسرة حميرية هالها تحكم «بني نجاح» الأحباش  
في «اليمن»، فجمع زعيمها «علي بن مهدي» الجموع حوله  
وغزا مدينة «الكدراء» في سنة (538هـ)، وظل «بنو المهدي» من  
ذلك التاريخ يعملون للسيطرة على «زبيد»، وتحقق لهم ذلك في  
سنة (553هـ)، عندما عجز «آل نجاح» عن صدهم، ودخل  
المهديون «زبيد» واستقر لهم الأمر فيها.

(144/14)

#### \* المهدي (بنو)

قامت دولة بني المهدي في اليمن (553هـ - 569هـ) وتنسب إلى  
الأمير «علي بن مهدي الحميري» الذي ينحدر من أسرة «الأغلب  
بن أبي الفوارس بن ميمون الحميري»، وقد عاش «آل المهدي»  
في قرية «العنبرة» من سواحل «زبيد». نشأ «علي بن المهدي»  
نشأة دينية، وحج البيت الحرام، ولقى العلماء وأخذ عنهم العلم،  
ونهل من المعارف حتى أصبح واعظاً بارعاً، وعالمًا فصيحًا،  
فاستمال القلوب حوله، وظهر أمره بساحل «زبيد»، فقربته «أم  
فاتك بن منصور»؛ لصلاحه وتقاه، وأغدقت عليه هو وأهله،  
حتى أصبحوا من الأثرياء، وباتوا قوة كبيرة التف حولها الناس

من كل مكان، في الوقت الذي ضعف فيه «آل نجاح»، ونظر  
إليهم اليمينيون على أنهم أحباش تحكموا في بلادهم، فسعى  
«علي بن المهدي» إلى طرد «آل نجاح» من السلطنة، وعمل على  
تحقيق ذلك جاهداً حتى تم له ما أراد في سنة (553هـ) بعد  
معارك طويلة، ثم أسس دولته التي سعد بها اليمينيون، لأن  
المهديين كانوا وطنيين امتاز مؤسس دولتهم بالعلم والخلق  
الطيب، فانضمت إليه جميع بلاد «اليمن» وذخائرها، إلا أن أمراء  
هذه الأسرة الذين جاءوا بعد «علي بن المهدي» مؤسس دولتهم  
اتجهوا إلى معاملة الناس بالقسوة والشدة؛ وانحرفوا عن الطريق  
التي رسمها الأمير «علي»، فتهيأ الجو لاستقبال أي فاتح  
يخلص «اليمن» منهم، فلم تدم دولتهم طويلاً لدخول الأيوبيين  
«اليمن». وولاة أسرة «المهدي» هم: 1 - «علي بن المهدي»  
(553هـ). 2 - «مهدى بن علي» (553 - 558هـ). 3 - «عبد النبي بن  
علي» (558 - 569هـ).

(145/14)

#### \*بنو يعفر (دولة)

بدأ نفوذ «بنو يعفر» في «شباب» بمضرموت سنة (225هـ)،  
وامتد نفوذهم إلى «صنعاء» عن طريق «جعفر بن علي  
الهاشمي» الذي ولى «عبدالرحيم بن إبراهيم الحوالمى الحميرى»  
اليمن نيابة عنه، فلما توفى «عبدالرحيم» قام ابنه «يعفر»  
مقامه، وصارع في ميادين عديدة، كان من أهمها: صراعه ضد  
«حمير بن الحارث» والى «اليمن»، وصراعه ضد «ابن زياد» حاكم  
«زبيد»، فلما توفى «ابن زياد» في سنة (245هـ) استقر سلطان  
«يعفر» في «صنعاء»، فبدأ بتأسيس دولته فيها، وتم له ذلك  
في سنة (247هـ)، فاعتبر المؤرخون هذه الدولة هي صاحبة

- الفضل في تحقيق استقلال «اليمن»، إلا أنها اختلفت اختلافاً واسعاً في عهد «محمد بن إبراهيم» نتيجة لاقتحام الأئمة والقرامطة البلاد، فعمت فيها الفوضى، وانتهت في سنة (387هـ). وأمراء «بني يعفر» بصنعاء هم: 1 - «يعفر بن عبدالرحيم» [247 - 259هـ]. 2 - «محمد بن يعفر» [259 - 279هـ]. 3 - «إبراهيم بن محمد بن يعفر» [279 - 285هـ]. 4 - «أسعد بن إبراهيم بن يعفر» [286 - 288هـ] وتولى مرة ثانية [303 - 332هـ]. 5 - «محمد بن إبراهيم» [332 - 352هـ].

(146/14)

---

#### \*همدان (بنو)

- قامت دولة بني همدان في اليمن عقب وفاة «سبأ الصليحي» سنة (492هـ) حيث مرت «صنعاء» بفترة اضطراب، وكان «حاتم الهمداني» أول من تولاهما بعد «سبأ» وكان رجلاً ذكياً محباً للنهضة، كما كان ابنه «محمد» شجاعاً وجواداً، فبقيت «صنعاء» في أيدي «بني حاتم» الهمدانيين حتى اضطرت أحوالها في نهاية عهدهم سنة (596)، وعمتها الفوضى، فمهد ذلك الطريق للأيوبيين، فضموها إلى سلطنتهم مع ما ضموه من «اليمن». وسلاطين الهمدانيين باليمن هم: 1 - «حاتم بن الغشم الهمداني». 2 - «هشام بن القبيب الهمداني». 3 - «حاتم بن أحمد بن عمران». 4 - «عبدالله بن حاتم». 5 - «حماس بن القبيب». 6 - «علي بن حاتم». 7 - «معن بن حاتم».

(147/14)

---

### \*زريع (بنو)

عندما استولى «الصليحي» على «اليمن» مد سلطانه إلى «عدن»، فوجد بها «بنى معن» الحميريين؛ فأبقاهم عليها بعد أن أظهروا ولاءهم له، فلما استقر الأمر -بعد ذلك - للمكرم الصليحي في «عدن» وما حولها جعل ولايتها «للعباس» و «مسعود» ابني «المكرم الجشمى بن يام بن أصبى الزريعى» وجعل «العباس» على حصن «التعكر» وما يليه من البر، وجعل «مسعود» على حصن «الخضراء» وما يليه من البحر وله كذلك «عدن»، فعظم سلطان «بنى زريع» وأصبحوا شبه مستقلين في هذه المناطق، وبخاصة بعد نهاية دولة الصليحيين. وسلاطين آل زريع هم: - في حصن التعكر 1 - «العباس بن المكرم» [470 - 477هـ]. 2 - «زريع بن العباس» [477 - 480هـ]. 3 - «أبو السعود بن زريع» [480 - 494هـ]. - في حصن الخضراء وعدن: 1 - «المسعود بن المكرم» [470 - 480هـ]. 2 - «أبو الغازات بن مسعود» [480 - 485هـ]. 3 - «محمد بن أبي الغازات» [485 - 488هـ]. 4 - «علي بن محمد» [488 - 489هـ].

(148/14)

### \*طاهر (بنو)

تمكن «عامر بن طاهر» من السيطرة على مقاليد السلطة في «اليمن» (858 هـ)، بعد أن أزال دولة «بنى رسول»، إلا أن الأمور لم تكن سهلة - آنذاك - فقد كان نفوذ الأئمة قويا، ورأوا أنهم أحق بالسيطرة على «اليمن» كله من الطاهريين، في حين طمع «بنو طاهر» في أن يكون لهم ملك «بنى رسول» في شمالي «اليمن» وجنوبيه، ونشب صراع مذهبي عنيف بين الفريقين، واستمر لفترة طويلة حتى تمكن الظافر الثاني «عامر

بن عبد الوهاب بن طاهر» من هزيمة الأئمة، فدانت له «اليمن» شمالاً وجنوباً، واستكمل الطاهريون ما بدأه «آل رسول» في بناء حضارة «اليمن»، فانتشرت في عهدهم المدارس والمساجد، واختطوا مدينة «المقرانة» في «رواع»، وشيدوا بها القصور العظيمة، وأقاموا الحدائق البديعة، وشهدت «اليمن» في عهدهم نهضة علمية عظيمة، وبرز فيها العلماء والمؤرخون، وبلغت العلوم الرياضية والفلكية والبحرية والجغرافية في عهدهم شأواً كبيراً، فكان «أحمد بن ماجد العدني»، و «سليمان المهري» من علماء هذا العصر، وتعلمذ على أيديهما البحارة والجغرافيون من البرتغاليين والأتراك، ولأحمد بن ماجد مؤلفات بلغ الموجود منها أربعين مؤلفاً في الجغرافيا والملاحة وأحوال البحار وطرقها، وظل الطاهريون في دأبهم من أجل بناء حضارة «اليمن» حتى جاءت نهايتهم على أيدي المماليك في سنة (945هـ) بحجة حماية طرق التجارة. وسلاطين بني طاهر هم: 1 - الظافر (الأول) - 870 - «عامر بن طاهر» [857 - 870هـ]. 2 - المجاهد علي بن عمر» [870 - 883هـ]. 3 - «المنصور عبد الوهاب بن طاهر» [883 - 894هـ]. 4 - الظافر (الثاني) «عامر بن عبد الوهاب» [894 - 923هـ]. 5 - «عامر بن داود بن طاهر» [929 - 945هـ] (احتفظ «عامر» بعدن حتى سنة 945هـ).

(149/14)

### \* العيونيون

«العيونيون» فرع من «بني عبد القيس»، وكانوا يسكنون على مشارف «العيون» بالإحساء، وكان منهم «عبدالله بن علي العيونى» الذى ثار على القرامطة وقضى عليهم، ثم سيطر «العيونيون» على «البحرين» وبدأ حكمهم فيها في عام

(467هـ)، وشمل «الإحساء»، و «البحرين»، و «القطيف»، فنعمت البلاد في عهدهم بالاستقرار والهدوء وانتعشت التجارة، واتسع ملكهم حتى شمل «نجد»، وتميز عهدهم بالحضارة العلمية الزاهرة، وظل الأمر مستقراً في «البحرين» حتى نشبت الصراعات والخلافات الداخلية من جديد، فهياً ذلك الفرصة أمام الفرس لدخولها. وأهم أمراء «العيونيين» هم: 1 - «الفضل بن عبدالله بن علي». 2 - «محمد بن الفضل». 3 - «محمد بن أحمد بن عبدا

(150/14)

#### \*البيزنطية (دولة)

الإمبراطورية البيزنطية أو الرومانية أو كما عرفها المسلمون بدولة الروم، التي نزل في بعض شأنها سورة الروم في القرآن الكريم، إمبراطورية امتدت ما بين القرنين (4، و 15م)، عاصمتها القسطنطينية (إستانبول حالياً)، وسميت بالبيزنطية نسبة إلى مدينة بيزنطة التي أسس فيها الإمبراطور قسطنطين مدينة القسطنطينية. بلغت الإمبراطورية البيزنطية أقصى اتساع لها خلال النصف الأول من القرن الرابع الميلادي؛ فكانت حدودها من الفرات شرقاً حتى بريطانيا غرباً، ومن الدانوب شمالاً حتى النوبة جنوباً، وانتهى بها الأمر في مطلع القرن (15م) إلى أن تكون القسطنطينية هي الإمبراطورية كلها. ومرجع تقلصها إلى هذا الحد هو تداعي الأمم المجاورة لها عليها واقتضامها منها، بدءاً بالفرس وانتهاءً بالعثمانيين ومروراً بالجرمان (قوط شرقيين وغربيين، والفرنجة، والأنجلو) والبرجنديين، والوندال واللومبارد، ثم الأفار، فالمسلمين في عصر الراشدين والأمويين، ثم الصرب والكروات والبوشناق والجيار والبلغار، فالأتراك

السلاجقة فالنورمان، ثم الصليبيين، حتى انتهى الأمر إلى زوالها على يد السلطان محمد الفاتح سنة (1453م). وأهم الضربات الموجعة التي أثرت في تاريخ البيزنطيين هي: 1 - التهام النصف الغربي كله الذي يضم إيطاليا وغالة (فرنسا حاليًا) وإسبانيا وبريطانيا وتونس وطرابلس ونوميديا (الجزائر حاليًا)، كل ذلك على يد الشعوب الجرمانية المتخلفة حضاريًا، وذلك خلال القرنين (4، و 5 م)؛ مما أفقد الإمبراطورية نصفها اللاتيني، وعجل بتحويلها إلى عصر بيزنطي. 2 - ضم المسلمين لبلاد الشام ومصر وشمال إفريقيا. 3 - استيلاء الحملة الصليبية الرابعة على القسطنطينية سنة (607هـ = 1204م)، حتى نجح الإمبراطور ميخائيل الثامن في استردادها سنة (659هـ = 1261م)، غير أن الإمبراطورية العائدة لم تقدم - خلال ما بقي من عمرها - إلا مزيدًا

(151/14)

من الهوان، على حساب عقيدتها الأرثوذكسية التقليدية لصالح الكاثوليكية في الغرب الأوربي. وكان رخاء الإمبراطورية الحقيقي حتى الربع الأول من القرن (11م)؛ حيث نَحَجَ البيزنطيون نَحَجَ الرومان الأجداد؛ إذ اعتبروا القانون عصب الحياة، فأعطوا التشريعات اهتمامهم ما بدأه الأسلاف، وخلفوا لنا مجموعات قانونية متميزة. ومن الشخصيات المؤثرة في الحياة البيزنطية العامة: الإمبراطور قسطنطين الذي بنى العاصمة، واعتنق المسيحية واعترف بها ديانة شرعية، والإمبراطور ثيودوسيوس الأول (379 - 395م)، وجوستينيان صاحب المجموعة القانونية الشهيرة، والإمبراطور هرقل، والإمبراطور ليو الثالث الأيزوري، الذي نجح في فك الحصار الثالث على القسطنطينية في عهد الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك. وتكتمل هذه الشخصيات

بأباطرة الأسرة المقدونية، الذين شهدت الإمبراطورية عصرها الذهبي على أيديهم، وقد تركت الإمبراطورية البيزنطية أثرًا حضاريًا كبيرًا، فأفاد المسلمون منها في ترجمة كثير من الكتب المؤلفة في مختلف فروع المعرفة، لكن الأثر الأكثر عمقًا كان في حياة الصرب والبلغار والروس، أو بعبارة أخرى في منطقة البلقان، وكان في النواحي العقيدية والفكرية والفنية والأدبية.

(152/14)

### \*البيزنطيون

الإمبراطورية البيزنطية أو الرومانية أو كما عرفها المسلمون بدولة الروم، التي نزل في بعض شأنها سورة الروم في القرآن الكريم، إمبراطورية امتدت ما بين القرنين (4، و 15م)، عاصمتها القسطنطينية (إستانبول حاليًا)، وسميت بالبيزنطية نسبة إلى مدينة بيزنطة التي أسس فيها الإمبراطور قسطنطين مدينة القسطنطينية. بلغت الإمبراطورية البيزنطية أقصى اتساع لها خلال النصف الأول من القرن الرابع الميلادي؛ فكانت حدودها من الفرات شرقًا حتى بريطانيا غربًا، ومن الدانوب شمالًا حتى النوبة جنوبًا، وانتهى بها الأمر في مطلع القرن (15م) إلى أن تكون القسطنطينية هي الإمبراطورية كلها. ومرجع تقلصها إلى هذا الحد هو تداعى الأمم المجاورة لها عليها واقتضامها منها، بدءًا بالفرس وانتهاءً بالعثمانيين ومرورًا بالجرمان (قوط شرقيين وغربيين، والفرنجية، والأنجلو) والبرجنديين، والوندال واللومبارد، ثم الأفار، فالمسلمين في عصر الراشدين والأمويين، ثم الصرب والكروات والبوشناق والجيار والبلغار، فالأتراك السلاجقة فالنورمان، ثم الصليبيين، حتى انتهى الأمر إلى زوالها على يد السلطان محمد الفاتح سنة (1453م). وأهم الضربات

الموجعة التي أثرت في تاريخ البيزنطيين هي: 1 - التهام النصف الغربي كله الذي يضم إيطاليا وغالة (فرنسا حاليًا) وإسبانيا وبريطانيا وتونس وطرابلس ونوميديا (الجزائر حاليًا)، كل ذلك على يد الشعوب الجرمانية المتخلفة حضاريًا، وذلك خلال القرنين (4، و 5 م)؛ مما أفقد الإمبراطورية نصفها اللاتيني، وعجل بتحويلها إلى عصر بيزنطي. 2 - ضم المسلمين لبلاد الشام ومصر وشمال إفريقيا. 3 - استيلاء الحملة الصليبية الرابعة على القسطنطينية سنة (607هـ = 1204م)، حتى نجح الإمبراطور ميخائيل الثامن في استردادها سنة (659هـ = 1261م)، غير أن الإمبراطورية العائدة لم تقدم - خلال ما بقي من عمرها - إلا مزيدًا

(153/14)

من الهوان، على حساب عقيدتها الأرثوذكسية التقليدية لصالح الكاثوليكية في الغرب الأوربي. وكان رخاء الإمبراطورية الحقيقي حتى الربع الأول من القرن (11م)؛ حيث نَحَجَّ البيزنطيون نَحَجَّ الرومان الأجداد؛ إذ اعتبروا القانون عصب الحياة، فأعطوا التشريعات اهتمامهم ما بدأه الأسلاف، وخلفوا لنا مجموعات قانونية متميزة. ومن الشخصيات المؤثرة في الحياة البيزنطية العامة: الإمبراطور قسطنطين الذي بنى العاصمة، واعتنق المسيحية واعترف بها ديانة شرعية، والإمبراطور ثيودوسيوس الأول (379 - 395م)، وجوستنيان صاحب المجموعة القانونية الشهيرة، والإمبراطور هرقل، والإمبراطور ليو الثالث الأيزوري، الذي نجح في فك الحصار الثالث على القسطنطينية في عهد الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك. وتكتمل هذه الشخصيات بأباطرة الأسرة المقدونية، الذين شهدت الإمبراطورية عصرها الذهبي على أيديهم، وقد تركت الإمبراطورية البيزنطية أثرًا

حضارياً كبيراً، فأفاد المسلمون منها في ترجمة كثير من الكتب المؤلفة في مختلف فروع المعرفة، لكن الأثر الأكثر عمقاً كان في حياة الصرب والبلغار والروس، أو بعبارة أخرى في منطقة البلقان، وكان في النواحي العقيدية والفكرية والفنية والأدبية.

(154/14)

### \*الأفطس (بنو)

أسرة أندلسية، قيل: إن أصولها عربية ترجع إلى قبيلة تَجِيب العربية الأصل، ولكن غالبية المؤرخين ينسبونها إلى قبيلة مكناسة البربرية، التي استقرت بمنطقة فحص البلوط جنوبي قرطبة. وترجع بداية ظهور هذه الأسرة إلى عبد الله بن محمد بن مسلمة بن الأفطس، الذي استعان به سابور العامريّ بعدما سيطر على مدن بطليوس وإشبونة وقلمرية، فتفتحت ملكاته وخبراته في الإدارة؛ قال إليه الأمر بعد وفاة سابور العامريّ. واستقل ابن الأفطس بهذه المملكة الصغيرة اعتباراً من سنة (413 هـ) وتلقب بالمنصور ولم يصعب عليه التخلص من ابني سابور. وكان موقع مملكة بطليوس يجعلها مطمئناً للممالك المجاورة لها، بالإضافة إلى تطلع نصارى الشمال الدائم إلى السيطرة عليها هي وغيرها، فتصارعت مملكتا بطليوس وإشبيلية بسبب تنافسهما في الاستيلاء على مدينة باجة. وظل الصراع بين المملكتين إلى أن وحدهما الخطر الصليبي. وفي سنة (427 هـ) تولى أمر بطليوس محمد بن عبد الله بن الأفطس، الذي لُقِّب بالمظفر بعد وفاة أبيه، وقد كان عالماً فارساً شجاعاً، استطاع مقاومة الضربات الشديدة التي وجهها إلى دولته المعتضد بن عباد، حاكم إشبيلية، والمأمون صاحب طليطلة. وهذه الحروب أدت إلى ضعف الممالك الأندلسية الإسلامية، وطمع فرناندو ملك

قشتالة فيها جميعًا. وبالفعل، فقد اجتاحت فرناندو شمالي بطليوس دون ممانع له، ثم شننترين وأُجبر ابن الأفطس على الصلح ودفع الجزية، وعلى الرغم من هذا غزا القشتاليون قلمرية، وهي من كبرى مدن غربي الأندلس، وأوقعوا بأهلها مذبحاً رهيباً، وأجبروهم على إخلاء جميع الأراضي المتاخمة لمملكتهم. ولم يستطع ابن الأفطس صدّ عدوان النصارى، فلما توفّي سنة (461هـ) خلفه ولده يحيى الملقب بالمنصور؛ فنازعه أخوه عمر واستمر تصارعهما إلى أن توفّي يحيى بن المنصور سنة (464 هـ) فانفرد عمر بالأمر، ولقب بالمتوكل على الله،

(155/14)

فحسنت إدارته وأصبح من أشهر أمراء الطوائف عامةً وأبقاهم ذكراً. وكان من مواقفه أنه كان عوناً لأهل طليطلة ونجدة لهم، حين شدد ألفونسو السادس على طليطلة، وعندما استولى ألفونسو السادس على طليطلة شارك عمر في الكتابة إلى يوسف بن تاشفين، أمير المرابطين يستنجد به، فانتهى الأمر بمواجهة حاسمة بين القشتاليين من جهة وقوات المرابطين وقوات دويلات الطوائف الإسلامية بالأندلس من جهة أخرى في موقعة عظيمة، عرفت باسم الزلاقة شمالي بطليوس فانتصر المسلمون، وامتد بقاؤهم على أرض الأندلس عدة قرون أخرى، فلما ظهر الخلاف مرة ثانية بين ملوك الطوائف، لم يتردد ابن تاشفين في خلعهم عن عروشهم وتوحيد دولة الإسلام في المغرب والأندلس. وتم فتح بطليوس للمرابطين سنة (488 هـ). وهكذا سقطت دويلة بني الأفطس، وانتهت أسرتهم التي حكمت في غربي الأندلس ما يقرب من ثمانين عامًا، كان لهم خلالها أثر سياسى وأدبى مهم في تاريخ هذه المنطقة.

**\*آق قيونلو (دولة)**

عشيرة تركمانية كبيرة، هاجرت من تركستان إلى أذربيجان ثم إلى أطراف ديار بكر، واستقرت بين آمد والموصل، من نهر جيحون شرقاً إلى الفرات غرباً. وآق قيونلو معناه: القطيع الأبيض، وينسبون إلى أوغوزخان، ولكون حفيده يُسمى بايندر، نُسبت إليه الدولة فقبيل لها: بايندرية، واشتهر من أمرائها أوزون حسن الذى نقل عاصمته إلى تبريز. واشترك فى قتال السلطان العثمانى محمد الفاتح، وبعد مقتل أحمد كوده بن أوغورلى انقسم أمراء آق قيونلو إلى فرقاء؛ فاختار كل فريق حاكمًا من الأسرة. فكان مراد بن يعقوب حفيد أوزون حسن فى شيروان، وألوند بن يوسف فى أذربيجان، وأخوه محمدى ميرزا فى نيرد، كل واحدٍ منهم يحكم فى منطقتة، فتغلب ألوند ومراد على محمدى ميرزا، وقتل محمدى بالقرب من أصبهان سنة (905هـ)، وانهمز ألوند سنة (907هـ) أمام إسماعيل الصفوى، وفرَّ إلى بغداد ثم إلى ديار بكر ومات فى أواخر سنة (910هـ). وفى أواخر سنة (908هـ) هُزم مراد بن يعقوب أمام إسماعيل الصفوى ثم فرَّ إلى بغداد، ثم فرَّ منها أيضًا بعد تحرك الصفوى نحوها.

**\*الخطا (مملكة)**

هى دولة كبيرة، قامت قبيل الغزو المغولى للعالم الإسلامى، وكانت تقع ما بين مملكة الخوارزميين فى الغرب ومساكن المغول فى الشرق، وكان نهر سيحون يشكّل حدًّا فاصلاً بين ممالك

القراخطائين والدولة الخوارزمية. والخطا مجموعة من القبائل التي نزحت من شمال الصين بعد انهيار دولتها هناك سنة (519هـ = 1125م)، وقد استقرت هذه القبائل في غرب إقليم التركستان إبان العصر السلجوقي، وكونت دولة عُرفت باسم الخطا أو القراخطائين، وعملت على توسيع مملكتها الجديدة شرقاً وغرباً؛ حيث امتدت حدودها من صحراء جوبي إلى نهر سيحون، ومن هضبة التبت إلى سيبريا. وكانت هذه القبائل لا تكف عن الإغارة على البلاد الإسلامية؛ حيث كانت الخطا تدين بالبوذية؛ فاشتبك جيشها مع السلطان السلجوقي سنجر في معركة قطوان (في سمرقند حالياً) سنة (536هـ = 1141م)، وقد انتهت هذه المعركة بانتصار الخطا وقتل (100) ألف جندي سلجوقي، وبذلك قامت دولة الخطا في بلاد ما وراء النهر، واستمر الخطا في حكمها لمدة (89) سنة، ودفع الخوارزميون جزية سنوية حتى عهد السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه الذي استطاع - بمساعدة بعض القوى الأخرى خاصة المغول - القضاء على الخطا سنة (607هـ = 1210م). وكانت دولة الخطا تقف سداً منيعاً بين المسلمين والمغول؛ لذلك تعرض العالم الإسلامي لهجمات التتار.

(158/14)

#### \*القراخطائية

هي دولة كبيرة، قامت قبيل الغزو المغولي للعالم الإسلامي، وكانت تقع ما بين مملكة الخوارزميين في الغرب ومساكن المغول في الشرق، وكان نهر سيحون يشكل حداً فاصلاً بين ممالك القراخطائين والدولة الخوارزمية. والخطا مجموعة من القبائل التي نزحت من شمال الصين بعد انهيار دولتها هناك سنة (519هـ = 1125م)، وقد استقرت هذه القبائل في غرب إقليم التركستان

إبان العصر السلجوقي، وكونت دولة عُرفت باسم الخطا أو القراخانيين، وعملت على توسيع مملكتها الجديدة شرقاً وغرباً ؛ حيث امتدت حدودها من صحراء جوبي إلى نهر سيحون، ومن هضبة التبت إلى سيبيريا. وكانت هذه القبائل لا تكفُّ عن الإغارة على البلاد الإسلامية؛ حيث كانت الخطا تدين بالبوذية؛ فاشتبك جيشها مع السلطان السلجوقي سنجر في معركة قطوان (في سمرقند حالياً) سنة (536هـ = 1141م)، وقد انتهت هذه المعركة بانتصار الخطا وقتل (100) ألف جندي سلجوقي، وبذلك قامت دولة الخطا في بلاد ما وراء النهر، واستمر الخطا في حكمها لمدة (89) سنة، ودفع الخوارزميون جزية سنوية حتى عهد السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه الذي استطاع - بمساعدة بعض القوى الأخرى خاصة المغول - القضاء على الخطا سنة (607هـ = 1210م). وكانت دولة الخطا تقف سداً منيعاً بين المسلمين والمغول؛ لذلك تعرض العالم الإسلامي لهجمات التتار.

(159/14)

#### \*واداي (مملكة)

إحدى الممالك الإفريقية القديمة. قامت في منطقة تشاد في القرن (3 هـ = 10 م). وأول من سكنها التنجر، وأسسوا بها مملكة واسعة الأرجاء، وكانت عاصمتها كتم، وبسطت هذه المملكة نفوذها على دارفور حتى أوائل القرن السابع عشر؛ إذ استولى أحد مجاهدي دار فور وهو عبد الكريم بن جماع سنة (1615 - 1655 م) على السلطة في دار فور، وخلع سلطة واداي، بل وبسط نفوذه عليها حتى جعلها تدفع الجزية له. وفي بداية القرن (18م) رفض السلطان يعقوب إدريس أحد سلاطين واداي دفع الجزية لدارفور، واستقلت مملكة واداي عنها. وفي سنة

(1785م) بسطت واداي نفوذها على مملكة باقيرمي المجاورة، وفي سنة (1833م) خلع سلطان دارفور سلطان واداي، وعين سلطاناً آخر تابعاً له هو محمد الشريف، وفي سنة (1871 م) عاودت مملكة واداي غزو مملكة باقيرمي ومناطق أخرى حولها، وعاشت المملكة بعد ذلك في فتن واضطرابات داخلية ومؤامرات حتى أوائل القرن العشرين؛ إذ بسط الفرنسيون نفوذهم عليها. وقد لعبت مملكة واداي دوراً كبيراً في نشر الإسلام واللغة العربية والثقافة الإسلامية في تشاد، كما أنها استخدمت اللغة العربية في الدواوين والشريعة الإسلامية في الحكم. وقد ضُمت إلى جمهورية تشاد بعد حصول تشاد على الاستقلال سنة (1960م).

(160/14)

#### \*الإسبان

هم معظم سكان شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا والبرتغال). وهم أجناس مختلفة يتكونون من الأيبيريين والفينيقيين والإغريق والقرطاجنيين. ولما استولت روما على أيبيريا في أواسط القرن الثاني قبل الميلاد وكان جيش روما خليطاً من شعوب أوربية مختلفة، واستوطن أيبيريا بعض الأسر الرومانية وأشاعت فيها حضارتها ولغتها، كوّن كل هؤلاء جزءاً من سكان أيبيريا الإسبان، وأطلقت روما على أيبيريا اسم إسبانيا. كما أضاف الفتح الإسلامي إلى هذه العناصر البشرية الكثيرة عناصر جديدة آسيوية وإفريقية من العرب. وبهذا يمثل الإسبان العناصر البشرية للعالم القديم (آسيا، وإفريقيا، وأوروبا). واللغة الإسبانية هي اللغة المنتشرة بين الإسبان، وتوجد بعض اللغات الأخرى، مثل: لغة الباسك ولغة الكتالانية.

\*البرامكة

أسرة فارسية الأصل، اعتنقت الإسلام، وشاركت في قيام الدولة العباسية، وتولى أبنائها المناصب الكبيرة فيها. تُنسب إلى برمك خادم معبد النوبخار البوذي في بلخ، وخالد بن برمك أول برمكى اتصل بالعباسيين، وأصبح من كبار دعاةهم، وأسند إليه أبو العباس السفاح سنة (132هـ) ديوان الخراج وديوان الجند، وجعله بمنزلة وزيره، وولاه حكم فارس والري وطبرستان. ولما تُوفّي خالد، أسند المهدي أعماله إلى ابنه يحيى بن خالد، وعهد إليه بالإشراف على دواوين ابنه هارون الرشيد، ولما تُوفّي المهدي وتولى المهدي حاول أن يخلع أخاه هارون عن ولاية العهد، غير أن يحيى بن خالد استطاع أن يصرف المهدي عن فكرته، فلما آلت الخلافة إلى هارون دفع إلى يحيى بن خالد خاتم الخلافة، فصار بيده الحل والعقد، فقلد ابنه الفضل بن يحيى المشرق كله؛ فأزال ما وقع على الناس من ظلم، ونجح فالقضاء على الخارجين على الخلافة، وهو أول من أشعل القناديل في المساجد في أثناء شهر رمضان، كما قلّد يحيى ابنه جعفرًا المغرب كله، وأقام هو بحضرة الرشيد، إذ أذن له الرشيد بالنظر فالمظالم، وأن يظهر اسمه على سكة الخليفة (العملة)، كما عهد إليه بتأديب ابنه المأمون، وأسند إلى الفضل بن يحيى تربية الأمين، وتولى موسى بن يحيى الشام سنة (176هـ)، وتولى محمد بن خالد أخو يحيى منصب الحجابة في بلاط الخلافة. وظل يحيى بن خالد وأولاده يتولون أمور الدولة سبعة عشر عامًا، كانوا خلالها المتصرفين في جميع شئون الدولة، حتى إذا كانت سنة (187هـ) فنكبهم الرشيد نكبتهم المشهورة، بعد أن بلغوا من القوة والسلطان مبلغًا عظيمًا،

فسعى لنكبتهم بالتدرج؛ فعزل محمد بن خالد بن برمك عن  
الحجابة، وقلدها الفضل بن الربيع، وبعد عودته من الحج سنة  
(186هـ) نزل ناحية العمر بالأنبار، وأمر خادمه مسروراً بقتل  
جعفر بن يحيى وحبس يحيى بن خالد وابنه الفضل ومصادرة

(162/14)

---

أموالهم وممتلكاتهم، ولم يستثن الرشيد من ذلك سوى محمد بن  
خالد وولده وأهله وخدمه. والسبب الرئيسي وراء النكبة خفي؛  
وإن كان للفضل بن الربيع في ذلك اليد الطولى. وقد اتهم عددٌ  
من المؤرخين البرامكة بالزندقة، كالبيهادى وابن النديم وأهم  
من باطنية الجوس. وقد عُني البرامكة بالعلم والأدب أيما عناية،  
ونُضوا بشئون الثقافة وتديير الحكم فبلغت الإدارة في ظل  
البرامكة ذروة التنظيم؛ وكانوا طليعة نهضة فكرية.

(163/14)

---

\*الإغريق

هم سكان شبه جزيرة البلقان، الذى عُرف عند العرب باسم بلاد  
اليونان وعرف سكانه أيضاً باسم الهيلينيين. وقد شمل التوسع  
الإغريقي مناطق في آسيا الصغرى والبحر الأسود. وأهم  
المستعمرات التى أقاموها كانت في بيزنطة (التي أصبحت  
عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية)، وفي ليبيا، ومصر،  
وإسبانيا، وفرنسا، وحظيت إيطاليا وصقلية بالنصيب الأوفر من  
نشاط المستعمرين الإغريق. وفي العصر الحجرى الحديث وفدت  
إلى بلاد الإغريق عناصر من غربى آسيا الصغرى، وامتزجوا  
بالشعوب التى هبطت من الشمال، وكانت المينوية من سنة

(3000 – 1400 ق. م) تقريبًا، من أهم الحضارات في هذه المنطقة. وينقسم تاريخ المينوية إلى ثلاث مراحل، (الأولى) تقارب عصر بناء الأهرامات في مصر، و (الوسطى) انتقلت الحضارة فيها من الشرق إلى الوسط، حيث ازدهرت مدينة كنوسس العاصمة، وازدادت سلطة الحاكم الذي كان يحمل لقب مينوى، الذى نسبت إليه الحضارة، و (الثالثة) تميزت بعمق العلاقات بين مصر وكريت، التى سكنها الإغريق، كما وقع حريق مدمر في الجزيرة في أواخر هذا العصر. وبعد ذلك انتقل الثقل الحضارى إلى جنوبي بلاد الإغريق وسُميت بالحضارة الموكينية، وكان مركزها مدينة موكيناى. وأهم أحداث هذه العصر حرب طروادة، التى سجلها الشاعر اليونانى هوميروس فى ملحمة الإلياذة. وكانت نهاية الموكينية خلال القرن الثانى عشر قبل الميلاد، على يد الدوريين الوافدين من الشمال، الذين احتلوا الجزء الجنوبي من بلاد اليونان، وعجزوا عن اقتحام مدينة أثينا. وقد أقام الدوريون عدة مدن، أشهرها إسبرطة، التى نافست أثينا على زعامة الإغريق. وبعد السنوات الألف الأولى من غزو الدوريين أصبح نظام دويلات المدن هو النظام السائد فى بلاد الإغريق، الذين كانوا يعتقدون أن نظام دول المدينة هو النظام الأمثل، وما عداه تخلف. وكانت أثينا كبرى هذه الدويلات، ولكن هذا النظام

(164/14)

---

شردم الإغريق؛ فطمع فيهم الفرس الذين دمروا أثينا سنة (480 ق. م) فاضطر الإغريق إلى الاتحاد، وكونوا حلفًا عسكريًا للتصدى للفرس، عُرف باسم حلف ديبوس، الذى لم تنضم إليه إسبرطة، بل أخذت فى إقامة حلف آخر، فأدى ذلك إلى قيام حرب البليونيز، التى استمرت من سنة (431 – 404 ق. م)، حتى

حققت إسبرطة في النهاية انتصارًا عسكريًا، بعد أن استنزفت هذه الحرب قوى الإغريق عدا مقدونيا، التي لم تشترك في الحرب، واستطاعت فرض الوحدة على الإغريق على يد فيليب الثاني، الذي قهر ابنه الإسكندر الأكبر بلاد فارس وأسقط إمبراطوريتها. وكانت أثينا مدرسة الإغريق وعاصمتهم الثقافية على طول عهدها، رغم الحروب.

(165/14)

### \*الرومان

لفظة تطلق في الأصل على سكان مدينة روما. والرومان شعوب استقرت ابتداءً من القرن الثاني عشر قبل الميلاد في حوض نهر التيبير في أواسط إيطاليا، وقامت بتأسيس مدينة روما القديمة في نحو القرن الثامن قبل الميلاد، وبدأت بالتوسع تدريجيًا عبر سلسلة من الحروب حتى سيطرت على شبه الجزيرة الإيطالية وتقدمت منه حتى سيطرت على معظم العالم القديم في آسيا وإفريقيا وأوروبا. وبذلك سيطر الرومان على مقدرات العالم وخاضوا حروبًا عديدة ضد القرطاجيين والفرس، وتدفقت الأموال إلى روما، إلا أن الإمبراطورية الرومانية بدأت في الانحطاط، خاصة بعد تزايد التنافس على السلطة، وهجمات القبائل الجرمانية. وبعد تأسيس الإمبراطور قسطنطين لمدينة القسطنطينية سنة (330 م)، تراجعت أهمية روما وصداقتها حتى انقسمت الإمبراطورية الرومانية سنة (337 م) إلى الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وعاصمتها بيزنطة، والإمبراطورية الرومانية الغربية، وعاصمتها روما. واستمرت الإمبراطورية الرومانية الغربية قائمة حتى غزتها القبائل الجرمانية وسيطرت على روما سنة (476 م). وانقسمت بعد ذلك الإمبراطورية الغربية إلى عدة

دول، أما الإمبراطورية الشرقية فقد استمرت حتى فتحها  
العثمانيون واستولوا على القسطنطينية سنة (1453 م).

(166/14)

### \* غانة الإسلامية (دولة)

«غانة» التي نقصدها بهذا الحديث ليست هي «غانا» التي تقع  
اليوم في أقصى الجنوب من غرب إفريقيا وعاصمتها «أكرا»  
وإنما هي التي تقع بين منحنى «النيجر» و «نهر السنغال»،  
وتضرب حدودها في جنوبي «موريتانيا» الحالية، وكانت  
عاصمتها مدينة تُسمّى «كومبي» وتقع على بعد (200) ميل  
شمال «باماكو» عاصمة دولة «مالي» الحالية. وكانت غانة  
القديمة متسعة النفوذ والسلطان حتى قيل عنها: إنها كانت  
إمبراطورية خضع لها معظم بلاد «السودان الغربي» في النصف  
الأول من العصور الوسطى. وتعد هذه الدولة أو الإمبراطورية من  
أقدم ممالك غربي إفريقيا شمال نطاق الغابات، ويرجع تاريخ  
نشأتها إلى الفترة ما بين القرن الثالث والرابع الميلاديين، ويبدو  
أن كلمة «غانة» كانت لقبًا يطلق على ملوكهم، ثم اتسع مدلول  
هذا الاسم حتى أصبح يطلق على العاصمة والإمبراطورية. وقد  
قامت هذه الدولة على يد جماعة من البيض وفدوا من الشمال،  
وكان أول ملوكهم المدعو «كازا» قد اتخذ مدينة «أوكار» قرب  
«تمبكت» الحالية عاصمة له، وكان الشعب يتكون من قبائل  
«السوننك»، وهي أحد فروع شعب «الماندى» الذي يسكن  
معظم نواحي غرب إفريقيا. واستطاعت هذه الدولة منذ أواخر  
القرن الثامن الميلادى، وبعد أن انتقل الحكم إلى فرع  
«السوننكى» - أن تخضع بلاد «فوتا» حيث التكرور والولوف  
والسرير، ووصل هذا التوسع إلى نهايته القصوى في مستهل

القرن الحادى عشر للميلاد، فأصبحت «غانة» تسيطر على المسافات الممتدة من أعالي «نهر السنغال» وأعلى «نهر النيجر»، وامتد نفوذها إلى موقع «تمبكت» شرقاً وبلاد «التكرور» أو «السنغال» غرباً، وينابيع نهر «النيجر» جنوباً، وأغلب الصحراء الغربية (موريتانيا حالياً) شمالاً، وانتقلت عاصمتها إلى مدينة «كومبي» أو «كومبي صالح» وهى نفسها مدينة «غانة». وقد اعتمدت إمبراطورية «غانة» على التجارة كمصدر رئيسى فى اقتصادها خاصة تجارة الذهب، حتى صارت

(167/14)

تعرف ببلاد الذهب، وأصبح ملوك «غانة» من أغنى ملوك الأرض؛ بفضل سيطرتهم على الطرق المؤدية إلى مناجم الذهب والتي كانت تقع فى منطقة «وانقارة» أو «وانجارة» جنوبي مملكة «غانة». وقد أدى رواج التجارة إلى أن أصبحت «غانة» (العاصمة «كومبي صالح») أكبر أسواق بلاد «السودان»، ودخل الإسلام إليها سلمياً عن طريق التجار والدعاة المسلمين، ويتبين هذا من رواية «البكرى» الذى زار هذه البلاد فى عام (460هـ = 1068م)، وذكر أن مدينة «غانة» مدينتان يحيطهما سور، إحداهما للمسلمين وبها اثنا عشر مسجداً، يُعَيَّن لها الأئمة والمؤذنون، والقضاة، أما المدينة الأخرى، فهى مدينة الملك وتسمى بالغبابة، وبها قصر الملك ومسجد يصلى فيه من يَفدُّ عليه من المسلمين. ويضيف «البكرى» أن مترجمى الملك وصاحب بيت ماله وأكثر وزرائه كانوا من المسلمين، وهذا يدل على أن الإسلام قد انتشر بين زنوج غربى إفريقيا لدرجة أن شعب «التكرور» بأكمله أسلم على يد الملك «وارجابى بن رابيس» الذى توفى عام (432هـ = 1040م)، كذلك امتد الإسلام إلى مدينة

«سلى» التى تقع بين «التكرور» و «غانة»، وإلى مدينة «غيارو» التى تبعد عن مدينة «غانة» مسيرة (18) يوماً. ويتحدث «البكرى» عن مملكة أخرى هى مملكة «ملل» ويقصد بها مملكة «مالى» التى تقع جنوبى مملكة «غانة»، ويقول: إن ملكها يعرف بالمسلماني لأنه أعلن إسلامه على يد أحد الفقهاء المسلمين الذى خرج معه للاستسقاء بعد أن أجذبت البلاد وكاد الناس يهلكون، ولما استجاب الله وهطل المطر أمر الملك بتحطيم الدكاكير (أى الأصنام)، وأخرج السحرة من بلاده، وأسلم هو وأهله وخاصته وحسن إسلامهم، على الرغم من أن أغلب أهل مملكته كانوا وثنيين. ويتحدث «البكرى» أيضاً عن مدن أخرى أهلها مسلمون مثل مدينة «كوفمة» ومدينة «الوكن» ومدينة «كوكو» عند انحناءة «نهر النيجر» تجاه بلاد «الهوسا»، والمدينة الأخيرة مدينتان، مدينة الملك ومدينة المسلمين، ويبدو

(168/14)

---

أن ملكهم كان مسلماً، بدليل ما يذكره «البكرى» من أن ملكهم كان يتسلم عند تنصيبه خاتماً وسيفاً ومصحفاً، يزعمون أن أمير المؤمنين بعثها إليه. ويصرح «البكرى» فى نهاية حديثه بأن ملكهم مسلم ولا يتولى العرش أحد من غير المسلمين. وحتى يسير الإسلام فى مجراه الطبيعى ويستقر بين هذه الشعوب التى آمنت به، وحتى ينتهى دور «غانة» فى مناهضة الإسلام والاعتداء على القبائل المسلمة كان الهدف الأساسى الذى كرس له الأمير «أبو بكر بن عمر اللمتونى» زعيم «الملثمين» جهوده هو الاستيلاء على «غانة» وإخضاعها لدولة المرابطين التى أقامها هؤلاء «الملثمون» من قبائل صنهاجة. وعلى الرغم من أن أغلب المصادر تغفل تفاصيل جهاد هذا الأمير فى بلاد «السودان

الغربي» فإننا نعرف أنه استطاع أن يفتح مملكة «غانة»، وأن يستولى على العاصمة عام (469هـ = 1076م) ويسقط الحكومة الغانية الوثنية. ومنذ ذلك الوقت يمكن أن يؤرخ لإمبراطورية «غانة» الإسلامية حتى اختفائها من التاريخ في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي. فقد أضحت حكومتها إسلامية، ويقال إن ملكها اعتنق الإسلام بدليل أن المرابطين تركوه في الحكم بعد أن أعلن الخضوع ودفع الخراج لهم. وبإسلام هذا الملك دخل عدد كبير من سكان المملكة في الإسلام. ولم تستمر سيطرة المرابطين على «غانة»؛ إذ سرعان ما تخلّصت من هذه السيادة على أثر اغتيال الأمير «أبي بكر» أمير المرابطين عام (480هـ = 1087م) على يد أتباع أحد زعماء قبائل «الموسى» بجنوب «داهومي» وانتهزت بلاد «السودان الغربي» هذه الفرصة وما تبعها من اضطراب الجيوش المرابطية هناك بعد موت قائدها فأعلنت «غانة» استقلالها وانفصالها عن الدولة المرابطية، ونقضت تبعيتها لها، وفي الوقت نفسه استطاعت بعض الولايات التي كانت تابعة لإمبراطورية «غانة» أن تنفصل هي الأخرى وتستقل في حكمها، مثل مملكة «أنبارة» وولاية «ديارا» و «كانياجا»،

(169/14)

وأصبحت ممالك مستقلة، بينما أصبحت سلطة ملوك «غانة» لا تتعدى «أوكار» و «باسيكورو» مما أضعف الدولة ومهد للقضاء عليها. ومعنى ذلك أن فتح المرابطين لغانة لم يقض عليها تاريخياً، ولكنه حولها إلى الإسلام، وجاءت الصدمة القاضية على الوجود التاريخي لإمبراطورية «غانة» على يد قبائل «الصوصو» الوثنية التي استقلت بولاية «كانياجا» كما سبق القول، وكانوا من قبل يدفعون الجزية لحكومة «غانة» لفترة طويلة. وفي مطلع

القرن الثالث عشر الميلادي استولى أعظم أباطرة «الصوصو» وهو «سومانجورو» على العاصمة «كومبي صالح» في عام (600هـ = 1203م) بعد معركة طاحنة مع ملك «غانة» الإسلامية. وبذلك أنهى «الصوصو» سيادة الملوك الغانيين المسلمين وفترقوا في البلاد، وقام زعيم «الصوصو» بالاتجاه نحو الجنوب؛ حيث توجد دولة «الماندنجو» النامية في «كانجابا» واستولى عليها ولكن أحد أبناء ملك «كانجابا» ويسمى «سندياتا» أو (مارى جاطه) نجح في استرداد الأراضي التي ضاعت من أبيه، بل واستطاع أن يقضى على «سومانجورو» نفسه وأن يضم جميع أملاك «الصوصو» إليه. وذلك بعد موقعة حربية فاصلة (632هـ = 1235م)، وفي عام (638هـ = 1240م) نجح «مارى جاطة» في تدمير ما بقى من «كومبي صالح» عاصمة «غانة»، وكان ذلك هو الفصل الختامى في اختفاء إمبراطورية «غانة» من مسرح التاريخ. وعلى الرغم من أن «غانة» الإسلامية لم تعمّر طويلا فإن أهلها وأغلبهم من «السوننك» اشتهروا بحماسهم للإسلام وبال دعوة إليه، حتى إن بعض العشائر السوننكية تكاد تختص بالعمل في الدعوة إلى الإسلام، بل إن كلمة «سوننك» في أعلى نهر «غمبيا» استخدمها «الماندنجو» الوثنيون مرادفة لكلمة «داعية»، مما يدل على الدور الكبير الذى نهض به «السوننك» في نشر الإسلام. ويبدو أن هذه الدعوة التى دفعها المرابطون للإسلام كانت من القوة بحيث تركت فى تاريخ الإسلام فى غربى إفريقيا آثاراً

(170/14)

---

عميقة، ذلك أن دعاة المرابطين نشروا الإسلام فى المنطقة الواقعة بين «السنغال» و «النيجر» وعلى ضفاف «السنغال»،

وتمخض ذلك عن إسلام شعب «التكرور» الذى عمل بدوره على متابعة الدعوة إلى هذا الدين الحنيف بين قبائل «الولوف» و «الفولبة» (الفولاني) و «المنديجو». وفي ركاب المرابطين دخلت الثقافة الإسلامية متدفقة من مدارس «المغرب» و «الأندلس»، فقد وُحِد المرابطون بين «السودان الغربي» و «المغرب» و «الأندلس» في دولة واحدة. وفي عهدهم تم تأسيس مدينة «تمبكت» التي أصبحت حاضرة الثقافة العربية في غربي «السودان» وقد أسَّسها قوم من طوارق «مقشرن» في آخر القرن الخامس الهجري، وأصبحت سوقاً مهمة يؤمُّها الرحالة ويفدُّ إليها التجار من «مراكش» و «السودان». وسرعان ما اقتفى العلماء أثر التجار فوفدوا إليها من «المغرب الأقصى» و «الأندلس»، بل ومن «مصر» و «توات» و «تافللت» و «فاس» وغيرها، وأصبح مسجدها الجامع الذى يسمى مسجد «سنكري» جامعة إسلامية زاهرة في هذه البقعة النائية، وامتدَّ الإسلام إلى مدينة أخرى كان لها ما لتمبكت من أثر في تاريخ الإسلام والثقافة العربية، وهي مدينة «جنى» التى أسلم أهلها آخر القرن الخامس الهجري، وأمَّها الفقهاء والعلماء، كما انتشرت اللغة العربية بين كثير من أهالى دولة «غانة» الإسلامية، وأصبحت لغة العبادة والثقافة الوحيدة بالبلاد بجانب كونها لغة التجارة والمعاملات. انتهى هذا الدور بانتشار الإسلام في بلاد «السودان الغربي» على نطاق واسع، وبتوطُّن الثقافة العربية في مركزين مشهورين في «تمبكت» و «جنى»، ويسقوط مملكة «غانة» الإسلامية على يد «الصوصو»، وورثتها مملكة «مالى» الناشئة، وبدأ دور جديد يمكن أن نسميه دور الازدهار في تاريخ الدول والممالك الإسلامية التى قامت في غرب إفريقيا في العصور الوسطى. وفي هذا الدور انتقلت السلطة إلى أهل البلاد الأصليين الذين دخلوا الإسلام وتشربوا من

---

ثقافته واقتبسوا من نظمه، وهو التطور نفسه الذى حدث فى «المغرب» حينما انتقل السلطان إلى أهل البلاد أنفسهم، بل شاهده كل قطر دخله الإسلام وتغلغل فيه. ومن الدول الإسلامية التى قامت من أهل البلاد الأصليين فى غربى إفريقيا دولة «مالى» ودولة «صنغى» ودولة «الكاتم والبرنو». وهذه الدول بعد قيامها كانت تشتغل بالحياة الإسلامية وتتخذ مظهرًا إسلاميًا واضح المعالم.

(172/14)

---

#### \*مالى (دولة)

أسس هذه السلطنة شعب زنجى أصيل هو شعب «الماندنجه»، أو «الماندنجو» ومعناها «المتكلمون بلغة الماندى»، ويطلق «الفولاني» على هذا الشعب اسم «مالى»، ويلقبه المؤرخون العرب بلقب «مليل» أو «ملل»، وتقع سلطنة «مالى» بين بلاد «برنو» شرقًا والمحيط الأطلسى غربًا وجبال البربر شمالًا و «فوتجالون» جنوبًا. وقد اشتهرت باسم بلاد «التكرور» وهى أحد أقاليمها الخمسة التى اشتملت عليها المملكة زمن قوتها وازدهارها، وكان كل إقليم منها عبارة عن مملكة مستقلة استقلالاً ذاتياً، لكنها تخضع لسلطان «مالى»، وهذه الأقاليم الخمسة حسبما ذكرها «القلقشندى»: 1 - «مالى»، ويتوسط أقاليم المملكة. 2 - «صوصو»، ويقع إلى الجنوب من «مالى». 3 - «غانة»، ويقع شمال «مالى» ويمتد إلى «المحيط الأطلسى». 4 - «كوكو»، ويقع شرق إقليم «مالى». 5 - «تكرور»، ويقع غرب «مالى» حول «نهر السنغال». ولا يعرف إلا القليل عن نشأة مملكة «مالى» ويتلخص فى أنه فى نحو منتصف القرن الحادى

عشر الميلادى تقريبًا اعتنق ملوك «الماندنجو» فى «كانجبا»  
(مالى) الإسلام، وأنشئوا دُوَيْلَةَ صغيرة انفصلت عن مملكة  
«غانة»، وظفرت بنوع من الاستقلال الذاتى، مستغلة الصراع  
الذى نشب بين المرابطين ومملكة «غانة» واستطاع ملوك  
«كانجبا» أن يوسعوا مملكتهم فى أوائل القرن الثالث عشر  
فى اتجاه الجنوب والجنوب الشرقى، مما أثار حفيظة ملك  
«الصوصو»، الذى أخذ يعمل للسيطرة على مملكة «كانجبا»  
الناشئة وكادت جهوده تكلل بالنجاح، بعد أن استطاع القضاء  
على دولة «غانة» الإسلامية عام (600هـ = 1203م)، لكن  
«سندياتا» ملك «كانجبا» الذى اشتهر باسم «مارى جاطة»  
(627 - 653هـ = 1230 - 1255م) استطاع أن يقهر ملك  
«الصوصو»، وأن يقتله فى إحدى المعارك عام (632هـ =  
1235م) وأن يضم بلاده إليه، ثم وسَّع نفوذه شمالًا واستولى  
على البقية الباقية من مملكة «غانة» عام (638هـ = 1240م)،

(173/14)

وبذلك يعتبر هذا الملك المؤسس الحقيقى لسلطنة «مالى»  
الإسلامية. وقد برزت سلطنة «مالى» فى سماء الحياة السياسية  
فى غربى إفريقيا كأعظم ماتكون، واتخذت حاضرة جديدة لها،  
ترمز إلى الدولة وإلى نفوذها وقوتها النامية وهى عاصمتها  
الجديدة «نيانى» أو «مالى»، بدلا من عاصمتها القديمة  
«جارب»، وتقع العاصمة الجديدة على أحد روافد «نهر النيجر».  
استمرت حركة التوسُّع بعد ذلك، ففى عهد «منسى ولى» (653 -  
669هـ = 1255 - 1270م) خليفة «مارى جاطة» استولى قواده  
على منطقة «وانجار» الغنية بمناجم الذهب، كما استولوا على  
مدينتى «بامبوك» و «بندو»، ولم تتوقَّف الفتوح بعد «منسى

ولى»، إنما استمرت في عهد خلفائه - أيضاً - حتى وصلت الغاية في عهد ملك «مالى» الشهير «منسا موسى» (712 - 738 هـ = 1312 - 1337 م) الذى استولت قواته على مدن «ولاته» و «تمبكت» و «جاو» في «النيجر الأوسط»، وبلغت دولة «مالى» الإسلامية في عهده ذروة مجدها وقوتها واتساعها، فقد امتدت من بلاد «التكرور» غرباً عند شاطئ «المحيط الأطلسى» إلى منطقة «دندى» ومناجم النحاس في «تكدة» شرقى «النيجر»، ومن مناجم الملح في «تغازة» في الصحراء شمالاً إلى «فوتاجالون» ومناجم الذهب في «ونقاره» جنوباً، كما شملت الحدود الجنوبية منطقة الغابات الاستوائية. وتقدر مساحة «مالى» زمن السلطان «منسا موسى» بمساحة كل دول غربى أوروبا مجتمعة، وتعتبر «مالى» من أعظم الإمبراطوريات في القرن الرابع عشر الميلادى، وفاقته شهرتها دولة «غانة»؛ من حيث العظمة والقوة والثروة والاتساع والشهرة، فقد ضمت داخل حدودها مناجم الذهب والملح والنحاس، وتحكمت في طرق القوافل بين هذه المناجم شمالاً وجنوباً، ونتج عن ذلك ثراء جم، يظهر ذلك من وصف «ابن بطوطة» و «الحسن الوزان» لهذه المملكة. لكن ما كادت الدولة تبلغ الغاية في القوة حتى بدت عليها مظاهر الضعف؛ فأغرق الملوك في الترف، وفقدوا الروح

(174/14)

---

العسكرية، وبدأت أقاليمها تستقل عنها واحداً بعد الآخر؛ فاستقلت «جاو» واستولى «الطوارق» على «أروان» و «ولاته»، و «تمبكت»، وبدأ «الولوف» و «التكرور» يُغيرون عليها من الغرب، ودولة «الكام» من الشرق واستقلت إمارة «صنغى» التى ورثت مملكة «مالى» وتبوأ مكانتها في غرب القارة فيما

بعد. وقد بلغ ضعف مملكة «مالى» الغاية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين حين استنجدوا فى عام 886هـ = 1481م) بالعثمانيين، الذين كانوا قد استقروا بالمغرب، ثم بالبرتغاليين الذين كانوا قد أنشئوا لهم مستعمرة على ساحل إفريقيا الغربى، فلم يستجب لهم أحد، وكان «سُئى على» سلطان دولة «صنغى» الإسلامية والمؤسس الحقيقى لها قد أوغل فى سلطنة «مالى» فلم يترك بلدًا ولا مدينة فى النصف الشمالى منها إلا حاربه بما فى ذلك مدينة «مالى» نفسها، واحتل «تيمكت» عام (873هـ = 1469م)، ونرى عهد قوة إمبراطورية «مالى» ينتهى فى العام الذى سقطت فيه «تيمكت» فقد أخذت الإمبراطورية تفقد أقاليمها واحدًا إثر الآخر حتى أصبحت فى منتصف القرن السابع عشر الميلادى مجرد دُويلة صغيرة فى «كانجابا» كما كانت من قبل. وظلّت هذه الدولة قائمة حتى ابتلعها الفرنسيون فى عام (1316هـ = 1898م)، بعد أن هزموا آخر زعيم أراد أن يعيد مجد دولة «مالى» الإسلامية، ويوحد شعب «الماندنجو» وهو «سامورى التورى»، ورغم جهاده المستمر فإن الفرنسيين قضوا عليه فى العام نفسه، ونفوه إلى «جابون»؛ حيث مات هناك فى عام (1318هـ = 1900م). وقد استطاعت دولة مالى تحقيق كثير من المظاهر الإسلامية. وأول هذه المظاهر، اتصالها بالقوى الإسلامية المختلفة، وإظهارها لروح الأخوة الإسلامية، وقد ظهر هذا فى سفر سلاطين هذه المملكة إلى مكة لأداء فريضة الحج وزيارة «مصر» فى طريقهم إلى «مكة»، وقد بدت هذه الظاهرة منذ فجر الدولة؛ إذ أشار «القلقشندى» إلى خروج «منساولى بن مارى

جاطة» إلى الحج في عهد السلطان «بيبرس»، وتطورت الصلات بين «مالي» و «مصر» في عهد السلطان «منسا موسى» الذي يعد موكبه من أروع مواكب الحج التي وفدت على «مصر» في القرن الثامن الهجرى. وقد قدّر بعض المؤرخين عدد من جاء في ذلك الموكب بعدة آلاف، وقالوا إن السلطان حمل خمسين ألف أوقية من الذهب وزّع أكثرها على الناس في صورة هدايا أو صدقات في «مصر» و «الحجاز»، وقد بعث إلى الخزانة السلطانية في «القاهرة» بحمّل كبير من الذهب، وقد أكرمه سلطان «مصر» وبعث إليه بالخلع وزوّده بما يحتاج إليه في سفره إلى «مكة» من الجمال والمتاع والمثونة. وكان السلطان «منسا موسى» قد بعث قبل مجيئه إلى «مصر» كتابًا إلى السلطان المملوكي «الناصر محمد» خاطبه فيه بما يدل على التقدير والإخاء، وبعث إليه بخمسة آلاف مثقال من الذهب، مما يدل على عمق الصلات الطيبة وروح الأخوة الإسلامية بين القاهرة وغربي إفريقيا، تلك الصلات التي نشأت عنها علاقات ثقافية وتجارية واسعة وقد انتهز السلطان «منسا موسى» فرصة وجوده في «مصر»، فابتاع جملة من الكتب الدينية ليوفر لأهل بلاده طرفًا من الثقافة الإسلامية المتفوقة في «مصر» وقتئذٍ وتبع ذلك رحيل كثير من علماء «مصر» إلى «مالي»، ورحيل علماء «مالي» إلى «مصر»؛ حيث كان لهم رواق في الأزهر يقيمون فيه يسمى «رواق التكرور». ولم تقتصر العلاقات على «مصر» وحدها، بل كان لسلطين «مالي» علاقات طيبة أيضًا بملوك «المغرب» وترجع العلاقات بين الطرفين إلى زمن بعيد، فيذكر «ابن عذارى» مؤرخ «المغرب» و «الأندلس» الشهير في كتابه «البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب» بعض الهدايا التي كان يرسلها ملوك «السودان الغربي» في القرنين الرابع والخامس الهجريين إلى ملوك «بنى زيرى» في «تونس»، أما سلطان مملكة «مالي»

«منسا موسى» فقد أرسل إلى السلطان «أبي الحسن المريني»  
يهنئه باستيلائه على «تلمسان»، كما بعث بالسفراء الدائمين

(176/14)

إلى مدينة «فاس»، وكانت العلاقات الثقافية مع «المغرب» في  
غاية القوة والازدهار، بسبب انتشار مذهب «مالك» في البلدين.  
وقد امتدت علاقات مملكة «مالي» إلى «الأندلس»، بدليل ما  
يروى من أن «منسا موسى» استعان بأحد علمائها وهو «أبو  
إسحاق السهلي» من أهل «غرناطة» في بناء القصور  
والمساجد، وإليه يرجع الفضل في إدخال فن البناء بالآجر في  
غربي «السودان»، وبنى مسجدًا عظيمًا في «جاو» وآخر في  
«تمبكت»، كما بنى قصر «منسا موسى» نفسه. وكان أهل  
«مالي» يحتفلون بشهر رمضان وبالأعياد الإسلامية احتفالاً  
كبيراً، وكان السلطان يوزع الأموال والذهب على القضاة  
والخطباء والفقهاء وفقراء الناس، ويصف «ابن بطوطة» خروج  
السلطان لصلاة العيد وصفًا رائعًا لا يقل فخامة وأبهة عن خروج  
خلفاء «بغداد» و «القاهرة». ويقول إن الأهالي كانوا يواظبون  
على الصلاة في الجماعات، وأنهم كانوا يضربون أولادهم إذا ما  
قصروا في أدائها، وإنه إذا لم يبكر الإنسان في الذهاب إلى  
المسجد يوم الجمعة لم يجد مكانًا لكثرة الزحام. وبلغ من عمق  
العقيدة في نفوسهم أنهم كانوا يلزمون أبناءهم بحفظ القرآن  
الكريم، وكانوا يضعون قيودًا من الحديد في أرجلهم إذا  
ما قصروا في حفظه، ولا تفك عنهم حتى يحفظوه، ولذلك أتقن  
كثير من المالين اللغة العربية، وكان السلطان «منسا موسى»  
نفسه يجيدها، وكان التعليم لا يتم إلا بها كما كانت لغة الحكومة  
فكانت الوثائق المهمة والمراسلات الدولية لا تكتب إلا بها، كما

كانت لغة التجارة والمعاملات، أى أنها كانت اللغة السائدة بجانب اللغات المحلية، مثل لغة «الهوسا» و «صنغى» و «الفولانيين» التى تأثرت باللغة العربية، وتوجد آلاف الكلمات العربية مستخدمة فى شتى مظاهر الحياة فى غرب إفريقيا حتى اليوم، وقد زار الرحالة الإنجليزى «فرانسيس مور» مالى عام (1144هـ = 1731م) ووجد معظم أهل «جمبيا» البريطانية يتكلمون العربية. وقد ساعد على ذلك أن سلاطين «مالى» كانوا

(177/14)

يكثر من بناء المساجد التى كانت تتخذ بجانب العبادة مكاناً للعلم والتدريس، ويذكر أن السلطان «منسا موسى» كان يقيم مسجداً فى كل مكان تدركه فيه صلاة الجمعة إذا كان مسافراً أو خارج عاصمته، ومن أهم هذه المساجد مسجد أو جامع سنكرى الذى أصبح جامعة علمية فى مدينة «تمبكت»؛ حيث وفد إليه العلماء وطلاب العلم من داخل «مالى» وخارجها، وبلغ من أهمية هذه المساجد أنها أصبحت حرماً آمناً، فكان السلطان إذا غضب على أحد من الرعية استجار المغضوب عليه بالمسجد، وإن لم يتمكن من ذلك يستجير بدار خطيب المسجد، فلا يجد السلطان سبيلاً إلا أن يعفو عنه، وهذا يدل على مدى تقدير سلاطين «مالى» للأماكن الدينية وللعلماء، وكان مجلس السلاطين لا ينعقد إلا بحضور العلماء ولا يبيت فى رأى إلا بعد مشورتهم، فإذا أضفنا إلى ذلك ما قام به سلاطين «مالى» من جهاد لنشر الإسلام وثقافته بين القبائل الوثنية سواء داخل دولتهم أو خارجها، وما قاموا به من أصول عربية مشرقية لأسرتهم الحاكمة وهى أسرة «كيتا»؛ لأدركنا مدى حرص تلك السلطنة

وهؤلاء السلاطين على التقاليد الإسلامية ومظاهر الحياة  
الإسلامية.

(178/14)

### \*صنغى (دولة)

بدأت سلطنة «صنغى» (صنغاي - سنغاي) دويلة صغيرة لا تختلف  
من حيث قيامها عن سلطنة «مالى» أو «غانة» فقد تدفقت بعض  
قبائل مغربية - وخاصة قبائل «لمطة» - في نحو منتصف القرن  
السابع الميلادى إلى الضفة اليسرى لنهر «النيجر» عند مدينة  
«دندى»، وسيطروا على الزراع من أهل «صنغى». ورحب هؤلاء  
بهم ليحموهم من الصيادين الذين كانوا يعتدون عليهم ونجح  
هؤلاء الوافدون في تكوين أسرة حاكمة استفادت إلى حد كبير  
من العلاقات التجارية مع «غانة» و «تونس»، و «برقة» و «مصر»،  
وكانت هذه العلاقات التجارية ذات أثر بعيد في تحويل ملوك  
«صنغى» إلى الإسلام في بداية القرن الحادى عشر الميلادى  
إبان النهضة الإسلامية التى اضطلع بها المرابطون في ذلك الوقت  
لنشر الإسلام في غربى القارة. رأى ملوك «صنغى» أن ينقلوا  
حاضرة ملكهم من «كوكيا» إلى «جاو» لتكون على مقربة من  
طرق القوافل الرئيسية. ومدينة «جاو» زارها البكرى عام (460هـ =  
1068م) وقال: «إن مدينة كوكوا (جاو) مدينتان، مدينة الملك  
ومدينة المسلمين، وإذا وُلِّي منهم ملك دُفع إليه خاتم وسيف  
ومصحف يزعمون أن أمير المؤمنين بعث بذلك إليهم، وملكهم  
مسلم لا يملكون غير المسلمين»، كما زارها «ابن بطوطة» في  
منتصف القرن الرابع عشر للميلاد، وقال عنها: إنها مدينة كبيرة  
تقع على نهر «النيجر»، وهى من أحسن مدن «السودان»  
وأكبرها وأخصبها، وقد قابل فيها فقهاء ينتسبون إلى بعض

قبائل البربر. وكانت «جاو» والبلاد التابعة لها تشكل جزءًا من سلطنة «مالي» (777هـ = 1375م)، عندما تحرك ملوك «صنغى»، واستردوا استقلالهم منتهزين فرصة الضعف الذى أخذ يظهر فى دولة «مالي» منذ ذلك الوقت واتخذوا لقب «سنى» أو «السنى». وأخذت بلادهم تتسع فى عهد «سنى على» (868 - 897هـ = 1464 - 1492م) الذى كون جيشًا كبيرًا منظمًا سار على رأسه إلى الغرب، واستولى على مدينة «تمبكت» (873هـ = 1468م)،

(179/14)

ثم على مدينة «جنى» (878هـ = 1473م)، وفتح مملكة «الموسى» وضمها إلى دولته، وتقدم شرقًا فهاجم بعض إمارات «اهوسا» فخضعت له «كاتسينا» و «جوبير» و «كانو» و «زمفرة» و «زاريا»، ثم اتجه غربًا فاستولى على بلاد «الماندنجو» و «الفولاني»، ومعظم ممتلكات دولة «مالي» الإسلامية، واتجه شمالًا حتى مواطن الطوارق. وبذلك أسس «سنى على» إمبراطورية «صنغى» الإسلامية، وكان أول إمبراطور لها، حتى مات فى ظروف غامضة، وبموته انتقل الحكم إلى أسرة جديدة أسسها أحد قواد «السونكى»، وهو «أسكيا محمد الأول» بعد إعلانه الثورة على ابن «سنى على» واستيلائه على السلطة. و «أسكيا» لقب يعنى «القاهر» وقام بتنظيم شئون البلاد من الناحية الإدارية، واستخدم طائفة من الموظفين الأكفاء، كما نظم الجيش وأفاد من الخبرات السابقة، واتخذت حركته مظهرًا إسلاميًا واضحًا نتيجة عاملين قام بهما: الأول: هو اهتمامه بالشئون الدينية واستغلاله ثروة سلفه فى النهوض بها وقيامه بالحج إلى البيت الحرام فى مكة (900هـ = 1495م)، وكان موكبته فى موسم الحج يفوق ما عرف عن موكب

ملوك «مالي»، من حيث الأبهة والفخامة، واستردت «تمبكت» في عهده مكانتها كمركز للثقافة الإسلامية في غربي إفريقيا، وبلغ من شهرتها أن ملك «صنغى» كان ينسب إليها. والعامل الثانى: هو الجهاد الذى قام به بغرض توسيع رقعة بلاده، ونشر الإسلام بين الوثنيين من جيرانه «الماندنجو» و «الفولاني» فى الغرب «والطوارق» فى الشمال، وقبائل «الموسى» الزنجية فى الجنوب، «والهوسا» فى الشرق فى مدن «كتسينا» و «غوبير» و «كانو» و «زنفروراريا» وقد خضعت هذه المدن كلها لهذا الملك عام (919هـ = 1513م)، وكان هذا بداية لظهور الثقافة الإسلامية فى هذا الجزء من شمال «نيجيريا». وقد أشار كثير من المؤرخين السودانيين إلى أن علماء من «تيمبكت» رحلوا إلى هذه الجهات الخاضعة لنفوذ «صنغى»، وأقاموا هناك يفتقون

(180/14)

---

الناس فى الدين وينشرون الثقافة الإسلامية، حتى امتد النفوذ الإسلامى إلى منطقة «بحيرة تشاد»، وبلغت إمبراطورية «صنغى» أقصى اتساع لها، فقد شمل نفوذها منطقة «السافانا» كلها من الشرق إلى الغرب، واستطاع «أسكيا محمد الأول» أن ينشر الأمن والسلام فى جميع ربوع هذه المملكة الشاسعة الأرجاء، بتنظيماته الإدارية والعسكرية الرائعة التى قام بها بين صفوف الجيش والإدارة. لكن حكمه آذن بالزوال حينما أصيب بالعمى وانتابه المرض وتآمر عليه أولاده، وعزله أحدهم عن الحكم فى عام (935هـ = 1529م). وظل القواد والمغامرون يتنافسون من أجل السيطرة على الجيش والحكومة، إلا أن «أسكيا إسحاق الأول» (946 - 956هـ = 1539 - 1549م) استطاع أن يلى العرش بمساندة الجيش، وأن يعيد الأمن إلى نصابه، وأن

يقضى على منافسيه، وأن يبعد كبار ضباط الجيش وكبار المسؤولين، الذين أساءوا استخدام مناصبهم خلال فترة الاضطراب. وعلى الرغم من ذلك لم يستطع الاحتفاظ بالعرش مدة طويلة، فقد خلفه «أسكيا داود» (1549 - 1582م) الذى عين أنصاره فى الوظائف المهمة واشتهر بحكته السياسية فأبعد خطر ملوك «مراكش» عن بلاده بالمهادنة والتودد إليهم. وبعد وفاة «داود» (990هـ = 1582م) أثرت المنازعات التى قامت بسبب العرش تأثيراً سيئاً على مملكة «صنغى»، فقد كان سلاطين «المغرب» منذ عهد بعيد يتطلعون إلى مناجم الملح فى «تغازة» وإلى السيطرة على تجارة الذهب، وظل ملوك «صنغى» يصدون سلاطين «المغرب» حتى سنة (993هـ = 1585م)، حينما انقسمت البلاد على نفسها، فاستغل «أحمد المنصور الذهبى» سلطان «المغرب» الذى انتصر على البرتغاليين فى موقعة «القصر الكبير» ضعف «صنغى» وسير جيشاً كبيراً عام (998هـ = 1590م) استولى على العاصمة «جاو» بعد أن هزم قوات «إسحاق الثانى» فى موقعة «تونديبي» وبذلك دخلت البلاد فى طور جديد من أطوار تاريخها وهو طور التبعية والفناء.

(181/14)

---

لكن واقعة «تونديبي» لم تكن نصراً للمغرب إلا من الناحية العسكرية؛ إذ إنهم لم يحققوا الأغراض التى قاتلوا من أجلها، وهى السيطرة على مناجم الذهب فى غرب إفريقيا، لأن ثروة «صنغى» لم تكن نتيجة امتلاكها الذهب بقدر ما كانت نتيجة لسيطرتها على تجارته مع مواطن إنتاجه، فى «وانجارة» و «يندوكو» و «أشتى»، وكلها فى جنوب مملكة «صنغى»، وهى تجارة لا تزدهر إلا فى ظل الأمن والسلام الذى قضى عليه

سلاطين «مراكش»، الذين لم يستطيعوا أن يمدوا نفوذهم إلى ما وراء المدن الرئيسية «جنى» و «تمبكت» و «جاو»، ولما أدركوا قلة الفوائد التي عادت عليهم من وراء هذا الفتح الذي كلفهم كثيراً، كُفوا عن إرسال الجند والمثونة اللازمة إلى قواتهم، وتركوا هذه القوات تقرر مصيرها بنفسها، فنشأت أسرة محلية من باشوات «تمبكت» تدين بالتبعية الاسمية لسلطان «مراكش»، وتعتمد على عنصر خليط من البربر وأهل البلاد، أو المولدين الذين سموا باسم «أرما». وكان هم هؤلاء الباشوات منصرفاً إلى جمع المال وحمل الزعماء المحليين على دفع الإتاوة على أن سلطاتهم ضعف تدريجياً لاعتمادهم على الجيش الذي كان يعزلهم متى شاء، حتى بلغ عدد من تولى منهم بين سنتي (1070هـ=1660م) و (1163هـ=1750م) نحو (128) باشا، ولما ضعفت قوة الجيش نفسه اضطر الباشوات منذ عام (1081هـ = 1670م) إلى دفع الإتاوة إلى الحكام الوثنيين من ملوك «البمبارا»، وهم ملوك مملكة «سيجو» الوثنية، التي كانت تقع على وادي نهر «باني» جنوبي «كانجابا» في حوض «النيجر». وظل الأمر على هذا النحو حتى جاء الفرنسيون والتهموا المنطقة بأسرها، وسموها «إفريقية الاستوائية الفرنسية». وبعد نجاح حركة الكفاح الوطني ضد الاستعمار الفرنسي والإنجليزي؛ ظهرت عدة دول إسلامية حديثة على أنقاض إمبراطورية «صنغى» الإسلامية، وهذه الدول هي: «جمهورية موريتانيا، و «جمهورية غينيا»، و «جمهورية مالي»، و «جمهورية السنغال»،

(182/14)

---

و «جمهورية النيجر»، و «جمهورية نيجيريا»، و «جمهورية جامبيا». وإذا كانت دولة «صنغى» قد شابت دولة «مالي» من

حيث تطورها العام، فإنها قد شابهتها أيضاً في اتخاذها مظهرًا إسلامياً واضحًا، بل فاقتها في هذه الناحية في بعض الأحيان، وهذا التطور طبيعي، فقد امتد سلطان «صنغى» إلى القرن السادس عشر الميلادى، وكان الإسلام قد قطع خطوات واسعة في سبيل النمو والانتشار. وقد سعى ملوك «صنغى» كما سعى ملوك «مالى» من قبل إلى الاتصال بالقوى الإسلامية المعاصرة، تحقيقاً لروح الأخوة الإسلامية، وفي هذا المجال كان ملوك «صنغى» اتصالات عديدة بملوك المسلمين في الشرق والغرب. فقد خرج «أسكيا محمد الأول» إلى الحج ومر بمصر سنة (899هـ=1494م) في موكب حافل، وأغدق على الناس والفقراء أكثر مما أغدق أسلافه، فقد روى «السعدى» صاحب كتاب «تاريخ السودان» أنه تصدق مثلاً في الحرمين الشريفين بمائة ألف مثقال من الذهب، واشترى بساتين في «المدينة المنورة» حبسها على أهل التكرور (أهل دولة صنغى)، واجتمع في موسم الحج بزعماء المسلمين، وتأثر بما رآه في «مصر» من نظم الحكم، ومن ثقافة عربية مزدهرة، فاتصل بالإمام «السيوطى» وغيره من علماء العصر، وتلقى تقليدًا من الخليفة العباسى بالقاهرة، وعاد إلى بلده متأثرًا بما رآه من روح إسلامية، وعمل على تطبيق ما تعلمه من آراء وتجارب شاهدها بنفسه. ويقال إن هذا السلطان قلد في تنظيماته الإدارية النظم التى رآها في «مصر»، وأمعن في إحاطة نفسه ببطانة من العلماء الذين كان يحمل لهم كل احترام وتقدير، فقد روى مؤرخو «السودان» أنهم كانوا إذا دخلوا عليه أجلسهم على سريره وقربهم وأمر بالآ يقف أحد إلا للعلماء أو الحجاج، وألا يأكل معه إلا العلماء والشرفاء. كما أبطل البدع والمنكر وسفك الدماء، وأقام الدين والعقائد، وأعطى «جامعة تمبكت» المزيد من عنايته، فتفوقت في عهده ووصلت إلى ما لم تصل إليه من قبل، وكانت في غربى

«السودان» كجامعة «الأزهر» في «القاهرة»، أو «القرويين» في «فاس» أو «الزيتونة» في «تونس» أو «النظامية» في «بغداد». وأصبحت هذه السياسة الإسلامية سياسة مقررة لخلفائه من بعده، فأسكيا إسحاق يسير في الطريق نفسه، من تشجيع العلماء وإكرامهم والأخذ بيدهم، و «أسكيا داود» يتخذ خزائن الكتب وله نساخ ينسخون الكتب وربما يهادى بها العلماء، وقيل إنه كان حافظاً للقرآن الكريم. وهذا يدل على أن دولة «صنغى» قد شهدت تمكن الإسلام من أهل غرب إفريقيا، كما شهدت ازدهار الثقافة الإسلامية إلى أبعد الحدود. وبذلك نكون قد انتهينا من الحديث عن الدول الإسلامية التي قامت في بلاد «السودان الغربي»، أما «السودان الأوسط» فقد قامت فيه دول أهمها وأعظمها على الإطلاق هي سلطنة «الكام والبرنو» الإسلامية.

### \*الكام والبرنو

قامت هذه السلطنة في «بلاد السودان الأوسط» الذي يتكون من حوض «بحيرة تشاد» وما تقع حوالها من بلدان تمتد من «نهر النيجر» غرباً إلى «دارفور» شرقاً، وكانت منطقة «بحيرة تشاد» مهد سلطنة «الكام والبرنو». وقد ضمت هذه الدولة عددًا كبيراً من القبائل والعناصر، فهناك قبائل «الصو»، وقبائل «الكامبو»، وقبائل «الكانورى» وهي خليط من العرب والبربر والزنج، وهؤلاء يكوّنون أغلب سكان هذه السلطنة، يضاف إلى

ذلك قبائل «التبو» (التدا) من البربر، وكذلك «بربر الطوارق» من سكان المناطق الشمالية الصحراوية، وكذلك قبائل العرب الذين كانوا يُعرفون هناك باسم (الشوا)، وقد قدموا إلى «تشاد» من «وادي النيل»، ومن القارة عبر الصحراء، وكانوا يتمثلون في قبائل «جدام» و «جهينة» و «أولاد سليمان»، وقد أدى اختلاط هؤلاء العرب بالوطنيين إلى ظهور عناصر جديدة، منها: «التنجور» و «البولالا» و «السالمات» وغيرهم. وينقسم تاريخ هذه السلطنة إلى عصرين: عصر سيادة «كافم»، ثم عصر سيادة «برنو»، ويقع إقليم «كافم» - الذي كان مهدًا لقيام هذه الدولة - في الشمال الشرقي لبحيرة تشاد وبه العاصمة «جيمي»، أما إقليم «برنو» فإنه يقع غرب هذه البحيرة، وبه العاصمة «بيرني نجازر جامو» التي انتقل الحكم إليها بعد انقضاء عصر سيادة «كافم». وقد قامت هذه الدولة في القرن التاسع للميلاد على يد أسرة من البربر البيض هي الأسرة «الماغومية السيفية»، التي تزعم أنها من أصل عربي من نسل «سَيْفِ بن ذِي يَزَن الحَمِيرِي»، واستطاعت هذه الأسرة أن تسيطر على حوض «بحيرة تشاد»، وأن تتخذ من مدينة «جيمي» عاصمة لها، وبدأ الإسلام يطرق أبواب هذه الدولة منذ قيامها، وخاصة من الشمال والشرق على يد التجار والمهاجرين الذين توافدوا عليها في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين. وتحدث المصادر عن قيام داعية إسلامي كبير هو الفقيه «محمد بن ماني»، الذي عاش في

(185/14)

---

القرن الحادي عشر الميلادي، وعاصر خمسة من ملوك «الكافم» الذين كانوا يعرفون باسم «المايات» (جمع ماى، وهو لقب بمعنى: ملك)، أولهم «الماى بولو» الذي كان يحكم نحو 411هـ

= 1020م) وآخرهم هو «المأى أوم بن عبدالجليل» الذى بدأ حكمه فى عام (479هـ = 1086م) وهو الذى جعل الدين الإسلامى ديناً رسمياً للدولة، وذلك نتيجة لجهود هذا الداعية العظيم الذى أسلم على يديه هؤلاء المايات الخمسة، وقد قام آخرهم وهو «المأى أوم بن عبدالجليل» (479 - 490هـ = 1086 - 1097م) بجهد كبير فى نشر الإسلام فى بلاده، ثم اتجه إلى الشرق، وذهب إلى بلاد «الحجاز» لأداء فريضة الحج، ولكن المنية وافته بمصر أثناء عودته من أداء هذه الفريضة، فدُفِنَ بها، ومنذ عهد هذا المأى لم يتول حكم دولة «الكانم» أى ملك وثنى، وأصبحت منذ ذلك التاريخ دولة إسلامية. خلف «المأى دونمة بن أوم» والده فى حكم البلاد لفترة طويلة (491 - 546هـ = 1097 - 1151م) وبلغت فى عهده دولة «الكانم» درجة كبيرة من القوة والاتساع وطبقت شهرته الآفاق، وحج ثلاث مرات. وفى عهده بُنيت مدرسة «ابن رشيق» فى «فسطاط مصر» بأموال كائمية؛ كى تكون مؤنلاً للحجاج القادمين من «كانم» وبلاد «التكرور». وتابع خلفاؤه العمل على توسيع حدود هذه الدولة حتى صارت إمبراطورية كبيرة، وخاصة فى عهد «المأى دونمه بن سالم بن بكر» (618 - 657هـ = 1221 - 1259م) الذى اشتهر بقوة فرسانه، وكثرتهم حتى قيل إنها بلغت نحوًا من (41) ألف فارس، ويُعرف هذا المأى باسم «دونمه دباليمى»، نسبة إلى والدته «دابال»؛ حيث كانت النسبة إلى الأم شيئًا مألوفًا ومشهورًا فى هذه السلطنة بالذات. وقد حارب هذا المأى القبائل المتمردة، مثل قبائل «البولالا» الذين كانوا يعيشون فى حوض بحيرة «فترى الصغيرة» الواقعة إلى الشرق من «بحيرة تشاد»، وأخضعها وأقام علاقات طيبة مع «الدولة الحفصية» فى «تونس». واتسعت

الإمبراطورية في عهده حتى وصلت شرقاً إلى مشارف «وادي النيل»، وغرباً قرب نهر «النيجر»، مما يعني أن بلاد «الهوسا» التي تشكّل الآن «نيجيريا الشمالية» كانت تحت سيادته وسلطانه، كما امتدت حدود بلاده شمالاً حتى وصلت قرب «فزان» الليبية واقتربت مساحتها من مساحة إمبراطورية «صنغي» الإسلامية التي سبق الحديث عنها، ولكن هذه الإمبراطورية الكبيرة لم تلبث أن دبَّ إليها الوهن نتيجة لعوامل كثيرة، منها الانقسامات التي ظهرت بين أبناء الأسرة الحاكمة، وظهور خطر قبائل «الصو»، التي كانت تسكن في إقليم «بورنو» وقيامها بمهاجمة عاصمة الدولة؛ وتمكنها من قتل أربعة من المايات. كذلك اشتد خطر البولالا الذين ازدادوا ضراوة بعد أن تمكّنوا من إقامة سلطنة صغيرة لهم في حوض «بحيرة فترى» واتخذوها مركزاً لمناوأة أبناء عموماتهم من مايات «الكافم والبرنو». وقد استطاعت سلطنة «البولالا» التي ظهرت قوتها في عهد سلطانها «عبدالجليل بن سيكوما» أن تشن حرباً شرسة ضد الأسرة «السييفية الماغومية» الحاكمة في «كافم»، وتمكن «عبدالجليل» هذا من أن يقتل أربعة من المايات من هذه الأسرة. وقد انتهى أمر الصراع بين الفريقين إلى طرد الأسرة «السييفية» الحاكمة في «كافم» إلى إقليم «بورنو» الذي يقع غرب «بحيرة تشاد»، وذلك في عهد «المای عمر بن إدريس» (788 - 793هـ = 1386 - 1391م) الذي استأنف حكمه من إقليم «برنو» فيما يعرف بعصر سيادة «برنو»، هذا العصر الذي امتد حتى نهاية الدولة في عام (1262هـ = 1846م)، وقد ترك طرد الماغوميين السييفيين إلى «برنو» فراغاً سياسياً في «كافم»، ملأه «البولالا» الذين أقاموا سلطنة كبيرة ضمت هذا الإقليم بالإضافة إلى إقليم «بحيرة فترى» والمناطق المحيطة بها في حوض «بحيرة تشاد». ورغم ذلك فقد استمر الصراع بين «البولالا» وبين الماغوميين في مقرهم الجديد الذي جعلوه مركزاً لدولتهم، وبنوا فيه مدينة

تسمى «بيرنى نجازر جامو» واتخذوها عاصمة لهم. ولما تطلّعوا إلى إعادة نفوذهم في «كانم»؛ وقعت حروب كثيرة بينهم وبين سلاطين «البولالا»، وتبادل الفريقان النصر والهزيمة، وخاصة في عهد «المای إدريس بن عائشة» (908 - 932 هـ = 1502 - 1526 م) الذى أنزل بالبولالا هزيمة ساحقة، واستولى على العاصمة «جيمى» وأقام فيها فترة ثم عاد إلى عاصمته «بيرنى». وتابع ابنه «المای على بن إدريس» (952 - 953 هـ = 1545 - 1546 م) محاربة «البولالا» حتى لُقّب بحارق «البولالا»، ولم يلبث أن لَقِيَ حتفه في إحدى المعارك معهم. ولم يقضِ على خطرهم إلا «المای إدريس ألوما» (978 - 1011 هـ = 1570 - 1602 م) الذى أقام معهم علاقة طيبة نتيجة ارتباط البيت البولالى بالأسرة السيفية برباط المصاهرة، مما سهل على هذا المای أن يقضى على خطر «البولالا» وأن يعيد نفوذ أسرته إلى إقليم «كانم»، ووصلت الإمبراطورية في عهده إلى أقصى اتساعها وقوتها وازدهارها. وكما تكالبت عوامل الضعف الداخلية والخارجية على إمبراطوريتى «مالى» و «صنغى» حتى سقطتا، فقد تعرّضت إمبراطورية «البرنو» للظروف نفسها وشهدت النتيجة نفسها ذلك أن المای «إدريس ألوما» الذى بلغت الإمبراطورية في عهده قمتها وازدهارها خلفه حكام ضعاف لم يكونوا في مثل قوته وحزمه، بلغوا خمسة عشر سلطاناً على مدى قرنين ونصف قرن من الزمان، حدث في أثنائها كثير من الوقائع التى أدّت إلى القضاء على الإمبراطورية، فبالإضافة إلى ضعف هؤلاء المايات أو السلاطين أصيبت البلاد بموجة من المجاعات المتلاحقة وصلت إلى خمس مجاعات، استمرت إحداها أربع سنوات، وأخرى سبع سنوات، وبدل تكرار حدوث هذه المجاعات على التدهور السريع

والضعف العام الذى أصاب البلاد نتيجة إهمال الزراعة وكثرة  
الفتن والاضطرابات، فضلا عن ظهور أخطار جديدة تمثلت في  
ظهور قبائل وثنية في منطقة «جومي» تُسمى قبائل  
«كوارافا» اشتهرت بالقوة والشجاعة، وتمكنت من اجتياح

(188/14)

الأقاليم الغربية في «برنو»، كما حدثت حروب بين «برنو»  
وجيرانها من إمارات «الهوسا» وخاصة إمارة «كانو» في النصف  
الأول من القرن الثامن عشر الميلادي، غير أن أخطر ما تعرضت  
له إمبراطورية «البرنو» هو خطر «الفولانيين» وهم قبائل بيضاء  
انحدرت من الشمال وأقامت في غربي القارة، ثم انحدرت إلى  
الشرق واستقرت في إمارات «الهوسا» التي تتكون منها  
«نيجيريا» الشمالية الآن، وقامت على يد زعيمها الشيخ «عثمان  
بن فودي» بحركة ضخمة لنشر الإسلام بين من كان على الوثنية  
في هذه الإمارات، وتمكنت من ضم هذه الإمارات في دولة واحدة  
تحت زعامة هذا الداعية الكبير، الذى أعلن قيام دولة «الفولاني»  
في بداية القرن التاسع عشر الميلادي هذا في الوقت الذى كانت  
إمبراطورية «البرنو» تزداد ضعفاً على ضعف وتلقى سلطانها  
«المأى أحمد بن على» (1206 - 1223هـ = 1791 - 1808م) أكثر  
من هزيمة على يد الفولانيين في عهد الشيخ «عثمان بن فودي»  
حتى اضطر هذا المأى إلى استدعاء أحد الكائمين والعلماء  
البارزين ويدعى الشيخ «محمد الأمين الكائمي» لمساعدته في  
محنته ضد هذا الغزو الفولاني، واستجاب هذا الزعيم لهذا الطلب  
وتبادل عدة رسائل مع الشيخ «عثمان بن فودي»، كل منهما  
يحتاج الآخر عبر مناقشات فقهية يبرر كل منهما سياسته، ولكن  
هذه الرسائل لم تؤدّ إلى إزالة حالة الحرب القائمة بين الفريقين،

وأخيراً نجح الفولانيون في الاستيلاء على عاصمة «برنو»  
فاضطر الماي إلى الهرب منها ولجأ إلى الشيخ محمد الأمين  
الذي أصبحت له السيطرة الكاملة على المايات الذين صاروا  
حكماً بالاسم فقط. استمر الشيخ «محمد الأمين» يحكم ما بقي  
من إمبراطورية «البرنو» و «الكام» وأجرى مفاوضات مع سلطان  
الفولانيين «محمد بلو» الذي خلف أباه الشيخ «عثمان بن فودي»  
في زعامة الفولانيين، واتخذ مدينة «سوكوتو» عاصمة له،  
وأرسل له الشيخ الكامي رسائل أوضح له فيها أنهم أهل دين

(189/14)

---

واحد هو الإسلام، وأنه لا ينبغي أن يحارب بعضهم بعضاً وأن  
كلا منهما يجب أن يحترم حدود الآخر، فهدأت الأحوال بين  
الدولتين حتى توفى الشيخ «محمد الأمين الكامي» في عام  
(1251هـ = 1835م) وخلفه ابنه الشيخ «عمر». وفي عهد هذا  
الشيخ حاول «الماي إبراهيم بن أحمد» (1232 - 1262هـ = 1817  
- 1846م) أن يسترد سلطاته التي سلبها منه الشيخ «محمد  
الأمين» ثم ابنه «عمر»، واستعان في ذلك بأمير دويلة صغيرة  
تقع بين «كام» و «دارفور» تُسمى «واداي» وتآمر معه لغزو  
«برنو». ونفذ أمير «واداي» الخطة المتفق عليها وأباد جيش  
«برنو» في (1262هـ = 1846م) منتهزاً فرصة غياب الشيخ  
«عمر» عن العاصمة؛ لحرب كانت واقعة بينه وبين أحد جيرانه  
الآخرين، ولما علم هذا الشيخ بنبا هذا الغزو وهذه المؤامرة عاد  
إلى «برنو»، وأخرج الغزاة منها نظير مبلغ كبير من المال دفعه  
لهم، وقبض على الماي «إبراهيم» ومستشاريه وأعدمهم جميعاً،  
ثم تخلص من الماي «علي بن دالاتو» عام (1262هـ = 1846م)  
الذي لم يحكم سوى أربعين يوماً وكان مفروضاً عليه كشرط

لرحيل جيش أمير «واداي» عن «برنو». ومقتل «علي بن دالتو» انتهى حكم الأسرة «السيفية الماغومية» التي ظلت تحكم هذه البلاد أكثر من ألف عام، وأصبحت «برنو» تحت حكم الأسرة الكاثمية فعلياً ورسمياً منذ ذلك التاريخ وحتى وقوعها في قبضة الاستعمار الفرنسي في عام (1318هـ = 1900م)، وقد أعيد تقسيم أملاك إمبراطورية «برنو» بين «إنجلترا» و «فرنسا» و «ألمانيا» بعد القضاء على مقاومة أحد المجاهدين ضد الاستعمار الأوربي وهو «رابح الزبير». فأخذت «فرنسا» إقليم «كانم»، وأخذت «إنجلترا» إقليم «برنو»، وظفرت «ألمانيا» بالمناطق الجنوبية لبرنو، وهكذا تلاشت إمبراطورية «برنو» التاريخية على يد الغزاة الأوربيين في بداية القرن العشرين الميلادي، وظل الأمر على هذا النحو حتى قامت حركة الكفاح الوطني في هذه المنطقة ضد المستعمر الأوربي، وتكللت

(190/14)

---

جهودها بالنجاح وظفرت بالاستقلال، وقامت على أنقاض إمبراطورية «الكانم والبرنو» عدة دول حديثة، هي جمهورية «تشاد» التي استقلت عن «فرنسا» في عام (1380 هـ = 1960م)، وهي دولة إسلامية يدين (85%) من سكانها بالإسلام، ويتكلمون اللغة العربية بجانب اللغات المحلية واللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية، وجمهورية «إفريقيا الوسطى» التي استقلت عن «فرنسا» في العام نفسه أيضاً، وتضم هذه الدولة الأطراف الجنوبية من إمبراطورية «البرنو» التاريخية، ولذلك فإن نسبة المسلمين فيها قليلة. وجمهورية «النيجر» التي استقلت عن الفرنسيين في العام نفسه، وضمت أغلب الأجزاء الشمالية الغربية من إمبراطورية «البرنو» ولذلك فإن (95%) من سكانها

مسلمون يتكلمون اللغة العربية بجانب اللغات المحلية، واللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية، و «نيجيريا» التي استقلت عن «إنجلترا» في عام (1381هـ = 1961م) وضمت إقليم «برنو» الذي يقع غرب «بحيرة تشاد»، كما ضمت جميع بلاد «الهوسا»، وأكثر من (70%) من سكانها مسلمون يتكلم الكثير منهم اللغة العربية ولغة الهوسا بجانب اللغة الإنجليزية، وهي اللغة الرسمية، كذلك ضمت «جمهورية الكمرون» التي استقلت عن «فرنسا» في عام (1380هـ = 1960م) وتضم بعض الأجزاء الجنوبية والجنوبية الشرقية من «برنو»، وكذلك فإن هذه الدولة دولة إسلامية؛ إذ إن أكثر من (55%) من سكانها مسلمون، واللغة الفرنسية هي السائدة بجانب اللغة العربية واللهجات المحلية. وإذا كنا قد تحدثنا عن التاريخ السياسي لسلطنة «الكام» والبرنو» منذ أن أصبحت دولة إسلامية في عام (479هـ = 6801م) وحتى نهايتها على يد الاستعمار الفرنسي، فإن الواجب يحتم علينا أن نتحدث باختصار عن الطابع الإسلامي ومظاهر الحياة الإسلامية في هذه السلطنة الكبيرة. وفي هذا الصدد نستطيع القول بأن سلطنة «الكام والبرنو» قد قامت بالدور نفسه الذي قامت به سلطنتنا «مالي» و «صنغى»؛ فقد اتصلت بالقوى

(191/14)

---

المعاصرة لتأكيد روح الأخوة الإسلامية وللإفادة من خبراتها الثقافية والعلمية والإدارية والحضارية فقد اتّصلت بمصر أثناء ذهاب أهلها وسلاطينها لتأدية فريضة الحج، وقد سبقت الإشارة إلى قيام أول سلطان في «كام» وهو «أوم بن عبدالجليل» بأداء هذه الفريضة، وإلى وفاته في «مصر» عام (490هـ = 1097م) عند عودته إلى بلاده، وقام ابنه «دوئمة» بأداء هذه

الفريضة ثلاث مرات مرَّ خلالها بمصر وفي حجته الثالثة غرق في مياه «البحر الأحمر» عند مدينة «عيزاب» في عام (546هـ = 1151م) وواصل مايات «الكاخم والبرنو» أداء هذه الفريضة. ومن مظاهر الاتصال بالدول الإسلامية الرسائل المتبادلة بين سلاطين «مصر» و «البرنو»، من ذلك رسالة أوردتها «ابن فضل الله العمري» و «القلقشندي» وأشارت إلى استغاثة سلطان «البرنو» بسلطان «مصر» «الظاهر برقوق» في عام (795هـ = 1393م) لمساعدته في القضاء على تمرد القبائل العربية التي ساعدت خصومه السياسيين من «البولالا». كذلك كانت هناك علاقات ثقافية وتجارية بين «مصر» وسلطنة «الكاخم والبرنو» من ذلك ما ترويه لنا المصادر من أن «الأزهر» كان به رواقٌ خُصَّص للطلاب القادمين من هذه السلطنة يُسمَّى «رواق البرنوية» كما سمحت «مصر» للكائمين بإنشاء مدرسة تُسمَّى مدرسة «ابن رشيق» في مدينة «الفسطاط» بمصر لتدريس الفقه المالكي؛ ولكي تكون مقرا ينزل به حجاج «البرنو». أما العلاقات التجارية فقد ازدادت بين «مصر» وبلاد «الكاخم والبرنو»، ومما يدل على ذلك أن طائفة من أهل «كاخم» اشتهرت باسم «التجار الكارمية» رحلوا إلى «مصر» وأقاموا فيها واشتركوا بنصيب موفور في تجارتها الخارجية وخاصة في تصريف المحاصيل السودانية، وتجارة البهار القادمة من «اليمن» و «الهند» و «الصين»، واتخذت من مدينة «قوص» بصعيد «مصر» مركزاً لها. وكان لهؤلاء التجار الذين عُرفوا بالتقوى والورع فضل كبير في نشر الإسلام وخاصة

(192/14)

---

في بلاد الحبشة. كذلك كان لسلطنة «الكاخم والبرنو» علاقات تجارية وثقافية مع شمال إفريقيا وخاصة «تونس» فقد اتصل

سلاطين «الكاف» بحكامها من «بنى حفص» وتبادلوا الرسائل والهدايا، من ذلك سفارة أرسلها الماي «عبدالله بن كادي» إلى السلطان الحفصي «أبي يحيى المتوكل» في عام (727هـ = 1307م)، كذلك تبودلت الرسائل والسفارات مع «طرابلس» في عام (908هـ = 1502م) وسفارة بعث بها أيضاً في عام (941هـ = 1534م) وأخرى في زمن الماي «إدريس ألوما» المتوفى عام (1011هـ = 1602م) كذلك نشطت العلاقات التجارية بين «برنو» وهذه البلدان. ويمثل الجهاد قمة إيمان السلطنة بالإسلام، فقد اتخذها سلاطينها طريقاً لرد العدوان والتعريف بالإسلام بين الوثنيين الذين كانوا يقومون بالاعتداء على هذه الدولة الإسلامية ، وخاصة الوثنيين المقيمين في الجنوب، فقد حاربهم السلاطين ودخل كثير منهم في الإسلام، بالإضافة إلى اتباع أسلوب الإقناع الذي اتبعه بعض السلاطين وخاصة السلطان «إدريس ألوما»، الذي اشتهر ببناء المساجد الضخمة من الحجارة، وطبق الشريعة الإسلامية خاصة في معاملة الأسرى، ونظم الجهاد بما يتمشى مع تعاليم الإسلام، فازداد الدخول في هذا الدين وانتشر في منطقة «بحيرة تشاد» كلها. كذلك فقد شجع سلاطين «الكاف والبرنو» انتشار الثقافة العربية الإسلامية، فأكثروا من بناء المساجد والكتاتيب، وكانت اللغة العربية هي لغة التعليم ولغة الحكومة الرسمية، فضلاً عن كونها لغة المعاملات التجارية ولغة المراسلات الدولية، كما كان الحال في جميع الدول الإسلامية التي قامت في بلاد «السودان الغربي»، وظلت الحال على هذا النحو حتى عصر الاستعمار الأوربي الذي قضى على اللغة العربية ولم يعد لها إلا وجود محدود بين قليل من الأهالي، ووجود كبير في المدارس الدينية الإسلامية. وفي ظل تشجيع سلاطين «الكاف والبرنو» للثقافة الإسلامية ارتقى العلماء

---

والفقهاء منزلة رفيعة، وحرص السلاطين على رعايتهم والإغداق عليهم، وإصدار المحارم (أى الفرمانات) التى كانوا يمنحونهم بمقتضاها كثيراً من الامتيازات المادية والإقطاعات، ويحرمون على أى شخص مهما بلغت منزلته وقدره أن يسلبهم شيئاً منها. ولذلك ظهر فى هذه السلطنة كثير من العلماء والفقهاء، منهم الفقيه «محمد بن مانى» الذى سبق الحديث عنه، والإمام «أحمد بن فرتو» الذى كان معاصراً للماي «إدريس ألوما»، والذى تعد كتاباته المرجع الرئيسى لتاريخ «برنو»، والعالم الكبير «عمر بن عثمان بن إبراهيم»، والعالم «عبدالله ديلى بن بكر»، وغيرهم من العلماء الذين صدرت لهم محارم (فرمانات) تشجيعاً لهم على التفرض للعلم والبحث والتدريس؛ مما أدى إلى انتشار العلوم الإسلامية بين أهالى هذه البلاد.

(194/14)

---

### \*البرنو

قامت هذه السلطنة فى «بلاد السودان الأوسط» الذى يتكون من حوض «بحيرة تشاد» وما تقع حوالىها من بلدان تمتد من «نهر النيجر» غرباً إلى «دارفور» شرقاً، وكانت منطقة «بحيرة تشاد» مهد سلطنة «الكاخم والبرنو». وقد ضمت هذه الدولة عدداً كبيراً من القبائل والعناصر، فهناك قبائل «الصو»، وقبائل «الكامبو»، وقبائل «الكانورى» وهى خليط من العرب والبربر والزنج، وهؤلاء يكوّنون أغلب سكان هذه السلطنة، يضاف إلى ذلك قبائل «التبو» (التدا) من البربر، وكذلك «بربر الطوارق» من سكان المناطق الشمالية الصحراوية، وكذلك قبائل العرب الذين كانوا يُعرفون هناك باسم (الشوا)، وقد قدموا إلى «تشاد» من

«وادی النيل»، ومن القارة عبر الصحراء، وكانوا يتمثلون في قبائل «جدام» و «جهينة» و «أولاد سليمان»، وقد أدى اختلاط هؤلاء العرب بالوطنيين إلى ظهور عناصر جديدة، منها: «التنجور» و «البولالا» و «السالمات» وغيرهم. وينقسم تاريخ هذه السلطنة إلى عصرين: عصر سيادة «كانم»، ثم عصر سيادة «برنو»، ويقع إقليم «كانم» - الذي كان مهذاً لقيام هذه الدولة - في الشمال الشرقي لبحيرة تشاد وبه العاصمة «جيمي»، أما إقليم «برنو» فإنه يقع غرب هذه البحيرة، وبه العاصمة «بيرني نجازر جامو» التي انتقل الحكم إليها بعد انقضاء عصر سيادة «كانم». وقد قامت هذه الدولة في القرن التاسع للميلاد على يد أسرة من البربر البيض هي الأسرة «الماغومية السيفية»، التي تزعم أنها من أصل عربي من نسل «سيف بن ذي يزن الحميري»، واستطاعت هذه الأسرة أن تسيطر على حوض «بحيرة تشاد»، وأن تتخذ من مدينة «جيمي» عاصمة لها، وبدأ الإسلام يطرق أبواب هذه الدولة منذ قيامها، وخاصة من الشمال والشرق على يد التجار والمهاجرين الذين توافدوا عليها في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين. وتحدثت المصادر عن قيام داعية إسلامي كبير هو الفقيه «محمد بن ماني»، الذي عاش في

(195/14)

---

القرن الحادي عشر الميلادي، وعاصر خمسة من ملوك «الكانم» الذين كانوا يعرفون باسم «المايات» (جمع ماي، وهو لقب بمعنى: ملك)، أولهم «الماي بولو» الذي كان يحكم نحو (411هـ = 1020م) وآخرهم هو «الماي أوم بن عبدالجليل» الذي بدأ حكمه في عام (479هـ = 1086م) وهو الذي جعل الدين الإسلامي ديناً رسمياً للدولة، وذلك نتيجة لجهود هذا الداعية العظيم الذي

أسلم على يديه هؤلاء المايات الخمسة، وقد قام آخرهم وهو  
«الماى أوم بن عبدالجليل» (479 - 490 هـ = 1086 - 1097م) بجهد  
كبير فى نشر الإسلام فى بلاده، ثم اتَّجه إلى الشرق، وذهب  
إلى بلاد «الحجاز» لأداء فريضة الحج، ولكن المنية وافته بمصر  
أثناء عودته من أداء هذه الفريضة، فدُفِنَ بها، ومنذ عهد هذا  
الماى لم يتول حكم دولة «الكاتم» أى ملك وثنى، وأصبحت منذ  
ذلك التاريخ دولة إسلامية. خلف «الماى دوئمة بن أوم» والده  
فى حكم البلاد لفترة طويلة (491 - 546 هـ = 1097 - 1151م)  
وبلغت فى عهده دولة «الكاتم» درجة كبيرة من القوة والاتساع  
وطبقت شهرته الآفاق، وحج ثلاث مرات. وفى عهده بُنيت مدرسة  
«ابن رشيق» فى «فسطاط مصر» بأموال كاثمية؛ كى تكون  
موئلا للحجاج القادمين من «كاتم» وبلاد «التكرور». وتابع  
خلفاؤه العمل على توسيع حدود هذه الدولة حتى صارت  
إمبراطورية كبيرة، وخاصة فى عهد «الماى دوئمة بن سالم بن  
بكر» (618 - 657 هـ = 1221 - 1259م) الذى اشتهر بقوة فرسانه،  
وكثرهم حتى قيل إنها بلغت نحوًا من (41) ألف فارس، ويُعرف  
هذا الماى باسم «دوئمة دباليمى»، نسبة إلى والدته «دابال»؛  
حيث كانت النسبة إلى الأم شيئًا مألوفًا ومشهورًا فى هذه  
السلطنة بالذات. وقد حارب هذا الماى القبائل المتمردة، مثل  
قبائل «البولالا» الذين كانوا يعيشون فى حوض بحيرة «فترى  
الصغيرة» الواقعة إلى الشرق من «بحيرة تشاد»، وأخضعها  
وأقام علاقات طيبة مع «الدولة الحفصية» فى «تونس». واتسعت

(196/14)

---

الإمبراطورية فى عهده حتى وصلت شرقًا إلى مشارف «وادی  
النيل»، وغربًا قرب نهر «النيجر»، مما يعنى أن بلاد «الهوسا»

التي تشكّل الآن «نيجيريا الشمالية» كانت تحت سيادته  
وسلطانه، كما امتدت حدود بلاده شمالاً حتى وصلت قرب «فزان»  
الليبية واقتربت مساحتها من مساحة إمبراطورية «صنغى»  
الإسلامية التي سبق الحديث عنها، ولكن هذه الإمبراطورية  
الكبيرة لم تلبث أن دبَّ إليها الوهن نتيجة لعوامل كثيرة، منها  
الانقسامات التي ظهرت بين أبناء الأسرة الحاكمة، وظهور خطر  
قبائل «الصو»، التي كانت تسكن في إقليم «بورنو» وقيامها  
بمهاجمة عاصمة الدولة؛ وتمكنها من قتل أربعة من المايات.  
كذلك اشتد خطر البولالا الذين ازدادوا ضراوة بعد أن تمكّنوا من  
إقامة سلطنة صغيرة لهم في حوض «بحيرة فترى» واتخذوها  
مركزاً لمناوأة أبناء عموماتهم من مايات «الكام والبرنو». وقد  
استطاعت سلطنة «البولالا» التي ظهرت قوتها في عهد سلطانها  
«عبدالجليل بن سيكوما» أن تشن حرباً شرسة ضد الأسرة  
«السييفية الماغومية» الحاكمة في «كام»، وتمكن «عبدالجليل»  
هذا من أن يقتل أربعة من المايات من هذه الأسرة. وقد انتهى  
أمر الصراع بين الفريقين إلى طرد الأسرة «السييفية» الحاكمة  
في «كام» إلى إقليم «بورنو» الذي يقع غرب «بحيرة تشاد»،  
وذلك في عهد «المای عمر بن إدريس» (788 - 793هـ = 1386 -  
1391م) الذي استأنف حكمه من إقليم «برنو» فيما يعرف بعصر  
سيادة «برنو»، هذا العصر الذي امتد حتى نهاية الدولة في عام  
(1262هـ = 1846م)، وقد ترك طرد الماغوميين السييفيين إلى  
«برنو» فراغاً سياسياً في «كام»، ملأه «البولالا» الذين أقاموا  
سلطنة كبيرة ضمت هذا الإقليم بالإضافة إلى إقليم «بحيرة  
فترى» والمناطق المحيطة بها في حوض «بحيرة تشاد». ورغم  
ذلك فقد استمر الصراع بين «البولالا» وبين الماغوميين في  
مقرهم الجديد الذي جعلوه مركزاً لدولتهم، وبنوا فيه مدينة

---

تسمى «بيرنى نجازر جامو» واتخذوها عاصمة لهم. ولما تطلّعوا إلى إعادة نفوذهم في «كانم»؛ وقعت حروب كثيرة بينهم وبين سلاطين «البولالا»، وتبادل الفريقان النصر والهزيمة، وخاصة في عهد «المأى إدريس بن عائشة» (908 - 932 هـ = 1502 - 1526 م) الذى أنزل بالبولالا هزيمة ساحقة، واستولى على العاصمة «جيمى» وأقام فيها فترة ثم عاد إلى عاصمته «بيرنى». وتابع ابنه «المأى على بن إدريس» (952 - 953 هـ = 1545 - 1546 م) محاربة «البولالا» حتى لُقّب بحارق «البولالا»، ولم يلبث أن لَقِيَ حتفه في إحدى المعارك معهم. ولم يقضِ على خطرهم إلا «المأى إدريس ألوما» (978 - 1011 هـ = 1570 - 1602 م) الذى أقام معهم علاقة طيبة نتيجة ارتباط البيت البولالى بالأسرة السيفية برباط المصاهرة، مما سهل على هذا المأى أن يقضى على خطر «البولالا» وأن يعيد نفوذ أسرته إلى إقليم «كانم»، ووصلت الإمبراطورية في عهده إلى أقصى اتساعها وقوتها وازدهارها. وكما تكالبت عوامل الضعف الداخلية والخارجية على إمبراطوريتى «مألى» و «صنغى» حتى سقطتا، فقد تعرّضت إمبراطورية «البرنو» للظروف نفسها وشهدت النتيجة نفسها ذلك أن المأى «إدريس ألوما» الذى بلغت الإمبراطورية في عهده قمتها وازدهارها خلفه حكام ضعاف لم يكونوا في مثل قوته وحزمه، بلغوا خمسة عشر سلطاناً على مدى قرنين ونصف قرن من الزمان، حدث في أثنائها كثير من الوقائع التى أدّت إلى القضاء على الإمبراطورية، فبالإضافة إلى ضعف هؤلاء المايات أو السلاطين أصيبت البلاد بموجة من المجاعات المتلاحقة وصلت إلى خمس مجاعات، استمرت إحداها أربع سنوات، وأخرى سبع سنوات، وبدل تكرار حدوث هذه المجاعات على التدهور السريع والضعف العام الذى أصاب البلاد نتيجة إهمال الزراعة وكثرة

الفتن والاضطرابات، فضلا عن ظهور أخطار جديدة تمثلت في ظهور قبائل وثنية في منطقة «جومي» تُسمى قبائل «كوارافا» اشتهرت بالقوة والشجاعة، وتمكنت من اجتياح

(198/14)

الأقاليم الغربية في «برنو»، كما حدثت حروب بين «برنو» وجيرانها من إمارات «الهوسا» وخاصة إمارة «كانو» في النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي، غير أن أخطر ما تعرضت له إمبراطورية «البرنو» هو خطر «الفولانيين» وهم قبائل بيضاء انحدرت من الشمال وأقامت في غربي القارة، ثم انحدرت إلى الشرق واستقرت في إمارات «الهوسا» التي تتكون منها «نيجيريا» الشمالية الآن، وقامت علي يد زعيمها الشيخ «عثمان بن فودي» بحركة ضخمة لنشر الإسلام بين من كان على الوثنية في هذه الإمارات، وتمكنت من ضم هذه الإمارات في دولة واحدة تحت زعامة هذا الداعية الكبير، الذي أعلن قيام دولة «الفولاني» في بداية القرن التاسع عشر الميلادي هذا في الوقت الذي كانت إمبراطورية «البرنو» تزداد ضعفاً على ضعف وتلقى سلطانها «الماي أحمد بن علي» (1206 - 1223هـ = 1791 - 1808م) أكثر من هزيمة علي يد الفولانيين في عهد الشيخ «عثمان بن فودي» حتى اضطر هذا الماي إلى استدعاء أحد الكائمين والعلماء البارزين ويدعى الشيخ «محمد الأمين الكائمي» لمساعدته في محنته ضد هذا الغزو الفولاني، واستجاب هذا الزعيم لهذا الطلب وتبادل عدة رسائل مع الشيخ «عثمان بن فودي»، كل منهما يحتاج الآخر عبر مناقشات فقهية يبرر كل منهما سياسته، ولكن هذه الرسائل لم تؤدّ إلى إزالة حالة الحرب القائمة بين الفريقين، وأخيراً نجح الفولانيون في الاستيلاء على عاصمة «برنو»

فاضطر الماي إلى الهرب منها ولجأ إلى الشيخ محمد الأمين  
الذي أصبحت له السيطرة الكاملة على المايات الذين صاروا  
حكاًماً بالاسم فقط. استمر الشيخ «محمد الأمين» يحكم ما بقي  
من إمبراطورية «البرنو» و «الكانم» وأجرى مفاوضات مع سلطان  
الفولانيين «محمد بلو» الذي خلف أباه الشيخ «عثمان بن فودي»  
في زعامة الفولانيين، واتخذ مدينة «سوكوتو» عاصمة له،  
وأرسل له الشيخ الكانمي رسائل أوضح له فيها أنهم أهل دين

(199/14)

واحد هو الإسلام، وأنه لا ينبغي أن يحارب بعضهم بعضاً وأن  
كلا منهما يجب أن يحترم حدود الآخر، فهدأت الأحوال بين  
الدولتين حتى توفى الشيخ «محمد الأمين الكانمي» في عام  
(1251هـ = 1835م) وخلفه ابنه الشيخ «عمر». وفي عهد هذا  
الشيخ حاول «الماي إبراهيم بن أحمد» (1232 - 1262هـ = 1817  
- 1846م) أن يسترد سلطاته التي سلبها منه الشيخ «محمد  
الأمين» ثم ابنه «عمر»، واستعان في ذلك بأمير دويلة صغيرة  
تقع بين «كانم» و «دارفور» تُسمى «واداي» وتآمر معه لغزو  
«برنو». ونفذ أمير «واداي» الخطة المتفق عليها وأباد جيش  
«برنو» في (1262هـ = 1846م) منتهزاً فرصة غياب الشيخ  
«عمر» عن العاصمة؛ لحرب كانت واقعة بينه وبين أحد جيرانه  
الآخرين، ولما علم هذا الشيخ بنبا هذا الغزو وهذه المؤامرة عاد  
إلى «برنو»، وأخرج الغزاة منها نظير مبلغ كبير من المال دفعه  
لهم، وقبض على الماي «إبراهيم» ومستشاريه وأعدمهم جميعاً،  
ثم تخلّص من الماي «علي بن دالاتو» عام (1262هـ = 1846م)  
الذي لم يحكم سوى أربعين يوماً وكان مفروضاً عليه كشرط  
لرحيل جيش أمير «واداي» عن «برنو». ومقتل «علي بن دالاتو»

انتهى حكم الأسرة «السيقية الماغومية» التي ظلت تحكم هذه البلاد أكثر من ألف عام، وأصبحت «برنو» تحت حكم الأسرة الكاثية فعليا ورسميا منذ ذلك التاريخ وحتى وقوعها في قبضة الاستعمار الفرنسي في عام (1318هـ = 1900م)، وقد أعيد تقسيم أملاك إمبراطورية «برنو» بين «إنجلترا» و «فرنسا» و «ألمانيا» بعد القضاء على مقاومة أحد المجاهدين ضد الاستعمار الأوربي وهو «رابح الزبير». فأخذت «فرنسا» إقليم «كام»، وأخذت «إنجلترا» إقليم «برنو»، وظفرت «ألمانيا» بالمناطق الجنوبية لبرنو، وهكذا تلاشت إمبراطورية «برنو» التاريخية على يد الغزاة الأوربيين في بداية القرن العشرين الميلادي، وظل الأمر على هذا النحو حتى قامت حركة الكفاح الوطني في هذه المنطقة ضد المستعمر الأوربي، وتكللت

(200/14)

---

جهودها بالنجاح وظفرت بالاستقلال، وقامت على أنقاض إمبراطورية «الكام والبرنو» عدة دول حديثة، هي جمهورية «تشاد» التي استقلت عن «فرنسا» في عام (1380 هـ = 1960م)، وهي دولة إسلامية يدين (85%) من سكانها بالإسلام، ويتكلمون اللغة العربية بجانب اللغات المحلية واللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية، وجمهورية «إفريقيا الوسطى» التي استقلت عن «فرنسا» في العام نفسه أيضاً، وتضم هذه الدولة الأطراف الجنوبية من إمبراطورية «البرنو» التاريخية، ولذلك فإن نسبة المسلمين فيها قليلة. وجمهورية «النيجر» التي استقلت عن الفرنسيين في العام نفسه، وضمت أغلب الأجزاء الشمالية الغربية من إمبراطورية «البرنو» ولذلك فإن (95%) من سكانها مسلمون يتكلمون اللغة العربية بجانب اللغات المحلية، واللغة

الفرنسية هي اللغة الرسمية، و «نيجيريا» التي استقلت عن «إنجلترا» في عام (1381هـ = 1961م) وضمت إقليم «برنو» الذي يقع غرب «بحيرة تشاد»، كما ضمت جميع بلاد «الهوسا»، وأكثر من (70%) من سكانها مسلمون يتكلم الكثير منهم اللغة العربية ولغة الهوسا بجانب اللغة الإنجليزية، وهي اللغة الرسمية، كذلك ضمت «جمهورية الكمرون» التي استقلت عن «فرنسا» في عام (1380هـ = 1960م) وتضم بعض الأجزاء الجنوبية والجنوبية الشرقية من «برنو»، وكذلك فإن هذه الدولة دولة إسلامية؛ إذ إن أكثر من (55%) من سكانها مسلمون، واللغة الفرنسية هي السائدة بجانب اللغة العربية واللهجات المحلية. وإذا كنا قد تحدثنا عن التاريخ السياسي لسلطنة «الكام» والبرنو» منذ أن أصبحت دولة إسلامية في عام (479هـ = 6801م) وحتى نهايتها على يد الاستعمار الفرنسي، فإن الواجب يحتم علينا أن نتحدث باختصار عن الطابع الإسلامي ومظاهر الحياة الإسلامية في هذه السلطنة الكبيرة. وفي هذا الصدد نستطيع القول بأن سلطنة «الكام والبرنو» قد قامت بالدور نفسه الذي قامت به سلطنتنا «مالي» و «صنغى»؛ فقد اتصلت بالقوى

(201/14)

---

المعاصرة لتأكيد روح الأخوة الإسلامية وللإفادة من خبراتها الثقافية والعلمية والإدارية والحضارية فقد اتّصلت بمصر أثناء ذهاب أهلها وسلطينها لتأدية فريضة الحج، وقد سبقت الإشارة إلى قيام أول سلطان في «كام» وهو «أوم بن عبدالجليل» بأداء هذه الفريضة، وإلى وفاته في «مصر» عام (490هـ = 1097م) عند عودته إلى بلاده، وقام ابنه «دوثة» بأداء هذه الفريضة ثلاث مرات مرّ خلالها بمصر وفي حجته الثالثة غرق في

مياه «البحر الأحمر» عند مدينة «عيزاب» في عام (546هـ = 1151م) وواصل مايات «الكاتم والبرنو» أداء هذه الفريضة. ومن مظاهر الاتصال بالدول الإسلامية الرسائل المتبادلة بين سلاطين «مصر» و «البرنو»، من ذلك رسالة أوردتها «ابن فضل الله العُمري» و «الْقَلْقَشَنَدِي» وأشارت إلى استغاثة سلطان «البرنو» بسلطان «مصر» «الظاهر برفوق» في عام (795هـ = 1393م) لمساعدته في القضاء على تمرد القبائل العربية التي ساعدت خصومه السياسيين من «البولالا». كذلك كانت هناك علاقات ثقافية وتجارية بين «مصر» وسلطنة «الكاتم والبرنو» من ذلك ما ترويه لنا المصادر من أن «الأزهر» كان به رواقٌ حُصِّص للطلاب القادمين من هذه السلطنة يُسمَّى «رواق البرنوية» كما سمحت «مصر» للكاثميين بإنشاء مدرسة تُسمَّى مدرسة «ابن رشيق» في مدينة «الفسطاط» بمصر لتدريس الفقه المالكي؛ ولكي تكون مقرا ينزل به حجاج «البرنو». أما العلاقات التجارية فقد ازدادت بين «مصر» وبلاد «الكاتم والبرنو»، ومما يدل على ذلك أن طائفة من أهل «كاتم» اشتهرت باسم «التجار الكارمية» رحلوا إلى «مصر» وأقاموا فيها واشتركوا بنصيب موفور في تجارتها الخارجية وخاصة في تصريف المحاصيل السودانية، وتجارة البهار القادمة من «اليمن» و «الهند» و «الصين»، واتخذت من مدينة «قوص» بصعيد «مصر» مركزاً لها. وكان لهؤلاء التجار الذين عُرفوا بالتقوى والورع فضل كبير في نشر الإسلام وخاصة

(202/14)

---

في بلاد الحبشة. كذلك كان لسلطنة «الكاتم والبرنو» علاقات تجارية وثقافية مع شمال إفريقيا وخاصة «تونس» فقد اتصل سلاطين «الكاتم» بحكامها من «بني حفص» وتبادلوا الرسائل

والهدايا، من ذلك سفارة أرسلها الماي «عبدالله بن كادي» إلى السلطان الحفصي «أبي يحيى المتوكل» في عام (727هـ = 1307م)، كذلك تبودلت الرسائل والسفارات مع «طرابلس» في عام (908هـ = 1502م) وسفارة بعث بها أيضاً في عام (941هـ = 1534م) وأخرى في زمن الماي «إدريس ألوما» المتوفى عام (1011هـ = 1602م) كذلك نشطت العلاقات التجارية بين «برنو» وهذه البلدان. ويمثل الجهاد قمة إيمان السلطنة بالإسلام، فقد اتخذها سلاطينها طريقاً لرد العدوان والتعريف بالإسلام بين الوثنيين الذين كانوا يقومون بالاعتداء على هذه الدولة الإسلامية، وخاصة الوثنيين المقيمين في الجنوب، فقد حاربهم السلاطين ودخل كثير منهم في الإسلام، بالإضافة إلى اتباع أسلوب الإقناع الذي اتبعه بعض السلاطين وخاصة السلطان «إدريس ألوما»، الذي اشتهر ببناء المساجد الضخمة من الحجارة، وطبق الشريعة الإسلامية خاصة في معاملة الأسرى، ونظم الجهاد بما يتمشى مع تعاليم الإسلام، فازداد الدخول في هذا الدين وانتشر في منطقة «بحيرة تشاد» كلها. كذلك فقد شجع سلاطين «الكام والبرنو» انتشار الثقافة العربية الإسلامية، فأكثروا من بناء المساجد والكتاتيب، وكانت اللغة العربية هي لغة التعليم ولغة الحكومة الرسمية، فضلاً عن كونها لغة المعاملات التجارية ولغة المراسلات الدولية، كما كان الحال في جميع الدول الإسلامية التي قامت في بلاد «السودان الغربي»، وظلت الحال على هذا النحو حتى عصر الاستعمار الأوربي الذي قضى على اللغة العربية ولم يعد لها إلا وجود محدود بين قليل من الأهالي، ووجود كبير في المدارس الدينية الإسلامية. وفي ظل تشجيع سلاطين «الكام والبرنو» للثقافة الإسلامية ارتقى العلماء

والفقهاء منزلة رفيعة، وحرص السلاطين على رعايتهم والإغداق عليهم، وإصدار المحارم (أى الفرمانات) التى كانوا يمنحونها بمقتضاها كثيراً من الامتيازات المادية والإقطاعات، ويحرمون على أى شخص مهما بلغت منزلته وقدره أن يسلبهم شيئاً منها. ولذلك ظهر فى هذه السلطنة كثير من العلماء والفقهاء، منهم الفقيه «محمد بن مانى» الذى سبق الحديث عنه، والإمام «أحمد بن فرتو» الذى كان معاصراً للماى «إدريس ألوما»، والذى تعد كتاباته المرجع الرئيسى لتاريخ «برنو»، والعالم الكبير «عمر بن عثمان بن إبراهيم»، والعالم «عبدالله ديلى بن بكر»، وغيرهم من العلماء الذين صدرت لهم محارم (فرمانات) تشجيعاً لهم على التفرد للعلم والبحث والتدريس؛ مما أدى إلى انتشار العلوم الإسلامية بين أهالى هذه البلاد.

(204/14)

#### \*الهوسا (إمارات)

تشمل بلاد «الهوسا» ما يعرف الآن بنيجيريا الشمالية، وجزءاً من جمهورية «النيجر»، وكانت تقع فى العصور الوسطى فى المنطقة المحصورة بين سلطنتى «مالى» و «صنغى» غرباً، وسلطنة «البرنو» شرقاً، تحدها من الشمال بلاد «أهير» والصحراء الكبرى، ومن الجنوب ما يعرف الآن بنيجيريا الجنوبية. و «الهوسا» (أو الحوصا) مصطلح يطلق على الذين يتكلمون بلغة «الهوسا»، ولذلك فليس هناك جنس يمكن أن يتسمى بهذا الاسم؛ إذ إن الهوسويين لا ينحدرون من دم واحد، بل جاء أغلبهم نتيجة امتزاج حدث بين جماعات قَبَلِيَّة وعِرْقِيَّة كثيرة، أهمها: السودانيون. أهل البلاد الأصليون، والطوارق من البربر، والفولانيون وغيرهم. ونتج عن هذا الامتزاج هذا الشعب الذى

أصبح يتكلم لغة واحدة، هي لغة «الهوسا» التي انتشرت انتشاراً كبيراً في إفريقيا الغربية، حتى أصبحت لغة الناس والمعاملات المالية والتجارية. وعلى الرغم من أن المتكلمين بلغة «الهوسا» في هذا الجزء من القارة الذي يعرف الآن بنيجيريا كانوا يعيشون متجاورين، ويتكلمون لغة واحدة، ويدين معظمهم بالإسلام، فإنهم لم يعيشوا تحت حكم دولة واحدة، بل كَوْنُوا سبع إمارات صغيرة، تُعرف باسم إمارات أو ممالك «الهوسا»، وهي: «كانو»، و «كاتسينا»، و «زاريا»، و «جوير»، و «دورا»، و «رانو»، و «زمفرة». ويرى بعض الباحثين أن «دورا» هي أقدم هذه الإمارات، وأن دماء أهلها وافدة من «مصر العليا» و «الحبشة» وبلاد العرب، و «كاتسينا» التي كانت تتوسط هذه الإمارات، و «زاريا» أوسعها أرضاً، و «كانو» أغناها، و «جوير» أجدها، وتقع في شماليها. وعلى ذلك فقد كانت كل إمارة من هذه الإمارات مستقلة عن الأخرى، وكانت الحروب تندلع فيما بينها في فترات كثيرة؛ نتيجة لأطماع حكامها في فرض سيطرتهم، كل على الآخر؛ أو نتيجة لتحالف أحدهم مع القوى الكبيرة المجاورة لبلاد «الهوسا» وهي: دولة «البرنو» الإسلامية

(205/14)

---

من الشرق، ودولة «مالى» ثم دولة «صنغى» الإسلامية من الغرب. وقد اشتهر الهوسويون بالمهارة في الزراعة والصناعة والتجارة، وقد استغلوا موقع بلادهم المتوسط بين «السودان الغربى» و «السودان الشرقى» في الاشتغال بالتجارة، ولذلك مهروا في هذه الحرفة، وكانوا من أكثر التجار مغامرة، وكانت قوافلهم تخرق الصحراء الكبرى ثلاثة أشهر من كل عام؛ لتزود «طرابلس»، و «تونس» وغيرهما من بلدان شمال إفريقيا بمنتجات

بلاد «السودان» من ذهب وعاج ورقيق. كما اخترقت قوافلهم مناطق الغابات في الجنوب؛ حيث وصل نشاطهم التجارى إلى «نوب»، واتجهوا شرقاً إلى «برنو»؛ حيث فتحوا طريقاً للتجارة عام (856هـ = 1452م)، وتوغّلوا في الجنوب حتى حوض «فولتا» الأوسط. وقد أصبحت طرق التجارة الخارجية، وخاصة التي تخرج من بلاد «الهوسا»، متجهة شمالاً إلى «أهير». وتتصل عندها بالطرق الرئيسية المتجهة إلى «غات» و «غدامس» و «فزان» و «تكدا» و «برنو» مفتوحة ومستعملة بطريقة كافية ومنظمة، وأصبحت مألوفة جداً للمسافرين والتجار؛ مما شجّع العلماء والباحثين على زيارة بلاد «الهوسا» بكل سهولة وارتياح، كما شجّع التجار المغامرين على ارتيادها. وقد أدّى هذا كله إلى انتشار الإسلام، ونمو الحركة الفكرية، وازدياد تأثير الثقافة العربية الإسلامية، وسيطرة تجار «الهوسا» على النشاط التجارى في جميع أنحاء «السودان الأوسط»، وتضخمت جالياتهم في كل المراكز التجارية المهمة، وأصبحت لغتهم لغة التخاطب العامة في الأسواق والمعاملات المالية والتجارية، وازدادت سيطرتهم على التجارة في بلاد «السودان» بعد انهيار سلطنة «صنغى» الإسلامية أمام الغزو «المراكشى» سنة (1000هـ = 1591م)، مما أدّى إلى تحول المجرى الرئيسى للحركة التجارية إلى بلاد «الهوسا»، وقفزت «كانو» و «كاتسينا» بصفة خاصة إلى مكان الصدارة والشهرة باعتبارهما مركزين مهمين من مراكز التجارة والحضارة في ذلك

(206/14)

---

الحين، وبخاصة بعد أن أصبحتنا من أهم مراكز الإسلام في تلك المنطقة من بلاد «الهوسا». وقد انتشر الإسلام في إمارات

«الهوسا» السبع في فترة مبكرة إذ دخل الإسلام في إمارة  
«كانو» في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي، وفي باقي  
الإمارات في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي، وكان لاعتناق  
حكام إمارات «الهوسا» الإسلام، بالإضافة إلى ما اتَّسَمُوا به من  
العدالة وحب الرعية أثر كبير في انتشار الإسلام بين الناس،  
فازداد تمسكهم به وازداد تفانيهم وإخلاصهم له. وبعد انتشار  
الإسلام في هذه الإمارات، كثر وفود العلماء إليها للدعوة ونشر  
الإسلام وتصحيح العقيدة بين أهلها، فقاموا بإنشاء عدد كبير  
من المساجد كمراكز لنشر الدعوة الإسلامية في هذه الإمارات  
وما حولها من المناطق الأخرى، ونجحوا في القضاء على الوثنية  
التي كانت منتشرة بين السكان قبل دخولهم في الإسلام. وقد  
وجد هؤلاء العلماء في هذه الإمارات الأمن والطمأنينة، مما  
دفعهم إلى إحصار مؤلفاتهم، وبخاصة في علوم اللغة والأدب  
والتوحيد، ورَحَّبَ بهم حكام هذه الإمارات، فازدهرت الثقافة  
واتسعت مجالاتها بجهود هؤلاء العلماء، كما ازداد عدد الرجال  
المتعلمين؛ حيث كان العلماء يعلمون الناس الآداب والثقافة  
الإسلامية باللغة والحروف العربية. ومن العلماء الذين يرجع إليهم  
الفضل في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية في هذه الإمارات  
الشيخ «عبدالرحمن زيد» الذي مارس نشاطه في الدعوة في  
إمارة «كانو»، والشيخ «محمد بن عبدالكريم المغيلي» فقيه  
«توات» الشهير الذي رحل إلى «كانو» و «كاتسينا»، ونشر  
فيهما عقيدة الإسلام الصحيحة، والشيخ «عبد سلام» الذي  
أحضر معه كتب «المدونة» و «الجامع الصغير» والشيخ القاضي  
«محمد بن أحمد بن أبي محمد التاذختي» المعروف باسم «أيد  
أحمد» بمعنى «ابن أحمد» الذي ولى قضاء «كاتسينا» وتوفى  
نحو سنة (936هـ = 1529م)، وغيرهم. وقد كان للتجار - أيضاً -

---

دور كبير في نشر الإسلام في هذه الإمارات، بل كان لهم الدور الأول في معرفة هذه الإمارات بالإسلام، كما أدى انتشار الإسلام إلى ازدهار التجارة ازدهاراً كبيراً، بسبب كثرة احتكاك هذه الإمارات بالمدن المجاورة لها. وعلى أية حال فقد كان لجهود العلماء والتجار القادمين إلى بلاد «الهوسا» والمحليين أثرها الكبير في نشر الإسلام في هذه البلاد منذ القرن الثاني عشر الميلادي، وأصبحت «كانو»، و «كاتسينا»، و «زاريا» وغيرها من بلاد «الهوسا» مراكز إسلامية في هذه البقاع من القارة، وتألقت فيها الثقافة الإسلامية، وكان لها فضل كبير في نشر الثقافة الإسلامية بين سكانها وغيرهم من البلاد المجاورة، فإمارة «كانو» يرجع إليها الفضل في نشر الإسلام شرقاً حتى حدود «برنو»، وإمارة «زاريا» يرجع إليها الفضل في نشر الإسلام في أواسط بلاد «الهوسا»، وجنوبيها في حوض «نهر فولتا»، وكان علماء «تمبكت» - التي تقع على نهر «النيجر» - يرحلون إلى هذه الإمارات، كذلك رحل إليها علماء من «مصر»، من أبرزهم الإمام «جلال الدين السيوطي» المتوفى سنة (911هـ = 1505م) والذي نشأت بينه وبين أمير «كاتسينا» علاقة طيبة، وهناك ما يدل على أن الإمام «السيوطي» رحل إلى هذه الإمارة وعاش فيها زمناً، يعلم الناس ويفتيهم، وعاد إلى «مصر» سنة (876هـ = 1471م)، واتصلت المراسلات بينه وبين علماء هذه البلاد، كما اتصلت بينهم وبين علماء «مصر» وبلاد «الحجاز» وغيرهما، مما يدل على التواصل الإسلامي، وعلى صلة بلاد «الهوسا» بالعالم الإسلامي سواء في إفريقيا، أو في غيرها من القارات.

## \*البلالة (سلطنة)

قامت هذه السلطنة في حوض بحير «تشاد» (أى: في بلاد السودان الأوسط)، وبالتحديد في حوض بحيرة «فتري»، وإلى الشمال منها حتى بحيرة «تشاد»، وظهرت كدولة يمكن التحقق من تاريخها منذ عام (766هـ = 1365م)، واستمرت حتى بداية القرن العشرين، عندما سقطت المنطقة كلها في يد الاستعمار الفرنسي. وعلى الرغم من طول مدة بقاء هذه السلطنة، فإن المؤرخين لم يذكروها كثيراً ولم يهتموا بها؛ لأنها كانت تابعة لسلطنة «الكام والبرنو» في كثير من فترات حياتها. ويعود اسم «البلالة» إلى أول زعيم لهم ويدعى «بولال» أو «بلال» أو «جيل» أو «جليل»، ومنه جاء اسم أول زعمائهم وهو «عبدالجليل»، وربما جاء اسم «بلالة» أو «بولالة» من «بولو» الذى كان ابناً لقبائل «البيوما» التى كانت تسكن منطقة «بيو» (Biyo)، ثم أُضيف إليه المقطع التماشكى (ilalla) فجاء اسم «بولالا» أو «بلالة»، وهى كلمة تعنى الأحرار النبلاء، وربما جاء الاسم أيضاً من اسم ميناء كان ولا يزال يقع على الساحل الشرقى لبحيرة «تشاد»، ويسمى «بول» (Bol)، ثم أُضيف إليه المقطع التماشكى، فصار «بولالا» أو «بلالة» كما ينطقه البباليون أنفسهم فى هذه الأيام. أما أصل قبائل «البلالة» فقد جاء نتيجة اختلاط عناصر متعددة سكنت هذه المنطقة، وهى: البربر والعرب والسودان والزنج، وقد تصاهرت هذه العناصر فيما بينها، فأدى ذلك إلى امتزاجهم وتغير فى صفاتهم. وقد كان «البلالة» وثنيين حتى القرن الثانى عشر الميلادى؛ حيث أسلموا عقب إسلام بنى عموماتهم الذين يتمثلون فى «الأسرة السيفية الماغومية» الحاكمة فى سلطنة «كام» فى القرن الحادى عشر الميلادى. أما من الناحية السياسية فقد ظهر خطر «البلالة» على سلاطين دولة «كام» منذ وقت مبكر، رغم صلة

القراية التي تربط بينهما، ويعود ذلك إلى أن «البلاية» كانوا يحاولون التخلص من تبعيتهم لأقربائهم من حكام «كانم»، وقد

(209/14)

ظهر هذا الخطر منذ عهد أول سلاطين «كانم» الإسلامية وهو الماي (السلطان) «أوم بن عبدالجليل» (1086 – 1097م) الذي حاربهم وانتصر عليهم، فأعلنوا الطاعة والخضوع، وظلوا يتقبلون بين التبعية والتحرر من سلطان «كانم» حتى ظهر زعيمهم الموصوف بالقوة والشجاعة والدهاء وهو «عبدالجليل سيكومامي» الذي حقق لهم الاستقلال التام والتوسع في حدود سلطنته في عام (1365م)، بفضل معاونة العرب الموجودين في هذه المنطقة، واتخذ من مدينة «ماسيو» التي تقع بين «بحيرة فتري» و «كانم» عاصمة له. ثم حارب مايات كانم وانتصر عليهم، وبذلك وقع إقليم «كانم» بأسره في قبضة «البلاية»، مما جعلهم يحكمون دولة واسعة تمتد من حدود «دارفور» الغربية وبلاد «النوبة» حتى شواطئ «بحيرة تشاد» الشرقية، واضطرت «الأسرة السيفية الماغومية» الحاكمة في «كانم» إلى الهرب إلى إقليم «برنو» الذي يقع في غرب «بحيرة تشاد». ولكن لم يلبث حكام «برنو» أن استعادوا قوتهم على يد الماي «على جاجي بن دوتمه» الملقب بالغازي؛ نظرًا لغزوه إقليم «كانم»، ونشب بينه وبين «البلاية» صراع منذ عام (1472م) في محاولة لاسترداد «كانم» مرة أخرى، واستمر الصراع فترة طويلة انتهى بعقد اتفاقية سلام، اتفقا فيها على رسم الحدود بين «كانم» و «برنو». وعلى الرغم من ذلك وبمرور الوقت بدأ الضعف يدب في جسد سلطنة «البلاية»؛ بسبب الفتن والاضطرابات والحروب الأهلية، وظهور إمارات جديدة بدأت تُغير على سلطنة «البلاية»،

مثل سلطنة «واداي» التي تقع في الشمال الشرقي لدولة «البلالة»، وسلطنة «باجرمي» التي تقع في جنوبيها الغربي. وعلى الرغم من هذا الضعف فقد ظلت هذه السلطنة قائمة حتى بداية القرن العشرين؛ حيث سقطت في قبضة الاستعمار الفرنسي في عام (1900م)، ومع ذلك حكم بعض سلاطين «البلالة» تحت راية هذا الاستعمار، وظلوا كذلك حتى نالت البلاد استقلالها في عام (1960م) ودخلت بلاد «البلالة» ضمن حدود جمهورية «تشاد»

(210/14)

الحديثة منذ ذلك التاريخ. وقد أدت «سلطنة البلالة» دوراً اقتصادياً وعلمياً ودينياً مهماً في تاريخ المنطقة؛ إذ كانت نظراً لموقعها بين «دارفور» و «النوبة» في الشرق، و «كانم» و «بحيرة تشاد» وماوراءها من بلاد «الهوسا» و «مالي» في الغرب، و «ليبيا» في الشمال - مركزاً مهماً من مراكز التجارة التي تأتي من هذه البلدان مما انعكس أثره على مسيرتها التاريخية، ودعم اقتصادها، وربط بينها وبين دول تقع خارج منطقة «بحيرة تشاد»، واتسعت تجارتها حتى وصلت إلى «مصر» وغيرها من البلدان، كما زادت محصولاتها الزراعية. أما الحياة العلمية: فقد تجلت في المدارس والعلماء والفقهاء والأشرف الذين كانوا يُعَامَلُونَ بكلِّ تَبَجِيلٍ واحترامٍ، كما ظهرت الطرق الصوفية وبخاصة «التيجانية» و «القادرية»، وكان لهذه الطرق أثر كبير في نشر الإسلام في هذه البلدان. أما اللغات التي كانت منتشرة بين «البلالة»، فهي عديدة، فقد كانوا يتكلمون لغة «كوكا» وهي قبيلة كانت تسكن مملكة «جاوجا» - أحد أقاليم سلطنة البلالة - وكانوا يتكلمون أيضاً اللغة العربية التي كانت لغة العلم والتعليم ولغة الحكومة الرسمية والتجارة

والمراسلات، حتى قضى الاستعمار الفرنسى عليها وعلى  
استخدام الحروف العربية فى الكتابة وحوَّها إلى الكتابة  
بالحروف اللاتينية، وإن كان كثير من الأهالى - حتى الآن -  
يحافظون على التحدث والكتابة باللغة العربية، ومعظمهم - أى  
نحو (85%) - يدينون بالإسلام.

(211/14)

### \*الفونج (دولة)

اختلف الباحثون فى أصل «الفونج»، فقيل إنهم من سلالة عربية  
أموية هربت من وجه العباسيين، وأنهم جاءوا إلى «الحبشة»  
أولا ومنها إلى «السودان الشرقى» (النيلى)؛ حيث تصاهروا مع  
ملوك «السودان»، وظهرت نواة إمارة «الفونج» عقب القضاء  
على مملكة «دنقلة» المسيحية، وتسربَّ العرب على نطاق واسع  
إلى مملكة «علوة» المسيحية، واتَّسع نطاق هذه الإمارة غربًا،  
ووصل إلى أطراف منطقة الجزيرة من الشرق، ثم تمَّ التحالف بين  
هذه الإمارة النامية فى عهد أميرها «عمارة دونقس» (911 -  
941هـ = 1505 - 1534م) وبين عرب «القواسمة» الذين ينتمون إلى  
مجموعة «الكواهلة» فى عهد زعيمهم وشيخهم «عبدالله جمَّاع».  
وقد كان لهذا التحالف نتائج مهمة فى تاريخ «سودان وادى  
النيل»: أولها: قضاء الحليفين على مملكة «علوة» المسيحية عام  
(911هـ = 1505م). وثانيها: قيام مملكة «العبد لاب» التى اتَّخذت  
مدينة «قزى» حاضرة لها، ثم انتقلت منها إلى «حلفاية»،  
وشاركت «الفونج» فى السيطرة على القسم الشمالى من البلاد  
وامتدَّ ملكهم من مصب «دندر» إلى بلاد «دنقلة». وثالثها: قيام  
مملكة «الفونج» الإسلامية التى كان «عمارة دونقس» أول  
سلطان لها وامتدت من «النيل الأزرق» إلى «النيل الأبيض». وقد

بلغت هذه السلطنة أوج مجدها في عهد السلطان «بادى الثانى  
أبو دقن» (1052 - 1088هـ = 1642 - 1677م)؛ إذ امتدت رقعتها  
من «الشلال الثالث» إلى «النيل الأزرق»، ومن «البحر الأحمر»  
إلى «كردفان»، واستمر توسُّع هذه الدولة طيلة القرن الثامن  
عشر الميلادى فى عهد الملك «بادى الرابع». غير أنه قبيل  
نهاية ذلك القرن ظهرت عوامل الضعف فى هذه السلطنة، عندما  
تصدَّعت عُرى التحالف بين سلاطين «الفونج» و «عرب  
القواسمة»، كما كان لاستبداد الوزراء والقواد أثره فى القضاء  
على هذه الدولة، فقد استطاع «محمد بن أبى لكيلك كتمور»  
المتوفى سنة (1190هـ = 1776م) أن يعزل السلطان «بادى

(212/14)

---

الرابع» ويولَّى غيره، وبدأت الانقسامات الداخلية والحروب  
الأهلية؛ فأدَّت إلى انحلال الأسرة المالكة، حتى جاء الفتح  
المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادى فى  
عهد «محمد على باشا». وقد اتخذت سلطنة «الفونج» مظهرًا  
إسلاميا منذ البداية، فقد استهلت حياتها بالإسهام فى حركة  
الجهاد الإسلامى، وساعدت العرب فى القضاء على مملكة  
«علوة» المسيحية، وبذلك تدفَّق الإسلام فى وسط «السودان»،  
ومنه إلى الجنوب والغرب. كما أسهموا فى محاربة الوثنيين  
داخل «السودان» نفسه، فقد حاربوا أهل جبال «النوبا» بسبب  
غاراتهم على «كردفان»، واستمروا فى حربهم زمنًا طويلًا حتى  
انتشر الإسلام فى كثير من مناطق هذه الجبال فى غربى  
«السودان». كما حارب «الفونج» «الشلك» (أو الشلوك) للغرض  
نفسه، بل شاركوا فى حركة الجهاد الإسلامى ضد الأحباش فى  
القرن الثامن عشر الميلادى فقد قضوا على بعثة فرنسية كانت

قد قدمت إلى «الحبشة»، بهدف مساندة في حربها ضد المسلمين عام (1117هـ = 1705م)، كما اشتبكوا مع الأحباش في عهد الملك «بادى الرابع أبى شلوخ» سنة (1157هـ = 1744م)، وكانت جيوش «الفونج» بقيادة شيخ «قرى» التي كان يتولى إمارتها الشيخ «محمد أبو اللكيلك» كبير الهمج (الهمق)، الذي قضى على دولة «الفونج» فيما بعد، وقد انتصر هؤلاء القواد على جيش «الحبشة»، وكان لانتصارهم هذا دوى هائل في العالم الإسلامي المعاصر في «مصر» و «الشام» و «الحجاز» و «تونس» و «إستانبول» و «الهند». ولم يسهم «الفونج» في نشر الإسلام عن طريق الجهاد فحسب، إنما استعانوا بالوسائل السلمية التي كانت الأصل في غالب الأحوال وكان لرواد الدعوة الذين وفدوا من «الحجاز» و «المغرب» و «مصر» و «العراق» إلى جانب الدعوة الوطنيين فضل كبير في هذا السبيل فالج والتجارة بين «الحجاز» و «السودان» كانا من أكبر ماهياً للسودان نشر الدعوة. وكان حجاج «السودان» يشجعون علماء

(213/14)

---

«الحجاز» على الرحلة إلى بلاد «الفونج»، كما أن كثيراً من السودانيين كانوا يتلقون العلم في «مكة» و «المدينة». أما «المغرب» فكان منبعاً آخر للثقافة الإسلامية. أما «مصر» فكانت علاقة «السودان» بها في ذلك الحين أقل من تلك التي كانت بينه وبين «الحجاز» و «المغرب»، ومع ذلك تطلّع ملوك «الفونج» إلى «الأزهر» وعلمائه ورحبوا بهم، وكان بعض السودانيين يذهبون إلى «الأزهر» ثم يعودون إلى بلادهم ناشرين الإسلام وثقافته. وقد رحل أحدهم وهو الفقيه «محمد الجعلى» إلى منطقة جبال «النوبا» التي تقع جنوب «كردفان» مع مجموعة من

الفقهاء؛ للدعوة إلى الإسلام في أوائل القرن السادس عشر الميلادي واستطاع أن يتزوّج أميرة من البيت الحاكم هناك، فانقل الحكم إلى ابنه المسّمى «قيلى أبو جريدة». وقد أسّس هذا الابن أول أسرة إسلامية حاكمة في جبال «النوبا»، سنة (926هـ = 1520م) عرفت باسم مملكة «تقلي»، وكان هو أول سلاطينها. كذلك كان لسلطنة الفونج وعاصمتها اتصال بدارفور التي كانت تستعين بفقهاء «سنار» في نشر الدعوة، وكان للفونج اتصال أيضاً بالباشا التركي في موانئ «البحر الأحمر» في «سواكن» و «مصوع»؛ حيث كان له وكلاء في «سنار» و «أرجي»، وكذلك اتصلوا باليمن وغيره من الأمصار الإسلامية؛ مما يدل على عمق الروح الإسلامية التي تغلغت في مملكة «الفونج». وتظهر هذه الروح الإسلامية في معاملتهم الحسنة لرجال العلم، وفي احترامهم وإحاطتهم بالرعاية والتكريم، فرحل إليهم كثير من علماء المناطق النائية، وعاشوا في جوارهم، مما كان له أثر كبير على مسيرة الإسلام في هذه السلطنة.

(214/14)

#### \* دارفور (سلطنة)

بلاد «دارفور» عبارة عن هضبة تنتشر فيها المراعى وتتخللها بعض المرتفعات، ويتألف سكانها من العنصر الزنجى والعنصر الحامى، وكانت هذه البلاد مستقرا لشعب يُسمّى شعب «الداجو»، وفد عليها من الشرق أو من «جبال النوبا» الواقعة غرب «النيل الأبيض» قبل القرن الثاني عشر الميلادي وأسس فيها مُلكاً. وفي القرن الثاني عشر الميلادي دخل هذه البلاد عنصر مغربى من «تونس» يتمثل في «شعب التنجور» أو «عرب التنجور»، وهم عنصر من البربر أو العرب، وقد خالط هؤلاء

شعب «الداجو» وصاهروهم، ونتج عن ذلك وجود جنس مختلط يُسمّى شعب الفور استطاع أن يصل إلى الحكم. كان أول السلاطين المولدين من «الداجو» و«التنجور» هو «أحمد المعفور» الذى تزوج من ابنة ملك «دارفور» الوثنى، بعد أن أثبت جدارته فى الإشراف على شئون بيت الملك، وقد اتخذه الملك مستشاراً، ولما لم يكن للملك أبناء ذكور، فقد زوج ابنته لأحمد المعفور، وعينه خليفة له، فتأسست بذلك أول سلطنة إسلامية فى «دارفور». ولقد اقترنت إصلاحات السلطان «أحمد» وأولاده من بعده بنشاط ملحوظ فى نشر الدعوة الإسلامية، على أن «دارفور» لم تدخل فى الإسلام حقاً إلا نتيجة جهود أحد ملوكها وهو «سليمان سولون» الذى وصل إلى الحكم نتيجة لإحدى الهجرات العربية التى وفدت على «دارفور» منحدره من «وادي النيل» فى القرن الخامس عشر الميلادى وأصهر هؤلاء العرب إلى سلاطين «الفور»، كما أصهروا إلى ملوك «النوبة» من قبل. وكان «سليمان سولون» وليد هذه المصاهرة، وتمكن من اعتلاء عرش «دارفور» (849 - 881هـ = 1445 - 1476م)، وفتح البلاد للهجرات العربية، فوفدت قبائل «الجبانية» و «الرزىقات» و «المسيرية» و «التعايشة» و «بنى هلبة» و «الزيادية» و «الماهرية» و «المحاميد» و «بنى حسين» وغيرهم، وبفضل هؤلاء العرب المهاجرين إلى «دارفور»، اصطبغت السلطنة بالصبغة الإسلامية الواضحة، وعمد السلطان «سليمان سولون»

(215/14)

---

إلى تنشيط الحركة الإسلامية، عن طريق استدعاء الفقهاء من الشرق ليعلموا الناس أصول دينهم، كما شجع التجارة وأسس المساجد والمدارس. وبدأت الدولة تتسع، فامتد سلطانها على

«كردفان» في عهد السلطان «تيراب» (1768 - 1787م)، وبلغت أقصى اتساعها، فكان حدها من الشمال «بئر النترون» في الصحراء الكبرى، ومن الجنوب «بحر الغزال»، ومن الشرق «نهر النيل»، ومن الغرب منطقة «واداي». وقد وصل نفوذ الدولة أقصاه في عهد السلطان «عبدالرحمن الرشيد» (1192 - 1214هـ = 1778 - 1799م)، الذي نقل العاصمة إلى مدينة «الفاشر»، واتصل بالسلطان العثماني واعترف بسيادته، فمنحه لقب «الرشيد». وفي عهد خلفاء «عبدالرحمن الرشيد» كان من الممكن أن تتسع السلطنة إلى آفاق أوسع لولا التوسع المصري في القرن التاسع عشر الميلادي، ذلك التوسع الذي قضى على هذه السلطنة عام (1292هـ = 1875م) في عهد الخديوي «إسماعيل». واصطبغت هذه السلطنة بالصبغة الإسلامية الواضحة؛ حيث عمل سلاطينها على ربط بلادهم بالعالم الإسلامي المعاصر، وتوثقت به صلاتهم الثقافية والدينية، فوصل طلاب «دارفور» إلى «مصر» والتحقوا بالأزهر، حيث أنشئ لهم رواق خاص بهم. وكان سلاطين «دارفور» رغم ندرة أخبارهم ينهجون نهجًا إسلاميًا، فيلتزمون بأحكام الكتاب والسنة، ويجرصون على تحرى العدل في أحكامهم، كما حرصوا على تشجيع العلماء ومنحهم الهدايا، وعملوا على نشر العلم في بلادهم، ويذكر «التونسي» أخبارًا كثيرة عن العلماء والفقهاء الذين وفدوا على «دارفور» لما وجدوه فيها من تشجيع وعدالة وكرم واحترام. ومن مظاهر ارتفاع مكانة العلماء في سلطنة «دارفور» الإسلامية أن مجلس السلطان كان لا يتم إلا بحضورهم، وكانوا يجلسون عن يمينه، ويجلس الأشراف وعظماء الناس عن يساره، وعند موت السلطان واختيار سلطان جديد كان هؤلاء العلماء يدخلون ضمن مجلس الشورى الذي ينعقد لهذا الغرض، وإذا حدث

---

تنازع فإنه لا يتم حسمه إلا على أيديهم، وكان السلاطين يكثرون من الإنعام عليهم ويقطعونهم الإقطاعات الواسعة حتى يتفرغوا للعلم والدرس، ولم يكن هذا التشجيع وقفًا على السلاطين وحدهم، فقد شارك فيه الأهالي؛ حيث كان سكان الحلة القرية يسارعون لمقابلة العلماء الوافدين ويستضيفونهم، كما كانوا يستضيفون الطلبة الغرباء في بيوتهم ويعاملونهم كأبنائهم أو ذوى قرباهم. ومن المظاهر الإسلامية التي وضحت في سلطنة «دارفور» أن سلاطينها كانوا يتلقبون بألقاب إسلامية مثل «أمير المؤمنين»، و «خادم الشريعة»، و «المهدي» و «المنصور بالله»، كما كانوا يحرصون على النسب العربي كعادة الحكام في كل ممالك «السودان»، كما أن أختامهم التي يختمون بها كتبهم ورسائلهم كانت تحمل آية من القرآن، وكانوا يحرصون على إرسال محمل الحرمين الشريفين كل عام إلى «مكة» و «المدينة»، فكانت قافلة الحمل ترسل إلى «مصر» محملة بالبضائع، مثل ريش النعام و سن الفيل والصمغ وغير ذلك من منتجات البلاد، فتباع ويتكون من ثمنها نقود الصرة التي تحملها القافلة المصاحبة لقوافل الحجاج المصريين إلى الأراضي المقدسة، وهكذا نرى أن الحياة الإسلامية كانت زاهرة في سلطنة «دارفور» الإسلامية.

(217/14)

---

\*شوا (سلطنة)

أسست هذه السلطنة على يد أسرة عربية تسمى «بني مخزوم» سنة (283هـ = 896م)، وليس ثمة شك في أن هؤلاء كانوا عربًا هاجروا إلى هذه الجهات في ذلك الوقت المبكر، وليس بعيدًا أن

يكونوا قد نزلوا أول الأمر في ضيافة إمارة محلية، ثم اختلطوا بالأمرء عن طريق المصاهرة حتى آل إليهم الملك آخر الأمر. وأيا كان الأسلوب الذى انتقل به الحكم فى «شوا» إلى هذه الأسرة العربية المخزومية، فقد أدى ذلك إلى قيام «سلطنة شوا الإسلامية»، التى استمرت أربعة قرون من الزمان فى الفترة (283 - 684 هـ = 896 - 1285 م) تمتعت فى معظمها بالأمن والاستقرار وازدهار العمران، وكثرة المدن والقرى والنواحي، حتى إن وثيقة «تشيروल्ली» ذكرت أكثر من خمسين اسمًا لمواقع كانت موجودة، ووقعت على أرضها أحداث مهمة. ومن أمثلة هذه المدن أو النواحي مدينة «ولله» العاصمة، ومدن هكله (هجلة) وجداية، ودجن، وأبتا، ومورة، وحدية (لعلها مملكة هدية الإسلامية) والزناير، والمحرة، وعدل التى أصبحت عاصمة لمملكة إسلامية فى القرن الخامس عشر الميلادى، مما يدل على أن هذه السلطنة اتسمت بسعة المكان وازدهار العمران وكثرة المدن والبلدان. وهذا الازدهار العمرانى الحضارى الذى تمتعت به سلطنة شوا الإسلامية كان نتيجة لما تملكه من أرض غاية فى الخصوبة استغلها السكان وزرعوا فيها ما يكفى حاجتهم ويسد مطالبهم، خاصة أنه قد استمر توافد الجماعات الإسلامية المهاجرة فى أعداد يسيرة، واستطاعت أن تتجمع وتدعم كيان هذه السلطنة الإسلامية بزعامة هذه الأسرة العربية التى اتخذت من «ولله» عاصمة لها، والتى يصعب تحديد موضعها الآن نتيجة لكثرة التغيرات التى تعرضت لها المنطقة. ونتيجة لهذا الإزدهار لم تكن الدولة المخزومية فى «شوا» إمارة أو مملكة صغيرة، بل كانت سلطنة كبيرة، توالى على حكمها كثير من الحكام الذين اتخذوا لقب سلطان كما أشارت إلى ذلك وثيقة «تشيروल्ली». هذا

وقد ظهر في هذه السلطنة الوظائف السياسية والدينية المعروفة  
وقتذاك في بقية الدول الإسلامية مثل الوزراء والقضاة، يتضح  
ذلك من الوثيقة المذكورة التي عنى المؤرخ فيها بتسجيل وفاة  
الفقيه «إبراهيم بن الحسن» قاضى قضاة شوا في رمضان  
(653هـ = أكتوبر 1255م)، مما يدل على وجود حياة علمية  
ودينية زاخرة، شأنها في ذلك شأن السلطنات الإسلامية  
الأخرى؛ مما يجعلنا نقول إن هذه السلطنة عاشت عصرًا زاهرًا  
كبيرًا، وأنها عاشت مستقلة عن جيرانها سواء كانوا مسلمين أم  
مسيحيين. والسبب الذى أتاح لهذه السلطنة ذلك الاستقلال وهذا  
الهدوء مع دولة الحبشة هو ظروف الحبشة نفسها، فقد كانت  
تعيش حياة مليئة بالاضطراب السياسى وعدم الاستقرار، فقد  
كانت مملكة «أكسوم» الحبشية القديمة في أواخر أيامها عندما  
نشأت سلطنة شوا الإسلامية، ولذلك لم تتمكن «أكسوم» من  
التصدى لتلك الدولة أو تمنع قيامها في جزء من الهضبة الحبشية  
ذاتها لبعدها «أكسوم» التي كانت تقع في أقصى الشمال، بينما  
كانت دولة «شوا» في أقصى الجنوب، ولذلك لم يحدث بينهما  
أى نوع من أنواع العلاقات، سواء أكانت ودية أم عدائية. ومن  
الأسباب التي أتاح الهدوء لهذه السلطنة ما حظيت به من موقع  
حصين فقد كان يحيط بها جبال وعرة تحف بمجرى نهر تكازى  
الأعلى من ناحية اليمين، والنيل الأعلى من جهة اليسار، وهذه  
الجبال جعلت من «شوا» حصنًا آمنًا يوفر الحماية لمن يسكنه.  
وقد استغل بنو مخزوم هذا الهدوء وهذا السلام اللذين تمتعوا  
بهما حوالى ثلاثة قرون ونصف قرن من الزمان في تنمية قدرات  
السلطنة الاقتصادية والسياسية والدينية، فصار لها نفوذها في  
المناطق المجاورة وخاصة المناطق الإسلامية التي تقع إلى  
الشرق منها وهى سبع ممالك صغيرة قامت في القرن الثالث  
عشر الميلادى. كما كان لها دورها الدينى أيضًا، من ذلك أن  
أحد سلاطينها ويسمى (حربعر) بذل جهودًا كبيرة لنشر الإسلام

صوب الداخل وخاصة في «جبلية» في سنة (502هـ = 1108م)، وفي بلاد «أرجبة»، وأن هذه البلاد بعد إسلام أهلها أضيفت إلى أملاك سلطنة «شوا» المخزومية، أي أن هذه السلطنة كانت من المراكز التي ساعدت على نشر الإسلام وثقافته في هذه المنطقة. وقد حافظ الأهالي من الأحباش على إسلامهم، سواء أكانوا من أحباش شوا أم من أحباش المناطق المجاورة لها، وذلك رغم الاضطهاد الشديد والمستمر الذي تعرض له المسلمون في القرن الإفريقي على يد ملوك الحبشة (إثيوبيا) منذ عام (669هـ = 1270م). ولكن سيطرة «شوا» على جيرانها المسلمين لم تستمر طويلاً أمام اضطراب أحوالها وكثرة الفتن الداخلية التي جعلتها تسير في طريق الضعف وخاصة في الخمسين عاماً الأخيرة من عمرها، ولذلك انتهز حكام «أوفات» الإسلامية الفرصة وأغاروا عليها وأسقطوها وضموها إلى دولتهم. وطبيعي أن لسقوط سلطنة «شوا» الإسلامية أسباباً، وعوامل أدت إليه، أهمها: العوامل الاقتصادية: وتتمثل في ظروف طبيعية جغرافية حدثت في الثلاثين عاماً الأخيرة من عمر الدولة، وأدت إلى نقص مياه الأمطار بدرجة نتج عنها حدوث مجاعات، وطواعين فتكت بالناس فتكاً ذريعاً، وأضعفت الدولة وسكانها أمام أي هزات داخلية أو خارجية. سوء الأحوال السياسية: ويتمثل في الصراع الداخلي بين أمراء الأسرة المخزومية على الحكم، وكثرة المتمردين والمغتصبين لعرش السلطنة، وكثرة الحروب الأهلية، وما كان ينتج عنها من إحراق المدن وتدميرها ونهبها وقتل كثير من سكانها. ولم يظهر الصراع الداخلي بين أمراء هذه السلطنة إلا في المائة عام الأخيرة من عمرها وخاصة منذ عهد السلطان «حسين» (575هـ = 1179م)، ثم تولى بعده

السلطان «عبدالله» سنة (590هـ = 1194م)، وكان مغتصبًا للعرش، استطاع أن يزيحه ابن السلطان «حسين» في (632هـ = 1232م) واستمر في الحكم 14 عامًا، ثم أعقبه عدد من المغتصبين، ثم عاد العرش إلى صاحبه الشرعى وهو السلطان

(220/14)

---

«دلمارة بن والزرة» سنة (668هـ = 1269م) الذى صاهر «عمر ولشمع» سلطان «أوفات» الإسلامية كى يشد أزره بهذه المصاهرة، لكن الطامعين فى العرش ازدادوا شراسة حتى انتهى الأمر بمقتل السلطان «دلمارة» فى سنة (682هـ = 1283م) وقد أدت هذه الظروف السيئة إلى تدخل سلطان «أوفات» (عمر ولشمع) فدخل «شوا» وانتقم من قتلة صهره السلطان «دلمارة» واستطاع أن يعيد الأمن والوحدة إلى «شوا» من جديد، وبهذا حافظ (عمر ولشمع) على سلطنة «شوا» من أن تقع فى يد الأحباش وذلك بعد أن ضمها لدولته.

(221/14)

---

### \*أوفات (سلطنة)

كانت الحركة الإسلامية قد ازدادت قوة فى بلاد الزيلع منذ القرن العاشر الميلادى. وبلاد الزيلع هى البلاد التى تحيط بمهضبة الحبشة من الشرق والجنوب الشرقى، وتمثل الآن فيما يعرف باريترى وجيبوتى والصومال الكبير بأقسامه الثلاثة: الشمالى والجنوبى والغربى، المعروف باسم إقليم «أوجادين»، يضاف إلى ذلك كل المناطق الإسلامية التى ضمتها الحبشة بالغلبة والقوة قرب نهاية القرن التاسع عشر الميلادى. فى هذه البقعة

الواسعة التي تنحصر بين ساحل البحر الأحمر وخليج عدن وبين هضبة الحبشة قامت مراكز تجارية عديدة على الساحل وانتشرت أيضاً في الداخل، وتحولت في النهاية إلى إمارات وممالك إسلامية نامية تحدث عنها المؤرخون القدامى، وقالوا إنها كانت سبع ممالك هي: «أوفات» و «هدية» و «فطجار» و «دارة» و «بالي» و «أرابيني» و «شرخا»، وامتدت هذه الممالك إلى «هرر» وبلاد «أروسي» جنوباً حتى منطقة البحيرات، مطوقة الحبشة من الجنوب والشرق. غير أن هذه الممالك والسلطنات التي قامت في شرق الحبشة وجنوبها تختلف عما رأيناه في أقطار إفريقية أخرى في هذه المرحلة من التطور؛ إذ لم تكن هذه السلطنات إفريقية خالصة، أسستها أسرات من أهل البلاد الأصليين الذين أسلموا، كما حدث في «مالي» و «صنغى» و «كانم ورنو»، إنما أسستها أسرات عربية الأصل، فسلطين «أوفات» وسلطين «شوا» وغيرها يمثلون أرستقراطية عربية مهاجرة، استقرت في هذه الجهات ونمت ثروتها وازداد نفوذها واستولت على حكم البلاد وكانت الرعية مسلمة ومن أهل البلاد الأصليين. وكانت العلاقات بين هذه الإمارات متوترة تسودها المنافسات القبلية، ولم يكن بينها من رابط سوى الصلة الروحية فقط، وكانت من الضعف بحيث إن أمراءها لا يتولون العرش - في كثير من الأحيان - إلا بموافقة ملك الحبشة المسيحي، وليس معنى ذلك أن مسلمي تلك الإمارات قنعوا بالخنوع والخضوع

(222/14)

---

للأحباش، بل إنهم كانوا في أحيان كثيرة مناوئين لملك الأحباش وغازين له في عقر داره كما سنرى. وكان من أسباب ضعف هذه الإمارات أو السلطنات الإسلامية أنها ما كاد يكتمل نموها

وتزداد قوتها حتى واجهت حرباً صليبية ضروساً استنزفت  
مواردها وشغلته عن التفرغ للدعوة الإسلامية، ولذلك فإن  
الإنتاج الثقافى لتلك الإمارات كان محدوداً جداً، إذ إن الصراع مع  
الأحباش أخذ كل وقتها ولم يترك لها فرصة للإبداع والابتكار،  
ولم تنج سلطنة واحدة من الاشتباك مع هؤلاء الأحباش. وقد قامت  
سلطنة «أوفات» حوالى (648 - 805 هـ = 1250 - 1402م) بعبء  
المقاومة والدفاع ضد هذا الخطر الصليبي الحبشى الذى كان  
يهدف إلى القضاء على الإسلام فى منطقة القرن الإفريقى كلها،  
ولذلك كان من الواجب أن نخص هذه السلطنة بمحدث. كانت  
سلطنة «أوفات» أقوى سلطنة إسلامية قامت فى بلاد «الزيلع»،  
أسسها قوم من قريش من «بنى عبدالدار» أو من «بنى هاشم»  
من ولد «عقيل بن أبى طالب». ومدينة «أوفات» هى نفسها  
مدينة «جبرة» أو «جبرت» وكانت من أكبر مدن بلاد «الزيلع»،  
وكانت تتحكم فى الطريق التجارى الذى يربط المناطق الداخلية  
بميناء «زيلع» على البحر الأحمر. ولم يتضح تاريخ «أوفات» إلا  
حوالى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى حينما ظهر أحد أمراء  
المسلمين وكان يسمى «عمر» ويعرف بلقب «ولشمع»، وأقام  
هذه السلطنة التى نمت وازدادت قوتها حتى استطاع صاحبها  
«عمر ولشمع» أن ينتهز فرصة ضعف سلطنة «شوا» المخزومية  
وأن يهاجمها عام (684 هـ = 1285م) ويقضى عليها ويستولى  
على أملاكها كما رأينا عند الحديث عن هذه السلطنة. وقد أدى  
هذا إلى اتساع سلطان «بنى ولشمع» السياسى، واستطاعت  
«أوفات» فى عهدهم أن تبسط نفوذها على بقية هذه الإمارات  
الصغرى التى أشرنا إليها وأن يصل هذا النفوذ حتى ساحل  
البحر الأحمر وحتى منطقة «زيلع» وسهل «أوسا». وكانت  
مساحة الأراضى التى سيطر عليها المسلمون بزعامة «أوفات»

تفوق مساحة أرض مملكة الحبشة المسيحية نفسها، بل كانت تحيط بالحبشة من الجنوب والشرق، فضلا عن إحاطة الإسلام بما من ناحية السودان من الشمال والغرب، مما أدى إلى عزل مملكة الحبشة عزلا تاما عن العالم الخارجي، ولاسيما بعد استيلاء المسلمين على ميناء «عدل» قرب «مصوع»، ولذلك لاندھش من أنه عندما تولت الأسرة «السليمانية» عرش الحبشة عام (669هـ = 1270م)، رسمت لنفسها خطة لتوسيع سلطان «الحبشة» على حساب جيرانها من المسلمين الذين كانوا يسيطرون على الموانئ ومن ثم على التجارة الخارجية. وبذلك بدأت أولى مراحل الجهاد والصراع بين «أوفات» وتوابعها من الإمارات الإسلامية وبين ملوك الحبشة من ذلك الحين، وكانت البداية المبكرة على أيام الملك «ياجياصيون» (684 - 693هـ = 1285 - 1294م) الذي شن حملة صليبية عنيفة ضد إمارة «عدل» التابعة لأوفات، وكان قد استشعر خطر الاتحاد الإسلامي الذي كانت تدعو إليه سلطنة «أوفات»، فضلا عن أن تلك السلطنة أعلنت زعامتها على الممالك الإسلامية المجاورة لها في بلاد «الزليع»، وكان هذا أمراً يتعارض مع مشاريع ملوك الحبشة الجدد، فقاموا بحملتهم تلك التي أشرنا إليها، وانتهت بانتصارهم. وترجع هذه الهزيمة إلى أن حركة المقاومة التي تزعمتها «أوفات» لم تكن منبعثة عن وحدة وتعاون فعال بينها وبين الممالك الإسلامية، ولذلك هزمهم الأحباش من أول لقاء، بل يقال إن إمارتين إسلاميتين عاونتا ملك الحبشة في هجومه الذي انتهى بنهب «عدل» وعقد هدنة بين الطرفين، وكان من الممكن أن تكون هذه الحرب هي القاضية لولا تدخل سلطان «مصر» المملوكي الذي هدد بقطع العلاقات وعدم الموافقة على تعيين «المطران» الذي طلبه الأحباش، وكان يعين من قبل بطرك مصر، وأثمر هذا التدخل،

فقَّيل الأقباش الهدنة مع «أوفات». استطاع المسلمون تقوية مراكزهم ودعم سلطاتهم على طول منطقة الساحل، وكانوا يرتقبون فرصة ضعف أو تخاذل في صفوف أعدائهم، وعندما

(224/14)

علموا بوفاة ملك «الحبشة» عام (698هـ = 1299م)، قام شيخ مجاهد يدعى «محمد أبو عبدالله» بمشد طائفة كبرى من قبائل «الجالا» و «الصومال» وأعدهم للجهاد، وقام بغزو الحبشة، ولم تعتمد الحبشة إلى المقاومة بسبب بعض المتاعب الداخلية، واضطر ملكها إلى التنازل للمسلمين عن بضع ولايات على الحدود نظير الهدنة، ولم يكن سلاطين «أوفات» ليقتنعوا بالهدنة، وخاصة أن قوتهم قد ازدادت، فلم يستطع الملك الحبشى «وادم أرعد» (698 - 714هـ = 1299 - 1314م) أن يرد هجماتهم. ورأت «أوفات» أن تظهر قوتها للحبشة بل وتتوسع في أملاكها وتقضى على عدوانها، فتقدم السلطان «حق الدين» وتوغل في أملاك الحبشة وغزا بعض الولايات المسيحية؛ مما جعل ملك الحبشة يقوم بغزو «أوفات» في عام (728هـ = 1328م) وهاجمها من جميع الجهات وأسر «حق الدين» ووضع يده على مملكته وعلى «مملكة فطجار» الإسلامية وجعلها ولاية واحدة وعين عليها «صبر الدين» وهو شقيق «حق الدين» بشرط الاعتراف بسيادة الحبشة. غير أن «صبر الدين» لم يطق صبرا على هذه التبعية وكوّن حلفاً إسلامياً من إمارتي «هدية» و «دوارو»، ثم تقدم لغزو الحبشة واستولى على كثير من الغنائم، وهدد ملك الحبشة الذى خرج على رأس جيشه وهاجم الحلفاء منفردين بادئاً بإمارة «هدية»، فحطمها قتلاً ونهباً وأسراً، وأرغمها على الخروج من الحلف، وحمل ملكها أسيراً إلى عاصمته، ثم تقدم إلى «أوفات» ودخلها

ودمرها ونهب معسكر المسلمين فيها، ثم تقدم إلى «فطجار» واستولى عليها وعلى مملكة «دوارو». وعلى ذلك يمكن القول بأنه في هذه الفترة انتهى استقلال الممالك الإسلامية في «أوفات» و «هدية» و «فطجار» و «دوارو». وعين عليها ملك الحبشة «جلال الدين» أخا «صبر الدين» حاكمًا، فقبل على أن يكون تابعًا للحبشة، وهكذا اتسعت مملكة الحبشة وضعف أمر المسلمين. وفي غمرة هذا الصراع الدموي اتفقت كلمة المسلمين

(225/14)

بين عامي (1332 و 1338م) على الاستنجد بدولة المماليك في «مصر»، وذلك بإرسال سفارة إلى سلطان «مصر» «الناصر محمد بن قلاوون» برئاسة «عبدالله الزيلعي» ليتدخل السلطان في الأمر لحماية المسلمين في بلاد «الزبلع». فطلب «الناصر محمد» من بطرك الإسكندرية أن يكتب رسالة إلى ملك الحبشة في هذا الصدد. غير أن ملك الحبشة لم يكف عن مهاجمة المسلمين الذين لم يتوانوا عن انتهاز الفرص للثأر منه. وتحالفت إمارتا «مورا» و «عدل» مع بعض القبائل البدوية وأخذوا يشنون حربًا أشبه بحرب العصابات، وأخذ ملك الحبشة في مطاردتهم وتقدم في أراضي «مورا» الإسلامية، حتى وصل إلى مدينة «عدل» وقبض على سلطانها وذبحه، فتقدم أولاد السلطان الثلاثة إلى ملك الحبشة مظهرين الخضوع. وفي تلك الأثناء انتاب إمارة «أوفات» بعض الفتن الداخلية بسبب النزاع على العرش بين أفراد الأسرة الحاكمة، وانتهى النزاع بانفراد «حق الدين الثاني» وإعلان استقلاله عن الحبشة، واستطاع أن يهزمها ويردها عن إمارته فترة طويلة حتى هُزم ومات عام (788هـ = 1386م)، والتف المسلمون للمرة الأخيرة حول خليفته وأخيه «سعد الدين»،

واستأنفوا حركة الجهاد ودحروا الأحباش، وتوغلوا في أرض  
«أمهرة» (مملكة النجاشي) لكن «سعد الدين» هُزم في معارك  
تالية، واضطر إلى الفرار إلى جزيرة «زيلع» حيث حوَّصر وقتل  
عام (805هـ = 1402م) نتيجة خيانة رجل دهم على مكمنه. ويعتبر  
احتلال الأحباش لزيلع بمثابة إسدال الستار على سلطنة أوفات  
التي احتلها الأحباش نهائياً، ولم يعد يسمع بها أحد، وانتهى  
دورها في الجهاد، وتفرق أولاد «سعد الدين» العشرة مع  
أكبرهم «صبر الدين الثاني»، وهاجروا إلى شبه الجزيرة العربية  
حيث نزلوا في جوار ملك اليمن «الناصر أحمد بن الأشرف» الذي  
أجارهم وجهمهم لاستئناف الجهاد ضد الحبشة، فعادوا إلى  
إفريقيا حيث انضم إليهم من بقى من جنود والدهم، فقوى أمرهم

(226/14)

---

واستأنفوا النضال واتخذوا لقباً جديداً هو لقب «سلاطين عدل».

(227/14)

---

\*عَدَل (سلطنة)

كانت «عَدَل» إقليمًا من الأقاليم التي خضعت لسلاطين «أوفات». وليس بعيد أن تكون قد تأسست فيها إمارة محلية تدين بالولاء لبني ولشمع، ويبدو أن موقعها المتطرف قد ساعد على نجاحها من التوسع الحبشي الذي أطاح بالإمارات السابقة. وكان طبيعياً أن يأوى «بنو سعد الدين» إلى إقليم قريب من البحر يتيح لهم الاتصال ببلاد اليمن بعيداً عن مناطق النفوذ الحبشي. وكانت تلك السلطنة تضم البلاد الواقعة بين ميناء «زيلع» و «هرر» وتشمل ما يعرف بالصومال الشمالي والغربي وإقليم «أوجادين»، وسميت

هذه البلاد «بر سعد الدين» تخليدًا لسعد الدين الذى مات بزيع  
ودفن بها. استأنف سلاطين «عدل» الجهاد مرة أخرى فى عهد  
«صبر الدين الثانى» الذى اتخذ مدينة «دكر» عاصمة له،  
واستطاع الاستيلاء على عدة بلاد حبشية فيما يعرف بحرب  
العصابات، وبعد وفاته عام (825هـ = 1422م) خلفه أخوه  
«منصور» المتوفى سنة (828هـ = 1425م) الذى بدأ عهده بحشد  
عدد كبير من مسلمى «الزيع» وهاجم بهم ملك الحبشة وقتل  
صهره وكثيرًا من جنده، وحاصر منهم نحوًا من ثلاثين ألفًا مدة  
تزيد على شهرين، ولما طلبوا الأمان خيرهم بين الدخول فى  
الإسلام أو العودة إلى قومهم سالمين، فأسلم منهم نحو عشرة  
آلاف وعاد الباقون إلى بلادهم، ولم يقتلهم «منصور» ولم  
يستعبدهم كما كان يفعل ملوك الحبشة بجنود المسلمين الذين  
كانوا يقعون فى أسرهم. لكن ملك «الحبشة» «إسحاق بن داود»  
أعد جيشًا كبيرًا وهجم به على «منصور» وقواته وهزمها هزيمة  
شنيعة لدرجة أن السلطان «منصور» وقع هو وأخوه الأمير  
«محمد» فى أسر «إسحاق» عام (828هـ = 1425م). ولكن راية  
الجهاد ضد عدوان الأحباش لم تسقط بهذه الهزيمة، فقد قام أخ  
للسلطان الأسير وهو السلطان «جمال الدين» برفع راية الجهاد  
من جديد. وانتصر على ملك الحبشة فى مواقع كثيرة، ولكن  
أبناء عمه حقدوا عليه ربما رغبة فى النفوذ والسلطان الذى

(228/14)

---

حرموا منه فاغتالوه فى عام (836هـ = 1432م)، فتولى الحكم  
بعده أخوه السلطان «شهاب الدين أحمد بدلاى» الذى عاقب  
القتلة وحارب الأحباش واسترد إمارة «بالى» الإسلامية من  
أيديهم، ولكنه وقع صريعًا أمام الأحباش فى (848هـ = 1444م)

نتيجة لخيانة أحد الأمراء الذين أظهروا التحالف معه. ومن ثم تمكن الأحباش من اجتياح سلطنة «عدل» وبقية الممالك الزيالية الأخرى، وأصبحت الحبشة إمبراطورية كبيرة امتدت شمالاً حتى مصوع وسهول السودان وضمت «أوفات» و «فطجار» و «دوارو» و «بالي» و «هدية»، ومنحت هذه الإمارات استقلالها الذاتي، وولت عليها عاملاً يسمى «الجراد» ينحدر من البيت المالك القديم. ويبدو أن الرغبة الصادقة في الجهاد التي عرف بها الجيل الأول من سلاطين «أوفات» قد فترت عند أحفادهم سلاطين «عدل»، فقد سئموا القتال وجنحوا إلى المسالمة ولكن الشعب المسلم لم يتخل عن سياسته التقليدية في جهاد الأحباش ومقاومتهم. وكان تخاذل سلاطين «عدل»، وتحمس الشعب للجهاد مؤذناً ببداية الدور الأخير من أدوار الجهاد وهو دور «هرر». وتميز هذا الدور بظهور طائفة من الأمراء الأئمة أشربت قلوبهم حب الجهاد وصارت لهم السلطة الفعلية في البلاد، وبذلك أصبح في المجتمع العدلي حزبان: هذا الحزب الشعبي الذي يتزعمه الأمراء الأئمة، وذلك الحزب الذي يريد أن يسلم الأحباش ويتكون من الطبقة الأرستقراطية والتجار، وعلى رأسه سلاطين عدل التقليديون. وكان أول هؤلاء الأئمة ظهوراً هو الداعي «عثمان» حاكم زيلع الذي أعلن الجهاد بعد وفاة السلطان «محمد بن بدلاي» مباشرة عام (876هـ = 1471م)، ثم ظهر في «هرر» الإمام «محموظ» الذي تحدى السلطان «محمد بن أزهر الدين»، واشتبك مع الأحباش، غير أن البرتغاليين ظهوروا على مسرح الأحداث وفاجئوا «زيلع» وأغاروا عليها وانتهى الأمر بفشل حركة «محموظ»، وباغتيال السلطان «محمد» سنة (924هـ = 1518م). وفي بداية القرن (16م)

ظهرت تطورات كان لها تأثيرها في مسرح الأحداث بين المسلمين والأحباش، تمثلت في ظهور الأتراك العثمانيين وقيام حركة الكشوف الجغرافية بزعامة الملاحين البرتغاليين، كذلك أدخلت الأسلحة النارية إلى منطقة الأحداث في بلاد «الزِيلَع» و «الحبشة»، وأهم من هذا كله إسلام قبائل البدو من الأعفار والصومالي، ودخولها ميدان الجهاد، ووقوفها وراء الإمام الذي رشحته الأحداث لتزعم حركة الجهاد الإسلامي في ذلك الدور، وهو الإمام «أحمد بن إبراهيم الغازي» الملقب بالقرين أي الأشول. اتبع الإمام «أحمد القرين» بعد أن سيطر على مقاليد الأمور في سلطنة «عَدَل» وبعد أن اتخذ «هرر» مقراً له سياسة موفقة جمعت الناس حوله، فقد طبق الشريعة الإسلامية في حكمه وخاصة في توزيع أموال الزكاة والغنائم على مستحقيها وفي مصارفها الشرعية، وبذلك كسب حب الجند وحب الفقهاء والعلماء، كما كسب أيضاً محبة الشعب، فقد كان يُلطف بالمساكين ويرحم الصغير، ويوقر الكبير، ويعطف على الأرملة واليتيم، وينصف المظلوم من الظالم، ولا تأخذه في الله لومة لائم، كما قضى على قُطَاع الطرق فأمنت البلاد وانصلح حال الناس وانقادوا له وأحبوه. بهذه السياسة الداخلية السليمة استطاع الإمام «أحمد القرين» أن يوحد كلمة المسلمين ويتولى زعامتهم وعزم على رد عادية الأحباش، وذلك بفتح بلاد الحبشة ذاتها، وتمكن من التوغل فيها حتى وصل إلى أقاليمها الشمالية، ودارت بينه وبين الأحباش عدة معارك، كان أولها في عام (933هـ = 1527م) حيث هزم الأحباش لأول مرة منذ بداية الجهاد. وفي عام (934هـ = 1528م) أحرز الإمام «أحمد» نصراً حاسماً على الأحباش في موقعة «شنبر كورى»، ثم بدأ في غزو بلاد الحبشة نهائياً. ففي سنة (938هـ = 1531م) دخل «دوارو» و «شوا» و «أمهرة» و «لاستا». وفي سنة (940هـ = 1535م)

سيطر المسلمون على جنوب الحبشة ووسطها، وغزوا «تجراى» للمرة الأولى وأصبح مصير الأحباش فى كفة الميزان. وفى هذا

(230/14)

الوقت كان الزحف البرتغالى قد وصل إلى البحر الأحمر فاستنجد بهم الأحباش عام (942هـ = 1535م) فأرسل إليهم ملك البرتغال نجدة عسكرية وصلت البلاد عام (948هـ = 1541م)، وتقابل المجاهدون بقيادة «أحمد القرين» مع الأحباش والبرتغاليين فى عدة مواقع عام (949هـ = 1542م)، لكنه هُزم وتكررت هزيمته فى العام التالى حيث استشهد وتفرقت جموعه، ونجت الحبشة من السقوط، ولم يعد المسلمون مصدر خطر جدى يهدد الأحباش، ومع ذلك فإن حركة الجهاد لم تمت بموت «أحمد القرين»، بل استأنفها خلفاؤه من بعده وخاصة فى عام (966هـ = 1559م) بقيادة الأمير «نور» الذى اتخذ لقب أمير المؤمنين، والسلطان الأسمى المسمى «عليّاً» سليل أمراء «عدل» السابقين، لكن هذه الجهود باءت بالفشل. وكانت انتفاضة «هرر» الأخيرة عام (985هـ = 1577م) حينما تحالفت مع أحد ثوار الأحباش للنيل من ملك الحبشة، وحدثت موقعة انتهت بمقتل «محمد الرابع» آخر أمراء «هرر» عند هُر «ويبي»، وانتهت هرر كقوة سياسية ذات شأن، فى الوقت الذى استطاع فيه الأحباش أن يقضوا على خطر الأتراك العثمانيين أيضاً بهزيمتهم وعقد هدنة معهم عام (997هـ - 1589م) واكتفى العثمانيون بالسيطرة على «مصوع» و «سواكن»، وبذلك انتهى الصراع فى الحبشة لصالح الأحباش. وإذا كانت هذه الحركة لم تحقق أهدافها بالقضاء على مملكة الحبشة نهائياً، إلا أنها أثبتت عمق الشعور الإسلامى فى نفوس أهل شرق إفريقيا وعمق تمسكهم بالإسلام، فقد دأبوا على

الجهاد وأصروا عليه طيلة أربعة قرون، وظهر أثر العلماء والفقهاء وأصبحت لهم الزعامة في المجتمع في ذلك الوقت. وعلى الرغم من هذه الهزيمة التي منى بها المسلمون في منطقة القرن الإفريقي وانصراف اهتمام العثمانيين إلى أوروبا والعالم العربي، فإن المسلمين الزيالة بقيت لهم بعض سلطاتهم وبلادهم. ذلك أن الصراع الذي اندلع بينهم وبين الأحباش أنهك

(231/14)

---

الطرفين معاً؛ مما هبأ الفرصة لدخول قبائل الجالا الوثنية القادمة من الجنوب، فاحتلت «هرر» واستقرت في النصف الجنوبي من دولة الحبشة، ثم أسلمت هذه القبائل أخيراً، ولكن أوروبا الغربية أعانت الأحباش على المسلمين في القرن التاسع عشر الميلادي، وخاصة في عهد «منليك الثاني» الذي استولى على سلطنة «هرر» في عام (1302هـ = 1885م) وعلى غيرها من البلدان الإسلامية، ثم استولى الأحباش على سلطنة «أوسا»، ثم على «إريتريا» و «إقليم الأوجادين الصومالي» في القرن العشرين. وظل الأمر على هذا النحو حتى نالت هذه البلاد استقلالها وتحررت من نير الأحباش، وإن كان بعضها لا يزال تحت سيطرتهم حتى الآن.

(232/14)

---

\*مقديشيو (سلطنة)

كانت بلاد «الصومال» تعرف في العصور الوسطى باسم «سلطنة مقديشيو». وينتمي الصوماليون إلى العنصر الكوشي الحامي، ومنهم قبائل «الجالا» و «الدناكل»، وهؤلاء اختلطوا بالعناصر

السامية التي هاجرت من جنوب بلاد العرب قبل الميلاد، وبالزنج البانتو، وتكون منهم «شعب الصومال». وبعد ظهور الإسلام تدفقت القبائل العربية على تلك المنطقة، إما بهدف التجارة أو نشر الإسلام أو الإقامة فراراً من الانقسامات السياسية، وأقام هؤلاء المهاجرون العرب مراكز تجارية على طول الساحل الشرقي الإفريقي؛ في «مقديشيو» و «براوة» و «سوفالة»، و «بات» و «مبسة» و «مالندى» و «كلوة» وغيرها، وعلى أيديهم نشأت معظم هذه المدن. وقد سبقت الإشارة - عند الحديث عن الهجرات العربية إلى ساحل شرق إفريقيا - إلى هجرتين وصلتا إلى ساحل «الصومال»، وهي «هجرة الزيدية» التي أقبلت إلى «الصومال» بعد مقتل زعيمهم «زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب» رضى الله عنهم، ثم هجرة الإخوة السبعة من «بنى الحارث» ومن معهم من العرب إلى بلاد «الصومال» في عام (292هـ = 903م). والهجرة الأخيرة كانت أبقى أثراً في تاريخ «الصومال»، إذ إنهما أقامت «سلطنة مقديشيو» الإسلامية. وقد كانت «مقديشيو» أول مدينة عربية بناها «بنو الحارث» على «ساحل بنادر» عام (295هـ = 907م)، وتلتها مدينة «براوة» حوالي عام (365هـ = 975م). وتشير بعض المصادر إلى مواضع مدن أخرى مثل «قرفاوة»، و «النجا»، و «بدونة»، و «ماندا» في جزيرة «ماندا»، و «أعوزى»، و «شاكة» قرب دلتا نهر «تانا»، وقد بنى «بنو الحارث» هذه المدن في سنوات متفاوتة وأسسوا فيها سلطنة استمروا في حكمها معظم فترات العصور الوسطى، فكان حكام «سلطنة مقديشيو» عند قدوم البرتغاليين من سلالة الإخوة السبعة، بل إن فيها حتى اليوم سبع عشائر تعود بأصولها إليهم. وفي عهد هذه الأسرة الحاكمة صارت «مقديشيو» سلطنة قوية ذات شوكة

ونفوذ على عربان الساحل وعلى المدن التي تحيط بها، وكان تجارها أول من وصلوا إلى بلاد «سفال»، واستخرجوا منها الذهب، مما درّ عليهم أموالاً كثيرة، استفادوا منها في تطوير «مقديشيو» فحلت المنازل المشيدة بالأحجار على الطراز العربي محل المباني الخشبية ومحل المساكن المتخذة من القش المغطى بجلود الحيوانات. وكانت «مقديشيو» في عهدهم بمثابة العاصمة لجميع البلاد المجاورة ومركزاً للمدن العربية الأخرى التي امتدت على طول الشاطئ، فكانت جموع الناس ترد على «مقديشيو» من هذه المدن، فيجتمعون في مسجدتها الجامع حيث يؤدون صلاة الجمعة، مما يدل على أهمية مركز «مقديشيو» الديني والثقافي عند سكان الساحل جميعاً، حتى اعتبرت العاصمة الثقافية لساحل الزنج كله، وزعيمة عرب هذا الساحل؛ نتيجة لما وصلت إليه من قوة ونفوذ، ولما قامت به من دور مهم في نشر العروبة والإسلام. وعندما وصل الشيرازيون المهاجرون بقيادة «علي بن حسن بن علي» إلى «مقديشيو» بعد حوالي سبعين عاماً من بنائها، لم يستطيعوا دخولها لحصانيتها ومناعتها فتركوها واتجهوا جنوباً إلى «كلوة»؛ حيث أقاموا هناك سلطنة إسلامية، فكانت هي و «مقديشيو» أهم مدينتين على الساحل من القرن العاشر إلى الخامس عشر الميلادي، ولم تستطع إحداهما أن تسيطر على الساحل سيطرة كاملة. وعند قدوم «ابن بطوطة» إلى «مقديشيو» كانت تسيطر عليها قبيلة الأجران الصومالية، وكان سلطانها يسمى «أبا بكر بن الشيخ عمر»، ويبدو أن سيطرة هذه الأسرة كان أمراً عارضاً؛ بدليل أن البرتغاليين عندما قدّموا إليها كان حكامها من أسرة «المظفر» من «بني الحارث» الذين أسسوها من قبل. ونظراً لطول مدة حكم هذه الأسرة فقد كانت لها جهود كبيرة في تعريب كثير من

القبائل الصومالية خاصة الساحلية، التي دخلت في الإسلام على أيديهم، ذلك أن هذه القبائل وخاصة قبيلة «الأجران» كانت تربطها بأسرة «المظفر» الحارثية صلات تجارية كبيرة. ولاشك

(234/14)

أن هذه العلاقات التجارية لا بد أن تؤتى ثمارها في نشر الإسلام بين هذه القبيلة وغيرها من القبائل الصومالية، التي اتصلت بسلطنة «مقديشيو» الإسلامية، التي أكثرت من إنشاء المساجد والجوامع التي لا يزال بعضها باقياً حتى الآن، منها مسجد عليه كتابة تبين تاريخ تأسيسه وهو سنة (637هـ = 1239م)، أى قبل مرور «ابن بطوطة» بها بنحو قرن من الزمان، ولعله «مسجد عبدالعزيز» الذي بُني في «مقديشيو» منذ سبعمائة عام تقريباً، ولا زال موجوداً حتى الآن. وقد وصل إلينا كثير من المعلومات عن بلاد الصومال بفضل ما كتبه عنها الرحالة والجغرافيون العرب، مثل: «المسعودى» و «الإدريسى» و «ابن بطوطة» الذى أمدنا بوصف دقيق لعدد من المدن الإفريقية وأحوال سكانها المسلمين، ولاسيما «مقديشيو»، التي زارها عام (1332م) و «زِيلَع» التي قال عنها: «إنه يسكنها طائفة من السودان شافعية المذهب وهي مدينة كبيرة، لها سوق عظيمة لها رائحة غير مستحبة بسبب كثرة السمك ودماء الإبل التي ينحرونها في الأزقة والطرقات». ثم أقلع «ابن بطوطة» إلى «مقديشيو» واستقر بها أسبوعاً، وأتيح له أن يتصل بقاضيتها وعلمائها وسلطانها الشيخ «أبي بكر ابن الشيخ عمر» الذى استضافه مدة إقامته، وقد أمدنا بمعلومات كثيرة عن طعام أهلها وفاكهتها وملابس شعبها وتقاليدها في مواكبه ومجالسه، وعن مجالس الفقهاء والعلماء وذوى الرأى، وعن كيفية نظرهم في شكوى

الناس، وتطبيقهم للشريعة الإسلامية. بعد ذلك يصف «ابن بطوطة»  
الازدهار الاقتصادي الذي كانت تنعم به سلطنة «مقديشيو»  
الإسلامية فيقول: «إن هذه المدينة مدينة واسعة كبيرة يمتلك  
أهلها عددًا وافراً من الجمال والمعز، ينحرون منها منات كل  
يوم، وإنهم تجار أغنياء أقوياء، بعضهم يقوم بصناعة ثياب  
جميلة لا نظير لها تُصدّر إلى مصر وغيرها من البلاد». وكى  
يشجعوا التجار على القدوم إلى بلادهم كان من عادتهم أنه متى

(235/14)

وصل مركب أو سفينة محملة بالتجار والبضائع إلى ميناء  
«مقديشيو» يركب شباب هذه المدينة في قوارب صغيرة ويحمل  
كل منهم طبقاً مُغطى فيه طعام، فيقدمه لتاجر من التجار  
القادمين على هذه السفن ويقول «هذا نزيلى» فينزل معه هذا  
التاجر إلى داره، ويساعده هذا الشاب في عمليات البيع  
والشراء، مما أدى إلى رواج تجارتهم مع الأقطار الخارجية. وقد  
استمرت سيادة «مقديشيو» على ساحل «بنادر» حتى القرن  
السادس عشر الميلادى حينما فقدت أهميتها وانحطت منزلتها  
كمركز تجارى، خاصة بعد انتشار التجارة بين عدة مدن ساحلية  
أخرى منافسة لمقديشيو، وتعرضها والمنطقة للخطر البرتغالى،  
فقد ضرب «فاسكودى جاما» «مقديشيو» بالمدافع فى أثناء  
عودته من «الهند» عام (1498م)، ثم استولى أحد قواد البرتغال  
على مدينة «براوة» عام (1507م)، وحاول الاثنان الاستيلاء على  
«مقديشيو» لكنهما فشلا، وغزا «لوى سواريز» «زيلع» عام  
(1515م) وأضرم فيها النار، كما حاصر البرتغاليون «بربرة» عام  
(1516م). وهكذا نرى أن البرتغاليين قادوا حرباً صليبية ضد  
المسلمين فى شرق إفريقيا و «الصومال»، ومن المدهش حقاً أنه

كان من نتائج تلك الحملة الوحشية انتشار الإسلام، ذلك لأن السكان المسلمين الذين تركوا الساحل أمام نيران المعتدين البرتغاليين لجئوا إلى الداخل، حيث اختلطوا بالقبائل الصومالية ونشروا الإسلام بينها، فنتج عن ذلك «شعب الصومال» المسلم، وبسبب كثرة الهجرات العربية من بلاد «اليمن» و «الحجاز» وامتزاجها بأهل تلك البلاد؛ انتشرت اللغة العربية والدم العربي بدرجة كبيرة، وأصبحت العربية هي لغة التخاطب بجانب اللغة المحلية، وكانت قبائل «الصومال» بعد اعتناقها الإسلام هي السند والحصن الذي لجأ إليه «أحمد القرين» في صراعه ضد ملوك «الحبشة»، مما يدل على تمسك شعب الصومال بالإسلام ودفاعهم عنه دفاعاً قويا، ولا غرو فالصومال الآن كما هو معروف إحدى دول الجامعة العربية.

(236/14)

#### \*كلوة (سلطنة)

قامت هذه السلطنة نتيجة هجرة قدمت من «شيراز» بفارس، كان على رأسها «علي بن حسن بن علي» وأبناؤه الستة، حيث كانوا على متن سفنهم بما فيها من بضائع بقصد التجارة، ولما وصلوا إلى «جزيرة كلوة» التي تقع أمام الساحل الشرقي لإفريقيا، وهي ضمن دولة «تنزانيا» الآن، استقروا فيها منذ عام (365هـ = 975م)، ووفد عليهم كثير من العرب، وكان هؤلاء الوافدون يفضلون المعيشة في الجزر لسهولة الدفاع عنها والاعتصام بها إذا ما حاول الأهالي الساكنون في البر الإفريقي الاعتداء عليهم، وعند وفاة «علي بن حسن بن علي الشيرازي» كان نفوذه يمتد إلى مدينة «سوفالة» في الجنوب، وإلى «مبسطة» في الشمال، وبعد وفاته اعتدى الأهالي على ابنه،

واضطروه إلى الفرار إلى «زنجبار» عام (1020م) وبعد قليل جمع السلطان المطرود جنوده وعاد بهم إلى «كلوة» ودخلها مرة ثانية، وازدهرت المدينة خلال القرن التالي بسبب تجارة العاج والذهب الذي كان يُصدَّر من «سوفالة» التي تقع جنوب نهر «الزمبيرى»، أى جنوب «كلوة» وحرمت «مقديشيو» من تلك التجارة التي كانت تحصل عليها من «سوفالة»، وخاصة في عهد السلطان «داود بن سليمان» سلطان «كلوة» (1130 - 1170م)، وبذلك صارت الزعامة السياسية والاقتصادية لكلوة، ويعتبر القرنان الثانى عشر والثالث عشر الميلاديان هما العصر الذهبى لتلك السلطنة الزنجية الإسلامية، فقد أصبحت «كلوة» عروس الشاطئ الإفريقى، وقام سلطانها بسك النقود، وقد عثر فى «كلوة» و «مافيا» و «زنجبار» على نحو (10000) قطعة نحاسية من هذه النقود. ولما كان مؤسسو «كلوة» الأوائل من الشيرازيين الفرس، فلا غرو أن يكون لهم تأثير كبير على أسلوب الحضارة الذى ازدهر هناك خلال القرون من العاشر إلى الثالث عشر الميلادى، فظهر الأسلوب الفارسى فى البناء بالحجارة، وفى صناعة الجير والأسمنت واستخدامهما فى البناء، وفن النقش على الخشب، ونسج القطن، وشيدوا عدة

(237/14)

---

مساجد ومبانٍ جميلة الطراز، مازال بعض مخلفاتها باقياً حتى الآن، ولكن الأثر العربى تغلب بعد ذلك بسبب كثرة الهجرات العربية واستقرارها. وقد وصل إلينا كثير من المعلومات عن هذه السلطنة من الوثائق التاريخية المهمة وبفضل ما كتبه عنها الرحالة والجغرافيون العرب كالمسعودى، و «الإدريسى»، و «ابن بطوطة» الذى زار مدينة «كلوة» و «ممبسة». وقال عن الأخيرة:

«إنها جزيرة كبيرة بينها وبين أرض الساحل مسيرة يومين في البحر، وأشجارها: الموز والليمون والأترج، وأكثر طعام أهلها السمك والموز، والقمح يأتي لهم من الخارج لأنهم لا يزرعون. وهم شافعيون يعنون بأمور دينهم ويشيدون المساجد من الأخشاب المتينة». وبعد أن قضى «ابن بطوطة» ليلة في «مبسة» ركب البحر إلى مدينة «كلوة»، وقال عنها: «إنها مدينة كبيرة، بيوتها من الخشب، وأكثر أهلها زواج مستحكمو السواد، وهم شافعيون، ويحكمها السلطان «أبو المظفر حسن»، وقد كان في قتال دائم مع السكان المجاورين، وعرف بتقواه وصلاحه، كما كان محسنًا كريمًا». ولم يكن السلطان «أبو المظفر حسن» الذي زار «ابن بطوطة» «كلوة» في عهده فارسي الأصل، بل كان من أصل عربي صميم، فهو من بيت «أبي المواهب الحسن بن سليمان المطعون بن الحسن بن طالوت المهدي» اليميني الأصل. وقد انتقل الحكم من البيت الفارسي إلى هذا البيت العربي منذ عام (676هـ = 1277م)، وظل هذا البيت يحكم هذه السلطنة حتى جاء البرتغاليون وقاموا بغزوها في عام (1505م). وقد ازدادت الهجرات العربية في عهد هذا البيت العربي الحاكم في «كلوة»، مما جعل الطابع العربي يتغلب على الطابع الفارسي في مظاهر الحياة المختلفة، فاللغة الغالبة هي اللغة العربية التي كانت تُكتب بما سجلات «كلوة» بجانب اللغة السواحلية، كما كان المذهب الديني السائد هو المذهب الشافعي السني وليس المذهب الشيعي، الذي أتى به البيت الحاكم الأول

(238/14)

---

على يد «علي بن حسن بن علي الشيرازي»، وما زالت أغلبية المسلمين في هذه المنطقة من السنة الشافعية حتى الآن. على

أية حال فقد انفعَل سلاطين هذه السلطنة سواء أكانوا من الفرس أم من العرب بالحياة والتقاليد الإسلامية كل الانفعال، فأكثرُوا من بناء المساجد والمدارس، واهتموا بالعلوم الإسلامية، واستقدموا العلماء ورحبوا بالأشراف والصالحين، كما شاركوا في الجهاد ضد الوثنيين الذين كانوا يقيمون في الداخل، وقد أشار إلى ذلك «ابن بطوطة» وقال: «إن سلطانتها كان كثير الغزو إلى أرض الزنوج، يغير عليهم ويأخذ الغنائم فيُخرج خمسها ويصرفه في مصارفه المعينة في كتاب الله تعالى، ويجعل نصيب ذوى القربى في خزانة على حدة، فإذا جاءه الشرفاء دفعه إليهم، وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها .. وكان هذا السلطان له تواضع شديد ويجلس مع الفقراء ويأكل معهم ويعظم أهل الدين والشرف». غير أن ازدهار «كلوة» لم يتجاوز منتصف القرن الرابع عشر؛ إذ أخذ نجمها في الأفول بسبب تعرضها لبعض الاضطرابات الداخلية، وبدأت مدينة «بات» في شمالها تقوى وتثرى لانتقال تجارة الذهب إليها، وأخذت في التوسع صوب «كلوة» في عهد أسرة «بني نبهان» العربية التي أسست سلطنة قوية في مدينة «بات» فرضت سلطانتها على كثير من بلاد الساحل الشرقى لإفريقيا، كذلك قام حاكم «سوفالة» بالتخلص من سيادة «كلوة» وأعلن استقلاله عنها، وانتهى الأمر إلى نزوح بعض العرب من «مالندة» (مالندى) إلى «كلوة» وتولوا مناصب الوزراء والأمراء وأبقوا على السلطان الذى لم يكن له من الحكم إلا الاسم فقط، وقام الصراع بين أفراد البيت الحاكم على منصب السلطان في القرن الخامس عشر الميلادى، وتعاقبوا على العرش الواحد بعد الآخر، وقل المال حتى إن الحكومة لم تجد ما تنفقه على إصلاح المسجد الكبير بعد أن أصابه الخراب. وقد أعطى كل هذا الفرصة للبرتغاليين للسيطرة على مقاليد الأمور في البلاد، ففي عهد

«فضيل بن سليمان» آخر سلاطين «كلوة» الذى بلغ عددهم (29) سلطاناً احتل البرتغاليون مدينة «كلوة» عام (1505م)، وفى أخريات القرن السابع عشر وقعت «كلوة» تحت سيادة سلاطين عُمان الذين قضوا على النفوذ البرتغالى فى بلادهم ثم فى شرق إفريقيا. ولما فصل هؤلاء السلاطين ممتلكاتهم الأسيوية عن ممتلكاتهم فى إفريقيا فى عام (1856م) آلت «كلوة» إلى سلطان «زنجبار» العُمانى، ثم استولى عليها الألمان عام (1885م)، وفى عام (1919م) أصبحت جزءاً من «تنجانيقا» (تنزانيا الحالية).

#### \*بات (سلطنة)

ظهرت هذه السلطنة على مسرح التاريخ نتيجة لهجرة عربية وفدت من «عُمان» إلى ساحل شرقى إفريقيا فى أوائل القرن السابع للهجرة الثالث عشر الميلادى؛ حيث كونت سلطنة إسلامية نهائية فى «بات» تولت حكم شطر كبير من هذا الساحل، وظلت موجودة حتى عام (1278هـ = 1861م). والنباهنة قوم من العتيك من الأزدي فى «عُمان» كانوا قد استولوا على مقاليد السلطة هناك بعد أن دبت الفوضى فى البلاد وانقسم العمانيون إلى طائفتين متخاصمتين، وحكم النباهنة عمان نحوًا من خمسمائة عام، حيث قامت دولتهم هناك عام (500هـ = 1106م) أو عام (506هـ = 1112م) واستمرت حتى نهاية القرن العاشر الهجرى عندما قامت دولة اليعاربة فى عُمان عام (1024هـ = 1615م). ويبدو أن

الدولة النبهانية في عمان قد مرت بأطوار من القوة والضعف بسبب الصراع الداخلي على الحكم، وكان الطور الأول يشمل مدة قرن من الزمان والذي انتهى بهجرة أحد ملوك النباهنة، وهو على أرجح الأقوال «سليمان ابن سليمان بن مظفر النبهاني» إلى ساحل شرقي إفريقيا في عام (600 - 611هـ) واستقر هو وأتباعه في مدينة «بات» التي تقع في «أرخبيل» لآمو (في كينيا الآن). وأقاموا سلطنة هناك وحكموا جزءاً كبيراً من الساحل متخذين من «بات» مقراً لسلطنتهم، وذلك بعد أن استطاع أول سلطان لهم هناك، وهو «سليمان بن سليمان بن مظفر النبهاني»، أن يتزوج أميرة سواحيلية، ليست فارسية، هي ابنة «إسحاق» حاكم «بات» في ذلك الحين، وعن طريق زوجته ورث الملك، كما يقال: إن والدها تنازل له عن الحكم فأصبح الحاكم الشرعي لبات، ومن ثم نقل بلاطه من عُمان إلى شرق إفريقيا. وقد نمت هذه السلطنة واتسعت في عهد أبنائه وأحفاده، ففي عهد السلطان «محمد الثاني بن أحمد» (690 - 732هـ = 1291 - 1331م) توسعت السلطنة شمالاً بعد حملات ناجحة قام بها هذا السلطان أخضع فيها كل المدن الساحلية التي تقع شمالي

(241/14)

---

«بات» حتى «مقديشيو» وعين حاكمًا لكل منها. وفي عهد ابنه السلطان «عمر الأول» (732 - 760هـ = 1331 - 1358م)، توسعت السلطنة جنوباً؛ حيث أخضع المدن الساحلية بما فيها «كلوة»، ووصل إلى جزر «كيرمبا» جنوب رأس «دجنادو»، وخضعت له كل هذه المنطقة ماعدا جزيرة «زنجبار» التي لم تكن في ذلك الوقت قطراً مهما بدرجة تجذب انتباهه إليها. كذلك فإن حكام «مالندي» أتوا إلى «بات» ليعطوا ولاءهم لسلطانها، ودخلت

أيضاً مدينة «مبسة» والمستوطنات القريبة منها ضمن منطقة نفوذه، وهكذا أصبح السلطان «عمر بن أحمد» في غاية القوة والنفوذ بعد أن أصبحت جميع المدن الساحلية تحت سيطرته. وقد استمرت سيطرة النباهنة على هذه المناطق وكان لهم في كل مدينة خضعت لهم عامل أو قاضٍ يعرف باسم «ماجومب» بمعنى الخاضع لليمب أى للقصر الملكى فى «بات»، وكانت دار الشورى فى «بات» مقراً للحكومة المركزية التى كانت تحكم كل البلاد التى خضعت لهؤلاء السلاطين الذين اتخذوا اللقب السواحيلى «بوانا فومادى»، أو «فومولوتى» ويعنى الملك أو السلطان. وقد تميزت سلطنة «بات» بنظم إدارية وتقاليد سياسية واضحة، وانفردت بتقاليد جديدة فى الملاءمة بين الضرائب وبين النشاط الاقتصادى للأهالى، إذ فرضت ضريبة إنتاج لا يتعدى مقدارها 10%، ذلك أن الدولة كانت تتقاضى وسقين أو حملين من كل عشرين وسقاً تنتجها كل جماعة مشغلة بالزراعة، وهى الضريبة المعروفة بالعشور فى الفقه الإسلامى، كما دخلت الزراعة فى بقاع كثيرة من الساحل الإفريقى فى فترة الحكم النبهانى، وظهر كثير من النباتات التى زرعها العرب هناك مثل القرنفل وقصب السكر، كما اهتموا بالرعى وتربية الماشية والأغنام وأدخلوا تربية الإبل إلى هذه المناطق. وقد نشطت الحركة التجارية فى عهد ازدهار هذه السلطنة إلى حد كبير، وتوافد على الساحل التجار العرب من عُمان وغيرها، وكذلك تجار الهند المسلمون، وقد عمل هؤلاء التجار بنقل الحاصلات

(242/14)

---

المتوافرة فى شرق إفريقيا إلى البلدان المطلة على المحيط الهندى، وإلى الأسواق العربية فى مصر والشام والعراق،

فأصبحت الدولة على جانب كبير من الثراء. وقد نتج عن هذا الثراء تطور حضارى كبير، فقد أنشأ أهل «بات» منازل كبيرة واسعة، وضعوا فيها لمبات نحاسية جميلة، كما صنعوا سلامم أو درجات مزينة بالفضة يتسلقونها أو يصعدون عليها إلى فرشهم أو سُررهم، كما صنعوا سلاسل فضية تزين بها الرقاب، وزينوا أعمدة المنازل بمسامير كبيرة من الفضة الخالصة، وبمسامير من الذهب على قمتها. وقد تجلت مظاهر هذه الحضارة العربية أيضاً في المباني المعمارية وتخطيط المدن وزخارف الأبواب والنوافذ، كما أدخل العرب فن النقش والحفر والنحت وعقود البناء العالية والفسيفساء المتناسقة مع الرخام الملون. وفي مجال الثقافة واللغة والعلوم والفنون ظهر في تلك الفترة ما يعرف باللغة السواحيلية، وهى الفترة التى كانت فيها سلطنة «بات» النبهاية صاحبة السيطرة والنفوذ على معظم أجزاء الساحل الشرقى لإفريقيا كما سبق القول، مما أدى إلى وجود تأثير عربى قوى فى اللغة السواحيلية حتى فى المناطق الجنوبية التى تقع فى «تنجانيقا» و «زنجبار»، حيث ظهرت أفصح أنواع اللغة السواحيلية. ونتيجة لذلك ظهرت نظرية تقول بأن الشعب السواحيلى ولغته نشأ كل منهما حول «لامو» حيث توجد «بات»، وأن المهاجرين العرب الذين أقاموا فى «لامو» وأنشئوا هذه الإمارة تزوجوا من نساء «البانتو» واضطروا إلى استخدام عدد من الكلمات البانتوية بحكم معيشتهم اليومية مع زوجاتهم، ونشأ أولاد «مولدودن» أى نصف عرب ونصف بانتو، مزجوا بين اللغة العربية لغة آبائهم، وبين لغة البانتو لغة أمهاتهم، ومع استمرار التزاوج والاختلاط والمصاهرة تكوّن الشعب السواحيلى وظهرت اللغة السواحيلية التى أصبحت لغة التجارة ولغة الحياة اليومية، وسرعان ما انتشرت هذه اللغة فى شرق ووسط إفريقيا نظراً

---

لغناها ومرونتها. ولاشك أن انتشار اللغة السواحيلية بين السكان الأصليين، بجانب اللغة العربية التي كانت لغة الطبقة العربية الحاكمة، كان له أثره الكبير في نشر الإسلام وثقافته بين القبائل الإفريقية التي تقيم على الساحل، وتلك التي تقيم حول طرق القوافل الرئيسية مما جعل اللغة السواحيلية عاملاً قوياً في توحيد السكان في هذه المنطقة من القارة على اختلاف ألوانهم وتباين لغاتهم وتعدد قبائلهم وشعوبهم وأجناسهم، مما أدى إلى ظهور ثقافة مشتركة هي الثقافة السواحيلية التي غلبت عليها السمة العربية. ومن ثم فقد ساعد ذلك كثيراً على انتشار الإسلام بين السكان المحليين وتطعيم ثقافتهم بعناصر عربية كثيرة، خاصة أن هذه اللغة كتبت بحروف عربية، واستمرت كذلك حتى جاء الاستعمار الأوربي الحديث وحوّلها إلى الكتابة بالحروف اللاتينية بهدف إيجاد فاصل بين الثقافة الإسلامية والثقافة السواحيلية الحديثة. وعندما كانت السواحيلية تكتب بحروف عربية دخلها كثير من الألفاظ العربية، وقد قدر عدد هذه الألفاظ بحوالى عشرين بالمائة من لغة التخاطب، وثلاثين بالمائة من السواحيلية المكتوبة، وخمسين بالمائة من لغة الشعر السواحيلي القديم، كما أن العرب غرسوا في السواحيليين حب الأدب وفنون الشعر وخرج منهم شعراء وخطباء مطبوعون، وأصبح لهم أدب يعتزون به، وتكوّن تراث كبير من الشعر والنثر السواحيلي مكتوب بالحروف العربية يشتمل على أعمال دينية وديوانية، حتى إنهم عرفوا الشعر الغنائي (المشارى) منذ زمن بعيد يعود إلى ما قبل عام (545هـ = 1150م) وما زالوا ينظمونه، كما كتبوا شعر الملاحم المعروف باسم «التندى». كذلك مهدت اللغة السواحيلية السبيل أمام ظهور شعب جديد هو الشعب السواحيلي، وقد ساعد في تكوين هذا الشعب ميل المستوطنين

العرب إلى السلم وحبهم للسكون والاستقرار، فإن مستوطناتهم وإماراتهم وسلطانهم لم تقم على الفتح بل على التجارة،

(244/14)

والتجارة كما هو معروف لا تنشط إلا في جو من السلام والأمن والعلاقات الطيبة، كما أن أخلاق الإفريقيين، وطباعهم كانت قريبة من طباع العرب الذين اعتاد الأفارقة رؤيتهم ورؤية أحفادهم يوغلون في البلاد ويعملون بالتجارة وينشرون الإسلام والوثام بين الناس، فظهر التآلف واتحدت الأهواء والميول، وظهر ما يعرف بالشعب السواحيلي. وقد دعم «النباهنة» هذه الثقافة السواحيلية ذات الطابع الإسلامي وذلك بالعمل على نشر التعليم الديني في المساجد والمدارس والكتاتيب التي وفد إليها كثير من الوطنيين الأفارقة ليحفظوا القرآن الكريم ويتعلموا الكتابة بالحروف العربية، بل ويتعلموا اللغة العربية ذاتها، حتى يتمكنوا من التعمق في فهم عقيدة الإسلام وتراثه الديني واللغوي، وهكذا نرى أن سلطنة «بات» النبهانية قد فرضت نفوذها على معظم أنحاء الساحل الشرقي لإفريقيا، وأنشأت حضارة إسلامية تغلغت جنوبًا وحملها المهاجرون والتجار العرب معهم لا إلى الساحل فقط، بل إلى الجزر المواجهة له مثل جزر «كلوة» و «زنجبار» و «مببا» و «مافيا»، مكونة بذلك دولة كبيرة تعدد سلاطينها حتى بلغ عددهم اثنين وثلاثين سلطانًا، وقد ظلت هذه السلطنة قائمة رغم مهاجمة البرتغاليين لها، وبعد طردهم برز العمانيون في الميدان ووضعوا أيديهم على هذا الساحل بما فيه سلطنة «بات»، وظل الأمر على هذا النحو حتى جاء الإنجليز واحتلوا هذه البلاد قرب نهاية القرن التاسع عشر للميلاد، حتى تحررت وصارت تعرف اليوم باسم «جمهورية كينيا».

## \*الأموية (خلافة)

قامت الخلافة الأموية رسمياً في شهر ربيع الأول من سنة (41هـ)، بعد أن تنازل «الحسن بن علي بن أبي طالب» - رضى الله عنه - عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان -رضى الله عنه - وبإيعه هو وأخوه «الحسين»، وتبعهما الناس في «الكوفة»، وأصبح بذلك «معاوية» خليفة للمسلمين وحده، ولُقّب بأمير المؤمنين، وكان قبل ذلك يلُقّب بالأمير فقط. وقد نجح معاوية بن أبي سفيان وخلفاؤه من بني أمية في تشييد دولة عظيمة، ومد حدود العالم الإسلامي ليصل إلى أبعد مدى، وبسط نفوذه على أكبر رقعة من الأرض، امتدت من الصين شرقاً إلى الأندلس غرباً، ومن بحر قزوين شمالاً إلى المحيط الهندي جنوباً. وبذل الأمويون جهوداً كبيرة في مواصلة الفتح والجهاد، وحماية الثغور والحدود، ونشر الإسلام، وتوطيد أركان الدولة، والقيام بالإصلاحات الإدارية والمالية، وتعريب العملة والدواوين، وتنظيم البريد وجعله جهازاً رقابياً على العمال والولاة، وإنشاء المدن، والعناية بالبناء والتشييد، وتسهيل حركة التجارة، والاهتمام بالزراعة والصناعة وما يتصل بهما من شئون، وتنشيط حركة الثقافة والعلم، وتشجيع العلماء. ويزداد المرء إعجاباً بالأمويين وتقديراً لإنجازاتهم، إذا علم أنهم قاموا بكل تلك الأعمال الجليلة، في وقت كانوا يصارعون فيه أعداء أشداء، ناصبهم العدا، وحقدوا عليهم أشد الحقد، ولم يتركوا فرصة للثورة عليهم إلا انتهبوها، وجعلوا الدولة تعيش معظم أيامها في قلق وصراع داخلي؛ لمواجهة تلك التيارات السياسية المناوئة من خوارج وشيعة. وعلى الرغم من ذلك فقد تعرضت الدولة الأموية لحمات ظالمة، حاولت إصاق كل قهمة بها، وسلب كل مزية لها، واتهم

خلفاؤها بالاستبداد وسفك الدماء، غير أن الإنصاف يقتضى أنه كما كانت لهم مزايا عظيمة وأعمال جلييلة فقد كانت لهم أخطاء كثيرة، لكنها ليست على النحو الذى يصوره هؤلاء الناقدون عليها.

(246/14)

### \*العباسية (خلافة)

ينتسب خلفاء «بنى العباس» إلى جدهم «العباس بن عبدالمطلب» عم النبي - صلى الله عليه وسلم -، الذى عاش فى «مكة» وأسلم بها، وكانت له مكائته عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. وقد امتدت دولتهم لفترة زمنية طويلة تزيد على خمسة قرون (231 - 656هـ)، واتسعت لتشمل مساحات كبيرة من العالم الإسلامى، ومرّت خلال عمرها المديد بفترتين اصطلاح أغلب المؤرخين على تسميتهما بالعصر العباسى الأول والعصر العباسى الثانى. وشهد العصر العباسى الأول (132 - 232 هـ) حياة مزدهرة، وسلطاناً واسعاً وقوة غالبية وجاهاً عريضاً، حتى أطلق عليه العصر الذهبى للخلافة أو عصر القوة والازدهار، وذلك بفضل جهود خلفائه العظام، ووزرائه الأكفاء، وقادته المهرة. واستقرت فى هذا العصر النظم السياسية والإدارية، فاستحدث نظام الوزارة، وارتقت وظائف الكتابة، واتسع نظام الدواوين، واستقل منصب القضاء، كما ازدهرت الحياة الاقتصادية، وتعددت موارد الدولة، وارتفع مستوى المعيشة، وازداد العمران، وبنيت المدن والعواصم، وأقيمت الأسواق، وشيدت المساجد والقصور، أما الحياة الفكرية فقد ازدهرت ازدهاراً عظيماً فى شتى فروع المعرفة، فتمايزت العلوم واستقلت، ونهضت حركة الأدب، ونشطت الترجمة، وكثرت حلقات العلم، وبرز العلماء والأدباء،

وظهرت المذاهب الفقهية، ووضعت الكتب والمصنفات. أما العصر العباسي الثاني الذي دام أكثر من أربعة قرون فيقسمه المؤرخون إلى أربع فترات رئيسية هي: فترة نفوذ الأتراك (232 - 334هـ)، وفترة سيطرة البويهيين (334 - 447هـ)، وفترة نفوذ السلاجقة (447 - 590هـ)، وفترة ما بعد السلاجقة، وهي الفترة التي انحصر فيها نفوذ الخلفاء في بغداد وما حولها. وقد تميز هذا العصر بظهور الدول المستقلة عن الخلافة وإن ارتبطت بما ارتبطاً اسمياً كالدولة «الصفارية» (254 - 289هـ) في فارس وخراسان، والدولة «السامانية» (261 - 389هـ) في بلاد ما وراء

(247/14)

النهر وخراسان، و «الدولة الحمدانية» (293 - 392هـ) في الموصل وحلب، و «البويهيين» في فارس وشيراز وأصبهان والرى وهمدان، كما ظهر «الفاطميون» في الشمال الإفريقي و حكموا مصر، واتخذوا من القاهرة عاصمة لدولتهم الشيعية. وفي هذا العصر فقد الخلفاء نفوذهم ولم يعد لهم من الأمر شيء، وضاعت هيبتهم، وتعرض بعضهم للعزل والإهانة وعدم التوقير، بل والقتل أحياناً دون نظر إلى جلال المنصب في النفوس، لكنهم نعموا في ظل السلاجقة بقدر كبير من الاحترام والتوقير، وإن لم يتمتعوا بسلطة الخلافة الحقيقية التي كانت في أيدي السلاجقة. وعلى الرغم من افتقاد هذا العصر إلى الوحدة السياسية فإنه شهد تفوقاً حضارياً هائلاً ونهضة فكرية شاملة، وازدهاراً في الحركة الثقافية، وبروزاً لعدد ضخم من الفقهاء والمفسرين والكتاب والشعراء وغيرهم، وتنافساً في بناء المدارس واجتذاب العلماء. وظلت الدولة العباسية قائمة حتى استطاع «هولاكو» دخول بغداد في الحرم من سنة (656هـ)، والقبض على الخليفة

«المستعصم العباسي» وأهل بيته، وقتلهم جميعًا، وبهذا سقطت الخلافة العباسية في بغداد، وهي التي ظلت لأكثر من خمسة قرون رمزًا لوحدة المسلمين حتى في فترات الضعف التي حلت بها.

(248/14)

### \*العباسيون

ينتسب خلفاء «بني العباس» إلى جدهم «العباس بن عبدالمطلب» عم النبي - صلى الله عليه وسلم -، الذي عاش في «مكة» وأسلم بها، وكانت له مكائته عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. وقد امتدت دولتهم لفترة زمنية طويلة تزيد على خمسة قرون (231 - 656هـ)، واتسعت لتشمل مساحات كبيرة من العالم الإسلامي، ومرّت خلال عمرها المديد بفترتين اصطلاح أغلب المؤرخين على تسميتهما بالعصر العباسي الأول والعصر العباسي الثاني. وشهد العصر العباسي الأول (132 - 232 هـ) حياة مزدهرة، وسلطانًا واسعًا وقوة غالبية وجاهًا عريضًا، حتى أطلق عليه العصر الذهبي للخلافة أو عصر القوة والازدهار، وذلك بفضل جهود خلفائه العظام، ووزرائه الأكفاء، وقادته المهرة. واستقرت في هذا العصر النظم السياسية والإدارية، فاستحدث نظام الوزارة، وارتقت وظائف الكتابة، واتسع نظام الدواوين، واستقل منصب القضاء، كما ازدهرت الحياة الاقتصادية، وتعددت موارد الدولة، وارتفع مستوى المعيشة، وازداد العمران، وبنيت المدن والعواصم، وأقيمت الأسواق، وشيدت المساجد والقصور، أمّا الحياة الفكرية فقد ازدهرت ازدهارًا عظيمًا في شتى فروع المعرفة، فتمايزت العلوم واستقلت، ونهضت حركة الأدب، ونشطت الترجمة، وكثرت حلقات العلم، وبرز العلماء والأدباء،

وظهرت المذاهب الفقهية، ووضعت الكتب والمصنفات. أما العصر العباسي الثاني الذي دام أكثر من أربعة قرون فيقسمه المؤرخون إلى أربع فترات رئيسية هي: فترة نفوذ الأتراك (232 - 334هـ)، وفترة سيطرة البويهيين (334 - 447هـ)، وفترة نفوذ السلاجقة (447 - 590هـ)، وفترة ما بعد السلاجقة، وهي الفترة التي انحصر فيها نفوذ الخلفاء في بغداد وما حولها. وقد تميز هذا العصر بظهور الدول المستقلة عن الخلافة وإن ارتبطت بما ارتبطاً اسمياً كالدولة «الصفارية» (254 - 289هـ) في فارس وخراسان، والدولة «السامانية» (261 - 389هـ) في بلاد ما وراء

(249/14)

النهر وخراسان، و «الدولة الحمدانية» (293 - 392هـ) في الموصل وحلب، و «البويهيين» في فارس وشيراز وأصبهان والرى وهمدان، كما ظهر «الفاطميون» في الشمال الإفريقي و حكموا مصر، واتخذوا من القاهرة عاصمة لدولتهم الشيعية. وفي هذا العصر فقد الخلفاء نفوذهم ولم يعد لهم من الأمر شيء، وضاعت هيبتهم، وتعرض بعضهم للعزل والإهانة وعدم التوقير، بل والقتل أحياناً دون نظر إلى جلال المنصب في النفوس، لكنهم نعموا في ظل السلاجقة بقدر كبير من الاحترام والتوقير، وإن لم يتمتعوا بسلطة الخلافة الحقيقية التي كانت في أيدي السلاجقة. وعلى الرغم من افتقاد هذا العصر إلى الوحدة السياسية فإنه شهد تفوقاً حضارياً هائلاً ونهضة فكرية شاملة، وازدهاراً في الحركة الثقافية، وبروزاً لعدد ضخم من الفقهاء والمفسرين والكتاب والشعراء وغيرهم، وتنافساً في بناء المدارس واجتذاب العلماء. وظلت الدولة العباسية قائمة حتى استطاع «هولاكو» دخول بغداد في الحرم من سنة (656هـ)، والقبض على الخليفة

«المستعصم العباسي» وأهل بيته، وقتلهم جميعًا، وبهذا سقطت الخلافة العباسية في بغداد، وهي التي ظلت لأكثر من خمسة قرون رمزًا لوحدة المسلمين حتى في فترات الضعف التي حلت بها.

(250/14)

### \*البويهية (دولة)

ينتسب البويهيون إلى «أبي شجاع بويه» الذي نشأ في «بلاد الديلم» التي تقع جنوبي غربي «بحر قزوين» أو «بحر الخزر» بين منطقتي «طبرستان» و «الجبال». وكانت هذه البلاد معقلًا لنفوذ العلويين، فانتشر فيها التشيع. ورغم أن «أبا شجاع بويه» كان فقيرًا فإنه كان يتحلى بروح المغامرة والشجاعة، كما تشرب الروح الشيعية التي كانت سائدة في «بلاد الديلم». وقد انضم «أبو شجاع» إلى العلويين في صراعهم مع السامانيين، ومع ذلك فلم يكن هو المؤسس الحقيقي لأسرة «بني بويه»، وإنما كان أبناؤه الثلاثة «علي»، و «حسن»، و «أحمد» هم الذين قاموا بذلك، فقد التحق أبناؤه بخدمة «ماكان بن كاسي» أحد القواد البارزين المناصرين للداعية الشيعي «الحسن بن علي»، الملقب بالأطروش، وأبرزوا تميزًا في خدمته فارتقوا من مرتبة الجنود إلى رتبة القادة، ثم حدث صراع بين «ماكان» و «مرداويج بن زيار» أحد القادة الفرس في منطقة «الديلم»، وأحس أبناء «بويه» أن كفة «مرداويج» هي الراجحة في هذا الصراع، فانضموا إليه، فيما بين عامي (316 و317هـ= 928 و 929م)، وكان ذلك بداية تمكن نفوذهم في فارس والمناطق المحيطة بها. وقد ظهر «بنو بويه» - أو البويهيون - على مسرح الأحداث في أواخر عصر نفوذ الأتراك، فبدءوا منذ

عام (321هـ = 933م) يؤسسون لأنفسهم مناطق نفوذ تخضع لسيطرتهم التامة، فاستولوا على «فارس»، و «شيراز» و «أصبهان»، و «الرى»، و «همدان» و «الكرج» و «كرمان»، وأغراهم ذلك على التطلع إلى مد نفوذهم إلى «العراق» موطن الخلافة العباسية. وقد ساعدهم على ذلك تضائل النفوذ التركي، واشتداد الصراع على منصب «أمير الأمراء» الذى ابتدعه الخليفة «الراضى بالله» سنة (324هـ = 936م)، مما أدى إلى تمزق الكلمة وضعف الجبهة التى يمكن أن تحمى دار الخلافة فلم يجد «أحمد بن بويه» أى صعوبة فى دخول «بغداد» والسيطرة عليها بدون قتال فى (الحادى عشر من جمادى الأولى سنة 334هـ = يناير

(251/14)

سنة 946م) .. وعندما دخل «أحمد بن بويه» «بغداد» فى جمادى الأولى سنة (334هـ = ديسمبر سنة 945م) كان «المستكفى بالله» هو الخليفة العباسى، ولم يكن أمامه إلا أن يظهر الترحيب به، بل إنه زاد على ذلك فخلع عليه الخُلَع ولقبه «معز الدولة»، كما لُقِّب أخاه «عليا» «عماد الدولة»، وأخاه «الحسن» «ركن الدولة»، وأمر بأن تُضربَ ألقابهم وكنائهم على الدنانير والدراهم، وكان «على بن بويه» حاكمًا لإقليم «فارس»، و «الحسن ابن بويه» حاكمًا لعدة أقاليم أهمها «الرى»، و «الجبيل»، و «أصفهان»، فى حين دخل أخوهم الأصغر «أحمد» «بغداد». وقد تدهورت أحوال «الخلافة العباسية»، واندثرت معالمها من الناحية الواقعية حينما سيطر البويهيون على «بغداد»، فقد جردوا الخليفة من كل سلطاته، وعدَّوه مجرد موظف مهمته إضفاء صفة الشرعية على سلطاتهم لدى جماهير المسلمين، فحددوا له راتبه، وسلبوه حقه فى تعيين الوزراء، وسمحوا له بأن يتخذ كاتبًا (سكرتيرًا) فقط

يشرف على أمواله. ورغم أن البويهيين كانوا شيعة، فإنهم لم يسقطوا الخلافة العباسية السنية في «بغداد»، ليحلوا محلها خلافة علوية شيعية تتفق مع مذهبهم، وسبب ذلك علمهم أن وجود خليفة من العلويين يهدد ملكهم وسلطانهم، وليس الأمر كذلك مع الخليفة السني الذي يستطيعون هم أن يفعلوا به ما يشاءون. وقد برهن سلوك البويهيين مع الخليفة «المستكفي» على صدق ذلك، فقبل مرور شهر على دخولهم «بغداد» دخل «معز الدولة أحمد بن بويه» على الخليفة «المستكفي»، فوقف الناس حسب مراتبهم، فتقدم اثنان من الديلم - وهم قوم «معز الدولة» - فمدَّ الخليفة يده إليهما ظنا منه أنهما يريدان تقبيلها، فجدباها وطرحاه أرضاً، وجراه بعمامته، ثم هجم «الديلم» على دار الخلافة ونهبوها، وسار «معز الدولة» إلى منزله، وساقوا الخليفة «المستكفي» ماشياً إليه، ثم انتهت هذه المأساة بخلع «المستكفي» وسمل عينيه. وإذا استبعدنا خلافة «المستكفي»،

(252/14)

---

فإننا نجد أن الخلفاء الذين شهدوا عصر نفوذ البويهيين كانوا أربعة هم: 1 - المطيع لله «أبو القاسم الفضل بن المقتدر بن المعتضد» [334 - 363هـ = 945 - 974م]. 2 - الطائع لله «أبو بكر عبدالكريم بن المطيع» [363 - 381هـ = 974 - 991م]. 3 - القادر بالله «أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر» [381 - 422هـ = 991 - 1031م]. 4 - القائم بأمر الله «أبو جعفر عبدالله بن القادر» [422 - 467هـ = 1031 - 1075م]. أولاً: خلافة المطيع لله: بعد أن أمر «معز الدولة أحمد ابن بويه» بخلع «المستكفي» في (جمادى الآخرة سنة 334هـ = 945م)، أحضر «أبا القاسم الفضل ابن المقتدر» وبياعه بالخلافة، ولقبه بالمطيع لله، وعمره - حينئذٍ - أربع

وثلاثون سنة، وحدد له «معز الدولة» راتبًا مائة دينار في اليوم. وقد شهدت خلافة «المطيع» أحداثًا كثيرة، أولها: نشوب الصراع بين البويهيين في «بغداد» بزعامة «معز الدولة» (أحمد بن بويه)، وبين الحمدانيين في «الموصل» بزعامة «ناصر الدولة» (الحسين بن عبد الله)، وقد استمر هذا الصراع طويلاً في محاولة كل منهما الإطاحة بالآخر، وفي (الحرم سنة 335هـ = أغسطس سنة 946م) تم الصلح بين «معز الدولة البويهى» وبين «ناصر الدولة الحمداني» على أن يدفع «ناصر الدولة» الخراج للبويهيين في «بغداد» كل عام. وفي سنة (336هـ = 947م) استطاع «معز الدولة» أن يستولى على «البصرة» بعد هروب صاحبها «أبي القاسم عبد الله بن أبي عبد الله البريدى» إلى القرامطة في «هجر». وجدير بالذكر أن «معز الدولة» كان نائبًا في «بغداد» عن أخيه الأكبر «عماد الدولة» (علي بن بويه) في «فارس»، ثم عن أخيه الأوسط «ركن الدولة» (الحسن بن بويه)، عقب وفاة «عماد الدولة». ورغم أن الخليفة العباسى كان تحت سيطرة البويهيين فإنهم كانوا يخضعون له من الناحية الشكلية فقط. وقد حاول البويهيون صبغ «العراق» بمذهبهم الشيعى، واتخذ

(253/14)

---

«معز الدولة» في سبيل ذلك خطوات بالغة الخطورة أسهمت في إثارة عوامل الفتنة والاضطراب داخل مجتمع «العراق»؛ ففي (ربيع الآخر سنة 351هـ = مايو سنة 962م) أصدر «معز الدولة» أمرًا بأن يُكتب على المساجد لعن «معاوية بن أبي سفيان» وغيره من الصحابة كأبي بكر و «عمر»؛ حيث يتهمهم الشيعة بإساءة معاملتهم وغصبهم حقوقهم، ولم يستطع الخليفة العباسى منع ذلك، وفي العاشر من (الحرم سنة 352هـ = يناير سنة 963م)

أصدر «معز الدولة» أمرًا بتوقف الناس عن البيع والشراء في ذلك اليوم، وإظهار البكاء والعيول، وأمر النساء أن يخرجن حاسرات الرؤوس قد شققن ثيابهن وهن يلطمن الوجوه على «الحسين ابن علي بن أبي طالب» في ذكرى استشهاده بكر بلاء، وكان هذا أول يوم يحدث فيه ذلك ببغداد، ولم يستطع الخليفة وأهل السنة أن يمنعوا ذلك لكثرة الشيعة ومناصرة السلطان «معز الدولة» لهم. وقد أحدثت هذه المظاهر الشاذة آثارها السيئة بين الناس، ففي العاشر من (المحرم سنة 353هـ = يناير سنة 964م) - على سبيل المثال - تم إغلاق الأسواق في «بغداد»، وفعل الناس ما تقدم ذكره، فنارت فتنة عظيمة بين الشيعة والسنة، أصيب فيها كثيرون ونُهبت الأموال، وجدير بالذكر أن هذه الممارسات التي شجعها البويهيون ماتزال آثارها موجودة حتى الآن. ومن أهم ما سجله «معز الدولة» من انتصارات: تخلص «عُمان» في (ذى الحجة سنة 355هـ = نوفمبر سنة 966م) من يد القرامطة الذين كانوا قد استولوا عليها وعاثوا بها فسادًا، فأصبحت بذلك ضمن مملكة البويهيين. ظل «معز الدولة» اثنين وعشرين عامًا يدير الأمور في «بغداد»، حتى تُوفِّي في الثالث عشر من (ربيع الآخر سنة 356هـ = مارس سنة 967م)، فتولى ابنه «بختيار» إمارة «العراق» بعهد منه، ولُقب «عز الدولة». وقد قدم «عز الدولة» صورة صارخة لانصرافه عن المهام الكبرى واهتمامه بملذاته الشخصية، فقد أنفق وقته في اللهو والتسلية وعشرة النساء

(254/14)

---

والاستماع إلى الغناء، واستولى على أموال كبار رجال الدولة وعلى رأسهم الخليفة في سبيل ذلك. ففي سنة (361هـ = 972م) هاجم الروم ثغور «الجزيرة» ومن بينها «الرها» و «نصيبين»،

فأحرقوا البلاد وخربوها وغنموا وسلبوا ما استطاعوا ولم يجدوا  
من يردعهم بعد وفاة «سيف الدولة الحمداني» سنة (356هـ =  
967م)، فسار جماعة من أهل «الجزيرة» إلى «بغداد» لاستنفا  
المسلمين ضد الروم، فاستعظم الناس ذلك، وتوجهوا إلى «عز  
الدولة بختيار»، وأنكروا عليه انشغاله باللهو والصيد عن جهاد  
الروم الذين انتهكوا حرمة دار الإسلام، فوعدهم بالإعداد لغزوهم،  
واتصل بالخليفة «المطيع لله» يطلب منه المال ليجهز به المسلمين  
للغزو، ولكن «المطيع لله» أجابه بقوله: «إن الغزاة والنفقة  
عليها، وغيرها من مصالح المسلمين تلزمني إذا كانت الدنيا في  
يدي، وتُجبي إلى الأموال، وأما إذا كانت حالي هذه فلا يلزمني  
شيء من ذلك، وإنما يلزم من البلاد في يده، وليس لي إلا  
الخطبة، فإن شئتم أن أعتزل فعلت»، فهدد «بختيار» الخليفة  
«المطيع» واضطره إلى دفع أربعمئة ألف درهم، فلما قبضها  
«عز الدولة» صرفها في مصالحه وملذاته! ونتيجة لسوء طبع  
بختيار واضمحلال شخصيته، بدأت أسباب الشقاق والفتنة تظهر  
بين البويهيين، فقد حاول ابن عمه «ركن الدولة» والملقب فيما  
بعد «عضد الدولة» انتزاع «العراق» من «بختيار» ولكن والده  
«ركن الدولة» اعترض على ذلك، فاضطر «عضد الدولة» إلى  
تأجيل ذلك إلى ما بعد وفاة والده. ولعل من أخطر الأحداث التي  
شهدتها خلافة «المطيع لله» سيطرة الفاطميين على «مصر» سنة  
(358هـ = 969م) وكانت «مصر» حينئذٍ تحت حكم الإخشيديين الذين  
كانوا يخضعون للخليفة العباسي من الناحية الشكلية، فلما  
دخلها القائد الفاطمي «جوهري الصقلي» في (شعبان سنة 358هـ =  
يونيو سنة 969م)، شرع في بناء مدينة «القاهرة»؛ لتصبح  
عاصمة للفاطميين، كما بنى الجامع الأزهر سنة (361هـ = 972م)،

وظل حاكمًا لمصر نيابة عن مولاه «المعز لدين الله» (7) حتى سنة (362هـ = 973م)، حين قدم «المعز» إلى «مصر» في رمضان من هذه السنة، فقام بالأمر وأصبحت «مصر» منذ ذلك الوقت مقرا للخلافة الفاطمية الشيعية حتى سنة (567هـ = 1172م). ظل «المطيع لله» في الخلافة ما يقرب من «ثلاثين عامًا»، حتى أُصيب بالفالج - وهو الشلل النصفى - في أواخر حياته فتعذرت حركته وثقل لسانه، مما دعا «سُبُكْتِكِينَ»، حاجب «عز الدولة بختيار» إلى أن يطلب منه خلع نفسه وتسليم الخلافة إلى ابنه «عبدالكريم»، فتم ذلك في (13 من ذى القعدة سنة 363هـ = يوليو سنة 974م)، ولقب «عبدالكريم» بالطائع لله. ثانيًا: خلافة الطائع لله (363 - 381هـ = 974 - 991م). تولى «الطائع لله» الخلافة في (ذى القعدة سنة 363هـ = يوليو سنة 974م) وعمره ثلاث وأربعون سنة، وقد تُوفِّي والده «المطيع لله» بعد ذلك بفترة قصيرة، في (سنة الحرم سنة 364هـ = سبتمبر 974م). في بداية خلافة «الطائع لله» حدثت الفتنة بين «عضد الدولة بن ركن الدولة»، وابن عمه «بختيار بن معز الدولة»، فقد شجع «عضد الدولة» جنود «بختيار» على الثورة عليه ووعدهم بالإحسان إليهم والنظر في أمورهم، فثار عليه الجند وتم القبض على «بختيار» وحبسه في (جمادى الآخرة سنة 364هـ = فبراير سنة 975م)، وأصبحت «بغداد» و «العراق» تحت سلطان «عضد الدولة» .. وقد عز على «ركن الدولة» أمير أمراء البيت البويهى ووالد «عضد الدولة» أن يتصرف ابنه «عضد الدولة» مع ابن أخيه «بختيار» بهذه الصورة، فكتب إلى أنصار «بختيار» يساندهم ويأمرهم بالثبات والصبر ويعرفهم أنه عازم على المسير إلى «العراق» لإخراج «عضد الدولة» وإعادة «بختيار»، فانصرف أنصار «عضد الدولة» عنه واضطر إلى الإذعان لإرادة أبيه، فأخرج «بختيار» من سجنه ورد إليه ما سلبه من سلطانه، وعاد إلى «فارس» في (شوال سنة 364هـ = يونيو سنة 975م)، وكان الخليفة «الطائع لله» مسلوب

الإرادة خلال هذه الفتنة، لاحول له ولا قوة. وقد قسم «ركن الدولة» ملكه بين أولاده في (جمادى الأولى سنة 365هـ = يناير سنة 976م) فجعل لابنه «عضد الدولة» ملك البلاد من بعده، ولولده «فخر الدولة» (أبي الحسن علي) «همدان» وأعمال «الجبيل»، ولولده «مؤيد الدولة» (أبي منصور بويه) «أصبهان» وأعمالها، وجعلهما تحت رئاسة أخيها «عضد الدولة»، وأوصاهم بالاتفاق وترك التنازع. وفي (الحرم سنة 366هـ = أغسطس سنة 976م) تُوفّي «ركن الدولة» فأصبح ابنه «عضد الدولة» زعيم البويهيين بلا منازع. وفي العام نفسه حشد «عضد الدولة» جنوده لغزو «العراق»، وكان «بختيار» ووزيره «أبو طاهر محمد بن محمد بن بقية» يعلمان نيات «عضد الدولة» فحاولا استمالة كبار الأمراء من حكام الأقاليم المختلفة، مثل «فخر الدولة بن ركن الدولة»، و «أبي تغلب بن حمدان» وغيرهما، وحدثت بعض المعارك بين جيوش «عضد الدولة» وجيوش «بختيار» سنة (366هـ = 976م) انتهت بهزيمة «بختيار» وفراره من «بغداد» إلى «الموصل» حيث تحالف مع واليها «أبي تغلب بن حمدان» ضد «عضد الدولة»، فسار إليهما «عضد الدولة» وهزمهما بالقرب من «تكريت» في (شوال سنة 367هـ = مايو سنة 978م) وأسر «بختيار» وقتله، وضم مملكة الحمدانيين في «الموصل» و «الجزيرة» إلى أملاكه، واتخذ «العراق» مقرا لحكمه. اهتم «عضد الدولة» بدعم سلطانه وتوسيع أملاكه؛ ففي سنة (368هـ = 978م) فتح «ميافارقين» و «آمد» و «ديار بكر»، و «ديار مضر» منهياً بذلك نفوذ «أبي تغلب ابن حمدان» في بلاد «الجزيرة». وفي عام (369هـ = 979م) استولى على الأقاليم الخاضعة لأخيه «فخر الدولة» بسبب وقوفه إلى جانب «بختيار»، فاستولى

على «همدان» و «الري» وما بينهما من البلاد، وعين عليها أخاه  
«مؤيد الدولة» نائباً عنه في حكمها، وفي سنة (371هـ = 981م)  
ضم إلى نفوذه بلاد «جرجان» و «طبرستان» بعد أن أجلي عنها  
صاحبها «قابوس ابن أبي طاهر» و «شمكير» (أحد أمراء آل

(257/14)

زيار) (8)، فتعاطم بذلك نفوذ «عضد الدولة» وذاع صيته وتمكنت  
هيئته، وكان أول من خوطب بشاهنشاه في الإسلام، وأول من  
خُطب له على منابر «بغداد» بعد الخلفاء. وقد كان لعضد الدولة  
إنجازات حضارية بالإضافة إلى أمجاده الحربية، فبعد دخوله  
«بغداد» بدأ في عمارتها، كما أمر بإخراج أموال الصدقات  
وتسليمها للقضاة وأعيان الناس، لإعانة من يستحق، وبدفع  
أموال للعاطلين الذين يتعذر عليهم الحصول على العمل، بما  
يكفي احتياجاتهم، ثم يردونها بعد ذلك إذا عملوا. كما اهتم  
«عضد الدولة» بالعلم والعلماء، وأغدق عليهم العطاء وأحاطهم  
بمظاهر التكريم، وقد كان مجلسه منتدى للعلماء، تدور فيه  
المناقشات الدقيقة في فروع العلم المختلفة، وكان يشترك مع  
العلماء في هذه المناقشات ويعارضهم في المسائل، ومن أبرز  
هؤلاء العلماء «أبو علي الفارسي» الذي صنّف له كتاب  
«الإيضاح» و «التكملة» في النحو، وكان «عضد الدولة» يقول:  
«أنا غلام أبي علي في النحو»، ومنهم أيضاً «أبو إسحاق  
الصابي» الذي صنّف لعضد الدولة كتاب «التاجي في أخبار بني  
بويه». وكان «عضد الدولة» يحب الشعر ويطرب له، ويقرضه  
أحياناً، ويغمر الشعراء بفيض كرمه وجزيل عطائه، فقصدته عدد  
من فحول الشعراء في عصره، وكتبوا فيه أروع قصائد المديح،  
وفي مقدمتهم «أبو الطيب المتنبي» سنة (354هـ = 965م)، و «أبو

الحسن محمد بن عبدالله السَّلامى أبرز شعراء «العراق»، وكان «عضد الدولة» يقول: «إذا رأيت السَّلامى فى مجلسى ظننت أن عطارد قد نزل من الفلك إلى ووقف بين يدى». وقد اقتدى «مؤيد الدولة» و «فخر الدولة» بأخيها «عضد الدولة» فى تشجيع العلم وإكرام أهله، فعين «مؤيد الدولة» «الصاحب بن عباد» وزيراً له سنة (366هـ = 976م)، وكان من أعظم رعاة العلم والأدب، وعقب وفاة «مؤيد الدولة» واستيلاء أخيه «فخر الدولة» على مملكته أقر «الصاحب بن عباد» على وزارته، وعين مفكر

(258/14)

المعتزلة المشهور «عبدالجبار بن أحمد» قاضى قضاة للرى سنة (367هـ = 978م) لصلته بالصاحب بن عباد، ثم عزله «فخر الدولة» سنة (385هـ = 995م) حينما تُوفى «الصاحب بن عباد». وتُوفى «عضد الدولة» فى (شوال سنة 372هـ = مارس سنة 983م)، وعمره ثمانٍ وأربعون سنة (9)، وقد تركت وفاته فراغاً هائلاً تعذر على خلفائه أن يملئوه. وكان أخطر ما ترتب على وفاة «عضد الدولة»، الصراع الذى نشب بين أولاده الخمسة على السلطة، وهم: «أبو كاليبجار المرزبان» (صمصام الدولة)، و «أبو الحسين أحمد»، و «أبو طاهر فيروز شاه»، و «أبو الفوارس شيرزىل» الملقب «شرف الدولة»، و «أبو نصر فيروز» الملقب «بهاء الدولة». وقد استقر الأمراء والقادة على اختيار «أبى كاليبجار المرزبان» ليكون خلفاً لأبيه «عضد الدولة»، ولقبوه «صمصام الدولة» وأقر الخليفة «الطائع لله» هذا الاختيار وخلع على «صمصام الدولة» سبع خلع، ولقبه «شمس الملة»، فلم يكن للخليفة دور سوى إقرار ما يتفق عليه القادة والأمراء. وقد واجه «صمصام الدولة» انشقاقاً من أخيه «شرف الدولة» الذى استطاع

الاستقلال ببلاد «فارس» والاستيلاء على «البصرة»، وتعيين أخيه «أبي الحسين أحمد» نائبًا عنه في حكمها، كما تمكن من هزيمة الجيش الذي أرسله إليه «صمصام الدولة» ليسترد منه بلاد «فارس». وقد استطاع «صمصام الدولة» استمالة عمه «فخرالدولة» إلى صفه في هذا الصراع، ولكن جنده في «بغداد» ثاروا عليه وأعلنوا بيعتهم لشرف الدولة، ورغم أن «صمصام الدولة» قضى على هذه الثورة فإنه لم يستطع وضع حد لازدياد قوة أخيه «شرف الدولة». ففي سنة (375هـ = 985م) استولى «شرف الدولة» على «الأهواز» وقبض على أخيه «أبي طاهر فيروز شاه» المناصر لصمصام الدولة، وفي (رمضان سنة 376هـ = يناير سنة 987م) استولى على «العراق» ودخل «بغداد» وقبض على أخيه «صمصام الدولة»، فذهب إليه الخليفة وهنأه بالسلطنة. لم يستمر «شرف الدولة» طويلًا في إمارته على

(259/14)

«العراق»، فقد تُوفِّي في غرة (جمادى الأولى سنة 379هـ = أغسطس سنة 989م)، ولم يجد حرجًا وهو في مرض موته أن يأمر بِسَمَلِ عيني أخيه «صمصام الدولة» وهو في سجنه. وخلف «شرف الدولة» أخوه «أبو نصر فيروز»، الذي لقبه الخليفة «بهاء الدولة وضياء الملة»، ولكن العلاقة بين «بهاء الدولة أبي نصر فيروز» وبين الخليفة «الطائع» وصلت بعد قليل إلى الحد الذي جعل «بهاء الدولة» يقوم بعزل الخليفة؛ فقد قلت الأموال عند «بهاء الدولة»، وثار جنده عليه، فاقترح عليه أحد خواصه وهو «أبو الحسن بن المعلم»، أن يقبض على الخليفة «الطائع» ويستولى على أمواله، فدخل «بهاء الدولة» على الخليفة ومعه جمع كثير، وتقدم أحد رجاله كأنه يريد أن يقبل يد الخليفة،

فجذبه فأنزله عن سريره والخليفة يقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، ويستغيث دون أن يلتفت إليه أحد، وتم الاستيلاء على أمواله، وحُمل الخليفة إلى دار «بهاء الدولة»؛ حيث أرغم على خلع نفسه في (التاسع عشر من شعبان سنة 381هـ = أكتوبر سنة 991م) بعد أن استمر في الخلافة ما يقرب من ثمانية عشر عامًا، كان خلالها مسلوب الإرادة. ثالثًا: خلافة القادر بالله (381 - 422هـ = 991 - 1031م). هو «أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر»، اختاره «بهاء الدولة» بعد خلع «الطائع لله» لتولي الخلافة، وكان غائبًا عن «بغداد»، فلما وصله الخبر حضر إليها وبإيعه «بهاء الدولة» والناس في (رمضان سنة 381هـ = نوفمبر سنة 991م)، وعمره خمسة وأربعون عامًا. وقد دامت خلافة «القادر بالله» إحدى وأربعين سنة وحفلة بالكثير من الأحداث والتطورات، وأهمها: أ - ازدياد التفكك في البيت البويهى: فقد نشب الصراع بين «بهاء الدولة»، وأخيه «صمصام الدولة» ولم يكن في «بني بويه» أظلم من «بهاء الدولة» ولا أقبح سيرة منه، ففي سنة (383هـ = 993م) قام بمحاولة للاستيلاء على المنطقة الخاضعة لإمارة أخيه «صمصام الدولة» في بلاد «فارس»

(260/14)

و «أرجان»، فانتهت هذه المحاولة بعكس ما كان يهدف إليه؛ حيث تمكن «صمصام الدولة» من الاستيلاء على «خوزستان» الخاضعة لبهاء الدولة، وبدد شمل الجيش الذى أرسله «بهاء الدولة». وفي سنة (384هـ = 994م) استطاع «بهاء الدولة» أن يهزم «صمصام الدولة»، وأن يسترد منه بعض ما خسره قبل ذلك. وقد تجدد الصراع بينهما مرات عديدة، ووصل في إحدى مراحلها إلى استيلاء «صمصام الدولة» على «البصرة» في «العراق» سنة

386هـ = 996م)، ولم يتوقف هذا الصراع بين «بهاء الدولة» و «صمصام الدولة» إلا بمقتل «صمصام الدولة» على يد بعض أبناء «عز الدولة بختيار»؛ انتقامًا لمقتل أبيهم «بختيار» على يد «عضد الدولة»، والد «صمصام الدولة»، وذلك في (ذى الحجة سنة 388هـ = 998م). وعقب مقتل «صمصام الدولة» أراد بعض أبناء «بختيار» الاستيلاء على «فارس»، فنشب الصراع بينهم وبين «بهاء الدولة» وانتهى بهروبهم ومقتل أحدهم واسمه «أبو نصر» على يد أنصار «بهاء الدولة» سنة (390هـ = 1000م). وقد تُوفِّي «بهاء الدولة» (أبو نصر فيروز بن عضد الدولة) في (جمادى الآخرة سنة 403هـ = ديسمبر سنة 1012م)، فخلفه على إمارة «العراق» ابنه «أبو شجاع فخر الملك»، الذي لقبه الخليفة «القادر بالله» «سلطان الدولة»، فولى أخاه «جلال الدولة» «أبا طاهر» إمارة «البصرة» وأخاه «قوام الدولة أبا الفوارس» «كرمان». ونشب صراع مرير بين أبناء «بهاء الدولة»: «سلطان الدولة» و «جلال الدولة»، و «قوام الدولة»، و «مشرف الدولة» الذي استطاع الاستيلاء على «العراق» سنة (411هـ = 1020م) وبعد وفاة «سلطان الدولة» في (شوال سنة 415هـ = ديسمبر سنة 1024م) خلفه ابنه «أبو كاليجار» على إمارة «فارس» و «كرمان»، ودخل في صراع مع عمه «أبي الفوارس بن بهاء الدولة» الذي استطاع الاستيلاء على «كرمان»، وأرغم «أبا كاليجار» على دفع خراج له قيمته عشرون ألف دينار، إلا أن «أبا كاليجار» استرد «كرمان» بدون قتال عقب وفاة عمه «أبي

(261/14)

---

الفوارس» سنة (419هـ = 1028م). وعقب وفاة «مشرف الدولة» تولى أخوه «أبو طاهر جلال الدولة» - أمير «البصرة» - إمارة

«العراق»، لكنه لم يتمكن من دخول «بغداد»؛ حيث منعه أنصار ابن أخيه «أبي كاليبجار» من دخولها، تمهيداً لقدم «أبي كاليبجار» وسيطرته على «العراق»، ولكن ذلك لم يحدث لانشغاله بصراعه مع عمه «أبي الفوارس»، وبقيت «بغداد» بدون أمير بويهى لمدة عامين وبضعة أشهر، مما دعا رؤساء الجند إلى أن يطلبوا من الخليفة «القادر بالله» أن يرسل إلى «جلال الدولة» ليحضر إلى «بغداد» ويتسلم الإمارة؛ جمعاً للكلمة وحسماً للخلاف، فاستجاب الخليفة لهم ودخل «جلال الدولة» «بغداد» في (رمضان سنة 418هـ = سبتمبر سنة 1027م)، إلا أنه ما لبث أن دخل في صراع مع ابن أخيه «أبي كاليبجار»، الذى أراد انتزاع «العراق» من عمه «جلال الدولة»، واستمر الصراع بينهما بين النصر والهزيمة لهذا الطرف أو ذاك حتى وفاة «جلال الدولة» سنة (435هـ = 1044م). وقد أدى الصراع المستمر بين أبناء البيت البويهى إلى تطلع قوى أخرى من خارج البيت البويهى للاستيلاء على مقاليد الحكم فى دولة الخلافة العباسية، كما شغل هذا الصراع البويهيين عن توجيه أذاهم إلى الخليفة العباسى «القادر بالله»، الذى ظل واحداً وأربعين عاماً على كرسى الخلافة حتى توفى سنة (422هـ = 1031م).

(262/14)

### \*البويهيون

ينتسب البويهيون إلى «أبي شجاع بويه» الذى نشأ فى «بلاد الديلم» التى تقع جنوبى غربى «بحر قزوين» أو «بحر الخزر» بين منطقتى «طبرستان» و «الجمال». وكانت هذه البلاد معقلاً لنفوذ العلويين، فانتشر فيها التشيع. ورغم أن «أبا شجاع بويه» كان فقيراً فإنه كان يتحلى بروح المغامرة والشجاعة،

كما تشرب الروح الشيعية التي كانت سائدة في «بلاد الديلم».

وقد انضم «أبو شجاع» إلى العلويين في صراعهم مع السامانيين، ومع ذلك فلم يكن هو المؤسس الحقيقي لأسرة «بني بويه»، وإنما كان أبناؤه الثلاثة «على»، و «حسن»، و «أحمد» هم الذين قاموا بذلك، فقد التحق أبناؤه بخدمة «ماكان بن كاكى» أحد القواد البارزين المناصرين للداعية الشيعي «الحسن بن على»، الملقب بالأطروش، وأبرزوا تميّزاً في خدمته فارتقوا من مرتبة الجنود إلى رتبة القادة، ثم حدث صراع بين «ماكان» و «مرداويج بن زيار» أحد القادة الفرس في منطقة «الديلم»، وأحس أبناء «بويه» أن كفة «مرداويج» هي الراجحة في هذا الصراع، فانضموا إليه، فيما بين عامي (316 و317هـ= 928 و 929م)، وكان ذلك بداية تمكن نفوذهم في فارس والمناطق المحيطة بها. وقد ظهر «بنو بويه» - أو البويهيون - على مسرح الأحداث في أواخر عصر نفوذ الأتراك، فبدءوا منذ عام (321هـ = 933م) يؤسسون لأنفسهم مناطق نفوذ تخضع لسيطرتهم التامة، فاستولوا على «فارس»، و «شيراز» و «أصبهان»، و «الرى»، و «همدان» و «الكرج» و «كرمان»، وأغراهم ذلك على التطلع إلى مد نفوذهم إلى «العراق» موطن الخلافة العباسية. وقد ساعدهم على ذلك تضاؤل النفوذ التركي، واشتداد الصراع على منصب «أمير الأمراء» الذي ابتدعه الخليفة «الراضى بالله» سنة (324هـ = 936م)، مما أدى إلى تمزق الكلمة وضعف الجبهة التي يمكن أن تحمي دار الخلافة فلم يجد «أحمد بن بويه» أى صعوبة في دخول «بغداد» والسيطرة عليها بدون قتال في (الحادى عشر من جمادى الأولى سنة 334هـ = يناير

سنة 946م) .. وعندما دخل «أحمد بن بويه» «بغداد» في جمادى الأولى سنة (334هـ = ديسمبر سنة 945م) كان «المستكفي بالله» هو الخليفة العباسي، ولم يكن أمامه إلا أن يظهر الترحيب به، بل إنه زاد على ذلك فخلع عليه الخُلَع ولقبه «معز الدولة»، كما لُقِّب أخاه «عليا» «عماد الدولة»، وأخاه «الحسن» «ركن الدولة»، وأمر بأن تُضربَ ألقابهم وكنائهم على الدنانير والدراهم، وكان «علي بن بويه» حاكمًا لإقليم «فارس»، و «الحسن ابن بويه» حاكمًا لعدة أقاليم أهمها «الرى»، و «الجبيل»، و «أصفهان»، في حين دخل أخوهم الأصغر «أحمد» «بغداد». وقد تدهورت أحوال «الخلافة العباسية»، واندثرت معالمها من الناحية الواقعية حينما سيطر البويهيون على «بغداد»، فقد جردوا الخليفة من كل سلطاته، وعدَّوه مجرد موظف مهمته إضفاء صفة الشرعية على سلطاتهم لدى جماهير المسلمين، فحددوا له راتبه، وسلبوه حقه في تعيين الوزراء، وسمحوا له بأن يتخذ كاتبًا (سكرتيرًا) فقط يشرف على أمواله. ورغم أن البويهيين كانوا شيعة، فإنهم لم يسقطوا الخلافة العباسية السُّنِّيَّة في «بغداد»، ليحلوا محلها خلافة علوية شيعية تتفق مع مذهبهم، وسبب ذلك علمهم أن وجود خليفة من العلويين يهدد ملكهم وسلطانهم، وليس الأمر كذلك مع الخليفة السُّنِّي الذي يستطيعون هم أن يفعلوا به ما يشاءون. وقد برهن سلوك البويهيين مع الخليفة «المستكفي» على صدق ذلك، فقبل مرور شهر على دخولهم «بغداد» دخل «معز الدولة أحمد بن بويه» على الخليفة «المستكفي»، فوقف الناس حسب مراتبهم، فتقدم اثنان من الديلم - وهم قوم «معز الدولة» - فمدَّ الخليفة يده إليهما ظنا منه أنهما يريدان تقبيلها، فجدباها وطرحاه أرضًا، وجرَّاه بعمامته، ثم هجم «الديلم» على دار الخلافة ونهبوها، وسار «معز الدولة» إلى منزله، وساقوا الخليفة «المستكفي» ماشيًا إليه، ثم انتهت هذه المأساة بخلع «المستكفي» وسمل عينيه. وإذا استبعدنا خلافة «المستكفي»،

فإننا نجد أن الخلفاء الذين شهدوا عصر نفوذ البويهيين كانوا  
أربعة هم: 1 - المطيع لله «أبو القاسم الفضل بن المقتدر بن  
المعتضد» [334 - 363هـ = 945 - 974م]. 2 - الطائع لله «أبو بكر  
عبدالكريم بن المطيع» [363 - 381هـ = 974 - 991م]. 3 - القادر بالله  
«أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر» [381 - 422هـ = 991 -  
1031م]. 4 - القائم بأمر الله «أبو جعفر عبدالله بن القادر» [422 -  
467هـ = 1031 - 1075م]. أولاً: خلافة المطيع لله: بعد أن أمر «معز  
الدولة أحمد ابن بويه» بخلع «المستكفي» في (جمادى الآخرة  
سنة 334هـ = 945م)، أحضر «أبا القاسم الفضل ابن المقتدر»  
وباعه بالخلافة، ولقَّبه بالمطيع لله، وعمره - حينئذٍ - أربع  
وثلاثون سنة، وحدد له «معز الدولة» راتباً مائة دينار في اليوم.  
وقد شهدت خلافة «المطيع» أحداثاً كثيرة، أولها: نشوب الصراع  
بين البويهيين في «بغداد» بزعامة «معز الدولة» (أحمد بن  
بويه)، وبين الحمدانيين في «الموصل» بزعامة «ناصر الدولة»  
(الحسين بن عبدالله)، وقد استمر هذا الصراع طويلاً في محاولة  
كل منهما الإطاحة بالآخر، وفي (الحرم سنة 335هـ = أغسطس  
سنة 946م) تم الصلح بين «معز الدولة البويهى» وبين «ناصر  
الدولة الحمداني» على أن يدفع «ناصر الدولة» الخراج للبويهيين  
في «بغداد» كل عام. وفي سنة (336هـ = 947م) استطاع «معز  
الدولة» أن يستولى على «البصرة» بعد هروب صاحبها «أبي  
القاسم عبدالله بن أبي عبدالله البريدى» إلى القرامطة في  
«هجر». وجدير بالذكر أن «معز الدولة» كان نائباً في «بغداد»  
عن أخيه الأكبر «عماد الدولة» (على بن بويه) في «فارس»، ثم  
عن أخيه الأوسط «ركن الدولة» (الحسن بن بويه)، عقب وفاة  
«عماد الدولة». ورغم أن الخليفة العباسى كان تحت سيطرة

البويهيين فإنهم كانوا يخضعون له من الناحية الشكلية فقط.  
وقد حاول البويهيون صبغ «العراق» بمذهبهم الشيعي، واتخذ

(265/14)

«معز الدولة» في سبيل ذلك خطوات بالغة الخطورة أسهمت في إثارة عوامل الفتنة والاضطراب داخل مجتمع «العراق»؛ ففي (ربيع الآخر سنة 351 = مايو سنة 962م) أصدر «معز الدولة» أمرًا بأن يُكتب على المساجد لعن «معاوية بن أبي سفيان» وغيره من الصحابة كأبي بكر و «عمر»؛ حيث يتهمهم الشيعة بإساءة معاملتهم وغصبهم حقوقهم، ولم يستطع الخليفة العباسي منع ذلك، وفي العاشر من (الحرم سنة 352هـ = يناير سنة 963م) أصدر «معز الدولة» أمرًا بتوقف الناس عن البيع والشراء في ذلك اليوم، وإظهار البكاء والعويل، وأمر النساء أن يخرجن حاسرات الرؤوس قد شققن ثيابهن وهن يلطمن الوجوه على «الحسين ابن علي بن أبي طالب» في ذكرى استشهاده بكربلاء، وكان هذا أول يوم يحدث فيه ذلك ببغداد، ولم يستطع الخليفة وأهل السنة أن يمنعوا ذلك لكثرة الشيعة ومناصرة السلطان «معز الدولة» لهم. وقد أحدثت هذه المظاهر الشاذة آثارها السيئة بين الناس، ففي العاشر من (الحرم سنة 353هـ = يناير سنة 964م) - على سبيل المثال - تم إغلاق الأسواق في «بغداد»، وفعل الناس ما تقدم ذكره، فثارت فتنة عظيمة بين الشيعة والسنة، أُصيب فيها كثيرون ونُهبت الأموال، وجدير بالذكر أن هذه الممارسات التي شجعها البويهيون ماتزال آثارها موجودة حتى الآن. ومن أهم ما سجله «معز الدولة» من انتصارات: تخلص «عُمان» في (ذي الحجة سنة 355هـ = نوفمبر سنة 966م) من يد القرامطة الذين كانوا قد استولوا عليها وعاثوا بها فسادًا، فأصبحت بذلك ضمن

مملكة البويهيين. ظل «معز الدولة» اثنين وعشرين عامًا يدير الأمور في «بغداد»، حتى تُوفِّي في الثالث عشر من (ربيع الآخر سنة 356هـ = مارس سنة 967م)، فتولى ابنه «بختيار» إمارة «العراق» بعهد منه، ولُقب «عز الدولة». وقد قدم «عز الدولة» صورة صارخة لانصرافه عن المهام الكبرى واهتمامه بملذاته الشخصية، فقد أنفق وقته في اللهو والتسلية وعشرة النساء

(266/14)

والاستماع إلى الغناء، واستولى على أموال كبار رجال الدولة وعلى رأسهم الخليفة في سبيل ذلك. ففي سنة (361هـ = 972م) هاجم الروم ثغور «الجزيرة» ومن بينها «الرها» و «نصيبين»، فأحرقوا البلاد وخربوها وغنموا وسلبوا ما استطاعوا ولم يجدوا من يردعهم بعد وفاة «سيف الدولة الحمداني» سنة (356هـ = 967م)، فسار جماعة من أهل «الجزيرة» إلى «بغداد» لاستنصار المسلمين ضد الروم، فاستعظم الناس ذلك، وتوجهوا إلى «عز الدولة بختيار»، وأنكروا عليه انشغاله باللهو والصيد عن جهاد الروم الذين انتهكوا حرمة دار الإسلام، فوعدهم بالإعداد لغزوهم، واتصل بالخليفة «المطيع لله» يطلب منه المال ليجهز به المسلمين للغزو، ولكن «المطيع لله» أجابه بقوله: «إن العزاة والنفقة عليها، وغيرها من مصالح المسلمين تلزمني إذا كانت الدنيا في يدي، وتُجبي إلى الأموال، وأما إذا كانت حالي هذه فلا يلزمني شيء من ذلك، وإنما يلزم من البلاد في يده، وليس لي إلا الخطبة، فإن شئتم أن أعتزل فعلت»، فهدد «بختيار» الخليفة «المطيع» واضطره إلى دفع أربعمئة ألف درهم، فلما قبضها «عز الدولة» صرفها في مصالحه وملذاته! ونتيجة لسوء طبع بختيار واضمحلال شخصيته، بدأت أسباب الشقاق والفتنة تظهر

بين البويهيين، فقد حاول ابن عمه «ركن الدولة» والملقب فيما بعد «عضد الدولة» انتزاع «العراق» من «بختيار» ولكن والده «ركن الدولة» اعترض على ذلك، فاضطر «عضد الدولة» إلى تأجيل ذلك إلى ما بعد وفاة والده. ولعل من أخطر الأحداث التي شهدتها خلافة «المطيع لله» سيطرة الفاطميين على «مصر» سنة (358هـ = 969م) وكانت «مصر» حينئذٍ تحت حكم الإخشيديين الذين كانوا يخضعون للخليفة العباسي من الناحية الشكلية، فلما دخلها القائد الفاطمي «جوهر الصقلي» في (شعبان سنة 358هـ = يونيو سنة 969م)، شرع في بناء مدينة «القاهرة»؛ لتصبح عاصمة للفاطميين، كما بنى الجامع الأزهر سنة (361هـ = 972م)،

(267/14)

---

وظل حاكمًا لمصر نيابة عن مولاه «المعز لدين الله» (7) حتى سنة (362هـ = 973م)، حين قدم «المعز» إلى «مصر» في رمضان من هذه السنة، فقام بالأمر وأصبحت «مصر» منذ ذلك الوقت مقرا للخلافة الفاطمية الشيعية حتى سنة (567هـ = 1172م). ظل «المطيع لله» في الخلافة ما يقرب من «ثلاثين عامًا»، حتى أُصيب بالفالج - وهو الشلل النصفى - في أواخر حياته فتعذرت حركته وثقل لسانه، مما دعا «سُبُكْتِكِينَ»، حاجب «عز الدولة بختيار» إلى أن يطلب منه خلع نفسه وتسليم الخلافة إلى ابنه «عبدالكريم»، فتم ذلك في (13 من ذى القعدة سنة 363هـ = يوليو سنة 974م)، ولقب «عبدالكريم» بالطائع لله. ثانيًا: خلافة الطائع لله (363 - 381هـ = 974 - 991م). تولى «الطائع لله» الخلافة في (ذى القعدة سنة 363هـ = يوليو سنة 974م) وعمره ثلاث وأربعون سنة، وقد تُوِّفَى والده «المطيع لله» بعد ذلك بفترة قصيرة، في (سنة الحرم سنة 364هـ = سبتمبر 974م). في بداية خلافة

«الطائع لله» حدثت الفتنة بين «عضد الدولة بن ركن الدولة»، وابن عمه «بختيار بن معز الدولة»، فقد شجع «عضد الدولة» جند «بختيار» على الثورة عليه ووعدهم بالإحسان إليهم والنظر في أمورهم، فثار عليه الجند وتم القبض على «بختيار» وحبسه في (جمادى الآخرة سنة 364هـ = فبراير سنة 975م)، وأصبحت «بغداد» و «العراق» تحت سلطان «عضد الدولة» .. وقد عز على «ركن الدولة» أمير أمراء البيت البويهى ووالد «عضد الدولة» أن يتصرف ابنه «عضد الدولة» مع ابن أخيه «بختيار» بهذه الصورة، فكتب إلى أنصار «بختيار» يساندهم ويأمرهم بالثبات والصبر ويعرفهم أنه عازم على المسير إلى «العراق» لإخراج «عضد الدولة» وإعادة «بختيار»، فانصرف أنصار «عضد الدولة» عنه واضطر إلى الإذعان لإرادة أبيه، فأخرج «بختيار» من سجنه ورد إليه ما سلبه من سلطانه، وعاد إلى «فارس» في (شوال سنة 364هـ = يونيو سنة 975م)، وكان الخليفة «الطائع لله» مسلوب

(268/14)

الإرادة خلال هذه الفتنة، لاحول له ولا قوة. وقد قسم «ركن الدولة» ملكه بين أولاده في (جمادى الأولى سنة 365هـ = يناير سنة 976م) فجعل لابنه «عضد الدولة» ملك البلاد من بعده، ولولده «فخر الدولة» (أبي الحسن على) «همدان» وأعمال «الجبل»، ولولده «مؤيد الدولة» (أبي منصور بويه) «أصبهان» وأعمالها، وجعلهما تحت رئاسة أخيهما «عضد الدولة»، وأوصاهم بالاتفاق وترك التنازع. وفي (الحرم سنة 366هـ = أغسطس سنة 976م) تُوفي «ركن الدولة» فأصبح ابنه «عضد الدولة» زعيم البويهيين بلا منازع. وفي العام نفسه حشد «عضد الدولة» جنوده لغزو «العراق»، وكان «بختيار» ووزيره «أبو

طاهر محمد بن محمد بن بقية» يعلمان نيات «عضد الدولة» فحاولا استمالة كبار الأمراء من حكام الأقاليم المختلفة، مثل «فخر الدولة بن ركن الدولة»، و «أبي تغلب بن حمدان» وغيرهما، وحدثت بعض المعارك بين جيوش «عضد الدولة» وجيوش «بختيار» سنة (366هـ = 976م) انتهت بهزيمة «بختيار» وفراره من «بغداد» إلى «الموصل» حيث تحالف مع واليها «أبي تغلب بن حمدان» ضد «عضد الدولة»، فسار إليهما «عضد الدولة» وهزمهما بالقرب من «تكريت» في (شوال سنة 367هـ = مايو سنة 978م) وأسر «بختيار» وقتله، وضم مملكة الحمدانيين في «الموصل» و «الجزيرة» إلى أملاكه، واتخذ «العراق» مقرا لحكمه. اهتم «عضد الدولة» بدعم سلطانه وتوسيع أملاكه؛ ففي سنة (368هـ = 978م) فتح «ميافارقين» و «آمد» و «ديار بكر»، و «ديار مضر» منهيًا بذلك نفوذ «أبي تغلب ابن حمدان» في بلاد «الجزيرة». وفي عام (369هـ = 979م) استولى على الأقاليم الخاضعة لأخيه «فخر الدولة» بسبب وقوفه إلى جانب «بختيار»، فاستولى على «همدان» و «الري» وما بينهما من البلاد، وعين عليها أخاه «مؤيد الدولة» نائبًا عنه في حكمها، وفي سنة (371هـ = 981م) ضم إلى نفوذه بلاد «جرجان» و «طبرستان» بعد أن أجلى عنها صاحبها «قابوس ابن أبي طاهر» و «شمكير» (أحد أمراء آل

(269/14)

زيار) (8)، فتعاضم بذلك نفوذ «عضد الدولة» وذاع صيته وتمكنت هيئته، وكان أول من خوطب بشاهنشاه في الإسلام، وأول من خُطب له على منابر «بغداد» بعد الخلفاء. وقد كان لعضد الدولة إنجازات حضارية بالإضافة إلى أمجاده الحربية، فبعد دخوله «بغداد» بدأ في عمارتها، كما أمر بإخراج أموال الصدقات

وتسليمها للقضاة وأعيان الناس، لإعانة من يستحق، ويدفع  
أموال للعاطلين الذين يتعذر عليهم الحصول على العمل، بما  
يكفي احتياجاتهم، ثم يردونها بعد ذلك إذا عملوا. كما اهتم  
«عضد الدولة» بالعلم والعلماء، وأغدق عليهم العطاء وأحاطهم  
بمظاهر التكريم، وقد كان مجلسه منتدى للعلماء، تدور فيه  
المناقشات الدقيقة في فروع العلم المختلفة، وكان يشترك مع  
العلماء في هذه المناقشات ويعارضهم في المسائل، ومن أبرز  
هؤلاء العلماء «أبو علي الفارسي» الذي صنّف له كتاب  
«الإيضاح» و «التكملة» في النحو، وكان «عضد الدولة» يقول:  
«أنا غلام أبي علي في النحو»، ومنهم أيضاً «أبو إسحاق  
الصابي» الذي صنّف لعضد الدولة كتاب «التاجي في أخبار بني  
بويه». وكان «عضد الدولة» يحب الشعر ويطرب له، ويقرضه  
أحياناً، ويغمر الشعراء بفيض كرمه وجزيل عطائه، فقصدته عدد  
من فحول الشعراء في عصره، وكتبوا فيه أروع قصائد المديح،  
وفي مقدمتهم «أبو الطيب المتنبي» سنة (354هـ = 965م)، و «أبو  
الحسن محمد بن عبدالله السّلامي أبرز شعراء «العراق»، وكان  
«عضد الدولة» يقول: «إذا رأيت السّلامي في مجلسي ظننت أن  
عطارد قد نزل من الفلك إلى ووقف بين يدي». وقد اقتدى  
«مؤيد الدولة» و «فخر الدولة» بأخيها «عضد الدولة» في  
تشجيع العلم وإكرام أهله، فعين «مؤيد الدولة» «الصاحب بن  
عباد» وزيراً له سنة (366هـ = 976م)، وكان من أعظم رعاة العلم  
والأدب، وعقب وفاة «مؤيد الدولة» واستيلاء أخيه «فخر الدولة»  
على مملكته أقر «الصاحب بن عباد» على وزارته، وعين مفكر

المعتزلة المشهور «عبدالجبار بن أحمد» قاضى قضاة للرى سنة (367هـ = 978م) لصلته بالصاحب بن عباد، ثم عزله «فخر الدولة» سنة (385هـ = 995م) حينما تُوفّي «الصاحب بن عباد». وتُوفّي «عضد الدولة» فى (شوال سنة 372هـ = مارس سنة 983م)، وعمره ثمانٍ وأربعون سنة (9)، وقد تركت وفاته فراغاً هائلاً تعذر على خلفائه أن يملئوه. وكان أخطر ما ترتب على وفاة «عضد الدولة»، الصراع الذى نشب بين أولاده الخمسة على السلطة، وهم: «أبو كاليجار المرزبان» (صمصام الدولة)، و «أبو الحسين أحمد»، و «أبو طاهر فيروز شاه»، و «أبو الفوارس شيرزىل» الملقب «شرف الدولة»، و «أبو نصر فيروز» الملقب «بهاء الدولة». وقد استقر الأمراء والقادة على اختيار «أبى كاليجار المرزبان» ليكون خلفاً لأبيه «عضد الدولة»، ولقبوه «صمصام الدولة» وأقر الخليفة «الطائع لله» هذا الاختيار وخلع على «صمصام الدولة» سبع خلع، ولقبه «شمس الملة»، فلم يكن للخليفة دور سوى إقرار ما يتفق عليه القادة والأمراء. وقد واجه «صمصام الدولة» انشقاقاً من أخيه «شرف الدولة» الذى استطاع الاستقلال ببلاد «فارس» والاستيلاء على «البصرة»، وتعيين أخيه «أبى الحسين أحمد» نائباً عنه فى حكمها، كما تمكن من هزيمة الجيش الذى أرسله إليه «صمصام الدولة» ليسترد منه بلاد «فارس». وقد استطاع «صمصام الدولة» استمالة عمه «فخرالدولة» إلى صفه فى هذا الصراع، ولكن جنده فى «بغداد» ثاروا عليه وأعلنوا بيعتهم لشرف الدولة، ورغم أن «صمصام الدولة» قضى على هذه الثورة فإنه لم يستطع وضع حد لزيادة قوة أخيه «شرف الدولة». ففى سنة (375هـ = 985م) استولى «شرف الدولة» على «الأهواز» وقبض على أخيه «أبى طاهر فيروز شاه» المناصر لصمصام الدولة، وفى (رمضان سنة 376هـ = يناير سنة 987م) استولى على «العراق» ودخل «بغداد»

وقبض على أخيه «صمصام الدولة»، فذهب إليه الخليفة وهناه بالسلطنة. لم يستمر «شرف الدولة» طويلاً في إمارته على

(271/14)

«العراق»، فقد تُوفّي في غرة (جمادى الأولى سنة 379هـ= أغسطس سنة 989م)، ولم يجد حرجاً وهو في مرض موته أن يأمر بِسَمَلِ عيني أخيه «صمصام الدولة» وهو في سجنه. وخلف «شرف الدولة» أخوه «أبو نصر فيروز»، الذي لقبه الخليفة «بهاء الدولة وضيء الملة»، ولكن العلاقة بين «بهاء الدولة أبي نصر فيروز» وبين الخليفة «الطائع» وصلت بعد قليل إلى الحد الذي جعل «بهاء الدولة» يقوم بعزل الخليفة؛ فقد قلت الأموال عند «بهاء الدولة»، وثار جنده عليه، فاقترح عليه أحد خواصه وهو «أبو الحسن بن المعلم»، أن يقبض على الخليفة «الطائع» ويستولى على أمواله، فدخل «بهاء الدولة» على الخليفة ومعه جمع كثير، وتقدم أحد رجاله كأنه يريد أن يقبل يد الخليفة، فجذبه فأنزله عن سريره والخليفة يقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، ويستغيث دون أن يلتفت إليه أحد، وتم الاستيلاء على أمواله، وحُمل الخليفة إلى دار «بهاء الدولة»؛ حيث أرغم على خلع نفسه في (التاسع عشر من شعبان سنة 381هـ= أكتوبر سنة 991م) بعد أن استمر في الخلافة ما يقرب من ثمانية عشر عاماً، كان خلالها مسلوب الإرادة. ثالثاً: خلافة القادر بالله (381 - 422هـ= 991 - 1031م). هو «أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر»، اختاره «بهاء الدولة» بعد خلع «الطائع لله» لتوِّى الخلافة، وكان غائباً عن «بغداد»، فلما وصله الخبر حضر إليها وبايعه «بهاء الدولة» والناس في (رمضان سنة 381هـ= نوفمبر سنة 991م)، وعمره خمسة وأربعون عاماً. وقد دامت خلافة

«القادر بالله» إحدى وأربعين سنة وحفلة بالكثير من الأحداث والتطورات، وأهمها: أ - ازدياد التفكك في البيت البويهى: فقد نشب الصراع بين «بهاء الدولة»، وأخيه «صمصام الدولة» ولم يكن في «بني بويه» أظلم من «بهاء الدولة» ولا أقبح سيرة منه، ففي سنة (383هـ = 993م) قام بمحاولة للاستيلاء على المنطقة الخاضعة لإمارة أخيه «صمصام الدولة» في بلاد «فارس»

(272/14)

و «أرجان»، فانتهت هذه المحاولة بعكس ما كان يهدف إليه؛ حيث تمكن «صمصام الدولة» من الاستيلاء على «خوزستان» الخاضعة لبهاء الدولة، وبدد شمل الجيش الذى أرسله «بهاء الدولة». وفي سنة (384هـ = 994م) استطاع «بهاء الدولة» أن يهزم «صمصام الدولة»، وأن يسترد منه بعض ما خسره قبل ذلك. وقد تجدد الصراع بينهما مرات عديدة، ووصل في إحدى مراحلها إلى استيلاء «صمصام الدولة» على «البصرة» في «العراق» سنة (386هـ = 996م)، ولم يتوقف هذا الصراع بين «بهاء الدولة» و «صمصام الدولة» إلا بمقتل «صمصام الدولة» على يد بعض أبناء «عز الدولة بختيار»؛ انتقامًا لمقتل أبيهم «بختيار» على يد «عضد الدولة»، والد «صمصام الدولة»، وذلك في (ذى الحجة سنة 388هـ = 998م). وعقب مقتل «صمصام الدولة» أراد بعض أبناء «بختيار» الاستيلاء على «فارس»، فنشب الصراع بينهم وبين «بهاء الدولة» وانتهى بمرورهم ومقتل أحدهم واسمه «أبو نصر» على يد أنصار «بهاء الدولة» سنة (390هـ = 1000م). وقد تُوِّق «بهاء الدولة» (أبو نصر فيروز بن عضد الدولة) في (جمادى الآخرة سنة 403هـ = ديسمبر سنة 1012م)، فخلفه على إمارة «العراق» ابنه «أبو شجاع فخر الملك»، الذى لقبه الخليفة

«القادر بالله» «سلطان الدولة»، فولى أخاه «جلال الدولة» «أبا  
ظاهر» إمارة «البصرة» وأخاه «قوام الدولة أبا الفوارس»  
«كرمان». ونشب صراع مرير بين أبناء «بهاء الدولة»: «سلطان  
الدولة» و «جلال الدولة»، و «قوام الدولة»، و «مشرف الدولة»  
الذى استطاع الاستيلاء على «العراق» سنة (411هـ = 1020م)  
وبعد وفاة «سلطان الدولة» في (شوال سنة 415هـ = ديسمبر  
سنة 1024م) خلفه ابنه «أبو كاليبجار» على إمارة «فارس»  
و «كرمان»، ودخل في صراع مع عمه «أبي الفوارس بن بهاء  
الدولة» الذى استطاع الاستيلاء على «كرمان»، وأرغم «أبا  
كاليبجار» على دفع خراج له قيمته عشرون ألف دينار، إلا أن  
«أبا كاليبجار» استرد «كرمان» بدون قتال عقب وفاة عمه «أبي

(273/14)

الفوارس» سنة (419هـ = 1028م). وعقب وفاة «مشرف الدولة»  
تولى أخوه «أبو ظاهر جلال الدولة» - أمير «البصرة» - إمارة  
«العراق»، لكنه لم يتمكن من دخول «بغداد»؛ حيث منعه أنصار  
ابن أخيه «أبي كاليبجار» من دخولها، تمهيداً لقدم «أبي  
كاليبجار» وسيطرته على «العراق»، ولكن ذلك لم يحدث لانشغاله  
بصراعه مع عمه «أبي الفوارس»، وبقيت «بغداد» بدون أمير  
بويهي لمدة عامين وبضعة أشهر، مما دعا رؤساء الجند إلى أن  
يطلبوا من الخليفة «القادر بالله» أن يرسل إلى «جلال الدولة»  
ليحضر إلى «بغداد» ويتسلم الإمارة؛ جمعاً للكلمة وحسماً  
للخلاف، فاستجاب الخليفة لهم ودخل «جلال الدولة» «بغداد» في  
(رمضان سنة 418هـ = سبتمبر سنة 1027م)، إلا أنه ما لبث أن  
دخل في صراع مع ابن أخيه «أبي كاليبجار»، الذى أراد انتزاع  
«العراق» من عمه «جلال الدولة»، واستمر الصراع بينهما بين

النصر والهزيمة لهذا الطرف أو ذاك حتى وفاة «جلال الدولة» سنة (435هـ = 1044م). وقد أدى الصراع المستمر بين أبناء البيت البويهى إلى تطلع قوى أخرى من خارج البيت البويهى للاستيلاء على مقاليد الحكم فى دولة الخلافة العباسية، كما شغل هذا الصراع البويهيين عن توجيه أذاهم إلى الخليفة العباسى «القادر بالله»، الذى ظل واحدًا وأربعين عامًا على كرسى الخلافة حتى تُوفى سنة (422هـ = 1031م).

(274/14)

### \*الصفارية (دولة)

أسسها «يعقوب بن الليث الصفار» (6) فى بلاد «فارس» و «خراسان» على أنقاض «الدولة الطاهرية»، فى عهد «المعتز بالله» (252 - 255هـ) بعد أن أظهر كفاءة ملحوظة فى محاربة الخارجين على الخلافة والتخلص من الطاهريين بإذن من الخليفة العباسى «المعتز بالله». واستطاع «يعقوب بن الليث» أن يضم إلى «الدولة الصفارية» كثيرًا من الأماكن التى استطاع السيطرة عليها فى بلاد «فارس» و «خراسان» وأعلن ولاء دولته - فى البداية - للخلافة العباسية. وعندما تولى «المعتز على الله» الخلافة، أصر أخوه «الموفق» على أن يكون ولاء «الدولة الصفارية» للخلافة ولاءً تاماً لا سورياً، إلا أن «يعقوب بن الليث» رفض ذلك، وتدهورت العلاقة بين الطرفين، وهدد «يعقوب» بدخول عاصمة الخلافة وبسط سلطانه عليها، مما أدى إلى حدوث صدام مسلح بين «الدولة الصفارية»، والخلافة فى منطقة «واسط» بالعراق، وكان لظهور الخليفة العباسى «المعتز على رأس جيش الخلافة أثر كبير فى هزيمة «يعقوب بن الليث»، ورغم هزيمته فقد استمر فى تحدى الخلافة ورفض التفاهم معها حتى

تُوفى في «جنديسابور» سنة (265هـ = 879م) ثم تولى رئاسة «الدولة الصفارية» بعد وفاة «يعقوب بن الليث» أخوه «عمرو بن الليث»، الذى كان حريصاً على كسب ود الخلافة حتى يؤكد سلطانه الروحي فى بلاده، فاعترف به الخليفة «المعتمد» والياً على «خراسان» و «السند» و «سجستان» و «كرمان» و «فارس» و «أصبهان»، وعندما تولى «المعتضد» الخلافة بعد وفاة عمه «المعتمد» أقر «عَمْرًا» على ما فى يده. وقد نشط «عمرو» فى توسيع حدود دولته وتطلع إلى غزو بلاد «ما وراء النهر»، حيث «الدولة السامانية»، وعبر نهر «جیحون» ولكن السامانيين تصدوا له بقيادة زعيمهم «إسماعيل بن أحمد الساماني» وهزموه، وأخذوه أسيراً إلى الخليفة «المعتضد» الذى سجنه حتى مات فى سجنه سنة (287هـ = 900م)، وقد تولى زعامة

(275/14)

الصفاريين بعد هزيمة «عمرو» وأسرته حفيده «طاهر بن محمد بن عمرو»، ولكن أحوال الصفاريين تدهورت بشدة خلال هذه الفترة نتيجة الهجمات المتلاحقة التى شنها عليهم السامانيون، وسقطت دولتهم سنة (289هـ = 902م). وقد لاحظ المؤرخون أن قادة هذه الدولة اتبعوا فى حياتهم مبدأ العدالة والمساواة والأخوة، والبعد عن مظاهر الترف، فكانت حياة رئيس الدولة لا تكاد تختلف فى مظهرها عن حياة أحد جنوده، وكان العطاء يوزع بالإنصاف والعدل، وقد ازدهر اقتصاد الدولة نتيجة البعد عن إنفاق الأموال فى غير وجوهها، فيروى أن «يعقوب ابن الليث» ترك فى خزانة الدولة عند وفاته ثمانين مليون دينار وخمسين مليون درهم، ولكن يؤخذ عليه اعتداده بقوته وطاعة جنده فتمرد على الخلافة

وحاول الاستقلال عنها؛ مما زعزع ثقتها به وكان له آثاره  
السلبية في تماسك الدولة واستمرارها.

(276/14)

### \* السامانية (دولة)

ظهر السامانيون على المسرح السياسي لدولة الخلافة العباسية  
في عصر الخليفة «المأمون» (198 - 218هـ = 813 - 833م)، وسموا  
بذلك نسبة إلى قرية «سامان» القريبة من «سمرقند»؛ حيث  
كانوا يتوارثون إمارتها، ويسمى أميرهم «سامان خداه»، أى  
كبير قرية «سامان» وصاحبها. وقد اعتنق أحد السامانيين  
الإسلام أثناء خلافة الأمويين، وسمى ابنه «أسدًا»، كاسم حاكم  
«خراسان» في عهد «هشام بن عبد الملك»، واسمه «أسد بن  
عبد الله القسرى». وطال العمر بأسد الساماني حتى أدرك  
«المأمون»، فذهب إليه في «مرو»، قبل انتقاله إلى «بغداد»  
(في الفترة من سنة 193هـ = 809م إلى سنة 202هـ = 817م)،  
ومعه أبنائه الأربعة: «نوح» و «أحمد»، و «إلياس»، و «يحيى»،  
فاحتفى بهم «المأمون» وألحقهم بخدمته. وبعد انتقال  
«المأمون» إلى «بغداد» أمر بإسناد عمل إلى كل واحد من  
أبناء «أسد الساماني»، فتم إسناد حكم «سمرقند» إلى  
«نوح»، وحكم «فرغانة» إلى «أحمد»، وحكم «الشاش» إلى  
«يحيى»، وحكم «هراة» إلى «إلياس»، فكان هذا مقدمة لتمكن  
نفوذ السامانيين في هذه المناطق المعروفة باسم «بلاد ما وراء  
النهر» (نهر جيحون) .. وقد برز «أحمد بن أسد» حاكم «فرغانة»  
على إخوته، وكان له سبعة أبناء هم «نصر» و «يحيى»  
و «يعقوب» و «إسماعيل» و «إسحاق» و «أسد» و «حميد»، وعند  
وفاته سنة (250هـ = 864م) حل محله ابنه الأكبر «نصر»، ودان له

باقي إخوته بالطاعة والولاء. وفي سنة (261هـ = 875م) حدث التحول الحاسم في تاريخ السامانيين، حينما أسند الخليفة «المعتمد على الله» ولاية جميع بلاد «ما وراء النهر» إلى «نصر بن أحمد بن أسد الساماني»، فأقام «نصر» في «سمرقند»، وعين أخاه «إسماعيل» نائباً عنه ببخارى وعهد إلى كل أخ من إخوته الباقين بحكم إحدى الولايات، مما يمكن معه اعتبار عام (261هـ = 875م) بداية تكوّن «الدولة السامانية». وعقب وفاة «نصر بن أحمد» في «سمرقند» عام (279هـ = 892م) ضم أخوه

(277/14)

---

«إسماعيل» «سمرقند» إلى ملكه، وأصبح هو الحاكم الأعلى لكل بلاد «ما وراء النهر»؛ لذلك يرى بعض المؤرخين أن «إسماعيل بن أحمد بن أسد الساماني» هو المؤسس الحقيقي للدولة السامانية؛ حيث خضع له سائر الأمراء السامانيين، ووسع حدود الدولة، فضم لها «خراسان» ومعظم البلاد التي كانت خاضعة لنفوذ «الدولة الصفارية»، وبلغت «الدولة السامانية» قمة مجدها في عهده (من 279 - 295هـ = 892 - 908م) ثم في عهد حفيده «نصر بن أحمد بن إسماعيل» (301 - 331هـ = 913 - 943م) وبدأت «الدولة السامانية» تتدهور منذ عهد «نوح بن نصر» (331 - 343هـ = 943 - 954م)، حتى سقطت في يد الغزنويين سنة (389هـ = 999م) .. وقد كانت «الدولة السامانية» ملتزمة بمذهب أهل السنة، وكانت علاقتها بالخلافة العباسية علاقة احترام وإجلال؛ حيث كان أمراؤها يعدون أنفسهم نواباً عن الخليفة. وقد ازدهرت الحياة العلمية في عصر السامانيين، وكانت «بخارى»، و «سمرقند» تنافسان «بغداد» في مكانتها العلمية والأدبية، بسبب تشجيع الأمراء السامانيين للعلم وحبهم للعلماء،

فقد سمح الأمير الساماني «أبو القاسم نوح بن منصور» (نوح الثاني) لابن سينا باستخدام مكتبة قصره، كما قام الطبيب والفيلسوف المشهور «أبو بكر الرازي» (251 - 313هـ = 865 - 925م) بإهداء كتابه المعروف في الطب «المنصوري» إلى الأمير الساماني «أبي صالح منصور بن إسحاق» أمير «سجستان». وقد شهد الأدب الفارسي أيضاً عصره الذهبي خلال حكم السامانيين، وعاش الشاعر الفارسي المعروف «الفردوسي» شطراً من حياته في عصر «الدولة السامانية».

(278/14)

#### \*الحمدانية (دولة)

ينتمي الحمدانيون إلى «حمدان بن حمدون بن الحارث» من قبيلة «تغلب»، وقد ظهر نفوذ «حمدان» في شمال «العراق» سنة (254هـ) أثناء خلافة «المعتز بالله»، وتعاون مع خوارج الجزيرة في شمال «العراق»، واستطاع أن يسيطر على بعض المواقع الحصينة هناك، وأهمها «قلعة ماردين»، ولكن الخليفة «المعتضد بالله» استطاع استردادها، وقبض على «حمدان» وسجنه. تعهد «حسين بن حمدان» بالطاعة والولاء للخليفة «المعتضد» وساعده في حربه ضد الخوارج حتى هزمهم، فقربه الخليفة وعفا عن والده «حمدان بن حمدون». وفي خلافة «المكتفي بالله» (289 - 295هـ = 902 - 908م) تعاظمت مكانة «حسين بن حمدان» وقام بدور بارز في الحرب ضد القرامطة وفي الحملة التي جهزها العباسيون لاسترداد «مصر» من يد الطولونيين في سنة (292هـ = 905م). وقد شارك «حسين بن حمدان» في المؤامرة الفاشلة التي دبرها أنصار «ابن المعتز» لخلع «المقتدر»، وهرب حتى عفا عنه «المقتدر» وأسند إليه ولاية بعض البلاد وأهمها «ديار

ربيعة» بالجزيرة سنة (298هـ = 911م)، إلا أنه حدث بينه وبين «علي بن عيسى» وزير «المقتدر» نزاع انتهى بالقبض عليه، وقتله في سجنه سنة (306هـ = 918م) .. ورغم أن «حسين بن حمدان» كان من أعظم الأمراء بأساً وشجاعة، وكان أول من ظهر أمره من ملوك «بني حمدان» فإن أخاه «أبا الهيجاء عبدالله بن حمدان» كان أعمق تأثيراً وأوسع نفوذاً في تاريخ الأسرة الحمدانية، وقد ولاه الخليفة «المكتفي» إمارة «الموصل» وتوابعها سنة (293هـ = 906م)، ويعد «أبو الهيجاء عبدالله بن حمدان» المؤسس الحقيقي لمملكة الحمدانيين في «الموصل»، التي ظل حاكمًا لها إلى أن قتل سنة (317هـ = 929م) عقب اشتراكه في المؤامرة الفاشلة لخلع الخليفة «المقتدر»، وقد خلفه ابنه «حسن» الملقب بناصر الدولة، واستطاع أن يمد سلطانه على أقاليم الجزيرة الثلاثة: «ديار ربيعة»، و «ديار مضر» و «ديار

(279/14)

بكر»، بإذن من الخليفة «الرازي»، حتى أقعدته الشيخوخة، فخلفه على الحكم ابنه «فضل الله أبو تغلب الغضنفر» سنة (353هـ = 964م) .. وقد دخل «ناصر الدولة» وابنه «أبو تغلب الغضنفر» في صراع طويل مع البويهيين، أصحاب السلطة في «العراق» منذ سنة (334هـ = 945م)، وانتهى هذا الصراع بهزيمة «أبي تغلب الغضنفر» أمام «عضد الدولة البويهى» سنة (368هـ = 979م)، وانتهت بذلك مملكة الحمدانيين في «الموصل» و «الجزيرة». أما «الدولة الحمدانية» في «حلب»، فقد أسسها «علي بن أبي الهيجاء عبدالله بن حمدان»، الملقب بسيف الدولة؛ حيث استطاع بمعاونة أخيه الأكبر «ناصر الدولة» انتزاع «حلب» من الإخشيديين سنة (333هـ = 944م)، ثم استطاع بعد ذلك أن

يسيطر سلطانه على «حمص» و «قنسرين» و «العواصم» وبعض بلاد «الجزيرة» سنة (336هـ = 947م) .. وقد قام «سيف الدولة الحمداني» بمهمة جليلة أثناء حكمه الذي استمر حتى سنة (356هـ = 967م)، وهي حماية حدود دولة الخلافة من غارات الروم (البيزنطيين) المتواصلة، بعد أن ضعفت الخلافة المركزية عن القيام بهذه المهمة المقدسة. وكان «سيف الدولة الحمداني» أديبًا شاعرًا، فجمع حوله العلماء والأدباء، مثل «أبي نصر الفارابي»، و «ابن خالويه»، و «أبي الطيب المتنبي»، و «أبي فراس الحمداني» و «ابن نباتة» و «السري الرفاء»، وغيرهم. وتوفي «سيف الدولة» سنة (356هـ = 967م)، وخلفه في الحكم ابنه «أبو المعالي شريف» المعروف بسعد الدولة، وضعفت في عهده سلطة الحمدانيين في «الشام»؛ لكثرة الضغوط التي تعرض لها من البيزنطيين والبويهيين في «العراق»، والفاطميين في «مصر» بغرض الاستيلاء على «الشام». وتوفي «سعد الدولة» سنة (381هـ = 991م)، وتولى بعده ابنه «أبو الفضائل سعيد الدولة»، الذي تعرض لضغوط الفاطميين المتزايدة لضم «الشام» إلى «مصر»، فتحالف مع البيزنطيين لصد هجمات الفاطميين عليه، ثم انتهت إمارته بمقتله سنة (392هـ = 1002م) على يد وزيره

(280/14)

---

«لؤلؤ الحاجب»، وانتهت بذلك «الدولة الحمدانية» في «الشام» الذي أصبح خاضعًا لسلطان الفاطميين. وقد كان الحمدانيون يميلون إلى التشيع، وكانت علاقتهم بالخلافة العباسية تتأرجح بين الرضا، والسخط، والتوجس.

(281/14)

## \*السلاجقة (دولة)

السلاجقة أسرة تركية كبيرة، كانت تقيم في بلاد «ما وراء النهر»، وتنسب إلى زعيمها «سلجوق بن ثقاق»، الذي اشتهر بكفاءته الحربية، وكثرة أتباعه. وقد أسلم «سلجوق» وأتباعه، وخلف من الأولاد «أرسلان» و «ميكائيل» و «موسى»، وكان أبرزهم «ميكائيل»، الذي أنجب «طغرل بك» (محمد) و «جغرى بك» (داود)، اللذين قام عليهما مجد «السلاجقة». هاجر السلاجقة بزعامة «طغرل بك» وأخيه «جغرى» في الربع الأول من القرن الخامس الهجرى إلى «خراسان» الخاضعة لنفوذ الغزنويين، وبعد سلسلة من الصراع بين الغزنويين و «السلاجقة»، استطاع «السلاجقة» السيطرة على «خراسان» بعد هزيمة الغزنويين بقيادة السلطان «مسعود بن محمود بن سبكتكين» سنة (431هـ = 1040م) أمام «طغرل بك» وأخيه «جغرى». وقد ساعد «السلاجقة» على توطيد سلطتهم انتمائهم إلى المذهب السنى، وإعلانهم الولاء والتبعية للخليفة العباسى «القائم بأمر الله»، الذى عين «طغرل بك» نائباً عنه في «خراسان» وبلاد «ما وراء النهر» وفي كل ما يتم فتحه من البلاد. وقد استطاع «السلاجقة» توسيع حدود مملكتهم بسرعة هائلة، فاستولى زعيمهم «طغرل بك» على «جرجان» و «طبرستان» سنة (433هـ)، وعلى «خوارزم» و «الرى» و «همدان» سنة (434هـ = 1043م) وعلى «أصبهان» سنة (443هـ = 1051م)، وعلى أذربيجان» سنة (446هـ = 1054م)، وبدأ يتطلع للسيطرة على «بغداد»، وقد هيات له الأوضاع السائدة في «العراق» تحقيق هذا الهدف. وقد أصبح «طغرل بك» (ركن الدين أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق» أول سلاطين «السلاجقة» في «بغداد»، ابتداءً من (رمضان 447هـ = نوفمبر 1055م)، وقد استقبله الخليفة «القائم

بأمر الله» بكل مظاهر الحفاوة والترحاب، ولقبه «ملك المشرق والمغرب». كان «طغرل بك» حريصاً على إبداء كل مظاهر الإجلال والتوقير للخليفة، وقد اقتدى به خلفاؤه؛ فعاملوا الخلفاء العباسيين بكل ما يليق بمكانتهم من احترام وتعظيم. وقد

(282/14)

أوصى «طغرل بك» بأن يخلفه بعد موته ابن أخيه «سليمان بن داود جغرى»؛ حيث إنه لم يخلف ولدًا، وفي (8 من رمضان سنة 455هـ = سبتمبر سنة 1063م) توفي «طغرل بك» بمدينة «الرى» ببلاد «الجبل»، وعمره نحو سبعين عامًا، وقد نفذ «عميد الملك الكندرى» وصية «طغرل بك»، ولكن الناس كانوا أميل إلى «ألب أرسلان»، فأمر «عميد الملك» بالخطبة له وتم الأمر له بمساعدة وزيره «نظام الملك»، وأصبح سلطان «السلجقة». وعقب تولى «ألب أرسلان» سلطنة «السلجقة»، أقر «عميد الملك الكندرى» وزير عمه «طغرل» في منصبه، ولكنه سرعان ما تغير عليه فغزله في شهر (الحرم سنة 456هـ = ديسمبر سنة 1063م)، وسجنه، ثم دبر قتله في شهر (ذى الحجة سنة 456هـ = نوفمبر سنة 1064م)، ويبدو أن «نظام الملك» لعب دورًا في ذلك. وبعد عزل «عميد الملك»، عين «ألب أرسلان» «نظام الملك» وزيرًا له، وكان وزيره أثناء إمارته على «خراسان» قبل توليه السلطنة، ويُعدُّ «نظام الملك» أشهر وزراء «السلجقة» كما يعد من أشهر الوزراء في التاريخ الإسلامى. استطاع «ألب أرسلان» أن يوسع حدود مملكة «السلجقة» التي ورثها عن عمه «طغرل»، وأن يسجل انتصارات رائعة ضد أعدائه في الداخل والخارج، فنجح في القضاء على حركات العصيان في «خراسان» و «ما وراء النهر» و «أذربيجان»، وتمكن من تعزيز الوجود الإسلامى في

«أرمينيا» بعد انتصاره في معركة ملاذكرد الشهيرة، واستولى على «حلب» وقضى على النفوذ الفاطمي بما. وعقب وفاة «ألب أرسلان» تولى السلطنة ابنه «ملكشاه» بعهد من أبيه، وتولى «نظام الملك» أخذ البيعة له، وأقره الخليفة «القائم بأمر الله» على السلطنة. لم يكتفِ «ملكشاه» بإقرار «نظام الملك» في الوزارة كما كان في عهد أبيه، بل زاد على ذلك بأن فوض إليه تدبير المملكة، وقال له: «قد رددت الأمور كلها كبيرها وصغيرها إليك، فأنت الوالد»، ولقبه ألقاباً كثيرة، أشهرها لقب «أتابك»،

(283/14)

---

ومعناه الأمير الوالد، وكان «نظام الملك» أول من أطلق عليه هذا اللقب. وسبب هذه المكانة الرفيعة التي حظى بها «نظام الملك» عند السلطان «ملكشاه»، أنه هو الذي مهد له الأمور، وقمع المعارضين، فرآه السلطان أهلاً لهذه المكانة. الخلفاء العباسيون في العهد السلجوقي: كان «المقتدى بأمر الله»، أول خليفة يتقلد منصبه في ظل «دولة السلاجقة»، وبذلك يكون الخلفاء الذين تولوا الخلافة في العهد السلجوقي - بعد «القائم بأمر الله» - ثمانية هم: 1 - المقتدى بأمر الله (عبدالله بن محمد بن القائم بأمر الله) [467 - 487هـ = 1075 - 1094م]. 2 - المستظهر بالله (أبو العباس أحمد بن المقتدى بأمر الله) [487 - 512هـ = 1094 - 1118م]. 3 - المسترشد بالله (أبو منصور الفضل بن المستظهر) [512 - 529هـ = 1118 - 1135م]. 4 - الراشد بالله (أبو جعفر المنصور بن المسترشد) [529 - 530هـ = 1135 - 1136م]. 5 - المقتفى لأمر الله (أبو عبدالله بن محمد بن المستظهر بالله) [532 - 555هـ = 1138 - 1160م]. 6 - المستنجد بالله (أبوالمظفر يوسف بن المقتفى) [555 - 566هـ = 1160 - 1170م].

7 - المستضيء بأمر الله (أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله)  
[566 - 575 هـ = 1170 - 1179 م]. 8 - الناصر لدين الله (أبو العباس  
أحمد بن المستضيء بأمر الله) [575 - 622 هـ = 1179 - 1225 م].  
وقد شهدت خلافة «الناصر لدين الله» زوال ملك «السلجوقية» في  
سنة (590 هـ = 1194 م) وبداية استقلال الخلفاء العباسيين  
بالسلطة في «بغداد» وما يحيط بها. بلغت «الدولة السلجوقية»  
ذروة مجدها وعظمتها على يد «ملكشاه» الذي استمر في  
السلطنة عشرين عامًا تقريبًا؛ حيث استطاع أن يستثمر ما حققه  
«طغرل بك» و «ألب أرسلان» على أحسن وجه، فحقق إنجازات  
عظيمة بمعاونة وزيره «نظام الملك». وقد تزامنت سلطنة  
«ملكشاه» - في معظمها - مع خلافة «المقتدى بأمر الله»، الذي  
تولى منصبه بعد ابتداء حكم «ملكشاه» بعامين، وتوفي بعد

(284/14)

وفاته بعامين. وقد اتسعت حدود «الدولة السلجوقية» في عهد  
«ملكشاه» اتساعًا غير مسبوق، من حدود الصين إلى آخر  
«الشام»، ومن أقاصى بلاد الإسلام في الشمال إلى آخر بلاد  
«اليمن»، وحمل إليه ملوك الروم الجزية. وترجع عظمة «الدولة  
السلجوقية» في عهد «ملكشاه» إلى اتساع حدودها وازدهار  
الحركة الثقافية فيها بصورة جديدة بالإعجاب. وكان لنظام الملك  
أثر متميز وجهد خلاق في ذلك، على المستوى الإداري  
والعسكري، والثقافي. فاهتم بإنشاء العديد من المدارس التي  
نسبت إليه في أنحاء الدولة، فسميت بالمدارس النظامية، وكان  
أشهرها: «نظامية بغداد» التي تخرّج «نظام الملك» مشاهير الفكر  
والثقافة في العالم الإسلامي للتدريس فيها مثل: «حجة الإسلام  
أبي حامد الغزالي» صاحب كتاب «إحياء علوم الدين»، الذي

فوض إليه «نظام الملك» مهمة التدريس في «المدرسة النظامية» ببغداد، ثم في «المدرسة النظامية» بنيسابور، التي كان إمام الحرمين أبو المعالي الجويني يقوم بالتدريس فيها. وقد أسهمت هذه المدارس النظامية في تثبيت قواعد المذهب السني والدفاع عنه ضد مختلف البدع والأهواء والمذاهب المنحرفة التي انتشرت في ذلك الوقت. وقد كان «نظام الملك» مؤلفاً مرموقاً أيضاً، فهو مؤلف كتاب «سياسة نامه» الذي تحدث فيه عن كيفية تدبير شؤون الملك، وفضح معتقدات الحشاشين وغيرهم من الخارجين عن الدين. ثم بدأت مظاهر الضعف تنتشر في جسم «الدولة السلجوقية» عقب وفاة «ملكشاه»، فظهر الانقسام والتمزق والفتن، باستثناء فترة حكم السلطان «معز الدين سنجر أحمد»؛ حيث شهدت الدولة قوة وصحوة مؤقتة.

(285/14)

#### \*الطاهرية (دولة)

إحدى الدول الإسلامية الصغيرة التي قامت في العصر العباسي الأول. تُنسب إلى مؤسسها طاهر بن الحسين أحد القواد في ظل الخلافة العباسية. ظلت هذه الدولة نحو (52) سنة حتى سقوطها على يد الصفاريين. بدأ حكم الطاهريين سنة (202 هـ) حين ولى المأمون العباسي قائده طاهر بن الحسين إمارة المشرق، التي كانت تمتد شرقي العراق، وتشمل فارس والري وطبرستان وجرجان وكرمان وخراسان، كما كانت تمتد شمالاً إلى إقليم ما وراء النهر (تركستان). ووطد طاهر نفوذه في خراسان، واتخذ من نيسابور عاصمة لدولته، واستطاع بذلك أن يؤسس لنفسه إمارة شبه مستقلة عن الدولة العباسية؛ إذ منحه الخليفة اسقلالاً في إدارتها، على أن يؤدي ما عليها من الخراج. لم يدم حكم

طاهر بن الحسين مؤسس الدولة سوى عامين؛ إذ تُوفِّيَ بمرو سنة (207 هـ)، وخلفه ابنه طلحة بن طاهر (207 - 213 هـ)، ثم عبد الله بن طاهر (213 - 230 هـ) الذي اتسعت الدولة في عهده، وأقام صلوات طيبة مع الخلفاء العباسيين، وخلفه طاهر الثاني بن عبد الله بن طاهر (230 - 248 هـ)، وفي عهده بدأت مرحلة ضعف الدولة الطاهرية، ثم خلفه محمد بن طاهر (248 - 259 هـ). وكان محمد بن طاهر آخر حكام الدولة، فلم يكن محمد بن طاهر على شاكلة أسلافه؛ فقد كان أميرًا ماجنًا يميل إلى اللهو والعبث؛ فعجز عن القضاء على الثورات التي قامت ضده، ولما ازدادت الاضطرابات في الدولة الطاهرية، استنجد أهل خراسان بالأمير يعقوب بن الليث الصفارى مؤسس الدولة الصفارية؛ لإعادة الأمن والاستقرار إلى بلادهم، فوجد الأمير الصفارى الفرصة مواتية لتوسيع رقعة دولته على حساب الدولة الطاهرية المتداعية، فزحف بجيشه إلى نيسابور سنة (259 هـ)، وقبض على محمد بن طاهر وعلى أهل بيته، وبذلك انتهت الدولة الطاهرية.

(286/14)

#### \*الصليحية (دولة)

دولة شيعية. قامت في اليمن إبان القرن الخامس الهجرى، وكانت تدين بالولاء للخلافة الفاطمية بمصر. تنسب إلى مؤسسها على بن محمد الصليحي الذى أحيا الدعوة الشيعية الإسماعيلية في اليمن، بعد أن كانت سرّية نحو قرن من الزمان؛ على أثر النزاع الذى دبّ بين دعاة الإسماعيلية في اليمن المتمثلين في ابن حوشب، وابن فضل، ثم برزت الدعوة على يد على بن محمد الصليحي. استمرت هذه الدولة نحو (60) عامًا، واتخذت من زبيد ووصنعاء عاصمة لها، وامتد سلطانها إلى الحجاز، وعاصرت فترة

حكم الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ومرت اليمن خلال حكم الصليحيين بفترة ازدهار عمراني؛ بما شيدوه من قصور ومعقل وحصون ومساجد وأضرحة، كما تميزت هذه الفترة بتأكيد سلطة الحكومة المركزية في صنعاء وإضعاف الزعامات القبلية. وكان أول حكام هذه الدولة أبو كامل علي بن محمد بن علي الصليحي الذي كان أبوه قاضيًا شافعيًا، ولكن عليًا مال إلى التشيع؛ فصحب داعي الشيعة باليمن عامر الزواحي، ثم خلفه في الدعوة للإسماعيلية، وجمع حوله الأنصار، ثم أرسل إلى الخليفة الفاطمي المستنصر بالله يستأذنه في الخطبة له وإظهار الدعوة، فوافق المستنصر على ذلك، ومنح علي بن محمد الصليحي عدة ألقاب مثل: الأمير الأجل وتاج الدولة وسيف الإمام وعمدة الخلافة. وظل علي بن محمد في الحكم حتى اغتيل سنة (473 هـ). وخلف عليًا ابنه أحمد الذي منحه الخليفة لقب المكرم وألقابًا أخرى، وتزوج من امرأة تدعى أروى بنت جعفر أو الحرة الصغرى. وشهدت فترة حكمه نزاعًا مع القبائل اليمنية وحروبًا مع بني نجاح باليمن، ونجح في القضاء على خصومه، ثم نقل مقر حكمه إلى ذي جبلة بدلًا من صنعاء. وتوفي المكرم سنة (484 هـ)، وخلفه سبأ الصليحي، وهو ابن عم علي بن محمد الصليحي. وقد بدأ حكمه بنزاع مع الحرة الصغرى التي كانت تريد تولية ابنها خلفًا لأبيه، ولكن الخليفة المستنصر تدخل في

(287/14)

---

الأمر، وحسمه لصالح سبأ الصليحي الذي تزوج الحرة؛ تنفيذًا لأمر الخليفة، ثم توفي سنة (492 هـ)، وبوفاته انتهت الدولة الصليحية، بالرغم من المحاولات التي قامت بها الحرة لرأب

الصدع حتى توفيت سنة (532 هـ)، وخلف الصليحيين في حكم اليمن بنونجاح في زبيد، والهمذانيون في صنعاء.

(288/14)

### \*الإسماعيلية (دولة)

دولة أسسها الحسن بن الصَّبَّاح، بعد أن استفحل أمر الإسماعيلية في عهد السلطان ملكشاه السلجوقي؛ إذ استولى الحسن على حصن ألموت بأصبهان سنة (483 هـ). وقد تعمق الحسن في المذهب الإسماعيلي الباطني على يد الفاطميين في مصر، لكن ظهرت بينه وبينهم خلافات في المذهب، فترك مصر، وعمل على توسيع دولته، وخصوصاً بعد وفاة السلطان ملكشاه فتمكن الحسن من إقامة دولة إسماعيلية قوية عرفت بعدة أسماء، منها: النذارية والباطنية والحشيشية. وأقرَّ الحسن الاغتيال كوسيلة للتخلص من الخصوم؛ فبذل السلاجقة محاولات للتكيل بالإسماعيلية، لكن الإسماعيلية قضوا على بعض الحملات السلجوقية، واضطر السلطان السلجوقي سنجر إلى مهادنتهم؛ لما رأى من بأسهم. وفي سنة (520 هـ) أمر الوزير السلجوقي أحمد بن المفضل بغزو الإسماعيلية، وقتلهم أين ما كانوا؛ فاستمرت حملات السلاجقة عليهم، بعد أن اشتد خطرهم، وكثرت اغتيالاتهم. وفي سنة (549 هـ) سار جيش من الإسماعيلية إلى خراسان منتهزاً فرصة انشغال جيشها بقتال الغز، فقاومهم أهل خراسان، وهزموهم وقتلوا كثيراً منهم. وكان الحسن بن محمد أشد حكام الإسماعيلية انحرافاً؛ فهو الذي نسخ ظاهر الشريعة تماماً، وغير القبلة، وأحلَّ شرب الخمر، إلى أن ولي الحسن الثالث الحكم فدعا إلى الإسلام الصحيح، وارتبط مع جيران دولته السنيين بروابط من المودة والثقة المتبادلة، وكذلك فعل حفيده

خورشاه؛ بحيث كان من الممكن إنهاء الفكر المغالي للإسماعيلية النذارية، ولكن هولاكو قائد المغول سيطر على الدولة الإسماعيلية في الشرق وإيران ففضى بذلك على دولتهم سنة (654 هـ).

(289/14)

### \*الأويغوريون (دولة)

دولة تأسست سنة (745 هـ)، على يد قطلغ بلكة قاغان. كانت شرق تركستان وكانت عاصمتها قره لغاصون. وفي سنة (747 هـ) خلف موين جور أباه قطلغ في الحكم، وأقام نقشاً على شاطئ بحيرة شينة أوزو بشمال منغوليا، سجل فيه تاريخ تأسيس دولة الأويغوريين وتوسعها وانتصاراته هو وأبيه. وفي عهد ولده بوكوها تم الاعتراف بالمانوية كدين للدولة، وأقيم لها كثير من المعابد. وبسبب اعتناقهم المانوية مالوا في طعامهم إلى الأطعمة النباتية؛ فهبطت عندهم الروح القتالية؛ ومن ثم هُزموا أمام القرغيز عام (840 هـ)، وتم الاستيلاء على عاصمتهم قره بالغاصون، وانسحب فريق كبير منهم إلى إقليم تارم، واستقر بجوار جبال تانر ومدن أويغورية أخرى، مثل: قوجا وكشغر وهاجي. وفي سنة (947 هـ) بدأت تظهر خوجو - تُعرف الآن باسم قره خوجو - كعاصمة للأويغوريين في شرق تركستان، وكان لهم عاصمة صيفية في بشى باليك، وعُرف المتأخرون من الحكام الأويغوريين باسم إذق - قت، وأطلق على العاصمة خوجو مدينة الأذق - قت أو أذق - قت شهري. وأخذت البوذية تنتشر في دولة الأويغوريين بعد عام (870 م) ففاقت المانوية، كما ظهرت بها المسيحية، ثم دخلها الإسلام. ولغات الأويغوريون المكتوب بها، هي: الصفدية والصينية

والكوكتورك. ولقد قام الأويغوريون بدور كبير في انتشار الطباعة، وكانت هجائيتهم الخاصة بهم هي ثاني أقدم الألفبائيات التركية. والأويغوريون سلالة من قبائل الهون الآسيوية، كانوا يقيمون على الشواطئ الشرقية لنهر سلنكة، وكانوا - حتى قيام دولتهم - يتبعون الكوك الأتراك. واستمر وجود الدولة الأويغورية حتى سنة (1209 م)؛ أصبحت ولاية تتبع جنكيز خان، وبعد ذلك استمر وجودها تحت الاسم القديم أدق - قت إلى بداية أسرة منغ سنة (1368 م)، حين انتهت أدق - قت تمامًا.

(290/14)

#### \* جهور (بنو)

بيت من الوزراء ثم من ملوك الطوائف بالأندلس. كان جدهم جهور من أوائل المسلمين الذين دخلوا الأندلس، والذي أسس دويلتهم أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور الكلبي الذي كان وزيراً لهشام الثالث آخر خلفاء بني أمية، وقد نجح في خلع هشام سنة (422 هـ)، وبقيت قرطبة دون خلافة ودون حكومة سنتين، بعدها تولى أبو الحزم جهور. وكانت سلطة بني جهور على رقعة متوسطة من الأندلس، تمتد شمالاً حتى جبل الشارات، وشرقاً حتى منابع نهر الوادي الكبير، وجنوباً حتى حدود ولاية غرناطة. ولم يأخذ أبو حزم لقب الخلافة، وبقي في الحكم (12) سنة، نعمت فيها قرطبة بالهدوء والاستقرار، فلما توفي سنة (1043 هـ) خلفه ابنه أبو الوليد محمد بن جهور، ولم تختلف سياسته عن سياسة أبيه، لكن الفساد دبَّ في الحكم عندما عهد بالحكم إلى ابنه عبد الملك الذي تنازع معه أخوه عبد الرحمن، واستطاع عبد الملك الانفراد بالسلطة بعد أن اعتقل أخاه.

وتحالف بنو جهور مع بني عباد (حكام إشبيلية) حتى استطاع  
المعتمد بن عباد حاكم إشبيلية دخول قرطبة سنة (605 هـ)، بعد  
ولاية يحيى بن إسماعيل بعامين، وكان قد سبق له دخولها على  
عهد عبد الملك، لكنه في هذه المرة أنهى بها دويلة بني جهور  
في قرطبة التي اتصل تاريخها بعد ذلك الوقت بتاريخ إشبيلية.

(291/14)

---

### \*رسول (بنو)

أسرة إسلامية. حكمت اليمن وحضر موت في الفترة من عام (1229 م) إلى عام (1554 م)، بعد أن تولى الأيوبيون عن  
المقاطعات الجنوبية من شبه جزيرة العرب. أسسها الملك  
المنصور عمر بن علي بن رسول الذي تولى الحكم من عام (1229 م)  
حتى عام (1250 م)، فجعل من صنعاء عاصمة ملكه، وبسط  
سلطانه على مكة المكرمة. وخلال القرنين التاليين استطاع  
الرسوليون جعل اليمن دولة إسلامية ذات شأن، وأقاموا علاقات  
سياسية وتجارية مع الهند والصين وسيلان.

(292/14)

---

### \*الروم

الروم أو البيزنطيون هم امتداد الإمبراطورية الرومانية، في  
الشرق، وهي التي عرفت باسم الإمبراطورية الرومانية الشرقية،  
واتخذت من القسطنطينية عاصمة لها، منذ أن بناها الإمبراطور  
قسطنطين سنة (330 م)، وشملت هذه الإمبراطورية أجزاء كبيرة  
من آسيا وأوروبا وإفريقيا، وكان العرب يطلقون عليها اسم  
الروم. وقد مرت هذه الإمبراطورية التي أسسها قسطنطين

بمرحلة قوة وازدهار، ومرحلة ضعف وانحيار، وقد حاربت الفرس حروباً كثيرة، كان النصر فيها سجلاً بينهما، كما ذكر القرآن الكريم في سورة الروم. وبعد ظهور الإسلام بدأ الاحتكاك بين الروم والمسلمين؛ حيث خاض المسلمون حروباً ضد الروم، واستطاع المسلمون إجلاء الروم من بلاد الشام ومصر والساحل الشمالى لإفريقية، واستمرت حملات المسلمين المتوالية على عاصمتهم القسطنطينية حتى استطاع المسلمون العثمانيون فتحها سنة (1453 هـ)، واتخذوها عاصمة لهم عرفت باسم إستانبول، وبذلك انهارت هذه الإمبراطورية.

(293/14)

#### \*الزبيريون

جماعة تنسب إلى عبد الله بن الزبير. كانت تهدف إلى استعادة الخلافة من الأمويين بعدما أصبحت وراثية في بنى أمية، فنادت بأحقية عبد الله بن الزبير بالخلافة، وبويع ابن الزبير بالخلافة سنة (63هـ)، وحكم الحجاز واليمن ومصر والعراق وخراسان وأكثر الشام. وقد ساعد على نجاح الزبيريين موقف المسلمين الرفض لجعل الخلافة وراثية، كذلك قتل الأمويين للإمام الحسين، والصراعات التي قامت بين الأمويين، حتى إن المسلمين قضوا فترة بدون خليفة. وقد جعل ابن الزبير المدينة مقراً لخلافته التي استمرت عشر سنوات حتى سنة (73 هـ)؛ إذ انتصر الحجاج عليه، وقتله في البيت الحرام. ومن أسباب سقوط خلافته تحامل ابن الزبير على الهاشمين، وإخراجه بنى أمية من المدينة، وظهور دعوات الخوارج والشيعة، بالإضافة إلى عجز الزبيريين عن تعميق الولاء لدعوتهم؛ مما جعل بعض ولاة الأمصار ينضمون إلى الأمويين.

### \*الزندية

أسرة إيرانية، حكمت إيران نيابة عن شاهات الدولة الصفوية في أواخر عهدها، واحتل تاريخها النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري، وكانت شيراز عاصمة لها. والزنديون فرع من قبيلة اللك الكردية، وينسب الزنديون إلى كريم خان الذي استطاع أن يحكم هو وخلفاؤه إيران نيابة عن الصفويين لمدة (44) عامًا من سنة (1163 هـ) حتى سنة (1209 هـ)، وتتابع على الحكم خلال هذه الفترة سبعة حكام. وكان الزنديون يطلقون على أنفسهم وكيل الملك. وقد استطاع كريم خان مؤسس هذه الأسرة سلب السلطة من علي مردان البخيتارى. وتمتعت إيران في ظل حكم الزندين بالاستقرار والأمان؛ وانتعشت التجارة، وتم بناء سوق شيراز فيها، 'إلا أنه بعد وفات كريم خان تنافس خلفاؤه في الحكم، حتى استطاع القاجاريون القضاء على الزندين، وقتل لطف على سنة (1209 هـ).

### \*الزنكية

إحدى الأسر الإسلامية الحاكمة. تنسب إلى عماد الدين زنكى بن آق سنقر الذى كان حاكمًا للموصل أيام السلاجقة، ثم استقل بالموصل، وبدأ فى تكوين الدولة الزنكية سنة (521 هـ)؛ إذ استطاع الاستيلاء على حلب فى العام التالى، وأقام جبهة قوية لجهاد الصليبيين، واستطاع أن يسيطر على مملكة الرها الصليبية سنة (539 هـ)، واتسعت مملكته حتى شملت الشام وحلب

وشمال الجزيرة وسنجار، إلا أنه اغتيل سنة (541 هـ). وبوفاة عماد الدين زنكي انقسمت مملكته الكبيرة إلى أربعة أقسام، هي: الموصل: وحكمها سيف الدين غازي، واستمر هذا الفرع يحكم حتى سنة (631 هـ)؛ إذ تولى الموصل بعد ذلك الوزير بدر الدين لؤلؤ، الذي لُقّب بالملك الرحيم، وخلفه أبنائه في الحكم حتى غزاها المغول سنة (660 هـ). وحلب: حكمها نور الدين محمود الذي امتد سلطانه إلى دمشق ومصر، وقام بتكوين جبهة لقتال الصليبيين، واستمرت هذه الأتابكية حتى ضمها صلاح الدين الأيوبي إلى دولته سنة (579 هـ). وسنجار: استمرت أسرة عماد الدين بن مودود تحكمها، حتى استولى عليها الأشرف الأيوبي سنة (617 هـ). وأتابكية الجزيرة: تولى حكمها سنجر بن نور الدين الذي قُتل سنة (605 هـ)، ثم خضعت لصلاح الدين الأيوبي.

(296/14)

### \*السعديون

اسم لدولة إسلامية، قامت في المغرب. أسسها أبو عبد الله بن محمد القائم بأمر الله؛ على أثر انهيار دولة بني مرين في أواخر القرن التاسع الهجري. وقد استمرت هذه الدولة من سنة (916 هـ) حتى سنة (1069 هـ)، وحكمها (12) حاكمًا أطلقوا على أنفسهم الشرفاء السعديين، وقد قام هؤلاء الأشراف بمواجهة الخطر الصليبي المتمثل في البرتغال، واستطاعوا الانتصار عليه سنة (917 هـ)، وتمكنوا من طرد الصليبيين من المغرب تمامًا سنة (948 هـ). وقد أدى تضافر الجهود لمحاربة المستعمر البرتغالي، إلى وحدة بلاد المغرب، واستطاع السعديون ضم فاس ومراكش ومكناسة وتلمسان، فلم يأت عام (960 هـ) إلا وكان توحيد

المغرب قد تم، ولكن الصراع على السلطة دب بين أفراد البيت السعدى للاستيلاء على الحكم؛ مما جعلهم يستعينون بالإسبان والبرتغال والعثمانيين. وحاول البرتغاليون السيطرة على المغرب إلا أن المغريين استطاعوا الانتصار عليهم فى معركة فاصلة تسمى وادى المخازن سنة (986 هـ) وقتل ملك البرتغال وأغلب قاداته. وقد امتد نفوذ السعديين حتى سنغاي وتمبكتو وكان أبو العباس أحمد الثانى الذى قتل سنة (1066 هـ) آخر حكام السعديين.

(297/14)

#### \*سلاجقة الروم

سلاجقة الروم أو سلاجقة الأناضول هم أحد فروع دولة السلاجقة المسلمين الذين حكموا مساحة كبيرة من العالم الإسلامى، وأسعدوا للإسلام خدمات جليلة. وينحدر سلاجقة الروم من قتلمش بن إسرائيل أرسلان بيغو بن سلجوق. ومؤسس هذه الأسرة هو سليمان الأول الذى تولى الحكم سنة (470 هـ)، وجاء من بعده سبعة عشر سلطاناً. وقد حكموا منطقة شاسعة من العالم الإسلامى، وهى منطقة آسيا الصغرى التى ضمت قونية، وسيواست، وقيصرية، وملطية، وأماسية، وأرخروم وغيرها من بلاد آسيا الصغرى. وكان آخرهم فى الحكم السلطان غياث الدين سعود الثانى الذى حكم من سنة (702 هـ) إلى سنة (708 هـ)، ثم استولى المغول والعثمانيون على أملاك هذه الدولة. وتدل الآثار المعمارية القائمة فى أماكن كثيرة، على أن عهد السلاجقة الأتراك فى الأناضول كان مزدهراً، كما اتسم برقى الفنون الجميلة، خاصة فى حكم علاء الدين كيقباد الأول. ومن

أهم آثارهم الموجودة تربة خداوند ابنة ركن الدين قلع أرسلان  
الرابع، والتي أنشأها في نيكدة سنة (712 هـ).

(298/14)

---

#### \*الشهابيون

دامت إمارتهم نحو قرن ونصف سنة (1697م) إلى سنة (1841م)،  
وتولوا، في هذه الفترة حكم جبل لبنان وأخذوا على عاتقهم  
الحفاظ على وحدته، وأعادوا السواحل والسهول إلى منطقة  
نفوذهم بعد أن استغلوا ضعف الحكومة المركزية في إستانبول.  
واستطاعوا أن يحتفظون بنوع من التوازن السياسي بين  
الموازنة والدروز؛ مما جعلهم ينجحون في تحقيق الأمن  
الاستقلال الذاتى الذى كان لبنان الكبير يتمتع به.

(299/14)

---

#### \*الشيبيانيون

اسم يُطلق على الدولة الأوزبكية التركية التى قامت بالتركستان )  
بلاد وراء النهر) إبان القرن التاسع الهجرى. ورثت ملك  
التيموريين، واتخذت سمرقند عاصمة لها، وعاشت نحو قرن من  
الزمان، وتُنسب هذه الدولة إلى شيبان بن جوجى بن جنكيز  
خان. وقد كان أول زعيم لهذه الدولة أبو الخير بن دولت شيخ  
الذى تزعم قبائل الأوزبك فترة، في منطقة السهوب، واستنجد  
به الأمراء التيموريون في خلافتهم الأسرية، ودام حكمه نحو  
أربعين سنة حتى عام (872هـ)، وهى السنة التى تُوفى فيها  
آخر حكام التيموريين. وخلف أبا الخير في زعامة الأوزبك ابنه  
حيدر سلطان إلا أن الزعامة الفعلية كانت لابن أخيه محمد

شيباني بن شاه بوراق بن أبي الخير الذي نجح بعد سلسلة حروب مع التيموريين والصفويين في توسيع رقعة دولته، حتى شملت من بلاد ما وراء النهر حتى خراسان جنوباً. وبعد موت محمد شيباني واصل خلفاؤه جهوده وحروبه ضد الصفويين، لاسيما في عهد أبي الغازي عبید الله بن محمود الذي قام وحده بخمس غزوات لخراسان وإيران كان آخرها سنة (938هـ)، إلا أن عبد الله بن سكندر يعتبر أعظم الشيبانيين فقد ضم كاشغر وختن، واستعاد بخارى ومرو ومشهد. وقد شجعت حالة الفوضى التي شهدتها دولة الأوزبك في نهايتها الشاه عباس الأول الصفوى على غزو الشيبانيين واستعادة خراسان، كما استعاد أمير القزاق في الشمال إقليم طشقند وتقدم حتى تم الاستيلاء على سمرقند نفسها. ولم يأت عام (1007هـ) حتى طويت صفحة دولة الشبانين، وكان بير محمد الثاني بن سليمان آخر من تولى الحكم منهم. وخلف الشيبانيين في حكم بلاد ما وراء النهر الاسترخانيون، وهم من أبناء عمومتهم من أحفاد جوجي بن جنكيز خان.

(300/14)

\*غانية (بنو)

بنو غانية هم حكام الجزائر الشرقية. ويرجع نسبهم إلى جدهم على المسوفى الصنهاجى الذى زوجه يوسف بن تاشفين من قريبة له تدعى غانية، وقد أنجبت له يحيى ومحمداً، فكانا مقربين من على بن يوسف بن تاشفين. فولى يحيى على بلنسية ثم على قرطبة فظل عليها حتى توفى، وولى محمداً على الجزائر الشرقية سنة (520هـ)، وكان يخطب لبني العباسى فى بلاده، مع هزيمة جيوش المرابطين أمام الموحدين، وجعل بلاده

مقرًا للفارين من أمام الموحدين، وتُوفِّي سنة (550هـ). وخلف  
محمدًا ابنه عبد الله الذي حكم غرناطة، وابنه إسحاق الذي حكم  
غرموته والجزائر الشرقية، فصانع الموحدين، وبعث إليهم  
بالهدايا الثمينة، فطلبوا منه الدخول في طاعتهم، والدعاء لهم  
على المنابر، ولكنه توفِّي قبل أن يرد عليهم. وتولى بعده ابنه  
علي بن إسحاق فاستولى على بجاية سنة (580هـ) ثم مازونة  
ومليانة، وقطع الخطبة في البلاد التي فتحها عن الموحدين،  
وجعلها للعباسيين. ولما علم أبو يوسف المنصور الموحدى بذلك  
أرسل جيشًا وأسطولاً كبيراً قضى به علي ولاية علي بن  
إسحاق، واسترد بلاده، فاضطر علي بن إسحاق إلى الهرب  
فإلصحراء، واتجه إلى رؤساء الواحات يستميلهم إليه وتقابل  
مع بهاء الدين قراقوش، فتحالف معه سنة (581هـ)، وجمع فلول  
لمتونة، ومسوفة، فهزم الموحدين سنة (581هـ) بالقرب من  
قعصة ولكنه هزم سنة (584هـ)، ثم قتل في العام نفسه. وخلف  
علي بن إسحاق ابنه يحيى الذي هزم جيوش الموحدون في عدة  
معارك، استولى بعدها على عدة مدن إفريقية سنة (600هـ)، ثم  
قضى الموحدون على بني غانية، واستولوا على جزيرة  
ميورقة، ثم حاصروا مدينة المهديّة حتى أجبروهم على التسليم.

(301/14)

#### \*الفرس (دولة)

مملكة قديمة. تنسب إلى فارس بن علم بن سام بن نوح، عليه  
السلام. وهي بلاد كثيرة الجبال يزرع بها القمح والأرز والشعير  
والقطن والصمغ والتبغ والفاكهة. وبدأ نفوذ الفرس يزداد فيها  
سنة (559 ق. م) في عهد الملك كيروش، عندما قام بضم أجزاء  
كبيرة من بلاد العرب وسواحل آسيا واليونان، وحارب التتار

كثيراً، إلا أنه قتل في حربه معهم، وتولى بعده ابنه قميبيز الذى ضم مصر إلى مملكته، وملك بعده دارا فحارب اليونان، وخرّب جزرها، ونهب أرضها. وفي عهد كسيرسيس سنة (488 ق. م) حارب اليونان فأخضع معظم بلادها، ولكن أسطوله هُزم سنة (470 ق. م)، وقتل في العام نفسه. وفي سنة (336 ق. م) هاجم الإسكندر المقدوني آسيا الصغرى وفتحها، وفتح العراق وسوريا، ومصر، وانتصر على دار الثالث في موقعة إربل سنة (331 ق. م)، وأخذ فارس التى ظلت تحت قبضة اليونان، بعد موت الإسكندر حتى سنة (230 م). وفي هذه السنة أسس أردشير دولة الفرس الساسانية، ومن أشهر ملوكها: أنوشروان الذى ملكها سنة (580 م)، وانتصر على الرومان فى آسيا، وتوفى سنة (620 م)؛ فتولى يزيدجرد الحكم، ثم هزمه المسلمون وقتل فى خلافة عثمان بن عفان، رضى الله عنه. وظل الولاة المسلمون يحكمون فارس؛ مما ساعد على انتشار الإسلام بين أهلها. وساعد الفرس فى قيام الدولة العباسية بعد أن دمروا الدولة الأموية؛ فظهر أثرهم واضحاً فى حياة المسلمين السياسية والاجتماعية والعلمية والأدبية. وبعد أن دب الضعف فى أوصال الدولة العباسية استقلت بعض الدول الصغيرة عن الخلافة الإسلامية، ومن أشهر هذه الدول: الدولة السامانية والدولة الغزنوية والدولة السلجوقية والدولة الخوارزمية. كما استولى جنكيز خان على فارس سنة (1251 م)، وتوارثها أبناؤه من بعده حتى استولى عليها تیمورلنك سنة (1374 م). وقام الشاه إسماعيل الصفوى بإنشاء الدولة الصفوية بفارس، وتعرض خلال حكمه لفارس لعدة هجمات

من الأتراك العثمانيين. وفي عهد الشاه عباس ضم جورجيا  
وبغداد والموصل وديار بكر وأذربيجان، وجعل أصفهان عاصمة  
دولته. وفي سنة (1694 م) استولى الأفغان على فارس في عهد  
صافي ميرزا الذي انتهت الدولة الصفوية بوفاته، وظهر نادرشاه  
سنة (1736 م)، واستولى على قندهار وكابول، ودخل الهند  
وبخارى وخوارزم، وبعد موته سنة (1747 م) عاشت البلاد في  
حالة فوضى كبيرة حتى سنة (1896 م). وفي سنة (1907 م)  
طالب الفرس بتطبيق الدستور، ولكن روسيا وإنجلترا قسمتا  
فارس بينهما؛ فأخذت روسيا المنطقة الشمالية، وأخذت إنجلترا  
المنطقة الجنوبية، ولكن فارس تخلصت من السيطرة الأوروبية سنة  
(1915 م).

(303/14)

#### \* طخارستان (مملكة)

اسم كان يطلق على المنطقة الشمالية من أفغانستان الحالية،  
وهو نفسه الذي عرف في التاريخ باسم بلاد بكتريا، وجاء  
ذكرها في فتوحات الملك الفارسي كيروش إبان القرن السادس  
قبل الميلاد، ثم في فتوحات الإسكندر الأكبر إبان القرن الثالث  
قبل الميلاد. وكانت طخارستان تمتد من حدود نهر جيحون حتى  
جبال هندكوش لمسافة (120) ميلاً، وكانت عاصمتها بلخ،  
وكانت تُسمى بكترا. وصلت إلى طخارستان الجيوش الإسلامية  
في عهد عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، ودارت معركة بين  
المسلمين وجيش كان يتألف من أهل طخارستان والجوزجان  
والطالقان والغارياب، وانتصر جيش المسلمين وعقد صلح بين  
الطرفين، وفي خلافة عثمان بن عفان، رضى الله عنه، أرسل  
والى البصرة عبد الله بن عامر قائده الأحنف بن قيس لغزو شمال

خراسان، وأقر الصلح الذي عقد في خلافة عمر بن الخطاب،  
ومن ثم أصبحت طخارستان نغراً إسلامياً، وقاعدة حربية حصينة  
ضد الصفد وغيرهم من الأتراك على حدود الدولة الإسلامية، ثم  
أصبحت مركزاً لانطلاق الجيوش الإسلامية عبر نهر جيحون. وفي  
سنة (45هـ) ولى البصرة زياد بن أبيه، فقسم خراسان أربعة  
أقسام بين قواده الأربعة، فكانت طخارستان من نصيب قيس بن  
الهيثم. ولم يستقر العرب في طخارستان إلا منذ سنة (85هـ)  
أثناء مرحلة فتوح بلاد ما وراء النهر. وشهدت طخارستان في  
أواخر حكم الدولة الأموية عدة ثورات، منها ثورة الحارث بن  
سريح سنة (117هـ)؛ إذ نجح في بسط سلطانه على الإقليم حتى  
عاد إلى الخلافة. وفي سنة (129هـ) أصبحت طخارستان مهداً  
لثورة أبي مسلم الخراساني الذي نشر الدعوة  
العباسية، ومنها انتشرت إلى أنحاء خراسان، ثم توالى الحكم  
الإسلامي على طخارستان، وهي الآن الإقليم الشمالي من  
جمهورية أفغانستان الإسلامية.

(304/14)

#### \*السعودية (المملكة العربية)

دولة عربية إسلامية تقع غرب آسيا يحدها البحر الأحمر من  
الغرب، والأردن والعراق من الشمال، واليمن وعمان من  
الجنوب، والخليج العربي وقطر والإمارات من الشرق،  
والكويت من الشمال الشرقي، وتبلغ مساحتها (627) ألف ميل،  
وتحتل الجزء الأكبر من شبه الجزيرة العربية وتشتهر المملكة  
بكثرة الجبال، مثل: تامة وعسير وطويق وشمر، كذلك تنتشر  
الصحارى بها، مثل: صحراء النفود والربع الخالي والدهناء،  
وتنعدم فيها الأنهار تماماً، ولكن توجد بعض الأودية بها، مثل:

الرومة والدواسر والسرحان. ومناخ السعودية صحراوى شديد الحرارة، وكمية المطر قليلة، وإن كانت الحرارة تعتدل فى بعض المناطق. وتعتبر السعودية من البلاد الغنية لوجود البترول بها؛ فالسعودية أكبر مصدر للبترول فى العالم. وأهم مدن السعودية: مكة المكرمة والمدينة المنورة والرياض وجدة. وتوجد بالسعودية جنسيات من جميع دول العالم. أما السكان الأصليون فينتمون إلى أصول عربية قبلية فى أغلبهم، والدين الإسلامى هو الدين الرسمى للمملكة، والشريعة الإسلامية مطبقة فيها. وتنقسم السعودية إدارياً إلى (14) منطقة، ويوجد بها عدد من الجامعات والكليات. ونظام الحكم فى المملكة ملكى وراثى. وقد اقترن قيام المملكة بظهور الدعوة الوهابية على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ومرت السعودية بثلاثة أطوار حتى أصبحت مملكة، وهى: الدولة السعودية الأولى من سنة (1744م) حتى سنة (1817م). وسيطرت هذه الدولة على الحجاز ومسقط وعمان ونجران وعسير وبعض أجزاء اليمن وانتهت على يد إبراهيم باشا سنة (1817م). ثم الدولة السعودية الثانية من سنة (1824م) حتى سنة (1890م)، وسيطرت على الرياض ونجد والأحساء والقطيف وعسير والقصيم، واستمرت هذه الدولة حتى سيطر عليها ابن رشيد، أمير حائل سنة (1890م) ولجأ الإمام عبد الرحمن بن فيصل إلى الكويت، ثم الدولة السعودية الثالثة من

(305/14)

---

سنة (1902 م) حتى الآن (1997 م)، وقامت على يد عبد العزيز آل سعود، الذى استولى على الرياض ونجد والأحساء والحجاز، وأزال حكم الأتراك وآل رشيد والأشراف، وأعلن قيام المملكة العربية السعودية سنة (1932 م). وتعاقب فى حكم السعودية من

ذرية الملك عبد العزيز آل سعود الملوك: سعود وفيصل وخالد  
وفهد.

(306/14)

\*نصر (بنو)

انقرط عقد الأندلس بعنف بعد هزيمة الموحدين في معركة  
«العقاب» أمام الجيوش الإسبانية والأوربية المتحالفة، وسارت  
الأمر من سيئ إلى أسوأ، والقواعد تخرج من قبضة الموحدين  
واحدة بعد الأخرى، ينتزع بعضها ابن هود الثائر وبعضها  
النصارى وأتاحت هذه الظروف فرصة الظهور والمغامرة  
للطامحين من القادة والزعماء. في تلك الأثناء ظهر محمد بن  
يوسف بن نصر أو ابن الأحمر الملقب بالغالب بالله في وقت  
اشتدت فيه الحن، وانعقدت عليه الآمال؛ لتميزه بالشجاعة  
ومجاهدة العدو، والتف حوله الناس وبايعوه في «أرجونة» وما  
حولها على بعد ثلاثين كيلو متراً من «جيان» في (رمضان 629هـ  
= يوليو 1232م) وتوافد عليه جنود الأندلس؛ فأعلن نفسه أميراً  
وانتقل إلى «جيان»، ودخلت في طاعته بلاد الجنوب كلها، لكنه  
أحس أنه في حاجة إلى معقل يعتصم به؛ لأن «جيان» مدينة  
مكشوفة، فوقع اختياره على غرناطة الواقعة عند سفح جبل  
الثلج، وكان يوجد في أعلى الجبل حصن منيع سبق تعميره  
أول عصر ملوك الطوائف، فتوجه إليه وسكنه واستقر به، وشيئاً  
فشيئاً أخذ يوسع نطاق سلطانه، حتى أصبحت دولته تضم بين  
جنبتها ثلاث ولايات كبيرة هي: غرناطة وألمرية، ومالقة،  
ووصلت حدودها إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط ومضيق جبل  
طارق، واتخذ مدينة غرناطة عاصمة لدولته، وساعد على دعم  
دولته استيلائه على ألمرية ومالقة لما لهما من أهمية عظيمة في

المجالين التجارى والبحرى. وقد واجهت «ابن نصر» بعض المشكلات الداخلية والخارجية، منها: علاقته بأصحابه «بني أشقيولة» الذين عاونوه ثم انقلبوا عليه، ونقص المال الذى كان فى أشد الحاجة إليه لتثبيت قواعد سلطانه، ومشكلته مع ملوك النصارى الذين أدركوا خطر دولته الناشئة وأرادوا القضاء عليها، فاضطر إلى أن يعقد معهم معاهدة صلح سنة (643هـ = 1245م) لمدة عشرين عامًا، وبمقتضاها حكم ابن الأحمر مملكته باسم ملك قشتالة «فرناندو الثالث» ودفع له جزية، ووافق على

(307/14)

حضور البلاط القشتالى باعتباره واحدًا من أمراء الملك، وعلى مده بالجنود كلما طلب منه ذلك، وبالفعل أمدّه ابن الأحمر بقوات ساعدت على سقوط «إشبيلية» فى يد النصارى فى (3 شعبان 646هـ = نوفمبر 1248م). وفى (جمادى الثانية 671هـ = ديسمبر 1272م) توفى محمد بن يوسف بن نصير الملقب بالشيخ، وكان قد أخذ البيعة لولده محمد، فأقر بذلك مبدأ الملكية الوراثية، وقد اعتلى محمد الثانى العرش ولقب بالفقيه؛ لاشتغاله بالعلم أيام أبيه، وقال عنه ابن الخطيب: «وهو الذى رتب رسوم الملك للدولة ووضع ألقاب خدمتها، ونظم دواوينها وجبايتها، هذا إلى جانب اعتنائه بالجيش وخاصة فرق الفرسان .. وكان سياسيا بارزاً .. ، أديبًا عالمًا، يقرض الشعر ويجالس العلماء والأدباء والأطباء والمنجمين والحكماء، والكتاب والشعراء». وقد واجه الأمير الجديد ثلاث مشكلات هى، مشكلته مع الإسبان، وقد نجح فى تحقيق انتصارات عليهم منتهزًا فرصة موت مليكهم، ومع المرينيين الذين استنصر بهم ليعاونوه فى الجهاد ضد المسيحيين فإذا بهم يطمعون فى الاستيلاء على الأندلس، الشىء الذى

دفعه إلى التحالف مع ملك أراجون تارة ومع ملك قشتالة تارة أخرى لدرء خطر المرينيين، وعلى الرغم من تحسن العلاقات بين غرناطة وفاس، فإن الفقيه لم يكن يطمئن إلى نياتهم، وقد دفعهم ذلك إلى التحالف مع النصارى مرات، وأخيراً كانت هناك مشكلة مع أصهار أبيه «بني أشقيلولة» التي اشتدت في زمنه، وانتهت بصدور أمر يقضى بتهجيرهم إلى مدينة القصر الكبير بشمالى المغرب جنوب مدينة سبتة سنة (687هـ = 1288 م). وعلى كل حال فقد توفى محمد الفقيه في (شعبان 701هـ = أبريل 1302م) بعد أن نجح في دعم دولته داخليا وخارجيا. تولى الأمر بعد محمد الفقيه ابنه أبو عبدالله محمد، وفي عهده تحالف ملكا قشتالة وأراجون على غزو مملكة غرناطة برا وبحرا، ولكن «ألمرية» تمكنت من الصمود في مواجهة أقصى هجوم عرفته

(308/14)

في تاريخها وتمكن جيشها بقيادة شيخ الغزاة «عثمان بن أبي العلاء» من هزيمة جيش أراجون، لكن العلاقة ساءت بين غرناطة وفاس، وقام صاحب مالقة بثورة عارمة ضد الحكومة المركزية، وكانت فتنة وقتال وحرب وهدنة استمرت أعواماً ولم تنته إلا بموت الأمير. ثم تولى أبو الوليد إسماعيل بن فرح (713هـ = 1313م) الذى اشتهر بإقامة الحدود وتطبيق الشرع، وفي عهده قام القشتاليون بهجوم ضخم على غرناطة، انتهى بمقتل أميرى الجيش النصرانى فى مروج غرناطة، وانتهاز الأمير فرصة منازعات بين أمراء قشتالة واستولى على بعض المدن القشتالية ومنها مدينة «أشكر»، وقد استخدم الغرناطيون المدفع لأول مرة عند منازلهم لها. ثم تولى أبو عبدالله محمد الرابع بن إسماعيل (725هـ = 1325م) الذى اشتهر بالشجاعة كما كان مغرماً بالصيد

مجا للأدب والشعر، وفي عهده قامت بعض الفتن الداخلية التي انتهزها النصارى واستولوا على عدد من الحصون، كما أحرز أسطولهم نصراً على الأسطول الإسلامي في ألمرية ومالقة. وقد دفع هذا السلطان أن يعبر بنفسه إلى المغرب ليستنجد ببني مرين الذين أجابوه إلى ما طلب، ونزلت قوات المرينيين على جبل الفتح وأمكنها الاستيلاء عليه عام (733هـ = 1333م)، ولكن السلطان قُتل في طريق عودته إلى غرناطة وتولى من بعده أخوه أبو الحجاج يوسف الأول. وشهدت مملكة غرناطة في عهده عصرها الذهبي، فأنشئت المدرسة اليوسفية والنصيرية، وجرى الاهتمام بتحصين البلاد، وإنشاء المصانع، وإقامة الحصون، وبناء السور العظيم حول رياض البيازين في غرناطة، وأضيفت منشآت كثيرة إلى قصر الحمراء منها باب الشريعة وغيره، وكان السلطان حريصاً على تفقد أحوال شعبه بنفسه. ومن الأحداث العظام في عهده: الوباء الأسود الذي تفشى في حوض البحر الأبيض المتوسط عامي (749 - 750هـ = 1348 - 1349م)، وشمل المشرق والمغرب، وراح ضحيته عدد عظيم من علماء الأندلس ورجال الدين والأدب والسياسة فيها. وعلى الرغم

(309/14)

---

من قيام أبي الحجاج بعقد سلام مع ملك قشتالة عام (734هـ = 1334م) فإنه سرعان ما تحطم وبدأ صراع بين غرناطة والمغرب من ناحية، وقشتالة تساندها أراجون والبرتغال من ناحية أخرى حول السيطرة على جبل طارق، وبعد معارك انتهى الأمر بين كل الأطراف بعقد معاهدة مدتها عشر سنوات، وتوفي يوسف الأول قتيلاً في (أول شوال 755هـ = سبتمبر 1357م)، وتولى ابنه محمد الخامس الغني بالله، وحدث صراع وتحالف بين هذا الطرف

أو ذاك وبين ملوك النصارى، وانتهت هذه المرحلة بعقد صلح دائم بين قشتالة وأراجون وقرنطة والمغرب عام (772هـ = 1370م)، ثم توفي السلطان محمد الخامس الذي كان ملك البرتغال وسلطان بنى مرين قد ساعده على استرداد ملكة، وبعده تعاقب على عرش قرنطة عدد من السلاطين الضعاف وتعرضت المملكة لكثير من الفتن والدسائس والمؤامرات وجرت اتصالات وتحالفات مع ملوك النصارى، وبلغ الاضطراب حدا تعاقب فيه على مملكة قرنطة اثنا عشر سلطاناً خلال القرن (9هـ = 15م)، تولى بعضهم أكثر من مرة، فشهدت قرنطة اعتلاء عشرين سلطاناً على عرشها. حدث هذا في الوقت الذي شهدت إسبانيا المسيحية نهضة حربية وسياسية توجت بزواج «فرناندو الثالث» ملك أراجون من «إيزابيلا» ملكة قشتالة، واتحدت الدولتان في مملكة واحدة عام (874هـ = 1469م) بعد طول نزاع وحروب، وكان ذلك بداية النهاية لمملكة قرنطة الإسلامية التي استمر بقاؤها معتمداً - على حد كبير - على استغلال النزاع بين هاتين المملكتين، وبدأ الملكان الكاثوليكيان يعملان على إنهاء الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة، وعرف ذلك سلطان قرنطة فامتنع عن دفع الجزية لقشتالة وبدأ النزاع بين الجانبين، وتمكن النصارى من الاستيلاء على حصن «الحمة» عام (887هـ = 1482م). وزاد من سوء الموقف اشتغال الحروب الأهلية بين أفراد البيت الحاكم؛ فقد هجر السلطان أبا الحسن على ولده «أبو عبدالله محمد» و «يوسف» وأعلنوا الثورة على والدهما بسبب

(310/14)

---

خضوعه لسيطرة زوجته الرومية الأصل وإهماله أمهما، وقد قامت حروب بين الفريقين، أسفرت عن طرد السلطان أبي الحسن الذي

لجأ إلى مدينة بسطة، كما قتل ابنه يوسف وتولى ابنه أبو  
عبدالله على مملكة غرناطة، وقد تعرض السلطان الجديد لهزيمة  
على يد النصارى وأسروه ثم أطلقوا سراحه بعد أن أملوا عليه  
شروطهم، وواصل السلطان الجديد الحرب ضد والده الذي سرعان  
ما توفي وخلفه أخوه أبو عبدالله محمد الملقب بالزغل. انتهز  
النصارى فرصة هذه الفتن واستولوا على بعض المدن، وبعثوا  
إلى الزغل يعرضون تسليم ما معه من أراضٍ مقابل مال كثير  
فوافق ورحل إلى فاس، وهناك وضعه سلطان المغرب في  
السجن وصادر أمواله وسمل عينيه. وقد لجأت مملكة غرناطة في  
السنوات الأخيرة من عمرها إلى السلطات الحاكمة في مصر تطلب  
نجدتها، ولكن مصر المملوكية آنئذٍ لم يكن في مقدورها أن تفعل  
شيئاً بسبب ظروفها الداخلية، وكل ما استطاعته هو التهديد.  
بمعاملة المسيحيين في المشرق معاملة سيئة إذا ما تعرض  
المسلمون في الأندلس للإهانة، وقد أرسل الملكان المسيحيان  
سفارة إلى السلطان «قانسوه الغورى» عام (907هـ = 1501م)  
طمأنته على وضع المسلمين وأزالت التوتر بين الجانبين. وقد  
التقت قوات غرناطة والمرينيين من قبل وحاربوا قوات قشتالة  
وليون عند «أسنجة» جنوبي قرطبة سنة (647هـ = 1249م)،  
وتحمس المسلمون حماساً عظيماً ومزقوا قوات قشتالة شر ممزق،  
واضطر «ألفونسو العاشر» إلى طلب الصلح، وحدث لقاء مماثل  
قرب غرناطة عام (718هـ = 1318م) اتحد فيه المسلمون فحققوا  
نصراً مؤزرًا، وهذا يعنى أن قوة المسلمين في الأندلس كانت  
لاتزال تستطيع الدفاع عن نفسها ودحر عدوها إذا وحدث  
صفوفها وأدركت أهمية معاركها، ووعت جيداً دورها في  
مواجهة الأعداء وتثبيت أقدام المسلمين في أرض الأندلس، لكن  
النفور بين المرينيين وبين بنى نصر كان أكثر أذىً وأشد وطأة  
من خلافهم مع النصارى. وبقي عبدالله في الميدان وحده وقد

رفض تسليم غرناطة وصمم على القتال، وفي عام (896هـ = 1491م) قام الملك «فرناندو» بحصار غرناطة وأفسد زراعتها وأقام حولها القواعد، ثم توصل الطرفان إلى معاهدة التسليم، ودخل الملكان الكاثوليكيان مدينة غرناطة في (الثاني من ربيع الأول 897هـ = الثاني من يناير 1492م). بعض مظاهر الحضارة بغرناطة في عصر بني نصر: ازداد عدد السكان في مملكة غرناطة بسبب تدفق المهاجرين إليها من المدن الأخرى وبسبب هجرة المدجنين الذين أفتاهم فقهاؤهم بضرورة مغادرة البلاد التي سقطت في يد النصارى، فلجأ إليها العلماء والأدباء وعمامة الناس، كذلك عاش البربر الذين جاءوا لمعاونة غرناطة في حروبها ضد المسيحيين، كما تحدثت بعض المصادر عن عناصر سودانية خارج مالقة، وعن صوفية وفدوا من الهند وخراسان وبلاد فارس للمرابطة في سبيل الله، هذا بالإضافة إلى الأفارقة السود الذين عبروا إلى الأندلس منذ حركة الفتوح الأولى، وقد تغلغل حب الانتماء إلى القبائل العربية بين الأندلسيين، ويذكر في هذا أن بني نصر ملوك غرناطة ينسبون أنفسهم إلى الصحابي الجليل «سعد بن عباد» سيد الخرج وأحد زعماء الأنصار. العمارة في مملكة غرناطة: كان لغرناطة مسجد جامع من أبداع الجوامع وأحسنها منظرًا. لا يلاصقه بناء، قد قام سقفه على أعمدة حسان، والماء يجري داخله. وإلى جانب المسجد الجامع وجدت مساجد أخرى مهمة مثل: مسجد الحمراء وعدد من المساجد في الأحياء المختلفة. واشتهرت مساجد غرناطة باستخدام الرخام، كما عرفت المساجد الأندلسية بتجميل صحنها بجدران الفاكهة وأقيمت المآذن منفصلة عن المساجد يفصل بينها صحن المسجد، وكانت المثدنة عبارة عن أربعة أبراج مربعة

وتتكون من طابقين، ويحيط بها سور يزين أعلاه بكرات معدنية مختلفة، وحتى الآن توجد مئذنتان ترجعان إلى عصر دولة بني نصر، الأولى مئذنة مسجد تحول إلى كنيسة هي كنيسة «سان خوان دي لوس ريس»، والثاني ببلدة «رندة» التي تحول

(312/14)

مسجدها إلى كنيسة باسم «سان سباستيان». الناحية العلمية: أما في الناحية العلمية، فقد حافظت تلك الفترة على ما خطه السابقون وأضافت إليه، ونجد ثبناً طويلاً بأسماء اللامعين في كتاب الإحاطة لابن الخطيب، وفي نفح الطيب للمقرئ، كما أنشئت المدارس وتوافرت الاختراعات مثل: المدافع والبنادق التي استعملها المسلمون في دفاعهم عن غرناطة، ويحتفظ متحف مدريد الحربى بنماذج منها حتى الآن. كذلك ازدهرت صناعات عديدة منها: صناعة السفن، والمنسوجات، وقد أنتجت المصانع القماش الموشى بالذهب فى المرية ومالقة وأقمشة أخرى فى غرناطة وبسطة، وتم اتخاذ الفراء من بعض الحيوانات البحرية. كما عرفت المملكة صناعة الأصباغ والجلود والحلى وغيرها؛ كذلك اهتم بنو نصر بالزراعة وما يتصل بها من وسائل الري وأنواع المزروعات، وكانت مدينة غرناطة أجمل مدن العالم بشوارعها وميادينها وحدائقها ومرافقها وكانت تصدر صناعاتها إلى عدد من البلدان بعضها أوربي، وهناك أسماء كثيرة من أعلام الفكر ظهرت فى هذه الفترة منها: ابن البيطار وابن خاتمة وابن الخطيب، وهناك عدد من سلاطين بنى نصر ألفوا كتباً فى الأدب، ورعوا العلم ورجاله ومعاهده.

(313/14)

## \*الأحمر (بنو)

انفرط عقد الأندلس بعنف بعد هزيمة الموحدين في معركة «العقاب» أمام الجيوش الإسبانية والأوربية المتحالفة، وسارت الأمور من سيئ إلى أسوأ، والقواعد تخرج من قبضة الموحدين واحدة بعد الأخرى، ينتزع بعضها ابن هود الثائر وبعضها النصرارى وأتاحت هذه الظروف فرصة الظهور والمغامرة للطامحين من القادة والزعماء. في تلك الأثناء ظهر محمد بن يوسف بن نصر أو ابن الأحمر الملقب بالغالب بالله في وقت اشتدت فيه الحن، وانعقدت عليه الآمال؛ لتمييزه بالشجاعة ومجاهدة العدو، والتف حوله الناس وبايعوه في «أرجونة» وما حولها على بعد ثلاثين كيلو متراً من «جيان» في (رمضان 629هـ = يوليو 1232م) وتوافد عليه جنود الأندلس؛ فأعلن نفسه أميراً وانتقل إلى «جيان»، ودخلت في طاعته بلاد الجنوب كلها، لكنه أحس أنه في حاجة إلى معقل يعتصم به؛ لأن «جيان» مدينة مكشوفة، فوقع اختياره على غرناطة الواقعة عند سفح جبل الثلج، وكان يوجد في أعلى الجبل حصن منيع سبق تعميره أول عصر ملوك الطوائف، فتوجه إليه وسكنه واستقر به، وشيئاً فشيئاً أخذ يوسع نطاق سلطانه، حتى أصبحت دولته تضم بين جنباتها ثلاث ولايات كبيرة هي: غرناطة وألمرية، ومالقة، ووصلت حدودها إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط ومضيق جبل طارق، واتخذ مدينة غرناطة عاصمة لدولته، وساعد على دعم دولته استيلائه على ألمرية ومالقة لما لهما من أهمية عظيمة في المجالين التجارى والبحرى. وقد واجهت «ابن نصر» بعض المشكلات الداخلية والخارجية، منها: علاقته بأصحابه «بنى أشقيولة» الذين عاونوه ثم انقلبوا عليه، ونقص المال الذى كان في أشد الحاجة إليه لتثبيت قواعد سلطانه، ومشكلته مع ملوك

النصارى الذين أدركوا خطر دولته الناشئة وأرادوا القضاء عليها، فاضطر إلى أن يعقد معهم معاهدة صلح سنة (643هـ = 1245م) لمدة عشرين عامًا، وبمقتضاها حكم ابن الأحمر مملكته باسم ملك قشتالة «فرناندو الثالث» ودفع له جزية، ووافق على

(314/14)

حضور البلاط القشتالى باعتباره واحدًا من أمراء الملك، وعلى مده بالجنود كلما طلب منه ذلك، وبالفعل أمده ابن الأحمر بقوات ساعدت على سقوط «إشبيلية» في يد النصارى في (3 شعبان 646هـ = نوفمبر 1248م). وفي (جمادى الثانية 671هـ = ديسمبر 1272م) توفي محمد بن يوسف بن نصير الملقب بالشيخ، وكان قد أخذ البيعة لولده محمد، فأقر بذلك مبدأ الملكية الوراثية، وقد اعتلى محمد الثانى العرش ولقب بالفقيه؛ لاشتغاله بالعلم أيام أبيه، وقال عنه ابن الخطيب: «وهو الذى رتب رسوم الملك للدولة ووضع ألقاب خدمتها، ونظم دواوينها وجبايتها، هذا إلى جانب اعتنائه بالجيش وخاصة فرق الفرسان .. وكان سياسيا بارزاً .. ، أديبًا عالمًا، يقرض الشعر ويجالس العلماء والأدباء والأطباء والمنجمين والحكماء، والكتاب والشعراء». وقد واجه الأمير الجديد ثلاث مشكلات هي، مشكلته مع الإسبان، وقد نجح في تحقيق انتصارات عليهم منتهزًا فرصة موت مليكهم، ومع المرينيين الذين استنصر بهم ليعاونوه فى الجهاد ضد المسيحيين فإذا بهم يطمعون فى الاستيلاء على الأندلس، الشىء الذى دفعه إلى التحالف مع ملك أراجون تارة ومع ملك قشتالة تارة أخرى لدرء خطر المرينيين، وعلى الرغم من تحسن العلاقات بين غرناطة وفاس، فإن الفقيه لم يكن يطمئن إلى نياتهم، وقد دفعهم ذلك إلى التحالف مع النصارى مرات، وأخيرًا كانت هناك

مشكلة مع أصهار أبيه «بني أشقيلولة» التي اشتدت في زمنه، وانتهت بصدور أمر يقضى بتهجيرهم إلى مدينة القصر الكبير بشمالى المغرب جنوب مدينة سبتة سنة (687هـ = 1288 م). وعلى كل حال فقد توفى محمد الفقيه في (شعبان 701هـ = أبريل 1302م) بعد أن نجح في دعم دولته داخليا وخارجيا. تولى الأمر بعد محمد الفقيه ابنه أبو عبدالله محمد، وفي عهده تحالف ملكا قشتالة وأراجون على غزو مملكة غرناطة برا وبحرا، ولكن «المرية» تمكنت من الصمود في مواجهة أقصى هجوم عرفته

(315/14)

في تاريخها وتمكن جيشها بقيادة شيخ الغزاة «عثمان بن أبي العلاء» من هزيمة جيش أراجون، لكن العلاقة ساءت بين غرناطة وفاس، وقام صاحب مالقة بثورة عارمة ضد الحكومة المركزية، وكانت فتنة وقتال وحرب وهدنة استمرت أعوامًا ولم تنته إلا بموت الأمير. ثم تولى أبو الوليد إسماعيل بن فرح (713هـ = 1313م) الذى اشتهر بإقامة الحدود وتطبيق الشرع، وفي عهده قام القشتاليون بهجوم ضخم على غرناطة، انتهى بمقتل أميرى الجيش النصرانى فى مروج غرناطة، وانتهز الأمير فرصة منازعات بين أمراء قشتالة واستولى على بعض المدن القشتالية ومنها مدينة «أشكر»، وقد استخدم الغرناطيون المدفع لأول مرة عند منازلهم لها. ثم تولى أبو عبدالله محمد الرابع بن إسماعيل (725هـ = 1325م) الذى اشتهر بالشجاعة كما كان مغرماً بالصيد محبا للأدب والشعر، وفي عهده قامت بعض الفتن الداخلية التي انتهزها النصرارى واستولوا على عدد من الحصون، كما أحرز أسطولهم نصراً على الأسطول الإسلامى فى المرية ومالقة. وقد دفع هذا السلطان أن يعبر بنفسه إلى المغرب ليستنجد ببني

مرين الذين أجابوه إلى ما طلب، ونزلت قوات المرينيين على جبل الفتح وأمكنها الاستيلاء عليه عام (733هـ = 1333م)، ولكن السلطان قُتل في طريق عودته إلى غرناطة وتولى من بعده أخوه أبو الحجاج يوسف الأول. وشهدت مملكة غرناطة في عهده عصرها الذهبي، فأنشئت المدرسة اليوسفية والنصيرية، وجرى الاهتمام بتحصين البلاد، وإنشاء المصانع، وإقامة الحصون، وبناء السور العظيم حول ريبض البيازين في غرناطة، وأضيفت منشآت كثيرة إلى قصر الحمراء منها باب الشريعة وغيره، وكان السلطان حريصاً على تفقد أحوال شعبه بنفسه. ومن الأحداث العظام في عهده: الوباء الأسود الذي تفشى في حوض البحر الأبيض المتوسط عامي (749 - 750هـ = 1348 - 1349م)، وشمل المشرق والمغرب، وراح ضحيته عدد عظيم من علماء الأندلس ورجال الدين والأدب والسياسة فيها. وعلى الرغم

(316/14)

---

من قيام أبي الحجاج بعقد سلام مع ملك قشتالة عام (734هـ = 1334م) فإنه سرعان ما تحطم وبدأ صراع بين غرناطة والمغرب من ناحية، وقشتالة تساندها أراجون والبرتغال من ناحية أخرى حول السيطرة على جبل طارق، وبعد معارك انتهى الأمر بين كل الأطراف بعقد معاهدة مدتها عشر سنوات، وتوفي يوسف الأول قتيلاً في (أول شوال 755هـ = سبتمبر 1357م)، وتولى ابنه محمد الخامس الغني بالله، وحدث صراع وتحالف بين هذا الطرف أو ذاك وبين ملوك النصارى، وانتهت هذه المرحلة بعقد صلح دائم بين قشتالة وأراجون وغرناطة والمغرب عام (772هـ = 1370م)، ثم توفي السلطان محمد الخامس الذي كان ملك البرتغال وسلطان بني مرين قد ساعده على استرداد ملكه، وبعده

تعاقب على عرش غرناطة عدد من السلاطين الضعاف وتعرضت المملكة لكثير من الفتن والدسائس والمؤامرات وجرت اتصالات وتحالفات مع ملوك النصارى، وبلغ الاضطراب حدا تعاقب فيه على مملكة غرناطة اثنا عشر سلطاناً خلال القرن (9هـ = 15م)، تولى بعضهم أكثر من مرة، فشهدت غرناطة اعتلاء عشرين سلطاناً على عرشها. حدث هذا في الوقت الذى شهدت إسبانيا المسيحية نهضة حربية وسياسية توجت بزواج «فرناندو الثالث» ملك أراجون من «إيزابيلا» ملكة قشتالة، واتحدت الدولتان في مملكة واحدة عام (874هـ = 1469م) بعد طول نزاع وحروب، وكان ذلك بداية النهاية لمملكة غرناطة الإسلامية التى استمر بقاؤها معتمداً - على حد كبير - على استغلال النزاع بين هاتين المملكتين، وبدأ الملكان الكاثوليكيان يعملان على إنهاء الوجود الإسلامى فى شبه الجزيرة، وعرف ذلك سلطان غرناطة فامتنع عن دفع الجزية لقشتالة وبدأ النزاع بين الجانبين، وتمكن النصارى من الاستيلاء على حصن «الحمة» عام (887هـ = 1482م). وزاد من سوء الموقف اشتغال الحروب الأهلية بين أفراد البيت الحاكم؛ فقد هجر السلطان أبا الحسن على ولداه «أبو عبدالله محمد» و «يوسف» وأعلنا الثورة على والدهما بسبب

(317/14)

---

خضوعه لسيطرة زوجته الرومية الأصل وإهماله أمهما، وقد قامت حروب بين الفريقين، أسفرت عن طرد السلطان أبى الحسن الذى لجأ إلى مدينة بسطة، كما قتل ابنه يوسف وتولى ابنه أبو عبدالله على مملكة غرناطة، وقد تعرض السلطان الجديد لهزيمة على يد النصارى وأسروه ثم أطلقوا سراحه بعد أن أملوا عليه شروطهم، وواصل السلطان الجديد الحرب ضد والده الذى سرعان

ما توفي وخلفه أخوه أبو عبدالله محمد الملقب بالزغل. انتهز النصارى فرصة هذه الفتن واستولوا على بعض المدن، وبعثوا إلى الزغل يعرضون تسليم ما معه من أراضٍ مقابل مال كثير فوافق ورحل إلى فاس، وهناك وضعه سلطان المغرب في السجن وصادر أمواله وسمل عينيه. وقد لجأت مملكة غرناطة في السنوات الأخيرة من عمرها إلى السلطات الحاكمة في مصر تطلب نجدتها، ولكن مصر المملوكية آنئذٍ لم يكن في مقدورها أن تفعل شيئاً بسبب ظروفها الداخلية، وكل ما استطاعته هو التهديد بمعاملة المسيحيين في المشرق معاملة سيئة إذا ما تعرض المسلمون في الأندلس للإهانة، وقد أرسل الملكان المسيحيان سفارة إلى السلطان «قانسوه الغورى» عام (907هـ = 1501م) طمأنته على وضع المسلمين وأزالت التوتر بين الجانبين. وقد التقت قوات غرناطة والمرينيين من قبل وحاربوا قوات قشتالة وليون عند «أسنجة» جنوبي قرطبة سنة (647هـ = 1249م)، وتحمس المسلمون حماساً عظيماً ومزقوا قوات قشتالة شر ممزق، واضطر «ألفونسو العاشر» إلى طلب الصلح، وحدث لقاء مماثل قرب غرناطة عام (718هـ = 1318م) اتحد فيه المسلمون فحققوا نصراً مؤزراً، وهذا يعنى أن قوة المسلمين في الأندلس كانت لا تزال تستطيع الدفاع عن نفسها ودحر عدوها إذا وحدث صفوفها وأدركت أهمية معاركها، ووعت جيداً دورها في مواجهة الأعداء وتثبيت أقدام المسلمين في أرض الأندلس، لكن النفور بين المرينيين وبين بنى نصر كان أكثر أذىً وأشد وطأة من خلافهم مع النصارى. وبقي عبدالله في الميدان وحده وقد

رفض تسليم غرناطة وصمم على القتال، وفي عام (896هـ = 1491م) قام الملك «فرناندو» بحصار غرناطة وأفسد زراعتها وأقام حولها القواعد، ثم توصل الطرفان إلى معاهدة التسليم، ودخل الملكان الكاثوليكيان مدينة غرناطة في (الثاني من ربيع الأول 897هـ = الثاني من يناير 1492م). بعض مظاهر الحضارة بغرناطة في عصر بني نصر: ازداد عدد السكان في مملكة غرناطة بسبب تدفق المهاجرين إليها من المدن الأخرى وبسبب هجرة المدجنين الذين أفتاهم فقهاؤهم بضرورة مغادرة البلاد التي سقطت في يد النصارى، فلجأ إليها العلماء والأدباء وعامة الناس، كذلك عاش البربر الذين جاءوا لمعاونة غرناطة في حروبها ضد المسيحيين، كما تحدثت بعض المصادر عن عناصر سودانية خارج مالقة، وعن صوفية وفدوا من الهند وخراسان وبلاد فارس للمرابطة في سبيل الله، هذا بالإضافة إلى الأفارقة السود الذين عبروا إلى الأندلس منذ حركة الفتح الأولى، وقد تغلغل حب الانتماء إلى القبائل العربية بين الأندلسيين، ويذكر في هذا أن بني نصر ملوك غرناطة ينسبون أنفسهم إلى الصحابي الجليل «سعد بن عباد» سيد الخزرج وأحد زعماء الأنصار. العمارة في مملكة غرناطة: كان لغرناطة مسجد جامع من أبداع الجوامع وأحسنها منظرًا. لا يلاصقه بناء، قد قام سقفه على أعمدة حسان، والماء يجري داخله. وإلى جانب المسجد الجامع وجدت مساجد أخرى مهمة مثل: مسجد الحمراء وعدد من المساجد في الأحياء المختلفة. واشتهرت مساجد غرناطة باستخدام الرخام، كما عرفت المساجد الأندلسية بتجميل صحنها بمذائق الفاكهة وأقيمت المآذن منفصلة عن المساجد يفصل بينها صحن المسجد، وكانت المئذنة عبارة عن أربعة أبراج مربعة وتتكون من طابقين، ويحيط بها سور يزين أعلاه بكرات معدنية مختلفة، وحتى الآن توجد مئذنتان ترجعان إلى عصر دولة بني

نصر، الأولى مئذنة مسجد تحول إلى كنيسة هي كنيسة «سان  
خوان دى لوس ريس»، والثاني ببلدة «رندة» التي تحول

(319/14)

---

مسجدها إلى كنيسة باسم «سان سباستيان». الناحية العلمية:  
أما في الناحية العلمية، فقد حافظت تلك الفترة على ما خطه  
السابقون وأضافت إليه، ونجد ثبناً طويلاً بأسماء اللامعين في  
كتاب الإحاطة لابن الخطيب، وفي نفح الطيب للمقرئ، كما  
أنشئت المدارس وتوافرت الاختراعات مثل: المدافع والبنادق التي  
استعملها المسلمون في دفاعهم عن غرناطة، ويحتفظ متحف  
مدريد الحربي بنماذج منها حتى الآن. كذلك ازدهرت صناعات  
عديدة منها: صناعة السفن، والمنسوجات، وقد أنتجت المصانع  
القماش الموشى بالذهب في ألمرية ومالقة وأقمشة أخرى في  
غرناطة وبسطة، وتم اتخاذ الفراء من بعض الحيوانات البحرية.  
كما عرفت المملكة صناعة الأصباغ والجلود والحلى وغيرها؛  
كذلك اهتم بنو نصر بالزراعة وما يتصل بها من وسائل الري  
 وأنواع المزروعات، وكانت مدينة غرناطة أجمل مدن العالم  
 بشوارعها وميادينها وحدائقها ومرافقها وكانت تصدر صناعاتها  
 إلى عدد من البلدان بعضها أوربي، وهناك أسماء كثيرة من  
 أعلام الفكر ظهرت في هذه الفترة منها: ابن البيطار وابن خاتمة  
 وابن الخطيب، وهناك عدد من سلاطين بني نصر ألفوا كتباً في  
 الأدب، ورعوا العلم ورجاله ومعاهده.

(320/14)

---

## \*غرناطة (دولة)

انفرد عقد الأندلس بعنف بعد هزيمة الموحدين في معركة «العقاب» أمام الجيوش الإسبانية والأوربية المتحالفة، وسارت الأمور من سيئ إلى أسوأ، والقواعد تخرج من قبضة الموحدين واحدة بعد الأخرى، ينتزع بعضها ابن هود الثائر وبعضها النصرى وأتاحت هذه الظروف فرصة الظهور والمغامرة للطامحين من القادة والزعماء. في تلك الأثناء ظهر محمد بن يوسف بن نصر أو ابن الأحمر الملقب بالغالب بالله في وقت اشتدت فيه الحن، وانعقدت عليه الآمال؛ لتميزه بالشجاعة ومجاهدة العدو، والتف حوله الناس وبايعوه في «أرجونة» وما حولها على بعد ثلاثين كيلو متراً من «جيان» في (رمضان 629هـ = يوليو 1232م) وتوافد عليه جنود الأندلس؛ فأعلن نفسه أميراً وانتقل إلى «جيان»، ودخلت في طاعته بلاد الجنوب كلها، لكنه أحس أنه في حاجة إلى معقل يعتصم به؛ لأن «جيان» مدينة مكشوفة، فوقع اختياره على غرناطة الواقعة عند سفح جبل الثلج، وكان يوجد في أعلى الجبل حصن منيع سبق تعميره أول عصر ملوك الطوائف، فتوجه إليه وسكنه واستقر به، وشيئاً فشيئاً أخذ يوسع نطاق سلطانه، حتى أصبحت دولته تضم بين جنبتها ثلاث ولايات كبيرة هي: غرناطة وألمرية، ومالقة، ووصلت حدودها إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط ومضيق جبل طارق، واتخذ مدينة غرناطة عاصمة لدولته، وساعد على دعم دولته استيلائه على ألمرية ومالقة لما لهما من أهمية عظيمة في المجالين التجارى والبحرى. وقد واجهت «ابن نصر» بعض المشكلات الداخلية والخارجية، منها: علاقته بأصهاره «بني أشقبولة» الذين عاونوه ثم انقلبوا عليه، ونقص المال الذى كان في أشد الحاجة إليه لتثبيت قواعد سلطانه، ومشكلته مع ملوك النصرى الذين أدركوا خطر دولته الناشئة وأرادوا القضاء عليها، فاضطر إلى أن يعقد معهم معاهدة صلح سنة (643هـ =

1245م) لمدة عشرين عامًا، وبمقتضاها حكم ابن الأحمر مملكته باسم ملك قشتالة «فرناندو الثالث» ودفع له جزية، ووافق على

(321/14)

حضور البلاط القشتالي باعتباره واحدًا من أمراء الملك، وعلى مده بالجنود كلما طلب منه ذلك، وبالفعل أمدّه ابن الأحمر بقوات ساعدت على سقوط «إشبيلية» في يد النصارى في (3 شعبان 646هـ = نوفمبر 1248م). وفي (جمادى الثانية 671هـ = ديسمبر 1272م) توفي محمد بن يوسف بن نصير الملقب بالشيخ، وكان قد أخذ البيعة لولده محمد، فأقر بذلك مبدأ الملكية الوراثية، وقد اعتلى محمد الثاني العرش ولقب بالفقيه؛ لاشتغاله بالعلم أيام أبيه، وقال عنه ابن الخطيب: «وهو الذى رتب رسوم الملك للدولة ووضع ألقاب خدمتها، ونظم دواوينها وجبايتها، هذا إلى جانب اعتنائه بالجيش وخاصة فرق الفرسان .. وكان سياسيا بارزاً .. ، أديبًا عالمًا، يقرض الشعر ويجالس العلماء والأدباء والأطباء والمنجمين والحكماء، والكتاب والشعراء». وقد واجه الأمير الجديد ثلاث مشكلات هي، مشكلته مع الإسبان، وقد نجح في تحقيق انتصارات عليهم منتهزًا فرصة موت مليكهم، ومع المرينيين الذين استنصر بهم ليعاونوه في الجهاد ضد المسيحيين فإذا بهم يطمعون فى الاستيلاء على الأندلس، الشىء الذى دفعه إلى التحالف مع ملك أراجون تارة ومع ملك قشتالة تارة أخرى لدرء خطر المرينيين، وعلى الرغم من تحسن العلاقات بين غرناطة وفاس، فإن الفقيه لم يكن يطمئن إلى نياتهم، وقد دفعهم ذلك إلى التحالف مع النصارى مرات، وأخيرًا كانت هناك مشكلة مع أصهار أبيه «بنى أشقيلولة» التى اشتدت فى زمنه، وانتهت بصدور أمر يقضى بتهجيرهم إلى مدينة القصر الكبير

بشمالي المغرب جنوب مدينة سبتة سنة (687هـ = 1288 م).  
وعلى كل حال فقد توفي محمد الفقيه في (شعبان 701هـ =  
أبريل 1302م) بعد أن نجح في دعم دولته داخليا وخارجيا. تولى  
الأمر بعد محمد الفقيه ابنه أبو عبدالله محمد، وفي عهده تحالف  
ملكا قشتالة وأراجون على غزو مملكة غرناطة برا وبحرا، ولكن  
«ألمرية» تمكنت من الصمود في مواجهة أقصى هجوم عرفته

(322/14)

في تاريخها وتمكن جيشها بقيادة شيخ الغزاة «عثمان بن أبي  
العلاء» من هزيمة جيش أراجون، لكن العلاقة ساءت بين غرناطة  
وفاس، وقام صاحب مالقة بثورة عارمة ضد الحكومة المركزية،  
وكانت فتنة وقتال وحرب وهدنة استمرت أعوامًا ولم تنته إلا  
بموت الأمير. ثم تولى أبو الوليد إسماعيل بن فرح (713هـ =  
1313م) الذي اشتهر بإقامة الحدود وتطبيق الشرع، وفي عهده  
قام القشتاليون بهجوم ضخم على غرناطة، انتهى بمقتل أميرى  
الجيش النصراني في مروج غرناطة، وانتهاز الأمير فرصة  
منازعات بين أمراء قشتالة واستولى على بعض المدن القشتالية  
ومنها مدينة «أشكر»، وقد استخدم الغرناطيون المدفع لأول مرة  
عند منازلهم لها. ثم تولى أبو عبدالله محمد الرابع بن إسماعيل  
(725هـ = 1325م) الذي اشتهر بالشجاعة كما كان مغرماً بالصيد  
محباً للأدب والشعر، وفي عهده قامت بعض الفتن الداخلية التي  
انتهزها النصارى واستولوا على عدد من الحصون، كما أحرز  
أسطولهم نصراً على الأسطول الإسلامي في ألمرية ومالقة. وقد  
دفع هذا السلطان أن يعبر بنفسه إلى المغرب ليستنجد ببني  
مربن الذين أجابوه إلى ما طلب، ونزلت قوات المرينيين على  
جبل الفتح وأمكنها الاستيلاء عليه عام (733هـ = 1333م)، ولكن

السلطان قُتل في طريق عودته إلى غرناطة وتولى من بعده أخوه أبو الحجاج يوسف الأول. وشهدت مملكة غرناطة في عهده عصرها الذهبي، فأنشئت المدرسة اليوسفية والنصيرية، وجرى الاهتمام بتحصين البلاد، وإنشاء المصانع، وإقامة الحصون، وبناء السور العظيم حول ريبض البيازين في غرناطة، وأضيفت منشآت كثيرة إلى قصر الحمراء منها باب الشريعة وغيره، وكان السلطان حريصاً على تفقد أحوال شعبه بنفسه. ومن الأحداث العظام في عهده: الوباء الأسود الذي تفشى في حوض البحر الأبيض المتوسط عامي (749 - 750 هـ = 1348 - 1349م)، وشمل المشرق والمغرب، وراح ضحيته عدد عظيم من علماء الأندلس ورجال الدين والأدب والسياسة فيها. وعلى الرغم

(323/14)

---

من قيام أبي الحجاج بعقد سلام مع ملك قشتالة عام (734 هـ = 1334م) فإنه سرعان ما تحطم وبدأ صراع بين غرناطة والمغرب من ناحية، وقشتالة تساندها أراجون والبرتغال من ناحية أخرى حول السيطرة على جبل طارق، وبعد معارك انتهى الأمر بين كل الأطراف بعقد معاهدة مدتها عشر سنوات، وتوفي يوسف الأول قتيلاً في (أول شوال 755 هـ = سبتمبر 1357م)، وتولى ابنه محمد الخامس الغني بالله، وحدث صراع وتحالف بين هذا الطرف أو ذاك وبين ملوك النصارى، وانتهت هذه المرحلة بعقد صلح دائم بين قشتالة وأراجون وغرناطة والمغرب عام (772 هـ = 1370م)، ثم توفي السلطان محمد الخامس الذي كان ملك البرتغال وسلطان بني مرين قد ساعده على استرداد ملكه، وبعده تعاقب على عرش غرناطة عدد من السلاطين الضعاف وتعرضت المملكة لكثير من الفتن والدسائس والمؤامرات وجرت اتصالات

وتحالفات مع ملوك النصارى، وبلغ الاضطراب حدا تعاقب فيه على مملكة غرناطة اثنا عشر سلطاناً خلال القرن (9هـ = 15م)، تولى بعضهم أكثر من مرة، فشهدت غرناطة اعتلاء عشرين سلطاناً على عرشها. حدث هذا في الوقت الذى شهدت إسبانيا المسيحية نهضة حربية وسياسية توجت بزواج «فرناندو الثالث» ملك أراجون من «إيزابيلا» ملكة قشتالة، واتحدت الدولتان في مملكة واحدة عام (874هـ = 1469م) بعد طول نزاع وحروب، وكان ذلك بداية النهاية لمملكة غرناطة الإسلامية التى استمر بقاؤها معتمداً - على حد كبير - على استغلال النزاع بين هاتين المملكتين، وبدأ الملكان الكاثوليكيان يعملان على إنهاء الوجود الإسلامى فى شبه الجزيرة، وعرف ذلك سلطان غرناطة فامتنع عن دفع الجزية لقشتالة وبدأ النزاع بين الجانبين، وتمكن النصارى من الاستيلاء على حصن «الحمة» عام (887هـ = 1482م). وزاد من سوء الموقف اشتغال الحروب الأهلية بين أفراد البيت الحاكم؛ فقد هجر السلطان أبا الحسن على ولداه «أبو عبدالله محمد» و «يوسف» وأعلننا الثورة على والدهما بسبب

(324/14)

---

خضوعه لسيطرة زوجته الرومية الأصل وإهماله أمهما، وقد قامت حروب بين الفريقين، أسفرت عن طرد السلطان أبى الحسن الذى لجأ إلى مدينة بسطة، كما قتل ابنه يوسف وتولى ابنه أبو عبدالله على مملكة غرناطة، وقد تعرض السلطان الجديد لهزيمة على يد النصارى وأسروه ثم أطلقوا سراحه بعد أن أملوا عليه شروطهم، وواصل السلطان الجديد الحرب ضد والده الذى سرعان ما توفى وخلفه أخوه أبو عبدالله محمد الملقب بالزغل. انتهز النصارى فرصة هذه الفتن واستولوا على بعض المدن، وبعثوا

إلى الزغل يعرضون تسليم ما معه من أراضٍ مقابل مال كثير فوافق ورحل إلى فاس، وهناك وضعه سلطان المغرب في السجن وصادر أمواله وسمل عينيه. وقد لجأت مملكة غرناطة في السنوات الأخيرة من عمرها إلى السلطات الحاكمة في مصر تطلب نجدتها، ولكن مصر المملوكية آتتد لم يكن في مقدورها أن تفعل شيئاً بسبب ظروفها الداخلية، وكل ما استطاعته هو التهديد. بمعاملة المسيحيين في المشرق معاملة سيئة إذا ما تعرض المسلمون في الأندلس للإهانة، وقد أرسل الملكان المسيحيان سفارة إلى السلطان «قانسوه الغورى» عام (907هـ = 1501م) طمأنته على وضع المسلمين وأزالت التوتر بين الجانبين. وقد التقت قوات غرناطة والمرينيين من قبل وحاربوا قوات قشتالة وليون عند «أسنجة» جنوب قرطبة سنة (647هـ = 1249م)، وتحمس المسلمون حماساً عظيماً ومزقوا قوات قشتالة شر ممزق، واضطر «ألفونسو العاشر» إلى طلب الصلح، وحدث لقاء مماثل قرب غرناطة عام (718هـ = 1318م) اتحد فيه المسلمون فحققوا نصراً مؤزراً، وهذا يعنى أن قوة المسلمين في الأندلس كانت لاتزال تستطيع الدفاع عن نفسها ودحر عدوها إذا وحدت صفوفها وأدركت أهمية معاركها، ووعت جيداً دورها في مواجهة الأعداء وتثبيت أقدام المسلمين في أرض الأندلس، لكن النفور بين المرينيين وبين بنى نصر كان أكثر أذىً وأشد وطأة من خلافهم مع النصارى. وبقي عبدالله في الميدان وحده وقد

(325/14)

---

رفض تسليم غرناطة وصمم على القتال، وفي عام (896هـ = 1491م) قام الملك «فرناندو» بحصار غرناطة وأفسد زراعتها وأقام حولها القواعد، ثم توصل الطرفان إلى معاهدة التسليم،

ودخل الملك الكاثوليكيان مدينة غرناطة في (الثاني من ربيع  
الأول 897هـ = الثاني من يناير 1492م). بعض مظاهر الحضارة  
بغرناطة في عصر بنى نصر: ازداد عدد السكان في مملكة  
غرناطة بسبب تدفق المهاجرين إليها من المدن الأخرى وبسبب  
هجرة المدجنين الذين أفتاهم فقهاؤهم بضرورة مغادرة البلاد  
التي سقطت في يد النصارى، فلجأ إليها العلماء والأدباء وعامة  
الناس، كذلك عاش البربر الذين جاءوا لمعاونة غرناطة في  
حروبها ضد المسيحيين، كما تحدثت بعض المصادر عن عناصر  
سودانية خارج مالقة، وعن صوفية وفدوا من الهند وخراسان  
وبلاد فارس للمرابطة في سبيل الله، هذا بالإضافة إلى الأفارقة  
السود الذين عبروا إلى الأندلس منذ حركة الفتوح الأولى، وقد  
تغلغل حب الانتماء إلى القبائل العربية بين الأندلسيين، ويذكر  
في هذا أن بنى نصر ملوك غرناطة ينسبون أنفسهم إلى  
الصحابي الجليل «سعد بن عباد» سيد الخزرج وأحد زعماء  
الأنصار. العمارة في مملكة غرناطة: كان لغرناطة مسجد جامع  
من أبداع الجوامع وأحسنها منظرًا. لا يلاصقه بناء، قد قام سقفه  
على أعمدة حسان، والماء يجري داخله. وإلى جانب المسجد  
الجامع وجدت مساجد أخرى مهمة مثل: مسجد الحمراء وعدد من  
المساجد في الأحياء المختلفة. واشتهرت مساجد غرناطة  
باستخدام الرخام، كما عرفت المساجد الأندلسية بتجميل صحنها  
بجدران الفاكهة وأقيمت المآذن منفصلة عن المساجد يفصل بينها  
صحن المسجد، وكانت المئذنة عبارة عن أربعة أبراج مربعة  
وتتكون من طابقين، ويحيط بها سور يزين أعلاه بكرات معدنية  
مختلفة، وحتى الآن توجد مئذنتان ترجعان إلى عصر دولة بنى  
نصر، الأولى مئذنة مسجد تحول إلى كنيسة هي كنيسة «سان  
خوان دى لوس ريس»، والثاني ببلدة «زندة» التي تحول

---

مسجدها إلى كنيسة باسم «سان سباستيان». الناحية العلمية: أما في الناحية العلمية، فقد حافظت تلك الفترة على ما خطه السابقون وأضافت إليه، ونجد ثبناً طويلاً بأسماء اللامعين في كتاب الإحاطة لابن الخطيب، وفي نفح الطيب للمقرئ، كما أنشئت المدارس وتوافرت الاختراعات مثل: المدافع والبنادق التي استعملها المسلمون في دفاعهم عن غرناطة، ويحتفظ متحف مدريد الحربى بنماذج منها حتى الآن. كذلك ازدهرت صناعات عديدة منها: صناعة السفن، والمنسوجات، وقد أنتجت المصانع القماش الموشى بالذهب فى ألمرية ومالقة وأقمشة أخرى فى غرناطة وبسطة، وتم اتخاذ الفراء من بعض الحيوانات البحرية. كما عرفت المملكة صناعة الأصباغ والجلود والحلى وغيرها؛ كذلك اهتم بنو نصر بالزراعة وما يتصل بها من وسائل الرى وأنواع المزروعات، وكانت مدينة غرناطة أجمل مدن العالم بشوارعها وميادينها وحدائقها ومرافقها وكانت تصدر صناعاتها إلى عدد من البلدان بعضها أوربي، وهناك أسماء كثيرة من أعلام الفكر ظهرت فى هذه الفترة منها: ابن البيطار وابن خاتمة وابن الخطيب، وهناك عدد من سلاطين بنى نصر ألفوا كتباً فى الأدب، ورعوا العلم ورجاله ومعاهده.

(327/14)

---

#### \* العامرية (دولة)

بعد أن أصبحت السيطرة كاملة لابن أبى عامر فكر فى إنشاء مدينة جديدة يتوافر فيها الأمان ومظاهر السلطان فكانت مدينته الزاهرة أو العامرية شرقى قرطبة التى استغرق بناؤها عامين، وضمت قصرًا ومسجدًا ودواوين للإدارة ومساكن للحرس،

ونقل خزائن المال والسلاح إليها، وأقيم حولها سور ضخيم كما  
بنى خندقاً وتم إقطاع ضواحيها للوزراء والقادة، فابتنوا الدور  
وأنشئت الشوارع والأسواق حتى اتصلت مبانيها بضواحي  
قرطبة، وقد انتقل إليها ابن أبي عامر سنة (370هـ = 980م)،  
واتخذ له حرساً خاصاً من الصقالبة والبربر أحاطوا بقصره،  
ومنعوا الدخول والخروج إليه، وبذلك أقفرت قرطبة وأقفر  
قصرها ونقلت كل مظاهر السلطان إلى المدينة الجديدة، ومنع  
الخليفة من أى حركة إلا بإذن ابن أبي عامر حماية له من  
المتآمرين وحتى يتفرغ للعبادة كما زعم. حاولت «صبح» بعد هذا  
التطور أن تستبعد «ابن أبي عامر» مستعينة بمنافسيه، ولجأت  
إلى القائد «غالب» - صاحب الثغر - فى سرية تامة، فرد ابن أبي  
عامر بتقريب «جعفر بن على بن حمدون الأندلسى» - وهو بربرى  
من زناتة - عبر البحر وتقلد الوزارة، واستعان به ابن أبي عامر  
على كسب مودة البربر الذين توافدوا من عدوة المغرب إلى  
الأندلس، وغمرهم بأمواله. أراد غالب مصانعة ابن أبي عامر  
فدعاه إلى غزوة مشتركة فى أراضى قشتالة، وأقام له وليمة  
دخل معه خلالها فى نقاش عنيف ورفع السيف فأصيب ابن أبي  
عامر، لكنه استطاع الفرار وذهب إلى دار غالب بمدينة سالم  
واستولى على كل ما كان فيها، ثم دخل الفريقان فى قتال عند  
حصن «شنت بجنت» يعاون غالب ملك ليون، وانتهى الأمر بموت  
غالب وهزيمة أعوانه من المسلمين والنصارى فى (4 المحرم سنة  
371هـ = 10 يوليو 981م). غزوات ابن أبي عامر: بدأت سلسلة  
هذه الغزوات الشهيرة بعد أن استقرت الأمور لابن أبي عامر،  
ووصل عددها إلى نحو أربع وخمسين غزوة استقصى المؤرخ

القرطبي ابن حيان أخبارها في كتاب له مفقود عنوانه «الدولة العامرية» ويتحدث عنها ابن خلدون فيقول: «غزا ابن أبي عامر اثنتين وخمسين غزوة في سائر أيام ملكه، لم ينكسر له فيها راية ولا فل له جيش ولا أصيب له بعث ولا هلكت له سرية». وقد بدأ «ابن أبي عامر» غزواته بمملكة «ليون»؛ ليعاقب ملكها على معاونته لغالب، وقد تحالف ضده ملوك النصارى الثلاثة: ملك ليون، وملك قشتالة، وملك نبرة، وجرت بينه وبينهم موقعة عند «سنت منكش» انتصر فيها «ابن أبي عامر»، ووصل إلى عاصمة مملكة «ليون»، ثم عاد إلى «قرطبة» سنة (371هـ = 981م) بسبب حلول الشتاء، وبعد عدة أشهر من عودته اتخذ لنفسه لقب «الحاجب المنصور» ودعى له على المنابر وصدرت الكتب باسمه ونقش على السكّة، وقبّل المسئولون وكبار الموظفين والوزراء يده وأصبح هو كل شيء. وفي سنة (274هـ = 984م) خرج «المنصور» إلى شمال شرقي «الأندلس» على رأس جيش ضخم مر بغرناطة ثم «بسطة» فلورقة فمرسية، ثم اتجه شمالاً إلى «برشلونة»، حيث دخل منطقة «قطلونية»، ثم اقتحم مدينة «برشلونة» ودمرها وأحرقها في (صفر 375هـ = يوليو 985م)، ولم يحاول المنصور الاحتفاظ ببرشلونة، وإنما قصد إلى تدمير قوى النصارى في هذه المنطقة النائية. ثم قام المنصور عام (378هـ = 988م) بغزو مملكة ليون بعد أن انقض ملكهم على المسلمين، وطاردهم إلى آخر حدود بلاده، فسار المنصور شمالاً إلى ليون، ثم غرباً إلى مدينة قلمرية شمالي البرتغال بالقرب من المحيط واستولى عليها وبقيت خراباً مدة سبعة أعوام، ثم سار المنصور نحو مملكة «نبرة» وقصد عاصمتها «بنبلونة» رداً على إغارة ملكهم على أراضي المسلمين، وغزوة المنصور هذه تسمى غزوة البياض، وقد عاد بجيشه إلى «سرقسطة» والتقى هناك بابنة عبدالمملك بعد عودته ظافراً من حروبه في بلاد

المغرب كما سنشير فيما بعد. وفي ربيع سنة (378هـ = 988م) خرج المنصور في جيش ضخم، واخترق مملكة ليون واستولى

(329/14)

على عاصمتها بعد معارك عنيفة، ثم سار إلى «سحورة» وحاصرها حتى سلمت، واعترف النبلاء له بالطاعة، ولم يبق تحت سيطرة ملك ليون إلا المنطقة الجبلية الواقعة شمالى غربى إقليم جليقية. وأثناء قيام المنصور بغزوته هذه رقم (45) انضم ابنه «عبدالله» إلى ملك قشتالة بتحريض من صاحب الثغر الأعلى «عبدالرحمن بن مطرف التجيبى» وكانت عاصمته «سرقسطة»، ولكن المنصور ضغط على الملك النصرانى عن طريق العمليات العسكرية المتتالية فسلمه ابنه، ولم يتردد المنصور في قتل ولده في الحال. ثم قام «المنصور» سنة (387هـ = 997م) بأعظم غزوة قام بها متجهًا نحو منطقة جليقية، وهى منطقة وعرة من الصعب غزوها؛ لأنها ملاذ ملوك ليون يلجئون إليها كلما ضيق المسلمون الخناق عليهم، فخرج المنصور إليها من قرطبة في (شهر جمادى الآخر سنة 387هـ = 997م)، وفي الوقت نفسه تحرك الأسطول الأندلسى في مياه البرتغال يحمل المشاة والأقوات والذخيرة، وعبر المنصور الجبال والأنهار حتى وصل إلى مدينة قورية، ثم زحف نحو الشمال الغربى واستولى على مدينتى: «بازو» و «قلمرية»؛ حيث وفد إليه العديد من أمراء النصارى وانضموا إلى جيشه وأطاعوه، بعد ذلك توجهت القوات الإسلامية شمالا نحو نهر «دويرة»، حيث وافاه الأسطول، فجعله جسرًا عبر به صوب جليقية، وسار في شعب الجبال، ثم التزم المشى بجذاء الشاطئ يهدم ويخرب، ففرت أمامه جموع النصارى، وظل المنصور يواصل عملياته حتى انتهى إلى مدينة «سنت ياقب»

المقدسة عند النصارى فدخلها ثم سار المنصور حتى وصل إلى شاطئ المحيط وتابع سيره إلى أن أصبح في شمال البرتغال الحديثة، وهناك وزع الهدايا على المواليين له من زعماء النصارى وطلب منهم أن يعودوا إلى بلادهم ورجع هو إلى مدينته الزاهرة. وقد هزت هذه الغزوة إسبانيا النصرانية، وبقي تأثيرها بضع سنين وكانت الثامنة والأربعين من بين مجموع غزواته. ثم قام المنصور بعد ذلك بغزوات في سنوات (389، 390هـ = 999،

(330/14)

1000م) في أراضي نبرة وقشتالة؛ حيث واجه جموع النصارى متحدين مصممين على النيل منه، وتعرض المسلمون للهزيمة أول الأمر، لكن المنصور صعد على ربوة عالية، وأخذ يضاعف جهوده ويجرض الناس، حتى تمكن من تحويل الهزيمة إلى نصر ومزق العدو شر ممزق، وتوالى زحفه حتى اقتحم مدينة «برغش»، ومنها توجه إلى «سرقسطة»، ثم إلى «بنبلونة» عاصمة «نبرة» دون أن يجزؤ أحد على اعتراضه وأخيراً رجع إلى العاصمة بعد تسعة ومائة يوم. وفي ربيع (392هـ = 1002م) خرج المنصور لآخر مرة، وتوجّه إلى قشتالة ومنها اتجه غرباً نحو «برغش» وعاث في تلك المنطقة، وتقول المصادر النصرانية إنه تعرض لهزيمة على أيدي ملوك النصارى متحدين، وإنه اضطر إلى الفرار في جنح الظلام بعد موقعة معهم جرت أحداثها بمكان يسمى «قلعة النسور»، وقد جرح المنصور ثم مات بعد ذلك متأثراً بجراحه، لكن الباحثين المحدثين - ومنهم المستشرق الهولندي دوزي - يرفضون هذه الرواية لأنها تخالف الحقائق التاريخية الثابتة، فهي تتحدث عن تحالف بين ملوك من النصارى ماتوا قبل هذه الموقعة، أضف إلى ذلك أن المصادر الإسلامية لاتذكر شيئاً عن تلك الموقعة، مع

أما لا تخفى هزائم المسلمين، فالصمت قرينة على أنه لم تكن هناك هزيمة ولا حتى موقعة أصلاً. ومهما يكن من أمر فقد سار المنصور في حملته هذه محمولا حتى وصل إلى «مدينة سالم»، وهناك وافاه الأجل في (27 رمضان 392هـ = 11 أغسطس 1002م) بعد حكم دام 27 عامًا. المنصور وولاية العهد: اتخذ المنصور في سنة (381هـ = 991م) خطة غير مسبوقه بهدف دعم سلطانه فرش ابنه عبدالملك ليتولى الأمر من بعده، وتنازل له عن الحجابة والقيادة وجميع ما كان يتولى من خطط مكتفياً بلقب «المنصور» ثم تلقب بالملك الكرم في سنة (386هـ = 996م) وبولغ في تعظيمه وإجلاله، ولم يكن المنصور يقصد أن تجتمع السلطات في يده، فكل السلطات السياسية والعسكرية في

(331/14)

قبضة يديه بالفعل، لكنه أراد أن يصيغ حكمه بالصيغة الشرعية، وأن تكون له رسوم الملك والخلافة، ويقوم بتأسيس دولة تحل محل دولة بني أمية، لكن الظروف لم تكن مهيأة فالناس لا تميل كثيراً إلى المنصور؛ بسبب الوسائل الدموية التي لجأ إليها لتصفية خصومه. الجيش في عهد المنصور: أعطى المنصور اهتماماً كبيراً للجيش، فعنى بتنظيمه، واستقدم قوات تعد بالألوف من المرتزقة من قبائل زناتة وصنهاجة وغيرهما من البربر ومن الجند النصارى، وكون من هؤلاء جميعاً جيشاً ضخماً ضمن ولاءه له بجوده ووفرة عطاياه، كما غير من نظام الجيش، فقدم رجالات البربر وأخر زعماء العرب وفرق جند القبيلة الواحدة، وكان الخليفة الناصر من قبله قد مهد له الطريق عندما سحق القبائل العربية وأضعف هيبتها حسبما أشرنا من قبل، أى أن ابن عامر وجد الطريق ممهداً، فلم تلق سياسته كبير

معارضة. وقد نفر الحاربيون القدماء والأندلسيون بشدة من ذلك الجيش وسعد «ابن أبي عامر» بهذا النفور لأنه يقف حائلاً بين عناصر الجيش القديم وبين اتحادها ضده، كما أنه يشعر البربر بضرورة الاعتماد عليه. ومن أهم ما فعله فصل جيش الحضرة (قرطبة) عن الجيش العام، وتعيين نفسه قائداً له، فأصبح قوة عسكرية، وفتحت له والدة الخليفة بيت المال ظناً منها أنه يعمل لحسابها وحساب ابنها، فأكثر من الجند، وأصبح مستبداً عسكرياً، وتحوّل من فقيه إلى رجل سياسة، وملك من القوة العسكرية ما لم يملكه من سبقوه، فالناصر رغم ميله إلى الاستبداد كان يقف عند حد معين، ويعلم أنه من المستحيل القضاء على النصارى فيكتفى بإضعافهم وحملهم على أداء الجزية، أما المنصور فتتوالى ضرباته دون أن يحاول ضم جزء إلى أراضى الخلافة، أو إسكان بعض المسلمين في الأراضى التى يفتحها وإنما يضرب ويجوز الغنائم ويعود النصارى إلى ما كانوا عليه، وكأنه لم يكن يهدف إلا إلى ذلك. وجدير بالذكر أن

(332/14)

---

المنصور فى سنة (388هـ = 998م) أعفى الناس من إلزامهم بالغزو؛ بسبب ما وصلت إليه أعداد الجيش وما توافر له من قوة، واكتفى بالقوات المرابطة، وقد بلغ الجيش المرابط أى الثابت فى زمن المنصور (12100) من الفرسان يصرف لهم جميعاً المرتبات والسلاح والنفقة بخلاف (600) فارس للحراسة الخاصة، أما الجيش المرابط من الرجالة فقد بلغ ستة وعشرين ألفاً، وكان هذا العدد يتضاعف بمن ينضم إليه من المتطوعة أثناء الصوائف ولا يدخل فى هذا الخيل ومطايا الركوب ودواب الحمل وغيرها من العدد، وكان المنصور يتولى قيادة قواته بنفسه غالباً. وقد حققت

غزواته أهدافها من ردع النصارى ومنعهم من الهجوم على  
أراضي المسلمين، وكان يعرف أبرز جنده جميعًا بأسمائهم  
ويدعوهم إلى المآدب التي يقيمها عقب كل انتصار، ومع ذلك  
فإن الخصلة النهائية لغزواته كانت ضعيفة فهو لم يقض على  
كل قوى النصرانية أو يسحقها، وغزواته وإن أضعفت  
النصارى، فإنها لم تغير أحوالهم، وبقيت حدود دولة الإسلام  
على ما هي عليه، فهي غزوات دويها عظيم تجذب الناس إليها،  
لكن نتائجها قليلة فقد أنهكت قوى الجيوش الإسلامية دون أن  
تحقق هدفًا ثابتًا أو تقضى على خصم، إنما مثل الطبل الأجوف  
صوت كبير وعمل قليل. إدارة المنصور: أظهر المنصور مقدرة  
كافية ممتازة في جميع المناصب التي تولاها وشهدت البلاد في  
زمنه أمنًا واستقرارًا وطمأنينة لم تعرفها قبله، وفي زمنه لم  
تعرف البلاد الثورات مقارنة بغيره، وازدهرت الصناعة والتجارة  
والزراعة، وارتقت العلوم والآداب، وامتألت خزائن قرطبة بالمال  
حتى وصلت الإيرادات إلى نحو أربعة ملايين دينار، بخلاف  
الموارد من المواريث ومال السبي والغنائم، وقد عاون المنصور  
مجموعة من الكتاب والوزراء في هذا العصر من أبرزهم: «أبو  
مروان عبد الملك بن شهيد» و «محمد بن جهور» و «أحمد بن سعيد  
بن حزم» والد الفيلسوف المشهور، و «خلف بن حسين بن حيان»

(333/14)

---

والد أمير المؤرخين الأندلسيين «ابن حيان»، ومن الكتاب «سعيد  
بن القطاع» وغيره من أبناء الأسر العريقة التي تعاقب أبنائها  
على الوزارة. العمارة في عهد المنصور: لم يخل عهد المنصور  
من الإنشاءات العظيمة على الرغم من الغزوات المستمرة وقد  
أشرنا إلى بنائه مدينته الزاهرة بقصورها وحدائقها، وجعلها

قصرًا للحكم والإدارة، وقد بنى المنصور بجانبها منية جميلة  
ازدانت بالحدائق والقصور أسماها «العامرية»، وكان يقصدها  
عندما يريد الاستجمام. كذلك قام بزيادة المسجد الجامع في  
«قرطبة» بعد أن اتسعت المدينة، وضمت واحدًا وعشرين حيا،  
الواحد فيها أكبر من أية مدينة أندلسية، وقد حفر حولها خندقًا  
بلغ 16 ميلاً وزاد سكانها كثيراً لا سيما البربر، وضاق المسجد  
الجامع بمؤلاء السكان فأدخل المنصور في سنة (387هـ = 997م)  
زيادة عليه من الناحية الشرقية، بلغت المساحة الأصلية نفسها  
تقريباً، وحرص المنصور على الاشتراك في هذا المشروع بنفسه،  
واشتغل فيه أسرى النصارى، وتم تعويض أصحاب الدور  
والأماكن التي صودرت لهذا الغرض، ولا يزال هذا الجناح قائماً  
حتى اليوم، ويعرف بمسجد المنصور، وإن تحولت عقود الجانيبه  
إلى هياكل وكنايس. وبهذه الزيادة بلغت مساحة المسجد الجامع  
ما يزيد على ستة أفدنة، كما انفرد بطرازه الرائع، وليس في  
العالم مسجد ولا كنيسة في مثل حجمه اللهم إلا قصر «فرساي»  
بفرنسا. كما جدد المنصور قنطرة قرطبة على نهر الوادي  
الكبير، وكان «السمح بن مالك» قد جردها من قبل وأنفق  
المنصور على تجديدها في سنة (378هـ = 988م) مائة وأربعين  
ألف دينار وبنى قنطرة «أستجة» على نهر «شنيل» أحد فروع  
نهر الوادي الكبير. المنصور في نظر المؤرخين: يشهد المؤرخون  
القدماء للمنصور بالكرم، وبأنه كان يبذل الأموال للمتصلين به  
والفقراء خاصة، ورغم سفكه للدماء فقد كان يتظاهر بالتقوى،  
حريصاً في كل غزواته على حمل مصحف خطه بيده، ويقال إنه

كان منصفًا عادلًا يزرع الظالم حتى لو كان من كبار حاشيته، وكان صبورًا حليمًا، ولكنهم ينعون عليه شغفه بمعاينة الخمر، ولم يتخل عن ذلك إلا قبل وفاته بعامين. وتميز المنصور بأنه كان شغوفًا بالعلم والأدب، محبا للعلماء والأدباء والشعراء ويناظرهم ويشترك معهم في نظم الشعر ويغدق عليهم، ساعده على ذلك نشأته في بيت علم وأدب، وبراعته في علوم الشريعة وفنون الأدب خلال فترة صباه. وحرص المنصور على نشر العلم والمعرفة بين طبقات الشعب، فأنشأ كثيرًا من دور العلم في قرطبة وأنفق عليها، وكان يزور المساجد والمدارس، ويمنح المكافآت للمتفوقين من الطلاب، كما حرص على جمع الكتب ومكافأة أصحابها، وقد منح «صاعد البغدادى» (500) دينار مكافأة له على كتابه «الفصوص»، وكان يكره الفلسفة، ويرى أنها مخالفة للدين كما كان يبغض التنجيم ويطارد المنجمين، وقد استخرج من المكتبة الأموية جميع كتب الفلاسفة والدهريين وأحرقها بحضرة كبار العلماء، وما فعله «المنصور» أمر خطير، تسبب في ضياع ثروة علمية عظيمة. ونظرًا للشهرة الواسعة التي حققها المنصور، جاء إليه بعض ملوك النصارى واستعطفوه وتقربوا إليه وزوجوه من بناتهم. ويرى بعض المؤرخين المعاصرين أن «ابن أبي عامر» من أعظم الرجال وأنه قام بما لم يقم به أحد في تاريخ الإسلام، فقد استطاع الاستيلاء على الحكم في دولة كبرى، وهي في أوج سلطانها ووجه أمورها بصورة مستبدة. ومع ذلك فإن هنا أمورًا ثلاثة هي أكثر ما أضر به المنصور: 1 - إقامته ملكه على جند مرتزقة تعالوا على الناس، واصطناعه لبيوت جديدة من زعانف الأسر، وصغار الفقهاء والطامعين، وتولييتهم وظائف القضاء والولايات، وقد أثقل هؤلاء على الناس، وأرهقوهم بالمطالب، واستولوا على أموالهم، ومن هؤلاء بنو عباد في إشبيلية، ومن البربر الذين استعان بهم في النواحي، بنو الأفطس في بطليوس، وبنو ذى النون جنوب غربي طليطلة - بالإضافة

إلى الصقالية الجدد الذين اشتراهم المنصور لحسابه ومن هؤلاء جميعاً يتكون الحزب العامرى - وهم الذين قضوا على وحدة الأندلس فيما بعد، ويتكون منهم ما يعرف بملوك الطوائف. 2 - انعدام المفهوم الأخلاقي عنده، وهذا جعل الناس يخافونه ولا يحبونه، بل إن أنصاره ما كانوا يأمنونه؛ لأنه كان كثير التجسس فكان يطلب من العبيد والجوارى أن يكونوا عيوناً في بيوتهم وأفسد أخلاق الناس بالرشوة ونحوها. 3 - حجر المنصور على الخليفة «هشام»، وتعيين ابنه «عبدالمملك بن المنصور» ولياً لعهد، والتخلص من معارضيه بالتآمر والقتل. ولقى المنصور ربه في «مدينة سالم» في (27 من رمضان سنة 392هـ = أغسطس سنة 1002م) كما أسلفنا وتولى الأمر من بعده ابنه عبدالمملك المظفر. عبدالمملك المظفر بالله ابن المنصور [رمضان 392 - صفر 399هـ = أغسطس 1002 - أكتوبر 1008م]: صدر أمر الخليفة «هشام» بتولية «عبدالمملك» الحجابة بعد وفاة والده، وقضى عبدالمملك بسرعة على من أراد انتهاز الفرصة للعودة إلى حكم الخليفة، وقد بدأ عهده بإسقاط سدس الجباية (الضرائب) عن السكان بكل نواحي الأندلس فاستبشر الناس به خيراً. سياسة عبدالمملك مع النصارى: ظن ملوك النصارى أن خطر الغزوات الإسلامية عليهم سيقبل بعد وفاة المنصور، لكنهم كانوا واهمين لأن عبدالمملك بدأ بعد أشهر قليلة من ولايته يستعد لغزوته الأولى، ووفد إليه الزعماء والمتطوعة من المغرب وغيرها للاشتراك معه، فرحّب بهم وبذل لهم الأموال ووزع عليهم السلاح، وخرج بالجيش من مدينة الزاهرة في (شعبان 393هـ = يونيو 1003م)، وتوجه إلى مدينة «طليطلة»، ومنها إلى مدينة «سالم»، حيث انضم إليه «الفتى واضح» في قواته وقوات من النصارى

حسب اتفاقهم مع المنصور، ثم اتجه الجنود نحو الثغر الأعلى، ثم من سرقسطة إلى «برشلونة»، حيث استولت القوات الإسلامية على بعض الحصون المنيعه، واستولت على سبي ومغانم، ثم

(336/14)

عاد المسلمون إلى قرطبة عن طريق مدينة «لاردة» في شهر ذي القعدة، وقد تلقى عبدالملك رسالة من أمير برشلونة تطلب الصفح والمهادنة فاستقبل الرسل استقبالا يليق بمقام الخلافة. ولما اعتدى أمير قشتالة على أراضي المسلمين سنة (394هـ = 1004م) قصد إليه عبدالملك وأدبه، واضطره إلى التسليم وطلب الصلح ثانية، وتعهد على التعاون مع عبدالملك في حملاته ضد مملكة ليون وضد خصومه جميعًا. وفي العام التالي خرج «عبدالملك» وسار نحو طليطلة ولحق به «الفتى واضح» وملك قشتالة، واتجهوا شمالا نحو أراضي ليون ومدينة سمورة وعاث في هذه النواحي ووصل إلى جليقية واستولى على كثير من المغام والسبي، ولكنه لم يحقق نتائج حربية ذات قيمة. خرج عبدالملك في أواخر سنة (396هـ = 1006م) إلى «بنبلونة» عاصمة «نبرة» فقصد «سرقسطة» و «شقة» و «بريشتر» ومنها اخترق المسلمون أراضي العدو وأخذوا يقتلون وينهبون، ثم تعرض الجيش لبعض العواصف ورعد وبرق قاسٍ، واضطر إلى العودة إلى العاصمة. حين وصل إلى مسامع عبدالملك أن أمير قشتالة يفكر في الاعتداء على أراضي المسلمين، خرج لغزوته الخامسة المسماة «غزوة قلونية» في (صيف 397هـ = 1007م)، واخرق أراضي قشتالة ليحارب ملكها الذي تحالف معه ملك ليون وملك نبرة، وعدد من زعماء النصارى الذين وحدوا صفوفهم، ومع ذلك فقد تمكن عبدالملك من إلحاق هزيمة بهم جميعًا عند

مدينة «قلونية»، وحملهم على طلب الصلح ثم عاد إلى قرطبة  
أواخر العام المذكور، فسر الناس بما حقق، واتخذ هو لقب  
«المظفر بالله» إشادة بما أحرز من نصر عظيم. لكن ملك قشتالة  
جدد عدوانه وغدر بالمسلمين فخرج إليه عبدالمملك في (صفر سنة  
399هـ = أكتوبر 1007م)، واخترق أراضي قشتالة الوسطى،  
وقصد إلى بعض الحصون المنيعة، وجرت معركة، اضطر النصارى  
بعدها إلى دخول الحصن، وهجم عليهم المسلمون وضربوا الحصن  
بالمجانيق والنيران حتى حملوا العدو على طلب التسليم، وهنا

(337/14)

---

أمر عبدالمملك بقتل المقاتلة وسبي النساء والذرية، ثم رجع إلى  
العاصمة في شهر ربيع الثاني. وفي شوال من العام نفسه خرج  
عبدالمملك بغزوته السابعة والأخيرة وتعرف «بغزوة العلة»؛ إذ إنه  
ما كاد يصل إلى مدينة سالم حتى اشتد به المرض وتفرق عنه  
المتطوعة، واضطر إلى الرجوع إلى قرطبة في (المحرم 399هـ =  
سبتمبر 1008م) لكنه شعر بتحسن في صحته فعمل على  
استئناف الغزو بعد فترة وجيزة لكن حالته ساءت، وتعرض  
لنكسة سببها التهاب رئوى، وعاد إلى العاصمة في محفة حيث  
مات في (16 من صفر سنة 399هـ = 21 من أكتوبر 1008م) بعد  
حكم دام نحو سبع سنوات. أسلوب عبدالمملك في الإدارة والحكم:  
التزم عبدالمملك الأسلوب الذى كان يحكم به والده الأندلس فجعل  
الخليفة محجورًا عليه لاحول له ولا قوة. وجمع السلطات كلها في  
يديه، وحدّ من نفوذ الوزراء والكتاب وراقبهم وحاسبهم، وجلس  
للناس وهجر اللهو، وعمل على تنمية الموارد وترتب على هذا  
تحسن في الأحوال المالية التى كانت قد ساءت بسبب كثرة  
النفقات. ولم يكن لعبدالمملك نصيب كبير في مجالات العلم والأدب

وكان مجلسه لا يقوم إلا على الأعاجم من البربر وغيرهم، ومع ذلك فقد استمر يجرى الرواتب التي كان أبوه يجريها على العلماء والأدباء والندماء، كما استمع إلى الشعر ووصل الشعراء. عبدالرحمن بن شنجول قلد الخليفة هشام الحجابة لعبدالرحمن بن منصور، وأنعم عليه بالخلع السلطانية، وكانت أمه ابنة ملك «نبرة» تزوجها «المنصور» وأنجب منها، وقد أسلمت وتسمت باسم «عبدة» ولأنه أشبه جده لأمه المسمى «شانجة» لقب بشنجول أو شانجة الصغير. ولم يكن الشعب يميل إلى «عبدالرحمن» لما فيه من دماء نصرانية ولا انحراف سلوكه، ولأنه جرى على منهج أبيه وأخيه في الحجر على الخليفة هشام مع الاستبداد بالرأى وإن مال هو إلى التودد إلى الخليفة ومخالطته، وقد منحه الخليفة لقب المأمون ناصر الدولة بعد عشرة أيام من ولايته، ليس هذا فحسب، بل إن عبدالرحمن جرؤ

(338/14)

---

على ما لم يجرؤ عليه أحد لا المنصور ولا عبدالملك، حين نجح بعد محاولات في استصدار مرسوم من الخليفة بتعيينه وليا للعهد من بعده، لتنتقل رسوم الخلافة من أسرة بني أمية إلى أسرة بني عامر، وأقر فقهاء قرطبة وعلمائها هذا التحول وزكاه الوزراء والقضاة والقادة، وكان ذلك في ربيع الأول سنة (399هـ= 1008م)، ومضى «عبدالرحمن» أبعد من ذلك حين عين ابنه الطفل في خطة الحجابة ولقبه سيف الدولة، ثم اتخذ قراراً جلب عليه كثيراً من السخط حين طلب من أكابر الموظفين ورجال الدولة خلع القلائس الطويلة التي يتميزون بها لأنها لبس الأندلسيين، وتغطية الرأس بالعمائم التي هي لباس البربر فأذعن هؤلاء كارهين. فكر عبدالرحمن أن يشغل الناس بالغزو، فقرر أن يتوجه إلى جليقية

رغم تحذيره من سوء الأحوال الجوية، ومن انقلاب قد يقوم به  
المروانية ضده، لكنه صمم وسار بالجيش نحو طليطلة، ومنها إلى  
جليقية وسط أقطار وبرد شديدين وكان يمارس هوايته فى اللهو  
والشراب، وقد اخترق مملكة ليون قبل أن يصل إلى جليقية،  
فتحصن الأعداء براءوس الجبال، ولم يجد عبدالرحمن سبيلا إلى  
مقاتلتهم بسبب كثرة الثلوج وفيضان الأنهار، فاضطر إلى أن  
يعود دون أن يفعل شيئاً. وعند وصوله إلى طليطلة جاءتة الأنباء  
تفيد أن انقلاباً قد حدث فى قرطبة وأن الثوار استولوا على  
مدينة الزاهرة فاضطربت صفوفهم، واضطر عبدالرحمن إلى أن  
يعود عن طريق قلعة رباح، ولم يلتفت إلى نصيح من طلب منه  
البقاء فى طليطلة، لاعتقاده أن الناس سترحب به إذا رآه يقترب  
من قرطبة. وكان السبب الرئيسى للثورة هو استبداد بنى عامر  
وقهرهم للناس استناداً إلى قوة قوامها البربر والصقالبة، ثم  
كانت ولاية عبدالرحمن للعهد واستنثاره برسوم الخلافة والحكم  
هى الشرارة التى انتقلت منها نيران الثورة إلى كل العناصر  
الناقمة، وعلى رأسهم بنو أمية، وكان المخطط للثورة والمتابع  
لمراحل تنفيذها «الزلفاء» والدة عبدالملك - التى اعتقدت أن

(339/14)

---

«شنجول» سم ابنها - ثم فتى أموى اسمه «محمد بن هشام بن  
عبدالجبار بن عبدالرحمن الناصر» كان عبدالملك قد أعدم أباه. لم  
يكن المروانية وحدهم يرغبون فى القضاء على العامريين، وإنما  
كان معهم كل العناصر الناقمة من البيوت العربية مضرية أو  
يمنية، يؤازرهم كل طبقات الشعب، وأحكم هؤلاء جميعاً خطتهم  
وانتهزوا فرصة خروج عبدالرحمن للغزو ومعه معظم الجيش  
ليقوموا بالتنفيذ، وفى يوم (16 من جمادى الأولى 299هـ = 15

من يناير 1009م) جاءت الأنباء بأن عبدالرحمن عبر بجيشه إلى أرض النصارى، فقام محمد بن هشام بإنزال ضربته، وهجم على قصر قرطبة وقتل صاحب المدينة، والتف حوله الساخطون، ثم اقتحم سجن العامرية وأخرج من فيه، واجتمع حوله المروانية وانضم إليه الناس من كل حدب وصوب، وبعد أن سيطر ابن عبدالجبار على القصر واستولى على كل ما فيه من سلاح وغيره، طلب من الخليفة هشام أن يخلع نفسه فوافق، وانتهت بذلك خلافته الصورية التي دامت (33) سنة وتولى الأمر «محمد بن هشام بن عبدالجبار» وتلقب بالمهدى في (17 من جمادى الآخرة 399هـ = 16 من فبراير 1009م) وجاءه الناس مهنتين، وما شعروا أن تلك هي بداية الفتنة التي ستطيح ليس بالدولة العامرية وحدها بل وبالخلافة بكل ما تمثله. وفي اليوم التالى قام الثائرون بدم مدينة الزاهرة وقصورها، وأحست الحامية المنوط بها الدفاع عنها أن المقاومة غير مجدية ففتحو أبواب المدينة شريطة أن يؤمنهم المهدى، وتم نهب القصور والاستيلاء على كل ما كان فيها من متاع وجواهر، ولم يكتف المهدى بذلك وإنما قام بدم كل مباني مدينة الزاهرة وأسوارها بعد أن استولى على كل ما فيها من خزائن وأموال وتحف حرصاً منه على إزالة كل آثار بني عامر، وأصبحت المدينة أطلالاً، وتحولت إلى أثر بعد عين. وقد حاول «عبدالرحمن» وهو في «طليطلة» بعد أن بلغته أخبار الثورة أن يتنازل عن ولاية العهد مكتفياً

(340/14)

---

بالحجابه، فلم يلتفت إليه أحد ثم سار إلى قرطبة، ولما اقترب منها تركه جند البربر وفروا في جنح الظلام، ثم تمكن الخليفة الجديد من مطاردته وإلقاء القبض عليه وهو مختبئ في أحد

الأديرة، وقتله في (3 من رجب 399هـ = 3 من مارس 1009م). وهكذا انتظر الشعب أول فرصة وأطاح بالطغيان المستبد الذي فرضه العامريون، ولم يشفع لذلك النظام ما تحقق على يدي المنصور من أمن واستقرار عم ربوع الأندلس وكانت تلك الثورة بداية مرحلة من الفتن والفوضى الشاملة التي أنهت وجود الحكومة المركزية، وقضت على الخلافة الإسلامية، ومزقت الأمة وجعلتها أشلاء متناثرة. ولم يكن محمد بن هشام بن عبد الجبار شخصاً مناسباً لهذه الفترة، إذ كان قليل التفكير لا يعرف شيئاً عن الدولة وشؤونها أحاط نفسه بطائفة على شاكلته لا تحسن غير النهب والسرقه ولم يكن يحركهم إلا شيء واحد هو الانتقام من العامريين، وإهانة البربر، عقاباً لهم على تأييدهم بنى عامر.

(341/14)

\*حمود (بنو)

كان تمزق الأندلس فرصة يقتنصها من يريد، ولهذا كتب «علي بن حمود» صاحب سبته إلى «خيران» يزعم أنه تلقى رسالة من «هشام المؤيد» يوليه فيها عهده، ويطلب منه إنقاذه من البربر ومن سليمان المستعين والتف حول «ابن حمود» بعض الأعوان، وعبر بهم إلى الجزيرة الخضراء بناء على طلب خيران، واستوليا معاً على بعض البلاد، وقرّرا الزحف على قرطبة يعاونهما بربر غرناطة، واستعد سليمان لقتالهم، ونشبت بينهما معركة في مكان قريب من قرطبة وانتهى الأمر بهزيمة سليمان ووقوعه في الأسر. بعد ذلك دخل علي بن حمود قرطبة وبويع بالخلافة في (محرم 407هـ = أول يوليو 1016م)، وأعلن وفاة هشام المؤيد، وقتل سليمان وأباه وأخاه، وتلقب بالناصر لدين الله، وموت سليمان انتهت الخلافة الأموية بالأندلس بعد حكم دام (268) سنة

منذ وصل إليها عبدالرحمن الداخل، وبدأت خلافة الحموديين الأدارسة. قبض على بن حمود على الحكم واشتد في معاملة البربر وواجه أية محاولة للثورة بمنتهى الشدة سواء قام بها العرب أو البربر، وفي الوقت نفسه أحسن معاملة القرطبيين، يعاونه في ذلك مجموعة من أعوان الخلافة السابقة من أمثال أبي الحزم بن جهور وابن برد. لكن الأمور ما لبثت أن اتخذت خطأ جديداً، ذلك أن خيران العامري دخل قرطبة فلم يجد هشاماً المؤيد حياً، وخشى سطوة على بن حمود فغادر قرطبة، وأعلن العصيان واتجه ناحية شرق الأندلس، حيث يجتمع الزعماء العامريون، وأعاد دعوة بني أمية في شخص رجل منهم اسمه عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله من أحفاد عبدالرحمن الناصر، وبإيعه خيران بالخلافة ولقب بالمرتضى، وانضمت إليه ولايات سرقسطة والثغر الأعلى وشاطبة وبلنسية وطرطوشة وغيرها، وسارت قوات هؤلاء نحو غرناطة لمواجهة قوات صنهاجة، وجرت معركة انتهت بهزيمة الأندلسيين ومقتل المرتضى، وكان «على بن حمود» قد غير سلوكه، مع أهل قرطبة بسبب علمه بميلهم

(342/14)

---

إلى المرتضى فنزع سلاحهم وصادر أموالهم واعتقل زعماءهم وعلى رأسهم «أبو الحزم بن جهور»، ثم تربص جماعة من الصقالبة بعلى هذا، وقتلوه في الحمام في (الثاني من ذي القعدة سنة 408هـ = 23 من مارس 1018م) بعد خلافة دامت عاماً وتسعة أشهر. بعث زعماء زناتة بخبر مقتل «على» لأخيه القاسم الذي كان والياً على إشبيلية، فخف مسرعاً، وبويع بالخلافة في الثامن من الشهر نفسه وتلقب بالمأمون، وقد مال في سياسته إلى اللين والإحسان إلى الناس وحاول التقرب إلى

الفتيان العامريين، فوئى زهير العامرى على جيان وقلعة رباح  
لكنه لم يستطع التخلص من سيطرة البربر عليه، فتآمر عليه أبناء  
أخيه، وزحف يحيى بن على بن حمود على قرطبة، وبوبع  
بالخلافة فى جمادى الأولى سنة (412هـ = 1021م) وتلقب  
بالمعتلى بالله، أما القاسم فقد استقر به المقام فى إشبيلية  
وتلقب بالخلافة أيضاً. والعجيب أن كلا الرجلين اعترف لصاحبه  
بالخلافة، ولم يسمع قبل ذلك بخليفتين تصالحا واعترف كل  
منهما بصاحبه من قبل. ثم لم يلبث أن دعا البربر القاسم إلى  
قرطبة، وولوه الخلافة فى (18 من ذى القعدة من العام نفسه)،  
ولقب بأمر المؤمنين، ولكن الرجل لم يكن موفقاً فى سياسته،  
فقد أعان البربر على أهل قرطبة فعاملوهم معاملة قاسية  
وطاردوهم وأهانوهم، وجرت معارك متفرقة بين الطائفتين، ثم  
جرت موقعة كبيرة فاصلة انتهت بانتصار القرطبيين وتمزيق  
البرابرة، واضطر القاسم إلى الرجوع إلى إشبيلية، وجرت  
تطورات عاد البربر بعدها وبايعوا يحيى بن على بن حمود  
ولقبوه بالمعتلى بالله، أما القاسم فقد سجن وبقي فى محبسه  
حتى قتل خنقاً بعد ذلك بفترة سنة (431هـ = 1040م). كان أهل  
قرطبة قد سئمو سلوك البربر وقتالهم، وقرروا رد الأمر لبني  
أمية، وعقدت جلسة لهذا الغرض فى المسجد الجامع تمت فيها  
مبايعة عبدالرحمن بن هشام فى (16 من رمضان سنة 414هـ =  
ديسمبر سنة 1023م)، ولقب بالمستظهر بالله، وتولى وزارته

(343/14)

---

بعض القدامى من وزراء بني أمية، بيد أن الخليفة الجديد استفتح  
عهده بإلقاء القبض على عدد من الزعماء والأكابر، واستقبل  
فرسان البربر وأحسن وفادتهم، فهاجت العامة وامتلئوا غيظاً،

وهجموا على القصر وقتلوا كل من صادفهم، أما عبدالرحمن فقد اختفى وظهر ابن عمه «محمد بن عبدالرحمن بن عبيدالله بن الناصر» وبويع بالخلافة وتلقب بالمستكفي بالله، وأتى بعبدالرحمن المستظهر وقتله في (3 من ذى القعدة سنة 414هـ = 17 من يناير سنة 1024م). كان المستكفي سيئ التدبير ميالا إلى البطالة والمجون، وفي عهده تهدمت القصور الناصرية، وأتى على مدينة الزاهرة من أساسها، واضطهد معظم البارزين من الساسة والمفكرين، فنادى جميعهم بخلعه واضطر إلى مغادرة قرطبة في زى امرأة، وتمكن بعض مرافقيه من قتله في ضاحية قرطبية. وجدير بالذكر أن محمد المستكفي هذا هو والد «ولادة» الشاعرة المعروفة. رجعت الفوضى التي لا ضابط لها إلى قرطبة وجاء إليها «يحيى ابن علي ابن حمود»، و«خيران» و«زهير» العامريان، وتم الاتفاق بين الجميع يقودهم أبو الحزم بن جمهور على تولية أموى، ووقع اختيارهم على «هشام بن محمد» الذي بويع ولقب بالمعتد بالله، بيد أنه ألقى بمقاليد الأمور كلها إلى رجل من المستبدين تولى وزارته اسمه «سعيد القزاز» بالغ في اضطهاد زعماء البيوت وإهانتهم وشغل الخليفة نفسه عن أمور الحكم بشرايه ومجونه، وضاعت هيبة الخلافة تمامًا. ثم اضطرت القرطبيون الناقمون إلى الفتك بالوزير «سعيد» في (ذى القعدة 422هـ = نوفمبر 1031م)، ثم ساروا إلى القصر يتزعمهم «أمية بن عبدالرحمن العراقي» من أحفاد «الناصر» ونهبوا أجنحة القصر. وانتهى الأمر باتفاق رأى الناس جميعًا بزعامه أبي الحزم بن جمهور على التخلص من بنى أمية، وإبطال رسوم الخلافة كلها، وإجلاء كل الأمويين عن مدينة قرطبة، فليس هناك من يستحق الخلافة، وينبغي أن يتحول الحكم إلى شورى بأيدي

الوزراء وصفوة الزعماء أو من اسمهم «ابن حزم» «الجماعة». تولى ابن جمهور تنفيذ الأمر بمنتهى الحزم حتى أجلى الأمويين عن المدينة ومحا رسومهم تمامًا، وبهذا انتهت معالم الخلافة الأموية، وانقطع ذكرها في كل من الأندلس والمغرب.

(345/14)

### \*الفاطمية (دولة)

أصل الشيعة الفاطمية: قامت الدولة الفاطمية على المذهب الإسماعيلي الشيعي القائل بالنص والتعيين، ويقصرون خلافة الرسول - صلى الله عليه وسلم - الروحية والزمنية على ذرية الإمام «علي» - رضى الله عنه - مستندين في ذلك إلى حديث «غديرخم» الشهير، وقد لجأت الإسماعيلية بعد وفاة إمامهم «إسماعيل بن جعفر» إلى الاختفاء والعمل السرى، فقد افترق أشياع «جعفر الصادق» بعد وفاته إلى فرقتين، ولت الأولى ابنه «موسى الكاظم» إمامًا، وولت الثانية ابنه «إسماعيل» إمامًا، فعُرِفَت الفرقة الأولى بالإمامية أو الاثنا عشرية؛ لأنها سلسلت الإمامة حتى الإمام الثاني عشر «محمد» الملقب بالمهدي المنتظر ابن الحسن العسكري ابن علي الهادي ابن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم، وعُرِفَت الفرقة الثانية بالإمامية الإسماعيلية؛ لأنهم أبقوا الإمامة في ذرية «إسماعيل بن جعفر»، ثم من بعده ابنه «محمد»، فابنه «جعفر الصادق»، فابنه «محمد الحبيب»، فابنه «عبيدالله المهدي» مؤسس الدولة الفاطمية. قامت «الدولة الفاطمية» ببلاد «المغرب» - وفق خطة مرسومة من قبل دعاة الشيعة - على أكتاف قبيلة «كتامة»، التي تنتمي إلى بربر «البرانس»، وتميزت عن غيرها من القبائل بكثرة عددها، ومنعة منطقة سكنها بجبال «الأوراس» بين مدينتي «بجاية»

و «قسنطينة»، فضلا عن عدم خضوعها لسلطة الولاية اعتزازاً بمنعتها وقوة بأسها. وقد وقف زعماء الشيعة على ما اتصفت به هذه القبيلة، واختار «ابن حوشب» رئيس مركز الدعوة الشيعية باليمن «أبا عبدالله الحسين بن أحمد الشيعي» للاتصال بوفد «كتامة» بموسم الحج، لنشر الدعوة الشيعية بالمغرب، وإقامة الدولة المرتقبة هناك. وقد تم لقاء «أبي عبدالله» بوفد «كتامة» بمكة، وجعله هذا الشيعي يبدو كأنه جاء مصادفة، وبدأ يتعرف أحوالهم وميولهم المذهبية، ولم يفصح عما أضمره وما جاء من أجله، ونجح في استمالتهم والسيطرة على قلوبهم بمكره

(346/14)

ودهائه وعلمه وجدله، ثم تظاهر بعد انقضاء موسم الحج برغبته في السفر معهم إلى «مصر»، للتدريس لأبنائها، فاصطحبوه معهم، فلما وصلوها، أخوا عليه بمصاحبتهم إلى بلادهم، فوافقهم، وذهب معهم إلى المغرب في سنة (289هـ = 902م)، واتخذ من «إيكجان» مستقرا له، لأنها نقطة التقاء حجاج «الأندلس» و «المغرب الأقصى»، والمتوجهين لأداء فريضة الحج. وبدأ «أبو عبدالله» في تنفيذ خطته، وتظاهر بتعليم الصبية، وإلقاء دروسه عليهم، فزاده ذلك مكانة ومنزلة بين أبناء «كتامة»، وذاع صيته بين القبائل، وقصده البربر من أماكن متفرقة، لينهلوا من علمه، ويستفيدوا من نصائحه، ثم عمد «أبو عبدالله» إلى مصارحة بعضهم - بعد أن اطمأن إليهم - بحقيقة أمره، ورغبته في إقامة دولة لآل البيت تقوم على أكتاف قبيلة «كتامة»، لأن الروايات - كما ادعى لهم - جاءت بذلك، وأخبرت عما ينتظرون من عز الدنيا وثواب الآخرة. وأخذ «أبو عبدالله» على عاتقه تنظيم صفوف أبناء «كتامة» وبعض أبناء القبائل

الأخرى، وقسمهم إلى سبعة أقسام، وجعل على رأس كل قسم منها داعية يطمئن إليه، فاستطاع بهذا الأسلوب العملي إقامة مجتمع يدين بفكرة واحدة؛ هي إقامة الدولة المثالية التي يحكمها إمام من آل البيت. وقد اتخذ «أبو عبدالله الشيعي» من أبناء «كتامة» جنداً يدافعون عن الدعوة، ويهاجمون القوى السياسية الموجودة بالمنطقة، وهي: «الأغالبة» بالمغرب الأدنى، و «الرستميون» بالمغرب الأوسط، و «بنو مدرار» بسجلماسة بجنوب «المغرب الأقصى» وبقايا «الأدارسة» بمدن «المغرب الأقصى»، وترتب على ذلك دخول «أبي عبدالله الشيعي» في عدة معارك مع هذه القوى، كانت أشهرها معركة «كنبونة»، التي انتصر فيها على «الأغالبة» في سنة (293هـ = 906م)، ثم توالى انتصاراته بعد ذلك، ودخل مدينة «رقادة» وقضى على نفوذ «الأغالبة»، ثم دعا «المهدي الفاطمي» إلى «المغرب» لتسلم مقاليد الأمور؛ فلبى الدعوة، وتحنّى في زى

(347/14)

---

التجار حتى لا يقع في قبضة العباسيين، ودخل مدينة «رقادة» في سنة (297هـ = 909م)، ثم بويع بالإمامة. الخلفاء الفاطميون بالمغرب: حكم أربعة خلفاء فاطميين بلاد «المغرب» في الفترة من سنة (297هـ = 909م) إلى سنة (365هـ = 975م)، وكان «المعز لدين الله الفاطمي» هو آخر هؤلاء الخلفاء، حيث انتقل بالخلافة إلى «القاهرة» التي اتخذها عاصمة جديدة للفاطميين، بعد أن تم له فتح «مصر» على يد قائده «جوهري الصقلي» في سنة (358هـ = 969م)، والخلفاء الأربعة هم: 1 - المهدي: عبيد الله أبو محمد [297 - 322هـ = 909 - 934م]. 2 - القائم: محمد أبو القاسم [322 - 334هـ = 934 - 945م]. 3 - المنصور: إسماعيل أبو طاهر [334 -

341هـ = 945 - 952م]. 4 - المعز: معدّ أبو تميم [341 - 365 هـ =  
952 - 975م]. دخول الفاطميين مصر: جانب التوفيق الحملات  
الثلاث التي أرسلت من قبل الفاطميين لفتح «مصر» في عهد  
أسلاف «المعز»، ولكن الوضع العام في المشرق كان يئس  
بنجاح الحملة الرابعة، للضعف الذي حلّ بدار الخلافة في  
«بغداد»، وكذلك ما وصلت إليه حال «مصر» من ضعف وبؤس  
وشقاء في أواخر عهد «كافور»، كما كان لانخفاض النيل الذي  
استمر تسع سنوات أثر كبير في انتشار الوباء والقحط فيها،  
فلم تستطع «مصر» مواجهة الغزاة، كما عجزت - بعد «كافور» -  
عن صد هجوم ملك «النوبة» من الجنوب، وثار الجند لعدم دفع  
رواتبهم، ونشط جواسيس «المعز»، وتوغلوا في البلاد لنشر  
المذهب الشيعي، فمال الكثيرون إلى مذهبيهم، وبعث «المعز»  
رسله إلى «كافور» مُرهباً مرة ومُرغّباً أخرى للتأثير عليه،  
وكان استقرار بلاد المغرب ورسوخ أقدام الفاطميين فيه،  
وتنظيمهم الدقيق للأمن والإدارة، وحسن إعدادهم للجيش  
والقادة سبب نجاح حملتهم الرابعة على «مصر». سار «جوهر  
الصقلّي» قائد جيوش «المعز» إلى «مصر» في ربيع الأول سنة  
(358هـ)، بعد أن خرج «المعز» لوداعه، وأمر أهله بالترجل أمام

(348/14)

---

قائه وهو راكب، كما أمر واليه على «طرابلس» أن يسير في  
ركاب «جوهر» ويقبّل يده، فكبر ذلك على والي «طرابلس»،  
وأراد أن يعفى نفسه من ذلك مقابل مائة ألف دينار ذهباً يعطيها  
لجوهر، ولكن «جوهر» رفض هذه الأموال ومضى بجيشه الذي  
كان يضم مائة ألف جندي حاملاً معه أموالاً طائلة قيل إنّها بلغت  
ألفاً ومائتي صندوق حملها على ظهور الجمال، وحين خرج

«المعز» لوداع «جوهري» والجيش بمنطقة «رقادة» قال لمن كانوا معه: «والله لو خرج جوهري وحده لفتح مصر». فكان لهذه العبارة أثرها الكبير في نفس «جوهري»، وكانت له حافزاً على تحقيق ما خرج من أجله. وصل «جوهري» إلى «مصر»، وحط رحاله بالإسكندرية التي فتحت أبوابها من غير مقاومة، فعامل «جوهري» أهلها بالحسنى ووسّع لهم في أرزاقهم، فكان لذلك أثره الطيب في نفوس الأهالي، كما كان للنظام الذي ظهر به الجيش، وطاعته لقائده أثره الكبير في نفوسهم، فرحبوا بالقائد الجديد. سياسة جوهري في مصر: عمل «جوهري» على نشر العدل بين أهل «مصر»، وأمنهم على ممتلكاتهم، وجلس للبت في المظالم بنفسه رغم شواغله، فرد الحقوق إلى أصحابها، وضرب بيد من حديد على أيدي العابثين بالنظام حتى إذا كانوا من خاصته؛ لدرجة أنه عاقب بعض المغاربة بالقتل على إثم كبير اقترفوه، كما برهن «جوهري» على حسن سياسته حين لجأ إلى الوسائل السلمية لنشر المذهب الفاطمي، ولم يفرضه كرهاً، واتخذ من المساجد مدارس يتلقى فيها الناس أصول مذهبه الشيعي، وذكر اسم الخليفة الفاطمي في خطبة الجمعة وأسقط اسم الخليفة العباسي، فكان ذلك إيذاناً بزوال النفوذ العباسي، وزوال ملك الإخشيديين. حكم «جوهري» «مصر» أربع سنوات هي من أصعب الفترات وأخطرها، حيث تم فيها إقامة معالم دولة وتشبيدها على أنقاض دولة أخرى؛ فإلى «جوهري» يرجع الفضل في تأسيس وبناء «القاهرة» المعزّية، التي جعل لها أربعة أبواب منها: «باب النصر»، و «باب الفتوح»، و «بابا زويلة»، كما

بنى بها «الجامع الأزهر» لينشر من داخله المذهب الشيعي .  
و «الأزهر» هو أول مسجد شُيِّد في «القاهرة» المعزية، وأقيمت  
فيه الصلاة لأول مرة في (17 من رمضان سنة 360هـ)، وقد  
اختلف المؤرخون في سبب تسميته بالأزهر، فقال فريق سُمِّي  
بهذا الاسم نسبة وتكريماً للسيدة فاطمة الزهراء. وقال فريق  
آخر: تفاؤلاً بما سيكون عليه أمر هذا المسجد من شأن عظيم.  
وقال فريق ثالث: سُمِّي بذلك لأنه كان محاطاً بالقصور الزاهرة  
التي بنيت عند إنشاء «القاهرة». وأياً كانت نسبة هذه التسمية  
إلى الجامع الأزهر؛ فهو يُعد -الآن- أعظم جامعة إسلامية تُدرَّسُ  
فيها العلوم الدينية والعلوم العقلية، ويقصده آلاف الطلاب من  
مختلف أرجاء العالم الإسلامي، وقد أدى خدمات عظيمة للعلم  
في مختلف العصور، ونشره في شتى بقاع العالم. إبراز  
المظاهر الشيعية في مصر: لما رأى «جوهر» أن دعائم ملك  
الفاطميين قد توطدت في «مصر»، عمل على تحقيق ما جاء من  
أجله، فزاد في الأذان عبارة: «حي على خير العمل»، وجهر  
بالبسملة في قراءة القرآن في الصلاة، وزاد في خطبة الجمعة  
ما يلي: «اللهم صلِّ على محمد المصطفى، وعلى علي المرتضى،  
وفاطمة البتول، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول؛ الذين  
أذهبت عنهم الرجس، وطهرتهم تطهيراً. الله صلِّ على الأئمة  
الراشدين آباء أمير المؤمنين الهادين المهتدين»، ونقش على  
جدران «مسجد الفسطاط» شعار العلويين باللون الأخضر، كما  
أضاف في أول خطبة بالجامع الأزهر عبارة: «السلام على الأئمة  
آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله»، وضرب العملة باسم الخليفة  
«المعز»، وألغى السواد شعار العباسيين، وعمم الملابس  
الخضراء شعار العلويين، ثم أرسل إلى «المعز» يستدعيه إلى  
«مصر»، فوافقه «المعز»، وخرج من «المنصورية» بالمغرب في  
شوال سنة (361هـ)، ووصل إلى «القاهرة» في رمضان سنة  
(362هـ)، واستقبله أهل «مصر» بالفوانيس، فأصبحت عادة في

استقبال شهر رمضان حتى الآن، وأعلن «المعز» «القاهرة»  
عاصمة للخلافة الفاطمية، فأصبحت «مصر» دار خلافة بعد أن  
كانت دار إمارة. النفوذ الفاطمي يمتد إلى بلاد الشام: حينما  
استقرت الأمور لجوهر الصقلي في «مصر»، اتجه ببصره تجاه  
بلاد الشام، وبذل جهودًا مضنية من أجل مد نفوذ سيده إلى هذه  
البلاد، وجهاز حملة كبيرة جعل قيادتها للقائد الكبير «جعفر ابن  
فلاح»، الذي عُرف بعقليته العسكرية الفريدة، فخرجت الحملة  
قاصدة «دمشق»، واستولت في طريقها على «الرملة»  
و «طبرية»، فلما علم أهل «دمشق» بذلك خرجوا عن بكرة أبيهم  
حاملين السلاح مشاة وفرساناً لمواجهة هذه الحملة، والتقى  
الطرفان، وبذل أهالي «دمشق» كل ما في وسعهم، إلا أنهم  
هُزِموا في النهاية، ودخل «جعفر» وجنوده المدينة، فاعتبرها  
الجنود غنيمة وثبوها، ولم يكبح «جعفر» - بطبيعته الحربية -  
جماحهم، فقامت الثورة في «دمشق»، وتمكن «جعفر» من  
السيطرة عليها، وقبض على زعمائها، فهدأت الأحوال، وأقيمت  
الخطبة للمعز الفاطمي في الحرم سنة (359هـ)، وزال سلطان  
العباسيين في الشام. وقد توالى على حكم الدولة الفاطمية عدد  
من الخلفاء هم: 1 - عبيد الله المهدي. 2 - القائم. 3 - المنصور. 4 -  
المعز. 5 - العزيز. 6 - الحاكم. 7 - الظاهر. 8 - المستنصر. 9 -  
المستعلي. 10 - الأمر. 11 - الحافظ. 12 - الظافر. 13 - الفائز. 14 -  
العاضد. اختيار الدولة الفاطمية: حين علا «صلاح الدين الأيوبي»  
كرسى الوزارة في الدولة الفاطمية، حدث الصدام المتوقع بين  
المذهبين الشيعي والسني، فسلب الوزير السني من الخليفة  
«العاضد» الشيعي كل سلطانه، وبات الخليفة كالحجور عليه،  
وصار حبيس قصره، فاستاء أتباع الخليفة وجنوده من هذا

الوضع وقاموا بثورة عارمة، نجح الوزير «صلاح الدين» في تثبيتها، فاضطر مشعلوها إلى الهرب نحو صعيد «مصر»، فعمل «صلاح الدين» على تثبيت قدميه، وتوطيد علاقته بالناس،

(351/14)

وحارب الصليبيين، وحقق انتصارات عظيمة عليهم، وعزل القضاة الشيعة، وجعل السنين بدلا منهم، ثم أرسل إلى «نور الدين» يطلب منه أن يلحق به أسرته فوافق، وألحقهم به، فقويت شوكته، وأحبه الناس لسلوكه وسيرته بينهم، فلما اطمأن «نور الدين» إلى استقرار الأوضاع أرسل إلى «صلاح الدين» يطلب منه إزالة الخلافة الفاطمية، والدعاء للخليفة العباسي، فرفض «صلاح الدين» أول الأمر خوفاً من عواقب هذا الصنيع، ثم عمد إلى التجربة - بعد أن شاور خالصاءه - فقرر أن يصعد واحد من الناس المنبر قبل الخطيب، ويدعو للخليفة العباسي «المستضيء» ليرى ماذا سيفعل الناس، فلما تم له ما أراد، ولم يثر أحد أسقط الدعاء للعاقد وجعله للمستضيء، فكانت نهاية الدولة الفاطمية التي حكم ملوكها الأوائل رقعة شاسعة من العالم امتدت من «الخيوط الأطلسي» غرباً إلى «الخليج العربي» شرقاً، ودُعي لأحد خلفائها على منابر «بغداد» -عاصمة الخلافة العباسية - عاماً بأكملها. وكان «العاقد» مريضاً حين سقطت دولته فأثر أهله عدم إخباره حتى لا يفجع ويزداد مرضه، ولكنه لم يلبث طويلاً وتوفي سنة (567هـ). الحضارة والنظم في العصر الفاطمي نظام الحكم: قام نظام الحكم على نظرية الإمامة التي اعتبرها الشيعة حقاً لهم. إرثاً عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ويختلفون في ذلك عن أهل السنة القائلين بحق الأمة في اختيار إمامها، كما يختلفون مع الإمامية الإثنا عشرية الذين ساقوا الإمامة في اثني عشر

رجلا من آل البيت، كان آخرهم «محمد بن الحسن العسكري»، بينما وقف بما الإسماعيلية بعد «جعفر الصادق» عند ابنه «إسماعيل» الذي نُسبَت الدولة إليه، وركزت كلتا الطائفتين على حق آل البيت في الإمامة، وأن مهمة الإمامة هي الحفاظ على تراث النبوة. الوزارة: هي أرفع المناصب بعد الخلافة، وكانت تنقسم إلى: 1 - وزارة قلم. 2 - وزارة سيف. وكان يُطلق عليها رتبة الوساطة أو السفارة في أول عهد الدولة، ولم تظهر كلمة

(352/14)

وزير إلا في عهد «العزیز» ثاني الخلفاء الفاطميين في «مصر»، وكان يتم اختيار الوزير - غالبًا - من بين أرباب الأقاليم، وتحول هذا المنصب إلى سلطة استبدادية أثناء الشدة المستنصرية؛ فكان «بدر الجمالی» وزير سيف، وبه بدأ عهد استبداد الوزراء، وتحولت الوزارة إلى وزارة تفويض، وأصبح الوزير متحكمًا في جميع أمور الدولة؛ بل أصبح الوزراء يتدخلون في تولية الإمام وولى عهده، فعظم أمرهم وقويت شوكتهم. كان وزير التنفيذ يُلقَّب بالأجلّ، أما وزراء التفويض فكانت ألقابهم تدل على السلطة الواسعة التي تمتعوا بها، مثل: أمير الجيوش، وكافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين، وتلقَّب الوزير «طلّاح بن رزیک» بالملك المنصور، وتلقَّب ابنه «رزیک بن طلّاح» بالملك العادل، وكذلك تلقب «صلاح الدين الأيوبي» آخر وزراء الفاطميين وأول سلاطين الدولة الأيوبية بالملك الناصر، كما وُصِف بعض هؤلاء الوزراء بالسلطان. كانت للوزير في العصر الفاطمي علامات تميزه عن غيره من موظفي الدولة، وانفرد بلبس زى خاص، وبلغ راتبه خمسة آلاف دينار شهريًا، وكان له حق الجلوس بجوار الخليفة، وكان مجلسه بدار الوزارة الكبرى - التي

بُنِي لها قصر كبير بجوار باب النصر - لا يقل في الأبهة والعظمة عن مجلس الخليفة نفسه. واشتُرط فيمن يتولى منصب الوزارة أن يكون مخلصاً لعقيدة الدولة، وأن تكون لديه المهارة في تدبير الأموال، ولذلك تولى وزارات التنفيذ وزراء من أهل الذمة ظلوا على عقيدتهم. نظام الإدارة: ورث الفاطميون نظام العباسيين في الإدارة، فعملوا على تركيز السلطة في أيديهم، وأصبح نظامهم الإداري شديد المركزية تُدار شئونه من داخل القصر، باستثناء بعض الظروف النادرة التي نُقل فيها ديوان الوزارة إلى دور الوزراء، وسرعان ما يعود إلى القصر ثانية. انقسمت الشئون الإدارية في عهد الفاطميين إلى: 1 - ديوان الإنشاء الذي يقوم

(353/14)

---

بتنفيذ أوامر السلطة العليا. 2 - ديوان المالية، ويقوم بمجباية الأموال وإنفاقها. 3 - ديوان الإدارة المحلية التي تحكم الولايات. وتفرع عن كل ديوان من هذه الدواوين أقسام عديدة، كان لكل منها عمل معين، وعلى الرغم من محاولة «جوهر الصقلي» إحلال المغاربة محل المصريين في الوظائف الإدارية، فإنه فشل في ذلك، لجهل البربر بدقائق الإدارة، فبقى المصريون من المسلمين وأهل الذمة في مناصبهم الإدارية، وتشير المصادر التاريخية إلى استخدام القبط واليهود - بكثرة - في مختلف دواوين الدولة. النظام الديني: أطلق لقب: «أصحاب الوظائف الدينية» على علماء الدين في العصر الفاطمي، وكانت هذه الوظائف تضم: 1 - القضاء: ويعتمد على التشريع الإسماعيلي. 2 - الدعوة: وتعتمد على العقيدة الشيعية للدولة. ويتفق التشريع الشيعي مع التشريع السني في أن كلا منهما يعتمد على القرآن الكريم والسنة النبوية كأساس للتشريع، مع اختلاف جوهرى هو أن

الفاطميين وضعوا تأويلاً باطنياً لنصوص القرآن والسنة؛ فالصلاة - مثلاً - هي الفرائض الخمس المعروفة، ولكن معناها الباطني هو الإخلاص للإمام الباطني، ولذلك لا يقبلون من الأحاديث إلا ما رواه آل البيت ونُقل عنهم، حتى وإن كانت هناك أحاديث مشتركة بين الطرفين اختلف رواهاً. لم يمنع المذهب الشيعي الاجتهاد، ولكنه اشترط أن يكون هذا الاجتهاد قائماً على الأصول التي وضعها الفاطميون، ولذا أصبح اجتهاد الشيعة مقيداً. تولى أصحاب الوظائف الدينية الإشراف على القضاء في أرجاء الخلافة، فكان منهم: قاضي القضاة، وصاحب المظالم، والمحتسب، وصاحب الشرطة. وقامت الدعوة على أسس العقيدة الشيعية؛ لأن الدولة الفاطمية دولة قامت على أسس مذهبية، وكانت دعوتها تُسمّى رسمياً: الدعوة الهادية، أو الدعوة العلوية، وكان الهدف من هذه الدعوة تأييد حكم الفاطميين ليرسخ في النفوس حق الفاطميين في حكم العالم الإسلامي، فأيدت حق الإمام المطلق

(354/14)

في ولاية أمر المسلمين، ولجأت إلى تأويل القرآن بما يتفق مع تأييد وجهة نظرها، بزعم أن أبناء «فاطمة» بنت رسول الله وذريتها هم وحدهم القادرون على هذا التأويل، ولديهم معنى واضح وآخر باطن لكل كلمة قرآنية. بمجيء الفاطميين إلى «مصر» أصبحت «القاهرة» مقر داعي الدعاة؛ الذي له حق الإشراف على الدعوة في «مصر» والعالم الإسلامي، وعليه إرسال الدعاة في أنحاء العالم أجمع للتبشير بمذهب الفاطميين، ولهذا كان يجب عليه أن يكون عالماً بالمذهب الإسماعيلي، عارفاً بأسرار العقيدة، بليغاً، ذكياً، عالماً بقواعد الدين. كانت مجالس الدعوة تُعقد بصفة منتظمة ودورية، فخصص يوم الأحد

للرجال، ويوم الثلاثاء للأشراف والشخصيات المرموقة، ويوم الأربعاء للنساء، وكانت المحاضرات المقروءة في هذه المجالس تُسمَّى: مجالس الحكمة، أو مجالس الدعوة، فإذا فرغ الداعي من إلقاء محاضرته تراحم عليه الناس في طقوس غريبة، فيمسح على رءوسهم برقعة وضع عليها الخليفة توقيعه. كان الداعي يلي قاضي القضاة في الرتبة والمكانة، وكان راتبه الشهري مائة دينار مثل راتب القاضي، وتلقَّب باللقاب فخمة مثل: «الشيخ الأجل»، وكانت له سلطة روحية غير محدودة على جميع الشئون السياسية والدينية في الدولة. النظام الحربي: كان الجيش الفاطمي من أقوى الجيوش في عصره، وكانت له دواوين خاصة قامت على تنظيمه وإعداده، كديوان الجيش الذي أشرف على إعداد الجنود وأعدادهم، وديوان الرواتب الذي اختص بتسجيل العطاءات، وديوان الإقطاع الذي اختص بالنظر في الإقطاعات التي تمنحها الدولة لبعض العسكريين مقابل قيامهم بواجبات معينة، وقد أتت مكانة قائد الجيش بعد صاحب الباب الذي كان يلي الوزير مباشرة، وتميز قادة الجيش عن بعضهم بعلامات يحملونها، وسكن الجنود في معسكرات خاصة بهم حتى لا يضايقوا الأهالي فضلا عن تواجدهم في مراكز الحدود. روى «المقريزي»: «أن خزائن المال وأمتعة الجيش حملها عشرون ألف

(355/14)

---

جمل، حين خرج جيش العزيز قاصداً الشام، وعمل الفاطميون على تزويد الجيش بأحدث أنواع الأسلحة. ولذا يمكن القول بأن الجيش الفاطمي كان جيد الإعداد مثل غيره من جيوش الدول الكبرى آنذاك». قام الأسطول الفاطمي بعدة حملات بحرية في البحر المتوسط أثبت خلالها شدة بأسه، وكانت له غزوات مظفرة

على «بزنطة» و «إيطاليا» و «فرنسا» و «إسبانيا»، ويروى  
«القلقشندى» أن وحدات الأسطول الفاطمي كانت مرتبة  
ومتواجدة بجميع الشواطئ الساحلية، ماعدا سواحل الشام  
التي فقدوا سيطرتهم عليها في القرن الأخير من حكمهم، فقد  
غلبهم عليها الصليبيون. خصصت الدولة الفاطمية جزءاً كبيراً من  
ميزانيتها للإفناق على إعداد الجيش وتجهيز رجاله بما يحتاجون  
إليه من أدوات الحرب وغيرها، وكان للجيش ديوان خاص يُدعى  
«ديوان الجهاد»، وأنشئت الموانئ لبناء السفن التي كان بعضها  
يتسع لحمل ألف وخمسمائة شخص، وأصبح الأسطول الفاطمي  
من أكبر الأساطيل، وبقي نموذجاً احتذى به الأيوبيون  
والمماليك. مُنشآت الفاطميين: تميز العصر الفاطمي بمنشآته  
العديدة، وكان على رأسها تأسيس «القاهرة»، وإنشاء  
«الجامع الأزهر»، وتشيد «القصر الشرقي»، و «القصر الغربي»،  
و «قصر البحر»، و «قصور عين شمس»، و «جامع الحاكم»،  
و «جامع الأولياء». تأسست مدينة «القاهرة» سنة (358هـ) لسبعة  
عشر يوماً خلت من شهر شعبان، واختطت قبائل البربر مساكنها  
حول قصر «المعز» بها. وأصبحت منذ ذلك اليوم مقراً للحكم،  
ومركزاً لنشر الدعوة الشيعية، وحصناً يصد هجمات الأعداء،  
وأطلق عليها اسم «المنصورية» نسبة إلى «المنصور» والد  
«المعز»، وقد اختلف المؤرخون في سبب تسميتها بالقاهرة؛  
فذكر «ابن دقماق»: أن أساسها حُفِر أثناء طلوع كوكب يُقال له  
«القاهر» فسميت به. وقيل إن «المعز» قال لجوهر الصقلي:  
«لتدخلن في خرابات ابن طولون، وتبنى مدينة تقهر الدنيا»،  
فلما حدث ذلك سماها «جوهراً» «القاهرة»، وهناك من ذكر أنها

سُمِّيَتْ بذلك لأنها تقهر من يشذ عنها. أحاط «جوهراً» «القاهرة» بسور كبير من الطوب اللبن، وإلى الجنوب الشرقي منها كانت مدينة «الفسطاط»، وإلى الغرب منها وقع ميناء «المقس»، ثم وضع «جوهراً» أساس القصر الذى شيده من أجل مولاه «المعز»، ذلك القصر الذى قيل عنه إنه احتوى على أربعة آلاف حجرة، وتأثت بفخر الرياش، وبأفخر ما يحتاج إليه خاصة الناس لاسيما الملوك والخلفاء. كانت «القاهرة» مدينة الخاصة، فلم يكن أحد يسكنها إلا الخليفة ورجاله، وقد بنى «العزیز بن المعز» فيها قصرًا عُرف بالقصر الغربى، فعرفت المنطقة الواقعة بين قصرى «المعز» و «العزیز» - الشرقى والغربى - باسم: «بين القصرين»، وكان «الأزهر» أول مسجد شُيد فى «القاهرة» المعزىة، وقد شرع «جوهراً» فى بنائه يوم السبت الموافق (4 من رمضان سنة 359هـ)، وأقيمت الصلاة به لأول مرة فى (7 من رمضان سنة 360هـ)، وصار منذ ذلك الوقت إلى الآن أشهر جامع فى العالم الإسلامى، وكان «على ابن النعمان» أول من مارس التدريس فيه، حيث ألقى على الطلاب مختصر أبيه «القاضى النعمان» فى الفقه على المذهب الشيعى، كما كان «العزیز بالله» أول من حوّل «الأزهر» من مسجد تُقام فيه الصلاة إلى جامعة تُدرس فيها العلوم، وهو أول من أجرى الأرزاق على طلاب العلم فيه، وتبعه فى ذلك الخلفاء والأمراء والوزراء؛ فبنوا الأروقة لتكون منازل مُعدّة لسكنى الطلاب، وجعلوا لكل بلد رواقًا خاصًا بطلابه، فكان هناك رواق الصعايدة، ورواق المغاربة، ورواق الأكراد .. الخ. وبنى «العزیز بالله» قصورًا عديدة فى «عين شمس»، وأسس «قاعة الذهب»، وبدأ بناء مسجد أتمه ابنه «الحاكم» وفرشه بستة وثلاثين ألف متر من الحصر، وأضاءه بالقناديل، وعلّق على أبوابه الستور الحريرية، وحبس عليه أملاًً كثيرة لرعايته والإنفاق عليه، وفى سنة (395هـ) أنشأ «الحاكم» «دار الحكمة» وألحق بها مكتبة كبرى أطلق عليها اسم «دار العلم»، وأنشأ

«الظاهر» «قصر اللؤلؤ»؛ الذى يُعدُّ من أجمل قصور العصر الفاطمى، وظل مكانًا يلجأ إليه الخلفاء من بعده وقت فيضان النيل. ولنا أن نشير إلى اهتمام خلفاء الدولة الفاطمية ووزرائها بإقامة المنشآت على النيل؛ لتوزيع المياه بطريقة تكفل زراعة أكبر مساحة من الأراضى. الحالة الاقتصادية: وجَّه الفاطميون اهتمامهم إلى الزراعة والصناعة والتجارة، وفرضوا الضرائب على بعض المنتجات، فقد قاست «مصر» الأمرين فى أواخر الدولة الإخشيدية؛ حيث انخفض ماء النيل، وعم القحط وانتشر الوباء لدرجة أن الناس عجزوا عن تكفين موتاهم، فلما فتح «جوهر» «مصر»، منع احتكار الحبوب، وعهد إلى المحتسب برقيبتها فى الأسواق، ثم عاد الخير إلى «مصر» ثانية بعودة مياه النيل إلى الزيادة، فبلغت الأرض المنزرعة فى عهد «المعز» (285 ألف فدان)، وارتقت البلاد زراعيًا بفضل إنشاء القناطر وإقامة السدود، وتنظيف الترع والمصارف، ثم حدثت المجاعة التى عُرفت بالشدة العظمى فى عهد «المستنصر». بزغ نجم «مصر» عاليًا فى مجال الصناعة فى عهد الفاطميين، وبرع المصريون فى صناعة المنسوجات، وزادت ثروتهم من صادرات هذه الصناعة لاسيما منتجات «دمياط» و «تنيس» و «الأشمونيين»، التى نالت منسوجاتها شهرة عالمية. كذلك ارتقت صناعات الفرش والسجاد والسيرج والذهب والفضة، ورُصِّع عرش الخلافة الفاطمية بمائة وسبعة عشر ألف مثقال من الذهب، ووضع ستار قبالة هذا العرش رُصِّع بألف وخمسمائة وستين قطعة من الجواهر المختلفة الألوان، وحلى بثلاثمائة ألف مثقال من الذهب الخالص، وكان لدى المستنصر طاووس من الذهب مرصع بالأحجار الكريمة، وعيناه من الياقوت، وريشه من الزجاج المموه بالذهب، كما وجد

بدار الوزير «الأفضل» ثمانية تماثيل لثمانى جوارٍ متقابلات، أربع منهن بيضاوات والأربع الأخر لوطن أسود، مرتديات أفخر الثياب، متزينات بأثمن الجواهر، إذا دخل «الأفضل» من باب

(358/14)

المجلس نكس رءوسهن إجلالا له. كذلك برع المصريون في صناعة الأطباق والصحاف والزجاج، لدرجة أنهم استطاعوا إنتاج نوع شفاف من الزجاج يشبه «الزمرد» لنقائه الشديد فكان يباع بالوزن. وقد نشطت التجارة بين «مصر» والعالم نشاطاً ملحوظاً، وكانت حركة السفن التجارية لا تتوقف غدوا ورواحاً بميناءى «عيذاب»، و «القلزم» (السويس)، وكانت نسبة الضرائب تزيد وتنقص تبعاً لزيادة المحصول وقلته نتيجة الزيادة أو النقصان فى ماء النيل، وبلغت ضريبة الفدان فى عهد «المعز» سبعة دنانير، وبلغت ضريبة الرءوس ديناراً وربيع الدينار عن كل فرد، ثم كانت الجزية التى تُحصّل من قادرى اليهود والنصارى دون ظلم أو إجحاف مقابل رعايتهم وإعفائهم من الخدمة العسكرية، ولم تكن الجزية مبلغاً كبيراً لقلّة عدد اليهود والنصارى بعد تحوّل معظم المصريين إلى الإسلام. وفرضت الضرائب على الصناع والحرفيين، وروعى فيها العدل -غالبًا- أثناء قوة الخلافة الفاطمية وخلفائها، فلما حلّ الضعف بها وتسلط الوزراء على الخلفاء والبلاد؛ أهملت النواحي الاقتصادية، ولم يرع هؤلاء الوزراء حالة المواطنين، فكان ذلك سبباً فى فتح أبواب البلاد أمام الطامعين. طوائف الشعب: كان سواد الشعب المصرى من أهل السنة حين دخلها الفاطميون، فحاولوا نشر مذهبهم الشيعى بالترغيب مرة وبالترهيب أخرى، ومنحوا العطايا والهبات، فكان لذلك أثره الكبير فى اعتناق الكثيرين للمذهب الشيعى، فضلا

عن رغبة البعض في الإبقاء على وظائفهم؛ إذ تحتم على من يرغب في الإبقاء على وظيفته اعتناق المذهب الشيعي. وكان المغاربة وعلى رأسهم الكتاميون الذين قدموا مع الجيش الفاطمي، وقامت دولة الفاطميين بسواعدهم - ضمن طوائف الشعب بعد أن استقر لهم الأمر، وطاب لهم العيش بمصر، وكذلك كان هناك أهل الذمة من اليهود والنصارى؛ الذين تقلدوا مناصب رفيعة. وشغلوا معظم الوظائف المالية، تُضاف إليهم طائفة

(359/14)

الأتراك الذين كثر عددهم منذ عهد الطولونيين، وظلوا بمصر، فدار بينهم وبين المغاربة تطاحن وتنازح في عهد الحاكم، أما السودانيون فقد كثر عددهم منذ «كافور الإخشيدى»، وقويت شوكتهم في عهد «الحاكم»، فاستعان عليهم بالأتراك، ثم زاد خطرهم ثانية وقويت شوكتهم حين تزوج «الظاهر» واحدة منهم. مكانة المرأة: كان للنساء شأن كبير في الدولة الفاطمية، لدرجة أنهن كن يتدخلن في توجيه سياسة الدولة، وحققت الكثيرات منهن ثروات طائلة، مثل: «رشيدة ابنة المعز لدين الله»، التي بلغت ثروتها مليوناً وسبعمائة ألف دينار، وكان لأختها «عبدة» خزائن عديدة مملأة بالحلوى، وصناديق كثيرة يحوى كل منها خمسة أكياس من «الزمرد» وثلاثمائة قطعة فضية وثلاثين ألف ثوب صقلى وغير ذلك، وامتلكت الملكة «تغريد» زوج «المعز» أموالاً طائلة، وشيّدت مسجداً بالقرافة. تزوج «العزیز» امرأة نصرانية من الروم، وعين أخويها بطيركين بالإسكندرية و «بيت المقدس»، وولدت «للعزيز» ابنه «الحاكم» وابنته «ست الملك»، فكان لها نفوذ كبير، ثم كان لابنتها «ست الملك» من النفوذ والدهاء ما مكنها من تأجيل اختيار الدولة الفاطمية فترة طويلة

بعد أن أزاحت «الحاكم» عن العرش، كما سبق ذكره، وتركت «ست الملك» ثروة ضخمة كان منها ثمانمائة جارية وعدد كبير من الأحجار الكريمة، وبلغت مخصصاتها السنوية خمسين ألف دينار، وكانت زوجة «الظاهر» وهي أم «المستنصر» من النساء اللاتي حظين بنفوذ كبير في الدولة الفاطمية، فأكثر من بنى جلدتها السودانيين حتى وصل عددهم إلى خمسين ألفاً. لم يكن لنساء العامة أى أثر في الحياة السياسية، ولم تذكر المصادر أى نشاط لهن في الدولة الفاطمية، فقد كان ذلك مقصوراً على نساء الطبقة الحاكمة. المواسم والأعياد: كان للمصريين أعيادهم المختلفة ومواسمهم المعينة قبل الفتح الإسلامى، علاوة على ما استجد من الأعياد الدينية بعد الفتح الإسلامى، وبما أن الدولة

(360/14)

---

الفاطمية دولة دينية مذهبية، فقد كانت الحفلات بالنسبة إلى خلفائها مناسبة لتأكيد عقيدتهم، وعملوا على صبغها بالصبغة المذهبية، فمن الأعياد التي كانت موجودة قبل الفتح الإسلامى وظلت باقية بعده «عيد وفاء النيل» الذى ظل تقليدًا بعد الفتح مع إدخال بعض التعديلات على الاحتفال به لتتناسب مع الدين الإسلامى، وكان هناك «عيد الغطاس» الذى يحتفل فيه النصارى بذكرى المسيح فى ليلة (11 من طوبة = 9 من يناير)، وذكر «المقريزى» أنها أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سرورًا ولا تغلق فيها الدروب»، وعيد «النوروز» الذى يقول عنه «المقريزى»: «إنه أول السنة القبطية بمصر، وهو أول يوم من توت، و «عيد الميلاد» فى (29 من كيهك)، و «خميس العهد». أما الأعياد والمواسم الدينية التى عرفها المصريون بعد الفتح الإسلامى؛ فلم تأخذ شكلها الفخم ومظهرها الرائع إلا بعد مجيء

الفاطميين، ومن أشهر هذه الأعياد: «عيد رأس السنة الهجرية»،  
الذى كانوا يعدون العدة للاحتفال به ابتداء من العشر الأواخر من  
شهر ذى الحجة، فكان الاحتفال به مثالا للروعة والبهاء، كما  
كان لهم كبير اعتناء بليلة أول الحرم من كل عام، وبأعياد  
ليالى الوقود الأربعة وهى: الأول من رجب ونصفه، والأول من  
شعبان ونصفه، وكذلك بعيدى «الفطر» و «الأضحى»، وفيهما  
تُقام الولائم وتُعدُّ الموائد للشعب، وفي الثاني عشر من شهر  
ربيع الأول من كل عام يقام الاحتفال بالمولد النبوى الشريف  
بمراسم خاصة فخمة تليق بالمكانة العظيمة للنبي - صلى الله عليه  
وسلم - فى نفوس المسلمين. ذلك بالإضافة إلى أعياد الشيعة  
المذهبية كعيد «غديرخم» نسبة إلى الغدير الموجود بهذا الاسم  
بين «مكة» و «المدينة»، ويذكر الشيعة أن النبي - صلى الله عليه  
وسلم - نزل بموضع «الغدير»، وآخى «علئ بن أبى طالب» فى  
عودته من «مكة» إلى «المدينة» بعد حجة الوداع سنة (10هـ)، ثم  
قال - صلى الله عليه وسلم -: «علئ منى كهارون من موسى،

(361/14)

اللهم وإل من والاه، وعادٍ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من  
خذله»، فاعتبر الشيعة هذه المقولة بمثابة وصية من الرسول  
لعلئ، وأنه أحق بالخلافة من غيره. ومن احتفالات الفاطميين  
احتفال بذكرى مقتل «الحسين بن علئ» -رضى الله عنهما - وهو  
عندهم يوم حزن يُمدُّ فيه سِماط يُسمَّى «سِماط الحزن»، ذلك  
إضافة إلى أعياد أخرى مثل الاحتفال بإرسال الكسوة بصحبة  
قافلة الحج، والاحتفال بشهر رمضان، والاحتفال بذكرى مولد  
الكثير من الأئمة، ومولد الخليفة القائم بالأمر. ولا يعرف التاريخ  
دولة إسلامية استطاعت طبع «مصر» بطابع قوى وجديد مثلما

فعلت الدولة الفاطمية، التي مرت عبر صفحات التاريخ شأنها شأن أية دولة تباينت قوة وضعفًا، واعتورها الصواب والخطأ، بيد أنها سطرت صفحة ناصعة من ألمع الصفحات في التاريخ الإسلامي تمثلت في «الجامع الأزهر» ومدينة «القاهرة».

(362/14)

### \*العبيديون

أصل الشيعة الفاطمية: قامت الدولة الفاطمية على المذهب الإسماعيلي الشيعي القائل بالنص والتعيين، ويقصرون خلافة الرسول - صلى الله عليه وسلم - الروحية والزمنية على ذرية الإمام «علي» - رضى الله عنه - مستندين في ذلك إلى حديث «غديرخم» الشهير، وقد لجأت الإسماعيلية بعد وفاة إمامهم «إسماعيل بن جعفر» إلى الاختفاء والعمل السرى، فقد افرق أشياع «جعفر الصادق» بعد وفاته إلى فرقتين، ولت الأولى ابنه «موسى الكاظم» إمامًا، وولت الثانية ابنه «إسماعيل» إمامًا، فعُرِفَت الفرقة الأولى بالإمامية أو الاثنا عشرية؛ لأنها سلسلت الإمامة حتى الإمام الثاني عشر «محمد» الملقب بالمهدى المنتظر ابن الحسن العسكري ابن علي الهادى ابن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم، وعُرِفَت الفرقة الثانية بالإمامية الإسماعيلية؛ لأنهم أبقوا الإمامة في ذرية «إسماعيل بن جعفر»، ثم من بعده ابنه «محمد»، فابنه «جعفر الصادق»، فابنه «محمد الحبيب»، فابنه «عبيدالله المهدي» مؤسس الدولة الفاطمية. قامت «الدولة الفاطمية» ببلاد «المغرب» - وفق خطة مرسومة من قبل دعاة الشيعة - على أكتاف قبيلة «كتامة»، التي تنتمي إلى بربر «البرانس»، وتميزت عن غيرها من القبائل بكثرة عددها، ومنعة منطقة سكنها بجبال «الأوراس» بين مدينتي «بجاية»

و «قسنطينة»، فضلا عن عدم خضوعها لسلطة الولاية اعتزازاً بمنعتها وقوة بأسها. وقد وقف زعماء الشيعة على ما اتصفت به هذه القبيلة، واختار «ابن حوشب» رئيس مركز الدعوة الشيعية باليمن «أبا عبدالله الحسين بن أحمد الشيعي» للاتصال بوفد «كتامة» بموسم الحج، لنشر الدعوة الشيعية بالمغرب، وإقامة الدولة المرتقبة هناك. وقد تم لقاء «أبي عبدالله» بوفد «كتامة» بمكة، وجعله هذا الشيعي يبدو كأنه جاء مصادفة، وبدأ يتعرف أحوالهم وميولهم المذهبية، ولم يفصح عما أضمره وما جاء من أجله، ونجح في استمالتهم والسيطرة على قلوبهم بمكره

(363/14)

ودهائه وعلمه وجدله، ثم تظاهر بعد انقضاء موسم الحج برغبته في السفر معهم إلى «مصر»، للتدريس لأبنائها، فاصطحبوه معهم، فلما وصلوها، أخوا عليه بمصاحبتهم إلى بلادهم، فوافقهم، وذهب معهم إلى المغرب في سنة (289هـ = 902م)، واتخذ من «إيكجان» مستقرا له، لأنها نقطة التقاء حجاج «الأندلس» و «المغرب الأقصى»، والمتوجهين لأداء فريضة الحج. وبدأ «أبو عبدالله» في تنفيذ خطته، وتظاهر بتعليم الصبية، وإلقاء دروسه عليهم، فزاده ذلك مكانة ومنزلة بين أبناء «كتامة»، وذاع صيته بين القبائل، وقصده البربر من أماكن متفرقة، لينهلوا من علمه، ويستفيدوا من نصائحه، ثم عمد «أبو عبدالله» إلى مصارحة بعضهم - بعد أن اطمأن إليهم - بحقيقة أمره، ورغبته في إقامة دولة لآل البيت تقوم على أكتاف قبيلة «كتامة»، لأن الروايات - كما ادعى لهم - جاءت بذلك، وأخبرت عما ينتظرون من عز الدنيا وثواب الآخرة. وأخذ «أبو عبدالله» على عاتقه تنظيم صفوف أبناء «كتامة» وبعض أبناء القبائل

الأخرى، وقسمهم إلى سبعة أقسام، وجعل على رأس كل قسم منها داعية يطمئن إليه، فاستطاع بهذا الأسلوب العملي إقامة مجتمع يدين بفكرة واحدة؛ هي إقامة الدولة المثالية التي يحكمها إمام من آل البيت. وقد اتخذ «أبو عبدالله الشيعي» من أبناء «كتامة» جنداً يدافعون عن الدعوة، ويهاجمون القوى السياسية الموجودة بالمنطقة، وهي: «الأغالبة» بالمغرب الأدنى، و «الرستميون» بالمغرب الأوسط، و «بنو مدرار» بسجلماسة بجنوب «المغرب الأقصى» وبقايا «الأدارسة» بمدن «المغرب الأقصى»، وترتب على ذلك دخول «أبي عبدالله الشيعي» في عدة معارك مع هذه القوى، كانت أشهرها معركة «كنبونة»، التي انتصر فيها على «الأغالبة» في سنة (293هـ = 906م)، ثم توالى انتصاراته بعد ذلك، ودخل مدينة «رقادة» وقضى على نفوذ «الأغالبة»، ثم دعا «المهدي الفاطمي» إلى «المغرب» لتسلم مقاليد الأمور؛ فلبى الدعوة، وتحنّى في زى

(364/14)

---

التجار حتى لا يقع في قبضة العباسيين، ودخل مدينة «رقادة» في سنة (297هـ = 909م)، ثم بويع بالإمامة. الخلفاء الفاطميون بالمغرب: حكم أربعة خلفاء فاطميين بلاد «المغرب» في الفترة من سنة (297هـ = 909م) إلى سنة (365هـ = 975م)، وكان «المعز لدين الله الفاطمي» هو آخر هؤلاء الخلفاء، حيث انتقل بالخلافة إلى «القاهرة» التي اتخذها عاصمة جديدة للفاطميين، بعد أن تم له فتح «مصر» على يد قائده «جوهري الصقلي» في سنة (358هـ = 969م)، والخلفاء الأربعة هم: 1 - المهدي: عبيد الله أبو محمد [297 - 322هـ = 909 - 934م]. 2 - القائم: محمد أبو القاسم [322 - 334هـ = 934 - 945م]. 3 - المنصور: إسماعيل أبو طاهر [334 -

341هـ = 945 - 952م]. 4 - المعز: معدّ أبو تميم [341 - 365 هـ =  
952 - 975م]. دخول الفاطميين مصر: جانب التوفيق الحملات  
الثلاث التي أرسلت من قبل الفاطميين لفتح «مصر» في عهد  
أسلاف «المعز»، ولكن الوضع العام في المشرق كان يئس  
بنجاح الحملة الرابعة، للضعف الذي حلّ بدار الخلافة في  
«بغداد»، وكذلك ما وصلت إليه حال «مصر» من ضعف وبؤس  
وشقاء في أواخر عهد «كافور»، كما كان لانخفاض النيل الذي  
استمر تسع سنوات أثر كبير في انتشار الوباء والقحط فيها،  
فلم تستطع «مصر» مواجهة الغزاة، كما عجزت - بعد «كافور» -  
عن صد هجوم ملك «النوبة» من الجنوب، وثار الجند لعدم دفع  
رواتبهم، ونشط جواسيس «المعز»، وتوغلوا في البلاد لنشر  
المذهب الشيعي، فمال الكثيرون إلى مذهبيهم، وبعث «المعز»  
رسله إلى «كافور» مُرهباً مرة ومُرغّباً أخرى للتأثير عليه،  
وكان استقرار بلاد المغرب ورسوخ أقدام الفاطميين فيه،  
وتنظيمهم الدقيق للأمن والإدارة، وحسن إعدادهم للجيش  
والقادة سبب نجاح حملتهم الرابعة على «مصر». سار «جوهر  
الصقلّي» قائد جيوش «المعز» إلى «مصر» في ربيع الأول سنة  
(358هـ)، بعد أن خرج «المعز» لوداعه، وأمر أهله بالترجل أمام

(365/14)

---

قائه وهو راكب، كما أمر واليه على «طرابلس» أن يسير في  
ركاب «جوهر» ويقبّل يده، فكبر ذلك على والي «طرابلس»،  
وأراد أن يعفى نفسه من ذلك مقابل مائة ألف دينار ذهباً يعطيها  
لجوهر، ولكن «جوهر» رفض هذه الأموال ومضى بجيشه الذي  
كان يضم مائة ألف جندي حاملاً معه أموالاً طائلة قبيل إنّها بلغت  
ألفاً ومائتي صندوق حملها على ظهور الجمال، وحين خرج

«المعز» لوداع «جوهر» والجيش بمنطقة «رقادة» قال لمن كانوا معه: «والله لو خرج جوهر وحده لفتح مصر». فكان لهذه العبارة أثرها الكبير في نفس «جوهر»، وكانت له حافزاً على تحقيق ما خرج من أجله. وصل «جوهر» إلى «مصر»، وحط رحاله بالإسكندرية التي فتحت أبوابها من غير مقاومة، فعامل «جوهر» أهلها بالحسنى ووسّع لهم في أرزاقهم، فكان لذلك أثره الطيب في نفوس الأهالي، كما كان للنظام الذي ظهر به الجيش، وطاعته لقائده أثره الكبير في نفوسهم، فرحبوا بالقائد الجديد. سياسة جوهر في مصر: عمل «جوهر» على نشر العدل بين أهل «مصر»، وأمنهم على ممتلكاتهم، وجلس للبت في المظالم بنفسه رغم شواغله، فرد الحقوق إلى أصحابها، وضرب بيد من حديد على أيدي العابثين بالنظام حتى إذا كانوا من خاصته؛ لدرجة أنه عاقب بعض المغاربة بالقتل على إثم كبير اقترفوه، كما برهن «جوهر» على حسن سياسته حين لجأ إلى الوسائل السلمية لنشر المذهب الفاطمي، ولم يفرضه كرهاً، واتخذ من المساجد مدارس يتلقى فيها الناس أصول مذهبه الشيعي، وذكر اسم الخليفة الفاطمي في خطبة الجمعة وأسقط اسم الخليفة العباسي، فكان ذلك إيذاناً بزوال النفوذ العباسي، وزوال ملك الإخشيديين. حكم «جوهر» «مصر» أربع سنوات هي من أصعب الفترات وأخطرها، حيث تم فيها إقامة معالم دولة وتشبيدها على أنقاض دولة أخرى؛ فإلى «جوهر» يرجع الفضل في تأسيس وبناء «القاهرة» المعزّية، التي جعل لها أربعة أبواب منها: «باب النصر»، و «باب الفتوح»، و «بابا زويلة»، كما

بنى بها «الجامع الأزهر» لينشر من داخله المذهب الشيعي .  
و «الأزهر» هو أول مسجد شُيِّد في «القاهرة» المعزية، وأقيمت  
فيه الصلاة لأول مرة في (17 من رمضان سنة 360هـ)، وقد  
اختلف المؤرخون في سبب تسميته بالأزهر، فقال فريق سُيِّ  
بهذا الاسم نسبة وتكريماً للسيدة فاطمة الزهراء. وقال فريق  
آخر: تفاؤلاً بما سيكون عليه أمر هذا المسجد من شأن عظيم.  
وقال فريق ثالث: سُيِّ بذلك لأنه كان محاطاً بالقصور الزاهرة  
التي بنيت عند إنشاء «القاهرة». وأيا كانت نسبة هذه التسمية  
إلى الجامع الأزهر؛ فهو يُعد -الآن- أعظم جامعة إسلامية تُدرِّسُ  
فيها العلوم الدينية والعلوم العقلية، ويقصده آلاف الطلاب من  
مختلف أرجاء العالم الإسلامي، وقد أدى خدمات عظيمة للعلم  
في مختلف العصور، ونشره في شتى بقاع العالم. إبراز  
المظاهر الشيعية في مصر: لما رأى «جوهر» أن دعائم ملك  
الفاطميين قد توطدت في «مصر»، عمل على تحقيق ما جاء من  
أجله، فزاد في الأذان عبارة: «حي على خير العمل»، وجهر  
بالبسملة في قراءة القرآن في الصلاة، وزاد في خطبة الجمعة  
ما يلي: «اللهم صلِّ على محمد المصطفى، وعلى علي المرتضى،  
وفاطمة البتول، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول؛ الذين  
أذهبت عنهم الرجس، وطهرتهم تطهيراً. الله صلِّ على الأئمة  
الراشدين آباء أمير المؤمنين الهادين المهتدين»، ونقش على  
جدران «مسجد الفسطاط» شعار العلويين باللون الأخضر، كما  
أضاف في أول خطبة بالجامع الأزهر عبارة: «السلام على الأئمة  
آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله»، وضرب العملة باسم الخليفة  
«المعز»، وألغى السواد شعار العباسيين، وعمم الملابس  
الخضراء شعار العلويين، ثم أرسل إلى «المعز» يستدعيه إلى  
«مصر»، فوافقه «المعز»، وخرج من «المنصورية» بالمغرب في  
شوال سنة (361هـ)، ووصل إلى «القاهرة» في رمضان سنة  
(362هـ)، واستقبله أهل «مصر» بالفوانيس، فأصبحت عادة في

استقبال شهر رمضان حتى الآن، وأعلن «المعز» «القاهرة»  
عاصمة للخلافة الفاطمية، فأصبحت «مصر» دار خلافة بعد أن  
كانت دار إمارة. النفوذ الفاطمي يمتد إلى بلاد الشام: حينما  
استقرت الأمور لجوهر الصقلي في «مصر»، اتجه ببصره تجاه  
بلاد الشام، وبذل جهودًا مضنية من أجل مد نفوذ سيده إلى هذه  
البلاد، وجهاز حملة كبيرة جعل قيادتها للقائد الكبير «جعفر ابن  
فلاح»، الذي عُرف بعقليته العسكرية الفريدة، فخرجت الحملة  
قاصدة «دمشق»، واستولت في طريقها على «الرملة»  
و «طبرية»، فلما علم أهل «دمشق» بذلك خرجوا عن بكرة أبيهم  
حاملين السلاح مشاة وفرساناً لمواجهة هذه الحملة، والتقى  
الطرفان، وبذل أهالي «دمشق» كل ما في وسعهم، إلا أنهم  
هُزِموا في النهاية، ودخل «جعفر» وجنوده المدينة، فاعتبرها  
الجنود غنيمة وثبوها، ولم يكبح «جعفر» - بطبيعته الحربية -  
جماحهم، فقامت الثورة في «دمشق»، وتمكن «جعفر» من  
السيطرة عليها، وقبض على زعمائها، فهدأت الأحوال، وأقيمت  
الخطبة للمعز الفاطمي في الحرم سنة (359هـ)، وزال سلطان  
العباسيين في الشام. وقد توالى على حكم الدولة الفاطمية عدد  
من الخلفاء هم: 1 - عبيد الله المهدي. 2 - القائم. 3 - المنصور. 4 -  
المعز. 5 - العزيز. 6 - الحاكم. 7 - الظاهر. 8 - المستنصر. 9 -  
المستعلي. 10 - الأمر. 11 - الحافظ. 12 - الظافر. 13 - الفائز. 14 -  
العاضد. اختيار الدولة الفاطمية: حين علا «صلاح الدين الأيوبي»  
كرسى الوزارة في الدولة الفاطمية، حدث الصدام المتوقع بين  
المذهبين الشيعي والسني، فسلب الوزير السني من الخليفة  
«العاضد» الشيعي كل سلطانه، وبات الخليفة كالحجور عليه،  
وصار حبيس قصره، فاستاء أتباع الخليفة وجنوده من هذا

الوضع وقاموا بثورة عارمة، نجح الوزير «صلاح الدين» في تثبيتها، فاضطر مشعلوها إلى الهرب نحو صعيد «مصر»، فعمل «صلاح الدين» على تثبيت قدميه، وتوطيد علاقته بالناس،

(368/14)

وحارب الصليبيين، وحقق انتصارات عظيمة عليهم، وعزل القضاة الشيعة، وجعل السنين بدلا منهم، ثم أرسل إلى «نور الدين» يطلب منه أن يلحق به أسرته فوافق، وألحقهم به، فقويت شوكته، وأحبه الناس لسلوكه وسيرته بينهم، فلما اطمأن «نور الدين» إلى استقرار الأوضاع أرسل إلى «صلاح الدين» يطلب منه إزالة الخلافة الفاطمية، والدعاء للخليفة العباسي، فرفض «صلاح الدين» أول الأمر خوفاً من عواقب هذا الصنيع، ثم عمد إلى التجربة - بعد أن شاور خالصاءه - فقرر أن يصعد واحد من الناس المنبر قبل الخطيب، ويدعو للخليفة العباسي «المستضيء» ليرى ماذا سيفعل الناس، فلما تم له ما أراد، ولم يثر أحد أسقط الدعاء للعاضد وجعله للمستضيء، فكانت نهاية الدولة الفاطمية التي حكم ملوكها الأوائل رقعة شاسعة من العالم امتدت من «الخيوط الأطلسي» غرباً إلى «الخليج العربي» شرقاً، ودُعي لأحد خلفائها على منابر «بغداد» -عاصمة الخلافة العباسية - عاماً بأكملها. وكان «العاضد» مريضاً حين سقطت دولته فأثر أهله عدم إخباره حتى لا يفجع ويزداد مرضه، ولكنه لم يلبث طويلاً وتوفي سنة (567هـ). الحضارة والنظم في العصر الفاطمي نظام الحكم: قام نظام الحكم على نظرية الإمامة التي اعتبرها الشيعة حقاً لهم. إرثاً عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ويختلفون في ذلك عن أهل السنة القائلين بحق الأمة في اختيار إمامها، كما يختلفون مع الإمامية الإثنا عشرية الذين ساقوا الإمامة في اثني عشر

رجلا من آل البيت، كان آخرهم «محمد بن الحسن العسكري»، بينما وقف بها الإسماعيلية بعد «جعفر الصادق» عند ابنه «إسماعيل» الذي نُسبَت الدولة إليه، وركزت كلتا الطائفتين على حق آل البيت في الإمامة، وأن مهمة الإمامة هي الحفاظ على تراث النبوة. الوزارة: هي أرفع المناصب بعد الخلافة، وكانت تنقسم إلى: 1 - وزارة قلم. 2 - وزارة سيف. وكان يُطلق عليها رتبة الوساطة أو السفارة في أول عهد الدولة، ولم تظهر كلمة

(369/14)

وزير إلا في عهد «العزیز» ثاني الخلفاء الفاطميين في «مصر»، وكان يتم اختيار الوزير - غالبًا - من بين أرباب الأقاليم، وتحول هذا المنصب إلى سلطة استبدادية أثناء الشدة المستنصرية؛ فكان «بدر الجمالی» وزير سيف، وبه بدأ عهد استبداد الوزراء، وتحولت الوزارة إلى وزارة تفويض، وأصبح الوزير متحكمًا في جميع أمور الدولة؛ بل أصبح الوزراء يتدخلون في تولية الإمام وولى عهده، فعظم أمرهم وقويت شوكتهم. كان وزير التنفيذ يُلقَّب بالأجلّ، أما وزراء التفويض فكانت ألقابهم تدل على السلطة الواسعة التي تمتعوا بها، مثل: أمير الجيوش، وكافل قضاة المسلمين، وهادى دعاة المؤمنين، وتلقَّب الوزير «طلّاح بن رزیک» بالملك المنصور، وتلقَّب ابنه «رزیک بن طلّاح» بالملك العادل، وكذلك تلقب «صلاح الدين الأيوبي» آخر وزراء الفاطميين وأول سلاطين الدولة الأيوبية بالملك الناصر، كما وُصِف بعض هؤلاء الوزراء بالسلطان. كانت للوزير في العصر الفاطمي علامات تميزه عن غيره من موظفي الدولة، وانفرد بلبس زى خاص، وبلغ راتبه خمسة آلاف دينار شهريًا، وكان له حق الجلوس بجوار الخليفة، وكان مجلسه بدار الوزارة الكبرى - التي

بُنِي لها قصر كبير بجوار باب النصر - لا يقل في الأبهة والعظمة عن مجلس الخليفة نفسه. واشتُرط فيمن يتولى منصب الوزارة أن يكون مخلصاً لعقيدة الدولة، وأن تكون لديه المهارة في تدبير الأموال، ولذلك تولى وزارات التنفيذ وزراء من أهل الذمة ظلوا على عقيدتهم. نظام الإدارة: ورث الفاطميون نظام العباسيين في الإدارة، فعملوا على تركيز السلطة في أيديهم، وأصبح نظامهم الإداري شديد المركزية تُدار شئونه من داخل القصر، باستثناء بعض الظروف النادرة التي نُقل فيها ديوان الوزارة إلى دور الوزراء، وسرعان ما يعود إلى القصر ثانية. انقسمت الشئون الإدارية في عهد الفاطميين إلى: 1 - ديوان الإنشاء الذي يقوم

(370/14)

---

بتنفيذ أوامر السلطة العليا. 2 - ديوان المالية، ويقوم بمجباية الأموال وإنفاقها. 3 - ديوان الإدارة المحلية التي تحكم الولايات. وتفرع عن كل ديوان من هذه الدواوين أقسام عديدة، كان لكل منها عمل معين، وعلى الرغم من محاولة «جوهر الصقلي» إحلال المغاربة محل المصريين في الوظائف الإدارية، فإنه فشل في ذلك، لجهل البربر بدقائق الإدارة، فبقى المصريون من المسلمين وأهل الذمة في مناصبهم الإدارية، وتشير المصادر التاريخية إلى استخدام القبط واليهود - بكثرة - في مختلف دواوين الدولة. النظام الديني: أطلق لقب: «أصحاب الوظائف الدينية» على علماء الدين في العصر الفاطمي، وكانت هذه الوظائف تضم: 1 - القضاء: ويعتمد على التشريع الإسماعيلي. 2 - الدعوة: وتعتمد على العقيدة الشيعية للدولة. ويتفق التشريع الشيعي مع التشريع السني في أن كلا منهما يعتمد على القرآن الكريم والسنة النبوية كأساس للتشريع، مع اختلاف جوهرى هو أن

الفاطميين وضعوا تأويلاً باطنياً لنصوص القرآن والسنة؛ فالصلاة - مثلاً - هي الفرائض الخمس المعروفة، ولكن معناها الباطني هو الإخلاص للإمام الباطني، ولذلك لا يقبلون من الأحاديث إلا ما رواه آل البيت ونُقل عنهم، حتى وإن كانت هناك أحاديث مشتركة بين الطرفين اختلف رواهاً. لم يمنع المذهب الشيعي الاجتهاد، ولكنه اشترط أن يكون هذا الاجتهاد قائماً على الأصول التي وضعها الفاطميون، ولذا أصبح اجتهاد الشيعة مقيداً. تولى أصحاب الوظائف الدينية الإشراف على القضاء في أرجاء الخلافة، فكان منهم: قاضي القضاة، وصاحب المظالم، والمحتسب، وصاحب الشرطة. وقامت الدعوة على أسس العقيدة الشيعية؛ لأن الدولة الفاطمية دولة قامت على أسس مذهبية، وكانت دعوتها تُسمّى رسمياً: الدعوة الهادية، أو الدعوة العلوية، وكان الهدف من هذه الدعوة تأييد حكم الفاطميين ليرسخ في النفوس حق الفاطميين في حكم العالم الإسلامي، فأيدت حق الإمام المطلق

(371/14)

---

في ولاية أمر المسلمين، ولجأت إلى تأويل القرآن بما يتفق مع تأييد وجهة نظرها، بزعم أن أبناء «فاطمة» بنت رسول الله وذريتها هم وحدهم القادرون على هذا التأويل، ولديهم معنى واضح وآخر باطن لكل كلمة قرآنية. بمجيء الفاطميين إلى «مصر» أصبحت «القاهرة» مقر داعي الدعاة؛ الذي له حق الإشراف على الدعوة في «مصر» والعالم الإسلامي، وعليه إرسال الدعاة في أنحاء العالم أجمع للتبشير بمذهب الفاطميين، ولهذا كان يجب عليه أن يكون عالماً بالمذهب الإسماعيلي، عارفاً بأسرار العقيدة، بليغاً، ذكياً، عالماً بقواعد الدين. كانت مجالس الدعوة تُعقد بصفة منتظمة ودورية، فخصص يوم الأحد

للرجال، ويوم الثلاثاء للأشراف والشخصيات المرموقة، ويوم الأربعاء للنساء، وكانت المحاضرات المقروءة في هذه المجالس تُسمَّى: مجالس الحكمة، أو مجالس الدعوة، فإذا فرغ الداعي من إلقاء محاضراته تراحم عليه الناس في طقوس غريبة، فيمسح على رءوسهم برقعة وضع عليها الخليفة توقيعه. كان الداعي يلي قاضي القضاة في الرتبة والمكانة، وكان راتبه الشهري مائة دينار مثل راتب القاضي، وتلقَّب باللقاب فخمة مثل: «الشيخ الأجل»، وكانت له سلطة روحية غير محدودة على جميع الشئون السياسية والدينية في الدولة. النظام الحربي: كان الجيش الفاطمي من أقوى الجيوش في عصره، وكانت له دواوين خاصة قامت على تنظيمه وإعداده، كديوان الجيش الذي أشرف على إعداد الجنود وأعدادهم، وديوان الرواتب الذي اختص بتسجيل العطاءات، وديوان الإقطاع الذي اختص بالنظر في الإقطاعات التي تمنحها الدولة لبعض العسكريين مقابل قيامهم بواجبات معينة، وقد أتت مكانة قائد الجيش بعد صاحب الباب الذي كان يلي الوزير مباشرة، وتميز قادة الجيش عن بعضهم بعلامات يحملونها، وسكن الجنود في معسكرات خاصة بهم حتى لا يضايقوا الأهالي فضلا عن تواجدهم في مراكز الحدود. روى «المقريزي»: «أن خزائن المال وأمتعة الجيش حملها عشرون ألف

(372/14)

جمل، حين خرج جيش العزيز قاصداً الشام، وعمل الفاطميون على تزويد الجيش بأحدث أنواع الأسلحة. ولذا يمكن القول بأن الجيش الفاطمي كان جيد الإعداد مثل غيره من جيوش الدول الكبرى آنذاك». قام الأسطول الفاطمي بعدة حملات بحرية في البحر المتوسط أثبت خلالها شدة بأسه، وكانت له غزوات مظفرة

على «بزنطة» و «إيطاليا» و «فرنسا» و «إسبانيا»، و يروى  
«القلقشندى» أن وحدات الأسطول الفاطمى كانت مرتبة  
ومتواجدة بجميع الشواطىء الساحلية، ماعدا سواحل الشام  
التي فقدوا سيطرتهم عليها فى القرن الأخير من حكمهم، فقد  
غلبهم عليها الصليبيون. خصصت الدولة الفاطمية جزءاً كبيراً من  
ميزانيتها للإفناق على إعداد الجيش وتجهيز رجاله بما يحتاجون  
إليه من أدوات الحرب وغيرها، وكان للجيش ديوان خاص يُدعى  
«ديوان الجهاد»، وأنشئت الموانئ لبناء السفن التي كان بعضها  
يتسع لحمل ألف وخمسمائة شخص، وأصبح الأسطول الفاطمى  
من أكبر الأساطيل، وبقي نموذجاً احتذى به الأيوبيون  
والمماليك. مُنشآت الفاطميين: تميز العصر الفاطمى بمنشآته  
العديدة، وكان على رأسها تأسيس «القاهرة»، وإنشاء  
«الجامع الأزهر»، وتشيد «القصر الشرقى»، و «القصر الغربى»،  
و «قصر البحر»، و «قصور عين شمس»، و «جامع الحاكم»،  
و «جامع الأولياء». تأسست مدينة «القاهرة» سنة (358هـ) لسبعة  
عشر يوماً خلت من شهر شعبان، واختطت قبائل البربر مساكنها  
حول قصر «المعز» بها. وأصبحت منذ ذلك اليوم مقراً للحكم،  
ومركزاً لنشر الدعوة الشيعية، وحصناً يصد هجمات الأعداء،  
وأطلق عليها اسم «المنصورية» نسبة إلى «المنصور» والد  
«المعز»، وقد اختلف المؤرخون فى سبب تسميتها بالقاهرة؛  
فذكر «ابن دقماق»: أن أساسها حُفِر أثناء طلوع كوكب يُقال له  
«القاهر» فسميت به. وقيل إن «المعز» قال لجوهر الصقلى:  
«لتدخلن فى خرابات ابن طولون، وتبنى مدينة تقهر الدنيا»،  
فلما حدث ذلك سماها «جوهراً» «القاهرة»، وهناك من ذكر أنها

سُمِّيَتْ بذلك لأنها تقهر من يشذ عنها. أحاط «جوهراً» «القاهرة» بسور كبير من الطوب اللبن، وإلى الجنوب الشرقي منها كانت مدينة «الفسطاط»، وإلى الغرب منها وقع ميناء «المقس»، ثم وضع «جوهراً» أساس القصر الذى شيده من أجل مولاه «المعز»، ذلك القصر الذى قيل عنه إنه احتوى على أربعة آلاف حجرة، وتأنث بفخر الرياش، وبأفخر ما يحتاج إليه خاصة الناس لاسيما الملوك والخلفاء. كانت «القاهرة» مدينة الخاصة، فلم يكن أحد يسكنها إلا الخليفة ورجاله، وقد بنى «العزیز بن المعز» فيها قصرًا عُرف بالقصر الغربى، فعرفت المنطقة الواقعة بين قصرى «المعز» و «العزیز» - الشرقى والغربى - باسم: «بين القصرين»، وكان «الأزهر» أول مسجد شُيد فى «القاهرة» المعزىة، وقد شرع «جوهراً» فى بنائه يوم السبت الموافق (4 من رمضان سنة 359هـ)، وأقيمت الصلاة به لأول مرة فى (7 من رمضان سنة 360هـ)، وصار منذ ذلك الوقت إلى الآن أشهر جامع فى العالم الإسلامى، وكان «على ابن النعمان» أول من مارس التدريس فيه، حيث ألقى على الطلاب مختصر أبيه «القاضى النعمان» فى الفقه على المذهب الشيعى، كما كان «العزیز بالله» أول من حوّل «الأزهر» من مسجد تُقام فيه الصلاة إلى جامعة تُدرس فيها العلوم، وهو أول من أجرى الأرزاق على طلاب العلم فيه، وتبعه فى ذلك الخلفاء والأمراء والوزراء؛ فبنوا الأروقة لتكون منازل مُعدّة لسكنى الطلاب، وجعلوا لكل بلد رواقًا خاصًا بطلابه، فكان هناك رواق الصعايدة، ورواق المغاربة، ورواق الأكراد .. الخ. وبنى «العزیز بالله» قصورًا عديدة فى «عين شمس»، وأسس «قاعة الذهب»، وبدأ بناء مسجد أتمه ابنه «الحاكم» وفرشه بستة وثلاثين ألف متر من الحصر، وأضاءه بالقناديل، وعلّق على أبوابه الستور الحريرية، وحبس عليه أملاًً كثيرة لرعايته والإنفاق عليه، وفى سنة (395هـ) أنشأ «الحاكم» «دار الحكمة» وألحق بها مكتبة كبرى أطلق عليها اسم «دار العلم»، وأنشأ

«الظاهر» «قصر اللؤلؤ»؛ الذى يُعدُّ من أجمل قصور العصر الفاطمى، وظل مكانًا يلجأ إليه الخلفاء من بعده وقت فيضان النيل. ولنا أن نشير إلى اهتمام خلفاء الدولة الفاطمية ووزرائها بإقامة المنشآت على النيل؛ لتوزيع المياه بطريقة تكفل زراعة أكبر مساحة من الأراضى. الحالة الاقتصادية: وجَّه الفاطميون اهتمامهم إلى الزراعة والصناعة والتجارة، وفرضوا الضرائب على بعض المنتجات، فقد قاست «مصر» الأمرين فى أواخر الدولة الإخشيدية؛ حيث انخفض ماء النيل، وعم القحط وانتشر الوباء لدرجة أن الناس عجزوا عن تكفين موتاهم، فلما فتح «جوهر» «مصر»، منع احتكار الحبوب، وعهد إلى المحتسب برقيبتها فى الأسواق، ثم عاد الخير إلى «مصر» ثانية بعودة مياه النيل إلى الزيادة، فبلغت الأرض المنزرعة فى عهد «المعز» (285 ألف فدان)، وارتقت البلاد زراعيًا بفضل إنشاء القناطر وإقامة السدود، وتنظيف الترع والمصارف، ثم حدثت المجاعة التى عُرفت بالشدة العظمى فى عهد «المستنصر». بزغ نجم «مصر» عاليًا فى مجال الصناعة فى عهد الفاطميين، وبرع المصريون فى صناعة المنسوجات، وزادت ثروتهم من صادرات هذه الصناعة لاسيما منتجات «دمياط» و «تنيس» و «الأشمونيين»، التى نالت منسوجاتها شهرة عالمية. كذلك ارتقت صناعات الفرش والسجاد والسيرج والذهب والفضة، ورُصِّع عرش الخلافة الفاطمية بمائة وسبعة عشر ألف مثقال من الذهب، ووضع ستار قبالة هذا العرش رُصِّع بألف وخمسمائة وستين قطعة من الجواهر المختلفة الألوان، وحلى بثلاثمائة ألف مثقال من الذهب الخالص، وكان لدى المستنصر طاووس من الذهب مرصع بالأحجار الكريمة، وعيناه من الياقوت، وريشه من الزجاج المموه بالذهب، كما وجد

بدار الوزير «الأفضل» ثمانية تماثيل لثمانى جوارٍ متقابلات، أربع منهن بيضاوات والأربع الأخر لوطن أسود، مرتديات أفخر الثياب، متزينات بأثمن الجواهر، إذا دخل «الأفضل» من باب

(375/14)

المجلس نكس رءوسهن إجلالا له. كذلك برع المصريون في صناعة الأطباق والصحاف والزجاج، لدرجة أنهم استطاعوا إنتاج نوع شفاف من الزجاج يشبه «الزمرد» لنقائه الشديد فكان يباع بالوزن. وقد نشطت التجارة بين «مصر» والعالم نشاطاً ملحوظاً، وكانت حركة السفن التجارية لا تتوقف غدوا ورواحاً بميناءى «عيذاب»، و «القلزم» (السويس)، وكانت نسبة الضرائب تزيد وتنقص تبعاً لزيادة المحصول وقلته نتيجة الزيادة أو النقصان فى ماء النيل، وبلغت ضريبة الفدان فى عهد «المعز» سبعة دنانير، وبلغت ضريبة الرءوس ديناراً وربيع الدينار عن كل فرد، ثم كانت الجزية التى تُحصّل من قادرى اليهود والنصارى دون ظلم أو إجحاف مقابل رعايتهم وإعفائهم من الخدمة العسكرية، ولم تكن الجزية مبلغاً كبيراً لقلّة عدد اليهود والنصارى بعد تحوّل معظم المصريين إلى الإسلام. وفرضت الضرائب على الصناع والحرفيين، وروعى فيها العدل -غالباً- أثناء قوة الخلافة الفاطمية وخلفائها، فلما حلّ الضعف بها وتسلط الوزراء على الخلفاء والبلاد؛ أهملت النواحي الاقتصادية، ولم يراع هؤلاء الوزراء حالة المواطنين، فكان ذلك سبباً فى فتح أبواب البلاد أمام الطامعين. طوائف الشعب: كان سواد الشعب المصرى من أهل السنة حين دخلها الفاطميون، فحاولوا نشر مذهبهم الشيعى بالترغيب مرة وبالترهيب أخرى، ومنحوا العطايا والهبات، فكان لذلك أثره الكبير فى اعتناق الكثيرين للمذهب الشيعى، فضلا

عن رغبة البعض في الإبقاء على وظائفهم؛ إذ تحتم على من يرغب في الإبقاء على وظيفته اعتناق المذهب الشيعي. وكان المغاربة وعلى رأسهم الكتاميون الذين قدموا مع الجيش الفاطمي، وقامت دولة الفاطميين بسواعدهم - ضمن طوائف الشعب بعد أن استقر لهم الأمر، وطاب لهم العيش بمصر، وكذلك كان هناك أهل الذمة من اليهود والنصارى؛ الذين تقلدوا مناصب رفيعة. وشغلوا معظم الوظائف المالية، تُضاف إليهم طائفة

(376/14)

الأتراك الذين كثر عددهم منذ عهد الطولونيين، وظلوا بمصر، فدار بينهم وبين المغاربة تطاحن وتناوب في عهد الحاكم، أما السودانيون فقد كثر عددهم منذ «كافور الإخشيدى»، وقويت شوكتهم في عهد «الحاكم»، فاستعان عليهم بالأتراك، ثم زاد خطرهم ثانية وقويت شوكتهم حين تزوج «الظاهر» واحدة منهم. مكانة المرأة: كان للنساء شأن كبير في الدولة الفاطمية، لدرجة أنهن كن يتدخلن في توجيه سياسة الدولة، وحققت الكثيرات منهن ثروات طائلة، مثل: «رشيدة ابنة المعز لدين الله»، التي بلغت ثروتها مليوناً وسبعمائة ألف دينار، وكان لأختها «عبدية» خزائن عديدة مملأة بالخلي، وصناديق كثيرة يحوى كل منها خمسة أكياس من «الزمرد» وثلاثمائة قطعة فضية وثلاثين ألف ثوب صقلى وغير ذلك، وامتلكت الملكة «تغريد» زوج «المعز» أموالاً طائلة، وشيّدت مسجداً بالقرافة. تزوج «العزیز» امرأة نصرانية من الروم، وعين أخويها بطيركين بالإسكندرية و «بيت المقدس»، وولدت «للعزيز» ابنه «الحاكم» وابنته «ست الملك»، فكان لها نفوذ كبير، ثم كان لابنتها «ست الملك» من النفوذ والدهاء ما مكنها من تأجيل اختيار الدولة الفاطمية فترة طويلة

بعد أن أزاحت «الحاكم» عن العرش، كما سبق ذكره، وتركت «ست الملك» ثروة ضخمة كان منها ثمانمائة جارية وعدد كبير من الأحجار الكريمة، وبلغت مخصصاتها السنوية خمسين ألف دينار، وكانت زوجة «الظاهر» وهي أم «المستنصر» من النساء اللاتي حظين بنفوذ كبير في الدولة الفاطمية، فأكثر من بنى جلدتها السودانين حتى وصل عددهم إلى خمسين ألفاً. لم يكن لنساء العامة أى أثر في الحياة السياسية، ولم تذكر المصادر أى نشاط هن في الدولة الفاطمية، فقد كان ذلك مقصوراً على نساء الطبقة الحاكمة. المواسم والأعياد: كان للمصريين أعيادهم المختلفة ومواسمهم المعينة قبل الفتح الإسلامى، علاوة على ما استجد من الأعياد الدينية بعد الفتح الإسلامى، وبما أن الدولة

(377/14)

---

الفاطمية دولة دينية مذهبية، فقد كانت الحفلات بالنسبة إلى خلفائها مناسبة لتأكيد عقيدتهم، وعملوا على صبغها بالصبغة المذهبية، فمن الأعياد التي كانت موجودة قبل الفتح الإسلامى وظلت باقية بعده «عيد وفاء النيل» الذى ظل تقليدًا بعد الفتح مع إدخال بعض التعديلات على الاحتفال به لتتناسب مع الدين الإسلامى، وكان هناك «عيد الغطاس» الذى يحتفل فيه النصارى بذكرى المسيح فى ليلة (11 من طوبة = 9 من يناير)، وذكر «المقريزى» أنها أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سروراً ولا تغلق فيها الدروب»، وعيد «النوروز» الذى يقول عنه «المقريزى»: «إنه أول السنة القبطية بمصر، وهو أول يوم من توت، و «عيد الميلاد» فى (29 من كيهك)، و «خميس العهد». أما الأعياد والمواسم الدينية التى عرفها المصريون بعد الفتح الإسلامى؛ فلم تأخذ شكلها الفخم ومظهرها الرائع إلا بعد مجيء

الفاطميين، ومن أشهر هذه الأعياد: «عيد رأس السنة الهجرية»،  
الذى كانوا يعدون العدة للاحتفال به ابتداء من العشر الأواخر من  
شهر ذى الحجة، فكان الاحتفال به مثالا للروعة والبهاء، كما  
كان لهم كبير اعتناء بليلة أول الحرم من كل عام، وبأعياد  
ليالى الوقود الأربعة وهى: الأول من رجب ونصفه، والأول من  
شعبان ونصفه، وكذلك بعيدى «الفطر» و «الأضحى»، وفيهما  
تُقام الولائم وتُعدُّ الموائد للشعب، وفي الثاني عشر من شهر  
ربيع الأول من كل عام يقام الاحتفال بالمولد النبوى الشريف  
بمراسم خاصة فخمة تليق بالمكانة العظيمة للنبي - صلى الله عليه  
وسلم - فى نفوس المسلمين. ذلك بالإضافة إلى أعياد الشيعة  
المذهبية كعيد «غديرخم» نسبة إلى الغدير الموجود بهذا الاسم  
بين «مكة» و «المدينة»، ويذكر الشيعة أن النبي - صلى الله عليه  
وسلم - نزل بموضع «الغدير»، وآخى «علئ بن أبى طالب» فى  
عودته من «مكة» إلى «المدينة» بعد حجة الوداع سنة (10هـ)، ثم  
قال - صلى الله عليه وسلم -: «علئ منى كهارون من موسى،

(378/14)

اللهم وإل من والاه، وعادٍ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من  
خذله»، فاعتبر الشيعة هذه المقولة بمثابة وصية من الرسول  
لعلئ، وأنه أحق بالخلافة من غيره. ومن احتفالات الفاطميين  
احتفال بذكرى مقتل «الحسين بن علئ» -رضى الله عنهما - وهو  
عندهم يوم حزن يُمدُّ فيه سماء يُسمَّى «سماء الحزن»، ذلك  
إضافة إلى أعياد أخرى مثل الاحتفال بإرسال الكسوة بصحبة  
قافلة الحج، والاحتفال بشهر رمضان، والاحتفال بذكرى مولد  
الكثير من الأئمة، ومولد الخليفة القائم بالأمر. ولا يعرف التاريخ  
دولة إسلامية استطاعت طبع «مصر» بطابع قوى وجديد مثلما

فعلت الدولة الفاطمية، التي مرت عبر صفحات التاريخ شأنها شأن أية دولة تباينت قوة وضعفًا، واعتورها الصواب والخطأ، بيد أنها سطرت صفحة ناصعة من ألمع الصفحات في التاريخ الإسلامي تمثلت في «الجامع الأزهر» ومدينة «القاهرة».

(379/14)

### \* الأيوبية (دولة)

أصل الأيوبيين: يرجع أصل الأيوبيين إلى «نجم الدين أيوب» الكردى الأصل، وأبوه يُدعى «شادى» من قبيلة «الهدبانية» إحدى القبائل التي استقرت ببلدة «روبن» بأطراف «أرمينية». اتصل «شادى» والد «نجم الدين أيوب» برجل اسمه «بهرز» كان مربيًا لأبناء السلطان السلجوقى «مسعود»، ثم أصبح حاكمًا لبغداد تحت سلطة السلاجقة سنة (502هـ)، وكانت له مكانة سامية لدى السلطان السلجوقى، فأقطعه السلطان «قلعة تكريت»، فأسند «بهرز» حراستها إلى «نجم الدين أيوب بن شادى»؛ الذى ظل فى حكمها وحراستها عدة سنوات اكتسب خلالها الخبرة بشئون الإدارة، وتمتع فيها بحب الأهالى. دب خلاف بين «بهرز» و «نجم الدين أيوب»، فخرج «نجم الدين» وأخوه «شيركوه» وأهلهم من «تكريت» عقب هذا الخلاف سنة (532هـ)، فحزن الأهالى على ذلك حزنًا شديدًا؛ لما كان يحظى به «نجم الدين» من محبة فى قلوبهم. اتصل أيوب بعماد الدين زنكى: خرج «أيوب» من القلعة، وعزم على المغامرة فى حوادث الشرق الأدنى، وربط مستقبله بشخصية «عماد الدين زنكى» الذى عظمت مكانته، واشتدت قوته، ورحب بمقدم أسرة «أيوب» إلى «الموصل»، واستقبلهم وأكرم وفادتهم، ثم أسند حكم «بعلبك» بعد فتحها إلى «أيوب» سنة (534هـ)، وقلد

«شيركوه» قيادة الجيش؛ فكانا عند حسن ظنه، وأصبح «أيوب» محبوبًا من رعيته لعدله، واتصف «شيركوه» بالشجاعة والإقدام والمغامرة وحب القتال. صلاح الدين الأيوبي: شاءت الأقدار أن يولد لأيوب ولد أسماه «يوسف» ليلة رحيله عن «قلعة تكريت» سنة (526هـ)، فنشأ «يوسف» في بلاط «زنكي» بالموصل وعُرف باسم «صلاح الدين»، وقضى طفولته في ظل والده «أيوب» ببعلبك، وأخذ عنه براعته في السياسة، وشجاعته في الحروب، فشب خبيرًا بالسياسة وفنون الحرب، وتعلم علوم عصره وتثقف بثقافة أهل زمانه، وحفظ القرآن، ودرس الفقه والحديث. رحل «صلاح الدين يوسف» مع والده إلى

(380/14)

«دمشق» بعد وفاة «عماد الدين زنكي»، ثم دخل في خدمة «نور الدين بن عماد الدين زنكي» سلطان «حلب»، فاستعان «نور الدين» بشيركوه وابن أخيه «صلاح الدين» في ضم «مصر» إليه. قيام الدولة الأيوبية: في أواخر العصر الفاطمي قام صراع محمود بين «شاور» و «ضرغام» على منصب الوزارة، فاستنجد «شاور» بنور الدين محمود، فلبى نداءه وأرسل حملة كبيرة تحت قيادة «شيركوه» ومعه ابن أخيه «صلاح الدين»، فكان النصر حليف الحملة على «ضرغام» والصليبيين الذين استنجد بهم، وقتل «شاور» في المعركة، فاعتلى «أسد الدين شيركوه» كرسى الوزارة، ولكنه توفّي بعد قليل، فخلفه في المنصب ابن أخيه «صلاح الدين» سنة (565هـ) وهو في الثانية والثلاثين من عمره. عمل «صلاح الدين» على توطيد مركزه في «مصر»؛ لتأسيس دولة قوية تحل محل الدولة الفاطمية التي ضعفت، وتحقق له ذلك بعد وفاة «العاضد» آخر خلفاء الدولة الفاطمية سنة (567هـ).

العقبات التي اعترضت صلاح الدين: لم تكن الأوضاع مهيأة أمام «صلاح الدين» لإقامة دولة إسلامية يكون هو مؤسسها وسلطانها، خاصة أن العالم الإسلامي كان مفككاً وضعيفاً ويحيط به الأعداء من كل جانب، بالإضافة إلى كونه نائباً عن «نور الدين محمود» في «مصر» التي يطمع الصليبيون وبقايا الفاطميين في امتلاكها والسيطرة عليها، فعمل على مواجهة هذه العقبات والقضاء عليها واحدة بعد الأخرى كالآتي: أ - إلغاء المذهب الشيعي في مصر: كان «صلاح الدين» وزيراً سنياً في دولة شيعية، وتولى أكبر المناصب بعد الخليفة، وأصبحت له الكلمة العليا في إدارة شئون البلاد، فتحولت مهمته المؤقتة التي جاء من أجلها مع عمه «شيركوه»، إلى إقامة دائمة بمصر مع ولائه لسيد «نور الدين محمود»، وحذف اسم الخليفة الفاطمي «العاضد» من الخطبة، وجعلها للخليفة العباسي ولسيده «نورالدين» من بعده، فزاد حاسدو «صلاح الدين»، وأدرك أن تعدد المذاهب هو السبب الرئيسي في ضعف المسلمين، فعمل

(381/14)

---

على إلغاء المذهب الشيعي في «مصر»، وتم له ما أراد، وهوى نجم الدولة الفاطمية، وسقطت، وتولى «صلاح الدين» رئاسة الدولة بعد صراع مرير مع بقايا الفاطميين وأنصارهم، وأصبح المذهب السني هو مذهب البلاد. ب - الفتن الداخلية: لاشك أن الإصلاح الحقيقي لأي بلد يحتاج إلى فترة كي يتفهمه الناس ويشعروا به، لذا فقد صعب على دعاة الفتن مسعى «صلاح الدين» لإصلاح أمر الأمة وتأسيس دولة قوية، خاصة أن الأعداء يحيطون بمصر من كل جانب، فقامت حركات مناهضة لما يقوم به «صلاح الدين»، وكان من أشدها وأخطرها: الحركة التي قادها

الشاعر «عمارة اليمن»، الذى طالما مدح الفاطميين وأيامهم، واعتبر الأيوبيين مغتصبين للعرش الفاطمى، فعمل على إعادة الحكم للفاطميين، ودعا عددًا كبيرًا من الجند، وانضم إليه المناصرون وبقايا الفاطميين، وأصبحت حركته خطرًا يهدد دولة الأيوبيين الوليدة، إلا أن «صلاح الدين» تمكن من إفشالها، وقبض على قادتها، وما كادت الأوضاع تهدأ حتى قامت فتنة أخرى فى «أسوان» تدعو إلى عودة البيت الفاطمى، فأرسل «صلاح الدين» أخاه «العادل» الذى تمكن من دخول «أسوان» والقضاء على هذه الفتنة فى سنة (570هـ). ج - تطور العلاقة بين صلاح الدين ونور الدين محمود: لم تكن الفتن الداخلية هى العقبة الوحيدة التى واجهت «صلاح الدين» فى بداية حكمه لمصر فحسب، ولكنه كان أحد قواد «نور الدين محمود»، وحكم «مصر» نيابة عنه، وذكر اسمه فى الخطبة بعد الخليفة العباسى، وضرب السكة باسمه. وقد كانت تبعية «صلاح الدين» لنور الدين تبعية اسمية، ولم يتدخل «نور الدين» فى شئونه، وكان هو الحاكم الفعلى لمصر، وله جيشه وحاشيته، ويتمتع بحب رعيته، ولكن «نور الدين» كان يعتمد على مساعداته لصد أعدائه من السلاجقة والصلبيين، إلا أن الفتن الداخلية التى قامت فى وجه «صلاح الدين» لم تمكنه من مساعدة «نور الدين» فى حربه، وظل على ذلك حتى وفاة «نورالدين» سنة (569هـ)، فتولى من

(382/14)

---

بعده ابنه الملك «إسماعيل بن نور الدين» وكان لايزال طفلاً صغيراً، فضعفت الدولة فى عهده. د - وحدة المسلمين: كان لنجاح «صلاح الدين» فى التغلب على الفتن الداخلية التى واجهته منذ أن أصبح وزيراً بمصر، وارتداد الحملة الصليبية إلى

«دمياط» سنة (564هـ) أكبر الأثر في ذبوع اسمه في أرجاء العالم الإسلامي، ونظر إليه الناس نظرة إجلال، واعتبروه أحد القادة العظماء؛ لوقوفه في وجه الصليبيين، ونجاحه في فتح «اليمن»، ونجاحه في القضاء على حركة «عمارة اليمن». وقد أثرت وفاة «نور الدين محمود» على دولته في بلاد الشام، وقام تنازع شديد بين الأمراء على من يعتلى العرش، وانتهى الأمر بتولية «إسماعيل بن نور الدين» عرش أبيه وهو ما يزال في الحادية عشرة من عمره، فوقع فريسة للصراع بين الأمراء، وضاعت بذلك هيبة الدولة النورية وقوتها، وبدت عليها مظاهر التفكك والضعف لدرجة أن أحد الأمراء لم يقو على مواجهة الفرنجة وقتالهم، فعمل على مهادنتهم واسترضائهم بالمال؛ ليأمن شرهم ويتجنب مواجهتهم. كان «صلاح الدين» متابعًا للأحداث التي تجرى في العالم الإسلامي من حوله، فقرر التدخل في شئون «الشام» وضمه إلى «مصر» كي يحول دون وقوعه غنيمة في أيدي الصليبيين، وليحمي «مصر» والإمارات الإسلامية من أى خطر يهددها، وجعل هدفه توحيد صفوف المسلمين وقوتهم في جبهة واحدة؛ ليتمكنوا من صد الصليبيين وحصرهم بين شقَى الرحي في الجزيرة والشام من جهة، وفي «مصر» من جهة أخرى، وانتظر «صلاح الدين» الفرصة لتحقيق ذلك حتى وافته الفرصة حين استنجد به بعض أمراء «دمشق»، فسار إلى الشام وتمكن دون قتال من السيطرة والاستيلاء على «دمشق» سنة (570هـ)، ثم على «حمص» و «حمّاة»، وحال الملك «الصالح إسماعيل» دون دخوله إلى «حلب»، فقرر «صلاح الدين» حصارها، فاستنجد أهالي «حلب» بأعداء الدولة، واضطر «صلاح الدين» إلى فك الحصار عن «حلب»، واستولى على

«بعلبك» ليحمى جيشه من الخلف، ثم عاد ثانية لحصار «حلب»، وأعلن استقلاله، وحذف اسم «الصالح إسماعيل» من الخطبة، واتصل بالخليفة العباسي، فمنحه لقب سلطان. هـ - السلطان صلاح الدين وتوحيد باقى الولايات الإسلامية: بعد حصول «صلاح الدين» على لقب السلطان استقل عن أسرة «نور الدين»، وأصبح حاكم «مصر» الرسمى، وقوى مركزه باستيلائه على «منبج» و «إعزاز»، وشدّد حصاره على «حلب»، وعزلها عن جيرانها حتى طلب «الصالح إسماعيل» الصلح، فوافق «صلاح الدين»؛ لأن هدفه كان وحدة المسلمين وحماية بلادهم. تُوفّي صاحب «الموصل» سنة (578هـ)، ومن بعده تُوفّي «الصالح إسماعيل»، فعاد الانقسام ثانية من أجل الوصول إلى كرسى الحكم، فزحف «صلاح الدين» إلى الشام فى سنة (578هـ)، وانضمت إليه بعض المدن دون قتال، واستولى على «حلب»، وبذا أصبح شمال الشام كله تحت سيطرته، ولم يعد أمامه سوى مدينة «الموصل» التى سعى حاكمها إلى التصالح مع «صلاح الدين»، وتعهد بإرسال المساعدات الحربية إذا طُلب منه ذلك، فخضعت بذلك جميع الإمارات الإسلامية الشامية تحت سلطان «صلاح الدين»، وتمكن من توحيد كلمة المسلمين تمهيداً للنضال ضد الصليبيين. موقف صلاح الدين من الصليبيين: ظل «صلاح الدين» يعمل على توحيد العالم الإسلامى مدة عشر سنوات فى الفترة من سنة (572هـ) إلى سنة (582هـ)، حتى تحقق له ما أراد، واستعد لمواجهة الصليبيين المتربصين بالعالم الإسلامى، ثم تصدّى لهم، فسجل التاريخ أبرز صور البطولة، وأسمى درجات الفداء والجهاد ضد هؤلاء المغتصبين، وكان من أبرز هذه المعارك ما يأتى: واقعة حِطّين [583هـ = يولية 1187م]: تعد «حِطّين» من أشهر الحروب التى خاضها «صلاح الدين» ضد الصليبيين، بعد سلسلة من الحروب التى خاضها مثل: واقعة

«مرج العيون» سنة (574هـ) التي انتصر فيها عليهم، ثم موقعة  
«مخاضة الأحزان» سنة (575هـ)، ثم حدثت الهدنة بين الطرفين،

(384/14)

ولكن الصليبيين لم يكفُّوا عن محاولة السيطرة على «مصر» وبلاد  
الشام، وظل «صلاح الدين» وفيما بعهدده؛ لما عرف عنه من  
الشجاعة والمروءة والمحافظة على العهد، إلى أن نقض  
«أرناط» حاكم «حصن الكرك» الهدنة معه في سنة (583هـ)،  
وهاجم إحدى قوافل الحج، فكانت هذه الجريمة هي الشرارة  
التي أشعلت نار الحرب بين الفريقين، فقد غضب «صلاح الدين»  
من هذا العمل الوحشي، خاصة وأن القافلة كانت في طريقها  
إلى حج بيت الله الحرام، فهدد «صلاح الدين» «أرناط» وأذره  
بالقتل إذا تمكن منه، وأعد عدته لقتال الصليبيين، ووافته  
الإمدادات من المدن الشامية والمصرية، وسار إلى «طبرية»  
وحاصرها، فلما علم الصليبيون باستعداداته الحربية اجتمعوا  
ببلدة تُدعى «صفورية»، وتناقشوا في خطة الحرب الواجب  
اتباعها إزاء «صلاح الدين»، واستقر رأيهم على هجوم  
المسلمين، وتقدموا واحتلوا تلالاً على مقربة من «حطين» في  
الوقت الذي تمكن فيه «صلاح الدين» من السيطرة على مدينة  
«طبرية» باستثناء قلعتها التي استعصت عليه، فتركها ومضى  
لملاقاة الصليبيين. وفي سنة (583هـ = يولية 1187م) دارت  
الموقعة الحاسمة بين جيش المسلمين بقيادة البطل الشجاع  
«صلاح الدين» وبين الصليبيين، فشن جيش المسلمين حملة هزت  
جنبات «حطين»، وكان نداء «الله أكبر» و «لا إله إلا الله محمد  
رسول الله» حافزاً قويا ومؤثراً في دخول الجنود المعركة ولا هم  
لهم إلا النصر أو الشهادة، فنصرهم الله نصرًا مؤزرًا، ونال

الصلبيون هزيمة ساحقة، وفر مَنْ بقي منهم هرباً، فسجد  
«صلاح الدين» شكراً لله على ما منحه من نصر، وكان هذا  
الانتصار فاتحة خير على المسلمين، وبداية لسلسلة من  
الانتصارات على الصليبيين، واستسلمت «قلعة طبرية» وسلمت  
لصلاح الدين عقب هذا الانتصار، واتجه «صلاح الدين» صوب  
الساحل وحاصر «عكا» حتى استسلمت بعهد وأمان، ثم تتابع  
- بعد ذلك - استسلام باقي المدن الساحلية التي تقع جنوب

(385/14)

«عكا» وهي: «نابلس» و «الرملة» و «قيسارية» و «أرسوف»  
و «يافا» و «بيروت»، وكذا المدن الواقعة شمال «عكا» مثل:  
«الإسكندرونة»، وكلها حصلت على العهد بالأمان من «صلاح  
الدين» الذي لم يبق أمامه سوى أن يمضى في طريقه إلى  
«فلسطين»، فاستسلمت «عسقلان» له أثناء مروره بها، وحانت  
المواجهة الحاسمة لتحرير «بيت المقدس». الفتح المبارك: شاءت  
إرادة الله أن يكون تحرير «المسجد الأقصى» - أولى القبلتين  
وثالث الحرمين الشريفين ومسرى رسول الله - صلى الله عليه  
وسلم - على يدي البطل الشجاع «صلاح الدين الأيوبي»، الذي  
حاصر مدينة «بيت المقدس» حتى اضطر مَنْ بداخلها إلى  
الاستسلام وطلب الصلح، فأجابهم «صلاح الدين» إلى طلبهم  
وأمهلهم مدة أربعين يوماً للجلاء عن المدينة ومعهم أمتعتهم،  
وترك بسماحته زوجة «أرناط» تخرج من المدينة بسلام مع مَنْ  
خرج، ولم يتعرض «صلاح الدين» لأحد بسوء، وسمح لبطريق  
المدينة بالخروج مثل باقي الأهالي الذين حملوا معهم ثرواتهم  
وكنوزهم وتحفهم، ودخل «بيت المقدس»، وبدأ على الفور في  
إصلاحها، ورَمَّم «المسجد الأقصى»، وأقام فيه فترة بعد أن

حرره من المعتصبيين المستعمرين، ليعلو صوت الحق والعدل من جديد، ويصبح «صلاح الدين» ثاني القادة الفاتحين - الذين دخلوا هذه المدينة - بعد «عمر بن الخطاب» - رضى الله عنه-الذى فتحها الفتح الأول. صلح الرملة: أوشكت الأمور على الاستقرار بعد الانتصارات العظيمة التى حققها «صلاح الدين الأيوبي»، ولكن أوروبا أرادت أن تحول دون تحقيق ذلك، وأرسلت حملة من أقوى الحملات الصليبية وأكثرها عددًا وعدة وعتادًا؛ ضمت ملوك أوروبا بعد أن دعا البابا إلى حرب المسلمين، وأعلن قدسية هذه الحرب، فتشكلت حملة من «ألمانيا» وأخرى من «فرنسا» وثالثة من «إنجلترا»، وخرجت جميعها فى طريقها إلى العالم الإسلامى لتخريبه، فوقف «صلاح الدين» صامدًا أمام هذه الحملات الكبيرة

(386/14)

التي أتت من البر والبحر، واستطاعت السيطرة على المناطق الساحلية، ومع ذلك عمد «صلاح الدين» إلى تقوية جيشه وتنظيم جبهته الداخلية على الرغم من مرضه، فطلب الصليبيون الصلح الذى عُرف بصلح الرملة، وبدأت المفاوضات بين «الملك العادل» نائبًا عن «صلاح الدين»، و «ريتشارد» قائد حملة الصليبيين، واتفق الطرفان على «صلح الرملة» الذى كان من أهم شروطه: أ - تخريب «عسقلان»؛ لأنها مفتاح «بيت المقدس». ب - يحكم الصليبيون الساحل من «صور» إلى «يافا»، ويكون جنوبي ذلك الساحل لصلاح الدين، على أن يقع «بيت المقدس» فى حدوده وتحت سيطرته. ج - يُسمح للمسيحيين بالحج إلى «بيت المقدس» فى أمن وأمان. وهكذا اتفق الطرفان على بنود هذا الصلح التاريخي، ليكون بداية مرحلة جديدة لهذه البلاد، التى فقدت قائدها «صلاح الدين» عقب هذا الصلح، ليأخذ الصراع مع

الصلبيين وضعًا آخر. وفاة صلاح الدين الأيوبي: خرج «صلاح الدين» من «القاهرة» لآخر مرة في طريقه إلى الشام سنة (578هـ)، لتوحيد صفوف المسلمين وإعدادهم لقتال الصليبيين، وعلى الرغم من طول فترة حكمه التي بلغت أربعة وعشرين عامًا فإنه لم يمكث في مصر سوى ثماني سنوات فقط، فلما أراد مغادرة «القاهرة» في المرة الأخيرة، خرج رجال القصر لتوديعه عند بركة الجيش وأنشده أحد الشعراء شعرًا استاء منه، وشعر أنه لن يرى «مصر» ثانية، وقد صح حدسه؛ إذ مرض أثناء مفاوضاته مع الصليبيين في «صلح الرملة» ولزم فراشه؛ ثم لقي ربه في سنة (589هـ = 1193م)، وله من العمر خمسة وخمسون عامًا، بعد أن أسر الناس بجليل أعماله، وقهر الصليبيين بشجاعته، وخلّص العالم الإسلامي بقوة إيمانه من كوارث داخلية وخارجية كادت تودي به وتوقعه في أيدي الأعداء. يُعدُّ «صلاح الدين» من الشخصيات العظيمة النادرة في التاريخ الإسلامي، فقد كان سياسيًا ماهرًا، وقائدًا محنكًا نبيلًا، مخلصًا في

(387/14)

---

تصرفاته، ميالًا إلا التسامح والعمو، محبا للعلم والأدب، وفيما مع أصدقائه وأعدائه على السواء. خلفاء صلاح الدين [589 – 648هـ = 1193 – 1250م]: بعد وفاة «صلاح الدين» انقسمت السلطنة الأيوبية بين أبنائه الثلاثة وأخيه وبعض أقاربه، فاستقل ابنه «العزیز» بمصر، واستقل ابنه «الأفضل» بدمشق و«وسط سوريا»، وابن «الظاهر» بحلب، أما أخوه «العدل» فحكم «العراق» و«ديار بكر» و«الرها»، وتولّى أبناء عمومته «حمّاة» و«حمص» و«بعلبك» و«اليمن»، وهكذا قضى أبناء «صلاح الدين» وأقاربه على وحدة الدولة، ولم يفهموا الهدف الذي سعى

طيلة حياته من أجل تحقيقه. العزيز عماد الدين [589 - 595هـ = 1193 - 1199م]: خلف «صلاح الدين» على عرش «مصر» أصغر أبنائه «الملك العزيز»، وكان شاباً في الحادية والعشرين من عمره، يتصف بالشجاعة والرحمة والعفة والأخلاق الحميدة، وحكم «مصر» في حياة أبيه «صلاح الدين» نيابة عنه، ومكَّنه ذلك من اعتلاء عرشها عقب وفاته، إلا أنه كان يفتقد إلى الدراية السياسية في تسيير أمور البلاد واستقرار أحوالها، فاستعان بعمه «العاقل» واستوزره ليقوم بهذه المهمة، ومات «العزيز» في سنة (595هـ). المنصور ناصر الدين [595 - 596هـ = 1199 - 1200م]: خلف «العزيز» ابنه «الملك المنصور» وهو طفل في التاسعة من عمره، فحكم «مصر» مدة سنة وتسعة أشهر، فرأى «الملك العادل» أن الدولة أوشكت على الانهيار تحت حكم الملك الطفل، فجمع العلماء والفقهاء في مجلس للتشاور فيما يجب فعله، فقرر الجميع وجوب خضوع الصغير للكبير، وتولى «العاقل» عرش «مصر»، فأصبحت تحت يده أهم أجزاء دولة «صلاح الدين»، واعترفت الولايات بسيادته، وساهمت في حروبه، وضربت «السكة» باسمه، وخطب له فوق كل المنابر الإسلامية السلطان العادل سيف الدين [596 - 615هـ = 1200 - 1218م]: يعد «العاقل» أعظم سلاطين الأيوبيين بعد «صلاح الدين»، فقد اكتسب خبرة واسعة من اشتراكه مع أخيه «صلاح

(388/14)

---

الدين» في غزواته ومفاوضاته وإدارة الأقاليم، إذ وكل إليه «صلاح الدين» معاونته «العزيز» في حكم «مصر»، كما عهد إليه بحكم «حلب»، ثم «العراق»، وذاع صيت «العاقل» بين ملوك «أوربا»، واشتهر بالكفاءة والدهاء والدراية بشئون الحكم، ولم

يتأخر في حمل المسؤولية حين رأى تدهور الأوضاع بمصر  
وحاجتها إليه، فكان الرجل المناسب لتلك المرحلة. بعض  
الصعوبات التي واجهت العادل: تأثر «العادل» تأثرًا بالغًا  
بشخصية أخيه «صلاح الدين»، فسار على نهجه في إدارة  
البلاد، رغم الصعوبات التي واجهته، فقد ثارت ضده طائفة  
الشيعة الإسماعيلية مثلما ثارت من قبل في وجه أخيه «صلاح  
الدين»، وحاولت هذه الطائفة زعزعة ملك «العادل» وتفريق البلاد  
وتشتيت الصفوف، فعمل «العادل» على الحيلولة دون حدوث  
ذلك، وتمكن من القبض على عناصرها وسجنهم سنة (605هـ)،  
فخرجت جماعة أخرى تنادى بتولية أحد أبناء «صلاح الدين»  
أمور الدولة، وكان هذا الابن لا يزال طفلًا صغيرًا، فاستطاع  
«العادل» التغلب عليهم وإعادة الاستقرار إلى بلاده، إلا أن  
انخفاض مياه النيل كان إحدى العقبات الطبيعية التي واجهته،  
فقد حدث بسببه مجاعة وقحط شديدان؛ نتيجة قلة الزراعة، كما  
أن الحملات الصليبية لم تهدأ في عهده؛ إذ لم ترضَ «أوربا» عن  
استقرار أحوال البلاد الإسلامية، فعملت على زعزعتها، وأرسلت  
حملة صليبية هاجمت «مصر» ووصلت إلى «دمياط» وحاصرت  
حصونها، ثم تمكنت منها، واستولت على برجها الحصين «برج  
السلسلة»، يضاف إلى ذلك كله العقبات الداخلية التي واجهت  
«العادل» أثناء حكمه لمصر. وفاة العادل: على الرغم مما واجهه  
«العادل» من صعاب داخلية وخارجية في الحكم، فقد اتسع ملكه  
إلى حد كبير، وقلده الخليفة العباسي بمرسوم رسمي حكم  
«مصر» والشام وأرض الجزيرة، وخلع عليه الخلع الثمينة، فوزع  
«العادل» حكم مملكته الواسعة بين أبنائه التسعة عشر نيابة  
عنه؛ ليضمن وحدتها وتماسكها، فأناب ابنه «الكامل» عنه في

«مصر»، وجعل «المعظم عيسى» على الشام، و «نجم الدين أيوب» على «ميفارقين» ونواحيها، وأتاب ابنه «الأشرف مظفر» على «الولايات الشرقية». وقد ضمن «العدل» وحدة دولته في حياته، إلا أنه تركها إرثاً موزعاً بين أبنائه بعد وفاته، فكان لذلك أثره الخطير في قوة الدولة وتماسكها. وحين سمع «العدل» بسقوط «برج السلسلة» بدمياط حزن حزناً شديداً، فمرض ومات سنة (615هـ)، وكنتم أصحابه خير موته ونقلوه إلى «دمشق»، حيث تولى ابنه «الكامل» حكم «مصر». كان «العدل» حاكماً عادلاً، ذكياً، حليماً، حسن التدبير، محباً للعلماء والأدباء ومشجعاً لهم، كما كان سياسياً محنكاً، قام برحلات عديدة جاب بها أطراف مملكته الشاسعة، كى يضمن استتباب الأمن والنظام، كما كان متفقدًا لأحوال أبنائه في الأقاليم التي أناهم عنه في حكمها. الكامل ناصر الدين [615 - 635هـ = 1218 - 1237م]: حكم «الكامل» «مصر» نيابة عن أبيه «العدل» في حياته، فلما مات استقل الكامل بحكم «مصر» في ظروف حرجة، إذ كان الصليبيون منتصرين في «دمياط»، وكان عليه دحر هذا الانتصار الذى أدى إلى موت أبيه كمدًا، وخرج عليه عدد من الأمراء لعزله في الوقت الذى يتصدى فيه للصليبيين بدمياط، فتمكن من التغلب عليهم، ولكن الصليبيين استغلوا حالة التمرد والتفكك الداخلى واستولوا على «دمياط»، إلا أن «الكامل» استطاع توحيد بلاد المسلمين، وتمكن من دخول «نابلس»، وتحرير «بيت المقدس»، واتسع ملكه لدرجة جعلت أئمة المساجد يدعون له من فوق المنابر بقولهم: «سلطان مكة وعبرها، واليمن وزبيرها، ومصر وصعيدها، والشام وصناديدها، والجزيرة ووليدها، سلطان القبلتين، ورب العلامتين، وخادم الحرمين الشريفين». ورث عن أبيه صفاته الطيبة، فكان قائدًا قديرًا، وسياسيا بارعًا، وإداريا نشيطًا،

حازمًا يدير أمور دولته بنفسه، لدرجة أنه لم يعين وزيرًا بعد وفاة وزير أبيه، وقام بالأمر بمفرده، وكان محبا للحديث،

(390/14)

مشجعًا للعلماء والأدباء، فقد كان عالمًا، ينظم الشعر ويجيده. ظل في حكم البلاد التي تحت يديه حتى وفاته سنة (635هـ)، فأخذت الدولة في الضعف والانحلال من بعده. العادل الثاني [635 - 637هـ = 1237 - 1240م]: يُطلق اسم «العادل الصغير» أو «العادل الثاني» على هذا السلطان، تمييزًا له عن الملك «العادل» أخي «صلاح الدين»، وقد كان «العادل الثاني» نائبًا عن أبيه «الكامل» في حكم «مصر»، فلما مات أبوه أصبح سلطانًا على «مصر»، ولكن اضطراب الأوضاع، وضعف الدولة جعله لا يستمر طويلًا في حكم البلاد، فتولى أخوه «الصلاح نجم الدين أيوب» الحكم من بعده. «الصلاح نجم الدين أيوب» [637 - 647هـ = 1240 - 1249م]: ورث «الصلاح نجم الدين أيوب» عرشًا مضطربًا، مزعزع الأركان جلب عليه الكثير من المشاكل والمتاعب، فدبر أموره، وأعد عدته وتمكن من القضاء على أكثر هذه المضاعب التي واجهته رغم شدتها، فلما تم له ما أراد تحول بقوته إلى مواجهة الصليبيين، ولم يأل جهدًا في جهاده ضدهم، واستطاع استعادة «بيت المقدس» ثانية من قبضتهم، فاستقرت له الأحوال، وحل السلام بينه وبين أمراء مملكته، وتفرغ لمواصلة جهاده ضد الصليبيين؛ أملًا منه في تحرير البلاد كافة من أطماعهم. بداية المماليك: أكثر «الصلاح نجم الدين أيوب» من استجلاب المماليك لمساعدته في حروبه ضد الصليبيين، فنبغ منهم عدة أشخاص كان لهم أكبر الأثر في تغيير مجرى السياسة المصرية، ومنهم «شجرة الدر» الأرمينية

الأصل، والتي كانت أم ولد للصالح نجم الدين أيوب، ولازمته في حياة أبيه «الكامل»، وظلت معه بذكائها حتى أنجبت من «الصالح أيوب» ابنه «خليل» فتوطدت مكائنتها، فلما أصبح سلطاناً على «مصر» اتخذها إلى جواره ملكة غير متوجة، فقد كانت تعمل على راحته، ووجد فيها ما يحبه. وفاة الصالح نجم الدين أيوب: مات «الصالح أيوب» في ليلة النصف من شعبان سنة (647هـ)، وكانت الحرب لاتزال دائرة بين المسلمين والصلبيين

(391/14)

أمام «المنصورة»، فأعملت «شجرة الدر» عقلها وتجلي ذكاؤها، وأخفت خبر وفاته عن الناس في تلك الفترة العصبية من تاريخ «مصر» و «الشام»، وأمرت أحد أطبائه بغسل جثمانه ووضعه في تابوت، ثم حمله في الظلام إلى «قلعة الروضة»، ثم إلى «قبو» بجوار المدرسة الصالحية ودفنه هناك، وأخبرت الأمراء أن «السلطان مريض لا يصل إليه أحد»، ولم تعلن خبر وفاته إلا بعد انتصار المسلمين على الصليبيين، ورد حملتهم، فاستمر العزاء ثلاثة أيام بلياليها بمدرسته، وبعثت «شجرة الدر» بالسناجقة السلطانية، وأمرت بأن تُعلّق داخل القاعة على ضريح «الملك الصالح»، ليرى الزائر آلات الجهاد التي كان يحملها آخر سلاطين «بنى أيوب» في جهاده ضد الصليبيين في معركة «المنصورة»، فقد كان «الصالح أيوب» من أعظم سلاطين «مصر» وأشجعهم. المعظم توران شاه [647 - 648 هـ = 1249 - 1250م]: قبل أن تعلن «شجرة الدر» عن وفاة الملك «الصالح أيوب» أرسلت في استدعاء ابنه «توران شاه» الذي كان غائباً عن «مصر»، فقد كان في «حصن كيفا»، وقبل وصوله أصدرت أوامرها للأمراء وأكابر رجال الدولة بأن يحلفوا يمين السلطنة

لتوران شاه، وأمرت خطباء المساجد بالدعاء له، وأدارت  
«معركة المنصورة» حتى وصل «توران شاه»، فتسلم قيادة  
الحرب وزمام الملك، ولم يمكث على عرش السلطنة أكثر من  
شهرين، ثم خرج لملاقاة الصليبيين الذين دخلوا «المنصورة»،  
وأخذوا يتقدمون نحو «القاهرة»، فتصدى لهم، وقاد المعركة  
بمهارة فائقة حتى تم النصر للمسلمين، فأحبه الناس وقدروه، إلا  
أن سيرته لم تكن حسنة، فقتل سنة (648هـ). نهاية الدولة  
الأيوبية: تولت «شجرة الدر» زمام سلطنة «الأيوبيين» في «مصر»  
لمدة ثمانين يوماً عقب مقتل «توران شاه»، ثم تزوجت «عز الدين  
أيبك» التركماني، وتنازلت له عن العرش بسبب المشاكل التي  
واجهتها، وعدم رضى الخليفة العباسي عن توليها السلطنة،  
ولكن «عز الدين» كان رجلاً ضعيف الرأى، فأسدل الستار على

(392/14)

---

الدولة الأيوبية، إحدى أعظم الدول الإسلامية في العصور  
الوسطى، بعد أن نالت مكانة عظيمة في تاريخ المسلمين، وبدا  
في الأفق ظهور دولة جديدة في تاريخ المسلمين هي دولة  
المماليك. النظم والحضارة في العصر الأيوبي النظام السياسي:  
كان السلطان الأيوبي يطلب من الخليفة العباسي - بصفته الرئيس  
الأعلى لبلاد المسلمين - تفويضاً يجعل حكمه في «مصر» شرعياً،  
رغم أن سلطان الأيوبيين على البلاد التي تحت أيديهم كان  
سلطاناً مطلقاً، ولم تكن للخلافة العباسية عليه أية نفوذ، ولكن  
سلاطين الدولة الأيوبية حرصوا على الحصول على هذا التفويض  
دوماً، وكان «الناصر صلاح الدين» أول من اتشح بجلعة الخليفة  
العباسي من سلاطين «مصر» الأيوبيين. ألقاب السلطان  
وأعماله: يُعدُّ «صلاح الدين» أول من اتخذ لقب السلطنة من حكام

«مصر»، وقد حصل على لقب «سلطان»، ولقب: «محمى دولة أمير المؤمنين» لأعماله الجليلة التي قام بها في نشر المذهب السنّي والقضاء على المذهب الإسماعيلي الشيعي، ونجاحه في مناهضة الصليبيين وصدّهم عن بلاد المسلمين، ومع ذلك فقد كان «صلاح الدين» رجلاً متواضعاً، واتخذ من لقب: «السلطان الملك الناصر» لقباً للتعامل، رغم حصوله على ألقاب عديدة تحمل في طياتها معاني العظمة والأبهة والجاه مثل: «السيد العالم العادل المظفر المنصور، ناصر الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، وارث الملك، سلطان العرب والعجم والترك، إسكندر الزمان، صاحب القبلتين، خادم الحرمين الشريفين، سيد الملوك والسلاطين»، ومما لاشك فيه أن هذه الألقاب تبين عظمة ما بلغه سلاطين الدولة الأيوبية، خاصة أن لكل لقب من هذه الألقاب موقفاً عظيماً وحادثاً جللاً خاضه السلطان فمُنح اللقب على إثره. دَوّنت الألقاب في الرسائل التي تُبودلت بين السلاطين وملوك «أوروبا» وفي الكتابات التاريخية، وعلى السكة والعمائر، والتحف الفنية، وفهارس دار الآثار العربية. كان السلطان يقيم مع

(393/14)

---

أسرته وحاشيته ورجال بلاطه في «قلعة الجبل»، وهو رئيس الدولة الأعلى الذي له الحق في الهيمنة على شئون الأمراء الخاصة والعامة، وفي تدرجهم الوظيفي، وفي توزيع الإقطاعات والجنود عليهم وتحديد أنصبتهم، وكان على السلطان تعيين موظفي الدولة وعزلهم، وتأديبهم والنظر في المظالم وقيادة الجيوش في الحروب. وكان للدولة الأيوبية مجلس شورى تُفَرِّق من خلاله مشروعات الدولة الحيوية كإعلان حرب أو إبرام صلح أو إصلاح هيكل من هياكل الدولة، وكان هذا المجلس يُسمّى:

«مجلس السلطنة»، وكان أعضاؤه من كبار موظفي الدولة للاستئناس بأرائهم ومشورتهم قبل الإقدام على تنفيذ المشروعات والخطط، ويتولى «أمير مجلس» -الذى يشبه منصبه منصب كبير الأمراء - الآن - الأمور الخاصة بمجلس السلطنة، وله حق التصرف في شئون البرتوكول، كما كان يتمتع بالجلوس في حضرة السلطان بحكم هذه الوظيفة. نائب السلطان: نيابة السلطنة ووظيفة استحدثتها السلاطين الأيوبيون، فأصبح النائب كأنه سلطان ثانٍ، ويشترك مع السلطان في منح لقب الإمارة، وتوزيع الإقطاعات، وتعيين الموظفين، وتوقيع المراسيم والمنشورات، وتنفيذ القوانين، والخروج على رأس فرق الجيش في المواكب الرسمية، يحف به الأمراء عند دخوله أو خروجه من قصر السلطان، وكان يُلقَّب بكامل المملكة الشريفة الإسلامية، لأن من اختصاصاته تصريف أمور الدولة عامة سواء أكان السلطان بالقاهرة أم كان متغيَّباً عنها. وهناك نوع آخر من النيابة يقول عنه «المقريزى»: «يقوم النائب فيها بمهام الدولة إذا خرج السلطان إلى الصيد، أو سار على رأس الجيش في حرب خارجية». الوزير: اتخذ سلاطين الدولة الأيوبية في «مصر» وزراء لم يحدوا سلطتهم، ولم يجعلوها مقصورة على التنفيذ، بل جعلوها سلطة مطلقة، فأصبحت الوزارة أعلى الوظائف وأرفعها، وأصبح صاحبها باب الملك المقصود، ولسانه الناطق، ويده المعطاءة. النظام القضائي في عهد الأيوبيين: في سنة

(394/14)

---

564هـ) افتتح الناصر «صلاح الدين» مدرستين لتدريس الفقه، وجعل إحدهما لتدريس الفقه الشافعى، وجعل الأخرى للفقه المالكى، وفصل جميع القضاة الشيعة، وعين بدلا منهم قضاة من

الشافعية السنيين، فاقتصر القضاء على مذهب الإمام «الشافعي»، كما أن قاضي الشافعية «صدر الدين درباس» لم يُنب عنه في أقاليم «مصر» إلا من كان شافعيًا، ومن ثم انتشر المذهب الشافعي في «مصر» وما يتبعها من أقاليم. وكان الذي يتولى منصب القضاء في «القاهرة» وسائر أعمال الديار المصرية، في عهد الأيوبيين قاضي واحد هو بمثابة قاضي القضاة، وله حق إنابة نواب عنه في بعض الأقاليم. أعوان القاضى: كان للقاضى في عهد الأيوبيين أعوان يساعده على العدل في الحكم وإعادة الحقوق إلى أصحابها، فكان منهم «الجلواز» الذى يستعين به القاضى على تنظيم قاعة الجلسة، وحفظ النظام، وترتيب الخصوم وفق ترتيب حضورهم، ومنعهم من التقدم إلى القاضى فى غير دورهم، ومراعاة الآداب فى مجلس القضاء. ومنهم «الأعوان» ومهمتهم إحضار الخصوم إلى المحكمة، والقيام بين يدي القاضى عند نظره فى الخصومات إجلالا لمركزه .. ومنهم «الأمناء» ومهمتهم حفظ أموال اليتامى والغائبين. ومنهم «العدول» ومهمتهم مراعاة دقة عبارات السجلات والعقود ومطابقتها للشرع، وتركية الشهود. وقد استقرت النفوس وهدأت فى ظل هذا النظام القضائى المنضبط، لأن القضاء العادل من شأنه أن يجعل الناس سواء، خاصة أن مصادر القضاء الإسلامى المتمثلة فى القرآن والسنة وإجماع العلماء والاجتهاد كانت هى الأسس التى سار عليها قضاة ذلك العصر، فقلَّت المظالم، واستقرت أحوال البلاد. التطور الاقتصادى فى العهد الأيوبي: تأخذ الأمم القوية بأسباب قوتها، وتعمل على استثمار الإمكانيات المتاحة لها لتنمية ثروتها، لذا فإن تقدم الأمم وقوتها مرتبط بنجاح اقتصادها وقوته واستمرار روافده، وكانت الدولة الأيوبية إحدى الدول القوية ذات الاقتصاد

القوى، فقد امتلكت ما تركه الفاطميون عقب سقوط دولتهم، ونظمت الخراج والجزية، بالإضافة إلى غنائم حروبها وفدية الأسرى، واستخدمت هذه الموارد لصالح البلاد الإسلامية كافة، وأنفقت على تسليح الجيش وإعداده جزءاً كبيراً منها، وبنّت القلاع والحصون، وقامت بالإصلاحات الداخلية في البلاد. غَيَّرَ «الناصر صلاح الدين» النظام الاقتصادي الذي كان سائداً قبله، وقلل من النظام الإقطاعي، ففضى بذلك على استقلال أمراء الإقطاعات، وقوّى الحكومة المركزية، فكان لهذا أثره الكبير في ازدهار حالة البلاد الاقتصادية. وقد أولى «الأيوبيون» الزراعة عنايتهم؛ فهي عماد حياة البلاد، فطهروا الترع، وأقاموا الجسور، ونظمو وسائل الري، لدرجة أن السلطان «الكامل» كان يراقب المهندسين بنفسه أثناء إقامتهم السدود والخزانات، وغير ذلك من أعمال الري الخاصة، فنشطت الزراعة دون أن تؤثر الحروب عليها، فقد كانت حروب الأيوبيين تتوقف في «سوريا» شتاءً، وهو موسم الزراعة في «مصر». ونشطت التجارة كما ازدهرت الزراعة في العصر الأيوبي، وأصبحت «مصر» -آنذاك- همزة الوصل بين تجارة الشرق والغرب، وعقد السلطان «العاقل» معاهدة تجارية مع «البندقية» في سنة (605هـ = 1208م)، حصل البنادقة بمقتضاها على تسهيلات تجارية في الموانئ المصرية، خاصة «الإسكندرية»، في مقابل أن يمنعوا الصليبيين، من التقدم نحو «مصر»، فلما ولى السلطان «الكامل» حكم البلاد أقر ما اتفق عليه السلطان «العاقل» مع أهل «البندقية»، وسمح لهم بتأسيس سوق تجارية في الإسكندرية، سُمِّيَتْ «سوق الأيكة»، ومنح الامتيازات نفسها لأهل «بيزة» الذين أرسلوا قنصلاً لهم إلى «الإسكندرية»، فأدت هذه الخطوات إلى ازدهار التجارة وانتعاش الاقتصاد، وزيادة دخل

الدولة. وجددير بالذكر أن «مصر» مرت بانتكاسة اقتصادية في عهد «العادل» نتيجة انخفاض مياه النيل الذي ترتب عليه قلة الزراعة، فحدثت المجاعة واشتد القحط، وبذل «العادل» جهودًا

(396/14)

كبيرة لمواجهة هذه الأزمة، فكان يخرج بنفسه أثناء الليل ويوزع الأموال على الفقراء والمساكين والغرباء، ولكن الموقف ازداد سوءًا وتفاقم خطره حين وقع زلزال مروّع وقت المجاعة هدم كثيرًا من المباني، وأزهق أرواحًا لا تُحصى في «مصر» والشام، ولكن الأوضاع سرعان ما عادت إلى طبيعتها بعد زيادة مياه النيل سنة (601هـ = 1204م)، فزادت الغلال وخفت المجاعة، وانتهى أمر النكبة بعد أن تكاتف الجميع للقضاء عليها وإعادة الاقتصاد إلى سابق عهده؛ ليتتابع الكفاح ضد الصليبيين من جديد. وهكذا كان اقتصاد الدولة الأيوبية اقتصادًا منظمًا زادت فيه موارد الدولة وشعر الجميع بانتعاش اقتصادي عمّ أرجاء البلاد. النظام الحربي في عهد الأيوبيين: كانت حياة الأيوبيين سلسلة متتابعة من الجهاد والنضال والقتال، ولذا كان اهتمامهم بالجيش وعنايتهم بأمره، لدرجة أن سلاطين «بني أيوب» أنفقوا معظم إيرادات الدولة على إصلاح الجيش، وبناء ما يلزمه من الحصون والقلاع، فلعب الجيش دورًا خطيرًا خلال تلك الحقبة من التاريخ الإسلامي. تألف معظم الجيش الأيوبي من الترك والأكراد، وكان له «مجلس حرب» اعتاد السلطان أن يستشير به في الخطط التي يجب أن تُتبع، وكان يخضع لرأي المجلس مهما يكن. قسم الأيوبيون الجيش إلى عدة فرق، تُنسب كل منها إلى أحد القواد العظماء، فكانت هناك فرقة «الأسدية» نسبة إلى «أسد الدين شيركوه»، و «الصلاحية» نسبة إلى «صلاح الدين» .. إلخ، وكان

لأمراء هذه الفرق نفوذ كبير، وكان الجيش مكوناً من الفرسان  
والمشاة، وكانت أسلحته من السهام والرمح والنبال والنار  
اليونانية. أُلّف «الصلاح أيوب» جيشه من الأتراك والمماليك الذين  
استكثر من شرائهم، وبنى لهم قلعة بجزيرة الروضة جهزها  
بالأسلحة والآلات الحربية والأقوات، وأسكنهم فيها، وعُرفوا منذ  
ذلك الحين باسم المماليك البحرية، وقد أسسوا دولة -فيما بعد-

(397/14)

عُرِفَت باسمهم. البحرية في العهد الأيوبي: لم يقتصر إعداد  
«صلاح الدين» على الجند في البر وتحصين البلاد، بل وجه  
اهتمامه إلى سلاح البحرية الذي بلغ درجة عظيمة من التقدم،  
واهتم بتأسيس الأسطول اهتماماً كبيراً خاصة أن الصليبيين كانوا  
يستخدمون البحر في هجومهم على البلاد الإسلامية، ومن ثمَّ  
أصبح لزاماً على المسلمين الاستعداد لحمالات الصليبيين البحرية،  
فأعد «الناصر صلاح الدين» العدة لتأسيس وتكوين أسطول  
إسلامي يستطيع مجابهة حملات الصليبيين المعتدين، وكانت  
أولى خطواته في ذلك: تخصيص ديوان كبير، عُرف باسم «ديوان  
الأسطول». وأفرد له «صلاح الدين» ميزانية خاصة، وعهد به إلى  
أخيه «العادل». واستطاع «صلاح الدين» تكوين أسطول قوى  
تمكن بواسطته من مواجهة الصليبيين، وأصبح هذا الأسطول من  
أكبر الأساطيل في ذلك الوقت، ورابط في البحر الأحمر، وفي  
شرق البحر الأبيض، وتمكن من تحقيق انتصارات هائلة. لم يألُ  
الأيوبيون جهداً في سبيل تنظيم الجيش والأسطول، وليس أدل  
على اهتمام السلاطين بالأسطول البحري من أنهم كانوا  
يشركون معهم الأهالي عند عرض الجيوش والأساطيل، أو عند  
توديعهم للغزو، فقد كان قدر هذه الدولة أن تقوم بمحاربة

الصلبيين وردهم عن البلاد الإسلامية، فأدت هذه الأسباب في النهاية إلى وجود دولة قوية ذات سيادة، فرضت احترامها على أصدقائها وأعدائها، وحررت بلاد المسلمين من الأعداء، لأنها عرفت الأسباب التي تؤدي إلى القوة والازدهار. المنشآت الحضارية في العهد الأيوبي: رغم كثرة حروب العهد الأيوبي إلا أنه كان حافلاً بالإنشاءات العظيمة، فقد بُنيت فيه المدارس والمستشفيات، ونُسِّقت الحدائق، وأقيمت المنشآت الحربية للدفاع عن الدولة أو للهجوم على العدو طبقاً لظروف الدولة الحربية، وكان من أهم هذه الإنشاءات الحربية وأولها: - قلعة الجبل: وتُعدُّ من أبرز ما خلفه الأيوبيون من منشآت في

(398/14)

«القاهرة»، فما زالت شاهد صدق على عظمة هذه الدولة إلى اليوم، وإن الناظر إليها ليدرك مدى عناية الأيوبيين بالمنشآت والقلاع الحربية التي كانت منتشرة في بلادهم، خاصة المدن الشامية التي هي خط الدفاع والهجوم الأول للدولة، لم يكن بناء «قلعة الجبل» مجرد تقليد أو مظهر أرادته «صلاح الدين» ليظهر به، وإنما بناها لتكون مقراً لحكومته، ومعقلاً لجيشه الكبير، وحصناً يملكه من الإشراف على حاضرة دولته. ويحميه من القلاقل الداخلية، وكذلك لتكون نقطة دفاعية يصد منها غارات المغيرين على «مصر» سواء أكانوا من الصليبيين أم غيرهم. وقد استخدم «صلاح الدين» الأسرى في تشييد قلعته، ومع ذلك لم يتمكن من إتمام تشييدها في عهده، فلم يتم منها سوى الهيكل والبئر الحزروني. وكانت بالقلعة - على الرغم من ارتفاعها - بئر عمقها تسعون متراً، مملوءة بالماء العذب، مثقوبة في الحجر، بأسفلها سواقٍ تدور فيها الأبقار، فتنتقل الماء إلى وسطها الذي

توجد فيه أبقار تنقل بدورها الماء إلى أعلاها، ويُعدُّ هذا البئر من أعجب الآبار، ويعرف باسم «بئر يوسف» نسبة إلى «صلاح الدين يوسف بن أيوب». أتم السلطان «الكامل محمد» بناء «القلعة» في سنة (604هـ)، ثم انتقل من دار الوزارة إليها. وكان للقلعة سور، وأبراج، وثلاثة أبواب، أحدها من جهة «القرافة» و «جبل المقطم»، والثاني من جهة جدارها البحري ويُعرف باسم «باب السر»، والثالث يقع مدخله في أول الجانب الشرقي من القلعة، ويصل الداخل منه إلى فناء مستطيل به دواوين الحكومة، وبهذا الفناء باب يُسمَّى: «باب القبلة»، وتمتد منه دهاليز فسيحة، وعلى يسار الداخل منها باب يوصل إلى جامع الخطبة وهو من أعظم الجوامع لاتساع أرجائه، وكثرة زخرفته، وفي وسطه قبة تليها مقصورة ليصلى فيها السلطان صلاة الجمعة، ويصدر الدهاليز مدخل يوصل إلى الإيوان الكبير الذي نُصب به سرير الملك؛ وهو منبر من الرخام، وتمتد من هذا الإيوان مساحة

(399/14)

كبيرة بما القصر الذي بناه «الظاهر بيبرس» فيما بعد. صارت «قلعة الجبل» منذ تم بناؤها مقر الدواوين السلطانية ودور الحكومة، فقد كانت حصينة جدا، وتشتمل على كثير من القصور، والإيوانات، والطباق والأحواش، والميادين، والإصطبلات، والمساجد، والمدارس، والأسواق، والحمامات، وكانت بها دار الوزارة، وديوان الإنشاء، وديوان الجيش، ودار النيابة، وبيت المال، وخزانة السلطان الخاصة، والدور السلطانية، وكذلك الأبراج التي كان الخارجون على السلطان ونظام الدولة يُجسسون بها. وكان نقش بابها: «بسم الله الرحمن الرحيم». أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة، المجاورة لمخروسة القاهرة بالعرصة، التي

جمعت نفعاً وتحصيناً وسعة على من التجأ إلى ظل ملكه مولانا  
الملك الناصر صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب  
محمى الدولة أمير المؤمنين في نظر أخيه وولى عهده الملك  
العادل سيف الدين أبي بكر محمد خليل أمير المؤمنين، على يد  
أمير مملكته ومعين دولته قراقوش عبدالله المكي الناصري في  
سنة تسع وسبعين وخمسمائة». إنشاء المدارس: عُني «صلاح  
الدين» ببناء المدارس، فبنى مدرسة بالقرب من قبر الإمام  
«الشافعي» بالقرافة، وبنى مدارس الناصرية والقمحية، وكذلك  
نهج نهجه سلاطين «بني أيوب»، فأسس الملك «الكامل» مدرسة  
دار الحديث الكاملية؛ نسبة إليه، وكانت عبارة عن بناء متجه  
إلى القبلة، وفي وسطه صحن كبير مربع، وفي كل جانب من  
جوانبه الأربعة إيوان، وتعلوها قبة تحتها محراب، ومن ثمَّ لم  
تختلف المدارس عن المساجد من حيث الهيئة والشكل. وكان  
الطلبة يذهبون إلى تلك المدارس بانتظام لتلقى العلم مجاناً،  
وكان سلاطين الدولة الأيوبية يهتمون بالمدارس وإنشاء المزيد  
منها، ويوقفون عليها الأوقاف الكثيرة، ويرتبون لها الفقهاء  
والعلماء لتدريس المذاهب الفقهية الأربعة، فكثرت بها المباحثات  
والمناقشات بتشجيع من السلاطين الذين شُغفوا بالبحث العلمي،

(400/14)

---

كما كان منهم من ينظم الشعر ويحيده كالمملك الكامل. تأسيس  
المنصورة: يُعدُّ إنشاء مدينة «المنصورة» من الأعمال العظيمة  
التي خلدت ذكر دولة الأيوبيين، فقد أنشأها السلطان «الكامل»  
سنة (616 هـ = 1218م)؛ إذ قام بإنشاء مدينة على الشاطئ  
الشرقي لفرع «دمياط» عقب سقوط «دمياط» في أيدي «لويس  
التاسع»، واتخذ «الكامل» المدينة الجديدة مركز دفاع له يقاوم

به الصليبيين. وبعد أن تمكن «الكامل» من استرجاع مدينة «دمياط» من أيدي الصليبيين أطلق اسم «المنصورة» على مدينته الجديدة تيمناً بالنصر، ثم ما لبثت هذه المدينة الجديدة أن اتسعت، واشتهرت منذ إنشائها بأنها مدينة حصينة، وكانت سجن «لويس التاسع» ومن كانوا معه حين تم أسرهم ووضعهم بدار الحكمة، التي ما زالت معروفة لدى العامة حتى اليوم باسم «دار ابن لقمان» نسبة إلى «القاضي فخر الدين بن لقمان» الذي كان ينزل بها كلما جاء إلى «المنصورة». قلعة الروضة: بناها السلطان «الصالح نجم الدين أيوب» في جنوب «جزيرة الروضة» سنة (638هـ)، وهي تشغل مساحة كبيرة من الأرض، وقد عُمرت بالأبنية والقصور، وُجهزت بالأسلحة والمعدات والآلات الحربية. وأنشأ فيها «نجم الدين» جامعاً، وشيد برجاً، وبنى لماليكه البحرية ثكنات لسكناهم، فلما تم بناؤها وتجهيزها انتقل إليها مع أفراد أسرته وماليكه البحرية، واتخذها مقراً لحكمه. وظلت «قلعة الروضة» عامرة حتى زالت الدولة الأيوبية، وتولى «أيك» السلطنة، فأمر بهدمها، ونقل جميع ما بها إلى «قلعة الجبل» التي أسسها «صلاح الدين». عاصمة مصر في العصر الأيوبي: ربما يتبادر إلى الذهن سؤال حول عاصمة الأيوبيين، ولماذا لم يعتمد «صلاح الدين» على إنشاء عاصمة جديدة لدولته جريا على سياسة من سبقوه من ولاة «مصر» وخلفائها؟ والإجابة: أن «صلاح الدين» استن في ذلك سنة جديدة، وضم «الفسطاط» و «العسكر» و «أطلال القطائع» و «القاهرة» بعضها إلى بعضها

(401/14)

---

الآخر بقصد توسيع مدينة «القاهرة» وجعلها في ثوبها الجديد عاصمة لدولته، بعد أن أحاطها بسور عظيم طوله خمسة عشر

كيلو متر (15 كم)، ومتوسط عرضه ثلاثة أمتار، وبنى واجهة هذا السور من الحجر المنحوت وتخلله الأبراج، ولا تزال بقاياها قائمة حتى اليوم في جهات متفرقة، وأظهر هذه البقايا موجود بالفسطاط، وقد اقتضى ضم تلك العواصم إلى بعضها وإحاطتها بالسور وبناء القلعة هدم المباني الموجودة في ضواحي «القاهرة» من «مصر القديمة» إلى «السيدة زينب»، وأقيمت حدائق للفاكهة مكان هذه المباني، كما أقيم سد من الحجارة على حافة الصحراء بالجزيرة؛ لحماية «القاهرة» من ناحية الغرب، وأصبحت هذه العواصم مجتمعة - بعدما أدخل عليها من تعديل - عاصمة الدولة الأيوبية في «مصر» آنذاك.

(402/14)

#### \*المماليك البحرية (دولة)

أصل المماليك: أكثر الأيوبيون من شراء المماليك الأتراك، وبنوا لهم الثكنات بجزيرة الروضة، وأطلقوا عليهم اسم «المماليك البحرية»، فقويت شوكتهم، وزادت سطوتهم، وسنحت لهم الفرصة بعد ذلك، فتولوا حكم «مصر». كانت الغالبية العظمى من جماعات المماليك الذين جلبهم الأيوبيون وسلطين المماليك من بعدهم تأتي من «شبه جزيرة القرم» و «بلاد القوقاز»، و «القفجاق»، و «آسيا الصغرى»، و «فارس»، و «تركستان»، و «بلاد ما وراء النهر»، فكانوا خليطاً من الأتراك، والشراكسة، والروم، والروس، والأكراد، فضلاً عن أقلية من مختلف البلاد الأوروبية. والمماليك طائفة من الأرقاء الذين اشتراهم سلاطين «مصر» وأكثروا منهم، لاسيما في العهد الفاطمي، ثم تقيأت لهم الظروف ليحكموا «مصر» و «الشام»، وبلاد أخرى، ومع ذلك احتفظوا أثناء حكمهم لمصر بشخصيتهم، ولم يختلطوا بأى عنصر

من عناصر السكان في «مصر» وفي غيرها من البلاد التي حكموها. وكان المماليك ينقسمون فيما بينهم إلى أحزاب وطوائف متنافسة، ولكن هذا الانقسام لم يكن يؤثر على وحدتهم أمام العالم الخارجي حين يواجهونه، فقد كانوا يظهرون كعصبة واحدة متحدة، ويفسر ذلك سر قوتهم وأسباب تفوقهم وانتصاراتهم الحربية. وكان باب الترقى في حكومة المماليك مفتوحًا على مصراعيه أمام كل مملوك يثبت كفاءته في العمل، فيترقى من مملوك إلى أمير حتى يصل إلى عرش المملكة بكفاءته واجتهاده، فالسلطان لم يكن إلا واحدًا من أمراء المماليك، قدموه على أنفسهم لقوة شخصيته، ووفرة أنصاره، وكثرة جنوده، وقدرته على المنافسين الطامعين في العرش، ولقد سطرت دولة المماليك الأولى «المماليك البحرية» صفحة مضيئة من تاريخ «مصر» خاصة، والتاريخ الإسلامي عامة، على أيدي سلاطينها الأقوياء الذين عملوا على توحيد البلاد، ورفع رايات الجهاد، وهم: 1 - العز أيلك: 2 - علي بن أيلك (المنصور نور

(403/14)

---

الدين) [655 - 657هـ]: 3 - سيف الدين قُطز: 4 - الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى (658 - 679هـ): 5 - أولاد بيبرس في السلطنة (بركة خان، وسلامش): 6 - السلطان قلاوون [679 - 689هـ = 1280 - 1290م]: 7 - السلطان الأشرف خليل بن قلاوون [689 - 693هـ = 1290 - 1294م]: 8 - السلطان الناصر محمد بن قلاوون [693 - 741هـ = 1294 - 1341م]: جلس على عرش «مصر» بعد «الناصر محمد» أولاده وأحفاده في الفترة من سنة (741هـ) إلى سنة (784هـ)، يتعاقبون عليه واحداً بعد الآخر حتى سقوط دولة المماليك البحرية عام (784هـ)، وفي مدة بلغت ثلاثاً وأربعين

سنة علا عرش «مصر» من البيت الناصري ثمانية أولاد وأربعة أحفاد، بلغ متوسط حكم الواحد منهم ثلاث سنوات ونصف السنة، وتميز هذا العهد بصغر سن السلطان، وقصر مدة حكمه، لسهولة خلعه على أيدي الأمراء، ولظهور نفوذ الأتابكة ظهوراً واضحاً، وكذلك اشتداد تنافس الأمراء في بسط نفوذهم للسيطرة على الدولة، ولذا أصبح السلطان ألعوبة في أيدي أمرائه، يعزلونه أو يبقونه على العرش حسب هواهم، وما تقتضيه مصالحهم؛ فاضطربت أحوال البلاد، وكثرت فيها الفتن. بعد وفاة «الناصر محمد» تولى العرش ابنه «سيف الدين أبو بكر» (741 - 742هـ)، وسرعان ما ساءت العلاقات بينه وبين أتابكته، لامتناعه عن الاستجابة لمطالب هذا الأتابك، فحرض الأتابك عليه الأمراء وعزلوه. وتولى من بعده أخوه «علاء الدين كجك» (742هـ = 1341م)، وعمره إذ ذاك يتراوح بين خمس وسبع سنوات، وتم عزله بعد فترة وجيزة. ثم تولى أخوه «أحمد» عرش السلطنة ولقب نفسه بالناصر في سنة (742 - 743هـ)، إلا أنه لم يستمر طويلاً في الحكم كسابقه، ووقع الاختيار على أخيه «إسماعيل» سنة (743هـ)، ولكنه ما لبث أن مرض ومات سنة (746هـ)، فتولى ابنه «شعبان» من بعده سنة (746 - 747هـ)، ولم يكن عهده خيراً من سلفه، فخلفه أخوه «حاجي» سنة (747هـ)، ولم يستكمل عامًا واحدًا حتى اعتلى العرش «الناصر

(404/14)

---

حسن» سنة (748هـ)، وهو لا يزال في الحادية عشرة من عمره، ولم يلبث أن عُزل، ثم عاد وتولى السلطنة ثانية في سنة (755هـ)، وظل على العرش ست سنوات ونصف السنة، فعاد في عهده الاهتمام بالعمائر الإسلامية، وبنى مسجده الشهير

المعروف باسمه «مسجد السلطان حسن» بالقاهرة، ومع ذلك فقد ظلت حالة عدم الاستقرار في البلاد سائدة، فكانت فرصة سانحة لظهور دولة المماليك الثانية المعروفة «بدولة المماليك البرجية».

(405/14)

### \*المماليك البرجية (دولة)

كان «حاجي بن شعبان» آخر سلاطين المماليك من بيت الناصر، وآخر سلاطين دولة المماليك البحرية في الوقت نفسه، وكان «حاجي» صغير السن حين اعتلى عرش السلطنة؛ إذ كانت سنُّه عشر سنوات، فعين «برقوق» أتابكاً له، واستغل حداثة سنِّه وضعفه، واستدعى الخليفة، والقضاة الأربعة والأمراء، وخاطبهم «القاضي بدر الدين بن فضل» بقوله: «يا أمير المؤمنين، ويأسادتى القضاة: إن أحوال المملكة قد فسدت، والوقت قد ضاق، ونحن محتاجون إلى إقامة سلطان كبير تجتمع فيه الكلمة، ويسكن الاضطراب»، فاستقر الرأي على خلع الملك الصالح «حاجي»، وأن يتولى «برقوق» مسئولية البلاد، فاعتلى عرش السلطنة رسمياً، وانتهت بذلك دولة المماليك البحرية بعد أن حكمت مائة وستا وثلاثين سنة. عُرفت الدولة الجديدة باسم: «دولة المماليك البرجية»، لأن سلاطينها كانوا ينتمون إلى لواء من الجند كان مقيماً في أبراج القلعة وأطلق على جنوده اسم «المماليك البرجية» لتمييزهم عن «المماليك البحرية» الذين كانت إقامتهم بجزيرة الروضة، وقد عُرف «البرجية» كذلك باسم: «المماليك الجراكسة» أو الشراكسة، نسبة إلى موطنهم الأصلي الذي أتوا منه وهو: «ورُيا» و «بلاد الشركس» (القوقاز)، وفيما يلبأهم سلاطين هذه الدولة السلطان برقوق [784 – 801هـ = 1382 – 1399م]: السلطان فرج بن برقوق [801 – 815هـ = 1399

- 1412م]: السلطان «شيخ المؤيد» [815 - 824 هـ = 1412 -  
1421م]: السلطان ططر [824هـ]: السلطان برسباي [825 - 841 هـ]:  
السلطان جقمق [841 - 857 هـ]: السلطان إينال [857 - 865 هـ =  
1453 - 1461م]: السلطان خشقدم [865 - 872 هـ]: السلطان  
قايتباي [872 - 901 هـ = 1467 - 1496م]: شهدت السنوات القليلة  
التي تلت حكم «قايتباي» عددًا من السلاطين تميز جميعهم  
بالضعف وسوء الإدارة، كما تميزت فترات حكمهم بالدسائس  
والمؤامرات والفتن والاضطرابات، فقد تولى «السلطان الناصر

(406/14)

---

محمد بن قلاوون» الحكم عقب وفاة أبيه، وكان صغير السن،  
فتولى القائد «قانسوه الخمسمائة» الوصاية عليه في بداية  
عهده، ولكن «الناصر محمد» ترك العرش وتنازل عن السلطنة  
حين رأى الدسائس والفتن والاضطرابات من حوله، فتولى من  
بعده عدد من السلاطين، كانت مدة حكم كل منهم قصيرة،  
فساعد ذلك على زيادة الاضطرابات واشتعالها، وظل الوضع  
على ذلك حتى تمكن «قانسوه الغوري» من الوصول إلى  
العرش، وهؤلاء السلاطين هم: «قانسوه الأشرفي»، و «جنبلط»،  
و «طومان باي الأول». السلطان قانسوه الغوري  
[906 - 922هـ=1501 - 1516م]: السلطان طومان باي الثاني [922 -  
923 هـ = 1516 - 1517م]: بعد مقتل «الغوري» بالشام استقر  
الرأي على تعيين «طومان باي» ابن أخيه سلطاناً على «مصر»،  
وجلس «طومان باي» على العرش في فترة كانت شديدة الحرج  
في تاريخ «مصر»؛ إذ سيطر العثمانيون على الشام، وساءت  
الأحوال بمصر بعد هزيمة «مرج دابق»، ولم يكتفِ العثمانيون بما  
حققوا، بل يعموا شطر «مصر» في محاولة منهم للسيطرة عليها.

حاول «طومان باى» السيطرة على الموقف، وقام بعدة أعمال في سبيل تحقيق ذلك، وفض الخصومة التي كانت قائمة بين المماليك وصالح بينهم، وساعده في ذلك حب الشعب له لإخلاصه ووفائه وتفانيه في خدمة المسلمين. باءت كل محاولات «طومان باى» بالفشل في إعادة المماليك إلى قوتهم الأولى التي كانوا عليها في عصور النهضة، فقد أنهكتهم الاضطرابات، وقضت على وحدتهم الفتن، فانتهى الأمر بهزيمتهم على أيدي العثمانيين في موقعة «الريدانية» الشهيرة في ظاهر «القاهرة»، ودخل العثمانيون «مصر»، وحاول المصريون مساندة «طومان باى» في هذه الظروف لحبهم الشديد له، إلا أنهم لم يستطيعوا إيقاف زحف العثمانيين على «مصر»، فخرج «طومان باى» إلى «مديرية البحيرة» في محاولة منه لاستجماع قوته وجنوده، ولكن العثمانيين تمكنوا منه وقبضوا عليه، ثم شنقوه على «باب زويلة» سنة (923هـ)، بعدما بذل كل جهوده

(407/14)

---

وأدى واجبه في سبيل الدفاع عن دولته، إلا أن ظروف عصره لم تمكنه من تحقيق ما أراد، فسقطت بذلك دولة المماليك ونظامهم، ودخلت «مصر» مرحلة جديدة باتت فيها تحت حكم العثمانيين.

(408/14)

---

#### \* المماليك (دولة)

أصل المماليك: أكثر الأيوبيون من شراء المماليك الأتراك، وبنوا لهم الثكنات بجزيرة الروضة، وأطلقوا عليهم اسم «المماليك البحرية»، فقويت شوكتهم، وزادت سطوتهم، وسنحت لهم

الفرصة بعد ذلك، فتولوا حكم «مصر». كانت الغالبية العظمى من جماعات المماليك الذين جلبهم الأيوبيون وسلطين المماليك من بعدهم تأتي من «شبه جزيرة القرم» و «بلاد القوقاز»، و «القفجاق»، و «آسيا الصغرى»، و «فارس»، و «تركستان»، و «بلاد ما وراء النهر»، فكانوا خليطاً من الأتراك، والشراكسة، والروم، والروس، والأكراد، فضلاً عن أقلية من مختلف البلاد الأوروبية. والمماليك طائفة من الأرقاء الذين اشتراهم سلاطين «مصر» وأكثروا منهم، لاسيما في العهد الفاطمي، ثم تهيأت لهم الظروف ليحكموا «مصر» و «الشام»، وبلاد أخرى، ومع ذلك احتفظوا أثناء حكمهم لمصر بشخصيتهم، ولم يختلطوا بأى عنصر من عناصر السكان في «مصر» وفي غيرها من البلاد التي حكموها. وكان المماليك ينقسمون فيما بينهم إلى أحزاب وطوائف متنافسة، ولكن هذا الانقسام لم يكن يؤثر على وحدتهم أمام العالم الخارجى حين يواجهونه، فقد كانوا يظهرون كعصبة واحدة متحدة، ويفسر ذلك سر قوتهم وأسباب تفوقهم وانتصاراتهم الحربية. وكان باب الترقى فى حكومة المماليك مفتوحاً على مصراعيه أمام كل مملوك يثبت كفاءته فى العمل، فيترقى من مملوك إلى أمير حتى يصل إلى عرش المملكة بكفاءته واجتهاده، فالسلطان لم يكن إلا واحداً من أمراء المماليك، قدموه على أنفسهم لقوة شخصيته، ووفرة أنصاره، وكثرة جنوده، وقدرته على المنافسين الطامعين فى العرش، ولقد سطرت دولة المماليك الأولى «المماليك البحرية» صفحة مضيئة من تاريخ «مصر» خاصة، والتاريخ الإسلامى عامة، على أيدى سلاطينها الأقوياء الذين عملوا على توحيد البلاد، ورفع رايات الجهاد، وهم: 1 - العز أيبك: 2 - على بن أيبك (المنصور نور

الدين) [655 - 657هـ]: 3 - سيف الدين قُطُز: 4 - الظاهر ركن الدين  
 بيبرس البندقدارى (658 - 679هـ): 5 - أولاد بيبرس في السلطنة  
 (بركة خان، وسلامش): 6 - السلطان قلاوون [679 - 689هـ = 1280  
 - 1290م]: 7 - السلطان الأشرف خليل بن قلاوون [689 - 693هـ =  
 1290 - 1294م]: 8 - السلطان الناصر محمد بن قلاوون [693 -  
 741هـ = 1294 - 1341م]: جلس على عرش «مصر» بعد «الناصر  
 محمد» أولاده وأحفاده في الفترة من سنة (741هـ) إلى سنة  
 (784هـ)، يتعاقبون عليه واحداً بعد الآخر حتى سقوط دولة  
 المماليك البحرية عام (784هـ)، وفي مدة بلغت ثلاثاً وأربعين  
 سنة علا عرش «مصر» من البيت الناصري ثمانية أولاد وأربعة  
 أحفاد، بلغ متوسط حكم الواحد منهم ثلاث سنوات ونصف السنة،  
 وتميز هذا العهد بصغر سن السلطان، وقصر مدة حكمه، لسهولة  
 خلعه على أيدي الأمراء، ولظهور نفوذ الأتابكة ظهوراً واضحاً،  
 وكذلك اشتداد تنافس الأمراء في بسط نفوذهم للسيطرة على  
 الدولة، ولذا أصبح السلطان ألعوبة في أيدي أمرائه، يعزلونه  
 أو يبقونه على العرش حسب هواهم، وما تقتضيه مصالحهم؛  
 فاضطربت أحوال البلاد، وكثرت فيها الفتن. بعد وفاة «الناصر  
 محمد» تولى العرش ابنه «سيف الدين أبو بكر» (741 - 742هـ)،  
 وسرعان ما ساءت العلاقات بينه وبين أتابكته، لامتناعه عن  
 الاستجابة لمطالب هذا الأتابك، فحرض الأتابك عليه الأمراء  
 وعزلوه. وتولى من بعده أخوه «علاء الدين كجك» (742هـ =  
 1341م)، وعمره إذ ذاك يتراوح بين خمس وسبع سنوات، وتم  
 عزله بعد فترة وجيزة. ثم تولى أخوه «أحمد» عرش السلطنة  
 ولقب نفسه بالناصر في سنة (742 - 743هـ)، إلا أنه لم يستمر  
 طويلاً في الحكم كسابقه، ووقع الاختيار على أخيه  
 «إسماعيل» سنة (743هـ)، ولكنه مالبث أن مرض ومات سنة  
 (746هـ)، فتولى ابنه «شعبان» من بعده سنة (746 - 747هـ)،

ولم يكن عهده خيراً من سلفه، فخلفه أخوه «حاجي» سنة (747هـ)، ولم يستكمل عامًا واحدًا حتى اعتلى العرش «الناصر

(410/14)

حسن» سنة (748هـ)، وهو لا يزال في الحادية عشرة من عمره، ولم يلبث أن عُزل، ثم عاد وتولى السلطنة ثانية في سنة (755هـ)، وظل على العرش ست سنوات ونصف السنة، فعاد في عهده الاهتمام بالعمائر الإسلامية، وبنى مسجده الشهير المعروف باسمه «مسجد السلطان حسن» بالقاهرة، ومع ذلك فقد ظلت حالة عدم الاستقرار في البلاد سائدة، فكانت فرصة سانحة لظهور دولة المماليك الثانية المعروفة «بدولة المماليك البرجية». كان «حاجي بن شعبان» آخر سلاطين المماليك من بيت الناصر، وآخر سلاطين دولة المماليك البحرية في الوقت نفسه، وكان «حاجي» صغير السن حين اعتلى عرش السلطنة؛ إذ كانت سنُّه عشر سنوات، فعُيِّن «برقوق» أتابكًا له، واستغل حداثة سنِّه وضعفه، واستدعى الخليفة، والقضاة الأربعة والأمراء، وخاطبهم «القاضي بدر الدين بن فضل» بقوله: «يا أمير المؤمنين، وياسادتي القضاة: إن أحوال المملكة قد فسدت، والوقت قد ضاق، ونحن محتاجون إلى إقامة سلطان كبير تجتمع فيه الكلمة، ويسكن الاضطراب»، فاستقر الرأي على خلع الملك الصالح «حاجي»، وأن يتولى «برقوق» مسئولية البلاد، فاعتلى عرش السلطنة رسميًا، وانتهت بذلك دولة المماليك البحرية بعد أن حكمت مائة وستا وثلاثين سنة. عُرفت الدولة الجديدة باسم: «دولة المماليك البرجية»، لأن سلاطينها كانوا ينتمون إلى لواء من الجند كان مقيمًا في أبراج القلعة وأطلق على جنوده اسم «المماليك البرجية» لتمييزهم عن «المماليك البحرية» الذين كانت

إقامتهم بجزيرة الروضة، وقد عُرف «البرجية» كذلك باسم:  
«المماليك الجراكسة» أو الشراكسة، نسبة إلى موطنهم الأصلي  
الذى أتوا منه وهو: «وَرُيا» و «بلاد الشركس» (القوقاز)، وفيما  
يلأهم سلاطين هذه الدولة السلطان برقوق [784 - 801هـ =  
1382 - 1399م]: السلطان فرج بن برقوق [801 - 815هـ = 1399 -  
1412م]: السلطان «شيخ المؤيد» [815 - 824هـ = 1412 -

(411/14)

---

1421م]: السلطان ططر [824هـ]: السلطان برسباى [825 - 841  
هـ]: السلطان جقمق [841 - 857هـ]: السلطان إينال [857 - 865هـ =  
1453 - 1461م]: السلطان خشقدم [865 - 872هـ]: السلطان  
قايتباى [872 - 901هـ = 1467 - 1496م]: شهدت السنوات القليلة  
التي تلت حكم «قايتباى» عددًا من السلاطين تميز جميعهم  
بالضعف وسوء الإدارة، كما تميزت فترات حكمهم بالدسائس  
والمؤامرات والفتن والاضطرابات، فقد تولى «السلطان الناصر  
محمد بن قلاوون» الحكم عقب وفاة أبيه، وكان صغير السن،  
فتولى القائد «قانسوه الخمسمائة» الوصاية عليه في بداية  
عهده، ولكن «الناصر محمد» ترك العرش وتنازل عن السلطنة  
حين رأى الدسائس والفتن والاضطرابات من حوله، فتولى من  
بعده عدد من السلاطين، كانت مدة حكم كل منهم قصيرة،  
فساعد ذلك على زيادة الاضطرابات واشتعالها، وظل الوضع  
على ذلك حتى تمكن «قانسوه الغورى» من الوصول إلى  
العرش، وهؤلاء السلاطين هم: «قانسوه الأشرفى»، و «جنبلات»،  
و «طومان باى الأول». السلطان قانسوه الغورى  
[906 - 922هـ = 1501 - 1516م]: السلطان طومان باى الثانى [922 -  
923هـ = 1516 - 1517م]: بعد مقتل «الغورى» بالشام استقر

الرأى على تعيين «طومان باى» ابن أخيه سلطاناً على «مصر»،  
وجلس «طومان باى» على العرش فى فترة كانت شديدة الحرج  
فى تاريخ «مصر»؛ إذ سيطر العثمانيون على الشام، وساءت  
الأحوال بمصر بعد هزيمة «مرج دابق»، ولم يكتفِ العثمانيون بما  
حققوا، بل يعموا شطر «مصر» فى محاولة منهم للسيطرة عليها.  
حاول «طومان باى» السيطرة على الموقف، وقام بعدة أعمال  
فى سبيل تحقيق ذلك، وفض الخصومة التى كانت قائمة بين  
المماليك وصالح بينهم، وساعده فى ذلك حب الشعب له لإخلاصه  
ووفائه وتفانيه فى خدمة المسلمين. باءت كل محاولات «طومان  
باى» بالفشل فى إعادة المماليك إلى قوتهم الأولى التى كانوا  
عليها فى عصور النهضة، فقد أنهكتهم الاضطرابات، وقضت

(412/14)

على وحدتهم الفتن، فانتهى الأمر بهزيمتهم على أيدي  
العثمانيين فى موقعة «الريدانية» الشهيرة فى ظاهر  
«القاهرة»، ودخل العثمانيون «مصر»، وحاول المصريون  
مساندة «طومان باى» فى هذه الظروف لحبهم الشديد له، إلا  
أنهم لم يستطيعوا إيقاف زحف العثمانيين على «مصر»، فخرج  
«طومان باى» إلى «مديرية البحيرة» فى محاولة منه لاستجماع  
قوته وجنوده، ولكن العثمانيين تمكنوا منه وقبضوا عليه، ثم  
شنقوه على «باب زويلة» سنة (923هـ)، بعدما بذل كل جهوده  
وأدى واجبه فى سبيل الدفاع عن دولته، إلا أن ظروف عصره لم  
تمكنه من تحقيق ما أراد، فسقطت بذلك دولة المماليك ونظامهم،  
ودخلت «مصر» مرحلة جديدة باتت فيها تحت حكم العثمانيين.  
النظم والحضارة فى عهد المماليك: النظام الحربى والبحرى:  
لاشك أن الانتصارات الرائعة التى أحرزها المماليك تعود إلى

إعداد جيد للجيش وتنظيم دقيق له وللقائمين عليه، ولعل الفضل في ذلك يعود إلى «الظاهر بيبرس» الذي أولى الجيش عنايته منذ ولى عرش «مصر»، فقد قام بنفسه بإعداده وتنظيمه وتسليحه، ليكون سنده في الحروب ووقت الشدة، فاستكثر من شراء المماليك وعنى بتربيتهم تربية دينية وعسكرية، وعين لكل فئة منهم فقيهاً يعلمهم القرآن، ومبادئ القراءة والكتابة، حتى إذا وصلوا إلى سن البلوغ أوكلهم إلى من يدرهم ويمرهم على الأعمال الحربية، فإذا أموا ذلك وأجادوه أحقوا بجيش السلطان لتبدأ حياتهم الجهادية في سبيل الله. فلما ولى السلطان «قلاوون» مقاليد الأمور في سنة (679هـ)، زادت عنايته بشئون تدريب الجند المماليك، وأشرف على طعامهم بنفسه وكان يتذوقه قبل تقديمه إليهم، وكان لا يسمح لهم بمغادرة «قلعة الجبل» ليلاً أو نهاراً، وظلوا على ذلك حتى ولى السلطان «خليل بن قلاوون» في سنة (689هـ)، فسمح لهم بالخروج نهاراً فقط، ومنعهم من المبيت خارجها، ثم بنى لهم «الناصر محمد بن قلاوون» - فيما بعد - «الطباق» بساحة الإيوان بالقلعة وجعلها

(413/14)

---

مقرا لهم. تكوين الجيش: كان جيش المماليك يتكون -عادة- من المماليك السلطانية وجنود الحلقة، وكانت لكل فريق من هاتين الطائفتين مرتبة لا يتجاوزها إلى غيرها، فالمماليك السلطانية هم مماليك السلطان، وتنفق عليهم الخاصة السلطانية، لأنهم حرس السلطان الخاص، وكان لهم نظام دقيق في التدرج القيادي رتبة بعد رتبة، فمنهم من أطلق عليه أمير خمسة، وأمير عشرة، وأمير أربعين، وكذلك أمير مائتين، وكانت لكل صاحب لقب من هذه الألقاب واجبات والتزامات معينة، فأمر خمسة يكون في

خدمته خمسة ممالك، وأمير عشرة تكون عدته عشرة ممالك، أما «أمير الأربعين» فكان يطلق عليه «أمير طبلخانة» لحقه في دق الطبول على قصره كما يحدث للسلطان، ولم يكن لطبقة الأمراء هذه ضابط في عدد أتباعها من المماليك، فقد متفاوت عدد مَنْ يكون في خدمة كل أمير منهم ما بين أربعين وثمانين مملوكًا، أما «أمير مائة» فكان في خدمته «مائة» مملوك، ومقدم في الوقت نفسه على ألف جندي في الحروب، فيقال: «أمير مائة مقدم ألف». أما جنود الحلقة فكان لكل أربعين جنديا منهم رئيس لا حكم له عليهم إلا إذا خرجوا إلى القتال، فيقوم بترتيبهم في أماكنهم، وليس له الحق في أن يُبعد أحدهم من الخدمة إلا بإذن من السلطان. كانت هناك طائفة أخرى من المماليك تضاف إلى الطائفتين السابقتين، وهي طائفة ممالك الأمراء التي كان ينفق عليها أمراؤها، فقد كان ممالك هذه الفئة يحرسون أمراءهم ويساعدونهم على أعدائهم. ولم تكن مرتبات الجنود ثابتة، وقد استبدل نظام المرتبات بإقطاعات كان السلطان يمنحها لهم ليتمتعوا بغلاتها وإيراداتها، فبات أمراؤهم - خاصة أمراء المماليك السلطانية - ذوي ثروة كبيرة ونفوذ عظيم، ذلك إذا وضعنا في الاعتبار أن السلطان كان يمنحهم جزءًا من الغنائم، ورواتب أخرى من اللحم والتوابل والعليق والزيت. البحرية في عهد المماليك: عندما آلت السلطة إلى سلاطين

(414/14)

---

المماليك عمل «الظاهر بيبرس» منذ سنة (658هـ) على إعداد قوة بحرية قوية يستعين بها على صد الأعداء المتربصين بالبلاد من جهة البحر، فاهتم بأمر الأسطول، ومنع الناس من التصرف في الأخشاب التي تصلح لصناعة السفن، وأمر بإنشاء الشوائى

(وهي السفن الحربية ذات الأبراج والقلاع العالية للدفاع والهجوم) لكي تحمي «الإسكندرية» و «دمياط»، وكان السلطان يذهب بنفسه إلى دار صناعة السفن بالجزيرة ويشرف على تجهيز هذه الشوئى حتى تمكن فى النهاية من إعداد أسطول مكون من أربعين قطعة حربية، سَيَّرها إلى «قبرص» فى سنة (669هـ)، إلا أن هذا الأسطول هلك، فقام «بيبرس» بإنشاء أسطول آخر مما يدل على المركز المالى القوى الذى تمتعت به دولة المماليك. نسج الأشرف «خليل بن قلاوون» على منوال «الظاهر بيبرس» فى عنايته بالأسطول، فقد أنشأ أسطولا مكونًا من ستين مركبًا جُهِّزت بالآلات الحربية والرجال، وأقام احتفالًا كبيرًا حضره الناس من كل مكان حين ذهب إلى استعراض هذا الأسطول فى دار صناعة السفن بجزيرة الروضة. غنى السلطان «الناصر محمد» بالأسطول مثلما فعل «بيبرس» و «خليل» من قبله، فأصبح لمصر أسطول من أقوى أساطيل هذا العهد، فقد كان يجمع بين «الشوئى»، و «الحراريق» (سفن حربية أقل من الشوئى)، و «الطرادات» (سفن حربية سريعة الحركة صغيرة الحجم)، و «الأغرية» (سفن حربية تشبه رءوسها رءوس الفرسان والطيور)، و «البطش» (سفن تحمل المجانق)، و «القراقير» (سفن تستخدم فى تموين السفن)، وليس أدل على مبلغ اهتمام المماليك بالقوة البحرية مما ذكره «المقريزى» حين وصف الاحتفال بإنزال الشوئى إلى البحر للسفر إلى «طرابلس» بقوله: «وفى المحرم من سنة 705هـ تبحرت عمارة الشوئى، وجُهِّزت بالمقاتلة والآلات مع الأمير «جمال الدين أقوش الفاوى العلائى» والى «البهن»، واجتمع الناس لمشاهدة لعبهم فى البحر، فركب «أقوش» فى

«الشيئى» الكبير، وانحدر تجاه المقياس، وكان قد نزل السلطان  
والأمراء لمشاهدة ذلك، واجتمع من العالم ما لم يحصهم إلا الله  
-تعالى- وبلغ كراء المركب الذى يحمل عشرة آلاف نفس مائة  
درهم، وامتألاً البران من «بولاق» إلى دار الصناعة حتى لم يوجد  
موضع قدم خالٍ، ووقف العسكر على بريستان الخشب، وركب  
الأمراء الحاربيق إلى «الروضة»، وبرزت الشوائى للعب كأنها  
فى الحرب؛ فلعب الأول والثانى والثالث، وأعجب الناس بذلك  
إعجاباً زائداً لكثرة ما كان فيها من آلات الحرب، ثم تقدّم الرابع  
وفيه «أقوش» فما هو إلا أن خرج من منية الصناعة بمصر،  
وتوسط النيل. وإذا بالريح حركة، فانقلبت، وأنقذ الناس  
الشيئى، وأصلحوه، وسافروا بالشوائى لطرابلس، وليس أدل  
على اهتمام المماليك بأمر الأساطيل من اشتراك الأهالى مع  
الحكومة فى عرض الجيوش الحربية والأساطيل، والعمل على  
تقويتها وبناء سفن كثيرة، وقد أطلق الشعب على رجال  
الأسطول لقب: «المجاهدون فى سبيل الله والغزاة فى أعداء  
الله» وكان الناس يتبركون بدعائهم تعظيمًا لهم». وهكذا كانت  
عناية المماليك بالجيش، وكذلك كان اهتمامهم بالأسطول، وبذلك  
وصلت الأمة الإسلامية إلى ماوصلت إليه من مكانة سامية وشأن  
عظيم على أيديهم. النظم الإدارية فى عهد المماليك: أهم  
الدواوين: تكون الجهاز الإدارى فى «مصر» والشام من عدة  
دواوين حكومية، يشرف كل منها على ناحية معينة من نواحي  
الإدارة العامة، وكانت أهم هذه الدواوين فى هذا العهد ما يلى:  
«ديوان الأحباس»، و «ديوان النظر»، و «ديوان الخاص»، و «ديوان  
الإنشاء». أما «ديوان الأحباس» فيشبهه وزارة الأوقاف فى وقتنا  
الحالى، ويتولى صاحب هذا الديوان الإشراف على المساجد  
والربط، والزوايا، والمدارس، والأراضى، والعقارات المحبوسة  
عليها، والإحسان إلى الفقراء والمعوزين. و «ديوان النظر» يشبه  
وزارة المالية حالياً، وترجع إليه سائر الدواوين فى كل ما يتعلق

بالمسائل الخاصة بالمتحصل والمنصرف من أموال الدولة، وله فوق ذلك الإشراف على حساب الدولة، وأرزاق الموظفين الدائمين والمؤقتين، وكان هذا الديوان يتخذ من القلعة مقراً له. وفي سنة (727هـ) أنشأ السلطان «الناصر محمد» «الديوان الخاص» لإدارة الشؤون المالية التي تتعلق بالسلطان، ويتولى الإشراف عليه «ناصر الخاص» الذي عُرف من قبل في عهد الفاطميين والأيوبيين، ولكنه لم يبلغ من الأهمية القدر الذي بلغه في عصر المماليك خاصة في عهد «الناصر محمد». أما ديوان الإنشاء فكانت أهم اختصاصاته تنظيم العلاقات الخارجية للدولة، وهو أول ديوان وُضع في الإسلام، وقد نُظِم في عهد المماليك بأسلوب يتناسب مع مقتضيات العصر ومتطلباته، وكان مقره «قاعة الصاحب» بقلعة الجبل، حيث ترد المكاتبات إليه من جميع أنحاء الولايات والممالك التي بينها وبين بلاد المسلمين علاقات سياسية، كما كانت تحرر فيه الكتب التي كان يرسلها السلطان إلى الملوك والأمراء، وقد لُقّب صاحب ديوان الإنشاء بألقاب عديدة في أوائل عهد المماليك، فلقبوه تارة باسم: «صاحب الدست الشريف»، وأخرى باسم: «كاتب الدرّج» وثالثة باسم: «كاتب الدست» وبقيت هذه تسميته إلى أن تولى «القاضي فتح الدين بن عبدالظاهر» هذا الديوان في عهد السلطان «قلاوون» فتلقب بلقب «كاتب السر»؛ لأنه كان يكتب سر السلطان، وكانت وظيفته من أعظم الوظائف الديوانية وأجلّها قدرًا، وكان له معاونون يساعدونه في أداء ما عليه من التزامات وواجبات. كان من أبرزهم: «نائب كاتب السر»، ثم يليه في المرتبة كُتّاب الدست المتصلون بديوان الإنشاء، وكانوا يجلسون مع كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل. كانت هناك دواوين أخرى - في العهد

المملوك - أقل شأنًا من تلك الدواوين السابق ذكرها، مثل «ديوان الأهراء» (وهي شئون الغلال السلطانية)، و «ديوان الطواحين»، ويتولى صاحبه الإشراف على طحن الغلال،

(417/14)

و «ديوان المرتجعات»، ويشرف صاحبه على الأمور الخاصة بتركات الأمراء، وكذلك كانت هناك دواوين أخرى ذكرها «القلقشندي» على أنها دواوين مستقلة، ولكنها لم تكن - في حقيقة الأمر - سوى إدارات تتصل اتصالًا مباشرًا بالقصر السلطاني، أو بأحد الدواوين الرئيسية السابقة، وذكر «القلقشندي» منها - مثلًا - «ديوان الإصطبلات»، و «ديوان الحواريث»، و «ديوان الخزانة» و «ديوان العمائر»، و «ديوان المستأجرات». سارت دواوين الحكومة في عصر المماليك على نسق واحد من حيث التنظيم الإداري، فكان على رأس كل ديوان موظف كبير هو «ناظر الديوان»، وكانت مهام عمله تشبه إلى حد كبير ما يقوم به الوزير حاليًا، ويليه في المرتبة «مستوفى الصحبة»، و «مستوفى الدولة» ومهمتهما الإشراف على موظفي الدواوين المختلفة، ويلى هؤلاء طبقة الموظفين والكتاب وما يليهم. البريد: كان البريد أحد أهم إدارات «ديوان الإنشاء»، إذ كان واسطة الاتصال بين دولة المماليك في «مصر» ونياباتها في الشام وغيرها من الأقاليم، ولم يقتصر المماليك على البريد العادي في إرسال رسائلهم، بل عمدوا إلى استخدام الحمام الزاجل في نقلها، وجعلوا القلعة مركزًا لأبراجه، كما أقاموا مراكز معينة في جهات مختلفة لتكون مراكز للبريد البري، وخصصوا لكل محطة منها عددًا من الحمام الزاجل، وجعلوا على رعاية شئونه عددًا من الموظفين المتخصصين في ذلك، وكان

في كل محطة من هذه المحطات برج أو أكثر ليعيش فيه الحمام الذى سيقوم بنقل الرسائل إلى الخطة التالية، وقد عنى سلاطين المماليك عناية شديدة بما كانت تحمله هذه الحمام من رسائل، لدرجة أن بعضهم أمر بإدخالها عليه حال وصولها، كما كان بعضهم يترك طعامه أو يستيقظ من نومه في الحال عند وصولها. وهكذا كان تنظيم الدواوين في عهد الدولة المملوكية غاية في الدقة، ومظهرًا من مظاهر الرقى الحضارى الذى وصلت إليه هذه الدولة بما صنعتته وحققته، ومثلا من أمثلة المتابعة

(418/14)

الدقيقة التى آل سلاطين هذه الدولة على أنفسهم أن يتخذوها في مراقبة شئون الدولة؛ لتحقيق الاستقرار الداخلى، الذى ينعكس - بطبيعة الحال - على كل مناحى الحياة في الدولة. كبار الموظفين الإداريين: - الأتابك: «الأتابك» هو القائد العام للجيش، وكلمة «أتابك» لفظة تركية مركبة من «أطا»، (وتعنى: أب) و «بك» (وتعنى: السيد أو الأمير) فيكون «الأتابك» هو: السيد الأب، أو الأمير الأب، أى أنه أبو الأمراء أو كبيرهم، وقد أُطلق هذا اللقب في عهد المماليك على مقدم العساكر، أو القائد؛ لأنه يعتبر أبًا للعساكر والأمراء جميعًا، وكثيرًا ما خلع الأتابكة أبناء السلاطين من على العرش، واستولوا عليه وتولوه بدلا منهم. - الوزير: تطور نظام الوزارة في «مصر» في عهد المماليك، ولم يتمتع وزراء هذا العصر بنفوذ مطلق؛ لاستقرار منصب «نائب السلطان» الذى استحدثه الأيوبيون وعمل به المماليك، وقد حرص «الظاهر بيبرس» على اختيار وزرائه من أرباب الأقلام والسيوف، فإذا كان الوزير من أرباب القلم أُطلق عليه اسم: «الصاحب» مضافًا إليه صفة الوزير فيصبح لقبه:

«الصاحب الوزير» أو «وزير الصحة»؛ وهو وزير متنقل يرافق السلطان في أسفاره وحروبه، وتكون مهامه وظيفته مقصورة على تسيير شئون الوزارة في هذه الأثناء. أما إذا كان هذا الوزير من أرباب السيف اكتفى بتلقيه بالوزير دون الصاحب، ويُعدُّ - بهذا - الوزير الأصلي الذي يحضر مجالس السلطان مع أمراء المائتين، وله حق التصرف في جميع أمور المملكة. كان الوزير يتقاضى راتبًا شهريًا قدره مائتان وخمسون دينارًا، عدا ما خصص له كل يوم من مقادير وفيرة من الغلال واللحوم والخبز وسائر ما يحتاج إليه، وقد ألغى السلطان «الناصر محمد» منصبه «الوزير» و «نائب السلطان» في آن واحد في سنة (727هـ). - والى القاهرة: استلزمت شئون الإدارة تعيين موظف كبير يُعدُّ في الواقع من أهم الموظفين الإداريين عرف باسم:

(419/14)

«والى القاهرة»، فهو الذى ينفذ الأحكام ويقيم الحدود، ويتعقب المفسدين، ومثيرى الفتن، ومدمنى الخمر، ويعاقب كلا منهم على حسب جرمته، كما كانت عليه مراقبة أبواب «القاهرة»، والطواف بأحياء التجارة والمال فيها، لذا أُطلق عليه أحيانًا: «صاحب العسس» أو «والى الطواف»، واقتصر نفوذه على العاصمة وضواحيها. - ولاية الأقاليم: كانت فئة من الموظفين هي التي تشرف على كل عمل من أعمال الوجهين البحرى والقبلى بمصر، وكان على رأس هذه الفئة «والى الإقليم»، الذى يمثل الإدارة المحلية، وكانت مهمته تتركز فى العمل على استتباب الأمن والنظام، والحفاظة على أموال الناس وأرواحهم فى الإقليم الذى أوكلت إليه إدارته. - أمير جاندار: هى وظيفة إدارية تطلبها ظروف هذا العصر، وكان على «أميرجاندار» أن يقوم

بتنظيم إدخال الناس على السلطان وهو جالس بإيوانه بقلعة الجبل. - الحاجب: كان على «الحاجب» أن يقوم بما يقوم به «أميرجاندار» على أن يراعى مقامات الناس، وأهمية أعمالهم، وقد عظمت أهمية الحاجب في العصر المملوكي. - الدوادار: هو الرجل الذي يتولى أمر تبليغ الرسائل إلى السلطان، كما يقوم بتقديم المشورات إليه للتوقيع عليها. لقد كان نظام الإدارة في عهد المماليك نظامًا دقيقًا قويا، تطلّب اختيار موظفين من أصحاب المواهب الفريدة والخبرات المتميزة في تخصصاتهم، فنجحت سياسة الدولة المملوكية في تسيير شئون البلاد، وتيسير مصالح الناس وحاجاتهم إلى حد كبير. النظام القضائي: تعهد «الظاهر بيبرس» النظام القضائي بالإصلاح والتعديل، ورأى في تقسيم مناصب القضاء بين قضاة المذاهب الأربعة ما يضمن العدالة بين الناس، والتيسير عليهم، فقد عين في سنة (663هـ) أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة، وكتب لكل منهم تقليدًا، وأجاز لهم أن يولوا نوابًا عنهم في أنحاء البلاد. امتد اختصاص قاضي القضاة، وقضاة الأقاليم، وزاد نفوذهم، وامتد

(420/14)

---

فتناول النظر في الدعاوى التي تتضمن إثبات الحقوق والحكم بإيصالها إلى أصحابها، كما نظر في الأموال التي ليس لها ولي معين، وكذلك تناول تعيين أوصياء لليتامى، وتفقد أحوال المحجور عليهم من المجانين والمفلسين وأهل السفه، ونظر -أيضًا- في وصايا المسلمين، وكان القضاة ينظرون في مصالح الأوقاف، ويعملون على حفظ أصولها وتثبيت فروعها، وقبض ريعها وإنفاقه في مصاريفه، وكذلك كانوا يقبضون المال الموصى به لتنفيذ الوصية، وعهد إليهم بتسليم أموال الموارث

المتنازع عليها، وأموال مَنْ يموتون غرباء وحفظها حتى يحضر ورثتهم. وانحصرت سلطة القضاة الأربعة ونوابهم على المدنيين، بينما كان للجيش المملوكي ثلاثة قضاة عُرف كل منهم باسم: «قاضى العسكر»، واختصوا بشئون العسكر للفصل في القضايا الخاصة بهم، أو التي بينهم وبين المدنيين، وكانت جلسات القضاء في دولة المماليك تعقد علانية وبحضرها مَنْ شاء من الناس، وكانت المساجد مكان انعقاد هذه الجلسات، كما كانت دور القضاء الخاصة مكاناً لها أحياناً؛ إذا لم يكن هناك دور معينة لانعقادها، فإذا جلس القاضى للفصل في الخصومات رتب القضايا بحسب حضور الخصوم؛ حتى لا يتقدم أحد على الآخر لمكانته أو ثرائه، وكان يستعين على تنظيم قاعة الجلسة بعدد من الموظفين منهم: «الجلواز»، و «الأعوان»، و «الأمناء»، و «العدول»، فكان الرجال يجلسون في جانب والنساء في الجانب الآخر. وقد بلغ راتب القاضى خمسين ديناراً شهرياً، عدا ما كان يحصل عليه من الأوقاف التي كان يتولى إدارتها، بالإضافة إلى ما كان يجرى عليه من الغلال والشعير والخبز واللحم والكساء. كان تنظيم القضاء في دولة المماليك تنظيمًا دقيقاً، وبرز في هذه الدولة قضاة عرفوا بالنزاهة وطهارة الذمة وحسن السيرة، احترموا مركزهم القضائي، ولم يقبلوا تدخل أحد - مهما يعلُّ مركزه - في أعمالهم، وكثيراً ما كانوا يطلبون إعفاءهم من مناصبهم - دون تردد - إذا ما حاول أحد تهديد

(421/14)

---

كرامتهم، أو الاعتداء من قريب أو بعيد على استقلالهم، فقد كانوا لا يقبلون الرشوة ولا الهدية، لذا أصبحت لهم مكانتهم الكريمة ومقامهم المرموق في الدولة، وفي نظر السلاطين

والأمراء، وجميع طبقات الشعب، ولعل أبرز الأمثلة للتدليل عليهم: «القاضي عبدالعزيز»، المعروف بعز الدين بن عبدالسلام (سلطان العلماء)، و «القاضي تقي الدين عبدالرحمن الشافعي» ابن بنت «الأعز»، و «القاضي تقي الدين محمد بن دقيق العيد»، وغيرهم، فقد كانوا أمثلة عظيمة وواضحة لما يجب أن يكون عليه القاضي العادل والشريف. الإفتاء: يلى القضاة فى الأهمية «مفتو دار العدل»، وقد كانوا أربعة يمثلون المذاهب الإسلامية الأربعة، ولم تكن فى سلطتهم الفصل فى الخصومات سواء أكانت بين المدنيين أم بين العسكريين أم بين العسكريين والمدنيين، بل كانت مهمتهم شرح وتبيين حكم الشرع فيما يُسألون عنه من المسائل الفقهية، كل حسب مذهبه. المحتسب: كانت مهمة المحتسب النظر فيما يتعلق بالجنايات والنظام العام، وكان عليه الفصل فيها على وجه السرعة، وقد عهد إليه بالإشراف على نظام الأسواق، وكان له نواب يطوفون فيها ويفتشون أماكنها، ويشرفون على السُّقَّاتين للتأكد من نظافتهم، وتغطيتهم القرب، ولبسهم السراويل، كما كان على المحتسب ونوابه الحيلولة دون بروز الحوانيت (الدكاكين) حتى لا تعوق نظام المرور بالشوارع، وكذلك عليهم الإشراف على نظافة الشوارع والأزقة، والحكم بهدم المباني المتداعية للسقوط وإزالة أنقاضها، وكذلك الكشف على صحة الموازين والمكاييل، التى كانت لها دار خاصة تُعرف باسم: «دار العيار»، فكان المحتسب يطلب جميع الباعة إلى هذه الدار فى أوقات معينة ومعهم موازينهم ومكاييلهم ليتأكد بنفسه من ضبط عيارها، فإن وجد بها خلافا صادرها وألزم صاحبها بإصلاحها أو شراء غيرها. وقد ارتقى نظام الحسبة وشمل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. صاحب المظالم: كان «الظاهر

بيبرس» أول من جلس للمظالم من سلاطين المماليك، وهو الذى أقام دار العدل فى سنة (661هـ)، وقد خصص يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع ليجلس فيهما للفصل فى القضايا المهمة، ويحيط به قضاة المذاهب الأربعة، وكبار الموظفين الإداريين والماليين، وكاتب السر. وظلت دار العدل مقرا لمحكمة المظالم - التى كانت تعقد جلساتها برئاسة السلطان - حتى جاء السلطان «قلاوون» وبنى الإيوان الخاص، واتخذه مقرا لهذه المحكمة فى سنة (679هـ)، ولم تكن محكمة المظالم تنظر فى قضايا الأفراد فحسب، بل كانت تنظر فى شكاوى الناس كافة، ويذكر «المقريزى» أن السلطان «بيبرس» عُرضت عليه فى سنة (662هـ) قضية رجل من عليّة القوم وذكر فيها أن «المعز أيبك» قد اغتصب منه بستاناً، وقدم ما يثبت ملكيته لهذا البستان، فأمر «بيبرس» برد البستان إليه. وقد قام «بيبرس» بخفض ثمن الغلال فى سنة (663هـ) بعد أن ارتفع ثمنها، ولذا تميز النظام القضائى فى عهد المماليك بالحيدة والنزاهة وتحقيق العدل بين الرعية. المنشآت الحضارية فى عهد المماليك: حفلت كتب التاريخ التى تناولت عهد المماليك بذكر الآثار التى خلفها هذا العصر، والتى مازال معظمها شاهد صدق على مدى عظمة هذه الدولة حتى الآن، فقد تقدمت فنون البناء والعمارة والزخرفة، وتوافرت الأموال اللازمة لها خلال هذا العهد الجيد من تاريخ العالم الإسلامى، فقد قام «الظاهر بيبرس» ببناء مسجده، المعروف باسمه بميدان الظاهر بالقاهرة فى عام (665هـ)، وجلب لبنائه الرخام والأخشاب وأدوات البناء من سائر البلاد، وزيّنه بزخارف الجص، فأصبح مثالا للمساجد الكبيرة الضخمة التى شيدت فى عهد دولة المماليك البحرية. كما قام «بيبرس» ببناء برج لقلعة الجبل، وشيد «قناطر السباع» على «الخليج المصرى»، وقد عُرفت هذه القناطر بهذا الاسم؛ لأن «بيبرس» نصب عليها سباعاً من الحجارة، كما أصلح منارتى «رشيد» و «الإسكندرية». أما

السلطان «قلاوون» فقد أنشأ القبة التي دُفِنَ تحتها، كما أنشأ مسجده ومدرسته، ومارستانه الذي عُرف بمسشفى «قلاوون»، ثم يأتي ابنه «السلطان الناصر محمد ابن قلاوون»، وكان شغوفاً بسياسة أبيه في الإنشاء والبناء، فشيّد «المدرسة الناصرية» (بجى النحاسين)، وعين بها مدرسين للمذاهب الأربعة، وألحق بها مكتبة حافلة بنوادير الكتب وأمهاقتها، ولا تزال هذه المدرسة باقية بحالة جيدة حتى اليوم، وكذلك بنى «الناصر محمد» «القصر الأبلق» بقلعة الجبل، وسمّى بذلك لأنه بنى من الحجر الأبيض والحجر الأسود، وفي سنة (718هـ) شيّد «الناصر» مسجده بالقلعة، ثم هدمه في سنة (735هـ) ليعيد توسيعه وبناءه من جديد، وقام بتجديد بناء المارستان الكبير الذى أسسه والده «قلاوون»، وأنشأ «خانقاه» (بيت لفقراء الصوفية) في «سرياقوس» من ضواحي «القاهرة» في سنة (723هـ)، (أصبحت «سرياقوس» اليوم تابعة لمركز «الخانكة» بمحافظة «القليوبية»)، وقد شيّد «الناصر» سبيلاً أحقه بجوار مدرسته وجامع أبيه «قلاوون»؛ لأنهما متجاوران. ولعل أعظم إنشاءات دولة المماليك البحرية ما قام به السلطان «حسن بن الناصر محمد بن قلاوون» حين أنشأ مسجده ومدرسته بالقرب من القلعة. منشآت دولة المماليك البرجية: ازدادت المنشآت في عصر دولة المماليك البرجية، ولعل أفضل مثال على منشآت ذلك العهد ما قام به «الأشرف برسباي» للعمارة الإسلامية، فقد قام بتأسيس عدة مبانٍ كان أهمها مدرسته الأشرفية التي عند «سوق الوراقين» بالقاهرة، إذ رسم حدودها في سنة (826هـ) وعين «الشيخ علاء الدين ابن الرومى الحنفى» أستاذاً لها، ثم أتم بناءها في سنة (829هـ)، وكذلك قام «برسباي» بإنشاء

مدرسة بجوار «خانقاه سرياقوس» في سنة (841هـ)، وكانت هذه المدرسة مجمعاً دينياً يشمل: مدرسة، وكتّاباً، وسيبلاً، وخانقاه للصوفية، وكان القاضي «محب الدين بن رسول الكرادى» الحنفى، المعروف بابن الأشقرت، أحد الذين تولوا أمر

(424/14)

المدرسة والخانقاه في سنة (863هـ). كذلك أقام «برسباى» مسجداً وتربة وزاوية بالصحراء، ولم يكن وحده هو الذى فعل ذلك، فقد كان أغلب سلاطين المماليك يحرصون على بناء مسجد ومدفن لكل منهم فى الصحراء بشرق «القاهرة»، ذلك إضافة إلى ما يقومون به من منشآت فى أرجاء البلاد، مثلما فعل «بيبرس» حين أقام «قنطرة المجذوب» بأسىوط، وجدد «الحرم الشريف» بمكة، و «الجامع الأزهر» بمصر. ويُعدُّ «قايتباى» أشهر سلاطين المماليك البرجية شغفاً بالبناء والعمران، إذ أنفق مائة ألف دينار على إعادة تشييد «مسجد المدينة المنورة» بخلاف ما أنفق على تشييد وبناء مسجده، وبناء «قلعة الإسكندرية» المعروفة باسمه، وكذلك أقام مباني جديدة بقلعة الجبل، وقام «السلطان الغورى» من بعده بتحسين «الإسكندرية» و «رشيد». ويعد عصر المماليك - بحق - أحد العصور الذهبية فى تاريخ العمارة الإسلامية، فقد كان الإقبال عظيماً على تشييد المساجد والمدارس والأضرحة، والاهتمام بالمهارات الفنية والزخرفية، والعمل على إتقان بناء المنارات والقباب وواجهات المنشآت والإيوانات والأعمدة وزخرفتها، وزخرفة المدارس والمساجد من الداخل والخارج، وقد كانت العناية بزخرفة وتجميل كل ذلك إحدى سمات هذا العصر. النهضة فى مجال العلوم والآداب: لاشك أن المؤسسات العلمية التى أنشأها المماليك نهضت بمستوى

العلم وتقدمه في عهدهم، وأبرزت نخبة من ألمع العلماء في مختلف مجالات الثقافة والعلوم، فكان منهم الفقهاء: شيخ الحنابلة «أحمد بن تيمية»، ومن المؤرخين: «أبو الفدا» صاحب «التاريخ والسير»، و «المقريزى المصرى» صاحب «الخطط» و «السلوك»، و «ابن خلكان» صاحب «وفيات الأعيان»، كما كان من كُتَّاب السير الطيب الشهير «ابن أبى أصيبعة»، الذى درس بدمشق و «القاهرة»، ثم وضع تراجم للأطباء فى مؤلفه: «عيون الأنباء»، وكذلك كان «ابن إياس» صاحب «بدائع الزهور»، و «القلقشندي» صاحب «صبح الأعشى»، ومن الشاميين نجد

(425/14)

---

المؤرخ «شمس الدين الدمشقى» صاحب «نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر»، و «ابن فضل الله العمرى»، الذى شغل منصب «صاحب الخاتم» فى بلاط المماليك بالقاهرة، وهو صاحب كتاب: «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار»، ولقد عاش «عبدالرحمن الجبرتى» أشهر علماء التاريخ فى بلاط المماليك، ويعد «ابن خلدون» واضع علم الاجتماع ومؤسس فلسفة التاريخ، وهو صاحب كتاب: «العبر وديوان المبتدأ والخبر»، وقد وضع فى مقدمته لهذا الكتاب أسس كتابة التاريخ التى اشتهرت شهرة واسعة النطاق فى أنحاء العالم. وهكذا برزت -خلال عهد المماليك - جماعة من أفضل علماء المسلمين فى التاريخ الإسلامى، وشجعهم على ذلك اهتمام سلاطين المماليك بالعلم والعلماء. وإن نظرة واحدة فى حُجة أحد سلاطين هذه الدولة لتظهر لنا مدى ما وصل إليه هؤلاء من حب وتقدير للعلم والعلماء والمتعلمين، وقد حرص «الأشرف برسباى» فى حُجته على تعيين المشايخ لمدرسته، وقام بوقف الأراضى لكى يُنفق من إيراداتها

على التعليم، وكذلك على المتعلمين الذين أنفق عليهم بسخاء،  
فخرج منهم العلماء والفقهاء والأئمة في مختلف المجالات  
والتخصصات والمذاهب، وأصبح هذا العمل مفخرة لهذا العصر،  
وسبباً من أهم أسباب تقدم المسلمين وتفوقهم في مجالات  
العلوم والحضارة. - الحالة الاقتصادية في عهد سلاطين المماليك:  
مما لا شك فيه أن الحالة الاقتصادية لأية أمة من الأمم تمثل العمود  
الفقري لها، فإذا كان الاقتصاد قويا وأحسن استغلاله في  
تيسير حاجات البلاد، وبناء مهنيتها، وتشجيع حضارتها؛ كان ذلك  
مدعاة إلى التقدم والازدهار في جميع المجالات، ووقوف البلاد  
في صفوف الأمم المتقدمة ذات السيادة العالمية. أما إذا كان  
اقتصاد أى بلد عكس ذلك، فإنه يكون مدعاة للظلم والقهر  
والسلب، وخذلان البلاد ووقوفها في ذيل قائمة البلاد المتقدمة،  
منتظرة قراراتها في تسيير أمورها وشؤونها الخاصة، ولا

(426/14)

تتوافر لهذه الأمم الضعيفة القدرة على اتخاذ القرار فيما يخصها،  
وتصبح فريسة للتدخل الأجنبي، وطمع المستعمرين، ولقد كان  
المماليك من القوة الاقتصادية لدرجة أن دولتهم بلغت حدا من  
الثراء لم تؤثر عليه الحروب العديدة التي خاضوها، بالإضافة إلى  
الإنشاءات والإصلاحات التي قامت بها في طول البلاد وعرضها؛  
إذ تعددت مصادر الثروة التي زخرت بها خزائن المماليك،  
فبالإضافة إلى ضرائب الخراج، والتركات التي لا وارث لها كانت  
هناك مصادر أساسية وثابتة لزيادة موارد الدولة؛ إذ اهتم  
المماليك بالزراعة والصناعة والتجارة، وأقاموا مقاييس للنيل،  
وطهروا الترع، وأنشئوا الجسور ونظمو الري وحسّنوا وسائله،  
كما اعتنوا بصناعة المنسوجات، ونشطوا في اكتشاف

واستخراج المعادن، التي كان من أهمها: «الزمرد» و «الشب» و «النطرون»، فكان «الشب» يُستخرج من الوجه القبلي والوحدات، ويُحمل إلى «قوص» أو إلى «أسيوط» و «أخميم» و «البهنسا»، ثم ينقل منها عن طريق النيل إلى «الإسكندرية» وفيها يباع للأوربيين، وخصصت الحكومة ثلث ثمنه لدفع رواتب الأمراء، ولتوفير بعض احتياجات الجيش الكثيرة؛ لكثرة حروبهم في ذلك الوقت. وكانت التجارة - بحق - أعظم مصادر الثروة في العهد المملوكي؛ إذ قاموا بتشجيعها، وعقدوا المحالفات والاتفاقات التجارية مع إمبراطور «القسطنطينية»، وملوك «إسبانيا»، وأمراء «نابلس»، و «جنوة»، و «البندقية» وسلاجقة «آسيا الصغرى»، وكاد المماليك أن يحتكروا تجارة «الهند» - خاصة التوابل - بالاتفاق مع أمراء الموانئ الإيطالية، فكان لذلك أكبر الأثر في نمو ثروات البلاد وزيادتها، خاصة بعد أن بسط المماليك سلطانهم على «مكة» و «جدة»، وأصبحت «مكة» من أشهر الأسواق التجارية في الشرق فانتعشت حالة البلاد الاقتصادية وازدهرت، وبدل على ذلك كثرة الإنشاءات المعمارية والتجهيزات الحربية في ذلك الحين، إلا أن لحالة الركود - التي

(427/14)

---

كانت تصيب الاقتصاد أحياناً نتيجة لظروف القلق وما يصاحبها من السلب والنهب - أثراً على خزينة الدولة، ومع ذلك لم يكن تأثيرها خطيراً؛ لأن الدولة سرعان ما كانت تتدارك الأخطاء وتعالج العيوب، وتعمل على سد النقص في اقتصادها، ولعل أخطر الأحداث الاقتصادية التي كان لها أكبر الأثر في سقوط دولة المماليك هو تحول طرق التجارة بين «أوروبا» و «الشرق» عن طريق «مصر» إلى طريق «رأس الرجاء الصالح» الذي

اكتشفه «فاسكو دى جاما» البرتغالى سنة (1498م)، فأحدث هذا الاكتشاف انقلاباً خطيراً فى عالم التجارة، وكارثة حقيقية على دولة المماليك التى كانت تعتمد بصورة كبيرة على التجارة التى تحولت من حوض «البحر الأبيض المتوسط» إلى «الخليط الأطلسى» ونضبت خزائن «مصر» من الأموال التى كانت تأتىها من تجار «البندقية» و «جنوة»، الذين كانوا ينقلون تجارتهم من «الشرق» إلى «أوروبا» عن طريق «مصر» ويدفعون لها الضرائب عن دخول تجارتهم وخروجها منها، فكان لذلك أثره على كساد التجارة والزراعة، ولم تعد «مصر» تنتج للأسواق الخارجية كثيراً، فقلت موارد البلاد، وتهددتها المجاعات، وانحط شأن «الإسكندرية»، وقل عدد الأجانب بها، وتأخرت الصناعات الحيوية، وتدهورت الحالة الفنية؛ لقلة الأموال اللازمة، فهياً هذا الوضع الفرصة للسلب والنهب الذى قام به بعض أفراد المماليك، فدب الضعف فى أوصال الدولة، وبدأت تأخذ طريقها إلى الضعف والتلاشى؛ لأن موارد البلاد لم تعد كافية لسد احتياجاتها الضرورية، وزاد الأمر سوءاً فى نهاية عصر المماليك إذ كثرت الدسائس والمؤامرات، وحوادث السلب والنهب، وتعرضت «مصر» للمجاعة والاضطراب فى عهد «السلطان برفوق» و «السلطان شيخ المؤيد» و «السلطان قايتباى»، وزادت الاضطرابات فى أنحاء البلاد، ولا تكاد تستقر حتى تعود إليها الفوضى ثانية؛ بسبب الفتن التى زادت حدتها فى عهد المماليك البرجية على

(428/14)

---

وجه الخصوص، لدرجة أن «فايريك» أحد أمراء المماليك البرجية هو الذى ساعد العثمانيين - بخيانتة - على الدخول إلى «مصر»

والشام، وهذا دليل قاطع على مدى التدهور والضعف اللذين وصلت إليهما الدولة في آخر أيامها.

(429/14)

### \*العثمانية (دولة)

تنسب الدولة العثمانية إلى الأمير عثمان بن أرطغل ويتجاوز تاريخها ستة قرون، ويمتد عبر مساحة كبيرة من الأرض، شملت «العراق» و «الجزيرة العربية» و «مصر» و «الشام» وشمال إفريقيا و «الأناضول» وشرق أوروبا. وقد مرَّ تاريخ الدولة العثمانية بمراحل عديدة، بدأت بمرحلة الإمارة، وهي فترة التأسيس والبناء، وتبدأ من إمارة «عثمان» الذي تنسب إليه الدولة العثمانية، وتنتهي بإمارة «مراد بن أورخان». وقد شهدت هذه الفترة المبكرة من تاريخ الدولة نشاطاً حريباً في أوروبا، ووضَّع التنظيمات الإدارية، وظهور فرقة الإنكشارية؛ وكانت أهم فرق جيش الإمارة. ثم انتقلت الدولة من مرحلة الإمارة إلى السلطنة على يد «بايزيد الأول» المشهور بالصاعقة، وامتدت هذه الفترة حتى عهد السلطان «سليم الأول» الذي فتح «مصر» و «الشام» سنة (923هـ = 1517م)، وسقطت بذلك الخلافة العباسية في «القاهرة»، وانتقلت إلى العثمانيين. وفي هذه الفترة - أيضاً - فتح السلطان «محمد الفاتح» مدينة «القسطنطينية» عاصمة الدولة البيزنطية واتخذها عاصمة لدولته، وأطلق عليها اسم «إستانبول»، وكان لهذا الفتح دوىً كبير، فسُرَّ به العالم الإسلامي سروراً عظيماً، وكتب «البابا» إلى جميع الحكام الأوربيين طالباً منهم قيام اتفاق صليبي جديد. وبعد أن انتقلت الدولة العثمانية إلى مرحلة الخلافة على يد «سليم الأول» انطلقت نحو الدولة العالمية، فاتسعت رقعتها وقويت شوكتها، وبخاصة

في عهد «سليمان القانوني» الذي حكم نحو ست وأربعين سنة، بلغت الدولة خلالها أوج عظمتها قوةً واتساعاً وحضارة. ثم توقفت الدولة العثمانية في عهدها الثاني عن الفتح والتوسُّع، وولَّت العصور التي كان فيها نفوذها يعبر القارات ويوجِّه سياسة العالم، وعندئذٍ نظر العثمانيون إلى أنفسهم، وأيقنوا أن هناك خلافاً يستوجب الإصلاح. وقد قامت عدة محاولات للإصلاح، سواء التي سلكت طريق الإحياء الإسلامي، أو التي أخذت

(430/14)

---

بالنموذج الغربي، وكانت حركة «التنظيمات» أشهر تلك المحاولات الإصلاحية، وكان لها آثارها البالغة في شئون الحياة كافة في الدولة العثمانية. وقد بذل السلطان «عبد الحميد الثاني» جهوداً مضمينة من أجل الحفاظ على دولته التي أخذت طريقها نحو الانهيار، لكن ذلك لم يمنع من سقوطها الذي وقع سنة (1343هـ = 1924م) على يد «مصطفى كمال أتاتورك». بعض الجوانب الحضارية في الدولة العثمانية: العناية باللغة العربية: منذ أن تولى الأمير «عثمان» مؤسس الدولة العثمانية الحكم سنة (680هـ = 1281م) وحكم (37) سنة أحاط نفسه بعلماء قبيلته ومشايخها الذين كانوا يعنون بحفظ القرآن الكريم وتحفيظه، ومع تولى «أورخان» الحكم خرج التعليم من المسجد إلى المدرسة، حيث فتح أول مدرسة في مدينة «إزميد» التي فتحها سنة (728هـ = 1327م)، وكان أول مدرس بها هو «داود القيصري»، ودرست بها كثير من الكتب، فدرّس في مادة التفسير كتابي «تفسير الكشاف» للزمخشري، و «تفسير البيضاوي» لناصر الدين «عبد الله بن عمر البيضاوي»، وفي الحديث كتب الصحاح الستة، وهي: «صحيح البخاري»،

و «صحيح مسلم»، و «سنن الترمذى»، و «سنن أبي داود»،  
و «سنن النسائى»، و «سنن ابن ماجه»، و كتاب «مصايح السنة»  
للبعوى. و درس فى مادة الفقه كتاب «الهداية» لشيخ الإسلام  
«برهان الدين على بن أبى بكر المرغانى»، و كتاب «العناية  
فى شرح الوقاية» لعلاء الدين «على بن عمر الأسود»، و فى  
أصول الفقه كتاب «التلويح» للتفتازانى، و «منار الأنوار»  
للنسفى، و «المغنى» لجلال الدين عمر، و «مختصر ابن الحاجب».  
و تقرّر فى العقائد كتاب «القاضى الإيجى»، و كتاب «النسفى»  
و «الطحاوى»، و فى علم الكلام كتاب «تجريد الكلام» للطوسى،  
و «طوابع الأنوار» للبيضاوى، و «المواقف» للإيجى، و فى علم  
البلاغة كتاب «مفتاح العلوم» للسكاكى، و «تلخيص المفتاح فى  
المعانى والبيان» للقزوينى، و فى المنطق كتاب

(431/14)

---

«الإيساغوجى»، و «مطالع الأنوار» لسراج الدين الأرموى، و فى  
الفلك كتاب «الملخص» لمحمود بن محسن الجغمينى. و من الكتب  
المقررة فى النحو: «ألفية ابن مالك» و «العوامل» للشيخ «عبد  
القادر الجرجانى»، و «الكافية فى النحو» لابن الحاجب، و كتب  
«ابن هشام»: «شذور الذهب»، و «قطر الندى»، و «مغنى  
الليلى»، و درس فى الصرف كتاب «أساس التصريف» لشمس الدين  
الغنارى، و «الشافى» لابن الحاجب وغيرهما. و برز كثير من  
علماء الدولة العثمانية فى مجال الثقافة الإسلامية المكتوبة  
باللغة العربية، مثل: «حاجى خليفة» صاحب كتاب «كشف الظنون  
عن أسامى الكتب والفنون»، و هو كتاب ببلويجرافى مهم، وله  
مكانته فى الدراسات العربية الإسلامية، جمع فيه أسماء  
(14500) كتابًا لتسعة آلاف وخمسمائة مؤلف، و تناول فيه نحو

(300) فن أو علم، وقد حوى هذا الكتاب أمهات المصادر في الفكر الإسلامي مما صنف باللغة العربية أو الفارسية أو التركية. ومن هؤلاء العلماء - أيضاً - «طاشكو برى زاده» وهو «عصام الدين أبو الخير أحمد بن مصطفى» صاحب كتاب «الشقائق العثمانية في علماء الدولة العثمانية»، تناول فيه تراجم أكثر من (500) عالم وشيخ من علماء الدولة العثمانية من عهد الأمير «عثمان» حتى السلطان سليمان القانوني، منهم: ابن كمال باشا «شمس الدين أحمد بن سليمان» الذي اشتهر بكثرة تأليفه ورسائله، وهو يشبه في ذلك «السيوطي» و «ابن الجوزي» و «ابن حزم» ممن اشتهروا بكثرة مؤلفاتهم. يقول «اللكنوي» بأن لابن كمال باشا رسائل كثيرة في فنون عديدة، لعلها تزيد على ثلاثمائة غير تصانيف له في لغات إسلامية أخرى كالفارسية والتركية، وكان ذلك في عهد السلطان «سليم الأول». وزخر عهد السلطان «محمد الفاتح» بالمصنفات العربية، وبخاصة أساتذته الذين قاموا بتعليمه وتثقيفه، مثل الشيخ «الكوراني»، والشيخ «خسرو»، كما ظهر في عهد «سليمان القانوني» شيخ الإسلام

(432/14)

---

«أبو السعود أفندي» صاحب التفسير المعروف «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم». وكانت اللغة العربية هي السائدة في جميع المدارس والجامعات العثمانية، على حين استخدمت اللغة التركية في الأعمال الحكومية فقط. وعنى السلاطين العثمانيون بالأدب والشعر، فكان السلطان «مراد الثاني» (805 - 855هـ = 1402 - 1451م) يعقد مجلساً في قصره، يدعو إليه الشعراء ليتسامروا ويقرضوا الشعر بين يديه، وكان يشجع حركة الترجمة من العربية إلى التركية، وجعل من قصره

مكاناً للمترجمين، فأصبح كأنه أكاديمية علمية. ثم خلفه ابنه «محمد الفاتح» الذى وصفه المؤرخون بأنه راعٍ لنهضة أدبية، وشاعر مجيد، وكان يجيد عدة لغات، ويداوم على المطالعة وبخاصة الكتب العربية التى ملأت مكتبته، ويعنى بالأدب عامة والشعر خاصة، ويصاحب العلماء والشعراء ويصطفئهم، وقد استوزر منهم الكثير، مثل: «أحمد باشا» و «قاسم الجزرى باشا»، وعهد إلى الشاعر الأناضولى «شهدى» أن ينظم قصيدة تصور التاريخ العثمانى باللغة الفارسية على غرار «الشاهنامه» التى نظمها «الفردوسى». وكان «محمد الفاتح» إذا سمع بعالم متبحر فى فن من الفنون فى الهند أو فى السند استماله بالإكرام، وأمده بالمال، وأغراه بالمناصب، ومثال ذلك: أنه استقدم العالم الكبير «على قوشجى السمرقندى» وكانت له شهرته فى الفلك، كما كان يرسل كل عام مالاَ كثيراً إلى الشاعر الهندى «خواجه جهان» والشاعر الفارسى «جامى». وبرع «الفاتح» نفسه فى نظم الشعر، حتى اتخذ لنفسه اسماً شعرياً يستخدمه فى أشعاره التى تعكس رقة إحساسه، ورهافة مشاعره، وتبرز تكوينه الدينى. وخلفه ابنه «بايزيد الثانى» وكان عالماً فى العلوم العربية، وفى الفلك، ومهتماً بالأدب ومكرماً للشعراء والعلماء. وكان السلطان «سليم الأول» شغوفاً بالشعر والشعراء والعلم والعلماء، حتى إنه صحب معه فى حملته على «فارس» الشاعر «جعفر لى»، واصطحب فى

(433/14)

---

حملته على «مصر» و «الشام» الشاعر «ابن كمال باشا». وقد ازدهر الأدب التركى منذ القرن الثامن الهجرى، وبلغ أوجه فى القرن الحادى عشر، وتأثر بالأدب الفارسى، كما ازدهر نوع من

الشعر الشعبي الموزون في أوساط سكان «الأناضول»  
و «الروملى»، وساهمت الترجمات الصوفية لشاعرهم «يونس  
إمره» المتوفى سنة (721هـ = 1321م) في تجسيد هذا الأدب الذى  
حافظ على وجوده واستمراره في المراكز الصوفية، ومن هذا  
الشكل الشعبي من الأدب التركى انطلق الأدب التركى الحديث  
متأثراً به وبالأدب الغربى. التاريخ والجغرافيا: قام العثمانيون  
بدور جيد في مجال التاريخ، وبدأت المحاولات الأولى لتدوين  
التاريخ العثمانى تدويناً منظماً في عهد السلطان «بايزيد الأول»  
على يد المتصوف «أحمد عاشق باشا»، ثم اهتم الباب العالى منذ  
القرن العاشر الهجرى بكتابة التاريخ، فعين المؤرخين الرسميين  
أمثال «سعد الدين» المتوفى سنة (1007هـ = 1598م). وتعد  
الجغرافيا أحد العلوم التى أجاد فيها العثمانيون نسبياً، وأشهر  
الأعمال الجغرافية ما كتبه الرحالة البحرى أو أمير البحر «بيرى  
رئيس» من كتب تتضمن رحلاته في «البحر المتوسط»،  
واكتشافات الإسبان والبرتغال في «إفريقيا»، كما ألف كتاباً  
عن الملاحة أطلق عليه اسم «بحر» وفي سنة (919هـ =  
1513م) رسم خريطة للمحيط الأطلسى والشواطئ الغربية من  
«أوروبا» وأهداها للسلطان «سليم الأول» بالقاهرة، ورسم  
خريطة أخرى تمثل اكتشافات البرتغاليين في «أمريكا  
الجنوبية» و «الوسطى» و «نيوزيلاندا»، كما أسهمت كتب  
«حاجى خليفة» و «أوليا لى» الجغرافية إسهاماً كبيراً في هذا  
المجال. الطب: وفي مجال الطب كانت تلقى المحاضرات العلمية  
الطبية نظرياً، ويجرى تطبيقها عملياً في مدرسة الطب، وزاول  
الطلبة تدريباتهم في المستشفيات، وكانت الكتب المقررة تشمل  
كتاب «ابن سينا» المشهور «القانون» وكتب «ابن عباس  
المقوس». وقام بالتدريس في المدارس الطبية العثمانية عدد من

---

العلماء والأطباء الذين تلقوا تعليمهم في البلاد العربية و «إيران» و «تركستان»، ومن أهم الأطباء في ذلك العصر: «قطب الدين العجمي»، والطبيب «شكر الله الشرواني»، و «يعقوب الحكيم»، و «إلياس القراماني». نظام القضاء: كان «القاضي عسكر» هو رئيس الهيئة القضائية، وهذا المنصب استحدثه السلطان «مراد الأول»، ثم أضاف إليه السلطان «محمد الفاتح»، والسلطان «سليم الأول» قاضيين آخرين، واحدًا لأوروبا، والآخر لإفريقيا، ولم تكن سلطتهم تقتصر على الشئون العسكرية بل تعدتها إلى الشئون المدنية، فهم الذين يعينون القضاة ونوابهم، وكل الموظفين القضائيين الآخرين، ويشكلون محكمة الاستئناف العليا. ويأتي العلماء الكبار بعد قضاة الجيش من حيث الترتيب، وهم يؤلفون قضاة العاصمة وعواصم الولايات، ثم يليهم العلماء الصغار الذين يزاولون القضاء في المدن الثانوية، ويليهم قضاة الدرجة الثانية وما دونها. العلماء والفقهاء: كان مفتي «إستانبول» (شيخ الإسلام) هو الشخصية الثانية التي تخضع لها الهيئات القضائية الدينية. وخضع الموظفون الدينيون في العاصمة لسلطة المفتي مباشرة، وكان ينوب عنه في الولايات الكبرى قضاة العسكر. وكان ترتيب الموظفين الدينيين في الجوامع الكبرى كما يلي: الخطيب - الإمام المقيم - المؤذن، ويقوم المرشحون لهذه المناصب بالتعلم في المدارس الدينية الكثيرة التي شيدها السلاطين، وكان الطلاب فيها ينقسمون إلى ثلاث فئات: 1 - الصوفتا. 2 - المعيدون، حيث يحمل الطالب عند التخرج منها لقب «دانشمند» أو «عالم». 3 - فئة «المدرس». أما مشايخ الطرق الصوفية فقد تعلقت بهم قلوب كثير من الناس، وقد سادت هذه الطرق معظم أرجاء «آسيا الصغرى» كالتقشبندية والمولوية والبكتاشية، وكان لهم دور في تهذيب العامة، وحصهم على

التمسك بالفضيلة والأخلاق الإسلامية الحميدة. ومن أشهر الفقهاء  
العثمانيين: «أحمد بن إسماعيل الكوراني» المتوفى سنة

(435/14)

(893هـ = 1487م)، والمولى «خسرو» الذي دعى بأبي حنيفة  
زمانه من قبل السلطان «محمد الثاني»، وتوفى سنة (885هـ).  
ومن العارفين والمتصوفة الشيخ «محمد بن حمزة» الشهير بلقب  
«آق شمس الدين» و «عبد الرحمن جامي» الذي توفى سنة  
(898هـ = 1492م). ومن العلوم العقلية والنقلية، ظهر اسم: «شمس  
الدين الفتاري» الذي خلف مكتبة بها (10) آلاف مجلد. العمارة  
عند العثمانيين: بلغ فن العمارة عند العثمانيين درجة عالية وخلف  
العثمانيون العديد من الآثار العمرانية العظيمة أهمها: 1 - جامع آيا  
صوفيا: وهي الكنيسة السابقة التي حولها السلطان «محمد  
الثاني» إلى مسجد، يمثل الجامع الرئيسي في العاصمة عقب  
فتح «القسطنطينية» مباشرة، وعُدلت لتلائم التقاليد الإسلامية،  
حيث غطيت الرسوم التي تمثل الفن البيزنطي، وشكل محراب  
وسط الجناح الجنوبي من الكنيسة، كما نصب المنبر على عمود  
الكنيسة الجنوبي الشرقي الكبير، وفي عهد السلطان «مراد  
الرابع» كتبت بعض الكلمات ذات الأحرف الكبيرة التي تحمل اسم  
الجلالة، واسم الرسول، والخلفاء الراشدين، وذلك على لوحات  
مستديرة شيدت على جدران المسجد، وهي بخط الخطاط  
«بيشكجي زاده مصطفى شلي» الذي كتب حرف الألف وحده  
على سبيل المثال طوله عشرة أذرع، وكلها بخط متشابك بديع،  
وواصل باقي السلاطين إدخال تعديلاتهم وإصلاحاتهم بها. 2 -  
جامع السلطان محمد: الذي شيده المهندس اليوناني «خريستو  
دولوس» بأمر من السلطان «محمد الثاني»، ويقع وسط العاصمة

«إستانبول». 3 - جامع السلطان أيوب: وكان السلاطين العثمانيون يتقلدون فيه مقاليد الحكم في احتفال رسمي، وقد شيده السلطان «محمد الثاني» قرب ضريح الصحابي «أبي أيوب الأنصاري» رضى الله عنه. 4 - مسجد بايزيد: وشيده السلطان «بايزيد»، ويعد من أبرز الآثار العمرانية التي تمتاز بنفاسة المواد البنائية الزخرفية التي جرت على الطريقة الفارسية. 5 -

(436/14)

جامع السلمانية، ويعد من أجمل آثار الفن المعماري العثماني، وشيده السلطان «سليمان»، وصممه المهندس المعماري «سنان باشا»، على أعلى قمة جبلية في «الأستانة». إلى جانب العديد من الجوامع العظيمة التي تزيد على الخمسمائة جامع، بخلاف المدافن والتكايا (الزوايا). أما القصور فأهمها قصر «سراي طوب قابو» التي تمتاز بفخامتها وامتدادها الواسع، ومبانيها، وحدائقها، وساحتها الواسعة، و «سراي دولمة بمجة» على «اليسفور» وتمتاز ببهوها الكبير، وكانت مسكنًا للسلطان «محمد رشاد». وسراي «جراغان» وسراي «يلدز» وسراي «بكر بك» التي توفي بها السلطان «عبد الحميد الثاني» بعد خلعه. وأشهر المهندسين المعماريين في الدولة العثمانية هو «سنان باشا»، الذي كان نصرانيا ثم أسلم وعمره (23) عامًا، واشترك في الحملات العثمانية والفتوحات في المشرق والمغرب، واطلع على كثير من الطرز والأعمال المعمارية التي جذبت انتباهه في «تبريز» و «حلب» و «بغداد» ودول «أوروبا». وعندما عاد إلى «إستانبول» تولى منصب كبير معماري الخاصة السلطانية، وأصبح المسئول عن إقامة الأعمال المعمارية من قصور وجوامع ومدارس ومطاعم وحمامات وأضرحة، وبلغت أعماله المعمارية

نحو (441) عملاً موزعة في مختلف أرجاء الدولة العثمانية، منها «جامع صقوللو محمد باشا»، و «جامع رستم باشا»، و «جامع شهر زاده»، و «جامع السلিমانيّة»، و «جامع محمد باشا البوسنوي»، إلى جانب العديد من الأعمال في البلدان العربية، وتشهد أعماله بالأصالة ويسودها المعرفة العميقة والتكنيك الهندسي، وفهمه الكبير للفن، ورقة ذوقه، وقد مكّنه كل ذلك من إضافة أشكال جديدة للفن المعماري. وتوفي «سنان باشا» سنة (966هـ = 1558م) وعمره يقارب المائة عام، بعدما عاصر خمسة من سلاطين العثمانيين. فن الرسم العثماني: لم يظهر هذا الفن إلا في عهد السلطان «محمد الفاتح» الذي دعا فنانيين إيطاليين مشهورين إلى القصر السلطاني، وأوكل إليهم إنجاز

(437/14)

بعض اللوحات للسلطان، وليقوموا بتدريب بعض العثمانيين على هذا الفن، وكان من أشهرهم «ماستوري بافلي» و «كونستانزي دافيراري»، وظهرت كثير من المواهب الوطنية مثل «سنان» تلميذ «ماستوري بافلي» و «حسام زاده». ومن فناني ذلك العهد «أحمد شبلي زاده» و «بابا مصطفى» و «تاج الدين بن حسين بالي» و «حسن شبلي». ويبدو في هذه الأعمال أثر المدارس الإيرانية، ويبرز اسم «المطرقى» الذي رسم لوحات تمثل حملات الجيش العثماني ومناظر القلاع والموانئ والمدن؛ مما كان له أثر في تطور فن الرسم الزيتي العثماني. وفي عهد «سليمان الأول» وصل فن المنمنمات العثماني إلى أوجهه، وقدم «كاتب الشيرازي» - الذي اتخذ اسمًا مستعارًا هو «عارفي» - وثائق الحوادث السياسية والاجتماعية التي جرت خلال حياة «سليمان الأول»، وكتب ورسم «عارفي» عملاً من مآثر السلاطين

العثمانيين حتى عهده هو «شاهنامه آل عثمان» في خمسة مجلدات. ومن فناني المنمنمات في ذلك العصر: «علي شلبي»، و «مولى قاسم»، و «محمد البورحي» و «أوستان عثمان»، و «لطفى عبدالله» و «رئيس حيدر». وفي عهد السلطان «مراد الثالث» وصل فن المنمنمات إلى أوجه، ومن أبرز الأعمال في عصره «خورنامه» و «شاهنشاه نامه» المؤلفة من أشعار مكتوبة بالتركية والفارسية معاً، وتحكى توضيحاتها قصة فتوحات الجيش العثماني الظاهر، والنشاطات الاجتماعية المتعددة لذلك العصر. ووجدت في ذلك العصر مدرسة الفن الزيتي في «بغداد» في نهاية القرن (16م)، ولكن هذا الفن سرعان ما ضعف وتدهور في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

(438/14)

#### \*الأموية (دولة في الأندلس)

دولة أموية نشأت في (الأندلس) بعد سقوط خلافة بني أمية (132هـ = 749م) في (الشام)، بعد مصرع آخر خلفائها (مروان بن محمد) في (أبي صير) (بصعيد مصر، واستيلاء العباسيين على الخلافة، وتولى (أبي العباس)، الملقب بالسفاح، خلافة المسلمين، والذي نقل عاصمة الدولة الإسلامية من (دمشق) إلى (الكوفة)، وجعل همّة الأول القضاء على أسرة بني أمية، وتعقبهم قتلاً وتشريداً في أى مكان وقعت يداه، أو أيدي ولاته عليهم. وكل ذلك لم يؤدِّ إلى اختفاء بني أمية من صفحات التاريخ، أو القضاء عليهم قضاءً مبرماً؛ لأن كثيراً منهم قد تمكّن من الاختفاء والهرب من أيدي بني العباس، وقد تمكّن الأمير (عبد الرحمن بن معاوية) (حفيد الخليفة الأموي) (هشام بن عبد الملك بن مروان) (من الاختفاء عن أعين العباسيين، والهرب متنقلاً من (الشام

(إلى (العراق )، ثم إلى (مصر )، فالمغرب، ومنها إلى (الأندلس )؛  
حيث تمكّن بمساعدة أنصاره، وموالي بني أمية، والظروف  
السائدة في هذه المنطقة، من الوصول إلى سُدّة الحكم في  
(قرطبة )، عاصمة (الأندلس )، وذلك سنة (138 هـ=755م)، معلناً بذلك  
قيام إمارة أموية في (الأندلس )، تحولت - بعد ذلك - إلى دوله  
قويّة، تحكم (الأندلس) منذ ذلك التاريخ، إلى أن سقطت هذه الدولة  
سنة (422هـ=1031م). وتعاقب في حكم (الدولة الأموية  
الأندلسية) عدد من الأمراء والخلفاء، نجمل تاريخهم فيما يلي: 1 -  
الأمير (عبد الرحمن بن معاوية ((138 - 172هـ=755 - 788م)). وُلد (عبد  
الرحمن بن معاوية (بقريّة تُعرَف بدير خنان، من أعمال (قنّسرين )،  
في بلاد الشام، سنة (113هـ=731م)، وتُوّفّي والده شاباً، فكفل  
الأسرة الخليفة (هشام بن عبد الملك )، وحين سقطت الدولة  
الأموية، فرَّ (عبد الرحمن) (بأهله إلى ناحية الفرات، حتى اكتشف  
مكانه جند العباسيين، وكادوا يُمسكون به، لولا أن ألقى بنفسه

(439/14)

في نهر الفرات، وظل محتفياً خلال عبوره أراضي بلاد الشام،  
و (مصر) (إلى أن ظهر في (إفريقية )، وحاول حاكم (إفريقية) ((عبد  
الرحمن بن حبيب (الإمساك به، ولكن (عبد الرحمن) (نجح في  
الهرب والفرار إلى (المغرب الأقصى)؛ حيث أخواله من  
البربر. وقد أفاد (عبد الرحمن) (من الصراعات القبلية القائمة بين  
العرب في (الأندلس )، واستمال إليه الجند اليمينية، والعرب  
الناقمين على الوالي (يوسف الفهري )، وعبر إلى بلاد الأندلس،  
وتجمع حوله الأنصار، وسار زاحفاً إلى مدينة قرطبة؛ حيث التقى  
مع قوات (يوسف الفهري) (في معركة (المصاراة )، سنة  
(138هـ=755م)، التي انتهت بانتصار (عبد الرحمن) (ومن معه،

وهروب كل من (الصمبل بن حاتم )، و (يوسف الفهري )، زعيمى الأندلس فى ذلك الوقت، ودخل (عبد الرحمن ) (قرطبة )، و عُرف منذ ذلك الحين بعبد الرحمن الداخل. حكم (عبد الرحمن ) (الأندلس ) (34) عاماً. واجه خلالها كثيراً من المصاعب، كان أولها: القضاء على الزعامات المحليّة القديمة التى دخلت معه فى حروب كثيرة، انتهت جميعها لصالحه. ومن أخطر المشاكل التى واجهت (الداخل ): محاولات (العباسيين )- بقيادة الخليفة (أبى جعفر المنصور )- القضاء عليه، واسترداد (الأندلس ) إلى حوزة الخلافة الإسلامية التى غدت (بغداد ) عاصمتها فى ذلك الحين. وتمثلت أولى محاولات العباسيين للقضاء عليه فى الدعوة التى تزعمها (العلاء بن مغيث اليحصبي )، الذى دعا لأبى جعفر المنصور، وحقّق نجاحاً كبيراً، ولكن (عبد الرحمن ) تمكن من هزيمته، وقتله، وإرسال رءوس كبار جنده ليُلقى بها فى طريق أبى جعفر المنصور وهو يؤدّى فريضة الحج، وبعد ذلك لُقّبهُ (المنصور ) بصقر قريش .) وتمثلت الثورة الخطيرة الثانية فى التحالف الذى جمع بين (سليمان الأعرابي )، و(الى ) (برشلونة )، و (العباسيين )، و (شارلمان )، ملك الفرنجة، فى محاولة لخلع (عبد الرحمن الداخل )، الذى نجح

(440/14)

---

فى الانفراد بأعدائه، والقضاء عليهم واحداً تلو الآخر، أما (شارلمان ) فقد تعرض جيشه للفشل أمام أسوار (سرقسطة )، ولإبادة مؤخرته عند عودته إلى (فرنسا ) ماراً بجبال البرنيه. ومن الأعمال المهمة لعبد الرحمن الداخل: بناؤه مسجد (قرطبة ) (الجامع، الذى غدا بعد ذلك أكبر وأشهر مسجد فى غربيّ العالم الإسلامى، وكان ذلك فى عام (176هـ=792م)، بالإضافة إلى تجميل (قرطبة )، وبناء (الرصافة ). وهكذا تمكّن (عبد الرحمن ) من

تأسيس إمارة قوّة وراثيّة، تدين بالولاء له ولأولاده من بعده. 2 -  
(هشام الأول ((الرضا ((172 - 180 هـ = 788 - 796 م)). خَلَفَ الأمير  
(هشام بن عبد الرحمن الداخل (والده في حكم إمارة مستقلة  
مستقرة، ولم يواجه من المشاكل إلا ثورة أخويه (سليمان  
)، و (عبد الله )، اللذين رأيا أنّهما أحقُّ من (هشام (بالإمارة، وتغلّب  
عليهما (هشام )، وتفرّغ - بعد ذلك - لمحاربة نصارى شماليّ  
الأندلس، الذين قوى ساعدتهم؛ نتيجة فترة الفتنة والضعف التي  
أصابته (الأندلس (في عصر الولاة، فأرسل حملة قوية بقيادة  
(عبيد الله بن عثمان (تمكنت من هزيمة (الجلالقة )، وأخرى بقيادة  
(يوسف بن بُخت )، حققت الكثير من الانتصارات. وفي سنة  
(176هـ=792م) تاهب لغزو الفرنجة، ووقف هجماتهم على  
(شمالي الأندلس )، فأرسل جيشًا كثيفًا بقيادة حاجبه (عبد الملك  
بن عبد الواحد بن مغيث )، لغزو مناطق خلف جبال البرتات،  
وتمكن من تحقيق عدد من الانتصارات. وعُرف الأمير  
(هشام (بالتقوى، والورع، ومحبة الفقهاء، وحضور مجالس العلم،  
وأنشأ الكثير من المساجد، وعلى أيامه بدأ المذهب المالكي  
في الانتشار على أيدي عدد من العلماء، منهم: (زياد بن عبد  
الرحمن )، و (عيسى بن دينار )، و (يحيى بن يحيى الليثي (وكانت )  
الأندلس - قبل ذلك - على مذهب الأوزاعي، كما أنّه جدّد بناء  
القنطرة الرومانية على نهر الوادي الكبير، ولم يطل العمر بالأمير

(441/14)

---

(هشام )؛ حيث وافته منيته بعد أقل من ثمانية أعوام، وذلك في  
عام (180هـ=796م). 3 - (الحكم الأول ((الريضي)) (180 - 206هـ=  
796 - 821م). تولّى (الحكم بن هشام )، بعد وفاة والده، وكان  
حازمًا محبا للسلطة والمظهر، شديدًا على أعدائه، حارب أعمامه

وانتصر عليهم، ولم تكن علاقته بالفقهاء حسنة؛ مما دفعهم إلى عدم الرضا عنه، والإساءة إليه عند العامة، وتسببوا في عدد من الثورات ضده، أهمها: ثورة (الربض الغربي)، التي قضى عليها الحكم، حتى عرف بها، وسمي بالربضي، نسبة إلى قسوته في القضاء على ثورة هذا الربض الحزين. أرسل الحكم قواته لغزو ممالك النصرى في شمالي الأندلس، وقام حاجبه عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث بغزو مناطق ألبة والقلاع (قشتالة القديمة)، كما استولى على قلهرة، وأنحن في بلاد البشكنس، وعاد محملاً بالغنائم. واجه الحكم مجموعة كبيرة من الثورات الداخلية التي حاول الفرنجة استغلالها في التدخل في شئون الأندلس، ونجح في التغلب عليها جميعاً وأجبر الفرنجة على عقد الصلح، وصرف النظر عن التدخل المباشر في شئون الأندلس. وقد تمكن الحكم من توطيد الحكم لبني أمية، وترك الأمور لأبنائه هادئة إلى حدٍ كبير، كما يُذكر له بعض الجوانب الأدبية، والإبداعات الشعرية التي تكشف عن الجانب الآخر من شخصيته، وتُوفِّق الحكم سنة (206هـ = 821م) محلِّفاً إمارة الأندلس لعبد الرحمن، أكبر أولاده. 4 - عبد الرحمن بن الحكم (206 - 238هـ = 821 - 852م). ويُعرف هذا الأمير بعبد الرحمن الأوسط، أو عبد الرحمن الثاني. وُلِدَ في طُلَيْطَلَة سنة (176هـ = 792م)، وقد عُنى والده (الحكم) بتربيته، فنمى لديه الأدب والحكمة؛ فكان ذا كفاءة عالية وخلال حميدة، وافر الخبرة بشئون الحرب والإدارة، واجهته في مطلع ولايته بعض الفتن الصغيرة، التي أتاحت له فرصة إرسال الصوائف إلى ممالك الشمال، وكان جده عبد الله

البلنسى هو قائد حملته علمنطقة الثغر الأعلى؛ حيث تمكّن من هزيمة الفرنجة، واجتياح ولاية قطلونيه (Cata Luna)، وذلك سنة (212هـ = 827م). وما لبثت حركات التمرد أن ظهرت في الأندلس، فنار محمود بن عبد الجبار في ماردة، وكلف الأمير عبد الرحمن جهوداً كبيرة، حتى تمكّن من القضاء على ثورته، وإجباره على اللجوء إلى ملك أشتوريس (ألفونسو الثانى)، وطلب حمايته، لكنه قُتل هناك بيد حماته النصارى، وثار (هاشم الضراب) في طليطلة، وكان شوكة كبيرة في جنب عبد الرحمن الأوسط؛ وبالرغم من نجاح الأمير في قتل هاشم سنة (216هـ = 831م)، فإن (طليطلة) ظلّت معقلاً للثائرين والمتمردين، واضطر الأمير إلى حصارها، واقتحامها، وإيقاع العقاب بأهلها، وذلك سنة (222هـ = 837م). وبعد القضاء على تلك الثورات استأنف الأمير الجهاد فشمالى الأندلس، وسيرّ الصوائف سنويا إلى هذه الجهات، ولكن لم تكن لهذه الغزوات نتائج كبرى، ولم يكن من ثمارها إلا منع النصارى من التوغّل داخل بلاد المسلمين، وحملهم على التزام السكنينة، وعدم إيقاع الأذى بالمسلمين. ويتميز عصر عبد الرحمن الأوسط بعدد من الأحداث الخطيرة، منها: - غارات النورمانديين: فقد تعرّضت سواحل الأندلس لخطر شديد، لم تستعد له؛ حيث غزاها كثير من النورمانديين، الذين عرفتهم المصادر الإسلامية باسم (المجوس)، ولم يكونوا إلا جماعات من الفيكينج، القادمين من أقصى الشمال الغربى لأوروبا، البارعين في ركوب البحر، واستخدام السفن الخفيفة، وأمكنهم إيقاع الأذى الشديد بالشواطئ الغربية للأندلس، وذلك فى سنة (230هـ = 844م)، وتمكّن المسلمون من التصدى لهم بصعوبة كبيرة. - وثورة المستعربين: وهم النصارى، المقيمون فى قرطبة، وكانوا يتمتعون بدرجة عالية جدا من تسامح المسلمين، حتى إنهم اندمجوا فى المجتمع القرطبى؛ يتحدثون لغته، ويرتدون ثيابه، لكن الدعايات المتعصبة من بعضهم تمكنت من إثارة نزعة

الكرهية ضد المسلمين، وحاول بعضهم إيذاء المسلمين، والجهر بسب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وتدخلت السلطة الأندلسية وأعدمت بعضهم، لكن الحركة تزايدت، وغدَّتْها عوامل داخلية وخارجية، حتى انتهت بعد موت الأمير (عبد الرحمن الأوسط). وشهد عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط عددًا من الشخصيات العلمية البارزة، من أهمِّها: (عبد الملك بن حبيب)، المعروف بعالم الأندلس، و (يحيى بن يحيى الليثي)، الذي لقَّبه الإمام (مالك بن أنس) (بعامل الأندلس، و (عبّاس ابن فرناس)، أوَّل من حاول الطيران، و (أبو الحسن علي بن نافع)، الملقَّب بزرياب، وهو أشهر المغتنيّين في الأندلس). و(عُني (عبد الرحمن الأوسط) بالمنشآت العامّة، فوسَّع في مسجد قرطبة، وأنشأ مسجد إشبيلية، وبنى سورها، ووصلت (الأندلس) على أيّامه إلى درجةٍ عالية من التقدُّم والازدهار، وأصبحت العاصمة (قرطبة) (مدينة عامرة، لا ترقى إلى مكانتها أية مدينة أوروبية أخرى، بل غدت تضارع العواصم الإسلامية الأخرى في جمالها، وحسن تنسيقها، وعمران أسواقها. كما شهد عصر الأمير (عبد الرحمن الأوسط) نشاطًا دبلوماسيًا رائعًا؛ فقد استقبل في (قرطبة) (سفراء) (القسطنطينية) (من قبَل (القيصر تيوفوليس)، وذلك في سنة (225هـ = 840م)، كما أوفد الأمير القرطبيّ سفيره (الحكم الغزال) (إلى العاصمة البيزنطية. وهناك سفارة أخرى تشير إليها المصادر التاريخية، وهي قيام (الحكم الغزال) (بردِّ الزيارة التي قام بها رسل ملك النورماندين، وظل هناك حوالي (20) شهرًا، ثم عاد إلى (قرطبة) (في حدود سنة (232هـ = 846م). وموت الأمير (عبد الرحمن الأوسط) (تنتهى الفترة الزاهرة من عصر الإمارة، وتبدأ فترة جديدة. 5 - الأمير (محمد بن عبد الرحمن الأوسط): (238 - 273هـ = 852 - 886م). تولَّى

الأمير (محمد) العرش في (قرطبة) وسط مؤامرات كانت تسعى لنقل  
الإمارة إلى أخيه الأمير (عبد الله)، وبعده تبدأ (الأندلس) فترة من

(444/14)

الضعف والانهيار جعلت بعض المؤرخين يُطلقون عليها اسم عصر  
الطوائف الأول. وُلد الأمير (محمد) سنة (207هـ = 822م) وكان له  
نشاط جَمَّ على أيام والده؛ مما رشَّحه للإمارة من بعده، ولقد  
واجهته مع بداية حكمه ثورة مدينة طَلَيْطَلَة، التي اضطرتته إلى أن  
يخرج بنفسه على رأس قواته لتأديب المدينة وإلزامها بالطاعة  
والسكون، ولكن (طليطلة) لم تهدأ ولم تحمد، وأضحت موثلاً  
للثائرين والمتمردين، وساعد على ذلك وجود جالية كبيرة من  
النصارى المستعربين، والقساوسة المتعصبين، كما أن المدينة  
كانت تتلقى المساعدات والتحفيز من الممالك المسيحية شمالي  
الأندلس، وكان لثوراتها صدى لدى المستعربين في (قرطبة)  
والمدن الإسلامية الأخرى، وبذل الأمير جهداً كبيراً في إخماد هذه  
الثورات. كما حاول الأمير (محمد) أن يقارع ممالك النصارى  
الشمالية؛ فخرج بنفسه على رأس قواته، سنة (241هـ = 855م)  
إلى (ألبه)، و (القلاع)، وافتتح عدداً من الحصون، كما أرسل في  
العام التالي حملة إلى أحواز برشلونة. ولقد عاود النورمانديون  
غزو بلاد الأندلس، والإغارة على شواطئها، وذلك في سنة  
(245هـ = 859م)، ولم تتمكن الجيوش الإسلامية من التصدي لهم  
تماماً؛ مما مكَّنتهم من العبث بالشواطئ الغربية للأندلس، بل  
وصلوا إلى عدوة المغرب، ثم نزلوا بالشاطئ الجنوبي للأندلس.  
وقامت ثورة خطيرة ضد الأمير في شمال الأندلس تزعمها (موسى)  
بن موسى، وأبناؤه من بعده، وشغلت هذه الثورة الأمير  
(محمدًا) سنوات طويلة. وقامت ثورة أخرى في (ماردة)،

و (بطليوس )، تزعمها (عبد الرحمن بن مروان )، المعروف  
(بالجليقي )، استمرت سنوات طويلة، وأيدها (ألفونسو الثالث )،  
ملك ليون، وشغلت هذه الثورة الأمير سنوات طوالاً، بل أحرزت  
عددًا من الانتصارات على قواته، وأسر فيها (هشام بن عبد  
العزیز )، وزير الأمير (محمد ) . وخلال هذه الفترة العصبية اندلعت  
ثورة أخرى في جنوبي الأندلس تزعمها (عمر بن حفصون )، الذي

(445/14)

شغلت ثورته باقى عصر الإمارة كله، ولم يُقَضَ عليها إلا على  
عهد الأمير (عبد الرحمن الناصر )، أول خلفاء الأندلس . 6 - الأمير  
(المنذر بن محمد بن عبد الرحمن ((273 - 275هـ = 886 - 888م)). وُلد  
الأمير (المنذر ) في (قرطبة )، سنة (229هـ = 843م)، وكان أثيراً لدي  
والده من بين إخوته يختاره لجلالته الأمور، ويندبه لقيادة الجيش  
كلما أُمِّمَ بالإمارة خَطْبُ . وقد أبلى المنذر بلاءً حسناً في مقاتلة  
الثوار والخوارج، وحينما تولى العرش كانت الفتنة قد تفاقمت،  
وعمت الثورة أنحاء البلاد، فشمر عن ساعديه للقضاء عليها،  
وإعادة الأمن والنظام إلى الإمارة المضطربة، وحماية عرش الدولة  
من كيد الكائدين . سیر (المنذر ) حملاته إلى (طليطلة ) في محاولة  
لإخضاعها، كما ركّز جهوده في القضاء على (عمر بن حفصون )،  
الذى استشرى أمره، وأصبح خطراً حقيقياً على الإمارة  
الأندلسية، ولقد تمكن الأمير (المنذر ) من ضرب حصار شديد على  
قلعة (ابن حفصون )، حتى كادت تسقط في يده، وفتلك  
اللحظات مات الأمير المنذر فجأة أمام أسوار القلعة وتجمع معظم  
الروايات التاريخية على موته مسموماً . وكان الأمير (المنذر ) ذا همّة  
عظيمة، وجاء موته ضربة شديدة لقرطبة، التي اضطرت إلى رفع  
الحصار عن (بيشتر ) وعودة الجيش إلى (قرطبة )، وازدياد الفتنة

في كل أنحاء الأندلس. 7 - الأمير (عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن ((275 - 300هـ = 888 - 912م)). ولد الأمير (عبد الله (في قرطبة (عام (229هـ = 843م)، وهو نفس عام ميلاد أخيه (المنذر )، وكان معه في حصاره لببشتر، وتتهمه بعض الروايات التاريخية بتدبير مؤامرة قتل أخيه (المنذر ؛ لكي يصل إلى عرش الإمارة في (الأندلس ). بويغ بالإمارة بعد أخيه، ورفع الحصار عن (ببشتر )، وعاد بالجيش إلى (قرطبة، وبدأ حكمه الطويل في ظروف سيئة جداً؛ فالخلاف يمزق (الأندلس )، وعرش بني أمية على وشك الانهيار، وامتدت الثورة إلى الحواضر الأندلسية

(446/14)

الكبرى، حتى لم يعد للأمير الأندلس من سلطان إلا على مدينة قرطبة وحدها. واجه الأمير (عبد الله (هذه الخطوب جميعاً، وعمل على إخماد الفتن بما وسعه من جهد؛ فلم يهدأ ولم يتوان في العمل، وظلّ طيلة فترة إمارته يرسل الجيوش، ويجرّد الحملات، ويخرج بنفسه تارة، ويرسل قواده أخرى، حتى أنهك الثائرين، وأنهك إمارته؛ مما أعطى الفرصة للممالك المسيحية في التوسّع على حساب الدولة الإسلامية. ومن أسوأ ما يُذكر للأمير (عبد الله (غدره بولديه الأمير (محمد (أولاً، ومن بعده الأمير (المطرف )، كما أنه قتل أخوين له، قتل أحدهما بالسيف والآخر بالسّم. وبالرغم من كلّ ما يقال عن الأمير (عبد الله (فإن الرواية التاريخية لا تحرمه من جانب مشرق، يتمثّل في محبته للعلم والعلماء، حتى كان مجلسه من أجلّ ما عرفت (الأندلس (حتى عصره. 8 - الأمير (عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله )، المعروف بالناصر لدين الله (300 - 350هـ = 912 - 961م). ومما يُذكر من حسنات الأمير (عبد الله (أنّه أوماً بالإمارة -من بعده- إلى حفيده

(عبد الرحمن بن محمد )، وربما كان ذلك تكفيراً عما ارتكبه في حق والده الأمير (محمد )، فلقد أثبت هذا الفتى الشاب أنه الجدير بالإمارة، والكفاء لمواجهة ما كان يعترضها من عقبات. وُلِدَ (عبد الرحمن الناصر )، سنة (277هـ = 890م)، قبل مقتل والده بأيام، وكَفَلَهُ جَدُّهُ الأمير (عبد الله )، وأحسن تربيته، وهَيَّأَهُ لتولى الإمارة من بعده. نهض (عبد الرحمن الناصر) بالمهمة خير نهوض؛ فعمد إلى الثوار يستنزهم بالقوة، أو بالمساملة، حتى تمكَّنَ خلال سنوات قليلة من القضاء على جميع الثورات، وإعادة (الأندلس) (إلى وحدتها؛ حيث بدأت البلاد معه فترة من أحسن فترات تاريخها. وجَّهَ (الناصر) (جهوده وحملاته إلى مواجهة عنفوان الممالك المسيحية في شمالي الأندلس وتبادل معها النَّصر والهزيمة لكنه أكَّده تفوقه عليها عسكرياً وسياسياً، حتى صار

(447/14)

حَكَمًا يُرْجَع إليه في المنازعات الداخلية في هذه الممالك. اهتم الناصر بال عمران اهتماماً كبيراً، وأسس مدينة (الزهراء )، وأنشأ بعض القواعد الأندلسية، وغدت البلاد على أيامه أقوى قوة سياسية في العالم الإسلامي، حتى هادنته ملوك شمالي الأندلس وملوك ألمانيا وإيطاليا وبيزنطة، وغَصَّ بلاطه بسفراء تلك الدول. ومن أبرز ما قام به (عبد الرحمن الناصر )، اتخاذه لقب (أمير المؤمنين )، سنة (317هـ = 929م)، محوِّلاً الإمارة الأندلسية إلى خلافة يهاجم الأعداء، ويعتز بها الأصدقاء، وفَرَضَ سيطرة بلاده على عدوة المغرب، وتقليل نفوذ الفاطميين هناك، حتى غدا رجل العالم الإسلامي بلا منازع. أما من الناحية العِلْمِيَّة، فقد غدت (قرطبة) (موئلاً للعلم والعلماء يؤمُّها طلاب العلم من كل أنحاء الدنيا، ولا تبالغ المصادر في اعتبار عصر الخلافة في

(الأندلس (هو العصر الذهبي للمسلمين فيها. حكم (عبد الرحمن الناصر (الأندلس خمسين عامًا، وترك البلاد من بعده مستقرة آمنة، وأوصى بالخلافة من بعده لولي عهده (الحكم المستنصر بالله .) 9 - الخليفة (الحكم المستنصر بالله ((350 - 366هـ = 961 - 976م)). وُلد (الحكم بن عبد الرحمن (بمدينة (قرطبة (سنة (302هـ = 914م)، واعتنى والده بتربيته عناية فائقة، وقام بتدريبه على أعباء الحكم والقيادة، وأخذ له العهد بخلافته، وهو في سنِّ مبكرة، وبويع له غداة وفاة (الناصر .) سنة (350هـ = 961م)، وكانت سنُّه - حينذاك - (48) سنة؛ ولذلك كان مكتمل الخبرة، جديرًا بالقيادة في (الأندلس .) كان عهد (الحكم (عهد سلام واطمئنان، فقد ترك له والده الأمور موطَّدة، فصرف همَّه إلى العناية بالعلم والعلماء، وبلغ في ذلك الغاية، وأرى على النهاية، كما اهتم بالكتب، حتى بلغ عددها فمكتبته (400) ألف مجلَّد، وتذكر المصادر أنه أرسل ألف دينار ذهبًا إلى (أبي الفرج الأصفهاني (في (بغداد ؛ لكي يرسل نسخة من كتابه (الأغانى (إلى (قرطبة (قبل ظهوره

(448/14)

في (بغداد .) واهتمَّ (الحكم (بالمسجد الجامع في (قرطبة .) وقام بتجميمه وتوسعته، ومازالت أعمال (الحكم (بالمسجد بارزة وعظيمة إلى يومنا هذا، كما استكمل بناء مدينة (الزهراء .) حتى غدت أعجوبة زمانها. ولقد كانت ميول (الحكم (العلمية سببًا في تحرُّك ممالك الشمال الإسبانية ضد دولة الخلافة، معتقدين خطأً أنه ليس للخليفة العالم شأن بالحرب، لكن (الحكم (أثبت جدارته في ميدان الحرب ولقَّن هذه الممالك دروسًا كبيرة أعادتها إلى الطاعة، والإذعان لهيبة الخلافة في (الأندلس .) أما ما يُؤخِّد على (الحكم المستنصر .) فهو مبايعته لابنه (هشام .) وهو دون

العاشرة؛ ليكون وليَّ عهده من بعده، وأخذ له البيعة بذلك، ثم  
تُوِّفِيَ (الحكم) سنة (366هـ = 976م). 10 - الخليفة (هشام الثاني )  
(المؤيد بالله ((366هـ - 000 = 976م - 000)). تولى (هشام) الخلافة،  
وهو دون العاشرة؛ مما أعطى الفرصة للحاجب (محمد بن أبي  
عامر) ليسيّط على مقاليد الأمور في (الأندلس)، ويتلقَّب  
بالمنصور، وقام الحاجب بالحجر -تقريبًا- على الخليفة الصغير،  
واستبدَّ بالأمور تمامًا، حتى أصبح عصره يُعرف -عند المؤرِّخين-  
بالدولة العامرية، إلى درجة أن (المنصور) قد ورث منصبه  
وسلطانه لولديه من بعده، وهما (عبد الملك المظفر)، و (عبد  
الرحمن شنجول). 11 - الأمويون في عصر الفتنة (399هـ = 422هـ -  
1008م = 1031م).

(449/14)

#### \*النقشبندية

إحدى الطرق الصوفية. تُنسب إلى مؤسسها بهاء الدين محمد  
شاه نقشبند، المتوفَّى بدمشق سنة (791هـ). وفي تعريف  
الطريقة يقول النقشبندية: إنها دوام العبودية لله تعالى ظاهراً  
وباطناً بكمال الالتزام بالسنة، واجتناب البدع، والرخصة في  
جميع الحركات والسكنات؛ سواء في العبادات أو العادات أو  
المعاملات. وطرق الوصول إلى هذه الحالة من دوام العبودية لله  
تعالى في النقشبندية، أربعة: أولها: صحبة الشيخ الكاملة،  
وثانيها: الارتباط به، وثالثها: الالتزام بما يتلقنه عنه، وآخرها:  
الذكر؛ بحيث يكون حاله هو حال الذاكر لله على الدوام. وقد  
ظهرت الطريقة وراجت في أول الأمر بين المتحدثين باللغة  
الفارسية؛ ولذلك فقد كانت الكلمات الفارسية بها كثيرة قبل أن

يهاجر الإمام الثالث خالد النقشبندی إلى دمشق مرسلاً دعائه إلى  
البلاد العربية.

(1/15)

---

### \*أبو حنيفة (مذهب)

مذهب فقهي سني، ينسب إلى الإمام أبي حنيفة النعمان  
المتوفى سنة (150هـ)، وهو أول المذاهب الأربعة المشهورة في  
الفقه الإسلامي ظهوراً. وقد نشأ هذا المذهب في العراق، ثم  
انتشر في مصر والشام وبلاد ما وراء النهر، والهند، والصين.  
وكان هو المذهب السائد في عصر العباسيين، كذلك أصبح  
المذهب الرسمي للخلافة العثمانية، كما قام العثمانيون سنة (1877م)  
بسن مجموعة من القوانين في العقود والإجراءات المدنية  
طبقاً للمذهب الحنفي. ويقوم المذهب الحنفي على الكتاب والسنة  
والأثر الصحيح عن الصحابة، رضى الله عنهم. وقد كثرت المسائل  
الافتراضية في فقه المذهب، ولم يُعرف لأبي حنيفة كتاب يشرح  
مذهبه ويجمع آراءه إلا أن تلامذته هم الذين تولوا كتابة فقهه  
وجمع آرائه، وأبرزهم: أبو يوسف صاحب كتاب الخراج، ومحمد  
بن الحسن الشيباني. وأشهر كتب المذهب الحنفي الخراج،  
والمبسوط والجامع الصغير والجامع الكبير والآثار.

(2/15)

---

### \*الرفاعية

إحدى الطرق الصوفية التي تنسب إلى مؤسسها أحمد الرفاعي  
المتوفى بالعراق سنة (512هـ = 1118م). ويبدأ المريد في سلوك  
هذه الطريقة بأن يعطيه المرشد أول الأوراد الرفاعية، وهي

الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم -، بالعدد الذي يناسب استعداده، ويلحق به الاستغفار والتوبة بالعدد الذي يناسب استعداده أيضاً، فإذا طاب له الذكر يزيد له العدد، ويستحسن أن يقرأ مع أوراده حزب التحفة السننية الخاص بالرفاعية، وهو مكون من بعض آيات القرآن الكريم، ومجموعة من الأدعية في نحو ثلاث صفحات. ومن قواعد الرفاعية: الخلوة سبعة أيام من كل سنة، تبدأ باليوم الثاني من عاشوراء. ولا يتقيد الرفاعية بزى مخصوص إلا العمامة السوداء. ومن مراسيمهم عدة النوبة، وهي عبارة عن الدفوف والطبول الأحمدية، يضربونها في ليالي الجمع، ويجتمعون عليها لتنشيط المريدين، والترويح عن القلوب. ويشترط في المرشد أن يكون كاملاً متشرعاً متدينًا عارفاً بأصول الطريقة وأركانها وآدابها وخلواتها وأذكارها وأورادها، ناصحاً لإخوانه، محباً لهم، لا يلتفت للشطحات والخرافات. ويشترط في المرشد أن يكون صاحب أدب وخشوع وخضوع، عارفاً بمكانة شيخه، منقاداً له، حافظاً حرمة أهله وأقاربه ومحبيه.

(3/15)

### \* المالكي (مذهب)

أحد مذاهب الفقه الإسلامي الأربعة عند أهل السنة. ترجع نسبته إلى مالك بن أنس المتوفى بالمدينة سنة (179هـ = 795م). ويستقى المذهب مبادئه من القرآن والسنة والإجماع، بالإضافة إلى القياس، وقد اعتبر الإمام مالك عمل أهل المدينة دليلاً شرعياً معترفاً به. وقد أخذ تلاميذ الإمام مالك على عاتقهم مهمة نشر المذهب في ربوع العالم الإسلامي، فقد دخل المذهب الإسكندرية بمصر عن طريق عثمان بن عبد الحكم المتوفى سنة (163هـ = 779م)، وفي العراق انتشر المذهب على يد عبد الرحمن

الكعبي المتوفى سنة (221هـ = 835م)، وفي شمال إفريقيا دخل المذهب وانتشر على يد كل من أسد بن الفرات وسحنون، وفي الأندلس دخل المذهب في نهاية القرن الثاني الهجري، وحل محل مذهب الأوزاعي. وأهم مصادر المذهب المالكي: الموطأ للإمام مالك، وهو أقدم عمل فقهي عاش حتى يومنا هذا، ويعتبر دستوراً شرعياً مطابقاً لما جاءت به السنة وأجمع عليه أهل المدينة، والمدونة الكبرى لسحنون، وهي عبارة عن مجموعة من آراء الإمام مالك، بالإضافة إلى تصحيحات وإجابات أرسلها ابن القاسم العتاقى تلميذ مالك إلى سحنون طبقاً لآراء مالك وآراء شيوخه ومعاصريه، وتعود أهميتها العلمية إلى أنها تصور العلاقة بين الدين والتجارة. ومازال المذهب المالكي معمولاً به في كثير من الدول الإسلامية، وخاصة بلاد الشمال الإفريقي.

(4/15)

#### \*المهاجرون

هم أصحاب رسول الله، الذين هاجروا في سبيل الله تعالى؛ فراراً بدينهم من مكة إلى الحبشة، ثم إلى المدينة. وقد صارت هذه الهجرة صفة تكريم لأصحابها، فقليل: فلان ممن هاجر الهجرتين (أى: إلى الحبشة، والمدينة)، وقد تميز أصحاب هذه الهجرة في الفئ دون غيرهم. وهذا النوع من الهجرة انتهى بعد مكة؛ فقد قال (: لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا. ولكن ليس معنى ذلك أن كل أنواع الهجرة قد انتهى أمرها، فما دام هناك أعداء يتربصون بالإسلام وأهله، فسيظل باب الهجرة مفتوحاً، وقد قال (: من فر بدينه من أرض إلى أرض، وإن كان شبراً من الأرض، استوجبت له الجنة. وكل

هجرة لغرض ديني من طلب علم أو حج أو جهاد أو فرار إلى بلد  
يزداد فيه المرء طاعة أو قناعة وزهدًا في الدنيا، أو ابتغاء رزق  
طيب فهي في سبيل الله، وإن أدركه الموت فأجره على الله.

(5/15)

---

### \*المزدكية

مذهب ضال يُنسب إلى مزدك بن نامدان، المولود في نيسابور  
سنة (487 م)، الذي نادى بشيوعية النساء والأموال، وذلك لمنع  
الحروب والشقاء في العالم. وكان مزدك في أول أمره مانويًا.  
ثم انشق عن المذهب المانوي وقال: إن الكون يرجع إلى ثلاثة  
أصول، هي: (الماء) و (النار) و (التراب)، امتزجت بنسب متساوية  
فكان الخير، وامتزجت بنسب متفاوتة فكان الشر. وكان يرى أن  
الإنسان ليكون ربانيًا يجب أن يتمتع بأربع قوى، هي: (التمييز)  
و (الفهم) و (الحفظ) و (السرور)، لذا أمر أتباعه بالابتعاد عن  
البغضاء. وعندما علم ملك الفرس أنوشروان بفساد اعتقاد مزدك  
وأتباعه قتلهم سنة (523 م). وقد انتشر هذا المذهب في إيران  
وأذربيجان وأرمينيا، واهتم المسلمون بتاريخ المزدكية لفساد  
معتقدهم وخطورة مذهبهم، وأفردوا لها بابًا في الفقه، يمنع  
الزواج منهم أو أكل ذبائحهم، ويحظر قبول الجزية منهم  
لاستباحتهم الحرمات.

(6/15)

---

### \*الأرثوذكسية

إحدى الطوائف المسيحية الثلاث الكبرى، وهي تعني: الرأي  
المستقيم، وفي القرن الخامس الميلادي أصبحت هناك كنيستان

أرثوذكسيان، هما: (الأرثوذكسية المصرية)، ويؤمن معتنقوها بطبيعة واحدة في المسيح من طبيعتين، ويغلبون الطبيعة الإلهية في المسيح على الطبيعة البشرية، ويتزعم هذا الاتجاه (كنيسة الإسكندرية). و (الأرثوذكسية اليونانية)، ويؤمن أهلها بطبيعتين للمسيح، هما: الإلهية والبشرية. وهاتان الطبيعتان مستقلتان غير منفصلتين. ويتزعم هذا الاتجاه كنائس روسيا ومعظم أوروبا الشرقية. وفي القرن الحادى عشر الميلادى حدث انشقاق بين الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية حول طبيعة المسيح، أدى إلى اختلاف في الطقوس بينهما، لذلك فأغلب مسيحي الشرق أرثوذكس، والتنظيم الكهنوتى للأرثوذكس يأتى على قمته البطريرك ثم المطارنة والأساقفة والقساوسة، وللكنيسة القبطية المصرية الأرثوذكسية دستور يتضمن جميع قوانينها ونظمها، يطلق عليه اسم دايدا سكاليا أى: تعاليم الرسل.

(7/15)

### \*الراوندية

هم جماعة من الروافض، أتباع عبد الله الراوندى، كانوا يرون أن عبد الله بن الحنفية أوصى إلى محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بالإمامة، وأن الإمامة انتقلت من محمد إلى ابنه أبى جعفر المنصور. وقالوا: إن أبى جعفر المنصور هو الله، وهو العالم بكل شىء، ويعلم سرهم ونجواهم، ويحى ويميت، وهو الذى يطعمهم ويسقيهم، واعتقدوا فى التناسخ. ولما بلغ المنصور قولهم أخذ جماعة منهم، فاعترفوا، فاستتابهم فلم يرجعوا، وقالوا: المنصور ربنا، فإذا شاء أحيانا، وإذا شاء قتلنا شهداء، وله أن يفعل ما يشاء بخلقه، ولا يُسأل عما يفعل. وخرجت جماعة منهم يطوفون بقصره، ويهتفون: أنت .. أنت .. ؛

أى: أنت الله، فكلف المنصور معن بن زائدة الشيباني فخرج إليهم بعسكره وقتلهم، إلا أنه لم يستطع أن يقضى عليهم قضاءً تاماً، إذ خرجوا بعد ذلك في صورة ثورات مختلفة، مثل: ثورة الملقع الخراساني وبابك الحرمي.

(8/15)

### \*الاتحاد والترقي

الاتحاد والترقي أول حزب سياسى ظهر فى الدولة العثمانية عام (1308 هـ)، وكان فى الأصل جمعية سرية أنشأها بعض أعضاء جمعية تركيا الفتاة، وكانت أهدافهم المعلنة هي: إطلاق الحريات، وإقامة حياة نيابية، وإعلان الدستور، أمّا الأهداف الخفية فهي: السعى للوصول إلى السلطة، وإسقاط الخلافة العثمانية، وتمزيق العالم الإسلامى، وتفتيت وحدته، والسيطرة عليه، وفتح الطريق أمام اليهود لإقامة دولة لهم فى فلسطين، ثم تمتد من النيل إلى الفرات. وكان معظم أعضاء هذه الجمعية منضمين إلى الجمعيات الماسونية، وكانوا خليطاً من أجناس وأديان وقوميات مختلفة، ولكن أغلبهم كانوا من الأتراك العثمانيين، وكان ضباط الجيش التركى هم أبرز العناصر فى جمعية الاتحاد والترقي. وقد أصبح هذا التنظيم السرى حزباً علنياً فى سنة (1327 هـ) بعد نجاحه فى الإطاحة بالسلطان العثماني عبد الحميد الثاني، وأصبح هذا الحزب هو صاحب السلطة الحقيقية فى الدولة العثمانية فى الفترة من سنة (1326 هـ) إلى سنة (1337 هـ). وب عزل السلطان عبد الحميد لم تعد للخلافة سيطرة على الدولة الإسلامية، فقد جاء من بعده سلاطين مستضعفون، وقعوا تحت سيطرة جمعية الاتحاد والترقي التي يقف من ورائها اليهود وكانت هذه الجمعية موضع شبهات منذ

وقت مبكر. وقد استغل اليهود هذه الجمعية، ووفروا لها كل  
الإمكانات المادية، وكانت لهم الخطوة والمكانة في الوزارات  
التي شكلتها، وكانت هذه الجمعية تعمل - بتوجيه من العناصر  
اليهودية - على إزالة كثير من القيود التي تقف في وجه  
استيطانهم في فلسطين، وكانت سياسة الاتحاد والترقي بعد  
أن أمسك أعضاؤه بزمام السلطة في تركيا عنصرية متطرفة،  
فنادوا بتفوق العنصر التركي، وبضرورة سيادته على العناصر  
الأخرى، وبخاصة العنصر العربي. وقد أدت سياستهم هذه - في  
النهاية - إلى سقوط الخلافة العثمانية، وتمزيق العالم الإسلامي،

(9/15)

---

وضياع ثرواته، ووقوعه في قبضة الاحتلال، واغتصاب فلسطين  
، ثم إقامة دولة يهودية على أرضها.

(10/15)

---

### \*الأقباط

لقب اختص به المسيحيون المصريون، دون سائر المسيحيين في  
العالم أجمع حتى صار علمًا عليهم، وهي كلمة ذات مدلول  
تاريخي بعيد، فكلمة قبطي مأخوذة من اللفظة الإغريقية  
أيقبوتي أو من اللفظة الرومانية أغيبتي، وتعني المصري،  
ولفظة الأقباط كانت تطلق على المصريين جميعًا، ولا تخص  
المسيحيين وحدهم، وقد كان إطلاق هذا اللفظ على المصريين  
سابقًا على دخول المسيحية مصر، فلما دخلت المسيحية إليها  
في القرن الأول الميلادي دخل الأقباط فيها، ولما دخل الإسلام  
مصر في القرن السابع الميلادي دخل فيه الأقباط كذلك. وطوال

القرون الأولى للميلاد كان للأقباط المسيحيين أثر في مجال الفكر والثقافة في عالم المسيحية آنذاك، وفي ظل الإسلام شارك الأقباط المسيحيون المسلمين في صنع حضارة راقية على أرض مصر، ونعموا معًا بالحرية والأمن. وفي عهد الفاطميين حظى المسيحيون بمكانة بارزة، فأصبحت لهم الوزارة والمشورة، وتزوج الخلفاء منهم. ولم يشعر الأقباط المسيحيون في مصر بأى تغيير في سياسة الدولة الإسلامية تجاههم خلال الغزو الصليبي لبلاد الشام ومصر. وبلغ من عمق الصلة والتآلف بين الأقباط المسيحيين والمسلمين آنذاك أن رجال الدين المسيحي كانوا يحتكمون - في بعض خلافاتهم - إلى ملوك الأيوبيين، كما حدث في عهد الملك الكامل، عندما سألوه حلّ النزاع بينهم حول اختيار بطريك الإسكندرية. ومما يلفت النظر أن الرهبان والراهبات في أديرة مصر قد تمتعوا بالإعفاء التام من الضرائب، وجميع الالتزامات المالية، كما سمح لهم بتلقي الهدايا والندور والصدقات التي تأتيهم من الخارج دون فرض أية ضريبة عليها.

(11/15)

### \*الوهابية

هي إحدى الحركات الإصلاحية الرائدة التي ظهرت إبان عهود التخلف والجمود الفكرى في العالم الإسلامى. وتنسب الوهابية إلى مؤسسها محمد بن عبد الوهاب. وهي تدعو إلى العودة بالعقيدة الإسلامية إلى أصولها الصافية، وتنقية مفهوم التوحيد مما علق به من مظاهر الشرك. وقد دعت الحركة الوهابية إلى فتح باب الاجتهاد، بعد أن ظلّ مغلقاً منذ سقوط بغداد في أواسط القرن السابع الهجرى، كما أكدت ضرورة الرجوع إلى

الكتاب والسنة، باعتبارهما المصدر الأول للتشريع، وعدم قبول أى أمر فى العقيدة ما لم يستند إلى دليل واضح ومباشر منهما، واعتمدت منهج أهل السنة والجماعة فى فهم الدليل والبناء عليه، وطالبت المسلمين بالعودة إلى ما كان عليه السلف الصالح فى صدر الإسلام من نقاء العقيدة وسلامتها.

(12/15)

### \*الإباضية

إحدى الفرق الإسلامية التى ظهرت فى أواخر عصر دولة بنى أمية، أيام حكم مروان بن محمد الثانى آخر خلفاء الدولة الأموية. وتجمع لها أنصار من حَضْرَمَوْت من بلاد اليمن، فهاجموا مكة والمدينة، فأرسل إليهم الخليفة جيشاً؛ فهزمهم بعد قتالٍ شديد، ثم انتقلت هذه الفرقة إلى عمان بقيادة الجُنْدِي بن مسعود، وظلت تمارس نشاطها هناك حتى قضى عليها العباسيون سنة (134 هـ)، ثم انتشرت الإباضية فى شمال إفريقيا فى أواسط البربر فى طرابلس وتونس، ثم انتشرت فى تاهرت بالجزائر، بزعامة الأسرة الرستمية، وظلت مسيطرة عليها نحو (13) عاماً، حتى قضى عليها الفاطميون سنة (296 هـ). ولا تزال الإباضية قائمة، حتى اليوم، فى كلِّ من الجزائر، وليبيا، وتونس، وتنزانيا، وعمان. وهم يعيشون على نظام ثابت وتقاليد عريقة، فلا يحتكمون إلى محاكم الدولة، وإنما يشكلون فى كلِّ بلدةٍ مجلساً يسمَّى مجلس العزابة. وعقيدة الإباضية تتفق مع أهل السنة فى الكثير من المسائل، ولا تختلف إلا فى القليل منها، وهم يعتمدون على القرآن والسنة والرأى كمصادر للتشريع.

(13/15)

---

### \*الصفريّة

فرقة من الخوارج تنسب إلى زياد بن الأصفر، ذاع صيتها في خلافة يزيد ابن معاوية وولاية عبيد الله بن زياد على العراق، وقد خالف المنتسبون إليها الأزارقة والنجدات، والإباضية في أمور كثيرة، منها: أنهم لم يكفروا القعدة عن القتال، إذا كانوا موافقين لهم في الاعتقاد، ولم يسقطوا حدّ الرجم، ولم يحكموا بقتل أطفال المشركين وتكفيرهم بأنهم سيخلدون في النار. وقالوا: التقية جائزة في القول دون العمل، وإن مرتكب الجرائم التي يقع عليها الحد كالزنا والسرقه والقذف لا يكون كافرًا، وإنما يُسمّى زانيًا أو سارقًا أو قاذفًا. أما ما كان من الكبائر مما ليس فيه حد لعظم جرمه مثل: ترك الصلاة، والفرار من الزحف، فإن مرتكبه يعدُّ كافرًا.

(14/15)

---

### \*أهل الذمة

هو اصطلاح عرفه الفقه الإسلامي، ويطلق على أهل الكتاب من اليهود والنصارى، الذين يقيمون في ديار الإسلام، ويتمتعون بالحريّة والحماية والأمن مقابل دفعهم الجزية، وهذه الجزية لا تجب على الصبي ولا المرأة ولا المجنون، كما أنه لا يجوز تحصيل تلك الجزية قبل أوانها، كما أنها لا تجب إلا مرّة واحدة في العام. وقد ترك الإسلام لأهل الذمة حرية تنظيم شؤونهم الداخلية بالكيفية التي تلائمهم، كما ساوى بين أهل الذمة الذين يدفعون الجزية وبين المسلمين الذين يدفعون الزكاة، في الحقوق والواجبات، والحماية والأمان، علاوة على الانتفاع بالمرافق العامة للدولة الإسلامية. كما حرص الإسلام على إقامة

علاقات مودة وتسامح مع أهل الذمة، مثل حضه على عيادة مرضاهم، وتبادل الأطعمة معهم، وحسن جوارهم، وإطلاق حريتهم في ممارسة شعائر عقيدتهم.

(15/15)

---

### \* السنوسية

حركة إصلاحية إسلامية تنسب إلى مؤسسها محمد بن علي السنوسي، وهي إحدى التيارات الإصلاحية التي نشطت في أنحاء متعددة من العالم الإسلامي منذ منتصف القرن الثالث عشر الهجري؛ للقضاء على البدع والخرافات التي شابت عقيدة بعض المسلمين، والعودة إلى أصول الإسلام الصحيحة. وتضمنت الدعوة السنوسية النهي عن حياة الترف، وعن المبالغة في كنز الذهب، وعن الإسراف في اقتناء الجواهر إلا من حلى النساء، كما حرّمت التدخين، وشرب القهوة، وحثت على اتباع قواعد الدين في أنقى صورته وأبسط مظاهره، كما أنزله الله - تعالى - على رسوله صلى الله عليه وسلم، والرجوع إلى نبع الإسلام الصافي، متمثلاً في القرآن الكريم والسنة النبوية. وكان للسنوسي الكبير دعاء يردده، على نحو الأدعية المعروفة بين الطوائف الصوفية، وليس فيه ما يناقض تعاليم أئمة الفقه الإسلامي، ولا يخرج عن إطار ما نزل به القرآن الكريم.

(16/15)

---

### \* السنة (مذهب)

السُّنَّة - عند الفقهاء - هي كل ما يقابل الواجب من العبادات، وقد تطلق على ما يقابل البدعة. ويُعرفُ الأصوليون السنة بأنها:

أقوال النبي - صلى الله عليه وسلم - وأفعاله وتقريراته، وصفاته. وتنقسم السنة عند الجمهور - من حيث عدد روايتها - إلى: سنة متواترة، وهي كل خبر بلغ رواته في الكثرة مبلغاً يستحيل معه اتفاقهم على الكذب، وسنة الآحاد، وهي ما كان روايتها ثلاثة فأقل في كل طبقة (جيل). كما تنقسم السنة - من حيث درجتها - إلى سنة صحيحة، وسنة حسنة، وسنة ضعيفة، وهناك ما وضع على الرسول صلى الله عليه وسلم وأطلق عليه الموضوعات. والسنة، هي المصدر الثاني في التشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم، ومن ثم فإنها تنقسم - من حيث العمل بها - إلى قسمين:

1 - سُنَّة

أخذها هدى، وتركها ضلالة: مثل صلاة العيدين، والأذان، والإقامة، وصلاة الجماعة.

2 - سُنَّة أخذها حسن وتركها لا بأس به:

مثل طريقة قيام النبي - صلى الله عليه وسلم - وعوده، وملبسه - صلى الله عليه وسلم - وغير ذلك. وهي بذلك

بمعنى المندوب إذ هو: ما طَلَبَ الشارع فعله من غير إلزام، ولا ذم على تركه.

(17/15)

#### \*الشيعة

هم شيعة علي بن أبي طالب، رضى الله عنه، وأهل بيته، وقد نادوا بأحقية علي بالإمامة، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج عن أولاده، فالإمامة - في نظرهم - ليست قضية مصلحة يناط اختيارها بجمهور المسلمين، بل هي قضية أصولية من صميم العقيدة؛ ولذا فالإمام هو محور عقيدة الشيعة. وقد ظهرت فكرة الشيعة - في أول أمرها - اثر وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم -، فرأى جماعة من

الصحابة أن أهل بيت النبي - صلى الله عليه وسلم - هم أولى الناس بخلافته، فالدعوة في نظر هؤلاء ميراث أدبي، وفي مقدمة أهل النبي - صلى الله عليه وسلم - ابن عمه علي؛ فهم يرون أن أحقيته في الخلافة قائمة على التعيين لا الانتخاب، ويرون أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أوصى لعلي من بعده، وبالتالي أوصى علي لمن بعده، وأن كل إمام وصي، والوصي معصوم من الخطأ، فهو عندهم نائب صاحب الشريعة، له علم الظاهر والباطن، وله حق التشريع، ولا يقف عند حدّ التفسير والاجتهاد. وتنقسم الشيعة أقسامًا وافرًا عديدة، ولكنهم جميعًا يتفقون على إمامة علي، كرم الله وجهه، ومن بعده الحسن، والحسين، رضى الله عنهما، ولكنهم اختلفوا في الإمامة بعد استشهاد الحسين. وتتضمن عقيدة الشيعة قضايا عديدة، منها: الوصي والوصاية والعصمة والغيبة الصغرى والكبرى ووظهورالإمام المنتظر الذي بمأ الأرض عدلا.

(18/15)

### \*التوابون

حزب شيعي نهض للأخذ بثأر الحسين بن علي وآله، رضى الله عنهم، بعد مقتله؛ نتيجة تخلى أهل الكوفة عنه؛ فعلى الرغم من أن خروجه إليهم كان بدعوة منهم فإنهم خذلوه وتركوه يلقي حتفه على يد عبيد الله بن زياد في كربلاء، من بعد تعهدهم بنصرته ووعودهم الخادعة البراقة بالوقوف في صفّه. وعندما شعر أهل الكوفة بما ارتكبه في حق حفيد النبي - صلى الله عليه وسلم - ندموا على فعلتهم، ولاموا أنفسهم، وعزموا على الثأر لقتله والقصاص من قاتليه، وصاحوا عند قبر الحسين طالبين التوبة والمغفرة من الله، وسموا أنفسهم التوابين. وقد تزعم هذه الحركة سليمان بن صرد الخزاعي، وهو صحابي، وقضى حزب التوابين الفترة من سنة

(61هـ) إلى سنة (64هـ) في الاستعداد للقتال، وجمع السلاح، واستمالة الناس، ثم خرجوا لقتال الجيش الأموي القادم من الشام بقيادة عبيد الله بن زياد، والتقى الطرفان عند عين الوردية، وسرعان ما انتهت المعركة بعد مصرع سليمان بن صرد وكثير من أعوانه.

(19/15)

---

### \* الأنصار

لقب اشتهر به المسلمون من أهل المدينة من الأوس والخزرج الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ونصروه، وآزره دعوته. وقد كان لإيمان السبعة الأوائل من الأنصار الذين التقوا برسول الله (أول مرة في موسم الحج، أكبر الأثر في انتشار الإسلام في المدينة؛ مما هيا للمؤمنين المضطهدين في مكة أن يجدوا في المدينة ملاذاً يلجئون إليه، ووجد فيها النبي - صلى الله عليه وسلم - ملجأً آمناً يقيم فيه دولته، وينشر منه دعوته، ويمكن أصحابه من الحفاظ على عقيدتهم ضد الشرك والمشركين. وكان للأنصار فضل كبير في نصرة الإسلام، وخاضوا عديداً من الغزوات ضد المشركين أهمها غزوة بدر، وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - شديد الحب للأنصار، يدعو لهم، ويوصي بهم خيراً؛ لما بذلوه في نصرة الدعوة، ومواساتهم إخوانهم المهاجرين.

(20/15)

---

### \* البوذية

ديانة وضعية، تنسب إلى سدهارتاجوتاما الملقب ببوذا، وتعنى العالم، مؤسسها في القرن السابع قبل الميلاد في شبه القارة

الهندية، وينتمى بوذا إلى قبيلة ساكيا التي كانت تقيم فيما يعرف اليوم بمملكة نيبال وكان أبوه حاكمًا لهذه المنطقة، فشب بوذا مترفًا، ولما بلغ السادسة والعشرين انصرف إلى حياة الزهد والتقشف، وهجر زوجته، وقضى أكثر من أربعين سنة، يُعَلِّم النَّاسَ، ويتجول حتى قامت البوذية. وكانت البوذية - في بدايتها - متوجهة إلى العناية بالإنسان، وتخليصه من آلامه التي سببتها له الشهوات، كما أنها كانت تدعو إلى التصوف والخشونة، ونبذ الترف، وتنادى بالحبّة والمساواة إلا أنها تحولت إلى طقوس وثنية بعد موت مؤسسها، فانقسمت إلى مذهبين: مذهب هينايانا ومذهب مهايانا. وكان لاعتناق آسوكا - ملك الهند- البوذية وتحمسه لنشرها أثر كبير في نشرها في سيلان والصين وكثير من بلاد آسيا. وفي العصر الحديث انتشرت البوذية في الولايات المتحدة الأمريكية وبعض البلدان الأوربية، ويقدر عدد البوذيين في العالم حاليًا بأكثر من ثلاثمائة مليون بوذي، يدينون بهذه الفلسفة المادية الإلحادية.

(21/15)

#### \*القرامطة

حركة باطنية هدامه، ظاهرها التشيع لآل البيت والانتساب إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وحقيقتها الإلحاد والإباحية، وهدم الأخلاق، والقضاء على الدولة الإسلامية، وأساس معتقدتهم ترك العبادات واستباحة المحظورات، وإقامة مجتمع على الإباحية ومشاعية في النساء والمال. وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى حمدان قرمط بن الأشعث الذي نشرها في الكوفة سنة (278هـ)، وقد دامت هذه الحركة قرابة قرن من الزمان، بدأت من جنوبي فارس، وانتقلت إلى الكوفة، وامتدت إلى الأحساء، والبحرين،

والبصرة، واليمامة، وسيطرت على مساحة واسعة من جنوبي الجزيرة العربية واليمن وعمان وخراسان. وقد دخل أهل هذه الحركة مكة واستباحوها، وخلعوا باب البيت الحرام، واقتلعوا الحجر الأسود، وسرقوه ونقلوه إلى الأحساء، وظل الحجر هناك عشرين سنة حتى عام (339هـ). وقد اتجهت جيوشهم إلى مصر، وعسكرت في منطقة عين شمس قرب القاهرة، ثم انحسر سلطان القرامطة، وزالت دولتهم، وسقط آخر معاقليهم في الأحساء والبحرين.

(22/15)

#### \*النصرانية

النصرانية هي الديانة المسيحية التي أنزلت على عيسى، عليه السلام، مكملته لرسالة موسى، عليه السلام، متممة لما جاء في التوراة من تعاليم، وقد نزلت النصرانية على بني إسرائيل داعية إلى التهذيب الوجداني، والرقى النفسى والعاطفى، ولكنها سرعان ما فقدت أصولها؛ مما ساعد على امتداد يد التحريف إليها، فابتعدت كثيراً عن صورتها السماوية الأولى، وامتزجت بمعتقدات وفلسفات وضعية. وتنتشر النصرانية اليوم في معظم بقاع العالم، وقد ساعد على ذلك الاستعمار وحركات التنصير التي تدعمها مؤسسات عالمية ضخمة ذات إمكانات هائلة. ومن أهم المذاهب في النصرانية: الكاثوليكية، وتنتشر بشكل كبير في إيطاليا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال والدانمارك، والبروتستانتية، وتنتشر في ألمانيا وإنجلترا، والأرثوذكسية الشرقية، وتنتشر في روسيا والبلقان واليونان، ومقرها الأصلى في القسطنطينية، ويتبعها عدد من الكنائس الشرقية المستقلة.

### \*الإمامية

إحدى فرق الشيعة، وهم الذين نادوا بإمامة اثني عشر إمامًا من آل البيت يسمون الاثني عشرية والموسوية. والأئمة عندهم: علي والحسن والحسين وعلي زين العابدين ومحمد الباقر وجعفر الصادق وموسى الكاظم. وبعد وفاة جعفر، انقسم أتباعه فاستمرت الإسماعيلية أو السبعية على إمامة إسماعيل الابن الأكبر لجعفر وكان قد مات في حياة أبيه، وأعلنت الموسوية الولاء لموسى الذى أوصى له والده بالإمامة، ثم من بعده على الرضا، ثم ابنه محمد الجواد، ثم ابنه على الهادى، ثم ابنه الحسن العسكرى، وهو الإمام الحادى عشر، ثم ابنه محمد الإمام الثانى عشر. وقد مات محمد سنة (265هـ)، ولم يكن له ولد، فوقف تسلسل الأئمة، ويزعم الإمامية أنه دخل سردابًا فى سامراء فلم يمت، وأنه سيرجع مرة أخرى، وهو المهدي المنتظر. وهذه الطائفة منتشرة فى إيران والعراق وسوريا ولبنان، ومنهم جماعات متفرقة فى شتى أنحاء العالم.

### \*اليهودية

أقدم الرسالات السماوية الثلاث، وهى مجموعة من الشرائع والآثار والعقائد التى وردت فى العهد القديم وفالتلمود الذى أعاد جمع ماجاء فى العهد القديم، وصلتها بالمسيحية واضحة فالمسيح - عليه السلام - كان من أصل يهودى. ولم تسلم اليهودية من الاضطراب والتأويل تبعًا لاضطراب اليهود أنفسهم،

وقد دفعهم ذلك إلى التمسك بها، وتقوم اليهودية على توحيد الخالق، وتنزيهه عن الحوادث، وأنه تعالى قد جعل شعب إسرائيل من نسل إبراهيم، عليه السلام؛ ليكون شعب الله المختار، وأنه قد أنزل التوراة على موسى، عليه السلام؛ ليقود هذا الشعب على ضوء تعاليمها 0 واحتفظ اليهود - منذ القدم- بصفاء جنسهم، وتوارثوا تعاليمهم، ولكنهم لم يقوموا بعمل تبشيري يذكر على الرغم من اعتقادهم بتميزهم، وأن العالم سيطهر على أيديهم. ومن أهم تعاليمهم: الختان للذكور، وتحريم كل ما يمس الخنزير من طعام أو شراب. وقد تعلق اليهود - منذ القدم كذلك- بأمل كبير هو أنهم سيعودون إلى أرض كنعان الموعودة. وقد انقسمت اليهودية - عبر العصور- إلى فرق عديدة (قديمًا وحديثًا)، منها: الأسينيون والصدوقيون والفريسيون، وأعظم انقسام حدث بينهم هو ذلك الذي حدث في القرن الثامن عشر، بعد حركة الإصلاح الديني التي قام بها موسى مندلسون في ألمانيا، وهدف من ورائها إلى التحرر من بعض الحرمات القديمة، وإباحة الخنزير، وعدم تقديس السبت، والتخفيف من كثير من الطقوس، واستعمال اللغة الدارجة في المراسيم الدينية، بدلا من العبرية، وعدم الصلاة على الموتى. فأخذ بهذا كثير من يهود ألمانيا وأمريكا، وعارضه اليهود الأرثوذكس.

(25/15)

#### \*الحشاشون

إحدى طوائف الشيعة الإسماعيلية. اشتق اسمها من الحشيش، وهو عبارة عن عصارة مخدرة تستخرج من نبات القنب الهندي الذي كانوا يتعاطونه لإشاعة روح الاستسلام والانقياد لزعمائهم الذين يجرسونهم على القتل والاعتقال للتخلص من أعدائهم.

ويرجع تأسيس هذه الطائفة إلى الحسن الصباح الذي أنشأها كرابطة سرية ذات أهداف سياسية، ثم استولى على قلعة ألموت عام (483هـ)، وتابع خلفاؤه هذه السياسة بالاستيلاء على عدّة مواقع جبلية حصينة، تقع بين الشام وإيران، ودام سلطان هذه الجماعة نحو قرنين من الزمان. وقد حاول الخلفاء العباسيون القضاء على هذه الطائفة، وبدأت هذه الطائفة تختصر باستيلاء هولوكو على قلعة ألموت عام (654هـ) حتى قضى السلطان الظاهر بيبرس على نفوذها تمامًا في الشام عام (671هـ)، وبذلك انتهى أمرها كقوة سياسية لعبت دورًا مؤثرًا في تاريخ المسلمين.

(26/15)

#### \*الإسماعيلية

فرقة باطنية تنسب إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق، وتقوم على التشيع لآل البيت، وقد نشأت في العراق، ثم انتقلت إلى فارس وخراسان وبلاد ماوراء النهر، مثل: الهند والتركستان، فخالطت مذهبهم آراء من عقائد الفرس القديمة، والأفكار الهندية، واندس بينهم أصحاب الأهواء، فشطوا في غلوهم، وعملوا على انحرافهم بما انتحلوا من أفكار ومعتقدات بعيدة عن الكتاب والسنة، وتسلمت إليهم فلسفات وعقائد كثيرة أثرت فيهم، وأبعدتهم عن الإسلام الصحيح. وللإسماعيلية أفكارهم ومعتقداتهم الخاصة بهم، وهي تدور حول شخصية الإمام، وتجعله محور دعوتهم، فلا بد - عندهم - من وجود إمام معصوم، منصوص عليه، من نسل محمد بن إسماعيل، على أن يكون الابن الأكبر، ويجعلون للإمام بعض صفات الله تعالى، ويخصونه بعلم الباطن، ويدفعون له خمس مايكسيون، كما يؤمنون بالتقية

والسرية، ويطبقونها في الفترات التي تشتد عليهم فيها الأحداث، ويعتقدون في التناسخ، والإمام عندهم وارث الأنبياء جميعاً، ووارث لكل من سبقه من الأئمة.

(27/15)

---

### \*الخوارج

فرقة سياسية إسلامية، ظهرت في أواخر عصر الخلفاء الراشدين، في عهد علي بن أبي طالب، في موقعة صفين، وكان سبب خلافهم مع علي - رضى الله عنه - أن بيعته كانت صحيحة من وجهة نظرهم، باتفاق مجموع الأمة، فما كان له أن يلجأ إلى التحكيم بينه وبين معاوية، ورأوا أنه كان عليه أن يقاتل معاوية قتال المؤمن بحقه، وعابوا عليه أنه احتكم إلى الرجال، ولم يحتكم إلى القرآن الكريم، وزعموا أنه أثار بذلك فتنة بين المسلمين. وقد انبثقت عن هذه الفرقة - على مر الزمن - عدة فرق، بلغت اثنتين وعشرين فرقة، منها: الأزارقة، والنجدات وغيرها. وكان الخوارج - لاسيما في الفترة الأولى من نشأتهم - متفقين على مسائل، أهمها: أن الخلافة حق لكل مسلم مادام مؤهلاً لها، وهم في ذلك يخالفون الشيعة الذين يرون أن الخليفة لا بد أن يكون من آل البيت، كما يخالفون بني أمية الذين قصروا الخلافة على قريش، كما اتفقوا على خروجهم على السلطان الجائر، وعلى تكفير مرتكب الكبائر، إذ إن الاعتقاد بالله ونبيه دون العمل بتعاليم الإسلام لا يختلف - في رأيهم - عن الكفر.

(28/15)

---

## \*الصحابة

الصحابة جمع صحابي، وهو من لقي النبي - صلى الله عليه وسلم - مؤمناً، ومات على الإسلام، ويطلق عليه أيضاً الصاحب. وللصحابة منزلة عظيمة عند المسلمين، ولهم مكانة عالية في تقدير أهل السنة؛ فعن طريقهم وصلت أحاديث النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى من جاء بعدهم، وقد بدأت العناية بجمع أسماء الصحابة ثم العناية بسيرهم نتيجة العناية بالسير النبوية، التي تشتمل على أخبار المغازي، كما تشتمل أقوال الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأفعاله، التي هي موضوع السنّة؛ باعتبارها المصدر الثاني للتشريع، فالعناية بما مهدت للعناية برواة السيرة الذين هم صحابة النبي - صلى الله عليه وسلم -، ثم تابعيهم، وتابعي تابعيهم. وقد وضعت مؤلفات موسوعية اشتملت على أسماء المحدثين وأنسابهم وتراجمهم، بدءاً من صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويعد كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد أقدم المصادر في تراجم الصحابة وأهمها، وكذلك كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، وكتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن حجر العسقلاني، وغيرها من الكتب. ويقدر بعض المؤرخين عدد الذين دخلوا في الإسلام، ورأوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - حتى وفاته في العام الحادي عشر من الهجرة - بنحو (144) ألف صحابي.

(29/15)

## \*العلمانية

العلمانية هي ترجمة لكلمة فرنسية تعني لادينية، وهي نزعة أو اتجاه اعتنقه جماعة في أوروبا، في مقابل ما كان سائداً فيها في العصور المظلمة، التي تسلط فيها رجال الدين وسيطروا على أنشطة الحياة في كل الميادين؛ مما تسبب في الجمود الفكري والتخلف الحضاري، في الوقت الذي حقق فيه المسلمون أعظم

الإجازات، وبلغوا من أسباب الرقى والمجد ما سادوا به العالم في كلّ المجالات. وكان معتنقو هذا المذهب - في أول الأمر - قد وقفوا من الدين موقف عدم المبالاة، وتركوا سلطانه ينحصر في دائرة خاصة، واكتفوا بفصله عن الدولة. وفي القرن التاسع عشر كانت المواجهة العنيفة بين العلمانية والدين، بعد أن سيطرت الأفكار المادية على نفوس كثير ممن فُتِنوا بالعلم التجريبي، إلى حدّ إنكار الألوهية، ورفض الأديان، ورد ماجاءت به من مبادئ، واتهموها بتهم كثيرة كردّ فعل للمعاناة التي عاشوها في ظلّ سيطرة رجال الدين في زمن التخلف الذي نسبوه إلى الدين.

(30/15)

#### \*المورسكيون

جمع مفرده: «المورسكى» وهى تصغير لكلمة «الموروه» والمقصود بها أفراد الشعب المسلم الذى ظل موجودًا بإسبانيا يخضع لحكم الملكين الكاثوليكين بعد سقوط غرناطة في أيديهما. وقد نظمت معاهدة التسليم حقوق وواجبات هؤلاء، لكن بنود هذه المعاهدة سقطت واحدًا وراء الآخر، وأريد لهم أن يكونوا نصارى شاءوا أم أبوا، وتم في سبيل ذلك اللجوء إلى كل ألوان الأساليب وأشدّها قسوة وعنقًا مع استخدام الأمانى أحيانًا. وقد أبت غالبية المسلمين أن تفرض عليهم عقيدة لم يؤمنوا بها فاصطدموا بالسلطات المسئولة دينية ومدنية، واستخدمت محاكم التفتيش معهم كل حيلها من اعتقال وتشريد ومصادرة وتحريق، كما جوبهت ثوراتهم على الظلم بكل قسوة وعنف، ولم يفت المسئولون استخدام وسائل التبشير والإغراء، وظل المسلمون على موقفهم وواصلوا ممارسة شعائرهم الإسلامية في العلن حينًا وفي السر أحيانًا، وبلغ الضيق برجال

الكنيسة ورجال الحكم مداه، وبعد مناقشات مستفيضة تقرر طرد  
المورسكيين من كل إسبانيا، وتم ذلك بالفعل في الفترة من  
(1609 - 1614م)، حدث ذلك دون مراعاة لمشاعر هذه الشريحة من  
المتجمع الإسباني، على الرغم مما كان لها من دور متميز في  
خدمة الزراعة والاقتصاد بمختلف بلدان شبه الجزيرة.

(31/15)

### \*القادرية

هي طريقة من الطرق الصوفية. تنسب إلى شيخها عبد القادر  
الجيلاني، المتوفى سنة (561 هـ). وللدخول في هذه الطريقة  
على المرید أن يرتدى الخرقة من یدی شیخه، ویعلن أن إرادته  
أصبحت تبعاً لإرادة شيخه، ثم يدخل خلوة أربعين يوماً، يصوم  
النهار ويقوم الليل، وعليه أن يقلل من طعامه تدريجياً طوال  
الأربعين يوماً، إلى أن يصل إلى الانقطاع التام عن الطعام طوال  
الأيام الثلاثة الأخيرة، وبعد ذلك يعود إلى وجباته المعهودة من  
قبل تدريجياً. ودخلت الطريقة القادرية مكة في حياة عبد القادر  
الجيلاني، ودخلت آسيا الصغرى والقسطنطينية على يد  
إسماعيل رومي المتوفى سنة (1041 هـ)، ودخلت فاس سنة  
(1104 هـ)، ثم دخلت مصر، وانتشرت فيها، خاصة بين فئات  
صيادي الأسماك. وانتشرت الطريقة انتشاراً كبيراً في العصر  
الحديث، وربما كان ذلك بسبب ما فعله أتباعها من مقاومة  
الاحتلال الفرنسي في شمال إفريقيا لعدة سنوات. وتجري في  
الهند الاحتفالات بذكرى عبد القادر الجيلاني يوم (11 من ربيع  
الثاني) من كل عام، وفي سالى تقدم الهدايا من الخراف  
والثيران لأحفاد عبد القادر الجيلاني، وفي مصر يخرج أتباع

هذه الطريقة في مواكبهم الدينية رافعين شبكات صيد مختلفة الألوان على أعمدة.

(32/15)

---

### \*النجادات

إحدى فرق الخوارج، وهم أتباع نجدة بن عامر الحنفي الذي اجتمع هو ونافع بن الأزرق بمكة مع الخوارج على ابن الزبير، ثم تفرقا عنه، واختلف نافع ونجدة، فصار نافع إلى البصرة، ونجدة إلى اليمامة، وعظم أمره؛ فاستولى على اليمامة والبحرين سنة (66 هـ). وقيل للنجادات: العاذرية؛ لأنهم عذروا بالجهالات في أحكام الفروع؛ وذلك أنهم قالوا: الدين أمران؛ أحدهما: معرفة الله ورسله، عليهم السلام، وتحريم دماء المسلمين وأموالهم، وتحريم الغصب، والإقرار بما جاء من عند الله جملة، فهذا واجب، وما سوى ذلك فالناس معذورون بجهالته حتى تقوم عليهم الحجة في جميع الحلال، فمن استحل شيئاً عن طريق الاجتهاد مما قد يكون محرماً فهو معذور بجهالته. وقالوا: لاندري لعل الله يعذب المؤمنين بذنوبهم، فإن فعل فإنما يعذبهم في غير النار بقدر ذنوبهم، ولا يخلدهم في العذاب، ثم يدخلهم الجنة. وزعموا أن من كذب كذبة صغيرة ثم أصر عليها فهو مشرك، ولم يكفروا من يرتكب كبيرة من الكبائر منهم، في حين كفروا من يرتكبها من غيرهم. وافتقرت النجادات إلى: عطوية وهم أتباع عطية بن الأسود الحنفي، وفديكية، وهم أتباع أبي فديك؛ فصاروا ثلاث فرق: النجدية، والعطوية والفديكية.

(33/15)

---

## \*الخلافة

هى نظام حكم إسلامى، بدأه المسلمون بعد وفاة النبى - صلى الله عليه وسلم -، يقوم على الشورى؛ لاختيار الخليفة أو الحاكم الذى له حق الولاية العامة على شئون المسلمين فى أمور الدين والدنيا. وقد أُطلق لقب الخليفة على كل من تولى هذا المنصب، كذلك أُطلق عليه لقبى أمير المؤمنين والإمام. وكانت الخلافة فى عهد الخلفاء الراشدين تقوم على الشورى، ثم أصبحت تنحصر فى أهل بيت واحد؛ حيث كان الخليفة يأخذ البيعة لولى عهده، وكان ذلك فى عصور الأمويين والعباسيين والفاطميين. واستمرت الخلافة رمزًا لوحدة الأمة الإسلامية عدة قرون، ثم تعددت، فظهرت الخلافة الفاطمية سنة (297هـ) فى مصر والشام والحجاز، والخلافة الأموية فى الأندلس سنة (300هـ)، وازداد هذا التعدد بعد سقوط الخلافة العباسية سنة (656هـ). وظلت هكذا حتى سقوطها فى العصر الحديث على يد مصطفى كمال أتاتورك سنة (1924م)، حين أُلغى الخلافة العثمانية.

(1/16)

## \*دار صناعة السفن

دار الصناعة: مصطلح فى التاريخ الإسلامى، يُقصد به ما يُعرف اليوم بأحواض بناء السفن أو الترسانة. وبدأ إنشاء دور الصناعة الإسلامية منذ القرن الأول الهجرى؛ فبعد أن فتح المسلمون الشام ومصر وشمال إفريقيا، وصار الجهاد البحرى ضد البيزنطيين ضرورة لا بد منها، اتخذ عثمان بن عفان - رضى الله عنه - سياسة بحرية دفاعية وهجومية فى آنٍ واحد، وتحتّم على المسلمين أن ينشئوا الأساطيل فأقاموا دورًا لصناعة السفن. وأقدم دار أقامها المسلمون هى التى أمر بإنشائها الخليفة

الأموى معاوية بن أبي سفيان فى تونس، ثم تتابع بناء عدد من دور الصناعة فى بعض موانئ البحر الأبيض المتوسط. ولما اتصل الأوربيون بالعرب عن طريق الأندلس فى الغرب، والحروب الصليبية فى الشرق، تأثروا بمدنيتهم؛ فاقتبسوا منهم ذلك الاسم؛ فأطلق الإسبان على دار الصناعة: دار سانة وترسانة، وأطلق عليها الفرنسيون والإنجليز أرسينال كما اقتبس الأتراك ذلك الاسم، وأطلقوا على دار الصناعة ترسخانة.

(2/16)

### \*جامع القرويين

أشهر جوامع المغرب، لاسيما أنه استخدم كجامعة إسلامية مثل الأزهر، وقد أنشأته السيدة فاطمة القروية سنة (245هـ)؛ ليكون محراباً للعلم، وظل كذلك لمدة (11) قرناً، وهو بذلك أقدم جامعة إسلامية. وكان التعليم فيه حرّاً يختاره الطلاب والأساتذة حتى سنة (1789م)، عندما أصدر السلطان محمد الثالث مرسوماً بتحديد مواد الدراسة والكتب، وفى سنة (1931 م) صدر مرسوم آخر يقسم التعليم فى جامع القرويين إلى ثلاث مراحل. وقد أضيف إلى الجامع معهد للفتيات. ولم تقتصر الدراسة فى القرويين على العلوم الشرعية واللغوية، بل كان يدرس فيه الفلسفة والطب والهندسة. وبعد استقلال المغرب أصبح الجامع جامعة، بها ثلاث كليات. وقد كان للجامع مكتبة شهيرة تحوى نوادير المخطوطات، لكنها ضاعت، ولم يتبقَ منها إلا (1613) مخطوطاً. وكان عرض الجامع عند إنشائه (30) متراً، ثم أدخلت عليه عدة توسعات خاصة سنة (538هـ) فى عهد المرابطين. ويقسم صحن جامع القرويين على نمط صحن السباع بقصر الحمراء بغرناطة.

(3/16)

---

### \*الجامعة الإسلامية

هي الدعوة التي نادى بها جمال الدين الأفغاني المتوفى سنة (1897م)، من خلال صحيفته العروة الوثقى التي صدرت سنة (1884م) وتبنى السلطان عبد الحميد المتوفى سنة (1918م) هذه الفكرة الرامية إلى وحدة المسلمين وتجمعهم حول الدولة العثمانية؛ لتخليص العالم الإسلامي من السيطرة السياسية والعسكرية الاستعمارية الأوروبية، والنهوض بالمسلمين من جمودهم الفكري والحضارى. وترتكز دعوة الأفغاني إلى الجامعة الإسلامية على دعامين هما: الحج، والخلافة، وضرورة التمسك بهما كنظام ديني وسياسي؛ لذلك نشر الأفغاني دعوته من خلال الصحافة ورحلاته إلى البلاد الإسلامية، وتبنى السلطان العثماني عبد الحميد الثاني هذه الفكرة من خلال دعم الخلافة وتقويتها وإنشاء خط حديد الحجاز. ولاقت هذه الدعوة تأييداً كبيراً في مصر والشام والهند والشمال الإفريقي، ورغم ذلك عارضها البعض وبخاصة المسيحيون. وقد حققت الجامعة الإسلامية نجاحاً تمثل في مساندة المسلمين للدولة العثمانية أثناء حربها ضد إيطاليا سنة (1911م)، ورغم هذا النجاح فقد تعثرت بسبب التخلف والجمود الفكري في ديار المسلمين، وقيام الحركة الطورانية التي تمجد العنصر التركي، بالإضافة إلى عزل السلطان عبد الحميد سنة (1908م).

(4/16)

---

### \*الجامعة العربية

هي منظمة إقليمية أنشئت في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وتضم الدول العربية المستقلة الموقعة على ميثاق الجامعة،

وتهدف إلى تحقيق التعاون الاختياري بين الدول الأعضاء، واحترام سيادتها. ويقع ميثاق جامعة الدول العربية في (20) مادة وثلاثة ملاحق، أحدها خاص بفلسطين. وبدأ تطبيق الميثاق في (11 من مايو سنة 1945م). ويبلغ عدد الدول الأعضاء بالجامعة (22) عضوًا، والعضوية بها مقتصرة على الدول المستقلة. وتمتع الجامعة العربية بكيان قانوني دولي؛ لذلك كان من سلطاتها إبرام المعاهدات الدولية بين أحد أعضائها وأى دولة أخرى. وتتكون الجامعة من عدة أجهزة رئيسية، هي مجلس الجامعة الذي يُعد أعلى سلطة في الجامعة، والأمانة العامة ومقرها القاهرة، ويرأسها الأمين العام، واللجان الدائمة التي تهدف إلى تحقيق الأهداف التي أنشئت من أجلها الجامعة، ويبلغ عدد هذه اللجان (12) لجنة، في المجالات الثقافية والسياسية والاقتصادية. ولتحقيق التعاون بين أعضاء الجامعة قررت الدول السبع المؤسسة للجامعة توقيع اتفاقية الدفاع المشترك سنة (1950م)، وكذلك السوق العربية المشتركة سنة (1964م)، وقد شجعت الجامعة على إنشاء المنظمات المتخصصة في المجالات المختلفة، مثل: منظمة العمل العربية واتحاد البريد العربي. وكان للجامعة دور بارز في حل النزاعات العربية، مثل: النزاع السوري اللبناني سنة (1949م). ورغم أهمية دور الجامعة العربية في تحقيق التعاون العربي فإن هناك بعض المعوقات تؤثر في عملها، أهمها: تباين الآراء والمواقف، واختلاف تبعات القرارات على الدول الأعضاء، وكذلك المعوقات الخاصة بالميثاق، ومحاولات الصهيونية العالمية عرقلة الوحدة العربية. وقد تعرضت الجامعة لأزمة كبيرة؛ بسبب نقل مقرها إلى تونس سنة (1978م) بعد اتفاقية كامب ديفيد، واستمر هذا الأمر حتى عادت مرة أخرى إلى مقرها في القاهرة سنة (1990م)، كذلك أثر الغزو

---

العراقى للكوييت فى الموقف العربى، وأدى إلى انقسام العرب.

(6/16)

---

### \*الجغرافيا

كلمة يونانية الأصل معربة تعنى وصف الأرض، وقد دخلت هذه الكلمة اللغة العربية إبان العصر العباسى. وكان العرب يعرفون الجغرافيا بأنها علم بأحوال الأرض؛ من حيث تقسيمها إلى الأقاليم والجبال والأنهار، وما يختلف حال السكان باختلافه. والجغرافيا بذلك تدرس الأرض بوصفها وطنًا للإنسان. ويتفق الجغرافيون على أن الجغرافيا هي علم المكان. وأقدم كتب الجغرافيا المعروفة لدينا كتاب الجغرافيا لبطليموس. والملاحظ أن علم الجغرافيا ارتبط بالإنسان منذ القدم؛ نظرًا إلى حاجة الإنسان إلى معرفة الأماكن والظواهر الجغرافية والفلكية المحيطة به، إلا أنه تطور على أيدي العرب؛ نظرًا لارتباط الجغرافيا ببعض المسائل الفقهية، مثل: تحديد القبلة والحج والصيام، كذلك عمليات الفتوح الإسلامية والتجارة والكسب وطلب العلم. وأشهر الجغرافيين المسلمين القزوينى والإصطخرى والمسعودى وياقوت الحموى وابن حوقل. وقد تطورت مسيرة الجغرافيا على أيدي الأوربيين؛ فتمتق التفسير والتحليل فيها. وتتم الجغرافيا بالمكان والإنسان والظواهر الفلكية والمناخية، والزراعة والسكان والنواحي العسكرية والاستراتيجية.

(7/16)

---

## \*الحجابه

مصطلح تاريخى يعنى حراسه باب الخليفه أو الحاكم؛ لإبلاغ الخليفه بأخبار الرعيه، وأخذ الإذن لهم بالدخول عليه. وقد نشأت الحجابه فى العصر الأموى لأسباب عديدة؛ منها حذر الخلفاء تجاه الاغتيال من قبل معارضى الدولة، والحد من تدافع الناس على أبواب الخلفاء. وكان الحُجَّاب يُختارون من أخلص الناس للخلفاء. ومع تحول الخلافة للعباسيين، واتساع رقعة الدولة الإسلامية ونفوذها، زاد الخلفاء فى اتخاذ الحُجَّاب، كما اتخذ الأمراء الحجاب، فزاد نفوذهم، حتى أصبحت الحجابه لاتقل نفوذًا عن الوزارة، بل صار هؤلاء الحجاب فى بعض الأحيان موجّهين السياسة العامة للدولة. وأصبحت الحجابه فى عصر الطوائف من مظاهر التشريف، كذلك صارت من أهم الرتب فى دولة المماليك.

(8/16)

## \*حصن بابليون

حصن روماني قديم، توجد بقاياها الآن فى مصر القديمة بجوار كنيسة مارجرجس. واختلف فى تاريخ بناء هذا الحصن، فقيل: إن جماعة من أسرى بابل هم الذين بنوه، والبعض ينسب بناءه إلى عهد الإمبراطور الروماني تراجان سنة (100م) إذ بناه للدفاع عن مصر، وكان هذا الحصن قبل الفتح الإسلامى مفتاح مصر العليا والسفلى، ونظرًا لمكانة الحصن وأهميته ظل يحمل الاسم نفسه منذ إنشائه حتى الآن؛ بفضل موقعه المنيع، وقوة حصونه، وسيطرته على مفترق الطرق؛ فقد كان يحيط بهذا الحصن سور يبلغ سمكه (18) قدمًا وارتفاعه فى بعض الأماكن (60) قدمًا. وهذا الحصن يقع على الضفة الشرقية لنهر النيل، وترتفع على أسواره أبراج محصنة، ويتصل من جهة الغرب بالنيل بواسطة

باب حديدى؛ حيث ترسو السفن، وإلى الغرب من هذا الحصن تقع  
الروضة التي كانت محصنة هي الأخرى، وكان يحيط بالحصن  
خندق عليه قنطرة متحركة، لا تُفتح إلا من الداخل، وكان هذا  
الخندق يمتلئ بالماء عند الحاجة أو وقت الفيضان، وكان يقع  
على مقربة من حصن بابليون حصن آخر هو حصن أم دنين الذي  
كان يُعدُّ مركزاً حربيّاً مساعداً لحصن بابليون. واستطاع عمرو بن  
العاص - رضى الله عنه - فتح هذا الحصن، بعد حصار دام سبعة  
أشهر في سنة (21هـ). وكان في هذا الحصن حامية بلغ عددها  
(25) ألف مقاتل، وكان عدد المسلمين (7) آلاف جندي، بالإضافة  
إلى (8) آلاف جندي آخرين أرسلهم الخليفة عمر بن الخطاب -  
رضى الله عنه - للمساعدة على فتح مصر. وبعد الفتح تراجعت  
أهمية هذا الحصن؛ بسبب انحسار النيل عنه، وبناء القسطنطينية،  
وارتفاع الأرض من حوله. وقد اهتمت به الحكومة المصرية،  
ورمته سنة (1902م).

(9/16)

### \* حصن كيفا

مدينة من مدن الجزر الفراتية تقع على الشاطئ الأيمن من نهر  
دجلة في منتصف الطريق تقريباً بين ديار بكر وجزيرة ابن عمر.  
وتوجد حالياً في تركيا ضمن لواء ماردين، وسكانها خليط من  
الأتراك والأكراد والأرمن والسوريين. وقد دخلها الإسلام سنة  
(18هـ)، وتتابع عليها الحكومات الإسلامية. ويشتهر هذا البلد  
بحصن كيفا الذي كان عاصمة بني أرتق منذ سنة (495هـ) حتى  
سنة (629هـ)؛ إذ خضعت للأيوبيين الذين دامت سلطنتهم بها  
(218) عاماً حتى فتحها العثمانيون سنة (930هـ). وذكر هذه  
المدينة في التاريخ قليل؛ نظراً لضعفها وصغرها، وكذلك خوفاً

من حكام المماليك في مصر لأن حكام كيفا كان لهم الحق في حكم مصر؛ باعتبارهم أحفاد الأيوبيين.

(10/16)

#### \*الحَمَّامَات

الحَمَّام مكان يغتسل فيه الناس. وقد عُرفت الحمامات العامة منذ القدم عند بعض الشعوب ذات الحضارات القديمة، لاسيما الرومان، على أن شهرتها ارتبطت بالتاريخ الإسلامي؛ حيث كانت من الأبنية العامة التي انتشرت في جميع المدن؛ وذلك نظرًا لأهميتها في التطهر والنظافة، بالإضافة إلى تعاليم الإسلام التي تدعو إلى التطهر والتنظيف، ومناخ منطقة الشرق الأوسط الحار. وكان يراعى في بنائها أن تُصمم بحيث تتيح للمغتسل أن ينتقل تدريجيًا من الجو الحار إلى الجو البارد؛ حتى لا يصاب بأذى. وكان الحَمَّام يقسّم إلى ثلاثة أقسام، حسب درجة حرارة المياه، ويسخن عن طريق إيقاد النار تحت أرضيته، ويشتمل على أنابيب الماء الساخن والبارد داخل الجدران. وخصصت حمامات للرجال، وأخرى للنساء، وقد تحددت أيام للسيدات، وقد احتوت القصور والمسكن الخاصة على حمامات أيضًا، ولكنها تختلف من حيث هيتها وتصميمها عن الحمامات العامة. ولم تكن الحمامات في المدن الإسلامية أقل أهمية من المساجد والمكتبات والخانات والأسواق، وقد أولى العلماء والأطباء المسلمون الحَمَّام عناية كبيرة؛ فأورده بعضهم ضمن موارد مؤلفاتهم، كما فعل داود الأنطاكي وأبو حامد الغزالي وغيرهما. وقد انتشرت الحمامات وتعددت في جميع الأمصار، وذكر هلال الصابئ المتوفى سنة (448هـ) أن عدد الحمامات في بغداد وصل في زمانه إلى أكثر من (120) ألف حَمَّام، وكان في مصر زمن الفاطميين (1170)

حمامًا حسب إحصاء على مبارك لها في الخطط التوفيقية. وكان الحمام يتألف من عدة غرف، الأولى تستقبل الداخل، وفيها يخلع ملابس، ويتعهد الحمامي بحفظها، ثم ينتقل منها إلى غرفة البخار، وهي مكسوة بألواح الرخام، وفيها ينتظر المستحم حتى يتصبب عرقًا، ثم ينتقل إلى غرفة الغطس، وتشتمل على مياه دافئة وباردة، وفيها يقوم المدلك بإزالة الأوساخ عن الجلد، مع تدليك أعضاء الجسم قبل الاغتسال ثم تجفيف الجسم واحتساء

(11/16)

---

بعض الأشرطة.

(12/16)

---

#### \*مدرسة دار الحديث الكاملة

هي مدرسة أنشأها السلطان الكامل في سنة (622هـ)، بشارع المعز لدين الله بحي الجمالية (بين القصرين سابقًا)، ووقفها على المشتغلين بالحديث النبوي، ومن بعدهم على فقهاء الشافعية، وظلت بين أعيان الفقهاء إلى أن كانت الحوادث والمحن منذ سنة (806هـ) فتلاشت لما تلاشى غيرها، واستمرت دهرًا لا يدرس بها حتى نسيت أو كادت تنسى دورها، ولم يبقَ من المدرسة إلا الإيوان الشمالي الغربي المقابل لإيوان القبلة، وجزء من الضلع الجنوبي الغربي من الإيوان الجنوبي الغربي. والإيوان الشمالي الغربي يكاد يكون مربع التخطيط؛ إذ يبلغ عمقه (10.35) من المتر، وفتحته (9.56) من المتر، وفي نهاية الإيوان يوجد عقد فتحته تبلغ (5) أمتار، بداخله حنية عمقها (3.75) من المتر، والإيوان مغطى بقبو مدبب، والحنية سقفها مسطح، وترتفع

جدرانها بارتفاع القبو. ويتوسط المدرسة صحن تبلغ مساحته (15.44 – 19.90) من المتر، تشغل جزءًا كبيرًا منه الآن ميضأة حسن الشعراوي كتبخانا، ويشغل الجانب الشمالى من المدرسة حمام يُعرف باسم حمام السلطان إينال.

(13/16)

---

### \*دار الندوة

هى دار أنشأها قصى بن كلاب بن مرة بمكة. كان يجتمع فيها سادات مكة وعظماؤها؛ للمشاورة فى أمور السلم والحرب، ففيها تتم عقود الزواج والمعاملات ولواءات الحرب وغيرها، ولم يكن يدخلها إلا ابن الأربعين سنة أو ما زاد، ولكن دخلها أبوجهل وهو ابن ثلاثين لجودة رأيه، وحكيم بن حزام للسبب نفسه وهو ابن خمسة عشر عامًا. ولم تكن دار الندوة برلمانًا أو مجلس شيوخ على النحو المفهوم من المصطلح السياسى المستخدم الآن، وإنما كانت دارًا للشورى والرأى، تتخذ رأيا عند ظهور حاجة إلى ذلك، ولم تكن قراراتها ملزمة، بل قد يخالفها سيد ذو رأى ومكانة، وربما قام وجهاء القوم وسادة الأسر بدور أكثر فاعلية من دور دار الندوة فى فض الخصومات. وجاء الإسلام ودار الندوة فى يد حكيم بن حزام فباعها لمعاوية بن أبى سفيان بمائة ألف درهم، فلامه معاوية، وقال: أبعث مكرمة آبائك وشرفهم! فقال حكيم: ذهبت المكارم إلا التقوى، والله لقد اشتريتها فى الجاهلية بزق خمر (الزق: وعاء من الجلد توضع فيه الأشرطة)، وقد بعثها بمائة ألف درهم، وأشهدكم أن ثمنها فى سبيل الله تعالى.

(14/16)

---

### \*داعى الدعوة

لقب شيعى فاطمى عُرف به رؤساء الدعوة الإسماعيلية الفاطمية؛ إذ كانت رياسة الدعوة تُسند إلى موظف كبير يُطلق عليه ذلك اللقب، وكان يلى قاضى القضاة فى الرتبة وبتزياً بزیه، وكان يساعد داعى الدعوة على نشر الدعوة الفاطمية اثنا عشر نقيباً، وله نواب ينوبون عنه فى أرجاء البلاد؛ وبذلك كان يُعد حلقة الوصل بين الخليفة وأتباعه من الإسماعيلية. وأهم أعماله: رياسة الدعوة الإسماعيلية، وأخذ العهد على المریدین، إما مباشرة وإما بواسطة نوابه فى مصر وفى غيرها من البلاد التى ساد فيها المذهب الإسماعيلى، والإشراف على محاضرات مجالس الدعوة وتنقيحها، وعرضها على الخليفة لإقرارها وتذليلها بامضائه، وجمع النجوى وهى ثلاثة دراهم وثلاث الدرهم من الأتباع. ولخطورة منصب داعى الدعوة أسند إليه الفاطميون رياسة دار الحكمة. ومن أشهر من تولوا ذلك المنصب أسرة أبى حنيفة المغربى، والمؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى.

(15/16)

---

### \*دفتر دار

كلمة فارسية الأصل دخلت اللغة التركية، وتتكون من مقطعين: دفتر بمعنى سجل الحسابات ودار بمعنى صاحب أو حامل وعلى ذلك فالكلمة تعنى: المسئول عن الشئون المالية، واستخدمت فى العربية بمعنى مأمور المالية. وقد شاع استخدام كلمة دفتر دار فى العصر العثمانى فى الولايات التى خضعت للعثمانيين، ثم أطلق لقب دفتر دار على وزير المالية المركزى فى إستانبول.

### \* رواق التكرور

الرواق هو جناح من المسجد الجامع يُخصَّص للدراسة، فيه إيوان له أعمدة يجلس بجانبها الشيوخ ومعهم الطلاب للدراسة. وكان رواق التكرور أحد الأروقة المخصصة لطلاب دولة مالى الإسلامية، الموجودين بمصر؛ للدراسة فى الأزهر الشريف. ويتكون الرواق من غرفة لإقامة الطلاب، وخزانة ودواليب لحفظ الملابس والكتب، ومكتبة موقوفة على طلاب الرواق. وللرواق شيخ يشرف على إدارته، وتقسيم الهبات المالية والعينية التى تصرف للطلاب كالمال والطعام.

### \* السكَّة

السكَّة هى العملة المضروبة من معادن الذهب والفضة والبرونز ( النقود المعدنية). واشتق اسم السكة من القالب الذى تُصب فيه، ثم يُنقش عليها بواسطة معدن صلب كالحديد. وصناعة السكة هى فن ضرب السكة وكانت تصنع فى دار السكة أو دار الضرب، ويشرف عليها القاضى لضمان شرعية النقود، ويساعده أربعة أشخاص يشرفون على الناحية الفنية فى الضرب، وهم: المقدم الذى يتولى حفظ أوزان الأعمرة، والنقَّاش الذى يحضر القوالب، والسبَّك الذى يسبك السبيكة، والضَّرَاب الذى يضرب بالختم على السبيكة. وظلت السكة الذهبية والفضية مستخدمة حتى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وانتهى العمل بها؛ لأن قيمتها كانت تتغير؛ لما يحدث للسكة من تآكل وفقدان

جزء من قيمتها؛ نتيجة لكثرة التداول؛ فلجأ الناس إلى الحد من تداولها بإدعائها البنوك مقابل صكوك ورقية تثبت أحقيتهم لها، وتمرور الوقت شاع استخدام النقود الورقية.

(18/16)

### \*سكة حديد الحجاز

خط حديدي، يصل بين بلاد الشام والأراضى المقدسة بالمملكة العربية السعودية. بدأت فكرة إنشائه سنة (1864م)، عندما اقترح زامبل الأمريكي فكرة ربط دمشق بساحل البحر الأحمر بخط حديدي، ثم في سنة (1880م) اقترح وزير الأشغال العامة بالآستانة مد خط حديدي من الشام إلى الأراضى المقدسة لخدمة حجيج البيت الحرام، ولكن حالت بعض العقبات دون تنفيذ المشروع. وفي عهد السلطان عبد الحميد فكر في إنشاء الخط لتحقيق هدفين؛ الأول ديني، وهو تيسير الحج أمام المسلمين، وتوفير الراحة والأمان والسرعة لهم. والآخر سياسى، وهو جمع كلمة المسلمين وتوحيد صفوفهم ضد الأطماع الأوربية. ورتب السلطان عبد الحميد للإتفاق على المشروع ثلاثة مصادر، هي: الموارد الرسمية للدولة المتمثلة في الضرائب وغيرها، والتبرع من داخل الدولة العثمانية نفسها، والتبرعات الخارجية من أمراء الدول الإسلامية وملوكها. وبدأ العمل في الخط سنة (1900م) وتم تقسيمه إلى عدة أقسام نفذت على عدة مراحل: القسم الأول: من دمشق إلى درعا، والثاني: من درعا إلى عمان والثالث: من عمان إلى معان والرابع: من معان إلى تبوك والخامس: من تبوك إلى العلا إلى المدينة المنورة. وأنشئ الخط بالفعل حتى وصل إلى المدينة المنورة، لم يتحرك خطوة واحدة بعدها، وكان من المفروض أن يصل إلى مكة ومنها إلى جدة، ومن معان إلى

العقبة وطابا، ولكن توقف العمل به؛ لنشوب الحرب العالمية الأولى؛ وانسحاب تركيا من بلاد الشام، بل إن جيوش الحلفاء قسمت ما تم إنشاؤه من الخط الحديدي بينها، فأخذت بريطانيا قسم فلسطين، والحكومة العربية الفيصلية القسم السوري، وحكومة الحجاز الهاشمية القسم الحجازي، وكان هذا القسم قد دُمّر حتى عمان. وفي سنة (1922م) قام الملك حسين بن علي ملك الحجاز بمحاولة إصلاح الخط، ولكن سوء أحوال القضبان وضعف عدته وعدم وجود فنيين ماهرين لصيانة الخط، حالت دون

(19/16)

---

إتمام محاولة الإصلاح. وفي سنة (1928م) تقدم بعض مسلمي الشام والأردن إلى اللجنة الدائمة للانتداب الأوربي يطلبون إحالة الإشراف الكامل على الخط وتشغيله إلى لجنة إسلامية ولكن طلبهم رفض؛ فانعقد مؤتمر إسلامي في بيت المقدس سنة (1931م) ولكنه لم يستطع إجبار اللجنة على الموافقة. وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية قامت جامعة الدول العربية بدعوة كل الدول المعنية بالخط لدراسة أحواله والاتفاق على إعادة تسييره فقامت السعودية والأردن وسوريا بعقد اجتماع في دمشق سنة (1947م) وانتهى بتشكيل لجنة لدراسة حالة الخط، ووضع التقارير حوله، وبداية العمل في الخط من جديد، ولكن حرب فلسطين سنة (1948م) أوقفت العمل به مرة أخرى حتى سنة (1953م). وفي سنة (1966م) بدأت فكرة إصلاح الخط تظهر إلى الوجود مرة أخرى، وبعد عدة اجتماعات وتشكيل عدة لجان، صدر قرار من حكومات الأردن والسعودية وسوريا ببداية العمل في المشروع مرة أخرى، ولكن حرب سنة (1967م) أوقفت

المشروع، وكذلك أعيد التفكير في المشروع سنة (1979م)، ولكن لم يتم العمل فيه حتى الآن (1418هـ = 1997م).

(20/16)

---

### \*سور مجرى العيون

أنشأه السلطان الغوري سنة (912هـ)، وما زالت آثاره باقية حتى الآن (1418هـ = 1997م) ويُعرف مجراه بشارع مجرى العيون. وهو يتجه شرقاً بجنوب مع بعض الانحناءات البسيطة حتى آثار طابية قديمة بالقرب من نهاية شارع الأشرف عند جبانة السيدة نفيسة بطول (2200) متر، ثم يتجه شمالاً بشرقٍ حتى باب السيدة عائشة. ومساحة رأس المجرى (262.85م<sup>2</sup>) على شكل سداسي، وداخله شكل سداسي آخر بوسطه عمود. ويحيط بالشكل السداسي الداخلي ستة عقود ترتكز على أكتاف، ويصعد إلى سطح المأخذ بمزلقان ليس به درج، ولعل ذلك عُملٍ خصيصاً لصعود الدواب التي تدير السواقى، وبوسط السطح حوض تحيط به ست فتحات، وبأعلى المأخذ ساحة لست سواقٍ لرفع الماء، ويتبقى من عقود المجرى الآن (217) عقداً، معظمها على شكل دائري. وأيام الحملة الفرنسية سُدَّت أغلب الفتحات بين الأكتاف الحاملة للعقود، واستخدمها الفرنسيون سوراً يَحْتَمون وراءه، ويحصرّون به مدخل المدينة من الجنوب.

(21/16)

---

### \*جامع ابن طولون

شيّده السلطان أحمد بن طولون حاكم مصر في جنوب مدينة القطائع فوق جبل يشكر. وقد بدأ بناءه سنة (263هـ)، وانتهى

منه سنة (265هـ). وجامع ابن طولون هو أكبر جوامع مصر الإسلامية؛ إذ تبلغ مساحته ستة أفدنة ونصف الفدان، وهو ثالث جامع أنشئ لإقامة صلاة الجمعة في مصر وأقدم الجوامع المختنطة بتفاصيلها المعمارية. والجامع على هيئة مستطيل يبلغ طوله (162) متراً، ويضم صحنًا مكشوفًا في وسطه، تحيط به أربعة أروقة كبيرة، كما يوجد به ستة محاريب وعدد أبوابه (21) بابًا، ويحيط بجدران المسجد من أعلى (129) شبكًا، وقبة المسجد توجد وسط الصحن، وهي ثلاثة قبة تقام في وسط المسجد وتبدو على المسجد آثار الثقافة المعمارية العراقية. وأروقة المسجد مقامة على دعائم مبنية من الطوب الأحمر، مقاس كل دعامة (2.5 × 1.3) متر. ويتميز المسجد بمنارته المشيئة من الحجر، وهي المئذنة الوحيدة في مصر ذات السلم الخارجي، وقد أجريت للمسجد عمليات ترميم وتجديد على مر العصور، وكان من بينها عملية التجديد الشاملة في عصر السلطان حسام الدين لاجين سنة (696هـ)، التي أنفق عليها من ماله الخاص (20) ألف دينار، ورتب في المسجد الدروس المختلفة. وفي القرن الثالث عشر الميلادي اتخذ المغاربة المسجد مأوى لهم أثناء رحلتهم إلى الحج. وقد عُنت لجنة حفظ الآثار العربية بالمسجد في الفترة من سنة (1890م) حتى سنة (1918م) وأصلحت ما تخدم منه، وعملت على المحافظة على زخارفه، وإقامة الشعائر الدينية فيه.

(22/16)

**\*جامع عمرو بن العاص**

هو أول مسجد شُيِّدَ في مصر الإسلامية. أنشأه الصحابي الجليل عمرو بن العاص - رضى الله عنه - بعد فراغه من فتح الإسكندرية

سنة (21هـ). ويُعرف جامع عمرو بتاج الجوامع والجامع العتيق، وكان في أول أمره غاية في البساطة وكانت مساحته لا تتعدى (30 × 50) ذراعاً، وكان عند إنشائه بدون صحن، وقد ظل على مساحته هذه حتى سنة (53هـ)، حيث زاد والى مصر مسلمة بن مخلد الأنصارى مساحته، وأنشأ به (4) صوامع للمؤذنين وتم تزيينه، كما وسعه قرّة بن شريك سنة (93هـ)، فهدمه وزاد مساحته وأقام به محراباً، وتوالت عليه بعد ذلك الإصلاحات والتوسّعات؛ فقام عبد الله بن طاهر والى مصر بتوسّعه، وأصبحت مساحته (112.5 × 120.5) متر، وهى مساحته الحالية. ولم يكن جامع عمرو لأداء الفرائض به فقط، بل كان جامعة تعقد فيها حلقات العلم التي كان يلقيها كبار العلماء، وبذلك يكون جامع عمرو قد سبق الأزهر بعدة قرون في هذا المضمار. وكانت الدروس تلقى فيه تطوعاً بدون أجر. كما كان مجلساً للقضاء لفضّ المنازعات الشرعية والمدنية، وكان به بيت المال في بعض الفترات. ولم ينقطع التدريس عن جامع عمرو إلا في القرن التاسع الهجرى، ويقال: إن عدد الصحابة الذين وقفوا في قبلة مسجد عمرو بن العاص ثمانون صحابياً، منهم: الزبير بن العوام وعبادة بن الصامت. وتجري حالياً (1997 م) في المسجد عمليات ترميم؛ نظراً إلى تدهم بعض جوانبه.

(23/16)

### \*الجامع الكبير

هو أول مسجد أقيم بعد المسجد النبوى؛ حيث بُني في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - سنة (6هـ)، وبأمر منه وحدد - صلى الله عليه وسلم - مكانه في حديقة الوالى الساساني باذان. وكانت عمارة الجامع في بدايته بسيطة، ونظراً إلى مكانته

وتاريخه، أولاه كثير من الخلفاء عنايتهم؛ فأمروا بعمارته  
وتجديده؛ إذ أمر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بتحديث  
بنائه، كذلك تم تجديده في العصرين العباسي والأيوبي؛ إذ  
أنشئت منذتنا الجامع سنة (603هـ)، وفي عصر الإمام يحيى بن  
محمد سنة (1936م)، تم بناء مكتبة للجامع. والجامع على شكل  
مستطيل (68 × 65) متراً، وله (12) مدخلاً، ومئذنتان متماثلتان  
تقريباً.

(24/16)

### \*الحاكم بأمر الله (جامع)

جامع تاريخي، بدأ الخليفة الفاطمي العزيز بالله إنشاءه سنة  
(380هـ)، ثم أتمه ابنه الحاكم بأمر الله سنة (403هـ) وكان يُعرف  
بجامع الخطبة، ويقال له الجامع الأنور، ويُعرف الآن بجامع  
الحاكم بأمر الله وكان يقع خارج باب الفتوح (أحد أبواب  
القاهرة). ولما وسع بدر الجمالي سور القاهرة صار الجامع  
داخلها. ومساحة الجامع نحو (13560) متراً، وهو من أكبر  
مساجد القاهرة اتساعاً بعد مسجد ابن طولون، وهو عبارة عن  
صحن مكشوف تحيط به عدة أروقة، ويتكون إيوان القبلة من  
خمسة أروقة، ويقطع رواق القبلة مجاز مرتفع على شكل مجاز  
الجامع الأزهر. وجامع الحاكم بأمر الله منارتان من أقدم المنارات  
في مصر. ويقع المدخل الرئيسي للجامع في منتصف الواجهة،  
ويبرز عن مستواها بنحو ستة أمتار. وقد تأثر الجامع بزلزال  
سنة (702هـ)، فرممه ركن الدين بيبرس الجاشنكيرى، وأوقف له  
الأوقاف، ورتب به دروساً أربعة على مذاهب الأئمة المشهورين  
في الفقه، ودرساً لإقراء الحديث النبوي.

(25/16)

---

### \*صقوللو محمد باشا (جامع)

جامع أنشأه الصدر الأعظم صوقللى محمد باشا فى باب العزب ( عزب قابى) بإستانبول سنة (1572م) وصممه المهندس العبرى سنان كبير المهندسين العثمانيين، على غرار مسجد السليمية، وإن كان أصغر حجماً. ومن عناصره غير المعتادة الأبراج الخارجية الثمانية التى تساير الدعائم الثمانية التى تدور مع القبة من الداخل، مع وجود الحنيات الركنية فيما بين المسافات المختلفة عن القبة، وهكذا فإن حركة الداخل المتسقة تظهر فى الخارج بالأسلوب نفسه. وبلاط المسجد يُعدُّ طفرة فنية وشكلاً فريداً؛ وذلك لاستخدام سبعة ألوان متناسقة فى زخرفته. ولم يحط أسفل الجزء الخارجى من المسجد بالقدر اللازم من الاهتمام؛ لأنَّ جلَّ العناية انصرف نحو الإبداع داخل المسجد؛ ولذا لم يكن هناك توازن بين أسفل الخارج والداخل بوجه عام.

(26/16)

---

### \*خانقاه

خانقاه أو خانكاه والجمع خوانق وخوانك كلمة فارسية بمعنى: بيت العبادة وقيل: الموضع الذى يأكل فيه الملك. والخانقاه اصطلاحاً: هى دار موقوفة لسكنى الصوفية والزهاد والعباد، ويرتب لهم فيها الطعام والكساء وغيرهما من خيرات البساتين والأسواق والعمائر الموقوفة عليها. وقد ظهرت كلمة خانقاه فى المصادر العربية فى القرن الرابع الهجرى، وقام السلاجقة بإنشاء عدد من الخوانق فى بلاد الشام، ثم امتدت الخوانق إلى أفغانستان ومملكة الغزنويين والغوريين ثم إلى العراق ومصر، وكانت أول خانقاه تبنى فى مصر فى عهد الأيوبيين سنة

(566هـ) على يد صلاح الدين الأيوبي ثم أنشأ خلفاؤه عددًا كبيرًا منها، ثم حذا حذوهم سلاطين دولة المماليك الجراكسة وأمراؤها. ولما ضعفت الدولة أهملت الخوانق ثم ظهرت في العصر العثماني وأطلق عليها اسم تكية والجمع تكايا، وقد انتشرت الخوانق في بلدان العالم الإسلامي، خاصة في دمشق وبغداد والقاهرة، وأشهر خوانق القاهرة خانقاه بيبرس الجاشنكيرى وخانقاه فرج بن برفوق وخانقاه الأشرف برسباى. وفي العصر المملوكى ازدهرت الخانقاه؛ إذ كانت عبارة عن معهد ثقافى تدرس فيه العلوم، وزودت بالحمامات والمطابخ والمدافن وأدوات المعيشة من الأمتعة والنفائس. وجرت العادة أن يعين لكل خانقاه شيخ أو أكثر وعدد من الصوفية. وقد اختلف عدد الصوفية فى كل خانقاه حسب اتساعها وريع أوقافها، ويتراوح غالبًا بين عشرة ومائة صوفى، وينبغى أن تتوافر فيهم شروط الصوفية، مثل المعرفة بالطريقة وآداب المتصوفة ونحو ذلك.

(27/16)

#### \*دار الحكمة

دار الحكمة أو دار العلم: اسم المكتبة العامة التى أنشأها الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله، وافتتحت رسميًا فى (جمادى الآخرة سنة 395هـ). وقد أراد مؤسسها أن تكون شبيهة ببيت الحكمة الذى أنشأه الخليفة العباسى المأمون فى بغداد. ونقل الحاكم إلى هذه الدار كتبًا كثيرة، قيل: إنها بلغت (100) ألف مجلد فى مختلف العلوم والآداب وسمح بالاطلاع عليها لمن يريد، وأوقف عليها قسمًا من أملاكه، وعين لها الأساتذة فى كل فروع العلم، وعين بها خزائنًا وخدائمًا، ووفر بها ما يحتاج إليه الناس من أقلام وورق ومحابر، وجعل من قاعاتها مجالس لدراسة علوم القرآن

والفقه واللغة والفلك والطب، وجعل للنساء بما مجالس خاصة  
بهن، وكان الهدف منها تعليم المذهب الشيعي ونشره. أغلقت  
دار الحكمة في عام (513هـ)، ثم أعيد افتتاحها سنة (517هـ)  
في موضع مغاير لموضعها الأول؛ لتستمر كمؤسسة إسماعيلية،  
حتى قضى عليها بوصول الأيوبيين إلى السلطة سنة (567هـ).  
وقد ذُفِنَ بها أحد كبار الدعوة الفاطمية، وهو داعي الدعوة  
المؤيَّد في الدين هبة الله الشيرازي.

(28/16)

### \*الأسطول الإسلامي

الأسطول: كلمة تُطلق على مجموعة من السفن لها صفة محددة  
ومهمة محددة، مثل مجموعة السفن الحربية التي تملكها دولة  
معينة. وقد نشأ الأسطول الإسلامي بعد عصر النبوة، عندما  
أدرك المسلمون ضرورة بناء أسطول لهم؛ إذ لم يجدوا في  
معاركهم خلال سنوات الفتح (13 - 30هـ = 634 - 650م) عدوًّا لهم  
أقصى من البحر وما يأتيهم منه من أخطار، ولم يمضِ وقت طويل  
حتى بدأ الأسطول الإسلامي الناشئ في ممارسة العمليات  
البحرية التي اشتملت على نوعين من العمليات: الأول: الإغارة  
البحرية، وغزو الجزر التابعة للبيزنطيين، مثل: قبرص، وكريت،  
وصقلية، ومالطة، وسردينيا. وقد بدأت هذه العمليات في سنة  
(28هـ = 648م) بغزو جزيرة قبرص. الآخر: المعارك البحرية ضد  
الأسطول البيزنطي، مثل: معركة ذات الصواري التي هزم فيها  
الأسطول الإسلامي الأسطول البيزنطي سنة (24هـ = 644م)،  
وكان من أهم نتائج هذه المعركة سيطرة الأسطول الإسلامي  
على البحر المتوسط. وكان للأسطول الحربي رجاله من ذوي  
الخبرة بشئون البحر والحروب البحرية، يتولى قيادتهم أمير

البحر أو المقدم، وهو الذى يتولى رئاسة السفن الحربية، وإدارة المعركة. ويُراعى فى اختياره أن يكون حازماً حذراً متحلياً باليقظة والدراية بأحكام الحروب، والمعرفة بأمر البحر وبطبيعة السواحل والجزر. وقد أنتجت دور الصناعة التى أنشأها المسلمون عدة أنواع من السفن الحربية، أشهرها: الشوانى وهى عبارة عن سفن حربية كبيرة تتميز بالطول وذات أبراج وقلاع تستعمل للدفاع والهجوم، والأغربة وهى مثل الشوانى، وسميت بهذا الاسم؛ لأن رأسها يشبه رأس الغراب وتسير بالقلع والمجاديف، والحراقات وتختص بقذف العدو بالأسلحة النارية، والبطس وتختص بنقل الجنود الخارين، والأسلحة والذخيرة والمؤون.

(29/16)

#### \*أمير الأمراء

لقب ظهر فى العصر العباسى الثانى، فى عهد الخليفة الراضى العباسى سنة (324هـ = 936م). وأول من تلقب به هو محمد بن رائق والى واسط والبصرة. وكان هذا المنصب عبارة عن نقل كل سلطات الخليفة إلى قائد تتوافر فيه صفات القيادة العسكرية، ويجمع بجانبها الاختصاصات المدنية، فكان أمير الأمراء يتولى إمارة الجيش والمناصب المالية. وكان هذا المنصب مقصوراً على من يتولى قيادة الجيش، ولكن عندما ضعفت الدولة العباسية وضعف نفوذ الوزارة بها، لجأ الخليفة إلى أمير الأمراء لما يملك من قوة، وفوّضه فى إدارة أمور الدولة كلها؛ مما أدى إلى القضاء على منصب الوزير وأضعفه، بعد أن قام باختصاصاته أمير الأمراء. وكان هذا من أسباب سوء الأحوال الاقتصادية والعسكرية فى الدولة. وأشهر من تلقب بهذا اللقب محمد بن رائق

في خلافة الراضى، وناصر الدولة في عهد المتقى بالله  
العباسى. ولما ظهر بنو بويه واستبدوا بالسلطة في الدولة  
العباسية، صار هذا اللقب يتوارث فيما بينهم ولم يُلغِه إلا عماد  
الدولة، كما استخدم هذا اللقب في الدولة الفاطمية عندما منحه  
الحاكم بأمر الله لعلم الدولة ياروخ التركى وأمره على جميع  
الجيوش، ولم يرد اللقب بعد ذلك في الدولة الفاطمية.

(30/16)

### \*أمير المؤمنين

لقب أطلق على الخلفاء المسلمين منذ عهد عمر بن الخطاب،  
رضى الله عنه. وهو ثانی ألقاب الخلفاء بعد لقب الخليفة؛  
فعندما توفى أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، وتولى بعده  
عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، لُقِّبَ الناس في بداية خلافته  
بلقب خليفة خليفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ثم استقر  
الأمر على تلقيبه بأمير المؤمنين؛ حتى يُتجنب ثقل توالى لقب  
خليفة فيقال لمن يخلفه: خليفة خليفة خليفة رسول الله، وهكذا.  
ويشير لفظ أمير في هذا اللقب إلى الولاية العامة للخليفة، كما  
تدل إضافة لفظ المؤمنين إليه على شمول هذه الدولة لهم. وقد  
اقتصر استعمال لقب أمير المؤمنين منذ أن لُقِّبَ عمر بن الخطاب -  
رضى الله عنه - به، حتى نهاية الخلافة على الدلالة على ما  
يتمتع به الخليفة من مراسيم سياسية وسلطة سياسية وإدارية،  
كما يرمز لقب أمير المؤمنين إلى القوة الحربية للمسلمين. وقد  
لقب بهذا اللقب بعد عمر بن الخطاب عثمان بن عفان، وعلى بن  
أبي طالب، رضى الله عنهم، ثم خلفاء بني أمية، وخلفاء بني  
العباس في بغداد والقاهرة، وسلاطين الموحدين في المغرب  
العربي، والفاطميون في مصر، ثم سلاطين آل عثمان بعد فتح

مصر سنة (923هـ = 1517م)، واستمر هذا اللقب يُطلق عليهم إلى أن تحالف العرب على إسقاط دولة الخلافة سنة (1343هـ = 1924م). وقد أُطلق لقب أمير المؤمنين مجازاً على عدد من أئمة العلماء، مثل: شعبة بن الحجاج، الذى لُقّب بأمر المؤمنين فى رواية الحديث، وسفيان الثورى الذى لُقّب بأمر المؤمنين فى الحديث.

(31/16)

### \*الإنكشارية

الإنكشارية: اسم أطلق على التشكيلات العسكرية فى الجيش العثمانى. وأصل الكلمة فى التركية: بنى تشرى، وتعنى: الجند الجدد. وقد اشتهرت آراء ثلاثة فى التاريخ عن نشأة هذه التشكيلات، الأول: يُرجعها إلى عهد أورخان سنة (724هـ = 1324م)، والثانى: يُرجعها إلى عهد مراد الأول سنة (761هـ = 1360م)، والثالث: يرجعها إلى القرن (9هـ = 15م). وكان تكوين أفراد الإنكشارية يمر بمرحلتين قبل ضمهم إلى الخدمة: المرحلة الأولى: يتم فيها تجميع الفتيان وإرسالهم لتعلم اللغة والعادات والتقاليد التركية، ومبادئ الدين الإسلامى. المرحلة الثانية: يُجمعون فيها فى معسكر خاص يُسمى عجمى أوجاغى لمدة (7) سنوات، يُوزعون بعدها على القصور السلطانية بحسب الحرف التى تعلموها. وتتميز الإنكشارية بالطاعة والالتزام والروح العسكرية، والحفاظة على الشعائر الدينية، وعدم مغادرة المعسكرات أو الاشتغال بمهن أخرى. وكانت نهاية الإنكشارية بعد اعتراضهم على تعديلات السلطان سليم الثالث فى الجيش، فعزم على التخلص منهم، ونجح فى ذلك السلطان محمود الثانى؛

حيث دبر لهم مذبحاً بحديقة قصر ضوامة باعجة سراى، وانتهى  
كيان الإنكشارية سنة (1241هـ = 1825م).

(32/16)

---

### \*الباب العالى

هو السلطة التنفيذية فى الدولة العثمانية منذ عام (1255هـ =  
1839م) إلى نهاية الدولة، وهو اسم مرادف للصدارة العظمى  
التي تغير اسمها فى عهد السلطان محمود الثانى إلى باش  
وكالت، أى: رئاسة الوزراء كما فى أوروبا؛ ومن ثمّ يعتبر الباب  
العالى هو الشكل الأوربى للإدارة فى الدولة العثمانية، أما  
الشكل الإسلامى فكان الديوان الهمايونى، وقد أُطلق على  
الباب العالى - أيضاً - اسم مجلس الوكلاء، أى: مجلس الوزراء،  
ويُسمى - أيضاً - المجلس الخاص. ويتشكل الباب العالى من شيخ  
الإسلام وناظر العدلية وقائد الجيش ورئيس شورى الدولة وناظر  
الداخلية وناظر الخارجية وناظر البحرية ومشير المدفعية وناظر  
المالية وناظر الأوقاف وناظر التجارة والأمور النافعة وناظر  
المعارف ومستشار الصدر الأعظم العالى.

(33/16)

---

### \*البابى

لقب تركى يعنى: السيد، أو الغنى، أو مالك الأرض والعقار. وقد  
استخدم الأتراك لقبى البابى وبك بمعنى السيد، ثم اقتصر على  
استخدام لقب بك بهذا المعنى. وقد أُطلق لقب البابى على حكام  
تونس والجزائر منذ أواخر القرن (10هـ = 16م)، واستمر فى  
تونس حتى سنة (1377هـ = 1957م)؛ إذ قامت الجمهورية

التونسية، وخلع محمد الأمين آخر البايات هناك. وكان لحامل  
اللقب سلطات واسعة؛ فهو سلطان البلاد، ورأس النظام الحاكم،  
وله إمارة القبائل، وحفظ الأمن وجباية الضرائب. واختص الباي،  
بأشياء كثيرة، منها: كسوة التشريفية التي يرتديها في المحافل  
الرسمية، وحق منح النياشين والرتب العسكرية، بالإضافة إلى  
مخصصاته المالية وحرسه الشرفي. واقتربت تولية الباي العرش  
بإقامة حفلين؛ أحدهما: خاص، ويشترك فيه كبار رجال الدولة.  
والآخر: عام، ويشترك فيه جماهير الدولة. وأشهر من لقب  
بالباي: الباي عثمان، والباي رمضان بن حسين التركي ومراد  
باي والباي عثمان بن علي مؤسس الدولة الحسينية بتونس  
وحمودة باشا باي ومحمد عبد المنصف باي. وكان ولي العهد  
يحمل لقب باي الأحمال، أي: العسكر، غير أن هذا اللقب ألغى  
عند مجيء الاستعمار الفرنسي.

(34/16)

### \* البيمارستان

البيمارستان: كلمة فارسية الأصل، تعني: المستشفى أو دار  
المرضى، وهي مركبة من كلمتين: بيمار، وتعني: المريض،  
وستان وتعني الدار، ثم اختصر اللفظ إلى مارستان، وأصبح الآن  
يطلق على مصحة الأمراض العقلية. وقد نشأت البيمارستانات في  
مدينة جُنْدَيْسابور بفارس قبل الإسلام بنحو ثلاثة قرون، على  
أيدي طائفة من الأطباء النسطوريين. والبيمارستان أحد  
المنشآت والعمائر الإسلامية، كالمساجد والمدارس، ولم تكن  
وظائفه تقتصر على مداواة المرضى وعلاجهم، بل كانت في  
الوقت نفسه معاهد علمية ومدارس لتعليم الطب. وأول مستشفى  
غير ثابت أقيم في الإسلام هو ذلك الذي أمر الرسول - صلى الله

عليه وسلم - بإقامته أثناء غزوة الخندق؛ فعن عائشة - رضی الله عنها - قالت: أصيب سعد بن معاذ يوم الخندق؛ رماه رجل من قريش يقال له: حَبَّان بن العرقعة، رماه في الأكحل، فضرب النبي - صلى الله عليه وسلم - خيمة في المسجد ليعوده من قريب [ صحيح البخارى]. وأما أول مستشفى ثابت في الإسلام فهو ما بناه الوليد بن عبد الملك سنة (88 هـ = 706 م). وكانت المستشفيات الثابتة في أول عهدها بسيطة، ثم تطورت تطوراً كبيراً في عهد العباسيين، وكثر بناؤها في مختلف البلاد الإسلامية. وكان اختيار موقع اليمارستان يتم بعد بحث وتفكير؛ لاختيار أفضل الأماكن الصحية وأكثرها جمالاً، فقد رُوِيَ أن الناصر صلاح الدين الأيوبي عندما أراد أن يبني المستشفى الناصري في القاهرة، اختار لهذا الغرض أحد قصوره الفخمة البعيدة عن الضوضاء. وكانت اليمارستانات الكبرى تنقسم إلى قسمين منفصلين؛ أحدهما للذكور، والآخر للإناث. وفي كل قسم من هذين القسمين عدة قاعات فسيحة حسنة البناء لمختلف الأمراض. واليمارستانات الكبيرة التي أنشئت في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية، كانت على جانب كبير من التنظيم والرقى، ومن أشهرها: اليمارستان العضدى ببغداد، واليمارستان

(35/16)

---

النورى الكبير بدمشق، واليمارستان المنصورى الكبير بالقاهرة، وبيمارستان مراکش.

(36/16)

---

## \*جامع الأزهر

أول جامع أنشئ في مدينة القاهرة الفاطمية فعاصر تأسيسها كمقر للدولة الفاطمية. أتم إنشاءه القائد جوهر الصقلي سنة (361هـ). يقع في الجنوب الشرقي للقاهرة عاصمة مصر. عرف عند نشأته باسم جامع القاهرة، ثم أطلق عليه اسم الأزهر؛ تيمناً باسم السيدة فاطمة الزهراء بنت النبي - صلى الله عليه وسلم -، وقيل: لوجوده بجوار قصور مزهرة (وقت إنشائه). وكان الجامع يتألف من صحن، تحفّه ثلاثة أروقة، أكبرها رواق القبلة، والرواقان الآخران على الجانبين، وبرواق القبلة مجاز قاطع، سقفه أعلى من سقف المسجد، ومسطح الجامع الأصلي كان يقرب من نصف مسطّحه الحالى. كما أضيفت إليه أروقة ومدارس ومحاريب وماذن؛ مما جعله أشبه بمعرض واسع للفن المعماري الإسلامي في مصر منذ بداية العصر الفاطمي حتى اليوم. ومن اعتنوا بالجامع الأزهر من الحكام والأمراء: الحاكم بأمر الله؛ فروده بقناديل من فضة، وتورين، وباب محفوظ الآن في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، وغير ذلك، والأمر بأحكام الله؛ إذ أنشأ مقصورة عرفت باسم مقصورة فاطمة، ومحراباً محفوظاً في المتحف الإسلامي أيضاً، وأضاف الحافظ لدين الله رواقاً يحيط به من جوانبه الأربعة، وقبة. ولما كان الأزهر جامعاً فاطمياً يعمل على نشر المذهب الشيعي؛ فقد أغلقه صلاح الدين الأيوبي، ولم يفتح إلا في العصر المملوكي، فاهتم به الأمير عز الدين أيدير الحلي، واحتفل بإقامة صلاة الجمعة فيه يوم (18 من ربيع الأول سنة 665هـ)، وتصدعت جدران الأزهر في زلزال سنة (702هـ)؛ فقام سلالر نائب السلطنة المملوكية بعمارته وترميمه، وتتبعبت الإصلاحات والإضافات؛ فأنشأ علاء الدين طيبرس المدرسة الطيبرسية سنة (709هـ)، وجعلها زيادة في الجامع الأزهر، وأنشأ علاء الدين أقبغا عبد الواحد المدرسة

الآقبغاوية سنة (740هـ)، ثم أنشئت المدرسة الجوهرية التي  
تنسب إلى الأمير جوهر القنقباي، وعمّر الأزهر السلطان

(37/16)

---

قايتباي المحمودى سنة (873هـ)، وبنى قنصوه الغورى المنذنة  
الفريدة فى تصميمها ذى الرأسين، كما اهتم بالجامع  
العثمانيون، أمثال: محمد باشا الشريف وحسن باشا وعبد  
الرحمن كئخذاء. وفى العصر الحديث اعتنى الخديو عباس حلمى  
الثانى بالجامع الأزهر؛ فجدد منشأته، وأضاف الرواق العباسى  
الذى نسب إليه، وهو أحدث الأروقة وأكبرها، وافتتح فى عهد  
الشيخ حسونة النواوى سنة (1897م). وفى سنة (1970 م) تم  
استبدال أرضية رخام بأرضية الصحن الحجرية. وبعد زلزال سنة ( )  
1992 م بدأت هيئة الآثار المصرية فى إجراء ترميمات وإصلاحات  
لجدران الجامع الأزهر ومدارسه.

(38/16)

---

\*جامع أيا صوفيا  
مسجد تاريخى بمدينة إستانبول فى تركيا. كان كنيسة  
أرثوذكسية تسمى هاجيا صوفيا ينسب بناؤها إلى الإمبراطور  
جستينيان فى القرن السادس الميلادى. ولما فتح السلطان محمد  
الفتاح القسطنطينية سنة (857 هـ) أقام صلاة شكر فى الكنيسة  
التي تتميز بعمارتها القوطية ذات القباب المتعددة، ويبلغ ارتفاع  
القبة الوسطى (الكبرى) منها (63) متراً، وقطرها (30) متراً،  
ويبلغ عدد الأعمدة المرمرية التي تحمل البناء (117) عموداً. ومنذ  
تحولت الكنيسة إلى مسجد تناولتها أيدي التعمير والتجديد

والزخرفة منذ عصر محمد الفاتح الذى أقام أول مئذنة للمسجد على الجدار الشرقى بعد تقويته، وأقام فوق القبة هلالاً كبيراً، بلغ قطره خمسين ذراعاً وطلى بماء الذهب. وبني سليم الثانى المئذنة الثانية. وشيّد مراد الثالث المئذنتين الثالثة والرابعة، وأقام على القبة الوسطى هلالاً ذهبياً، قطره خمسون متراً، كما زين الحوائط بالآيات القرآنية. وشيّد السلطان محمود الأول بجوار المسجد مدرسة ومكتبة، كما قام السلطان عبد المجيد بتجديد المسجد تجديداً شاملاً، وضرب بهذه المناسبة ميدالية تذكارية تحمل صورة أيا صوفيا. وكان للمسجد أثر كبير فى تصميم المساجد العثمانية. وفى سنة (1934 م) منع مصطفى كمال أتاتورك الصلاة فيه، وحوّله إلى متحف، وكان فتحه التام للصلاة فيه مرة أخرى سنة (1991 م).

(39/16)

### \*التيمارات

تيمارت: كلمة فارسية، معناها الأصلى كل ما يُعطى للمريض أو للحيوان أو حتى للأرض والنباتات من متونة أو عناية. وأطلق لفظ التيمارات على أراضى الدولة التى كانت تُعطى للجنود والفرسان ليعيشوا منها. وفى عهد السلطان العثمانى مراد خان الأول قام الوزير ديمور طاش باشا بتنظيم فرق الحياالة العثمانية (السباهى)، وأقطع كل جندى منهم جزءاً من الأرض يزرعه أصحابه الأصليون - أيّاً كانوا - فى مقابل دفع جعل معين لصاحب الإقطاع. وكل إقطاع لا يتجاوز إيراده السنوى عشرين ألف غرش يسمى تيماراً، وما زاد إيراده على ذلك يسمى زعامة، وذلك بشرط أن يسكن الجندى فى إقطاعه وقت السلم، ويستعد للحرب على نفقته عند الطلب. وكانت التيمارات والزعامات لا

يرثها إلا الذكور، فإذا انقرض الذكور في عقب صاحب الإقطاع  
ترجع إلى الحكومة.

(40/16)

### \*جامع الأقمر

جامع أنشأه الخليفة الفاطمي الأمر بأحكام الله سنة (519هـ).  
يقع بالشارع الأعظم المعروف بشارع المعز لدين الله الفاطمي  
بالقاهرة، عن يمين المتجه إلى باب الفتوح (أحد أبواب القاهرة  
)، ولم تكن فيه خطبة، ولكنه عرف بالجامع الأقمر. ويقتصر  
تصميمه على صحن مكشوف مربع، طول ضلعه (10) أمتار، تحيط  
به أربعة أروقة، أكبرها رواق القبلة، عقودها محمولة على  
أعمدة رخامية. وهذه العقود من النوع المحذب، ويحلى حافتها  
المشرفة على الصحن طرازاً من الكتابة الكوفية القديمة. والأروقة  
الأربعة مسقوفة بقباب قليلة الغور ما عدا البائكة الأخيرة في  
رواق القبلة، فيغطيها سقف حديث مستوٍ من الخشب، جده الأمير  
بلغا بن عبد الله السالمى. وتوجد بركة صغيرة في صحن الجامع  
يصل إليها الماء من ساقية. ونُصب في الجامع منبر، فكانت أول  
جمعة أقيمت فيه في (14 من رمضان سنة 779هـ)، كما جده  
سليمان أغا السلحدار سنة (1821م). وفي العصر الحديث جددت  
مصلحة الآثار المصرية واجهته، وقامت ببعض الإصلاحات فيه.  
والمسجد يحتوى بداخله على زخارف إسلامية متنوعة تجعله تحفة  
فنية بديعة في عمارة القاهرة. ويعتبر التوفيق بين اتجاه القبلة  
واتجاه الطريق من السمات المميزة لهذا الجامع، ثم شاعت هذه  
الظاهرة في العصر المملوكى.

(41/16)

## \*التفسير (علم)

التفسير علم من العلوم الإسلامية يُعنى بتوضيح معاني آيات القرآن الكريم ومغازيها وإيجازاتها ودلالاتها وأسباب نزول الآيات بلفظ دال على ذلك دلالة ظاهرة، إلى غير ذلك مما اهتم به المفسرون. وقد مرَّ علم التفسير بمرحلتين: الأولى (مرحلة ما قبل التدوين): وكانت في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - وصحابته، رضى الله عنهم، الذين كانوا يفهمون القرآن بسليقتهم العربية وبما يعايشونه من وقائع تحف بنزوله، والنبي - صلى الله عليه وسلم - بينهم يبين ما غمض، ويصحح ما التبس. وبعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم -، قام الصحابة بالدور نفسه تجاه من أسلموا. ولم يستوعب تفسير الصحابة القرآن كله؛ إذ كانوا يكتفون - غالبًا - بالمعاني الإجمالية. وفي عهد التابعين ازدادت المرويات عن أهل الكتاب كما هو واضح في التفاسير المروية عنهم. والمرحلة الثانية: (مرحلة التدوين): وتبدأ من أواخر عهد الدولة الأموية حتى العصر الحاضر، فكان علم التفسير أولاً جزءاً من تدوين الحديث الشريف، يُفرد له المحدثون باباً في مصنفاتهم، ثم استقل التفسير ووضعت فيه مصنفات خاصة به حسب ترتيب المصحف الشريف، كما هو الحال في تفسير الطبري المتوفى سنة (310هـ) وغيره. وقد ظهرت اتجاهات متعددة في التفسير، من أشهرها: التفسير بالمأثور، أى: المنقول عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - والصحابة، رضى الله عنهم، والتابعين، والتفسير بالرأى، أى: بالعقل والاجتهاد، والخلاف بين ألفاظ هذا النوع لفظي، والتفسير الإشاري (الصوفي)، والمراد به تأويل آيات القرآن بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك، وبما لا يتعارض مع الظاهر المستفاد من الآيات. والتفسير الفقهي، والمراد به تناول آيات الأحكام الشرعية العملية بالتفسير مع

عرض مذاهب الفقهاء، والتفسير العلمي، والمراد به تفسير الآيات الكونية المذكورة في القرآن، والتفسير الأدبي البياني،

(42/16)

---

والمقصود به الدراسة الأدبية للنص القرآني، والتفسير الأدبي الاجتماعي، ويُعنى ببيان ما يشير إليه القرآن من السنن الاجتماعية، والتفسير الموضوعي، ويهتم بتناول الموضوعات التي تشملها السورة الواحدة، أو جمع آيات تتحدث عن موضوع واحد وتفسرها. وقد وُفق علماء كثيرون في الكتابة في جميع هذه الاتجاهات في التفسير. وللمفسر شروط وللتفسير ضوابط، محل دراستها مباحث علوم القرآن الكريم.

(43/16)

---

### \* الترجمة

كلمة عربية، تطلق على نقل الكلام من لغة إلى أخرى، وهي من ضرورات العمران البشري. وتتم الترجمة نتيجة الشعور بالحاجة إلى التعايش أو التفاهم أو الاستفادة من علوم الآخرين ومعارفهم، والاطلاع على حضارات الشعوب الأخرى وثقافتهم؛ لذا فهي ترتبط بمدى ازدهار المجتمعات التي تتم فيها. وقد قامت ثلاث حركات للترجمة في تاريخ الحضارة الإسلامية؛ (الأولى)، وهي الكبرى: بدأت في أوج مجد الدولة الأموية. وأهم ما تمت ترجمته في تلك الفترة هو ترجمة لغة الإدارة إلى اللغة العربية، وهو ما عرف باسم تعريب الدواوين، وبها أحكم المسلمون إدارة البلاد المفتوحة دون وساطة. وبلغت هذه الحركة ذروتها في عصر الخليفة العباسي المأمون؛ حيث

جعلت الدولة الترجمة نظامًا رسميًا، وضعت له الخطط والكفاءات؛ فتقاطر عليها المترجمون من الداخل والخارج؛ فنقلوا كل ما له قيمة في اللغات السريانية واليونانية والفارسية والسِّنسكريتية والنبطية؛ وذلك انطلاقًا من إيمان المسلمين وحكامهم بأن العلم من أسس الفضائل، وأنه توأم الحكم الصالح. وبهذه الحركة تمَّ انتقال القوامه على العلوم والمعارف إلى الدولة الإسلامية بمؤسساتها وأفرادها، وعن طريقها أيضًا حافظ المسلمون على تراث الحضارات التي سبقتهم، وطوروا وسائله في الاستدلال والبرهان، في علوم الرياضيات والصيدلة والطبعية والكيمياء والجغرافيا وعلوم اللغة وغيرها من العلوم التي شكلت المعارف والثقافات الإسلامية، التي نقلتها أوروبا في حركة ترجمة مشابهة، وبنيت بها حضارتها التي كانت بدايتها عصر النهضة، والتي مثلت أساس حضارة أوروبا الحديثة القوي. والحركة الثانية للترجمة في مصر والشام خلال القرن التاسع عشر الميلادي، التي كان محمد علي رائدها في مصر، ونفذت الدولة خلالها خطة للترجمة عينت فيها العلوم والمعارف الضرورية لإنشاء مؤسساتها الحديثة وتطويرها، واختارت لها أصلح المترجمين. ثم جاءت

(44/16)

---

الحركة الثالثة للترجمة، وبدأت مع إنشاء الجامعات في مصر والشام في أوائل القرن العشرين، غير أن هذه الحركة لم تكن مؤثرة؛ لعدم وجود خطة لما ينبغي ترجمته، وتجاوز طوفان العلم كل ما لدى العرب من إمكانات قادرة على الترجمة. وللترجمة اللغوية بالنظر إلى طريقتها والمقام الذي تستخدم فيه أنواع، منها: الترجمة الحرفية والترجمة بالمعنى والترجمة الآلية عن طريق الحاسب الآلي.

### \*الأحباس

الأحباس فى اللغة هى: الأوقاف، وفى الاصطلاح الفقهى: حبس أصل المال، كالأرض والبئر والبستان، وصرف منافعه فى سبيل الله. ومع تطور الحياة فى الدولة الإسلامية وكثرة الأحباس (الأوقاف) التى كان يتبرع بها بعض الأغنياء وذوى السلطان من الأرض وغيرها، أنشأت الدولة ديوان الأحباس، وعينت عليه قاضيًا، يشرف على ما وقف لصالح المساجد والخوانق والمدارس. وفى عصر المماليك أصبح مصطلح الأحباس يُطلق على الأرض التى تحبس وقفًا على المساجد والخوانق والمدارس وغيرها من المؤسسات الخيرية.

### \*قلعة روملى حصار

بناها السلطان العثماني محمد الفاتح سنة (1452 م) فى الأناضول؛ للتحكم فى مضيق البسفور؛ تمهيدًا لفتح القسطنطينية. وروملى حصار تعنى قلعة منطقة الروم. وقد نفذ هذه القلعة المعمارى مصطح الدين أغا ومعها سبعة آلاف عامل، واستغرق بناؤها أربعة أشهر فقط، وقد اختار السلطان الفاتح موقع هذه القلعة بعناية؛ فهى تقع فى مواجهة القلعة العثمانية أناضولى حصارى عند أضيق نقطة فى المضيق؛ حيث لا يتعدى عرض المضيق (660) مترًا عند هذه النقطة. وترتفع هذه القلعة عن سطح البحر (82) مترًا، ومساحتها (30250) مترًا مربعًا على ثلاثة

أبراج، وارتفاع كل منها (26.7) متراً. وكان لبناء هذه القلعة دور فعال في فتح القسطنطينية.

(47/16)

---

### \*مئذنة لاخيرالدا

هي مئذنة جامع إشبيلية الأعظم، الذي أسس بناءه الخليفة أبويعقوب سنة (567 هـ)، ثم أتمَّ ابنه المنصور بناء المئذنة سنة (584 هـ). ولم يبق من المسجد إلا المئذنة، التي يبلغ ارتفاعها (96) متراً، وعدد طوابقها سبعة. ومن العجيب أن صعود هذه الطوابق يتم دون سلم، بل على ممر منحدر يدور مع الجدار الداخلي حتى أعلاه. ويوجد في أعلى المئذنة ثلاث كرات ضخمة (تسمى تفاحات) مغطاة بسبيكة سميكة من الذهب، كانت تتألق للناظر من بعيد. وبعد سقوط إشبيلية وقع زلزال أسقط المئذنة، فاستعاض عنها الإسبان بدوارة تبين اتجاه الرياح، ومن هنا سميت المنارة كلها لاخيرالدا أى: الدوارة.

(48/16)

---

### \*مدرسة السلطان برقوق

أنشأها الناصر فرج بن برقوق سنة (803 هـ)، السلطان السادس والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية، والثاني من الجراكسة وموضعها حالياً شارع المعز لدين الله، وهي التي ألقى فيها ابن خلدون دروسه في فقه المالكية. وتشغل مدرسة السلطان برقوق قطعة أرض تكاد تكون مربعة الشكل؛ إذ تبلغ مساحتها (6800 م<sup>2</sup>).، وتكوّن المدرسة وملحقاتها طرازاً فريداً في الحضارة الإسلامية، إذ جمعت بين طراز المدارس المكون من أربعة إيوانات

متعامدة على بعضها البعض، يتوسطها صحن، وطراز المساجد  
المكونة من صفوف من البوائك، تحصر بينها عددًا من الأروقة،  
كما أنها تحتوى على ثمانى خَلَوَات للصوفية. وتشغل الواجهة  
الرئيسية للمدرسة الضلع الغربى لها، ويبلغ طولها نحو (86)  
مترًا، وتحتوى على منذنتين متماثلتين تقعان على الواجهة  
الرئيسية، يبلغ ارتفاع كل منهما (30) مترًا، وتتكون من ثلاثة  
طوابق.

(49/16)

---

#### \*مسجد إشبيلية الجامع

قام بإنشائه الخليفة الموحدى يوسف بن عبد المؤمن، عندما  
رأى أن جامع عمر بن عبدبَس، الذى بناه عبد الرحمن الأوسط  
سنة (214 هـ) لم يعد يفي بحاجات أهل إشبيلية بعد أن زاد  
عدددهم. عهد الخليفة إلى أكبر مهندسى عصره وهو أحمد بن  
باسه وضع تصميم المسجد، وكان يتفقد مراحل بنائه بنفسه فى  
أكثر الأيام ومعه شيوخ دولته، إلى أن تمَّ الانتهاء من بنائه فى  
شعبان سنة (571 هـ)، واستغرق بناؤه نحو أربعة أعوام. وتوجد  
الآن فى موضع المسجد كاتدرائية ضخمة، تبلغ مساحتها (8816  
م<sup>2</sup>)، ولا يتبقى من المسجد إلا منذنته.

(50/16)

---

#### \*شيخ الإسلام

لقب إسلامى ظهر فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى  
بصفة غير رسمية، وكان يطلق على الفقهاء والمفتين، وشهد  
تطوره فى بلاد فارس، حيث أصبح لقبًا على سلطة قضائية.

واكتسب لقب شيخ الإسلام أعظم شهرته بعد أن أصبح يطلق بالأخص على مفتي الآستانة، واكتسب أهمية لانظير لها في البلاد الإسلامية الأخرى، حيث أطلق على أعلى سلطة دينية فيها. ولم تكن وظيفة شيخ الإسلام مقصورة على إصدار الفتاوى التي يطلبها الناس، ولكن جرت العادة على مشاورته في جميع المسائل السياسية ذات الأهمية، فكان للمفتين تأثير كبير في الحياة العامة، وكان لشيخ الإسلام أو المفتي عدة شخصيات تساعده على أداء مهام منصبه الكثيرة، وكان له الحق في أن يزكى لدى السلطان أشخاصاً يجب تعيينهم في ست مراتب عليا في الهيئة القضائية العليا، وكان هو مستشار السلطان في المسائل الشرعية، بل كان هو الذي يبايع السلطان الجديد، فصاحب هذا المنصب هو الذي أفتى بخلع السلطان سليم الثالث والسلطان عبد العزيز والسلطان مراد الخامس، وهو الذي كان يعين قاضي القضاة في الولايات. وكان آخر من تولى منصب شيخ الإسلام هو مصطفى صبري، الذي لجأ إلى مصر وعاش بها، وتوفي بالقاهرة سنة (1954 م) بعد إلغاء المنصب سنة (1922 م).

(51/16)

### \*علم القراءات

هو علم يُبحث فيه عن وجوه أداء الألفاظ القرآنية. وقد تواتر من هذه القراءات سبع وزاد البعض ثلاثاً أخرى، وهي منسوبة إلى عدد من مشاهير القراء، هم: نافع المدني، المتوفى سنة (169 هـ). ابن كثير المكي، المتوفى سنة (120 هـ). أبو عمرو بن العلاء البصري، المتوفى سنة (154 هـ). عبد الله بن عامر الشامي، المتوفى سنة (118 هـ). عاصم بن أبي النجود

الكوفي، المتوفى سنة (127 هـ). حمزة بن حبيب الكوفي،  
المتوفى سنة (154 هـ). الكسائي الكوفي، المتوفى سنة (189 هـ).  
يعقوب الحضرمي، المتوفى سنة (205 هـ). أبو جعفر يزيد  
بن القعقاع المدني، المتوفى سنة (130 هـ). خلف بن هشام بن  
ثعلب، المتوفى سنة (229 هـ). ومن أشهر المؤلفات في  
القراءات: كتاب التيسير لأبي عمر الداني، المتوفى سنة (444 هـ).  
كتاب النشر للجزري، المتوفى سنة (833 هـ). غاية المهرة  
في الريادة على العشرة للجزري.

(52/16)

---

### \*قصر السباع

أنشأه السلطان محمد الغني بالله، الذي حكم من سنة (1354 م)  
إلى سنة (1391 م). وقصر السباع عبارة عن فناء مستطيل  
مكشوف، طوله (35) متراً، وعرضه (20) متراً، تحيط به من  
الجوانب الأربعة مشرفيات ذات عقود، تحملها (مائة وأربعة  
وعشرون) عموداً من الرخام الأبيض، صغير الحجم، متناهية في  
الجمال والرشاقة، وعليها أربع قباب مضلعة، تقع كل واحدة  
منها وسط ضلع من أضلاع المستطيل. وفي وسط الفناء نافورة  
الأسود الشهيرة، وهي عبارة عن نافورة مياه، يحمل حوضها  
المرمرى المستدير الضخم تماثيل اثني عشر أسداً على شكل  
دائرة، وقد نقش فوق دائرة هذا الحوض اثنا عشر بيتاً من قصيدة  
ابن زمرك الشهيرة في وصف الحمراء، أمام كل أسد بيت منها.

(53/16)

---

## \*قلعة الجبل

تقع على أحد المرتفعات المتصلة بجبل المقطم، أمر ببنائها السلطان صلاح الدين الأيوبي، وتولى هذه المهمة وزيره بهاء الدين قراقوش. وتتألف القلعة من مساحتين من الأرض مستقلتين: المساحة الشمالية تقرب من شكل المستطيل، ولها أبراج بارزة، ويفصلها عن المساحة الجنوبية جدار سميك ذو أبراج، وفي وسط الجدار باب القلعة الذي يعرف باسم الباب الجواني. والجزء الشمالي من القلعة كان الحصن نفسه، أما الجزء الجنوبي فكان يضم الملحقات والقصور السلطانية وما يتبعها من إسطبلات، وغيرها. وقد ظلت قلعة الجبل تمثل مركز الحكم ومقر إقامة الحكام طوال الفترة الممتدة من أيام السلطان الكامل الأيوبي حتى عهد الخديو إسماعيل. وأضاف المماليك إلى القلعة إضافات كثيرة، وشيدوا بها عمائر جديدة من مساجد وقصور وأبراج وأحواش وقاعات، وغيرها. ولما كانت القلعة هي مركز الحكم فقد أدى هذا إلى تعرضها لأحداث ضخمة، سياسية وحربية واجتماعية، من أشهرها مذبحه القلعة، التي تمكن فيها محمد علي من التخلص من زعماء المماليك بمصر.

(54/16)

## \*الكتابة

بُعث النبي - صلى الله عليه وسلم - في أمة أمية، لاتعرف القراءة والكتابة إلا قليلاً، وممن عرفها من الصحابة عمر بن الخطاب، وعلى بن أبي طالب، وزيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان، وعثمان بن عفان، وسعيد بن العاص، والمغيرة بن شعبة، رضى الله عنهم. وكانوا يكتبون للرسول - صلى الله عليه وسلم - الوحي والكتب المرسلة إلى الملوك والأمراء. واتخذ أبو بكر في خلافته عثمان بن عفان كاتباً، واتخذ عمر زيد

بن ثابت وغيره، واتخذ عثمان مروان بن الحكم، واتخذ على عبد الله بن أبي رافع. وبانتقال الخلافة إلى بني أمية تعددت مصالح الدولة، وتبعًا لذلك تعدد الكُتَّاب وصاروا ذوى تخصصات مختلفة، فمنهم: (كاتب الرسائل): ويكتب إلى الملوك والعمال، وغيرهما. (كاتب الشرطة): ويكتب التقارير عما يقع من أحوال القواد والديات، وغيرها. (كاتب الجند): ويسجل أسماء الجند وأعطياتهم ونفقات أسلحتهم. (كاتب الخراج): ويدون حساب الخراج. (كاتب القاضى): ويكتب الشروط والأحكام. وبانتقال الخلافة إلى بني العباس، واستقرارها في بغداد أصبحت مهنة الكتابة ذات منزلة رفيعة، وأصبح ديوان الرسائل من الدواوين المهمة في الدولة، وأصبح مركز صاحب هذا الديوان لا يقل عن مركز الوزير، ولم يعد اتخاذ الكُتَّاب مقصورًا على الخلفاء وحدهم، بل أصبح أمراء الأمراء وسلاطين بني بويه وعمال الأقاليم يتخذون كُتَّابًا يعاونونهم على الإدارة.

(55/16)

### \*الكعبة المشرفة

ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى: {إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركًا وهدى للعالمين}. وأول من بناها هو نبي الله إبراهيم، عليه السلام، قال تعالى: {وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم}. وتقع في وسط المسجد الحرام في مكة المكرمة. وأول من أعاد بناءها بعد إبراهيم، عليه السلام، هو قصي بن كلاب. وفي عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - طغى عليها السيل، ووهنت جدرانها، فأعدت قريش بناءها، وشارك النبي - صلى الله عليه وسلم - في نقل الحجارة. وقد أخذت الكعبة اسمها من شكلها، فهو عبارة عن مكعب منتظم

تقريباً، وفي زاويته الشرقية يستقر الحجر الأسود، والكعبة  
مغطاة بستارة مخملية سوداء موشاة بآيات من القرآن الكريم،  
ومبطنة من الداخل بالحرير الأحمر، ومكسوة من الخارج بالحرير  
الأسود. ويتوجه إليها المسلمون خمس مرات كل يوم لتأدية  
الصلاة، كما يقصدها ملايين المسلمين كل عام من جميع أنحاء  
العالم لتأدية فريضة الحج أو للاعتمار، فهي رمز لوحدة  
المسلمين في جميع أنحاء العالم الإسلامي.

(56/16)

### \*المسجد الأقصى

ثاني مسجد بنى في الأرض بعد المسجد الحرام، وثالث الحرمين  
الشريفيين، ومسرى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . يقع بالأرض المقدسة بفلسطين.  
ورد ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى: (سبحان الذى  
أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى  
باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير .) كما ورد  
ذكره في كثير من الأحاديث النبوية، منها مارواه البخارى في  
صحيحه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - : لا تُشَدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد  
الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدى هذا. وقيل: إن الذى بنى  
المسجد الأقصى هو آدم، عليه السلام. ثم جدد بناء إبراهيم،  
عليه السلام، وأول من جدد بعد بعثة النبي محمد (هو عمر بن  
الخطاب سنة 15 هـ). وقد مرَّ المسجد بالعديد من التجديدات  
والترميمات في مختلف العصور. وظلَّ أسيراً في يد الصليبيين  
نيفاً وتسعين سنة، حتى استرده صلاح الدين الأيوبي سنة (583  
هـ)، ولمَّا احتل اليهود أرض فلسطين سنة (1948م) قاموا  
باعتداءات متكررة عليه، منها قيامهم بإحراق المسجد في

أغسطس سنة (1969 م)، وبسلسلة من الحفريات تحته وحوله منذ سنة (1967 م) وحتى يومنا هذا.

(57/16)

---

### \*مسجد دمشق

شيده الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك فوق كنيسة يوحنا المعمدان، التي كانت مبنية داخل معبد روماني، وعوض النصارى عن تلك الكنيسة تعويضاً سخياً. واستغرق بناء المسجد أكثر من تسع سنوات، من سنة (86 هـ) حتى سنة (96 هـ)، وأنفق عليه أربعمئة صندوق، في كل صندوق أربعة عشر ألف دينار. ويتألف مسجد دمشق من صحن أوسط مكشوف، يشغل القسم الغربي منه قبة بيت المال، التي تقوم فوق ثمانية أعمدة جرانيتية. أمّا القسم الشرقي فيشغله قبة الساعات التي أنشئت في عام (400 هـ)، وتحيط به أربعة أروقة، أكبرها رواق القبلة الجنوبي. وبالمسجد تسعة أبواب، وثلاث مآذن. وكانت جميع سقوف الأروقة وجدرانها وبطون العقود والدهاليز والأقسام العليا من رواق القبلة مكسوة إلى ارتفاع سبعة أمتار برسوم من الفسيفساء. إلا أن المسجد تعرض على مر الزمان لأضرار بالغة، فقد احترق خمس مرات، وأعيد بناؤه، مما أفقده كثيراً من عناصره المعمارية الأولى، وإن احتفظ بتخطيطه الأول.

(58/16)

---

### \*مسجد السلطان حسن

بدأ السلطان حسن عمارته سنة (757 هـ)، واستمر العمل فيه ثلاث سنوات دون انقطاع. والمسجد لا يزال موجوداً بميدان محمد

على تجاه باب العزب من قلعة الجبل. وهو أضخم مساجد مصر  
عمارة، وأعلاها بنياناً، وأكثرها فخامة، وأحسنها شكلاً،  
وأجمعها لمخاسن العمارة، وأدلها على عِظَمِ الهِمَّةِ، وغاية الكد  
الذى بذل في إنشائه. ويبلغ طول المسجد (150) متراً، وعرضه  
(68) متراً، ومساحته (7906) أمتار مربعة، وارتفاعه عند بابه  
(37.70) سنتيمتراً، وعلى جوانب صحن الجامع أربعة إيوانات  
معدة لإقامة الشعائر الدينية. وفي كل زاوية من زواياه باب  
يوصل إلى إحدى المدارس الأربع التى شيدها منشئ الجامع  
ليدرِّس في كل مدرسة منها مذهب من مذاهب الفقه الأربعة  
المشهورة. وإيوانه الشرقى من أكبر الإيوانات، سقفه معقود  
عقدًا ستينيًّا فوق نصف الدائرة، وهو أكبر عقد بنى على إيوان  
بمصر. والإيوانات الثلاثة الأخرى، سقف كل واحد منها على شكل  
نصف أسطوانة من الحجر، ومساحتها متقاربة، وفي وسط  
الإيوان الشرقى محراب جميل، وعن يمينه منبر من الرخام  
الأبيض، وبجانبى القبلة، التى تقع فى الوجهة الشرقية بابان  
يوصلان إلى القبة العظيمة، التى تبلغ مساحتها (751) متراً  
مربعاً، وارتفاع جدرانها (30.20) سنتيمتراً، إلى مبدأ القبة التى  
تبلغ ذروتها (48) متراً. وبالجانب القبلى الشرقى المنارتان  
العظيمتان، اللتان يبلغ ارتفاع كبراهما (81.60) سنتيمتراً.  
وبالجملة، فإن مسجد السلطان حسن من أروع الآثار الإسلامية،  
فجميع الزخارف وآثار الصناعة فى داخل المسجد وخارجه  
تستوعب النظر، وخاصة عند بوابة الدخول العامة والوجهة القبلىة  
الشرقية التى تعلوها المنارتان والرفرف الكبير المركب من ستة  
مداميك مقرنصة، والعلو الشامخ فى سائر الواجهات مع ما فيها  
من النوافذ على ثمانى طبقات. وهو من أهم المساجد التى  
يجرّص على زيارتها السائحون.

### \*مسجد السليمانية\*

شيده المهندس العثماني سنان، أعظم المعماريين، في الفترة من سنة (957 - 964 هـ)، وأروع ملامح المسجد القبة الرئيسية، التي يبلغ قطرها (26.50) سنتيمترًا، وارتفاعها (53) مترًا، وهي أطول قباب إستانبول ارتفاعًا بعد آياصوفيا، وترتكز القبة على أربع دعائم ضخمة، ولزيادة اتساعها من ناحية المدخل والقبلة أُضيف إليها نصف قبة من كل ناحية بارتفاع (40) مترًا، ثم وسعت هاتان المنطقتان بحنيات ركنية إضافية، أمّا المساحتان الموجودتان إلى اليمين واليسار فقد غطيت كل منها بخمس قباب. ويوجد بالمسجد شمعدانات ضخمة بقياس قامة الرجل من النحاس الأصفر الأصلي، ومرصعة بالذهب الخالص، وكل واحد منها يزن (20) قنطارًا، وحول سقف القبة في الداخل صفان من الرواق يقومان على عواميد ويضاءان بعدد كبير من المصابيح بلغ نحو (22) ألف مصباح، وفيه كذلك عدة آلاف من قطع الزينة معلقة بالسقف. وبلغ عدد الخدم المعيّنين لخدمة المسجد ثلاثة آلاف خادم.

(60/16)

### \*مسجد قرطبة الجامع\*

قام بإنشائه عبد الرحمن الداخل في أواخر أيامه سنة (170 هـ)، في الطرف الجنوبي لمدينة قرطبة، وجلب إليه الأعمدة الفخمة والرخام المنقوش بالذهب واللازورد، لكنه تُوِّق قبل إتمامه، فأتمه ولده هشام، وزاد فيه من بعده ملوك بني أمية، حتى غدا أعظم مساجد الأندلس. وبلغ ما أنفق عليه عبد الرحمن الداخل وحده، مائة ألف دينار. وما زال المسجد قائمًا حتى اليوم بكامل

أروقته ومحاريبه، لكنه تحول منذ القرن السادس عشر الميلادي إلى كنيسة قرطبة العظمى، وعلى الرغم من أن الهياكل قد أقيمت في جميع عقودها الجانبية، وأقيم في وسطه مصلىً عظيم على شكل صليب، فإنه مازال يحمل بالإسبانية اسمه القديم المسجد الجامع. وقد أزيلت قبابه ومعظم زخارفه الإسلامية، لتحل مكانها الزخارف النصرانية، ولكن محاريبه الفخمة مازالت تحتفظ بنقوشها الإسلامية، وآياتها القرآنية. ويقع المسجد وسط شبكة من الدروب الأندلسية القديمة، على مقربة من القنطرة الرومانية العربية القائمة على نهر الوادي الكبير. ويبلغ طوله (185) مترًا، وعرضه (135) مترًا. وله عدة أبواب كبيرة فخمة، مازالت تحتفظ بكثير من نقوشها الإسلامية.

(61/16)

#### \*المسجد النبوي

هو مسجد يقع وسط المدينة المنورة، بناه النبي - صلى الله عليه وسلم - منذ أن قدم إلى المدينة، وألحق به مساكن لزوجاته، وجعل تخطيطه على هيئة فناء مربع متساوي الأضلاع تقريبًا، يبلغ طول ضلعه نحو (70) ذراعًا، وتحف به جدران أربعة، ارتفاع كل منها نحو (7) أذرع، ويتجه أحد جوانبه نحو المسجد الأقصى في الشمال، والجانب المقابل نحو الكعبة المشرفة في الجنوب. وجُعِلت القبلة في الجدار الشمالي من حجارة منضودة بعضها فوق بعض. وبعد نحو سبع سنوات من الهجرة سنة (7 هـ) ضاق المسجد بالمصلين، فأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بتوسعته، فأصبح طول كل ضلع بالمسجد (100) ذراع. ولم يكن المسجد يشتمل في ذلك الوقت على مثدنة، إذ كان المؤذن ينادي للصلاة من فوق سطح أحد البيوت العالية المجاورة للمسجد. وصار تصميم المسجد النبوي بالمدينة نموذجًا

للمساجد الجامعة، التي أسسها المسلمون في المدن المفتوحة.  
وفي عهد الوليد بن عبد الملك أُعيد بناء المسجد النبوي إعادة  
شاملة، على يد عمر بن عبد العزيز، واليه على المدينة، سنة (91  
هـ)، وعندما تولى المهدي العباسي الخلافة أمر بعمارة المسجد  
سنة (160 هـ)؛ فوسعه باتجاه الشمال بنحو (30) متراً، وفتح  
بابين جديدين في الجدار الشمالي. وفي عصر المماليك تم تزويد  
الحجرة النبوية بقبة، وفي عهد السلطان عبد المجيد، تمت  
إعادة بناء المسجد وزخرفته وفق الطراز العثماني، وفي العصر  
الحديث قامت المملكة العربية السعودية بتوسعة المسجد  
وعمارته.

(62/16)

#### \*المفتي

هو من يقوم ببيان حكم الله تعالى، بمقتضى الأدلة الشرعية،  
على جهة العموم والشمول. ومن حيث المكانة العلمية قد يكون  
المفتي مجتهداً، أو يفتي على مذهب إمامه المجتهد، كمن يفتي  
على مذهب أبي حنيفة أو مالك أو الشافعي أو أحمد بن حنبل.  
وفي الحالة الأولى تتوافر في المفتي شروط الاجتهاد، وهي:  
المعرفة بكتاب الله وسنة نبيه (فهماً واستنباطاً، أى معرفة  
الأحكام الواردة فيهما، والقدرة على استنباطها واستنباط  
أمثالها مما يجئ من الأمور ويراد معرفته، عملاً بما دلَّ عليه  
الكتاب والسنة، من مصادر أخرى مثل الإجماع والقياس. أى أن  
هذه الحالة تقتضى من المفتي اجتهاد معرفة واسعة بأدوات  
الاستنباط وطرائقه. أما في حالة الفتوى على مذهب الإمام  
المجتهد، فينبغي أن يكون المفتي مطلعاً على ما أخذ المجتهد  
المطلق الذي يقلده، وأن تكون لديه القدرة على التفريع عن

قواعد إمامه وأقواله. والإفتاء فرض عين على المفتي، إذا لم يوجد غيره ممن يقدر على الإفتاء، وإن لم يُطلب منه الإفتاء، وفرض كفاية إذا وُجد غيره ممن يقدر عليه. والأصل أن المفتي لا ينال أجرًا على إفتائه، سواء كان بأن يطلب هو الأجر أو يطلب منه غيره أخذه.

(63/16)

---

### \*مقبرة تيمورلنك

أمر بنائها تيمورلنك، وتعكس تصميماتها ونقوشها كل سمات عهده من القوة، والجبروت، والتزف، والجمال. وفي سنة (806 هـ) مات حفيد تيمورلنك، الذي كان يؤهله لتولى الحكم بعده، فدفن بالمقبرة، ثم توفّي تيمورلنك بعد عامين، فدفن إلى جواره. وكان تيمورلنك قد أوصى قبل وفاته بأن يدفن عند قدمي أستاذه ومعلمه مير سيد بركة، فجئ بجثمانه من بلده اندخوى في أفغانستان، ودفن في الضريح، ووضِع بحيث يكون قبر تيمورلنك بمحاذاة قدميه. وأضيفت إلى المقبرة بلاطة من صخرة اليشم الأخضر الداكن، فريدة في حجمها، استجلبها أولوغ بك بعد عشرين عامًا من موت تيمورلنك، وعلى البلاطة كتبت باللغة العربية سيرة تيمورلنك ونسله.

(64/16)

---

### \*مقياس النيل بالروضة

بنى بأمر الخليفة العباسي المتوكل على الله سنة (247 هـ)، على يد المهندس أحمد بن محمد الحاسب. وهو عبارة عن بئر مساحتها نحو (6) أمتار مربعة و (20) سنتيمترًا، ويتكون مقياس

النيل من ثلاث طبقات: (الطبقة الأولى) ذات تخطيط مربع، وطول ضلعها أطول من طول ضلع (الطبقة الوسطى)، التي تأخذ تخطيطاً مربعاً أيضاً بحيث يكون ضلعها أطول من قطر (الطبقة السفلى). ويفضل هذا التصميم استطاعت الجدران أن تتحمل الضغط الأفقى للأرض الذى يزداد كلما ازداد العمق. واستخدم في كسوة الجدران ملاط استطاع أن يقاوم تأثير الماء، وكان ماء النيل ينساب إلى البئر عن طريق ثلاث فتحات بعضها فوق بعض، تصب ماءها في البئر من خلال ثلاث فتحات في الجانب الشرقى. وصممت واجهات الفتحات على هيئة دخلات غائرة في الجدران تتوجها رمانية مقلوبة، وتعتبر هذه العقود المدببة أقدم أمثلة معروفة لهذا الطراز من العقود في مصر الإسلامية. ويوجد حول جدران البئر من الداخل درج دائرى يصل إلى القاع، وتحيط بأعلاه من الداخل كتابة كوفيّة تمثل أقدم كتابة أثرية مؤرخة في مصر. ويقوم في وسط البئر عمود من الرخام مئمن، مقسم إلى تسعة عشر قسمًا، طول كل قسم منها ذراع واحدة، وكل ذراع مقسمة إلى أصابع. وتم إصلاح المقياس في عهد أحمد بن طولون، الذى وضع اسمه عليه، وأبقى على التاريخ الأصلي.

(65/16)

#### \*المكتبة الأموية بالأندلس

من عظمى مكتبات العصور الوسطى. أنشأها الحكم بن عبد الرحمن الناصر، الذى تولى الأندلس في الفترة من سنة (350 هـ) حتى سنة (366 هـ)، وكان يشغف بجمع نفائس الكتب من مختلف الآفاق، فكان يبعث إلى أكابر العلماء المسلمين في كل قطر بالصلوات الجزيلة، للحصول على النسخ الأولى من مؤلفاتهم، كما أهدى إليه كثير من علماء عصره مؤلفاتهم، وكانت له طائفة من

مهرة الوراقين بأحاء البلاد، ولاسيما في بغداد والقاهرة  
ودمشق، ينقبون له عن الكتب، ويحصلون منها على النفيس  
والنادر، كما كانت له في بلاطه طائفة أخرى من البارعين في  
نسخ الكتب، وتحقيقها، وتجليدها، وتصنيفها. ولمَّا ضاقت أهباء  
القصر باستيعاب العدد العظيم من الكتب الواردة إليها باستمرار،  
أنشأ الحكم على مقربة من القصر صرحًا عظيمًا خاصًا بالمكتبة،  
تفنن المهندسون في ترتيبه وتنسيقه، وإنارة أجهته. وقد اختُلف  
في تقدير محتويات المكتبة، فقدرها بعض المؤرخين بأربعمئة  
ألف مجلد، وقدرها البعض الآخر بستمئة ألف مجلد.

(66/16)

#### \*مكتبة بغداد

مؤسسة علمية ثقافية ظهرت إبان العصر العباسي الأول، واجتمع  
فيها العلماء والباحثون للبحث والدرس، ولجأ إليها طلاب العلم  
والمعرفة، ودُرِّست بها علوم الطب والفلسفة والحكمة وغيرها،  
وكان لذلك كله أثر واضح في تطور الثقافة العربية، وازدهار  
الحركة العلمية في ذلك الوقت. ويُنسب إنشاء مكتبة بغداد إلى  
الخليفة العباسي هارون الرشيد المتوفى سنة (193 هـ)، وبلغ  
نشاطها ذروتها في عهد الخليفة المأمون، المتوفى سنة (218 هـ).  
وكان تصميمها من الداخل عبارة عن غرف عديدة، تمتد  
بينها أروقة كثيرة، بينها أروقة طويلة، وخصصت للكتب غرفة  
مزودة بأرفف تُصَفُّ عليها الكتب، وللمحاضرات والمناظرات قاعة  
معدة، وأخرى للاستراحة، وقُسمت باقي الغرف إلى أقسام، تبعًا  
للعاملين فيها، فهناك غرف للمترجمين، وغرف للناسخين، وغرف  
للمجلدين والوراقين، وغرف للخازنين والمناولين، بالإضافة إلى  
غرف خاصة للتدريس، وأخرى لسكن طلاب العلم. وقد قل الاهتمام

بالمكتبة بعد وفاة المأمون، وانتقال مركز الخلافة إلى سامراء  
على يد الخليفة المعتصم بالله، المتوفى سنة (227 هـ)، ثم حظيت  
ببعض العناية في عهد الخليفة المتوكل على الله، المتوفى سنة  
(247 هـ). وظلت المكتبة قائمة حتى دهم المغول بغداد سنة (656  
هـ)، وهدموا مافيها من منشآت، وكانت المكتبة فيما تقدم،  
وأحرقت كتبها، وطُمست معالمها، بعد أن ظلت ما يزيد على  
أربعة قرون ونصف القرن جامعة إسلامية ومنازة للعلم والعلماء.

(67/16)

### \*الوزارة

المعنى الأصلي للوزارة هو المعاونة والمؤازرة، واستحدث منصب  
الوزارة عند المسلمين لأول مرة في العصر العباسي الأول،  
وأول من لقب بلقب الوزارة هو أبي العباس السفاح، الذي كان  
لقبه وزير آل محمد. ويعد منصب الوزير تطوراً لمنصب الكاتب في  
العهد الأموي. وقد وصلت الوزارة إلى حد بعيد من القوة  
والاستقرار في عصر هارون الرشيد، الذي استوزر يحيى بن  
خالد البرمكي، وفوضه تفويضاً مطلقاً في السلطة، ونما نظام  
الوزارة في عصر المأمون، الذي أطلق يد وزيره الفضل بن سهل  
في الإدارة بمرسوم خطي خاص. وفي نهاية القرن التاسع  
الميلادي ضعف مركز الوزراء؛ لتسلط الترك وانتقال السلطة إلى  
قبضة جنودهم، ثم انتعش نظام الوزارة بانتعاش سلطة الخلفاء  
بعد ذلك. وكادت الوزارة تكون وراثية في بعض الأسر، مثل آل  
الجراح، وآل وهب، وآل الفرات. وتنقسم الوزارة إلى نوعين من  
حيث السلطة: (وزارة التفويض)، و (وزارة التنفيذ). وسميت الوزارة  
في ظل الدولة العثمانية: (الصدارة العظمى)، وسمى الوزير:  
(الصدر الأعظم)، وأول من تولى (الصدارة العظمى) في الدولة

العثمانية هو علاء الدين على سنة (728 هـ) في عهد سلطاتها  
الثاني أرخان غازي بن عثمان، وآخر سلاطينها أحمد توفيق  
سنة (1919 م) في عهد السلطان محمد السادس وحيد الدين بن  
عبد المجيد.

(68/16)

### \*تاج محل

تاج محل: ضريح شيده الإمبراطور المغولي شاه جهان ليكون  
مدفناً لزوجته ممتاز محل في مدينة أكرا بالهند، وقد بدأ البناء  
في هذا الضريح سنة (1041 هـ)، واكتمل بعد سبعة عشر عامًا،  
وقيل: بعد اثنين وعشرين عامًا. ويقع الضريح على الضفة  
اليسرى من نهر جمنا، وتتقدمه حديقة فخمة بما حوض ماء،  
تتعاكس عليه صورة المبنى نفسه، ويتقدم الحديقة بناء - عبارة  
عن خان - يستخدم حاليًا كقبة ضخمة، ويوجد وراء الضريح -  
على بعد - مسجد. والضريح مرصع بالمرمر، ناصع البياض، في  
حين بُني المنيان اللذان يقعان خلفه وأمامه من الحجر الأحمر،  
وقد أدى ذلك إلى إبراز الضريح بمرمه الأبيض. وقد شيّد  
الضريح في وسط مصطبة مربعة، وهو بناء مشطوف الأركان،  
وفي كل شطف عقدان، أحدهما فوق الآخر، ويتوسط الواجهة  
المدخل، وفي كل من جانبي المدخل عقدان يتماشيان مع عقدي  
الأركان، وتفصل بين العقود جميعًا أعمدة رشيقة مندمجة ترتفع  
إلى ما فوق الضريح. ويعلو البناء قبة بصلية ضخمة فوق رقبة  
طويلة. أما في الداخل فيوجد قبران من المرمر، هما: قبر شاه  
جهان، وقبر زوجته ممتاز محل، يحيط بهما حجاب رشيقي من  
الرخام، يصل ارتفاعه إلى (2.25) سنتيمترًا، وسطح البناء من  
الداخل مبني على هيئة قبة نصف كروية هي القبة الداخلية التي

تعلوها القبة الخارجية البصلية. وقد جمع ضريح تاج محل بين فخامة المظهر والدقة المعمارية، وجمال العناصر الزخرفية، ويعد الضريح قمة عمارة الأضرحة.

(69/16)

---

### \*ديوان البريد:

أصل هذا الديوان في الواقع كان موجودًا منذ عهد النبي - صلى الله عليه وسلم -، فقد بعث كثيرًا من الرسائل إلى الملوك والأمراء المعاصرين له، يدعوهم إلى الإسلام، وحمل هذه الرسائل سفراء ومبعوثون من قبله، لكن «معاوية بن أبي سفيان» أنشأ لهذا النوع من العمل ديوانًا خاصًا، وهو الجديد في ذلك الأمر، وجعل له موظفين معينين، يقومون على العمل به، وقام «ديوان البريد» بمهمتين: - الأولى: نقل الرسائل من دار الخلافة إليها، وكان بعضها رسائل داخلية، وهي المتبادلة بين الخليفة وولاة الأقاليم وكبار الموظفين، وبعضها الآخر رسائل خارجية وهي التي يتبادلها الخليفة مع ملوك الدول الأجنبية وزعمائها. - والأخرى: مراقبة أعمال الولاة وكبار الموظفين، ومتابعة سلوكهم وأسلوبهم في إدارة ولاياتهم، وموافاة الخلافة بتقارير منتظمة؛ حتى يكون الخليفة على علم تام بكل ما يجري في كل الولايات. وكانت تلك المهمة جليلة الشأن، تُطلع الخليفة على أى خلل أو قصور في الإدارة، فيسارع إلى تدارك ذلك، ولذا اهتم الأمويون بديوان البريد اهتمامًا عظيمًا لأثره البالغ في حسن سير الإدارة ومراقبة الموظفين.

(70/16)

---

## \*ديوان الخاتم

وهو يختص بحفظ نسخة من المراسلات التي كانت تدور بين الخليفة وولاته وكبار موظفيه في الداخل، أو بينه وبين غيره من الحكام الأجانب، بعد ختمها بخاتم خاص، وهو بذلك أشبه ما يكون بإدارة الأرشيف في النظم الإدارية الحديثة، وكانت النسخة المرسلة تُطوى وتغلق بالشمع، حتى لا يمكن فتحها والاطلاع على محتوياتها إلا عند الضرورة، وقد أنشأ هذا الديوان «معاوية بن أبي سفيان»؛ لمنع التزوير والتلاعب في مراسلات الدولة. وكان ختم الرسائل بخاتم معروفًا في الدولة الإسلامية منذ عهد النبي - صلى الله عليه وسلم -، فعندما عزم النبي - صلى الله عليه وسلم - على إرسال رسائله إلى الملوك والأمراء المعاصرين له، لدعوتهم إلى الإسلام، قال له بعض أصحابه: إن الأعاجم - يقصدون «كسرى» و «قيصر» - لا يقبلون رسالة إلا إذا كانت محتومة؛ فاتخذ خاتماً من فضة لختم رسائله، نقش عليه: محمد رسول الله، واتخذ له حاملاً خاصاً، سُمي «حامل خاتم النبي»، وكان اسمه «معيqb بن أبي فاطمة الدوسى»، وظل الخلفاء الراشدون يستخدمونه في ختم رسائلهم حتى سقط من يد «عثمان بن عفان» - رضى الله عنه - في بئر «أريس»، فاتخذ خاتماً آخر صنع على مثاله، لكن «معاوية بن أبي سفيان» طوّر تلك البدايات طبقاً لمقتضيات العصر، واتساع رقعة الدولة، وكثرة المراسلات المتبادلة.

(71/16)

## \*ديوان الرسائل:

ووظيفته صياغة الكتب والرسائل والعهود التي كانت تصدر عن دار الخلافة، سواء إلى الولاة والعمال في الداخل، أو إلى الدول

الأجنبية، كما يتلقى الرسائل الآتية من تلك الجهات أيضاً، وعرضها على الخليفة. وكان كتاب ذلك الديوان يختارون بعناية، من بين المشهورين بالبلاغة والفصاحة، والمعروفين بالتبحر في اللغة العربية وآدابها وعلوم الشريعة الإسلامية، والمتصفين بالمروءة والأخلاق الحميدة، كما يراعى أن يكونوا من أرفع الناس حسباً ونسباً. وقد حفل العصر الأموي بأفذاذ الكتّاب، كان أشهرهم على الإطلاق «عبد الحميد بن يحيى»، كاتب الخليفة «مروان بن محمد»، آخر خلفاء «بني أمية»، وصاحب الرسالة المشهورة التي وجهها إلى الكتّاب ناصحاً ومعلمًا، وهي آية من آيات الفصاحة والبلاغة، وضمّنها الشروط التي يجب أن توجد في من يقوم بتلك المهمة الجليلة بين يدي الخلفاء والأمراء. واختص «ديوان الرسائل» - إلى ما سبق - بقيامه بالعلاقات الخارجية مع الدول الأجنبية، وإشرافه على الوفود التي كانت تأتي من الخارج، لعقد معاهدة أو تبادل منافع، وتعهدهم في بيوت الضيافة المعدة لذلك، وتعيين المرافقين لهم - حسب أهميتهم - طوال مدة إقامتهم، وإطلاعهم على المعالم والأماكن التي تستحق الزيارة، كما كان يشرف على الوفود التي كانت ترسلها الدولة الأموية إلى الخارج، وإعدادها الإعداد الكافي، وهذا يعنى أن «ديوان الرسائل» كان يقوم بما يشبه وظيفة وزارة الخارجية في الحكومات المعاصرة.

(72/16)

### \*ديوان العمال

ويختص بتسجيل أسماء الموظفين المدنيين في الدولة، وترتيب أعمالهم ووظائفهم، وتحديد رواتبهم، وقد سبقت الإشارة إلى أن سجلات ذلك الديوان في «البصرة» وحدها في ولاية

«عبيدالله بن زياد» (55 - 64هـ)، كانت تحوى مائة وأربعين ألف  
موظف مدنى.

(73/16)

### \*الحسبة

الحسبة نظام إسلامى يقوم بالإشراف على المرافق العامة، ومنع  
أى انحراف، وعقاب المذنبين، وهى وظيفة دينية شبه قضائية،  
عرفها التاريخ الإسلامى من بدايته. تقوم على فكرة الأمر  
بالمعروف والنهى عن المنكر، امتثالاً لقوله تعالى: {ولتكن منكم  
أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر}.  
[آل عمران: من 104]. والأصل فى هذا النظام الإسلامى هو قيام  
الناس جميعاً بهذا الواجب الذى هو من فروض الكفاية، لكن الدولة  
الإسلامية لم تدع ذلك الأمر للأفراد؛ خوفاً من حدوث فتق  
ومشاحنات، وإنما نظمتها، وجعلته وظيفة خاصة لها مسئول،  
يعاونه عدد كبير من الناس. ولا يعنى تنظيم الدولة لوظيفة  
«الحسبة» منع الأفراد من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، بل  
من واجبه المقيم بهذا، بشرط أن يكون القائم به عالماً فقيهاً،  
وألا يؤدي أمره بالمعروف إلى منكر، ونهيه عن المنكر إلى  
منكر أشد، وأن يكون عمله عن طريق النصيحة. ولما لم يكن من  
طبيعة الناس كلهم الاستجابة إلى النصح بالتي هى أحسن، فقد  
نشأت وظيفة «المحتسب»، واشترط فى شاغلها أن يكون من  
أهل الهيبة، ليضرب بقوة على أيدي العابثين بأمن المجتمع فى  
غذائه وصناعته وتجارته، وعلى من لا يراعى أصول الشريعة  
ومبادئها فى سلوكه، ويضايق الناس بأقواله وأفعاله. ولم  
يقتصر عمل «المحتسب» على ضبط سلوك العامة، ومراقبة  
أعمالهم، وإنما شمل كبار موظفى الدولة، لحملهم على أداء

عملهم على أفضل ما يكون، ومنعهم من الفساد والتعدى على الناس وقبول الرشوة، وغير ذلك. وبدأ نظام «الحسبة» مع بداية الدولة الإسلامية، مثل غيره من النظم التي سبق الحديث عن بعضها، فقد ثبت في الصحيح أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان أول من باشر عمل «المحتسب» بنفسه، مما يدل على أهميته، فروى «أبو هريرة» - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مرَّ على رجل يبيع القمح في سوق

(74/16)

«المدينة» وأمامه صبرة - كومة كبيرة - فأدخل فيها يده الشريفة، فأصابت بللاً، فقال: «ما هذا يا صاحب الطعام؟». فقال: أصابته السماء يا رسول الله. فقال - صلى الله عليه وسلم -: «أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟ من غشَّ فليس منّا». [صحيح مسلم]. وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يعين من الصحابة من يقوم بهذا العمل ويراقب الأسواق لمنع الغش في كل شىء، فكلف «عمر بن الخطاب» بمراقبة سوق «المدينة المنورة»، وعين «سعيد بن العاص» لمراقبة سوق «مكة» بعد فتحها. واستمر الخلفاء الراشدون يباشرون عمل «المحتسب» بأنفسهم أحياناً، وينبئون غيرهم للقيام به في أحيان أخرى. ولما اتسعت الدولة الإسلامية في عصر «بنى أمية»، عجز الخلفاء عن القيام بعمل «المحتسب» بأنفسهم؛ لانشغالهم بمهام كثيرة سياسية وإدارية وعسكرية، وخصصوا لهذا العمل من يقوم به، وأصبح نظام «الحسبة» ووظيفة «المحتسب» من أهم النظم الإسلامية التي تعمل على سلامة المجتمع، وتنقيته من كل المفاسد. وقد امتد عمل «المحتسب» إلى كل مجالات الحياة تقريباً، وقد حُصَّ «ابن خلدون» في مقدمته اختصاصات

«المحتسب» فقال: «ويبحث - المحتسب - عن المنكرات، ويعزّر ويؤدب على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة، مثل المنع من المضايقة في الطرقات، ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل - لنلا تغرق السفينة بمن فيها - والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها، وإزالة ما يتوقّع من ضررها على السابلة - أى: المارة في الطريق - والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الإبلاغ - أى المبالغة - في ضربهم للصبيان المتعلمين، ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداد، بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك، ويرفع إليه، وليس له الحكم في الدعاوى مطلقاً، بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعاش وغيرها، وفي المكابيل

(75/16)

---

والموازنين، وله أيضاً حمل المماطلين على الإنصاف، وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بيّنة، ولا إنفاذ حكم، وكأنها أحكام ينزّه القاضى عنها لعمومها، وسهولة أغراضها، فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها، فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء». وإذا نظرنا إلى عمل «المحتسب» الذى هدفه هو راحة الناس في ضوء النظم الحكومية المعاصرة نجده موزعاً بين العديد من الوزارات والهيئات، مثل وزارة التموين، والصحة، والصناعة، والتعليم، والزراعة، والداخلية، والنيابة العامة، ومصالحة الدمغة، والموازنين، والمرافق بمختلف أنواعها.

(76/16)

---

## \*الشرطة

يُعدُّ جهاز «الشرطة» من أقدم الأجهزة في الدولة الإسلامية، فقد عُرف منذ عهد النبي - صلى الله عليه وسلم -، وكان له «صاحب شرطة» - أى رئيس لها - فعن «أنس بن مالك» أنه قال: «كان قيس بن سعد بن عبادة من النبي - صلى الله عليه وسلم - بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير». [صحيح البخارى]. ومن الذين عُرفوا بالقيام بوظيفة الشرطى في «المدينة» في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم -: «سعد بن أبى وقاص» و «بديل بن ورقاء»، و «أوس بن ثابت بن عرابة»، و «رافع بن خديج». واستمر الخلفاء الراشدون في الاستعانة ببعض الصحابة للقيام بعمل الشرطى؛ استتباباً للأمن، وحفظاً للنظام، وتعقباً للجناة والمفسدين في الأرض، وتنفيذاً للأحكام والحدود التى يحكم بها القضاة. وقد ازدادت أهمية جهاز «الشرطة» في الدولة الأموية، نظراً إلى الظروف التى كانت تحيط بها، وكثرة الخارجين عليها والثائرين ضدها، فتوسعت في استخدام «الشرطة»، حتى أصبح جهازاً من أكبر أجهزة الدولة، قادراً على حفظ الأمن وتطهير البلاد من عناصر الفساد والعبث بالنظام العام للمجتمع. وحرص الأمويون على اختيار رجال شرطتهم من أهل الشرف والبأس الشديد، والعفة والمروءة والحزم، وأعطوا «صاحب الشرطة» الحرية التامة في اختيار معاونيه، ليؤدوا مهمتهم على الوجه الأكمل، فيروى عن «الحجاج بن يوسف الثقفى» والى «العراق» والمشرق الإسلامى أنه قال: «دلونى على رجل للشرطة»، فقبل له: «أى الرجال تريد؟» قال: «أريده دائم العبوس - أى جاداً في ملامحه - طويل الجلوس، سميق الأمانة، أعجف الخيانة - أى لا يخون» - فقبل له: «عليك بعبد الرحمن بن عبيد التميمى»، فأرسل إليه يستعمله على «الشرطة»، فقال: «لست أقبلها إلا أن تكفينى عيالك وولدك وحاشيتك»، فقال «الحجاج»: «يا غلام

نادٍ في الناس: من طلب إليه منهم حاجة فقد برئت منه الذمة». وعلّق «الشعبي» راوى هذا الخبر بقوله: «فو الله ما رأيت

(77/16)

صاحب شرطة قط مثله، كان لا يجبس إلا في دين - أى: من أجل مخالفة لتعاليم الدين - وكان إذا أتى برجل قد نَقَب على قوم وضع منقبته في بطنه حتى تخرج من ظهره، وإذا أتى بنبّاش حفر له قبراً فدفنه فيه، وإذا أتى برجل قاتل بجديدة أو شهر سلاحاً قطع يده، وإذا أتى برجل قد أحرق على قوم منزلهم أحرقه.. فكان ربما أقام أربعين ليلة لا يؤتى بأحد - لخوف الناس منه لشدته وهيبته - فضم إليه الحجاج شرطة البصرة مع شرطة الكوفة». وبعد هذا الحديث الموجز عن النظم والإدارة في العصر الأموي يمكن القول: إن إدارة الأمويين للدولة الإسلامية كانت إدارة حسنة بصفة عامة، تقوم على أسس ثابتة، تبغى الصالح العام، وإشاعة الأمن والاستقرار في الدولة المترامية الأطراف، وإن شاب ذلك بعض القصور والأخطاء، وحسب الأمويين أنهم لم يكتفوا عن تطوير أجهزة الدولة ودواوينها التي كانت موجودة قبلهم، واستحدثوا غيرها حين دعت الضرورة إلى ذلك، وأنهم بذلوا جهداً في التدقيق في اختيار الولاة والعمال والموظفين، وأحسنوا مراقبتهم ومتابعتهم، ونجحوا في ذلك إلى حد كبير.

(78/16)

\*علم الحديث

الحديث في اللغة: مطلق الكلام، وفي الاصطلاح: هو كلام النبي - صلى الله عليه وسلم -، الذي هو المصدر الثاني للتشريع بعد

القرآن الكريم. وقد حرص الصحابة على حفظ كل ما يسمونه من النبي - صلى الله عليه وسلم -، وكانوا يسألونه ليبين لهم ما غمض عليهم فهمه من القرآن، وهذا من وظائفه لقوله تعالى { وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون }. [النحل: من 44]. وقد أمرهم الله تعالى باتباع النبي في كل ما يقول أو يفعل، لقوله تعالى: { وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا }. [الحشر: من 7]. وحذَّره من مخالفته - صلى الله عليه وسلم -، فقال تعالى: { فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم }. [النور: من 63]. وسار المسلمون على نهج الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وتلقفوا كل ما يتلفظ به، يحفظونه عن ظهر قلب ويعملون به، وكان الحديث هو أول العلوم التي اشتغلوا بها، لكنهم لم يدونوه في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم -، ويروى أنه هو نفسه نهاهم عن ذلك، لئلا يختلط بالقرآن، فقال: « لا تكتبوا عني، فمن كتب عني غير القرآن فليمحاه » [صحيح مسلم]، بالإضافة إلى أن الصحابة أنفسهم كانوا يتخرجون من الإكثار من رواية الحديث، تهيئاً وخوفاً من الخطأ والنسيان. - تدوين الحديث: ظلت أحاديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتناقلها العلماء مشافهة جيلاً بعد جيل، حتى نهاية القرن الأول الهجري، وإن دَوَّن بعض الناس أحاديث رسول الله كعبد الله بن عمرو الذي أذن له النبي بكتابة الحديث في حياته، وما رواه البخاري من أن «أبا شاه اليماني»، التمس من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يكتب شيئاً من خطبته عام الفتح، فقال: «اكتبوا لأبي شاه»، ثم أمر الخليفة «عمر بن عبد العزيز» بتدوين الحديث خوفاً من ضياعه بموت العلماء الذين يحفظونه، فكتب إلى «أبي بكر بن حزم» وإلى

«المدينة» وغيره من ولاية الأقاليم، وطلب منهم جمع أحاديث النبي - صلى الله عليه وسلم - وتدوينها، ومن ثم بدأ المسلمون يقبلون على ذلك، وبمضى الزمن تضاعفت جهود العلماء في هذا الميدان، ومن أشهر الرجال الذين اشتغلوا بجمع الحديث وروايته وتدوينه في العصر الأموي: «محمد بن مسلم بن شهاب الزهري» المتوفى سنة (124هـ)، و «ابن جريج المكي» المتوفى سنة (150هـ)، و «ابن إسحاق» المتوفى سنة (151هـ)، و «معمر بن راشد اليمنى» المتوفى سنة (153هـ)، و «سفيان الثوري» المتوفى سنة (161هـ)، و «مالك بن أنس» المتوفى سنة (179هـ)، غير أن هؤلاء كلهم عدا «ابن شهاب الزهري» عاشوا صدر حياتهم في العصر الأموي وآخرها في العصر العباسي. لكن الخطوات الحاسمة في تدوين الحديث، ووضع المنهج العلمي الدقيق لتوثيقه، وقبول روايته، وتصنيفه إلى صحيح وحسن وضعيف، ووضع علومه، وقواعد الجرح والتعديل - أى نقد رجال السند - كل ذلك جاء في القرن (3 هـ = 9 م)، بظهور أئمة الحديث كالبخاري و «مسلم»، و «الترمذي»، و «النسائي»، و «أبي داود» وغيرهم، وذلك في العصر العباسي.

(80/16)

### \*علم الفقه

وهو من أجل العلوم الإسلامية، فهو يعرف المسلم كيف يعبد ربه، بما افترضه عليه من صيام وصلاة وزكاة وحج، وينظم معاملات المسلمين ويقننها في البيع والشراء والتجارة والزراعة وسائر شئون حياتهم. ويعد الفقهاء من أكثر علماء الإسلام أثرًا في حياة المسلمين، لقوله - صلى الله عليه وسلم - : «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين». [مسند الإمام أحمد]. وكان النبي - صلى

الله عليه وسلم - يعلم الصحابة ويفقههم في أمور دينهم، ثم تولى بعده الصحابة تلك المهمة، وبخاصة بعد أن اتسعت الدولة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين والدولة الأموية، ثم اتسع نطاق علم الفقه نتيجة لزيادة المشكلات والقضايا التي تحتاج إلى فتاوى وحلول، وأصبح له علماء متخصصون، لهم قدرة على استنباط الأحكام الفقهية من الكتاب والسنة، وعلى الاجتهاد لإيجاد أحكام للقضايا التي لم يرد لها نص في كتاب الله أو سنة رسوله - صلى الله عليه وسلم -، لأن النصوص متناهية، في حين أن المشكلات والقضايا غير متناهية ومتجددة، ولا بد لها من حلول، فالشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، ومعنى الصلاحية أن يكون لها حل للمشكلات وإجابة عن كل الأسئلة، ومن ثم اجتهد الفقهاء في هذا الميدان، واختلفت اجتهاداتهم طبقاً لفهمهم الكتاب والسنة؛ ونتيجة لذلك ظهرت المذاهب الفقهية المعروفة، وتراكم تراث فقهي هائل، أخذ يتزايد بمرور الزمان. وفي العصر الأموي ظهر إمامان جليلان من أئمة الفقه الكبار، هما «أبو حنيفة النعمان» و «مالك بن أنس». أمّا أولهما فقد وُلد في «الكوفة» سنة (80هـ) في خلافة «عبد الملك بن مروان»، وتوفي سنة (150هـ) في خلافة «أبي جعفر المنصور العباسي»، أى أنه عاش أغلب حياته في العصر الأموي. وهو من أصل فارسي، تلقى الفقه على كثير من كبار العلماء، منهم «أبو جعفر الصادق»، و «إبراهيم النخعي»، و «عامر بن شراحبيل الشعبي»، و «الأعمش»، و «قتادة»، وغيرهم، واشتهر باجتهاده،

(81/16)

---

وقوة حجته، وحسن منطقه، ودقته في استنباط الأحكام، وهو صاحب المذهب الحنفي المعروف، الذي أُلّف فيه ونشره بين

الناس تلاميذه العظام، ومن أبرزهم «أبو يوسف» المتوفى سنة (182هـ) قاضى القضاة فى عهد الخليفة «هارون الرشيد»، و «محمد بن الحسن الشيبانى» المتوفى سنة (189هـ). و «زفر بن هذيل» المتوفى سنة (158هـ)، وقد انتشر المذهب الحنفى فى «مصر» و «العراق» وأواسط آسيا وغيرها. وأماً الآخر فقد وُلد فى «المدينة المنورة» سنة (93هـ) فى عهد «الوليد بن عبد الملك»، وتوفى سنة (179هـ) فى عهد «هارون الرشيد»، أى أنه عاش نحو نصف عمره فى العصر الأموى، وأكثر من نصفه الآخر فى العصر العباسى. نشأ «مالك بن أنس» وتفقه وروى الحديث فى «المدينة» وترك كتاباً عظيماً هو «الموطأ»، الذى يجمع بين الفقه والحديث، والإمام «مالك» صاحب المذهب المالكى المعروف الذى انتشر فى «مصر» و «المغرب العربى». وقد عاصر هذين الإمامين الجليلين عدد آخر لا يقل عنهما علماً وفقهاً، مثل: «الأوزاعى» إمام أهل الشام المتوفى سنة (157هـ)، و «الليث بن سعد» إمام أهل «مصر»، المتوفى سنة (175هـ)، غير أن مذهب هذين الإمامين الجليلين اندثر بعدهما؛ لأنهما لم يجدا تلاميذ يواصلون نشر مذهبيهما.

(82/16)

### \*القضاء

كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتولى القضاء بنفسه فى «المدينة»، ثم أذن لبعض أصحابه بالقضاء بين الناس، لما انتشر أمر الدعوة الإسلامية فى شبه الجزيرة العربية، وكثرت القضايا والخصومات، وكانوا يقضون على أساس القرآن الكريم والسنة النبوية، والاجتهاد فيما لم يرد فيه نص من كتاب الله أو سنة رسوله، ومن الصحابة الذين كانوا يتولون القضاء فى حياة

النبي - صلى الله عليه وسلم - «عمر بن الخطاب» و «علي بن أبي طالب»، و «معاذ بن جبل»، و «عبدالله بن مسعود»، وغيرهم. ولما بويح «أبو بكر الصديق» بالخلافة، وانشغل بمحاربة المرتدين وتسيير الجيوش لفتح «العراق» و «الشام»، وكثرت عليه أعباء الدولة؛ خصَّ «عمر بن الخطاب» بالقضاء في «المدينة». وفي عهد «عمر بن الخطاب» اتسعت الدولة اتساعاً كبيراً، فعين قضاء من قبله على الولايات، فعين «كعب بن سور» على قضاء «البصرة»، و «شريحاً» على قضاء «الكوفة»، ومن أشهر من تولوا القضاء في عهد «عمر» «أبو موسى الأشعري»، الذي كتب له «عمر» رسالة مشهورة، بين له فيها أهم الأسس والمبادئ التي ينبغي للقاضي أن يسير عليها، واستمر «عثمان» و «علي بن أبي طالب» في تعيين القضاة من قبلهم على الولايات. وسار الأمويون على سنة الراشدين في تعيين القضاة على الأقاليم، وحرصوا على أن يكون قضاةم من أهل الاجتهاد والورع والتقوى، ولم يتدخلوا في عملهم، وخضعوا لأحكامهم مثل غيرهم من عامة الناس. وقد اتسعت دائرة عمل القضاة في العصر الأموي، نظراً إلى اتساع مساحة الدولة، وكثرة المشاكل والمنازعات بين الناس، مما أدى إلى اتساع دائرة الفقه الإسلامي، لأن كثيراً من أحكام القضاة في تلك الفترة أصبحت قواعد فقهية عند تدوين الفقه بعد ذلك، وكان بعض القضاة يسجل أحكامه في القضايا التي يفصل فيها، وأول من فعل ذلك قاضي «مصر» «سليم التجيبي» في عهد «معاوية بن أبي سفيان». ومن أشهر القضاة في العصر الأموي

«أبو إدريس الخولاني»، و «عبدالرحمن بن حجيرة»، و «أبو بردة بن أبي موسى الأشعري»، و «عبدالرحمن بن أذينة»، و «هشام بن هبيرة»، و «عامر بن شراحبيل الشعبي»، و «عبدالله بن عامر بن يزيد اليحصبي»، وكثيرون غيرهم. وقد استُحدث نظام قضاة المظالم في العصر الأموي، وهو نوع من أنواع القضاء المستعجل، الذي يتطلب البتّ السريع في القضايا التي لا تحمل الانتظار، ويبدو أن الذي أدّى إلى استحداث هذا النوع من القضاء هو حدوث خصومات بين أطراف غير متكافئة، كأن يكون أحد طرفي الخصومة أميراً أو والياً أو من عليّة القوم، الأمر الذي يتطلب حزمًا وشدة، لردع الخصم المتعالي. ولم يُعمل بهذا النوع من القضاء في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - ولا في عصر الخلفاء الراشدين، لأن الناس كانوا في الغالب لا يتعالى أحدهم على خصمه، على حين تغيّر الحال بعض التغيّر في العصر الأموي، ولم يعد الوازع الديني كما كان في العهد النبوي وعصر الراشدين، ولم يعد القضاء العادي كافيًا للفصل في جميع المنازعات، لجاهرة بعض الناس بالظلم والتعالي على الخصوم، فدعت الضرورة إلى إنشاء هذا النوع المسمى بقضاء المظالم، وكان له ديوان يعرف بديوان المظالم، وكانت سلطته أعلى من سلطة القاضي. ونظرًا إلى أهمية هذا القضاء وما يتطلبه من الحزم والهيبة، فقد كان بعض خلفاء «بني أمية» يتولونه بأنفسهم، وأول من جلس منهم لقضاء المظالم هو «عبدالمملك بن مروان». وكما كان قاضي المظالم يقضى بين الأفراد عامة، فإنه كان يقضى بين الأفراد وكبار المسؤولين، الذين يجيدون عن طريق العدل والإنصاف من الولاة وعمال الخراج. وقد حظي القضاة في العصر العباسي بالتبجيل والاحترام، وكان تعيينهم وعزهم يتم بأمر الخليفة، وأول من فعل ذلك الخليفة «المنصور»، فقد عين قضاة البلاد بأمره سنة (136هـ = 753م). وقد استقرت المذاهب الفقهية في عهد «الدولة العباسية»، وتحدت مهام

القضاة وكيفية الإجراء القضائي، وتوحد القانون وأصبحت جلسات القاضى علنية في المسجد وخصوصاً في عهد «المأمون». كما اهتم خلفاء العباسيين بالثبوت من الأحكام، فعينوا جماعة من المُرَكِّين، وظيفتهم تتبع أحوال الشهود، فإذا طعن الخصم في شهادة أحد الشهود سُئل عنه المرَكِّي، كما اهتموا بأحوال القضاة المادية حتى يعيشوا في يسر ورخاء. وقد تطور القضاء بصورة ملحوظة في العصر العباسي، وظهر منصب «قاضى القضاة»، وكان يقيم في عاصمة الدولة، ويقوم بتعيين القضاة في الأقاليم والبلاد المختلفة، وأول من لقب «قاضى القضاة» «أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم»، صاحب كتاب «الخراج»، في عهد «الرشيد». أما في عصر المماليك في مصر والشام فقد تعهد «الظاهر بيبرس» النظام القضائي بالإصلاح والتعديل، ورأى في تقسيم مناصب القضاء بين قضاة المذاهب الأربعة ما يضمن العدالة بين الناس، والتيسير عليهم، فقد عين في سنة (663هـ) أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة، وكتب لكل منهم تقليدًا، وأجاز لهم أن يولوا نوابًا عنهم في أنحاء البلاد. امتد اختصاص قاضى القضاة، وقضاة الأقاليم، وزاد نفوذهم، وامتد فتناول النظر في الدعاوى التي تتضمن إثبات الحقوق والحكم بإيصالها إلى أصحابها، كما نظر في الأموال التي ليس لها ولي معين، وكذلك تناول تعيين أوصياء لليتامى، وتفقد أحوال الخجور عليهم من المجانين والمفلسين وأهل السفه، ونظر -أيضًا- في وصايا المسلمين، وكان القضاة ينظرون في مصالح الأوقاف، ويعملون على حفظ أصولها وتثبيت فروعها، وقبض ريعها وإنفاقه في مصاريفه، وكذلك كانوا يقبضون المال الموصى به لتنفيذ الوصية، وعهد إليهم

بتسلم أموال الموارث المتنازع عليها، وأموال مَنْ يموتون غرباء وحفظها حتى يحضر وراثتهم. وانحصرت سلطة القضاة الأربعة ونوابهم على المدنيين، بينما كان للجيش المملوكي ثلاثة قضاة عُرف كل منهم باسم: «قاضى العسكر»، واختصوا بشئون

(85/16)

العسكر للفصل فى القضايا الخاصة بهم، أو التى بينهم وبين المدنيين، وكانت جلسات القضاء فى دولة المماليك تعقد علانية ويحضرها مَنْ شاء من الناس، وكانت المساجد مكان انعقاد هذه الجلسات، كما كانت دور القضاء الخاصة مكاناً لها أحياناً؛ إذا لم يكن هناك دور معينة لانعقادها، فإذا جلس القاضى للفصل فى الخصومات رتب القضايا بحسب حضور الخصوم؛ حتى لا يتقدم أحد على الآخر لمكانته أو ثرائه، وكان يستعين على تنظيم قاعة الجلسة بعدد من الموظفين منهم: «الجلواز»، و «الأعوان»، و «الأمناء»، و «العدول»، فكان الرجال يجلسون فى جانب والنساء فى الجانب الآخر. وقد بلغ راتب القاضى خمسين ديناراً شهرياً، عدا ما كان يحصل عليه من الأوقاف التى كان يتولى إدارتها، بالإضافة إلى ما كان يجرى عليه من الغلال والشعير والخبز واللحم والكساء. كان تنظيم القضاء فى دولة المماليك تنظيمًا دقيقًا، وبرز فى هذه الدولة قضاة عرفوا بالنزاهة وطهارة الذمة وحسن السيرة، احترموا مركزهم القضائى، ولم يقبلوا تدخل أحد - مهما يعلُّ مركزه - فى أعمالهم، وكثيراً ما كانوا يطلبون إعفاءهم من مناصبهم - دون تردد - إذا ما حاول أحد تهديد كرامتهم، أو الاعتداء من قريب أو بعيد على استقلالهم، فقد كانوا لا يقبلون الرشوة ولا الهدية، لذا أصبحت لهم مكانتهم الكريمة ومقامهم المرموق فى الدولة، وفى نظر

السلطين والأمرء، وجميع طبقات الشعب، ولعل أبرز الأمثلة للتدليل عليهم: «القاضى عبدالعزيز»، المعروف بعز الدين بن عبدالسلام (سلطان العلماء)، و «القاضى تقى الدين عبدالرحمن الشافعى» ابن بنت «الأعز»، و «القاضى تقى الدين محمد بن دقيق العيد»، وغيرهم، فقد كانوا أمثلة عظيمة وواضحة لما يجب أن يكون عليه القاضى العادل والشريف.

(86/16)

---

### \* الأتابك

«الأتابك» هو القائد العام للجيش، وكلمة «أتابك» لفظة تركية مركبة من «أتا»، (وتعنى: أب) و «بك» (وتعنى: السيد أو الأمير) فيكون «الأتابك» هو: السيد الأب، أو الأمير الأب، أى أنه أبو الأمرء أو كبيرهم، وقد أطلق هذا اللقب فى عهد المماليك على مقدم العساكر، أو القائد؛ لأنه يعتبر أباً للعساكر والأمرء جميعاً، وكثيراً ما خلع الأتابكة أبناء السلطين من على العرش، واستولوا عليه وتولوه بدلا منهم.

(87/16)

---

### \* ديوان الإنشاء

كانت أهم اختصاصاته تنظيم العلاقات الخارجية للدولة، وهو أول ديوان وُضع فى الإسلام، وقد نُظِم فى عهد المماليك بأسلوب يتناسب مع مقتضيات العصر ومتطلباته، وكان مقره «قاعة الصاحب» بقلعة الجبل، حيث ترد المكاتبات إليه من جميع أنحاء الولايات والممالك التى بينها وبين بلاد المسلمين علاقات سياسية، كما كانت تحرر فيه الكتب التى كان يرسلها السلطان

إلى الملوك والأمراء، وقد لُقّب صاحب ديوان الإنشاء بألقاب عديدة في أوائل عهد المماليك، فلقبوه تارة باسم: «صاحب الدست الشريف»، وأخرى باسم: «كاتب الدرج» وثالثة باسم: «كاتب الدست» وبقيت هذه تسميته إلى أن تولى «القاضي فتح الدين بن عبدالظاهر» هذا الديوان في عهد السلطان «قلاوون» فتلقب بلقب «كاتب السر»؛ لأنه كان يكتب سر السلطان، وكانت وظيفته من أعظم الوظائف الديوانية وأجلّها قدرًا، وكان له معاونون يساعدونه في أداء ما عليه من التزامات وواجبات. كان من أبرزهم: «نائب كاتب السر»، ثم يليه في المرتبة كُتّاب الدست المتصلون بديوان الإنشاء، وكانوا يجلسون مع كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل.

(88/16)

#### \*التنظيمات

التنظيمات» كلمة عربية دخلت اللغة التركية، وتعني في الاصطلاح السياسى: حركة التنظيم والإصلاح على المنهج الأوربي الغربى، وفي الاصطلاح التاريخى: حركة الإصلاح التى حدثت فى الدولة العثمانية فى القرن (13هـ = 19م) مهتدية بالمؤسسات والتنظيمات الأوربية، وعرفت بهذا الاسم لأنها تميزت بتنظيم شئون الدولة وفق أسس جديدة فى جميع المجالات. ويمكن تعريف حركة التنظيمات العثمانية بأنها حركة ثقافية وإصلاحية حدثت فى الدولة العثمانية فى النصف الأول من القرن (19م)، ومهدت لإقامة حكم دستورى على النمط الغربى فى البلاد، وللتقارب بين العالمين الإسلامى والمسيحى، وشملت مناحى الحياة كافة فى الديار العثمانية على حساب الحضارة الإسلامية، وانتقلت سلطة السلاطين إلى الصدر الأعظم والوزراء،

وتراجعت مشيخة الإسلام إلى درجة أقل من حيث الاعتبار والنفوذ، ثم شل عملها. وكان الحكم العثماني قبل صدور التنظيمات يستند إلى ثلاث دعائم رئيسية هي: 1 - السلطنة. 2 - الخلافة. 3 - مشيخة الإسلام. فكان الوزراء يأتمرون بأوامر السلطان، ويساعد «ديوان الوزراء» السلطان في إدارة أمور الدولة، وتقوم مشيخة الإسلام بتقديم الشورى للسلطان. بدأ عهد التنظيمات بصدور فرمان من السلطان «محمود الثاني» باسم «فرمان التنظيمات الخيرية» في (26 من شعبان سنة 1255هـ = 4 من نوفمبر سنة 1839م)، وانتهى عندما تولى السلطان «عبد الحميد الثاني» الخلافة سنة (1293هـ = 1876م)، وهي السنة التي أعلنت فيها الدولة العثمانية ما عُرف باسم «المشروطية الأولى»، أي إعلان دستور في البلاد لأول مرة على النمط الغربي. وقد أكدت التنظيمات ضرورة إيجاد ضمانات لأمن جميع رعايا الدولة على حياتهم وشرفهم وأموالهم، ووجوب علانية المحاكمات ومطابقتها للوائح، وإلغاء إجراءات مصادرة الأملاك، وضرورة إيجاد نظام ثابت للضرائب يحل محل «الالتزام»، وتوفير نظام

(89/16)

---

ثابت للجندي بحيث لا تستمر مدى الحياة، وإنما تحدد مدتها بفترة تتراوح بين أربع وخمس سنوات. وأدى صدور هذه التنظيمات إلى حدوث تغيرات كثيرة شملت معظم مجالات الحياة، فأنشئت المحاكم المختلطة التي تقبل الشهادة من المسلمين والمسيحيين على حد سواء، وتبنت في القضايا المختلفة التي يكون الأجنب أطرافاً فيها، وكان يعمل بتلك المحاكم قضاة أتراك وأوروبيون، كما صدر قانون تجاري على نمط القانون التجاري الفرنسي، وأنشئت مجالس لمعاونة مجالس الولايات،

يُمثَّل فيها الأهالي. وظلت القوانين الشرعية تطبق في المحاكم التقليدية، وكذلك في المحاكم الحديثة التي تطبق القوانين الجديدة المتصلة بالمسائل التجارية والجنائية، المأخوذة عن القوانين الغربية، وبخاصة القانون الفرنسي، وبقيت القوانين الشرعية المتصلة بالأحوال الشخصية كالطلاق والزواج بدون تعديل. وقامت لجان يرأسها من يميلون إلى الأخذ والاعتدال عن الغرب بوضع الخطط الشاملة التي تستهدف إقامة نظام تعليمي يشمل جميع مراحل التعليم المختلفة، فصدر في سنة (1386هـ = 1869م) قانون التعليم، الذي قسّم المدارس إلى مدارس عمومية وخصوصية، وجعل التعليم العام في المدارس الأولية إجباريا ومجانيا لمدة أربع سنوات، ودون تفرقة بين الذكور والإناث، وتمييز بين المسلمين وغيرهم. أما التعليم الخاص فقد تناولته المادة (129) من قانون سنة (1286هـ = 1869م)، واشترطت حصول مدرسي المدارس الخاصة على مؤهلات تقرها وزارة المعارف العثمانية، وأن تقر تعيينهم السلطات التعليمية سواء أكانت محلية أم مركزية. وأنشئت مدارس خاصة للبنات والفقراء، كما أنشئت في سنة (1276هـ = 1859م) مدرسة جديدة لتعريب الإداريين، وتدريب المعلمين الذين كانوا يدرسون الشؤون العامة والأولية. وقد انفصلت مدارس الحكومة رسميا عن إشراف العلماء، ووضعت تحت إشراف وزارة المعارف ذات الصبغة العلمانية منذ

(90/16)

---

سنة (1283هـ = 1866م)، مما أدّى إلى ازدياد الهوة بين التعليم الديني والتعليم العلماني، وتعميق الازدواج الثقافي. وكان للمطبعة أثر كبير في هذا التحول منذ سنة (1251هـ = 1835م)، فقد ازداد عدد الكتب المطبوعة، وازداد عدد الصحف والدوريات،

ولعب المسرح دوره في نشر الأفكار الجديدة، وبخاصة بعد أن كثرت دور المسارح، ونشطت حركة ترجمة الكتب الغربية بما في ذلك المسرحيات، وقد أدّى ذلك كله إلى ظهور مسرحيات عثمانية، ساعدت على انتشار الأفكار الجديدة، بما تهيأ لها من لغة سهلة وجذابة، لقيت تجاوبًا من العامة، وأوجدت اتجاهًا مطلقًا إلى مقاومة السلطة المطلقة عن طريق إعلان الدستور وإيجاد حكومة مسئولة أمام برلمان منتخب وفق النمط الديمقراطي الذي عرفه الغرب وبخاصة في «بريطانيا».

(91/16)

#### \*الديوان الهمايوني

اسم أطلق على الديوان الذى يجتمع برئاسة السلطان، لينظر فى أمور الدولة ذات الأهمية الأولى، وهو امتداد حضارى لهذه المؤسسة منذ عهد السلاجقة ثم الإيلخانيين والدول التركية الأخرى، ومثله فى ذلك مثل الديوان العالى عند السلاجقة والديوان الكبير عند الإيلخانيين والديوان السلطانى عند المماليك. كانت مهمة الديوان الهمايوني دراسة أمور الدولة السياسية والإدارية والعسكرية والعرفية والشرعية والعدلية والمالية، كما كانت مهمته النظر فى الشكاوى والقضايا، واتخاذ القرار بشأنها، وكان الديوان مفتوحًا لكل من يتمتع بحماية الدولة العثمانية مهما يكن دينه أو ملته، ومهما يكن عرقه أو مكان موطنه فى الدولة، ومهما تكن مهنته أو الطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها، كما كان الديوان مفتوحًا لكل رجل أو امرأة يتعرض للظلم، أو لمن صدر حكم من القضاة المحليين ضده ويرى خطأ هذا الحكم، أو لمن يشكو الولاة أو الجنود أو الضباط، أو لمن وقع عليه ظلم القائمين على الأوقاف. وكانت الشؤون الإدارية

والعرفية في الديوان من اختصاص «الوزير الأعظم»، أما الشئون الخاصة بالأراضي فكانت من اختصاص «النشأجي» (التوقيعي)، أما الشئون الشرعية والقانونية فكانت من اختصاص «قاضي عسكر»، أما الشئون المالية فكانت من نصيب «الدفتدار»، وكانت القرارات التي يتخذها والأمور التي ينظرها تسجل بدفاتر تسمى «مهمة دفتري» و «رءوس دفتري» و «نامه» و «عهد نامه» ثم تُمهر بخاتم السلطان الذي يكون عادة في عهدة الوزير الأعظم، ثم تودع في «الدفترخانة». ويتشكل الديوان الهمايوني من أعضاء دائمين (الأعضاء الطبيعيين)، وأعضاء مؤقتين. الأعضاء الدائمون: هم السلطان والصدر الأعظم أو الوزير الأعظم وقاضيا العسكر والنشأجي (وهو التوقيعي أو الطغرائي) والدفتدار. الأعضاء المؤقتون: هم أمير أمراء الروملى (إذا كان موجودًا في العاصمة)، وأغا الإنكشارية، وقائد الأسطول (إذا

(92/16)

---

كان حائزًا على رتبة الوزير فيكون عضوًا دائمًا)، وشيخ الإسلام (إذا دعى للحضور). هذا بالإضافة إلى المساعد (الكادر) وأهمهم رئيس الكتاب والتذكري وجاوش باشى والكتاب. ويستطيع السلطان استخدام سلطاته أو إحالتها إلى الوزير الأعظم. سلطات الديوان الهمايوني: 1 - السياسية: يتمتع «الديوان الهمايوني» بأعلى سلطة في الدولة بعد السلطان، ومهمته المحافظة على نظام الحكم وضمان ملائمة جميع أجهزة الدولة لهذه السلطة، ومنع القيام ضدها، وهو صاحب المسؤولية في اتخاذ ما يراه كفيلا للقيام بمهمته، خاصة أن هذا الديوان يمثل قوى رأس الدولة كلها. وتنقسم سلطة الديوان الهمايوني السياسية إلى قسمين: داخلية وخارجية: أ - السياسة الداخلية: السلطة السياسية

الداخلية التي يمارسها الديوان الهمايوني هي حماية الشريعة الإسلامية، وإعلاء الإسلام، وسحق كل حركة تقوم ضده، واستقبال من أسلم حديثاً، وإقرار رواتب لهم من الدولة، كل حسب وضعه الاجتماعي، وتقديم هدايا مناسبة لهم وحمايتهم من تدخل سفراء الدول التابعين لها، وعدم تسليمهم لهم عند مطالبة هؤلاء السفراء بتسليم المهتدين حديثاً إلى الإسلام لهم، في حالة ما إذا كان هذا المسلم حديثاً من مواطني دولة أخرى، أما إذا كان من مواطني الدولة العثمانية فالديوان يستقبلهم ويوزع عليهم هدايا ويربطهم برواتب منتظمة من الدولة، كما كان يتخذ تدابير شديدة ضد من يرتد عن دينه من المسلمين. ب - السياسة الخارجية: كانت السياسة الخارجية العثمانية التي ينفذها الديوان الهمايوني تتلخص في الآتي: نشر الإسلام بكل ما تستطيعه الدولة من إمكانيات وتعبير آخر: «تحويل دار الحرب إلى دار إسلام»، وكان هذا أحد أهم الأهداف السياسية الخارجية العثمانية التي يتولى تنفيذها الديوان الهمايوني. وقد نجحت هذه السياسة الخارجية نتيجة توسيع حدود الدولة العثمانية، وهذا يعنى نشرها للإسلام، ولم تتوقف حروب الفتح إلا منذ

(93/16)

---

أواخر القرن السادس عشر الميلادي، ومنذ ذلك الحين جعل الديوان الهمايوني هدفه في السياسة الخارجية حماية الأراضي المفتوحة والدفاع عنها. ومع تداخلات الدول الأوروبية في السياسة الخارجية العثمانية وإرسال هذه الدول سفراء مؤقتين ثم سفراء دائمين لها في إستانبول أصبح السفراء يقدمون رسائلهم إلى الديوان الهمايوني، ويحصلون على أجوبتها في مراسم رسمية يوضحها «قوجى بك» في رسالته المشهورة،

وكان للسفراء الأجانب أن يقدموا شكاوى للديوان الهمايوني إذا حدث إخلال بالاتفاقات المعقودة بين بلادهم وبين الدولة العثمانية التي تسمى في «عهد نامه»، وكان الديوان يحقق فيها ويعدل. وكان لهذا الديوان حق تعيين العثمانيين في المناصب الدبلوماسية، وكانوا غالبًا من البيروقراطيين العاملين فيه. أما أهم سلطات الديوان الهمايوني فكان إعلان الحرب، وكان المعتاد أن يجيل السلطان قرار الحرب إلى الديوان الهمايوني لدراسته واتخاذ اللازم لتنفيذه، وكان هذا القرار أحيانًا يُتخذ في الديوان الهمايوني. 2 - الإدارية: كان التفتيش على جميع الأعمال الإدارية في البلاد من سلطات الديوان الهمايوني وهو في ذلك - بعد السلطان - السلطة الأولى في البلاد وعليه محاكمة الموظفين إذا لزم الأمر. وإن كان توجيه المناصب إلى حدّ معين من اختصاص الجهات الإدارية الأخرى، مثل: تعيين القضاة الذي هو من اختصاص قاضي العسكر؛ فإن التعيين في بعض المناصب مثل منصب «صوبا شي» المدن الكبرى من اختصاص الديوان الهمايوني. وإذا صدر قرار بتعيين شخص في منصب وتظلم من هذا التعيين أو النقل فمن حقه مراجعة الديوان الهمايوني، وللديوان في هذه الحالة الأمر بإجراء التحقيقات وعمل اللازم. ومن السلطات الإدارية لهذا الديوان أيضًا حماية أهل الذمة في البلاد من تعديات الإداريين وإعادة الحق إليهم ومعاقبة المسؤولين عن ذلك. وكانت خيوط المركزية الإدارية في الدولة تتجمع في هذا الديوان، مثال ذلك:

(94/16)

---

أن الديوان طلب من أجهزة الدولة المسئولة عمل قوائم بكل الموجودين داخل حدود الدولة العثمانية وتسليمها إلى الديوان

الهمايوني وتجديدها كل ثلاثين عامًا، وأن على المسئولين عن هذا تسجيل الوفيات والمواليد خلال هذه الأعوام الثلاثين، وهو ما يعرف اليوم بالإحصاء العام. 3 - المالية والاقتصادية: والديوان الهمايوني هو سلطة الفصل العليا في الأمور الاقتصادية والمالية على أعلى مستوياتها في الدولة، فالوزير الأعظم والدفتردار عضوا الديوان الطبيعيان، وهما صاحبا السلطة الأولى في الدولة - بعد السلطان - في التصرف في الأمور المالية، ومن مهام الديوان الطبيعية الضرائب والاقتصاد والمال. أما عن الضرائب: فمهمة الديوان تحرير موارد البلاد المفتوحة بدقة وعناية فائقتين، والإشراف المباشر سنويا على الضرائب التي من حق الخزينة العامة، وتسلم دفاتر الضرائب التي تُحصّل سنويا من جميع أرجاء البلاد، ويكتب منها نسختان: نسخة في مركز الولاية، ونسخة أخرى ترسل إلى «إستانبول» لتسلّم إلى الديوان الهمايوني. والقوانين التي تسن لجمع الضرائب تعد في الديوان الهمايوني ويقوم بإعدادها التوقيعي (النشائجي) ومجموعة مساعديه، وينظر الديوان في مدى مطابقة هذه الضرائب للعدالة الضريبية بناءً على مدى مطابقتها للشرع الإسلامي. ويتساوى في هذا جميع أنواع الضرائب، ومن أهمها ضرائب الجمارك التي يتابعها الديوان بدقته المعهودة، حتى إنه يتدخل فوراً إذا قدمت له شكوى تخص تحصيل هذه الضرائب بغير وجه حق إلى أبسط أنواع الضرائب وأخفها. وعلى الديوان الهمايوني ضمان عدم تحصيل الضرائب من الذين لا تحصل منهم مثل: رجال الدين الذميين، ومجازاة المرتشين - إذا وجدوا - في عمليات جمع الضرائب، والعمل على عدم إهدار المال العام واتخاذ التدابير الصارمة في هذا السبيل، واتخاذ الإجراءات الضرورية لحماية البائع والمستهلك على حد سواء، ومراقبة

---

أعمال قطع الأشجار وأعمال المحافظة على الخضرة. ومن مهام الديوان الهمايوني أيضاً اتخاذ التدابير الضرورية لتطور اقتصاد البلاد، والعمل على عدم سيطرة تجار معينين على تجارة البلاد واحتكارهم لها، وعدم تخزين البضائع والمواد الضرورية في الوقت المناسب ثم بيعها بعد ذلك بأسعار باهظة، والقضاء على التهريب وحصر ثروة السلطان إذا توفى وغير ذلك.

(96/16)

---

**\*الصدر الأعظم:**

وتتلخص سلطاته في أنه وكيل السلطان وحامل خاتمه، وكان يعين في أوائل الحكم العثماني من طبقة العلماء، ومنذ عهد «مراد الأول» (791 - 794 هـ = 1389 - 1392م) كثر عدد الوزراء، ولذلك سمي أولهم الوزير الأعظم، وكانت له رئاسة الديوان الهمايوني نيابة عن السلطان في حالة عدم وجوده، وسلطة تعيين العلماء ومن على شاكلتهم وعزلهم وترقيتهم، وله في أوقات الحرب سلطة السلطان في كثير من الأمور. ولا بد أن يشترك مع السلطان في الحرب، فإذا ترك السلطان الحرب لسبب أو لآخر يتولى الوزير الأعظم قيادة الجيش نيابة عن السلطان، وفي أثناء ذلك يحمل لقب «السرदार الأكرم»، ويترك في حالة الحرب في مكانه موظفًا في البلاد يسمى «قائمقام الصدارة» أو «قائمقام الركاب الهمايوني» يرأس الديوان الهمايوني في العاصمة بدلا من الوزير الأعظم بمقتضى بنود القانون.

(97/16)

---

### \*قاضي العسكر:

وموقعهما في البروتوكول خلف الوزير الأعظم مباشرة، وهما  
اثنان: قاضي عسكر الأناضول وقاضي عسكر الروملى  
(البلقان)، وكانا يستمعان إلى الشكاوى، ويجلسان على يسار  
الوزير الأعظم في الوقت الذى يكون فيه بقية الوزراء على  
يمينه، وكان عليهما حل المسائل الشرعية، ويمثلان العلماء؛ إذ  
إن شيخ الإسلام لم يكن عضوًا بالديوان الهمايوى. وأهم عمل  
لهما في الديوان الاستماع إلى القضايا المعروضة.

(98/16)

### \*قصر الحمراء:

يعد قصر الحمراء من أعظم الآثار الأندلسية بما حواه من بدائع  
الصنع والفن، وقد كانت الحمراء قلعة متواضعة في القرن الرابع  
الهجرى، وعندما تولى «باديس بن حبوس» زعيم البربر غرناطة  
اتخذها قاعدة لملكه، وأنشأ سورًا ضخماً حول التل الذى تقع  
عليه، وبني فى داخله قسبة جعلها مركزاً لحكمه، وقد تطورت  
مع الزمن وأصبحت حصن غرناطة المنيع. ولما دخل «محمد بن  
الأحمر» غرناطة عام (635هـ = 1238م)، أخذ يبحث عن مكان  
مناسب تتوافر له القوة والمناعة، فاستقر به المطاف عند موقع  
الحمراء فى الشمال الشرقى من غرناطة، وفى هذا المكان  
المرتفع وضع أساس حصنه الجديد «قسبة الحمراء»، ولكى يوفر  
له الماء أمر بعمل سد على نهر «حدرة» شمالي التل، شيدت  
عليه القلعة، ومنه تؤخذ المياه وترفع إلى الحصن بواسطة  
السواقي، وقد باشر السلطان العمل بنفسه واشترك فيه وكافأ  
المتجهدين، واتخذ ابن الأحمر من هذا القصر مركزاً لملكه وأنشأ  
فيه عددًا من الأبراج المنيعة، وأقام سورًا ضخماً يمتد حتى

مستوى الهضبة، وفي عهد «محمد الفقيه» استكمل الحصن والقصر الملكي، ولما تولى «محمد الثالث» قام ببناء المسجد الجامع بالقصر. وكان عهد السلطان «يوسف الأول» وولده «محمد الخامس» هو العصر الذهبي لعمليات الإنشاء والتشييد في قصر الحمراء ففي عهد الأول أقيم السور الذى يحيط بالحمراء بأبراجه وبوابته العظمى المعروفة بباب الشريعة أو العدل وغير ذلك من الأبراج والقصور والحمامات، وقام الثانى بإصلاح ما بدأه أبوه وإتمامه، ثم قام بتشييد مجموعة قصر السباع، وقاعة الملوك أو العدل وغيرها. وقد يسأل سائل، من أين جاء اسم الحمراء؟ قيل إن هذا اسم قلعة الحمراء القديمة التى فوقها بنى ابن الأحمر قصره، وقيل: إن هذا الاسم مرجعه احمرار أبراج قصر غرناطة الشاهقة، أو إن ذلك يرجع إلى لون الآجر الذى بنيت به الأسوار الخارجية، أو إلى لون التربة التى بنيت عليها والتى

(99/16)

---

اكتسبت لونها الأحمر من كثرة أكسيد الحديد بها ولهذا سميت بتل السبيكة. وأيا ما كان الأمر فليست هناك صلة بين اسم الحمراء وبنى الأحمر الذين لقبوا بهذا بسبب احمرار شعر جدهم، ولم يلبث أن ارتبط كلاهما بالآخر.

(100/16)

---

#### \*قصر جنة العريف

شيد فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى، ثم جدده السلطان أبو الوليد، ويقع بالقرب من قصر الحمراء وبطل عليه، وهو فى شمال شرقى الهضبة وتظهر من ورائه جبال الثلج، ويدخل

الإنسان إلى هذا القصر من مدخل متواضع يؤدي إلى ساحة  
فسيحة على جانبيها رواقان طويلان ضيقان، وفي وسط الساحة  
بركة ماء غرست حولها الرياحين والزهور الفاتقة الجمال حتى  
أصبح هذا القصر المثل المضروب في الظل الممدود والماء  
المسكوب والنسيم العليل وقد اتخذه ملوك غرناطة متنزهًا للراحة  
والاستجمام.

(101/16)

---

### \*قاضي الجماعة

كان قاضي الجماعة أعظم رتبة ومنزلة من بقية القضاة، وهو  
يوازي قاضي القضاة بالمشرق، وكان مقصوراً على قاضي  
«مراكش» وقاضي «قرطبة» ويتم تعيينه من الخليفة مباشرة.

(102/16)

---

### \*سنن الترمذی

هو كتاب من كتب الحديث الستة، ألفه الإمام محمد بن عيسى بن  
سورة المشهور بالترمذی. وُلد بقرية ترمذ سنة (200هـ)، وتوفي  
بها سنة (279هـ). وكان آية في الحفظ والدكاء وعمي في آخر  
عمره. ويُعتبر الكتاب أيسر تناولاً لطالب العلم من الصحيحين،  
وقد رتبّه الإمام الترمذی على الأبواب مقتدياً بالبخارى ومسلم  
وأبي داود، فجمع بين طرقهم وأضاف إليها بيان مذاهب  
الصحابة، والتابعين، وفقهاء الأمصار. ويُن الترمذی أمر كل  
حديث، من حيث كونه صحيحاً، أو حسناً، أو ضعيفاً، أو منكراً،  
ويُن وجه الضعف، وذكر أنه مستفيض، أو غريب، أو معلل،  
وبين علته. وكذلك سَمَّى من الرواة من يحتاج إلى التسمية،

وكئى من يحتاج إلى التكنية. والكتاب خلو من الأحاديث  
الموضوعة. وشروح سنن الترمذى كثيرة، منها: عارضة الأحوذى  
فى شرح الترمذى لابن العربى، المتوفى سنة (543هـ)، وقوت  
المغتذى فى شرح الترمذى للسيوطى، المتوفى سنة (911هـ)،  
وتحفة الأحوذى لشرح جامع الترمذى للمباركفورى، وشرح ثلث  
الكتب فى 10 مجلدات ابن سيد الناس المتوفى سنة (734هـ)  
وأتمه الحافظ العراقى، المتوفى سنة (806هـ).

(103/16)

---

#### \*تاريخ بغداد

هو كتاب ألفه أحمد بن على بن ثابت بن أحمد بن مهدي الذى  
وُلد بإحدى قرى العراق سنة (392هـ = 1001م)، وتوفى ببغداد  
سنة (463هـ = 1020م). ويدور الكتاب حول ذكر مَنْ دخل بغداد  
من العلماء بعد تأسيسها حتى سنة (463هـ)، من الصحابة  
والتابعين فمن بعدهم، وعدد تراجمه (7831)، رتبهم المؤلف على  
حروف المعجم، وبدأ بذكر من اسمه محمد، كما ذكر المؤلف ما  
عرفه من كُنَاهم، وألقابهم، وأنساجهم، ومشهور مآثرهم،  
ومستحسن أخبارهم، وتواريخ وفياتهم، كما تكلم عن الرواة  
جرحًا وتعديلاً، وختمه بذكر شهيرات النساء والإماء. وقد طُبِعَ  
الكتاب فى بيروت، بدار الكتب العلمية.

(104/16)

---

#### \*المائة الأوائل

هو كتاب ألفه مايكل هارت الأمريكى الجنسية، وهو أحد علماء  
الفيزياء التطبيقية، وعضو الجمعية الفلكية وفروعها فى علوم

الكواكب. ويقع في نحو (570) صفحة من القطع الكبير، ويحتوى على مقدمة ودراسة للمائة المختارين. وتم فيه تناول كل شخص من المائة بكتابة نبذة موجزة عن حياته وخلفية عصره عند الضرورة، ثم عرض سريع لمنجزاته التي قدمها، وتقديره من قبل معاصريه أو التاريخ، مع بيان الأسباب التي جعلت المؤلف يضع الشخصية المدروسة في مكانها بالكتاب. وبعد عرض الشخصيات المائة وضع المؤلف قائمة بأسماء مَنْ فاتهم دخول القائمة، وهم مرشحون للدخول فيها، ثم وضع قائمة تتضمن تعليقاته. وقد جعل المؤلف النبي محمدًا (على رأس المائة). وقد ترجم الكتاب إلى العربية أكثر من مرة.

(105/16)

### \*إيساغوجي

كتاب في علم المنطق. ألفه أثير الدين المفضل بن عمر الأبهري. أحد علماء المنطق، وله اهتمام بالحكمة والطبيعات والفلك. تُوفِّي سنة (663هـ). وإيساغوجي لفظ يوناني معرب، وهو من مصطلحات علم المنطق التي استحدثت في المصنفات المعربة عن اليونانية، ويُقصد به الكليات الخمس، وهي: الجنس، والنوع، والفصل، والخاصة، والعرض العام. والكتاب مشتمل على ما يجب استحضاره من المنطق، وسمِّي إيساغوجي مجازًا؛ من باب إطلاق اسم الجزء وإرادة الكل. وشرح الكتاب عديد من العلماء، منهم: حسام الدين حسن الكاتبي المُتوفَّى سنة (760هـ)، وشمس الدين محمد بن حمزة الفنادي المُتوفَّى سنة (843هـ)، وشهاب الدين أحمد بن محمد الشهير بالأبدى، وغيرهم. وللكتاب عديد من الطبعات، منها: طبعة المطبعة الجمالية بالقاهرة سنة (1329هـ = 1911م)، وطبعة الآستانة: على الحجر سنة (1268هـ = 1852م).

### \*الخراج

كتاب ألفه القاضى أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب أبى حنيفة، وأحد تلامذته النجباء. وُلد أبو يوسف ببغداد سنة ( 113هـ) فى أسرة عريقة الأصل، وحفظ القرآن منذ صغره، وتولى منصب قاضى القضاة فى عهد الخليفة الرشيد، وتُوِّفَى ببغداد سنة (182هـ)، وله عدد من المؤلفات، من أشهرها كتاب الخراج. يضم الكتاب خمسة عشر باباً، يتناول فيها موضوعات شتى من الفقه والتاريخ والحديث والفتوحات ... إلخ. وسبب تأليف الكتاب أن الخليفة هارون الرشيد طلب من أبى يوسف عمل كتاب جامع يعمل به فى جباية الخراج والعشور والصدقات وغير ذلك. والكتاب يبدأ برسالة إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد تتضمن الدعاء للخليفة، ثم الحديث عن أهمية الكتاب وبعض النصائح المقتسبة من الكتاب والسنة للخليفة، ثم يتحدث فى الباب الثانى عن الغنائم وحكمها من القرآن والسنة وآراء الفقهاء، ويتناول فى الباب الثالث الفىء والخراج، ثم يتحدث فى الرابع عن أرض العراق المعروفة بأرض السواد، جاعلاً عنوانه ما عمل به فى السواد، وفى الخامس يتناول الشام وأرض الجزيرة وفتوح المسلمين بها. وفى السادس يتناول ما فرضه عمر لأصحاب رسول الله، رضى الله عنهم، متناولاً سنة النبى - صلى الله عليه وسلم - فى ذلك، ثم سنة أبى بكر ثم عمر، ويأتى الباب السابع بعنوان ما ينبغى أن يعمل فى السواد، وفى الثامن يتناول الحديث عن القطائع والصوائف، والباب التاسع يضم عدة فصول صغيرة، يتحدث فيها عن أراضي الحجاز واليمن وباقى الأراضى العربية وفتوحات النبى لها، ويتحدث فى العاشر عن الصدقات، ويضم الباب الحادى عشر فصولاً متنوعة، وفى الثانى عشر يتناول الحديث عن نصارى

بني تغلب وسائر أهل الذمة وما يُعاملون به، والباب الثالث عشر في العشور، والرابع عشر في الكنائس والبيع والصلبان، والخامس عشر يضم عدة موضوعات ختم بها كتابه، مثل: مصدر المرتبات التي يدفعها الخليفة لقضاته، وعماله، وقتال أهل

(107/16)

---

الشرك، وكيفية دعوتهم ... إلخ. ويُظهر الكتاب مدى سعة اطلاع أبي يوسف وعمق ثقافته وخبرته بشئون الدولة، وهو يتناول فقه الخراج بصورة تاريخية تصور تطبيق الأحكام الفقهية في الدولة الإسلامية، وفي كل موضوع يعرض أبو يوسف لأحكام الدين من خلال القرآن الكريم وسُنّة النبي - صلى الله عليه وسلم -، ثم سياسة الخلفاء، ثم يختم برأيه هو في الموضوع.

(108/16)

---

### \*الحاوي

كتاب في الطب ألفه أبو زكريا الرازي، أشهر أطباء المسلمين في العصور الوسطى، المتوفى سنة (311هـ). ويعتبر كتاب الحاوي أضخم موسوعة طبية عربية، استغرق إعدادها (15) عامًا. وقد جمع الرازي في كتابه الحاوي كل ما وجدته في كتب المتقدمين من أنواع الأمراض وصنوف الأدوية وقواعد حفظ الصحة. وذكر الرازي المصادر التي استند إليها في كتابه، لذلك فالحاوي يعتبر مادة نادرة عن الكتب التي أخذ عنها الرازي ولم تصل إلينا. وترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية سنة (1279م)، وصار أحد تسعة كتب لتدريس الطب في باريس حتى سنة (1395م)، وطبع في البندقية سنة (1542م) خمس مرات، وطبع في حيدرآباد

في (23) جزءاً في الفترة من (1955 – 1963م). وتوجد عدّة نسخ خطية من هذا الكتاب في عددٍ من مكتبات العالم، إلا أن النسخة الخطية المكتملة في مكتبة الاسكوريال.

(109/16)

---

### \*تاريخ يعقوبي

هو كتاب في التاريخ ألفه أحمد بن إسحاق بن جعفر بن واضح المعروف باليعقوبي. أحد المؤرخين والرحالة العرب وصاحب كتاب البلدان، أقدم كتاب عربي في الجغرافيا التاريخية، وتُوِّفِيَ اليعقوبي سنة (292هـ). وتاريخ اليعقوبي تاريخ موجز منظم يتناول تاريخ العالم منذ بداية الخلق حتى سنة (259هـ)، ويتناول تاريخ الأنبياء والفرس والجاهلية والأمم القديمة من رومان وفراعنة وبربر، وهو بذلك يعتبر أول كتاب عربي في التاريخ العام رغم احتوائه على بعض الأساطير. وكان اليعقوبي في تاريخه يذكر التقاويم الفارسية والرومية وبعض التفاصيل الفلكية. وقد اعتمد اليعقوبي في تاريخه على مصادر متعددة، مثل الكتاب المقدس وبعض المصادر الفارسية واليونانية، ومنهجه في العرض إهمال الأسانيد باستثناء بعض المصادر الشفوية، وأورد اليعقوبي في كتابه الرسائل والخطب السياسية كوثائق سياسية، وأكثر من التبرير لأفعال العباسيين. ويُعدُّ كتاب تاريخ اليعقوبي مكماً لتاريخ الطبري. وقد نُشر تاريخ اليعقوبي أول مرة في ليدن سنة (1860م)، وطُبع في بيروت سنة (1960م) في مجلدين.

(110/16)

---

### \*تلخيص المفتاح

كتاب للإمام جلال الدين بن محمد بن عبد الرحمن القزويني، المتوفى سنة (738هـ = 1338م)، وهو تلخيص لكتاب مفتاح العلوم للسكاكي في علم البلاغة. حيث قام القزويني بتلخيص الجزء الثالث من كتاب السكاكي المتصل بعلم البلاغة. وتناول القزويني في هذا الكتاب (علم المعاني) و (علم البيان) و (علم البديع). ووُضِعَتْ على تلخيص المفتاح عدة شروح وتلخيصات وحواشٍ، مثل: تلخيص التلخيص لشهاب الدين أحمد بن محمد، المتوفى سنة (788هـ)، كذلك شرح التفتازاني وحاشية الجرجاني، كما وضعت للتلخيص منظومات شعرية مثل ما نظمه زين الدين أبو العز طاهر بن حسن، المتوفى سنة (808هـ)، حيث بلغت منظومته (2500) بيت. وطُبع كتاب تلخيص المفتاح بمدينة كلكتا سنة (1231هـ = 1815م)، وترجم إلى التركية.

(111/16)

### \*تهافت الفلاسفة

كتاب لأبي حامد الغزالي محمد بن محمد، الفقيه الشافعي، والمتكلم الأشعري، الذي وُلِدَ في طوس سنة (450هـ = 1058م)، وكان له أثر كبير في الحياة العلمية في عصره وما تلاه من عصور، وتُوفِّيَ في خراسان سنة (505هـ = 1111م). وكتاب تهافت الفلاسفة في نقض مذاهب الفلاسفة وبيان ما في آرائهم من تهافت. وكان سبب تأليف الغزالي لهذا الكتاب؛ ما لاحظته في الجوف الفكري السائد في زمنه من حالة الإعجاب والانبهار بالفلسفة ورجاها؛ مما أدى إلى الخروج عن العقيدة الثابتة بالكتاب والسنة. ويشتمل الكتاب على أربع مقدمات وعشرين مسألة ومقدمة، فيذكر الغزالي في المقدمة الأولى اختلاف

الفلاسفة وكثرة نزاعاتهم وتباعد طرقهم. وفي المقدمة الثانية ذكر أقسام الخلاف بين الفلاسفة وغيرهم. وفي المقدمة الثالثة ذكر منهجه في نقد مذاهب الفلاسفة. وفي المقدمة الرابعة أظهر حيل الفلاسفة الذين خلطوا يقين المعقولات بظنونها. ثم عرض لمسائله العشرين؛ كاشفًا تناقضات الفلاسفة في بعض القضايا المهمة، مثل: أزلية العالم وقدمه وأبديته وخلوده. وينهى أبو حامد الغزالي الكتاب بخاتمة يذكر فيها حكمه على الفلاسفة؛ وقد انتهى فيها إلى تكفير من يقول منهم بالمقولات الثلاث الآتية: 1 - قدم العالم. 2 - أن الله - تعالى - لا يعلم بالجزئيات. 3 - عدم بعث الأجساد وحشرها. ولتهافت الفلاسفة أهمية كبيرة في تاريخ الفكر الإسلامي، ومكانة عالية في مسيرة الفلسفة الإسلامية؛ ولهذا فقد انكبَّ عليه كثير من العلماء؛ معلقين، وشارحين، وناقدين. وقد طُبِعَ الكتاب عدة طبعات، منها: طبعة القاهرة سنة (1302هـ = 1884 م)، وطبعة حجر في بومباي بالهند سنة (1304 هـ = 1887 م)، وطبعة المطبعة الخيرية بمصر سنة (1319 هـ = 1901 م)، ثم طبعة دار المعارف بمصر سنة (1374 هـ = 1955 م).

(112/16)

### \*جامع البيان في تفسير القرآن

كتاب من أشهر كتب التفسير، ألفه أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، المولود بآمل عاصمة طبرستان سنة (224هـ)، والمتوفى ببغداد سنة (310هـ). واشتهر الكتاب بتفسير الطبري ويقع في ثلاثين جزءًا من القطع الكبير. وهو من كتب التفسير التي لها الصدارة، سواء من الناحية الزمانية أو من ناحية الفن والصناعة؛ فهو أقدم كتاب في التفسير وصل إلينا، علاوة على

ما يمتاز به الكتاب من طريقة بدیعة سلكها مؤلفه حتى أخرجه للناس كتابًا له قيمته ومكانته. ويتمثل منهج ابن جریر فی تفسيره فی أنه إذا أراد أن یفسر آیة من القرآن الکریم قال: القول فی تفسير قوله تعالى كذا وكذا، ثم یفسر الآیة ویستشهد علی ما قاله بما یرویه بسنده إلى الصحابة أو التابعین من التفسیر المأثور عنهم فی هذه الآیة. وإذا كان فی الآیة قولان أو أكثر فإنه یعرض لكل ما قیل فیها، ویستشهد علی كل قول بما یرویه فی ذلك عن الصحابة أو التابعین، ثم إنه لا یقتصر علی مجرد الروایة، بل یتعرض للجانب الإعرابی إن دعت الحال إلى ذلك، كما أنه یتنبط الأحكام التي یمكن أن تُؤخذ من الآیة، مع توجيه الأدلة وترجیح ما یختار، ثم یذكر ما ورد فیها من أسباب النزول.

(113/16)

### \*تاریخ الأمم والملوك

كتاب فی التاریخ ألفه محمد بن جریر الطبری الذی وُلد سنة ( 224هـ = 838م) فی مدينة آمل عاصمة طبرستان التي ینسب إليها ، وقد رحل فی طلب العلم، فتعلم الحدیث والتفسیر والتاریخ، ودرس فی هذه العلوم كلها وله فیها تألیف عديدة. وتُوفی فی بغداد سنة (310هـ = 922م). ویقع الكتاب فی أحد عشر جزءًا قسمت إلى أربعة أقسام كالآتی: القسم الأول: خطبة الكتاب، التي ذكر فیها حكمة الخالق فی خلقه، وأشار إلى موضوع كتابه وهو الحدیث عن أخبار السابقین منذ بدء الخلق من الرسل والملوك والخلفاء، وسیرة النبی - صلی الله علیه وسلم - وصحابته وتابعیهم ومن بعدهم. القسم الثاني: وفیه تمهید فی الزمان وبداية الخلق، وتحدث فیة عن فكرة الزمان ومقداره وتعدد

الأقوال فيه، واختلاف اليهود والنصارى حول المسيح عليه السلام، وحدوث الزمان، وبدء الخلق، وسبب خلق الزمن ليلاً ونهاراً. القسم الثالث: التاريخ البشرى حتى الهجرة. وفيه يذكر خروج آدم - عليه السلام - من الجنة، وما كان في عصره من أحداث، وعدد أبنائه، وعداوة بعضهم لبعض، وما نسبه الفرس إليه من أعمال، وأنبياء الله بعد آدم - عليه السلام -، ويختتم القول عنه بوفاته ودفنه، ثم يتحدث عن أبنائه من بعده، ونوح، عليه السلام. ويذكر تاريخ الفرس وملوكهم، ومن عاصروهم من العرب واليونان والروم والهند والصين، وأقوام عاد وهود وصالح وثمود. أما القسم الرابع: فيذكر فيه تاريخ الإسلام من الهجرة النبوية حتى سنة (302هـ = 914م)، وفيه يذكر الأحداث سنة بعد سنة. ويتميز الكتاب بالأمانة العلمية والإحاطة بكثير من الروايات ورواقتها؛ ولذلك فهو يعتبر مرجعاً أساسياً لمن يتحدث عن التاريخ الفارسي القديم والتاريخ الإسلامي، وتاريخ الكثير من الأمم السابقة. وقد تَرَجَمَ تاريخ الأمم والملوك المستشرق نولدكه إلى اللغة الألمانية، خاصة الجزء الخاص بتاريخ فارس

(114/16)

---

الساسانية، وتُرجمَ إلى الفارسية والفرنسية واللاتينية والتركية، وطُبع الكتاب عدة مرات في مصر وبيروت.

(115/16)

---

\*المجمل

معجم لغوي، ألفه أحمد بن فارس، ورتبه ألفبائياً حسب الحرف الأول للكلمة، مع الأصل الثاني والثالث، مورداً الحرف مع ما يليه

إلى أن يصل إلى حرف الياء، ثم يعود إلى ماتبقى من الحروف، مبتدئاً بالألف إلى الحرف الذي عقد له الباب، وهو متأثر بكتاب العين في تقسيمه الحرف الواحد إلى مضعف الثنائي والثلاثي وما زاد على الثلاثة. ويتميز معجم الجمل بتعريفاته المختصرة وشواهده الكثيرة، التي يعتمد فيها على الخليل بن أحمد، وابن دريد، والكسائي، والفراء، وأبي عبيدة، وأبي زيد، وأبي عبيد القاسم بن سلام، وأبي عمرو الشيباني. وقد طبع الجزء الأول من الكتاب بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد بالقاهرة سنة (1947م).

(116/16)

---

#### \*سر صناعة الإعراب

كتاب ألفه أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، الذي ألف تصانيف كثيرة في النحو واللغة والأدب، منها: شرح ديوان المتنبي والخصائص، وغيرهما، وتوفي ببغداد سنة (392هـ = 1002م). واشتمل كتاب سر صناعة الإعراب على جميع أحكام حروف المعجم، وأحوال كل حرف منها، الواقعة في كلام العرب، وأتبع ابن جني كلاً منها مما رواه عن علماء اللغة، وذكر الفرق بين الحروف والحركات، ومكان الحركة من الحرف وغير ذلك، وأفرد لكل حرف من هذه الحروف باباً مستقلاً به.

(117/16)

---

#### \*مفتاح العلوم

كتاب ألفه أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي، المتوفى سنة (626هـ)، وينقسم الكتاب إلى ثلاثة

أقسام، على النحو التالي: القسم الأول: في علم الصرف، ويقع في ثلاثة فصول: الفصل الأول: في بيان حقيقة علم الصرف والتنبيه إلى ما يُحتاج إليه في تحقيقها. الفصل الثاني: في كيفية الوصول إليه. الفصل الثالث: في بيان كون علم الصرف كافيًا لما علق به من الغرض. القسم الثاني: في علم النحو، وفيه فصلان: الفصل الأول: في تعريف علم النحو. الفصل الثاني: في ضبط ما يفتقر إليه في ذلك. القسم الثالث: في علمي المعاني والبيان، ويضم فصلين: الفصل الأول: في ضبط معاهد علم المعاني والكلام فيه. الفصل الثاني: في علم البيان. وأكمل الحديث عن المعاني في فصلين: الأول: من تكملة علم المعاني في الحد وما يتصل به. والثاني: من تكملة علم المعاني في الاستدلال. وختم السكاكي الكتاب بالحديث عن علمي العروض والقافية.

(118/16)

### \*فتوح البلدان

كتاب ألفه أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري. أحد مؤرخي القرن الثالث الهجري. وُلد البلاذري أواخر القرن الثاني الهجري، ونشأ ببغداد وصار من رجال البلاط العباسي في عهد الخليفة المتوكل، ثم الخليفة المعتز الذي جعله مربيًا لابنه عبد الله. وكان البلاذري أحد المترجمين البارعين في الترجمة من الفارسية إلى العربية، وتوفي سنة (279هـ) وترك عددًا من المؤلفات، أشهرها فتوح البلدان. وهو سجل شامل للفتوحات الإسلامية منذ عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وحتى آخرها، فصلّ فيه البلاذري فتوح كل بلد وكل ما يتعلق به، نقلًا عن أهل البلد أنفسهم أو كتبهم. ويرى بعض الباحثين أنه اختصره عن

كتاب أطول منه كان قد أخذ في تأليفه وسماه كتاب البلدان الكبير، ولم يتمه فاكتمى بهذا المختصر. وهو أجمع كتب الفتوح وأصحها. وبالرغم من أن البلاذري استعان بروايات الواقدي؛ فإنه أضاف إليها بعض الروايات التي يحوم حولها الشك لأنها كانت شفهية في الأصل فوقع فيها في بعض الأخطاء، وقد يورد للخبر الواحد أكثر من رواية، ولكن الاختلاف بينها ليس كبيراً. وأهمية الكتاب تظهر فيما أورده من معلومات ثقافية واقتصادية وإدارية، وعلاوة على الفتوح فقد ضمنه البلاذري أبحاثاً عمرانية وسياسية، يندر وجودها في كتب التاريخ، كأحكام الخراج أو العطاء وأمراخاتم والنقود والخط والنحو ومثل ذلك. وقد استطاع البلاذري أن يصفى المادة التي جمعها ثم ينسقها. وطُبع الكتاب في ليدن سنة (1870 م) بعناية المستشرق دى غويه، ثم نشر بمصر سنة (1901 م).

(119/16)

#### \* الخطط المقرزية

كتاب ألفه تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد المعروف بالمقرزي، الذي وُلد سنة (760 هـ = 1358 م) بمصر، ونشأ بها، والمتوفى سنة (845 هـ = 1441 م). وقد بدأ المقرزي كتابه بمقدمة، ذكر فيها سبب تأليفه الكتاب ومنهجه في تأليفه، فذكر أنه لم يلتزم الترتيب والتهذيب في معلوماته التي خص بها ديار مصر وآثارها الباقية من الأمم السابقة والقرون الخالية، وما بقى بفسطاط مصر من المعاهد، وما بالقاهرة من الآثار والقصور المزهرة، والمباني البديعة، والتعريف بحال من كان من الأعيان. ويقع الكتاب في مجلدين كبيرين يشتملان على سبعة أجزاء، كالتالي: الأول: به أخبار

مصر وأحوال نبلها والخراج والجبال بها. الثاني: يشتمل على المدن وأجناس الناس بها. الثالث: يشتمل على أخبار فسطاط مصر وملوكها. الرابع: به أخبار القاهرة وأهلها، وما بها من الآثار. الخامس: يشتمل على ما أدركه من القاهرة وظواهرها من الأحوال. السادس: يشتمل على ذكر قلعة الجبل ومن ملكها من الملوك. السابع: يذكر فيه الأسباب التي أدت إلى خراب إقليم مصر. وقد اتبع المؤلف في كتابه الخطط المقرينية طريقة النقل من الكتب المصنفة في العلوم والرواية عن الشيوخ الكبار، وما شاهده عياناً بنفسه في مصر.

(120/16)

#### \*الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة

هو كتاب في الأدب الأندلسي ألفه أبو الحسن علي بن بسام الشنتري، المتوفى في قرطبة سنة (542 هـ = 1148 م). وكتاب الذخيرة من الكتب التي تناولت التعريف بالأدب والأدباء الأندلسيين. ونهج ابن بسام في هذا الكتاب نهج النعالي في كتابه يتيمة الدهر، وقسمه إلى أربعة أقسام، ثلاثة منها مناطق متفرقة في الأندلس: قرطبة وإشبيلية وبلنسية، وخصص الفصل الرابع للوافدين، حيث كان ابن بسام في كتابه هذا محباً للأندلس. وقد رتب ابن بسام كتابه حسب مكانة المترجم له، وأورد فهرساً لمحتوى الكتاب وأقسامه الأربعة، وقصر مؤلفه على أهل زمانه من منتصف القرن الحادى عشر الميلادى إلى منتصف القرن الثانى عشر، وكان ابن بسام يهتم بذكر التفاصيل عن الشخصيات التي يترجم لها، وكان يستعين بالسجع في كتابته. وقد نال هذا الكتاب شهرة واسعة، فقد اختصره ابن ممتى، والمتوفى سنة (542 هـ = 1147 م) في كتاب بعنوان لطائف

الذخيرة وطرائف الجزيرة، وقد بدأ ابن بسام بتحرير الكتاب في قرطبة سنة (394 هـ)، حتى نهاية سنة (503 هـ). وظهر القسم الأول منه في الفترة من (1939 - 1942 م) في مجلدين بعناية لجنة من المحققين، وترجم إلى الإسبانية، ونشر في مدريد سنة (1942) ونشر هذا الكتاب وطبع بتحقيق إحسان عباس سنة (1975 م) في ثمانية أجزاء.

(121/16)

### \*رسائل الجاحظ

مجموعة رسائل ألفها أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى، الملقب بالجاحظ. وُلد بالبصرة سنة (163 هـ = 780 م)، وتوفي بها سنة (255 هـ = 869 م). ونُشر من تلك الرسائل بمصر ثلاث مجموعات كبيرة، هي: المجموعة الأولى: نشرت بعناية محمد ساسى أفندى المغربى، بالقاهرة، مطبعة التقدم، سنة (1324 هـ = 1906 م)، وتشتمل على (11) رسالة، هي: 1 - الحاسد والمحسود. 2 - رسالة إلى الفتح بن خاقان في مناقب الترك وعامة جند الخلافة. 3 - فخر السودان على البيضان. 4 - كتاب التزييع والتدوير. 5 - في تفضيل النطق على الصمت. 6 - في مدح التجار ودم عمل السلطان. 7 - في العشق والنساء. 8 - في الوكلاء. 9 - في استنجاز الوعد. 10 - في بيان مذاهب الشيعة. 11 - في طبقات المغنيين. المجموعة الثانية: نشرت بعناية حسن السندوى، بالقاهرة، المطبعة الرحمانية، سنة (1352 هـ = 1933 م)، وتشتمل على (19) رسالة، هي: 1 - خلاصة كتاب العثمانية. 2 - خلاصة نقض كتاب العثمانية لأبي جعفر الإسكافى. 3 - فضل هاشم على عبد شمس. 4 - حجج النبوة. 5 - من كتاب الحجاب. 6 - التزييع والتدوير. 7 - استحقاق الإمامة. 8 - رسالة في صناعات

القواد. 9 - في النساء. 10 - في الشارب والمشروب. 11 - في مدح النبيذ. 12 - في بني أمية. 13 - في العباسية. 14 - رسالة إلى أبي الفرج الكاتب في المودة والخلطة. 15 - رسالة في ذم الزمان. 16 - رسالة إلى محمد بن عبد الملك الزيات. 17 - رسالة إلى أحمد بن أبي داود. 18 - رسالة إلى إبراهيم بن المدبر. 19 - رسالة في المعاتبة. المجموعة الثالثة: نشرت بتحقيق عبد السلام محمد هارون، بالقاهرة - مكتبة الخانجي، مطبعة السنة المحمدية، سنة (1384 هـ = 1964 م)، طبعة مصر، الفجالة، دار الجيل للطباعة. وتشتمل على (9) رسائل، هي: 1 - مناقب الترك. 2 - رسالة المعاش والمعاد. 3 - كنم السر وحفظ اللسان. 4 - فخر

(122/16)

---

السودان على البيضان. 5 - رسالة في الجد والهزل. 6 - في نفى التشبيه. 7 - في كتاب الفتيا. 8 - رسالة إلى أبي الفرج بن نجاح الكاتب. 9 - في صناعات القواد.

(123/16)

---

### \*سقط الزند

كتاب ألفه أبو العلاء المعري وهو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري. شاعر فيلسوف، وُلد بمعرة النعمان بالعراق سنة (363 هـ)، ونشأ في بيت علم، وتلقى علوم عصره، ولم يمنعه فقدان بصره - وهو في الرابعة من عمره - عن مواصلة التعلم والنبوغ. وتوفي سنة (449 هـ)، وله العديد من المؤلفات، من أشهرها: رسالة الغفران، واللزوميات، وسقط الزند، وهو ديوان يتكون من جزأين، يضاف إليهما جزء خاص بالدروع، أطلق

عليه المعرى اسم الدرعيات، ويبلغ عددها - ما بين قصيدة طويلة ومقطوعة صغيرة - إحدى وثلاثين قصيدة. ويبلغ مجموع قصائد جزأى الديوان (74) قصيدة ومقطوعة، يضاف إليها سبع قصائد قصيرة أوردتها جامع الديوان بعد الدرعيات، معظمها في الغزل. ولسقط الزند أهمية كبرى في تصوير نفس الشاعر وحياته وأحداثها وتطور فلسفته في الحياة التي مارسها، والموت الذي واجهه في أقرب المقربين إليه وفي الأصدقاء والمعارف البعيدين، ففيه الشوق والحنين والفخر والمدح والتهنئة والغزل والرثاء والوصف والرحلات، وفيه خلاصة آمال الشاعر وآلامه وأفراحه وأحزانه، وما استقى من كل ذلك من العبر والآراء. والديوان سجل شعر المعرى منذ بدأ يقول الشعر في الحادية عشرة من عمره، ففيه قصائد قالها في شبابه، كقصيدته في رثاء أبيه، وقصائد قالها في سن النضج، كقصائده في بغداد ورثائه لأمه، وقصائد قالها في كهولته، كرثاء أبي حمزة الفقيه الحنفي، الذي يصفه المعرى بأنه رفيق الصبا.

(124/16)

### \* السلوك لمعرفة دول الملوك

كتاب ألفه أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئ، البعلبكي الأصل، القاهري المولد والنشأة والممات، المتوفى سنة (845 هـ = 1441 م)، وكتاب السلوك أحد مؤلفات ثلاثة للمقرئ، أتمَّ به تاريخ مصر الإسلامية منذ الفتح الإسلامي حتى وفاة المؤلف. والمؤلفات الثلاثة هي: عقد جواهر الأسقاط، ويبدأ من الفتح حتى نهاية الدولة الإخشيدية، واتعاض الحنفا في تاريخ الفاطميين في مصر، ثم كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ويشمل تاريخ الدولة الأيوبية ثم دولتي المماليك (التركية

والجركسية). وكتاب السلوك مرتب حسب السنين، فيبدأ بعام (577 هـ) وينتهي بعام (844 هـ). وقد عُني المؤلف بالأحداث فَحْوَاهَا، غير أنه لم يعتنِ بالتراجم والوفيات؛ لأنه أفرد لها كتاب المقفى الذى لم يُتمه. وكتاب السلوك مختصر لمحمد بن عيسى الهندى، ووَضَعَ ابن تغرى بردى ذيلاً له، بدأه من حيث انتهى المقرئى، سماه حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور. كما ينسب للعيني ذيل آخر لهذا الكتاب، وللسخاوى ذيل بعنوان التبر المسبوك. والكتاب حققه محمد مصطفى زيادة، وسعيد عبد الفتاح عاشور. وتم طبعه سنة (1973 م)، فى دار الكتب المصرية.

(125/16)

#### \*سنن أبى داود

هو كتاب من كتب الحديث الستة. ألفه الإمام أبو داود سليمان الأشعث بن إسحاق الأزدي السجستاني. وُلِدَ سنة (202 هـ)، وتُوِّفَى بالبصرة سنة (273 هـ). تبلغ مصنفاته سبعة عشر كتاباً. والكتاب مرتب حسب الأبواب. وتبلغ عدد أحاديثه (4800) حديث، اختارها أبو داود من (500) ألف حديث، وفيها الكثير من المراسيل، وليس فيها شيء من الآثار. والكتاب غنى فى متون الحديث؛ حيث يذكر الطرق واختلاف ألفاظها، كما يُعنى بفقهِ الحديث أكثر من عنايته بالأسانيد. ولا يذكر أبو داود فى الباب أحاديث كثيرة، ولا يعيد الحديث فى الباب إلا لزيادة فيه. ويشير أبو داود إلى الحديث الذى فيه وَهْنٌ شديد وبينه، وإذا لم يذكر فى الحديث شيئاً من توهينه، وتضعيفه، فحكمه عنده: صالح. وقد قام كثير من العلماء بشرح سنن أبى داود، ومن أشهره: الخطابى فى كتابه معالم السنن، وأبادة فى كتابه عون

المعبود، وهو مطبوع في أربعة مجلدات، وخليل أحمد في كتابه بذل الجهود في حل سنن أبي داود.

(126/16)

---

#### \*سنن ابن ماجه\*

هو كتاب من كتب الحديث الستة. ألفه الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن عبد الله بن ماجه القزويني. وُلد في قزوين بخراسان سنة (20 هـ)، وتوفي سنة (273 هـ). والكتاب من أحسن المراجع تبييناً وترتيباً، وهو سادس الكتب عند أكثر أهل العلم. يشتمل على (32) كتاباً، و (1500) باب. وجملة ما فيه من الأحاديث (4000) حديث. ويوجد فيه زوائد كثيرة عمّا ورد في الكتب الخمسة. وطُبع الكتاب في مصر والهند طبعات عدة، أحسنها طبعة محمد فؤاد عبد الباقي، في جزئين. وشرح الكتاب عديد من العلماء، منهم: كمال الدين محمد بن موسى الدميري المتوفى سنة (808 هـ)، في خمسة مجلدات، وجلال الدين السيوطي المتوفى سنة (911 هـ)، وسمى شرحه: مصباح الزجاجه، وشرح ابن الملحق زوائده على الكتب الخمسة في ثمانية مجلدات، وسماه: ما تمس إليه الحاجة على سنن ابن ماجه.

(127/16)

---

#### \*سنن النسائي\*

هو كتاب من كتب الحديث الستة. ألفه أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب الخراساني النسائي. وُلد بقرية نساء بخراسان سنة (215 هـ)، وتوفي سنة (303 هـ) بالرملة بفلسطين. وضع الإمام النسائي كتاباً كبيراً في السنن، عُرف بالسنن الكبرى، وانتخب

منه كتاب المجتبى، الذى اشتهر بسنن النسائي، وهو أقل الكتب الست احتواءً على الأحاديث الضعيفة بعد الصحيحين؛ ولذلك تأتي مرتبته بعد الصحيحين من حيث عدد الأحاديث الصحيحة المذكورة فى الكتب الستة، ويرجع ذلك إلى أن النسائي كان أشد انتقاداً للرجال، وشروطه كانت أشد من شروط أصحاب الكتب الثلاثة. وقد جمع الإمام النسائي فى سننه بين الفقه والإسناد؛ فقد رتب الأحاديث حسب الأبواب، ووضع لها عناوين تبلغ أحياناً منزلة عالية من الدقة، وجمع أسانيد الحديث الواحد فى موطن واحد، وكذلك جمع بين الرواية والدراية، وأحسن بيان العلل، ولا يكاد يخرج لمن غلب عليه الوهم، ولا ليمَن كان فاحش الخطأ. وقام بشرح سنن النسائي كل من: السيوطى المتوفى سنة (911 هـ)، وشرحه موجز، نشر فى دهمى ومصر، والسندى المتوفى سنة (1138 هـ) وشرحه موجز أيضاً، إلا أنه أكبر من شرح السيوطى، كما شرح ابن الملقن زوائده على الصحيحين، وأبى داود والترمذى فى مجلد.

(128/16)

\*سياسة نامه

كتاب ألفه أبو على الحسن بن على بن إسحاق الطوسى، الملقب بنظام الملك. وُلِدَ فى طوس سنة (408 هـ)، وقُتِلَ فى رمضان سنة (485 هـ). وقد ألف نظام الملك الكتاب تلبية لرغبة السلطان ملكشاه. وتميزت مادة الكتاب بغزارتها؛ فقد تنوعت ما بين موعظةٍ ومثلٍ وتفسيرٍ للقرآن وأخبار الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقصص الأنبياء وسير الملوك العادلين ونواديرهم. وطريقة المؤلف فى الكتاب تناول ناحية من النواحي الإدارية التى يلاحظ عليها الخلل أو النقص، وتبيين سبل علاجها، ثم ذكر ما يؤيد به ما ذهب إليه فى

سبل العلاج مما حفظه أو رآه أو سمعه. وهو في ذلك لا يتقيد بالثقافة العربية أو الفارسية، بل قد يتعداهما إلى ثقافات أخرى مما كانت شائعة في عصره. ويستمد أسلوب المؤلف جماله من بساطته وخلوه من المحسنات البديعية المتكلفة. وقد قام بترجمة الكتاب السيد محمد العزاوي، ونشرته دار الرائد العربي.

(129/16)

### \*الشقائق النعمانية

كتاب ألفه أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده، المتوفى سنة (968 هـ). وله أيضاً كتاب مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم. وقد بدأ المؤلف كتابه بمقدمة ذكر فيها سبب تأليفه، بعد أن التمس منه بعض أرباب الفضل والكمال أن يجمع مناقب علماء الروم. ويبين المؤلف في هذا الكتاب من بلغ منهم إلى المناصب الجليلة، وإن كانوا متفاوتين في العلم والفضيلة، ومن لم يبلغ إلى تلك المناصب مع ما لهم من الاستحقاق لتلك المراتب، ومع ذلك فلعل ما ترك أكثر مما ذكر، وجعل الرسالة على ترتيب سلاطين آل عثمان لعدم وقوفه على تاريخ وفيات هؤلاء الأعيان، ولهذا سمي الرسالة: الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية. وقسم الكتاب إلى عشر طبقات، بدأت بعلماء دولة السلطان عثمان، وانتهت بعلماء دولة السلطان سليمان خان، ثم ذيل الكتاب بكتاب العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم. وقد طبع الكتاب في بيروت سنة (1395 هـ = 1975 م).

(130/16)

## \*صبح الأعشى في صناعة الإنشا

كتاب ألفه القاضى شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن أحمد القلقشندى. وُلِدَ في قلقشند، إحدى قرى القليوبية بمصر، ودرس بالقاهرة والإسكندرية على أكابر شيوخهما، وتخصص في الأدب والفقہ الشافعى، وبرع في علوم اللغة والبلاغة والإنشاء، وتولى عددًا من المناصب الإدارية، أشهرها العمل في ديوان الإنشاء في عصر السلطان المملوكى الظاهر بريقوق. وكتاب صبح الأعشى من الكتب الموسوعية التي ظهرت في مصر المملوكية في القرنين السابع والثامن الهجريين. ويهدف القلقشندى فيه إلى تدوين بعض المعارف والمعلومات اللازمة لكاتب الإنشاء في عصره؛ حتى يقوم بمهمته الديوانية. وساعده في كتابته عمله في ديوان الإنشاء واطلاعه على كثير من الوثائق وأمّهات الكتب والمصنّفات. وينقسم الكتاب إلى عشر مقالات تسبقها مقدمة، وتلحق بها خاتمة، يقع كل ذلك في (14) مجلدًا. وفي المقدمة يتناول القلقشندى الحديث عن مسائل أولية وتعريفات تمهيدية، مثل: فضل العلم وشرف الكتابة وتطور الإنشاء خلال العصور وتاريخ ديوان الإنشاء في الإسلام. وفي المقالة الأولى: يتحدث عن مجموع المعارف التي يحتاج إليها الكاتب في ديوان الإنشاء، وهي معارف لغوية وأدبية وتاريخية، وما يحتاج إليه من أنواع الأقلام والورق وغيرها، ثم الحديث عن الخط العربى وتاريخه. وتناول في المقالة الثانية: المسالك والممالك (جغرافيا)، وذكر فيها الأرض والخلافة والخلفاء والديار المصرية والشامية. وتناول في المقالة الثالثة: أمورًا تشترك فيها أنواع المكاتب والولايات وغيرها، مثل: ذكر الأسماء والألقاب، وبيان قطع الورق، وما يناسبها من الأقلام. أما المقالة الرابعة: فهي أهم مقالات الكتاب، ويذكر فيها فهرسًا

مطولاً لألقاب الملوك وأرباب السيوف والعلماء والكتاب والقضاة،  
مرتبة على حروف المعجم، ويشرح أساليب الكتابة، ومصطلحات  
المكاتبات بين ملوك الشرق والغرب، وبين النبي - صلى الله عليه وسلم - وملوك الفرس

(131/16)

---

والروم. وتناول في المقالة الخامسة: مسألة الولايات وطبقاتها  
من الخلافة والسلطنة، ثم الألقاب والبيعات والعهود. وفي المقالة  
السادسة: تحدث عن الوصايا الدينية والمساحات وتصاريح  
الخدمة السلطانية. وفي المقالة السابعة: تناول الإقطاعات؛ من  
حيث نشأتها وأحكامها وأنواعها. وفي المقالة الثامنة: تناول  
الأيمان. وفي المقالة التاسعة: تحدث عن عهود الأمان والهدن  
وعقود الصلح. أما المقالة العاشرة: فضمت فنوناً من الكتابة  
تداولها الكتاب. ثم جاءت الخاتمة وذكر فيها أموراً تتعلق بديوان  
الإنشاء وأمور البريد وتاريخه في مصر والشام. فالكتاب إذن  
يتناول علومًا شتى، ويسير فيه القلقشندى على منوال أدباء  
عصره؛ من حيث الأساليب المسجوعة والعبارات المنمقة الحافلة  
بالمحسنات البديعية، وأهم ما في الكتاب هو أمانة القلقشندى؛  
حيث ينسب كل ما ينقله إلى صاحبه، ولا يدعى فيها شيئاً  
لنفسه. وقد طبع الكتاب لأول مرة سنة (1910 م) بالمطبعة  
الأميرية بالقاهرة، ثم طبع للمرة الثانية سنة (1963 م) بالمؤسسة  
المصرية للتأليف والترجمة والنشر، ثم أعيد طبعه أكثر من مرة.

(132/16)

---

\*الفهرست لابن النديم

كتاب ألفه أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق الوراق النديم.

وُلد ببغداد نحو سنة (325 هـ)، وكان أبوه وراقاً فتعلم مهنة أبيه، كما تعلم الكثير من علوم عصره، ومات سنة (377 هـ)، وله عديد من المؤلفات أشهرها كتاب الفهرست. ألفه ابن النديم سنة (377 هـ)، وقد تعرض فيه للعلوم المعروفة في عصره وما كتب حولها. ويُعد الكتاب من أقدم كتب التراجم وأفضلها؛ إذ لخص فيه ابن النديم التراث الفكري الإسلامي؛ حيث جمع فيه أسماء الكتب التي عرفها حتى أواخر القرن الرابع الهجري، واعتمد فيه على صلته بالوراقة، وصلته بطبقة المثقفين في عصره، كما يُعد الكتاب أول عمل بيبليوجرافي ألف بالعربية، وهو مصدر أصيل لدراسة الثقافة العربية منذ نشأتها حتى أواخر القرن الرابع الهجري. ويضم الكتاب عشرة مقالات، ثم فرع كل مقالة إلى عدة فنون، يختلف عددها: المقالة الأولى: في وصف لغات الأمم وخطوطها وأشكال كتاباتها، والذين صنّفوا حول كتب الشرائع؛ من قرآن وإنجيل وتوراة وما يتصل بها من قراءات وتدوين. المقالة الثانية: في النحويين واللغويين ومصنّفاتهم. المقالة الثالثة: في الأدباء والكتاب وأصحاب السير والولادة والملوك والندماء والمغنيين وكتبهم. المقالة الرابعة: في الشعر والشعراء وطبقاتهم من الجاهليين والإسلاميين والمحدثين. المقالة الخامسة: في علماء الكلام وشيوخ الفرق الدينية. المقالة السادسة: في الفقه والفقهاء والمحدثين وأئمة المذاهب. المقالة السابعة: في الفلاسفة والمنطقيين وأهل الحساب والفلكيين والموسيقيين والأطباء. المقالة الثامنة: في الأسماء والخرافات والسحر والشعوذة. المقالة التاسعة: في المذاهب والاعتقادات. المقالة العاشرة: في الكيميائيين والصنّوعيين. وقد نُشرت الطبعة الأولى من الكتاب في أوروبا في مدينة ليبزج سنة (871 م) بعناية المستشرق فلوجل، ثم طُبِع الثانية بمصر، طبعته مطبعة الرحمانية

---

سنة (1930 م)، ثم الطبعة الثالثة بطهران (1971 م)، ثم طُبِعَ عدة طبعات بعد ذلك.

(134/16)

---

### \*السيرة النبوية لابن هشام

كتاب في التاريخ. ألفه عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري الذي نشأ بالبصرة، وتلقى علومه بها، وبرع في الأدب واللغة حتى أنه كان يوصف بالنحوى. وكانت وفاته بمصر سنة (215 هـ). وقد قام عبد الملك بن هشام بجمع كتابه من كتاب المغازى والسير لمحمد بن إسحاق، ولخصه، وجمع فيه أخبار العرب قبل الإسلام، وسيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونسبه، ثم أخبار بعض فضلاء العرب في الجاهلية. وقد ذكر سيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منذ مولده، ونشأته، وبعثته، ورسالته، وهجرة الصحابة إلى الحبشة، ثم هجرتهم إلى المدينة، وما وقع له (من أحداث في المدينة من حروب مع المشركين واليهود. وذكر أخبار زوجاته، ومرضه، ووفاته، وخلاف المسلمين حول من يخلف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في ثقيفة بنى ساعدة، وخلافة أبي بكر الصديق، رضى الله عنه. ولأهمية هذا الكتاب قام بعض العلماء بشرحه وتفسيره، كالسهيلى المتوفى سنة (581 هـ)، وأبى ذر الجشنى المتوفى سنة (604 هـ) وغيرهما. وقد طُبِعَ الكتاب عدة مرات، منها: طبعة جوتنجن بألمانيا سنة (1860 م). وطبعة بولاق بمصر في (3 أجزاء سنة 1878 م). وطبعة المطبعة الخيرية بمصر في (3 مجلدات سنة 1813 م). وطبعة ليبزج سنة (1900 م). وطبعة مصطفى البابي الحلبي سنة (1936 م)، وسنة (1955 م).

**\*الشافية لابن الحاجب**

هو كتاب في الصرف. ألفه أحد أعلام مصر في اللغة والنحو، وهو ابن الحاجب عثمان بن عمر بن أبي بكر المتوفى سنة (646 هـ). وقد اشتهرت الشافية، وتقرر تدريسها في بعض المعاهد العلمية. وقد شرح الشافية ابن الحاجب، كما شرحها النحوى الشهير ابن هشام المتوفى سنة (762 هـ) في كتاب سماه عمدة الطالب في تحقيق تصريف ابن الحاجب. وقد طبعت الشافية لأول مرة في كلكتا بالهند سنة (1850 م)، ثم توالى طبعاتها في إستانبول والقاهرة.

**\*الشاهنامه**

ملحمة شعرية فارسية. نظمها الشاعر الفارسي الفردوسي، أكبر شعراء القرن الخامس الهجري. وهي تصور التاريخ الفارسي القديم، وتعطى صورة تاريخية للعصر الساساني الذي سبق الفتح الإسلامي. وكان سنُّ الفردوسي عند نظمها يقارب الأربعين. ويبلغ عدد أبيات الشاهنامه نحو (60) ألف بيت، وهي أكبر ملحمة صاغها شاعر واحد. وتتناول قصص أربع أسرات فارسية وتاريخها. وصور فيها الفردوسي وقائع البطولات والانتصارات وأعياد الفرس. كما تتضمن بعض الكلمات العربية لا تتجاوز (430) كلمة. وقد ترجمها إلى اللغة العربية البنداري في القرن السابع الهجري، وعبد الرحمن عزام في القرن العشرين الميلادي. وتأثر بالشاهنامه عديد من الأدباء العرب والأوروبيين.

**\*الشعر والشعراء لابن قتيبة**

هو كتاب في تاريخ الأدب. ألفه ابن قتيبة الدينوري المتوفى سنة (276 هـ). وهذا الكتاب يُعد من أقدم الكتب الأدبية التي تضمنت تراجم للشعراء ومشاهيرهم؛ سواء الجاهليون أو الإسلاميون، كما تضمنت مختارات من أشعارهم من غير تتبع زمني لهم، وإن كان قد بدأ بالجاهليين. وقد بلغ عدد تراجم الشعراء في هذا الكتاب (206) شعراء، وقدم لكتابه بمقدمة نقدية، والتزم فيه منهجًا يسير عليه في تعريف الشعراء. ولم تتفق المصادر الأدبية التي تحدثت عن الكتاب على عنوانه بالتحديد؛ حيث يطلق عليه الشعر والشعراء، وديوان الشعر والشعراء. وقد طُبع هذا الكتاب بتحقيق المستشرق الألماني نولدكه، مع ترجمة ألمانية للجزء الأول سنة (1864 م)، كما أنه نشر جزءًا منه مع ترجمة هولندية سنة (1875 م)، ثم نُشر في هولندا سنة (1902 هـ)، كذلك نشر في فرنسا مع ترجمة فرنسية سنة (1947 م)، وقد طُبع في مصر سنة (1904 م)، كما طُبع في إستانبول.

**\*الشفاء**

كتاب ألفه أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا المولود سنة (370 هـ)، والمتوفى سنة (428 هـ). وكتاب الشفاء موسوعة كبرى في الفلسفة. قسّم إلى أربعة أقسام كبرى، هي: المنطق، والطبيعات، والرياضيات، والإلهيات، وكل قسم منها يُسمى

جملة، وتحت كل جملة فن، وتحت كل فن عدة مقالات، وتحت كل مقالة عدة فصول. الجملة الأولى في المنطق، وتشتمل على تسعة فنون، هي: المدخل، والمقولات، والعبارة، والقياس، والبرهان، والجدل، والسفسطة، والخطابة، والشعر. الجملة الثانية في الطبيعيات، وتشتمل على ثمانية فنون، هي: السماع الطبيعي، والسماء والعالم، والكون والفساد، والأفعال والانفعالات، والمعادن والآثار العلوية، والنفس، والنبات، والحيوان. الجملة الثالثة في العلم الرياضى، وفيها أربعة فنون، هي: الهندسة والحساب والموسيقى وعلم الهيئة. الجملة الرابعة في الإلهيات. وقد طُبع من الكتاب الجزء الخاص بكل من الطبيعيات والإلهيات، بطهران سنة (1885 م). وبمناسبة الذكرى الألفية على مولد الشيخ الرئيس ابن سينا، شكّلت لجنة بالقاهرة لطبع الشفاء محققاً على مخطوطاته الموجودة تحقيقاً علمياً، وبدأت بالمنطق، وطُبع منه حتى الآن (1418 هـ = 1997 م): المدخل، والمقولات، والقياس، والبرهان، والجدل، والسفسطة، والخطابة، ولم يبقَ إلا العبارة والشعر.

(139/16)

### \*صحيح البخارى

أصح الكتب المجموعة في السنة النبوية التي هي ثاني مصادر التشريع الإسلامى. ألفه أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخارى الجعفى المولود ببخارى سنة (194 هـ)، والملقب بأمرير المؤمنين في الحديث. تُوفّي سنة (256 هـ). والاسم الكامل للكتاب هو: الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسننه وأيامه. وقد بذل البخارى جهداً فائقاً في اختيار أحاديثه. التي بلغ عددها (7275) حديثاً، بالأحاديث

المكررة، وبإسقاط المكرر (4000) حديث. واشترط البخارى فيه ألا يُورد إلا حديثًا صحيحًا، وشرط الصحيح عنده أن يكون إسناده متصلًا، وأن يكون راويه مسلمًا صدوقًا غير مدلس ولا مختلط، متصفًا بصفات العدالة، ضابطًا متحفظًا، سليم الذهن، قليل الوهم، سليم الاعتقاد. وقد طُبِع الكتاب مستقلًا عدة مرات، كما طُبِع مع شروحه، ومنها: إسناده السارى للقسطلانى، وفتح البارى لابن حجر العسقلانى.

(140/16)

### \*صحيح مسلم

هو ثاني الكتب الستة بعد صحيح البخارى من حيث صحة أحاديثه. ألفه أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري. وُلِد بمدينة نيسابور سنة (206 هـ)، وتُوِّفَى بها سنة (261 هـ). وابتدى الكتاب بمقدمة واسعة في علم أصول الحديث، استغرقت (144) صفحة، تعرض فيها لسبب تأليفه الكتاب، وبين مراتب الحديث، وفداحة الكذب فيه، والنهي عن رواية الضعفاء، وتحدث عن الإسناد. وتبلغ عدد أحاديث الكتاب (12) ألف حديث بالمكرر، وبدون المكرر (4) آلاف، وكلها صحاح، ليس فيها ضعيف ولا حسن. وقد اختارها الإمام مسلم من (300) ألف حديث. والطريقة التي اتبعها الإمام مسلم في ترتيب الأحاديث هي جمع طرق كل حديث في موضع واحد، وترتيب الأسانيد بحسب قوتها. واقتصر الكتاب على الأحاديث المرفوعة إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - دون الموقوفة على الصحابة إلا نادرًا، فقد يذكرها تبعًا لا قصدًا.

(141/16)

---

### \*العقد الفريد

هو كتاب ألفه أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، المولود في قرطبة سنة (246 هـ)، والمتوفى بها سنة (328 هـ). وتعكس مادة الكتاب ثراء التراث العربي الإسلامي، ولاسيما الأدبي. ويقع الكتاب في مقدمة و (25) كتابًا، كل منها في موضوع خاص، وتلك الكتب يمكن أن تقسم إلى ست مجموعات: الأولى خاصة بالملوك، والثانية خاصة بفن الأدب الخالص وتعليمه، والثالثة خاصة بالتاريخ، والرابعة خاصة بالشعر، والخامسة خاصة بالطبائع، والسادسة خاصة باللطائف حسية ومعنوية. ويتمثل منهج ابن عبد ربه في الاختيار ثم التصنيف، ثم جمع كل صنف على حدة. وكان لكتاب العقد الفريد الأثر الكبير في الحفاظ على التراث الأدبي العربي؛ فقد اقتبس منه كثير من كتب المختارات، كما اعتمد عليه كثير من كتب العلماء المعنيين بالدراسة الأدبية والتاريخية والعلمية عامة.

(142/16)

---

### \*فتوح مصر وأخبارها

كتاب ألفه أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم. وُلد بالفسطاط سنة (187 هـ)، وتُوفى في مطلع سنة (257 هـ). والكتاب مقسم إلى سبعة أجزاء: الأول: في فضائل مصر وتاريخها قبل الإسلام، وفيه الكثير من الأساطير، والثاني: يتناول الفتح الإسلامي، والثالث: يشرح الخطط ونزول العرب بمصر، والنظام الضريبي، والرابع: في إدارة مصر بعد الفتح حتى وفاة عمرو بن العاص، والخامس: في فتح إفريقية وإسبانيا حتى سنة (127 هـ)، والسادس: في تاريخ قضاة مصر

حتى سنة (246 هـ)، أمّا السابع: فهو أكبر الأجزاء، وقد خصصه ابن عبد الحكم لمختارات من الحديث والروايات المنسوبة إلى الصحابة الذين دخلوا مصر، وعددهم (52) صحابياً. وقد اهتم بهذا الكتاب المؤرخون القدامى؛ فأخذوا جميعاً عنه، كما اهتم به المؤرخون المحدثون، فأصدر المستشرقون أجزاء منه منذ أواخر القرن الماضي حتى صدوره كاملاً سنة (1920 م). وقد طبع الكتاب في ليدن، وطبع في مصر سنة (1961 م). وقد وضع هذا الكتاب أسس المدرسة المصرية في التاريخ، كما وضع لها عددًا من الملامح، من بينها: قبول الأخبار الخرافية عن تاريخ مصر القديم، والاهتمام بخطط مصر، والاهتمام بقضاة مصر حتى أفراد بعض المؤلفين فيما بعد لهذين الموضوعين كتبًا خاصة.

(143/16)

#### \*القانون

كتاب ألفه أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا، المولود سنة (370 هـ)، والمتوفى سنة (428 هـ). ويعتبر الكتاب أهم المؤلفات العربية في علم الطب، وقد اعتبره الباحثون المنهج الوحيد لدراسة الطب طوال عصرى القرون الوسطى والنهضة. وهو ينقسم إلى أقسام وفروع وفق تصنيف علمى دقيق، كما اتسم بالموسوعية، كما أنه منظم على الأصول الحديثة في الطب؛ ففيه - ولأول مرة في تاريخ الطب - تقسيم الفصول إلى رأسية وصدريّة وباطنية وعصبية ونسائية وتناسلية... إلخ. وطريقة ابن سينا في الكتاب هي أنه يبدأ بتحديد المرض، ثم يذكر أسبابه ونشأته، ثم يتحدث عن عوارضه، وأخيراً يبين طريقة مداواته والوقاية منه. وخصص ابن سينا جزءاً من الكتاب لنقد بعض الآراء

الهندية والفارسية في الطب. وقد تُرجم الكتاب إلى اللاتينية والإنجليزية، وطبع أكثر من ثلاثين مرة.

(144/16)

---

### \*قطر الندى

هو كتاب موجز في النحو. ألفه ابن هشام أحد كبار علماء اللغة في مصر والمتوفى سنة (762 هـ). والكتاب عبارة عن تلخيص للنحو، قام ابن هشام بشرحه في كتاب سماه: شرح قطر الندى وبل الصدى؛ حيث ضم ابن هشام أبواب النحو المتشابهة بعضها إلى بعض؛ فجعل قسمًا للمرفوع وآخر للمنصوب... إلخ. وإذا تعرض ابن هشام لمسألة خلافية بسط فيها آراء النحاة مع الإيجاز، وربما فضّل رأيًا على آخر، أو قوى مذهبًا على آخر. وفي هذا الكتاب حاول ابن هشام أن يكون معلمًا قبل أن يكون مؤلفًا؛ لذا يذكر القاعدة ويأتي بمثال للتدليل عليها؛ حيث إن كتاب شرح قطر الندى قد وُضع للمبتدئين.

(145/16)

---

### \*الكامل في التاريخ

هو كتاب في التاريخ. ألفه المؤرخ عز الدين بن الأثير المتوفى سنة (630 هـ). وهو كتاب يتناول التاريخ منذ بدء الخليقة حتى سنة (628 هـ). ويقع في (12) مجلدًا. وسبب تأليف هذا الكتاب السليبات التي وجدها ابن الأثير في كتب التاريخ السابقة؛ حيث إن هذه الكتب إما أن تكون بين مطول ممل أو مختصر مخل، كما أن المؤرخين السابقين إما أن يكونوا قد أرخوا لمكان معين أو لفترة معينة، كذلك الافتقار إلى كتاب يجمع بين تاريخ المشرق

والمغرب. وتاريخ ابن الأثير تاريخ حولي يتناول الأحداث والأخبار بحسب تواريخها، أما الأحداث المهمة فيعطيها عناوينها ضمن السنة، وكان لا يخرج بالأحداث من سنة إلى أخرى إلا عند الحاجة، وقد أقام ابن الأثير في كتابه الكامل توازناً بين أخبار المشرق والمغرب؛ مما أعطى الكتاب الطابع العام في التأريخ. وقد حرص ابن الأثير على تعليل بعض الأحداث التاريخية، واعتمد على (32) مصدرًا في هذا الكتاب الذي يعتبر مصدرًا مهمًا في الفترة التي عاصرها ابن الأثير، خاصة فيما يتعلق بالحروب الصليبية. وقد طُبع هذا الكتاب عدة طبعات.

(146/16)

---

#### \*الكشاف

هو كتاب في التفسير. ألفه جار الله محمود بن عمر المعروف بالزمخشري. أحد أعلام المعتزلة واللغويين المتوفى سنة (538 هـ). وعنوان الكتاب كاملاً: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. ويحاول الزمخشري في هذا الكتاب إيضاح جمال النظم القرآني وبلاغته وجمال البيان في أسلوبه، لكن الزمخشري حاول - أيضاً - تأصيل المذهب الاعتزالي ومبادئه من خلال تأويل بعض الآيات. ويعتبر الكشاف التفسير الوحيد الذي وصل إلينا من تفاسير المعتزلة كاملاً متناولاً للقرآن كله. وقد وُضعت بعض الحواشي على الكشاف مثل حاشية العلامة شرف الدين الحسن بن محمد الطيبي المتوفى سنة (743 هـ). ولكتاب الكشاف عدة طبعات.

(147/16)

---

### \*كتاب كلبلة ودمنة

هو كتاب في الأخلاق والحكمة والسياسة. ألفه الفيلسوف الهندي بيدبا، منذ نيف وعشرين قرناً، لأحد ملوك الهند الطغاة؛ محاولاً إصلاحه وتوجيه النصح إليه على أسنة الطير والحيوانات. وقام الفرس بترجمة الكتاب إلى الفارسية، وصبغوه بصبغة فارسية، ثم ترجمه إلى العربية الأديب عبد الله بن المقفع المتوفى سنة (142 هـ). وصارت ترجمة ابن المقفع هي الأساس للترجمات اللاحقة؛ حيث فقدت النسخة الأصلية. والكتاب يتكون من مقدمة و (14) باباً، ويعتبر أول كتاب في الأدب الرمزي والقصصي على أسنة الحيوانات؛ لذلك تأثر كثير من أدباء الشرق والغرب بهذا الكتاب وقاموا بوضع كتب على شاكلته مثل: سهل بن هارون في كتابه ثعلة وعفرة، والأديب الفرنسي لافونتين. وطبع هذا الكتاب في باريس سنة (1816 م)، وطبعته وزارة المعارف المصرية وقررت على طلبة الثانوية وطبع مصوراً سنة (1927 م). وتُرجم إلى عديد من اللغات، مثل: اللاتينية والإسبانية والإنجليزية والفرنسية.

(148/16)

### \*لزوم ما لا يلزم لأبي العلاء المعري

هو ديوان شعري. نظمه الشاعر أبو العلاء المعري المتوفى سنة (449 هـ). وهذا الديوان مرتب على حروف المعجم. ويحتوى على نحو (11) ألف بيت، وهو شعر يظهر في مبناه التكلف؛ سواء في غرابة اللفظ أو كثرة الجناس أو التزام ما لا يلزم في القافية؛ حيث ألزم أبو العلاء نفسه في القافية بأكثر من حرف وحركة، كما أنه رتب الديوان على حروف المعجم، وذكر كل حرف بوجوهه الأربعة؛ الضم والفتح والكسر والسكون. ويعتبر هذا

الديوان أهم كتب المعري؛ حيث احتوى على جميع آرائه  
الفلسفية والاجتماعية؛ إذ أن دراسة اللزوميات مهمة في فهم  
تطور آراء أبي العلاء. ويقع هذا الديوان في مجلدين، وطُبع في  
الهند سنة (1885 م)، وفي مصر سنة (1891 م).

(149/16)

---

#### \*المدونة

كتاب في الفقه المالكي جُمع فيه أقوال الإمام مالك المروية عنه  
والمخرجة على أصول مذهبه، وبعض آراء أصحابه. وتعتبر  
المدونة الأصل الثاني للفقه المالكي بعد الموطأ، كما أنها أدق  
كتب الفروع في الفقه المالكي وأصحها. وقد بدأ تأليف هذه  
المدونة أسد بن الفرات؛ حيث دونها بالتلقي عن الفقيه المصري  
عبد الرحمن بن القاسم، إلا أن الفقيه المغربي سحنون بن سعيد  
راجعها على ابن القاسم وغير بعضها، حتى صارت الرواية  
المعتبرة هي رواية ابن سحنون. وقد شُرحت المدونة ولخصت  
وعلق عليها الكثير، مثل: محمد بن أبي زيد القيرواني، كما أن  
قاضى قرطبة محمد أبو الوليد بن رشد كتب لها مقدمة جيدة.  
وكتاب المدونة مطبوع، ويُعد من الكتب المهمة في التنظير  
للأصول والفروع.

(150/16)

---

#### \*الطبقات الكبرى لابن سعد

كتاب ألفه محمد بن سعد بن منيع. وُلد بالبصرة سنة (168 هـ)،  
وتُوِّف في بغداد سنة (230 هـ). ولم يذكر المؤلف في كتابه  
سبب تأليفه للكتاب، ولم يتحدث عن منهجه في التأليف، وقد

صدر الكتاب في (8) مجلدات على النحو التالى: المجلد الأول: عن السيرة النبوية الشريفة. المجلد الثانى: عن المغازى والسرايا وأسمائها وتواريخها. المجلد الثالث: ويقع فى قسمين؛ أحدهما فيه طبقات البدرين من المهاجرين، والآخر فيه طبقات البدرين من الأنصار. المجلد الرابع: ويتكون من قسمين؛ أحدهما: الطبقة الثانية من المهاجرين والأنصار، والآخر: الصحابة الذين أسلموا قبل فتح مكة. المجلد الخامس: ذكر فيه الطبقة الأولى من أهل المدينة من التابعين، ثم ذكر الطبقة الثانية من أهل المدينة من التابعين، وهم على قسمين؛ أحدهما: من كانوا من الأنصار، والآخر: من كانوا من الموالى، ثم ذكر الطبقة الثالثة من أهل المدينة من التابعين، ثم سقطت الطبقتان الرابعة والخامسة، وتحدث عن الطبقتين السادسة والسابعة، لكنه لم يحددتهما باسم معين، ثم ذكر من نزل بمكة من الصحابة، رضى الله عنهم، ومن كان من أهل مكة، وروى عن عمر بن الخطاب وغيره، وقسمهم إلى خمس طبقات، ثم ذكر من نزل الطائف من الصحابة، رضى الله عنهم، ومن كان منهم بما من الفقهاء والحدثين، ثم ذكر من نزل باليمن من الصحابة، رضى الله عنهم، ومن كان بما منهم من الحدثين، وقسمهم إلى أربع طبقات، ثم ذكر من نزل باليمامة من الصحابة، رضى الله عنهم، ومن كان بما منهم من الفقهاء والحدثين، ثم ذكر من كان بالبحرين من الصحابة، رضى الله عنهم. المجلد السادس: فيه طبقات الكوفيين ممن كان من الصحابة، رضى الله عنهم، ومن كان بالكوفة من التابعين وغيرهم من أهل الفقه والعلم، وقسم التابعين إلى تسع طبقات. المجلد السابع: ذكر فيه من نزل البصرة من الصحابة، رضى الله

عنهم، ومن كان بها من التابعين وأهل العلم والفقهاء، وذكر منهم ثمانى طبقات، كما ذكر من كان بواسط من الفقهاء والمحدثين، ومن كان بالمدائن من الصحابة، رضى الله عنهم، والفقهاء والمحدثين، ثم من كان ببغداد من الفقهاء والمحدثين، ومن كان بممذان من الفقهاء، ومن كان بالأنبار من المحدثين، ثم من نزل بالشام من الصحابة، رضى الله عنهم، فى ثمانى طبقات، ومن نزل بالجزيرة من الصحابة، رضى الله عنهم، والفقهاء والمحدثين والتابعين، ومن كان بالعواصم والثغور، ثم ذكر من نزل بمصر من الصحابة، رضى الله عنهم، فى ست طبقات، ثم من كان بأيلة وإفريقية والأندلس. المجلد الثامن: فى النساء المسلمات والمهاجرات من قريش، والأنصاريات والمبايعات، وأزواج رسول الله (، والمسلمات المبايعات، وغرائب نساء العرب المسلمات المهاجرات المبايعات، ونساء الأنصار المسلمات المبايعات، والنساء اللاتى لم يروين عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . ويؤخذ على ابن سعد فى كتابه: 1 - ترجم لبعض الشخصيات دون إشارة إليها بوضوح. 2 - ذكر بعض الأسماء دون أن يترجم لها.

(152/16)

### \*مروج الذهب للمسعودى

كتاب فى التاريخ. ألفه على بن الحسين بن على . الذى يرجع نسبه إلى عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه. وُلد ونشأ وتعلم فى بغداد، ثم رحل فى طلب العلم، فطاف أكثر بلاد الأرض، فجمع كثيراً من المعلومات التاريخية والجغرافية؛ مما جعله متفوقاً على كثير من العلماء فى مجاله، وكانت وفاته سنة (346 هـ). وكتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر دراسة تاريخية جغرافية، جمع فيه المسعودى التاريخ وأخبار العالم، وما مضى

من الزمان من أخبار الملوك والأنبياء والأمم ومساكنها. ويتكون الكتاب من أربعة أجزاء على النحو التالي: الجزء الأول: يتحدث فيه عن دافعه إلى تأليف الكتاب، والمصادر التي اعتمد عليها، ثم يتحدث عن كتابيه أخبار الزمان والأوسط في الأخبار على التاريخ، ويشير إلى كتب من سبقه من المؤلفين، وينقدها مبرزاً ما فيها من مميزات وعيوب، ثم يتحدث عن بدء الخلق، وعن آدم، عليه السلام، وحواء وأولادهما، وعن نوح، عليه السلام، وأبنائه والأنبياء من بعده، وعن ذى القرنين، وأصحاب الكهف، ومسيحي نجران باليمن، وأبرز الشخصيات السابقة إلى الإسلام. كما تحدث في هذا الجزء عن الأرض والبحار والأقاليم، وترتيب الأفلاك، ومساحة الأرض، والأنهار، وبلاد الصين وملوكها، وصقلية وملوكها، وإفريقية قبل الإسلام، والحبيشة والسودان، ووصف كثيراً من حيواناتها، وطبرستان وجيدان، وبلاد فارس وملوكها، واليونان والرومان، وتاريخ مصر قبل الفتح الإسلامي لها. الجزء الثاني: ويتحدث فيه عن الجغرافيا والرحلات؛ فيتحدث عن السودان وأهله وأجناسه وملوكه وحيواناته، ومصر والفرنجية، وبلاد العرب قبل الإسلام، ومكة المكرمة، وإبراهيم الخليل، عليه السلام، وإسماعيل، عليه السلام، والقبائل العربية. ويقدم دراسة جغرافية لبلاد الشام ومصر واليمن والحجاز والمغرب والعراق وخراسان وفارس وخوزستان والهند والصين وبلاد الروم، كما يتحدث عن الأديان

(153/16)

---

وأنواعها المتعددة، وعن ظهور الإسلام، وعن السيرة النبوية الشريفة، وهجرة الصحابة، رضى الله عنهم، والجهاد، والغزوات، ووفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وعن الخلفاء الراشدين. الجزء

الثالث: يتحدث فيه عن خلافة الإمام على بن أبي طالب، رضى الله عنه، وعن قيام الدولة الأموية، والدولة العباسية حتى عصر الأمين. الجزء الرابع: يبدأ بعصر المأمون حتى عصر المطيع لله، وبداية ازدياد نفوذ بني بويه في السلطنة من دونه. ولأهمية الكتاب تُرجم إلى اللغة الفرنسية، وطُبع في باريس في (9) مجلدات سنة (1872 م)، كما تُرجم إلى الإنجليزية في لندن سنة (1841 م)، كما طُبع بالعديد من البلاد العربية أكثر من مرة.

(154/16)

---

#### \*الآثار الباقية عن القرون الخالية

هو كتاب في علم التاريخ لأبي ربحان البيروني المتوفى سنة (440 هـ) الذي وُلد في السند، وقضى قرابة (40) سنة في الهند، وكان للبيروني اهتمامات بالنجوم والفلك والرياضيات والتاريخ والجغرافيا. ويتناول هذا الكتاب دراسة للتواريخ عند الأمم المختلفة من يهود وعرب وهنود وروم، وتواريخ الملوك الأقدمين وأهم أعياد هذه الأمم. وقد وضع البيروني هذا الكتاب في جرجان خلال الفترة من (388 هـ) حتى (403 هـ) وأهداه إلى أميرها شمس الدين أبي المعالي قابوس. وقد نشره المستشرق الألماني سخاو عام (1878 م)، ووُضعت له ترجمة إنجليزية طُبعت في لندن سنة (1879 م)، وللكتاب ترجمة روسية طُبعت في طشقند سنة (1957 م).

(155/16)

---

#### \*الإحاطة في أخبار غرناطة

كتاب ألفه لسان الدين بن الخطيب المتوفى سنة (776 هـ)، وكان

وزيراً لأبي الحجاج يوسف بن إسماعيل ولابنه من بعده في دولة  
بني نصر بن الأحمر بالأندلس. ويُعد كتاب الإحاطة من أهم مؤلفات  
لسان الدين؛ حيث يعد موسوعة شاملة لكل ما يتعلق بمدينة  
غرناطة منذ أن فتحها المسلمون، وأخبار من كان فيها قبلهم  
حتى عصره، مع ترجمة وافية لكل ملك من ملوكها وترجمة للعديد  
من أعلامها في مختلف العصور. ولم يلتزم لسان الدين بالترتيب  
التاريخي للأحداث في كتابه، وإنما التزم الترتيب الألفبائي  
لأصحاب التراجم، وقد استعان لسان الدين بالعديد من المراجع  
في كتابه مثل: البيان المغرب لابن عذارى المراكشي، وتاريخ  
مالقة لابن عساكر. واستمر ابن الخطيب في تأليف هذا الكتاب من  
سنة (761 هـ) حتى (769 هـ). وسبب تأليف هذا الكتاب يرجع إلى  
أن ابن الخطيب اطلع على كتاب وصف الأندلس لابن جزي،  
فأعجب به ووضع كتاب الإحاطة على غراره. وقد طُبع هذا  
الكتاب بتحقيق محمد عبد الله عنان.

(156/16)

#### \*أحسن التقاسيم

يُعد هذا الكتاب من أهم كتب الجغرافيا عند المسلمين، ألفه شمس  
الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي المؤرخ،  
الرحالة الجغرافي المتوفى سنة (380 هـ). ويشتمل هذا الكتاب  
على ذكر الأقاليم الإسلامية ووصفها وصفاً دقيقاً، لذلك فإن هذا  
الكتاب يُعد موسوعة جغرافية وتاريخية وحضارية. وقد جمع  
المقدسي مادة هذا الكتاب في أثناء رحلاته في البلاد  
الإسلامية؛ حيث كان تاجرًا على دراية بأحوال الناس والأقاليم.  
وكان منهجه في هذا الكتاب هو تحرى الدقة وما اتفق عليه  
العلماء، أما ما اختلفوا فيه فقد استبعده. وقد تحدث المقدسي

عن الديار الإسلامية فحسب، ولم يذكر أقاليم غير المسلمين.  
والكتاب طُبع في مجلد واحد بمدينة ليدن سنة (1909 م).

(157/16)

---

### \* إحصاء العلوم

هو كتاب لأبي نصر الفارابي المتوفى سنة (239 هـ)، أحد فلاسفة الإسلام الكبار بالإضافة إلى اهتماماته الطبية والفلكية والرياضية. ويُعد إحصاء العلوم أول موسوعة عامة صدرت باللغة العربية للتعريف بموضوع فروع العلوم وأغراضها من عقلية وطبيعية وإنسانية. وللكتاب اسم آخر هو مراتب العلوم. وقد قسم الفارابي هذا الكتاب إلى خمسة فصول هي: (1) علم اللسان وفروعه من اللغة والنحو والصرف ... إلخ. (2) المنطق، وأوضح فيه حاجة دارس العلوم والدراسات العلمية إلى المنطق. (3) علم التعاليم (أى الرياضيات) مثل العدد والهندسة والفلك. (4) العلم الإلهي والعلم الطبيعي. (5) العلم المدني، مثل: الأخلاق والسياسة والفقه وعلم الكلام. وهذا الكتاب يعد اختصاراً دقيقاً للعلوم المتعارف عليها في عصر الفارابي حيث يعطى القارئ فكرة عامة وواضحة عن موضوع كل علم ومنفعته النظرية والعملية. إلا أن هذا الكتاب لم يحتو على علمى الطب والكيمياء. وتُرجم إلى اللاتينية في العصور الوسطى، كما ترجم إلى العبرية.

(158/16)

---

### \* الأحكام السلطانية

هو اسم لكتابين في أصول الإدارة الحكومية الإسلامية، أحدهما للماوردى، والآخر للفراء. ويُعد هذان الكتابان أول دراسة علمية

منهجية في هذا الموضوع. الأول: الأحكام السلطانية والولايات الدينية. وهو كتاب ألفه أبو الحسن علي بن حبيب الماوردي أحد فقهاء الدولة العباسية، المتوفى سنة (450 هـ). قسم الماوردي كتابه إلى عشرين باباً تحدث فيها عن الإمامة وشروطها، والوزارة وأنواعها، والإمارة وأقسامها، وأدب الحرب، وكذلك القضاء، والولاية، والأموال، والدواوين ... إلخ. وقد حرص الماوردي في كتابه على دراسة جميع جوانب الحكم في الدولة الإسلامية، وتحديد الحقوق والواجبات، وكان ملتزماً فيه بأصول المذهب الشافعي. واعتمد ابن خلدون على هذا الكتاب في مقدمته \_ وطُبع عدة طبعات. الآخر: الأحكام السلطانية: كتاب ألفه محمد بن الحسين بن محمد بن خلف الفراء الفقيه، احدث المفسر الحنبلي المتوفى سنة (458 هـ). ويتعرض هذا الكتاب لموضوع الإمامة ومايتصل بها من أمور، دون التعرض للأمور الخلافية، كذلك تحدث عن ولاية القضاء وشروطها وكان أبو يعلى الفراء يلتزم بأصول المذهب الحنبلي في كتابه هذا. ويلاحظ أن كتابي الماوردي والفراء خرجا في قرن واحد هو القرن الخامس الهجري؛ حيث كان الاثنان متعاصرين.

(159/16)

#### \*إحياء علوم الدين

كتاب ألفه حجة الإسلام أبو حامد الغزالي المتوفى سنة (505 هـ) ، أحد أئمة علم الكلام والفقه والتصوف في القرن الخامس الهجري. ويشتمل هذا الكتاب على بحوث في التوحيد والفقه والحديث والتصوف والاجتماع وعلم النفس والتربية. وقسم الغزالي كتابه أربعة أقسام، هي: العبادات والعادات والمهلكات والمنجيات. واستعان بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة

وآثار الصحابة والصالحين. ولاقى هذا الكتاب منذ تأليفه إعجاب العلماء، حتى قال الحافظ العراقي: إنه من أجل كتب الإسلام في معرفة الحلال والحرام. ورغم هذا الإعجاب فقد وُجِّهت له بعض الانتقادات منها: احتواؤه على ألفاظ ومصطلحات غامضة، استشهاده بالكثير من الأحاديث الضعيفة والموضوعة. ولأهمية الكتاب فقد اختصره بعض العلماء، كما خرَّج بعض العلماء أحاديثه. أما أعظم الأعمال التي خُدم بها هذا الكتاب فهو كتاب إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين للسيد محمد بن محمد الحسيني الزبيدي صاحب قاموس تاج العروس، ويقع هذا الشرح في (10) مجلدات. وقد تأثر جمهور المسلمين بهذا الكتاب على مختلف المستويات العلمية والأخلاقية.

(160/16)

#### \*الأخبار الطوال

كتاب ألفه أحمد بن داود بن وند المعروف بأبي حنيفة الدينوري ، أحد أعلام الثقافة العربية في القرن الثالث الهجري، المتوفى سنة (282 هـ). ويتناول هذا الكتاب التاريخ من عهد آدم - عليه السلام - ماراً بتاريخ الأنبياء والأمم السابقة بإيجاز، ثم يتناول بإسهاب تاريخ الفرس الساسانيين وعرب الجاهلية، والفتوح الإسلامية للعراق، وتاريخ الدولة الأموية، والدور الذي لعبته خراسان في قيام الدولة العباسية. ويعرض تاريخ الخلفاء ابتداءً من عبد الملك بن مروان حتى المعتصم العباسي المتوفى سنة (227 هـ). والأخبار الطوال يُعد من أهم المصادر التاريخية عن الحياة الاجتماعية والسياسية والحربية لدى الفرس. ويتميز هذا الكتاب بأسلوب أدبي رفيع في عرض المادة التاريخية، إلا أنه يحوى - إلى جانب الروايات القوية - الروايات الضعيفة

والأساطير. وللكتاب مخطوطات عديدة، وطبع عدة طبعات في  
ليدن سنة (1888 م)، ومصر (1960 م)، وغيرها.

(161/16)

---

### \*أدب الكاتب

هو كتاب لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري. أحد  
علماء القرن الثالث الهجري في اللغة والأدب والفقه والتاريخ.  
وقد تُوفي ابن قتيبة الدينوري ببغداد سنة (276 هـ = 889 م).  
وهذا الكتاب يقدم قدرًا وافيًا من الثقافة اللغوية الضرورية لكتّاب  
الدواوين في زمانه خاصة، والكتّاب والأدباء عامة، وبالتالي  
فهو أول كتاب عربي منظم في ذلك الموضوع. والكتاب مكوّن  
من مقدمة وأربعة أقسام، ويتكون كل قسم منها من عدة  
أبواب، وهذه الأقسام هي: (1) كتاب المعرفة: ويتألف من (63)  
بابًا. (2) كتاب تقويم اليد: ويتضمن (47) بابًا. (3) كتاب تقويم  
اللسان: ويتضمن (35) بابًا. (4) كتاب الأبنية: ويتكون من شقين؛  
الأول أبنية الأفعال (45) بابًا، والآخر: أبنية الأسماء ومعانيها  
(53) بابًا. ومما دفع ابن قتيبة إلى تأليف هذا الكتاب ضعف ثقافة  
كتّاب الدواوين. وقد تبوأ هذا الكتاب منزلة عظيمة لدى كثير من  
العلماء مثل ابن خلدون، وشرحه آخرون مثل الجواليقي، وسمى  
شرحه بشرح أدب الكاتب. وطُبع أدب الكاتب عدة طبعات حيث  
نشر في ليدين سنة (1900 م)، وحققه ونشره بمصر سنة (1963 م)  
محمد محيي الدين عبد الحميد.

(162/16)

---

### \*إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم

هو أحد مؤلفات أبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادى أحد فقهاء الأحناف فى الدولة العثمانية، وُلد بالقسطنطينية سنة (898 هـ). وتُوفى بها سنة (982 هـ)، وهذا التفسير هو المعروف بتفسير أبى السعود، وكان أبو السعود مشغولاً بالتدريس والقضاء والفتوى وكان يستغل وقت فراغه فى تأليف هذا الكتاب. وهذا التفسير يتناول أسرار البلاغة القرآنية وسر إعجاز القرآن؛ حيث يهتم هذا التفسير ببناء العبارة وجمال صياغتها. كذلك يهتم بإبداء وجوه المناسبات بين الآيات ويتعرض لذكر القراءات، ويقل من سرد الإسرائيليات، إلا أنه يروى فى تفسيره بعض الروايات عن اشتها بالكذب. ونقل أبو السعود فى هذا الكتاب المسائل الفقهية وتناول ما تحتمله الآيات من وجوه الإعراب؛ لذلك كانت لهذا الكتاب شهرة فى أوساط العلماء، إلا أنه لم يظفر بالشروح والتعليقات الكافية. وطُبع هذا التفسير مرات عديدة، وهو يقع فى خمسة أجزاء.

(163/16)

### \*أسد الغابة فى معرفة الصحابة

كتاب ألفه عز الدين أبوالحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد المعروف بابن الأثير الجزرى. وُلد سنة (505 هـ) بالموصل، وتُوفى بها سنة (630 هـ). ويتناول هذا الكتاب تراجم أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - . وسبب تأليف هذا الكتاب هو اقتراح أحد أعيان الخدّين على ابن الأثير بتصنيف كتاب يكون فصلاً فيما اختلفت فيه الكتب حول حياة الصحابة. وقد استفاد ابن الأثير من الكتب التى سبقته فى هذا الخصوص. والتزم فى تأليف هذا الكتاب بالترتيب الألفبائى لأسماء الصحابة: حيث يقدم الاسم على الكنية

ويشرح المفردات التي يرى فيها غموضاً ويضبط الأسماء  
المتشابهة في الخط. وقد اشتمل الكتاب على (7554) ترجمة،  
كما أنه حدد مفهوم الصحابي. وقد طُبع هذا الكتاب عدة طبعات،  
منها طبعة دار الشعب بالقاهرة سنة (1971م)، وطبعة دار الجبل  
ببيروت.

(164/16)

### \*العبر وديوان المبتدأ والخبر

كتاب في التاريخ ألفه عبد الرحمن بن خلدون المتوفى سنة (808 هـ = 1405 م). وعنوان هذا الكتاب كاملاً هو: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاهدهم من ذوى السلطان الأكبر. وقد اشتهر ابن خلدون بين العلماء والمفكرين بهذا الكتاب، بل بجزء واحد منه هو المقدمة، وتسمى مقدمة ابن خلدون. والكتاب مقسّم إلى ثلاثة كتب في سبعة مجلدات: الكتاب الأول: ويقع في مجلد واحد، ويشغل المقدمة، وقبل المقدمة ظهرت بحوث تدرس ظواهر الاجتماع، وترجع هذه البحوث إلى ثلاث طوائف: 1 - بحوث تاريخية يقتصر أصحابها على وصف الظواهر الاجتماعية دون أن يحاولوا استخلاص شيء من هذا الوصف فيما يتعلق بطبيعة هذه الظواهر وقوانينها. 2 - دراسات إرشادية تدعو إلى المبادئ التي تقررها نظم المجتمع ومعتقداته وتقاليده. 3 - دراسات يوجه أصحابها كل عنايتهم إلى ما ينبغي أن تكون عليه الظواهر الاجتماعية، حسب المبادئ التي يرتضيها كل منهم، فهي دراسات إصلاحية. 4 - المقدمة: أتى فيها ابن خلدون بمباحث مستحدثة مما أطلق عليه أهل هذا الزمان اسم العلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصاد السياسي والاجتماعي وفلسفة التاريخ. أما الكتابان الآخران فيقعان في

سنة مجلدات، درس الكتاب الأول منهما أخبار العرب وأجياهم منذ بدء الخليقة إلى القرن الثامن الهجري. ويضم هذا الكتاب أربعة مجلدات من الثاني إلى الخامس. أما الكتاب الآخر: فهو خاص بتاريخ البربر. ويتميز تاريخ ابن خلدون عن غيره بما يتضمنه من المقدمات الفلسفية في صدر أكثر الفصول عند الانتقال من دولة إلى أخرى، ويُعدُّ الكتاب أوسع تاريخ للعرب والبربر ودُوَّطهم. وقد طُبِعَ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر كاملاً في القاهرة سنة (1867 م)، وقد نشر المقدمة المستشرق كايمارتر بباريس.

(165/16)

### \*الكتاب

كتاب في النحو والصرف، ألفه إمام النحاة سيبويه عمرو بن عثمان ابن قنبر المتوفى سنة (180 هـ = 796 م). وأوَّل ما يُلاحظ على الكتاب أن سيبويه لم يضع له اسماً، وربما أعجلته وفاته عن تسميته، وظل اسم الكتاب خاصاً به دلالة على روعة تأليفه وإحكامه، كما لم يضع له مقدمة يبين فيها منهجه، ولا خاتمة ينتهي بها. والكتاب هو أول كتاب جامع في قواعد النحو والصرف ولم يُؤلف قبله ولا بعده مثله، فقد نسَّق سيبويه أبوابه وأحكامها إحصاءً دقيقاً. ويقع الكتاب في جزأين كبيرين مقسمين إلى ثلاثة أقسام، هي: النحو، والصرف، والأصوات. وقد بدأ سيبويه بدراسة النحو ومباحثه ولم يترك في هذه المباحث جانباً إلا استقصاه، واستغرق ذلك الجزء الأول وبداية الثاني، ثم تثنى بالصرف، ويمتد إلى ما يقرب من نهاية الجزء الثاني، ثم ختم الجزء الثاني بدراسة الإدغام وما يحدث من التغييرات الصوتية نتيجة شيوعه على الألسنة العربية. وقد امتدح كثير من العلماء كتاب سيبويه فيقول أبو عثمان المازني: من أراد أن

يعمل كتاباً في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحي. ويقول  
المبرد: لم يُعمل كتاب في علم من العلوم مثل كتاب سيبويه.  
وطُبع الكتاب في المطبعة الأميرية ببولاق سنة (1316 هـ = 1898 م)  
وهي الطبعة المشهورة، وله طبعات أخرى في أوروبا  
وبيروت، وسائر المشرق. منها الطبعة التي حققها الأستاذ عبد  
السلام هارون.

(166/16)

### \*الكافية

كتاب في النحو، ألفه العالم اللغوي ابن الحاجب - وهو عثمان بن  
عمر بن أبي بكر بن يونس - سنة (646 هـ = 1249 م). وقد أوضح  
ابن الحاجب في مقدمته السبب في تأليف كتاب الكافية، وهو  
أنه أراد أن يُيسر دراسة النحو لطلابه فعمد إلى كتاب المفصل  
للزمخشري، فاختصر منه هذه المقدمة وسمّاها الكافية. واسمها  
يدل على غرضها، فهي تغني الناشئ أو المتعلم وتكفيه عن  
كتب النحو المعقدة. وقد اتبع ابن الحاجب في ترتيب أبواب  
الكتاب منهج الزمخشري في المفصل، فقسم الكافية إلى أربعة  
أقسام، الأول: أسماء، والثاني: أفعال، والثالث: حروف،  
والأخير: مشترك من أحوالها. وقد عمد ابن الحاجب في الكافية  
إلى التلخيص والإيجاز، فالدارس لا يجد صعوبة في فهمها،  
والوقوف على الغرض من عبارتها. وقد تسابق العلماء إلى شرح  
الكافية فظهرت لها شروح كثيرة باللغة العربية، وكذلك باللغتين  
الفارسية والتركية. وأجلّ هذه الشروح شرح رضى الدين محمد  
بن الحسن الإستراباذي، والشروح الثلاثة للسيد ركن الدين شمس  
الدين محمود بن عبد الرحمن الأصفهاني.

(167/16)

### \*عيون الأخبار

كتاب في الأدب ألفه، ابن قتيبة أحد أعلام الأدب في القرن (3هـ = 9م)، وهو أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري المتوفى سنة (276هـ = 889م). وكتاب عيون الأخبار جامع لشتى العلوم. وينقسم إلى عشرة كتب صغيرة، لكل منها عنوانه وموضوعه وما يتصل به من فنون الأدب. وهذه الكتب هي: 1 - السلطان وأدب الحكم. 2 - الحرب: ويتناول آداب الحرب ومكايدها. 3 - السؤدد والسيادة والكمال والشرف. 4 - الطبائع والأخلاق المذمومة. 5 - العلم والبيان: ويتناول العلم والكتب والحديث مع نماذج من خطب العلم والبيان. 6 - الزهد: ويتناول الدعاء والمناجاة والبكاء ومقامات الزهاد. 7 - الإخوان: ويتناول الحث على اتخاذ الإخوان وحسن اختيارهم. 8 - الحوائج: وما يتصل بها من اصطناع المعروف والقناعة والاستعفاف. 9 - الطعام: ويتناول صنوف الأطعمة وأخبار العرب في مآكلهم ومشاربهم. 10 - النساء: ويتناول ما يُختار من أخلاقهن وما يُكره، وما يتصل بحياة المرأة. وسبب تأليف ابن قتيبة كتاب عيون الأخبار - كما أوضح في المقدمة - هو إفادة المتأدب المتخصص والمتأدب من خاصة الناس والمتأدب من عامتهم. ويُعدُّ الكتاب مزيجاً بين الثقافة العربية والثقافة الأجنبية، ويشابه بذلك صاحبه الجاحظ الذي أتى بأخبار أعجمية في كتابه البيان والتبيين. وقد طبع الكتاب الأربعة الأولى من هذا الكتاب المستشرق الألماني بروكلمان سنة (1899م)، وطُبع الكتاب الأول في مصر سنة (1325هـ = 1907م)، ثم طُبع الكتاب كاملاً تحت إشراف دار الكتب المصرية في أربعة أجزاء ما بين سنتي (1924م، و 1930م).

## \*تفسير البيضاوى

كتاب ألفه عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي البيضاوى، وهو قاضٍ، مفسر، ولد في المدينة البيضاء، وتوفي في تبريز سنة (685 هـ = 1286م). والتفسير بعنوان: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، وهو متوسط الحجم، جمع فيه صاحبه بين التفسير والتأويل وفق مقتضى قواعد اللغة العربية، وأورد فيه الأدلة على أصول أهل السنة، ولخص فيه مؤلفه من تفسير الكشاف للزمخشري ما يتعلق بالإعراب والمعاني والبيان، ومن تفسير الإمام الرازي مفاتيح الغيب ما يتعلق بالحكمة والكلام، ومن جامع التفاسير للراغب الأصفهاني ما يتعلق بالاشتقاق، وغوامض الحقائق، ولطائف الإشارات. وضمَّ إلى ذلك بعض الآثار الواردة عن التابعين، وضمنه طرائف واستنباطات من أعمال فكره، وعرض القراءات والصناعات النحوية، وآيات الأحكام والمسائل الفقهية. وللكتاب ما يزيد على أربعين حاشية، أشهرها: حاشية قاضي زاده، وحاشية الشهاب الخفاجي، وحاشية القونوي. وقد طُبِعَ الكتاب طبعات عديدة، ومنها: - طبعة القسطنطينية - المطبعة العثمانية - (1270 هـ = 1853 م). - وطبعة القاهرة - مطبعة كردستان العلمية - (1326 هـ = 1908 م).

(169/16)

## \*البيان المغرب

كتاب ألفه أبو عبد الله محمد بن محمد بن عَدَارِي المراكشي، أحد المؤرخين المعروفين في القرن (7 هـ = 13 م). وتوفي نحو سنة (695 هـ = 1296 م). ويتناول الكتاب - في إيجاز - تاريخ بلاد المغرب والأندلس من الفتح الإسلامي حتى انقضاء دولة الموحدين. ويتألف من مقدمة وثلاثة أجزاء: أمَّا المقدمة فهي

موجزة، وتشتمل على بيان سبب تأليفه، وموضوعه والمنهج الذى اتبع فيه، والأجزاء التى يضمها. ويعرض فى الجزء الأول أخبار إفريقيّة منذ الفتح الإسلامى الأول فى خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه. ويتناول فى الجزء الثانى أخبار جزيرة الأندلس، ومَن وليها من الأمراء الأمويين منذ الفتح الإسلامى، ثم قيام دولة الأمويين فى الأندلس، وعصر ملوك الطوائف، ودخول المرابطين الأندلس سنة (478 هـ = 1085 م). وفى الجزء الثالث اختصر أخبار الدولة المرابطية اللمتونية، ثم أخبار دولة الموحديين. وينتهى الكتاب عند أحداث سنة (667 هـ = 1268 م). وطريقة ابن عَدَارَى فى معالجة الأحداث التاريخية هى الطريقة الحولِيَّة حيث يؤرخ للأحداث على السنين. وقد طُبِع الكتاب فى أربعة أجزاء، حقق الأجزاء الثلاثة الأولى منها كل من: ج. س. كولان، وليفى بروفنسال، وقام بتحقيق الجزء الرابع إحسان عباس.

(170/16)

### \*البيان والتبيين

كتاب ألفه أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى المعروف بالجاحظ. وُلِدَ فى البصرة سنة (163 هـ = 779 م)، وترك العديد من المصنفات التى تبلغ نحو (170) مؤلَّفًا. وتُوفِّيَ سنة (255 هـ = 869 م). يتناول الجاحظ فى كتابه هذا مباحث البلاغة والفصاحة، ويستنبط أصولهما كما عرفها البيانون السابقون، ومارسها عمليًّا أرباب الفصاحة والكلام. وقد بدأ كتابه بالحديث عن العِيِّ والاستعاذة منه، وعن مزايا الفصاحة وعيوب التشديق والتعقر والغرابية، وعن اختلاف لغة العرب فى استعمال الألفاظ، ثم تحدث عن الخطابة وعيوب اللسان، ونَمَّتِ الخطيب وهيبته وأثر ذلك

في التأثير والإقناع، وعرض لأشهر الخطب ومن اشتهر من الخطباء بسلامة النطق أو بعيب فيه، كما تحدث عن الشعر واختلاف طبائع الشعراء، وتناول تفرد القرآن الكريم في أسلوبه، وكيف خالف جميع الكلام الموزون والمنثور، كما أشار إلى موضوعات أخرى متنوعة، منها: أصوات الكلام وموسيقاه، والسجع والازدواج، والرجز، والإيجاز والإطناب، والصمت والعمى، والاقْتباس، والترادف، والتنافر، والاستعارة، والتشبيه، والزهد، والتنسُّك، ونوادير الحمقى والمجانين، والحكم والرسائل والأمثال. وتحدث عن جزالة الألفاظ، وجمال العبارات، وبلاغة التراكيب، وحسن الصياغة. وأسلوب الجاحظ في الكتاب اتسم بالاستطراد والتنويع. وقد تطرق من موضوع إلى آخر، ومن فكرة إلى أخرى. وقد أدى هذا إلى نوع من الخلط والاضطراب. وقد طُبِعَ الكتاب عدة طبعات منها طبعة حققها عبد السلام هارون في أربعة أجزاء. ونُشر بالقاهرة سنة (1367 هـ = 1948 م).

(171/16)

### \*بدائع الزهور

كتاب ألفه أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس المصري الحنفى، المعروف بابن إياس المصري، أحد مؤرخى مصر الكبار. وُلِدَ في القاهرة سنة (852 هـ = 1448 م)، وتوفي بها سنة (930 هـ = 1524 م). ويعرض الكتاب لتاريخ مصر منذ أقدم العصور، حتى نهاية العصر المملوكى وبداية العصر العثمانى، ويعدُّ الكتاب مرجعًا عظيم الفائدة لمن يبحث في تاريخ مصر في عصر المماليك وبداية العصر العثمانى، من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإدارية والثقافية. ولغة الكتاب سهلة

بسيطة يشيع فيها كثير من الألفاظ العامية، والمصطلحات الأجنبية، وبخاصة التركيبة. والمنهج المتبع فيه هو منهج الحوليات. وقد طبع الكتاب سنة (1312 هـ = 1894 م) في مطبعة بولاق الأميرية، ثم عنيت جمعية المستشرقين الألمان بإخراج طبعة جديدة له حققها محمد مصطفى.

(172/16)

---

### \*البخلاء

كتاب ألفه أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى، المعروف بالجاحظ، أحد أئمة البيان والأدب في تاريخ العربية. ويُعالج الكتاب أخبار البخلاء وأحاديثهم ونواديرهم، واحتجاجهم لمذاهبهم في البخل. وكان الدافع إلى تأليفه هو الرد على الشعوبيين المتعصبين لغير العرب الرامين العرب بالبخل. وقد استهل الجاحظ كتابه بلمحة عن نفسية البخلاء، وأتبعها برسالة سهل بن هارون في البخل، ثم شرع في موضوع كتابه؛ فبدأ بأخبار بخل أهل خراسان عامة، وأهل مرو منهم خاصة، وتناول بخل أهل البصرة، واستعرض نماذج منهم، ثم ذكر رسالتين، إحداهما من أبي العاص بن عبد الوهاب الثقفى في ذم البخل ومدح الكرم، والأخرى جواب ابن التوأم على رسالة الثقفى في إظهار مفساد البذل والجود. واتسم أسلوب الجاحظ في كتابه بقدرته الفائقة على تحليل نفسية البخلاء، وبروح السخرية والدعابة. وقد طبع الكتاب أكثر من مرة منها طبعة حققها طه الحاجرى سنة (1367 هـ = 1948 م).

(173/16)

---

## \*الأغاني

كتاب ألفه أبو الفرج علي بن محمد بن أحمد بن الهيثم، المعروف بأبي الفرج الأصفهاني، أحد أعلام الأدب العربي في القرن (4 هـ). وُلد بأصفهان سنة (284 هـ = 897 م) لأب ينتهي نسبه إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، ثم انتقل إلى بغداد حيث تلقى العلم عن كبار علمائها. ومن مصنفاته: القيان ومقاتل الطالبين والإمام الشواغر، وتوفّي سنة (357 هـ = 967 م). والموضوع الرئيسي لكتاب الأغاني هو: الأغاني في بعض مجالس الخلفاء، وقد جمعها أبو الفرج، ونسب كل شعر إلى قائله، وذكر صاحب لحنه، واسم من غناه، ثم ترجم للشاعر، وعرض نماذج من شعره. وقد بلغ عدد الذين ترجم لهم من الشعراء أربعمائة وستة وعشرين شاعرًا من العصور: الجاهلي و صدر الإسلام والأموي والعباسي، دون التزام ترتيب زمني. والمنهج الذي اتبعه أبو الفرج هو الابتداء بذكر الصوت الذي اختاره، والشعر المتعلق به، ثم الاستطراد إلى ذكر أشعار أخرى قيلت في المعنى نفسه، ثم التحدث عن المناسبة التي قيلت فيها، وقد يتعرض أبو الفرج لذكر الأنساب وأخبار القبائل، وما قد يكون من فتن طائفية أو مذهبية، وما يشاكل هذا من أخبار وسير وأشعار ورسائل وخطب وقصص. واهتم بالسند وعدّه الأساس في ذكر أية رواية أدبية، وارتضى لنفسه بعض المعايير التي تعينه على تحقيق نسبة النص إلى صاحبه. ويعدّ كتاب الأغاني المرجع الأساسي لتاريخ الغناء والملغنين في القرون الثلاثة الأولى. ولكن يُؤخذ على أبي الفرج أنه ركز في كتابه على تصوير الحياة اللاهية العابثة في المجتمع البغدادي في عصره، وأغفل الجانب الجادّ الإيجابي، وأنه جعل الهدف من كتابه الإمتاع لا التاريخ.

### \*ألف ليلة وليلة

هي حكايات يحمل بعضها أصولاً فارسيّة، وتظهر في بعضها عناصر هندية ويونانية، لكنها اتسمت بطابع عربي، حيث ترجمت أصولها، واعتورها كثير من التعديل حتى خرجت في صورتها الحالية. ويرجح العلماء أنها عمل جماعي وليست عملاً فردياً. ويعتمد منهج ألف ليلة وليلة في ربط الحكايات بعضها ببعض على مايسمى بقصة الإطار. ويشيع في القصص ذكر علاء الدين والقنديل المسحور وعلى بابا والسندباد البحري ... إلخ. وفيها بعض العناصر التاريخية الحقيقية المأخوذة من واقع البيئة العربية. وكان الكتاب في مراحل الأولى موضع ازدراء، فوصف بأنه من الغث البارد، وحين تبلور في صورته النهائية احتفى الغرب به، حتى احتل مكانة عالية في الأدب العالمي. وكان أنطوان جالان أول من عُني بالكتاب، حيث قام بترجمته سنة (1116 هـ = 1704 م) وخرجت طبعته في (12) مجلداً. واستقبلت أوروبا الكتاب باهتمام بالغ، وتلقاه الجمهور بشغف، ثم شاعت محاكاته تأليفاً وترجمة، وكانت أول طبعة عربية له سنة (1230 هـ = 1814 م) وهي طبعة كلكتا، ثم طبع بمطبعة بولاق بالقاهرة سنة (1251 هـ = 1835 م)، كما طبع ببيروت سنة (1299 هـ = 1881م)، توالى بعد ذلك طبعات الكتاب.

(175/16)

### \*ألفية بن مالك

هي منظومة من بحر الرجز في علمي النحو والصرف، وتقع في نحو ألف بيت، وتسمى أيضاً بالخلاصة. نظمها أبو عبد الله جمال الدين محمد بن مالك، أحد أئمة علوم النحو والصرف والقراءات.

وُلد في جَبَّان بالأندلس سنة (600 هـ = 1203 م)، ثم رحل إلى  
المشرق سنة (630 هـ = 1232 م) ولقى ابن الحاجب وأخذ عنه،  
واستقر مقامه بجلب، وتلمذ فيها لابن يعيش، وتصدَّرَ بها مدة  
للإقراء، ثم تركها إلى دمشق وتُوفِّيَ بها سنة (672 هـ = 1273  
م). وتتناول الألفية قواعد النحو والصرف ومسائلهما من خلال  
النظم، بقصد تقريب مسائل العِلْمين وتيسيرها. وقد بدأ ابن مالك  
ألفيته بتعريف الكلام وما يتألف منه، ثم المعرب والمبني من  
الكلام، ثم تتابعت أبواب النحو، وبعد ذلك تناول أبواب الصرف.  
ومنهج ابن مالك في الألفية هو المنهج الانتقائي الذي يقوم على  
المنزج بين آراء النحاة، والترجيح بينها، فلم يقيد نفسه بمذهب  
معين من مذاهب النحو ومدارسه. وألفية ابن مالك هي أشهر  
الألفيات على اختلاف منازعها وفنونها، وقد أولاهها العلماء  
اهتماماً كبيراً فقام بعضهم بشرحها، أو اختصارها، أو نثرها،  
أو إعراب أبياتها، أو عمل حواشٍ لها، أو التعليق عليها. وقد زاد  
عدد شراحها على الأربعين شارحاً.

(176/16)

#### \*الإمامة والسياسة

هو كتاب منسوب إلى الفقيه أبي محمد عبد الله بن مسلم بن  
قتيبة الدينوري، أحد أئمة علوم القرآن والحديث واللغة والأدب  
والأخبار، وغيرها. ويقع الكتاب في جزأين يحتويهما مجلد  
متوسط الحجم، ولا يدل عنوانه على محتواه؛ إذ إنه كتاب  
تاريخي يعتمد على السرد المسلسل للأحداث السياسية في  
تاريخ المسلمين، ويذكر أخبار الأئمة والقادة منذ وفاة النبي  
(حتى تولى المأمون الخلافة في الدولة العباسية سنة 195 هـ =  
810م). وهو بهذا لا يختلف كثيراً عن معظم كتب التاريخ التي

تعرض أحداث التاريخ الإسلامي في هذه الفترة وما بعدها. غير أن هذه الكتب أكثر دقة وتنظيمًا منه، لاعتمادها على السرد الحوّلَى للأحداث. وأهم ما يتسم به الكتاب من حيث المنهج أنه لا يعتمد على الرواية الموثقة، وأنه يذكر بالتفصيل معظم الوقائع والأحداث التي تتصل بالسياسة ولو من بعيد، معتمدًا على أسلوب القصّ والرواية. والمعروف أن نسبة هذا الكتاب إلى ابن قتيبة ليست ثابتة، فكل الذين كتبوا عنه يكادون يُجمعون على أنه ليس له، وأوّل من بدأ هذا ابن العربي في كتابه العواصم من القواصم.

(177/16)

### \*الأموال

هو كتاب ألّفه أبو عبيد القاسم بن سلام الأزدي، أحد أئمة اللغة والقراءات والشعر والفقّه. وُلِدَ سنة (157 هـ = 774 م) وعاش حياة حافلة بالتعلم والتعليم. من مصنفاته: غريب الحديث، وفضائل القرآن والأمثال السائرة. وتُوّفِيَ أبو عبيد سنة (224 هـ = 839 م). ويعدُّ كتاب الأموال من أقدم ما كتب بهذا المستوى من الشمول في موارد الدولة المالية في تلك الحقبة. وهو يقع في مجلد واحد، ويجوَى نحو الألفين من الأخبار؛ ما بين أحاديث عن النبي - صلى الله عليه وسلم -، وأقوال للصحابة - رضوان الله عليهم - وقصص في أيام الخلفاء الراشدين والأمويين مما يتعلّق بالأموال في الدولة الإسلامية، إذ يشمل أخبارًا عن الزكاة والجزية والفيء والغنائم، كما يشمل أحكام الإقطاع، وإحياء الموات وغيرها من الأحكام وعددًا من الأحاديث، مستدلًّا بما أبو عبيد في مناقشته لفقّه هذه الأخبار، وما اختاره العلماء من الآراء في تأويلها وتوضيحها. وينقسم كتاب الأموال إلى أجزاء أربعة: الأول يبدأ بباب حق

الإمام على الرعية، وحق الرعية على الإمام وينتهي باب الحكم في رقاب أهل العنوة من الأسارى والسبي. والثاني يبدأ باب الحكم في رقاب أهل العنوة من الأسارى والسبي أيضاً، وينتهي باب الفرض للنساء والمماليك من الفىء. أما الجزء الثالث فيستهله أبو عبيد باب إجراء الطعام على الناس من الفىء، وينتهي باب الصدقة في الحلبي من الذهب والفضة وما فيها من الاختلاف. وأما الجزء الأخير فيبدأ باب صدقة مال اليتيم ومافيه من السنة وينتهي باب إعطاء أهل الذمة من الصدقة. وقد نُشر كتاب الأموال أكثر من مرة، آخرها بتحقيق د. محمد عمارة، نشر دار الشروق بالقاهرة سنة (1409 هـ = 1989 م).

(178/16)

#### \*أنساب الأشراف

هو كتاب ألفه أحمد بن يحيى بن جابر البلاذريّ الجغرافي النسابة، وأحد كبار المؤرخين في القرن (3 هـ = 9 م)، وكان من رجال البلاط العباسي منذ عهد الخليفة المتوكل حتى عهد المعتز ومن مصنفات البلاذريّ: فتوح البلدان، والبلدان الكبير، وعهد أردشير. وتُوفّي سنة (279 هـ = 892 م). ويتناول الكتاب تاريخ أشراف العرب في الجاهلية والإسلام حتى عصر المؤلف، ويقع في اثني عشر مجلداً، لا يزال معظمها مخطوطاً. وقد بدأ البلاذريّ كتابه بذكر نسب نوح - عليه السلام - ثم تكلم عن العرب ونزل إلى عدنان، وظل ينزل إلى أجداد النبي - صلى الله عليه وسلم - واحداً بعد واحد، حتى وصل إلى مولد الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وقد استغرقت سيرته ما يزيد على مائتي صفحة، ثم تكلم عن اجتماع السقيفة، وبدأ يصعد في نسب الرسول - صلى الله عليه وسلم - مرة أخرى، فتناول أبناء الجد الأول عبد المطلب واحداً واحداً، فبنوهم وبنو أبنائهم ومن نزل، ثم أبناء

الجد الثاني هاشم بن عبد المطلب، ثم عبد شمس بن مناف، وظل  
متتبعًا عمود النسب حتى وصل إلى ثقيف وترجم لبعض رجالها.  
وقد انتهج المؤلف في كتابه أسلوب ذكر الخبر برواياته المختلفة  
مع الالتزام بذكر الأسانيد. ويُعدُّ الكتاب كتاب تاريخ بالنظر إلى  
عمود الأنساب لا التسلسل التاريخي، إذ جعل مؤلفه لكل موضوع  
عنوانًا فرعيًا خاصًا به، كأنه وحدة مستقلة بذاتها، ومن ثمَّ  
فالكتاب ليس مؤلفًا تاريخيًا متصل الحلقات، يسوق الأحداث وفق  
تتابعها الزمني، وإنما يتتبع تسلسل الحكام. إنه مجموعة روايات  
في إطار الأنساب، توسعت حتى احتوت على الأخبار والأشعار  
والتراجم.

(179/16)

---

#### \*تاريخ السودان

هو كتاب ألفه المؤرخ السوداني عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر  
بن عامر السعدى التمبكتي. ويُعرف هذا الكتاب باسم تاريخ  
السودان، أو تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان. وهذا  
الكتاب يتضمن تاريخ غرب إفريقيا ونشأة الممالك والإمارات  
الإسلامية حتى منتصف القرن السابع عشر الميلادي مع تراجم  
أعلام ذلك العصر. وقد نُشر هذا الكتاب في باريس سنة (1901 م)  
وترجم إلى الفرنسية.

(180/16)

---

#### \*الخصائص

كتاب في فقه اللغة العربية ألفه العالم اللغوي أبو الفتح عثمان  
بن جني المتوفى سنة (392 هـ = 1002 م). والكتاب يبحث في

خصائص اللغة العربية من حيث أصولها واشتقاقاتها ومميزاتها، وإن اشتمل على مباحث تتصل باللغة بصفة عامة مثل البحث في الفرق بين الكلام والقول، والبحث في أصل اللغة، إلهام هي أم اصطلاح. وقد أوضح ابن جني في مقدمته سبب تأليفه الخصائص وهو البحث في مشكلات اللغة الكلية، أى في فلسفتها، وليس البحث في مشكلات اللغة الجزئية. وكتاب الخصائص يمتاز بموضوعاته اللغوية العميقة، وأسلوبه المنطقي في الجدل، وثقة صاحبه في الرواية والحفظ. والكتاب يقع في ثلاثة أجزاء، وقد طبع الجزء الأول منه في القاهرة سنة (1331 هـ = 1913 م) ثم طبع كاملاً بتحقيق الأستاذ محمد علي النجار من سنة (1952 م - 1955 م) في ثلاثة أجزاء. ويوجد من الكتاب عدة نسخ في مكتبات العالم، وقد قام باختصاره ابن الحاج الأندلسي أحمد بن محمد الإشبيلي.

(181/16)

### \*شذور الذهب

كتاب في النحو ألفه ابن هشام، عبد الله بن يوسف بن عبد الله المصري، النحوي، المتوفى سنة (761 هـ = 1360 م). وقد أوضح ابن هشام في مقدمته منهجه الذي يسير عليه في كتابه، وهو منهج جديد في الدراسات النحوية، فقد اهتم ابن هشام بتضييق دائرة أقسام النحو حتى لا يضل الناشئة في شعابها المختلفة. ودعم ابن هشام مسائل النحو بالآيات القرآنية التي لم يكتف بإيرادها بل حاول أن يبين ما في هذه الآيات من وجوه الإعراب والتفسير. وقد شغل هذا الكتاب أذهان الشراح فتنافسوا في شرحه، ومن هذه الشروح: نثر الزهور على شرح الشذور للسيوطي، وبلوغ الأرب بشرح شذور الذهب لذكريا

الأنصارى. وطُبع هذا الكتاب أول مرة بإستانبول سنة (1253 هـ = 1837 م).

(182/16)

---

### \*مسالك الأبصار في ممالك الأمصار

هو كتاب ألفه شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمرى الذى ينتسب إلى أسرة سورية، تنحدر من سلالة الخليفة الثانى عمر بن الخطاب، رضى الله عنه. وُلِدَ بدمشق سنة (700هـ)، وثوَّقَ سنة (748هـ). ويعتبر الكتاب موسوعة ضخمة، تشتمل على أكثر من عشرين مجلداً، ويتناول موضوعات شتى، منها: وصف الأرض، وسكانها، وحيوانها وأقطارها، ومسكنها، وما فيها من أنهار وجبال وجزر وبحار وبحيرات ومبانٍ، بالإضافة إلى استطرادات تاريخية وأدبية، وقد اعتمد المؤلف فى ذلك على ما رآه بالمشاهدة، أو سمعه من الثقات، أو نقله عن الكتب، وهو لا ينقل إلا الموثوق به فيما لا بد منه، كتقسيم الأقاليم وما فيها من أقوال القدماء، واختلاف آراء الحكماء، وأخبار الملل والدول، وذكر مشاهير الأعلام. وقد اقتصر المؤلف فى كتابه على ممالك الإسلام، وابتدأ بالممالك الموجودة بالمشرق، وانتهى بالممالك الموجودة بالمغرب. وقد قسم الكتاب إلى قسمين كبيرين؛ القسم الأول: فى ذكر الأرض، وما اشتملت عليه برّاً وبحراً، والقسم الآخر: فى سكان الأرض من طوائف الأمم.

(183/16)

---

## \*المسالك والممالك

هو كتاب ألفه الإصطخرى أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي ، أحد الجغرافيين المسلمين، المتوفى سنة (346هـ). والمسالك والممالك كتاب في الجغرافيا الإقليمية لبلدان العالم الإسلامي في أيامه؛ حيث درس الإصطخرى هذه البلدان بالتفصيل؛ باعتبارها مركز العالم. وقد قسم الإصطخرى العالم الإسلامي إلى أقاليم ومناطق واسعة، وأورد لكل إقليم إسلامي خريطة، رغم أن الخرائط تختلف في جودتها ودرجة شمولها من إقليم لآخر، وكان الإصطخرى يورد عن كل قطر معلومات تتعلق بالحدود والمدن والمسافات وطرق المواصلات والمحاصيل الزراعية والأجناس. وقد اعتمد في تأليفه لهذا الكتاب على رحلاته المتعددة للأقاليم الإسلامية، وكتب بعض السابقين مثل البلخي في كتاب صور الأقاليم. وقد نشر هذا الكتاب مختصراً سنة (1830م)، ونشره المستشرق دي خويه سنة (1870م)، وترجم إلى الألمانية سنة (1845م)، كذلك ترجم إلى الفارسية والتركية، وطبعته وزارة الثقافة المصرية سنة (1961م).

(184/16)

## \*مصحف عثمان

تمّ جمعه في عهد عثمان بن عفان، رضى الله عنه، سنة (30هـ)، في صحف كانت توضع بين دفتين. اعتمد فيه على المصحف الذى جمعه زيد بن ثابت في حياة أبي بكر الصديق، رضى الله عنهما. والذى دفع عثمان بن عفان إلى ذلك ما رآه من اختلاف المسلمين في القراءة، ومن تخطئة بعضهم لبعض. وأمر عثمان بنسوخ أربع نسخ من مصحف أبي بكر الصديق، وبضبطلها بلهجة قريش؛ لأنها هي التى نزل بها القرآن الكريم. ثم أرسل إلى كل

مصر بمصحف، وأمر الناس أن ينسخوا مصاحفهم منها، وأن يحرقوا كل ما خلفها.

(185/16)

---

### \*المعارف

كتاب ألفه أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري الفارسي الأصل، من أعلام الأدب، ومن المصنفين المكثرين. وُلِدَ في بغداد سنة (213هـ)، وتُوفِّيَ بها سنة (276هـ). ويشتمل كتاب المعارف على أبواب كثيرة، تُجمَع في عشرة كتب، هي: كتاب السلطان، وكتاب الحرب، وكتاب السؤدد، وكتاب الطبائع والأخلاق، وكتاب العلم، وكتاب الزهد، وكتاب الإخوان، وكتاب الحوائج، وكتاب الطعام، وكتاب النساء. وطبع الجزء الأول من هذا الكتاب بمصر سنة (1907م)، كما طبع كارل بروكلمان أربعة أجزاء منه؛ الأول: كتاب السلطان، وطبع في برلين سنة (1900م)، والثاني: كتاب الحرب، وطبع في سترا سبورج سنة (1903م)، والثالث: كتاب السؤدد، وطبع في سترا سبورج سنة (1906م)، والرابع: كتاب الطبائع، وطبع في ستراسبورج سنة (1908م).

(186/16)

---

### \*معاني القرآن

كتاب ألفه أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الأسلمي، المعروف بالفراء. إمام أهل الكوفة، ومؤسس مدرستها في اللغة والتفسير وما يتفرع عنهما من مسائل العلم وموضوعاته. وُلِدَ في الكوفة سنة (144 هـ)، وتُوفِّيَ وهو في

طريقه إلى مكة سنة (207هـ). وقد قام الفراء بتأليف معاني القرآن؛ تلبية لرغبة صاحبه عمر بن بكر. ويُعدُّ معاني القرآن موسوعة علمية لغوية، تناول فيها الفراء معاني سور القرآن الكريم حسب ترتيبها في المصحف الشريف، وتناول من كل سورة ما رآه مثيراً للقضايا الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، ويحتاج إلى التفسير والتوضيح. وتتميز لغة الكتاب بالسلاسة والدقة والوضوح.

(187/16)

---

### \*معجم البلدان

معجم البلدان كتاب في الجغرافيا العامة. ألفه شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي المتوفى سنة (627هـ). ويعتبر معجم البلدان من أهم مصادر المعلومات عن أوضاع البلدان والأماكن، بدءاً من الأندلس غرباً إلى بلاد ما وراء النهر شرقاً، بالحال الذي كانت عليه هذه الديار في القرن السابع الهجري من جغرافيا طبيعية وبشرية وعمران واقتصاد. واتبع ياقوت في عرضه للأماكن الترتيب الألفبائي، وقام بضبط المكان وذكر اشتقاقاته، ثم عرض التفاصيل الجغرافية عن ذلك المكان. وقد وضع ياقوت في هذا المعجم خلاصة خبرته ورحلاته واطلاعه الواسع. وقد اختصر هذا الكتاب عدد من العلماء، منهم: صفى الدين عبد المؤمن البغدادي في كتاب مراصد الاطلاع، والسيوطي في كتاب مختصر معجم البلدان.

(188/16)

---

### \*مغنى اللبيب عن كتب الأعراب

هو كتاب فى النحو. ألفه اللغوى المصرى ابن هشام أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف المتوفى سنة (761هـ). وقد ألف ابن هشام هذا الكتاب لتذليل النحو وتقريبه إلى الأفهام؛ حيث جمع فيه شوارد النحو، ورتبها وفق قواعد غير مسبوقة؛ حيث جدد وابتكر وأحاط بالموضوعات النحوية إحاطة شاملة، وأكثر فى هذا الكتاب من ذكر الشواهد القرآنية والنبوية والشعرية. وقد انتشر هذا الكتاب فى المشرق والمغرب وذاع صيته حتى إن ابن خلدون أشاد به. وشغل هذا الكتاب النحاة عدة قرون وألّفوا عليه شروحا مثل شرح الشيخ أبى بكر الدمامينى، واختصره البعض مثل الشيخ شمس الدين محمد بن إبراهيم البيجورى المتوفى سنة (863هـ). وطبع هذا الكتاب مرارا فى القاهرة وطهران ومعظم العواصم العربية.

(189/16)

### \*مقامات بديع الزمان

كتاب ألفه أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمداني، المولود بهمدان سنة (358هـ) والمتوفى بمرارة سنة (398هـ). ومقامات بديع الزمان عددها إحدى وخمسون مقامة، وهى حكايات قصيرة تقوم على الحوار بين بطل المقامات أبى الفتح الإسكندرى وراوى الأفاصيص عيسى بن هشام. وفى أثناء المقامات يتنقل بديع الزمان بأبى الفتح فى بلدان مختلفة، ويعرض كل بلد بكل ما فيه من مساجد وحمامات ومارستانات وحوانيت ومطاعم وحانات وموائد وما يتصل بها من الأواني فى بيوت الأغنياء والفقراء. وكل مقامة تنتهى بعبارة أو موعظة أو نكتة. والمراد بها فى الأكثر التفتن لإنشاء وتضمينه الأمثال

والحجّم. طبعت المقامات في الآستانة سنة (1881م)، ثم في بيروت مشروحة شرحًا مختصرًا للشيخ محمد عبده سنة (1886م)، ثم في القاهرة بشرح: محمد محي الدين عبد الحميد سنة (1923م).

(190/16)

---

### \*مقامات الحريري

كتاب ألفه أبو محمد القاسم بن علي الحريري. وُلد في مَشان قرب البصرة سنة (446هـ) وتُوفّي سنة (516هـ). وعدد مقامات الحريري خمسون مقامة، اقتفى فيها الحريري آثار بديع الزمان الهمداني. وتدور موضوعاتها حول الاحتفال بطرق شتى. وتتخذ المقامة تارة شكلاً أدبيّاً وفكاهيّاً، كما في المقامة القطيعية والمقامة الواسطية، وتارة أخرى شكلاً مجونياً، كما في المقامة الرجبية. وراوى المقامات هو الحارث بن همام، رجل رحالة، عزيز النفس، بعيد عن مسالك اللصوصية. وبطلها هو أبو زيد السروجي، من أهل الكدية الذين احترقوا التسول. وقد حفلت المقامات بالكنايات والأحاجي النحوية والمسائل الفقهية والغريب من الألفاظ. واستحدث الحريري فيها فنوناً من أساليب العبث اللغوي، فاستخدم ما لا يستحيل بالانعكاس. وعبارة مقامات الحريري بليغة وقصيرة، وتتقطع تقطيعاً موسيقياً. وقد عُنَى العلماء بمقامات الحريري عناية كبيرة؛ فشرحت شروحاً كثيرة، أهمها: شرح المطرزي وشرح العكبري وشرح الشريشي، وترجمت مقامات الحريري إلى الفرنسية والإنجليزية والألمانية والتركية والفارسية وغيرها.

(191/16)

### \*المواقف

كتاب في علم الكلام. ألفه عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار بن أحمد الإيجي الشيرازي، المولود بإيج من نواحي شيراز سنة (680هـ)، والمتوفى مسجوناً بقلعة درميان سنة (756هـ). والكتاب مقسم إلى مواقف، وكل موقف عبارة عن مقدمة ومرصد، وكل مرصد تحته مقاصد. وعدد المواقف ستة؛ الأول: في المقدمات، والثاني: في الأمور العامة، والثالث: في الأعراض، والرابع: في الجواهر، والخامس: في الإلهيات، والسادس: في السمعيات. وللكتاب شروح عديدة، منها: شرح السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني، وشرح شمس الدين محمد بن يوسف الكرمانى، وشرح سيف الدين الأبهري. ولهذه الشروح حواشٍ عديدة، فمن حواشى شرح السيد الشريف الجرجاني: حاشية للمولى حسن جلبي بن محمد شاه الفنارى، وحاشية للمولى أحمد بن سليمان بن كمال، وحاشية للقاضى شمس الدين محمد بن أحمد البساطى. وقد طبع كتاب المواقف بالقاهرة.

(192/16)

### \*الموطأ

هو كتاب في الحديث الشريف، للإمام مالك بن أنس، صاحب مذهب الفقه المالكي، المولود سنة (90هـ) في المدينة المنورة، التي تلقى تعليمه بها، حتى أصبح من أعلام علمى الحديث والفقه الإسلامى، وانتشر مذهبه في بلاد المغرب ومصر، فكان أحد مذاهب الفقه الأربعة المشهورة، وكانت وفاته، رضى الله عنه، سنة (179هـ). ويُعدُّ الموطأ من أهم ما كُتِبَ في الحديث النبوى الشريف، وأقوال الصحابة والتابعين، وتابعى التابعين

وفتاويهم، خاصة فيما يتعلق بالحياة الاجتماعية وتنظيمها حتى  
منتصف القرن الثاني الهجري. وقد قام الإمام مالك بجمع العلم  
الديني النقلي من علوم الحديث والتفسير والفقه والكلام  
والتصوف واللغة، ورتب الكتاب على أبواب الفقه، والكتاب يقع  
في جزأين؛ الجزء الأول يتناول الكتب الآتية: كتاب وقوت  
الصلاة، وكتاب الطهارة، وكتاب الصلاة، وكتاب السهو، وكتاب  
الجمعة، وكتاب صلاة الليل، وكتاب صلاة الجماعة، وكتاب قصر  
الصلاة في السفر، وكتاب العيدين، وكتاب صلاة الخوف،  
وكتاب صلاة الكسوف، وكتاب صلاة الاستسقاء، وكتاب القبلة،  
وكتاب القرآن، وكتاب الزكاة، وكتاب الصيام، وكتاب  
الاعتكاف، وكتاب الحج، وكتاب الجنائز. والجزء الآخر يتكون  
من: كتاب الجهاد، وكتاب النذور والأيمان، وكتاب الضحايا،  
وكتاب الذبائح، وكتاب الصيد، وكتاب العقيقة، وكتاب  
الفرائض، وكتاب النكاح، وكتاب الطلاق، وكتاب الرضاع، وكتاب  
البيوع، وكتاب القراض، وكتاب المساقاة، وكتاب الشفعة،  
وكتاب الأفضية، وكتاب الوصية، وكتاب العتق والولاء، وكتاب  
المكاتب، وكتاب المدبر، وكتاب الحدود، وكتاب الأشربة، وكتاب  
العقول، وكتاب القسامة، وكتاب الجامع، وكتاب القدر، وكتاب  
حسن الخلق، وكتاب اللباس، وكتاب صفة النبي - صلى الله عليه  
وسلم -، وكتاب العين، وكتاب الشَّعر، وكتاب الرؤيا، وكتاب  
السلام، وكتاب الاستئذان، وكتاب البيعة، وكتاب الكلام، وكتاب

(193/16)

---

جهنم، وكتاب الصدقة، وكتاب العلم، وكتاب دعوة المظلوم،  
وكتاب أسماء النبي - صلى الله عليه وسلم -.

(194/16)

## \*نفتح الطيب

كتاب ألفه شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ، الذي وُلد في مقرة الجزائر قبل سنة (1000هـ). تولى خطابة مسجد القرويين والإفتاء بالجزائر حتى سنة (1027هـ)، ورحل إلى مصر، ومكة وبيت المقدس ودمشق، وتوفي سنة (1041هـ). وقد قسم المقرئ الكتاب قسمين: القسم الأول: يضم ثمانية أبواب: الأول: في وصف جزيرة الأندلس ومحاسنها ومآثرها وبلداتها. والثاني: في فتح الأندلس وتاريخها في عهد الولاة قبل بني أمية. والثالث: في وصف مكانة الإسلام، وجهاد أهله ضد الكفار. والرابع: ذكر فيه قرطبة وجامعها الأموي ووصف متنها ومصانعها. والخامس: في التعريف بمن رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق. والسادس: ذكر فيه بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق. والسابع: تحدث فيه عما امتاز به أهل الأندلس من الذكاء وطلبهم للعلم. والثامن: ذكر فيه غلبة الكفار على أهل الإسلام، وما قيل في ذلك من شعر. القسم الآخر: وفيه يُعرف بلسان الدين بن الخطيب. وقد قسمه إلى ثمانية أبواب، وهي: الأول: في ذكر أولية لسان الدين بن الخطيب وأسلافه. والثاني: في نشأته وترقيه ووزارته ونجاحه، وما واجهه من محن ومكائد. والثالث: في ذكر شيوخه. والرابع: في مخاطبة الملوك وثناء أهل عصره عليه. والخامس: في ذكر جملة من أشعاره وأزجاله وموشحاته. والسادس: عبارة عن مصنفاته في ألفنون ومؤلفاته المتعددة. والسابع: في ذكر تلامذته الذين ورثوا العلم عنه. والثامن: في ذكر أولاده. ولم يقتصر الكتاب على ذلك، بل حشد فيه المقرئ كثيراً من المعلومات التاريخية والاجتماعية والأدبية التي نقلها عن كتب مختلفة أكثرها مفقود؛ مما يجعل للكتاب أهمية كبيرة. وقد طبع الكتاب بمصر في مطبعة بولاق سنة (1862م) في أربعة

أجزاء، كما طبع بمطبعة السعادة بمصر أكثر من مرة، في  
عشرة أجزاء، بتحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.

(195/16)

---

### \*نقائض جرير والفرزدق

ديوان شعر. جمعه أبو عبيدة معمر بن المثنى، من أئمة العلم  
باللغة والأدب. وُلد في البصرة، وتُوِّفَى بها سنة (188هـ).  
والديوان يتضمن ما وقع بين جرير والفرزدق من نقائض في  
الهجاء وغيره من فنون الشعر. وقد طُبع الديوان في ليدن  
بتحقيق المستشرق بيغان سنة (1331هـ = 1912م) في ثلاثة  
مجلدات، تضمن الثالث منها الفهارس.

(196/16)

---

### \*نيل الابتهاج بتطيرز الديقاج

هو كتاب في تراجم علماء المغرب، خاصة في القرن السادس  
عشر الميلادي. ألّفه أبو العباس أحمد بابا بن أحمد التمبكتي  
المتوفى سنة (1036هـ)، وهو أحد فقهاء مدينة تمبكتو، وله  
اشتغال بالنحو والحديث والتصوف. وقد سمي كتاب نيل الابتهاج  
بأسماء مختلفة. ويقع في عدد صفحات مختلف باختلاف النسخ  
المخطوطة التي تتراوح كل نسخة منها ما بين (90) و (286) ورقة.  
وقد وضع كتاب نيل الابتهاج؛ ليكون ذيلًا على كتاب الديقاج  
المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون المتوفى  
سنة (799هـ). وقد اعتمد أحمد بابا التمبكتي على المصادر  
المكتوبة والشفهية، وكان ثقة فيما يرويه عن معاصريه. وطُبع  
نيل الابتهاج عدة طبعات في فاس والقاهرة. وللكتاب عدة

اختصاصات وذيول، مثل: اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم  
المدينة محمد بشير بن ظافر المتوفى سنة (1909م)، كذلك  
اختصر نيل الابتهاج محمد بن الطيب القادري الحسنى في كتاب  
الإكليل والتاج.

(197/16)

---

### \*وصف إفريقيا

هو كتاب من تأليف الجغرافي الحسن بن محمد الوزان الزياني،  
المولود سنة (894هـ)، والمتوفى نحو سنة (958هـ). وقد وُلد في  
غرناطة، ووقع في الأسر سنة (926هـ)؛ حيث أسره الإيطاليون  
ونقلوه إلى روما، وقام البابا ليون العاشر بتنصيره، وأطلق  
الإيطاليون عليه اسم يوحنا الأسد، إلا أنه اشتهر باسم ليون  
الإفريقي. وعاش في روما؛ حيث أَلَف كتابه وصف إفريقيا  
بالإيطالية سنة (1526 م)، وتناول فيه كل ما يخص الأقطار  
العربية الإفريقية، كذلك البلاد الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى.  
وتميز هذا الوصف بدقة شديدة حتى صار هذا الكتاب عمدة  
المراجع فيما يخص تلك البلاد طيلة قرنين من الزمان في أوروبا.  
وتميز الوزان في كتابه بالروح النقدية، وظهر أثر تلاقي  
الثقافات وتنوعها في هذا الكتاب. ونشر كتاب وصف إفريقيا  
في البندقية سنة (1550م)، وترجم إلى الفرنسية سنة (1555م)،  
وإلى اللاتينية سنة (1556م)، وإلى الإنجليزية سنة (1600م)،  
وإلى الهولندية سنة (1665م)، وإلى الألمانية سنة (1805م)،  
ونشر عدة مرات بهذه اللغات.

(198/16)

---

## \*وفيات الأعيان

كتاب لأحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان، الذى وُلِدَ بإربل سنة (608هـ)، وتلقى تعليمه بها، ثم رحل إلى الموصل وحلب ومصر ودمشق. وتُوِّقَ بدمشق سنة (681هـ). وقد أَلَّفَ ابن خلكان كتاب وفيات الأعيان عندما كان بالقاهرة سنة (654م). وقد جمع فيه تراجم جماعة من الفضلاء من الملوك والأمراء والوزراء والشعراء والكتّاب والعلماء والمؤلفين والأطباء والفلاسفة، وكل من فيه ذكاء من الرجال والنساء من المسلمين. وعلى الرغم من هذا فلم يترجم ابن خلكان لكثير من الصحابة أو الخلفاء مكتفيًا بالمؤلفات التى ترجمت لهم أو ذكرتهم. ورتب الكتاب وفق الترتيب الألفبائى، ومع مراعاة الاسمين الأول والثانى فقط، ولم يراع اسم الأب إذا اتفقت أسماء المترجم لهم، وكذلك لم يهتم بالكنى والألقاب، واعتبر اسم العَلَم هو الأساس، ولم يهتم بوظائف من يترجم لهم فى الترتيب ولا بترتيب الأيام والسنين. وذكر اسم الشخص واسم أبيه وجده، ونسبه ومولده إن وجد، وتاريخ وفاته وما إذا كان هناك اختلاف فيه، والمعالم البارزة فى حياة من ترجم لهم وثقافتهم وأساتذتهم وتلاميذهم وأخلاقهم، وأحداث حياتهم، وأوصافهم الخلقية والخلقية، ونماذج من أعمالهم ومؤلفاتهم، وكذلك ترجم لعدد قليل من النساء. واعتمد ابن خلكان على ما جمعه من أشخاص وثق بصدقهم كالأئمة المتقين هذا الفن، ولم يكن يتساهل فى النقل عمن لا يتق بهم، بل كان يتحرى ويدقق فيه. وكذلك كان يذكر أسماء الكتب التى يعتمد عليها فى ترجمته، وأسماء مؤلفيها، ويصحح ما وقعوا فيه من أخطاء. وترجع قيمة وفيات الأعيان إلى أنه يُعدُّ مرجعًا أساسيًا لدارسى العلوم والآداب والتاريخ واللغة والاجتماع؛ ولهذا فقد كان هذا الكتاب أساسًا للعديد من الكتب التى نقلت أو ذيلت عليه أو اختصرته.

\*يتيمة الدهر

كتاب لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، المولود بنيسابور سنة (350هـ)، وإليها نسب، واشتهر في الأدب واللغة والتاريخ، وصنف كتباً كثيرة في كل مجال منها. وكتاب يتيمة الدهر من أكثر كتب الثعالبي شهرة وتداولاً. وقد قام الثعالبي في هذا الكتاب بالترجمة لكثير من الشعراء المعاصرين له والسابقين عليه بقليل، وكان يجمع في ترجمته كل جماعة من الشعراء حسب بلدهم أو إقليم أو البلاط الذي جمعهم. وقسم الثعالبي الكتاب إلى أربعة أقسام، على النحو التالي: (القسم الأول): في محاسن أشعار آل حمدان وشعرائهم، وغيرهم من أهل الشام ومصر والموصل والمغرب. (القسم الثاني): في محاسن أشعار أهل العراق، وإنشاء الدولة الديلمية من طبقات الأفاضل، وما يتعلق بها من أخبارهم، ونواديرهم. (القسم الثالث): في محاسن أشعار أهل الجبل وفارس وجرجان وطبرستان وأصفهان، من وزراء الدولة الديلمية وكتّابها وفضلائها وشعرائها. (القسم الرابع): في محاسن أهل خراسان وبلاد ماوراء النهر في عهد الدولة السامانية. ومما يؤخذ على الكتاب أن الثعالبي لم يعن بجمع أخبار من تعرض له من الشعراء من حيث نشأتهم ومواليدهم ووفياتهم وأحداث أيامهم، وكذلك يغلب عليه في الكتاب التعصب الشديد لبني جنسه، وظهر ذلك بصورة واضحة عندما أفرد باباً كاملاً للحديث عن فضل شعراء الشام على شعراء سائر البلدان.